

عدد خاص

75 - 960931

المورد

بمكة نائية فصيلة

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار المسقط - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4





مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

رابطہ بدیل
lisanerab.com

www.lisanarb.com



twitter

مكتبة لسان العرب



facebook

مكتبة لسان العرب



instagram

مكتبة لسان العرب



عدد خاص

بغداد

العدد الرابع

شتاء ١٩٧٩

المجلد الثامن



١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩ م

دار الحرية للطباعة - بغداد

كونوا معاصرين شرط أن تكونوا
أصيلين، فالمعاصرة لا تعني ابداً
انقطاع الجذور.. كما أن استيعابها
لا يعني التفریط بترأينا الثقافي العظيم

احمد حسن البكر

ملوكنا

بِحِكْمَةِ تَرَاثِيئِهِ فَصَلِيئَةٍ



تصدرها وزارة الثقافة والاعلام
دار الجاحظ - بغداد
الجمهورية العراقية

رئيس التحرير: عبد الحميد العلوجي

مدير التحرير: حارث مطه الزاوي





مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com

رابطہ بدیل

عنوان المجله

الجمهورية العراقية - بغداد

وزارة الثقافة والاعلام

دار الجاحظ



هدية المنصور الى صدام

بقلم

عبد الحميد العلوجي

رئيس التحرير

حين تنفست الحياة بين الرمال جادت بالمنصور ابي جعفر
ليقدم بغداد طاقة نرجس الى كل عربي ..

ومع أسعد فجر ، على درب تاريخنا .. تبارك زين
ال خلفاء اذ حاك معجزته ، بين ذراعي دجلة ، من قري
شقي ، فوق عشب راء يتماوج بضحكة خضراء ..

انه صنع بغداد لتكون ، أولاً ، لسان تاريخ .. ولتكون ،
ثانياً ، قوة أرضية .. ولتكون ، ثالثاً ، نبأ ذهبياً لحضارة
تنفع الانسان ..

وهو ، بهذا العزم ، اراد أن يقول للأجيال العربية ان
العظيم ، كمثلِه ، خليق بمدينة عظيمة كبغداد .. مدينة
قادرة على أن تمنح الانسانية اكمل حضارة ، وترسخ على وده
خالص مع الأصدقاء ، واستطاعة خارقة على دحر العداوان ..

وتزاحمت المهود ، بعد المنصور ، على بغداد .. محكومة
بارادة عربية شاعت لها امتداد معاش بأسلوب فاضل يتفجر
عدلاً بين شرائع السماء وقوانين الأرض .. ثم تلاحت أقدارها ،
على حساب عجب .. اختل ميزانه ، في صمت ضائع ، مع دواعي
التلف والخراب .. فكان للمروبة في قلب بغداد - منذ اجتياح
الغول - هواجس موصولة ظلت تلحن جنون الفزاة وجشع
الصوص ، وتحن - بلا هوادة - الى نسقيها الحضاري الذي
عاشت نهاره مكاسب تحت الشمس ، وليله مؤانسة في القمر ..
انها أخذت تتلمس طريقها الى الخلاص ، فشاعت ان
تُحطّم أغلالها بتاريخ جديد .. وعندئذ توفرت على أن تبطش

– مَشْهَدًا وَغَيْبًا – بِالشَّقَاءِ المَجْلُوبِ ، وَتَهْزِءِ الضَّمِيرِ المَخْلُصِ ،
وَتَنْقُضٍ عَلَى أَوْهَامِ المَتَلَكِّثِينَ ٠٠ لَكَيْ تَعْمَاجِلَ الهَيْمَنَةَ الامْبِرْيَالِيَّةَ
بِالضَّرْبَةِ الحَاسِمَةِ ٠٠٠

انْتَهَا أَرَادَتْ مَا كَانَ لَهَا ٠٠ فَكَانَ لَهَا مَا أَرَادَتْ بِقِيَادَةِ حِزْبِ
البَعْثِ العَرَبِيِّ الاِشْتِرَاكِيِّ ٠

وَمِنْ حَقِّ بَغْدَادَ ، وَمِنْ حَقِّ الحِزْبِ ، بَعْدَ أَنْ تَعَارَفَا بِالحِزْنِ
وَالفَرَّاحِ ، أَنْ يَجْتَمِعَا عَلَى ثَوْرَةٍ ، وَأَنْ يَتَعَاوَنَا عَلَى مِشَارَكَةِ
وَجِدَانِيَّةِ ٠٠ فَهَمَا أَدْرَكَا ، جَيِّدًا ، أَنْهَمَا كَانَا عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ قَدَرٍ
بَارِعٍ اسْتَوْعَبَ كَلِمَةَ البَعْثِ فِي حُرُوفِ بَغْدَادَ ، وَكَلِمَةَ بَغْدَادَ فِي
حُرُوفِ البَعْثِ ٠

وَاسْتَقَرَّ المَطَافُ بِبَغْدَادَ ، عَبْرَ قَائِدٍ قَائِدٍ ، عَلَى « صَدَّامِ » :
القَائِدِ الفِذِّ الَّذِي اسْتَطَاعَ بِمَا أُوتِيَ مِنْ تَوَاضِعٍ وَقُوَّةٍ ، وَمِنْ رَافِقَةٍ
وَصِرَامَةٍ ، وَمِنْ عَفْوٍ وَغَضَبٍ ٠٠ أَنْ يَسْتَطِيعَ بَيْنَ قَادَةِ العَصْرِ ٠٠
كَمَا اسْتَطَاعَ بِمَا أُوتِيَ مِنْ حِكْمَةٍ وَبَصِيرَةٍ وَفِطْنَةٍ وَذِكَاةٍ أَنْ يَتَأَلَّقَ
بَيْنَ العِدَالَةِ وَالرَحْمَةِ ٠٠

فَهُوَ هُوَ مَنْ تَضَرَّعَ فِي قَلْبِهِ حِبُّ بَغْدَادَ ٠٠ وَهُوَ هُوَ مَنْ
إِذَا تَكَلَّمَ مَعَ بَغْدَادَ ، فَانَّمَا يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِ وَفُؤَادِهِ ٠٠ وَهُوَ هُوَ
مَنْ إِذَا أَرَادَ مِنْ بَغْدَادَ شَيْئًا مَنَحَهَا أَشْيَاءَ ٠٠

هَذَا ، وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا ٠٠ أَتَاحَ لِلجَمَاهِيرِ أَنْ تَنْفِذَ إِلَى قَلْبِهِ
الْكَبِيرِ ٠٠ تَمَامًا كَمَا نَفَّذَ إِلَى قُلُوبِهَا ٠

فَهَنِيئًا لِبَغْدَادَ بِقَائِدِهَا المَقْدَامِ ٠٠٠

هَنِيئًا لَهَا ، فِي عَهْدِهِ الأَزْهَرِ ، أَنْ تَكُونَ العَاصِمَةَ الَّتِي تَتَضَوَّعُ
بِشِدَا الإِقْوَانِ حِيَالَ الصِّدَاقَةِ وَالوَفَاءِ ، وَأَنْ تَكُونَ القَاصِمَةَ
الَّتِي تَتَاجَّجُ غَضَبًا حِيَالَ الأِثْمِ وَالعِدْوَانِ ٠

وَمَجْلَّةُ المِوردِ ، بِهَذَا العَدَدِ البَغْدَادِيِّ ، تَهْتَبِلُ هَذِهِ المُنَاسِبَةَ
النَّشْوَى لِتَقْدِمَ إِلَى السَيِّدِ الرَّئِيسِ صَدَّامِ حَسَنِ ، مَا لِدَارِ
الجَاحِظِ ، وَالأُسْرَةِ تَحْرِيرِ المِوردِ مِنْ مِشَاعِرَ نَبِيلَةٍ طَافِحَةٍ بِالمِحَبَّةِ
وَالوَلَامِ ٠٠ مُؤَكِّدَةً العِزْمَ عَلَى بَدَلِ الأَنْفَسِ فِي خِدْمَةِ الحِزْبِ
وَالثَّوْرَةِ ، وَعَلَى تَحْقِيقِ الأَنْفَعِ وَالأَبْقَى عَلَى امْتِدَادِ يَوْمٍ وَغَدٍ ٠٠

تخطيط مدينة بغداد

عبر العصور التاريخية « دراسة في التخطيط الحضري »

بقلم الدكتور

صبري فارس الهيتي

كلية التربية - جامعة بغداد

الموسم التجاري (لاحظ الخارطة شكل ١) ، فلما توجه المسلمون الى العراق وفتحوا السواد ، ذكر المثنى بن حارثة الشيباني امر سوق بغداد فقصدها . (٢) وهذا يستدل منه على وجود بغداد قبل الفتح الاسلامي .

ولكن كيف وقع اختيار المنصور على هذا الموضع لبناء مدينته ؟ تذكر الكتب التاريخية . على ان المنصور عندما فحص موضع بغداد اتفقد نوجده موضع ملائم من الناحية العسكرية قال عنه « هذا موضع ممسك صالح » (٣) كما انه بعث روادا يطلبون له موضعاً ، فاستشاروا عدداً من الحكماء ومنهم صاحب بغداد الذي اخبر المنصور بميزات موضع بغداد التي اعجب بها المنصور حيث قال له : وانت يا امير المؤمنين « عندما تنزل في بغداد فانك تصير بين اربعة طساسيج (جهات) ، طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي ، فاللذان في الغربي قطربل وبادوريا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلوادي ، فانت تكون بين نخل وقرب الماء ، فان اجذب طسوج وتاخرت عمارته كان الاخر عامراً . وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة من الغرب ، وفي القرات تجيئك طرائف الشام ومصر وتلك البلدان ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند

ان البحث في تخطيط مدينة بغداد ، هذه المدينة الخالدة التي يمتد عمرها الى اكثر من اثني عشر قرناً ، يحتاج الى الكثير من الجهد والناة . وذلك لطول الفترة التي مرت على هذه المدينة . ولتعدد الحكومات التي سيطرت على العراق بشكل عام وبغداد بشكل خاص ابتداء من ايام العباسيين حتى خروج الانكليز من العراق . وما اصاب بغداد من جراء ذلك من بناء وعمران تارة وعنت وتخريب تارة اخرى . ولسبب ذلك فان ما كتب عن هذه المدينة يحتاج الى تمحيص وبدقيق لكي يمكن الخروج منه بمادة دقيقة ومنظمة تعكس تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية . وهذا ما حاولت هذه الدراسة الخروج به .

x : x

اختيار موقع بغداد

بدأ الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور في سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م في بناء مدينته المدورة المشهورة (بغداد) على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة ومجرى دجلة شمالاً وسماها « مدينة السلام » (١)

وكان اسم بغداد معروفاً قبل المنصور ، اذ كانت بغداد في ايام مملكة العجم قرية يقيم بها الفرس في كل سنة سوق عظيمة يجتمع بها في ذلك

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٢١ ، ص ٢٥ - ٢٧ .

(٣) طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ .

(١) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد الفصل في خطط بغداد ، مطبعة الجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٨ ، ص ٤٣

حتى تكامل بحضرته من اهل المهن والصناعات الوفيرة . ثم اختط خطتها التي رسمها له المهندس العربي (الحجاج بن ارطاة) وجعلها مدورة (١).

وقد خطت المدينة اولا بالرماد ثم وضعت على تلك الخطوط كرات من القطن وصب عليها النفط واشملت فيها النار بغية ابرازها بشكل واضح ، وحفرت اسس السورين والخندق العميق المحيط بها من الخارج بحسب الخطوط الموضوعة . (٧) واشتهرت مدينة المنصور في كونها مدورة ، اذ تميز بناؤها بكونه مثالا لا فوى المدن المحصنة في القرون الوسطى تتجلى فيها عظمة الدولة العباسية في ادوارها الاولى .

ومع ان اليعقوبي يذكر بانه لم يعرف اذ ذك في جميع اقطار الدنيا مدينة مدورة غير مدينة المنصور ، لكن المعتقد ان شكل المدينة كان تقليدا للتصميم البنائي لمدينة الحضرة المدورة وذلك من حيث الشكل والمساحة . ولم تكن مدينة الحضرة المدينة المدورة الوحيدة في الشرق العربي ففي جزيرة العرب مدينة مأرب باليمن كانت مستديرة ايضا . ومع ذلك فمدينة المنصور كانت فريدة في نوعها في العهد الذي انشئت فيه بالنظر لعظمتها وضخامتها والجهود التي بذلت في انشائها (٨).

وكانت خطة مدينة بغداد ، هي ادارة خندقا واسما وعدة اسوار حول المدينة . وقد جعل المنصور لتلك الاسوار اربعة ابواب متقابلة ، فسمى الباب الشمالي الغربي « باب الشام » والباب الجنوبي الغربي « باب الكوفة » والباب الجنوبي الشرقي « باب البصرة » والباب الشمالي الشرقي « باب خراسان » وكان يسمى ايضا « باب الدولة » .

وتعد هيئة مدينة المنصور المدورة ذات الابواب الاربعة المتساوية الابعاد ابتكارا في الرياسة العربية ، وتبلغ المسافة بين كل باب واخر ما يقارب ٢٥٠ ياردة ، ويتبين لنا من ذلك ان مقدار طول قطر الدائرة الخارجية حول الخندق من باب الى باب نحو ٣٢٠ ياردة (٩) وحفر حول المدينة خندق عريض وعميق ، وله مسناة محكمة

والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من ارمينية واذربيجان وما اتصل بها حتى الى انزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة وديار بكر وربيعة والموصل في دجلة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر او قطرة ، فاذا قطعت الجسر واخرت الفناظر لم يصل اليك عدوك . وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور ، وانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وانت قريب من النهر والبحر والجبل (٤) .

وكانت مدينة المنصور تقع بين الكاظمية من الشمال وقرية الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ جنيد والشيخ معروف الكرخي من الجنوب الشرقي وهي تقابل محلة هيبه خاتون في الجانب الشرقي ، وعليه كان موضعها الصحيح قريبا من مقابر قریش (اي الكاظمية) الحالية (انظر الخارطة شكل - ٢) ، وان اكثر مواضعها اصبحت بساتين ومزارع ، ثم جرى عليها تغيير مستدام بسبب تقدم العمران وتكرار الاغراق من فيضان الفرات ودجلة مما ادى الى زوال اثارها منذ قرون عديدة واندرت معالمها منذ عصور طويلة ، ولم يبق من مبانيها واسوارها وحوائط فصلانها وخندقها ومسنانها وابوابها اي اثر (٥).

تخطيط المدينة :

عندما عزم المنصور على بناء المدينة احضر المهندسين واهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين فمثل لهم صفتها التي في نفسه ، ثم احضر الفعلة والصناع من التجارين والحفارين والحدادين وغيرهم . فاجرى عليهم الارزاق وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا من امر البناء ولم يتبدى في البناء

- (٤) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٨٧٧ ، ص ١١٩ .
- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، لبيزل ١٨٦٦ ، ج ١ ، ص ٦٨ .
- الطبري تاريخ الامم والملوك ، ليدن ، ١٨٩٠ ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .
- ابن الجوزي ، منال بغداد ، نسخ وتعليق محمد بهجة الاثري ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٢٣ ، ص ٨ .
- (٥) د . احمد سوسة ، د . مصطفى جواد (وجماعتها) ، بغداد ، مطبعة رمزي ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٢٣ .
- د . احمد سوسة ، اللبسان وفرق بغداد في العصر العباسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد العاشر ، ١٩٦٢ ، ص ٣٠ .

- (٦) الخليل البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
- (٧) كي لسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشر يوسف فرنسيس ، المطبعة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦ ، ص ٢٥ .
- (٨) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد ، ص ٤٦-٤٧ .
- (٩) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

دائر وهي منازل اولاد المنصور الاصغر ومنازل
الغريبين من خدمته وبيت المال وخزانة السلاح
وديون الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم
وديون الجند وديوان الحوانج (التجهيزات)
وديون الاحشام (الاتباع) وديوان التفقات
وديون الصدقات (الزكاة) (١٢) . (انظر الشكل
رقم ٣) .

اسوار المدينة :

ولاهمية اسوار مدينة بغداد باعتبارها
احدى المعالم المهمة في المدينة ، ولانها على جانب
كبير من الاهمية في اظهار الاسداع في الريازة
العربية ، نورد الوصف التالي لها وحسبما ورد في
كتب المؤرخين والخططين العرب :-

بنيت اسوار بغداد من اللبن الكبير الحجم
جداً . وقد كانت مكعبة الشكل ، يبلغ طول الضلع
الواحد لبعضها (١٨ عقدة) وتزن الواحدة منها
٢٠٠ رطل ، والبعض الاخر بقدر نصف الاول وزناً
وسمكاً . وان المسافات التي بين اللبن في اسوار
المدينة لم تكن متصلة ببعضها البعض بالاعمدة
الخشبية (على العادة المألوفة عند العرب) بل
بحزم القصب . وكان في كل ساف من سافات
ايناء ١٦٢٠٠٠ لبنة . وكان السور الداخلي
اعلى من السورين الخارجيين (١٣) وكان ارتفاع
السور الكبير يبلغ ٩٠ قدماً ، وعرض قاعدته ١٠٥
قدماً ويقل سمكه تدريجياً الى ان يبلغ في الاعلى
(٢٧/٥) قدماً وتتفق جميع الروايات على ان
سمك السور الخارجي الاول اقل من هذا بكثير
وربما كان هذا السور الذي ذكر الطبري ابعاده ،
فقد ورد عنه ان عرض قاعدته ٧٥ قدماً وبقل
سمكه في الاعلى حتى يبلغ ٣٠ قدماً وارتفاعه نحو
: ٦٠ قدماً) . كما ان الخطيب البغدادي يعطي
ابعاداً اخرى للسور الكبير فيقول « وسمك ارتفاع
هذا السور الداخلي في السماء ٣٥ ذراع (٥٢٥
قدماً) وعرض السور من اسفله نحو ٢٠ ذراعاً او
٣٠ قدماً(١٤) .

وجلب المنصور لابواب مدينته رتاجات من
الحديد لا يفلق الرتاج الواحد منها ولا يفتحه الا
جماعة رجال لضخامته ، فقد كان الفارس يدخل
منه بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير ان يعيل

(١٢) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(١٣) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

(١٤) انظر : كي لسترنج ، ص ٢٧ ، البغدادي ص ٧٤ ،
ابن الجوزي ، ص ٩ ، الطبري نفس المكان .

عالية من جهة المدينة مبنية بالاجر والصاروج وهو
مادة بنايية كالمسمنت في القوة واللون ، واجري
فيه الماء من قناة تأخذ ماءها من نهر (كرخايا) (١٠)

وكانت في وسط المدينة رحبة مدورة واسعة
لم يشيد في بعض جنباتها بادي الامر غير القصور
والجامع ، الا انها على توالي الايام اخذت تزدحم
بالابنية نظير بقية اقسام بغداد . وكانت مساحتها
نحو (٢٠٠٠ ياردة) طولاً في مثلها عرضاً يحيط
بها السور المدور الداخلي باجابه الاربعة . (٥) وفي
وسطها قصر الخليفة الذي بناه بالاجر وسماد
(قصر الذهب) وسمى بابه باب الذهب وانشأ
مسجداً واسعاً ملاصقاً له . وكانت مساحة القصر
اربعمائة ذراع في اربعمائة ومساحة المسجد مائتين
في مائتين ، وكان في صدر القصر ايوان طوله ثلاثون
ذراعاً وعلى سطح الايوان مجلس مثله وفوق
المجلس القبة الخضراء التي كان على رأسها تمثال
فارس بيده رمح ، فاذا ادار التمثال استقبل بعض
الجهات ومد رمحه نحوها . وارتفاع الايوان الى
اول عقد القبة عشرون ذراعاً وارتفاع المجلس
والقبة الخضراء ستون ذراعاً . وقد سقطت تلك
القبة سنة ٣٢٩هـ في يوم مطير فيه ربح . وكانت
تلك القبة علم بغداد وتاج البلد ومآثرة بنى
العباس (١١)

اما المسجد فقد انشاه المنصور من اللبن
والطين ، وجعل لاروقته اساطين من الخشب ،
كانت كل اسطوانة منها قطعتين معقبتين بالمعقب
والغراء وخبات الحديد إلا خمس اسطوانات
اوست كانت عند منارة الجامع .

ولم يكن بالرحبة الوسطى التي فيها قصر
المنصور ومسجده بناء ولا دار ولا مسكن للاحد الا داراً
من جهة باب الشام وسقفة كبيرة ممتدة على
اعمدة مبنية بالاجر والجص ، فكان صاحب
الشرطة يجلس في الدار وصاحب الحرس يقيم في
السقفة ، وكان حول الرحبة منازل على خط

(١٠) د . احمد سوسة ، بغداد المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(*) تقول بعض المصادر بان لبغداد سوران وليس ثلاثة ،
وذلك لان السور الداخلي حول الرحبة المركزية لم يكن
سوراً متيناً كالتراس ولهذا فلا يعتبر سوراً للمدينة .
اما السوران الاخران فهما الخارجيان وكان كالتراسين
ولذا كان احدهما هو سور داخلي والاخر سور خارجي ،
اما السور الداخلي فليس الا حاجزاً حول رحبة القصر
والجامع انظر الخطيب البغدادي ، ج ١ ، ص ٧٢ وكى
لسترنج ، ص ٦٦ .

(١١) ذكريا بن محمد بن محمود القزويني اثار البلاد واخبار
العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢١٤ .

ربع دائرة . ويفصل هذه الاقسام الأربعة عن بعضها بعضاً السكك الاتية من الابواب . وكان عرض الفصيل من السور الكبير الى السور الداخلي اقل من ١٥٠ ياردة . وطول كل ربع من ارباع الفصيل من باب الى باب ميل واحد . ويختلف هذا الفصيل عن الفصيل الخارجي الذي كان خالياً من الدور لوجود الشوارع والدروب فيه . ولم تكن مساحة الأرباع الأربعة للفصيل تعدو على ثلث ميل بوجه عام (١٧) وقد بلغت مساحة المدينة ٢٦٢٠٢٦٢ متر مربعاً او ٢١٢٦ مشاهير وعلى هذا يكون طول قطر محيطها ٢٦١٥ متراً . وعند بدء السكك التي بين ابواب السور الكبير والسور الداخلي وعند منتهيها ، رحبة خارجية وأخرى داخلية . وعلى جانبي الطريق سفان من الطوائف . وعلى يمين الداخل الى الرحبة طريق وعلى يساره طريق للوصول الى الشوارع والدروب .

وكانت اسواق مدينة المنصور في الطرق الأربعة وبعد بضع سنين حرقها من داخل المدينة التي ربح الكرخ التي أمر ببنائها (كما سنأتي على ذكره فيما بعد) وجعلها لاصحاب السوق والتجار ، وهكذا خلت الطافات من الدكاكين واتخذت مراكز لشرطة المدينة وحرسها .

ولم يسمح المنصور لرجائه ان يبنوا دورهم ملاصقة للسور الكبير او سور الرحبة المركزية ، ولهذا فقد كان يلي السور الكبير حلقة عرضها ٢٢ ياردة خالية من الابنية تماماً لتكون طريقاً ، كما كان قبل سور الرحبة المركزية ارضاً خالية حوله تكون طريقاً آخر وتغلق الطرق والشوارع التي في كل ربع من الفصيل بابواب متينة قوية عند الحاجة . (١٨)

وظلت الشوارع تسمى غالباً باسماء اصحاب الدور والبساتين الذين كانوا وقت بناء بغداد ، وبنى الخليفة سجنه الكبير المسمى (المطبق) في الربع الجنوبي للفصيل : حيث كانت الدور بين طريق باب البصرة وطريق باب الكوفة وباسمه سمي الشارع الذي يقع هنا السجن فيه . وسميت بعض اسماء الشوارع في الأرباع الأخرى للفصيل باسماء سكانها وحرفهم مثل

الأول العلم ولا ان يشي الثاني رمحه . وجعل للابواب الأربعة دهاليز اربعة عظيمة كلها ازاج (اي عقود) وطول كل دهليز ثمانون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ، وعقودها من الاجر والنحس . وكان إذا دخل احد الابواب وجد الدهليز على يساره ، وكان فوق كل عتد من عقود الدهليز مجلس قبة شاهقة عظيمة ، ارتفاعها خمسون ذراعاً (٢٥ متراً) فيها زخارف ونقوش . وكان يصعد الى القبة وامثالها سيراً أو ركوباً على الدواب لضخامتها ، وكان يربط عند كل باب الفصيل جندي مع قائدهم (١٥) . ومما يروى عن هذه العقود بان علوها غير منساو وان بعضها مبني بالنحس والاجر وبعضها بالاجر بالان العظام . وعلى ظهور هذه العقود حتى اعلى السور المصعد ، وبهذا يتم التصعد الى امة التي فوق الباب . وكانت على المصعد ابواب تعلق : فوق كل باب من ابواب السور الكبير غرفة علماء « مجتس » تشرف على المدينة . فيجلس الخليفة هناك اذا احب النظر الى من يقبل من تلك الناحية .

واذا دخل الداخل مدينة المنصور يعبر اولاً الخندق الواقع دون السور الخارجي . ثم يجتاز احد هذه الابواب الأربعة ، ومن كل باب تمتد طريق تؤدي الى الرحبة المركزية ، وكان الخندق بعد المسناة قد اجري فيه المياه ، وفي جانب الخندق القريب من السور سدة او مسناة حول المدينة بشكل اقواس كل منها ربع دائرة تصل بين باب واخر ، وجوانب هذه المسناة مبنية بالاجر والصاروج . وكان في السور الخارجي ابراج . فبين باب الكوفة وباب البصرة ٢٩ برجاً ، وبين كل باب من الابواب الأخرى ٢٨ برجاً فقط ، ومعنى هذا ان كل برج يبعد عن الآخر ٦٠ ياردة بناء على طول السور (١٩) .

استعمالات الارض داخل المدينة المدورة :

اضافة الى قصر الخليفة ومسجده في الرحبة الوسطى ، وقصور ابنائه والمقربين والدواوين لم يكن هناك اي بناء اخر في بادئ الامر (كما سبق الإشارة الى ذلك) . اما بقية الابنية والدور فكانت في الفصيل الذي بين السورين الكبير والداخلي الذي حول الرحبة المركزية وكان في الفصيل اربعة اقسام كل منها

- (١٥) د . احمد سوسة ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ١٩ .
علي ظريف الاظمي ، مختصر تاريخ بغداد ، ص ٩ .
(١٦) كي لسترنج ، ص ٢٠ - ٢١ .

(١٧) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٠ - ٧١ .
(١٨) كي لسترنج ، ص ٢٢ .

شارع السقائين وشارع المؤذن وشارع الشرطة (١٩).

الرحبة نحو انجوب دخل في طافت صغيرة ثم دهليز وسور ثالث يخرج منه الى رحبة دائرية حول مقر المنصور المعروف بباب الذهب ومسجد المنصور. (٢٢) (لاحظ شكل رقم ١).

محلات بغداد المدورة :

على اثر انشاء العاصمة الجديدة ، اقبل الناس على السكن في جوارها واتسعت قرية الكرخ التي في جنوب المدينة وصارت تعرف باسم محلة (الكرخ) وهي من المحلات الكبيرة بفري بغداد ، والكرخ قرية قديمة كانت في بعض مواضع كرخ العباسيين وكان يمر بالقرب منها الصراه ونهر الرخيل . واتصلت عمارة الكرخ واسواقه بقرية (سونايا) الامية التي سميت بالعتيقة لتقدمها عصراً على مدينة المنصور ، وعرفت ايضاً بمشهدها المعروف اليوم بمشهد المنطقة بين الكاظمية وبغداد (٢٣) وقد نقل المنصور في سنة ١٥٧هـ الاسواق من مدينته المدورة ومدينة الشرقية الى باب الكرخ وباب الشعير والحول وهي السوق التي تعرف بالكرخ ، وفيها وسع طرق المدينة وارباطها ووضعها على مقدار اربعين ذراعاً (٢٤) ، وذلك بعدما قدم عليه وفد ملك الروم فامر ان يطاف بهم في المدينة ثم دعاهم فقال للبطريق ، كيف رايت هذه المدينة ؟ قال رايت امرها كاملاً الا من حلة واحدة قال ما هي ؟ قال عدوك يخترقك متى شاء وانت لا تعلم ، واخبارك ماثورة في الافاق لا يمكنك سترها . قال كيف ؟ قال الاسواق . فامر المنصور حينئذ باخراج الاسواق من المدينة الى الكرخ وان يبني ما بين الصراه الى نهر عيسى . ودعا المنصور بشوب واسع فحد فيه الاسواق ، كل صف منها في موضعه . (٢٥) فكان لكل تجارة وتجار شوارع مطومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع سنف مع غيره . وكل اهل متفردون بتجارته .

ومهما يكن من امر فان الكرخ الالامية . هذا الررض الواسع كان موجوداً في تخطيط مدينة المنصور . وقبل مرور قرن على ذلك اخذت الكرخ

ويمكن فيما يلي اعطاء وصفاً دقيقاً للاستحكامات الحصينة لمدينة المنصور والتي من خلالها نستطيع اتأكد من ان تلك المدينة كانت من امع الحصون العظيمة في الشرق بانفرون الوسطى فقد كان الشخص اذا جاوز احد الابواب عطف على يساره فيسير في دهليز ازج معقود بالاجر والجص عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون ذراعاً ، وهذا الدهليز يفضي الى رحبة مفروشة بالحصى طولها ستون ذراعاً وعرضها اربعون ذراعاً ، ولها في جانبيها الجنوبي والشمالي ، حافظان متوازيان ينتهيان عند باب في اخر الرحبة وهو الباب الذي يراه الداخل . وفي كل من الحائطين باب يفضي الى فصيل عرضه مائة ذراع (٥٠ متراً) ، فمن يعين الداخل ويساره فصيلان . وهذا الباب الشاهق هو باب السور الاعظم ولذلك سمي (باب المدينة) ، مع ان الباب الاول هو باب الفصيل (٢٠) . فيدخل الداخل من الباب المذكور في دهليز ازج اخر معقود بالاجر والجص ايضاً طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً ويؤدي الى رحبة مربعة عرضها كطولها عشرون ذراعاً في مثلها ، فعلى يمين الماشي (الداخل من باب خراسان مثلاً) يوجد طريق يؤدي الى باب الشام وعلى يساره طريق يؤدي الى باب البصرة في فصيل ثان يدور في داخل المدينة كدورة الفصيل الاول ، عرضه خمسة وعشرون ذراعاً ، وفي هذا الفصيل تكون ابواب سكك مدينة المنصور التي يسكنها سكان المدينة الذين اجاز لهم الخليفة الإقامة فيها ثم يدخل السائر من باب ساج كبير فردين الى اطواق عدتها ثلاثة وخمسون طاقاً وعرض الواحد منها خمسة عشر ذراعاً وطولها مائتا ذراعاً (٢١) . ثم يخرج من الاطواق الى رحبة مربعة مساحتها عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً فمن يمينه طريق يفضي الى فصيل ثالث ويؤدي الى رحبة معائلة لها يسلك اليها من باب الشام ، ورحبة باب الشام فيها طريق يؤدي الى رحبة ثالثة يسار اليها من باب الكوفة ومنها الى نظيرتها الرابعة في طريق باب البصرة ، وفي الفصيل الثالث تشرع ابواب لعدة سكك . واذا خرج السائر من

(١٩) اليماني ، البلدان ، الطبعة الحيدرية ، ١٩٥٧ ، ص ٩ - ١٠ .

(٢٠) د . مصطفى جواد ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
(٢١) الطييب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢٢) د . احمد سوسة ، فيلسفات بغداد في التاريخ ، مطبعة الاديب البغدادية ، ١٩٦٢ ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

(٢٣) د . احمد سوسة ، اللسان وقرال بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢١ .

- د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(٢٤) الطييب البغدادي ، ص ٧٩ .

(٢٥) ابن الجوزي ، المصدر نفسه ، ص ١٢ .

١٩٦ هـ ٨١٢م اطبق جند الأمون على الامين في بغداد(٢٩) ، ووزح الجانب الغربي تحت ضربات المجانيق ، وتخرب الجزء الأكبر من نصفها الشمالي المعروف بالحربية . ثم رفع الحصار عنها بعد عامين واصبحت بغداد المزدهرة خرائب ودمار لأول مرة في تاريخها ، فقد دمرت النيران احياء بأكملها وأتت على سجلات الدولة .(٣٠)

ولكن يظهر ان المدينة المدورة بقيت قائمة في خلال القرن الذي تلا هذا الحصار الا ان قصر الذهب تهدم سنة ٣٢٩هـ/١٩٤١م ، وبقي الجامع صالحاً للصلاة حتى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعد الحصار المغولي .

كما ان الفرق المتكرر من فيضان دجلة والمفرات كان لها اثر في تخريب قسم من مدينة بغداد ، فقد كان يصعب صد تيار الماء في اثناء الفيضان . وقد حصل غرقاً عظيماً في سنة ٣٣٠هـ انهدمت على اثره الطاقات في المدينة المدورة القريبة من باب الكوفة(٣١) . وفي سنة ٣٠٧هـ رفعت بقايا قصر الخلد الذي كان في خارج الاسوار .

وفي نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، اختلفت معظم مدينة المنصور عن الانظار، اما الاقسام الباقية منها فقد تداخلت تدريجياً مع الابنية ، فالقت محلات بغداد التي قامت وراء الابواب الاربعة القديمة لمدينة المنصور وحولها .

بغداد الشرقية (الرصافة) :

تأسيسها :

كان المنصور قد عزم ان ينشئ محلة كبيرة في الجانب الشرقي من بغداد شرقي مدينته المدورة ، وقد ذلك وعزم عليه . وقد بدأت العمارة فيها سنة ١٥٢هـ - ٧٦٨م وانتهت سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٣م . وكان يرى ان هناك ضرورة لجعل مقر ولي عهده (المهدي) وجيشه الخراساني مفصولاً عن مقر الخلافة - ليكون مستعداً اذا اقتضت الحال لقمع كل نزاع قد ينشب بين هذا الجيش وبين جنده العربي هناك . وكانت تعرف هذه المحلة الجديدة اولاً باسم « عسكر المهدي » ،

(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية ، انتشارات جيهان ، تهران ، ج ٤ ، ص ٨ .

(٣٠) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٦٤ .

(٣١) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

- كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٤٨ - ٤٩ .

بالتوسيع والامتداد خارج حدود نهر عيسى ، فامتد هذا الرض الى جنوب النهر واشغل الاراضي الواقعة على جانبي طريق الكوفة مسافة بعيدة خارج بغداد (انظر الخارطة شكل) ويقدر طول الكرخ بفرسخين (الفرسخ ستة اميال) وحدها الاعلى قصر وضاح خارج باب البصرة ، وحدها الاسفل سوق الثلاثاء ، اما عرضها فنحو فرسخ اعتباراً من ضفة دجلة شرقاً الى قطيعة الربيع غرباً . وتقع هذه القطيعة على يمين الاتي من طريق الكوفة بعد مروره بباب الكرخ .(٣٦)

كما انشأت محلات اخرى عديدة من اهمها محلنا باب البصرة وباب الكوفة اللتان كانتا تقعان شمال الكرخ ، اما المنطقة التي في شمال المدينة ففيها عدة ارباض اهمها محلة الحربية في الناحية الشمالية الغربية ومحلة الشارع في الناحية الشرقية ، ومحلة باب التبن والقطيعة والزبيدية في اقصى الشمال بالقرب من الكاظمية الحالية . ومن المحلات الاخرى ، محلة باب الشعير وهي فوق مدينة المنصور ، ومحلة الحمول التي كانت متصلة بالكرخ وفيها سوق دخان . ومحلة بادوريا وهي محلة مشهورة ، ومحلة برانا في طرف من بغداد في قبة الكرخ(٣٧) ، ومحلة الترجمانية وهي محلة قديمة ، ثم محلة التسترين ومحلة دار القطن بين الكرخ ونهر عيسى . ومحلة الشرقية ومحلة ابو النجم . ثم محلة الشارع وهي محلة تعد من المحلات الاربعة الكبرى ، والعتابية وهي محلة مهمة يصنع فيها الثياب العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الالوان(٣٨) . (انظر الخارطة شكل - ٥) .

كيف تدهورت المدينة المدورة :

يظهر من الوقائع والكتب التاريخية ان المدينة المدورة بقيت كما تركها المنصور الى وفاة حفيده الرشيد سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٩م . وبعد عامين من وفاة الرشيد اشتجر الخلاف بين الامين والامون ، وحوصرت بغداد لأول مرة في تاريخها ودام الحصار اربعة عشر شهراً . وفي حوالي عام

(٣٦) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٣٧) ياسين خيرالله العمري ، غاية الروام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ، دار البصري بغداد ١٩٦٨ ، تحقيق للمخطوطة في سنة ١٩١٧ لنفس المؤلف ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣٨) محمود شكوي البغدادي ، اخبار بغداد وما جاورها من البلاد ، مخطوطة سنة ١٣٢٠هـ / ورقة ٨٥ .

الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق د . جابر عبد

العالم ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

سوق في الجانب الشرقي فانشئت على جانبيه المحلات والدروب وفي منتصف القرن الخامس الهجري انشئت المدرسة النظامية الى الشمال من دار الخلافة ثم انشئت شمال هذه المدرسة المدرسة المستنصرية في الثلث الاول من القرن السابع (٢٤).

وفي هذه المرحلة من تطور مدينة بغداد . اصبح اهم العمران في الجانب الشرقي منتشراً حول دار الخلافة ، فكانت اصلاً لمدينة بغداد الرئيسية التي ظهرت في العهد الاخير . ففي مستهل حكم الخليفة المستظهر ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م شرع في انشاء سور عظيم وخذق عميق يحيطان بهذه المدينة الجديدة . ويضمان داخلها دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي انشأ حولها . وكان هذا السور هو وخذقه الخارجي يبدآن من دجلة شمالاً وينتهيان الى دجلة عند الباب الشرقي الحالي جنوباً .

وكان الشروع في انشاء هذا السور في خلافة المستظهر ، لكنه لم ينجز سوى قسم يسير منه . واكمل انشاؤه في عهد الخليفة المسترشد . فاتم بناؤه بناء محكماً سنة ٥١٧هـ ، وجعل عرضه (٢٢ ذراعاً) ، وقد ظل هذا السور قائماً حتى اواخر القرن الثالث عشر للهجرة اي ما يقارب ثمانمائة عام . وفي عهد المتقي عملت مسناة حول السور لئلا تؤثر مياه الخندق فيه ، ثم اكمل في عهد خلفائه وكان الخندق يتصل بنهر دجلة في بدايته ونهايته . وكان يسد عادة كلما دعت الحاجة الى ذلك للحيلولة دون عبور الغزاة . الا ان المياه كانت تسرب اليه من جهة البر عندما يفيض نهر دجلة وديالى وتحديث بثوق في السداد التي في الجهة اليسرى لنهر دجلة شمالاً وفي السداد التي في الجهة اليمنى لنهر ديالى شرقاً ، فتتجمع مياه الفيضانات خلف سور المدينة فيمتلئ الخندق بالمياه وتصبح مدينة بغداد الشرقية جزيرة محاطة بالمياه من كل جهاتها .

وقد جعل لهذا السور العظيم اربعة ابواب هي : الباب الاعلى في الشمال الذي سماه الناس (باب السلطان) اي السلطان ظفر بك لانه دخل بغداد هناك ، وعرف في العصور الاخيرة بـ « باب

(٢٤) انظر : كليمان هوار ، خطط بغداد ، ترميز ناجي معروف ، مطبعة العاني بغداد ١٩٦١ ، ص ١١ - ١٦ .
- د . احمد سوسة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ص ٥٨ .
د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٥١ .

ثم سميت « الرصافة » ، والرصافة كانت تطلق على المواضع التي توجد فيها طرق مرتفعة . واول بناء شيد في هذا الجانب هو جامع الرصافة الكبير ، ثم عقب ذلك بناء قصر المهدي في جوار الجامع واقامت الدور والقطائع حوله (٢٢) . وقد انشئ حول المعسكر سور يدور حوله خندق عملاً بما تقتضيه الاحوال الدفاعية . وعقد المنصور جسراً فوق دجلة من جهة باب خراسان ليصل به القسم الغربي من مدينته بمحلة الرصافة الشرقية وكان يعرف هذا الجسر باسم الجسر الكبير او جسر الرصافة (٢٣) .

وصارت الرصافة وحدها بقدر مدينة المنصور ، لان من المقطعين من جعلوا قطائعهم بالجانب الغربي بساتين واسواقاً ومستفلات وغير ذلك من المرافق ، وكانت بين القطائع منازل الجند وسائر الناس من الملاكين والتجار . وكان في الجانب الشرقي اربعة الاف درب وسكة (٢٤) .

توسع الرصافة وبناء اسوارها :

كانت بغداد في اواخر القرن الثالث الهجري تشبه حلقة يحيط بها سور المستعين من كل اطرافها ، ثم اخذ العمران ينتشر في الجانب الشرقي منها فامتد جنوب السور على ضفة دجلة الى مسافة زهاء كيلومتر ، حيث اقيمت قصور الخلفاء والبساتين المحققة بها وكان اهم هذه المنشآت قصر التاج الذي اسسه المعتضد واتم بناء المكتفي ، ودار الشجرة والدار الممنعة التي جلس فيها الطاغية هولاء عند فتحه بغداد ، والدار المربعة ، ودار الوزارة ، والدواوين وغيرها . وصارت تعرف هذه القصور وملحقاتها باسم (دار الخلافة) . وقد اتخذها الخلفاء العباسيون مقراً لحكمهم بعد عودتهم من سامراء سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م . وقد سورت هذه اندار بسور على هيئة نصف دائرة . وقد وصفها ابن الجوزي بقوله « وهي بنفسها بلد » . وكان للسور الذي يطوقها تسعة ابواب رئيسة اشهرها باب الغربية ، وباب الخاصة ، وباب النوبي ، وباب العامة وباب المراتب . اما تاريخ انشاء سور دار الخلافة ، فهو على الارجح ان المعتضد شرع ببنائه واتمه الخلفاء المتأخرون . واتصلت العمارات حول دار الخلافة واصبح سوق الثلاثاء اعظم

(٢٢) احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٢٣) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٢٤ .

بها ممكناً الا بواسطة الاسلحة الخفيفة ، بينما الابراج العشرة الكبيرة التي في السور كان في كل واحد منها ستة مدافع او سبعة . اضافة الى وجود عدد من الثقوب بين كل ثقب و آخر خطوة واحدة . (٢٦)

محلات الرصافة :

اخذت الرصافة بالنمو والتوسع ، بحيث اصبحت تزاحم بغداد الغربية في سعة قصورها وشوارعها واسواقها وعظمتها . وكما جرى للمدينة المدورة حين احاطت بها الارياض التي فيها قطائع رجال بلاط المنصور . كذلك حصل للرصافة في خلال الاثنى عشرة سنة من حكم المهدي ، فأصبحت مركزاً لمدينة نشأت من الدور التي شيدها ابنه الجبل الثاني من رجال القصر . واضحت محلات بغداد الشرقية ثلاث : الرصافة والشماسية والمخرم في سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م (لاحظ الخارطة شكل - ٧) .

ومن المحلات الاخرى محلة مشهد الامام ابي حنيفة وكانت مسورة ، وجامع السلطان وهي محلة غير مسورة . وفي جوار محلة ابي حنيفة نشأت محلة باسم (محطة سوق يحيى) . كما نشأت محلتا الخضرية شمالاً جوار محلة الشماسية . ومن المحلات الاخرى محلة الشيخ والظفرية والى جانب الاخرة ، محلة اخرى كبيرة يقال لها قراح ظفر منسوبة الى ظفر الخادم والترجمانية وهي من محلات بغداد المتصلة بالاروزة (٢٧) .

حالة العمران في الرصافة :

بعد انتصار المأمون قام بنقل مقر الحكم الى الجانب الشرقي من بغداد واستولى على مقر البرامكة السابق . وفي عهد المعتصم الذي حكم للفترة بين (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٢٣-٨٤٢م) تنزل بغداد عن مركزها الممتاز باعتبارها حاضرة الدولة ، بسبب قيامه بنقل العاصمة الى سامراء وذلك لمدة خمس وخمسين سنة (٢٨) . وفي عهد المعتصم نقل مقر الخلافة الى بغداد ، عندما هجر مقر

المعظم « وقد ظل هذا الباب حتى سنة ١٩٢٣ حيث هدم لكي يتسع الدخول الى بغداد ومحل اليوم بين قاعة الشعب وجامع الازبك على يمين الداخل الى بغداد . والباب الثاني هو « باب الظفرية » في الجنوب وهو الباب المقابل لمحلة انظفرية وما زال قائماً بقرب جامع الشيخ عمر السهروردي . والباب الثالث هو الذي كان يعرف بـ « الباب الوسطاني » و « باب الحلبة » وهو الذي عرف في العصور الاخيرة بـ « باب انظلم » لان في اعلى الباب تمثال رجل متربع وعلى كل يمينته ويسرته تمثال افعى عظيمة ، وعد العامة ذلك طلسم لبغداد تحفظها من الاعداء . وقد اتخذه الاتراك في امامهم الاخرة بالمرق مخزناً للبارود ثم اوقدوا النار في البارود ونسفوه ليلمة خروجهم من بغداد واخلانهم لها للانكليز في ١١ اذار ١٩١٧ . اما الباب الرابع من ابواب السور فهو « باب البصلية » وسمي في العصور التي قبل الاخرة « باب كلواذي » وقد عرف هذا الباب في العصور الاخيرة بـ « الباب الشرقي » وقد هدمته امانة العاصمة سنة ١٩٢٧ ، بعد ان كان كنيسة للانكليز ، واصبح محله في ساحة التحرير قبالة مدخل جسر الجمهورية . وكان عدا الابواب الاربعة الرئيسة هذه عدد من الابواب الاخرى السرية (٢٤) (انظر الخارطة شكل ٦) .

وفي اخر عهد الخلافة العباسية وبامر المستنصر سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م تكامل بناء سور حول الرصافة ، ومن المرجح ان هذا السور كان يقتفي اثر سور المستعين القديم في اكثر اقسامه . والظاهر انه انشئ للدفاع عن منطقة الرصافة بعد ان وصل خبر تهيب عساكر المغول للزحف نحو بغداد . وقد استفيد من هذا السور في الوقاية من خطر الفيضان .

وبعد اكثر من قرنين قام المطراقي الذي كلفه السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤٤هـ برسم السور . وفي القرن السابع عشر الميلادي وصفه تارنبيه الفرنسي ، وذكر ابراجه والمدافع التي فوقه وذكر ان طوله حوالي ثلاثة اميال . (٢٥)

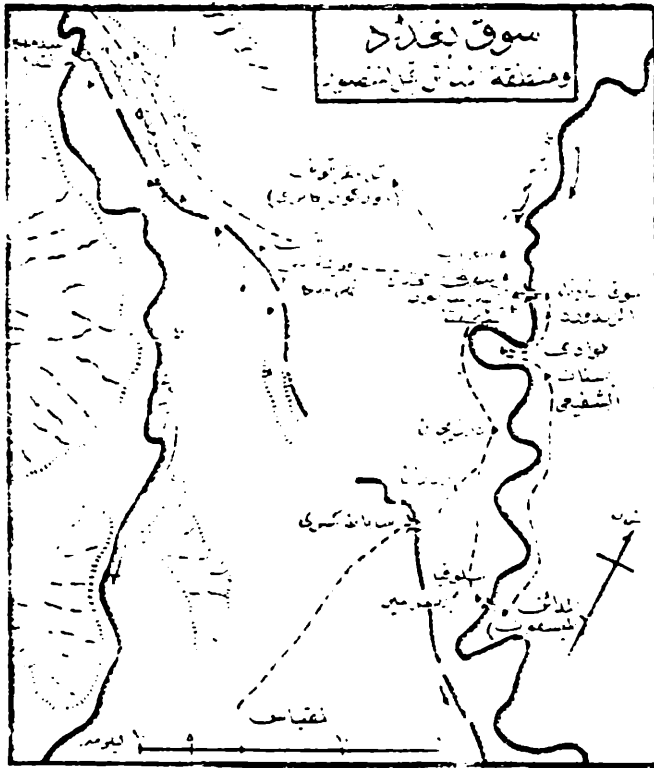
وفي سنة ١٧٣٢ ذكر الجغرافي التركي (حاجي قلعه) في كتابه (جهانخا) ، ان محيط بغداد الشرقية يبلغ بين ١١٢ر٤٠٠ و ١٢ر٤٠٠ ذراع ، وقد ذكر ان السور كان يضم حوالي ١٦٣ برجاً واستحكاماً ، ولكن هذه الابراج لم يكن الدفاع

(٢٦) سعاد هادي العمري ، بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة ، مطبعة دار المعرفة ، بغداد ، ١٩٥٤ ، ص ١٤ - ١٥ .

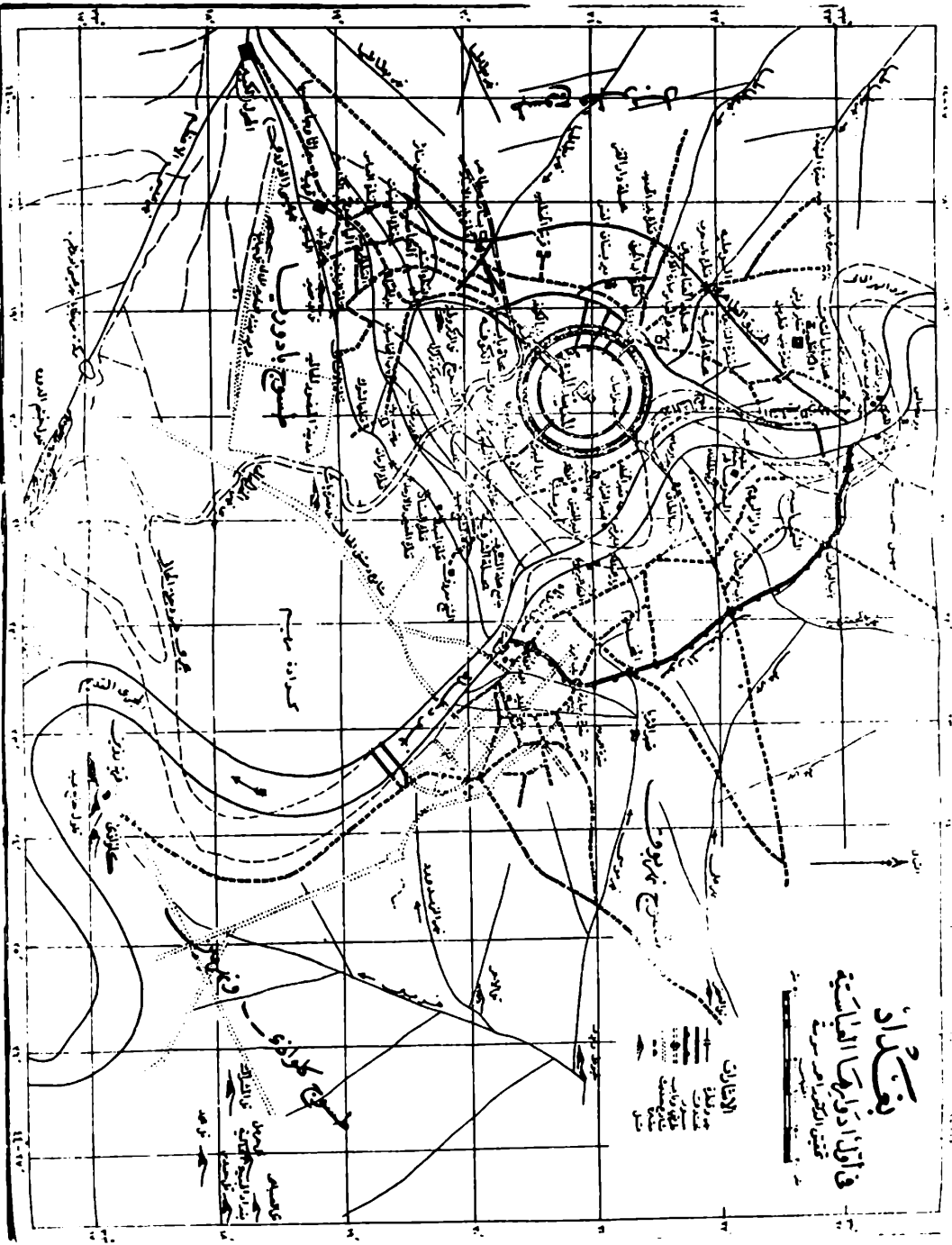
(٢٧) محمود شكري البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٨٢-٨٩ .
- د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٨ .

(٢٨) دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ - ١١ .

(٢٥) هوار ، المصدر نفسه .

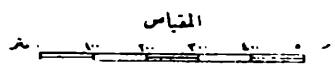
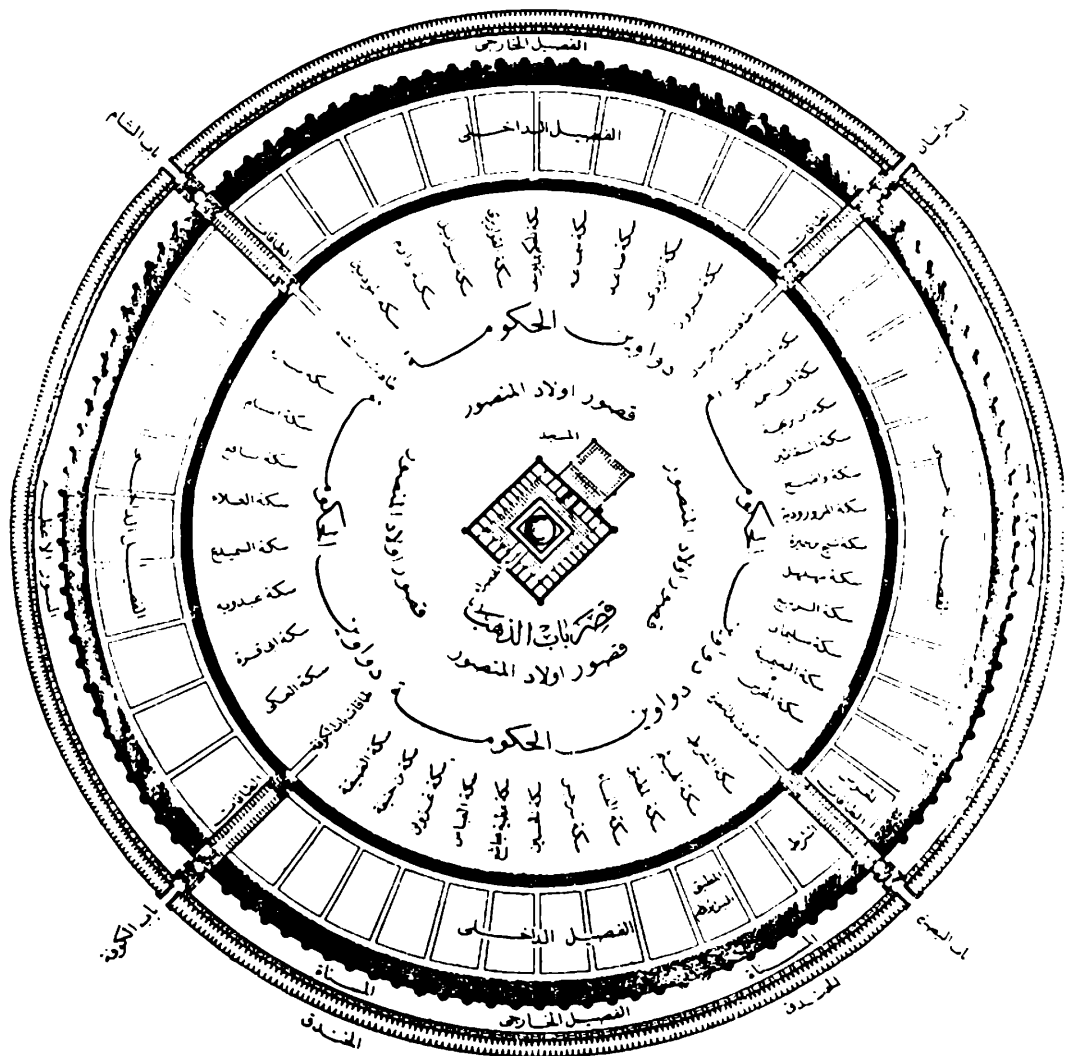


خارطة (١) عن (دليل خارطة بغداد ، ص ٢٦)

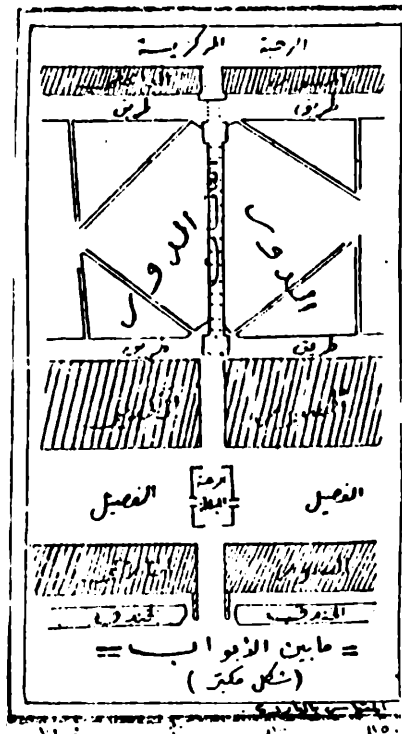


شكل (١) خارطة بغداد العباسية

مدینة المنصور المدورة

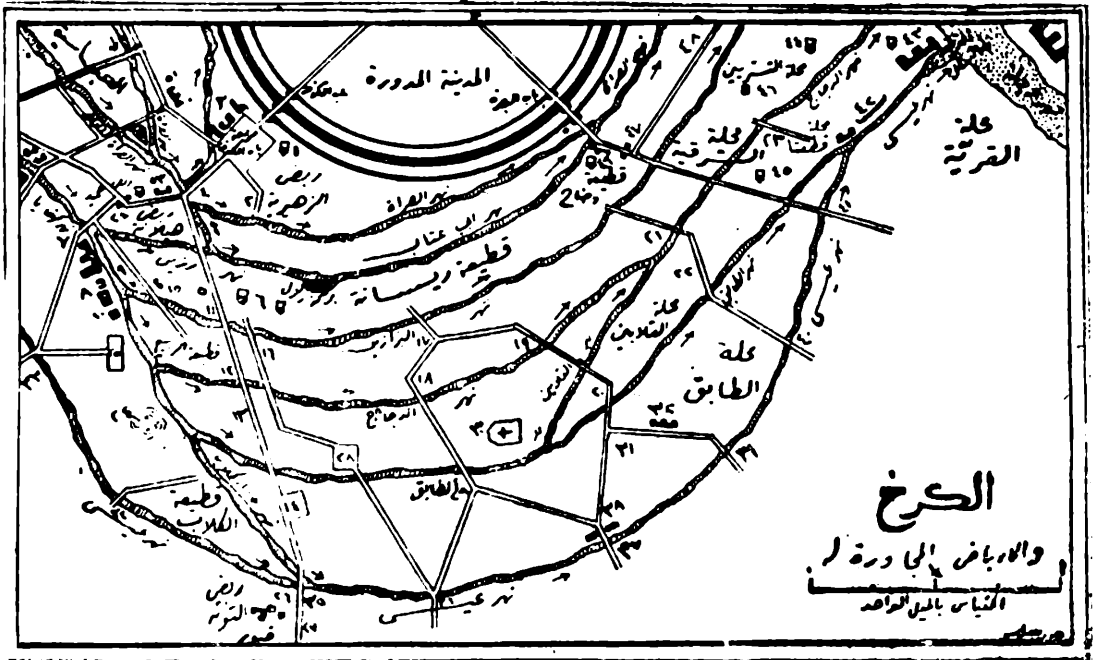


شكل ١٢١ - عن ا فيضانات بغداد . ١ : ١٢١٥

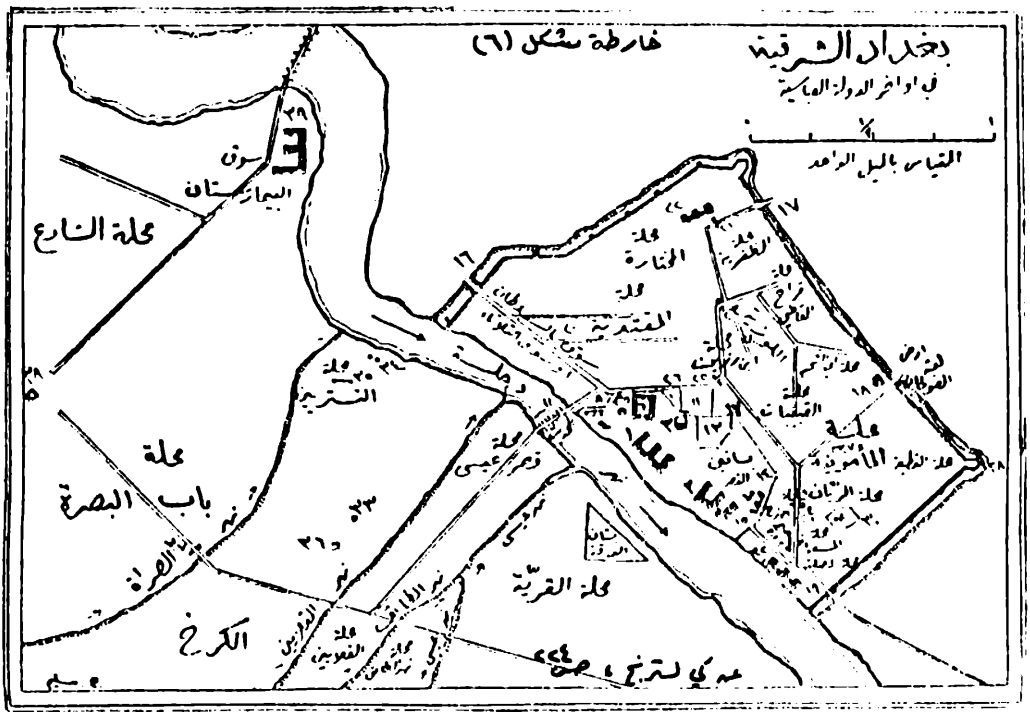


شكل رقم (٤)

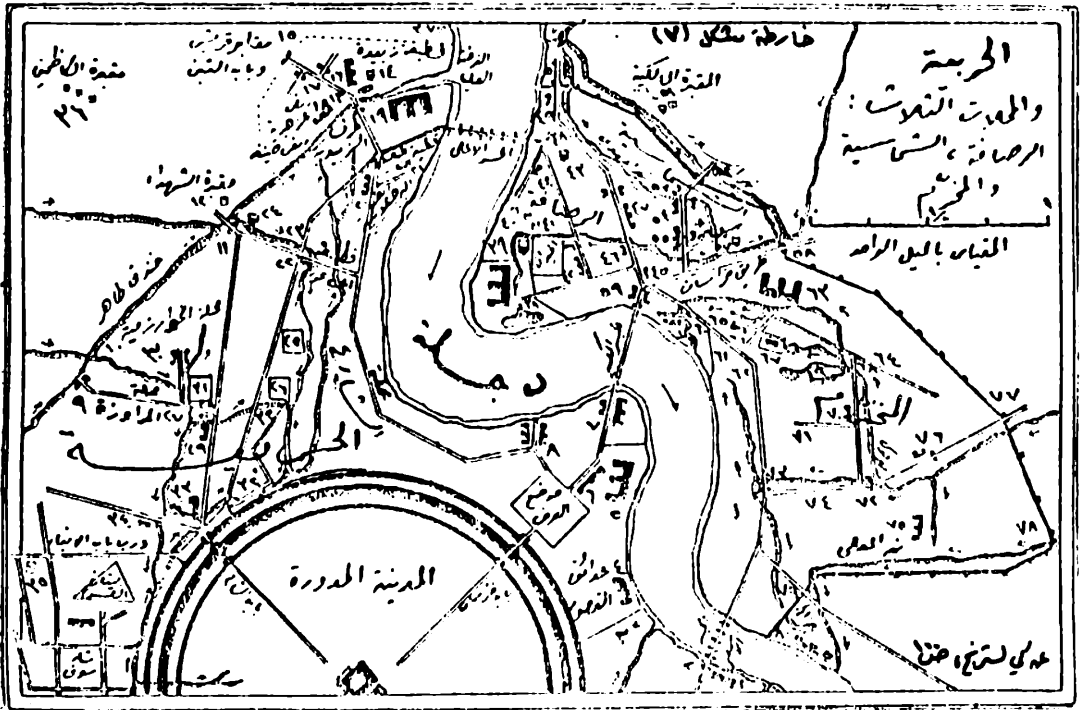
المقياس بالياردة . غي لسترايخ ، بغداد ، ص ٢٣



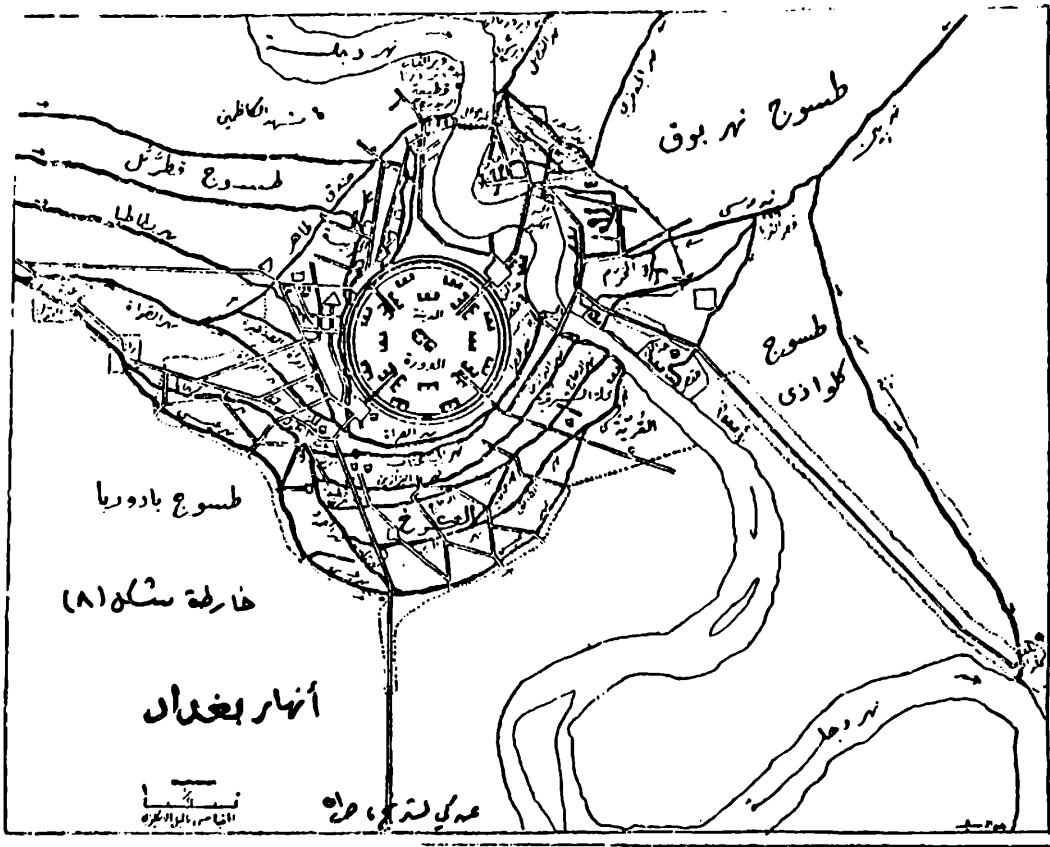
شكل (٥) خارطة (عن لسترايخ ، ص ٥٩)



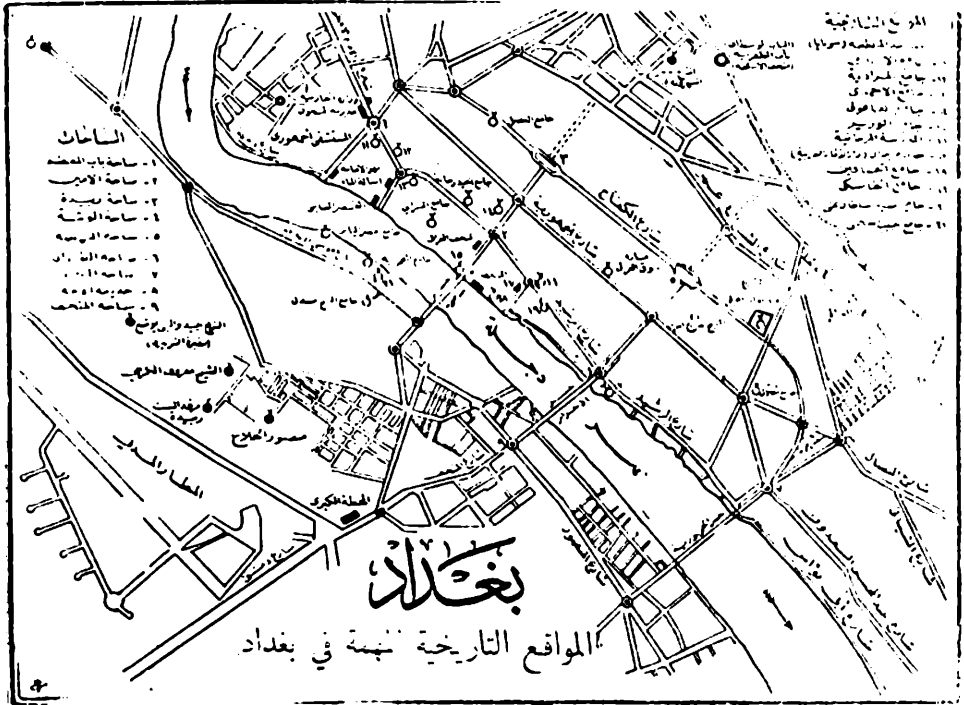
خارطة شكل (٦)



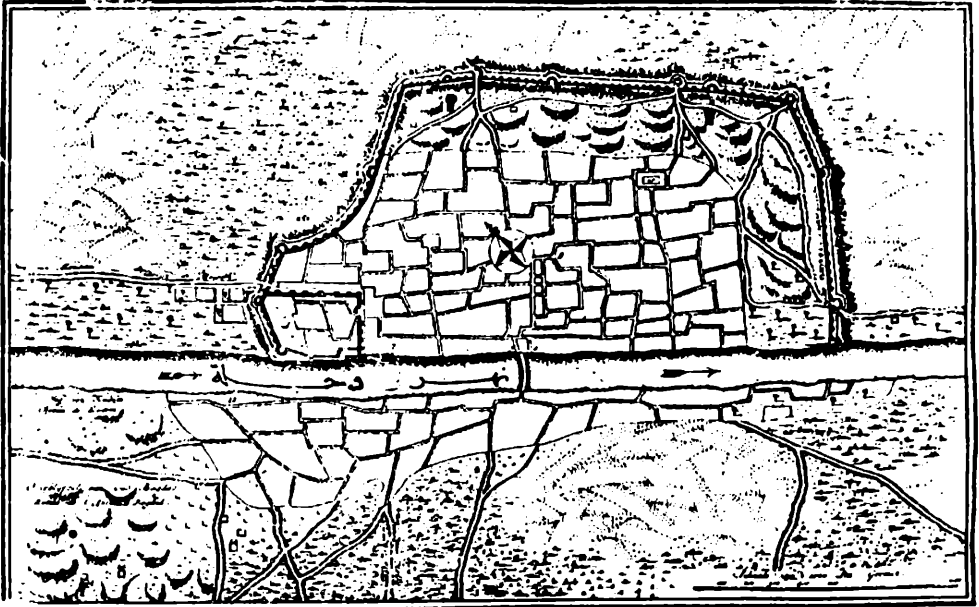
شكل (٧)



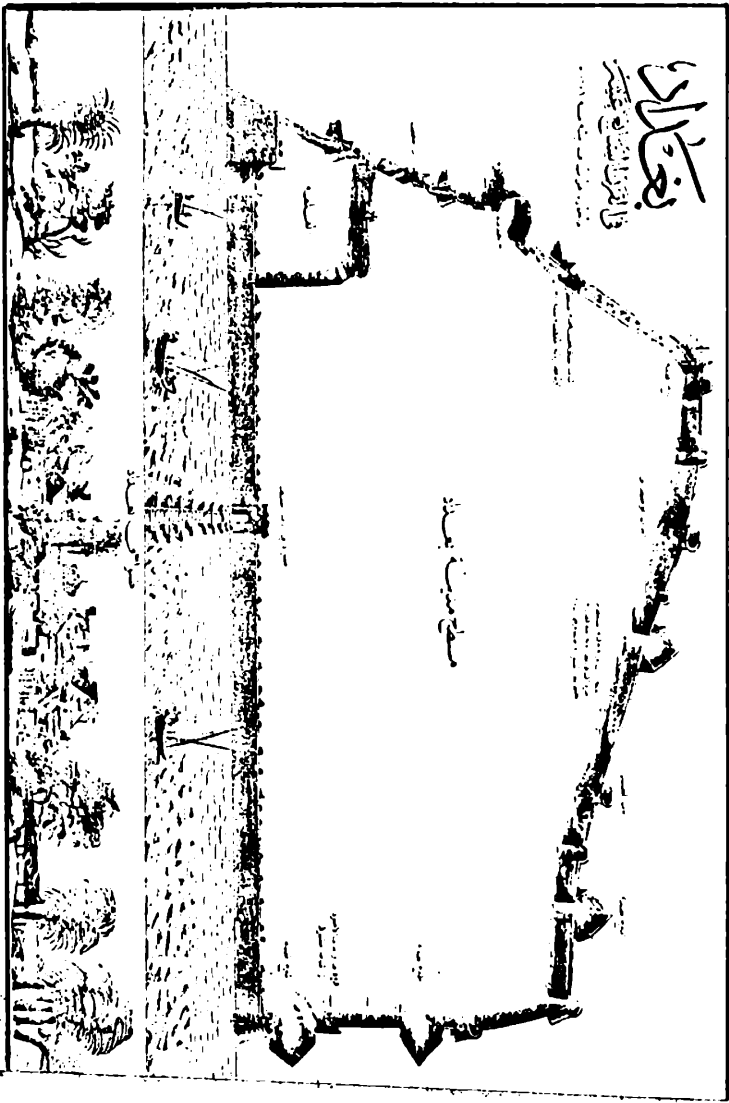
خارطة شكل (أ)



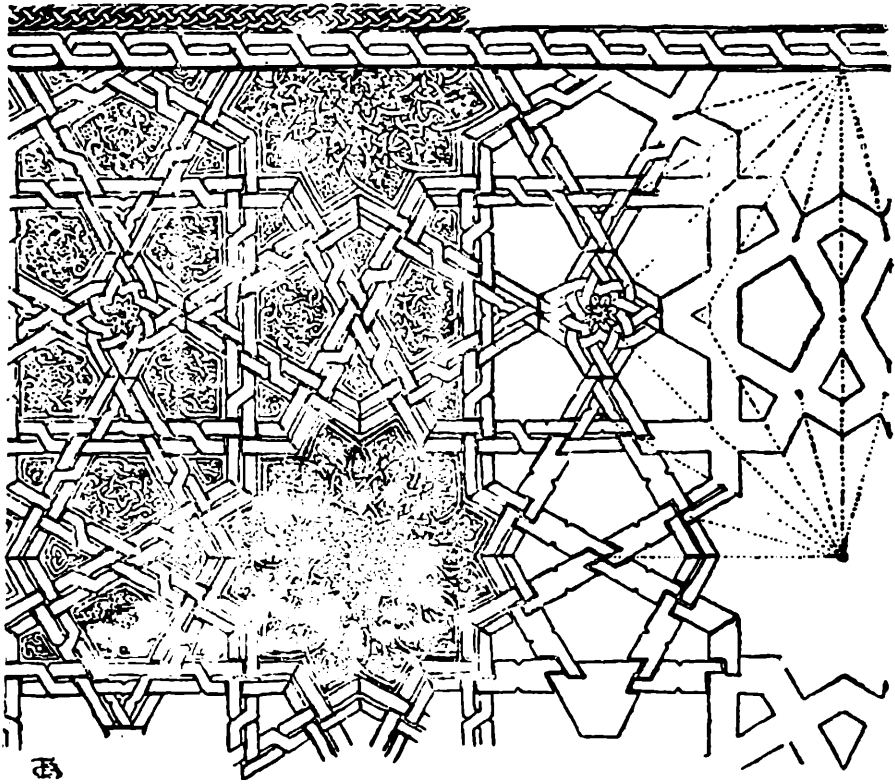
شكل (٩) : خارطة . عن فيضانات بغداد ١ : (٢٣٤)



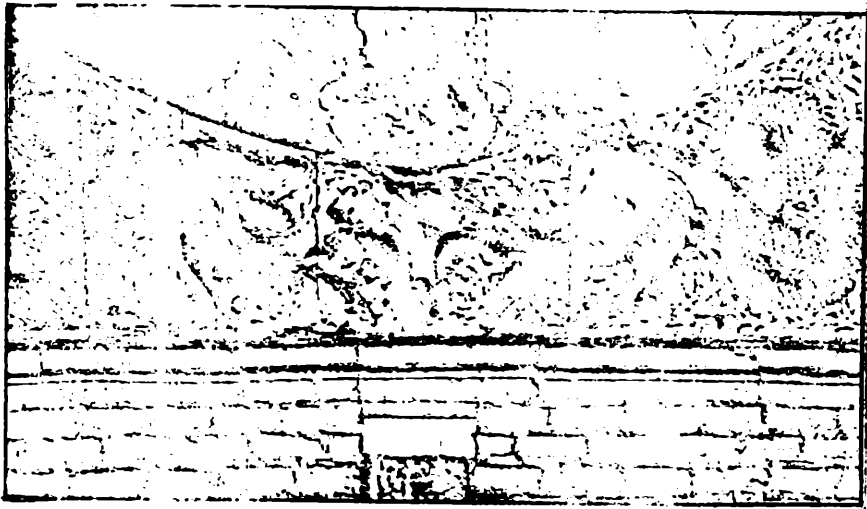
شكل (١٠) خارطة بغداد في القرن الثامن عشر للميلاد - كما رسمها نيور ، ويبدو فيها سور بغداد الشرقية واضحا .



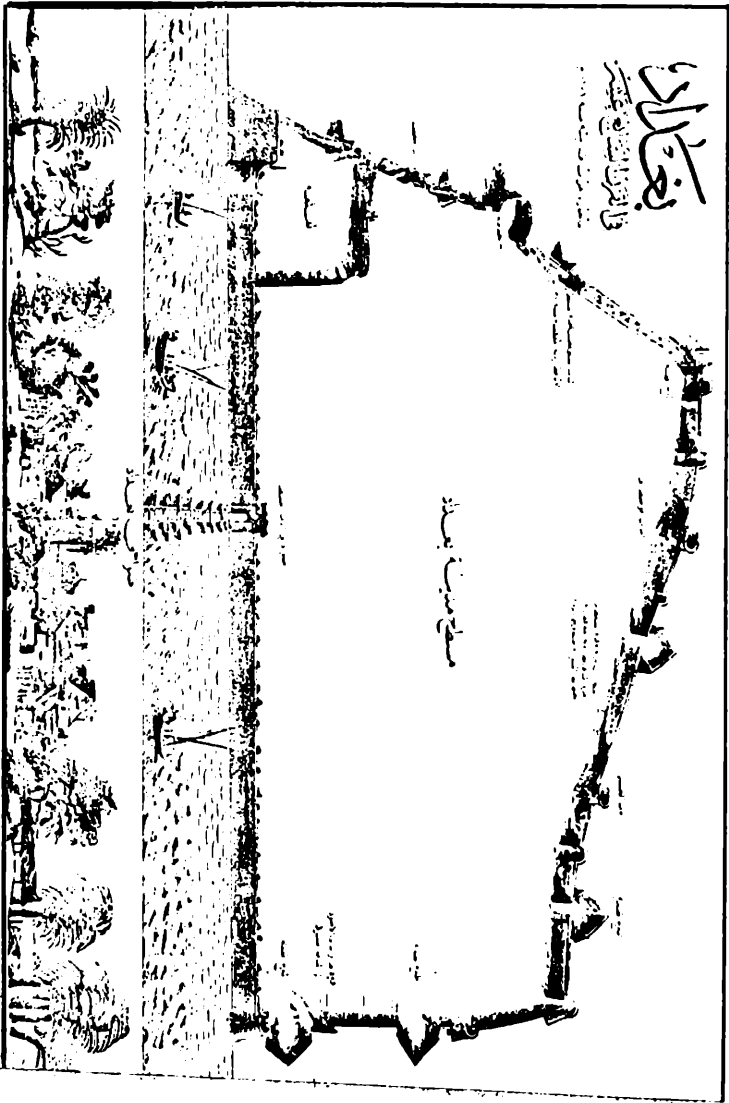
شكل (11) منظر لسور بغداد الترمية كما رسمه الرحالة تافرييه في القرن السابع عشر



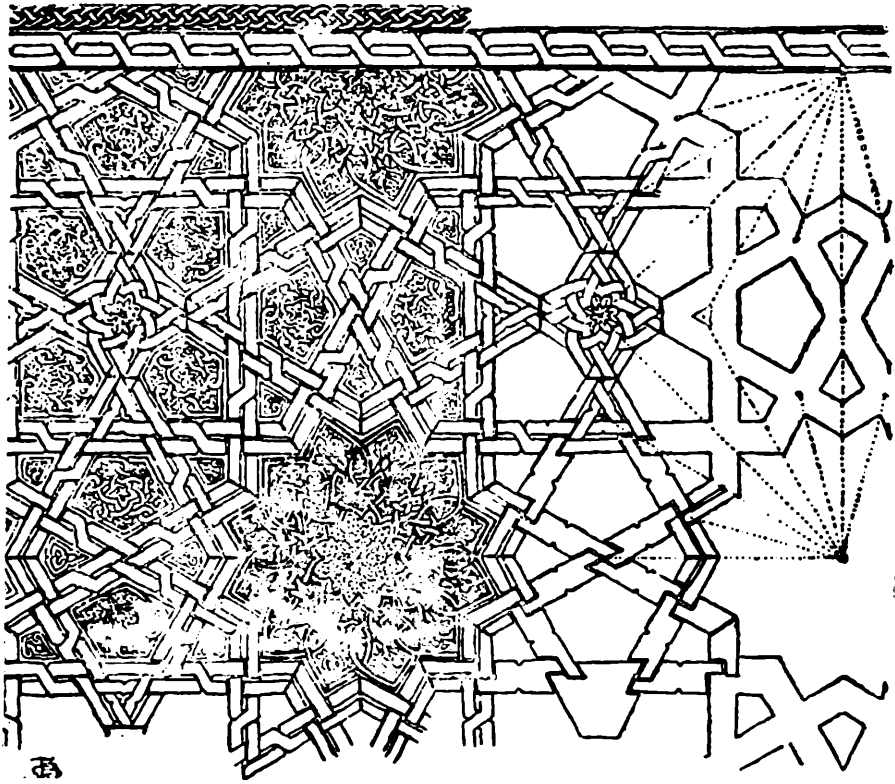
شكل (١٢) - تفصيلات الزخرفية الأجرية على الباب الوسطاني



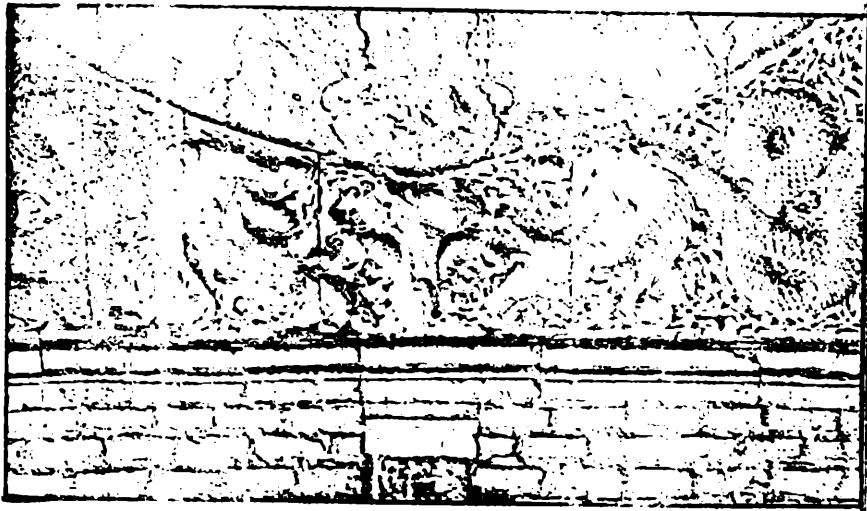
شكل (١٣) النحت البارز في باب الطلسم



شكل (11) منظر لسور بغداد الشرقية كما رسمه الرحالة تافرييه في القرن السابع عشر



شكل (١٢) - تفصيلات الزخرفية الاجرية على الباب الوسطاني



شكل (١٣) النحت البارز في باب الطلسم

الخلافة وجعل بغداد حاضرة الدولة الاولى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢ م .

وعند تولي المستعين الخلافة : حاول ان يتم السور حول الجانب الشرقي (كما سبق ذكره) ، الا انه قبل ان يتمه فاجاه المعتز على رأس جيش وبدأ الحصار على بغداد ، مما ادى الى ان يصاب الجانب الشرقي باضرار جسيمة وتخرت اهم احيائه كالرصافة والشماسية والمخرم واعيد بناء اجزاء منها فقط بعد ذلك . (٢٩)

وشهدت الفترة التي اعقبت عودة الخلفاء الى بغداد ، وقيل قدوم بني بويه ، بناء القصور العظيمة - على طول ضفة النهر - والجوامع ومنها جامع الخليفة (جامع سوق الفزل) والمسجد الجامع المعروف بجامع السلطان . وكانت القصور الى جنوب باب سوق الثلاثاء في سور المدينة الذي اقامه المستعين . وهكذا فقد تضاعفت مساحة بغداد قبل مرور زمن طويل على ذلك ، وانشأت محلات جديدة حول قصر الفردوس والحسني والتاج ، واتصل بعضها بالمخرم . (٤٠) ، وبنى المستنصر بالله عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢-١٢٣٣م المدرسة المستنصرية التي لازالت قائمة وتطل على نهر دجلة .

انهار بغداد ومياه الشرب فيها

كان يروي الجانب الغربي من بغداد نهر واسع يسمى نهر عيسى العظيم ، يتفرع من الجانب الايسر لنهر الفرات شمال الفلوجة ويصب في دجلة جنوب بغداد الحالية . وكان قد انشئ عليه سد من الحجر لرفع مستوى المياه وتحويلها الى جدولين رئيسيين ، شمالي وهو نهر الصراة العظيم وجنوبي يعرف بالرفيل والذي صار يسمى في العهد العربي باسم نهر عيسى . ويتفرع نهر كرخايا من جهته اليسرى . ويتفرع الجدولان من الجانب الايسر للنهر امام السد ، ويجريان متوازيين نحو الشرق وينتهيان الى دجلة فيصبان في وسط بغداد الحالية . (٤١) ، اما الجزء الشمالي من الجانب الغربي فكان يسمى من جدول قديم يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة في جوار بلد الحالية وسمي في العهد العربي باسم نهر دجيل وكان يتفرع من نهر بطاطيا .

ومن الانهار الاخرى ، نهر الملا وهو يستمد مياهه من الخالص . ونهر موسى ونهر القلابين اللذان يجريان في بغداد . ونهر الطابق في محلة تسمى به بالجانب الغربي قرب نهر القلابين شرفا واصل اسمه نهر بابك وماخذه من نهر كرخايا ويصب في نهر عيسى عند دار الطيخ ، ونهر الدجاج عند محلة تسمى به وهو قرب الكرخ (٤٢) . (انظر الخارطة شكل - ٨) .

اما شبكة جداول الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) ، فكان يستقي من نهر واسع يفوق كلا من انهار الجانب الغربي حجماً وطولاً ، وهذا النهر هو الذي عرف (بالنهروان) . وكان يتفرع من الجانب الايسر من نهر دجلة في جوار سامراء فيمتد بمحاذاة نهر دجلة من جهة الشرق مسافة اكثر من مائتي كيلو متر حيث كان اطول نهر عرفه العالم وقتذاك . ثم يلتقي اخيراً بدجلة بالقرب من الكوت الحالية .

وكان فرعان من الفروع لهذا النهر يمدان شبكة الانهار التي كانت تتغلغل في قلب منطقة بغداد الشرقية ، أحدهما وهو الشمالي الذي كان يعرف (طسوج نهر بوق) وكانت منطقة الرصافة وما جاورها من قطائع تقع ضمن هذا الطسوج ، وكانت تروى من الانهار التي كانت تتفرع من النهروان فتؤلف شبكة من الجداول تنتشر فروعها في تلك المنطقة . وكان نهر الخالص الفرع الرئيسي الذي يمون هذه الجداول بالمياه والذي يتفرع من نهر الفضل . اما الاخر الجنوبي فكان يسمى (طسوج كلواذا ونهر بين) وهو يأخذ من الجانب الايمن لنهر النهروان متجهاً نحو كلواذي حيث يصب في دجلة وعليه كان يعتمد جزء من الجانب الشرقي لبغداد (٤٣) (انظر الخارطة شكل ٨) .

اما إرواء مدينة بغداد ، فبالنسبة الى المدينة المدورة ، عندما بنى المنصور مدينته لم يفكر في سحب المياه من جداول قربها من دجلة فكانت تروى بماء الروايا وهي جلود تملأ ماءً فكانت تنقل الى المدينة على بغال ، ولما شعر بصعوبة نقل الماء في الروايا ورأى ما تحدثه البغال من اوساخ . امر رجلين من العالمين بمد القنوات

(٢٩) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٥٥٢ .

(٤٠) كي لسترنج ، ص ٢٧٠ .

(٤١) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٨٦ - ٨٩ .

(٤٢) ياسين العمري ، المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(٤٣) سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٢٢ .

١٦٢٢م ، حيث استولى عليها الشاه عباس الاول الصفوي . الا ان الاتراك استعادوها مرة ثانية عام ١٦٢٨ بقيادة السلطان مراد الرابع .

وسد مراد باب الطلسم ورمم عدة اضرحة دينية ، وفي هذا العهد هبطت بغداد الى الدرك الاسفل . واستمرت بغداد من جديد مركز ولاية تركية يحكمها هي والبصرة وال واحد في بعض الاحيان . وتميزت ولاية مدحت باشا ١٨٦٩-١٨٧٢ في تاريخ بغداد بانها كانت عهد نهضة اذ تم خلالها فتح عدة مدارس واقامة منشآت ومد خط للترام تجره الخيول بين بغداد والكاظمية .

وفي الفترة الممتدة بين ١٨٧٦ و ١٩٠٩ وهي فترة حكم عبدالحميد لم تشهد بغداد من اعمال الاعمار الذي يهم التخطيط فيها سوى بعض المنجزات البسيطة ومنها انشاء العديد من المباني العامة مثل تأسيس دارين للطباعة وحصر محلات بيع النفط ، واصلاح بعض الشوارع والازقة التي لم تكن منتظمة بل انها كانت امامصوفة بالحجارة او طرقات طينية . (٤٦)

وللاحاطة بحالة بغداد العمرانية يمكن استعراض بعض الاقوال التي ذكرها الباحثون في كتبهم ، وكذلك ذكر اهم المعالم الانبارية والحضارية التي لا زالت تحتويها مدينة بغداد .

ففي سنة ١٢٥٨م ، لم يبق من الجانب الغربي الا محال متفرقة اعمرها الكرخ ، وخراب الجانب الشرقي من الشماسية الى الخصرم ، وخراب السور (٤٧) .

وفي سنة ١٣٣٩م كانت بغداد الشرقية والغربية محاطة بالاسوار، ولسورالمدينة الشرقية اربعة ابواب ويمتد من ضفة النهر الى ضفته في اسفل السور على هيئة نصف دائرة . ولسور الربض الغربي (الكرخ) بابان .

وكانت حالة بغداد بين ١٥٦٣-١٥٧٤ كما شاهدها caesar Federigo وكذلك راوولف ، قليلة البهجة وابنتها ليست مشيدة بصورة جيدة،

- (٤٦) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ - ١٥ .
- عباس الغزالي ، تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ، ١٩٢٩ والجزء الثامن ١٩٥٦ .
- جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميدي ، ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب / جامعة بغداد ، ص ٢٥٤ - ٢٥٨ .
(٤٧) صفي الدين عبدالؤمن بن عبدالقح ، مراد الاطلاع ، ليدن ، ١٨٥٢ ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

بان يمدا قناتين من دجلة الى داخل المدينة . (٤٤) .
وامر ايضا بمد قناة من نهر دجيل وقناة من نهر كرخايا وجرحها الى المدينة في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالأجر والصاروج من اعلاها وكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع فضلا عن الارياض خارج المدينة . وتجري صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت من الاوقات . (٤٥)

تخطيط بغداد منذ الفتح المغولي ١٢٥٨م وحتى الوقت الحاضر :

للاطلاع على حالة التخطيط في بغداد منذ نهاية العصر العباسي ، ودخول المغول وحتسى الوقت الحاضر ، لابد من استعراض موجز لحالة الادارة التي كانت في هذه المدينة . ففي سنة ١٢٥٨/٦٥٦م وصل هولاكو وجنوده الترك والمغول الى بغداد ووجد المستعصم نفسه مضطراً الى التسليم دون قيد ففتحها المغول ونهبت المدينة واحرقت ولكنها لم تخرب باسرها كغيرها من المدن التي فتحوها لانهم كانوا يريدون ان يتخذوا منها عاصمة لهم .

وظلت بغداد بعد احتلال هولاكو تتقاذفها امواج الحروب فتنتلوبها ايدي الحكم من احتلال الى آخر زهاء اربعة قرون متتالية الى ان احتلها السلطان مراد الرابع في سنة ١٥٤٨هـ/١٦٢٨م . فقد حكم فيها الابلخانيون اخلاف هولاكو ٨٢ عاماً . ثم عقبهم الجلائريون الذين حكموا البلاد ٥٧ عاماً ، وبنيت في ايامهم المدرسة المرجانية . وفي ايامهم استولى تيمورلنك على بغداد مرتين الاولى عام ١٣٩٣م ولم يلحق بالمدينة ضرر ، والثانية عام ١٤٠٢م حيث ذبح اهلها وخربت المساكن والمنشآت العامة . ورجع احمد الجلائري عام ١٤٠٥م الذي احكم الاسوار (بقدر استطاعته) التي دمرها تيمور ، ولم يتقصر سوى ست سنوات حتى قتله قره يوسف امير دولة الخروف لاسود التركمانية ، واستولى رجاله على المدينة وظلت بحوزتهم حتى عام ١٤٦٨م . الى ان انتزعا منهم تركمان الخروف الابيض ، وفي سنة ١٥٠٨م غزا الشاه اسماعيل الصفوي بغداد وظلت بحوزة الصفويين حتى عام ١٥٣٤م . حيث احتلها الاتراك بقيادة سليمان الاول ، وظل يحكمها حتى عام

- (٤٤) الاصطغري ، المسالك والممالك ، ص ٥٩ .
- سوسة ، ص ٩٢ - ٩٤ .
- البغدادي ، ص ١١٢ .
(٤٥) محمود شكري البغدادي ، ورلة ٢٢ .

وتظهر فيها الازقة الضيقة والبيوت المهتمة وكثير من الجوامع الخربة التي استحال لونها الى اسود قامت نقشت على احجارها الكتابات العربية. ومن الاماكن التي تستحق الروية مقر الباشا التركي والسوق الكبير ودكاكين التجار ، اما حماماتها فهي اكثر رداءة من حمامات طرابلس والاسكندرية (٤٨) .

اما في الفترة بين ١٦٢٢-١٦٣٨ ، فان من الذين وصفوا بغداد هو الفرنسي تافرينيه الذي مر بالعراق اثناء ذهابه الى الهند ، وتبين من وصفه ، انها كانت في جانبها الشرقي محاطة بسور من الاجر يبلغ طوله نحو ثلاثة اميال ، وتقدر مساحة الارض التي كانت عليها الدور بالف وخسمائة خطوة طولاً وسبعمائة او ثمانمائة خطوة عرضاً . (٤٩)

اما في الفترة بين ١٧٢٢-١٧٥٠ فقد كتب كارستين عن بغداد إذ ذكر ان مقر الحكومة التركية في الولاية كان في بغداد الشرقية ويحيط السور بالمدينة .

وفي سنة ١٧٦٤ وصف نيبور بغداد الحديثة حيث ذكر ان الازقة لا زالت ضيقة وقدرة ومرتفعة ، وان الدور متألقة من عدة طوابق واطرافها محاطة بالجدران وقد غرس في وسطها بعض النخيل وتؤثر اشعة الشمس النازلة على هذا (الحوش) في مضاعفة الحرارة . فيحتاج المرء هناك الى الغرف الصيفية الباردة والمبنية تحت الارض (السرايب) . وتكون سقف هذه الغرف مغطاة بصورة تامة ومبنية على عمق اربعة او خمسة اقدام تحت الارض وتتصل بواسطة الدهاليز الهوائية المفتوحة على استقامة الشمال ويجري الهواء البارد في هذه الدهاليز وهذه المحلات مفروشة بصورة حسنة .

وكانت استحکامات مدينة بغداد قوية جداً. وکان عدد الجوامع ذات المنائر فيها يبلغ عشرين ، اضافة الى وجود كثير من المساجد الصغيرة . وكان في المدينة وضواحيها حينئذ (٢٢ خاناً) ولكن ستة او سبعة منها فقط كانت مشغولة من قبل التجار الكبار ، كما يوجد فيها كثير من الحمامات العامة . (٥٠)

(٤٨) سعاد العمري ، ص ١٦ - ١٧ .

(٤٩) سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٩٢ .

- العمري ، ص ١٠ .

(٥٠) د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ٢٥٢ .

اما حالة بغداد في عام ١٨٢٠-١٨٢١ ، فقد كانت على الرغم من تعرضها للتهديم ، ذات اسوار احسن حالا من المدن الاخرى في دول مجاورة . اما ازقتها فكانت ضيقة وعرضها على الاكثر تسعة او عشرة اقدام . وكانت ابنتها متصلة وليس فيها شبايك ، وللبوت ابواب جميلة ، واكثرها لطيفة جداً من الداخل كما فيها الشرفات والاطواق الكثيرة المعلقة على الشارع حيث يجلس هناك الناس . وتجمع الميادين العامة بالمقاهي الكثيرة حيث يجلس فيها كثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة .

اما بغداد في سنة ١٨٦٤ فكانت تتميز كما وصفها Peterman في كتابه (رحلات في الشرق) بكون القسم الاكبر منها واقع في الجانب الايسر ، ومحاط بسور عال مهتمد في كثير من المواقع وفيه خندق عميق وجاف . وتحوي المدينة على الكثير من الجوامع الجميلة ذات القباب والمنائر الزينة بالطابوق الملون الاعم . وتتميز ازقتها بان اكثرها ضيقة وممتلئة بالزوايا المبروشة بالحجر ، بحيث يصعب السير فيها اثناء هطول الامطار ، واسواقها بعضها مسقف .

وكانت الدور تبنى وفق طراز خاص من البناء ، إذ كانت الدار تحتوي على حوش واسع في القسم الايمن مطبق بالكاشي ، وهول مفتوح يسمى (بالايوان) وبجانبه غرفتان تحتها سرداب كبير . وفي مدخله باب يصل الى المطبخ عبر (هول) صغير وفي الوسط مقابل باب الدار تقريباً يوجد ايوان ثان كبير (٥١) .

اما حالة المدينة حتى عام ١٩١٧ م ، فقد تعرضت المدينة الى فيضانات خطيرة في سنوات ١٨٨٤ و ١٨٩٤ و ١٨٩٦ و ١٩٠٧ و ١٩١٥ م . يضاف الى ذلك ضعف الادارة واضطراب الامن . وفقد سور المدينة اهميته وازيلت المسناة لاستعمال حجارتها في الانبئة ثم دفن الخندق وبقي السور الترابي ، وصار يعرف بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧ ب (سدة المدينة) .

ثم جاء عهد الاحتلال البريطاني ، فلم تكثر بريطانيا للامر وللخراب الذي اصاب بغداد ، فأستمر الامر على حاله ، ومع بغداد مستمرة على حماية نفسها بالطرق العلاجية الوقتية باعتمادها على السداد الترابية . وقامت السلطات العسكرية المحتلة بتحكيم السور القديم الذي

(٥١) العمري ، ص ٨٤ - ٨٨ .

يمكن الاستفادة منها . وفي الخارطة شكل (٩) يمكن ملاحظة بعضاً من هذه المواضع التي توجد فيها بعض تلك الموروثات الحضارية . وذلك لان الاهتمام بها خدمة لامتنا العربية المجيدة ، ومتمعة لاجيالنا والسواح الاجانب الذين يرتادون بلادنا .

ومما يلاحظ على مدينة بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ، انها شهدت توسعاً كبيراً في العمران . ونوعاً مضطرباً في عدد السكان اذ ازداد عددهم من مليون نسمة عام ١٩٥٧ الى حوالي ثلاثة ملايين عام ١٩٧٧ بسبب الهجرة السكانية من جميع المحافظات الى بغداد ، وقد صحب ذلك ظهور احياء جديدة وعلى الاخص بعد فتح قناة الجيش في عام ١٩٦١ ، اذ ادى الاجراء الاخير الى توزيع العديد من القطع السكنية على المواطنين على جانبي القناة التي يبلغ طولها ٢٣٫٧ كم (٥٢) . يضاف الى ذلك التوسع الافقي الكبير لمدينة بغداد في جانبيها الشرقي والغربي ، مما جعلها مدينة تفتقر الى الكثير من الجوانب التخطيطية التي تتوفر في المدن العالمية الكبرى .

(٥٣) صالح فليح الهيتي ، تطور الوظيفة السكنية لمدينة بغداد الكبرى ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٧ - ١٢١ .

صار يعرف باسم (السدة الشرقية) . يضاف الى ذلك انشاء سداد جديدة لحماية المحلات العديدة في بغداد مثل البتاوين والعلوية والكرادة الشرقية والزوية وممسكر الرشيد والرستمية والزعفرانية . وخلال الفترة الممتدة بين ١٩١٩ و ١٩٥٤ تعرضت بغداد الى تسعة فيضانات غرق قسم من بغداد في بعض منها . (٥٢) اما عن اهتمام الانكليز بالجوانب العمرانية والتخطيطية لبغداد فلم يكن يذكر لشدة اهمالهم لهذا الجانب وتاكيدهم على امور السيطرة على البلاد وابتزازها .

وفي نهاية هذا البحث ينبغي ان تؤكد على ضرورة الاهتمام الكبير بالموروثات الحضارية التي لازال بعضها شاخصاً حتى الوقت الحاضر في مدينة بغداد ، ومنها البيوت الكبيرة ذات الطراز العربي الاصيل ، والمدارس والجوامع ، والاسواق بحيث يمكن تحويلها الى اماكن سياحية تعكس اصالة الحضارة العربية ، او تلك التي تحتاج الى احياء كما لو انها لازالت قائمة حتى الوقت الحاضر ومنها سور بغداد وابوابه خاصة وان هذا السور توجد عنه العديد من المصورات والمرسمات التي

(٥٢) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ١١٨ - ١١٩ .



عِمَارَاتُ بَغْدَادِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ

خَالِ الخَلِيلُ الأَخْطَلِيُّ

بغداد - الجمهورية العراقية

خصائص مميزة من حيث التصميم والايخراج الفني .
ومن حيث الموضوعات والاساليب الزخرفية . وبصورة
عامة نجد ان العمارة وزخرفتها في العصر الاسلامي
قد اتسمت بطابع واضح ينطق بوحدة التعبير الفني
مظهرا وجوها رغم اختلاف الاقطار الاسلامية
وتابع العصور .

وفي الحقيقة ان العمارة الاسلامية خضعت في
في نشأتها وتطورها الى عوامل كثيرة من اشهرها
وابرزها هي :

١ - العوامل الدينية التي تمثلت في تخطيط وعمارة
المساجد والمدارس والاربطة والابنية الاسلامية
الاخري ، والتي انبثقت منها نظم تخطيطية
لم تكن معروفة من قبل .

٢ - العوامل الجغرافية والطبيعية للاقطار
الاسلامية ، حيث كانت لبعض المعمار اهداف
وفوائد مقصودة ، كبناء الخانات في الطرق
التجارية ، واقامة الاربطة عند حدود الدولة
الاسلامية .

اما بالنسبة لمواد البناء فنجد استعمال
الاجر في الاقطار والاقاليم التي تتوفر فيها مادة
الطين والطينة الجيدة كما في العراق ومصر
وايران . بينما استعملت الصخور والاحجار
في بلاد الشام والحجاز حيث يمكن الحصول
بسهولة على هذه المادة هناك .

٣ - العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .
فقد بنيت عمائر متنوعة تبعا لوضاع الدولة
في حالات السلم والحرب ، كبناء المدن والقصور
الحصنة والاسوار والقلاع . وكذلك اقامة

ولدت الفنون الاسلامية ونشأت على اثر ظهور
الاسلام وانتشاره ، وقد نهضت وتطورت في خدمة
هذا الدين الجديد ، والمجتمع الجديد ، والدولة
الجديدة .

كانت هناك فنون عديدة سابقة للاسلام مثل
الفنون الساسانية والبيزنطية والهنستية والقبطية ،
اقتبس المسلمون منها ما هم بحاجة اليه وما يتناسب
مع دينهم وبلأثم ذوقهم الفني ، و اضافوا الى ذلك ما
ابتكروه من عناصر واشكال جديدة ، ومن هنا كانت
من مميزات الفنون الاسلامية تنوع مصادرها تنوعا
كبيرا ، واتساع افق الاقتباس والاشتراق فيها
اتساعا كبيرا . على ان الفنون الاسلامية عموما تمتاز
في الوقت نفسه بوحدة التعبيرات الفنية التي
مصدرها هو ان المسلمين - عربا أم عجم - أصبحت
لهم قدرة فائقة على تحوير العناصر المستنقة
وتشكيلها باشكال جديدة لم تكن معروفة او متبعة
من قبل ، وادخلوا عليها من الخصائص الفنية ،
وابتكروا من الاساليب ما يطبع بطابع خاص يعبر
عن وحدة الخيال الفني ، ووحدة التفكير والمزاج
والالهام ، وكانت العمارة اول حقل ظهرت فيه تلك
المواهب الفنية عندما نشأت من ذلك البناء البسيط
الذي اقامه الرسول (ص) في المدينة حيث بنى
مسجده الذي اصبح نظام بنائه نموذجا للمساجد
الاسلامية . ولا يكاد بناء من الابنية الاسلامية الا
ونجد فيه عنصرا من العناصر المتكررة الجديدة .
وكانت الفكرة الاسلامية الانشائية الرئيسية فسي
تخطيط وتصميم العمائر بصفة عامة هي فكرة
الاتساع الافقي وقابلية الامتداد حيث الفضاء الشاسع
الذي تحدده المرتفعات . اما الزخارف المعمارية
الاسلامية فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا واتخذت لها

عمائر طبقة الاثرياء والحكام تختلف عن ابنية عامة الناس (١) .

يمكننا القول بان العمارة الاسلامية قد اكتملت شخصيتها وبلغت اوج تقدمها خلال العصر العباسي، وهذا ما نلاحظه في الابنية الباقية ببغداد من ذلك العصر . اذ هي رغم قلة عددها لكنها تعكس السمات البارزة للعمارة والزخرفة آنذاك وتدل على خبرة واسعة في التخطيط والبناء ، وعلى مقدرة ودراية في اختيار المواد المناسبة وحسن استعمالها ، وعلى براعة في تكييف تلك الابنية وفق متطلبات الظروف المناخية للقطر . وهي مع ذلك تحتفظ بزخارف تدل على ذوق رفيع وعلى مهارة في ابداع الاساليب الفنية وتنسيق الاشكال الزخرفية .

ان هذا العدد القليل من العمائر الذي وصلنا من الفترة العباسية ليدعو الى الاعتزاز لما تميز به من مظاهر وخصائص جديرة باستلهاام الافكار منها .

ويجدر بنا قبل الكلام عن العمائر العباسية القائمة ببغداد ان نشير ولو بايجاز الى مدينة السلام التي اسماها الخليفة المنصور وجعلها دائرية الشكل، وان نتطرق الى بعض الاشارات التاريخية وما ورد في المراجع العربية عن الابنية البغدادية ، نستخلص منها بعضا من ميزات العمارة العباسية ببغداد التي لم يصلنا مثال قائم عنها .

اشارت كتب المؤرخين والرحالة بصورة مفصلة الى تاريخ بغداد وتاسيسها وخططها واسوارها ومدخلها ووصفها ، حتى ليستطيع المرء ان يرسم صورة واضحة عنها في عهد مؤسسها المنصور الذي جعلها مدورة لئلا يكون بعض الناس فيها اقرب اليه من البعض الاخر . وقد اصبح اختيار الشكل الدائري لهذه المدينة موضع نقاش طويل بين العلماء والباحثين ، فسار البعض على النهج الذي وضعه معظم المستشرقين في محاولاتهم نسبة كل جديد وكل ابتكار في الحضارة العربية الاسلامية الى العهود القديمة السابقة للإسلام ، فتوصلوا الى امثلة قليلة عن مدن مدورة الشكل تقريبا ، كما توصلوا الى ان هذا التخطيط الدائري له مزايأ حربية وفيه اقتصاد في نفقات البناء بالنسبة لاي تخطيط آخر . ولكن الباحث يلاحظ في تلك الاراء امورا لا تؤيدها من ابرزها : ان امثلة المدن المدورة السابقة لبغداد كانت في عهد المنصور جميعها اطلاقا مندثرة لا حياة فيها

(١) شاهلي (الدكتور فريد) : العمارة العربية في مصر الاسلامية (مصر الولاة) المجلد الاول ، مصر (١٩٧٠) ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

اضافة الى كونها بعيدة المنال نائية عن موقع الانظار ، ثم ان تلك المدن لم تكن مدورة تماما بل كانت شبيهة بذلك ، هذا بالإضافة الى كونها مدنا محصنة ذات اسوار وابراج فكانت استدارتها من متطلبات فكرة التحصين (٢) .

ان اهمية تخطيط بغداد تكمن في جوهرها اكثر من مظهرها ، وان هذا التخطيط نموذج واضح رائع من اهم نماذج تخطيط المدن التي عرفت في لتاريخ كما انه ليس لهذا التخطيط نظير في اي مدينة سابقة للفتوحات العربية الاسلامية اذ هو تخطيط مبتكر من قبل الخليفة المنصور وحققه ونفذه اتباعه من المهندسين واهل المعرفة (٣) .

ان الفكرة السائدة في انشاء المدن الاسلامية الاولى هي ان يقام في مركزها المسجد الجامع ودار الامارة وبيت المال ثم تبنى المنازل حولها ، وهذا ما سار عليه المنصور ، ولكن الفكرة الجديدة في تخطيط بغداد هو ان يتساوى البعد بين المركز الذي فيه قصر الخلافة وبين جميع اطراف المدينة ، وهذا ما لم يحدث قبل بغداد . والناحية الثانية هي اننا لم نلاحظ في غير مدينة بغداد ان انبثقت من مركزها طرق مستقيمة ممتدة الى الاطراف . والناحية الثالثة هي تقسيمها الى اربعة اقسام متساوية بين كل واحد منها وآخر صفا من الطاقات تمتد من وسط المدينة الى المداخل الاربعة في سورها ، وكل قسم منها قائم بذاته تتناسق فيه الشوارع والدروب والمنازل وهذا مما لم يراعى في اية مدينة اخرى . والناحية الرابعة في مبتكرات تخطيط بغداد هسي اكتفاء كل قسم من اقسامها الاربعة اكتفاء ذاتيا ، حيث المساجد والحمامات في كل ناحية ومحلة ، كما ويوجد سوق تجمع التجارات فيها (٤) .

بنى الخليفة المنصور المسجد الجامع في وسط المدينة المدورة وكان بسيط البناء ، حيث استعمل في بنائه اللبن والطين واساطين الخشب . والى جوار

(٢) انظر عن ذلك : يعقوبي : البلدان (العراق - ١٩٥٧) ص ٦ .

الطبري : تاريخ الرسل والملوك (لبنان - ١٩٦٤) ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٩ .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (القاهرة - ١٩٢١) ج ١ ص ٦٦ - ٦٧ .

البلاذري : فتوح البلدان (لبنان - ٨٦٦) ص ٢٨٧ . دائرة المعارف الاسلامية : مادة بغداد (طبعة سنة ١٩٢٢)

(٣) شاهلي : المرجع السابق ص ١٨٣ . فكري (الدكتور احمد) : اهمية تخطيط بغداد في تاريخ البلديات ، مجلة الاعلام (بغداد) ج ١ (ايلول - ١٩٦٤) ص ١٠٠ .

(٤) فكري : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٧ .

جدارية متنوعة منها جصية ومنها بالالوان المائية ومنها بالواح القاشاني ومنها باحجار المرمر والرخام .

شاركت عوامل كثيرة في خراب واندثار الابنية لكثرة المشهوره التي اقيمت في بغداد خلال العصر العباسي ، ولم يبق غير قليل منها يرجع تاريخها الى الفترة المتأخرة من العصر العباسي أي الى حوالي القرن السادس والسابع بعد الهجرة (القرن الثاني عشر والثالث عشر بعد الميلاد) ، وهذا العدد القليل هو الآخر لم يسلم من يد الاعتداء والتجاوز وعوامل التخريب والتشويه ، على ان العناية والرعاية قد تداركت ذلك فبذلت جهود كبيرة من اجل المحافظة عليها وترميمها وصيانتها بما يكفل محافظتها على صورتها الاصلية .

ان اقدم الابنية العباسية القائمة ببغداد هو احد مداخل سور الجانب الشرقي ويعرف باسم « باب الظفرية » ومن المعلوم ان هذا السور بني في عهد الخليفة المسترشد بالله الذي حكم في الفترة بين سنة ٥١٢-٥٢٩ هجرية (١١١٨-١١٣٥) ميلادية(١١) . وهو عبارة عن برج اسطواني الشكل ضخم ومرمق متصل به منطرتان احدهما تربطه بالمدينة والثانية تربطه بخارج المدينة ، وقد فتحت في جوانب الجدران واعاليها مزائل للرمية ، هذا وزينت واجهة المدخل المطلة على المدينة بزخارف هندسية ونباتية ينمسا احاط بالبرج من الخارج شريط من كتابة تذكارية ، ان هذا المدخل يعتبر خير نموذج للمداخل المنحنية التي استخدمت في مدينة النصور المدورة والتي فقدت آثارها ومعالمها الان .

ومن الاثار التي تعود الى العصر العباسي ثلاث مآذن كانت تابعة لمساجد مشيدة بجوارها ، واقدمها مؤذنة مسجد الحظائر (يعرف حاليا جامع الخفافين) الذي شييد من قبل زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاه سنة ٥٩٩ هجرية (١٢٠٢ ميلادية)(١٢) ، وقوامها قاعدة مثمثة يعلوها بدن اسطواني الشكل ينتهي بمقرنصات تحمل شرفة لوقوف المؤذن ، ويقوم فوقها عنق المؤذنة وهو اسطواني الشكل كذلك لكنه يقل عن البدن في قطره وطوله ، ثم تنتهي المؤذنة في اعلاها براس مديب او

هذا المسجد بنى المنصور قصره المعروف بقصر باب الذهب او قصر القبة الخضراء حيث اقيم فيه ايوان كبير مرتفع تعلوه قبة على راسها تمثال فارس بيده رمح(٥) ، ومن المحتمل ان تكون هذه القبة قد كسيت بالواح القاشاني الاخضر او الاجر المزجج باللون الاخضر فاصبحت توصف بذلك .

توسعت بغداد حتى عبرت الى الجانب الاخر من نهر دجلة فسمي الجانب الغربي منها « الكرخ » واطلق على الجانب الشرقي اسم « الرصافة » وازدهرت المدينة بجانيها ، وبنيت فيها قصور وابنية كثيرة ذكرت اسماءها المراجع العربية ولكنها اغفلت وصف عمارتها وزخارفها . على انه وصلنا وصف موجز عن بعضها . وفي قصص الف ليلة وليلة اشارات عديدة عن بعض القصور الفخمة التي زينت جدرانها وسقفها بزخارف ذهبية وملونة والتصاوير المتنوعة(٦) . واشارات، بعض الكتب الادبية السى مجلس انشاء الخليفة الامين ابن هرون الرشيد كان فيه ايوان صورت فيه التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وابوابه ، وجعل كالبيضة بياضا(٧) . وذكر ايضا ان قصر المعتصم ببغداد كان له ايوان منقوش بالفسيفساء وفي صدره صورة عنقاء(٨) . كما وذكر ان احد الاغنياء بنى دارا زينت بالنقوش والصور الذهبية والكتابات التذكارية(٩) ، وأشار الرحالة الى قصر الخليفة المستنجد بالله الذي كان واسع الارحاء فيه الرخام والاساطين المزوقة بالذهب والزينة بالحجارة النادرة والمنقوشة بالريازة البدعة تكسو الحيطان(١٠) .

ان هذه الامثلة القليلة التي اوردها المراجع القديمة تدل على ان الخلفاء والاثرياء من الناس قد تفننوا في بناء العمائر والقصور الفخمة من حيث البناء والزخرفة . وتدل ايضا على استعمال زخارف

- (٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .
- (٦) الف ليلة وليلة ، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة الصديقي (مصر - يولاي ١٢٧٩ هجرية) ج ١ ص ٢٠٢ ، ٢١٤ .
- (٧) ابن المعتز : طبقات الشعراء (القاهرة - ١٩٥٦) ص ٢٠٩ .
- (٨) المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (مصر ١٢٤٢ هجرية) ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
- الصنكري : الصناعتين : الكتابة والشعر (مصر - الطبعة الثانية) ص ٤١٨ - ٤١٩ .
- (٩) ابن الجوزي : المنتظم (حيدر آباد - ١٢٥٧ هجرية) ج ١٠ ص ٨٠ - ٨٢ .
- (١٠) بنيامين : الرحلة (بغداد - ١٩٤٥) ص ١٢١ - ١٢٢ .

- (١١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٥ . ابن الجوزي : مناقب بغداد (بغداد - ١٢٤٢ هجرية) ص ١٧ .
- ابن الاثير : الكامل في التاريخ (ليدين - ١٨٧٠) حوادث سنة ٤٨٨ ، ٥١٧ .
- (١٢) جواد (الدكتور مصطفى) : عمارات القرن السادس المصغمة ، مجلة سومر ٢ م (١٩٤٦) ج ١ ص ٥٢-٥٣

قمة تشبه القبة الصغيرة . وهذه المئذنة تمتاز بتناسق اقسامها واجزاؤها تناسقا بديما يدل على ذوق رفيع وبراعة في بناء المآذن مما جعلها تترك اثرا بالغا في طراز المآذن البغدادية عموما . والمئذنة الثانية تقع في مسجد الجنائز المعروف حاليا جامع الشيخ معروف وقد كتب عليها تاريخ بنائها في سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ ميلادية) وهي تشبه سابقتها مع اختلاف قليل في شكل المقرنصات وزخارفها اما المئذنة الثالثة فهي مئذنة مسجد قمرية الذي بناه الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٦ هجرية (١٢٢٨ م) (١٣) وهي تختلف عن سابقتها من حيث ارتكازها على قاعدة مربعة ووجود بدن اسطواني ضخم فوقها وبساطة مقرنصات شرفتها ونحافة عنقها بشكل يوحي الى انها قد تعرضت لاصلاحات وترميمات عديدة .

ومن العمارات العباسية التي بنيت خلال فترة نفوذ السلاجقة ابنية التي تقام بجوار اضرحة العلماء والاولياء واصحاب النفوذ والسلطان . ويوجد مثال عن ذلك في بغداد ينسب الى زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله وعرفت تسميته حاليا بالست زبيدة زوجة هارون الرشيد وهذا ما لا تؤيده الشواهد التاريخية والادلة الاثرية وعناصر البناء وشكله (١٤) . والبنية المذكورة عبارة عن حجرة صغيرة مئمنة الاضلاع يقع مدخلها في احد اضلاعها ، ويقوم فوقها قبة مخروطية مقرنصة الشكل ويصل الارتفاع لكلي لها حوالي (١٣) مترا ، وسطوح الجدران من الداخل مغطاة بالجص بينما من الخارج تظهر مزينة باشكال عقود مدببة تعلوها مساحات مزخرفة بالاجر .

وتوجد في بغداد بناية تعرف حاليا بالقصر العباسي تعتبر من روائع التراث العربي الاسلامي في العمارة والزخرفة ، ورغم ان تاريخها وحقيقتها غير معروفين تماما الا انه يوجد رايان بارزان عنها احدهما يقول بانها « دار السنة » التي بناها الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٦ - ٥٨٠ هجرية = ١١٨٠-١١٨٤ ميلادية) والراي الاخر يرى بانها « المدرسة الشرايية » التي بنيت في حدود سنة ٦٢٨ هجرية (١٢٣٠ ميلادية) (١٥) ورغم عدم التوصل

(١٢) ابن الفوطي : العوادم الجامعة (بغداد - ١٢٥١ هجرية) ص ٤ ، ١٨٨ ، ٢٩٦ .

(١٤) جواد (الدكتور مصطفى) العمارات الاسلامية ، مجلة سومر ٢ (١٩٤٧) ج ١ ص ٢٨ وما بعدها .

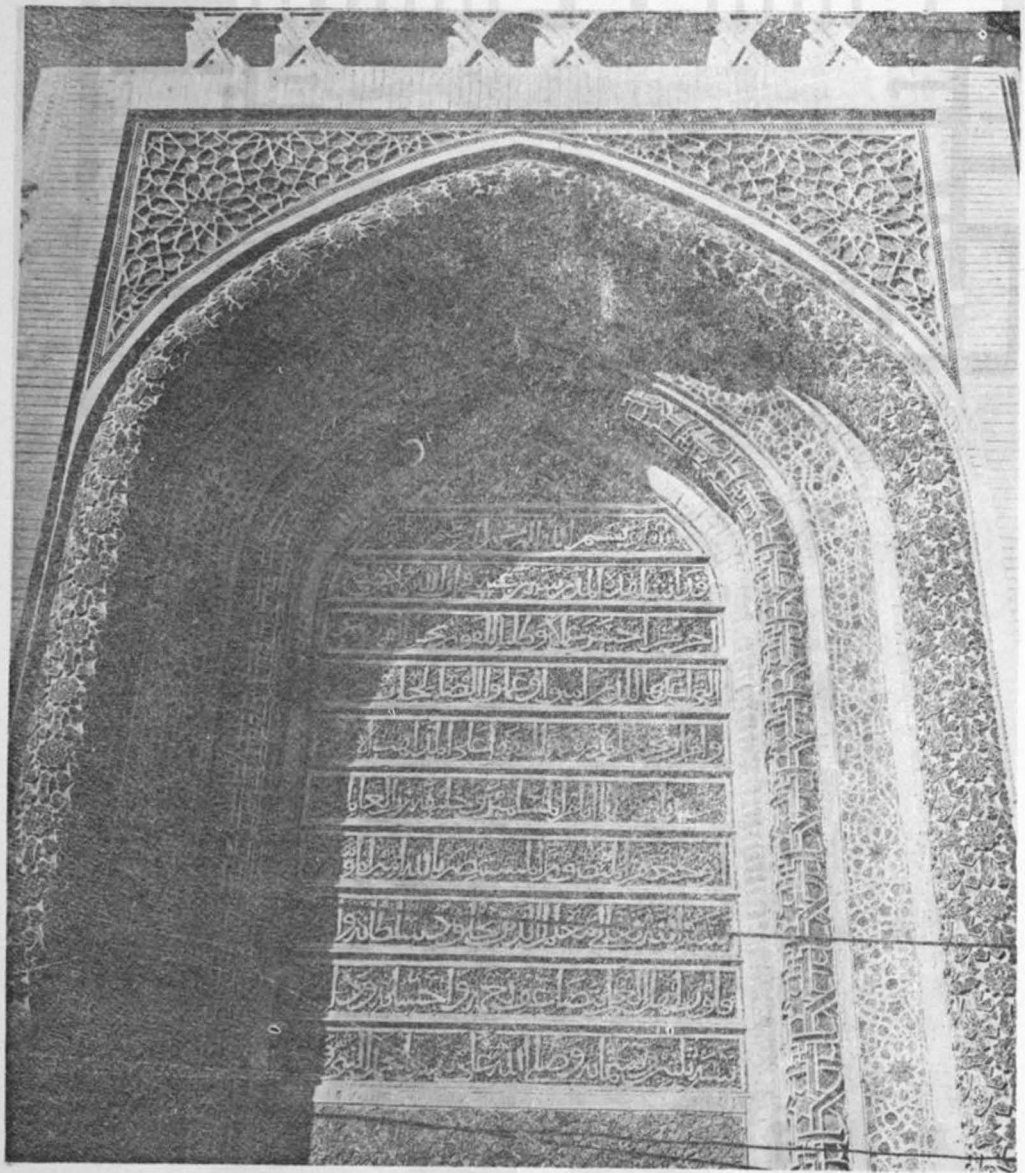
(١٥) مديرية الآثار القديمة (العراق) : بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد (بغداد - ١٩٣٥) ص ١ - ٢١ ، ٣٠-٣٢ .

الى نص صريح او ادلة قطعية الا ان الراي الاخير الذي يعتمد على وجود تشابه كبير بين هذه البناية وبين المدارس الاسلامية عامة والعباسية القائمة ببغداد مثل المستنصرية من حيث التخطيط والعمارته والشكل العام والمعزز كذلك بالشواهد التاريخية كل ذلك يجعله مرجحا على غيره . والبنية المذكورة عبارة عن مجموعة من الحجرات ذات طابقين تطل على ساحة مكشوفة في جانب منها بين الحجرات ايوان كبير يقابله مسجد ويقع خلف الحجرات رواق يتقدم قاعات كبيرة مرتفعة ويقع مدخل البناية في الضلع الجنوبي الغربي حيث يؤدي الى ممر افقي طرف منه يؤدي الى القاعات الكبيرة والطرف الاخر المطلة على الصحن رواق مزخرف بمقرنصات بديمة التكوين والنقوش . كما زينت بواطن الايوان والممرات وبعض السقوف بزخارف هندسية ونباتية .

وخير مثال للعمارة العباسية نجده في المدرسة المستنصرية التي شيدها الخليفة المستنصر بالله في سنة ٦٢٥ هجرية (١٢٢٧ ميلادية) واستغرق بناؤها ستة اعوام (١٦) . وهي تتكون من ساحة وسطية مستطيلة الشكل في جهتها الشرقية مدخل له واجهة شاهقة مزخرفة ويبرز في بنائه عن جدران البناية بينما يطل على الساحة بما يشبه الايوان الكبير ، ويحيط بالساحة الوسطية حجرات وغرف من طابقين ، وعلى طرفي الساحة ايوانان كبيران متقابلان ويقابل المدخل مسجد صغير ، وفي الجانب الجنوبي توجد قاعات كبيرة للدرس يتقدمها رواق مرتفع . وكانت في الجانب الشمالي من البناية من الخارج دار القرآن بقي منها ايوانها فقط . هذا وزخرفت جميع الواجهات وبواطن الايوانين بزخارف هندسية بديمة تتخللها العناصر الزخرفية النباتية بينما يمتد في اعالي الجدران من الخارج شريط زخرفي من كتابات بعمارتها وزخارفها موضع اعجاب من زارها من تذكارية وتاريخية . وقد كانت هذه البناية الرحالة والمؤرخين خلال تاريخها الطويل .

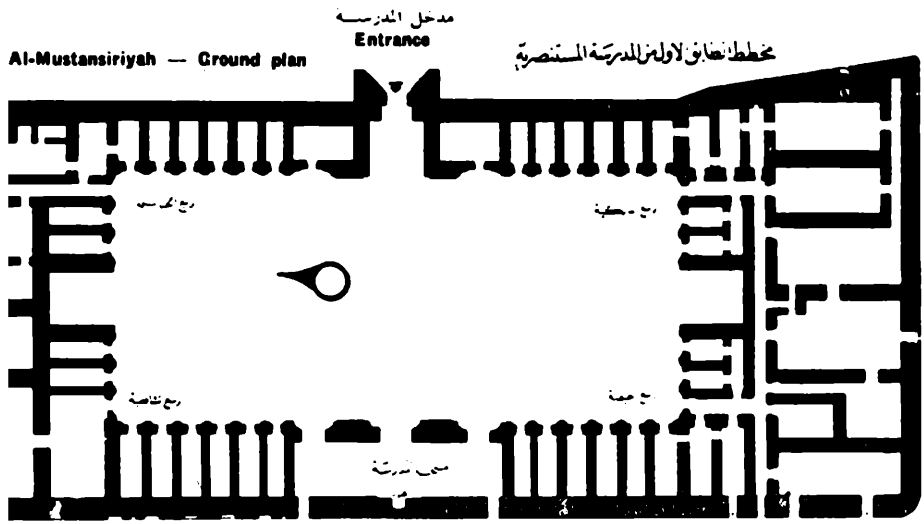
جواد (الدكتور مصطفى) : القصر العباسي ببغداد ، مجلة سومر (١٩٤٥) ج ٢ ص ٦٥ - ٨٦ .
ناجي معروف : المدارس الشرايية (بغداد - ١٩٦٥) ص ١٥٢ - ١٨٦ .

(١٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (حيدر آباد - ١٩٥٢) ج ٨ ص ٧٢٩ . ابن السامي : مختصر اخبار خلفاء (مصر ١٢٠٩ هـ) ص ١٢٢ . ابن الفوطي : العوادم الجامعة ص ٥٢ . السيوطي : تاريخ خلفاء مصر (١٩٥٢) ص ٤٦٢ .

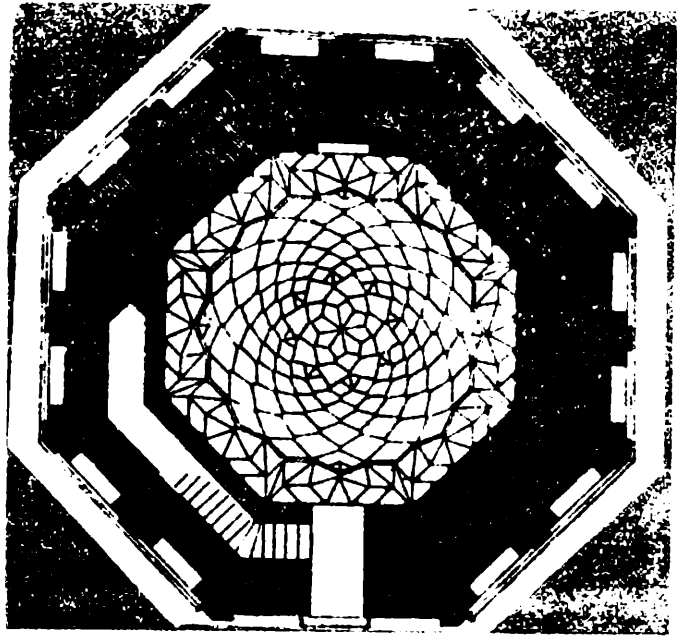


واجهة مدخل بناية المدرسة المستنصرية

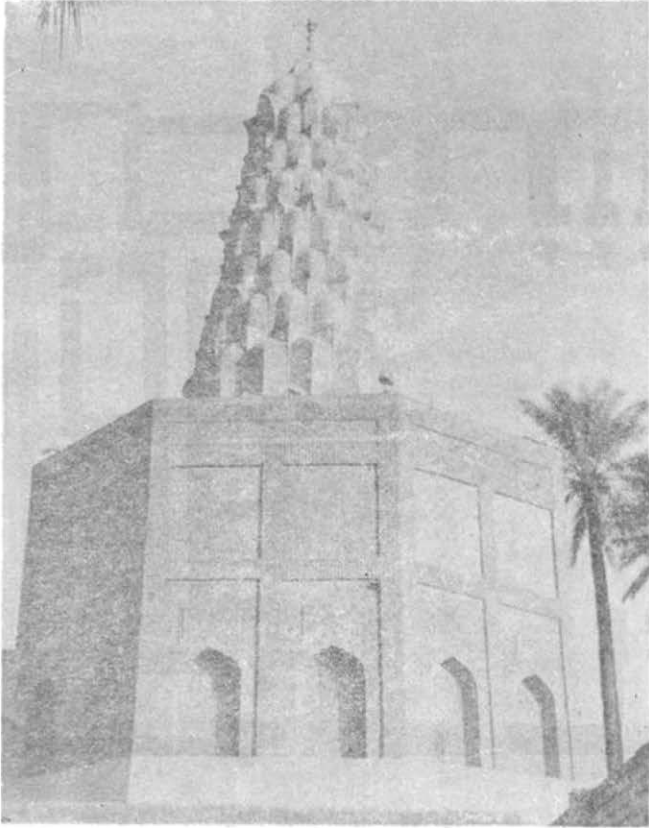
من عمارت محمد بن طاهر



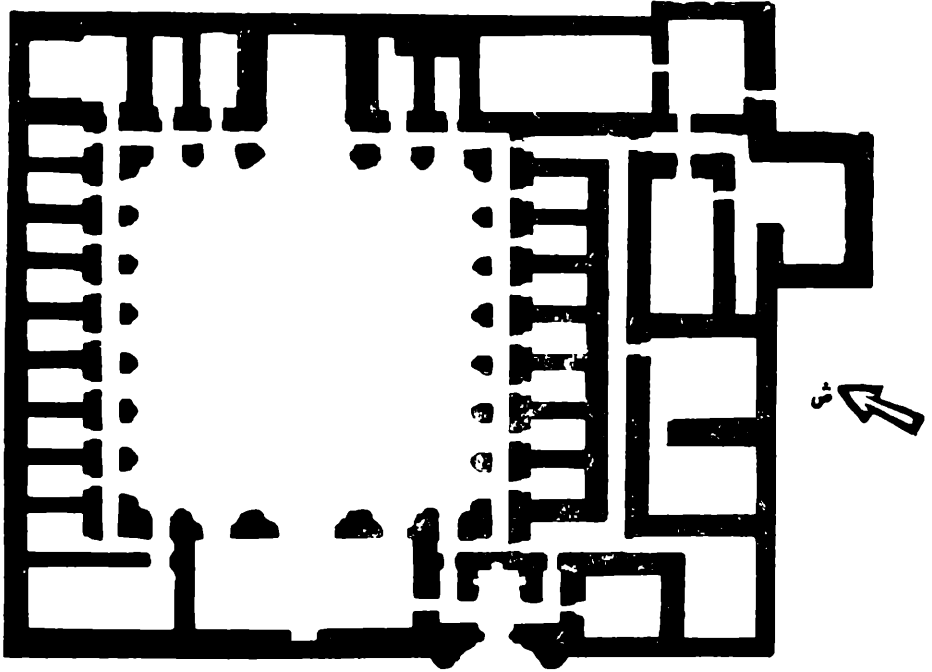
مخطط بناية المدرسة المستنصرية



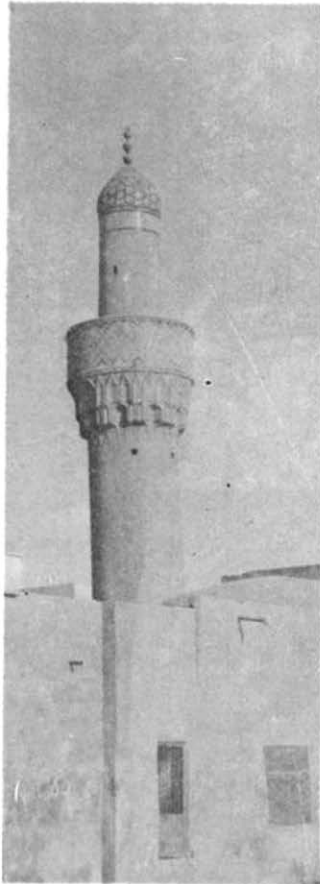
مخطط مشهد زمرد خاتون



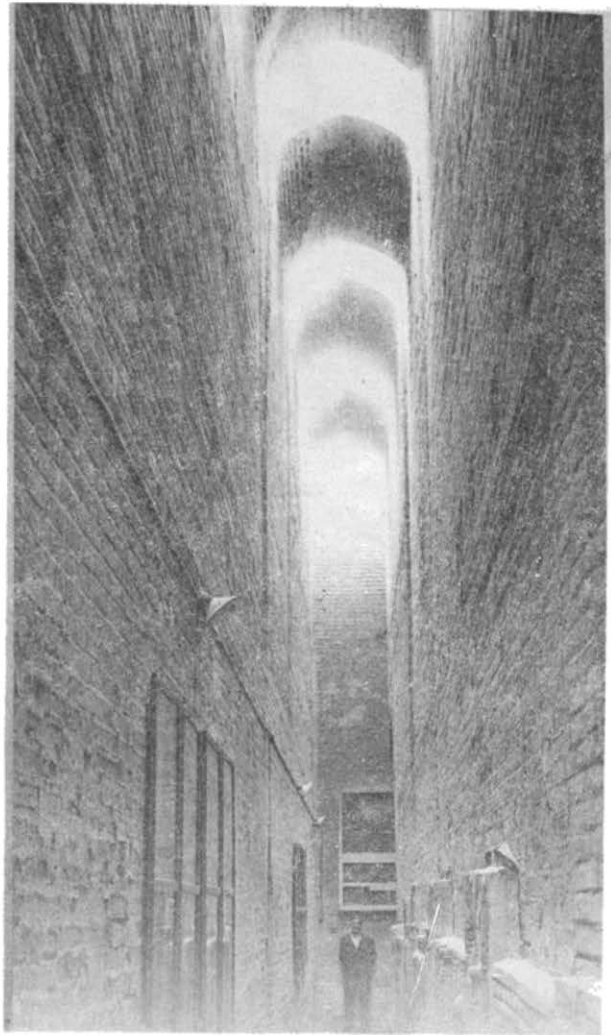
مشهد زمرد خالون



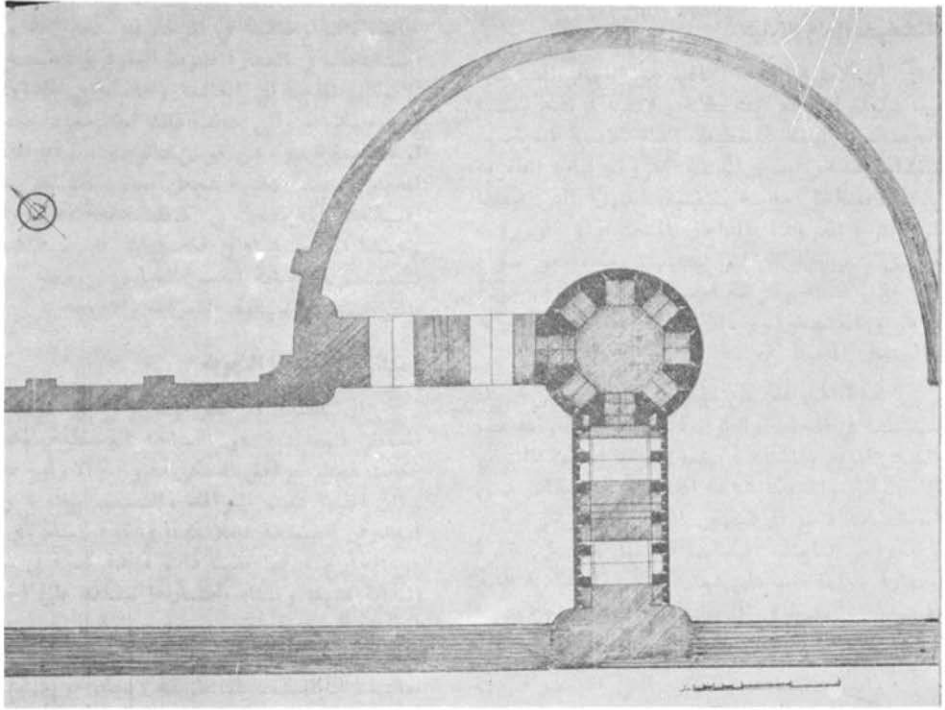
مخطط بناية القصر العباسي



مشكاة مسجد الخطائر
[جامع الخفانين]



الرواق في بناء القصر العباسي



مخطط بناية باب الظفرية في سور بغداد الشرقية



عمود ومقرنصات المر المظل على ساحة بناية
القصر المباسي

جانب ذلك وخاصة في الزخارف الجدارية . وقد استخدمت في العمارة عموما العقود ولابنية ذات الاشكال المديبة في الغالب وخاصة في المداخل والواجهات ، والى جانب ذلك نجد عقودا متعددة او مقوسة (جزء من قوس دائرة) . وقد تفنن البعارة في بناء الابنية فجعل بعض السقوف ذات ابنية متقاطعة فتحت في رسطها فتحة الضوء والهواء وهذا ما وجدناه في قاعات ادرس الكبيرة في المستنصرية وبنية القصر العباسي . وقد استعين بالمقرنات في تسقيف الممرات والاروقة .

رسائل الاضاءة والتهوية

ان المصدر الرئيس للضوء والهواء في مختلف العمائر البغدادية هو الساحة الوسطية المكشوفة فكانت معظم مرافق السكن مفروحة الابواب عليها . وكان اغلبها عديم النوافذ والشبابيك . وكانت الجدران الضخمة عاملا مهما في دودة البناء وفي عزله عن الخارج . كما كانت ذات فائدة كبيرة في تحييف البنية صيفا وشتاء باعتبارها تساعد على احتفاظ المرافق السكنية بحدود درجة حرارة ثابتة شريفا وتكون عازلا لها عن الظروف المناخية القاسية . والى جانب ذلك استخدمت طريقة لاجاد جو مناسب في القاعات الكبيرة حيث اقيم رواق مرتفع لنباء في اعلاه نوافذ تفتح صيفا فيصبح الهواء المار خلالها لطيفا قبل وصوله الى تلك القاعات والحجرات الموجودة عنده .

الزخارف والنقوش

اوضحت لنا الامثلة القائدة ان البعارة البغدادية لم تخلو من الزخرفة كما ان المراجع التاريخية والادبية فيها الكثير من الاسارات عن الزخارف المتنوعة التي كانت تزور الابنية العباسية ببغداد . والذالك لاجر فد لمب درزا كبيرا في زخرفة العمائر التي وصلتنا ، فان الجص والواح الرخام والمرمر والقراميد (القاشاني) كان لها دور في ذلك ايضا .

ن لاجر مادة بسول تقطيعها وتهذيبها ونحتها ونقش العناصر الزخرفية عليها ومن خصائصه كذلك مقاومه ودوامه مدة طويلة . ومن خلال الزخارف التي وصلتنا تميز ثلاث طرق اتبعت في نونها :

١ - تصفيف قطع الاجر باوضاع مختلفة يبرز بعضها عن سطح الجدار مما يكون زخرفه تشبه في شكلها العام حياكة الحصر لذلك سميت الزخرفة الحصرية .

ان الامثلة القليلة الباقية من العمائر العباسية وما ذكرته المراجع التاريخية ولادبية توضح لنا الخصائص الهمة للتخطيط العام للابنية العباسية ببغداد فمدخل سور المدينة المعروف بباب الظفرية يذكرنا بمدخل مدينة منصور الدورية التي جعلها من النوع المعروف بالمداخل المنحنية او الزوردة ، والذي يتميز بكونه اكثر تحصينا ومناعة من سواه من خلال شكله وطرفه اجنازه والموتق الوجوده في طرق المنحنيين ووسائل الدفاع القائمة في جدرانه والخندق المحيط به .

اما الماذن فان من مزاياها تقسيمها الى جزء متناسقة في الحجم والطول . فاستخدم لغاؤها الشكل المربع والمضلع . بينما تميزت ابدانها بالشكل لا بطوائى واقامت شرفة الماذن فوق طبقات من المداخل ذات الوظائف المعمارية والزخرفية . وقد روعي تناسب اقسامها تناسباً يدل على خبرة ومهارة . كما غلب على عمارة الماذن البغدادية طابع البساطة والهدوء في التخطيط والمظهر العام مما جعلها نموذجاً يحذى به حتى الوقت الحاضر .

وابنية المشاهد والقباب التي اقيمت فوق الاضحة التي وصلنا مثال عنها تتميز باقامة حجرة مضلعة فوقها قبة مقرنسة ذات شكل مخروطي يساعد على ارتفاعها في الفضاء ارتفاعاً شاهقاً رغم المساحة الصغيرة التي بنيت فوقها مما يجعلها مميزة بارزة .

اما بالنسبة للمدارس فان الساحة الوسطية المكشوفة هي التي تزود بالحجرات والرف المحيطة بها بالضوء والهواء النقي كما انها تستخدم احياناً الصلاة في ايام الجمعة والعيد عندما لا يتسع مسجد المدينة الضيق الى جموع المصلين . واقامت في المدارس قاعات كبيرة للدرس تقع في جانب منها استخدمت الاواوين فيها الاستراحة او التدريس احياناً . وبنيت لهذه العمائر مدخل ذات واجهات مزخرفة وبارزة عن البنية ربما لتكديس البازرسة الهمة وتمزها من العمائر .

الماء والتسقيف

استعمل الاجر كمادة رئيسية في البناء والزخرفة في جميع العمائر العباسية القائمة لامكان الحصول عليه بسهولة وتوفر المادة اليرابية الجيدة التي يصنع منها في منطقة بغداد وما جاورها . على ان المراجع العربية تشير الى استخدام الاحجار والجص الى

العربي وسماه الاجانب باسم الارابيسك
(Arabeque) (١٧) .

ومن الزخارف المهمة عنصر المقرنصات الذي كانت وظيفته عمارية فاصبح يؤدي دورا زخرفيا كذلك ، وظهر بازهى اشكاله في بناية القصر العباسي والمقرنصات تتكون من مجموعة من قطع الاجر تختلف في شكلها وحجمها وتندرج في طبقات او صفوف من حنايا وكتل بارزة تنتهي باشكال نجمية او قسباب مضلعة صغيرة ، ومما زاد في رونقها وبهائها تزيين بواطنها بالعناصر النباتية .

واستخدمت الكتابات التذكارية كمصدر من العناصر الزخرفية حيث زينت بها الواجهات بشكل اشربة وحقول تمتد في اعلى الجدران او في مداخل العمارن وقد انجزت هذه الكتابات بطريقتين : تارة ذات حروف بارزة كبيرة كل حرف من كلماتها يتكون من عدة قطع من الاجر ، وتارة اخرى تظهر الحروف بارزة فوق مهاد من زخارف نباتية قوامها اغصان وفروع مورقة تملأ الفراغات الموجودة بين الحروف .

ان تلك المزاي والخصائص التي نلاحظها في العمارة العباسية ببغداد تدل على الجهود الكبيرة المبذولة من قبل المعمار والفنان خلال تلك الفترة التاريخية ، وتوضح لنا مدى الخبرة والمهارة في هذا المضمار ، وكذلك تبين لنا المسالحة الطميمة والموضوعية لتقلبات الجو والمناخ في القطر ، وفي ذلك ايضا توضيح لجانب من حضارتنا وترائنا المتميزة بالحوية والتجديد والابداع والالتقان ، مما يجعلها امثلة تستلهم منها الافكار .

(١٧) فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (مصر ١٩٦٥) ج ١ ص ١٧٦ - ١٩٠ . مرزوق (دكتور محمد عبدالعزيز) : الفن الاسلامي - تاريخه وخصائصه (١٩٦٥) ص ١٨٠ .

٢ - تقطيع الاجر الى اجزاء صغيرة ذات احجام واشكال تؤلف في مجموعها شكلا هندسيا ، وتكون تارة بارزة عن سطح الجدار ، او بمستوى سطح الجدار .

٣ - حفر الزخارف على سطوح قطع الاجر بحيث تظهر العناصر الزخرفية بارزة مجسمة وهذا يتمثل في العناصر النباتية بصورة خاصة .

اما بالنسبة للعناصر الزخرفية فاشهرها : الاشكال الهندسية ، الاشكال النباتية ، المقرنصات : الكتابات .

احتلت الاشكال الهندسية مكانة مرموقة حيث زينت بها معظم العمارن التي وصلتنا ، وقوامها الاطباق النجمية المتنوعة والمضلعات الهندسية . وهذه الاشكال الهندسية تعتمد في اساس تكوينها على الدائرة واقطارها التي تؤلف من تقاطعها والتقاطها الاشكال المطلوبة ، وهذا يدل على ازدهار علم الهندسة ومهارة الفنان ، ومما اضفى حيوية على تلك الزخارف هو تزيينها بالعناصر النباتية .

لمبت الزخارف النباتية دورا بارزا كذلك فقد زينت بها الاشربة والاطارات وارضيات الكتابات وبواطن الاشكال الهندسية والمقرنصات وكان العنصر الرئيس المستخدم فيها هو « المروحة النخيلية » المعروفة باسم (Palmette) ولكنه ظهر بانواع واشكال عديدة منها المفصصة والبيطة . وبصورة عامة تميزت العناصر النباتية بالتناظر والتقابل والتكرار بصورة توحى الى اتباع نظام خاص في مظهرها وتكوينها كما تميزت بظاهرة النمو والامتداد . وهذا النوع من الزخرفة اثار اهتمام الباحثين نظرا لما كان يشاهد في جميع المجالات الفنية وعلى مختلف النحف والاثار فاطلق عليه الباحثون اسم الزخرفة العربية او زخرفة التورق

خانات بغداد

من القرن التاسع وحتى مطلع القرن العشرين

بقلم

بوهان نوري محمد علي المتياح

كلية التربية - جامعة بغداد

بصورة عامة ، وذلك عندما غزاها الأعمام من الفرس والترك ، وما رافق هذا الغزو من عوامل الدمار والتخريب نتيجة الحروب والتي راح ضحيتها الكثير من الأبرياء ، إضافة إلى ما سببته الفيضانات من أوبئة وأمراض وفزع وغلاء في المواد الاقتصادية ، وكانت هذه العوامل أيضاً قد عجلت في زوال واندثار الكثير من المعالم العمرانية والثقافية لمدينة بغداد .

ورغم ذلك فقد ظلت مكانة وأهمية مدينة بغداد تحتل مركز الصدارة بين المدن الإسلامية الأخرى ، لكونها حلقة وصل تربط بين المدن والحواضر في داخل العراق وخارجه ، مما تركز فيها عدد من الخانات الكبيرة منها والصغيرة لتؤدي خدمات أكبر للتجار والمسافرين والزائرين .

إن خانات بغداد - مع الأسف - لم تحظ من قبل الباحثين بدراسة مستفيضة ، كما لم يذكر المؤرخون أشياء يعتمد بها عن هذه الخانات ، واقتصر الأمر على بعض المعلومات البسيطة التي وردت في كتب الرحالة الأجانب ممن مروا بها ، وربما يعود ذلك إلى أنهم كانوا يعنون في مؤلفاتهم بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أو يرون أن الأمور المتعلقة بالجانب العماري والهندسي غير ذات أهمية ولاهم لا يسوا باختصاصيين فيها . ومن هذه الكتب « العراق في القرن السابع عشر » لـ

المقدمة

مدينة بغداد ، هذه الحاضرة العربية العريقة في حضارتها وثقافتها ، والغنية بآثارها وفنونها ومواردها ، يمكن أن نعدّها بحق من أعظم مدن العالم في القرون الوسطى ، لما خلّدت لنا من آثار مادية وفكرية وفنية ، جعلتها تفوق شهرتها - وخاصة في العصر العباسي - شهرة مدن دمشق والقاهرة وقرطبة والقسطنطينية .

ونظراً للتوسع العمراني الذي شهدته هذه المدينة في العصر المذكور آنفاً ، ونتيجة لما حصل لها من التقدم والازدهار والذي شمل جميع مرافق الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والمثقلة في بناء المدارس والجامعات والمكتبات والمساجد والمراسد الفلكية وبناء المدن والقصور والمستشفيات وشق الترع والأنهار وإقامة القناطر المائية والجسور والبرك وتشيد الخانات والحمامات وحلبات الخيل ... الخ ، مما جعلها أن تتبوأ مركزاً مرموقاً من التوسع والتنظيم لم تبلغه المدن التي شيدت قبلها أو بعدها .

وقد ظلت مدينة بغداد محتفظة بهذا المركز المرموق حتى الربع الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، حيث أصابها ما أدى إلى تدهور أحوالها صورة خاصة وأحوال العراق

« تأمريه » و « رحلة ابي طاب خان الى العراق واوربة سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٩م » و « رحلة نيبور الى انصراق في القرن الثامن عشر » و « رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦م » لـ « بكنفهام » و « رحلة ريج الى العراق سنة ١٨٢٠م » و « رحلة المنشء البغدادي » انذي كتبها عام ١٨٢٢م و « رحلات الى العراق » لـ « بدج » (١) .

واقترنت هذه المعلومات على إشارات عابرة ومختصرة ذات صبغة تاريخية خائبة من التخطيطات والتحليلات الضرورية التي تتطلبها اندراسات الأثرية العلمية (٢) .

ونظرا لندرة المصادر وما كتب عن الخانات التي سُمها البحث فقد تطلب الأمر منا القيام بدراسة الخان من الناحية اللغوية والتاريخية ونشأة خانات بغداد قديماً وحديثاً كخطوة أولى على انطريق للكشف عن جانب من تراثنا العماري واحضاري العظيمين .

تأصل اللغوي لكلمة الخان :

اجمعت معظم مصادر اللغويين والمؤرخين اقدمية منها والحديثة على ان لفظة « خان » فارسية معربة (٣) ، ومن المرجح انها اشتقت من

(١) المباح ، (برهان نزر محمد علي) ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، صفحات ٥ - ٦ ، رسالة ماجستير مطبوعة على آلة الطابعة ومقدمة الى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد ، ١٩٧٦م .
(٢) المباح ، نفس المصدر ، ص ٦ .

(٣) العسكري ، (ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن مهران اللغوي) ، كتاب التلخيص في معرفة اسماء الانبياء ، غني بتحقيقه د. عزة حسن ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، مطبعة الترمي ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ، (١٢٨٩هـ/١٩٦٩م) .

- ابن سيده ، (علي بن اسماعيل) ، الحكم والمحيط الاطلم في اللغة ، تحقيق د. مراد كامل ، ج ٦ ، ص ٣٩٠ ، الطبعة الاولى ، مصر ، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .

- ياقوت الحموي ، (شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي) ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٤١ ، بيروت ، (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) .

- ابن منظور ، (ابو الفصّل جمال الدين بن مكرم بن منظور الافريقي المصري) ، لسان العرب ، مجلد ١٢ ، ص ١٤٦ ، بيروت ، (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .

- الزبيدي ، (محب الدين ابي الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي) ، تاج السروس من جواهر القاموس ، مجلد ٩ ، ص

الكلمات الفارسية « خانه » (٤) او « خانه » (٥) او « خاناه » (٦) ، والتي تغطي جميعها معنى البيت (٧) ، او الموضع (٨) ، اضافة الى معانٍ اخرى (٩) .

وذهب عدد من الباحثين الى أن كلمة خان هي تحريف لكلمة حانوت الآرامية المشتقة من

١٩٤ ، الطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية ، مصر ، (١٣٠٦هـ) .

- بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩ ، بيروت ، (١٨٧٠م) .

- احمد رضا ، معجم متن اللغة ، مجلد ٤ ، صفحات ٤٥٤ - ٤٥٥ ، بيروت ، (١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) .

(٤) ادي شير ، كتاب الالفاظ الفارسية العربية ، ص ٥٨ ، الطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، (١٩٠٨م) .

(٥) اللباني ، (طوبيا العيسى الحلبي) ، كتاب تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر اصلها بحروفه ، غني بنشره وتصحيحه والتعليق على حواشيه الشيخ يوسف توما البستاني ، ص ٢٤ ، الطبعة الثانية ، مصر ، (١٩٢٢م) .

(٦) والجدير ذكره هنا ان هذه الكلمة استعملت مقرونة باسماء البيوت والاقاب السلطانية في زمن المالك بصر فمثلا يقال (السلاح خاناه) و (الشراب خاناه) و (الطشت خاناه) ، اي بمعنى البيت والكان ، كبيت السلاح او مكان السلاح ... الخ . انظر : احمد رضا ، المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٢ ، بيروت ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) .

(٧) ادي شير ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .
- النبرزي ، (محمد حسين بن خلف) ، برهان فاطح ، تصحيح وانمام محمد عباس ، ص ١٦ ، ممرماه يكهزار وسيصودي ونش ، جاب بيروت مؤسسة مطبوعات امير كبير .

- اللباني ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- ابوار ، « مادة خان » ، دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة احمد الشنتناوي واخرون ، مجلد ٨ ، ص ٢١١ ، (بدون مكان وسنة الطبع) .

- احمد رضا ، المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٢ .
(٨) وكلمة (خانه) كما ذكرناها سابقا تعني البيت او الموضع سواء اكان هذا البيت او غيره للسكن او لراحة المسافرين او للتجار ، وعلى هذا الاعتبار اشتقت منها الكلمة (خان) ، حيث ان الهاء في الاولى للنسبة او للتصغير .

(٩) د. حسين محفوظ ، حديث شخصي ، (١٩٧٥م) .
وفي بلاد فارس تعني كلمة « خانه » ايضا المربع في رقعة الشطرنج .

(ابوار ، « مادة خان » ، دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ٨ ، ص ٢١١) ويذكر ان من معانيها كذلك المرتبة في الامور الحسائية ، والفتحة التي يرفع بها الصوت والمستعملة عند الواسيقين ، وتدل ايضا على الشطر من الولايات . (بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩) .

كلمة (حنه) العبرانية والتي من معانيها خيمَ
وأقامَ ونزلَ وحلَّ (١٠٠) .

وورد أيضا ان نغظة خان مرادفة للكلمة
(قيروان سراي) التركية الأصل او (كرقان سراي
Caravansary or Caravanseria) والتي تعني
النزل والخان والفندق . وذلك برغم اختلافها في
المفهوم (١١١) . وتعني كلمة (خان) أيضا منزل
المسافرين على ما هو معروف في اللغة العربية (١١٢) .
ومن جيمة ما ورد عن اصل الكلمة عو ان كلمة
خان ما هي إلا اختصار لكلمة (قاتغان) والتي
تلفظ بالعربية (خاقان) فيما إذا وردت مرادفة
لقلب من الألقاب (١١٣) .

واختلف الباحثون في اصل الكلمة إذ ان
بعضهم يراه فارسيًا - برتيا و انه تتريا (١٥٠) او
ترتيا بالأصل فلفظ (١١٦) . كما ان بعضهم يراه عربيًا
فارسيًا (١١٧) ويمكن القول ان اصل كلمة (خان) ،
فارسي حوره العرب بالنقص او الزيادة او اللقب (١١٨)

معاني كلمة (خان) :-

ومنلما تعددت الآراء في اصل الكلمة (خان)
تعددت المعاني التي تشير إليها . فهي تعني
الحانوت (١١٩) . وربما جاءت من تشابه الاثنين في
الشيء ونوظيفة (١٢٠) . وتدل كلمة خان أيضا على
مالك الحانوت (١٢١) . كما تدل على المتجر (١٢٢) ،
ولكان الخاص بالتجار اي محل أقامتهم ،

(١٠) ادي شير ، الألفاظ الفارسية العربية ، ص ٥٨ .

- اللباني ، تفسير الألفاظ الدخيلة ، ص ٢٨ .

- رشيد عطية ، معجم عطية في العامي والدخيل ، ص
٥٥ ، دار الطباعة والنشر العربية ، سان باولو ،
برازيل ، (١٩٤٤) .

وما تجدر الإشارة إليه ان كلمة الحانوت تعني « بيت
الخمار » انظر : العسكري ، التلخيص ج ١ ، ص ١٦٩ ،
وهو المكان الذي يباع او يشرب فيه الخمر ، كما دلت
على بائع الخمر نفسه ، هذا ما ذكره بطرس البستاني
في مؤلفه « قطر المحيط » ج ١ ، ص ٥٩ . وعندما شاع
استعمال كلمة الخان اصبحت تعني أي مكان يباع فيه
السلع اي انها دلت على ما نسميه بـ « الدكان » انظر :
العسكري ، المصدر السابق ، واللباني ، المصدر
السابق .

(١١) Porter, R.K., Travels in Georgia, Per-
sia, Armenia, and Ancient Baby-
lonia, during the years, 1817-1820,
vol. 1, p. 209, London, (1822).

ومعرف (الخان) بلغة أهل خراسان بـ « تيمك »
ومعناها خان التجار . انظر : ياقوت الحموي ، معجم
البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٦٧ . وعلى هذا الأساس سمي
خان مرجان بأسم (التيم) وقد جاء هذا الاسم مدونا على
واجهة الدخيل الرئيس للخان ، وقد ذكر ان كلمة (تيم)
تعني نصف سرداب ، او تعني مكانا اوطا قليلا من مستوى
الطريق ، وبهذا تكون هذه الكلمة (تيم) عمارية
فارسية . انظر : (ناصر القتشيندي) ، « خان مرجان » ،
مجلة النفط ، ص ١٠ العدد ٦٧ ، السنة ١٩٥٧ .

(١٢) رشيد عطية ، معجم عطية في العامي والدخيل ، ص ٥٥ .

(١٣) بارلد ، « مادة خان » دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد
٨ ، ص ٢٠٤ . واستعملت كلمة (خان) لنشير الى لقب من
الألقاب المعروفة الأولى في العصر الإسلامي حوالي نهاية
القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، على السكة التي
ضربها الأبلغانيون غير انه لم يبين الفرق بين كلمة (قاتغان)
او (قان) والتي معناها الحاكم الأعلى ، وكلمة (خان)
التي تعني حاكم المدينة الا في العهد الفولبي . (بارلد ،

المصدر السابق) وذكر أيضا ان اول من لقب بكلمة
خان هو (جنكيزخان) ثم لقب بها اول ملوك العثمانيين
السلطان عثمان خان سنة ١٢٩٩/١٢٩٩م ، واستمر
هذا اللقب يطلق على رؤساء الدولة الصفوية في زمن
الشاها اسماعيل الصفوي وكذلك على رؤساء العشائر
الابرية . انظر : أحمد رضا ، معجم متن اللغة ،
مجلد ٢ ، ص ٣٦٢ .

(١٤) اللباني ، تفسير الألفاظ الدخيلة ، ص ٢٢ .

(١٥) بطرس البستاني ، « مادة خان » دائرة المعارف ، مجلد
٧ ، ص ٢٢٤ .

(١٦) يعقوب صروف وفارس نمر ، باب المسائل - « معنى خان »
مجلة النفط ص ٩٤٧ ، ج ١٠ ، مجلد ٢٦ ، السنة
١٩٥١ .

(١٧) رشيد عطية ، المصدر السابق .

(١٨) ابراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، اشرف
على طبعه عبدالسلام هارون ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، مصر ،
مطبعة القاهرة (١٩٢٨) / (١٩٦٠) .

(١٩) ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد ١٢ ، ص ١٤٦ .

- الزبيدي ، تاج العروس ، مجلد ٩ ، ص ١٩٤ .

- الفروز آبادي ، (مجد الدين محمد بن يعقوب) ،
القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ ، مطبعة
السعادة ، مصر ، (١٩٢٢) / (١٩١٣) .

- الثروتني ، (سيد بن عبدالله الخوري) ، اقرب
الموارد في فصيح العربية والشواهد ج ١ ، ص
٣١٠ ، مطبعة مرسلبي اليسوعية ، بيروت ،
(١٨٨٩) .

(٢٠) فقد وصف الرحالة ابن جبير دكاكين وحوايت احدي

مدن الشام بأنها تشبه الخانات والمخازن اتساعا .
انظر : ابن جبير ، (ابو الحسن محمد بن احمد) ،
رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٣ ، بيروت (١٣٨٤) / (١٩٦٤) .

(٢١) ابن منظور ، المصدر السابق .

- الزبيدي ، المصدر السابق .

- الفروز آبادي ، المصدر السابق .

(٢٢) ابراهيم مصطفى وآخرون ، المصدر السابق .

بالذكر أنه لم يفرق مؤرخو العصور الوسطى من العرب بين هذه المنشآت المعمارية ، إذ لم يجدوا بينها فروقاً واضحة ، بل وجدوها متشابهة من حيث التصميم والوظيفة التي تؤديها للمسافرين والتجار (٢٠) . وقد كتب القريري في هذا الموضوع واستنتج بأنه لا فرق يذكر بين تلك المنشآت المشار إليها (٢١) . ويذكر أن كلمة (الربيع) تعني أيضاً الخان أو الفندق (٢٢) .

النشأة التاريخية للخان : -

وفي هذا المجال اهدف الى تبيان فكرة نشأة الخان من حيث البداية الاولى للنشأة وبعض التطورات الحاصلة عليه ، أي التدرج في تنوع المرافق المضافة . ولما كانت المعلومات التي وردت عن نشأة الخان قليلة ، فاعتمدنا على ما هو متيسر في هذا المجال .

لقد اقيم في بلاد وادي الرافدين الكثير من الخانات ، وما بقى من هذه الخانات قليل بالنسبة الى ما ذكره الرحالة والمؤرخون ، بسبب تَهْدَمها واندثارها بفعل زوال بعض الاسباب التي انشأت من أجلها ، والعوامل الطبيعية ، كما يرجع أيضاً الى تفرق طرق المواصلات وابتعادها عنها ، إضافة الى ظهور وسائل النقل الحديثة ، واماكن اكثر راحة للمسافرين كالفنادق الحديثة مثلاً ، وإن

(٢٠) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، ص ٢٨٦ ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٣٩٢هـ/١٩٧٣م) .
- توفيق احمد عبدالجواد ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٢١) القريري ، (تقي الدين ابي العباس احمد بن علي) ، الواظف والاعتبار بذكر الخطط والاثار العرفية بالخط القريرية ، ج ٢ ، صفحات ٩٢ - ٩٤ ، طبعة جديدة بالأوفست ، مكتبة الشبي ، بغداد ، (بدون تاريخ) .

(٢٢) وعرفت (الربيع) في بلاد مصر لتؤدي نفس القرية الذي تؤديه الوكالة والخان والفندق ، ولأجل تحقيق رفاهية الصناع وصغار التجار فقد صممت على شكل طوابق متعددة ، كان الطابق الارضي يتكون من محلات وحواليات ومرافق اخرى ، أما الطوابق العليا فكانت تكون من شقق منفصلة مكونة كل شقة من حجرة او حجريين ومطبخ ودورة مياه لمالكات الصناع واصحاب هذه المحلات . ويبدو أن هنالك اختلافاً بين الوكالة والربيع والخان ، حيث أن الوكالة والربيع استخدمت للإقامة الثابتة ، أما الخان فللاقامة المؤقتة انظر : توفيق احمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

وتجارتهم (٢٣) ، وتعني أيضاً منزل المسافرين والقوافل (٢٤) ، وكلمة الفندق من المرادفات الاخرى لكلمة خان (٢٥) ، ومما يستحسن ذكره ما أورده الجواليقي المتوفى سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥) ، من أن كلمة الفندق بلغة الشاميين تشير الى معنى خان ينزل به المسافرون ، وموقعه عند الطرق أو نسي المدائن ، وقد نقل الجواليقي عن الفراء قوله : « سمعت أعرابياً من قضاة يقول (فتق) للفندق وهو الخان (٢٦) » . وإن من مرادفاتها أيضاً كلمة الوكالة (٢٧) والسوق (٢٨) (القيسارية) (٢٩) ، والجدير

(٢٣) الجوهري ، (ابو نصر اسماعيل بن حماد) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمد عبدالفسور طار ، ج ٥ ، ص ٢١١ ، مطابع دار الكتاب المصري بمصر ، القاهرة (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .

- يافوت العموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٢١ .
- ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ٩٢٥ .
- الزبيدي ، المصدر السابق . - الفيروز آبادي ، المصدر السابق .

(٢٤) بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩ .
- التنوي ، (عبدالرشيد) ، فرهنگ رشيد ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، مطبعة كلتة ، (١٨٧٢ م) .

- التبريزي ، برهان قاطع ، ص ٤١٦ . - اللباني ، تفسير الالفاظ الدخيلة ، ص ٢٢ .

(٢٥) ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٢ .
- الزبيدي ، المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٥١ .
- الفيروز آبادي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ .

(٢٦) الجواليقي ، (ابي منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر) ، العرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، تحقيق وشرح ابي الانشبال احمد محمد شاكر ص ٢٢٩ ، اعيد طبعه بالأوفست ، طهران ، ١٩٦٦ م .
والجدير ذكره ان اصل كلمة فندق فارسي . انظر : ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ٢١٢ .

(٢٧) الوكالة : هي عبارة عن فندق يتكون من عدة شقق صغيرة على عدة طوابق ، فالطابق الارضي فيها يتكون من مخازن منفصلة تطل على صحن مكشوف ، أما الطوابق العليا فهي مخصصة للإقامة وتطل على الصحن أيضاً ، ونظم جميع الخدمات والمرافق اللازمة . انظر :

توفيق احمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، الطبعة الفنية الحديثة ، مصر ، ١٩٧٢ م .

(٢٨) توفيق احمد عبدالجواد ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٢٩) القيسارية : هي تحريف لكلمة (قيسرية) المشتقة من اسم (القيسر) امبراطور الرومان . انظر : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٤ ، ص ١٢ ، الطبعة الاولى ، الطبعة الحادية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

تطور الخان :

وقد كانت الخانات في الشرق ضرورية لتسهيل التنقل بين المدن الاسلامية لاغراض التجارة والحج وزيارة الاماكن المقدسة ، وقد اخذت هذه الخانات تتطور تدريجياً حتى اصبحت ذات ادارة ومرافق متعددة ومطابخ (٢٧) ، هذا اضافة الى ما تضمنته بعض الخانات من المرافق الاخرى كالمسجد (٢٨) ، والمخازن التي تخزن فيها انواع السلع وحوض للماء ، كما يوجد في بعضها اماكن لحفظ اموال اليتامى (٢٩) وحضائر للماشية (٣٠) ، اضافة الى مجموعة من الحمامات والاسواق (٣١) ، كما يوجد احياناً خارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت لبيع اللوازم التي يحتاجها المسافر لنفسه ولدايته (٣٢) . ونتيجة لأهمية تلك الخانات فقد كانت بعض المدن تضم عدداً كبيراً منها (٣٣) . ونظراً للتوسع الكبير للخانات في مساحتها فقد زادت مرافقها حتى كان البعض منها يحتوي على غرف عديدة مزودة بمدافئ ومساطب للنوم والجوس ، اضافة الى غرف خاصة ، واحدة منها عند المدخل لحارس الخان واخرى كمقهى وثالثة كمخزن لمصلحي

المرال ، ج ١ ، ص ١٢٢ نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه فؤاد جميل ، الطبعة الاولى ، مطابع دار الزمان ، بغداد ، (١٩٦٦) .

Reitlinger, G. "Atower of Skulls," (٢٧) A Journey through Persian and Turkish Armenia, p. 52, London, (1932)

(٢٨) ابن دلفعال ، (ابراهيم بن محمد بن ايدرم العلاني الشهير بابن دلفعال) ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ج ١ ، ص ٩٠ ، طبع بالطبعة الكبرى ببولاق (١٨٩٢/هـ/١٨٩٢) .

(٢٩) المغربي ، الخطط ، ج ٢ ، صفحات ٩٢-٩٣ .

Teixeira, P. The Travels of Peter (٣٠) Teixeira from India to Italy by Land, p. 27.

(٣١) وقد قيل ان خان المسافرين (Saffron) في بلاد فارس ، هو من اكبر الخانات الـ يحتوي على ١٧٠٠ (ابوان) اضافة الى مجموعة من الحمامات والاسواق داخل اسواره . انظر

Fraser, J., Narrative of Ajourney in to Khorasan, pp. 383-385, London, (1825).

(٣٢) ابن بطوطة ، (ابو عبدالله محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة) ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٤٥ ، بيروت ، (١٩٦٤/هـ/١٩٦٤) .

(٣٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ١١٤ .

اندثار الخانات مسالة طبيعية جاءت نتيجة للتطور الحضاري المادي في الحياة (٣٤) .

ولما كانت الخانات ضرورة ملحة لمواصله المسير والتنقل من مكان لآخر ولولاها لتمذر على المسافرين قطع المسافات النائية ، فهي قديمة كقدم التجارة نفسها إذ كان يراد منها تهيئة اماكن تضمن الراحة للانسان والحيوان على حد سواء بعد قطعهم مسافة طويلة تستوجب عليهم هذه الراحة (٣٥) .

ولعل بداية نشوء الخانات في الاصل منطلقاً من إقامة بئر وسياج يحيط بقطعة من الأرض ، واخذت تتطور بعد ذلك الى البيئات المرفوفة حيث الاوابين الكثيرة والمرافق المتعددة ، وقد نال الكثير منها التخطيط الدقيق (٣٥) . وهذا يوضح لنا الاصول الاولى لنشأة الخانات وصور تطورها شأنها في ذلك شأن الكثير من المرافق التي تتطور بتطور الحياة .

إدارة الخان :

ومن الناحية الادارية فقد ذكر بأنه لا يدفع من يحل في الخان اي اجر سوى ان العُرف الجاري يقضي بأن بكرم النازلون في الخان الشخص المسؤول عن إدارة الخان الذي يُعرف (بالكيم) من المال شيئاً ، نظراً لما يقوم به عادة باستئجار جماعة تلقى عليهم مهمات تنظيف الخان وتنظيمه ، كما يقوم المسؤول عن الخان بتجهيز النزلاء بالحبوب والاطعمة والوقود وكثير من اللوازم التي يحتاجونها على أن تدفع له قيمة هذه المواد وعلى هذا فان هناك جماعة بضمنهم (الكيم) مهمتها ادارة شؤون الخان (٣٦) .

(٣٢) الياح ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، ص ٢٦ .

Pope, Arthur, Upham, "Bridges, Fortifications and Caravanserais," A Survey of Persian Art from Perhistoric Times to the Present, (Editor) Pope, A. U. and (Assistant Editor) Ackerman, Phylis, Text Architecture, Vol. III, P. 1245. London and New York, (1930).

Texier, C., Description de l'Armenia, (٣٥) la perse et la Mesopotamie, Paris, 1842-52, 11, pp. 110-111,

Pope, A. U., نقلاً عن Op. Cit., Vol., 111, p. 1246.

(٣٦) انظر : بدج ، (سر ارنست الفردولسي) ، رحلات الى

المربات ورابعة كدكان للحدادة ، اضافة الى اسطبل
للحيوانات (٤٤) .

ورغم سعة بعض الخانات وكثرة غرفها
لاهميتها من حيث وقوعها على طرق التجارة القديمة
فانها تكتظ بالسائكين في مواسم معينة مما يضطر
البعض منهم الاقامة في الاماكن القريبة منها(٤٥) ،
علماً ان بعضها كان يستوعب عدداً يتراوح بين
٣٠٠ - ٤٠٠ شخصاً(٤٦) ، وبعضها الاخر يتسع
لعدد يتراوح بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ شخص(٤٧) .

التأثير النمائي للخان في المنشآت المعمارية الأخرى

وبناءً على كون الخانات مؤسسات قائمة
ومتطورة وذات سمات خاصة اكتسبتها من خلال
تطويرها فانها ولاشك تؤثر في رغبات الناس ،
فيعكس هؤلاء الناس تلك الرغبات في طرز ابنية
اخرى يقيمونها كالمنازل أو المدارس أو المساجد
ويعني هذا ان هناك تأثيراً متبادلاً بين هذه المنشآت
المعمارية والخانات في مجال التشبه المعماري(٤٨) .
فقد اشار الرحالة ناصر خسرو في رحلته الى انه
شاهد بعض البيوت التي تشبه الخانات في مدينة
طرابلس بلبان(٤٩) ، كما ان بعض المنشآت المعمارية
ايضاً كالاسواق والقلاع(٥٠) ، والقصور(٥١) ،

والدكاكين والحوانيت(٥٢) ، والاربطة(٥٣) ،
ولاديرة(٥٤) ، او الكنائس(٥٥) ، تشبه الخانات من
حيث ضخامتها وبنائها .

تسلسل نشأة خانات بغداد قديماً وحديثاً :-

لم تسعنا المصادر التاريخية القديمة منها
والحديثة عن الخانات التي بنيت في مدينة بغداد
قبل الاسلام ، لكنه ورد اول ذكر لاقامة الخانات
العراقية جاء في ترتيبه خاصة الملك (سولكي)
ثاني ملوك سلالة اور الذي حكم (٢٠٩٤ - ٢٠٤٧
ق . م) . حيث جاء فيها عن ولع هذا الملك بتعميد
الطرف واقامة البيوت الكبيرة فيها لابواء
المسافرين(٥٦) .

اما عن خانات بغداد المشيدة في العصور
الاسلامية - فبالسفة - لم نخبرنا المصادر القديمة
الا النزر القليل منها . فقد اشار باقوت الحموي الى
وجود خان يعرف (بخان وردان)(٥٧) ، وكان موقعه
شرقي مدينة بغداد ، وهو يعود الى العصر العباسي
الاول(٥٨) . ومن هذا العصر ايضاً ذكر عن وجود
خان في مدينة بغداد ينزله الغرباء من التجار
وغيرهم(٥٩) . وذكر اليعقوبي التوفي سنة (٢٨٤هـ/
٨٩٧م) خاناً في بغداد ايضاً يعرف (بخان
النجايب) (٦٠) .

اما في اواخر العصر العباسي (٥٥٢ - ٦٥٦هـ
/ ١١٥٧ - ١٢٥٨م) ، فعلى الرغم من الانحطاط
والدهور اللذين حلا بمدينة بغداد في ذلك العصر
فقد كانت فيها الكثير من المنشآت المعمارية ، وإن
الاحصاءات التي دونها ياسين العمري في كتابه ،

(٥٦) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ .
(٥٣) ناصر خسرو ، المصدر السابق ، صفحات ٤١-٤٠ و ٧ .
(٥٤) Trissolmi, P., The Travels of P.T. from
India to Italy by Land pp. 27 f.
(٥٥) Filmer, H., The Pageant of Persia, P
217, London, (1937).
(٥٦) Pritchard, James. B., Ancient Near
Eastern Text Relating to old Testam-
ent, n. 585 U.S.A., (1969)

(٥٧) سمي بهذا الاسم نسبة الى وردان ابن ستان احد قادة
الخلافة العباسي ابو جعفر النصور .

(٥٨) باقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٤١ .
(٥٩) المدور ، (جميل نخلة) ، حضارة الاسلام ، ص٢٢ القاهرة
(١٩٣٥م) .

(٦٠) اليعقوبي ، (احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب الشهير
باليقوبي) ، البلدان ص١ ، الطبعة الثالثة ،
الطبعة الحيدرية ، التجف ، ١٩٥٧ م .

Unsal, B. Turkish Islamic Architec- (٤٤)
ture in Seljuk and Ottoman Times
1071-1923, pp. 48ff. London (1970).

(٤٥) زافرنبيه ، (جان بابتيست) ، العراق في القرن السابع
عشر كما رآه الرحالة الفرنسي زافرنبيه ، نقله الى العربية
وعلى عليه حواشيه بشر فرنسيس وكوركيس عواد ،
صنحات (٤٤) ، مطبعة المعارف بغداد (١٩٤٤م) .

Trissolmi, P., The Travels of Peter Tei- (٤٦)
going from India to Italy by Land,
pp. 27 f.

Cowper, H. S., Through Turkish Ara- (٤٧)
bic, p. 318, London, (1894).

(٤٨) المياح ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، ص ٢٠ .

(٤٩) ناصر خسرو ، (ابو معين) ، « سفر نامه » رحلة ناصر
خسرو الى لبنان ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس
الهجري ، نقله الى العربية د . يحيى الخشاب ، ص(٨) ،
الطبعة الثانية ، بيروت ، (١٩٧٠م) .

(٥٠) المنشئ البغدادي ، (محمد بن احمد الحسيني المعروف
بالنشيء البغدادي) ، رحلة النشيء البغدادي نقلها عن
الفارسية عباس الزاوي ، صفحات ٤١-٢٢ ، طبع شركة
التجارة والطباعة المحدودة بغداد ، (١٩٤٨م) .

(٥١) كونل ، (ارنست) ، الفن الاسلامي ، ترجمة د . احمد
موسى ، ص١٥٦ ، بيروت ، (١٩٦٦م) .

ومن القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، كان في مدينة بغداد خان يعرف بخان جفان . وكانت سنة بنائه (٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م) في زمن حكم السلطان مراد ، وعلى نفقة جفالة زادة سنان باشا والتي ببغداد (٩٩٩هـ - ١٠٠١هـ/ ١٥٩٠ - ١٥٩٢م) ، وكان يُعرف هذا الخان عند العامة بهذا الاسم نسبة لمؤسسه١٤٠ . وقد بقي هذا الخان على حاله حتى سنة ١٩٢٩م حيث هدم وعُمر مكانه اسواقاً ومما تجسدر الإشارة اليه ان هذا الخان كانت له بابان شمالي وجنوبي وكانت تملو مدخله الشمالي كتابة مطولة تركية وتحتها بضعة اسطر بالعربية ، وقد شاهد الرحالة نيبور هذه الكتابة عندما زار بغداد عام ١٧٦٦م١٥٠ .

اما القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي وحتى القرن الرابع عشر الهجري/العشرون الميلادي فقد كانت هناك مجموعة كثيرة من خانات بغداد لم يبق منها في الوقت الحاضر الا المنزر القليل ، حيث لعبت ايادي الزمن والتخريب بها فاضاعت معالمها واندرست آثارها وبقيت نغمتش عنها في صفحات الكتب علنا نسعف بوصفها واخبارها ، ولم نجد في بطون الكتب ما يشير الى وصفها عمارياً او زخرفياً ، ولكن اكتفت بذكر عددها وبعض النصف القليلة عنها ، فقد ذكر الرحالة تافرنبيه الي وجود عشرة خانات في مدينة بغداد كانت في حالة غير جيدة من البناء ما عدا اثنين منها يوفران الراحة للمسافرين١٦٦) . اما الرحالة نيبور فقد اشار هو الآخر الى عدد خانات بغداد في القرن الثامن عشر الميلادي والبالغة اثنان وعشرون خاناً ، اربعة منها تقع في ضواحي بغداد والبقية في داخل المدينة ، وقسم منها كبير الحجم يسكنها التجار والقسم الآخر صغيرة١٦٧) . ولم يترك لنا الرحالة بكنفهام في رحلته الى العراق سنة ١٨١٦م اية معلومات تتعلق بخانات بغداد والتي مجموعها آنذاك ثلاثون خاناً ، ما عدا الالفم اشارة عابرة من ان هذه

مديرية الآثار العامة ، دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ، القسم الاول ، بغداد ، ١٩٢٨م .
 (٦١) نظمي زاده مرتضى افندي ، كلشن خلفا نقله الى العربية موسى كاظم نورس ، صفحات ٢٠٩-٢١٠ ، النجف ١٩٧١م :
 (٦٥) نيبور ، رحلة الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن الألمانية د. محمود حسين الامين ، راجه وعلق عليه ووضع فهارسه سالم الالوسي ، ص ٢٢ ، بغداد ، ١٩٦٥ م .
 (٦٦) تافرنبيه ، العراق في القرن السابع عشر ، ص ٨١ .
 (٦٧) نيبور ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون للجوامع والمساجد والمدارس والخانات والحمامات ... وغيرها من المنشآت العمارية في مدينة بغداد - قبل ان يحتمها الغول - خير دليل على ذلك ، بل انه لم يكتف بذكر هذه المنشآت بل اورد ايضا عددها ومما يتوجب الإشارة اليه ان عدد خانات بغداد آنذاك تمداها (٩٨٠ - ٩٦١) خاناً .

ومن القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي يخبرنا ابن الفوطي عن خان في مدينة بغداد يعرف بخان الخليفة ، والذي امر ببنائه لوالي علاء الدين الجويني ، وكان موقعه بالقرب من نهر دجلة ، ويذكر ان باني هذا الخان هو البناء ابو العباس احمد بن عبيدالله لاصفهانى١٦٢) . والجدير بالذكر ان هذه الخانات التي اشار اليها المؤرخون آنفاً لا توجد لها آثار شاخصة في الوقت الحاضر .

ومن أشهر خانات بغداد الشاخصة الان هو خان مرجان ، الذي يعود تاريخ انشائه الى سنة (٧٦٠هـ/١٢٥٨م) . وقد امر ببنائه حاكم بغداد امين الدين مرجان في عهد السلطان اويس بن الشيخ حسن الابلكاني ، وكان يعرف هذا الخان ايضاً (بخان لاورتمه) ، اي الخان المسقوف باللغة التركية . وينفرد هذا الخان هذه الميزة العمارية ، عن باقي الخانات الاخرى المكشوفة الوسط ، ويعتبر خان مرجان من اجمل الخانات العراقية حيث تتجلى فيه روعة عمارته وتخطيطه ودقة زخارفه ажرية الجميلة ، ورغم سعة وارتفاع هذا الخان ، الا انه قد سقف بطريقة عمارية فائقة تتم عن المقدرة الفنية لبناء هذا الخان . ومما يذكر عن هذا الخان انه قد اوقفت وارداته اضافة الى خانات اخرى ودكاكين ومزارع وبساتين في ضواحي بغداد وخارجها ، الى المدرسة المرجانية والمستشفى ، جاء ذلك في الكتابة التي تملو باب الخان الرئيس الكائنة في سوق البززين في محلة (باب لاغا) حالياً . والجدير بالذكر ان هذا الخان يتكون من طابقين ، الاول يحتوي على ٢٢ غرفة ، والثاني على ٢٣ غرفة ، وكان التجار والمسافرون يحتاون غرف الخان ، وكان يجسري فيها وفي ساحته عملية البيع والشراء مدة ما بقارب السبع قرون١٦٣) .

(٦١) نقل بتصرف عن د. مصطفى جواد ود. احمد سوسه ، دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً ، ص ١٩٤ مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٨ م .
 (٦٢) مصطفى جواد واحمد سوسه ، نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .
 (٦٣) لمعرفة المزيد عن عمارة وتخطيط هذا الخان . تراجع :-

الخانات مشابهة في بنائها للخانات الموجودة في ديار بكر ، واحد هذه الخانات هو خان مرجان(٦٨) .

اشرنا قبل قليل من انه كان في مدينة بغداد عدد كثير من الخانات الكبيرة منها والصغيرة والتي اتخذت اماكن للتجارة والسكن وراحة المسافرين وكان بعض الواسرين من المسلمين وغيرهم يقومون باعمال ومشاريع خيرية ومنها بناء الخانات ، وكان البعض من الخانات كبيرة والبعض الآخر صغيرة وفيها عدد كثير من الغرف والاووين والمخازن غالباً ما تكون خالية من الاثاث(٦٩) . وقد بلغ عددها آنذاك حوالي ١١٨ خاناً ، ولكن الاكثر منها خاص (بالكارية) وايواء الدواب وحفظ الاموال والمهم منها ما كان في الاسواق والتي كانت مشغولة من قبل النجار(٧٠) ومن هذه الخانات هي :-

١ - خان مرجان : وقد مر ذكره في ص ٣٣ .

٢ - خان اللاوند : وكان موقعه في سوق الفضل ، وقد امر ببنائه الوزير داود باشا والي بغداد سنة (١٢٣٢هـ/١٨١٦م) واسكن فيه عسكره (اللوند) والتي كانت مهمته الحفاظ على الوالي . وكانت مساحة هذا الخان واسعة ، ولكن التغيرات التي طرأت عليه نتيجة الاهمال والتخريب دعت والي بغداد نامق باشا سنة (١٣١٥هـ/١٨٩٧م) ان يجعل مساحته متنزهاً وبنى في وسطه حوضاً للماء ، وغرس فيه النخيل والاشجار وسوره بسور من الحديد ، وبقي على هذا الحال حتى عزل الوالي وخلفه من خلفه فاهمل امره وقطعت مساحته قطعاً قطعاً فاصبح شبه محلة عامرة(٧١) .

٣ - خان (قابچيلر كهيه سي) اي بمعنى خان رئيس البوايين وموقعه في سوق البزازين على طريق شارع الصفاير ، وقد امر ببنائه

اسماعيل آغا رئيس البوايين ، ووقفه على ذريته ويذكر ان مساحة هذا الخان كبيرة(٧٢) .

٤ - خان دلة الكبير : وكان موقعه في سوق البزازين ، وقد شيده الحاج عبدالقادر دلة ابن اسماعيل سنة (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م) ، وهو خان كبير يتكون من طابقين متين البناء ، وهو الآن محل تجاري(٧٣) .

٥ - خان دلة لصغير : وموقعه في المرادية (السكة خانه) (٧٤) .

٦ - خان جفان : وقد مر ذكره في ص ٢٢ .

٧ - خان النخلة او خان مخزوم : وكان موقعه في رأس سوق البزازين ، وقد شيده الشيخ محمد المخزوم ابن احمد حافظ باشا سنة (١١١٠هـ) ووقفه على ذريته(٧٥) .

٨ - خان الباجهجي : ويقع باتصال جامع الخفافين من الجهة الشرقية وقد شيده ، الحاج ابو بكر الباجهجي ووقفه على مصالح الخفافين ، وهو الآن محلاً تجارياً ، ويشتمل على طابقين(٧٦) .

٩ - خان كبه الكبير : ويسمى ايضاً بخان انباشا ، وكانت ملكيته تعود لال كبه وقد اشترى الوزير داود باشا وجعل وفقاً على جامعهم ومدرسته . وموقعه في شارع البنوك(٧٧) .

١٠ - خان كبه الصغير : وموقعه في شارع البنوك وهو يسمى ايضاً بخان الباشا الصغير ويشتمل على طابقين وقد اشترى الوزير داود باشا والي بغداد واقف على مصالح جامع الحيدر خانه ومدرسته(٧٨) .

١١ - خان محمد سعيد جلبي الشاندر : ويقع في شارع المستنصر غربي المحكمة الشرعية ويشتمل على طابقين وبنائه جيد وقد شيده سنة ١٣٣٧هـ(٧٩) .

١٢ - خان الدفتر دار : وكان موقعه في شارع

(٦٨) بكتفهام ، (جيس سلك) رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦م ج ١ ، ص١٩٧ ، ترجمة سليم طه التكريتي ، مطبعة اسعد ، بغداد ، (١٩٦٨م) .
(٦٩) الدروي ، ابراهيم ، البغداديون اخبارهم ومجالسهم ، ص٢٩٤ ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) .
(٧٠) الشيبلي ، (محمد رؤوف طه) ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ج ١ ، ص ٦٢ ، مطبعة البصرة ، البصرة (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .
(٧١) الدروي ، المصدر السابق ، صفحات ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٧٢) الدروي ، البغداديون ، ص ٢٩٥ .
(٧٣) الدروي ، نفس المصدر .
(٧٤) الشيبلي ، المصدر السابق .
(٧٥) الدروي ، المصدر السابق .
(٧٦) الدروي ، نفس المصدر السابق .
(٧٧) الدروي ، نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .
(٧٨) الدروي ، نفس المصدر .
(٧٩) الدروي ، نفس المصدر .

مدخله كتابة هذا نصها : « السلطان ملك رقاب الا (م) السلطان سليم بن السلطان سليمان خان فخر آل عثمان عز نصر عبده امير امراء ... » ومن الجدير ذكره هنا ان هذا الخان قد اعلن عن اثريته في الجريدة الرسمية المرقمة ١٧٢٧ والمؤرخة في ١٢/٥/١٩٦٩ (٨٧) .

١٩- خان القوندرجية : وكان موقعه في سوق القوندرجية (الجوقجية) مقابل جامع الوزير (٨٨) .

٢٠- خان الذهب الكبير وخان الذهب الصغير : وموقعهما في سوق القزازين (٨٩) .

٢١- خان فتح الله عبود : وموقعه في بداية سوق باب الاغا في شارع الرشيد وفي شمال جامع مرجان . وكان هذا الخان يُعرف (بخان الكلي) (٩٠) .

٢٢- خان الكرمك : وكان موقعه عند تلاقي الكرمك مع سوق الصباغ ، وهو صغير الحجم وكان متصلاً بالمدرسة المستنصرية (٩١) .

٢٣- خان القبلانية : في سوق القبلانية (٩٢) .

٢٤- خان الوقف : مقابل جامع مرجان (٩٣) .

٢٥- خان درويش علي وخان المريجي وخان الميمز كلها في الشارع المتفرع من سوق الصافير والنافذ الى الدنكجية (٩٤) .

٢٦- خان الرماح : في سوق الخردة فروشية (٩٥) .

٢٧- خان العادلية : يقابل المحكمة الشرعية وبجانب جامع العادلية الكبير (٩٦) .

(٨٧) تقرير ممثل مديرية الآثار العامة في خان الزور ، رقم الاشارة ٤٠/٥٤٥ .

(٨٨) الشيخلي ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ج ١ ، ص ٦٢ .

(٨٩) الشيخلي ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٩٠) سركيس ، يعقوب ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخط بغداد ... الخ ، القسم الثاني ، صفحات ١٢٥ و ٢٨١ - ٢٨٥ ، تقديم رفائيل بطي ومير بصري ، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، (١٩٥٥/م) .

(٩١) سركيس ، نفس المصدر ، ق ٢ ، صفحات ١٨٧ - ١٨٨ .

(٩٢) الشيخلي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٩٣) الشيخلي ، نفس المصدر .

(٩٤) الشيخلي ، نفس المصدر .

(٩٥) الشيخلي ، نفس المصدر .

(٩٦) الشيخلي ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٥ .

المستنصر غربي المحكمة الشرعية وكانت ، مساحته كبيرة وقد هدم وشيدت على ارضه بنايات حديثة (٨٠) .

١٢- خان الحاج ياسين جلبلي الخضيري : وموقعه في شارع المستنصر وكان قبلاً دار الحرم والديوانخانة تصود للسيد انور بك بن درويش بك الحيدري ، وقد عمره الحاج ياسين الخضيري سنة ١٣٤١هـ ، وهو يشمل على طابقين وبنائه جيد (٨١) .

١٤- خان باب العظم : وموقعه كان على شارع المستشفى (الجمهوري) وهو ذو مساحة كبيرة وبنائه قديم استأجره احد تجار بغداد ليكون مكاناً لتجارته (٨٢) .

١٥- خان البرزنلي : وكان موقعه في آخر شارع البنوك ، وقد شيده الحاج صالح جلبلي البرزنلي وقد شيدت على ارضه قبل اكثر من عشرين سنة بناية متعددة الطوابق (٨٣) .

١٦- خان جنبي مراد : وموقعه في سوق المطارين حالياً وسوق مرجان قديماً ، ويشتمل الخان على طابقين الطابق الارضي وفيه عشرين غرفة ، اما الطابق العلوي فيحتوي على ثلاث وعشرين غرفة ، وقد شيد هذا الخان الحاج مراد الحاج علي سنة ١٠٩٧ هـ ، وواقفه على ذريته (٨٤) .

١١٦- خان الدجاج : وكان موقعه في سوق المطارين وهو من الخانات القديمة العهد في بغداد ، وقد شيدت على ارضه في الوقت الحاضر ابنية ودكاكين جديدة (٨٥) .

١٧- خان الواصلة : وقد استخدم قسماً من المدرسة المستنصرية كخان لتجار الموصل وذلك سنة (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م) (٨٦) .

١٨- خان الزور : وهو من خانات بغداد الشاخصة الآن ، ويقع بالقرب من خان مرجان في سوق الخياطين القديم في الفرع المقابل للمدخل الرئيس لخان مرجان . وقد ثبتت فوق

(٨٠) العروبي ، نفس المصدر .

(٨١) العروبي ، البغداديون ، ص ٢٩٦ .

(٨٢) العروبي ، نفس المصدر .

(٨٣) العروبي ، نفس المصدر .

(٨٤) العروبي ، نفس المصدر ، ص ٢٩٧ .

(٨٥) العروبي ، نفس المصدر .

(٨٦) الشيخلي ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ، ج ١ ، ص ٥٦ .

مصادر البحث

أ - المصادر العربية

- ١ - ابراهيم مصطفى وآخرون - حمد حسن الزيات ، حامد ميدانقادر ، محمد - - النجار .
المعجم الوسيط ، عرف على طبعه عبدالسلام هارون ، الجزء الاول ، مطبعة مصر ، القاهرة ، (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م) .
- ٢ - احمد رضا : (النسخ)
معجم متن اللغة ، الخالدان الثاني والرابع ، بيروت ، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) (١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) .
- ٣ - ادي شير :
كتاب الالفاظ الفارسية العربية ، المطبعة الكاثوليكية ، (١٩٠٨م) .
- ٤ - ابن بطوطة : (ابو عبدالله محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة) : (١٣٧٣هـ/٧٧٧٩م) .
رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، (١٣٨٠هـ/١٩٦٦م) .
- ٥ - ابن جبير : (ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكتاني الاندلسي) ، (ت) (١٣١٧هـ/٦١٤م) .
رحلة ابن جبير ، بيروت ، (١٣٨٠هـ/١٩٦٦م) .
- ٦ - ابن دقماق : ابراهيم بن محمد بن ايدر اللاتني السمرقاني (ت) (٨٠٩هـ/١٤٠٦م) .
الانتصار لواسطة عقد الامصار ، الجزء الرابع ، طبع بالمطبعة الكبرى ، ببلواق ، (١٣١٠هـ/١٨٩٣م) .
- ٧ - ابن سيده : (علي بن اسماعيل) (ت) (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) .
المعجم والمحيط الاعظم في اللغة ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، الجزء السادس ، المطبعة الاولى ، مصر ، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .
- ٨ - ابن منظور : (ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور) ، (ت) (٧١١هـ/١٣١١م) .
لسان العرب ، المجلدان العاشر والثالث عشر ، بيروت ، (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .
- ٩ - ايوار :
(مادة خان) ، دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة احمد السنننوي ، ابراهيم زكي خورشيد ، عبدالحميد يونس ، حافظ جلال ، المجلد الثامن ، بدون مكان وسنة الطبع .
- ١٠ - بارنلد :
(مادة خان) ، دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة احمد السنننوي وآخرون ، المجلد الثامن .
- ١١ - بدج ، (سر ارنست الفردولس)
وحلات الى العراق ، نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه فؤاد جميل ، الجزء الاول ، المطبعة الاولى ، مطابع دار الزمان ، بغداد ، (١٩٦٦م) .
- ١٢ - بطرس البستاني : (المعلم)
فطر المحيط ، الجزء الاول ، بيروت ، (١٨٦٩م) .

- ٢٨- خان الصفافير : وهو عند مدخل سوق الصفافير من جهة سوق الجوخه حية (٩٧) .
 - ٢٩- خان المصبغة : وموقعه عن يمين المتوجه الى شريعة المصبغة بلاصق خان الخفافين من جهاته الداخلية (٩٨) .
 - ٣٠- خان اللوقطة : في سوق الموله خانه مقابل سوق القرباسية (٩٩) .
 - ٣١- خان الجسر : في آخر سوق القرباسية .
 - ٣٢- خان الزبيق في اندنكجية (١٠٠) .
 - ٣٣- خان النمر في الشارع الازرق ابي شريعة خان النمر (١٠١) .
 - ٣٤- خان الكبابجية (المعضاوي) في سوق الكبابجية (١٠٢) .
- واخيراً لابد من القول وبناء على ما تحمله الخانات من آثار عمارية وسمات حضرية تروي لنا حقبة من تاريخ العراقيين والمعاناة التي عاشوها في تلك الفترة وما يؤسف له ان الانسان عاون الطبيعة في احاطة معظم هذه الخانات بالخراب والانهدام !!
- ان الامم تحافظ على تراثها وتبذل كل ما في وسعها لتحقيق هذا الغرض ، وفي اعتقادي ان هذه الخانات جديرة بالرعاية وبان يتخذ لها ما يلزم من الحفاظ على التراث لأنها بنايات اثرية يحافظ عليها ويؤمها اناس من كل حذب وصوب ليستجلوا روائعها . ونحن نأمل لما بقي من هذه الخانات خيراً في المستقبل القريب بعد ان ساد الشعور في الوقت الحاضر والتعلق بمسألة الاهتمام بكل ما هو اثرى وصدور قرارات قومية ووطنية تحفز المعنيين للأخذ بمبدأ الحفاظ على التراث ومنه المباني العمارية التاريخية المتواجدة في اماكن كثيرة من بلادنا وخير دليل على ذلك اهتمام مؤسسة الآثار والتراث الموقرة الحالي الذي نرجوه ان يعم الخانات ايضاً ، وارجو ان اكون قد وفقت ومن الله التوفيق .

- (٩٧) الشيبلي ، نفس المصدر .
- (٩٨) الشيبلي ، نفس المصدر .
- (٩٩) الشيبلي ، نفس المصدر .
- (١٠٠) الشيبلي ، نفس المصدر .
- (١٠١) الشيبلي ، نفس المصدر .
- (١٠٢) الشيبلي ، نفس المصدر .

- ١٣- بطرس البستاني : (العلم)
محيط المحيط ، المجلد الاول ، بيروت ، (١٨٧٠م) .
- ١٤- بطرس البستاني : (العلم)
عامة خان ، دائرة المعارف للبستاني ، المجلد السابع ، مطبعة المعارف ، بيروت ، (١٨٨٣م) .
- ١٥- بكتفهام : (جنس سلك)
رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي ، الجزء الاول ، مطبعة أسعد ، بغداد ، (١٩٦٨م) .
- ١٦- تافرييه : (جان بابتيست)
العراق في القرن السابع عشر ، نقله الى العربية وعلق حواشيه بشير فرسيس ولودويكس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ، (١٩٤٤م) .
- ١٧- توفيق احمد عبدالجواد :
تاريخ العمارة والفنون الاسلامية ، الجزء الثالث ، المطبعة الفنية الحديثة ، مصر ، (١٩٧٢م) .
- ١٨- الجواليقي : (ابو منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر) (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م) .
المرب من الكلام الاجمعي على حروف المعجم ، تحقيق وشرح ابي الاشبال احمد محمد تاسكر ، اعيد طبعه بالاقست في طهران (١٩٦٦م) .
- ١٩- الجوهري : (الشيخ ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري) (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) .
الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمد عبدالقاسم عطار ، الجزء الخامس ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ، القاهرة ، (١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م) .
- ٢٠- حسن ابراهيم حسن : (الدكتور)
تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الرابع ، المطبعة الاولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، (١٩٤٨م) .
- ٢١- حسين محفوظ : (الدكتور)
حديث شخصي ١٩٧٥م .
- ٢٢- الدروبي ، ابراهيم ، **البغداديون اخبارهم ومجالسهم** ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، (١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م) .
- ٢٣- رشيد عطية :
معجم عطية في العامي والدخيل ، دار الطباعة والنشر العربية ، سان بابلو ، برازيل ، (١٩٤٤م) .
- ٢٤- الزبيدي : (محب الدين ابي الفيف محمد مرتضى الحسيني) (ت ٨١٧هـ / ١٢٠٥م) .
تاج العروس من جواهر القاموس ، المجلدان السابع والتاسع ، المطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية ، مصر ، (١٣٠٦هـ) .
- ٢٥- الشرتوني : (سعيد بن عبدالله الخوري) (ت ١٣٣١هـ / ١٩١٢م) .
اغرب الوارد في فصح العربية والشوارد ، الجزء الاول ، مطبعة مرسلو اليسوعية ، بيروت ، (١٨٨٩م) .
- ٢٦- النسيخي ، (محمد رؤوف طه) ، **مراحل الحياة في الفترة الفللة وما بعدها** ، الجزء الاول ، مطبعة البصرة ، البصرة ، (١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) .
- ٢٧- العسكري : (ابو علا الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران اللسوي العسكري) (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) .
كتاب التلخيص في معرفة اسماء الانبياء ، مني بنحيتيه الدكتور عزة حسن ، الجزء الاول ، مطبعة التراثي ، مطبوعات الجمع العلمي بدمشق ، (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) .
- ٢٨- الفيروزآبادي : (مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي) (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) .
القاموس المحيط ، مطبعة السادة ، الجزء الرابع ، مطبعة السادة ، (١٣٣٢هـ / ١٩١٣م) .
- ٢٩- كونل : (ارنتست)
الفن الاسلامي ، ترجمة الدكتور احمد موسى ، بيروت ، (١٩٦٦م) .
- ٣٠- اللباني : (طوبيا المنيسي الحلبي)
كتاب تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر اصلها بحروفه مني بنشره وتصحيحه والتعليق على حواشيه الشيخ يوسف توما البستاني ، المطبعة الثانية ، مصر ، (١٩٣٢م) .
- ٣١- المدور ، (جميل نخلة) ، **حاضرة الاسلام** ، القاهرة ، (١٩٣٥م) .
مسطفي جواد واحد سوسة ، دليل خاولة بغداد **المفصل في خط بغداد قديما وحديثا** ، مطبعة الجمع العلمي العراقي ، بغداد ، (١٩٥٨م) .
- ٣٢- البياح ، (برهان نزر محمد علي) ، **عمارة وتخطيط الشانقات العراقية القائمة على طرق الزارات** ، رسالة ماجستير ، مقدمة الى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد ، مطبوعة على آلة الطباعة ، بغداد ، (١٩٧٦م) .
- ٣٣- مديرية الآثار العامة :
دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ، القسم الاول ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، (١٩٣٨م) .
- ٣٤- القريري : (تقي الدين ابي العباس احمد بن علي) (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) .
الواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المصروف بالخط القريري ، الجزء الثاني ، طبعة جديدة بالانست ، مكتبة المتنبي ، بغداد ، (بدون تاريخ) .
- ٣٥- المنشئ البغدادي : (السيد محمد بن السيد احمد الحسيني المروف بالمشئ البغدادي) .
رحلة المشئ البغدادي ، نقلها عن الفارسية عباس المزاري الحامي ، طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، (١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م) .
- ٣٦- ناصر خسرو ، (ابو معين) « سفرنامه » ، **رحلة ناصر خسرو الى لبنان ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري** ، نقله الى العربية د. يحيى الخشاب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، (١٩٧٠م) .

- ٢٧- ناصر النقيبدي :
- (خان موجان) ، مجلة أهمل النفط ، العدد السابع والستون ، (١٩٥٧ م) .
- ٢٨- نظمي زادة مرتضى افندي : (ت ١١٢٦هـ/١٧٢٢م) .
كلشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس ، مطبعة الآداب ، النجف الاشرف ، (١٩٧١ م) .
- ٢٩- نعيم زكي فمي :
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (اواخر العصور الوسطى) ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (١٩٧٢هـ/١٩٧٢م) .
- ٣٠- نيبور ، (كارستن) :
رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه من الالمانية الدكتور محمود حسين الامين ، راجعه وعلق عليه ووضع فهارسه سالم الالوسي ، بغداد ، (١٩٦٥ م) .
- ٣١- ياقوت الحموي : (شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي) ، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .
معجم البلدان ، المجلدان الثاني والرابع ، بيروت ، (١٢٧٥هـ/١٩٥٦م) ، (١٢٧٦هـ/١٩٥٧م) .
- ٣٢- اليمقوبي : (احمد بن يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليمقوبي) (ت ٣٢٨هـ/٨٩٧م) .
البلدان ، الطبعة الثالثة ، المطبعة الحيدريسة ، النجف الاشرف ، (١٩٥٧ م) .
- ٣٣- يعقوب صروف وفارس نمر ، باب المسائل ، « معني خان » مجلة الفتلف ، ج ١٠ ، مجلد ٢٦ السنة ١٩٠١م .
- ب - المصادر الاجنبية**
1. Cowper, H.S., Through Turkish Arabia, London, (1894).
2. Filmer, H., The Pageant of Persia, London, (1937).
3. Fraser, J., Narrative of Ajourney in to Khorasan, London (1825).
4. Peters, Gohn, Punnett, Nippure or Explorations, and adventures on the Euphrates, 2. Vols., New York, and London, (1898).
5. Pope, Arthur, Upham, "Bridges, Fortifications, Caravanserais", Asarvey of Persia Art from perhistoric Times to the present, (Editor) Pope, A. U., and (Assistanteditor) Ackerman, Phylis, Text Architecture, Vol. III, London and New York,
6. Porter, R. K., Travels in Georgia, Persia, Armenia, and Ancient Babylonia during the years 1817-1820 in 2 vols., London, (1822).
7. Pritchard, James. B., Ancient Near Eastern Texts Relating to the old Testament, U.S.A. (1969).
8. Reitlinger, G., "Atower of Skalls," Ajourney through Persian and Turkish, Armenia, London, (1932).
9. Texier, C., Description de l'Armenia, la Perse et la Mesopotamia, Vol. 11, pp. 110-11, Paris, (1842-52).
10. Teixeira, Peter., The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land, London,
11. Unsal, B., Turkish Islamic Architecture in Seljuk and Ottoment Times 1071-1923), London, (1970).
12. التنزيي : (محمد حسين بن خلف)
برهان فاطم ، بتصحيح وانمام محمد عباس ، مهرمهام يكمزار وسيمصد وسي وشش . جاب بيروت ، مؤسسة مطبوعات امير كبير (باللغة الفارسية) .
13. التنوي : (ملا عبدالرشيد)
فوهنك وشيبي ، الجزء الاول ، طبعه كلتسه ، (١٨٧٢م) (باللغة الفارسية) .

أسوار بغداد

بقلم

عبدالله بن الرحيم السوراني

بغداد - حي القاهرة

كثير من المواقع التي يمكن الاستعانة بها على فهم خطط بغداد ، وجرت معالم مهمة ، يذكر منها الرحوم مصطفى جواد واحمد سوسة في « دليل خارطة بغداد » جرف دجلة قبر عبدالله بن احمد بن حنبل ، ودير الغباب ، وشريعة خضر الياس ومعالم اخرى عديدة (٢) .

ولولا بقاء القليل من المعالم القديمة الباقية التي صمدت في وجه الزمن لضاع الكثير وتسر الغمم وازداد التخليط والتخليط ، من هذه المعالم ، بقايا سور بغداد الشرقية وقرب العهد بنفسه ومراقده الكاظمين وابي حنيفة والمستنصرية والباب الوسطاني ومعالم اخرى .

واسهم العمران الحديث بنصيب كبير في تعفية آثار اخرى، قد تعيننا على اعطاء صورة اوضح واكمل لبغداد المدورة او الشرقية ، فمنذ القديم والعراقيون ينقضون معالم لبنوا بأجرها معالم اخرى وهكذا ، كما ان المحلات الجديدة انما قامت في اماكن المحلات القديمة ، ولو قامت دوائر الآثار مثلا بتنقيب في مناطق العطيفية والمنطقة ومحلات اخرى من الكرخ الحالية او الرصافة فما اظنها ستخيب في ايجاد بقايا التربة تكشف عن غوامض ببغداد .

كما دفع الجهل الكثير من العوام والجاهلين الى نسبة البعض من المواقع الى غير اصحابها ، كما ان لتبدل الحكومات وتعاقب الازمان اثرا في تبدل اسماء الاماكن ونسيان اسمائها الاولى بفعل الزمن ،

بلاقي الباحثون في خطط بغداد وتحديد مواقعها متاعب جمة ، اذ تضافت عوامل عديدة على طمس معالمها القديمة وازالة اثارها .

حتى اذا جاء الباحثون المحدثون وحاولوا نفض الغبار عن تلك المعالم وقعوا في تشويش كبير ولبس شديد ، فقد زانت آثار بغداد ولم يبق من معين لنا على تحديدها غير اوصاف متناثرة في المصادر العربية التاريخية وكتب البلدان ، ولا يخفى ان الناس لم يكونوا على درجة سواء في ايضاح افكارهم ولا في فهم افكار الآخرين ، وستلمس في ثنايا البحث الكثير من تشويش المحدثين في فهم نصوص القدامى الامر الذي اثر على تحديدهم مواقع بغداد .

وكان لاستعمال اللبن والطين في بناء بغداد المدورة اثره في زوال اثارها ، بالرغم من ان المعمار البغدادي استطاع ان يخرج بغداد بصورة توحى بالسمو والعظمة (١) .

بغداد تقع بين دجلة والفرات وهما في ثورة وفيضان دائمين ، فكثيرا ما تطغى وتهدد ببغداد الغربية ، اما بغداد الشرقية فلم تسلم من عسف نهري دجلة ودبالي ، ونظرة سريعة على كتاب الاستاذ احمد سوسة « فيضانات بغداد » تكفينا تصور حال بغداد وتهديد المياه لها منذ تاسيسها وحتى وقتنا الحاضر .

لقد اسهمت الفيضانات المتلاحقة في تدمير الكثير من معالمها الالثرية .

وغير دجلة مجراه خلال تاريخها ، فاتي على

وكان ذلك في سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة
على قول أكثر الروايات (٨) .

وان تابت ثمة روايات اخرى تشير الى سنين
مختلفة لبنائها . فذكرت بعضها ان بناءها كان في
سنة تسع وثلاثين ومائة للهجرة وروايات اخرى
حددت سنة أربعين ومائة للهجرة سنة بدء بنائها ،
وزواية اخرى تذكر سنة أربع وأربعين ومائة بداية
لبناء بغداد (٩) .

وتكاد تكون الرواية الاولى الفائزة بان بناءها
كان في سنة خمس وأربعين اقرب الروايات للصحة ،
اعتمادا على حادث مشهور وقع اول بناء بغداد ،
اذ يذكر المؤرخون انه ما ان شرع المنصور ببناء
بغداد حتى قام محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن
ابن علي بن ابي طالب الملقب بـ « النفس الزكية »
بشورته باحجاز سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة ،
وذلك ايام اشتغال المنصور ببناء المدينة المدورة ،
وناز اخوه ابراهيم بالبصرة وتوجه بريد الكوفة ،
وكان واضطرت هاتان الثورتان المنصور الى ان
يوقف اعلم ببناء بغداد حتى فرغ من امر
الثائرين (١٠) .

وكان المنصور قد هيا لبنا بغداد ما يحتاج
اليه من خشب وساج وغير ذلك ، واتاه الخبسر
بخروج محمد النفس الزكية ، فاستخلف على اصلاح
ما اعد لذلك مولى له يقال له اسلم ، وبلغ اسلم ان
الغلبة لسكر النفس الزكية على عسكر ابي جعفر ،
فأحرق ما كان خلفه عليه ابو جعفر من خشب وساج
خوفا من ان يؤخذ منه اذا غلب مولاها ، ولما لام
المنصور اسام . اعتذر اليه بخوفه من ان يظفر
بهم ابراهيم فيأخذه فلم يقل له المنصور شيئا (١١) .

وبحلول سنة ست وأربعين ومائة تقدم البناء
تقدما سمح للمنصور بنقل دواوينه وبيت المال الى
بغداد (١٢) .

واستمر البناء سريعا ، يعمل فيه نحو من مائة
الف عامل حتى تم بناء المدينة المدورة في سنة تسع
وأربعين ومائة للهجرة (١٣) .

× × ×

لقد كان بناء بغداد حدثا تاريخيا وهندسيا
ضخما ، دل على تبدل طراز الحكم وتغير مفهوم
الخلافة السياسي الجديد تغيرا جوهريا عن مفهوم
الخلافة ايام الراشدين فتغير مفهوم المدينة تبعا
لذلك لتصبح حصنا منيعا يدود عن الخليفة نورث
الثائرين فاصبحت حصنا محاطا بسور ضخم يمتد
لاكثر من اربعة اميال (١٤) .

من ذلك ما سجد الرحاة الاوربيون في اقرنين
السابع عشر والثامن عشر من اسماء تركية اطلقت
على ابواب سور بغداد اشرقية مثلا ، طفت على
اسمائها الاولى (٢) .

كما ان الاسماء الحانية لمواقع بغداد تجر
الكثير اني اتصور الخاطيء لاماكن الكرخ والرافصة ،
الذين لم يكونا غير محلتين من محال بغداد القديمة
العديدة بينما يطلق اسم الكرخ حاليا على الجانب
الغربي برمته كما يطلق اسم الرافصة على الجانب
الشرقي (٤) .

ان احياء التراث المخطوط يزبل الكثير من
الابهام الذي يقع فيه الباحثون بسبب شحة المعلومات
التاريخية الخطية ، اذ ان الغالب على تواريخ المدن
ابتدائها بمقدمات خطية شاملة لتلك المدن تليها
تراجم المشاهير من ابنائها .

ويتعذر الجزم بوجود مقدمة خطية في كتاب
تاريخ بغداد لاحمد بن ابي طاهر طيفور (المتوفى
سنة ٢٨٠ هـ) ، لانه لم يعثر على غير الجزء السادس
منه وانذي يضم مادة تاريخية بحثه (٥) .

وقد رجح الاستاذ صالح العلي وجود مقدمة
خطية له اعتمادا على قول الحميدي الذي يذكر ان
احمد بن محمد بن موسى انرازي « الف في صفة
قرطبة وخطها ومنازل العظماء بها كتابا على نحو
ما بدأ به احمد بن ابي طاهر في اخبار بغداد وذكره
لمنازل الصحابة بها . » (٦)

ولو تيسر لنا هذا الكتاب كاملا لكفانا الظن
ولتقدم الكثير مما يعين على فهم خطط بغداد
واخبارها .

ان احياء التراث المخطوط كليل بان يلقي
الضوء على ما خفي وابهم على الباحثين ، فحين ترى
وصفا مفصلا لاسوار بغداد المدورة بجانبك وصف
موجز لاسوار اخرى لا يكاد يشفي التليل ويزيل
الابهام وذلك لشحة ما وصلنا عنها .

بغداد المدورة

وضع ابو جعفر المنصور اول لبنة في اساس
مدينته الجديدة بغداد في احتفال كبير حضره القادة
والعلماء وذوو الراي ، وقال :

« بسم الله والحمد لله ، وان الارض لله
يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال
للبناء « ابنا على بركة الله . » وابتدا البناء (٧) .

« وجعل أبوابها أربعة على تدبير العساكر في
احروب » على قول الطبري (١٥) .

او « سببه معسكراً رومانيا » على ما يقول
كوك (١٦) .

ويذكر الطبري عن عيسى بن المنصور انه وجد
في خزائن ابيه في اكتب انه [اي المنصور] انفق
على مدينة اسلام وجمعها وقصر الذهب بهسا
والاسواق وانفصلان ولخنادق وقبابها واسوارها
اربعة آلاف وتماثيله وثلاثة وثلاثين درهما ،
ومبلغها من الفلوس مائة الف فلس وثلاثة
وعشرون الف فلس . وذلك ان الاستاذ من البنائين
كان يعمل يومه بغير اربعة اروزكارى بحبتين
الى ثلاث حبت (١٧) .

[واقيراط ١٢ ، ١ من الدرهم والحبة
الواحدة ٢٤ / ١ من الدرهم] (١٨) .

كما يذكر ياقوت ان المنصور انفق على بناء
بغداد ثمانية عشر الف الف دينار ذهباً (١٩)

ويرى المرحوم مصطفى جواد ان الرقم الذي
ذكره ياقوت مبالغ فيه مبالغه ظاهرة (٢٠) .

ومثله لاسنر في كتابه عن خطط بغداد [والذي
اكملت ترجمته مع السيد شعلان جاسم] : فهو يرى
ان هذا الرقم مبالغ فيه ، فهو يرى ان قيمة الدرهم
١ / ١٠ من الدينار ، ومهما تبانت هذه النسبة فهي
تقل عن ١ / ١٤ من الدينار (٢١) .

والمبالغ كبيرة - على تفاوتها في الروايات
المختلفة - وقد نبه الخطيب البغدادي على
تفاوتها (٢٢) .

ولا يخفى ان الانفاق على الاسوار يستلزم
بحصة كبيرة من المبالغ المذكورة على بناء المدينة
المدورة لضخامة الاسوار وتعددتها وارتفاعها
وحصينها .

x x x

نجد اختلف الخططيون في تحديد المكان الذي
شيد عليه المنصور بغداد المدورة بالنسبة لبغداد
الحالية - لاندثار معالم الاولى وزوالها حتى انه لم
تبق من بقاياها حجارة واحدة ولا علامة يستدل بها
لتحديد موقعها .

وقد قلد اكثر الخططيين المعاصرين المستشرق
الكبير لسترنج في كتابه القيم « بغداد في عهد
الخليفة العباسية » وتابعوا خطاه ، ووقموا في اوامه
انني نبه عليها الاستاذان المرحوم مصطفى جواد
والاستاذ احمد سوسة اكثر من مرة (٢٣) .

ويستدل الاستاذان الفاضلان على وهم
لسترنج بنص يتقلاه عن ابن الطلفعي في كتابه
« المغزى » يقول فيه « ... ثم ارسل جماعة من
الحكماء ذوي الالب والعقل وامرهم بارتداد موضع ،
فاختاروا له مدينته التي تسمى مدينة المنصور وهي
بانجاب الغربي قريبة من مشهد موسى والجواد -
عليهما السلام - فحضر الى هناك ، واعتبر المكان
ليلا ونهارا فاستطابه وبنى به المدينة » (٢٤) .

فمن خلال هذا النص يريان ان مدينة المنصور
كانت قريبة من مقابر قريش التي دفن فيها موسى
انكاظم ومحمد الجواد . لا كما يجعل لسترنج حدها
قريباً من محلة ارمنة في اعصر العباسي [الجعفر
الحائبة]

وقد جره هذا الوهم الى انوقع في اوهام
اخرى تربت على اختلاطه بتعيين المسافات
والابعاد (٢٥)

ثم ان مدينة المنصور التي على الجانب الغربي
تقابل انرصافة الواقعة شرقي دجلة ، ان الرصافة
مجاورة لمحلة ابي حنيفة النعمان بن ثابت التي بنيت
حزل مقبرته ، كما يقول ياقوت (٢٦) ، ومقبرة ابي
حنيفة لما نزل باقية ، فبتحديد مكان مقبرة ابي
حنيفة نستطيع تحديد موقع المدينة المدورة التي
تبدو قريبة من مقابر قريش [انكاظمية الحالية] (٢٧)

كما ان يد العمران امتدت على موقعها تنزيل
الكثير من معالمها ، فاصبحت اكثر مواقعها مزارع
وبساتين منذ ازمان بعيدة .

واخيراً فان الناظر الى خارطة مجرى دجلة
التاريخية وتغيره بين العصر العباسي ايام بناء بغداد
وبين ايامنا هذه يدرك ان مجراه طغى على قسم من
المدينة المدورة فاصبحت في واديه .

ويرى الاستاذان مصطفى جواد واحمد سوسة
ان الاستاذ هرزفد قد قارب انصواب في تحديده
موقع مدينة السلام (٢٨) .

ويريان انها تقع بين الكاظمية من الشمال وبرانا
وانكرخ من الجنوب الغربي ودجلة من الشرق وقربة
سونابا [موضع مسجد المنطفة الحالي] ونهر
الصرة من الجنوب (٢٩) .

ويرى الاستاذ سوسة انها كانت تقع بين
انكاظمية وقربة الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ
الجنيد [مقبرة الشونيزي] والشيخ معروف
الكرخي من الجنوب الشرقي وقربة سونابا [المنطقة
الحالية] من الشرق (٣٠) .

x x x

صيروا في انصاف مائة الف لبنة واربعين الف لبنة الى اعلاه(٣٩) .

ويؤيد لاسنر راي هرزفلد وكرسويل في صحة الارقام التي ذكرها الخطيب بشأن عدد اللبن المستعمل في البناء ، ولما كان الميل الواحد اربعة آلاف ذراع اسود وان محيط السور اربعة اميال اي ستة عشر الف ذراع ، فيرى هرزفلد ان سمك الاسوار عند القاعدة يساوي عشرة اذرع ، وبهذا يكون عدد اللبن المستخدم في بنائها مائة وستين الف قطعة يضاف اليها الفين للابراج .

اما المائة والخمسون الف قطعة المستعملة في بناء الثلث الثاني [انقسم الاوسط] من السور فتكون سورا سمكه تسعة اذرع وربع الذراع يضاف اليها الفا للابراج .

وكان سمك الثلث الاعلى من السور ثمانية اذرع ونصف الذراع ، يضاف اليها اربعة آلاف قطعة في الاعلى للابراج والشرفات .

ويضيف لاسنر ان هذه الارقام تبدو مقبولة ظاهريا على الرغم من كونها لا تتفق وما تذكره المصادر العربية(٤٠) .

وذكر ان اللبن المستعمل في بناء المدينة المدورة كان بحجمين كبير وصغير . فالكبيرة مكعبة الحجم ، طول ضلعها ذراع في ذراع ، [اي حوالي نصف متر في نصف متر] (٤١)

وتزن الواحدة منها مائتي رطل(٤٢)

وقدر آخرون وزن اللبنة الواحدة منها بزهاء مائة وسبعة عشر كيلو غراما(٤٣) .

وقد ذكر الخطيب انه هدمت قطعة من السور مما يلي باب المحول ، فوجدنا فيها لبنة مكتوب عليها بمفردة [صبغة حمراء] وزنها مائة وسبعة عشر رطلا . قال فوزناها فوجدنا كذلك(٤٤) .

اما حجم اللبنة الصغيرة فيقدر نصف الكبيرة ، اي ذراع في نصف ذراع ووزنها مائة رطل على ما ذكر اليعقوبي(٤٥) .

وقد ذكر المؤرخون ان اباحنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب المشهور كان يتولى القيام بضرب اللبن وعده ، حتى فرغ من استتمام بناء حائط بغداد مما يلي الخندق ، وكان يعد اللبن بالقصب ، وهو اول من فعل ذلك فاستفاده الناس منه .

وكان ابو حنيفة قد رفض قبل ذلك طلب

أحاط أبو جعفر المنصور مدينة بغداد المدورة بسور يحميها وجعل لها اربعة مداخل وحفر حولها خندقا يحيط بالسور ، فقد ذكر اليعقوبي ان المسافة بين الباب والاخرى من خارج الخندق خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء(٣١) ، فيكون طول السور المحيط بها عشرين الف ذراع ، وقد اختلف في تحديد طول الذراع السوداء ، فهي (٤٩٣/٣) مليمتر ، اي قرابة الخمسين سنتمتر(٣٢) ، فيكون طول السور قرابة عشرة كيلومترات وبالضبط « ٩٨٦٦ مترا » .

ويرى آخر ان طول الذراع يساوي نحواً من خمسة وستين سنتمتر(٣٣) ، وحسب هذا التقدير يكون طول السور

$$65 \times 20.000 = 1300000 \text{ سم}$$

اي ثلاثة عشر كيلومترا .

ويقدر هنز طول الذراع السوداء بـ « ٥٤ر.٤ سنتمتر »(٣٤) .

فيكون محيط بغداد :

$$54.4 \times 20.000 = 1088000 \text{ مترا .}$$

والتقدير الاول اقرب للصحة وادق .

ويروي الخطيب عن رباح البناء - وكان ممن تولى بناء سور مدينة المنصور - انه كان بين كل باب من ابواب المدينة والباب والاخر ميل ، وبهذا يكون طول السور اربعة اميال(٣٥) ، والميل اربعة آلاف ذراع على ما يقول ياقوت في معجم البلدان .

وفي رواية اخرى للخطيب يقول : « ان المنصور جعل الطول من باب خراسان الى باب انكوفة ثمانمائة ذراع ومن باب الشام الى باب البصرة ستمائة ذراع »(٣٦) .

فالابواب بحسب هذه الرواية متناظرة لا متعامدة في قطرها(٣٧) .

ويشك لاسنر في كتابه عن خطط بغداد بصحة هذه الرواية ، لان ذلك يعني ان المدينة غير مدورة على ما يقول(٣٨) .

[ينظر شكل ١]

* * *

وبنيت الاسوار باللبن ، اذ يحوي الساف الواحد من اسواف السور مائة الف واثنين وستين الف لبنة من اللبن الجعفري ، حتى اذا جاوز البناؤون ثلث السور لقطوه فصيروه في الساف مائة الف لبنة وخمسين الف لبنة ، ولما جاوزوا الثلثين

قال الطبري : « وأمر [المنصور] أن يجعل عرضه من أسفله خمسين ذراعاً ، وقدر أعلاه عشرين ذراعاً . » (٥٥)

ويقدر كرزويل ارتفاعه بأربعة وعشرين ذراعاً على الأقل (٥٦) .

كما يذكر هرزفلد أن نسبة ارتفاع السورين الأول [الخارجي] إلى الثاني [السور الأعظم] هي أربعة إلى خمسة ، ويفترض أن ارتفاع السور الخارجي ثمانية وعشرون ذراعاً وسمكه ثمانية أذرع (٥٧) .

بينما يرى الاستاذان جواد وسوسة أن أحد السورين كان أعلى من الآخر بما يقرب من النصف ، وأن ارتفاع السور الأعظم مع الشرفات المدورة ستون ذراعاً بالذراع السوداء ، أي ثلاثون متراً على وجه التقريب (٥٨) .

ولم تشر المصادر التي بين أيدينا صراحة إلى أنه كان لهذا السور دعائم مدورة تدعمه مما يلي الخندق ، وإن كان هرزفلد يرجح وجود دعائم له تزيد من قوته وتدعمه كذلك التي في أسوار سامراء ، ولا يشترط فيها أن تستخدم لغاية حربية (٥٩) .

[ينظر شكل ٢]

× × ×

وفي السور أربعة أبواب بحسب المناطق والبلدان التي ينفذ منها إليها ، وكانت متقابلة ، فسمي الباب الشمالي الغربي باب الشام ، والباب الجنوبي باب الكوفة ، والباب الجنوبي الشرقي باب البصرة والباب الشمالي الشرقي باب خراسان (٦٠) .

والباب الأخير هذا كان يسمى أيضاً « باب الدولة » أو « باب الأفيال » لأقبال الدولة العباسية من خراسان (٦١) .

وكان كل باب قد خصصت لاهل مصر من الأمصار ، قال الخطيب : « إذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الكوفة ، وإذا جاء أحد من المغرب دخل من باب الشام ، وإذا جاء أحد من فارس والاهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة ، وإذا جاء الجائي من المشرق دخل من باب خراسان » (٦٢) .

كما ذكر الخطيب أن « للمدينة أربعة أبواب ، شرقي وغربي وقبلي وشمالي ، ولكل منها بابين ، باباً دون باب بينهما دهليز ورجبة . » (٦٣) ويفهم

المنصور بتعيينه قاضياً على المدينة ، لكن المنصور جملة يقبل بعمله في بناء بغداد (٤٦) .

واستعملت جوائز القصب مكان الخشب في بناء السور (٤٧) [والجوائز جمع جائز ، والجائز من البيت الخشبية التي يوضع عليها أطراف الخشب في سقف البيت . لسان العرب] وذكر ياقوت أن المنصور أمر أن يجعل في البناء جزر القصب مكان الخشب [والجزرة الحزمة . لسان العرب] .

وقد اعتاد العرب استعمال روابط من خشب أو حديد تشد أسوار البناء إلى بعضها (٤٨) .

× × ×

وحفر أبو جعفر المنصور خندقاً عميقاً حول أسوار المدينة المدورة من خارجها ، وأجرى فيه الماء من قناة تستمد مياهها من نهر كرخايبا الذي يتفرع من الفرات .

ولحماية السور من تأثير مياه الخندق المحيط به شيد مسناة محكمة عالية من جهة الأسوار مبنية بالأجر والصاروج (٤٩)

[والصاروج : النورة وإخلائها مما تصرح به الأحواض والحمامات . العرب للجواليقي] .

وذكر ابن رسته أن حافتي الخندق بنيتا بالجص والأجر (٥٠) .

واختلفت الروايات بشأن عرض الخندق ، فعرضه عشرون ذراعاً في رواية وأثنا عشر ذراعاً في أخرى (٥١) .

بينما يذكر ابن الفقيه أن عرضه كان أربعين ذراعاً (٥٢) .

ويشك لاسنر في صحة هذا الرقم ، إذ يرى أنه لو كان عرضه أربعين ذراعاً لوجب أن يربط بشاطئ دجلة المقابل له وأن تجعل عنده فُرْضة لوصول السفن إليه (٥٣) .

ولا بد لمن يدخل المدينة من عبور الخندق على فنترة تصل باب السور الخارجية بخارج المدينة .

[ينظر شكل ٢]

× × ×

وبعد الخندق مباشرة يأتي السور الأول الخارجي ، ويعرف بسور الفصيل ، نسبة إلى الفصيل الذي يحيط به من الداخل (٥٤) .

وهو أقل ارتفاعاً وسمكاً من السور الثاني الذي يعرف بالسور الأعظم .

من قوله ان ابواب السور الخارج [وهو السور الاول] كانت ثمانية ابواب .

ويغضي كل باب من ابواب السور الخارجي الى دهليز طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً .

قال الخطيب : « فاذا دخل الداخل من باب خراسان الاول عطف على يساره في دهليز ارج معقود بالأجر والجص ، عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون ذراعاً ، المدخل اليه في عرضه والمخرج منه من طوله » (٦٤)

وتختلف مساحة الدهليز في رواية اليعقوبي التي تقول ان المنصور : « جعل لأبواب المدينة اربعة دهليز عظاماً آزاجاً ، طول كل دهليز ثمانون ذراعاً ، كلها معقود بالأجر والجص ، فاذا دخل من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليزاً على السور الاعظم . » (٦٥)

ويتضح من وصف انخطيب ابواب السور الخارجي ان الباب الخارجي المطل على الخندق والمسناة ليست على استقامة قطر المدينة المدورة المار بمركزها والمخترق ابواب السور الاعظم والابواب المفضية الى الرحبتين والدهليزين ، بل لابد للمار من الباب الخارجي من ان يستدير نحو اليسار فيتعرض جانبه الايمن لسهام ورماح المدافعين عن المدينة ، لان المقاتل انما يحمل ترسه بيده اليسرى ويحمل سيفه او رمحه بيده اليمنى (٦٦) .

[ينظر شكل ٤]

وتجلى في هذا التصميم ميزة معمارية خاصة تحقق غاية حربية ، اذ يقول الطبري « وجعل [اي المنصور] ابوابها اربعة على تدبير العساكر في الحروب » ، وتلك الميزة البغدادية تعرف بـ « المحور المنكسر » لداخل الابواب ، وهو تقليد بغدادى اصيل نقله الصليبيون فيما نقلوه عن انشورق ونفذوه في تصميم قلاعهم على ما يذكر رايس (٦٧) .

ومن الابواب التي طبقت عليها هذه القاعدة الباب الوسطاني ، من ابواب سور بغداد اشرقية ، الا ان الداخل يتجه يمينا لا يسارا كما في سور المدينة المدورة .

[ينظر شكل ٥]

ومن هذه الخاصية اشتق اسم الزوراء ، قال ابن الفقيه وياقوت بعده ان بغداد « انما سميت بالزوراء لان المنصور حين عمرها جعل الابواب الداخلة مزورة عن الابواب الخارجة ، اي ليست على سمتها . » (٦٨)

والمسافة بين الباب والاخرى خمسة آلاف ذراع عنى ما ذكر اليعقوبي (٦٩) ، ولعل القياس مأخوذ من اجهة الخارجية كما يرى لسترنج ، وهي ميل على رواية الخطيب (٧٠) وياقوت (٧١) [والميل اربعة آلاف ذراع] (٧٢)

x x x

اما ابواب السور الخارجي ، فقد صير المنصور على باب خراسان الخارج [التي على السور الخارجي] باباً جيء به من الشام من عمل انغراغنة ، وصير على باب الكوفة باباً جيء به من الكوفة كان عمله خاند بن عبدالله انقري وامر باتخاذ باب لباب الشام فعمل ببغداد وهو اضعف الابواب كلها (٧٣) .

ولم يذكر الطبري الباب الرابعة التي جعلها المنصور على باب البصرة ولا الجهة التي جيء بها منها (٧٤) .

وعلى كل باب من ابواب السور الخارجي قبة ، وبين ابواب والاخرى من ابوابه ثمانية وعشرون برجاً عدا الابراج التي بين باب البصرة وباب الكوفة فانها تسعة وعشرون برجاً (٧٥)

وبذكر جواد وسوسة ان هذه الابراج كانت للسور انداخلي [الاعظم] (٧٦) .

ونست ثمة اشارة الى ان السور الخارجي كان محصناً بالابراج ، وان كان هرزفولد يحتمل وجود ركائز صغيرة مستديرة فيه كذلك التي في اسوار سامراء ، تؤدي غاية معمارية لا غاية عسكرية (٧٧) .

وتقدر المسافة بين البرج والاخر بستين ياردة استناداً لمعرفتنا بالمسافة بين الباب والاخرى ولعدد الابراج بينهما (٧٨) .

كما كان ارتفاع كل برج خمسة اذرع فوق السور (٧٩) .

وبعد السور الاول ارض خالية تدور بين السورين الاول والثاني اعدت لحركات الدفاع تسمى « الفصيل » وكانها تفصل بين السور واعمران (٨٠) .

وينقسم هذا الفصيل الى اقسام اربعة متناظرة متساوية وصفها الخطيب بانها « على نعت واحد وحكاية واحدة » (٨١) .

وقد ذكر اليعقوبي ان عرضه مائة ذراع بالذراع السوداء (٨٢) ، بينما ذكر الخطيب ان عرضه ستون ذراعاً (٨٣) .

وامر المنصور ان لا يسكن تحت انسور الطويل احد ولا يبني منزلا (٨٤) .

يدخل الى الفصلان الاربعة من رحاب اربعة بين السورين الخارجي والاعظم ، وهذه الرحاب مستطيلة طولها ستون ذراعا [اي بقدر المسافة بين السورين ، اي بمرض الفصيل ، كما يرى الخطيب] وعرضها اربعون ذراعا . ويتقضي ان يكون طولها مائة ذراع [لانها بقدر عرض الفصيل] كما ذكر النعماني .

ونقل منها في جانبها حائطان يفصلان الرحبة عن الغنصيل ، وعلى كل حائط باب يؤدي الى ربيع الفصيل ، فاناب اليمين يؤدي الى الفصيل اليمين بينما يؤدي اناب اليسر الى الفصيل اليسر (٨٥) .

والرحاب متشابهة متناظرة شأنها شأن الابواب والفصلان (٨٦) .

اما السور الثاني فهو السور الاعظم الذي يسميه الخطيب بـ « السور الداخل » ، وهو اعلى من السور الاول واضخم (٨٧) .

وقد ذكر النعماني ان عرض اساسه كان تسعين ذراعا بالذراع السوداء ، ثم ينحط حتى يصير في اعلاه خمسة وعشرين ذراعا (٨٨) وقال الخطيب « وعرض السور من اسفله نحو عشرين ذراعا » (٨٩) .

اما ارتفاعه فقد كان ستين ذراعا مع الشرفات على رواية النعماني (٩٠) ، وانه خمسة وثلاثون ذراعا وعليه ابرجة كما يقول الخطيب (٩١) وبالمقاييس المعاصرة حدده لسترنج فذكر ان ارتفاعه كان تسعين قدما وان عرضه في اعلاه اثنتا عشرة ياردة ونصف الياردة ، وعليه ابراج كبيرة وصغيرة ، وانه كان سوفا متينا كالمتراس مبنيا بالاجر (٩٢) .

لقد كان هذا السور اضخم من السور الاول [الخارجي] واشد احكاما ، اذ ذكر المؤرخون ان « للفصيل ابرجة عظام وعليه الشرفات المدورة » (٩٣) .

و « . . . كل برج منها فوق السور خمسة اذرع ، وعلى السور شرف » (٩٤) وكان لسترنج قد ذكر ان عنى السور ابراجا كبيرة وصغيرة وان ارتفاعه سفرة سبعة اقدام ونصف اعلى من مستوى اسور (٩٥) .

قال الخطيب « وقد جعل المنصور بين كل بابين ثمانية وعشرين برجا الا بين باب البصرة وباب الكوفة فانه كان يزيد واحدا » (٩٦) .

وبعملية حسابية بسيطة نستطيع معرفة

المسافة بين برج وآخر ، فالمسافة بين كل باب من ابواب السور والباب التي تليها اربعة الاف ذراع ، [ميل كما ذكر الخطيب] وعرض البوابة اربعون ذراعا ، فالمسافة بين الباب والاخرى من السور هي (٣٩٦٠ ذراعا) ، ويقسمتها على عدد الابراج وهو (٢٩) يكون الناتج (١٣٦٥ ذراعا) اي حوالي (٦٨ مترا) وهي المسافة بين البرج والاخر (٩٧) .

ويقدر لسترنج المسافة بين كل برج والذي يليه بستين ياردة بناء على طول السور وعدد الابراج التي فيه (٩٨) .

ولم تذكر المصادر العربية هيئة تلك الابراج ولا وصفها ، الا ان كرزويل يرى انها من غير شك كانت على هيئة نصف مستديرة وانها تشبه تلك التي كانت في هرقة وابراج قصور وجوامع واسوار سامراء (٩٩) .

ويقدر هرزفند ارتفاع كل برج عن الارض بمائة ووحدة واربعين ذراعا وان هذه الابراج لم تكن مجرد مساند ودعامات بل هي ابراج ذات تجاويف بازرة وحجرات يكمن فيها الرماة ، وان هذه الابراج يفترض انها كانت مستديرة كما كان شأنها يومذاك (١٠٠) .

تقدم المنصور الناس من السكن تحته ومن بناء منزل يلاصقه ، اما من الخارج فقد كان يحيط به الفصيل الاول (١٠١) .

ومن الداخل كان يحيط بالسور الاعظم شارع يفضي الى الابواب الاربعة ، وكان هذا الشارع - وعرضه خمسة وعشرون ذراعا - يخرج من الرحبة اثنائية ويدور تحت انسور ومنه تبدأ مداخل السكك (١٠٢) .

ويدخل الى السور الاعظم من دهليز ازج معقود بالاجر والجص طوله عشرون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا (١٠٣) . عليه بابا حديد جيلان (١٠٤) .

قال النعماني : وكان فوق البوابة الرئيسية في السور الاعظم « قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها مجالس ومرتفات يجلس فيها فيشرف على كل ما يعمل به » (١٠٥) .

و « يصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والاجر وبعضها باللبن العظام قد عملت ازجا ، بعضها اعلى من بعض ، فداخل الازاج للمرابطة والحرص ، وظهرها عليها المصعد الى اقباب التي على الازج على دواب ، وعلى المصعد ابواب تغلق » (١٠٦) .

وذكر الخطيب ان على كل ازج من ازج ابواب

هشام بن عبدالمك ، وكان المنصور قد عمل رتاجا لباب الشام وكان اضعف الابواب ، ويظهر انه وضع في باب البصرة رتاجا من ارتجة خمسة امر بجلبها من واسط كانت على ابواب الحجاج ، وكان الحجاج وجدها على مدينة زندورد التي كانت بازاء واسط (١١٥) .

قال الطبري : « للمدينة ثمانية ابواب ، اربعة داخله واربعة خارجة ، فصار على الداخلة اربعة من هذه الخمسة [التي نقلها من واسط كما ذكرنا] ، وعلى باب القصر الخارج الخامس منها » (١١٦)

وكانت هذه الابواب مرتفعة يدخل الفارس بالعلم والرمح الطويل من غير ان يميل انعلم ولا ينهي الرمح (١١٧) .

ولم تتوفر لدينا ارقام تعين حجم هذه الابواب ، الا ان هرزفند يذكر ان طول الرمح الذي يستعمله العربي في العصر الحديث هو عشرة اذرع ولذا فهو يفترض ان ارتفاع قوس الباب كان عشرة اذرع ، وكأنه لم يحسب حساب الحصان ، لقد كانت نسبة طول ابواب سامراء الى عرضها هي نسبة ثلاثة الى اثنين ، وعليه يرى لاسنر ان عرض ابواب بغداد ستة اذرع وثلاث اذراع (١١٨) .

لقد كان نقل الابواب من مدينة لاخرى من الاشياء المتعارف عليها في تلك الازمان (١١٩)

ويظن لاسنر ان ذلك كان عملا رمزيا يعبر عن سلطة الحكام والخلفاء (١٢٠) .

وقد ظلت هذه الابواب طويلا حتى ذكر الخطيب انه « في سنة تسع وثلاثمائة وقد كسرت العامة الجوس بمدينة المنصور ، فافتت من كان فيها ، وكانت الابواب الحديد للمدينة باقية ، فغلقت وتبع اصحاب الشرط من اقلت من الجوس فاخذوا جميعهم حتى لم يفلت منهم احد » (١٢١)

ويدخل من الباب الكبير [الذي في السور الكبير] الى دهليز ارج معفود بالجص والاجر ، طوله عشرون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا (١٢٢) .

ويفضي الدهليز الى رحبة مفروشة بالصخر (١٢٣) « مربعة ، عشرون ذراعا في مثلها ، على يمين الداخلة اليها طريق وعلى يساره طريق يؤدي اليمين الى باب الشام واليسر الى باب البصرة ، والرحبة كالرحبة التي وصفنا [في الحديث عن السور الخارجي] ثم يدور هذا الفصيل على سائر الابواب بهذه الصورة ، وتشرع في هذا الفصيل ابواب

السور مجلس له درجة على السور يرتقى اليه منها ، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة في السماء سمكها خمسون ذراعا مزخرفة (١٢٤) .

تقوم هذه القبة على اعمدة من الساج ، ويرجع انها كانت مغطاة بالقرميد ، وارتفاعها من الداخل خمسة وسبعون قدما ، اما داخلها فقد كان مزخرفا بنقوش ذهبية (١٢٥) وكانت القبة خضراء (١٢٦) .

وكانت هذه القبة مجلس المنصور اذا احب النظر الى الماء ، والى من يقبل من ناحية خراسان ، وقبة على باب الشام كانت مجلس المنصور اذا احب النظر الى الارياض وما والاها ، وقبة على باب البصرة كانت مجلسه اذا احب النظر الى الكرخ ومن اقبل من تلك الناحية ، وقبة على باب الكوفة كانت مجلسه اذا احب النظر الى البساتين والضياع (١٢٧)

وعلى راس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره (١٢٨)

[ينظر شكل - ٦ -]

ابواب مدينة المنصور

وعلى كل باب من ابواب المدينة باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منه فردان (١٢٩) .

وهذه الابواب ضخمة يقول اليعقوبي « لا يلق الباب الواحد منها ولا يفتحه الاجماعه رجال » (١٣٠)

لقد جيء بابواب سور بغداد من اماكن شتى نصبها على السور وجعل احدها على باب القصر . قال الطبري : « وذكر ان ابا جعفر احتاج الى ابواب للمدينة ، فزعم ابو عبدالرحمن الهمامي ان سليمان ابن داود كان بنى مدينة بالقرب من موضع بناء الحجاج واسطا يقال لها الزندورد ، واتخذت له الشياطين خمسة ابواب من حديد لا يمكن الناس اليوم عمل مثلها فنصبها عليها ، فلم تزل عليها الى ان بنى الحجاج واسطا ، وخربت تلك المدينة ، فنقل الحجاج ابوابها فبصرها على مدينته واسط ، فلما بنى ابو جعفر المدينة المدورة اخذ تلك الابواب فنصبها على المدينة ، فهي عليها الى اليوم » (١٣١) .

بينما يذكر الاستاذان جواد وسوسة ان المنصور جلب لابواب مدينته رتاجات لا ابوابا ، لا يلق الرتاج الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة رجال لضخامته ... فرتاج باب خراسان الخارجي جاء به المنصور من الشام من عمل افراغنة ، وجاء برتاج باب الكوفة من الكوفة وكان قد عمله خالد بن عبدالله القسري والى الكوفة ايام

المدورة - وعلى ايامه - بناء على نصيحة احمد مقريه ، اذ رأى في بقائها داخل المدينة المدورة مصدر خطر ، اذ يدخلها الجواسيس والغرباء ويتقلون اسراره بحجة البيع والتجارة (١٣١) ، كما انه بنى في سنة سبع وخمسين مائة للهجرة قصرا جديدا خارج اسوار بغداد المدورة ، على نهر دجلة من جهة باب البصرة سماه قصر الخلد (١٣٢) .

ولم يتوقف العمران ببغداد ، حتى لقد روى ابن الفقيه عن ابن يزيد الحرابي ومحمد بن نصر الدلائين وهما شيخان مستوران قد اسنا « انا لتركض على حميرنا في حواشي بغداد واوساطها منذ سبعين سنة دلالة ما يباع من المنازل والعقارات وسائر العقد والمستغلات في الليل والنهار والغلو والأصال ، وانا لمر في ايامنا بل في الزمان جميعا يباع لا عهد لنا بها ، ودور لا معرفة لنا بشيء منها ، وبمسالك لا تحيط بها اوهاطنا ولا سلكتناها قط » (١٣٣) .

وهذا النص يشير صراحة الى استمرار العمارة واتصالها ، وقد اشار اليعقوبي الى ان القطائع والشوارع وانسكك قد تغيرت على ما رسمت ايام المنصور ووقت ابتدائها ... ولم تخرب ببغداد (١٣٤)

وعلى الرغم من سعة بغداد وبناء الناس خارج اسوار المدينة المدورة الا ان المصادر لم تذكر لنا شيئا عن سور يحيط بالعمران الجديد ، وان كنا نلمس في اثناء النصوص ما يدل على وجود سور وذكر من خلال ذكر بعض الابواب والتي يفترض ان تبنى على سور .

لقد بنى اكرتسور مدينة المنصور بالبسن وتماقت عليه احداث شتى من فيضانات وهدم اسهمت في خرابه ، من تلك الاحداث الفيضان الذي وقع في سنة ثلاثين وثلاثمائة والذي تسبب بهدم طاقات باب الكوفة وغرق بغداد الغربية ودخول الماء مدينة المنصور [المدورة] ، فقد ذكر الخطيب بان البثق انبثق من قبين ودخل الماء الأسود المدينة وهدم طاقات باب الكوفة وبيوتا كثيرة حتى اضطر البعض الى ترك بيوتهم الى اماكن آمن ، ثم اصلح السور (١٣٥) .

ومر بنا في حوادث الحرب بين الاخوين الامين والمأمون ان جيش طاهر بن الحسين حاصر بغداد الغربية ، ورأى طاهر اخيرا وجوب ضرب المدينة المدورة التي دافع عنها رجال الامين بقوة وجلد بعد ان التجأ اليها الامين (١٣٦) .

فاصببت اسوار المدينة المدورة باضرار جسيمة

السكك ، وعرض كل فصيل من هذه الفصلان من السور الى افواه السكك خمسة وعشرون ذراعا (١٣٤) .
وامر المنصور ان يبنى في الفصيل الثاني مع السور التازل لانه احصن للسور (١٣٥) .

قال الخطيب : « ثم يدخل من الرحبة [الثانية] التي وصفنا اى الطاقات ، وهي ثلاثة وخمسون طاقا سوى طاق ، المدخل اليها من هذه الرحبة ، وعليه باب ساج كبير فردين ، وعرض انطاقات خمسة عشر ذراعا ، وطولها من اونها الى الرحبة التي بين هذه الطاقات والطاقات الصغرى مائتا ذراع . وفي جنبتي الطاقات بين كل طاقين منها غرف كانت للمرابطة ... ثم يخرج من الطاقات الى رحبة مربعة عشرون ذراعا في عشرين ذراعا ، فعن يمينك طريق يؤدي الى نظيرتها من باب الشام ، ثم تدور الى نظيرتها من باب الكوفة ثم الى نظيرتها من باب البصرة » (١٣٦)

x x x

وبنى الخليفة سجنه الكبير المعروف بـ « المطبق » في الربع الجنوبي للفصيل الاول الذي بين باب البصرة وطريق باب الكوفة بين السورين (١٣٧)

وقد سميت السكة التي يقع فيها هذا السجن بـ « سكة المطبق » .

لقد ذكر لسترنج ان المنصور شيد سجنه الكبير قبالة باب الشام . وكان يعرف بسجن باب الشام ، وان العامة كسرت في فتنة سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة ايام العامل سليمان الطاهري ، فتنبهم اصحاب الشرط حتى امسكهم جميعا (١٣٨) ، وهذا السجن غير سجن المطبق كما ترى من ذكر مكانه .

وكان المطبق متين البناء قوي الاسس بناه المنصور تحت الارض فكان شديد الظلام ، وقد زج فيه الكثير من مناوليه ، وكذلك فعل من جاء بعده من الخلفاء ، وقد ظل هذا السجن قائما الى ما بعد عهد الخليفة المنتدر بالله (١٣٩) .

x x x

ولم يعط التخطيط الدائري المدينة المدورة اسباب النمو ، فلم تستوعب السكان ، مما اضطر الى اهمال التخطيط الدائري تدريجيا ، فامتد البناء سريعا خارج الاسوار وفي فترة قصيرة عبر الى الجانب الشرقي (١٤٠) .

ورايانا ان المنصور اخرج الاسواق خارج المدينة

يجدوا منها عوضا ، حتى لقد اتصلت العمارة
والمنازل بين بغداد وسامراء(١٤٤) .

وتعود الحياة اليها من جديد فتصبح مسرحا
صاخبا لصراع مرير على الخلافة بين المعتز
والمستعين .

اسوار المستعين

ففي سنة مائتين واحدي وخمسين للهجرة
بايع اجندل الاتراك بسامراء المعتز بانه خليفه ، ففر
المستعين مع جماعة من رجاله الي بغداد ، وكانت
مواقفه بغداد يوم الاربعاء ثلاث ساعات مضين من
اشهار لاربعة ايام - وقيل لخمس ايام - خلون من
الحرم من هذه السنة(١٤٥) .

ونزل في دار محمد بن عبدالله بن طاهر واني
ببغداد وبمذاك ، وكان عون المستعين في حربه ضد
الاتراك الذين تبعوه واصحابه فحاصروا بغداد
واستمر حصارهم سنة تقريبا ، وبانضبط حسي
الاربع من محرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين(١٤٦) .

وحماية المدينة بشيء المستعين سورين حول
المدينة يدافع عنها ، يحيط الاول بالجانب الشرقي
ويضم محلات الشماسية والرصافة والحرم من
الشمال الي الجنوب ، ويبدأ من دجلة قبالة قصر
حميد بن عبدالحميد ويمر بسوق اثلاثاء حتى يصل
الي باب ابرز ثم ينحرف الي الشمال الغربي ويسير
بمحاذاة دجلة من اشرق فيجتاز في طريقه باب سوق
الدواب وباب خراسان ثم بمحاذاة نهر السور فيصل
الي باب البردان ومن ثم يميل الي الغرب فيجتاز
باب اشماسية وينتهي الي ضفة دجلة قبالة فرضة
[مرقا] الخندق الطاهري حيث يبدأ سور الجانب
الغربي من المدينة(١٤٧) .

ويحيط السور الثاني بالمحلات المهمة حول
مدينة المنصور المدورة في الجانب الغربي ، ويبتدي
من ضفة دجلة عند فرضة الخندق الطاهري متتبعا
الجانب الايمن حتى باب الانبار ، ومن ثم ينحرف
الي اجنوب الشرقي متتبعا ضفة نهر عيسى ثم
ينتهي ثانية بدجلة(١٤٨) .

ويقوم من حدود السورين الشرقي والغربي
النفذين ذكرهما الاستاذان جواد وسوسة ان
الجانبين المحصنين بالاسوار كانا متقابلين .

ان المصادر العربية القديمة لم تذكر حدود
السورين بوضوح الا ان الاستاذ لسترنج استطاع

نتيجة رمي المنجنيق عليها حيث ان طاهرا احاط
بها ... ونصب المجانيق حول السور .

ووصفها المفدسي البشاري في الربع الاخير من
القرن الرابع للهجرة فقال : « ... اما المدينة فخراب
والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك
الخراب ، اعمر موضع بها قطعة الربيع والكرخ في
الجانب الغربي »(١٤٧) .

على ان ابواب السور الكبير الاربعة ظلت باقية
حتى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وكذلك
الدهاليز(١٤٨) .

وانه في سنة سبع وثلاثمائة كسرت العامة
الجوس بمدينة المنصور فاقلت من كان فيها ،
وكانت الابواب الحديد للمدينة باقية فغلقت وتبع
اصحاب الشرط من اقلت من الجوس فاخذوا
جميعا حتى لم يبق منهم احد(١٤٩) .

الرصافة

قدم المهدي مع عسكره من الحمديية بالسري
الي بغداد في سنة احدى وخمسين ومائة ، فامر
ابوه المنصور ان يمسك بالجانب الشرقي من بغداد
ويبنى له ولاصحابه دورا ، فبنى له سورا وحفر
خندقا وغرس بستانا وسماها « عسكر المهدي »
اولا ، الا ان اسم الرصافة غلب عليها(١٥٠)

وكان جامع الرصافة قد اُسس قبل ذلك
التاريخ اي في سنة ثلاث واربعين ومائة ، ولم يقم
العمران حوله حتى عودة المهدي(١٥١) .

نقد كان الجامع اول بناء شيد في ذلك الجانب ؛
وكان الفراغ من بناء الرصافة وبناء جامعها في سنة
تسع وخمسين ومائة للهجرة وهي السنة الثانية من
خلافة المهدي(١٥٢) .

تقع الرصافة مقابل المدينة المدورة على انجانب
الشرقي لدجلة ويربطها بالمدينة المدورة جسر .

وسرعان ما ساوت الرصافة بغداد اشرقية
في المساحة(١٥٣) .

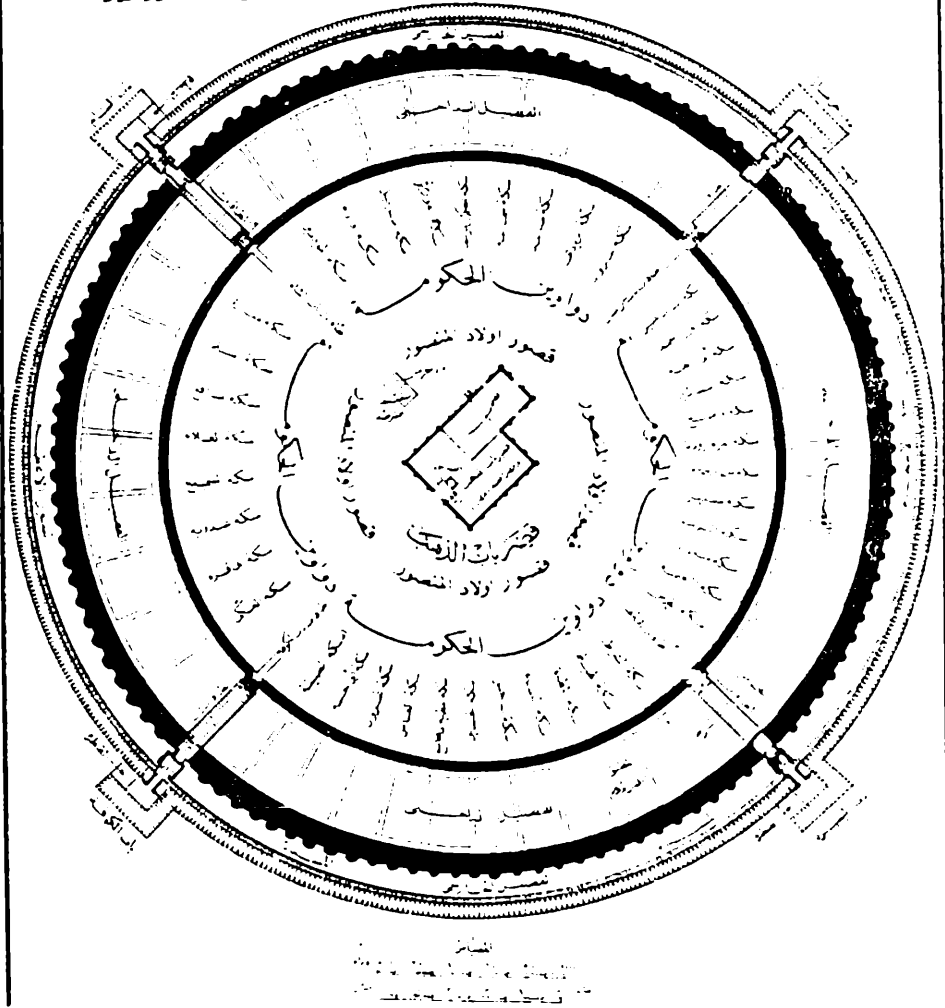
ولم تسعفنا المصادر التي بين ايدينا بما يعين
على وصف سور الرصافة .

x x x

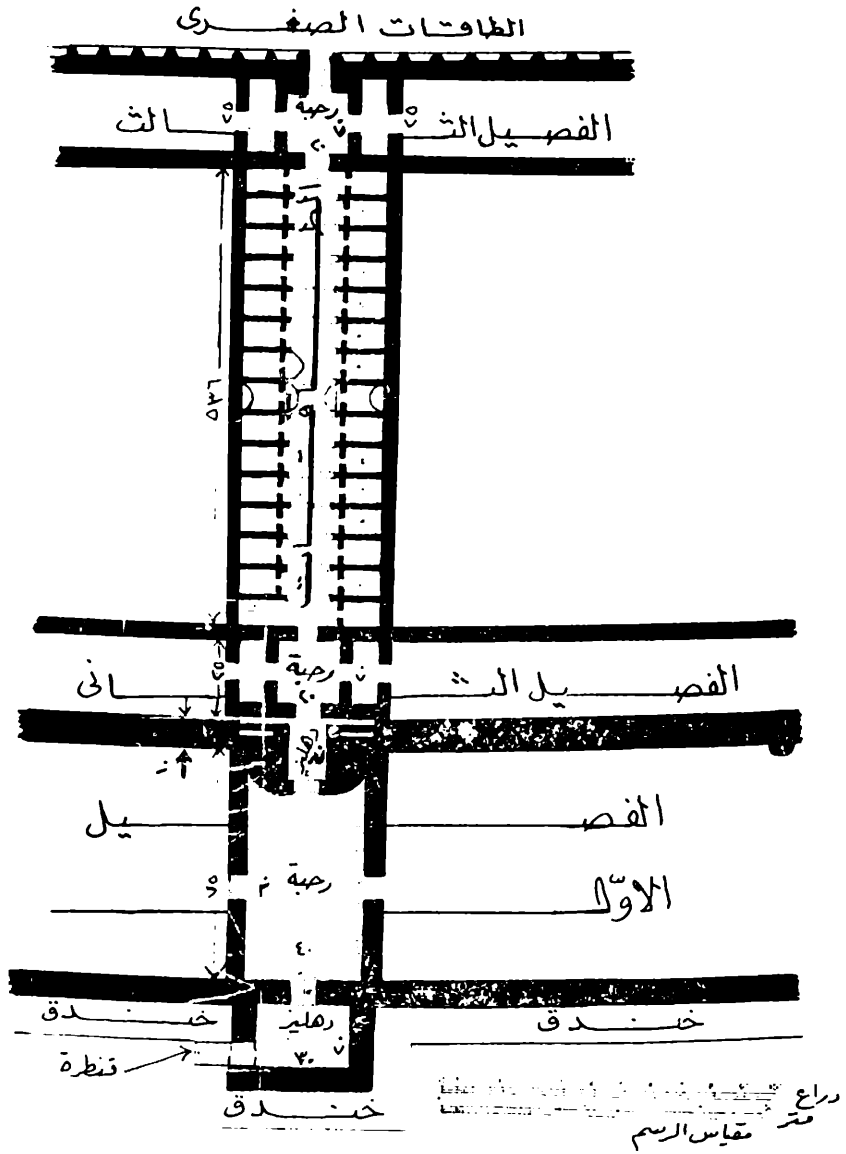
وينتقل المعتصم الي سامراء في سنة ثلاث
وعشرين ومائتين ، فتصبح عاصمة الخلافة انباسبية
طيلة مقامه بها مدة حياته وايام الواثق والمتوكل ،
ولم تخرب بغداد ولا تقضت اسواقها ، لانهم لم

مدینة المنصور المدورة

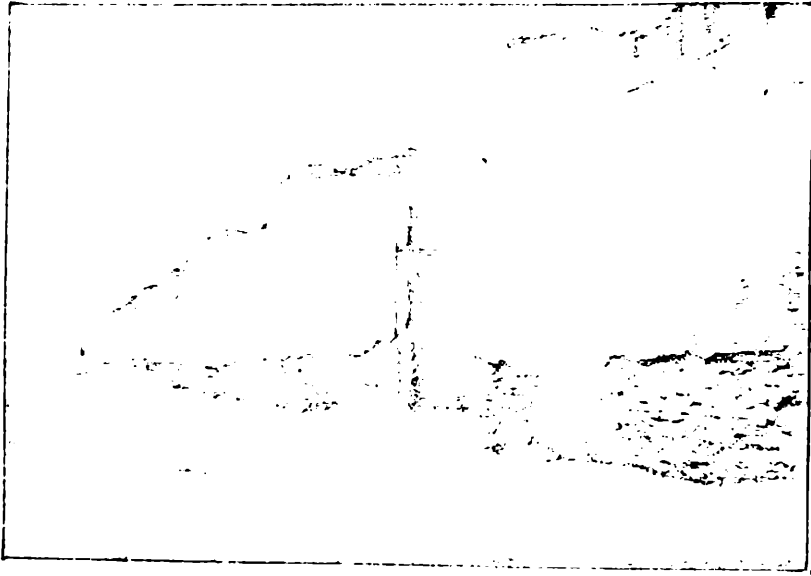
تصميم الدكتور عطفی بهرام والدكتور امرتسيه



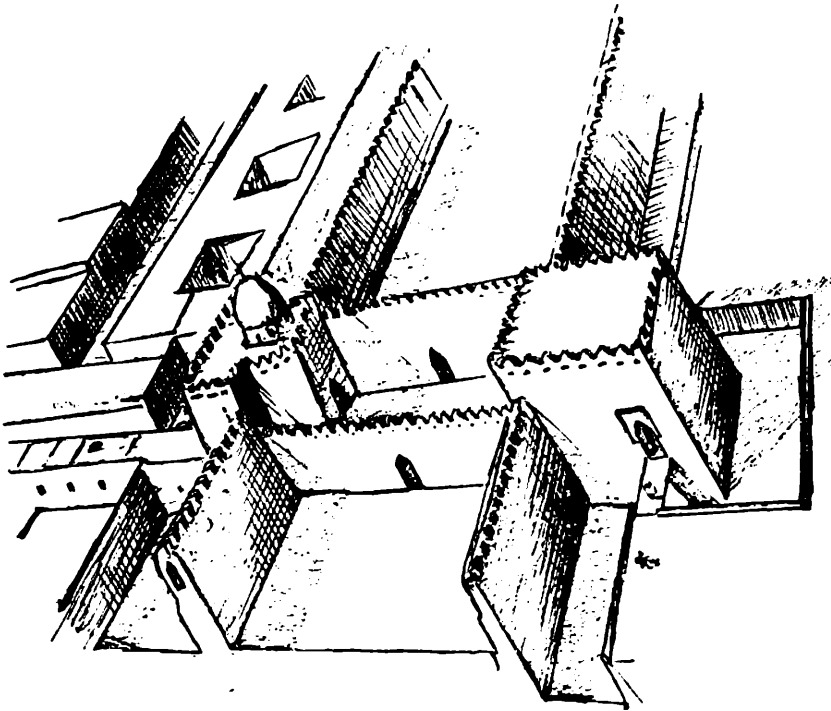
شكل (١) ويمثل مخططا لاسوار المدينة المدورة وابوابها وسككها وطاقتها ودهاليزها ورحابها وفصلاتها



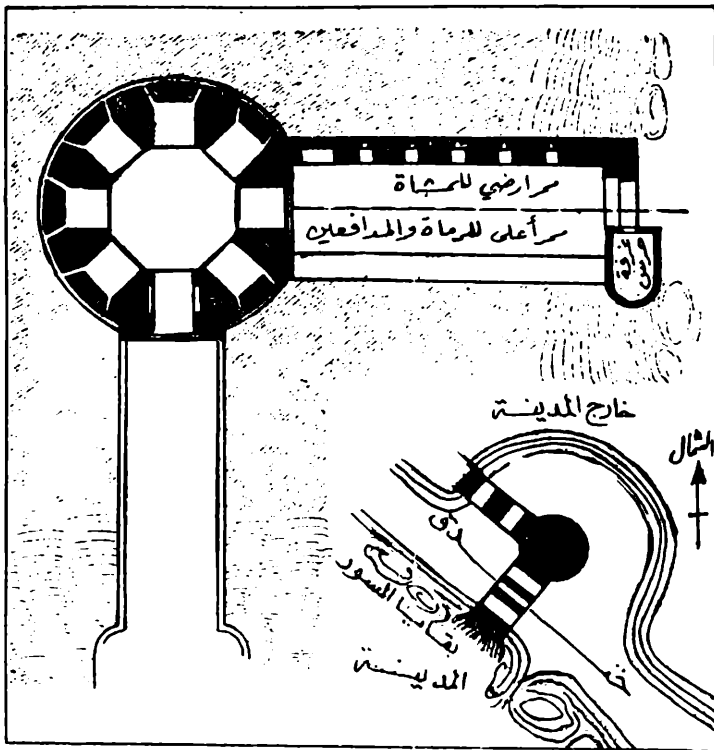
شكل (٢) مخطط لاسوار المدينة المدورة ورحابها ودهاليزها وطاقتها (عن هرزفيلد)



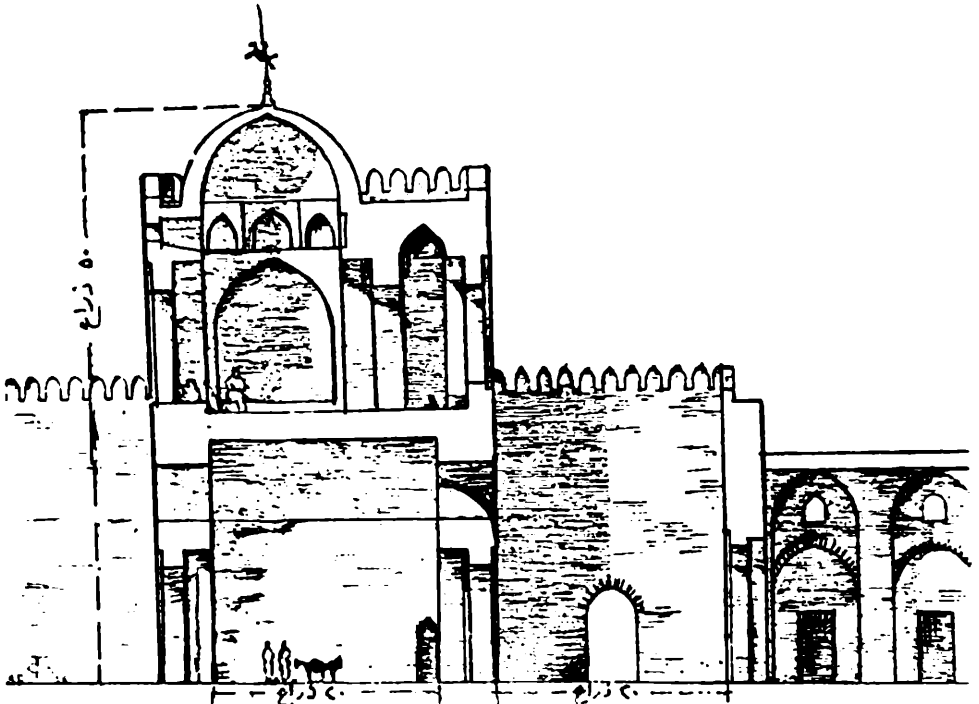
شكل (٣) اسوار جامع سامراء



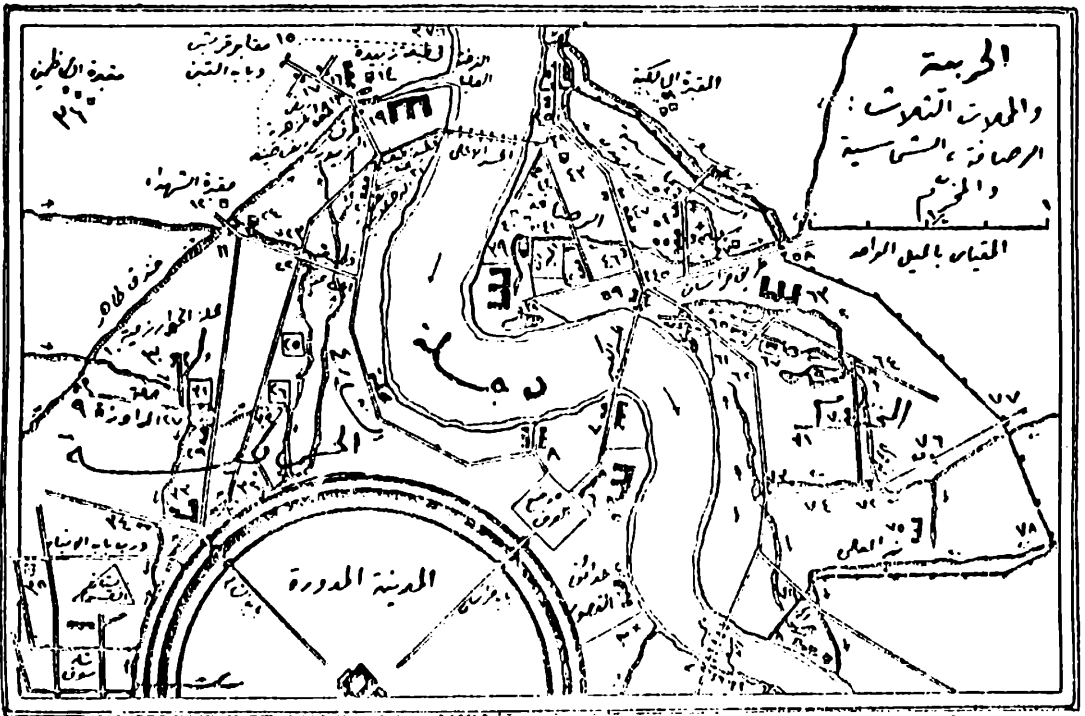
شكل (٤) مصور لمدخل سور بغداد المدورة (عن سار وهرزفلد)



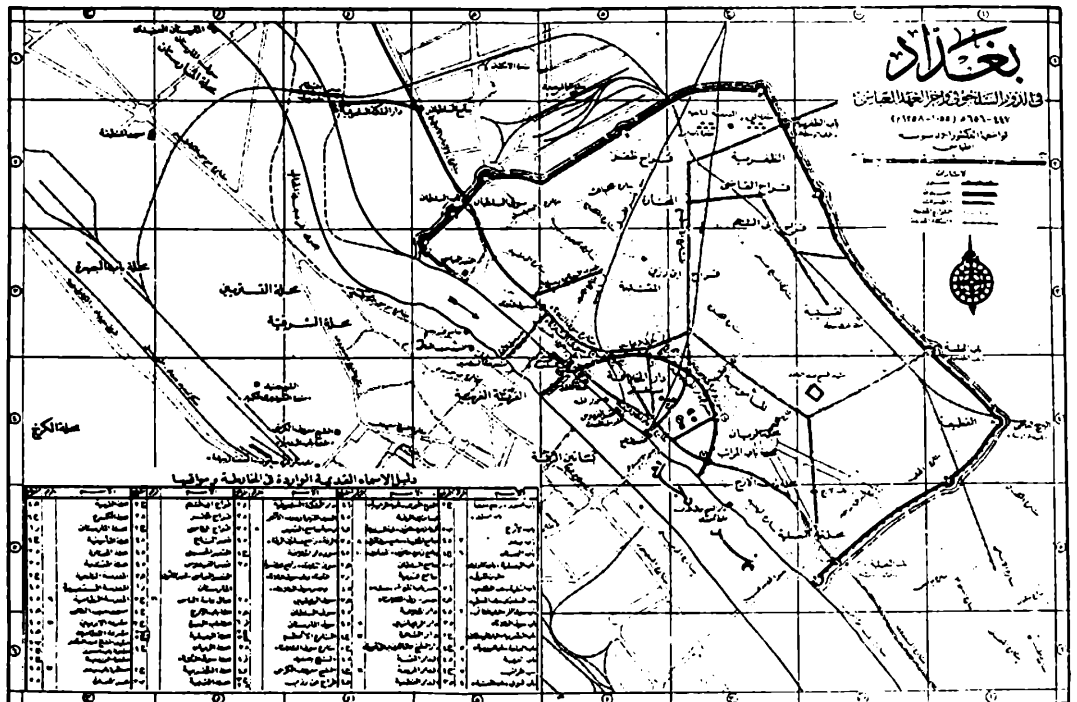
شكل (٥) مخطط الباب الوسطاني (عن كتاب بغداد « اصدرته نقابة المهندسين » ص ٢٥١)



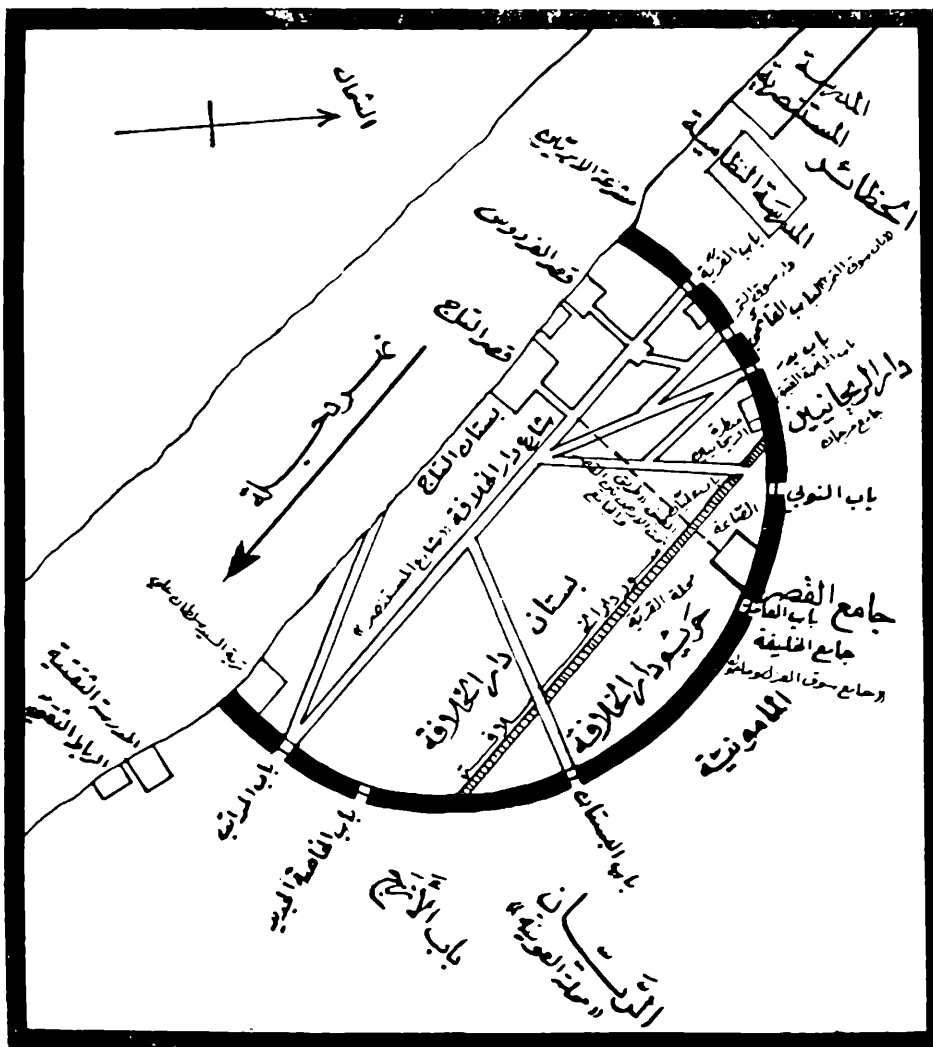
شكل (٦) مقطع للقبّة على بوابة السور الاعظم (عن سار وهرزفيلد)



شكل (٧) محلات الرصافة والشماسية والمخرم وحولها سوار المستعين كما رسمها لسترنج



شكل - ٩ - ، رسم خارطة بغداد الشرقية وبيد وفتح سور بغداد الشرقية وابوابه ، داخله سور حريم دار الخلفاء



شكل (٨) خارطة سور دار الخلافة كما حققها المرحوم الدكتور مصطفى جواد

معرفة حدود السورين من تقصيه اخبار الحصار
وهجمات الاتراك وتحصينات المستعين (١٤٩) .

[ينظر شكل - ٧ -]

ويأمر المستعين بحفر الخنادق حول السورين
وانشاء مظلات يأوي اليها الفرسان من الحر
والمطر (١٥٠) .

بلغت نفقة بناء السورين وحفر الخنادق واقامة
المظلات ثلاثمائة الف دينار وثلاثين الف دينار (١٥١) .

وتم بناء السور بسرعة عجيبة فقد ذكر الطبري
ان المستعين وافى بغداد الاربعة ايام وقيل لخمسة
ايام مضين من الحرم (١٥٢) ، ثم نجده يقول : « وكان
الفراغ من عمل السور يوم الخميس لسبع بقين من
الحرم » (١٥٣) .

فلا ندري مبلغ هذا السور من التحصين
والمنعة وقد انشيء في ثمانية عشر يوما كما رأينا ،
على ان يد الأمانة والاصلاح لم تغفله ، ولعل
المدافعين عنه كانوا مستمرين على اصلاحه وتغويته
والاضافة اليه .

واغفل المؤرخون الحديث عن هذا السور
وتحصيناته وكل ما وصفتنا لا يتعدى وصف الطبري
لابوابه ، فقد ذكر ان المستعين جعل على باب
الشماسية خمس شداخت بعرض الطريق فيها
العوارض والمسامر الطوال الظاهرة (١٥٤) .

وجعل للسور ابوابا داخلية واخرى خارجة ،
بينها دهاليز مقفلة يسع كل دهليز مائة فارس
ومائة راجل ، ولم يذكر مساحتها ، وجعل على
الابواب الخارجية المجانيق والاعدادات [الفرادة
اصفر من المنجنيق] لحمايتها ، اما الابواب الداخلة
فقد جعل من خارجها بابا معلقا بحبل بمقدار الباب ،
نخين ملبس بصفائح الحديد ، يشد بالرجال . حتى
اذا هوجمت الابواب ارسلت حباله فسقط وقتل
من يحاول اقتحام ابواب السور من المهاجمين (١٥٥) .

وامر المستعين وقواده بهدم ما وراء سور
الجانب الشرقي من دور وحوانيت ويقطع النخيل
والاشجار المحيطة بالسور لكي لا يتخذها المهاجمون
سترا يستترون وراءه وتنتسع الناحية على من
يحارب فيها (١٥٦) .

× × ×

روي الحميري عن احمد بن ابي طاهر انه اخذ
الطول من الجانب الشرقي من بغداد للامير الناصر
لدين الله [ابو احمد طلحة الموفق] عند دخوله

مدينة السلام فوجد مائتي حبل وخمسين حبلا
وعرضه مائتي وخمسة احميل ، ووجد طول الجانب
الغربي مائتين وخمسين حبلا وعرضه خمسين
حبلا (١٥٧) [والجبل ضلع ارض مساحتها جريب ،
وتجريب ثلاثة الاف وستمائة ذراع مربع . فيكون
طول الحبل ستين ذراعا] .

كما ذكر الاستاذ الدوري انه في سنة تسع
وسبعين ومائتين للهجرة كان طول بغداد سبعة
كيلومترات وربيع الكيلومتر وعرضها ستة
كيلومترات ونصف الكيلومتر (١٥٨) .

ونقل في ما ذكرت ما يعين على تقدير اطوال
اسوارها وتصور مقدارها .

ويفهم من اخبار معارك المستعين وحصار
الاتراك له ان لسور بغداد الشرقية عدة ابواب هي
باب الشماسية الى الشمال وباب خراسان الى
الشرق ، اما ابواب السور الغربي فمنها باب قطربل
وباب الحديد وباب الانبار (١٥٩) .

× × ×

وعلى مدار سنة تامة يشتد قتال المهاجمين
ورميهم السور بالمجانيق ، فتمرض سور الجانب
الغربي لتصدع بعض اجزائه وتهدمها ، وسرعان
ما بنى المدافعون ما تهدم منه (١٦٠) .

وبنهار سور المستعين تدريجيا ، اذ كيف
يصمد سور شيد في عجالة من الوقت بوجه قتال
ضار وهجوم شديد ، كما ذكر المؤرخون ان فيضان
سنة ثلاثين وثلثمائة اغرق بغداد الغربية فتهدمت
مبان عديدة منها سور المستعين على جانبي
بغداد (١٦١) .

ويعود الخلفاء العباسيون الى بغداد ثانية
فتصبح مركز خلافتهم بعد تركهم سامراء وكان اول
خلفائهم ابو العباس المعتضد بالله (١٦٢) .

وقبل ذلك كان الناصر لدين الله ابو احمد
طلحة الموفق [اخو الخليفة المتمدن] قد ترك
سامراء واقام ببغداد اذ اتخذ منها مركزا لقيادة
حملاته ضد الزنج النافرين ، وكان ذلك تمهيدا
لانتقال مركز الخلافة الى بغداد (١٦٣) .

وتوسع بغداد في نهاية القرن الثالث الهجري
توسعا كبيرا بالقياس الى ما كانت عليه في اوله ،
وربته العمران نحو الجنوب رغبة من الخلفاء في
الاعتماد عن صخب بغداد وزحامها فقد ذكر ابن الجوزي
ان المعتضد كان يقول « كيف يفلح بلد يخالط هواه
هذا ؟ » وأشار الى الدخان (١٦٤) .

يجاورها فذكر ان ذلك مثل مدينة شيراز (١٧١) وقد قدر ياقوت مساحتها بثلاث بغداد (١٧٢) .

وجميع ما يشتمل عليه السور الدائري يسمى حريم دار الخلافة ويضم دار الخلافة وقصور الخلفاء كما يضم محال واسواقا ودورا كثيرة للزراعة (١٧٢) ، واصل الحريم من حريم البئر وهو ما حولها من حقوقها ومراقفها ثم اتسع فقيل لكل ما يتحرم به ويمنع منه حريم ، وبذلك سمي حريم دار الخلافة ببغداد (١٧٤) .

يجتاز الخارج من دار الخلافة سورا له ابواب يقع شرقي دار الخلافة ويعزلها عن منازل الزرية . فدار الخلافة وقصورها تقع بين هذا السور من الشرق ونهر دجلة من الغرب .

وبعد اجتياز تلك الابواب يمر بحريم دار الخلافة (١٧٥) .

ودار الخلافة والحريم يحيط بهما سور دائري ذي تسعة ابواب ، وقد غفيت آثار السورين الى حد يصعب تعيين موقعهما ، يضاف الى ذلك ان الخطيين اقدمي لم يذكروا علما باننا صمد على حوادث الزمان يمكن ان يستدل به على تحديد اي منهما ، الامر الذي اوقع المعارفين بخط بغداد ومعالها التاريخية في شك وربب . وينقل المرحوم الدكتور مصطفى جواد عن ياقوت انه عد جامع القصر [الذي من بقاياها جامع سوق الغزل الحالي] من حريم دار الخلافة ، بينما ينقل عن الخطيب ان باب العامة [من ابواب حريم دار الخلافة] ملاصق لجامع القصر ، فاختلط الامر حتى على المرحوم مصطفى جواد فلم يدر ان كان الجامع داخلا كله في الحريم ام اكثره ام بعضه (١٧٦) .

حريم دار الخلافة

يحيط بحريم دار الخلافة ودار الخلافة سور كهية الهلال او نصف دائرة (١٧٧) يتدي من ضفة دجلة جنوب محلة سوق الثلاثاء . وعند شريعة السموال (١٧٨) شرق المدرسة الرجانية وينتهي عند دجلة جنوبا عند شريعة المربعة الحالية او نحوها تحت قصر التاج (١٧٩) ، ويصعب ضبط موقع الحد الجنوبي لعدم وجود اثر يمكن اعتماده في تحقيق الموضوع ، ويقدر المرحوم مصطفى جواد الحد الجنوبي عند قبر السيد سلطان علي (١٨٠) .

[ينظر شكل - ٨ -]

لقد امتد البناء لمسافات كبيرة خارج اسوار المستمين فنبيت دار الخلافة خارج المخرم وامتدت بساكنها وابنتها الى نهر بين على بعد فرسخين ، وامتد من دار الخلافة جنوبا الى اعلى الشماسية شمالا بمحاذاة دجلة على امتداد خمسة اميال (١٨٥) .

ويذكر الاستاذ سوسة ان امتداد العمران في الجانب الشرقي في اواخر القرن الثالث الهجري قد وصل الى زهاء كيلومتر جنوب سور المستمين حيث قصور الخلفاء وبساكنها (١٦٦) .

دار الخلافة

عاد الخليفة المتضد بالله الى بغداد فاحتاج الى دار تليق به كخليفة ، فلم يجد افضل من القصر الحسيني [الذي بناه الحسن بن سهل] ، وكانت تقيم به ابنته بوران زوج الخليفة المأمون فاستنزلها عنها . فاستنظرته اياما في تفريقها وتسليمها ، ثم رمتها وعمرتها وجصصتها وبيضتها وفرشتها بأجل الفرش واحسنه وعلقت على ابوابها اصفان الستور ورتبت فيها الخدم والجواري . . . فانقل المتضد بالله الى الدار ، ثم استضاف انبها ما جاورها وسعها وعمل عليها سورا (١٦٧) .

ويشك الخطيب في صحة هذا الخبر . اذ يذكر ان بوران توفيت في سنة احدى وسبعين ومائتين . وقد بلغت ثمانين عاما ولم تمت حتى ايام المتضد ، فعمل هلال بن الحسن نصابي رواية الخبر وهم وابدل اسم المعتمد فجعله المتضد (١٦٨) .

وانذي لا شك فيه ان قصر الحسيني كان نواة دار الخلافة المباسية وقصورها المتديدة التي اضيفت اليها ، فقد شيد المتضد قصر الفردوس بجوار القصر الحسيني في موضع يقع فوقه حيث يصب نهر معلى بدجلة (١٦٩) . كما بنى قصر الثريا ، واخيرا وضع اسس القصر الذي اصبح مركز الخلافة الرسمي واكمله المكتفي بالله وزاد عليه ، وبنى انخلفاء بعده فيها قصور « دار الشجرة » و « الدار المثمنة » و « الدار المربعة » ودار الوزارة والدواوين .

وقد اسهب المؤرخون في وصف عظمة تلك القصور وما تحتويه ، فمن ذلك ما رووه عن طريق معقود بأزاج تحت الارض يربط قصر الثريا خاص بالجواري والسراري طوله مليون (١٧٠) .

x x x

وذكر الخطيب ان خازن عضد الدولة البويهبي طاف دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما

وكان للسور تسعة ابواب هي من الشمال الى الجنوب :

- ١ - باب الغربية
- ٢ - باب سوق التمر [الباب القائي]
- ٣ - باب بدر [باب الخاصة]
- ٤ - باب النوبي [باب العتبة]
- ٥ - باب العامة [باب عمورية]
- ٦ - باب النصر
- ٧ - باب الخاصة
- ٨ - باب البستان
- ٩ - باب المراتب

× × ×

ويعرف الباب الرابع من ابواب السور بـ « باب انوبي » نسبة الى حاجب يجلس عنده اسمه سعيد النوبي . ويعرف بـ « باب العتبة » ايضا نسبة الى العتبة التي يقبلها انرسل والامراء والملوك ورؤساء الحجاج اذا قدموا بغداد (١١٠٠) وهذه العتبة اسطوانة من الرخام الابيض موضوعة امام الباب الداخلي ، ولعل الخليفة الناصر دفن تحتها صليباً من الذهب وكان صلاح الدين الايوبي غنمه فاهداه له ، وقد روى لسترنج نقلا عن ابي شامة ان الناصر لدين الله امر بدفنه تحت باب النوبي (١٩١١) .

وفي ايام حرب المسترشد بالله مع السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه، امر الخليفة ببناء ابواب السور واغلاقها جميعا وابقى باب النوبي وحده دون ان يفلق (١٩٩٢) .

× × ×

وخامس الابواب « باب انعام » ويعرف بـ « باب عمورية » ايضا وقد ذكر ان المتصم جلب ابوابه الحديدية الضخمة من مدينة عمورية (١٩٩٢) . قال القزويني عنه « ولم ير مصراعان اكبر منه » (١٩٤٤)

× × ×

وبعد باب العامة باتي « باب النصر » وكان المسترشد بالله قد فتحه وصار يتفاعل به بالظفر حين يخرج للحرب منه (١٩٥٥) .

× × ×

وباتي « باب الخاصة » بعد باب النصر ، وكان اسم باب الخاصة يطلق على باب بدر اولا ثم اهمل (١٩٦٦) .

قال باقوت « كان باب الخاصة احد ابواب دار الخلافة المظلمة ببغداد احدته الطائع تجاه

اما باب الغربية فهي اولى ابواب حريم دار الخلافة من جهة الشمال ، وقد سمي بذلك لوجود شجرة غرب نابتة بالقرب منه (١٨١١) وباب الغربية في الشرعة التي تسمى الآن « شريعة المصبغة » وعندها يبدأ حريم دار الخلافة (١٨٢٦) وقربه داخل دار الحريم قصران هما دار خاتون ودار السيدة وكانت لابنة الخليفة القندي وشيد المستنجد بالله في محلها قصرا سماه « دار الريحانيين » نسبة الى سوق الريحانيين [سوق الفواكه والرياحين خارج سور الحريم] الواقع بالقرب منه ، وكانت هذه الدار ذات وجه اربعة متقابلة سعة صحتها ستمائة ذراع (١٨٣٣) .

× × ×

وثاني ابواب السور « باب سوق التمر » وهو قريب من باب الغربية ويسمى بـ « الباب القائي » ايضا ، وهو باب شاهق البناء والى جانبه من داخل الحريم الدار القنطية ، وهي قصر يشرف على مشرعه الابريين [الذين يبيعون الابر] (١٨٤٤)

وقد ذكر ياقوت ان هذا الباب والدار الملاصقة به اغلقا في اول ايام الناصر لدين الله ، اي بعيد سنة خمس وسبعين وخمسائة للهجرة (١٨٥٥) ، وقد ذكر القزويني ان المسترشد خرج منه فاصابه ما اصابه فتطيروا به واغلقوه (١٨٦٦) .

× × ×

وعلى مسافة قليلة من باب الغربية وباب سوق التمر باب يعرف بـ « باب بدر » او « باب البدرية » نسبة الى بدر من ممالك الخليفة المعتضد (١٨٧٠) ، وكان يسمى « باب الخاصة » في اول امره وذلك لدخول الخاصة من الناس منه انى دار الخلافة ومنهم الامير بدر (١٨٨٠) ، ولم يدم

دار الفيل وباب كلواذى «١٩٧»] وباب كلواذى تقع جنوبى دار الخلافة] .

في الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة للهجرة (٢٠٥) ، فخط الوزير عميد الدولة أبو منصور محمد بن محمد بن جهمر السور وقدره ومعه المساح وشرع بجباية الاموال التي يحتاج اليها من عقرات الناس ودورهم ، واذن للناس في التفرج والعمل . فزينوا البلد وعملوا القباب وجدوا في عمارته (٢٠٦) .

وقد نبه المرحوم مصطفى جواد الى وهم لسترنج] في كتابه بغداد ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ من الترجمة العربية] - على جلالة قدره وعلمه - وخلطه بين باب الخاصة القديم الذي سمي باب بدر وبين باب الخاصة الجديد (١٩٨) .

× × ×

والباب الثامن « باب البستان » وكانت عليه منظره تشرف على موضع الضحايا حيث كانت تنحر في عيد الاضحى (١٩٩) .

× × ×

وأخر الابواب في السور « باب المراتب » ويقع بانقرب من ضفة النهر في الجنوب .

قال فيه ياقوت « كان من اجل ابواب دار الخلافة واشرفها ، له حاجب عظيم القدر نافذ الامر ، داخل محلة كبيرة كان يسكنها الاكابر وبتجار والاشراف دور البيوتات القديمة ، وكانت الدور بها عالية نها قيمة ، ثم باد اهلها وانتفوا عنها . اما الآن فلم يبق لها قيمة ، و اراد اهلها بيعها فلم تشتتر منهم فتقضوها وابعوا اتقاضها » (٢٠٠)

وقال ايضا : « وبين باب المراتب وبين دجلة نحو رميتي سوم . » (٢٠١)

ولا يعلم تاريخ بناء السور على التحقيق ، ومن المرجح انه بديء ببنائه في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) واتمه من جاء بعده من الخلفاء (٢٠٢)

وحمل اهل المحال السلاح والاعلام والطبول ومعهم المعاون والسالل وانواع الملامي والزمور وانكبايات والخيالات ، فعمل اهل باب المراتب من البوارى المقيرة على صورة الفيل وتحتة قسوم يسيرون به . وعملوا زرافة كذلك ، واتى اهل قصر عيسى بسميرة كبيرة] السميرية نوع من انواع انسفن] فيها الملاحون يجدفون وهي تجري على هاذور] عجلات] ، واتى اهل سوق بحبسى بتاعورة تدور معهم في الاسواق ، وعمل اهل سوق المدرسة قلعة خشب تدير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب ، واخرج قوم بُرا على عجل وفيها حائك ينسج ، وكذلك السفلاطونيون وكذلك الخبازون جاؤوا بتنور وتحتة ما يسير به والخباز يرمي الخبز الى الناس (٢٠٧) .

فبتوا من السور مائة قامة فقط وحدثت عراقق عن اتمامه ، اهمها النزاع على السلطنة بين الملوك السلاجقة بركيارق ومحمد وسنجر اولاد بركشاه (٢٠٨) .

وتوفي الخليفة المستظهر في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة للهجرة وبوبع ابنه المسترشد بالله خليفة من بعده .

× × ×

اسوار بغداد الشرقية

واتسع عمران بغداد الشرقية سرىما وامتد حول دار الخلافة وحريمها واسوارها وشيد الناس حول اسوارها المحلات والاسواق والدور انتسي اصبحت اصل مدينة بغداد التي بقيت حتى العصور الاخيرة (٢٠٣) .

وذلك لان حماية الخليفة كانت تمتد الى انحرىب كما كانت باب المراتب] الباب الجنوبي الشرقي لدار الخلافة] ملجأ المستعدين وملاذ الخائفين والمستجيرين ، فازداد العمران ونما سرىما حولها (٢٠٤)

وفي بداية حكم الخليفة المستظهر (٨٧) - ٥١٢ هـ) بديء بانشاء سور عظيم وخندق يحيطان بالمدينة والعمران الجديد ويضم دار الخلافة وحريمها واسوارها وما شيد حولها ، وكان الشروع في البناء

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة للهجرة عزم المسترشد بالله على بناء سور لبغداد الشرقية وجبى ما يخرج عليه من الناس ، كما فعل ابن جهمر وزير ابيه ، فحصل من ذلك مالا كثيرا ، فاضر ذلك بالناس وشق عليهم ، فلما علم الخليفة كراهة اناس لذلك واعسارهم وضيق ذات يدهم امر باعادة ما اخذ منهم فسروا بذلك (٢٠٩) .

وقيل ان الوزير احمد بن نظام الملك بذل من ماله خمسة عشر الف دينار ، وقال تقسط الباقي على ارباب الدولة (٢١٠) .

وكان اهل بغداد يعملون بانفسهم وكانوا يتناوبون العمل ، يعمل اهل كل محلة منفردين بالطبول والزمور ، وزينوا البلد وعملوا فيه

وفي جنوبي هذا الباب كانت السوق المعروفة بسوق السلطان والتي تقع في الميدان الحالية (٢٢٢) .

وعرف في العصور الاخيرة باسم « باب العظيم » نسبة الى الامام الاعظم ابي حنيفة ، وقد سمي بذلك لابتداء اشرارع المؤدي لمحلة الامام الاعظم منه (٢٢٣) .

وقد ظل هذا الباب حتى هدم في سنة ١٩٢٢م ، ومحله اليوم بين قاعة الشعب وجامع الازليق .

x x x

وابواب اثنائي من ابواب سور بغداد الشرقية هو « باب الظفرية » وقد سمي باسمه هذا لانه يقابل محلة الظفرية نسبة الى ظفر وهو من ممالك الخلفاء العباسيين . كما كان يعرف بـ « باب خراسان » لبداية الطريق المؤدي الى خراسان منه (٢٢٤)

وعرف في العصور المتأخرة باسم « الباب الابيض » « آق قابو » ويسمى ايضا بـ « الباب الوسطاني » (٢٢٥)

وما زالت بقايا هذا الاثر قائمة حتى اليوم بالقرب من مرقد الشيخ عمر السهروردي .

ويكون من برج اسطواني الشكل ضخم يحيط به خندق يمتليء بالماء من الخندق المحيط بالاسوار ، والبرج بابان مائلان [اي يسا على سمت واحد] مبنيان بالاجر . الباب الاول يربط البرج بخارج المدينة ويوصل اليه بفتحة معقودة مبنية بالاجر ، والباب الثاني يربط البرج بسور المدينة ويوصل اليه بفتحة معقودة مبنية بالاجر . وقد اقيم على جانبي هذه الفتحة جداران عاليان فيهما مواضع الرماة تستخدم في صد هجمات الاعداء اذا حاولوا اقتحام الباب الاول وتجملهم عرضة للرماة فتصيبهم السهام (٢٢٦) .

وقد روعي في تصميم البرج ومدخله المدخل المنكسر الذي ذكرناه في اثناء الحديث عن ابواب المدينة المدورة .

[ينظر شكل ١٢٥]

x x x

وسمي الباب الثالث من ابواب بغداد الشرقية بـ « باب الحلية » لقربه من ميدان سباق الخيل وكان موقعه هناك قبل انشاء السور .

وقد عرف في العصور المتأخرة باسم « باب الطلسم » لان في اعلى الباب تمثال رجل مترعب وعلى

القباب (٢١١) قال ابن الجوزي : « وكان كل اسبوع يعمل اهل محلة ويخرجون بالطبول والجنكات » (٢١٢)

وكان الابتداء بعمارة السور في صفر من سنة سبع عشرة وخمسائة للهجرة (٢١٣) ، وقيل في يوم السبت النصف من شعبان من السنة نفسها (٢١٤)

وكان السور قويا محكم البناء ليستطيع انقاذ الخلافة من سلطان السلاجقة ، وجعل عرضه اثنين وعشرين ذراعاً (٢١٥) .

[ينظر شكل ١٠٦ ، ١١]

x x x

وانشا الخليفة المفتي مسنة حول السور وتوفي ولما يكملها ، ثم ولي المستنجد وعمل منها قطعة وتوفي ، وولي المستخفي فعمل بمقدار ما عمل في زمن المفتي والمستنجد .

ووصف المؤرخون السور في العهد الذي يلي الحصار المغولي فقلنا انه كان من خارج السور مبنيا بالاجر وخندقه مرصوفا بالحجارة على هيئة نصف دائرة طولها ثمانية عشر الف خطوة يتصل بدجلة من بدايته ونهايته (٢١٦)

وقد ذكر نيبور في رحلته انه كان جافا على امامه (٢١٧) ، ويمكن ان يغمر بالمياه اذا ضرب الحصار على بغداد (٢١٨) .

وكان عمقه نحو خمس او ست قامات كما ذكر تافرنبيه الذي زار بغداد سنة ١٦٢٢م وسنة ١٦٥٢م كما ذكر او ليفيه ان الخندق كان عميقا جدا ، ففي حصار حافظ باشا لبغداد [١٠٣٥ هـ = ١٦٢٥ م] قطعت الاف النخيل ورميت في الخندق ودفنت في التراب للوصول الى الخندق وعمل ثغرة فيه (٢١٩) .

وزار ابن جبير بغداد ايام الناصر لدين الله فذكر ان للشرقية اربعة ابواب ، فالولها وهو في اعلى الشط باب السلطان ثم باب الظفرية ويلييه باب الحلية فباب البصلية ، وهذه الابواب التي هي في السور المحيط بها من اعلى الشط الى اسفله (٢٢٠)

x x x

اما الباب الشمالي فيسمى « باب السلطان » نسبة الى السلطان طغرل بك الذي دخل بغداد من هناك (٢٢١) .

وكان يقع هذا الباب عند باب العظيم الحالي ، في جنوب جامع السلطان على مسافة قليلة منه ، وجامع السلطان في المخرم [العياضية الحالية] ،

جواره والتي انشأها الخليفة المتتدي ، وكان يسمى ايضا « باب كلواذى » لان منه الطريق الى قرية كلواذى (٢٢٥) .

وسمي في العصور التي تلت سقوط بغداد باسم « الباب المظلم » « كارائق قابو » وهم بعض الرحالة في لفظه اذ سماه نييور في رحلته باسم « كارولوك » كما سماه تيفسو باسم « كارالوقايي » (٢٢٦) .

وعرف في العصور المتأخرة باسم « الباب الشرقي » وقد هدمته امانة العاصمة في سنة ١٩٢٧ . على عهد امينها ارشد العمري ، وكان الانكليز قد اتخذوه كنيسة لهم (٢٢٧) .

وعنده اتخذ احد قواد هولوكو مقر معسكره حيث جيء بالخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين فكانت نهايته بعد ذلك (٢٢٨) .

وعد هوار « باب الجسر » الباب الخامس في سور بغداد الشرقية . وهو يفضي الى جسر على ثلاثة وثلاثين قاربا (٢٢٩) .

وذكر الرحالة تافرنبيه ان هذا الباب كان يسمى « سوقايي » اي « باب الماء » او « باب الشط » (٢٣٠) .

× × ×

لقد كان سور بغداد الشرقية يحصن بغداد من جميع جهاتها بما في ذلك جهة النهر ويؤيد هذا ما نراه في « خارطة تافرنبيه التي تصور بغداد في القرن السابع عشر ، شكل » اذ يبدو السور واضحا فهو يحيط ببغداد من كل جهاتها .

× × ×

ويضاف الى الابواب الخمسة التي ذكرنا عدد من الابواب السرية وكانت اراجا تفضي الى دجلة ، وتسمى « اوغرين قايي » (٢٣١) .

× × ×

لقد ترك الرحالة الفرييون وصفا مفصلا وخرائط وافية الى حد بعيد صورت جوانب مختلفة من سور بغداد ، من ذلك خارطة ووصف نييبور مدينة بغداد ، فقد ذكر ان في السور عشرة ابراج كبيرة وكان في كل منها ستة مدافع او سبعة ، وبين هذه الابراج الكبيرة ابراج صغيرة يدافع عنها بالاسلحة الخفيفة .

وذكر الحاج خليفة عدد هذه الابراج الصغيرة وتوزيعها على نقاط السور المختلفة ، فذكر ان بين

كل من يمنته ويسرته تمثال افعى عظيمة ، وقد عد العامة ذلك طلسمه تحمي بغداد من شرور اعدائها (٢٣٢) .

وذكر لسترنج ان هذا الباب كان يعرف قديما باسم « الباب الابيض » (٢٣٣) .

وقد جدد الخليفة الناصر لدين الله باب الحلبة وذلك في سنة ثمانى عشرة وستمائة كما تدل على ذلك الكتابة التي كانت على الباب والتي نقلها نييبور والتي نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . هذا ما امر بعمله سيدنا ومولانا المفترض الطاعة على كافة الانام ابو العباس احمد الناصر لدين الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين وحجة الله عز وجل على الخلق اجمعين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آباءه الطاهرين ، ولا زالت دعوته الهادية على يقاع الحق منارا ، والخلائق لها اتباعا وانصارا ، وطاعته المفترضة للمؤمنين اسماعا وابصارا ، وافق الفراغ في سنة ثمان عشر وستمائة [كذا] ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين » (٢٣٤)

ومنه دخل السلطان مراد الرابع حين احتل بغداد في سنة ثمان واربعين والف للهجرة بعد ان كانت تحت الاحتلال الفارسي (٢٣٥)

وسماه « برج الفتح » لانه يرى انه دخل منه بغداد فاتحا (٢٣٦) .

وسده مراد بعد دخوله بحائط لكي يبقى مقدسا فلا يضع احد قدمه على عتبته احتراما له . وظل مسدودا حتى نسفه الاتراك العثمانيون عند دخول الانكليز بغداد وانسحابهم منها ليلة الحادي عشر من آذار سنة ١٩١٧ م ، وكان مخزنا للبارود (٢٣٧) .

واثر الفيضان الكبير الذي حصل في سنة ١٠٦٧ هـ ، واصابه التآكل والتصدع ، فوممه الوالي محمد باشا انخاسكي في سنة ١٠٦٨ هـ (٢٣٨)

وكان هذا الباب مبنيا بالاجر ، يوصله بالسور المجاور له جسر محصن على جانبيه برجبان منيعان (٢٣٩) .

[ينظر شكل - ١٣ -]

× × ×

ورابع ابواب سور بغداد الشرقية « باب البصلية » ويقع في الجنوب ، وقد سمي باسم محلة البصلية [وكان يزرع فيها البصل] التي تقع الى

وكذلك ما ذكر عن اسوار دار المنكة البويهية ،
 ودار السلطنة السلجوقية ، والدار المزية في
 الشمسية ، والسور الذي حول مشهد الامامين
 الكاظمين (٢٤٩)

× × ×

اما انجانب الغربي فقد ذكر ابن جبير ان
 الخراب قد عمه واستولى عليه على ايامه وأنه
 يحتوي على سبع عشرة محلة ، كل منها مدينة
 مستقلة (٢٥٠) .

ونشاهد هذا الجانب في خارطة جونسن
 وكولينكوود [القرن التاسع عشر الميلادي] وقد
 لفت سور ضم محلاته ويقابل القسم المعمور من
 الجانب الشرقي . ولهذا السور اربعة ابواب هي
 باب الكريبات في الجنوب وباب الحلة وباب الشيخ
 معروف في الشرق وباب الكاظمية في الشمال .

واهملت خارطة سار وهرزفلد [اوائل القرن
 الحالي] باب الكاظمية في بغداد الغربية (٢٥١) .

وظل هذا السور يقاوم الزمن ويصد الغزاة
 ويحمي المدينة حتى تقضى على عهد مدحت باشا
 سنة ١٨٧٠ م باستثناء ابوابه الاربعة والابواب
 المتصلة بالقلعة . وشيد بحجارته مباني جديدة
 استحدثها .

وامر سري باشا الوالي العثماني في سنة
 ١٨٨٧ م بهدم ما بقي من هذا السور عدا الابواب (٢٥٢)

ولم يبق للسور وابوابه اثر يذكر غير الباب
 الوسطاني فقد اتي العمران الحديث عليه ، واحتلت
 السد المحيطة ببغداد القديمة ما بقي من مواضعه
 بين باب الحلة والباب الوسطاني (٢٥٣) .

× × ×

الخاتمة

- (١) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٤
- (٢) جواد وسوسة . دليل خارطة بغداد ص ١٠٢
- (٣) مصطفى جواد . بغداد في رحلة نيبور ، في مجلة « سومر »
 ١٩٦٤ ، مج ٢ ص ٥٠
- (٤) دليل خارطة بغداد ص ٢٤٢
- (٥) كرانسكوفسكي . تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ق ١
 ص ١٦٧
- (٦) صالح احمد الطلي . مصادر دراسة خطط بغداد ، في
 « مجلة الجمع العلمي العراقي » ١٩٦٧ ، مج ١٤ ص ٨
- (٧) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨ ، الفخري ص ١٦٢
- (٨) تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٦ ، الفخري ص ١٦٢

باب النهر وباب الامام الاعظم اثنى عشر برجا موزعة
 على مسافة سبعمئة ذراع ، وبين باب الامام الاعظم
 والباب الابيض اربعة وثلاثون برجا موزعة على
 مسافة الفين وثمانمئة وخمسين ذراعا ، وبين الباب
 الابيض والبرج المعجمي ستة وعشرون برجا على
 مسافة قدرها الفان وخمسون ذراعا ، ومن البرج
 المعجمي الى الباب المظلم ستة وثلاثون برجا على
 مسافة طولها الفان وثمانمئة وخمسون ذراعا ،
 ومن الباب المظلم حتى النهر اربعة ابراج على مسافة
 قدرها خمسون ذراعا . ومن ذلك المكان الى الجسر
 ثلاثة وثلاثون برجا على مسافة طولها الفان وستمئة
 وخمسون ذراعا . ومن الجسر باتجاه معاكس لمجرى
 النهر ثمانية عشر برجا على مسافة طولها الفان
 وخمسون ذراعا .

وبذلك يكون المجموع مائة وثلاثة وستين برجا
 تتوزع على مسافة طولها « ١٢٤٠٠ ذراعا » ، هي
 محيط سور بغداد (٢٤٣) .

× × ×

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية لسور مدينة
 بغداد الشرقية برج كبير يسمى « برج المعجمي »
 نسبة الى صوفي كان ابوى اليه يسميه اهل بغداد
 بالمعجمي ، ثم اشتهر وعرف بعد ذلك ، وهو الشيخ
 عبدالقادر الجيلي المعروف بالكيلاني .

وعرف هذا البرج ايضا باسم « تايبة
 الزاوية » (٢٤٣) . ويقع هذا البرج بالقرب من باب
 الحلة بينها وبين باب البصيلة .

وقد وجه هؤلاء هجومه على بغداد من هذا
 البرج لانه اقصر ابراج السور واوهنها ، فتمكن
 من هدمه ودخول بغداد منه في التاسع من محرم سنة
 ست وخمسين وستمئة (٢٤٤) .

× × ×

على ان هناك اسوارا فردية كانت تحصن
 المحلات والقصور الضخمة اقتضتها الحاجة ، ففي
 اواخر العصر العباسي وجدنا العديد من محلات
 بغداد وامانها تحيطها الاسوار الفردية (٢٤٥) من
 تلك الاسوار السور الذي كان يحيط بالحريم
 الطاهري (٢٤٦) ، وما ذكره ابن جبير في رحلته من ان
 محلة الكرخ في الجانب الغربي وانها محاطة بسور (٢٤٧) .

كما ذكر الرحالة المتأخرون ان قلعة بغداد ،
 الواقعة في القسم الشمالي الغربي والمحاذية لدجلة
 والواقعة ضمن اسوار بغداد ، كانت محاطة ايضا
 بسور فردي (٢٤٨) .

- (٩) حمدان الكبيسي . اسواق بغداد ص ٤٠
(١٠) الطبري ج ٧ ص ٦٢١ ، ابن الفقيه ص ٢٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨١
(١١) الطبري ج ٧ ص ٦٥٠
(١٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٧ ، لسترنج ص ٢٤
(١٣) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٧
(١٤) محمد مكية ص ٢٠٢
(١٥) الطبري ج ٧ ص ٦٥١
(١٦) كولا . بغداد ، ج ١ ص ٢٧
(١٧) الطبري ج ٧ ص ٦٥٥ ، ابن الفقيه ص ٤٠ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠
(١٨) Lassner. The topography of Baghdad. p. 235.
(١٩) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢ ، لسترنج ص ٤٤
(٢٠) جواد وسوسة . بغداد (ط مهندسين) ص ١٨
Lassner. p. 236
(٢١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠
(٢٢) دليل خارطة بغداد ص ٥ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٢٢
(٢٣) الفخري ص ١٦١
(٢٤) دليل خارطة بغداد ص ٥
(٢٥) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨٢
(٢٦) بغداد (ط مهندسين) ص ٢٢
(٢٧) المصدر نفسه ص ٢٢
(٢٨) دليل خارطة بغداد ص ٤٨
(٢٩) سوسة . الفيضان ص ٢٠
(٣٠) اليقوي . البلدان ص ٢٢٨
(٣١) سوسة . الفيضان ص ٤١
(٣٢) المصدر نفسه ص ٤١
(٣٣) Lassner. p. 235.
(٣٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
(٣٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
(٣٦) دليل خارطة بغداد ص ٦٢
(٣٧) Lassner. p. 235.
(٣٨) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
(٣٩) Lassner. p. 238.
(٤٠) الطبري ج ٧ ص ٦٥٢ ، اليقوي ص ٢٢٨
(٤١) لسترنج ص ٢٧
(٤٢) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(٤٣) الطبري ج ٧ ص ٦٥٢ ، ابن الفقيه ص ٢٦ ، تاريخ بغداد . ج ١ ص ٧٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢
(٤٤) اليقوي . ص ٢٢٨
(٤٥) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
(٤٦) الطبري ج ٧ ص ٦١٩
(٤٧) لسترنج ص ٢٧
(٤٨) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩ ، لسترنج ص ٢٩
(٤٩) ابن رسته . الاطلاق النسبية ص ١٠٨
(٥٠) Lassner. p. 239
(٥١) رمزية الاطرفي . بناء بغداد ص ١١٠
(٥٢) ابن الفقيه ص ٢٥
(٥٣) Lassner. p. 238
(٥٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
- (٥٥) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، ناجي معروف . تخطيط بغداد ص ١٢
(٥٦) طاهر العميد . بغداد ص ٢١٨
(٥٧) المصدر نفسه ص ٢١٨
(٥٨) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(٥٩) طاهر العميد ص ٢١٨ [نقل عن هرزفلد]
(٦٠) اليقوي ص ٢٢٨ ، ابن رسته . ص ١٠٨ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٨ ، لسترنج ص ٢١
(٦١) دليل خارطة بغداد ص ٤٨ ، لسترنج ص ٢١
(٦٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢
(٦٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٦٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٤
(٦٥) اليقوي . ص ٢٢٩
(٦٦) ناجي معروف . تخطيط بغداد ص ١٤
(٦٧) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٢
(٦٨) ابن الفقيه ص ٢٦ ، ياقوت . المشترك ص ٢٢٥
(٦٩) اليقوي ص ٢٢٨
(٧٠) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
(٧١) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢
(٧٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨
(٧٣) الطبري ج ٧ ص ٦٥١ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥ ، لسترنج ص ٢٨
(٧٤) لسترنج ص ٢٩
(٧٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١ ، بغداد (ط مهندسين) ص ١٩ ، لسترنج ص ٢٩
(٧٦) دليل خارطة بغداد ص ٤٩
(٧٧) Lassner. p. 241.
(٧٨) لسترنج ص ٢٩
(٧٩) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(٨٠) المصدر نفسه ص ١٩ ، تخطيط بغداد ص ١٢
(٨١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٨٢) اليقوي ص ٢٢٩
(٨٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٨٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
(٨٥) طاهر العميد ص ٢٢٢
(٨٦) تخطيط بغداد ص ١٢
(٨٧) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٨٨) اليقوي ص ٢٢٩
(٨٩) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٩٠) اليقوي ص ٢٢٩
(٩١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٩٢) لسترنج ص ٢٠
(٩٣) اليقوي ص ٢٢٩ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩
(٩٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(٩٥) لسترنج ص ٢٠
(٩٦) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩
(٩٧) طاهر العميد ص ٢٢٥ [نقل عن كرزويل]
(٩٨) لسترنج ص ٢٩
(٩٩) طاهر العميد ص ٢٢٦ [نقل عن كرزويل]
(١٠٠) Lassner. p. 240
(١٠١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
(١٠٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٢

- (١٤٨) الطبري ج ٩ ص ٢٨٧ ، دليل خارطة بغداد ص ١١٩ ،
لسترنج ص ١٥٠
(١٤٩) لسترنج ص ١٥٠
(١٥٠) الطبري ج ٩ ص ٢٨٧
(١٥١) المصدر نفسه
(١٥٢) الطبري ج ٩ ص ٢٨٢
(١٥٣) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٥٤) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٥٥) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٥٦) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٥٧) ابن الفقيه ص ٦٠ ، الروضي المطار ص ١١٢
(١٥٨) مكيه سلمان . بغداد ص ٣٣
(١٥٩) لسترنج ص ٢٦٥ - ٢٦٦
(١٦٠) الطبري ج ٩ ص ٢٢١
(١٦١) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ ، سوسة . الفيضان
ص ٩٩
(١٦٢) مصطفى جواد . في التراث العربي ص ٧٩
(١٦٣) لسترنج ص ٢١١
(١٦٤) ابن الجوزي . المنتظم ج ٥ ص ١٤٤ .
(١٦٥) مكيه سلمان ص ٢٢
(١٦٦) سوسة . الفيضان ص ٢٩
(١٦٧) تاريخ بغداد ج ١ ص ٩٩
(١٦٨) المصدر نفسه
(١٦٩) لسترنج ص ٢١٢
(١٧٠) لسترنج ٢١٤
(١٧١) تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٠ ، معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥٥
(١٧٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٥ ، المشترك ص ١٢٩
(١٧٣) المشترك ص ١٢٠
(١٧٤) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥٥
(١٧٥) المشترك ص ١٢٠ ، في التراث العربي ص ٩٦ ،
لسترنج ٢٢٥
(١٧٦) في التراث العربي ص ٩٨
(١٧٧) المشترك ص ١٢٩ ، الغزويني . آثار البلاد ص ٣١٥
(١٧٨) دليل خارطة بغداد ص ١٥٧ ، يعقوب سرقيس . مباحث
عراقية ج ١ ص ١٢٢
(١٧٩) دليل خارطة بغداد ص ١٥٧ ، يعقوب سرقيس ج ١
ص ١٢٢ ، لسترنج ص ٢٢٥
(١٨٠) في التراث العربي ص ٨٨
(١٨١) دليل خارطة بغداد ص ١٥١
(١٨٢) يعقوب سرقيس ج ١ ص ١٢٢
(١٨٣) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨
(١٨٤) المصدر نفسه
(١٨٥) المشترك ص ١٢٩ ، لسترنج ص ٢٢٦
(١٨٦) آثار البلاد ص ٣١٦
(١٨٧) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، لسترنج ص ٢٢٩
(١٨٨) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، في التراث العربي ص ٩٠
(١٨٩) في التراث العربي ص ٩٠ ، لسترنج ص ٢٢٠ ، دليل
خارطة بغداد ص ١٥٨
(١٩٠) آثار البلاد ص ٣١٦ ، دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ،
لسترنج ص ٢٢٢
(١٩١) لسترنج ص ٢٢٢
(١٩٢) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨
- (١٠٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٤
(١٠٤) اليعقوبي ص ٢٢٩
(١٠٥) اليعقوبي ص ٢٢٩ ، طاهر العميد ٢٤٠
(١٠٦) اليعقوبي ص ٢٢٩
(١٠٧) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(١٠٨) لسترنج ص ٢١
(١٠٩) ابن رسته ص ١٠٨
(١١٠) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤ ، لسترنج ص ٢٢
(١١١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(١١٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥
(١١٣) اليعقوبي ٢٢٩
(١١٤) الطبري ج ٧ ص ٦٥١ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥ ، معجم
البلدان ج ١ ص ٦٨٤
(١١٥) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(١١٦) الطبري ج ٧ ص ٦٥١
(١١٧) اليعقوبي ص ٢٢٩
(١١٨) Lassner p. 242
(١١٩) طاهر العميد ص ٢٤٢
(١٢٠) Lassner. p. 243
(١٢١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥
(١٢٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(١٢٣) اليعقوبي ص ٢٢٩
(١٢٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦
(١٢٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٢
(١٢٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٦
(١٢٧) دليل خارطة بغداد ص ٥٢
(١٢٨) لسترنج ص ١١٧
(١٢٩) دليل خارطة بغداد ص ٥٢ [نقل عن تاريخ سني ملوك
الارض لحمزہ الاصفهاني ص ١٢٣]
(١٣٠) محمد مكيه . بغداد ص ٢٠٢
(١٣١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٨
(١٣٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١٥
(١٣٣) ابن الفقيه ص ٧٥
(١٣٤) اليعقوبي ص ٢٥٤
(١٣٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦ ، دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ ،
لسترنج ص ٤٨
(١٣٦) لسترنج ص ٤٧
(١٣٧) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ [نقل عن احسن التقاسيم
للمقدسي البشاري ص ١٢٠] .
(١٣٨) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨
(١٣٩) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥
(١٤٠) ابن الفقيه ص ٢٩ ، باقوت . المشترك ص ٢٠٥ ،
بغداد (ط مهندسين) ص ٢٤ ، لسترنج ص ١٦٢
(١٤١) لسترنج ص ١٦٢
(١٤٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨٣
(١٤٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨٣ ، لسترنج ص ١٦٥
(١٤٤) اليعقوبي ص ٢٥٤ ، الحمري . الروضي المطار ص ١١٢
(١٤٥) الطبري ج ٩ ص ٢٨٢
(١٤٦) الطبري ج ٩ ص ٢٤٨
(١٤٧) الطبري ج ٩ ص ٢٨٧ ، دليل خارطة بغداد ص ١١٩ ،
سوسة . فيضان ص ٢٨

- (١٩٣) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩ ، لسترنج ص ٢٢٤
 (١٩٤) اثار البلاد ص ٢١٦
 (١٩٥) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩
 (١٩٦) المصدر نفسه
 (١٩٧) معجم البلدان ج ١ ص ٤٤٤
 (١٩٨) في التراث العربي ص ٩٥
 (١٩٩) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩
 (٢٠٠) معجم البلدان ج ١ ص (٥١)
 (٢٠١) المشترك ص ١٣٠
 (٢٠٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، سوسة . الفيضان ص ٤٠
 (٢٠٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، سوسة . الفيضان ص ٥٨
 (٢٠٤) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٩
 (٢٠٥) المنتظم ج ٩ ص ٨٥
 (٢٠٦) المنتظم ج ٩ ص ٨٥ ، ابن الاثير . الكامل ج ١٠ ص ٢٥١
 (٢٠٧) المنتظم ج ٩ ص ٨٥
 (٢٠٨) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٠٩) ابن الاثير ج ١٠ ص ٦١٦
 (٢١٠) المصدر نفسه
 (٢١١) ابن الاثير ج ١٠ ص ٦١٧
 (٢١٢) المنتظم ج ٩ ص ٢٤٥
 (٢١٣) ابن الاثير ج ١٠ ص ٦١٦
 (٢١٤) المنتظم ج ٩ ص ٢٤٥
 (٢١٥) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢
 (٢١٦) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢ ، لسترنج ص ٢٢٩
 (٢١٧) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠
 (٢١٨) هوار . خطط بغداد ص ١١
 (٢١٩) هوار . ص ١١
 (٢٢٠) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥
 (٢٢١) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٢٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠
 (٢٢٣) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، هوار ص ١١
 (٢٢٤) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠ ، ٢١١
 (٢٢٥) هوار ص ١٢
 (٢٢٦) تخطيط بغداد ص ١٦
 (٢٢٧) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٢٨) لسترنج ص ٢٢٧
 (٢٢٩) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٠) هوار ص ١٢
 (٢٣١) دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٢) بغداد (ط مهندسين) ص ٦٩ ، ٥٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٦١ ، هوار ص ١٢
 (٢٣٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٤) هوار ص ١٢
 (٢٣٥) دليل خارطة بغداد ص ١٦١ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٣٦) لسترنج ص ٢٥٠ ، هوار ص ١٦
 (٢٣٧) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢
 (٢٣٨) لسترنج ص ٢٤٩
 (٢٣٩) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، هوار ١٦
 (٢٤٠) هوار ص ١٦



المراجع

- ١ - ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد . الكامل في التاريخ . دار صادر . بيروت ١٩٦٦ .
 ٢ - ابن جبير ، محمد بن احمد . رحلة ابن جبير . دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ .
 ٣ - ابن الجوزي ، عبدالرحمن بن علي . المنتظم . حيدرآباد ، ١٣٥٩ هـ .
 ٤ - ابن رسته ، احمد بن عمر . الاعلاق النفسية ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩١ .
 ٥ - ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا . الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية . دار مسادر . بيروت ١٩٦٦
 ٦ - احمد سوسة . الفيضان وقرق بغداد في العصر العباسي . في « مجلة الجمع العلمي العراقي » ١٠ (١٩٦٢) .
 ٧ - الاطرنجي ، رمزية . بناء بغداد في عهد ابي جعفر المنصور . مطبعة النعمان . النجف ١٩٧٥ .
 ٨ - الحميري ، محمد بن عبدالنعم . الروض المطار في خبر الانظار ، تحقيق احسان عباس ، دار القلم ، بيروت ١٩٧٥
 ٩ - الطبري . محمد بن جرير . تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . دار المعارف . القاهرة
 ١٠ - المبيدي ، مكية سلمان . بغداد في القرن الثالث الهجري [رسالة ماجستير مقدمة لجامعة بغداد] . طباعة ورونيو ، بغداد ١٩٦٧ .
 ١١ - العلي ، صالح احمد . مصادر دراسة خطط بغداد في المنصور العباسية . في « مجلة الجمع العلمي العراقي » ١٤ (١٩٦٧) .
 ١٢ - العميد ، طاهر مظفر . بغداد مدينة المنصور المدورة . مطبعة النعمان . النجف ١٩٦٧ .

- ١٣- القزويني ، زكرياء بن محمد بن محمود . أثار البلاد واخبار العباد . دار صادر . بيروت ١٩٦٠
- ١٤- الكبيسي ، حمدان . اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي . دار الحرية ، بغداد ١٩٧٩
- ١٥- كرائونكي تاريخ الادب الجغرافي العربي . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .
- ١٦- كوك ، ريجارد . بغداد مدينة السلام . ترجمة وتقديم وتعليق مصطفى جواد وفؤاد جميل . مطبعة شسفيق ، بغداد ١٩٦٢
- ١٧- لسننج ، هي . بغداد في عهد الخلافة العباسية . ترجمة بشير يوسف فرنسيس ، المطبعة العربية ، بغداد ١٩٦٦ .
- ١٨- مصطفى جواد واحمد سوسة وناجي معروف ومحمد مكية . بغداد . مطبعة رمزي ، بغداد ١٩٦٩ [نشره نقابة المهندسين] .
- ١٩- مصطفى جواد . بغداد في رحلة نيبور . في مجلة « سومر » ٢ (١٩٦٤) .
- ٢٠- مصطفى جواد واحمدسوسة . دليل خارطة بغداد . مطبعة المجمع العلمي العراقي . بغداد ١٩٥٨ .
- ٢١- مصطفى جواد . في التراث العربي . [مجموعة ابحاث جمعها عبدالحميد العلوجي ومحمد جميل شلش]
- ٢٢- ناجي معروف . تخطيط بغداد . في مجلة « الانلام » العراقية [ج ١ السنة الثالثة .
- ٢٣- هوار ، كليمان . خطط بغداد . ترجمة وتعليق ناجي معروف . دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٦ .
- ٢٤- ياقوت الحموي . المشترك وضعاً والمترق صقلاً . كونتجن ، ١٨٤٦ .
- ٢٥- ياقوت الحموي - معجم البلدان . لايزيبج ، ١٨٦٦ .
- ٢٦- يعقوب سركيس . مباحث عراقية [مجموعة ابحاث نشرها في المجلات] . القسم الاول . مطبعة شركة التجارة ، بغداد ١٩٤٨ .
- ٢٧- اليمقوبي . احمد بن جعفر بن وهب . البلدان . بريل ١٨٩٢
- ٢٨- Lassner, Jacob. The topography of Baghdad in the early middle ages. Wayne State University, 1970. [وقد اكملت ترجمته مع الرميل شمالان جاسم قياض]



حملة هولاكو على بغداد

٦٥٦ هـ

بقلم الدكتور

رشد عبد الله الحسيني

كلية الآداب - جامعة بغداد

الاستمرار بفضل مهارته وحسن قيادته حتى بعد وفاته. (٢)

بدأ جنكيزخان اجتياحه لاقليم العالم الاسلامي منذ عام ٦١٦هـ/١٢١٩م ، ففي هذه السنة تدفقت جيوشه على دولة خوارزم فيسطر وندة جوجي على القسم الغربي من بلاد ما وراء النهر في نفس الوقت الذي نجح فيه بعض قواده في الاستيلاء على بناكت وخنجة على الرغم من المقاومة التي ابدتها اهل هذا الاقليم (٤) اما جنكيزخان نفسه فقد زحف بالجيش الرئيسي نحو بخارى فوصلها في غرة ذي الحجة من سنة ٦١٦هـ فأحدث فيها مجزرة رهيبة تحولت المدينة على اثرها الى حطام ورماد. (٥) ، ولم تلبث سمرقند ان استسلمت في يوم عاشوراء من سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م بعد حصار قصير ولقي معظم سكانها مصرعهم على ايدي المغول الذين تمت لهم السيطرة على معظم اقليم ما وراء النهر واصبحت الطريق امامهم مهدة الى خراسان وبقية الولايات الغربية. (٦)

عرف المغول قبل عصر جنكيزخان باسم (التتار) ، وقد وردت هذه التسمية في نقوش ارخون في القرن الثامن الميلادي ، وكانوا ينقسمون الى قسمين : الاول يتألف من تسع قبائل والاخر يتألف من ثلاثين قبيلة. (١)

عاش المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي الممتدة في اواسط جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرقي التركستان ، بين جبال التاي غرباً وجبال جنجان شرقاً ، وقد مارس المغول الرعي والصيد فكانوا ينتقلون في ارجاء هضبة منغوليا سعياً وراء مواطن المياه والكلأ، فيهبطون في الشتاء الى سهولها ومناطقها الندفئة حيث تتوفر الظروف المناسبة للرعي . وفي الصيف يستقرون في المرتفعات واعالي الجبال مدة شهرين او اكثر حيث البرودة والمياه. (٢)

والواقع ان تاريخ المغول السياسي بدأ مع ظهور جنكيزخان الذي نجح في استقطاب جموع المغول وربطهم بتنظيمات سياسية قدر لها

- (٣) محمد صالح الفزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٨ - ٩ .
 (٤) تاريخ بخارى ص ١٦٦ - ١٦٨ .
 (٥) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، الجوزجاني ، تاريخ آل جنكيز ص ١٤ .
 (٦) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٢٢ ، تاريخ بخارى ص ١٧٢ - ١٧٥ محمد صالح الفزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٢٤ .

- (١) بزتواد ، مادة جنكيزخان - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية ، ص ٧٢ ص ١٢٧ الباز العربي ، المغول ص ٢٢ ، بيروت ١٩٦٧ ، احمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ج ٢ ص ٦٥ .
 (٢) هوتسمان ، مادة التتار - دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٥٧٦ ، حسن احمد محمود واحمد الشريف ، العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ص ٦٢٨ .

جلال الدين قد اتاح للمغول التوسع السريع نحو الغرب فوصلوا ديار بكر وأمد وميافارقين وبلغوا الجزيرة وحران ، وتعرضت بلاد الموصل واربيل ودفوقاً لهجماتهم . وأصبح الطريق ممهداً امامهم نحو عاصمة الخلافة بغداد ، فقاموا بعدة حملات استهدفت اشاعة الرعب في النفوس والوقوف على وضع الخلافة من الناحية العسكرية ومدى استعدادها للدفاع عن بغداد ، وقد بلغت هجمات المغول على العراق خلال هذه الفترة وحتى احتلال بغداد ثلاث عشرة حملة . (١٢)

وكانت المرة الاولى التي هاجم فيها المغول اطراف العراق سنة ٦١٨ هـ حين وصلت الاخبار الى بغداد بتقدم المغول من مراغه في اذربيجان نحو اربيل ، فيادر الخليفة الناصر لدين الله الى تحصين بغداد وكتب الى امير الموصل وامير اربيل بأمرهما بالانضمام الى عساكره في داقوقا ، وخرجت قوات اربيل والموصل فعلا لمواجهة الموقف . وفوجئت هذه القوات بقلعة عساكر الخليفة التي لم تكن تتجاوز ثمانمائة رجل خلافاً لما كان قد وعد به من انه سيرسل عشرة آلاف رجل لمواجهة المغول ، ولم يجسر امير اربيل مظفر الدين كوكبوري على مهاجمة المغول الذين شرعوا في الانسحاب ظناً منهم ان قوات الخلافة في اثرهم (١٣) .

وتلا ذلك فترة من الهدوء دامت نحواً من عشر سنوات وذلك بسبب عودة المغول الى بلادهم وما تبع ذلك من وفاة جنكيزخان وتولي ولده اوغوتاي العرش من بعده الذي تمكن من القضاء على آخر مقاومة للخوارزميين بهزيمة جلال الدين منجبرتي في سنة ٦٢٨ هـ . ثم عاود المغول هجماتهم ضد العراق فوصلت غاراتهم الى اربيل والموصل وداقوقا . وتكررت هذه الاغارات عدة مرات حيث تعرضت مناطق اربيل والموصل وسنجار وحران وماردين للغزو بين عامي ٦٣٣ هـ و ٦٣٤ هـ واضطر على اثرها امير الموصل بدر الدين لؤلؤ الى مصالحتهم (١٤) .

ولم تكن الخلافة في هذه المرحلة التاريخية الخطيرة على مستوى المسؤولية ولم تدرك حقيقة انكارتة التي باتت تهدد البلاد ، فكانت تكتفي باستنفار المتطوعين من الاطراف وترسل الكتب

- (١٢) نفس المصدر ، ج ٨ ق ٢ ص ٦٧٢ ، القزاق ، نفس المرجع السابق ص ٥٢ .
 (١٣) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
 (١٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٨٤ ، ٩٩ ، ابن العبري ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

وكان خوارزم شاه (علاء الدين محمد) قد غلب عليه الهلع والخوف ففر امام المغول قبل ان يشتبك في معركة فاصلة تاركاً مهمة الدفاع لحكام الولايات فتنقل في هربه من جيحون الى نيسابور الى بسطام ثم الى السري ومنها الى مازندران دون ان يفكر في الوقوف والتصدي للفرق التي ارسلها جنكيزخان لطاردته ، ثم آل به الامر الى إحدى جزر بحر الخزر حيث قضى هناك بقية ايامه ومات في اواخر سنة ٦١٧ هـ . (٧)
 اما جنكيزخان فقد عاد الى منغوليا في سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٢م حيث مات بعد اربعة اعوام ، ولم يتم انتخاب ولده وخليفته اوغوناي إلا في سنة ٦٢٦ هـ (٨) ، وكان جلال الدين منجبرتي ابن علاء الدين محمد قد رحل من الهند في سنة ٦٢٢ هـ بعد فرارده امام جنكيزخان وشرع باعادة تعبئة جيوش ابيه ، ثم استعد لاعادة سيطرته على جنوب ايران وغربها غير انه انصرف الى محاربة القوى الاسلامية المجاورة وتعرض لبلاد الخليفة العباسي حتى وصلت طلائع قواته الى بعبقوب وتكرت واستولت على داقوقا (٩) ، غير ان تعرضه لمدينة خلاط في سنة ٦٢٦ هـ قد ادى الى تحالف الملك الأشرف بن العادل الأيوبي مع كيقباد بن كيخسرو فتمكنا من هزيمته والقضاء على معظم قواته (١٠) . وقد اطمعت هذه الهزيمة اعداء جلال الدين فأغروا به المغول ، وحين احس بالخطر المحدق به سعى للتقرب الى الخليفة العباسي والملك الأشرف الأيوبي ، كما راسل عدداً من امراء المسلمين في اقليم الجزيرة وبلاد الشام ، غير ان المغول كانوا له بالمرصاد فلم يتركوا الفرصة له لاعادة بناء قوته العسكرية واسرعوا بمهاجمته في سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠م ففر الى إحدى قرى ميافارقين ولم يلبث ان سقط صريعاً بيد احد الاكراد في المنطقة (١١) .

زحف المغول نحو بغداد :

كان سقوط الدولة الخوارزمية واختفاء

- (٧) الجويني ، تاريخ جهانكشاي ، ج ٢ ص ١١٤ - ١١٧ ، تاريخ بغارى ص ١٧٦/١٧٨ حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٢٧ - ١٣٠ .
 (٨) جعفر خصيباء ، الاحتلال المغولي للعراق مجلة كلية الآداب العدد ٣ سنة ١٩٥٨ ص ١١٠ - ١١١ .
 (٩) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٦٢٤ .
 (١٠) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ١٥٢ .
 (١١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٦٦٦ ، ابن العبري ، ص ٢٤٧ . القزاق ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٥١ .

فرفض الخليفة ذلك (٢٠) ، وكتب اليه واصفاً اياه بالفرور ومهدداً بان ملوك الارض سيفقون الى جانبه اذا استمر في الزحف نحو بلاده ، ودعاه الى الجنوح للسلم والعودة الى خراسان او الى الحرب . فلم يبه هولاًكو برسالة الخليفة بل استخف بها واكد اصراره على مواصلة زحفه الى بغداد (٢١) ، ثم ارسل نداءً آخر دعا الخليفة فيه الى تحديد موقفه وهدده بأنه متوجه الى بغداد « بجيش كالنمل والجراد » . (٢٢) وقد رفض الخليفة هذا الإنذار ظناً منه بان الايوبيين في الشام والماليك في مصر سيسارعون الى الانضواء تحت لوائه متناسياً الظروف السيئة التي كانت تحيط ببؤلاء في هذه الفترة (٢٣) .

وفي المحرم من عام ٦٥٥هـ تحرك هولاًكو من همدان فوصل اسد آباد حيث اوفد رسولا الى بغداد يطلب الى الخليفة الحضور امامه بهدف التوصل الى اتفاق لتجنب الحرب ، وترك للخليفة الخيار في الحضور او ان ينسب عنه وزيره ابن العلقمي وقائده الدويدار وسليمان شاه ، غير ان الخليفة لم يكن يملك التذرة على حمل هؤلاء الثلاثة بالخروج لملاقاة هولاًكو ، فاكتفى برسالة شريف الدين ابن الجوزي وخوله بذل الاموال لاقتناع الزعيم المغولي بالعودة عن بغداد ، غير ان ذلك لم يجد نفعاً (٢٤) .

ولم يجد الخليفة بدأ من المواجهة فامر قائده مجاهد الدين ابيك الدويدار بالخروج على رأس قوات بغداد للتصدي لهولاًكو على طريق حلوان . (٢٥)

وكان هولاًكو قد وضع خطة للاطباق على بغداد من جميع جهاتها وتقرر ان يزحف قسم من جيشه عبر دجلة ليحيط بالجانب الغربي في حين يتولى بنفسه الالتفاف على القسم الشرقي من المدينة ، ويشير المؤرخ رشيد الدين الى ان جيش هولاًكو كان يتألف من اربعة اقسام اطبقت على

الى الامراء تستحثهم على النهوض (١٥) ، وسرعان ما تختفي هذه الاجراءات مع ابتعاد الخطر عن اطراف الدولة ، ويعود الناس الى اعمالهم ، في حين كان يتمين على الخلافة تهيئة طاقات الامة وحشد قواها المادية والبشرية لمواجهة التحدي المغولي وان يتولى الخليفة نفسه قيادة القوى المقاتلة لما يترتب على ذلك من رفع للمعنويات وشحذ للهمم ، غير ان شيئاً من ذلك لم يحدث فقد كانت سياسة المستنصر بالله (١٦) تقوم على محاولة استرضاء المغول ومصانمتهم ، ثم بلغت الخلافة ذروة ضعفها في عهد المستعصم بالله (١٧) (٦٤٠هـ - ٦٥٦) ، الذي وصفه المؤرخون بالفتلة وضعف الراي وقلة العزم ، وكان اخطر ما اقدم عليه الخليفة الجديد هو اهماله الجيش وامساكه عن الانفاق على الجند . (١٨)

والواقع ان اهمال الناحية العسكرية وما ترتب عليها من نتائج سيئة لا يتحمل مسؤوليتها الخليفة وحده بل يشاركه رجال دولته من الوزراء والحجاب وامراء الجيش والحاشية ، فهؤلاء جميعاً يتحملون مسؤولية الكارثة التي حلت بالبلاد (١٩) . فكان بعضهم يهون على الخليفة امر المغول والبعض الآخر ينصح باسترضائهم بالهدايا والاموال ، بالاضافة الى ما تفجر بين هؤلاء الامراء والوزراء من خلافات وصراعات حول السلطة عجز الخليفة عن السيطرة عليها وازالة اسبابها ، فكان ذلك عاملاً من عوامل اشاعة الغرض والاضطراب في دار الخلافة .

هجوم المغول على بغداد :

استعد هولاًكو للزحف نحو بغداد في المحرم سنة ٦٥٥هـ بعد ان تم له القضاء على قتلاح الاسماعيلية في ايران ، وبعث من همدان انذاراً شديداً الى الخليفة المستعصم بالله دعاه الى تدمير جميع اسوار بغداد والموتل بشخصه امامه او ارسال ثلاثة من كبار رجال دولته نيابة عنه ،

- (٢٠) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢م ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٧١ ، ابن العبري ، ص ٢٧١ .
 (٢١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ١م ج ٢ ص ٢٧١ .
 (٢٢) المصدر السابق ، جامع التواريخ ص ٢٧١ .
 (٢٣) القزاق ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ص ٢١٢ .
 (٢٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٢٢٠ ، ابن العبري ص ٢٧٠ .
 (٢٥) جعفر خبسال ، الاحتلال المغولي للعراق مجلة كلية الاداب عدد ٣ سنة ١٩٥٨ ص ١٤٠ .

- (١٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٩٨ ، ١١٠ ، ١١٢ .
 (١٦) المستنصر بالله : ابو جعفر منصور بن القاهر بامر الله ولد في صفر سنة ٥٨٨هـ .
 (١٧) المستعصم بالله : ابو احمد عبدالله بن المستنصر بالله ولد في سنة ٦٠٩هـ .
 (١٨) ابن الفوطي ، ص ١٦٨ ، ٢٦١ ، ٢٢٠ ، ابو الحسن ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٨ .
 (١٩) القزاق ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير .

بغداد من جانبيها ، في حين يذكر ابن الفوطي القسمين الرئيسيين لهذا الجيش . (٢٦)

كان هولوكو وكتيبا يضيّقون الخناق على بغداد من الجانب الآخر ، وبادر المفسول الى اقامة الاستحكامات ، فاقاموا على دجلة باعلى المدينة وباسفلها جسرين قائمين على السفن امعانا في تضيق الحصار على بغداد وكما لا يدعوا لاهلها انفرصة في الرحيل عن طريق النهر ، واستخدم المفسول جدوع النخيل للرمي بالمنجنيق بدلا من الاحجار التي لم تكن متوفرة حول بغداد حيث كانوا ياتون بها من جبل حميرن وجلواء . (٢٠)

وبدا المفسول الحرب في الثاني والعشرين من المحرم وشدد هولوكو على القطاع الشرقي فتمكن من الاستيلاء على الاسوار المتمثلة في البرج المعروف ببرج العجمي المجاور لباب الحلبة ، وكان لنجاح المفسول في الاستيلاء على هذا الجزء الهام من المدينة اثره في معنويات المدافعين وسكان المدينة ، فقرر الخليفة ابغاد وزيره ابن العلقمي وجائليق السحيين المناطرة الى هولوكو لاقناعه بالكف عن القتال وعقد الصلح ، غير ان هولوكو لم يلتفت الى ذلك ، بل طلب من الوزير ان يسطحب معه الدويدار وسليمان شاه ، الا ان الوزير حضر في اليوم التالي مع صاحب الديوان وجماعة من اعيان بغداد ، فردم هولوكو خائبين واستمرت الحرب بين الطرفين . (٢١)

وساءت الاحوال ببغداد وحاول عدد كبير من رجال حاميها الهرب غير انهم لم ينجحوا ووقعوا في قبضة المفسول فاجهزوا عليهم ، ولم يلبث الخليفة المستصم ان اعلن الاستسلام وارسل فخر الدين الدماقسي وابن درنوس مع بعض الهدايا لتقديمها الى هولوكو ، غير ان الاخير لم ينسر بوقف القتال ، كما رفض شفاعة ولدي الخليفة الفضل عبدالرحمن وايي العباس احمد اللذين خرجا بعد ذلك مع جماعة من اهل بغداد محملين بالهدايا والتحف . (٢٢) واصر الزعيم المغولي على ضرورة حضور الدويدار وسليمان شاه اللذين كانا يتوليان قيادة المقاومة ضد المفسول ، فقرر الخروج لمقابلة هولوكو في الاول من صفر سنة ٦٥٦هـ ، فطلب اليهما اصدار الاوامر الى المدافعين عن بغداد بالانضمام الى الجيش المغولي الذي سيتوجه الى الشام ومصر ، فاستجابا لذلك ، وخرج عدد كبير من الجند للاتحاق

نزل عسكر الخليفة بقيادة الدويدار في بادئ الامر في بعقوبة ، فلما علم بتقدم قوة من المفسول نحو الضفة الغربية لدجلة ، سارع بعبور النهر ليتصدى لهم شمال بغداد ، فادى انسحابه هذا الى خلو الجهة الشرقية من الجند ، وحاول الخليفة حمل من تبقى من امراء العسكر على الخروج تحت قيادة مرشد الخصي ، فرفضوا السير تحت لوائه ولم ينفذوا اوامر الخليفة ، مما سهل مهمة هولوكو في الوصول الى اسوار بغداد (٢٧) والتقى جيش الخليفة بطلائع المفسول بالقرب من قنطرة باب البصرة ، وقد اختلف المؤرخون في تقدير حجم القوة المغولية ، فابن كثير يذكر انها كانت نحواً من عشرة الاف ، في حين يجعلها ابن الطقطقي ثلاثين الفا (٢٨) . ولجأ المفسول الى تطبيق اساليبهم المعروفة في الحرب فتظاهروا بالهرب امام قوات الخليفة التي كان يقودها الدويدار ، فاندفع وراءهم ولم يستمع الى نصيحة فتح الدين بن قمر الذي اشار عليه بالثبات في مواقفه ، والاستعداد لمواجهة مرة اخرى ، وكان المفسول يرمون الى ابعاد قوات بغداد عن مواقعها في نفس الوقت الذي تقوم فيه فرقة منهم بتدمير السدود القائمة على تفرع نهر بشير من الدجيل لاغراق الاراضي وراء تلك القوات وحصرها فيها ، وقد نجح المفسول في تحقيق هذا الهدف حين توقفوا عن التراجع وعادوا للهجوم نانية حيث انحصرت قوات بغداد في المنطقة المغمورة بالياه فهلك معظمها الا من التقي نفسه في الماء ومن دخل البرية ومضى على وجهه الى الشام ، وتمكن الدويدار من النجاة ودخل بغداد في عدد قليل من اصحابه (٢٩) .

وفي الحادي عشر من محرم سنة ٦٥٦هـ / ٢٢ كانون ثاني ١٢٥٨م استكمل المفسول حشودهم على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وتولى قيادة هذه الحشود ثلاثة من كبار امرائهم وهم : بايجو ، وبقاتيمور ، وسوجونجق (سونجاق) ، في حين

(٢٦) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢م ج ١ ص ٢٨١ ، ابن الفوطي ، ص ٣٢٠ ، القزاز ، ص ٣٢٤ .

(٢٧) ابو الحسن ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٩ .

(٢٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٠١ ، ابن الطقطقي ، المغربي ص ٢٩٢ .

(٢٩) ابن العبري ، ص ٢٧٠ ، العربي ، تاريخ المفسول ص ٢١٨ .

(٣٠) ابن العبري ، ص ٢٧٢ ، القزاز ، ص ٣٢٥ .

(٣١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢م ج ١ ص ٢٨٦-٢٨٧ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، ابن العبري ، ص ٢٧١ .

بالمغول ، غير ان الموت كان بانتظارهم خارج الاسوار وخرج الدويدار وسليمان شاه في اليوم التالي ولقيا نفس المصير . (٢٢٢)

ولم يجد الخليفة بدا من الخروج فاستاذن هولوكو في ذلك وخرج معه اولاده واهله ، فامر هولوكو بانزالهم بباب كلواذا ، وطلب الى الخليفة أن يصدر اوامره الى بقية المدافعين عن بغداد بالقاء اسلحتهم والخروج لاحصائهم فاستجاب لذلك وخرجت جماعات كبيرة منهم ، فاحاط بهم المغول وقتلوه عن آخرهم ، ثم دخل هولوكو بغداد ليشاهد دار الخليفة وامر باحضاره ، فحضر المستعصم ومعه جمع من العلماء والاعيان ، وقدم الى هولوكو الجواهر والدرر واواني الفضة والياب النفيسة ، ففرقها على الامراء ، وعنف الخليفة تعنيفاً شديداً وحمله مسؤولية ما وقع من احداث بسبب تهاونه في الدفاع عن البلاد وامساكه عن اتفاق امواله لتقوية الجيش . (٢٢٤)

واطلق هولوكو اصحابه لنهب بغداد فاستباحوها مدة سبعة ايام (٢٥) ، وامر عساكره المرابطة على الاسوار بالنزول الى داخل المدينة والاشتراك في الاجهاز على السكان ، فلم يفرقوا بين الرجال والنساء والاطفال ، واستجار قسم منهم ببعض المقربين من المغول ، والتجأ بعضهم الى بيوت النصارى الذين كانوا قد حصلوا على الامان والرعاية من المغول ، واشتعلت النيران في ارجاء بغداد ، فاحترق جامع الخليفة ومشهد موسى الكاظم ومرآة الخلفاء ، وكان القتلى في الاسواق والدروب كالتلول وقمت عليهم الامطار وداستهم الخيول فتغيرت صورهم ، ولم يلبث هولوكو ان امر بقتل الخليفة المستعصم مع ولده ابو العباس احمد ثم ابنه الاوسط ابو الفضل عبدالرحمن ، كما قتل اعمام الخليفة واقاربه وجماعة من الاعيان ، ثم امر برفع السيف واعلن ان من بقي على قيد الحياة اصبح من رعاياه (٢٢٦)

وقد اختلفت روايات المؤرخين حول تقرير عدد الذين لقوا مصرعهم على ايدي المغول في بغداد . فذكر ابن الفوطي انهم كانوا يزيدون على ثمانمائة الف سوى من هلك من الاطفال ومن مات في السرايب والآبار (٢٢٧) ، اما الذهبي فيقدر عدد القتلى بما يزيد على الف الف وثمانمائة (٢٢٨) ، ولاشك ان هذه التقديرات مبالغ فيها اذا ما اخذنا في نظر الاعتبار مساحة بغداد المحصورة بين الاسوار آنذاك ومدى استيعابها للسكان ، بالإضافة الى ان الكثير من اهلها كانوا قد التمسوا النجاة بانفسهم بعد سماعهم باقتراب المغول الذين اشاعوا الخوف والذعر في نفوس الناس ، كما يجب ان لا ننسى الذين لجأوا الى بيوت النصارى او القربين من المغول ، ومن ظل مختفياً عن الانظار في المناطق المهجورة ، والدليل على ان المغول لم يجهزوا على جميع السكان اعلان هولوكو بان بغداد (اصبحت ملكاً لنا فليستقر الاهالي ولينصرف كل شخص الى عمله) (٢٢٩) ، وقد قدر المؤرخ الفرنسي جروسية عدد القتلى بتسعين الفا مستنداً الى دراسة المصادر الأولية ، ولعل هذا الرقم هو الاقرب الى الواقع . (٤٠)

وبعد ان اعلن هولوكو ايقاف اقتال امر بدفن الموتى ورفع جثث الحيوانات من الطرقات والاسواق ، بعد ان فسد الهواء ببغداد وانتشر الوباء في ارجائها ، وقبل ان يغادر معسكره الى همدان امر بتنظيم الامور في العراق ، وفوض حكومة بغداد الى الامير علي بهادر وجعله شحنة بها ، وافر الوزير ابن العلقمي في الوزارة وفخر الدين الدامقاني في الديوان ، ونظام الدين عبدالمنعم في القضاء ، كما وزع المناصب الادارية والمالية على نجم الدين عبدالغني بن درنوس ، وتاج الدين علي بن الدوامي . وفخر الدين مبارك ابن المخرمي . ثم رحل هولوكو في جمادى الاولى من السنة نفسها ٦٥٦هـ . وترك على بغداد قائدين من المغول في ثلاثة الاف جندي . وواصل رحيله الى همدان . (٤١)

(٢٢٢) ابن العربي ، ص ٢٧١ .

(٢٢٣) نصير الدين الطوسي ، استيلاء المغول على بغداد ص ٢٨ (رسالة بالفارسية ترجمها محمد صادق الحسيني ونشرت في مجلة المرشد البغدادي ج ٤) .

(٢٢٥) ابن العربي ، ص ٢٧٢ ، ذكر ابن الفوطي ان المغول استباحوا بغداد مدة اربعين يوماً ، الحوادث الجامعة ص ٢٢٩ .

(٢٢٦) رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ابن الفوطي ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، خصباك ، ص ١٤٢ ، القزاز ص ٢٢٩ .

(٢٢٧) ابن الفوطي ، ص ٢٢١ .

(٢٢٨) الذهبي ، دول الاسلام ج ٢ ص ١٢١ .

(٢٢٩) رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٢٩٢ ، خصباك ص ١٤٤ - ١٤٥ ، القزاز ، ص ٢٢٨ .

(٤٠) Grousset, L'Empire des steppes. P. 299

(٤١) خصباك ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، القزاز ، ص ٢٤٠ .

حملات تيمور على بغداد

٧٩٥-٨٠٧هـ/١٣٩٣-١٤٠٥م

بسم

نوري عبدالحميد خليل

جامعة بغداد/كلية التربية

احمد ، فقد شهد العالم الاسلامي في عهده موجة مغولية جديدة ، اندفعت من اواسط اسيا بقيادة تيمور (تيمورلنك) (١) .

ينتسب تيمور الى احدي القبائل المغولية - التركية ، وقد نشأ نشأة اسلامية في مدينة كش في ما وراء النهر (جيحون) ، وصاحب نظراءه من اولاد الامراء والوزراء ، وتدرّب على فنون القتال . وقد مكنته شجاعته العسكرية من ضم القبائل المغولية تحت لوائه ، والتخلص من الامراء المنافسين على السلطة واحدا بعد الاخر ، واصبح حاكما على ما وراء النهر سنة ١٣٦٩هـ/١٣٦٩م . واتخذ سمرقند عاصمة له . وكانت الاوضاع الاقتصادية المتردية في بلاد ما وراء النهر ، ورغبة تيمور في السيطرة ، وعدم اعترافه بوجود حاكم آخر ، من العوامل المهمة في اندفاعه نحو الغرب ، لا سيما وقد اعتبر نفسه ورثا لاملاك المغول ، والامبراطورية الايلخانية الواسعة التي كانت تضم خراسان وبلاد الجبل والعراق العربي واذربيجان والاحواز وفارس وديار بكر واسيا الصغرى(٢) .

تجزأت المملكة الايلخانية سنة ٧٣٦/١٣٣٥م، واندلعت الحروب بين انظاميين بالسلطة ، وقد تمكن الشيخ حسن الجلائري ان يستقل بالعراق سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م ، ويؤسس الدولة الجلائرية . واتخذ من بغداد عاصمة له . وفي سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م تولى الحكم ابنه الشيخ اويس الذي بسط نفوذه على منطقة اذربيجان الغربية ، ونقل عاصمته الى تبريز ، اما العراق فقد اصبح ولاية جلائرية . ولما خلفه ابنه حسين سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م ، وكان صغير السن ضعيفا ، تسلط امراء الجيش على شؤون الحكم ، وانضم فريق منهم الى اخيه الشيخ علي حاكم بغداد . ومال فريق آخر الى اخيه الثاني احمد ، وكان حاكما على ولاية البصرة . ونشب صراع على السلطة بين الاخوة الثلاثة ، انتهى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م بمقتل السلطان حسين واستيلاء احمد على الحكم في تبريز .

لكن السلطان احمد اساء معاملة اخوته وامراء الجيش ، فهرب اخوه بايزيد الى مدينة اسطانية ، عاصمة الايلخانيين ، لاجئا عند حاكمها الجلائري الامير عادل اغا ، وكان ساخطا على السلطان احمد ايضا ، فاكرم بايزيد واقامه سلطانا هناك . ولجأ قسم من الامراء الى بغداد ، ونصبوا الشيخ علي سلطانا ، وساروا به نحو تبريز على رأس جيش عراقي كبير . وقد تمكن السلطان احمد من قتل اخيه الشيخ علي ، وتشتيت جيش بغداد في السنة التالية ، بمساعدة حليفه قره محمد حاكم التركمان القره قوينلو . غير ان الامور لم تستتب للسلطان

(١) نوري عبدالحميد خليل ، العراق في العهد الجلائري ١٣٢٧ - ١٤١١م ، رسالة ماجستير غير منشورة) كلية الاداب - جامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ٢٧ - ٢٠ ؛ وانظر ايضا : شيرين بياني ، تاريخ آل جلّاير (طهران ١٣٤٥) ص ١٣ - ١٠٨ ؛ عباس الزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ٢ (بغداد ١٩٣٦) ص ٢٤ - ٢٦ ،

(٢) جاسم مهاوي حسين ، تاريخ الفزو التيموري للعراق والشام واثاره السياسية ١٢٨٥ - ١٤٠٥م ، رسالة

اثارت الانتصارات التي احرزها تيمور في اواسط آسيا وشمال ايران والولايات الايلخانية قلق السلطان احمد في تبريز ، فأمر سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م بوضع حامية عسكرية كبيرة في مدينة السلطانية ، وانسحب الى بغداد ، لكن قوات تيمور داهمت السلطانية ، بعد فترة قصيرة ، واستولت عليها(٤) . ويبدو ان السلطان اراد تقوية مركزه في تبريز وابقاء سيطرته عليها ، فسار اليها في السنة التالية على رأس جيش عراني كبير من بغداد ، غير ان قوات تيمور هاجمت المدينة فأضطر السلطان الى التراجع عنها ، ودخلها تيمور دون مقاومة(٥) .

وبعد ان اخضع تيمور اذربيجان وجورجيا وارمينيا ، كان متوقعا ان يضع العراق ضمن مخططاته التوسعية ، لكونه مفتاحا الى بلاد الشام والحجاز ومصر ، ولاجل تأمين طرق التجارة القادمة من الخليج العربي الى بغداد وتبريز وسمرقند . وكانت الاوضاع السائدة في العراق لا تساعد على المقاومة ، فقد اتسمت سياسة السلطان احمد بضيق الافق ، وعدم تقييمه لقوة تيمور . فلم يتخذ اجراءات عسكرية لدفع خطره ، او اقامة جبهة داخلية قوية تدعمه ، بل اجهد نفسه في القضاء على خصومه السياسيين ، ففقد خيرة ضباط جيشه . ويقول عزيز الاستربادي ، وكان نديمه في بغداد : ان السلطان احمد « قتل عددا كبيرا من قادة الجيش واعيان رجال الدولة ، من ذوي الكفاية والدراية والراي في تدبير الامور ، وجمع حوله عددا من الاسافل ممن عرفوا بالجهل والحماقة وانخمول ، ونصبهم في المناصب العليا . وقد ادى تقصيرهم وسوء تصرفهم الى ايجاد فتور كبير في اعمال الدولة . فقامت المعارضة والفتن في كل مكان . وانصرف السلطان الى اقامة مجالس الشراب ، ولم يصرف لحظة واحدة في اعمال الملك والدولة »(٥) . وتتفق مصادر تيمور الرسمية مع المصادر المصرية على ان سكان بغداد كرهوا

السلطان احمد وسياسته التصفية ، فكاتب بعض اعيانها تيمور يحرضونه على سلطانهم ، ويستحثونه القدوم واحتلال بغداد ، حتى ان بعض موظفي البريد وكشافة الطرق الذين ارسلهم السلطان احمد لرصد تحركات تيمور ، لجأوا الى تيمور ودخلوا في طاعته قبل وصوله الى بغداد(٦) .

اما على الصعيد الخارجي فان السلطان احمد لم يتعاون مع الدول المجاورة للوقوف بوجه تيمور ، واهمل العرض الذي تقدم به الامير ولي حاكم مازندران لاقامة حلف معه ضد تيمور بالتعاون مع اندولة المظفربة في فارس ، واتسمت علاقته بالدولة الاخيرة بطابع عدائي(٧) . كما اهمل العرض الذي تقدم به تقيتمش ، خان القبيلة الذهبية الحاكمة في جهات الغولغا ، والذي اقلقته اقتراب جيش تيمور من حدود بلاده ، ولما شعر تقيتمش بضعف السلطان احمد ، ارسل في سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م (٥٠ الف فارس للمرابطة عند مدينة دربند (باب الابواب) على بحر الخزر ، تحسبا للطوارئ . وفي الوقت نفسه ارسل الى بغداد وفدا برئاسة قاضي مدينة سراي عاصمة القبيلة الذهبية ، عارضا على السلطان احمد اقامة تعاون ضد عدوهما المشترك ، الا ان السلطان لم يفتتم هذه الفرصة ، بل اساء معاملته احد اعضاء الوفد ، مما ادى الى تردي العلاقة مع تقيتمش(٨) .

لم يدرك السلطان احمد خطر تيمور الا بعد فوات الاوان ، وبعد ان فقد العاصمة تبريز ، فأخذ يفتش عن حليف يساعده على الوقوف بوجه هذا الخطر ، وقد باءت المحاولات التي بذلها للتحالف مع العثمانيين بالفشل ، كما انه لم يحصل على مساعدة المماليك الجراكسة في مصر والشام ، بسبب اضطراب مملكتهم وسوء اوضاعها الداخلية(٩) .

- (٦) تيمور ، تزوكات تيموري ، تحرير ابو طالب حسيني (اسفورد ١٧٨٢) ص ١٢٤ - ١٢٥ ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات ؛ تاريخ ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين ذريق ونجلاء عز الدين (بيروت ١٩٢٨) ج١ ق ٢٤ ؛ تقي الدين احمد بن علي القرظي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، حققه سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة ١٩٠٧) ج٣ ق ٢٤ ، ص ٧٨٨ .
- (٧) نطنزي ، منتخب التواريخ ، ص ٢٢٥ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٥ - ٩٦ .
- (٨) حافظ ابرو : ذيل ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ؛ محمد بن برهان الدين خواند شاه المشهور بمرخواند ، روضة الصفا (طهران ١٣٢٩) ج٥ ، ص ٥٩٥ .
- (٩) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

ماجستير (غير منشورة) كلية الاداب - جامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ٤٤ - ٦١ .

- (٢) شهاب الدين عبدالله بن لطف الله بن عبدالرشيد الخوافي المدعو بحافظ آبرو ، ذيل جامع التواريخ رشيدى ، (طهران ١٣١٧) ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
- (٤) معين الدين نطنزي (منسوب له) منتخب التواريخ معينى ، (طهران ١٣٢٦) ص ٢٢٠ .
- (٥) عزيز ابن اردشير الاستربادي ، بزم ورمزم (استانبول ١٩٢٨) ص ١٦ - ١٧ ؛ خليل ، المصراكي في العهد الجلالي ، ص ١٦٢ .

شهرزور بين همدان واربيل . فاستقبله تيمور بحفاوة واجلال عظيمين ، لكنه رفض استلام الهدايا لان السلطان لم يحضر بنفسه لتقديم فروض الطاعة وبعد ان انعم على الشيخ خلعة وحصانا ثمينا مع كمية من النقود ، اعاده الى بغداد ، واعدا اياه بعدم التعرض لها(١٤) .

لقد اراد تيمور التمويه على السلطان احمد ، فبعد ان عاد الشيخ عبدالرحمن مطمئنا ، امر قواته في ١٢ شوال ٧٩٥هـ/١٢٩٢م بالزحف على بغداد . فتقدمت هذه القوات عبر ممرات جبلية ضيقة ، ووصلت بعد خمسة ايام الى مزار الشيخ ابراهيم يحيى المشهور بقبته ابراهيم الك ، قرب الخالص . ولما شاهد اتباع السلطان احمد غبار الجيش طيروا حماسة مع رسالة يخبرون فيها السلطان بوصول جيش تيمور . وحين وصل تيمور وعلم بالامر امرهم في الحال ان يرسلوا رسالة اخرى ، بذكرون فيها ان الغبار الذي شاهده لم يكن من اثر جيوش تيمور بل غبار التركمان الذين هربوا منه ، ثم امر قوته بالسير باقصى سرعة(١٥) .

تقدمت قوات تيمور لاحتلال بغداد ، وقد تولى قيادة المقدمة الامير عثمان عباس ، وتولى تيمور نفسه قيادة القلب ، وقاد اليمنة حفيده محمد سلطان ، والميرة ابنه ميرانشاه ، اما عثمان بهادر فقد قاد المؤخرة(١٦) . فوصلت هذه القوات بغداد في ٢١ شوال / اب ، ونزلت في الجانب الشرقي (الرصافة) . اما السلطان احمد فحين علم بغدوم تيمور نقل امواله وحريمه واسلحته وارسلهم امامه الى الحلة ، ثم قطع الجسر ونقل السفن الى الجانب الغربي (الكرخ) واغرق بعضها واحرق البعض الاخر ، لكي لا يستفيد منها العدو، وانسحب من بغداد مع عدد من اتباعه(١٧) . وبعد خروج السلطان احمد قام بعض اعيان المدينة بفتح الابواب واستقبلوا تيمور ، وكان على رأس

في ١٥ رجب ٧٩٤هـ/١٢٩٢م زحف تيمور على رأس جيش يبلغ تعداده حوالي مئة الف مقاتل من جهات ما وراء النهر نحو الغرب ، وبعد ان اخضعت هذه القوات فارس وخوزستان وبلادالجبيل واحكمت سيطرتها في السنة التالية على ايران ، تجتمعت في الثامن من شعبان ٧٩٥هـ/١٢٩٢م في همدان تمهيدا للزحف على بغداد(١٨) .

بعث تيمور رسالة الى السلطان احمد ، ومعها الخلعة والسكة ، وامره باعلان خضوعه ، وان يذكر اسمه على النقود وفي الخطبة ، والاسراع بالثول بين يديه لتقديم فروض الطاعة(١٩) . لكن السلطان رفض ذلك ، واجاب برسالة تهكمية ، اعلن فيها استخفافه بتيمور ، واستغرابه من اعجابه الشديد بنفسه ، فكيف « يصح الثعلب الضال الذي لا يد له ، ولا رجل ليثا ، وكيف يتقابل الاصل مع الاصيل » معتبرا اياه مجرد (نملة في صحراء) (٢٠) .

شرعت قوات تيمور في ١٢ شعبان ٧٩٥هـ/ ١٢٩٢م بسلسلة من الحملات في شمال العراق بقصد اخضاع القبائل الكردية والتركمانية المتحالفة مع اسلطان احمد ، والاستحواذ على المواد الغذائية المتوفرة في المنطقة ، وضبط الطرق الموصلة الى بغداد . وبعد ان احكمت هذه القوات سيطرتها على الطريق الممتد بين همدان وجمجمال ، واخضعت القبائل الكردية والتركمانية المنتشرة على طوله(٢١) وجد السلطان احمد نفسه عاجزا عن مقاومة الجيش الزاحف ، فاراد تدارك الامر باعلان خضوعه وارسل ابيه وفدا برئاسة الشيخ نور الدين عبدالرحمن الاسفراييني ، وكان من اكابر مشايخ بغداد ، وحمله رسالة الى تيمور ، معلنا فيها خضوعه اليه ، ومعتذرا عن الحضور بنفسه والمثول امامه ، وابدى ترحيبه به اذا اراد القدوم الى بغداد وارسل معه جملة من الهدايا الثمينة والتحف النادرة من بينها انخيلو العربية ذات السروج المذهبة .

قابل الوفد تيمور في قرية اق بولاق ، قرب

(١٤) شرف الدين علي اليزدي ، ظفرنامه ، بنصح واهتمام محمد عباسي (طهران ١٣٣٦) ج١ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ ؛ عبدالله بن فتح الله اللقب بالقياني ، التاريخ القيانى ، دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني (بغداد ١٩٧٥) ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ١٨٥ .
(١٥) اليزدي ، ظفرنامه ، ج١ ص ٥٠ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ١٥٥ .
(١٦) حسين ، الفزو التيموري ، ص ١٢٨ .
(١٧) اليزدي ، ظفرنامه ، ج١ ص ٥١ ؛ القيانى ، ص ١١١ ، ١٨٦ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١١٢ - ١١٧ .
(١١) احمد بن علي بن حجر المسقلاني ، انباء الفهر بابناء مصر ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٩) ج١ ، ص ٥٢ ؛ ابي العباس احمد بن علي القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ١٩٦٣) ، ج٣ ص ٢١١ .
(١٢) بياني ، تاريخ آل جلاير ، ص ٨٢ - ٨٣ ، حسين ، الفزو التيموري ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
(١٣) حسين ، الفزو التيموري ، ص ١١٧ - ١٢٠ .

المستقبلين الشيخ نظام الدين الشامي الذي دون فتوحات تيمور فيما بعد(١٨) .

عبر بعض اتباع تيمور نهر دجلة سباحة لجلب السفن الراسية في الجانب الغربي من بغداد ، والتي لم يتمكن السلطان احمد من اتلافها . فاستولوا على سفينة السلطان الخاصة المسماة الشمس ، وهي ذات ثلاثين مجدافا ، مع اربع سفن اخرى ، فاستخدم تيمور هذه السفن في العبور الى الجانب الغربي ، والسيطرة على بغداد(١٩) .

من الصعوبة بمكان تحديد حجم الخسارة التي تعرضت لها المدينة من جراء دخول جنود تيمور ، فقد قدر القرظي عدد اسكان الذين قتلوا بثلاثة الاف نفس(٢٠) . غير ان مصادر تيمور الرسمية لا تشير الى وقوع خسائر في الارواح لان المدينة استسلمت صلحا . وتذكر هذه المصادر ان تيمور اكتفى بأخذ (مال الامان) ، وهي الضريبة التي اعتاد اخذها من سكان المدن التي تفتح صلحا ، مقابل الحفاظ على ارواحهم(٢١) . وقد اناط مهمة جمعها بأحد امراء السلطان احمد الذين تعاونوا معه والمدعو شرف الدين البليقي مع عدد من اعوانه(٢٢) .

كان امر تيمور ان يجبي من السكان كل حسب مقدرة المالية ، لكن الذين تولوا جمع الضريبة طالبوا الناس باموال كثيرة ، وحملوهم فوق طاقتهم(٢٣) . ويذكر القرظي ان تيمور صادر اهل بغداد ثلاث مرات ، وجمع في كل مرة ١٥٠٠ تومان ، اي ما مجموعه ٤٥ مليون دينار عراقي (الدينار ست دراهم)(٢٤) . وقد رافق عملية الجمع اربع انواع التعذيب واقساها ، وكان من بين الوسائل التي اتبعها الجنود في تعذيب الناس : عصر الاعضاء والتي على النار وتعليق البعض من

(١٨) نظام الدين الشامي ، ظفرنامه ، بسمي واهتمام وتصحيح فلكنس تاور (بيروت ١٩٣٧) ص ١٢٩ ، ابن الفرات ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج١ ص ٢٤٤ .

(١٩) اليزدي ، ظفرنامه ، ج١ ، ص ٥١ ؛ الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٢ ، ١٨٦ .

(٢٠) القرظي ، السلوك ، ج١ ص ٢٢ ، ص ٧٩ .

(٢١) الشامي ، ظفرنامه ، ص ١٤١ ؛ اليزدي ظفرنامه ، ج١ ص ٥٧ .

(٢٢) الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٢ .

(٢٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج١ ص ٢٢ ؛ ٣٦٢ ، خليل ، العراق في العهد الجلابري ص ٢٨٦ .

(٢٤) القرظي ، السلوك ، ج٢ ص ٢٢ ، ص ٧٩ .

الارجل ، كما كانوا يدسون خرقة فيها تراب ناعم بانف المذب حتى تكاد تخرج نفسه فيخلى عنه كي يستريح ، ثم تعاد العقوبة عليه(٢٥) . وقد مات من اثر التعذيب والعقوبة عدد كبير من الموسرين والتجار واعيان بغداد وامرائها ، قدرتهم المصادر المصرية بين ٧٠٠ - ٨٠٠ نفس(٢٦) . كما استولى اتباع تيمور على خزائن السلطان احمد ، وصادروا اموال الرؤساء والاعيان والامراء الذين هربوا معه . منهم قاضي بغداد الشافعي غياث الدين ابن العاقولي ، ومحتسب بغداد وجيه الدين ابن الانباري ، ومحمد بن عبدالقادر انواسطي(٢٧) .

وقاموا باذلال الناس باخراج الغنيات والاعتداء على اعراضهن ، ونهبوا كل ثمين يقع تحت ابصارهم من تحف ومجوهرات ، فكانوا يفتلون الذهب والفضة التي تزين بيوت الاغنياء(٢٨) .

اما الخسارة في الجوانب الحضارية فقد كانت كبيرة جدا ، فزعم الكارثة التي حلت بالحضارة العربية بعد سقوط بغداد على ايدي المغول ، ظلت بغداد مركزا للعلم والصناعة والفن(٢٩) . الا ان تيمور امر بجمع الموهوبين من اصحاب الحرف والصناعات والفنون المختلفة ، ونقلهم الى عاصمته سمرقند . وقد حفظت المصادر اسماء عدد ممن شملهم النقل من امثال الموسيقي المشهور عبدالقادر الراغي(٣٠) ، الذي لازم السلطان اديس واولاده حسين واحمد ، وكان عارفا بجميع الآلات ذات الاوتار وخاصة العود ، والموسيقي المشهور قطب الموصلي ، وكان اعجوبة الزمان واستاذ علم الموسيقى والادوار ، والمصور المشهور عبدالحق البغدادي ، الذي استخدمه تيمور في تزيين بلاطه في سمرقند(٣١) .

(٢٥) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ .

(٢٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٧ ، ص ٢١٤ . ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج١ ص ٢٢ ، ص ٣٦٢ ؛ عبدالرحمن محمد بن خلدون ، العبر وديوان المتبدا والخبر (بيروت) ص ١٠٨٤ .

(٢٧) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢٨) الاسترابادي ، بزم ودم ص ١٩ ، حسين الفزرو التيموري ، ص ١٢٩ .

(٢٩) خليل ، العراق في العهد الجلابري ، ص ٣٠١ - ٣٢٨ .

(٣٠) اليزدي ، ظفرنامه ، ج١ ، ص ٥٦ ، الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١٨٨ .

(٣١) احمد بن محمد بن عبدالله بن عرب شاه دمشقي ، عجائب القندور في اخبار تيمور ، (لاهور ١٨٦٨) ص ١٥٥ ، ٤٦٩ ، نظري ، منتخب التواريخ ، ص ١٦٦ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلابري ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ .

الحملة الثانية ٨٠٣هـ / ١٤٠١م :ـ

حين هرب السلطان احمد من بغداد لاحتقه عدد من اتباع تيمور ، وبعد مطاردات عنيفة قرب كربلاء ، تمكن السلطان ان يهرب مع عدد من اتباعه عبر الصحراء الى مدينة الرجبة على الفرات ، حيث منازل نعيم بن حيار بن مهنا امير آل فضل ، الذي رحب به وانزله عنده ، ثم سار نحو حلب طالبا اللجوء عند السلطان المصري الظاهر برفوق (٧٨٤ - ٨٠٣هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٨م) ، فطلبه الاخير الى القاهرة ورحب به واكرمه (٢٧) .

اما في العراق فان مسعود السبزواري لم يتمكن من ضبط بغداد ، بسبب ضعف الحامية التي وضعها تيمور فيها . وقد شعر اتباع السلطان احمد بذلك فتجمعوا على الفرات ، واجتمع معهم ايضا عدد كبير من سكان بغداد الفارين ، وافراد القبائل العربية القاطنة على الفرات بين هيت وعنه . وطلبوا من السلطان احمد الحضور اليهم، للرحف على بغداد وطرده نائب تيمور منها (٢٨) . وكان السلطان احمد في هذا الوقت في بلاد الشام، يشارك السلطان المصري برفوق استعداداته لمجابهة تيمور عند زحفه عليها . فانتزه هذه الفرصة وبدعم من السلطان المصري ، الذي امدته بالمال والسلاح والخيول والجمال ، وكتب له تقليدا بسلطنة بغداد ، سار في الاول من شعبان ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م من دمشق الى بغداد (٢٩) . كما امر السلطان المصري كافة اتباع السلطان احمد المقيمين بالشام بالاتحاق بسلطانهم ، اما قوات برفوق فقد بقيت على الحدود ، رصدًا للعدو ، وانتظارا لما يستجد في بغداد (٤٠) .

١- ج١ ص ٤٥٧ ، ٤٦٦ ؛ حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٨ .

(٢٧) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج١ ص ٢٢٠ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٩ ، ٣٦٦ - ٣٦٧ ؛ القرظي ، السلوك ، ج٢ ص ٢٢٠ ، ص ٧٨٩ - ٨٠١ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٧ .

(٢٨) محمد بن محمد بن مصري ، الدرر المضيئة في الدولة الظاهرية ، حققه ونشره وليم برينر (بركلي ، جامعة كاليفورنيا ١٩٢٦) ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢١١ .

(٢٩) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج١ ص ٢٢٠ ص ٢٨٢ - ٢٨٦ ؛ القرظي ، السلوك ، ج٢ ص ٢٢٠ ، ص ٨١٤ - ٨١٥ .

(٤٠) ابن مصري ، الدرر المضيئة ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ابن حجر المصقلاني ، انباء ، ج١ ، ص ١٧٥ ؛ ابن خلدون ، المر ، ص ١١٧٥ - ١١٧٦ .

ويذكر ابن عرب شاه الدمشقي ، وكان من جملة من تغلهم تيمور من بلاد الشام ، وعاش في سمرقند عدة سنوات ، ان بلاط تيمور ضم من النفاشين والخطاطين والرسمين وغيرهم من الصنائع ما لا يحصى عددهم ، كان كل منهم علامة دهره واعجوبة عصره ، وقد اخذ عددا كبيرا منهم من العراق (٢٢) . كما امر ايضا بنقل عدد كبير من العلماء والفقهاء والشيوخ ، من امثال نظام الدين الشامي ، الذي اصبح مؤرخ بلاطه ، وصنف بأمره كتابا عن غزواته اسماه (ظفرنامه) اي النصر . وكذلك عبدالقادر الواسطي مدرس النحو والفرائض بالمدرسة النظامية ، والفقهاء عبدالسلام ابن احمد الحسيني ، والنسابة جمال الدين احمد ابن علي بن عتبة الحسيني ، والفقهاء عبدالله بن محمد الحسيني ، وابن النسابة محمد بن تقي الدين عبدالله الحسيني (٢٣) .

واتخذ تيمور اجراءات اخرى يفسد منها اظهار نفسه بمظهر الحامي للشريعة الاسلامية ، فأخذ يتقرب الى رجال الدين في بغداد ، وقام بزيارة مشاهد الامام ابي حنيفة والشيخ عبدالقادر الكيلاني والامام احمد بن حنبل والامام موسى الكاظم وحفيده الامام الجواد ، واوقف لهذه المشاهد اراض زراعية في بغداد وغيرها ، وخصص الاقطاعات والرواتب لنسادات العلماء والمشايخ والمدرسين (٢٤) . كما امر اتباعه بجمع الثرويات الموصلية والديار بكرية الموجودة في قصر السلطان احمد ، مع كافة الخمور الموجودة في المدينة ، واراقتها في نهر دجلة ، وامر ايضا بخلق بيوت اللطف (بيوت الدعارة) (٢٥) .

امضى تيمور في بغداد شهرين ينتزه في قصورها الفخمة . وبيوت اللهو المطللة على ضفتي نهر دجلة . تمكنت نواته خلالها من احكام سيطرتها على مدن العراق الجنوبية . ثم عين احد اعوانه المدعو مسعود السبزواري حاكما على بغداد ، وترتد معه حامية عسكرية مقدارها ثلاثة الاف فارس ، وسار نحو الموصل لاتمام فتح بقية مدن العراق (٢٦) .

(٢٢) ابن عرب شاه ، عجائب القصور ص ٢٦٩ ؛ وانظر ايضا الزيدي ، ظفرنامه ، ج١ ، ص ٥٧١ - ٥٧٢ .

(٢٣) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ . (٢٤) تيمور ، تزوكات تيموري ، ص ٣٥٦ - ٣٦٠ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ٢٥١ .

(٢٥) الزيدي ، ظفرنامه ، ج١ ، ص ٥٧ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ بايستغري ، بسمي واهتمام فلكنس تاور (براغ ١٩٥٦) ، ص ١٠٨ ؛ حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٧٢ .

(٢٦) الشامي ، ظفرنامه ، ص ١٤٥ ، الزيدي ، ظفرنامه ،

دينسار عراقي ، كل حسب رتبته ودوره في المؤامرة . لكن السلطان اكتشف المؤامرة في اواخر ادوارها ، فقد عثر خادمه ، كوره بهسادر ، على الفائمة التي وردت فيها اسماء المتآمرين والمبالغ التي استلموها من شروان ، في انوقت الذي وصلت فيه قوات رستم مندلي . فامر السلطان احمد بفتح ابواب المدينة ، وقتل كل من ورد اسمه في الفائمة ، بما فيهم شروان ، حتى بلغ عدد القتلى في اسبوع واحد الفا شخص من امرائه واقاربه .

عد اضعفت هذه المؤامرة قدرة السلطان العسكرية ، وافقدته خيرة ضباط جيشه ، واكفاهم ، ولم تعد له ثقة بهذا الجيش . فترك في احدي الليالي بغداد ، وتوجه سرا الى ديار بكر طالبا المساعدة من حليفه قره يوسف امير التتركان القسره قوينلو . فخف قره يوسف مرعا مع عدد كبير من اتباعه ، وعسكروا في الجانب الغربي من بغداد ، لتقديم الحماية للسلطان . وفي هذه الانشاء اضطر رستم قائد الجيش الزاحف نحو بغداد الى الانسحاب ، بسبب حدوث تمرد في فارس . فاطمن السلطان احمد ، لكنه اضطر الى تقديم مبالغ كبيرة من المال والاقمشة والخيول والسروج المذهبة الى قره يوسف واتباعه مكافئة لهم ، ولمنهم من التعرض لمدينة بغداد او نهبا ، فعادوا الى موطنهم(٤٤) .

ادرك السلطان احمد ان تيمور لن يتركه يتمتع بحكم بغداد ، لا سيما بعد ان شرعت قواته بالزحف على مدينة سيواس في الاناضول سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م . فاذا استطاعت هذه القوات احتلال المدينة ، فان تيمور سيستد عليه طريق الهرب الى بلاد العثمانيين ، كما ان الاوضاع السياسية في مصر وبلاد الشام اضطرت بعد وفاة السلطان برقوق . لذا قرر ان يسرع في الفرار ، فترك على حكم بغداد احد امرائه المدعو فرج الجلائري ، واخذ اهله وامواله ونفائسه ، وتوجه مع حليفه قره يوسف الى الدولة العثمانية ، فاستقبله السلطان بايزيد بن مراد الاول (٧٩١ - ٨٠٥هـ/١٣٨٩ - ١٤٠٢م) واقطعه منطقة كوتاهية ليعيش على مواردها(٤٥) .

(٤٤) الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٩ - ١٢٢ ، ١٩٦ ، البيزدي ، ظفرنامه ، ج٢ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٤٥) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ، ميرخواند ، روضة الصفا ، ج٦ ، ص ٢٥٥ .

وجد مسعود السيزواري انه لا يستطيع المقاومة ، ففرر مفادرة المدينة ، لكنته اراد ان يشاغل انجيش الزاحف نحوه ، وان يتيح لاتباعه فرصة الخروج من بغداد . فامر بكسر السدود المقامة على نهر دجلة ، فاغرقت المياه مناطق واسعة بصورة اعافت تقدم القوات العراقية مدة يومين . تمكن خلالها مسعود السيزواري من الخروج مع اتباعه من بغداد ، وتوجهوا الى شوشتر في خوزستان . ثم دخل السلطان احمد بغداد ، وبدا باعادة تنظيم جيشه معتمدا في ذلك على العرب والتركان ، واخذ يعمل على اعادة تعمير المدينة وزراعتها(٤٦) .

ان عودة السلطان احمد الى بغداد ادهشت تيمور . فقرر انها حكمه ، واخضع المدينة بصورة نهائية . ففي صيف ٨٠١هـ/١٣٩٨م ارسل ابنه ميرانشاه من تبريز على راس جيش كبير لمحاصرة بغداد ، لكن ميرانشاه اضطر الى الانسحاب بعد يومين من الحصار ، اذ واتته الانباء بقيام حركة تمرد ضده في تبريز(٤٧) . كما فشلت محاولة ثانية قام بها حفيد تيمور المدعو رستم في السنة التالية ، عندما وصلت قواته الى مندلي في جمادى الاخرة سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م ، وبعد ان احتلت المدينة ونهبتها استعدت للزحف على بغداد(٤٨) . وفي الوقت نفسه كانت رغبة تيمور هي ان يلقي القبض على السلطان احمد حيا للانتقام منه . فانفق مع نائبه في خوزستان الامير شروان بن شيخ براق منصورى ، على ان يأخذ مبلغا كبيرا من المال ويتظاهر بالهرب منه ويعلن لجوءه مع عدد من اتباعه لدى السلطان احمد . وقد انظمت الخطة في اول الامر على السلطان ، اذ رجب بشروان ، وجعله احد امرائه المقربين ، واقطعه قريتي القبة وزنكيادباد في منقطة ديبالي وقرب مرتفعات حمرين .

شرع شروان يدس الاموال سرا الى كبار امراء السلطان احمد واقربائه بقصد استمالتهم ، وتسهيل مهمة القبض عليه . فاعطى لكل امير مبلغا يتراوح بين عشرة الاف الى ثلاثمائة الف

(٤٦) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٨ ، ١٤٩ ؛ المرفزي ، السلوك ج٢ ق ٢٢ ، ص ٨١٧ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ص ٢٨٦ ، ابن حجر العسقلاني ، انباء ، ج٢ ص ٤٦٦ .

(٤٧) المرفزي ، ظفرنامه ، ج٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ؛ الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٨ .

(٤٨) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٦٧ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٤٦ .

وبعد ان اتم تيمور احتلال بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ، وعاد الى ديار بكر ، اعد جيشا كبيرا وامره بالزحف على بغداد ، فوصلوا بعد عدة ايام الى الجانب الغربي ، وعسكروا في القسم الجنوبي من المدينة .

استبسل الامير فرج في الدفاع عن بغداد ، وقرر عدم تسليمها مهما كلف الامر ، وحشد داخلها عددا كبيرا من مقاتلي العرب والتركمان ، وارسل الى امراء وحكام المدن العراقية القريبة ، طالبا منهم الحضور مع قواتهم لمشاركته في الدفاع عن العاصمة . فقدم الامير على قلنسدر حاكم مندلي ، والامير حيان احمد حاكم بعقوبة ، وعبروا دجلة مع قواتهما من قرب المدائن . وقدم ايضا الامير فرج شاه حاكم الحلة ، والامير ميكائيل حاكم السيب القريبة من الحلة ، مع قواتهما ، والتقوا جميعا عند قرية صرصر القريبة من الجانب الغربي من بغداد واجتمع معهم حوالي ثلاثة الاف فارس ثم تقدموا جميعا ، واشتبكوا مع قوات تيمور قرب عمارة السلطان احمد في الجانب الغربي ، حيث هزمت القوات العراقية ، وقتل الامير جان احمد مع عدد كبير من الجنود العراقيين ، وغرق قسم منهم في نهر دجلة عندما حاولوا الهرب ، بينما انسحب الباقي الى داخل المدينة (٤٦) .

اصر فرج على المقاومة رغم الخسارة التي تعرض لها اتباعه ، واعلن ان السلطان احمد امره ان لا يسلم المدينة الا عند حضور تيمور بنفسه . وحين ابلغ تيمور بالامر ، وكان في الموصل ، خف مع عدد كبير من اتباعه مسرعا عبر آنتون كوبيري ، فوصل بغداد في ١٦ شوال ٨٠٣هـ/٣٠ ايار ١٤٠١م وعسكر مع اتباعه في الجانب الشرقي من المدينة ، فأحاطت قواته بالمدينة من جميع جوانبها .

امر تيمور باقامة جسر من القوارب جنوبي بغداد ، بالقرب من قرية العقاب ، ووضع باسفل النهر عددا من الرماة للحيلولة دون هرب اي شخص من المدينة . ثم شرعت قواته بنقب الاسوار ، وفي الوقت نفسه اقامت فرقة من هذه القوات ربوة ونصبت عليها الجنيق لرمي المدينة بالاحجار . وتؤكد تواريخ تيمور الرسمية ان الامير فرج اراد التأكد من وجود تيمور ، فأرسل وفدا

الى معسكره . فاستقبل تيمور الوفد بحفاوة واعاده الى المدينة ، لكن فرج لم يصدق الخبر ، وامر بسجن رئيس الوفد (٤٧) . فاحضر تيمور احد اعيان محلة الامام ابي حنيفة المدعو الشيخ بشر واقرب معه من السور ، فأقسم الشيخ بشر لفرج وللجنود المرابطين على السور ان رفيقه هو تيمور بعينه ، فلم يصدقوه بل رموه بالشباب (٤٨) .

شدد تيمور الحصار على المدينة ، وتمكنت قواته من احداث عدة حفر في السور واشعلوا فيها النيران ، فسقط قسم من السور . لكن المدافعين سارعوا الى اصلاحه ، وتمكنوا من تأخير فتوح المدينة اربعين يوما عانى خلالها السكان من الجوع وارتفاع الاسعار ، بسبب شحة المواد الغذائية . ورغم تفوق جيش تيمور من حيث العدد والعدة ، فان الظروف كانت في صالح الجيش العراقي ، بسبب شدة الحرارة وصعوبة تموين الجيش المهاجم . لكن أعمال بعض جنود بغداد وتهاونهم ادى الى فتح المدينة . ففي ظهيرة يوم ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣هـ/٣٠ حزيران ١٤٠١م نزل الجند المدافعون عن برج العجمي في الجهة الجنوبية من بغداد ، وذهبوا الى منازلهم للاستراحة من شدة الحر . ووضعوا خزدهم على العصي في الاماكن المخصصة لهم على السور ، الا ان اتباع تيمور اكتشفوا الامر ، فتلقوا السور بواسطة السلام ، واحتلوا البرج . وفي الوقت نفسه تمكنت القوات المهاجمة من احداث ثغرات في السور فتم فتح المدينة . ولم يجد السكان ملاذا من سيوف المحتلين سوى نهر دجلة ، لكن الجنود المرابطين على الجسر قتلوا كل من اقترب منهم . اما الامير فرج فقد ركب مع ابنته قاربا وفر عبر دجلة ايضا ، لكن اتباع تيمور تمكنوا من اغراق القارب ومن فيه ، ثم انتشلوا جثة فرج واوصلوها الى ضفة النهر (٤٩) .

تعرضت بغداد لخسارة كبيرة من جراء هذه الحملة . فقد امر تيمور باستباحة المدينة ، واجراء مذبحة عامة للسكان ، شملت حتى الشيوخ

(٤٧) الشامي ، ظفرنامه ، ص ٢٢٩ - ٢٤٠ ؛ البيهقي ، ظفرنامه ج ٢ ، ص ٢٥٨ - ٢٦١ .

(٤٨) الفيبي ، التاريخ ص ١٢٥ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٤٩) الشامي ، ظفرنامه ص ٢٤١ ؛ البيهقي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ ؛ الفيبي ، ص ١٢٦ .

(٤٦) البيهقي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ ميرخواند ، روضة الصفا ، ج ٦ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلابري ، ص ٢٥٧ .

وتعمير المدينة وزراعة اراضيها^(٥٢) . لكن قوات تيمور داهمت المدينة في الثامن من رجب سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م من الجانب الشرقي ، فاندھش السلطان احمد ، وآثر الفرار الى الحلة ، ومنها الى منطقة الاهوار والمستنقعات في القسم الاسفل من الفرات . الا ان قوات تيمور انسحبت من العراق بعد فترة قصيرة^(٥٥) .

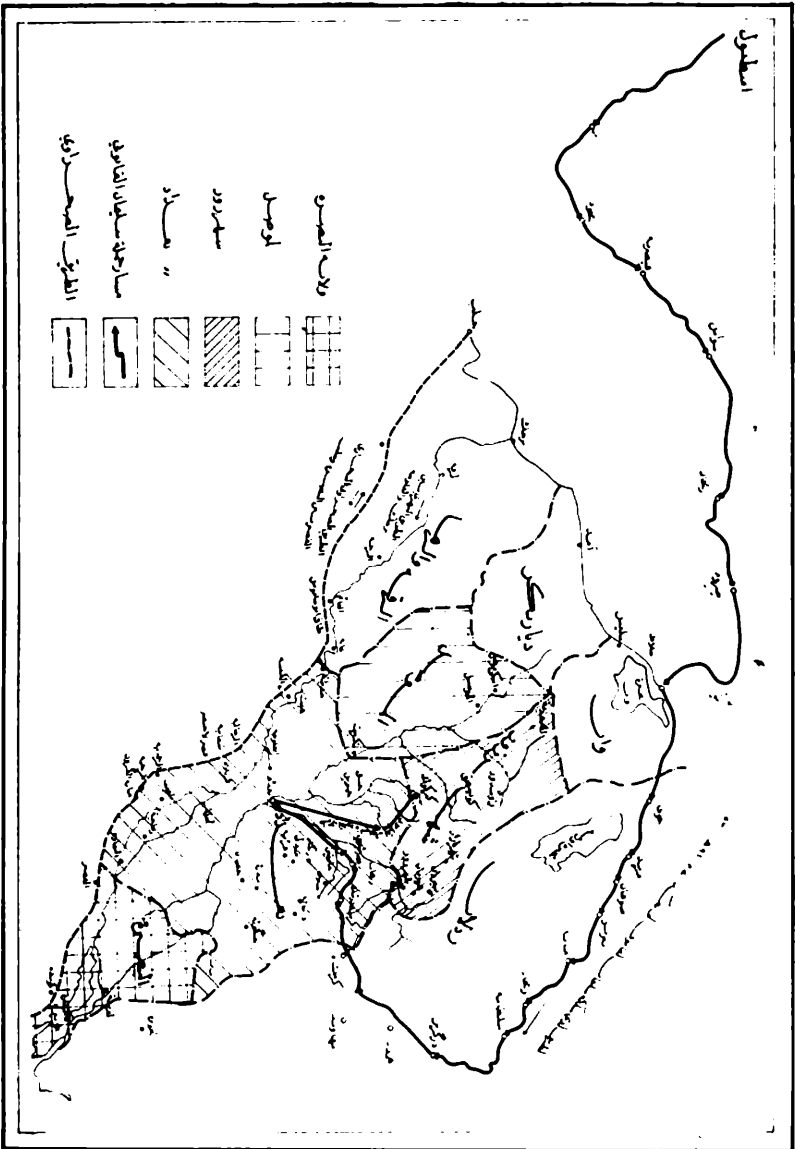
ثم نشب صراع حول بغداد بين السلطان احمد وحليفه قره يوسف ، انتهى باستيلاء الاخير عليها ، بعد ان زحف عليها من الحلة ، فتركها السلطان احمد في الخامس من محرم سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م هاربا الى بلاد الشام . اما قره يوسف فلم يتمتع بحكم بغداد سوى ثلاثة اشهر ، اذ قرر تيمور وضع حد لسيطرته ، وضم بغداد الى نفوذه . فاستند حكم العراق لحفيده ابي بكر ، وامره بان يقوم باستمالة السكان وتشجيعهم على بناء دورهم وزراعة اراضيهم ، وان يعمل على اعادة تعمير المدينة واعادتها الى ازدهارها السابق . فتقدمت قوات ابي بكر نحو بغداد ، والتقت مع قوات قره يوسف عند نهر الفتم قرب الحلة ، حيث اندحر قره يوسف وهرب الى بلاد الشام ايضا^(٥٦) . ثم دخل ابو بكر بغداد ، غير ان حكمه لم يدم طويلا . فقد مات تيمور في ١٧ شعبان سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م ، واضطربت الاوضاع السياسية في العراق ، فاستغل السلطان احمد ذلك وتوجه من الشام نحو بغداد ، ودخلها في الخامس من محرم سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م وطرد حاكمها التيموري دولة خواجه ايناق^(٥٧) .

والاطفال^(٥٠) . والزم اتباعه ان ياتيه كل واحد منهم براسين من رؤوس السكان ، فلما عجز الجند عن تحصيل سكان بغداد ، قطفوا رؤوس بعض اسرى الشام ، بل ان بعضهم كان يقطع رأس المرأة ويزيل شعرها ويحفره . وقد قدرت بعض المصادر عدد من قتل بين ٩٠ الف ومئة الف ، واعتقد بعضها الاخر ان القتل شمل سكان المدينة جميعا حتى فني اهلها ، واقامت من جماجم القتلى عدة ماذن لتكون عبرة لمن تسول له نفسه برفع راية العصيان^(٥١) . ورغم ما في ذلك من مبالغات فانه يدل على كثرة من قتل ، وعلى مبلغ القسوة والعنف الذي مارسه اتباع تيمور . ولم يكتف تيمور بهذه الجزرة الرهيبة ، بل امر اتباعه بتخريب المدينة ، وتهديم العمارات والاسواق والخانات والبيوت ، وتحويلها قاعا صغصفا^(٥٢) .

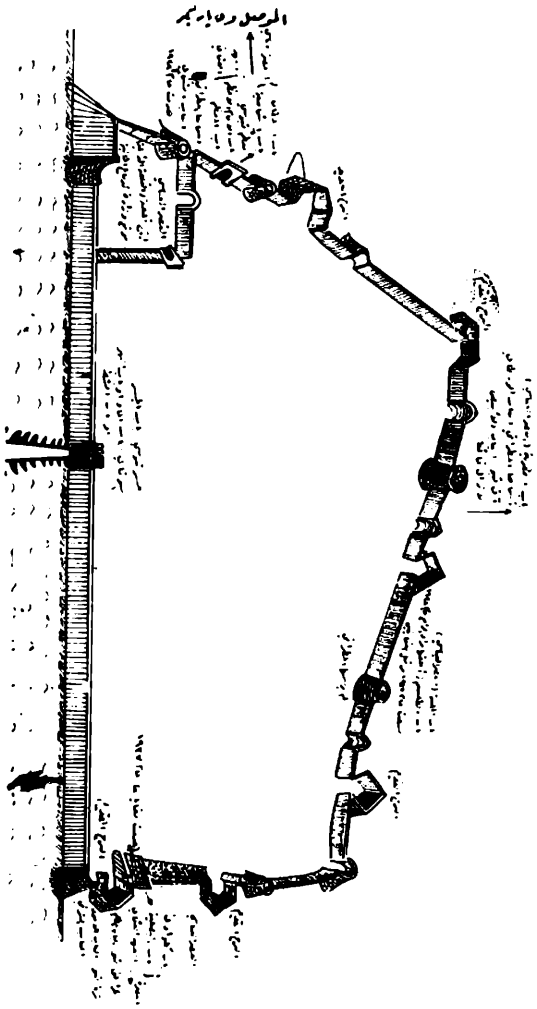
لقد تعفن هواء بغداد من تنن جثث القتلى كما يذكر اليزدي ، فتركها تيمور في بداية ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ، وتوجه شمالا نحو شھرزور ومنها الى تبريز^(٥٣) . ولم تذكر المصادر شيئا عن الإجراءات الادارية التي اتخذها لضبط المدينة ، ويبدو ان الفوضى عمتها بعد خروجه منها . وعندما بدأ زحفه في السنة التالية نحو الاناضول ، انتهز السلطان احمد هذه الفرصة وغادر الاناضول متوجها الى العراق . وقد واصل سيره على امتداد نهر الفرات ، فدخل بغداد دون مقاومة ، واخذ يعمل على اعادة السكان الفارين

- (٥٠) تيمور ، تروكان نيموري ، ص ١٥١ ، الشامي ، ص ٢٤١ .
(٥١) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، ابن حجر المصقلاني ، انباء ، ج ٢ ص ١١٨ ، ٢٠٨ ، الفياني التاريخ الفياني ، ص ١٢٦ ، ٢٠٢-٢٠٣ حين الفسزو التيموري ، ص ٣٦٠-٣٦١ .
(٥٢) تيمور ، تروكان نيموري ، ص ١٥١ ؛ الشامي ، ظفرنامه ، ص ٢٤١ ؛ اليزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ الفياني التاريخ الفياني ، ص ١٢٧ .
(٥٣) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ص ٢٦٦ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٣٦٨ .

- (٥٤) الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ٢٠٢-٢٠٤ .
(٥٥) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٧٦-٢٧٧ ، حسين الغزو التيموري ص ٢٧٢-٢٧٤ .
(٥٦) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٦٩-٢٧١ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ؛ الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ٢٠٦-٢١١ .
(٥٧) ميرخواند ، روضة الصفا ، ج ٢ ، ص ٥٠٢-٥٠٥ ، خليل ، العراق في العهد الجلجيري ، ص ٢١٢ .



الطريق الذي سلكه سليمان القانوني الى بغداد



حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد عام ١٥٣٤ (١)

بقلم الدكتور

حسين محمد الفهولي

كلية الآداب - جامعة البصرة

وعندما تبوأ الشاه طهماسب عرش بلاد فارس بعد وفاة والده الشاه اسماعيل الصفوي عام (١٥٢٤) ، كان قد ورث عداً مستحكماً مع قبائل الأربك في أقصى الشرق من بلاده من جهة ومع العثمانيين المتآخمين له في الغرب من جهة أخرى ، فبادر أولاً إلى محاربة الأربك ، إلا أن السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٠ - ١٥٦٦) الذي خلف والده السلطان سليم الأول استغل حرب الشاه مع الأربك وأراد السيطرة على طريق تبريز التجاري ، لذا أرسل « أولامه تكلو » (٢) وهو أحد الأجناس إليه من الفرس المهازين لحكم الشاه الجديد ، على رأس قوة صغيرة إلى أطراف إقليم آذربايجان لاستطلاع الأوضاع العسكرية ولاستمالة سكان الإقليم إلى جانب الدولة العثمانية قدر استطاع ، وما أن وصلت منه أنباء مشجعة حتى أصدر السلطان أوامره إلى صدره الأعظم إبراهيم باشا في ٢ ربيع الآخر (٢) ٩٤٠هـ / تشرين الأول ١٥٣٣ ليتوجه هو الآخر على رأس جيش كبير قدر ب ٨٠.٠٠٠

لقد تردت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العراق منذ أواخر العهد العباسي (٣) لذلك تهيأت الظروف المناسبة لسلسلة من الغزوات الخارجية التي بدأت بالاحتلال الفونوني لبغداد من قبل هولوكو عام ١٢٥٨ م : الجسلانري (١٢٣٦ - ١٤١١) ثم التركماني المنسل في دولسي « قره قونلو » : الخروف الأسود (١٤١٠ - ١٤٦٧) و « آق قونلو » (١٤٦٧ - ١٥٠٨) ثم الصفوي (١٥٠٨ - ١٥٣٤) حيث أسهم هذا الاحتلال الأخير في تاجيح روح العدا بين الدولة العثمانية وبسلاد فارس ، لا سيما بعد محاولة الشاه اسماعيل الصفوي ضم بعض أراضي الأناضول إلى مملكاته في أعقاب سيطرته على العراق ، إلا أن السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) استطاع الحد من توسع الدولة الصفوية وأفلح في دحرها في معركة چالديران عام ١٥١٤ . ونجح في ضم أنوصل وشمال العراق إلى أراضيه . ونسره فتح سورية ومصر في عامي ١٥١٦ و ١٥١٧ على التوالي .

- (٣) أحد امراء قبيلة تكلو ، بدأ حياته موالياً للسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) ولكنه انحاز إلى الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠١ - ١٥٢٤) عند ظهوره على مسرح الأحداث الفارسية ، وظل يتدرج في مناصب الدولة الصفوية حتى صار بكاربكا لأذربيجان وفي عهد الشاه طهماسب عاد ليعلن ولاءه ثانية للدولة العثمانية .
إبراهيم بجوي ، تاريخ بجوي ، جلد أول ، استنبول ، ١٢٨٢ ، ص ١٧٥ .
(٤) إبراهيم بجوي ، تاريخ بجوي ، جلد أول ، ص ١٧٢ .

- (١) لزبد من التفاصيل عن دوافع هذه الحملة يمكن مراجعة: حسين محمد الفهولي ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الأول والثاني ١٥٢٤ - ١٦٢٨ ، أطروحة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، بغداد ، ١٩٧٥ .
(٢) للاستزادة في دراسة أحوال العراق في الفترة التي سبقت الغزو الفونولي وخلال مراحل الاحتلال تراجع : د. جعفر حسن خصبانك ، العراق في عهد الفرس الأتليان ، الطبعة الأولى ، بغداد ، ١٩٦٨ .

نية السلطان سليمان مواجهة طهماسب وجها لوجه فانه غادر مصيف اوجان في طريقه الى (سلطانية) (١٥) ، ليزحف منها الى قزوین (١٦) عاصمة الدولة الصفوية آنذ لدحر الشاه في عقر داره ، الا ان الامطار الغزيرة التي هطلت والثلوج الكثيرة التي تراكمت في الطرقات ادت الى هلاك عدد كبير من رجال الحملة العثمانية وولدت تدمرا بين افراد الجيش (١٧) ولكن رغم ذلك استطاع السلطان قيادة جيشه باتجاه قزوین وقد نشرت انباء زحفه الهلع في صفوف الجيش الصفوي وبخاصة اولئك المترددين منهم حيث مال فريق منهم الى تأييد السلطان سليمان ، كما أعلن بعضهم الآخر العصيان في وجه الشاه (١٨) الا ان سوء الاحوال الجوية خدمت الشاه ، فالنسيء الذي لم يستطع فعله في مواجهة جيش السلطان سليمان فعله الطقس ، حيث ان الامطار والثلوج الكثيرة التي تراكمت خلفت الاحوال في الطرقات وادت الى غوص العربات والمدافع فيها فان هذا الوضع على نفسية الجيش العثماني وزاد في تدمره وقلقه واضطرابه لدرجة ان فريقا منه تجرأ

مقاتل للانحاق باولامه (٥) وقد قصد الصدر الاعظم بعد اعداد الجيش الى مدينة (آمد) (٦) حيث مكث فيها ستة اسابيع للتعبين اتجه بعدها الى قلعة (اونيك) (٧) ثم الى قلعة (وان) ثم الى (عادل جواز) ومن هذه الاخيرة توجه الى اطراف آذربايجان حيث امر فيها (اولامه) وجيشه بالتقدم الى اردبيل ، في الوقت الذي زحف هو على مدينة تبريز (٨) ولما سمع انشاء طهماسب بتوغل اولامه في اراضيه وعلم بنجاح ابراهيم باشا في اقتحام تبريز ، بادر الى عقد صلح مع الازبك وبسرعة فاتفق توجه الى اقليم الري ومنه ارسل فرقة من « القزلباش » (٩) لمواجهة الحملة العثمانية (١٠) ولما علم ابراهيم باشا بالامر بعث الى السلطان سليمان يستقدمه على جناح السرعة وذلك لمعجزه عن مواجهة الشاه طهماسب نوحده (١١) وقد استجاب السلطان لطلب صدره الاعظم واعد جيشا في شهر ذي القعدة من عام ٩٤٠هـ / مابى ١٥٣٤ قاصدا به تبريز (١٢) . وفي ٢٩ ربيع الاول ٩٤١هـ / تشرين الاول ١٥٣٤ وصل مصيف (اوجان) (١٣) في آذربايجان حيث هب ابراهيم باشا فيه لاستقباله (١٤) ، ولما كان في

(١٥) تقع في منتصف المسافة بين ابهر وزنجان وتبعد عن كل منهما خمسة فراسخ وتبعد عن تبريز ٦٦ فرسخا الى الجنوب وتقع الى شمال همدان بحوالي ثلاثين فرسخا وعن بغداد ١١٨ فرسخا ، انشأها ارغون خان وانبم بنائها السلطان الجاتسو في سنة ٧٠٤هـ/ ١٢٠٥م وجعلها قاعدة الدولة الايلخانية ، ويخطي لونهاك عندما يجعل سير الحملة من تبريز الى (السلطانية) بدلا من السلطانية التي تشير اليها معظم النصوص الاولى ، وبذلك اوجه بعض الباحثين بان الحملة العثمانية كانت تستهدف بغداد مباشرة .

Hamd Allah Mustawfi of Qazwin, The Geographical Part of The Nuzhat-Al-Qulob, Translated by G. Le Strange, Leyder, 1919, pp. 161-175.
Stephen H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, Beirut, 1968, p. 22.

(١٦) لقد غير الشاه طهماسب عاصمته وجعلها قزوین بدلا من تبريز ، كما ان العاصمة انتقلت بعد ذلك الى اصفهان، ثم الى طهران .

(١٧) هدايت ، المصدر السابق ، ص ٥٩ . البديليسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

ستيفن هيمسلي لونهاك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، نقله الى العربية جعفر الخياط ، الطبعة الرابعة ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ٣٧ .

(١٨) تركمان ، المصدر السابق ، ص ٦٧ . القرمانى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ . قطب الدين محمد بن احمد النهروالى ، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، ج ٢ بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢١٦ .

(٥) اسكندر بك منشيء تركمان ، تاريخ عالم آراى عباسي ، ج ١٦ ، تهران ، ١٣٢٤ش ، ١٩٥٥ ، ص ٦٧ . رضا قليخان ابن هادي بروجستاني (هدايت) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصري ، ج ٨ ، ص ٥٩ .

(٦) مدينة في الاقليم ديار بكر .
(٧) تقع على بعد ثمانية فراسخ الى شرق اردروم .
(٨) موردنجان ، دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ج ١ ، ١٩٢٢ ، ص ٢٦ .

(٩) اى اصحاب العمائم الحمراء ، وكان هؤلاء يخلقون لحاهم في الوقت الذي كانوا يخلقون العنان لشواربهم لتطول ، كما كانوا يخلقون شعر رءوسهم ويتركون في وسطها خصلة من الشعر فقط . وتطورت الطريقة السلمية للدراويش الصفويين (القزلباش) تدريجيا الى شكل عقائد وتعاليم عسكرية .

(١٠) شرف خان البديليسي ، شرفنامه ، ج ٢ ، الفه بالفارسية ، ترجمه الى العربية محمد علي عوني ، راجعه وقدم له يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٦١ .

(١١) ابو العباس احمد بن يوسف الممشقي القرمانى ، اخبار الدول واناير الاول ، طبع حجر ، بغداد ، ١٢٨٢هـ ، ص ٢١٩ .

(١٢) مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة ، المشهور ب (كاتب جلبي) ، تقويم التواريخ ، قسطنطينية ، ١١٢٦هـ ، ص ١١٨ . بجوى ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(١٣) تقع على الجانب الايسر الجنوبي لرافد نهر سراو وتبعد عشرة فراسخ عن تبريز .

(١٤) البديليسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

و طالب بالعودة الى الوطن (١٩) ونتيجة لذلك اضطر السلطان الى مغادرة مدينة السلطانية ، ولما كان الرجوع الى اذربايجان في ذلك الفصل يعني مواجهة القحط والمجاعة . لذا قرر التوجه الى الموصل عن طريق شهرزور لقضاء فترة الشتاء والعودة بعدها لمواجهة طهماسب في بلاده ثانية عند حلول فصل الربيع . (٢٠)

وفي الوقت الذي عزم فيه السلطان سليمان على التوجه الى الموصل اثناء تورطه في الجبال ، وصله وفد من الحامية الفارسية في بغداد يحمل اليه مفاتيح المدينة (٢١) حيث ان الصدر الاعظم ابراهيم باشا كان قد ارسل في وقت سابق جماعة يحملون رسالة من « اولامه تكلو » الى قريبه محمد خان شرف الدين اغلي تكلو حاكم بغداد ، يستلطفونه ويستميلونه ويدعونه للولاء للسلطان العثماني كبقية ابناء قبيلته . ولكن يبدو ان محمد خان رفض ذلك . وكان رفضه جزء من مناورة لانه لم يظهر العزم الجدى للدفاع عن المدينة الامر الذي دعا الدكتور (ستربلنك) الى الاعتقاد بان محمد خان ربما كان قد قبل الرشوة من وفد اسلطان سليمان اتقانوني لانه هرب من البلاد قبل تقدم العثمانيين باتجاه العراق . (٢٢) كما ان هناك نصوصا تشير الى ان الشاه طهماسب لم يكن مطمئنا الى ولاء محمد خان تكلو ، لذا قرر استدعائه وحاميته الى بلاد فارس (٢٣) في حين يرى كانتمير (Cantemir) ان محمد خان تكلو كان اضعف من ان يقاوم . (٢٤)

وعندما تلم سليمان القانوني مفاتيح بغداد من وفد قبيلة تكلو استبشر وكان آتئذ على مشارف سهل (ماهي دشت) في طريقه الى العراق لذا تحرك على الفور باتجاه مدينة (ماهي دشت) في اول جمادى الاولى ١٠٤١هـ / تشرين الثاني ١٥٣٤م ثم واصل سيره باتجاه العراق حيث وصل الى « قلعة شاهين » في السادس من الشهر المذكور ، (٢٤) وبعد مغادرته لهذه القلعة هطلت امطار غزيرة اعانت الجيش عن المسير وسببت متاعب كثيرة له (٢٧) . وفي يوم السبت المصادف ٨ جمادى الاولى وصل السلطان وطلائع

والمعروف ان الاوضاع في بغداد كانت قد اضطرت نتيجة فزع الحامية الفارسية حيث

(١٩) هدايت ، المصدر السابق ، ص ٥٩ . البديسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .
 لوتوكريك ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
 (٢٠) تركمان ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .
 (٢١) حسن روملو ، كتاب احسن التواريخ ، بسمي وتصحيح جاردس نارمن ، سيدن ، كلكتا ، ١٩٣١ ، ص ٢٥٢ .
 (٢٢) George William Stripling, The Ottoman Turks and Arabs (1511-1574) Illinois 1942, p. 79.
 (٢٣) البديسي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .
 (٢٤) Demetrius Cantemir, The History of the Growth and Decay of Ottoman Empire, Translated into English the Author's Own Manuscript by N. Tindal Vols. III, London, 1734, p. 197.

(٢٥) روملو ، المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .
 Cantemir, op. cit., p. 196.
 (٢٦) عباس الغزوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٢ ، بغداد ١٩٤٩ ، ص ٢٥ .
 Sir Percy Sykes, A History of Persia, Vol. II Third Edition, London, 1958, p. 164.

من السلب والنهب والهدم ، وهذا ما لم يمهده سكانها في تلك الايام من المحتلين .(*)

ومن الجدير بالذكر ان مدينة بغداد كانت عند دخول السلطان سليمان القانوني محاطة بسور على شكل قوس يتخلله حوالي ١٥٠ برج وفيه اربعة ابواب يدعى الشمالي منها باب الامام الاعظم ، والجنوبي يسمى الباب المظلم ، والشرقي الباب الابيض ، اما الغربي فاطلق عليه باب الجسر ، الذي كان يؤدي الى قلعة نظيبور في الجانب الغربي (الكرخ) وكان يحيط السور خندق عميق ، اما المدينة فانها كانت خربة لا اثر لدور العلم والمدارس والمساجد التي اشتهرت بها في العصور السالفة ، فالمدسة المستنصرية مثلا كانت قد تحولت الى مخزن للضائع في الوقت الذي اصبحت المدرسة النظامية اثرا بعد عين .(٢٤)

وخلال مكوث السلطان سليمان في بغداد قام ببعض الاعمال العمرانية ، منها توسيع مرقد الامام ابي حنيفة وبناء قبة عليه ومدسة وجامع وزاوية الى جواره وسور حوله(٢٥) ووضع حامية بقرية لحماية زواره(٢٦) ومن جهة اخرى قصد السلطان مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني وامر المعمار العثماني سنان باشا بتشييد قبة للمسجد ، فانجز هذا القبة البيضاء ودار السبيل(٢٧) وفي اطراف بغداد زار السلطان مرقد الانمة والمشايخ والاولياء وظهر امام العراقيين بمظهر التقى التسامح وكان يقظا في سياسته الدينية والمذهبية ، لذا قصد العتبات المقدسة في الكاظمية وكربلاء والتجف واوقف مقاطعات مغلّة عليها ، فتجنب بذلك اثاره المشاكل المذهبية

(*) للاطلاع على ما عاناه سكان بغداد ابان الاحتلال الصفوي الاول ١٥٠٨ والاحتلال الصفوي الثاني (١٦٢٤) والعثماني الثاني ١٦٢٨ .

يراجع : النوراني ، المصدر السابق ، ص ٤١ ، ٢٠٤ ، ٢٦٥ .

Par J. De Hammer, Histoire De L'Empire Ottoman Vol. 5 (1520-1547) Paris, 1836 p. 217. (٢٤)

(٢٥) النوراني ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ . البديسي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

احمد بن لطف الله منجم باشي ، منجم باشي تاريخي ، جلد ثالثي ، استانبول ، ١٢٨٥هـ ، ص ٤٩١ .

Cantemir, op. cit., p. 196. (٢٦)

(٢٧) ابراهيم الدروي ، الباز الاشهب ، في حياة السيد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، بغداد ، ١٩٥٢ ، ص.٣٠.

الجيش العثماني الى « يكي امام » والامطار مستمرة في الهطول، وفي يوم ٩ منه وصل الجيش الى قصر شيرين وتوجه منها الى نهر شميران فوصلها يوم ١٢ منه من الشهر نفسه(٢٨) ومن الجدير بالذكر ان المرحلة التي تلي قصر شيرين الى الغرب هي خانقين حيث تبعد عنها خمسة فراسخ ومنها الى جلولا خمسة فراسخ ثم الى هارونية خمسة فراسخ اخرى ، واستمر الجيش حتى قارب اولوصو ، اي النهر الكبير(٢٩) وكان النهر في موسم فيضانه الاول مما يصعب عبوره في هذا الوقت وكانت خسارة الجيش في هذه المسيرة كبيرة للغاية(٣٠) وان الفترة الواقعة بين ١٢ جمادى الاولى لغاية ١٩ منه كرست لعبور مجموعة من الجداول والانهار حتى قارب جبل حمرين ودخل قرية شرورين (سورين) اي طاش كوبري وفي ٢٠ من الشهر عبر نهر الخالص وفي ٢٢ منه اجتاز قرية الوندية وفي ٢٣ وصل الى مرقد الشيخ سكران الذي يقع قريبا الى قرية مرقد آخر يسمى مرقد (لقمان الحكيم) وفي يوم ٢٤ وصل الى مرقد الامام ابي حنيفة(٣١) وحينئذ ترحل السلطان عن جواده وزار المرقد ثم دخل بصحبة حاشيته فقط الى مدينة بغداد(٣٢) لقد فتح السلطان سليمان بغداد دون قتال في يوم ٢٤ جمادى الاولى من عام ٩٤١هـ / ٣٠ كانون الاول ١٥٢٤م(٣٣) .

ومن الامور الهامة التي يجب الإشارة اليها، ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفا من عدم استطاعته كبح جماحه وتلافيا لأعمال النهب والتهتك ، ولو اخذنا بنظر الاعتبار ما صاحب جيش سليمان من متاعب ومجاعة عبر الطريق اشاق الطويل وما عاناه من كثرة هطول الامطار وتراكم الثلوج لاستطعنا تصور حالة بغداد لو سمح للجيش بدخولها ، لذا سلمت المدينة

Huseyin G. Yurdaydin, An Ottoman Historian of the XVI th Century, Nasuh Al-Matrakii and his Beyan-i Menazil-i-Sefer i- Irakyan and its importance for Some Iraqi Cittàs, p. 10. (٣٨)

بحث قدم الى المؤتمر التاريخي في اذار ١٩٧٣ .

(٢٩) المزوي ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣٠) بجوي ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .

(٣٢) المزوي ، المصدر السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

Yurdaydin, op. cit., p. 10. (٣٣)

مكوته فيها امر باصلاح اسوار وابراج المدينة وقلمتها ، ولكن مع الاسف قام باستبدال سباب السلطان الانرية بباب خشبية من الصاج المضرب بالمسامير الحديدية وبيض واجهتها بالجبص وبذلك ازال ما كان عليها من كتابة اثرية(٤٢) ومن جهة اخرى قسم البلاد الى وحدات ادارية(٤٣) وادخل نظام الاقطاع الذي كان معروفا في المقاطعات الاخرى من دولته ، ومنح التيمارات والزعامات(٤٤) الى الجنود والقادة الذين اظهروا البطولة في الحملة الاخيرة على بلاد فارس والعراق(٤٥) كما نظم سجلات الاملاك الخاصة والاراقاف(٤٦) واوكل ولاية بغداد الى سليمان باشا وعقد عدة اجتماعات للدويان(٤٧) وزود انحاكم الجديد بحامية من حوالي الف جندي مزودين بالاسلحة النارية والف فارس وتموين كاف للدفاع عن المدينة ان اقتضت الضرورة امام عجمت الشاه ظهاسب المتوقعة في المستقبل(٤٨) وفي بغداد استقبل السلطان المهنئين « بالفصح »

(٤٢) محمد صالح السهوردي ، جريدة العراق ، العدد ٣١٧٤ في ١١ ايلول ١٩٣٠ .

(٤٣) لم تكامل الوحدات الادارية في العراق الا في اوائل القرن السابع عشر ، عندما قسمت الى خمس ايلات هي : بغداد ، الموصل ، شيرزور ، والاحساء .

(٤٤) مصطلحات تخص المقاطعات الزراعية في الدولة العثمانية ، يعتقد بانها مقتبسة من اليونان ، ويطلق على صاحب التيمار اسم (تيمار صاحبي) او تيمار اري ، او تيمار سباهي) والتيمار هي الارش التي تدر دخلا سنويا يتراوح بين ٣٠٠٠ - ٢٠٠٠٠ افجه . اما الزعامة فهي الارش التي تدر دخلا سنويا يتراوح بين ٢٠٠٠٠ - ١٠٠٠٠٠ افجه

الافجه : عملة عثمانية فضية شاعت في القرن السادس عشر وسماها الاوربيون اسبر Asper وكان وزنها (فمحات من الفضة او ما يساوي ١ غرام .

انظر : (Deny) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٦ ، الطبعة العربية ، ص ١٣١ ، و ج ٢ ، ص ٢٧٢ . Hammer, op. cit., p. 220. (٤٥)

(٤٦) انظر السجلات العثمانية للطابو ، مصور المخطوطات ، كلية الدراسات العليا في كلية الآداب ، جامعة بغداد . (٤٧) يتألف الدويان من الوزراء وقادة الجيش الكبار ومن رجال العاشية المقربين من السلطان والوجهاء الاخرين.

(٤٨) Stripling, op. cit., p. 80.

والاجتماعية التي كان يمكن ان تواجهه آنذاك . ومن اعماله الهامة التي بالغ المؤرخون العثمانيون في اظهارها ، محاولة تعميقه نهر الحسينية الذي يروي مدينة كربلاء ويسانيتها . ولكن بعض المؤرخين عرضوا هذا الاصلاح بشكل يوحي ان السلطان سليمان هو الذي حفر هذا النهر لأول مرة(٢٨) وليس الامر كذلك ، لان النهر كان يصل الى المدينة وان الاشجار والساتين اليانعة كانت تظلها قبل هذا التاريخ . وما فعله السلطان سليمان هو تعريض فم النهر وتنظيف فروعه(٢٩) وهو عمل كبير ايضا بالاضافة الى امره ببناء سدة ترابية لانقاذ المدينة من الفرق الذي كان يصيبها في سنوات فيضان نهر الفرات ، ولا تزال هذه السدة تسمى باسمه (روف السليمانية) (٤٠) .

ويبدو لي ان السلطان في توسيعه للنهر اراد ان يبارى الشاه اسماعيل الصفوي الذي حفر ووسع نهر عطا الملك ابان زيارته لمدينة النجف في فترة الاحتلال الصفوي للعراق ، وهي المدينة التوام لمدينة كربلاء ، التي رغب السلطان ان يترك فيها اثرا ايضا . ومن كربلاء سلك الطريق « الصحراوي الى النجف لزيارة مرقد الامام علي بن ابي طالب ومنها قصد الكوفة ثم توجه الى الحلة(٤١) ومنها عاد الى بغداد وخلال

(٢٨) منهم : سبترلنك ، لوتكوك ، العزاوي ، نظمي زادة ، ويجوي .

(٢٩) هذه الفروع كانت معروفة في العهد التاريخي المختلفة واتخذت اسما متعددة وتسمى في الوقت الحاضر بنفس الاسماء التي اشتهرت بها في العهدين الصفوي والعثماني وهي نطلق اليوم على المقاطعات الزراعية في منطقة الحسينية وهي : (١) ابو جردان (٢) ابو سليمان (٣) جيمته (٤) ابو زرتت (٥) الوند (٦) الكمكمانية (٧) الحمودية (٨) الهادري (٩) البكيرة (١٠) عوبرة الكيرة (١١) عوبرة الصخرة (١٢) ابو عسيبة (١٣) بدعة اسود (١٤) بدعة شريف (١٥) ابو طحين (١٦) جويب (١٧) عيشية (١٨) القفرطة (١٩) الكمالية (٢٠) بدعة عيشة (٢١) القاضي (٢٢) حرودي (٢٣) حيدرية (٢٤) الزارة (٢٥) طوبرج (٢٦) ابو صحانة (٢٧) شيطه (٨٢) الصالحية (٢٩) كريد محمد صالح (٣٠) عسافية (٣١) البتيرات (٣٢) الابراهيمية (٣٣) خم الدين (٣٤) لاجح (٣٥) فريضة (٣٦) كربله (٣٧) جنكته .

(٤٠) اوتكوك ، المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٤١) Yurdaydin, op. cit., p. 10.

ديوانه في بغداد احياء المشروع القاضي بارسال الاسطول العثماني لمواجهة البرتغاليين في الخليج العربي حيث تزايد نفوذهم في منطقتة البحار العربية . لذا كلف امراء مصر المرافقين له في الحملة بالعودة فورا الى بلادهم لاعداد الاسطول ووضعه على اهبة الاستعداد لمواجهة الموقف الجديد . رغبة منه في السيطرة على مريق الخليج العربي التجاري المؤدى الى الهند .

وخلال القرن اللاحق ، غدت البصرة قاعدة للمعمليات العسكرية وللنشاط العثماني البحري في ملاحقة البرتغاليين في مياه الخليج العربي والبحار العربية الاخرى .

من رجال الدين والوجهاء من انحاء العراق والاقطار العربية المجاورة . (٤٩)

ان احتلال بغداد من قبل السلطان سليمان القانوني وولاء امراء ورؤساء المناطق المجاورة ، مهد السبيل للدولة العثمانية بفرض هيمنتها ومد سيادتها الى الخليج العربي لاسيما بعد ان اقر

(٤٩) فره جلي زادة ، روضة الابراء المين بخائق الاخير ، مصر ، مطبعة بولاق ، ١٢٤٨ هـ ، ص ٤٢٥ . مريضى افندى نظمي زادة ، كلشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس ، النجف الاشرف ، ١٩٧١ ، ص ٢٠٤ .

Huseyin C. Yurdydin, Matrakci Nasuh
Ankara, 1963, p. 60.



خِلمَةُ السُّلْطَانِ مُرَادِ الرَّابِعِ لِاسْتِعَادَةِ بَغْدَادِ ١٦٣٨م

بقلم الدكتور

صالح محمد العابد

كلية الآداب - جامعة بغداد

العثمانية انها « ظلت لمدة ثلاثة ايام وثلاث ليلال تهتف محببة الشاه «(٤) . لقد ابدى حافظ باشا شجاعة متناهية في مقارعة الفرنسيين . تقدم قواته في الهجوم على طلائع الجيش الفارسي ونجح في الاستيلاء على اللواء المقدس لهم (٥) . اعقب ذلك مفاوضات فاشلة بين حافظ والشاه . ولكن طول مدة انحصار من جهة ، وما كانت تمنيه القوات العثمانية من نقص في المؤن والذخيرة والخييل من جهة اخرى ، دفع بالانكشارية الى التذمر ومن ثم الى تمردهم على الصدر الاعظم . فاصطدم تصميم القائد العثماني على استعادة بغداد بتطور الموقف الجديد ، مما اجبره على الانسحاب (٦) .

لم توفق المحاولة الثانية ايضا ، والتي بدأت في ١٦٢٩ ، في طرد الفرس من بغداد . كان على راس القوات العثمانية ، في هذه المرة خسرو باشا « البسنوي الصارم الذي كان عنفه العنيد هو سياسته الوحيدة «(٧) . لقد ارتكب خسرو خطأ عسكريا كبيرا في عدم توجهه مباشرة الى الهدف المحدد وتركيز مجهوده عليه ، حيث اشغل نفسه

على اثر العصيان المسلح الذي قام به بكر صوباشي ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م - ١٠٣٣/١٦٢٢ وما رافقه من مضاعفات ، تمكن العاهل الصفوي الشاه عباس ، من احتلال بغداد ، التي قدر لسكانها ان يعانون مجددا الوانا من المآسي والفواجيز . كما ان استيلاء الفرس على بغداد ، والذي دام خمسة عشر عاما « لم يجلب لهم لا الثروة ولا الجلال «(١) . ولكن الدولة العثمانية ، وعلى الرغم من فترة الضعف التي كانت تمر بها في هذه الفترة ، لم تنس عن محاولة استعادة بغداد « انبل مدن آسيا «(٢) . فمئذ لحظة فقدتها ، « كانت مسألة استعادتها طموحا ملحا للبلاد العثماني «(٣) .

جرت المحاولة الاولى لطرد الفرس في سنة ١٦٢٥ ، وكان على راس القوات العثمانية المكلفة بهذه المهمة حافظ احمد باشا ، الذي عين بمنصب الصدر الاعظم في السنة الماضية . دام حصار حافظ لبغداد ستة اشهر ، ويعود جانب من تأخره في اقتحام المدينة المحصنة ، الى النقص الذي كانت تمنيه قواته في سلاح المدفعية ، وقد اعطت هذه المدة ، الشاه عباس فرصة للتقدم بجيشه من اصفهان للاحتفاظ بالمدينة ، ولعل مما يدل على ما كانت تمنيه الحامية الفارسية من ضغط القوات

A. De Lamartine. History of Turkey, (٤)
translated from the French (New
York, 1857), vol. III, pp. 225-6.

Ibid., p. 226. (٥)

Ibid., pp. 226-8; (٦)

انظر أيضا : حسين محمد القهواني ، الصراخ بين
الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ، ١٥٢٤ - ١٦٢٨ ،
رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بغداد) ص
٢١٢ - ٢٢٥ .

Lamartine, op. cit., p. 231. (٧)

Stephen H. Longrigg, Four Centuries (١١)
of Modern Iraq (Beirut, new imp.,
1968), P. 58.

Demetrius Cantemir, The History of (١٢)
the Growth and Decay of the Otto-
man Empire, translated from the
Latin by N. Tindal (London, 1734),
vol. I, p. 246.

Longrigg, op. cit., p. 59. (١٣)

الحرية بالمقارنة بالطغيان غير الهادف
للعديدين «١٢» .

كانت مسألة استعادة بغداد بالنسبة
للسلطان امرا يحتل اهمية كبرى ، خاصة وان
احتلال الفرس لتلك المدينة ، قد شجعهم على مد
تحرشاتهم الى بعض المناطق الشرقية في الاناضول .
وقبل ان يباشر مراد بمشروع الحملة على بغداد ،
قاد جيشه في ربيع سنة ١٦٢٥ متوجها نحو الاقسام
الشرقية من آسيا الصغرى لابعاد الفرس من المدن
التي كانت ضمن حدود الامبراطورية العثمانية
والتي دخلوها مستغلين فترات العوضى التي عانت
منها الدولة . استولى السلطان على اربقان
« مظهر الروح الصادقة للسلطين العثمانيين
القدماء في العناية بجنده ، اضافة الى روح
الانضباط العالي التي فرضها على القطعات
بالنشاط الشخصي والقيادة العسكرية البارعة
التي اظهرها » (١٤) . وقد كتب عنه كاتب انكليزي
هو ريكوت Rycout يقول (١٥) « لعدة اشهر لم
يستعمل وسادة غير سرجه ولا غطاء سوى ذلك
المستعمل لفرسه » . ان استرجاع مدينة ومقاطعة
اربقان كانت ماثرة عسكرية هامة ، بالإضافة الى
ان زحف مراد في خلال آسيا الصغرى ثم عودته
منها ، كان يحد ذاته « تفقدا ملكيا صارما لجميع
حكام المقاطعات ، الذين اتهموا ، اوشك في سوء
ادارتهم واهمالهم » (١٦) .

ما ان حلت سنة ١٦٢٨ ، حتى شرع مراد
بالقيام بأخر واعظم اعماله العسكرية المتمثلة
بالحملة لاستعادة بغداد من ايدي الفرس ، وهذا
هو موضوع بحثنا هذا .

تحرك الحملة ومرآجل الزحف

اشرفت الاستعدادات المتعلقة بحملة استرداد

بغداد من ايدي الصفويين على نهايتها في اوائل
شهر شوال ١٠٤٧هـ/ شباط ١٦٢٨ ، حيث رفع

Stanley Lane-Pool; Turkey (London, (١٢)
1908), p. 219.

Creasy, op. cit., p. 254; (١٤)

وانظر ايضا :

W. Eton, A Survey of the Turkish
Empire (London, 1799), p. 176.

Quoted in : Creasy. op. cit., p. 254. (١٥)

Loc. cit. (١٦)

بأمور عسكرية ثانوية (٨) ، بالإضافة الى قيامه بنشر
قواته في مناطق واسعة ، فتوغل في شهرزور
واردلان وهاجم همدان (حزيران ١٦٢٠) ، ثم
توجه الى درگزير عن طريق قزوین ووصل اليها
وخربها ، بعد كل ذلك ، وبعد اصرار المجلس
العسكري الذي عقد في تلك المدينة على تنفيذ امر
السلطان بأن الهدف من الحملة هو بغداد ، آنذاك
فقط توجه الجيش نحو العراق ، بعد ان اضاع
وقتا ثميناً من جهة ، وانهك قواته واستهلك
الجانب الأكبر من ذخيره من جهة اخرى (٩) .

حاصر خسرو باشا بغداد واستمرت المعارك
سجالاً بين الطرفين اربعين يوماً ، وفي اليوم
الاربعين شن القائد العثماني هجوماً جريئاً على
المدينة المحاصرة ، الا ان الهجوم احبط بالرغم من
شجاعة خسرو الجنونية (١٠) . وبعد خمسة ايام
من ذلك الهجوم ، قرر المجلس العسكري الانسحاب
من امام بغداد ، وقد تم الانسحاب بنظام وحمل
الجيش كافة المدافع والمؤن ووصل الموصل في
الايام الاولى من سنة ١١٦٢٣ (١١) .

بعد هذا التاريخ بوقت قصير اخذت الدولة
العثمانية تحس بالانتعاش مجدداً متمثلاً بالشخصية
الصارمة لمراد الرابع ، الذي نجح في القضاء على
روح التسبب والفتنة في الدولة . وما ان حل
شهر مايس ١٦٢٢ « حتى اتم مراد مهمة التخلص
من الطغاة العسكريين ليبدأ عهداً من الرعب » (١٢) .
حقاً ان السلطان « اقام سلطته على الرعب ، ولم
تكن هناك قوة تستطيع ان تؤثر على ارادته
الفولاذية ، لقد كان يرقب كل اقسام ادارته بعين
يقظة متفحصة ، فماد القانون والمعدالة ، النظام
والانضباط بشكل لم يعرف منذ ايام سليمان
القانوني . طاغية كان ، ولكنه لم يسمح لاي رجل
آخر بان يظفي . فادرك الناس بان طغيان فرد هو

(٨) امضى مدة سبعة ايام في ترميم الحصن الذي اشاده
سليمان القانوني ، والواقع على الحدود بالقرب من
كل عنبر Gulanbar والذي لم تكن له تلك الاهمية
لاعداد ذلك الوقت الثمين .

Longrigg, op. cit., p. 65.

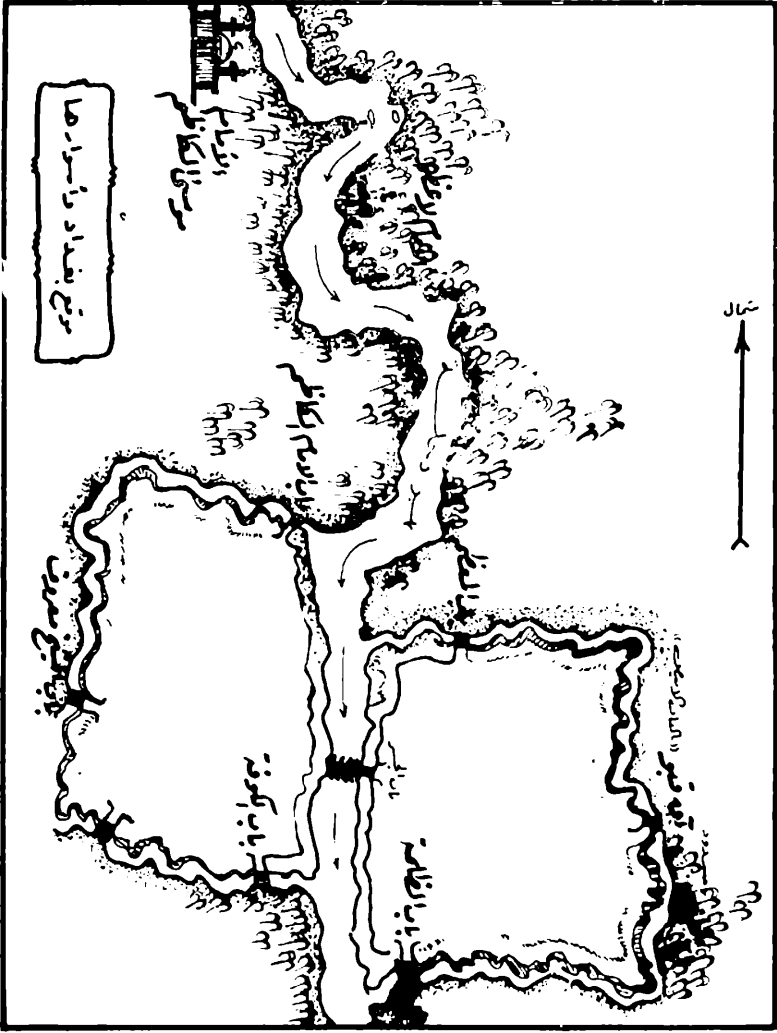
Ibid., pp. 64-7 (٩) انظر :

Ibid., pp. 66-7. (١٠)

fbid., p. 67. (١١)

Edward S. Creasy, History of the (١٢)

Ottoman Turks (Beirut, 1961), p.
249.



في اسكدار مدة تسعة وعشرين يوما ، تم في اثنا عشر
انجاز مختلف الامور المتعلقة بتحركات الحملة
واختيار الطريق الذي ستسلكه القوات ومناطق
راحتها ؛ وقد قسم الطريق ما بين اسكدار وهدف
الحملة النهائي ، بغداد . اثنى مائة واحد وعشرين
مرحلة^(٢٢٢) . فكان على القوات ان تسير بمعدل
ساعتين الى تسع ساعات يوميا ، في خلال فترة
تتراوح ما بين اربعة الى خمسة عشر يوما . تم
تنويف للراحة في محطات اعدت مسبقا^(٢٢٣) . ان
هذا التخطيط الدقيق ، وانذي نفذ بشكل يدعي
اثنى الاعجاب ، ليدل على روح الارادة والتصميم
التي كانت من ابرز مزايا السلطان مراد الرابع ،
الذي قدر له ان يكون آخر السلاطين المحاربين
العظام في قيادة حملة عسكرية بنفسه^(٢٢٤) . كما
يبدو ان السلطان قصد من ورائه اضافة الى
الحفاظ على النظام وروح الضبط في الجيش
وعدم ارهاقه لحين الاطباق على الهدف المحدد ،
تمهيط ودراسة الاوضاع العامة في مناطق الدولة
التي تمر منها قوات الحملة واقرار الامن
والاستقرار فيها . وعلى امتداد سير الحملة ،
وجهت عناية خاصة لحالة الطرق وتحسينها .
وعن هذه الناحية يشير تافرنيسه بقوله^(٢٢٥) :
« ... والحق يقال ان زحف السلطان عاد بفائدة
جزيلة على المسافرين في هذا الطريق [الطريق
الذي يوصل الموصل ببغداد] » . وكان السلطان
في خلال سيره يدق في تصرفات المسؤولين « بتلك
الروح المدققة الصارمة كما فعل من قبل في حملته

(٢٢٢) انظر تفصيل تلك المراحل في :

Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-27;

وهو اذق مصدر في هذه الناحية ، لان كابه كان مرافقا
للحملة وسجل تفاصيلها بدقة . ولكن كلا من هامر
ولامرتين وكريسي ولونكريك يحددون تلك المراحل بعانة
وعشر مراحل . انظر : هاممر ص ٢٢٨ ؛

Lamartine, op. cit., p. 264; Creasy,
op. cit., p. 255

Longrigg, op. cit., p. 69.

اما النزاي فيذكر انها مائة وخمس عشرة مرحلة
(النزاي ، ص ٢٠٩) .

(٢٢٣) انظر : Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-27.

(٢٢٤) Creasy, op. cit., p. 254; Lane-Pool, op.
cit., p. 255;

Longrigg, op. cit., p. 70.

(٢٢٥) المراق في القرن السابع عشر كما راه الرحالة الفرنسي
تافرنيسه ، ترجمة بشر فرنسيس وكوديس عواد ،
(بغداد - مطبعة المعارف ، ١٩٤٤) ص ٢٢ . ويستشير
الى هذا المصدر منذ الآن باسم (تافرنيسه) .

« الطوغ الهمايوني »^(٢٢٦) امام « انجبخانه »^(٢٢٧) في
٨ شوال/٢٣ شباط . كعلامة على بدء التنفيذ
العملي للحملة^(٢٢٨) . وفي ١٥ شوال/٢ آذار ، اي
بعد اسبوع واحد ، نقل « الطوغ » الى
اسكدار^(٢٢٩) ، انتظارا لوصول السلطان ، الذي
وصل في يوم ٢٣ ذي القعدة برافقه كافة مأموري
السراي^(٢٣٠) .

دخل السلطان مراد الرابع اسكدار ممتطيا
حصانا اسودا وعلى صدره درع من الفولاذ اللامع
تحت شان احمر يغطي كتفيه ، وعلى راسه مغفر
عليه عمامة من الشال الاحمر حسب الطريقة
العربية ، فكان في زنه هذا يحاكي طراز الصحابة
الكرام حينما يتأهبون للجهاد^(٢٣١) . امضى الجيش

(٢٢٦) الطوغ Tuğ او ذيل الحصان ، راية خاصة تتألف
من ذيل حصان معلق في سارية تتوجها كرة ذهبية . وكان
هذا شعارا تركيا قديما من المحتمل انه من اصل طومبي .
والطوغ في الاصل كان يؤخذ من ذبول الابل لا من الخيل .
السنجق بك له الحق في رفع طوغ واحد والبيكليك في
طوغين . اما الورداء في البلاط او في الافاليم فهم الحق
في ثلاثة الطوغ ، والصدر الاعظم بخمسة . اما السلطان
نفسه فيتقدم موكبه في الحملات الحربية عدد قد يبلغ
سنة اطوغ . انظر :

H.A.R. Gibb and Harold Bowen, Islamic
Society and the West (Oxford,
1969), vol. I, pp. 139-140.

(٢٢٧) دار صناعة الاسلحة ، وهي مأخوذة من جبه
التي تعني الدرع او السلاح .
انظر : Ibid., p. 95.

(٢٢٨) هاممر ، دولت عثمانية تاريخي ، مترجمي محمد عطا ،
(اوقاف اسلامية مطبعة سي ١٣٢٥ هـ) مجلد ٩ ، ص
٢٢٧ ؛ اما كوك فيحدد خطأ بدء تحرك الحملة ب ٢٠ آب
١٦٢٧ .
انظر :

Richard Coke, Baghdad the City of
Peace (London, 1927), p. 204.

حيث يظهر من قوله ان الحملة استغرقت ستة عشر
شهرًا اذ يؤكد ان القوات العثمانية وصلت الى بغداد في
شهر تشرين الثاني من السنة التالية . ويقع في نفس
الخطا شاكز صابر الضابط انظر كتابه : العلاقات الدولية
ومعاهدات الحدود بين العراق ويران (بغداد ١٩٦٦) ،
ص ٢١ .

(٢٢٩) Halil Sahilloğlu, Dördüncü Muradın
Bagdat Seferi Menzılnamesi (Bel-
geler-C. 11-1965 - Savi - 3-4), p. 13.

(٢٣٠) هاممر ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٢٣١) المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ ، عباس المزراوي ، تاريخ
العراق بين احلالين (بغداد ١٩٤٩) ج ١ ص ٢٠٩ ؛
Lamartine, op. cit., pp 263-4

على اريغان «٢٧». ففي كل مرحلة من تلك المراحل، كان السلطان يحقق مع المسؤولين، مصدرا اوامره الصارمة بحق المتصرفين من باشوات وقضاة وحكام وجامعي ضرائب، والتي كانت في معظم الاحوال احكاما بالوت، في نفس الوقت الذي كان فيه يكرم بالهدايا والهبات اولئك الذين كان راضيا عن تصرفاتهم (٢٨). وسنلاحظ انه في خلال التقدم في الطريق المرسوم كانت تلحق بالجيش قطععات عسكرية جديدة، قام بتحشيدها حكام الولايات العثمانية وبخاصة في الشام ومصر.

بلغار احمد باشا بيك طرابلس السابق (٢٤). وواصلت القوات تقدمها فدخلت حلب، وهي المرحلة السادسة والخمسين، في ١١ ربيع الاول/ ١١ تموز، حيث استراحت فيها القوات العثمانية مدة ستة عشر (٢٥). وفي هذا الموقع انضم الى قوات الحملة جيش من مصر يقوده رضوان بك (٢٦). وقد بلغ عسدد هذا الجيش ٥٠٠ رجل ارسلهم والي مصر قبوجي باشي جوان محمد باشا المعروف بسلطان زاده، مساهمة مع السلطان لاسترداد بغداد (٢٧).

تحركت الحملة من اسكدار في يوم الجمعة المصادف ٢٣ ذي الحجة/ وبعد خمسة ايام وصلت ازويد، وهي المرحلة السادسة من مخطط السير، حيث امضى الجيش فيها ثمانية ايام (٢٩). وهنا استأذن القضاة والدرسون الذين كانوا في توديع السلطان بالعودة الى العاصمة (٣٠). ثم تقدمت قوات الحملة فوصلت منطقة العين، وهي المرحلة الخامسة والعشرين (٣١)، وفيها قدم قاضي اسكي شهر الى مقر القيادة وعرض امر المدعين بالمهدية، فأمر السلطان «كتخدا السلحدارية» مع اربعة من الكليركات بالتوجه لضرب حركة الشيخ الدعوي، وكان هذا الاخير قد جمع حوله حوالي اربعة آلاف رجل من سكاريا ومودورني وقدجيني، وخاض معركة مع بكلكريك اولجه في الاناضول (٣٢).

وصلت القوات الى بيرة جك، المرحلة الخامسة والستين، في ١٩ ربيع الاول/ ١٩ تموز، وفيها اتخذت الترتيبات لعبور الجيش نهر الفرات، فبنى جسر من اربعين طوافة عبرت عليه القوات العثمانية. في حين عبر السلطان الى الجانب الثاني في زورق خاص يرافقه المفتي يحيى افندي (٣٨). وفي خلال فترة التوقف هذه، تم صب خمسة مدافع كبيرة، اثنان منها بحشوة عشرين اوقية من البارود وثلاثة بحشوة ثمانية عشر اوقية (٣٩). كما التحق بالجيش في هذا الموقع بكلكريك سيواس واسير بوزارق شمس بك زادة (٤٠). وفي موقع قريب، تم بناء ثمانمائة زورق لنقل الذخيرة والتموين (٤١).

وفي اثناء التوقف في چاقيد خاني، وهي المرحلة الثانية والاربعين (٣٣)، التحق بالجيش

بعد اسبوع واحد، اي في ٢٦ ربيع الاول، وصل الجيش الى منطقة جلاب (٤٢). المرحلة السبعين، وفيها توفي الصدر الاعظم بيرم باشا، وقد تأثر السلطان كثيرا لموته، وعين لمنصب الصدارة العظمى والي الموصل، طيار محمد باشا، الذي جرى اعلامه بذلك بواسطة كتخدا البوابين

(٢٧) Creasy, op. cit., pp. 254-5;

فاد مراد جيشه بنفسه لاستعادة المواقع التي احتلها الفرس في فترة الفوضى السابقة وطردهم من مناطق اسيا الصغرى. ففي ربيع ١٦٢٥ زحف مراد باتجاه اريغان، عاكسا المثال الطيب لجنوده في القدرة على التحمل والصبر وروح العزم الذي لا يلبس. فتح اريغان ودمر طوروس وعاد الى العاصمة في نفس تلك السنة. انظر:

E cn. op. cit., p. 176; Creasy, op. cit., p. 254.

(٢٨) انظر: هاممر، ص ٢٢٩ - ٢٥٠؛

Lamartine, op. cit., p. 260

Creasy, op. cit., pp. 254-5.

Sahilloglu, op. cit., pp. 13-14. (٢٩)

(٣٠) هاممر، ص ٢٢٩.

Sahilloglu, op. cit., pp. 15-6. (٣١)

(٣٢) هاممر، ص ٢٤١ - ٢٤٠.

Sahilloglu, op. cit., pp. 13-18. (٣٣)

(٢٤) هاممر، ص ٢٤٣.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٢٤٣، ولو ان هامر يعتبر حلب المرحلة الخامسة والخمسين، ولكن انظر:

Sahilloglu, op. cit., p. 20.

(٢٦) المزوي، ص ٢١.

(٢٧) الميرالي اسماعيل سرهنك، حقائق الاخبار عن دول البحار، (القاهرة - بولاق ١٣١٤)، ج ٢، ص ٢٠٠، القهواني، ص ٢٦٠.

(٢٨) هاممر، ص ٢٤٤؛ المزوي، ص ٢١؛ Sahilloglu, op. cit., pp. 20-1

(٢٩) المزوي، ص ٢١.

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) هاممر، ص ٢٤٤؛ المزوي، ص ٢١؛

Lamartine, op. cit., p. 265

(٤٢) يسميها لوتريك دولاب

Longrigg, op. cit., p. 69

تعادل قيمته ... ر. ١٥٠ قرشا . والى جانب ذلك حمل السفير للسلطان ترسا ثمينا مصنوعا من اذن الفيل ومغطى بجلد الكركدن ، وكان الشائع آنذاك ان هذا الترس لا تؤثر فيه السيوف والاطلاقات النارية^(٥٢) ، ولكن مراد الرابع تمكن بضربة واحدة من بلطته ان يخرقه^(٥٣) ، وحينئذ وضع في الترس خمسمائة فلوري - عملة ذهبية - واعاده الى السفير^(٥٤) . ان السبب في تلك السفارة ، يعود الى سماع ملك الهند بنبا حملة السلطان ضد الصفويين ولاسترجاع بغداد ، ولذا فقد اشار في كتابه المرسل الى السلطان انه بدوره قد حشد قواته لمهاجمة قندهار واستعادتها من الصفويين ، وقد كان لهذا النبأ ونفع طيب في القيادة العثمانية ، ذلك ان « عمل الهند مما يشوش الوضع على ايران من مجاورتها ويسهل فتح بغداد »^(٥٥) .

قبل ان تغادر قوات الحملة الموصل ، عقد السلطان مجلسا حربيا ليحث موضوع نقل المدافع الى بغداد^(٥٦) . فكان رأى غالبية القادة المجتمعين ان من الافضل نقلها عن طريق انهر ، وذلك بسبب هلاك كثير من الجاموس الذي يسحبها وما متبقر منه فانه منهك ، ورأى آخرون افضلية نقلها برا بصحبة الجيش حيث تصل المدافع مع بقیة الجيش في وقت واحد الى بغداد . وبعد الدراسة قرأ رأى السلطان ان يتم نقل عشرين مدفعا برا مع الجيش . وان ترسل المدافع الباقية ، وعددها عشرة ، عن طريق النهر^(٥٧) . وقد برزت حكمة هذا القرار الذي اتخذه السلطان ، حيث ان المدافع التي نقلت بواسطة النهر لم تصل الا بعد عشرين يوما من بدء حصار الجيش العثماني لمدينة بغداد . وكان من شأن ذلك ، فيما لو وقع ، ان يقلل من فاعلية الحصار^(٥٨) . وقبيل الحركة ، امر السلطان بمنح كل فرد من الانكشارية والسباهية مائة اقة كهيئة ، كما وزعت على اصحاب الزعامات والتميازات لتقابل لتقلها فيما بينهم ، من اجل ان تكون ذخيرة المدافع مهياة حين اتوصول الى الهدف^(٥٩) .

- (٥٢) الزاوي ، ص ٢١١ .
 (٥٣) Lamartine, op. cit., p. 265 -6.
 (٥٤) الزاوي ، ص ٢١٢ .
 (٥٥) المصدر نفسه .
 (٥٦) هاممر ، ص ٢٤٩ .
 (٥٧) المصدر نفسه ، الزاوي ، ص ٢١٢ .
 (٥٨) الزاوي ، ص ٢١٢ .
 (٥٩) المصدر نفسه ، هاممر ، ص ٢٤٩ .

الذي ارسله السلطان بأمر التعيين ، وعين بصفة مؤقتة قره مصطفى باشا^(٤٣) .

وصل الجيش الى ديار بكر ، وهي المرحلة السابعة والسبعين ، في ٢٣ ربيع الآخر ، وعسكر فيها لمدة تسعة ايام^(٤٤) . وفي خلال وجود الجيش في ديار بكر التحق بالسلطان الصدر الاعظم الجديد ، على رأس جيش كبير^(٤٥) . وقد جرى له استقبال كبير وانعم عليه السلطان^(٤٦) . وقبل التحرك نحو الموصل ، جرى تنظيم السير بحيث يكون كل من « امير الصحراء » ابن ابي ريشة وباشوات حلب وطرابلس الشام على مقدمة الجيش . تحت امرة والى ديار بكر درويش باشا^(٤٧) . وفي منطفة حكمة المرحلة الثامنة والثمانين ، والتي وصلها الجيش في ١٧ جمادى الاولى ، قدم عرب البادية الى مقر القيادة وهم يصحبون خمسمائة اسير من الغزلباش اسروا قرب بغداد وقد امر السلطان باعدامهم جميعا^(٤٨) . وبعد مرحلتين اي في كفر زمان ، جرى عبور نهر دجلة بدون جسر ، وقد توفي هنالك بكتر بك مرعش بيغلي مصطفى باشا^(٤٩) .

في ٢٩ جمادى الاولى ، دخل الجيش العثماني مدينة الموصل ، وهي المرحلة السابعة والتسعون ، وعسكرت فيها القوات للراحة واتخاذ الاجراءات النهائية لمدة عشرة ايام^(٥٠) . وفي الموصل استقبل السلطان سفيرا من ملك الهند ، وهو يحمل رسالة الى السلطان مع هدايا ثمينة كان من بينها جواهر ثمينة تعادل قيمتها ... ر. ٥٠٠ دوكا ذهبيا مع سيف مرصع^(٥١) وحزام ثمين

- (٤٣) هاممر ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، منجم بانسي ، صحائف الاخبار (بالتركية) (مطبعة عامرة ، استانبول ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨ م) ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ .
 (٤٤) Sahilloglu, op. cit., p. 22
 اما هامر فيقول ان الجيش مكث في ديار بكر عشرة ايام . هاممر ، ص ٢٤٧ .
 (٥٥) المصدر نفسه ؛
 (٤٦) الزاوي ، ص ٢١٠ .
 (٤٧) هاممر ، ص ٢٤٧ .
 (٤٨) Sahilloglu, op. cit., p. 23
 (٤٩) هاممر ، ص ٢٤٨ .
 (٥٠) هاممر ، ص ٢٤٨ ؛ Sahilloglu, op. cit., p. 24
 (٥١) Lamartine, op. cit., p. 265;
 وقد اشار تافرنبيه الى تلك الواقعة بقوله انه في خلال وجوده في البصرة وصل اليها سفير عظيم الغول الذي جاء من بغداد بعد لقائه بالسلطان . انظر : تافرنبيه ، ص ٢٢ .

ابضا انباء نجاح الفارة العثمانية على منطقة شهرزور^(٦٧) . ومن جيق كوبري ، عبر الجيش بعقوبة ثم بهرز ، وكانت الرحلة قبل الاخرة هي مقابل الامام موسى الكاظم ، التي وصلها الجيش في يوم ٧ رجب ، وفي صباح الاثنين ٨ منه / ١٥ تشرين الثاني ، وبعد حركة ساعة واحدة ، ضرب الجيش مواقعه امام مقام الامام الاعظم^(٦٨) . وبذلك يكون الجيش العثماني قد سلخ مائة وسبع وتسعين يوما منذ مفادته لاسكدار حتى وصوله الى مواقعه في مواجهة اسوار بغداد ، امضى فيها ستا وسبعين يوما للاستراحة^(٦٩) .

دفاعات بغداد

تقوم بغداد على الجانب الشرقي من نهسر دجلة ، ويبلغ طولها بحسب تقدير تافرنيه ١٥٠٠ خطوة وعرضها ما بين ٧٠٠ الى ٨٠٠ خطوة ، اما طول محيطها فيبلغ ثلاثة اميال^(٧٠) . يحيط بالمدينة سور مبني من الاجر ، قام اوليا جلبي بقياس طولها ، فوجد انه يبلغ ٢٨٨٠٠ خطوة او سبعة اميال (الميل الواحد يساوي ٤٠٠٠ خطوة) في حين ان حاجي خليفة جعل طولها ١٢٢٠٠ ذراعا او مليون^(٧١) . يكتنف السور خندق عرضه ستين ذراعا ، يستقي مياهه من دجلة^(٧٢) ، ويبلغ

(٦٧) الزاوي ، ص ٢١٤ .

Sahilloğlu, op. cit., p. 27. (٦٨)

انظر : Ibid., pp. 13-27 ؛ ان دفة الزاوي في تحديده لافات الراحة ب ٧٦ يوما ندعو الى الإعجاب (الزاوي ، ص ٢١٥) . اما هامر ، فيذكر ان عدد ايام التوقف بلغت ٨٦ يوما (هامر ، ص ٢٥) ، ومن الجدير بالذكر ان باربر يخطئ بقوله ان الرحلة من اسكدار الى بغداد استغرقت مائة وعشرة ايام ، انظر : Noel Barber, The Lords of Golden Horn from Suleiman the Magnificent to Kamal Atatürk (London, 1974), p. 86.

(٧٠) تافرنيه ، ص ٧٨ .

Quoted in: A.A. Duri, 'Baghdad', The Encyclopaedia of Islam, (new edition, Leiden, 1960), vol. I, p. 904; (٧١)

نجد ان لامرتين يقدر طول السور ب ١٠٠٠٠ خطوة Lamartine, op. cit., p. 266 انظر ولكن اذا اخلنا بنظر الاعتبار راي مؤرخ حصار بغداد ضياء الدين اوغلي فيكون طول السور ٨١٥٠ خطوة . انظر هامش رقم (١) ص ٧٩ من هذا البحث .

Duri, op. cit., p. 904. (٧٢)

نظم سير الجيش حين مفادرة الموصل « للدخول في المنطقة المعادية »^(٦٠) ، فعهد بقيادة قوات الطبيعة الى والي ديار بكر ، وتالفت مسيرة الجيش من قوات الشام وسواس ، اما المؤخرة فوضع على قيادتها بكربك مرعش ، محمد علي باشا الكرجي ، وتولى قيادة المدفعية بوغاي باشا زادة والي حلب^(٦١) . في يوم ٩ جمادى الآخرة ، غادر الجيش الموصل زاحفا الى بغداد فمر على حمام الليل ثم زاب صوي ، وفي يوم ١٢ جمادى الآخرة ، وعند الرحلة الواحدة بعد المائة وعند مقابلة زاب صوي ، عبر معظم الجيش النهر راجلين في حين اجتاز السلطان النهر على ظهر حصانه^(٦٢) . وبعد اربعة ايام ، ١٧ جمادى الآخرة ، وصل الجيش الى آتون كوبري ، وهي المرحلة الخامسة بعد المائة ، فعبرت القوات العثمانية على الجسر^(٦٣) . ومن هنا مر الجيش على كوك تبة وخاصة صوي ثم كركوك ، اني امضت فيها القوات يوما واحدا للراحة ، ثم تحرك الجيش من كركوك في ٢٢ جمادى الآخرة ، فمر على تازة خرماتي وطاووق وطوز خرماتو وكفري ونارين صوي وطاش كوبري^(٦٤) . وفي يوم ١ رجب وصل الجيش جيق كوبري ، حيث امر الجيش بالتحشد والراحة ليوم واحد^(٦٥) . وهنا وصل الى السلطان خبر انتصار حاكم آخسنة ، سفر باشا : في حملة روان^(٦٦) . فلقد تمكنت القوات العثمانية التي هاجمت روان ، من دحر حاكمها الفارسي كلب خان ، واستولت على ذلك الموقع . كما وصلت

Longrigg, op. cit., p. 70 (٦٠)

هامر ، ص ٢٢٩ ، الزاوي ، ص ٢١٢ .

Sahilloğlu, op. cit., p. 25. (٦١)

Loc. cit. ؛ اما الزاوي فانه يحدد خطأ تاريخ

الوصول الى آتون كوبري بيوم ٢ رجب ، كما يدكر الرواية القائلة بان السلطان في هذا الوضع رفض عبور القنطرة قائلا « دع النهر يجرفك ولا تمر من قنطرة الجبان ، واترك الاسد يختطفك ولا تترك الى ظل ابي الحصين » (الزاوي ، صص ٢١٢ - ٢١٤) في حين ان من المؤكد مما اورده مرافق السلطان ان العبور تم مر على الجسر . ويبدو ان القهواني يقع في نفس الخطأ بتاييده لرواية الزاوي اليفة الذكر (القهواتي ، هامش ٥ ، صص ٢١٢ - ٢١٣) . ولعل الخطأ هنا ناتج من الالتباس الذي وقع فيه الزاوي من كون الجيش العثماني قد عبر في منطقة زاب صوي على الارجح لا في منطقة آتون كوبري .

Sahilloğlu, op. cit., pp. 25-6. (٦٢)

Ibid., p. 26. (٦٣)

هامر ، ص ٢٥٠ .

فهامر يذكر ان عدد افراد القوات التي تحت امره بكتاش خان هو ١٢ر٠٠٠ فارس وبندفجي بقودهم خلف خان (٨٢) . ولكن هذا الرقم هو اقل بكثير مما تجمع عليه المصادر وتدل عليه ظواهر الاحوال . فالعزاوي يقول ان العدد الذي اورده هامر يشمل رماة انبناقد فقط الذين التحقوا ببغداد تمزيزا لحاميتها بقيادة اغا صادق بن مير فتاح (٨٣) . اما بجوى فيقدر عدد تلك القوات بـ ٣٤ر٠٠٠ فزلباشي (٨٤) . في حين ان منجم باشي يجعلهم ٤٠ر٠٠٠ (٨٥) . ويستشف مما اورده كانتمير ان العدد يزيد على ما ذكرناه ، ولو انه لم يذكر رقما محدد ، لكنه يقول ان عدد القوات الفارسية التي استسلمت للسلطان بلغ عدد افرادها ٣ر٠٠٠ رجل (٨٦) . فاذا اخذنا بنظر الاعتبار القتال الضاري الذي دار بين الحامية والقوات العثمانية المهاجمة فان عدد افراد الحامية يزيد كثيرا على ذلك الرقم . اما لامرئين فانه يقدر عدد الجند الفرس في داخل بغداد بـ ٨ر٠٠٠ رجل (٨٧) . ومهما كانت هذه الاختلافات فان من المؤكد ان الحامية كانت ذات مستوى عددي مناسب نظرا للدفاع العنيف الذي واجهت به القوات العثمانية المستبسة بالمهجوم طيلة اربعين يوما من القتال المتواصل . ويبدو من المؤكد ان الحامية الفارسية قد تلقت تعزيزات كبيرة في الرجال والسلاح والذخيرة قبل ان تطبق عليها القوات العثمانية . ويذكر القهواتي نقلا عن محمد يوسف (٨٨) ، ان بكتاش خان كان قد علم بزحف السلطان مراد الرابع الى بغداد وذلك عن طريق القوافل القادمة من حلب ، فبعث الى الشاه طالبا امداده بقوات اضافية لتمزيز الحامية ، وكانت استجابة الشاه فورية لهذا الطلب ، اذ سارع باعداد جيش كبير قرر ان يقوده بنفسه ، في نفس الوقت الذي ارسل فيه الى عدد من حكام انوليات طالبها منهم الالتحاق لنجدة الحامية الفارسية ، كما هيا كميات كبيرة من معدات الحصار والمدافع لارسالها الى بغداد ، وقد

تمق المياه فيه نحوا من خمس فامات (٩٣) . الجزء من السور الذي يحيط بالجهة الشرقية من المدينة كان دائريا تقريبا ، ويبلغ ارتفاعه ستين ذراعا وعرضه ما بين ١٠ الى ١٥ ذراعا (٩٤) . تنتصب ابراج كبيرة في الزوايا الرئيسية من سور بغداد ، اقيمت فيها المدافع النحاسية ، في حين تقوم ابراج اصغر على مسافات قصيرة من بعضها البعض ، ويبلغ عدد هذه الابراج مائة وثمانية عشر برجاً في جوانب السور المظنة على البر و ٤٥ برجاً تشرف على النهر (٩٥) وبحسب ما يذكره مؤرخ حصار بغداد . ضياء الدين اوغلي (٩٦) . فقد كانت بين كل برج وآخر خمسون فتحة لاطلاق نيران المدافع والبنادق ، وبين كل فتحة واخرى خطوة واحدة . في الزاوية الشمالية الغربية من السور تقوم القلعة الداخلية التي يطوقها حائط مفرد يبدا من باب المعظم الى نهر دجلة ، ترتفع عليه ابراج صغيرة نصبت فيها المدافع (٩٧) . ويحقد بسورها خندق ضيق (٩٨) . وهذه القلعة تضم الثكنات ومخازن الذخيرة والمؤن بالإضافة الى الخربنة ، وانى جوارها ، من جهة الجنوب يقوم السراي حيث مقر الوالي (٩٩) . في الاسوار ابواب اربعة ، ثلاثة منها من جهة البر وهي : باب المعظم في الشمال ويبعد ٧٠٠ ذراع من دجلة ، الباب الظلم او «باب كلواذة» في الجنوب على بعد ٥٠ ذراعا من النهر ، والباب الابيض او «الباب الوسطاني» في الشرق ، اما الباب اترابع فهو بواجهه النهر ويسمى بباب الجسر (١٠٠) . والاخير يربط ما بين بغداد والجهة المقابلة من دجلة حيث تنتصب قلعة الطيور "Kushlar Kalasi" (١٠١) .

لا تتفق المصادر في تحديد عدد افراد الحامية الفارسية المكلفة بالدفاع عن بغداد ، وتراوح التقديرات ما بين ١٢ر٠٠٠ الى ٨ر٠٠٠ رجل .

(٩٣) نافرنيه ، ص ٧٨ .

Duri, op. cit., p. 904.

(٩٤)

; Loc. cit.

(٩٥)

اما هامر فانه يجعل عددها مائتين واحد عشر برجاً . انظر : هاممر ، ص ٢٥١ .

(٩٦) مقتبس في : هاممر ، ص ٢٥١ .

Duri, op. cit., p. 904.

(٩٧)

(٩٨) نافرنيه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

Duri, op. cit., p. 904.

(٩٩)

(١٠٠) Loc. cit. ؛ هاممر ، ص ٢٥١ .

(١٠١) Loc. cit.

يحدد العزاوي موقع قلعة الطيور بالقرب من تبة خضر

الياس للكتاشية . العزاوي ، ص ٢١٩ .

(٨٢) هاممر ، ص ٢٥٢ .

(٨٣) العزاوي ، ص ٢١٧ .

(٨٤) انظر سيد فاتح ، تاريخ بجوى (استانبول ، مطبعة العامة ، بدون تاريخ) ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٨٥) منجم باشي ، تاريخي (استانبول ، مطبعة العامرة ١٢٨٥/١٨٦٨) ، ج ٣ ، ص ٦٧٤ .

(٨٦) Cantemir, op. cit., p. 246.

(٨٦)

(٨٧) Lamartine, op. cit., p. 267

(٨٧)

(٨٨) مؤلف كتاب ذيل تاريخ عالم آراى عباسي .

معارك حصار بغداد ٨ رجب - ١٧ شعبان

أقيمت خيمة السلطان مقابل مقام الامام الاعظم ، وبرزت ثقة السلطان بالنصر ، من امتناعه عن زيارة الامام « لانه وجد انه لا يليق به زيارة المقام قبل اتمام فتح بغداد » (٩٦) . وقبل حلول المساء من نفس يوم الوصول ، بوشر بالاستعدادات الفورية للهجوم ، فعقد السلطان مجلسا حربيا ضم بالاضافة الى الوزراء والقادة ، شيخ الاسلام وقاضي انسكر ، وتقرر فيه توزيع القوات على المواقع وارتداء ارجال لدروعهم وقيام افراد « الجيخانة » بتوزيع لوازم الحصار « كالفؤوس ، الكركات » على الرجال (٩٧) . وعلى الفور اخذ الجميع مواقعهم ؛ فالقوة التي كانت تحت قيادة السلطان عسكرت امام باب العظم (٩٨) . وفي مواجهة الباب الابيض وضع على القيادة الصدر الاعظم طيار باشا يسنده اغما الانكشارية جفال زادة وبكربك الروملي ارسلان اوغلو باشا (٩٩) . وفي مواجهة الاسوار الممتدة الى الجنوب ، ما بين الموقع السابق والباب المظلم . غدت قوات عثمانية اخرى مواقعها يقودها القبودان مصطفى باشا وبكربك سيواس وانصمسونجي باشي ، في حين عهد لقيادة القوات المكلفة بمواجهة الباب المظلم الى بكربك الاناضول حسين باشا يدعمه بكات كوستنديل والونيسة وقوات مصر واربعون ضابطا آخر مع زغارجي باشا (١٠٠) . وقد جرت اول الالتحامات امام الموقع الاخير (١٠١) .

في اليوم الثاني من الحصار ، الثلاثاء ٩ رجب ، وصلت المدافع التي رافقت الجيش عن طريق البر ، فوزعت على الفؤور على جميع الجبهات (١٠٢) . تسلم الصدر الاعظم عشرة مدافع والقبودان مصطفى باشا ستة ، وحسين باشا قائد موقع الباب المظلم اربعة مدافع (١٠٣) . ومع

(٩٦) هاممر ، ص ٢٥٢ . وانظر ايضا : المزوي ، ص ٢١٦ ؛ Coke, op. cit., p. 206 .

(٩٧) Sahilloğlu, op. cit., p. 27 .

(٩٨) Coke, op. cit., p. 206 .

(٩٩) Sahilloğlu, op. cit., p. 27 .

(١٠٠) Loc. cit. ؛ هاممر ، ص ٢٥٢ .

(١٠١) Sahilloğlu, op. cit., p. 27 .

(١٠٢) Loc. cit. .

(١٠٣) هاممر ، ص ٢٥٢ ، اما بجوى فيورد بان الصدر

الاعظم تسلم ١٢ مدفعا والقبودان مصطفى ٩ مدافع

وحسين باشا ٨ ولديروش باشا اربعة مدافع . وعليه

فيكون مجموع المدافع التي فتحت نيرانها في الايام الاولى

من القتال ثلاثة وثلاثين مدفعا (بجوى ، ص ٢٤٧) ، اما

←

بلغ تعداد تلك الحملة ٢٠.٠٠٠ قزلباشي (٨٩) . ولكن تطورات الحالة في المناطق الشرقية من الامبراطورية الصفوية ، نتيجة تحرشات الازبك ، دفعت بالشاه الى البقاء في قزوین وكلف مير فتاح لينوب عنه في قيادة الحملة الى بغداد (٩٠) .

اما عن عدد افراد القوات العثمانية التي اطلقت على بغداد فغالبية المصادر تغفل ذكر الرقم بشكل محدد ، ويذكر القهواتي تضارب الارقام ، ذاكرا ان التقديرات تتراوح ما بين ١٠٠ الف الى ٣٠٠ الف جندي (٩١) . اما لامرتين فيقدر عدد افراد الجيش العثماني الذي قاده السلطان ب ٣٠٠ الف رجل (٩٢) . ويورد باربر رقما يدل على المبالغة حيث انه يقدر عدد القوات العثمانية التي طوقت بغداد بنصف مليون رجل ، ويصف زحف ذلك الجيش اللجب مشبها اياه « بنهر عظيم كانت الروافد تصب فيه باستمرار اثناء جريانه معززة جيروته بحيث لم يعد بإمكان اية قوة مواجهة المد العارم لنصف مليون رجل » (٩٣) .

تمكنت القيادة العثمانية من الحصول على معلومات مهمة حول خطط الفرس الدفاعية ، فتبين لها منها ان الفرس قد ركزوا اقوى دفاعاتهم في منطقتي باب العظم والباب المظلم ، ويرجع ذلك الى ان الحملات العثمانية السابقة لاستعادة بغداد ، والتي قادها حافظ باشا وخسرو باشا ، فرضت الحصار على المدينة من تلك الجهتين ، وكل ما احدثته القوات العثمانية من ثغرات في الاسوار ، قامت الحامية الفارسية بترميمه وتحصينه بالاضافة الى اصلاحها بقية الاسوار ، ولكنها اهملت طرف السور المواجه للصحراء عند الباب الابيض (٩٤) . ويبدو انها لم تتوقع شن الهجوم من تلك الناحية ، وهذا تقصير واضح . لقد احاط السلطان واركان حربه بتلك التفاصيل وهم في الموصل على اثر اللقاء القبض من قبل القوات العثمانية على احد المسؤولين الفرس المدعو مير محمد ، وكان هذا قد وصل الى تكريت لجمع الضرائب ، وحينما جلب الى السلطان كشف له عن تلك الاسرار في محاولة لانتقاذ حياته (٩٥) .

(٨٩) القهواتي ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٩٠) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .

(٩١) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

(٩٢) Lamartine, op. cit., p. 266 .

(٩٣) Barber, op. cit., p. 86 .

(٩٤) هاممر ، ص ٢٥١ .

(٩٥) المزوي ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

في اليوم الثامن من الحصار ، ١٦ رجب ، نجحت القوات المهاجمة في اىصال المتاريس الى قرب الخندق ، في الوقت الذي تهدمت فيه كثير من الابراج بفعل قصف المدفعية العثمانية (١٠٩) . وقد دفع القصف العثماني الكثيف بافراد الحامية الفارسية الى « ارتداء جلود الاغنام على رؤوسهم لحمايتها من نيران المدفعية » (١١٠) وقد تمكن كنعان باشا ، بكلربك ارضروم ، من اسر بعض القزلباش الذين تم اعدامهم جميعا ، وانعم السلطان على أسرهم (١١١) .

في خلال ايام المعارك هذه والايام التي تلتها ، كان السلطان مراد الرابع في غاية النشاط والحيوية واستطاع ان يجعل من نفسه القوة المحركة وان يخلق ذلك الزخم المطلوب لانتزاع النصر ؛ كان يعمل في المتاريس ويشارك في اختيار مواقع المدافع وتصويبها ، ممضيا معظم الليالي والسرجه له بمشابة الوسادة (١١٢) . لقد كان حماس الجنود يصل اقصاه من مشاركة السلطان لهم في اعمالهم المرهقة ، فيذوب الشعور بذلك الارهاق ليتحول الى طاقة لا تعرف الكلل في الوصول الى النصر ، وتزيد حماسهم تلك الكلمات الحماسية التي كان يخاطبهم بها « عليكم جميعا ان تفكروا بانتي لم اجدى الى هنا لاعود قبل ان استرجع هذا الموقع ، كلا ، لقد جئت على رأس عدد كبير من الجنود الصادقي الايمان لانتزع او اموت هنا ، فعلى الجميع ، وعلى كل فرد منكم ان يتخذ نفس ذلك القرار . . . » (١١٣) وفي مناسبة اخرى قال محدثنا جنوده « ابدلوا جهودكم في سبيل الدين والفترة الاسلامية ولا تقصروا . هذا يوم السعي وبذل ما في الوسع » (١١٤) . ولم يقتصر السلطان على كل ذلك ، بل كان ينعم على الجرحى ويحسن اليهم « ويطيب القلوب بالانعامات ويعني بشؤون الجميع » (١١٥) . لقد كان فتح بغداد بالنسبة للسلطان امرا في غاية الاهمية ، فكان كما يقول

(١٠٩) هاممر ، ص ٢٥٢ .

(١١٠) المصدر نفسه .

Sahilloglu, op. cit., p. 28. (١١١)

Barber, op. cit., p. 86; (١١٢)

وانظر ايضا :

Lane-Poole, op. cit., p. 220; Longrigg, op. cit., p. 71.

Coke, op. cit., p. 205. (١١٣)

(١١٤) الزاوي ، ص ٢٢٠ ، هاممر ، ص ٢٥٢ .

(١١٥) الزاوي ، ص ٢٢٠ .

بواكير صباح اليوم التالي ، الاربعاء ، انطلقت المدافع من الجبهات الثلاث تقصف الاسوار ، كما فتح الرجال نيران بنادقهم على العدو ، وسقط اول القتلى والجرحى من الطرفين ، وحينما وصلت اول دفعة من الجنود الجرحى امام السلطان استقبلهم مشجعا وانعم على كل منهم مبلغا يتراوح ما بين عشرين الى ثلاثين قرشاً (١٠٤) . ويصف شاهد عيان موقف السلطان من جرحاه فيقول (١٠٥) « وقد امر بنصب خيمة الجراحين في الجيش بقرب موقمه وكان يامر باجراء الاسعافات الفورية للجرحى مشجعا اياهم بكلمات طيبة ومقدما لهم بعض الهبات المالية » .

تواصل القتال في يومي الخميس والجمعة وفي ليلة السبت ، ١٢ رجب اشتد قصف المدفعية من الجانبين ، وفي صباح اليوم التالي جلب اول الاسرى من القزلباشي وعددهم اربعة وثلاثون فردا فصدر الامر باعدامهم واكرم السلطان أسرهم (١٠٦) . وفي اليوم الرابع من القتال عبر السلحدار باشا يرافقه بكلربك طرابلس شاهين باشا ، على رأس قوة مؤلفة من ١٢٠٠٠ رجل نهر دجلة مهاجما قلعة الطيور ، وقد نجح الهجوم وتم الاستيلاء على القلعة (١٠٧) . ان اقتحام القوات العثمانية لهذا الموقع ساعد على الاطباق الكلي على الحامية الفارسية ، كما انه من الناحية الاخرى جعل قصف المدفعية العثمانية اكثر تأثيرا لاكتشاف جانب القلعة الداخلية المظل على النهر . يقول الزاوي نقلا عن المحيي « خلاصة الاثر » ان الشاه ارسل رسولا لطلب الصلح في اليوم الخامس من الحصار ، يدعى جانبك سلطان ، وان السفير اجتمع بالصدر الاعظم في ١٣ رجب ، ولكن السلطان وجميع الوزراء والاركان رفضوا عرض الصلح هذا (١٠٨) . وهذا يدل ، في حالة وقوعه ، على شعور الشاه بالعجز عن مواجهة قوات الحملة العثمانية التي صمم قائدها ، السلطان بذاته ، على عدم القبول باقل من الاستسلام التام لحامية بغداد .

كول فيذكر ان عدد المدافع التي بدأت القصف في اليوم

الاول من الحصار كانت ستين مدفعا وهذا غير دقيق .

Coke, op. cit., p. 205. انظر :

Sahilloglu, op. cit., p. 27. (١٠٤)

Quoted in : Coke, op. cit., p. 206. (١٠٥)

Sahilloglu, op. cit., p. 27. (١٠٦)

(١٠٧) هاممر ، ص ٢٥٢ ، ولو ان هامر يقول سهوا ان قلعة

الطيور تقع شرقي دجلة ، في حين انها ، وكما سبق

الاشارة بذلك ، تقع لغربي النهر .

(١٠٨) الزاوي ، ص ٢١٨ .

شاهد عيان ١١٦ « طيلة أيام الحصار التي دامت تسعة وثلاثين يوما حتى تم الاستيلاء عليها [بغداد] في اليوم الأربعين ، كان جلالته يقوم بصلاته في كل يوم وليلة على ركبته ، منكبا وساجدا على الأرض والدموع تتلأ في عينيه » .

وفي إحدى المناسبات قدم مراد الدليل الحاسم على روح الجراءة والشجاعة التي اتصف بهما ، فعندما أرسل الفرس فارسا عملاقا لتحصد المحاصرين في مبارزة فردية ، لم يتردد لحظة واحدة واندفع بنفسه لمواجهة التحدي ، وبعد صراع عنيف شق جمجمة ذلك العملاق من الهامة الى الفك في ضربة واحدة من سيفه (١١٧) .

في يوم الجمعة ، ٢٦ من رجب ، قامت مجموعة من الفزلباش بهجوم مباغت ، اذ خرجت من الاسوار امام الجهة التي يقودها حسين باشا ، في محاولة لتدمير المتاريس العثمانية ؛ الا ان القوات العثمانية ردت على هجومهم بهجوم مضاد فاضطرتهم الى الانسحاب بعد ان خلفوا وراءهم عددا من القتلى (١١٨) . وفي صباح اليوم التالي ، ٢٧ منه ، وصلت المدافع العشرة التي سبق ان ارسلت من الموصل عن طريق النهر فسلمت ثلاثة منها الى السلحدار باشا وخمسة للصدر الاعظم واتسان لمصطفى باشا ، واخذت المدافع الجديدة مواقعها وباشرت بالتقصف في فجر اليوم التالي الاحد ٢٨ رجب ، واشتد القصف في هذا اليوم من جانب الطرفين بضراوة (١١٩) . لقد تمكنت القوات العثمانية في هذه الفترة من القتال ، من احداث تدميرات كبيرة في تحصينات بغداد ، فقد نجح الصدر الاعظم في هدم برج الباب الابيض ، كذلك تمكن القبودان باشا من هدم البرج المبني زمن جفالسفة زادة ، في الوقت الذي نجحت مدافع حسين باشا في هدم البرجين الكبيرين الاخرين ، وتهدم تماما جانب من السور يبلغ ثمانمائة ذراع ، مما دفع بالقيادة العثمانية الى التفكير بشن هجوم عام من تلك الثغرة ، ولكنها عدلت عن ذلك بعد تقدير للموقف ؛ اذ تبين لها خطورة ذلك لما وردها من وجود الاستحكامات والمتاريس والخنادق داخل المدينة (١٢٠) . وتواصل القتال بدون انقطاع معتمدا

Quoted in : Coke. op. cit., p. 207. (١١٦)

Lane-Poole, op. cit., p. 230; Barber, op. cit., p. 86. (١١٧)

Sahilloglu, op. cit., p. 28. (١١٨)

Loc. cit. (١١٩)

Coke, op. cit., p. 207. ؛ ص ٢٥٤ (١٢٠)

بالاساس على القصف بالمدافع وتبادل نيران البنادق .

في يوم ٢ شعبان/٩ كانون الاول وصل الى مقر قيادة القوات العثمانية امير العرب (ابو ريشة) وهو يقود قافلة مؤلفة من ١.٠٠٠ رجل محملة بالارزاق لنجيش (١٢١) ، وجالبا معه عددا من الاسرى الفرس ، وقد استقبل السلطان ابا ريشة بترحاب واحترام كبيرين و قدم الخلع لسبعة من رجاله (١٢٢) . في اثناء ذلك ، ومع ورود الانباء بافتراق الشاه من ديبالي على رأس جيش فارسي مؤلف من ١٢.٠٠٠ رجل ، حاول الفادة الفرس المحاصرون رفع معنويات جنودهم ؛ ولكن سرعان ما خاب املمهم في النجدة . فعالما سمع السلطان بذلك النبأ اصدر امره الى كل من والي حلب محمد باسا ووالي طرابلس شاهين باشا وامير العرب ابو ريشة وخيائنه ، بالتوجه على الفور الى منطقة ديبالي للتصدي لتفوات الفارسية ، ولكن الفرس سرعان ما انسحبوا حينما علموا باقترب قوة التصدي العثمانية هذه (١٢٣) .

تواصل القتال بين الطرفين ولكنه اشتد « بضراوة لا توصف في الفترة ما بين ٥ و ١٨ شعبان » (١٢٤) ففي صباح الخامس من شعبان وزع على الجنود ٢٦.٠٠٠ كيس ، جرى العمل على ملئها بالتراب والرمال واصبحت مهياة في اليوم التالي ؛ وكانت الغاية منها ردم الخنادق (١٢٥) . وفي الاتحامات التالية استنسل الطرفان وسقط عدد من القتلى كان من بينهم اغا الفدائيين (سردن كجدي) والآي بك جرمن ، وكان لاستشهادهم صدى مؤلم لدى السلطان (١٢٦) . وقد تم افضال محاولة اغارة قام بها الفرس (١٢٧) .

نجحت القوات المهاجمة في ردم اجزاء كبيرة من الخنادق بحلول يوم ١٦ شعبان ، وكان السلطان متحرقا لشن الهجوم العام ، ونهضا فقد وجه لومه

Loc. cit. ؛ المصدر نفسه ؛ (١٢١)

Loc. cit. ؛ المصدر نفسه ؛ (١٢٢)

(١٢٣) المصدر نفسه ؛ المزوي ، ص ٢٢٢ ؛

Longrigg, op. cit., p. 71; Coke, op. cit., p. 207

Sahilloglu, op. cit., p. 28. (١٢٤)

Loc. cit. ؛ هذا مع العلم ان كلا من هامر (١٢٥)

والمزوي يذكران ان عدد هذه الاكياس هي ٢٦. كيا !

هاممر ، ص ٢٥٤ ، المزوي ، ص ٢٢١ .

(١٢٦) هاممر ، ص ٢٥٤ .

(١٢٧) المزوي ، ص ٢٢٢ .

الى الصدر الاعظم طيار باشا لتباطئه في شنن الهجوم (١٢٣٨) قائلا « اهذه شجاعتك واقدامك . ما هذا الانتظار وما معنى هذا التأخير ؟ » فاجاب طيار « انا حاضر لغداء روجي لسطاني ، فلو مات عبدك طيار فلا قيمة له ، اسأل الله ان يسهل الفتح » (١٢٣٩) . وقد تقرر القيام بالهجوم العام واخترق مواقع الدفاع الغارسية في صباح اليوم التالي ، وفي تلك الليلة الحاسمة لم ينم العثمانيون وكان تكبيرهم يسمع من مسافة بعيدة (١٢٤٠) .

ما ان بزغت شمس يوم ١٧ شعبان ، حتى اندفعت جحافل العثمانيين من خنادقها يتقدمهم الوزراء والقادة ، والكل يهتف بصوت عاصف « الله كريم الله عظيم » ، فكان اندفاعهم « كموجة مد عارمة على انقاض الاسوار » (١٢٤١) . كان في مقدمة القوات المتدفقة الصدر الاعظم طيار الذي « اعمل في عدوه السيف وابدى بسالة لا مثيل لها » (١٢٤٢) . ولكنه اصيب بقذيفة في جبهته ادت الى وفاته (١٢٤٣) . جيء بجثمان القائد الى خيمة السلطان ، فكان تأثره عميقا وحرزته صميميا ومرا (١٢٤٤) . وقرض نعيما طيار بقوله (١٢٥١) « لقد عاش سعيدا ومات شهيدا » . وقد قام السلطان نفسه بامامة الصلاة على روح القائد الراحل (١٢٤٦) ، ودفن في مقبرة الامام الاعظم بالقرب من قبر والده ، مصطفى باشا ، الذي كان واليا على بغداد في فترة

سابقة (١٢٤٧) . وعلى الاثر عين السلطان القبودان مصطفى باشا بمنصب الصدارة العظمى ، قائلا له « حقق فتحي بك ، فبعون الله انت الذي ستفتح بغداد » (١٢٤٨) . قَبِلَ مصطفى باشا الارض بحضرة السلطان قائلا بتأثر « لا اريد الارضك ودعواتك » ، وخرج وعيناه مفروقتان بالدموع (١٢٤٩) .

اندفع مصطفى باشا مجددا للهجوم ، والجنود الذين الهب حماسهم تقدم الصدر الاعظم ، اندفعوا وراءه بغدائية عانية . وواصل القائد هجومه بمنفذ ، وتساقط العديد من اتباعه واصدقائه ولكنه لم يتوقف الى ان استولى على كافة الابراج ، وهكذا سقطت مدينة بغداد في ١٨ شعبان/ ٢٥ كانون الاول ، بعد اربعين يوما من الحصار والقتال الضاري (١٢٤٠) . وطيلة هذه الفترة « كان القتال يبدو وكأنه مذبحة متواصلة ... لم يتوقف فيها اطلاق القذائف وصليل السيوف للحظة واحدة مدمرة الجنود من كلا الجانبين » (١٢٤١) .

كان بكتاش خان ، الحاكم الفارسي لبغداد ، اول من ادرك عمق المقاومة بعد بدء الهجوم العثماني الشامل واكتساح اهم مواقع الدفاع الايرانية ، فعرض تسليم نفسه الى السلطان وارسل رسولا يحمل ذلك الى مراد الرابع (١٢٤٢) . وعن هذه الناحية يقول صاحب كلشن خلفا ، ان بكتاش خان قبل ان يقدم على خطوته تلك ، تداول مع القادة خلف خان وعلي يار ومير فتاح ، وانهم جميعا قرروا الاستسلام للقوات العثمانية ، ولكنه يخالف ما ورد في المصادر الاخرى بقوله « وبعدئذ تقدم بكتاش خان نحو السلطان بعرض الخضوع والتسليم وكذلك فعل بقية الامراء الاخرين الا امير الغزلباش ابن فتاح فعد امتنع .. » (١٢٤٣) ولكن الوقائع تشير الى ان بكتاش خان سار وحده الى المعسكر العثماني ، برفاقه الجاويش باشي طوراق اغا ومتصرف نيكدة حسن اغا ، اللذان ارسلوا لجلبه الى مقر القيادة العثمانية (١٢٤٤) . ومن خيمة الصدر الاعظم سار الوالي الفارسي بين صفتين من

(١٢٣٨) هاممر ، ص ٢٥٤ .

(١٢٣٩) المصدر نفسه ، المزوي ، ص ٢٢٢ .

(١٢٤٠) هاممر ، ص ٢٥٤ .

(١٢٤١) المصدر نفسه ؛ Lamartine, op. cit., p. 266

(١٢٤٢) المزوي ، ص ٢٢٢ .

(١٢٤٣) هاممر ، ص ٢٥٤ ؛ نظمي زادة مرتضى الفندي ؛ كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، (بغداد ، مطبعة الاداب ، بدون تاريخ) ، ص ٢٢٢ ؛

Lamartine, op. cit., p. 266; Creasy, op. cit., p. 255; Longrigg, op. cit., p. 72.

(١٢٤٤) هاممر ، ص ٢٥٥ ؛

Lamartine, op. cit., p. 266

ولو ان المزوي يجعلها « مائة مدينة مثل بغداد » المزوي ، ص ٢٢٤ . هذا ويخطئه كانتمير بقوله ان السلطان قتل بيده وزيره الاكبر لانه ظهر له مهملًا ا

Cantemir, op. cit., p. 248.

(١٢٥٥) مقتبس في : هاممر ، ص ٢٥٥ ، اما لامرتين فيقول في رثائه « ان روحه غادرت فقصها الى الجنة »

Lamartine, op. cit., p. 266

Coke, op. cit., p. 207

(١٢٤٦)

(١٢٣٧) هاممر ، ص ٢٥٥ .

(١٢٣٨) المصدر نفسه Lamartine, op. cit., pp. 266-7

(١٢٣٩) هاممر ، ص ٢٥٥ .

(١٢٤٠) المصدر نفسه ؛ المزوي ، ص ٢٢٢ ؛

Longrigg, op. cit., p. 72

Cantemir, op. cit., p. 248

(١٢٤١)

(١٢٤٢) هاممر ، ص ٢٥٦ .

(١٢٤٣) كلشن خلفا ، ص ٢٢٢ .

(١٢٤٤) هاممر ، ص ٢٥٦ .

وفي نفس تلك الليلة التجأ كل من مير فتاح وبار علي وخلف الي « قلعة نارين » ، في نفس الوقت الذي كانت فيه الجحافل العثمانية تندفق على المدينة من كل الجهات . وقد صحب دخول القوات العثمانية واستمرار بعض الفرس في المقاومة ، وقوع حوادث فوضى ونهب وقتل (١٥١) . ويقول الكاتب المرافق للحملة عن تلك الليلة « دخل الجيش العثماني الي المدينة ونهبها واخرج ارزاقا عظيمة » (١٥٢) . ولم توفق جهود الصدر الاعظم ، الذي جاء بنفسه ، في ايقاف الفوضى واعادة الامن (١٥٣) .

استمرت الاشتباكات بسبب اصرار بعض الفرس على القتال ، وسقط رئيس الكتاب اسماعيل افندي قتيلا ، كما تعرض السلحدار باشا للاغتيال حينما هجم عليه احد الفرس شاهرا سيفه ، الا ان احد افراد الدلي - قسوة من القسوات الفدائية - انتدزه مضحيا بحياته في سبيل ذلك (١٥٤) . في هذا الوقت قدم الي السلطان احد جنود عسكر الرومالي مطالبا اياه بعدم منح « الامان » وقد استغرب السلطان هذا الموقف من احد جنوده وتساءل عن السبب في هذا الطلب ، فبين الجندي ان والده واخوته واعمامه قد سقطوا قتلى في الحملات المتعاقبة لاستعادة بغداد ، وها ان الفرصة قد حانت للانتقام (١٥٥) . وفي خلال هذا الحديث ، قدم احد مشايخ بغداد وهو يفتاد رجلين من الفرس مربوطين بالسلاسل ، قد غضب مراد ووجه كلامه الي الشيخ متسائلا « لقد اصدرت الامان فلماذا تأسرهم ؟ » فاجاب الشيخ بان هؤلاء قد رفضوا الامان الممنوح لهم وحملوا السلاح (١٥٦) . ولدى سماع السلطان لهذا القول ، ارسل احد خدمه التتار على فرسه لاستطلاع الحالة في بغداد واعلامه بالموقف ، ولم يلبث الوصيف ان عاد يخبره بان انغرس عند الباب المظلم يناقون باستماتة ، وان عددا من الباشوات قتلوا او جرحوا (١٥٧) . وهنا استدعى السلطان حسين باشا بكربك الروملي ، وامره باجراء قتل عام اذا واصل الفرس المقاومة (١٥٨) .

السلحدارية والسباهية متوجهها الي خيمة السلطان ، الذي كان جالسا على كرسي من الذهب ، معتمرا شالا كشميريا على راسه معقود بابرة ذهبية مرصعة ، يحيط به الخدم متمنطقين الاحزمة المرصعة ، والى جانبه شيخ الاسلام والوزراء وسائر اركان الدولة . ان منظر الديوان هذا ، كان مجسما للآية الكريمة « انا فتحنا لك فتحا مبينا » (١٤٥) . اقتيد بكتاش خان الي الموضوع الذي جلس فيه مراد ، فقيل لرجل السلطان ملتصقا « الامان » فاجابه السلطان لذلك على ان يقوم باخلاء القلعة في نفس ذلك اليوم ، كما وجه اليه اللوم لعدم استسلامه قبل هذا الوقت ، الا انه اردف « لكنك قمت بواجب الخدمة لتبوعك جهد طاقتك ، فانت معذور » (١٤٦) ثم انعم عليه بخلمة وخنجر مرصع بالجواهر (١٤٧) . ثم انهى كلامه بالقول « على كل الخانات والقادة في القلعة الاستسلام ، وهم مخيرين في البقاء عندنا او بالذهاب الي الشاه » (١٤٨) .

وبناء على هذا توجه بكتاش خان الي خيمة الصدر الاعظم ، وهناك كتب رسائل الي كل من مير فتاح وبار علي وخلف وبقية الخانات والضباط الفرس طالبا منهم وجوب تسليم القلعة (١٤٩) . في الوقت نفسه اصدر الصدر الاعظم امره بتفتيش كافة الابراج التي استولى عليها الجيش العثماني خشية من وجود كمائن والغام . الا ان المدافعين رفضوا الانصياع فنشب القتال من جديد (١٥٠) .

(١٤٥) المصدر نفسه .

(١٤٦) المصدر نفسه ؛ الغزوي ، ص ٢٢٥ .

(١٤٧) Sahilloglu, op. cit., 28.

(١٤٨) هاممر ، ص ٢٥٧ .

(١٤٩) المصدر نفسه ؛ في نفس تلك الليلة وجد بكتاش خان ميتا ، وتختلف المصادر في توضيح ظروف ودوافع موته . ويكتفي الكاتب الذي رافق السلطان مراد في حملته على بغداد بقوله « في يوم الجمعة مات بكتاش خان فجأة » (Sahilloglu, op. cit., p. 29)

ومن هذا الراي لونغريك « مات بكتاش خان ممسما بصورة مفاجأة » Longrigg, op. cit., p. 73

ويتهم هامر زوجة بكتاش خان بانها هي التي سمعته « لانها رفضت مرافقته الي الاستانة ، وقد سلمت اقلتلة مع خزنتها الي والدعا لور حسين خان حاكم مندلي » (هاممر ، ص ٢٥٩) ويتفق صاحب كلسن خلفا وكوك على ان بكتاش خان « انتحر متائرا بالغم الذي اصابه من انطلال قواته » (كلسن خلفا ، ص ٢٢٣ ؛ Coke, op. cit., p. 208)

(١٥٠) هاممر ، ص ٢٥٧ .

(١٥١) المصدر نفسه .

Sahilloglu, op. cit., p. 29.

(١٥٢)

(١٥٣) هاممر ، ص ٢٥٧ .

(١٥٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .

(١٥٥) المصدر نفسه .

(١٥٦) المصدر نفسه .

Lamartine, op. cit., p. 267.

(١٥٧)

(١٥٨) هاممر ، ص ٢٥٨ .

ب ٣٤٠٠٠ مقاتل يقول (١٦٧) « من غير المؤكد نجاة
عشر معشارهم ». اما منجم باشي فيتقارب مع
بجوى في تقديراته ، حيث يذكر انه من مجموع
ال ٣٠٠٠٠ محارب من الفرس نجوا ٣٠٠٠ جريح
فقط « وصلوا اشبه بالاموات الى جيش الشاه ،
وفيما عدا هؤلاء فان البقية ابيدوا » (١٦٨) . ويحدد
بشكل اكثر دقة تلك الارقام فيقول « قتل منهم في
ايام الحصار ١٠٠٠٠ رجل ، وبمسد الفتح ذبح
١٩٧٠٠ » (١٦٩) . اما هامر فيقول « من مجموع
٣٠٠٠٠ مقاتل فارسي دافعوا عن بغداد لم يصل
منهم الى جيش الشاه سوى ثلاثة آلاف رجل ، فقد
قتل منهم ١٢٠٠٠ في خلال معارك الحصار ، في
حين جرت عملية قتل عام للبقية يوم
التسليم » (١٧٠) . اما كوك فيورد رواية شاهد
عيان يظهر فيها المبالغة اذ يقول (١٧١) « كان في بغداد
واحد وثلاثين الفا من الجنود وعشرين الف منطوع
تم قتلهم جميعا بالسيف ، ولم ينج منهم اي فرد
ليحمل نبأ ذلك الى مدن فارس » . اما كل من
كاتمير وباربر فانهما يوردان روايتين فيهما مبالغة
في محاولة لاتصاق صفة الجزار بالسلطان فيقول
الاول (١٧٢) « مجموع ال ٣٠٠٠٠ فارسي الذين
سلموا انفسهم الى السلطان ، جرى ذبحهم جميعا
في حضرته حتى اُخسر رجل » . اما الثاني
فيقول (١٧٣) « امر مراد بمذحة عامة للحامية ونفذ
الامر في يوم واحد من الجازر ومن بين ال ٣٠٠٠٠
فارسي لم ينج سوى ٣٠٠ رجل فقط » . ولكن
اقرب الروايات الى المعقول ما اورده الكاتب الذي
رافق الحملة حيث يقول (١٧٤) : « لقد قتل من
الفرس اكثر من ٣٠٠٠٠ رجل » . وهو في هذا
يدمج عدد القتلى الذين قتلوا في الالتحامات باولئك
الذين تم اعدامهم بعد الاستيلاء على بغداد .

على اثر سيطرة القوات العثمانية على بغداد
والقضاء على المقاومة الفارسية ، صدرت الاوامر
بالمحافظة على حياة السكان المدنيين (١٧٥) ، « وعدم
نهب ممتلكاتهم ، وان كل من عثر على ماله بإمكانه

قام حسين باشا يرافقه السلحدار بانذار
اتقادة الفرس المستحكين في قلعة نارين بوجوب
الاستسلام . فاستجاب كل من مير فتاح وخلف
ويار علي لانذار واعلنوا استسلامهم ، فاقبدها
الى السلطان الذي عهد بهم الى السلحدار
لحجزهم ، في حين واصل ولدى مير فتاح
القتال (١٥٩) . وعند هذا وجهت المدفعية العثمانية
نيرانها الى القلعة فتساقط عدد من القزلباش قتلى
وتم أسر كثيرين منهم . جرى قتلهم امام خيمة
السلطان (١٦٠) . ولم يبق هناك خيار للباقيين من
الفرس فاعلنوا استسلامهم وعلى الاثر دخل
بكلربك الاناضول الى القلعة واخرج الموجودين
فيها (١٦١) . ادت تلك المضاعفات والملابسات التي
رافقت دخول بغداد الى ان تم الفوضى ، ولهذا
فلم يحفل الجنود العثمانيون باسر العدو « وبمسد
تعقب الفرس من زاوية الى اخرى » صدر امر نان
بالامان (١٦٢) .

في هذه الاثناء تمكن عدة مئات من الفرس (١٦٣)
من الهرب من الباب المظلم ووصلوا قرب نهر
ديالى ، الا ان القوات المصرية التي عهد اليها بمهمة
مطاردتهم ادركتهم وقتلت الكثيرين منهم في حين
لجأ قسم من هؤلاء الفارين الى داخل قبة كبيرة في
شهربان (١٦٤) ، ولكن انهيار تلك القبة ادى الى
هلاك اكثرهم (١٦٥) . اما الكاتب الذي رافق الحملة
فيورد رواية مغايرة لتلك حيث يذكر ان اثنين من
الخانات سلموا انفسهم ومعهم ثمانمائة قزلباشي ،
وقد اقتيد هذان الخانان الى حضرة السلطان في
حين سلم القزلباش الى بكلربك الروملي « وقد
جاء بهم هذا الى ديالى حيث اطلق سراهم
هناك » (١٦٦) .

تختلف الروايات في تحديد خسائر القوات
الفارسية ، فبجوى الذي حدد عدد افراد الحامية

- (١٥٩) المصدر نفسه .
(١٦٠) المصدر نفسه .
(١٦١) المصدر نفسه .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٦٣)

(١٦٣) بقدر لامرتين خطأ عدد هؤلاء الفارين ب ٣٠٠٠٠ رجل !
Lamartine, op. cit., p. 267.

(١٦٤) يقول الزاوي نقلا عن الفراهي ان عدد الذين لجأوا الى
القبة كان خمسة وعشرين شخصا فقط نجا واحد منهم
فقط . الزاوي ، ص ٢٢٠ .

(١٦٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، هامس ، ص
Lamartine, op. cit., p. 267. ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛

Sahilloğlu, op. cit., p. 23. (١٦٦)

(١٦٧) بجوى ، ص ٤٥١ .

(١٦٨) منجم باشي ، ص ٦٧٤ .

(١٦٩) المصدر نفسه .

(١٧٠) هامر ، ص ٢٥٩ .

Coke, op. cit., p. 210. (١٧١)

Cantemir, op. cit., p. 248. (١٧٢)

Barber, op. cit., p. 86. (١٧٣)

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٧٤)

هامر ، ص ٢٥٩ . (١٧٥)

هذا الحادث . يقول لامرتين « اصدر السلطان امره بان يقوم سكان بغداد بقتل اي فارسي قد يكون لاجنا في دورهم ، وتم اعدام ١٠٠٠ فارسي امامه على ضفة دجلة » (١٨٧) . اما نونكريك وباربر فيذكرون ان عدد الذين قتلوا في المذبحة التي اغتبت الانفجار بلغ ٣٠٠٠٠ شخص (١٨٧) ولكن يبدو بصورة عامة ، ان امر القتل قد شمل الرجال من الفرس ، سواء اكانوا من الجنود او من الذين اشتبه باشتراكهم بالقتال في خلال معارك الحصار ثم اعفى عنهم ، فالكتاب الذي رافق الحملة خص بالذکر . كما مر بنا قبل قليل ، القزلباش ، كما ان صاحب كلشن خلفا يقول بصدد حادثة الانفجار وما تلاها بانها « تدل على انقضاء عهد القزلباش وادبارهم وفعلا صدرت الاوامر بافنائهم ، سواء الذين يسكنون داخل المدينة ام خارجها ، عدا الذين لم يشتركوا في القتال فقد رحلوا من البلاد وانتشر المتادون بعنون العفو العام في البلدة » (١٨٨) .

اشرفت مهمة السلطان على نهايتها ، واستعد لمغادرة بغداد بعد ان امر الصدر الاعظم بانجاز المهمات التي بدأها هو ، وبخاصة اعادة بناء الاسوار والاستحكامات وتعمير مرقد سيدي الامام الاعظم واكيلاني (١٨٩) . وفي ١٢ رمضان غادر المدينة ، ولدى مغادرته تم اغلاق باب الطلسم (١٩٠) . ومن امام مقام الامام موسى الكاظم بدأت مسيرة العودة نحو العاصمة (١٩١) . وفي خلال ذلك وجه مسراد تحديا مهينا للشاه قال فيه « نو كنت رجلا لظهرت نفسك . ذلك انه من ينتحل العرش لنفسه لا يجدر به ان يظل متواريا وراء الجدران ، فانذي يخاف من الحصان لا يجب ان يمتطيه ، والذي يهمره وهج الفولاذ ان لا يقرب السيف ، فما كتب منذ الازل لابد وان يتحقق » (١٩٢) .

عودة السلطان الى استانبول

استغرقت رحلة العودة للسلطان حوالي

Lamartine, op. cit., pp. 267-8. (١٨٦)

Longrigg, op. cit., p. 74; Barber, op. cit., p. 86. (١٨٧)

(١٨٨) كلشن خلفا ، ص ٢٢٤ .

(١٨٩) المصدر نفسه ؛ العزاوي ، ص ٢٢٤ .

:Cantemir, op. cit., p. 249

Creasy, op. cit., p. 256.

Duri, op. cit., p. 904. (١٩٠)

Sahilloğlu, op. cit. p. 29. (١٩١)

Quoted in : Lamartine, op. cit., p. 268. (١٩٢)

استعادته « (١٧٦) وعقد السلطان مراد بعد الفتح ديوانا عاما اعم فيه على شيخ الاسلام والوزراء والقادة ، الذين ابدوا بسالة في القتال ، ثم توجه بعد ذلك الى مقام الامام الاعظم لاداء الزيارة المنتظرة (١٧٧) . وارسلت بشارة الفتح الى استانبول بيد خليل اغا (١٧٨) .

قام مراد الرابع بعد انجاز الفتح باتخاذ الترتيبات المنتظمة لتنظيم ادارة بغداد ، فعين كجك حسن ، اغا الانكشارية واليا على بغداد (١٧٩) ، كما قرر ترك حامية مؤلفة من ٨٠٠٠ جندي للمحافظة على بغداد ، وعين على قيادتها بكتاش اغا . كتحذا الانكشارية ، كما عين سنحدار باشا بمنصب الشوبان (١٨٠) ، اما منصب قاضي بغداد فقد عهد به الى تذكرهجي موسى افندي (١٨١) .

قبل انجاز الاستعدادات الاخيرة لمغادرة بغداد ، قام السلطان وكافة اركان الدولة المرافقين له ، بزيارة مرقد الامام موسى الكاظم ، في يوم الجمعة المصادف التاسع من رمضان (١٨٢) . وفي ذلك اليوم حدث انفجار في « بارود خانة » (١٨٣) بغداد . ادى الى مقتل عدد من الافراد (١٨٤) مما اغضب السلطان ، فاصدر امره بقتل « اليقية الباقية من انقزلباش » (١٨٥) . وهناك خلاف في المصادر حول تحديد عدد الذين تم قتلهم نتيجة

(١٧٦) العزاوي ، ص ٢٢٠ .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٧٧)

(١٧٨) هاممر ، ص ٢٥٩ .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٧٩)

Longrigg, op. cit., p. 73. (١٨٠)

اما لامرتين فيقدر عدد افراد الحامية التي تركها السلطان في بغداد ب ١٠٠٠٠ رجل

(Lamartine, op. cit., p. 268)

في حين ان العزاوي يذكر ان عدد القسوات التي كلفت بحماية بغداد بعد ان غادرها السلطان هي ١٢٠٠٠ من الجيش البغدادي و ٨٠٠٠ انكشاري و ١٠٠٠٠ سباهي (العزاوي ، ص ٢٢٦) .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٨١)

Loc. cit. (١٨٢)

(١٨٣) Barudlâna وهي كلمة تركية تعني مخازن البارود .

انظر : Gibb and Bowen, op. cit., p. 68.

(١٨٤) بلغ عدد القتلى والجرحى من الانكشارية ٨٠٠٠ وجس

(Greasy, op. cit., p. 256)

(١٨٥) Sahilloğlu, op. cit., p. 29. ويخطئ كولد

بذكره ان الانفجار حدث في اليوم الاول من دخول القوات العثمانية الى بغداد . انظر :

Coke, op. cit., p. 208

ثمانين يوما وقسمت الرحلة الى خمس وستين مرحلة ابتدأت من امام مقام الكاظم في ١٢ رمضان وانتهت بدخول السلطان اسكدار في الخامس من صفر ١١٩٢ . وقد سلك السلطان في مسيرة العوده طريقا غير الطريق الذي قدم منه . ويبدو ان الغاية من ذلك اكمال تفقد مقاطعات الدولة وتنظيم امور المناطق التي نحر منها . كانت اهم المناطق التي مر بها والقوات المرافقة له : سميكة - تكريت - حمام العليل - الموصل - نصيبين - ماردين - ديار بكر - ملطية - سيواس - انقرة - اسكدار (١١٩٤) .

معاهدة زهاب ١٧ مايس ١٦٣٩

ذكرنا ان الصدر الاعظم . وبناء على تعليمات السلطان مراد الرابع . تخلف في بغداد لانجاز المهمات التي بدأها المعاهد العثماني . وقد امضى مصطفى باشا قرابة اشهرين في بغداد وجه خلالها اهتماما خاصا لاعادة بناء التحصينات وتحديد عدد القوات المناسبة للمحافظة على المدينة خشية من محاربة قد يفكر بها الفرس تمهيدا على بغداد « وبذلت الجهود لبناء المنازل والاسواق واعاده زرع البساتين وتشجيع كل اولئك الذين غادروها . ابان الحكم الفارسي . على العوده اليها » (٢٠٢) . ولم يكتف مصطفى باشا بذلك بل قرر استثمار النصر وتأمين المناطق المحيطة ببغداد ، نزولا عند وصية السلطان له « بان يكون متيقظا وان يتخذ الاحتياطات الضرورية » (٢٠٤) . تحرك الصدر الاعظم على رأس قواته . في اوائل شهر ذي القعدة : متجها نحو الشرق بهدف الدخول في المناطق الفارسية ، ولكن التطورات التي اعقبت تحرك الجيش العثماني . وقبل ان يتوغل مسافة واسعة في المناطق التابعة للصوفيين ، قادت بالنهاية الى عقد معاهدة صلح بين الطرفين في (زهاب ، الواقعة شمال ايران - في ١٤ محرم ١٠٤٩ هـ / ١٧ مايس ١٦٣٩ . وفيما يلي اهم ما جاء في تلك المعاهدة الشهيرة (٢٠٥) : « معاهدة السلم والحدود بين الامبراطورية العثمانية وايران ١٧ مايس ١٦٣٩ » (اعيد اقرارها في ٤ ايلول ١٧٤٦ ، ٢٨ تموز ١٨٢٣ ، و ٣١ مايس ١٨٤٧) .

تبدأ آيات قرآنية عن مزايا السلام وكرهية الحرب . ثم يسجل الصدر الاعظم بانه مخول

قيل ان يدخل العاصمة ، كان مصمما على ان يحتفل بانتصاره « بدرجة سيظل السكان يذكرونها ابدا » ولهذا . وحينما كان على بعد ايام قليلة من استانبول ارسل تعليماته باعداد الاستقبال حملها الحمام الزاجل (١١٩٥) .

دخل مراد الرابع استانبول في يوم ١٠ حزيران ١٦٣٩/١١٩١ . بموكب حافل ظلت ذكرا عالقة بالاذهان . لا بسبب روعته واهمية الانتصار العسكري الذي احرزه الجيش العثماني فحسب ، بل لكونه كان آخر مشهد قلدر فيه لعاصمة الامبراطورية ان ترى عائلها وهو مكلل بالنصر (١١٩٧) . ويصف مؤرخ عثماني شهد المنظر فيقول (١١٩٨) « انه منظر يقف اللسان عاجزا عن الاخبار عنه ويعجز اي قلم عن وصفه . كانت الشرفات واسطح المنازل تغدس بالناس وهم يهتفون بحماس كبير : ليكن الله الرحيم معك يا ايها الفاتح ، مرحبا مراد . لتكن انتصاراتك مباركة » . وكان مراد برندي درعا من الفولاذ الصقيل المذهب ويغطي كتفيه جلد الفهد ويمتطي حصانا حربيا رائعا متبوعا بسبعة خيول عربية ذات سروج مرصعة بالجواهر (١١٩٩) . ويسير الى جانبه اثنان وعشرون من كبار النبلاء الفرس على اقدامهم وهم مقيدون بسلاسل مذهبة (٢٠٠) في حين كانت الابواق والصنوج تعزف في مقدمة الموكب ، وهو : في مروره ، ينظر بفخر الى كلا الجانبين « كالاسد الذي نال بغيته ، محييا

Sahilluglu, op. cit., pp. 29-35. (١٩٢)
Ibid. : للمزيد من التفاصيل (١٩٤)
Barber, op. cit., p. 86. (١٩٥)
Eton, op. cit., p. 178. (١٩٦)
Creasy, op. cit., p. 256; Barber, op. cit., p. 87. (١٩٧)
Creasy, op. cit., p. 256. (١٩٨)
Loc. cit.; Barber, op. cit., p. 86. (١٩٩)
Ibid., pp. 86-7. (٢٠٠)

Creasy, op. cit., p. 256. (٢.١)
Loc. cit. (٢.٢)
Coke, op. cit., p. 210. (٢.٣)
(٢.٤) مكشّن خلفا ، ص ٢٢٥ .
(٢.٥) للنص الكامل للمعاهدة تراجع :

J C Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East (New York, rep., 1958), vol. I, pp. 21-3.

سكون من ممتلكاته ايضا السهول الواقعة بين مندلي ودرتلك ، في حين تبقى الجبال تحت سلطة انشاء . وتشكل سريميل Serminil الحدود بين درتلك وديراني . وذلك الجزء من منطقة هاروني Haronia الذي تقطن فيه قبائل الجاف وضياء الدين Zilja Uddin ستكون للسلطان ، في حين تبقى Pezai و Zerdony تابعة للشاه . اما قلعة زنجير Zindjir والتي تقوم على قمة الجبل فيجب ان يتم هدمها ، وتكون في حوزة السلطان كل القرى الواقعة غربها . اما القرى الواقعة الى الشرق منها فانها ستكون من ممتلكات الشاه كالقرى الواقعة على الجبل فوق سالم قلعة Sailm Calé بالقرب من شهرزور في حين ان اقربى الواقعة الى الشرق تكون من ممتلكات انشاء . الذي سيحفظ بالاضافة اليها بقلعة اورمان Oman مع القرى التي تمتد على تلك القلعة . ويعتبر المر الضيق (الشعب) الودي الى شهرزور ، خط حدود . وتظل في حوزة السلطان قلعة قزلجة Kizilidji مع توابعها في حين تكون من ممتلكات الشاه منطقتة مهربان Mihreban وتوابعها . وعلى الطرفين القيام بهدم قلاع قوتور Kotur و Cotour وماكو Makoo على حدود وان وقلعة مغازبرد Magazberd باتجاه قارص وان . ويتعهد الشاه بعدم التحرش والتعرض بقلع أخخة Akiskha وقارص وشهرزور وبغداد والبصرة والاماكن الاخرى الواقعة ضمن الحدود ، مثل الحصون والقلاع والمقاطعات والاراضي والتلال والجبال وبعدم تشجيع حركات التمرد في هذه الاماكن . ومن جانبه ، فان جلالة عاهلنا المجلد سيحترم السلام وسوف لن يتحرض او يتعرض بما يناقض المعاهدة في الاماكن التي تقع ضمن حدود الطرف الآخر . وبناء على ذلك ، ومن اجل حرية وسلامة التجار والمسافرين التابعين لكلا الجانبين ، فاني ، وبقوة ما امتلكه من صلاحية كاملة وسلطة ، كتبت هذه المعاهدة الاولية ذات المحتوى الصادق ، وارسلتها الى جلالة الشاه والى عاهلنا العظيم المجلد . وطالما حافظ الشاه على التزامه بهذه

بصلاحية كاملة من قبل السلطان « حامي العقيدة ... وظل الله في الارض ... حامي الاسلام والمسلمين وخادم الحرمين الشريفين » في اقرار ما يراه من حرب او سلام . لقد امرت القوات العثمانية المظفرة بالزحف من وراء بغداد ، وبدات بالتوجه اماما بهدف الدخول في المناطق الفارسية ، وحين وصولنا الى الموقع المدعو هاروني Haronia وصل اليها المحترم شمس الدين محمد قولي بك Cams Uddin Mehemed Culy Bey وهو مخول بصلاحيات سفير ويحمل رسالة من الشاه المجلد الذي عظمته مساوية لتلك التي لنداروبوس ... اللؤلؤة الثمينة في بحر الملكية وشمس سماء السيادة ، النسر النبيل في ميدان النبل ... عسى الله ان يعلي رايات قوته من الارض الى السماء » الى ملكنا العظيم ورسالة اخرى لي . وقد طلب السفير ان نعمل على اطفاء نيران الحرب ، وانا بدوري ولرغبتني في تطبيق ما جاء في كتاب الله العزيز « فان جنحوا للسلم فاجنح لها » وافقت من اجل سلامة الجنس البشري على احوال السلام ، وارسلت رسالة الى الشاه طالبا منه ان يرسل شخصا مخولا بصلاحية مطلقة لتحقيق شروط السلام بطريقة مشرفة لكلا الحكومتين . ونتيجة لذلك ، فقد عين الشاه المحترم صاروخان Saroukhan عاهدا له بصلاحية التفاوض لعقد المعاهدة .

وحين وصول صاروخان الى المعسكر الامبراطوري في (زهاب) استقبل بالترحاب . وفي اليوم الرابع عشر من محرم من سنة ١٠٤٩ للهجرة ، عقد اجتماع في المعسكر الامبراطوري حضره الوزراء والميري ميران Miri Miran (٢٠٦) والقادة والاغوات ، اغا الانتشارية وستة اغوات لسته سرايا وضباط آخرون من الجيش . وقدم صاروخان والسفير محمد قولي بك الى الديوان ، وجرت مناقشة المقترحات التمهيدية معهم لوضع الاساس للعلاقات بين الطرفين . وقد جرت كتابة نتيجة المناقشات التي تمت بين الجانبين كما يأتي :

« جسان Tzanan بكرة ، مندلي ، درتلك Dertenk درنة Dernaي التابعة لباشوية بغداد ستظل تحت سلطة عاهلنا المهيب ، والذي

(٢٠٦) مير ميران كلمة عربية متراكمة تقابل اليكليك ، والكلمة « اميري اميران Emiri Emiran » هي تكييف فارسي للكلمة العربية « امير الامراء » . انظر :

Gibb an: D Bowen, op. cit., p. 139 and fn. 1.

وهي اكمل المعاهدات التي عقدت بينهما حتى ذلك الوقت ، كما انها رسمت حدودا معلومة بين الدولتين ولا سيما المناطق التي كانت مسرحا للنزاع بينهما(٢٠٨) . وقد ظلت تلك الحدود ، على الرغم من عدم دقة رسمها ، غير متغيرة « فيما عدا استثناءات قليلة » لاكثر من قرنين من الزمن(٢٠٩) . وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، وحينما عملت لجان مشتركة على تعيين الحدود بدقة كاملة ، شكلت معاهدة (زهاب) هذه ، نقطة الارتكاز(٢١٠) .

(٢٠٨) الضابط ، ص ٢٤ .
Hurewitz, op. cit., p. 21. (٢٠٩)
Loc. cit (٢١٠)

المعاهدة فان صاحب الجلالة عاهلنا البجسل من جانبه سيتصرف وفق الامر الالهي « اوفوا بالمعهد ان المعهد كان مسؤولا » .

هذا السلام السعيد سيستمر ويحافظ عليه بمشيئة الله ، الى يوم الدين .
الحمد لله الواحد الاحد والسلام على من لا نبي بعده اولا وآخر .

ختم

مصطفى ، الصدر الاعظم(٢٠٧)

تحفل هذه المعاهدة اهمية خاصة في تاريخ العلاقات بين الدولتين ، العثمانية والفارسية ،

Hurewitz, op. cit., pp. 21-3. (٢٠٧)

٢ - المصادر الاجنبية

- (1) Barber, Noel; The Lords of the Golden Horn (London, 1974).
- (2) Cantemir, Demetrius; The History of the Growth and Decay of the Ottoman Empire, trans. from the Latin by N. Tindal (London, 1734), vol. I.
- (3) Coke, Richard; Baghdad the City of Peace (London, 1927).
- (4) Creasy, Edward S.; History of the Ottoman Turks (Beirut, rep., 1961).
- (5) Dury, A. A., 'Baghdad', in : The Encyclopaedia of Islam, new edition (Leiden, 1960), vol. I.
- (6) Eton, W; A Survey of the Turkish Empire (London, 1799).
- (7) Gibb, H. A. R. and Bowen, H.; Islamic Society and the West (Oxford, 1969), vol. I.
- (8) Hurewitz; J. C., Diplomacy in the Near and Middle East (New York, rep., 1958), vol. I.
- (9) Lamartine, A. De; History of Turkey, trans. from the French (New York, 1857), vol. III.
- (10) Lane-Pool, Stanley; Turkey (London, 5th imp., 1908).
- (11) Longrigg, S. H.; Four Centuries of Modern Iraq (Beirut, new imp., 1968).

مصادر ومراجع البحث

١ - المصادر التركية

- Sahilloğlu, Halil, Dördüncü Muradin Bagdat Seferi Menzilnamesi (Belgeler-C. 11-1965-Sayi-3-4).
- (٢) فائق ، سيد ، تاريخ بجوى (استانبول ، مطبعة عامرة ، بدون تاريخ) ج ٢ .
 - (٣) منجم باتي ، تاريخي (مطبعة عامرة ، استانبول ١٢٨٥هـ/١٨٦٨) ج ٣ .
 - (٤) هاممر ، دولت عثمانية تاريخي ، مترجمي محمد عطا (اوفاف اسلامية مطبعة سي ، ١٣٣٥هـ) ، مجلد ٩ .

٢ - المصادر العربية

- (١) تافرييه ، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرييه ، ترجمة بشر فرنسيس وكوركيس عواد ، (بغداد ، ١٩٤٤) .
- (٢) سرهنك ، المير الای اسماعيل ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، (القاهرة ١٣١٤هـ) ، ج ٢ .
- (٣) الضابط ، شاعر صابر ، العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، (بغداد ، ١٩٦٦) .
- (٤) القهواني ، حسين محمد ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٣٤ - ١٦٢٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ١٩٧٥ .
- (٥) الغزاوي ، عباس ، العراق بين احتلالين (بغداد ، ١٩٤٩) ، ج ٤ .

حَمَلَةُ نَادِ شِالَةَ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

بقلم الدكتور

علاء موسى كاظمي

كلية الآداب / جامعة بغداد

والاقتصادية خلال مختلف العصور ، فقد دار صراع متواصل بين الفرس والعثمانيين للاستيلاء عليه . ولم يته الفتح العثماني للعراق سنة ١٥٣٤م هذا الصراع ، فالعراق عاد الى السقوط مرة اخرى بعد ذلك في يد الصفويين (٥) . ولكن اذا كان العثمانيون قد حاولوا اكثر من مرة استرداد بغداد وفشلوا ، الا ان ذلك ما كان ليحول دون معاودة الكرة ، وبغوة اكبر ، اذا تولى العرش سلطان قوي مشل مراد ارباب آخر السلاطين العثمانيين انقائين . فقد قام بحملة شاملة على بلاد فارس واسترد العراق في سنة ١٦٢٨م (٦) ؛ بعد احتلال فارسي دام خمسة عشر عاما (١٦٢٢ - ١٦٢٨) . ودارت من بعد مفاوضات ادت الى عقد معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩م (٧) ، والتي اصبحت نصوصها اساساً لجميع المعاهدات التالية ، بل كان لها شأن خطير في تحديد العلاقات بين الدولتين العثمانية والفارسية حتى القرن العشرين .

غير ان اطماع الدولة الفارسية التوسعية لم تحل دونها اية معاهدة ، واذا قدر لهذا الصلح ان يدوم فترة طولها ثمانون عاماً . دون ان يعكسه

كانت العلاقات العثمانية الفارسية ذات طابع خاص محلي ودولي منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي . فقد ادى ظهور الدولة الصفوية في بلاد فارس ، الى احداث انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية فتوقف زحفها في اوربا او كاد واتجهت اتجاهها شرقياً في قلب الشرق العربي (١) . وذلك للوقوف بوجه الصفويين الذين كانوا معهم على طرفي نقيض ، والذين اخذت قوتهم تماظم بسرعة واصبحوا يهددون الدولة العثمانية بعد ان امتدت سيطرتهم الى هراة شرقاً وديار بكر وبغداد غرباً (٢) .

وكن ، كما واجه الساسانيون والفرنجيون من قبلهم البيزنطيين والرومان فقد وجد انصفويون ان عليهم ان يتحملوا تبعاً تحدي سلطنة الاتراك العثمانيين (٣) ، خاصة وانه لم يبق الدولة الاق قوينلو الحاجزة بينهما اي وجود بعد سقوطها سنة ١٥٠٨م (٤) .

ولما كان العراق مركز الجاذبية السياسية

- (١) محمد اتيس ، الدولة العثمانية والشرق المصري ، القاهرة ٢ ، ص ١٠٠ .
 - (٢) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٧٣ ؛ خليل ادهم ، دول اسلامية ، استانبول ١٢٤٥ ، ص ١١٣ .
 - (٣) فيليب حتي ، موجز تاريخ الشرق الادنى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٧٢ .
 - (٤) ستيفن لوتريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ط ٤ ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٢٢ .
- وكان الشاه اسماعيل الصفوي قد استطاع في سنة ١٥٠٨م ان ينتزع بغداد من سيطرة القبيلة التركمانية الاق قوينلو التي حكمت العراق منذ سنة ١٢٦٨م .

- (٥) سقطت بغداد ثانية بايدي الفرس سنة ١٦٢٢م في عهد الشاه عباس الكبير .
- (٦) مرتضى نظمي زادة ، كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، النجف ١٩٧١ ، ص ٢٢ ؛ احمد بن لطف الله منجم باشي ، صحائف الاخبار ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .
- (٧) انظر نصوص المعاهدة في : تاريخ نيمعا ، ج ٢ ، ص ٤٣ . ؛ معاهدات عمومية مجموعة سي ، ج ٢ ، ص ٢١٠ - ٢١٢ ؛ شاكرا الضابط ، العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، ص ٢٢ - ٢٦ .

العراق ، واستخدموا في سبيل ذلك كل ما في جعبتهم من اسلحة . ثم غزت قواتهم العراق تحت قيادة نادر شاه في سنة ١٧٣٢م ، وهي تعتبر آخر محاولاتهم الخطيرة للاستيلاء عليه ، وكادت بغداد ان تسقط لولا صمودها وتصدي جماهيرها للقوات الغازية .

وكان نادر شاه قد بعث برسالة الى احمد باشا والي بغداد يتوعده فيها وينذره بأنه زاحف نحو بغداد لفتحها حيث خاطبه قائلاً : « ليكن معلوماً لديكم ، يا باشا بغداد ، اننا ساترون حالاً على رأس جيشنا لتنتسم هواء سهول بغداد العليل ، ولنستريح في ظل اسوارها » (١٢) .

وقد اسرع احمد باشا بتحصين مواقع الحدود في درنه ومنديلي وبدرة (١٣) ، وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين . ثم اصلى مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد ، وأخبر الباب العالي بسرعة ذنو الخطر (١٤) . وذكر في رسالة بعثها الى القسطنطينية ، بيد مبعوثه عثمان اغا الجوقدار « ... ليس لدينا جيش يعتمد عليه ، اتفقت كلمتنا ان نتخذ الحصار في بغداد ... نطلب الاهتمام للأمر واتخاذ العدة اللازمة من جميع جهاتها » (١٥) . وقد اسرعت الدولة العثمانية بأرسال نجدات كبيرة الى بغداد (١٦) .

اما نادر فقد اقترب بقواته التي تقدر بمئة الف مقاتل من الحدود العراقية ، وبدأ بمهاجمة المواقع التي قام احمد باشا بتعزيزها ، فاستطاع ان يحتل موقع زهاب بعد ان فاجأ القوات العثمانية

عبدالمعتمد محمد وابراهيم الشواربي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩٥ ؛

Lockhart, L.: The Fall of the Safavi Dynasty, Cambridge 1958, P. 307.

(١٢) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .
(١٣) محمد حسين قنوسي ، نادرشاه ، خراسان ١٣٢٩ ، ص ٢٢٩ .

(١٤) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ ؛ جعفر الطباط ، صور من تاريخ العراق ، ج ١ ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٢١ .

(١٥) عباس المزوي ، العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(١٦) السويدي ، حديقة الزوراء ، ق ٢ ، مخطوط ، ورقة ١١٧ ؛ التركوكلي ، دوحه الزوراء ، ترجمة موسى كالم نورس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢٩ .

قتال جدي بين الدولتين ، فان ذلك يمكن ان يعزى الى انشغال الدولة العثمانية بحروبها الاوربية (١٨) ، وانشغال الدولة الفارسية بمشاكلها الداخلية .

وينبغي ان نشير هنا الى ان بلاد فارس شهدت في اوائل القرن الثامن عشر ، تزايد انحلال الاسرة الصفوية ، وسيرها نحو الانهيار بخطى سريعة . وما رافق ذلك من موجات عاصفة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، استغرقت العقود الثلاثة من ذلك القرن ، ووصلت الى مداها بتمزق البلاد الفارسية على اثر سقوط الحكم الصفوي سنة ١٢٧٧م بعد الغزو الاجنبي الافغاني اولاً ، ومن ثم الروسي والعثماني (٩) .

غير ان الفرس بعد ان افاقوا من نكباتهم واستطاعوا اخراج كافة القوى الغازية من بلادهم ، اتر ظهور شخصية نادر شاه (١٠) على مسرح الاحداث في بلاد فارس ، وتزعمه المقاومة ضد الغزاة (١١) ، عادوا مرة اخرى الى التدخل في شؤون

(٨) كانت أبرز حروب الدولة العثمانية في هذه الفترة مع النمسا ، وقد انهزمت خلالها هزائم ساحقة . وفي سنة ١٦٩٩م انتهت الحرب بمعاهدة كارلوفتس ، والتي لم تعد الدولة العثمانية بعدها ذلك الخصم العنيد الذي كان يهدد أوروبا الغربية ، ولقدت أوروبا هي التي تهدد وحدة الامبراطورية العثمانية وتماسك اجزائها .

(٩) Sykes, P.: A History of Persia, Vol. II, London 1969, 183, 237;

صالح العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٥٢ .

(١٠) ولد نادر وترعرع في خراسان ، وكانت ولادته في الثاني والعشرين من تشرين الاول ١٦٨٨م (٦ محرم ١١٠٠هـ) ، وبدأ حياته رايعاً كاييه ، غير انه اختط سلم النجاح منذ دخوله في خدمة (بابا علي بيك احمدلو) الذي كان حاكماً لمدينة ابيورد ، وزعيماً لقيال الافشار فيها . وعند موت احمدلو - وبعض الروايات تهم نادر بتدبير قتله - اصبح نادر حاكماً على ابيورد ، وبدأ نجمه بالظهور على مسرح الاحداث . وفي السابع من تموز ١٧٢٢م (١٧ ربيع الاول ١١٤٥هـ) وقع نادر نفسه وصياً على العرش الفارسي وانتخب لقب (وكيل الشاه) وبعد حوالي اربعة سنوات توج شاهاً لبلاد فارس (٨ آذار ١٧٢٦م/٢٤ شوال ١١٤٨هـ) . للاطلاع على سيرة نادر شاه ، راجع :

Sykes, P.: op. cit., Vol. II, pp. 247-8; Encyclopaedia Britannica, (U.S.A. 1965), Vol. 15, P. 1146;

محمد حسين ميمندي ، حياة نادر شاه افشار

(١١) دونالد وليز ، ايران ماضيها وحاضرها ، ترجمة

الشرقي من بغداد ، وقد عسكر بالقرب من قسبة الامام الاعظم ابي حنيفة ، وعزم على العبور الى الجانب الايمن لنهر دجلة ، لتطويق بغداد من جميع جهاتها ، وكان احمد باشا والي بغداد قد قام بتحسين هذا الجانب ، لمنع اية محاولة فارسية للعبور(٢٥) . وفي العشرين من كانون الثاني ١٧٣٣م (شعبان ١١٤٥ هـ) ، احبطت اول محاولة لهم(٢٦) .

غير ان نادر استعان بمهندس اوروبي كان يرافقه في الحملة ، في انشاء جسر عائم من جذوع النخيل على بعد عدة اميال من شمالي بغداد ، وبعد الانتهاء منه ، تمكنت ثلة من القوات الفارسية تعدادها الفين وخمسمائة مقاتل ، يقودها نادر نفسه ، من العبور الى الجانب الايمن من نهر دجلة ، وذلك في الخامس عشر من شباط(الاول من رمضان ١١٤٥ هـ) ، ثم عبرت بالزوارق قوات اخرى تتألف من الف وخمسمائة مقاتل ، فتكون من ذلك رتل قوي زحف الى الكرخ(٢٧) ، فتصدت لهم القوات العثمانية بقيادة قره مصطفى باشا ، واسرع احمد باشا في ارسال تعزيزات كبيرة الى هناك(٢٨) . وقد جرت معركة عنيفة رجحت فيها كفة العثمانيين في اول الامر ، حتى خاف نادر على حياته ، الا ان نجدات فارسية عبرت بسرعة ، فتغير الموقف ، وانسحبت القوات العثمانية الى المدينة بعد ان تكبدت خسائر كبيرة(٢٩) .

واذ ذاك امر احمد باشا سكان جانب الكرخ بالانسحاب العام الى الجانب الايسر(٣٠) (الرصافة) ، ليكونوا في حماية سوره المنيع ، وقد صحب هذا الانتقال عبر دجلة أهوال ومصاعب كبيرة حيث يذكر الكركوكلي « وكانت السفن لا تكاد تكفي لنقلهم من جانب الى جانب ، ومن جراء الازدحام هلك خلق كثير من الناس ، بمن فيهم الشيوخ والمجانز والاطفال »(٣١) .

وقد خف نادر لاحتيال رأس الجسر في جانب

- (٢٥) السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ورقة ١١٧ و ١١٨ ؛ المصدر السابق ، صص ٢٢٩ - ٢٣٠ ؛ لوتوكريك ، المصدر السابق ، صص ٢٩-٣٠ .
- (٢٦) لوتوكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧١ .
- (٢٧) ميرزا مهدي خان ، المصدر السابق ، صص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٣١ .
- (٢٨) السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ورقة ١٢٠ ؛ الكركوكلي (٢٩) لوتوكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
- (٣٠) نفس المصدر .
- (٣١) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

هناك ، بمهاجمتها ليلاً من جهة غير متوقعة(١٧) . ثم بدا توغله في الأراضي العراقية ، وبدلاً من ان يتجه مباشرة الى بغداد تظاهر بأنه زاحف بجيشه نحو كركوك ، على أمل ان يخدع احمد باشا ويجعله يتحرك من بغداد للاقاته(١٨) .

وبالقرب من طوزخورماتو(١٩) ، توقف نادر شاه وارسل قسماً من قواته لغزو كركوك(٢٠) ، ولكن القوات الفارسية واجهت مقاومة شديدة فمعجزت عن احتلالها ، وعندئذ قامت بتدمير القرى المجاورة لها(٢١) . وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات فارسية تقدر بثمانية آلاف مقاتل يقودها (نرکز خان) تشن هجوماً على الموصل ، الا ان واليها حسين باشا الجلبي تمكن من صدها والحق الهزيمة بها ، فاضطرت الى التوقف بعد ان قتل قائدها نرکز خان ، والتحقت بالجيش الرئيس الذي كان قد اقترب في زحفه من بغداد(٢٢) .

وكان نادر قد واصل تقدمه من طوز خورماتو وتمكن من دحر القوات العثمانية المتواجدة بالقرب من شهرابان(٢٣) ، كما حاصر بعد عبوره نهر ديبالي من بهرز ، وصار على بعد عدة مراحل من بغداد ، فرقة استطلاع عثمانية كانت قد ارسلت للتصرف على حقيقة العدو ، فقتل واسر عدداً كبيراً من افرادها ، كما قتل قائدها محمد باشا حاكم كوي(٢٤) .

وفي اواخر كانون الاول ١٧٣٢م (رجب ١١٤٥ هـ) بدأ نادر بفرض حصاره على الجانب

- (١٧) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، تهران ١٣٣١ ، صص ١٩١ - ١٩٢ ؛ دوه نادره ، تهران ١٣٤١ ، صص ٤٧٣ ، لوتوكريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ .
- (١٨) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .
- (١٩) قرية تقع الى الشرق من الطريق المباشر المار من بغداد الى الموصل ، والى الشمال الغربي من كركوك .
- (٢٠) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، ص ١٩٢ .
- (٢١) صفحة منسية من تاريخ نادر شاه ، نبذة تاريخية كتبها احد نصاري كركوك المعاصرين لنادر ، ونشرها نرسي صايفان في مجلة لفة العرب ، الجزء الخامس ، السنة السابعة ، عايس ١٩٢٩ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .
- (٢٢) ياسين العمري ، غايه الرام ، ص ١٨٠ ؛ زبدة الآثار الجليلة بتحقيق عماد عبدالسلام ، النجف ١٩٧٢ ، ص ٨٨ ، سليمان صائغ ، تاريخ الموصل ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٣ ، ص ٢٧٤ . وما يبصر ذكره هنا انه لم ترد اية اشارة في المصادر الفارسية الى قيام القوات الفارسية بمهاجمته .
- (٢٣) ناحية تابعة للقضاء مركز بمقوبه في محافظة ديبالي ، وهي تبعد عن بغداد حوالي ١٠٨ كيلومتر .
- (٢٤) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، ص ١٩٤ ؛ قدوسي ص ١٧١ .

الكوخ(٢٢) ، وبعث قسماً من قواته لاحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة والرماحية(٢٣) .

وبعد أن احكم الفرس الحصار حول بغداد ، أصبح الموقف فيها حرجاً تاماً ، غير أن الفرس سرعان ما ادركوا ضعف مدفيعتهم ، حيث لم تتمكن من احداث ثغرات خطيرة في سور بغداد ، الذي كان محكماً . ولذا لم يكن امامهم غير الاستمرار في الحصار املاً في أن تستسلم لهم . ولجأ نادر الى الاساليب النفسية في محاولة للتأثير على معنويات جماهير بغداد ، فكان يرسل ارتالاً من جيشه بصورة خفية ليلاً الى اطراف بغداد ، ثم يعودون بوضوح النهار وكانهم نجدة قادمة الى الفرس(٢٤) .

والواقع ان الحالة داخل المدينة المحاصرة أصبحت مضطربة ، فقد كان الضيق آخذاً بالاستتداد ، حيث قلت الاقوات ، وبأس الناس من امل وصول الامدادات العسكرية من الباب العالي ، رغم أن احمد باشا والي بغداد كان يشرف بنفسه على شؤون الدفاع ومناوشة العدو ، وعلى ادامة المقاومة وبث الروح المعنوية لاطالة امد النبات والسمود ، حيث كانت تذاغ من وقت لآخر وابعاز منه ، اخبار تنبئ بغير وصول الامدادات(٢٥) . لكن وبلاط المجاعة أخذت شكلاً مروعاً في المدينة ، بحيث اكل الناس لحم الحمير والكلاب والقطط ، فانتشرت الوبئة بصورة هائلة ، وبلغت الحالة - كما يصفها الشيخ عبد الرحمن السويدي - أنه أثناء خروجه من مسجد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، بعد انقضاء صلاة الجمعة متجهاً نحو منزله ، شاهد في طريقه امرأة منكبة على جيفة حمار وبيدها سكين تقطع لحمه وتضعه في حجرها(٢٦) .

وفي هذه الاثناء ورد كتاب من معني الجيوش الفارسية الى علماء بغداد - بناء على أمر من نادر - يقول لهم فيه :

(٢٢) لوتكره ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٢٣) Hammer, J. : Histoire de L'Empire Ottoman, Vol. XIV (14), Paris 1839, P. 287.

وانظر : كامل باشا ، تاريخ سياسي دولت عليه عثمانى ج ٢ ، ص ١٤٥ ؛ فدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢١

(٢٤) لوتكره ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٢٥) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٢٦) السويدي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ١٢١ و ١٢٢ .

« اننا علمنا ما وصلت اليه الحالة بكم ، وعلمنا انكم تنقصكم الاقوات والساكر والعتاد ، وان الناس قد اهلكتهم المجاعة ، فانتم وحدكم المسئولون عنهم عند الله . قولوا لاحمد باشا ان لا يلقي الناس الى التهلكة عبثاً ، وان يستسلم فان ذلك أولى له من الدمار التام »(٢٧) .

فلما بلغ الباشا ذلك قال للعلماء اكتبوا له « انني لا اسلم حجراً من ا حجار بغداد حتى اقبّر في مكاني هذا ، وان ذخيرتنا كافية ومددنا كثيرة المدد متواصلة المدد ، ولم يكن توقفنا عن مناوشتكم في بعض الايام دون علة او حكمة ، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون »(٢٨) .

وفي اوائل حزيران ١٧٢٣م (محرم ١١٤٦هـ) وصل مدينة الموصل طوبال عثمان باشا الصدر الأعظم السابق ، على رأس جيش تعداده ثمانون ألفاً ، بعث به السلطان العثماني ل فك الحصار عن بغداد(٢٩) . وبعث طوبال برسالة الى والي بغداد يخبره فيها بأنه قادم لنجدته(٣٠) ، فاشتدت العزائم ، واستمات المحاصرون في الدفاع(٣١) .

وعندما تأكد نادر من صحة اقتراب القوات العثمانية ، اصدر أوامره بتشديد الحصار على بغداد(٣٢) ، وبعث كتاباً الى طوبال عثمان باشا ، الذي كان قد وصل في زحفه الى كركوك ، تمنى له رحلة سريعة نحو حتفه ، وعند اقترابه من سامراء تسلم كتاباً آخر من نادر يعلمه فيه بأنه جاهز للملاقاته في اي وقت ومكان يختاره هو . ثم زحف نادر على رأس قوة كبيرة مؤلفة من خمسين ألف مقاتل(٣٣) ، لجباية القوات القادمة قبل وصولها الى بغداد ، تاركا اثني عشر ألفاً من قواته لمواصلة حصار بغداد(٣٤) .

(٢٧) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢١ وانظر السويدي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ١٢٢ .

(٢٨) السويدي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ١٢٢ .

(٢٩) لوتكره ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛ Sykes, P. : op. cit., Vol. II, P. 251.

(٣٠) فدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

(٣١) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٣٢) نفس المصدر .

(٣٣) لوتكره ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛ فدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(٣٤) ابراهيم الفندي ، مصباح الساري ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛

وهكذا بعد قتال مرير دام تسع ساعات متواصلة ، انتهت المعركة بهزيمة تامة وساحقة للقوات الفارسية(٥١) ، وارسلت رسائل الظفر من ميدان الواقعة(٥٢) ، الى السلطان العثماني ، والى باشا بغداد(٥٣) .

ويمكن ان يعزى صمود العثمانيين الى شخصية قائدهم البطولية وبنائه في المعركة ، فقد كان خلالها « بوجه رجاله بحكمة كبيرة وعزم » على حد قول طبيبيه الفرنسي الخاص جان نيكوديم في رسالة له الى السفير الفرنسي في القسطنطينية الماركيز دي فيلنيوف مؤرخه في ١٠ آب ١٧٢٢ . ويستطرد الكاتب الفرنسي في وصفه لطوبال يوم المعركة قائلاً : « وبعد ان صلى ، امتطى سهوة جواده ، وهو عمل لم يقم به خلال الحملة ، اذ كان محمولاً على محفة بسبب اعتلال صحته ، ولا يمكن ان اعزو القوة التي اظهرها الآن الى شيء سوى روحه العسكرية ، والحماس المتأجج داخله . . . فقد رايتهم ممتطياً جواده كأنه في عنفوان الشباب ، قابضاً بيده على سيفه ، فكانت سيماه تبعث في الناظرين اليه الحماسة والنشاط ، وعيناه تتألقان حين يصدر اوامره بخفة مدهشة وفكر متيقظ »(٥٤) .

لقد انعكس النصر الذي احرزه طوبال عثمان باشا ، بغداد من السقوط بأيدي الفرس ، فقد هرب نادر جريحاً ومعه فلول قواته المنهزمة عن طريق بهرز باتجاه الاراضي الفارسية(٥٥) . وقام

(٥١) تاريخ صبحي ، ج١ ، ص ٩٧ ؛ ابراهيم الهندي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٢٠ ، احمد راسم ، عثمانلي تاريخي ، ج٢ ، ص ٢٨٦ ؛ لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

(٥٢) كان ميدان الواقعة عند قرية الدجيل على ضفاف دجلة ، على بعد (٦٢) كيلومتر الى الشمال من بغداد . انظر :

Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, P. 290.

(٥٣) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

(٥٤) انظر نص رسالة نيكوديم الى السفير الفرنسي في :

Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, PP. 514-528.

وفي الرسالة وصف مسبب لمعركة التاسع عشر من تموز ١٧٢٢م (٦ صفر ١١٢٦هـ) وانظر : لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ ؛

Creasy, E.: History of the Ottoman Turks, PP. 353-4.

(٥٥) ابراهيم الهندي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٢٠ ، احمد راسم ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٨٦ ؛

Shay, M.: The Ottoman Empire from 1720 to 1734, Urbana 1944, P. 144.

وعندما علم القائد العثماني طوبال بذلك عن طريق دوريات الجند الاستطلاعية ، التي كان يرسلها لمعرفة تحركات نادر العسكرية ، توقف عن المسير ، وعسكر على ضفاف دجلة بالقرب من سامراء ، وأمر ضباطه بالاستعداد للمواجهة(٥٥) .

وفي صباح اليوم التاسع عشر من تموز ١٧٢٢م (٦ صفر ١١٢٦هـ) ، التحمت ثلاثين القوتين(٥٦) ، في معركة كانت في ضراوتها واحدة من اشد المصارك التي خاضها العثمانيون والفرس(٥٧) ، وتمكنت قوات نادر في بدايتها من دحر خيالة العثمانيين ، الا ان تقدم قوة المشاة العثمانية ، اعاد التوازن الى المعركة(٥٨) . فشن الفرس هجوماً عنيفاً ارغم خط الدفاع العثماني على التقهقر ، وتم الاستيلاء على قسم كبير من مدنيته ، فاصبح موقف العثمانيين حرجاً ، ولكن طوبال عثمان باشا واجه الموقف الصعب برباطة جاش ، ورفض فكرة مستشاريه الذين اشاروا عليه بالتقهقر ، وزج بقواته الاحتياطية المؤلفه من عشرين الف مقاتل الى ساحة المعركة ، فاستطاعت الحد من الهجوم الفارسي ، واستعادت المدفعية التي فقدتها(٥٩) ، مما دفع نادر ان ينزل بنفسه الى قلب المعركة ، فسقط مرتين على الارض ، وهرب حامل لوائه من الميدان معتقداً ان نادر قد قتل ، وبلغ جنده درجة الايذاء من الحر والعطش ، فبالاضافة الى اشعة تموز المحرقة ، لم يكن بوسع الفرس الحصول على الماء لسيطرة العثمانيين على ضفاف دجلة ، فأضطر نادر الى الانسحاب من أرض المعركة ، بعد ان اضاع سيطرته على الفلول المتفرقة من جيشه(٥٠) .

كامل باشا ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٢٥ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ؛ الغزالي ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٢٤١ ؛ Sykes, P. : op. cit., Vol. II, P. 251.

اما لوتريك فيقول ان القوة التي تركها نادر لتدبير الحصار كانت موهلة من ثمانية آلاف مقاتل . (لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦) .

(٥٥) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٥٦) ابراهيم الهندي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٢٠ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤ ؛

Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, P. 290.

Malcolm, J.: The History of Persia, (١٧) Vol. II, London 1815, P. 57;

Sykes, P.: op. cit., Vol. II, P. 252. (١٨)

(١٩) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٥٠) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ؛ Malcolm, J.: op. cit., Vol. II, P. 57.

طوبال عثمان باشا ، وانتهاء حصار بغداد ، بفرح عظيم ، وامتدت الاحتفالات ثلاثة ايام بلياليها ، وانهاالت على طوبال الالقاب والتفويضات ، حيث انعم عليه السلطان محمود الاول بلقب (الغازي)(٥٩) .
وتفاخر الصدر الأعظم علي باشا حكيم اوغلو امام السفير الفرنسي في القسطنطينية الماركيز دي فيلنيوف Villeneuve بان طوبال عثمان جمع غنائم من الحرب تكفي لتحسين وتسليح مدينة جديدة(٦٠) .

(٥٩) احمد راسم ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٨٦ .
Shay, M.: op. cit. P. 144. (٦٠)

احمد باشا عند وصول انباء الانتصار ، بمهاجمة القوة الفارسية المرابطة عند اسوار بغداد ، فقتل معظم افرادها(٥٦) ، واستطاع الباقون الهرب الى بلاد فارس(٥٧) ، فتخلصت بغداد من الحصار الذي عانت منه الولايات طيلة سبعة شهور(٥٨) .

وقد استقبلت القسطنطينية اخبار انتصار

(٥٦) بيالغ لوتكرله حين يقول ان القوة الفارسية ابديت عن اخرها ولم يسلم منها انسان . (اربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ١٧٦) .

(٥٧) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .
(٥٨) السويدي ، المصدر السابق ، ق٢ ، ورقة ١٢٦ .



بغداد سنة ١٩١٧

ترجمة وتعليق الدكتور

محمد مظهر الأدهمي

الجامعة المستنصرية - بغداد

« ان على هؤلاء الذين يتكرون سحر هذه المدينة ان يقفوا على النهر من جهة الشمال وقت الغروب ليشاهدوا الامتداد الرشيق لجهة النهر حيث تصطف المساجد والمنارات ذات الاجر الازرق لتمسك بخيوط اشعة الشمس المائلة » .

“Edmond Candler

البريطانيين اليها ، تعيش انحسارا حضاريا تمتد جذوره الى سقوط الدولة العربية الاسلامية حينما احتل الغزاة المغول بغداد سنة ١٢٥٨م . لذلك فان الوصف الجميل الذي يعرضه كاندلر تحف به ، ولاشك ، بعض الجوانب السلبية التي كانت المدينة تعيشها ، الا ان هذه المظاهر السلبية تكشف في الوقت نفسه الفرق الحضاري بين ذلك الواقع وبين ما كانت عليه بغداد ؛ ايام ازدهارها زمن العباسيين وما هي عليه الان في تطورها الحضاري المعاصر . ومع ذلك فان التراث الحضاري تبقى اثاره قائمة في اي زمان ، ولا يمكن لاي شاهد ان يتغاضى عنه . وقد كان كاندلر امينا في وصفه لنا بغداد .

في فصله المتعلق ببغداد المسمى : “First Days in Baghdad” : الابام الاولى في بغداد ، والمنشور في الجزء الثاني من المذكرات ، يبدأ كاندلر بوصف احوال المدينة عند دخول القوات البريطانية المحتلة اليها بعد ان انسحب منها الاتراك دون قتال فيها . لقد انسحب الاتراك من بغداد في الساعة الثانية صباحا من يوم ١١ آذار وبقيت المدينة سائبة لمدة سبع ساعات الى ان دخلها المحتلون الجدد في الساعة التاسعة صباحا من اليوم نفسه من جهة الباب الشرقي في جانب الرصافة : -

ادموند كاندلر هو احد الذين رافقوا قوات الاحتلال البريطاني التي دخلت بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ ، وكتب مذكراته عن هذه الحملة في جزئين نشرهما عام ١٩١٩ في لندن . اطلق كاندلر على كتابه اسم “The Long Road to Baghdad” : الطريق الطويل الى بغداد - شاهد عيان في بلاد وادي الرافدين - قدم فيه عرضا كاملا للحملة على العراق منذ نزولها الى الفار ، كما انه قدم وصفا للمدن التي مر بها جيش الاحتلال ، فكان كتابه استعراضا جغرافيا اجتماعيا اكثر منه عرضا للعمليات العسكرية .

توقف كاندلر طويلا عند وصفه لبغداد ، ولم اجد احدا فيما اطلمت عليه من المؤلفات ، قد كتب عن بغداد عند دخول قوات الاحتلال البريطاني اليها مثلما كتبه كاندلر . لقد تعرض الى وصف ثلاثة جوانب رئيسة هي : -

- ١ - حالة العامة من الناس عند دخول القوات المحتلة ببغداد .
- ٢ - بغداد كما تركها الاتراك المنسحبون .
- ٣ - جمال البيوت والطبيعة .

ولكي اضع القارئ في الصورة لابد من التنويه الى ان بغداد كانت ، في فترة دخول المحتلين

يطلن من كل شباك من هذه الشبايك ، محجبات وغير محجبات . ان ذلك يعتمد على المحلة فيما ذا كانت مسلمة ام مسيحية او يهودية . ان نقوش الشبايك متاكلة ، اما الابواب فهي مرصعة بالمسامير يحمل كل باب منها مطرقة نحاسية جذابة . في الأزقة ، حيث يمكن للشخص ان يمس الحائطين المتقابلين للزقاق عند مد ذراعيه الى الجانبين ، تفتح بوابة الدار على ساحة عريضة مزروع في وسطها اشجار البرتقال والرمان . وكما في مدن الشرق القديمة فان مجازا ضيقا يفضي الى رحبة الدار هذه .

ان سطوح البيوت تقدم لنمغامر والمعاشق واللص طريقا تمتد اميالا طويلة ، اما الشبايك فان بإمكان روميو وجوليت ان يتحادثا منها بهمس « . يخرج بنا كاندلر من ازقة بغداد القديمة وبيوتها العريقة ليقدّم وصفا لحياة الشارع : -

« في المقاهي يجلس الناس مجتمعين منهمكين بأحاديثهم او في التفكير او يلعبون الطاولة والدومنة، كان هناك قليل من القهوة للشرب ، وكانت السيكاير شحيحة ، انه جمع كتيب . بعد ساعة من دخولنا لم يعد يبالي الناس بوجود الجيش المحتل . انني اذكر الاسواق التي كانت تمثل حياة المدينة ، لقد اصبح الان منظرها كئيبا : الدكاكين فارغة ومغلقة وقد خرب قسم منها . انها ستحتاج وقتا طويلا كي تمتلي بالبضائع ...

في هذه الطرق ذات الاقواس والسراديب : والتي ازدهمت بعربات النقل والقوات والاسلحة ، يشاهد الانسان الوانا غريبة : عجلات الجزء الامامي من مدفع زنة ٦٠ باوند هدمت سقف احد السراديب ونزلت فيه لتكشف عن رأس يهودي مفزوع ، فيما قد مسد بغل سرية مشاة فمه في صحن حلويات تحمله فتاة مهملة، بينما تشاهد في مكان اخر متسول فارسي سمين يقف على عتبة احد الدور يولول معبرا عن جوعه .

لقد نسي جنودنا تعب المطاردة الطويلة عندما دخلوا المدينة كان تراب بغداد مسكنا للام ارجننا لكنه لم يكن التراب السحري الذي صورته لهم قصة الليالي العربية الساحرة ، انها ليست مدينة هارون الرشيد التي سمعنا بها ، او نيوخذنصر الذي اردنا مشاهدته « .

كانت محطة القطار تقع في جانب الكرخ والذي كان حجمه صغيرا جدا قياسا بجانب الرصافة

« عند تقدمنا نحو بغداد سرنا في طريق لا اسم له ، باتجاه سدة مخربة تنتصب انار البسوبة الجنوبية . ثم درنا يسارا فوجدنا انفسنا قرب النهر بمواجهة طلائع البيوت الكبيرة على ضفة نهر دجلة . ان هذه البيوت تشكل مدخلا مفاجئا للمدينة . دخلنا المدينة وكان هناك جمع كبير من الناس على جانبي الطريق ... كانت الاسواق خالية تقريبا ، فقد صادر الاتراك المون والبضائع وكان اخر قطار تركي قد غادر بغداد في الصباح الباكر من يوم ١١ آذار . لقد قال احد التجار بانهم فقدوا ما قيمته مليونين فرنك من البضائع بين الساعة الثانية صباحا وبين ساعة دخولنا بغداد في التاسعة صباحا ...

عندما تقدمنا في المدينة شاهدنا العديد من اللصوص والسراق يحملون الشبايك والمناضد وهياكل اسرة النوم الثقيلة المصنوعة من الخشب او الحديد . كذلك المقاعد واسيجة الحدائق العامة لقد ازالوا كل شيء كان من السهل ازالته .

تقدمنا في شارع خليل باشا وهو الشارع العريض الوحيد في المدينة . لقد اطلق عليه اسم شارع هندنبرك بمناسبة سقوط الكوت - اندحار القوات البريطانية في حصار الكوت - انه ليس بشارع جميل او جذاب . لقد كانت عملية تطويره متقطعة واوقات اصلاحه متباعدة . التهديم موجود في كل مكان . ان الجدران والاعمدة ذات الاجر المقتت لا تزال منتصبة في الشارع .

لقد مررت ببغداد قبل تسعة عشر عاما ولم يكن هناك طريق للنقل في الجانب الايسر من النهر كانت هناك بعض الاماكن القليلة للجمال في بعض الشوارع ، كما كانت هناك الحمير البيضاء الصغيرة المتوفرة والتي لا يترفع الاغنياء عن الركوب عليها . اذكر انني ركب في عربة بطيئة تسحبها اربعة بغال من بغداد الى بابل والحلة وبرس نمرود « .

يتنقل كاندلر الى وصف محلات وبيوت بغداد والتي كان قد رآها - قبالا - منذ تسعة عشر عاما فيقول : -

« على جانبي شارع خليل باشا والذي يمتد داخل المدينة موازيا للنهر ، لم تتغير محلات المسلمين والمسيحيين واليهود ، ان الشوارع الضيقة لا تساعد على مرور حصان ، اما الشبايك المتقوسة الواسعة والتي تغطي عادة واجهات البيوت فهي على وشك ان يلتقي بعضها ببعض . كانت هناك نسوة

تنزل الى النهر . في المسافات الفاصلة بين هذه البيوت توجد معرات ، وفي بعض الحالات تخترق هذه المعرات اقواسا من تحت البيوت حيث تأخذ النساء الماء من النهر باوئمة نحاسية ذات انفاق طويلة محززة . وهناك البلام (*) ينتظر من يؤجره ، وكذلك السقائين . الذين يملؤن قربهم بالماء ليحملونها على ظهور حميرهم البيضاء .

ينتقل كاندلر بعد ذلك الى منطقة السراي في الرصافة فيقدم لنا وصفا دقيقا عما كان عليه السراي الحكومي عند دخول البريطانيين المحتلين اليه : -

« في النهاية الشمالية من المدينة يقع السراي المدني والعسكري ، وهو يغطي مساحة ربع ميل على جبهة النهر . وتقع فيه ثكنات الجنود المشاة ومحكمة العدل ومجلس الولاية وجميع المكاتب الحكومية للولاية العثمانية . توجد هنا مساحة واسعة لجميع القوات التي تحتاجها المدينة للحماية .

الابنية المحيطة بالساحة واسعة وقوية البناء . تتم عملية التهوية في السرداب او المكاتب التي تقع تحت الارض بواسطة فتحات ومدخل تمتد الى السطوح ان درجة الحرارة في السرداب اقل مما هي على سطح الارض بحوالي ٨ - ١٠ درجات ...

ان المرء يحتاج اياما عديدة لاستكشاف ما في بنايات السراي ، فهناك الشيء الكثير الذي يمكن معرفته من النفايات التي تركت في عاصمة تخلت عنها حكومة لم يكن لديها الوقت الكافي للفرار . كنا نفتش الدوائر الحكومية بعد ١٢ ساعة من انسحاب الاتراك . لقد وجدنا في كل غرفة تقريبا اشياء كان الاتراك حتما مترددين في تركها خلفهم لولا صعوبة النقل . لقد وجدنا في احدى الدوائر خرائط مسح وفي الاخرى قوائم بالمعادن التجارية . وفي غرفة ثالثة عثرنا على الحقايب الرسمية وبطاقات العضوية الخاصة ببلجنة الدفاع الوطني . اما اوراق قسم الارواء فقد كانت مبعثرة في ساحة تتوسطها حديقة برتقال ، في حين كانت الخرائط والخطط التي رسمها وليم ولكوكس معلقة على الحيطان او منشورة على الارض في احدى الغرف .

في قلعة السراي كانت اكاداس الاسلحة تنمو

* كلمة دخيلة وهي في العامية العراقية بمعنى صاحب الزورق او اللاح (الوورد)

- انظر الخارطة - لقد وصلت دوريات التفتيش البريطانية المحطة في الساعة ١٥:٥٥ من صباح يوم ١١ اذار ، اي قبل دخول الجيش المحتل بغداد من جانب الرصافة يقول كاندلر الذي عبر الى جانب الكرخ بعد احتلال الرصافة : -

« غادر اخر قطار بغداد في الساعة الثانية صباحا . لقد كان هناك اندفاع نحو دائرة الحجز المهجورة بحثا عن بطاقات سفر الى اسطنبول وبرلين . لقد وجد احد جنود الدورية بيان وقت مغادرة القطار . ان ضباط الـ Blak Watch سيضلون نادمين لانهم لم يحملوا معهم جرس المحطة للذكرى ... كانت محطة الاسلكي قد انجزت لتوها بتكاليف باهضة - في جانب الكرخ - وهي من التأسيسات الضخمة التي بناها الالمان ، وكانت على اتصال مباشر مع برلين . لقد فجر الاتراك جهاز الارسال في الصباح الباكر ليوم ١١ اذار وانهدم سطح المحطة ، كما كانت هناك حفرة عميقة في وسط الارض ، اما الرسالة فقد سقطت على الحيطان الجاورة ، كما فجروا احد السخانات الكبيرة ...

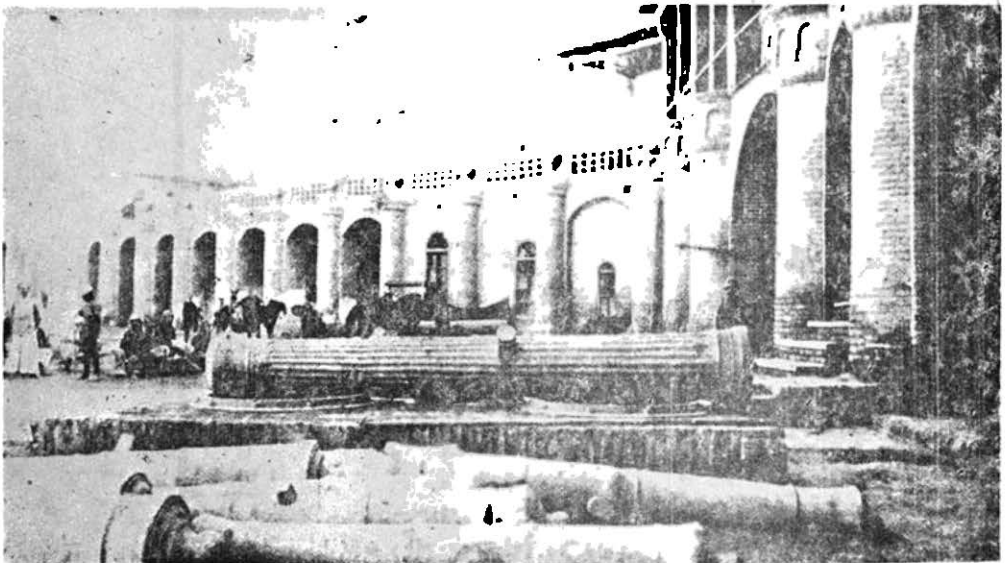
انها لراحة نفسية ان نغادر منظر الخراب العلمي ونعبر النهر مرة ثانية بواسطة (الكف) المدورة التي عرفت منذ زمن نبوخذ نصر في الساعة ٩:٣٠ من صباح يوم ١١ اذار عبرت ثلاث كتائب تابعة للواء ٣٥ من الجانب الايمن الى الجانب الايسر - من الرصافة الى الكرخ وبعد احتلال الرصافة بنصف ساعة - واقامت حامية هناك لقد كان على هذه الكتائب ان تعبر النهر بواسطة (الكف) لان جسر القوارب الخشبي نسف ودمر من قبل الاتراك . كما احتل الكاظمية لواء الفرسان » .

اقام كاندلر في فندق Hotel Tigris ، الذي يصفه بانه قد اقيم على طراز اوربي على النهر في جانب الرصافة ، ويذكر انه قد تناول عشاءه في الفندق مساء يوم ١١ اذار وقد سأله صاحب الفندق عن اسم قائد جيش الاحتلال فاخبره به ، وفي اليوم التالي اصبح اسم الفندق Hotel Moude ويبدو لي ان هذا الفندق هو فندق Tigris المعروف اليوم باسم قصر دجلة الذي يقع في شارع الرشيد على جبهة النهر والتي قدم كاندلر وصفا لها حيث قال : -

« لم يكن هناك طريق محاذ لجبهة النهر . لقد بنيت البيوت الرئيسية والتفصيليات مباشرة على النهر فوق ارضة متينة تشبه الحصون . ان معظم هذه البيوت لها حدائق صغيرة ذات ادراج حجرية



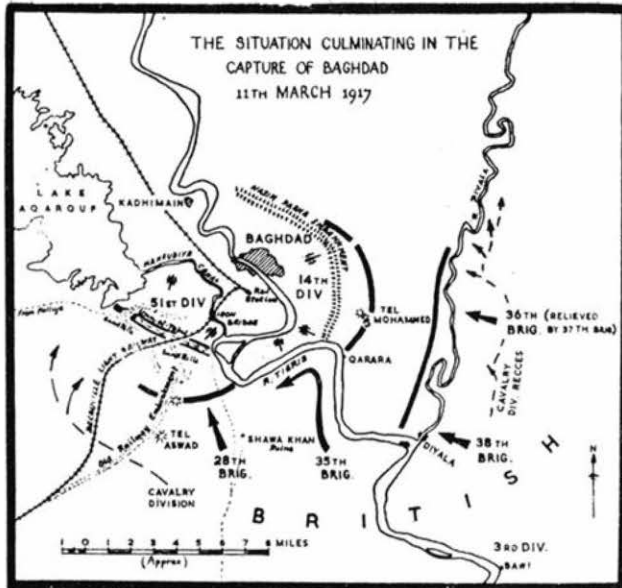
دخول القوات البريطانية بغداد



بنابة السراي في بغداد وقد تراكت فيها المدافع



الشارع الجديد في بغداد



بغداد عام ١٩١٧

ومحمول على تخت خشبي ، ولم يكن بالإمكان دفنه في هذا المكان الزدحم ، فكان اقرب مكان ممكن هو بستان النخل المترب المقابل للمقبرة حيث وقف التذاب المختص بولول ناثرا التراب الذي كان يتطاير نحونا . انه الشيء الوحيد الذي يبعج بالحياة في هذا المكان الميت . واكثرهم موتا زبيدة في قبرها - الشائع ان اسم قبر زوجة هارون الرشيد هو الست زبيدة في حين ان الاسم الصحيح هو زمرد خاتون - لقد ماتت معها رومانيتها واساطيرها ، وذبلت وجفت معها كل حيوية الإيحاء الرومانسي في هذه الايام الشديدة .

* * *

يقول كاندلر : ان هناك كثيرا من المسائل الانسانية التي تجلب الانتباه في بغداد ، اما بالنسبة لهؤلاء الذين يبحثون عن الاسود في هذه المدينة المريقة المهذمة الان والمليئة بالاوساخ فان من الصعب تصور شعورهم لان ما توقعوا مشاهدته لم يجدوه ، انهم سيصحون من اوهامهم حالا .

مكث كاندلر في بغداد الى نهاية مايس وقدمته ذلك من مشاركة البغداديين في النوم على السطوح:-
« في نهاية مايس كانت حرارة الصباح تحتل الا ان حرارة الشمس قد بدأت ترتفع . تمشيا مع عادة اهل البلاد ، فقد كنا ننام فوق السطوح . في اوائل نيسان كانت جميع سطوح المنازل مهجورة ، الا ان حلول شهر مايس قد دفع كل بغداداي ، رجل وامرأة وطفل ، الى الالتجاء الى السطوح للنوم . عندما يستيقظ المرء في الصباح ويلقي نظرة على سطوح المنازل فانه لا يرى غير بحر من الفرش واسرة النوم . ان افضل طريقة للنوم هي ان تلف سريرك ببرقع شفاف للتخلص من الذباب في الصباح ان الفقراء ينامون على دكة قوية وبلتون بالحاف . في الدار الصغيرة المجاورة لنا كانت تسكن ثلاثة عوائل لديهم ٢٨ طفلا ينامون في السطح على عشرة اسرة كبيرة مربعة تشبه المنابر الخشبية محاطة باسيجة لتمنع الصفار من السقوط . ان البحث عن الحشرات في الصباح يفترض ان النوم في تلك الليلة لم يكن مريحا . شاهدت على احد السطوح خروفا وفي سطح اخر ديك رومي بينما ينتصب بالقلق على

وترتفع مع استمرار تفتيش المدينة بيتا بيتا . لقد وجدنا الى جانب البنادق والسيوف والمسدسات كميات كبيرة من المعدات عديمة الفائدة من وجهة النظر العسكرية ، الا انها ثميرة للفضول . فهي تبدىء بخراطيش المدافع الفارغة القديمة والتي تعود لزمان السلطان مراد وتنتهي بالبنادق التي تركناها في الكوت في العام الماضي .

لقد نقشت على فوهات المدافع اشكال لجنود محاربين وحيوانات تتوسطها نقوش كتابية بالعربية والفارسية . « نصر من الله وفتح قريب » نقش تحمله احدى هذه المعدات الصلبة يعود تاريخه الى عام ١٥٤٦م . في مكان اخر « الشاه صفوي ملك النصر سيمحي اثر الاتراك . ان هذا المدفع ينفث النار ويقذف اللهب على الاتراك كالتنين » .

يتحول كاندلر الى مكان اخر من بغداد ليصف لنا المقابر في جانبي الرصافة والكرخ والاجزاء التي شعر بها عند ارتياده هذه المناطق :-

« ان اللون الوحيد الذي يمكن مشاهدته في بغداد وضواحيها هو اللون الازرق والذهب القديم اللذان يغطيان المساجد والمنارات ان هذه الفيسفاء البراقة تشكل تغييرا مريحا للاعصاب في بلد اختفت الوانه بسبب التراب الذي يغطي ارض وحيطان وسقوف البيوت ، اضافة الى ذرات الغبار الحارة التي تعوم فوق كل شيء .

كما هو معروف في المدن الاسلامية القديمة فان ابرز ظاهرة في ضواحيها هي المقابر . فسي داخل السدة التي تطوق المدينة -جانب الرصافة- تزدحم المقابر حيث تنتشر رائحة تعفن جافة . اما الطريق الواقعة خلف السدة والتي تعود الى ايران عبر الصحراء فان العلامة البارزة فيها هي الهياكل العظمية والعظام المتكدسة . ان كل علامات الطريق عبارة عن مساجد او قبور .

في الجانب الايسر - الكرخ - ترقد زوجة هارون الرشيد تحت منارة طويلة محززة الحافات وذات نهاية مستدقة ، انها تشبه شجرة التنوب المخروطية الشكل . ان التلة التي تمتد من الضريح الى الجامع تزدحم بالقبور لدرجة انه لا يوجد مكان لدفن جثة طفل عمره شهر واحد . عندما كنا نسير قرب المكان جلب جثمان ملفوف بالشراشف

راس منارة الجامع المجاور . . . كان هذا في نيسان ومايس . عندما عدت الى بغداد في اوائل ايلول لم يكن هناك الخروف والدبك الرومي ، حتى اللقالق رحلت ، الا ان الرجال والنساء ومجموعات الاطفال كانت باقية ، انهم كما يبدو قد ازدادوا .

يذكر كاندلر ان صيف عام ١٩١٧ كان آخر صيف مر على ذلك الجيل حسبما يذكر الناس ، لذلك فانه قد غادر بغداد في شهري تموز وآب وعاد اليها في اوائل ايلول وكان الحر لا يزال شديدا فقد كانت الحرارة في الايام الاثنى عشر الاولى من الشهر مرتفعة . ١ درجات عن درجة الحرارة الاعتيادية ، وكان الجو رطبا ولزجا . لقد كانت السرايب الملجا الوحيد لسكان بغداد للتخلص من ذلك القبيض الشديد . وقد وصف كاندلر تلك السرايب فقال :

« توجد في معظم البيوت سرايب ، وعمق السرداب ستة اقدام تحت سطح الارض . ان درجة الحرارة في هذه السرايب اقل من حرارة غرف البيوت بحوالي ١٠ درجات ، لذلك فان الهروب

الى السرداب يولد السرور رغم ان الهواء في السرداب محصور وثقيل . تنتهي فتحات التهوية ، التي تمتد من السرداب الى سطح الدار برووس تشبه القلنسوة موجهة باتجاه واحد لتمسك بريح الشمال التي تنقل نسايم طيبة تنعم بها السماء »

ينهي كاندلر حديثه الشيق عن بغداد بوصف دجلة عند الغروب : -

« بالرغم من كل الدمار الذي حل ببغداد . فان انطباعاتي عن هذه المدينة هي صورة لجمان حزين . ان على هؤلاء الذين ينكرون سحر هذه المدينة ان يقفوا على النهر من جهة الشمال وقت الغروب ليشاهدوا الامتداد الرشيق لجهة النهر حيث تصطف المساجد والمنارات ذات الاجر الازرق لتمسك بخيوط الشمس المائلة . ان انعكاسات الضوء الاني من جهة الشرق تجعل الوان الامواج من الجهة اليسرى من النهر تتبدد تدريجيا من البرتقالي الى لون قاتم متقد ، في حين ترسم النخيل في الجهة الغربية صورة ظليلة بمواجهة سماء صافية ذات لون رمادي داكن » .

مِلَامِحٌ مِنَ الْحَضْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي بَغْدَادِ

بقلم الدكتور

صالح أحمد العلي

كلية الآداب - جامعة بغداد

(١)

المواصلات والجسور في بغداد

دراسة في توزيع مراكز الحيوية

يحمل الجند والعامّة الامثلة «(٢)». وقد قال « هذا موضع ارضاه : تأتيه الميرة من الفرات ودجلة ومن هذه الصراة »(٤).

وقد اورد الطبري نصا فيه تفاصيل اوفى عن هذه المواصلات ، فقد قال القس للنصّور « وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من المغرب من الفرات وتجيئك طرائق مصر والشام ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبعرة وواسط من دجلة . وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل من دجلة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر واخرت القناطر لم يصل اليك عدوك .

وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور »(٥).

وتبين من النصوص الانفة الذكر ان النصّور فضل هذا الموقع لتوفر المواصلات النهرية فيه ، فنهر دجلة يمر عموديا عليها من الشمال الى الجنوب ، وبالنظر لطوله وموقعها في منتصفه تقريبا فانه يصلها باقاليم ومدن بعيدة ، كما ان اتصاله عند

استهدف النصّور من بناء بغداد ان تكون مركزا له ولجنده والمتصّلين به ، وان تتوفر فيها الاحوال التي تمكنها من ان تصبح مركزا حضريا متوسعا ، وهذا يقتضي توفر المواد الغذائية والحاجات الاخرى للسكان وتيسر المواصلات معها . وقد ذكرت المصادر ان النصّور راعى في اختيار البقعة التي شيد عليها عاصمته هذين العاملين بالاضافة الى حسن موقعها الصحي ، فيروي انه عندما جاء منطقة بغداد وسأل عن احوالها ذكر له احد القسس ان من خصائصها المفضلة « ان تنزل اربعة طساسيج ، في الجانب الغربي طسوجين وهما قطربل وبادوريا ، وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهبوق وكلاذى ، فانت تكون بين نخل وقرب الماء ، فان اجذب طسوج وناخرت عمارته كان من الطسوج الاخر العمارات »(١).

وكان لاد ان يتوفر في الموقع المختار سهولة المواصلات ، لانه اذا اقام « في موضع لا يجلب اليه من البر والبحر شيء غلت الاسعار وقلت المسادة واشتدت المؤونة وشق ذلك على الناس »(٢).

وكان للموقع الجديد مواصلات متميزة « فانه تأتيه المادة من الفرات ودجلة وجماعة الانهار ولا

(٢) الطبري ٢/٢٧٤ .

(٤) الطبري ٢/٢٧٦ ، وانظر بغداد لابن الفقيه ٨١ .

(٥) الطبري ٢/٢٧٥ ، وانظر ايضا ٢٧٢ .

(١) الطبري ٢/٢٧٥ .

(٢) الطبري ٢/٢٧٢ .

اما الجانب الشرقي فقد قرر المنصور توطين الناس فيه بعد سكن الجانب الغربي بسنوات قليلة، وقد ذكرت المصادر الخططية اسماء عدد قليل مما فيه من الاقطاعات والقصور والاسواق ، كما ذكرت الانهار التي جرت اليه ، وقد وصف اليعقوبي هذا الجانب بانه « كان اوسع الجانبين ارضا ، لان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الاسواق والتجارات، فلما ابتداء البناء في الجانب الشرقي امتنع على من اراد سعة البناء » (٧) . وقد ذكرت في الجانب الشرقي عدة بساتين ، غير انه لم تذكر فيه مزارع ، علما بان المعلومات المتوفرة لدينا لا تكفي للجزم بعدم وجود المزارع ، غير انه يمكن القول بان عدم اشارة المصادر الى المزارع في الجانب الشرقي يدل على قلة هذه المزارع ، ان وجدت .

غير ان كلا الجانبين الشرقي والغربي كانت حوله منطقة وفيرة الماء ، خصبة التربة وانتاجها الزراعي وافر ، وهذه المنطقة ذات ميل خفيف نحو الانهار ، ويسقي الجانب الغربي بالانهار الاخذة من الفرات ، اما الجانب الشرقي فكانت انهاره تأخذ من دجلة والقاطول ، أي ان المنطقة تعتمد على عدة انهار وليس ثلثي نهر واحد ، وبذلك لا تتوقف مياهها على مصدر واحد قد يهددها الى حادوث يؤثر فيه ، وهكذا « فان اجذب طسوج وتأخرت عمارته كان في الطسوج الاخر العمارات » (٨) .

وقد اورد ابن خردادبه (٩) مقدار الجباية من طسايح السواد ، ومنها الطسايح المحيطة ببغداد او قريبة منها وهي كما يلي : -

المصب بالبحر يربطه ببلاد ابعد ذات منتوجات لها اهمية خاصة للمجتمع في تلك العصور . ويتميز دجلة ايضا بسعته وعمقه وعدم وجود السدود وقلة وجود الجسور المعرقة للملاحة ، وبذلك تستطيع السفن والزوارق والكاركات من المخور فيه والوصول الى بغداد .

اما الفرات فيتميز بطوله وسعته ايضا ، غير ان اقسامه الجنوبية بعد منطقة الانبار ، تكثر عليها القناطر والسدود والجسور ، كما انه يشعب الى انهر كثيرة يكون كل منها حفيرا ، مما تعرقل الملاحة وسير السفن ، وخاصة المتوسطة والكبيرة منها .

وقد اختار المنصور لبناء مدينته منطقتة زراعية كانت فيها عدة قرى ، كما كان يقام فيها سوق مؤقت للمنتوجات الزراعية للمنطقة . وقد وزع المنصور الاراضي في هذه المنطقة على السكان ، وبذلك تحولت الى اراضي سكنية دون ان يخصص منها اراض للزراعة او بزودها بالماء . لكافي لارواء المزارع او حتى لاقامة الارحاء الضرورية لحياسة السكان . والواقع انه لم يعرف في اقطاعات الجانب الغربي ما اصبح مزرعة سوى العباسية التي تقع جنوبي المدينة المدورة بين الصرائين ، وكانت عند تأسيس بغداد « مضربا لبني مدينة السلام » ثم اقطعها المنصور عمه العباس بن محمد « وكان العباس اول من زرع فيها الباقلاء ، فكان باقلاءها نهاية ، فقبل له الباقي العباسي ، وربما قيل لها جزيرة العباس لكونها بين الصرائين ، ومن اجل باقلاءها وجودته صار الباقلاء الرطب يقال له العباسي » (١٠) .

الطسوج	عدد رساتيحه	البيادر	الحنطة	الشعير	الورق
بادوريا	١٤	٤٢٠	٣٥٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠
قطر بل	١٠	٢٢٠	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠
مسكن	٦	١٥٠	٣٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠
الانبار	٥	٢٥٠	٢٣٠٠	١٤٠٠	١٥٠٠٠٠٠
كلواذي ونهرين	٣	٣٤	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠٠
نهر بوق	—	—	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
الراذان	١٦	٣٦٢	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠٠
بزر جسابور	٩	٢٦٣	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠٠

احوال الجانب الشرقي بالمقارنة مع الجانب الغربي من الناحية العمرانية والسكنية .
(٨) الطبري ٢٧٥/٣ . (٩) المسالك والممالك ٩٨ ، ١٢ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٦٠١/٣ بغداد لابن الفقيه ٥١ .
(٧) البلدان ٢٥١ . وقد وصفت في مقال نشرته في مجلة سومر بعنوان « اعادة بغداد في العهد العباسي الاولي »

وهذه الأرقام لا تختلف كثيراً عما ذكره قدامة ابن جعفر (١٠) عن هذا الطاسيج ، وهي توضح أحوال القرن الثالث الهجري ، والراجح أنها تعبر عن معدل إنتاج هذه الطاسيج في العصور الإسلامية الأولى وحتى القرن الرابع الهجري حيث حدثت تبدلات في أوضاع الأنهار التي أنتجت هذه الطاسيج . ولابد أن المنتجات الزراعية لهذه الطاسيج كانت تنقل إلى بغداد لسد حاجة أهلها .

غير أنه بالرغم من كبر مقدار منتوج الطاسيج القريبة من بغداد ، فإنها لم تكف لسد كل حاجات السكان وخاصة إبان ازدهار بغداد التي كانت تستورد أيضاً من منطقتي واسط والموصل «وبغداد تميز نفسها أربعة أشهر ، وتميرها واسط أربعة أشهر ، وتميرها الموصل أربعة أشهر» (١١) .

الفرضي :

ويبدو أن كثيراً من منتوجات هذه المناطق الواقعة قرب دجلة كانت تنقل بالنهر وتفرغ على ضفافه فتوزع على بغداد . ومن هنا نشأت على دجلة الفرضي لأنواع هذه السلع . ولما كان الجانب الغربي هو الذي عمرت فيه بغداد في أول العهد وكان فيه مقام الخليفة وانباعه . كما كان مزدحم السكان منذ أوائل إنشائه لذلك كان من المنتظر أن تكون فيه نهايات المواصلات ، وإن تنشأ فيه الفرضي .

ذكر باقوت عند كلامه عن باب الشعير « قالوا كانت ترفأ إليه سفن الموصل والبصرة (١٢) » وظاهر من هذه الرواية التي تمثل الأحوال في السنين الأولى من تأسيس بغداد ، وأن لم يصرح بذلك ، أنه كانت في الجانب الغربي فرضة واحدة رئيسة تأتيها السفن الماخرة دجلة من الشمال والجنوب . وما قد يؤيد كلام باقوت أن هذه الرقعة تسمى باب الشعير الذي هو أحد المحاصيل الرئيسية التي تستوردها بغداد . وكانت الفرضة في القرن الثالث الهجري قريبة من هذه المنطقة .

وعند باب الشعير عقد المنصور أحد الجسور الرئيسة التي تربط الجانبين الشرقي والغربي (١٣) .

- (١٠) نبذة من كتاب الخراج ٢٢٧-٢٢٨ . ويلاحظ أن هاتين القامتين ، هما الوحيدتين الشاملتين اللتين وصلتنا وسيكون تحليلهما موضوع مقال آخر .
- (١١) ابن شهرآسب : اللغات الباهرة ١٢٥ .
- (١٢) ياقوت ٤٤٥/١ .
- (١٣) الطبري ٢٨٠/٢ . الخطيب ١١٦/١ مناقب بغداد ٢٠ .

ولعل اختار هذه البقعة لجسره بسبب قربها من الفرضة ، ولعل من دوافع اختيار هذه المنطقة لإنشاء الجسر هو تيسر نقل المواد الغذائية من هذه الفرضة الرئيسة إلى الجانب الشرقي الذي لم تكن فيه آنذاك فرضة رغم تزايد سكانه .

وقد ظلت هذه المنطقة مكان الجسر الثاني الرئيس في بغداد ، ويلاحظ عندما أعيد إنشاء جسر ثان في بغداد في سنة ٤٤٨ م كان يمتد من مشرعة الحطابين إلى مشرعة الروابيا (١٤) .

ويلاحظ أيضاً أن المنطقة التي تتلو باب الشعير ، هي الكرخ ونهر الدجاج ونهر البزازين ، كانت من أشد مناطق بغداد ازدحاماً بالسكان ، ومن أكبر مراكز النشاط التجاري والاقتصادي فيها ، كما كان يمتد فيها شارع يصل النهر ، وهذا الشارع هو الشريان الرئيس للحياة في تلك المنطقة .

ولا ريب في أن إقامة جسر على دجلة يعرقل ، ولكنه لا يعطل كلياً ، سير الزوارق . ثم إن التوسع الكبير في المدينة اقتضى إنشاء فرض جديدة لا في الجانب الغربي فقط ، بل في الجانب الشرقي أيضاً . فاما الجانب الغربي فقد كان فيه في القرن الثالث الهجري فرضتان ، أحدهما في الشمال ، والأخرى في الجنوب .

فاما في الشمال فإن اليعقوبي في كلامه عن القطائع التي في الطرف الشمالي يقول « .. ثم قطعة البغيين أصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحق بن إبراهيم ، ثم السوف على دجلة في الفرضة ، ثم قطعة جعفر بن أمير المؤمنين صارت لام جعفر ناحية باب قطرب تعرف بقطعة ام جعفر » (١٥) ولعل هذه هي الفرضة التي يقول الخطيب « جعفر بن أبي جعفر الذي نسب إليه فرضة جعفر » (١٦) وكانت على دجلة بقرب فرضة جعفر دار نبي عبدالله الموسوي الطولي (١٧) والراجح أن هذه الفرضة كانت ترسو فيها المنتوجات والسلع القادمة من المناطق الشمالية . ويذكر

(١٤) المنتظم ١٦٩/٨ . ومشرعة الروابيا عند باب الشعير ، وقد انجزت دراسة مستوعبة لخطط هذه المنطقة في

- العصر العباسي الأول .
- (١٥) البلدان ٢٤٩ .
- (١٦) الخطيب ٩٠/١ .
- (١٧) الخطيب ١٤٨/٢ المنتظم ٢٩٤/٦ تكلمة الطبري ٤/٢ ، والواقع التقريبي لهذه الفرضة عند جسر الأئمة الحالي من جهة الكاظمية .

الصولي انه في سنة ٣٣٣ « ضمنت دجلة والناصر
الاعلى بخمسائة دينار» (١٨) ، ولعل هذا الماصر كان
عند الفرضة الشمالية .

وقد وردت في المصادر اشارة الى مشرعة
باب خراسان (١٩) الذي يقع في الجهة الشمالية
الشرقية من المدينة المدورة ، ولكن الاخبار عنها
قليلة ، ولعل ذلك راجع الى انها لم تكن ذات اهمية
لوقوعها قرب الجسر .

اما الفرضة الجنوبية فان اليعقوبي يذكر
« نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات
تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة
ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر ،
تصير الى فرضة عليها الاسواق وحوانيت
التجار ، لا تنقطع في وقت من الاوقات ، فالسواء
لا ينقطع » (٢٠) ، ويفهم من هذا ان نهر عيسى كان
يستعمل للملاحة السفن النهريّة العظام ، وقد يفهم
منه ان الفرضة كانت عليه ، غير اننا نشك في دقة
كلام اليعقوبي ، لان كثرة رواجع نهر عيسى في
منطقة بغداد ، وكثرة القناطر التي عليه لا بد انها
كانت تعطل ملاحة السفن الكبار . ثم انه لم يرد
في اي مصدر وقوع الفرضة على نهر عيسى .

وقد ذكر الخطيب ما يحدد موقع الفرضة اذ
انه في كلامه عن انهار الجانب الغربي يذكر « نهر
يقال له نهر القلائن حدثنا من ادركه جاريا يلتقي
في دجلة تحت الفرضة » (٢١) علما بأنه يذكر في مكان
آخر ان نهر القلائن يصب في نهر الدجاج ثم يصير
النهر الى نهر طابق ثم يصب في نهر عيسى « (٢٢) ،
اي ان نهر القلائن كان بين نهري طابق والدجاج .
والى شمالي نهر عيسى . وقد ظلت هذه الفرضة
حتى اواخر القرن الخامس ، اذ يذكر ابن الجوزي
انه عند بناء النظامية « نقضت الدور التي كانت
للناس بمشرعة الروايا والفرضة وباب الشعير ودرج
الزعراني » (٢٣) ويظهر هذا النص ان الفرضة كانت
بالقرب من مشرعة الروايا وباب الشعير .

وقد اشار الطبري الى فرضة البصريين (٢٤)
ولكنه لم يحدد موقعها .

اما في الجانب الشرقي فقد ذكرت فرضة في
باب الطاق ، فيذكر الخطيب فذكر لي غير ابن
شاذان ان الجسر الذي كان محاذي الميدان نقل
الى الفرضة بباب الطاق ، فصار هناك جسران
يمضي الناس على احدهما ويرجعون على الاخر (٢٥)
وفي هذه الفرضة كانت دار علي بن الجهشير التي
هدم بابها سنة ٣٠٩ وبني موضعه مستغلا (٢٦) .

ويذكر هلال بن الحسن ان « دار الملكة التي
باعلى المخرم محاذية الفرضة » (٢٧) ومع ان سياق
النص يوحي بوجود فرضة واحدة مشهورة ، الا انه
يصعب القول بان هذه الفرضة هي نفس فرضة
باب الطاق ، لطول المسافة بين المخرم وباب الطاق
ووجود الرصافة بينهما . ولعل هذه الفرضة كانت
ترسو فيها السفن التي تمون الرصافة بالبضائع
والسلع .

وقد ذكر الخطيب شريعة ابي عبيد الله في
الجانب الشرقي عند شارع عبد الصمد (٢٨) وذكر
ان هذا الشارع قرب قنطرة البردان (٢٩) .

ومن المشاريع التي تردد ذكرها في الجانب
الشرقي هي مشرعة الحطابين ، فاما الحطابين فكانت
في الجانب الشرقي وعندها دار هلال بن محمد (٣٠)
ودار محمد بن عمير القاضي (٣١) ، وكان وراءه
المعترض حيث كان ينزل عبدالله بن عمير بن
شاهين (٣٢) .

ويذكر مضمار الحقائق « عمرت ام الخليفة
مسجدا بمشرعة السقائين على شاطئ دجلة
بمشرعة الحطابين » (٣٣) وذكر ابن الجوزي ان
« السقائين قريبا من سوق السلاح » (٣٤) .

مراكز العمال :

اسس ابو جعفر المنصور عاصمته ليستأجر
الخليفة وحاشيته وحرسه وجنده ، اي ان سكانها
الاولين اناس مختارون من ذوي الطابع العسكري
بالدرجة الاولى ، ثم الاداري ، ويعتمدون في

- ٢٥) الخطيب ١١٦/١ .
- ٢٦) المنتظم ١٥٩/٦ .
- ٢٧) الخطيب ١٠٥/١ .
- ٢٨) الخطيب ٣٥٧/٤ .
- ٢٩) الخطيب ٤١١/٤ .
- ٣٠) الخطيب ٧٥/٤ المنتظم ١٥٨/٨ .
- ٣١) الخطيب ٣٨١/٣ .
- ٣٢) الخطيب ٢٨٦/١٠ المنتظم ١٢٨/٨ .
- ٣٣) مضمار الحقائق ١٧٨ .
- ٣٤) المنتظم ٨٧/٧ .

- ١٨) اخبار الرامس والتمقي ٢٧٦ .
- ١٩) الطبري ٩٢٨/٣ مروج الذهب ٤١٩/٣ .
- ٢٠) البلدان ٢٥٠ .
- ٢١) الخطيب ٧٩/١ .
- ٢٢) الخطيب ١٣٣/١ .
- ٢٣) المنتظم ٢٨/٨ مرآة الزمان ٢٢١ طبعة سويم .
- ٢٤) الطبري ٢٢٥١/٣ .

مراكز الصناعة في بغداد :

ان سمة بغداد وغناها وازدهارها المادي يستلزم نمو صناعة محلية لسد بعض حاجات اهلهما ، غير ان المصادر لم تذكر الا عددا قليلا من المصنوعات التي اختلفت بها بغداد ، واشارات الى قليل من الاماكن التي تركزت فيها بعض الصناعات ببغداد ، علما بان هذه الاشارات ترجع الى القرن الرابع الهجري فما بعد ، حيث كانت هذه الصناعات قد وصلت مستوى عاليا من الاستقرار والازدهار لم تصل اليه الا بعد مرور زمن طويل عليها . ويحكر ارجاع قلة المعلومات عن المصنوعات البغدادية وعن المناطق التي تركزت فيها الى اعتماد اهل بغداد الكبير على استيراد السلع التي يحتاجونها ، والى ان مراكز الصناعات كانت موزعة وان كثيرا منها كانت « بيتية » فلم تنحصر في منطقة واحدة ، يذكر الهمداني ان بغداد اجتمع فيها ما هو متفرق في جميع الاقاليم من انواع التجارات والصناعات ، وهم الذي لا يشركهم فيه احد : الثياب البيض المروبة والزجاج المحكم من الافداح والاقحاض وانكاسات والطاسات والفضائر الحجرية ولهم المدارس وللكاء (٢٥) . ويذكر ايضا ان المادرائين والمعاريض الهيشية والامشاط الطاهربة والسكاكين الكتانية ، وكثيرا مما يصنع من الينوس والمعاج والعام الوجود من العطر والزجاج (٢٦) .

واشتهرت بغداد بالسقلاطونيات والعتابي ، لا يشاركها فيهما غير نيسابور (٢٧) كما اشتهرت بالحصر (٢٨) .

وفي المصادر اشارات بعضها صريحة وبعضها ضمنية عن تركر الصناعات في بغداد فاما صناعات الجانب الشرقي فان الهمداني يصرح انه المدارس وللكاء « فيهما اعجوبة وذلك ان المدارس يتخذ من هذا الجانب وللكاء من ذلك الجانب ، فلو جهد صاحب المدارس ان يتخذ من جانب صاحب للكاء لاغوزه ، وكذلك لو جهد صاحب للكاء ان يتخذ من جانب صاحب المدارس لتعذر عليه ذلك ، على انهم قد امتحنوا ذلك وجربوه فقد تعذر عليهم (٢٩)

وقد ورد في المصادر ذكر للعمامة الرصافية

(٢٥) البلدان ٢٥٢ .

(٢٦) بغداد ٧٢ .

(٢٧) لطائف المعارف ١٩٥ وانظر عن سقلاطون بغداد لطائف المعارف ٥٥ ، ٢٢٥ .

(٢٨) لطائف المعارف ٢٢٦ ، نهار القلوب ٥٢٨ .

(٢٩) البلدان ٢٥٢ .

معاشهم بالدرجة الاولى على العطاء الذي تقدمه لهم الدولة ، ويسدون حاجاتهم من السلع التي يقتنونها بالشراء ولا يصنعونها بايديهم ، وهي سلع محدودة وذلك لان حرفة غالبيتهم هي السكرية . وان دخلهم محدود . الا ان اسرة الخليفة والمتصلين به وحاشيته كان مستوى معيشتهم اعلى ، ومواردهم اكبر ، فكانوا بحاجة الى سلع اكثر تنوعا واعلى ثمنا ، وكان يعوض عن قلة عددهم النسبي زيادة استهلاكهم .

وقد رافق بناء بغداد ونموها نفاظر عدد كبير من العمال والصناع واهل السوق لتقيام بما يسد حاجات السكان . ويدرك المتصور هذه الحاجات فانشا اسواقا محلية في مختلف ارجاء بغداد ، غير انها كانت اسواقا للبيع وليست للصناعة : وكان النمو العمراني يتطلب عددا كبيرا من اصحاب الحرف كالبنائين والتجارين والحدادين الا انه لم تذكر في بغداد اسواق مخصصة لهؤلاء ، فالاسواق غالبا للبيع وليست للصناعة .

غير ان الجانب الغربي كان اسبق في التشييد ، وشهد توسعا كبيرا منذ فترة مبكرة وهذا ما جعله الجانب الاهم حتى القرن الرابع الهجري حيث اساب الانحطاط ببغداد بجانبها .

اما الجانب الشرقي فقد تاخر استيطانته ونموه عن الجانب الغربي ، ولم تذكر المصادر من الاقطاعات والسكان التي كانت فيه الا ما كان لعدد قليل من رجال الاسرة العباسية وكبار الموظفين والقواد ، كما ذكرت عددا من القصور ومن الاسواق الضخمة ، ولم تذكر اسما ما كان في الجانب الشرقي من محلات مما قد يستدل منه على نوع وجنس السكان وزدحامهم فيه . وهذا يرجع ان الجانب الشرقي كان اقل ازدهارا بالسكان ، وان كانت مساحة الرقعة المسكونة فيه كبيرة ولا تقل كثيرا عن نظيرتها في الجانب الغربي . وان كثيرا من القصور والاسواق الفنية بالامتعة المترفة في الجانب الشرقي ، يدل على النشاط الاقتصادي انقائم على بيع السلع الاستهلاكية المترفة .

وكان الجانب الشرقي بحاجة الى العمال والحرفيين اللازمين لمواجهة التوسع الكبير والسريع في اعمار المدينة ، ولابد ان عددا كبيرا من هؤلاء الحرفيين كانوا يقيمون في الجانب الشرقي اندي يعملون فيه ، غير ان هذا لا ينفي احتمال الحاجة الى صناعات وحرفيين يومية او موسمية يقدمون من الجانب الغربي ، الامر الذي يساهم في نشاط التنقل بين الجانبين .

التي كان يليها الخلفاء(٤٠) وقد يدل اسمها على المكان الذي كانت تصنع فيه ، وهو في الجانب الشرقي من بغداد .

يتردد في المصادر ذكر دار القطن في الجانب الغربي عند قطعة الربيع التي كانت من اكبر المراكز التجارية والنشاط الاقتصادي ، وكان اسمها يطلق على محلة سكنها عدد من الفقهاء وعلماء الحديث ونسبوا اليها . غير ان المصادر لم تذكر سبب نسبتها الى القطن وهل كانت في الاصل محلا لبيعه ام لصنعه ، وما اذا كانت قد ظلت فيما بعد مركزا للقطن الخام او المصنوع(٤١) .

ويذكر الصابي انه في سنة ٢٨٩ « كان ابو نصر سابور قد حاول وضع العشر على ما يعمل من الثياب الابريسات والقطنيات بمدينة السلام ، فثار اهل العتابين وباب الشام من ذلك وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة . ومنعوا الخطبة والصلاة . واستقر الامر على اخذ العشر من قيم الابريسيات خاصة ، ونودي بذلك بالجانب الغربي من يوم الاحد . . وبالجانب الشرقي من يوم الاثنين ، وثبت هذا الرسم ورتب في جيبته ناظرون ومتولون ، وافرد له ديوان على دار بالبركة ووضعت الختوم على جميع ما يقطع من المناسج وبياع ويختم(٤٢) » . وواضح من هذا النص ان اهل باب الشام والعتابين هم الذين كانوا يعملون هذه المنسوجات آنذاك في بغداد .

فاما باب الشام فهو احد الابواب الاربعة لمدينة المنصور للمدورة ، وكان يقع في جهتها الشمالية الغربية ، وقد نشأت حوله محلة واسعة سميت باسمه وظلت مزدهرة حتى اواخر العصر العباسي ، ولم تنفجر بالفتن الطائفية التي شاركت فيها كثير من محلات الجانب الغربي .

اما المنطقة الواقعة وراء باب الشام ، اي في الجهات الشمالية الغربية فان ما فيها من قطاعات ومحلات ومعالم خطية ، ذكرته المصادر المؤلفة في اواخر القرن الثالث الهجري ، وقد اورد كل من اليعقوبي في كتاب البلدان ، وابن الفقيه الهمداني في الفصل الذي كتبه عن بغداد وسهراب فيما كتبه عن الانهار التي تأخذ من دجيل وتجري في شمالي

المدينة المدورة(٤٣) ، اسماء كثير من الاقطاعات والمعالن الخطية في هذه المنطقة ، وأشار اليعقوبي الى ازدهار هذه المنطقة واصول بعض سكانها وفيهم من اهل اليمامة ، والكوفة ، وخوارزم ، ومروالروذ ، وطخارستان وبخارى ، كما يذكر ان عند سوق باب الشام « تمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال ، كل درب ينسب الى اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبته جميعا الى ريش حرب بن عبدالله البلخي . وليس ببغداد ريش اوسع ولا اكبر ولا اكثر دروبا واسواقا في الحال منه ، واهله اهل بلخ واهل الختل واهل بخارى واهل اسيشاب واهل اشتانج واهل كابل شاه ، واهل خوارزم . ولكل اهل بلد قائد ورئيس(٤٤) ، وقول اليعقوبي « في الحال » يدل على انه يصف الوضع في زمن كتابة كتابه (اي حوالي سنة ٢٨٠هـ) كما ان قوله ان « لكل اهل بلد قائد ورئيس » قد يدل على انهم كانوا قوة عسكرية ومع ان اليعقوبي يدعي ان « هذه القطنع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في ايام المنصور ووقت ابتدائها » الا انه يصعب موافقته على ان ما ذكره عن هذه المنطقة يرجع الى زمن المنصور (اي حوالي ١٥٠هـ) لانه لا يوجد ما يدل على كثرة اهل هذه المدن في جيش المنصور . والواقع ان اليعقوبي يتابع كلامه فيقول ان هذه الخطط « قد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم ، وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من راي في سنة ٢٢٣ «(٤٥) . ويبدو ان معظم سكان هذه المنطقة استقروا فيها بعد خلافة المنصور ، وربما في خلافة الرشيد او بعده . ولم يرد في المصادر ذكر لقيام الصناعة في هذه المنطقة حتى اوائل القرن الرابع الهجري ، سوى ما ذكره اليعقوبي من ان درب الاقفاص الذي يقع في هذه المنطقة «متصل بدرب التصارين(٤٦)» . غير ان عدم ذكر المصادر للصناعات في هذه المنطقة لا يكون دليلا قاطعا على عدم قيامها آنذاك ، لان مصادرنا لم تمن بذكر مراكز الصناعة .

(٤٣) انظر مقالنا « مصادر دراسة خطط بغداد » مجلة المجمع

العلمي العراقي م ١٤ سنة ١٩٦٧ .

(٤٤) البلدان ٢٤٨ .

(٤٥) البلدان ٢٥٤ وقد اعدت دراسة مفصلة عن تطور خطط

هذه المنطقة .

(٤٦) البلدان ٢٢٧ .

(٤٠) الطبري ٢٣٦٨/٣ رسوم دار الخلافة ٩٠ .

(٤١) انظر من اشتهاه بغداد بالقطن : بغداد لابن الفقيه ٧٥ ويذكر الصابي يعنى موظفي الجباية في بغداد ومنهم

« عامل دار القطن » (الوزراء ١٧٦) .

(٤٢) ذيل مسكويه ٣٦٢/٣ .

بتخطيطه الحمر(٥٢) ، وبطيخ الشمام(٥٣) ، وهو ينسج ايضا في نيسابور واصهبان(٥٤) ويبدأ ذكره في اخبار الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري حيث يروي ابن الجوزي ان سيكتكين صاحب عز الدولة خلف عشرة الاف ثوب ديبقي وعتابي(٥٥) ، كما روى ان بختيار اهدى ناصر الدولة الحمداني ثوبا عتابيا(٥٦) ، كما اهدى ظفر بك ملك الروم ثيابا منها عتابية(٥٧) ، ويقول ابن جبير ان العتابي نسج من حرير وقطن(٥٨) .

وبالقرب من العتابية نشأت دار القز ، وهي محلة يدل اسمها على انها كانت مركزا لمعالجة القز ، وربما نسجه ايضا ، فهي مركز صناعي للنسيج كمجاورتها العتابية ، ولكنها ايضا لم تذكر الا في اخبار القرن الخامس الهجري ، مما يدل على ازدهارها فيه ، كما ان عدم ورود ذكرها قبل ذلك التاريخ يدل على تأخر ظهورها .

ويذكر ياقوت ان دار القز صارت كالمدينة وعليها سور ، وانه كان يصنع فيها في زمنه الكاغد(٥٩) ، ولكن لم اجد في المصادر اشارة الى زمن ظهور صناعته في بغداد عموما ، وفي هذه المحطة خصوصا كما لم اجد في انواع الكاغد ما يسمى باسم هذه المحلة(٦٠) . ولعل تركيز صناعة الورق في هذه المحلة وما يجاورها راجع الى توفر المواد الاولية من بقايا القطن ونفاياته في هذه المنطقة .

وبلاحظ ان بالقرب من هذه المحلات كانت تقع دار الرقيق التي يذكر اليعقوبي انها ريش « كان فيه رقيق ابي جعفر الذين يباعون من الافاق ، وكانوا مضمومين الى الربيع مولاة »(٦١) . ومن المحتمل ان هؤلاء الرقيق ، او عددا منهم ، كان يستخدم في الصناعات ايضا منذ زمن ابي جعفر ، وان وجودهم

لقد ذكرت من قبل قول الصابي ان اهل باب الشام والعتابين احتجوا على فرض الضرائب على المنسوجات . فاما العتابية التي نسب اليها العتابين فلم يرد لها ذكر في الكتب التي بحثت في خطط بغداد او اشارت اليها ، مما كتب منها او اعتمد على رواة لها عاشوا عند او قبل بداية القرن الرابع الهجري ، كاليعقوبي ، وابن الفقيه الهمداني وابن طيفور ، وسهراب ، ووكيع اللذين اعتمد عليهم الخطيب في مقدمته الخططية . كما اني لم اجد لها ذكرا في الحوادث التي سبقت اشارة الصابي الالفة الذكر . الامر الذي يدل على ان هذه المحلة لم تظهر ، او تستمر ، الا بعد ذلك التاريخ .

ذكر الخطيب في تراجمه عددا ممن عاش او توفي في شارع العتابين واقدم الذين ذكرهم هو ابو الحسين بن سمعون الذي توفي سنة ٢٨٧(٤٧) ، اما الاخرون الذين ذكرهم فكانت وفاتهم بين سنتي ٤١٩ - ٤٤٥هـ(٤٨) والواقع ان « العتابين » يتردد ذكرها بعد هذا التاريخ ، وقد وصفها بعضهم بانها محلة ، وان فيها مسجدا . ولم يذكر اي مصدر اطلمت عليه هوية من نسبت اليه هذه المحلة(٤٩) .

ذكر الخطيب ان شارع العتابين من مربعة الفرس(٥٠) ، وهي مربعة ذكرتها المصادر المؤلفة قبل القرن الرابع الهجري وكانت تقع بين الانبار وباب الحديد ، وبقرها قطائع الخوارزمية والبخارية والسرخسية والكوفيين والياميين(٥١) ، غير ان المصادر لم تشر الى تركيز الصناعات والمناسج في هذه المنطقة في الفترة التي سبقت القرن الرابع كما اشرنا من قبل .

لقد ذكرنا من قبل ان مما اشتهرت به بغداد هو النسيج العتابي ، وهو نسيج مخطط ، يشبه

(٥٢) يذكر الرشدي « حمارا عتابيا جسده كخلفة العتابي » (الداختر والتحف ١٩٢) ويذكر القرظاني ان حمير الزنج كالعتابي الخطط (تحفة الاياد) .
(٥٣) جامع الادوية المفردة ١/١٠١ ، ١١/٤ .
(٥٤) لطائف المعارف ١٩٤ نمار القلوب ٥٤ . ابن الفقيه ٢٥٤ وعن عتابي نيسابور انظر المقدسي ٢٢٢ ، وعن عتابي اصهبان انظر الاصحفي ٩٩ .
(٥٥) المنتظم ٧٧/٧ .
(٥٦) الداختر والتحف ٦٦ .
(٥٧) الداختر والتحف ٨ .
(٥٨) الرحلة ٢١٢ (طبعة حسين نصار) .
(٥٩) ياقوت ١٦٧/٢ ، ٥٢٢ . ويذكر ابن حجلة ان دار القز احد مدن بغداد السبع .
(٦٠) سافرد للكاغد وصناعته بحثا مستقلا .
(٦١) البلدان ٢٤٨ .

(٤٧) الخطيب ١/٢٧٧ ، ١٥/٨ .
(٤٨) انظر الخطيب ٢/٤٣٢ ، ٢١٢/٤ ، ٢٩٤ ، ١٥/٨ ، ٤٧ ، ٢٩٨/٩ ، ١٣٨/١٠ ، ٢٨٦ ، ٨٠/١١ .
(٤٩) المعروف باسم العتابي هو الشاعر المشهور كلثوم بن عمرو ، وهو نظمي قدم بغداد في زمن الرشيد (انظر عنه الاغانى ١/٢ معجم الادباء ٢٦/١٧ الخطيب ٦٦٦ ولكن لا توجد اشارة او دليل على نسبة المحلة اليه . ويذكر سهراب ان الصراة الصغير يصب عند القنطرة الجديدة ويعرف عند مصبه باسم نهر عتاب (١٣٢) ولكنه لم يذكر هوية من نسب اليه هذا النهر البعيد عن محلة العتابين .
(٥٠) الخطيب ١٥/٨ .
(٥١) سهراب ١٣٤ الخطيب ١/١١٤ وانظر ايضا بغداد لابن الفقيه ٤٨ ، ياقوت ٤/٤٨٥ ، ٧٥/٢ .

في هذه المنطقة كان من العوامل التي ادت الى تركزه نحو الصناعة في هذا القطاع .

ولا بد ان وجود هذه المراكز الصناعية كان من عوامل نمو « الشارع الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة » ، وفيه سوق ذات اليمين وذات الشمال » (١٢٢) .

اما الجانب الشرقي فلم تذكر فيه محنة او منطقة تركزت لصناعة النسيج كالذي حدث في الجانب الغربي ، ولكن المصادر ذكرت عدة قرى في شماليها كان في كل منها صناعة للنسيج مشهورة ومن هذه القرى الحضرة « ينسج فيها الثياب والكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد » (١٢٣) « وياقندرا بينها وبين بغداد اربعمائة ميلا ، وتعمل بها ثياب من القطن غلاظ صفاق يضرب اهل بغداد بها المثل » (١٢٤) ، ويلاحظ انه كانت في هذه المنطقة عدة قرى مشهورة بالخمور منها القفص (١٢٥) وصريفون (١٢٦) .

لم تذكر المصادر غير هذه المراكز الصناعية في بغداد وما يجاورها ويلاحظ انها موزعة بين الجانبين ، ولا يعقل ان استهلاك كل منهما اقتصر على اهل الجانب الذي قامت فيه . وان كثرة الاسواق في بغداد هو مظهر على ازدهار السكان وحاجتهم الى السلع وليس دليلا قاطعا على ازدهار الصناعة وتعدد مراكزها ، اذ ليس من الضروري ان تكون مراكز الصناعة متجمعة في مكان واحد او ان تكون قرب الاسواق . وكل هذا يقتضي تبادل السلع بين الجانبين وضرورة تنظيم الواصلات بينهما .

التجارة بين اقاليم المشرق والمغرب :

لقد ذكرنا ان المصادر ذكرت ان ابا جعفر المنصور عند اختياره موقع عاصمته الجديدة راعى ارتباط هذا الموقع مع الشمال والجنوب بالواصلات النهرية . غير ان لهذا الموقع اهمية كبيرة في الواصلات بين اقاليم المشرق و اقاليم المغرب . فمن المعلوم ان اقاليم المشرق كانت منذ ازمنة قديمة غنية ببعض المحاصيل والمنتجات المهمة للعراق ولاقاليم البحر المتوسط ، فضلا عما يمر بها من طرق تصل الصين و اواسط اسيا بالمغرب . وقد ازدادت اهمية الاتصال بين اقاليم المشرق بالمغرب بعد الفتح

الاسلامي الذي وحد اقاليم الشرق الاوسط من اواسط اسيا حتى المحيط الاطلسي تحت ظل دولة واحدة نشرت الامن والاستقرار وازالت الحواجز والعقبات التي وضعتها الدول المتنافسة السابقة بوجه الانتقال . وكانت الدولة الاسلامية تسير على مبدأ حرية التنقل والتجارة ، وكانت الاحول فيها تقتضي زيادة هذا التنقل . لان الاماكن المقدسة الرئيسية في الاسلام كانت في الحجاز الذي عاش فيه الرسول ومارس اعماله وطبق سنته وكان فيه اغلب الصحابة والتابعين الذين صاروا المصدر الرئيس للعلم بالدين والفقه ، ولا يخفى ان الحج الى مكة فريضة اسلامية واجبة .

ثم ان الدولة كانت تعتمد في صدر الاسلام على الجزيرة العربية لتجهيزها بالمقاتلة ولما كانت اقاليم المشرق تكون اطراف الدولة ، فان مقاتلتها الذين كانت بحاجة مستمرة لهم ، كانوا ياتون من الجزيرة الى تلك الاقاليم ، وكثير منهم كان يحتفظ بعلاقته مع عشيرته في الجزيرة ، وادى ذلك الى تزايد اهمية الطرق بين اقاليم المشرق والمغرب لتتنقل الجند .

وقد ادى زوال الحواجز والعقبات امام التنقل ، وزيادة موارد اقاليم المغرب وخاصة الحجاز وبلاد الشام ، وارتفاع مستوى معيشة اهلها وتزايد قوتهم الشرائية الى زيادة طلب اهل هذه الاقاليم على سلع ومنتجات اقاليم المشرق وكثرت في الاقاليم القريبة ، ولا بد انه رافقها ازدياد نشاط القوافل وتنقل التجار وربما القيام بنشاطات اقتصادية اخرى .

وترتبط اقاليم المشرق بالمغرب عن طريقين رئيسيين : جنوبي وشمالي ، فاما الطريق الجنوبي فهو الذي يمر بالبصرة وتأتي عنه منتجات اقاليم جنوب الهضبة الإيرانية وكابل اما الطريق الشمالي فهو الذي يمر بوسط العراق وتأتي عن طريقه بعض سلع الصين و اواسط اسيا وكذلك سلع اقليم خراسان و الاقاليم التي في شمال ووسط الهضبة الإيرانية وكلها اقاليم غنية وثيقة الصلة بالعالم الاسلامي .

والطريق الشمالي قديم الاستعمال ، كانت تسلكه القوافل ، وازدادت اهميته في العصر الروماني وخاصة بعد زمن اغطوس ، وقد وصفه ايسيدور الكرخي في كتابه المشهور « المحطات لغرفية » (١٢٧) . وكان يدخل العراق من خاتقين

- (١٢٢) المصدر نفسه .
- (١٢٣) ياقوت ٢/٢٩٢ .
- (١٢٤) ياقوت ١/١٧٥ .
- (١٢٥) ياقوت ٤/١٥٠ .
- (١٢٦) ياقوت ٣/٢٨٢ .

في فنى تحت الارض(١١) مما يقطع بانها لم تستعمل
لشواصلات .

وقد جعل في المدينة المدورة حوالي خمسين
شارعا منتظما تتفرع كلها من الساحة المركزية
وتنتهي عند الاسوار ، فهي كمحاور العجلة ولا تتصل
بالخارج . اما الارياض التي حول المدينة المدورة
فكانت فيها طرق ودروب متعددة تتفرع بشكل
غير منتظمة ، ولم تذكر المصادر انه جعل فيها شارعاً
عريضاً وطويلاً كالمحور .

وفي خلال السنوات الاولى من بناء المدينة
كانت صلة الخليفة بالاقليم الغربية اقوى ، فكان
العراق اغنى اقليم تعتمد عليه الخلافة وتفاعـل
معه ، كما حدثت في ارمينية و اقليم المغرب احداث
اثارت الخلافة اكثر مما اثارها الاحداث في اقليم
المشرق التي اقتصر في معالجتها على حملة قادها
محمد المهدي ولي العهد ، وقضى اربع سنوات في
معالجتها متخذاً طولها من الري مركزاً له دون ان
يحتاج الى امدادات جديدة من بغداد .

لذلك كان الخليفة ومستوطني الجانب الغربي
اشد اتصالاً بالاراضي والاقليم الغربية فيمتدون
عليها في سد مطالبهم دون حاجة شديدة الى الجانب
الشرقي الذي بالامكان الاتصال به عن طريق القوارب
والزوارق .

الصلة بين الجانبين :

غير ان الحاجة الى استيطان الجانب الشرقي
ظهرت مبكرة ، فمن المعلوم ان ابا حنيفة وابن
اسحق ، وهما من اعظم العلماء الذين عاشوا في
بغداد ، توفيا سنة ١٥٠هـ (٧٠٠) ودفنا في مقبرة
بالجانب الشرقي ، ولابد ان دفنهما في تلك المقبرة
يرجع الى كونهما كانا عند وفاتهما يسكنان الجانب
الشرقي ، وانهما لم يكونا وحدهما في هذه السكنى
بل ان عدداً آخر يصعب تقديره كان قد استوطن
الجانب الشرقي . وتجدر الاشارة الى ان ابا حنيفة
هو من اهل الكوفة في الاصل ، وان ابن اسحق هو
من اهل الحجاز ، اي انهما من المهاجرة الى بغداد
وليسوا من قدامى سكانها .

بذكر الطبري بان الاعمار في الجانب الشرقي
بدا سنة ١٥١ ، وهو بذكر رواية عن الشروي في ان

(١٦) الطيب ٧٩/١ .

(٧٠) من سنة وفاة ابي حنيفة انظر الطيب ١٢٥/١ ،
٢٢٤/٢ ، ١٧٦/٤ ومن وفاة محمد بن اسحق انظر تاريخ
خليفة ١٥٤ الطيب ٢١٤/١ ، ١٧٦/٤ .

ويبعد دجلة من جسر المدائن ثم يتجه غرباً الى
الحيرة ، التي اقيمت قربها الكوفة ، او الى وادي
الفرات حيث يذهب الى بلاد الشام . وكانت المدائن
تتصل باقليم شمال العراق وارمينية وبالمناطق
الجنوبية من العراق عن طريق دجلة ، كما تتصل
باقليم الشام عن طريق الفرات ونهر الملك . ولما
كانت المصادر الاسلامية لم تذكر اي جسر على دجلة
غير جسر المدائن ، فالراجع ان هذا الطريق هو الذي
كان مستعملاً في صدر الاسلام(٧) .

غير ان تاسيس بغداد على مسافة ثلاثين كيلو
متراً شمالي المدائن كان لابد ان يؤثر في نهايات هذا
الطريق ، لكي يرتبط ببغداد بدل ارتباطه بالمدائن .
ثم ان الطريق البري الى شمالي العراق ، بما
في ذلك سامراء والموصل ، كان يسير على الجانب
الشرقي من دجلة .

وكل هذا يؤدي ان يكون الجانب الشرقي من
بغداد هو المحطة الرئيسة لطريق خراسان والموصل
ويستلزم انشاء جسر في منطقة بغداد لا تيسر
ربط الجانب الغربي بالشمال والشرق فقط ، بل
ايضاً لتأمين تنقل البشـر والتجارات بين اقليم
المشرق والمغرب .

الصلات العسكرية بين الشرق والغرب :

اختار ابو جعفر المنصور موقع عاصمته في
الجانب الغربي من دجلة ، ووضع بنفسه خطتها
واسس تنظيمها ، وكان الجزء الرئيس فيها هو
المدينة المدورة التي تقع قرب دجلة والصراة .
يفصلها عنهما رقعة صغيرة من الارض . وكانت لها
اربعة ابواب متناظرة ليس فيها اي باب متعامد
على دجلة . فالمدينة المدورة لم يتحكم في تخطيطها
النهر ، ولم يكن في التخطيط الاول لابي جعفر
المنصور ان يجري في المدينة المدورة او ارباضها اي
نهر او قناة حتى للشفة والطواحين . وقد ظل هذا
الوضع حتى نبهه بطريق الروم الى اهمية الماء في
تشغيل الطواحين وفي سقي المزروعات التي تضي
على المدينة جمالاً(٨) . وقد استجاب المنصور
للاحظة البطريق فجر الى المدينة المدورة ترعاً تأخذ
مائها من الدجيل في الشمال ومن الصراة في الجنوب ،
وكانت هذه الترعة صغيرة وتجري في بعض الاماكن

(*) يذكر البلاذري انه عند الفتح « عبر المسلمون جسراً كان
مفقوداً عند قصر سابور الذي يعرف اليوم بقصر عيسى »
(فتوح البلدان ٢٤٨) ، ولكن لم يتروك ذكر هذا الجسر
في الاخبار مما يدل على للة اهميته .

(٨) الطيب ٧٨/١ .

وبتبيين من هذا النص ان المنصور هو الذي قرر توطين المهدي وجيشه في الجانب الشرقي وبنى له الرصافة ، وقد يفهم من سياق الكلام ان المنصور هو الذي وضع بنفسه تخطيط الرصافة ، وان محمد المهدي لم يكن له رأى نافذ في ذلك التخطيط ومما يؤيد ذلك ان المهدي لما ولي الخلافة لم يقم طويلا في الرصافة ، بل اقام في قصر الطين ثم في قصر السلامة بعباساباذ(٧٦) .

لم تذكر المصادر مساحة الرصافة او تفاصيل الخطط والمحال والدروب التي فيها كما هو الحال في المعلومات التي اوردها عن المدينة المدورة في الجانب الغربي . غير ان النص الذي اورده اعلاه يبين ان الرصافة تتميز على المدينة المدورة من حيث ان فيها ميدانا وبستانا ونهرا يدخل فيها .

تنقل العمال والصناع والمصلين :

ويبدو ان المنصور لم يهدف من استيطان الجانب الشرقي ان ينشئ مدينة ثانية ، فان الطبري يذكر انه في سنة ١٥٩ « بنى المهدي مسجد الرصافة وفيها بنى حائطها وحفر خندقها »(٧٧) ويذكر الخطيب رواية عن يعقوب بن سفيان ان المهدي بنى المسجد الذي بالرصافة سنة ١٥٩(٧٨) ، وقد يكون هذا هو المقصود بقول يحيى بن الحسن ان بناء الرصافة استتم سنة ١٥٩(٧٩) .

لقد كان البناء في الجانب الشرقي اقل منه في الجانب الغربي ، ومع هذا فقد استغرق حوالي تسع سنوات (١٥١ - ١٥٩) مما يدل على بطء العمل فيه ، وعلى انه كان يتم تدريجيا . ونظرا لصغر الجانب الشرقي وبطء العمل فيه ، فسان العمال والصناع الذين عملوا في بناء الجانب الشرقي عددهم اقل من عدد من بنى الجانب الغربي . غير انه ينبغي الا نبالغ في قلة عددهم وبالنظر لاتصال البناء واستمراره ، فلا بد ان عددا من هؤلاء العمال والصناع كان يقيم دائما في الجانب الشرقي، وانهم جلبوا معهم أسرهم وعوائلهم ، كما ان عددا لا يستهان به من غير العمال اخذ يستوطن هذا الجانب الذي صار يوفر مجال الرزق للكسبة .

غير ان عددا آخر ممن عمل في بناء الجانب

الرصافة بنيت على اثر قدوم المهدي من خراسان في تلك السنة ، ورواية اخرى عن محاولته قسمة جيشه كوسيلة للسيطرة عليه ، واقتماله حادثة لتبرير نقل بعض الجيش الى الجانب الشرقي ، ثم يقول بعد ذلك « وكان ذلك سبب البناء في الجانب الشرقي وفي الرصافة واقطاع القواد هناك »(٧١) غير ان هذا التاريخ قد ينطبق على بدء بناء الرصافة ويبدء توزيع الاقطاعات ، أي على الزمن الذي بدأت به الخلافة « رسميا » اعمار الجانب الشرقي ، وهو زمن متأخر عن بدء سكن الناس فيه .

ويروي الطبري عن موسى بن محمد بن ابراهيم العباسي انه « تولى صالح صاحب المصلى القطائع في الجانب الشرقي »(٧٢) ، ويعدد اليعقوبي والخطيب اقطاعات الجانب الشرقي(٧٣) غير ان الاقطاعات التي ذكرها قليلة العدد ، ومعظمها لرجال كان لهم دور بارز في خلافة المهدي او بعده ، مما يدل على ان المعلومات التي اوردها تعكس احوال فترة متأخرة عن سنة ١٥٠ التي لم يكن لمعظم هؤلاء المقطعين دور بارز فيها او فيما قبلها(٧٤) .

وذكر اليعقوبي الشوارع والاسواق التي تخترق الجانب الشرقي ، وهي تتفرع من باب الطاق الذي كان عليه الجسر . ويبدو من كلامه ان الجسر كان محور تنظيم الجانب الشرقي ، في حين ان المعلومات والدلائل الاخرى تشير الى ان جسر باب الطاق تأخرت اقامته ، ولا يوجد ما يدل على ان المنصور اراد ان يجعل التنظيم الخططي للجانب الشرقي قائم على الجسر . فالصورة التي تتكون من وصف اليعقوبي تنطبق على احوال فترة متأخرة عن زمن المنصور . كما لا يوجد ما يدل على ان المنصور جعل الجانب الشرقي قائما على تنظيم مقرر كالذي فعل في الجانب الغربي .

ويروي احمد بن محمد الشروي عن ابيه « ان المهدي لما قدم من خراسان امره المنصور بالمقام بالجانب الشرقي ، وبنى له الرصافة ، وعمل لها سورا وخندقا وميدانا وبستانا ، واجرى له الماء ، فكان يجري الماء من نهر المهدي الى الرصافة »(٧٥) .

(٧١) الطبري ٢/٣٦٧ .

(٧٢) الطبري ٢/٣٦٧ .

(٧٣) البلدان ٢٥١- ، الخطيب ١/٩٢ - ٩٦ .

(٧٤) انظر مقالة ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى سوم م ٢٢ سنة ١٩٧٧ ص ١٢٢ فما بعد .

(٧٥) الطبري ٢/٣٦٤ - ٥ .

(٧٦) انظر مقالتنا « منازل الخلفاء وقصورهم في العهود العباسية الاولى سوم م ٢٢ سنة ١٩٧٦ .

(٧٧) الطبري ٢/٤٦٠ .

(٧٨) الخطيب ١/١٠٩ .

(٧٩) الخطيب ١/٨٢ .

افراد الاسرة العباسية ، وخاصة النساء . ووجود القصر في وسط الرصافة واحاطتها بالسور والخندق ، اصبحت الرصافة قريبة الشبه بمدينة المنصور المدورة في الجانب الغربي ، من حيث انها اصبحت مدينة مسورة في وسطها جامع بصلقه قصر خليفى وحولها ريش مكشوف .

غير ان المهدي لم يبق طويلا في الرصافة ، ففي سنة ١٦٣ انتقل الى قصر الطين ، وفي السنة التالية انتقل الى قصر السلامة في عيساباذ التي كان فيها مقامه ومقام ابنه موسى الذي تلاه في الخلافة . وفي خلافة الرشيد والامين عاد الخلفاء الى الجانب الغربي ، غير ان المأمون لما عاد الى بغداد استقر في الجانب الشرقي واقام في قصر بناه على بعد من الرصافة ، ولما عادت الخلافة من سامرا استقرت في القصر الحسنى القريب من قصر المأمون ، وقد نما هذا المركز الجديد فاصبح دار الخلافة وظل كذلك حتى سقوط الخلافة العباسية .

يتبين من هذا ان الجانب الشرقي ظل مركز الخلافة منذ زمن المهدي ، الا في فترات محدودة غير ان مقام الخلفاء في الجانب الشرقي لم يكن مستقرا في العهود الاولى ، فقد تنقل من قصر الرصافة الى قصر الطين فعيساباذ فقصر المأمون فالحسنى وكان التنقل نحو الجنوب ، ولكنه عموما لم يبعد عن ضفاف النهر .

ان بناء الجانب الشرقي ونمو الاعمار فيه وتزايد سكانه تطلب قيام مؤسسات ادارية لمعالجة القضايا والمشاكل التي قد تظهر بين اهله ، وخاصة فيما يتعلق بالامن والقضايا الجبائية ويبدو من الاشارات القليلة التي وردت في المصادر ان الادارة ببغداد كان لها مركز واحد في السنين الاولى ، ولم تظهر المؤسسات الزدوجة في كل جانب الا بعد امد غير قصير . وكان وجود مركز واحد للمؤسسات في بغداد يتطلب تنقل ذوي المصالح والموظفين وعبورهم الى الجانب الذي كانت فيه المؤسسات ان كانوا من اهل الجانب الثاني .

حاشية الخليفة وحرصه والدواوين :

غير ان التنقل بين الجانبين كان اشد تاثرا بتنقل مقام الخلفاء ومراكزهم . فالخليفة باعتباره رأس الدولة والمسؤول الاكبر عن ادارته وعن ما يتصل بها من الدواوين المركزية ، كان يرتبط به شخصيا عدد من الجند والحرس والحاشية والاتباع ، فضلا عن الدواوين المتصلة به ، وقد

الشرقي واعماره ، او وجد فيه الرزق ، ظلت اقامته الدائمة في الجانب الغربي ، فكان عليه ان يعبر النهر للوصول الى محل عمله .

ثم ان مستوطني الجانب الشرقي لم تنقطع صلتهم كليا مع اهل الجانب الغربي ، فقد كان للكثير منهم اقارب ومعارف في الجانب الثاني ، فكان لا بد من عبور النهر عند الاتصال بين اهل الجانبين .

ويبدو ان المنصور عندما بدا في بناء الجانب الشرقي لم يكن يمتزم ان يجعل منه مدينة مستقلة قائمة بذاتها او مركزا خليفيا رسميا . فكانت الرصافة متصلة بما حولها ، ولم يفصلها شيء حتى بنى لها المهدي سورا وخندقا عندما ولي الخلافة كما انها ظلت خالية من مسجد جامع الى ان ولي المهدي الخلافة فبنى الجامع . وقد تطلب وجود جامع واحد في الجانب الغربي للجمعة ان يعبر الحريصون على صلاة الجمعة من اهل الجانب الشرقي الى الجانب الغربي كل جمعة على الاقل . كما ان تركيز الدواوين والمؤسسات الادارية استلزم مستخدميها ومراجعيها من اهل الجانب الشرقي ان يعبروا النهر للوصول اليها .

مراكز الادارة :

ان بناء المهدي على اثر توليه الخلافة ، جامع الرصافة وخندقها وسورها يعبر عن عزمه على جعل الجانب الشرقي مدينة مستقلة عن الجانب الغربي ، وقد ظل جامع الرصافة هو الوحيد في الجانب الشرقي ، وناني اثنين في بغداد حتى عودة الخلفاء من سامراء في اواخر القرن الثالث الهجري . وقد احتفظ جامع الرصافة باهميته وظل بناؤه قائما عامرا حتى بعد ان اندثرت كافة الابنية حوله في اواخر القرن الرابع الهجري . وكان هذا الجامع من مراكز الحياة الفكرية ، فكان عدد غير قليل من العلماء البارزين يلقون دروسهم فيه ، الامر الذي يحمل من يربد الاستماع لهم او الاتصال بهم من اهل الجانب الغربي الى عبور النهر للوصول الى الجامع .

ان بناء القصر من داخل الرصافة ، واحاطتها بالسور والخندق جعلها مفصولة عن باقي اراضي الجانب الشرقي بحاجز مادي يحددها ويمنع توسعها ، ويؤثر في جعل الحياة فيها معزولة عن الحياة في اطرافها . وقد احتفظ قصر الرصافة بطابعه « الملكي » حتى بعد ان ترك الخلفاء الإقامة فيه ، او انه ظل مسكونا يقيم فيه عدد من كبار

ذكرت المصادر التقلات التي حدثت في مقام الخلفاء الاولين لا بين الجانبين فحسب ، بل وفي عدة اماكن من الجانب الواحد ايضا ، وان هذا التنقل كان يصحبه انتقال المتصلين بالخليفة والراجعين له تبعا لتنقله . ومن البديهي ان الذين يعيشون في قصر الخليفة من افراد أسرته وخدمه وعبيده وجواريه ، كانوا يتبعون الخليفة وينتقلون بانتقاله ثم يستقرون في سكناتهم معه .

والمفروض ان الحرس الخاص للخليفة ينتقلون معه ويقيم في او قرب قصره . غير ان افراد الحرس ، وهم احرار وليسوا رقيقا ، كانت لهم أسر متصلة بهم ، والراجع ان أسر الحرس لم تكن تقيم في قصر الخليفة او قربه لان ذلك يعرض الخليفة الى كشف حياته الخاصة واثارة الحسد واحتمال التجسس على حياته الخاصة ، فضلا عن اثره في تشويه الحياة والجمال حول القصر ، غير ان عدم سكن أسر الحرس في قصر الخليفة او حوله لا يعني انها جميعا ظلت في اماكن سكنها الاولى ، والراجع ان عددا غير قليل منهم انتقلوا الى الجانب الذي كان يقيم فيه الخليفة ، وان عددا اخر ظل مقيما في اماكنه القديمة في الجانب الغربي . وفي كلتا الحالتين ينشط عبور النهر ، اما عند نقل أسر او اناث افراد الحرس ، او عند تنقل هؤلاء الافراد او أسرهم اذا كان مقام الاسر في غير الجانب الذي تقتضي واجبات الحرس اقامتهم فيه .

وينطبق على الجند المتصلين بالخليفة مسا ذكرناه عن الحرس في تنقلهم واسرهم بين الجانبين .

وعندما بنى المنصور المدينة المدورة واعمر الجانب الغربي ، جعل الدواوين في داخل المدينة المدورة ، واقطع من كان عليها قطائع قريبة من دواوينهم خارجها ويبدو ان معظم الكتاب استوطنوا محلة الانباريين على الصراة قرب باب البصرة خارج المدينة المدورة . والراجع ان قرب الدواوين من مقام الخليفة وقرب سكن الكتاب من الدواوين ظل طيلة حياة المنصور ، اما الكتاب الرئيسيين الذين كانوا يقومون بعمل الوزارة ، فكانت لكل منهم اقطاعات في الاربابض التي حول المدينة وخاصة في شماليها ، فمساكن هؤلاء « الوزراء » غير بعيدة عن قصر الخليفة ولا يحتاج الاتصال بينهما الى عبور النهر .

غير ان المهدي اقام عندما ولي الخلافة ، في الجانب الشرقي ، في الرصافة اولاً ثم في عيساباذ فيما بعد . اي انه نقل مقام الخلافة الى الجانب

الشرقي الذي لم يستقر فيه في مكان واحد ، وكان لوزرائه والمقربين اليه اقطاعات في الجانب الشرقي ، الامر الذي يدل على سكناتهم في ذلك الجانب قريبا من الخليفة .

اما الدواوين فليست لدينا نصوص واضحة عن مواقعها في زمن المهدي ، والراجع انها انتقلت الى الجانب الشرقي الذي لم يكن يتم بدون عبور النهر . والواقع ان الدواوين اذا كانت قد بقيت في زمن المهدي والهادي في الجانب الغربي فان ذلك كان يتطلب عبور الوزراء والكتاب باستمرار للتوفيق بين الاتصال بالخليفة والاشراف على سير الدواوين اما اذا كانت الدواوين قد انتقلت الى الجانب الشرقي ، فان انتقالها يستلزم نقل الكتاب محل سكناتهم ليكونوا بقربها ، او تنقلهم باستمرار اليها اذا ظلوا يقيمون مع أسرهم في الجانب الغربي . ومن المعلوم انه كان يستخدم في الدواوين كتاب يختلف عددهم وتنظيمهم ومقدار روايتهم باختلاف الدواوين ومراكزهم فيها ، وهم يتميزون بالستهم وبالتقاليد التي يسرون عليها في حياتهم وفي اساليب عملهم . وكان عملهم يوميا ومنتظما ويخضع الى اشراف دقيق ودخهم محدود ، فكان راتب الرؤساء منهم ثلاثمائة درهم في الشهر ، وراتب الاعتياديين ثلاثين درهما (٨٠) في الشهر وهو مبلغ لا يمكن من حياة مادية مترفة فضلا عما يهددهم من اخطار العزل والبطالة ، وكان هذا يقضي عليهم الإقامة بقرب دواوينهم وان تيسر لهم وسائل الوصول الى دواوينهم .

يتبين من كل ما ذكرنا ان الحاجة الى عبور دجلة لتأمين الاتصال بين الجانبين قد بدأت منذ اوائل تأسيس بغداد في الجانب الغربي ، غير انها اتسعت بعد اعمار الجانب الشرقي ، وازدادت شدة على اثر نقل الخلفاء مراكز اقامتهم من جانب لآخر . وكانت هذه الحاجة شاملة ، ولكن بدرجات متفاوتة ، لانواع متعددة من المنتجات الغذائية والسلع التجارية ، وذلك لاصناف كثيرة من الناس ، وخاصة العمال والصناع واصحاب الاعمال والكتاب والموظفين والحرس والجند . ولا ريب في ان ازدياد عدد المتصلين بالحكومة ممن يتطلب عملهم التنقل بين جانبي بغداد القى على الحكومة مسؤولية تنظيم هذا الانتقال .

عندما اسس المنصور مدينة السلام في الجانب الغربي من بغداد ، لم يضع في تخطيطه الاول لها

(٨٠) الوزراء والكتاب للجيشياري .

بقوله « واما شاطيء دجلة فمن قصر عيسى الى الدار التي ينزلها في هذا اليوم على قرن الصراة ابراهيم بن احمد فانما كانت اقطاعا لعيسى بن علي - يعني ابن عبدالله بن عباس - واليه ينسب نهر عيسى وقصر عيسى ، وعيسى بن جعفر وجعفر بن ابي جعفر ، واليه ينسب فريضة جعفر .. واما شاطيء دجلة من قرن الصراة الى الجسر ، ومن حدا الدار التي كانت لنجاح بن سلمة ثم صارت لاحمد بن ابي اسرائيل ثم هي اليوم بيد خاقان المفلحي الى باب خراسان فذلك الخلد ، ثم ما بعده الى الجسر فهو القرار نزله المنصور في آخر ايامه ثم اوطنه الامين » (٨٢) . ويقول في مكان اخر « واما شاطيء دجلة من الجانب الشرقي ، فاوله ببناء الحسن بن سهل وهو قصر الخليفة في هذا الوقت ، ودار دينار ودار رجا بن ابي الضحاك ، ثم منازل الهاشميين ، ثم قصر المعتصم وقصر المأمون ، ثم منازل آل وهب الى الجسر كانت اقطاعا لناس من الهاشميين ومن حاشية الخلفاء » (٨٤) .

يظهر مما سبق ان شواطيء دجلة نظرا لتدرج انحدارها وقلة جروفها ورخاوة تربتها تصلح لتكون فيها المشاريع اي :الاماكن التي ترسو فيها القوارب والزوارق التي تفضل المياه الهادئة والشواطيء القليلة للانحدار . ولا ريب في ان وجود القصور يعرقل انشاء المشاريع ، لان لمعظم القصور مسنجات ، ولان اصحاب القصور يفضلون ان تكون المشاريع قريبة منهم وليست في دورهم ، ولعل هذا من الاسباب التي لم تسم - بسببه - اية مشرعة في بغداد باسم صاحب قصر او منتفد ، اللهم الا فريضة جعفر . غير انه يجدر ان نلاحظ ان القصور لم تشغل كل شواطيء دجلة ، فكانت فيها اماكن تصلح للمشاريع .

القناطر والجسور :

مهما كانت الخدمات التي تؤديها والاغراض التي تحققها الزوارق في النقل النهري بين جانبي بغداد فانها لا تكفي للتعويض عن اقامة معابر ثابتة ، حيث ان الكلفة العامة للنقل في هذه المعابر اخص وعدد الايدي العاملة فيها اقل ، ثم انها بتحدد موقعها وتبانيها تكون فاعدة لتنظيم المواصلات وحياة الناس وتنقلاتهم .

والمعابر الثابتة التي يتردد ذكرها في المصادر

انشاء جسر على دجلة ، فلم تذكر المصادر انه جعل على هذا النهر موقعا تتفرع منه طرق ، او انه شيد عليه ما يمهّد لبناء جسر . فقد جعل قصره والجامع في وسط المدينة الدورية التي كان يفصلها عن النهر شريط من الارض اقطعه لبعض اولاده وكان يقابل النهر بمضى سور المدينة ، ولم يجعل فيه بابا مواجهها لدجلة ، كما لم يسم اي باب باسم دجلة . وكان اثنان من ابواب المدينة الاربعة ، هما باب خراسان وباب الشام لا يقع اي منهما مواجهها للنهر ، بل كانا منحرفين عنه .

ودجلة في المنطقة التي بنيت فيها بغداد مجراد بطيء نسبيا ، وخاصة في مواسم انخفاض الماء التي لا تقل عن تسعة اشهر في السنة ، وشواطئه ترابية رخوة معظمها بطيئة الانحدار ولا تكون جسروفا عالية . ومجرها محصور مستقيم تقريبا ليس فيه التواءات حادة كثيرة ، بل توجد فيه نخسعات تدريجية قليلة ، مما يجعل الاماكن الشديدة التيار فيه قليلة . وكانت فيه بعض الجزر ابرزها جزيرتان اولاهما قريبة من الضفة الغربية عند دار عبدالله ابن طاهر ، وكانت كبيرة ذكرت المصادر انه اجتمع فيها مرة عدد كبير من الناس (٨١) وعسكر فيهما بعض الجيش .

والجزيرة الثانية قرب الشاطيء لشرقي عند بستان ام موسى في الحرم ، وقد ذكرها ابو يوسف في كتاب الخراج كمثل للجزر التي تظهر في الانهار ، ونصح بعدم السماح في البناء فيها ، لان ذلك يضر بالابنية التي على شاطيء النهر (٨٢) .

وتقع على شواطيء دجلة بعض القصور التي كان للكثير منها مسنجات ، اي حيطان عمودية تقريبا على النهر لحماية القصر من مياه الفيضان . غير ان الناس عموما لم يفضلوا بناء بيوتهم على الشاطيء ، ولذلك فان معظم قصور وبيوت الكبار والاغنياء كانت بعيدة عن النهر وليست عليه ، ولعل من اهم اسباب ذلك الامن ، اذ ان الدور الشاطئية اذا كانت فيها فتحات وشبابيك فانها تتعرض للسرقة والفرق ، واذا لم يكن فيها ذلك فان فائدة النهر لها تنعدم . وكانت الجوامع الرئيسة والمساجد والدواوين لا تقع على الشاطيء ، الا القليل منها في المهود العباسية المتاخرة . وقد وزع ابو جعفر معظم الاراضي الواقعة على دجلة اقطاعات للعباسيين . وقد اجمل وصف ذلك ابن عرفة فيما نقله عنه الخطيب

(٨٢) الخطيب ١/٩٢ .

(٨٤) الخطيب ١/٩٨ .

(٨١) الطبري ٣ .

(٨٢) الخراج لابن يوسف ٩٢ .

مركزا اداريا محصنا مكتفيا بذاته ، وقد وضع بنفسه تخطيط المدينة الجديدة وجعله بالشكل الذي يحقق اغراضه .

وقد اختار المنصور انشاء مدينته في الجانب الغربي ، وكان اهم ما فيه هو المدينة المدورة التي احتوت قصره ودواوينه والمسجد الجامع ومقام شرطته وحرسه ، وهي محاطة بسور محكم له اربعة ابواب تحكمت فيها التخطيطات الداخلية للمدينة ، ولم يجعل فيها شارعا او بابا متعامدا على النهر ، بل كانت المنطقة الواجهة للنهر يمتد فيها سور بين باب البصرة وباب خراسان ، وكلاهما منحرف عن النهر ، ويحصر بين السور وشاطئ النهر شريط ضيق من الارض توزعت ارضه اقطاعات بنى على كل منها قصر لاحد اولاد المنصور ، فلم تنشأ فيها محلة او يقيم فيها سوق ، اي انها لم تكن مركزا لنشاط سكاني او اقتصادي قد يستلزم انشاء جسر فيها .

وكان اهتمام ابي جعفر عند انشاء بغداد منصبا على الجانب الغربي ، فعمل على ان يعتمد في معاشه على ما تنتجه المنطقة الواقعة حوله ، اي في الجانب الغربي ، وهي منطقة خصبة غنية بمنتجاتها ومرتبطة بالاقاليم الشمالية والغربية والجنوبية ، ولم يراع في تخطيطه الاعتماد الكبير على الجانب الشرقي . والواقع ان اعمار الجانب الشرقي تأخر عن تاسيس المدينة المدورة ، فلم تكمل الرصافة وجامعها الا في سنة ١٥٩ ، اي بعد ان مر على تحول المنصور الى المدينة الجديدة اربع عشرة سنة حدثت خلالها تطورات كبيرة ، حيث نمى الاعداد في الجانب الغربي وازداد سكانه واتسع النشاط الاقتصادي فيه ، وتوسعت علاقته بالجانب الشرقي ، وبذلك ظهرت الحاجة الى ربط الجانبين وانشاء الجسور بينهما .

الجسور الاولى :

ورد عن الجسور الاولى نص رواه كل من الخطيب ، وابن الجوزي وابن الفقيه الهمداني ، ولكن في رواياتهم بعض الاختلافات . فاما الخطيب فانه يذكر بسنده عن محمد بن خلف « قال احمد بن الخليل ابن مالك عن ابيه قال :

كان المنصور قد امر بعقد ثلاثة جسور :

احدهما للنساء ، ثم عقد لنفسه وحشمه

العربية هي اما قناطر او جسور ، فالقنطرة : « ازج يبني بالاجر او بالحجارة على الماء يعبر عليه » (٨٥) اما الجسر فيبنى عادة من الخشب على قوارب ضخمة تثبت بسلاسل ويصف عليها الواح الخشب ليتيسر السير عليها وعبرها . وقد ورد في اخبار خطط بغداد ذكر عدد من القناطر على الترع والانهار الصغيرة ، بعضها مسماة باسم المحلة التي اقيمت فيها ، او النهر الذي نصبت عليه ، ولكن كثيرا منها سميت باسماء اشخاص لم تذكر الكتب التي اهتمت بذكر رجال السياسة والادارة والحرب ، او العلماء شيئا عنهم ، ولذلك لا نستطيع الجزم بسبب هذه التسميات ، وهل انه راجع الى ان الشخص الذي سميت به القنطرة هو رجل محلي مشهور في المنطقة ، ام انه باني القنطرة .

اما الجسور الكبيرة على دجلة فكثرت مما انشاه الخلفاء او اصحاب السلطة في بغداد ، وتكون اقامتها وصيانتها والعناية بها من عمل الدولة نظرا لكلفتها ولتاديتها الخدمات العامة للناس وتحقيقها بعض اغراض الحكومة لنقل الجنود ومستخدمسي الحكومة . وكانت كلفتها في سنة ٣٠٦ هـ ، وهي الوحيدة التي وصلتنا في ذلك ثلاثمائة دينار في الشهر (٨٦) .

يجري دجلة في منطقة بغداد في ارض تربتها رسوبية رخوة خالية من الصخور والحصى ، ويسير مجراه في منخفض من الارض غير عميق ، وبعض مناطق مجراه عريضة واسعة ، وبعضها ضيقة نسبيا وذات جروف عالية خاصة في فصل الصيف الحار وبذلك تكون اشد ملاءمة لنصب الجسور ، وهي مناطق غير قليلة فكانت تنشأ عندها الجسور . ومثل هذه الطبيعة الجغرافية تجعل بالامكان عدم التقيد بنقطة واحدة في انشاء الجسر ، بل الاختيار بين اكثر من بقعة او انشاء اكثر من جسر واحد عبر دجلة ، وان يكون العامل الاساس في انشاء الجسور هو الاحوال الادارية ، او الاجتماعية والاقتصادية .

كان هدف ابي جعفر المنصور من انشاء بغداد واضحا محددا ، وهو ان يتخذ منها مقرا ثابتا لنفسه واهله وحاشيته وحرسه ودواوينه ومع انه ادرك القابلية الجغرافية لهذا الموقع ان يتوسع فيصبح مركزا حضريا كبيرا ذا نشاط اقتصادي واجتماعي واسع ، الا انه اهتم في البداية ان يجعله

(٨٥) لسان العرب ٢١/٦ .

(٨٦) الصابي : الوزراء ٢٦ .

جسر بين باب البستان وكان بالزندورد جسران
عقدهما محمد .

وكان الرشيد قد عقد عند باب الشماسية
جسرين .

وكان لابي جعفر جسر عند سويقة قطوطا .

فلم تزل هذه الجسور الى ان قتل محمد ،
وبقى منها ثلاثة الى ايام المأمون ، ثم عطل واحد (٨٧)

وقد نقل ابن الجوزي هذا النص ، وأشار
الى نقله اياه من الخطيب ولكنه ذكر ان جسر
الزندورد عقدهما المهدي ، كما انه اكتفى من الجملة
الاخيرة من النص بقوله : « فلما قتل الامين
عطلت » (٨٨)

اما ابن الفقيه فقد روى هذا النص كما يلي :

« قال الخليل بن مالك (٨٩) كان المنصور قد
امر بمعد ثلاثة جسور ، جسر يعبر عليه ، وجسر
يرجعون منه ، وجسر في الوسط للنساء . وعقد
بعد ذلك بباب البستان جسرين ، جسر له ولولده ،
وجسرا لخدمه وحشمه .

وعقد الرشيد بعد ذلك عند باب الشماسية
جسرين .

وكان لام جعفر جسر عند مشرعة فرج الرخجي
بالقرب من سويقة قطوطا .

فلم تزل هذه الجسور قائمة الى ان قتل
محمد بن زبيدة ، ثم عطلت الا الثلاثة التي عند
مجلس الشرطة فانها باقية الى وقتنا هذا (٩٠) .

وعند مقارنة الروايات الثلاث يتبين :

١ - لم يذكر المهدي جسر الزندورد ، ولعل
ذلك سقط من النسخ . وذكر ابن الجوزي
ان باني هذين الجسرين هو المهدي ، وبذلك
ازال الالتباس في نص الخطيب عندما ذكر ان

(٨٧) الخطيب ١/١١٦ .

(٨٨) المنتظم ، مخطوطة ايا صوفيا حوادث سنة ١٤٥ (١٢٨) .

(٨٩) ذكر الخطيب « احمد بن الخليل بن مالك بن ميمون بن
سعيد ، ابو العباس مولى علي بن عبدالله بن العباس
بن عبدالطلب ، يعانى الاصل ، ويعرف بجور ، حدث
عن ابي بكر بن عياش وابي اسامة وعبدالله بن قريب
الاصمي وزينب بنت
بن سليمان بن علي بن
عبدالله بن عباس » (١٢١/٤) ولم يذكر سنة وفاته ،
كما انه لم يترجم لابنه ، ومن الواضح ان جده سعيد
هو مولى علي بن عبدالله ، ويبدو من شيوخه ان اياه
كان معاصرا لهم ، وانه عاش في اوائل القرن الثالث .
(٩٠) بغداد مدينة السلام ٥٥ .

بانيهما هو محمد ، الذي قد يكون المهدي ،
او الامين .

٢ - ان كلا من الخطيب والهمداني ذكر ان المنصور
بنى خمسة جسور ، اثنان منها في باب
البستان ، ولكن نص الهمداني اوسع حيث
بين خصائص واغراض كل جسر .

٣ - ذكر الخطيب ان الجسر الذي عند سويقة
قطوطا عقده ابو جعفر . اما الهمداني فذكر
ان الذي عقده هو ام جعفر ، ولا ريب في ان
تنظيم سياق النص يرجح رواية الهمداني .

{ - ان الخطيب يذكر انه بعد مقتل الامين بقيت
ثلاثة جسور ، ثم عطل واحد ، اي انه بقي
بعد المأمون جسران .

اما الهمداني فيذكر ان الجسور الثلاثة ظلت
الى زمن الخليل بن مالك .

وعند تنسيق روايتي الخطيب وابن الفقيه
الهمداني يمكن ان نضف الجسور الاولى الى
المجموعات التالية : -

١ - المجموعة الاولى عقدها المنصور ، وتتكون
من ثلاثة جسور احدها للذهاب ، والثاني
للإياب ، والثالث للنساء . ولم يذكر
الخطيب موقع هذه الجسور ، غير انه ذكر
انها بقيت بعد ان عطل منها واحد في زمن
المأمون . اما ابن الفقيه فذكر ان هذه
الجسور الثلاثة المنصوبة القديمة التي عند
مجلس الشرطة ، فانها باقية الى وقتنا
هذا .

٢ - المجموعة الثانية ، وهي الجسران اللذان
عند باب البستان ، احدهما له ولولده ،
والثاني لخدمه وحشمه .

٣ - المجموعة الثالثة وهي الجسران اللذان
بالزندورد ، وعقد عقدهما المهدي .

٤ - المجموعة الرابعة وهي جسر الرشيد
عند باب الشماسية .

٥ - المجموعة الخامسة وهي جسر ام جعفر
عند سويقة قطوطا .

وجسور كل من هذه المجموعات متقاربة وفي
موقع واحد ، وبذلك يمكن اعتبار كل منها «جسرا
واحدا» تيسيرا للبحث .

لم يحدد النص بدقة تاريخ انشاء هذه
الجسور ، علما بان كلا من المنصور والرشيد ظل

في الخلافة زهاء عشرين عاما ، وان كلا من المهدي والامين ظل في الخلافة زهاء خمسة اعوام .

ويلاحظ ان المجموعة الاولى تتكون من ثلاثة جسور : وان المجموعة الخامسة تتكون من جسر واحد ، اما المجموعات الثلاث الاخرى فيتكون كل منها من جسرين . وقد حدد النص اغراض كل من الجسور التي عقدها المنصور ، فاما المجموعة الاولى فاحد جسورها للذهاب ، والثاني للاياب ، والثالث وهو الوسط للنساء .

واما المجموعة الثانية فهي جسران احدهما لنفسه ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه . اما جسرا كل من المجموعتين الاخرين فلم يحدد النص الغرض من كل منهما . وصراحة النص تنفي اي زعم بان كل مجموعة كانت جسرا واحدا قسم الى ثلاثة اقسام لغرض تنظيم السير فيه .

غير ان حرفية النص تثير بعض التساؤلات ، ومنها :

١ - ما هي الاسباب التي دفعت الى انشاء جسرين ، او ثلاثة ، في مكان واحد بدلا من انشاء جسر واحد ؟ هل ان ذلك راجع الى قصور في فن بناء الجسور ، كمدام اتقان انشاء قوارب ضخمة تكفي للجسر الكبير ؟ ام انه لغراض امنية وتنظيمية ، وان ما ذكره عن المجموعة الاولى التي اُخذ جسورها للذهاب والاخر للاياب ينطبق على جسور المجموعات الاخرى ؟

٢ - ان ادعاء النص ان جسري المجموعة الثانية كان احدهما للخليفة ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه ، يعني انها كانت جسورا خاصة للخليفة وتوابعه وليس للعامة ، وهذا لا ينسجم مع الاتجاهات السياسية العامة للخليفة المنصور ، فهل ان النص دقيق ومنطبق على الواقع ؟ وهل ان جسري المجموعتين الثالثة والرابعة كانت لنفس الاغراض ؟ علما بان المجموعة الاولى التي عند درب سليمان لم تذكر المصادر التالية انها كانت ثلاثة جسور ، بل تردد انها جسر واحد . فهل ان هذا يعني ان النص غير دقيق ، ام ان جسور المجموعة الاولى ، على الاقل ، ادخلت عليها تفسيرات فيما بعد فصارت جسرا واحدا .

لقد بينا ان نص الخطيب لم يذكر موقع

جسور المجموعة الاولى كما لم يصرح بالمجموعة التي بقيت جسورها بعد المأمون ، اما ابن الفقيه فقد نص ان الجسور عطلت « الا الثلاثة المنصوبة القديمة التي عند مجلس الشرطة فانها باقية الى وقتنا » . ومعنى هذا ان هذه الجسور عند درب سليمان ، وستحدث عنها فيما بعد بتفصيل اوفى .

اما المجموعة الثانية فقد اتفق الخطيب وابن الفقيه على انها كانت في باب البستان ، ويظهر سياق النص ان هذا الموقع كان ثابتا مشهورا في تاريخ كتابة النص ، غير ان النص لم يذكر في أي من جانبي بغداد يقع باب البستان ، ولا اسم المكان الذي امتد اليه الجسر في الجانب المقابل ، ولما كانت المصادر لم تذكر بستانا مشهورا ، او باب بستان في الجانب الغربي (٩١) ، فلا بد ان يكون باب البستان هذا يقع في الجانب الشرقي من بغداد .

اما في الجانب الشرقي فان الخطيب ذكر باب البستان فيه في عدة مواضع من كتابه (٩٢) . غير انه لم يذكر اسم البستان الذي نسب اليه هذا الباب ، كما انه لم يشر الى موقعه بدقة .

وذكرت بعض كتب التاريخ باب البستان وما فيه من معالم . فقد ذكر الصابي ان فيه دار علي ابن عيسى (٩٣) ، وذكر مسكويه ان فيه دارا لابن مقلة (٩٤) . وذكر الصابي في موضع من كتابه ان دار علي بن عيسى تقع في بستان الزاهر (٩٥) ، كما ذكر ابن الجوزي ان دار ابن مقلة في ذلك البستان ايضا (٩٦) ، وهذا يقطع بان البستان الذي نصب الجسر ببابه هو بستان الزاهر . وذكر سهراب موقع بستان الزاهر حيث ذكر ان نهر موسى يمر « ملاصقا لقصر المعتصم الى ان يخرج الى الشارع الاعظم ، ثم يخرج الى شارع عمرو الرومي ، ثم يدخل بستان الزاهر فيسقيه ، ثم يصب في الدجلة

(٩١) ورد ذكر لبستان ام القاسم ابنة المنصور بباب الشام (طبري ٢/٤٤٥) ، وبستان مؤنسه الذي انطده طاهر بن الحسين مقرا عند حصاره بغداد ، وهو بباب الأبرار (طبري ٢/٩١٧ ، ٩٢٤ وانظر ايضا ٨٦٧ ، ٩٢٤) فير ان كلا من الموقعين بعيد عن نهر دجلة .

(٩٢) انظر الخطيب ٥/١٢٢ ، ١٤٨ ، ٢٦٨/٩ ، ٥٦/١١ وقد ذكر في الملائين الاخيرين المقبرة التي كانت في باب البستان .

(٩٣) الوزاء ٢١١ ، ٢٣٦ تكملة الطبري ٥ .

(٩٤) مسكويه ١/٢٦٥ تكملة الطبري ٧٨ .

(٩٥) الوزاء ٢٩١ .

(٩٦) المنتظم ١/٢١٠ .

التي تنحرت تحتها اللبائع (٢٥٥/٢) وكل هذه الابواب من دار الخلافة وهي بعيدة عن النهر .

من باب الأزج الى الشفيعي ، وارضا كلها فواكه
واترج واعناب ، وهي من اجود الاعناب التي تعمر
ببغداد «(١٠١)» .

ومن المعلوم ان باب الأزج يقع عند مرقند
الشيخ عبدالقادر ، وذلك يقتضي ان يكون موقع
هذا الجسر من الجانب الغربي بين موقع الشواكه
والصالحية ، اي انه جهة جسر الاحرار او جسر
الجمهورية .

يذكر النص ان المهدي انشا هذا الجسر
لنفسه ، اي لخدمه اغراض محدودة بالخليفة
وليس للاغراض العامة ، خاصة وان اعمار الجانب
الغربي لم يتجاوز في العصور العباسية نهر عيسى
الذي كان يصب قرب جسر الشهداء الحالي ، جعل
فوائده العامة محدودة ، ولعل هذا من اسباب
نعطله بعد فترة وجيزة من عقده ، وانه لم يعقد
مكانه بعد ذلك اي جسر .

اما المجموعة الرابعة فهي جسر باب
الشماسية اللذان عقدهما الرشيد ، وموقعها
يقتضي ان تكون نهايتها الغربية عند قطعة ام جعفر
اي قرب المحيط في الكاظمية . ولا ريب في ان هذه
المجموعة يمكن ان تخدم اغراضا عامة لانها تصل
بين منطقتين كانتا مزدهرتين ، وهما الشماسية
وقطعة ام جعفر ، كما انها تيسر اتصال الجانب
الغربي بطريق خراسان وطريق سامراء اللذين كانا
يعبران بجهة الشماسية .

اما المجموعة الخامسة فهي الجسر الذي
عقدته ام جعفر « عند سوقة قطوطا » في نص
الخطيب ، او « عند مشرعة فرج الرخجي بالقرب
من سوقة قطوطا » في قول ابن الفقيه الهمداني .

فاما سوقة قطوطا فقد ذكر الطبري ما يحدد
موقعها حيث قال في كلامه عن الاضطراب ببغداد
سنة ٢٥٥ « ومضى ابن اوس من وجهه الى منزله .
وكان ينزل في دار لال احمد بن صالح بن شيرزاد
بالدور مما يلي قصر جعفر بن يحيى ابن برمك ،
وجد اهل بغداد في آثارهم والقواد معهم حتى
تلقوهم ، فكانت بينهم وقعة بالدور . . واعان
ابن اوس جيرانه من اهل سوقة قطوطا واصحاب
الزواريق من ملاحي الدور »(١٠٢) . وواضح من
هذا النص ان سوقة قطوطا تقع قرب الدور التي
فيها دار آل شيرزاد وقصر جعفر البرمكي .

(١.١) بالوت ٦٦٥/٢ وهما النص ملقود من مخطوطة الديارات
التي نشرها الاستاذ كوركيس عواد .

(١.٢) الطبري ١٧٢/٢ .

اسفل البستان بشيء يسير»(٩٧) . ويتبين من
وصف سهراب لانهار الجانب الشرقي ان بستان
الزاهر يقع اسفل المخرم ، ولما كان موقع المخرم
عند العيوانية الحالية ، فيكون البستان الزاهر
عند موقع مدينة الطب او وزارة الدفاع ويكون
موقع المجموعة الثانية من الجسور ، عند جسر
باب العظم الحالي .

ذكر يعقوب بن سفيان الفسوي انه في « سنة
١٥٧ ابنتى ابو جعفر قصره الذي يعرف بالخلد ،
وفيها عقد الجسر عند باب الشعر »(٩٨) .

ومن المعلوم ان باب الشعر تقع في الجانب
الغربي ، وهي تقابل بستان الزاهر ، كما حددنا
موقعه اعلاه ، لذلك يمكن القول ان هذا الجسر هو
نفس جسور المجموعة الثانية التي ذكرها الخليل
ابن مالك وبين مواقعها بالنسبة للجانب الشرقي .
وبالنظر لاهمية هذا الجسر الموازية لاهمية سابقه ،
فاننا نرجي الكلام عنه الى ما بعد استكمالنا الحديث
عن جسور المجموعات الثلاث التي ذكرها الخليل
ابن مالك .

لقد ذكرنا ان الخليل بن مالك ، فيما نقله
عنه الخطيب وابن الجوزي ذكر ان الخليفة محمد
المهدي كان له جسران بالزندورد ، وانهما مما تعطل
على اثر مقتل الامين ، ولم يرد ذكر هذا الجسر في
النص الذي رواه ابن الفقيه الهمداني الذي اشار
الى زوال كافة الجسور ما عدا التي عقدها المنصور .

فاما الزندورد التي كان الجسران فيها ، فقد
ورد ذكرها في نصين ، احدهما للخطيب حيث قال
« ان المعتد والمعتضد وانكثفي ماتوا بالقصور من
الزندورد »(٩٩) فمن المعلوم ان هؤلاء الخلفاء وافاهم
اجلهم في القصر الحسيني الذي كانوا يقيمون
فيه(١٠٠) ، وهذا يظهر ان الزندورد هي المنطقة التي
كان فيها القصر الحسيني ودار الخلافة التي موقعها
عند شارع البنوك حاليا . اما النص الثاني فهو
الذي رواه باقوت عن الشاشبستي حيث قال
« الزندورد في الجانب الشرقي من بغداد ، وحدها

(٩٧) سهراب ١٢٠ ، الخطيب ١١٥/١ .

(٩٨) المعرفة والتاريخ ١٤٤/١ ، الخطيب ١١٦/١ . وقد ذكر
الطبري هذا النص (٢٨٠/٣) دون سند ولكنه اضاف
في كلامه عن الجسر « وجرى ذلك على يد حديد القاسم
الصرفي بامر الربيع الحاجب » ولم يذكر مصدره . وقد
اشار الخطيب في موضع آخر (٧٥/١) الى عقد هذا
الجسر .

(٩٩) الخطيب ٦٩/١ .

(١٠٠) انظر ٢١٢٢/٣ و ٢٢٠٦/٣ ، وعن وفاة هؤلاء الخلفاء .

قصيرة من تشييدها ولم تجر محاولة لاعادة بنائها. وقد ذكرت المصادر تاريخ عقد الجسر الثاني ، وهو سنة ١٥٧ اي في السنة الاخيرة من خلافة المنصور، ولم تذكر هذه المصادر تاريخ عقد الجسر الاول ، وهو الشمالي ، الامر الذي يجعلنا نرجح انه عقد قبل الجسر الثاني ، ومع ان المصادر لم تذكر ما يساعد على تحديد زمن عقده ، الا اننا نرجح انه تم حوالي سنة ١٥٠هـ حين عاد المهدي بجيشه من الري وبدىء ببناء الرصافة في الجانب الشرقي .

لقد انشا المنصور الجسور بعد عدة سنوات من اكمال بناء بغداد وانتقاله اليها ، لذلك يمكن القول انها لم تكن ضمن الخطة الاساسية الواسعة الاولى للمدينة ، وان تاسيسها المتأخر نسبيا يرجع الى ما بعد تاسيس المدينة من حاجات مستجدة كان لا بد من العمل على تحقيقها على ان لا يؤثر ذلك في الاسس التي حرص المنصور على السمسر عليها في تاسيس مدينته ، ولعل من ابرز هذه الاسس هي ان تبقى المدينة المدورة منطقة دفاعية محصنة يقيم فيها مع دواوينه وحرصه ، ولذلك لم يكن في خطته انشاء جسور لربط المدينة المدورة باجزاء اخرى ، فلم يجعل لهذه المدينة شوارع متعامدة على النهر او متصلة بالفرض لتكون منافذ تتصل بالجسور . ويبدو انه عندما اسس مدينته في الجانب الغربي ، وكانت صغيرة نسبيا ، راعى فيها الاعتماد على المناطق والاقاليم الواقعة في غربي دجلة ، فلم يعن بربطها بالجانب الشرقي ، غير انه سرعان ما بدأت تظهر وتزايد اهمية الجانب الشرقي لدرجة انه قرر الاهتمام باعمارها وتوطين الناس فيه ، هذا فضلا عن ظهور اهمية الصلصة بالاقاليم الشرقية الواسعة والغنية .

اختار المنصور للجسر في الجانب الغربي رقعة غير بعيدة عن باب خراسان ، اي في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة المدورة ، فهي متصلة بمنطقة باب التين والحربية والجهات الشمالية التي كانت فيها اقطاعات ومساكن لعدد كبير من الناس اي لمعظم جيشه . حيث ان الجهة الجنوبية كانت في البداية ضيقة الرقعة سكنها العرب والصحابة وكتاب الدواوين ، او ما يمكن اعتبارهم « علية القوم » ولم تتفرع عند راس الجسر شوارع كثيرة، ولكنه ادى بالتدرج الى نمو شارع كبير هو الوحيد الرئيس الذي يتصل بالجسر . وكانت المنطقة التي قرب بدايته القريبة فيها اقطاعات وقصور اولاده، ثم انشا له قصر الخلد ، كما كان فيها بعض المؤسسات العامة كالسجن والشرط . ويلاحظ انه

اما مشرعة فرج الرخجي فلم تذكرها المصادر، والراجع انها كانت قرب دار فرج الرخجي الذي تردد ذكره في المصادر ، فقد ذكر ابن الفقيسه الهمداني انها « فوق سوق يحيى . . وداره اقطاع من الرشيد ، ولم يكن على شاطئ دجلة بناء احكم من بنائها ، ثم هدمت فيما هدم من منازل عمر بن فرج لما قبضت «(١٠٦) وفي قصر فرج التي على دجلة كانت دار طازاد التي نزلها البريدي عندما جاء بغداد سنة ٣٣٣(١٠٤) .

وعند قصر فرج كانت بستان الحميري التي بنى معز الدولة سنة ٣٥٠هـ داره فيها «وهدم ما جاورها من العقارات «(١٠٥) و « قلع الاسواب الحديد التي على مدينة المنصور والتي بالرصافة ، ونقلها اليها ، ونقض قصور الخلافة بسر من راي ، ونزل في السنة ستة وثلاثين ذراعا ، ولزمه على بنائها ثلاثة عشر الف الف درهم «(١٠٦) .

ويتبين مما ذكرناه ان جسر ام جعفر كان باقصى أعلى الجانب الشرقي ، اي فوق باب الشمالية ، قرب الدور ، فهو اذا فوق المجموعة الرابعة التي شيدها الرشيد ، ولم تذكر المصادر المعالم الخطية التي كانت في طرف الجانب الغربي من الجسر .

يذكر الطبري ان طاهر بن الحسين عند حصار بغداد « امر بعقد جسر على دجلة فسوق الشمالية «(١٠٧) . ومن الواضح ان الفرض من عقد هذا الجسر هو تيسير نقل الجند بين جانبي بغداد ، اي لاغراض عسكرية وان عقده يدل على ان جسر الرشيد وام جعفر كانا مخربين ، والا لم تكن هناك حاجة الى عقده .

يتبين من العرض الذي قدمناه ان المجموعتين الاوليتين من الجسور وهي التي عقدها ابو جعفر المنصور ، هي الجسور الاساسية التي ظلت مستعملة حبة طويلة من الزمن ، ولا بد ان هذا يرجع الى ان الجسور الاولى ظلت تؤدي خدمات اساسية للحكومة والناس مما اقتضى العناية بها وصيانتها لضمان بقائها ، اما الجسور الاخرى فلم تكن تؤدي مثل هذه الاغراض ، ولم تعقد في اماكن مهمة ولذلك تطلت منذ ايام المأمون ، اي بعد فترة

(١٠٣) بغداد مدينة السلام ٥٦ ، وانظر ياقوت ٢/٥٢٢ .

(١٠٤) مسكويه ٢/٧٨ ، كلمة الطبري ١٤٤ .

(١٠٥) مسكويه ٢/١٨٢ .

(١٠٦) كلمة الطبري ١٧٩ .

(١٠٧) الطبري ٣/٨١٧ .

ما الجسر الثاني - وهو الواقع جنوب المدينة المدورة ، فقد عقده المنصور في السنة الأخيرة من خلافته . اي بعد ان نقل التجار واصحاب الحرف من المدينة المدورة الى الكرخ التي بدأت تزدهر كمركز للحياة التجارية والاقتصادية ، وقد انشئ هذا الجسر في نفس السنة التي بني المنصور فيها قصر الخلد واتخذ مسكنا له ، ولا بد انه قصد من عقد الجسر الجنوبي ان ييسر للناس الانتقال بين الجانبين ، مع تحاشي المرور من المدينة المدورة او قربها او المناطق الجنوبية من الجسر الشمالي ، اذ ان هذه الاماكن كانت فيها قصوره وقصور اولاده .

لم يكن هذا الجسر يربط بين المدينة المدورة والرافصة ، بل كان يربط الكرخ بالمنطقة المقابلة لها من الجانب الشرقي ، اي انه يربط بين منطقتين كل منهما جنوب المدينة « الرسمية » وخارجة عنها ، فغرضه تجاري صرف ولخدمة الناس ، وخاصة من التجار والصناع واصحاب الحرف . ويقع طرفه الغربي في باب الشعير وهي محلة كانت قد نمت فيها الحياة التجارية ، ولذلك فان عقده يخدم بالدرجة الاولى المناطق الجنوبية من الجانب الغربي ، اي الكرخ الذي يعتبر باب الشعير احد محاله . ويلاحظ ان هذا الجسر انشئ في الوقت الذي كان الجانب الغربي هو مركز الخليفة والدواوين .

والمنطقة التي ينتهي عندها الجسر في الجانب الشرقي لم تكن مزدهرة انذاك ، اذ كانت فيها قصور متفرقة لعدد من افراد الاسرة العباسية الذين كانوا حريصين على الانتقال الى الاجزاء الجنوبية من الجانب الغربي ومما يدل على ضعف اعمارها انذاك قلة الانهار فيها ، حيث ان الانهار فيها مسماة باشخاص ظهر دورهم بعد زمن المنصور ، كما ان سوق الثلاثاء الذي كان يمتد قربه ، لم يرد له ذكر في المصادر الاولى التي دونت المعلومات في اول القرن الرابع او قبله . لذلك يمكن القول بان الجسر انشئ لتيسر اعمال اهل الجانب الغربي ، وانه ادى الى نحو المنطقة التي ينتهي عندها من الجانب الشرقي .

في ثنايا اخبار القرنين اللذين تليا تاسيس بغداد اشارات غير قليلة تتعلق بجسور بغداد ، وقد وردت في هذه الاشارات تماير متنوعة ، منها الجسر ، والجسر الشرقي ، والجسرين ، والجسر الاعلى ، و « رحبة الجسر » و « ناحية الجسر » و « رأس الجسر » و « مجلس الجسر » ..

لم ينشأ عند هذا الجسر سوق كبير مما يدل على ان الغرض الاول من انشائه هو غرض عسكري ، اي لتيسير نقل الجند بين الجانبين .

اما نهاية الجسر من الجانب الشرقي فقد جعلت على بعد من الرافصة التي استهدف من انشائها ان تكون مقرا محصنا لابنه ، فاحاطها بسور وخندق كالذي في المدينة الغربية . ويبدو ان سعة الفسحة امام النهاية الشرقية ، وقلعة الاقطاعات فيها ادى الى إقامة عدة شوارع واسعة صار كل منها سوقا كبيرة فيذكر اليعقوبي عن الجانب الشرقي « وسوق هذا الجانب العظمى التي تجتمع فيها اصناف التجارات والبياعات والصناعات على رأس الجسر ، مارا من رأس الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من اصناف التجارات والصناعات » ثم ذكر ان طرق الجانب الشرقي خمسة .

- ١ - طريق مستقيم الى الرافصة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع .
- ٢ - طريق من السوق الذي يقال له سوق خضير وهو معدن طرائف الصين ويخرج منه الى الميدان ودار الفضل بن الربيع .
- ٣ - طريق ذات اليسار الى باب البردان وهناك منازل خالد بن برمك وولده .
- ٤ - طريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد وإلى الموضع المعروف بالدور الى باب بغداد المعروف بالشماسية ومنه يخرج من اراد الى سر من رأى .
- ٥ - وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتي من الجانب الغربي يأخذ على دجلة الى باب القير والمخرم وما اتصل بذلك (١٠٨) .

ولا ريب في ان هذه الاسواق ازدهرت بعد عقد الجسر ، وان قيام الجسر كان عاملا فعلا في ازدهارها ، وقد يكون لمرور طريق الى سر من رأى وإلى خراسان من هذا الجسر اثر في ازدياد اهميته وفي سرعة نمو هذا السوق ، وعلى اي حال فان الاسواق العمرة في الجانب الشرقي كانت في الشمال ، بعكس الجانب الغربي ، وان كلامنا عن الرافصة والمدينة المدورة ظلت مدينة جامدة تفتقد الحيوية والنشاط .

فاما تعبير « الجسر » ، فقد ورد في بعض النصوص دون تخصيص أو دلالة على موقعه :

فيذكر الطبري ان طاهر بن الحسين عندما كان يحاصر الامين « امر هرثمة ليقطع الجسور » وانه « وثب خزيمية بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى بن ماهان على جسر دجلة فقطعاه » (١٠٩) .

ويذكر الطبري ايضا انه عند مقتل ايتاخ « شجن ابراهيم (والي بغداد) الجسر بالجنسد والشاكرية » (١١٠) .

وفي سنة ٢٥٢هـ حدثت فتنة بين جند بغداد واصحاب محمد بن عبدالله ابن طاهر ، فسار الثوار « ثم مضوا يريدون الجسر في شارع الحدادين ... ودفعوه عن الجسر حتى صروه الى باب عمرو بن مسعدة » (١١١) كما يذكر «الشارع النافذ الى الجسر» (١١٢) .

ويذكر مسكويه انه في سنة ٢٩٨هـ « غرقت فاطمة القهرمانة في طيارها تحت الجسر » (١١٣) .

ويتردد ذكر الجسر عند الصولي ، فهو يقول : « دفن هارون في داره بقرب الجسر » (١١٤) و « نهبت دار علي بن خلف بن طيباب في الجانب الغربي بقرب الجسر » (١١٥) « وان المتقي وابن رائق » .. سار من داره الى الجسر وركب الماء ، وفي الوقت الذي ركب الخليفة الماء من الجسر رجع الى قصره انقطع الجسر وانخلع الكرسي وهو مملوء بالنضارة ففرق خلق كثير من رجال ونساء وصبيان (١١٦) « وانه « سعد ناصر الدولة وقطع الجسر وسار من الجانب الغربي » (١١٧) وان توزون « رحل الى بغداد .. فمضى في شارع المخرم الى الجسر » (١١٨) .

وذكرت المصادر عددا من الولاة « للجسر » .

فيذكر مسكويه ان عبدالله بن طاهر ولسي

« اسحق بن ابراهيم امر الجسر وجمله خليفته » (١١٩) ويذكر الطبري انه في سنة ٢٣٥ « كانت وفاة اسحق ابن ابراهيم صاحب الجسر » (١٢٠) وانه كان « محمد ابن عبدالله بن طاهر على الجسر » (١٢١) .

وذكرت المصادر « باب الجسر » اطلاقا دون ان تحده ، وان كانت تذكر احيانا معالم خطية قد تساعد في تحديده .

فمما ذكره الطبري ان صالح صاحب المصلى تولى القطائع في الجانب الشرقي فله بياب الجسر وسوق يحيى .. مواضع بناء (١٢٢) .

وفي حصار طاهر بن الحسين بغداد « قصد طاهر الى مدينة ابي جعفر فاحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد من لدن باب الجسر الى باب خراسان » (١٢٣) .

وفي سنة ٢٤٩ « اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والتداء ففتحوا سجن نصر بن مالك واخرجوا من فيه وفي القنطرة بياب الجسر » (١٢٤) .

وفي سنة ٢٥٢ حصلت فتنة وكان محمد بن عبدالله واليا على بغداد « فامر الحوائث التي على باب الجسر والتي تتصل بدرب سليمان ان تحرق بيعة ورسره » (١٢٥) .

كما انه يذكر ان العباس بن عبدالله خرج فاتي حسين بن علي « ثم وقف عند باب الجسر » (١٢٦) وانه في سنة ٢٥٠ قتل يحيى بن عمرو واخذ راسه « الى بغداد لينصب بها بياب الجسر » (١٢٧) ، وفي سنة ٢٥١ « صلب الموكل على السور فلم يزل مصلوبا على باب الجسر الى ان انزل مع ما انزل من الرؤوس » (١٢٨) .

وذكر طيفور خبر رجلين تنازعا بياب الجسر (١٢٩) .

(١٠٩) طبري ٩٠٤/٣ ويلاحظ ان الطبري يقول « فقال حسين الطليح لي قطع الجسر » ثم يروي له قصيدة يشر في اولها الى جسر بغداد !

- (١١٩) مسكويه ٥٢ (طيمة كايثاني) .
- (١٢٠) الطبري ١٤٠٣/٣ .
- (١٢١) الطبري ٢٠٢٧/٣ .
- (١٢٢) الطبري ٣٦٧/٣ .
- (١٢٣) كذلك ٩٠٦/٣ .
- (١٢٤) كذلك ١٥١٠/٣ .
- (١٢٥) كذلك ١٦٦٥/٣ .
- (١٢٦) كذلك ٩٥٥/٣ .
- (١٢٧) كذلك ١٥٢٢/٣ .
- (١٢٨) كذلك ١٥٧٩/٣ .
- (١٢٩) طيفور ٤٣ .

- (١١٠) الطبري ١٣٨٥/٣ .
- (١١١) الطبري ١٦٦٥/٣ .
- (١١٢) الطبري ١٦٦٥/٣ .
- (١١٣) مسكويه ٢٠٠/١ .
- (١١٤) اخبار الراصي والمتقي ٧٥ .
- (١١٥) كذلك ١٤٩ .
- (١١٦) كذلك ٢٢٣ .
- (١١٧) كذلك ٢٤١ .
- (١١٨) كذلك ٢٦٧ .

سياقها على ان المقصود هو الجسر الذي يربط
منطقة باب خراسان بباب الطاق .

فقد ذكر « والرابع من باب الشام الى ريبض
حرب وما اتصل بريبض حرب وشارع باب الشام
وما اتصل بذلك الى الجسر على منتهى دجلة ..
ومن باب خراسان الى الجسر الذي على دجلة ماداً
في الشارع على دجلة الى البغيين » (١٢٩) .

وذكر ايضا « ومن باب الشام في الشارع
الاظم الماد الى الجسر الذي على دجلة سوق ذات
اليمن وذات الشمال ، ثم ريبض يعسرف بدار
الرفيق » (١٤٠) .

ثم يذكر « والرابع من باب خراسان الى
الجسر على دجلة ، وما بعد ذلك بازائها الخلد ،
وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض ، وقصر
يشرع على دجلة .. فاذا جاوز موضع الجسر
فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة الجسر ،
فاذا جاوزت ذلك فاول القاطن قطعاً سليمان بن
ابي جعفر » (١٤١) .

ووصف اليعقوبي بعض اماكن الجانب الشرقي
من الجسر فقال « طريق الجسر من دار خزيمة الى
السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد (برمك ؟)
والي الموضع المعروف بالدور من باب بغداد المعروف
بالشماسية ، ومنه نخرج من اراد من سر من
راى » (١٤٢) .

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه « قصر خزيمة
الذي على راس الجسر » (١٤٣) ، ويلاحظ ان بعض
المصادر ذكرت « درب سليمان بقرب الجسر » (١٤٤)
او « طرف الجسر » (١٤٥) .

وفي المصادر ذكر لمجلس الجسر ، ومجلس
الجسر الشرقي ، ومجلس الشرطة بالجسر . فيذكر
الطبري انه في فتنه المستعنين انتهب مجلس
الجسر (١٤٦) . ويذكر ايضا انه لما ولي يعقوب بن
الليث لصفار الشرط في بغداد ، كان للشرط « اعلام
ومطارد وترسه في مجلس الجسر » (١٤٧) .

وإذا كانت المعالم الخططية التي ذكرت في
النصوص الاربعة الاولى قد تدل على ان الجسر
المقصود هو الذي بين درب سليمان وباب الطاق .
فان الثلاثة الاخيرة ليس فيها دليل قاطع على ذلك .
وذكرت ايضا رحبة الجسر التي اخرج اليها
الحلاج عندما قتل ثم « نصبت راسه يومين على
الجسر » (١٢٠) .

وذكر ايضا راس الجسر اذ كانت « دار عبدالله
ابن عبدالله (ابن طاهر) عند راس الجسر » (١٢١) .
وقد ورد تعبير راس الجسر في الكلام عن دار
خزيمة بن خازم ودار علي بن الجهشيار .

فيذكر اليعقوبي ان خزيمة بن خازم « اقطاعه
على راس الجسر » (١٢٢) ويذكر الخطيبان « دار خزيمة
هي التي صارت لعلي بن الجهشيار » (١٢٣) ويذكر
الهمداني في كلامه عن طاق اسماء « وكان في دارها
التي صارت لعلي بن الجهشيار - بمشرفة الصخر ،
اقتطعها اباها الموفق ، ثم اقطعها ازكوتكين بن
ساتكين » (١٢٤) .

ويذكر الطبري ان « دار علي بن الجهشيار
وكانت في الخراب على باب الجسر الشرقي » (١٢٥)
ويذكر عريب ان « اللصوص كبسوا دار صاحب
الشرطة محمد بن عبدالصمد ، وكان ينزل الجانب
الشرقي في الدار المعروفة لعلي بن الجهشيار » (١٢٦)
ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٣٠٩ هـ « هدم دار علي
ابن الجهشيار » (١٢٧) ويذكر الطبري « دار ابن ابي
ليلى ابن عبدالعزبز ابي دلف وهي دار علي بن
الجهشيار على راس الجسر » (١٢٨) .

ومن العلوم ان طاق اسماء ، ودار علي بن
الجهشيار تقع على راس الجسر الذي بدايته من
الجانب الغربي عند درب سليمان فيكون هو المقصود
بهذه النصوص .

وذكر اليعقوبي « الجسر » في نصوص يدل

-
- (١٢٠) الخطيب ١٢٦/٨ تكملة الطبري ٢٥ .
 - (١٢١) الطبري ٢١٥٩/٣ .
 - (١٢٢) البلدان ٢٥١ .
 - (١٢٣) الخطيب ٩٢/١ .
 - (١٢٤) بغداد مدينة السلام ٥٥ وانظر بالوقت ٤٨٩/٣ .
 - (١٢٥) الطبري ١٢٢٢/٣ .
 - (١٢٦) هريب ٥٦ .
 - (١٢٧) التنظم ١٥٩/٦ .
 - (١٢٨) الطبري ٢١٢٢/٣ .
 - (١٢٩) البلدان ٢٤٢ .
 - (١٤٠) البلدان ٢٤٨ .
 - (١٤١) البلدان ٢٤٩ .
 - (١٤٢) البلدان ٢٥٣ .
 - (١٤٣) التاريخ ٢١٠/٣ .
 - (١٤٤) اخبار الراعي والتقي ٢٠٩ .
 - (١٤٥) الخطيب ٥٨/١١ .
 - (١٤٦) الطبري ٢١٢١/٣ .
 - (١٤٧) الطبري ٢١١٢/٣ .

ويذكر الجهشيارى ان الرشيد « جلس في مجلس الجسر الشرقي واحرق جثة جعفر بن يحيى البرمكي » (١٤٨) .

ويذكر الطبري ان العامة في فتنة المستعين « هاجموا ابا مالك الموكل بالجسر الشرقي ، فدخل داره وخلصهم فانتهبوا ما في مجلسه » (١٤٩) .

غير انه يذكر ان الموفق امر ان تقطع يد الدويني ورجله من خلاف « فقطع في مجلس الجسر بالجانب الغربي » (١٥٠) .

فاما مجلس الشرطة بالجسر فقد اوردنا من قبل النص الذي جاء في اليعقوبي عند وصفه المعالم الخططية في الجانب الغربي حيث قال : « فاذا جاوز موضع الجسر ، فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة الجسر » (١٥١) .

وذكر طيفور : « وكان صاحب الجسر اذا انصرف عياش من مجلسه جلس في المسجد الذي في ظهر مجلس الشرطة ، وكان الاخر اذا انصرف السندي صار الى مسجد حسنه ام ولد المهدي ، وهو المسجد الذي يباب الطاق في الحدادين ، وهناك دار حسنه » (١٥٢) .

وذكر الصولي انه « وصل ابو بكر بن مقاتل الى مجلس الشرطة من الجانب الغربي فرأى الجسر مقطوعا » (١٥٣) .

وذكر الطبري انه « سار جماعة من الفوغاء والعامة الى المجلس الذي يعرف بمجلس الشرطة في الجسر من الجانب الشرقي .. وتهدم حيطان مجلس الشرطة » (١٥٣) .

ويبدو من سياق الحوادث ، ومن المعالم الخططية المذكورة في هذه النصوص ان « الجسر » المذكور فيها هو الجسر الذي يمتد بين باب خراسان وباب الطاق ، وان تردد ذكره يرجع الى اهمية موقعه في القرن الثالث الهجري ، حيث كان يربط الارياض الشمالية للمدينة المدورة مع المناطق الشمالية للرافضة ، ويمر به طريق خراسان

وسامراء ، ولذلك فان تجارات المشرق تمر به ، كما انه وسيلة الاتصال بين الحربية وما حولها بالاطراف الشمالية من الجانب الشرقي وبالرافضة ، التي كانت قد اذمت حركة اقتصادية نشطة ، وان وروده في الكتب باسم « الجسر » كاسم علم يدل على اهميته وشهرته ، ولا يستلزم حتما ان يكون دليلا على وجود جسر واحد في بغداد ، ولما كان باب الطاق قد اصبح يطلق على الحلة التي فيها قبر ابي حنيفة فيمكن تحديد موقعه التقريبي بين ساحة عبدالمحسن الكاظمي في الغرب ، وبنية دار المعلمين الابتدائية في الغرب والواقع انه توجد اشارات غير قليلة في المصادر الى « الجسرين » و « الجسر الاعلى » و « الجسر الاسفل » .

فاما تعبير الجسرين فقد ورد منذ ايام الرشيد حيث ان الجهشيار قال ان الرشيد عندما عزم على نكبة البرامكة كان السندي بن شاهك « يلي الجسرين ببغداد » وان السندي قال بعد نكبة البرامكة « فلما امسيت قمت ليلتي بالجسر بالجانب الشرقي .. كتاب الرشيد الي بصلب كل نصف على احد الجسرين » (١٥٤) .

وعند مقاتلة الامين امر طاهر بمحاصرة الجسر ، فقال حسين الخليلي :
اناخ بجرى دجلة القطع والقنسا
شوارع والارواح في راحة العضب (١٥٥)

ولما ولي طاهر بن الحسين الشرط استشار الفضل بن الربيع فاختر له « السندي بن يحيى وعياش بن القاسم فولاهما الجسرين » (١٥٦) ، وقد استخلف المأمون هذين الرجلين « على الجسرين » (١٥٧) .

وفي سنة ٢٠٦ هـ ولي عبدالله بن طاهر اسحق بن ابراهيم الجسرين » (١٥٨) .

(١٥٤) الجهشيارى ٢٣٦ ، ويذكر اليعقوبي انه كان « لبغداد يومئذ ثلاثة جسور (التاريخ ١٥٢/٢) .

(١٥٥) الطبري ٩٠٤/٣ .

(١٥٦) طيفور . ويذكر مسكويه ان ابا السرايا عندما اسر « صلب نصفين على الجسرين في كل جسر نصف (مسكويه ٢٤) طبع كائنا في غير ان الطبري يروي انه صلب نصفين على الجسر ، في كل جانب نصف . (٩٨٢/٣)

(١٥٧) طيفور ٩٢ .

(١٥٨) الطبري ١٠٦٢ .

(١٤٨) الجهشيارى ٢٣٧ .

(١٤٩) الطبري ١٦٣٠/٣ .

(١٥٠) الطبري ٢١٠٩/٣ .

(١٥١) البلدان ٢٢٩ .

(١٥٢) طيفور ٤٢ .

(١٥٣) اخبار الرازي والنقي ٢٠٧ .

(١٥٤) الطبري ١٦٦٤/٣ .

الشرقي «١١٧٧» كما ذكر ايضا « صلب بدر القرمطي في طرف الجسر الاعلى ببغداد » (١١٧٨) وعند ما ارتاع اهل بغداد من الزوبزب في سنة ٣٠٤ اخذ السلطان حيوانا « فصلب عند راس الجسر الاعلى بالجانب الشرقي » (١١٧٩) .

ويبدو ان « الجسر الاعلى » هذا هو نفس « الجسر » المشهور بين باب خراسان وباب الطاق، فقد ذكر الخطيب « درب سليمان بن جعفر حيال الجسر الاعلى » (١٧٠) ، وذكر الطبري ان الجند تقدموا في بعض احداث فتنة المستعين « وصاروا الى درب اسد بن مرزبان فشحخوا الشارع النافذ الى درب الرقيق .. ووكلوا بباب درب سليمان بن ابي جعفر جماعة ، ثم مضوا يريدون الجسر في شارع الحدادين .. ودفعوهم عن الجسر حتى صيروهم الى باب عمرو بن مسعدة . وكان ابن طاهر قد اعد سفينة شوك وقصب ليضرم النار ويرسلها الى الجسر الاعلى ، ففعل ذلك ، فاحرقت عامة سفنه وقطعته الى الاخر ، فادركها اهل الجانب الغربي ففروها واطفاوا النار التي تملقت بسفن الجسر .. واحرق ابن طاهر الجسر لما رأى الجند قد ظهروا على اصحابه ، وامر الحوانيت التي على باب الجسر التي تتصل بدرب سليمان ان تحرق بمئة وبيسة ، ففعل ، فاحترق فيها للتجار متاع كثير (١٧١) » .

ان موقع الجسر الاعلى عند درب سليمان يدل على انه هو نفس الجسر المشهور ، كما يدل نص الطبري على انه كان بقرب جسر اخر ، لعله الاسفل الذي سنذكره في الفقرة التالية ، كما ان نص الطبري يدل على ان الجسر كانا متقاربين ، لان النار التي احترقت عامة سفن الجسر الاعلى سرعان ما صارت الى الاخر . وقد يدل هذا على ان احد الجسر كان للذهاب ، والاخر للاياب .

وقد ورد في طيفور ذكر للجسر الاسفل ، اذ ذكر ان المأمون ضرب اعناق اربعة « فلما كان بالفداء صلبهم على الجسر الاسفل » (١٧٢) ثم قال

- (١١٧) الطبري ٢١٩٢/٣
- (١١٨) الطبري ٢٢٤٦/٣
- (١١٩) مسكويه ٢٩/١ المنتظم ١٣٩/٦
- (١٧٠) الخطيب ٢٨٨/١٢
- (١٧١) الطبري ١٦٦٤/٣
- (١٧٢) طيفور ٩٨

وقد صلب بابك في الجانب الشرقي بين الجسرين بمدينة السلام « (١٥٩) » .

ولما سمع اهل بغداد بمقتل عمر بن عبدالله الاقطع وعلي بن يحيى الارمني في الثغور « هاجوا ففتحوا سجن نصر بن مالك واخرجوا من فيه وفي القنطرة بباب الجسر .. وقطعوا احد الجسرين وضربوا الاخر بالنار . وانحدرت سفنه » (١٦٠) .

وفي سنة ٢٥٢ احرق ابن طاهر الجسر لما رأى الجند قد ظهروا على اصحابه (١٦١) .

ولما اشيع موت الموفق اثار ابو الصقر اضطرابا « وقطع الجسرين ووقف قوم على الجسر في الجانب الشرقي يحاربون اصحاب ابي الصقر » (١٦٢) .

وفي سنة ٢٥٥هـ ولي سليمان بن عبدالله ، ابراهيم بن اسحق بن ابراهيم « ما كان الحسين بن اسماعيل يتولاه لعبيدالله من امر جسري ببغداد وطاسيح قطربل ومسكن » (١٦٣) .

وفي سنة ٢٨٥هـ خرج المعتضد من بغداد فاصدا آمد « واستخلف ببغداد صالحا الامين الحاجب وقلده المظالم والجسرين » (١٦٤) .

وكانت « تفقات الجسرين وثمن ما يبذل من سفنهما والفاوس وارزاق الجسارين من جملة ثلاثمائة دينار في الشهر : عشرة دنائير (في اليوم) » وذلك في التقدير الذي وضعه علي بن عيسى سنة ٣٠٦هـ (١٦٥) .

وفي المصادر ذكر للجسر الاعلى ، وترجع اول اشارة اليه الى زمن المهدي حيث يقول الطبري ان المهدي بعد ان قبض على يوسف البرم وجماعته « صلبهم على جسر دجلة الاعلى مما يلي عسكر المهدي (١٦٦) » . ثم ينقطع ذكر هذا الجسر حتى اواسط القرن الثالث ، حيث يترد ذكره ، فقد ذكر الطبري ان ابا الاغر جلب اسرى وجنث قتل ونصبت الرؤوس على راس الجسر الاعلى والجانب

- (١٥٩) الطبري ١٢٣١/٣
- (١٦٠) الطبري ١٥١٠/٣
- (١٦١) الطبري ١٦٦٥/٣
- (١٦٢) الطبري ٢١٢١/٣
- (١٦٣) الطبري ١٧٢٧/٣
- (١٦٤) الطبري ٢١٨٥/٣
- (١٦٥) الوزيد للصابي ٢٦
- (١٦٦) الطبري ٢٧١/٣

ان المأمون بعد ذلك « امر بانزالهم ، وكانوا مصليين على الجسر الاسفل » (١٧٣) .

وورد في المصادر ذكر « الجسر الاول » فقد ذكر الطبري « الجسر الاول من الجانب الشرقي من الدار التي لمبيدالله بن عبدالله » (١٧٤) الا ان المصادر لم تذكر موقع هذه الدار مما كان يعيننا على تحديد موقع الجسر .

وذكر اليعقوبي في كلامه عن الطرق الخمسة في الجانب الشرقي « وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتي الجانب الذي يأخذ على دجلة الى باب القير والمخرم وما اتصل بذلك » (١٧٥) ، ويفهم من هذا النص ان الجسر الاول يقع عند باب القير والمخرم ، فهو بعيد عن الجسر الاعلى المشهور بين باب خراسان وباب الطاق ، فيكون موقعه اقرب الى موقع الجسر الذي اقامه المنصور سنة ١٥٧هـ والذي كان بين باب الشعير ومشرعة الروايا .

يتبين مما تقدم انه كان في بغداد في القرن الثالث الهجري جسر مشهور فكان يسمى في المصادر « الجسر » او « الجسر الاعلى » ، وهو يقع بين درب سليمان في الجانب الغربي ودار خزمية في الجانب الشرقي . ولهذا الجسر اهمية كبيرة لوقوعه قرب دور آل طاهر ، ولاة بغداد ، والحريم الطاهري الذي استوطنه اولاد الخلفاء بعد عودتهم من ساءراء ، ولانه كان بقربه مجالس الشرطة ، وكذلك لانه يقع في الجهات الشمالية فهو اقرب الى الحربية والى طريق سامرا .

وبالقرب من الجسر الاعلى كان يقع جسر اخر هو الجسر الاسفل ، وهو اقل شهرة وذكرنا من الاعلى . ومن المحتمل ان هذين الجسرين كان احدهما للذهاب والاخر للاياب . وقد انشأ هذين الجسرين ابو جعفر المنصور الذي كان قد انشأ جسرا ثالثا للنساء ثم بطل استعماله في زمن المأمون لسبب لا نعلمه .

وكان في بغداد جسر اخر سماه اليعقوبي « الجسر الاول » ويبدو انه هو الذي عقده المنصور بين باب الشعير ومشرعة الروايا . ولكن لم تكن له شهرة الجسر الاعلى .

ويتردد في المصادر ذكر « الجسرين » والراجح ان المقصود بذلك مجموعة جسري باب الطاق ، وجسر باب الشعير ، وان قول الخليل ان الجسور ببغداد عطلت بعد مقتل الامين وبقي منها ثلاثة الى ايام المأمون ، ثم عطل منها واحد ، ينبغي ان يفهم منه انه بقيت منها مجموعتان ، وليس جسران .

ويذكر الصولي ان الرازي عمل الجسر الفوقاني بمال اوصى به ابو الوليد من ثلثه ؟ واوصى بان يعمل به الجسر « (١٧٦) ، وابو الوليد هو ناصر الدولة ابن حمدان الذي توفي سنة ٣٢٧هـ ولما كان الرازي توفي سنة ٣٢٩هـ ، فيكون هذا الجسر قد عقد بين سنتي ٣٢٧هـ ، ٣٢٩هـ . وتدل صفته « الفوقاني » على ان موقعه فوق ، او شمالي الجسر المعروف آنذاك ، وهو الجسر الاعلى عند باب الطاق ، وهذا يقتضي ان يكون موقعه عند باب الشماسية .

ويذكر مسكويه انه في سنة ٣٦٣ « انتقل المطيع لله ووالده بختيار وجماعة من الحرم والاولاد الى القصر (الذي) بناه معز الدولة بباب الشماسية على طريق التحصن ، وعقد ابو اسحق جسرا في هذا الموضع على دجلة » (١٧٧) ولابد ان هذا الجسر كان صغيرا ومحدود الغرض .

ويقول ابن مسكويه في كلامه عن اعمار عضد الدولة بغداد سنة ٣٦٩ « وكذلك جرى امر الجسر ببغداد ، فانه كان لا يجتاز عليه الا المخاطر بنفسه ، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه ، فاختر له السفن الكبار المتقنة وعرض حتى صار كالشوارع الفسيحة ، وحصن بالدربزينات ووكل به الحفظة والحراس » (١٧٨) . ويتبين من هذا ان عضد الدولة لم ينشئ في بغداد جسرا ، بل اصلح الجسر القائم ، دون ان يحدد مسكويه موقع هذا الجسر .

يظهر نصا الصولي ومسكويه انه انشئ في سنة ٣٢٨ جسر فوقاني ، ثم انشئ في سنة ٣٦٣ جسر عند الدار المعزية ، وانه كان في سنة ٣٦٩

- ١٧٦) اخبار الرازي والمتفي ١٢٨ .
- ١٧٧) تجارب الامم ٢/٢١٧ .
- ١٧٨) تجارب الامم ٢/٤٠٦ .

- (١٧٣) طيور ١١٢ .
- (١٧٤) الطبري ٢/٢٢٥٢ .
- (١٧٥) البلدان ٢٥٣ .

بعد ان بنى داره المشهورة ، ولكنه لم يبق طويلا
لانه لم يكن يؤدي خدمات عامة واسعة للناس .

اما الجسر المحاذي لسوق الثلاثاء فليس في
المصادر اشارة تساعدنا على تحديد موقعه بدقة ،
لان سوق الثلاثاء كان يقع جنوب المخرم ويمتد
موازيا للنهر ، ولا نعلم فيما اذا كان الجسر يقع في
اول ، او وسط او نهاية سوق الثلاثاء .

وبلاحظ ان بغداد تعرضت منذ اوائل الربع
الثاني من القرن الرابع الهجري الى فتن واضطرابات
واسعة ادت الى تدهور احوال كثير من المناطق
التي كانت مزدهرة من قبل .

فاما في الجانب الغربي فقد جفت كثير من
الانهار التي كان يعتمد عليها السكان ، واخليت كثير
من المناطق ، وخاصة مدينة المنصور المدورة ، التي
صارت تدعى « باب البصرة » كما عم الخراب كثيرا
من المناطق على شاطئ النهر .

واما الجانب الشرقي فقد وصف ياقوت ما
آلت اليه الرصافة وما حولها بعد ان كانت من اكبر
مراكز الحيوية والنشاط الاقتصادي ، فقال :
« وخربت تلك النواحي كلها ولم يبق الا الجامع
وبلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليهم وقوف
وفراشون برسم الخدمة ، لولا ذلك لخربت
وبلصقها محلة ابي حنيفة الامام وبها قبره ، وهناك
محلة وسويق ويلاصقها دار الروم ، ولم يبق شيء
غير هذا » (١٨١) .

والواقع انه جرت محاولات لاعادة اعمار
بغداد ، ومن ابرزها ما قام به عضد الدولة عند
قدمه بغداد سنة ٣٧٢ (١٨٢) ، غير ان هذه المحاولات
لم تفلح في اعادة المناطق المخربة الى ما كانت عليه
من اعمار .

فلما عاد الانعاش الى بغداد في اواخر القرن
الخامس ، صار الازدهار مركزاً في الجانب الغربي
على المحلات الواقعة في اقصى الشمال كالحريم
والمارستان والعنابية ودار الفز ، وكذلك الواقعة

جسر واحد مشهور ببغداد ، وهذا يعني اما ان
الجسرين الاخرين قد زالوا ولم يعد لهما وجود في
زمن عضد الدولة ، او انهما كانا صغيرين وغير
مهمين ، وان الشهرة تركزت في جسر واحد كان
هو العلم « الجسر » . والواقع ان نص مسكويه عن
الجسر زمن عضد الدولة لا يقطع بعدم وجود
جسور اخرى في بغداد .

وبروي الخطيب عن ابي علي بن شاذان
(٣٣٩ - ٤٢٦ هـ) انه قال : « ادركت بغداد ثلاثة
جسور : احدها يحاذي سوق الثلاثاء ، واخر
بباب الطاق والثالث في اعلى البلد عند الدار المعزية
يحاذي الميدان » (١٧٩) وكلمة « ادركت » قد تدل
على ان زمن وجود الجسور الثلاثة كان في ايام صبا
ابن شاذان ، اي حوالي سنة ٣٦٠ ، وان الوضع
قد تبدل في زمن قوله . وهو يذكر ثلاثة جسور
رئيسة دون ان يحدد اهمية كل منها .

وقد تابع الخطيب بعد ما رواه عن ابن شاذان
كلامه فقال : « فذكر لي غير ابن شاذان ان الجسر
الذي كان يحاذي الميدان نقل الى الفرضة بباب
الطاق فصار هناك جسرا ن يضي الناس على احدهما
ويرجمون على الاخر » (١٨٠) ، اي ان الجسر الذي
عند الشماسية نقل الى باب الطاق التي صارت
فيها مجموعة مكونة من جسرين ، احدهما للذهاب
والاخر للاياب . والذي يفهم من النص الاخير ان
جسر سوق الثلاثاء ظل باقيا في مكانه . غير ان
هذا النص لا يذكر التاريخ الذي نقل فيه جسر
الشماسية الى باب الطاق ، ومن المحتمل ان ذلك
تم بعد زمن عضد الدولة ، وعلى اي حال فلا بد
ان يكون قسدا تم قبل سن ادراك الخطيب
(ت ٤٦٣ هـ) .

وبلاحظ ان موقع الشماسية متطرف نسبيا
في الشمال ، وان جسورا اقيمت فيها قبل زمن
مزم الدولة ، ولكن ايا منها لم يبق مدة طويلة لان
فائدته للناس محدودة بسبب تطرف موقعها ،
ولعل هذا الجسر شيده مزم الدولة للافادة منه

(١٨١) ياقوت ٧٨٢/٢ .

(١٨٢) مسكويه ٤٠٦/٢ ، وستفرد لتطور اعمار بغداد بعثا
مستقلا شاملا .

(١٧٩) الخطيب ١١٥/١ .

(١٨٠) الخطيب ١١٥/١ .

قرب نهر عيسى ، اي في اقصى الجنوب . اما الجانب الشرقي فقد تركز الاعمار على المناطق الممتدة من المخرم الى باب الازج ، اي جنوبي المنطقة التي كانت معمرة في القرون الثلاثة الاولى .

اما جسور بغداد بعد عضد الدولة فقد اجمل ذكرها الخطيب تقي الدين هلال بن الحسن حيث قال :

« عقد جسر بمشرفة القطانين في سنة ٢٨٢ فمكث مدة ثم تعطل . ولم يبق ببغداد بعد ذلك سوى جسر واحد بباب الطاق الى ان حول في سنة ٤٤٨ هـ فبعد بين مشرفة الروايا من الجانب الغربي وبين مشرفة الحطابين من الجانب الشرقي . ثم عطل في سنة ٤٥٠ هـ ثم نصب بمشرفة القطانين » (١٨٢) .

فاما جسر مشرفة القطانين فان ابن الجوزي يذكر في حوادث سنة ٢٨٢ « وفي يوم الاربعاء لاربع بقين من جمادى الاولى وقع الفراغ من الجسر الذي عمله بهاء الدولة في مشرفة القطانين بحضرة دار مؤنس ، واجتاز عليه من الغد ماشيا وقد زين بالطارد » (١٨٤) . ويلاحظ انه في تلك السنة تقدم القادر بالله « بعمارة مسجد الحرية وكسوته واجرائه مجرى الجوامع في الصلاة » (١٨٥) ، وانه في السنة السابقة كان ابو الحسن بن المعلم الذي كان قد استولى على امور السلطان « شرع في حفر الانهار المخترقة لاسواق الكرخ وما يتصل بها وجبى من ارباب المقار مالا جزيلا » (١٨٦) ، وهذا يدل على ان تشييد الجسر المذكور هو جزء من خطة عامة لاعادة اعمار الجانب الغربي الذي كان قد انهكته الاضطرابات والفتن الطائفية .

فاما موقع الجسر فيوضحه قول ابن الجوزي انه في « مشرفة القطانين بحضرة دار مؤنس » ، وكانت دار مؤنس تقع في سوق الثلاثاء (١٨٧) ، وقد

صارت المدرسة النظامية فيما بعد « من جملة دار مؤنس » (١٨٨) وكانت هذه الدار من اشهر دور بغداد في القرن الرابع الهجري ، فقد كان ينزلها ابن رائق ، وبجكم ، والبريدي ، وتوزون ، ومعز الدولة ، وعميد الدولة (١٨٩) ، وقد اعاد بهاء الدولة تعميرها بعد ان هدم الدار المعزية واستعمل اجرها في البناء الجديد (١٩٠) ، وتقع دار مؤنس بالقرب من دار الخلافة ، وعلى مسافة من جنوبي النقطة المقابلة لمصب نهر عيسى ، اي ان الموقع التقريبي لهذا الجسر ، هو عند جسر الشهداء الحالي .

فهذا الجسر يربط طرف دار الخلافة بالجانب الغربي .

لم تذكر المصادر سنة تعطل جسر مشرفة القطانين ، ولكن النص يظهر انه عند تعطله وحتى سنة ٤٤٨ هـ لم يكن في بغداد جسر في اسفل بغداد ، وان الاتصال الوحيد بين جانبي بغداد كان عن طريق جسر باب الطاق الذي يقع في جهة متطرفة في الشمال ، فيزيد من العزلة بين دار الخلافة والجانب الغربي .

ويلاحظ ان المقدسي الذي الف كتابه في اواخر القرن الرابع الهجري ذكر في كلامه عن بغداد « الجسر عند باب الطاق الى جانبه بيمارستان بنه عضد الدولة » (١٩١) .

اما الجسر الذي عقد في سنة ٤٤٨ هـ ، فان هلال بن الحسين يذكر انه نقل من باب الطاق . اما ابن الجوزي فيذكر ما يدل على انه جسر قائم بداته حيث يقول في حوادث سنة ٤٤٨ هـ « وفي المحرم ابتدى بعقد الجسر من مشرفة الحطابين الى مشرفة الروايا ، زيد في زوارقه لعلو الماء ، فعصفت ريح شديدة فقطعت الجسر ، فانحدرت زوارقه الى

(١٨٨) تكملة الطبري ١٤٨ .

(١٨٩) عن نزولهم انظر بالتتابع : تكملة الطبري ١١ ، ١١٩/١١٠/١٢٧ ، ٢٢٤/١٣٤/١٤٨/٢١٤ وانظر ايضا عن نزول بجكم بها : مسكويه ١٩٦/١ وعن نزول معز الدولة انظر ايضا رسوم دار الخلافة ١٣٦ المنتظم ١٣٦/٧ وعن نزول ابن رائق فيها مسكويه ٢٥/٢ وعن نزول البريدي مسكويه ٢٥/٢ .

(١٩٠) المنتظم ٣١/٨ .

(١٩١) احسن التقاسيم ١٥ . ويلاحظ ان البيمارستان العسدي بنى على موقع الطبق قرب درب سليمان .

(١٨٢) الخطيب ١١٦/١ .

(١٨٤) المنتظم ١٧١/٧ ، والراجح ان هلا الجسر هو الذي ذكره ابن الجوزي في ترجمته فخر الملك وزير بهاء الدولة انه « عمل الجسر ببغداد وكان قد نسي وبطل وعمل له درابزينات » (المنتظم ٢٨٦/٧) .

(١٨٥) المنتظم ١٧١/٧ .

(١٨٦) المنتظم ١٦٨/٧ .

(١٨٧) مسكويه ٣١٦/١ تكملة الطبري ١١٠ .

الدراعين ؟ « (١٩٢) ويلاحظ انه في السنة السابقة قدم طفرل بغداد ، واتخذ مقامه بدار المملكة عند المخرم ، وان هذا الجسر يقع فيما يظهر جنوبي المخرم .

لم يذكر ابن الجوزي مصر الجسر بعد ان صفت به الريح ، ولكن يبدو انه اعيد تشييده ، فكان الجسر الوحيد الذي يربط الجانبين .

يذكر هلال ان الجسر عطل في سنة ٥٠٠ ، اما ان الجوزي ، فيذكر انه في سنة ٥٠٠ زادت دجلة زيادة كبيرة (١٩٢) ، ولعل هذه الزيادة هي التي ادت الى قطع الجسر ، ولكن في تلك السنة شرع الباسيري « في اصلاح الجسر فعمدة بباب الطاق وعبر عكره » (١٩٤) ، اي ان الباسيري نقل الجسر الى باب الطاق . ويلاحظ ان الباسيري كانت داره في الحريم الطاهري ، وان الجانب الشرقي كان قسمه العلوي قد خرب آنذاك ، فاعادة الجسر الى باب الطاق كان بديع شخصي وعسكري من الباسيري .

وفي سنة ٥٢٥ قام السلطان داود « بقطع الجسر من راس نهر عيسى ، ونصب بباب القربة يوم الاحد ٢٣ ذي القعدة ، فكثرت الاراجيف لنقله وصار متنزها مليحا يجتمع الناس بعد العصر تحت الرقة كما كانوا يجتمعون في الرحبة » (١٩٥) وهذا معناه ان الجسر الذي كان عند نهر عيسى قد نقل فلم يبق مكانه جسر . ومصب نهر عيسى عند ثانوية الكرخ حاليا .

ويذكر سبط ابن الجوزي انه في سنة ٥٤٣ قطع الجسر ببغداد ، ويقال ان شحنة مسعود قطع الجسر ، وكان الفزنوي الواعظ تولى عمله ، وعمل له درابزينات من الجانبين (١٩٦) ، وهو يذكر « المشهور في الوعظ ان الفزنوي الذي يعظ ببغداد هو ابو الحسن علي بن الحسين الفزنوي ووعظ بها ونصر مذهب الاشعري » (١٩٧) ، ولم اجد في المصادر

ذكر لزم تجديد الفزنوي ، ولا ما يدل على المقصود من القطع ، وهل هو دائم ام مؤقت .

وفي سنة ٥٥٢ توترت العلاقة بين الخليفة ومحمد شاه ، واستعد الطرفان للقتال « وضرب محمد شاه بالدخلة لقطع الجسر ، وجيء به الى التاج » (١٩٨) اي انه نقل الى جنوب باب الضربة ، ويلاحظ انه في خلال هذه الحوادث عاد اصحاب محمد شاه « ونصبوا الجسر وعبر اكثر المساكر » (١٩٩) ثم « قطع كوجك الجسر وقلع الخيم وضرب النار في زوارق الجسر » (٢٠٠) وعلى اي حال فهو غير الجسر الذي نقل الى التاج ، ويلاحظ ان قصر التاج من قصور دار الخلافة التي تقع عند شارع البنوك وشارع النهر ، اي ان الجسر نقل من موقعه عند مصب نهر عيسى (قرب جسر الشهداء الحالي الى موقع قرب السفارة البريطانية الحالي .

ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٧٠ « نصب جسر جيد امرت بعمله جهة من جهات المستضيء بامر الله تلقب بنفسه وكتب اسمها على حديدة في سلسلة ، وجعل تحت الرقة مكان الجسر العتيق ، وحمل الجسر العتيق الى نهر عيسى الى ان حول في هذه الايام نحوا من خمسين سنة ، فوجد الناس له راحة تامة بوجود جسرين (٢٠١) » ، ويقول ابن الكازروني انه في ايام المستضيء « عمل جسر ومد على دجلة مع الجسر العتيق ، وعبر الناس عليه في اواخر المحرم سنة ٥٧٠ » (٢٠٢) ، ويذكر ابن الساعي ان بنفسه امرت بعمل جسر على دجلة (٢٠٣) .

ولما زار ابن جبير بغداد سنة ٥٧٩ نزل المربعة « على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمدها السيلي ، فساد الناس يعبرون بالزوارق . . . والمادة ان يكون لها جسران : احدهما

- ١٩٨) المنتظم ١٠/١٦٩ .
- ١٩٩) المنتظم ١٠/١٧٤ .
- ٢٠٠) المنتظم ١٠/١٧٥ .
- ٢٠١) المنتظم ١٠/٢٥٠ .
- ٢٠٢) خلاصة الذهب المسبوق ٢٢٩ .
- ٢٠٣) الجامع المختصر ٨٥ .

- ١٩٢) المنتظم ٨/١٦٩ .
- ١٩٣) المنتظم ٨/١٩٨ .
- ١٩٤) المنتظم ٨/١٩٢ .
- ١٩٥) المنتظم ١٠/٢١١ .
- ١٩٦) مرآة الزمان ٨/١٩٦ .
- ١٩٧) مرآة الزمان ٨/١٤٢ ، وانظر من وعظه ١٨٤ .

نما يقرب من دور الخليفة والآخر فوفه ، لكثرة الناس ، والعبور في الزوارق لا ينقطع «(٢٠٤) .

ومن الواضح ان الجسر الذي يذكر ان سد دجلة جرفه ، هو الذي عند الرقة التي تقابل دار الخلافة غير انه لم يذكر موقع الجسر الاخر الذي اشار اليه ، ولا فيما اذا كان هذا الجسر المجروف قد اعيد تصليحه .

ويذكر ابن الطقطقي الذي الف كتابه سنة ٧٠٠هـ « ان الظاهر (٦٢٢ - ٦٣٦) هو الذي عمل هذا الجسر الجديد الموجود الان ببغداد «(٢٠٥) غير ان ابن الطقطقي لم يذكر موقع هذا الجسر الجديد ، ولا الجسور الاخرى ، ان وجدت .

ولما حاصر هولاءو ببغداد امر بانشاء جسرين واحد اعلاها والاخر اسفلها(٢٠٦) بالطبع ان هذين الجسرين انشأ لاغراض عسكرية مؤقته ولا علاقة لهما بالجسور الاخرى القائمة ، ان كانت موجودة .

ولما زار ابن بطوطة العراق كان « لبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة ، والناس يعبرونها ليلًا ونهارًا رجلا ونساء ، فهم في ذلك في نزهة «(٢٠٧) غير انه لم يذكر موقع اي من هذين الجسرين .

المشاعر :

من أبرز الخصائص التي تميزت بها منطقة بغداد التي اختارها المنصور لتشييد عاصمته فيها هو انها تتصل بمختلف المراكز الفنية في الدولة عن طريق المواصلات النهرية . ورغم كثرة الترع والانهار التي تجري فيها الزوارق ، فان دجلة هو الشريان الرئيس الذي تعتمد عليه ببغداد في المواصلات النهرية . وهو نهر يتميز بمرضه ووفرة مياهه ، وخاصة في فصول الشتاء والربيع واولل الصيف ، وقاعه غير عميق ، وشواطئه مكونة من تربة رسوبية رخوة ، ومجره غير مستقيم او ثابت ،

(٢٠٤) الرحلة ٢١١ طبعة حسين نصار .

(٢٠٥) الفكري ٢٨٧ طبعة علي الجارم .

(٢٠٦) العراق في عهد المغول الايلخانيين للدكتور جملسر

خصيله نقلًا عن نصر الدين الطوسي ٥٢ .

(٢٠٧) تحفة النظار ١٤٠/١ طبعة الاثرية .

كما ان فيه عدداً من الجزر . وقد بنيت على ضفتيه قصور لم تكن كثيرة العدد بالنسبة الى سعة بغداد وازدهار حضارتها وطول بقاء الخلافة فيها . ويلاحظ ان القليل من هذه القصور والدور الشاطئية كانت لها مسنبات قوية وكبيرة .

وبالنظر لقلّة الجسور في بغداد ، فقد اعتمد السكان في تنقلهم بين الجانبين على الزوارق ، وقد روت المصادر كثرة الزوارق في بغداد فيروى الخطيب عن هلال بن الحسن انه « احصيت السميريات المبرانيات بدجلة في ايام الناصر لدين الله وهو ابو احد طلحة الموفق ، فكانت ثلاثين الفا . قدر من كسب ملاحها في كل يوم تسعون الف درهم «(٢٠٨) . ومن المعلوم ان استعمال السميريات يتطلب وجود مشارع . اي مناطق منخفضة ومستوية تصلح لوقوف الزوارق واستخدام اناس لها .

وتتطلب لمشارع اماكن ملائمة لوقوف الزوارق بحيث يستطيع الناس الركوب فيها او النزول بسهولة وسر ، وقد ذكرنا ان انبساط مجسرى دجلة وتربة شواطئه الرسوبية وقلّة المسنبات عليه توفر اماكن كثيرة لهذا الغرض .

وتتوقف اهمية المشرعة على مدى حاجة الناس الى العبور من منطقة معينة دون اخرى ولذلك تزداد اهمية المشارع في المناطق القريبة من الاسواق حيث تزداد الحاجة الى نقل السلع او اهل الاعمال والمصالح بين الجانبين . فظهور المشارع وانتعاشها او انحطاطها يرتبط الى حد كبير بمدى ازدهار الحركة الاقتصادية . غير ان المشارع تحتفظ عادة باسماءها القديمة التي كانت تسمى بها عند بدء استعمالها . ومعظم معلوماتنا عن المشارع مستمدة من اخبار القرن الرابع الهجري فما بعد . غير ان كثيرا من المشارع التي ذكرت خلال ذلك او بعدها كانت مستعملة قبل ذلك التاريخ ولكننا لا نستطيع الجزم بتحديد الزمن الذي بدء فيه استعمالها ، رغم ما لهذا التحديد من اهمية لمعرفة بداية وتطور الازدهار الاقتصادي والحضاري في مناطق بغداد .

(٢٠٨) الخطيب ١١٧/١ .

وتكون الشارع عاده متفابله بين الجانبين ، أي ان كل مشرعة تقابلها اخرى في الجانب الاخر ، ولكن ليس من الضروري ان يكون التقابل تاما او دائما ، لان وجود المشرعة يتوقف على طبيعة الشاطيء وعلى منافذ المسالك العامة .

فاما مشارع الجانب الغربي فقد ورد في الاخبار ذكر عدد منها :

١ - مشرعة باب البصرة وقد ورد ذكرها حيث نزلها قريش بن بدر بن عندما كان يقاقل البساسيري الذي كان في مشرعة الروايا (٢٠٩) . وباب البصرة كان يطلق في الاصل على الباب الجنوبي الشرقي من مدينة المنصور المدورة ، وموقعه على مسافة من شاطيء النهر . ثم صار الاسم يطلق منذ اواسط القرن الخامس الهجري على محلة واسعة تشمل كل المدينة المدورة . فموقع هذه المشرعة اما قرب من باب البصرة الاول ، او في الطرف الشرقي من المدينة المدورة ، اي انها عند مكان سايلو الحبوب حاليا او في شماليه .

٢ - مشرعة المارستان التي نقل اليها البساسيري عسكري (٢١٠) ولعلها كانت عند المارستان العضدي الذي شيد في مكان قصر الخلد .

٣ - مشرعة الرباط ، وقد ورد ذكرها في حوادث القرن السادس (٢١١) ولكن لم اجد اشارة تساعدني على تعيين موقعها ، والراجح انها قرب مصب نهر عيسى حيث توجد عدة ربط .

٤ - مشرعة الساج . وقد ذكرت في اخبار اوائل القرن الرابع الهجري حيث استتر عندها سلامة سنة ٣٢٢ (٢١٢) ، وكان فيها دار ابن (٢١٣) عبدون وكذلك الدار المعروفة بالوزة (٢١٤) ، كما دفن عندها علي بن محمد بن بشار (٢١٥) الذي لا

- ٢٠٩) المنتظم ١٩٢/٨ .
- ٢١٠) المنتظم ١٩٦/٨ .
- ٢١١) المنتظم ١٤٦/٩ ، ٢٢٩ .
- ٢١٢) مسكويه ٢٨٨/١ .
- ٢١٣) الصابي . الوزراء ١٥٧ .
- ٢١٤) تكملة الطبري ١٩٥ .
- ٢١٥) الخطيب ٧/٦ المنتظم ١٩٩/٦ .

يزال فيه معروفا اليوم وهو جامع الشيخ بشار ، فالمشرفة تقع اذا قرب الشيخ بشار .

٥ - مشرعة الروايا وكانت تقع عند باب الشعير ، وهي من اشهر الشارع واقدمها ، فكانت معروفة منذ الازمنة الاولى لتأسيس بغداد . وهي في الاصل « المشرعة التي كان يصعد منها اصحاب الروايا » (٢١٦) . وكان يقعد في طريقها وكيع بن الجراح (٢١٧) . وقد دفن فيها ابو الحسن الاشعري « في تربة الى جانبها مسجد وبالقرب منها حمام . وهي عن يسار المار من السوق الى دجلة » (٢١٨) غير ان قبره اصبح « عاقى الاثر لا ينتفت اليه » في اواخر القرن السادس الهجري (٢١٩) . وفي مشرعة الروايا عند قبر الاشعري دفن احمد بن محمد الفوري (٢٢٠) ولما سيطر البساسيري على بغداد دخل مرة الكرخ « وخرج الى مشرعة الروايا » (٢٢١) .

وفي سنة ٤٤٨ عقد جسر من مشرعة الحطابين الى مشرعة الروايا . غير ان الريح عصفت بالجسر فقطمته وحددت زوارقه (٢٢٢) .

لعل الجسر الذي عقده ابو جعفر المنصور في سنة ١٥٧ عند باب الشعير (٢٢٣) كان موقعه عند مشرعة الروايا .

اما في الجانب الشرقي فقد ذكرت فيه عدة مشارع :

١ - مشرعة الصخر ، وقد ذكرت فيها عدة دور منها دار سليمان بن وهب (٢٢٤) ودار نقل منها بهاء الدولة اخته زوجة الطائع لله حيث بقيت حتى وفاتها (٢٢٥) . ولما كانت دار

- ٢١٦) الخطيب ٤٧٠/١٢ .
- ٢١٧) الخطيب ٤٧١/١٢ .
- ٢١٨) الخطيب ٢٢٧/١١ .
- ٢١٩) المنتظم ٢٢٢/٦ .
- ٢٢٠) المنتظم ١٧/٩ .
- ٢٢١) المنتظم ١٩٢/٨ .
- ٢٢٢) المنتظم ١٤٩/٨ وانظر الخطيب ١١٦/١ .
- ٢٢٣) يعقوب بن يوسف . المعرفة والتاريخ ١٤٤/١ .
- الخطيب ١٥٧/١ .
- ٢٢٤) عمرب ٦٥ .
- ٢٢٥) المنتظم ١٦٣/٧ وقد وردت في الرولدوري « مشرعة الصحراء » (ذيل تجارب الاسم ٢٠٨/٢) وهو خطأ .

الحسن بن الشيب الطوي (٢٢٢) ، ودار شليغ اللؤلؤي المجاورة لدار ابن الصريفيني (٢٢٣) .

٨ - مشرعة الحطابيين وكانت في الجانب الشرقي (٢٢٤) ، امام المعترض (٢٢٥) ، وكان عندها على شاطئء دجلة مسجد (٢٢٦) ، ولطه المسجد الذي عمرته ام الخليفة « بمشرعة السقائين على شاطئء دجلة بمشرعة (٢٢٧) الحطابيين وفي مشرعة الحطابيين كان طرف الجسر الذي نصب سنة ٤٨٨ } وطرفه الاخر في مشرعة الروايا من الجانب الغربي (٢٢٨) ، فهي اذا تقابل مشرعة الروايا ، اي ان موقعها قرب وزارة الدفاع الحالية .

٩ - مشرعة القطانين ، وكانت « بحضرة دار مؤنس » (٢٢٩) ، وعندها الجسر الذي عقده بهاء الدولة سنة ٣٨٣ فلم يلبث الا قليلا ثم تعطل (٢٣٠) ، ولما كانت دار مؤنس عند النظامية ، فالراجح ان موقع هذه المشرعة عند شارع المأمون وفي اول جسر الشهداء الحالي .

سليمان بن وهب بالمخرم (٢٢٦) ، وهي التي اصبحت في اول القرن الرابع الهجري دار الوزارة ، فتكون مشرعة الصخر عند المخرم ، اي قرب مدينة الطب حاليا .

٢ - مشرعة باب البستان (٢٢٧) ، والراجح انها كانت قرب بستان الزاهر ، كما ستحدث فيما بعد عن الجسور .

٣ - مشرعة دار الملك (٢٢٨) ولعلها قرب دار الملكة اي قرب المشرعتين السالفتين حيث تقع عندها دار الملكة اي قرب وزارة الدفاع حاليا .

٤ - مشرعة باب الطاق (٢٢٩) وهي كما يدل اسمها ، تقع في باب الطاق الذي ينتهي عنده الجسر الاعلى في بغداد .

٥ - مشرعة باب الازج (٢٣٠) ، ولايد ان موقعها في الجهات الجنوبية من بغداد حيث يقع باب الازج .

٦ - مشرعة الصباغين ، وقد ورد ذكرها في اخبار حريق شب سنة ٥٥٨ وامتد اليها من باب درب فراشة (٢٣١) .

٧ - مشرعة القصب وقد ذكرت ان فيها دار ابي

- (٢٢٢) تكملة الطبري ٢٢٥ .
 (٢٢٣) الوزراء للصابي ٢٣١ .
 (٢٢٤) الخطيب ٣٨/٢ ، ١٨٦/١ .
 (٢٢٥) الخطيب ٣٨٦/١ ، ٧٥/١٤ . المنتظم ١٣٨/٨ .
 (٢٢٦) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٢٦ ب .
 (٢٢٧) مصفاة الحقائق ٧٨ .
 (٢٢٨) الخطيب ١١٦/١ والمنتظم ١٤٩/٨ .
 (٢٢٩) المنتظم ١٧١/٧ .
 (٢٣٠) الخطيب ١١٦/١ والمنتظم ١٧١/٧ .

- (٢٢٦) سنفرد لها بحثا خاصا ، وانظر من موقعها في المخرم تكملة الطبري ٥ ، ٨ الوزراء للصابي ٢٨ - ٩ .
 (٢٢٧) المنتظم ١٧٧/٨ .
 (٢٢٨) المنتظم ١٢٧/٧ .
 (٢٢٩) المنتظم ٦٩/٨ .
 (٢٣٠) المنتظم ١٦٢/٨ .
 (٢٣١) المنتظم ٢٠٥/١ .

الدواوين في الفرس

مركزها في العهد العباسي .

الخسراج وديوان الجيش ، فأما الاول فيشرف على جباية الخراج الذي كان المصدر الرئيس لدخل الدولة ، بينما ينظم ديوان الجيش السجلات المتعلقة بمصروفات الجند ، وهي اهم باب في مصروفات الدولة انذاك .

وكانت السجلات الرئيسة تكتب على الجلود ، حتى عصر الرشيد حيث صارت ، او بعضها تكتب على الورق الذي اخذ ينتشر استعماله في العالم الاسلامي ، وقد حرصت الدولة على حفظ السجلات في الدواوين نظرا لاهميتها ، واحتفظت بالسجلات القديمة المدون فيها ما يتعلق بالعصر الاموي ، فيروي الطبري ان خلافا حدث على ملكية قسرية في خلافة المهدي ، « فامر المهدي وزيره ابا عبيد الله ان يخرج ذكرها من الديوان العتيق » (٢٤١) .

ولما عزم المعتضد على اخراج المكتفي الى الجبل ومعه عبيدالله بن سليمان « قال عبيدالله لابي العباس بن الفرات اريد كاتباً يصحبني ويتصفح اعمال كل بلد يفتحه ويقرر معاملاته على ما يدل عليه الديوان القديم من رسومه ، فقال ذلك محمد بن داود واليه من ديوان الدار مجلس ما فتح من اعمال المشرق وفيه الحسابات العتيقة » (٢٤٢) .

وبالرغم من كثرة الاضطرابات التي اجتاحت بغداد ، فان سجلات الدواوين ظلت فيها بمنجاة من الدمار ، اذ لم يسجل المؤرخون الا ثلاثة احداث

(٢٤١) الطبري ٥٢٤/٢ .

(٢٤٢) الوزراء للمصابي ١٤٨ - ٩ .

الادارة هي الوسيلة التي تعتمد عليها الدولة في السيطرة على رعاياها وتنظيمهم وتقديمهم ، وهي بدورها تقوم على النظم والاساليب المستقرة ، وعلى الموظفين المتفهمين لهذه الاساليب والفائمين بتطبيقها ، وكذلك على السجلات التي تدون فيها المعلومات التي تقتضيها الادارة . ويطلق على الاماكن التي تحفظ فيها السجلات وتقوم فيها الاعمال المتعلقة بها « الديوان » وهو تعبير فارسي تظهر فارسيته انه يرجع الى عهود ما قبل الاسلام .

وقد حرص المسلمون منذ الفتح الاسلامي على ابقاء الدواوين وتنظيمها وحفظ سجلاتها فلما ولي العباسيون الخلافة زادت عنايتهم بالدواوين وتنظيمها ، وفي السجلات وحفظها وفي الكتاب وتنظيمهم ، وكان الوزير هو المسؤول الاول عن الاشراف عليها .

ومن المعلوم ان عدد الدواوين وحجم كل منها واختصاصه وعلاقته بالدواوين الاخرى لم يبق ثابتا ، بل تعرض الى تطورات كثيرة ، غير ان معلوماتنا عن تطوراتها غير كاملة بالرغم من العدد الكبير من المؤلفات العربية القديمة فيها ، وكثرة الاشارات اليها في الكتب ، وبالرغم من الدرامات الحديثة المميقة عنها . غير انه من المؤكد ان الدواوين في العصر العباسي كان بعضها مقتصر على الخليفة والبلاط ، وبعضها يتصل عمله بالناس عموما ، كما ان بعضها يقتصر عمله على بغداد وحدها ، وبعضها يمتد عمله الى كل المشرق ، وبعضها يتصل عمله باقاليم بعيدة عن بغداد او يعم عمله الدولة كلها .

ولا ريب في ان اهم الدواوين هما ديوان

أحترقت فيها السجلات فاما اولاهما ففي فتنة الامين سنة ١٩٨ حيث « احترقت الدواوين » (٢٤٢) .

وفي سنة ٣١٦ حيث يقول حمزة الاصفهاني « ورد بغداد اهل قصر بن هبيرة ، فضجوا من الاسواق ، واستنفروا الناس ومنعوه من فتح حوانيتهم ، فانضم اليهم الخلق من العامة ، فمضوا الى المستحل الذي بازاء مجلس السلطان واحرقوه ، وهذه مراقبة كانت هناك ... وعدلوا من هناك الى ديوان بادوريا فاحرقوا ما كان فيه من الحسابات من لدن صدر الدولة الخليفة وعدلوا الى باب السلطان يضجون ويبيكون » (٢٤٤) . ولم اجد في المصادر الاخرى بذكر لهذا الحادث رغم ما ذكر من اضطرابات في بغداد وما حولها في تلك السنة والسنة التي تلتها .

وفي سنة ٣٨٩ « احرق العامة دار الحمولى فمضت باسرها ولم يبق فيها جدار قائم ، واحترق ما كان فيها من حسابات الدواوين » (٢٤٥) . وقد حدثت هذه الحادثة على اثر محاولة ابي نصر سابور وضع العشر على ما يعامل من الثياب الايريسمات والقطنيات بمدينة السلام فثار اهل العتايين وباب الشام من ذلك ثم « صاروا الى دار ابي نصر سابور يدرب للدبج ، فمنعهم احدث الطويين منها ، وخرجوا من درب الدبج الى دجلة ، وطلبوا من جرى رسمه بالكون في دار الحمولى من الكتاب والشرفين فهربوا من بين ايديهم ، وطحروا النار في الدار ، واهمل اطفالها ، فانت على جميعها » (٢٤٦) .

اما سجلات القضاء فيذكر ابن الجوزي انه في سنة ٤٥٠ عندما نشب الخلاف بين الخليفة

والبساسيري اضطرت بغداد « ونهبت دار قاضي القضاة ابي عبدالله الدامغاني وهلك اكثر السجلات والكتب الحكمية فيبعت على المطارين » (٢٤٧) ولا نعلم هل كانت السجلات والكتب الحكمية قد وضعت في دار الدامغاني مؤقتا ، ام انه كانت التقاليد ان توضع في دار قاضي القضاة ، وفي هذه الحالة فهل ان كل السجلات ام بعضها كان يوضع ، ومن الطبيعي ان هذا يقتضي نقل السجلات الى دار قاضي القضاة الجديد عند تعيينه .

ان المصدرين الاساسيين اللذين حوى كسل منهما اوسع لمعلومات عن خطط بغداد هما الخطيب البغدادي ، واحمد بن واضح اليعقوبي . فاما الخطيب فانه لم يذكر عن موقع دواوين بغداد في عهد المنصور سوى اشارة عرضية جاءت عند كلامه عن توسيع مسجد المنصور حيث قال « وكانت الصلاة في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتى زيد فيه الدار المروفة بالقطان . وكانت قديما ديوانا للمنصور ، فامر مفلح التركي بنائها على يد صاحبه القطان . فنسبت اليه وجعلت مصلى للناس ، وذلك في سنة ستين او واحد وستين ومائتين » (٢٤٨) . وبفهم من هذا النص ان الدواوين كان ملاصقا لمسجد المنصور وانه القى في وقت مبكر فصار دارا للقطان صاحب مفلح الذي يذكر الطبري انه ولي خراج الموصل . ثم قتل في طريق عودته منها سنة ٢٦٢ (٢٤٩) . ولا بد ان هذه الدار كانت في الاصل احد الدواوين الكبيرة في زمن المنصور ، غير انها أصبحت جزءا من الجامع فيذكر ابن الجوزي انه « قرأ ابو عبدالله البهلول يوما في دار القطان في الجامع بعد الصلاة يوم الجمعة » (٢٥٠) .

اما اليعقوبي فقد قدم تفاصيل اوفى عن دواوين المنصور وموقعها حيث انه بعد ان ذكر قصر المنصور والرحبة التي حوله قال « وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده ، وبيت المال ، وخزانة السلاح ، ودواوين الرسائل ، ودواوين الخراج ، ودواوين الخاتم ، ودواوين الجند ، ودواوين الحوائج ، ودواوين الاحشام ، ومطبخ العامة ، ودواوين النفقات » (٢٥١) . ويلاحظ ان معظم هذه الدواوين تتصل بالخيفة شخصيا ، غير ان

(٢٤٢) كتاب الخراج لقدامة ٢٢٧ رسوم دار الخلافة ٢٩ ، ٢٩ .

(٢٤٤) تاريخ سني ملوك الارض والانبيا ٥٥ .

(٢٤٥) تاريخ هلال المشور بديل تجارب الامم ٢٢٥/٢ .

(٢٤٦) كذلك ٢٣٦/٢ .

وقد ورد في المصادر شخصان يلقبان حمولى ، اولاهما ابو علي احمد بن موسى صاحب معز الدولة (نسطور المعاصرة ٣٠٩/١ طبة الشالجي) وقد ارسله معز الدولة سنة ٢٥٢ الى الوزير المهلبسي عندما سمع بعرضه من عمان (مسكويه ١٩٧/٢) . واما الثاني فهو ابو الحسن علي بن موسى حمولى الذي لقب على ابي الحسن بن ابي الطيب وولده من الطالبيين (المنتظم ٢٢٧/٢) ، وقد ذكر بوسة ان قصر عميد الدولة في المشور قرب الديوان ويعرف بقصر حمولى (الخلافة والسلطنة ١٩٧ (باللاتية) ولم يذكر بوسة مصدره ، كما لم اجد في الكتب العربية التي قرأنا اشارة الى ذلك .

(٢٤٧) المنتظم ١٩٢/٨ .

(٢٤٨) الخطيب ١٠٨/١ .

(٢٤٩) الطبري ١٩٠٧/٢ .

(٢٥٠) المنتظم ٢٢٨/٧ .

(٢٥١) البلدان ٢٤٠ .

بعضها كبيت المال ، وديوان الخراج ، وديوان الخند
تتصل اعمالها بالناس .

وذكر اليعقوبي بعض الدواوين خارج المدينة
المدورة ، فقد ذكر ان النصور « اقطع المهاجرين
عصرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه
باب الكوفة ، فهناك ديوان الصدقات ، وبازائسه
قطيعة ياسين صاحب التجائب وخان لتجائب » (٢٥٣) .
وقد ذكر ديوان للصدقات في العصر الاموي ، ثم
اختفى ذكره في العصر العباسي ، ولعل عمله يتعلق
بالضرائب المحلية المفروضة على اهل بغداد ، وان
دواوين اخرى حلت محله في عمله .

ان النص الانف الذكر يظهر ان احد الدواوين
كان يقع قرب قطاع صاحبه . غير ان هذا لم يكن
قاعدة عامة ، فقد ذكر اليعقوبي قطائع لاصحاب
بعض الدواوين التي ذكر موقعها حول الرحبة ، ومن
ذلك « ربض ابي الورد كوتر بن اليمان خازن بيت
المال » وموقعه قرب القنطرة المتيقة (٢٥٢) و « قطيعة
سليم مولى امير المؤمنين باب الكوفة في الشارع
الاظيم » كما ذكر « قصر وضاح صاحب خزانة
السلاح » كما ذكر « مسجد الانباريين كتاب ديوان
الخراج » وموقعه قرب مسجد ابن رغبان (٢٥٤) .

ولما ولي المهدي الخلافة اتخذ مقامه في الجانب
الشرقي ، في الرصافة اولاً ثم في عيساباد التي اتخذها
ابنه وخلفه موسى الهادي ايضا . وقد وافق انتقال
الخليفة الى الرصافة نقل الدواوين اليها ، فيذكر
الطبري ان عيسى بن موسى عندما فاضه المهدي
على عزله من ولاية المهدي في سنة ١٦٠ « بقسى
(عيسى) منذ فاضه المهدي على الخلع الى ان اجاب
محتسبا عنده في دار الدواوين من الرصافة الى ان صار
الى الرضا بالخلع والتسليم » (٢٥٥) .

وقد تردد من المصادر ذكر درب الدواوين
« بالجانب الشرقي بالقرب من جامع المهدي » (٢٥٦)
وانه كان في الرصافة (٢٥٧) وكان عند باب
مسجد (٢٥٨) . وذكرت المصادر ممن سكن في هذا
الدرب محمد بن علي بن بكر ابن العلاف وبجواره
ابو القاسم بن بشران (٢٥٩) ومحمد بن عمر بن بكر

التجار (٢٦٠) ، وابو القاسم عبد الملك بن محمد (٢٦١)
وعبد الخالق بن عيسى الهاشمي (٢٦٢) وابراهيم بن
الحسين الخزائن الذي كان اول من لقن ابا الوفاء
بن عقيل القرآن (٢٦٣) .

ومن الواضح ان هذا الدرب سمي درب
الدواوين لانه كان يوصل الى الدواوين ، اي ان
الدواوين كان في الجانب الشرقي بالرصافة وبالقرب
من جامع المهدي ، ويدل نص الطبري على ان
الدواوين كان في الرصافة في اول سني خلافة
المهدي ، غير اننا لا نعلم كم من الزمن بقي الدواوين
في هذا المكان ، خاصة وان المهدي نفسه نقل مقره
الى عيساباد ، كما ان الرشيد والامين اتخذوا
مقامهما في الجانب الغربي .

ذكر اليعقوبي قطائع عدد غير قليل ممن ولي
بعض الدواوين في خلافتي المهدي والهادي . وكلها
في الجانب الشرقي . فمما ذكر « قطيعة ابان بن
صدقة الكاتب » و « قطيعة سلمة الوصيف صاحب
خزانة سلاح المهدي » و « قطيعة ثابت بن موسى
الكاتب على خراج الكوفة وما سقى الفرات » و
« قطيعة عبدالله بن زياد بن ابي ليلى الخنمسي
الكاتب على ديوان الحجاز والموصل والجزيرة
وارمينيه واذربيجان » و « قطيعة عبدالله بن محمد
بن صفوان القاضي » و « قطيعة سلام مولى المهدي
بالمخرم وكان يلي المظالم » و « قطيعة نازي مولى
امير المؤمنين صاحب الدواب واصطبل نازي » (٢٦٤)

ان مواقع هذه القطائع في الجانب الشرقي قد
تضيف دليلا على ان الدواوين نقلت الى الجانب
الشرقي قريبا من قطائع ولايتها ومن مقام الخليفة .
اما الرشيد فقد اتخذ مقامه في بغداد
بالجانب الغربي حيث كان يسكن الخلد (٢٦٥) . ومع
انه لا توجد اشارة الى مكان الدواوين في زمنه ، الا
ان الأرجح انها جعلت في الجانب الغربي ، ومما
يؤيد ذلك ان عددا من ولاة الدواوين في زمن الرشيد
كانوا يسكنون الجانب الغربي ، فيذكر الخطيب
« واما مسجد الانباريين فينسب اليهم لكثرة من
سكنه منهم ، واقدم من سكنه منهم زياد القندي ،

(٢٦٠) الخطيب ٢٩/٣ .

(٢٦١) المنتظم ١٠٢/٧ .

(٢٦٢) المنتظم ٢١٦/٨ .

(٢٦٣) المنتظم ٩٨/٩ .

(٢٦٤) البلدان ٢٥٢ - ٢ .

(٢٦٥) لقد بحثت مقام الخلد وتعلم في مقالتي « لصور
الطفلاء ومنازلهم في اليهود العباسية الاولى »
النشور في سومر (٧) .

(٢٥٢) كذلك ٢٢٢ .

(٢٥٣) كذلك ٢٤٤ .

(٢٥٤) كذلك ٢٤٥ .

(٢٥٥) الطبري ٢٧٢/٣ .

(٢٥٦) الخطيب ٤٣٣/١٠ المنتظم ١٠٢/٧ .

(٢٥٧) المنتظم ٢١٦/٨ ، ٩٨/٩ .

(٢٥٨) المنتظم ٢١٦/٨ .

(٢٥٩) الخطيب ١٠٤/٣ .

« مضيت في يوم من الايام على الرسم الى الديوان بالثريا » (٢٧٢) .

يذكر الصابي ان الديوان كان « في السدار المعروفة بفتح القلاص » (٢٧٣) ولم اجد في المصادر اشارة الى موقع هذه الدار غير ان الديوان نقل بعدئذ الى دار الخلافة ، اذ يذكر ابو القاسم عن ابيه انه قال « كنت يوما بحضرة ابي العباس بن الفرات في الديوان في دار السلطان اذ جاءه خادم .. » (٢٧٤)

ثم نقل الديوان الى دار الوزارة بالمحرم ، كما سنذكر فيما بعد .

اما في الازمنة المتأخرة فيذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٥٦ « كان الديوان بجنب الدار التي يسكنها الوزير ابن هبيرة قبل ان ينتقل هذا الوزير ابن صدقة » (٢٧٥) ويذكر ايضا انه على اثر فيضان سنة ٥٦٩ كثر النزير بدار الخلافة ، فكان الخليفة يخرج من باب الفردوس الى ناحية الديوان وبمضي الى الجامع (٢٧٦) .

الوزارة :

انشأ العباسيون في بداية توليهم الخلافة منصب الوزارة وجعلوها اعلى مؤسسة ادارية في الدولة بعد الخلافة . وكان اختيار الوزير وعزله بيد الخليفة ، وقد اختلفت المدة التي قضاها كل منهم في الوزارة . فبعضهم اشغلها لمدة قصيرة نقل عن السنة ، وبعضهم ظل يشغلها عدة سنوات ، كما ان بعضهم اعيد الى الوزارة اكثر من مرة . وكانوا يختارون من حيث العموم من ذوي المكانة في الادارة والبلاط وقد نكب بعضهم بعد عزله ، ولكن اغلبهم كان يمتلك ثروات كبيرة وضياع واسعة .

ولم تكن سلطات كافة الوزراء واحدة ؛ فبعضهم تمتع بسلطات ادارية واسعة وبعضهم لم يعط الا سلطات محدودة ، حتى ان الماوردي ، وهو من اعظم من بحث النظم الادارية العباسية ، صنف الوزارة صنفين رئيسيين ، اولهما وزارة التفويض التي يمارس فيها الوزير كافة سلطات الخليفة في الادارة ، ما عدا حق تعيين ولي العهد او عزل الخليفة ، والثاني وزارة التنفيذ الذي تقتصر سلطته فيها على تنفيذ اوامر الخليفة وقراراته .

وكان يتصرف في ايام الرشيد ، وكان الرشيد ولي ابا وكيع ، الجراح بن حكيم ، بيت المال ، فاستخلف زبادا ، وكان زياد من الفالية ، فاختان هو وجماعة من الكتاب ، واقتطعوا من بيت المال (٢٦٦) ويقول اليعقوبي في وصفه قطائع تلك المنطقية « ومسجد الانباريين كتاب ديوان الخراج » (٢٧١) ويلاحظ ايضا ان الخطيب يذكر ان منازل البرامكة كانت بالقرب من قطيعة الانصار (٢٦٨) وهذه القطيعة تقع في هذه المنطقة ايضا . ومن الصعب ان نتصور ان كتاب الخراج في زمن الرشيد يقيمون في جنوبي المدينة المدورة ، في حين ان الديوان وهو محل عملهم ، يقع في الجانب الشرقي .

والراجح ان الدواوين ظلت في الجانب الغربي من خلافة الامين الذي كان مقامه في ذلك الجانب .

ولما قتل الامين ، ارسل المأمون الحسن بن سهل واليا على بغداد ، وكان فيما يظهر يقيم في القصر الصبني الذي اصبح مقر الخلفاء بعد عودتهم من سامراء ، وقد اقام المأمون في هذا القصر ، ثم في قصر المأمون بقربه ، ولا نعلم مكان الدواوين في زمن المأمون .

وفي اوائل خلافة المعتصم بنيت سامرا وانتقل اليها الخليفة ، واصبحت دار الخلافة لسبعة خلفاء متتابعين ، ويبدو ان الدواوين الرئيسية في الدولة نقلت الى سامراء ، حيث يذكر اليعقوبي الذي يعتبر كتابه اوسع ما وصلنا عن سامراء ، ان ديوان الخراج الاعظم كان في الشارع الكبير المسمى بالسريجة (٢٦٩) ، وان الخزائن الخاصة قرب دار العامة (٢٧٠) ، اما المتوكل فانه لما بنى مدينته في شمالي سامرا نقل اليها « ديوان الخراج ، وديوان الضياع ، وديوان الزحام ، وديوان الجند والشاكرية ، وديوان الوالي والقلمان ، وديوان البريد ، وجميع الدواوين » (٢٧١) .

ولما عاد الخلفاء العباسيون الى بغداد بنى المعتضد قصر الثريا واتخذه مقرا له قبل ان يبني التاج ، ويبدو انه جعل الدواوين في الثريا ، فيروي الصابي عن ابي القاسم ابن الزنجي الذي يروي عن عمه ابي الطيب احمد بن اسماعيل الذي قال

- ٥٦٦) الخطيب ٨٩/١
- ٥٦٧) البلدان ٢٤٥
- ٥٦٨) الخطيب ٨٩/١
- ٥٦٩) البلدان ٢٦٠
- ٥٧٠) البلدان ٢٦١
- ٥٧١) البلدان ٢٦٧

- ٥٧٢) الوزراء للصابي ٢٠٤ وانظر ايضا ١٠٦
- ٥٧٣) كذلك ١٢٧
- ٥٧٤) كذلك ٢٠٦
- ٥٧٥) المنتظم ١٠/١٩٩
- ٥٧٦) المنتظم ١٠/٢٤٥

ولكنه حتى في هذه الحالة كان يتمتع بسلطات واسعة . ومن حيث العموم فان مدى سلطات الوزير تتوقف على شخصية الخليفة ومقدار ما يمنحه للوزير من الحقوق .

وكانت الوزارة منذ بداية نشأتها وثيقة الصلة بالدواوين ، لان الوزير هو المسؤول الاول عن ادارتها كما ان كثيرا ممن وليها ، وخاصة في القرن الثالث واولال القرن الرابع ، كانوا في الاصل من كتاب الدواوين .

وكان الوزراء في خلافة ابي جعفر المنصور ذوي سلطة سياسية وادارية محدودة في الدولة ، وكان معظمهم يتحاشى ان يلقب بالوزير ، كما ان الكتب كثيرا ما كانت تطلق عليه لقب « الكاتب » ثم ازدادت اهميتهم منذ ان ولي المهدي الخلافة ، واستمرت هذه الاهمية عموما حتى سنة ٣٢٤ حين انشئ منصب امير الامراء « وبطل منذ يومئذ امر الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شيء من امر النواحي ولا الدواوين ولا الاعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط ، وان يحضر في ايام المواقب دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكنا ، وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الامر كله ، وكذلك كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق الى هذه الغاية ، وصارت اموال النواحي تحمل الى خزائن الامراء فيأمرمون وينهون فيها وينفقون كما يرون ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون ، وبطلت بيوت الاموال » (٢٧٧) .

لم تذكر المصادر مركز عمل الوزير او من يقوم بعمله ، في زمن كل من ابي جعفر المنصور والمهدي ، والهادي . ولكنها ذكرت اماكن سكن معظم من اشغل منصب الوزارة او الاشراف على الدواوين ، ففي خلافة المنصور اشغلها كل من خالد بن برمك وعبد الملك بن حميد وابو ايوب الورياني ، والربيع بن يونس ، فاما خالد بن برمك فان الخطيب يذكر ان « منازل البرامكة بالقرب من قطعة الانصار » (٢٧٨) . وبذكر الجهشياري « كان خالد بن برمك ينزل بالشماسية في الموضع المعروف بسوقة خالد ، وهو اقطاع من المهدي (٢٧٩) ، ويذكر اليعقوبي الطرق التي تتفرع من الجسر في الجانب الشرقي ومنها « طريق ذات اليسار الى باب

البردان - وهناك منزل خالد بن برمك وولده « (٢٨٠) ومن الواضح ان الجهشياري واليعقوبي يشيران الى اقطاع واحد هو الذي في الجانب الشرقي ، وهو الذي يذكر الجهشياري انه اقطاع من المهدي . اما الاقطاع الذي ذكره الخطيب ، وموقعه جنوبي المدينة المدورة وخارجها وبالقرب من اقطاعات معظم اصحاب الدواوين في زمن المنصور ، فهو فيما يظهر اقطاع من المنصور .

اما رضى عبد الملك بن حميد (٢٨١) ورضى ابي ايوب الانصاري (٢٨٢) فيقعان في شمالي المدينة المدورة خارجها . ولا بد ان منازل كل منهما كانت تقع في رضى .

اما الربيع بن يونس فان قطيعته كانت في الكرخ وهي مشهورة (٢٨٣) .

وتبين من هذا ان قطائع الذين اشغلوا منصب الوزارة او قاموا بعملها في زمن ابي جعفر ، كانت كلها في الجانب الغربي وبالقرب من المدينة المدورة وخارجها .

اما في خلافة المهدي ، فقد اشغل منصب الوزارة او عملها كل من ابي عبيد الله معاوية ، ويعقوب بن داود ، وعمر بن تهمان ، والربيع بن يونس ، والفيض بن صالح فاما عمر بن تهمان والفيض بن صالح فلم اجد ذكر اقطاع لاي منهما ، واما الربيع بن يونس فقد ذكرنا قطيعته في الجانب الغربي ، اما ابي عبيد الله فكانت له سوقه في الجانب الشرقي (٢٨٤) ولعلها نشأت في اقطاعه وان مسكنه كان هناك .

واما يعقوب بن داود فكانت له في الجانب الشرقي (٢٨٥) قطعة ورحبة (٢٨٦) .

ويلاحظ ان المهدي جعل مقره ودواوينه في الجانب الشرقي .

اما في خلافة موسى الهادي القصيرة الامد ، فقد كان الوزير هو الفيض بن صالح الذي اشرفنا من قبل الى عدم ذكر المصادر محل سكنه .

وفي زمن الرشيد هيمن على الوزارة يحيى

- ٢٥٤ (٢٨٠) البلدان
- ٨٥/١ (٢٨١) الخطيب
- ٢٤٨ (٢٨٢) البلدان
- ٨٨/١ (٢٨٣) الخطيب
- ٩٢/١ (٢٨٤) الخطيب
- ٢٥٢ (٢٨٥) البلدان
- ٩٢/١ (٢٨٦) الخطيب

- ٢٥٢/١ (٢٧٧) تجارب الامم
- ٨٩/١ (٢٧٨) الخطيب
- ٢٧٩ (٢٧٩) الوزراء والكتاب ١٨٩

وحماد بن العباس (٣٠٦ - ٣١١) وأحمد بن عبيد الله الخصيبي (٣١٣ - ٤) (٣٢١ - ٢) ومحمد بن علي بن الحسن بن مثلة (٣١٦ - ٨ ، ٣٢٠ - ١ ، ٣٢٢ - ٤ ، ٣٢٦ - ٧ ، ٣٣١ - ٢) وأحمد بن محمد البريدي (٣٢٧ - ٨ ، ٣٢٩ - ٠ ، ٣٣٠) وكذلك كل من اسماعيل بن بلبل (٢٦٥ - ٢٧٧) وعبيدالله بن محمد الكلوذاني (٣١٩) والحسين بن القاسم (٣١٩ - ٢٠) ومحمد بن القاسم الكرخي (٣٢٤ ، ٣٢٩) وأحمد بن محمد بن ميمون (٣٢٩) ومحمد بن أحمد الاسكافي (٣٢٩ ، ٣٣٠) وبنو عبدالله الكرخي (٣٢٩ - ٣٠) ومحمد بن علي السامري (٣٣٣ - ٤) (٢٨٩) .

لم اجد في المصادر ذكرا لمنازل الثمانية الاخيرين اما الذين قبلهم فان دار البريدي كانت بسوق يحيى (٢٩٠) ودار ابن مقله في الزاهر (٢٩١) ودار الخصيبي في قنطرة الانصار (٢٩٢) ودار حامد بن العباس في المخرم (٢٩٣) ودار العباس بن الحسن الجرجاني « الى دجلة وظهرها الى البستان المعروف بالزاهر » (٢٩٤) ودار احمد بن صالح بن شيرزاد بالدور مما يلي قصر جعفر بن يحيى بن خالد (٢٩٥) وهي قرب دار طازاد التي في قصر فرج على شاطيء دجلة (٢٩٦) ودار علي بن عيسى بسوق المعش (٢٩٧) ودار الخاقاني ببياب الشماسية (٢٩٨) ودار ابن الفرات بسوق المعش (٢٩٩) ودار سليمان بن الحسن ببياب المحول (٣٠٠) .

دار الوزارة :

يتردد في المصادر ان الوزارة وخاصة في عهد خلافة المنتدر كان مقرها في دار سليمان بن وهب الذي كان ينحدر من اسرة تتابع افرادها في الكتابة في العصرين الاموي والعباسي . وقد اصبح سليمان

(٢٨٩) اعتمدت في هذه القائمة على كتاب « المؤسسات الادارية » لحسام الدين قوام الدين .
(٢٩٠) الصولي : اخبار الرافعي والمتقي ١٤ تجلبد الامم ١٧/٢ ، ٢٠ ، ٢٤ .
(٢٩١) الصولي ٨١ تكلمة الطبري ١٠٥ ، ١١٧ .
(٢٩٢) الصولي ١٥٢ مخطوطة الازهر .
(٢٩٣) تكلمة الطبري ٣٠ .
(٢٩٤) الصولي ١٦ .
(٢٩٥) الطبري ١٠٦٣/٣ .
(٢٩٦) تجلبد الامم ٧٨/١ .
(٢٩٧) تجلبد الامم ٧١/١ المنتظم ١٢٨/٦ .
(٢٩٨) الصولي ٥٧١ مخطوطة الازهر .
(٢٩٩) تجلبد الامم ٧/١ ، ٩١ .
(٣٠٠) الصولي ٨١ .

البرمكي واولاده . فاما يحيى فكان له قصر الطين الذي بناه ببياب الشماسية (٢٨٧) ، واما جعفر بن يحيى فكانت ذره في سويقه جعفر (٢٨٨) وهي بالقرب من باب الطلاق واما الفضل بن يحيى فلم اجد في المصادر ذكرا لمكان مسكنه . ويلاحظ ان يحيى بن خالد كان يقيم في اول خلافة الرشيد في قصر الخلد مع الخليفة .

ولما نكب الرشيد البرامكة ولسى الوزارة الفضل بن الربيع الذي ظل يشغلها طوال خلافة الامين . ولم تذكر المصادر محل سكنه ، ولعله كان يسكن في قطعة الربيع .

اما في خلافة المأمون فقد اشغل الوزارة ببغداد كل من الحسن بن سهل واحمد بن ابي خالد ، واحمد بن يوسف بن القاسم ، وابو عباد ثابت بن يحيى بن يسار وابو عبدالله محمد بن يزداء . ولم اجد ذكرا لمنازل هؤلاء الا الحسن بن سهل الذي سكن القصر الحسيني الذي اصبح فيما بعد من ابنية دار الخلافة .

ولما اعاد العباسيون مقر خلافتهم الى بغداد تعاقب على الوزارة حتى سنة ٣٣٤ ست وعشرون وزيراً ، فمنهم عدد ينتمي الى اسرة واحدة ، فقد ولي من آل وهب كسل من سليمان بن وهب (٢٥٥ ، ٢٦٣ - ٥) وعبدالله بن سليمان بن وهب (٢٧٧ - ٢٨٨) والقاسم بن عبدالله (٢٨٨ - ٢٩١) ومحمد بن القاسم بن عبدالله (٣٢١) .

ووليها من آل مخلد كل من الحسن بن مخلد (٢٦٤) وابنه سليمان (٣١٨ - ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ - ٣٢٩) .

ووليها من آل الفرات كل من علي بن محمد بن الفرات (٢٩٦ - ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٦ ، ٣١١) والفضل بن جعفر بن الفرات (٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٦ ، ٣٢٧) .

ووليها من آل الخاقاني كل من محمد بن عبيد الله الخاقاني (٢٩٩ - ٣٠١) وابنه عبيدالله (٣١٢ - ٣١٣) .

ووليها علي بن عيسى الجراح (٣٠١ - ٣٠٤ ، ٣١٤ - ٣١٦) واخوه عبد الرحمن بن عيسى (٣٢٤) .

ووليها كل من احمد بن صالح بن شيرزاد (٢٧٧) والعباس بن الحسن الجرجاني (٢٩١ - ٦) .

(٢٨٧) معجم البلدان ١١٤/٤ .
(٢٨٨) الوزراء والكتتاب للجيشياري ٢٤١ .

سليمان لم يسكن فيها كثيرا لانه خدم واستوزر للخلفاء العباسيين في سامراء الذين لم يعودوا الى بغداد الا سنة ٢٧٨هـ ، اي بعد وفات سليمان بعدة سنوات .

لم تذكر المصادر مصر دار سليمان بعد حبس صاحبها ، ولعلها عادت اليه بعد مصالحته ، ولعله اشغلها من بعده ابنه عبيدالله بن سليمان بن وهب الذي ظل في الوزارة من سنة ٢٧٧ الى سنة ٢٨٨ ، اي طوال السنوات العشر الاولى من عودة الخلفاء الى بغداد واتخاذهم مقرا في قصر الحسن بن سهل . والراجح ان هذه الدار انتقلت الى القاسم بن عبيد الله اعقب اباه في الوزارة وظل فيها الى وفاته سنة ٢٩١ ، ولعلها كانت خلال وزارة سليمان وابنه وحفيده مركز الوزارة .

وقد صارت هذه الدار للعباس بن الحسن الذي اعقب القاسم بن عبيدالله في الوزارة وظل فيها من سنة ٢٩١ - ٢٩٦ ، فلما عزل القاسم العزلة الاولى سنة ٢٩٦ انصرف العباس بن الحسن «الى المخرم وجلس في دار سليمان بن وهب» (٢٠٥) ، ويبدو ان هذه الدار قد اصبحت دار الوزارة ، اذ ان الهمداني يذكر ان العباس عاد الى « دار الوزارة بالمخرم » (٢٠٦) .

ولما ولي ابن الفرات الوزارة بعد العباس ، اقطعه القاسم هذه الدار ، فيذكر الصابي « وانتقل ابو الحسن (علي) بن الفرات من بعد ذلك الى ما اقطعه القاسم بالله من دار سليمان بن وهب بباب المخرم على دجلة وما يجاورها من دار ابراهيم بن سليمان ، والاصطبل الذي كان للسلطان ، والدور التي كانت في يد داية المكتفي بالله ، ومساحة ذلك مائة الف وثلاثة وسبعون الفا وثلاثمائة وستة واربعون ذراعا ، وغير ذلك وجدده ، وانشأ المجالس الجليلة والابنية الحسنة ، وعمل للدار مسسنة مشرفة على دجلة » (٢٠٧) .

ويتبين من هذا ان رقعة دار الوزارة اصبحت ٤٠٢ x ٤٢٠ ذراعا اذ افترضنا انها كانت مربعة المساحة ، وانها كانت تشمل دور كل من سليمان ، وابراهيم ، وداية المكتفي بالإضافة الى اصطبل السلطان ، اي ان دار سليمان بن وهب صارت بعض دار الوزارة ، غير ان المصادر لا تذكر موقع دار سليمان من دار الوزارة الجديدة .

(٢٠٥) تكملة الطبري ٥ .

(٢٠٦) تكملة الطبري ٦ .

(٢٠٧) الوزراء للصابي ٢٨ - ٢٩ .

بن وهب كاتبنا للحسن بن سهل وللمأمون ثم ولي الوزارة للمهتدي في سنة ٢٥٥ ثم عزل واعيد تمييزه سنة ٢٦٣ - ٢٦٤ ، ثم عزله الموفق واعاده بعد فترة فظل في الوزارة سنة ٢٦٤ - ٢٦٥ وقد ساهم في الاحداث في زمنه ، وقد غضب عليه المعتمد في سنة ٢٦٤ وحبسه ثم اطلق سراحه ، ولكنه في السنة التالية « امر ابو احمد بحبس سليمان بن وهب وابنه عبيدالله ، فحبسا وعده من اسبابهم في دار ابي احمد ، وانتهت دور عدة من اسبابه ووكل بحفظ داري سليمان وابنه عبيدالله ، وامر بقبض اموالهما واماوا اسبابهما وضياهم خلا احمد ابن سليمان ، ثم صولح سليمان وابنه عبيد الله على تسعانة الف دينار ، وصيرا في موضع بطل اليهما » (٢٠١) ، وقد ظل سليمان في حبس الموفق حتى توفي سنة ٢٧٢ (٢٠٢) .

وقد ذكر الخطيب اصل هذه الدار حيث قال نقلنا عن ابن عرفة « واما شاطيء دجلة من الجانب الشرقي فاوله بناء الحسن بن سهل وهو قصر الخليفة في هذا الوقت .

ودار دينار

دار رجاء بن ابي الضحاک

ثم منازل الهاشميين

ثم قصر المتصم وقصر المأمون

ثم منازل آل وهب ، الى الجسر كانت اقطاعا لناس من الهاشميين ومن حاشية الخلفاء » (٢٠٣) .

ومن الواضح ان الجسر المذكور في هذا النص هو الذي يتصل بباب الشعير في الجانب الغربي (٢٠٤) ، وان هذه المنازل تقع جنوبي الجسر ، وانها كانت قرب قصري المتصم والمأمون ، وهي تبعد مسافة عن دار الخلافة ، حيث تقع بينهما عدة دور . ومع ان نص الخطيب لا يذكر صراحة دار سليمان بن وهب ، الا ان سياق الكلام يقتضي ان هذه الدار هي المقصودة ، او هي الرئيسية من دور آل وهب .

ويتضح من نص الخطيب ان منازل آل وهب كانت في الاصل اقطاعا لبعض الهاشميين ، ولعل آل وهب حصلوا عليها في خلافة المأمون ، ولا بد ان

(٢٠١) الطبري ١٩٢/٣ .

(٢٠٢) الطبري ٢١٠/٣ .

(٢٠٣) الخطيب ٩٨/١ ويلاحظ ان رجاء بن ابي الضحاک

هو ابن عم الحسن بن سهل (الطبري ٩٩٢/٣) وكان

مقربا الى المأمون (الطبري ٩٩٥/٣ ، ١٠٠٠) .

(٢٠٤) الفهرست لجسور بغداد بحثا خاصا نرجو ان ننشره قريبا .

تقع مشرعة الصخر (٢١٨) . ولما كانت هذه الدار أصبحت لسبكتكين ، ثم صارت دار المملكة ، كما سنذكر فيما بعد ، ولما كانت دار المملكة « محاذية للفرضة » (٢١٩) فتكون الفرضة قرب مشرعة الصخر او لعلها هي نفس المشرعة .

ولما كانت هذه الدار مقر الوزارة ، فقد كان يمارسون اعمالهم فيها ، وقد تردد ذكر ذلك في المصادر ، فيذكر مسكويه ان علي بن عيسى في وزارته سنة ٣٠٣ « صار ينظر في الاعمال في دار الوزارة بالمخرم » (٢٢٠) ويذكر ايضا ان ابا القاسم الكواذاني لما ولي الوزارة « صار ينظر في الاعمال في دار الوزارة بالمخرم » (٢٢١) ويذكر الصابي ان علي ابن عيسى في وزارته الثانية سنة ٣٠٣ صار الى « دار الوزارة بالمخرم وقد جعلها ديوانا » (٢٢٢) كما يقول انه لما وزر سنة ٣٠٣ « اقام في هذه الدار ثم نقل الدواوين اليها » (٢٢٣) ويبدو من هذا النص ان الدواوين لم تكن في دار الوزارة حتى نقلها اليها علي بن عيسى .

يذكر مسكويه (٢٢٤) والصابي (٢٢٥) ان ابن الفرات اقطع هذه الدار ، غير ان المعلومات المتوفرة في المصادر تدل على ان هذه الدار كانت مقر الوزارة ويسكنها الوزراء خلال اشغالهم ذلك المنصب فحسب ، وان ملكيتها تعود الى الدولة .

كانت دار الوزارة بالمخرم واسعة ، فيها عدة بيوت ، ذكرت المصادر منها « بيت يعرف بالدمشقي » كانت فيه سجلات بلغت حتى السقف (٢٢٦) ، كما كانت فيها دار للمستخرج ابن بعد شر (٢٢٧) ، وفيها ايضا الدار الجديدة (٢٢٨) .

وفي دار الوزارة ايضا كانت دار البستان التي يذكر الصابي ان ابن الفرات في وزارته الثالثة (سنة ٣١١) « اشتمى في وزارته هذه ان يجمع

ويبدو ان حامداً بن العباس اشغل هذه الدار في وزارته ، ثم اقطعها المتسدر بالله ابنه ابا العباس (٢٠٨) ، غير ان ابن الفرات لما عاد الى الوزارة « سأل ان يعاد الى داره بالمخرم ، وكانت اقطعت للامير ابي العباس ، فاذن له المقتدر في ذلك ، وكان ذلك في سنة ٣١١ (٢٠٩) ، وبدل هذا النص ان هذه الدار كانت ملكيتها للخليفة ، وان اقطاعها لابنه لم يقصد منه نقل ملكيتها الى ابي العباس . غير ان المصادر لم تذكر كيف آلت ملكية هذه الدار الى الخليفة .

وبروي الصابي عن ابي القاسم بن زنجي « سمعت ابا الحسن بن الفرات يقول في وزارته الثالثة في سنة ٣١١ انه اتفق على الدار التي كان ينزلها في ذلك الوقت وفيها قبض عليه ، وهي دار سليمان بن وهب ، وموقعها في المخرم ، وفي يد الحاجب الكبير ابي منصور سبكتكين الا ان شيء منها ، وفي يد ابن لشكرون شيء آخر ، وفي ايدي قوم من قواد الديلم الباقي « ثلاثمائة الف دينار » (٢١٠) .

وقد ظلت هذه الدار تحتفظ بنسبتها الى صاحبها الاول فتسمى دار سليمان ابن وهب (٢١١) . ونظرا لطول اقامة ابن الفرات فيها وما ادخله من تعميرات عليها ، فقد سميت ايضا في بعض المصادر دار ابن الفرات (٢١٢) ثم انها باعتبارها مقر الوزارة ، كانت تسمى ايضا دار الوزارة (٢١٣) .

وتقع هذه الدار بباب المخرم (٢١٤) على دجلة (٢١٥) ، عند الجسر . ويذكر ابن عرفة ما يدل على ان الجسر كان شماليا (٢١٦) . غير ان الصولي يذكر انها « فوق الجسر » (٢١٧) وهذا النص الغامض قد يدل على انها في جنوبي الجسر ، او انها في شماليه ، فان كان الاخير فانه يدل على ان الجسر قد حول بعد ابن عرفة الى الجنوب وعند هذه الدار

(٢١٨) الصولي ١٥٢ ويقول ابن الجوزي ان بهاء الدولة نقل اخته زوجة الطائع الى دار في مشرعة الصخر (المنتظم ١٦٢/٧) ولعله نقلها الى هذه الدار .

- (٢١٩) المنتظم ٧٧/٧ .
- (٢٢٠) تجارب الامم ١/٢٧ .
- (٢٢١) كذلك ١/١٤٩ .
- (٢٢٢) الوزراء ٤٨ .
- (٢٢٣) كذلك ٣٦٨ .
- (٢٢٤) تجارب الامم ١/٤١ ، ٥٢ .
- (٢٢٥) الوزراء ٢٨ .
- (٢٢٦) الوزراء ٢٣٠ .
- (٢٢٧) كلمة الطبري ٤٥ .
- (٢٢٨) الوزراء ٢١٤ .

(٢٠٨) كلمة الطبري ٢١ ، ٢٢ .

(٢٠٩) كلمة الطبري ٦٩ .

(٢١٠) الوزراء للصابي ١٩٩ .

(٢١١) الوزراء ٣٦ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٠٦ تجارب الامم ٥ الصولي ١٥٢ (مخطوطة الزهر) .

(٢١٢) الصولي ١١٥ ، ١٢٣ ، ب ، ١٥٢ ب (مخطوطة الزهر) تجارب الامم ٤١/١ ، ٩١ .

(٢١٣) تجارب الامم ٢٧/١ ، ٥٩ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٤٩ الوزراء للصابي ٦٩ ، ٢٢٥ ، ٣٦٨ .

(٢١٤) تجارب الامم ٥/١ ، ٥٩ ، ١٢٢ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ٢٧١ .

(٢١٥) الوزراء للصابي ٢٨ .

(٢١٦) الطيب ٩٨/١ .

(٢١٧) الصولي ١٢٣ ب (مخطوطة الزهر) .

دار المملكة التي باعلى المخرم محاذية الغرضة قديما لسبكتكين غلام معز الدولة فنقض عضد الدولة اكثرها . ولم يستبق الا البيت الستيبي الذي هو في وسط اروقة من ورائها اروقة : في اطرافها قباب معقودة . وتفتح ابوابه الغربية الى دجلة وابوابه الشرقية الى صحن من خلفه بستان ونخل وشجر . وكان عضد الدولة جعل الدار التي هذا البيت فيها دار العامة ، والبيت برسم جلوس الوزراء وما يتصل به من الاروضة والقباب . مواضع للدواوين ، والصحن مناما لدبلم النوبة في ليالي الصيف .

قال هلال : وهذه الدار وما تحتوي عليه من البيت المذكور والاروقة خراب ولقد شاهدهم مجلس الوزراء من ذلك ومحفل من يقصدهم ويحضرهم ، وقد جمعه جلال الدولة اصطلا اقام فيه دوابه وسواسه . واما بناء عضد الدولة وولده بعدد في هذه الدار فهو متماسك على تسعته (٢٢٥) .

وينقل الخطيب عن القاضي ابي القاسم التنوخي عن ابيه « حاشيت الملك عضد الدولة في دار المملكة بالمخرم التي كانت دار سبكتكين حاجب معز الدولة من قبل ، وهو يتأمل ما عمل وهدم منها ، وقد كان اراد ان يترك في الميدان السبكتكين اذرعاً ليجعله بستاناً ويرد بدل التراب رملاً وي طرح التراب تحت الروشن على دجلة ، وقد ابتاع دوراً كثيرة كبراً وصغاراً ونقضها ورمى حيطانها بالفيلة تخفيفاً للوثة ، و اضاف عرصتها الى الميدان ، وكانت مثل الميدان دفتين ، وبنى على الجميع مسناة . فلما فرغ من ذلك وصار البستان ارضاً بيضاء لا شيء فيها من غرس ولا نبات : قال : « قد انفق على هذا حتى صار كذا اكثر من الف الف درهم صحاحاً ، ثم فكر في اذ يجعل شرب البستان من دواليب ينصبها على دجلة ، وعلم ان الدواليب لا تكفي ، فاخرج المهندسين الى الانهار التي في ظاهر الجانب الشرقي من مدينة السلام ليستخرجوا منها نهراً يسبح ماؤه الى داره ، فلم يجدوا ما اراده الا في نهر الخالص ، فعلى الارض بين البلد وبينه تعليية امكن معها ان يجري الماء على قدر من غير ان يحدث به ضرر ، وعمل تلتين عظيمين يساويان سطح ماء الخالص ، ويرتفعان عن ارض الصحراء اذرعاً ، وشق من وسطهما نهراً جعل له خورين من جانبيه ، وداس الجميع بالفيلة دوساً كثيراً حتى قوى واشتد وصلب وتلبد ، فلما بلغ الى منازل البلد واراد سوق النهر الى داره ، عمد

(٢٢٥) الخطيب ١٠٥/١ المنتقم ٧٨/٧ .

حرمه وبنات اخوته واصاغر ولده في الدار المعروفة بدار البستان المعروفة بدار سليمان ابن وهب ، فتقدم باصلاحها وتنظيفها وانفاق ما يحتاج اليه من تبييضها ، فبلغت النفقة خمسين الف دينار ، وجلس وهم فيها يوماً واحداً ، ولم يعد بعد ذلك الى الجلوس معهم فيها « (٢٢٦) .

وكانت نفقات « من يرسم دار الوزارة من خلفاء الحجاب والباوين واصحاب الرسائل وانزال الفرسان والرجالة عشرين الف دينار « (٢٢٧) .

ظلت دار الوزارة هذه حتى سنة ٣٢١ حين « خرج امر القاهر ببيع دار المخرم التي كانت برسم الوزارة ، وكانت قديماً لسليمان بن وهب فقطعت وبيعت من جماعة من الناس لان ذرعها يشتمل على اكثر من ثلاثمائة الف ذراع ، وصرف عنها من مال الصلة لبيعة القاهر « (٢٢٨) .

ويذكر الصابي في كلامه عن هذه الدار « وفي يد الحاجب الكبير منصور سبكتكين الان شيء منها وفي يد ابن لشكره شيء آخر ، وفي ايدي قوم من قواد الدبلم الباقي « (٢٢٩) .

ولما دخل البويهيون بغداد ، صاروا يمارسون الحكم والادارة بانفسهم فلم يعد للخليفة الا الاسم ، ثم انهم وزعوا العراق اقطاعات ، فبطلت العمارات واغلقت الدواوين ومحي اثر الكتابة والعمالة (٢٣٠) .

دار المملكة :

وقد شيد معز الدولة له قصر في اعلى الشمالية ، اما عز الدولة فبنى له قصر في الحريم الطاهري ، فلما جاء عضد الدولة اعاد تعمير المكان الذي كانت فيه دار الوزارة قديماً وسماها دار المملكة .

ويقول الصابي « طورد عضد الدولة والامر جار على ذلك لزم الدولة ، فسأل الطائع لله الاذن له في ضرب الطبل على باب داره بالمخرم التي هي اليوم دار المملكة وكانت من قبله لسبكتكين الحاجب ، ففعل ذلك « (٢٣١) .

اما دار المملكة فالفقصد بها ما بناه المعتضد ، وقد وصفها هلال بن المحسن حيث قال : كانت

- (٢٣١) الويزاء ١٩٩ .
- (٢٣٢) تجارب الامم ١٥٦/١ .
- (٢٣٣) تجارب الامم ٢٥٨/١ كلمة الطبري ٧٥ .
- (٢٣٤) الوزراء ١٩٩ .
- (٢٣٥) تجارب الامم ٩٨/٢ .
- (٢٣٦) رسوم دار الخلافة ١٣٧ .

الى درب السلسلة فذلك ارضه دكا قويا . ورفع ابواب الدور واوتقها ، وبنى جوانب النهر طول البلد بالاجر والكلس والنورة ، حتى وصل الماء الى الدار وسقى البستان .

وفي سنة ٤٢٧ « نهب الجند دار الملكة وابوابها وساجها . ورتبوا فيها حفظة فكانت الحفظة تخربها نهارا . وتنتقل ما اجتمع من ذلك ليلا » (٢٢٦) .

ولما توفي جلال الدولة « دفن في بيت دار السلطنة في بيت كان قد دفن فيه عضد الدولة وبهاء الدولة قبل نقلهما . ثم نقل تابوته الى تربتهم في مقابر قريش » (٢٢٧) .

قال ابي ولغت النفقة على عمل البستان وسوق الماء اليه على ما سمعته من حواشي عضد الدولة خمسة الاف درهم . ولعاه قد انفق على ابنية الدار على ما اظن مثل ذلك ، وكان عضد الدولة عازما على ان يهدم الدور التي بين داره وبين الزاهر ، ويصل الدار بالزاهر ، فمات قبل ذلك » (٢٢٦) .

ولما ورد طغرل بك بغداد نزل دار الملكة وتفرق عسكره في دور الاتراك (٢٢٨) .

ويقول ابن الجوزي انه في سنة ٣٧١ امر عضد الدولة بحفر نهر من عمود الخالص وسياقه الماء الى بستان داره فبدىء في ذلك ، وحشر الرجال لعماله » (٢٢٧) .

دار الملكة في العهد السلجوقي :

يذكر الخطيب « ولما ورد طغرل بك الفيزي بغداد واستولى عليها ، عمر هذه الدار (دار الملكة التي بناها عضد الدولة) ووجد كثيرا مما كان ، وهي منها ، في سنة ٤٤٨ » (٢٤٩) .

ويقول ايضا انه في سنة ٣٧٢ « في المخرم فتح الماء الذي استخرجه عضد الدولة من الخالص الى داره وبستان الزاهر » (٢٢٨) ويذكر ايضا ان عضد الدولة « غرس الزاهر وهو دار ابي علي بن ملفه وكانت قد صارت تلا » (٢٢٩) .

وارد ابن الجوزي عن عمل طغرل بك تفاصيل اوفى حيث ذكر في حوادث سنة ٤٤٨ « وفي هذه السنة ابتدا السلطان طغرل بك ببناء سور عريض دخل فيه قطعة كثيرة من المخرم ، وعزم على بناء دار فيها وجمع الصناع لتجديد دار الملكة المضدية ، وخربت الدور والدروب والمحال والاسواق بالجانب الشرقي وجميع ما بقارب الدار واخذت الانهار للاستعمال . وتقتضت دور الاتراك وسلت اخشابها بالجانب الغربي . وقلع الفقراء اخشاب الدور وباعوه على الخبازين والفراسين » (٣٥٠) .

ففي سنة ٣٧٩ توفي شرف الدولة ، فركب « الطائع لله الطيار وسار الى دار الملكة بالمخرم لتعزية ابي نصر (بهاء الدولة) ، وقد رد بهاء الدولة الزيارة للخليفة ثم عاد الى دار الملكة » (٣٤٠) . ولما عزل الطائع « اصعد به الى الخزانة في دار الملكة » (٣٤١) . ويلاحظ ان بهاء الدولة نقل اخته زوجة الطائع له الى دار بمشرفة الصخر القريبة من دار الملكة (٣٤٢) .

وقد نقل سبط ابن الجوزي رواية جده مع بعض الاختلافات حيث قال في حوادث سنة ٤٤٨ « ابتدا طغرل بك بعمارة سور عريض على داره . دخل فيه قطعة كبيرة من المخرم ودار الفيل ، وجمع الصناع لتجديد دار الملكة المضدية ، وبنى عليها ابراج ، وخربت الدور والاسواق الجاورة لها بالجانب الشرقي ، وقلعت اخشاب دور الاتراك في الجانب الغربي وحملت اليها » (٣٥١) .

ولما جاء جلال الدولة بغداد سنة ٤١٨ دخل دار الملكة (٣٤٣) . وفي السنة التالية حاصرها الجند (٣٤٤) : ثم لما اضطربت بغداد على جلال الدولة « نقل السلطان ماله من كرغ الى دار الملكة ، وعملت هناك المالف » (٣٤٥) .

(٢٢٦) الخطيب ١/٦٦ - ٧ المتظم ٧٨/٧ .

(٢٢٧) المتظم ١٠٧/٧ .

(٢٢٨) المتظم ١١٢/٧ .

(٢٢٩) المتظم ١١٤/٧ .

(٢٤٠) المتظم ١٤٨/٧ .

(٢٤١) المتظم ١٥٦/٧ .

(٢٤٢) المتظم ١٦٣/٧ .

(٢٤٣) المتظم ٢٨/٨ .

(٢٤٤) المتظم ٣٥/٨ .

(٢٤٥) المتظم ٥١/٨ .

(٢٤٦) المتظم ٨٩/٨ .

(٢٤٧) المتظم ١١٨/٨ .

(٢٤٨) المتظم ١٦٥/٨ .

(٢٤٩) الخطيب ١/٦٦ .

(٣٥٠) المتظم ١٦٩/٨ .

(٣٥١) مرآة الزمان ٣ (طبة سويم ، ولعل الجسر الذي عقد في هذه السنة بين مشرفة العطارين ومشرفة الروابا هو عمل مكمل لامر ان هذه المنطقة .

ويذكر الخطيب بعد النص الذي اوردناه اعلاه « .. فمكنت كذلك الى سنة خمسين واربعمائة ، ثم احترقت وسلب اكثر الاتها ، ثم عمرت بعد واعيد ما كان اخذ منها » (٢٥٢) .

لم يذكر ابن الجوزي في حوادث ١٤٥٠ احتراق دار الملكة . غير انه ذكر الحوادث الجسام التي حدثت في تلك السنة ببغداد ، فقد كان طفريك غالباً عنها . وقد بدأت السنة بالحلل الامن في بغداد ونقسام السلاجقة فيها . وقطع الجسر وهو يقول « وركب رئيس الرؤساء وعميد العراق الى دار الملكة واخذ ما يصلح من السلاح ، وضربا باقي الباقي النار » ، ثم اعقب ذلك دخول البساسيري ببغداد ، وعفده الجسر بباب الطاق ونزوله الزاهر ، ومحاولة الخليفة مقاومته (٢٥٢) .

اما اعادة تعميمها فلا بد انه تم قبل سنة ٤٦٠ هـ . وهي السنة التي توفي فيها الخطيب .

يذكر ابن الجوزي انه في سنة ٤٨٥ هـ تقدم السلطان ملكشاه « ببناء سوق المدينة المقاربة داره التي بمدينة طفريك ، وبنى فيها خانات الباعة وسوقا عنده دروب . . والجامع الذي تسم باخره على ايدي بهروز في سنة ٥٢٤ ، وتولى السلطان تقدير هذا الجامع بنفسه . . وجلبت اخشابها من جامع سامراء ، وكثرت العمارة بالسوق واستأجر نظام الملك بستان الجسر وما يليه من وقوف المارستان مدة خمسين سنة ، واستأجر لعمارة ذلك دارا ، واهدى اليه ابو الحسن الهروي خانه » (٢٥٤) .

فاما السوق فانه لم يبق طويلا اذ ان السلطان محمد في سنة ٤٩٦ هـ « تقدم بنقض السوق التي استجدها جلال الدولة ملكشاه بالمدينة المعروفة بطفريك ، وكانت مرسومة بالصاغين بعد خروجه ، والسوق التي كان بها البزازون ايام دخوله ، والمدرسة التي بنتها ترکان خاتون ، وكانوا قد انفقوا على ذلك الاموال الحمة ، فنقض ذلك كله » (٢٥٥) . ولم تذكر المصادر تجديد السوق ؛ غير ان ابن الجوزي يذكر انه في سنة ٥٥١ وقع حريق في سوق السلطان (٢٥٦) .

اما الجامع فان ابن الجوزي يذكر ان « ملكشاه

بنى الجامع الذي يقال له جامع السلطان ببغداد » (٢٥٧) ويذكر انه في سنة ٤٩٤ هـ « في يوم الاحد بعث الخليفة السلطان منبرا فنصب في دار الملكة » (٢٥٨) والمفروض من ارسال المنبر وجود جامع في دار الملكة . غير ان ابن الجوزي نفسه يذكر انه في سنة ٥٠٢ هـ « شرع من عمارة جامع السلطان . واتممه بهروز الخادم » (٢٥٩) . وكان هذا الجامع على دجلة (٢٦٠) وتقام فيه صلاة الجمعة (٢٦١) . وله خطيب (٢٦٢) . وفيه مقصورة (٢٦٣) .

يقول ابن الجوزي انه في سنة ٥٠٢ هـ « شرع في عمارة جامع السلطان . واتممه بهروز الخادم » (٢٦٤) . ولما كانت الدلائل تشير الى وجود جامع قبل هذا التاريخ . فالراجح ان المقصود بالنص هو اعادة تعميره ، ولعل الجامع القديم هدم سنة ٤٩٦هـ واتار اليه النص الذي ذكرنا باسم المدرسة التي بنتها ترکان خاتون .

ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٠٢ هـ ايضا فوض السلطان بهروز عمارة دار الملكة (٢٦٥) . وفي سنة ٥٠٩ هـ « تكاملت عمارة الدار التي استجدها بهروز الخادم من الدار السلطانية ، وحمل اليها اعيان الدولة الفروش الحسنة والكسي الرائقة ، واستدعى القراء والفقهاء والقضاة والصوفية ، فقرأوا فيها القرآن ثلاثة ايام متوالية » (٢٦٦) .

ويذكر سبط ابن الجوزي ان هذه الدار « بناها بهروز الخادم من انقاض دور الناس واستعجل في عمارتها اهل بغداد ، حتى القضاة والاشراف والاعيان ، وكانوا يتقانون الانقاض في طيلستهم . ولما كملت امرهم بهروز ان يحملوا اليها الفرش والبسط والانية وغيرها ، فحمل الناس اليه ذلك » (٢٦٧) .

وذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥١٥ هـ « وقع الحريق في دار الملكة ، فاحترقت الدار التي استجدها بهروز الخادم . . وذهب من الفرش

١٢٤/٨ المتظم (٢٥٧)

١٢٤/٨ المتظم (٢٥٨)

٢٥٩/٨ المتظم (٢٥٩)

٥٧/١٠ المتظم (٢٦٠)

١٢٤/١٠ المتظم (٢٦١)

٢٤٦/١٠ المتظم (٢٦٢)

١٧٩/١٠ المتظم (٢٦٣)

١٥٩/١٠ المتظم (٢٦٤)

١٥٩/١٠ المتظم (٢٦٥)

١٨٢/١٠ المتظم (٢٦٦) مرة الزمان ٥٦/٨ .

٩٦/٨ المتظم (٢٦٧) مرة الزمان .

٢٥٢) الخطيب ١٠٦/١ .

٢٥٣) المتظم ١٨٩/٨ - ١٩٧ .

٢٥٤) المتظم ٦٠/٨ .

٢٥٥) المتظم ١٢٩/٨ .

٢٥٦) المتظم ١٦٥/١٠ .

عنده بدار المملكة « (٢٧٢) ان عباس شحنة الذي
« استدعى الى دار الملكة » في سنة ٥٤١ (٢٧٢) .

غير انه منذ ذلك التاريخ ينقطع ذكر دار
الملكة . ويذكر مكانه دار السلطان ، فيذكر ابن
الجوزي ان عباس شحنة « قتل في دار
السلطان » (٢٧٤) ، ويذكر ايضا انه في سنة ٥٤٤
عاد مسعود الى بغداد « ودخل دار السلطنة (٢٧٥)
ويذكر انه في سنة ٥٥٢ قرر الخليفة مقاومة
السلطان شاه محمد واستعد لذلك ، وسارت بعض
جنوده « فقصدوا تحت الزاهر ليدخلوا دار
السلطان (٢٧٦) ، ثم « ضربت الرجال الى دار
السلطان فنهبوا وكان فيها اموال كثيرة ، ونهبوا
الابواب والاشباب واخذوا الاطيار والغزلان » (٢٧٧) ،
ولم يعد لها ذكر بعد هذه الحوادث التي يبدو انها
ادت الى تدميرها ، اذ ان البنداري يقول من مدينة
طفرليك « وهي التي جاممها اليوم باق ، وكانت
حينئذ ذات اسوار واسواق » (٢٧٨) .

ولا يخفى ان سلطان آل سلجوق زال من
بغداد بعد هذه الحوادث ، وزال معه الحكم المزدوج ،
واصبح الحكم للخليفة وحده ، ومقره في دار الخلافة
حيث كان يقيم وزراءه ويمارسون الحكم فيه وكانت
دار الوزارة فيه في اواخر القرن السادس الهجري
مقابل باب النوبي (٢٧٩) .

• (٢٧٢) المنتظم ٨٥/١٠ .

• (٢٧٢) المنتظم ١٢٢/١٠ .

• (٢٧٤) المنتظم ١٢٢/١٠ .

• (٢٧٥) المنتظم ١٢٨/١٠ .

• (٢٧٦) المنتظم ١٧٠/١٠ .

• (٢٧٧) المنتظم ١٧٥/١٠ .

• (٢٧٨) دولة ابي سلجوق ١٠ .

• (٢٧٩) الجامع المختصر ٩٩ ، ٢٢١ ، ٢٨٦ .

والالات ولاواني واللؤلؤ والجوهر ما يزيد قيمته
على الف الف دينار وغسل غسالون التراب فظفروا
بالذهب والحلي سبائك ، ولم يسلم من الدار شيء ،
ولا خشبة واحدة .

وعاد السلطان الى دار الملكة وتقدم ببناء
داره على المسناة المستجدة وان تعمل ازاجبا
استظهارا ، واعرض عن الدار التي احترقت وقال
ان ابي لم يتمتع بها ولا امتد بقاءه بعد انتقاله
اليها ، وقد ذهبت اموالنا فلا اريد عمارتها « (٢٦٨) .

ونقل سبط ابن الجوزي خبر هذا الحريق
بالنص تقريبا في قسمه الاول الى كلمة « ولا خشبة
واحدة ، ولكنه اورد القسم الثاني من النص كما
يلبي « وقال السلطان لا حاجة لنا الى بناء هذه الدار
التي لم يتمتع بها ابي ولا طال بقاءه ، وذهبت
اموالنا وارزاقنا فيها ، يكفيننا دار الملكة
العتيقة » (٢٦٩) .

اما المسناة المستجدة التي بنيت الدار عليها
فلم اجد عنها معلومات محددة ، ولعلها هي التي
اشار اليها ابن الجوزي في كلامه عن حوادث سنة
٤٨٠ حيث قال ان فيها « جددت على الزاهر مسناة
كان لها اساس قائم وغرس فيه نخل وشجر ،
وسور عليها ، وذلك بامر السلطان ملكشاه » (٢٧٠) .

وظل اسم « دار الملكة » يتردد بعد حرق

٥١٥ - فيذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٣٠ « دخل

داوود الملكة » (٢٧١) ، وفي سنة ٥٣٤ وصلت خاتون

بنت محمد زوجة المقتدى مع اخيها مسعود « واقامت

• (٢٦٨) المنتظم ٢٢٢/٩ .

• (٢٦٩) مرآة الزمان ٩٦/٨ .

• (٢٧٠) المنتظم ٢٩/٩ .

• (٢٧١) المنتظم ٥٥/١٠ .

بَغْدَادُ فِي عَهْدِ الثَّوْرَةِ

بقلم

حَوْلًا كَاطِرُ الْبَيْهَاتِي

ديوان وزارة الري - بغداد

مقدمة

المحتوى والمضمون الحضاري للعصر الذي راح يسابق في النهوض نحو الامام ارقى عواصم ومدن العالم ، سيما وان احد عشر عاما لا تعد زمتنا الى جانب العشرات من السنين التي وصلت فيها العواصم والمدن المتقدمة الى ما هي عليه الان .

وخطا نقول اننا نستطيع حصر كلما تحقق لبغداد خلال عهد الثورة لاننا مهما حاولنا فسنفعل الكثير منها ، لان ثورة ١٧ - ٣٠ تموز منذ قيامها كان لها في كل زاوية وفي كل لحظة « بصمة » جميلة فاعلة وحضارية على وجه بغداد ، اقتصاديا ، ثقافيا ، اجتماعيا ، تخطيطيا ، تجمياليا ، صحيا ، وخدميا . وعلى ذلك فنستطيع قارئنا عدرا اذا ما فاتنا شيء من ذكر بعض مكتسبات بغداد .. وابن بغداد .

زيادة النفوس - واتساع الارض

بين عام ١٩٦٨ و عام ١٩٧٩ اختلاف كبير جدا وان اعطاء نسبة لهذا التغيير عما كانت عليه بغداد قبل الثورة هو ضرب من ضروب الوهم ، لقد ارتفع عدد نفوس بغداد خلال الاعوام الاحد عشر السابقة فتشير احصاءات التعداد العام الاخير للسكان عام ١٩٧٧ الى ان عدد سكان بغداد قد وصل الى (٣٠١٨٩٧٠٠) مليون نسمة عما كان عليه في تعداد ١٩٦٥ الذي اظهرت نتائجه بان نفوس بغداد (٢٣٧٥٠٠٢٤٥) مليون نسمة واذا ما اخذنا نسبة الزيادة الحاصلة في سكان بغداد خلال هذه الفترة يمكننا طبعا ان نتصور نسبة الزيادة الحاصلة في عدد السكان في بغداد خلال اعوام ١٩٧٨ و ١٩٧٩ آخذين بنظر الاعتبار التطور الشامل

في الزنزانة المظلمة كانت هناك كوة ضيقة تطل على صباح ربيعي ممطر ، في تلك الزنزانة كان هناك سجينان ينظران من خلال تلك الكوة الضيقة ، نظر الاول نحو الاسفل فلم ير غير الطين والاحوال وعبوس الارض فابتأس ، نظر الثاني نحو الاعلى فرأى السماء زرقاء صافية ندية تطرزها هنا وهناك جزبات الغيوم القطنية المتقطعة وطيور سنونو وعصافير تمرح في فضاء ضاحك ، فابتسم ابتسامة الامل البعيد نحو الافق .

وهكذا فعلت بغداد عندما كانت تمر في عهود الجهل والتخلف كانت دائما تحصل الامل في احشائها ، كان لديها شيء كبير تحتفظ به لتلده يوما وكان هذا اليوم .. الامل .. هو يوم السابع عشر - الثلاثين من تموز الخالد ، كان هو تلك السماء الزرقاء الندية التي تطرزها الغيوم القطنية البيضاء المتقطعة وهو نفسه طير السنونو وعصافير الفرح ونسائم الخير والمكاسب العظيمة .

حديث الوجه المشرق

رغم ان الحديث عن التغيير في شكل ومحتوى خارطة بغداد لا يحتاج الى ابضاح شفهي او مدون ، لما للتغيير هذا من شواهد واضحة وملموسة يقرأها القريب والبعيد والاعداء قبل الاصدقاء الا اننا لا نستطيع ان نتجاوز فرصة صدور العدد الخاص ببغداد لمجلتنا دون ان ندون شيئا اعتري وجه المدينة من ابتسام ومشاهد حضارية ليس على صعيد الشكل والمظهر حسب وانما ايضا في

الذي حصل في الجوانب الاجتماعية والصحية لاهالي بغداد و اثر ذلك في زيادة السكان .

ولابد لهذه الزيادة في عدد سكان بغداد - لكي تدور الحياة طبيعية وبدون ارباك - ان ترافقها زيادة او تطور في كافة مرافق الحياة لذا نجد ان رقعة بغداد زادت بالنسبة لحدود امانة العاصمة حيث شملت قصبة المدائن ايضا التي مساحتها بحدود (٣٣٧٥) كلم^٢ مضافة الى حدودها الاصلية لما قبل الثورة والتي مساحتها (٨٦٥) كلم^٢ ، واذا ما اضعنا اليها مساحات الارض الممتدة بين حدود بغداد القديمة وحدود قصبة المدائن فسيرتفع عدد الكيلومترات المربعة المضافة الى مساحة العاصمة.

وخلال عمر الثورة انشأت في بغداد عددا كبيرا من المناطق السكنية الحديثة تركز اغلبها في جنوب المدينة مثل حي العامل والسيدية والحي الدبلوماسي وراحت تمتد رقعة السكن باتجاه مطار بغداد الدولي وفي شمال بغداد ايضا اخذت المناطق السكنية تزحف نحو حدود محافظة ديالى ، وحسب احصاءات امانة العاصمة فان المباني للدور الحديثة التي انشأت خلال العشر سنوات الماضية من عمر الثورة بلغت (١٠٢٦٤٨) دارا حديثة ويتجاوز هذا العدد ال (١٠٣.٠٠٠) خلال هذا العام ، كما تشير هذه الاحصاءات ايضا الى ان عدد اعمارات المدة لاغراض اسكن والتي انشأها الاهلون بلغت (١٤٤٦) خلال نفس الفترة المذكورة ، ويعتقد انها قد تجاوزت هذا العدد خلال هذا العام . كما ان زيادة عدد افراد العائلة البغدادية ذات الامكانيات المادية المحدودة حدا بها اني اعادة بناء دورها بشكل يتلائم وروح العصر والزيادة الحاصلة في العائلة فوصل عدد هذه الدور الى ما يقارب (٥٠٠٠) دار . وهناك الكثير من العوامل اضافت مرافق جديدة الى بناء دورها الاصلية حتى بلغت بحدود (١٠٢.٥٠٠) دارا ، وشمل الترميم زهاء (٨٣.٥٠٠) دارا من قبل اصحابها^(١) .

وباعتبار ان امانة العاصمة الجهة الاساسية المسؤولة عن تخطيط المدينة وتوسعاتها وتغيير خارطتها وفقا للتطور الذي احدثته الثورة في كافة المجالات ، فقد دأبت هذه المؤسسة الخدمية على

(١) هذه الاحصاءات اخذت عن النشرات الاحصائية لتسليم الاحصاء في امانة العاصمة خلال السنوات العشر الاولى من عمر الثورة مضافا اليها نسبة تقديرية للفترة اللاحقة .

محاكاة المسيرة الحضارية للثورة لتضفي علامات مضيئة على وجه بغداد في كافة جوانبها . وسنحاول الاشارة الى ابرز نشاطات واعمال امانة العاصمة وبصماتها الحضارية على وجه بغداد .

التصميم الاساسي لبغداد

في عام ١٩٧١ صدر قانون تحت رقم (١٥٦) هذا القانون حمل صفة الالزام والتقييد بمضامينه ومقترحاته ، انه قانون التصميم الاساسي لمدينة بغداد ويعني مجموعة السياسات الخاصة بتنظيم شكل وتطور المدينة على اسس علمية وفنية وتخطيطية سليمة . ويعتبر هذا التصميم من اهم منجزات الامانة في عهد الثورة باعتباره الاساس الذي من خلاله يمسد النظر في التخطيط العام للمدينة . وهو ايضا يسهم بجدية واضحة الى الحد من زحف وتوسع المدينة الذي اخذ يسير بشكل اقفي رهيب يكلفه الكثير من النفقات والخدمات والوقت والجهد الذي نحن بحاجة اليها في مشاريع اخرى اكثر اهمية في مسيرة التنمية القومية ، وعلى ضوء نتائج البحث والتحليل التي توصل اليها المهندسون والاستشاريون والتي شملت كافة نواحي الحياة الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسكانية . فيمكن القول ان التصميم الاساسي اصبح دليلا ومرشدا لنمو واعمار مدينتنا الخالدة بغداد حتى عام (٢٠٠٠) ومنظما لكل نشاطاتها لآمد طويل واطارا عاما وشاملا للتطوير والتمدن بحيث يؤمن اعمارا صحيحا للمدينة مع الحفاظ على عناصرها وسماحتها الاساسية وتاريخها واثارها ولاملاحها العمرانية المميزة .

نظام ترقيمي جديد

كانت بغداد قبل الثورة تعتمد نظاما ترقيميا مشوها لا ينسجم وضرورات التطور السريع للمدينة ، لذا بات من الضروري اعتماد اسس سهلة ومبسطة لمعرفة اي موقع او شارع في المدينة ، فقد وضعت اسس جديدة ومتطورة للتعامل بأرقام مبسطة وثابتة وضعت على خرائط تفصيلية واضحة لكل قطاع ومحلة يضاف الى ذلك محافظته على التسميات التاريخية لاجزاء المدينة وشوارعها المهمة . وقسم هذا النظام المدينة الى (٩) قطاعات اربعة منها في جانب الكرخ وخمسة في الرصافة اخذت الاولى ارقاما زوجية والثانية ارقاما فردية واعتبرت الشوارع التي تقع على يسار الشارع الرئيس الذي يخترق القطاع ذات ارقام

فيبلغ عددها (١٣٧) أبرزها دور الضيافة ومجمع المرور .

هذا وقد قامت الامانة ايضا ببناء (٢٧٠) دارا للايتام والارامل والشهداء .

كازينوهات ومطاعم عصرية

افتقرت بغداد قبل الثورة الى الكثير من امكان الراحة العصرية لذلك جاء اقدمها على انشاء عدد من المطاعم والكازينوهات الحديثة التي جاءت ولادتها ملازمة جنبا الى جنب مع اقامة المتنزهات والحدائق الكبيرة في العاصمة والتي يبدو انها كانت من ضرورتها . وقد آثرت امانة العاصمة كما يبدو ان تكون لهذه المطاعم والكازينوهات تصاميم حديثة وجميلة وبعضها يحمل التصاميم الاسلامية العربية وهي على درجات مختلفة لتفصح المجال امام جميع المواطنين لارتياحها كل حسب رغبته ومزاجه وقد بلغ عدد هذه الكازينوهات والمطاعم (٥٥) موزعة على متنزهات وكورنيشات العاصمة ومناطقها المختلفة نذكر منها على سبيل المثال مطعم المؤتوة والمجمع الاندلسي والبغدادي والياباني في الزوراء وانكوابك في المسبح . والخورنق والسدير في الاعظمية والعائم في ابي نؤاس وتلك المنتشرة على ضفاف قناة الجيش .

الاسواق وعلاوي المخضرات

انشأت مجموعة من الاسواق العصرية والشعبية في مناطق مختلفة من بغداد وبلغ عدد دكاكينها ومخازنها (٢٥٠٦) دكانا ومخزنا وهدفها حصر الباعة التجولين الذين كانوا يفتشون الارصفة والساحات العامة والتي كانت سلمهم بعيدة عن الرقابة والاشراف الصحي وكما تهدف المؤسسات المسؤولة القضاء على ظاهرة الفوضى والتجاوز التي تسود شوارع العاصمة وساحاتها كما استطاعت بذلك تأمين حاجة المواطنين من السلع والحاجيات اليومية الضرورية ومن جهة اخرى لم يعد من المناسب بقاء امكنة علاوي المخضرات والخضر في قلب المدينة نظرا لما تسببه من زحام وعرقلة لحركة المرور والتنقل لذا فقد خصصت الامانة اماكن معينة ومناسبة تتوفر فيها شروط التنظيم الصحيح والصحي وانشأت (١٠٦) علوة شعبية أبرزها (علاوي جميلة) وعلوة الكاظمية والسيدية وقد روعي في اختيار مواقعها البعد عن مركز العاصمة وقربها من مناطق جمع الخضار والفواكه لتوفر على الفلاحين والبقالين الوقت والجهد ونفقات النقل .

زوجية وتلك التي تفع على يمينه تأخذ ارقاما فردية وهكذا يستمر النظام بنفس الطريقة في ترقيم الدور والمحلات والمباني الاخرى . وقد اذمت كل الدوائر والمؤسسات ذات العلاقة اعتماد هذا النظام الجديد اساسا في معاملاتها وتعاملها .

عمارات سكنية وتجارية

للمرة الاولى في تاريخ القطر وبعد ثورة ١٧ - ٣٠ تموز الخالدة تبادر امانة العاصمة في تنفيذ عدد من مشاريع السكن للمواطنين اسهاما منها في حل مشكلة السكن التي يعاني منها بعض المواطنين . فانشات عددا من العمارات السكنية ذات الطوابق المتعددة والتصاميم الحديثة والمناسبة لسكن انوائل البغدادية المحافظة وقد بلغ عدد هذه العمارات (٣٥) موزعة على مناطق الزعفرانية وشارع حيفا في الكرخ وحي الرياض وحي ٧ نيسان في بغداد الجديدة وعمارة لذوي الكفاءات في منطقة العظيمة واخرى ايضا في جانب الرصافة وتتراوح عدد طوابقها بين ٣ - ٦ طوابق .

كما ساهمت الامانة ايضا بانشاء عدد من العمارات والاسواق التجارية ذات التصاميم الحديثة التي تميزت معظمها بالطابع البغدادي والريازة الاسلامية . وتفي هذه المشيدات بمتطلبات المواطنين في سد احتياجاتهم . فقد قامت بانشاء اسواق تجارية نذكر منها على سبيل المثال السوق المركزي الكبير في التصور (السوبرماركت) الذي يضم عددا كبيرا من المرافق التكميلية كمحطة تعبئة بنزين وساحات لوقوف السيارات وحدائق ولعب الاطفال ودار للحضانة المؤتة للصفار وصالونات لحلاقة الرجال والنساء اضافة الى السوق المجمع الذي يتكون من طابق واحد وطابق ارضي يضم المراكز الرئيسية لمعارض القطاع الاشتراكي ، وبيعاز من الاب المناضل احمد حسن البكر فقد انشات الامانة عددا من الشقق السكنية للمواطنين لتكون الطابق الثاني للمجمع . وهناك اسواق اخرى لا تختلف عنه في الطبيعة ولكنها تختلف في الشكل كالسوق العباسي في الاعظمية والسوق العربي في الشورجة وسوق المدائن الذي يضم مخازن وشقق سكنية ، وهناك سوقا اخرى يجري العمل على انشائها في منطقة قناة الجيش . يضاف الى ذلك العمارات التجارية التي قامت بانشائها هذه المؤسسة كممارة الرشيد والمستنصر والغريبي . اما المباني الاخرى التي انشأتها الامانة

مناطق متخصصة

شمال بغداد بجنوبها والذي يمر بمحاذاة السدة الشرقية في الرصافة ويتقاطع مع الطرق الرئيسية التي تعترضه بواسطة جسور معلقة و يلتقي بها بواسطة طرق مساعدة تربط الشارع الرئيس بالشوارع التي تعترضه وفق مسارات واشكال تخطيطية حديثة .

كما انتهت المسوحات الجيولوجية والطبوغرافية لمشروع الكورنيش المعلق الذي سيربط الاعظمية بأبي نواس وسيقام هذا الكورنيش على اعمدة معلقة داخل نهر دجلة في ضفته اليمنى بطول (٣٢٠٠) كلم ويتكون من معبرين بسمة ٢٢ مترا تتوسطهما جزرة وسطية ورسيفين جانبيين بعرض متر واحد لكل منها وستشيد على الكورنيش عمارتان لوقوف السيارات الاولى في المنطقة المقابلة لشارع السموال والاخرى في منطقة السنك وتستوعب هاتان العمارتان لـ (٢٤٠٠) سيارة .

اما الانفاق فابرزها (نفق التحرير) الذي يربط شارع الجمهورية بالسعدون والذي خفف من ضغط المركبات على الساحة بحدود ٦٠٪ استنادا الى تخمينات الخبراء يحاط النفق بسوق يحتوي على اكثر من (٤٠) دكانا تؤدي اليه ستة أنفاق من كل اتجاهات الساحة مزودة بالسلالم الكهربائية . اما (نفق الشرطة) فيربط بين الشارع المؤدي الى الكاظمية وذلك المؤدي الى المطار الدولي ويشيد حاليا نفق ثالث في ساحة الطيران وهو اضعف نفق يشيد لحد الآن وسيحتوي على شبكة من الانفاق والجسور للسابلة وللسيارات وسيعمل كثيرا على تخفيف الزحام في ساحة (بونس السعادي) ، وسيبدأ قريبا العمل في تنفيذ جسر دمشق الذي تنفذه وزارة الإسكان والتعمير وصممه امانة العاصمة وهو بكلفة (٤٦٣٤٣٠٥) مليون دينار لمعالجة اختناقات المرور في الساحة والمشروع عبارة عن جسر يربط ساحة حلب بشارع المحطة العالية بطول (٣٧٥)م وعرض (٢١) مترا ، ذو اربع ممرات للسيارات اضافة الى ممشى جانبية وكذلك هناك نفق رئيس يربط ساحة المتحف بساحة الفارس العربي ، اضافة الى ساحة بمستوى الارض تتحكم فيها الاشارات الضوئية .

ومن اجل انسيابية السير في الشوارع الرئيسية انشأت امانة العاصمة عددا من انفاق السابلة في شارع الامون والشورجة والوثبة والسعدون وينفذ في المستقبل القريب نفق في بداية شارع الرشيد باعتباره من اضمادات نفق التحرير

تنفيذا لما اقره التصميم الاساسي للمدينة وعلى سبيل التنظيم المهني للقطاعات الخدمية لابناء بغداد فقد كانت هذه القطاعات مبعثرة هنا وهناك بشكل تسوده الفوضى والانظام تتداخل ضمن المناطق السكنية في الشوارع العامة والازقة مؤثرة بشكل مباشر أو غير مباشر على راحة المواطنين وحركة المرور بالاضافة الى ما تحمله من اضرار صحية وتشويه لمنظر العاصمة . الامر الذي جعل المسؤولين يسارعون الى نقل محلات تصليح السيارات وادامتها الى مناطق محددة لها تؤدي فيها وظائفها بعيدا عن مركز العاصمة . وكذلك شملت هذه الخطة كل المصانع والمعامل الاهلية والطابع والورش الكبيرة بنقلها الى المناطق الصناعية كممنطقة جميلة والبياع وكرة وعطش والمنطقة الصناعية في الكاظمية .

ومن جهة اخرى تم ترحيل معارض بيع وشراء السيارات الى مجمعاتها الجديدة في البياع وخلف السدة الشرقية .

طرق معلقة .. انفاق ..

من علامات الحضرة والمدنية في عصرنا الراهن هي طرق الواصلات وبقدرة ما للانهار من اهمية بالنسبة للدولة ورفيها الزراعي والاقتصادي ، كذلك الطرق فهي احدى عوامل قوة الدولة . اما في المدن فهي علامة من علامات رقي المدينة ، وفي بغداد وخلال عهد الثورة كان لايد من تنفيذ الطرق والشوارع لاستيعاب الاعداد الهائلة من المركبات التي ازادت بشكل متوازٍ مع ارتفاع المستوى المعاشي للمواطنين اضافة الى ما يقص ضمن مؤسسات القطاع الاشتراكي من هذه المركبات .

وعليه فكان لزاما على الدوائر المختصة وعلى رأسها امانة العاصمة ان تقوم بشق عدد كبير من الطرق والانفاق والجسور وتقوم بتحويل الساحات وتطبيق نظام الاشارات الضوئية (الترافكلايت) من اجل تسهيل حركة المرور وانسيابيتها في الشوارع وكذلك لمعالجة الاختناقات المرورية في بعض مراكز المدينة . فقامت بتبليط (١٥٠٠٠٠٠) مليون متر مربع من الشوارع اهمها شارع حيفا وشارع الزينسون وشارع مستشفى اليرموك في الكرخ وشوارع الثورة وسواها من المناطق الكثيرة الاخرى كما بدأت بتنفيذ مشروع طريق المرور السريع الذي يربط

وللفرض نفسه أنشأت أيضا جسورا لعبور السابلة كجسر الجامعة المستنصرية وساحة المتحف وشارع دمشق ومستشفى اليرموك .

جسور على دجلة

الكرخ وجمال عبدالناصر وجسري الشهداء والاحرار وبعض الشوارع العمودية وقد شملت معظم الساحات والتقاطعات بنصب أضوية المرور المنظورة وباشكال وحجوم مختلفة رئيسية وثانوية وصغيرة داخل تلك الساحات والتقاطعات بالإضافة الى الاشارات الضوئية لمناطق عبور المشاة ترتبط هذه الاشارات بمحطة سيطرة مركزية لتوجيه هذه الشبكة الضوئية مركزيا ، كما شمل المشروع أيضا نصب العلامات المرورية وفق مقاييس دولية اضافة الى تخطيط التقاطعات بالاشارة البلاستيكية التي تستعمل لأول مرة في القطر .

هدم من اجل البناء

وضعت تصاميم تفصيلية حديثة لمنطقتي الكرخ والسنك في الرصافة بما يكفل اظهارهما بشكل يقضي على الفوضى في التخطيط وضمن مساحات معينة باعتبار ان هاتين المنطقتين تمثلان قلب المركز . وان وصفهما بشكل عصري يتلائم وتطور الحركة العمرانية التي تحيط بهما او ملح جدا ..

نهر الخير

نهر الخير كان فيما مضى واحدا من شبكة اروائية تحيط ببغداد في جانبها الغربي ، وقد اختفى بمرور الزمن ولم يعد الا مستنقعا لجياه آسنة تحمل الامراض الفاتكة للمناطق السكنية المحاذية له ، ولكن بعد ثورة ١٧-٣٠ من تموز العظيمة وضعت امانة العاصمة كل نقلها لحياته والاستفادة منه اقتصاديا وسياحيا وفعلا فقد عاد من جديد قناة تخترق الجانب الغربي من بغداد تحيط به المنتزهات ، يبلغ طوله (١٩) كلم ، يأخذ مائه العذب من دجلة شمال الكاظمية بواسطة مكائن ضخمة ويمر بمناطق كثيرة كالدولمي ويكون بحيرة سعتها (٦٠) الف ٢م عند حي العدل ويقطع حي الميري فالنصور ويصب في دجلة أيضا عند منطقة القادسية ، يتولى قاطعا (١٩) جسرا لعبور السيارات والسابلة وبذلك يتم احياء اكبر مشروع اروائي تاريخي لبغداد .

خدمات ليس لها حدود

قد يكون من قبيل (الحكيم) حين نقول « لا قيمة لشارع بدون مجار » لذلك ولكل ذكرى المعاناة التي لم ينح منها مواطن في بغداد عند الشتاء في العهود الماضية ، نجد ان شبكات المجاري راحت

ضمن التصميم الاساسي لبغداد فانه يجب ان يصل عدد الجسور فيها حتى عام (٢٠٠٠) ، (١٣) جسرا لمواجهة ضغط المركبات وتوقفا للاختناقات المرورية ، فانثيء (جسر المثنى بن حارثة الشيباني) شمالي بغداد ، افتتح في ١٥ آب ١٩٧٩ ، وكذلك (جسر الدورة) انذي يجسري العمل فيه حاليا ، كما سيباشر بتنفيذ (٢١) جسرا لمرور السيارات والسابلة على قناة الجيش في نهاية العام الحالي بهدف تسهيل حركة المرور عبر القناة بما يتلائم والحركة المتوقعة بعد افتتاح جسري المثنى والدورة .

وسيمت في المستقبل القريب (جسر الاعظمية المعلق) بطول (٤٠٠)م وعرض (٣٠) مترا وبمقتربات طولها (٥٧٠) مترا ، كما انجزت تصاميم (جسر السنك) بطول (٢٧٦) مترا وعرض (٣١٥) مترا وبمقتربات (٢٥) مترا ويهدف الى تخفيف ضغط المركبات على جسري الاحرار والجمهورية ، وسيشهد العام المقبل المباشرة بانشاء (جسر الجادرية) في بغداد بطول (١٥٠٠) على النهر وبمقتربات (٢٥٠٠) مترا ويمتد على جزيرة ام الخنازير السياحية ويحتوي على (٦) ممرات ثلاثة منها للذهاب والاخرى للاياب بهدف ربط المنطقة الممتدة من ساحة جامعة بغداد حتى طريق بغداد - حلة عند نقطة السيدة وبمستوى على ممرات نزول الى جزيرة ام الخنازير دون استعمال اي طريقة مائية .

اشارات مرور متطورة

وفقا لمتطلبات العصر بادرت امانة العاصمة بتنفيذ مشروع تحويل الساحات ونصب اضوية المرور الالكترونية ، يشمل هذا المشروع تقليص بعض الساحات وتغيير مقترباتها لاستيعاب اكبر عدد ممكن من المركبات براعى في ذلك الحفاظ على جمالية المدينة ونصها وتمائليها فشمّل هذا المشروع (٢٤) ساحة نذكر منها ساحات الوثيبة وزبيدة وباب العظم والجمهورية والمنصور والفارس العربي والفتح وغيرها كما استحدثت مبدا نظام الاتجاه الواحد للمرور في الشوارع الرئيسية الذي شمل شوارع الكفاح والرشد وحيفا والنصر في

كنا تم انشاء (٣) مجازر عصرية اوتوماتيكية داخل بغداد في منطقة الكاظمية والكرخ والشيوخ عمر ، يتم فيها نحر المواشي على الطريقة الاسلامية بعد فحصها من قبل اطباء بيطرين للتأكد من سلامتها من الامراض ، ثم توزع على الاسواق بواسطة سيارات مكيفة استقدمت لهذا الغرض ، وتم ايضا انشاء حضائر خاصة لتجمع المواشي بجوار هذه المجازر وبذلك يقضى على الاساليب غير الانسانية في نحر المواشي .

ومن الخدمات الانسانية الاخرى التي شهدت بغداد في عهد الثورة هي اقامة اربع مقابر حديثة يسودها التنظيم في دفن الموتى بما يتناسب وقيمة الانسان وهذه المقابر تقع في اطراف بغداد على طريق ابي غريب وعلى طريق سامراء ومقبرة السيد محمد السكران على طريق بعقوبة الجديد واخرى على طريق بعقوبة القديم تتوفر في هذه المقابر كل الشروط الصحية والمفاسل والمساجد ذات هبة كبيرة لاداء الطقوس التي ترافق دفن الموتى وتتخلل هذه المقابر الحدائق والاشجار والطرق المعبدة والمرافق الضرورية الاخرى .

ومن مرافق الخدمات الضرورية الاخرى هي انشاء عمارات متعددة الطوابق لوقوف السيارات وكانت عمارة السنك هي التجربة وتتكون من ستة طوابق تستوعب ل (٦٣٦) سيارة وطابقها الارضيخصص كمخازن ومحلات تجارية و (ورشة) للفصل والتشحيم وصيانة العطوب البسيطة في السيارات . وسيتم تنفيذ عمارتين لهذا الغرض في المستقبل القريب الاولى قرب جسر الجمهورية والثانية في ساحة الامين واخرى في بداية شارع الجمهورية .

مسابع للصيد

بالاضافة للمسبح القديم الذي تأسس عام ١٩٤٦ انشيء مسبح اولمبي في منتزه الزوراء وهو مسبح كبير يحتوى ايضا على حوضين احدهما للاولاد والاخر للاطفال وهو ذو قياسات اولمبية لاقامة السباقات فيه والى جانبه مسبح بلاستيكي يجري العمل على اصلاحه الان بالاضافة الى العمل حاليا في انشاء مسبحين قياسييين احدهما في مدينة الضباط والاخر قرب الجامعة المستنصرية وهما من ضمن عدد من المسابح سيصار الى انشائها مستقبلا ، هذا بالاضافة الى انشاء المسابح داخل

تحتبىء داخل الارض لامتناص ما يقع على الشوارع من مياه الامطار وقد وضعت الخطط لاقامة شبكات مجازر للشوارع الرئيسية والفرعية والمناطق السكنية وقبل المباشرة بتبليط ابي شبكة شوارع . . وقد خصت المنطقة المركزية ببغداد جميعها تقريبا سواء كان ذلك في الكرخ او الرصافة بشبكة مجازر ، وقد انشأت من اجل هذه الاعمال الشركة العامة لمقاولات مشاريع المجاري والماء التي قامت بمشاريع كبيرة اهمها مشروع ربط مجاري مياه المناطق السكنية في بغداد الجديدة بالمجرى الرئيسي وقيامها ايضا بانشاء خطوط واسعة للمجاري في بعض انحاء العاصمة لاستيعاب افرازات دور السكن والعامل وغيرها .

وهناك مشروعان كبيران للمجاري بدا الاول بتنفيذه في مدينة الثورة بكلفة (٣٠) مليون دينار لانشاء شبكة مجاري وتبليط الطرق الرئيسية في مدينة الثورة (٢) ، كما وقعت امانة العاصمة مؤخرا عقدا مع احدى الشركات العالمية لتنفيذ مجريين رئيسيين لمياه الامطار في بغداد بكلفة (١٦) مليون دينار في الكرخ والرصافة . بالاضافة الى بدء المباشرة بمشروع مجاري جانب الكرخ بكلفة مليون دينار وتقوم بتنفيذه الشركة العامة للمقاولات .

الماء والمجاري

ومن الخدمات التي تطورت في عهد الثورة هي خدمات التنظيف فقد تخطت الطرق المتخلفة القديمة في تنظيف الشوارع والازقة بواسطة سيارات حديثة كابسة للنفائات واخرى لفصل الشوارع بصورة اوتوماتيكية ، كما استحدثت طريقة تعميم استخدام اكياس النايلون في جمع النفائات من الدور والمحلات العامة التي تاخذها سيارات جمع النفائات الى معمل الاسمدة العضوية على بعد كيلومتر واحد من شمال غربي مدينة الثورة . وهو معمل واسع اقيم لاستقبال النفائات من مناطق العاصمة وتحولها الى اسمدة عضوية صالحة كسماد للمزارع والحدائق والبساتين ويؤمل ان ينصب معمل آخر على غرارها في منطقة الكرخ .

(٢) يتكون المشروع من ثلاثة اجزاء الاول : شبكة مجازر بطول (١٢٥) كلم وبالطائر من (٢٥ - ٨٠) سم . الثاني : انشاء المجرى الرئيسي بطول (١٦) كلم من الكونكريت الى البطن بالصفائح البلاستيكية الطاره بين (١٨٠ - ٢٠٠) سم ، الثالث : انشاء (١٥) مضخة .

القومية ، مبنى وزارة الخارجية ، مبنى مجلس الوزراء ، ومبنى دار الثورة ومشروع قاعة الالعاب الملقبة في المدينة الرياضية . وكلها مباني ضخمة وذات تصاميم ومواصفات متطورة جدا .

قصر المؤتمرات

على مساحة (٦٥) الف متر مربع وفي المنطقه الواقعة بين ساحة عمان وساحة حلب سيرتفع شامخا في احتفالات الثورة لعام ١٩٨١ بناية تعتبر من انخم المباني في الشرق تصميما وعمرانا هي بناية « قصر المؤتمرات » وسيستقبل هذا انقصر اكبر ملوك ورؤساء المؤتمر السابع لدول عدم الانحياز عام ١٩٨٢ .

بدا العمل في هذا المشروع الكبير في تموز عام ١٩٧٨ ويحتوي على قاعة رئيسية تسع لـ (١٦٠٠) شخص في حالة الجلوس كأعضاء مشاركين في مؤتمر واكثر من (٢٠٠٠) شخص في حالة الجلوس بشكل قاعة للمحاضرات او الاحتفالات . بالإضافة الى عدد من القاعات الثانوية التي تستخدم كقاعات للمحاضرات والمناقشة وكذلك قاعة للمؤتمرات الصحفية وقاعة صغيرة لمراقبة البرامج التلفزيونية باللغات المتعددة .

كما يضم المبنى اجهزة (تلكس) اذاعية وتلفزيونية بقنوات متعددة داخلية وعبر الاقمار الصناعية . كما يحتوي على مطبعة ومكاتب سكرتارية وفروع للمصارف والسياحة والخدمات . وسيربط طرفي الشارع نفق داخلي ، وفتح شارع بين ساحة عمان والساحة المجاورة لمبنى اتحاد نقابات العمال للحد من اختناقات المرور أثناء انعقاد المؤتمرات ، وقد اعتمد المشروع الذي تزيد كلفته على (٣٠) مليون دينار في تصاميمه على طرز الهندسة العربية والاسلامية والسومرية العريقة ، وسيكون احدي العلامات العمرانية المميزة لبعثاد الثورة (٢) .

المطار الكبير

في الاول من آب الماضي وضع النائب الاول لرئيس الوزراء السيد طه ياسين رمضان حجر الاساس لأكبر مطار دولي في العراق بـ (٢٤٥) مليون دينار .

(٢) عن مجلة وعي العمال العدد ٥٢٥ ، آب ١٩٧٩ .

مراكز الشباب ، ومساح شعبية في حوض قنابة الجيش غلفت بالأجر لخدمة اولاد المناطق السكنية الواقعة على القناة .

مشاريع سكنية وعمرانية كبيرة

بموجب قانون خاص انشأت الثورة المؤسسة العامة للاسكان ، كما اصدر مجلس قيادة الثورة في اواخر شباط ١٩٧٩ خمسة قرارات مهمة تستهدف حل ازمة السكن بفصد دفع وتميز وتنظيم قرارات وامكانات الاجهزة المعنية بتقديم الخدمات السكنية في وزارة الاسكان والتعمير والمؤسسة العامة للاسكان والمصرف العقاري والاتحاد التعاوني الاسكاني فيما تتولى وزارتي التخطيط والمالية تخصيص المبالغ ، واكدت القيادة مرارا على ضرورة متابعة مشاريع الاسكان حقليا .

مشروع انثورة الاسكاني : تتم النهاية حاليا في هذا الموقع على مساحة (١٢٨) دونم لاقامة (١٠٠٠) شقة عليه وكذلك بناء (٣) مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية وروضتين للاطفال وداري حضانة وبريد ومركز طبي وآخر للشباب اضافة للمرافق الحيوية الاخرى .

وتواصل العمل بانجاز (٣٠٠) شقة سكنية في منطقتي السيدة وزبونة وبناء (١٤٥٠) شقة في الدورة ، كما سيتم انشاء المجمع السكني في كرازة مريم بـ (٣٤٢.٠٠٠.١٣) مليون دينار وعلى مساحة (١٢٥٨.٨١٢) م^٢ ويحتوي على (٢٤) عمارة تضم (٢٣٠٠) وحدة سكنية ، اضافة الى (٤) مدارس ثانوية ومتوسطة وابتدائية مع مركزين طبي وشبابي ورياض للاطفال وملاعب رياضية ومسبحين ومركز اجتماعي واسواق ومحلات تجارية .

وفي منطقة الدورة ينفذ مشروع سكني لبناء (١٤٤٨) وحدة سكنية تحتوي على (٣٤٠٠) شقة سكنية بـ (١.٠٧٥.٠٠٠) مليون دينار وعلى مساحة (٩٦) هكتار . يضاف الى ذلك بناء (٣٨٢٣) دارا جاهزة و (٣٠٠) دارا للعمال في السيدة ، وتجري حاليا السوحات لمشروع انشاء (٢٠٠٠) وحدة سكنية قرب محطة شرقي بغداد .

ومن معالم العمران في المدينة الذي تقوم به المؤسسة العامة للاسكان : مبنى القيادة

- المليون دينار وسيكون بإمكان هذا المطار الذي سواكب التوسعات المستقبلية حتى عام (٢٠٠٠) استقبال (٩) ملايين مسافر في العام . وسيضم هذا المطار الذي قامت بتصميمه المؤسسة العامة للطرق والجسور بالتعاون مع بعض الخبراء العالميين (١٨) موقفا للطائرات تربط بأبنية المسافرين وأربعة مواقف احتياطية للاستعمالات الضرورية وقاعة للشرف ، وجناحا خاصا للسيد الرئيس وآخر خاص للاجتماعات القصيرة للسادة الرؤساء وقاعة كبار المسؤولين .
- كما تشتمل منشآت المطار الجديد على بناية للاتصالات للمراقبة وبناية للشحن الجوي والملاحة وطرق مؤدية الى اماكن الصيانة وساحة لخدمة الطائرات .
- اما المنشآت الأخرى فتضم مطعما يسع ل (٥) آلاف مسافر يوميا وابنية للبضائع ومركزا لاطفاء الحريق ومحطة لوقود الطائرات ، وبناية لوقوف السيارات بثلاث طوابق تتسع ل (٣٠٠٠) سيارة . ويؤمل انجاز هذا المشروع الكبير في نهاية عام ١٩٨١ (٤) .
- اوقاف للبناء والاعمار**
- صارت الاوقاف في عهد الثورة مؤسسة للبناء والاعمار ، متجاوزة بذلك وظائفها التقليدية بعد ان دعمتها الثورة بكل الوسائل فساهمت بتطور الجانب العمراني في بغداد الى حد كبير وكذلك في حل ازمة السكن وتتلخص نشاطاتها في هذا الجانب بما يلي :
- ١ - مشروع مدينة الاوقاف في السبع ايكار يتألف في مرحلته الاولى من (١٠) عمارات تحتوي على (٢٤٠) شقة ، وتتألف المرحلة الثانية من (٧) عمارات تحتوي على (٨٤) شقة ويشمل المجمع بناء المدارس ورياض الاطفال ودور الحضانة والاسواق .
- ٢ - عمارة العلوية الثالثة بارتفاع (١٤) طابق الى جانبها عمارة من (٨) طوابق مع المرافق
- ٣ - عمارة سكنية من (١٤) طابق في منطقة العلوية ايضا .
- ٤ - عمارة المنصور في المنصور وتتكون من (٨) طوابق .
- ٥ - عمارة هيب خاتون السكنية في الاعظمية تتألف من (٤) طوابق .
- ٦ - عمارتي العلوية الاولى والثانية في العلوية .
- ٧ - عمارات الخيرات وهو اضخم مجمع عمراني تقوم به الاوقاف في شارع السعدون .
- ٨ - عمارة المديرية العامة للتخطيط والانشاء التابعة للاوقاف وتتألف من (٥) طوابق .
- ٩ - مجمع سكني للوزارة يتألف من (١٠) طوابق على شارع الامام الاعظم في دور الاعلان .
- ١٠ - عمارة نائلة خاتون في منطقة الحيدرخانة (٦) طابق .
- ١١ - عمارة وقف الطبجلي وتتألف من (٥) طوابق في الحيدرخانة .
- ١٢ - عمارة وقف الشيخ قادر في شارع الرشيد تتألف من (٦) طوابق .
- ١٣ - عمارتي البر واحسان مقابل المركز المدني وساحة النافورة .
- ١٤ - العمارة البغدادية في دور التصميم والاعداد وستقام في منطقة الجندي المجهول .
- ١٥ - بناية ذات طابقين في الكاظمية لاستقبال حجاج بيت الله الحرام الوافدين من الاقطار المجاورة .
- ان هذه النشاطات تضاف الى واجبات الوزارة الاصلية في بناء وصيانة المساجد الدينية .
- اعمار اجتماعي**
- على المستوى المهني والاجتماعي فقد ولدت بعد ثورة ١٧ - ٣٠ تموز الكثير من المؤسسات لتاهيل العمال وتدريبهم ومكاتب التشغيل ومعاهد اجتماعية لخدمة بعض الشرائح الاجتماعية من المواطنين ذوي العاهات وغيرهم وفيما يلي جدول يبين نوع وعدد هذه المؤسسات :

(١) عن جريمة الثورة الصادرة يوم ٢٦/٧/١٩٧٩ ، كتاب الثقافة والفنون في عهد الثورة ، صادر عن وزارة الثقافة والفنون .

اسم المؤسسة	عددها قبل الثورة	بعد الثورة
١ - مكاتب التشفييل	٢	٢٢
٢ - مراكز التدريب المهني	-	٤
٣ - مراكز التأهيل المهني والورش المحمية	-	٤
٤ - مؤسسات العمل الصحية	-	٦
٥ - دور حضانة واجنحة ملحقه بالمراكز الاجتماعية	١	٥٠
٦ - المراكز الاجتماعية	٨	٣١
٧ - دور رعاية المسنين والمقعدين	٤	٩
٨ - دور رعاية الاحداث والبنات	١٠	٢٣
٩ - معاهد الصم والبكم والمتخلفين عقليا	-	٨
١٠ - معاهد المكفوفين	١	٤
١١ - رياض الاطفال	-	٤

- ٤ - انشاء سكن للعمال في بغداد .
 ٥ - انشاء سكن للفلسطينيين .
 ٦ - انشاء مستشفيات ومراكز طبية للعمال .
 ٧ - تطوير السجون والاصلاحيات .
 ٨ - انشاء دور لرعاية البنات .
 ٩ - انشاء فنادق عمالية ودور سياحية ونوادي ومكتبات للعمال .

شواهد الثورة الفنية على وجه بغداد

انتشر في شوارع ومنتزهات العاصمة عدد من الانصاب والتماثيل تخلد مشاهير رجالات العلم والادب والفن والسياسة بلغ عددها (٥٠) نصبا وتمثالا (كالرصاصي) و (الكاظمي) و (ابو نؤاس) و (الفارابي) و (الواسطي) و (شهريار) و (ابي جعفر المنصور) والنصب الكبير (مسيرة الحزب ..) و (جدارية التأميم) اللذين يجسدان بطولة الحزب والثورة (٥٠) . وانتشرت في ساحات وحدائق ومنتزهات بغداد نافورات ملونة زاد عددها على المائة موزعة على (٥٠) موقعا . كما تخللت معظم الساحات والحدائق اكثر من (٢٠) ساعة مختلفة الاشكال والتصاميم والابراج فمنها الجدارية والبرجية وساعات الزهور .

كما شهدت بغداد خلال عهد الثورة الزاهر عددا من المؤتمرات والاحتفالات والمعارض الفنية

كما قامت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية خلال عهد الثورة بانشاء (٨١٧) دارا اضافة الى (٤٠) عمارة كل منها يحتوي على (١٢) شقة ، كما انشأت (١٣) عمارة يحتوي كل منها على (٤٨) شقة . وهناك قيد الانشاء (٣) عمارات سكنية ، اما عدد الدور التي شيدت والتي تحت الانشاء فيبلغ (١٣٠) دارا .

وتضع المؤسسات الاجتماعية في تصوراتها عن الافاق الحالية والمستقبلية لبرامج عمل مؤسساتها على الصعيدين الاجتماعي والعمالي على المؤشرات الاساسية للسياسة الاجتماعية التي حددها التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن للحزب اطارها المرحلي كي تتمكن من اداء دورها على نحو يتناسب مع مسيرة التحولات ، ولا شك ان الحاجة ستتعاظم مستقبلا الى بعض النشاطات الخدمية المينة كدور الحضانة وذلك بسبب اتساع ممارسة المرأة لنشاطات خارج المنزل . ولا ينس دور مراكز التنمية الاجتماعية المهم في عملية التغيير بسبب تعدد وظائفها وتنوع ادوارها . كما تجري تنفيذ مشاريع الرعاية الاجتماعية في اطار مؤسسات متخصصة .

ان مؤشرات التطور المستقبلي للمشاريع التنموية تعكس اهتمام الثورة بالاحتياجات المتعاظمة لعملية تغيير البناء الاجتماعي والاقتصادي وانعكاس ذلك على السلوك الانساني ومن هذه المؤشرات :

- ١ - انشاء دور الحضانة ومستلزماتها .
 ٢ - انشاء مراكز التنمية الاجتماعية .
 ٣ - انشاء ابنية للمعوقين .

(٥) وتم لافراسي صناعة التماثيل انشاء مصهر البرونز التابع لامانة العاصمة . اضافة الى تاليف لجنة وطنية من كبار المسؤولين المتخصصين بالثقافة والفنون للاختصار النصب والتماثيل وتعديب امكانتها في القطر .

معركة القادسية التي انتصر فيها العرب على الفرس وهي عبارة عن مشاهد منظورة هي اقرب الى الواقع - ندى مشاهديها - الى الخيال وسينتهي العمل فيها قريبا وهي من مشاريع امانة العاصمة السياحية .

المتنزهات والحدائق : ظلت بغداد تعاني من شحة الحدائق والمتنزهات وظل مواطنها يحلم بحديقة او متنزه يقضي فيه وقت فراغه ويشم نسائهما مع عائلته . وبقيت اغلب المناطق الشعبية تغلف نفسها بغلاف الحركة الآلية المتكررة بعيدة عن التغيير وبقيت عيون ساكنيها لا تصطدم الا بجدران عتيقة وازقة ضيقة ونفس ثقيل فقد كانت كل المساحات المزروعة في بغداد قبل الثورة هي (٢٥) الف متر مربع ، الا انها وصلت بعد قيام ثورة ١٧ - ٣٠ تموز المجيدة الى (١٤٠٢٨٧٩٠) مليون ٢م موزعة على (٥٩١) متنزها وحديقة ابرزها متنزه الزوراء وحدائق قناة الجيش وبحيرة الثورة وابي نؤاس والمسبح . وينشر فيها عشرات الاكشاك لبيع الاطعمة الجاهزة والمربطات ، وكذلك ينشر على ضفاف النهر (٢٠) كشكا لبيع السمك المسقوف .

متنزه الزوراء : او ما يطلق عليه المدينة الخضراء والذي يضم على كل ما يصبو اليه المرء من وسائل الراحة واللهو البريء ، فهو مدينة سياحية قائمة يقع ضمن مساحة (١٢٠٠) دونم في جانب الكرخ نظمت خارطته بشكل جميل وفريد تتوزع على جوانب شوارعه وممراته الكثير من وسائل الراحة فهنا وهناك تنتشر الحدائق وملعب الاطفال والمتاحف كمتحف السيارات وانعربات الملكية ومتحف التاريخ الطبيعي وابراج الطيور والشلالات والبحيرات ذات السحر اللذيذ التي تطفو على مسطحاتها زهور اللوتس ، وناعور يرقد على ضفاف احدها ليرسم مشهدا من اعالي الفرات وعلى قبالته نسبت خيمة الشعر الواسعة تعيد للزائر حلم الصحراء العربية وعلى بعد غير قليل ارتفعت الجنائن المعلقة بتشكيلها الجميل تطل على الملة والاسود البابلية وشارع الوكب والى مسافة غير بعيدة يرتقي مصباح علاء الدين وحدائق الابراج والتماثيل ومن جهة اخرى يرتفع برج الزوراء مطلا على حديقة الحيوانات التي ضمت عشرات الانواع من الحيوانات يتجمع بزويتها الكبار والنصار . وفي مدينة العصاب الزوراء ترفرف ضحكات الفرح . ويضم المتنزه مسرحا وسينما صيفيان وانصاب وتماثيل وساعات والمسبح

عكست الوجه الحقيقي لنشاطات الثورة ومكاسيها وجسدت مبدا الفن في خدمة الثورة ويمكن تلخيصها بما يلي :

- (١) ١٩٧٤ اقيم معرض السنتين العربي الاول في بغداد .
- (٢) ١٩٧٤ انشأت فرقة التراث الموسيقي للمقام والبسات في بغداد .
- (٣) ١٩٧٤ انعقاد المؤتمر الرابع للمجمع العربي الموسيقي في بغداد .
- (٤) ١٩٧٥ انعقاد المؤتمر الدولي الثاني للموسيقى في بغداد .
- (٥) ١٩٧٥ بدأت احتفالات القطر باليوم العالمي للموسيقى واصبح تقليدا فنيا جميلا .
- (٦) ١٩٧٦ انعقاد الاجتماع (٣٣) للهيئة التنفيذية لرابطة الفنون الدولية التشكيلية في بغداد .
- ٨٨ اقامة معارض الحزب السنوية لمناسبة ذكرى احتفالات القطر في السابع من نيسان من كل عام .
- (٨) ١٩٦٨ تشكيل الفرقة القومية للتمثيل في بغداد .
- (٩) ١٩٧١ تشكيل فرقة الفنون الشعبية في بغداد .
- (١٠) اقامة مسرح الاطفال والاهتمام بكتابة نصوص مسرح الطفل .
- (١١) انشاء داري سينما للاطفال في الاعظمية وابي نؤاس .
- (١٢) انشاء المسرح الجوال .
- (١٣) تكوين اكثر من (٢٠) فرقة مسرحية للشباب .

مشاهد العصر السياحية ببغداد

لم تغفل القيادة دور السياحة في استقطاب السواح والوافدين وما تحققت من سمعة دولية للقطر ، فكانت رعايتها غير المحدودة ودعمها المتواصل لهذا الجانب ايا كانت الجهة المنفذة له وبخاصة المؤسسة العامة للسياحة . وفيما يلي اهم المرافق التي ولدت مع الثورة :

البانوراما : مشروع سياحي يقع على بعد (٧٥٠) مترا من طاق كسرى ويعتبر الاول من نوعه في الشرق الاوسط والرابع في العالم ، يحكي قصة

الشرقي مع تكملة الحلية المزخرفة التي تعلو موضع الاطار الكتابي وجرت عملية تخفيض مستوى الارض المحيطة بالدرسة الى عمق مترين لتكون بمستوى الارض الاصليسة . ثم جرى تبيطها وتصريف المياه المتجمعة وما تزال اعمال الصيانة مستمرة في هذه المدرسة .

(٦) القصر العباسي : شملت الصيانة الانثارية معظم اقسام هذا القصر التاريخي وتم صيانة واعادة بناء مدخل القصر المطل على دجلة وفق تصميم خاص واستنادا الى بقايا المعالم الانثارية المستظهرة وبلاسترشاد بمعالم بوابة المدرسة المستنصرية . وقد تم تشييد بوابة بارتفاع (١٢٨٠) م واعادة بناء الواجهات الداخلية المظلة على صحن القصر وكذلك جميع المرافق الداخلية منه واعادة تركيب الزخارف .

(٧) خان مرجان : استطاعت الانار انقاذ هذا البناء التاريخي من خطر السقوط بفعل تسر المياه الجوفية الى هذا البناء الفريد والذي يمثل طرازا معماريا خاصا وهو من بقايا ابنية القرن الثامن الهجري يتألف من طابقين من الغرف حول بهو كبير مسند باقواس واقبية وشملت اعمال الانقاذ والصيانة جميع القاعات والمرافق والواجهة الخارجية والبوابة الرئيسية .

(٨) منارة سوق الفزل : انجزت صيانة انقاعدة في هذه المذنة وهي فريدة في تصميم بنائها وتعود الى جامع القصر او مسجد دار الخلافة الذي شيده الخليفة العباسي المكتفي بالله (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) ، اما المذنة نفسها فيعود تاريخها الى عام ٦٧٨ هـ وشملت اعمال الصيانة في هذه المذنة اكمال الزخارف الاجرية واعادتها الى شكلها الاصلي .

(١٠) الباب الوسطاني : وهو الباب الوحيد المتبقي من ابواب بغداد القديمة ، تواصل الهيئات الانثارية من صيانتة وترميمه وصيانة برج البوابة وبناء العقود بعد ازالة الاجزاء المتصدعة ، والاعمال تجري على اعادة القنطرة وبناء جدران السور الخارجي المحيط بالخندق لاعمار هذا الموقع وابرار معالمه .

(١١) مرقد الست زبيدة : وهو مرقد زمرد خاتون تمت صيانة الاجزاء المنهثة من المقرنصات الداخلية والزخارف الاجرية في واجهة القبة وتم صيانة المدخل الرئيس للمرقد وتسيبجه وانارتة باساليب فنية .

الاولبي والمعارض وقطار الزوراء والمضارب العربية والاكشاك واجهزة التلفزيون الملون ، وعدد كبير من المطاعم والكانزبنوهات السياحية . هذا وتنظم الى هذا التنزه السفرات من جميع المحافظات وتقام فيه الحفلات والمعارض الفنية والتنوعية المتخصصة .

معارض الزهور

وقد اتبعت الجهات ذات الاختصاص في امانة العاصمة تقليدا جميلا منذ عدة سنوات على اقامة معارض ربيعية وخريفية للزهور تكون بمثابة تظاهرات جميلة تتخللها الفعاليات الخفيفة كاختيار ملكة جمال الزهور واجمل سلة زهور تصنعها الايدي الناعمة ، كما يستعرض اطفال بعض الرياض خلال هذه المهرجانات البسيطة بعض اناشيدهم الناعمة للحب وللوطن وللزهور وللناس .

الانار السياحية

تعتبر المواقع الاثرية والتاريخية في بغداد من اهم عوامل جذب السواح بالاضافة الى انها تمثل علامات تاريخية مميزة لطابع المدينة ، ومن اهم الاكتشافات وصيانة المواقع الاثرية ما يلي :

(١) المدائن : عثر خلال التنقيبات على ابنية تعود الى العهد العربية الاسلامية ، كما شملت اعمال التحري الجناح الشمالي فابرتت الواجهة المتساقطة ، وقامت مؤسسة الانار بصيانة الابوان وتروم اعادة بناؤه القديم .

(٢) موقع عقرفوف : (مدينة دور كاريكالزو) على بعد (٣٠) كلم الى الغرب من بغداد : كانت عاصمة الكيشيين منذ القرن (١٥ - ١٢ ق. م) وقد اكمل الجدار الخارجي للزقورة .

(٣) تل حرمل : يقع في بغداد الجديدة ، ما زالت البعثات الانثوية تحاول حماية الانار الموجودة هناك خوفا عليها من زحف الطفيسان المعمارى الحديث الذي اخذ بهدها .

(٤) منطقة تل ابو صخير : ما زالت البعثات الانثارية تراول اعمال التنقيب وقد كشفت عن منشآت اسلامية مهمة تعود الى العهد الاسلامي .

(٥) المدرسة المستنصرية : بقرار من مجلس قيادة الثورة تحت رقم (١١٥) في ١٩٧٣/٢/١ حولت ملكيتها الى الانار مع جميع الابنية المضافة في واجهتها ، وقد تم قيام الهيئات الفنية بصيانة الواجهة ، كما انجزت صيانة الضلع الجنوبي

وضع اسس جديدة للزي العراقي ، ولم يقتصر عملها على ابتكار اشكال موسمية للملابس كما هو الحال مع المؤسسات التجارية وانما تركز عملها الاساس في توجيهها الاعلامي ذو المضمون الثقافي وتشكيل تيار ثقافي في الدوق الخاص وتقدم الخبرة والشورة للمدارس والجامعات ومصانع الملابس في تصميم الازياء .

الجندي المجهول

مشروع كبير خصصت له امانة العاصمة مبالغ معينة قام بتصميمه وعمل نماذجه الفنان خالد الرحال وخصصت له المنطقة الواقعة في جمة ام العظام من متنزّه الزوراء وسيكون بديلا عن النصب القديم الذي اصبح موقعه لا يتلائم والمراسيم التي تقام عنده في المناسبات الوطنية . لما لذلك من تاثير على حركة السير في الشوارع المحيطة .

وللسياحة ايضا

خلال عهد الثورة اتجهت المؤسسة العامة للسياحة الى بناء الفنادق والمجمعات السياحية وفق طرز العمارة البغدادية العريقة ووجهت جهودها بالتعاون مع المؤسسات ذات العلاقة للعناية بآبنية بغداد القديمة لابرازها سياحيا كعالم جمالية حضارية ثمينة . ومن هذه المشاريع :

- (١) المجمع السياحي في المدائن : يحتوي على (٣٥) غرفة اضافة الى (١٧) شقة سكنية .
- (٢) فندق القناة : ويحتوي على (١٤١) غرفة ومسبح .
- (٣) مطعم خان مرجان السياحي في الشورجة الذي قامت باستصلاحه الآثار .
- (٤) المطعم الصيني والاطبالي في الجادرية يقدم المأكولات الصينية والاطبالية فقط .
- (٥) فندق الكاظمية الجاهز : يحتوي على (٥٠٠) غرفة مخصصة لزوار العتبات المقدسة .
- (٦) مرسى الزوارق : يقع على شارع ابو نؤاس يقدم الجولات النهريّة للمواطنين ويحتوي المرسى على مطعم ممتاز وحدائق .
- (٧) مطعم الشموع ويقع في شارع السعدون وهو من الدرجة الممتازة .
- (٨) فندق عباس بن فرناس : يقع على طريق

(١) قاعة المسكوكات في المتحف العراقي : اضيفت الى قاعات العرض في المتحف العراقي ، ضمت مجاميع نفيسة ونادرة من المسكوكات الاسلامية والعربية يبلغ عددها (١٥٩٣) تقدا منها (٤٣٦) ذهبا و (١٠٩١) فضة والباقي نحاسا افتتحت في العيد الاول للثورة .

(٢) متحف حزب البعث العربي الاشتراكي : انشيء في بيت الاب المناضل احمد حسن البكر الذي تبرع به سيادته ليكون متحفا للحزب يضم تراث الحزب اثناء النضال السلمي مع نماذج من آلات وادبيات الحزب وصور شهدائه ومكتبة الاب المناضل وشهاداته .

(٣) متحف الازياء : انشيء في بناية الكمرك القديم وهي ذات طراز معماري بغدادى اصيل تم ترميمها وتطويرها ، عرضت في قاعاته نماذج من الازياء والمآثورات الشعبية .

(٤) متحف المدائن : اقيم في المدائن يضم نماذج مختلفة من الآثار المكتشفة في المنطقة .

(٥) متحفان للتاريخ الطبيعي : احدهما يتبع لجامعة بغداد يضم نماذج ومشاهد لبعض الاحياء المنقرضة والمحنتة وهيكل متنوعة . والاخر تابع لامانة العاصمة في متنزّه الزوراء يضم بعض الحيوانات والطيور المحنتة عرضت بشكل يلائم موقع المتحف .

(٤) المتحف الطبيعي : تابع لامانة العاصمة ، انسا في بداية السبعينات يضم تماثيل واشكال تصور العادات والمهن والتقاليد البغدادية القديمة ، وتقام في المتحف حفلة للجالي البغدادي عصر كل يوم جمعة .

(٥) متحف الطفل : يمثل احدى قاعات المتحف الوطني ، ويعتبر الاول من نوعه في منطقة الشرق الادنى وهو نموذج لمتحف اكبر ومتطور تنوي الجهات المسؤولة اقامته ضمن البوابة الاشورية الواقعة في مقدمة المتحف .

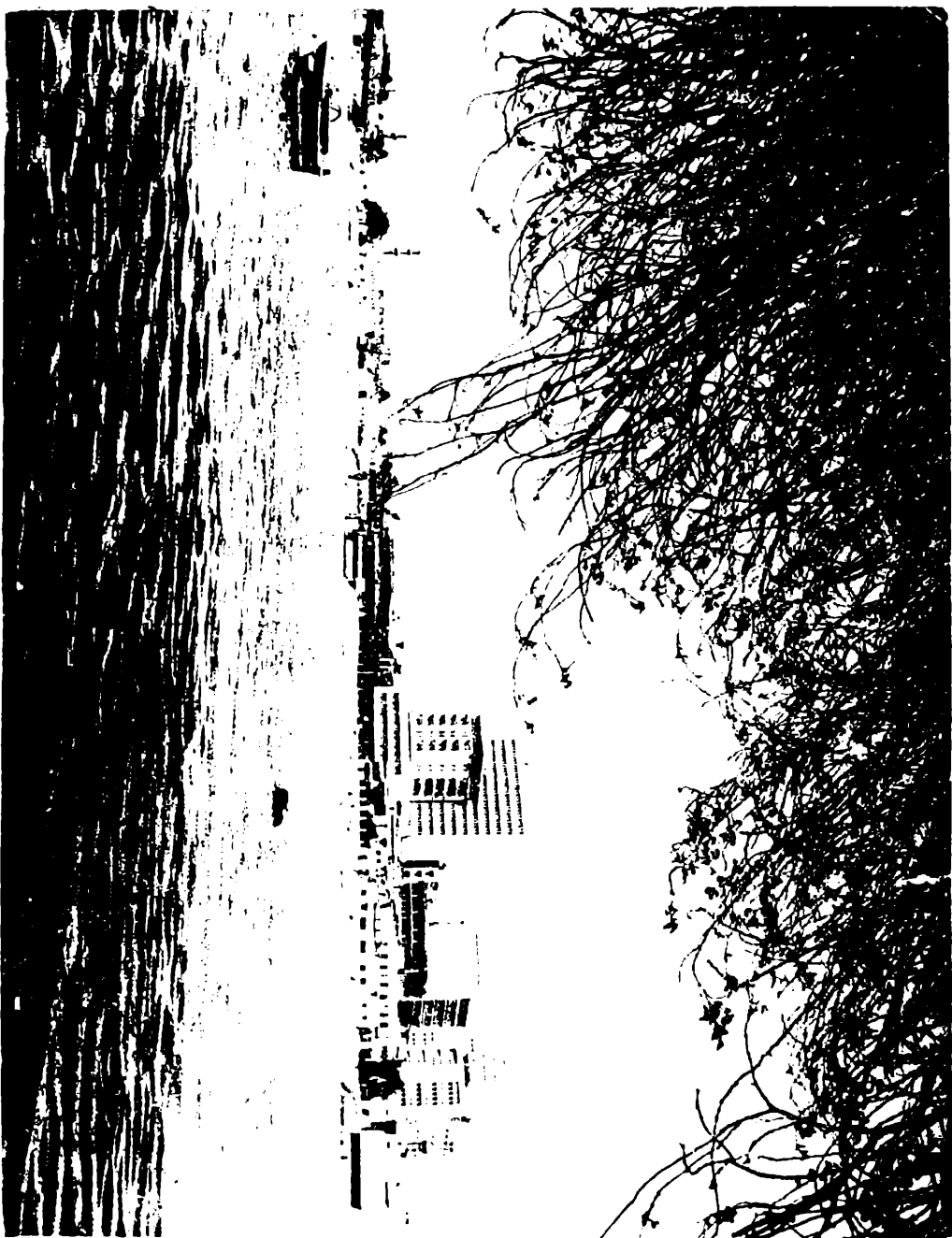
(٦) متحف الآثار العربية والاسلامية : اعدت الدراسات لاقامة هذا المتحف وذلك ضمن البناية لمؤسسة الآثار ورصدت لذلك المبالغ اللازمة .

دار الازياء

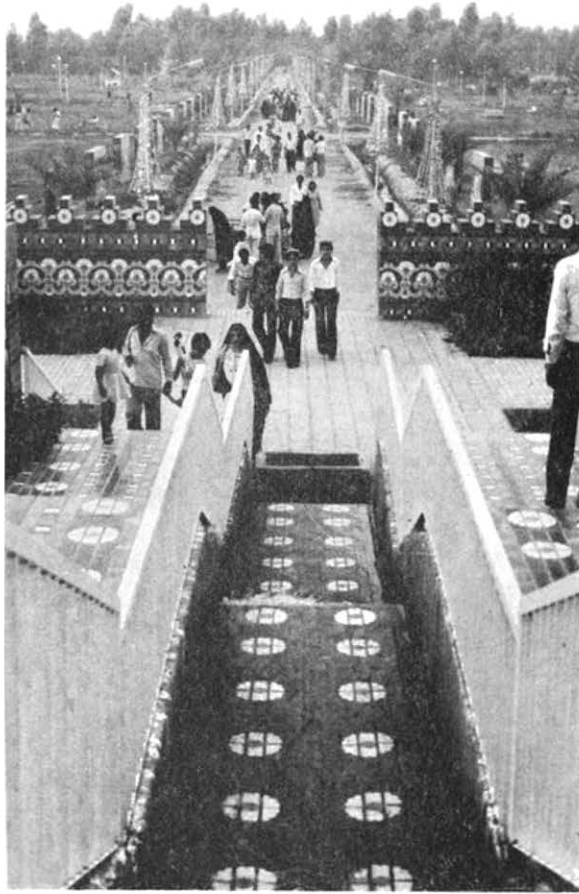
تأسس عام ١٩٧٠ بموجب قرار مجلس قيادة الثورة المرقم (٥٧) ، راعت الدار في منهاجها التنفيذي تحقيق الاهداف الحضارية لعملها وهي

بازداد
BAZDAD

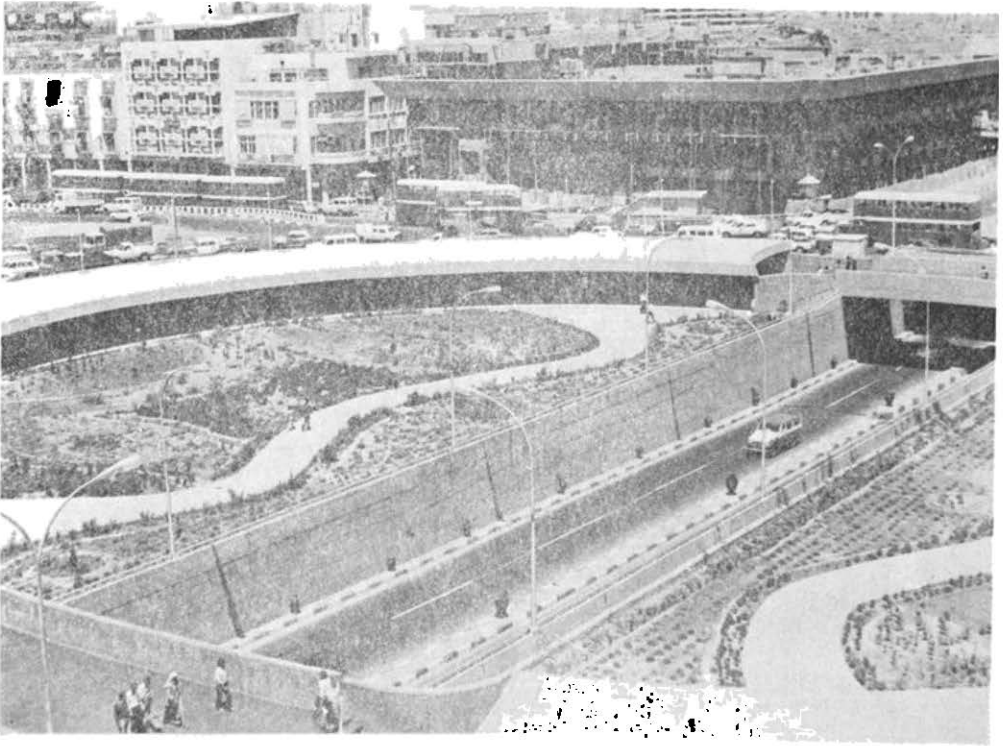




دجلة الوبي : ريف البحرين والفرج - بنغاز



الجناح المعلقة .. حاضر جميل وتاريخ اصيل



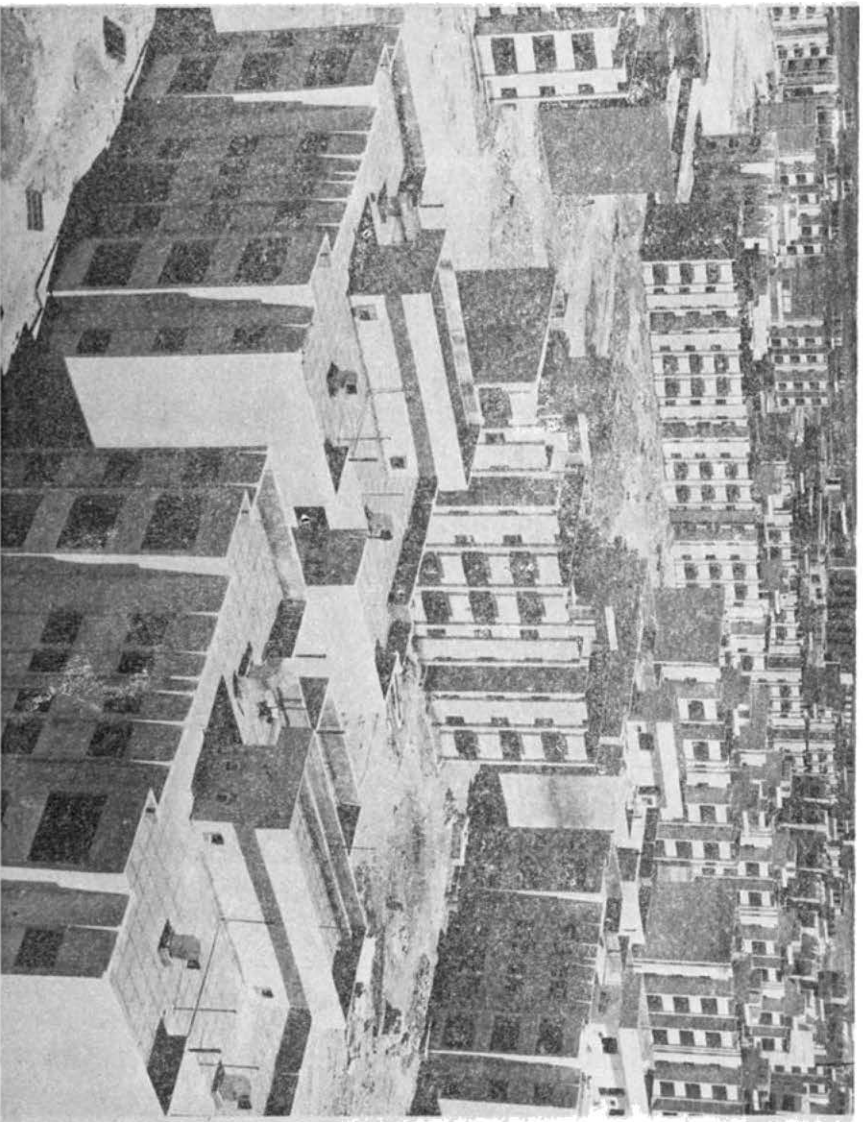
نفق التحرير



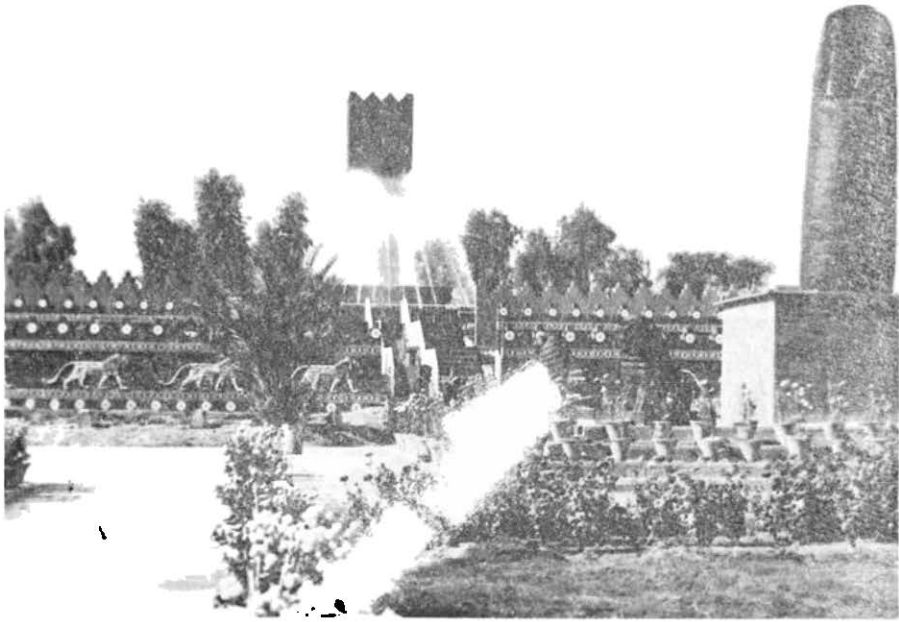
هكذا هي بغداد في عهد الثورة



ساحة التحرير



احدى مشاريع الإسكان الحديثة في سواحي بغداد



جانب من متنزه الزوراء



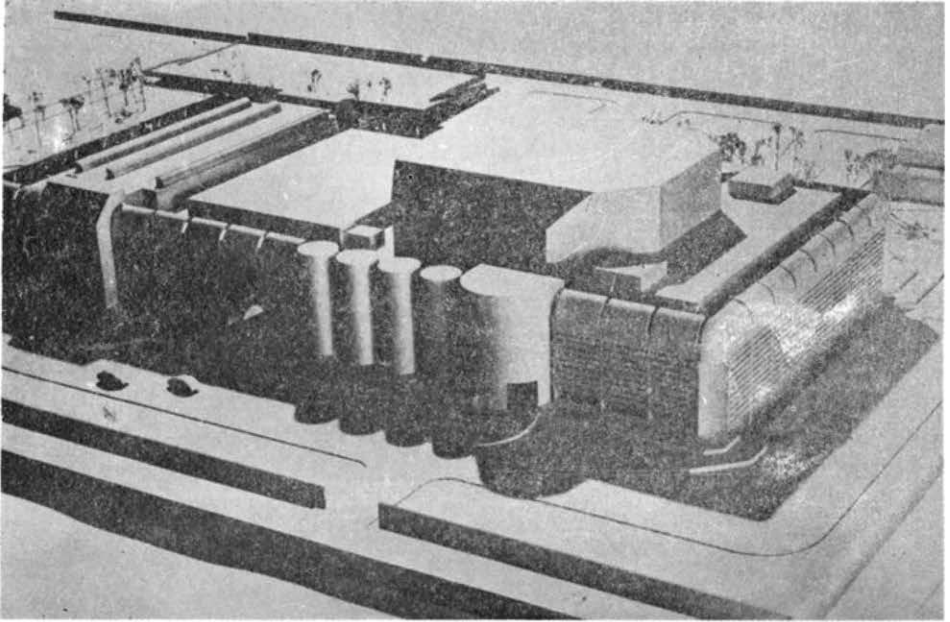
عمارات الخيرات : احدى المعالم العمرانية لبغداد الحديثة



مشروع اسكان المواطنين في الكرخ

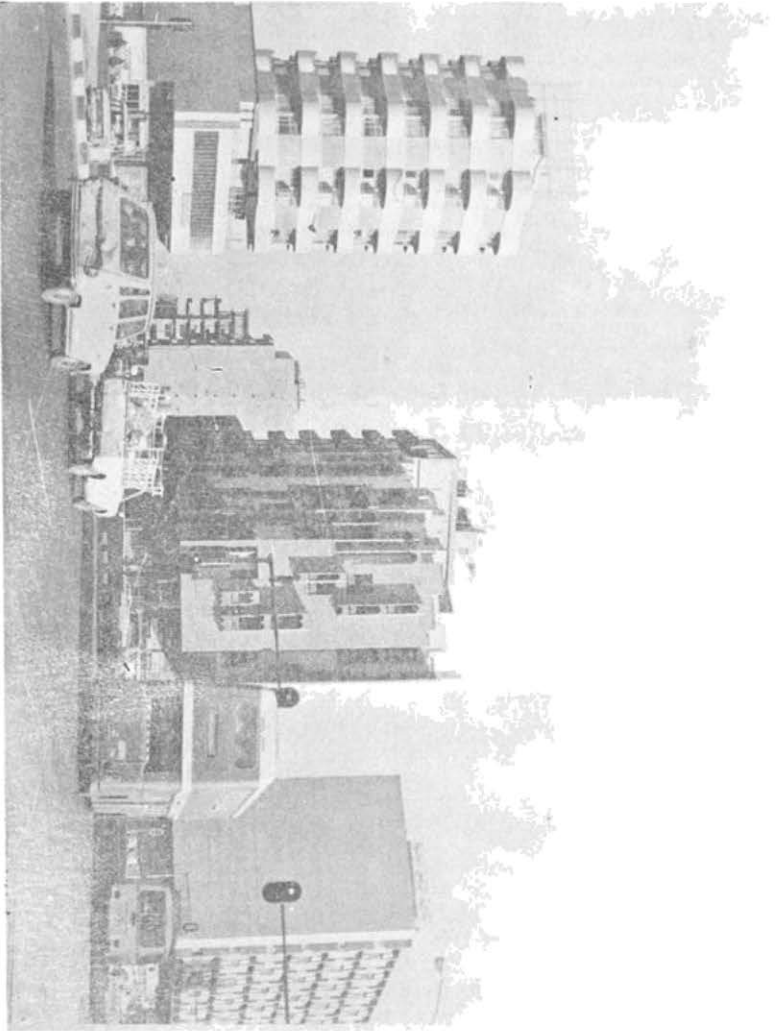


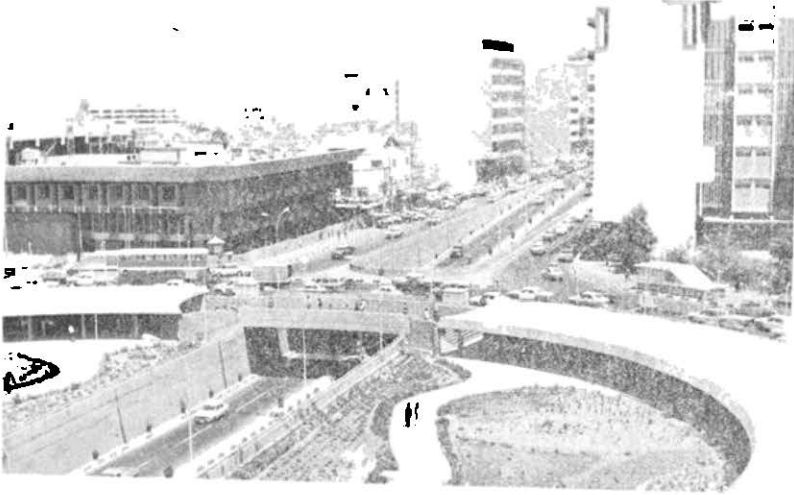
شارع الجمهورية



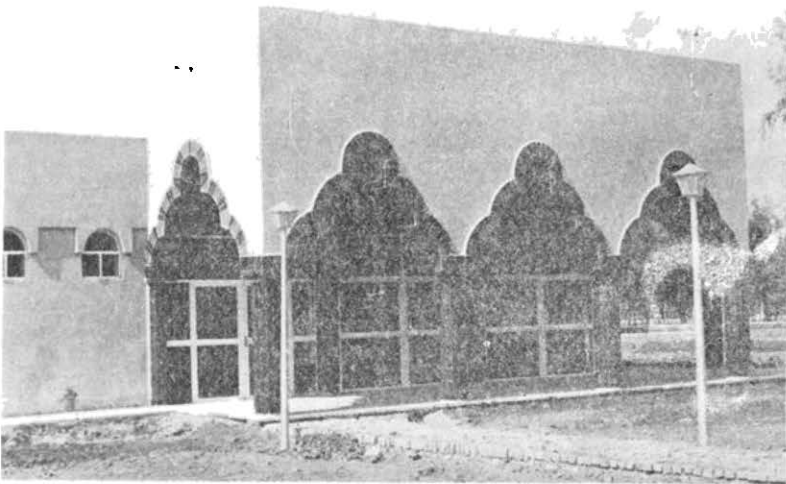
قصر المؤتمرات - سيخنتن قمة عدم الانحياز القادم

شاهد على التطور الحضري في بغداد





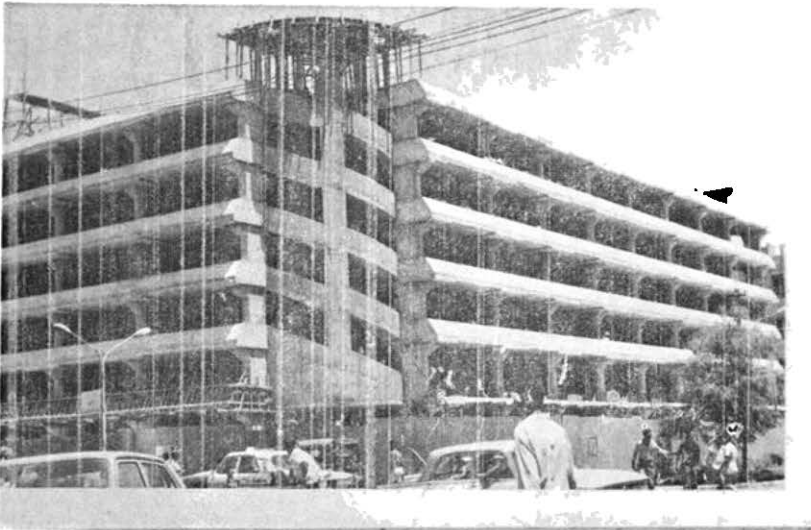
جانب من نفق ساحة التحرير



جانب من المجمع الاندلسي في منتزه الزوراء



شارع حيفا ، مكب بغدادى حديث



عمارة مريض السيارات في البنك - بغداد



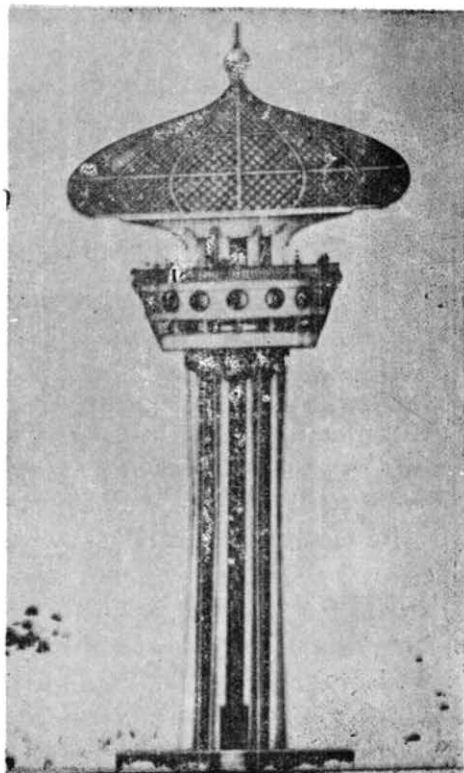
كورنيش ابي نواس



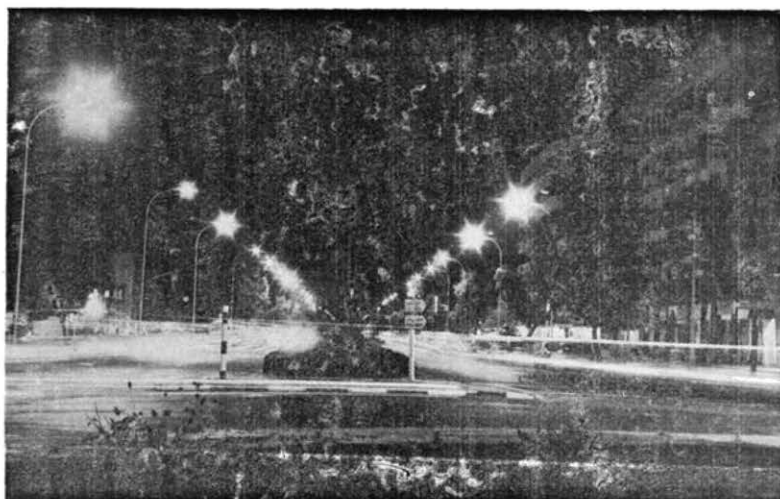
كازينو ومطعم الكواكب ، قيد الانشاء ، في منتزه المسبح



فن الرابطة الاسلامية تعكس الاندلسيات - متنزه
الزوراء



برج الزوراء سيكون علامة فارقة لبغداد



ليل بغداد مضيء كنهائها



فندق المنصور - ميليا المطل على دجلة



المحطة العالية ، وساحة دمشق

المطار الدولي يحتوي على مسبح ومطعم ويحتوي على (١٠٠) غرفة .

(٩) فندق ميليا المنصور في الصالحية : يحتوي على (١٢٨) غرفة ومسبح وصالة مؤتمرات وساحات العاب وسينما ومكاتب للبريد والخطوط الجوية ، والحقيقة ان معظم الفنادق السياحية ذات الدرجة الاولى تتوفر فيها الصالات والنوادي الليلية وساحات وقوف السيارات .

(١٠) تطوير اماكن الاثرية في بغداد لاستخدامها لاجراض السياحة كدار النقيب في السنك ودار الاستريادي في الكاظمية .

(١١) تطوير جزيرة ام الخنازير وتحولها الى منطقة سياحية حيث انشأت فيها الشقق وملاعب ومسبح ونادي ليلي ومختلف الخدمات السياحية وتصل الجزيرة بالساحل عبارات لنقل المواطنين « فقط » من الساحل الى الجزيرة .

اما الفنادق السياحية الكبيرة التي تحت الانشاء والتي ستكون علامات واضحة للتطور العمراني والسياحي في بغداد هي :

- (١) فندق نوفوتيل قرب ساحة الاندلس .
- (٢) فندق شيراتون : مقابل الجندي المجهول الذي يحتوي على كل ما يحتويه ميليا المنصور .
- (٣) فندق ميرديان : يقع في نفس المنطقة ويحتوي على (٤٠٠) غرفة وكل المرافق المهمة .
- (٤) فندق بابل : يقع في الجادرية يحتوي على (٥٠٠) غرفة مع مرافقه الاخرى .

كما تقوم المؤسسة بانشاء مكاتب وطنية للسياحة وتقدم التسهيلات للمواطنين للمساهمة في الحركة السياحية .

الصحة في ظل الثورة

لكي يكون المواطن مؤهلا صحيا ونفسيا للمساهمة في عملية بناء الوطن ، يجب ان يوفر له اسباب الصحة ، وهذا ما خططت له الثورة منذ لحظاتها الاولى فعمدت على تطور مستوى الطب بما يوازي التطور العلمي الحاصل في العالم فتحقت المكاسب الصحية وتطورت طرق الفحص والمعالجة ومن ابرز ما حصل في هذا المضمار :

(١) مؤسسة مدينة الطب : بعد شهر من قيام الثورة اطلت مدينة الطب بوجهها الجديد واقسامها المتعددة المتكاملة توفر خدماتها الصحية لكل مواطن . وجهزت باحدث ما توصل اليه العلم

من اجهزة ومعدات . فقامت بفتح مركزا خاصا لرعاية الموقين من الصمم والبكم سمي (مركز السمع والتخاطب) جهز باحدث المعدات العلاجية والمختبرية المتطورة ، كما تم استخدام الحاسبات الالكترونية في المؤسسات لتوظيفها في الامور الطبية والادارية ، كما تم زيادة عدد الجراحين والاختصاصيين في مختلف الامراض من ذوي الامكانيات الكبيرة للقيام بادق العمليات الجراحية والطبية .

(٢) مستشفى العلوية للولادة : افتتحت في ١٧ تموز ١٩٦٩ لتقديم الخدمات الطبية للنساء الحوامل ورعاية الأسرة وزودت بالكوادر المتخصصة وجهزت باحدث الآلات والاجهزة المتطورة وتضم شعبة لمعالجة حالات العقم افتتحت عام ١٩٧٥ ، كما التحقت بالمستشفى عيادة خارجية تعمل لمدة (٢٤) ساعة لاستقبال المرضى .

(٢) المجمعات الطبية الاستشارية المتخصصة :

اول تجربة في القطر قامت في مستشفى الفردوس عام ١٩٧٧ لكي يمارس فيها (٥) اطباء اختصاصيون مسؤولياتهم تجاه المواطنين في كافة الامراض وجهاز هذا المجمع بكل الاجهزة الطبية المتطورة وطرق العلاج الذي يقدمه مجانا للمواطنين وسيتم شمول حوالي سبعة مناطق بمثل هذه المجمعات ، هذا اضافة الى ان السلطات الصحية راحت تستدعي مشاهير الاطباء في العالم لالقاء المحاضرات الطبية والتدريب في المؤسسات الصحية وفحص المرضى وتقديم العلاج لهم .

(٣) العيادات الطبية الشعبية : في عام (١٩٧٠) صدر قانون العيادات الشعبية واست اول عيادة من هذا النوع في مدينة الثورة ، انتشرت بعد ذلك في اغلب المناطق السكنية وتعتبر هذه كغيرها من ثمرات جهود الحزب والثورة لتأمين الطب الاشتراكي . ثم اصبحت بنوعين الاول عام لكل فروع الطب والثاني مختص بعمل فيه اطباء اختصاصيين . وقد اصبح عددها حاليا (١٢٢) عيادة شعبية .

(٤) الاسعاف الفوري :

تطورت الخدمات الصحية في هذا الجانب بشكل كبير في عهد الثورة حتى اصبح لها (٣٤) مركزا تؤدي خدماتها للمواطنين المحتاجين لخدماتها بصورة سريعة جدا بواسطة سياراتها المتطورة المجهزة بالاسلكي وباجهزة حديثة ، وكوادرها المدربة على وسائل الطوارئ وسيتم ادخال

طائرات الهليكوبتر في الاسعاف الفوري وتطوير وتوسيع شبكة اتصالاتها ..

المنشأة العامة لنقل الركاب في مدينة بغداد :

بعد ثورة ١٧ - ٢٠ تموز المجيدة تم منسح مصلحة نقل الركاب مساعدات مالية عاجلة لتمكثها من الخروج من ازمئتها المالية وشكلت لجنة بموجب قرار مجلس قيادة الثورة الصادر بتاريخ ١٠/٣/١٩٧١ لتتولى دراسة وضع المصلحة فوضعت اللجنة توصياتها لمعالجة ذلك ، منها الفاء المصلحة وقيام المنشأة العامة لنقل الركاب في بغداد تتولى شؤون النقل العام والاهلي للركاب في العاصمة ، فبادرت المنشأة انى استيراد (٢٠٠) حافلة نوع ايكاروس كما تم شراء (٤٠٠) حافلة نوع ليلاند ذات طابقين بالانافة الى (٣٠٠) حافلة ريم ، كما اعيد تخطيط مسارات خطوط الحافلات تعديلا وتمديدا وتقليصا استنادا الى المسوحات الميدانية وبما يتلائم والكثافة السكانية تقطعات بغداد ، كما تم ادخال العنصر النسائي لاول مرة للقيام بدور المحصل ، بالانافة الى انه تم اعتماد تشغيل الحافلات بدون محصلين وذلك عن طريق الحافلات المزودة بمكان التسقيط او بمكان طبع البطاقات او سائق الحافلة يقوم بواجب المحصل ايضا ، كما تم نصب اكشاك في مناطق انطلاق الباصات لبيع التذاكر وتوفير ذفاتر ب (٢٥) بطاقة وسعر (٥٠٠) فلسا وذلك تسهيلا لامور المواطنين وعدم التبذير في الوقت والطاقات .

النقل الخاص :

اسند تنظيم هذا القطاع الكبير في البداية الى مؤسسة ادارة شؤون محلات النقل التي كانت تابعة لامانة العاصمة وتحولت تبعيتها الى المنشأة العامة لنقل الركاب في بغداد ، وكان من اولى واجباتها هو تنظيم النقل داخل بغداد ، ووضع ضوابط لعمل هذه السيارات ضمن خطوط محددة وفقا للكثافات السكانية وتحديد اجورها وخطوطها واصبحت لقرارات المنشأة صفة ملزمة على نشاطات هذه السيارات عن طريق اتخاذ الاجراءات المناسبة ضد المخالفين . كما تم تثبيت خط واجرة ورقم الخط في جوانب السيارة بشكل ظاهر للحيلولة دون ارتكاب المخالفات . ومن جهة اخرى قامت المنشأة بتوزيع سيارات الصالون المجهزة بالعدادات وبشكل واسع يساهم كثيرا في الحد من مشكلة النقل داخل العاصمة . ويؤمل العمل في العدادات قريبا .

قطار الثورة :

تجربة رائدة ولدت في عهد الثورة لحل ازمة

التأمين الصحي : جاء استنادا للقانون رقم (١) لسنة ١٩٧٥ الذي اعطى القومات الحقيقية اهذه المؤسسة لتأمين الصحة الى كل المواطنين من خلال شبكة المراكز الصحية الرئيسية والفرعية التي يبلغ عددها حوالي (١٠٦٥) مركزا وعيادات التأمين الصحي وصيديات التأمين الصحي وكذلك فان مؤسسة التأمين الصحي قامت بانشاء المستشفيات والعيادات الطبية المركزية وتنفيذ المشاريع الصحية الكبرى .

ان وزارة الصحة قامت في ظل الثورة بفتح (٣٥) مركزا صحيا (٤٥٦) عيادة نسائية لم يكن لها وجود في العهد السابقة كما زادت عدد المستشفيات من (١٤٩) الى (٢٠٠) والعيادات الطبية المركزية من (٣٤) الى (٥٨) . ومراكز رعاية الامومة والطفولة من (٥١ - ٧٨) وكذلك (١٧٩) مستوصف سيار و (٤١٠) عيادة وطبابة اسنان .

هذا ولا بد لكل مواطن منا يشاهد وهو يسير في الشارع لافتة على محل مفلق مكتوب عليها (اغلق لمخالفته تعليمات وزارة الصحة) وهذا يدل على مدى النشاط والمتابعة والرقابة على هذه المحلات لحماية صحة المواطنين من الامراض .

النقل بعد ١٧ - ٢٠ تموز في بغداد

ان نظرة بسيطة مقارنة لواقع النقل في الوقت الحاضر عما كان عليه قبل الثورة يجعلنا نشهد ببساطة الفرق الشاسع بين الحاليين فقد شهدت شوارع العاصمة ضغطا كبيرا من وسائل النقل العامة والخاصة ، الامر الذي حسدا بالمؤسسات الرسمية الى تنظيم نشاطاتها بشكل يكفل توفير خدمات افضل للمواطنين ، حتى ان الزيادة الحاصلة في عدد السيارات الاهلية او تلك الخاضعة للقطاع الاشتراكي اصبحت لا تتناسب وكثافة السكان الامر الذي خلق ازمة في مضمار النقل ، وعليه كان لزاما على المؤسسات ذات العلاقة اتخاذ الاجراءات المناسبة للتخفيف من الازمة فبادرت الى استيراد عدد كبير من باصات النقل وسيارات الصالون المجهزة بالعدادات ثم ادخال وضع ضوابط للنقل الاهلي بالانافة الى طرح عددا من المشاريع التي يؤمل ان تحدد من تهاقم الازمة في نقل المواطنين .

من الشبكة الرئيسية مستمرا بشارع الجمهورية
- باب المعظم - شارع الامام الاعظم - جسر
الصرافية - منتها بساحة عنتر .

وهناك اربع توسعات في هذا الخط للمستقبل
حيث يصل الاول الى حي الشرطة في الكرخ والثاني
الى نهاية مدينة الثورة والثالث اني بغداد الجديدة
والرابع الى نهاية الكاظمية .

وفي عام ١٩٩٠ سيبلغ عدد القطارات العاملة
على الشبكة الرئيسية في بغداد (٦٢) قطارا وفي
عام (٢٠٠٠) سيبلغ طول شبكة سير المترو (٤٠)
كلم وعدد القطارات (١١٩) قطارا تتوقف في (٥١)
محطة في مختلف الاتجاهات . وقد روعي في مد
هذه الشبكة الحفاظ على طابع المدينة العمراني
والانثري والتاريخي .

نقل الركاب النهري :

ومن وقت لآخر نسمع او نقرأ اخبارا عن
نية المؤسسات ذات الاختصاص بالنقل اقامة خط
النقل النهري في نهر دجلة داخل بغداد بربط
الكاظمية بانكرادة الشرقية ولكننا لم نعرش على اجابة
واضحة لاستفساراتنا عن هذا الموضوع ، ففضلنا
الصمت .

خاتمة

ان بديهة واحدة تكفي لتكون الخاتمة ، وهي
ان التطور في كل زاوية وفي كل وقت لا يعرف
حدودا نه ما دام هناك اناس مؤمنون باوطانهم
وشعوبهم وبحق الاجيال في العيش من بعدهم ضمن
مبادئ حقيقية لا تعرف الخمسول ، فاذا كانت
بغداد خلال هذه الاعوام القصيرة من عمر الثورة
قد وصلت الى ما هي عليه الآن من تقدم وتطور
فانها وبظل قيادتنا الرائدة سوف تتطور تطورا
كبيرا بعد عشر سنوات اخرى فسير نحو الاحسن
والارفى واذا لم ينح لجيلنا ان يرى ما ستؤول
اليه بغداد في الاعوام اللاحقة من جمال وحضارة
فهنيئا لابنائنا واحفادنا ببغداد المستقبل . . بغداد
الازل . . بغداد الحضارة . . والتقدم والحربة .
والامل .

النقل بين مركز بغداد وبين اكثر مناطق العاصمة
كثافة في السكان وهي مدينة الثورة ، يبدأ الخط
من ساحة المتحف عبر جسر الصرافية فمحطة
غربي بغداد - الجبيبية - نهاية مدينة الثورة
فمعامل الطابوق وله مواقف لصعود ونزول الركاب
عبر طريقه ولكن لم يقدر لهذا المشروع ان يستمر
فالتفي في شهر حزيران الماضي نظرا لاجراء
التحويلات على ساحة بضائع الخط المتري
وتحويلها الى ساحة لنفاض بضائع الخطوط
الرئيسية .

مشروع المستقبل الكبير

بعد اعداد الدراسات الجيولوجية والبيئية
والاقتصادية والاجتماعية استقر رأي الخبراء
واختصاصيد النقل على اعتماد مشروع (المترو)
الارضى لحل ازمة النقل داخل مدينة بغداد
وضواحيها واقترحت الدراسة استعمال فاطرات
كهربائية تسير على قضبان حديدية خالصة من
التفاعلات مع بقية وسائل النقل الاخرى ، وقد
انبتت الدراسة ايضا ضرورة انشاء خطين للنقل
السرير -تتى نياية عام (٢٠٠٠) مع خطة بعييدة
المدى لانشاء خط ثالث في فترة لاحقة .

وتوصي هذه الدراسة بانشاء خطوط يبلغ
طولها (٢٢) كلم وتشغيلها قبل نهاية (١٩٩١) تمثل
الشبكة الرئيسية وهي عبارة عن خطين سير الاول
منهما تحت الارض في شارع السعدون مبتدا من
ساحة الفتح فساحة عقبة بن نافع - الجندي
المجهول - ساحة النصر - التحرير فساحة
الخلائي - شارع الرشيد مارا تحت نهر دجلة من
ضفته الشرقية وحتى ساحة المتحف - المحطة
العالمية - شارع دمشق وحتى نهايته في ساحة
الفارس العربي .

اما الخط الثاني من الشبكة الرئيسية فيسير
بخط مرفوع عن سطح الارض مبتدا من قناة
الجيش - محطة شرقي بغداد - ساحة بورسعيد
حيث يبدأ بالنزول الى مستوى تحت الارض مارا
بساحة السباعوي - الخلائي ملتقيا بالخط الاول

مصادر

- ٨ - مجلة الاطلاق الحديث ، تموز ١٩٧٩ .
- ٩ - مديريات الاعلام في وزارات : النقل ، العمل والشؤون الاجتماعية ، الاوقاف ، الصحة ، المؤسسة العاصمة للاسكان - المؤسسة العامة للسياحة/ادارة المرفق السياحية .
- ١٠- وزارة الاسكان والتمير/مديرية الاعلام/الارشيف .
- ١١- مجلة وهي العمال ، العدد ٢٥ هـ في ٤ آب ١٩٧٩ .
- ١٢- جريدة الثورة ، العدد الصادر بتاريخ ١٩٧٩/٧/٢٦ .
- ١٣- الثقافة والفنون في عهد الثورة/صادر عن وزارة الاعلام .
- ١ - مجلة امانة العاصمة الاعداد ٨ ، ٩ لسنة ١٩٧٧ و ١٩ لسنة ١٩٧٩ .
- ٢ - كرايس التصميم الاساسي لمدينة بغداد .
- ٣ - الجامع الاحصائية لقسم الاحصاء بامانة العاصمة .
- ٤ - ارشيف امانة العاصمة .
- ٥ - المجموعة الاحصائية للجهاز المركزي للاحصاء لعام ١٩٧٨ .
- ٦ - مجلة النقل والتنمية ، ايلول ١٩٧٩ .
- ٧ - مجلة رسالة النقل ، تموز ١٩٧٧ والعدد ٧ ، ١٩٧٨ .



تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد

بقلم الدكتور

عماد عبد السلام رشيد

كلية التربية - جامعة بغداد

مقدمة

سواء . ويمكننا القول ، بهذا الصدد ، ان معظم هذه المجالات المفيدة في الدراسة التاريخية لم يأخذ مجاله من اهتمام الباحثين ، ربما بسبب ان « اعتيادية » هذه الخدمات ، لم تلفت أنظار المؤرخين المعاصرين لها إلا نادراً ، وفي مناسبات فريدة ، رغم ان اي من تلك « الخدمات » كان يمكن ان يسبب مشاكل غير اعتيادية لو انه توقف او أهمل ولو الى حين .

ولا نشك في ان امر مياه الشرب ، كان يمد من الأمور بالغة الأهمية في حياة هذه المدينة العريقة ، ولعله كان مشكلة من مشاكلها الدائمة عبر العصور ، فهذه المدينة التي اتسعت على نحو سريع ، منذ تأسيسها في منتصف القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) لتغطي مساحات واسعة من الأرضين ، تربو على مساحتها الأصلية يوم تأسست بأضعاف عديدة ، وتشمل خلال مدة تقل عن قرنين ، أنحاء مترامية الأطراف على جانبي نهر دجلة ، وفي اتجاهات متباعدة ، لا شك انها كانت تستهلك كميات ضخمة من مياه الشرب كل يوم ، ولا شك - أيضاً - في انها كانت تعاني من مشكلة نقل هذه المياه الى سكانها وإيصالها الى دورهم ومساجدهم واسواقهم وسككهم لاستعمالها في حياتهم اليومية .

ان البحث في تاريخ مشاريع مياه الشرب في بغداد خلال عصورها المتعاقبة ، لهو امر تكتنفه صعوبات جمة ، اذ ليست ثمة اجابات كافية لما

اذا كان البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمدن يعد من المجالات الحديثة للدراسات التاريخية في بلادنا ، فان دراسة تاريخ « الخدمات » او المرافق المدنية - لهي من اكثر الدراسات التاريخية حداثة ، ولعلها في الوقت نفسه ، من اشدها طرافة واهمية ، وذلك من ناحيتين ، اولاهما الصلة الوثيقة بين هذه الخدمات ، وبين تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة ، لان وجود « الخدمات » يوجب - في احايين كثيرة - انشاء مؤسسات رسمية ، او غير رسمية ، تختص بإدارتها ، والعناية بمرافقها .

ومن الناحية الاخرى فان دراسة هذه الخدمات تكشف ، على نحو فريد ، عن الصلة بين التاريخ الاجتماعي ، وبين التاريخ العلمي والتقني . وبمعنى آخر ، فان الخدمات هي احدى اهم المجالات الرئيسة لتطبيق المعرفة النظرية بما يخدم مصالح الشعب ويرفقه عنه ويحمي بيئته ويسر له العيش في مدينته ، اذ ليست المدينة ، في أحد وجوهها على الأقل ، إلا المكان الذي تتوفر فيه الخدمات للناس .

ومن هنا اذن تبرز أهمية دراسة « الخدمات » ومشاكلها في مدينة كبرى ، ومركز حضاري رئيس كمدينة بغداد ، تقلبت بين عصور الازدهار والحيوية ، وعصور الانحطاط والتخلف على حد

المياه من الشوائب وجعلها راقية صافية . عن طريق استخدام مادة « النيب »^(٢) ، إلا أنها لم نثر على ما يقيد باستعمال هذه المادة بشكل واسع اتقنية مياه الشرب . ونحن نميل الى ان استعمالها لبث حبيس مختبرات العلماء والأطباء للافادة منها في تجاربهم المختلفة ، دون ان تجد لها تطبيقاً في مشاريع مياه الشرب انعاماً ، اذ ليست ثمة نصوص تدل عليه ، إلا اذا استخدم ذلك في نطاق ضيق ، وفي دور بعض ذوي الشأن ، مما لم يلفت نظر المعاصرين .

ومع ان اخباراً دلت على وجود احواض كبيرة في الجانب الشرقي كانت تصب فيها فروع بعض الأنهار الآخذة من الخالص^(٣) ، إلا انه ليست ثمة ما يفهم منه ان تلك الاحواض كانت تستخدم لترسيب المياه من شوائبها ، ومن المحتمل جداً ان تكون عملية ترسيب المياه مما يجري في نطاق الدور والحلات الخاصة . عن طريق وضعها في « الأزيار » العادية قبل شربها ، وهي الطريقة التي لبثت معروفة ببغداد حتى فترة متأخرة .

ونحن نحسب ان مشكلة مياه الشرب ببغداد، لم تكن تتجاوز أمرين : احدهما رفع المياه من المواضع الملوثة على شاطئ دجلة ، والثاني نقلها بمختلف الوسائل لتجد طريقها الى سكان المدينة .

الفصل الاول

مشاريع مياه الشرب في العصر العباسي

١ - المدينة المدورة :

انشأ ابو جعفر المنصور مدينته المدورة على الضفة الغربية من نهر دجلة ، في الزاوية المتكونة بين مجرى انصراف غرباً ، ومجرى دجلة شمالاً ، وسماها « مدينة السلام » . وكانت حواليها مجموعة من الأنهار والجداول القديمة التي تصل نهر دجلة بالفرات في اقرب نقطة يقتربان فيها من بعضهما . وكان واضحاً ان من اهداف المنصور الرئيسية ، ان لم يكن أهمها ، ان تكون مدينته هذه في موقع عسكري منيح - يسهل على سكانها الدفاع عنها^(٤) . ويجعل من الصعب اقتحامها ، فصارت

(٢) الخطيب ١١٤/١ .

(٤) لا نميل الى الاخذ بالرأي القائل بان اختيار المنصور لموقع بغداد ، بين نهري دجلة والفرات للتمتع بحمايتها الطبيعية ، كان يدل على فكر استراتيجي حصيف ، اذ سرعان ما اثبتت هذه الزوية نهايتها بعد نحو اربعين عاما

يمكن ان يطرحه هذا البحث من اسئلة ، وقد يعجب الباحث ، اول الامر ، حينما يلحظ ان مشكلة كهذه لم تلق من المؤرخين القدامى أي اهتمام يذكر ، فعلى الرغم من الأرقام الكبيرة ، والمبالغ بها جداً ، عن عدد الحمامات ببغداد في العصر العباسي ، وما تستهلكه من الصابون ، ومن يعمل في خدمتها^(١) ، فاننا لم نثر على ما يوضح النبل التي كانت متبعة في تزويد هذه الحمامات العديدة بما تحتاجه من مياه نظيفة تصلح للفسل . ومثل هذا يقال أيضاً عن مساجد المدينة وربطها ومدارسها ، وكلها مما يحتاج فيه الى المياه الصالحة للوضوء والشرب .

ويزداد الأمر صعوبة ، عندما نلحظ انه لم تكن ثمة فروق واضحة بين وسائل نقل المياه المختلفة ، فلا يستطيع التمييز - على وجه التحديد - بين انواع المياه الخاصة بالشرب ، او المستعملة للفسل والاستعمال اليومي الآخر ، او المستخدمة في سقي الحدائق والبساتين والحيوان ، كما ليس من اليسير - في اغلب الاحيان - التفرقة بين وسائل نقل هذه المياه ، ووسائل تصريف المياه المستعملة . فقد وصف لنا المؤرخون شبكة من الأنهار الصغيرة مما كان يخترق مدينة ببغداد بجانبها الشرقي والغربي ، ويتخلل الأحياء السكنية والبساتين . ولكننا لا نعلم كم من مياه تلك الأنهار كان يستخدم للشرب ، وكم منها كان يستعمل كميزل للمياه اغاضة عن الحاجة ، او المستعملة لان استقبال المدينة للعدد الضخم من الأنهار التي تجري بين دروبها ودورها ، كان يستلزم بطبيعة الحال عدد آخر من مصارف المياه ، وبما ان احداً لم يشر الى تلك المصارف ، ومن المستبعد جداً ان تستخدم هذه الأنهار للرضين في وقت واحد . فمن انضروري للباحث اذن ان يعيد النظر في طبيعة عملها ومهمتها ، بحسب تعاقب العصور .

وعلى الرغم من ان العرب عرفوا سبل تنقية

(١) بالغ المؤرخون في عدد الحمامات ببغداد مبالغة كبيرة ، حتى قيل انها بلغت مائتي الف حمام ، الى الصنف ، وأكد بعضهم السدد الاول ، بينما قال آخرون انها مائة وثلاثون الفا ، او مائة الف ، والقل تقدير لها كان سنين الفا . انظر : دلال بن المحسن الصابي : رسوم دار الخلافة ص ١٩ تحقيق ميخائيل عواد (بغداد ١٩٦٤) والخطيب البغدادي ١١٧/١ (القاهرة ١٩٢١) .

(٢) البيروني : الصيدية في الطب ، تحقيق محمد سعيد وادانا احسان الهادي (كراتشي ١٩٧٢) ص ٢٩١ وادواد الانطالي : تذكرة اولي الألباب (بيروت د . ت) ٢٠٩/١ .

مياه انشرب لسكان مدينته كان انشاء قناة (او قناتين) من خشب الساج ، ترفع اليها المياه من دجلة بواسطة دولااب نصب هناك ، وانظاه ان هذه القناة كانت مرتفعة عن الارض بما يكفي لانحدارها التدرجي حتى تجتاز باب خراسان (وهو اقرب الابواب الى شاطئ دجلة) وتخرق المدينة حتى تصل رحبتها . ومنها الى قصر النصور . ولا يعلم على وجه التحديد ما اذا كان هذا الماء مخصوصا بقصره وحده . ام انه كان يجري لغيره من دور المدينة وسككها . كما ليس من المستطاع معرفة مدى سعة هذه القنى من الماء . ولكن يبدو انها كانت من المتانة والاحكام بحيث استمرت قائمة تؤدي مهمتها حتى النصف الاول من القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد)^(١) .

ويفهم من رواية نقلها الطبري عن يحيى بن الحسن بن عبدالخالق خال الفضل بن الربيع^(٧) ، والخطيب عن عياش بن اقسام^(٨) ان انشاء المنصور للفنى الخشب الخاصة بمياه الشرب كان بعد فترة قصيرة من انتقاله الى المدينة المدورة . و خلاصة الخبر ان عما للمنصور ، هو عيسى بن علي^(٩) في رواية الطبري ، وهو عبدالصمد بن علي^(١٠) في رواية الخطيب والاول ارجع . شكا الى المنصور كبر سنه وضعفه وصعوبة وصوله الى قصره (اي قصر المنصور المسمى بباب الذهب) ماشياً . واستاذن منه ان يسمح له بركوب بعض بغال الروايا التي تخرق الرحاب وتغذي القصر بالماء . فقال المنصور ، فيما رواه الخطيب . « يا ربيع ! بغال الروايا تصل الى رحابي ؟ فقال : نعم يا امير المؤمنين . فقال : تتخذ الساعة قنى بالساج من باب خراسان حتى تجيىء الى قصري ، ففعل » ويشير الطبري . فيما نقله عن خال الفضل بن الربيع ، الى ان المنصور امر عند علمه بوصول بغال الروايا الى رحابه : بتحويل ابواب الدور الى فصلان الطاقات . بعد ان كانت تؤدي الى الرحاب ، لكنه لا يشير الى امره بمد قنى الساج ، مع ان طبيعة الخبر تستلزمه . نعدم العلاقة بين تحويل ابواب الدور . ووصول بغال الروايا الى الرحاب . فهذا الخبر . على الاختلاف الطفيف في رواته واسماء

« المدينة المدورة » بذلك قريبة لان تكون « قلعة » او « حصن » منها الى المدينة السكنية ، فاقيمت الابواب المحكمة الصديدة ، وحفرت الخنادق ، وانشئت ثلاثة نطاقات من الاسوار ، ثم لم يكتف بذلك وحسب . بل اخلت - بعد وقت قليل من تاريخ انشائها - من عامة الشعب ، وهم الباعة والتجار واصحاب الحرف ، الا القلة منهم ، ثم منع الدخول انيها ركوبا ، وحتم على الجميع ان يمشوا فيها راجلين .

وكان من الطبيعي ان تنال مشكلة نقل مياه الشرب الى المدينة الجديدة جزءا من اهتمام الخليفة المنصور وعنايته ، قضية كهذه كانت عظيمة الخطورة عند مخططي المدن والحصون ابان تلك المنصور ، لانها تتعلق بصفة مباشرة بمدى امكان نبات المدينة او الحصن في الحصار التي تفرض عليها في اثناء الحروب .

ويبدو ان تفكير المنصور بهذا الامر جاء متأخرا على قيامه باشاء المدينة ، فقد لبث طيلة الشهور الاولى لسكناه فيها^(١١) لا يدرى بالوسيلة التي تنقل بواسطتها المياه الى قصره ، بل يبدو ان الامر لم يستلقت نظره البتة . تاركا له ان يسير بحسب الطرق المألوفة في عصره . فكانت مياه الشرب تنقل الى قصره وسائر انحاء مدينته بواسطة سقائين يحملونها على ظهور البغال المعروفة ببغال الروايا ، وهي معبأة - على ما كان معروفا - في اوان خاصة ، او « قرب » من الجلد .

اول مشروع هندسي امر به المنصور لتوفير

من انشاء المدينة ، ولم يكن السلاح والعكر العسكري قد تطور لي هذه المدة القليلة ، ففي اثناء فتنة الامين والمامون ، نفذ الامين خطة المنصور العسكرية بداهة ، فقطع الجسور التي تربطه بالجانب الشرقي ، وتحصن بالمدينة المدورة ، ولكن الجيش القادم بقيادة طاهر بن الحسين تجنب العبور من النواحي الغربية من المدينة ، والتف عليه بعد عبوره دجلة على جسر موقت الماسه في الشمالية اعلى بغداد ، فادت حركة الانتفاخ هذه الى انهيار مقاومة جند الامين ، ولم تثبت المدينة المدورة الا قليلا اذ نهاوت بسرعة امام جيش طاهر ، وبذلك ائت هذا الحادث تهاوت فكرة الموقع المتحصن بالحواجز المائية التي انشا المنصور على هداها مدينته .

(٥) كان الفراغ من بناء بغداد ونزول المنصور بها ، ونقل الخزائن والدواوين وبيوت الاموال اليها . سنة ١٤٦هـ / ٧٦٣م وكان استتمامه بناء السور والخنادق واحكام امر المدينة سنة ١٤٩هـ / ٧٦٦م . ابن الفقيه : بغداد مدينة السلام ٢٩ تحقيق د. صالح احمد العلي (بغداد ١٩٧٨) والخطيب البغدادي ٦٧/ .

(٦) ابن الفقيه ٢٨ .

(٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٢٢/٣ (ط . لبنان) .

(٨) الخطيب ٧٨/١ .

(٩) توفي سنة ١٦٤هـ / ٧٧٨ .

(١٠) توفي سنة ١٨٥هـ / ٨٠١ .

فاذا ما رأينا ان هذا النهر كان محمولاً على الخشب ، ويجري على ارتفاع معين ، بميل محسوب الى الاسفل ، لمسافة لا تقل عن كيلومترين (١٧) ، لاحظت لنا جساماً هذا المشروع ، واتقان مهندسيه في تصميمه وعمله .

بيد ان تصميم هذا المشروع وطريقة عمله ان كانت ثلاثم ظروف السلم ، فما كانت ثلاثم اية ظروف غير عادية ، وبخاصة حالات الحروب وانحصار التي لم تكن بعيدة عن تفكير المنصور (١٨) ، ذلك انه من السير على اي جيش غاز ان يقطع هذه القنى الخشبية المرفوعة ، او ان يعطلها ، فيفضي على اهل المدينة عطشاً ، ولعل هذا ما قصده سفير الروم حين لاحظ « ان ليس لهما نهر يخترقها » (١٩) . فكان ان قام المنصور بتصميم مشروعه الآخر في مد مدينته بمياه الشرب ، فيذكر الخطيب انه مد « قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات ، وجرهما الى مدينته في عقود ونيقة من اسفلها ، محكمة بالصاروخ (٢٠) والاجر من اعلاها . وكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في السوارع والدروب والأرباض ، وتجري صيفاً وشتاءً ، لا ينقطع ماؤها في وقت « (٢١) فهاتان القناتان كانتا مشيدتين تحت مستوى سطح الأرض لا فوقها كما في المشروع الاول ، والظاهر انهما كانا من السعة والارتفاع ما يصلح لسير انسان ، على ما يفهم من قول المنصور « في بنائي هذا ما ان اخذني فيه الحصار خرجت خارجاً منه على فرسخين » (٢٢) وعقب ابن الجوزي على ذلك بقوله « ولعله اشار الى القنات « (٢٣) فيكون طول القناة التي قصدها نحو ١٢ كيلومتر (٢٤) .

(١٧) كان قصر المنصور يتوسط مدينته ، وبما ان قطر المدينة كان يبلغ ، في اوسط القنادير ، ميل عربي ، اي ٢ كم ، تكون المسافة بين القصر وباب خراسان نحو كيلومتر واحد ، ولا تعرف المسافة بين هذا الباب وشاطئ دجلة ، ومن المحتمل ان تكون مثل ذلك .

(١٨) الخطيب ٧٧/١ و مناقب بغداد ١٩ .

(١٩) ادمج ابن الجوزي في مناقب بغداد ١٢ خبري هذين المشروعين المتباينين ، كما نقلهما من الخطيب ، في خبر واحد ، مما اظهر ان قيامه بانشاء القناتين كان بسبب اكتشافه وصول بقال الروايا الى قصره .

(٢٠) الصاروخ : التورة والخلاطها .

(٢١) الخطيب ٧٩/١ ومعجم البلدان ٤٠/١ .

(٢٢) الخطيب ٧٧/١ .

(٢٣) مناقب بغداد ١٩ .

(٢٤) يبلغ طول الفرسخ الواحد ٢ اميال ، وكل ميل ١٠٠٠ ←

شخصه ، يدل على ان بقال الروايا ، المخصصة لنقل مياه الشرب ، كانت تصل - قبل الحادثة المذكورة - الى قصر المنصور ، مجتازة الأبواب والفصائل الفاريجة ، وهي الساحة الكبيرة التي تتوسط المدينة ، وفيها قصر المنصور وجامعه ، فتروي بذلك جميع الدور في الدروب والسلك .

وبينما يحدد الطبري تاريخ هذه الحادثة ، سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م ، اي بعد بضعة شهور من انتقال المنصور الى مدينته الجديدة ، نجد ان في رواية اخرى نقلها ابن الفقيه عن الشروي (١١) ، والخطيب عن ابي العيلاء عن جده (١٢) ، ما يفهم منه ان ذلك جرى نحو سنة ١٥٦ او ١٥٧هـ/٧٧٢ - ٧٧٣م ، اي بعد عشر سنين من التاريخ المتقدم . وخالصة ما ذكرنا ان وفداً رومياً قدم الى بغداد في تلك الاونة ، واخبر المنصور بان من عيوب مدينته « ان ليس لها نهر يخترقها » وانها بعيدة عن الماء « وبلاد الناس من الماء لشفاهم » فما كان من المنصور الا ان عمل « لها دولاباً اجري ماء الى القصر ، فكان يخترقها حتى يوافي القصر ، قال : هذا يقوم مقام النهر ، فلم يزل ساج ذلك النهر والدولاب يصب فيه الى ايام محمد بن عبدالله بن طاهر (توفي سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م) ثم قلع وعطل « واذ قرنت الرواية هذا الحادث بحادث آخر مهم ، هو قيام المنصور بنقل الاسواق الى الكرخ ، خارج المدينة المدورة ، اثر نصيحة اخرى مشابهة اسداها سفير الروم المذكور ، يكون انشاء هذا الدولاب وما يستتبعه في حدود سنة ١٥٦هـ او ١٥٧هـ/٧٧٢ - ٧٧٣م ، وهو التاريخ الذي امر فيه المنصور بنقل الاسواق بعد اضطراب حدث هناك (١٣) .

وتتفق روايات المؤرخين على جسامه هذا

المشروع ، فقد نقل عن عياش بن القاسم ان المنصور امر بمد قناتين من دجلة (١٤) بينما اشار آخرون الى كونها « قنى » دون تحديد لعددها (١٥) . ووصف المنصور لها بانها تقوم مقام نهر ، يدل على انها كانت كبيرة ، عظيمة السعة ، و اشار اليها بعض المؤرخين بانها كانت نهر (١٦) .

(١١) ابن الفقيه ٢٨ .

(١٢) الخطيب ٧٨/١ .

(١٣) الطبري ٢٢٤/٣ .

(١٤) الخطيب ٧٨/١ .

(١٥) الخطيب ٧٨/١ وابن الجوزي : مناقب بغداد ١٢ (نشر محمد بهجة الارزي) وياقوت : معجم البلدان ٤٠/١ (ط . دار صادر ، بيروت ١٩٥٥) .

(١٦) ابن الفقيه ٢٧ .

الآخري الآخذة من دجيل بشيء ، ولكن يفهم من كلامه ان عمل تلك القناة كان في اثناء بناء المدينة لغرض عمل المواد اللازمة للبناء وشرب الفعلة القائمين عليه . قال « وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا ، وهو النهر الآخذ من الفرات فافتتت القناة ، واجريت الى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين » (٢٨) . وبلاخظ ان احداً من المؤرخين لم يشر الى وجود هذه القناة في داخل ارض المدينة قبل رفع قواعدها ، كما ان ملاحظة السفير الرومي بأن « ليس لها نهر يخترقها » تكشف عن عدم وجود هذا النهر حتى بعد انتقال المنصور اليها ، على ان من المحتمل جدا ان يكون مجرى هذا النهر قد استغل فيما بعد بان انشئت فيه القناة المحكمة المذكورة .

٢ - الجانب الغربي

اتسع العمران ، بسرعة كبيرة ، حوالي اسوار المدينة المدورة ، وازدادت كثافة السكان في الاحياء السكنية والتجارية الجديدة مما امر المنصور ببنائه ، او انشاء غيره من الامراء والقواد وعمامة الناس ، وتزايد السكن في الرض الكائن خارج المدينة المعروف بالكرخ ، بين نهر الصراة ونهر عيسى ، من انهار الجانب الغربي ، فكان ان نشأت محال جديدة هناك ، عرف بعضها بالشرقية لانها شرق الصراة ، بينما كانت المدينة المدورة في غربها . ونجد في كتب التاريخ والتراجم . والخطط بخاصة ، اسماء اعداد كبيرة من الاحياء والسكك والاسواق والمدروب مما انشئ في تلك النواحي في خلال عهد قصر ، مما دل على ان مشكلة مياه التراب مالبت ان ظهرت ، وبالسرعة نفسها ، لتواجه اهل تلك المواطن الجديدة .

ويظهر ان حجم هذه المشكلة لم يكن بعيداً عن تقدير المنصور ، رغم ان نهرين رئيسيين ، هما الصراة وعيسى ، كانا يأخذان من الفرات ويقطعان الجانب الغربي ليصبا في دجلة ، فعمد منذ اخراجه اهل الاسواق الى الكرخ ، الى حفر شبكة من الانهار الصغيرة تأخذ من هذين النهرين الكبيرين وتمر بين الدروب والاسواق ، وتسمى باسمائها وبذلك امسى لاهل الجانب الغربي نوعين من مصادر المياه ، الاول : الانهار الرئيسية القديمة التي كانت تخترق المنطقة منذ فترة تسبق فترة انشاء المدينة المدورة ، والثاني : الانهار الفرعية الجديدة التي استحدثها المنصور على ماتقدم .

(٢٨) اليعقوبي : البلدان ٨ (النجف ١٩٥٧) .

واغلب الظن ان المقصود بنهر دجيل ، النهر المتفرع عنه المسمى بنهر بطاطيا ، او احد فروعها ، فقد ذكر الخطيب انه كان لهذا النهر ، اي بطاطيا ، ثلاثة فروع في عهده (توفي سنة ٤١٣هـ / ١٠٧٠ م) سماها انهار الحربية ، وقال « انها قنوات تحت الارض واولئها مكشوف » وكونها تجري تحت الارض ، يشر الى انها كانت تستعمل للشرب ، ولكننا لانعلم اي من هذه الانهار كان الذي مده المنصور ، وذلك لان مفهوم « بغداد » توسع في عهد الخطيب حتى صار يشمل منطقة تبلغ اضعاف مساحة المدينة المدورة (٢٥) وتسميتها بانهار الحربية يعني انها كانت تسقي الحي الواسع الذي عرف بهذا الاسم . وكانت الحربية « محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة بشر الحافي واحمد بن حنبل » (٢٦) اي انها كانت تقع خارج اسوار مدينة المنصور ، في شمالها ، حيث تلك المواضع . وليس بعيد ان يكون نهر المنصور المذكور هو اول تلك الانهار عهداً ، ثم زيد عددها فيما بعد نظراً لعمران تلك النواحي .

اما القناة الآخري الآخذة من نهر كرخايا ، فنرجح انها كانت تتفرع من النهر المعروف بنهر رزين . عند باب سويقة ابي الورد ، فمن هناك « يحمل منه نهر يعبر على عباداره على قنطرة العتيقة ويمر الى سارح باب الكوفة ، فيدخل من هناك الى مدينة المنصور ، ويمر النهر من باب الكوفة الى شارع القحاطية ثم الى باب الشام ، ويمر في شارع الجسر الى الزبيدية فيغني هناك » (٢٧) ودخول النهر من باب الكوفة ، وخروجه من باب الشام يدل على انه كان يتخذ شكل زاوية قائمة تقريباً ، ولكننا لانعلم ماذا كان قد لبث مجراه معقوداً بالصاروج والاجر على صفته في ايام المنصور لان الخطيب لم يفرده بملاحظة خاصة بهذا الشأن ، في حين افرد انهار الحربية بملاحظته السابقة على ما مر بنا .

وقد ذكر اليعقوبي ان المنصور مد لمدينته قناة تأخذ مياهها من كرخايا ، ولم يشر الى القناة

- باع ، وكل باع (الدرع شرعية (الدرعا ٩٥٨٧٥) سم)
 فيكون طول الفريخ حوالي ٦ كم . فالترهنتس : الكايل
 والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام التري (٩٤)
 (ترجمة كامل السلي ، عمان ١٩٧٠) .
 (٢٥) انظر عن مساحة بغداد في القرون التالية : ابن الفقيه ٦٠
 والخطيب ١١٧/١ .
 (٢٦) ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٢٧ .
 (٢٧) الخطيب ١١٣/١ .

وانقصابين وغيرهم . من العسير التصور بانسه يبعى - بعد ذلك كله - صالحاً للشرب ، ولسو تخيلنا كم من فضلات هذه المهن وقادوراتها من ريش اندجاج وبقايا الزيوت والشوك وقشور الرمان ومخلفات النحر يمكن ان يطرح في هذه الانهار . للاح لنا ما يؤكد ما ذهبن اليه تأكيداً تاماً . ويظهر ان مهمة هذه الشبكة من الانهار تحولت تدريجياً وخاصة في العصور العباسية الاخيرة لتمسي شبكة تصريف للمياه القذرة ، وسقي الزروع ، وتحريك الارحاء ، وتركت استعمالها الحيوية الاخرى . وليس من شك في ان تحول مهمة هذه الانهار على ذلك النحو كان سبباً رئيسياً في ترك السكن في تلك المحلات البعيدة عن دجلة ، ومن ثم خرابها . وهكذا ، فان حفر الانهار الجديدة في الكرخ . واستخدام القديم منها . لم يحل مشكلة نقل مياه الشرب الى احياء انجانب الغربي ، كما فكر التصور . ولعله لو عقد تلك الانهار بالأجر والصاروج ، كما فعل بالانهار التي مدها الى مدينته المدورة ، لكانت قد اذت مهمتها ، وحقت الغرض من انشائها .

٣ - الجانب الشرقي

كان الجانب الشرقي من ارض بغداد ، يسقى قبل انشاء بغداد نفسها ، من مياه نهر الخالص ، عن طريق شبكة متقنة من الانهار القديمة تتوزع في مختلف انحاءه . وعندما انشأ المهدي الرصافة ، مقابل المدينة المدورة ، من الجانب الشرقي ، حدود سنة ١٥٩هـ/٧٧٦م ، اصبحت بعض فروع الانهار التي تصب هناك ، تجري في وسط « الرصافة » فتخترق شوارعها وقصورها حتى تصب في دجلة ، وكان اهم تلك الفروع نهر الفضل الاخذ من نهر الخالص ، فمنه يتفرع نهر آخر سمي بنهر المهدي يسير الى شرق الرصافة ، ثم ينقسم هناك الى فرعين صغيرين اولهما يصب في الجعفرية (شرقي الرصافة) وثانيهما ينحدر الى قصر المهدي وجامعه فيجري في بركة داخل القصر ومنها ينتهي الى دجلة (٢٠) .

وكان اتساع بغداد جنوباً ، وبخاصة في العهدين البويهى ثم السلجوقي ، يزيد من اهمية الانهار الآخذة من الخالص والمختصة ببرى تلك

ويعتبر نهر عيسى اهم انهار الجانب الغربي لاروائه عدداً هائلاً من المحلات والسكك ، فكان يخترق احياء الجانب الغربي السكنية ، فيفضي الى محلة الزياتين (باعة الزيت) فباعة الاشنان وباعة الشوك ، فباعة الرمان . ويظهر ان مياهه - رغم اجتيازها كل تلك المحال - كانت من الاندفاع بحيث تكفي لتشغيل عدد من الارحاء ، بعدها ، حتى تصب في دجلة اسفل قصر عيسى (٢٩) .

اما نهر الصراة ، فكان يسقى مناطق زراعية في طسوج بادوريا ، قبل ان يجتاز محلات الجانب الغربي ، ويظهر ان هذه المحلات لم تكن مكتظة كالتى على نهر عيسى ، بسبب ان المتصور جعل هذا النهر فاصلاً بين التجمعات السكنية في الكرخ وبين مدينته المدورة .

وبالإضافة الى هذين النهرين القديمين ، فقد امر المنصور بجر عدة انهار صغيرة من نهر كرخايا المتفرع اصلاً من نهر عيسى ، لارواء ما تكاثر عليها من دور واسواق ، فكان منها نهر الدجاج ، ونهر القلائين ، ونهر طابق ، ونهر البزازين ، وغير ذلك ، فكان نهر كرخايا اذن مسقى اهل كرخ بغداد القديم من ناحية الجنوب ، ومسقى المدينة المدورة من ناحية الشمال ، الا انه في الكرخ مكشوف بفروعه المذكورة ، على خلاف فرعه الذي كان يأخذ الماء الى المدينة المدورة فانه كان معقوداً بالأجر والصاروج على ما ذكرنا . فليس ثمة ما يدل على ان انهار الكرخ هذه كانت تستعمل لغرض الشرب ، ونحن نميل الى القول بان هذه الانهار كانت لاجل توصيل مياه الاستعمال اليومي ، من غسيل وسقي ، وربما لتصريف المياه المستعملة ايضاً ، اذ ليس من المتصور ان تبقى مياه هذه الانهار نظيفة صالحة للشرب ، وهي تجري في مجار ضيقة مكشوفة لعوارض الطبيعة وتلوث السكان ، فنهر يجري بين محلات مكتظة بباعة الدجاج والزيت والاشنان والشوك والرمان

(٢٩) الارحاء جمع رحى ، وهي طاحونة الماء ذات الدواب الالقي ، وتعد اقدم آلة استخدمت فيها طاقة الماء . وفي اسفل محور الحركة يوجد دولاب مقنور في تيار الماء وعلى محطه مجموعة من الفراشات ، ويرتفع المحور للاعلى ماراً بجحر الطحن السفلي . ويرتبط المحور بالحجر الملوي ارتباطاً وثيقاً وبذلك يدور الحجر الملوي مع دوران دولاب الماء بواسطة المحور الواصل بينهما ، وهذه الدواليب المائية الالقية هي الاصل الذي تطورت منه المنغلات المائية الحديثة . د . احمد يوسف الحسن : تقى الدين والهندسة الميكانيكية الميرية (حلب ١٩٧٦)

الإنحاء^(٢١) . وعندما تم عمران الجانب الشرقي في القرنين الخامس والسادس للهجرة (١٢١١م) وتحولت بساتينه وجنانه الى احياء سكنية واسواق تجارية ودروب ، تحولت مهمة تلك الأنهار من سقي الزروع . الى تيسير الحياة اليومية لسكان بغداد الشرقية . فكان نهر موسى يأخذ مياهه من نهر بين الكبير الإخذ من الخائن والماضي بمياهه حتى مصها عند قرية كوازي جنوب بغداد . ويصل نهر موسى الى قصر « الثريا » الذي بناه المعتضد (خارج اسوار بغداد الشرقية) المتأخرة « فيدخل القصر ويدور فيه ويخرج منه » ليصل منطقة مهمة عرفت بمقسم المياه . حيث تنقسم مياهه الى ثلاثة شعب^(٢٢) ، الأول بباب سوق الدواب ، فالعلافين فيصب في نهر كان المعتضد حفره ، ويمر شيء منه الى باب سوق الفرم ثم الى خندق انبساط بباب المخرم وبرز في دجلة . بينما تتفرغ من نهر موسى أيضاً ثلاثة فروع صفرى كانت تصب في ثلاثة احواض بنيت في القرن الثاني للهجرة . ويحضي نهر موسى حتى قصر المعتصم ، ومنه يتفرغ نهر يمر الى سوق العطش حيث يغني بعده في دار الوزير ابن الفرات . ويسقى فرع آخر منه بستان الزاهر على دجلة . ويصب - من ثم - فيه . فهذه الأنهار كما يتضح لنا كانت تستخدم لسقي الزروع والجنائن اكثر من استخدامها للشرب ، كما ان سعتها من المياه لم تكن تكفي لان تصل ، في معظمها ، الى دجلة وانما كانت تنفي في طريقها اليه ، مما دل على ضيق مجاريها وقلة مائها . ويظهر ان تجميع مياهها في احواض خاصة صناعية كما مر بنا ، كان يهدف الى تيسير استعمالها للشؤون اليومية ، ولكننا لانعلم نوع تلك الشؤون ، اهمي للشرب ، ام غيره^(٢٣) . وعلى اية حال فان تسمية احد الاسواق الكبيرة في هذا الجانب بسوق العطش ، يدل على ان مشكلة

وثمة فرعان آخران من فروع نهر موسى ، لها اهمية خاصة تزايدت في العصور العباسية المتأخرة ، وهما نهر الملى . ويمر بين الدور والسكك حتى يصل قصر الخلافة المسمى بالفردوس فيدور فيه ويصب في دجلة ، ونهر آخر في اسفله مواز له تقريباً يخترق بغداد من شمالها الى جنوبها ، حيث يدور في القصر الحسني (قصر التاج فيما بعد) على دجله ثم يصب فيها . وكان هذان النهران يأخذان مياههما من مقسم المياه اسفل قصر الثريا المذكور . وزادت خطورة هذين الفرعين بسبب تزايد كثافة السكان حواليهما وتكون الاحياء والحلات في القسم الجنوبي من الجانب الشرقي حيث كانا يجريان (وهو القسم اندي استقرت عليه بغداد في العصور التالية) . وليست ثمة نصوص تدل على ان هذه الأنهار كانت تجري في قنوات معقودة بالأجر والصاروج ، ومن المحتمل جدا ان تكون قد استخدمت في العصر العباسي الاول كمورد لمياه الشرب ، عندما كانت الارض هناك قليلة السكان ، بيد اننا نستبعد بقاءها كذلك في العصور العباسية المتأخرة ، وذلك لاسباب نفسها التي قدمناها عند حديثنا عن انهار الجانب الغربي ، فكان نهر الملى يخترق في طريقه الى دجلة محلة باب ابرز ، وفيها احدي كبريات مقابر بغداد ، ثم قراح ظفر ، وهو بستان تحول الى محلة سكنية ، فسوق الثلاثاء ، فدرب دينار والمنظفان الاخيرتان من اكثر المحلات ببغداد ازدحاما وكثافة في السكن ، وفيهما الاسواق والخانات والتاجر ليصب بعد ذلك في دجلة عند المدرسة المستنصرية . وكان النهر الاخر يخترق قلب بغداد الشرقية ، فيجتاز محلة المختارة ، فقراح ابن رزين ، وهو بستان كبير تحول الى محلة^(٢٤) ، فالمنطقة المزدهمة حوالي دار الخلافة ، فدار الخلافة العباسية نفسها ، ليصب عند القصر الحسني ، وقصر التاج فيما بعد^(٢٥) . وانهار صغيرة مكشوفة تجري وسط هذا الحشد الهائل من الاحياء والدور والأسواق ، لا يمكن ان تكون مياهها صالحة للشرب ، واغلب الظن ان مهمتها لم تكن تتجاوز كونها مصارف للمياه

(٢١) انظر عن زحمة هذه المحلات وكثرتها ياقوت : معجم البلدان ، مادة قراح ، ٢١٥/٤ .
(٢٢) معجم البلدان ٢/٢ .

(٢١) انظر احمد سوسة ومصطفى جواد : دليل خارطة بغداد الفصل ص ١٠٦ .
(٢٢) فصل القدامى وبعض الحديثين في وصف هذه الانهار وتبع مجاريها وما تمر به من نواح ، ولا يهمننا منها في بحثنا هذا الا ما له صلة بمشكلة مياه الشرب .
(٢٣) اشارت المصادر الى ثلاثة احواض ، هي حوضي داود ، وحوض هيلانة ، وحوض الانصار ، ولكن ليست ثمة ما يدل على حجم ما تسعه من المياه ، وتدل اسماها من نسبت اليهم ، الى انها انشئت في فترة لم تتجاوز اوائل القرن الثالث للهجرة (٨٩٠ م) وهي الفترة التي لم تكن هذه الأنحاء قد اكتظت فيها بالسكان بعد . ومن المحتمل ان تكون هذه الاحواض نوعا من مشاريع مياه الشرب ، لكننا نجهل فائدتها وطريقة عملها على وجه التحديد .

القدرة التي تطرحها الدور والقصور ومنازل الحمامات الموجودة هناك (٢٦) .

٤ - السقايات والسقاؤون :

ان تلوث مياه الأنهار المخرقة مدينة بغداد ، بجانبها الشرقي والغربي ، كان احدى أهم المشاكل التي واجهتها هذه المدينة في العصور العباسية الأخيرة ، ونحن نرى ان هذه المشكلة كانت وراء تفرغ حدود المساحات السكنية في خارطة بغداد ابان تلك العصور ، ففي الجانب الغربي ادى افتقار ماء الشرب في الانحاء القاصية عن دجلة ، الى هجرة مستمرة من تلك الانحاء الى المحلات الشاطئية او القريية من مجرى النهر ، فبادت محلات باب التين واعتابيين وباب البصرة وباب الكوفة ، والتستريين والكرخ القديم وغيرها من محلات طسوجي قطربل وبادوربا الزاهرة ، ليتركز السكن في المحلات الشاطئية الجديدة ، مثل الرملة والقربة والنجمي والرقبة ، وهي المحلات التي كونت فيما بعد الكرخ الحديث ، بمحلاته المعروفة منذ العصر العثماني .

وتعرض الجانب الشرقي الى الظاهرة نفسها ، فقد تركت المحلات البعيدة عن دجلة ، كسوق العطش وسوق الدواب وغيرها ، بينما توسعت المحال القريية منه ، مثل المخرم وسوق الثلثاء وسوق السلطان ودرج دينار وحريم دار الخلافة وباب الأزج ، وعلى ذلك استمرت بغداد الشرقية منذ اواخر العصر العباسي ، وحتى الثلث الاول من هذا القرن .

وكان السقاؤون يقومون بسد حاجة اهل بغداد الى المياه النظيفة نسبياً ، للاخوذة من نهر دجلة مباشرة ، فكان اولئك ينقلون مياه الشرب من دجلة الى دواخل المحلات بواسطة بغال الروايا ، وكانت لهم على شاطئ دجلة مشاريع مخصوصة ، تسمح لهم - فيما يبدو - بأخذ الماء نظيفاً الى حد ما ، غير ملوث بما يلقيه الموج على الشاطئ من شوائب واقدار (٢٧) . وقد

(٢٦) انتقد بعض مثقفي بغداد في القرن الرابع الهجري طبقة اهل الاسواق وارباب الحرف بانهم « يكدرون المياه » ابن عبد ربه : العقد الفريد (القاهرة ١٩٥٦) ٢٩٣/٢ . (٢٧) ذكر ابن بسام الحنسي انه « لما كانت الامواج تجيب الأوساخ والاقذار الى الشطوط ، وجب ان يكون السقاؤون يدخلون في الماء الى ان يعمدوا عن الأوساخ ، والا يستقوا من مكان يكون قريباً من سقاية ولا مستحم ولا مجرة حمام » (نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، حققه حسام الدين السمرائي ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٢٥) .

اشتهرت في بغداد الغربية ، منطقة على شاطئ دجلة ، قرب باب خراسان ، اسمها « مشرعة الروايا » بانها الموضع الذي ينقل منه السقاؤون الماء الى المدينة ، وكان في هذه المشرعة مسجد وحمام (٢٨) ، وفيها دفن الامام الاشعري سنة ٣٣٠هـ/١٠٤١م (٢٩) ، فالت بذلك شهرة دامت حتى اواخر العصر العباسي (٣٠) . وعرفت في الجانب الشرقي مواضع نسبت الى اهل هذه الحرفة ، منها موضع اشتهر باسم « درب السقائين » كان قريباً من الشارع الأعظم (٣١) .

وتبارى السقاؤون في كل ما ينصل بنظافة مياهم ، وحسن عرضها ، بل عمد بعضهم الى تطيبها بالطور الزكية ، كالمسك ، لتكون احسن مذاقاً واطيب طعماً . من ذلك ما نقله محمد بن عبيدالله التميمي عن ذي النون ، حين قال بمصر : من اراد المروءة والظرف فعليه ببقاة الماء ببغداد . فقليل له : وكيف ذلك ؟ فقال : لما حملت الى بغداد رمي بي على باب السلطان مقيداً ، فمر بي رجل متزر بمندبل ديبقي (٣٢) بيده كيزان خزف رفاق وزجاج مخروط ، فالت : هذا ساقى السلطان ؟ فقليل لي : لا ، هذا ساقى العامة ، فاومات اليه : اسقني ، فنقصد وسقائي ، فشممت من الكوز رائحة مسك فقلت لمن معي : ادفع اليه ديناراً فاعطاه فابي ، وقال : لا آخذ منك شيئاً . فقلت له : لم ؟ فقال : انت اسير ، وليس من المروءة ان آخذ منك شيئاً . فقلت : كل الظرف في هذا (٣٣) !

وليست لدينا معلومات توضح ما يمكن ان تدره حرفة السقاية من مال ، الا انها كانت - كما يبدو - حرفة العوام ، او حرفة من لا حرفة له ، نظراً لعدم تطلبها خبرة معينة ، او رأسمال

(٣٨) الخطيب ١/٣٤٦ .

(٣٩) الهمداني : تكملة تاريخ الطبري (تحقيق البرت كنعان ١٢٠/١) وابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ٣٢٢/٦ .

(٤٠) المنتظم ١٦٩/٨ .

(٤١) الجيشاري : الورداء والكتساب (القاهرة ١٩٢٨) ص ٢٨٩ .

(٤٢) الديبقي : نوع من القماش الفاخر ينسب الى « ديبق » وهي بليدة كانت بين الفرما وتيس من اعمال مصر (معجم البلدان ٣/٤٢٨) والتدليل هنا بمعنى حزام او منطقة . انظر دووي : المعجم المفصل باسماء اللباس عند العرب (ترجمة اكرم فاضل ، بغداد ١٩٧١) ص ٢٢٥ .

(٤٣) ابن الجوزي : اخبار الغراف والتماجنين (القاهرة ١٩٧٨) ص ٣١ ومناقب بغداد ٢١ .

خاص(٤٤) . وكان السقاؤون يؤلفون صنفاً من الاصناف المهمة في التنظيم الحربي في بغداد في العصور العباسية ، وهم ولي خاص بهم ينتسبون اليه ، هو سلمان الكوفي ، او محمد بن عبدالله(٤٥) .

والتصوص التي توضح طبيعة اشراف الدولة ببغداد على هذا الصنف المهم غير كافية وان كان مؤلفو كتب الحسبة قد قدموا لنا معلومات ذات قيمة وبصفة عامة ، عن العلاقة بين الطرفين . ففرقوا بين صنفين رئيسيين يتصلان بمهنة السقاية ، اولهما صنف السقائين ، وثانيهما صنف الروايا ، وهم صانعو قرب السقائين والاتهم ، وبينما يوصى الفريق الاول « بنظافة ازيارهم ، وصيانتها بالاغطية ، وتغطية قربهم التي يسقون منها في الاسواق بالميازير . وبينهم ان يسقوا بكيزانهم المجذوم والابرص واصحاب العاهات والامراض الظاهرة ، وجلاء الكيزان النحاس كل ليلة وتطيب شبابيكها بشمع المسك والنادن(٤٦) الطيب العنبري وافتقار الخوابي(٤٧) بالبخور والفسل كل ثلاثة ايام »(٤٨) يوصى الفريق الاخر بان « يعرف عليهم عريفا ثقة عارفا ، ويأمره ان يمنعمهم ان يعملوا شيئاً من هذه الاوقات والالات الحافظة للمياه التي فيها مادة الحياة الا من الجلود المدبوغة بالفرض اليماني التي قد استحکم دباغها وطلال مكثها في الدباغ(٤٩) » وشرط على عريفهم ان يتفقد دكاكينهم كل وقت وهذا كله يدل على ادراك الدولة خطورة هذه الحرفة لتاثيرها الشديد على صحة الناس .

وتفيدنا كتب الفقه بان الحصول على الماء النقي الصالح للشرب ، لم يكن ميسراً للقراء في معظم الاحوال . فقد تشدد نقر غير قليل من الفقهاء في التأكيد على ان مياه السقايات العامة

(٤٤) عرف عن بعض اهل التصوف والزهد احترامهم هذه الحرفة ، ومن مشاهيرهم الشيخ الصوفي الزاهد ابي النجيب عبدالقاهر بن عبدالله السهروردي الصديقي الشافعي (ت ٥٦٣هـ/١١٦٧م) فقد لبت « عدة سنين يستقى بالقرب على ظهره بالاجرة ويتقوت بذلك ومن عنده من الصولية » . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة ١٣٢٤هـ) ٢٥٦/٤ .

(٤٥) ابن المعمار البغدادي : كتاب الفتوة (حققه مصطفى جواد وآخرون ، بغداد ١٩٦٠) ص ٩٢ .

(٤٦) اللادن : نبات تستخرج منه مادة زكية الرائحة .

(٤٧) الخوابي : القرابات .

(٤٨) ابن بسام : نهاية الرتبة ٢٥ - ٢٦ .

(٤٩) نهاية الرتبة ٢٠٣ .

هي لهم اساساً دون الاغنياء(٥٠) . مما دل على صعوبة حصول الطبقات الفقيرة على مياه الشرب عن طريق الشراء كما يفعل اهل الفنى واليسار . لذا فقد عمد الخلفاء وبعض الواسرين واهل الخير، منذ اواخر العصر العباسي ، الى انشاء عدد من السقايات العامة في الواضع المهمة من بغداد(٥١) ، وروضع الفقهاء لهذه المنشآت المفيدة قواعد قانونية تنظم امور وقفها ، وضمان ايصال الماء لها بطريق الاجارة ، ووضع الاواني والكيزان عندها ، وضمانها اذا كسرت ، الى غير ذلك من امور(٥٢) .

وعلى الرغم من اهمية هذه المرافق الحيوية في حياة مدينة كِبغداد ، فاننا لم نعرش الا على وصف القليل منها ، ويظهر ان معظمها كان يعتمد على السقائين ايضاً ، يملؤون احواضها كل يوم بأجر معلوم . بيد ان هذا لا ينفي اعتماد بعضها طرقاً هندسية متقنة ، والخبجار القليلة التي وردت عن هذه السقايات تفيد بانها كانت تاخذ مياهها من دجلة عن طريق قنوات تحت الارض . ولكن ليست ثمة معلومات عن طريقة عملها ، والاسلوب المتبع في انشائها . وقد سبق ان ذكرنا بان قنوات المنصور كانت ، فيما رونه المصادر ، مبنية على شكل عقود وثيقة من اسفلها ، محكمة بالصاروج ، وان اشارات مختلفة تدل على اتباع هذه الطريقة في بناء الانفاق تحت الارض بوجه عام(٥٣) .

(٥٠) انظر محمد بن ولي القرمشهرى الأزيمري : رسالة في شؤون السقايات ووقفها (مخطوط في المكتبة القادرية ببغداد) الورقة ٦ و ٨ .

(٥١) ذكر بعض الكتاب ان عدد سقايات بغداد بلغت في آخر العصر العباسي (١٠٢٥) سقاية من التسوع المسمى « زمولات سبيل » اعتماداً على احصاء نقله الاب انتناسي ماري الكرملني من كتاب الدر المنكون لياسين العمري الموصلني ونشره في مجلة المشرق (مج ٤) [بيروت ١٩٠٨ ص ٢٠٤] واعد نشره في دليل خارطة بغداد الفصل للتكويرين احمد سوسة ومصطفى جواد (ص ١٩٤) وقد رجوعنا الى مخطوطة الدر المنكون (نسخة باريس ١٤٤٩) تبين ان مصدر هذا الاحصاء هو ابن الجوزي في بعض كتبه ، وانه يخص مدينة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ لا بغداد ، وان العدد الصحيح لسقايات الموصل هو ١٢٥ لا ١٠٢٥ كما تسربت الخطاء مشابهة لقرادات الاحصاء الاخرى .

(٥٢) الأزيمري . الورقة ٧ .

(٥٣) ومن تلك الانفاق المعروفة ، نقل كان يصل بين قصر الثريا (موقعه خارج سور بغداد الشرقية المنشأ بعده) وقصر التاج على شاطئ دجلة ، وبينهما مفدأ ميلين على ما قدر ياقوت ، بنه المعتصد (معجم البلدان ٧٧/٢) ومن ذلك ما رواه لي السيد عبدالهادي المختار ، من انه عثر ايام كونه مديراً للمدرسة الامونية القديمة ()

ومن ناحية أخرى ، فان الكرخي (٥٤) وصف ، فيما رآه من « حال العراق » طريقة توصيل المياه الى المواضع البعيدة بواسطة استخدام « البرايخ » وهي انابيب انفخار المتألفة من قطع عديدة ، توصل ببعضها بطريقة محكمة . ويبدو ان هذه الطريقة كانت اكثر اتبعا في شؤون السقايات ، نظراً لقلّة كلفتها ، وسهولة مداها (٥٥) .

وتختلف اطوال هذه القنوات بحسب بعد السقاية عن شاطئء دجلة ويظهر ان انشاءها كان يجري وفق خطة هندسية وقياس دقيق لمستوى ارتفاع الأرض (٥٦) حتى يكفل ذلك للماء الخروج من السقاية على هيئة فوارة متدفقة - على ما وصفها المؤرخون - ، ويزداد ادراكنا لصعوبة العمل اذا لاحظنا ان مستوى الأرض ببغداد الشرقية لم يكن على ارتفاع واحد ، فهو في الجنوب يقل ارتفاعاً كلما شَرِقْ متعمداً عن شاطئء دجلة (٥٧) . وهذا يسهل مهمة مد القنوات تحت الأرض أو فوقها وانسياب الماء فيها الى اي بعد مطلوب . بيد ان الأمر في المناطق الوسطى والشمالية من المدينة اكثر صعوبة ، حيث يزداد مستوى الأرض ارتفاعاً كلما اتجه شرقاً (وهو امر يؤكد انسياب فرعي نهر بين الأخذ من الخالص من الشرق الى الغرب وسهما عند قصر التاج ، والمدرسة المنتصية) . واذ لم يصلنا خبر النظرية الهندسية المتبعة في ابدال مياه

النهر من دجلة الى تلك المناطق المرتفعة ، فليس لنا الا ان نستدل من اوصاف سقايات بغداد في العصر العباسي ، الى ان الامر كان يجري على اساس الزيادة في علو مأخذ القناة من الدوالب الذي يمدّها بالماء ، الى حد يعلو على ارتفاع الأرض المنشأة فيها السقاية ، فينبثق الماء من نهاية القناة عند السقاية ، بقوة عمود الماء النازل في الطرف الاخر من القناة عند مأخذها من النهر . وهذا ما يفسر سبب ابتكار المهندسين البغداديين في العصر العباسي الاخير ، دوالب متعددة العلو ، تستطيع اصعاد الماء الى علو شاهق ، يبلغ اربعة اصعاف ما يستطيع اصعاده دوالب واحد (لاحظ ماسياتي عن سقاية دار الخلافة) . ومن الطبيعي ان يُمكن نزول الماء من هذا العلو وصوله الى اي نقطة في المدينة مهما ارتفع مستوى ارضها ، لينبثق من سقايتها باندفاع على هيئة « الفوارات » المذكورة آنفاً ، على حسب قاعدة « الاواني المستطرقة » (انظر الشكل ١ و ٢) وعلى اية حال ، فان وصف دوالب دار الخلافة العباسية ببغداد يقدم احتمالاً قوياً بأنه كانت ثمة وسائل متنوعة ارفع المياه وتوزيعها ليست معروفة لنا الآن . وفي الحقيقة فان معلوماتنا عن الوسائل الميكانيكية التي كانت تتبع في تزويد تلك المنشآت الحيوية بالماء ليست كافية لدراستها من هذه الناحية (٥٨) .

(٥٨) اهتم المهندسون العرب بابتكار او تطوير طرق ميكانيكية متقنة لرفع المياه بالكميات الكافية والسريعة الكبيرة ، وصمموا انواعاً بارعة من الآلات الخاصة بهذه الامور ، بلغ بعضها شأواً بعيداً من الآلات في الصنعة ، والبراعة في التصميم ، مما سجل احبانا سبقاً علمياً لهم في هذا المسار ، تقدموا به علماء اوربة بشوط غير يسر ، مثل اختراعهم المسخنة ذات الاسطوانتين وذات الاسطوانات الستة ، والمسخة الحلزونية . وبما ان تصميمات هذه الآلات كانت مما حفظته لنا كتب التراث العلمي العربي ، ولعل من اهمها كتاب ابن الجزري المتون « الجامع بين العلم والعمل التابع في صناعة الحيل » وكتاب تقي الدين محمد بن معروف المتون « الطرق الستية في الآلات الروحانية » فقد ساد الاساط العلمية اعتقاد بان هذه الآلات المتقدمة لم تخرج من نطاق النظرية الى واقع التطبيق ، الا انه تم العثور اخيراً على آلة ما تزال في حالة جيدة تقوم برفع الماء من نهر يزيد الى المسجد والمرستان القهيري (في سفح قاسيون بدمشق) وهي مبنية على اساس بعض التصميمات المفضدة لكتاب ابن الجزري ، فاثبت ذلك ان عقيرة المهندسين العرب لم تكن حبيسة الكتب والمعرفة النظرية حسب ، وانما وجدت لها تطبيقات عملية نافعة في الحياة العامة . وليس بعيد ان يكون بعض تلك الآلات التي وصفها مؤلفو الكتب المذكورة ، وجد طريقه الى التنفيذ في بغداد ، وهي

الميدان) على نفق معقود بالآجر والتورة ، غرض عال ، ظاهر القدم ، عند حفر (بالوعة) للمدرسة ، وهو يتجه مشرقاً الى موقع مدخل شارع الرشيد تقريبا . ولكن ظروف العمل السرعة ادت الى ردم هذا الجزء منه ، فسهامت آثاره .

(٥٤) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي : انباط المياه الخفية (حيدر آباد الدكن ١٢٥٩) ص ٢٢ .

(٥٥) ذكر الكرخي ان « البرايخ تنصب في الماء لأميرين ، اما ان تكون سالفة ناشئة له يعنى (كذا) الماء او لصيانتة من حلول النجاسات فيه اذا كان جريه على وجه الأرض في سالفة غير ههية ما بين العمارة » .

(٥٦) وهو ما تعرفه كتب التراث العلمي العربي بوژن الأرض ، ويعرفه المساحون المحدثون ب « التسوية » ويريدون به أعمال رصد ارتفاعات الأراضي ، وذلك بالنسبة لمستوى سطح البحر او لنقطة معينة على الأرض . وعرفه الكرخي بأنه « معرفة مقدار صعود مكان على مكان بينهما بعد قليل او كثير ، وعلم ذلك بالوازين » (انباط المياه الخفية ص ٣٥ - ٥١) .

(٥٧) يبلغ ارتفاع مستوى الأرض عند مدخل شارع الكيلاني في السلك (قرب نهر دجلة) ٢٥٠٤ متر فوق مستوى سطح البحر ، وارتفاعه عند نهايته (عند الستة الشرقية) ٢٢٠٦ .

فمن السقايات العامة التي انشئت في العصر العباسي ، نذكر :

١ - سقاية الراضي .

انشأ هذه السقاية الخليفة انراضي بالله (٢٢٢-٢٢٩ هـ / ٩٢٤-٩٤٠ م) في جامع المنصور في المدينة المدورة بغربي بغداد . ولا نعلم ما اذا كان ثمة اتصال بينها وبين تلك القنوات التي كانت تنقل الماء تحت الارض الى قصر المنصور في العهد الاول للمدينة . واول اشارة الى هذه السقاية ما جاء في حوادث غرق بغداد سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م . فقد ذكر ابن الجوزي ان المشرف على البيمارستان العسدي اضطر انى ان يعث المرورين الى « سقاية الراضي بجامع المنصور » (٥٩) وآخر اشارة اليها ما جاء في ترجمة الشيخ عبد الله الرومي الحنفي سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م . قال ابن الساعي البغدادي في ترجمته « شيخ زاهد عابد منقطع في سقاية الراضي بالله بجامع المنصور » (٦٠) وهذه النصوص توحي للمرء بانساع السقاية المذكورة بحيث يمكن ان تتخذ ماوى للمرضى ومتعبدا لزهاده . وانها استمرت قائمة بمهمتها في ارواء اهل تلك الناحية مدة لا تقل عن ثلاثة قرون .

٢ - سقايات جامع الرصافة

كانت هذه السقايات في طريق جامع الرصافة ، في اعلا بغداد الشرقية . اشار اليها هناك ابو الوفاء علي بن عجيل البغدادي (٥١٣ هـ / ١١١٩ م) عند وصفه احياء الجانب الشرقي من بغداد ، وما فيها من القصور والدور والدروب والأسواق ، في حديث طويل ، منه قوله

حاضرة العالم الاسلامي ، ومبارة الخلافة العباسية ، الا ان زوال تلك المشاريع منذ عهود بعيدة ، وعدم تفصيل المؤرخين في شأنها ، يجعل من المتعذر تصور طريقة عملها من الناحية الفنية ، وان كان من المحتمل انها من نوع السواقي (اي المصفاة ذات الزناجر والدلاء) المعروفة والمنشرة في العالم الاسلامي وهي التي تدور بواسطة الحيوانات وليس بقوة الماء (نشر د. احمد يوسف الحسن الفصل الخاص بالآلات المائية من كتاب ابن الجزري في مجلة تاريخ العلوم العربية التي يصدرها معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، مجلد ١ عدد ١ [ايار ١٩٧٧] ص ٢٠ - ٤٠) ونشر كتاب تقي الدين مع دراسة تحليلية بعنوان تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية ، حلب ، ١٩٧٦) .

(٥٩) المنتظم ٢٤٥/١ .

(٦٠) الجامع المختصر في عيسون التواريخ واعين السراج ٩ (بتحقيق مصطفى جواد بغداد ١٩٢٤) ص ٢٤٥ .

« ثم سوق الرصافة وجامع الرصافة ودرب الروم . وشارع عبدالصمد ، والسقايات العجيبة في طريق الجامع ذات الاجراس الكثيرة » (٦١) . وبما اننا لا نعلم طريقة عمل هذه السقايات ، فليس بالامكان تصور وجه العجب فيها ، وليس في النص المقدم ما يفيد بتاريخ انشائها اول مرة .

٣ - سقايات جامع القصر

انشأ هذا الجامع الخليفة المكتفي بالله اثناء فترة حكمه (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م) فكان ثالث الجوامع ببغداد ، بعد جامع المنصور في المدينة المدورة وجامع المهدي في الرصافة . ثم تولاه بالاصلاح والتوسيع الخلفاء من بعده لاتصاله بدار الخلافة العباسية من جهة ، ووقوعه في قلب بغداد الشرقية من جهة اخرى (٦٢) .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة (١١١ م) انشأ الوزير ابو نصر محمد بن جهير ، فخر الدولة (٦٣) ، سقاية في هذا الجامع « واجرى فيها الماء من داره في قنى تحت الارض ، وجعل لها فوارات فانفع الناس بذلك منفعة عظيمة » (٦٤) . وقد ذكر المؤرخون ان دار الوزير ابن جهير كانت تقع في محلة باب المراتب (٦٥) ، في اسفل حريم دار الخلافة ، على شاطئ دجلة (٦٦) ، فيكون مأخذ هذه القنى من الشاطئ المذكور ، في موضع يبعد بما يزيد على كيلومتر واحد ، عن

(٦١) مناقب بغداد ص ٢٦ ولا ندرى اية علاقة بين السقايات والاجراس ، ولعل ذلك من قبيل الطرق التي شرحها تقي الدين في كتابه «الطرق السنية في الآلات الروحانية» عند وصفه مجموعة من « الفوارات » المائية ، ذات نصيبات تصدر اصوات « الزمر الدائم والتفارات » (تقي الدين : مصدر سبقت الاشارة اليه ، الباب الرابع ص ٢٩ - ٤٨) .

(٦٢) عماد عبدالسلام رؤوف : جامع الخلفاء قديما وحديثا . مجلة الرسالة الاسلامية ٧٠/٢ - ٧٨ .

(٦٣) تولى الوزارة للقاتم والمقتضي في السنوات ٥٠ و ٥٤ و ٤٦ و ٤٧ هـ . زامباور : معجم الاسباب والاسرات الحاكمة (القاهرة ١٩٥١) ص ٩ .

(٦٤) المنتظم ٢/٩ .

(٦٥) وموقع هذه المحلة اليوم في ارض شريمة السنك وحواليها.

(٦٦) استعملت هذه الدار السيدة بنفشة حليقة السقيء بامر الله (٥٦٦ - ٥٧٥) التوفاة سنة ١٢٠١ هـ / ١٢٠١ م ، ثم حولتها لتكون مدرسة للحنابلة ، وافتتحها سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م ، وكان اول من تولى التدريس بها ابو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) انظر : كتابنا مدارس بغداد في العصر العباسي (بغداد ١٩٦٦) ص ١٨٤ - ١٩٠ .

بالطرق الاعتيادية . وقد لاحظ الرحالة المغربي ابن بطوطة ذلك عند زيارته بغداد سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م فقال « وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة ، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ، وهو جامع كبير فيه سقايات ، ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل » (٧٢) .

٤ - سقاية دار الخلافة

من المشاريع الهندسية البديعة التي شهدتها بغداد في اواخر القرن السادس للهجرة (١٢م) ، انشائها السيدة بنفشة بنت عبدالله الرومسية حظية الخليفة المستضيء (توفيت سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) . وكانت تأخذ مياهها بطريقة فريدة ، لم يرد ما يشبهها في غيرها من السقايات المختلفة ، وقد وصف ابن الساعي البغدادي هذا المشروع بانه « اربعة دواليب ، تستقي الماء من دجلة الى دار الخلافة المعظمة ، كل واحد منها أعلى من الآخر ، فيأخذ الاول من دجلة ، والثاني من الاول ، والثالث من الثاني ، والرابع من الثالث » (٧٣) وقد بحثنا في كتب الآلات المائية ، على ما ينطبق عليه هذا الوصف ، فلم نثر على بغيثنا ، وانشاء مثل هذا المشروع يستلزم بناء دار عالية ذات اربعة طوابق ، في كل منها دولايب يدور . ولا نعلم وجها لايصال الماء الى هذا الارتفاع الشاهق ، سوى الاستفادة القصوى من ضغط الماء النازل لاحداث فوارات عالية (شاذروانات) وايصال المياه الى مواضع مختلفة من دار الخلافة العباسية ، على ما اشرفنا اليه من قبل (انظر الشكل ١ و ٢) .

٥ - سقاية تربة احمد بن حنبل بالجانب الغربي

انشأ هذه السقاية سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م الخليفة المستنصر بالله ، اظهاراً لتأييده للذهب الحنابلة الذي كان يميل اليه(٧٤) . ويفهم مما ذكره صاحب كتاب الحوادث ان اخذ السقاية للماء اعتمد على طريقة السقائين ، لا على حفر القنوات

(٧٢) رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٢٨) ١/ ١٢٢ .

(٧٣) ابن الساعي : جهات الائمة الخلفاء من العرائر والاماء (تحقيق مصطفى جواد ، القاهرة) ص ١٦٦ .

(٧٤) ابن احمد بن حنبل في مقبرة باب حرب ، وهي من اشهر مقابر بغداد في العصور العباسية ، وكان موافها في خارج عمارة البلد ، الى الشمال من مقابر فريش (الكاظمية) وقد زال قبر ابن حنبل نتيجة لتحويل نهر دجلة مجراه .

مصبتها في الجامع ، والظاهر ان مدها لتصل شاطيء دجلة مباشرة ، في اقرب مسافة بين الجامع والشاطيء على خط مستقيم ، كان يعد من الامور المتعدرة او العسيرة ، بسبب وقوع قصور دار الخلافة في هذه المنطقة ، واشغالها طراز دجلة الشرقي ، فلم يكن بالإمكان اذن مد هذه القنى الا من منطقة اقل ازدحاماً في السكن ، هي باب الراتب ، حيث تنتهي قصور الخلافة ومرافقها .

ولقد استمرت هذه السقاية تؤدي عملها زمناً طويلاً على الرغم من موقعها البعيد عن مصدر مياهها ، وطول القنوات التي تمدها بالمياه من دجلة ، فوصف الرحالة ابن جبير هذا المشروع المهم بعد نحو قرن من الزمن بقوله « جامع الخليفة (٧٦) متصل بداره(٦٨) ، وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والظهور » (٧٦) .

وفي سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م امر الخليفة المستنصر بالله بانشاء سقاية اخرى في جامع القصر ، وكانت هذه السقاية الجديدة تأخذ مياهها من حياض تملأ بالماء في مواعيد منتظمة ، والظاهر ان قنوات الوزير ابن جبير الارضية لم تعد تكفي لايصال مياه الشرب والوضوء والغسل للجامع المذكور ، فاستعين بهذا المشروع الجديد لسد الحاجة المتزايدة . قال صاحب كتاب الحوادث في حوادث السنة المذكورة « وفي آخر شعبان ، أنهى من عمارة باب جامع القصر مما يلي الرجة ، وفتح ، وفتحت المزملة (٧٠) التي عملت بالجامع المذكور ايضاً » (٧٦) .

يتضح لنا مما تقدم ان جامع القصر احتوى لأهميته على عدة سقايات كبيرة ، لا سقاية واحدة ، وان بعض تلك السقايات كان يأخذ مياهه من دجلة بطرق هندسية ، والبعض الآخر يأخذها

(٧٦) تسمية جامع القصر بجامع الخليفة متأخرة نسبياً ، وفي العصور الاخيرة شاعت تسميته بجامع الخلفاء ، ثم عرف بين العامة باسم جامع سوق الفول حتى ازالته عند فتح شارع الجمهورية سنة ١٩٥٧ ، وقد قامت « الاوقاف » اخيراً بانشاء مسجد جامع كبير حوالي مثلثته القديمة (وهي كل ما بقي منه) واطلقت عليه اسم « جامع الخلفاء » .

(٦٨) يريد بدار الخلافة العباسية وفيها قصور الخلفاء .

(٦٩) رحلة ابن جبير (بغداد ١٣٥٦هـ) ص ١٨٢ .

(٧٠) انظر ما تقدم من معنى هذا اللفظ .

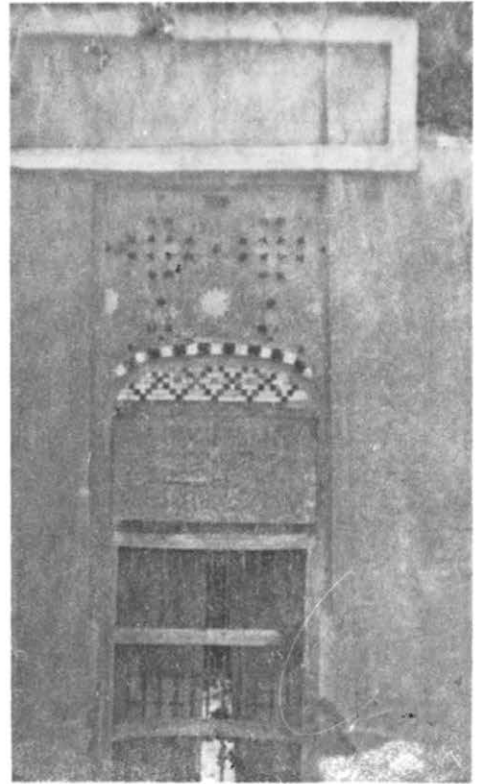
(٧١) كتاب الحوادث المسمى بالحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١هـ) ص ١٠٢ .



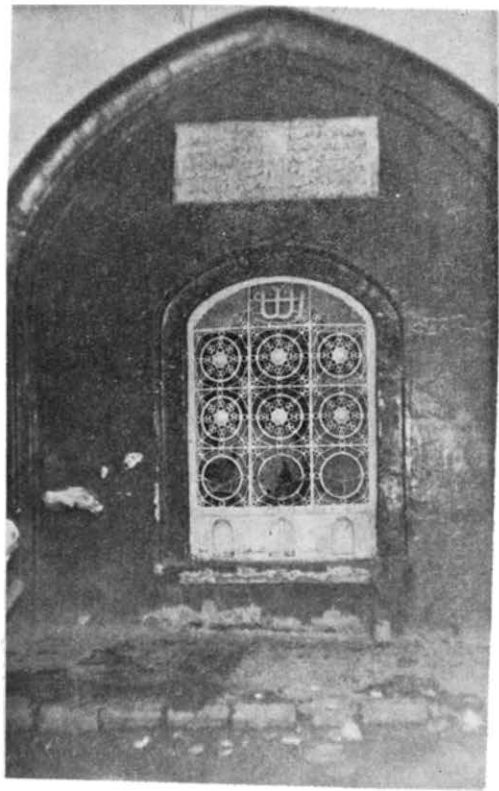
الصورة (١) الميدان ببغداد في مطلع القرن العشرين
وتظهر فيه سقاية شوكت بك



الصورة (٣) لوح رخام مكتوب على سقاية
صنفة الله الحيدري ، وفيه اسم المشيخ وتاريخ
انشائها سنة ١٢٦٧هـ



الصورة (٢) سقاية جامع النعمانية



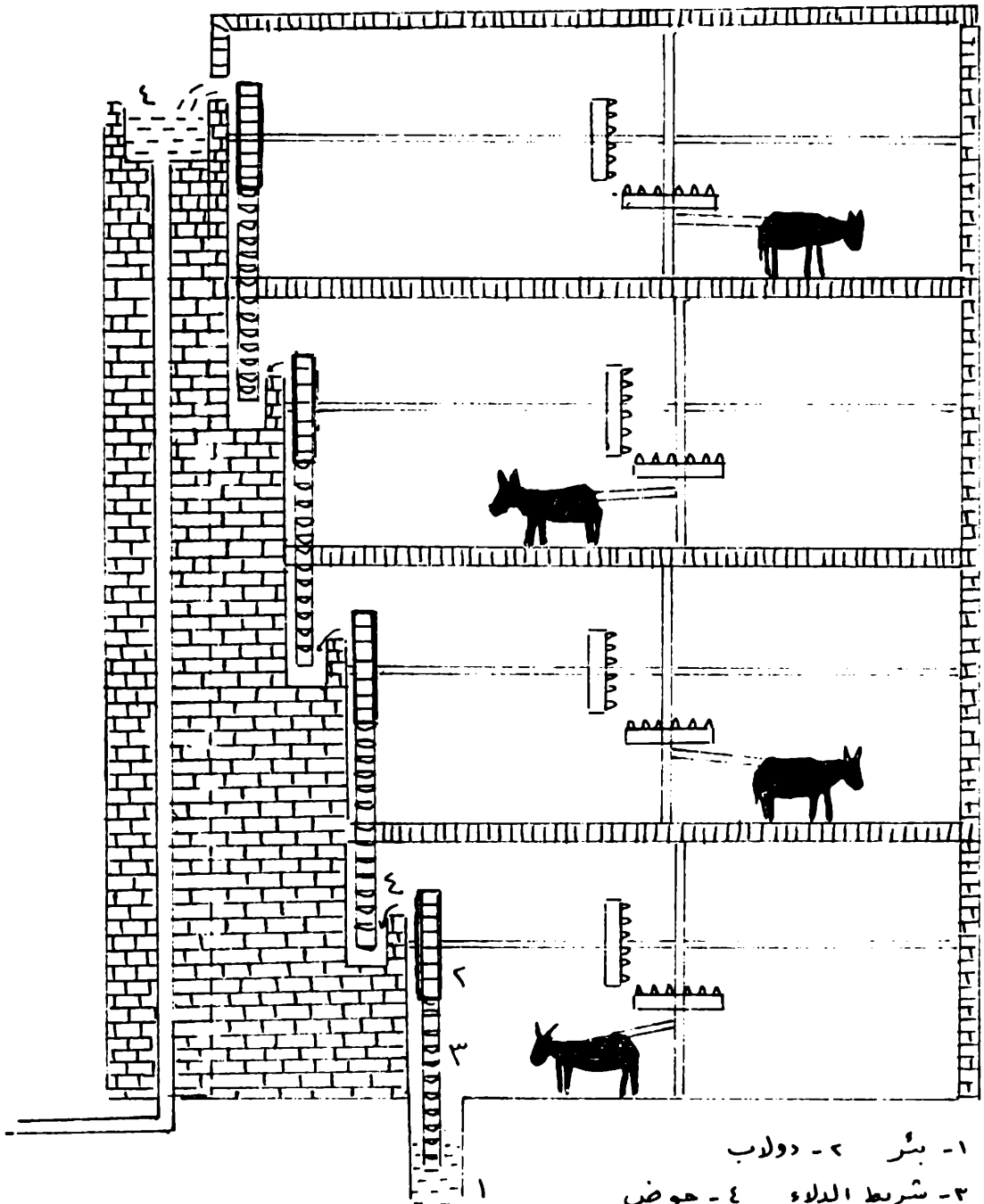
الصورة (٤) سقاية السيد سلمان القادري



الصورة (٥) جانب من قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني

صورة متخيلة بحسب وصف ابن الساعي لآلة رفع المياه الى علو شاهق بهدف الاستفادة من عمود الماء النازل في ايسال المياه الى مسافات بعيدة وبارتفاعات مختلفة واحداث فوارات - من عمل المؤلف

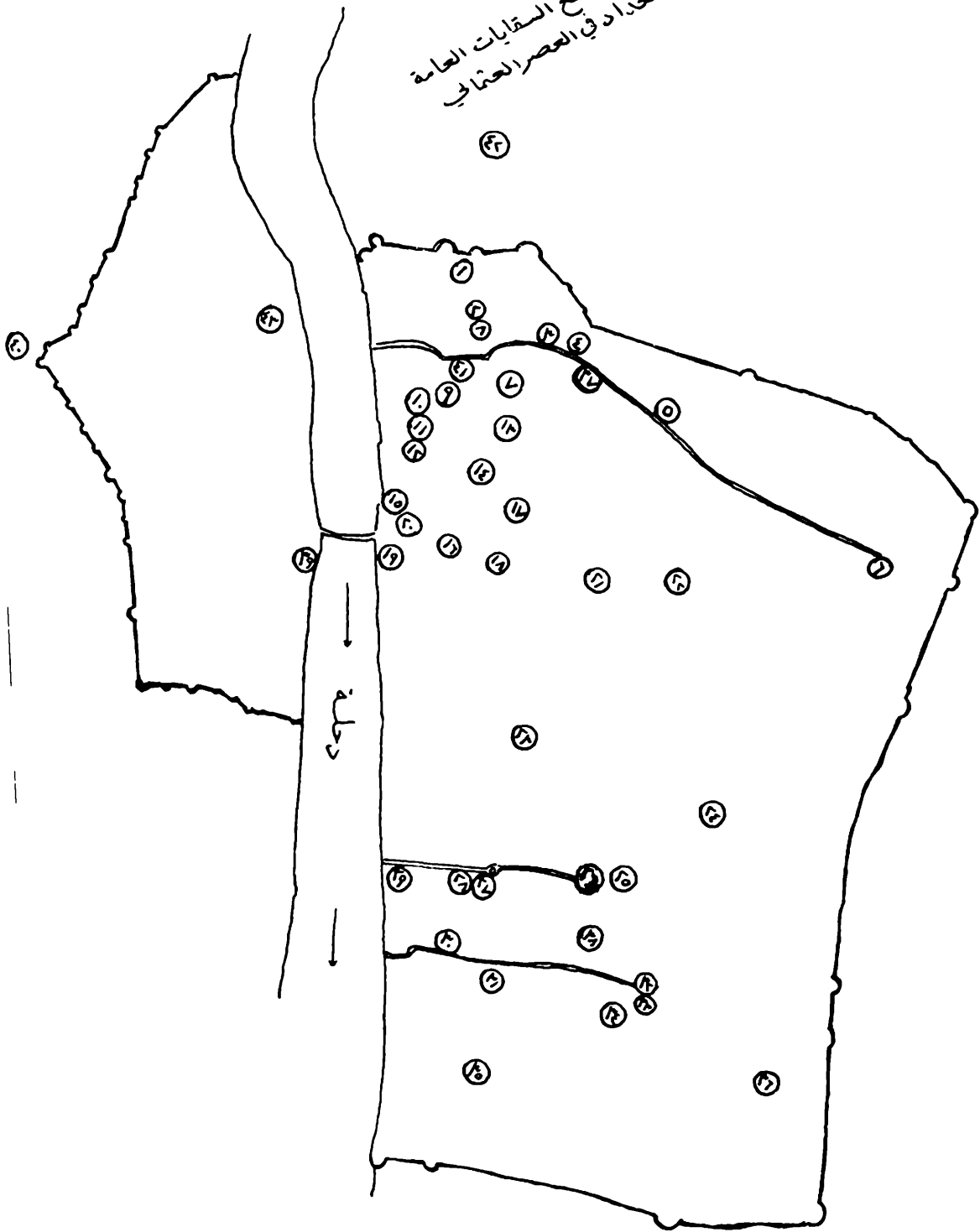
الشكل « ١ »

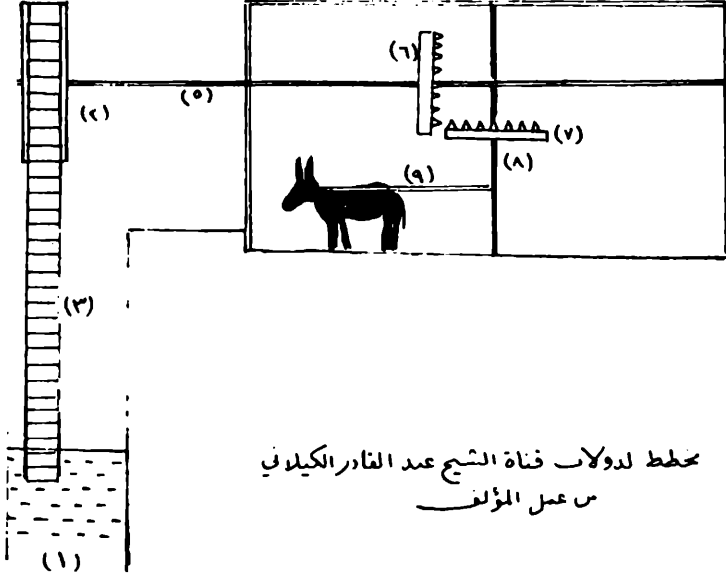


١- بئر - دولا ب

٣- شريط الدلاء - ٤- حوض

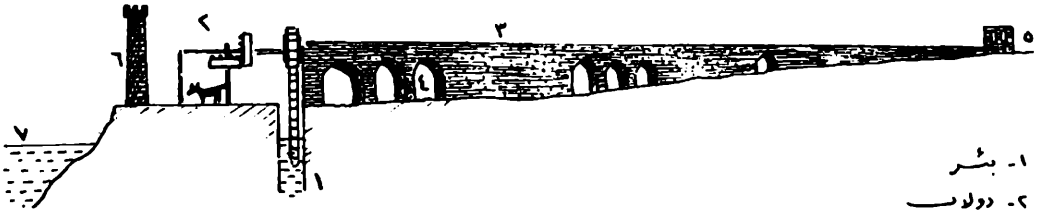
خارطة
توضح مواقع السقايات العامة
بغداد في العصر العثماني





مخطط لدولاب قناة الشيخ عبد القادر الكيلاني
من عمل المؤلف

- | | | |
|--------------------|-------------------|-----------------|
| (١) البئر . | (٤) مجرى القناة . | (٧) مسنن افقي . |
| (٢) دولاب الدلاء . | (٥) محور افقي . | (٨) محور رأسي . |
| (٣) شريط الدلاء . | (٦) مسنن رأسي . | (٩) ذراع . |

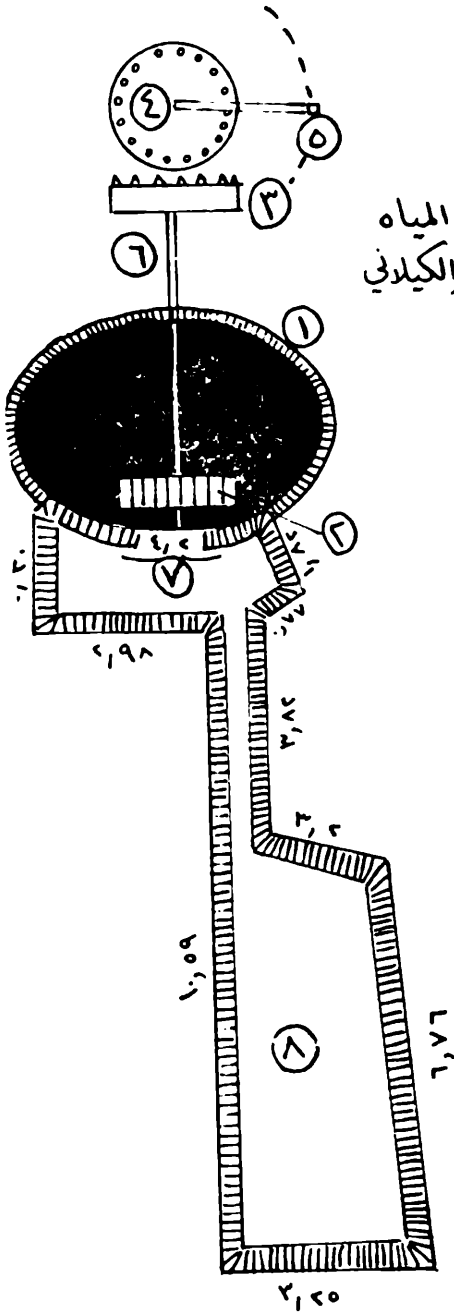


مخطط يوضح طريقة رفع مياه الشرب ونقلها الى مناطق
بعيدة بواسطة عمود عالية من الحجر والجص

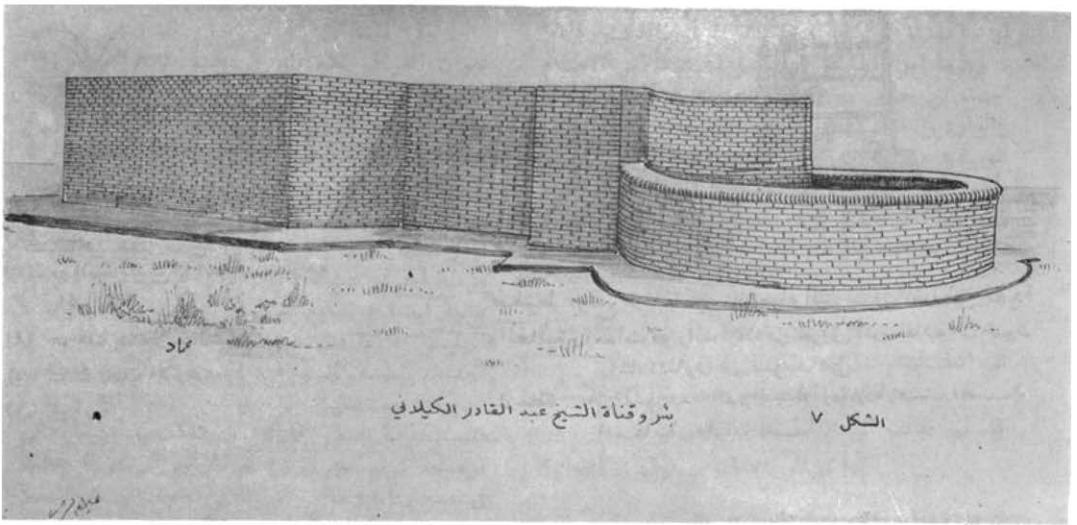
- ١- بئر
- ٢- دولاب
- ٣- قناة عن عمود
- ٤- عمود تنفيذها الدروب
- ٥- ستاية
- ٦- سور
- ٧- نهر دجلة

الشكل « ٥ »

مقطع أفقي لدولاب رفع المياه
الى قناة الشيخ عبد القادر الكيلاني



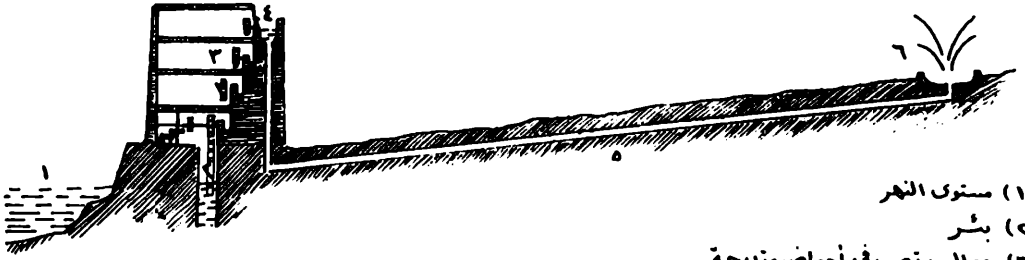
- ١- البئر
- ٢- دولاب الدلاء
- ٣- مسنن رأسي
- ٤- مسنن أفقي
- ٥- مربوط الدابة
- ٦- محور علوي أفقي
- ٧- قناة
- ٨- حوض



الشكل (٧)

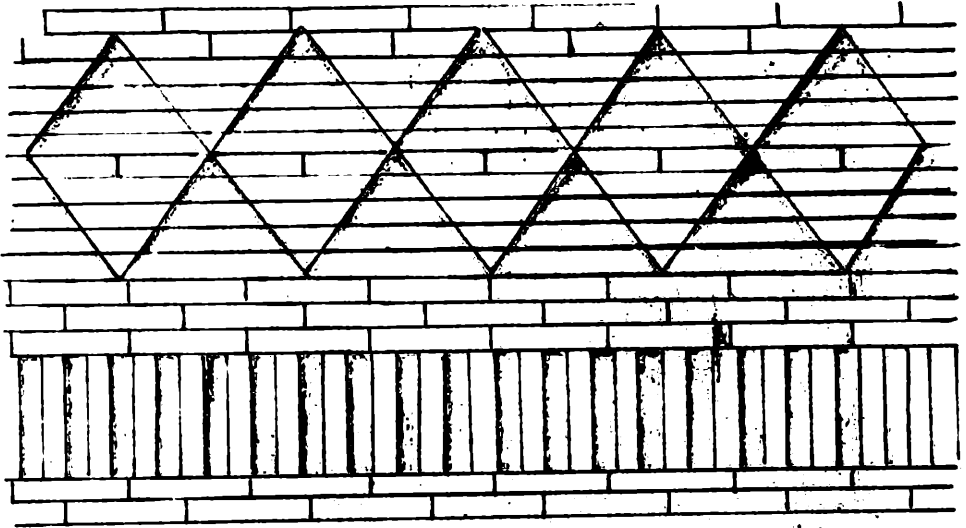


الصورة (٦) سقاؤون بملاون قريهم من مياه دجلة في مطلع القرن العشرين



تخطيط بوضع طريقة ايصال مياه الشرب الى المناطق البعيدة
والعالية واحداث فوارات نجا عن طريق الاستفادة من عمود
الماء النازل من علو شاقق
ملاحظة: يمكن تقليل عدد الدواليب أو زيادتها بحسب بعد
السقاية وارتفاعها

- (١) مستوى النهر
- (٢) بئر
- (٣) دواليب نصب في أحواض متدرجة
الارتفاع
- (٤) حوض كبير
- (٥) قناة تحت الارض
- (٦) فؤارة



الشكل (٦) زينة بالاجر في الجدار الداخلي لبئر قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني

أو رفعها ، تال في حوادث السنة المذكورة (٧٥) « وفيها أمر الخليفة بعمل زملة عند قبر الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - لأجل الزوار والواردين فلما تكامل بناؤها فتحت ، وجعل فيها الحياض وملئت من الجلاب . ورتب فيها قيم يقوم بمصالحها ، ونظم الشعراء في ذلك قصائد ، منها ما قاله جعفر بن مهديوه الكاتب من قصيدة يمدح بها الخليفة :

وقبر أحمد قد طرز
بحلية زينت منه مبانيه
ثم اتخذت لنا فيه زملة
تدل أنك يوم الحوض ساقيه
فاسلم فذلك الرعايا يا أمام الهدى
تهدى الى الحق من ضل في التيه «

٦ - سقاية المدرسة المستنصرية

احتوت المدرسة المستنصرية منذ افتتاحها سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م على سقاية تزود طلبتها ومدرسيها والقائمين عليها وغيرهم بمياه الشرب والوضوء ، وكان لهذه السقاية موظف خاص ، يسمى « زملائي » نسبة الى « المزملة » وهي حياض الماء المخصصة للشرب . فقد ورد في شروط الخليفة المستنصر على مدرسته ، انه شرط ان يكون فيها « زملائي » ، وقرر له ما لغيره من الجرايات والشاهرة (٧٦)(٧٧) .

ويفهم مما جاء في ترجمة ابن الحشاش ، انه كان للزملائي هذا مظهراً يوحى بالهيبة ، وان راتبه كان يبلغ خمسة دنانير كل شهر . حكى شمس الدين الجزري انه « دخل بغداد ، ودخل المستنصرية ، فشرب من المزملة ، فلما فرغ ، قال للذي فيها ، وكان عليه بزة : حاشاكم ، أو ما هذا معناه . فقال شخص : لا تقل له هكذا ، هذا له خمسة دنانير على سقي الناس ، أو ما هذا معناه « (٨٧) .

(٧٥) الحوادث ص ٩١ .

(٧٦) ابن الساعي : التاريخ المرتب على السنين (في مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ٤ ج ١ ص ٤٢ ، ١٩٢٤) .

(٧٧) الجراية : ما يجرى على أبواب الوظائف من المواد العينية ، كالخبز والسمن وغيره ، والشاهرة راتبهم الشهري .

(٧٨) التقي الفلبي : منتخب المختار من تاريخ ابن الراسع السلامي الليل به على تاريخ ابن التجار (نشره عباس المزوي ، بغداد ١٩٢٨) ص ٢١٢ .

وفي سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م انشأ صاحب ديوان العراق علاء الدين عطا ملك الجويني (٧٩) مشروعه الكبير لتزويد المدرسة المستنصرية والمنطقة المجاورة بمياه الشرب . فكان المشروع يتألف من دولاب على شاطئ دجلة الجاور ، يسب الماء في قناة محكمة ، مبنية تحت الارض ، فتزود القناة زملة المدرسة ، ثم بركة صنعت في وسطها ، ثم تخرج من المدرسة لتمد بمائها زملة أخرى عملت تجاه ابوان الساعات (وهي مائة أيضاً) التابع لمدرسة الطب ، مقابل بابها الرئيس (٨٠) . قال صاحب كتاب الحوادث ، في احداث السنة المذكورة « تقدم علاء اندين صاحب الديوان بعمل دولاب تحت مسناة المدرسة المستنصرية يقبض الماء من دجلة ويرمي الى زملتها ، ثم يجرى تحت الارض الى بركة عملت في دحن المدرسة ، ثم يخرج منها اى زملة عملت تجاه ابوان الساعات خارج المدرسة ، وجدد تطبيق صحتها ، وتبنيدي حيطانها « (٨١) .

وبما ان انشاء هذا المشروع كان تألياً لانشاء المدرسة ذاتها ، فمن غير التصور انه غير في تصميمها العام . والظاهر لنا ان مهندس الجويني عمدوا الى مد القنوات من خلال المواضع التي يمكن نقيها والتغيير فيها ، لذا فمن الراجح ان تكون القنوات قد اجتازت احد بابي المدرسة المظنين على ضفة النهر ، الواقعين في مسجدنا ، فزودت المزملة الاولى هناك ، ثم قطعت صحن المدرسة ، بخط مستقيم ، لتمد البركة في وسطه ، ومنها خرجت من تحت باب المدرسة الرئيس ، الى المزملة الثانية ، وذلك لاستحالة مد اية قناة من تحت مباني المدرسة الضخمة فيما عدا المواضع المذكورة . ويلاحظ أيضاً ان وجود البركة ، والمزملتين ، وجريان الماء فيها على الدوام ، يوجب وجود قناة أخرى لتصريف المياه الفائضة ، ولكن النصوص لا تكشف لنا شيئاً عن هذا الامر .

(٧٩) حكم العراق ، بعد وفاة ابن الملقمي الوزير السابق ، من سنة ٦٥٧ الى ٦٨١هـ/١٢٥٧ - ١٢٨٢ . عماد عبد السلام رؤوف : حكام العراق وموظفوه في عهد المغول الايطاليين مجلة المؤرخ العربي (يصدرها اتحاد المؤرخين العرب) العدد ١١ ص ٦٠ .

(٨٠) اي في سوق الهرج الحالي ، عند جامع الفلانية . وكنا قد التينا بان هذا الجامع ورث ارض مدرسة الطب والايوان التابع لها في مجلة الرسالة الاسلامية (بغداد) تصدرها وزارة الاوقاف (الاعداد ٢٣ و ٢٨ - ٢٩ و ٤٢ (سنة ١٩٧١) و ٤٤ (سنة ١٩٧٢) .

(٨١) الحوادث ص ٣٦٥ .

الفصل الثاني

مشاريع مياه الشرب في العصر العثماني

١ - مشكلة مياه الشرب

شك انه كانت هناك سقايات عامة موزعة في ارجاء المدينة يملؤها السقاؤون لتبقى في خدمة السكان بقية اليوم . بيد ان معلوماتنا لا تكفي لتصور مدى نجاح هذه السقايات في سد حاجة اولئك السكان من مياه الشرب فضلاً عن توفير مياه الاستعمال . ومن الراجح ان تكون الابار قد امتلئت مورداً للنوع الأخير من المياه .

ولقد شهدت بغداد ، منذ استقرار الحكم العثماني فيها في بدايات القرن الحادي عشر للهجرة (١٧ م) ، تطوراً ملحوظاً في تصميم مشاريع دائمة لنقل مياه الشرب ، تتمتع على انشاء قنوات محكمة ، مرفوعة على عقود عالية مبنية بالأجر والنورة وأخلاقها ، ويرفع الماء اليها بواسطة انابيب ، فتجري المياه في القنوات المطلية بطبقة من القار ، محتاظة بذلك الدروب والمحال ، بانحدار محسوب ، حتى تصل الى المواضع المهمة ، او الأكثر ازدحاماً في السكن ، فتتفرع منها في قنوات أخرى لتصب في السقايات المشيدة هناك ، بينما تحمل النفاة الرئيسية الفائض من الماء الى مناطق بعيدة نسبياً ، لتغذي بعض السقايات في تلك النواحي ، وليبقى ما يتبقى في الاراضي القاحلة حوالياً . وهذا النوع من مشاريع مياه الشرب يذكرنا بمشروع قنوات الساج الذي اقامه المنصور لمدينته باليه من نهر دجلة ، الا ان المشاريع العثمانية تميزت بشيائها ودوام عملها ، وهي في الواقع لم تكن الا تقليداً لامثالها من المشاريع التي انشأها العثمانيون في بعض المدن الكبيرة ، متأثرين بعمارة القنوات البيزنطية العالية التي كانت تزود مدن الاناضول بالماء منذ عهود قديمة (انظر الشكل ٤) .

بيد ان استخدام هذا النوع من السقايات ، لم يقض على النوع الآخر الذي يعتمد على انشاء احواض كبيرة ، او حباب ، تملأ بالماء كل يوم بواسطة سقائين لهم اجر معلوم . فقد ميز الفقهاء العثمانيون بين هذين النوعين ، فاعتبروا النوع الاول من المشاريع الخيرية العامة ، الوقوفة لنفع الجميع بلا ادنى تمييز ، ويظهر انهم اعتبروا حكمها كحكم العيون الطبيعية المسماة « چشمه » . اما النوع الآخر ، فانهم سمحوا بوضع بعض الشروط عليه ، كتخصيص مائه للقراء بالدرجة الاولى (٨٢) ، وترتيب قيم مسؤول عن ادارته ،

توالى احتلال القبائل الغازية لبغداد منذ سقوطها الاول على يد الفصول سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وتقلبت بايدي دول قبلية متخلفة مدة تزيد على ثلاثة قرون حتى دكت معالمها الحضارية ، وتعرضت الحياة فيها الى خطس التخريب والتدمير ، وهجرها الكثير من اهلها ، بينما قضت النكبات على قسم غير قليل منهم . وكان من نتائج هذه الاوضاع ، ان سرعت عملية انكماش المساحة المسكونة من بغداد ، وهي العملية التي بدأت بعض ملامحها تظهر منذ اواخر العصور العباسية ، فانحصر السكن داخل اسوار الجانب الشرقي على ما استقرت عليه في آخر القرن الخامس للهجرة (١١ م) . ثم استمرت عملية الانكماش السكني ، كظهرت من مظاهر الانكماش الحضاري العام ، فدخلت اماكن واسعة داخل الاسوار ذاتها ، كانت قد وصفت بانها محلات مكتظة شبيهة بالمدينة المستقلة . وتحولت محلات مثل باب الأزج وباب المراتب والبصيلة وقطعة العجم والريان وغيرها ، الى صحراء قاحلة لا نبت فيها ولا ماء ، وكانت الانهار التي وصفناها فيما سبق ، قد أهملت تدريجياً ، حتى اندثرت تماماً في خلال القرنين الثامن والتاسع (١٤ و ١٥ م) ففقدت بغداد بذلك ما كان يحيط بها من نبات وخضرة ، وبخاصة في الاقسام المحصورة بين سورها الشرقي والمناطق السكنية ، وهي الاقسام التي كان يسقيها نهر بين الاخذ من الخالص بفروعه العديدة في العصور السابقة ، مما ادى الى ازدياد تجمع السكان في المحلات القريبة من دجلة ، والى ان تتخذ مشكلة نقل مياه الشرب - من ثم - شكلاً آخر يقوم على اساس التغير الجديد .

ومن الجدير باللاحظة اننا لم نعد نسمع في هذا العصر ما يشير الى انشاء قنوات محكمة تحت الارض توصل مياه الشرب الى السقايات العامة ، بل اننا لا نعلم الفترة التي استمرت فيها هذه المشاريع قائمة بمهمتها ، فقد انطوت اخبار المشاريع المذكورة بانتضاء صفحة العصر العباسي نفسه . واقرب الى الاحتمال ان بغداد اكتفت في الفترة السابقة على العصر العثماني ، بما يحمله اليها السقاؤون من مياه دجلة في « قبر بنهم » ، ولا

(٨٢) يذكر محمد بن ولي الازميري (ت ١١٦٥هـ / ١٧٥١م) ان « الماء مشتري بظلات الاوقاف العمينة له ، وتخذ بطريق الاجارة ويعطى الاجرة من تلك الظلات ، ولذا لا يستوى

ياخذ راتبه من غلة الوقف ، وما الى ذلك من أمور (٨٢) .

ويذكر الرحالة محمد ظلي المعروف بأوليا جليبي الذي قدم ببغداد سنة ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م وسنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م انه كان فيها نحو مائة سقاية يسميها « سبيل » ومائتي « جشمة » من النوع الذي يملؤه السقاؤون بقريهم من النهر (٨٤) . هذا في حين اعتبر الاقشهري (٨٥) السبيل (او السبيل خانة) ما يملأ بالقرب بالأجرة ، و « الجشمة » عيون الماء النضاحة ، ويقرب منها ما تحمله القنوات من مياه دافئة متصلة تصب في سقايات عامة .

ويستفاد مما ذكره اوليا جليبي ايضاً ، ان صعوبات جمة كانت تكتنف عمل السقائين في نقل المياه من النهر ، الى درجة ان حاجة المدينة لم تكن تسدها الا مياه الآبار التي يقدرها بـ (٦٠٠) بئر . ونحن نعتقد بأن وجه الصعوبة التي اشار اليها اوليا جليبي هو ان شواطئ بغداد في عهده كانت مغلقة في وجه السقائين الا من مكان واحد فحسب ، قرب الميدان ، اشار اليه هو ، اما سائر الشواطئ فكانت مسورة بسور عال ليس له من باب سوى باب الجسر . وقد وردت صورة هذا السور في صورة ببغداد التي رسمها نصوح السلاحي المطراحي سنة ١٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م ، وخارطة بغداد من عمل تافرنبيه سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م (٨٦) ، ومنها يظهر انه لم تكن لبغداد مشاريع على دجلة ، ولعل هذا هو ما دفع حكام المدينة الاوائل الى مد القنوات على عقود الأجر لتزود سقاياتها الداخلية . ويؤكد هذا القول ان دواليب هذه القنوات لم تكن تأخذ مياهها

الفني والفقير بالانتفاع به ، والقول بان الفلذة تصرف على مصارف التولي وعمارة السقاية لا الماء غير صحيح ، كيف ولا يجعل الماء الى السقاية مجاناً بل يضمن او اجرة يطي من الفلذة » . رسالة في شؤون السقايات ووقفها (مخطوط) الورقة ٨ وانظر عبدالرحمن بن شيخ محمد : مجمع الانهر في شرح ملتقى الأبحر (الطبعة الثمانية ١٣٠٥) ص ٢٤٦ .

(٨٢) ومن تلك الشروط انه يصب فيها الماء بالجرة للشرب او الوضوء ، ولا يجوز استعمال مائها لغريها ، ويكون لها قصاب وكيزان .

(٨٤) اوليا جليبي سياحنتامسي استانبول ١٢١٤هـ (٢٢/٤) .

(٨٥) رسالة في شؤون السقايات ووقفها الورقة ٨ (مخطوط) .

(٨٦) انظر اطلس ببغداد للدكتور أحمد سوسة (ببغداد ١٩٥٢) ص ١٢ و ١٣ .

من دجلة رأساً ، وانما من آبار عميقة حفرت خصيصاً بها . ويدل بئر قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وهو آخر ما بقي من هذه الآبار ، على ان مواقع الآبار كانت بعيدة عن دجلة بمسافة كافية لاقامة الاسوار والحصون (٨٧) . واذا بقيت هذه الاسوار قائمة الى نهاية القرن الثاني عشر على اقل تقدير ، فان بإمكاننا ان نتصور بقاء مشكلة ايجاد موارد كافية لمياه الشرب ، عدا الآبار ، حتى ذلك التاريخ ، حتى ان عسداً من السياح الذين اقاموا ببغداد او مرو بها ، نوهوا بهذه المشكلة : ووصفوا متاعب البغداديين في الحصول على ماء الشرب . فاشار الرحالة الإيطالي الأب فنسنسو (Vincenzo) الذي زار ببغداد سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م الى ان الماء الذي يباع ببغداد ، يأتي ملوثاً بالقيح - وان كان لا ضرر في هذا التلوث - ووصف طريقة جلبه الى المدينة ، بانه كان ينقل على ظهور الثيران والجياد ، في قرب كبيرة من الجبل (٨٨) . والمعروف ان جلب الماء الى المنازل بالقرب المدبوعة لا يؤدي الى ما لاحظته من تلوث الماء بالقيح ، فالظاهر ان الماء الذي شربه كان من مياه السقايات العامة التي تبطن مجاريها واحواضها بطبقة كثيفة من القمار لحفظها من الضياع ، وليس من مياه القرب المحمولة على الطريقة التي وصفها . ولم ينته سائح آخر هو البريطاني جاكسون في رحلته الى بغداد سنة ١١٨١هـ/١٧٦٧م الى وجود قنوات عممة لنقل الماء في المدينة ، وانما اشار الى ان كثيراً من الفقراء كانوا يستخدمون لنقل الماء من النهر في ظروف من الجلد يحملها البعض منهم على ظهورهم ، بينما يحملها البعض الآخر على الحمير والبغال (٨٩) . ومثل ذلك ما وصفه الرحالة البريطاني بكنكهام (Buckingham) عند قدمه الى بغداد سنة ١٢٢٢هـ/١٨١٦م حيث ذكر ان المدينة تزود بمياه الشرب من نهر دجلة في قرب من جلود المزم تنقل على ظهور الدواب وتصل باب منزل كل عائلة ، اذ ان وسائل نقل الماء ، والصحاريح والاحواض غير معروفة فيها (٩٠) .

(٨٧) انظر ما سيأتي عن هذه السقاية . والشكل (٤) .

(٨٨) رحلة فنسنسو الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد المصدد ٢ ، المجلد ٥ (ببغداد ١٩٧٦) ص ٧٧ .

(٨٩) مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٦٧٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي ص ٧٥ .

(٩٠) بكنكهام : رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي (ببغداد ١٩٦٨) ٢٠٦/١ .

٢ - قنوات المياه المرفوعة

ساقية (قناة) الشيخ عبدالقادر الكيلاني .

ليس من المحدد تاريخ انشائها ، وأول إشارة الى وجودها كانت سنة ١٠١٣هـ/١٦٠٤م ، حين وصفها الرحالة البرتغالي بيدرو تكسيرا Pedro Texeira اثناء زيارته بغداد . قال واصفاً جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وان لم يسمه ، انه واقع في طرف المدينة عند بساتين النخيل ، وان الماء ينقل اليه من فوق قناطر خاصة ، على نمط بديع(٩٢) .

وأشار اليها السائح الدانمركي نيبور C. Niebuhr عند قدمه بغداد سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٦م . وذلك في اثناء وصفه التكية القادرية . قال « ولتكنيته وارتبات ماله وافية تقوت اكثر من ثلثمائة انسان ، ولاكثرهم فيها جسر وغرف يسكنونها بالمجان ، ولها كرد (دولاب) يساق ماؤه اليها من دجلة في ساقية «٩٣» .

كما اشار اليها سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م الكوماندو فيلكس جونز F. Jones فذكر ان من عقود محلة رأس الساقية « عقد الساقية » وعد من معالم محلة «باب الشيخ» ، قهوة « الزملة »(٩٤) على انه لم يشر اليها في خريطة التي رسمها ، وكولنكود ، لمدينة بغداد ، وان كان رسم الدرب الذي تجري فيه .

بلغ طول هذه القناة ما يزيد على كيلومتر . وتبدأ من شاطئ دجلة في محلة السنك ، قرب قصر السيد عبدالرحمن الكيلاني تقرب الاشراف الاسبق (بستان محمد اكريوز) ثم تمتد فوق جدار عال يبلغ ارتفاعه ٢٣٠ متراً عند حديقة (بقجة) كان قد وقفها محمد بن جواد او طه باشي سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م ، ومن هناك تنمطف فتمبر على عقد كان فوق باب حديقة عبدالجبار غلام ، وتمضي مشرقة في شارع الكيلاني ، فتمبر الطريق الداهب الى الباب الشرقي عند جامع النعماني على عقد ، ثم تحتاز الطريق الداهب الى مرقد الخلائي على عقد آخر ، وتمضي فتمبر الدرب المتجه الى محلة الصدرية ، عند مسجد رأس الساقية ،

Texeira, P. : The Travels of Pedro (٩٢)
Texeira, P. 64 (London 1902).

(٩٣) بغداد في رحلة نيبور ، ترجمة د. مصطفى جواد (مجلة سومر المجلد ٢٠ الجزء ١ - ٢ (بغداد ١٩٦٤) ص ٥٢

Jones, F.: Selections from the record (٩٤)
of Bombay Government., P. 327.

ونظراً لما كان يكتنف عملية نقل مياه الشرب من صعوبات ، وما يكلفه شراءها من مال ، فقد نالت شؤون السقايات العامة ببغداد اهتمام الولاة وارباب الدولة والايان وأهل الخير ، وشارك عدد من السيدات المحسنات بانشاء جملة من السقايات المهمة . ووقف الجميع عليها الوقوف الدارة بموجب وقفيات وحجج شرعية رسمية ، وثبت بعضهم عدد العاملين على خدمة الساقية ، وحدد رواتبهم بدقة . وصار للسقائين الذين ينقلون الماء الى الساقية راتب معلوم . واحتاط بعض الواقفين فحدد عدد « قرب » الماء التي يحملها السقاء كل يوم . فنص والي بغداد داود باشا على ان تكون عشر قرب يومياً : لقاء راتب قدره ٣٦٠ قرشاً ، وجعلت السيدة نازدة خاتون لسقايتها ١٨٠٠ قرشاً راتباً (١٥٠ قرشاً صاعاً) بينما حدد تقرب الاشراف سليمان القادري راتب من يقوم بخدمة سقايتها ب ٥٠ قرشاً صاعاً كل شهر .

ومثلما اهتم اولئك الموسرين بالانفاق على هذه المشاريع الحيوية . فقد تفنن المهندسون والنفاسون في تصميم عماراتها ، وتزيينها بالواح الرخام المنقوش والفاشاني الملون وبشبابيك النحاس الفاخر ، وسجلت على معظم السقايات ، بخطوط بديعة ، آيات قرآنية ، وأبيات شعرية تؤرخ انشاءها ، وتذكر اسم صاحبها أحياناً ، وزاد آخرون بان اقاموا حولها حدائق صغيرة ، وزرعوا فيها اشجاراً تظلل الشارين .

فكان من نتائج هذا الاهتمام ان زاد عدد السقايات العامة التي يملؤها السقاؤون بسرعة منذ مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) الى الحد الذي اصبح انشاؤها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية في المدينة ، وامتدت خدماتها لتشمل محلات عديدة من بغداد(٩١) .

اما القنوات الاجرية المرفوعة على المقود ، فقد توصلنا الى ثلاثة مشاريع منها ، وهي تغطي مساحة كبيرة من بغداد الشرقية ، لكننا لا نتطسع بعدم وجود غيرها في اجزاء اخرى من المدينة . ويرتقي انشاء هذه المشاريع الى عهود مختلفة من القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (١٧ و ١٨م) . اما السقايات الآخذة منها فهي عديدة ومتنوعة ، وفيما يأتي من البحث عرض تفصيلي عن هذه المشاريع .

والدرب الواقع قرب حوض سقايتها ، على عقود مشابهة . وتنتهي عند جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حيث تملأ حوض سقايتها بالماء المخصص للشرب . وقد عرفت هذه السقاية بـ (الزملة البرانية) لوقوعها خارج أسوار الجامع لا داخله (٩٥) ، كما سميت المنطقة التي في غرب محلة باب الشيخ ، بمحلة (رأس الساقية) نسبة إليها ، وما تزال تعرف بهذا الاسم (٩٦) .

وكان مأخذ هذه القناة من دولا ب يرفع الماء من بئر عميقة واسعة عند شاطئ النهر ، وما تزال هذه البئر موجودة الى يومنا هذا ، وعندنا آخر بقايا القناة المذكورة .

والظاهر ان هذه السقاية بقيت على وضعها القديم دونما تغيير حتى سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م ، وهي سنة تولى علي رضا باشا الاز ولاية بغداد ، فقد ذكر السيد محمود شكري الالوسي ان هذا الوالي امر بانشاء سقاية في جوار جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وصفها بانها « غزيرة الماء - كثيرة الارواء » وقال انه اجري إليها جدولاً من نهر دجلة واقف عليها عقاراً لتبقى على مر الأيام وتعاقب الاعوام (٩٧) . ونحن نرجح ان تكون هذه السقاية هي نفسها سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وانما قام علي باشا الاز بتجديدها ، او اضافة اشيء إليها . وليس بعيد ان يكون تجديد القناة وترميمها هو ما دفع السيد الالوسي الى ذلك القول ، مستنداً الى ما كان مدوناً على رخامة السقاية من ابيات ، مع ان البيت الخامس منها يدل صراحة على انها جددت ، لا انشئت انشاء . وفيما يأتي هذه الابيات :

لله ساقية قد شاد منها

والى العراقين اقصاها وادناها

اعني علي رضا بل حيدري وغى

سميه لجميع الناس مولاها

من ماء دجلة اجري لسبيل ندى

بروي العطاش من الرضاء اصفاها

١٩٦٨/٨/١٢

(٩٥) كان موقعها عند الزاوية الجنوبية من مقبرة الجامع .

(٩٦) عماد عبدالسلام رؤوف : متى تم اول مشروع لاسالة

الماء في بغداد . جريدة التأخي البغدادية بتاريخ

١٩٦٨/٨/١٢

(٩٧) محمود شكري الالوسي : مساجد بغداد ص ٦٠ (مطبوعة

المتحف العراقي الزملة ١٠٦٤) وقد نشر السيد محمد

بهجة الآري هذا الكتاب ، بتفسيرات رآها ، تحت عنوان

« مساجد بغداد وآثارها » (بغداد ١٣٤٦) واشارتنا ،

في هذا البحث ، الى المخطوط .

وأناسب بها كعبة للآئدين بها
لقد صفا زمزم الجدوى ومرواها
تطوعاً واحتساباً من فواضله
تجددت وسمت أركانه عليها
فيا لها نية لله خالصة
تفتر عن شنب الحسن ثناياها
صح القبول جرى فوراً فأرخه
« تجرى فينبوع بسم الله مجراها »
١٢٤٧

ونظراً لأهمية جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ومدرسته ، وسعة محلته ، وكثافة السكن في تلك الناحية ، فقد حظيت هذه القناة وسقايتها بعناية فائقة . واوكل امر التولية على اوقافها والانفاق على مصالحها من تجديد وصيانة السادة نقباء الاشراف ومتولو الاوقاف القادرية ، وذلك بموجب الحجج الشرعية التي كان يصدرها ولاة بغداد ، وتحتوي كل حجة - عادة - على وصايا بشأن وجوب الاهتمام بالقناة والعناية بمراقبتها (٩٨) .

وقد وصفت السقاية في مطلع هذا القرن بانها بناية كبيرة لها حوض ، وفيه ثلاث حنفيات وامام الحوض طارمة ذات ثلاثة اطواق متصلة على شكل ثلاثة اضلاع مثلث (٩٩)

وفي حدود سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م قام احد الاغنياء الهنود بتثبيت انبوب حديد في داخل قناة الآجر ، ورفع العقود القديمة التي كانت القناة تجتاز عليها الدروب والطرق الجانبية ، ووضع بدلا منها انابيب . فكان الانبوب ينزل الى الارض عمودياً ، حيث يتصل بانبوب افقي مدفون تحت الارض باستقامة الساقية ، ثم يتصل بانبوب آخر

(٩٨) انظر مثلا الوثيقة الشرعية المتضمنة توليه السيد محمود الهندي بن ذكريا القادري على ساقية الماء المائدة لجامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني (سجل المحكمة الشرعية ببغداد ، عدد ١٥٨ ص ٥٩ بالتركية ، وتذكر ان والي بغداد سليمان باشا الصغير اصدر بيوراوولي (امر رسمي) سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م يقضي بتسليم التولية الى السيد حبيب سنه بك ، وذلك لتدهور الصلاطات بينه وبين متوليها السابق السيد رمضان القادري ، وبقي الوضع كذلك حتى استعادها السيد محمود الكيلاني سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨١٧م باعتبار ان القناة المذكورة موضوعة اصلا لخدمة جامع الشيخ عبدالقادر ، وبما انه يتولى لوقائه فمن الاولى والارجح ان يتولى ساليته ايضا .

(٩٩) محمد رؤوف الشبخلي : المعجم الجغرافي لمدينة بغداد (البصرة ١٩٧٧) ص ١٤٢ .

عمودياً ، فيربط بالانبوب الذي في الساقية من
الجهة الأخرى

وفي سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م ألغى العمل
بالدولاب ، واستمض عنه بمضخة حديثة وقام
السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب الاشراف برفع
قناة الماء تماماً (١٠٠) ، ومدت الانابيب المعدنية تحت
الارض ، بخط مستقيم ، الى جامع الشيخ
عبدالقادر الكيلاني . وعند فتح جادة خليل
باشا (الشارع العام) ثم شارع الرشيد كما سمي
فيما بعد (زمن ولاية خليل باشا سنة ١٣٣٤هـ/
١٩١٥م قضى على آثار القناة المرفوعة ، فادخل
جدارها وقسم قليل من حديفة او طه باشي (المقدم
ذكرها) في اشراف المذكور . ولم يبق من آثارها
سوى ذلك الجزء الواقع عند البئر الشاطئية .
وهو - على الحقيفة - آخر ما تبقى من آثار قنوات
مياه الشرب القديمة ببغداد كلها (انظر الشكل ٧) .

تبعد البئر عن شاطيء دجلة بأكثر من عشرين
متراً ، وكان جزء من هذه المسافة مشقوقاً بسور
بغداد وحصونه المظة على دجلة ، ثم سُخِل في بداية
القرن الحالي بقصر السيد عبدالرحمن
الكيلاني (١٠١) . وكانت مسناة السور تم تزل مرئية
عند هذا القصر عندما رسم جونز وكولنكوود
خارطة بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع
عشر للميلاد) (١٠٢) .

تتخذ البئر شكلاً بيضوياً يبلغ محيطه
١٦ر٨٧ متراً ، وأطول قطريه ٤٩٢ متراً ،
واقصرهما ٣ أمتار . وهي مسورة بسور من الأجر
عرضه ٣٥ سنتماً ، تعلوه حافة عرضها ٤٥
سنتماً . ويرتفع السور عن الارض ب (١٢ر١) متراً ،
ويبلغ عمق البئر حالياً من حافة سورها
٣٥٥ متراً . ومن المعتقد ان عمقها الأصلي كان
يزيد على ذلك بأربعة أمتار أخرى على الأقل .
ويزين الجدار الداخلي للبئر (بعمق ٢٦٠ متراً)
زخرفة بتقطع الأجر مرتبة عمودياً (يعرفها البناؤون

(١٠٠) وقد تبرع لفرعي اذابة القاد الذي لي القناة المرفوعة
بالف اولى من العطب ، ثم تبعه السيدان فيث الدين
آل جميل وداود الكيلاني ، فتراها بمبلغ خمسمائة اوفية
ايضا ، على ما نشرت الخبر في حينها جريدة الزوراء
ونقلته جريدة صدى بابل البغدادية الصادرة في ١١ ذي
القعدة سنة ١٣٢٨هـ .

(١٠١) من القصور الفخمة ، البديعة المنظر ، ببغداد . وقد
قامت المؤسسة العامة للسياحة اخيراً بترميمه ، واعادته
الى وضعه القديم ايام كونه عامراً .

(١٠٢) انظر اطلس بغداد ص ١٥ .

المليون باسم سكة) تعلوها زخرفة بالاجر أيضاً
بارزة وغائرة على شكل خمسة متوازيات اضلاع
متجاورة (ويعرفها البناؤون المليون باسم بقلوة)
انظر الشكل (٦) .

ويتصل بحافة البئر من ناحية الجنوب
الشرقي (بشكل يوازي مجرى نهر دجلة) ببناء
متين من الأجر والجص ، كان قد نُبت في اعلاه
دولاب الدلاء . وهو يتخذ شكلاً هندسياً غير منتظم
(الشكل ٥) . ويبلغ ارتفاع هذا البناء ٢٣٠
متراً ، ويتخذ عند البئر هيئة قوس يتم الشكل
البيضوي لها . وكانت على سطحه اسكلة من
الخشب مهمتها استقبال المياه المرفوعة اليها
بالدولاب . ثم يضيق عرض البناء بعد مسافة ٢٣٠
متراً ليصبح عرضه متراً واحداً ، بطول قدره
٣٨٢ متراً . وكان على هذا الجزء مجرى يأخذ
الماء من الدولاب ويصبه في الحوض التالي الذي
يتصل به .

رالف هذا الحوض شكلاً هندسياً غير منتظم
الزوايا . كانت مهمته تجميع المياه الآتية من المجرى
المذكور ، لتصب بعده في قناة الشيخ عبدالقادر
الممتدة الى جامع . وقد بطنت ارضية المجرى
والحوض والقناة بطبقة كثيفة من القسار ، يبلغ
تختها نحو ستة او سبعة سنتمترات ، وذلك منعاً
من تسرب الماء اثناء جريانه وضياعه ببداء (١٠٣)
(الصورة رقم ٥) .

يعمل الدولاب (الكرد) بقوة الدولاب ، حيث
تدور الدابة محركة ذراعاً قد نُبتت نهايتها بمحور
راسي ، وبدوران هذا المحور يدور مسنن أفقي نُبت
في اعلاه ، وينقل المسنن الأفقي العلوي المذكور
الحركة الى مسنن راسي يتصل به محور أفقي ،
وينقل الأخير الحركة الى دولاب الدلاء فيرفع الماء
بذلك الى القناة (انظر الشكل ٣) .

ويختلف اسلوب عمل هذا الدولاب عن
الدواليب العادية الأخرى الموجودة على شواطيء
الانهار بان في مقدوره رفع المياه رأساً الى ما يزيد
على المترين فوق مستوى سطح الأرض ، في حين
ترفع الدواليب الأخرى الماء الى سطح الارض
فحسب . ومنشأ هذا الاختلاف ان المسنن الراسي
المحرك لمحور دولاب الدلاء ، يملو على المسنن الأفقي
بخلاف الدواليب الأخرى ، التي يكون المسنن
الراسي فيها في الأسفل . وهذا الوضع يفسح المجال

(١٠٣) قامت المؤسسة العامة للسياحة بترميمه ترميماً حسناً ،
ورفع ما كان في داخل بئره من انقاض .

للمحور الأفقي أن ينقل الحركة الى دولاب الدلاء بالارتفاع نفسه ، دون أن يشكل عائقاً لدوران الدابة تحته (الشكل ٣) .

ويمكن القول - بناء على ما تقدم - أن هذا التصميم هو الذي كان متبعاً في جميع الدوايب التي ترفع مياه الآبار الى قنوات عالية ، كساقية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، ومنها قناة الشيخ عمر السهروردي ، وقناة الشيخ سراج الدين الآتي ذكرهما .

ساقية (قناة) الشيخ عمر السهروردي

انشأ هذه القناة والي بغداد الوزير حسين باشا السلاحدار (محرم ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م - ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م) ووقف عليها الأوقاف الكثيرة لادامتها والعناية بمراقبتها . منها سوقاً كبيرة انشأها عند باب المدرسة المستنصرية ، وعقارات أخرى اشتراها ، منها دكاكين متفرقة في جانبي بغداد ، ومقهي كان يعرف بقهوة مراد ، وبستاناً قرب مرقد الشيخ عمر السهروردي (١٠٤) فكانت تلك الأوقاف سبباً في استمرار عمل المشروع مدة تقرب من ثلاثة قرون (١٠٥) .

وكانت هذه القناة تأخذ مياهها بواسطة دولاب يرفع الماء من بئر عميقة عند شاطئ دجلة ، في شريعة الميسدان ، بين مبنى المتحف العسكري السابق ، ونادي الضباط الحالي ، ثم تمتد من هناك مرفوعة على عقود عالية بنيت بالأجر والجص على صفة قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني . حتى تصل الى منطقة « الميدان » قرب جامع الاحمدية ، فتجتازه مشرقة في درب طويل تقع عليه معظم محلات القسم الشمالي من بغداد الشرقية ، وتمتد بمياه الشرب محلة الصابونجية ، ثم محلة ابلان دلي ، فمحلة الفضل ، والجلالي ، ثم تمتد باستقامة حتى تصل الى غربي جامع الفضل ، فتجتاز الدرب الذي يقع عليه فوق عقود (١٠٦) وتمضي مخترقة

محلة خان لاوند ، ثم تتجه في أرض قاحلة حتى تصل الى جامع الشيخ عمر السهروردي ، حيث تصب هناك في سقايتين كبيرتين ، ويجري الفائض من مائها ليسيقي بستان السلاحدار الموقوفة عليها ، ترفيها للمارة في تلك النواحي النائية الموحشة (١٠٧) .

استمرت هذه القناة البديعة بأداء مهمتها حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) فقد وردت في خارطة بغداد التي رسمها الكوماندر فيلكس جونز وكولنكود سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م على نحو يظهر امتدادها الى جامع انشيخ السهروردي . وذكر جونز أن من عقود محلة « ابلان دلي » عقداً سماه « عقد الساقية » (١٠٨) .

ولقد تعطلت اجزاء من هذه القناة في عهد والي بغداد نامق باشا الكبير (من ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م الى ١٢٦٨هـ / ١٨٥١م) (١٠٩) ، وهي الاجزاء التي تصل بين محلة خان لاوند ، وبين جامع عمر السهروردي . أما الاجزاء الباقية ، فقد بقيت سليمة تؤدي مهمتها في نقل مياه الشرب الى المحلات السكنية . ولم تندثر تلك الاجزاء او تعطل الا في عهد والي بغداد مدحت باشا (١٢٨٦ - ١٢٨٩هـ / ١٨٦٨ - ١٨٧٢م) .

ويبدو أن تخرب هذه الاجزاء من القناة ، هو ما دفع ببعض اعيان بغداد وأهل الخير منهم الى انشاء عدة سقايات جديدة تأخذ مياهها من الاجزاء السليمة الباقية منها ، وقد وقفنا على ثلاثة من تلك السقايات ، تقع الاولى في « الميدان » والثانية في محلة « البارودية » اما الثالثة فتقع في محلة « خان لاوند » الى الشرق من محلة الفضل . فكانت هذه السقايات تشكل مجموعها مشروعاً واسعاً - نسبياً - لايصال مياه الشرب الى محلات بغداد في تلك الجهات . ويلاحظ أن تواريخ انشاء السقايات المذكورة كانت ترقى الى عهود مختلفة . كما يتضح لنا من تتبع اخبارها .

(١٠٤) مجموعة من وثائق بغداد (مخطوط) .

(١٠٥) حكم هذا الوالي سنتين فقط ، وقام خلالهما بمشاريع كبيرة ذكرها مرتضى نظمي زاده في كتابه كلشن خلفا (ترجمة موسى كاظم نورس ، بغداد ١٩٧١) ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ومن غير المتصور أن تكون هذه الأوقاف كلها من ماله الخاص ، وانما هو قد اشتراها من واردات الولاية ، وربما من الجزء المخصص لارساله الى الدولة (وغالباً ما يجري هذا بطم الدولة لهذا المشروع وغيره من الاعمال الكبيرة التي يقوم بها الولاة ، هي في الحقيقة اممال حكومية عامة ، وان ظهرت بظهر الاعمال الخيرية للأفراد .

(١٠٦) في ارض شارع الكلاخ اليوم .

(١٠٧) عماد عبدالسلام رؤوف : ساقية الشيخ عمر السهروردي . جريدة التاخي البغدادية بتاريخ ١٩٦٨/٩/٢٢ .

(١٠٨) Jones, F. : Op. Cit., P. 320 . واهيد نشر الخارطة ، في « اقليس بغداد » من وضع الدكتور احمد سوسة (بغداد ١٩٥٢) ص ١٥ .

(١٠٩) على ما احدثه الشيخ كمال الدين امام جامع عمر السهروردي عن ابيه الشيخ عبدالحسن السهروردي ، في صيف سنة ١٩٦٥ .

أ - سقاية شوكت بك

مؤسسا الاول شوكت بك ، فقد جاء في ترجمة الشيخ محمد الأمين بن الشيخ عبدالرحمن السهروردي (ت ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م) انه كان « متولياً على أوقاف سبيل خانت (كذا) شوكت بك » (١١٣) .

ب - سقاية البارودية

لا يعلم تاريخ انشائها ، اذ لم تكن على جدرها وشباكها شيء من الكتابات الدالة على ذلك ، وكان موقعها في محلة البارودية ، في موضع مطل على شارع الفضل ، متصل بقناة الشيخ عمير السهروردي . ووصفها بعض من عاصرها بانها كانت تتألف من طابقيين ، على اسفلهما شبايك من نحاس ، على هيئة متينة بديعة ، وفي داخلها حباب كبيرة تملأ بمياه الشرب . وبعد انقطاع تزويدها بالماء من الساقية المذكورة ، اصبحت تملأ كل يوم بواسطة السقاين .

ج - سقاية سري باشا

اسماها والي بغداد سري باشا (١٣٠٧ - ١٣٠٨هـ / ١٨٨٩ - ١٨٩٠م) على انقاض مبنى خان لاوند العتيق ، وجعل ما حولها بستانا فرس فيه انواع الشجر . وصمم السقاية على هيئة حوض كبير من الرخام المتين ، ووضع في وسطه نافورة تغذف الماء في الهواء .

وقد اطرى العلامة عبدالوهاب النائب (ت ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م) هذا المشروع الخيري بقصيدة ، منها قوله (١١٤) :

هذي العدالة لا عدمتك منصفاً
تسقى العطاش اذا اتوك نعيمها
ان النفوس لمثل ذاك ترتجى
لتكون في زمن الاباس بشيرها

ولما انتقل المشروع الى البلدية لادارته ، اصابه الاهمال: فنقلت منشأته، وصارت حفرة من الحفر ، واخيراً اشترى العلامة عبدالوهاب النائب ارضه وقسمها الى دور وحوانيت وخانات ، منها المدرسة التي عرفت بالحميدية وهي اليوم مدرسة الفضل الابتدائية .

وبهذا انتهى تاريخ آخر سقاية من سقايات هذا المشروع الكبير ، بعد ان لبث يزود اهل بغداد بحاجتهم من مياه الشرب نحو ثلاثة قرون .

(١١٣) محمد صالح السهروردي : لب الالباب (بغداد ١٩٢٢)

٢٥٩/٢ .

(١١٤) لب الالباب ١/٢٥٢٤ .

انشاها دفتردار بغداد شوكت بك سنة ١٢٧٢هـ / ١٨٥٥م في « الميدان » الى الشرق قليلاً من جامع الاحمدية (مدخل شارع الرشيد حالياً) ولكنها لم تلبث ان عطلت بعد مضي عهد قصر من انشائها ، ثم قام حفيد مؤسسها قدرت بك بن عصمت بك ، بتعمير سقاية جده سنة ١٣٢٠هـ / ١٩١٢م ، وكان يومذاك مديراً للأموال الأجنبية ، فطلب من المهندس الفرنسي غودار Godard ان يصمم بناءها على هيئة بديعة ، ففعل ، واجرى لها الماء من تلك القناة ، وبلغت كلفة المشروع كله (١٠٨) ليرات عثمانية (١١٠) .

وكان للسقاية واجهتان ، على الاولى منها ابواب عربية ، وعلى الاخرى ابواب فارسية وتركية ، وكلها مكتوبة على الاجر القاشاني ، وتحيط بالكتابة صور لاغصان مورقة ، وثمار ملونة ، وتنفوس . اما الايات فهي هذه (١١١) :

ناظر اوقاف المراق الفتي
شريف رب الحساب الطاهر
في البلدة الزوراء قضى نجبه
وفاز بالفقران من غافر
فسخر الباري له صاحباً
كان له في الزمن الغابر
محمد شوكت اقلامه
تغنى عن الذابل والباشر
انشأ له هذا السبيل الذي
أبيح للوارد والصادر
اصفى من الدمع على فقده
ما قد جرى أرخ من الناظر
١٢٧٢

وانشئت حوالي السقاية حديقة زهية غناء ، دامت أمداً من الدهر ، ثم أندثرت عند فتح جادة خليل باشا (شارع الرشيد الحالي) قبيل الاحتلال البريطاني لبغداد (١١٢) (انظر الصورة رقم ١) .
ويبدو ان لهذه السقاية أوقاف ، اوقفها

(١١٠) وهم الاستاذ يعقوب سركيسي في امر هذه السقاية ، وسقاية الشيخ عمر السهروردي نفسها ، وحققت القناة الموصله بينهما ، والاخذة من دجلة ، فقال في مجلة البيان التحفية (عدد ١٥ شباط ١٩٢٦) « هل يمكن ان تكون سقاية في اليسان لمدسة في جامع السهروردي والمسافة بينهما لا تقل عن كيلومترين ؟ » (١١١) مجلة لفة العرب ٢ (بغداد ١٩١٢) ص ٢٩ - ٤٠ .
(١١٢) رسمها السيد رشيد الفوجية في خارطة بغداد التي ولعها سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٨م (انظر احمد سوسة : اطلس بغداد ص ١٦) .

الله قد ير تاريخه
اجرى لك الكوثر ماء زلال
١١٣١

قال السيد محمود شكري الالوسي في وصفه
هذه القناة « وأوصل أيضاً (بريد: حسن باشا)
الى هذا المسجد ساقية من ماء دجلة . وأنشأ
سقاية يشرب منها المار وابن السبيل(١١٨) . وذكرها
الشيخ عباس بن رجب البغدادي بصفحتها
« سقايات » لا واحدة(١١٩) ، مما دل على سعتها
ووفرة مياهها .

وكانت تنشعب من القناة ، فروع تزود
سقايات اخرى ، موزعة على طول مجراها ، وقفنا
منها على :

١ - سقاية الشيخ عبدالكريم الجيلي

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت عند جامع
الشيخ عبدالكريم الجيلي(١٢٠) ، في الدرب المسمى
بطرف الحاج فتحي(١٢١) ، المتفرع من شارع السيد
سلطان علي . وزالت هذه السقاية عند تقص الجامع
المذكور قبل سنين .

ب - سقاية الحاج فتحي

لا يعلم تاريخ انشائها ايضاً(١٢٢) ، ولعلها ترقى
الى عهد سقاية الشيخ عبدالكريم الجيلي المتقدمة
لتقارب الموضعين ، وكانت تقع في جامع الحاج
فتحي ، في آخر الدرب المنسوب اليه .

ولقد استمرت هذه القناة بالعمل ، حتى
استبدلت ، في مطلع القرن الحالي ، بانابيب معدنية
دفنت تحت الارض ، ثم زالت سقاياتها تدريجياً، او
انقطع ماؤها ، بعد انتشار استخدام الانابيب
الحديثة في تلك الناحية من بغداد .

(١١٨) مساجد بغداد ص ٥٦ .
(١١٩) نيل المراد في احوال العراق وبغداد (نشرنا بعض فصوله
في مجلة الرسالة الاسلامية) العدد ١١٧-١١٨ (بغداد
١٩٧٨) ص ٤٧ .

(١٢٠) مسجد عامر قديم ، فيه قبر الشيخ عبدالكريم بن ابراهيم
الجيلي (ت ٨٢٢ هـ) .

(١٢١) رقم بابه ١٩٧ وبعد نقضه لبث سنين ساحة خالية ، الا
من القبر ، ثم قامت الاوقاف ببناء مدرسة في ارضه ،
تحولت الى مدرسة ثانوية للبنات ، وما يزال القبر قائماً .
(١٢٢) جامع قديم كان يطل على شارع الجمهورية ، ينسب الى
احد صلحاء الموصليين وقد انشاء سنة١١٦٩هـ/١٧٥٥م .
وكان قد شاهدناه وقرأنا ما عليه من كتابات اثرية قبل نحو
عشر سنوات ، الا انه هدم وازيلت اقسامه ، ومنها تلك
الكتابات ، وهو اليوم ساحة خالية .

انشأها والي بغداد الوزير حسن باشا
(١١٦٦ - ١١٣٦هـ/١٧٠٤ - ١٧٢٣م) عند تعميره
جامع الشيخ سراج الدين في محلة الصدرية (جزء
من محلة سراج الدين حالياً) سنة ١١٣١هـ/
١٧١٨م ، وذلك لمد الجامع والاسواق المزدحمة
حوله بمياه الشرب(١١٥) .

ولقد اتبع في تصميم هذه القناة ، وضع قناة
الشيخ عبدالقادر وطريقة عملها . فكانت تأخذ
مياهها من دولا ب عند شاطئ دجلة ، في شريعة
السيد سلطان علي ، وتمتد من هناك الى شارع
السيد سلطان علي ، فتدخل يمينا في الدرب
المعروف بطرف حاج فتحي ، وتخرج منه لتجتاز
محلات السودان والعبوة والصدرية ، حتى تصل
الى سقاية الشيخ سراج الدين(١١٦) ، فتزودها
بالماء ، اي انها كانت تبلغ طولاً قدره نحو ٧٠٠
متر تقريباً .

تقع سقاية الشيخ سراج الدين في الجهة
المقابلة للجامع من جهة الشمال ، وكان فوق شباعها
لوح من الرخام والحجر القاشاني ، عليه آيات لامية
تؤرخ لهذا العمل النافع ، منها(١١٧) :

اجريت للناس سبيلاً لهم

فيه سبيل الخير في كل حال
قد نزل الناس بساحاته
واجذبوا الماء بدون الحبال
للشرب والطهر ورفع الأذى

جباك ربي نعمة لا تزال
هذا الذي فيه ينال الرضا

في عطش المحشر يوم السؤال

(١١٥) قال الرحالة دمشقي ، مصطفى بن كمال الدين الصديقي
البكري ، عند قدمه بغداد سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م « وما
وصلت جامع الشيخ سراج الدين - فمسى الله سره التين-
الذي بناه الروحوم حسن باشا .. وقلت لدى الشباك ،
والاسواق في اشباك » كسث الصدا وغسل الران في
زيارة العراق وما والاها من البلدان الورقة ٢٣ مخطوط) .
(١١٦) اشار السيد محمد زؤوف الشيخلي الى جزء من هذه القناة،
وهو الواصل من دجلة الى جامع الحاج فتحي ، ولكنه
خلط بينها وبين سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حين
ظن انها تمضي من هناك الى جامع الشيخ الكيلاني فتزود
سقايتها بالماء . والوصواب انها تنتهي الى جامع سراج الدين
اما سقاية الشيخ الكيلاني فلها قناة مستقلة لمرها على ما
قدمنا (الدليل الجغرافي لمدينة بغداد ص ٥٧ و ١٤١) .
(١١٧) مساجد بغداد ص ٥٨ (مخطوط) .

٣ - السقايات العامة

سقاية حساب الله الشابندر (١١٣٢)

في القرن الحادي عشر للهجرة ، وكان من أعيان بغداد وسرتها (١١٢٨) ، وهو صاحب الحمام الشهير بأسم « حمام حيدر » في شارع النهر ، اشار الى ذلك اوليا جليبي في رحلته ، وذكر ان له قصراً ايضاً .

اشار اليها اوليا جليبي في رحلته الى بغداد سنة ١٠٥٨هـ/١٦٧٤م وسنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م ، وذكر ان مؤسسها حساب الله قصراً عده بين قصور المدينة البارزة ، وحماما عاماً ذكره في موضع آخر من رحلته (١٢٤١) .

سقاية آل مدليج

انشأها الشيخ مداج الصغير بن الشيخ ظاهر ابن الشيخ احمد الرحبي ، مفتي بغداد ، والمدرس في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني (توفي سنة ١٠٨١هـ/١٦٧٠م) ، والحقها بمسجد ابتناه باتصال الشارع الذي يمر على مرقد الخلائي ، قرب زاوية العيدروسي ، في محلة الشيخ عز الدين الجديداوي (قسم من محلة السنك فيما بعد) .

سقاية ابي بكر خواجه

اشار اليها اوليا جليبي ، وعد مؤسسها من اعيان بغداد في ايامه ، اي في تضاعيف القرن الحادي عشر للهجرة (١١٧٠م) (١٢٥٠) .

سقاية سمير موسى باشا

انشأها والي بغداد موسى باشا الملقب بـ « سمير » اي السمين (١٠٥٧هـ/١٦٤٧م - ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) (١٢٦٠) ، و اشار اليها اوليا جليبي في رحلته (١٢٧٧) .

وقد تمهد آل مدليج هذه السقاية والمجد بالنعناية المستمرة ، ففي سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م حبس الشيخ عبدالقادر مدليج عليهما اندار العائلة له والمتصلة بجامع النعماني ، مقابل مسجد العلامة محمد بن عبدالرحمن الرحبي مفتي الشافعية ببغداد ، بموجب الوقفية المؤرخة في السنة نفسها .

سقاية حسين باشا

اشار اليها اوليا جليبي في رحلته ، ولعل منشؤها والي بغداد حسين باشا (١٠٦٠ - ١٠٦١هـ/١٦٥٠م) .

وفي سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م وقفت السيدة عائشة خاتون بنت الشيخ عبدالقادر مدليج بستان في قبة الكاظمية على مصالح المسجد والسقاية بموجب انوقية المؤرخة في ٢٧ ذي القعدة من السنة المذكورة (١٢٩٥) .

سقاية مراد باشا

انشأها والي بغداد مراد باشا (٩٧٧ - ٩٧٨هـ/١٥٧٠ - ١٥٧١م) عند جامع المعروف بالمرادية ، في محلة الميدان ، قبالة قنعة بغداد (وزارة الدفاع حالياً) . اشار اليها اوليا جليبي في رحلته .

سقاية ابي سيفين

شيدها والي بغداد حسين باشا السلاحدار (١٠٨٣ - ١٠٨٥هـ/١٦٧٢ - ١٦٧٤م) عند المرقد والمسجد المنسوبين الى « ابي سيفين » (١٢٠) الواقعين في محلة الطاطران ، وهي آخر المحلات المعمورة من بغداد الشرقية في العصر العثماني . وقد وردت الإشارة اليها في وقفية حسين باشا المذكور ، المؤرخة في سنة ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م (١٢١) .

سقاية حيدر جليبي الشابندر

انشأها حيدر جليبي شابندر التجار في بغداد

(١٢١٢) الشابندر تخفيف لـ (شاه بندر) شاهه ملك بندر ميناء ، او فرصة (او مدينة تجارية) وفي الاصطلاح : الشاهبندر ، هو كبير تجار المدينة ورئيس طائفتهم . وشيخ بندر قريبة من شاهبندر بالمنى والمينى ، وبخاصة ان الاتراك يلقون الماء هاء ، وقد اوردها على هذا الشكل مرتضى نظمي زاده : كلشن خلفا ص ٢٥١ .

(١٢٨) اوليا جليبي سياحتهامسي ٢٢١/٤ .

(١٢٩) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٣٠) ورد اسمه في قائمة اولياء بغداد (مخطوط كتب في القرن الحادي عشر للهجرة) على النحو الآتي « الشيخ محمد ابو سيفين في محلة الطاطران » وذكر عباس بن رجب البغدادي انه احد « المجاهدين الذين اتوا مع المرحوم السلطان مراد خان الرابع » . نيل المراد في احوال العراق وبغداد ، (مخطوطة نشرنا بعض فصولها في مجلة الرسالة الاسلامية ، العدد ١١٧ - ١١٨ ، ١١٩ - ١٢٠ ، و ١٢١ - ١٢٢) (بغداد ١٩٧٨) .

(١٢٤) اوليا جليبي سياحتهامسي ٢٢٠/٤ و ٢٢١/٤ .

(١٢٥) المصدر نفسه ٢٢٠/٤ .

(١٢٦) كلشن خلفا ٢٤٢ وتاريخ نعميا (استانبول ١٢٨٠) ٢٢٠/٤ والاتر الوحيد الذي ما يزال قائما من آثار هذا الوالي ، لوحة رخام مثبتة على المرقد المنسوب لابن الجوزي في محلة السنك ، قرب بئر سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني .

(١٢١) مجموعة وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٢٧) اخباره في كلشن خلفا ص ٢٥٢ .

سقاية مرقد الفزالي

وشرطت للاول يومياً خمس آقجات وللثاني ست آقجات ، وثبتت ذلك في نص الوقفية . وقد بقيت هذه السقاية قائمة حتى هدمها في ايام ولاية مدحت باشا (سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٨م) وقيل ان كتابات اثرية كانت عليها حطمت في اثناء هدمها(١٢٥) .

شيدها والي بغداد حسين باشا اسلاحدار ، عند القبر المنسوب الى الامام ابي حامد محمد بن محمد الفزالي (المتوفى في طوس سنة ٥٠٥هـ/١١١١م) وقد اشير اليها في الوقفية المتقدمة(١٢٢) .

سقاية كنج عثمان

كانت تقع عند قبر كنج عثمان ، احد المحاربين العثمانيين الذين اسهموا في فتح عدد من المدن العراقية ، قبل قدوم السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م . وليس من المعروف تاريخ انشاء هذه السقاية عند قبره . ومن المرجح انها انشأت سنة ١١٢٣هـ/١٧٢٠م عند قيام والي بغداد حسن باشا بتجديد قبة قبره ، ومصلاها وتزيينه بقطع الفاشاني وفيه مايسجل المناسبة وبورخها . وقد لبثت هذه السقاية قائمة حتى مطلع هذا القرن ، وقامت دائرة الاوقاف بتعميرها ، وما حولها من آثار ، سنة ١٢٢٦هـ/١٩٠٨م ، ولكنها هدمت وسويت بالارض سنة ١٢٣٣هـ/١٩١٤م ، ولم يبق منها سوى القبر وحده في الطريق . وفي ٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٧م قام المحتلون الانكليز بازالته وتسويته في الطريق ، ونقلت بقايا رفاة كنج عثمان الى مقبرة الشهداء خارج سور بغداد(١٢٧) .

سقاية جامع النعمانية

انشأها السيدة فاطمة خاتون بنت بكتاش بن ولي سنة ١١٨٥هـ/١٧٧١م والحقتها بالمسجد الذي ابنته في محلة الشط (جزء من محلة الميدان حالياً) ووقفت على المسجد والسقاية اوقافاً كثيرة ، وجعلت التولية من بعدها لزوجها نعمان آغا بن الحاج ابراهيم آغا (ومنه اكتسب الجامع اسمه) ومن بعده لاولاده(١٢٨) . وكان موضع السقاية من المسجد قرب بابها ، بطل شباكها على الطريق (انظر الصورة رقم ٢) وفي سنة ١٢٢٢هـ/١٩٠٢م اعاد من اسمه عبدالحميد تعمير السقاية . فكتبت عليها ستة آيات دالية ، على ثلاثة اسطر ، تورخ ذلك . هي(١٢٩) .

سقاية مرقد ام موسى الكاظم

شيدها والي بغداد حسين باشا اسلاحدار ، في ناحية قاحلة خارج المنطقة المأهولة من بغداد الشرقية . وقد وردت الاشارة اليها في الوقفية المشار اليها آنفاً(١٢٣) .

سقاية جامع علي افندي

انشأ هذا الجامع الحاج علي افندي بن مراد من اهالي النرم سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م ، وموقعه في محلة راس الكنييسة (جزء من محلة الميدان حالياً) . وانشأت سقايتي السيدة امينة ، احدى المحسنات ببغداد في العصر العثماني . وكتبت على جدار السقاية الايات الآتية(١٢٤) :

ذا سلسبيل ماؤه سلسل
راق ومنه طاب نفساً وارده
زلاله عذب فرات سائغ
شرايه يروي العطاش بارده
عين الرضا قد سلسله صافياً
موصولة لشارب عوائده
خيراته امينة من ريبة
نافعة والخير طاف شاهده
مرصماً بجوهر المقد اتي
تاريخه حوض صفت موارد

وقد زالت هذه السقاية عند هدم الجامع وشق شارع الجمهورية ، ثم قامت الاوقاف باعادة بنائه على صورة حديثة لا صلة لها بشكله القديم .

سقاية السيدة سكيئة العباسية

شيدتها السيدة سكيئة بنت محمد العباسية، في المسجد الذي كانت اسرتها تتولاه منذ سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م ، وموقعه في ارض « سراي بغداد » . وكان موضع السقاية منه مما يلي باب الجامع عن شرقيه في السوق ، ورتبت للسبيل ميلاً وسقاء ماء النهر الى حوض السبيل ،

- (١٢٥) محمد صالح السهورودي في جريدة العراق البغدادية ، بتاريخ ١٥ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ .
(١٢٦) اخباره في تاريخ نيمسا ١٩/٣ ومحمد نريا : سجل شماني ٤١٨/٣ .
(١٢٧) ذوق عيسى في مجلة لفة العرب ٢٢٢/٤ وعباس المزروي تاريخ العراق بين احتلايين ١٨/٥ .
(١٢٨) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .
(١٢٩) نقلتها من على شبكها مباشرة في صيف سنة ١٩٦٧م . وكانت قد فقدت معالمها تحت طبقات من الاسمنت في اثنائها بعض اصلاحات الجامع ، فلم تند تقرا . فتمت بعكها وازالة مايشوهها ، فظهرت جلية الى العيان .

- (١٢٢) الجموعة نفسها .
(١٢٣) وقد وقف عليه غفارات جمه ، فصلها في وفتيته المؤرخه ٨ جهادي الاولى سنة ١١٢٣هـ/١٧٢٠م .
(١٢٤) محمود شكري الالوسي : مساجد بغداد ص.٧٠ (مخطوط)

هذا السبيل على تقي حوض أجر
حميد السجاييا قد بناه جديدا
وهذب بالطبع السليم نمره
فأصبح عذبا للشفاء مفيدا
وراق به الماء الزلال كخلقه
من الطبع ان تجني الورد وورودا
له الطالع السعد النور بالهدى
أبى الله إلا ان ان يعيش سعيدا
إلا ايها الظامي لك الشرب سائغ
هنيئا مريئا ان قضيت وورودا
تري الكوثر الصافي عليه مؤرخا
ورودك حوض السلسيل حميدا

سقاية مسجد الست نغيسة

ترقى الى القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن
عشر للميلاد) . انشأها بعض اهل الخير في مسجد
الست نغيسة في الجانب الغربي من بغداد (١٤٠) .
ونالت أهمية خاصة نظرا لموقعها في آخر عمران هذا
الجانب . وقربها من خط الترامواي الذي انشأه
مدحت باشا والي بغداد . ولتت هذه السقاية
موجودة حتى توسع الشارع الذي تطل عليه (شارع
موسى الكاظم) سنة ١٩٥٤ ، فنقضت ، مع قسم
من المسجد ، وعند إعادة بناء المسجد لم تبين السقاية
المذكورة (١٤١) .

سقاية زكريا الخضري

انشأها الحاج زكريا بن عبد الوهاب بن ملا
خضر المعروف بالخضري ، أحد وجهاء بغداد
وتجارها في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن
الثالث عشر للهجرة (١٨) و (١٩) الحقها بمسجده
الذي شيده في محلة التسابيل ، القريبة من محلة

(١٤٠) ينسب الى السيدة نغيسة القشطيني من فلييات بغداد
في القرن الثاني عشر للهجرة ويرى بعضهم ان مؤسسه هو
محمد سعيد القشطيني الاول ، عمره بغالسي ماله ، في
حين يرى آخرون انه محمد سعيد المشهور بالحاج اسعوي
التكريتي . ووصفه محمد الفندي الناصري التكريتي فقال
« فيه غرفة تختانية فيها قبور عديدة ، منها قبر الرجل
الصالح المشهور بالكرامات الشيخ موسى الجبوري (توفي
سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣١م) وقبر الشيخ عبدالغفور أحد خلفاء
الشيخ خالد القشطيني (توفي سنة ١٢٧٢هـ / ١٨٥٥م) ..
ولم افق على تاريخ تاسيسه ، وفيه قبر بجانب البئر عن
يمين غرفة القبرة للداخل فيها يقال انه هو محمد سعيد
الفندي الحاج اسعوي والله اعلم ، اما اليوم فالأوقاف
قائمة بمصارفه وفيه خطيب وامام ومؤذن وخادم ، تقام
فيه الجمع والاعياد والجماعات « ذيل مساجد بغداد
(مخطوط) .

(١٤١) الألوسي : مساجد بغداد ص ٥٦ (مخطوط) .

باب الشيخ في شرقي بغداد ، وهو المعروف بمسجد
التسابيل . وكان افتتاح السقاية سنة
١٢٢٨هـ / ١٨١٢م . وقد كتبت على شباكها خمسة
آيات لامية هي :

إباح لوراد من الماء صافيا
وأوردهم عذبا فراتا وانهدلا
وصيره وقفا على كل وارد
اراد وضوا او تطلب منهلا
فحاز ثواب كالذي صام دهره
وصلى دوام العمر طولا وهلا
تري زمر الورد تأتي صوابا
وترجع من ري من الماء عللا
لذلك اضحوا قائلين وارخوا
سقى زكريا ليوم يبعث سلا
١٢٢٨

وعند وفاة الواقف سنة ١٢٢٣هـ / ١٨١٧م ،
دفن في مسجده ، قرب السقاية المذكورة .

وعلى الرغم من جسامه الاوقاف التي حبسها
الواقف (١٤٢) ، أهمل مسجده وترك . وأفرزت
مديرية الاوقاف محل السقاية وافتطعت قطعة
من ساحة الجامع ، فادخلتها ضمن ارض السقاية ،
ودفعت الى وزارة المعارف بموذلك بالاجارة الطويلة
فانشأت عليها الاخرة مدرسة ابتدائية تسمى
بمدرسة الدسابيل ، فكان هذا آخر العهد بالسقاية .

سقاية خضر بك

انشأها خضر بك بن عبدالله جليبي بن امير
الحاج محمد ياسين جليبي ، أحد امراء الحلة في القرن
الثاني عشر (١٤٣) ، في جامع الذي شيده في محلة
امام طه من شرقي بغداد سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م ،
وخصص لها شيئا من الاوقاف ، وشرط ان يشتري
الماء من شاطيء دجلة ب (١٢٠) آقجة يوميا .
وخصص رواتب ثابتة للعاملين فيها وفي سنة
١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م وقفت السيدة رحمة خاتون بنت
عبدالكريم جليبي بن محمد ياسين جليبي ، من أسرة
الواقف الاول ، عددا من البياتين على مصالح
الجامع وسقايته (١٤٤) .

(١٤٢) الوقيتان المؤرخان ٢٥ لى الحجة ١٢١١هـ - ١٧ شعبان
١٢١٧ الصادرتان من المحكمة الشرعية ببغداد .

(١٤٣) تولى سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م وهو من الأسرة التي هرفت
فيما بعد بال عبدالجليل وحكمت الحلة في القرنين الثاني
عشر والثالث عشر للهجرة .

(١٤٤) مجموعة من فلييات بغداد (مخطوط) .

بيد ان الخراب لم يلبث ان استولى على هذه المنشآت الخيرية حيناً من الدهر ، وعند قيام المتولي بنعيم الجامع وتجديده ، اهلست السقاية فانقطعت اخبارها منذ ذلك الحين (١٤٥) .

سقاية اسماعيل الشطي

انشأها الحاج اسماعيل جليبي بن عبدالرحمن جليبي الشطي البغدادي من التجار البارزين ببغداد في القرن الثالث عشر للهجرة (١٤٩) ، سنة ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م وكان موقعها قرب جامع الغزاة في محلة الفناهرة من شرقي بغداد (١٤٧) .

سقاية عادللة خاتون

انشأتها السيدة عادللة خاتون بنت والي بغداد احمد باشا (توفيت سنة ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م) سنة ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م ، في مسجدتها المعروف بجامع العادلية الصغير (١٤٨) على طريق الجسر القديم (جسر الشهداء حالياً) (١٤٩) . وكان على باب المسجد لوحة من الرخام عليها ستة أبيات دالية فيها اشارة الى السقاية ، وتاريخها ، منها :

فلما زها بنيان باب دخوله

وجنت ماء الظمان من الصدى
هناك اقتباسيانه (كذا) الذكر ارخوا
لرب السماء الهادي ادخلوا الباب سجدا
١١٦٠

سقاية جامع السراي

لا يعلم منشؤها ، وكانت تقسع في جامع السراي (١٥٠) ، ويطل شبانها على الطريق المؤدية الى ساحة مديرية الشرطة . اشار اليها عباس بن

(١٤٥) يقع الجامع اليوم قرباً من شارع الجمهورية ، مجاوراً لمركز شرطة المهديّة .

(١٤٦) ولد سنة ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م ولاعلم تاريخ وفاته .

(١٤٧) تقص هذا الجامع وادخلت ارضه في شارع الجمهورية عند فتحه .

(١٤٨) ويعرف باسم جامع الدنكجية نسبة الى (المقد) الذي يقع فيه .

(١٤٩) تقص هذا الجامع وادخلت ارضه في شارع الامون ، وسيدت الاوقاف جامعا كبيرا باسمه على يسار الذاهب الى الاعظمية .

(١٥٠) ويسمى جامع جديد حسن باشا، وكان يسمى قديماً بالجامع السليمانى نسبة الى السلطان سليمان القانوني الذي عمره سنة ٩٤١هـ / ١٥٢٤م ثم جدده والي بغداد الوزير ابراهيم باشا سنة ١٠٩٤هـ / ١٦٨٢م واعاد بناءه ووسمه والي بغداد حسن باشا (التوفي سنة ١١٢٣هـ / ١٧٢٢م) ولبت جامعا خاصا بالولاة والوزراء طيلة العمر عثمانى .

رجب البغدادي سنة ١٢٣٣هـ / ١٩١٤م (١٥١) . وبقي حوض السقاية موجوداً في موضعه ، وهو من حجر الحلان المنقور ، المتوفر في نواحي الموصل ، وله ثلاث فتحات لصب الماء منه ، وعند تعمير الجامع مؤخراً ازيل هذا الحوض الاثري وكسر فلم يبق للسقاية اي اثر .

سقاية نايي خاتون

انشأتها السيدة نايي خاتون بنت عبدالله ، زوج والي بغداد سليمان باشا الكبير (١١٩٤) - ١٢١٧هـ / ١٧٨٠ - ١٨٠٢م) ووالدة والي بغداد سعيد باشا (١٢٢٨ - ١٢٣٢هـ / ١٨١٢ - ١٨١٦م) (١٥٢) باتصال مدرستها التي شيدها في السوق الجديد من « الميدان » بالجانب الشرقي من بغداد سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م ووقفت عليها ، وعلى مدرستها ، عقارات عديدة ، انبتتها في وقتها المورخة في ٢٨ رجب ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م (١٥٣) .

سقاية السيف

انشأها والي بغداد داود باشا (١٢٢٢) - ١٢٤٧هـ / ١٨١٦ - ١٨٢١م) عند جامع السيف (١٥٤) ، حين قام بتعميره تعميراً شاملاً في السنوات ١٢٣٦ - ١٢٤٠هـ / ١٨٢٠ - ١٨٢٤م « ليستقي منها الناس ويشرب من مائها ابناء السيل » (١٥٥) وقد امتدحها الشيخ محمد صالح التميمي بابيات بائية كتبت على جدرانها ، هي :

(١٥١) مجلة الرسالة الاسلامية العدد ١٢١ - ١٢٢ (بغداد ١٩٧٨) ص ٨٦ .

(١٥٢) شاركت هذه السيدة في الحكم واسهمت في توجيه سياسة زوجها وولدها ، وبعد مقتل الاخير ، اعتكفت عن الناس ، وتركت الحياة العامة ، ثم شرعت بجملعة اعمال خيرية نافعة منها هذه السقاية . انظر : سليمان فائق : مرآة الزوراء في اخبار الزوراء (المسمى تاريخ بغداد) ترجمة موسى نورس ص ٥١ وتاريخ المالك الكولة مند في بغداد ، ترجمة نجيب الارنازي ص ٤٩ .

(١٥٣) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٥٤) مسجد قديم كان على شاطئه دجلة الفربي ، قرباً من جسر الشهداء الحالي ، كما قد رجحنا ان اصله في العصر العباسي دار القرآن البشرية المشيدة سنة ١٢٥٢هـ / ١٢٥٢م وعمر في عهد السلطان سليم الثالث سنة ١٢٠٣هـ / ١٧٨٨م ومن المؤلف ان تقص هذا الاثر المهم ويحظ ما عليه من كتابات اثرية ، ليصي ساحة لوقوف السيارات ! عماد عبدالسلام رؤوف: دار القرآن البشرية وهل هي مسجد السيف القديم . جريدة البلد البغدادية بتاريخ ١١-١١-١٩٦٦ .

(١٥٥) ديوان محمد صالح التميمي .

مظلة بشباكها على الشارع العام (١١٠). ووقت عليها أربعة دكاكين في المحلة نفسها ، وشرطت ان تصرف الغلة على لوازم السقاية والفضلة تكون لذريتها ، وبعد اقتراضها تصرف جميع الغلة على السقاية وتعميرها . وسجلت هذه الوقفية في ٧ صفر من السنة نفسها (١١١) .

سقاية عاتكة خاتون

انشأتها السيدة عاتكة خاتون بنت السيد علي الفادري الكيلاني تقيب الأشراف (توفيت سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م) في مدرستها التي شيدها قرب جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ببغداد سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م وعرفت بالمدرسة الخاتونية (١١٢) . وقد وقتت على مدرستها هذه وسقايتها أوقافاً جمة ، وشرطت للسقاية كل يوم مبلغاً قدره (٢٤) آفجة (١١٣) . ولكن خراباً أصاب جميع هذه المنشآت نتيجة الطاعون الجارف والغرق الذي ألم ببغداد سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ، فاندست ومحي أثرها (١١٤) .

سقاية نازدة خاتون

انشأتها السيدة نازدة خاتون بنت مصطفى اغا (توفيت سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م) زوج علي باشا والي بغداد (١٢١٧ - ١٢٢٢هـ/١٨٠٢ - ١٨٠٧م) وافتتحتها سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م (١١٥) . وكانت تقع في الجامع الذي شيده في محلة الحيدرخانة ، قريباً من شارع الرشيد ، بطل شباكها على الطريق . وخصصت لها منشآت من الاوقاف العديدة التي وقتتها مبلغاً قدره (١٨٠٠) قرشاً رائجاً . للاتفاق على صيانتها ، ومدتها بالماء على الدوام (١١٦) .

وقد تعطلت هذه السقاية منذ ان لحق الخراب الجامع نفسه ، في اوائل القرن الحالي (١١٧) .

(١١٦) في نص الوقفية انها تقع بين الشارع العام وملك عبدالكريم التطفحي .

(١١٦) مجموعة من وقيات بغداد (مخطوط) .

(١١٦) عماد عبدالسلام رؤوف : الانار الخطية في المكتبة القادرية (بغداد ١٩٧٢) ٢٩/١ .

(١١٦) وافية المدرسة الخاتونية مؤرخة في ٢٠ جمادى الاولى سنة ١٢٣٥هـ . المحكمة الشرعية ، سجل ١١ ص ٢٠٧ .

(١١٦) ابراهيم الدروي : البغداديون ، اخبارهم ومجالسهم (بغداد ١٩٥٨) ص ٢٢٤ .

(١١٦) البغداديون ص ٢٤٠ .

(١١٦) مجموعة من وقيات بغداد (مخطوط) .

(١١٧) اعادت الاوقاف بناء ليكون مدرسة دينية باسم (مدرسة نازدة خاتون) .

ارى كل مكرمة في الوردى
الى غير داود لا تنسب
حبي الكرخ من بركة سيها
اذا نضب البحر لا ينضب
وما يبتغي الناس من صيب
ونائل راحتهم صيب

اذا ذقت من مائها فاستعن
بآخر ري به يمدب

وارخ ونساد بواردها
هنياً مريئاً لمن يشرب

واندثرت هذه السقاية عند نقض الجامع
نفسه سنة ١٩٦٦م ، فلا اثر لها اليوم .

سقاية جامع الأزبكي

انشأ هذه السقاية او جددها والي بغداد داود باشا سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٨م ، وكانت تطل بشباكها من جامع الأزبكي ، على الطريق العام ، فهي قريبة من باب المعظم ، الى يمين الداخل منه الى بغداد . وبقيت موجودة حتى الربع الاول من هذا القرن (١٥٦) .

سقاية جامع الحيدرخانة

انشأها والي بغداد داود باشا سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٩م في جامع الحيدرخانة الذي عمره ، او اتم تعميره في تلك السنة (١٥٧) . وكان لها شبك مطل على سوق الحيدرخانة ينهل منه المازون (١٥٨) . وشرط مؤسسها في وقفيته « لمن يناول الماء للشاربين من الماء المسبل للشرب خسون قرشاً .. وللساء الذي ياتي بماء الجامع في كل يوم عشرة قرب ، ثلاثمائة وستون قرشاً » (١٥٩) .

سقاية خاتون بنت عبدالله

شيدتها السيدة خاتون بنت عبدالله وزوجها احمد آغا بن اسماعيل اغا سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ، وكانت تقع في محلة اليدان ، ببغداد الشرقية ،

(١٥٦) انظر عن هذا الجامع : عباس الزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ٢٥/٥ وديوان محمد صالح التميمي ص ٧٩ .

(١٥٧) اسامة النقيدي : جامع الحيدرخانة ، عمارته وموضعه . مجلة سومر مجلد ٢٩ جزء ٢-١ (بغداد ١٩٧٢) ص ٢٤٥ .

(١٥٨) زال هذا السؤل ، وكان يقع في ارضي شارع الرشيد ، ويتصل بالواجهة الحالية للجامع بقعود .

(١٥٩) مجموعة من وقيات بغداد (مخطوط) .

سقاية دكان شناوه

لا يعلم مؤسسها ، وكانت تقع في محلة « دكان شناوه » بين محلة الحيدرخانة جنوباً ، والقراغول شرقاً والصابونجية شمالاً والميدان غرباً .

ذكرها فيلكس جونز سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م ، إذ اشار الى ان عقداً من عقود هذه المحلة يسمى « عقد السبيلخانة » ١٩٨١ . ولا ندري الى اي عهد بقيت .

سقاية صبغة الله الحيدري

انشأها السيد صبغة الله بن ابراهيم الحيدري البغدادي ، مفتي الشافعية ببغداد (توفي سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م) ١١٦٩ سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م وكان موقعها قرب جامع الخلفاء جامع القصر قديماً (ببغداد الشرقية . وكتب على جدارها . بالرخام . خمسة أبيات حائية ، تضمنت اسم المثنوي . وتاريخ انشائها . وكان السيد محمود شكري الالوسي (توفي سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م) قد سجل هذه الأبيات ، قبل تقضها . وهي : ١٧٠ :

ذي بركة يرتوي منها يضحاح

كادت تؤلف ابدانا بأرواح

فصبغة الله اجري ماءها غدقا

للواردين بتبريد واصلاح

يرجو الثواب من الرب الكريم بها

يوم الحساب وان يستقى بأفداح

بشراه قد ربحت فيها تجارته

وفاز في خير محصول وارباح

ان جئت ذمآن قلب يا مؤرخها

اشرب هنيئاً مريضاً بارد الراح

وعند هدم الجامع سنة ١٩٥٨ لشق شارع

الجمهورية . زالت هذه السقاية وفقدت الرخامة

المذكورة . وبقيت كذلك ، حتى اسعدني الحظ

بانتمو عليها ، واذا بها ما تزال في حالة جيدة ،

يبلغ طولها ٣٦ سم وعرضها ٢٥ سم ونحناها

٥٥ سم . وقرأت عليها ، بعد حكها وتنظيفها ،

الأبيات الخمسة المذكورة ، وهي مكتوبة بخط

النسخ البديع ، ومنقوشة باتقان وعناية .

ومما يلفت النظر ان الالوسي سجل تاريخه شطر الشعر في الرخامة (١٢٦٠) رغم ان المكتوب على الرخامة نفسها (بالارقام اضافة الى مجموع الحروف) هو ١٢٦٧ وعليه جرى الاستاذ يعقوب سر كيس في بحثه عن « منارة جامع سوق الفزل » (١٧١) والاستاذ عباس العزاوي في مقاله « جامع الخلفاء » ، لعدم اطلاعهما على النص الوارد فيها عياناً (انظر الصورة رقم ٣) .

سقاية خلف اغا

انشأها خلف اغا ، قائم مقام الحلة (١٧٣) في عهد والي بغداد نامق باشا الكبير سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٥٢م قرب حديقة له ظاهر سور الكرخ ، في الجانب الغربي من بغداد وكان « يبرد فيها الماء المذب لشرب أبناء السبيل » . وكتب على جدار السقاية قصيدة بائسة ، فيها تاريخ انشائها ، وهي (١٧٣) :

هذا سبيل لا عيب فيه قد

راق لابناء السبيل مشربا

كوثر ماء في رياض جنّة

يجنى جنى الجود منها رحباً

رق لظلمان الحشا سلساله

رقى سلسال زلال الصهبا

مدى عليه للقري قصر علا

طال الزمان في علاه الشها

اكرم به من « خلف » سلسيله

أوقفه لله منه حسبا

وراح كل وارد وصادر

يشكره شكر الرياض السحبا

وكم وري قلباً به لحاسد

ومن تكن عقباه مثل هذه

فلا يخف يوم المصاد المقبا

يا حبذا سيب سبيل ورده

فارخت شراباً عسدا

١٢٧٧

سقاية نائلة خاتون

انشأها السيدة نائلة خاتون بنت عبدالرحيم سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م ظاهر اسوار الجانب

(١٧١) مباحث عراقية (بغداد ١٩٤٨) ٢٤٦/١ وفيه ما يوافق السنة (١٢٦٠هـ) حسب التاريخ الميلادي ، وهو (١٨٤٠) (١٧٢) يوسف كركوش : تاريخ الحلة (النجف ١٩٦٥) ١٢٢/١ . (١٧٣) مساجد بغداد ١٢١ (مخطوط) .

(١٦٨) Jones, F., Op. Cit., P. 314. (١٦٩) ترجم له ابنه ابراهيم فصيح في كتابه « عنوان المجدي بيان احوال بغداد والبصرة وتجدد » (بغداد ١٩٦١) ص ١٢-١٢١ (١٧٠) مساجد بغداد ص ٦٧ (مخطوط) .

بالندي يمناه اجرت مورداً
 جلة الوارد منه تشرب
 فاذا قلت لممري دجلة
 ماؤها عذب فترات طيب
 قلت بانواحد لطفاً ارخوا
 لسبيل القادري اعذب
 ١٣٠٠

وما تزال هذه السقاية قائمة ، وعليها ما
 نقلناه من ابيات ، الا ان الماء انقطع عنها منذ عهد
 بعيد (الصورة ٤) .

سقاية عبدالرزاق الخضري

انشأها الحاج عبدالرزاق جليبي بن ياسين بن
 عمر الخضري سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م عند مسجد
 الشيخ عبدالعزيز الانصاري في محلة الشيخ سراج
 الدين من شرقي بغداد ، وذلك بمناسبة تعميره
 للمسجد المذكور في تلك السنة . ووقف عليها بعض
 الاوقاف ضمناً لدوامها (١٧٦) .

سقاية عطية خاتون

انشأها السيدة عطية خاتون بنت محمود
 اغا بن عبدالله سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م باتصال باب
 جامع العاقولي (١٨٠) في شرقي بغداد ، ووقفت عليها
 داراً في محلة جديد حسن باشا ، وشرطت صرف
 غلتها على اصلاح السقاية وترميمها . واوكلت امر
 توليتها الى اسماعيل افندي بن الحاج سليم بن
 امين بن شعبان ، وجعلت النظارة عليها للعلامة
 السيد نعمان خيرالدين الالوسي (توفى سنة
 ١٣١٧هـ/١٨٩٩م) (١٨١) . ولم يبق للسقاية اليوم
 اثر ، وقد علمت ممن عاصرها انها زالت في
 الاربعينات من هذا القرن .

سقاية صالح بن محمد

انشأها الشيخ صالح بن محمد بن فلاح في
 محلة (فضوة عرب) التي هي جزء من محلة باب
 الشيخ ، ووقف على ادارة مصالحها دار سكنه
 وكانت تقع بقرها بموجب الوقفية المؤرخة في ٧ ذي
 القعدة سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م (١٨٢) .

- (١٧٩) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط)
 (١٨٠) جامع قديم كبير في محلة العاقولية التي نسبت اليه ،
 كان في الاصل داراً للشيخ جمال الدين عبدالله بن محمد بن
 العاقولي مدرس المستنصرية ، وبعد وفاته سنة ٧٢٨هـ/
 ١٣٢٧م تحول الى مسجد . وقره فيه ظاهراً الى اليوم، وجرى
 ترميمه غير مرة آخرها سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م .
 (١٨١) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .
 (١٨٢) المصدر نفسه .

الشرقي من بغداد ، على الطريق المؤدية الى قسبة
 الاعظمية ، ضمن البستان المصروف ببستان
 الوقف ، قريباً من سقاية الحجية (١٧٤) . ووقفت
 عليها اوقافاً دارة ، وشرطت ان يصرف عليها من
 غلتها ، وما يتبقى يصرف على المدرسة التي
 انشأها قبالة جامع الحيدرخانة ببغداد (١٧٥) . كما
 جعلت هذه السقاية مدفناً لزوجها مراد افندي
 المتوفى سنة انشائها ، ثم مدفناً لها بعد وفاتها
 سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م . وقد بقيت السقاية قائمة
 للنفع العام حتى ازلتها عند توسعة الشارع سنة
 ١٩٣٥ ، ونقل رفاة دفنيتها الى مقبرة الامام الاعظم .
 ولما بنى السيد عبدالحميد الدهان جامعاً على
 قطعة ارض تعود الى هذه الواقفة ، بنى فيه
 سقاية ، وهي موجودة الى اليوم (١٧٦) .

سقاية سلمان القادري

انشأها السيد سلمان بن علي بن سلمان
 القادري الكيلاني ، تقيب الاشراف ببغداد (توفى
 ١٣١٥هـ/١٨٩٧م) سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م . وتقع
 باتصال المسجد الذي شيده في السنة نفسها ،
 والواقع في محلة السنك من شرقي بغداد (١٧٧) .
 وقد وقف على مصالح سقايته ومسجده اوقافاً
 جساماً ، فصلها في نص وقيته ، وشرط « ان
 يكون الماء جارياً بلا انقطاع شتاء وصيفاً يستقى كل
 من اراد من ابناء السبيل والمترددین ، ومن اراد
 حمل الماء بالواني المخصوصة الى بيته من الحوض
 المدل لذلك فلا يسوغ لاحد منعه . ومن منعه وقطعه
 فعليه ما يستحق من الله تعالى ! » وشرط ان
 يعطى لمن يقوم بخدمة السقاية ٧٥ قرشاً صافاً كل
 شهر ، اضافة الى مخصصات مالية عديدة لتغطية
 مصارف السقاية الاخرى (١٧٨) . وثبتت فسوق
 شباكها لوحة رخامية نقشت عليها خمسة ابيات
 بائية ، فيها تاريخ انشائها . وهي :

سيد القوم وفخر النجبا
 من له فوق الثريا نسب
 رضى الله على افعاله
 وبه يعلو العنى والرتب

- (١٧٤) سياني الكلام عليها في هذا البحث .
 (١٧٥) الوفيات المؤرخات ٩ ربيع الاول ١٢٩١ و ١٦ ذى الحجة
 ١٢٩١ و ٦ ربيع الاول ١٢٩٢ .
 (١٧٦) البغداديون ٢٠٦ وهاشم الاعظمي : تاريخ جامع الامام
 الاعظم (بغداد ١٩٦٥) ١٩٠/٢ .
 (١٧٧) محمد صالح السهرودي : لب الالباب ١٣١/٢ .
 (١٧٨) وافية السيد سلمان القادري ، مؤرخة في ١٧ رمضان
 ١٣١٢هـ . الحكمة الشرعية السجل ٤٤ .

سقاية جاسم الحجية

شيدها جاسم الحاج محمد خلف الحجية سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٤م في الحديقة (البقعة) المحاذية لبستان الربع التي ورثها عن والده الحاج محمد الحجية منتمهد أرزاق الجيش العثماني في بغداد في عهد مدحت باشا . على الطريق العام المؤدي الى جامع الامام الاعظم ، حيث كان المارة وعابرو السبل يستريحون هناك ويتوضؤون ان كان وصولهم اليها في اوقات الصلاة ، حيث كان في الجهة المقابلة لدخلها مصلى واسع .

ولضمان تزويد السقاية بالماء ، فقد مد منشؤها اليها قناة من شاطئ دجلة ، يرفع اليها الماء بواسطة دولاب كان يسقى ايضاً بستان الربع ، ويصب في حوض كبير ، مطلى داخله بالفسار ، موضوع داخل مبنى السقاية ، مما يلي شباكها مباشرة ، وفي هذا الحوض يتسبب الماء ، ويتمده بالماء والتنظيف عامل خاص له مرتب شهري . وكانت ساحة السقاية ١٥٦ متراً مربعاً ، اضافة الى مصلى مقابلها ، وبئر لاستعماله عند انقطاع مياه القناة .

وكتبت فوق محل شرب المياه ثلاثة ابیات للعلامة عبدالوهاب النائب (توفي ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) فيها تاريخ انشائها . ومنها (١٨٢) :

جاسم قد بنى واحسن صنعاً
لا يبيته محمد خير منهل

وبعد انتفاء الحاجة الى هذا المشروع الخيري، بوصول العمران بين الاعظمية وبغداد ، واستعمال وسائل النقل الآلية ، هدم جاسم الحجية سقايته، الاّ جداراً واحداً كان يشتمل على المدخل ومحل شرب الماء وفوقه الرخامة المذكورة ، وبقيت هذه الآثار حتى باعها الورثة سنة ١٩٥٩م ، فهدم من اشترائها محل الشرب وادخله في بيته .

سقاية كامل الزند

انشأها كامل بك بن الحاج امين الزند سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م ، عند المسجد الذي شيده على قسم من دار ابيه مفتي بغداد ، في محلة البارودية، من محلات شرقي بغداد . وكتب فوق باب المسجد خمسة ابیات تشتمل على تاريخ العمارة ، وفيها اشارة الى السقاية المذكورة ، هي (١٨٤) :

(١٨٢) عزيز جاسم الحجية : بغداديات (بغداد ١٩٦٧)
١٦٩/١ - ١٧١ .
(١٨٤) مساجد بغداد ٩٧ (مخطوط) .

ذا جامع فيه رياض التقى
مزهرة فليعمل العامل
مكتبة فيه لاهل الهدى
ينال من جواهرها السائل
وماؤه العذب غداً كثرأ
فليس يحكيه الحيا الهائل
شيده محتسباً موقناً
سليل صدر العلما الكامل
على التقى مذ تم اרכתه
قد نار هذا السجد الكامل
١٣٢١

وقد هدم هذا المسجد في تموز سنة ١٩٦٤
فضاع اثر سقايته .

سقاية سالم الحيدري

انشأها السيد سالم الحيدري سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م في محلة النصّة ، على طريق الاعظمية . اشترى ارضها لتكون مقبرة له ، وكانت قبل ذلك قسماً من بستان (يقال بكر) (١٨٥) . ثم شيده عليها سجداً صغيراً ، دفن فيه قريبه السيد صالح الحيدري التوفى في السنة المذكورة ، والحق به سقاية ذات طابقين ، وجعل فوق شباكها لوحة رخام كتب عليها بخط بارز جميل سطرين ، يؤلفان العبارة الآتية « قد انشأت هذه السبيل خاتمة السى المرحوم الشهيد حيدري زادة صالح افندي سنة ١٣٣٠ » . تلي ذلك قصيدة عينية من عشرة ابیات، كتبت على ستة اسطر ، وهي في رثاء السيد صالح الحيدري .

وما تزال بنابة هذه السقاية قائمة ، وهي تقع بلصق دائرة البريد في الاعظمية .

سقاية هيب خاتون

انشأها السيدة الحاجة هيب خاتون سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٦م في محلة النصّة من محلات قصبة الاعظمية . عند المدرسة التي شيدها هناك . ووقفت عليها اوقافاً بموجب الوقفية المؤرخة في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٨م (١٨٦) .

سقاية مسجد آل جميل

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت تقع عند مسجد آل جميل في محلة قنبر علي بشرقي بغداد ، وفي سنة ١٣١٥هـ/١٩٠١م وقفت السيدة صفيّة

(١٨٥) تاريخ جامع الامام الاعظم ١٩٢/٢ .
(١٨٦) البغداديون ٢٤٤ وتاريخ جامع الامام الاعظم ٥٨/٢ .

خاتون بنت محمد افندي بن السيد عبدالغني آل جميل مفتي بغداد بعض الدكاكين على هذا المسجد، وعلى السقاية، وشرطت ان يعطى (٣٥٠) قرشاً لتصرف على لوازم السقاية (١٨٧).

سقاية حاجبة خاتون

لا يعلم تاريخ انشائها، وكانت تقع في مسجد حاجبة خاتون، في محلة الامام طه بشرقي بغداد، ذكرها الشيخ محمد بهجة الاثري سنة ١٩٢٥م (١٨٨) ونقضت، والمسجد، عند توسعة شارع الرشيد.

سقاية الملا حمادي

انشأها شاعر الملا حمادي سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م في المسجد الذي جدد عمارته قرب جامع السيد سلطان علي في شرقي بغداد. واثار اليها عباس بن رجب البغدادي سنة ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م (١٨٩).

سقاية سيد محمد

اشار اليها السيد رشيد الخوجة في خريطته لبغداد (١٩٠). وموقعها - كما تظهر فيها - خارج باب المعظم، في ارض المدرسة القريبة المتوسطة اليوم، وفيها قبر صاحبها.

سقاية الشيخ معروف الكرخي

لا يعلم تاريخ انشائها، وموقعها عند جامع الشيخ معروف الكرخي ومقبرته في الجانب الغربي من بغداد (١٩١).

خاتمة

شهدت بغداد، في اواخر العصر العثماني، محاولات متفرقة لتحسين الوسائل القديمة المتبعة في رفع مياه الشرب ونقلها الى محلاتها. ولقد انضبت تلك المحاولات، بالدرجة الاولى، على استبدال الآلات القديمة التي تعمل بقوة الحيوانات بالآلات ذاتية الحركة، اكثر حداثة، دون ان تستهدف انشاء نظام جديد لتوزيع مياه الشرب

(١٨٧) البغداديون ص ٣٦٠.

(١٨٨) مساجد بغداد واثارها، الفوائد، ص ١٤٠.

(١٨٩) مجلة الرسالة الاسلامية، العدد ١١٧-١١٨ (بغداد ١٩٧٨).

(١٩٠) خارطة بغداد كما مسحها ورسمها السيد رشيد الخوجة

عام ١٩٠٨ ص ١٦٦.

عام ١٩٠٨ م (اطلس بغداد ص ١٦).

(١٩١) محمد رؤوف الشخيلي: مراحل الحياة في الفترة المظلمة

ومابعدھا (بصرة ١٩٧٢) ص ٨٢.

على المحلات، او ادخال فكرة تنقيتها من شوائبها او تمقيها، فلم تتجاوز تلك المشاريع، في اغلب الاحيان، رفع القنوات الاجرية القديمة، واستبدالها بانابيب معدنية لتعمل على الاسلوب القديم نفسه، ولتزود سقايات المدينة العامة بالطريقة المتبعة سابقاً.

ولعل اول محاولة من هذا النوع، هي التي جرت في آخر عهد الولاة المماليك (١٩٣)، ففي سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م عرض مهندس ايراني يدعى (ميرزا عبدالطلب) كان قد قدم بغداد آنذاك على والي بغداد داود باشا (١٢٣٢ - ١٢٤٧هـ / ١٨١٦ - ١٨٣١م) ان يقوم بصنع مضخة (ظلمبة) تسحب الماء الى اي مكان مرتفع على ان تتعمد الحكومة بدفع ما يلزم من النفقات. فوافق داود باشا، بعد ان درس المشروع بعناية، وخصص له عدداً من الحدادين والعمال للعمل معه، وسهل له كل الوسائل التي تعينه على انجازه المشروع، فتم صنع المضخة في خلال مدة قصيرة، ونصبت على دجلة، واخذت بضخ الماء بكثرة هائلة، فكانت موضع اعجاب الناس على اختلاف طبقاتهم (١٩٣). وسميت بـ (جرخ يوسف) اي دولاب يوسف، نسبة الى ابن اللوالي يدعى طورسون يوسف.

ورغم ان داود باشا طلب من المهندس المذكور الاقامة ببغداد « ليتعلم سائر الناس منه » واجرى له راتباً (١٩٤)، فاننا لا نجد في اخبار السنين التالية على هذا الحادث ما يدل على انشاء مشاريع اخرى من النوع المذكور اذ بقيت الدواليب القديمة مستمرة في عملها في مد اهل بغداد بمياه الشرب حتى فترة متأخرة من القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) واغلب الظن ان خراباً لحق بمشروع داود باشا نفسه بعد سنوات قليلة من تاسيسه اذ خلت المصادر، وبخاصة اخبار المشاريع التالية، من ادنى اشارة اليه.

وفي عهد والي بغداد المصلح مدحت باشا (١٢٨٦ - ١٢٨٩هـ / ١٨٦٨ - ١٨٧٢م) بدأ التفكير جدياً بانشاء مشروع دائم لربط دور بغداد وسقاياتها العامة بانابيب، وضخ اليها المياه بواسطة مكائن حديثة تنصب في أماكن مختلفة من شاطئ دجلة. وتكون تحت ادارة بلدية بغداد

(١٩٣) ادم حكيم من ١١٦٢ الى ١٢٤٧هـ / ١٧٤٨ - ١٨٢١م.

(١٩٢) رسول حاوي الكركوكلي: دوحة الوزراء في تاريخ وطاقع

الوزراء (ترجمة موسى كاظم نورس، بيروت) ص ٢٩٤.

(١٩٤) عباس الفوزي: تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦

(بغداد ١٩٥٤) ص ٢٦٨.

المنشأة حديثاً . وقد أوصى لهذا الغرض على خمسة مكائن من لندن ، قوة كل منها ١٢ حصاناً ، ووضعت واحدة منها في مشرعة (شريعة) الميدان على سبيل التجربة ، إلا أنه لا دليل على اتمام المشروع على ما وعدت به جريدة الزوراء الرسمية في حينه . وكانت هذه الجريدة قد نشرت في ٧ ربيع الأول سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) خبراً يبشر البغداديين بانتهاء مشكلة مياه الشرب في مدينتهم على النحو الآتي :

« لا يخفى أن سطح بلدة بغداد بحسب ارتفاعه مقدار ذراعين ثلاثة اعشارية عن سطح نهر الدجلة ، فلهذا لا يمكن دخول الماء الى دار من الدور أصلاً ، والماء الذي تشربه الأهالي ينقل بواسطة سقائي الحمبر وسقائي الظهر ، فالشقة الحاصلة للخلق من هذه الجهة وعلى الخصوص لبعض العجزة من النساء ، فحوصلة البيان لا تسع إيضاح ذلك . بناء على هذا لاجل دفع احتياج أهالي مملكتنا من جهة الماء ، وإن الدين يرمون (يرومون) ادخال الماء الى دورهم يعطى في بعض الامكنة حياض فيها مزملات يأخذ بواسطتها الماء . كان قبل هذا قد أوصى على جلب خمسة ماكينات لاجل الماء من لوندرة ، وقوة كل منها في قوة اثني عشر حصان ، وإن تدخلت تحت حساب دائرة البلدية . وبهذه الدفعة قد وردت تلك الماكينات ووضعت واحدة منها بحذاء مطبعتنا لاجل التركيب والتجربة . فهذه المادة ما عدا انها تكون دافعة للضرورة العارضة للخلق من جهة تصل الماء ، فكذاك يكون الماء الجاري دائماً في كل دار . وحيث ان هذه الفائدة هي موجبة لكسب معمورية البلدة درجة أخرى ، فالحق انها لا يقسمة بالتشكر والامتنان ، وانها الطغف من الماء الزلال لدى الظمان » (١٩٥) .

وفي سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م أمر والي بغداد حازم بك (١٣٢٥ - ١٣٢٦هـ / ١٩٠٧ - ١٩٠٨م) بنصب ماكينة أخرى في مشرعة الميدان وأجرى الماء بالانابيب الى داخل بغداد ، فكانت تمد بمياه الشرب محلات الميدان وبعض الحيدر خانة والصابونجية وجديد حسن باشا والطوب ، وبلغ مجموع الدور التي يوزع عليها الماء ٣٦٠ داراً حسب (١٩٦) . وفي سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م نصبت ماكنة مشابهة عند

(١٩٥) جريدة الزوراء نمرو ١٤٧ ، ٧ ربيع الأول ١٢٨٨ ،

(١٩٦) محمد رؤوف الشيطي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها (البصرة ١٩٧٢) ١/٩٨ وما يذكر ان اجرة الماء الشهرية لكل دار كانت تبلغ عشرة فروش صحيحة ، اي مايعادل ١٠٠ فلس . عبدالكريم العلاف : بغداد القديمة (بغداد ١٩٦٠) ص ٧٥ .

دولاب الشيخ عبدالقادر الكيلاني فامست تزود سقائته بالماء (١٩٧) ، بيد ان اشرف البلدية بقي قاصراً على المشروع الحكومي الوحيد ، وهو المنشأ عند شريعة الميدان . وعند سقوط بغداد على يد المحتلين البريطانيين تولت سلطات الاحتلال ادارة المشروع ، ثم عهد به بعد تأسيس الحكومة العراقية الى ادارة « البلدية » بقيت تحت ادارتها حتى انشاء اول هيئة عامة لمياه الشرب في بغداد والعراق باسم « لجنة اسالة الماء لمدينة بغداد » سنة ١٩٢٤ . ورغم ان حالة الاسالة والتوزيع كانت في هذه الفترة بدائية للغاية (١٩٨) ، الا انها كانت بداية لاجمال عديدة نشطة ، ذات صفة علمية وتقنية حديثة (١٩٩) ، وبذلك ينتهي تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة ببغداد ، ليبدأ بعدها تاريخ مشاريع حديثة ، اخذة باسباب التطور والتقدم .

(١٩٧) انظر ملاحظت مع هذه السقاية .

(١٩٨) كان طول الانابيب الموصلة لياه الشرب في الايام الاولى لتسلم المشروع سنة ١٩٢٤ ٣.٠٠٠ متر ، وكانت ميزانية المشروع تحوم ارقامها حول مايقارب ١٧٠٠٠ دينار اما عدد المشتركين فلم يزد على ٧٠٠٠ مشترك . ولم تكن هناك عملية ترسيب او تصفية ، وكانت الانابيب ترفع غالباً من امامتها لتتغلف مالي داخلها من الطيان والرواسب ، ولم تكن هناك مقاييس البتة ، وانما تستوفى الاجور بالتقدير .

(١٩٩) في سنة ١٩٢٥-١٩٢٦ ابتدا الاهتمام بالتصفيه ، والحق بعد ذلك مركز الكراوة بالمشروع ، وكان بمهدة وزارة الطيران وفي سنة ١٩٢٧ وضع منهج انشاء مركز تصفية جديد لمنطقة الكرخ تسم اليه منطقة الكاطمية ، وقد صدر بالفعل سنة ١٩٢٩ قانون لتشغيل اعمال اللجنة على منطقة الكاطمية وكمل المشروع في اواسط ١٩٣٠ . وفي الوقت نفسه كانت اعمال التصفيه قد بدأت بالتحسن ، واستعملت احواس الترسيب وبدا بتقييم الماء بالكلووين ، وفي اواخر سنة ١٩٣٠ استقرت اللجنة اول قرع من البتولا ، وفي سنة ١٩٣١ صدر قانون تأسيس لجنة اسالة الماء لمنطقة بغداد رقم ١٠٤ لسنة ١٩٣١ واصبح للجنة شخصية حكومية ، وزيد عدد اعضائها ، وفي اواسط ١٩٣٤ تم لأول مرة تزويد جهتي الرصافة والكرخ الماء لمدة ٢٢ ساعة متصلة . وفي ايلول ١٩٣٥ افتتح مركز التصفيه في الرصافة الذي اضرب بداية لفخ الماء التقني لعائيب الرصافة وكانت مراكز المشروع في هذا التاريخ هي ثلاثة الصرافية والشالجية والكراوة وفي اواخر ١٩٣٥ عدل قانون اللجنة بحيث اصبح مرجعها الاعلى وزارة الداخلية وفي اواسط ١٩٣٩ اصبح مشروع الاطمية باعمال اللجنة وادخلت عليه تعميمات شاملة ومنح صاحب الامتياز تمويهاً من ممتلكاته . وفي حزيران ، ١٩٥٢ اصيف مركز فسخ وتصفيه جديد الى مرات اللجنة هو مركز المسج وبصدر القانون رقم ٥ لسنة ١٩٥٥ اصبح اسم المشروع (مصلحة) ثم زادت اعمال هذه المصلحة وتوسعت بتوسع مدينة بغداد نفسها في الستينات والسبعينات .

دليل

خارطة سقايات بغداد في العصر العثماني

- ١ - سقاية جامع الأزبك
- ٢ - سقاية مراد باشا
- ٣ - سقاية جامع علي افندي
- ٤ - سقاية البارودية
- ٥ - سقاية سري باشا
- ٦ - سقاية الشيخ عمر السهروردي
- ٧ - سقاية دكان شنواه
- ٨ - سقاية ناهي خاتون
- ٩ - سقاية خاتون بنت عبدالله
- ١٠ - سقاية جامع النعمانية
- ١١ - سقاية كنج عثمان
- ١٢ - سقاية جامع السراي
- ١٣ - سقاية نازنده خاتون
- ١٤ - سقاية جامع الحيدر خانه
- ١٥ - سقاية سكينه العباسية
- ١٦ - سقاية حاجبة خاتون
- ١٧ - سقاية عطية خاتون
- ١٨ - سقاية خضربك
- ١٩ - سقاية جامع الاصفية
- ٢٠ - سقاية عادلة خاتون
- ٢١ - سقاية مسجد آل جميل
- ٢٢ - سقاية ابي سيفين
- ٢٣ - سقاية صيغة الله الحيدري
- ٢٤ - سقاية ام الكاظم
- ٢٥ - سقاية عبدالرزاق الخضيري
- ٢٦ - سقاية الشيخ سراج الدين
- ٢٧ - سقاية جامع الحاج فتحي
- ٢٨ - سقاية جامع عبدالكريم الجبلي
- ٢٩ - سقاية الملا حمادي
- ٣٠ - سقاية آل مدلج
- ٣١ - سقاية اسماعيل الشطي
- ٣٢ - سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني
- ٣٣ - سقاية عاتكة خاتون
- ٣٤ - سقاية صالح بن محمد
- ٣٥ - سقاية سلمان القادري
- ٣٦ - سقاية الغزالي
- ٣٧ - سقاية كامل الزند
- ٣٨ - سقاية زكريا الخضيري
- ٣٩ - سقاية جامع السيف
- ٤٠ - سقاية معروف الكرخي
- ٤١ - سقاية شوكت بك
- ٤٢ - سقاية سيد محمد
- ٤٣ - سقاية الست نفيسة

بيت الحكمة في بغداد

وازدهار حركة الترجمة في العصر العباسي

بقلم

سليمة التكريتي

بغداد - الجمهورية العراقية

العرب بقوله « ما عرف التاريخ ارحم فاتحاً من العرب » (٢).

وما إن استقر الامر للمسلمين في عهد بني امية ، حتى ظهرت اول حركة لترجمة العلوم الاخرى استهدفت نقل ما يتوفر نقله من العلوم عن اللغات الاجنبية ، كال يونانية ، والفارسية ، والهندية وغيرها الى اللغة العربية . ولقد اشرف بعض خلفاء بني امية وامرائهم على رعاية حركة الترجمة هذه وتشجيعها وكان من بينهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي يعتبره معظم المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين في الاسلام .

وكان الامير خالد بن يزيد بن معاوية اشهر من رعى حركة النقل ، وبذل لها العون والتشجيع ، فجلب لها النقلة والعلماء ، وخصص لها كل وقته واهتمامه . ذلك ان خالداً هذا قد عشق علم الكيمياء منذ الصغر . وكان من بين الذين صحبوا « مسلمة بن عبد الملك بن مروان » الى بلاد الروم لحاصرة القسطنطينية ، فلما ارتد المسلمون عنها ، ولم يستطيعوا افتتاحها ، حصل خالد في هذه الغزوة على كثير من كتب اليونان .

ما ان خرج الاسلام من بطن الجزيرة العربية الى الاطراف المحيطة بها ، حتى بدأت في الحال اضخم عملية تزواج فكري وحضاري في تاريخ البشرية جمعاء ، انها عملية الامتزاج بين ثقافتة العرب الذي حملوا راية الاسلام ، وبين الشعوب التي اعتنقت هذا الدين الحنيف الذي انقذها من الظلم والاستعباد . واخرجها من الظلمات الى النور .

لقد كانت عملية التزواج هذه : اوسع انطلاقة فكرية عمت البيئة الجديدة التي خلقها الاسلام ، وصنع الحياة الفكرية والاجتماعية فيها بالصيغة العربية الاسلامية . والواقع ان العرب المسلمين كانوا ، وهم في غمار الزحف المقدس لنشر الاسلام ، وترسيخ قواعده بين الشعوب الاخرى ، يعملون في ذات الوقت على نشر العلم والمعرفة في كل صقع يحلون فيه ، ويضعون اسس نهضة علمية وفكرية مزدهرة في كل بلد كانوا يصلون اليه . وهذا ما دفع المؤرخ الانكليزي « هيربرت جورج ولز » الى القول بان « العلم كان يشب على قدميه ونبا في كل موضع وطائفة قدم الفاتح العربي » (١) وكيف لا وقد وصف المفكر الفرنسي الشهير « غوستاف لوبون » الفاتحين

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ط ١٩٤٥ .

(١) هـ . ج . ولز : موجز تاريخ العالم ص ٢٠٦ ترجمة عبدالعزيز جاويد .

به مكتبة ومرصدا ، وصار بيت الحكمة مركز نشاط علمي ذائب» (٥) .

ومنهم الدكتور « ماركس ما يرهوف » احد واضعي «كتاب تراث الاسلام» الذي اصدرته جامعة اكسفورد سنة ١٩٣٦ ، فقد قال « وقد انشا المأمون في بغداد دارا رسمية للترجمة مجهزة بمكتبة» (٦) .

ومنهم « الفريد غيوم » من المشاركين في كتاب تراث الاسلام ايضا والذي ذكر بان المأمون قد انشا مدرسة للعلماء في بغداد ، نشطت فيها دراسة الكتب الاغريقية وترجمتها نشاطا عظيما (٧) .

ولكن الذي نصوره هو ان بيت الحكمة قد انشئ في عهد هرون الرشيد لا في عهد الخليفة المأمون ، ونستدل على ذلك بما ذكره كل من « ابن النديم » « وابن القفطي » في كتابهما ، عند الحديث عن ترجمة كتاب « المجسطي » من اليونانية الى العربية (٨) . فقد ترجم هذا الكتاب الذي يتحدث عن علم الجغرافيا مرات عديدة ، وتحت ترجماته عدة مرات . وكان اول من عنى بتفسيره واخرجه الى العربية يحيى بن خالد البرمكي . فقد « فره له جماعة فلم يتقنوه ، ولم يرض بذلك . فندب لتفسيره « ابا حسان » و « سلما » صاحب بيت الحكمة فاتقناه ، واجتهدا في تصحيحه ، بعد ان احضرا النقلة المجودين ، فاختبرا نقلهم ، واخذوا بانصححه واصحه» (٩) .

وهذا ما يؤكد ان بيت الحكمة كان موجودا قبل ان ينقض الرشيد على آل برمك ، ويقضي على نفوذهم الواسع ، اذ لم يعد لهم اي اثر بعد تلك النكبة .

كان الرشيد ، قبل ان ينشئ بيت الحكمة ،

(٥) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج ١ ص ٩١ ترجمة د. السيد بكر يعقوب و د. رمضان عبدالسواب ط. ١٩٧٥ .

(٦) تراث الاسلام : ترجمة جرجيس فتح الله ج ١ ص ١٧٤ ط. ١٩٥٤ .

(٧) تراث الاسلام : ج ١ ص ٢٥٠ . ترجمة توفيق الطويل ورفاه ط ١٩٦٦ .

(٨) اصل كلمة « المجسطي » هي « ميغال » في اللغة اليونانية وتضي « المجموعة » وقد حرف الاوربيون هذه الكلمة في القرون الوسطى الى ماجستي Magastii

فتقلها العرب باسم « مجسطي » ويذكر اليعقوبي المؤرخ ان معنى المجسطي هو الكتاب الاكظم وانه يقع في ثلاث عشرة مقالة . اليعقوبي ج ص ١١٥ .

(٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧ - ٢٦٨ وابن القفطي : تاريخ الحكماء ص ٩٨ .

ولم يقف شغف خالد بالعلم والكيمياء بصفة خاصة عند هذا الحد ، بل استقدم عددا من العلماء العاملين في مدرسة الاسكندرية ، وامرهم بنقل علوم الكيمياء ، التي كان العرب يطلقون عليها اسم « الصنعة » ، الى اللغة العربية وقد تكفل احد اولئك العلماء بهذا العمل وهو « اصطفن القديم» (٢) ، وكانت تلك اول عملية نقل في الاسلام» (٤) .

واذ توقفت عملية نقل العلوم اثر الصراع الدامي على السلطة بين الامويين والعباسيين ، والذي انتهى بزوال حكم بني امية ، وانتقال زعامة العالم الاسلامي الى بني العباس ، فانها ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى ، وانتشبت في زمن المنصور ثم بلغت اوج ازدهارها في عصر الرشيد والمأمون والتوكل ، ويعود الفضل في ازدهارها الى التشجيع المقرون باليدل المديد الذي سار عليه الخلفاء العباسيون ، والاخذ بيد المترجمين الذين نبغوا من بين العلماء .

ومع ان حركة الترجمة كانت في الاصل بمبادرة من الخلفاء ورعاية منهم ، سواء في ذلك الامويون او العباسيون ، الا ان هذه الحركة كانت في الواقع تجري على نطاق فردي محدود ، ومن دون ان تكون لها مؤسسة تتولى شؤونها ، وتنهض باعبائها . ذلك لان كل قادر على النقل من لسان ما الى لسان آخر سواء بدافع من خليفة او امير ، او راغب في العلم ، كان يكف على ترجمة ما يراد منه ان يترجمه ، او ما يريد هو ان يترجمه حسب رغبته الخاصة .

غير ان تطورا كبيرا وخطيرا قد حدث في هذا الموضوع في عصر هرون الرشيد ، فالرعاية الفائقة التي اولاها هذا الخليفة للعلوم وللعلماء على حد سواء ، قد دفعت به الى ان يخص موضوع الترجمة بعناية فائقة لم تحظ بها قبلا ، وان ينشئ لهما مؤسسة خاصة قائمة بذاتها ، عرفت باسم « بيت الحكمة » .

يعتقد كثير من المؤرخين ، ولا سيما الغربيين بان « المأمون » هو الذي اسس بيت الحكمة . ومن هؤلاء المستشرق الالمانى « بروكلمان » الذي يقول عن المأمون بانه « اسس ببغداد (بيت الحكمة) والحق

(٢) اصطفن القديم واحد من العلماء الاسكندرانيين السبعة الذين عكفوا على دراسة مؤلفات جالينوس وكان من بينهم الراهب مريانوس الذي درس خالد على يديه في دير خارج دمشق .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٢١١ .

غير اننا لا نعرف السند التاريخي الذي اعتمد عليه
« اوليري » في تحديد مثل هذا التاريخ .

x x x

كان بيت الحكمة مقسما الى عدد من الاقسام
والقاعات والغرف . . فهنالك غرف كثيرة للتدريس
يحضرها الطلاب من مختلف انحاء العالم لتلقي
العلوم فيها على ايدي اساتذة منتدبين لتدريس
تلك العلوم ، اما المكتبة فكانت تتألف هي الاخرى
من عدد من الغرف ، مزودة برغوف تصف عليها
الكتب .

والى جانب المكتبة وغرف التدريس توجد
قاعة واسعة مخصصة لاقاء المحاضرات ، وعقد
المناسبات العلمية ، وفي هذه القاعة كان النقاش
والجدل يطرح علانية ، ويمتهدى الحرية ، حول
شتى الموضوعات المختلفة بما في ذلك الموضوعات
التي تخص العقيدة الاسلامية .

وهناك غرفة خاصة معدة للاسترخاء يؤمها
الدارسون والمدرسون والمطالعون والعاملون في
المكتبة ، ليسترخوا فيها من عناء العمل ، ولكي
يشنفوا اسماعهم بالاستماع الى الانغام الشجية
التي يعزفها جوق موسيقي في القاعة ذاتها(١١) .

وافردت في بيت الحكمة غرف اخرى
للمترجمين ، واخرى غيرها للذين يقومون بمراجعة
تلك الترجمات وتنقيحها ، واصلاح كل خطأ فيها ،
في حين تقوم غرف خاصة بالنساخين الذين يقومون
بنسخ الكتب اما لانفسهم ، او لحساب الغير ، كذلك
توجد غرف معدة لعمل المجلدين الذين يتولون
تجليد كل كتاب يدخل الى بيت الحكمة ، بالإضافة
الى الغرف المهيأة للوراقين ، وخازني الكتب
والمناولين ، الذين ينقلون الكتب من الرفوف الى
المطالعين والنساخين والمجلدين وما سواهم .

وقد اشتهر عدد من المجلدين والعاملين في
بيت الحكمة من اشهرهم المجلد «ابن ابي الحريش»
وكانت النساء يزاولن اعمالا في بيت الحكمة بصفة
مناولات . وقد اشتهرت من بينهن « توفيق
السوداء » التي كانت مناولة للكتب في عهد ابي
منصور بن محمد الخازن(١٢) .

ولم يكن العمل في بيت الحكمة وقفا على طائفة

(١١) من روائع حسانتسا : الدكتور مصطفى السبامى ص

١٨٠ .

(١٢) سليم طه التكريتي : مصادر الفكر العربي الاسلامي ص ٧٢
مطبوع

قد جلب الكثير من المؤلفات اليونانية من بلاد الروم ،
ففي الحملة التي استولى فيها على مدينتسى
« عمورية » و « انقره » امر الرشيد عماله هناك
بالمحافظة على ما فيهما من مكتبات ، ثم لم يلبث ان
انتدب بعد ذلك طائفة من العلماء الذين يعرفون
اليونانية ، والارامية ، والسريانية ، للقيام بفحص
ما تحويه تلك المكتبات من مؤلفات تتحدث عن
الطب ، والفلك ، والرياضيات ، والحكمة ،
والفلسفة ، وغيرها .

وقد اختار اولئك العلماء النفيس والنادر من
تلك المؤلفات ، وعادوا به الى بغداد ، فاودعها
الرشيد بيت الحكمة ، واوكل امر العناية بها الى
الطبيب يوحنا بن ماسويه الذي اصبح رئيسا لبيت
الحكمة ذاته فيما بعد .

كذلك اختلف الباحثون والمؤرخون في الموضوع
الذي كان يقوم فيه بيت الحكمة ، ولكن الشيء
المؤكد هو وجوده في جانب الرصافة من بغداد لان
الخلفاء العباسيين ما لبثوا بعد وفاة المنصور ان
انتقلوا الى الرصافة وهجروا المدينة المدورة التي
بناها المنصور في جانب الكرخ .

ولقد كانت نواة بيت الحكمة من الكتب ، هي
الخزانة التي جمعها ابو جعفر المنصور ، وافرد لها
جناحا خاصا في قصر الخلد الذي كان يسكنه في
المدينة المدورة ، وقد انتقلت هذه الخزانة بحكم
الارث الى هرون الرشيد ، فتماعها ووسعها بمأ
اضاف اليها من الكتب التي جلبت له من البلدان
الاخرى .

وقد تساءل بعض المؤرخين عما اذا كان بيت
الحكمة جناحا من اجنحة احد قصور الرشيد او
المامون ، ام انه كان يقوم في بناء خاصة به ،
منفصلة عن بقية القصور ، والذي يترأى لنا ان
بيت الحكمة كان يقوم في بناء خاص ، كما نستدل
على ذلك من الوصف الذي سنورده له فيما بعد .

وكان من نتائج اختلاف المؤرخين حول الخليفة
الذي انشأ بيت الحكمة ، ان اختلفوا اختلافا شديدا
حول تحديد التاريخ الذي انشئت فيه هذه المؤسسة ،
فالمتشرق الانكليزي « دبلاسي ادليري » وهو من
القائلين بان المامون هو الذي انشأ بيت الحكمة ،
يذكر في كتابه « الفكر العربي ومكانته في التاريخ »
ان بيت الحكمة قد انشئ في عام ٢١٧هـ - ٨٢٢م (١٠) .

(١٠) De Lacy Oleary: Arab Thought its Place
in History P. 112.

وأخرون بكتب الطب ، وغيرهم بمصنفات الفلك والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم .

وكان الاسلوب الذي يعتمد المترجمون في ذلك الوقت يستند الى اتباع واحدة من طريقتين ما تزالان شائعتين لدى المترجمين حتى الوقت الحاضر .

فالطريقة الاولى تعتمد الترجمة الحرفية الدقيقة ، اي ترجمة العبارات كلمة فكلمة ، والتقييد بالالفاظ الاصلية تقيدا تاما ، وعدم التصريف او الخروج على هذه القاعدة .

اما الطريقة الثانية فانها تعتمد على ترجمة معنى العبارة دون التقييد باللفظ الاصلي ، وذلك بان يقرأ المترجم الكتاب الذي يريد ترجمته ، بامعان وبعد ان يستوعب معناه في ذهنه ينسخ بقله الى اللغة التي يحسنها .

وقد اتى على وصف هاتين الطريقتين في الترجمة « بهاء الدين العاملي » صاحب كتاب « الكشكول » المتوفى سنة ١٠٣١ هـ ١٦٦٢م فقال « قال الصلاح الصفدي (١٢) ، وللترجمة في النقل طريقتان : احدهما طريق « يوحنا ابن بطريق » و « ابن الناعمة الحمصي » وغيرهما ، وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية ، وما تدل عليه من المعنى ، فياتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى ، فيثبتها وينتقل الى الاخرى كذلك حتى ياتي على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة .

والطريق الثاني في التعريب . طريق حنين بن اسحق والجوهري (١٤) وغيرهما ، وهو ان ياتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ، ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها ، سواء ساوت الالفاظ ام خالفها ، وهذا الطريق اجود « (١٥) » .

ولقد ادى اتباع المترجمين للطريقة الاولى الى ظهور ترجمات ضعيفة ومفككة ، على ما نشهد امثاله في وقتنا الحاضر الذي نميش فيه الآن ، وقد اشار « ابن النديم » الى امثال هؤلاء المترجمين منهم « ابن شهدي الكرخي » ومنهم « لاحبي » الذي قال عنه « انه جيد المعرفة بالسريانية ، عطف الالفاظ

(١٢) صاحب كتاب « فوات الوفيات » وهو تكملة لكتاب ابن خلكان « وفيات الاعيان » وقد طبع مؤخرا في ثمانية مجلدات

(١٤) هو ابن سعيد الجوهري من كبار المترجمين في عصر الامون .

(١٥) نقل ذلك العلامة « كرونولينو » الاستاذ بالجامعة المصرية سابقا ومؤلف كتاب « علم الفلك تاريخه عند

العرب في القرن الوسطى ص ٢٢٦ »

معيئة من العلماء فقد كان في مستطاع كل حاذق باحدى اللغات الاجنبية ، وقادر على النقل عنها ، ان ينضم الى زمرة النقلة كما كان في مقدور كل من يعرف القراءة والكتابة باحدى اللغات ان يؤم قسم المكتبة ، ويطلب اي كتاب متوفر فيها ليقرأه لكنه كان يحظر على المطالع حظرا باتا ان يكتب اية تعليقات او تفسيرات ، بل واية تصحيحات على هوامش الكتاب الذي يطالعه .

كذلك كان باستطاعة اي شخص ان يستعير من المكتبة اي كتاب يشاء ، فيخرجه منها الى مقره ، وقد تطول مدة الاستعارة هذه شهرا كاملا .

* * *

كان العمل في بيت الحكمة منسقا تنسيقا بديما . فقد كان المترجمون ينقسمون الى عدة اصناف . صنف ينقل من اللغة الاجنبية التي يحذقها الى اللغة العربية راسا . وصنف لا يحذق اللغة العربية لكنه يحذق لغتين اجنبيتين او اكثر : وكان يعرف اليونانية والسريانية ، او اليونانية ، والسريانية ، والفارسية في وقت واحد . فمثل هذا الصنف قد ينقل عن اليونانية الى السريانية ، او عنها الى الفارسية .

حتى اذا ما انتهى من عملية النقل هذه ، تولى مترجمون من الملمين باحدى هذه اللغات ترجمة ما تم نقله الى اللغة العربية . ولذلك فان كثيرا من المصنفات اليونانية في الدرجة الاولى ، لم تترجم الى اللغة العربية مباشرة ، وإنما جرت ترجمتها الى السريانية او الفارسية ، ثم نقلت مجددا عن هاتين اللغتين الى اللغة العربية . وكانت الترجمة في بيت الحكمة تتم عن ست لغات هي اليونانية ، والسريانية ، والفارسية ، والهندية ، والعبرية ، والقبطية . وقد جرت ترجمة بعض الكتب عن اللغة النبطية ايضا .

وكثيرا ما يحدث ان تكون بعض هذه النقول غير دقيقة ، وركيكة العبارة ، او « عطفية اللفظ » حسبما يسميه « ابن النديم » عند تقييمه لبعض المترجمين . ولذلك يتولى مترجمون آخرون من المتضلمين باللغة العربية ، مراجعة امثال هذه الترجمات ، وتصحيحها ، وتقويمها وكان على رأس هؤلاء الفيلسوف الكندي .

وكان قسم الترجمة في بيت الحكمة مصنفا حسب موضوعات الكتب التي يراد ترجمتها . فهناك مترجمون مختصون بترجمة كتب الفلسفة ،

بالعربية « ، ومنهم « فويري » أيضا الذي قال عنه ان « كتبه مطرحة مجفوة لان عبارته كانت عطفية غلقة » .

x x x

اتسع نطاق العمل في بيت الحكمة اتساعا كبيرا نتيجة ما جمعه فيه الرشيد والمأمون من خزائن الكتب القديمة التي جلبت من الاقطار الاخرى . فكانت هذه الكتب تطلب من اسيا الصغرى ، ومن الهند . ويران ، وجزيرة قبرص ، بالاضافة الى ما كان يجمعه السريان من كنائسهم واديرتهم في الشام وبلاد الجزيرة (١١٦) .

كانت اول مجموعة من الكتب العلمية باللغات اليونانية والسريانية ضمت الى بيت الحكمة ، هي الكتب التي استجلبها هرون الرشيد من عمورية وانقره . كما اشرفنا الى ذلك قبلا .

وجلب المأمون مجموعة من الكتب اليونانية من جزيرة قبرص . قال « ابن نباتة المصري » في كتابه « سرح العيون في شرح قصيدة ابن زيدون » ان المأمون جعل « سهلا بن هارون » على خزانة الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وذلك ان المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها احد فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوي الراي عنده . واستشارهم في حمل هذه الخزانة السريانية المأمون ، فكلهم اشاروا اليه بعدم الموافقة ، الا مطران واحد فانه قال « الراي ان تعجل بانفاذها اليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية في دولة شرعية الا افسدتها ، واوقعت بين علمائها » . فارسلها اليه ، واغتبط بها المأمون (١١٧) .

واستجلب المأمون من القسطنطينية مجموعة اخرى من هذه الكتب ايضا ، تحدث عنها « ابن النديم » في فهرسته فقال « ان المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد

الروم ، فاجابه الى ذلك بعد امتناع ، فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم « الحجاج بن مطر » و « ابن البطريق » و « سلم » صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فاخذوا منها مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه امرهم بنقله ونقل ، وقيل ان « يوحنا بن ماسويه » كان ممن انفذ الى بلد الروم (١١٨) .

كذلك ذكر ابن النديم ان ممن عنى باخراج الكتب من بلد الروم هم محمد ، واحمد ، والحسن بنو « شاعر المنجم » (١١٩) .

وهناك مجموعة اخرى من الكتب القديمة جيء بها من مدينة اصفهان . وقد ذكر « ابن النديم » هذه المجموعة فقال « والذي رايتُه انا بالمشاهدة ان « الفضل بن العميد » انفذ الى ها هنا في سنة ، نيفا واربعين كتابا اصيبت في اصفهان في سور المدينة ، فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل « يوحنا » (٢٠) .

وبلى جانب نفائس الكتب ، كان بيت الحكمة يضم مجموعة من الخرائط والمصورات البلدانية ، وقد ذكر « المسعودي » المؤرخ في كتابه « التنبيه والاشراف » هذه الخرائط والمصورات فقال عنها « رايت هذه الاقاليم مصورة في غير كتاب بانواع الاصباغ ، واحسن ما رايت . . . في « الصورة المأمونية » التي عملت للمأمون ، اجتمع على صنعها عدة من حكماء اهل عصره ، صور فيها العالم بافلاكه ونجومه ، وبره وبحره ، وعامره وغامره . ومساكن الامم ، والبلدان ، وغير ذلك . وهي احسن مما تقدمها من جغرافيا « البطليموس » وجغرافيا « مارتينوس » وغيرها (٢١) .

و « الصورة المأمونية » هذه عبارة عن خارطة مصورة للارض ، انتدب لها المأمون طائفة من علماء عصره . فوضعوا له صورة الارض فنسبت اليه ودعت بالصورة المأمونية وقد ذكر الكاتب الاندلسي « محمد بن ابي بكر الزهري » صاحب « كتاب الجغرافيا » ان « الصورة المأمونية » قد اجتمع عليها وعلى عملها سبعون رجلا من فلاسفة العراق ، فوضعوها على صفة الارض ، وان كانت على غير الحقيقة من ذلك ، لان الارض كروية والجغرافيا بسيطة (٢٢) .

(١٦) سعيد الدبوهجي : بيت الحكمة من ٢٥

* المقصود ببلاد الجزيرة هي المنطقة المحصورة بين الفرات ودجلة في كل من العراق وسوريا ومنها ديار بكر وجزيرة ابن عمر وغيرها

(١٧) ابن نباتة المصري : سرح الميون في شرح قصيدة ابن زيدون ص ٢٢٦ ، والدكتور احمد الشبلي في كتابه « تاريخ التربية الاسلامية ص ١٥ »

(١٨) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٢

(١٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٤

(٢٠) ذات المصدر من ٢٥ .

(٢١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٦٦ .

(٢٢) الدكتور احمد سوسة : الشرف الادريسي في الجغرافيا العربية مجلد اول ص ١١٢

الملك بن الزيات » ، فقد كان يقارب عطاؤه للنقطة وللنسخ التي دينار في الشهر « (٢٨) .

وكان من المشجعين لحركة الترجمة ايضا « علي بن يحيى » المعروف بالمنجم الذي نقل له كثيرا من الكتب الطبية ، و « ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب » وكان حريصا على نقل كتب اليونانيين الى لغة العرب ، كثير البذل في سبيلها ، ومنهم ايضا « عيسى بن يونس الكاتب الحاسب » من اهل العراق ، وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية (٢٩) .

وظلت حركة تشجيع الترجمة والمترجمين سارية المفعول حتى الى عصور ملوك الطوائف . فقد كان لدى « سيف الدولة » طبيب اسمه « عيسى الرقي » ينقل له من السرياني الى العربي « (٣٠) .

ولقد راجت الكتب المترجمة رواجاً منقطع النظر في كل ارجاء العالم الاسلامي ، ونفقت سوقها ، وكانت تباع باغلى الاتمان . ذكر العالم المنطقي والمترجم « يحيى بن عدي التكريتي » ، وهو من تلامذة « حنين بن اسحق » ، « ان شرح « الاسكندر » « للسمع » كله ، وكتاب « البرهان » (٣١) رابته في تركة « ابراهيم بن عبدالله » الناقل النصراني ، وان الشرحين عرضا علي بمائة وعشرين دينارا . فذهبت لاحتيال في الدنانير ، ثم عدت فاصبت القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل من خراسان بثلاثة الاف دينار (٣٢) .

ويذكر يحيى بن عدي ايضا انه التمس من ابراهيم بن عبدالله نص « سوفسطا » ونص « الخطابة » ونص « الشعر » (٣٣) بخمسين دينارا ، فلم يبعها له واحرقها وقت وفاته (٣٤) .

× × ×

ما ان تم انشاء بيت الحكمة ، ووضعت خزائن الكتب التي جمعت في عهد المنصور والرشد فيه ، حتى عين له رئيس يعني بشؤونه ، ويشرف على

(٢٨) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٧٠ ط ١٩٥٨

(٢٩) المصدر السابق .

(٣٠) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ١ ص ١٤٠ .

(٣١) هذان الكتابان من كتب « ارسطو » وقد فسرهما « الاسكندر الافروديسي » .

(٣٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٨ .

(٣٣) هذه الكتب الثلاثة من مؤلفات ارسطو ايضا .

(٣٤) ابن النديم ص ٢٦٨ .

وبالإضافة الى الصورة المأمونية وضع علماء الهيئة والجغرافيا للمأمون كتابا في وصفها اعان عمال الدولة على التعرف الى البلاد والامم التي كانت خاضعة للدولة العباسية (٣٥) .

وكذلك كان بيت الحكمة يحتوي على كتب كتبت بخطوط قديمة من امثال الخط الحثي ، والخط الحميري ، الى جانب الكتب المكتوبة بالخط الارامي ، والسرياني ، والعبري ، واليوناني ، والنبطي وغيرها ، كما اشار الى ذلك ابن النديم . كذلك ذكر ابن النديم نفسه عن وجود كتاب في بيت الحكمة ، مكتوب على جلد ادم بخط عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول عليه الصلاة والسلام (٣٤) .

× × ×

كان من بين الاسباب التي شجعت المترجمين على نقل الكتب القديمة ، ما كانوا يحصلون عليه من اموال وهبات ، من الخلفاء العباسيين ، ومن الاشخاص الذين كانوا يهتمون بهذه العلوم ، من امثال بني برمك ، وبني شاعر المنجم ، وغيرهم . فقد كان المأمون مثلا يدفع الى « حنين بن اسحق » زنة ما يترجمه ذهباً . ولذلك كان « حنين » يعمد الى الكتابة على ورق سميك وثقيل ، وياحرف كبيرة ، لكي ترتفع زنتها ، فتزداد مكافاته (٣٥) .

وكان اولاد « موسى بن شاعر » ممن عنوا باخراج الكتب من بلاد الروم « وبذلوا الرغائب ، وانفذوا حنين بن اسحق » وغيره الى بلد الروم ، فجاؤوهم بطرائف وغرائب المصنفات في الفلسفة ، والهندسة ، والموسيقى ، والارتماطيقي ، والطب قال « ابو سليمان المنطقي السجستاني » ان « بني المنجم » كانوا يرزقون جماعة من الثقلة ، منهم « حنين بن اسحق » ، و « حبش بن الحسن » ، وثابت بن قره « وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة » (٣٦) .

وكان من بين الذين شجعوا حركة الترجمة ، وبذلوا الاموال في سبيلها ، الوزير « محمد بن عبد

(٣٥) نفس المصدر

(٣٦) ابن النديم : الفهرست ص ٢٩

(٣٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٦١ ط ١٩٥٨ .

(٣٦) يقصد بهم اولاد موسى بن شاعر الملقب بالمنجم : انظر مقالنا عنهم في مجلة العربي « الكونية سنة ١٩٧١ »

(٣٧) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٤ وابن القطي ص ٢٠-٢١

اعمال الترجمة فيه ، ويساهم نفسه في تلك الاعمال ، وكان يطلق عليه اسم « صاحب بيت الحكمة » .

كان « سلم » ، ولم يذكر المؤرخون سوى اسمه هذا مجردا ، اول من تولى رئاسة بيت الحكمة في عصر هرون الرشيد ، وكان حاذقا في اللغتين الفارسية واليونانية بدليل انه كان من بين الذين اختارهم كل من الرشيد والمامون لجلب الكتب العلمية من بلاد الروم .

وكان « سلم » هذا يشرف في الاصل على ترجمة الكتب الفارسية التي تجمعت في بيت الحكمة ، وذكر عنه « ابن النديم » بانه كان ينقل من اللسان الفارسي الى العربي ، غير ان ابن النديم لم يذكر له اي كتاب مترجما كان ام موضوعا .

ومن الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة « يوحنا ابن ماسويه ، الذي ادخلناه ضمن كبار المترجمين ويرى بعض المؤرخين ان « يوحنا » هذا كان اول رئيس لبيت الحكمة ، وانه كان بالاضافة الى ذلك يشرف على ترجمة الكتب التي جلبها الرشيد من عمورية وانقرة ، وكان يعمل تحت يده عدد من المترجمين ، والكتابة ، والنسخ .

ومن الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة في عهد المامون : « سهل بن هارون » وهو فارسي شديد التعصب لقومه الفرس ، مقدع الهجاء للعرب . وكان « سهل » هذا يشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمامون من جزيرة قبرص .

وكان سهل بن هارون قد انتقل اول الامر من فارس الى البصرة ، ومن ثم جاء بغداد والتحق بخدمة المامون . وكان حكيما وفصيحا وشاعرا ويقول « ابن النديم » عنه انه « فارسي الاصل » شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب . وله في ذلك كتب كثيرة ، ورسائل في البخل ، وعمل للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ، ويرغبه فيه ، ويستميحه في خلال ذلك ، فاجابه الحسن على ظهر رسالته « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك ، وقد جعلنا المكافاة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام... (٢٥) .

ومن ثم تولى « حنين بن اسحق » رئاسة بيت الحكمة طيلة عهدي المامون والمعتمد وحتى عصر المتوكل ، وقد نهض بهذه المهمة على احسن وجه ، واحاط نفسه بعدد من المترجمين الذين دربهم على هذه الصنعة خير تدريب .

(٢٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٨٠ .

كان من نتائج الاضطراب الذي اعقب وفاة المامون ، وتعاظم نفوذ الجند الاتراك ، وتدخلهم في شؤون السلطة ايام المعتمد ، ثم انتقال مركز الخلافة من بغداد الى سامراء ، ان قلت العناية ببيت الحكمة ، وانفرط عقد العلماء والدارسين فيها ، وسرى الخراب اليها ، حتى تولى « المتوكل على الله » الخلافة (٢٣٣ هـ - ٨٤٧ م) ، فقد كان المتوكل - مع ما اشتهر به من الشدة والقسوة - محبا للعلم ، وراعيا للعلماء ، اعاد فتح بيت الحكمة وبذل له الهبات ، ولذلك اتت حركة الترجمة خير ثمارها في عهده ، ذلك لانه عهد برئاسة بيت الحكمة مجددا الى « حنين بن اسحق » نهض حينئذ بهذه المهمة خير نهوض ، واحاط نفسه بعدد من خيرة المترجمين على اعمال الترجمة احسن تدريب ، وبقي بيت الحكمة قائما الى ان داهم المغول بغداد « فذهبت خزانة الكتب فيما بعد ، وذهبت معالمها ، وعفيت آثارها » (٢٦) .

x x x

لقد كان انشاء بيت الحكمة فتحا مبينا للعرب المسلمين في ميدان العلم والمعرفة ، بضاهي فتوحاتهم الكبرى في ميادين السياسة . يقول المستشرق الانكليزي « دبلاسي اوليري » « لقد انشأ الخليفة المامون مدرسة سماها بيت الحكمة ، وجعلها ممهدا تعد فيه الترجمات لكتب علماء اليونان ، ليتسّم تداولها بين العرب ومنذ ذلك الوقت سارت الترجمة قدما . ولم يمض وقت طويل حتى وجد الطلاب من العرب ، ان قد تيسر لهم الاطلاع في العربية على الشطر الاكبر من مؤلفات جالينوس ، وابقراط ، وبطليموس ، واقليدس ، وارسطو ، وغيرهم من فطاحل المؤلفين في اليونان » (٢٧) .

ويعتبر الدكتور فيليب حتي بيت الحكمة « اهم مجمع علمي تم تشييده منذ ان انشئت مدرسة الاسكندرية في النصف الاول من القرن الثالث قبل الميلاد . وكان هذا المعهد في الوقت ذاته من اهم خزائن الكتب في الاسلام ، على اختلاف دوله وعصوره » (٢٧) .

x x x

(٢٦) ماكس مايرهوف في « تراث الاسلام » ج ١ ص ١٧٧ ترجمة جرجيس فتح الله .

(٢٧) دبلاسي اوليري : كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب ص ٢٢٧ .

Ph. Hitti : History of the Arabs P. 316 (٢٧)

عدي التكريتي ، ويوحنا بن يوسف الكاتب ، وابوب
الرهاوي ، وآخرون غيرهم ممن أورد ابن النديم
أسماءهم في كتابه « الفهرست » .

أما الذين اشتهروا بالنقل من الفارسية فهم
آل نوبخت ، وعبدالله بن المقفع ، وموسى ويوسف
ولدا خالد ، وعلي بن زياد التميمي ، والحسن
ابن سهل ، واحمد بن يحيى البلاذري ، وجيلة بن
سالم ، واسحق بن يزيد ، ومحمد بن الجهم
البرمكي ، وموسى بن عيسى الكردي ، وهشام بن
القاسم وغيرهم .

وكان النقلة من اللغة الهندية الى العربية
يؤلفون فريقا كبيرا ايضا من أشهرهم أبو الريحان
البيروني ، ومن أقدمهم منكة الهندي ، وابن دهن
الهندي الذي كان يشرف على بيمارستان البرامكة ،
وصالح بن بهلة ، وسواهم .

وكان كل من « ابن وحشية » و « ابن العوام »
ينقلان عن اللغة النبطية ، وقد تخصصا في نقل كتب
الفلاحة والنبات .

ولقد تناولت حركة الترجمة سواء في العصر
الاموي ام في العصر العباسي - سائر العلوم
والمعارف ، وعلى الاخص علوم الطب والفلسفة
والفلك والكيمياء والحركات والهندسة ، وذلك لانه
لم يكن للعرب في جاهليتهم سوى المام بسيط
وبدائي بهذه العلوم .

وبلغ اندفاع العرب في نقل العلوم القديمة
قصى مداها في عصري الرشيد والمامون بصفة خاصة
ذلك لانه ما يكاد يصل كتاب الى يد الخليفة او سواه
من المعنيين بهذه العلوم ، حتى يقبل القوم على
ترجمته واستنساخ تلك الترجمة بأعداد كبيرة ،
ووضع الشروح والتفاسير له والتعليقات عليه في
كتب خاصة ومطولة أحيانا .

وأكثر من هذا ان كثيرا من الكتب ، وعلى
الاخص مؤلفات أرسطو وأفلاطون وإبقراط
وجالينوس وبطليموس وأقليدس وغيرهم ، قد
ظهرت عدة ترجمات لها ، وأقبل أكثر من مترجم
على نقلها ، وأكثر من شارح على شرحها والتعليق
عليها .

ولنأخذ على ذلك مثلا كتاب « المجسطي » فقد
ترجم هذا الكتاب عدة ترجمات على أيدي مترجمين
مختلفين ، كما نقلت بعض هذه الترجمات ،
وصححت مرات عديدة . فقد كان من بين الذين
ترجموا المجسطي ، الحجاج بن مطر ، وسهل بن
ربن الطبري ، وحنين بن اسحق ، وأبو الريحان

شارك عدد كبير من العلماء والمترجمين في
النهوض بأعمال الترجمة في بيت الحكمة وفي خارجها .
فمن بين الذين عملوا بصفة مترجمين « سلم »
صاحب بيت الحكمة الذي كان يترجم عن الفارسية
وكان في الوقت ذاته يشرف على ترجمة الكتب التي
وردت للمامون من الأستانة ، وكان يشاركه في ذلك
سهل بن هارون بن رافوي الفارسي ، وهو ينقل عن
الفارسية ، وقد اشرف على ترجمة الكتب التي
وردت للمامون ايضا من جزيرة قبرص . وعمل
سعيد بن هارون الكاتب في بيت الحكمة ايضا وكان
ينقل من الفارسية الى العربية .

واشتغل يوحنا بن ماسويه الى جانب رئاسته
لبيت الحكمة في ترجمة كتب الطب التي جلبت
للرشيد من بلاد الروم . وتولى أبو بكر يحيى ابن
البطريق ترجمة كتب أرسطو في الفلسفة ، وإبقراط
في الطب .

وعمل حنين بن اسحق العبدي مترجما في
بيت الحكمة ورئيسا لها ، فقام بترجمة كتب الطب
والفلسفة والفلك وغيرها وسار على منواله كل من
ولده اسحق بن حنين ، وابن اخته حبيش بن
الحسن الاعسم ، وكانا من المترجمين في بيت
الحكمة .

ومن المترجمين الذين عملوا في بيت الحكمة
ايضا ، وكانوا ينقلون عن اليونانية والسيرانية ، كل
من يحيى بن أبي منصور النجم الوصلي ، وحبيب
ابن بهريز مطران الوصل ، والعالم الرياضي ثابت بن
قرة الصابي ، وقسطا بن لوقا البليكي . كما كان
من مشاهير المترجمين في بيت الحكمة ، الحجاج بن
مطر ، وعمر بن الفرخان الطبري .

وبالإضافة الى اعمال الترجمة اشترك عدد
من هؤلاء المترجمين في البعثات التي ارسلت الى بلاد
الروم وغيرها للبحث عن الكتب العلمية فيها ،
وجلبها الى بغداد .

وقد شارك معظم هؤلاء المترجمين في ترجمة
كتب اليونان ، اما عن اللغة الإغريقية رأسا ، او عن
الترجمات السيرانية التي وضعت للكتب اليونانية ،
وكان هذا الفريق وفير العدد ، نذكر منهم غير الذين
وردت اسماءهم في سياق البحث ، « البطريق »
والد « يحيى ابن البطريق » ، وعبد المسيح بن ناعمة
الحمصي ، وهلال الحمصي ، وسلام الأبرش ، وزوربا
ابن ماجوه الناعمي الحمصي ، وباسيل المطران ،
وأصطف بن باسيل ، وأبو نوح بن الصات ، ويحيى
ابن عدي التكريتي ، وأخوه أبو الفضل جريبر بن

البيروني . وكان ثابت بن قرة الصابي على رأس الذين اصلحوا ترجمة الجسطي ، وتوجد الان نسخة خطية من ترجمة الحجاج بن مطر لكتاب الجسطي . في مكتبة « ليدن » بهولندا (٢٨) .

ومثل هذا القول يصدق ايضا على كتاب « السند هند » الشهير الذي وضعه العالم الرياضي الهندي « براهمفت » في سنة ٦٢٨م بعنوان « براهمست سندھانت Brahma Shopta Sind Hanta » ومعناه « كتاب الهيئة المصحح النسوب الى براهمفت » .

وكان الخليفة ابو جعفر المنصور قد امر بترجمة هذا الكتاب الى العربية ، فاقبل على ترجمته غير واحد من المترجمين : كان اولهم ابراهيم بن حبيب الفزاري ، ثم ترجمه من بعده يعقوب بن طارق النجم ، وآخرون غيره .

× × ×

كان الطب والفلك من اول العلوم التي اشتغل العرب المسلمون بنقلها الى اللغة العربية ، وذلك يعود في الدرجة الاولى الى الاهتمام الكبير الذي يوليه العرب لهذين العلمين . فقد ذكر الاستاذ « كرونليني » في كتابه « علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى » ان « اول ما اشتغلت به البلاد الاسلامية من العلوم ، هي العلوم العملية ، وخصوصا الطب والكيمياء : واحكام النجوم » (٢٩) .

في حين يذكر دبلاسي اوليري في كتابه « كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب » ان « هناك من الاسباب ما يدعو الى الاعتقاد بان بعض الترجمات الاولى التي نقلت عن اليونانية مباشرة ، كانت تخص العلك والرياضيات » (٤٠) .

وهذا الاهتمام بعلوم الطب والكيمياء والفلك قد برز حتى في عهد الامويين ، وكان من العوامل التي وجهت اذظار العرب الى نقل كل ما تيسر لديهم نقله من الكتب التي تبحث هذه العلوم ، والعمل على نشرها قبل المبادرة بنقل غيرها من المصنفات .

فقد ثبت ان اول كتاب في الرياضيات ترجم الى اللغة العربية هو كتاب « السندھانتا » الذي اشتهر لدى العرب باسم « السند هند » الذي

سبقت الاشارة اليه . فقد جلب هذا الكتاب احد اعضاء الوفد الهندي الذي قدم الى بغداد سنة ١٥٤هـ ٧٧١م ، وحظي بمقابلة الخليفة ابي جعفر المنصور (٤١) . وكان من اوائل الكتب الطبية التي ترجمت الى العربية كتاب « شاناق » عن السموم وقد ترجمه « منكه » الهندي ، كما نقل « كنكه » الهندي ، وهو من كبار علماء الهند ، كثيرا من الكتب الطبية والفلكية الى اللغة العربية .

× × ×

كانت غالبية الكتب التي جرت ترجمتها من اللغة اليونانية ، سواء في بيت الحكمة ام خارجه ، من الكتب اليونانية . وكانت هذه الكتب المترجمة تؤلف قائمة ضخمة بصمب تعدادها ، ذلك لان ما ذكره كل من ابن النديم ، والقفطي ، وابن ابي اصيبعة ، وابن جليل ، وحاجي خليفة ، وغيرهم ممن عنوا بجمع اسماء المصنفات واصحابها ، لا يؤلف في الواقع سوى نسبة ضئيلة مما تمت ترجمته من هذه الكتب . ذلك لان عدد الكتب اليونانية المترجمة قد تجاوز الخمسمائة كتاب بل اكثر من ذلك بكثير .

وكانت معظم الكتب التي ترجمت عن اللغات الهندية تبحث في الطب والفلك والرياضيات من امثال « السند هند » وكتاب « ارباهيت » وكتاب « كهند كهاديك » وكتاب « شاناق » في السموم والتدبير ، وكتاب « روسا » - وهي امرأة هندية - في امراض النساء وعلاجها ، وكتاب « شارك سهتيا » في الطب الهندي ، وكتاب « شارك سهتيا » في الطب ، وكتاب « بيدبا » في الحكمة ، وكتاب « اسرار المسائل » وكتاب « سير » الذي ترجمه « منكه » ، وكتاب « عشر مقالات » لمنكه ايضا وكتاب « سدستاق واستانكي » الجامع وقد ترجمهما « ابن دهن » . وترجم البيروني كتاب « بانفسل سوترا » ، وكتاب « الكسوفين » عند الهند ، وكتاب « لكهرجانكم راشاكات هند » (٤٢) .

ومن مؤلفات ومترجمات « كنكه » كتاب « اشودار » في الاعمار ، وكتاب القرائات الكبير ، وكتاب القرائات الصغير ، وكتاب في التوهم ، وكتاب في احداث العالم ، وكتاب الدرر في القرآن (٤٣) .

(٤١) كرونليني : علم الفلك تاريخه عند العرب ص ١٢٩ .
(٤٢) مهيش برشاد : بين اللقتين العربية والسنسكريتية مجلة « ثقافة الهند » الجزء الاول ص ٩٥ مارس ١٩٥٠ .
(٤٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢٨) جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٢٩) كرونليني : علم الفلك ص ١٢٢ .
(٤٠) De Lacy O'leary : How Greek Sciences Passed to the Arabs P. 175 .

ترجما كتاب « خديانامك » . ولعل موسى بن عيسى هو الذي ترجم قصة السنديباد التي بقيت منها ترجمة يونانية « (٤٦) » .

وترجم أبان بن عبد الحميد اللاحقي كتاب سيرة اردشير ، وكتاب سيرة انوشروان ، وكتاب « بلوهر وبوداسف » وهذا الكتاب حكاية بوذية ترجمت للمعاوية في « السند » فاعجبوا بها ، وعكفوا على قراءتها ، والى هذه الترجمة ترجع صياغتها الحالية « (٤٧) » . كما ترجم « أبان » ايضا كتابا في الرسائل ، وكتاب حلم الهند ، وغيرها . وقيل انه ترجم هذه الكتب شعرا .

وترجم « علي بن زياد » كتاب زيج الشهر ، في حين ترجم اسحق بن يزيد كتاب « اختيار نامه » وأثبت ابن النديم في كتابه طائفة كبيرة بأسماء الأشخاص الذين قال انهم كانوا يقومون بأعمال الترجمة من الفارسية الى العربية ، من امثال آل نوبخت ، والحسن بن سهل ، وعمر بن المرفحان وجيلة بن سالم ، واحمد بن يحيى البلاذري .

وكان من بين المترجمين الشهرين عن الفارسية ابو العباس الدميري ، ومحمد بن خلف بن المزيان الذي قيل عنه انه ترجم اكثر من خمسين كتابا « (٤٨) » .

وتبدو اهمية بيت الحكمة فيما هياه من اجواء وامكانيات لدوي الواهب من العلماء والمفكرين ، الذين عكفوا على وضع مختلف المؤلفات في شتى اصناف العلوم العقلية منها والعملية . فقد استفاد من بيت الحكمة ، ومواظبة البحث والتأليف فيه ، عدد كبير من مشاهير العلماء والمؤرخين ، على رأسهم العالم الرياضي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي مؤسس علم الجبر والمقابلة ، والذي اشتهر لدى الغربيين باسم « اللوغارتمي » فاصبحت هذه الكلمة تعني « الجبر » ونقلت بشكلها المحرف حتى الى كتب الرياضيات التي تدرس في كل مدارس العالم العربي في الوقت الحاضر .

فلقد استطاع الخوارزمي بما اطلع عليه من الكتب المحفوظة في مكتبة بيت الحكمة ، ان يضع كتبه الرياضية هذه ، وان يؤلف الزيج الشهير بالاضافة الى كتبه التي تبحث في الاسطرلاب وغيره .

وبامر من الخليفة هرون الرشيد ، وفي بيت الحكمة نفسه ، وضع « الاصمعي » اللغوي الشهير

وهناك كتب هندية اخرى ترجمت الى العربية ايضا منها كتاب سيرك الهندي ، وكتاب علامات الادواء ، وكتاب الحار والبارد ، وكتاب الموالييد من تأليف الطبيب الهندي جواد ، وكتاب سرور في الطب نقله منك ، وكتاب عقاقر الهند من نقل منك ايضا ، وكتاب « مختصر الهند في العقاقر » ، وكتاب علامات الحبالى ، وكتاب السكر ، وكتاب راي الهند في اجناس الحيات وسومها .

وترجم البيروني ، الى جانب ما ذكرناه قبلا ، كتابا عن طرق الحساب ، ومقالة في الامراض العفنة ومقالة في الجوايات الواردة من منجمي الهند ، كما اصلح ترجمة كتاب « اربابته » .

ومن كتب الحكم والادب والاساطير التي نقلت من الهندية الى العربية كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب السنديباد الكبير والسنديباد الصغير ، وكتاب « بوداسف » وكتاب « بوداسف مفرد » ، وادب الهند والصين ، وكتاب « هابل » في الحكمة ، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم ، وكتاب « ديك » الهندي وكتاب حدود الهند ، وكتاب « ساديرم » ، وكتاب ملك الهند القتال والسباح ، وكتاب « بيافر » عن اصول الالحن « (٤٩) » .

بدات حركة النقل عن الفارسية الى العربية في عصر ابي جعفر المنصور كما اسلفنا ذكر ذلك وكان ابن المقفع في مقدمة الذين نقلوا عن الفارسية فقد ترجم ، الى جانب كليلة ودمنة ، كتاب سيرة ملوك العجم وهو الكتاب الفهلوي المعروف باسم « خدای نانمة » وكتاب « الاثين » وكتاب « الين نامه » عن انظمة الدولة ، وكتاب التاج الذي قيل انه كان في سيرة انوشروان و اردشير ، وكتاب مزدك وهو قصة روائية ، وعن الفارسية ايضا ترجم ابن المقفع بعض كتب ارسطو وفرقريوس .

وفي زمن ابن المقفع على وجه التقريب اشتغل بعض معاصريه من العجم ايضا في ترجمة كتب من الادب الفارسي الى العربية ، منهم محمد بن جهم البرمكي ، وزارويه بن شاهويه الاصفهاني ، ومحمد ابن بهرام بن مهيار الاصفهاني ، وهشام بن القاسم الاصفهاني « (٥٠) » .

ومن الذين ترجموا عن الفارسية ايضا بهرام ابن مردانشاه ، وموسى بن عيسى الكردي ، اللذان

- (٤٩) جرجي زيدان : تاريخ التمسيد الاسلامي ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وابن النديم : الفهرست ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .
(٥٠) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج ٢ ص ١٠٢ .

- (٤٦) ذات المصدر .
(٤٧) نفس المصدر ص ١٠٢ .
(٤٨) نفس المصدر .

اصبح كاتباً لدى عيسى بن علي العباسي عم الخليفة
ابي جعفر المنصور ، وعلى يده اعلن اسلامه ، وان
ظل يخفي عقيدته المانوية والزرذشتية .

وكان ابن المقفع كاتباً مجيداً وشاعراً بليغاً
وهو من خيرة الذين نقلوا عن الفارسية الى العربية
لكنه كان في الوقت ذاته شديد التعصب لقومه
الفرس ، مقدع الهجاء للعرب . فقد كان في مقدمة
الادباء الذين سعوا الى نشر الاداب الفارسية في
العصر العباسي ، والمفاخرة بما كان عليه ملوك فارس
من ابهة وفخفة ، ومن الذين عمدوا الى نشر الافكار
المانوية والزرذشتية في المجتمع الاسلامي آنذاك .

كان اول ما ترجمه ابن المقفع عن الفهلوية ،
اللغة الفارسية القديمة ، هو كتاب « كليلة ودمنة »
وهو مؤلف هندي الاصل يدعى « بنجه تتر » اي
« الكتاب الخمس » (٤٩) ، كما عرف ايضا باسم
« اساطير بيدبا » وقد ترجمه ابن المقفع ترجمة
بليغة تعد نموذجاً بارزاً من روائع النثر العربي .
ولا عجب في ذلك فقد ذكر ان ابن المقفع قد تفقه في
العربية على يد « الخليل » (٥٠) . وقد ضاع الاصل
الفارسي والسسكريتي لهذا الكتاب ، ولم تبق
سوى ترجمته العربية التي ذاعت ذيوها منقطع
النظير في العالم الاسلامي . واعتمد الاوربيون على
الترجمة العربية هذه فنقلوا كتاب كليلة ودمنة الى
مختلف لغاتهم منذ اوائل القرن التاسع عشر .

وقد بقيت للكتاب ترجمة سريانية وضعها
الداعية النسطوري « بود » في حدود سنة ٥٧٠م
وتم نشرها على يد كل من « بيكل » و « بنفي » سنة
١٨٧٦م (٥١) .

وترجمت كليلة ودمنة الى الفرنسية على يد
المستشرق سلفستر دي ساسي ، ونشرت في باريس
سنة ١٨١٦ . وترجمها « فولف » الى الالمانية
ونشرها في شتوتغارت سنة ١٨٣١ . ونشرت لها
ترجمة انكليزية في اكسفورد سنة ١٨١٩ ، وترجمة
ايطالية في سنة ١٩١٠ ، وترجمة روسية سنة
١٩٣٤م (٥٢) .

وترجم ابن المقفع - كما اشرنا الى ذلك قبلاً - كتاب

- (٤٩) دي بوير : تاريخ الفلسفة في الاسلام : ترجمة
عبدالهادي ابو ريدة ص ١٢ .
(٥٠) المصدر نفسه ص ٢٩ .
(٥١) ديلاسي اوليري : الفكر العربي مكانته في التاريخ
ص ١٢٢ .
(٥٢) بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ج ٢ ص ٩٢ - ٩٥ .

كتاباً عن تاريخ الملوك الغابرين ، كما وضع « الفراء »
العالم النحوي المعروف ، وبامر من المأمون ، كتابه
في اصول النحو ، حيث افردت له غرفة خاصة في
بيت الحكمة .

وفي بيت الحكمة وضع العالم محمد بن اسحق
ابن النديم كتابه الشهير « الفهرست » كما وضع
« المسعودي » المؤرخ مؤلفاته « مروج الذهب »
والاشراف والتنبية وغيرها في ذلك المعهد العظيم
وفي بيت الحكمة ايضا وضع « حمزة الاصفهاني »
كتابه « تاريخ الملوك والانبياء » ممتداً على المصادر
التي توفرت له في تلك المؤسسة .

* * *

الان وقد انتهينا من ابراز اهمية بيت الحكمة
وما احدثه من ثورة في حركة الترجمة ، وفي نشر
العلوم في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، لابد لنا من
التحدث ، ولو بايجاز ، عن كبار المترجمين في ذلك
العصر الزاهر ، سواء منهم الذين عملوا في بيت
الحكمة ذاته ، او الذين ساهموا مساهمة حميدة
فعالة في نقل التراث العلمي والفكري ، ذلك التراث
الذي كان له اثره الكبير في تطور الفكر العربي
الاسلامي ونضوجه ، وفي ازدهار الحضارة العربية
الاسلامية التي كانت بحق وحقيقة ، المصدر الرئيس
للمدنية العالمية الحاضرة .

١ - عبدالله بن المقفع

يقول العالم الفلكي الكبير « ابو معشر الفلكي »
في كتاب « المذكرات » الذي الفه لحساب « شاذان
ابن بحر » ان « حذاق الترجمة في الاسلام اربعة .
حين بن اسحق العبادي ، ويعقوب بن اسحق
الكندي ، وثابت بن قرة الحرائي ، وعمر بن الفرخان
الطبري . ونفهم من كلام « ابي معشر » هذا ، ان
هؤلاء المترجمين اكثر حذاقاً في عمل الترجمة ، واوفر
دقة واصالة من سواهم من المترجمين الاخرين .
غير اننا نود ان نبدأ بعبدالله بن المقفع لانه من اوائل
المترجمين الحذاق والبلاء . فقد باشر عمله في
الترجمة في عهد ابي جعفر المنصور .

يكنى ابن المقفع ، وهو فارسي ، بابي عمرو
واسمه الاصل « روزبه » وقد ابدله الى « عبدالله »
بعد اعلان اسلامه . ويدعى ابوه « دادويه » ولقب
بالمقفع لال احتجته من بيت المال فضربت يده
وتفقتنا وكان ابن المقفع في اول امره كاتباً لدى
« داود بن عمر بن الحسن » اخر ولاة بني امية في
ولاية « كرمان » وقد جمع اموالاً كثيرة ، ومن ثم

التاج ، وكتاب «الانين» وكتاب «الين نامه» وكتاب «مزدك» ، وكتاب «تسر» وغيرها .

وعن اللغة الفارسية أيضا ترجم ابن المقفع ثلاثة من كتب ارسطو هي « قاطيفورياس » ، « وباراميناس » و « انا لوطيقا » كما ترجم كتاب « ايساغوجي » لفرفوريوس (٥٢) .

والى جانب هذه الترجمات وضع ابن المقفع عدة كتب منها كتاب « الادب الكبير » الذي سمي في بعض الاوقات باسم « الدرّة البيعة » ، والادب الصغير ، وكتاب رسالة الصحابة ، وكتاب الدرّة الصغيرة او الثانية ، وحكم ابن المقفع التي نشرها العلامة « محمد كردلي » في « رسائل البلاء » .
ولابن المقفع قصيدة في الشهور المسيحية محفوظة في مكتبة جامع اباصوفيا باسطنبول وقد نشرت مع ترجمة المانية لها ، كما ان له رسالة في معارضة القرآن يقول بروكلمان عنها « فلم نعرفها الا من الرد عليها الذي كتبه الامام الزيدي القاسم بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ٢٤٦هـ - ٨٦٠م (٥٤) .

٢ - **يوحنا بن ماسويه ١٩٧-٢٤٢هـ ٨٠٩-٩٥٧م**
من اوائل المترجمين في العصر العباسي، ورئيس بيت الحكمة ، ومن المعنيين عناية فائقة بالعلوم الفلسفية والطبية ، كما كان من الاطباء المشهورين في طب العيون .

كان ابوه ، وهو نسطوري ، يدق الادوية في مستشفى جنديسابور . واستطاع بفضل ممارسته وخبرته هذه ، ان يعرف كثيرا من الامراض وعلاجها ، رغم انه لم يكن يعرف الكتابة والقراءة . ولقد جاء ماسويه الى بغداد ، وحاول الاتصال بطبيب الخليفة الرشيد ، جبرائيل بن بختيشوع ، غير انه لم يفلح في ذلك ، بسبب كلام قيل انه صدر عنه في حق جبرائيل . وعندئذ اخذ ماسويه يبيع الادوية في صندوق يحمله معه ، ويجلس به عند باب الحرم في قصر « الفضل بن الربيع » وزير الرشيد . واستطاع ماسويه ان يشفي خادم « الفضل » من رمد اصاب عينها ، فاستانس به الفضل بن الربيع ، واجرى له في كل شهر ستمائة درهم ، وعلوفة دابتين ، ونزل خمسة غلمان ، وامره ان يحمل عياله من جنديسابور ، واعطاه نفقة واسعة فحمل عياله و « يوحنا » حينئذ صبي صغير (٥٥) .

وقد ذكر ابن القفطي ، واعاده ابن ابي اصيبعة رواية عن جبرائيل بن بختيشوع يفهم منها ان ماسويه تزوج في بغداد جارية « داود بن سرافيون » انجبت له ولديه « يوحنا » و « ميخائيل » .

كذلك ذكر « ديلاسي اوليري » في كتابه « كيف انتقلت العلوم اليونانية الى العرب » ان يوحنا بن ماسويه تولى مدرسة جنديسابور ومستشفاهما حين انتقل جبرائيل بن بختيشوع الى بغداد . على ان معظم الذين ترجموا ليوحنا يتفقون على انه قد تشقق في بغداد .

نشأ يوحنا ببغداد ، وبها نال تعليمه واشتهر بالطب وبالنقل من السريانية الى العربية حتى ذاع صيته ، فاتخذته الرشيد طبيبا خاصا له ، وقلده رئاسة بيت الحكمة ، وعهد اليه بالاشراف على الكتب التي جلبها من بلاد الروم .

وقد نال يوحنا الحظوة البالغة ليس لدى الرشيد حسب ، بل ولدى الخلفاء الذين اعقبوه . وكان مجلسه في بغداد اعمر مجلس لطبيب او متكلم او متفلسف ، لانه كان يجتمع فيه كل صنف من اصناف اهل الادب (٥٦) ، ولم يقتصر عمله في بيت الحكمة على الرئاسة والاشراف حسب ، وانما كان يعمل في نقل الكتب وقد ترجم كثيرا منها (٥٧) .

وقد تتلمذ يوحنا على جبرائيل بن بختيشوع في اول الامر ، ثم على يد « عيسى بن نون » الذي صار بطريركا للقسطنطينية سنة ٨٢٢م وكان يوحنا طبيبا فاضلا ، ومؤلفا بالسريانية والعربية ، وامتكنا من الاغريقية ، وجاء الى بغداد باشارة من جبرائيل بن بختيشوع ، وقدم الى بلاط الرشيد باعتباره طبيبا حاذقا ، واحد الذين يشتغلون بالطب اليوناني (٥٨) .

قال عنه « جمال الدين ابن القفطي » صاحب كتاب « تاريخ الحكماء » ، « كان يوحنا من اجل علماء عصره ، متضلعا في الترجمة ، عالما بالعلوم التي يقوم بترجمتها . كما كان يعقد مجلسا للنظر ، ويعمر ذلك المجلس بعلم هذا الشأن اتم عمارة ، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة باحسن عبارة . واجتمع اليه اهل العلوم والادب وكان يجتمع اليه تلاميذ كثيرون » (٥٩) .

(٥٧) صاعد الاندلسي : طبقات الامم ص ٥٥ .

(٥٦) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٢٢ .

(٥٨) ديلاسي اوليري : العلوم اليونانية وسبيل انتقالها الى العرب ص ٢٢٢ الترجمة العربية .

(٥٩) ابن القفطي : تاريخ الحكماء ٢٨٢ - ٢٨٢ .

(٥٢) نفس المصدر ص ٩٨ .

(٥٤) نفس المصدر ص ١٠١ .

(٥٥) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ١١٨ - ١١٩ .

وكان الواثق شغوفاً به وقد اهداه في يوم واحد ثلثمائة الف درهم . . . وذكر يوحنا عن نفسه انه اكتسب من صناعة الطب الف الف درهم ، وعاش بعد قوله هذا ، ثلاث سنين اخر (٦٥) .

وكانت وفاة يوحنا بن ماسويه « بسر من رأى » يوم الاثنين لاربع خلون من جمادى الاخرة سنة ثلاث واربعين ومائتين في خلافة المتوكل (٦١) .

x x x

٣ - ثابت بن قرة الصابي

يعد ثابت بن قرة من أشهر المترجمين وأكثرهم دقة ، وذلك بشهادة العلماء من غير العرب . فقد كان يحسن السريانية والعبرية ، واليونانية السى جانب العربية ، جيد النقل عن هذه اللغات ، الامر الذي جعل العالم الانكليزي « جورج سارطون » يعتبره من اعظم المترجمين ، واعظم من عرف في مدرسة « حران » في العالم العربي (٦٧) .

ولد ثابت بن قرة بمدينة حران يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر صفر سنة ٢١١ هـ ٨٢٦ م ونشأ على دين آبائه وهو الوثنية التي تحولت الى الصنئية (٦٨) وحين اصطلح مع رئيس كنيسة حران اصدر هذا الرئيس قرارا بحرمانه حوالي سنة ٢٥٩ هـ ٨٧٢ م وارسله الى « كفر تونا » بالقرب من « دارة » (٦٩) .

وبعد ان جال ثابت في بلاد كثيرة التقى باحد اولاد موسى بن شاكر وهو « محمد » (٧٠) عند انصرافه من بلاد الروم حيث كان يفتش فيها عن كتب الاغريق . وقد اعجب « محمد » بفصاحته فاصطحبه معه الى بغداد . وقيل ان محمد هذا قد قرا على ثابت ، وتعلم في داره ، وانه هو الذي اوصله بالخليفة المتضد ، فادخله في جلسة

(٦٥) ابن ابي اصيبعة : ج ٢ ص ١٢٢ .
(٦٦) نفس المصدر السابق .

(٦٧) و (٦٨) قدرى حافظ طوفان : العلوم عند العرب ص ١٢٧ .
(٦٩) ذكر ابن التديم ص ٢٩٤ وابن القطيبي ص ١١٥ ان ولادة ثابت كانت في سنة ٢٢١ هـ وذلك خطأ لان ابن التديم قال عنه انه توفي في سنة ٢٨٨ هـ وعمره سبع وسبعون فيكون مولده الصحيح في سنة ٢١١ .

اولري : علوم اليونان . ص ٢٢٨ وابن خلكان .
(٧٠) وقع الباحث العلامة المرحوم قدرى حافظ طوفان واخرون فيه في خطأ فاصح حين ذكروا ان الذي اتصل بثابت بن قرة هو محمد بن موسى الخوارزمي ، في حين ان الذي اتصل به في كفر تونا هو محمد بن موسى بن شاكر النجم انظر ابن القطيبي ص ١١٥ وابن اصيبعة ج ١ ص ١٩٢ واولري : علوم اليونان ص ٢٢٨ .

وكان الى جانب حذقه السريانية والعربية ، والتأليف بهما ، متمكنا من استخدام الاغريقية (٦٩) . كما انه كان من الذين اوفدوا الى بلاد الروم للبحث عن كتب العلوم اليونانية فيها (٦٥) .

لا مجال للتفريق بين الكتب التي تركها يوحنا ابن ماسويه ، وما اذا كانت موضوعة ام مترجمة . ذلك لان الذين ترجموا له لم يفعلوا ذلك ، ومنهم « ابن ابي اصيبعة » صاحب كتاب « طبقات الاطباء » الذي ذكر له اربعة واربعين مؤلفا (٦١) .

وقد ظفرت بعض كتب يوحنا بالشهرة الواسعة حتى في اوربا . ومن هذه المؤلفات ، كتابه عن « الحميات » الذي اشتهر زمانا طويلا ، وترجم الى اللاتينية والعبرية (٦٢) . ومن كتبه الشهيرة ايضا كتاب « دغل العين » في طب العيون الذي اهداه الى تلميذه حنين بن اسحق . وبلغ من شهرة هذا الكتاب انه كان من بين الكتب الطبية المقررة في الامتحان الذي اجراه الخليفة العباسي « القاهر » (٩٢٢ - ٩٣٤ م) للحصول على اجازة الطب (٦٣) .

ويعد كتاب « دغل العين » اول كتاب في طب العيون يصل اليينا . ذلك لان الكتب اليونانية والسريانية ، وما صنف باللغات الاخرى في هذا الفن ، قد ضاعت ، وتوجد مخطوطة كاملة من هذا الكتاب في مكتبة « احمد تيمور باشا » في القاهرة ، واخرى في مكتبة لينفرايد (٦٤) .

وذكر « جرجي زيدان » في كتابه « المختصر في آداب اللغة العربية » ان ما بقي من كتب يوحنا ابن ماسويه هو :

- ١ - كتاب « نوادر الطب » وفيه ترجمة لاتينية وشروح .
- ٢ - جواهر الطب .
- ٣ - كتاب ماء الشعر .
- ٤ - كتاب الادوية المسهلة وغيرها .

بقي يوحنا بن ماسويه يخدم خلفاء بني العباس حتى عهد الخليفة « الواثق بالله » (٨٤٢ - ٨٤٧ م)

(*) اولري : الفكر العربي مكانته في التاريخ ص ١٢٦ الترجمة العربية .

- (٦٥) ابن التديم : الفهرست ص ٢٥٢ .
- (٦٦) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ١٢٦ - ١٢٧ .
- (٦٧) اولري : الفكر العربي ص ١٢٧ .
- (٦٨) اولري : كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب ص ٢٢٤ الترجمة العربية .
- (٦٩) اولري : المصدر السابق .

النجميين عنده ، وذكر عن ثابت انه هو الذي ادخل رئاسة الصابئة الى العراق ، فتثبتت احوالهم ، وعلت مراتبهم ، وبرعوا (٧١) وقد اكرم المعتضد وفادته ، واجرى له معاشا شهريا قدره خمسمائة دينار ويعد ثابت اعظم هندسي عربي على الاطلاق « (٧٢) .

وروى « ابن ابي اصيبعة » كيفية اتصال ثابت بن قرة بالخليفة المعتضد بالله ، فذكر ان الخليفة « الموفق » حين غضب على ولده المعتضد ، امر بحبسه في دار اسماعيل بن بلبل ، واوكل به « احمد » الحاجب . وقد طلب اسماعيل بن بلبل الى ثابت ان يدخل الى المعتضد في سجنه ليرفه عنه ، ففعل ذلك ، فانس المعتضد به ، اذ كان ثابت يدخل عليه ثلاث مرات في اليوم يحادثه ويسليه ، ويعرفه احوال الفلاسفة ، وامر الهيئة والنجوم وغير ذلك . فشغف به ولفظ منه محله (٧٣) .

ولما تولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ ٨٩٢م زاد اهتمامه بثابت بن قرة وكرامه له ، فقربه اليه . واقطعه ضياعا جليلة . وكان يجلسه بين يديه بحضرة العام والخاص . وقد حدث ذات مرة ان كان المعتضد يتمشى مع ثابت في « الفردوس » - وهو بستان في دار الخليفة - للرياضة فاتكا على يد ثابت وهما يتمشيان ، فنثر الخليفة يده بشدة من يد ثابت وقال له « يا ابا الحسن سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون ، فان العلماء يعلون ولا يعلون » (٧٤) .

وثابت بن قرة واحد من العلماء الموسوعيين لدى العرب والذين تعددت نواحي عبقريتهم . فقد نبغ في الطب ، وفي الفلسفة ، والفلك ، والرياضيات (٧٥) . ولم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ، ولا في غيره من جميع اجزاء الفلسفة ، وحسن التخرج والتمهر في العلوم (٧٦) وقد قطع شوطا بعيدا في الرياضيات وفي الفلك ، وازاد اليها ومهد في ايجاد اهم فرع من فروع الرياضيات هو التكامل والتفاضل (٧٧) .

- (٧١) ابن القفطي ص ١١٥ وابن التديم ص ٢٩٤ وابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٢ .
(٧٢) البارون كارادي فو في « تراث الاسلام » ج ١ ص ٢٤١ .
(٧٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٤ .
(٧٤) ذات المصدر ج ٢ ص ١٩٤ .
(٧٥) قدرتي حافظ طوفان : الخالدون العرب ص ٥٨ .
(٧٦) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٢ .
(٧٧) نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٤ .

ولثابت بن قرة ارصاد حسان لمتس ، تولاهما ببغداد ، وجمعها في كتاب بين فيه مذهبه في حركة الشمس (٧٨) . كما اشتغل في التحليلات الهندسية واجاد فيها اجادة عظيمة . وله ابتكارات سبق بها الفيلسوف والعالم الرياضي الفرنسي « ديكارت » (٧٩) .

وحل ثابت بعض المعادلات التكميية بطرق هندسية ، استعان بها بعض العلماء الغربيين في بحوثهم الرياضية خلال القرن السادس عشر من امثال « كارودان » وغيره من كبار الرياضيين (٨٠) . واستخرج ثابت حركة الشمس ، وحسب طول السنة النجمية فكانت اكثر من حقيقتها بنصف دقيقة ليس الا . كما حسب دائرة البروج ، وقال بوجود حركتين ، مستقيمة ومتعقبة لقطبي الاعتدال (٨١) .

والشيء المؤكد ان ثابت بن قرة هو الذي وضع دعوى « متلاوس » حول استعمال الجيوب بدلا من الاوتار في شكلها الحاضر . فضلا عن ذلك حل بعض المعادلات التكميية بالطرق الهندسية (٨٢) .

كان ثابت من الذين مهدوا السبيل لظهور علم التكامل والتفاضل ولهذا العلم شأن خطير في الاختراع والاكتشاف ، فقد ذكر العالم الرياضي الانكليزي « سمث » في كتابه « تاريخ الرياضيات » يقول « يجدر بنا ان نذكر ثابت بن قرة الذي اوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره » (٨٣) .

ويظهر تفوق ثابت بن قرة في الطب ، بارزا من قصة القصاب الذي مات فجأة ، وكيف شرع اهله ينوحون عليه ، وكيف اسرع ثابت اليه ، فعالجه وانتداه من موت محقق (٨٤) .

x x x

وضع ثابت بن قرة ترجمات لعدد من كبار علماء الرياضيات والطب اليونانيين من امثال بوانيوس ، وارخميدس ، واقليدس ، وبطليموس . وتيودوسيوس ، وجالينوس ، بالاضافة الى اصلاحه

- (٧٨) قدرتي حافظ طوفان : العلوم عند العرب ص ١٢٧ .
(٧٩) نفس المصدر ص ١٢٨ .
(٨٠) المصدر السابق والخالدون العرب لطفوان .
(٨١) طوفان : العلوم عند العرب والخالدون العرب ، وعمر فروخ : عبقرية العرب ص ٥٢ .
(٨٢) قدرتي حافظ طوفان : تراث العرب العلمي ص ٩٨ .
(٨٣) نفس المصدر ص ١٩٩ .
(٨٤) انظر القصة ملصقة في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٩٥ وابن القفطي تاريخ الحكماء ص ١٢١ .

رأيتها بخطه مما عمله ثابت للفتيان ابقاهم الله ،
واظنه يعني بهم اولاد محمد بن موسى بن شاذان . . .
واما نقله من لغة الى اخرى فكثير» (٨٨) .

ومما ترجمه ثابت ايضا كتاب «انافروديطوس»
الذي فسر به كلام « ارسطو » عن الهالة وقوس
قزح . وكذلك كتاب « النسبة المحدودة »
لابولونيوس ، وشروح «اوطوقتيوس» لمقالة
ارخميدس في الكرة والاسطوانة ، وكتاب « اصول
الهندسة » لملاوس ، وكتاب الجغرافيا وصفة
الارض لبطيوس ، وكتاب « بيبس » الرومي عن
تفسير كتاب بطليموس في تسطيح الكرة .

ضاعت كل مؤلفات و مترجمات ثابت بن قره
التي ناهزت المائتين ، ولم يبق منها في وقتنا الحاضر
سوى قلة احصى منها بعض المتبعين الكتب
والرسائل التالية .

- ١ - كتاب الكرة والاسطوانة .
- ٢ - كتاب الماخوذات ، وكلاهما لارخميدس
ويوجد الاول في مكتبة خراحي زادة ببروسه ،
والثاني في مكتبة فاتح باسطنبول ، ومنه
نسخة في طهران .
- ٣ - كتاب المعطيات في مكتبة نور عثمانية .
- ٤ - كتاب الاصول في مكتبة فاتح .
- ٥ - عمل الدائرة المرسومة بسبعة اقسام متساوية
وهذه الكتب الثلاثة من بعض ما ترجمه ثابت
من كتب اقليدس وما ترجمه عن اوطولوقس
بقي .
- ٦ - كتاب الكرة المتحركة وهو محفوظ بصورته
الاصلية في مكتبة اياصوفيا باسطنبول .
- ٧ - كتاب في الطلوعات والفروقات منه نسخة في
اياصوفيا واخرى في طوبوقوسراي باسطنبول .
- ٨ - كتاب في حكاية ما استخرجه القدماء من خطين
بين خطين حتى يتوالى الاربعة متناسبة
لاوطوقتيوس ، منه نسخة في باريس .
- ٩ - المطالع ترجمه في الاصل حنين بن اسحق
واصلحه ثابت وهو لابستلاوس منه نسخة
في باريس .

١- المخروطات لابولونيوس صححه اولاد موسى
منه نسخة في مكتبة ليدن بهولندا .

١١- تسهيل الجسطي لبطيوس منه نسخة في

(٨٨) المصدر السابق .

كثيراً من الترجمات التي نقلت في زمانه . فالمشهور
عنه انه اصلح الترجمة التي عملها حنين بن اسحق
لكتاب « الجسطي » اصلاحا جيدا . ولم يكتف
بذلك بل قام هو نفسه بترجمة الجسطي ترجمة
جيدة ، واصلحه ، ووضع ثم اختصر ذلك الكتاب
اختصارا نافعا لم يوفق اليه احد غيره» (٨٥) .

بلغت مؤلفات ثابت بن قره في اللغة العربية
بين موضوع و مترجم مائة وخمسين كتابا .
وبالاضافة الى ذلك وضع باللغة السريانية ستة عشر
كتابا في الهندسة والحساب ، والفلك ، والفيزيقي ،
وقد ذكر كل من ابن القفطي ، وابن ابي اصيبعة
اسماء مؤلفات ثابت ، غير انهما لم يفصلا الكتب
الترجمة منها عن الموضوعية .

فما نقله عن جالينوس ، كتاب الادوية المفردة
وكتاب المرة السوداء ، وكتاب سوء المزاج المختلف ،
وكتاب الفصد ، وجوامع كتاب الامراض الحارة ،
وجوامع كتاب الكثرة ، وجوامع كتاب تشريح الرحم ،
وجوامع كتاب المولودين لسبعة اشهر ، وجوامع
تشريف صناعة الطب ، تفسير جالينوس لكتاب
ابقراط في الاهوية ، والمياه ، والبلدان ، اختصار
كتاب النبض ، جوامع كتاب النبض ، جوامع كتاب
النبض الكبير ، اختصار كتاب قوى الاغذية ، حيلة
البرء ، اختصار كتاب ايام البحران ، اختصار كتاب
الاسطقات ، جوامع كتاب الادوية النفسية ، جوامع
كتاب الاعضاء الالة ، وكتاب الكيموس .

كذلك ترجم ثابت بن قره « الكتب السبعة
الاولى » وهي ثمانية كتب من اجزاء المخروطات
لانطونيوس» (٨٦) .

ومما ترجمه عن بطليموس - بالاضافة الى
كتاب الجسطي - كتاب وجه مسيرات القمر
الدورية ، وجوامع المقالة الاولى كما ترجم رسالة
في الحجة المنسوبة الى سقراط ، وجوامع كتاب
نيقوماخوس في الارتماطيقي ، اي الحساب ، وكتاب
بار ارمينياس وجوامع كتاب انالوطيقي لارسطو ، ونقل
كتاب اقليدس في الهندسة واصلحه اصلاحا (٨٧) .

وهناك ترجمات مختصرة ذكرها ابن القفطي
فقال عنها «وله عدة مختصرات في النجوم والهندسة

(٨٥) ابن القفطي ص ١٢٠ .

(٨٦) يقول كارادي لو ان ثابت قد حفظ لنا لالة كتب من
مخروطات ابولونيوس سمعت اصولها اليونانية انظر تراث
الاسلام ج ١ ٢٢٢ الترجمة العربية .

(٨٧) ابن القفطي : ص ١١٩ .

- ١٥- كتاب في ان الخطين اذا خرجا على زاويتين قائمتين التقيا توجد منه نسخ في باريس ، واياصوفيا ، والقاهرة .
- ١٦- كتاب في الاعداد المتحابه منه نسخة في اياصوفيا .
- ١٧- رسالة في استخراج عمل المسائل الهندسية منه نسخة في باريس .
- ١٨- قسمة الزاوية بثلاثة اقسام متساوية موجود في باريس .
- ١٩- المسائل التي سأل عنها علي بن اسد منه نسخة في المتحف البريطاني .
- ٢٠- كتاب في حساب رؤية الالهة ، في المتحف البريطاني .
- ٢١- نيل المطلوب من المعاني الهندسية منه نسخ في القاهرة واياصوفيا .
- ٢٢- كتاب الروح لافلاطون منه نسخة في ميونيخ واخرى في لندن .
- ٢٣- قطوع الاسطوانة منه نسخة في اياصوفيا واخرى في القاهرة .
- ٢٤- كتاب عن الثلث قائم الزاوية في الاسكوريال .
- ٢٥- حجة سقراط في المربع وقطره ، في اياصوفيا والقاهرة .
- ٢٦- كتاب في عمل شكل مجسم ذي ١٤ قاعدة في مكتبة كوبري .
- ٢٧- كتاب في الات الساعات (الرخامات) . مكتبة كوبري .
- ٢٨- كتاب في الكرة في الاسكوريال .
- ٢٩- كتاب في ابضاح الوجه الذي ذكره بطليموس ، مكتبة كوبري .
- ٣٠- كتاب ارتعاش النجوم الثابتة .
- ٣١- كتاب في حركة الفلك في باريس وفلورنس .
- ٣٢- في البياض الذي يظهر في البدن : اياصوفيا .
- ٣٣- مساحة الاشكال المسطحة والمجسمة : اياصوفيا .
- ٣٤- النسبة المؤلفة : طوبيقوسراي .
- ٣٥- ذكر الافلاك وخلقها : اياصوفيا .
- ٣٦- السبب في ماوحة مياه البحر : طوبيقوسراي .
- ٣٧- كتاب في الهيئة : اياصوفيا(٨٩) .
- مكتبة اياصوفيا واخرى بخط عبري في مكتبة المتحف البريطاني .
- ١٢- في اقتصاص جمل حالات الكواكب المتحررة لبطليموس ايضا منه نسخة في المتحف البريطاني واخرى في لندن .
- ١٣- تصحيح كتاب الطلوعات والغروب لبطليموس كذلك ، منه نسخة في اياصوفيا واخرى في طوبيقوسراي .
- ١٤- باري ارمنياس لارسطو وبتهذيب نيقولاوس .
- ١٥- مقالة لارسطو لكتابه فيما بعد الطبيعة منه نسخة في مكتبة اياصوفيا .
- ١٦- جوامع لكتب جالينوس منها نسخة في اياصوفيا(١٨٨) .
- اما الباقى من مؤلفات ثابت فقد احصاه « بروكلمان » على النحو التالي .
- ١ - كتاب الروضة في الطب منه نسخة في بودليان .
- ٢ - جوامع من كتاب جالينوس في الذبول منه نسخة في بودليان .
- ٣ - رسالة في تولد الحصاة عن حصاة المثانة والكلى في مكتبة برلين .
- ٤ - كتاب البيطرة في مكتبة كوبري منه نسخة .
- ٥ ، ٦ - كتابان في الفلك منهما نسختان في مكتبة الاسكوريال بمدير .
- ٧ - كتاب الشكل والقطاع منه عدة نسخ في لندن وباريس ومدير واسطنبول وغيرها .
- ٨ - كتاب المفروضات منه نسخ في القاهرة وباريس واسطنبول ولندن وفلورنس .
- ٩ - رسالة في الفرستون : نظرية ميزان الذهب منها نسخ في برلين وبيروت والهند .
- ١٠- كتاب في ابطاء الحركة في فلك البروج وسرعتها منه نسخة في باريس .
- ١١- كتاب سنة الشمس والارصاد منه نسخة في الاسكوريال .
- ١٢- كتاب في تاليف النسب .
- ١٣- كتاب في مساحة الجسومات المكافئة . منه نسخ في اياصوفيا ، والقاهرة ، وباريس .
- ١٤- كتاب في مساحة قطع المخروط منه نسخ في باريس والقاهرة واياصوفيا .

وقد ذكر ابن القفطي ان ثابت بن قره وضع كتابا كبيرا في الموسيقى يقع في خمسمائة ورقة (٩٠) كما عمل ارسادا فلكية في بغداد ، حول ارتفاع الشمس ، وطول السنة الشمسية .

وقد توفي ثابت بن قره في السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٢٨٨ هـ الموافق ١٨ شباط ٩٠١ م وكانت ولادته في حدود منه ٢١١ هـ ٨٢٤ م .

حنين بن اسحق العبادي

١٩٤ - ٢٦٠ هـ ٨٠٩ - ٨٧٢ م

ولد حنين بن اسحق العبادي بالحيرة في عائلة مسيحية نسطورية النحلة . كان ابيه يبيع العقاقير في الحيرة ، وقد عمل حنين معه وهو فتى غير ان مطامحه التي كان يحلم بها لا يمكن ان يتسع لها حانوت صغير في بلدة صغيرة . فقد كانت بغداد مطمح انظاره ، ومحط اماله ، حتى لقد كان ، وهو في صغره ، يسأل رجال القوافل عن المسافة بين بغداد والحيرة .

وحدث ذات مرة ان تضرع الى مرشد احدى القوافل فقبل هذا بان يأخذه معه الى بغداد مقابل قنينة من مرهم الكافور ، وقد وافق حنين على ذلك ، وطار فرحا ، ولم تغمض له عين تلك الليلة من شدة الفرح (٩٠) . وراح حنين يحضر مجلس ابن ماسويه رئيس بيت الحكمة ، وجعل يخدمه ويقرا عليه (٩١) وقد اعجب ابن ماسويه بنباهة الفتى وذكائه ، وصار يعتمد عليه في تحضير بعض العقاقير امامه ، ويقرا له كتاب « فرق الطب » الموسوم باللسان الرومي والسرياني « بهرسييس » (٩٢) .

كان اهل جنديسابور ومتطببوها بصفة خاصة يكرهون ان يدخل انشاء التجار في صناعة الطب وهذا ما كان يباعد حنينا عن ابن ماسويه ، فضلا عن ذلك كان حنين كثير السؤال الامر الذي لم يحتمله ابن ماسويه . فقد حدث ان سأل حنين حين كان يقرا عليه سوآلا في قضية « فحرد يوحنا وقال : ما لاهل الحيرة وتعلم الطب ؟ سر الى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهما تشتري منها قفاقا صغيرة بدرهم ، وزرنیخا بثلاثة دراهم ، واشتر بالباقي فلوسا كوفية وقادسية ، وضع زرنیخ القادسية في تلك القفاف ، واقعد على

الطريق ، وضع الفلوس الجيدة للصدقة والنفقة ، وبع الفلوس فانه اعود عليك من هذه الصناعة » ثم امر به فاخرج من داره ، فخرج حنين باكيبا مكروبا (٩٣) .

بعد تلك الحادثة مباشرة وطد حنين عزمه على ان يتقن صناعة الطب ، ويتعلمها بلغتها الاصلية وهي اليونانية ، ولذلك شد الرحال الى آسيا الصغرى لتعلم اللغة الاغريقية ، واتقان صناعة الطب ، حتى اذا ما اكمل هناك ثلاث سنوات ، عاد الى بغداد متخفيا في زي كاهن ، وقد اطلق شعر رأسه ولحيته ، وراح يتردد على بيت « اسحق بن الخضي » وهو من الملمين باليونانية الماما جيدا ، حتى اكتشف امره يوسف بن ابراهيم الطبيب ، اذ سمعه ذات مرة يترنم باشعار هوميروس كبير شعراء الاغريق ، فعرفه من نعمته ، وقد اسر حنين الى يوسف هذا بان لا يفضح امره ، لانه يريد ان يحكم اللسان اليوناني قبل ان يتعلم الطب (٩٤) .

اصل حنين بعد عودته الى بغداد باولاد موسى بن شاكر النجم ، فعهدوا اليه بمهمة السفر الى بلاد الروم على نفقتهم الخاصة ، وجلب كل ما يعثر عليه من كتب اليونان في الفلسفة والظلك والرياضيات ، وقد سافر حنين الى بلاد كثيرة ووصل الى اقاصي بلاد الروم ، ثم عاد الى بغداد فامضى فيها فترة ، رحل بعدها الى البصرة حيث تعلم العربية على الخليل بن احمد . وكان حنين هو الذي ادخل كتاب « العين » للخليل بن احمد الفراهيدي الى بغداد (٩٥) .

بعد ان اكمل حنين تمكنه من اللغة العربية اقبل على ترجمة الكتب اليونانية ، واتصل خلال وجوده في بغداد بجبرائيل بن بختيشوع . ويذكر يوسف بن ابراهيم الطبيب انه دخل يوما على جبرائيل فوجد عنده حنينا وقد ترجم له اقسامًا من كتب جالينوس في التشریح . وكان جبرائيل يخاطب حنينا بكلمة « المعلم » فاستعظم يوسف ما سمع وما رأى ، فرد عليه جبرائيل يقول « لا تستكثر ما ترى من تبجیلی هذا الفتى فوالله لئن مد له في العمر ليفضحن « سرجيس » وكان جبرائيل يقصد بذلك سرجيس الراسميني ، وهو اول من نقل علوم اليونان الى اللغة السريانية (٩٦) .

(٩٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤١ والقفطي ص ٨٤ .

(٩٤) ذكر ابن ابي اصيبعة نقلا عن سليمان بن جليل ان حنينا تعلم لسان اليونانيين في الاسكندرية وهذا قول مشكوك فيه .

(٩٥) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٦ - ١٤١ .

(٩٦) المصدر ذاته ص ١٤١ .

(٩٠) ابن القفطي ص ٨٢ .

(٩١) ابن القفطي ص ٨٤ .

(٩٢) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٢٩ .

من اولئك المترجمين نوع الكتب التي يترجمونها ، ثم يفتح ما استفلق عليهم من الفاظها ، ويصحح ما يجده في ترجماتهم من اخطاء . وكان من اولئك المترجمين ابن اخته حبش بن الاعسم ، وموسى بن يحيى بن ابراهيم ، واصطنع بن باسـمـيل ، وموسى بن خالد الترجمان ، ويحيى بن هارون ، وغيرهم (٩٦) .

وذكر جرجي زيدان ان الحجاج بن مطر ، وابن الطريق وسلما صاحب بيت الحكمة قد عملوا تحت امرة حنين ليصلح ما يترجمونه « (١٠٠) .

وكذلك نبه ذكر حنين في الطب الى جانب نبوغه في الترجمة ولذلك اختاره الخليفة المتوكل طبيباً خاصاً له ، بعد ان امتحنه امتحاناً عصيباً اذافه فيه سوء العذاب ، ذلك لان المتوكل كان يخشى ان يكون حنين مدسوساً عليه من ملك الروم . وقد سرد كل من ابن ابي اصبيمة ، وابن جلجل ، والقفطي ، ذلك الامتحان في مؤلفاتهم . وخلاصة ما ذكره هؤلاء هو ان المتوكل بعد ان اقطع حنيناً اقطاعاً بدر عليه خمسين الف درهم في السنة ، طلب اليه بان يهيء له دواء يقتل به الاعداء ، فرفض حنين ذلك الطلب فامر المتوكل بالقائه في السجن ، فمكث فيه سنة كاملة كان خلالها ينقل ، ويفسر ، ويصنف ، وهو غير مكترث بما هو فيه (١٠١) .

وبعد انتضاء السنة اخرجته المتوكل من السجن واحضره امامه ، واحضر اموالاً طائلة يرغب فيها ، كما احضر سيفاً ونظماً وسائر ادوات التقويات ، وخيره بين ان يقبل بطلبه فيهه تلك الاموال ، وبين ان يرفض فيقتله . فاصر حنين على الرفض ، واذاً ذلك ابتسم المتوكل وقال « يا حنين طب نفساً وثق بنا . فهذا الفعل منا كان لامتحانك ، لانا حذرنا من كيد الملوك ، واعجبنا بك ، فاردنا الطمانينة اليك ، والثقة بك ، لننتفع بعلمك (١٠٢) .

وحين ساله المتوكل عما منعه من تلبية طلبه ، اجاب حنين يقول « تمنني شيئان يا امير المؤمنين هما الدين والصناعة . فالدين يامرنا باستعمال الخير والجميل مع اعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء ؟ والصناعة تمنعنا من الاضرار بابناء الجنس ، فانها موضوعة لنفعهم ، مقصورة على معالجتهم . ومع هذا فقد حصل في رقاب الاطباء عهد مؤكد بايمان

ويستطرد « يوسف بن ابراهيم » في حكايته فيقول « وخرج حنين ، واقمت طويلاً ، ثم خرجت فوجدت حنيناً في الباب ينتظر خروجي ، فسلم علي وقال « قد كنت سالتك ستر خبري ، والان فانا اسالك اظهاره وظهاره ما سمعت من ابي عيسى وقوله في . فقلت له « وانا مسود وجه يوحنا بما سمعت عن ابي عيسى لك » فاخرج من كفه نسخة مما كان دفعه الى جبرائيل وقال لي « تمام سواد وجه يوحنا يكون بدفعك اليه هذه النسخة ، وسترك عنه علم من نقلها ، فاذا رايتنه قد اشتد عجبها بها ، اعلمه انه اخراحي . ففعلت ذلك من يومي وقبل انتهائي الى منزلي .

فلما قرأ يوحنا تلك الفصول ، وهي التي يسميها اليونانيون « الفاعلات » ، كثر تعجبه وقال : اترى المسيح اوحى في دهرنا هذا الى احد ؟ فقلت له في جواب قوله : ما اوحى في هذا الدهر ولا في غيره الى احد ، ولا كان المسيح الا احد من يوحى اليه « فقال « دعني من هذا القول . ليس هذا الاخراج الا اخراج مؤيد بروح القدس ! » فقلت له « هذا اخراج حنين بن اسحق الذي طردته من منزلك ، وامرته ان يشتري فلوساً » فحلف بان ما قلت له محال ، ثم صدق القول بعد ذلك ، وسألني التلطف لاصلاح ما بينهما ، ففعلت ذلك ، وافضل عليه افضلًا كثيراً ، واحسن اليه ، ولم يزل مبعجلاً له ، حين فارقت العراق في سنة خمس وعشرين ومائتين (٩٧) .

ومنذ ذلك الوقت لازم حنين يوحنا بن ماسويه وتعلم له ، واشتغل عليه بصناعة الطب ، كما نقل له نقولاً كثيرة وخاصة من كتب جالينوس ، بعضها الى السريانية وبعضها الى العربية (٩٨) .

ونظراً لما لسه اولاد موسى بن شاعر مسن عبقرية حنين في ترجمة الكتب التي جلبها لهم من بلاد الروم وغيرها ، قدموه الى الخليفة المأمون سنة ٨٢٨م باعتبارها من خيرة المترجمين ولم يلبث المأمون بعد ان ذاع صيت حنين ونبه ذكره ، ان اختاره رئيساً لبيت الحكمة ، واولكل اليه الاشراف على ترجمة كتب الطب والفلسفة والمتنطق .

وكانت الدائرة التي يعمل بها حنين في بيت الحكمة واسمة ضمت عدداً كبيراً من المترجمين الذين كانوا يعملون تحت امرته . فكان يختار لكل واحد

(٩٦) ابن القفطي ص ١٧١ .

(١٠٠) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٦٢ .

(١٠١) ابن ابي اصبيمة : ج ٢ ص ١٤٤ .

(١٠٢) ذات المصدر ص ١٤٥ .

(٩٧) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٩٨) المصدر السابق .

مغلظة بان لا يعطوا دواء قتالا . فلم ار ان اخالف
هذين الامرين الشريفين «(١٠٢) .

x x x

خلف حنين بن اسحق واءه ثروة فكرية
هائلة تمثلت في مترجماته التي بلغت مائتين وستين
كتبا ، وفي مؤلفاته التي وصلت نحو مائة وخمسة
عشر كتابا(١٠٤) كما تمثلت في العدد الوفير من الرجال
الذين تتلمذوا على يديه وقد بلغ عددهم حوالي
تسعين تلميذا «(١٠٥) .

ونظرا للمكانة الرفيعة التي كان يحتلها حنين
في دنيا الفكر والعلوم ، فان الكثيرين من تلامذته
ترجموا بعض الكتب ووضعوا اسمه عليها ترويجا
لها . ولذلك توجد عدة كتب منحولة له .

ترجم حنين كل مؤلفات جالينوس في الطب
والفلسفة بالاضافة الى مؤلفات اخرى لابقراط ،
واوريباسوس ، ويولس الاجانيطي ، ودسقوريدس
وافلاطون ، وارسطو ، والاسكندر الافروديسي
وغيرهم .

نقل حنين مائة كتاب من مؤلفات جالينوس
الى اللغة السريانية ، وتسعة وثلاثين كتابا آخر الى
اللغة العربية . ولى حنين وحده يرجع الفضل في
تبوء جالينوس اسمى مقام في الشرق خلال العصور
الوسطى ، وفي الغرب الوسيط بصفة غير
مباشرة «(١٠٦) .

ولم يبق عند حنين عند كتب جالينوس وحدها ،
بل نقل ايضا الى اللغتين السريانية والعربية ، كل
الشروح التي وضعها جالينوس على مؤلفات ابقراط
وافرد حنين كتابا في تعداد ما ترجمه من مؤلفات
جالينوس . وهذا الكتاب عبارة عن رسائل بعث بها
حنين في سنة ٨٦٥م الى «علي بن يحيى» المشهور
بابن النجم ، احد المولعين بالترجمة ، وصاحب
مكتبة ضخمة وشهيرة في بغداد ، وقد عثر المستشرق
الالمانى «بوغستراسر» على هذه الرسائل في
مخطوطتين بمسجد «ابا صوفيا» فترجمها الى
الالمانية ونشرها في «لايبرغ» سنة ١٩٢٥ (١٠٧) .

كانت نقول حنين عن «ارسطو» كثيرة .

(١.٢) نفس المصدر السابق .

(١.٤) احمد سوسه : الشريف الادرسي في الجغرافيا العربية
ج ١ ص ١١٨ .

(١.٥) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٧ .

(١.٦) نفس المصدر السابق ص ١٧٥ .

(١.٧) ابن النديم : الفهرست ص ٢٢٤ .

فقد نقل عنه كتاب «قاطيفوريوس» اي «المقولات»
كما ترجم مختصر هذا الكتاب وترجم «بارارمنياس»
اي «المبارة» الى السريانية ونقل جزءا من كتاب
«انالوطيقيا» اي «القياس» الى السريانية ايضا ،
واصلح الترجمة العربية التي وضعها له «تيادورس»
كما ترجم كتاب «طويقا» اي «الجدل» الى
السريانية وشروح كل من امونيوس والاسكندر
الافروديسي لهذا الكتاب . وترجم المقالة الثانية من
كتاب «السماع الطبيعي» الى السريانية ، واصلح
ترجمة ابن البطريق لكتاب «السماء والعالم» وترجم
بعضا من شرح ثامسطيوس لهذا الكتاب ، ونقل
كتاب «الكون والفساد» الى السريانية .

وترجم الى السريانية ايضا كتاب «الحروف»
اي الالهيات وعددا من شروح ثامسطيوس لهذا
الكتاب ، وتفسير فرفوربوس لكتاب ارسطو في
الاخلاق (١٠٨) .

وعن افلاطون ترجم حنين كتاب «النواميس»
وكتاب طيماوس في ثلاث مقالات ، وكتاب الجمهورية
وكتاب السياسة وكتاب القوانين . ويقول الدكتور
احمد شلبي ان حنينا ترجم كتب اقليدس الى
العربية(١٠٩) .

وكان حنين شديد التمحيص والتدقيق في
اعمال الترجمة ، لا يكتفي بالاعتماد على نص واحد .
وكان يكرر قوله «وددت دوما لو كانت لدي ثلاث
نسخ يونانية من كل كتاب النقلة ، ليتسنى لي ان
اقابل فيما بينها واستخرج الاصل الصحيح
منها»(١١٠) .

وكان حنين من المجدين في طلب العلم والبحث
عن نوادر كتب الطب والفلسفة والمنطق ، قام
باسفار ورحلات واسعة في اسيا الصغرى واليونان
وفارس والشام وفلسطين ومصر ، لتعلم اللغتين
اليونانية والفارسية ، وللتنقيب عن كتب العلوم في
تلك الاقطار .

ومما رواه عن نفسه في هذا الصدد انه احتاج
ذات مرة الى نسخة من كتاب «البرهان» لجالينوس
فراح يبحث عنه بنفسه في عدد من البلدان «وطلبته
انا ، وجلت في طلبه بلاد الجزيرة والشام كلهما
وفلسطين ومصر الى ان بلغت الاسكندرية ، فلم
اجد منه شيئا الا بدمشق نحوا من نصفه»(١١١) .

(١.٨) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٦ .

(١.٩) احمد شلبي : الفكر الاسلامي ص ٤٤ .

(١١٠) ابن النديم : ص ٢٥٨ .

(١١١) ابن ابي اصيبعة : ج ١ ص ١٥١ - ١٥٢ .

نكتبه تلك في رسالة نقلها ابن ابي اصيبعة وفي هذه الرسالة يقول حنين ان المتوكل « احضر السوط والحبال ، وامر بي فشدت مجردا بين يديه ، وضربت مائة سوط ، وامر باعتقالي والتضييق علي . ووجه فحمل جميع ما كان لي من رحل واثاث وكتب وما شاكل ذلك ، وامر بنقض منازلنا الى الماء ، واقمت داخل داره معتملا ستة اشهر في اسوا ما يكون من الحال ، حتى صرت رحمة لمن رأني . وكان ايضا في كل يسير من الايام بوجه من يضرني ويجدد لي العذاب » (١١٦) .

غير ان الخليفة اطلق سراح حنين فيما بعد ، ورد اليه امواله ، وافرد له ثلاثة دور ، واطلق الفانت له من رزقه ، وخصص له خمسة عشر الف درهم في الشهر الواحد ، كما فرض غرامة على الذين رشوا به زادت عن مائتي الف درهم (١١٧) وعاش حنين بعد تلك النكبة عشرين سنة اخرى ، حتى توفي - باتفاق معظم المؤرخين - يوم الثلاثاء لست خلون من صفر سنة ٢٦٠هـ - ٨٧٣م .

لم نشأ ان نذكر بالتفصيل مترجمات ومصنفات حنين بن اسحق وذلك لكثرتها كما اننا لم نرد ان نذكر ما بقي من تلك الترجمات والمصنفات . فقد تكفل المستشرق الالماني المعروف «بروكلمان» بسرد كل ما عثر عليه من اثار حنين في مختلف اقطار العالم وذلك في الجزء الرابع من كتابه « تاريخ الادب العربي » فليرجع اليه من اراد الاضافة في ذلك .

٤ - قسطا بن لوقا البعلبكي

٢٥٠ - ٢٣٠٠هـ - ٨٢٠ - ٩١٢م

ولد قسطا بن لوقا بمدينة بعلبك في لبنان وهو من سلالة يونانية مسيحية (١١٨) وقد نبغ في علوم كثيرة . فهو الى جانب حذقه اللغات اليونانية والسريانية والكلدانية والعربية ، وجودة النقل عنها ، كان فيلسوفا وطبيبا ورياضيا وفيزيائيا ، مشهور التحقيق بالعدد والهندسة والنجوم والنطق والعلوم الطبيعية والموسيقى (١١٩) .

وكان ابن النديم يفضل على حنين بن اسحق لانه « كان بارعا في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة

ويظهر فضل حنين على التراث الفكري اليوناني بارزا ، اذا ما علمنا بان سبعة من كتب جالينوس في علم التشريح قد ضاعت اصولها اليونانية ، ولكن ترجمة حنين هي التي حفظت هذه الكتب واعادتها الى الظهور (١١٣) .

والى حنين ايضا يعزى الفضل في وضع المنهج الكامل لمدرسة الاسكندرية الطيبة في تناول الطلاب العرب ، وكان هذا المنهج يشمل طائفة مختارة من مقالات جالينوس وهي الكتب التي عرفت لدى المؤلفين العرب باسم كتب جالينوس الست عشرة (١١٣) . وكانت بعض هذه الكتب قد ترجمت : قبل حنين ، الى السريانية والعربية على يد بعض المترجمين من امثال سرجيس الراسعيني ، وموسى بن خالد الترجمان وغيرهما ، الا ان الترجمة الدقيقة الصائبة هي ترجمة حنين وحدها . ويقول ابن ابي اصيبعة عن مترجمات حنين من كتب جالينوس « وغالب الامرا يوجد شيء من كتب جالينوس الا وهي بنقل حنين او باصلاحه لما نقل غيره » (١١٤) .

* * *

كانت نهاية حنين مفاجئة ، مثل نهاية غيره من المفكرين وذوي العقيدة الثابتة في كل الزمان . فقد دفعت الغيرة منه ، حساده الى الوشاية به وايغال صدر الخليفة المتوكل عليه ، وكان على راس اولئك الحساد بختيشوع بن جبرائيل ، واسرائيل بن زكريا الطيفوري وهما من النساطرة ايضا .

لقد لفق الطيفوري حكاية مفادها ان حنيننا لم يبصق على صور الذين صلبوا السيد المسيح ، الامر الذي اثار غضب الجاثليق رئيس الكنيسة الشرقية فلمن حنيننا بحضرة الملا من النصارى سبعين لعنة ، وقطع زناره ، وامر المتوكل ان لا يصل اليه دواء من قبل حنين حتى يشرف على عمله الطيفوري . وانصرف حنين الى داره فمات من ليلته (١١٥) .

لم يمت حنين من ليلته تلك كما ذكر ذلك خطأ ابن ابي اصيبعة . لان المتوكل امر بالقائه في السجن وصادر املاكه وفيها مكتبته . وقد سرد حنين

(١١٦) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٨ .

(١١٧) نفس المصدر .

(١١٨) صاعد الاندلس ص ٢٤٢ ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٤

هنري كوربان تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٩ ولهم .

(١١٩) ابن النديم ص ٤٢٤ .

(١١٢) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٧ .

(١١٣) اولري : علوم اليونان وسجل انتقالها الى العرب ص ٢٢٨ .

(١١٤) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٦ .

(١١٥) نفس المصدر ص ١٤٨ .

الاحوال في العراق بعد اغتيال المتوكل كان هو الدافع
الاول لذلك النزوح عن العراق .

وقد ذكر كل من ابن القفطي ، وابن ابي
اصيبعة ، ان شخصا يدعى « سنحاريب » - ولا
نعرف من امره شيئا سوى اسمه هذا - هو الذي
حبب لقسطنطين القدم الى ارمينيا وكان فيها آنذاك
مولى الخليفة المعروف باسم « ابو الفطريف
البطريق » وهو من اهل العلم والفضل ، فحمل
اليه قسطنطين كتبا كثيرة جليلة في اصناف مسن
العلوم (١٢٧) .

ولم يورد المؤرخون الذين كتبوا عن قسطنطين
اسم المدينة التي استقر فيها ومات في ارمينيا ،
وانما اكتفوا بالقول انه ارتحل الى ارمينيا ، وبها
مات ودفن ، وبنيت على قبره قبة ، واکرم قبره
كاکرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع (١٢٨) .

كذلك لم يفرق المؤرخون بين الكتب المترجمة
وتلك التي وضعها قسطنطين . فان النديم مثلا لم يذكر
من كتبه المترجمة سوى كتاب « السماع الطبيعى »
لارسطو ، وكتاب « اصول الهندسة » لافلاطون ،
وكتاب الراء الطبيعية لفلو طرخس ، وتفسير
الاسكندر الافروديسي لكتاب ارسطو عن الكون
والفساد « علما بان قسطنطين ترجم لطائفة كبيرة من
اطباء اليونان وعلماهم من امثال ابرن وجالينوس ،
واقليدس ، وثيوفراستوس ، وفيلوبونوس ،
وتيودوس وغيرهم ، كما ورد ذلك في بعض الكتب
الحديثة من امثال تراث العرب العلمى لقسطنطين
حافظ طوقان ، وتاريخ الفلسفة الاسلامية لهنري
كوريان ، وسبل انتقال العلوم اليونانية الى العرب
لديلاسي اوليري وغيرها .

والمتفق عليه لدى المؤرخين القدامى ان قسطنطين
وضع اكثر من مائة كتاب ورسالة ، وانه بقى
بواصل الترجمة والتأليف حتى بعد ان انتقل الى
ارمينيا حيث ذكر ابن ابي اصيبعة ان قسطنطين
كتب كثيرا للفتريف البطريق (١٢٩) ومن بين هذه
الكتب ثبت بالمؤلفات التي ترجمها عن اليونانية او
التي صنفها بنفسه .

فمن مؤلفاته الطبية اوجاع النفوس ، الروائح
وعلاها ، احوال الباه ، المدخل الى علم الطب ،
القوة والضعف ، الاغذية ، النبض ، الحميات ،

(١٢٧) ابن القفطي ص ١٦٢ .

(١٢٨) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٥ وابن القفطي ص ١٦٢ .

(١٢٩) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

والهندسة والاعداد والموسيقى ، لا مطعون عليه ،
فصيحاً باللغة اليونانية ، جيد المارة بالعربية (١٣٠)
ولذلك كان قسطنطين يشرف في ايام الامون على قسم
الترجمة من اليونانية والسريانية والكلدانية الى
العربية ، كما كان من المبرزين الذين عملوا في بيت
الحكمة (١٣١) .

ويبدو ان شهرة قسطنطين قد ذاعت بعد ان رحل
الى بلاد الروم وحصل على شيء كثير من تصانيفهم
حتى اذا عاد الى مستقره استدعاه الخليفة الامون ،
واوكل اليه امر الاشراف على ترجمة الكتب اليونانية
والسريانية وغيرهما في بيت الحكمة . فكان « يترجم
كتبا ويستخرجها من لسان يونان الى اللسان
العربي » (١٣٢) .

وكان قسطنطين ذائع الصيت واسع المعرفة في
العالم العربي الاسلامي ، وعالم الفرنجة لما كان يتحلى
به من سعة المعرفة (١٣٣) ولذلك قال عنه « ابو الفرج
المطفي » ، « لو قلت حقا لقلت انه افضل من صنف
كتبا بما احتوى عليه من العلوم والفضائل ، وما
رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني » (١٣٤) .

برع قسطنطين في الجغرافية والفلك وعلم الرصد .
وكان من اوائل العلماء العرب الذين بحثوا في تأثير
الطبيعة ، من حرارة ، وامطار ، وبحار ، وجبال
وسهول ، على عادات الانسان ونشاطه الاقتصادي
بل حتى على لون بشرته . كما هو مدون في كتابه
المعروف « العلة في اسوداد الاحباش » (١٣٥) .

وقد اعتبره المستشرق الفرنسي « هنري
كوريان » من علماء النفس فقال عنه « وكذلك بعض
ابحائه في العلوم الخفية حيث تشبه شروحاته ،
بشكل مشير ، ابحاث علماء النفس في ايامنا هذه » (١٣٦) .

ويبدو لنا ان كل ما كان يتمتع به قسطنطين من
شهرة ، ويظفر به من مكافأة وتقدير ، لم يكن
يتناسب مع سعة علمه وفضله . ولذلك فضل ان
يهجر العراق الى ارمينيا ليعيش فيها بقية حياته ،
وليحوت هناك ويدفن فيها . والظاهر ان اضطراب

(١٢٠) الجغرافيون العرب محمد صبري حسن ج ١ ص ١٢٢ .

(١٢١) ابن القفطي ص ٢٦٢ .

(١٢٢) ابن القفطي ص ٢٦٢ .

(١٢٣) محمد صبري حسن . الجغرافيون . ج ١ ص ١٢٢ .

(١٢٤) جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٦٥ .

(١٢٥) محمد صبري حسن ج ١ ص ١٢٢ .

(١٢٦) هنري كوريان : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٨ - ٥٩

ترجمة نصر مروة وحسن قبيسي .

- ٦ - رسالة في العمل بالكرة ذات الكرسي منها نسخ في برلين والمتحف البريطاني وباريس .
 - ٧ - كتاب العمل بالاسطرابل الكري منه نسخة في ليدن واخرى في طوبوقوسراي باسطنبول .
 - ٨ - رسالة في الكرة الفلكية موجودة في برلين ولندن واياصوفيا .
 - ٩ - كتاب العمل بالكرة الفلكية موجودة في بودليان .
 - ١٠ - كتاب البرهان على عمل حساب الخطاين منه نسخة في المكتب الهندي .
 - ١١ - هيئة الافلاك منه نسخة في بودليان .
 - ١٢ - رد قسطا على « ابن المنجم » في مكتبة عيسى اسكندر العلوف بدمشق .
 - ١٣ - كتاب الوباء في مكتبة بنكيهور .
 - ١٤ - كتاب في الادوية المسهلة في ايا صوفيا .
 - ١٥ - كتاب في العمياء في اياصوفيا .
 - ١٦ - كتاب في علة طول العمر وقصره ، اياصوفيا .
 - ١٧ - كتاب في الضرس منه نسخة في اياصوفيا .
 - ١٨ - كتاب في ذكر اصلاح الادوية المسهلة ، اياصوفيا .
 - ١٩ - كتاب في صفة الجدرى واسبابه ، ايا صوفيا .
 - ٢٠ - في الوزن والكيل منه نسخة في اياصوفيا .
- ومن كتبه المترجمة الموجودة في الوقت الحاضر ما يلي
- ١ - كتاب الاصول لافليدس في مكتبة اوبسالا وفي مكتبة جامع فاتح باسطنبول .
 - ٢ - كتاب المطالع لابسقلاوس . منه نسخة في برلين واخرى في مشهد بايران .
 - ٣ - كتاب الاكر لثيودوسيوس ، منه نسخة في برلين ، وكمبردج ولنتفرد واسطنبول وغيرها .
 - ٤ - كتاب المساكن لثيودوسيوس في طبوقوسراي .
 - ٥ - كتاب الايام والليالي لثيودوسيوس في برلين واسطنبول .
 - ٦ - كتاب شيل الانتقال لايرن . ليدن والقاهرة واياصوفيا .
 - ٧ - كتاب الطلوع والغروب لاطراوقس في ليدن .
 - ٨ - فهرس مصنفات جالينوس في مدريد واسطنبول .

القدر ، الامراض الحادة ، الكبد ، تدبير الايدان بالسموم ، تولد الشعر ، حركة الشريان ، الدم ، الصفراء ، السوداء ، الفصد وغيرها .

ومن كتبه في الفلسفة والرياضيات كتاب « برقنطس » في المسائل القدرية ، استخراج مسائل عديدة من مقالة افليدس ، كتاب شكل الكرة والاسطوانة ، الهيئة وتركيب الافلاك ، كتاب حساب الثلاثي في الجبر والمقابلة ، كتاب العمل بالكرة النجومية كتاب الاوزان والمكاييل ، الالة النسي ترسم عليها الجوامع ، كتاب المدخل الى الهندسة ومن كتبه المترجمة والموضوعة في الحيل والميكانيك ، كتاب المربا المحرقة ، وكتاب الفرستون وعدة كتب في عمل الاسطرابل وفي الارصاد الفلكية ، وكتاب الفلاحة اليونانية .

اما كتبه ومترجماته في الفلسفة والمنطق فمنها كتاب المدخل الى المنطق ، شرح مذاهب اليونانيين الفصل في بيان النفس والروح ، كتاب الجزء الذي لا يتجزأ ، كتاب النوم والرويا ، المدخل الى كتاب « ايساغوجي » مسائل في الحدود على راي الفلاسفة وغيرها .

بقي عدد من مؤلفات ومترجمات قسطا في عدد من المكتبات في العالم وقد ترجم العديد منها الى عدة لغات عالية . فرسالته الفلسفية المعنونة « الفرق بين النفس والروح » قد ترجمت الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر على يد يوحنا الاسباني ، كما نشر نصها العربي الاب لويس شيخو في مجلته « المشرق » سنة ١٩١١ (١٣٠٠) .

وقد احصى بروكلمان طائفة من كتبه الموجودة في المكتبات العالمية منها .

- ١ - رسالة في اختلاف الناس في سيرهم واخلاقهم منها نسخة في برلين .
- ٢ - رسالة في السهر واسباب الارق الفها لابي الفطريف منها نسخة في مكتبة برلين .
- ٣ - في تدبير الايدان للسفر للسلامة من المرض والخطر . الفه لابي محمد الحسن بن مخلد . منه نسخة في المتحف البريطاني .
- ٤ - كتاب في البلغم وعلة الفه لابي الفطريف الفصل الاول منه موجود في ميونيخ .
- ٥ - كتاب في علل الشعر الفه لابن مخلد موجود في المتحف البريطاني .

(١٣) دي بود : تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة ابو ريدة ص ٢٤ .

بانه « كان من اكبر فلاسفة القرن الرابع الهجري » (١٢٤) .

ولا غرو في ذلك فقد تلمذ يحيى على الفارابي ولازمه زمنا اثناء وجوده في بغداد ، واطلع على الكثير من آرائه ومؤلفاته ، بالإضافة الى ما اطلع عليه من الكتب الاخرى التي توفرت له في بيت الحكمة عن الفلسفة والمنطق .

كان يحيى منهمكا في عمله اشد انهماك ، جم النشاط في أعمال الترجمة والتأليف ، منقطعا اليهما فكان يمضي جل اوقاته اما في الترجمة او التأليف او التصحيح والنسخ ايضا وقد تحدث ابن النديم عن يحيى ، وكان معاصرا له وذا معرفة وعلاقة قوية به ، فقال « قال لي يوما في الوراقين ، وقد عاتبته على كثرة نسخه فقال : من اي شيء تعجب في هذا الوقت ؟ من صبري ؟ قد نسخت خطي نسختين من تفسير الطبري (١٢٥) وحطتهما الى ملسوك الاطراف » (١٢٦) وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ، ولعهدي بنفسي وانا اكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقل (١٢٧) .

ولم يقف نشاط يحيى بن عدي عند الفلسفة والمنطق حسب ، بل اشتغل بالعلوم الرياضية ايضا كما اعتبره ابن ابي اصيبعة من الاطباء وادخله في كتابه الشهير « طبقات الاطباء » (١٢٨) .

كان يحيى في وقته من اشهر المترجمين ، وقد اعاد النظر في العديد من الترجمات التي تمت قبله ، واجرى عليها التصويبات اللازمة ، كما قام بعدة ترجمات جديدة لبعض الكتب الهامة (١٢٩) .

عكف يحيى على ترجمة ومراجعة كثير من الترجمات لكتب ارسطو ، وافلاطون والاسكندر الافروديسي ، وثيوفراسطوس ، وامونيوس ، وفرفوروس واثافروديطوس وغيرهم ، فقد ترجم من كتب افلاطون كتاب التواميس ، وكتاب طيماوس وكتاب سوفسطس وكتاب المناسبات (١٣٠) .

وعن ارسطو نقل يحيى كتاب طويقا . كما

(١٢٤) آدم متر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري

ترجمة محمد عبدالهادي ابي ريدة ج ١ ص ٢٤٢ .

(١٢٥) يقصد به تفسير القرآن الكريم للطبري وهو من غيرة التفاسير .

(١٢٦) ابن النديم ص ٢٨٢ .

(١٢٧) نفس المصدر .

(١٢٨) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٢٧ .

(١٢٩) احمد شلبي : الفكر الاسلامي ص ٤٦ .

(١٣٠) ابن النديم ٢٨٢ .

والملاحظ ان عددا كبيرا من مؤلفات قسطا و مترجماته قد ترجمت الى لغات عديدة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر بصفة خاصة ، ومنها اللاتينية والعبرية والفرنسية والانكليزية والالمانية (١٣١) .

٥ - يحيى بن عدي النكريتي

توفي سنة ٣٦٤هـ - ٩٧٢هـ

ابو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي . ولد في تكريت وكان نصرانيا يعقوبي المذهب ، ومن اصحاب عقيدة « الطبيعة الواحدة » وهؤلاء يعتقدون ان للمسيح طبيعة واحدة . ولذلك اقر المؤتمر الذي عقده « فلانين » بطربوك الاستانة في « خلقدونية » مقاومة عقيدة الطبيعة الواحدة . وكان نصارى تكريت في مقدمة الذين عاضدوا هذه العقيدة ، وتحمسوا لنشرها ، حيث اصبحت تكريت مقرا لهم ، واصبح الاسقف « ماروثا » في سنة ٦٢٩م يلقب باسم « مفرين » تكريت ، وكان يرأس اثني عشر اسقفا (١٣٢) .

وبعد ان تلقى يحيى علومه الاولية في تكريت انتقل الى بغداد فاشتغل مترجما في بيت الحكمة ، وتعرف في الوقت ذاته على ابي بشرمى بن يونس - وهو من كبار مترجمي بيت الحكمة - وتلمذ على يديه ، ثم اوصل بالفيلسوف الكبير ابي نصر الفارابي فدرس عليه المنطق والفلسفة ، ونجح في هذين العلمين نوبغا عظيما اكسبه لقب « المنطقي » في زمانه ، حتى قال عنه ابن النديم ، وابن القفطي بانه انتهت اليه رئاسة اهل المنطق في زمانه (١٣٣) .

كان يحيى يحذق اللغتين السريانية والعربية ، ويجيد النقل عنهما ، وربما عرف اللغة اليونانية ايضا . ولكن الشيء الذي اشتهر به هو نقله عن السريانية الى العربية في بيت الحكمة . كما انه كان يقوم بتصحيح ما يقوم به غيره من مترجمات ، وذلك لسعة اطلاعه على علوم الفلسفة والمنطق . وهذا ما جعل بعض المستشرقين يعدونه في جملة الفلاسفة ومن هؤلاء المستشرق « آدم متر » صاحب كتاب « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » الذي قال عنه

(١٣١) بروكلمان تاريخ الادب العربي الجزء الرابع الصفحات

٩٨ - ١٠٢ .

(١٣٢) ديلاس اولري : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب

ص ٢٦٠ .

(١٣٣) ابن النديم ص ٢٨٢ وابن القفطي ٢٦١ .

ترجم تفسيرات هذا الكتاب التي وضعها كل من الاسكندر الافروديسي ، وامونيوس . ويقع هذا التفسير في الف ورقة (١٤١) .

ومن كتب ارسطو ايضا ترجم كتاب سوفسطيا من السرياني الى العربي ، وترجم له كتاب ابوطيقا ، ونقل بعض مقالات كتاب السماع الطبيعي ، كما ترجم تفسير ثامسطيوس لكتاب ارسطو عن السماء والعالم ، واصلح ترجمة متى بن يونس لكتاب الكون والفساد وترجم كتاب طويقا ووضع تفسيراً له ، وترجم شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب ارسطو عن الآثار العلوية ، ومختصر نيقلولاوس لكتاب الحيوان وترجم كتاب الالهيات المعروف بالحروف كما ترجم كتاب « ما بعد الطبيعة » الذي وضعه ثاوفرستس احد تلامذة ارسطو .

وفي مجال العلوم الرياضية وضع يحيى بن عدي عدة كتب ورسائل منها كتاب « ان الخطر غير مشارك للضلع » ، وكتاب « ان العدد غير متناه » ، وكتاب « ان كل متصل ينقسم الى متصل » ، وكتاب « في استخراج العدد المنضم » وغيرها (١٤٢) .

وقد ذكر له ابن القفطي زهاء اربعين كتاباً ورسالة عدد اسماءها ، في حين ذكر له ابن ابي اصيبعة سبعة كتب ، وابن النديم ستة كتب ، وذلك بالإضافة الى ذكر الكثير من ترجماته وتفايسره لكتب جالينوس ، وارسطو ، وافلاطون وغيرهم .

وقد اشتهر عن يحيى بن عدي انه كان حسن الحظ ، وفي غاية الجودة والصحة . وقد توفي يحيى ببغداد يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة سنة ٣٦٤هـ وكان عمره احدى وثمانين سنة ، ودفن في بيعة « مار توما » بقطيعة الدقيق في بغداد (١٤٣) .

وذكر ابن ابي اصيبعة نقلاً عن الامير بشر بن فاثك ما سمعه عن ابي الحسين المعروف بابن الامدي انه سمع من ابي علي اسحق بن زرعة - وهو من المترجمين ايضا - ان « ابا زكريا يحيى بن عدي وصى اليه ان يكتب على قبره حين حضرته الوفاة ، وهو في بيعة « مار توما » بقطيعة الدقيق هذين البيتين (١٤٤) .

رب ميت قد صار بالعلم حيا
ومبقي قد مات جهلا وغيبا
فاقتنوا العلم كي تناولوا خلودا
لا تمدوا الحياة في الجهل شيا

احصى بروكلمان في كتابه تاريخ الادب العربي ما عثر عليه من نتاج يحيى بن عدي منه :

- ١ - احدى الترجمات العربية الثلاث لكتاب سوفسطيا لارسطو في مخطوطة بباريس .
- ٢ - ترجمة المقالة الثالثة من كتاب النفس لارسطو الى العربية نقلاً عن السريانية في مكتبة مديتش .
- ٣ - كتاب تهذيب الاخلاق طبع في بيروت سنة ١٨٢٦ وفي القاهرة سنة ١٨٩١ .
- ٤ - شرح فلويونوس على كتاب الترياق لجالينوس منه نسخة في بيروت .
- ٥ - الاحتجاج للمسيحية ضد عيسى بن هارون الوراق ، بيروت .
- ٦ - فلسفة الحب الالهي .
- ٧ - تفسير مقالة ارسطو في علم ما بعد الطبيعة في مكتبة باتنه .
- ٨ - المسائل الفلسفية .
- ٩ - مقالة في الوجودات مكتبة باتنه .
- ١٠ - رسالة في الكل والجزء مكتبة باتنه (١٤٥) .

٦ - متى بن يونس
توفي سنة ٣٢٨هـ - ٣٢٩م

نشأ ابو بشر متى بن يونس (يونان) في دير « قنى » ويقع هذا الدير على الجانب الشرقي من نهر دجلة ، وبمسافة زهاء تسعين كيلو متراً جنوبي بغداد ، وكانت في هذا الدير مدرسة تدرس فيها اللغات اليونانية والسريانية والعربية (١٤٦) .

وبمرور الزمن نشأت قرية عرفت باسم « قرية دير قنى » لان هذا الدير كان قد بنى في المائة الاولى للميلاد . وفي هذا الدير درس متى بن يونس على طائفة من العلماء والمترجمين من امثال ابي يحيى المروزي الطبيب ، وابن قوبري المترجم ، وابن كرنيب ، وروفييل ، وبنيامين (١٤٧) .

- (١٤٥) بروكلمان ج ٤ ص ١٢٠ - ١٢٢ .
- (١٤٦) الديارات للشابشتي تحقيق كوركيس هواد الطيمبة الثانية ص ٢٩٤ .
- (١٤٧) ابن النديم الفهرست ص ٢٨٢ .

- (١٤١) نلس المصدر .
- (١٤٢) ابن القفطي ص ٢٦٢ .
- (١٤٣) ابن ابي اصيبعة ٢٢٨ .
- (١٤٤) ذات المصدر .

توفي سنة ٣٣٨هـ - ٩٤٩م ، بينما ذكر في كتابه الاخر « كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب » ان وفاته كانت في سنة ٩٤٠م (١٥٤) .

ترجم متى عن ارسطو كتاب ابوديطيقا وقد نقله عن اللغة السريانية الى اللغة العربية ، وكانت الترجمة السريانية من عمل اسحق بن حنين ، كما ترجم كتاب سونسطيقا الى السريانية في حين نقل كتاب الشعر من السريانية الى العربية ، وترجم جزءا من كتاب السماء والعالم ، وبعضا من كتاب الحس والمحسوس ، وجزءا من كتاب الحروف (الالهيات) كما نقل نص كتاب البرهان .

اما الشروح التي وضعت لكتب ارسطو فقد نقل متى منها شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب الكون والفساد ، وشرح ثامسطيوس لكتاب الحكم والمواضع ، ولقسم من كتاب الحروف ، وترجم شرح امقيدوس لكتاب الكون والفساد ، وكتاب ايساغوجي لفرفوربوس ايضا .

وفضلا عن ذلك وضع متى شروحا لبعض مؤلفات ارسطو ولبعض الشروح التي وضعت لها فوضع تفسيرا لكتاب اناطويقا الاولى ، وتفسيرا لكتاب بارارميناس ، وفسر شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب قاطيفورياس ، وشرح ثامسطيوس لكتاب ابوديطيقا . وذكر ابن النديم والقفطي له كتاب المقاييس الشرطية ومقدمات كتاب اناطويقا .

احصى بروكلمان بعض مترجمات ومؤلفات متى بن يونس في كتابه تاريخ الادب العربي ومنها

١ - كتاب البرهان (اناطويقا الثانية) لارسطو الذي نقله الى العربية عن الترجمة السريانية التي وضعها اسحق بن حنين فذكر ان نسخة من هذا الكتاب موجودة في باريس ، واخرى في رامبور ونيكيور في الهند .

٢ - كتاب الشعر لارسطو توجد نسخة منه في مكتبة الاسكوريال بمدريد .

٣ - مناظرته مع ابي سعيد السرياني موجودة في كتاب معجم الادباء لياقوت الحموي الجزء الثالث .

(١٥٢) اوليري الفكر العربي ص ١٢٨
وعلم اليونان ص ٢٢٢ .

وقد انفرد ابن النديم بين المؤرخين العرب في دعواه بان متى بن يونس كان يونانيا ، في حين اكتفى غيره بقولهم انه كان نصرانيا . وقد وفد على بغداد وشارك في حركة الترجمة والنقل في عهد الخليفة الراضي بالله ، واشتهر بعلم المنطق ، والنقل من السريانية الى العربية واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره (١٢٨) .

وعرف عن متى بانه كان فصيح العبارة جيد النقل الى العربية ، ولذلك وصفه ابن القفطي بانه « عالم المنطق » شارح ، مكثر ، وطيب اللسان ، قصده التعليم والتفهم ، وعلى كتبه وشروحه اعتماد اهل هذا الشأن في عصره ومصره (١٤٩) .

والى جانب ذلك كان متى بن يونس فقيها في اللغة العربية . وقد جرت له مناظرة في هذا الشأن وفي مجلس عام مع ابي سعيد السرياني النحوي بحضرة الفضل بن الفرات (١٥٠) .

ولم يكتف متى بترجمة عدد من كتب ارسطو ، والاسكندر الافروديسي ، وثامسطيوس ، وفرفوربوس ، وغيرهم ، بل وضع تعليقات اصينة على كتبهم وشروحهم وتفسيراتهم ، ومنها تعليقاته على مقولات ارسطو ، وعلى كتاب ايساغوجي لفرفوربوس (١٥١) وقال عنه ابن النديم انه فسر الكتب الاربعة في المنطق بأسرها ، وعليها يعول الناس في القراءة (١٥٢) .

ولقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة متى بن يونس . فقد ذكر ابن ابي اصيبعة انه توفي ببغداد يوم السبت لحدى عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، في حين قال ابن القفطي ان وفاته كانت بعد سنة عشرين وثلاثمائة وقبل سنة ثلاثين (١٥٢) .

اما المستشرق الانكليزي دبلاسي اوليري فقد اورد تاريخين مختلفين لوفاة متى بن يونس . فذكر في كتابه « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » انه

(١٤٨) ابن النديم ص ٢٨٢ وابن القفطي ص ٢٢٢ ، وابن ابي اصيبعة ج ٢ ٢٢٧ وبروكلمان ج ٤ ص ١٢٠ .

(١٤٩) ابن القفطي ص ٢٢٢ .
(١٥٠) نفس المصدر .

(١٥١) اوليري : الفكر العربي ومكانته في التاريخ ترجمة تمام حسان ص ١٢٨ .

(١٥٢) ابن النديم ص ٢٨٢ .

(١٥٢) ابن القفطي ٢٢٢

بَغْدَادِيَّةٌ فِي دَوَائِرِ الْمَعَارِفِ الْعَالَمِيَّةِ

ترجمة وتعليق

سليم طه الشكريّتي

بغداد في دائرة المعارف البريطانية^(١)

تمهيد

بغداد اعظم مدينة في بلاد الرافدين القديمة . وهي اكبر مدينة وعاصمة للعراق الحديث ، ولحافظه بغداد ذاتها . وتقع على نهر دجلة في القسم الاوسط الشمالي من العراق ، على بعد زهاء ثلثمائة وخمسين ميلا (خمسمائة وستون كيلومترا) شمالي الخليج العربي(١٥٥) .

ومنذ الاطاحة بالنظام الملكي في سنة ١٩٥٨ ، اصبحت العاصمة بغداد مسرحا لصراع سياسي ، حيث حاول القطر ان يجعل من نفسه دولسة اشتراكية وحدوية . وقد بلغ عدد سكان المدينة في اوائل سني السبعينات اكثر من مليونين ومائة الف نسمة(١٥٦) .

تاريخ بغداد

تقع في محافظة بغداد كثير من العواصم القديمة من امثال « أكد » و برج عقرقوف العاصمة الكشبية الواقعة الى الغرب ، وسلوقية و طيسفون

(*) دائرة المعارف البريطانية الحديثة

New Encyclopaedia Britanica

طبعت سنة ١٩٧٤ في ثلاثين مجلدا المجلد الثاني صفحة ٥٨٥ - ٥٨٧ ، ومجلد ٢ ص ٦٢٥ - ٦٢٧ .

(١٥٥) ما يزال معظم الكتاب القريبين الى الان يطلقون على الخليج العربي ما اطلقه الاستعمار الاوربي الفاشم عليه منذ مطلع القرن الخامس عشر .

(١٥٦) اظهر الاحصاء العام الذي اجري في سنة ١٩٧٧ ان عدد سكان بغداد بلغ ثلاثة ملايين وستمائة الف نسمة . وربما ارتفع هذا العدد الى زهاء اربعة ملايين نسمة في الوقت الحاضر .

ما تفخر به الامم الغربية ، وتمده مظهرها اساسيا من مظاهر حضارتها ، وازدهار العلوم والفنون فيها ، اقدم بعض هذه الامم على تدوين الموسوعات التي تضم مختلف البحوث والموضوعات التي تهتم البشرية جمعاء ، مما عرف باسم « الانسكلوبيديا Encyclopaedia واصطلاح على تسميته لدى العرب باسم « دائرة المعارف » او « المعلمة » .

ومما يحز في نفوس المخلصين من ابناء العروبة والاسلام ، ان نجد الامة العربية ذات التاريخ المجيد وراثتها العالم الاسلامي برمتها ، ما تزال متخلفة حتى الان عن هذا المضمار ، على الرغم من توفر الامكانيات المادية والادبية للنهوض بمثل هذا العمل المفيد .

ومما يزيد النفس ابلاما ان تعجز الحكومات العربية والمؤسسات العلمية فيها حتى عن ترجمة واحدة من هذه « العلمات » ترجمة كاملة فلقد انبرى بعض من الشباب المصري في سنة ١٩٣٣ لترجمة « دائرة المعارف الاسلامية » وهي من اشهر هذه الموسوعات ، لكنهم لم يكملوا - مع الاسف - هذا العمل الجليل ، ووقفوا عند حد الاجزاء القليلة التي اصدروها من هذه الترجمة ، ونقضوا ايديهم من المشروع نهائيا .

ولما كانت « المورد » قد خصصت هذا العدد للحدث عن « بغداد » فقد اترنا ان ننقل ما ورد عن هذه المدينة العظيمة فيما تيسر لنا الاطلاع عليه من دوائر المعارف هذه ، واجراء بعض التعليقات والتصويبات الضرورية لذلك .

تلك الفترة ، كما ورد ذلك في قصص الف ليلة وليلة .

اعتقت وفاة هرون الرشيد قيام حرب اهلية بين ولديه ، خربت خلالها المدينة المدورة تخريبا فظيما . لم تقم لها قائمة بعدها . وفي الفترة بين سنتي ٨٢٦ و ٨٩٢ هجر الخلفاء مدينة بغداد لان حرسهم الخاص من الاتراك اصبح مقبنا ، فانقلوا الى عاصمة جديدة هي « سامراء » (١٥٨) . وما لبثوا ان اقاموا ، بعد عودتهم الى بغداد في نهاية القرن التاسع الميلادي ، في « المخرم » على الضفة الشرقية من دجلة .

وفي سنة ١٠٩٥م تم انشاء سور جديد حول بغداد وقد بقي هذا السور مع كثير من المستودعات فيه قائما حتى القرن التاسع عشر حين اصابه التخريب على نطاق واسع . ولقد نسف احد البابين الباقين من ابواب ذلك السور ، وهو « باب الطلمس » عند انسحاب الاتراك من بغداد سنة ١٩١٧ اما الباب الثاني ، وهو « الباب الوسطاني » فما يزال قائما وقد اعيد ترميمه واتخذ متحفا للأسلحة .

وعلى الرغم من انحطاط سلطة الخلفاء الاخيرين بقيت بغداد مركزا عظيما للتجارة والثقافة ، ما دام الرخاء الزراعي متوصلا في العراق . وجاء سقوطها الحقيقي عندما اجتاحت « هولوكو » الغولي بلاد الرافدين ، واستولى على بغداد سنة ١٢٥٨م ، وقتل الخليفة « المعتصم » مع ثمانمائة الف من سكان المدينة ذاتها ، كما ذكر ذلك .

نجم عن القضاء على الحكومة العباسية ، انتقال السلطة التي استطاعت ان تحافظ على صيانة نظام الري ، وحماية الاراضي المزروعة من القبائل البدوية المفيرة . واذ ذهبت الاهمية السياسية لمدينة بغداد ، هبط عدد سكانها الى حد العشر ، فلم تنهض بعد ذلك ، ولم تبلغ اكثر من مرتبة مدينة اقليمية ، الى ان ظهر العراق كدولة مستقلة بعد الحرب العالمية الاولى . لقد ظلت بغداد تخضع لسلطة « الخانات » الذين اعقبوا هولوكو في الحكم حتى سنة ١٣٠٤م ، حين حققت الاستقلال المحلي

(١٥٨) تؤكد الشواهد التاريخية والاثرية القديمة ان سامراء كانت مستوطنة حضارية قبل فجر التاريخ وانها كانت معروفة باسم سامارا Samara حتى في العهود الاكادية والبابلية والاشورية . انظر كتابنا مع الدكتور هيسي سلمان من سومر الذي ترجمناه عن الاثري الفرنسي اندريه بارو والذي صدر مؤخرا .

اللتين تقمان على بعد حوالي عشرين ميلا الى الجنوب . وفي سنة ٧٥٠م قامت الخلافة في العراق وذلك بانشاء السلالة العباسية الحاكمة على يد « ابي العباس السفاح » . وفي سنة ٧٦٢م قرر خلفه واخوه ابو جعفر الذي اشتهر باسم المنصور ، ان يبني لنفسه عاصمة جديدة في موقع قريبة ساسانية قديمة : هي مدينة بغداد (١٥٧) .

وقد سميت مدينة المنصور « المدورة » باسم مدينة السلام ، وكانت تقوم على الضفة الغربية من نهر دجلة ، غير انه لم تبق اية اثار من هذه المدينة ، وغدا موقعها الصحيح غير معروف .

كان قطر المدينة المدورة ثلاثة الاف ياردة (٢٧٠٠ متر) . وكان لها ثلاثة اسوار موحدة المركز ، لكل واحد منها اربعة ابواب ، تمر خلالها طرقات تبدأ من قصر الخلافة في وسط المدينة ، وتتجه نحو الاطراف الاربعه للإمبراطورية العباسية ولم يسمح باقامة الاسواق داخل المدينة المدورة ، وقد نشأ حي التجار « الكرخ » خارج باب البصرة .

ومن الابواب الشرقي الشمالي يمر طريق خراسان عبر نهر دجلة فوق جسر عائم . وخلف هذا الطريق ، وعلى الضفة الشرقية من النهر ، كان يقوم قصر « المهدي » الذي خلف المنصور في الحكم ، وقد قامت وتعاظمت حوله الضواحي الثلاث وهي « الرصافة » و « الشماسية » و « المخرم » وهي اقدم المستوطنات السابقة لمدينة بغداد الحديثة .

ولقد بلغت بغداد ذروة رخائها في القرن الثامن واولئ القرن التاسع الميلادي . وذلك في عهد الخليفة هرون الرشيد بن المهدي ، الذي جمع في عاصمته الثروات وعلوم العالم المعروف آنذاك . وقد وردت حكايات كثيرة تحدثت عن مجد بغداد في

(١٥٧) كشفت التنقيبات الازرية في السنوات الاخيرة عن شواهد تؤكد ان بغداد كانت معروفة بهذا الاسم في موضعها الحالي منذ العصر البابلي وربما قبله . فقد اشارت احدى الوثائق من عصر حمورابي (سنة ١٨٠٠ ق . م) الى مدينة بغداد وهذا يشير الى ان الاسم كان مستعملا قبل عصر حمورابي وعلى وجه التحديد قبل اي نفوذ فارسي محتمل .

كما عثر على حجر حدود من عهد الملك البابلي مردوخ - ابال - ادون (١٢٠٨ - ١١٩٥ ق . م) يشير الى مدينة بغداد وعثر على حجر من احجار « اددنزياري الثاني الاشوري ٩١١ - ٨٩٢ ق . م » ذكر فيه اسم « بغدادو » كما ذكر الملك الاشوري ايضا « نقلاب بلسر الثالث ٧٤٥ - ٧٢٧ ق . م » اسم بغداد في بعض مدوناته (دائرة معارف الاسلام طبعت ١٩٦٠ المجلد الاول ص ٨٩٤ النص الانكليزي)

في عهد « الجلائريين » الذين حاولوا استعادة رخانها .

في سنة ١٤٠١م تعرضت بغداد لآخر موجة اجتاحتها من الغزاة المغول تحت امرة « تيمورلنك » وفي سنة ١٤١٠م سقطت تحت حكم « قره قوينلو » أي « الاغنام السوداء » ، وهم من « التركمان » الذين افسحوا الطريق في سنة ١٤٦٩م امام « آق قوينلو » أي « الاغنام البيض » .

ولقد اخرج هؤلاء « آق قوينلو » في سنة ١٥٠٨م من بغداد على يد الشاه اسماعيل الصفوي . وفي سنة ١٥٣٤م استولى العثمانيون على بغداد لأول مرة في عهد السلطان سليمان الفاتح وما لبث الشاه عباس الفارسي ان استعادها تحت حكمه في سنة ١٦٢٣م لكن اعيدت تحت حكم الاتراك على يد السلطان مراد الرابع في سنة ١٦٣٨م .

كان هذا التبدل المستمر في ولاء بغداد يعود ، في ناحية منه ، الى موقعها الجغرافي ، ووقوعها بين امبراطوريتين عظيمتين ، كما يعود ، من ناحية ثانية ، الى الخلاف بين ابنائها .

وفي اثناء القرن السابع عشر الميلادي ، لم يعمل الحكام الاتراك الذين كانوا يتعاقبون بسرعة ، سوى الشيء الضئيل لاستعادة الرخاء في بغداد . على ان بداية القرن الثامن عشر ، شهدت تعيين حاكمين « واليين » متعاقبين ، هما حسن باشا وولده احمد باشا (١٥٩١) اللذين اصلحا ادارة الحكومة وذلك عن طريق ادخال طبقة من الموظفين من الارقاء التوقاز المدنيين والعسكريين ، الذين عرفوا باسم « المالك » ، الذين رفعوا من منزلة العاصمة بغداد ، فاستطاعت ان تسيطر على كل بلاد الرافدين من البصرة الى ماردين ، ومن دون ان يدينوا الا بولاء شكلي لاسطنبول .

ولقد اعقبت هؤلاء طائفة من الحكام المالك الى ان تم الغاء حكم المالك على يد السلطان محمود الثاني في سنة ١٨٣١م . وفي عهد الحكم الملوكي اصبح النفوذ الاجنبي ، وعلى الاخص النفوذ البريطاني ، ملحوظا بصفة اكثر في بغداد ، فقد انشئت في المدينة مقيمة بريطانية في سنة ١٧٩٨م . وفي سنة ١٨٠٢م منح المقيم البريطاني في بغداد رتبة قنصل .

(١٥٩) الصواب اواخر القرن السابع عشر حيث حكم حسن باشا خلال الفترة (١٦٨٩ - ١٦٩٠ م) وحكم احمد باشا في الفترة ما بين سنتي ١٦٩٢ - ١٦٩٥ م .

ولقد كانت منزلة المقيم البريطاني في بغداد تأتي في الدرجة الثانية بعد الوالي ، وذلك في عهد المقيم « كلوديوس جيس ريج » (١٨٠٨-١٨٢١م) وعهد المقيم « رولنسون » (١٨٤٢-١٨٥٥م) (١٦٠) .

استولت القوات البريطانية على بغداد سنة ١٩١٧ (١١١) ، ثم اصيحت عاصمة لمملكة العراق المستقلة سنة ١٩٢١ .

ولقد كانت المدينة مهدا لثورة عارمة اثارها الشعور المعادي للانكليزي في سنة ١٩٤٢ (١١٢) . وبعد انقلابات متعاقبة ، قام الجيش بانقلاب في سنة ١٩٥٨ تم به القضاء على الملكية . وحدثت ثورة اخرى في بغداد سنة ١٩٦٣ (١١٣) جاءت بحزب البعث الى الحكم لكنه لم يدم فيه سوى فترة قصيرة ، ومن ثم استعاد البعثيون الحكم في سنة ١٩٦٨ .

بغداد المعاصرة

موقع المدينة ومخططها

يكون موقع مدينة بغداد على نهر دجلة ، في اقرب نقطة تفصل بين دجلة والفرات ، وهي لا تزيد عن خمسة وعشرين ميلا . وعلى مسافة ستة وعشرين ميلا يلتقي نهر دجلة باكبر رافده هو نهر دبالى وتقع المدينة في سهل مستو يرتفع بمقدار مائة واثنى عشر قدما (اربعة وثلاثون مترا) عن مستوى البحر .

كانت المدينة قد بنيت في الاصل على الضفة الغربية من نهر دجلة . ولكن في خلال اكثر من الف سنة اصبح القسم الاعظم منها يقع على الضفة الشرقية من النهر . ومع ذلك توجد ضاحية واسعة متعاطمة في الجانب الغربي ، تضم « الكرخ » و « كراة مريم » و « المنصور » . وترتبط الضفة

(١١٠) اكلنا ترجمة رحلة « ريج » الشهيرة المعنونة « حديث اقامة في كردستان سنة ١٨٢٠ » بجزيئها وطلقنا عليها تعليقات وتصويبات لصفافية وهي ممددة للطبع الآن . اما « رولنسون » فهو الى جانب قيامه بوصيفة المقيم البريطاني في بغداد ، كان من اشهر طمعا الاسار في ذلك الوقت ولقد قام باكتشافات عديدة في كل من نينوى ، وتلو ، وغيرها .

(١١١) وقع الاحتلال البريطاني لمدينة بغداد في الحادي عشر من شهر اذار سنة ١٩١٧ .

(١١٢) اخطا الكاتب في تحديد التاريخ فالصواب هو سنة ١٩٤١ التي قامت في الشهر الخامس منها ثورة ايار المجيدة . (١١٣) يقصد بها ثورة الثامن من شباط ١٩٦٣ .

الشرقية مع هذه الضواحي بجسور ، يمتد فوق واحد منها خط حديدي .

وهناك جسر آخر يصل الى الكاظمية شمالي الكرخ . وهي عبارة عن بلدة شهيرة اتمعت وتعاظمت حول قبري « موسى الكاظم » و « محمد الجواد » الامامين السابع والتاسع المتحدرين من نسل الرسول . ومع ان التمييز بين منطقتي المدينة القديمة وحاضرها يبدو غير دقيق ، فان المنطقة الاولى تبلغ زهاء اربعة عشر ميلا مربعا ، والثانية خمسة وسبعون ميلا مربعا .

المناسخ

تكون اشهر الصيف (من شهر ايار الى شهر تشرين الاول) جافة ، وشديد الحر . ذلك ان المعدل اليومي لدرجة الحرارة خلال شهري تموز وآب ، يصل الى حد ثمانين درجة فهرنهايت (سبع وعشرون درجة مئوية) قبل غروب الشمس ، ومن مائة وخمس درجات فهرنهايت الى مائة وعششر درجات فهرنهايت (من احدى واربعين الى ثلاث واربعين درجة مئوية) وذلك في منتصف النهار ، غير انها ما تلبث ان تهبط الى ما دون ست وسبعين درجة فهرنهايت (اربع وعشرون درجة مئوية) اثناء الليل .

وتكون ايام الشتاء اكثر بردا ، اذ ان معدل درجة الحرارة فيها يكون حوالي خمس وخمسين درجة فهرنهايت (ثلاث عشرة درجة مئوية) .

ويؤدي هبوب الرياح الشمالية الغربية الجافة الشاملة والمعروفة باسم « رياح الشمال » السي التخلص من شدة الحر ، لكنها تثير الزوابع الترابية ايضا ، وعلى الاخص في شهر تموز ويكون معدل سقوط الامطار في حدود خمس بوصات (مائة وثلاثون ملمترا) في السنة .

بغداد وما جاورها

تم استبدال الدور والحوانيت المزدحمة في المدينة القديمة ، والتي لم تكن لمظلمها اية اهمية انزوية ، وكذلك الازقة والممرات الضيقة ، بشوارع عريضة ، ودوائر ، ومخازن ، وفنادق حديثة ، وهكذا أخذ مظهر المدينة القديمة يتغير تدريجيا خلال سني السبعينيات ولقد بقيت اسواق النحاس والفضة ، والملابس وغيرها على حالتها ، كما بقيت كثير من المساكن والمآهي والجوامع والمساجد القديمة المميزة ، على ما كانت عليه قبالا .

فعلى الجانب الغربي من النهر تقوم بنساية البرلمان ، وكذلك السفارات الاجنبية في العاصمة (١٦٤) . واصبح للضواحي الرئيسة في هذا الجانب من امثال الكرخ ، وكرادة مريم ، والمنصور (١٦٥) اسواقها وحوانيتها الخاصة بها . كما قامت الانحاء السكنية وحدائقها على ضفتي النهر .

وقد ادى انجاز سد سامراء في سنة ١٩٥٦ الى انقاذ مدينة بغداد من خطر الفيضانات المدمرة ، والتي كانت تسبب الدمار الشديد في كثير من المناسبات خلال التاريخ . كذلك ادت السيطرة على الفيضان الى اتساع المدينة فاصبح مخططها الجديد دائري الشكل ، يشمل كلا الجانبين من النهر .

وسائط النقل

تتألف وسائط النقل داخل بغداد من سيارات الاجرة و « الباصات » وقد ازدادت وسائط النقل الالية زيادة حادة منذ سنة ١٩٥٠ فالمدينة التي توسعت عند ملتقى طرق التجارة القديمة الآتية من ايران وبلدان الشرق الاقصى عبر وادي نهر ديبالى الى بغداد ، وعبر وادي نهر الفرات نحو سوريا والبحر الابيض المتوسط ، او عبر وادي دجلة الى ارمينيا والبحر الاسود ، هذه المدينة ما تزال مركزا للمواصلات عبر هذه المناطق .

ولقد وضعت خلال القرن التاسع عشر عدة مشاريع لتحسين المواصلات مع بغداد . فقد اجري مسح كامل لحوض نهر الفرات ، وللقسم الادنى من حوض نهر دجلة في سنة ١٨٣٦ . وفي سنة ١٨٦٠ تم تأسيس مصلحة بواخر اعتيادية في نهر دجلة بين بغداد والبصرة . وفي اواسط القرن الحالي تدنت اهمية النقل بالنهر ، وان بقيت في سني السبعينات بعض وسائل النقل العاملة في نهر دجلة بين بغداد والبصرة (١٦٦) .

(١٦٤) كانت معظم السفارات الاجنبية تحتشد في منطقة كرادة مريم بصفة خاصة منذ اواخر سني الخمسينات واولال سني الستينات لكن هذه السفارات انتقلت الان الى اماكن اخرى في الجانبين الغربي والشرقي من بغداد .

(١٦٥) مع ان الكرخ كانت من ضواحي بغداد عند انشائها على يد المنصور ، الا ان الكرخ كان يقصد به على الدوام الجانب الغربي كله من بغداد .

(١٦٦) تقتصر هذه الوسائط في الوقت الحاضر على بعض الزوارق البخارية التي تنقل الحمولات ، في حين بقيت بعض السفن الصغرى التي كانت تنقل الركاب في دجلة بين بغداد والبصرة حتى اواخر سني العشرينات .

الاسكان والعمارة

ادى الانفجار السكاني في بغداد ، كما هو الامر في بقية المدن الاخرى التي تتعاطم بسرعة ، الى حدوث نقص في بناء بيوت السكن . ولم تعد مشاريع بناء المساكن تتماشى مع الحاجة الى توفير السكن . فضلا عن ذلك فان المشاريع السكنية واسعة النطاق ، من امثال توسيع واستقامة الشوارع ، وانشاء الدوائر الكبيرة والمتوسطة ، واقامة المنشآت التجارية ، لم تؤد الى نقص عدد المساكن في بعض المناطق حسب ، بل انها اجتذبت ايضا عددا كبيرا من العمال الذين كانوا يبحثون عن العمل .

وكان من حسن الحظ ان سمحت السيطرة على الفيضان بحدوث التوسع في المدينة .

يتراوح فن العمارة في بغداد بين البيوت والازقة الشرقية القديمة ، والبيوت والفسادق والمستشفيات الحديثة التي تبنى بالحديد والزجاج والحجر . وهناك امثلة من فن العمارة في القرن الثالث عشر الميلادي ما تزال باقية من العصر العباسي ، وهي تشتمل على « القصر العباسي » و « المستنصرية » وهي كلية كبيرة للفقهاء شيدها وانفق عليها الخليفة المستنصر بالله سنة ١٢٣٢م ، وقد اعيد استخدام هاتين البنائتين بمثابة متحف .

وهناك مجموعة اخرى شهيرة من الابنية باقية من القرن الرابع عشر تشتمل على جامع وكلية شيديا على يد « مرجان بن عبدالله » حاكم بغداد الجلانري في سنة ١٣٥٨م ، بالاضافة الى خان جميل معقود (كروان صاري او نزل) يستعمل الان متحفا للآثار العربية .

اما الجوامع والمساجد التي تزيد على مائة ، ومن بينها القباب المذهبة في الكاظمية ، والتي كمل بناؤها في القرن التاسع عشر ، فانها تضيف المزيد من الاهمية العمرانية للمدينة .

وتشتمل المباني الحديثة على البلاط الملكي للملك فيصل الاول مؤسس الملكية (١٩١٨) و « القصر الابيض » (مقر ضيوف الحكومة) وقاعة المدينة (١٩٢٩) وبنابة وزارة الدفاع ، والبلاط الملكي

(١٩١٨) تقضى البلاط الملكي القديم في سنة ١٩٧٢ .
(١٩٦٩) عرفت باسم قاعة الملك فيصل في المعهد الملكي ، وقد استبدلت باسم قاعة الشعب منذ ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ .

تلتقي طرق السكك الحديدية الكبرى الثلاثة التي تمتلكها الدولة وتديرها في مدينة بغداد . فهناك خط يسير شمالا الى الموصل . وحتى سنة ١٩٤٠ لم تكن العاصمة قد ارتبطت نهائيا باوروبا ، عن طريق القطار ، وذلك عندما كمل مدسكة حديد بغداد عبر الاراضي السورية الى اسطنبول (١٩١٧) .

وهناك خط ثان يربط بغداد مع البصرة ، وخط اخر يربطها مع الانحاء الشمالية الشرقية الى اربيل عبر مدينة كركوك .

وقد تأسست مصلحة نقل منتظمة بالسيارات بين بغداد ودمشق في سنة ١٩٢٣ ، اما في النصف الثاني من القرن الحالي فقد اصبحت المدينة تحتفظ بطرق خارجية تتغلب الطرق التقليدية ، وتربطها بكل المدن الرئيسية في العراق . وغدت سيارات النقل المجهزة بالات تكيف الهواء تجلب الكثيرين من الزوار الاجانب .

وافتح خط لنقل البريد بين القاهرة وبغداد في سنة ١٩٢١ ، وابعه خط لنقل المسافرين بينهما في سنة ١٩٢٩ . واصبح للمدينة مطاران مديان ، وقد كمل بناء مطارها الدولي في سنة ١٩٧٠ .

احصائيات السكان

بلغ عدد سكان مدينة بغداد في سنة ١٩٧٠ اكثر من مليونين ومائة الف نسمة ، وذلك بالمقارنة مع مليون وستمائة الف نسمة في سنة ١٩٦٥ .

ولقد ادى هذا النمو السريع في المدينة الى نقص عدد المساكن التي تفي بحاجة القادمين الجدد ، على الرغم من انخفاض كلفة المشروعات العامة ، والاعلبية الساحقة من سكان المدينة هم من العرب وهناك عناصر اقلية تشتمل الاكراد ، والاسر ، والافغانيين ، والارمن ، والابريانيين ، والصابئة ، وغيرهم .

واللغة الرئيسية في المدينة هي اللغة العربية ، وهي اللغة الرسمية في العراق . والدين الاساس هو الاسلام . وهناك عدد واسع من المسيحيين . اما اكثرية افراد العائلة اليهودية السابقة فقد هاجروا الى بلدان اخرى .

(١٩٦٧) كان خط سكة الحديد بين بغداد والموصل ينتهي عند قرية بيجي (فشاء بيجي الان) وقد بوشر بايصال الخط الى الموصل ابتداء من سنة ١٩٣٦ وحين كمل انشاء هذا الخط في اواخر سنة ١٩٣٩ تم ربطه بالخط الحديدي الذي يربط سويا مع تركيا واوروبا .

(القصر الجمهوري) ، وبنيات جامعة الحكمة في الزعفرانية ، والمتحف العراقي الحديث (١٧٠) .

الحياة الاقتصادية

ازدادت عائدات العراق من النفط بعد الحرب العالمية الثانية زيادة كبيرة جدا وقد انعكست الثروة التي اصابتها البلاد في وفرة رأس المال ، فشرع التجار يهتمون بالاستيراد والتوزيع ، كما اخذوا يهتمون - ولو على نطاق ضيق لكنه متعاظم - في انشاء صناعات السلع الرأسمالية والاستهلاكية .

وتتركز معظم الصناعات العراقية في بغداد . وهي تشمل صناعة الجلود والائمشة الحريرية والقطنية ، والاجر ، والسمنت ، ومنتجات التبوغ ، وتقطير المواد الكحولية من التمور والاعناب . وهناك معامل لسبك الحديد ومصنع للفولاذ (١٧١) .

كذلك تركزت الخدمات الحالية هي الاخرى في العاصمة ايضا ، وهي تضم المصرف المركزي في العراق والذي له وحده حق اصدار العملة .

الحكومة والخدمات

بدر المدينة امين العاصمة وهو عسكري (١٧٢) كما ان للمحافظة محافظ . ويقوم في بغداد مقر الحكومة القومية ومركز مؤسساتها الرئيسية وفروعها .

ولقد اتسمت تسهيلات التعليم بعد الثورة اتساعا سريعا جدا ، وتم انجاز التعليم الجامعي الاجباري في بغداد تقريبا ، واصبح التعليم العالي مجانيا ، وهو متوفر في جامعة بغداد التي تأسست في سنة ١٩٥٨ . وتوجد في بغداد جامعة الحكمة التي تأسست سنة ١٩٥٦ ، وجامعة المستنصرية التي انشئت في سنة ١٩٦٣ ، واربع كليات من بينها المعهد التقني العالي الذي انشئ في سنة ١٩٦٠ ، ومعهد الفنون الجميلة الذي اسس سنة ١٩٣٦ .

وكانت بغداد اول من استفاد من مشروع توفير السكن للفقراء ، ومن التوسع في الخدمات

(١٧٠) امتت جامعة الحكمة التي تملكها وتديرها طائفة من المبشرين الامريكان في سنة ١٩٧٢ فاصبحت الان مقرا لمعهد التكنولوجيا .

(١٧١) لا توجد معامل للسبك الحديد سوى معامل التصليح وصنع الموارث الكونكريتية في الشالجية . اما معمل الصلب فيجري العمل في انشائه الان .

(١٧٢) استبدل امين العاصمة العسكري في اوائل هذه السنة بامين مدني .

والتسهيلات الصحية والاجتماعية ، بما في ذلك انشاء المستشفيات والعيادات الطبية الحديثة . اما مشاريع القوة الكهربائية ، وتوفير اسالة الماء في المدينة ، فانها ملك للدولة ، وتدار من قبلها مباشرة .

الحياة الثقافية

يستدل من تاريخ المدينة ، ومن كثرة الجوامع والمساجد فيها ، ان الكثير من نواحي الحياة الثقافية فيها كانت متركرة لدى الطوائف الدينية .

فمرقد الامامين ومسجد الكاظمية السدي يضمهما ، من اهم الاماكن التي يقصدها الزوار . وتشتمل المكتبات الموجودة في بغداد على مكتبة الاوقاف التي تأسست سنة ١٩٢٩ ، وهي تضم مجموعة من كتب التاريخ والاداب العربية . وتعتبر المكتبة المركزية التابعة لجامعة بغداد ، والتي تأسست سنة ١٩٦٠ ، متودعا للمطبوعات العراقية وتستخدم بمثابة مركز للتبادل الدولي (١٧٣) .

وهناك معاهد ثقافية اخرى منها متحف القصر العباسي ، ومتحف الاسلحة الذي انشئ في سنة ١٩٤٠ ، ومتحف الازياء الذي افتتح في سنة ١٩٤١ . اما المتحف العراقي الذي تأسس في سنة ١٩٢٣ فقد جدد في سنة ١٩٦٦ ، ومتحف التاريخ الطبيعي الذي انشئ في سنة ١٩٤٦ ، والمتحف الوطني للفن الحديث المؤسس سنة ١٩٦٣ ، ومتحف الآثار العربية الذي انشئ سنة ١٩٣٧ وهناك ايضا عدد من الجمعيات المعروفة في العلوم والفنون .

وسائل التبادل

كانت توجد في بغداد خلال سني السبعينات اكثر من ست صحف يومية . وكانت جريدة « الزمان » تعتبر اكثرها اهمية بصفة عامة (١٧٤) .

(١٧٣) نسي الكاتب المكتبة الوطنية التي تأسست سنة ١٩٢٥ وهي من اهم المكتبات العامة واقدمها في العراق . كما نسي الكاتب ان يشير ايضا الى مكتبة الآثار العامة التي نقلت مجاميع الصحف والمجلات منها مؤخرا الى المكتبة الوطنية ولم يذكر الجمع العلمي العراقي ومكتبته ، وغير ذلك من المكتبات الملحقة بالكليات والمعاهد وغيرها .

(١٧٤) هذا خلط فاضح ومشين من كاتب المقال . ذلك ان جريدة « الزمان » قد عطلت منذ صبيحة اليوم الثامن من شباط سنة ١٩٦٣ ولم يسمح لها بالصدور بعد ذلك ابدا . اما الصحف التي صدرت خلال سني السبعينات الحالية فهي الثورة والجمهورية ، والتاخي ، وطريق الشعب ، والعراق .

بغداد في اوج ازدهار الامبراطورية العباسية

بلغت بغداد اوج ازدهارها في عصر الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) فاذا كانت اية خلافته تستحق بان توصف بانها العصر الذهبي للمدينة العربية ، فان تلك هي خلافة المأمون .

فلقد قام المأمون الذي اتسم بالشجاعة بعدة حملات ضد البيزنطيين ، وقضى على الثورات التي حدثت في مصر ، وسوريا وارمينيا ، وخراسان ، على ان انتصار المأمون على اخيه الامين كان ينظر اليه دوماً بأنه انتصار فارسي موجه ضد المصالح العربية التي كان يمثلها اخوه الخليفة المنذر ، وهذا الاعتقاد مصيب على نطاق واسع . ذلك لان المأمون جلب معه الجيوش الفارسية ، والوزراء الفرس ، وافصح المجال امام الاتجاهات الفارسية ، في التطبيق الإداري التي كانت مستنرة أثناء الحكم السابق فعدت الآن ظاهرة بشكل متشدد كذلك كان المأمون صاحب ذهنية وقادة استفاد من الخلافات القائمة بين اصحاب العقائد ، فقد انشأ المراصد وشجع دراسة علم الفلك والهندسة ، كما اسس « بيت الحكمة » في بغداد ، وكرسه لترجمة المؤلفات العلمية والفلسفية عن الاصل اليوناني .

ويبدو ان المأمون كان يحمل في ذهنه تصميماً عظيماً لصورة اسلامية موحدة ، تراب الصدع العميق بين المسلمين . فبمثل هذه الطريقة يمكن ضمان الوحدة السياسية للخلافة ، وتحقيق السلام الداخلي والرخاء . وقد ادى عطفه على المفكرين من جماعة « المعتزلة » الذين كانوا يركزون الدفاع عن الاسلام بالجدل العقلاني ضد الهرطقة والكفر ، الى تقارب قوي من الشيعة الذين كانوا يشاركون المعتزلة في بعض مواقفهم .

وطبقاً لذلك تميز القسم الاوسط من عهد المأمون باختياره الامام « علي الرضا » وريثاً له وذلك في سنة ٨١٧ م . لكن حدث ان مات الامام بعد ذلك بوقت قصير . ولا يعني هذا بالضرورة ان المأمون كان يخطط بصفة دائمة لتحويل الحكم الى العلويين ، لكنه ربما كان يعتمز ان يوسع قاعدة الترشيح امام القادرين من المرشحين العباسيين والعلويين الذين قد ينجحون في ذلك طبقاً للمواهب الشخصية . ولقد جرت مثل هذه المحاولة من قبل خلفاء عباسيين آخرين خلال القرن

وبالإضافة الى هذه توجد صحف اسبوعية سياسية ودوريات فنية ، ونشرات حكومية عن شؤون التعليم والموضوعات الاخرى .

واللغة الانكليزية من اوسع اللغات الاجنبية الشائعة . وكانت الصحف والمجلات البريطانية والامريكية مقروءة في العاصمة .

اصبحت الاذاعة والتلفزيون ملكاً للحكومة منذ سنة ١٩٦٧ (١٧٥) واذاعة بغداد هي :اذاعة الامنة الوحيدة ، وهي تديع بمدة لغات في كل انحاء القطر . اما محطة تلفزيون بغداد - وهي اول محطة من نوعها انشئت في أي بلد عربي - فانها قد بدأت البث في سنة ١٩٥٦ .

ما تزال المصادر الحديثة عن بغداد متفرقة ، رغم وجود عدد من المؤلفات التي تشمل تاريخ المدينة من امثال كتاب « لي سترانج » المعنون « بغداد أثناء الخلافة العباسية من المصادر العربية والفارسية » الذي صدر لأول مرة سنة ١٩٠٠ ثم اعيد طبعه سنة ١٩٢٤ (١٧٦) وكتابي « ستيفن همسلي لونغفريغ » وهما « اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » و « العراق من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ » (١٧٧) وكتاب « نابيا ابوت » المعنون « ملكتان في بغداد » عن ام الرشيد وزوجته (١٧٨) : وكتاب طه باقر عن بغداد « (١٧٩) .

اما تاريخ المواصلات فيتمثل في كتاب «مبيل ريبكا جابمان » المعنون بريطانيا العظمى وسكة حديد بغداد ١٨٨٨ - ١٩١٤ الصادر في سنة ١٩٤٨ ، وكتاب « روبرت . م . ادمز » المعنون « ارض فيما وراء بغداد » هو دراسة فنية تتركز حول الاتجاهات المتغيرة في شؤون الري ، والزراعة ، والمستوطنات المدينة . وهناك معلومات قيمة عن بغداد وردت في كتاب « فرياستارك » الموسوم « صور من بغداد » والصادر في سنة ١٩٣٧ .

(١٧٥) هذا قول خاطيء لان الازاحة منذ ان انتشت في سنة ١٩٣٦ كانت ملكاً للحكومة ،ومثل ذلك حصل لحظة التلفزيون ايضاً (١٧٦) ترجمة الاستاذ بشير فرنسيس ونشره في سنة ١٩٣٦ . (١٧٧) ترجم الاستاذ جعفر خياط كتاب اربعة قرون وطبع اربع طبعات اخرها في سنة ١٩٧٤ اما الكتاب الثاني من مؤلفي لونغفريغ فلم يترجم حتى الان . (١٧٨) ترجم السيد عمر ابو النصر هذا الكتاب ونشره في بيروت سنة ١٩٦٦ . (١٧٩) كتيب صغير اصدرته مديرية الانار العامة .

التاسع ، وعلى الاخص على يد كل من « المنتصر »
و « المعتضد » .

مدرسة بغداد للتصوير

تعتبر هذه المدرسة ، على اوسع احتمال ،
اول مدرسة تعنى بتصوير المنمنمات الاسلامية .
وقد تأسست هذه المدرسة في اواخر القرن الثاني
عشر الميلادي (ولو ان اقدم النتاجات الفنية الباقية
لا يمكن ان يعزى تاريخها الى ما قبل القرن الثالث
عشر) .

لقد انشئت المدرسة اول الامر في عهد الحكام
الاتابكيين ، وهم الاوصياء المحليون الذين استولوا
على الحكم بعد سقوط حكم الاتراك
السلجوقيين في منتصف القرن الثاني عشر . وبقيت
هذه المدرسة قائمة حتى بعد تدمير بغداد على ايدي
المغول سنة ١٢٥٨م ، واستمرت موجودة الى حدود
سنة ١٣٠٠م .

ولقد اظهرت مدرسة بغداد هذه مقاومة
واستقلالا مدهنين . وبقيت متحررة من التأثيرات
المغولية ، والسلجوقية التي تغلغت في معظم
الاساليب المحلية للتصوير . كانت المميزات الشهيرة
لفن مدرسة بغداد تتمثل في تصوير الوجوه الفردية
المعبرة بدلا من الانماط الظاهرية ، وذلك بالتعبير عن
الحركة ، والاهتمام بتفاصيل الحياة اليومية .

من الامثلة الاولى لمنمنمات مدرسة بغداد ، هي
الصور التي رسمت لترجمة عربية من كتاب
« دسقوريدس » المعنون « الاقرباذين » (١٨٠) المؤرخة
بسنة ١٢٢٤م . وهذه المخطوطة موزعة الان في
جملة من الجامعات الخاصة والمتاحف . فهناك رسم
محفوظ في معرض « فريير » بمدينة « واشنطن »
يصور احد الابطاء اليونانيين وهو يفسر وصفة
طبية لاحد الكتبة . فهذا الرسم يكشف عن عناصر
تقليدية لمدرسة بغداد ، تلك العناصر التي تميز
بالألوان القوية ، والاحساس الحسن المتطور
للتصميم ومظاهر الوجه المعبرة .

ومع ان صور الاشخاص قد رسمت بشكل

De Materia Medica (١٨٠)

مادة تستعمل في تركيب الادوية وهذا الكتاب من وضع
احد علماء النبات والطب لدى الاغريق . وقد اهتم العلماء
العرب به اهتماما كبيرا وترجم عدة مرات الى اللغة العربية
[انظر كتابنا فن التصوير عند العرب الذي ترجمناه
بالاشتراك مع الدكتور عيسى سلمان عن المؤلف الامريكي
رجار رانفهاوزن ، ونشرته وزارة الاعلام في سنة ١٩٧٤] .

بسيط ، وعلى اساس البعدين ، الا ان هنالك
واقعية تنبعث من الاهتمام بالتفصيل .

وتبين فاتحة كتاب « رسائل اخوان الصفا The Epistles of the Sincere Brethren

التي يعود تاريخها الى سنة ١٢٨٧م ، ان عناصر
الاسلوب الاساسية لمدرسة بغداد قد بقيت حية
حتى النهاية . فهذه الصورة المحفوظة في مسجد
« سليمانية » باسطنبول تبين ايضا واقعية في
التفصيل ، في ذات الوقت الذي تحتفظ فيه بصفة
زخرفية طاغية .

لقد صور مؤلفو الكتاب مع كتبهم ، وركز
الاهتمام على الوحدة . ولم يكن استعمال الالوان
- مع التركيز على اللونين الابيض والذهبي - اقل
انارة من الالوان التي احتوتها النتاجات الاولى
لمدرسة بغداد ، ففي بداية القرن الرابع عشر الميلادي
ماتت هذه المدرسة ، وبدا التصوير في المنطقة باخذ
الكثير من مميزات المدارس المغولية .

x x x

دائرة المعارف الدولية (١٨١)

بغداد عاصمة العراق ، واكبر مدينة فيه ،
تقع في القسم الشرقي المركزي من القطر ، على
شفتي نهر دجلة . وليست بغداد هي مقر الحكومة
حسب ، بل هي المركز التجاري ، والصناعي ،
والثقافي للعراق . وهي تستخدم اكثر من خمس
اليد العاملة في البلاد . والذين يسكنون بكثرة عند
الجانب الغربي من النهر (١٨٢) .

وتتضمن المشاريع فيها على سكك الحديد ،
والمشاغل ، ومحلات التصليح ، ومعامل الزيوت
والاسفلت ، ومعامل تكرير النفط ، والمواد الانشائية
بالاضافة الى معامل صغيرة وكبيرة لصنع الاقمشة
والملايس ، وكثير من الصناعات الانشائية .

وتتلقى بغداد من المطر ايام الشتاء ما معدله
ست بوصات ويكون الجو بهيجاً تماماً، ولكن في معظم

(١٨١) المجلد الثاني صفحة ٢١٦ - ٢١٧ اصدرتها مؤسسة شركة
غولبير الكندية المحدودة .

Golier of Canada Ltd.

وفد طبعتم في الولايات المتحدة الامريكية في عشرين مجلدا
سنة ١٩٦٦ .

(١٨٢) انتشرت الطبقة العاملة التي هجرت الريف بعدما اجتذبتها
المشاريع في بغداد ، في كل انحاء العاصمة الغربية منها
والشرقية ولم يعد هناك اي تمييز لها عن بقية سكان
المدينة .

وموظفو الحكومة ومستخدموها ، وعدد من أفراد الطبقة المتوسطة المتنامية .

ولقد انشئت جملة من المباني العامة . غير ان الانفجار السكاني الناجم عن الهجرة من الريف الى المدينة بحثا عن العمل فيها ، يعتبر من اعظم المشاكل القومية ، ذلك لان الالوف من الناس قد ارغموا على العيش في اكواخ حقيرة من الحصر (١٨٢) .

اسست جامعة بغداد في سنة ١٩٥٦ لكي تضم عددا من الكليات التي كانت قائمة آنذاك والتي كانت تحتوي على ستة آلاف طالب وطالبة ، بالإضافة الى جملة من المدارس والمعاهد الحكومية التدريسية من بينها كلية العلوم الدينية .

ولا توجد في بغداد سوى مناظر قليلة يهتم بها الزائر ، وهي نقطة البداية لسفريات الى المواقع القديمة من امثال سامراء ، وبابل وطيستون . ويضم المتحف العراقي الفخيم مجموعة متألقة من مواد التقطت من هذه المواقع وغيرها من المواقع الاخرى ، وعلى الاخص من المواقع التي كانت مقرا لعصور السلالات الحاكمة الاولى .

لم يبق اي شيء من اثار المدينة المدورة التي انشئت في عهد المنصور . ونتيجة للفرز والمغولي المدمر فلم يبق في بغداد سوى بضعة من المباني التي شيدت في العصور الاسلامية الاولى ، وتشتمل هذه على كليتي الفقه «النظامية» و «المستنصرية» (١٨٤) .

تقع الى شمالي المدينة ضاحية الكاظمية المكتظة بالسكان ، ويمرأقذ الأئمة ، والتي لا يسمح لغير المسلمين بالدخول اليها وهناك اجزاء قليلة من الاسواق القديمة المسقفة تزود المنسوق باشياء كثيرة من المواد والحاجات النحاسية والبرونزية، والفضية والسجاد، والملابس الداخلية والمجوهرات القديمة .

تقع بغداد في سهل بين النهرين العظيمين دجلة والفرات ، وفي منطقة يسهل تطوير وسائل الري فيها . وتقوم بغداد في الموقع الذي كانت تحتلته المدن المهمة في العصور القديمة والتي تلقت التجديد في العصر الاسلامي .

(١٨٢) ازيلت المرافق والاكواخ من بغداد في اوائل الستينات غير ان معالم الهجرة الى بغداد من مختلف انحاء القطر في السنوات الاخيرة قد احدث مشكلة سكن معقدة .

(١٨٤) لم يبق للمدرسة النظامية اي اثر . اما المدرسة المستنصرية فقد تم ترميمها في السنوات القلائل الماضية وكان المقرر ان تغل دارا لحفظ المخطوطات المكتسة في صناديقها وبلا نظام حتى الان في مؤسسة اثار العامة .

ايام السنة تطفئ الحرارة المرعبة ، حيث ترتفع درجات الحرارة اثناء النهار الى مائة وخمس عشرة درجة فهرنهايت ، ولو ان درجة الحرارة اثناء الليل قد تهبط الى ثلاثين درجة .

وتبدأ مياه دجلة بالهبوط ابتداء من شهر تموز حتى شهر كانون الاول ، لكن مستوى النهر يرتفع بسرعة في موسم الربيع . وفي معظم ايام السنة تتألف وسائل النقل التجاري في النهر ، من مراكب تسير في المياه الضحلة .

وتشتمل تسهيلات النقل على سكك الحديد وجملة خطوط جوية دولية ، وطرق معبدة تنفرع من المدينة . ويقع مطار بغداد الدولي في الجانب الغربي من النهر . وتبدأ الخطوط الحديدية الكبرى من ذات المنطقة ايضا .

ويسير احد خطوط سكك الحديد ، ذي العرض القياسي ، الى الموصل ، ثم يجتاز الاراضي التركية الى اوربا ، ويمتد فرع منه جنوبا نحو ميناء البصرة . ومن بغداد يمتد خط حديدي ، بعرض متر واحد ، الى كركوك واربيل .. ويوجد طريق للسيارات يقطع الصحراء السورية الى البحر الابيض المتوسط ، ويمتد طريق اخر داخل تركيا ، وثالث نحو الشمال الشرقي من ايران .

ولا تحمل بغداد الحديثة سوى مشابهاة ضئيلة لنفس المدينة التي كانت قائمة قبل ربع قرن مضى من الزمن . فلقد استبدل الجسران العائمان فوق نهر دجلة بجملة من الجسور الفولاذية الثابتة وذلك الجو النعسان الذي كان يطنى على الضفة الشرقية للنهر بشارعه التجاري الصغير ، وسوقه المسقف ، واحيائه السكنية المزدهمة التي لا يمكن الوصول اليها الا عبر ازقة ضيقة ، كل هذه قد اخفت الان عن الانظار نهائيا .

فلقد شقت شوارع وساحات واسعة معبدة بالحصى ، تكتظ بسيول من سيارات الاجرة ، والنقل ، والسيارات الخاصة .

وتعم الساحة الرئيسة الموازية للنهر بفنادق مجهزة بادوات تكييف الهواء ، وبالمخازن والابنية الحكومية الحديثة ، وتمتد نحو الجنوب الى الاحياء السكنية الواسعة التي تحتل قسما منها بعض السفارات الاجنبية .

وقد ادى تيسر وسائل النقل الى توسيع المدينة توسعا هائلا ، وقيام الضواحي الجديدة التي يسكنها على نطاق واسع عمال الصناعات ،

دائرة المعارف الأمريكية (١٨٥)

بغداد (العراق) عاصمة المملكة ، واعظم مدينة في بلاد الرافدين على نهر دجلة . وقد ذكر ان بغداد القديمة مقر الخلافة ، والتي كانت تضم حوالي مليوني نسمة ، كانت تقوم على الجانب الغربي من النهر ، وكانت من اعظم مدن العالم الاسلامي .

اما بغداد الحديثة فتقوم على ضفتي النهر غالبا في وسط جغرافي للقطر . وكانت قديما محاطة بسور دفاعي من الاجر في شكل دائري ، يبلغ طوله زهاء ستة اميال . غير ان هذا السور في الوقت الحاضر متهدم بصفة عملية (١٨٦) . والمسكن مبنية من الاجر بصفة رئيسة وهي على النمط الاوربي بشكل عام . وهناك شبكة من الشوارع المعبدة بالاسفلت تربط كل انحاء المدينة ، وتؤلف واحدا من المظاهر الحديثة .

ومن المساجد التي يبلغ عددها زهاء مائة مسجد ، بقي عدد جدير بان يستحق المشاهدة ، ويمكن ان يجذب الزائر اليه اما الكثير منها فهي مخربة ، وطرز عمارتها مغاير لطرز ما هو موجود منها في المدن الاسلامية الاخرى . غير ان لها مظهر مزوق عظيم من القاشي المزجج الذي يغطي قبابها ومنازلها ، وهي مرتبة في شكل نتاجات من الفسيفساء بمختلف الالوان .

والاسواق واسعة تعج بالسلع . وما تزال الاسواق التي بناها « داود باشا » (١٨٧) تعتبر من اشهر المباني الفخمة في العالم .

كانت بغداد منذ عهد طويل تهيمن على جزء كبير من وسائل النقل بينها وبين اوربا من ناحية ، ومع ايران والهند من ناحية اخرى . وما تزال التجارة الايرانية والهندية على نطاق واسع ، كما هو الامر ايضا مع اوربا ، حيث يتم نقل جزء كبير

The Encyclopedia Americana (١٨٥)

صدرت طبعها الجديدة في سنة ١٩٤٨ في ثلاث مجلدات اما طبعتها الاولى فكانت في سنة ١٩٢٩ نقلنا هذه المعلومات عن بغداد من المجلد الثاني ص ٨١ - ٨٢ .

(١٨٦) لم يبق من هذا السور الذي كان يحيط بمدينة بغداد منذ عهد الخليفة الناصر لدين الله سوى باب واحد هو المعروف بالباب الوسطاني .

(١٨٧) داود باشا الكرجي اخر الحكام الماليك في العراق حكم في الفترة ١٨١٦ - ١٨٢١ م حيث استورد العثمانيون سيطرتهم على العراق بعد مقتله . ويعزى الى داود باشا بناء السوق المسقف المعروف باسم سوق السراي .

وفي سنة ٧٦٢م أمر المنصور ثاني خلفاء بني العباس ببناء مدينة مدورة ، كمل بناؤها مع حصون واحياء واسعة على الضفة الغربية من النهر .

وفي نهاية ذلك القرن ، واثناء حكم هرون الرشيد ، اصبحت المدينة المدورة ، مقرا متالفا للعلوم والاداب ، اضافة الى كونها عاصمة للعالم الاسلامي ، وفي خلال القرن التاسع اصبحت سامراء التي تقع شمالي بغداد ، عاصمة للعباسيين زهاء نصف قرن من الزمان ، قبل ان تستعيد بغداد شهرتها .

ولقد اتسعت بغداد بامتداد الضفة الشرقية للنهر ، وبقيت المركز الروحي والديني للعالم الاسلامي حتى سنة ١٢٥٨م . حين اجتاحت قطمان المغول القادمة من الشرق المدينة وقضت على الاسرة العباسية الحاكمة ، وبعد ذلك الوقت بحوالي ثلاثة قرون ، تدهورت المدينة تحت امرة حكام متعاقبين الى ان تمت سيطره الاتراك عليها في القرن السادس عشر ، ثم اصبحت خلال القرن التاسع عشر احدى الحواضر الاقليمية في الامبراطورية التركية . وبدأت تنتعش .

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى استولى البريطانيون على بغداد في شهر اذار سنة ١٩١٧ . ثم اصبحت في سنة ١٩٢١ عاصمة لدولة العراق الحديثة . وفي سنة ١٩٤١ احتلت القوات البريطانية مدينة بغداد مرة اخرى ، بالتعاون مع الحكومة العراقية في هذه المرة . وذلك لاختتام ثورة مؤيدة للامان (*) .

كان التقدم المعتدل الذي شرع به بعد الحرب العالمية الاولى ، قد وصل الى درجة الشلل في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية . يؤلف المسلمون الاكثرية الساحقة من السكان ، وهناك حوالي عشرين الف مسيحي . اما اليهود الذين كانوا يؤلفون في وقت من الاوقات اكبر طائفة يهودية فقد هاجروا الى فلسطين المحتلة وكان عددهم ٥٥٨٨٢ نسمة . (دونالد والاس ، جمعية بحوث الشرق الاوسط) .

(*) لم تكن ثورة العراق في ١٩٤١ كما تزعم دائرة المعارف الدولية فهي ثورة قومية تحررية ، اعلنتها العراق شعبا وجيشا على الوجود الاستعماري (المورد) .

في القرن الثالث عشر الميلادي اجتاح حميد جنكيزخان مدينة بغداد ففقد على الخلافة وذبح آخر الخلفاء منها وطرد احفاد الفاتح هولوكو على يد تيمورلنك . وفي القرن الخامس عشر استولى الشاه اسماعيل اول حاكم من البيت الصفوي الفارسي على بغداد . ومنذ ذلك الوقت اصبحت المدينة عرضة لحروب مدمرة بين الاتراك والفرس . وبعد حصار واسع افتتحت المدينة على يد الامبراطور التركي مراد الرابع . وحاول « نادر شاه » بلا جدوى ، خلال القرن الثامن عشر استخلاصها من ايدي الاتراك .

وفي سنة ١٩١٧ خلال الحرب العالمية الاولى ، افتتحتها القوات البريطانية بعد هزيمة الجيش التركي الذي كان يدافع عنها . ثم اصبحت بعد عقد معاهدة السلام عاصمة للعراق ، ووضعت تحت الانتداب البريطاني بقرار من عصبة الامم ، واستمرت عاصمة قومية بعد توقيع معاهدة ١٩٣٠ .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية احتل العراق مرة اخرى من قبل القوات البريطانية وذلك في شهر تموز سنة ١٩٤١ للقضاء على ثورة عسكرية فيه . وفي سنة ١٩٤٥ منحت الحكومة حق نقل العاصمة في حالة الضرورة ، من بغداد الى أي مكان اخر من الاراضي العراقية .

x x x

سكة حديد بغداد

اسم شهر لخط حديدي يمتد الى الكويت قرب رأس الخليج العربي في الجنوب ، ومن هناك يصعد عبر العراق الى البصرة وبغداد والموصل ، ومنها عبر اراضي سوريا الى الحدود التركية ومن هناك يسير داخل سوريا الى نقطة تقرب من حلب . ثم يسير شمالا ليتفرع منه فرع يمتد الى اسطنبول ، في حين يسير الفرع الثاني جنوبا نحو حلب ليربطها مع طرابلس وحيفا ، ثم ينتهي في القاهرة .

ولقد اصاب هذا الخط أهمية دولية في اواخر سني ١٨٩٠ عندما اصبح يعرف باسم طريق القيصر فلهمم الثاني امبراطور المانيا ، وذلك على اثر زيارة قام بها لسليطان تركيا ، وحصل خلالها على وعد بمنحه امتيازاً لبناء سكة حديد يمتد من «قونية» الى الخليج العربي .

وكان الالمان قد حصلوا قبلاً ، وعن طريق الجهود التي بذلها الدبلوماسي الالمانى البارون

منها بالراكب في النهر . وكانت التجارة مع اوربا سابقاً واسعة كثيراً بطريق البر ايضا ، وذلك عبر الصحراء السورية الى دمشق ، وعبر طريق ارمينيا شمالاً .

ومنذ ان فتحت قناة السويس غدت الطرق البحرية اكثر اهمية ، فانحط النقل عبر الهند بعض الشيء . غير ان تطور تسهيلات النقل بالسكك الحديدية جعل منها السوق التي يمكن الاستيراد منها من منطقة البحر الابيض المتوسط والتصدير اليها .

كانت الاصواف هي الصادرات الرئيسة الى اوربا ، بالإضافة الى الشعير والحنطة والسمغ والجلود والمفص ومصنوعات الجلود ، اما المستوردات فكانت تشمل الحديد والنحاس والسكر والقهوة . وكانت توجد في بغداد عدة مصنوعات من ادوات نحاسية ، ومن الملابس ، والاصباغ وغيرها .

تكون درجة الحرارة في بغداد خلال الصيف شديدة جداً . ولكن الشتاء فيها بارد ايضا ، الى درجة يصبح استعمال النار امراً ضرورياً . والمناخ فيها مقبول ، وصحي بوجه عام . ويسكن المدينة العرب والاكرد والاتراك والفرس والارمن واليهود . ويؤلف العرب المسلمون غالبية سكان المدينة . ومع ذلك فان جميع الاقليات العرقية والدينية تشترك على قدم المساواة بكل الحقوق التي تتمتع بها الاغلبية العربية . وطبقاً لتخمينات سنة ١٩٤٨ بلغ عدد سكان بغداد حوالي ستمائة وستين الف نسمة .

x x x

اسست بغداد سنة ١٧٦٢م على يد الخليفة المنصور . وبلغت درجة رقيعة من المجد في القرن الثامن الميلادي على يد الخليفة هرون الرشيد الذي شخصته قصص الف ليلة وليلة . وقد اصبحت آنذاك المدينة الرئيسة في العالم الاسلامي كله ، ومركزاً عظيماً للثقافة والعلوم .

وتعاطف هذا التقليد الثقافي للمدينة بعد ان تطورت كمركز تهديبي ومقر للعراق الحديث حيث انشئت كليات تدريب المعلمين ، والصيدلة ، والهندسة ، والمدارس العسكرية . وتشتهر المدينة ايضا بانها المركز المهم للصناعة والتجارة والمواصلات في العراق . وبرهنت المناظر الجميلة على امتداد شاطئ النهر بانها كانت المناطيس الذي يجتذب السواح .

الى الموصل ، حتى يصل الضفة الغربية من بغداد ،
ومن هناك يسير الى الخليج العربي (١٨٨٨) .

ولقد افتتح خط (قونية - اوغلي - بلغاريا) ،
والبالغ طوله مائة وأربعة وعشرين ميلا ، في شهر
تشرين الاول سنة ١٩٠٤ . وعند اندلاع الحرب
العالمية الاولى كان حوالي الفا ومائتي ميل من
مجموع طول الخط البالغ الفا وخمسمائة وخمسين
ميلا ، قد كمل بناؤه ما عدا بعض الثغرات في بعض
الاقسام المهمة .

كان اول قطار بين البصرة وبغداد قد غادر
مدينة البصرة في اليوم الثالث عشر من شهر كانون
الثاني سنة ١٩٢٠ . وفي سنة ١٩٣٦ قررت الحكومة
العراقية ربط الموصل بكل من تل كوجك وبغداد
من النقطة التي كانت ينتهي بها في « بيجي » وقد
كمل بناء هذا الخط وبكلفة ثلاثة ملايين باون ،
وافتح في السابع عشر من شهر تموز سنة
١٩٤٠ .

(١٨٨) بدا الالمان العمل في مد سكة حديد بغداد برلين في جانب
الكرخ منقطة السكك الحالية في سنة ١٩١١ واعدوا لذلك
عمارتين هدمت احدهما وامتاز الاخرى قائمة بجوار دار
الاذاعة وباحيدا لو حوطف عليها كانه له اهميته التاريخية
وحين اندلعت الحرب العالمية الاولى كان الخط قد وصل
الى سامراء فتولفت الاعمال فيه ، ثم استأنف الإنكليز
بعد احتلالهم بغداد مئة فاولوه الى قضاء الشراف اول
الامر لكنهم مالبتوا ان يرجعوه الى بيجي الى ان شرع
باكماله مجددا في عهد حكومة حكمة سليمان ١٩٢٦ .

مارشل فون بيبر شتاين ، على امتياز أمده تسع
وتسعون سنة لبناء خط حديدي من انقرة الى
ازمير ، ويتصل بالخط الحديدي القائم هنالك
انذاك . وقد مول هذا المشروع من قبل « شركة
سكة حديد الاناضول » التي كان يسندها البنك
الالمانى Deutsche Bank .

انار الامتياز الذي ظفر به القيصر شكوك عدد
من الدول الاوربية وعلى الاخص بريطانيا العظمى ،
التي اعتبرته مشروعاً يهدف الى قطع شريان حياة
بريطانيا في الهند . وسرعان ما اصبح الطريق
يعرف باسم « سكة حديد برلين - بغداد
Berlin - Bagdad Bahn » وقد جسد الخطة
الالمانية الرامية الى اقامة خط مباشر عبر اوربا
واسيا الى الخليج العربي .

وفي سنة ١٨٩٩ ، وبعد وقت قصير على زيارة
القيصر لاسطنبول منح سلطان تركيا امتيازاً الى
شركة سكة حديد الاناضول لبناء خط واحد (من
قياس عرض اربعة اقدام وثمانين بوصات ونصف)
يبدأ من قونية حتى النهاية الشرقية لسكة حديد
الاناضول ، ويمتد الى الكويت على الخليج العربي ،
مارا ببغداد ، ويبلغ طوله الفا وخمسمائة وخمسين
ميلا .

كان الطريق المقرر ان يسير الخط فيه ، ابتداء
من قونية الى ادنه ، ومن هناك يتجه جنوبا الى
حطب ، ومنها الى طرابلس ، ثم يجتاز نهر الفرات

الجند الأموي والجيوش السبائية

• دراسة في تطور المؤسسة العسكرية في العصرين الأموي والعباسي

بقلم الدكتور

فاروق عمر فوزي

كلية الآداب - جامعة بغداد

عن بعضها البعض وتحتوي على قبائل مميّنة واطلق على هؤلاء القبائل اسم جند (جمع أجناد) . على أن خلفاء بني أمية في بلاد الشام انتهجوا سياسة مميّنة في سوريا بحيث جعلوا في كل مصر من بلاد الشام قبيلة مميّنة ، فكان جند قنسرين في غالبيةهم فيسيية اما حمص فكانت غالبا يمانية وكانت كلب وجذام غالبية على دمشق (٢) . وقد نجحت هذه السياسة في بلاد الشام وابتعدت القبائل العربية الى فترة ما من العزازات والصراعات القبلية وسهلت على الخلفاء الامويين الاوائل ان يحفظوا التوازن بينها .

وقد كانت السلطة المركزية تدعو القبائل من الاقليم مختلفة عند الحاجة او الضرورة لقمع تمرد داخلي او لواجهة خارجية ، وبقي اصطلاح (الاجناد) يستعمل للدلالة على هؤلاء القبائل ، ولكن ظهرت اصطلاحات جديدة ذات دلالات مترادفة مثل الجيش والحصن . وكانت نفس التنظيمات القبلية تحفظ اثناء القتال ، فهي رواية تاريخية :

« وقد دعا عدى اهل البصرة فبعث على خمس من اخماسها رجلا ، فبعث على خمس الازد الفيرة بن زياد المتكي وعلى خمس بني تميم محرز بن حميران السمدي وعلى خمس بكر بن وائل عمران بن عامر ... ودعا مالك بن الجارود ففقد له على عيبد الفيس ودعا عبدالاعلى بن عبدالله ففقد له على اهل العالية .. » (٣)

ولما كانت القبيلة تلعب دورها في نمية القبائل فمن الطبيعي ان اهم عامل لتحقيق النصر على الاعداء هو مهارة القائد وحذقه في ترتيب الجند وتنظيمهم في ساحة المعركة ، ذلك ان المصيبة القبلية كانت تعمل عليها بين الجند ، واذا ارتكب القائد خطأ ستراتيجيا بان وضع قبيلة ما في المقدمة لتتحمل وحدها ضربات العدو ويقع عبء المعركة عليها ، بينما تبقى قبيلة اخرى في الجناح او المؤخرة لتتغنى في نهاية المطاف وتتلف ثمرات النصر وتدعي انها هي التي حققتة ... اذا ارتكب القائد مثل هذا الخطأ فقد يفقد سيطرته على الجند .

في البدء لا بد لنا ان نشير بان استعمالنا لاصطلاح « الجيش » للدلالة على الجند او القبائل العرب في العصر الاموي يعتبر استعمالا مبالغا فيه الى حد ما ، بل انه لم يورد تاريخيا ، ذلك لان العرب المسلمين في صدر الاسلام وردوا من العصر الاموي لم يعرفوا الجيش المنظم الدائم ، وان المؤسسة العسكرية العربية لم تتبلور وتأخذ ابعادها وسماها الحقيقية الا في العصر العباسي .

حين جاء الاسلام مدت الامة كلها مقاتلة ، والامة المقاتلة تعني ان كل القادرين على حمل السلاح من الرجال يتفرون للحرب عند الحاجة ، ولكن لم يكن هناك تنظيم عسكري يربط هؤلاء المقاتلة ولم تكن هناك مؤسسة عسكرية تضمهم . وحين بدأت حروب التحرير والفتح الاسلامي اشترك فيها القبائل من مختلف القبائل ولكن هؤلاء القبائل لم يشكلوا جيشا نظاميا بالمعنى الدقيق المتعارف عليه .

لانهم لم يكونوا تحت السلاح على الدوام بل انصرفوا الى اعمالهم الخاصة ومشاكلهم في اوقات السلم ، ولم يسكنوا في كتلتان عسكرية ويتدربوا على السلاح بصورة مستمرة . كما لم تكن تربطهم رابطة قوية واحدة فيما بينهم من جهة او مع الدولة من جهة اخرى خاصة عند حدوث الفتن او الازمات الداخلية .

تطور معنى الجند :

دل اصطلاح الجند في البداية على وحدة من القبائل العرب من قبيلة او قبائل مميّنة وربما كانت لا تتجاوز في عددها الكتبية . وبعمرور الزمن تطور اصطلاح الجند فاصبح ذا مضمون جغرافي يعني الاقليم او المنطقة التي يحكمها اداريا وصكوريا فتد يتراس مجموعة من القبائل ويعتمد على واردات الاقليم في التمويل والعطاء (١) .

ولم يسكن القبائل الصرب في البداية المدن في البلاد المفتوحة بل بنوا لانفسهم مدنا جديدة بدأت على هيئة مصكرات استقروا فيها مع عوائلهم وسميت الامصار . وقد قسم القبائل في الامصار الجديدة الى ارباع او اخماس منفصلة

ومن أجل ضمان عدم الوقوع في مثل هذه الأخطاء كان القائد يعتمد على رجل ذي خبرة ، معروف بحكته في التنبؤ وله تجارب في هذا الباب . وفي مصادرنا روايات تاريخية تشير الى هؤلاء نقول احداها مثلا :

« وكان عبدالرحمن بن ابي سفيان اذا نزل الامر العظيم في الحرب لم يكن لاحد مثل رايه وكان عبيد الله ابن حبيب على تهيئة القتال ، وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الرأي والشورة والعلم بالحرب فمنهم الافضل بل بسام مولى بني ليث وعبدالله بن ابي عبدالله مولى بني سليم والبختري ابن مجاهد مولى بني شيبان » (٤)

وهناك العديد من المقاتلة الذين تصفهم المصادر بعبارة « صاحب رأي في الحرب » ولا شك فهو يخص بوضع الاستراتيجية ويقابل مدير الحركات العسكرية .

مزايا المقاتل العربي :

وكان المقاتل العربي يتمتع بمزايا وصفات حققت له انتصارات فذة ومن هذه المزايا : (٥)

اولا - روح الجماعة والاصرار التي تربط المعاملة بيمهم وخاصة اثناء تعرضهم لخطر خارجي على الحدود الشرقية او الشمالية .

ثانيا - الثقة بقائليتهم والاعتداد بشجاعتهم فقد كان عدد العرب مجتمعين اقل بكثير من عدد سكان اي اقليم من الاقاليم المفتوحة . واذا كان سكان البلاد المفتوحة قد هاهوا العرب بالمعد فان العرب فاهوم بالكيفية وبالقدرة القتالية. لقد كان العربي فارسا يشار اليه بالبنان برمي وهو على ظهر فرسه . لقد امتلك العربي روح البداوة بكل ما فيها من جرأة وادغام وعنف واعتماد شديد على النفس .

ثالثا - كان المقاتل العربي يتمتع بروح قتالية عالية وفذة ، بينما كانت هذه الروح قد خبت منذ زمن بين سكان البلاد المفتوحة الذين استخدموا المرتزة والمبيد للقتال بدلهم وكانت الدنيا ومتاعها والملق بالحياة ولذاتها شغلهم المشاغل.

رابعا - اعتقاد العربي بان الله معه في فضيته العادلة وانه سينصره على عدوه وهذا اعطاه ثقة متزايدة بالنصر .

خامسا - كانت القوة العربية تتكون من قبائل خفيفة الحركة ، اكثر خفة من الاعداء . وقد حافظت الدولة الاموية على هذه الصفة طالما بقيت سياستها هجومية توسعية ونجحت في توسيع حدود الدولة وفي مجابهة الاعداء وخاصة الترك على الحدود الشرقية في بلاد ما وراء النهر .

الموالي والقتال :

لقد هالي بعض المستشرقين ومن اتبع رايهم من المؤرخين (٦) في تصوير التمايز الاجتماعي بين العرب وغير العرب من سكان البلاد المفتوحة ووقفوا في تقاسم عنصرية ليست من مفاهيم العصر الذي ظهر فيه الاسلام . واذا كان هناك بعض الحالات الاستثنائية التي تدل على التناثر فان هناك امثلة عديدة على الانزواج والتعاون والاشراك في السلطة. وليس يهنا في هذا المجال ان نغفل في الامثلة ولكننا نقول

بقدر ما يتعلق الامر بالجند بان السلطة العربية اشركت مقاتلة من المرتزة من الموالي فهناك الارمن في ارمينيا والفرانسة والبخارية والسمرقندية والاشروسنية في الساحة الشرقية ، ففي رواية عن الطبري ان هنالك ما لا يقل عن ٢٠ الفا من سكان الاقاليم الشرقية استخدمهم نصر بن سيار في حملاته في الجبهة الشرقية (٧) . وقد وصل بعض هؤلاء الى مراتب عالية في القيادة .

كما كان الامويون يستخدمون الرقيق في القتال ، هذا مع تاييدنا بان القوة المصرية والرئيسية كانت تتكون من المقاتلة العرب .

وحدات شبه نظامية :

رغم اعتماد الامويين على المقاتلة العرب من القبائل المختلفة باعتبارهم جند الدولة فقد برزت بوادر وحدات نظامية دائمة . فاذا استثنينا الشرطة ، التي تعتبر خارج نطاق هذا البحث ، ابدع معاوية بن ابي سفيان نظام الحرس وهي كتيبة خاصة بحماية الخليفة وحذا جنوه امراء الاقاليم. وكان قائد هذه الوحدة يسمى (صاحب الحرس) واطلق معاوية على كتيبته اسم الضمامة .

ولم يكن صاحب الحرس شخصا عسكريا بالدرجة الاولى بل قد تناط به واجبات اخرى مثل الحجابة اوديوان الرسائل او الخاتم . (٨)

وكانت هناك وحدات شبه نظامية اخرى مثل حاميات الثغور وكذلك الروابط على الحدود التي تعتبر وحدات متحركة وخفيفة من الخيالة . كما نظم الامويون المسالغ في الداخل وخاصة في المدن غير المستقرة او المهمة من الناحية الاستراتيجية مثل سلحة واسط في العراق وسلحة الحريرة التي تسيطر على الكوفة . وكانت هذه المسالغ تحت قيادة (صاحب السلحة) . (٩)

المقاتلة العرب :

وفيما عدا الحرس ووحدات الثغور والروابط والمسالغ التي لم تكن باعداد كبيرة وتقوم بواجبات محددة ، فان القوة العسكرية الرئيسية في الدولة الاموية كانت من المقاتلة العرب من القبائل الشامية والعراقية والمقاتلة العرب من اهل خراسان .

وقد اشرفنا فيما مضى بان هؤلاء المقاتلة الصرب كانوا يعيشون في وقت السلم حياة عادية يزعمون اراضيهم او يتاجرون بيهاتهم او يمتنون حرفه معينة وقد زاد ولعهم بالتجارة والمهني بعد ان اختلطوا بسكان البلاد المفتوحة . ولكن ما ان يستدعي الامر بسبب ازمة داخلية او خطر خارجي كان الجميع ينفرون للحرب وعليهم يعتمد الخليفة الاموي في درء الخطر .

ان هذا الوضع الذي كان عليه الجند في العصر الاموي يحتوي دون شك على نقاط ضعف رئيسية نذكر منها : (١٠)

١ - فقدان عنصر الصبغ والربط والنظام بين صفوف المقاتلة تلك الصفات العسكرية التي تعلم القبائل الطاعة لرؤسائه . ان فقدان هذا العنصر كان يعني عدم تواجد تلك الروابط التي تعلم الطاعة والولاء والمسؤولية تجاه الخليفة الاموي باعتباره راس الدولة .

محاولات للإصلاح :

وأزاء هذا الوضع حاول بعض الخلفاء أو الولاة محاولات جادة لتفكير الوضع وإصلاحه وذلك عن طريق مزج القبائل وربطها برباطه جديدة أكثر قوة من رباطه القبيلية . ففي سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م حاول أسد القسري نقل الجند من البروفات الى بلخ . وقد كان الجند في الاولي منقسمين الى اخماس ، اما في بلخ فقد خلطهم واستكثم دون اخذ التقسيم القبلي بنظر الاعتبار (١٢) . كما حاول الخليفة هشام بن عبد الملك ان يخلف من اثر التفتؤذ القبلي بان اختار نصر بن سيار وهو حياذي ليس له نفوذ قبلي في خراسان واليا على اقليم خراسان . وابتد نفس الخليفة موقفا عمليا حين امر واليه الجنيد بن عبدالرحمن بان يسقط من الديوان (العطاء) اسماء الخلفاء الذين يرفضون الجهاد وامره بالا يصفط عليهم لانه سيرسل له مقاتلة جديد ممن يرغبون في القتال . ان هذا الموقف من السلطة المركزية يدل على ادراك الخليفة بان هناك بعض الخلفاء لا يرغبون بالاستمرار في القتال ولا يمكن للسلطة الاموية ان تجبرهم على ذلك (١٣) .

الا ان ارسال عناصر عربية جديدة من البصرة والكوفة او ارسال الجند السوري ادى الى حدوث شقاق وصادم بين القاديين الجدد وبين العرب القدماء من اهمل خراسان . وبرزت كلتان : المقاتلة من اصحاب الانتيازات والتفتؤذ السياسي والمسلمين الحرومين ولم يكن في مقدور السلطة الا ان تعتمد على المقاتلة من اصحاب السلطة والتفتؤذ.

لقد ادت هذه الحالة الى استمرار الحركات المارضة للدولة وابتات اكثر من اي وقت مضى مدى حاجة الدولة الاموية الى جيش نظامي دائم قوي . ذلك لان التوار رغم هلة عدد المتخرفين تحت لوائهم استطاعوا تحدي الدولة وتمكنوا من مطاولتها مدة ليست بالقصيرة لا بسبب ضعف الدولة بل بسبب عدم اعتمادها على جيش دائم ومنظم . ولعل في حركة يزيد بن المهلب (١٥) في خلافة يزيد الثاني ما يوضح ذلك احسن توضيح . شرح مصادرنا التاريخية بان يزيد بن المهلب حين بدأ حركته لم يكن معه اكثر من سبعين شخصا ، وقد امر والي البصرة عدى بن ارمطة المقاتلة من الاخماس بالخروج للتصدي ليزيد بن المهلب ولكن اذ البصرة انشغوا عن الوالي الاموي والتفتؤذوا بيزيد بن المهلب لان المهالبة من اليمانية والاذ من اليمن كذلك . على ان عدى بن ارمطة ربما توقع ذلك ، الا انه لم يتوقع الموقف الذي وقعته تميم وعبد القيس وهما من مضر . ذلك ان كليهما انتفرتا الفرصة وقرنوا الطلب من الوالي زيادة العطاء الذي كان ٦٠ درهما شهريا . ولما امتنع الوالي من اجابة هذه المطالبات بحجة ان زيادة العطاء من اختصاص الخليفة امتنعت القبيلتان عن مساعدة الوالي في محنته هذه .

ولم يبق امام الوالي الاموي الا الاعتماد على الشرطة وبعض الموالي للدفاع عن البصرة ولكن مقاومته لم تستمر واجبر على الاستسلام . وقد استولى يزيد بن المهلب على بيت المال في البصرة حيث كان فيه ٩ ملايين درهم استطاع بها ان يجمع عددا كبيرا من الاباغ ولم تخمد حركته الا بعد ان ارسلت السلطة المركزية في دمشق ٨٠ الفا من المقاتلة من بلاد الشام .

ان حركة يزيد بن المهلب لم تكن حالة استثنائية او

١ - كان المقاتلة مشدودين بروابط القبيلية ولذلك لم يكن لديهم حافظ محرد واحد للقتال بل كان المحرد يختلف من فئة مقاتلة الى اخرى فمنهم من يقاقل مندفا بموايل دينية ومنهم من يقاقل من اجسل العتائم او لاسباب سياسية او قبيلية كما وان قتالهم ضد الاعداء الخارجيين كان للدفاع عن انفسهم وحمائيتهم . وفي كل الحسالات كانوا يتوقعون من الدولة ان تدفع لهم عطاء جيدا مقابل القتال .

٢ - في كل المعارك التي خاضها المقاتلة العرب في المصمر الاموي لم يقاقلوا كجند للدولة بل كافراد في قبائل . ومعنى ذلك ان وحدة الهدف او الغاية كانت تنقصهم . بل تحكمت احيانا المصالح الخاصة بالقبائل او بزعامه القبائل في الاشتراك بالقتال او علمه .

٣ - لم يكن هنالك من رادع يمنع المقاتلة من الاشتراك في الصراع السياسي الداخلي ومعنى ذلك الاشتراك في ثورات او تمردات سياسية ضد الدولة او التناحر بين القبائل نفسها . وهذا دون شك له اثاره السلبية على الحياة العسكرية والاستعداد الحربي الذي كانت الدولة تريده من المقاتلة . وفي مثل هذه الظروف فقد لا يواجه الخليفة صعوبة في قيادة المقاتلة ضد عدو خارجي ولكن في حالة حدوث تمرد داخلي فان المقاتلة من القبائل المختلفة ينشقون على انفسهم بين مؤيد للدولة ومعارض لها . والمقاتلة في كلا المصكرين لهم نفس التدريب والاستعداد والسلاح والتكتيك . وكان حسن تصرف الخليفة واستغلاله لمثل هذه الحالة يعتمد على قابليته وذلكاته فقد ارسل عبدالملك بن مروان الى الحجاج التفتؤذ رسالة يقول فيها (١١) :

« ... فانما امر المؤمنين امين الله وسيان عنده منع واعطاء باطل ... وسيانك من امر المؤمنين امران : لين وشدة فلا يؤنسك الا الطاعة ، ولا يوحسناك الا المعصية .. »

ان الامر الاخر الوارد في الرسالة آتلة الذكر يصنبر اكثر اهمية والحاا . فقد استطاع الخليفة الاموي ان يربط مصلحة القبائل العربية في بلاد الشام بمصلحة الدولة ولذلك فقد كانت الثقة متبادلة بين الطرفين ، ولكن في الاقاليم الاخرى البعيدة عن مركز الدولة فان نجاح السلطة المركزية كان يعتمد الى حد كبير على خلق وضع يكون مفيدا لاي عدد ممكن من المقاتلة من اجل ضمان مساعدتهم لسياسة الدولة الاموية . وكان على الوالي الاموي ان يجامل ويداهن شيوخ القبائل والتسلفين فيها والذين يتحكمون بولاة القبائل ويبيدهم زمام قيادتها وتوجيهها . ففي دواية للطبري ان ابن هبيرة سأل يوما من سيد قيس ؟ قالوا الامر ، قال :

« دعوا هذا ، سيد قيس الكوثر بن زفر لو يوق بليل لوفاه عشرون الفا لا يقولون لم دعوتنا ولا يسألونه .. (١٢) »

ولا شك فان هذه الرواية توضح نفوذ رؤساء القبائل . وقد كان في الاقاليم اكثر من واحد من امثال الكوثر بن زفر !!

موزولة بل ان حالات مشابهة لها حدثت المرة تلو الاخرى
وفي كل مرة يقف الوالي مكتوف اليدين ويظهر عجزه عن
التصدي لها حتى تسفه السلطة المركزية برسال القبائل
السورية الموالية لها .

الخاتمة :

ان عدم قدرة الخليفة على خلق جيش نظامي دائم مرتبط
بالدولة وموالم لها ومدافع عن قضيتها ، كان من اهم نقاط
الضعف في الخلافة الاموية بحيث جعل السلطة المركزية عرضة
لاهواء وميول شيوخ القبائل والمتنفذين في اقاليم الدولة
الواسعة .

ان الازمة التي حدثت في خراسان في اواخر العصر
الاموي(١١٦) كشفت عن نقاط الضعف هذه بوضوح ولم يكن
هناك من شئ يمكن عمله لانقاذ الموقف ، فكان الخليفة مروان
ابن محمد ، رغم قابليته الفذة ، الصحية . وبسقوطه سقطت
دولة الامويين .

الجيش العباسي في عصره الاول ١٣٢هـ - ٢١٨ :

تمهيد :

في صدر الاسلام كانت الامة كلها مقاتلة مستعدة للجهاد
تنفر للحرب اذا دعت الفروقة ذلك ، ولم ينفر الحال كثيرا
في العصر الاموي حيث كان العرب المستقرون في الامصار
يزاولون اعمالهم وحرفهم في اوقات السلم وينفرون للحرب
حين تعلن الدولة النذر العام لقمع حركة داخلية او مواجهة
عدو خارجي .

والذي يبحث في اسباب سقوط دولة الامويين سنة
١٣٢هـ/٧٤٩م يجد ان السبب الرئيسي هو فشل الخلفاء
الامويين في انشاء جيش نظامي ثابت واستمرار اعتماد الدولة
الاموية على مبدأ الامة المقاتلة . فلما ضعف المقاتلة وضعف
لماسكهم من جراء العصبية القبلية او الطامح الشخصية او
غرهارا وفقدت رابطة الهدف المشترك الذي يربطهم بالدولة
انهارت الدولة الاموية .

لقد استغلت الدعوة السرية العباسية في خراسان
اسباب لحر المقاتلة العرب من اهل خراسان الذين تلعروا
من سياسة التجبر الاموية التي تقضي ابتساق المقاتلة على
الحدود شتاء وعدم السماح لهم بالرجوع الى الامصار . هذا
من جهة ، ومن جهة اخرى فكان للعرب من اهل خراسان
مقاتلة او مستقرين اسباب اخرى للتلمز من السياسة الاموية
التي كانت تقطع اعطياتهم احيانا او تسليم فيهم ولعنمتهم
او تقتطع نسبة اكبر مما تستحقه من هذه الفئات بينما كان
الواجب ان تأخذ الدولة الخمس وترك الباقي يوزع على
المقاتلة .

وقد زاد من اسباب استياء العرب من اهل خراسان في
اواخر العصر الاموي هو ارسال ربع خراسان من الضرائب
الى ست المال المركزي في الشام بينما طالب اهل خراسان
بضرورة صرفه على اقليم خراسان نفسه . واكثر من ذلك كان
الوالي الاموي سلب احيانا الدهاقن الفرس علم المستقرين
العرب لحياة الضرائب منهم وتقدير نسبتها . وهكذا استطاعت
الحركة العباسية (الهاشمية) ان تجلب اليها الكثر من
هؤلاء العرب المتذمرين في خراسان وقرها .

اول جيش نظامي :

وحين انتصرت الثورة العباسية كان هؤلاء المقاتلة العرب
من اهل خراسان جند العقيدة العباسية اول جند للدولة
الجديدة . وقد استفاد العباسيون من اخطاء الامويين ولذلك
سجلوا هؤلاء المقاتلة في (ديوان شعبة بني العباس) حسب
قراهم ومدنهم واقليمهم التي عاشوا فيها بخراسان لاحسب
قبائلهم وانسابهم .

ان هذا الاجراء اتبمه العباسيون يعتبر منعطفا جديدا
مهما في تاريخ الجيش العربي الاسلامي في العصر الوسيط ،
ذلك ان الدولة العباسية ارادت ان تزيل كافة العوامل التي
نخرت في كيان الجند الاموي حتى فدا قوة منهكة لا يمكن
الاعتماد عليها . لقد شعرت الدولة العباسية باهمية وجود
الترباط القوي بين المقاتلة الذين يدعون نظام الحكم الجديد
ويكونون كتلة واحدة صلبة وراه الدولة الجديدة . ومن هذا
المنطلق فاننا نعتبر الجيش العباسي اول جيش منظم في تاريخ
الدولة العربية الاسلامية . فالجند الهاشمية كانوا نواة اول
جند نظامي بالمعنى المتعارف عليه في التنظيمات العسكرية لانهم
كانوا ينتظمون كافراد لا كقبائل وكان ولاؤهم للدولة التي تمنى
بتدريهم ولعوينهم المستمر وتجهزهم شهريا بظالمهم .

ورغم ابقاء الدولة العباسية على اهل خراسان ،
وغالبيةهم من العرب ، في وحدة عسكرية واحدة تربط بالولاء
للدولة التي كانت تسمى بدولة اهل خراسان . فانها نظمت
تشكيلات عسكرية اخرى تستند على القبائل فكان هناك فرق
قبلية بماتية ومفرقة وربيعية . وهذا نشر بوضوح الى ان
الجيش العباسي في عصره الاول كان جيشا عربيا - لا كما
يقال فارسا - كما وان قيادة الجيش ظلت في ايدي عربية .

وحين بنى الخليفة الاؤسس ابو جعفر المنصور (١٣٦هـ
٧٥٤ - ١٥٨هـ/٧٧٥) مدينته المدورة بغداد كان هدفه الرئيس
ايجاد مركز اداري وعسكري جديد ولذلك كانت مدينة السلام
في بدائها وكانها قلعة عسكرية دائرية بسهل الدفاع عنها .
ولم تسمح بالسكنى فيها وما حولها الا للشعبة العباسية من
من جند خراسان من المقاتلة . لم يثن الرصافة على الجانب
الشرقي لدجلة ووضعت فيها حامية عسكرية تحت قيادة ولي
عهده المهدي يساعد في ذلك بعض القادة العرب . وكان لهذا
التدبير براعة سياسية وعسكرية ، وذلك لغرض حرب احد
المسكرين في حالة تمرد المسكر الاخر .

عناصر الجيش العباسي :

حين يتكلم الجاحظ(١١٧) عن تنظيمات الجيش العباسي
تقسمة الى العناصر التالية :

(١) العرب (٢) الخراسانية (٣) الوالي (٤) الاتراك (٥) الانصار
ورغم ان الجاحظ عاش في اواخر العصر العباسي الاول (القرن
الثالث الهجري / التاسع الميلادي) فان تقسيمه هذا يصدق
الى حد كبير على جيش المنصور وخلفائه .

ويتفق الأرخون الآخرون(١١٨) مع الجاحظ في تقسيمه
هذا ويفسلون وحدات عسكرية جديدة مثل : الفلحاء ،
الشاذلة ، القادة ، الصاعلك . واللاحق ان هسده
الوحدات الجديدة لم تكن وحدات رئيسية .

وفي اواخر العصر العباسي الاول اعيد تشكيل الجيش

المباني فقد جعل الترك وحدة عسكرية منفصلة عن الوالي .
وادمجت السلطة العباسية وحدات من الازد والارمن
والزوايل والصاليك والبناء ضمن فرقة الوالي وجعلها
تحت قيادة واحدة(١٩) .

وليس يهنا ان نتبع تطور الجيش العباسي عبر
العصور وانما سنركز في هذا البحث على الجيش العباسي
في عصره الاول . وفي اعتقادنا بان الجيش العباسي في عصر
الخلفاء الاوائل كان يتكون من الوحدات التالية :

(١) العرب :

لقد باتت اهمية العرب للمبانيين منذ ايام الثورة
وزادت اهميتهم اثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي
ضد الجند الشامي في العراق . فخلال تقدمه في العراق
ساعدت عناصر قبلية مختلفة الجيش الخراساني . ثم ان
سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق كان نتيجة
مساعدة شيوخ القبائل الذين انضموا الى العباسيين .

وتورد الروايات التاريخية(٢٠) المتفرقة الكثير من الامثلة
الاستدلالية فقد عملت الفخار من طي كدليل للقوة الخراسانية
التقدمة نحو الكوفة حيث دلتها على احسن الطرق واسلمها .
والمعروف ان الكوفة سقطت على يد محمد بن خالد القسري
زعيم اليمانية الذي احتلها باسم الجيش العباسي قبل ان
يدخل هذا الجيش المدينة . كما وان محاولة القائد الاموي
استعادة الكوفة فشلت بسبب انسحاب اليمانية من
صفوف جنده وخاصة بجيلة ويجدل . كما وسقطت مدينة
الموصل بيد الخراسانيين نتيجة تعاون زعماء القبائل في
المدينة مع الخراسانيين حيث اغلقوا الابواب في وجه مروان
وجنده . ولد اجبر يزيد بن هيرة والي العراق الاموي على
طلب الامان بعد ان ضعفت مقاومته بسبب تخالف العناصر
اليمانية في جيشه حيث اغراه ابو جعفر (المنصور) قائلا :
« السلطان سلطانكم والدولة دولتكم »(٢١) . ويعود فشل
العباسيين في احتلال البصرة في البداية الى كون والي البصرة
الاموي مسلم بن قتيبة الباهلي كان يتحتم بنفوذ كبير في المدينة
لكثرة اتباعه وانصاره من القبائل . اما دمشق فلم يفلح
عبدالله بن علي العباسي بدخولها الا بعد وقوع الفتنة بين
اليمانية انصار العباسيين وبين المصرة انصار الامويين حيث
استغاث عبدالله العباسي باليمانية قائلا : « انكم واخوتكم
من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وانصارنا وانتم دفعتم بنا
مدينة دمشق وقتلتم الوليد بن معاوية وانتم منا وبكم قوام
امرنا فانصرفوا وخلصوا بيننا وبين مفر(٢٢) » .

ان الحوادث الفاصلة التي وقعت في بداية نشوء الدولة
العباسية تشهد على اهمية الكبرى والدور الفاصل الذي
لمعته القبائل العربية . فالطبري يشير الى ان هذه القبائل
كانت تشكل الغلبة الجيش العباسي الذي كان يتكون من مفر
واليمن والخراسانية وريمية . ولذلك كان الكرسي قادة
الجيش في تلك الفترة من العرب الذين لم يقووا الحملات
فقط ضد الثوار ولكنهم لعبوا ايضا دورا مهما في الصراع
السياسي وبصورة خاصة فيما يتعلق بشيخة ولاية العهد .

ولقد ادرج العباسيون مدى التأثير البالغ الذي يمارسه
شيوخ القبائل على قائلهم ولذلك عاملوهم معاملة طيبة
ومعترمة . وكان الاحترام والود يتناسب مع عدد اتباع
الشيخ . فقد رفض ابو العباس معاوية اسحق بن مسلم

القبلي بحجة ان ذلك سيبيء الى قبس . « انرى قبسا ترضى
بان تضرب سيدها حدا ، لو دعوته بالبينة لجاه منه من قبس
يشهدون ان القول قوله » . وقد منح نفس الطليفة الامان الى
مسلم بن عقبة الباهلي رغم انه تعدى العباسيين في البصرة
ولم يطلب العفو . وقد كان مسلم الباهلي طرفا في نزاع حدث
في البصرة الا ان الوالي سليمان بن علي العباسي سامحه نظرا
لنفوذه القبلي قائلا : « ما كان مسلم ليقول شيئا الا شهد
له الف تزارى » (٢٣) .

ومن المهم ان نلاحظ ان المنصور ترك في الهاشمية خازم
ابن خزيمة الحميري نائبا عنه ومسؤولا عن الجيش والميرة حينما
حج سنة ٧١١/١٤٢ - ٧١٢ .

على ان رواية ابن عساکر تظهر مقدار القوة التي لم تزل
كامنة في ايدي شيوخ القبائل حتى زمن الامون العباسي .
وفي الرواية يتهم عبدالله بن طاهر احد شيوخ القبائل محمد
ابن صالح بن بيهس لتفاخره بمساعدة الامون وكان قد اصبح
مساويا لطاهر بن الحسين ولكن محمد بن صالح اجاب قائلا :
« لقد حارب طاهر من اجسل سلطان امير المؤمنين بمال امير
المؤمنين ورجاله ، اما انا فحاربت بمالي ورجالي !! »

وعلى الرغم من ان الدولة حاولت منذ عهد الامويين ان
تنمي بين القبائل العربية شعور الولاء والاخلاص للدولة لا
للقبيلة ، فان هذه المحاولات زادت في الصدر الاول من عهد
العباسيين . فالمنصور مثلا اكد على الولاء للنظام العباسي
اكثر من تاييده على الولاء القبلي ، ومع ذلك فان الضرورة
السياسية جعلته يضرب التكتلات القبلية الكبيرة بعضها
بالبعض الاخر مستهدفا في ذلك تحقيق اهداف سياسية ليس
الا . ولقد شهد عهده الكثير من هذه الثورات . وقد نجح
المنصور بكسر الحلف القديم بين ربيعة واليمن وذلك بتحرط
والي اليمن من بن زائدة الشيباني بالتشديد على اهل اليمن
التمردين ثم شجع نفس الخليفة والي اليمامة والبحرين عقبة
ابن مسلم الهناني للثار من ربيعة (قبيلة من الشيباني) التي
كانت جزءا كبيرا من سكان اليمامة والبحرين .

(٢) اهل خراسان :

ليس لدينا في هذا المقام مجالا لمناقشة طبيعة القوة
المصارية الخراسانية التي حققت النصر العباسي والتي كانت
تتكون بصورة رئيسية من العرب من (اهل خراسان) . على
اننا يجب ان نشير الى ان هؤلاء العرب الخراسانية الذين
عاشوا في خراسان لفترة طويلة تكلموا الفارسية اضافة الى
العربية وتزوجوا نساء فارسيات ولبسوا الالباس الفارسية
وتكلموا للبيبة الفارسية بتقاليدها العربية واحتفلوا بالاعاد
الفارسية .

ان (اهل خراسان) ، بعد زحفهم الى العراق خلال
الثورة ، مروا بعملية (تعريب) جديدة خاصة وان الخلفاء
العباسيين الاوائل كلوا انفسهم يشجعون الثقافة العربية
والروح العربية في البلاط والجمع .

كانت الفرقة (الخراسانية) واحدة من اربعم فرق في
جيش المنصور . اما الثلاثة الباقية فهي : ربيعة ومفر
واليمن . وهذه دلالة واضحة على نسبة العرب الكبيرة في الجيش
العباسي في الصدر الاول من الدولة . وحين يتكلم
الجاحظ(٢٤) عن فترة اعد قليلا عن عهد المنصور يصنف
الجيش العباسي كالآتي :

(١) الخراسانية

(٢) الترك

(٣) السوالي

(٤) الصرب

(٥) الأبناء

(٤) - وان يضني بتثقيفهم وتعليمهم الكتاب والسنة ليتجنبوا
الاهواء والمعاصي والفرقة .

٥ - ان يكون الخليفة مثلاً أعلى لهم في تجنب الترف
والإسراف والمقالاة في الكلبس والمطر والنساء والقهجور
بمظهر التواضع المعتدل .

٦ - ضرورة تعيين وقت ثابت لازداهم كل ثلاثة أو أربعة
اشهر . وتسجيل اسمائهم في السجلات والقضاء على
اسباب شكواهم . وربما كان من الأحسن ان يكون
نصف رزقهم عينا والنصف الآخر نقداً .

٧ - على الخليفة ان يستقصي اخبارهم ويستعين بالثقات
في معرفتها . (وان لا يخفي (عن الخليفة) شيئاً من
اخبارهم وحالاتهم وباطن امرهم بخراسان والصكر
والأطراف . وان يحترق في ذلك النطقة ولا يستعين فيه
الا بالثقات النضاح فان ترك ذلك واشباهه احزم
بتاركة من الاستمانة فيه بغير الثقة فتصير مقبته
للجهالة والكلدب . »

ولقد دافع الخراسانية في فترات الإزمات العادة من
النظام العباسي ضد الثوار . كما وان العباسيين احتلوا
ارسال قوات خراسانية لمدد طويلة أو قصيرة في المناطق
المضطربة أو التي كانت معروفة ببولها الفصاة للعباسيين
مثل البصرة والموصل وكذلك الشام والربيعا . كما واشترك
الخراسانية في الجهاد ضد البيزنطيين . واستغل الخلفاء
اسم اهل خراسان ووقفهم باخلاص وراء الخلافة العباسية
في سبيل تفليك ماربهم أو مشارهم وخاصة فيما يتعلق
بولاية العهد . ويذكر في هذا الصدد ما قاله المنصور لعيسى
ابن موسى حين حثه على التنازل لولاية العهد الأولى الى
محمد الهادي « لعلنا نصارنا من اهل خراسان انك اسرع
الي ما رجسوا (٢٧٧) » وحينما اراد الهادي من عيسى ان
تنازل عن ولاية العهد اخبره بان هذا الطلب نابع من
اجماع « اهل بيته وشيعته وقواده وانصاره وغيرهم من
اهل خراسان (٢٧٨) » . وحين خطب الهادي لتنحية اخيه
هارون الرشيد ساعده بعض القواد فطغوا هارون ويايموا
لجعفر « وسوا الى الشيعة فتكلموا في امره وتلقوه في
مجلس الجماعة (٢٧٩)

على ان الخراسانية لم يكونوا الفرقة الوحيدة في
الجيش العباسي فقد شكل العباسيون وحدات اخرى - كما
ذكرنا ذلك - على اسس قلبية . وكذلك اشركوا القبائل في
حملاتهم العسكرية . وعلى هذا فان الخلفاء طبقوا الاسس
القلبية فيما يخص الفرقة الخراسانية . فسياسة عدم
الاعتراف بالقبيلة ضمن تشكيلات الخراسانية كانت موافقة
تماماً لفترة الدعوة العباسية ، وما ان حلق العباسيون
النصر حتى وجدوا من الضرورة ضرب القبائل ببعضها
المبغض ، وعلى هذا نظم العباسيون فرقا جديدة على اسس
قلبية . ثم ان العباسيين ، رغم لثمتهم بالخراسانية
واهتمامهم برعاية امتيازات هذه الفرقة ، فقد ولغوا امامهم
احتمال حدوث تمرد أو انحراف من جانبها وبهذا شككوا
فرقا جديدة تامين جانبهم من هذه الناحية . بقول الطبري
بان تمرد الراوندية سنة ١١٢١هـ/٧٥٨م اشهر المنصور
بضرورة تقسيم جيشه الى قسمين ووضع بعضه في بغداد
والآخر في الرصافة . وبهذا يستطيع ان يضرب احدهما
بالآخر في حالة حدوث تمرد من جانب ما .

ويظهر من ذلك انه حتى في فترة الجاحظ كان العرب
والخراسانية والابناء الذين « استعربوا » لا يزالون
موجودين في الجيش . والواقع ان عملية ادخال الترك في
الجيش من قبل الخليفة المتصم لانت مراعضة قوية من
العرب والخراسانية .

لقد حافظ العباسيون على وحدة الفرقة الخراسانية .
وبلاحظ بان الخراسانية منذ الايام الاولى للدعوة سجلوا
حسب قراهم ومدنهم لا حسب قبائلهم وهذا مما يؤكد حرص
العباسيين على الإبقاء على تماسك الفرقة الخراسانية وعدم
السماح للمصيبة القلبية بتفكيك وحدتهم . ويصف ابن
المقفع الخراسانية فيقول : « فمن الامور التي يذكر بها
امر المؤمنين امر هذا الجند من اهل خراسان فانهم جند لم
يدرك مثلهم في الاسلام وفيهم صفة بها يتم فصلهم انشاء
الله . اما هم فاهل بصر بالطاعة وفصل عند الناس وكف عن
الفساد وذل للولاة . فهذا حال لا تعلمها توجد عند احد
غيرهم » . ويذكر ابن المقفع الخليفة بضرورة ضبط امر
جند خراسان ورعايتهم ويشير الى الانتباه الى الامور
التالية :

١ - تنظيم امور الضبط والربط والنظام من طريق اصدار الخليفة
لنصائح يمن فيه واجبات القادة ومسؤولياتهم
وواجبات الجند وحقوقهم . « ... ومن كان انصفا
يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الوافقة في الراي
والقول والسيرة فهو كراكب الاسد الذي يوجل من
راه والراكب اشد وجلا . فلو ان امر المؤمنين كتب
امانا معروفا محظا بكل شيء بخلفه رؤسائهم
وتقدوا به دهماهم » (٢٥٠)

ويشير ابن المقفع بصراحة الى اصل اهل خراسان
العربي من اهل العراق وارتباطهم التين باهل الكوفة
والبصرة فيقول : « ويذكر امر المؤمنين باهل هذين
المصرين (البصرة والكوفة) فانهم بعد اهل خراسان
اقرب الناس الي ان يكونوا شيعته وحقيته مع
اختلافهم باهل خراسان وانهم منهم عامتهم » (٢٦٦)

٢ - على الدولة الاتساع القادة العسكريين امورا مالية
كجباية الخراج لان ذلك يفسدهم ويلهيم عن واجبه
الاصلي . « واذا ارد صلاح هذا الجند فيجب الا
يولي احدا منهم شيئاً من الخراج . فان الخراج
مفسدة للمقاتلة . وان جباوا الدرهم اجترأوا عليها
واذا ولغوا في الخباية صار كل امرهم مندوخلا . مع ان
ولاية الخراج داعية الى ذلته وتحيز وهوان وانما
منزلة المقاتل منزلة الكرامة والطلب .

٣ - الاستمانة بلوى القدرة والكفاءة والنزاهة منهم .
« وما ينظر في امرهم ان منهم من الجبولين من هو
الفصل من بعض قادتهم فلو التمسوا واصطنعوا كانوا
اعمدة ولوة . وكان ذلك صلاحا لمن فولهم من القادة
ومن نوتهم من العامة » .

خراسان وغيرهم انك اسرع الى ما اصبو مما عليه رايعهم في صلاحهم منهم الى ذلك من انفسهم .

وقد حصل الخراسانية ، افرادا وجماعات ، على ارباض واراضي داخل المدينة المدورة وفي فواحيها . وقد سكن نسبة كبيرة منهم في الشمال من بغداد وخاصة في الحربية حيث استقروا ليعا للعدن والمناطق التي قدموا منها في خراسان . وبعضى آخر كان سكناتهم على اساس اقليمي لا عنصري .

(٢) الموالي :

ان اصطلاح « الموالي » مثل غيره من الاصطلاحات في هذه الفترة ، اصطلاحا مرنا وغير محدود . وعلى الرغم من ان « الولاة » كان علاقة اجتماعية وقانونية فان موالي الخليفة تمتعوا بمنزلة خاصة في علاقتهم بالخليفة الذي خدموه ضمن اختصاصات مختلفة .

ولقد كان بين « الموالي » نسبة كبيرة من المبيد المحررين من مختلف العناصر والاجناس . كما وان عددا من « الموالي » كانوا عربا اسروا في الحرب .

ليس من اختصاص هذا البحث ان يتعقب محتوى اصطلاح « الموالي » ولا يهتما ماهية الاعمال المتنوعة التي كان يقوم بها الموالي في المجتمع الاسلامي . على ان ما قصدها من اصطلاح الموالي في هذه الدراسة لا يشير الى كتلة عنصرية مكونة في الاصل من الفرس ولكن كتلة مزيجية من اجناس عديدة يربطها بالخليفة ولاء الاخلاص الذي تصفه فوق كل اعتبار ، كما وان ارتباطها بالبلاد العباسية كان القوي من اي ارباط آخر .

لقد شعر المنصور منذ بداية حكمه بالحاجة الى مثل هذا السند سواء في البلاط او في الانارة او في الجيش . وقد عزم على خطة من شأنها جمع هذه العناصر المختلفة ، التي جلبت بطرق الحرب او التجارة وانها جذبت انتباه الخليفة بطريقة او باخرى ، في جسم صلب واحد يستطيع ان يعتمد عليه كليا . وحالا دخل الموالي في مهية الخليفة اصبحوا مرتبطين به كليا وبالتالي مطمئن له طامة عياد .

يقول الباحث : « وكان المنصور ومحمد بن علي وعلى ابن عبيدالله يفضون مواليهم بالوكالة والبسط والابناس لا يهجون الاسود لسواده ولا الدميم لدمامته .. ويوصون بحفظهم الكبار اولادهم ويجعلون لكثير من موانهم الصلاة على جناتهم وذلك بحظوة من المومنة وبين الاعمام والاخوة » (٢٢٦) .

ولقد امتنى المنصور بتدريب البعس من « احدات مواليه » على السلاح وتطورت هذه الكتلة فاصبحت وحدة كبيرة في الجيش .

ويؤكد ابن خلدون في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم فيقول : « فاذا اصطنع اهل العصبية قوما من غير نسبهم واسترقوا الصيدان والموالي والتحموا بهم كما قلنا ، فرب منهم اولئك الوالي والمصطلون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كانها عصبيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال رسول الله (ص) « موالي القوم منهم » ، وسواء كان مولى ربا او مولى اصطناع او حلف » (٢٢٣) ولقد ظهر في الدولة العباسية نوع جديد من الولاة سمي « بولاة الاصطناع » ،

لقد استعمل المنصور البازدين من اهل خراسان في مناصب عالية ، وكان يحرص على الاحتفاظ بولائهم للنظام السياسي . وفي رأينا فان تعيين المنصور لخازم بن خزيمة التميمي الروزي الخراساني نائبا عنه في الهاشمية على « المسكر واليرة » (٢٢٠) حينما ذهب للحج سنة ١٤٤هـ له دلالة الكبيرة من حيث لفة الخليفة باهل خراسان . فقد استغاث المنصور بهم في التاء ثورة الحسين الطفرة . « يا اهل خراسان انتم شيعتنا وانصارنا واهل دعوتنا » (٢١٦) . واوصى ابنه المهدي بهم خيرا حيث قال :

« واوصيك باهل خراسان خيرا فانهم انصاره وشيعتك الذين بدلوا اموالهم في دولتك ودمائهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ان تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في اهلكه وولده » .

وحين حضرت المنصور الوفاة دعا بني هاشم والشيعا من خراسان ان يتحدوا وراه المهدي ولي العهد ويساعدوه على تسيير امور الدولة . « واسأل الله ان لا يلتكم بعدي ولا يلبسكم شيئا ولا يديق بفسكم باس بعض يابني هاشم وبأهل خراسان ثم افسد لم وصيتهم بالمهدي والكارههم البيعة له وحضهم على القيام بدولته والوفاء بهده » .

على ان لفة استعمال اصطلاح « اهل خراسان » في المصادر التاريخية بعد الانتصار العباسي قد يدعو الى استنتاج خاطيء فيما يتعلق بدورهم ككتلة سياسية في البلاط العباسي . فالاعتقاد بصفق قوتهم او تلاشيها ليس له صحة ذلك لانا يجب ان نلاحظ بان اصطلاح (اهل خراسان) لم يكن الاصطلاح الوحيد الذي عرفت به هذه الكتلة السياسية ، فقد كان يطلق عليهم اسم (الشيعة) و (انصار الدولة) و (رؤساء الشيعة) و (القواد) . وبما انهم سجلوا منذ البداية باسماء مدنهم وقراهم ولذلك كان يطلق عليهم كذلك اسم (الروزية) و (البغين) و (اهل بلخ) و (اهل بخارى) و (اهل فرغانة) والى اخره .

وعلى ذلك فان الكثير من ابرز رجالات اهل خراسان لم يكونوا يعرفون باسم الخراسانية بل باسم قراهم او مناطقهم التي عاشوا فيها . والامثلة على ذلك كثيرة ومتفرقة في الروايات التاريخية منها :

خازم التميمي (الروزي)

لقحظة الطائي (الجرجاني)

الفصل التميمي (الطوسي)

جديع الازدي (الجرجاني)

عبدالمك العتكي (الجرجاني)

ومن هذا المنطلق يمكن الاستنتاج بانه من غير المعقول ولا من الدقة في شيء ان نعت الروزية اتباع خازم التميمي او الجرجانية اتباع عبدالمك العتكي على انهم فرس .

وهناك امثلة كثيرة اخرى في مصادرنا التاريخية لتأثير (اهل خراسان) في سياسة الدولة وكذلك في مشكلة ولاية العهد . فقد تعدد المنصور باهل خراسان حين كتب الى عيسى بن موسى سنة ١٤٧هـ/٧٦٤ يسأله التنازل لولاية العهد الاولى لمحمد المهدي . « ليعلم انصارنا من اهل

قضية عربية تحمل فيها المنصر العربي المسؤولية على عاتقه حتى بدأت نفلت من يديه بصورة تدريجية .

لقد بدأ (الموالي) بالنمو من حيث الأهمية في البلاط والإدارة منذ عهد الخليفة المنصور . ويجوزنا اليقوي بقائمة من أسماء الموالى الذين اختصهم المنصور ووثق بهم ، ومن بينهم : عمارة بن حمزة ، مزروق ابي الخصب ، واضح ، منارة ، الصلاة والربيع بن بونس . ويقول ابن قتيبة بان المنصور غضب غضبا شديدا لما سمع ان والي البصرة سلم بن فنية الباهلي عاقب احد موالى الخليفة واعتبر ذلك تجاوزا على الخليفة نفسه كما وان المنصور اوصى ولي عهده المهدي بالموالى قائلا انه ترك له ثلاثة اشياء مهمة هي : المال ، الموالى ومدينة السلام .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان هذه الرابطة القوية والولاء استمر فشمّل الجيل التالي من الموالى . فقد قيل عن حاتم بن هرثمة بن عاين مولى الرشيد « فانه من لا يعرف الا اطاعة ولا يدين الا بها بما قدر من الله مما قدم له من حال ابيه المحمود عند الخلفاء » (٢٤) .

ويظهر ان عهد الموالى قد تعدى الحدود في عهد الخليفة المهدي . فقد حذر عبدالصمد بن علي ، خال المهدي ، الخليفة - على ما يذكره الطبري - بان علاقته الودية بالموالى سوف تبعد اهل خراسان عنه . ولكن المهدي اجاب بان الموالى يستحقون كل هذا التقدير ذلك لانهم يظلمون باى عمل سيطلبه منهم مهما كان ذلك العمل لا يتناسب مع منزلتهم او قد يعتبر تعقيرا لهم ، بينما يعترض الآخرون من غير الموالى على مثل هذه الطلبات من قبل الخليفة متعللين باصلهم ومنزلتهم وسابقتهم في الدعوة العباسية .

وفي رواية للخبيب البغدادي عن الربيع بن بونس ان المهدي حين نبوا الخلافة وزع محتويات احدى خزانات بيت المال بين « مواليه وغلماظه وخدمه » (٢٥) .

ويقول الجعشاري بان المهدي اظهر احتراما كبيرا لعمارة ابن حمزة لمرجة ان القرشيين الذين كانوا يزورون البلاط في ذلك الحين استفربوا من شخصية القادم ، فاجاب المهدي « انه عمارة بن حمزة مولاي » . ونذكر المصادر التاريخية الموالى جنباً الى جنب مع العباسيين والقبائل الخليفة القرين في فوائمه الهبات والهدايا التي يطبها الخليفة . كما وان أهمية الموالى تظهر من الرواية التي تشير بان المهدي حين رحل السى جرجان سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م ترك مولاة الربيع بن بونس لينوب عنه في بغداد .

ولقد كن عدد الموالى الذين تقلدوا مناصب سياسية وعسكرية واظهروا براعة في المجال السياسي في عهد المهدي واولاده الذين خلفوه كبيرا ، على ان بعض المؤرخين الذين اعتبروا الموالى كتلة عنصرية (جنسية) لا كتلة اجتماعية سياسية، يدعون بان اختيار الخلفاء العباسيين لوزرائهم من (الفرس) كان خطة مدروسة ومصممة تصميما جيدا من قبل الخلفاء كدليل على ان العهد العباسي الجديد شركة بين العرب والفرس . ونستطيع ان نؤكد بان ليس هناك في مصادرنا التاريخية ما يشير الى ان المناصب في الدولة العباسية في عصرها الاول كانت توزع حسب اعتبارات او مقاييس عنصرية . وقد اظهرنا سابقا بان الموالى لم يعتبروا انفسهم فرسا كما وانهم لم ينظر اليهم كفرس من قبل الآخرين . وكان وزراء العصر العباسي الاول اما ذوي اصول غامضة غير معروفة تماما

ويمني هذا اختيار الخليفة لفراد او جماعات بغض النظر عن اصلهم المنصري حيث يمنحهم الخلع والرتب ويمهد اليهم بالاعمال المهمة . وعلى هذا فيلاحظ ظهور شخصيات متنوعة في اصلها ولكنها نحى بنفسها كتلة منفصلة عن غيرها وتجمعت مصالحها واهدافها المشتركة ، كما وان المهم في الامر ان الخليفة نفسه كان يعود الى هذه الكتلة حيث ان بعض الخلفاء العباسيين يرجعون الى اصول عربية من جهة الام .

ومما لا شك فيه فان كتلة الموالى في الدولة العباسية اعتبرت نفسها كتلة مستقلة ومختلفة عن كل من العرب وغير العرب . ويقول الجاحظ في هذا الخصوص بان الموالى ادعوا بانهم افضل من العرب بسبب اصلهم الاعجمي وانهم افضل من العجم بسبب ذوابطهم الجديدة بالعرب . ان مضمون مقالة الجاحظ واضح فالموالى كانوا كتلة منزجة من عرب وغير العرب تجمهم صفة واحدة الا وهي انهم اعتبروا انفسهم كتلة معينة تختلف عن العرب والعجم . وقد وصف الجاحظ منزلة الموالى بالمقارنة مع العرب والعجم ، واهظر ، وهذا امر مهم ، دعواهم بانهم افضل من العرب والعجم . ان هذه النظرة الى الموالى يؤيدها اشارة الجاحظ الى ان كتابه (العرب والموالي) يختلف عن كتابه (العرب والعجم) . وحين يدافع الجاحظ عن نفسه تجاه احد نقاده الذين اتهموه بالتكرار فيقول بان الفروق بين العرب وغير العرب هي ليست كالفرق بين العرب والموالي . من المحتمل ان الجاحظ يشير هنا الى تلك الكتلة من الموالى الذين طقت ذوابطهم بالخليفة على الروابط العنصرية (الجنسية) اذا كان هناك رابطة جنسية ذات بال في تلك الفترة المبكرة من عهد العباسيين ، كما وان منزلتهم (اي الموالى) في البلاط والادارة والجيش ميزتهم تماما عن كل من العرب والعجم الذين كانوا منافسيهم في كسب رضا الخليفة والحصول على المراتب الحيوية .

على ان الجاحظ يعترف بان الموالى حصلوا على تلك المنزلة الرفيعة بسبب رعاية الخلفاء العباسيين الذين اهتمهم في هريات على الاقل ، وادركوا مدى الاستجابة القوية والرابطة المشتركة التي تربطهم بكتلة الموالى من السكان . وبهذا فالجاحظ يرفض رفضا تاما فكرة المنصر كمييار لتصنيف المجتمع ويعتبر البيئة والثقافة عوامل رئيسية في قياس الشخص وفي تربيته . ومن هذا المنطلق فان الموالى نفايا ولقوبا وبيئيا كانوا عربا كما يمثلهم الجاحظ .

يشير الجاحظ واليقوي بان الخليفة المنصور كان اول خليفة عباس استعمل مواليه وغلماظه في اعماله . على ان المسعودي والقرنزي يبديان بان المنصور لم يستخدمهم فقط بل فضلهم على الصرب ايضا . ويظهر ان الرأي الاخرى راي اعتباطي لا يستند دليل ثابت . واذا كان الخليفة قد وثق بمواليه وقدمهم فان ذلك لم يكن بالتأكيد على حساب العرب الذين استمروا يحتفظون بمراتب رئيسية وخطرة . ويمكن القول بان ادعاء المسعودي والقرنزي ينطبق على فترة متأخرة (في حوالي منتصف القرن الثالث الهجري) من العصر العباسي ويؤيد ذلك المؤرخ النقاد ابن خلدون الذي يظهر بوضوح نفوذ المنصر العربي خلال العصر العباسي الاول دون ادنى شك . ويحدد ابن خلدون بدقة الى ان الصرب فقدوا السلطة حين تسلم ابناء الرشيد العرش وانهارت العصبية العربية في عهد المتعصم . وينظر ابن خلدون في تحليله لهذه الفترة المتقدمة من التاريخ الاسلامي ، الى ان القضية كلها

ترعروا في البلاط العباسي او موالى جربوا لمدة طويلة فكانوا موضع ثقة واليتوا كفاءة عالية . وقد عينوا في مناصبهم العالية بسبب مهارتهم الادارية وولاهم السياسي للعباسيين . ويجب ان نضيف بان الخليفة كان يوسمه دون اية صموية ان يقصدهم من مناصبهم اما لشكك فيهم او لاعتبارات يعتقد انها ضرورية .

وفي المدينة المدورة استوطن الموالى قطاعا خاصا بهمسم (درب الموالى) ، كما وان موالى آخرين منحوا قطائع اما افرادا او على شكل جماعات مثل عباد الفرغاني والفرغانية ، حسن الشروي والشروية ، والرييسع بن يونس ، سليمان وسويد الخ ... على اننا يجب ان نشير بان الشروية هم موالى محمد بن علي ابن عبدالله العباسي ثم موالى للخلفاء العباسيين من بعده . وكان للموالى ديوان خاص بهم في بغداد يسمى « ديوان الموالى والظلمان » .

(٤) الإبناء :

في اواخر عهد المهدي وفي ايام الهادي وهارون الرشيد بدا بظهور اصطلاح جديد بين كتل البلاط وفي تشكيلات الجيش العباسي الا وهو (الإبناء) . ويذكرهم ابن سعد في طبقاته باسم (ابناء اهل خراسان) حيث يشير الى ابي نصر التمار على انه من ابناء اهل خراسان من نسا . وتؤكد رواية اخرى الاصل الخراساني لكثرة الإبناء هذه في مناقشة بين الرشيد واحدهم الذي قال يتحدث عن نفسه بأنه « من ابناء هذه الدولة ، اصله من مرو وولادته في بغداد » . ويذكر الديبوري ان الرشيد حين زار سنة ١٨٠ هـ مدينة الهامشية التي بناها ابو العباس قرب انبار وجد فيها عددا من « ابناء اهل خراسان » لا يزالون يقطنونها . ويشير الديبوري نفسه الى ان ثورة رافع بن ليث الليثي في خراسان كان سببها سياسة الوالي عيسى بن ماهان التصفية تجاه اهل خراسان ، كما وان فشلها يصود الى انحياز بعض المسلمين كانوا مع رافع الليثي مثل عفيف بن عتبة والاحوس بن مهاجر الى الجيش العباسي . وفي رواية للطبري يسمي هذه الكتلة « معشر الإبناء واهل السبق الى الهدى » والهدى هنا معناه الانضمام الى الدعوة العباسية . كل هذه الروايات التاريخية تؤكد دون شك الاصل الخراساني لابناء . وبمعنى آخر ان الإبناء هم ابناء واحفاد اهل خراسان جند العقيدة العباسية الذين تاروا في وجه السلطان الاموي وزحفوا نحو العراق والشام فطمحوا الدولة الاموية واقاموا الدولة العباسية سنة ١٢٢هـ/٧٥٠ .

وفي العراق مركز السلطة العباسية الجديد استوطن اهل خراسان محافظين على وحدتهم غير متناشين اصلهم ولذلك برزت كتلة الإبناء من كتلة اهل خراسان كتلة واحدة منسجمة تارت بالتطورات الجديدة السياسية والثقافية والحضارية الا انها لم تنس اقليم آبائها الاول حيث ولدت الدعوة العباسية وتلجرت .

وكما ان اهل خراسان كانوا عربا وعجميا فالابناء دون شك سيكونون مزيجا من الجنسين ولذلك يصدق ابن طيفور حين يسميهم « ابناء خراسان الولودن » . فمن ابرز العرب من الإبناء هو عبدالله بن حميد بن فطحة الطائي حيث يشير اليه الخليفة داود بن عيسى بن موسى الخراساني ومحمد ابن ابي خالد الروزي .

وكان الإبناء لم يكونوا قوة كبيرة في عهد الخلفاء العباسيين الاوائل ويزداد ذكرهم في عهد الرشيد ثم لعبوا دورا مهما في النزاع بين الاميين والمأمون .

(٥) السودان والزواج والعبيد :

وسكن الإبناء في بغداد الارياض وكانوا يسمون (اهل الارياض) او (ابناء الارياض) . على ان الفرق بين الإبناء واهل خراسان هو ان اهل خراسان من - العرب تافروا بالبيئة اللارسية وتقاليدها حضارتها لاستقرارهم هناك ردحا من الزمن اما الإبناء فتافروا بتقاليد الخلافة العباسية في العراق الذي كانت بيئته تختلف تماما عن بيئة خراسان الاعجمية .

لقد تقربت الدعوة العباسية الى المستضعفين في المجتمع الاسلامي فدعت العبيد الى الانخراط في صفوف الثوار وعق كل عبد بنفسم اليها . ولم يكن وجود العبيد في الجيش العباسي شيئا مبنعما فقد كان العبيد يراقون الحملات العسكرية منذ العهد الاموي .

وتذكر المصادر التاريخية وجود العبيد والزواج كشكيلة في الجيش العباسي فكان هناك وحدة مكونة من ١٠ الاف زنجي في جيش يحيى بن محمد العباسي والي الموصل حين وصوله سنة ١٢٢هـ/٧٥١ كما ورافق السودان الجيش العباسي الذي ارسله المنصور الى البصرة لاصخاد ثورة ابراهيم الحسني . والمعروف انه كان يوجد في بغداد دار خاصة بالرقيق تسمى (دار الرقيق) (٢٨) . وكان الرقيق يستوردون من مصادر مختلفة منها الشراء او السبي او هدايا او جزء من ضرائب اقليم من الاقاليم ..

(٦) الأعراب :

وكما ادخلت السلطة المباسية انصاليك في الجيش
ضمت كذلك الزواويل لمبظهم وحل مشكلتهم المعاشية
وايجاد عمل مفيد لهم .

(١٠) عناصر أخرى :

وفد انضم الى الجيش المباسي بمرور الزمن عناصر
أخرى وخاصة في اواخر العصر الاول(١) مثل الفرافنة والزوط
والارمن وغيرهم على ان اغلب هذه العناصر لم تتبلور في فرق
عسكرية في الفترة موضوعة البحث وربما دخلت ضمن التطوعة
والقوات النظامية .



(٧) الشاكرية :

المعروف ان اصطلاح شاكرية يعني بالفارسية الخدم .
وهؤلاء من المرتزقة المرتبطين بالوالي او القائد ويعتبرون جزءا
من موابله ولعلماته . وكانت الشاكرية في الجيش تستخدم في
الخدمات بالدرجة الاولى والحراسة . وقد ربطوا في اواخر
العصر المباسي الاول بالأسسة العسكرية فسجلوا في ديوان
واحد مع الجند سمي ديوان الجند والشاكرية(٢٩) .

(٨) الصعاليك :

وتعني كلمة « صعولك » الفقر الضعيف الحال وان
انطراطهم في الجيش المباسي في اواخر العصر الاول يعني
دخول عناصر من الطبقات الضعيفة والكادحة في الجيش . ولا
شك فان قبول هؤلاء في الجيش يدل على سياسة حكيمه
للدولة المباسية فقد انضم هؤلاء الفقراء والمحرومين الى
حركات التمرد ضد السلطة وسببوا للاقول كثيرة في اقاليم
عديدة مثل الدريجان وارمينيه وغيرهم فكان حلا معقولا من
قبل الدولة ان تقبلهم في الجيش ففتت بذلك على اسباب
نصرهم وحلت مشكلة بطالتهم . وكان الصعاليك يتواجدون
بين الجند المرابط في الثغور .

(٩) الزواويل :

يرد هذا الاصطلاح عند الكلام عن النزاع بين الامين
والمأمون . وكان الزواويل كجماعة وفتت الى جانب الامين ،
وغالبيه هذه الكتلة تتجمع من اقليم الشام والجزيرة وتذكر
المصادر بعض زعماتهم امثال نصر بن شيبث العقيلي والمباسي
ابن زهر الهلالي وقد حار المؤرخون في تمييز هذه الجماعة(٣٠)
ونحن نعتقد بان الزواويل في غالبيتهم عرب من القبائل
القيسية المستوطنة في بلاد الشام والجزيرة . يشير الطبري
الى ان الخليفة هارون الرشيد ارسل جعفر البرمكي سنة
١٨٠هـ/٧٩٧ لموضع حد للمبصيات القبلية بين القيسية
واليمانية « وقتل زواويلهم ومتصلصمتهم » وقد اشرنا بان
زعمادهم كانوا عربا .

ولهذا نرى بان الزواويل عربا قيسية نصرورا الامين
وبقوا بعد انتصار المأمون ضد السلطة المباسية ولذلك
نعتهم السلطة « بالوصوية » وكان لهذا النعت ما يبرره
لان هؤلاء البدو كانوا محرومين من العطاء وربما عمدوا الى
النهب لاقامة اوجهم وتمرور الزمن اصبح اصطلاح الزواويل
اصطلاحا اجتماعيا يدل على الفسقاء من البدو العرب وخاصة
من القيسية .

الهوامش :

- ١ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٠٢ - المنقوبي ،
تاريخ ، ج ٢ ص ١٧٦ طبعه ليدن .
- ٢ - دنيث ، مروان بن محمد اطروحة دكتوراه ، جنمعة
هارفرد ١٩٢٩ ص ١٢٢ .
- ٣ - الطبري ، تاريخ ، الطبعة الاوربية ، القسم الثاني .
١٢٨١ - ١٢٨٢ .
- ٤ - المصدر السابق ، ص ١٥٤٤ .
- ٥ - راجع دنيث ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ فما بعد .
- ٦ - فان فلوز ، السيادة العربية ، القاهرة ١٩٢٤ -
ولهاوزن ، الدولة العربية القاهرة ١٩٥٨ ، جرجس
زيدان التصدي الاسلامي ، ج ٢ ص ١٨ - ٢٨ د. عبد
الامير دكسن الخلافة الاموية ١-١ - ١-٤ (بالانكليزية) .
- ٧ - الطبري ، تاريخ ، ص ١٦٦٠ .
- ٨ - المصدر السابق ، ص ١٦٤٩ ، ١٦٥٠ .
- ٩ - دنيث ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
- ١٠ - المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
- ١١ - المسودي ، مروج الذهب ، ج ٥ ص ٢٧٦ . وقد
خطب الحجاج الثقفي في المقالة فقال : « .. الا وان
امير المؤمنين امرني اعطاكم اعطياكم وانصاحكم الى
محابرة عدوكم (الخوارج) مع الهلب وقد امرتكم بذلك
واحللت لكم لاننا واعظت الله عمدا بواخذني بخ
ويستوفيه مني ان لا اجد احدا من يبع الهلب بعدها
الا ذريت عنقه وانهبت ماله . » مروج الذهب ، فاجره
ج ٢ ص ١٢٥ .
- ١٢ - الطبري ، تاريخ ، ص ١٤٥٥ .
- ١٣ - المصدر السابق ص ١٤٩٠ .
- ١٤ - د . فاروق عمر فوزي ، المباسيون الاوائل ، الجزء
الاول ، بيروت ١٩٧٠ .
- ١٥ - الطبري ، ص ١٢٧٩ .
- ١٦ - د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة المباسية ، بيروت
١٩٧٠ .
- ١٧ - الجاحظ ، الترك (في ثلاث رسائل) ١٩٠٢ ص ٨ .
- ١٨ - الطبري ، تاريخ القسم الثالث ، ١٢٨٠ - ١٢٨١ .

- ٢٩ - المصدر السابق ، ص ٥٧٢ - الجهمشاري ، الوزراء والكتاب ١٧٤ ، اليمقوبي تاريخ ٤٨٩ - ٤٦٠ .
- ٣٠ - الطبرى ، ص ٦٠٠ - ٦٠١ اليمقوبي ، تاريخ ، ص ٤٩٠ .
- ٣١ - الطبرى ، ص ١٤٢ (القسم الثالث) الطبعة الاوربية .
- ٣٢ - الجاحظ ، رسائل ، (منابى الترك) تحقيق عبدالسلام هارون ، ص ٢٢ - ٢٤ .
- ٣٣ - ابن خلدون ، مقدمة ، ج ٢ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .
- ٣٤ - الطبرى ، تاريخ ، ص ٧٦٦ .
- ٣٥ - الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٥ ص ٣٩٣ .
- ٣٦ - الجاحظ ، رسائل (منابى الترك) ، ص ٢٩ .
- ٣٧ - المصدر السابق ، ص ٢٦ .
- ٣٨ - الفريرى ، القفى ورقة ٩١ ب .
- ٣٩ - الكوفي ، الفنوح ورقة ٢٢٥ب - الطبرى القسم الثالث ص ١١٨ - تاريخ طبرستان ج ٢ ص ١١٨ .
- ٤٠ - راجع ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٨ (القدمة) .
- ٤١ - Miah, The Reign of Al - Mutawakkil, PH. D., London 1963.

- ١٤٠٠ ، ١٤٢١ - الكامل لابن الاثير ج ٧ ص ٢٩ ، ٤٤ ، ٦٤ - المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٧ ص ٢٥٨ ، ٢٧٢ - ٢٧٧ .
- ١٩ - مياه ، عصر المتوكل ، اطروحة (بالانكليزية) ، جامعة لندن ١٩٦٣ .
- ٢٠ - راجع د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج ٢ ، الفصل الاول ، دمشق ، ١٩٧٢ .
- ٢١ - راجع مقالنا
- The Composition of Abbasid Support:**
- في مجلة كلية الاداب سنة ١٩٦٨ ففيه معلومات اكثر عن مصادرنا الاصلية والحديثة .
- ٢٢ - الازدى ، تاريخ الموصل ، ص ١٢٤ .
- ٢٣ - د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج ٢ ، ص ٢٨ .
- ٢٤ - الجاحظ ، الترك ، ١٩٠٣ ص ٨ .
- ٢٥ - ابن المقفع ، رسالة في الصحابة ، ص ١١٩ فما بعد .
- ٢٦ - المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
- ٢٧ - الطبرى ، تاريخ ، القسم الثالث ، ص ٢٢٨ - ٢٢١ ، اليمقوبي ، التاريخ ج ٢ ، ٤٥٦ - ٤٥٧ .
- ٢٨ - الطبرى ، ص ٤٧١ - ٤٧٦ (القسم الثالث) .

بغداد مركز العلم والثقافة العالمية في القرون الوسطى

بقلم الدكتور

جليل كمال الدين

كلية الاداب - جامعة بغداد

الواسعة ، الظروف الضرورية لتجديد الحضارة ، ولتجديد شباب العالم «

(روجيه غارودي)

« الغرب وليد الشرق ، ولا يزال مفتاح ماضي الحوادث في الشرق ، فعلى العلماء ان يبحثوا عن هذا المفتاح فيه «

(غوستاف لوبون)

« إن العلم الغربي ... يدين بوجوده للحضارة العربية «

(برنغو)

« فنحن في الغرب مدينون للمغرب بكل علمنا «

(ج . د . بونال)

« إن الاسلام ... قد خلق ، بفتوحاته

- ١ -

ام تستطع معه حضارة إسلامية أخرى ان تنافسها ، تستوي في ذلك سامراء (العاصمة العباسية الشهيرة الثانية) ، ودمشق (عاصمة الامويين) ، والقاهرة (عاصمة الفاطميين والابويين ومالكهم) . ولعل قرطبة في الاندلس كانت بالنسبة الى المغرب العربي ، الاسلامي مثلما كانت بغداد بالنسبة للمشرق العربي - الاسلامي . على ان قرطبة واشبيلية ، وفاس ، والقيروان كانت تنبارى ، فيما بينها ، او ، كلا على حدة ، لتقول شيئاً « بغدادياً » ، او لتروي شعراً او حديثاً او تاريخاً بغدادياً ، حتى ان بعض المغاربة والاندلسيين نفسوا ذلك على بغداد ، وعذلوها اهل عصرهم في هذا « التبغدد » ، والهيام بكل شيء بغدادى ، وشرقي !

وهكذا ، فان من الغريب ، على ضوء مثل هذه الخلفية ، ان تاتي « الموسوعة الميسرة » (١٩٦٥) ، في باب « بغداد » ، على ص ٣٨٣ ، بتعريف باليسر ، حقاً لها . ولعل اقليمية كاتب فقرة « بغداد » ، في احسن الاحوال ، او جهله ،

لقد اهتم العرب ، مبررين تمام التبرير ، بدار السلام ، بغداد ، اهتماماً ليس له مثل . فالفوا فيها الكتب ، وصنفوا المصنفات ، ونظموا الشعر وكتبوا الحكايات والقصص والاساطير ، والاجال ، والمواليا والرسوم والتصاوير المدهشة . ولم يكن كل ذلك دون سبب وجيه ، فالحق ان بغداد كانت بمظمتها ، وهيبتها ، ومركزها العلمي والثقافي والتجاري ، ومكانتها الجغرافية والاستراتيجية والمسكونية ، مقعد آمال العرب والمسلمين ، على حد سواء . وكان كثيراً ما يقال ان من لم ير بغداد لم ير الدنيا . ولهذا كان العلماء والفقهاء والشعراء ، من جهة ، والتجار والباحثون عن الثروة والعمل ، من جهة اخرى ، يشدون الرحال ، جميعاً الى بغداد ليستقروا فيها بقية حياتهم ، او ليتزودوا بالعلم والثقافة ويعودوا الى اوطانهم مجازين في التدريس ، او الفقه ، او الافشاء .

وبلغت عظمة بغداد ومكانتها الراسخة حداً

في أسوأ الأحوال ، هو الذي دفع الكاتب الى هذا « البؤس العلمي » ، إذا أمكن التعبير وصح .

يقول الكاتب ، بعد ان يذكر بغداد هي عاصمة الجمهورية العراقية ، ويشير الى عدد سكانها ، يقول :

- « المدينة الحالية اسسها المنصور الخليفة العباسي ، على الضفة اليمنى لنهر دجلة في ٧٦٢م ، وتقع على خط عرض (١٨ ، ٢٦ ، ٢٣) درجة شمالا ، وعلى خط طول (٩ ، ٢٣ ، ٤٤) درجة شرقا ، ومنذ ذلك الحين أصبح مركزها التجاري عظيماً لا ينافسه موقع ، وبقيت مركزاً مهماً للعالم الاسلامي لقرون عديدة ، وتحيط بها البساتين والحدائق الغناء ، وبلغت أوجها في زمن الخليفة هارون الرشيد ، وهي ، بالإضافة الى ذلك ، مواطن لعدد من العلماء والمفكرين والفنانين ، تمتعت بمركز مالي هام ، واشتهرت بمنتجاتها كالحرير والفيفساء ، وخلدتها في العالم الغربي قصص (الف ليلة وليلة) . ضعف شأنها بعد انتقال مقر الخلافة العباسية فيها الى سامراء ، ولكن مالبث ان عاد إليها مقر الخلافة ، ثم جاءت فترة ركود بسبب الصراع الداخلي في الدولة العباسية ، وتعرضت المدينة لغزو المغول (١٢٥٨) ، فدمرت معالمها الرئيسية ومكتباتها ودور العلم بها . ثم بدأت تسترجع مكانتها ، ولكنها دمرت ثانية من قبل تيمورلنك (١٤٠٠م) ، وغزاها الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠٨م) ، ومرت فترة تناوب فيها الفرس والأتراك حكم بغداد ، وكان تعدادها حينذاك (١٤٠٠) نسمة . ولم يبق من آثارها وثوراتها إلا القليل .. » .

إن مثل هذا التعريف محدود جداً ، وهو لا يعني بالحد الأدنى من متطلبات التعريف العلمي الموسوعي لمدينة كبيرة ، شهيرة ، مثل « بغداد » ، ناهيك عن كونه قاصراً في الأحاطة بأبعاد عظمة ومكانتها ودورها الكبير في نشر العلم والثقافة ، وأهميتها العربية والاسلامية والعالمية .

ولعل خير من كتب عن بغداد ، في معرض التفصيل في مكانتها العلمية ودورها الثقافي والحضاري الاساتذة الأجلاء : محمد كرد علي (في كتابه « الاسلام والحضارة العربية ») ، وطه الراوي (في كتابه « بغداد - مدينة السلام »)

وناجي معروف ومصطفى جواد وأحمد سوسة ومحمد طاهر مكية وشاكر حسن آل سعيد (في كتاب « بغداد ») الذي نشرته (نقابة المهندسين العراقيين) ، بغداد ، (١٩٦٩) ، وظاهر مظفر النعميد (في كتاب « بغداد » ، مدينة المنصور المدورة) ، ورمزية الاطرقجي (في كتابها عن بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور) ، وبدري محمد فهد (في كتابه « العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ») ، وعبداللطيف الراوي (في كتابه « المجتمع العراقي في شمر القرن الرابع للهجرة ») ، وحكمت نجيب (في كتابه « دراست في تاريخ العلوم عند العرب » ، منشورات جامعة الموصل) ، وقدرى طوقان (في كتابه « العلوم عند العرب ، الخالدون العرب ، مقام العقل عند العرب ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ») ، ومحمد عبدالغني حسن (في كتابه « ملامح من المجتمع العربي ») ، وعبدالحميد العلوجي (في كتابه « تاريخ الطب العراقي ») ، ومصطفى لبيب (في كتابه « الكيمياء عند العرب ») ، محمد مفيد الشوياشي (في كتابه « العرب والحضارة الأوربية ») ، وغيرهم . بالإضافة الى كوكبة لامعة من المستشرقين في شتى أنحاء العالم .

وعقد لوبون بحثاً طريفاً عن بغداد ، ضمن كتابه الشهير « حضارة العرب » . وكتب كثير من المستشرقين عن بغداد ، في تضاعيف كتاباتهم وكتبهم عن الحضارة العربية ، الاسلامية ، والخلافة العربية ، والدولة العباسية ، والتمازج الثقافي الاسلامي .(١)

ومن المهم ان نشير الى بحث لوبون عن بغداد ، ونجتزئ منه شيئاً . يقول لوبون :

« دور الخلافة في بغداد بأسية ودورها في قرطبة باسبانيا أنضرت ادوار الحكم العربي ، ولما استقلت تانك الدولتان بسرعة ، وفصلت بينهما مساوق عظيمة ، كان لهما أصل واحد ودين واحد ولغة واحدة ، تقدمتا تقدما متوازياً عدة قرون ، وكانت المدينتان الكبيرتان ، بغداد وقرطبة ، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للاسلام من مراكز الحضارة التي اضاءت المعالم بنورها الوهاج ايام كانت أوروبا غارقة في دياجير الهمجية » .(٢)

ويغيب لوبون في التفصيل في مكانة بغداد

الحضارية ، ودورها العلمي والثقافي ، مما سنعرض له ، لاحقاً . وبإمكان المرء ان يقارن بين ما كتبه المستشرق الفرنسي لوبون عن بغداد وبين ما كتبه كاتب فقرة « بغداد » في « الموسوعة العربية الميسرة » ، ليلمس الفرق في التوجه والمنهجية والموضوعية بين الكاتبين .

- ٢ -

من اين جاء اسم « بغداد » ؟ وماذا يعني ؟
تلك اسئلة خطرت وتخطر في بال كثير من الباحثين ، والمؤرخين ، ولا بد من البحث عن جواب شاف عنها . وسنستعرض ، فيما يلي ، بعض اهم الاراء في التسمية ، واصلها ، ومغزاها .
يقول الباحثان العراقيان المعاصران ، الاستاذان : د . مصطفى جواد ، و د . احمد سوسة ، في بحثهما المشترك « تخطيط بغداد في مختلف عصورها » ، في كتاب « بغداد » . وفي فقرة اولى تحمل عنوان « بغداد في ادوارها الاولى » :

- « اختلف المؤرخون - قديماً وحديثاً - في بيان اسم « بغداد » ، وتعيين معناه ، فمنهم من قال ان اصله « بعل جاد » باللغة البابلية ، ومعناه « معسكر بعل » ومنهم من قال انه (بعل داد) ، اي الاله الشمس ومنهم من قال انه كلداني . وان اصله « بلداد » ، و « بل » ، اسم الاله الكلداني ، و « داد » كلمة آرامية معناها « الفتك » . ويذهب هؤلاء الى انه حدثت على عهد (بختنصر ٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م .) ملحمة عظيمة ظفر فيها باعدائه ، فانشأ هذه القرية تخليداً لظفره ، وسميت باسم الضم « بل » . ومنهم من يقول بان الاسم بابلي من عهد حمورابي في القرن الثامن عشر ق.م . ، وان اصله « بيت كدادا » ، اي بيت الفتم ، ويرى بعض الباحثين ان كلمة بغداد آرية الاصل ، وان الكيشيين استعملوها اول مرة في مستهل الالف الثاني ق.م . ، ومعناها « عطية الاله » . والفرس يفسرونها على عاداتهم ويرجمونها إلى اصل فارسي هو (باغ داد) اي بستان (ذا دويه) ، او « بغ داد » اي الضم (بغ) اعطاني ، او « باغ اي داد » وهو اسم بستان ، انشاه كسرى انوشروان (٥٢٢ - ٥٧٩ ق.م .) في هذه البقعة ،

فسميت القرية باسمه ، وقيل : كان اسم ملك الصين « بغ » فكان تجار الصين اذا انصرفوا الى بلادهم يارباهم الوافرة من سوق بغداد ، قالوا « بغ داد » ، اي هذا الربح من عطية الملك ، وهو اضعف الاقوال وابعداها عن الاحتمال . وقد ورد اسم بغداد في اخبار فتح العرب للعراق في الثلث الاول من القرن السابع للميلاد واخبار الدولة الاموية ، وقد ذكر المؤرخون عدة اسباب حملت ابا جعفر المنصور على تاسيس مدينته المرووفة بمدينة السلام ، والذي يهنا في هذا البحث الموجز هو انه عزم عزمًا اكيدا على إنشاء مدينة حصينة بين عدة قرى مسكونة مزدهرة - وهي بغداد العتيقة البابلية ، وسونايا الارامية ، التي من بقاياها الاسلامية اليوم مسجد المنطقة بين بغداد والكاظمية ، والخطابية - وشرفانية . وبناورا ، وورثاه ، وبرثانا - وقطفتا) التي هي اليوم « محلة المشاهدة » ، بالجانب الغربي من بغداد) ، والوردانية ، وقد اختير لموضع المدينة مزرعة تعرف (بالمباركة) ، تيمناً باسمها على عادة العرب في التفاؤل بالاسماء ، وكانت المزرعة ملكا لستين شخصاً من اهل بغداد ففوضهم المنصور عنها بالتدس . وكانت هذه المزرعة في موضع البساتين المنسوبة في ايماننا الى المرحوم عبدالحسين الجلبي بين المنطقة والكاظمية في الجانب الغربي من بغداد .. » (٢)

وهكذا يتبين ، مما كتبه باحثا بغداد ، المعاصران : جواد وسوسة ان اسم (بغداد) لا زالت تحوطه الشكوك اصله وانحداره ، وان كانا يكادان يقطعان بان الاسم غير عربي ، ويمكن ملاحظة هذا من ذكر الباحثين لبغداد العتيقة البابلية ، وورود اسم بغداد في اخبار فتوحات العرب للعراق ، مما يعني ان التسمية موجودة ، او شبيه بها او قريب منها موجود ، قبل تاسيس مدينة المنصور المدورة باسم بغداد ، الذي اشتهر في التاريخ ، والعلم والثقافة ، على مدى الازمان ، ومختلف العصور ، والانظمة الاجتماعية - الاقتصادية - السياسية .

إن ما يهنا هو ان بغداد ، في التاريخ والسياسة والعلم والثقافة والتقدم الحضاري ،

قرية من قرى (المنوفية) ويقال في
النسبة اليه (القصري) « (٤) .

ويمكن ان نضيف الى ذلك ، ان اسم
بغداد معروف في جورجيا بالاتحاد السوفيتي ،
فقد اطلق اسم (بغدادي) على احدى مدن
جمهورية (جورجيا) السوفيتية ، وهذه
المدينة شهيرة في عالم الادب والتاريخ ، لانها
موطن الشاعر السوفيتي الكبير فلاديمير
ماياكوفسكي ومسقط رأسه (فقد ولد
ماياكوفسكي في (بغدادي) بجورجيا في ١٨٩٢
وتوفي عام ١٩٢٠ .

- ٣ -

تقترن بغداد بعظمة الحضارة العربية -
الاسلامية ، واكثر دور لها في القرون الوسطى ،
على صعيد العلم ، والثقافة ، والفنون ،
والعمران ، والازدهار الحضاري ، عموماً .

إننا نكاد نستطيع الجزم ان مدرسة
بغدادية متكاملة قد شكلت في الفكر العربي -
الاسلامي ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقہ ،
والفنون ، والعلوم الطبيعية ، والاداب .

ويقرن المؤرخون ، والباحثون ، والمتابعون
مدرسة بغداد هذه بعصر الرشيد والمامون .
حتى ان احمد الرفاعي ، الباحث العربي البارز،
الف كتاباً ، بعدة اجزاء ، عن « عصر المأمون » .
اما لوبون (الذي لم ينصف العرب بدواعي
المحاملة ، التي لا حاجة لها ، طبعاً - ، بل
بدواعي الموضوعية ، وبالضرورات التي املتها
إنجازات الحضارة العربية (الاسلامية الكبيرة)
فهو ايضاً يقرنها بعصر هارون الرشيد ، والمأمون
إذ يؤكد في الفصل الثاني من كتابه المشهور
« حضارة العرب » ، الذي اسلفنا الإشارة اليه،
ان بغداد بلغت ذروة الرخاء في عصر هارون
الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩ م) ، وابنه المأمون (٨١٣ -
٨٣٣ م) وصارت اهم مدن الشرق ، وذاع
صيت الرشيد ، وطبق الافاق ، فارسلت بلاد
التر والهند والصين رسلا الى بلاطه ، وارسل
عاهل الغرب الحقيقي ، وصاحب الحول
والشوكة ، الامبراطور شارلمان ، الذي كان
يملك ما بين المحيط الاطلنطي ونهر الألب ، وهو
الذي لم يملك غير أناس من الهمج ، وفداً ليلج
الرشيد أطيب تحياته ، وبلتمس الحماية

اقتربت دائماً بالعرب ، وبمؤسسها ابي جعفر
المنصور ، وبالحضارة العربية ، الاسلامية -
في عصرها الذهبي (عصر الرشيد والمأمون) ،
وعصورها الأخرى .

لقد كانت روما موطناً للبرابرة قبل ان
يحضرها الرومان ، مثلما كانت اينا وكريت
قبل ان يحضرها اليونان . وهكذا ، فان بغداد ،
سواء كانت بابلية أم فارسية ، في سحيق
الازمان ، فانها عربية منذ أسسها المنصور ،
واستوطنها الشعب العربي الذي انشأ احضرم
حضارة في القرون الوسطى ، يوم كانت اوربا
غارقة في سباتها .

ولشهرة إسم بغداد ، والعظمة التي اقترن
بها ، سمي الكثير في المشرق والغرب العربي ،
على حد سواء ، للتميم به ، مسمين عديداً من
مدنهم به . يقول ناجي معروف ، كاتب المقدمة ،
لرسالة الماجستير لظاهر مظفر العميد (بغداد
- مدينة المنصور المدورة) ، ما يصلح ان
نقتبسه ، هنا ، على سبيل الاستشهاد :

- « ويظهر تأثير بغداد واضحاً في تسمية
بعض المدن والاماكن باسمها ، فقد سميت
مدينة فاس ب (بغداد المغرب) ، وهي
القبة التي تتكون من مدينتين مسورتين
هما (عدوة القرويين) و (عدوة
الاندلسيين) ... اما المدن والاماكن التي
سميت (بغداد) فكثيرة منها - (بغداد)
التي انشأها (زيري بن عطية) في المغرب .
ومنها الاسماء التي اطلقت على اماكن
مختلفة في العالم القديم والعالم الجديد .
فقد اطلق اسم (بغداد) في الولايات
المتحدة الامريكية على مدينة في (أوريوفا)
وفي (فلوريدا) ، وفي كاتاكسي ستي ، وعلى
قرتين من قرى الولايات المتحدة أيضاً ،
وسميت إحدى مدن بولونيا في اوربا باسم
(بغداد) ، كما سميت إحدى مدن
أستراليا باسم (بغداد) ، أيضاً وفي
تانزانيا بافريقيا اطلقت كلمة (دار السلام)
على عاصمتها . وسمى المغاربة بعض
مدنهم بأسماء المدن الشرقية ، متأثرين
بزيارة تلك الديار ، أو ورودهم منها .
ف نجد اسم (بغداد) يطلق على مكان في
مدينة (ميكك) لما يتوفر فيه من نخل -
وفي مصر اطلق اسم (قصر بغداد) على

أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء المصاكر بأسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف إعطياتهم في إبانها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال وقهارة الدولة . وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان .. » (٧).

وإذا عدنا إلى لوبون ، وجدناه يفصل في تأثير القاعدة المادية - الاقتصادية على ازدهار العلم والثقافة في بغداد الرشيد والمأمون ، بخاصة . والحق ، أن شهادة لوبون ، المفكر الأوربي الغربي التزيه جديرة بأن تدرس ، وتحلل ، وتستلم أيضاً . فقد طالما ظلم العرب أناس محسوبون على العلم ، والعلم منهم براء . إن عقدة « الأوربية » ، و « التفوق الأوربي » ، و « عبء الرجل الأبيض » ، و « رسالة التمدن » قد تركت أثرها البالغ ، إضافة إلى العقليّة الإمبريالية ، في طريقة تفكير هؤلاء « المؤرخين » و « المفكرين » الأوربيين الاستعماريين . ومن هنا تبدو شهادة لوبون ، ودرابر ، وهوليارد ، وهوليدت ، وسارطون ، وأضرابهم ، في مقابل هذا الهدر الإمبريالي الذي لا يجمعه جامع مع العلم ، والتاريخ العلمي ، موضوعية ، منصفة ، ناهيك القول عن أن الأدلة والوثائق تدعمها، دعماً أكيداً .

فلننظر ، إذن ، ما يقوله لوبون ، بخصوص ازدهار المادي - الاقتصادي ، والقاعدة المادية التي كونها ، وعلاقة كل ذلك بالازدهار العلمي - الثقافي في بغداد الحضارة العربية الإسلامية ، وبالثقافة العالية : عموماً .

يقول لوبون (في ذات الكتاب المشار إليه آنفاً) :

« كان انتظام مالية الخلفاء سبباً في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير ، كتعميد الطرق ، وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي والمدارس في جميع نواحي الدولة ، ولاسيما بغداد والبصرة والأوصل الخ . واتسع نطاق الزراعة والصناعة ... وأنشئت مصانع للنسيج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق ، وصار العرب يستغلون المالح ، ومناجم الكبريت ، والرخام ، والحديد ، والرصاص ، الخ ،

لحجيج القدس ، فجاباه الرشيد إلى سؤاله ، ورد إليه وفده مع هدايا عظيمة ، ومن بينها نيل مجهز بأفخر جهاز ، والفيل كانت تجهله أوربا تماماً . ولآليء وجواهر وحلي وعاج وخطور ونسائج حريرية وساعة دقاقة تدل على الوقت . وقد قضى امبراطور انقرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبربرون الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها - والذين حاول شارلمان عبثاً أن يحملهم على إحياء حضارة الرومان » . (٥)

ومع ذلك فقد أعطى لوبون حيزاً أكبر للرشيد (مقابل المأمون) ، وفعل فعله نيكولاي غوغول ، القاص الروسي الشهير في القرن التاسع عشر ، في محاضراته عن الرشيد والمأمون في جامعة سانت بطرسبورغ ، فقد أكد غوغول أن الرعية والدولة - معاً ، انتفعت بالرشيد وحزمه وحده وحكته في السياسة وإدارة شؤون الدولة ، أكثر مما انتفعت بعلم المأمون وثقافته وبيت حكمته . (٦)

ورأينا ، أن الرشيد مهد للمأمون ، وانهما يتكاملان ، ويرفد إنجاز أحدهما إنجاز الآخر ، أما مقابلتهما ، الواحد بالآخر ، فهو ليس أمراً صائباً . لقد كان المأمون يمنع المترجم زنة الكتاب الذي ترجمه ذهباً ، وكان يشرف على الأعمال التي الحكمة ، والتأليف والترجمة ، وكان يعقد المناشرات في ديوانه ، وينصر أحرار الرأي والفكر ، ويضع كل ثقله في جانبهم ، رغم أن ذلك قد جر عليه كثيراً من ألوان المعارضة الدينية المترمة ، والخلاف العقائدي غير أن المأمون ما كان يستطيع أن يفعل كل ذلك ، دون الاستناد إلى تخصيصات مالية ضخمة ، وإدارة مانية دقيقة ، واستقرار وازدهار اقتصادي ، تحمل العبء الأكبر فيه أبوه وسلفه هارون الرشيد .

لقد كانت الجباية موكولة إلى لجنة سميت « الديوان » ، وكان هذا الديوان حازماً ، دقيقاً في عمله . ويمكننا أن نستشير المؤرخ والمفكر العربي الشهير ، ابن خلدون ، صاحب المقدمة الشهيرة (مقدمة ابن خلدون) ، وتاريخه ، لنسمع عنه شيئاً عن فعاليات هذا الديوان الرشيدي البغدادي . يقول ابن خلدون :

« إن ديوان الأعمال والجبايات من الوظائف الضرورية للملك وهي ، القيام على

— « كان حب العرب للعلم عظيماً ، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب اشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها ، ومن ذلك ان شهر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم لياذن لاحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد . وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل ، من يونان وفرنس وأقباط وكلدان ، يتقاطرون الى بغداد ، ويجطلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا ، وقال ابو الفرج عن المأمون إنه « كان يخلو بالحكامه وينس بمنابرتهم ويلتذ بمذاكرتهم ، علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته عن عباده ... فلهذا السبب كان أهل العلم مصايح الدجى وسادة البشر ، واوحشت الدنيا لفقدهم » . وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغداد ، وكان يمكن هؤلاء الخلفاء ان يعدوا قصرهم أول قصور العالم وانضروا » (٩) .

لعل لو بون قد وضع يده على السر في تقدم العرب الحضاري ، وفي عظم إنجازات بغداد الثقافة العربية - الاسلامية ، ودورها العالمي ، في ما اصطلح عليه ، خطأ ، بالفرون الوسطى (بمعنى التخلف والهمجية ، وهو شيء يصح على الشعوب الاوربية في القرون الوسطى ، وليس على شعوب الشرق ، وعلى الخصوص : شعوب الدولة العربية - الاسلامية) .

إن من المهم ان نشير الى انه حتى الكتب الدينية المقدسة ، وبخاصة - القرآن الكريم تؤكد على وجوب طلب العلم ، وانتقال موارد المعرفة . بل ان أحد الوان القسم في القرآن ، هو التسم بالقلم ، كما ان عديداً من السور القرآنية ورد فيها بالفعل « اقرأ » ! وثمة حديث نبوي مشهور ، كثيراً ما يورد في معرض الحث على العلم والدراسة ، وهو يقول : « اطلب العلم ولو في الصين » . وهذا الحديث مشهور شهرة حديث آخر ، ببلغ الدلالة ، يقول : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . ولعل هذين الاقنومين الجوهريين : « العلم والعدل » هما الأساس في نهج العرب المذهل ، وازدهار الحضارة العربية ، للإسلامية ، وقتذاك .

وليس الامر مقتصرأ على القرآن ، والحديث النبوي ، فان نهج الخلفاء الأربعة مضى على ذات المسار . ان الخليفة الرابع ، مثلاً ،

ب طرق فنية . ووسعت دائرة التعليم العام ، واستدعى الاساتذة من مختلف اقطار العالم ، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم ، وانتهى الى نتائج لم ينته إليها الاوربيون الا في العصر الحاضر ، كقياس دائرة نصف النهار ، ونقلت الى اللغة العربية كتب علماء اليونان واللاتين ، ولا سيما كتب الفلسفة والرياضيات ، وصارت تدرس في جميع المدارس ، وبحث العرب في آثار القدماء ، تسبقوا الاوربيين الى ذلك ببضعة قرون . واقدم العرب على تلك الباحث ، التي لم يكن لهم عهد بها ، بشوق ونشاط ، واكتروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان ، وكانت لهم اكتشافات مهمة في اكثر العلوم .. « (A)

وبالطبع ، ليس للازدهار الاقتصادي وحده ان يصنع الازدهار في العلم والثقافة . ان الثقافة الامريكية المعاصرة لازالت قاصرة امام الثقافة الاوربية ، مع ان الولايات المتحدة الامريكية تملك من ذهب العالم الراسمالي ورؤوس امواله مسا يفوق ما لاوروبا كلها ، بل والعالم الراسمالي كله ، عدة مرات .

إذن ما الذي صنع هذا الازدهار الثقافي والعلمي العربي - الاسلامي في القرون الوسطى ؟ ولماذا تفوقت بغداد على سواها من الحواضر ؟ ولماذا بز العرب والمسلمون المشبعون بالثقافة العربية (حتى انهم ليعيدون مجدأ لهم انهم يتقنون العربية ويكتبون بها ، كما يقول البيروني) سواهم من الشعوب ، في تلك العصور ، في حقول العلم والثقافة والمعرفة ؟

اسئلة مشروعة لا بد من الاجابة عنها بشكل واف ، او محاولة ذلك على الاقل ، قبل الدخول في تفاصيل إنجازات بغداد الثقافية والعلمية والحضارية .

مرة اخرى ، نستشير لو بون ، مؤرخ وباحث ثقافة العرب ، على الطليعة (ونحن نعني بذلك - ان لو بون لم يكتب بالثقافة النظرية ، وباستشارة العديد من الكتب والمراجع الهامة ، بل طاف في رحلات عديدة بلاد الشرق العربي ، من مراكش الى دمشق والقدس ، وقد استعان بعدد من رجال العلم والثقافة الفرنسيين ، والاسبان ، والبرتغاليين) .

يقول لو بون (وكأنه ينتظر امثال هذه الاسئلة) ، في بحثه المشار اليه :

الإمام علي ، نذر نفسه للعلم وتعليمه . ويحفل « نهج البلاغة » - كتاب الإمام علي (ع) - ، ودويانه النسوب اليه ، بكثير من المغالات البليغة في الدعوة للعلم والمعرفة والتنوير (١٠) .

ونجد مثل هذا لدى الإمام الغزالي ، وكثير من مفكري العرب والمسلمين .

إن مقومات الروح العلمية متكاملة لدى علماء بغداد والمدرسة البغدادية ، والعلماء العرب والمسلمين عموماً . ولعل من الظلم أن نسميها روحاً علمية فحسب ، فهي منهجية علمية حقيقية ، سبقت المنهجية العلمية الأوروبية ، وتقاليد البحث العلمي البايكونية (نسبة الى بايكون) ، وإن كان البعض من مؤرخي الأوربيين وباحثيهم ، البرجوازيين ، لازالوا لا يريدون أن يعترفوا بذلك . ودواعي عدم اعترافهم بالنسب العربي ، والشرقي في المنهجية العلمية والتقاليد العلمية معروفة ، وهي تتصل ، أوتق الاتصال ، بعقدة التفوق الأوربي ، و « رسالة الرجل الأبيض » ، وما إلى ذلك من خرافات ، واعتبارات لا موضوعية ، تقوم عليها العقيدة الامبريالية ، والبرجوازية الأوروبية ، عموماً .

إن المنهجية العلمية في الفكر العربي - الإسلامي ، في بغداد (وفيما بعد) في سائر أرجاء الدولة العربية - الإسلامية المترامية الأطراف ، أي من جابر بن حيان العراقي الى ابن خلدون التونسي الى ابن رشد وابن ماجة وابن طفيل في الأندلس) تقوم ، في جوهرها على الاسس التالية:

١ - التجربة ، والروح التجريبية : وتتجلى هذه ، بشكل خاص ، واستثنائي لدى جابر بن حيان « مؤسس علم الكيمياء » ، والرازي - انقل العلمي العالمي الفذ ، والجاحظ ، الاديب العالم المشهور . يقول هوليارد : « ان التأمل غير المفيد والبعد عن الملاحظة لم نشهدهما في عبقرية جابر ، الذي كان يفضل العمل داخل المعمل ، تاركاً مجال الخيال . لقد كانت وجهات نظره واضحة ومتقنة ، وبسبب ابحاثه الدقيقة الشاملة استحق لقب « المؤسس الأول للكيمياء » ، على قواعد سليمة واسس راسخة » (١١) . وقريب من ذلك ما يقوله بول كراوس ناشر مختارات رسائل جابر بن حيان : « إن جابر بن حيان قد سار بالتراث الشرقي - اليوناني في الكيمياء في اتجاه اكثر تجريبياً وتنظيماً ، وبعد به عن السرية الرموز » (١٢) .

وبالتأكيد ، فان جابر بن حيان ، العالم العربي الفذ ، تلميذ أحد الائمة المسلمين المشهورين « جعفر الصادق » او زميله ، كان عالماً تجريبياً ، ليس له نظير في عصره ، فهو يؤكد في كتاب « التجريد » : « ان « ملاك كمال هذه الصنعة (يقصد الكيمياء) العمل والتجربة ، فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء ابدأ » (١٣) وهو يضع التجربة قبل كل شيء « لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل حتى الى ادنى مراتب الاثقان . فعليك يا بني بالتجربة لتحصل على المعرفة » (١٤) . كما انه لا يقوم بالتجربة لاجل التجربة ، فالتجربة من اجل المعرفة ، والتجربة مسببة ، ولا بد من التسيب والغاية في كل عمل علمي ، وهكذا يقول جابر ، في إحدى تجلياته العلمية الفذة :

- « يجب على المشتغل بالكيمياء ان يعرف السبب في إجراء كل عملية ، وان يفهم التعليمات جيداً لأن لكل صنعة أساليبها الفنية ، كما يجب عليه الا يحاول عمل شيء مستحيل او عديم النفع » (١٥) .

كما كان جابر يفهم ، فهما استثنائياً ، القوانين الموضوعية للطبيعة ، ويطالب باحترامها ، واستلهاها . فهو يقول في « كتاب الرحمة الصغير » :

- « واقتف اثر الطبيعة فيما تريده من كل شيء طبيعي فاعتمد عليه » (١٦) .

وهكذا ، فان جابر ، هذا العالم المختبري الأول في التاريخ ، كان نتاجاً للبيئة العلمية - الثقافية العربية - الإسلامية ، وهي بيئة متفردة في اصولها العلمية وعطائها ، في عصر العرب الذهبي ، العصر العباسي الأول . وينظر لجابر هذا عالم خطا خطاه العلمية الاولى في البصرة ، وانما في بغداد ، وهو الجاحظ . وكان يقول بالتجربة ويعتمدها اعتماد العالم المختبري ، المسلح بنظرة علمية متكاملة نسبياً ، فذة بالنسبة الى عصرها ، وبالنسبة الى الشعوب الأخرى المعاصرة للشعب العربي والشعوب المسلمة .

فان الجاحظ ، الاديب الذي كتب « البيان والتبيين » في النظرية الأدبية والبحث الأدبي والبلأغي ، كتب ، كما فعل العلماء الموسوعيون في عصره - كتاب « الحيوان » ، الذي تقل لنا فيه كثيراً من آرائه العلمية الفذة ، وإيمانه بالتجربة والتجريب سبيلاً الى المعرفة العلمية اليقينية .

يقول قدرتي حافظ طوقان (وهو من أوائل

الناقد ، أبو عمرو بن عثمان الجاحظ . يقول فُدري حافظ طوقان ، في كتابه « العلوم عند العرب » .
المشار إليه آنفاً ، في بحثه عن الجاحظ وروحهِ العلمية :

« ... كان الجاحظ يؤمن بان العلم « مشاع » ليس ملكاً لأمة دون أخرى ، وأنه انما وضع ليستفيد جميع الناس على تعدد أهوائهم واختلاف نحلهم . جاء في مقدمة كتابه « الحيوان » ما يلي : « ... وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم ، لانه وان كان عربياً أعرابياً وإسلامياً جمعياً ، فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الفريزة .. »
وأدرك الجاحظ ما في الإنسان من مزايا تدفعه الى التقدم ، جاء في كتاب « الحيوان » قوله « ... وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على انا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما ان من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا ... » . . . ومن هنا يتجلى إدراك الجاحظ لما أدركه بعض الفلاسفة في هذا العصر ، فقد سبقهم في ملاحظتهم الدقيقة عن الإنسان ومزاياه التي أدت الى التقدم والارتقاء . فالإنسان يأخذ ما عمله غيره ويضيف إليه « (١٨) » .

ويقول طوقان ، ايضاً ، في موضع آخر من بحثه المشار اليه : « ولقد جاء في كتاب الحيوان للجاحظ ما يؤيد اخذه ونقله قال :

« ... وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً ، وبعضها ما انتقص شيئاً .. وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى أمة ، ومن قرية الى قرية ، ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت اليها ، وكنا آخر من ورثها ، ونظر فيها ... » . والثالث ان الجاحظ لم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته كأنه ما كان ، حتى انه كان يكتبني دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر ... « (١٩) » .

ومن المشهور عن الجاحظ ، انه صاحب مقولة ان المعاني مشاعة مرمية في الطريق . والجاحظ يهدف ، بذلك ، الى القول ان العلم ليس حكراً على أحد ، وان بإمكان أي عقل بشري ، وأي

من بحث العلوم عند العرب بحثاً موضوعياً) ، في مبحثه عن الجاحظ ، وفي معرض الحديث عن كتابه « الحيوان » ، اقوالاً بليغة الدلالة :

« وفي هذا الكتاب الجامع تتجلى دقة الملاحظة والتحصيص عند « الجاحظ » ، فهو يلجأ الى التجربة ليتحقق من صحة نظرية من النظريات أو رأي من الآراء ، فقد جرب في الحيوان والنبات ، وفي كل تجربة كان يسير على نهج خاص ، ففي بعضها « ... كان يقطع طائفة من الاعضاء ، وفي بعضها كان يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وحيناً كان يرمي بتجربته الى معرفة بيض الحيوان والاستقصاء في صفاته ، وكان حيناً يقدم على ذبح الحيوان وتفطيش جوفه وفانسته . ومرة كان يذفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان . وكان في اوقات يمسح بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفي اوقات كان يجمع اصدقاء الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاتلها . وكان يلجأ في بعض الأحيان الى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم تأثيرها في الحيوان . ولم يقف الجاحظ عند التجارب بنفسه ، واتباع منهاج خاص لكل منها ، بل كان في كثير من الأحيان يشك في النتائج التي يتوصل إليها ويستمر في الشك وتكرار التجربة ، بل ويدعو الى ذلك كله حتى تثبت صحة النظريات والآراء ، وتتجلى له الحقيقة ، ويتعرف على مواضع اليقين والحالات الموجبة لها . وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً . فلولم يكن ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه « (١٧) » .

كما قال جابر بن حيان مقولات اخرى سنعرض لها فيما بعد . ويمكننا ان نقول ، بثقة ، ان هذا العالم المعتزلي كان قمة من قمم الثقافة البغدادية ، ومفخرة من مفاخر الثقافة العربية - الاسلامية ، في عصر بغداد الذهبي . وكانت كثير من مقولات وتطبيقات جابر بن حيان والجاحظ (اللذين اشرنا إليهما ، على سبيل المثال) ، علمية متكاملة ، تقوم على التجربة ، وتعتمد التجريب ، سبيلاً للبحث العلمي ، وصولاً الى الحقيقة العلمية ، والمعرفة .

٢ - مشاعية العلم وديمقراطيته : وخير من يمثل ذلك ، ويقول به العالم الموسوعي العربي ، والأديب

٣ - ابتفاء الحقيقة الموضوعية قبل أي شيء :

اشتهرت مدرسة بغداد ، بين مدارس الفكر والثقافة العالمية ، بريادتها واصلتها في نشدان الحقيقة الموضوعية ، والسعي من أجلها ، واتخاذها ملهماً أساساً ، وفضلاً ، ونبراساً في كافة فعاليات البحث العلمي .

وكان العلماء العرب والمسلمون ، في مدرسة بغداد في العصر العباسي الأول ، وما تلتها من مدارس الأماص العربية ، صعوداً في التاريخ إلى مدرسة ابن خلدون ، وقبلها مدرسة ابن رشد وابن ماجه وابن طفيل (وابن حزم لحد كبير ، ايضاً) في الأندلس ، كانوا يطلقون على الحقيقة الموضوعية مصطلحاً آخر يسومونه : الحق (في مقابل الباطل) ، والعدل (مقابل الهوى والتعصب) وذلك لا يضير شيئاً ، لأن الجوهر واحد ، فالحق والعدل هما الحقيقة الموضوعية ، في الأساس ، وان اختلف المصطلح شيئاً ، باختلاف العصر .

وكان توجه علماء المدرسة البغدادية في ابتغاء الحقيقة الموضوعية محكوماً بضرورات ودوافع تعدى الدوافع الدينية والأخلاقية ، وتكون شيئاً هو من صلب التفكير العلمي - العقلاني - المنطقي - الفلسفي لدى هؤلاء العلماء ، وعلماء الحضارة العربية ، الإسلامية عموماً . ومن المهم ان نشير الى ان معظم هؤلاء العلماء ، إن لم يكن كلهم ، قد اشتغل بالفلسفة ، وانطلق منها ، كإطار عام ، وخلفية متكاملة ، إلى بحوثه العلمية . وحسبنا ان نشير الى جابر بن حيان ، والكندي ، والرأزي ، وابن سينا ، والبيروني وغيرهم .

قال الكندي ، فيلسوف العرب ، وأحد « الأثنى عشر عبقرياً الذين هم من الطراز الأول في الذكاء » ، كما يقول كاردافو(٢٢) ، والذي يقف مع الحسن بن الهيثم «في الصف الأول مع بطليموس» ، على حد قول ياكوف(٢٣) ، في رسالته الى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى ، « فقد جاء في هذه الرسالة ان أعلى الصناعات الإنسانية واشرفها مرتبة صناعة الفلسفة . ولماذا ؟ لأن حردما علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ، ولأن غرض الفيلسوف في عمله إصابة الحق ، وفي عمله العمل بالحق »(٢٤) . كما أكد في هذه الرسالة ذاتها ، ايضاً ، وجوب إعلاء راية الحقيقة والحق ، وتغليب كلمة الحقيقة على كل ما عداها ، وان جيش الحقيقة وطلاب الحقيقة العلمية الموضوعية واحد ، وان حلقات الحقيقة مترابطة جديلاً مثلما هي مترابطة ، جديلاً ، ايضاً ، مساعي العلماء والبحث

إنسان ، ان يكشف كشفاً علمياً ، وان يأتي بجديد في العلم . ان هذه النظرة الديمقراطية إنما هي أقتوم أساس لتهجية الجاحظ وأمثاله من علماء المدرسة البغدادية العباسية .

ولابد من القول ان الجاحظ اثر فيمن جاء بعده ، فالبيروني ، مثلاً ، الذي يتمجد به العرب ، وآسيا الوسطى . على حد سواء ، والذي يعده سخاو ، العالم الألماني البارز ، وليس دون أسباب وجيهة ، « اعظم عقلية عرفها التاريخ » ، كما يقول جورج سارطون فيه ، انه « ... من اعظم عظماء الإسلام ومن أكبر علماء العالم » ، ان البيروني هذا يقول : متصفاً كل الامم ، في التراث العلمي العالمي ، ومنحازاً للعرب ، واللغة العربية ، والثقافة العربية : الإسلامية التي تشربها :

- « ... كل واحدة من الامم موصوفة بالتقدم في علم ما او عمل . واليونانيون قبل النصرانية موصوفون بفضل العناية في البياحت وترقية الأثبياء إلى اشرف مراتبها وتقريبها من كمالها ... واما ناحية المشرق فليس فيها من الامم من يهتزل لعلم غير الهند . ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على اصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المغربيين ... ديننا والدولة عربيان وتوامان يرفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية . وكم احتشد طوائف من التوابع في لباس الدولة جلابيب العجمة فلم ينسق لهم في المراد سوق ... والى لان العرب نقلت العلوم من اقطار العالم وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة ، وان كانت كل أمة تستحلي لغتها التي الفتها واعتادتها واستعمتها في مآربها مع الانفا واشكالها ، واقبس هذا بنفسى وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة في المكواب ، ثم منتقلة الى العربية والفارسية ، فانا في كل واحدة دخيل ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية ... »(٢٥) .

ان طوقان على حق كبير في استنتاجه من مقولات البيروني الدالة ، هذه ، الاستنتاج التالي : « ويمكن الخروج من اقواله ورسالته انه يؤمن باسانية العلم ، وبالوحدة الشاملة التي يؤدي إليها ، اعلم ، فيوحد بني العقل والتنافر بينها ، ويقرب بعضها بعض ، ويدعو الى التفاهم على اساس المنطق والحقيقة »(٢٦) .

ينبغي بحس الحق ولا تصغير بقائله ولا بالآتي به ، ولا أحد بحس بالحق ، بل كل يشرفه الحق « (٢٦) » .

إن تعليق طوقان ، الباحث العربي المعاصر ، على مقولة سلفه العربي العظيم - الكندي - قويم ، في أساسه ، وإن كان يلمح بحسب آلي المفزى العالمي لهذه المقولة ، وارتباطها الجدلي بحرية الرأي ، التي تعتبر حجر الزاوية في كل نشاط علمي أصيل . يقول طوقان ، في معرض الاستنتاج - « ... يرى الكندي ان معرفة الحق نعمة لتضامن الأجيال الإنسانية ، فكل جيل يضيف الى التراث الإنساني ثمار أفكاره ويمهد السبيل لمن يجيء بعده ، ويدعو الى مواصلة البحث عن الحق ، والمناظرة في طلبه . وشكر من يشغل نفسه وفكره في ذلك ، وهو يعتبر طالبي الحق شركاء ، وإن بينهم نسباً ورابطة قوية هي رابطة البحث عن الحق والاهتمام به ، وقد دفعه اهتمامه بالحق وظائفيه الى الشعور بمسؤوليته ، وإن عليه ان يساهم في بناء الحقيقة ، ويدعو الى الحدب على طالبها والتفاني في اسعافه .. » (٢٧) .

إن منهج المدرسة البغدادية العلمي في الفكر والثقافة والبحث العلمي الموضوعي يظل يفرض نفسه حتى على علماء متأخرين ، نسبياً ، في الحفبة الزمنية . فان البيروني ، مولود القرن العاشر الميلادي (ولد في خوارزم عام ٩٧٣م ، ووافاه الاجل عام ١٠٤٨م) ، يوصي في مقدمة كتابه القيم « الأثار الباقية عن القرون الخالية » ، بوجود نبذ التعصب ، والتحامل ، والأهواء ، والتكريس للعلم والحقيقة العلمية ، وبضرورة « تنزيه النفس عن العوارض المردئة لآثار الخلق ، والاسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالمادة المألوفة ، والتعقب والتظاهر وأتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك ... » (٢٨) .

ولعل الدكتور شاخت لم يبالغ في تبيان عظمة خريج المدرسة البغدادية في العلم والثقافة ، العالم الخوارزمي ، البيروني (الحريرى على الكتابة بالعربية وحتى على ان يجيى بها ولا يمدح بلغة أخرى () ، حين أكد يقول :

- « ... والحق ان شجاعة البيروني الفكرية ووجهه للاطلاع العلمي وبعده عن التوهم ووجهه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه - كل هذه الخصال - كانت عديمة النظر في القرون الوسطى ، فقد كان البيروني في الواقع عبقرياً مبدعاً ذا بصيرة شاملة نفاذة ... » (٢٩) .

العلمي ، نقضية الحقيقة العلمية والبحث العلمي في سبيلها واحدة لا تتجزأ ، والشعوب جميعاً تتيارى وتتكامل جهودها في سبيلها . وبذلك ضرب الكندي المثل ، حقاً ، في الانتصار للحقيقة العلمية الموضوعية وجيشها العالمي ، مبرهنات ، بذلك ، على طليعية مركز بغداد العلمي ودوره العالمي في العلم والثقافة العالية ، وأصالته وعظمته في ذلك العصر بقول الكندي :

- « ... ومن أوجب الحق ان لا تدم من كان احد اسباب منافعنا الصغار الهلزية ، فكيف بالذين هم اكبر اسباب منافعنا العظام الحقيقية الجديدة ، فانهم وان قصرنا عن بعض الحق فقد كانوا لنا انسابا وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم التي صارت لنا سبلا وآلات مؤدية الى علم كثير مما قصرنا عن نيل حقيقة ، ولاسيما إذا هو بين عندنا وعند البرزخين من المتفلسفين قبلنا من غير اهل لساننا . إنه لم ينل الحق - بما يستاهل الحق - احد من الناس بجهد طلبه ، ولا احاط به جميعهم ، بل كل واحد منهم ، اما لم ينل منه شيئاً ، واما نال شيئاً يسيراً بالاضافة الى ما يستاهل الحق . فاذا جمع يسير ما نال كل واحد من التائلين الحق منهم اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل . فينبغي ان يعظم شكرنا للآتين يسير الحق ، فضلاً عن اتي بكثير من الحق ، إذا اشركونا في غمار فكرهم وسهلوا لنا المطالب الحقيقة الخفية بما أفادونا من التمدات المسهلة لنا سبل الحق ، فانهم لو لم يكونوا ، لم يجتمع لنا من شدة البحث في مددنا كلها هذه الأوائل الحقيقة التي بها تخرجنا الى الأواخر من مطلوباتنا الخفية . فان ذلك إنما اجتمع في الأعصار المتقدمة ، عصرأ بعد عصر ، الى زماننا هذا ، مع شدة البحث ولزوم الداب وإيثار التعب في ذلك ... » (٣٥) .

وتكاد مقولات الكندي الثاقبة في ابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية ان تكون دستوراً ، ينبغي استلهاه ، واعتباره نقطة الانطلاق دائماً إن احدى هذه المقولات ، العظيمة الدلالة ، والخالدة ، بالضرورة ، تقول :

- « وينبغي ان لا نستحي من الحق واقتناء الحق من ابن ياتي ، وإن اتي من الأجناس القاصية عنا ، والأمم المابينة لنا ، فانه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ، وليس

وينبغي القول ان ابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية كان سنة يقول بها كل العقلين التنوريين في الاسلام ، وخصوصاً المعتزلة (مدرسة النظام بخاصة) ، الى علماء المدرسة البغدادية جميعاً ، دون استثناء ، الى علماء الأندلس والمغرب ، حتى ابن خلدون .

فان صاحب « الرسالة العذراء » . ابراهيم بن المدير . انتصر للحقيقة العلمية انتصاراً لغت نظر معاصريه . فقد جاء في مفتتح رسالته : « ... فنق الله بالحكمة ذهنك وشرح بها صدرك . وانطق بالحق لسانك وشرف به بيانك » (٢٠٨) .

اما الجاحظ المعتزلي ، الموسوعي . عالم بغداد والبصرة معاً ، والمكافح البارز في سبيل العروبة والاسلام ، فقد ابتداء كتابه المشهور « الحيوان » بدستور بليغ الدلالة في تقاليد البحث العلمي في المدرسة البغدادية الرائدة في العلم والثقافة العالمية . وكل مدرسة عربية - إسلامية احدثت حديثها . او طورت تقاليدها . فيما بعد (كمدرسة ابن رشد وابن باجة) ومدرسة (ابن سينا) ومدرسة (ابن خلدون) . يقول الجاحظ :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً ، وبين الصدق سبباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينيك الانصاف . واذا فك حلاوة التقوى ، وأشمر قلبك عز الحق ، واودع صدرك البر واليقين . وطرده عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة ، وما في الجهل من القلة ... » (٢٦١) .

وجاء ابن الهيثم بذات الدستور ، ولكن بمصطلحه الخاص ، فقد صرح في مدخل كتابه (المناظر) ، بان هدفه في جميع مساعيه العلمية (استعمال العدل لا اتباع الهوى) ، وانه يتوخى في كافة مقولاته وتجاربه (طلب الحق لا الميل مع الآراء) (٢٢٢) . وكان ابن الهيثم متواضعاً ، نصيراً فذا للحقيقة العلمية ، فقد ذكر عالم عربي مشهور يدعى البيهقي ، ان ابن الهيثم قال : « اذا وجدت كلاماً حسناً لفرك فلانتسبه الى نفسك واكتف باستفادتك منه » (٢٢٢) .

وانعكس الانتصار للحقيقة العلمية اولا وقبل كل شيء ، حتى في كتابات بعض علماء الحديث ، فقد اكد معاصرنا الباحث العربي ، قدرتي حافظ طوقان ، في كتابه المشهور « العلوم عند العرب » ، مثل ذلك ، حين قال : « وما دمنا في صدد

الإخلاص للحق وتوخي الحقيقة والدقة العلمية ، لابد لنا من الإشارة هنا الى الطرق التي اتبعها علماء الحديث في الوصول الى تمييز الحديث الموضوع من الحديث الصحيح . فقد وضع جماعة منهم طرقاً وقواعد للتوصل الى الحقيقة في الحديث « تتفق في جوهرها واتجاهها والأنظمة التي كشفها علماء اوربا فيما بعد في بناء على اليثودولوجية » وللقاضي (عياض) رسالة في علم المصطلح ، هي انفس ما صنف في مجموعها وقد سماها القاضي الى اعلى درجات العلم والتدقيق ، ويصترف الدكتور رستم بغضها ، فيقول : « ... وعلى الرغم من مرور سبعة قرون عليها ، فانه ليس بإمكان رجال التاريخ في اوربا وأمريكا ان يكتبوا احسن منها في بعض نواحيها . وان ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج تحت عنوان تحري الرواية والمجئ باللفظ بضاهي ادق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الافرنج في المانيا وفرنسا وأمريكا وانكثرتا .. » . وقد ثبت ان المسلك الذي اتبعه العرب في نقيبة الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه ، قد اثر الى حد في اساليب العلماء ، إذ ابان لهم اهمية اتباع الطرق التي تؤدي الى الحق ، كما اوضح لهم منهاجاً دقيقاً للسبر بموجبه للتوصل الى الحقيقة والى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال ، وكذلك كان للأساليب التي اتبعها علماء الحديث فضل كبير على التاريخ . واصبحت القواعد التي ساروا عليها في تحري الحقيقة هي الممول عليها لدى المؤرخين المعاصرين ومحل تقديرهم واعجابهم » (٢٤٤) .

وربما يبدو طوقان مبالغاً ، ولكن الوقائع التاريخية تؤيد دعواه ، فقد دفع بعض علماء الحديث ، والتكلمين ، والفلاسفة ، والمناطقة ، ضرائب ثقيلة في غمرات مساعيم في سبيل الحقيقة العلمية . وانعدل ، والصدق ، والأصالة .

٤ - تغليب سلطان العقل والاستهزاء بالحكمة العقلية :

إن مما يتصل أوثق الاتصال بالقومات الثلاثة المنهجية والتقاليد العلمية للمدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي (وهي ما سبق ان اشرنا اليه ، التجربة والتجريب ، ومشايبة العلم وديمقراطيته ، وابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية) هو الانصياع الى سلطان العقل الانساني وإرادته ، والاستشهاد بمعطيات المحاكمة العقلية . وفي هذا إعلاء ، ولا شك ، لسان الانسان ، وعقله ، وإرادته ، وتغليب لها ، على ارادة كل القوى

الخارجية ، بما فيها قوى السلطة الفاشمة ، والاستبداد ، والخرافة ، والفتيات .

ولعل من تحصيل الحاصل ان يؤمن علماء المدرسة البغدادية العربية - الاسلامية في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، بالعقل ، والتنوير ، والشك ، والمحاكمة العقلية ، والتمحيص . فان كل هذه القوميات الاربعة التي اشرفنا اليها (اي مضافاً اليها الايمان بالعقل) مترابطة جدلياً ، ملتحمة عفوياً إذ صبح التعبير ، يؤدي احدهما الى الاخر ، ويشترط احدهما الاخر ، ويتكامل الواحد منهما بالآخر . فالتجربة والتجريب يحد ذاته هو تغليب لسلطان العقل ، وابتغاء الحقيقة العلمية بعيداً عن التعصب والاهواء هو من صلب مايقول به العقليون المسلمون وغير المسلمين ، ومثل ذلك القول بمشاعية العلم وديمقراطيته .

إن العقليين العرب كانوا رائدين افذاذاً ، وقد شقوا الطريق لغيرهم من عقلي اوروبا . ويشير الفيلسوف جون لويس ، كما يشير المستشرق السوفييتي البارز : براغينكي الى ريادية عقلي الشرق ، والحضارة العربية - الاسلامية ، والمدرسة البغدادية في هذه الحضارة ، بصفة خاصة . وليس هنا مجال التفصيل في كل هذا ، فهو موضوع ينبغي ان يوفى حقه من البحث والتدقيق ، لانه يجلو اسوراً كثيرة : غطت حق الشرق العربي - الاسلامي ، فيما اعلى شأن اليونان ، وعقلي اوروبا المتأخرين ، دون وجه حق . إن كل ذلك مرتبط ، ولا شك بمفردة التفوق الأوروبية ، التي تغذيها الدعاية الامبريالية ، والعنصرية والفاشية والصهيونية .

لقد ولدت العقلية او العقلانية ، والانسانية في الشرق ، وفي احضان المعتزلة والراديكاليين العرب والمسلمين ، في صفوف مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي . ولم يستطع الغرب الأوربي المتأداة بذلك إلا في عصر النهضة : مقتبساً كثيراً من اصول دعوته من الحضارة الشرقية ، والعربية - الاسلامية ، بخاصة .

إن المستشرق السوفييتي غريغوريان قد اماط اللثام عن بعض هذه الامور في كتابه عن الفلسفة العربية - الاسلامية (الذي ترجمنا فصلاً منه لجلة « المورد » العدد الخاص بالفارابي) ، وجاء مستشرق سوفييتي آخر هو شيرويان (وكلا المستشرقين من ارمينيا السوفيتية) ، باضافة جدية في هذا الصدد . ويوالي كثير من المستشرقين والباحثين السوفييت (وغير السوفييت في المعسكر

الاشتراكي وسواه) بحث هذه الموضوعة الحضارية الهامة .

إن معاصرنا ، الباحث العربي الذي اكثرنا استشارته ، بصفته مختصاً في بحث اصول البحث العلمي ، والعلوم عند العرب ، فدري حافظ طوقان . يدلي بدونه . ويقدم كثيراً مما هو مفيد وقيم ، حقاً ، في هذا الخصوص . لقد ألف عدة كتب يكمل احدها الاخر ، وان كانت بعض الموضوعات والمضامين تتكرر فيها (وليس دون جدوى) . ان كتبه الاربعة :

- (العلوم عند العرب . سلسلة الالف كتاب ، القاهرة) .
- و (مقام العقل عند العرب) : دار القدس . بيروت) ،
- و (الخالدون العرب) ، دار القدس ، بيروت) ،
- و (تراث العرب العلمي في الرياضيات وانفلك : دار القلم ، القاهرة) ،

قيمة تعالج كثيراً من المشكلات ، والموضوعات الحضارية والثقافية العربية - الاسلامية في عصر العرب الذهبي ، والمصور التي تلتها وهي لازمة . لاغنى عنها لكل باحث في الحضارة العربية - الاسلامية ، ومدرستها البغدادية .

ان كتاب (الاسلام والحضارة العربية) لمحمد كرد علي ، لا يرقى ، على صعيد العطاء ، الى مستوى كتب طوقان ، ولعل مصادره التي استشارها ، والفترة المبكرة التي جرى تأليفه فيها ، اضافة الى منطلقات ومنهجية المؤلف ذاته ، قد اضعفت ، في مجموعها ، نسبياً من مردود الكتاب الفكري والعلمي ، قياساً الى كتب طوقان .

يفصل طوقان في كتابه القيم (مقام العقل عند العرب) في اصول العقلية والدعوة العقلانية او المذهب العقلاني لدى العرب ، وفي الدين الاسلامي عموماً . ومن هذا التفصيل نفهم ان جذور المدرسة العقلية المعتزلية ، في المدرسة البغدادية في العلم والثقافة والبحث العلمي ، تمتد الى عقلية العربي نفسه ، والى اصول الدعوة الاسلامية ذاتها .

ويسوق طوقان كثيراً من الايات القرآنية في التذليل على المقام الكبير للعقل في الدعوة الاسلامية . وهكذا ، فان العقليين العرب والمسلمين ، من

المعتزلة وغيرهم ، في العصر العباسي الاول (عصر العرب الذهبي) ، كانوا يركزون إلى خلفية غنية من أصول العقلانية ، خصوصا أيام الدعوة الإسلامية الأولى ، وإيام الخلفاء الراشدين .

إن طوقان على مطلق الصواب ، في تاييده . في تضعيف هذا الكتاب ، (في فصل : الاجتهاد في الاسلام) ، على ان صاحب الدعوة الإسلامية . محمدا ، نفسه ، كان قد وقف بجانب الاجتهاد رافعا الشعار (اجتهدوا) فكل ميسر لما خلق له) . وتاييده ان « سد باب الاجتهاد وانتمسك بالتقليد الأعمى » هو من جملة اسباب ما اصاب العرب والمسلمين من تأخر ونكبات . ويقف طوقان مع جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، والمصلحين الإسلاميين في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وينقل نصا للأفغاني يقول : « ما معنى ان باب الاجتهاد مسدود ؟ ... وبأي نص سد ؟ ومن قال لا يصح لمن يعدي ان يجتهد ليتفقه في الدين ويهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم الحديثة وحاجات الزمن واحكامه ؟ إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا . ولكن لا يصح ان نعتقد أنهم احاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » (٢٥) .

وإذا ما عدنا إلى العصر الذهبي للخلافة العربية ، نعني العصر العباسي الاول ، وازدهار المدرسة البغدادية في العلم والثقافة والبحث العلمي ، فاننا نسجد ان هذا العصر كان رائدا حقا في إعلاء شأن العقل والعقلانية والاجتهاد وحرية الرأي .

وحسبنا نقرأ ما كتبه طوقان ، بهذا الخصوص ، في كتابه « العلوم عند العرب » ، نطلع على الانجازات الرائعة ، الرائدة ، حقا ، للتقدم الحضاري الانساني ، لبغداد العصر الذهبي في الفكر والثقافة والبحث العلمي .

يقول طوقان : « سار المعتزلة في أسلوبهم على اساس العقل - وكان العقل مقياسهم - وهذا ما جرد كتاباتهم وآراءهم من الأساطير الخرافية ، وفي أقوال بعض المتكلمين من المعتزلة نجد ما يدل على أنهم قد وضعوا الأسس التي بنى عليها - فيما بعد (علم البحث والمناظرة) . روى الاصفهاني قال : « ... اجتمع متكلمان فقال أحدهما : هل لك في المناظرة ؟ فقال على شرائط الا تغضب ، ولا تعجب ،

ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيري وأنا اكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تجوز لنفسك تاويل مثلها على مذهبي ، وعلى ان تؤثر التصادق ، وتنفاد للتعارف ، وعلى ان كلامنا يبقى مناظرته على ان الحق ضالته والرشد غايته ... اليس في هذه الأقوال الجامعة ما يتجلى انروح العلمي الصحيح الذي كان له اكبر الأثر في أسلوب الكثيرين من الفلاسفة والعلماء مما جعل هؤلاء يتوخون في كتاباتهم الحقيقية ، والوصول إلى الحق ، وبلجاون ، في سبيل ذلك إلى السير على اساس علمي دقيق . لقد سار النظام (وهو ذو عقلية قوية سابقة لزمانها) كما يقول الاستاذ احمد أمين - في كتاباته عن الشك والتجربة . وهما الركبان اللذان سببا النهضة الحديثة في أوروبا ، فاعتبر الشك أساسا للبحث . وقد قال في هذا الشأن : «الشك اقرب إليك من الجاحد . ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك . ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك ... » . وعلى ذكر الشك ، نذكر قولاً لأبي هاشم البصري وهو (الشك ضروري لكل معرفة) . واستخدم انظمام التجربة كما يستخدمها الآن الطبيعي والكيميائي في مختبره . وجاء في كتاب الحيوان الجاحظ ، ذكر تجارب كثيرة للنظام في الحيوان وغير الحيوان لا يتسع المجال لعرضها . وقد عرضناها بشيء من التفصيل في بعض مؤلفاتنا . وهذه التجارب هي أمثلة على البحث العلمي والتجربة الصحيحة القائمة على الدقة والمنطق . ووضع النظام منهجا بديما للدرس ، فهو يتقدم من يسير في تعلمه على طريقة حشو المعلومات في الذهن ، وانه ينبغي على طالب العلم ان يتخير من الكتب الجيد المتتمى ، لان العلم ليس في جمع الكتب وحفظ ما فيها وإنما هو بالتعمق . وجاء الجاحظ بعد النظام ، وسار على غراره في منهج البحث وتحرير العقل وفي الشك والتجربة قبل الايمان واليقين . قال الجاحظ : « تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن الا تعرف التوقف ثم الثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه .. » . ويأتي بعد ذلك التفریق بين العوام والخواص . لانهم لا يتوقفون في التصديق ولا يرتابون بانفسهم ، فليس عندهم إلا الأقدام على التصديق المجرّد أو على التكليل المجرّد . قال سلطان العقل ، لا يسلم بشيء إلا اذا استساغه العقل ، فلا ادب عنده خاضع للنقد ، وكذلك فلسفة أرسطو ، وغيره من فلاسفة اليونان . حتى الحديث نقده ، ولم يقبل الاخذ به إلا على اساس العقل . واذا اختلف

وحال البحر دوننا ودونه ... وبه لنا الطب الذي فيه الكثير من مصالح اجسادنا وسائر انصاعات العائدة علينا النافعة لنا . وبه ادركنا الامور النافضة البعيدة عنا والخفية المستورة عنا ... وبه عرفنا شكل الارض وانفلك ، وعظم الشمس والقمر ، وسائق الكواكب وابعادها وحركاتها ... « (٢٨) .

« ... وبالعقل وصلنا الى معرفة الباري عز وجل الذي هو اعظم ما استدركتنا وانفع ما اصننا ... وبالجملة ، فانه الشيء الذي لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والاطفال والمجانين .. والذي به تتصور افعالنا العقلية قبل ظهورها للحس » (٢٩) .

« ... واذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلاله فحقق علينا ان لا نحطه عن رتبته ، ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله - وهو الحاكم - محكوماً عليه ، ولا - وهو الزمام - مزموماً ، ولا - وهو المتبوع - تابعاً ، بل نرجع في الامور اليه ونعتبرها به ونعتمد بها عليه ... فمضيتها على امضائه ، ونوقفها على إيقافه ، ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ومكدره والحائد به عن سنته ومحجته ، وقصده واستقامته ، والمانع من ان يبدى به العاقل رشده وما فيه صلاح عواقب امره ، بل نروضه ونذله ونحمله ونجيره على الوقوف عند امره ونهيه . فانا ان فعلنا ذلك صفا لنا غاية صفاته ، وارضاء لنا غاية ارضاءه ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به ، وكنا سعداء بما وهب الله لنا منه ومن علينا به ... » (٤٠) .

واذا كان الرازي يقول مثل هذه المقولات ذات الدلالة العميقة في الانتصار للعقل ، وحرية الرأي ، والاجتهاد ، فيجعل العقل حاكماً وزماماً ، ومتبوعاً ، وبراساً ، فان تلامذة آخرين للمدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي يرددون مقولات الرازي بمقولات أخرى ليست اقل أهمية او اضعاف دلالة . فالفارابي يكرس رسالة خاصة ، بل يبني مدينته الفاضلة على العقل النقدي الواعي وبه (٢١) ، وابن سينا يمجّد العقل في كافة مؤلفاته الفلسفية ، والعلمية . و « القصصية » (بما فيها « حي بن يقظان » ، و « قصة سلامان و ايسال » ، و « قصة رسالة الطير ») (٢٢) ، و ابو العلاء المعري يترجم كثيراً من تعاليم المعتزلة ، والمدرسة البغدادية ، والحركات

الناس فالحكم للعقل لا لغيره . ومن يطلع على كتابه الشهير (الحيوان) يتبين له صحة ما ذهبنا اليه ، وانه هاجم رجال الحديث ، لانهم على رايه جماعون لا يشغلون عقولهم . وقد قال عنهم : « ولو كانوا يروون الامور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤونة ، ولكن اكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصرنا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الاخبار عن البرهان ... » . وفي هذا الكتاب دقة الملاحظة والتمحيص ، فهو يلجأ الى التجربة ليتحقق من صحة نظرية او راي من الآراء . يجرب بنفسه في الحيوان والنبات ، ويشك ويستمر في الشك ، بل ويدعو اليه حتى تثبت صحة النظريات والآراء . وكان يفضل التجربة على كل نقل ، ولا يأخذ بقول أحد حتى يتحقق من ذلك بنفسه ، والامثلة على ذلك عديدة في كتاب الحيوان . وكان يجري في تفسيره للظواهر والطبائع حسب المعقول وطبائع الاشياء . و ابان صراحة بان العقل الصحيح يجب ان يكون اساساً من اساس التشريع » (٢٦) .

ان مما يدعّم طوقان ، وزملاءه في هذا الانتصار لتقاليد ومنهجية البحث العلمي في عصر الازدهار العباسي النموذجي ، العصر العباسي الاول ، وعلو كعب المدرسة البغدادية في العلم والثقافة ، ان مما يدعّمهم هو سبيل لا ينضب من مقولات علماء بغداد ، والمدرسة البغدادية ، وتلامذتها في كل مكان ومختلف الازمان ، تقريباً ، في إعلاء سلطان العقل والاحتكام العقلي ، كسبيل اساس ، من بين السبل الجوهرية التي لا يبدل لها ، نحو الحقيقة العلمية الموضوعية ، والكشف العلمي ، والفتوحات الفكرية .

فان الرازي ، شيخ العقليين من علماء المدرسة البغدادية ، والسائر على تقاليد المعتزلة العلمية وفي اطوارها الرحب ، يعقد فصلاً خاصاً ، من كتابه (الطب الروحاني) ، في فضل العقل ومدحه ، تقتطف منه هذه الاقتطفات ، الليفة والدلالة والمغزى :

« ... فبالعقل فضلنا على الحيوان - غير الناطق - حتى ملكناها وسنناها وذلناها وصرفناها في الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها ... وبالعقل ادركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل الى بفتينا ومرادنا ... » (٢٧) .

« ... فانا بالعقل ادركنا صناعة السفن واستعمالها ، حتى وصلنا بها الى ما قطع

الراديكالية الفكرية في الإسلام ، شعراً بليغاً ،
نتظف منه هذه الأبيات (٤٢) :

ايها العسر إن خصصت بعقل
فاسألنه فكل عقل نبي

كذب الظن لا إمام سوى
العقل مشيراً في صبحه والمساء

فاذا ما اطعته جلب الرحمة
عند المسير والأرساء

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

اللب قطب والأمور له رحي
فيه تدبر كلها وتدار

تفكر فقد حار هذا الدليل
وما يكشف النهج غير الفكر

فاحذر ولا تدع الأمور مضاعة
وانظر بقلب مفكر متبصر

فكروا في الأمور يكشف
لكم بعض الذين تجهلون بالتفكير

فشاور العقل واترك غيره هدرأ
فالعقل خير مشير ضمه النادي

عليك العقل وافعل ما رآه
جميلاً فهو مشتار الشوار

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه
فساد عقل صحيح هان ماصعبا

خذوا في سبيل العقل تهذوا بهديه
ولا يرجون غير المهيم راجي

إذا رجع الحصف إلى حجاه
تهاون بالمذاهب وازدراها

فخذ منها بما آداه لب
ولا يغمسك جهل في صراها

سألت منجمها عن الطفل الذي
في الهدى كم هو عائش من دهره

فأجابها مائة ليأخذ درهما
وأنى الحمام وليدها في شهره

بل إن هذا الشاعر الراديكالي المتطرف (٤٤)
يمضي في النهج العلمي حتى نهاية الشوط ، أحياناً
فيقول بما يقوله العديد من العلماء المعاصرين الآن :
انه لا يقين مطلق ، ولا إطلاق ، بل هو الاجتهاد .
وكل شيء نسبي :

أما اليقين فلا يقين وإنما
أقصى اجتهادي إن اظن واحداً

ولعل طوقان كان محقاً ، تماماً ، حين قرء ،
بخصوص اشعار أبي العلاء العفلاية الناقدة هذه ،
فقال : « ويرى أبو العلاء ان سبب الفساد في
مجتمعه يعود الى عدم الإصغاء الى العقل ، وإلى
إهماله وسيطرة المصالح الخاصة والأهواء . ولقد
تدبرنا عيوب المجتمع في القرن العشرين فوجدنا
انها لا تختلف كثيراً عن عيوب عصر أبي العلاء ،
والسبب في العائين وفي أسباب الفساد واحد -
هو عدم الرجوع الى العقل وغلبة الغايات
والأغراض » (٤٥) .

أما إخوان الصفا فاعتبروا العقل اشرف
الموجودات ، بل جعلوه رئيسهم وإمامهم الذي به
يؤمنون ويهتدون ، فهم يقولون :

- « واعلم انه ما من جماعة تجتمع على أمر من
أمور الدين والدنيا وتريد ان يجرى أمرها
على السداد ، وتكون سيرتها على الرشاد ،
إلا ولابد لها من رئيس يرأسها ليجمع شملها ،
ويحفظ نظام أمرها ، ويراعي تصرف
أحوالها ، ويرم على الانتشار جماعتها ،
ويمنع من الفساد صلاحها ، ذلك ان الرئيس
ايضاً لابد له من اصل يبنى عليه أمره ويحكم
به بينهم . وعلى ذلك الأمر يحفظ نظامهم -
ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة
إخواننا ، والحكم بيننا بالعقل الذي جعله
الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه ...
ورضينا بموجبات قضايا على الشرائط الذي
ذكرناها في رسالتنا وأوصينا بها إخواننا ..
فمن لم يرض بشرائط العقل وموجبات
قضاياها ، ولم يقبل تلك الشرائط التي
أوصينا بها إخواننا أو خرج عنها بعد
الدخول فيها ، فمقوبته في ذلك ان نخرج من
صداقته ونتبرأ من ولايته ولا نستعين به في
أمورنا ولا نعاشره في معاملتنا ولا نكلمه في
علوينا ونظوي دونه أسرارنا ونوصى بمجانبته
إخواننا ... » (٤٦) .

ومع ذلك ، فان طليعية أفكار إخوان الصفا
إنما تستمد أصولها من تعاليم مدرسة المعتزلة
البغدادية . فان طوقان يروي في كتابه (مقام العقل
عند العرب) ، الذي أسلفنا الإشارة إليه ان تمجيد
المعتزلة للعقل بلغ حداً « دفعهم الى محاولة إخضاع
النقل للعقل ، وتحوير العقائد الدينية بحيث توافق
التعاليم الفلسفية وقالوا : « اذا تعارض النقل
والعقل وجب تقديم العقل لانه أساس النقل » (٤٧)
وروى في موضع آخر ، من كتابه الانف ذكره ، ان

القول : إن احياء روح المعتزلة في اعزاز العقل وتجميده ، والرجوع اليه واعتباره الحكم والدليل - نقول إن احياء هذه الروح يوجد الجراءة ويفتح الأفاق أمام الفكر ويدفع الى أعمال العقل وتحريكه ، فلا تقوم مع هذه حركات رجعية ولا تنتج محاولات لايقاف مجرى التقدم . ذلك ان هذه المحاولات وتلك الحركات لا تثمر إلا في مجالات كبت الفكر وتجميده وتقديس التقليد «(٥١)» .

٥ - ملاحظة التنظير بالتطبيق :

إن الأنوم الخامس من افانيم منهجية وتقاليدي مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي هو - ملاحظة التنظير بالتطبيق ، أو الفكر انظري بالممارسة العملية . إن كافة هذه الافانيم : التجربة والتجريب ، مشاعية العلم وديمقراطيته ، ابتغاء الحقيقة الموضوعية ، الإيمان بالعقل والعقلانية وحرية الرأي ، وملاحظة النظر بالعمل (تتلاحم ، معاً ، مترافدة ، متكاملة ، لتكون صلب المنهجية والتقاليد التي عملت بها المدرسة البغدادية العلمية - الثقافية ، بهذه الدرجة أو تلك ، وبهذا الشكل أو ذلك .

إن جابر بن حيان اول ، وبرز من قال بوجود ملاحظة الفكر النظري بالممارسة العملية . فهو في كتاب الميزان - احد أقيم كتبه واخطرها - يقول :

« إن كل نظرية تحتمل التصديق والتكذيب لا يصح الأخذ بها إلا مع الدلائل القاطع » (٥٢) .

ويقول في كتاب آخر له . هو (كتاب الخواص الكبير) ، المقالة الاولى ، مقولة عظيمة المغزى ، بهذا الخصوص :

« إننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط ، دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه ، بعد ان امتحنناه وجربناه فما مسح أوردناه وما بطل رفضناه وما استخرجناه نحن أيضاً قايسناه على احوال هؤلاء القوم » (٥٣) .

كان جابر ، عالم بغداد المبرز ، يعرف ، جيداً ، العلاقة العضوية بين « انعلم » و « العمل » في العملية الكيميائية ، والفعالية العلمية ، و « الصناعة » . أي التكنولوجيا ، عموماً . فهو لا يوصي بالعمل للعمل ، أو التجريب للتجريب . بل يلاحم بينهما بذكاء ووعي ، فكل « صناعة » في رأيه « لابد لها من سبق العلم في طلبها للعمل ، لأن

أبا هذيل العلاف ، أحد أبرز رجال المعتزلة (واصل بن عطاء ، وعمر بن عبيد) ، وكان يقول : « إن الانسان مكلف بالأشياء التي يستطيع العقل التمييز فيها بين الخير والشر ولو لم تصل إليه أوامر الشرع ، وإن قصر في ذلك استوجب العقوبة فيجب عليه الصدق والعدل والأعراض عن الكذب والجور ولو لم يصله شرع في ذلك لان العقل يستطيع ان يدرك حسنها وقبحها لما فيها من صفات حسنة أو قبيحة » (٤٨) .

وقد درس الباحثون العرب المعاصرون وغيرهم تعاليم المعتزلة ، إلا أنهم لم يفوها حقها ، فلا زال المجال متسعاً لكثير من الدراسات الميدانية المدققة .

وقد روى طوقان ان الباحث العربي المعاصر شفيق جبري قارن تعاليم الجاحظ بديكارت ، ووجده - وهو محق في ذلك - رائداً للشك سبيلاً للوصول الى يقين المعرفة ، وقال في ذلك : « ... فالأدلة والبراهين من أعمال العقل ، وهذه الطريقة إنما هي طريقة ديكارت ملاكها العقل ومدار طريقته على هذه الكلمة : لا تصدق إلا ما كان واضحاً . صدق ما كان واضحاً » . فانوضح إنما هو أصل الأمر في اليقين . فما ينفي لقوة من القوى الظاهرة ان يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا . وما بالقوى الظاهرة إلا السلطة والأوهام والمصلحة والأحزاب ... فما أشبه قول ديكارت لا تصدق إلا ما كان واضحاً بقول الجاحظ « لا أجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبت الأدلة » (٤٩) .

وفيما يبدو ، فان كلا من طوقان ، وشفيق جبري ، على حق ، فان الجاحظ كان إماماً من أئمة العقليين العرب ، واحد أكبر رادة العقليين في العالم ، وحسيناً ان نشر (إضافة الى ما أسلفنا الإشارة إليه من مقولاته) الى هذه المقولة الجاحظية الحاسمة :

« فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل . ولأموار حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن العقل . والعقل هو الحجة » (٥٠) .

ولعل طوقان مصيب في فذلكته . حين قرن التراث التقدمي عند العرب والمسلمين بالمعاصرة ، مستنتجاً مثل هذا الاستنتاج البليغ ، الذي نقتطفه بنصه :

« والان ... وقد أشرف موضوع (سلطان العقل عند المعتزلة) على ختامه لابد لنا من

انعمل إنما هو إبراز ما في العلم من قوة الصانع الى المادة المصنوعة لا غير « (٥٤) .

وأوصى جابر بمراعاة الفوائن الموضوعية ، وباحترام الواقع والمواقف المادية . والنحقات الملموسة ، فان « جهل النجاهل بأمر من الأمور ليس سببا لارتفاع ذلك الأمر من العالم ، فانه ليس لان كثيرا من الناس لم يسمعوا ولم يعرفوا كيف السبب في أمور ، فاذن لا يكون لهذه وجود فيكون جهل النجاهل سببا لعدم الشيء الكائن فان هذا جهل واول في العقل « (٥٥) .

وبالطبع ، كان جابر لا يتلهى بالتجربة والعمل ، بل هو يقوم بذلك ، ضرورة ، وتطبيقا لافكار ونظريات سابقة ، فالتنظر أولا ، والعمل انيا . وهو يقول في ذلك :

« انعلم سابق . وكل من لم يسبق الى العلم لم يمكنه إتيان العمل . وذلك لان العمل إنما تبرز الصورة في المادة على قدر ما تقدم من العلم ، وإلا فعمال العمل ياليت شعري « (٥٦) .

إن جابر ، ومن ورائه مدرسة بغداد العلمية . كلها ، ضد العشوائية والاهدار . فالتطبيق هو اختبار لفروض ونظريات ، ولكنه ، أيضا ، ضد احتقار العمل اليدوي . والاستنكاف عن الممارسة (كما كان يفعل علماء اليونان) . من هنا تنطلق نصيحة جابر بن حيان مجسدا في ذلك طليعية وريادية المدرسة البغدادية العلمية ، الى الكيميائي : « اتعب أولا تعباً واحداً ، وانظر واعلم ثم اعمل - فانك لاتصل اولا - ثم تصل الى ما تريد « (٥٧) .

هكذا ، إذن ، « انظر واعلم ثم اعمل » ، هذا هو شعار جابر ، وعلماء بغداد . مركز العلم والثقافة العلمية ، في عصرها ، بحق .

إن العالم في العلوم الطبيعية ينبغي ان يقيم في المختبر ، وبذلك يكون التطبيق لفروضه ونظرياته ، كما يكون الربط العلوم النظرية بالتكنولوجيا . هذا هو ما انتهى اليه علم جابر ، والعلماء البغداديين ، والعلماء الذين سيتعلمون على ايديهم وعلى كتبهم وتعاليمهم ، في الاجيال والعصور اللاحقة . يقول جابر في ذلك :

« من كان دربا كان عالما حقا ومن لم يكن دربا لم يكن عالما ، وحسبك بالدرجة في جميع الصناعات إن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل « (٥٨) .

ومؤدى ما يقوله جابر ، ان النظرية بسلا

تطبيق ، والفكر بلا ممارسة ، امر عقيم ، مثلما يكون التطبيق او التجربة دون نظرية امر عفيما ، واهدارا ، هو الآخر ، وهذا بهينه ما يقوله علماء اليوم ، سواء كان ذلك في العلوم الطبيعية ، ام العلوم عامة ، ام السياسة ، والعلوم الادارية ، والاجتماعية ، جميعا .

إن النظريين من ارسطوطني الفكر . على الطريقة اليونانية . ممن يستنكفون عن الممارسة والعمل اليدوي والاختبار ، يظنون قاصرين ، محبطين ، ويكون انتفاع المجتمع بهم معدوما او كالمردوم . يقول جابر . ملخصا : بعض معطيات احياة العلمية وجدليتها :

« كم من دارس إذا بلغ الى العمل وقف ، فيكون اصحاب الصناعة انفذ في ذلك الامر من العالم الفائق « (٥٩) .

كما يقول ، على صعيد آخر ، متمما مقولاته هذه :

« ما افتخرت الحكماء بكثرة انعاقير ، وانما افتخرت بجودة التدبير . فمليك بالرفق والثاني وترك العجلة » .

نقد كان جابر بن حيان . والجاحظ ، والرازي ، وسواهم من علماء مدرسة بغداد انعمية ذوي منهجية علمية متكاملة ، نسبة الى عصرهم . ورائدين أفاذا في علومهم وتجاربهم ، وفي فلسفة علومهم أيضا . يصف جابر منهجه فيقول قولا ذا دلالة بليغة :

« ... وقد علمته بيدي وعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صحح وامتحنته فما كذب « (٦٠) .

هذا هو دستور جابر : فظر وعمل .

فصل بين الاثنين ، ولا تغليب لاحدهما على الاخر إنها جدلية العلم والعمل الذي اتت بها مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي . وكانت رائدة فيها ، سابقة لكافة المدارس الاوربية اللاحقة .

ومن المهم ان ننقل الاستنتاجات التي تطلع بها اخلاف جابر بن حيان وعلماء المدرسة البغدادية ، نفي - علماء العرب المعاصرين ، من دراستهم لجابر ومعطيات علومه . يقول زكي نجيب محمود ، في كتابه « جابر بن حيان » : « إن من حق جابر ان نسجل له ، في موضوع الاستفراء ، وانه يؤدي الى الحكم الاحتمالي

ان التجريب ، وربط النظر بالعمل لدى جابرس
يخضع لضوابط صارمة ، وهاك مثلاً لما يقوله
جابر متمماً مقولاته السابقة :

« إياك ان تجرب او تعمل حتى تعلم ويحق
ان تعرف البيان من اوله الى آخره بجميع
تفقيته وعلله ثم تقصد لتجرب » (١١٧) .

وينضم الى جابر ، على هذا الصعيد ،
الجاحظ معلم العقل والأدب ، عالم بغداد المعتزلي
الكبير ، وخصوصاً في كتابه الشهير « الحيوان » .

فان الجاحظ يجابه زعماء المدرسة الفكرية
اليونانية ، من أرسطراطي الفكر النظري ، أمثال
أرسطو ، ويساجلهم ، ويحاوهم ، و «قاتلهم»
بكل فنون المقاتلة ، بما في ذلك التهمك والسخرية
المنبئة على المحاكمة العقلية . ان الجاحظ يأخذ على
هؤلاء (رغم جلالهم العلمي وسبقهم وفضلهم)
ولوعهم النظري ، واستبدادهم عن التجربة ،
والعمل ، مما يضع مقولاتهم موضع الأحكام
الاعتباطية ، بل يضع بعضها في مصاف الخرافة ،
والمستحيل .

يطلق الجاحظ على مزاعم أرسطو في « ان
اصنافاً من السباع المزوجات التلاقيات ، مع
اختلاف الجنس والصورة ، معروفة النتاج » ،
فيقول مقولته ذات دلالة بليغة ، مشدداً على
ضرورة اقتران النظر بالعمل ، وجعل التطبيق
(التجربة) المحك الأمثل للنظريات :

« وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق مسن
قبل ، وما نظن بمثله ان يخلد على نفسه في
الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا
يعرف صدقها أشباهه من العلماء ، وما
عندنا في معرفة ما ادعى الا هذا القول » (١١٧)

على ان الجاحظ الناقد العلمي يواجه
أرسطو (وهو « المعلم الأول ») بالسخرية لأنه
يزعم شيئاً هو خرافة أو كالتخرافة ، ولا يمكن
للجاحظ ، وهو العالم التجريبي البغدادي ، الذي
يقدم التجربة والاحتكام والعقل والتطبيق على كل
شيء ، ان يتقبل مثل هذه الخرافة . فإرسطو
زعم ان ثورا الفح فور إخصائه ، فتناول الجاحظ
هذا الزعم ، بجديته الثابتة :

« فاذا افطر المديح ، وخرج من المقدار ،
او افطر التعجيب ، وخرج من المقدار ،
احتاج صاحبه الى ان يشبهه بالعميان ، او
بالخير الذي لا يكذب فعله وإلا فقد تعرض
للتكذيب » (١١٨) .

فقط ، دون اليقين ، سبقاً لرجال المنهج العلمي
في العصور الحديثة الذين أوشكوا اليوم ، منذ
ديفيد هيوم ، ان يكونوا على اجماع في هذا حتى
اصبح من أبرز الخصائص التي تميز العلم اليوم
انه احتمالي التناجح ما دام قائماً على أسس
استقرائية » (١١٦) .

اما مصطفى لبيب ، دارس جابر وعلماء
المدرسة البغدادية في الكيمياء وتلامذتهم ، عموماً ،
فانه يسجل جابر « في ميدان الاهتمام بالبحث
التجريبي وتفصيل شروطه وتحديد إمكانياته
ومناه سبقاً لاعلام البحث وفلسفة العلم في أوروبا
وسبقاً للمحدثين والمعاصرين المهتمين بمفاهيم
البحث والقياس الكمي في العلوم الطبيعية » (١١٦) .

كما يسجل الباحث لجابر ، طليعة ونتاج
مدرسة بغداد العلمية ، في ان واحد معاً ،
تواضعه ، تواضع العلماء الحقيقيين ، وتقديره
حرية الرأي والكلمة ، وولعه بالمنظرة في سبيل
الانقاع . فقد قال جابر في كتاب البحث وهو
يستعرض نظرية الميزان :

« انا نحن قد اخترنا لانفسنا نوعاً من
الأوزان ممن اخترنا ان يعمل به فهو له وان
اخترنا ان يرسم لنفسه رسماً آخر فذلك
إليه . وليس ترتيبنا لذلك أمراً -
لا بد منه بل ذلك لكل احد إذا علم القياس
بين أفعال الطبايع يرتبه على اختياره كيف
ما شاء » (١١٦) .

ويقول باحثنا في الختام « ان العالم المنصف
في رأي (جابر) - « إذا ذكر شيئاً احتج عليه وله
وأخذ حقه من خصومه ووفاهم حقهم وإلا فقد
وقع العناد حماقة وجهلاً » (١١٦) . . . ولم يكن
جابر عالماً محققاً فحسب بل كان فيلسوفاً للعلم ،
وكان بالإضافة الى ذلك ذا نظرة جوانية عميقة
تقدر إمكانية النواق وتحترم حدود التجربة
المحسوسة ومع ذلك فهي تتطلع دائماً الى
« المساوراء » وتناهض كل دعوة قطعية
« دجماطيقية » ، ومن أبى ذلك لزمه ، على حد
تعبيره ، ان ينكر وجود أشياء كثيرة وهي
موجودة » (١١٥) .

ونعتقد ان مصطفى لبيب و طوقان
وأضراهما ممن درسوا جابراً بن حبان ، مثل
هذه الدراسة الموضوعية ، وانتهوا الى مثل هذه
الاستنتاجات (التي عرضنا لشيء منها) ، نعتقد
انهم مبرورون بالوقائع ، والأدلة المادية الملموسة .

واسلوب ابن الهيثم ، لكنه يحمل جوهرها عمومياً ،
استثنائياً .

فان ابن الهيثم وصف ، في كتاب (المناظر) ،
منهجه في البحث العلمي . والابداع الفكري . على
النحو الآتي :

« ... وبتدئ في البحث باستقراء
الموجودات ، وتصفح احوال المبصرات ،
ونميز خواص الجزئيات ، ولتلقط
باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار
وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من
كيفية الاحساس . ثم تترقى في البحث
والمفاهيم على التدرج والتدريب مع انتقاد
المفدمات وانتحفظ من الغلط في النتائج ،
ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه
وتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ،
وتتحرى في سائر ما نميزه ونتفقه طلب
الحق الذي يثلج الصدر ، ونصل بالتدرج
واللطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين ،
ويظهر مع التقد والتحفظ بالحقيقة التي
يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد
الشبهات ... وما نحن مع ذلك براء مما
هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية .
ولكننا نجهد بقدر ما هو لنا من القوة
الانسانية ... » (٧١) .

وفي ضوء مثل هذا « الدستور العملي » في
منهجية البحث العلمي ، لدى عالمنا ابن الهيثم ،
والتي وضعت اسسها المكيبة مدرسة المعتزلة
الفكرية في بغداد ، في مثل هذا انضواء يبدو ما
يقوله مصطفى نظيف ، الباحث المصري المعاصر ،
في منهجية ابن الهيثم ومساره البحثي ، ودلالته ،
وربنيه المعاصر ، مبرراً تمام التبرير :

« ... ان ابن الهيثم قد عمق تفكيره الى ما
هو ابعد غورا مما نزن اول وهلة ، فادرك
ما قال به من بعده (ماك) و (كارل بيرسون)
وغيرهما من فلاسفة العلم الحديثين في القرن
العشرين . ادرك الوضع الصحيح للنظرية
العلمية ، وادرك وظيفتها الحقة بالمعنى
الحديث ويمكن القول انه من نصوص اقوال
ابن الهيثم ، ان تفكيره اتجه الى الوجة التي
يتجه اليها التفكير العلمي الحديث ...
وانه ليس من الغلاة ايضاً القول انه قد
ادرك عن بنية الطريقة الحديثة في البحث
العلمي ، وادرك الاوضاع الصحيحة الى
تسمية الحقائق العلمية » (٧٢) .

ولا يلبث ان يضيف الى ذلك مفذلاً:
استنتاجه الحاسم :

« والصدور تضيق بالرد على اصحاب
النظر ، وتضيق بتصديق هذا انشكال » (٦٩)
تري ، هل كان هناك دستور للبحث العلمي
محدد لدى مدرسة بغداد العلمية ؟

لقد تحدثنا عن هذا الدستور ، مسمين
بعض مقولات علماء بغداد من العرب والمسلمين
فقرات في هذا الدستور العلمي . الا ان اخوان
الصفاء كفونا المؤونة . فظلموا علينا . منذ وقتهم
الرائد ذاك ، والسباق في كثير من المآثر العلمية
والبحثية والفكرية والفلسفية والمنطقية ، بشيء
يمكن تسميته دستوراً متكاملًا لمدرسة بغداد في
العلم والثقافة والبحث العلمي .

فقد جاء في إحدى رسائل اخوان الصفاء (٧٠) ،
ان هؤلاء الاخوان اوصوا باتباع الدستور الآتي في
البحث العلمي ، وهو منهج متكامل . بحد ذاته ،
رائد في كثير منه . إنها تسعة احكام ، كما وردت
في الجزء الأول :

السؤال الأول : هل هو ؟ يبحث عن وجدان
الشيء أو عدمه ، والجواب : نعم أو لا .

السؤال الثاني : ما هو ؟ يبحث عن حقيقة الشيء .

السؤال الثالث : كم هو ؟ يبحث في مقدار الشيء

السؤال الرابع : كيف هو ؟ يبحث عن صفة الشيء

السؤال الخامس : أي شيء هو ؟ يبحث عن
واحد من الجملة أو عن بعض من الكل .

السؤال السادس : أين هو ؟ يبحث عن مكان
الشيء أو رتبته .

السؤال السابع : متى هو ؟ يبحث عن زمان كون
الشيء .

السؤال الثامن : لم هو ؟ يبحث عن الشيء المعلوم

السؤال التاسع : من هو ؟ يبحث في التعريف
للشيء .

اما ابن الهيثم . تلميذ المدرسة العلمية
ابغدادية . فهو يتم مقولات اخوان الصفاء ،
فيقدم دستوراً عملياً ، يتفق ، في الجوهر ، مع
دستورهم ، ومع كل الدساتير العملية لعلماء
مدرسة بغداد الفكرية وامتداداتها (كجابر
والجاحظ والكندي والخوارزمي والرازي وثابت
بن قرة ، وابن سينا وتلامذته ، فيما بعد) ،
ويضيف شيئاً مهماً هو من خصوصيات منهج

وفد انضمت الى هذه الخزانه ، خزانه اخرى ، في الاصر العباسية اللاحقة، منها خزانه عضد الدولة البويهى ، وخزانه الوزير ابي نصر . التي يذكر ابن الجوزي بخصوصها « ... ان ابا نصر ابتاع في سنة ٣٨١ هجرية دارا بالكرخ ... وعمرها وببعضها وسماها « دار العلم » ، وحمل اليها كتب العلم من كل فن حتى بلغت اكثر من عشرة آلاف مجلد . وعمل لها فهرستا ، ووقف عليها الوقوف . ورد النظر في امورها ومراعاتها والاحتياط عليهما الى اربعة من كبار علماء بغداد » (٧٦) . ومن هذه الخزائن . ايضا ، خزانه اوزير ابي منصور بن فنه ، وخزانه ابي انحنس محمد بن هلال الصامي ، وخزانه اناصر لدين الله العباسي ، وخزانه المستنصر بالله « وهي الخزانه التي نقل منها فيما ذكره المؤرخون نحو (٨٠) الف كتاب الى خزانه المستنصرية » (٧٧) .

هل عرفت بغداد ، في حياتها العلمية المواره ، « الجامعة » ، بالمعنى المتعارف عليه . إضافة الى المراكز العلمية والثقافية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت من سمات العصر العباسي الاول ؟

إننا نجد الجواب الشافي ، عن هذا السؤال . لدى الاستاذ المرحوم ناجي معروف ، احد أبرز باحثي بغداد المعاصرين .

يقول ناجي معروف . في بحثه الذي اسهم به في كتاب « بغداد » . الذي اسلفنا الاشارة اليه :

« يمكننا ان نطلق لفظ « الجامعة » على آخر مرحلة وصلت اليها الدراسة عند المسلمين في العرون الوسطى ، إذا اردنا بانجامها المؤسسة العلمية التي تحتوي على عدد من الكليات والمعاهد والاقسام العلمية التي تحتوي على عدد من الكليات والمعاهد والاقسام العلمية ببيئاتها الخاصة بها ، ووسائل ايضاحها ، واموالها المرصدة لها ، وما تقوم به من بحوث وتحريات في مختلف ميادين المعرفة النظرية والتقاليد التي كانت تأخذ بها ... وقد ثبت لنا بعد تحريباتنا فيما انشاه المسلمون في بلادهم الواسعة من معاهد العلم ومن مدارس احادية وثنائية وثلاثية ورباعية ومن دور القرآن ، ودور العلم ، ومدارس للطب الخ .

ان المستنصرية ببغداد ، كانت اول جامعة عراقية بل اول جامعة اسلامية في العالم الاسلامي ،

اما قدرتي طوقان فقد ذهب الى ان ابن الهيثم ، تلميذ المدرسة البغدادية ، قد كان سابقاً فدا في الطريقة الاستقرائية العلمية ، فهو يقول : « ... وابن الهيثم في طريقته العلمية التي اتبعها في بحوثه وكشوفه الضوئية قد سبق بيكون في طريقته الاستقرائية ، وفوق ذلك سما عليه « (٧٣) ، وكان اوسع منه افقاً واعمق تفكيراً » (٧٤) .

- ٤ -

فلنلق نظرة خاصة ، الآن ، على مراكز بغداد العلمية والثقافية والفكرية ، التي اهلتها لإنجازاتها الضخمة ، الفريدة في عصرها ، والرائدة بالنسبة للزمان والعصور التي تلتها .

إن المنهجية والتقاليد العلمية التي طلعت بها المدرسة البغدادية في الفكر والنفاة والبحث العلمي ، في العصر العباسي الاول ، كان لا بد ان تتبلور في مراكز علمية وثقافية . واذا ما انعمنا اننظر في جامعة بغداد « المستنصرية » ، وفي انظمتها وبحوثها وجودها العلمية ، فاننا سنجد انها تطوير لجهود علماء المدرسة البغدادية ومراكزها العلمية والثقافية . لقد وضع الرشيد ، والمامون ، وبخاصة ، حجر الاساس للصرح العلمي والثقافي في بغداد ، وهو الصرح الذي سيتوج ، في قمته ، بالجامعة المستنصرية ، والبشرية ، والعصمية ، والسعودية .

إن دار الحكمة ، ومراكز الترجمة ، والحلقات والمدارس العلمية والفكرية المبثوثة في زوايا بغداد ، والكوفة ، والبصرة ، كانت ، ولا شك ، اصولا لجامعة المستنصرية ، فيما بعد . ومراسد بغداد الفلكية ، وسواها من مراسد الحواضر العربية والاسلامية .

فقد كانت (دار الحكمة) او (خزانه الحكمة) او (بيت الحكمة) ، خزانه للرشيد والمامون ، الخليفين المرينيين اللذين اسسا امجاد ومآثر عصر العرب الذهبي ، العصر العباسي الاول . وكانت هذه الدار حافلة بالخزان ، والكتاب ، والترجمين اللامعين : « امثال بني موسى بن شاكر المنجم ، وهم ثلاثة إخوة : محمد واحمد والحسن ، ثم يحيى بن ابي منصور المنجم الماموني ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون الكاتب ، وحنين بن اسحق المبادي ، وابنه اسحق ، وابن اخته جيش بن الحسن الاسم ، وثابت بن قره : وعمر بن الفرخان الطبري » (٧٥) .

كما تبين لنا من دراسة الجامعات الأوربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين وما بعدهما أنها قد سبقت كل الجامعات الأوربية أيضاً .

« وقد جعل المستنصر لمدرسته هذه ميزة أخرى على المدارس الإسلامية . وذلك أنه شرط أن يضاف إلى مدرستي الفقه والطب . فيما ذكر ابن الساعي . داران آخران لعلين مهمين من علوم الشريعة الإسلامية : أولهما ، دار القرآن ، والثانية دار السنة . وبذلك يمكننا أن نقول : أن المستنصر بالله أول خليفة في العالم الإسلامي . جمع في آن واحد المذاهب الفقهية الأربعة وعلوم القرآن . وائسنة النبوية . وعلم الطب ، والعربية . والرياضيات : والفرائض ... وجعلها في مكان واحد يتألف من مبان عديدة منضامة ، أو متجاورة ، أطلق عليها اسم (المستنصرية) بعضها باق . وبعضها درس . وعض عليه الزمن . ولم تكن المدارس قبل المستنصرية كذلك . فقد كانت مدارس الطب تنسى مستقلة عن مدارس الفقه . أو دور الحديث . أو دور القرآن . كالبيمارستان العسدي بإجانب المغربي سن بغداد ، ومدرسة الطب التي أنشأها أبو المظفر بانكين بالبصرة سنة ٦٢٩ هجرية في خلافة المستنصر ، ومدارس الطب في دمشق ، كالمدرسة الدخوارية سنة ٥٦٥ هجرية . واللودية سنة ٦٦٤ هجرية ، والرابعة سنة ٦٨٦ هجرية ... » (٧٨) .

ويشير ناجي معروف إلى ميزات أخرى امتازت بها المستنصرية هي « تعيين المشاهرات النقدية ، وإجراء الجرايات العينية الدارة يومياً على أرباب المستنصرية من فقهاء وطلاب . ومدرسين ، وموظفين ومستخدمين ، وكانوا نحو خمسمئة شخص (٧٩) ، و « تأسيس حمام في المستنصرية رتبته المستنصر بالله لجميع أرباب المشاهرات ، ويدخلون إليه متى احتاجوا ، وفيه من يقوم بخدمتهم ، « وهو أمر لم يسبق إليه » . كما يقول أحمد بن عبدالله البغدادي في كتابه (عيون أخبار الأعيان) « (٨٠) .

ومن كل هذا يتضح أن المستنصرية كانت ، بالفعل ، أول جامعة عربية - إسلامية في الشرق ، بل وفي العالم ، أيضاً ، وأن ما كان فيها من أنظمة ،

وامتيازات ، وميزات ، جعلها ، بالفعل ، جامعة حقيقية . وتلك ، مائة كبرى أخرى من مآثر مدرسة بغداد العلمية ، الثقافية ، كان لها امتداداتها وتأثيراتها اللاحقة ، في إنشاء جامعات إسلامية أخرى ، كالجامع الأزهر الذي أنشأه الغاطميون في القاهرة وجامعة القيروان في تونس ، وعديد من الجامعات الأندلسية . ولعله من المفيد أن نشير - مرة أخرى - إلى ما كتبه ناجي معروف ، استطراداً ، بصفته المصدر المعاصر الوحيد حتى الآن (مما تيسر بين يدينا) في الحديث عن المستنصرية . يقول ناجي معروف :

« ولما كانت بغداد قد سبقت جميع البلاد العربية والإسلامية ، وسنت لها بناء المدارس الرباعية على المذاهب الأربعة ، فقد تتبعنا أخبار المدارس في البلاد الإسلامية التي انتشرت فيها المذاهب الفقهية ، فوجدنا أن بغداد احتوت على أربع جامعات . كما وجدنا أن مصر أول بلد عربي حدا حدو بغداد ، حيث أنشأت فيه أول مدرسة على المذاهب الأربعة ، بعد عشر سنوات من افتتاح المستنصرية . وتكاثرت هذه المدارس بالقاهرة حتى أننا عثرنا على أخبار سبع جامعات فيها . وكانت حلب البلد العربي الثالث الذي أنشأت فيه مدرسة واحدة على المذاهب الأربعة بعد مضي أكثر من قرن من الزمن على افتتاح المستنصرية . وكانت مكة البلد العربي الرابع الذي أنشأت فيه ثلاث مدارس رباعية في القرن التاسع الهجري » (٨١) .

إن المدارس (الجامعات) البغدادية الأربع هي ، على حد ما يقول الأستاذ ناجي معروف : المستنصرية ، والبشرية ، والعصمتية ، والسعودية . فاما المستنصرية فقد جرى الحديث عنها ، وأما البشرية فهي ، وفقاً لما يقوله الأستاذ معروف ، أيضاً ، كانت قد استقت اسمها من السيدة « باب بشر » : زوجة الخليفة العباسي المستعصم . وأما العصمتية (٦٧١ هجرية - ١٢٧٢ ميلادية) ، فهي كما يقول أستاذنا الفقيه معروف ، قد شيدت بعد الغزو المغولي لبغداد بخمس عشر سنة « أمرت بانشائها في ظاهر بغداد بجوار مشهد عبيد الله بن عمر العلوي السيدة « شمس الضحى » شاه لبني بنت عبدالخالق بن ملكشاه ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهي أم رابعة العباسية حفيدة

البدياني ، وابن مقبل الواسطي ، والمحج بن نصر الله البغدادي ، وجمال الدين العاقولي الذي درس بالمستنصرية نحواً من خمسين سنة ، وافتى سبعين سنة أو أكثر « (٨٧) » ، وخطاطون لامعون ، و « منهم من لبس لباس الفتوة كعبد الله الشار مساحي ... مدرس المالكية فيها ، وعبدالرحمن التكريتي الناظر الاول في مصاليح المستنصرية » (٨٨) ، ومن مدرسيها أيضاً : محتسبون ، وقضاة ، وسفراء « بين المستنصر بالله وبين الملوك والأمراء ، فقد أرسل المستنصر محي الدين بن فضال برسالة الى ملك الروم . وأرسل محي الدين يوسف ابن الجوزي الى ملك الروم أيضاً » (٨٩) .

ويؤكد الاستاذ ناجي معروف ، أيضاً : ان عدداً من علماء المستنصرية ترك « عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة ، منها المطبوع ، ومنها مالا يزال مخطوطاً في أمهات المكتبات العالمية ، ومنها ما لم يبق إلا أسماؤها أو ما نقل منها » (٩٠) ويشير - كذلك ، الى رحلات بعض علماء هذه الجامعة البغدادية وأسفارهم العلمية ، وعلاقات هذه الجامعة الثقافية ، ومكانتها العالمية ، وخدماتها الجليلة في نشر العلم والثقافة ، بما اتاحه العصر وسمحت به الظروف ، « فقد رحل بعض علماء المستنصرية رحلات طويلة للتجسس والبحث عن الحقائق العلمية ، في الأقطار العربية والإسلامية ، كرحلة ابن فضلان ، و ابن النجار وغيرهما . كما قصد هذه الجامعة عدد كبير من العلماء والإدباء والكتاب والمؤلفين من البلاد الإسلامية النائية للدرس والتدريس فيها . وقد حدث كثير ممن رجالها في اغلب البلاد الإسلامية ودرسوا في معارسها » (٩١) .

إن من أهم مآثر جامعة المستنصرية ، في تضاعيف انشطة المدرسة البغدادية الكبرى في العلم والثقافة والبحث العلمي ، هو انها حوت العلم الى عمل ، وترجمت الكلمة والفكرة الى واقع تضالي اجتماعي - سياسي ، ذي دلالة عظيمة . وبالطبع ، ينبغي ان نفهم هذا ، نسياً ، وبمواصفات العصر ، وإطاره .

فقد درست النساء - في شبه مساواة عملية - عدداً من رجال المستنصرية ، ودرس هن بدورهن على أيدي اساتذة فضلاء في المستنصرية . يقول معروف : « وكان لكثير من النساء العالمات فضل كبير على رجال المستنصرية فقد درسوا عليهن ، وحصلوا على الإجازات

المستصم ، وقد وقتها على الطوائف الأربعة » (٨٢) . واما المسعودية فنسب الى « خواجه مسعود بن سيد الدولة » ، وهو من اكابر بغداد ... جعلها وفقاً على المذاهب الأربعة على صفة المستنصرية ، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة » (٨٣) .

لقد كان لعلماء مستنصرية بغداد دور كبير في نشر الثقافة العربية - الإسلامية ليس في بغداد فحسب ، بل وفي سائر أرجاء الدولة الإسلامية ، وخارج حدودها أيضاً . يقول باحثنا معروف : « نستطيع ان نؤكد ان علماء المستنصرية كان لهم الفضل الأكبر في نشر الثقافة الإسلامية في احلك المعمور وأشدها ظلاماً . فقد كانوا خلال فترة الحكم الفولبي ، أي منذ سقوط بغداد بيد هولاء سنة ٦٥٦ هجرية حتى تدميرها بيد تيمور لك سنة ٧٩٥ هجرية وسنة ٨٠٣ هجرية ، يحملون مشاع العلم ، وينشرون نتاج الفكر الإسلامي مدة قرن ونصف القرن » (٨٤) .

ويذكر معروف ، مستنداً ، فيما يبدو ، إلى أوثق المصادر الأصلية ، انه كان من بين كبار مدرسي جامعة المستنصرية ورجالها اساتذة مشهود لهم بالفضل مثل جمال الدين العاقولي وابنه وحفيده ، وآل الجوزي ، ومؤرخون بارزون كالتطيمي ، وابن النجار ، وابن السامعي ، وابن الفوطي ، والداهلي ، وفقهاء معروفون كابن السبكي الحنفي « وهو الذي اطلق عليه لقب (استاذ) وانتهت اليه الرياسة بالمستنصرية » ، وجغرافيون كعبد المؤمن بن عبدالحق المعروف بكتابه « مرصد الاطلاع » ، وأطباء « مشهورون كانوا ماهرين في الطب ولهم فيه مصنفات قيمة كشمس الدين ابن الصباغ وربيبه مجد الدين المعروف بسنجر ، وعلاء الدين الاربلي الكتبي الشافعي ، والبرزبي الذي كان رأساً في الطب » (٨٥) ، ورياضيون وفرضيون كقمر الدين الحاسب الرياضي الفرضي ، وصفي الدين بن عبد الحق « وكان إماماً في علم الفرائض والجبر والمقابلة والهندسة والمساحة . ومهندسون كعبد الله الدهلي الشهير بالهندس وغيرهم ممن ظهرت فضائلهم في العقليات » (٨٦) ، ومقرئون ووعاظ ومفسرون مشهورون ، وشعراء وقصصيون ، ونحويون « انتهت إليهم مشيخة الأدب العربي كابن الانصاري الخزرجي ، وابن القواس الموصلية ، وابن الصيقل الجزري ، وابن الفصيح الكوفي شيخ نحاة بغداد ، ومفتون « أصدروا الفتاوى والأقضية والأحكام كتور الدين

وكانوا الجور والظلم من أي جاء . يقول ناجي معروف : « نستطيع ان نذكر ان من بين المدرسين علماء احراراً كانت لهم آراؤهم الخاصة بهم فلم يقلدوا غيرهم من العلماء . وكانوا يقولون ان المشايخ قبلنا كانوا رجالاً ، ونحن رجال ، امثال محمود الزنجاني الشافعي ، وقاضي القضاة ابن اللعاني ، الحنفي ، وسراج الدين الشارمساخي المالكي ... وكان كثير من علماء المنتصرة من ذوي المكانة العالية لا يفشون الاكابر ولا يخالطونهم . وكان من علمائهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويواجه الكبراء بما يكرهون » (٩٤)

وفيما يبدو ، فان المنتصرة باتت موضع احتذاء وتقليد ، على نطاق واسع ، ولعل ذلك يعود لنجاحها الباهر في اداء مهماتها ورسالتها ، يعود لمكانة بغداد العلمية الراسخة ، وكل ما يتصل بها من مراكز علمية وثقافية . يقول الاستاذ ناجي معروف : « ويظهر ان المنتصرة ببغداد اصبحت قدوة لمؤسسي المدارس من الرجال والنساء ليس في العراق فحسب ، بل وفي مصر والشام والحجاز حيث شرعوا يبنون مدارسهم على صفتها من حيث الدراسة على المذاهب الاربعة ، او احتواؤها على دروس الطب والتفسير والحديث والعربية ، وعلى مخازن ودور للكتب ، وعلى بقية المرافق الاخرى . وربما ناسوها في الريادة فبنوها على غرارها من حيث هندسة البناء والزخرفة واحتواؤها على الاواوين » (٩٥) .

- ٥ -

ان من القصور ان نتحدث عن مراكز بغداد العلمية ومدارسها الفكرية والعلمية والثقافية ، وجامعاتها . ولا نتحدث عن مراكز بغداد الفلكية التي اشتهرت في عالم القرون الوسطى ، اجمع ، وترسخت مكائنها وتوطدت قدمها ، بصفتها ، في الاساس ، إنجازاً هائلاً للمدرسة ببغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي في العصر العباسي الاول ، وتطويراً وتكميلاً متقناً لهذا الانجاز ، فيما بعد .

وعلى العموم ، فان للعرب فضلاً كبيراً في علم الفلك ، كعلم طبيعي مستقل عن الشعوذة والتنجيم . ويجعل صاحب كتاب « العلوم عند العرب » ، قدرتي حافظ طوقان ، ذلك ، فيما يلي : (وبالجملة ، فان للعرب فضلاً كبيراً على انفلك : (اولاً) لان العرب نقلوا الكتب الفلكية عن

العلمية منهم ، كما كان لمدرسيها فضل عليهم اذ درسن عليهم ، وتلان الاجازات منهم » (٩٢) . إن المرء ليسر ، حقاً ، إذ يسجل مثل هذا المعطى القيم لجامعة المنتصرة البغدادية ، ولكننا كنا نود لو طلع علينا ، باحثنا البغدادي المعاصر ، معروف ، ببعض الامثلة لبعض الشخصيات النسائية .

ومن مآثر منتصرة بغداد في حرية الفكر ، وتمثل حسن المواطنة ، باعتبار ان العالم مواطن اولاً وقبل كل شيء ، وقوف العديد من علماء هذه الجامعة البغدادية ، سوية مع زملائهم العلماء الآخرين ، ومع المواطنين ، جميعاً ، في وجه انفراد الاجانب ، زياداً عن شرف الوطن ، والعلم ، والاسلام ، واستشهادهم في سبيل الحرية . إن علماء المقاومة الاجلاء هؤلاء استحقوا ويستحقون التكريم ، والتخليد ، فقد قرنوا شرف الكلمة ، وكرامة العلم ، بشرف البلاد ، وكرامة الوطن ، وحرية ابنائه . ولنا هنا ان نسمع هذا من باحثنا البغدادي المعاصر الاستاذ ناجي معروف . تفصيلاً :

- « ويمكننا ان نذكر من بين علماء المنتصرة من اودي . ومن اسر في وقعة بغداد ، وذهبت مؤلفاتهم ، وانياتهم ، واجازاتهم ، ومن نفي او اعتقل وسجن ، او هرب من بغداد في اثناء الفتن والاضطرابات ، امثال: ابن ملحيا العباسي ، وابن وضاح الشهباني ، وابن عكبر العكبري ، والبلالي الاموي ، وغياث الدين ابن العاقولي ، وقوام الدين ابن الجوزي ، ونجم الدين خواجه امام ، والمحب بن نصر الله البغدادي ، وابيه نصر الله ، وابن الفوطي ... كما يمكننا ان نذكر من بين علمائها وفقهائها الذين استشهدوا في واقعة بغداد سنة ٦٥٦ هجرية ، صبراً بسيف التتر وهم يدردون عن دينهم وبلادهم ، كلا من كمال الدين الحموي ، وعلي ابن النيار ، ومحبي الدين ابن الجوزي ، وابنه جمال الدين ابن الجوزي ، ومحمود الزنجاني ، وابن القصاب البغدادي ، وابن البديع التكريتي ، وفخر الدين الامدي » (٩٣) .

كما ان عديداً من علماء منتصرة بغداد لم يكتفوا بمقاومة الظلم والنزول الخارجي ، بل قاوموا الظلم الداخلي ، ايضاً ، ونافحوا الاستبداد ، واجتهدوا في آراءهم ، ولم يألوا شيئاً ،

أبي بكر محمد الخوارزمي ، وزيج أبراهيم
 اغزاري ، وزيج ابنتاني ، وازياج المامون ، وازياج
 - ابن السمع ، وابن الشاطر - وأبي حماد
 الاندلسي ، وابن يونس ، وأبي حنيفة الدينوري -
 وأبي ممتز ابلخي ، والابليخاني ، وعبدالله
 المروزي البغدادي ، والصفاني ، وانبوزجاني ،
 والوطوسي ، وشمس الدين - وملكنشاهي -
 والمفتيس وغيرها .

لقد كانت مدرسة بغداد الفلكية المتميزة
 وريقة الاتصال بعلم الرياضيات عند العرب ، وبكل
 ما انجزه العرب والمسلمون من إنجازات في العلوم
 الطبيعية ، والمنهجية العلمية ، عموماً . وكانت
 قدم العرب في علم الفلك راسخة . لحد انه لا زال
 اكثر من نصف اسماء النجوم عربيًا ، ولحد ان
 خليفة جليلاً كالمامون كان يشرف بنفسه على
 مراسد بغداد وسواها . ويتابع ، بنفسه
 أبحاث الفلكية في انبلاد ، ولحد ان كثيراً من
 معطيات علم الفلك المعاصرة ذات اصل عربي . فان
 اكتشاف بعض انواع الخلل في حركة القمر يعود
 الى ابي الوفاء البوزجاني (وليس الى تيخوبراهي
 اندانماركي ، كما يزعم بعض متعصبى الغرب) ،
 كما ان آلة الاسطرلاب المشهورة - والربع ذا الثقب
 هي مبتكر عربي صرف - والى ذلك يمكن ان نضيف
 إصابة الفلكيين العرب ا وخصوصاً البتاني (في
 حساب ميل فلك البروج على فلك معدل النهار ،
 وتدقيقهم (البتاني أيضا) في حساب طول السنة
 الشمسية . وتحقيقتهم مواقع كثير من النجوم ،
 ورصدهم الاعتدالين الربيعي والخريفي -
 وأشاراتهم الى كلف الشمس ، ووضعهم الجداول
 الدقيقة لبعض النجوم الثوابت ، واتقانهم بناء
 المراصد الفلكية وصنع الاتان (التي منها : اللبنة ،
 والحلقة الاعتدالية . وذات الأوتار - وذات الحلق
 ... ، وذات السمات والارتفاع ، والآلة الشاملة ،
 وذات الشعبتين ، وذات الجيب ، وذات المشنبة
 بالنطاق . والاسطرلاب وانواعه المختلفة) (٩٨) .

وبهذا التصدد يؤكد طوقان « ان المامون اول
 من اشار باستعمال الآلات في الرصد وقد ابتنى
 مرصدين على جبل قيسون في دمشق وفي
 الشماسية في بغداد . وفي مدة خلافته وبعد وفاته
 انشأت عدة مراسد في أنحاء مختلفة من البلاد
 الاسلامية ، فلقد ابتنى بنو موسى مرصدا في بغداد
 على طرف الجسر وفيه استخرجوا حساب العرض
 الاكبر من عروض القمر ، وبنى شرف الدولة أيضا
 مرصدا في بستان دار المملكة . ويقال ان الكوهي

اليونان والفرس والهنود والكلدان والبربان
 وصححوا بعض أغلاطها وتوسموا فيها . وهذا
 عمل جليل جدا ، لاسيما اذا عرفنا ان اصول تلك
 الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها في
 العربية ، وهنأ طبعاً ما جعل الأوربيين يأخذون
 العلم عن العرب ، فكانوا (اي العرب) بذلك
 اساتذة العالم فيه . (ثانياً) - في أضافاتهم
 الهامة واكتشافاتهم الجليسة التي تقدمت بعلم
 الفلك شوطاً بعيداً (ثالثاً) - في جعلهم علم الفلك
 استفراييا وفي عدم وقوفهم فيه عند النظريات .
 (رابعاً) - في تطهير علم الفلك من ادراغ
 التنجيم » (٩٦) .

إن الاستاذ ناجي معروف ، الباحث البغدادي
 المعاصر ، الذي تطوع باضائة الحياة الثقافية في
 بغداد ، من وجهة نظره ، يسلط ضوءه ، كذلك ،
 على علم الفلك في بغداد . وهو لا يعدو الحق ، حين
 يصرح بان بغداد كانت مركز علم الفلك في زمانها .
 ونعل من الخير لنا وللقراريء ان نطلعه على وجهه
 نظر هذا الباحث ، التي تبدو معززة بالوثائق
 والأدلة التاريخية والوقائع المادية ، التي ذكرها
 اكثر من باحث عربي ، وأوربي ، بهذا الصدد

يقول معروف : « إن اول من عني بعلم الفلك
 ابو جعفر المنصور ، فقد قرب التنجيم وشجع
 المترجمين والعلماء ، وأغدق عليهم العطايا ،
 واحاطهم ببنائته ورعايته ، واقتمدى بالمنصور
 الخلفاء الذين ولوا الحكم بعده في نشر العلوم
 وتشجيع المشتغلين بها فترجموا كتب الأمم التي
 سبقت العرب ، وصححوا كثيراً من أغلاطها
 وأضافوا إليها مما ابتكروه او اكتشفوه الشيء
 الكثير واصبحت بغداد مركزاً لهذا العلم مدة خلافة
 العباسيين ، فانشئت فيها الارصاد ، ودونت
 الأزياج ، وتنوعت آلات الرصد ، وظهر كبار
 الفلكيين الذين نهبت اسماءهم واشتهرت
 أعمالهم ، وقد اعتمدت دار الرصد المغولية ، التي
 انشئت سنة ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩ ميلادية) ، اي
 بعد سقوط بغداد بسنة واحدة ، على علماء بغداد
 وفلكيها ، وعلى ما ألف ببغداد من كتب في هذا
 العلم ، وعلى الكتب التي جمعها نصر الدين
 الطوسي من بغداد والموصل وواسط والبصرة ،
 وكانت تبلغ نحو (٤٠٠) ألف مجلد . ويعتبر من
 جاء بعد العباسيين نقلة ومقلدين يوضحون ما
 ابتكره العباسيون ببغداد ويختصرون المطول من
 علم الفلك ويفصلون المختصر منه .. » (٩٧) .

وكان من أشهر الأزياج الفلكية العربية - زيح

الفريغوري الذي تم بعد (٦٠٠) سنة . كما ذكر
 لوبون ، أيضا ، ان هولاء نقل افضل علماء العرب
 الى المرصد الذي انشاه بمراعة . كما نقل اخوه
 كوبلاي الى بلاد الصين كتب علماء بغداد والقاهرة
 في علم الفلك . وقد استنبط هؤلاء معارفهم الفلكية
 الاساسية من تلك الكتب ولذا يقول لوبون « ان
 العرب هم الذين نشروا هذا العلم في العالم كله
 بالحقيقة » . وجمع تيمورلنك بمدينة سمرقند
 التي اتخذها عاصمة لامبراطوريته المشتعلة على بلاد
 التركستان وفارس والهند فريقا من علماء العرب .
 واقبل حفيده اولوغ بك على علم الفلك بنشاط
 عظيم . ويمكن عد اولوغ بك ، الذي لا يفصله عن
 كبلر ، سوى قرن ونصف القرن ، آخر ممثل
 لدرسة بغداد الفلكية « (١٠٠) .

وبهذا الخصوص ، تؤكد المعطيات ، والمصادر
 الروسية والسوفيتية صحة تائم مدرسة
 سمرقند الفلكية بمدرسة بغداد الفلكية ، وقيامها
 على المعارف العلمية الاساسية المستقاة منها .

ولعل من امجاد مدرسة بغداد العلمية
 الكبرى ، التي وضعت اصولها ، ونواتها الضخمة
 مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي ،
 انها اتقذت الناس من الخرافة والشعوذة ودجل
 التنجيم ، وانها قالت « باستدارة الارض
 وبدورانها حول محورها » ، وضبطت حركة اوج
 الشمس « بينما لم ينتشر تعليم حركة الارض
 الدورية عند الفرنج الا بعد سنة ١٥٢٣ م ، عندما
 وضع ذلك كوبرنيك ، الذي يذكر ان كثيرا من كتب
 الفلك العربية نقلت الى اللاتينية والفرنسية
 والابطالية « (١٠١) .

اما اشهر مرصد بغداد الفلكية ، على مختلف
 عصورها ، فهي - المرصد الاموني في الشماسية
 ببغداد ، (وكان موقعه في اعلى بغداد الشرقية ،
 « عند محلة الصليخ احدي محلات الاعظمية
 اليوم » ، على حد ما يقول الاستاذ ناجسي
 معروف) (١٠٢) . ومن مرصد بغداد الفلكية ايضا ،
 مرصد بني موسى بن شاكر ، ومرصد بني الاعم ،
 والمرصد الشرقي ببغداد (وهو المرصد المنسوب
 الى شرف الدولة بن عضد الدولة البويهى ، وقد
 بناه في حديقة قصره المعروفة بدار الملكة ببغداد
 على نهر دجلة ... ويرجح ان موقع دار الملكة في
 اعلى محلة « العواضية » ، ببغداد اليوم) (١٠٣) .

اما اشهر رصد بغداد الفلكيين ، فهم :
 ابراهيم بن حبيب الفزاري ، « الامام العالم
 المشهور ، المذكور في حكماء الاسلام ، وهو اول من

رصد فيه الكواكب السبعة ، وانشا الفاطميون على
 جبل المعظم مرصدا عرف باسم المرصد الحاكمي ،
 وكذلك انشا بنو الاعلم مرصدا عرف باسمهم .
 يرسل مرصد المراغة الذي بناه نصير الدين الطوسي
 من اشهر المراصد واتبرها . واشتهر بالانه
 انديقعة ونفوق المشتغلين فيه . وقد قال الطوسي
 عنهم من زيج الايلخاني : « اني جمعت لبناء المرصد
 جماعة من الحكماء منهم المؤيد العرضي . والفخر
 المرافي الذي كان بالوصل ، والفخر انخراطي الذي
 كان بتفليس . ونجم الدين بن ديران الفزويني ،
 وقد ابتدانا في بنائه سنة ٦٥٧ هجرية » .
 واشتهرت ارساد هذا المرصد بالدقة ، حتى لقد
 اعتمد عليها علماء اوربا في عصر النهضة وما بعده في
 بحوثهم الفلكية « (٩٩) .

ان سؤالا قد ننسأ : ما هي العلاقة بين
 مرصد الشماسية المبكر في بغداد العصر العباسي
 الاول ، ومرصد مراغة للطوسي المبني بعد سقوط
 بغداد . وما تأثير ذلك على انتشار العلوم الفلكية في
 العالم ؟

واهل ناجي معروف . باحث بغداد المعاصر ،
 اولى الباحثين بالاجابة عن مثل هذا السؤال
 المشروع . وها هو الاساذ معروف يوضح ذلك في
 بحث صغير له بعنوان « مدرسة بغداد الفلكية » ،
 فيقول : « لقد ازدهرت مدرسة بغداد الفلكية
 سبعة فرون منذ تاسس مدينة السلام سنة
 ١١٥ هـ - ٧١١ ميلادية حتى سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠
 ميلادية وقد ادت هذه المدرسة في خلافة الرشيد
 والامون الى اعمال مهمة . وادمجت مجموعة
 الارصاد التي تم امرها في المراصد ببغداد ودمشق
 في كتاب « الزيج المصحح » . وقد عين العرب فيه
 مدة السنة بالضبط . واقدم فلكيو بغداد على
 قياس خط نصف النهار . الذي لم يوفق له
 الاوروبيون الا بعد الف سنة ، كما يقول العالم
 الفرنسي الدكتور غوستاف اوبون ... ويرى
 الدكتور لوبون ان عمل العرب في حقل الحضارة قد
 دام الى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمن
 طويل . ودام بفضل ذلك تقدم بغداد العلمي .
 حتى بعد ان صارت في قبضة الاجانب . وقد ظلت
 مدرسة بغداد الفلكية على ازدهارها الى اواسط
 القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع
 الهجري) ولم تنقطع عن نشر رسائل مهمة في الفلك
 الفايروني علم الهنود ما انتهت اليه مدرسة بغداد ،
 ومنكشاه السلجوقي امر في سنة ٧٢٢ هجرية
 ١٠٧٩ . ميلادية) بالقيام بأرساد ادت الى اصلاح
 التقويم . السنوي بما هو افضل من التقويم

مهدت هذه الحلول السبيل امام علماء اوربا ليتقدموا بالهندسة التحليلية خطوات واسعة ادت الى التكامل والتفاضل ، الذي يعتبر من اهم ما وصل اليه العقل البشري . ويقول غوستاف لويون : ان ابا الوفاء هو الذي عرف الاختلال القمرى الثالث ... ويرى لويون ان هذا الاكتشاف عظيم للغاية لان مسيو سيديو استدل به على وصول مدرسة بغداد في اواخر القرن العاشر الى اقصى ما يمكن علم الفلك ان يصل إليه بغير نظاره ومرقب .. (١٠٨) .

وكذلك اشتهر من رصاد بغداد الفلكيين - عبدالرحمن الصوفي (القرن العاشر الميلادي) ، وهو الذي بنى المرصد الشرقي ، « وكان عضد الدولة يفتخر بعبد الرحمن الصوفي لانه كان معلمه في انكواب الثابتة وسرها » (١٠٩) ، وابراهيم بن هلال بن ابراهيم (ابن زهرون) ، وقد خادم ملوك العراق من بني بويه ، والبديع الاسطرابي (عبد الله بن الحسين ابو القاسم البغدادي) ، « وكان وحيد زمانه في عمل الآلات ، وقام بامور عجز عنها المتقدمون ، وقد عاش في زمن المسترشد بالله » (١١٠) .

ان الاسطراب العربي قد لعب دورا كبيرا في تقدم علم الفلك العربي - الاسلامي ، والعالمي عموما . ويذكرنا ناجي معروف ان العرب انغوا في بغداد وغيرها مؤلفات كثيرة في صنع الاسطراب والعمل به خلال اثني عشر قرنا ، « وقد احصي منها اليوم نحو (٢٠٠) مؤلف ما بين كتاب ورسالة في هذا العلم » (١١١) .

وتتوسع البيروفسورة الدكتوراة زيفرد هونكه ، المستشرقة الالمانية البارزة (التي زارت بغداد صيف ١٩٦١ ، كما زارت الجمهورية العربية المتحدة صيف ١٩٦٢) ، في كتابها الشهير الذي ترجم الى العربية تحت عنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » ، تتوسع في وصف آلة الاسطراب العربية ، ذات الاصل البغدادي ، وساعات العرب الشمسية ، وساعاتهم « التي تسير على الماء وعلى الزئبق وعلى الشمع المشتعل ، أو التي تعمل بواسطة الاثقال المختلفة او ساعات تحمل فتحات منسفة الواحدة تلو الاخرى في شكل نصف دائري ، وما تلبث ان تبرق كلما جاوزت الساعة الثانية عشرة ليلا في حين يمر فوقها هلال وضاء » .

فتقول :

- « وفي عام ٨٠٧ قدم عبدالله رسول هارون

عمل في الاسلام اسطرابا ، وله كتاب في تطيح انكرة اخذ منه كل الاسلاميين » (١٠٤) ، ومحمد بن ابراهيم الفزاري وكان في حاشية المنصور ، و « الفزاري هو الذي اختار للمنصور الوقت المناسب للبدء ببناء بغداد » (١٠٥) ، وموسى بن شاعر وبنوه الثلاثة ، والحسن بن محمد الطوسي التميمي ، وحش الحاسب الروزي البغدادي ، وابو معشر البلخي ، ومحمد بن جابر البتاني ، « احد عظماء العرب المشهورين برصد الكواكب ، والمتقدمين في علم الافلاك وحساب النجوم ... ولا يعلم احد في الاسلام بلغ مبلغه في تصحيح ارساد انكواب وامتحان حركاتها . ابتدا في الرصد من سنة ٢٦٤ هـ الى سنة ٣٠٦ هجرية ... وهو فلكي شامي جاء الى بغداد مع بني الزيات من اهل الرقة ، فلما رجع مات في طريقه بقصر الجص في سامراء سنة ٣١٧ هجرية . وقد عده الفلكي الفرنسي لالاند واحدا من العشرين فلكيا المشهورين في العالم كله . وقالت هونكه : لقد كان تأثير هذا انصربي النابضة على بلاد الغرب عظيم الشأن فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الاوربية حتى اباننا هذه » (١٠٦) ، ويعقوب الكندي العالم الفيلسوف المشهور عدو الخرافة والتنجم ، وهو من الاثني عشر عبقريا الذين ظهروا في العالم ... لانه كان عالما باطرب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم وتاليف اللحوت وطبائع الاعداد ، وقد انتخبه الامون ليكون احد الذين يعهد اليهم في ترجمة مؤلفات ارسطو ... (وله) آراء خطيرة وجريئة عن نشأة الحياة على الارض دفعت العلماء الى الاعتراف بانه مفكر عميق من الطراز الحديث . وكان مؤلفاته في البصريات تأثير كبير في العقل الاوربي ... وقد وضع عددا كبيرا من الكتب بلغ فيها في النجوم تسعة عشر كتابا ، وفي الفلك ستة عشر كتابا ، وثمانية كتب في الكريات ، كما وضع رسائل في بعض الآلات الفلكية حتى قيل ان دولة المعتصم كانت تتجمل بالكندي وبمصنفاته ... » (١٠٧) .

ومن رصاد بغداد المشهورين : كذلك ، ويجن بن رستم أبو سهل الكوهي ، واحمد بن محمد الصاغاني (أبو حامد الاسطرابي) ، وابو الوفاء البوزجاني الحاسب ، الذي انتقل الى بغداد من بلدته بوزجان (بين هراة ونيسابور) ، « وقد قضى أبو الوفاء حياته ببغداد في التأليف والرصد والتدريس ، وقد انتخب ليكون احد اعضاء المرصد الشرقي ، الذي انشاه شرف الدولة . وقد استطاع ان يجد حولا تتعلق بالقطع المكافئ ، وقد

عند العرب » ، الذي اسلفنا الإشارة اليه ، ان « من هؤلاء العلماء العرب الذين وصلوا الى حلول هذه المسائل الصعبة ثابت بن قره ، وابو جعفر اثنازن ، وعمر الخيام ، والخندي ، وابن الهيثم وغيرهم » (١١٥) .

ان ثابت بن قره ، الحراني الاصل ، هو احد علماء المدرسة البغدادية اللامعين ، ويقال في مجيئه بغداد ، انه التقى بمحمد بن موسى الخوارزمي ، عند رجوعه من ارض الروم ، فاعجب الخوارزمي بذكائه ووقدة فكره ، فاستصحبه الى بغداد ، ووصله بالخليفة العباسي المعتضد ، وصار يعمل في معية علمائه (١١٦) . وقد حظى ثابت بن قره بتكريم لا نظير له من جانب خليفة بغداد : بل ان الخليفة اعتذر منه ، يوماً ، حين « تزیده من يد ثابت ، وقال له : يا ابا الحسن سهرت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون ، فان العلماء يعلون ولا يعلون » (١١٧) .

وكان ثابت بن قره ، الذي يتقن السريانية والعبرية واليونانية ، ويجيد النقل عنها ، عالماً موسوعياً ، كعادة علماء المدرسة البغدادية ، جميعاً ، فقد نبغ في الرياضيات ، والفلك ، والطب ، والفلسفة ، إضافة الى كونه قطب مدرسة الترجمة عن السريانية واليونانية في بغداد ، في عصره .

ويؤكد قدرتي طوقان ، انه جاء في كتاب « تاريخ الرياضيات » لسمت ما يلي « ... كما هي العادة في احوال كهذه يتعمر ان نحدد بالتاكيد اثنى من يرجع الفضل في العصور الحديثة في عمل اول شيء جديد باعتبار في حساب التكامل والتفاضل . ولكن في استطاعتنا ان نقول ان ستيفن يستحق ان يحل محلاً هاماً من الاعتبار . اما مآثره فتظهر في تناول موضوع ايجاد مركز الثقل لاشكال هندسية مختلفة اهتدى بنورها عدة كتاب اتوا بعده . ويوجد آخرون ، حتى في القرون الوسطى قد حلوا مسائل في ايجاد الحجم والمساحات بطرق يتبين منها تاثير نظرية إيفاء الفرق ، اليونانية . وهذه الطريقة تنم نوعاً على طريقة التكامل المتبعة الآن . ومن هؤلاء يجدر ان نذكر ثابت بن قره الذي وجد حجم الجسم المتولد من دورات القطع المكافئ حول محوره ... » (١١٨)

اما محمد بن موسى الخوارزمي فهو احد ابرز كوكبة العلماء الذين استظلوا بظل الخليفة البغدادي العالم ، المأمون . ويذكر ابن النديم ، في (الفهرست) ، ان الخوارزمي هو ابو عبدالله محمد

الرشيد الى القيصر شارلمان ، في مدينة (اخن) . من اعمال المانيا ، ساعه من هذا النمط ، وقد علق مؤرخ القصر (انبارد) على هذا الحدث في يومياته قائلاً : « كانت ساعة من النحاس الاصفر مصنوعة بمهارة فنية مذهشة . وكانت تقيس مدة اثنتي عشر ساعة وفي حين إتمامها لذلك كانت تسقط الى الاسفل اثنتي عشرة كرة صغيرة ، محدثة ندى اصطدامها برفاقص معدني مثبت ، دويماً ايضاً جميلاً بالاضافة الى عدد مماثل من الانراس الصغيرة التي كلما دارت الساعة دورتها الكاملة قفزت من فتحة اثنتي عشرة بوابة واغلقها بقفزاتها هذه . وهناك اشياء اخرى كثيرة تسترعي الانتباه في هذه الساعة تدعو الى العجب والدهشة ... » . نحن ما زلنا حتى يومنا هذا نقف فاغري الانفواه دهشة واعجاباً ، كلما راينا ساعة كبيرة في مبنى البلدية . وما يرافق دقائقها من ظهور شخص صغير متحركة ، تذكرنا بما فعله العرب ، في الماضي البعيد (١١٩) .

- ٦ -

ان لعلوم بغداد الفلكية صلتها الوثقى ، واني تكاد تكون عضوية ، بعلومها الرياضية ، بخاصة . وبقية العلوم الاخرى . عامة .

بعد قدمت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي رياضيين ممتازين ، كانت لهم مكانهم العالمية ، في العلوم الرياضية ، فقد طوروا . و اضافوا ، وابتكروا . واستنبطوا شيئاً من الجديد والاصيل في الرياضيات عموماً .

ان علم الجبر ، مثلاً ، لم يصبح علماً متقناً إلا على يد العرب . واصبح جزءاً من مآثرهم على الحضارة الانسانية . ويكفي للدلالة على فضلهم فيه . انهم مهروه بلطف من لغتهم ، فانقلت كلمة « الجبر » الى جميع اللغات الحديثة « (١٢٠) . وقد اكد العالم الغربي (كاجوري) « ان حل المعادلات التكميلية بواسطة فتوح الخروط من اعظم الاعمال التي قام بها العرب . ويكون العرب بذلك قد اشتغلوا بهذا المجال قبل غيرهم من علماء الغرب ، وبهذا قد سبقوا ديكارط وبيكر ، وتوصلوا الى حلول بعض المسائل التي يؤدي حلها الى معادلات تكميلية » (١٢١) . وضييف الأستاذ حكمت نجيب ، في كتابه القيم ، حقاً ، « دراسات في تاريخ العلوم

الحسابية (الجمع وانطرح والقسمة والضرب واخذ الجذور) على العمليات الجبرية ، وتمكنوا بذلك من تعميم علم الجبر تعميماً لم يكن مستطاعاً لو بقي الجبر هندسياً فقط ، مما ساعد كثيراً على تطور علم الجبر الحديث (١٢٤) .

ويوضح طوقان ، أكثر من ذلك كله ، ان عالم بغداد الخوارزمي وضع كتاباً في الحساب كان الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد نقله ايلارد أوف باث الى اللاتينية تحت عنوان **Algoritmi de Numero Indarum** ، وهذا الكتاب هو أول كتاب دخل أوروبا . وقد بقي زمناً طويلاً مرجع العلماء والتجار والحاسبين ، والمصدر الذي يعتمدون عليه في بحوثهم الحسابية . وقد يعجب القارئ ، إذا علم ان الحساب بقي عدة قرون معروفاً باسم (الفورتيمي) نسبة الى الخوارزمي . ومن هذا الكتاب وغيره من الكتب العربية التي دخلت أوروبا - فيما بعد - عرفت أوروبا الأرقام العربية والهندية (١٢٥) .

وتوات مع كتاب الخوارزمي الشهيرة « الجبر والمقابلة » وبعده كتب أخرى في ذات الموضوع لتلاميذ الخوارزمي المختلفين في سبب امصار الدولة العربية - الاسلامية ، منها كتاب ابي كامل شجاع بن اسلم (كتاب كمال الجبر وتمامه والزيادة في أصوله) ، وكتاب الجبر والمقابلة لأبي حنيفة احمد بن داؤد الدينوري ، وكتاب الارثماطيق في الأعداد والجبر والمقابلة لأبي العباس احمد السرخسي (من تلاميذ الكندي) ، وكتاب تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة لأبي الوفاء البوزجاني ، وكتاب الجبر والمقابلة لسند بن علي (معاصر المأمون) ، وكتاب في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية لثابت بن قرة ، وكتاب الفخري في الجبر والمقابلة لأبي بكر فخر الدين محمد بن حسن الكرجي ، وكتاب « الجبر والمقابلة » لعمر الخيام ، ألفه باللغة العربية ، وكتاب في الجبر والمقابلة (كتاب الظفر) لنصير الدين الطوسي (١٢٦) .

أما في علم الحساب فقد قدمت مدرسة بغداد العلمية الكثير ، فقد كان علماء بغداد وسواها يعتبرون ، الحساب ، على حد ما يقول أبو بكر محمد بن حسن الكرجي « ارفع الصناعات درجة واعمها مصلحة وانمها فائدة » فصناعة الحساب « يحتاج إليها جميع الناس على طبقاتهم واختلاف اديانهم ولغاتهم لما فيه صلاح الجمهور وسداد الأمور » (١٢٧) . ويؤكد الأستاذ حكمت نجيب انه

بن موسى ، رياضي فلكي ومؤرخ من أهل خوارزم ، بنعت بالأستاذ ، وولاه المأمون العباسي منصب بيت الحكمة ، وعهد اليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها وأمره باختصار كتاب المجسطي (١٢٨) . بيد ان الخوارزمي نبغ في الرياضيات ، واشتهر بكتابه « الجبر والمقابلة » ، والذي ألفه بتكليف من المأمون ، فقد قال الخوارزمي في مقدمته : « وقد شجعني ما فضل الله به الامام أمير المؤمنين مع الخلافة التي حاز له إرثه وأكرمه بلباسها وحلاه بزينتها ، من الرغبة في الأدب وتقريب أهله وإدنائهم وبسط كنفه لهم ومعوته إياهم على إيضاح ما كان مستههما وتسهيل ما كان مستوعرا » (١٢٩) .

ويؤكد قدري طوقان في كتابه « تراث العرب العلمي » المكانة العلمية الراسخة لكتاب عالم بغداد الخوارزمي ، هذا ، فيشير الى ان روبرت أوف جستر **Robert of Chester** قد نقله الى اللاتينية ، وافاد منه ليونارد أوف بيزا ، وكاردان ، وتار تاكلسي ، ولوقا باصولي ، وفرارري وغيرهم (١٣١) . وبشير رومر لاندو الى تأثير هذا الكتاب في أعمال ليوناردو فيبوناتشي البيزوي (هو نفسه ليونارد أوف بيزا) ، والمعلم يعقوب الفلورنسي ، وأعمال ليونارد دافنشي ايضاً (١٣٢) ويمجد ريسلر ، في كتابه (الحضارة العربية) أعمال الخوارزمي وفكره الرياضي ، ويعتبره أعظم رياضي في ميدان علم الجبر ، ومن أكبر علماء العالم الذين اجترحوا مآثر عظيمة في علوم الرياضة والفلك خدمت الثقافة العالمية والحضارة الانسانية

ولا عجب في ذلك ، فان الخوارزمي كان عقلية فذة حقاً ، فهو ، فيما يشبه طوقان ، « واضع علم الجبر في شكل مستقل منطقي ، وهو المبتكر لكثير من بحوث الجبر التي تدرس الآن في المدارس الثانوية والعالية ، وإليه يرجع الفضل في تعريف الناس بالأرقام الهندسية وفي وضع بحوث الحساب بشكل علمي لم يسبق اليه ، بحيث يصح اقول ان الخوارزمي وضع علم الجبر وعلمه ، وعلم الحساب للناس اجمعين .. وخلق في سماء الرياضيات ، وكان نجماً مثالقاً فيها اهتدى بنوره علماء العرب وعلماء أوروبا ، وكلهم مدين له ، بل المدينة الحديثة مدينة له بما اضاف من كنوز جديدة الى كنوز المعرفة الثمينة » (١٣٣) .

إن من أفضل الخوارزمي العلمية انه مهد السبيل لتبار رياضي في علم الجبر اساسه علم الحساب لا علم الهندسة ، وقام بعض علماء العرب ومنهم الكرجي والسموال بتطبيق العمليات

السابع عشر الميلادي حيث ظهر بهاء الدين العالمي الذي اشتهر بكتابه « الخلاصة في الحساب » ، الذي يعتبره جلال شوقي دارس رياضياته « عرضاً دقيقاً لعلوم الحساب والجبر والمساحة ، كذلك لمفاهيم العلماء العرب في الرياضيات وطرق حلها في القرن الاخير من الحضارة العربية .. » (١٢٠) .

★ ★ ★

ويؤكد قديري طوقان ، ومن بعده حكمت نجيب ان الاوربيين اخذوا علم الهندسة اليونانية من العرب دون اليونان ، فقد « نقلوها من العربية الى اللاتينية مباشرة وظلوا يتدارسونها كماعرفوها من العرب إلى أواخر القرن السادس عشر حين عثر الباحثون (١٥٨٣م / ٩٦١هـ) على مخطوط من كتاب اقليدس باللغة اليونانية ، فقد وجد أحد علماء الانكليز في اوائل هذا القرن (حوالي عام ١٩١٠) ، مقالتين قديمتين في الهندسة في مكتبة ويستستر ، الاولى كتبها جريرت الذي صار بابا سنة ٩٧٩م ، باسم «البابا سلفستر الثاني ، ولم يكن اقليدس في الهندسة معروفاً حينذاك إلا في العربية ، والمقالة الثانية تاريخها بداية القرن الثاني عشر ، وكتبتها راهب اسمه « ادلارد اوف باث » كان قد تعلم العربية ودرس في مدارس غرناطة وقرطبة واشبيلية ، والمقالتان كتبنا باللغة اللاتينية من نسخة ترجمت عن ترجمة اقليدس في اللغة انجليزية ، وبقيت هذه الترجمة تدرس في المدارس الاوربية الى سنة ١٥٨٣م » (١٢١) .

وقد تركز اهتمام مدرسة بغداد العلمية بالهندسة في الناحية العملية (اكثر من الناحية النظرية) ، ولذلك برزت إنجازاتها وانجازات تلامذتها فيما بعد (وخصوصاً ابن الهيثم) في الهندسة المعمارية ، واعمال الري وتوزيع المياه ، والاقنية ، وبناء المباني المختلفة ، بما فيها الجوامع والقصور . إن هندسة الري كانت أبرز وجوه «التنمية» في المجتمع العربي - الاسلامي في بغداد، والشام ، ومصر ، والمغرب ، والانديس ، ومختلف الحواضر الاسلامية في فارس وافغانستان وآسيا الوسطى . وذلك مبرر ومفهوم « لأن تنظيم الري يتطلب معرفة دقيقة بمستوى الأرض وانحدارها وبكمية المياه وسرعتها ومجرها ، وبمواد البناء لاختيار الأنسب منها ، ومعرفة طرق البناء التي تؤمن السكور ، والسدود ، والمسئنيات والشاذروانات والبزندات ، ووقوفها بوجه المياه الزائدة القوية الجريان وضبط توزيعها » (١٢٢) .

قد كان « للمؤلفات التي وضعها العرب تأثير كبير على الحركة العلمية في الغرب ، وان من اهم الكتب التي اثرت في هذه النهضة كتاب في علم الحساب لمحمد بن موسى الخوارزمي ، ضاع اصله العربي ، إلا ان ترجمته اللاتينية بقيت واثرت على بعض علماء الرياضيات في الغرب كرجيو مونتanos ١٤٣٦ - ١٤٧٦م (١٢٣) .

إن من اهم علماء الغرب في الحساب من تلامذة المدرسة البغدادية وسواها علماء اهتموا بالجبر والهندسة أيضاً ، فكانوا علماء ذوي تخصص رياضي عام . ومن أبرزهم سنان بن الفتح الحراني الذي « اشتغل في العلوم الرياضية ولا سيما في الحساب والاعداد وبرع فيها والف في ذلك كتباً مشهورة منها : التخت في الحساب الهندي وكتاب الجمع والتفريق الذي شرح فيه طريقة إجراء الأعمال الحسابية بواسطة الجمع والطرح عوضاً عن الضرب والقسمة وهي الأساس الذي قامت عليه فكرة اللوغاريتمات » (١٢٤) .

ومن علماء بغداد المبرزين في الحساب علماء موسوعيون أفذاذ يعرفهم العالم اجمع ، ومنهم الكندي (ابو يوسف يعقوب بن اسحق) وابو الوفاء البوزجاني . ويضيف مؤرخو العلم الاسلامي والعالمى اساتذة عرباً آخرين في الرياضيات هم : الكرابيسي ، ويعقوب الرازي ، واحمد بن الطيب (من تلامذة الكندي) ، وابو حنيفة الدينوري ، وسند بن علي ، والكلاوذي ابغداداي ، وابو يرزة الجيلي ، وابو بكر الكرجي صاحب كتاب (الفخري) المشهور الذي يعتبره علماء اوربا « وثيقة فائقة الاهمية في تاريخ الرياضيات » ، والقاضي النسوي الذي يلقبه نصر الدين الطوسي بـ « الاستاذ » ، وعبدالقادر التميمي البغداداي . وثمة علماء آخرون برزوا في الحساب والرياضيات ، وكانوا موسوعيين كعلماء بغداد الاوائل ، ومن هؤلاء ابن الهيثم ، وابو الريحان البيروني . كما كان لمدرسة بغداد في الحساب والرياضيات تلامذة عباقرة في الغرب والانديس ومنهم ابن البودي ، وابن البناء المراكشي ، وابو الحسن القلصاوي . كما كان لهذه المدرسة البغدادية ابن بار هو قاضي زادة - اللذي افاد من معطيات العلم العربي - السلامي وكان هو وغيث الدين الكاشي من أبرز العلماء الذين عهد اليهم اولوغ بك في إنشاء مرصد سمرقند ، في بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى) وقد امتدت تاثيرات مدرسة بغداد الرياضية حتى القرن

أما علم المثلثات فقد تحول علما مستقلا على ايدي علماء بغداد ، ويعتبره الكثير علما عربياً . بقول طوقان : لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن . فاليهم يرجع الفضل الاكبر في وضعه شكل علمي منظم مستقل عن الفلك وفي الاضافات الاساسية الهامة التي جعلت الكثيرين يعيرونه علماً عربياً كما اعتبروا الهندسة علماً يونانياً ومما يزيدنا اعتقاداً بهذا كله ، اعتراف كاجوري بأن هناك اموراً كثيرة . وبحوثاً عديدة في علم المثلثات كانت منسوبة الى (ريجيو مونتانوس) ثبت انها من وضع المسلمين والعرب ، وانهم سبقوه اليها ، وكذلك وجد غير كاجوري (امثال سميث ، وسارطون . وسيدو . وسوتر) ممن اعترفوا بان بعضاً من النظريات والبحوث نسبت في اول الامر الى ريجيو مونتانوس وغيره ؛ ثم ظهر بعد البحث والاستقصاء خلاف ذلك (١٢٥) .

ان العرب هم اول من استعمل مبدأ الجيب والماس ، والظل تمام . وتطور علم المثلثات نوعياً بابتداع الجيب ، والجيب تمام ، والظل . وقد « اعتبر العالم الفرنسي شاسل استعمال العرب للمماس انقلاباً هائلاً في العلوم ، اذ سهل حل الكثير من المسائل الرياضية . وقام علماء العرب بنشر اول كتاب علمي في المثلثات سنة ١٤٦٤ ميلادية ونقلوا اكثر ما جاء فيه عن تأليف عربي ، الا انهم لم يذكروا فيه شيئاً عن استعمال المماس ، بينما استعمل العرب المماس قبل ذلك بخمسة اجيال » (١٢٦) .

تقد كان علماء بغداد ابرز العلماء العرب الذين عملوا على تحويل علم المثلثات علماً مستقلاً . وكان البتاني (ابو عبدالله محمد بن جابر بن سنان) في المقدمة . فقد ادخل الجيب ، كما ادخل الظل والظل تمام ، وابتكر الجداول الرياضية لتظير المماس . واليه تنسب معادلات المثلثات الكروية الاساسية . « ويعتبر احد مؤسسي المثلثات احدثية باكتشافه غالبية النسب المثلثية الاساسية كما تستخدم في الوقت الحاضر . ومن أهم مؤلفاته في هذا الضمار رسالة في تحقيق اقدار الاتصالات » (١٢٧) .

أما البوزجاني (ابو الوفاء) عالم بغداد البارز فباسمه يقتصر تطور حساب المثلثات ، وكذلك القول عن أبي اسحق ابراهيم الصابي (ابن زهرون) ، الذي نشأ في بغداد ودرس فيها ، ومن مصنفاته (كتاب في المثلثات) وله عدة رسائل في اجوبة مخاطبات لاهل العلم بهذا النوع « (١٢٨) وجاء نصير الدين الطوسي (المتوفى ١٢٧٤ م) بابتكارات

ومع ذلك فان اخوان الصفا اولوا الهندسة النظرية جل اهتمامهم ، لان إتقانها « يؤدي الى الحذق في الصنائع العلمية ، لان هذا العلم هو احد الابواب التي تؤدي إلى معرفة جوهر النفس التي هي جذر العلوم وعنصر الحكمة ، واصل الصنائع العلمية والعملية ، اعني معرفة جوهر النفس » (١٢٢) .

واهتم علماء بغداد ، اوسع الاهتمام . بكتاب اقليدس ، لانه الباب الرئيس للعلوم الهندسية في ذلك العصر ، ومن هنا كثرت الشروح والتلخيصات العربية لهذا الكتاب . وطلع الكندي فيلسوف بغداد الموسوعي بكتابه الشهير (اغراض كتاب اقليدس) ، ولكنه طلع بكتب عديدة اخرى : من ابتكاره الاصيل ، في مختلف علوم الهندسيات (ومنها كتاب اختلاف المناظر ، كتاب في تقريب وتر اندائرة ، كتاب في تقريب وتر التسع ، كتاب في شروق الكواكب وغروبها بالهندسة ، كتاب في البراهين المساحية لما يعرض من الحسابات الفلكية ، كتاب في تصحيح قول ابقلاوس في المطالع ، كتاب في صنعة الاسطرلاب بالهندسة ، كتاب في استخراج نصف النهار وسمت القبلة بالهندسة وكتب اخرى) .

وكتب علماء بغداد الاخرون عديداً من الكتب الهندسية ، منها ما كتبه اولاد موسى بن شاكر (محمد واحمد والحسن) : ومن هذه الكتب « كتاب الشكل الهندسي » لمحمد بن موسى ، وكتاب الشكل الدور والمسططيل للحسن بن موسى . كما كتب ثابت بن قرة كتابه المشهور (كتاب في استخراج المسائل الهندسية) ، اضافة الى اعمال عديدة اخرى . واشتهر ابو الوفاء البوزجاني ب « كتاب في الاعمال الهندسية » . ويرى ابن خلكان ان البوزجاني كان احد الائمة المشاهير في علم الهندسة ، وله فيها استخراجات غريبة لم يسبقه اليها عالم آخر .

وهناك كتب عديدة اخرى الفها تلامذة مدرسة بغداد العلمية ، في مختلف العصور ، والامصار الاسلامية (منها ، مثلاً لاحصراً ، « شرح كتاب اقليدس في اصول الهندسة » للثريزي ، و « تحرير اقليدس » لنصير الدين الطوسي وكتاب « التجريد في الهندسة » المنسوب للطوسي ايضاً ، وكتاب مختصر اقليدس لابن سينا ، وكتاب اشكال التأسيس في الهندسة لشمس الدين السمرقندي ، وكتاب المدخل الى الهندسة لابي العباس المكناسي المتوفى سنة ١٦١٦ م (١٢٤) .

★ ★ ★

خاصة في القسرون التي تلت « الركيزة الاساسية لقرن الحساب في بلاد القرب . ولا ننسى علم الجبر الذي يعود الفضل الى العرب ، وفي تعليمهم الخوارزمي ، في وضعه وسكبه بقالب ترتيبى نظامي ، وجعله علماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ... ان أسلوب الرياضيات الذي عرفه القرب عن طريق العرب ، كان في حقيقة امره ، فتحاً مبدئياً جديداً . ذلك لان الزبي الهندي الذي كسا الاغريق الرياضيات به هذا العلم ترعه العرب وعوضوا عنه بأخر جبري حسابي .. ان علم الجبر لا يزال حتى هذا اليوم يحتفظ بطابع عربي ... وكما فعل العرب كل هذا ، كذلك فانهم يعتبرون المؤسسين الحقيقيين لعلم المثلثات ، وهذا لعمرى ، ميدان لم يخضه الاغريق البتة ولم يعرفوا عنه شيئاً وبهذا يكون العرب قد خلقوا ميداناً فسيحاً من العلوم ، كان من قبلهم مجهولاً ، صارت له أهمية كبرى في علم الفلك ، والابحار ، ومسح الاراضى إن أرقام العرب والآلات التي بلغوا بها حداً قريباً من الكمال ، وحسابهم وجبرهم وعلمهم في المثلثات الدائرية ، وبصرياتهم الدقيقة ، كل ذلك افضل عربية على القرب ارتقت بأوربا الى مكانة ، مكنتها عن طريق اختراعاتها واكتشافاتها الخاصة من ان تتزعم العالم في ميادين العلوم الطبيعية منذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه « (١٤٠) .

إن هونكه على مطلق الحق ، فان عقلية العرب كما تبرزها مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي وتلامذتها فيما بعد) عقلية رياضية ، تعتبر الرياضيات ركناً أساسياً في كل العلوم (بما فيها علم الفلسفة) ، وحسبنا الإشارة الى الكندي والرازي وجابر والخوارزمي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم .

- V -

لقد أنجزت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي إنجازها الهائل أيضاً في حقل علوم الطب والصيدلة والكيمياء والاحياء . ولقد عرضنا ، شيئاً ، لانجازات هذه المدرسة في الكيمياء والتجارب الكيميائية ، حين تحدثنا عن منهجية وتقاليدها مدرسة بغداد العلمية .

اصيلة من علم المثلثات ، وحسبه انه الف رسالته في الشكل الرباعي ، الشكل القطاع) . ويقول الأستاذ حكمت نجيب فيه . مستنداً الى بحوث طوقان والى دراسته المدققة هو ، ان علم المثلثات المستوي والكروي اصبح علماً راسخ الدعائم بفضل الطوسي ، أساساً . « فقد عرف الطوسي قانون الجيب في المثلثات المستوية وشرحه . اما في المثلثات الكروية ، فقد عرف وشرح المعادلات الست الخاصة بالمثلث القائم الزاوية . وبحث جميع الحالات الخاصة بالمثلث الحاد الزاوية ، واستنتج من ذلك العلاقة بين زوايا المثلث واضلاعه ، وبذلك يكون الكتاب (الشكل القطاع) اول كتاب يفصل المثلثات عن الفلك واصبح له الاثر الكبير في جعل علم المثلثات علماً مستقلاً . وترجم هذا الكتاب الى اللغات اللاتينية والفرنسية والانكليزية ، وبقي قروناً عديدة مصدراً لعلماء أوربا في المثلثات الكروية والمستوية « (١٣٩) .

وكان لمدرسة بغداد الرياضية في المثلثات تلامذتها ومطوروها في شتى اصقاع الدولة العربية - الاسلامية ، فقد كان ثمة جابر بن افلح ، وابن يونس المصري الذي اسهم في تقرب الطريق الى اكتشاف اللوغاريتمات ، وابو علي المراكشي صاحب كتاب (جامع المبادئ والفايات في علم الميقات) ، وأولوع بك السمرقندي التوفى (في ١٤٣٧ ميلادية) .

* * *

وحسبنا بعد هذا ان نستشهد ، في معرض فذلكه الاستنتاج اللازم من انجازات مدرسة بغداد العلمية وتلامذتها ومطوريها في الرياضيات ، ان نستشهد بالمستشرق الالماني زيفريدهونكه ، التي تبدو ، في كل الاحوال ، اكثر موضوعية بكثير من غيرها . تقول هونكه في كتابها « شمس العرب تطع على القرب ، اثر الحضارة العربية في اوربا » :

- « والعقل العربي الدقيق في تفكيره ، السريع في استيعابه للمسائل التي يغلب عليها الجفاف والخشونة ، كان اول من اتقى على القوائد وضوحاً ناصعاً في وضوح الماس . وكان الخوارزمي ، كذلك ، اول من طور فن الحساب ، وجعل منه فناً صالحاً للاستعمال اليومي العملي ومفيداً بقية العلوم ، بعد ان وسع فيه ونظمه تنظيماً دقيقاً . وهكذا اصبح فن الحساب هذا ، بالاضافة الى ما زاد عليه العلماء العرب وعلماء القرب ،

ونود الآن ان نعرض ، ولو بشكل سريع ومركز ، لانجازات بغداد وتلامذتها في حقل الطب والصيدلة .

لقد نقل طوقان إلينا في كتابه « العلوم عند العرب » ، مقولة للدكتور سارطون ، تقول : « .. ان بعض الغربيين الذين يجربون ان يستخفوا بما أسداه الشرق الى الغربان يصرحون بان العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً .. هذا الرأي خطأ .. لو لم تنتقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية ، ولولا إضافات العرب الهامة ، لتوقف سير المدنية بضعة قرون » (١٤١) . كما نقل إلينا مقولة وليم أويسر التي تقول - « ان العرب أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية ، وبلغت مهنة الطب عندهم أثناء القرن الثامن الى الحادي عشر للميلاد من المكانة والاهمية ما لا تكاد نجد له مثيلاً في التاريخ » (١٤٢) .

وواضح من هاتين المقولتين المكانة التي بلغها الطب العربي - الاسلامي عموماً (بما فيه الطب العراقي) ، والدور العالمي الذي لعبه في تطوير المعرفة الطبية . ان القارئ يستطيع الاستزادة من كتابين غاية في الاهمية هما « الطب العربي - لأمين شكر الله » (١٩٤٦) ، و « تاريخ الطب العراقي - لعبد الحميد العلوجي » (١٩٦٧) . وثمة كتب اخرى تضيف الكثير الى هذين الكتابين ، رغم انها تستند ، في معطياتها الاساسية ، إليهما .

لقد افردت المستشرقة الالمانية زيفريد هونكه الكتاب الرابع في موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب » لبحث الطب العربي - الاسلامي ، تحت عنوان « الايدي الشافية » . ومن الصعب ، حقاً ، الاتيان على كل ما جاءت به هذه الباحثة الاوربية الموضوعية المعاصرة بحق إنجازات طبنا العربي - الاسلامي ، ومدرسته البغدادية ، بخاصة . غير اننا سنشير الى بعض المقولات التي جاءت بها ، لانها ذات صلة وثيقة جداً بالموضوع .

لقد اختارت الرازي ، شيخ اطباء العرب دون منازع ، وقطب المدرسة البغدادية الطبية العلمية ، فقالت ، فيما قالت :

- « قبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية اصغر مكتبة في العالم ، لاحتوي إلا على مؤلف واحد ، وهنا المؤلف كان لعربي كبير . وكان هذا الاثر العظيم ذا قيمة كبيرة ، بدليل ان ملك المسيحية الشهير ، لويس الحادي عشر ، اضطر الى دفع اثني عشر ماركا من

الفضة ومئة تالر من الذهب الخالص لقاء استعارته هذا الكنز الغالي ، رغبة منه في ان ينسخ له اطبائوه نسخة ، يرجعون إليها إذا ما هدد مرض او داء صحته وصحة عائلته . وكان هذا الاثر العلمي الضخم يضم كل المعارف الطبية منذ ايام الاغريق حتى عام ٩٢٥ بعد الميلاد . وظل المرجع الاساس في أوروبا لمدة تزيد على الاربعمائة عام بعد ذلك التاريخ ، دون ان يزاخمه مزاحم او تؤثر فيه او في مكانته مخطوطة من المخطوطات الهزيلة التي داب في صياغتها كهنة الاديرة قاطبة ، وهو العمل الجبار الذي خطته يد عربي قدير . ولقد اعترف الباريسيون بقيمة هذا الكنز العظيم وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالاً . فاقاموا له نصباً في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم ، وعلقوا صورته وصورة عربي آخر في قاعة اخرى كبيرة تقع في شارع سان جيرمان ، حتى اذا ما تجمع فيه اليوم طلاب الطب وقمت ابصارهم عليها ورجعوا بذاكرتهم للوراء يسترجعون تاريخه ... فمن هو ؟ إنه الرازي ، او رازاس (Rhases) كما سمته بلاد الغرب ، واما اسمه الحقيقي فهو أبو بكر محمد بن زكريا . ولد في مدينة الري في خراسان ... كان اعتيادياً كالبقية دون ان تبرق بارقة تنبئ بنبوغه الفذ ، واهتم كغيره بالدراسات الفلسفية واللغوية والرياضية . ثم تعاطى الموسيقى فبرع فيها نوعاً ما ، واصاب شهرة محلية كمفمن وعازف ، وظل على هذه الحالة حتى الثلاثين من عمره ، ثم ضاق ذرعاً بهذا الفراغ الدائم وبهذه الرتابة ، فعزم على تغيير حياته جذرياً ، فذار ظهره لمدينته الأم وانطلق سعياً وراء تحقيق آماله وطموحه الى أين ؟ ... الى مدينة الشفاء ومدينة السلام، الى بغداد عاصمة الدنيا قاطبة وكعبة كل ذي قلب كبير يبغى الرفعة والسمو ! (١٤٣) .

وتستطرد هونكه في الحديث عن طبيب بغداد الاشهر ، ومعلمها الطبي الاكبر ، معرجة على بعض إنجازات واسانيد الطب العربي - الاسلامي في بغداد ، قبل الرازي :

- « وبكل قواه وتصميمه الاكيد اندفع في دراسة الطب فتعلم على يد تلميذ من تلامذة حنين بن اسحق ، رئيس مترجمي ابن موسى

فيه الكثير من مصالح أجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا النافعة لنا . وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منا والخفية المستورة عنا . . . وبه عرفنا شكل الأرض والفلك وعظم الشمس والقمر وسائر الكواكب وأبعادها وحركاتها . . . وإذا كان هذا مقدارده ومحله وخطره وجلاله فحقيق علينا ان نحطه عن رتبته ، ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله وهو الحاكم محكوماً عليه ، ولا وهو الزمام مزموماً ، ولا وهو المتبوع تابعاً ، بل نرجع في الأمور اليه ونعتبرها به ونعتمد بها عليه . . . فمضيتها على إفضائه ، ونوقفها على إيقافه . ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ومكده والحائد به عن سننه ومحجته . . . بل نروضه ونذله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه . فانا إذا فعلنا ذلك صفا لنا غاية صفائه ، وأضاء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به «(١٤٥)» .

وبالفعل . فقد أضاء العقل للرازي غاية إضاءته ، فقرن النظر بالتطبيق ، ووضع لنفسه منهجية علمية صارمة ، ووضع كثيراً من أجهزته وأدويته بنفسه (أو أشار الي صنعها) ، ولاحم الكيمياء والصيدلة بالطب . حتى قال فيه بعض الباحثين « ان الرازي مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب معاً » . وهو في الحقيقة المعلم الثاني في الكيمياء بعد جابر بن حيان ، والمعلم الأول في الطب العربي ، أو أبو الطب العربي بحق وحقيق . و « أحد أعظم أطباء الإنسانية اطلاقاً » على ما تقول هونكه .

إن عالم بغداد الكبير ، خريج ونتاج ومطور مدرسة بغداد العلمية ، الرازي ، قد بهر الجميع ، في الشرق والغرب ، بكتابه (الحاوي في الطب) ، مثلما بهرهم بكتابه (المنصوري) ، « الذي يحتوي على وصف دقيق لتشريح أعضاء الجسم كلها ، وهو أول كتاب عربي وصل اليها في هذا البحث . ترجم الى اللاتينية وكانت له أهميته في أوروبا ، وبقي معمولاً به عند الأطباء وفي الجامعات حتى القرن السابع عشر للميلاد »(١٤٦) . وللرازي كتاب الاسرار في الكيمياء « ترجمه كريغونا في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد ، وكان الكتاب المعول عليه والمعتمد في مدارس أوروبا مدة طويلة . وقد رجع اليه باكون واستشهد بمحتوياته . وكذلك للرازي كتاب نفيس في الحصبة والجذري ، وهو من روائع الطب الإسلامي عرض فيه للمرة الأولى تفاصيل هذه الأمراض وأعراضها والفرقة بينها ،

وكثير من الخلفاء ، وتعلم فن العلاج الاغريقي والفارسي والهندي والعربي الحديث المهد ، وعب منه عباً ، حتى إذا ما ارتوى قفل راجعاً الى بلده الأم ليعمل كمدير للمستشفى هناك ، ولكن ليس لمدة طويلة ، إذ ما لبث ان سعى الى الحصول على منصب رئيس الطبابة في المستشفى الكبير في العاصمة ، وفاز بمطلبه من بين الكثير من منافسيه وبهذا تفتحت امامه ابواب قصور الخليفة ليعمل فيها كطبيب خاص . ولم يعب وقت طويل حتى ذاعت شهرته في طول البلاد وعرضها ، فزحف طلاب العلم من كل اطراف الامبراطورية رغبة في تلقي المعرفة على ايدي الرازي العظيم وتعلم فنون المعالجة والكشف . والمعاينة الطبية كلما سار بين مرضاه في مستشفاه الكبير . فكان ان ازدحمت قاعات التدريس « بالاطباء وتلاميذهم وتلامذة غيرهم » ، وكان هذا حدثاً جديداً . واصبح الرازي حجة في علم الطب وأي حجة ، ومرجعاً أخيراً لكل الحالات المستعصية وممايتاً لا يعرف الخطأ ، ويسمى وراء الجميع من كل حذب وصوب «(١٤٤)» .

لا نعتقد انه ثمة حديث افضل موضوعية ، وبدقيقاً ، من حديث عالم أوربي بارز معاصر في فضل الثقافة العربية على الثقافة العالمية كهذا الحديث (ناهيك عن طلاوته ، وعناصر التشويق العلمي والروائي فيه) .

لقد اكدت هونكه ، فيما بعد . مثلما اكد كثير من المفكرين والباحثين العالميين من فردينالد ، ووستنفلد ، وكارادي فو ، وكارل بروكلمان ، وماكس مايرهوف ، ورونالد كامبل ، وغاريسون ، وادوارد براون ، وباكون الي غريغوريان ، وبارتولد ، ورمضانوف ، وشاه محمديف وغيرهم ، اكدت أصالة علم الرازي ، كبير اطباء بغداد ، وإبتكاراته الفذة . فباسم الرازي تقتصرن مقدمات الطب النفسي - الجسمي ، والطب الشعبي (طب الفقراء ، أو كما سماه الرازي نفسه في كتابه : « كتاب من لا يحضره الطبيب » ، وباسم الرازي تقتصرن حرية الفكر وتمجيد العقل ، فهو القائل (ويسمج لنا القاريء في تكرر مقولته العظيمة) : « . . . فبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ، وبحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل الي بغيثنا ومرادنا . . . وبه لنا الطب الذي

وقد ادخل فيه ملاحظات وآراء لم يسبق إليها .
وقد ترجمه الأوربيون الى اللاتينية وغيرها من
اللغات «(١٤٧)» .

ومن مآثر الرازي قوله بالعدوى ، وب عوامل
البيئة المادية في المرض ، وبجربة العقاقير على
الحيوانات قبل تجربتها على الانسان (وكان يجربها
على القرد ، بصفة خاصة ، باعتبارها الاقرب الى
الانسان) ، وبوجوب استئصال الخرافة والشعوذة
في الطب والمعالجة الطبية ، وبضرورة التدقيق في
الصناعة الطبية واحترام خصوصيتها وقوانينها
نظراً وتطبيقاً . تقول هونكه : « كان الرازي
ضيقاً عن اقتناع داخلي . وكان له اقتناع تام
بقدسية مهنته وبرسالته في المجتمع . وشعر
بمسؤولياته تجاه طبقة الأطباء ، ورأى في الشعوذة
وتجار الطب مضار وتدنيهاً للرسالة المقدسة ،
فحمل عليهم حملة شعواء كشفت النقاب عن
وجوههم امام الجماهير ، واضطر المسؤولون فيما
بعد ، كنتيجة لهذه الحملات ، ان يزدادوا صرامة
في تعليم الشيء الجديد . ثم ادخلت الامتحانات
وإعطاء الاجازات بعد ست سنوات من موته «(١٤٨)

ومن مآثر الرازي الطبية العنمية ، إلى ما
تقدم كله ، قوله بوجوب إيلاء الاهتمام الى المراقبة
السريرية ، وبالجملة بالاغذية دون الادوية إن أمكن
ذلك فقد قال : « ان استطاع الحكيم ان يعالج
بالاغذية دون الادوية فقد وافق السعادة «(١٤٩)» .

وتنسب للرازي كتب اخرى (اضافة الى ما
ذكرنا : الحاوي ، والمنصوري ، ورسالة في الجديري
والحصبة ، والأسرار وكتاب (الى من لا يحضره
طبيب) ، هي : سر الأسرار (الذي ضمنه منهجه
الطبي والعلمي ، و (الكتاب الفاخر) ، وكتاب
(براء الساعة) ، وكتاب الجامع أو « حاضر
صناعة الطب » بل ان ابن أبي أصيبعة ذكر له في
كتابه (طبقات الأطباء) : (٢٢٢) مؤلفاً ، فقد
اكثرها .

يقول الدكتور امين اسعد خير الله ، في كتابه
« الطب العربي » (الموضوع بالانكليزية ، والمغرب
بقلم الدكتور مصطفى ابو عز الدين ، والمنشور في
بيروت ، عام ١٩٤٦) ، يقول في وصف الرازي ،
انه كان شغوفاً بالقراءة والمطالعة والكتابة وهمه
الاكبر في الحياة ان يطالع كل الكتب الطبية ، وانه
اشتهر بدقة الملاحظة ، وهو الذي اختاره عضد
الدولة لبناء المستشفى العسدي في بغداد (فقد
اختار المكان الذي تاخر فيه تعفن اللحم عن غيره)
« وانتخب من بين مئة طبيب لرئاسة ذلك

المستشفى ، وكان بعد فحصه مرضاه ومراقبتهم
يدون الاعراض وسير المرض والملاج الذي
استعمل . وكانت هذه القيدود اساس كتابه
« الحاوي » . . . (كما) كان الرازي محباً لتلامذته
ومرضاه وخصوصاً الفقراء منهم الذين لا يكتفي
بعلاجهم بل يسعفهم بالمال أيضاً «(١٥٠)» .

إن قطب مدرسة بغداد الطبية وفيلسوفها
وكيميائها التطبيقي الأكبر والأشهر - الرازي ،
قد حاز بجدارة ، شهرة علمية عالمية ، وصيتاً
مستظيلاً ، سواء كان ذلك في عصره . أم في عصرنا
بعد الف عام ونيف . وها هي البروفسورة
الدكتورة هونكه تختتم فصلها الخاص بطبيب بغداد
الاكبر ، هكذا :

- « في شخصية الرازي الطبيب تجسد ، كما
في المرأة ، كل ما امتاز به الطب العربي وما
حققه من فتوحات علمية باهرة . فهو
الطبيب الذي عرف واجبه حق المعرفة .
وقدس رسالته كل التقديس ، فملات عليه
نفسه وجوانب قلبه وهو ينقد المعوزين
ويساعد الفقراء ! وهو الموسوعي الشمولي
الذي استوعب كل معارف سالفه في الطب
وهضمها وقدمها للانسانية احسن تقديم !
وهو الطبيب العملي الذي يعطي للمراقبة
السريرية اهميتها وحققها ! وهو المراقب
المفكر والباحثة الكيماوي المستقل والمجرب
الناجح ! وهو اخيراً المنهجي في عمله الذي
اضفى على الطب في عصره نظاماً رائعاً
ووضوحاً يثير الإعجاب . «(١٥١)» .

وبالفعل . فان العالم الاكاديمي والطبي ، في
كل أنحاء العالم ، وجد في الرازي عملاقاً لا يغال .
فخلده في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ،
على حد سواء ، وفي العديد من اقطار العالم .
بالتماثيل ، والنصب ، والاجنحة ، والمدارس
والجوائز باسمه .

لقد فصلنا ، بعض الشيء ، في الرازي
وعقليته ومنهجيته وطبه النظري والتطبيقي
وشخصيته العلمية ، ضاربين به المثل لاقطاب
مدرسة بغداد الطبية العلمية .

ولم يعيش الرازي في معزل عن سواه ، كما لم
تكن البيمارستانات (المستشفيات) البغدادية
وسواها من بيمارستانات الدولة العربية -
الاسلامية في العصر العباسي الكبير تزدهر بالرازي
وحده ، فقد كان ، إلى الرازي ومعه وقبله :
اساتذته ، وتلامذته ، ومعاصروه ، واخلافه .

وكان المرجع الرئيس لعلم التشريح في سالرنو بايطاليا(١٥٦) .

اما ابن سينا الذي تمجد به بغداد. وايران. وتركيا . وآسيا الوسطى ا بخارى اوزبكستان انسوفيتية وغيرها . فهو أسطع نجم في الطب العربي بعد الرازي . ويقدمه البعض عليه ، والحق ان المصنف الذي جاء فيه ابن سينا لابد ان يكون متقدماً في معطياته العلمية والطبية عن عصر الرازي الترائد . إضافة إلى خصوصيات شخصية وابداع ابن سينا الفذ . كان ابن سينا ، تلميذ ومطور المدرسة البغدادية في الطب ، والصيدلة والكيمياء الطبية . عالماً عبقرياً . موسوعياً . وقد اشتهر بكتابه (القانون في الطب) . الذي ترجم الى اللغة اللاتينية ولغات الأوربية عديداً من المرات ، « بالنظر لأهيمته العلمية كان الكتاب المدرسي في الطب في جامعتي مونبليه ولوفان في أواسط القرن السابع عشر »(١٥٧) . ابتدا ابن سينا كتابه (القانون) بالتشريح ، فعلم وظائف الاعضاء ، فعلم ضئاع الامراض ، فعلم العلاج . ولابن سينا كتاب آخر هو (الادوية القلبية) . كما له عدد مسن الارجيز الطبية .

ان من مآثر ابن سينا . مطور مدرسة بغداد الطبية وقطبها الثاني بعد الرازي . هي دقته في تشخيص ووصف التهاب السحايا ، واكتشافه (الدودة المستديرة) - الانكلستوما - قبل ان تعرف أوروبا ذلك بتسعمائة عام ، وقد اعترفت مؤسسة روكفلر ان ابن سينا عرف مصدر هذا المرض قبل ان يعرفه الطبيب الايطالي الذي نسب اليه هذا المرض (١٥٨) ، ومن مآثره ، الى ذلك ، اكتشافه ووصفه عضلات العين الداخلية ، والامراض التي تنقلها مياه الشرب ، واستخدامه علاج النفسي في التطبيب .

ومن تلامذة مدرسة بغداد الطبية أيضاً **امين الدولة بن التلميذ** (ابو الحسن هبة الله بن ابي انعاء صاعد ، التوفى عام ١١٦٤ م) ، وكان رئيساً للبيمارستان العضدي ، واشتهر بشروحه للكتب الطبية اليونانية والعربية .

وبرز في مختلف الامصار الاسلامية اطباء اختصاصيون ، ومؤرخون طبيون افادوا ، كثيراً ، من مدرسة بغداد الطبية الرائدة وإنجازاتها الضخمة . ومن هؤلاء عمران بن علي الموصلبي ، الذي اشتهر بكتابه « المنتخب في علاج امراض العين » ، ويعتبر « من أعظم طبباء العيون في عالم العرب ومن أكثرهم ابتكاراً وإصالة »(١٥٩) ،

فقد استفاد المنصور ، مؤسس بغداد عام ١١٤٥ هـ / ٧٦٥ م) جورجيس بن بختيشوع انسطوري من جنديسابور . لطيبه . وكلفه بتعريب العديد من الكتب الطبية . واشتغل ابنه بختيشوع وجبريل بتطبيب المهدي والهادي والرشيدي . وجعل الرشيد جبريل طبيبه الخاص ورئيساً للأطباء . واشتهر بمؤلفه (الروضة الطبية) .(١٥٢)

والى جانب آل بختيشوع . برز في الطب **يوحنا بن ماسويه** الذي اشتهر بالترجمة ، وتأليف العديد من المؤلفات الطبية (ككتاب البرهان . وكتاب البصيرة . وكتاب الكمال والتمام . وكتاب في الحميات . وكتاب في الادوية . وكتاب في الجذام . وكتاب في الاغذية) . وكان **حنين بن اسحق** الذي ذكرناه غير مرة في غير موضع لموسوعيته وتعدد اهتماماته . وقسطا بن لوقا(١٥٣) .

واشتهر في ناطب البغدادي ، نظيراً وتطبيقاً . الطبري « استاذ ابي بكر الرازي » ، واشتهرت كتبه ، مثل كتاب تحفة الملوك . وكتاب منافع الاطعمة والاشربة والعقاقير . وكتاب ترتيب الاغذية) . وقد ذكر علي بن سهل الطبري - (التوفى بعد ٨٥٠ م) في كتابه « فردوس الحكمة » . وهو اشهر كتبه ، ان مصادره وشيوخه هم : ابقراط . ارسطو . جالينوس ، يوحنا بن ماسويه . حنين بن اسحق) . وقد ثار الطبري على المختصرات . فالف كتاباً جامعاً « ليكون زماماً لها وإماماً محيطاً »(١٥٤) .

اما تلامذة مدرسة الطب البغدادية فلمسل اشهرهم ابن سينا . ولكن علي بن عباس سبقه زمنياً . وقد الف علي بن عباس : طبيب القرن الثامن الميلادي ، كتابه « الملكي » (كامل الصناعة) وقد انتقد فيه اسلافه من اطباء اليونان ، ونصح معاصريه بملاحمة للنظر بالعمل والافادة من الملاحظة السريرية ، وقال في ذلك : « ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة ان يكون ملازماً للبيمارستانات ومواقع المرضى كثير المداولة لامورهم واحوالهم مع الاستاذين الحذاق من الاطباء ، كثير التفقد لاحوالهم والاعراض المظاهرة فيهم ، متذكراً لما كان قد قرأ »(١٥٥) . وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية مرتين عام ١٤٩٢ (بفينيسيا) وعام ١٥٢٢ (بمدينة لندن) . ويذكر كاريون ان قسطنطين الافريقي قام بترجمته بين عامي (١٠٧٠-١٠٨٠ م)

في معرفة الأدوية سواء كانت من الاصل النباتي أو المدني أو الحيواني . فهم اول من الف الاقرباذين وكان يوحنا بن ماسويه السابق في هذا المضمار ثم تبعه سابور بن سهل من مستشفى جنديسابور الذي الف الاقرباذين الكبير المؤلف من سبعة عشر فصلاً والذي بقي مستعملاً حتى ظهور اقرباذين ابن التلميذ «(١٦٥)» .

وكان ابن التلميذ هذا « عميد اطباء بغداد ، ومؤلف الاقرباذين الكبير الذي كان يحتوي على عشرين فصلاً ، والذي بقي كتاب التدريس في البلدان العربية عدة قرون . وقد الف الاقرباذين الكبير الذي وضع لاستعمال المستشفيات «(١٦٦)» .

وكان لاطباء بغداد فضل اكتشاف ادوية جديدة كثيرة ، منها ، مثلاً لا حصر ، الكافور ، والسنامكة ، والصندل ، والمسك ، والراوند ، والمر ، والتمر هندي ، والحنظل ، وجوز الطيب ، وخانق الذهب (اكونيت) ، والقرفة . ومن آثارهم : أيضاً ، اكتشاف الاشربة والكحول والمستحلبات وخلصات العطور . وقد اشار مارتن ليقي ، العالم الأمريكي المعاصر ، الى فضل علماء بغداد الكبير في صنع العطور الطبية وغيرها ، وفي الاستخلاص والتقطير ، وبرز دور الكندي وكتابه في التصعيدات وكيمياء العطور ، كما اشار الى الرازي ، واثني على المدرسة الطبية - الكيميائية - الصيدلانية العربية ، وبرز دور رجالها في العلوم الطبية العالمية «(١٦٧)» .

ولم يكن مارتن ليقي الوحيد في ذلك ، فقد انضم اليه وسبقه علماء اوريون وأمريكيون ، واشتركوا عديداً . «(١٦٨)»

ويؤكد الدكتور أمين اسعد خير الله ان ابن سينا توصل الى تغليف الحبوب الموصوفة للمرضى ، وان اطباء العرب استنبطوا الترياق « المؤلف من عشرات بل مئات الادوية » ، وحسنوا تركيب الافيون والزئبق وتوسعوا في استعمالها ، وهم اول من استعمل الحشيش والافيون والزوان للتخدير «(١٦٩)» .

واهتم الكيماويون البغداديون والعرب عموماً . بتحضير العقاقير ، وكانت طرفهم في ذلك علمية متقدمة ، بل رائدة لعصرها وعصور كثيرة تلتها ، ومن طرفهم أو (تدابيرهم) : التلكيس ، والتشميع ، والتحلليل (كتحليل ماء الاملاح ، وتحليل الزئبق الحي وغيره) ، والتصعيد ، والتقطير ، والتنقية ، والاستنزال . وبرز الرازي

ومنهم ، أيضاً علي بن غيسى الكحال الذي اشتهر بكتابه (تذكرة الكحالين) وقد توفي سنة ١٠٢٦ م . « واكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة في اوروبا فترجم الى اللاتينية والعبرية «(١٧٠)» . اما اعظم مؤرخي الطب العربي فهو ابن ابي اصيبعة (موفق الدين) المتوفى سنة ١٢٦٩م وكان « من اطباء العرب المعروفين ، ترجم في كتاب واحد اطباء العالم المشهورين منذ بدء التاريخ حتى يومه ، الفه لامين الدولة وزير الملك ، الصالح ، وهو احسن كتب التراجم ، لا يضاهاه كتاب الا كتاب اخبار الحكماء لابن الفظي . فقد قضى سنين طويلة مدققاً ومحققاً حتى تمكن من تاليغه واسماه اطباء عيون الانباء في الاطباء «(١٧١)» .

ويرز أيضاً خلف بن عباس الزهراوي ، اعظم الجراحين العرب ، واشتهر بكتابه (التصريف) الذي ضم اقساماً في الطب والصيدلة والجراحة ، واستمر اكثر من خمسة قرون ، المعدة في الامور الجراحية في اوروبا ، وترجم الى اللاتينية مرات عديدة . «(١٧٢)»

اما ابن النفيس الدمشقي ، عالم القرن الثالث عشر الميلادي ، فقد كان إماماً في الطب ، اشتهر (بكتابه الشامل في الطب) ، وهو اول من وصف الدورة الدموية الصغرى قبل ان يكتشفها العالم الانكليزي وليم هارفي في القرن السابع عشر .

★ ★ ★

ولعل من اهم ابتكارات مدرسة بغداد العلمية في الصيدلة والكيمياء الطبية ، هي إفادتها مسن الأعشاب الطبية ، وكان الرازي يقول : الممسر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات الارض فعليك بالاشهر مما أجمع عليه . «(١٧٣)»

وقد وظفت مدرسة بغداد الطبية معارفها الكيميائية في خدمة الطب ، واشتهر في ذلك الرازي وابن سينا . وعلى العموم فان الكيمياء ، كما سبق ان تطرقنا الى ذلك في مفتتح البحث ، كانت ، وخصوصاً قسمها العملي (التطبيقي) علماً عربياً . « وقد عاشت تعاليم العرب في الكيمياء حتى القرن الثامن عشر «(١٧٤)» .

ويؤكد الدكتور أمين اسعد خير الله ، صاحب كتاب « الطب العربي - مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به » (الذي سبق ان اشرنا اليه) ، يؤكد ان العرب كانوا رواد علم الصيدلة ومؤسسيه ، « وكل صيدلية أو مخزن عقاقير في زمننا هذا يشير الى عبرتهم فقد برعوا

غاية في الاهمية ، وفي الدلالة العالمية للمستشفيات العربية في بغداد وسواها وعلم الطب والعلاج انعمي - الاسلامي في القرون الوسطى ، فتقول (في الفصل الثاني ، من كتاب « الايدي الشافية » ، في موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب » ، وعنوان هذا الفصل وحده دال بذاته « مستشفيات مشالية واطباء لم ير لهم العالم مثيلا » :

- « ... كان ثمة مستشفى عضد الدولة في بغداد باقسامه الواسعة ، ومستشفى التوري في دمشق مع مبانیه المخصصة لكل الفروع ، وجوهرة المستشفيات المستشفى المنصوري بالقاهرة ، وقد اعتبرت كل هذه المستشفيات اشهر المؤسسات الطبية في العالم العربي ... ولم يكن تأسيس المستشفيات وفقاً على الخلفاء والسلاطين أو الرجال الاغنياء ، وإنما داب أيضاً على تأسيسها الأطباء ، من أمثال سنان بن ثابت ، وثابت بن سنان ، ابن ثابت بن قره وحفيده ... كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب . وكان يتلقى الطلاب فيها علومهم . ويتعلمون كل ما قاله ابقراط وجالينوس وما جاء به اساتذتهم العرب الكبار انفسهم . وكانوا يستمعون الى كل هذا أيضاً في باحات الجوامع وفي مدارس خاصة طيبة كان يديرها اطباء معروفون . هذا وبينما طلاب العلم في بلاد الغرب يسهرون الليالي درساً وحفظاً على ضوء انشموغ في قاعات الاديرة كانت التجربة العملية هنا تسير مع العلم جنباً الى جنب ، وتجاهبه النظريات ، على اسرة المرضى ، حقائق المعاينة والكشف وحقائق التجارب . فتنفذ الظواهر تفصيلاً علمياً وتشبع الحالات المستعصية بحثاً ونقاشاً ، وعلاجها تفصيلاً وشرحاً ، بعكس ما كان يجري في بلاد الغرب حيث كانت النظريات الجافة تملأ عقول رجال الاكلمروس وتحول دونهم والاحتكاك بالمخلوقات ذات الدماء الحارة ! » (١٧٤) .

هكذا كانت هي الحال ، إذن ، في الدولة العربية - الاسلامية ، وهكذا كانت (بالمقابل) في اوربا التي كانت تظف في دبابير القرون الوسطى ! ولعل شهادة المستشرقة الالمانية هونكه هذه ، في غنى عن التعليق .

ابتدات بغداد تقاليدھا العلمية الراسخة في

في ذلك فهو أول من ادخل المستحضرات الكيميائية في الطب لاعتقاده الجازم بان تأثير الادواء إنما يكون نتيجة « عمليات حيوية تجري بين العقار وخلايا الجسم ، وهذا ما يؤيده العلم الحديث من ان الادوية تتفاعل في جسم الانسان تفاعلات كيميائية وفيزيائية ، مما يؤكد ان الرازي خطا خطوة كبيرة نحو علم الصيدلة أيضاً » (١٧٠) .

ولعل من ابرز مآثر العرب في مدرسة بغداد الطبية - الصيدلانية - الكيميائية ، بخاصة ، ادخالهم « نظام الحسبة ومراقبة الادوية » ، « اذ ان بعض الصيادلة لم يكونوا امينين ومخلصين في اعمالهم ، فكان قسم منهم لا يكتفي بالتدليس والغش ، بل كانوا من الاستهتار بدرجة انهم يدعون بان لديهم جميع اصناف الادوية ويعطون لمن طلب منهم اي دواء آخر ... فامر المامون بامتحان امانة الصيادلة ، ثم امر المعتصم ان يمنح الصيادلة الذي ثبتت امانته شهادة تجيز له العمل ، ثم ادخلت الصيدلة تحت مراقبة الحسبة . وانتقل نظام الحسبة الى اوربا ، ولا تزال كلمة « محتسب » تستعمل في اللغة الاسبانية بلقظها العربي حتى الوقت الحاضر » (١٧١) .

وفيدنا الدكتور امين اسعد خير الله ، انه منذ زمن المامون كان الصيادلة خاضعين للامتحان . والحصول على اجازة الممارسة ، وكانت صيدلياتهم خاضعة للتفتيش المنظم ، وكان يوجد في كل مدينة كبيرة عميد للصيادلة الذين كانوا يدعون عطارين (١٧٢) .

★ ★ ★

بيد ان عقريّة مدرسة بغداد الطبية - العلاجية ، لم تقتصر على التفوق والريادة العالمية في الطب النظري والتطبيقي ، والصيدلة ، والكيمياء الطبية ، بل تجاوزتها الى السبق في فن العلاج والتطبيب أو ما يسمى الاشفاء في البيمارستانات (المستشفيات) ، والصحة العلاجية والوقائية ، والصحة العامة عموماً .

تقول المستشرقة الالمانية البارزة ، زيفرد هونكه ، مقولة ذات دلالة خطيرة حقاً :

- « إن كل مستشفى ، مع ما فيه من ترتيبات ومختبر ، وكل صيدلية ومستودع ادوية في ايماننا هذه ، إنما هي في حقيقة الامر نصب تذكارية للعقريّة العربية » (١٧٣) .

ولا تلبث تملل مقولتها هذه بحدوث آخر

مفخرة من مفاخر الطب العربي . فقد كان له ساعوره (عميدة) ، كما كان له معاونوه من رؤساء الأقسام الأكفاء . وكان فيه أربعة وعشرون طبيباً يوزعون في اختصاصاتهم بين الأمراض انداخلية . والجراحة . وأمراض العيون . والتجبير . وغيرها . وقد تولى عمادة أطبائه أطباء مشهورون مثل جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع ، وابن التلميذ ، وثابت بن سنان بن ثابت بن قره ، وأبو بكر الرازي (الذي اختار موقعه) ، وصاعد بن بشر ، ونظيف النعس الرومي ، وأبو الخير بن أبي الفرج الجرائحي . وأبو الحسن بن سنان الصايي ، « وكان ساعوراً في البيمارستان . وله إصابات في الطب ، وندمة المعرفة والنوفيق في العلاج عجيبة » (١٧٦) .

تقد زار ابن جبير - الرحالة العربي الكبير - بغداد عام ١١٨٤ . ووصف المستشفى العضدي بأنه أشبه بالقصر ، يضم عدة أجنحة ، وعدداً كبيراً من الغرف . ويحتوي جيد الفراش ، والأوان الراحة . وفي كل قسم من أقسامه ماء جار من مياه دجلة . وقال في ذلك : « ... وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد . وهو على دجلة ، وتتفقد الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطلبون الخوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قومة يتولون طبخ الأدوية والأغذية وهو قصر كبير فيه القاصير والبيوت وجميع مرافق السكن اللوكية . والماء يدخل إليه من دجلة » (١٨٠) .

وقد تحدث ابن الجوزي في تاريخه المنتظم ، وابن خلكان ، وأبو المظفر في مرآة الزمان ، والعماد الإصفهاني في كتابه « نصرة الفترة » أحاديث مستفيضة عن المستشفى العضدي .

★ ★ ★

ويحدثنا الأستاذ ناجي معروف عن مدرسة الطب المنتصرية أي - مدرسة الطب في جامعة المنتصرية (البغدادية) ، فيقول - كان علم الطب من العلوم التي تدرس بالمنتصرية في بناية خاصة تقع تجاه المدرسة المنتصرية أي مقابل باب المدرسة الرئيس . وهي صفة فاخرة تحت الأيوان الذي تكامل سنة ٦٢٣هـ (١٢٣٥ ميلادية) ، وقد اتخذت هذه الصفة مكاناً لتدريس الطب ، ومداداة مرضى المنتصرية على اختلافهم . وذكر ابن العربي - أن طبيب المنتصرية كان يتردد إلى مرضاها في بكرة كل يوم يتقدمهم . وكان يطلق على

العلاج والأستشفاء في بيمارستانها الشهيرة . وكانت أول البيمارستانات التي بناها العرب ... قد أقيمت على يد الوئيد بن عبدالمك - إلا ان المنصور والرشد أنشأ هذه البيمارستانات . على تقاليد علمية ، فقد أنشأ الرشد بيمارستاناً في بغداد سماه باسمه ، وعهد لماسويه (من أطباء بيمارستان جنديسابور) برئاسته ، كما تولد جبريل بن بختيشوع أيضاً . وأقام البرامكة في بغداد بيمارستاناً تولاه ابن ذهني (١٧٥) أما البيمارستان الثالث فهو بيمارستان علي بن عيسى (الوزير) - عام ١١٤م . والبيمارستان الرابع - هو بيمارستان المتدري بناه الخليفة المتدر عام ١١٨م . وهناك البيمارستان الشهير بالبيمارستان العضدي ، بناه عضد الدولة عام ١١٨١م . وثمة بيمارستانات أخرى مثل بيمارستان ابن الفرات ، أنشأه ابن الفرات وزير المتدر ، و « بيمارستان بدر غلمان بنسي على طلب سنان بن ثابت » و « بيمارستان السيدة بناه سنان بن ثابت » (١٧٦) .

وانشرت البيمارستانات . بعد ذلك . على طريقة بيمارستانات بغداد (أو حتى بشكل أكثر تطوراً) في سائر أرجاء الامبراطورية الإسلامية (وذلك مثل بيمارستان حران ، وبيمارستان مجاهد الدين في الموصل ، وبيمارستان الرقة ، وبيمارستان ميفارقين ، والبيمارستان النوري في الشام ، وبيمارستان المجدومين في الشام - والبيمارستان الجديد في حلب ، وبيمارستان القدس (بناه صلاح الدين) ، وبيمارستان حماه . وبيمارستان مكة ، وبيمارستان المدينة ، وبيمارستانات شمالي أفريقيا والاندلس) (١٧٧) .

ويؤكد الدكتور أمين أسعد خير الله ان العرب في بغداد كانوا أول من بدأ التدريس في المستشفيات بطريقة علمية ، وأول من أقام الميادات الخارجية ، وأول من اهتم بإدارة المستشفيات وضبط حساباتها ، وأول من أوجب فحص الأطباء قبل الترخيص لهم بمعاونة الطب . كما كانوا أول من الحق بالمستشفيات الصيدليات القانونية . وأكثر من ذلك فانهم أوجبوا على الاخصائيين ان يقدموا امتحاناً خاصاً ويحصلوا على ترخيص خاص بالفرع الذي تخصصوا به . ويعلق الدكتور خير الله ، في الختام على تقديم الترخيص في التخصصات والفروع ، مذ أنذاك ، ان هذا أمر « لم ندره شأوه حتى يومنا هذا رغم تكرار الطلب والالاح » (١٧٨) .

لقد كان المستشفى العضدي في بغداد ، مثلاً ،

انجسيمي ، والتفاعل الكيمائي للعقاقير ،
والإضافات في التشريح والجراحة ، وطب العيون ،
وطب الأطفال . والصحة الوقائية ، والصحة
العمامة .

لقد أدت بيمارسانات بغداد وسواها .
الثابتة والمحمولة (التنقلة) ، والمستشفيات
الحربية ، والمستشفيات المتخصصة (كـ مستشفيات
انجدام ، ومستشفيات المجانين) ، ومآوي العميان
والإيتام والنساء العاجزات (التي أنشأها المأمون
في المدن الكبيرة) . ومستشفيات السجن .
ومحطات الاسعاف (بالقرب من الجوامع) .
ومدارس الطب الملحقة بالمستشفيات . لقد أدت
كل هذه المؤسسات الطبية البغدادية وما مثلها
في الإمبراطورية العربية والإسلامية دورها في حفظ
الصحة العامة . وفي « تقويم الأبدان » . وتنشئة
الواطن في الدولة العربية الإسلامية تنشئة صحية
سليمة يسهم بدوره في العمل والبناء والإنتاج
واسع النطاق . في الميادين الحياتية المختلفة .

ومن جملة تقاليد مستشفيات بغداد
ونظيراتها في الحواضر العربية والإسلامية تكريس
أقصى الاهتمام الرسمي والشعبي للمستشفيات .
وتخصيص الإيرادات ائدائمة لها ، وتجهيزها
بحسن الأثاث (حتى لقد قيل ان بعض أثاثها كان
بمائل أثاث قصور الخلفاء والأمراء) ، وبالغذاء
الصحي اللازم (بما فيه لحوم الأبقار والإغنام
وانطيور) . والتطبيب المجاني ، والتخصص في
أطبب والمعالجة (الأبدان ، والعيون . والاسنان ،
والجراحة ، والأمراض العقلية وغيرها) ، والفحص
الطبي العدلي (في العصر العباسي ، « عند حدوث
بعض الوفيات الغامضة أو الأغتيال ») (١٨٢) .
واستحداث أجنحة خاصة للرجال ومثلها للنساء .
والحاق بعض مدارس الطب بالمستشفيات ،
وتواجد صيدليات دائمة في المستشفيات ، إلى
جانب العيادات الخارجية ، والتابعة الدائمة .

وقد أورد الدكتور أمين أسعد خير الله ، في
كتابه : « الطب العربي » ، (الذي أشرنا إليه غير
مرة) ، ان المرضى كانوا يفحصون في مستشفيات
بغداد وما مثلها ، أولا في القاعة الخارجية فمن كان
منهم بحالة مرض خفيف يكتب له العلاج ويصرف
من صيدلية المستشفى . أما الذي هو بحاجة إلى
المعالجة في المستشفى فكانوا يدخلونه إليه . وبعد
قيد أسمائهم يعطون حماما وثيابا نظيفة وكانت
نيابهم القديمة ترسل إلى المخزن . ويبقى هؤلاء
المرضى في المستشفيات حتى الشفاء التام ...

هذا المكان البيمارستان او المارستان (أي
المستشفى) . وذكر ابن العبري وابن وأصل
وغيرهما انه كان في المستنصرية مخزن فيه أنواع
الأشربة والأدوية والعقاقير . ولا شك في ان هذا
المخزن كان بمثابة المذخر الطبي أو الصيدلية
فيها ... وما يحسن ذكره . في هذا الصدد ، ان
بناء مدرسة الطب المستنصرية بجوار مدرسة
الغقه ، ودار السنة ، ودار القرآن الخ كان أمرا
ضروريا وذلك لتسهيل معالجة المرضى في تلك
الجامعة الواسعة وللإستفادة من الامتحانات
الأخرى التي امتازت بها المستنصرية كالإستفادة
من دار الكتب . ومن المخزن ، ومن المطبخ الذي
كان الطعام يهيا فيه ويوزع على الطلاب وغيرهم .
ومما يتصل بمدرسة الطب ما ذكره عبدالرحمن
الأربلي بصد ما كان يدرس بالمستنصرية ، فقد عد
حفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان من الأمور التي
كانت تحظى بعناية هذه المدرسة وأطباها . وينبغي
ان نذكر ان كثيرا من علماء المستنصرية اشتهروا
بانطبب والتأليف فيه ، فقد كان البرزبي راسا في
الطب ... واليك ما وجدناه من أسماء أطباء هذه
المدرسة : ١ - شمس الدين ابن الصباغ ٢ -
سنجر الطبيب ٣ - علاء الدين الأربلي ٤ - ابن
الكتبي الشافعي ... (١٨١) .

واتفق معظم باحثي الطب العراقي . والعربي
- الإسلامي ، عموما وخصوصا أبرزهم :
(الدكتور أمين أسعد خير الله ، وعبدالحاميد
العلوي ، والدكتور مصطفى شريف العاني . ود .
احمد شوكت الشطي . ود . محمود دياب) وعديد
من المستشرقين (بينهم لوبون . وبراون . وكارا
دوفو ، وجاك بيرك . وآدم منز . وهونكه .
وغريغوريان . ونيكولسكي) . إضافة إلى قدرتي
طوقان ، وحكمت نجيب . وناجي معروف ، وجلال
مظهر (ممن بحثوا الطب العربي - الإسلامي ضمن
بحوثهم في الحضارة العربية - الإسلامية والعلوم
عند العرب) ، يتفق كل هؤلاء ، وعديد سواهم
على ان علم الطب عند العرب . وخصوصا في
مدرسته الأولى الأساس ، المدرسة البغدادية ، لم
ينحدر بالنقل والترجمة من الأمم الأخرى ، بل
تجاوز ذلك إلى الابتكار ، والتطوير ، فقد تقدم ،
نوعيا ، وكما ، بشكل استثنائي ، جراء النهجية
العلمية التي اتبعتها مدرسة بغداد في العلم والثقافة
والبحث العلمي ، على صعيد الملاحظة والتجربة
والتابعة السريية ، وويط النظر بالعمل والنظرية
بالممارسة ، ناهيك عن الابتكارات الأصلية في القول
بالصدوى ، وأثر البيئة ، وبالطب النفسي -

للأمراض من جديد ، فقد ذكر د . خير الله (يؤيده
العديد من المستشرقين والباحثين) :

« في هذا التاريخ كانت المستشفيات في أوروبا
مثل أوكار للأمراض والجراثيم . وهاك ما
قاله ماكس نوردو عن مستشفى « أوتيل
ديو » في باريس الذي كان معاصراً
لمستشفيات العرب ، والذي كان يعد حينئذ
من أحسن المستشفيات في أوروبا ، قال :
« في الفراش الواحد من الحجم المتوسط كان
يرقد أربعة إلى ستة أشخاص الواحد جنب
الأخر وأرجل أحدهم فوق رأس الآخر .
وكان الأطفال يرقدون بجانب الرجال المسنين
والنساء والرجال معاً ... وفي الفراش
الواحد امرأة في دور المخاض وبجانها طفل
بحالة النشنج ومصاب بالتيفوس في حالة
الهديان من ارتفاع الحرارة ومريض بالسل
يسعل سعالاً متواصلاً وبجانها كل هؤلاء
شخص مصاب بمرض جلدي يحك جلده حكا
شديداً بأظفاره الطويلة ... أما الأكل فكان
من أردا الأصناف وقليل الكمية ويعطى
بأوقات غير منتظمة ... والبنية نفسها تجم
بالحشرات الدنيئة . وكان هواء قاعات
المرضى فاسداً كريهاً لا يجرا الخدم ان
يدخلوها إلا اذا سدوا أنوفهم بالقطن المبلول
بالخل ... وكانت جثث الموتى تترك أحياناً
(٢٤) ساعة أو أكثر قبل ان ترفع من فراش
المريض وكانت تتصاعد منها الروائح الكريهة
ويحوم فوقها الذباب » (١٨٤) .

بل ان الدكتور خير الله يمضي أكثر من ذلك ،
فيستلهم تراث بغداد الطبي العربي من منظور
مقارن معاصر : ويقول في ختام استنتاجاته ،
مبرراً كل التبرير : « لذلك فالمستشفيات العربية
تعطينا دروساً مفيدة حتى في أيامنا هذه » (١٨٥) .

ولم يكن الدكتور خير الله بالوحيد في
استنتاجاته بخصوص التفوق العربي (البغدادي)
الحاسم للطب العربي في تلك العصور على سواء
(من طب أوربي وغيره) ، فان الباحث الوصلي
المعاصر الأستاذ الفقيه حكمت نجيب عبدالرحمن
يستنتج مثل ذلك (في كتابه « دراسات في تاريخ
العلوم عند العرب » منشورات جامعة الموصل ،
١٩٧٧) ، فيقول :

« استمر الطب مزدهراً عند العرب طيلة فترة
القرون الوسطى ، وأصبح فناً وعلماً تخصصي

وكانوا عند خروجهم من المستشفى يعطون بدلة من
التياب وملفاً من النقود يكفيهم العوز الى ان
يصبحوا قادرين على العمل ... وكانت صيدلية
المستشفى في عهدة صيدلي كفاء ... تضاهي في
حسن ترتيبها صيدليات هذا الزمن ... وفي
المستشفيات العمومية كان الساعور (اي عميد
المستشفى) مسؤولاً عن علاج المرضى ويعاونه
رؤساء الأقسام الأكفاء . وكان للمرضون رجالا
ونساء يقومون بخدمة المرضى بعناية متصلة . وفي
كل مستشفى كان يوجد أطباء مختصون بالأمراض
الداخلية او الجراحة او امراض العيون ... وكان
يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب فكان
الطلبة يجتمعون في القاعة الكبرى من المستشفى
حيث كانوا يراجعون دروسهم وينسخون
المخطوطات الطبية التي راجعها أساتذتهم
واصلحوها لهم . وكان هؤلاء الأساتذة يلقون عليهم
الدروس من مؤلفات جالينوس والرازي وعلي بن
عباس الجوسي حتى ظهر قانون ابن سينا الذي
كسف التعاليم السابقة له . وكان المساعدون
والطلبة يفحصون المرضى في العيادة الخارجية
ويعرضون الحوادث الصعبة على رئيس العيادة
وكانت الحوادث المهمة تشرح لهم شرحاً وافياً
ويوصف لها العلاج اللازم ... وعدا المحاضرات
التي كانت تعطى للطلبة على المرضى كانت تكتب
التعليمات اللازمة لكل مريض وتنفذ بدقة وتدون
الملاحظات عن كل مريض متبعة سير المرض . وقد
قبل ان الرازي بنى كتابه « الحاوي » على هذه
الملاحظات . وكان للأطباء الحرية بالتجربة للأدوية
الجديدة التي كانت تدون معلوماتها في كتاب خاص
تنشر تحت عنوان « المجربات » ... ولم يكن
يصرح لاحد بتعاطي الطبابة إلا بعد الفحص القانوني
... وكان أطباء المستشفيات يختارون بعناية
دقيقة فالرازي انتخب لرئاسة المستشفى العضدي
في بغداد من بين مائة طبيب ... (وكان الأطباء)
بتعاطون ما هو ضمن اختصاصهم فقط وذلك بعد
الامتحان والترخيص الخاص ... أما المشاورة
بين الأطباء فيما يختص بالمرضى فكانت تحدث كلما
دعت الحاجة إليها ... » (١٨٦) .

إن الدكتور خير الله (وهو من أوائل من
كتب عن الطب العربي في بغداد وغيرها ، إن لم يكن
أولهم) يستنتج من كل ذلك ، محققاً ، انه لا مجال
للمقارنة والحالة هذه بين طب بغداد ، مركز العلم
والثقافة العالمية في عصرها - وبين « الطب »
الأوربي في القرون الوسطى ، وهو شيء أشبه
بالشعوذة والدجل والفوضى ان لم يكن نشراً

المسيحيين الذين تشهد « اوراد القديسين » ان البابا فيليكس الرابع قد خصم بكنيسة قديمة في « الفوروم » انروماني ، تقول ، ليس بشيراً للخير ان يكون اساتذة هؤلاء الأطباء المسيحيين قد ولدوا عرباً ؟ (١٨٧) .

وبالمثل ، كانت باحثنا الالمانية الكبيرة ، في تمام موضوعيتها العلمية ، حين قررت ، في ختام كتابها « الأيدي الشافية » (أحد كتب موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب ») ، وبكل ثقة :

- « إن كل حبة من حبوب الدواء ، مذهلة او مسكرة ، إنما هي كذلك ، تذكر صغبر ظاهر ، يذكرنا باثنين من اعظم اطباء العرب ومعلمي بلاد العرب » (١٨٨) .

وهي تقصد بذلك الرازي طبيب بغداد الرائد الكبير ، وابن سينا خليفة الرازي ومطور تعاليمه الطبية في بغداد والدولة العربية - الاسلامية .

وإذا كان هذا رمزاً للتأثير العميق النافذ لدرسة الطب العربية الاسلامية ، ذات المنبع البغدادي ، وإذا كان التأثير العربي قد عاصر في ميدان علم العقاقير في اوربا فترة ما قبل النهضة ، والنهضة نفسها ، وتعداها حتى وصل الى القرن التاسع عشر (ففي عام ١٨٢٠ استعملت مصادر عربية في تصنيف الاقرباذين الاوربي) (١٨٩) ، إذا كان هذا قد تم ، بهذا الشكل ، فان بغداد ، كمركز للعلم والثقافة العالمية ، تكون قد بسطت تأثيرها العلمي والمعرفي ، إذا صح التعبير ، على الحضارة الاوربية في شتى عصورها ، بصفتها منبع و اساس ازدهار العلم العربي والثقافة العربية - الاسلامية التي اضلت بنفوذها اوربا والعالم كله ، خصوصاً في القرون الوسطى وعصر النهضة ايضاً .

- ٨ -

إن تراث العلم والثقافة في بغداد لا يتحدد بما سبق ان بحثنا لحد الان (الرياضيات ، والعلوم الفلكية ، والطبية) ، فتمة العلوم الطبيعية ، وثمة الجغرافيا ، والتاريخ ، والعلوم الاجتماعية او الانسانية ، ولكن إيفاء كل ذلك حقه ، بالتفصيل ، امر يكاد يكون مستحيلًا ، في مثل هذا الحيز . وحسبنا اننا اشرنا بتفصيل نسبي الى الاساس والجوهر - نعني بذلك المنهجية العلمية ، وتقاليده البحث العلمي في المدرسة البغدادية ، وهي التي كانت سر نجاح

له المعاهد الدراسية بحيث عرفوا عنه كل شيء قبل اختراع الجهر ... ولقد ذكر فزانك آدمز ان الأطباء العرب الذين اعطوا حياة جديدة لدراسة العلوم الطبيعية في اوربا وقدّموا خدمات جلى للأوربيين ، ليس فقط عن طريق حفظ اعمال فلاسفة اليونان وعلمائنا ، وإنما عن طريق ابتكاراتهم العلمية والتي قدمها علماءهم ، ومن بينهم في الطب والعلوم الطبيعية ابن سينا ، في الوقت الذي لم تكن فيه اوربا تعرف الطب بالمعنى الحقيقي وكانت متأنزة الى درجة كبيرة بالتماويد والاحجية والتمام ، مع الاستسلام لاقى انواع الدجل والشعوذة بالاضافة الى التعصب الديني . يورد الاستاذ درابر في كتابه The Intellectual Development in Europe

« بان الفلاح الاوربي إذا اصابته حادثة وفاجاته الحمى يسرع الى ضريح قرب قدس انتظاراً لحدوث معجزة تشفيه ، وأما العربي الاسباني فكان يعتمد على تعليمات طبية ومشرط وتضميد جراحي » انتقل الطب العربي مبكراً الى الغرب فانشأت المدارس الخاصة بالطب في مدن مونبلييه ، ونابلسي ، وبولونيا ، وبادوا واورليان ، واوكسفورد ، وكمبريدج وغيرها . وكانت هذه المدارس تستخدم كتب الطب العربية المترجمة الى اللاتينية ، متخذة ايها اساساً لتدريس الطب (١٨٦) .

ويبدو ان المستشرقة الالمانية المعاصرة - هونكه ، على تمام الحق ، حين اكدت تقول : « كان هناك رجل تغنى بظلمة الطب العربي وبراعة اساطينه فقال : « لقد برع العرب في علم الشفاء الى حد اعتقد المرء فيهم انهم مؤسسوا هذا الفن . وقد كان بإمكانهم ان يدعوا ذلك بسهولة لولا انهم لم يكتروا من ايراد الأسماء والكلمات اللاتينية واليونانية ، ولهذا فان كتب ابن سينا والرازي وابن رشد قد استقبلت بالثقة نفسها التي استقبلت بها كتب ابوقراط وجالينوس ، ونالت ثقة كبيرة ، حتى ان كل من حاول التطبيب بدون الاستناد عليها كان يتهم بسهولة انه يهدم المصلحة العامة » . هذا الرجل هو اجريافون ناتسهايم ، « الابن الرهيب » بين رجال الثقافة والعلم . ليس بشيراً للخير ان يكون اساتذة الأطباء والصيادلة

فهذا هو البروفسور برنارد لويس يشهد :
في جملة من شهدوا لتعلم العربي والعقل العلمي
العربي يقول :

« إن أوروبا تحمل ديناً مزدوجاً للعرب :
أولاً ، محافظة العرب على وقدة الفكر
الإنساني ، والميراث العادي والفكري لليونان
وتوسيعهم فيه ، وثانياً : في تعليم أوروبا
طريقة جديدة للبحث بوضع العقل فوق
السلطة » .

ويؤكد الباحثون المتصفون : من ذوي
النظرة الموضوعية في البحث والتحليل ، ان الفكر
العربي - الإسلامي كان ، من حيث الجوهر ،
فكراً تجريبياً . ويضيف هؤلاء قائلين ان ذلك لا
يعني ان هذا الفكر كان ضد القياس ، ذلك ان
التجربة ذاتها تتضمن القياس وتنص عليه :
وتتطلب عضواً . ويزيدون ، ايضاً ، قائلين ،
وللقول دلالة بالغة ، ان الفكر العربي -
الإسلامي قد تجاوز الأطر الصورية لنطق أرسطو ،
وتثبت بالتجربة العلمية متخذاً إياها ، في أكثر
الاحيان ، مصدراً للعلم والفلسفة . ويستنتجون
من كل ذلك ، محقين ، ان الفكر التجريبي العلمي
العربي - الإسلامي يلاحم بين الدراسة والتأمل
النظري والممارسة العملية ، أي ما نسميه نحن
بالتطبيق ، ويتجه ، بصورة أساسية ، الى
التحديد الكمي . وهكذا ، فهو ليس تقليداً للفكر
العلمي اليوناني ، بل هو ، كما يقول هؤلاء
الباحثون بالحرف « صفحة جديدة كسل
الجدة بالنسبة للفلسفة الأرسطوطاليسية
والإفلاطونية » (١٩٠) .

وبالفعل ، فان الاتجاه الى الكم والتجربة
هو خروج مباشر على مفهوم جوهرى في منطق
أرسطو هو التعريف . والتعريف أو الحد
الأرسطوطاليسى بالنوع والفصل مثلاً هو تعريف
يوافق النظرة الكيفية الى الأشياء .

وإذا كان رجال الفقه والأصول هم اول من
خرجوا على منطق أرسطو ، فان الفلاسفة
والعلماء العرب والمسلمين كانوا المطورين لهذا
الخروج العلمي الجليل ، الذي أدى ، في مراميه
البعيدة ، الى تثبيت عملية التجريب العلمي
وليس الاستخلاص المنطقي الشكلى نهجاً
لاكتساب المعرفة ، وادراك الحقيقة .

ويؤكد ذلك ، مثلاً لاحصراً ، ابن خلدون
(العالم العربي الكبير الذي يشهد له علماء العالم

العلوم العربية والثقافة العربية - الإسلامية في
بغداد ، سواء كانت علوماً رياضية ، أو فلكية ،
أو طبية ، أو طبيعية ، أو اجتماعية وإنسانية .

إن هذه النهجة العلمية التي قامت ،
أساساً ، بالروح العلمية والتقاليد العلمية .
والاخلاق العلمية ايضاً (تقاليد واخلاق البحث
العلمي) التي طلعت بها بغداد الحضارة العربية -
الإسلامية ، هي التي تقف وراء كل نجاحات علماء
بغداد والدولة العربية - الإسلامية في مساعيهم
وبحوثهم وانجازاتهم العلمية الجبارة .

ولعلنا مدعون هنا الى إيضاح حقيقة طالما
ثار حولها الجدل ، وهي حقيقة ابتكار وإصالة
الفكر العلمي العربي ، والثقافة العربية الإسلامية .
فكثيراً ما تهجم المتعصبون والمتحاملون والمتمزتون
من أعداء العلم ، وأعداء العرب (عرب بغداد
وغيرهم) ، وأعداء الشعوب والثقافة الإنسانية ،
على العرب وعلى الثقافة العربية - الإسلامية
ووصفوها ظلماً وعدواناً ، بالخواء والمهزال ، وبأن
دورها في التاريخ لا يعدو ان يكون دور الناقل
والمترجم للفلسفة وثقافة اليونان .

ويؤكد رينان ، مثلاً ، ان الساميين (ومنهم
العرب) - بل هو يقصد العرب باللغات - لا
يعرفون الثقافة والعلم والفلسفة الا تقليداً . وقد
ناصر العنصريون ، والامبرياليون ، والصهاينة ،
في كافة أنحاء المعمورة ، هذه المقولة الباطلة
ونشروها في كل مكان ، وبشتى السبل (خصوصاً
أيام الانتكاسات العربية وبعدها) .

وبالطبع ، فان الأغراض التي تختفي وراء
هذه المقولات واضحة تلخص في طمس الحقيقة
العربية وتشويه علوم العرب وثقافتهم ، والخروج
من ذلك الى القول بأن العرب أمة تابعة . من
حيث العلم والثقافة لغيرها ، وانه لا جديد لديها
ولا غناء ، وان التخلف فيها سمة عريقة ثابتة .

على ان الحقيقة العربية في بغداد العلم
والثقافة والبحث العلمي ، بغداد الحضارة
العربية - الإسلامية ، وفي كافة الأمصار في الدولة
العربية - الإسلامية الواسعة ، إنما هي امر لا
يمكن له (كأية حقيقة موضوعية ، تاريخية ،
مادية) ان يخفى أو يطمس . فالعلم العربي
والثقافة العربية - الإسلامية والروح العلمية عند
العرب هي من الضخامة والجلال والسطوع بحيث
ان يقوى على طمسها أي تزوير أو تزييف .
رجعياً ، كان ام امبريالياً ، أم صهيونياً .

**فانصرب ، في الواقع ، هم الذين ابتنعوا
طريقة البحث العلمي الحق ، القائم على
التجربة** (١٩١) .

وتعلم البروفسورة هونكه مقولتها هذه بشكل تستشهد ، في تضاعيفه بالبحث العامي العربي في بغداد ، أساساً ، وفي سائر الحواضر العربية - الإسلامية ، فيما بعد ، وتذكر ، ضمناً بالنظام ومدرسته المعتزلية الفكرية ، التي قامت على الشك سبيلاً الى الثبوت ، والتجربة والبرهان (مما عرضنا له آنفاً في فصل سابق من بحثنا هذا) ، فتقول :

- « ... لقد سرت بين العلماء الاغريق ، الذين لم يكونوا جميعاً بالاغريقيين بل كان اغلبهم من اصل شرقي ، سرت بينهم رغبة في البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات ، ولكنهم تقيدوا دائماً بسيطرة الآراء النظرية ولم يبدأ البحث العلمي الحق القائم على الملاحظة والتجربة إلا عند العرب . فمندهم فقط بدأ البحث الدائب الذي يمكن الاعتماد عليه ، يتدرج من الجزئيات الى الكليات . واصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين . وبرزت الحقائق العلمية كثمرة للمجهودات الفنيصة في القياس والملاحظة بصير لا يعرف الملل . وبالتجارب العلمية الدقيقة التي لا تحصى ، اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء العلمية مراراً وتكراراً ، فانبتوا صحة الصحيح منها ، وعدلوا الخطأ في بعضها . ووضعوا بديلاً للخطأ منها متمتعين في ذلك بحرية كاملة في الفكر والبحث ، وكان شعارهم في ابحاثهم - الشك هو اول شروط المعرفة - تلك هي الكلمات التي عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال . وعلى هذا الأساس العلمي سار العرب في العلوم الطبيعية شوطاً كبيراً ، أثر ، فيما بعد ، بطريق غير مباشر ، على مفكري الغرب وعلمائه ، أمثال روجر باكون ، وماجنوس ، وفيتليو ، وليوناردو دافنشي ، وغاليليو (١٩٢) . »

وتعلم هونكه بذلك قد قالت اتقول الفصل ، وحسنت هذه المسألة التي طال فيها الأخذ والرد ، وبودنا ان نعلق على مقولتين وردت في رايها هذا :

جميعاً بالريادة والسبق في علم الاجتماع . والاقتصاد ، والنظرة العلمية . وإعادة كتابة التاريخ بروح علمية . نسبة لوصفات المصير) تقول : يؤكد ذلك ابن خلدون في مقدمته لمنطق ارسطو حيث يقول : « إن الأقيسة المنطقية احكام ذهنية ، والموجودات الخارجية متشخصة . فالتطابق بينهما غير يقيني . لأن المادة قد تحول دونه ، اللهم الا ما يشهد له الحس من ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين المنطقية » . وينبغي ان نسارع للقول ، ان مقولة ابن خلدون هذه لا تعني القضاء التام على القياس المنطقي ، ذلك ان عمليات التجريب تتضمن في جوهرها عمليات قياسية جزئية .

وتدل ابحاث الجاحظ في الحيوان ، وابحاث الكندي الفلسفية ، ودراسات وابحاث وكشوف جابر بن حيان ، والكندي ، والرازي ، وابن الهيثم ، وابن رشد والبيروني وابن سينا وابن باجة وابن خلدون وغيرهم ، على ان الروح العلمية العربية ، كما بداها مصدر الأشعاع الفكري والحضاري العربي - الاسلامي ، بغداد ، روح اصيلة غير مستوردة ، او مقلدة . كما تدل : فيما تدل عليه ، على ان المنهج التجريبي العربي ، والتوحيد الجذلي بين النظرية والتطبيق ، والنظرة الشمولية للمادة والإنسان والكون ، والاتجاه الكمي ، والقيم التجريبية والحسية إنما كان مصافقاً لهذه الروح العلمية الاصيله لدى العرب . وشهادة بليغة على عمق وضخامة الإضافة العربية - الإسلامية (بالشكل الذي بدانه بغداد - المنبع ، والرائد) الى العلم والثقافة العالمية .

واذا كان لنا ان نستشهد ، هنا ، بشيء فاننا نشير الى مقولة البروفسور برنارد لويس - التي ذكرنا توا ، وهي تعليم العرب أوروبا طريقة جديدة للبحث . وهذه الطريقة الجديدة في البحث إنما هي طريقة البحث العلمي الموضوعي الجذلي ، وهي نفسها ما تشير إليه مستشرقتنا الألمانية البروفسورة هونكه حيث تقول : وكأنها تجيب عن التساؤلات حول دور العلم العربي والثقافة العربية - الإسلامية ، في العملية الحضارية والثقافية العالمية) ، وذلك في ختام بحث لها بعنوان « هدايا العرب للغرب » (في كتابها المشار اليه آنفاً) :

- « ... لقد طور العرب ، بتجاربيهم وابحاثهم العلمية ، ما اخذوه من مادة خام عن الاغريق ، وشكلوه تشكيلاً جديداً . »

« إن العرب لم ينفذوا الحضارة الاغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها ثم اهدوها إلى الغرب فحسب ، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع . وبالإضافة الى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سرق أغلبها ونسب لآخرين ، قدم العرب اثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهنت امام الغرب طريقه لمعرفة اسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم » (١٩٥) .

إذن فهدية العرب العظمى الى الغرب (وكل شعوب المعمورة) هي طريقة البحث العلمي الصحيح . وهنا هو سر مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، فهي التي اكتشفت هذه الطريقة ، وهي التي أتبعت هذه المنهجية ، وقد اتضح لنا ذلك ، في كل تضاعف بحثنا ، ومقتطفاتنا .

★ ★ ★

لقد نشرت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي طريقة البحث العلمي الموضوعي ، ولكنها نشرت الى جانبها ، بالضرورة ، وفي تفاعلية جدلية ، الكتاب ، والثقافة . فقد كانت بغداد عاصمة الثقافة في العالم ، ومنجم الفكر فيها . حسبا ان نستشهد بمقتطف صغير من أستاذتنا البروفسورة هونكه (وهو مقتطف تعززه كافة كتابات الباحثين العرب والمسلمين ، ومؤرخي الفكر والثقافة العربية - الاسلامية ، ويكفي ان نشر الى كتب الاساندة الاجلاء : طه حسين ، وأحمد أمين ، وعبدالحמיד العبادي في دراساتهم الاسلامية (فجر الاسلام وظهره وضحاها) ، والى كتب لوبون ، ومنتز ، وجالك بيرك ، وجيب ، وأرنولد ، وآربري ، وكراچكوفسكي ، وغريغوريان ، ورمضانوف ، وشاه محمدوف وغيرهم) . نقول هونكه (في كتابها : شمس العرب ص ٢٨٥) :

« ... وكما يقاس ثراء الناس اليوم بمدى ما يملكون من عربات فاخرة مثلا ، قسدر الناس - في ذلك العصر الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر - الثراء

١ . ان العناصر الشرقية ، غير الاغريقية (بين العلماء الاغريق) كانت ذا اصل سامي (عربي) . ويمكن الإشارة هنا الى أحدث البحوث في هذا الباب ، حول عروبة الساميين ، والهجرات العربية من الجزيرة ، وعروبة الحضارات القديمة في وادي الرافدين : البابلية ، والاكديية ، والآشورية وغيرها) - ، وخصوصا بحث الاستاذ الدكتور مصطفى شريف العاني « الطب العربي بين التراث والمعاصرة » ، مجلة « المورد » ، العدد الخاص « بالتراث والمعاصرة » ، العدد الثاني ١٩٧٨ (١٩٣) .

٢ . إن الشك الذي يبرزه بعض الباحثين الاوربيين غربياً اوربياً ، هو مذهب عربي ، معتزلي ، قال به النظام والجاحظ (من مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ، وقال به ابن الهيثم والبيروني (من تلامذة هذه المدرسة ومطوري تعاليمها ، فيما بعد) .

وقد عرضنا سابقاً لمقولات النظام المعتزلي ، كما عرضنا لمقولات الجاحظ في الشك والتجريب ، ونورد الان مقتطفاً لابن الهيثم ، يقول فيه (مبيناً قيمة الشك والتجريب والبحث وصولاً الى الحقيقة العلمية الموضوعية) .

« إنني لم ازل منذ عهد الصبا مروياً في اعتقادات الناس المختلفة ... فكنت متشككاً في جميعه ، موقناً بان الحق واحد ، وان الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك اليه - فلما كملت لادراك الامور العقلية انتظمت الى طلب معنن الحق ... فخصت لذلك ضروب الآراء والاعتقادات ... فرأيت اني لا اصل الى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الامور الحسية وصورتها الامور العقلية .. » (١٩٤) .

ومن هذا المقتطف يتبين شيئان - اولهما ربط التجربة الحسية بالتأمل العقلي الفلسفي عند ابن الهيثم ، والثاني هو التحويل على طريقة التناول (اي المنهجية ، التي يسميها ابن الهيثم ، جهة السلوك الى الحق) .

وتختتم هونكه رأياً السابق (المشار اليه آنفاً) باستنتاج حاسم للغاية ، تقول فيه :

الكتاب وصنع البارود وعمل إبره السفينة ،
فعلينا ان نفكر ماذا كانت نهضتنا او لم يكن من
ورائها هذه المخلفات التي وصلتنا من المدينة
العربية «١٩٧» .

وفي التأكيد على الكتاب والثقافة ، كمؤشر
اكبر على المدينة العربية في بغداد والحواضر
العربية والاسلامية الاخرى ، بطالعنا البروفسور
آدم منتر ، في كتابه (الحضارة الاسلامية في القرن
الرابع الهجري - من ترجمة محمد عبدالهادي
ابو ريده ، بمقارنة طريقة ، عميقة الدلالة :
« ... كان في مكتبة الكاندرائية بمدينة كستانز
في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون
كتاباً ، وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢ م ما
يزيد على المائة بقليل ... » (١٩٨) ومقابل ذلك
« ... عمل علي بن يحيى النجم ، وكان ممسن
جالس الخلفاء ، حوالي منتصف القرن الثالث
الهجري خزانة كتب عظيمة في ضيعته ، وسماها
خزانة الحكمة ، وكان يقصدها الناس من كل بلد
فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ،
والكتب مبدولة لهم والحيانة مشتتة عليهم ،
والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فقدم ابو
معشر النجم من خراسان يريد الحج ...
فوصفت له الخزانة ، فمضى وراها وهاله
امرها ، فأقام بها واضرب عن الحج ... وفي
٢٥٧هـ - ٩٦٧م صودر حبشي بن معز الدولة لانه
اراد عصيان اخيه امير بغداد ، فكان من جملة ما
اخذ منه خمسة عشر الف مجلداً سوى الاجزاء
وما ليس بمجلد ... » (١٩٩) . وبتنقل آدم منتر
من ذلك الى المكتبات العامة - التعليمية ، فيقول:

- « على انه قد ظهرت الى جانب دور الكتب
مؤسسات علمية اخرى تزيد على دور
الكتب بالتعليم ، او على الأقل باجراء
الأوراق على من يلازمها ، فيحكى عن أبي
القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى
الفتية الشافعي المتوفى عام ٢٢٢هـ-٩٣٥م
انه أسس داراً للعلم في بلده ، وجعل فيها
خزانة كتب من جميع العلوم وفقاً على كل
طالب علم ، لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا
جاءها غريب يطلب الادب ، وكان معسراً
اعطاه ورقاً وورقاً ... وفي سنة ٢٨٣هـ
أسس ابو نصر سابور بن اردشير وزير بني
بويه داراً للعلم في الكرخ غربي بغداد ونقل
اليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها ، وكان
بها مائة نسخة من القرآن بأيدي احسن

بمدى ما يفتنى من كتب او مخطوطات ...
ونمت دور الكتب في كل مكان نمو العشب
في الارض الطيبة . ففي عام ٨٩١م يحصى
مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد
باكثر من مئة . وبدات كل مدينة تبني لها
داراً للكتب يستطيع عمرو او زيد من الناس
استعارة ما يشاء منها ، وان يجلس في
قاعات الطالعة ليقرأ ما يريد ، كما ويجمع
فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات
خصصت لهم ، يجادلون ويتناقشون .
كما يحدث اليوم في ارقى الاندية العلمية
فمكتبة صفيره كمكتبة النجف في العراق .
كانت تحتوي في القرن العاشر أربعين الف
مجلد ، بينما لم تحو اديرة الغرب سوى
اثني عشر كتاباً ربطت بالسلال ، خشية
ضياعها . ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة
في مدينة الري اى عشرة فهارس كبيرة .
وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة ، بل انه
كان لكل مستشفى يستقبل زواره . قاعة
فسيحة صفت على رفوفها الكتب الطبية
الحديثة الصدور ، تباع لتكون مادة
لدراسة الطلاب ومرجعاً للأطباء ، يقفون
منه على آخر ما وصل إليه العلم
الحديث . ولقد جمع نصير الدين الطوسي
لمرصده في مراغة (... ر.٤٠٠) مخطوطة .
وحذا حلو الخليفة في بغداد في مختلف
انحاء العالم العربي ، فاربت ، مثلاً ، مكتبة
امير عربي في الجنوب على (١٠٠٠ ر.١٠)
مجلد » .

هكذا كانت بغداد ، وهكذا كان إشعاعها
العلمي والثقافي في سائر ارجاء الدولة العربية -
الاسلامية الواسعة .

وإذا كان هذا هو ما تقرره باحثة اوربية
موضوعية معاصرة ، مثل البروفسورة هونكه : في
القرن العشرين ، فان لغوستاف نوبون فضل
السبق ، فقد اشار الى ذلك إشارة مفصلة ، في
كتابه « حضارة العرب » ، في القرن التاسع
عشر (١٩٩) . وإذا كنا نشير الى الباحثين
الاوربيين ، فاننا نزيد بذلك تمزيق مقولاتنا
بشهادات موضوعية للعلماء مهمم كشف الحقيقة ،
ونشرها .

يحدثنا الأستاذ الراحل محمد كرد علي ، في
كتابه « الاسلام والحضارة العربية » (الذي اشرنا
اليه آنفاً) ان غوته قال : « ان العرب علمونا صنع

ويقرر كراچوفسكي ، وهو ناشر ومحقق كتاب (البديع) لابن المعتز ، والاعتبار (لاسامة بن منقذ) . والتحدث عن الادب العربي في بغداد واندوننة العربية الاندلسية . يقرر ان تأثير بغداد ودولتها العربية - الاسلامية ، على مختلف العصور . ظل بارزا ، ابدأ ، في جنوبي روسيا ، وآسيا الوسطى (الاسلامية ، بلاد ماوراء النهر) ، بل ان القرآن الكريم والعملية البغدادية وسواها في عهد الرشيد والمأمون وخلفاء بغداد ، والخلفاء الآخرين في الامصار الاسلامية (بلغت البلطيق ، وتجاوزته الى فنلندا) (٢٠٦) .

اما الاديب المؤرخ الفرنسي روبر بريغو ، فيقرر في كتابه « الشعراء التروبادور » - وفقا لما ينقله الاستاذ محمد مفيد الشوباشي ، في كتابه « العرب والحضارة الاوربية » - ان « اوربا كانت في القرن الحادي عشر ، والقرن الثاني عشر تتجه الى العرب باحثا عما استجد عندهم من صناعات وعلوم ... ومن فنون خاصة بالصلاح كانت السبب في تطورها وتبدل حالها ... كانت اوربا تتجه اليهم منتقبة عن كسوفهم في علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، بل كانت تبحث عندهم عن آثار ارسطو ، وابن سينا ، وابن رشد . وكان علماءنا من امثال ادنيال دي موري ، و اميشيل سكو توس) و (دي جريمون) و (دوريلاك) و (ريمون لول) يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم . ووجد (ريجيو مونتانوس) عندهم المعارف التي مكنت (هنري الملاح) و (فاسكو دي جاما) و (خرستوف كولبس) من ارتياد المحيطات ، والوصول إلى أطراف العالم وبحث كل من (البير الاكبر) و (توماس لين) عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها في بلنسية ، وعن الفارابي ... وفي الوقت الذي انشد الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة اسبانيا العربية صرح (روجر بيكون) في ايسفورد بان وجود الفكر الاوربي ، والعلم الاوربي كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية . لقد دعيت اوربا فحياة الى الحياة بعد ان ظلت غارقة في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهي مدينة بكل مقوماتها الى العالم الاسلامي (٢٠٣) .

إن هذه الشهادة العلمية من روبر بريغو ليست بالوحيدة ، وقد شهدنا لها مثيلات كثيرات ، عرضنا بعضها ، وقد نعرض غيرها . وبالطبع ، فانه ليس كل المفكرين الفرنسيين مثل غوستاف لوبون ، أو بريغو ، أو غارودي ، أو

النساج ، هذا الى عشرة الاف واربعمائة مجلدة اخرى معظمها بخط اصحابها أو من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون . . . وكذلك اتخذ الشريف الرضي (المتوفى عام ١٠٦٠هـ - ١٠١٥م) ، نقيب العلويين والشاعر المشهور دارا سماها دار العلم وفتحها لطلبة العلم وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه . وبدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور انكتب القديمة ، فكانت دار الكتب قديما تسمى خزانة الحكمة ، وهي خزانة كتب ليس غير ، اما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها ... (٢٠٠) .

إن كل هذا الذي يقرره البروفسور متزن وينقله لنا يبدو صحيحا في خلفية فكرية تقول ان حضارة العرب في بغداد كانت شاملة ، متلاحمة ، بحيث يبلغ عدد اطباء مثلا ثمانمائة رجل ونيفا وستين رجلا في جنوبي بغداد « سوى من كان في خدمة السلطان » . وبحيث تضم سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد أكثر من مئة متجر ... بعد كانت حضارة متكاملة حقا . وكانت ببغداد قلبها النابض .

★ ★ ★

وبكلمة ، كانت بغداد الحضارة العربية - الاسلامية ، منبع الفكر والعلم والثقافة العالية في القرون الوسطى . والتفديل الواج للمعرفة لامد كبير من الزمن ، وقد امتدت تأثيراتها الى سائر ارجاء الامبراطورية العربية - الاسلامية ، والى عديد من الدول والمناطق الأخرى في العالم (من الفولغا في روسيا ، وبحر الخزر وداغستان . والصين والشرق الأقصى ، الى المغرب الأقصى . والاندلس حيث كان لا يعترف بالفضل العلمي والثقافي والفني إلا ما هو مشرقى ، وبغدادى ، بخاصة) .

يتحدث الاكاديمي البروفسور الراحل كراچوفسكي في فصول عديدة من أحد مختارات كتبه عن التأثير الثقافي العربي في داغستان ، وجنوبي روسيا . وقد ضمت مجلة « المورد » البغدادية بين جوانبها (في العدد الثاني ١٩٧٩) مقال كراچوفسكي عن داغستان واليمن ، وهو يتحدث فيه ، عن تأثير الثقافة والادب العربي ، واصوله البغدادية في داغستان (والترجمة لكتاب السطور) (٢٠١) .

جاء بيرك . فهناك رينان الذي أنكر على الساميين الشرق . في حين قدر للبصرة ان تغدو على مسر الزمن أبرز الموانئ العربية . ومحط رحال التجار ومركز تبادل الصادرات والواردات ، ومخزن البضائع المستوردة من الهند والصين ومصر وأفريقيا الشرقية . وكانت البضائع المصدرة تنقل من البصرة الى سرفاف (على الخليج العربي) ، ومنه تشحن على السفن الكبيرة الى الهند والصين . وفي الوقت نفسه لم تفقد موانئ مصر والبحر الاحمر اهميتها ، فقد ظلت تمارس دورها في التجارة العالمية ، واعتبر ميناء مخا في اليمن وميناء مكللا في حضرموت وعمان على انساحل الجنوبي للخليج العربي . من أنشط الموانئ العربية والمعها ذكرا في التجارة العالمية القديمة والوسيلة مع الشرق الاقصى (٢٠٥) .

يتبين من حديث الأستاذ السامر ان بغداد اصبحت بالفعل قلب التجارة العالمية في القرون الوسطى . ودون شك لا يمكن ان تؤخذ بغداد لوحدها . كمدنية - بل ان بغداد كانت عاصمة دولة واسعة (هي ابر الدول في تلك الحقبة الزمنية : تمتد من الصين الى الاطلسي) ، كما ان بغداد كانت عاصمة حضارة ناشطة تمثلت حضارات سابقة وابتكرت إضافاتها الكبيرة الجديدة ، الخاصة بها . وعاصمة ثقافية للدين فيها ، اكثر الاحيان ، مقام اول .

وبالطبع ، فان التجار العرب لم يكونوا سواها . كما ان التجارة في ذلك الوقت لم تكن بالشكل الذي هي عليه الآن ، فالتجار العرب كانوا يقيمون مستوطنات خاصة بهم ، في كل مكان يحلون به ، وكل قطر يتجرون معه ان انتشار المستوطنات العربية . وما تبعه من انتشار الجاليات العربية (٢٠٦) ، استتبع ، بالضرورة ، نشر الثقافة العربية - الاسلامية ، التي تستمد معيها الاول من بغداد قلب الدولة العربية - الاسلامية ، ومركز ثقافتها النابض الموار .

وإذا ما استشرنا الأستاذ السامر ، مرة اخرى ، فاننا سنفهم ان للتجارة العربية «وجها» علمياً ، ثقافياً القأ ، من العثم ان يطمس ، ومن المستحيل ان يحجب . يقول السامر : « ... يجب ان نقرر حقيقة ذات أهمية كبرى ، هي ان كثيراً من منجزات العرب والمسلمين في حقل الحضارة والثقافة والاداب والفنون ، ذات علاقة مباشرة بحمية المسلمين في نشر دينهم في كل بقعة يستطيون الوصول إليها ، باعتبار ذلك جزءاً من

ودارين التي استمرت تلعب دورها في التجارة مع ! بمن فيهم العرب) العلم والحكمة والفلسفة . وثمة عقدة لدى بعض المؤرخين والمفكرين الفرنسيين تكمن في عدم رغبتهم في الاعتراف بتفوق التراث الاسباني الاندلسي ، او في الاقرار بان حضارة فرنسا المعاصرة وثقافتها وعلومها اخذت الكثير من اصولها من الحضارة والعلم العربي الاندلسي المنتقل الى فرنسا عن طريق اسبانيا . او عن طريق جنوبي فرنسا ، التي حل العرب في اجزاء عديدة منها ، اهدأ من الزمن (٢٠٤)

وبالنسبة للتراث العلمي - الثقافي العربي - في بغداد ، بخاصة ، فان انتقاله إلى العالم اجمع (بما فيه القارة الاوروبية) ، تم بعدة طرق منها المباشرة ومنها غير المباشرة . فمن الطرق المباشرة الانتقال بواسطة التجارة ، فقد كانت بغداد مركزاً تجارياً ناشطاً ، بل لعلها كانت قلب التجارة العالمية في القرون الوسطى (لتوسطها بين آسيا وأفريقيا وأوروبا) . كما كانت مركز القوافل المختلفة . وملتقى الطرق التجارية ومنطلقها الى الشرق والغرب ، على حد سواء .

يحدثنا الأستاذ الدكتور فيصل السامر في كتابه القيم « الاصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى منشورات وزارة الاعلام في بغداد ، ١٩٧٧ » حديثاً ذا قيمة استثنائية ، بهذا الصدد ، نستطيع القارئ الكريم عدراً في اقتطافه ، للتوثيق والتعميق يقول السامر : « كانت التجارة عاملاً مهماً من عوامل انتشار الاسلام والثقافة العربية في مناطق واقليم قاصية . ذلك ان العرب حلوا سياسياً وعسكرياً محل الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية . ومن ثم قبضوا على اعنة التجارة العالمية في اعصور الوسطى ... إن تطور التجارة العربية مع الشرق ارتبط بقوة الدولة العربية الاسلامية وامتدادها إلى اقالم شاسعة ممتدة من جزر الكناري على ساحل أفريقيا الغربي غرباً وحدود الصين شرقاً وبين القوقاس شمالاً وسواحل البحر العربي جنوباً . وقد ادى ضم بلاد السند الى الدولة العربية إلى تنشيط التجارة العربية البحرية مع الشرق ، وبخاصة مع الهند . ويعتبر بناء بغداد من قبل الخليفة ابي جعفر المنصور حدثاً مهماً وخطيراً في النشاط التجاري مع الشرق . إذ ربطت عاصمة الدولة العربية لأول مرة مباشرة وبطريق المواصلات المائية بالبحر العربي عبر موانئ الخليج العربي كالابلّة وصحار

والصين ، وآسيا الوسطى ، والملايو ، واندونيسيا وغيرها .

وتشهد الف ليلة وليلة ، التي تقترن دائما باسم بغداد ، والتي تركت دوبا كبيرا في مملكة افكر والادب انغالي (بحيث ان العديد من ادباء العالم يعترفون بتاثيرها على إبداعاتهم القصصية والشعرية والفكرية والفنية وحتى الفلسفية ، وذلك كقولني وسوزي وبابرون ، وتولستوي ، وجيرنيشيفسكي وعديد غيرهم) ، تشهد على مدى سعة التأثير الادبي العربي، المطلق من بغداد الدولة العربية - الاسلامية ، بدءا واساسا ، في الادب الاوربي بخاصة ، والادب العالمي عامة . وإذا ما عدنا الى السامر ودراسته التاريخية - الحضارية (عن الاسول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى) ، الكتاب الذي استشرناه نوا ، فاننا سنجد ان (الف ليلة) استمدت بعض اصولها القصصية - الاسطورية ، متبادلة التأثير والتاثير مع القصص الملاوية والفيليبينية . وهو يقول في ذلك : « إننا لا نريد هنا ان نستعرض القصص والحكايات الاسطورية التي رواها الرحالة العرب والمسلمون ، فهي كثيرة ومدونة في بطون الكتب ، وما على القارى، إلا ان يرجع اليها في مظانها . نكني أردت ان اشير الى ناحية مهمة هي ان حكايات الف ليلة وليلة (وخاصة رحلة السندياد البحري) تشبه القصص الملاوية والفيليبينية التي وجدت في تلك البلاد منذ العصر الخرافي » (٢٠٩) .

وقد ساحت (ألف ليلة) في بلدان العالم طرا . وترجمت مئات المرات الى كثير من لغات العالم ، وكانت مليما فذا لخيال كثير من الشعراء ، والتصفيين . والفنانيين ذوي الموضوعات الشرقية ، الرومانتيكية خصوصا وللأساتذة فاروق سمح ومحمد مفيد الشوباشي ، وعبد الجبار السامرائي ، والدكتور محسن جاسم الموسوي والدكتورة سهر القلماوي ، وغيرهم من اباحثين العرب المحدثين ، ولكتاب السطور ايضا ، دراسات في هذا الموضوع الهام في العلاقات الادبية العربية - العالمية والادب المقارن (٢١) .

وعلى صعيد اخر ، انتشرت الامثال والمأثورات العربية في سائر أرجاء الدولة العربية - الاسلامية ، وتجاوزتها الى كثير من اقطار الشرق والغرب . ويمكن للقارى ان يتتبع ، مثلا لا حصرا ، دراسة كاتب السطور « دراسة مقارنة في الامثال الروسية والعربية » ، ليلمس تاثير

رسالة الاسلام في ان يدفو ديننا للبشرية جمعاء . هذا النشاط بحد ذاته دفع بالكثيرين من المسلمين : تجارا وعلماء وفقهاء ورحالة وبحارة الى ان يسبحوا في دنيا الله الواسعة ، وفي اذهانهم هدف نشر الدعوة الاسلامية . كما ان هذه المنجزات ارتبطت بهدف ثان هو النشاط التجاري والاقتصادي الذي صاحب توسع الدولة العربية وامتدادها الى اقاليم شاسعة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وهنا يجب ان نضع في اذهاننا حقيقة اساسية ، هي ان التاجر العربي المسلم ، في سعيه لاقتناء الربح في البيع والشراء ، كان دائما يبذل جهده في نقل عقيدته ويصالها الى جميع أولئك الذين يقدر له ان يتعرف عليهم في رحلاته في الأقاليم التي يذهب اليها . (٢٠٧)

وقد نشأت عن هذه التجارة الناشطة ، المتسعة باطراد ، والمربطة ، جدليا ، باشتداد شوكة الدولة العربية - الاسلامية الواسعة ، نشأت عنها جملة عوامل ، ساعدت كلها في نشر تاثير بغداد العلمي - الثقافي (الذي كان يمثل ، بجدارة ، جوهر التأثير الفكري والحضاري العربي - الاسلامي ، خصوصا في عصور ازدهار الحضارة العباسية) .

ومن هذه العوامل ، الاستيطان والتزاوج ، ومنها الرحلات العلمية (الجغرافية - التاريخية)، ومنها كذلك السفارات والوفادات وتبادل الهدايا إن هذه العوامل غير المباشرة التي ارتبطت بالتجارة ، ارتبطت ، في ذات الوقت ، بالفن والحروب ، وقد تفاعلت كلها ، جدليا وعضويا ، لتؤدي ، في نهاية المطاف ، الى نشر الدين الاسلامي ، وبسط لواء الثقافة العربية - الاسلامية بأوسع نطاق ممكن . ويصح هذا على التوسع الثقافي ، الحضاري العربي - الاسلامي في الشرق ، كما يصح على هذا التوسع والامتداد في آسيا الوسطى والقفقاس وحوض بحر الخزر ونهر الغولغا ، وفي افريقيا . (٢٠٨)

إن التلاقي والتفاعل الحضاري الذي اشتد أواره في عهد الدولة العربية - الاسلامية ، في العصور العباسية الاولى ، وابتان الازدهار العربي - الاسلامي في بغداد ، قد أدى ، في ذات الوقت ، الى إغناء الفكر العربي ، وتعميق الثقافة العربية - الاسلامية ، مثلما أدى الى نشر هذه الثقافة في الاقطار المتوحدة ، والاقطار المتاجر معها ، والاقطار التي كانت تقيم فيها جاليات عربية كبيرة (كالجاليات العربية في الهند ،

ورحلته الى الشمال ، والغولغا وروسيا ، وعن رحالة آخرين ، بحيث ان مؤلفات هؤلاء الرحالة اعرب والمسلمين تعتبر الان مصادر لدراسة تاريخ روسيا . وشعوب اسيا الوسطى والقفقاس وما وراء انغفاس في القرون الوسطى (٢١٤) .

إن سفارات ووفود العرب الى الصين (خصوصا في العصر العباسي) . والترحيب العظيم الذي لقيته هناك ، ثم إقامة المستوطنات العربية ونشوء الجاليات العربية في الصين ، إنما يشهد نعضمة الدولة العربية - الاسلامية ورسوخ حضارتها . ويذكر الاستاذ السامر انه « جاء في التواريخ الصينية : اشار الوزير (لي مي) على امير اخور الصين بضرورة اقامه امن الروابط مع العرب . فسأل الامبراطور : ولم لا فاجاب الوزير : ان العرب هم اقوى الامم في هذه الايام » (٢١٥) . ويؤكد السامر انه بعد عديد من الاحتكاكات العدائية بين الدولتين الكبيرتين العربية والصينية . استمرت العلاقات وتحولت ودية . خصوصا بعد تدخل العباسيين ، ايام المنصور نضالغ اسره (نانغ) الصينية الحاكمة . ويقول السامر : طلت انسفارات عباسية تترى ابي عاصمة الصين وكانت اهمها تلك التي ارسلها المنصور والمهدي والرسيدي (الذي سماه الصينيون « آلون ») . ذلك ان بناء بغداد ادى الى ازدهار الحركة التجارية مع الشرق الاقصى بحيث ارتبطت عاصمه العباسيين ارتباطا وثيقا بالطرق التجارية البرية والبحرية مع تلك الجهات . ويظهر من المصادر العربية ومؤلفات ابن خرداذبة والمسعودي وابن بطوطة ، ان العلاقات التجارية بين العباسيين وبلاد الصين اصبحت منتظمة منذ القرن الثاني وزادت انتظاما في القرن الثالث الهجري . وكان من نتيجة هذه المصالح التجارية ان اهتم العباسيون بتقوية العلاقات الدبلوماسية مع بلاد الصين ، كما اهتموا بتقوية الاسطول الحربي لحماية التجارة القادمة من الصين والهند . . . (٢١٦) . ان هذه العلاقات العربية - الصينية الوطيدة ، اسفرت ، في تضاعفها ، عن علاقات ثقافية وعلمية وطيدة ، هي الاخرى (وان لم تبلغ شأرا العلاقات الثقافية العربية - الهندية) .

ويشهد انقارابي ، وابن سينا ، والبخاري ، وابن المقفع ، والبيروني ، وعديد من علماء اللغة ، والاداب ، والتاريخ . والجغرافية ، والفلسفة ، والاسلاميات (بكل علومها) ، من ابناء شعوب

المثورات العربية العميق في آداب شعوب الاتحاد السوفيتي ، وتأثير الاسلام ، والرحلات ، والتجارة ، والجاليات العربية ، والتفاعل الثقافي المتبادل وغير ذلك من العوامل في ذلك . (٢١٧)

إن كراچوفسكي ، شيخ المستعربين السوفيت ، واحد اكبر المستشرقين في العالم ، يؤكد . في كتابه تاريخ الادب الجغرافي العربي . ان الرحلات وانرحانه . واسفار التجار قد اثرت كثيرا في نشر العنصر والحكايات والاساطير والامثال والابداعات الثقافية العربية في اصقاع كثيرة في العالم بل ان كراچوفسكي قد تحدث عن ادب عربي الضمون والشكل في ارجاء عديدة في اجنوب السوفيتي . خصوصا في انغفاس . وقد عقد حول ذلك دراسات قيمة (ترجمنا اثنتين منها لمجلة « المورد » الفراء هما : داغستان وانيمس . والادب العربي في القفقاس الشمالي) (٢١٨) . وفي تضاعف ذلك يؤكد كراچوفسكي ان عميدا من الحكم والامثال والاشعار العربية قد خلدت في اعمال فنية ، وعلى واجهات المباني والبيوت . والنحى . والصاديق . وحتى على نضالغ الخناجر والسيوف (٢١٩) .

ودون شك . قدمت شعوب الامبراطورية الاسلامية افواجا من المثقفين والفكرين . الذين كتبوا ابداعاتهم وكتبهم باللغة العربية (واحيانا بلغتين - كفضولي البغدادي . وعمر الخيام ، وجلال الدين الرومي . . . ويمكن الاشارة . هنا ، الى مثال ساطع جدا ، هو ابو الزيجان البيروني الذي مر بنا ذكره . وكيف انه كان يؤكد ان هجوه بالعربية احب اليه من مدحه بلغة اخرى . ان استكمال فتح الهند في عهد المنصور والمامون والمعتصم ، وسيادة اللغة العربية والثقافة العربية في بلاد فارس والافغان وبلاد ما وراء النهر وطاجيكستان ، وانتشار الثقافة العربية في الهند ، قد اهل البيروني ان يدرس الهند دراسة مدققة ، وان يطلع ببحوث علمية رصينة اكد فيها منهجيته العلمية التي تستمد اصولها من مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي . وقد ساعد الرحالة العرب وكتبهم (كابن خرداذبه في « المسالك والممالك » ، وسليمان السمراني ، والمسعودي في « مروج الذهب ومعادن انجواهر » ، وابن بطوطة في « عجائب الاسفار ») ساعد كل هؤلاء وغيرهم في تقديم ادق المعطيات ، نسبيا ، عن الهند وشعوبها .

ومثل ذلك يمكن قوله عن ابن فضلان

التأثير هو الطريق غير المباشر الذي سلكته الحضارة العربية - الإسلامية في ترسيخ جذورها في التربة الأوربية .

لقد امتد تأثير الحضارة العربية - الإسلامية إلى أوروبا عبر صقلية ، والأندلس ، وجنوب فرنسا . كما كان للحروب الصليبية دور في ذلك . ولكنه كان دوراً ضئيلاً نسبياً . أما التأثير الأهم فقد جاء عن طريق الأندلس . ولا يهم ولا يضر كون حكام الأندلس كانوا أمويين ، فيما كان حكام بغداد عباسيين ، فالحضارة العربية - الإسلامية هي ذات الحضارة ، والشعب العربي هو ذات الشعب العربي . وقد تمثل السيرب حضارة العرب ودينهم . فأسهموا ، في العهد التي حكموا الأندلس فيها ، في ترسيخ قيم الحضارة العربية - الإسلامية ومنجزاتها .

يرى انرحالة الإسباني (بنيامين التطيلي) ، الذي زار بغداد عام (١١٦٠ م) ، في عهد الخليفة العباسي (المقتدي بالله) : ان بغداد والقاهرة وبليلطة وقرطبة (تضم جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل شيء يساعد على البحث العلمي . ومن الصعب تقدير عدد الكتب التي كانت في مكتبات بغداد العامة والخاصة . وذلك لكثرتها وتشمب مواضيعها ، وقد كان للعرب في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة . وكان في مكتبة الحكم الثاني في قرطبة (٦٠٠) ألف كتاب ، وفيها أكثر من (٤٠٠) مجلداً من الفهارس فقط (٢٠٠) .

وواضح من هذا ان الحديث يدور عن مستوى تماثل ، ان لم يكن واحد في الحضارة العربية - الإسلامية ، وينبغي هنا ، ان نذكر ، ان الأندلسيين استمدوا حضارتهم من المشرق العربي ، فكانوا لا يعترفون بأصالة العطاء الثقافي او العلمي المعين ، ان لم توثقه شهادات و « تزيكات » مشرقية (بغدادية) . ولا نريد بهذا ان نقض او نقلل من مستويات الحضارة العربية - الإسلامية في الأندلس ، او المغرب ، وانما الحضارة الأم ، والحضارة - المركز هي التي تفرض التأثير الأساس ، وتشكل أقوى التيارات في الرافد الواحد .

إن صاحب (نفع الطيب) يشير إلى كثير من القصص والتواريخ عن مئات من علماء الأندلس كانوا يشدون الرحال ، باستمرار ، إلى المشرق العربي لارتشاف مناهل العلم ، ولاقتناء أمهات الكتب ، وجديدها ، كما كان حكام

الدولة العربية - الإسلامية الواسعة ، وتشهد إبداعاتهم القيمة المختلفة باللغة العربية على تأثير الحضارة العربية ، وقلبها بغداد ، على هذه الشعوب ، التي دخل معظمها في دين الإسلام طوعاً ، بل حتى قاهرو بغداد ، دخلوا فيما بعد في الدين الإسلامي ، وأبدع علماءهم باللغة العربية ، شاهدين ، بذلك ، شهادة ينذر مثيلها ، حقاً ، على عظمة الثقافة العربية ، وتسامح الدين الإسلامي وتقدميته (بالنسبة إلى معتقداتهم الوثنية ، والمتخلفة) . يقول لوبون : « استولى المغول على بغداد (سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨ م) ، وخرّبوها تماماً ... ولكن أولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني وأحرقوا الكتب وخرّبوا كل شيء نالته أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغوليين بدورهم ، حتى ان هولاء الذين خرب بغداد وأمر بجر نخبه آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره ، فلم يلبث ان صار من حماها ، وفي المدرسة العربية تمدن المغول واعتنقوا دين العرب وحضارتهم ، وشملوا متفني العرب وعلماءهم برعايتهم . واقاموا في بلاد الهند دولة قوية عربية من نورهم كما يمكن ان يقال وذلك لانهم احلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة ، ولان سلطان حضارة العرب لا يزال مسيطراً هناك حتى اليوم » (٢١٧) . كما يقول « ان حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت ان تهيمن به على البرابرة الذين حاووا هدمها ، وقد ظهر لنا ان جميع أمم المشرق الكثيرة التي ساعدت على قهر العرب ، ومنها الترك ، اعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب ، وان امما قديمة قدم العالم ، كالمصريين والهنود ، اعتنقت ما جاءها به العرب او ورتتهم من الحضارة والديسن واللفة » (٢١٨) .

إن لازمة لوبون التاريخية ، كاستنتاج علمي حاسم هي :

إن « خلفاء بغداد ملكوا العالم بحضارتهم على الخصوص » (٢١٩) .

ولعل هذه الازمة - الاستنتاج البليغ تجيب ، بشكل واف ، على التساؤلات التي تدور حول تأثير حضارة بغداد (ومدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ، بالذات ، على الشعوب الأوربية وحضارتها . ولقد فصلنا ، ما استطعنا ، بحثاً وتوثيقاً ، في تأثير الحضارة العربية - الإسلامية المشعة من بغداد . ان هذا

بترسيخ القيم الحضارية الجديدة ، التي انتقلت إلى الأسبان والعربانيين - دون جواز سفر ، فحماق العلم والثقافة ومعطيات الفن والفكر لا تحتاج هذا الجواز ، وقد أسهم جيل المستعربين والمدجنين - حتى بعد خروج العرب من اسبانيا ، في نشر القيم الحضارية العربية ، رغم محاكم التفتيش ، وكان ان أصبحت اسبانيا الاندلسية . في تلك الحقبة الزمنية - في قمة الحضارة الاوربية . منها نهل الشعراء التروبادور - وفيها ترجمت كتب العرب وفلسفتهم ومنظفهم ، واقتبست حضارتهم - وفنونهم ، وفيها (وفي جنوبي فرنسا لحد اقل) نشأت بذور الحضارة الجديدة ، مهددة لعصر النهضة العظيم ، وكما يقول د . لؤلؤة ، مرة اخرى : كانت بغداد في القرن التاسع الميلادي ذروة الحضارة العربية ومنها انتقل زرباب إلى قرطبة فكان . مثل هاملت مرآة الذوق وقالب الانافة ، وما كان زرباب غير واحد ممن حمل مرآيا الذوق الشعري الفئاني وقوالب الحضارة الجديدة من بغداد العربية العباسية إلى قرطبة العربية الاندلسية فكان بعض من ساعد أوروبا في تلك « الولادة الجديدة » (٢٢٢١) .

إن هذه « الولادة الجديدة » هي ما كان قد تحدث عنها ، منذ عام ١٩٤٧ ، المفكر الفرنسي الكبير المعاصر روجيه غارودي ، واسماها مساهمة العرب في تجديد شباب العالم ، باعتبار ان عصر النهضة الاوربية جسد شباب الحضارة العالمية ، واحياها . يقول روجيه غارودي (في دراسة له ، نشرت في آذار ١٩٤٧) :

« إن احد مظاهر سياسة التفرقة العنصرية

التي يتبناها المستعمرون هي ابتكارهم الدور الذي لعبته الحضارة العربية في تكوين العالم الحديث ... فمؤامرة الصمت والتشجيع المنظم على هذه الحضارة إنما تهدف إلى تجاهل هذه الحقيقة الواقعية ، وهي ان الاممة العربية ساهمت ، في ظروف تاريخية معينة ، بين العصر القديم وعصر النهضة ، مساهمة غنية في التقدم الانساني في كل ميادين الفكر والفن ولكن ... إذا نحن طرحنا جانباً ذلك التحيز الاستعماري والمصري بدت لنا هذه الحقيقة الاولى ، وهي ان الاسلام ... حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصة ... قد خلق بفتوحاته الواسعة ،

الاندلس ، على اختلافهم ، في شبه مباراة دائمة . في تجميع او استنساخ (على الاقل) ذخائر الكتب والمصنفات من حواضر المشرق العربي المختلفة ، وبغداد ، وبالمثل ، فان عدداً من أبرز علماء وفناني المشرق العربي شدوا الرحال إلى الاندلس ، ولعل زرباب شخص هنا مثلاً ساطعاً . ولعل الدكتور خير الله يسهم - ابلغ الاسهام ، في حسم مسألة التبادل الثقافي والعلمي بين جناحي الحضارة العربية المشرقية والمغربية . حين يقول - في ختام بحثه القيم عن الطب العربي ، الذي اشرنا اية غير مرة) ، ان « تيار انعلم كان مبادلاً بين الشرق والغرب يتبادل السياحات من الغرب إلى الشرق وبالعكس . فالكرماني سافر من بغداد إلى الاندلس حاملاً معه رسائل إخوان الصفاء ، وابن البيطار أدخل للشرق اقرباذين الغرب » (٢٢٢١) .

والأهم من كل ذلك - هو ان تيار الحضارة العربية - الاسلامية فرض نفسه في أوروبا - الفارقة في البربرية آنذاك ، فساعدها ، مع الزمن - على بلوغها عصر نهضتها . عصر الأحياء (الرينسانس) . وبذلك تكون بغداد قد أسهمت - لا بالسيف ، بل بالثقافة ، وعن طريق الفكر والبحث العلمي ، ومقومات الحضارة الأساس ، في نقل عصا الحضارة العالمية إلى أوروبا ، لتسهم اسهامها المميز في مواصلة المدنية الانسانية وتطويرها . يقول الاستاذ الدكتور عبدالواحد لؤلؤة في بحثه (ملامح عربية في بواكير الشعر الانكليزي) : « ... لقد نقل زرباب حضارة بغداد العباسية في أوجها ، ثقافة بلاط الرشيد والمؤمن - بعد ان أدرك ان ليس في القمة متسع لأكثر من عظيم واحد - وقد سبقه إلى تلك القمة اسحق الموصلي . وكما دخل قرطبة يحمل عوده معه - وجد في المحط الجديد من الحرية ما جعله يزيد في اوتار عوده وتراً خامساً ، يتخذها من أمعاء السباع ، ومن قوادم السم ريشة يضرب بها فيخرج ما لا عهد الموصلي به من الحان . وكان زرباب شاعراً وقد تغذى بشعر أبي نؤاس وأبي العتاهية ومن سبقهما . وأنشأ زرباب مدرسة للفناء والشعر في قرطبة ، واقام مدرسة في القيافة وآداب الطعام ، شاعت تعاليمها في طول البلاد وعرضها ... » (٢٢٢٢) إن أمثال زرباب من الشرقيين - وتلامذة مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، ومطوري تعاليمها ومنهجيتها العلمية في الاندلس قد ساعدوا في خلق أجيال عالمة ، فنانة ، مثقفة ، اضطلعت

الظروف الضرورية لتجديد الحضارة ،
ولتجديد شباب العالم (١٢٤١) .

ولكيلا يتهم غارودي بالتعصب للعرب ،
وهو المفكر الفرنسي الحر ، فانه يعلل (ويحيث)
مقولاته الحاسمة هذه (والتي كانت لطمحة مدوية
في وجوه المنصرين والامبرياليين والصهاينة وكل
من « ايتلى » بلعنة عقده « التفوق الأوربي »
ورؤية كل حضارة ، وكل شيء ، من خلال أوروبا
لفظ :) ، فيقول :

- « بين عامي ٨١٢ - ٨٢٢ ، وبينما كانت
أوروبا تجهل القراءة ، كان الخليفة المأمون
يؤسس في بغداد « بيت الحكمة » الذي
اشتمل على مكتبة وجامعة ومكتب ترجمة ،
والذي اصبح التراث اليوناني بواسطته في
متناول جميع الذين يتلون القرآن ...
وبعد زمن قليل . كان الخليفة الحكم الثاني
في قرطبة يملك (٦٠٠) ألف مجلد ، بينما
لم يستطع ملك فرنسا « شارل الحكيم »
أن يجمع ، بعد ذلك بأربعمائه سنة ، أكثر
من (٩٠٠) مجلد . لقد ظل إنتاج الكندي
(٨٥٠ م) والذي ترجمه جيرار دي كريمون
الى اللاتينية يتدفق الغرب خلال قرون عدة .
لقد اتسمت الثقافة العربية بأول مظهر من
مظاهر النهضة الأوروبية ، مظهر الاحاطة
بالاصول الثقافية القديمة والعمل على
إحيائها ، فكانت اشبه برباط وثيق يصل
بين الثقافة القديمة والحضارة الحديثة ..
فهي لم تقتصر على إحياء الحضارات البائدة
التي سبق ان ازدهرت في انوراق ومصر
واليونان وروما ، بل قامت اساساً بتطوير
تراث القدماء واجتازتهم في عصرها الذهبي
الذي امتد من عام ٩٠٠م الى عام ١١٠٠م .
لقد وثب الشعب العربي ، برزولته النظام
الاقطاعي ، وثبة جبارة بالعلوم ، وثبة تلامد
مع الاهداف العلمية التي حددها لها ...
لقد كانت الجغرافيا ، ولاسيما الفلكية ،
ضرورة حيوية لدى اولئك الرجال الذين
دابوا على اجتياز الصحارى والبحار ، وان
مراسد سمرقند وبغداد ودمشق والقاهرة
وقرطبة ، وهي المرصد الاولى في العالم ،
كانت من صنع ايديهم ... وكان
الجغرافيون والفلكيون العرب ، اثناء
وضعهم ، عملياً ادلة الطرق وبيان مراحلها ،

يحافظون على جوهر الفكرة القائلة بكروية
الأرض ، هذه الفكرة التي كان ينكرها رجال
اللاهوت المسيحيون ... وحوالي منتصف
القرن العاشر استطاع المسلمون ان يبلغوا
شواطئ كاتون في الصين ، ولعلم بلغوا
كوريا واليابان ايضا .. وبعد خمسمائة
سنة ، كان الملاح الذي ارشد فاسكو دي
جاما الى طريق الهند .. ملاحاً عربياً ...
لقد ادت ضرورات التجارة الى قلب علم
الحساب رأساً على عقب ، فكان اكتشاف
الارقام العربية ، واخترع الصفر الذي
يرتكز عليه نظام العداد العشري كله ،
الثورة الثانية في العلوم الرياضية منذ عهد
الفينيقيين الذين قاموا بالثورة الاولى ...
ولم تعرف أوروبا هذه الاكتشافات إلا عن
طريق العرب .. عرفتها بصددهم بمائتين
وخمسين سنة ... في علم الجبر وفق
الخوارزمي الى إعادة وضع المنهج الذي كان
يعرفه انيونان لحل المعادلات ذات المجهولين
... واستطاع الشاعر الرياضي عمر الخيام
حل المعادلات ذات الثلاث مجهولات بواسطة
المنهج الذي استخدمه ديكارت بصدده
بخمسة قرون ، فوضع اسس الهندسة
التحليلية . وفي حساب المثلثات اكتشف
أبو الوفا وليس كوبرنيك الخط القاطع ...
واكتشف الفارابي اللوغاريتمات .. ودرس
ابن سينا الكميات غير المتناهية ... وفي
الطب ، ولن نذكر الا الرازي ، وحده
هذا العبقرى بين الملاحظة والتجربة فوضع
بذلك تصنيفاً منهجياً للأمراض ... وقد
اعيد طبع موسوعته الطبية التي ترجمها
فراجوت الى اللاتينية . اربعين مرة من
١٤٩٨ - ١٨٦٦ ، وفي عصر النهضة اعيد
طبعا في فينا عام ١٥٢٠ ، وفي فرانكفورت
عام ١٥٨٨ ... اي انها ظلت خلال ألف
سنة ، حتى ظهور كلود برنار ، توجهه
لأبحاث الطبية لدى كل الشعوب . ان ابن
سينا الطبيب والفيلسوف ، وابن رشد
الفقيه الجدد والعالم الطبيعي الفذ ، قد
اعلنا قبل ديكارت بخمسة قرون ، حق
إخضاع كل شيء ... الى حكم العقل ...
كانا رائدي الفكر النقدي والمذهب العقلي
الحديث .. لقد أدرك ذلك الشاعر ذاتي
فائس على ابن رشد نداءً عظيماً في النشيد

بالهرب من معتزك الحياة او الانفصال عنها ...
وانتي اوجدت الظروف الاقتصادية والاجتماعية
اللائمة بازالة الفوضى الاقطاعية وطبقتها
الطفيلية» (٢٢٨) .

من هنا ... ناتي بغداد المعاصرة ، بغداد
سبعينات القرن العشرين ، لتكمل رسالة بغداد
أرشيد والمومن - بغداد بيت الحكمة ، وحضارة
العقل والنطق والموضوعية وحرية الضمير
والتقدم ، لتقول باعادة كتابة التاريخ بشكل علمي
وتنتصر لانجازات العرب الحضارية ، وفي
مقدمتها طريقة البحث العلمي او المنهجية العلمية،
وهي اجود ما جاد به العقل العربي في بغداد
وسواها . يقول أنرفيق رئيس مجلس قيادة
الثورة في الجمهورية العراقية ، الاستاذ صدام
حسين : « هناك نقطة يركز عليها أعداء العرب
وهي ان العقل العربي ليس من النوع الذي
يحسب التعقيدات ، اي انه عقل غير مركب ،
متهمين اياه بانه عقل ذو صفحة واحدة في
الحساب وهو لا يحسب الصفحات المحتملة
الآخري بطريقة مركبة . في حين تؤكد الحضارة
او الحضارات العربية بشواهد لا تقبل الدحض
ان الامة العربية قد حسبت ادق الصفحات
والاحتمالات في كافة شؤون الحياة والعلم في
الوقت الذي كانت جميع الأمم تعيش في دبابر
انظلام والتخلف» (٢٢٩) .

إن منهي العقل العربي بالقصور ، وهم
الميلون بعقدة التفوق الأوربي، وبعقدة (الإغريقية)
يأتالي ، أي ان الحضارة البشرية المعاصرة أوربية
بداتها اليونان وأتمنها شعوب أوربا الحديثة ،
وليس لامة أخرى فضل في الحضارة العالمية ! إن
هذه العقدة الأوربية التي تمثل أسوا ما في بعض
العقول الأوربية والغربية عموماً من تخلف وبربرية
معاصرة هي التي جعلت البروفسور خالدوف
يقول : « إن الاسس المتبعة في طرق البحث
التاريخية تجد صعوبة في إزالة الخرافة التي
تعتبر أوربا في كل العصور ، تمثل تلك الأهمية

سياسيا وحضاريا كالتي تتمتع بها الآن» (٢٣٠)
وقد استعرضنا ، في تفصيل نسبي ، الرد العلمي
المفعم على هذه الخرافة الأوربية المعاصرة ،
واعتمدنا ، أكثر ما اعتمدنا ، على مقولات المفكرين
الأوربيين الاحرار ، من لوبون ، الى درابر ، الى
هولبارد ، الى سيدو ، الى بريفو ، وهونكه ،

الرابع من كتاب الجحيم في الكوميديا
الالهية ، كما ادرك ذلك روجر بيكون اكبر
مفكر غربي في القرن الثالث عشر ، فقال :
إن الفلسفة مستمدة من العربية .. وليس
من لاتيني واحد يستطيع أن يفهم ..
الفلسفة .. كما ينبغي .. ان لم يكن يجيد
اللغات التي نقل عنها ...» (٢٣٥) .

إن غارودي يتمم ، هنا ، من منظوره
الخاص . مقولات المفكرين الفرنسيين الكبار
غوستاف لوبون - وماسيثيون - وبريفو ، وهو
ينطلق من مفهوم علمي متكامل ، درس به
الحضارة العربية - الإسلامية ، في سائر إنجازاتها
العظيمة ، خصوصاً في عصرها الذهبي (عصر
مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ،
ويتوصل الى هذه الاستنتاجات مرتاح الضمير .
فهذه الحقيقة اني انتهى اليها ، يشاركه فيها
العديد من مفكري أوربا الاحرار ، « دوزي »
الذي يقول « لقد كان الفتح العربي نعمة بالنسبة
لاسبانيا ، فقد ادى الى ثورة اجتماعية هامة ،
وازال قسماً كبيراً من المساوىء التي كانت
اسبانيا تن تحت عيها منذ قرون» (٢٣٦) و
« اناطول فرانس » الذي يأسف لانكسار العرب في
معركة بوآيه عام ٧٣٢م ، ولتراجع العلم والفن
والحضارة امام انبربرية الفرنسية (ويشاركه في
هذا الاسف غارودي وعديد من مفكري أوربا
الاحرار ، وبلاسكو أيبانز ، المفكر الاسباني الذي
يقول بالحرف ، حاسماً بلغة صاحب الدار وهو
ادري بالذي فيها) مسائل الفتح العربي لاسبانيا،
وعلى نحو غاية في الموضوعية والتجرد العلمي :

- « إن تجديد شباب اسبانيا لم يصلنا عن
طريق الشمال مع القبائل البربرية وإنما من
الجنوب مع العرب الفاتحين .. لقد كان
الفتح العربي بعثة حضارية أكثر مما كان
فتحاً ... عن هذا الطريق وليس عن
طريق آخر ... دخلت الى بلادنا هذه
الثقافة الفنية القوية اليقظة ، التي تبعث
على الدهشة لتقدمها السريع ، والتي ما
كادت تولد حتى انتصرت» (٢٣٧) .

إذن ... فالسر في هذه الحضارة الجديده
التي اتى بها العرب ، حضارة العقل ، وحرية
الراي والضمير ، والموضوعية ، والتقدم ،
الحضارة التي بداتها بغداد ، عاصمة دولة هذه
الحضارة العربية - الإسلامية . وطورتها بعض
الحواضر العربية ، الحضارة التي « لاتوصي

الهوامش

- (1) الإشارة الى كتاب « حضارة العرب » ، للدكتور غوستاف لوبون (ولد الفه عام 1884) ، ونقله الى العربية الاستاذ الفقيه عادل زعيتر (من نابلس ، فلسطين) ، وطبع بعطمة عيسى الجابي الحلبي وشركاه . اما الذين كتبوا عن بغداد واسهامها في الحضارة العربية والعالية فهم من الكثرة بحيث لا يطالهم العصر ، وتلفي الإشارة الى ابرزهم ، لوبون ، ماسينيون ، عبدالكريم جرمانوس ، يفتحي بيلاب ، كراجكوفسكي ، بارتولد ، كريسكي ، غريغوريان ، شيرويان ، شاه محمود ، بريفو ، درابر ، هولبارد ، بول كراوس ، مينسكي ، كوفالسكي ، بولدريف ، سيمينوف ، بوشمانوف ، فرانده ، بارانوف ، تيخو ميروف ، تسريتي ، سلطانوف ، دولينينا ، سولويوف ، بولجاكوف ، غفوروف ، شاربانوف ، بيلكين ، كوفالوف ، كاميني ، ساغال ، كراسنوفسكي ، بوريسوف ، ايفانوف ، غوته ، بيرك ، ديفو ، ليبي ، بروفنسال ، ماسه ، رودنسون ، غارودي ، كاتانو ، نلينو ، دوزي ، كارليل ، ارنولد ، ابري ، نوميسون ، ستينورت ، مرجليوت ، نيكلسن ، رمضانوف ، نيكولاسكي ، براون ، مينورسكي ، فيليبي ، لاندوا ، غومس ، نوجاليس ، كرايمر ، شتراوس ، ارافون ، سنوك ، هرجونجة ، فلهوزن ، كيرن ، نولدكه ، بروكلمان ، جب ، جروهان ، كاله ، شاخت ، برنال ، كوب ، غولديسهر ، فواد سزكين ، كاظم مرزابك ، جوزي ، كوفاليفسكي ، كاشنايفا ، شميدت ، فينيكوف ، اليسيف ، زويمر ، نيكل ، دوژنتال ديجا ، جرنوم ، جيرنيشيفسكي ، نولسوي ، غوغل ، مواله ، جويار ، بالغريف ، ستكوفسكي ، ليديفا ، بيكون ، ريسان ، كازانوفا ، لانس ، جونثال ، بانسيقا ، بوئين ، بيساريفسكي ، كوزمين ، فيتزجرالد ، اولري ، آدم متر ، روزين ، شوموفسكي ، كور دويوف ، ليفين ، كريموف ، ستيتانوف ، دلاتوفسكي ، اوتسكي ، لوتسكايا ، عثمانوف ، غالان ، سدبو ، بارتمله ، برناردلوي ، شولتز ، بيبيل ، ساله ، سارطون ، مايرهوف ، كاردنسكي ، غريغوريف ، روكيت ، كولوف ، لودفيج ، لورنس ، محمود ، حميدوف ، ميخايلوفسكي ، هاملتون ، هولوند ، ويلسون ، يوسوبوف ، ريستر ، مهديف ، سعديف ، سمليانسكايا ، ديمجنكو وغيرهم كثير .
- (2) لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، فصل « العرب في بغداد » ، ص 171 .
- (3) ينظر كتاب « بغداد » ، (قامت بنشره - نقابة المهندسين العراقية - على نفقة مؤسسة كوليكيان) ، 1969 - (البحوث من اعداد د . مصطفى جواد ، و د . احمد سوسة ، د . محمد مكية ، الاستاذ ناجي معروف) - (اشرفت على التنفيذ لجنة مؤلفة من الاستاذ المهندس سعيد علي مظلوم ، والدكتور المهندس رمزي سليمان - اخراج وطبع مؤسسة رمزي للطباعة ، بغداد) . [فصل - « تخطيط بغداد في مختلف

وغارودي ، واناتول فرانس ، وبلاسكويابانز وغيرهم . اليوم ، يتفق كل الباحثين العلميين الموضوعيين ، اوروبيين كانوا ام عربا ، اشتراكيين كانوا ام غير اشتراكيين ، على القولة التي انتهى اليها المفكر المصري التقدمي المعاصر الدكتور محمود امين ، حين اكد بقول : « ان الفكر العربي العلمي هو جوهر الفلسفة الاسلامية . وان الفلسفة الاسلامية بهذا ليست امتدادا للفكر اليوناني بل كانت إضافة جديدة اليه ذات طابع تجريبي كمي ، كما كانت نقطة انطلاق ، غير روجر بيكون ، وديكارت ، وفرنسيس بيكون ، وجاليليو ، الى نشأة العلم التجريبي الحديث » (1931) .

وليس لنا ، في ختام بحثنا المواضيع هذا ، إلا ان نقول ، مع البروفسور ج.د. برنال ، العالم البريطاني الكبير ، والشخصية العلمية العالمية الشهيرة في حركة السلام ، (في معرض تشمين الانجازات الحضارية لمدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، واستخلاص ، الاستنتاجات اللازمة من دروس الحضارة العربية في ضوء النهضة العربية المعاصرة اليوم) :

- « ان العلم باعتباره وجهاً من اوجه النشاط الانساني ليس قائماً بذاته ، بل هو جزء من الثقافة الانسانية ، ولعل هذا الاعتبار لم يتحقق في الماضي قط باكثر مما كان في الدول العربية ، فنحن في الغرب مدينون للعرب بكل علمنا ، وهم لم ينقلوا إلينا تراث الاغريق فحسب ، بل اصفوا على هذا التراث احكاماً ادق وروحاً عملية ، لم تكن ظاهرة في عمل الاغريق ، وقد اضاف العرب في الرياضيات والكيمياء إضافات لا تنكر في تاريخ العلم . . . ولم يكن العلم عند العرب يعتبر منفرداً قط ، فقد عرف رجاله الفضائل مثل جابر الخوارزمي وابن سينا وابن رشد بالثقافة العامة واتساع الافق الفكري . . فلنامل اذن ، عندما تقوم الامة العربية ، مرة اخرى ، باداء نصيبها كاملاً في التقدم العلمي ، ان يكون ذلك بنفس الروح التي كانت تميز العلم العربي ابان ازدهاره » (1932) .

اجل ، لقد نهضت بغداد اليوم ، منطلقة من روح البحث العلمي ، اعظم هدية جادت بها على الثقافة العالمية ، لتكمل مسيرة الاسلاف العظام .

- (٢٥) نفسه ، ص ٦٦ - ٦٧ .
- (٣٦) فدري حافظ طوفان ، ذات المصدر « فصل » سلطان العقل عند المعتزلة .
- (٣٧) ذات المصدر ، مقام العقل عند الرازي [تنظر ، كذلك ، رسائل الرازي] .
- (٣٨) نفسه .
- (٣٩) نفسه .
- (٤٠) نفسه .
- (٤١) الفارابي ، « رسالة في العقل » . [تنظر ، كذلك ، مجلة « المورد » ، العدد الخاص بالفارابي ، ١٩٧٥ - عدة بحوث ، منها البحثان المترجمان لكتاب السطور] .
- (٤٢) ابن سينا - (عدد خاص) - مجلة « العلوم » البيروتية ، ١٩٥٧ .
- [تنظر كذلك مجموعة الابحاث الصادرة بمناسبة المهرجان الالفي لابن سينا ، وكتاب البروفسور غريغوريان ، بالروسية ، عن الفلسفة العربية - الاسلامية] .
- (٤٣) مجلة الاديب البيروتية ، العدد الخاص بابي الصلاه المصري ، ١٩٤٤ . [تنظر كذلك دواوين المصري ، والدراسات الصادرة حوله ، خصوصا الدراسات التالية للدكتور طه حسين : « مع ابي الصلاه في سجنه » ، وللكاتبة بنت الشاطيء « رسالة الفخران » ، وللاديب البروفسور كراجوفسكي - « متنيننا » ، و « المعري والتنبيه » - وهما دراستان مترجمهما لمجلة « المورد » الفراء - ، وكتاب البروفسور شرويان عن ابي الصلاه المصري - بالروسية - ، وكتاب البروفسور غريغوريان (المار ذكره) . بالروسية حول الفلسفة العربية - الاسلامية] .
- (٤٤) هكذا تدعوه معظم الدراسات الاستشرافية المعاصرة .
- (٤٥) فدري حافظ طوفان ، مقام العقل عند العرب (مصدر سابق) .
- (٤٦) اخوان الصفاء ، الرسائل ، الرسالة السادسة من العلوم الناموسية والشرعية .
- (٤٧) فدري حافظ طوفان ، مقام العقل عند العرب ، فصل « سلطان العقل عند المعتزلة » .
- (٤٨) نفسه .
- (٤٩) نفسه .
- (٥٠) نفسه ، فصل ، « سلطان العقل عند المعتزلة » . [ينظر كذلك « الجاحظ » ل محمد عبدالمنعم خفاجي ، و « الجاحظ » لشارل بلا ، وكتاب البروفسور غريغوريان ، بالروسية ، عن الفلسفة العربية - الاسلامية] .
- (٥١) المصدر السابق ذاته (مقام العقل عند العرب - طوفان) .
- (٥٢) « مختار رسائل جابر بن حيان » (عني بتصحيحها ونشرها بول كراوس) ، مكتبة الطانجي ومطبعتها ، القاهرة ، ١٣٥٤ هجرية . [اعادت طبعه بالافيسيت مكتبة المثنى ببغداد] . - « كتاب الميزان » .
- (٥٣) المصدر ذاته ، « كتاب الخواص الكبير » ، ص ٢٢٢ .
- (٥٤) جابر بن حيان ، كتاب البحث (اورده مصطفى ليبي ، « الكيمياء عند العرب » ، مصدر سابق) .

- عصورها » للدكتور مصطفى جواد ، والدكتور احمد سوسة ، - بغداد في ادوارها الاولى ، تسمية بغداد ، ص ١٦] .
- (٤) ينظر - كتاب « بغداد - مدينة المنصور المدورة » ، تأليف - طاهر مظفر العميد (الدكتور) - رسالة مقدمة الى جامعة بغداد للحصول على الماجستير بالانار الاسلامية ، من منشورات المكتبة الاهلية ، بغداد ، ١٩٦٧ . [المقدمة - للاستاذ ناجي معروف] .
- (٥) لوبون ، « حضارة العرب » ، ترجمة عادل زعيتن ، « العرب في بغداد » ص ١٧١ - ١٧٢ .
- (٦) نفسه . كذلك ينظر - فوغول ، المؤلفات الكاملة (بالروسية) :
- Gogol, N. V. Sobranie Sochineivie, tom 6, "Al-Mamyn", p. 62.
- [وستترجم البحث القيم هذا ، قريبا ، لمجلة « المورد » الفراء] .
- (٧) ابن خلدون ، المقدمة . [كذلك ينظر : لوبون ، حضارة العرب ، مصدر سابق ، ص ١٧٢] .
- (٨) لوبون ، حضارة العرب (مصدر سابق) ، ص ١٧٣ .
- (٩) المصدر ذاته ، ص ١٧٤ .
- (١٠) ديوان الامام علي (ع) ، دار كرم ، بيروت .
- (١١) مصطفى ليبي ، « الكيمياء عند العرب » ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٥٩ .
- (١٢) نفسه .
- (١٣) نفسه ، ص ٨٢ .
- (١٤) نفسه .
- (١٥) نفسه ، ص ٨٢ .
- (١٦) نفسه ، ص ٨٣ . [اورده هوليارد في « مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان »] .
- (١٧) فدري حافظ طوفان ، « العلوم عند العرب » ، (الالف كتاب -) ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧ ، ص ٨٢ .
- (١٨) نفسه ، ص ١١٣ .
- (١٩) نفسه ، ص ١١٢ .
- (٢٠) نفسه ، ص ١٦٨ .
- (٢١) نفسه .
- (٢٢) نفسه ، ص ١٠٤ .
- (٢٣) نفسه .
- (٢٤) نفسه ، ص ١٠٩ .
- (٢٥) نفسه ص ١٠٩ - ١١٠ .
- (٢٦) نفسه ، ص ١٠٩ .
- (٢٧) نفسه .
- (٢٨) نفسه ، ص ١٦٥ .
- (٢٩) نفسه ، ص ١٦٦ .
- (٣٠) ينظر كتاب د . داود سلوم « النقد الادبي » ، وكتاب د . احسان عباس « تاريخ النقد الادبي عند العرب » .
- (٣١) ينظر كتاب د . داود سلوم ، النقد الادبي وكتابه : النقد النهجي عند الجاحظ وكذلك « الجاحظ » ل محمد عبدالمنعم خفاجي .
- (٣٢) فدري حافظ طوفان ، « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ، ص ١٦٠ .
- (٣٣) نفسه ، ص ٧٩ .
- (٣٤) نفسه ، ص ٨١ .

- (٥٥) مختار رسائل جابر بن حيان (مصدر سابق) ، كتاب « التصريف » . [ينظر كذلك كتاب « الكيمياء عند العرب » ، مصدر سابق ، (ص ٨٤ - ٨٥)] .
- (٥٦) جابر بن حيان ، كتاب البحث ، ص ٢١٠ (الكيمياء عند العرب ، مصدر سابق ، ص ٧٦) .
- (٥٧) مختار رسائل جابر بن حيان ، « كتاب الخصائص الكبير » ، ٢ - ٤ . (مصدر سابق) .
- (٥٨) المصدر السابق ذاته ، « كتاب السبعين » ، ص ٦٤ .
- (٥٩) جابر بن حيان ، « كتاب البحث » ، ص ٢٠٨ (الكيمياء عند العرب ، ص ٨٤) .
- (٦٠) د . زكي نجيب محمود ، « جابر بن حيان » ، ص ٥٨ .
- (٦١) نفسه ، ص ٧٥ .
- (٦٢) و (٦٣) و (٦٤) و (٦٥) « الكيمياء عند العرب » (مصدر سابق) .
- (٦٦) جابر بن حيان - كتاب التجريد ، ص ١٢٧ - ١٢٨ - نشر هولبارد .
- (٦٧) الجاحظ ، كتاب « الحيوان » ، ج ١ ، ص ١٨٥ .
- (٦٨) المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٥٠ .
- (٦٩) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٠٢ .
- (٧٠) رسائل اخوان الصفاء ، الرسالة السابعة .
- (٧١) كتاب المناظر لابن الهيثم . [كذلك : الحسن بن الهيثم : بعونه وكتوفه البصرية ، لمصطفى نظيف] .
- (٧٢) مصطفى نظيف : المصدر ذاته .
- (٧٣) فدري حافظ طوفان ، « العلوم عند العرب » ، (مصدر سابق) ، ص ٨٦ .
- (٧٤) نفسه ، [كذلك ينظر كتاب « مقم العقل عند العرب ، لنفس المؤلف ، الباب الخاص] .
- (٧٥) كتاب « بغداد » ، (نشرته نقابة المهندسين العراقيين) ، مصدر سابق - (ص ١٤٥) .
- (٧٦) نفسه .
- (٧٧) نفسه .
- (٧٨) ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ - ٩٥) نفسه .
- [بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » ، تنظر أيضا ، دراسات طه حسين ، واحمد امين ، وعبدالحميد العبادي عن الحياة العقلية والعلمية والثقافية في (فجر الاسلام ، وضحاه وظهوره ، وكذلك كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » ، للمستشفرة الاثانية زيفريد هوتكه - الترجمة العربية ١٩٦٩ ، وكتاب « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » لحكمت نجيب الموصل ، ١٩٧٧] .
- (٩٦) فدري حافظ طوفان ، « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .
- (٩٧) بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر مرت الإشارة اليه) .
- (٩٨) ينظر « طوفان - العلوم عند العرب » و (حكمت نجيب - « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ») و (د . امام ابراهيم ، « تاريخ الفلك عند العرب » القاها ، ١٩٧٥) .
- (٩٩) فدري حافظ طوفان - « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) - ص ٦٤ .
- (١٠٠) بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر مرت الإشارة اليه) .
- (١٠١) نفسه .
- (١٠٢) ١٠٣ ، ١٠٤ (بحث ناجي معروف المشار اليه آنفا) .
- (١١٢) زيفريد هوتكه - « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٢ .
- (١١٣) « الموجز في تاريخ العلوم عند العرب » ، محمد عبد الرحمن مرحب ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .
- (١١٤) « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » فدري حافظ طوفان ، ص ٧٦ ، ٧٩ .
- (١١٥) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، حكمت ، نجيب ، منشورات جامعة الموصل ، ١٩٧٧ .
- (١١٦) و (١١٧) « العلوم عند العرب » فدري حافظ طوفان (مصدر سابق) .
- (١١٨) نفسه ، ص ١٢٠ .
- (١١٩) ابن التديم ، الفهرست ، ص ٣٩٧ .
- (١٢٠) كتاب « الجبر والمقابلة » ، للخوازمي (تحقيق د . علي مصطفى مشرفة ، و د . محمد مرسي احمد . مطبعة فتح الله الياس ، القاهرة) ، ص ٥ .
- (١٢١) « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » ، طوفان (مصدر سابق) ص ١٥٩ - ١٦٠ .
- (١٢٢) « الاسلام والعرب » لروم لاندو ، ترجمة منير البليكي ، بيروت ، ص ٢٥٢ .
- (١٢٣) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ١٠٢ .
- (١٢٤) نفسه [ينظر كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب »] .
- (١٢٥) « العلوم عند العرب » ص ١٠٢ .
- (١٢٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .
- (١٢٧) - (١٢٨) (١٢٩) (١٣٠) - المصدر ذاته (علم الحساب عند العرب) .
- (١٣١) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، فصل « علم الهندسة عند العرب » ، « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » طوفان .
- (١٣٢) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » [الاصل هو بحث الاستاذ الدكتور صالح احمد الطي ، « دراسة العلوم الرياضية ومكانتها في الحضارة الاسلامية » ، مجلة « المورد » ، مج ٣ ، العدد ٤ ، ١٩٧٤ (ص ٤٥) .
- (١٣٣) رسائل اخوان الصفاء ، القسم الرياضي ، ص ٩٧ ، و ١٠١ .
- (١٣٤) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .
- (١٣٥) « العلوم عند العرب » ، ص ٥٩ .
- (١٣٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ص ١٦٩ .
- (١٣٧) (١٣٨) (١٣٩) نفسه ص ١٧٠ - ١٧٢ .
- (١٤٠) زيفريد هوتكه ، « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية (مصدر سابق) ص ١٥٨ - ١٦٣ .
- (١٤١) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ٥ .

- (١٤٢) المصدر السابق ، ص ١٤ (والأشارة الى كتاب « تطور الطب » للسيد وليم أوسلر) .
- (١٤٣) و (١٤٤) زيفريد هونكه « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية (مصدر سابق) ، [كتاب « الأيدي الشافية » ، فصل « أحد اعظم اطباء الإنسانية اطلاقا » ، ص ٢٤٣ فصاعدا] .
- (١٤٥) رسائل الرازي [كذلك « العلوم عند العرب » (مصدر سابق)] .
- (١٤٦) و (١٤٧) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) [كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب »] .
- (١٤٨) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، ص ٢٥٢ .
- (١٤٩) نفسه ، ص ٢٥٠ : [كذلك : « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، ص ٤٦] .
- (١٥٠) الدكتور امين اسعد خير الله ، « الطب العربي - مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به » ، تعريب الدكتور مصطفى ابو عز الدين ، بيروت ، ١٩٤٦ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .
- (١٥١) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، ص ٢٥٧ .
- (١٥٢) و (١٥٣) - (١٦٢) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ، فصل « الطب في عصر الدولة العباسية » . [كذلك « الطب العربي » للدكتور امين خير الله ، الفصل السابع] .
- (١٦٣) و (١٦٤) و (١٦٥) و (١٦٦) « الطب العربي » (مصدر سابق) الفصل العاشر [كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، الفصل الثالث عشر] .
- (١٦٧) Chemistry and Chemical Technology in Ancient Mesopotamia, By Martin Levey, Elsevier Publishing Company (Amsterdam, London, New York, Princeton), 1959.
- (الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، للبروفسور مارتن ليفي ، من جامعة نجل فيلادلفيا - الولايات المتحدة - ١٩٥٩) - وقد ترجمناه لحساب وزارة الثقافة والاعلام (بالمشاركة مع د . محمود فياض و د . جواد البديري) .
- (١٦٨) يمكن الإشارة الى هوليلارد ، وهامرتن ، وهوز ، ومسور ، وبارتنجن ، وأوليري ، وكراوس ، ونيكولايسكي ، وايفانوف ، وستابن ، وتيلر ، وتومسون ، وفون ليمان ، وهاولر ، وفرجاسون ، وبرتلو ، وفون ماير ، وبيتروف كاشفلة على ذلك .
- (١٦٩) (١٧٠) (١٧١) (١٧٢) « الطب العربي » ، للدكتور امين اسعد خير الله (مصدر سابق) ، الفصل العاشر .
- (١٧٣) (١٧٤) [« شمس العرب تسطع على الغرب » ، مصدر سابق ، « الأيدي الشافية » ف١ و ف٢] .
- (١٧٥) (١٧٦) « الطب العربي » (مصدر سابق) - [كذلك بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » عن بيمارستانات بغداد (مصدر سابق)] .
- (١٧٨) « الطب العربي » (مصدر سابق) ، الفصل السادس [بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر سابق) - فصل « بيمارستانات بغداد »] .
- (١٨٠) تنظر رحلة ابن جبیر . [وكذلك بحث « بيمارستانات بغداد » لناجي معروف في كتاب « بغداد »] .
- (١٨١) ينظر مبحث ناجي معروف « مدرسة الطب المستنصرية » ، في كتاب « بغداد » - (مصدر سابق) [] .
- (١٨٢) [بحث « بيمارستانات بغداد » لناجي معروف ، في كتاب « بغداد » (مصدر سابق)] .
- (١٨٣) « الطب العربي » ، للدكتور امين اسعد خير الله ، (مصدر سابق) ، الفصل السادس [] .
- (١٨٤) و (١٨٥) المصدر ذاته ، ص ٧٥ .
- (١٨٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، حكمت نجيب (مصدر سابق) ، ص ٧٧ - ٧٨ .
- (١٨٧) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، كتاب « الأيدي الشافية - الفصل الاول ، والفصل الثاني . والقصود بالحجة المسكرة (اي المظفة بالسكر) والملمبة (المظفة بالذهب) ، وهذا تدبير كان يلجا اليه ابن سينا مع مرضاه ، تسهلا لتناول الدواء .
- (١٨٩) نفسه .
- (١٩٠) ينظر كتاب د . محمد امين ، « موافق فكرية » ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١١٢ .
- (١٩١) و (١٩٢) [« شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، (الكتاب الخامس « سلاح المعرفة »)] .
- (١٩٣) تنظر مجلة « المورد » العدد الثاني ١٩٧٨ (عدد خاص بالتراث والمعاصرة) ، بحث الاستاذ الدكتور مصطفى شريف العاني « الطب العربي بين التراث والمعاصرة » ص ٩٥ - ١٢٢ . [وتنظر دراسات الاستاذ طه باقر واطروحته حول التراث العربي ، مجلة آفاق عربية ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، وكتاب « محاضرات في التاريخ القديم » للدكتور عامر سليمان واحمد مالك الفتیان، ١٩٧٨] .
- (١٩٤) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ١٦٢ .
- (١٩٥) « شمس العرب تسطع على الغرب » ص ١.١ - ٤.٢ .
- (١٩٦) يكرس غوستاف لوبون ، لهذه الوضوعة ، فصولا عديدة في كتابه « حضارة العرب » ، خصوصا (الباب الخامس) و (الباب الثالث) .
- (١٩٧) « الإسلام والحضارة العربية » ، محمد كرد علي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص (٢١٥) .
- (١٩٨) و (١٩٩) و (٢٠٠) « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » ، آدم منز ، ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريدة ، (القسم الاول) ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، الفصل الثاني عشر « العلماء » .
- (٢٠١) تنظر ، مجلة « السور » ، المجلد الثامن ، العدد الثاني ، صيف ١٩٧٩ ، (ص ١.٩) ، « داغستان واليمن » للاكاديمي البروفسور كراجكوفسكي ، ترجمة كاتب السطور ، ويتصل بذلك بحث آخر لكراجكوفسكي ، ايضا ، عن « الادب العربي في القفقاس الشمالي » ، وقد ترجمه كاتب السطور للعورد ايضا .

« المورد » في افتتاحيتها للمدد الثاني ، المجلد الثامن ، ١٩٧٩ (صيف ١٩٧٩) ، وكان هذا النص مقصد الدرس والتأمل في الإجتاع الموسع لكتب الاعلام بتاريخ ١٩ ايلول ١٩٧٧ . (ونشرت « المورد » ايضا ، دراسات لبعث الاساندة استلهما للنص) .

(٢٢٠) اوردته الدكتور فاروق عمر فوزي ، في دراسته المنشورة في المورد (صيف ١٩٧٩ - المصدر السابق) بعنوان : « آراء خاتمة في تفسير التاريخ العربي » . وقد تحدث بهذا الخصوص د . صالح احمد العلي ، ايضا ، في دراسته « اصول ومفومات الحضارة العربية . حاجتها الى اعادة التقييم » ، (انظر دراسة د . فوزي ص ٢٦ ، ودراسة د . العلي ص ١٩) .

(٢٢١) ينظر كتاب « معارك فكرية » ، للدكتور محمود أمين (مصدر سابق) ص ١٢٢ - ١٢٣ . [من المهم هنا ان ننقل رأي لوبون في ما حققه العرب وما حققه الافريق ، وفي اضافة العرب العلمية الى الحضارة العالمية . يقول لوبون ، على ص ٢٣ ، في كتابه المشهور « حضارة العرب » ، وبصنوان « مناهج العرب العلمية » : « ليست الكتابات والخترينات والالات غير وسائل للدرس والبحث ، وتكون قيمتها في معرفة الاستفادة منها . وقد يستطيع المرء ان يكون مطلقا على علوم الاخرين ، وقد يبقى عاجزا عن التفكير وابتداع اي شىء مع ذلك ، فيظل تلميذا غير قادر على الارتقاء الى درجة استاذ ... لم يلبث العرب ، بعد ان كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، ان ادركوا ان التجربة والرصد خير من الفصل الكتب ، وعلى ما يبدو من ابتداء هذه الحقيقة جد علماء القرون الوسطى في اوروبا الف سنة قبل ان يطوعها . ويزرى الى بيكون ، على العموم ، انه اول من اقام التجربة والرصد ، اللذين هما ، ركن المناهج العلمية الحديثة ، مقام الاستلال ، ولكنه يجب ان يعترف اليوم بان ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، وقد ابدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولاسيما هينولد ، فبعد ان ذكر هذا العالم الشهير ان ما قام على التجربة والرصد هو ارفع درجة في العلوم قال : « ان العرب ارتقوا في علومهم الى هذه الدرجة التي كان يجعلها القدماء تقريبا » . وقال مسيو سيدو : « ان اهم ما اصبحت به مدرسة بغداد في البداية هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لاعمالها ، وكان استخراج المجهول من العلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقا مؤدبا الى استنباط العطل من المعلومات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادئ قال بها اسانلة العرب ، وكان العرب ، في القرن التاسع من الميلاد ، حائزين لهذا المنهج الجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول الى ادوع الاكتشافات » . (لقد انتقل) تراث اليونان العلمي الى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل ، ولما آل الى العرب حولوه الى غير ما كان عليه فتلخه ورتتهم وخلقوه خلقا اخر » . [.

(٢٢٢) ينظر ، (« رسالة العلم الاجتماعية » ، للبروفسور ج . د . برنال ، ترجمه د . ابراهيم حلمي ، ص ٤

(٢٠٢) تؤكد ذلك اللقى والتفتيات الاخيرة في شمال الاتحاد السوفيتي ، وثمة دراسات عديدة حول ذلك .

(٢٠٣) تنظر ، كتاب محمد مفيد الشوباشي « العرب والحضارة الاوربية » ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩ - ٤٠ .

(٢٠٤) يشار الى ذلك ، في كتاب « تاريخ الفكر الاندلسي » ، اشارات مفصلة .

(٢٠٥) الدكتور فيصل السامر - « الاصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى » ، منشورات وزارة الاعلام في بغداد ، ١٩٧٧ ، (ص ١٣ فصاعدا) .

(٢٠٦) (٢٠٧) نفسه ، ص ١٤ ، ٢٧ .

(٢٠٨) يفسر هذا سر وجود جاليات عربية في عديد من بلدان الشرق ، بين فيهم عرب آسيا الوسطى .

(٢٠٩) « الاصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى » (مصدر سابق) ، ص ٢٤ .

(٢١٠) بلغت البحوث الممعة في انتشار وتأثير الف ليلة في الادب العالمي اكثر من خمسمائة بحث ، بشتى اللغات

(٢١١) « دراسة مقارنة في الامثال الروسية والعربية » لكتاب السطور ، بغداد ، ١٩٧٨ .

(٢١٢) (٢١٣) تعتبر دراسة (الادب العربي في القفقاس الشمالي) للاكاديمي البروفسور كراچوفسكي مكملة لدراسة (داغستان واليمن) وهي تستند الى مطياتها ، وتطورها . اما انتشار الحكم والماثورات العربية في المناطق المسلمة في الاتحاد السوفيتي (وخصوصا دافستان) فهو نظير لانتشار هذه الماثورات فيالشرق الاسيوي (الهند والملايو واندونيسيا وبعض مناطق الصين والفلبين) .

(٢١٤) ثمة كتب عديدة حول مطيات المؤلفات العربية (للرحالة العرب او لكتاب العرب والمسلمين عموما) ، واهمية هذه المطيات في دراسة تاريخ شعوب الاتحاد السوفيتي ، والمنطقة .

(٢١٥) و (٢١٦) ينظر كتاب الدكتور فيصل السامر - « الاصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى » ، الفصل الخامس « السفارات العربية الى الصين في العصور الوسطى والاسلامية » (« حضارة العرب » (مصدر سابق) ص ١٧٨ .

(٢١٨) المصدر ذاته ، ص ١٨ .

(٢١٩) المصدر ذاته ، ص ١٨ .

(٢٢٠) اوردته د . جابر الشكري في بحثه « الآثار العربية في دراسة المنتجات الطبيعية » ، مجلة (افاق عربية) ، اب ١٩٧٩ ، ص ٨٦ .

(٢٢١) « الطب العربي » (مصدر سابق) ص ٢١٧ .

(٢٢٢) (٢٢٣) تنظر مجلة « افاق عربية » ، تشرين الاول ١٩٧٧ ، ص ٧٩ .

(٢٢٤) (٢٢٥) و (٢٢٦) و (٢٢٧) ينظر « دفاع عن الثقافة العربية » ، فتيحي خليل ، ١٩٥٩ ، (ص ٩ - ١٢) .

(٢٢٩) صدام حسين ، حول كتابة التاريخ ، نشرته مجلة

التأثير الانصابي في بغداد

بقلم

عادل المرزوقي

بغداد - الجمهورية العراقية

● مدخل :

والادباء والفنانين والعلماء والقادة التاريخيين وغيرها من الرموز العربية المستمدة من تاريخ وتراث امتنا العربية وامجادها الفذة ، والتي ساهمت مدينة بغداد عبر تاريخها الطويل بصنعها.

● ليس غريبا على بغداد العربية ان تحتضن هذه المجموعة الكبيرة من التماثيل والانصاب التذكارية الجميلة ، لان هذه المدينة هي عاصمة بلاد الرافدين العريقة بحضارتها وآثارها المنتشرة في كل مكان ، والتي تحكي للاجيال قصة الحضارة الانسانية ، وفجر السلالات البشرية التي سكنت وادي الرافدين قديما وتركت للاجيال التي تلتها موروثا حضاريا وآثارا عظيما ملا قاعات المتاحف العراقية والعالمية الشهيرة.. ومنها ما زال مطورا تحت التراب ، لم تصله يد البحث والتنقيب بعد .. !!

ان حضارات ومخلفات البابليين والاشوريين والسومريين وغيرهم من الاقوام الاخرى .. ما تركته لنا من آثار وشواخص عديدة خير شاهد لهذا الامتداد الحضاري المشرق .. الذي عاشته ارض الرافدين منذ بدء البشرية وحتى يومنا الحاضر .

وما لتماثيل والانصاب المنتشرة هنا وهناك في ارجاء العاصمة ومنتزهاتها الاغيض من فيض ذلك الدفق الحضاري الاصيل .. الذي حيا الله به هذه التربة المباركة ، التي شهدت عصر النهضة والانعام العربي الاسلامي خاصة في زمن العباسيين .. وتشهد حاليا انتصارات الثورة العملاقة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي .

● هذه المقالة المتواضعة التي اتناول من

● مع دخول الثورة عامها الحادي عشر ، مليئة بانتصاراتها وتلاحمها مع الجماهير ، تكون بغداد عاصمتنا الزاهرة ، قد تفرقت لامحها نحو الموقع الابهي والافضل والاجمل .. وهذا ما حدث بالفعل .. ما دامت هذه المدينة العربية العريقة تحمل بين ثناياها ارث الماضي المشرق الذي عاشته قبل عدة قرون .. وما دامت هي هي بغداد الاولى تبعث حضارتها المجيدة من جديد في زمن ثورة السابع عشر من تموز القومية الاشتراكية .

● فمع كل اطلالة فجر باسم جديد يمر بهذه المدينة العامرة .. تكتسب فرحا جديدا ومكسبا عظيما وتفيرا شاملا في هذا الموقع او ذلك .. وتشهد ايضا اجتناسا من الاساس لبقايا التخلف والاهمال الذي عانت منه ببغداد ابان العهد الرجعية المندثرة . من بين تلك الملامح الجديدة والاصيلة التي اكتسبتها بغداد في السنوات الاخيرة ظاهرة النصب والتماثيل واللوحات الجدارية الرائعة التي زرعت في ساحاتها ومنعطفاتها ومنتزهاتها الخضراء الفسيحة ، والتي اضيف عليها مسحة جمالية اخاذة ذات جذور حضارية عريقة تمتد الى عصور هذه المدينة الزاهرة وایامها الذهبية .. يوم كانت موئلا لبلاد العرب والمسلمين .

● وكما في المدن المتقدمة في ارجاء العالم ، فقد تكاثرت هذه النصب والتماثيل بشكل يسير الفخر والاعتزاز بماضي الامة ، وما قدمته من ابداعات في شتى حقول المعرفة والفكر والحضارة .. فانصبحت تماثيل عديدة تمجد البطولة وملاحم الشعب ونضالاته .. كذلك تماثيل تذكارية للشهداء

وضل هذا التمثال منتصبا في مكانه متحديا
مشاعر وريادة ابناء الشعب .. حتى يوم ١٤ تموز
١٩٥٨ ، حيث سارعت الجماهير الى تهديم حجراته
وتحطيم قاعدته من الاساس .. وهكذا قضت على
هذا الرمز الاستعماري البغيض .

● عبدالمحسن السعدون :

● يعتبر تمثال المرحوم عبدالمحسن السعدون
رئيس الوزراء العراقي في اواخر العشرينات ، من
اقدم تماثيل العاصمة اليوم .. فقد اقيم التمثال
عام ١٩٣٣ ، وهو من عمل النحات الايطالي (بياترو
كانونيكو) وهو من خيرة الفنانين الايطاليين آنذاك ،
حيث سبق له ان نحت تمثالا لمصطفى كمال اتاتورك
مؤسس تركيا الحديثة في انقرة .

وياتي اقامة تمثال للسعدون ، بمثابة تكريم
من الحكومة العراقية له ، ولوقفه من الاستعمار
البريطاني المتحكم حينها في شؤون البلاد ، مما دفع
بعبدالمحسن السعدون الى الانتحار برصاصة
من مسدسه اطلقها على نفسه اثر خلافاته مع
المستعمرين الانكليز حيث ترك وصية قال فيها
مخاطبا ولده علي : « الشعب يريد الخدمة والانكليز
لا يوافقون .. » .

ومن الطريف ان هذا التمثال تنقل مرتين من
مكانه ، قبل ان يستقر اخيرا في ساحة النصر ..
فعند نصبه اختير له مكان يقع اليوم في رأس جسر
الجمهورية من جانب الرصافة .. بعدها تم تحويله
من مكانه الى مدخل شارع السعدون الذي اطلق
اسم عبدالمحسن السعدون على هذا الشارع تخليدا
له ايضا .. وذلك لتعارضه مع موقع الجسر
المذكور .. وقبل (٧) سنوات وعند المباشرة
بمشروع نفق ساحة التحرير ، ولتعارض موقعه
مع هذا المشروع نقل مرة ثالثة الى ساحة النصر
وما زال في مكانه .

والسعدون من مواليد مدينة الناصرية عام
١٨٨٩ م ، وتعلم في المدرسة الحربية في (استنبول)
وتخرج ضابطا منها وعمل في الجيش العثماني ،
وانتخب في مجلس النواب .. وبعد الحرب الاولى
عاد الى العراق ، حيث تقلد منصب وزير العديلة
لاول مرة عام ١٩٢٢ ثم اصبح وزيرا للدخلية ، ثم
رئيسا لمجلس الوزراء اربع مرات للفترة من ١٩٢٢
حتى ١٩٢٩ حيث حادثة انتحاره المعروفة .

والتمثال مصنوع من مادة البرونز يرتفع على
قاعدة من الرخام يمثل للسعدون واقفا وهو يرتدي
ملابسه الاعتيادية (زي الافندية) ويعتمر السدانة

خلالها موضوعا فنيا ذا ابعاد جمالية ، وجذور
تاريخية مستمدة من تاريخ هذا القطر وحضارته ،
الا وهو موضوع « النصب والتماثيل في بغداد »
ليس بالضرورة ان يكون دراسة فنية اكااديمية ،
من حيث حرفية النحت والرسم .. ولكنه موضوع
استعراض شامل لمعظم ما موجود من تماثيل في
العاصمة حاليا او حتى تلك التماثيل المفاة منذ
معرفة بغداد لهذه الظاهرة اي منذ عشرينات هذا
القرن حيث انتصب اول تمثال الى يومنا الحاضر .

● المرحلة الاولى :

● نبدأ اولاً بالمرحلة التي سبقت ثورة الرابع
عشر من تموز ١٩٥٨ .. اي منذ العشرينات وحتى
عام ١٩٥٨ .. حيث ان بغداد لم تشهد شوارعها
وساحاتها آنذاك سوى (٣) تماثيل كبيرة وتمثال
آخر صغير .. وربما تكون هناك بعض التماثيل
الجسبية الاخرى التي تانتثرت هنا وهناك بين
البيوت والقصور الفخمة حينها .. ومنها العديد
من تماثيل لاسرة المالكة في العراق والتي تقع الان
في متحف الازياء والمآثورات الشعبية الكائن في شارع
الرشيد / السنك والعائد لوزارة الثقافة والاعلام
حاليا .

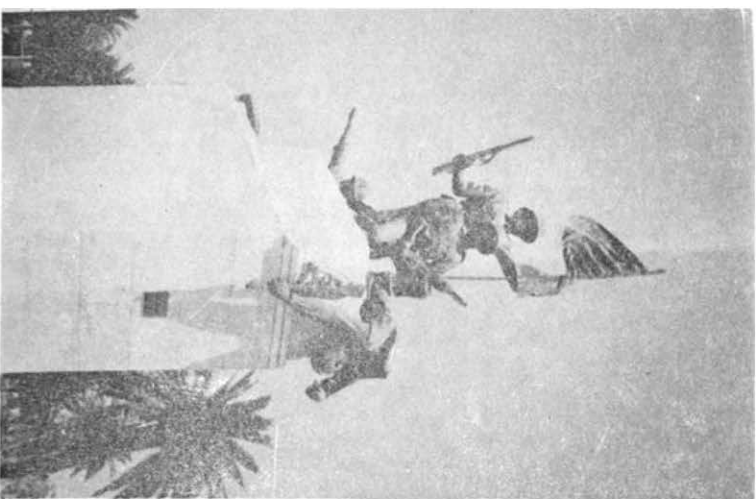
● « مود » فاتح بغداد :

● الجنرال الانكليزي « مود » الذي فصح
بغداد في ١١/آذار/١٩١٧ بجيوشه الجرارة بعد
هزيمة الاتراك في الحرب العالمية الاولى .. والذي
اشتهر بوعده لاهل بغداد « ان جيوشه دخلت العراق
محررة لا فاتحة ! » والذي لم يتحقق من وعده شي ،
يذكر ، بل بالعكس كانت جيوشه غازية ومعتدية
وليس محررة للعراق كما ادعى .. !!

ولاجتياح مرض (الهیضة) بغداد انذاك .
وما اكثر الامراض والطواعين التي كالت اجتياح
بغداد والعراق وتحصد ارواح البشر بلا رحمة ..
فقد خطفت الهیضة حياة الجنرال « مود » في بغداد
ودفن في مقبرة الانكليز الواقعة الان في الكرتينية .

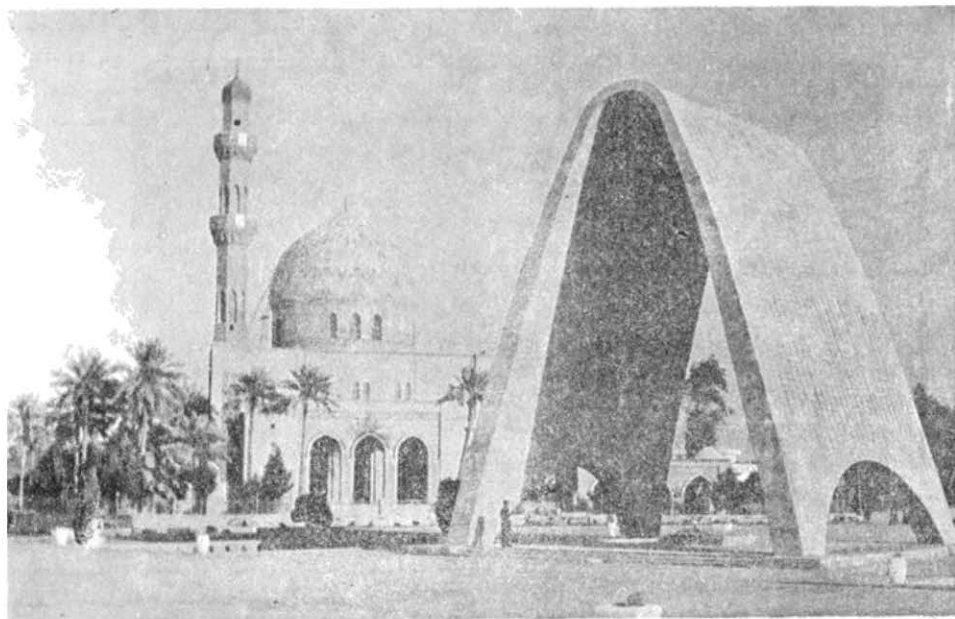
وقد اراد المستعمرون والسائرون في ركايبهم
تخليد هذا الجنرال المتفطرس ، باعتباره منتقدا
لبغداد ، وممثلا لجيوش الامبراطورية العظمى .. !!
فقد تقرر ان يقام له نصب تذكاري يخلده وبالفعل
فتح باب الاكتتاب والتبرع لاقامة هذا النصب
البغيض الذي يمثل الاستعمار .. حيث اقيم هذا
النصب المشؤوم ونصب في منطقة الشواعة في
جانب الكرخ في الساحة المقابلة للسفارة البريطانية .

نصب 14 تموز - في كراة مرين



نصب الراضي في متزه الرواه





نصب الجندي المجهول - شارع السعدون



تمثال عبدالحسن الكاظمي



تمثال عبدالحسن السعدون



تمثال الشاعر ابي نواس



تمثال كهرمان



تمثال العربة الآشورية في متنزه الزوراء



نصب عباس بن فرناس في شارع المطار الدولي



تمثال الفارس العربي في مدخل مدينة المنصور



نصب شهريار في شارع أبي نواس

على ظهر هذا الجمل ، ويعرف مسالكها وتقديرها من الاستعماريين ، والسائرين في ركابهم من رجالات العهد المباد . فقد تم نصب هذا التمثال البغيض في أعلى منارة القشلة التاريخية .. وظل هكذا حتى عام ١٩٥٨ حيث انزل من مكانه وأُتلف إلى الأبد .

● المرحلة الثانية :

● بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .. وبعد ان الضيت كل التماثيل البغيضة .. التي كانت ترمز للاستعمار والظلم والتسلط ، لم يبق في بغداد سوى تمثال واحد هو تمثال عبدالمحسن السعدون في بداية شارع السعدون ..

● الجندي المجهول :

● لم يسبق لبغداد ان شهدت نصبا تذكاريًا للجنود المجهولين ، الذين سقطوا دفاعا عن حياض الوطن عبر الشدائد والملمات .. فكان لابد من تخليد هؤلاء الشهداء الميامين الذين رفعوا اسم الوطن والامة عاليا بنصب تذكاري يخلدهم مدى الازمان ..

فكان عام ١٩٥٩ حيث اقيم نصب الجندي المجهول الحالي تخليدا وعرفانا لدور الجندي العراقي الذي بذل روحه في سبيل تربة هذا الوطن ..

وقد اختيرت الساحة الحالية التي يربض فيها هذا النصب الجميل بالذات تخليدا لدخول قوات جيشنا الباسل من هذه الجهة ، لانهاء الحكم الملكي العميل واعلان الجمهورية صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ..

النصب شارك بتصميمه وعمله ثلاثة مهندسين عراقيين هم : عبدالله احسان كامل ، ورفعت الجادرجي واحسان شيرزاد .

ويقسم هذا النصب الى قسمين الشمالي والجنوبي ، بتوسطه قوس كبير على شكل (طاق) طوله ١٤ متر وارتفاعه ١٨ متر حيث يرمز الى الاقواس التي بناها العراقيون القدامى .. مقارنة بالنهضة العلمية في الهندسة المعمارية في قطرنا ، بينما ترمز الفتحتان في الطاق الى هلالين عربيين .

ويتوسط الطاق من الداخل قبر الجندي المجهول المربع الشكل الذي يتكون من (٤) قطع حجرية بحجم (٩) امتار مربعة تملوه شعلة من اثار متوهجة رمزا لخلود هذا الجندي المجهول ..

ويزور هذا النصب كل الرؤساء والملوك الذين يزورون قطرنا حيث يؤدون مراسيم الزيارة له :

الوطنية فوق راسه متابعا في يده اليمنى ملفسة اوراقه .. بينما ازددات واجهة القاعدة التي يقف عليها التمثال بجدارية تحمل بعض التماثيل .

● فيصل الاول :

● وفي نفس الفترة التي صنع فيها النحات الايطالي (كانونيكيا) تمثال محسن السعدون ، باشر بعمل تمثال آخر للملك فيصل الاول تخليدا له ، حيث تم نصب هذا التمثال على قاعدة رخامية مرتفعة في ساحة جمال عبدالناصر - حاليا - في الصالحية ، والواجهة اجسر الاحرار والمعرفة تفاصيل انجاز هذا التمثال يمكن الرجوع الى ما ذكره امين الريحاني . الرحالة والاديب اللبناني المعروف ، الذي كان يزور العراق آنذاك ، في كتابه (فيصل الاول) حيث يصف وبشيء من التفصيل الساعات الطويلة التي كان يقضيها الملك واقفا امام النحات الايطالي لاكمال ملامح وجهه وتقاسيم جسمه الاخرى .

والتمثال يمثل فيصل الاول بملابسه العربية (الكوفية والعقال والعباءة) وهو يمتطي ظهر جواده ..

وقد ازيل هذا التمثال في صبيحة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .. وظلت قاعدته فارغة الى ان ازيلت بعد حين .. حيث بادرت امانة العاصمة الى تحويل الساحة الى حديقة جميلة ونصبت فيها ساعة للزهور ..

وقبل فترة قصيرة ازيلت هذه الساحة وساعتها الارضية تمثيا مع مشروع تحويل الساحات والشوارع الذي طبق مؤخرا .. وحلت مكانها ساحة صغيرة انتصبت فيها ساعة حديثة من جهاتها الاربعة .

● لجمن .. فوق المنارة

● وكما اقيم للاستعماري « مود » تمثال في الشوكة .. صنع الاستعماريون تمثالا صغيرا آخر لاستعماري آخر له دور كبير في الجاسوسية البريطانية ، التي مهدت للقوات الغازية من احتلال العراق والسيطرة عليه ..

انه القائد الانكليزي «لجمن» الذي قتلته المناضل الوطني الشيخ ضاري المحمود في منطقة خان النقطه قرب مدينة الفلوجة .. في احداث ثوره العشرين المجيدة .. والتمثال يجسد شخصية لجمن بالملابس العربية (ملابس البدو) ، وهو على ظهر جمل دلالة على ان لجمن كان يجوب الصحاري

● نصب الحرية .. ملحمة الشعب :

● من الانصاب الكبيرة التي شهدتها سنوات ما بعد الثورة ، نصب الحرية الشامخ في البسبب الشرقي في قلب بغداد .. حيث ساحة التحرير الكبير ساحات العاصمة بينما تقبع خلفه حديقة الامة من اولى الحدائق الكبيرة في بغداد .. والذي غدى سمة مميزة وعلامة بارزة من ملامح هذه المدينة .

وهذا النصب العملاق ملحمة نضالية خالدة تمثل المراحل النضالية التي مر بها شعبنا العراقي منذ العهود المظلمة ، وثوراته وانتفاضاته ، وحتى ثورة تموز ١٩٥٨ .. وقد نفذه وصممه الفنان العراقي جواد سليم ، الذي وافته المنية قبل ازاحة السنار عنه بفترة قصيرة .. حيث افتتح في عام ١٩٦١ .

تجسد في هذا النصب ، شخوص واشكال عديدة تكمل بعضها الاخر ، لا مجال لذكرها هنا بالتفصيل .. وسأكتفي بتعدادها للتعريف فقط فهي : (الحصان .. ورواد الثورات .. الباكبة .. ام ترثي ولدها .. ام وطفله .. المفكر السجين .. الجندي .. الحرية .. الدعة والاستقرار .. دجلة والفرات .. الزراعة .. الثروة الحيوانية .. الصناعة .. شموخ العامل ..)

انها بحق ماثرة فنية خالدة تعتبر من المع وابرز الاناث المعاصرة التي تعزز بها مدينتنا الحبيبة بغداد .. صنعها لنا واحد من رواد النحت في قطرنا العراقي .. الفنان جواد سليم رحمه الله ..

● الام :

● من التماثيل التي شهدتها تلك الفترة ايضا تماثال (الام) من عمل النحات خالد الرحال والذي ازيح الستار عنه عام ١٩٦١ في حديقة لامة .. حيث يحيط قاعدة هذا التمثال حوض دائري للماء انتشرت على جانبيه من الداخل النافورات والاضواء الملونة .. وقد نقل هذا التمثال قبل سنوات قليلة الى متنزه الزوراء ..

التمثال يمثل الام وهي تنظر الى مستقبل الجيل الذي يعبر عنه بالطفل الواقف الى جنبها والذي وفرت له الثورة كافة المقومات التي تجعله يقف على ارض صلبة .. يبلغ طول التمثال (٤) امتار ونصف المتر ، وهو منحوت من حجر الحلان .

ويضعون على القبر باقات من الزهور ، كذلك تقام فيه الاحتفالات الرسمية مثل اعياد تموز وعيد الجيش العراقي وغيرها من المناسبات الوطنية الاخرى ..

● نصب جديد للجندي المجهول في بغداد

● وما دمنا بصدد الحديث عن هذا النصب .. فان نصبا جديدا سيقام قرب ساحة عمان في الكرخ للجندي المجهول .. من تصميم النحات خالد الرحال .. حيث وضع حجر الاساس لهذا النصب في ٦ كانون الثاني عام ١٩٧٦ ..

اذ يعتبر تشكيل نصب الجندي المجهول مثالا لنماذج الهندسة المعمارية الحديثة وتجسيدا لفكرة التصميم والتشكيل التي خلقت مفاهيم وتعبيرات غاية في الروعة والابداع .

وتقدم للقارئ العزيز تعريفا سريعا عن ما يحتويه هذا التصميم الذي لم ينفذ بعد ..

« القبة المائلة تمثل ترسا عربيا اثناء سقوطه على الارض مضرجا بالدماء التي تمثلها بدورها الوان القاعدة .. وهذا يعني سقوط الشهيد دفاعا عن ارض وطنه .. اما العلم داخل القبة فهو يبدأ من القاعدة الداخلية الى نهاية محيطها الامامي ممثلا للعلم العربي الذي يبرقع به الضريح والذي تتجلى الوانه بوضوح .

اما جوانب العلم ، فتمثل جناحي الصقر وتتجلى بالزخارف العربية والاسلامية المصنوعة من مادة المري (المعدن الالامع) . اما القاعدة بشكلها البيضي الاحمر ومدرجاتها ، فانها تمثل صدى وقع الترس على الارض ، وهي باللون الاحمر الذي يرمز لدم الشهيد .

اما العمود المخروطي الطويل الشكل ، فانه يمثل صعود الروح الى خالقها .. وفي ذات الوقت تستعمل كسارية للعلم .

والضريح المكعب الشكل بطبقاته يمثل اكفان الشهيد الذي يشع من داخله الضياء الازرق الذي يعطي الرهبة والسمو للضريح » .

وعندما سيكمل بناء هذا النصب الكبير ستتحول الاحتفالات والاراسيم والزيارات اليه بدلا من النصب الذي سيصبح - قديما - في شارع السعدون .. والذي سيضلل نصبا قائما في نفس الساحة ..

بمرور الايام تحتل لها مكانا في ساحات وشوارع العاصمة ..

واكتمالا لتنظيم هذا الجانب الجمالي فقد شكلت لجنة عليا لاختيار موضوعات هذه التماثيل وقرارها نهائيا سواء منها التي في بغداد او محافظات القطر الاخرى ..

وامام هذه الاجراءات المديدة التي اتخذت لصالح هذا التوجه ،بدانا نلمس اثار هذا الدعم الذي توليه قيادة الحزب والثورة لهذا التوجه .. وبدانا نرى بين آونة واخرى ان تماثلا نصب في هذه الساحة .. وان نصبا اقيم هناك .. وهكذا هي عطاءات الثورة زاخرة مستديمة ..

● اربعة تماثيل .. لاربعة اعلام :

من بين التماثيل التي شهدتها بغداد في عام ١٩٦٨ خمسة تماثيل في آن واحد تم نصبها في منتزه (الاوربا) سابقا - (الوحدة) حاليا .. وقد ظلت هذه التماثيل ردا من السنوات هناك ولكن المسؤولين عنها قرروا نقلها الى منتزه المسيح في الكرادة على شاطئ دجلة .. فزادها المكان الجميل الجديد روعة وجمالا .
وهذه التماثيل هي (المنصور .. المنتبي .. الرازي .. الفراهيدي .. الكندي) .

● ابو جعفر المنصور :

● الخليفة المنصور ، ثاني خلفاء بني العباس وهو الذي شيد مدينة بغداد المدورة .. واسمه (عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس) ولد عام (٧١٢) م وتوفي عام ٧٧٥ م .. وقد عرف المنصور بالرجل الاداري الحكيم والسياسي المحنك والقائد القنتر .. حيث تولى الخلافة بعد اخيه ابي العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية عام (١٣٦) هـ .. وشهدت مدينة بغداد في عصر المنصور ازدهارا عظيما ، كما تطورت الدولة العربية الاسلامية على يده ، واشتهر عهده بالرخاء والامن وازدهار العلوم والاداب .

التمثال .. يمثل الخليفة العباسي واقفا نحو الامام؛ بينما ارتفعت عمامته نحو الاعلى بعض الشيء .. يبلغ طول التمثال الذي صنعه النحات العراقي محمد غني حكمت في عام ١٩٦٨ .. (٦) امتار وهو من الحجر .

● ومن النصب التي يعود تاريخها ايضا الى تلك الفترة نصب ١٤ تموز .. الذي ازيع الستار عنه في عام ١٩٦٢ .. وفي موقعه الحالي مقابيل القصر الجمهوري بكرادة مريم في الساحة المواجهة لبدية الجسر المعلق .. وهو من عمل الفنان ميران السعدي .. يظهر في النصب اربعة من جنودنا الاطال يشقون طريقهم نحو النصر .. وقد رفع احدهم راية النصر عاليا بينما مك في يده الثانية بندقيته .. بينما استشهد آخر وهو في طريقه الى المعركة .. فكرة النصب عموما تركز على صلابة الجندي العراقي وقوة باسه في ساحات الوغى والقتال .

وعند هذه التماثيل تنتهي مرحلة .. وتبدأ مرحلة اخرى بالنسبة لتماثيل بغداد .. هي مرحلة العطاء الفني الكبير .

● مرحلة الثورة .. والعطاء الفني الكبير :

● بعد ثورة ١٧ - ٣٠ تموز القومية الاشتراكية عام ١٩٦٨ والتي فجرها وقادها حزب البعث العربي الاشتراكي .. تفجرت ايضا طاقات الفنانين وامكاناتهم ومواهبهم ، وتوفرت امامهم الفرص للبروز والابداع .. حيث شهدت بغداد تغييرات شاملة على صعيد التنظيم والتجميل وتزيين الساحات والشوارع بالنصب والتماثيل والجداريات المستمدة من تاريخ وتراث امتنا العربية المجيدة .. فكان ان انتصبت عشرات التماثيل ، واجزل العطاء لمن ابدع من صناعة وتجسيد هذه الانصاب التذكارية اسيرتنا المعطاءة ..

من ابرز تلك المنجزات في ازدهار الجانب الجمالي والفني لمدينة بغداد .. ان انيطت مهمة اقامة التماثيل والانصاب بامانة العاصمة باعتبارها الجهة الرسمية المسؤولة عن تنظيم وتجميل العاصمة بما يتلائم ومكانتها السياسية والاجتماعية والحضارية والتاريخية وامام هذا الوضع انشأت الامانة مصورا متكاملالمادة (البرونز) بدلا من صب (قوالب) التماثيل في الخارج ، واختير له مكان ثابت في شارع الشيخ عمر .. وتأسست ايضا في عام ١٩٧٤ مديرية عامة تابعة لامانة العاصمة تتولى تنفيذ هذه الامور يديرها الفنان خالد انرحال .

وهذه المديرية التي نفذت عشرات التماثيل تنهمل الان بتنفيذ اعمال فنية اخرى سنشاهدها

● رأس المنصور :

بأخباره وأشعاره ومغامراته وأسفاره .. وما تركه
للأجيال العربية من قلائد شعرية رضية .. مما
زالت تحل سر حياتها إلى يومنا هذا ..

هو ابو الطيب احمد بن الحسين الجعفي
المعروف بالمتنبي ولد في رحاب محلة كنده في الكوفة
عام ٩١٥م وتوفي عام ٩٦٥م - وترعرع في التوفة
وتنقل بين الشام ومصر وبران وتنقل في البوادي
والاقطار العربية الاخرى .. وقد قتل عند رجوعه
من بلاد فارس هو وولده (محسد) وعبد ..
وقبره الان قرب قضاء النعمانية في محافظة
واسط .. يبلغ طول التمثال الذي نفذه الفنان
العراقي عبدالرحمن الكيلاني - (٥) امتار من
الحجر ، ويمثل المتنبي واقفا وكأنه يلقي احد
قصائده حيث يؤشر بيده اليمنى .. بينما قبض
بيده اليسرى على السيف ..

تم نصب التمثال عام ١٩٦٨ ..

● نصب جديد للمتنبي :

● في عام ١٩٧٧ شهدت بغداد مهرجانا
تكريميا كبيرا للشاعر المتنبي شاركت به العديد من
الشخصيات الاوربية الالامعة في الوطن العربي وعدد
من المستشرقين الاجانب .. المهرجان امتد لاسبوع
كامل .. اشرفت على تنظيمه وزارة الثقافة
والفنون .. تضمن اماسي شعرية والقاء عدد من
البحوث والدراسات الخاصة باسرار حياة وشعر
المتنبي .. وقامت الوزارة بطبع العديد من الكتب
القيمة التي تتعلق بهذا الشاعر الفذ .. وتضمن
المهرجان ايضا تشييد ما هدم من قبر المتنبي قرب
النعمانية وتأسيس مكتبة باسم المتنبي في مدينة
الكوفة .. مدينة الشاعر الاولى .. وما يهمنا في
هذا الصدد .. هو تمثال الشاعر المتنبي السذي
ازيح الستار عنه خلال ايام المهرجان حيث انتصب
التمثال على قاعدة حجرية مرتفعة في حديقة بناية
المكتبة الوطنية مقابل وزارة الدفاع .. وهذا
التمثال الثاني : في بغداد .. !!

وهو من عمل الفنان محمد غني حكمت . .
وهو يمثل ابا الطيب واقفا .. بينما اخذت الرياح
العالية تتلاعب بشيابه الفضفاضة .. بينما مديده
اليمنى على قبضة سيفه .. وقد لبس المتنبي على
رأسه غطاء اشبه بانعاماة متصلة مع ملابسه .. في
حين ظهر وجه الشاعر مرتفعا نحو الاعلى متطلعا
للسمو والانطلاق في الصحراء العربية التي جابهها
اكثر من مرة عبر سهول ووديان وجبال العراق

● وما دمنا نتحدث عن ابي جعفر المنصور .
فقد خلدت بغداد مؤسسها مرة ثانية من خلال
النصب التذكري الجميل لرأس الخليفة المنصور
الذي انجزه الفنان خالد الرحال والذي نصبه في
ساحة الحي العربي بالمنصور .. وازيح الستار عنه
في ٦/كانون الثاني/عام ١٩٧٦ بمناسبة الذكرى
السادسة والخمسين لتأسيس الجيش العراقي
الباسل - النصب يتكون من رأس الخليفة بارتفاع
(٣) امتار ونصف وينصب فوق قاعدة طولها (٦)
امتار ونصف .. وفكرة النصب تمثل قاعدة لاجد
ابراج سور مدينة بغداد القديمة على شكل دائري ..
حيث ان هذه القاعدة مزخرفة من الخارج بنقوش
من فن الرابزة الاسلامية البديعة .. وبداخل هذا
البرج غرفة على شكل متحف صغير يضم نحتا
يمثل الخليفة ، وهو يمتطي جواده برفقة نخبة من
علماء الفلك والمهندسين ، وهو يؤشر الى المنطقة التي
اخترها موقعا لمدينة بغداد ، اضافة الى صور
قديمة للمدينة وما تبقى من اثارها مثل خان مرجان
والمدرسة المستنصرية وغيرها من المعالم .

● الكندي :

● وثاني تلك النصب التي يحتضنها متنزه
المسيح حاليا .. نصب للفيلسوف الكندي الذي
احتفلت بغداد بذكره قبل (٢٠) عاما ، عندما
احتفلت بعيدها الالفى ..

وهو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي .
وهو عراقي عربي من منطقة (كنده) في الكوفة قضى
معظم ايام حياته في مدينة بغداد والبصرة ، وبرع
في العلوم خصوصا الفلسفة والرياضيات والطب
والموسيقى والفلك ..

وقد قام الكندي بشرح ، وتاليف كتب يزيد
عدها على (٣٠٠) كتاب كان لها الاثر البالغ في
التراث العالمي ، كما قام المترجمون بترجمة
عدد منها الى شتى اللغات الاجنبية ، حيث
استفادت منها اوربا ، ايام عصورها المظلمة وحملت
اليها افكاره مشاعل العلم والمعرفة .. وفي عام ١٩٦٨
تم نصب هذا التمثال الذي نفذه النحات العراقي
محمد الحسيني ، اذ بلغ طوله (٦) امتار وهو
مصنوع من الحجر .

● المتنبي :

● من منا لا يعرف ابا الطيب المتنبي ..
الشاعر العملاق الذي (ملأ الدنيا وشغل الناس)

والشام ومصر وبلاد فارس .. وغيرها من الامصار التي استقر فيها ردها من الزمن .

● الرازي :

● رابع هذه الانصاب .. نصب ابو بكر بن محمد بن زكرياء الرازي .. من مواليه مدينة الري في فارس عام ٨٦٥ م ، اقام في بغداد حتى وفاته عام ٩٢٣ م - وكان فيلسوفا نابغا في الطب والموسيقى ولغناء والكيمياء .. ولكن شهرته برزت اكثر في مجالي الطب والهندسة ..

وقد الف في حياته (٢٣١) كتابا منها - الحاوي في الطب - .. وكان الرازي يؤمن بالعلاج السريري .. حيث اصبح في فترة من فترات حياته مديرا لاحدى مستشفيات مدينة القاهرة بمصر .. وقام بطبع قسم من مؤلفاته ، وترجم بعضها الى اللغات الاجنبية . من الآسي التي مرت بهذا الرجل .. انه فقد بصره في اواخر ايام حياته ومات في بغداد ..

تمثال هذا العلم الرائد نفذه الفنان العراقي صالح القرهغولي عام ١٩٦٨ ، ويبلغ طوله (٦) مترا من الحجر لجسي .. موقعه في متزه المسبح .

● الفراهيدي :

● التمثال الخامس .. هو لعالم اللغنة الشهير ابن البصرة الفيحاء الخليل بن احمد الفراهيدي . الذي ولد عام ٧١٨ م وتوفى فيها عام ٧٨٦ م .. وقد عرف الفراهيدي اماما في اللغنة والنحو .. وواضعا لعلم العروض ومؤسسا لعلم الاصوات ومخارج الحروف العربية .. ومؤلفا لاقدم معجم عربي - كتاب العين - .

كما يعتبر هذا العالم الجليل في طليعة من الف في النغم والابحار اذ لا زالت اثاره مرجعا للباحثين .

تمثاله هو الاخر يقع في متزه المسبح انجز عام ١٩٦٨ من قبل الفنان ميران السعدي يبلغ ارتفاعه (٥) امتار ، وهو يرتكز على قاعدة كونكريتية .

ومن المفيد ان نشير الى ان مدينته البصرة قد اقامت له تمثالا اخر نصبته في احدي ساحاتها العامة قبل سنوات تخليدا لابنها البار .. عندها يكون الفراهيدي قد خلد بتمثالين الاول في بغداد والثاني في البصرة ..

● النصور :

● تعود مره اخرى الى شوارع العاصمة وساحاتها .. وجولة اخرى لمعرفة ما موجود من آثار فنية فيها .. فهذه ساحة النصور قرب جسر (الخير) في الكرخ يتوسطها تمثال جميل عرف ايضا باسم «النصور» تحيط به الاشجار والزهور من كل جانب .. والنصور .. عند العراقيين الاقدمين تعني رمز القوة والجبروت .. وقد عبرت فكسرة التمثال بطريقة المقصود منها ، اظهار التلاحم العربي بالشكل الواقعي المنشود .. فالوجه التي تبرز بين ثنايا هذا التمثال الدائري توضح الالتحام العربي .. اضافة الى النصور التي تمثل الجيل المناصر واندفاعه الى امام بخطى ثابتة لتحقيق اهداف الامة .. يرتكز هذا النصب على قاعدة نصف كروية يبلغ ارتفاعها (٢) متر تعلوها كتلة حديدية يبلغ ارتفاعها (٥) امتار ، تمثل وجه رجل عربي ملثم ، اما الوجه الثاني ، فيمثل وجه فتاة عربية تعلوها مجموعة من النصور التي ترمز للجيل العربي الجديد وبعلم هذه النصور هلال ..

ازيح الستار عن نصب النصور عام ١٩٦٩ ، في نفس الساحة الحالية وهو من عمل ميران السعدي .

● لشاعر الكاظمي :

● اهتمت حكومة الثورة بالادب والادباء والشعراء وكرمهم في اكثر من مجال .. ومن ذلك التكريم والرعاية المتواصلة لحملة الفكر .. تأسى مبادرة امانة العاصمة في اقامة نصب تذكاري كبير للشاعر العراقي عبدالمحسن الكاظمي في احدي لساحات الجميلة عند مدخل مدينة الكاظمية من جهة الكرخ ..

وللتعريف بهذا الشاعر الرائد .. نقول هو : عبدالمحسن بن محمد بن علي بن محسن الكاظمي ولد عام ١٨٦٦م في مدينة الكاظمية .. حيث نشأ وترعرع فيها ، بعدها هاجر الى مصر وبقي فيها حتى وفاته عام ١٩٣٥م - والكاظمي يلقب بشاعر العرب .. وهو شاعر غزير الانتاج .. وكان في طليعة الداعين الى وحدة واستقلال الامة العربية .. وكان لقصائده كبير الاثر في تحريك مشاعر الجماهير ونارتها بوجه المحتلين والغاصبين ..

من اهم اثاره .. ديوانه المعروف بـ (ديوان الكاظمي) .

وقد ازيح الستار عن هذا التمثال يوم

١٠/ نيسان/ ١٩٧٢ ضمن احتفالات القطر باليوبيل
الفضي لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي -
وقد سميت الساحة التي تم فيها نصب التمثال
باسمه ايضا تكريما له .. وهي الساحة الواقعة عند
التقاء شارع الامام موسى الكاظم بشارع عبدالمحسن
الكاظمي .. وقد حضرت حفل الافتتاح كريمة
الشاعر السيدة رباب الكاظمي .. التي رافقت
عملية صنع تمثال والدها .. حيث نفذه الفنان
اسماعيل فتاح الترك .. ويبلغ طوله (٤) امتار
وارتفاع قاعدته (٥) امتار ظهر فيه الكاظمي
بملابسه التقليدية (الجبة والعمامة) وهو يلقي
احدى قصائده ..

● الرصافي :

● الثورة التي كرمت الكاظمي .. كرمت
مرة اخرى شاعرا عراقيا بارزا في تاريخ العراق
الحديث .. الا وهو الشاعر المشهور معمروف
الرصافي ذو المواقف الوطنية الصلبة بوجه الاستعمار
واذنابه ..

والرصافي هو معروف بن عبدالفني البغدادي
الرصافي .. ولد ببغداد عام ١٨٧٧م وتوفي فيها
عام ١٩٤٥م وقبره الان في الاعظمية .. ولا مبالغة
اذا ما قلنا ان الرصافي هو شاعر كبير لا تستغني عنه
مكتبة الشعر العراقي والعربي مطلقا .. فقد نظم
اروع القصائد في الاجتماع والحث على الثورة ورفض
التسلط الاجنبي .

وقد ابد ثورة مايس / ١٩٤١ التي قادها
المرحوم رشيد عالي الكيلاني .. ونظم العديد
من اناشيدها .

وبعد فشل الثورة انتقل الى بغداد .. وعانى
من شظف العيش ما عانى وبقي كذلك منزويا في
بيته في الاعظمية حتى وفاته .. في ١٦ آذار ١٩٤٥

ومن اثار هذا الرجل .. ديوان شعر شهير
يعرف بـ (ديوان الرصافي) .. وتخليدا لذكري
شاعر العراق الكبير معمروف الرصافي .. فقد اقيم
له هذا التمثال الكبير في واحدة من اهم ساحات
العاصمة هي ساحة الامون .. حيث انها تعتبر ملتقى
لشارع الامين بشارع الامون بشارع الرشيد ..
ونظرا لشهرة الرصافي فقد طغى اسمه في السنوات
الاخيرة على اسم الساحة .. حيث نسي الناس
« الامون » وعرفت باسم ساحة « الرصافي » ..

التمثال يمثل الرصافي واقفا بملابسه المصرية
متطلعا نحو الامام .. ازيح الستار عنه عام ١٩٧٠

يبلغ طوله (٣٥٠) متر للفنان اسماعيل فتاح
الترك .. وهو اول تمثال عراقي من البرونز يتم
صب قوابله في العراق .

● الجرار :

● منذ عام ١٩٧٢ .. انتصب نصب الجرار
حيث يلاحظ ابن بغداد او زائر المدينة عند وصوله
الى ساحة المتحف مجموعة من الجرار الشعبية
المرتكرة واحدة فوق الاخرى .. بشكل مخروطي
بديع .. حيث تتحول الجرة العليا الى نافورة من
الماء تقذفه بالحوض الذي يحيط بالنصب ..

وهذا النصب الذي صنعه ميران السعدي
يمثل فكرة قديمة لازمت حياة الاجداد الاقدمين اذ
ان لهذه الجرار علاقة حيائية وثيقة بالفرد العراقي
خلال معيشته اليومية ومنذ اقدم العصور وما
زالت .

يرتفع النصب حوالي (٦) امتار .. وهو عبارة عن
مجموعة جرار متلاصقة .. ولا بأس من الاشارة ..
ان الاشجار التي تحيط بهذا النصب غطته
اكثرا من مرة حيث يجري تشذيبها بين آونة
واخرى ..

● كهروانة والاربعين حرامي :

● هذا النصب الشامخ في شارع السعدون
- ساحة علي بابا عند مفرق الكرادة .. حيث يروي
حكاية الجارية كهروانة وعلي بابا والاربعين حرامي ..
انها حكاية الف ليلة و ليلة التي ولدت في بغداد ..
والنصب يجسد هذه الحكاية الشعبية او يروي
جزءا منها .

وكهروانة تلك المرأة الذكية التي استطاعت
ان تكتشف الاربعين حرامي المختبئين في الجرار ..
وذلك بسكبها الزيت على رؤوس هؤلاء اللصوص
الواحد تلو الاخر .. النصب مصنوع من مادة
البرونز .. طول تمثال كهروانة (٣٢٠) متر اما
الجرار فهي بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة .

ازيح الستار عن هذا النصب الجميل عام
١٩٧١ وهو من عمل النحات محمد غني حكمت .

● حمورابي .. ومسلاته :

● الملك البابلي القديم حمورابي ابن
الرافدين .. هو اول مشرع للقوانين خلده الثورة
ايضا بثلاثة انصاب احتلت لها مواقع متميزة في
عاصمتنا الحبيبة ..

ففي شارع كرادة مريم وقبالة المجلس الوطني .. انتصب هذا الملك العظيم الذي أسهم بحكمته وذكائه وشدة بأسه في تكوين وإدارة اعظم امبراطورية عرفها تاريخ العراق القديم .. تلك هي دولة البابليين .

وحمورابي يعتبر المشرع الاول للقوانين التي بسطت نفوذها على الارض .. حيث نظمت حياة الافراد .. واشاعت العدل والنظام بين الناس .. وهذه القوانين تدل في جوهرها على التطور السريع في الفكر الانساني والقانوني والاجتماعي والسياسي ايام البابليين ان نصب الملك حمورابي ومسلاته .. بما يحمله من سمات فنية رائعة .. وما يعكسه من ادراك وحس متدقق ويجسد عظمة العطاء الذي منحته ثورة السابع عشر من تموز القومية الاشتراكية لتراث هذه الامة وبنائها للبدعين .. واعتزازا صريحا بالحرية والعدالة التي تمنحها للمواطنين ، والرغبة الصادقة في الذود عنها وحمايتها ..

يبلغ طول تمثال حمورابي (٢٣٠) م فيما يبلغ طول القاعدة التي يستند اليها (٢٣٠) م وبمناسبة الذكرى الاولى لتأسيس النفط فقد ازيح الستار عنه في الاول من حزيران عام ١٩٧٣ م وهو من عمل محمد غني حكمت .

● مسلة حمورابي :

● كما اقيم تمثال آخر لمسلة القوانين التي شرعها حمورابي .. فقد اقيم هذا التمثال الذي يجسد مسلة حمورابي المشهورة التي دونت عليها تلك القوانين والانظمة التي شرعها هذا الملك العظيم لكي يطلع عليها شعبه ويعمل بموجبها .. منها هذا النص :

« من احرق احدا احرقناه .. ومن قطع يدا فطعنا يده .. والعين بالعين والسن بالسن ، ومن يسرق من اموال الالهة يقتل .. ويقتل معه من تكون الاموال بحيازته .. » الخ من التفاصيل الاخرى .

وهذه المسلة تمثل جزءا من التراث العربي القديم ونموذجا رائعا لابديعات ابن الرافدين انذاك .

ومعروف ان النسخة الاصلية من المسنة منحوتة من الحجر الاسود (اللدورايت) يبلغ ارتفاعها (٢٤٥ سم) وهي الان تقبع في متحف اللوفر بباريس .. سرقت في حينها من العراق موطنها الاصلي مع عشرات القطع والتحف الفنية والآثارية التي سرقها السامريون قبل قرن من الزمن ..

وهي الان موزعة على اكبر المتاحف في العالم ولمسلة حمورابي الاصلية نسخة جسيمة مماثلة وصعت في المتحف العراقي ببغداد ..

ويشاهد في اعلى المسلة (التمثال) الاله « شمس » على عرشه وهو اله العدل والحكمة – بينما يقف حمورابي في حضرة وقفة المتعبد .. ليستلم الشرائع القدسة منه .

تتألف المسلة من (٤٤) بندا قانونيا .. وتقسّم الى ثلاثة اقسام اولا المقدمة وثانيا المواد القانونية وهي (٢٨٢) مادة وثالثا الخاتمة .

والمسلة (التمثال) من نحت الفنان صالح القرهغولي وهي مصنوعة من البرونز وارتفاعها (٢٥) مترا .. وهي الان في ساحة قحطان السامرائي قرب جامع ام الطبول في الكرخ .

● مسلة اخرى :

● وما دام الحديث متوصلا عن حمورابي ومسلته وقوانينه .. فان نصبا اخرًا لمسلة حمورابي تم تشييده في منتزه الزوراء قبل (٥) سنوات وموقعها بالقرب من الجنائز المعلقة .. حيث انتصبت هذه المسلة على قاعدة رخامية زينت جدرانها بنصوص مختارة من شرائع حمورابي تتعلق بالزواج والدين والموت والحياة .. يحيط بقاعدة هذا النصب المرتفع نسبيا عن الارض (٤) تماثيل لاسود متوتبة من الجهات الاربع طليت باللون الاسود ..

● الفارس العربي :

● في الساحة المقابلة لمعرض بغداد الدولي .. انتصب تمثال الفارس العربي ، حيث ازيح الستار عنه يوم ١٩٧٢/٥/٩ ضمن احتفالات القطر باليوبيل الفضي لحزب البعث العربي الاشتراكي .

التمثال يجسد شغف العرب بالفروسية .. حيث اشتهر الفارس العربي بصفات الكرم والشهامة والشجاعة والبسالة .. ولا زالت تلك الصفات الحميدة متغلغلة في اعماق مجتمعنا العربي منذ اقدم العصور .

يبلغ ارتفاع التمثال (٥) امتار .. ووزنه (٤) اطنان من البرونز .. حيث يمثل فارسا عربيا بملابس القتال شاهرا بيده السيف ، وهو على ظهر حصانه الذي رفع قوائمه الالامية الى الاعلى توثبا للقفز .. والتمثال من عمل الفنان ميران السعدي .

● عباس بن فرناس :

ويرمز بالاطباق الى يوم ٧ نيسان عيد ميلاد الحزب القائد .

هذا العمل العملاق (المسيرة) يمثل ملحمة تاريخية عريقة تمتد منذ اقدم الازمنة وحتى يومنا الحاضر ، حيث مسيرة الثورة المظفرة التي حولت القطر العراقي الى نموذج نصيل لخلق المستقبل .لافضل من اجل الوصول الى المجتمع المسريري الاشتراكي .

والنصب بمجموعة تماثيله الكثيرة يشكل كلمة (لا) كرمز دائم لرفض التسلط الاجنبي .. ورفض واقع التجزئة والتخلف .. يبلغ طوله (٩) امتار وعرضه (٣) امتار وهو من مادة البرونز والسمنت .

وربما اذبح الستار عن هذا النصب في الفترة التي استغرقها نشر هذا الموضوع في هذا العدد الخاص من مجلة المورد الزاهرة عن مدينة بغداد .

● ابو نواس :

● عندما نذكر بغداد .. يتبادر الى الذهن « ابو نواس » شاعرنا الخمري المشهور الذي كرمته بغداد اليوم .. بتخصيصها لاسمه واحدا من اجمل شوارعها الرئيسية الذي يقع على شاطئه دجلة والذي يبدأ من جسر الجمهورية وينتهي عند الجسر المعلق في الكرادة الشرقية ويمتاز بمناظره السياحية الخلابة ولياليه النواسية الساحرة .. حيث ينتصب فيه ابو نواس تماثلا رائعاً وسط حديقة غناء من حدائق هذا الشارع الطويل ..

وابو نواس هو الحسن بن هاني بن عبدالاول بن صباح الحكمي .. شاعر عراقي معروف ولد في الاحواز عام (٧٦٣م) وتوفي في بغداد عام (٨١٤) .. ونشأ في البصرة ثم رحل عنها الى بغداد . وهو اول من اسس للشعر طريفته الحضرية .. واخرجه من اللهجة البدوية التي كانت سائدة آنذاك .. واشتهر هذا الشاعر بقصائده الخمرية الكثيرة التي بز بها كافة شعراء عصره وزمانه .

يظهر ابو نواس في هذا النصب الذي يقع في منتصف شارع .. وهو جالس على اريكسة . . ماسكا بيده كأسا للشراب - بينما ارتدى زياً وعمامة تمثل الترف الاجتماعي الذي عاشه خلال معاصره للخليفين العباسيين الرشيد والمأمون .. تمثال الشاعر من عمل الفنان اسماعيل فتساح الترك .. افتتح في ١٩٧٢/٩/٢٦ وقد اعتبر من اجود التماثيل التي انجزها هذا الفنان ..

يزن التمثال (طن ونصف الطن) من مادة

● ما دمنا في جانب الكرخ فلا باس ان نمرج على شارع المطار الدولي .. وفي منتصف الطريق نلتقي مع اول عربي حاول الطيران بواسطة جناحين .. هو عباس بن فرناس هذا المخترع الاندلسي والفيلسوف الشاعر الذي عاش في عصر الخليفة الاموي عبدالرحمن الثاني في القرن التاسع للميلاد .. حيث استطاع من خلال ما يتمتع به من مواهب فكرية فائقة وقدرات عقلية نادرة ان يهب الحضارة العربية والاسلامية ائمن عطاء .. وكان من شدة طموحه وثقته بنفسه قد عمد الى الطيران رغم خطورة التجربة .. وعلى الرغم مما اصابه حيث ذهبت حياته ضحية لهذه المحاولة لكنها تبقى محاولة جريئة مهدت الطريق امام العلم لاختراف الفضاء والطيران والتطبيقات فيه ..

وابن فرناس يعتبر اذن اول طيار عربي .. ولاشك انه اصبح رائداً من رواد الطيران .. والذي لا يمكن نسيانه او تجاوزه على مر العصور .

يزن تمثاله حوالي (٦) اطنان بارتفاع (٦) امتار .. اما فتحة الجناحين ، فيبلغ طولهما حوالي (١٠) امتار .. وتم نصب التمثال فوق قلعة من الحجر ذات جدارين بارتفاع (٧) امتار ، نفذه الفنان العراقي بدري السامرائي ، وافتتح في الاول من كانون الاول ١٩٧٢ .. لمناسبة انعقاد الدورة الحادية عشرة لمؤتمر الطيران المدني للدول العربية في بغداد .

● « المسيرة » النصب العملاق :

● لعل آخر نصب تم نصبه في شوارع العاصمة النصب الكبير الذي انجزه الفنان خالد الرحال (المسيرة) الذي مضى على البدء به حوالي الخمسة سنوات تقريبا .

والنصب يمثل مسيرة شعبنا منذ اقدم العصور ، وحتى قيام ثورة ١٧ تموز القومية الاشتراكية .. حيث يضم النصب مجموعة من التماثيل المتداخلة التي تتخذ في النهاية شكل ملحمة تظهر فيها بداية الحضارة في بلاد وادي الرافدين والتطورات التي طرأت عليها عبر مراحل الزمن .. من هذه التماثيل المتداخلة شخص مثل (لكلامش .. عشروت .. البراق ..) ورموز تاريخية متوجة بانتصارات الفلاح واندحار الاقطاع .. ثم الانجازات الهائلة التي حققها حزب البعث العربي الاشتراكي .

قاعدته النصب التي ضمتها ساحة المنحف في الكرخ .. فهي تشبه سفينة ذات سبعة اطباق

توسطه نافورة تذف المياه الى الاعلى بارتفاع (٨) امتار ..

تحيط بهذا الحوض (٩) تماثيل من الجبس تجسد الالعاب الرياضية المختلفة مثل (كرة المضرب .. الطائرة .. رمسي الرمح .. رمسي القرص) وغيرها من الممارسات الرياضية الاخرى قام بعملها الفنان ميران السعدي .

● وعلى ذكر التماثيل الرياضية . . فان مجموعة اخرى من هذه التماثيل المشابهة التي تم نصبها في ابي نواس .. انصبت في بداية شارع كورنيش الاعظمية في الساحة القريبة من بنايسة المتحف العسكري .. حيث توسط هذه التماثيل نصب صغير ايضا للوية سامراء .. ازدادت اركانه بالاضوية الملونة ..

● وفي باب ملعب الكشافة الرياضي في الكوفة انتصب تماثيل شامخ لاحد لاعبي كرة القدم المشهورين في قطرنا .. والذي عرفته الملاعب والبارات الرياضية الدولية والمحلية بقدرته الفائقة وفنونه في هذا المجال انه تماثيل اللاعب الشعبي « جمولي » جميل عباس .. الذي تقاعد عن الرياضة منذ سنوات .. حيث اصبح هذا التماثيل مصنوع من مادة البرونز والمركز على قاعدة طويلة .. رمزا لتخليد وتكريم هذا الرياضي من قبل وطنه وجمهوريةه الرياضي .

● وعلى ذكر الرياضة والرياضيين .. فان ساحة الطلائع التي تقع في بداية جسر باب المعظم (جسر ١٧ تموز) من جهة الكرخ ، قد ضمت هي الاخرى (٦) تماثيل لعدد من الرياضيين والرياضيات في مجال رمي القرص .. والرمح .. وغيرها ..

● وفي باب نادي الصيد في المنصور .. نصب صغير لصياد هو وكلبه متوثبين لقص صيدهما في الصحراء .. .

● تماثيل في « الزوراء » :

● المتنزّه الجميل الذي يسع بالخضرة والمطر والضياء .. « الزوراء » الذي يعتبر رثة تتنفس منها بفسداد وزوارها .. في هذا المرج الاخضر .. شمخت في كل زاوية منه العديد من الانصاب والتماثيل والحداريات الجميلة البديعة اضافة الى عشرات النافورات والبحيرات الصناعية التي امتاز بها هذا المتنزّه الكبير .. ومن تلك التماثيل :

البرونز ، ويبلغ ارتفاعه (٢٥) متر فيما يبلغ ارتفاع قاعدته المرمية حوالي الـ (٢) متر .. والتي احتوت على ثلاث لوحات برونزية جدارية لتضفي على جوانب التماثيل اشراقا .. وهي تمثل مراحل حياة ابي نواس .. والذي تحول نصبه في هذه الايام الى ملتقى الاحبة والخلان .. ومكانا لتجديد الذكريات وتسجيلها بالصور الفوتوغرافية .

● شهر يار وشهر زاد :

● حكايات « الف ليلة وليلة » ترعرعت واشتهرت في بغداد .. حيث تقول الاسطورة : ان الملك شهر يار كان يقتل كل ليلة فتاة عداء .. وهو اذ يفعل هذا العمل فانه ينتقم من خيانة زوجته له .. ولا عجز وزيره عن ايجاد الفتاة المناسبة التي تليق كزوجة لهذا الملك .. وامام حيرة والدها تطوعت ابنة الوزير « شهر زاد » للزواج من شهر يار الملك ولتثنيه من فعله المتكرر الذي ذهبت ضحيته عشرات الفتيات البريات من بغداد ..

ولما اصبحت « شهر زاد » في عصمة « شهر يار » اخذت تسليه بان تقص عليه في كل ليلة حكاية جديدة تقطع نهايته عند فصل مشوق لها علاقة بحكاية اليوم التالي .. حيث « تسكت شهر زاد عن الكلام المباح .. بعد ان يدرکها الصباح .. » وهذه هي قصة الف ليلة وليلة الحقيقية وباختصار .

التماثيل الذي انتصب ايضا في حدائق كورنيش ابي نواس يخلد هذه الاسطورة الشعبية .. وقد اضفى (الصوت والضوء) من حول التماثيل رونقا جديدا لم يعهده اي نصب آخر في بغداد من قبل .. حيث تروي للزوار بعض قصص الف ليلة وليلة .. ارتفاع التماثيل (٤) امتار و (٣٠سم) ، ويبلغ طول تماثيل (شهر يار) (٤) امتار وارتفاعه (٣) امتار حيث يشاهد الملك جالسا ومستمتعا بحكايات شهر زاد بينما وقفت هي بين يديه تقص حكاياتها المشوقة ..

يرتكز التمثالان فوق (٧) مدرجات من الحجر بارتفاع مترين .

نفذه الفنان محمد غني حكمت .. وافتتح يوم ١٩/٥/١٩٧٥ في موقعه الحالي على شاطي دجلة قرب مرسى الزوارق .

● تماثيل رياضية :

● ونحن ما زلنا في شارع ابي نواس .. وقبالة وكالة الانباء العراقية .. انشء قبل (٣) سنوات حوض كبير على شكل هندسي رائع ،

● الواسطي :

أزيح الستار عنه عام ١٩٧٥ .. بمناسبة مهرجان الفارابي الذي انعقد ببغداد في تلك السنة ..

نفذه الفنان اسماعيل فتاح الترك .. ويبلغ طول الفارابي فيه (٢٧٥٠) متر وارتفاع قاعدته (١٦٠) متر .

● المرأة العربية :

● من التماثيل الأخرى التي يضمها هذا المتنزه .. تمثال المرأة العربية الذي يصور امرأة عربية تحمل اكليلا من الزهور لتقدمه هدية الى الجيل الجديد .. جيل المستقبل وصانمي الحياة .. ودلالة هذا التمثال تنطوي على تكريم قيادة الحزب والثورة للمرأة واحترام دورها في عملية البناء والتحول الاشتراكي في قطرنا العراقي المناضل .

حيث انتصب هذا التمثال الجميل الذي ابدعه الفنان العراقي نداء كاظم عام ١٩٧١ .. ويبلغ ارتفاعه ثلاثة امتار والتمثال يستقر فوق قاعدة عمودية وسط حوض ماء تتدفق منه المياه عبر نافورات جميلة ..

● حاملات الجرار :

● حيث المجمع الاندلسي وسط الزوراء .. انتصبت (٤) (كازينوات) سياحية جميلة شيدت على طريقة الطراز الاسلامي الاندلسي .. يفصل بين كل اثنين منهما جدول صغير تجري فيه المياه سمي بالنهر العباسي تخليدا لواحد من انهر بغداد القديمة وهذه الكازينوات هي (اشبيلية ، قرطبة ، طليطلة ، غرناطة) حيث انتصبت في الحديقة الغناء المواجهة لهذا المجمع (٤) تماثيل لنساء قرويات يحملن الماء .. وهذه الجرار صنعت على شكل نافورات يتدفق منها الماء حيث البحيرة الصغيرة التي انتصبت عليها هذه التماثيل الاربعة التي تشكل مجموعة فنية متكاملة ، ذات ميزة تراثية عريقة .. وتتوسط البحيرة نافورة مشعنة الاضلاع ترتفع مترا ونصف المتر ويبلغ قطرها (٢٠) مترا .

ازيح الستار عن هذه التماثيل التي صنعها الفنان ميران السمدي ، عام ١٩٧٥ حيث أضفى على هذه التماثيل مسحة فنية ساحرة خاصة لوجوه هؤلاء النسوة الاربعة واجسامهن وملابسهن القروية البسيطة .

● هو يحيى بن محمد الواسطي ، الفنان ، الرسام ، الخطاط .. الذي اشتهر بتزويقه لمقامات الحريري التي ذاع صيتها في الادب العربي منذ القرن السابع للهجرة .. القرن الثالث عشر الميلادي .. اذ يروي الحريري قصصه باسم الحارث بن همام وهي تشمل نوادر ابي زيد السروجي .

ويعتبر الواسطي فنان عصره .. حيث اصبحت له مدرسة خاصة في الرسم العربي لاقت نجاحات عديدة .. وجد حياة مجتمعه انذاك خير تجسيد ، وظلت اعماله خالدة الى يومنا هذا .

والادوات التي استخدمها الواسطي في رسوم الحريري ، وغيرها من الاعمال الاخرى فهي ما زالت محفوظة لان في المكتبة الوطنية بباريس .

يوضح التمثال الذي انجزه اسماعيل فتاح الترك .. يحيى الواسطي جالسا على مقعد ويده مخطوطة مقامات الحريري الشهيرة ..

والتمثال اقيم عام ١٩٧٢ في متنزه (الزوراء) بمناسبة مهرجان الواسطي الذي عقد في بغداد انذاك .. وهو مصنوع من البرونز ويبلغ ارتفاعه (٢) و (٣٠) سم .

● ومن المناسب ان نشير ان هناك تماثالا للواسطي في مدخل الاكاديمية الفنون الجميلة في الوزيرية (من داخل بناية الاكاديمية) .. صنع من الجبس الابيض صنعه طلاب الاكاديمية قسم النحت ووضعه في مدخل كليتهم تخليدا لهذا الرائد العربي الفنان في مجال الرسم ..

● الفارابي

● ونحن ما زلنا نتجول في « الزوراء » وبالقرب من تمثال الواسطي .. ونحن متجهين الى منطقة المتاحف وخيمة الشعر .. لابد ان يلفت نظرنا الفارابي الفيلسوف الذي يعد من اعظم فلاسفة العرب والمسلمين .. ولقبه المعلم الثاني .. باعتبار ان (ارسطو طاليس) كان يعرف بالمعلم الاول .. !!

وللفارابي مؤلفات عديدة .. لا تعد ولا تحصى في الفلسفة والمنطق والموسيقى وغيرها من الموضوعات ..

في النصب يظهر الفارابي جالسا على اريكة وبين يديه كتاب ، وبجانبه آلة العود الموسيقية ..

● مراحل الحياة :

● وانت تدخل الزوراء من باب ساحة حلب وتسير قليلا حيث تدلف يسارا وعلى يمين الشارع ، وبالقرب من متحف التاريخ الطبيعي . انتصبت (٥) تماثيل صنعت من مسادة الجبس الابيض .. وانتصبت على قاعدته مرتفعة نوعا .

هذه التماثيل التي نحتها ميران السعدي ايضا تمثل مراحل حياة الانسان منذ ولادته وحتى شيخوخته ، بدأ من مرحلة الولادة .. ثم مرحلة التلمذة والتعلم ، .. ومرحلة الشباب ثم مرحلة الزواج والانجاب ، واخير مرحلة الشيخوخة ونهاية العمر ... كانت شخوص هذه التماثيل تمثل المرأة والرجل والطفل .

● العربية الاشورية .. ومنطقة المتاحف :

● وفي منطقة المتاحف في هذه الجنيشة الفسيحة .. حيث يقبع متحف السيارات الملكية القديمة .. والبيت البغدادي الذي بني على طراز بيوت بغداد القديمة وخيمة الشعر التي تطل على بحيرة كبيرة تحوي صنوفا عديدة من الاسماك العراقية الاصيلة ، ونصب على جانبها الثاني احد نواعير الفرات والتي تشتهر في مناطق اعالي الفرات (هيت وعنه) .. وفي جانب آخر اقيم المضيف العربي المشهور في احوار الجنوب - حيث رابطت بجانبه العديد من (المشاحيف) والزوارق النهرية .. وكذلك ابراج الحمام والبلابل .. وغيرها من المرافق السياحية المتعة التي يعج بها هذا البستان البغدادي (متنزّه الزوراء) .

● بالقرب من بيت الفنانين .. حيث انتصبت تماثيل « العربية الاشورية » التي يظهر فيها الملك الاشوري (اشور بانيبال) .. حيث اشتهرت هذه العربية بايامهم وفي عاصمتهم العتيبة نينوى ..

● بالقرب من تماثيل العربية الاشورية ، وفي الشارع المؤدي الى « الجنائن المعلقة » انتصبت على جانبي الشارع عشرات التماثيل الجميلة لعدد من انواع الطيور البرية الكبيرة وبوضعات مختلفة .. مثل الصقر .. العقاب .. الغرباب .. البوم وغيرها .

● وعلى مقربة من هذا الشارع نصب تماثيل صغير لراس ثور يقذف الماء من فمه .. وهذا النصب واحد من مجموعة انصاب ابراج الحظ .. حيث ستقام انصاب اخرى للجوزاء والميزان والجدي وغيرها في المستقبل .

● وخلف خيمة الشعر بأمتار معدودة وعلى

مرتفع ترابي ، تقع مجموعة من النافورات التي هي عبارة عن مجموعة من التماثيل لعدد من الحيوانات البرية مثل : الاسد ولبوة الاسد ، والدب ، وكلب البحر ، والقط الوحشي وغيرها من الحيوانات الاخرى .. حيث يندفع الماء من افواها بقوة حيث تتجمع في حوض متدرج ذي سواق متعرجة تحيط به شتلات وسنادين الورد من كل جانب ..

عام ١٩٧٧م نصب هذه المجموعة من التماثيل التي نفذها عدد من طلاب وطالبات معهد الفنون الجميلة بطلب من امانة العاصمة .

● تماثيل اخرى في الزوراء :

● ومن التماثيل الاخرى التي تضمها « الزوراء » تماثيل لاسدين ينتصبان في مدخل حديقة الحيوانات .

وتماثل آخر للفارس العربي (عنتر بن شداد) المعروف بطولانه واشعاره الحماسية .. اذ كان التماثل الذي صنعه ميران السعدي في بداية السبعينات ينتصب في ساحة عنتر في الاعظمية .. بعدها نقل الى متنزّه الزوراء واستقر في منطقة مخصصة للاعب الاطفال .

وفي المتنزّه ايضا هناك نصب آخر يدعى (الحضارة) لمبد الكريم القرغولي والذي نقل هو الاخر من ساحة الجمهورية في الباب المعظم الى الزوراء ..

ونصب برونزي غريب الشكل اطلق عليه اسم (فتانان) للفنان نداء كاظم يقبع في الحديقة المحصورة بين ساعة الزهور وذاعة الزوراء ..

وهناك مجموعة من التماثيل الصغيرة التي نصب في بحيرة الزوراء .. وهي تمثل حورية البحر .. والجاموس .. وغيرها من الاشكال الفنية الاخرى .

● انصاب وتماثيل متفرقة :

● ولغرض الايام بمعظم الانصاب والتماثيل التي تضمها بغداد .. خاصة تلك الانصاب غير المعروفة او غير المهمة .. فهناك في جانب الجدار الخارجي لمتنزّه الزوراء في شارع دمشق بادر معهد الفنون الجميلة الى نصب العديد من التماثيل التي انتجها طلاب المعهد في ربيع عام ١٩٧٩ .. وذلك لتجميل الشارع .. وهذه التماثيل التي صنعت

في ايامه عصرها الذهبي ومجدها التليد ونهضتها
المعمارية والحضارية .. هذين التمثالين يضطلع
بمعلمهما الفنان النحات خالد الرحال .

● هناك نصب آخر يصنع حاليا في ايطاليا .
يمثل شخصية (السندباد البحري) وحكاياته
وسفرائه الطريفة التي تتعلق بمغامراته ورحلاته
الخطيرة التي انطلق فيها من بغداد حيث جاب ارجاء
المعمورة .. وينصب هذا العمل بعد اكماله
في عرض نهر دجلة في مكان بارز يمكن مشاهدته ..

● « نبوخذنصر » حامي الحدود :

● لعل ابرز التماثيل التي ستنصب
مستقبلا في بغداد ، وتنفيذا لتوجيهات السيد
الرئيس المناضل صدام حسين ، تمثال كبير للملك
البابلي (نبوخذنصر) الذي تربع على عرش مملكة
بابل في الاول من شهر ايشول عام ٦٠٤ ق.م ،
واستمر حكمه (٤٣) عاما قضاها بالحروب والعمران
حيث حرر هذا الملك العراقي الاراضي السورية
والفلسطينية اكثر من مرة وخلصها من ايدي الغزاد
والمحتلين الاجانب .

ويعني اسم (نبوخذنصر) (الاله تاو) اي
حامي الحدود ..

يتولى انجاز هذا التمثال المهم الفنان خالد
الرحال - الذي ينهك حاليا في دراسة ملامح
شخصية هذا الملك العملاق ، وتحديد الفترة الزمنية
التي حكم بها ، والانجازات الكبيرة التي حققها للملكه
بابل العظيمة ، والانتصارات الباهرة التي احرزها
على اعدائه .

● جداريات بغداد :

● وقبل ان نختم هذا البحث الفني التاريخي
عن الانصاب والتمائيل في بغداد ، لابد لنا من تعريف
الواطن بعدد من الجداريات الفنية الجميلة التي
تشكل هي الاخرى مظهرا جماليا وسياحيا رائعا في
عاصمتنا بغداد الحبيبة ..

● جدارية « فائق حسن » :

● في عام ١٩٦٠ ، تعرفت بغداد لأول مرة على
هذا الفن واعني به (الجداريات) . حيث انتصبت
في ساحة الطيران وفي مؤخرة حديقة الامه جدارية
جميلة من عمل الفنان العراقي فائق حسن وتعتبر
اول عمل جداري يقام في العاصمة ..

يبلغ طول الجدارية (١٠) امتار وعرض ارضها
(٤) امتار ، وهي مصنوعة من الموزايك الملون وفي

من الجبس الابيض تمثل الطلائع .. والمرأة والثورة
العربية والمستقبل .. وانتصار الخير على الشر
وغيرها .

● وفي حدائق المعهد وقاعاته انتصبت عشرات
التمائيل الكبيرة والصفيرة وهي من انتاجات
طلابه .. حيث ظلت هذه التماثيل منتصبة هناك
وما زالت حتى ضاقت بها حدائق المعهد .. وكذلك
الحال في بنابة اكاديمية الفنون الجميلة التي تضم
هي الاخرى مجموعة كبيرة من التماثيل من انتاج
الطلبة ايضا .. لعل ابرزها تمثال « الواسطي »
الرسام المعروف الذي تحدثنا عنه قبل قليل .

● هناك عدة تماثيل تضمها اروقة وقاعات
المتحف الوطني للفن الحديث اكثرها بين (نصفي
او راسي) لعدد من مشاهير الفن والادب في قطرنا

● وفي منزله ١٤ تموز في الكاظمية قرب جسر
الائمة .. هناك نصب شاقق متكون من جداريتين
متلاصقتين ذات ارتفاع عال .. كتب في اعلى
وجهتي هاتين الجدارتين المصنوعتين من الموزايك
عبارة (١٤ تموز ١٩٥٨) اشارة الى تخليد الثورة
المذكورة .

● وبالقرب من المتحف العراقي في الصالحية
ينتصب (اسد بابل) رمزا للشموخ .. وكذلك
انتصب تمثال آخر لملك آشوري ..

● ولا يفوتنا ونحن في هذا الاستعراض ان
نذكر ان المتحفين العسكري التابع لوزارة الدفاع
والازياء والمآثورات الشعبية في السنك تضم قاعات
العرض فيها مجموعة من التماثيل التاريخية التي
تمثل مراحل من تاريخ العراق الحديث ..

● بينما ضم المتحف البغدادي التابع لامانة
العاصمة عشرات التماثيل التي تجسد حياة
البغداديين وطقوسهم اليومية في الزمن الغابر ..
حيث غدى هذا المتحف مكانا ترويجيا وسياحيا
معروفا في بغداد وبفضل ما يضمه من هذه التماثيل
الشعبية .. !!

● تماثيل في الطريق :

● في مصهر البرونز يجري العمل حاليا
لانجاز تمثال كبير لمؤسس مدينة بغداد (الخليفة
العباسي ابو جعفر المنصور) حينها يكون للمنصور
ثلاثة تماثيل في مدينته بغداد .

● بينما العمل يتواصل لاكمال تمثال الخليفة
- العباسي (هرون الرشيد) الذي عاشت بغداد

من نص فرار التأميم الخالد الصادر من مجلس قيادة الثورة والذي اعلنه الاب القائد عشية يوم الاول من حزيران .. مكتوب بالخط الكوفي البارز الرسوم على الموزايك نفذه الخطاط العراقي الدكتور سلمان الخطاط .

ولا بد من الاشارة الى ان هذه الجدارية ، وقبل ان تستقر في مكانها الحالي سبق لها ان شاركت في معرض الحزب الذي اقيم لمناسبة الذكرى السابعة والعشرين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٧٤ .

تنتصب الجدارية على قاعدة دائرية الشكل بارتفاع متر واحد .. اما ارتفاع الجدارية فيبلغ (١٤) مترا اما عرضها فيبلغ (١٢) مترا و (٦٠)سم وهي من الموزايك الملون .

● جدارية القادسية :

● على جانبي باب « القادسية » في متنزه الزوراء الواجه لشارع الزيتون .. انتصبت جداريتان من صنع الفنان غازي السعودي في بداية عام ١٩٧٨ ، تمثلان معركة القادسية الشهيرة التي تم النصر فيها للجيش العربي بقيادة سعد بن ابي وقاص ، على الجيش الفارسي .. وعى اثرها تم تحرير العراق من الحكم الاجنبي .

تصور الجدارية الاولى ، الجيش العربي .. والثانية لجيش الفارسي .. وقد بذل الفنان السعودي جهودا بارعة في تجسيد احداث هذه المعركة الفاصلة في التاريخ العربي .

● « بانورما » القادسية في المدائن :

● ما دمنا نتحدث عن معركة القادسية المشهورة .. لا بد ان نعرف شيئا موجزا عن موقع « القادسية » التي حدثت فيه تلك المعركة .. فهي في موقع في الصحراء المحيطة بمدينة النجف الاشرف .. والوصول اليها اما عن طريق بحر النجف او عن طريق مدينة نهي صخر التي تقع بالقرب منها اطلال مدينة الحيرة عاصمة دولة المناذرة العربية . وبالضبط فان موقع المعركة الان في وسط الصحراء قرب ناحية (الرحبة) ويمكن الوصول اليها عن طريق الحج البري الذي يربط العراق بالسعودية .

● العمل الكبير الذي تتولى انجازه حاليا امانة العاصمة هو انشاء رابع (بانورما) في العالم وهي بانورما القادسية التي يجري العمل فيها في منطقة المدائن (سلمان باك) قبالة طاق كسرى .

اسفلها نصبت لعديد من النافورات الملونة تحيط بحوض من الماء .. حيث تحيل الاضوية الملونة المسلطة على الجدارية ليلا الى آية من السحر والجمال .

● جدارية بغداد قديما وحديثا :

● هذه الجدارية عبارة عن لوحتين الاولى تكمل الثانية تنتصبان في باب ساحة «حلب» عند مدخل متنزه الزوراء من جهة الباب الشرقي صنعهما الفنان العراقي غازي السعودي عام ١٩٧١ .

تمثل الاولى نماذج رائعة للمعمار البغدادي القديم والحديث ، مثل بنايات الجوامع والكنائس والقباب والمناظر البغدادية ، اضافة الى البنائات الحديثة الاخرى .. فيما تمثل الجدارية الثانية المقهى والچالقي البغدادي ، وشارع ابي نؤاس ، وصيادي الاسماك ، وطريقة « السمك المسكوف » المشهورة في بغداد .. حيث تظهر في الجدارية فرقة للموسيقى الشعبية التي تعزف في حفلات الاعراس والختان الشعبية ..

يبلغ طول كل جدارية (١٠) امتار والارتفاع مترا واحدا .. وصنعت من مادة الموزايك الملون .. وهي اول جدارية موزايك تصمم وتنفذ داخل القطر .

● جدارية التأميم :

● انتصار التأميم العظيم والاعلان التاريخي الذي بشر به الاب المناضل احمد حسن البكر في الاول من حزيران عام ١٩٧٢ .. جسده جدارية كبيرة انتصبت في شارع المطار الدولي عام ١٩٧٧ .

الجدارية تروي تاريخ العراق قديما وحديثا منذ عهد السومريين والاشوريين والاكديين ، وحتى الفترة المعاصرة ..

وهي تعتبر من اكبر الجداريات في الوطن العربي .. ويعود كبر حجمها الى عظمة قرار التأميم الخالد وسيطرة الشعب على ثرواته النفطية التي كانت نهبا مشاعا للشركات الاحتكارية .

وجه الجدارية الاول المقابل لمدينة بغداد ، نفذه الفنان العراقي نزار الهنداوي .. وفيه تظهر جماهير الشعب وهي تعلن فرحها بالحلم الانبي على شكل طير في السماء .. وهذا الطير يرمز الى حلم التأميم والانتصار العظيم . حيث بذل فيها الفنان الهنداوي جهودا كبيرة .

اما الوجه الثاني للجدارية فقد تضمن مقاطع

● خاتمة المطاف :

● من هذا يتضح ان بغداد اليوم في زمن الثورة الزاهرة .. اصبحت بالفعل مزرة خصبة للتمائيل والانصاب التذكارية .. وهي دليل جميل وعرفان لتاريخ هذه المدينة العظيمة ولابنائها من الشعراء والادباء والمؤرخين ورجال السياسة والمجتمع .. كذلك غدت هذه الانصاب مصدر تقييم وتكريم لحضارات وادي الرافدين القديمة والعريقة والفنية بوافر عطاءاتها الفكرية والحضارية والثقافية منذ فجر السلالات البشرية .. باعتبار ان ارض الرافدين مهد البشرية الاولى .

● في خاتمة هذا المطاف .. لا يفوتني الاعتذار عن الهفوات التي ربما وردت في هذا المقال .. او نسيان بعض التماثيل والانصاب الاخرى التي فاتني ذكرها في هذا العرض السريع .. وامل ان يبادر ذوو الاختصاص في هذا الجانب الحضاري المتع واغنائه بما يستحق من مكانة فنية وجمالية وتاريخية تتوافق والمكانة العظيمة التي تحتلها عروس الرافدين الحبيبة بغداد عاصمة قطرنا العراقي المناضل وامل كل العرب في كل مكان .. والله الووفق وبه نستعين .



● مصادر المقال :

- ١ - كراس (من اجل بغداد اجمل - التماثيل والانصاب) اعداد فلروق بطرس اصدار امانة العاصمة .
- ٢ - ارشيف امانة العاصمة من الصحف والجلدات العراقية (المسارة النصب والتماثيل) .
- ٣ - اعداد من مجلة امانة العاصمة للاعوام ١٩٧٧ و ١٩٧٨ .

وهي عبارة عن بناية كبيرة على شكل (زقورة) قاعدتها السفلى (٢٥٠٠) متر مربع وقاعدتها العليا (١٦٠٠) متر مربع ، حيث تضم هذه البناية من الداخل شاشة دائرية (البانورما) حيث ستجسد هذه الشاشة معركة القادسية ، بشكل تفصيلي يشبه الفلم السينمائي (الصوت والصورة) وتمثل عظمة وانتصار العرب على اعدائهم بقيادة القائد العربي سعد بن ابي وقاص زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عام (٢٢) هجرية ..

وتضم كذلك بناية البانوراما متحفا عسكريا تعرض فيه ابرز الاسلحة المستعملة في تلك الحقبة التاريخية من الزمن .. اضافة الى اللوحات الخدمية الاخرى باعتبار ان هذا المرفق واحدا من اكبر المرافق السياحية والتاريخية في القطر .

وكما قلت فان هذا المشروع العراقي هو رابع مشروع من نوعه في العالم حيث سبقتنا في هذا المجال اربعة دول . وهي تمثل وقائع ومعارك تاريخية معروفة في تلك البلدان سجلت شعوبها فيها انتصارات عظيمة على الاعداء فاستحقت هذا التخليد والتبجيل .

● بدء العمل في مشروع بانوراما القادسية عام ١٩٧٥ .. ومن المؤمل الانتهاء منه عام ١٩٨٠ .. ويعمل على تنفيذ رسم تفاصيل المعركة عدد من الفنانين الكوريين الذين سبق لهم خوض مثل هذه التجربة ..

ومما لا شك فيه ان هذا النصب العملاق سيضفي على منطقة المدائن ذات الاثار والشواهد العريقة ، موقعا سياحيا جديدا ، لا يمثله هذا الاثر الكبير من خصائص تاريخية واثارية وترفيهية لكل المواطنين الذين يؤمنون هذه المنطقة السياحية المعروفة ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَقْرَبُهَا إِلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ وَالْعَرَبِ عَلَى الْيُونَانِ مِخْرَابُ الطِّبِّ

بقلم الدكتور

خليفة بكاز

الجامعة اللبنانية - بيروت

يعرفون التخدير ، ويجرون العمليات الصعبة ،
والعرب اول من جعل احتراف الطب ، تابعا لامتحان ،
واول من افتتح الصيدليات المحانية . وهكذا وفق
علم الامراض العربي ، ان يتعدى حدود العلم
الاغريقي ، ويسبق في فتوحاته ، ما جاء بعد
جالينوس نفسه ، الذي وان اشتهر بتحليلات رائعة
صائبة ، الا انه صرف طاقاته الجارية في تسخير
الحقائق لخدمة نظرياته وصباها في بنائه الضخم
مهما كان السبب .

حتى جاء الرازي ، فعلم العرب التفكير الطلق
والنظر الحر ، فرسالته عن الحصبة والجذري ،
ظلت المرجع الاول والاخير في اوربا ، حتى القرن
الثامن عشر . ثم فرق مرض النفوس عن الروماتيزم
وكان ابن سينا اول من وضع تشخيصا دقيقا عن
التهاب الاضلاع ، والرئة وخراج الكبد ، ثم فرق
بين التهاب الرئوي والبلوري ، وبين التهاب
السحايا الحاد والثانوي ، وبين عوارض المفص
الموي والمفص الكلوي ، وتعرض لشلل الوجه
واسبابه ، وفرق بين الشلل الناتج عن سبب مركزي
في الدماغ والناتج عن سبب محلي ، ووصف تشعب
الاعصاب في القفص الصدري ، ومن المعروف ان
الاغريق قد عالجوا الشلل بوسائل حارة ، فجاء
العربي ابن بشر وادخل كعلاج للشلل ، الادوية
المبردة وعنصر الماء الرطب وحقق به نجاحا هائلا ،
ووضع حدا لاستعمال الوسائل الحارة ، وعالج
مرضاه بماء الشعير وبغيره من النباتات .

ويدين علم الطب لابن زهر باول تشخيص
سريري لالتهاب الالهاب (الجلد الخام) الوسطي

كانت بغداد في العصور العباسية ، مدينة
الطب والاطباء ، يرنو اليها العربي والاعجمي ، على
حد سواء ، ان لجهة الاختصاص في هذا الميدان ،
وان لجهة طلب الشفاء من مرض عضال ، اما
لنهضة الطبية الرائدة . فان هذه المدينة الخالدة
حملت اعباءها حقبة طويلة من الزمن . حتى تجاوزت
الطب اليوناني اشواطا بعيدة .

فهارون الرشيد اول من شجع ترجمة كتب
اليونان الطبية . وكانت مجموعته في هذا الميدان ،
مقطعات من كتب اخبار اليونان ، ولاسيما جالينوس
ثم ترجمت كتب ابوقراط وسواه ، ولقد عمل
العرب على تنمية تلك العلوم ، وقد بلغ العلم العربي
قمة عصره الذهبي بين القرن الثامن والتاسع ، وكان
مركزه الاساسي ، بغداد .

ولقد اشتهر من الخلفاء العباسيين ، المنصور
والمأمون بحمهما للتوسع العلمي بحيث اولع هذان
الخليفتان بالعلوم اليونانية ، فاشترى مخطوطات
كثيرة ، من يونانية وغيرها ، وحفظها في « بيت
الحكمة » وامرا بترجمتها الى العربية .

فالطب العربي ، بفضل مدينة بغداد خاصة ،
وبعض الحواضر العربية عامة ، سبق الطب الغربي
بمئات السنين . . وكانت في بغداد والبصرة والكوفة
ودمشق وقرطبة مدارس جامعة ، يقصدها الطلاب
من الشرق والغرب ، ويتفق العلماء ، على ان العرب
بلغوا شأوا فاقوا فيه اليونانيين بكثير . فدرسوا
علم وظائف الاعضاء ، وعلم الصحة وكانت طرق
طبهم العلمية ، نظير طرقنا الحاضرة ، ولا تزال حتى
اليوم نستعمل كثيرا من ادويتهم وكان جراحوهم

وقد درس ابو القاسم علاج تشوهات الفم والفك . ونجح في عملية شق القصبه الهوائية ، وقد اجري هذه العملية على خامة . ووفق ايضا في ايثاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة محسناً بذلك عملياته الجراحية ، ومسهلاً بقطع الاعضاء ، وهو فتح علمي كبير حققه وعلمه ابو القاسم العربي ، كما انه علم تلازمته كيفية تخييط الجروح بشكل داخلي لا يترك شيئاً مرئياً منها ، والتدريز المثمن في جراحات البطن ، وكيفية التخييط بابرتين وخيط واحد مثبت بهما ، واستعمل الخيطان المستمدة من امعاء القطط في جراحات الامعاء ، وهو اول من اوصى في كل العمليات الجراحية في النصف السفلي من الانسان ، ان يرفع الحوض والارجل قبل كل شيء . وهذا الجراح العربي هو اول من اوجد طريقة فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة، وآمد الجراحين واطباء العيون والاسنان ، بالالات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي وضعها .

اما في طب العيون ، فقد بلغ العرب شأوا عظيماً ، تفوقوا فيه على اليونان واول كتاب في هذا الموضوع كان كتاب اسحق بن حنين (العشر مقالات عن العين) وقد بقي مع مؤلفات علي بن عيسى وعمار من الموصل ، المرجع الاول لطب العيون حتى القرن الثامن عشر .

كذلك ، فان العرب برعوا في معالجة تشويه المفاصل والعظام ، وادخلوا طريقة جديدة لمعالجة خلع الكتف . وقد زاد ابن سينا على المداواة بالحمامات الباردة او الساخنة الموروثة عن القدماء علاجاً يقضي بجمع الاثنتين في آن واحد ، يفصلهما تراوح زمني بسيط . كما انه اوجد الحقنة الشرجية او كيس الثلج . اما استعمال خيط الشعر للعمليات الجراحية في القرون الوسطى ، فيرجع الى الرازي والعرب هم اول من استخدم المرقد (المخدر) العام في العمليات الجراحية ، وكان التخدير العربي فريداً من نوعه ، يختلف عن المشروبات المسكرة التي كان الهنود والرومان واليونان يجبرون مرضاهم على تناولها كلما ارادوا تخفيف الالم .

لقد اعتقد ابوقرط السوناني بان تقيح الجروحات ما هو الا عملية طبيعية مرغوب فيها جداً ، وذلك لعملية التطهير التي يقوم بها في الجسم ولكن ابن سينا ، عارضه في هذا ، بنظريته عن الجروح الخالصة من القيح . وكان نجاحه هائلاً ، والسر في ذلك يرجع الى انه قد تخلى عن نظرية القيح القديمة ، وعمل ما يوسع لتجنب اي عامل

وللانتهايات الناشفة والانسكابية لكيس القلب ، وقد فرقا عن امراض الرئسة . ويدان له باكتشاف الحقنة الشرجية المغذية والغذاء الاصطناعي لمختلف حالات شلل عضلات المعدة ، وبوصف كامل لسرطان المعدة ، في الوقت الذي اكتشف فيه ابن سينا ان سرطاناً موضعياً يغطي عوارض السرطان العام في الجسم ، واكد امكانية عدوى داء السل وخطـر الاشعة الشمسية على المصابين به .

اما ابن رشد فقد اكتشف المناعة التي يتركها داء الجدري الاسود لدى اصابته الاولى ، كما ان مبدأ التطعيم يتم بواسطة جراثيم ضعيفة ، وذلك بان نجرح اليد ما بين المعصم والابهام ، وبوضع قليل من بثور غير ملتصبة فوق الجرح ، بينما كان الصينيون ، يضعون ضمادة مبلولة بقيح الجدري فوق انف الولد .

وفي النصف الاول من القرن التاسع صور ابن مسكويه صورة شاملة للجذام (البرص) وقال انه مرض معد ، ولقد اهتم به كثيرون غيره كابن الجزار الذي كتب مفصلاً اسبابه وطرق علاجه ، وكذلك عندما انتشر مرض الطاعون انتشاراً هائلاً ، نشر الطبيب الاندلسي ابن الخطيب ، رسالة علمية منطقية عن المدوى بواسطة الاتصال بالمرض ، ومن المؤكد ان اكتشاف المدوى واطارها والوقاء من الهلاك ، الذي كانت تزعمه بين افراد الشعب ، اعتباراً من اعظم الفتوحات العلمية التي حققها الفكر العربي الخلاق .

وكما وفق العرب في الطب ، كذلك وفقوا في فن الجراحة ، واسدوا له خدمات جلي ، فالجراح الاندلسي الزهراوي ، ادخل تجديدات في مداواة الجروح ، وفي تفتيت الحصى داخل المثانة ، وفي التشريح واجراء العمليات . وقد اهتم هذا الجراح العربي ايضا بالانتهايات المفاصلية ، وبالسل في خرزات الظهر ، الذي سمي فيما بعد باسم الانجليزي بوت ، الداء البوتي ، وكذلك طور فرع الامراض النسائية بان ادخل عليه طرقاً في البحث والمداواة جديدة ، والات حديثة ، بعد ان كان على يد الاغريق في مستوى غير لائق . كما اوجد لمسات جديدة للولادة في حالة سقوط يد ، او ركة الجنين او وضعه المسمى بوضع الارجل (تقدم الارجل من باب الرحم على الرأس) او الوضع الوجهي ، وهو اول من عالج هذا الوضع الاخير واول من اوصى بولادة الحوض ، وعلم القيام بعمليات في المهبل والية لتوسيع باب الرحم .

كيماوي ، مع الخبرة الممتدة القوية ، واثبت قوة مفعول الخمرة الفاتكة للجراثيم التي توازي قوة البنسلين ، وفي مداواة الجروح تقليد عربي قديم ، ذلك ان عرب الجاهلية قد ابدعوا في مداواة الجروح المدية ، ووجدوا لها وسيلة ، نفي بها مضادات الجراثيم ، فمن سروج حميرهم ودوابهم حصلوا على المواد المضادة للجراثيم (البنسلين) وعلى دواء الهليون ، وضموها منها مراهم وعالجوا بها جراحاتهم المتهبة ، كما انهم نفخوا غبار العفن في الحلق لدى التهابه ، كما هو المعمود لدى البدو حتى ايامنا هذه .

والعربية هم اول من عالجوا الامراض العقلية والعصبية بالافيون ، كما هو متبع حديثا ، كما انهم ابدعوا في المعالجة النفسية التي مثلت دورا مهما في مداواتهم بالموسيقى ، ووضعت كتب خاصة بهذا الموضوع ككتاب (تأثير الموسيقى في الانسان والحيوان) لابن الهيثم . ولقد نادى ابن سينا بضم الوسائل النفسانية ، الى التداوي بالعقاقير لزيادة مفعولها وازالة الخوف عن المريض قائلا بما معناه علينا ان نعلم ان افضل العلاجات وانجعها ، هي العلاجات التي تقوم على تقوية قوى المريض النفسانية والروحية ، وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض ، وتجميل محيطه ، وسماعه ما عذب من الموسيقى ، وجمعه بالناس الذين يجبههم .

ولم يجهل العرب حفظ الصحة ، فكانوا يعرفون

جيذا ، ان علم الصحة ، يعلمنا طرق الوقاية من الامراض التي لا يستطيع الطب شفاءها . وكانت مناهجهم الصحية . طيبة منذ القديم ، وما سار عليه ابناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني غاية في الحكمة . وكان من عادة مؤلفي العرب ان يوجزوا وصاياهم الصحية ، في كلمات جامعة يسهل حفظها ، ويظهر ان مشافي العرب التي انشئت فيما مضى ، افضل صحيفا من مشافينا الحديثة ، فقد كانت واسعة ذات هواء كثير وماء غزير ، ولما عهد الى الرازي في اختيار حي في بغداد لاقامة مشفى عليه ، التجأ الى طريقة لا ينكرها عليه اصحاب نظرية المكروب الحديثة ، وذلك انه علق قطعة لحم في كل حي من احياء المدينة ، واعلن ان اصلح حي يقام عليه المستشفى هو الحي الذي يتاخر فيه فساد قطعة اللحم المعلقة .

وكانت مشافي العرب ، ملاجئ للمرضى ، واماكن لدراسة الطلاب بحيث كانوا يتلقون دروسهم في المشافي ، اكثر مما يتلقونها في الكتب ، وانشأ العرب مشافي للمصابين ببعض الامراض العقلية ، ولم يجهلوا تأثير الجو الصحي ، ومن ذلك نص ابن رشد في شروحه لكتب ابن سينا ، على تأثير الاقليم في داء السل وابصاؤه المصابين به بان يقضوا فصل الصيف في جزيرة العرب وبلاد النوبة . وكان العرب يعتمدون كثيرا على علم الصحة في معالجة الامراض ، وعلى الوسائل الطبيعية ، ولا يختلف لذلك عن الطب الحديث .

الظرف البغدادي

بقلم

فاطمة حمزة الرضوي

كلية التربية - جامعة بغداد

ومن المحدثين صلاح الدين المنجد في كتابه (الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) وقد استفاد من كتاب الموشى كما افدنا منهما في بحثنا هذا، اما اخبار الظرفاء فقد غصت بها كتب الاخبار والادب والتاريخ وابثت نصوصها في تأليف كثيرة ككتاب الدبارات للشابستي، والاغانى لابي الفرج ونهاية الارب للدينوري وبتيمة الدهر للشعالبي، وكتب الجاحظ، وتاريخ الطبري، والكامل في التاريخ والمنتظم. ومؤلفات السيوطي وغير ذلك كثير.

على اننا وجدنا ان في البحث في موضوع (الظرف البغدادي) اطلاع واسع على معرفة الاحوال الاجتماعية في العصر العباسي ولا سيما ان دراسة الاحوال الاجتماعية هي محك او وسيلة من انجع الوسائل التي تكشف الاحوال الثقافية، والعلمية بضرورها المختلفة - والنصوص دالة عليها - وبالتالي اظهار الجانب الحضاري للمجتمع وما بلغه من سمو وعلاء.

ولقد كان (الظرف البغدادي) سمة حضارية لانه يتصل كل الاتصال باسباب حضارتها(**)، فبغداد - التي خلدها الشعراء في اشعارهم يومذاك استوت فيها الحضارة الاسلامية ونضجت ومال الناس فيها الى كثير من مظاهر الترف والاناقة والتزين بل التنافس في هذا السبيل وكانوا في بحبوحة من العيش وسعة الرزق وتعدد اسبابه وسبله ولا غرو في ذلك، فقد عم الامن،

لا ننكر ان البحث في موضوع (الظرف البغدادي) شيق ممتع، فضلا عن انه يثير فينا نزوعا نفسيا للاطلاع على جوانب كثيرة مهمة لصيقة بواقع الحياة الاجتماعية للانسان العربي في بغداد العصر العباسي، فالظرف بوصفه ظاهرة حضارية قد سادت المجتمع البغدادي، وفي هذا القول شمولية وسعة تعم المجتمع العربي، لان بغداد يومذاك مثل يحتذى ومثار يشع بكل مقومات الحياة المشرقة، فحين يبحث الدارس في (الظرف البغدادي)، وممارسات الظرفاء، فكأنه يتحسس ويلمس الصورة الطبيعية للحياة الاجتماعية المتوازنة للانسان، في جدها وهزلها في تعقلها، وعواطفها، وفي حكمتها. ما لزم حد المعقول وما تجاوزه. وقد عاشت الحضارة الاسلامية زمن النضج يملو مجتمعها دمانا في الخلق، وحكمة في الرأي مبنية في انتاج العصر على اسنة الظرفاء شعرا ونثرا، وقد صور هذا الجانب من الحياة بصراحة وجراة بلغت حدا بعيدا، واننا نجد ان الذي ساعد على ذلك هو: الظروف الثقافية وامتلاك وعي الواقع والنضج الحضاري والا لما استسيغ، وسجل، وتقل ذلك الادب الظرفي بكل انواعه، لكثير من ظرفاء العصر.

ولقد كان لبعض الدارسين القدامى قصب السبق في التأليف في هذا الموضوع، وفي مقدمتهم الموشاء(*) في كتابه (الموشى). واخبار الظرفاء والمتماجنين، واخبار الاذكياء، لابن انجوزي.

(*) هو ابو الطيب محمد بن اسحاق عاش في بداية القرن الرابع للهجرة (٨٦٠ - ٩٢٦ م).

(**) ظرفاء المنجد ص/٢.

وكثر الخير ، وتفرغ القوم للتمتع وافتنوا في ترف العيش والتنعم بأسباب الدنيا وحب كل ما هو طريف ظريف ، (وهذه عناصر تتصل بالفن اتصالاً وثيقاً) (١) .

ومهما أنسى من شيء تَوَلَّى
فاني ذاكرٌ دار الرقيق (٥)

واشتهر منهم كثير كابي عمير الذي كان له جوارير قيان لهن ظرف ، منهم (عبادة) التي هوَ بها عبدالله محمد بن البواب . يقول فيها :

لو تَسَكَّى (ابو عمير) قليلاً
لا تيناه عن طريق العيادة
فقضينا من العيادة حقاً
ونظرنا في منقلتي (عبادة)

ومنهم (الخطاب) كانت له جارية تُعرف (بذات الخال) التي كان يهاها ابراهيم الموصلي ، وغيرهم كثير (٦) . وقد كان الشعراء يأوون اليهم بسبب ذلك .

وقد احسنت الجوارير اساليب المطارحة الشعرية والمنادمة وسبل المجالسة والمسامرة ، وتطارح الرجال من الشعراء الشعر معهن (٧) ، وكانت بغداد والعصر العباسي عصر هذه المطارحة والمعارضة على الوزن والروي الواحد وبقية المعنى ، واكثر ما تكون الغلظة فيها لهن (فقد كن اسرع بديهة ، وارق طبعاً) (٨) .

ومن ذلك ما جرى بين الشاعر السلولي وعنان (جارية الناطفي) وصاحبة ابي نواس بعد ان طلبت ان يبدأ السابق في المعارضة (٩) :

قال السلولي :

لقد جدَّ الفراق وعييل صبري
عَشِيبةٌ غيرهم للبين زَقَّتْ
فقالَت عنان :

كتمت هواكم في الصَدْرِ مني
على أن اللاموع علي نَمَّتْ
فكانت اشعر منه .

وقد عجت قصور الخلفاء والوزراء وذوي الجاه والمال منهم بهن ، ظريفات وظرفاء وكانت مجالس سرهم ومنادمتهم وامانك لهوهم وبساتينهم مكانا لحضورهن ومصاحبتهن .

(٥) الموشى : الوشاء ، مقدمة ص/د .

(٦) نفسه .

(٧) نمار القلوب في المصاف والمنسوب : التعاليبي ص/١٧٧ .

(٨) قول الجاحظ في المصدر السابق نفسه .

(٩) المرأة في ادب العصر العباسي : واجدة الاطرفي ص/٣٠١ .

وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية اضحى المجتمع الاسلامي - بسبب الفتوحات وسعة الرقعة الاسلامية - خليطاً اجتماعياً افه الاسلام من عناصر شتى ذات طبائع واخلاق واذواق وبيئات وعادات مختلفة بكل موروثها ، الحضاري ، والثقافي المختلف ، فكان من اغزر المصادر واعجبها (٢) وساعد على خلق انموذج للانسان ، الذي تفاعلت ، وامتزجت في نفسه وروحه كل عوامل المجتمع الجديد ، فكان انساناً متحضراً دمثاً ، في سماحة وظرف وذكاء وهي سمة حضارية استمدت مقوماتها من ذلك المزيج .

ومما افاء به الفتح الاسلامي على بغداد ، وغيرها من عواصم الدولة العباسية كثرة الاسرى من الجوارير الفارسيات ، والروميات - وهو سبب نضيفه الى ما ذكرنا آنفاً - . وبذلك دخل - في المجتمع البغدادي - لون جديد ادخل مظهرها جديداً في المجتمع والجديد بطبيعة الحال يلفت النظر ، ويستدعي الاهتمام ، ومن هنا كان للمرأة الاسلامية الجديدة اثرها في مجتمع بغداد (فسمى نحوها الرجال ، وسعت القيان اليهم وتبدلت المشاعر ، وكان نتيجة ذلك التطرف والتزين والارضاء) (٣) .

وراجت سوق الجوارير ، وقد افتن النخاسون (٤) في تعليمهن وتاديبهن الشعر ، والغناء فضلا عن حفظ القرآن الكريم ومآثور القول ، كل ذلك لان هؤلاء النخاسين وجدوا فيهن تجارة مربحة رائجة ، وانتشرت تجارة الرقيق في بغداد وعنى بها هؤلاء على اكمل وجه . وكان في بغداد شارع يسمى شارع (دار الرقيق) وقد بكاد الشاعر بقصيدة طويلة آخرها :

(١) اللرفاء / صلاح الدين النجد طبعة الرسالة ص/٢ .

(٢) نفسه / المقدمة . وانظر تاريخ الادب العربي : العزاوي ص/٦٦ وتاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : ابراهيم ابو الخشب ص/مقدمة .

(٣) النجد في اللرفاء ص/١٠٠ .

(٤) بانمو الرقيق ، واحده نخاس . اللسان / نخس . وانظر مليحة رحمة الله : الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجري ص/٨٥ حول الشعر والغناء .

السابقة ، إلا وهو دور التديم لدى قصور الخلفاء والوزراء ومن هم في عدادهم ، وتغنى المغنون ، والمغنيات باشعارهم ، والناس في بغداد في هذا العصر يتغنون بالشعر الفصيح ، والجواري والفتيان يحفظن بل يحرصن على حفظه وروايته وغنائه ، وبرزت ، كثيرات ، ومنهن (عريب) (١٥) ، التي عرفت بجمال صوتها وأنه من أجمل الأصوات بين المغنين والمغنيات وكان يغنين من وراء الستائر (١٦) ، مما يوقع الكثير من المستمعين بهواهن ، والحرص على لغائهن لمعرفة صاحبة ذلك الصوت الرخيم .

اسباب نشوء الظرف البغدادي

ان اسباب نشوء الظرف على ما بدا لنا سابقا كثيرة وقد مهدت لها عوامل عدة تضافرت وبلغت ، اوجها زمن الترف ، زمن المهدي (١٥٨هـ) ووصلت حد الانبهار ، زهو في العيش ، تمتع باللذات ، تائق في كل شيء ميل الى الطرافة والجدة ، والفن ، ترف فائق في الحياة ، توفرت في بغداد فزهوا بذلك كله ، وقد أشار ابو حيان الى ان البغدادي (١٧) ميال بطبعه الى الظرف والتظرف .

وقد كان للفنى وكثرة الاموال عن طريق الجباية والخراج عاملا مهما ولما تقل وترجم بنشاط اثر عقلي فالتأثر الفكري الجديد في الفلسفة وعلم المنطق وما الف ادباء بغداد المعاصرين - كان من العوامل الاخرى المؤثرة في زيادة التظرف ، ونقص الف الجاحظ كتاب (التاج) (١٨) .

الظرف ظاهرة ومذهب

تعريف الظرفة ومدلولها :

تناولت مراجع اللغة دلالة (الظرف) واتفقت على مدلولات كثيرة تشتملها الظرفاة ، ويتصف بها الظرفاء (١٩) ، فالظرف عندهم : البراعة ، وذكاء القلب ، يوصف به الفتيان الأزوال (٢٠) ، وهم الغلمان

(١٥) شاعرة ومغنية ذات فصاحة وبلاغة ، قيل انها ابنة جعفر البرمكي ، ولها مراسلات مع ابراهيم بن المدير وغيره وكان المامون يشفقها . توفيت سنة ٢٧٧هـ . انظر : المستطرف ص/ ٢٧ - ٢٨ وطبقات ابن المعتز ص/ ٢٥٥ . (١٦) راجع حول الستائر ، مجلة المجمع العلمي بدمشق . مجلد ٢/ ، لسنة ١٩٢٢ ص/ ٢٩١ (مقالة احمد تيمور ، الالفاظ المباسية) .

(١٧) انظر كتاب الصداقة والصدق ص/ ٢٢ .

(١٨) ظرفاء النجدي ص/ ٢ .

(١٩) اللسان / ظرف ، والتاج كذلك .

(٢٠) البستاني : محيط المحيط مكتبة لبنان ١٨٣/ظرف

وفي ذكر انتشار الجواري والغلمان افادنا كتاب ابي حيان التوحيدى (ت ٤٠٠هـ) : الامتاع والموانسة بنص (١٠) ينير ذلك . قال : (فقد احصينا في بغداد سنة (٣٦٠هـ) : (٤٦٠) اربعمائة وستين جارية من الفتيات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحدق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ، ولا نصل اليه) . و ابو حيان هذا شاهد معاصر واديب حضارة القرن الرابع يدلي لنا بدلوه بهذا الصدد .

قلنا ان الحضارة طفت في بغداد (مدينة السلام) وانعكس الناس في الترف ، ورقت الطباع ، والاذواق واخذ اهل ومجتمع بغداد العادات الفارسية ، وتأثروا بتقاليدهم ايما تأثر ، وكان اثرهم هذا اكثر من اثر اليونان ظهورا ، فقد كان اثر هؤلاء في الحياة العقلية في الفلسفة ، والجدل والمنطق (١١) . ولذا فقد كان تبدل المجتمع في بغداد تبديلا جذريا (١٢) . وهذا ما يكاد يجمع عليه المؤرخون في الادب والتاريخ ، وقد كثر التسري والجواري ، ويكفي ان تشير هنا ان ستة وثلاثين خليفة من العباسيين امهاتهم من الجواري (١٣) .

وفوق ذلك فان الروح الدنيوية سادت قصور الخلفاء ، والوزراء ومجالسهم ، كالرشيد ، والوائق وامثالهما وقد عدت قصورهم ، وما بدخوا عليها ، وما ضمت عليه من فرش وثيرة ، طنافس ورباش ، وازاهير وتحف ، وسرر وما فيها من حدائق وبرك والوان مما دعا الشعراء ونخص منهم الظرفاء الى وصفها باجمل الابيات وارقتها ظرفا ، مما يُعد من اعجب آيات الفن والعمران حتى انه ليشك (١٤) في انها من الحقائق الواقعة في بغداد وغيرها لولا ما تؤكد عليه النصوص الادبية المتواترة ، وتقول المؤرخين ومعاصري ذلك الترف مما اعتمد عليه البحث في (الظرفاة البغدادية) .

ولقد كان الظرفاء من الرجال والنساء يتنادمون وهؤلاء اعطوا ايضا صورة او وجها جديدا للشاعر ودوره لانه كان يحمل طبعا تصح تسميته في عصرنا هذا بالمدافع (السياسي) في مراحل الاسلام

(١٠) ١٨٢/٢ .

(١١) ظرفاء النجدي ص/ ١٠ .

(١٢) الحالة الاجتماعية في العراق : مليحة رحمة الله ص/ ١٠٧ - ١٠٩ . وانظر اعلام النساء ٤١٧/١ .

(١٣) مقدمة الموشى ص/ د .

(١٤) انظر مقدمة الموشى ص/ و .

فانت تجد مدلولات مترابطة المعاني لأبنتك بعضها يشد أزر بعض ، فالذكاء وبراعة اللسان ، والبداهة وتعدد الجواب والبلاغة والتورية منها دائرة في فلك واحد على التوسع في المعنى الذي وصل اليه انظر بعدئذ .

صفة الظريف وسنن الظرافة :

لآداب لمن لامروءة له ولا مروءة لمن لاظرف له ، ولاظرف لمن لاآداب له . فالوشاء (٢٨) هنا يجعل للظريف من الخلال ما يلزم به فهو اديب متآذب تحمد خلاله ذو مروءة ، وليس هذا فحسب فقد نعته بنعوت كثيرة ، فالصاحبة ، والبلاغة ، والعفة والنزاهة ، فضلا عن انه حسن الوجه . رضي الهيئة ، قد اخذ من العلوم ، فصار وعاء لها ، رقيق الطبع . صادق اللهجة . كاتما للسر . هذا هو سلوك الظريف ولا يكون بخلافها ممن بعد منهم . كما ان للظرفاء البغداديين سلوكا اجتماعيا يكن عن مبلغ الكمال في حسن السيرة والسلوك . منها حفظ ذمار الجار والوفاء له . والالفة من العار ، وطلب السلامة من الاوزار ، والوشاء حين ينقل لنا مآذكرناه قد استشفها من واقع ممارسات الظرفاء في بغداد من ذلك انه (الوشاء) سال ظريفا عن الظرف : (فقال : التودد الى الاخوان ، وكف الاذى عن الجيران) (٢٩) . فالظرفاء في بفسداد لهم ميزات تنبىء عنهم لما فيهم من لطف في السمائل ، ورهافة في الحس ، وتنبع للجمال والتأنق في الملبس ، وانتطيب ، والزينة ، والهيام بالرياض . والازهار والولوع بالظريف الذي لم تعرفه العوام ، واللباقة في التعبير عن الاحساس بالافكار والمتظرفات نهن زهو حلو وعناية بالشعر الغنائي العربي الذي يترجم العواطف والهوى (٣٠) . وفوق ذلك لاتخلو حياتهم من بساطة في جمال . وقد تجاوز هذا الى فوضى لدى بعضهم : وفيه يقول الوشاء : (سالت بعض منظرفات القصور عن ظرفهن فقالت من كان فصيحاً عفيفاً كان عندنا ظريفاً متكاملأ ، ومن كان غنيا عاهراً كان ناقصاً) (٣١) ، والصرحة من شؤونهم وبلغوا مبلغ عمر بن ابي ربيعة ، من ذلك شعر ابن المعتز ومسلم بن الوليد ، قال مسلم :

انسي احبك فاعلمي

ان لم تكوني تعلمينا

- (٢٨) الوشى /٥٠/ .
 (٢٩) الوشاء /٥٢/ .
 (٣٠) المتجد في اللرفاء /٣/ .
 (٣١) الوشاء /٥٢/ .

الظرفاء ، وذكروا انه لا يوصف به الشيخ ولا السيد فكانه من لوازم الشباب لدواع كثيرة فيه . وما يقرب من هذا المعنى في الدلالة انه اي الظرف : حسن العبارة ، والهيئة ، وهو مصدر الظريف . وقد ظرف يظرف ، وهم ظرفاء ورجل ظريف من قوم ظرفاء ، وظروف وظرفاء على التخفيف من قوم ظرفاء . وظرفاء بتشديد الراء من قوم ظرفاين ...

ويتظرف : يتكلف الظرف .

والظرافة قليلة في غير الشعر (٣١) . قال ابن الاعرابي : الظرف في اللسان ، والحلاوة في العينين ، والملاحة في الفم . والجمال في الانف . قال : كانه جعل الظريف وعاء للآداب ومكارم الاخلاق (٣٢) .

وفي حديث ابن سيرين : الكلام اكثر من ان يكذب ظريف . اي ان الظريف لاتضيق عليه معاني الكلام . فهو يكتم ويعرض ولا يكذب . والظريف يملك تلك الملكة التي تكون مبداء لصدور الالفاظ التي لاتخلو من ظرافة والهيام (٣٣) .

وابن الجوزي (٣٤) يذكر للظرافة والظريف مدلولاً يقرب من مفهومنا للظرافة اليوم ، فقد نقل قول الحسن البصري .. كانه وعاء كل لطيف .

والتورية تدخل في معاني الظرف ، فما يوجب خجل المذنب فيورى عنه هو من الظرف كذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام « اذ اخرجني من السجن » (٣٥) ولم يذكر (الجب) لتلا يستحي اخوته .

واحسب ان ما ذكره ابن الجوزي مههدا للتوسع في بعض معاني ومدلول الظرف الذي فيه حلاوة النكتة (٣٦) .

وقيل : ان الظرف لا يكون الا في اللسان (٣٧) يقال : فلان ظريف اي هو بليغ جيد المنطق ومنه حديث عمر (رض) : اذا كان اللسان ظريفا لا يقطع اي ان له لسانا يتحجج به فيدفع عن نفسه .

قال : هو الخفيف الظريف يعجب من ظرفه ، والجمع :- ... ، وفي حديث النساء : (بزولته وجلس) ، هي الفطنة الداهية ، وقيل : الظريفة ، وتزول : تناهى ظرفه ، وانظر اللسان / زول .

- (٣١) اللسان / زول .
 (٣٢) اللسان / ظرف وزول .
 (٣٣) البستاني / ظرف ، والسابق نفسه .
 (٣٤) اللرفاء والمتماجنون ص/٣ .
 (٣٥) الآية ١٠٠ يوسف .
 (٣٦) اللرفاء والمتماجنون ص/٣ .
 (٣٧) الاصمعي وابن الاعرابي : الوشى /١٥٩/٢ - ١٦٠ .

حبا أقل قليلا

كجميع حب المالينا

وتفانوا في حبهم كقول قائلهم :

انا الذي لم تدع فيه محبتكم

فضلا لضرك من انس ولا جان

سلبت روحي واسكنت الهوى بدني

فصار فيه مكان الروح في الجسد

ولا يفوتني هنا ان اذكر شيئا من فطنة ظرفاء

بغداد مما ذكره ابن الجوزي في اخبار الظرفاء(٢٢٢)

وذلك : (ان الامون غضب يوما على طاهر بن عبدالله

فأراد طاهر ان يقصده فورد كتاب له من صديق له

ليس فيه الا سلام وفي حاشيته : (يا موسى ،

فجعل يتأمله ولا يعلم معنى ذلك . وكان له جارية

فطنة فقالت : (يا موسى ان الملا ياتمرون

ليقتلوك) (٢٢٣) .

وفيه ايضا : (قال الامون لزبيدة لما قتل

ابنها : لن تعدمي الا عينيه ، وأنا ولدك مكانه

فقالت : ان ولدا افانديك جدير ان اجزع

عليه) (٢٢٤) .

وفي صدد سنن الظرفاء وما عليهم من شرائع

قول الوشاء : فيما نصه :

(واعلم ان للعشق سنة مقصودة ، وللظرف

شرائع محدودة وراينا اربابه واهله وطلابه متميعين

لسبلها ، متمسكين بحبلها ، متى حالوا عنها سموا

بغير الظرفاء عند اهل الظرف ودعوا الى غير سنة

المشاق والادباء ولهم فيما استحسونه من الزي

والطيب والثياب ، والهدايا والطعام والشراب حد

محدود ، مستحسن معلوم ، وزى بين الطائفتين

مقسوم ، لا الرجال يتجاوزون الى ما حُد لهم الى

حد متظرفات النساء ، ولا النساء يتجاوزن حدهن

الى حد الرجال الظرفاء .. (٢٥٥) .

الظرف مذهب

غدا الظرف مذهبا واستوى وله سنن وعادات

زمن المهدي (١٥٨ هـ) زمن الترف في بغداد(٢٦) ،

واعتنقه كثير منهم وبعد ان كان في بغداد ظرفاء

(٢٦) ص/١٤٨ .

(٢٦) القصص : ٢٠ .

(٢٦) اللطراف والتماجنون ص/١٥٩ .

(٢٥) الوشاء ص/١٥٩ - ١٦٠ .

(٢٦) ظرفاء النجد / ١ .

أخذ الآخرون من البغداديين وغيرهم يتظرفون ،
قاصدين اليه ، ومنتمين اياه .

وقد نما الظرف والتظرف في وقت شاعت
فيه الزندقة بين الناس ، واحب الظرفاء رقعة
الزنديق ولطفه وصراحته فضلا عن انهم نشدوا
العلم والعقل والادب فاصبحت الزندقة مدعاة الى
الظرف وعبر الناس عن ذلك فقالوا في المثل :
(اظرف من زنديق) (٢٧) (٢٨) .

وانتحل كثير من الظرفاء الزندقة منهم
محمد بن زياد ، قيل انه تزندق تظارفا فقال ابن
منادر فيه :

لست بزنديق ولكنما

اردت ان توسم بالظرف (٢٩)

وقد تزندق المتظرفون حتى قيل انهم تزندقوا
وغلبت عليهم هذه الصفة او ليضيغوا الى الظرف
زندقة . كما في قول الشاعر :

فقد بقي التزندق فيه وسما

وما قيل الظريف ولا الخفيف

تزندق معلننا ليقول قوم

من الادباء زنديق ظريف

واستقطب الظرف الناس فصار مدعاة للفرح
والاعتزاز ، ونظر له العوام طموحا يسمعون اليه
ولا سيما ، بعد ان كانت للظرفاء حظوة لدى
الخلفاء والامراء .

وقد افادنا الثعالبي في ذلك فاورد في كتابه
نمار القلوب(٤١) نسبة الظرف الى الزنديق فقال :
اما قولهم : اظرف من الزنديق فقد صار مثلا في
زمان كثير ظرفاؤه وهو زمان المهدي ، وكانوا
يرمون بالزندقة كابي العتاهية ، وبشار بن برد ،
ومطيع بن اياس .. وغيرهم ثم قال وما منهم الا

(٢٧) قال الجواليقي في المعرب ص/١٦٦ - ١٦٧ ليس في كلام
العرب « زنديق » والجمع زنداقة . والهاء فيها مزيدة
عوى عن الياء في زنديق . وهو فارسي معرب .
والزنديق : القائل ببقاء الدهر ، وزندقته انه لا يؤمن
بالآخرة ووحداية الخالق .

(٢٨) انظر اللسان زنديق .

(٢٩) نمار القلوب في المساف والنسب للثعالبي ص/١٧٧ .

(٤٠) ظرفاء النجد / ٧ - ٩ .

(٤١) الثعالبي / ١٧٧ .

نظيف البزة ، جميل الشكل ، ظاهر المروءة ، فصيح اللهجة وكان ابو نواس يعد فيهم :

وصيف كاسرٍ مُحدثه مَلِكٌ

فيه مُنْعٌ وظرفٌ زنديقٌ (٤٢)

ظرف العامة :

ولقد كان هذا الظرف الذي تحدثنا عنه يمثل الطبقة الأرستقراطية في المجتمع لانه ظرف المترفين في القصور وتأثرت العامة بذلك فنشأ هناك ما يسمى بظرف العوام ونذكر هنا خبرا يمكن ان يعطينا ولو صورة بسيطة عن هؤلاء ويوضح الفرق بينهما جاء عن ابي الفرج الاصفهاني ان محمد ابن ذي السفين ارسل طعاما الى (عريب) يوما فلما رآته امرت فانهب ، فارسلت إليه طعاما ، ورقصة فيها : يا عجمي يا غبي ظننت انني من الاتراك وحرسش من الجند ، بيعتت الي بخبز ولحم وحلواء ، يا فدتك نفسي قد وجهت اليك زلة من حضرتي فتعلم ذلك اخلاق العامة في الظرف فيزداد العيب والعتب عليك فكشف محمد المنديل ، فاذا طبق ومكبة من ذهب وفيه زبيبة فيها لغتان من رفاق قد عصبت طرفيهما وقطعتان من صدر دراج مشوي (٤٣) .

اثر الظرف في المجتمع البغدادي

لقد كان للظرفيات خاصة والظرفاء عامة اثر في المجتمع البغدادي ، من بينهم الجواربي فقد كان لهم بليغ الاثر في التمدد بذهب (الظرف) وتبلوره ، فقد تغنى الظرفاء في التقرب اليهن ، واخذ ظرفاء العوام يقلدونهن ، زد على ذلك ما لهم من الاثر السياسي في الدولة فقد برعت منهن شخصيات عرفت في الميدان السياسي وذلك برجاحة عقولهن وصواب آرائهن الى جانب اجادتهن الشعر والادب والفناء ، والنطق .

ومن اشتهر من الجواربي (ام المقتدر) (٤٤) فقد برزت وكانت صاحبة نفوذ وقوة ، وسلطنة وبقيت في العصر العباسي الثاني ، ودام ذلك امدا .
وام الممتزاة (٤٥) : جارية رومية رائعة الجمال

(٤٢) ديوان ابي نواس ص/٥١ ط. بيروت .

(٤٣) ظرفاء المنجد ص/٢٦ - ٢٧ .

(٤٤) انظر ابن الاثير في الكامل ١٢٩/٨ حوادث سنة (٢١١ هـ) والمنتظم : ابن الجوزي ١٧١/٦ ، ١٧٤ - ١٨٥ .

(٤٥) اعلام النساء ١٨٤/٤ ، نساء الخلفاء / ٨٤ ، المستطرف ٥٧/ .

سميت (قبيحة) من باب تسمية الشيء بضده ، وكان المتوكل يفضلها على جواربه واصبحت بعدئذ سيدة البلاط العباسي . وكانت وفاتها سنة (٢٦٤ هـ) بسامراء .

ومنهن القهرمانات (الحاكمات) اللواتي لهن ادوار سياسية كأم موسى الهاشمية وحسن الشرازية وزيدان الشرازية ونظم فالاولى وصيغة ام المقتدر كانت تشرف على حيس رجالات الدولة قيل ان المستكفي كان عبدا لها (٤٦) .

والخيرزان زوج المهدي وام الرشيد كانت ذات نفوذ وسلطان (٤٧) ، فاحشة الثراء سمت في قتل المهدي وتولية الرشيد مكانه .

وبذلك اصبحت الظرفيات شغل المجتمع الشاغل مع الظرفاء ، وخاصة في قصور الخلفاء وتجلت مطارحاتهن ومعارضتهن في الشعر وما وقع لهن من اخبار مع عشاقهن من الخلفاء والوزراء كان موضع اهتمام اديباء وكتاب العصر فنجلوا كل ذلك ، واخصت به مؤلفات تناقلتها اسفار مهمة من المظان المختلفة ، فقد ائمت بكل طريف ظريف نذكر بعضها ، وقد احتوى بعضها على قسم من طرائف وملح الظرفاء :

رسالة اتيان (ثلاث رسائل) للجاحظ .

اشعار النساء للمرزباني .

اخبار الظرفاء والمتماجنين لابن الجوزي .

المستطرف من كل فن مستظرف : للابشيبي

المستظرف من اخبار الجواربي للسيوطي

جلال الدين .

نساء الخلفاء لابن الساعي . تحقيق مصطفى

جواد .

اخبار النساء لابن قيم الجوزية .

الاذكياء لابن الجوزي .

بين الخلفاء والخلفاء في التصر العباسي

صلاح الدين المنجد .

الموشى للوشاء .

اعلام النساء عمر كحالة .

ومن المعاصرين صلاح الدين المنجد في كتابه

(الظرفاء والشحاوذون في بغداد وباريس) .

وادب المرأة في العصر العباسي

لواجدة الاطرقجي (٤٨) ومقالات الدكتور مصطفى

(٤٦) الخلفاء والخلفاء / ١٧ .

(٤٧) المستظرف / ٢٤ .

(٤٨) رسالة دكتوراه لم تطبع بعد / ١٩٧٨ .

جواد والمنجد وغيرهم في المجلات . هذا وكل
المراجع المذكورة في ثبت المراجع ، وغيرها مما لم
تصل اليه ايدينا كثير .

ولمكاتبهم والاعتزاز بهم كن يرثين ننقل اليك
من قول ابي احمد يحيى بن علي المنجم يعزي ولد
(اسحاق جارية المتوكل وام المؤيد والموفق) الموفق
بوفاتها فيقول (٤٩) :

لقد اظلمت بفساد عند وفاتها
كاظلامها للشمس ساعة تفرب
فولت وولي الحمد يتبع نمشها
ويصدق من يشني عليها ويندب
وما مات من ابقى الامير ومن له
من الفضل ما يُعزى اليها وينسب
تقدمها اباك بمد بلوغها الـ
حتى فيك ما كانت من الله تطلب
فقد اعطيت في ذاوذلك سؤلها
وباتت كما بات الحيا المتحلب
فأحسن عزاء وابق فينا مسلما
مغدى من الاسواء ترجى وترهب

وقد اعتزت الظريفات باسيادهن فرثينهن
وهذه (تيماء) جارية ابي العباس خزيمه بن خازم
النهشلي فقالت ترثيه (٥٠) :

ان ابا العباس خدن العلى
خزيمه الياس فتى الجود
والمثلف المخلف رب الندى
أودى فما جود بموجود
لئن حواه القبر ميتا فقد
تضيق عنه سمة اليد
كانه لم يفن يسوما ولم
يُغد على الشم الصناديد

ولما ماتت (شاجي) وهي محسنة مبرزة
متقدمة في الفناء (ت ٣١٩/٥١) - جارية علي عبيدالله
ابن عبدالله بن طاهر - حزن عليها حزنا شديدا
وانشد :

زرعت وشاجي بيتنا من شبيبتي
غراس الهوى فاعتم بالثمر العذب
فشاب بنو شاجي لظهري وادركوا
وشاب بنوهم وهي مالكة قلبي

وفي كثير من الاحيان كان الظريفات أنداد
بعارضوهن الشعر وبهاجونهن كالذي جرى بين
ابي نواس ودنانير (٥٢) وما جرى بين العباس بن
الاحنف وعنان فقد كان يهواها فجاء ابا جعفر
النخعي يوما فقال : امضي بنا الى عنان ، فكانت
كالمهاجرة له فجلسا قليلا فابتدأ العباس فقال :

قال عباس وقد اجهد في وجد شديد
ليس لي صبر عن الهجر ولا لدع الصدود
لا ولا يصبر للهجر فؤاد من حديد
فقالت عنان :

من تراه كان اغنى
منك عن هذا الصدود
بعد وصل لك مني
فيه ارغام الحسود
فاتخذ للهجر ان سُ
ت فؤادا من حديد
ما رايناك على ما كنت
ت تجني بجليد
فقال العباس :

او تجودين بصفح
عن اخي وجد شديد
واخي جهل بما كا
ن يجني من صدود
ليس من احدث هجرا
لصديق بسديد
ليس منه الموت ان
لم تصليه بعييد

قال : فقلت : ويحك ما هذا الامر ؟ فقال :
انا جنيت على نفسي بتتياهي عليها ، فلم ابرح حتى
ترضيتها له .

الحب عند الظرفاء

الم تعلم فذاك ابي وامي
بان الحب من شيم الظرفاء
هذا البيت للشاعر محمود الوراق ، وقد
ذكره الوشاء (٥٣) مشرا الى ان الحب من صفاتهم ،

(٥٢) جارية اديبة ، شاعرة ، مفضية ، واوية للشعر والفناء .
حكى لثاء ابراهيم الوصلي . اعلام النساء ١٧/١
والمستطرف / ٢٨ .
(٥٣) الوشاء ٥٩/١ والوراق هذا كان نخاسا يبيع الجوازي .

(٤٩) انظر المستطرف / ١٠ - ١١ ونساء الخلفاء / ٨٢ .
(٥٠) المستطرف / ١٦ - ١٧ .
(٥١) المستطرف / ٢٥ ، ونشوار الحاضرة ١/٦٢ - ٦٤ .

وعزم :نوفاء أو السعي ورأه لذةً دنيوية مؤقتة ،
نعم لقد هاموا عشقا :

بي اليأس' او داء' الهيام اصابني

فإيّاك عَنّي لا يكن بك ما يبسا

والهيام' داء يأخذ الإبل فتشرب فلا تروى ،
ولم يكن يبعيد موت بعض العشاق بسبب هيامهم .

لان (العشق يحسن باهل العفة والوفاء ،
ويقبح اهل العهر والخنا) ، وعاب على الظرفاء
المتماجين ومبازلهم ، لانه كما يقول : (ما وجدنا
احدا من العرب يفعل ذلك ، وقد كان الواحد
منهم يعشق من اول دهره الى آخره ، لا يحاول
فسقا ، ولا يقرب رفث^{٥٩} .

اقول هنا ان الوشاء بصفته اول من كتب
عن الظرفاء بهذا الشكل الموسع انكر المبازل
واحسب ان عبارة ابن سيرين الواردة في كتاب
الامتناع والمؤانسة نافعة بهذا الصدد حيث يقول :
(كانوا يعشقون في غير ريبة وكان لا يستنكر من
الرجل ان يجيء الى اهل البيت ثم يذهب ، قال
هشام ، ولكنهم اليوم لا يرضون الا بالموافة)^(٦٠) .

وقد حمل الوشاء^(٦١) على القيان والجواري
فقال : (اعلم انه لم يبتل احد من اهل المروءات ،
والادب . ولا امتحن سراة الفتيان ببليّة هي اعظم
من هوى القيان ..) .

اود ان اتف عند مقولة الوشاء هذه ومن
شايعه الراي من معاصري هذه الحقبة ولم يشبوا
عنده بل سرعان ما خالفوا ما ذكروا ، والجاحظ
منهم^(٦٢) فأقول :

١ - ان الجواري والتينات كانت مهماتهن بقدر
ما وجهن اليه ودربن عليه مثل حفظ الشعر
والمطارحة والغناء ، والتزين واظهار الفنج
وما يلحق به .

٢ - انهن على ما بدا لنا قد وقعن فريسة بيد
النخاسين ومن هم دون ذلك .

٣ - انهن وما بنين من العلاقات المستهجنة وما
أخذ عليهن من الممارسات لهن دور مبادلة
طرف آخر .

وقد حفل أدب الأطراف به . وللظرفاء حُب ووفاء
للإصدقاء قبل حُب العشاق والمعشوقات فهم اوفياء
اشد الوفاء ، وهذا التزام لا خروج عنه عند
الظريف وله حدوده المعقولة المطلوبة دون افراط
واستهانة ، والنصوص شاهدة على ما ذكرنا شعرا
ونثرا ومنها ان بعضهم سئل :

(اخوك احب اليك ، ام صديقك ؟ فقال :
اخي اذا كان غير صديق لم احبه .)^(٥٤) .

ولهم ملاحظات ذكية ، وحدود في حُب
الإصدقاء وقول الشاعر في ان حُب الصديق للصديق
دون افراط جميل محبب ، مفضل ، حذر انكشاف
الضد : دليل ذلك قول الشاعر :

فهو نوك في حُب وبعض فربما

يُرى جانبٌ من صاحب بعد جانب^(٥٥)

ولا ينكر ان حُب الحبيب والمحبوب هو
الجانب اندي طعى على طرف الظرفاء فقد طفت
عليه المشاعر ، واليه انت نفوسهم ، وانبعثت
فيها كل انواع المسرة والعوامل كثيرة كنا قد ذكرناها
من اول هذا البحث .

وفيما راي الوشاء^(٥٦) انما هو اشارة الى
مصاحبة عفة النفس وعدم التبذل والترفع عن
الدنيا ، وهو حُب لا يدعوا الي ريبة ، ولا سيما
وان كمال الطرف ان (يكون عن الحرام عفيفا)^(٥٧) ،
ويبدو ان الوشاء وقد عاش عصر الظرافة وسجل
لنا سننهم وشرائعهم التي لا تتجاوز ولكن الذي
وضح لدينا ان النصوص الواردة والجزء الاول
خاصة كان لظراف عشقوا واحبوا حبا عذريا عفيفا
في زمن كان فيه ما يزال السلطان للدين قائما .
ولكن الظريف لا بد ان يكون قد عانى في هذا السبيل
فهو لا يخلو من هوى ، (ولا يعرى من ضنى ، لان
الهوى كما وصفه العلماء ، وكما قال فيه الحكماء :
انه اول باب تفتق به الاذهان ، وتنفسح به الجنان ،
وله سورة في القلب ، يحيا بها اللب ..)^(٥٨) .

ولقد اقر مسألة الحُب والعشيق عند
الظرفاء ، ولكنه ابتعد بهم عن التبذل والترخص

(٥٤) نفسه .

(٥٥) نفسه .

(٥٦) ظرفاء المنجد ص/٢٨ ، وانظر قول ابن سيرين في الامتناع
والمؤانسة ٥٦/٢ .

(٥٧) الوشاء ٥٩/١ .

(٥٨) نفسه .

(٥٩) انظر في هذا الموضوع الوشاء ٩٩/١ .

(٦٠) التوجيهي ٥٦/٢ .

(٦١) الوشاء ١١٦/٢ .

(٦٢) نثار القلوب ص/٤٩٠ . ورسالة القيان للجاحظ
ص/٨٢ .

٤ - لقد وقمن - في الغالب - تحت قهر وضغط من ملكن من الاسياد . وهذا لا يحتاج الى بيان لان النصوص الاديبية والتاريخية شاهدة عليه وهي كثيرة .

٥ - وحقيقة اخرى اسوقها هنا وهي : انهن لم يكن عربيات .

وفاء (هند) (١٥٠) جارية ابي محمد بن مسلمة الشاطبي الكاتب التي ظلت على وفائها للفتح بن خاقان ورثته بقولها :

قلت للموت حين نازله
والموت مقدماتة على البهائم
لما تبيئت ما فعلت إذن
فرعيت سنا عليه من الندم
فاذهب بمن شئت إذ ذهبت به
ما بمسد فتح للموت من الم
ولم تزل تبكيه وتنوح عليه حتى ماتت .

اضيف الى ما ذكرت ان روح العصر ، وظروفه الثقافية والاجتماعية توحى للباحث وتبدي له ان الكلام عن الجنس والتحدث بذلك كان مباحا لا يتحرج منه بدليل النصوص الكثيرة الظرفية الشعرية وغيرها . والمتداول منها في مجالس السمر ، والندمان والشرب اكثر ، مما يجعلنا نقول ان ما نستعجنه اليوم في التحدث بمثلها كان يجري جريانا طبيعيا وبأخذ طريقه في حياتهم .

وفي اخبار النساء ووفائهن روى ابن قيم الجوزية (١٦١) هذه الرواية : (قال الاصمعي : قال الرشيد : امض الى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم . فانحدرت ، فنزلت على صديق لي بالبصرة ، ثم بكرت انا وهو الى المقابر ، فلما صرت اليها اذا بجارية نادي الينا ريح عطرها قبل الدنو منها ، عليها ثياب مصبغات وحلي ، وهي تبكي احمر بكاء . فقلت : يا جارية ما شانك ؟ فانشات تقول :

ومن الجوارى من لم يتعد من اخلاصا
وفاء ، فهذه (دنانير) ابت على الرشيد ان تغني
بعد نكبة جعفر البرمكي فغضب الرشيد وصفعها
وجعلها تقيم على رجليها ، واعطيت العود فاخذته
وهي تبكي امر البكاء واندفعت تغني :

فان تسألني فيم حزني ؟ فاني
رهينة هذا القبر يا فتيان
اهابك اجلالا ، وان كنت في الثرى
مخافة يوم ان يسوك مكاني
واني لاستحيبك ، والترب بيننا
كما كنت استحيبك حين تراني

يا دار سلمى بنازح السنند
بين التنسايا ومسقط اللبد
لما رايت الدار قد درست
ايقنت ان النعيم لم يعد
فرق لها الرشيد وامر باطلاقها .

فقلنا لها : ما راينا اكثر من التفاوت بين زيك
وحزنك فاخبري بشانك ؟ فانشات تقول :

يا صاحب القبر ، يا من كان يؤنسني
حيًا وَيَكْثُرُ في الدنيا مواساتي
ازور قبرك في حلي وفي حُلل
كانني لست من اهل المصيبات
فمن رأني ، راي عمرة مفعمة
مشهورة الزي تبكي بين اموات

يا دنانير قد تنكر عقلي
وتحيرت بين وعد ومطل
شغفي شافعي اليك والا
فاقتليني ان كنت تهوين قتلي
انا بالله والامر وما
آمل من موعد الحسين وبدل
ما احب الحياة يا اخت ان لم
يجمع الله عاجلا بك شملي

وفاء (محبوبة) (١٤١) جارية المتوكل التي

(٦٥) المستطرف ص/٧٤ .
(٦٦) ص/١٢٦ - ١٢٧ .

(٦٣) اعلام النساء ٤١٨/١ - ٤١٩ .
(٦٤) انظر المستطرف ص/٦٧ .

عمرو السلمي (٩٨) وكان يبادلها اياه ويجد بها
وجداً شديداً . وكانت تحلف له انها ان بقيت بعده
لم يحكم عليها رجل ابدا فقال يخاطبها :-

اذا غمضت فوقي جفون حفيرة
من الارض فابكيني بما كنت اصنع
تعزك عني بمد ذلك سلوة
وان ليس فيمن وارث الارض مطمع

فاجابته ريم تقول :-

ذكرت فراقا والفرق يصدع
وأي حياة بمد موتك تنفع
اذا الزمن الفدار فرق بيننا
فمالي في طيب من الخيش مطمع
فلو ابصرت عينك عيني ابصرت
شآبيب جدر غيبتها ليس تقشع
وقال فيها ايضا (٩٩) :

وليس لآخوان النساء تطاول
ولكن آخوان الرجال يطول
فلا تبخلي بالدمع عني فان من
يضم ، بدمع غير ذا لبخيل
فمالي الى برد الشبيبة حيلة
ولا لي الى دفع المنون سبيل
وان لداني قد مضوا لسبيلهم
وان بقائي بمدهم لقليل
فاجابته ريم :-

بكي من صروف خطبهن جليل
ومن ذا به عمر' الحياة يطول ؟
ومن' ذا الذي ينعي على حدث الردي
وللموت في اثر النفوس رسول
وكل جليل سوف يلقي حمامه
وكل نعيم دائم سيزول
لي الويل ، إن عمرت بمدك ساعة
وان كثير الويل لي لقليل
وتزعم' اني لا اجود بعمرة
اذا نجمه' قد حان منه أفول

فقلنا لها : وما الرجل منك : قالت بعلي ،
وكان يحب ان يراني في مثل هذا الزي ، فآليت
على نفسي ان لا اغشى قبره الا في مثل هذا الزي
لانه كان يحبه ايام حياته وانكرتماه علي .

ولما سمع الرشيد خبرها خطبها من اهلها
وحملوها الى الرشيد وهي لا تعلم ثم علمت الخبر
فشهقت شهقة فماتت .

وفيه ايضا (١٧) عن ابي بكر الانباري
- اللغوي المشهور - عن ابي اليسر قال : دخلت
منزل نخاسي لشراء جاريفة ، فسمعت في بيت
بازاء بيت جاريفة تقول :

وكنا كزوج من قطا في مفازة
لدى خفض عيش معجب موقر رغد
اصابهما ريب الزمان فافردا
ولم ار شيئا قط اوحش من فرد
فقلت للنخاس : اعرض علي هذه المنشدة .
فقال : انها حزينة . قلت : ولم ذلك ؟ قال
اشتريتها من ميراث ، فهي باكية على مولاهم لم
اليث ان انشدت :

وكنا كقصني بانه وسط دوحه
نشم جنا الجنات في عيشة رغد
فافرد هذا الفصن من ذاك قاطع
فيا فردة باتت تحسن الى فرد
قال ابو السمرء : فكتبت الى عبدالله بن
طاهر (قائد وسياسي وشاعر) فكتب الي : ان
التق عليها هذا البيت ، فان اجازته فاشترها ولو
بخراج خراسان . والبيت :

قريب صد ، بعيد وصل
جملت منه لي ملاذا
فقال مرة :

فعاثبوه ، فزاد شوقا ،
فمات عشقا ، فكان ماذا
قال ابو السمرء : فاشترتها بالف دينار
وحملتها اليه ، فماتت في الطريق فكانت احدى
الحشرات .

وكانت الجارية (ريم) قد احبت (اشجع بن

(٩٨) من بني سليم . انظر طبقات ابن المعتز ص/٢٥١ - ٢٥٢ .
(٩٩) انظر اخبار النساء ص/١٤١ - ١٤٢ .

(١٧) اخبار النساء ص/١٢٧ - ١٢٨ .

الأخرى وما تهبأ من أسباب الاختلاط بمادات شعوب أخرى والفارسية ، خاصة . والا فبم تملل النقول الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى مما ذكرته كتب الأخبار والتاريخ ، والأدب والفن وأخبار النساء وأدهن ؟!

والذي بدا لنا ان ادب المرأة (٧٠) (الجواري والقيان) وان بدا عليه المجون في قسم منه فهو من المصادر التي شاركت في ادب العصر آنذاك وازدادت مع توغل الحضارة وكان له الاثر الكبير في نظرف المجتمع البغدادي .

والى جانب ما ذكرنا فقد كن عاملا مهما في الاحساس الفني ونشر الشعور به وبذلك ساعدن على بعث حركة فنية في الفناء والتصوير والرقص . فالتجمل والتائق في المنبس وتزيين الوجه والتفنن بتسريح الشعر وما يلحق ذلك من ادوات الزينة والحلي يبعث على الاحساس بفن التجمل . وقد تمتعت كثير منهن باصوات جميلة كمرير وفريدة ودنانير وغيرهن . وبذلك بلغن غاية في الملاحه والظرف والفن .

وفي صفة العاشق من الظرفاء ذكر قول المأمون في ابراهيم المهدي (٧٢) :

وجه' الذي يَعْشَقُ' معروف
لأشهُ' اصفر' منحوف'

والعرب تمدح الضمير وتذم السين ، وتنسب اهل النحول الى المعرفة والأدب ، وأهل السمن الى الحنق والغدامة وقلة الفهم (٧٣) .

وفي ذكر علامات المشق والتولاه بالمحجوب ، قال الوشاء (٧٤) انشدني بعض الادباء ولم يذكر اسمه :

علامة من كان الهوى في فؤاده
إذا ما لقي احبابه' يتَحَيَّرَا
ويصْفَرُّ لون الوجه بمد احمراره
فان حَرَكوه للكلام تَشَوَّرَا

ويحسن هنا ان نذكر ابيات ابن الرومي أبي الحسن في وصف ما يختلج نفس العاشق إذ يقول :

- (٧٠) الوشاء ١٢٧/٢ .
- (٧١) ادب المرأة في العصر العباسي ص/٢٢٦ .
- (٧٢) الموشى ١/٦٢ .
- (٧٣) اخبار النساء ١/٦٢١ .
- (٧٤) الموشى ١/٦٦ .

ومَنْ ذَا الذي أبكي له ، إن فقدته
سواك ، ومن دمعي عليه يسيل
فلا وقت ريم ، إذا ، ما تخافه

إذا ناب خطب' الزمان جليل'
ولا لقيت يوم القيامة ربهأ
وميزانها بالصالحات ثقيل
إذا ما سخا قلب' امرئ بمودة
فقلبي بود' عن سواك بخيل

ولما مات اشجع ، آلت على نفسها ان لا تأكل طعاما ، ولا تذوق شرابا ، فعاشت بعده اياما ثم توفيت ودفنت الى جانبه .

وما ورد من امثال ذلك كثير في مظان الكتب التي تحدثت عن وفاء النساء وتكتفى بما ذكرنا ، ولعله يفى بالعرض .

وقد جاء في النصوص التي اوردها الوشاء ما يشير او يرد على الوشاء قوله السابق في القيان منها الايات الآتية :

زعموا خيلة القيان غرور'
كلُّ زَعَم من المقالة زور
تَسَمَا للقيان بالمهد اوفى
من جوار' تضمنه الخدود'
انما زخرف المغاليس هذا
حين قلت صحاحهم والكسور'
اهل' هذا الزمان اطرى من الا
سِ وكل ممشوه' مستور'

ولا ينكر ان دواعي الظرفاة والحب في بغداد زمن العباسيين كانت كثيرة ، فقد حفل العصر بكل مظاهر الحضارة ، فن وادب وعلم وتائق وجمال ، وجوار حسان وترف عيش ، ثم صار مقالة في التزيين والتائق ظهر على رقة الناس في خلفهم وظرفهم مما لا يخطر ببال في العصور الاسلامية السابقة .

ولكن الذي وجدنا فيما اطلمنا عليه البحث من سيرة الظرفاء والظريفات ان فيهم غالبية تبدلت في الحب في زمن انطلاق وحرية وترف عيش ، ولربما كان بعضها يقتصر على التعبير عن مواقف كان القصد من ورائها حسن المجالسة ، واللفظ والمجالمة بسبب روح الحضرة ، والثقافة التي سادت ببغداد وعواصم الدولة العباسية

ارى ما بي عطش شديد
ولكن لا سبيل ابى الورود
اما يكفيك انك تملكيني
وان الخلق كلهم عبيدي
وانك لو قطعت يدي ورجلي
لقلت من الهوى احسنت زيدي
وقال ابن الرومي في فتاة (٧٥) :

غيداء من ماء الشباب الاغيد
كانما ترنو بعيني فرقد
تضرب متنيها بوحف اسود
دافعها فما اتقتني باليد
وقد تطارح الظراف والظريفات الشعر في
مجالس اللهو والطرب متغزلات متوجدات . ومنه
قول عنان :

وما زال يشكو الحب حتى رايتنه
تنفّس في احشائه وتكلمها
قالت :

ويكي فابكي رحمةً لبيكائه
إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
وجرت معارضات بين الشواعر والشاعرات
الظريفات نورد منها هنا :

ما ذكره ابن الجوزي (٧٦) : قال العنبي :
سمعت الفضل بن ابراهيم يقول : مرّ شاعر
بنسوة فاعجبه شانهن فجعل يقول :

إنّ النساء شياطين خلقن لنا
نموذ بالله من شر الشياطين

قال فاجابته واحدة منهن تقول :
إنّ النساء رباحين خلقن لكم

وكلكم يشتهم شم انرياحين
وقد عشق اكثر العرب (٧٧) وكتبوا في ذلك
اروع المعاني والطف الشعر وارقه وفي عصر
الظرافة والتظرف في بغداد كان منهم كثير ، ومن

عرفوا به العباس بن الاحنف عشق (فوز) وابو
العنايه عشق (عنبه) وابو الشيمس عشق
(امامه) :

ومن قول (قبيحة) (٧٨) بخط (فضل) في
هذا الباب (٧٩) :

لاصبرنّ على ما بي من المّضض
حتى اموت ولا يشعُر بي الناس
ولا يقال شكاً من كان بعشقه

إنّ الشكّاة لمن يهوى هي الياس
ولا ابوح بسرّ كنت اكنمه
عند الجليس اذا ما دارت الكاس

والحب فيه عند الظرفاء مرارة وحلاوة وهو
مع ذلك مستحسن عندهم قال الكميث بن
زيد (٨٠) :

الحبّ فيه حلاوة ومرارة
سائل بذلك من تطاعمّ او ذق

ما ذاق بؤس معيشة ونميمها
فيما مضى احدّ اذا لم يعشق

وقد ادلى الجاحظ بدلوه في حب القيان
والاماء فقال : انما هو (طمع وعرض) (٨١) ، ولكنه
عاد في موضع آخر الى اقرار بالواقع فذكر :
ا وليس هذا مما يذمّ لهم ولكنه من فرط المدح ،
فليس يحسن هاروت وما روت ، وعصا موسى ،
وسحرة فرعون الا دون ما يحسنه (٨٢) .

والعبارة فيها بيان كبير لا تحتاج الى
تفصيل .

وقد قال بعض الظرفاء في ذم هوى القيان :
فهذه فضل تقول (٨٣) :

يا حسن الوجه سيء الادب
شبتت وانت الفلام في اللعب

يا ويل ان القيان كالشرك الـ
منصوب بين القرور والمطب

(٧٨) هي ام المعتز جارية المتوكل وزوجه . عاقلة ، فاضلة .
شاعرة سميت قبيحة لشدة جمالها توفيت ٢٦٤ للهجرة .

(٧٩) سنائي ترجمتها في (ادب الظرفاء) .

(٨٠) الوشاه ٨٧/١ .

(٨١) الوشاه ١١٦/٢ .

(٨٢) رسالة القيان للجاحظ ص/٦٣ .

(٨٣) الوشاه ١٢٢/٢ .

(٧٥) الظرفاء ص/٥٠ .

(٧٦) الاذكياء ص/٢٢٠ ، بيروت .

(٧٧) ذكر الوشاه ٦٩/١ انه الفرد كتابنا لذكر العشاق والتميين
واخبارهم وملعهم واشعارهم وصفاتهم اسماء (المقتضى)
ولا ندري ما تزال نسخه موجودة ام لا .

وقول احمد بن غزال لنفسه (٨٤) :

اذا تعرّضت للقيان
فمِثْلُ الْفَقْرِ بِالْمَيَّانِ
واعزم على فلة اسافا
امض من طعنة السنان
وابيات اخرى كثيرة .

ويبدو ان الظرفاء فضلوا حب الجوارى
من غير الاماء المقدمات (٨٥) على انقيان كثيرا
لانا لم نجد من النصوص في ذم حب الجوارى
فيما وقعنا عليه ما بلغ من التعرض والانتقاد كحب
القيان والاماء فانه كثير ونصوصه الشعرية
كذلك .

والذي يبدو فان التدرج من البساطة الى
التكلف ومن الاناقة الى التائق رافقه تحول من
الظرافة الى التطرف والحرية والانطلاق ولقد كان
خلفاء بني العباس كلهم (٨٦) يحيون مجالس المنادمة
والطرب والغناء . وان تباينوا نسبيا ، وكانت
القيان يدخلن متزينات الى الدواوين وليس هناك
من منكر ولا عائب (٨٧) . وشاعت الزينة والتزويق
في كل شيء .

ولذا يمكن القول ان من بين هؤلاء الظراف
من التزم بسنن الظرافة الاولى او في بدايتها
ونشئها واختار البعض الآخر الانغمار والانغماس
فيما هيا له العصر من ملذات وغلب عليه ذلك فلم
يقنع بالبسمة والنظرة والحديث والنجوى فتحوّل
الى التقلبة واللهو والاجتماع في النوادي والمقاصف،
والاديرة متنادمين سامرين ساهرين شاربين عابثين
ولسان حالهم يقول (٨٨) :

وكلنا من طرب
يطير او يكاد
ولهونا لذيد
لم تلهه العباد

(٨٤) الوشاء ١٢٢/٢ .

(٨٥) الجارية : الشمس والسفينة : واستمع مجازا الى
الجوارى من النساء / اللسان / جرى القينة : العبيدة
والأفة فتت ام لم تقني ، ويقال في جمعها لبيان وقينات
اللسان : قين .

(٨٦) التاج في اخلاق الامم والملوك ص/ ٢٢ - ٢٨ .

(٨٧) رسالة القيان ص/ ٦٢ .

(٨٨) ظرفاء النجد ص/ ٢٩ .

ومنه : ما جرى بين حماد وسعاد (٨٩) :

قبّليني سعاد ، بالله قبله
واستليني لها ، فديتك ، نحلّه
فيدفع حماد سعاد هذه ، ويقول :
فأجيبني وانصبي وخلد البذ
ل واطفي بقبيلة منك نحلّه
ومما ذكره الاصفهاني (٩٠) :

كان لابي الشيص (٩١) جارية سوداء اسمها
(تبر) (٩٢) وكان يمشقها وفيها يقول :
لم تنصفي باسمية الذهب
تتلف نفسي وانت في لعب
يا ابنة عم المسك الذكي ومن
لولاك لم يتخذ ولم يطيب
ناسبك المسك في السواد وفي الري
ح فآكرم بذال من نسب
وكان الشاعر ابن المعتز من بين الشعراء الذين
انطلقوا او فازوا باللذات وعبروا عن مشاعرهم في
ذلك .
اذ يقول :

فقد كان دأبي جنة اللهو والصبا
وما زلت باللذات والعيش لعابا (٩٣)
ولقد سحر الحب هذا الامير وصرعه الهوى
والشباب . ولصرع الفواني : مسلم بن الوليد دلاء
ذكرها لا يتسع له المجال تذكر قليلا من قوله :
هل العيش إلا ان تروح مع الصبا
صرع حميكا الكاس والاعين النجل (٩٤)
وله ايضا :

ان شئت غاداني صبح من الهوى
وإن شئت ما ساني غبوق من الخمر

(٨٩) ظرفاء النجد ص/ ٤٠ .

(٩٠) الاغانى ٢٠/ ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٩١) محمد بن دزين ويكنى بابي جعفر ، وقد عاصر ابا نواس .
الاجاني ٢٠/ ٣١٩ ، اعلام النساء ١/ ١٦٤ .

(٩٢) اعلام النساء : ١/ ١٦٤ .

(٩٣) ديوانه ٩ / الظرفاء ص/ ٤١ .

(٩٤) الظرفاء ص/ ٤٢ .

وعريب لها في هذا الشعر ضلع كبير فقد قيل فيها(٩٥) :

قال الله عرييا

فَعَلَّتْ فَعْلًا عَجِيبًا

صبرت حتى إذا ما

أقصد النوم الرقيبا

فتدللت لحسب^{٩٦}

فتلقاها حبيبا

جدلا قد نال في الد

نيا من الدنيا نصيبا

وقول مسلم بن الوليد(٩٦) :

إن ورد الخدود والاعين النج

ل وما في الثغور من أخصوان

واسوداد الصدغين من واضح الخد

د^{٩٧} ، وما في الصدور من رمان

تركتيني لدى الفسواني صريما

فلهذا ادعى : صريع^{٩٨} الفسواني

وفي قصور الخلفاء والوزراء كانت دواعي

الحب واللهو كثيرة لدى الظرفاء مما جعلهم يولعون

بالانبيال عليها اكثر فقد لونت الحياة امامهم وبدت

لهم بحلة قشبية مغرية فاقبلوا يردون من مناهل

البهجة ما شاءوا وقد تملقت بذلك مظاهر كثيرة

تبدو ليست جوهرية ولكنها ذات اثر فعال في

الظرفاء البغداديين نذكر منها .

أزياء الظرفاء :

(احسن الزي عندهم ما تشاكل وانطبق

وتقارب واتفق) (٩٧) . هذا يعني أن نهم ذوقا فيما

يلبسون ، وانهم متمدون متحضرون ، ذلك ان ،

انسجام الالوان وعدم تنافرها يوحي للناظر راحة

في النفس وطمانينة ، وهو دليل اناقة وحس ذواق

سليم وميل فني .

والرجال من الظرفاء يلبسون من الالوان نقيها

ناعمتها ، مثل الديققي . منسوب الى دبيق قرية

من دمياط بمصر(٩٨) وهو المنقل من الثياب ، والغلائل

وهي شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع(٩٩)

(٩٥) الظرفاء ص/٤٣ .

(٩٦) الظرفاء ص/٤٣ .

(٩٧) الوشاه ١/١٦١ .

(٩٨) معجم البلدان ٢/٤٨ طهران .

(٩٩) انظر نشوار الحاضرة الجزء الاول .

والسفاق الكثيف . ودراربع البرد^{٩٩} جيرد هي بلدة بين الكرخ وهمدان والاردية المحشاة المدنية ، والجباب والطبالسة التيسابورية والاكسية الفارسية الخروز الكوفية وكل ما اشبه ذلك وقاربه(١٠٠) .

وفوق هذا فهم نظيفون وهذا عنوان الظريف ودليل مظهره الاتيق اذ لا يلبسون من الثياب المنسول الوانها بل النقية الصافية غير مصبوغة بالزعفران ولا مغموسة بالطيب لان هذا من لبس القيان والاماء .

وهم يلبسون من النعال الزيجية والشعرة اليمانية والمخمة بالخفاف ويشرك فيها الاسود بالاحمر والاصفر بالاسود ، والجوارب الخز المرعزي والقز ويعيبون لبس الاحمر منها .

ومن النعل يلبسون الابريسمية والخزبية ، ومن المطارف القطنية والمنقوشة الاردنية .

ويتختمون بالمعيق الاحمر ، والفيروزج ، الاخضر ، والفضية المحرقة ، واليمانية السود . والمضروبة المتوكلية . ولا يتختمون بالذهب لانه من لبس النساء ، والصبيان والاماء .

ويتعطرون بالطيب والمسك المسحوق المحلول بماء الورد . ويستعملون العود المنبر بماء القرنفل والعنبر البحراني والكافور المحرق المخلوط بعير المسك ويتجنبون طيب النساء .

ولا يستعملون من الطيب ، ما كانت رائحته شديده السطوع .

ولهم في اساليب الكلم نظام خاص فكانوا ، يتبعون نظام الاطباق كل لون في صفحة خاصة وبرقع الطبق ، ويؤتى بغيره . وقد اترفوا في استعمال الملاعق حتى كانت من الفضة البلور . وقد تكون من الزبرجد(١٠١) ولا تستعمل الا في لقمة واحدة .

ولوائدهم كما يبدو آداب واصول فاذا قاموا الى الطعام غسلوا ايديهم بالماء والطيب ، وربما مسحوها بالادهان العطرة لئلا يتمكن الزفر من مسامها . وهم لا يضحكون ولا يثرثرون في اثناء الطعام ، ويصفرون لقمهم ويبعدون عن الشره والنهم . ولا ياكلون التديد ولا يتبعون مواضع الدسم ولا يمشثون (يمصون) العظام ولا يلطمون

(١٠٠) الموشى ١/١٦٠ - ١٦١ .

(١٠١) قال الجاحظ في التبصرة ص/١٤ : غير الزبرجو ، الشديد الخضرة الصافي .

ويلبس الاردبية الرشيدية . والفلائل
الدخانية والقصب اللون والحريير المعين اللوشي
بالذهب قيل ان (زبيدة) كانت تلبسه . ومن
الراويل يلبس الطويلة البيضاء : والكمام
المفتوحة . ويتمنطن بمنطقة من ذهب ، وبعضهن
يتنقبن ، قيل ان (متمم) (١٠٧) الهاشمية لا تخرج
الا متنقبة وانها اول من عقد من النساء في طرف
الازار زنارا وخطب ابريسم .

وما تنقله وتصفه المراجع من زركشة الالوان
وحسن صنع الملابس يوحى بصور فنية جميلة
فكن يتفنن عليها ابياتا شعرية يخترنها ولهن مراد
من ورائها .

ومما زاد ظرفهن طرافة انهن تفننن في انواع
الملابس ، فقد لبس العصائب وكانت آية في الفن
والنقوش وكتابة رقيق الغزل والتوجد ، عليها .
وكانت (علية) بنت المهدي ، قد ابتدعت هذه
البدعة الحسنة فقد كان في جبينها فضل سعة
تسمح به فاخفته بلبس العصائب المكلفة بالدر
والجواهر ، فقلدتها الظرفيات في ذلك فصار تقليدا
(تقليعة وموضة مما يدعوه الناس اليوم) ويتنقش
عليها الشعر وينثر اللؤلؤ ، وانواع حجوم الدر
وغیره .

حدث علي بن الجهم قال : حضرت مجلس
الظرفاء فخرجت علينا جارية كأنها تمثال ، وعليها
عصابة قد ارسلت طرفين في صدرها مكتوب :

من يكن صباً وفيماً

فزماني في يديه

خلد مليكي بعناني

لا انازعك عليه

فوثب ابن الجهم حتى اخذ بطرفي العصابة
وقال : انا والله صَبٌّ ، واوفى خلق الله
لحب (١٠٨) .

وكتبت اخرى على وشاح (١٠٩) :

اغيب عنك بوداً لا يفيره

ناي المحل ولا صرف من الزمن

تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا

الشغل للقلب ، ليس الشغل للبدن

اصابعهم ولا يعجلون في مضغهم ، ولا بجانبى
الشدقين ، ولا يجاوزون ما بين ايديهم ولا يأكلون
شيئا من الكواريج والصحناة (السمك الصغير
المملوح) ، ولا شيء من الكواميخ (المخللات من
الطعام) ، وقد تأكل ذلك المتظرفات ولا يأكلون في
النهار اكثر من اكلة ، ولا يتحفزون لمجئ المائدة
قبل ان توضع ولا يكترون من اكل النقل (١٠٢) .
ويتجنبون الاكل البارد كالفلجل والحرف والكراث
والهندبا (بقل يؤكل) . ولا يأكلون ما يغير لون
الاسنان او ما يحدث رائحة وتغيير كالثوم
والبصل .

ومن الفاكهة يأكلون انواعا كثيرة من التمر
كالارطاب ، والمشمش والتبق والعناب والخسوخ
والاجاص .

وكان الخلفاء والظرفاء يحلون موادهم
(بالزماورد) (١٠٣) أي لكمة الخليفة كما كان
يسمى في العصر العباسي ولقمة القاضي .

والزماورد يتخذ من اللحم والبيض في بغداد
وذكر الجاحظ (١٠٤) انه مما يعجب به اهل
خراسان ويتخذونه من فراخ الزنابير .

ويرغبون في السكباغ ويسمونونه مع الاطعمة ،
وسيد المرق يؤكل حارا وباردا ويتزود منه في
السفر . وفي الشتاء والصيف .

وكان السمك مرغوبا فيه وكبود الدجاج
كذلك (١٠٥) .

زي الظرفيات (١٠٦) :

اما زي الظرفيات فالحديث عنه يطول
نجزيء بعضه من بعض فنذكر انهن لا يقلن اناقة
وترفا وظرفا في لبسهن بل كان ما يلبس مميذا
عن الظرفاء في اللون والنوع فمن الالوان الاسود
والاصفر وما لا يصبغ الا ما ازرق واخضر ،
والمورد والاحمر ، يتخذن ذلك من الحرير والقز
والديباغ .

والحمرة والسواد والزرقعة عندهم من لبس
الارامل والحداد والاحمر عندهن دليسل الفرح
والسرور .

(١٠٦) انظر الديارات ١٦٧ - ١٧١ ، وقد اورد الوانا كثيرة .

(١٠٧) الحيوان ٤٤/٤ ، شفاء القليل / ٩٨ .

(١٠٨) الخلفاء والخلفاء (مآكل الخلفاء) ص / ٨١ .

(١٠٩) ثمار القلوب ص / ٤٩٠ .

(١١٠) الوشاد / ١٦٢ - ١٦٣ ، وظرفاء المنجد ٥٢ - ٥٤ .

(١٠٧) المستطرف ص / ٦٢ .

(١٠٨) الظرفاء ص / ٥٨ .

(١٠٩) الظرفاء : ٥٩ .

وعلى طراز الرداء (١١٠) :

أقل الناس في الدنيا نصيبا

مُحِبًّا قد نأى عنه الحبيب

واتخذن القلائس والتيجان وتقشن عليهما
أبياتا من الشعر أيضا وصفن التيجان من الذهب
على شكل نرجس مشوب بالفضة . كتبت
(عتل) على قلنسوة من ديباج (١١١) :

ما يَمَلُّ الحبيب طول التجنِّي

لبلائي به ، ولا الصدف عني ؟
ولبسن الزناير والنعال والخفاف وتقشن
عليها طرائف . كتبت (طريفة) على نعلها
بالذهب (١١٢) :

لم الق ذا شجن يبوح بحبِّه

إلا حبيتك ذلك المحبوبا
حذراً عليك ، وانني بك وائق
الا ينال سواي منك نصيبا

وقد افتتن في تصفيف شعورهن وتسريحها
وترجيلها وكن يضعن المسك والعنبر ، ولهن
وصيغات تزينهن وتمشط شعورهن . وجدائلهن
كن يتركنها تتدلى على اكتافهن . وهؤلاء
هن (الفلاميات) . وقد رؤي المأمون يوم
الشمعين (١١٣) ، وبين يديه عشرين وصيفة مزنرات
تزين بالديباج وزر من الاصداع فقام احمد بن
صدقة فيهن :

ظباء كاللذائير

ملاح في المقاصير

وقد زرّفن اصداعا

كاذناب الزرازير (١١٤)

وربما جمن شعورهن كالجمّة السكينيّة
نسبة الى سكينه بنت الحسين - اي جمعته الى
الخلف - وكانت العباسة اخت الرشيد تفعل
ذلك ، وهو مستملح . وقد يجملن الجمّة مرصعة
بالماس والزمرّد .

اما الطيب فقد تطيبن بانواع منه كثيرة
منها : العطور البرمكية وعطور الازهار كالزنبق

(١١٠) نفسه .

(١١١) نفسه .

(١١٢) الظرفاء ص/٦٠ .

(١١٣) عيد من اعياد النصارى .

(١١٤) الظرفاء ص/٦٢ .

والبنفسج ولا يتعطرن بمطبور الظرفاء من
الرجال . ولهن الزعفران والقرنفل والكافور
وعطور الورد (١١٥) .

اما الحلبي فهي من الجوهر والدر ومخائق
القرنفل تجلب اليهن من كل حدب وصوب .
والقلائد الذهبية . والؤلؤ والحب الاصفر ،
واصناف الياقوت (١١٦) .

اما الخواتيم فمن الماس والمعيق ولا يصنعها
من الفضة . وكانت تقدم اليهن الهدايا ما غلامها ،
ويتقرب بها اليهن ، الخلفاء والظرفاء ، من الجواهر
وانواع غريبة من الحلبي والجواهر فقد اشترى
الرشيد جوهرًا بمائتي الف دينار لدنانير البرمكية
لاسترضاها .

واغضب الواثق (فريدة) فاسترضاها بحق
فيه عقد جوهر ما رؤي مثله لخليفة (١١٧) .

اما الازهار فقد اهتمن بها وفضلنها ،
وتزين بها فجلنها اكاليل ، وقد أعجبن بالبنفسج ،
والورود خاصة ، يؤثرنه على غيره من كل ريحان
وطيب واعجبت (متيم) بالبنفسج حتى انها من
شدة اعجابها ، كان لا يخلو من كمها ، وافرطوا في
نعت انواع الورد ووصفها وتهاديبها وزمت
مجالسهم بها ، وغطيت برك قصور الخلفاء بها
في اوقات الاعراس والافراح ، وتزين البيوت بها
وعنوا بالورد عناية خاصة وشبهوا الخدود به .
قال الشاعر (وهو خالد بن يزيد الكاتب المتوفى
- ٢٦٢هـ) :

عشيّة حَيّاني بوردٍ كأنه

خدودٌ اضيغت بمضهن الى بعض

دولى وفعل الخمر في حرركاته

فيعال نسيم الريح بالغصن الغضّ

وقال آخر :

بضحك الورد الى وَرِّ

د بخديك مقيم

جمّما شكلين وقَفَيْتِ

ن للاحاظ التديم

غير ان المسك اولى

بك في كل نسيم

(١١٥) ادم منز الحضارة الاسلامية ٢/٢٠٥ .

(١١٦) انظر الجماهر في معرفة الجواهر : البيروني . ص/٢٢ .

(١١٧) المحاسن والمساوي ٢/٤٢٢ .

وتطير بعضهم . قال الوشاء : (خبرت ان قينة اهدت الى ربيط لها غصن آسر فسر به فقال :

والآس يبقى وان طال الزمان به

والوردُ يَفْتَنِي ولا يبقى على الزمن

واهدت له وردا فتظير منه وقال :

انتِ وردٌ وبقاء الـ

ورد شهرٌ لا شهور

يذهب الوردُ وَيَفْتَنِي

والى الآسِ نصير

فكتب اليه بعض اخوانه :

وسرُّ بالآس الذي اهدت له

ثم لما آهدت الوردَ جَزَع
ذاك ان الآسَ باقٍ دائمٌ

ولان الوردَ حيناً ينقطع

والسواك استعمالوه لتنظيف اسنانهم وتبييضها بالعدو والعشي على الريق وقبل النوم (وهو من شجر الاراك ، واصول السوس) واعتنوا به وحافظوا عليه في اباريق خفاف وابعده عن كل ما يفسد من غبار . فالسواك عند الظرفاء مطهرة للفم مرضاة للرب(١١٩) .

وقد تهادوا بالسواك وكانوا يتخذون العصائب لحفظها ، قال العباس بن الاحنف(١٢٠) :

طال ليلى بجانب الميدان

مع جَوَّاري المهدي والخيزران
ارسلتُ باللبان قد مَضَمَّتْهُ

بين تفاحتين في ربحان

وبمساوكها الذي اختاره الا

نة لعينها من طيب الاغصان

فكاني وجَدتُ ربحاً من الفير

دَوَسَ فاحتتُ من ربح ذلك اللبان

ومن قول بشار بن برد في المسواك :

يطيب مساوكها من طيب تكهتها

وان آتمَّ بجلدٍ جلدُها طابا

وقال ايضا :

تَسَوَّكتُ لي بمسواك ليتململين

ما طعم فيها وما همئتُ باصلاح

لما اتاني على المسواك ريقتها

مثلوجسة كزلال الماء بالراح

قبَلتُ ما مسى فاها ثم قلتُ له

يا ليتني كنت ذا المسواك يا صاح

اقول لقد بلغ فن التجمل عندهم حدا بعيدا، والظريفات اخصصن به اكثر . ولتكتف عن ايراد التفاصيل بذكر نص من رسالة لابن عبدون البغدادي(١٢١) تبين ما بلفته من تائق وبراعة في هذا الجانب يقول : (وكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وكم جعلوا العين زرقاء ككلاء ، وحمروا الخدود المصفرة وسمنوا الوجوه المقعقة . وكبروا الفقاخ الهزيلة ، واعدموا الخدود شعر اللحي ، واكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجمدوا الشعور البسيطة وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة ، ورتلوا الشعور المرطبة ، واذهبوا آثار الوشم والتمش والحكة . . . وطلوا الشعور بوصلها من اطرافها بشعور من جنسها . وكانوا يزبلون روائح الانف بالسعوط بدهن البنفسج والتيلوفر ونحوهما . ويجلون الاسنان بالسواك بالاشنان السكر وسحيق الصيني او الفحم او الملح المدقوق وكانوا يزبلون الشمث من اصول الاظفار بفسلها بالخل والعسل او دهن الورد والوز المر .

« وكمن يخضين حواجبهن واطرافهن ، ويصفن بصيغ احمر شفاههن فان كانت الجارية بيضاء ، فبالخضاب الاحمر ، وان كانت صفراء فبالاسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الضد بضده . »

الهدايا وقد عتوا بها وكانت من سجاياهم وكانوا بها ظرافا ، واهدى العشاق لمشوقاتهم واهدين كل معجب انيق جميل ، فالثياب والازر والعصائب المرصعة وخواتيم الياقوت المنقوشة منها بالشعر وعود الهندي والتد والمسك والعنبر ونضود الرياحين والفواكه وصنوف الطعام واستخدم الخلفاء الظرفاء الهدايا سبيلا لاسترضاء جواربهم ومن لقين الحظوة لديهم من الجواربي بتقديم اثمن انواع الجواهر والدرر(١٢٢) .

(١١٨) الوشاء في الوشى ١٨٢/٢ .

(١١٩) الوشاء ١٨٤/٢ .

(١٢٠) الابيات من الوشى ١٨٤/٢/١٨٥/١٨٦ .

(١٢١) الظرفاء ص/٦٦ - ٦٧ .

(١٢٢) انظر ص/٥٢ من هذا البحث ص/٥١ .

وعنده يضعون اسرارهم (١٢٧) ، وليس في هداياهم ما يعادله ، قال الحكمي :

تفاحة جاءت وقد عُلِّقتْ

وَرَكِبَتْ بالورد والاس

اشرب من كاسي على ريحها

بالرغم من اهلي وجلاسي

وقال آخر :

تفاحة من عند تفاحة

قريبة العهد بكفيها

احب بها تفاحة اشبهت

حُمُرُهَا حُمُرَةَ خُدَيْهَا

وقال آخر :

تفاحة حمراء منقوشة

رَكِبَتْهَا فِي خُضْرَةِ الْاَس

فلم تزل في كف ندمانينا

تدور من كاس الى كاس

وقد يكتبون بماء الذهب كالاتي (١٢٨) :

قبل ان تهدوني فخطوا

في سطرأ من ذهب

انني اعطف من ص

د ليصنفي ذا كرب

وكتبوا عليه ونقشوا كثيرا من لواعجم وقد طاوعتهم طبيعة التفاح . قال شاعرهم على لسان تفاحة حمراء :

انا حمراء دعوني

لحبيب وجيب

وكلوا ذات بياضد

اكلها غير معيب

وكتب على اخرى :

لي طراوات وريح

ثم ماء وتضاره

ليس للياقوت فضل

كل ياقوت حجاره

ومن ظريف ما كان يهدى نروي لك هذه الهدية الطريفة التي اهدتها (شجرة الدر) وقد كان المتوكل يميل اليها كثيرا فهي من حظاياها المقربات فلما كان يوم المهرجان جاءته بعشرين غزالا تربية ، على كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك والعبير والغالية واصناف الطيب ، ومع كل غزال وصيفة بمنطقة ذهب ، وفي يدها قضيب ذهب في راسه جوهرة . فقال المتوكل لحظاياها : ما فيكن من تحسن مثل هذا وتقدر عليه) فحسدتها وعملن على قتلها بشيء سقّيته لها فماتت (١٢٣) .

ومن الهدايا الطريفة ايضا ما حدث في سنة (٣١٠ هـ / ١٢٢٤) ان هدية وصلت الى ابن المادرائي الحسين بن احمد من مصر وهي بطة ومعها فلو ، وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه انفه .

واهدى ابو دلف الى عبدالله بن طاهر يوم (الفصد) هدية فجمع ما في السوق من الورد وارسله له (١٢٥) .

وكانت (محبوبة) جارية المتوكل قد قدمت له هدية من ابن طاهر (١٢٥) .

ولعل في ذكر الوان الهدايا بيان لاحوال النظافة وتعدد سبلها وانعكاس لاحوال اجتماعية كثيرة .

وتطيرا من بعض الاشياء او من اسمائها او معانيها . فقد تطيرا من : الاترج لان باطنه خلاف ظاهره مختلف الطعم والرائحة .

السفرجل لانه يبدأ بالسفر

الشقائق لانه يبدأ بالشقا

والياسمين لانه يبدأ بالياس والاس كذلك .

والسوسن اسمه السوء . ومن الجوز والموز . والبطيخ اذا انصدع وانكسر واحبوا : الزمان لان معناه الوصل قد آن ، وانبتفسج لان معناه فداء النفس . وبالقوا في تفضيل التفاح وكانت (محبوبة) ترسل التفاح الى حبيبها وعليها اثر عذتها وهي علامة حب . قال ادم متر في هذا انه من عادات الرومان (١٢٦) .

واعجبوا بالخوخ وشبهوا الخدود به ، ولكن لا يعدل التفاح عندهم شيء فيه تهدا اشجانهم

(١٢٣) الخلفاء والخلفاء ص/٧١ .

(١٢٤) المنتظم ١٦٧/٦ .

(١٢٥) انظر الخلفاء والخلفاء ص/٧٠ .

(١٢٦) ادم متر : ١٦٨/٢ .

(١٢٧) الموشى ٢١٨/٢ .

(١٢٨) النصوص مختارة من الموشى في الجزء الثاني .

ولقد امر عضد الدولة ان تنقش على خواتيم
الجواري ابيات السلامي (١٢٩) :

مرقومة الجنبات بالبدع التي
لم يهْدَ قطْ من الربيع لروضة
كنمت روائحها ، فلما عذبت
بالنار فاح نسيمها فاقرت

اما شرابهم (١٣٠) : لا يشربون من الشراب الا
اجوده ، مثل المشمس والزبيبي ، والمسل ،
والمطبوخ ، ولا يشربون ما ثخن وما اشتد ولا
لكدر منه الا ما صفا شرابه ، وترفعون عن شرب
العامة والرعاع ، وشرب السوقة ، والاتباع ، ولا
يتنقلون على شرابهم بالاشياء الرذلة . بل ان
الظرفاء يتنقلون بالبندق ومقشر الفستق والملح
النفطي والعود الهندي والتفاح الشامي ويضمونها
في اجمل الاواني الزجاجية النقية . ولهم زي خاص
في مجالس الشراب فالانوان الزاهية والتي لا
يلبسونها في الغالب تلبس عند الشراب زيادة في
الظرافة وتحلية لمجلس الشراب ، ولكي يزدادوا
انسا على انس ومرحا على مرح .

الظرف والاديرة (١٣١)

كان للاديرة اثرها في ظرافة الظرفاء من
الادباء والشعراء فقد اتاحت لهم فرصا واجسواء
ذات فضل ، في العصر العباسي ، فقد وجدوا في
ابنيتها العامرة ، رياضا تترتاح اليها نفوسهم ، ففي
مواقعها طبيعة جميلة مؤنقة ، وهواء عذب ، وماء
زال ، وشراب ميسور وخدمات جليسة من
الديريانيين ، ويبدو ان الاديرة في داخل بغداد او
حواليها او في خارجها اختير لها جميعا من الطبيعة
اجملها واحسنها (١٣٢) .

والاديرة هذه منها الصغير البناء ومنها العالي
العمران الواسع الكبير ويشترط فيها او في كل منها
ان تكون منه كنيسة بصلي بها (الديريانيون) وفيها
صوامع تستوعب الرهبان .

وهذه الاديرة لا تخلو ، والكثيرة منها على وجه
الخصوص ، من (خزائن كتب) يجدها فيها الرهبان

(١٢٩) انظر : المجتمع المصرافي في شعر القرن الرابع :

(رسالة ماجستير) ص/ ٢٤٥ .

(١٣٠) الوشي ١٧٢/٢ .

(١٣١) واحدة الدير : وهو خان النصاري . اللسان
والتاج / دير .

(١٣٢) تراجع كتاب الديارات فيه تفصيل كثير .

ما يشدون من التأليف التي تتناول مواضع دينية
وادبية ، وعلمية مختلفة ، كالكتب المقدسة وتفا سيرها
والفلسفة واللاهوت وسير الشهداء والقديسين ،
والادب والشعر وغير ذلك فهي حافلة بالكثير الوفير
زد على ذلك ان فيها دور ضيافة وبيوتا واسعة
الرقعة حتى ان بعض الخلفاء والملوك والاميان كانوا
ينزلون بها فيشتون عليها . وتحيط بها بستاتين الكروم
والرياحين مما يبهج النفس ويسرها ويشرحها .

ادب الظرفاء

زهت بغداد في العصور العباسية وتطافرت
كل الاسباب لما يسمى ب (ادب الظرفاء) فقد شمخت
الحضارة في بغداد ، وسما العمران ، وعجت بالعلماء
والشعراء وتنادى هؤلاء في كل حذب وصوب ، وكان
بين الادباء الظرفاء ، والشعراء الخلفاء والوزراء ،
وكثر الندامى في قصورهم وشهد هذا العصر وجه
الشاعر (النديم) الذي لم يكن عرف سابقا ، .

وهذا الشاعر النديم الظريف شاركته الظريفات
من الجواري المتأديات في قصور منعمة ، مترفة
يعجز الوصف عن بيان ابات الفن في رياضتها ، فمن
برك ، وحدائق زاهية ، وابهاء مفروشة بكل غال
انيق ، وتحف عجيبة غريبة مجلوبة ، وجدران
مكسوة مزوقة وشذروانات افستنت فيها يد ،
المفتنين فجعلتها من ابات الفن تبهر الناظرين .

وتناثرت التماثيل في كل مكان ، من ستور حمر
ومعصرة ، ومجالس وازاهير مشرقة ، وابواب
عظام مسمرة بالذهب والفضة . ونفيس الجواهر
وفرش مختلفات الانواع والاصناف وامتدت على
الارض فرش زركشت وطرزت بالحريز ، واذا ،
فرحوا فلا تسئل عن البذخ ولتحفل بالدنانير ولا
تشدهك الاناقة (١٣٣) ، وغيره مما يروع القاري حتى
لنظن ذلك الترف ، وذلك البذخ ضرابا من الخيال (١٣٤)
لولا ما يؤكد ذلك ويقطع الشك باليقين مما تدعمه
وتتناقله المراجع والشروح في بيان دقائق كل شيء .

كل ذلك جعل ادب الظرفاء وهم يمثلون الطبقة
الارستقراطية يطلوه الترف والرقعة في التعبير ،
والسلاسة في الطبع ، فكان شعرهم رقيقا ونثرهم
عذبا منسجما مع ما طبعوا عليه من ظرف الروح ،

(١٣٣) الظرفاء ص/ ٢٢ .

(١٣٤) انظر تاريخ الادب العربي في العصر العباسي ، ابراهيم
ابو الخشب ص/ ٦٩ .

وانظر ادم متر في الحضارة الاسلامية ١٩٢/٢ . وتاريخ
الادب العربي : عباس الغزالي ص/ ٦ .

وملاحة اللسان ، وشعرهم رشيق الاوزان خفيفها
مغنى صالحا لذلك في اغلب الاحيان ، معبرا عن
المناسبات التي قيل فيها خير تعبير ، واصفا لواعج
من احب منهم بصدق .

هذا الى جانب ما اتفق فيه ادبهم مع شعراء
العصر كافة ان نظرنوا الى كونه جزءا من ادب العصر
متصفا في ميل الظريف البديع كالطباقي والجناس
والمقابلة ، والتورية وغيرها ، وانت تجد مصداق
ماقلنا في الامثلة الشعرية والنثرية متناثرة في اجزاء
البحث .

وفي ذلك من قول فضل . الشاعر الطريفة :
يصدُّ وادنو بالودة جاهداً
ويبعد عني بالوصال واقرب (١٢٥)

ورصد الشاعر الظريف المعاني طريفها ولطيفها
وربما يبدو غريباً ، وفيه صور حسية واضحة ،
وفيه الانفعالات والمواطف وكل ما هو منسجم مع
التظرف بعدئذ .

واللفظ عند الظرفاء مختار ، رقيق ، معبر ،
موظف بدكاء وفطنة يشد ازر المعنى العام ويبين
المراد .

واغراضهم فيما نظموا وترسلوا دائرة في
فلك ليس يبعد عن الشعر من حيث العموم ، ففي
الغزل لهم قصب السبق لرفقة عواطفهم وانهم غزلين
دعتهم كل دواعي هذا الغرض من المعاني الطريفة ،
الطريفة مثل قول الشاعر (١٢٦) .

واني لاخلو مذ فقدتك دائباً
فانقش تمثالاً لوجهك في التراب
فاسقيه من عيني واشكو تضرعاً
إليه بماالقاه من شدة الكرب
فوالله ما ادري بما انا مذنب
إليك سوى الافراط في شدة الحب

ومن المديح لهم طرف كبير ، ولابن سكرة
الهاشمي (١٢٧) دلو في هذا الباب وفي غيره من ظريف
الشعر .

قال في ابي الحسن بن عمرو بن يحيى
(من العراق) (١٢٨) .

لقد امسكت من عمرو بن يحيى
يجبل لا اخاف له ابتائنا
جباي في الحياة ورمٌ حالي
واوصى بي ابا حسن وماتنا
فكنت مجاوراً للبحر منه
فلما مات جاورت الفراتنا
فقد قيل : (ان زمانا جاد بابن سكرة وابن
الحجاج لسيء جدا) (١٢٩) .

والمدح عند الظرفاء كثير كان فيه متنفساً لملاحة
السننهم :

ومن مليح شعر ابن ابي سكرة اخترت هذا
البيت :

هو البحر' الا' إته' عذب مَوْرِدِ
ومن عَجَبٍ ان' العذوبة' في البحر (١٣٠)
وجعلوا من الرثاء وسيلة يتظرفون من خلالها
رغم ان الرثاء كما عهدناه تتفجر فيه الام الرائي على
المرئي :

كقول ابن الحجاج في رجل سقطت امراته من
السطح فماتت (١٣١) .

عفا الله عنها انها يوم ودعت
اجلٌ ففيد في التراب مغيثبِ
ولو انها اعلت لك ان مصائبها
اخفء على قلب الحزين الممذّبِ
واهوت إليه من يَفَاع ودوته
ثمانون باعاً في علو مصوبِ
فصارت حديثاً شاع بين مصدق
تحققته' علماً وبين مكذبِ

الى ان قال :

فاعظم يا هذا لك الله' ربها
وربك اجرَ الشكل في شاة اشعب
وعشق الظرفاء الطبيعة ووصفوها باشعارهم
ففي وصف بستان قال احدهم (١٣٢) .

(١٢٩) نفسه ٣/٣ .

(١٣٠) التمايلي ٢٩/٣ .

(١٣١) التمايلي ٤٩/٣ ، وفيه لفر ذلك من شعر ابن سكرة
فمد اليه في الغزل والنسيب والخمريات ، وماجتي
الشعر .

(١٣٢) ظرفاء المنجد ص/٧٥ .

(١٢٥) نساء الخلفاء / ٩١ .

(١٢٦) الظرفاء ص / ٧٤ - ٧٥ .

(١٢٧) قال التمايلي في البيتمة ٣/٣ كان فائقا في قول المسح
والظرف .

(١٢٨) التمايلي ٢٧/٣ .

يا عاذلي كفتا
فانسي معمود
قد اقصدت فؤادي
خمصانة خريد

واني لواجدة في ادب انظرفاء انجاما مع
طبيعة الحياة المترفة التي كانوا يحيونها فهم
راغبون في الحرية والانطلاق ، والتحدث عن
ذكرياتهم والاعتراف برغباتهم ، وما تهفو اليه
نفوسهم ، ولذا فلقد كانت صور شعرهم - في كثير
منها - زاخرة بمعانٍ حسية واضحة .

ومن قول ابن سكرة (١٤٧) :

في وجه انسانة كلفت بها
اربعة ما اجتمعن في احد
الخدّ وردّ ، والصدغ غاليه
والريق خمر ، والثغر من برّاد
لكلّ جزء من حسنها بدع
تودع قلبي بدائع الكمد

ومن ظريف ادب الظرفاء انهم يختارون من
الفاظ الابداء في مكاتباتهم الحسن المليح ومعاباتهم
التي كانوا يضمونها مآثور القول والشعر :

(اخبرني الوضاح بن ثابت الكاتب قال :
كنت عند بعض الكتاب اذ دخلت عليه وصيفة
كانها قمر ، تتثنى في مشيتها كأنها جان ، أو كأنها
غصن بان ريان ، حتى وقفت بين يديه ، فقالت :
مولاتي تقرا عليك السلام وتقول لك : يا اخي
جفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت الي غير
مذاهب الظرفاء ، واني لم ازل واثقة بأخائك ،
راجية لحسن وفائك ، وتحقيق مؤملك اولى من
الوقوف على تجنيك .

فقال لها : اقرئي عليها السلام ، وقولي لها ،
يا اختي انا من ودك على احسن عهدك ، ومن الامل
لك اضعاف ما عندك ، ولقد استوحشنا من فقدك
فاجعلي لنا حظا من انسك) (١٤٨) .

وكتب بعض الكتاب (١٤٩) الى صديق له : ما
زال ما احمد من عواقب رايلك واشبه من وفائك ،
حتى وثق في ضميري من مودتك ما استجدني
لطاعتك واستوى علي من موافقتك ، ما سهل علي

إذا لم يزني ندمانيه
خلوت فنادمته بستانيه
فنادمته خضيرا مؤثقا
ينهيح لي ذكر اشجانيه
يقرب لي فرحة المستلد
ويبميد همي واحزانيه
ارى فيه مثل مداري الظبي
تظل لاطلائها حانيه
ونور اقبح شتيت النبا
ت كما ابتسمت عجبا غانيه
ونرجسة مثل عين الفتاة
الى وجه عاشقها رانيه

وفي وصف البدر قال بعضهم (١٤٣) :

والبدر في افق السماء كدرهم
ملقى على ديباجة زرقاء

وفي ليلة قمرء قال آخر (١٤٤) :

هل لك في ليلة بيضاء مقمرة
كانها فضة ذابت على البلد

اما في العشق ، والحب ووسف لواجع
الشوق واحوال المحبة قالوا الكثير ما لا يحصى
ولا يعد ، وقد مر بعضه في اثناء البحث ، نذكر
بعضا آخر :

من قول العباس بن الاحنف (١٤٥) :

اغيب عنك بود لا يغيره
ناي المحل ولا صرف من الزمن
تعزل بالشغل عنا ما تكلمنا
الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

وقال آخر ، من قصيدة طويلة ، هذه بعض
اياتها (١٤٦) :

يا ايها المعمود
قد شفقك الصدود
فانت مستهام
حالفك السهود

(١٤٣) نفسه .

(١٤٤) نفسه .

(١٤٥) ظرفاء النجد ص/ ٧٢ .

(١٤٦) نفسه ص/ ٧٣ .

(١٤٧) الشمالي ص/ ٧٣ .

(١٤٨) الوشاء ١٩٩/٢ .

(١٤٩) نفسه .

سبيل عتيك ، فما أسالك بغلبة الهوى طريقا الا
رضاك الي ان قال :

عليّ رقيب من هـواك يقودني
إليك على الحالات في السخط والرضا

وليس هـواي حيث لا يستحقه
ولكن هـواي حيث كان لك الهوى

لساني رهينٌ بالذي انت فاعل
ورايي موصولٌ بما كنهه يـرى
وما زلت لي عوناً برايٍ موفـق
على صلةِ القربى يهـدي اولى النهى

ولعل اظرف ما كان يجري في المجالس ادب
المناطرات والمعارضات والمطارحات الشعرية نذكر
من ذلك من قول عنان(١٥٠) : جارية الناطقي الذي
كان يدعو الشعراء لمطارحتها في المجلس في بيته : من
ذلك دعوته (ابا حنش) فقال له : هلم الي عنان
فطارحها . قال ابو حنش : فعزمت على الفـرد
فبت ليلى اقول بيتين ثم غدوت عليها فقلت :

احب الملاح البيض قلبي وربما
احب الملاح الصفر من ولد الحنش
بكيت على صفراء في الدهر مرة

بكاء اصاب العين مني بالعمش
وكانت عنان ذات وجه جميل ، صفراء
اللون .

فقلت :

بكيت عليهما ان قلبي يحبها
وان فؤادي كالجناحين ذو رـعش
تعنينا بالشعر لما اتيتنا
فدونك خذه محكما يا ابا حنش

وكانت عنان هذه تفحم الشعراء معارضة
ومنها أبو نواس شيخ الماجنين ومما جرى بينهما
انه قال :

عنان لو وجدت لي فاني
عمري في آمن الرسول بما

عنى بذلك انه في آخر العمر .

فردت عليه قائلة :

فإن تمادى ولا تماديتُ في
قطمك حبلِي اكن كمن ختما

فردت عليها :

عَلِّقْتِ مَنْ لَسُو اِنِي عَلَى اَنْفَسِ
الماضين والفابرين ما ندما

فردت عليه :

لو نظرت عينها الي حجر
ولد فيه فتورها سقما

ومن طرف ما رواه صاحب الاغانى(١٥١) عن
ابي نواس ، وجنان جارية آل عبد الوهاب عبد المجيد
الثقفي المحدث قال : (كانت جنان قد شهدت
عرسا في جوار ابي نواس ، فانصرفت وهو جالس
معنا ، فراها فانشدنا بديها قوله :

شهدت جِلْوَةَ المروس جنانُ
فاستحالت بحسنها النظارة

حَسَبِوْها المروس حين راوها
فإليها دون المروس الاشارة

قال اهل المروس حين راوها
ما دهانا بها سواك عُمارة

قال : وعمارة زوج عبدالرحمن الثقفي ،
وهي مولاة جنان .

وفي خبر آخر قيل انها(١٥٢) (اي جنان)
غضبت (من كلام كلمها به ابو نواس فأرسل يعتذر
اليها ، فقالت للرسول : قل له : لا يرح الهجران
ربك ولا بلغت املك ممن احببتك ، فرجع الرسول
اليه ، فسأله عن جوابها فلم يخبره ، فقال :

فديتك فيم عتبتك من كلام
نطقت به على وجه جميل

وقولك للرسول : عليك غمري
فليس الي التواصل من سبيل

فقد جاء الرسول له انكسار
وحالٌ ما عليهما من قبول

ولو ردت جنان مردٌ خـمـر
تبيّن ذاك في وجه الرسول

فردت عليه .

فأنشأ يقول(١٥٣) :

ياذا الذي عن جنان ظلٌ يخبرنا
بالله قتل واعيد يا طيبَ الخبر

(١٥١) ٦/٢٠ الاغانى .

(١٥٢) نفسه .

(١٥٣) الاغانى ٨/٢٠ .

(١٥٠) المرأة في الادب العربي ص/٢٠١ .

مراجع البحث

اخبار بغداد - مخطوطة المكتبة المركزية رقم/٩ محمود شكري الالوسي .

اخبار الطراف والمتعاجين - ابو الفرج عبدالرحمن الجوزي (ت - ٥٩٧هـ) تقديم وتعليق محمد بحر العلوم . النجف الحيدرية .

اخبار النساء - ابن قيم الجوزية (٦٩١هـ - ٧٥١هـ) . تحقيق نزار رضا . منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت .

الاذكياء - ابن الجوزي ، ط . بيروت .

اساس البلاغة - الزمخشري : جاز الله محمود بن عمر . مطبعة الشعب ، القاهرة ١٩٦٠ .

اشعار النساء - المرزباني : ابو عبدالله محمد بن عمران (ت ٢٨٤هـ) . تحقيق سامي مكي العاني وهلال ناجي . الرسالة - بغداد ١٩٦٦/١٩٦٧ .

اعلام النساء - عمر كحالة ، ط : ٢ ، دمشق ، الهاشمية . الاغانى - الاسفهاني : ابو الفرج : تحقيق عبدالستار فرج ، دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ .

الامتناع والموانسة - التوحيدي : ابو حيان . ضبط وتصحيح وشرح احمد امين واحمد الزين . دار مكتبة الحياة في بيروت .

بين الخلفاء والخلماء - صلاح الدين النجد ، دار الكتاب الجديد .

التاج في اخلاق الامم والملوك - الجاحظ : ابو عمرو بن بحر ، الاسرية ، القاهرة ١٣٢١هـ/١٩١٤م .

تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي : محمد مرتضى : منشورات مكتبة الحياة ، لبنان .

تاريخ الادب العربي - عباس المزاري . المجمع العلمي ، بغداد ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول - ابو الخشب ابراهيم ، ١٩٦٦م .

التبصر بالتجارة - الجاحظ : ابو عمرو عثمان . الطبعة الثانية / الرحمانية ١٣٥٤/١٩٣٥ . القاهرة .

تعار القلوب في المصاف والتسويب - التتالي : ابو منصور ميدالمك بن محمد . مطبعة الظاهر ، ١٣٢٦/١٩٠٨ .

الجماهر في معرفة الجواهر - البيروني ابو الريحان محمد بن احمد (ت . ٤٢٠ هـ) ١٣٥٥هـ حيدر آباد / المصنف الشمالية .

الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة - ابو ريده بغداد ، مطبعة الزمهراني / ١٩٧٠ .

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع للهجرة - آدم متر . ط : ٢ ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م .

الحيوان - الجاحظ . تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠ ط : ١ .

قال اشكتك ، وقال ما ابتليت به
اراه من حيث ما اقبلت في اثري

وينعمل الطرف نحوي إن مررت به
حتى ليخجلني من حدة النظر

وإن وقت له كيما يكلمني
في الموضوع انخلو لم ينطق من الحصر

ما زال يفعل بي هذا ويدمنه
حتى لقد صار من همي ومن وطري

ويطول ذكر مثل هذه المعارضات والمطارحات
الرفيعة التي تتم عن القدرة والبراعة وسرعة
البدية لديهن .

وابدين ظرافة في ادب المراسلات كذلك من
ذلك ان الشاعرة عنان كتبت الى الفضل بن الربيع
كتابا تستحبه فيه ان يشفع لها عند الرشيد
ليشتريها وقالت(١٥٤) :

كن لي هديت الى الخليفة شافعا

بوركت يا ابن وزيره من معلم

حنت الامام على شرائي وقل له

ريحانة ذخرت لانفك فاشتم

وكتبت عنان الى ابي النضر وكان قد كتب
يدعوهما للقائه بقوله :

إن لي حاجة فرايك فيها

لك نفسي الفدا من الاوصاب

وهي ليست مما يبلغه غيري

ولا استطيعه بكتساب

فقالت :

انا مشغولة بمن لست اهوى

وقلبي من دونه في حجاب

فاذا ما اردت امرأ فاسر

ولا تجعلنه في كتاب

ومثل هذه المراسلات كثيرة مما جرى بين
الظريفات والظرفاء(١٥٥) . وقد مرت منها امثلة .

(١٥٤) الحسن والاصداد ص/١٥٦ .

(١٥٥) انظر الزيد في المرأة في ادب العصر العباسي ص/٢٢٧ - ٢٢٥ .

الديارات - الشايستي : ابو الحسن علي بن محمد بن
 - ١٩٨٨/٢٨٨٨م تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة
 المعارف / بغداد ١٩٥١ .

ديوان ابي نواس - تحقيق وضبط احمد عبدالمجيد الفزالي .
 دار الكتاب العربي / بيروت ، لبنان .

رسائل الجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون . مطبعة
 الخانجي - القاهرة / ١٩٦٤م/١٩٦٥م .

شفاه الغليل - الخفاجي : شهاب الدين . ط : ١ ، ١٣٧١هـ ،
 ١٩٥٢م النيرة / الازهر . القاهرة .

الصداقة والصديق - ابو حيان النوحدي - تحقيق ابراهيم
 الكيلاني - دار الفكر بدمشق / ١٩٦٤ .

طبقات الشعراء لابن المنز - تحقيق عبدالستار احمد فراج ،
 مطبعة المعارف ، مصر .

طبقات النحويين واللغويين لابن بكر الزبيدي ، تحقيق محمد
 ابو الفضل / المعارف ، مصر .

الرفقاء والشعاعون في بغداد وباريس - صلاح الدين المنجد .
 الرسالة ، بيروت .

الكامل في التاريخ - ابن الاثير : محمد بن محمد (٣٦٩ هـ) ،
 بيروت ١٣٨٦/١٩٦٦م دار الثقافة . صادر وبيروت .

لسان العرب - ابن منظور : جمال الدين محمد ، ١٩٥٦/
 ١٣٧٥ .

الاجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري : (رسالة
 ماجستير) لعبداللطيف عبدالرحمن / ١٩٧١م .

الحاسن والساوي - ابراهيم بن محمد البيهقي - تحقيق
 محمد ابو الفضل القاهرة / ١٢٨٤ .

الحاسن والاشداد - الجاحظ / دار مكتبة اليرقان ، مطبعة
 الساحل الغربي .

محيط المحيط - بطرس البستاني .

المرأة في الادب في العصر العباسي - واجدة الاطرجي (رسالة
 دكتوراه) حتى نهاية القرن الرابع الهجري .
 ١٩٧٨/١٣٩٨ .

المستطرف في كل فن مستطرف - شهاب الدين احمد الانبهي
 (ت ٨٥٠هـ) ١٣١٤ .

المجلات :

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٣م/٣ ، مقالة
 مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٢م/٢ .
 مجلة الرسالة لسنة ١٩٤٠م/٨ مقالة ميخائيل عواد .
 مجلة لفة العرب ١٩٣٠ مقالة انناس الكرمل .

سِفَانَةٌ مَرْفُوعَةٌ كَلَامًا إِلَى الْإِمْبَرَاتُورِ الْبِيزَنْطِيِّ بِاسْمِ الْبَيْتِ الثَّانِي

بقلم

أميدروز (١)

ترجمة

يَعْقُوبُ الْفَرَّارِيُّ مَبْصُورٌ

بغداد - الجمهورية العراقية

مؤخرا الى عضد الدولة ، ومنها اوفد شقيقه (قسطنطين) رسولا عنه الى بغداد ، مناقشا اغائته (٤) ، وعارضا له الولاء . في ذات الحين ، قدم الى بغداد رسول من الامبراطور (باسيل) مع تعليمات بالظفر ، مهما كلف الامر - بتسليم (سكليروز) الذي يبدو انه كان رهانا ثميننا لعبة العاهل السياسية . عليه ناصر عضد الدولة قدمه الى بغداد سريعا مع اتباعه ، وابتدات اللعبة .

لقد عولج تاريخ الامبراطورية البيزنطية في هذه الحقبة من قبل المؤرخ شلمبرغر (٥) في مؤلفين فرنسيين موسومين : (امبراطور بيزنطي في القرن العاشر) (٦) بمجلد واحد يغطي فترة حكم (يسيفوروس فوكاس) (٧) و (الملحمة البيزنطية في ختام القرن العاشر) (٨) في ثلاثة مجلدات ، الاوول يشتمل على فترة حكم (جون زيميسكس) (٩) ، وعهد

تشتمل الصفحات التالية على عرض تفصيلي نوعا ما ، بمفاوضات خاصة بين عضد الدولة البويهي وبين الامبراطور (باسيل) - ذابح البلغاريين - جرت في اعقاب وجود (برداس سكليروز) (٣) - المنافس المألوب للامبراطور باسيل - في بغداد اسيرا معززا . ان اندحاره في بانكاليا (٢) عام ٩٧٩ كان قريب المهد جدا باحتلال العراق نهائيا من قبل عضد الدولة ، تلاه اقضاء ابي تغلب الحمداني قسرا عن الموصل . لقد جمعت المصلحة الذاتية بين عضد الدولة وبين (برداس سكليروز) ، وقد عززت تلك المصلحة رابطة تجلت في مؤازرة احدهما الاخر لمجابهة خصمي كل منهما ، وقد تم قهرهما . كان اندحار ابي تغلب الحمداني نهائيا عندما تم لمساكر عضد الدولة البويهي اخراجه من ديار بكر ، ففر الى سوريا حيث قضت عليه يد غادرة ، لكنه حتى آنئذ لم يقم اي عائق منيع حال دون مطمح (سكليروز) . لقد فر الى ميفارقين التي آلت

(٤) استعمل صاحب البحث كلمة (Succour) وهي تعني الاغاثة او اللجوء .

(٥) M. Schlumberger
(٦) Un Empereur Byzantin au xe Siecle
(٧) الذي ذكرته المصادر العربية Nicephorus Phocas التي اعتمدها صاحب البحث باسم (تقفور) .
(٨) L'Épopée Byzantine a la Fin du Xe Siecle
(٩) John Zimiscec

(١) H. F. Amedroz والبعث منشور بمجلة الجمعية الآسيوية الملكية
Journal of The Royal Asiatic Society
عام ١٩١٤ - الصفحات ٩١٥ - ٩٢٢ .
(٢) الذي تذكره المصادر العربية التي اعتمدها صاحب البحث باسم (ورد) .
(٣) لم اهتم اليها في معجم بالوت Pancalia

اعده (ناو) ١١٦) للنشر استناداً الى مخطوطين سريانيين مشتملين على أسماء لقسيسين مختلفين تظهر بشكل مترجم (١٧) ، حيث نفس القديس في احد المخطوطين يدعى (فوكاس) ويدعى في المخطوط الاخر (نوهرا) التي تعني الضوء بالسريانية .

ان مبعوث الامبراطور باسيل الى بغداد يعرف عند المؤرخ يحيى بن سعيد الانطاكي بـ (بسيفوروس اورانوس) الذي غدا فيما بعد قاضياً وواليها لانطاكية(١٨) بينما كتاب (تجارب الامم) في ص. ٥٠ يذكر فقط ان المبعوث كان شخصاً ذا منزلة متميزة ، ويؤكد على الحقيقة انه وشقيق(سكليروز) كانا سوية في بغداد يخطبان ود عضد الدولة ابان العام ٣٦٩هـ باكملة كظرف بفضي كثيرا الى اجلال ذلك العاهل . ونص (ذيل التجارب) المشار اليه آنفاً ، الذي اورده ابن الاثير (١٩) ، يذكر اندحار

(باسيل) (١٠) وحتى عهد يعدو اوان تلك الاحداث . لهذه الحقبة بالذات ، انتفع المؤلف بالمقتبسات ، الملحق عليها بالحواشي ، من تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي المكتوب حوالي عام ٤٠٦ للهجرة (الموافق ١٠١٥ م) والذي هو تنمة لكتاب (يوطيخوس) المعروف بسعيد بن البطريق الاسكندري ، اللذين نشرهما عام ١٨٨٣ من قبل فون روسن (١١) .

ان (شلمبرغر) يذكر ان عرض يحيى بن سعيد الانطاكي للاحداث يتسم بكونه اكثر استفاضة كما هو اكثر اتساقا مع الارجحية مما هو مستقى من المصادر البيزنطية ، ولذا فقد عدها اساساً لسرده الاخباري . كما ان عرض يحيى الانطاكي يتفق تماما مع نصوص تاريخ (تجارب الامم) لابي علي مسكويه ، التي تم الوقوف عليها مؤخرًا . وتتمتها (ذيل تجارب الامم) لابي شجاع(١٢) . طبعة جب ، المجلد السادس ، ومنها تم استقاء تفصيل هذه المفاوضات .

(١٦) Nau
Pat. Or. الجزء العاشر ص ٥٢ .
(١٨) في ص ١٥٨ ، ١٥١/١ تم في ص ١٨٤ ، ١٦١/١ ويدعى Magister و Kuntus و في ص ١٦٧ ، ١٦١/١ نقف على امر فراره من بغداد بعد اطلاق سراح (سكليروز) والتحقاق الثانية بباسيل . في العام ٩٩٦ دحر البلغاريين (الملحمة ١٢٤/٢ - ١٢٢) وفي عام (١٠٠٠) افصحى واليا على انطاكية خلفا لـ (ديمانوس دالاسينوس) الذي اندحر وقتل في (افاميا) - انظر (ابن القلانسي ص ٥١ - ٥٢) و (الملحمة ص ١٥٨) - اميدوز .

(١٩) اكتشف (فون روسن) من دوامته لشتر يتعلق بـ (بورليان) في كتاب (جارب الامم) المخطوط ، ص ٣٥٧ ، انه المصدر الذي اعتمده رواية ابن الاثير (الملحمة ٤٢١/١ رقم ٤) . كما ان ابن الاثير استفاد من (ذيل التجارب) وفي الجزء ٨/ص ٥١٧ ود ذكر وفاة زيميسكس بفعل السم الذي دسه له الشقيق المخفي ثيوفانو ، وهو الشقيق « الذي كان وزيرا منذ وفاة (رومانوس) ، والذي كان لقبه باركاموس (*) - او باراوكي مومينوس (*) - وبهذا الشكل توصل الى السلطة » . ان المخفي السالف ذكره كان (باسيل) ، الابن الطبيعي (غير الشرعي) لرومانوس ليكابينوس (*) الذي امان نقلوه (نيسيلويوس) في اعلانه العرش ، واقصى برنجاس (*) . لكن في فقرة اخرى يورد ابن الاثير رواية اخرى . في استعراضه التاريخ البيزنطي حوالي ٢٣هـ ، منذ مولد باسيل فصاعداً (الجزء ٩ ص ٢٤٠ - ٢٤٢) يعزو نس السم الى كاهن حرفته « ثيوفانو (*) » من مناهها في

نمة بعض الالتباس في التواريخ الاسلامية بشأن اسمي برداس : فوكاس وسكليروز . فيحيى بن سعيد الانطاكي يميز بينهما بشكل صحيح . والآخر (١٢) مشار اليه في (تجارب الامم) ص ٨٨ فيما يتعلق بابي تغلب ، بكونه الحاكم البيزنطسي المعروف بـ (ورد) الذي استبدلته المساكير الناقمة بالحاكمين (باسيل) و (قسطنطين) : كما ورد ذكره ثانية في ص (٥٠٠) فيما يتعلق بايفاد اخيه كرسول الى بغداد باسم « سكليروز المعروف باسم ورد » ، وفي فقرة من (ذيل تجارب الامم) الذي هو العماد في رواية ابن الاثير ، المجلد ٨ ص ٥١٦ - ٥١٧ ، يدعى (فوكاس) باسم (ورد) و (ورديس) بن لاؤون ، بينما (سكليروز) يدعى (ورد بن منير) . هذه التسمية الاخيرة عسيرة على الفهم ، ولو انها استعملت للدلالة على (فوكاس) بدلا من (سكليروز) لكانت اقل غموضا ، اذ ادى هذا اللبس في اسمه الى ان يدعى (فوتيوس) (١٤) . فان السيد (بروكس) (١٥) يفيدني بان نصا سريانيا

(١٠) Basil
(١١) في كتابه الموسوم :
Von Rosen
Zapiski Imp. Ak Nauk Vol. XLIV,
Appendix I.

(١٢) تم العثور على مخطوطته في استانبول من قبل احمد زكي باشا (اميدوز) .
(١٣) يقصد سكليروز (Scleros)
(١٤) Photius
(١٥) Mr. E. W. Brooks

- * Barkamus
- ** Parakomomenos
- *** Romanus Lecapenus
- **** Bringas
- ***** Theophano

ما يلي ترجمة نص (ذيل تجارب الامم)
- النسخ المصورة ٤٤ - ٦٦ - التي يعود لفضل
فيها كثيرا الى الاستاذ مرجليوث (٢٠) .

بيان بالمفاوضات التي جرت بين عهد الدولة وبين الحاكم البيزنطي بتبادل الاتصالات شفاها

ان الباحث على هذه الاتصالات ، هو الحقيقة
التي سبق ذكرها ، الا وهي ان (برداس) قد نفذ
الى الامصار الاسلامية ، وكان ذلك بمثابة نذير
للحاكم البيزنطي ، فاوفد مبعوثا الى عهد الدولة .
وارسل الرد بواسطة ابي بكر محمد بن الطيب
الاشعري ، المعروف بابن الباقلائي (٢١) ، الذي آب
مع مبعوث يعرف بابن قونس الذي - عند رجوعه -
مضى برفقة ابي اسحق بن شهرام بطلب عدد من
المعاقل من العاهل البيزنطي . فوصل ومعه رسول
يدعى نيسيفوروس الكانكلي (٢٢) وهو يحمل هدية
سرية .

خلاصة بكل ما جرى حسب اقوال ابن شهرام نمت عن حصافته وحيطته وحزمه

تقول الخلاصة : « عند وصولي حرسنة ،
علمت ان الخبيص (٢٣) (يقصد برداس فوكاس)
قد غادر القسطنطينية ، وشرع في اعداد استعداداته
وان معه مبعوثا من حلب يعرف بابن (مامك) ،
وكذلك كليب ، حمو ابي صالح السديد . وكان
كليب احد مناصري (برداس) وضمن المتمردين
الذين صدر الصفع عنهم ، واقاموا في ارض بيزنطية
بعد تفريرهم . لقد اعتزم البيزنطيون تغريمه اسوة

Professor D. S. Margoliouth (٢٠)

(٢١) انظر ابن خلكان ٦٧١/٢ - اميدروز

(٢٢) هنا الامور هو نيسيفوروس

Nicephorus the Kanikleios

(نغفور) اورانوس وقد نمت في (ذيل التجارب)
بالكانكلي الماخوذة من (كانيكليوس) الرومية التي تعني
حامل الدواة (الحبرة) .

(٢٣) استنادا الى بعض القواميس يستطيع ان ادل على كلمة
(Domesticus)

بمعنى (خبيص) وهي في اعتقادي نوازي رتبة مدر
المكتب الخاص في عهدنا وقد دل عليها (ذيل تجارب
الامم) ب (المدمستق) .

(ورد بن منير) امام (ورديس بن لاؤون) بمسد
منازلتهما منفردين (انظر الملحة ١/٤٢٣-٤٢٤)

ان الخطوة الثانية في اللعبة السياسية كانت
ارسال مبعوث مسلم الى بيزنطية في عام ٣٧١ هـ ،
هو القاضي ابو بكر الباقلائي (ابن الاثير الجزء ٩
ص ١١ - ١٢ ، وقد ترجم له ابن خلكان في الجزء
٢ ص ٦٧١) . ويذكر المورخ يحيى الانطاكي
(ص ٣/١٥٩) ان ارسال مبعوث بخصوص
(سكليروز) الذي يدعوه (ابن سهرة) - وفي احد
مخطوطات الكتاب يرد ذكر الاسم صحيحا بانه ابن
شهرام - وعد فون روسن هذا تحريفا لاسم القاضي
وهذا من دواعي استغراب شلمبرغر (ص ٤٤٢ رقم
٢) نظرا لعدم المامه بالاحتمالات التي يعطيها الحرف
الشرقي ، ويلوح ان استغرابه له ما يبرره . ان
المهمة ، التي من اجلها ارسل القاضي ، لم تؤد الى
نتيجة ملموسة ، هذا اذا تركنا جانبا الرواية
الدرامية لتلصحه من تقديم الاجلال الى (باسيل)
كما سردها ابن الاثير ، وكذلك السمعاني في ملاحظته
عن القاضي في (الانساب) - طبعة جب ٤/١/١٦٢ -
واقاد فضلا عن ذلك - كما يفيد فون روسن -
بايفاد رسول عن عبدالرحمن القرطبي الى احد ملوك
النورماند . اما انطلاق ابن شهرام في مهمته ، فقد
جرى في تاريخ لاحق ابان عام ٣٧١ هـ ، وكانت
تعليماته - كما اورد يحيى بن سعيد الانطاكي -
تتفق تماما مع نص (ذيل تجارب الامم) ، بيد ان
نصا لاحقا اورده يحيى الانطاكي بشأن احتجاج
(نيسيفوروس اورانوس) في بغداد يباعث من
الارتياب في تدبير مكيدة القضاء على (سكليروز)
بدس السم له (وهذا يتكرر في «المكين» و «الملحة»
١/٤٢٣ رقم ٥) ، ليس ما يؤيده في كتاب (تجارب
الامم) ولا في (ذيله) ، ويبدو انها في الحقيقة تتعارض
كلها مع التفاصيل التالية بصدد المأمورية التي من
اجلها اوفد ابن شهرام .



دير ناه ، ومنه عادت في اليوم الذي قضى فيه زيمسكي،
بينما ورث باسيل العرش وهي وصية عليه بسبب
حدثاته . وتلويح يحيى بن سعيد الانطاكي ص ١/١٤٧
يذكر فقط وفاته عام ٣٦٥ هـ ، ويقول ان بنسبيل
وقسطنطين ولدي (رومانوس) اصبحا الحاكمين
الحقيقيين ، لكن الحكومة اديرت من اكبرهما (باسيل)
فقط . وكانت سنة اتذالك ١٨ عاما ، وانه اعتمد على
(البركاموس) واستدعى والدته (ثيوفانو) من المنفى
- اميدروز .

ابان عن لطفه ، وارتضى المصالحة المعروضة مع الاعراب عن شكره .

ثم استفهمني الغرض من قدومي ، فواقفته على ذلك بشكل واف . واسترعى (ابن قونس) انتباهه الى الصيغ المشتركة ، فلما اطلع عليها ، قال : لو افلح الرؤساء في جعلنا نتخلى لهم ودبا عن المناطق والحصون التي يرومون ، لشرع كل منهم في التخطيط لتحاشي ضرورة الإبقاء على قوة من الرجال ، والقيام بتسديد الاموال . فاجبت : انه حيث تم دعم التدبير بالقوة والمقدرة ، فهذا برهان على نبل المسلك ، ويجب ان يجابه بالقبول .

فاستفسر : « لكن ماذا بشأن حلب ؟ فهي ليست شطرا من منطقتكم (يقصد ملك عضد الدولة) ، وحاكمها لا يهتم بكم ، ومبعوثه هنا وكليب يعرضان علينا خراج ارضها ، وينشدان حمايتنا ، أما بخصوص الحصون ، فقد ضبطت في عهد عمي نيسيفوروس(٢٦) وملوك آخرين ، ولسنا احرارا في التخلي عنها . لذا ان استطعت ان تقدم اي اقتراح عداه ، فافعل ، والا فوفر على نفسك مشقة الرحلة الطويلة » . اجبت : « ان حزت ايعاز مليكك بمغادرتي ، فاني سابرح ، لكن اذا قلت ذلك من تلقاء ذاتك فقط ، فالمليك يجب(٢٧) ان يصفي الي ما اقول ، واسمع رده كي اعود بمعلومات موثوقة » . فاجاز سيرتي . فانطلقت نحو القسطنطينية ، ودخلتها بعد ان استقبلني ورافقتني مامور البلاط بمنتهى اللطف . وانزلت باعزاز في جوسق نيسيفوروس (حامل الدواة) - المبعوث الذي معي - وكان من اعوان الماهل . ثم استدعيت للمثول امام الحاجب (اي باسيل المخصي) الذي قال : « قد وقفنا على المخاطبات التي حملت على ارسالك ، لكن افصح عن مراميك » . آنذاك ، ابرزت الاتفاق الحقيقي(٢٨) الذي تفحصه ، ثم قال « ألم يتم حسم التخلي عن خراج بلاد ابي تغلب(٢٩) ، سابقا ولاحقا ، مع الباقلائي وفقا لرغباتكم ؟ ألم يرتض شروطنا لارجاع الحصون التي قد

(٢٦) كان المتكلم نجل ليون فوكاس ، شقيق نيسيفوروس - اميروز .

(٢٧) استعمل صاحب البحث معنى الوجوب بكلمة (Ought) بينما صاحب (ذيل التجارب) استعمل معنى الجواز بكلمة (يجوز) .

(٢٨) ان النص الانكليزي للبحث نمت الاتفاق يكونه (الحقيقي) بينما نصي (ذيل التجارب) نمته يكونه (القاهر) .

(٢٩) ابن ووربت حكم ناصر الدولة في الموصل - اميدروز .

بالاخرين ، وليخسر الاملاك التي وهبت له عندما استنيط وسيلة لتسليمهم حصن (برزويه)(٢٤) . لكنه انفى وسيلة لارضاء الحاجب(٢٥) والخصيص ، واستطاع الحصول على تعهدات للعاهل البيزنطي بخصوص حلب وغيرها . كانت كافية ان تدفع خطرا عاجلا ، مع العرض بضمان دفع فوري لما يتعلق بخراج حلب وحمص لان قريبه هو الذي وعد وما كان ليعارضه . فتخلص منه بهذا الشكل . اما المبعوث من حلب ، فلم تتم تسوية اي شيء معه ، لكنه طواب بترامكات خراج السنين السالفة .

وعند وصول الخصيص الى موضع بنائى عن طريق البريد ، انطلق نحوه ابن (قونس) وانا معه . فالغيتة حدثا مزهوا بنفسه ، وكارها تمام المهادة لعوامل مختلفة ، احدها انه يستطيع الاستغناء عنها في الوقت الراهن ، وانها ستضر بسمعته ، وثانيها ان الحاكم البيزنطي كان تواقا اليها ، معبرا : « ونحن في خشية من ايداء بلحقنا منه » ، وثالثها : آماله وامنياته الذاتية . لكن في ذات الوقت

(٢٤) استنادا الى باقوت العموي : « حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق ، يضرب بها القتل في جميع بلاد الفرنج بالحصنة ، تحيط بها اودية من جميع جوانبها ، ولودع علو فلتها (٥٧) ذراعا ، كانت بيد الفرنج حتى فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة ٥٨٤ هـ . ويقول اميدروز صاحب البحث انها كانت على الطريق التي سلكتها (زمبسكس) في آخر حملة على سوريا عام ٣٦٤ هـ ، وان وصف يحيى الانطاكي في تاريخه بشأن التسليم وتسمية كليب حاكما على انطاكية (ص ١٤٦/٥) وورد في الملحمة (١/٢٩٩) ، وقد سلم كليب نفسه وانطاكية ايضا فيما بعد الى (سكليروز) الذي جعله واليا على (ملاطية) ص ١٤٧/٨/١ و ١٤٨/٦/١ - و (الملحمة ٢٧٦/١-٢٧٧) ، وان سيف الدولة ضبط (برزويه) من البيزنطيين عام ٢٢٧ كما ورد في كتاب موسوم (امبراطور بيزنطي ص ١٣٢/١٢٢ رقم ١) .

(٢٥) استنادا الى القواميس تعني هذه الكلمة (Chamberlain) :

« الحاجب » كما تعني أمين الخزانة او المال ، والمعنى الاول اقرب الى الراد في اعتقادي ، وقد اوردها كتاب (ذيل تجارب الامم) بصيغة (البركموس) وهو المخصي (باسيل) الذي اعلن عن موالاته لنيسيفوروس فوكاس ، وعند فوزه حل محل برنجاس(*) كرئيس المستشارين ، ولبت كذلك حتى طرده (باسيل) عام ٣٧٥ هـ (عام ١١٨٥) استنادا الى تاريخ يحيى الانطاكي (ص ١/١٦٥) ١٢ والى (الملحمة ٥٧٣/١) - اميدروز والمترجم .

(*) Bringas

ضبطناها(٢٠) ، وفي القبض علي برداس (ورد) ؟ لقد ارتضى سيدك هذا الاتفاق ، وعمل وفقنا لرغباتنا ، اذ لديكم تصديقه على المهادنة بخط يده «(٢١) . فأجبت : « لم يتوصل الباقلائي الى أي اتفاق قط » . فأجاب : « انه لم يغادر الا بعد ان سوى شروط الاتفاق الذي مصادقة مولاه عليه كانت سترسل لنا ، وقد سبق ان ابرز خطابه بشأن الموافقة على الشروط باكملها » . لذا ارغمت ان اجد وسيلة لجابهة هذا الوضع(٢٢) .

فكرة رائعة عنت لابن شهرام لرد حجة الخصم

قلت : « لم يتوصل ابن الباقلائي الى اي اتفاق معكم . ان ابن قونس هو الذي صاغ هذا العهد واخذ نصه الاغريقي » . عندئذ استشاط(٢٣) الحاجب واستفهم ابن قونس : « من خولك بهذا ؟ » فأجاب انه لا هو ولا ابن الباقلائي قد سويا اي شيء ، وانسحبت .

رد حصيف لابن شهرام

اجبت : « لا اهمية(٢٥) لافتراضك : « لو كان (ورد) في العسكر » ، لانك تعلم جيدا(٢٦) ان ابا تغلب (الذي لا يرقى الى مصاف ادنى اتباع عضد الدولة) عندما اعان وردا ، الحق الهزائم(٢٧) بالملوك البيزنطيين طيلة سبعة اعوام . فكيف كانت الحال ستغدو لو ان عضد الدولة اعانه بجيشه ؟ ومع ان (وردا) اسير في قبضتنا ، فهو ليس عرضة للتمثيل كما تفعلون باسراكم . ووجوده في العاصمة افضل لنا(٢٨) ، اذ اننا لم نجعله مقيدا . ولو فعلنا ، لربما ضاق صدره بصدء عنا ، وبئس منا مستوحشا ، وتخلي عنا . بيد انه يعمل الان برفقتنا ، ومطمئن الى الابهة والامن اللذين يشاهدهما في العاصمة . والحقيقة اننا نمسك بكل الحبال » .

لقد اثرت فيه كلماتي ، واربكته كثيرا ، لانه ادرك صحتها ، فقال : « ليس في توسع تلبسة مطلبك . ان اردت ، ستوقع على ما اتفق عليه مع الباقلائي ، والا فانصرف » فأجبت : « ان شئت انصرافي بدون الاستماع الى العاهل ، فافعل » اجاب : انه تكلم نيابة عن العاهل ، لكنه سيأذن لي في الثول امامه .

في غضون ابام قلائل استدعيت فحضرت .

(٢٤) في النص الانكليزي ورد هنا اللفظ Ruling) وهو مرادف اللفظ الدارج (يحكم او ياكل) بينما نص (ذيل التجارب) يذكر (النسخة الظاهرة) .
(٢٥) نص (ذيل التجارب) يذكر « غلط » هذا القول المفترض (٢٦) نص (ذيل التجارب) يذكر (تعلم) فقط .
(٢٧) نص (ذيل التجارب) يذكر (اهلك ملك الروم) .
(٢٨) نص (ذيل التجارب) يذكر (احوط لنا) .

وغب ايام استدعاني الحاجب ، واعاد قراءة الاتفاق ، فتوقف حيث تطرق الموضوع الى « ما يجب حسمه مع ابن شهرام على اساس ما تضمنته النسخة الثالثة » . فقال بان هذه إحدى النسخ ، فاين النسختان الاخرتان ؟ لدى مراجعتي تلك الفقرة ، الغيت السهو قد وقع في ترك ذلك ، وقلت : « معنى الفقرة هو ان يكون الاتفاق بثلاث نسخ : احداها تكون لدى الحاكم البيزنطي ، والثانية تكون في حلب ، والثالثة في العاصمة - بغداد » فدحض ابن قونس ذلك ، قائلا ، ان تعليماته كانت ان بدون المعنى الحقيقي للاتفاق وقال الحاجب ان هذه

(٣٠) نص البحث يفيد قول الحاجب البيزنطي بوافقة الباقلائي على شروط البيزنطيين لاعادة الحصون التي قد سقطوا :
"The Fortresses we had taken..."
بينما نص (ذيل التجارب) يفيد النقيض : « رد الحصون التي اخلت منا » .

(٣١) نص البحث يعطي المعنى الذي ترجمته للعبارة :
"For you have his ratification of the truce under his own hand"

بينما نص (ذيل التجارب) فاسد المعنى : « وطلبنا ان تحظك معك بتمام الهدنة » .

(٣٢) نص (ذيل التجارب) لهذه الجملة متم بالصف والقفوس : « فاحتجت الى ان اطلب مجالا اقوام به مجالهم » .

(٣٣) في (ذيل التجارب) وردت هذه الكلمة (اشتط) وصحيفها استشاط او اشتط .

خراج سمند» (٤٦) (تكتب كذلك اسمند - قرية قرب سمرقند - استنادا الى ياقوت الحموي) . ولما استفهموا معنى ذلك ، اجبت : « ان الاطراف القصوى فقط هي التي تحدد في الاتفاق كي يكون جليا ان كل ما هو ضمن الاطراف مشمول بالهدنة فحصى (كيفا) هو قبل آمد (ديار بكر) بخمسة ايام . فكيف تذكرونه ؟ » .

اما الخلاف بشأن حلب ، فظل قائما حتى قال المشير (او القيم) : « ان سد حاكم حلب الخراج الينا ، فنسلم ان اقوالك باطلة ، وانه يفضلنا عليكم » . فاجبت : « وما هو الاثبات الذي نملك بانكم لم تستميلوا كاتبه وحمائه كليبيا ليؤدي لكم شيئا ، فتنخذوه حجة ؟ فبغير حيلة ، اعلم ان ذلك لا يصح » ثم انصرفت .

ثم استدعاني العاهل ، وكان خراج حلب قد وصل آنذاك ، فالفيت لهجتهم قد تغيرت في الحدة والحزم ، اذ قالوا : « ها قد اتى خراج حلب ، وقد طلب الينا حاكمها التوصل الى اتفاق معه بشأن بلدي (حران) و (سروج) وفي مؤازرته لمهاجمتكم وقوى اخرى » . فقلت : « انا اعلم ان استلامكم الخراج بحيلة ، اذ ان عضد الدولة لم يتصور انكم ستجيزون لانفسكم القيام بما اقدمتم عليه ، ولا كان في مقدوره ان يجرّد جيشا لايقاف عسركم . اما الذي تروونه عن حاكم حلب ، فانا اعلم منكم بافكاره ، وكل ما بلفكم عنه عار عن الصحة ، والدعوة فيها (حلب) قائمة لعضد الدولة» (٤٧) . فسألوا ان كان لدي ما اضيف ، وعند اجابتي « كلا » ، اجابوا بان استاذن الملك بالانصراف مصاحبا بالحماية . فقلت : سافعل ذلك فوراً . واستدرت نحو العاهل للاستئذان منه .

تحليل سليم لابن شهرام في هذا المأزق

ان تحليله كما يلي : « تأملت الحال ، ومدركا ان الحاجب والمشير (او القيم) والباقيين معهما يعارضون الهدنة المقترحة (فرجال الجيش يخشون الاستفتاء عن سيوفهم ، والنقص في ارزاقهم كما كانت الحال عندما تمقد الهدنة في بيزنطية) :

(٤٦) يلاحظ التضمن اللبب انطواء هذا القول على سخريه بدلالة السطور التي ليه .

(٤٧) عندما وصل الى بغداد سجد الدولة ، نجل سيف الدولة ، قدم خضوعه الى عضد الدولة ، وادخل اسمه في الدعاء بعد اسم الخليفة (يحيى بن سعيد الانطالي ص ١٨١/١٥٧) - اميدوز .

وطلب العاهل البيزنطي (باسيل) اعادة ما سبق ان تم التذاكر بشأنه في حضوري ، فقال : « لقد جئنا برسالة تستحق الشجب» (٢٩) ، فرسولكم جاء واستحصل قبولنا بشروط معينة ، تضمنت اعادة الحصون التي ضبطت ابان العصيان ، وانت الان تطلب التخلي عن حصون اخرى استولى عليها اسلافي . فاما ان ترتضوا ما تم عليه الاشرط اولاً ، او انطلق بسلام » . فاجبت : « لكن الباقلائي لم يتفق على شيء ، اذ فيما يتعلق بالصك الذي جلبه معه ، لقد جردتمونا - وفق شروطه - من نصف اراضينا . فكيف نقر شيئا كهذا ضد انفسنا ؟ فالحصون في ديار بكر (٤٠) لا تضبطون منها شيئا ، وديار بكر الان تؤول الينا» (٤١) . كل ما تستطيع ان تفعل هو ان تنازعنا اياها ، وتجهل ما سيفقد مصير الصراع . انشد تدخل الحاجب» (٤٢) قائلا : « هذا السفير متفنن في الجدال ، وفي مقدوره ان يزين الكلام» (٤٣) ، والموت افضل لنا من الاذعان لهذه الشرط . دعه ينصرف الى سيده » . فنهض العاهل ، وانصرفت .

انصرم شهران على مكوثي في القسطنطينية ، فاستدعاني الحاجب ، وكان برفقته المشير» (٤٤) - وهو والد الخصيص - الذي الحق به العمى» (٤٥) ، وعدد من البطارقة وتداولنا في امر الحصون . ففرضوا التخلي عن خراج حصن (كيفا) في حوزة والدة ابي تطلب التي كانت تستلم الخراج ، فكان جوابي عن ذلك : « وانا بدوري ساتنازل لكم عن

(٢٩) نص (ذيل التجارب) يذكر : (يا هذا قد جئت بامر منك) .

(٤٠) في نص (ذيل التجارب) ورد هذا النص كالاتي : « فالحصون التي في ديار بكر منها شيء في قبضك » واعتقد ان النص يجب ان يكون : « ... ليس منها شيء » .

(٤١) لا يشتمل نص (ذيل التجارب) على هذه العبارة « وديار بكر الان تؤول الينا » .

(٤٢) لا ينص (ذيل التجارب) مقال الحاجب بالتدخل بل يذكر : « فقال البركوس » .

(٤٣) نص (ذيل التجارب) يذكر : « هذا رجل ذف جسد ونموه للاقوال » .

(٤٤) النص الانكليزي يذكر (Marshal) بينما نص (ذيل التجارب) يذكر (القرباط) وهي تعني كذلك القيم على البلاط او الراسيم او التشريعات .

(٤٥) هذا المشير او القيم هو ليون فوكاس ، وقد الحق به العمى بسبب تنصرتة على عصيان نجله برداس (ورد) على جون زيميسكي . لكن التمثيل به في هذه المسرة اجري قصدا برفق . انظر (الملحة ٦٦/١) - اميدوز

الى المهادة بينك وبين اول الرجال (٥٠) وحاكم الاسلام ، لا اراه موافقا لهوى مستشاريك . لا يدرك الانسان الا ما لم يجرب ، ولقد حصلت لديك تجارب سبع سنين من :لصبيان عليك وعلى سلطنتك فضلا عن ذلك ، ان دوام الدولة لا يعني دوام بقائك فالبيزنطيون لا يبالون بمن يكون عليها امباطورا (النص هنا محرف) (٥١) . هذا على افتراض ان عضد الدولة باق في السلطة ، لقد اسديت اليك حسن المشورة ، لعلمي بميل صاحبي وتقديره نحوك . لذا تأمل خطابي ، وافعل كما تراه الافضل» فعاد (تقفور) قائلا : « الجواب هو ان الامور كما ذكرت ، لكن ليس في مقدوري مقاومة الجماعة ، وهم بحماون عني فكرة من غشهم وآذاهم . مع ذلك ، سامضي في الامر ، وافعل بقدر ما استطيع»

ومن حسن الطالع ، صادف ان الحاجب (باسيل المخصي) مرض مرضا شديدا ، وعجز عن الخروج ، واستمر تراسلي مع العاهل ، ومثلت امامه في ايام متوالية ، وخاطبني بنفسه ، وآزرني الخصيص (حامل الدواة) بدافع من البغض والحسد اللذين يكتنهما للحاجب ، حتى تم الاتفاق على الهدنة وفقا لجميع الشروط في الاتفاق ، ولم تلق المحاولات لاجراء حلب قبولا . وعند الحاحي على هذه النقطة بعزم قائلا : « بدون حلب لا يمكن ان يتم هذا » ، قال : « اقلع عن الاصرار ، فاننا لن نتخلى اكثر مما تخطينا عنه ، كما لن نخلي منطقة نستلم خراجها الا قسرا . لكنني سأنفذ مكك خطابا الى صديقي مولاك ، لاني واقف على نبله ، ولانه متى عرف الحقيقة ، فان يجانبها » . ثم طلب الى الذين حوله ان يبتعدوا ، وسرني قائلا : « قل لمولاك اني انشد حقا رضاه ، لكن يجب ان املك برهانا عليه . ان شئتم ان نحول اليكم خراج حلب او ان اترك لكم جبايته شريطة ان يطرد ابن حمدان من حلب ، فانجزوا ما وعدتم عن لسان ابن قونس» - ملحما الى تسليم بدراس « ورد » - فقلت : « لم اسمع بذلك ، ولم اكن حاضرا آنذاك ، لكنني احسب فعله مستعبدا » . فانكر ذلك قائلا : « اقلع عن هذه الاطالة ، فلم يبق لديك شيء آخر تحاورني بشأنه » . ثم اوعز بتحرير الردود وكتبت جوابي ، وحضرت للاستئذان بالرحيل .

(٥٠) هكذا جاء في نص البحث "First of Men" بينما في (ذيل التجارب) وصف باوحد الدنيا .
(٥١) هذه ملاحظة صاحب البحث .

والسبيل الوحيد الذي تبقى هو استمالة المليك واسترضائه (٤٨) ، فخطبته قائلا : « ايها العاهل الا تتامل مسلك عضد الدولة تجاهك في عدم مناصرتيه عدوك ، وفي عدم مهاجمته بلادك عندما كنت منشغلا مع المعصاة ضدك ، اذ انك تعلم ان ارضته لوحده ، وهو ملك المسلمين ، فذلك امر جيد وخير ، وخلافا لذلك يتحتم عليك ارضاء الالوف من مشايكتك ، ورضاهم غير موثوق منه ، واذا اخفقت في الحصول عليه ، فربما عليك ان تسترضي عضد الدولة فيما بعد . كما تعلم ان جميع من حوله يعارضون الهدنة المطروحة ، اذ هو فقط يميل اليها ، فهو قادر ان يفعل ما يريد ، اذ لا يجرو فرد ان يحاجبه في ذلك . ارى انك تحبذ المهادة معه ، لكن قد تكون رغبتك غير مدعومة من قبل اولئك المحيطين بك » . فانفعل بحديثي ، ولاح عليه الهمة (٤٩) من جراء علمي بمعارضة مستشاريه ، فنهض وغادر .

ان الشخص الخصيص بالعاهل ، والذي يقف حياله ، ويوقع نيابة عنه باللون الاجواني ، والملم بكل شؤونه الرسمية ، كان نيسيفوروس (تقفور) الكاتكلي (حامل الدواة) الذي رافقتي مبعوثا ، فسالته الانصراف معي ، ففعل .

الترتيب الذي توصل اليه ابن شهرام مع المستشار الخصيص بالعاهل ، وبه اصاب غرضه

عندما انفردت به ، تكلمت : « اروم ان تبلغ عني رسالة الى المليك . لقد طال مقامسي هنا ، فمررتني بقراره النهائي . ان لبي مطالبي ، فهذا حسن ، والا فلا وجه لمقامي بعد الان » . وقدمت الى هذا الخصيص هدية تكريمية مما قد جلبته معي ، مشفوعة بوعود حسنة نيابة عن عضد الدولة . كانت رسالتي كالتالي : « ايها المليك : الاهتمام الاول هو ان تصون نفسك ، ثم ملكك ، ثم اتباعك عليك الا تثق بفرد ، مصلحته في اضرارك ، فبعون ابي تغلب نجم ما جرى في بلادك . اذا ماذا سيحدث لو ان عضد الدولة آزر القوات المعادية ضدك ؟ ان التوصل

(٤٨) يذكر نص (ذيل التجارب) : « الرفق به » وهذه كلمة كبيرة في صدورنا من رسول يتعامل مع عاهل ، وقد استعمل صاحب البحث كلمة (Conciliate) التي تعني (يسترضي) وهي انطبقت في اعتقادي .

(٤٩) استعمل صاحب البحث كلمة (Concern) وهي تعني الهمة هنا ، بينما مؤلف (ذيل التجارب) اورد (الامتناعي) .

حادث سعيد لابن شهرام

المكتوب » . فقلت : « اذا ، دع ترجمانك ينشئ نسخة من اقوالي ، فان اقراها عند الدولة ، امكن نسخها في حضوره ، وتوقيعها من قبله » فوافق على هذا . استنادا الى ذلك ، حررت الشروط ، وجعلت الهدنة لعشر سنين . وعند الفراغ من هذا ، قلت : « لا تجعل رسولا كمجرد فيج (٥٤) ، لكن اطلمه على ما تروم منه ان يفعل طبقا لما اتفقنا عليه ، ووفقا لما يرتبه ، وصادق على كل ما يقره » . فارتضى ذلك . وحررت الصكوك بمقتضاه .

وعند مبارحة الحاجب داره غب ابلاه ، هاج لاسباب منها تفرد الخصيص (حامل الدواء) بمليكه ، ومنها انجاز الامر في غيبته ، والسبب الثالث هو مسألة حلب وحمص والضمانات التي قدمها اليه كليب .

حديث ملك بيزنطية ، به استعمال مشاعر الحاجب

حسبما افادني به بعض خواصهم ، قال الماهل مخاطبا حاجبه : « ليس حولي ، كما تعلم يا حاجبي ، من يشفق علي نظيرك ، ولا من يحتل موقفك عندي ، اذ انت مني في ادنى نسب وصله (٥٥) ، اما الباقون ، كما قال السفير ، فغير مبالين ان كان الامبراطور انا ام غيري . يجب ان تصون نفسي ونفسيك ، ولا تصفي الى قول المشير (ليون فوكاس) ، ولا تثق به او بمشورته ، اذ انت تعلم ما رواه ابراهيم عنه وعن ابنه (ورد) حول اضرارهما الفس للملكنة وحيث نياتهما نحونا » . فسالت محدثي : من يكون ابراهيم ؟ اجاب : « انه رسول الخصيص اليكم ، وهو الذي اغن للماهل ناصحان الخصيص (اي برداس - ورد) قد انقذه

ولعدم رغبتني في وقوع مقدور يؤدي الى موت من راموا تسليمه : كما يقع في نظير هذه الاحوال (النص هنا يبدو محرفا (٥٢)) ، وكى تكون الهدنة مشتملة على جميع امصارنا حتى دون الفرات وبلاد باد (٥٣) بدون حلب . قلت : « تعلم اني عبد مأمور ولست ملكا ، وعلي الا اتخطى التعليمات التي نقلتها اليك بصدق . اما شروطك بشأن حلب ، فقد اقسمت لك بانني لم اسمع شيئا بخصوصها في بغداد . لكن هل جلالتك مستعد للنظر في تدبير خطر لي يانه من الصواب ان تقره ؟ فاستفهم : « ما هو ؟ » واجبت : « ان تنص على الهدنة بيننا وبينك لتضمن كل اقاليمنا من حمص الى منطقة باد بدون اي ذكر لقضية التسليم التي تنشدون ، فقط ولا شيء عداه ، وتقسم عليه بدنياك ، وتوقعه بامضائك ، وتختمه بختمك في حضوري ، ومبعوثك سيوصله الى العاصمة معي ، حيث اما ان يقر واما ان يميده مبعوثك » فسؤلت : « وهل سمعطي تعهدا خطيا مماثلا ؟ » فاجبت : « اجل ، عند تسليمي شروطك التي تبغي » فاجاب : « ولكن هل ستذكر في صكك تسليم الرجل ؟ » فقلت : « لا يسعني ذكر ما هو خارج تفويضي » . فقال : « اذا ساهي اتفاقين ، احدهما لما يتعدى الفرات ومنطقة باد ، والاخر بشأن حمص وحلب كما قد اشترط . عندئذ ، اذا اختار مولاك الاتفاق الذي يتخطى تخوم الفرات شريطة اتصائه (برداس) ، فيستطيع ان يبقيه لديه ، وان آثر الاتفاق الاخر ، فبمقدوره ان ينفذه » . فاقترحت تحرير الاتفاق بدون اي ذكر لهذه المسألة ، فقال : « اذا ، دون ذلك ، اذ لن اعطي اي شيء مكتوب بدون ان استلم الشيء

(٥٢) هذه ملاحظة صاحب البحث ، واعتقد انه محق في ذلك فنصي (ذيل التجارب) يذكر : « ما يعرض مثله فيخرج من الجميع بقر ميتة (كذا) » . فالتشويش والفوضى هنا جليان .

(٥٣) اورد صاحب البحث هذه الملاحظة بشأن (باد) : « هو الجد الاعلى لسلالة بني مروان الحاكمة في (ميفارقين) قام (باد) بمحاولة جريئة ضد الموصل بعد وفاة عضد الدولة ، لكنه اخفق وخر صريعا في الحركة . ولم يتسن لي التثبت من صحة هذه المعلومات .

(٥٤) بفتح الفاء وتسكين الياء وتعني رسول السلطان ، الذي سمي على رجليه ، وهي من الدخيل ولد اوردها صاحب (ذيل التجارب) ينصه حول الموضوع وترجمها صاحب البحث الى (Courier) ، ومن معانيها الساعي او رفيق السياح .

(٥٥) باسبيل المخصي كان الابن الطبيعي (غير الشرعي) لرومانوس ليكابينوس والد هيلين قرينه قسطنطين بوردفوجيتوس جد الامبراطور (باسيل) - اميدروز .

اليكم (بقصد المسلمين) ناشدا منكم معاضدته على العصيان » .

فتقبل الحاجب مقالة المليك ، وعندما استدعاني ، لاحظت فيه لهجة وانسباطا خلافا للسابق ، لكن نظراته ، في ذات الوقت ، ابانت عن عدم موافقته على الشروط التي حصل الاتفاق عليها . وتم ترشيح حامل الدواة ليكون رسولا معي بعد رفضه المهمة ، لكن العاهل الح عليه بذلك بعد ان لم يجد عداه في اهليته ، واعانه الحاجب قائلا : « انت وانا اهم شخصيتين في البلاط ، واينا ينبغي ان يذهب » . وبلغ من جده في الامر حدا عزوته الى رغبة في اقصائه ، والى حسد لما راي من منزلته الحميمة لدى العاهل .

هذا هو موجز معاني الفاظ ابن شهرام . آنذاك كان عضد الدولة عليلا ، ودخل الناس عليه كان محظورا ، فاعوز ان يقدم اليه تقرير عما جرى . تلك العلة اودت بحياة عضد الدولة ، وبعد وفاته ، مثل المبعوث البيزنطي امام صمصام الدولة ، وتسلمت الهدايا منه ، وانجز المهمة التي قدم من اجلها ، فتم تحرير اتفاقين : احدهما الاتفاق الذي حصل مع ابن شهرام على اساس كونه كاملا ودائما والاخر الاتفاق المسبق الذي عقد مع تقفور (٥٦) .

الاتفاق بشأن ورد واخيه ونجله

ان المداوات اسفرت عن ان تقفور سيمكث في بغداد ، ويوفد مندوبا عنه برفقة اخرين من بغداد لاستحصال توقيع العاهل وختمه لتسقيق (ورد) - المعروف عند الروم باسم سكليروز - وابنه ، والامان والتوثقة لهما بضمان احسانه ، واعادتهما الى منصبيهما السابقين ، والى وضعهما المستقر . وعند وصول ذلك ، كان على تقفور ان يرسلهما الى العاهل البيزنطي ، بينما على ورد (سكليروز) ان يلبث في البلاد الاسلامية ، وان يمنع من التوجه نحو البلاد البيزنطية بفرض الاضرار ، وانه عند اتضاح حسن معاملة الاثنتين

(٥٦) اي عندما كان في بغداد رسولا من باسيل بعد فرار سكليروز (ورد) الى بلاد الاسلام - اميدروز .

الاخرين وفقا للتعهد ، عندئذ يجب ارسال (ورد) ايضا في غضون العام الثالث ، بعد استحصال التوثقة بمقتضى شروط على غرار ما تم مع ابنه واخيه ، وان المبلغ المدفوع كجزية (٥٧) عن حمص وحلب من ابن حمدان الى العاهل البيزنطي ، ينبغي - اعتبارا من ارسال ورد الى بيزنطية - تسديده الى خزانة صمصام الدولة ، واذا تأخر ابن حمدان عن التسديد ، فملك بيزنطية يرغمه آنذاك ، كي يوفر على صمصام الدولة ضرورة تجريد حملة عليه اما امر بلاد (باد) ، فيجب ان يتعين على ما كان من هدايا المجاملة (٥٨) الى الملك البيزنطي ، على اساس من المفهوم ان الاخير (٥٩) لن يعين (بادا) او يجيره ان اعتمص بالبيزنطيين . لقد ارسل الاتفان سوية وتم توقيعهما .

اما بخصوص ما جرى بشأن اطلاق (ورد) من محبسه ، فسيلي ذكره بعدئذ .

* * *

ان اعطاء الامان المقترح الى سكليروز (ورد) واقربائه لم يحصل ، واطلاقه من قبل خلف عضد الدولة جرى بعد انصرام عدة اعوام فقط عند اخفاق (باسيل) في حملته البلغارية ، وبسبب قيام (ورد) بالعصيان عليه بالاشتراك مع (فوكاس) - استنادا الى (المحمة ١/٦٧٥) وتاريخ يحيى الانطاكي (١٦٦/١/١٤) ، كان نجل سكليروز ، المدعو (رومانوس) قد تخلى آنئذ عن قضية والده ، فاصاب حظوة رقيقة عند باسيل (المحمة ١/٦٩٤) ، ٦٩٦ ، ٧٧٢) . هذه الرواية لا تدعم حكاية احتجاج (اورانوس) في بغداد بسبب تدبيره قتل سكليروز (ورد) بدس السم له ، ولا تعطي دليلا ما ان باسيل

(٥٧) وصف صاحب (ذيل التجارب) هذا المبلغ بكونه (مال المفارقة عنهما) ، بينما عبر عنه صاحب البحث بالجزية (Tribute) كما تعني الاناوة او الغريبة الثقيلة . (٥٨) نص (ذيل التجارب) يقول : « على ما كان عليه من اللطافة » وهذا غير مفهوم لي زمانا وقد ترجمه اميدروز الى (Complimentary Presents) (٥٩) يقصد صاحب البحث العاهل البيزنطي .

كان ساخطا على حكم وزيره (٦٠) ، باسيل المخصي ،
الذ كان سقوطه مقبلا في عام ٣٧٥هـ (٦٨٥م) وهو
التاريخ الذي حدده يحيى بن سعيد الانطاكي (الملحمة
٥٧٣/١) .

كما انها تبين ان القيمة التي علقها باسيل على
تسليم سكليروز (ورد) كانت كما لو انه على
استعداد لشرائها على حساب الخراج بأكمله او
الجزية ؛ الواجب دفعهما اليه من حلب بمقتضى
شروط استسلامها الى (بيتر فوكاس) في عام
٣٥٩هـ (يحيى الانطاكي ١٣٤/١٥) و « امبراطور
بيزنطي » (ص ٧٣٠) . ان هذا الشرط من المعاهدة
قد ابطال ، واستمر دفع المبالغ من حلب ولو بمقادير
اقل (يحيى الانطاكي ١٦٥/٢ و ١٦٦/١/٢٢
والمحمة ١/٥٥٠ ، ٥٧٠ - ٥٧١) ، ومرة واحدة
سددت كاملة « يحيى الانطاكي ١٧٦/١/١٢ والمحمة
٩٢/٢) . ان (شلمبرغر) يفترض ارسال المبالغ
بانتظام (ص ٤٣٥) ، ومن المؤكد ان قسطنطين كان في

(٦٠) لأول مرة يذكر صاحب البحث بان باسيل المخصي كان
وزيرا ، بينما في المواضع السالفة ذكر « العاجب » .
وحتى صاحب (ذيل التجارب) ذكر الصيغة الرومية
« بركوسى » ولم يذكره كوزير مطلقا .

سبيله الى بيزنطية عندما اعترضه سكليروز (ورد)
في الايام الاولى لتمرده (٢٨٣/١) . ويهمننا ان
نعرف مدى اهمية هذه الجزية في بيزنطية كمال
مضمون للدولة ، ويتميز اخر : ما كانت عليه قيمتها
الشرائية في السوق . ثمة كشف دقيق في كتاب
(الفرج بعد الشدة) ١٣٢/٢ و ١٢/١ ، انه قبل
زهراء نصف قرن من ذلك التاريخ ، كانت قيمة
قطعة ارض في سواد بغداد شروى اربعة اعوام ،
بعد خصم الخراج وحقوق الدولة الاخرى . كما
يتضح ان ما متوقع استلامه من ضرائب الاراضي ،
احرزت قيمة مبيع عالية ، لانه هكذا كان المعول على
الواردات المالية للوزيرين (ابن مقلة) -تجارب الامم
الجزء ٥/٣٢٧ - ٣٢٨ - والمهلبى (الجزء ٦/١٦٨ -
١٦٩ - وقارن هذا بما جاء في ص ٨٢٩ و ٨٣٦ من
مجلة الجمعية الاسيوية الملكية لعام ١٩١٣) . لكن
من ناحية ثانية ، كانت اهمية ما يتوقع الخليفة
من الجزية من حاكم خاضع له ، باعتبار ما جرى
بين رسول الخليفة وعم عضد الدولة وسلفه
(الجزء ٥ ص ٤٦٥ - ٤٦٦) تعتبر قليلة جدا في
سوق بغداد ، ومن الجائز ان ذات الافتراض سيكون
صحيحا فيما يتعلق بجزية حلب في سوق بيزنطية .

حَدَائِقُ الْحَيَوانِ فِي بَغْدَادَ

بقلم

عادل محمد علي

وزارة الشباب - بغداد

بابل المعلقة الشهيرة كانت تضم بين ما تضم من حدائق غناء جناحا كبيرا من انواع الحيوانات والطيور ولا سيما التي تعيش في المناطق الجبلية . في حين لم يبق الاكديون ببناء مثل هذه الصيغ من حدائق الحيوان ! .

والشكل الثاني هو احاطة مناطق تواجد الحيوانات بقوانين صارمة لحمايتها لا من منطلق الحفاظ عليها وانما من اجل توفيرها لاغراض الصيد مثل هذا النوع من القوانين كان واضحا ايام الملك الاشوري (آشور ناصربال الثاني) .

واحتوت مسلة الملك الشهير حمورابي في احدى موادها مواصفات للرقع الارضية وغطائها النباتي وامان اختباء الحيوانات وكانت كلها تهدف الى حماية تواجد الحيوانات البرية في مناطق الامبراطورية البابلية وهي اشبه ما تكون حدائق حيوانات مفتوحة اي ما يسمى الان بالمحميات الطبيعية .

وقد انقرضت كثير من الحيوانات في تلك الفترة نتيجة الصيد المستمر ، ويبدو ان حيوان البيسون الذي كان يرتاد سهول امريكا بصورة خاصة كان نوعا منه على ما يظن موجودا في العراق وكان يعرف بالسومرية بكلمة « الم » وكانت له قدسية في العصر الكلاسيكي ، ولما انقرض (في الالف الرابع ق . م) استمر السومريون على تمثيله في فنونهم برأس عجل تشد عليه لحية متعارفة لان البيسون يتميز عن الثور بلحيته ، وهذا ما شاهده في الفيشارة الذهبية المنثور عليها في اور التي تبعد ١٥ كم عن مدينة الناصرية حيث

فلكة عن فكرة انشاء حدائق الحيوان في وادي الرافدين

لقد كان العرب سباقين في كل شيء طرقوه من اركان الحضارة الانسانية في الابتكار والاختراع والتطوير ، فهم اسياذ افكارهم وبناء العلوم التي اصبحت فيما بعد اهم اسس بناء الحضارة العلمية العالية . وقد يندهش اكثرنا اذا علم ان الاقوام العربية القديمة كانت هي اول من عرف اقتناء الحيوانات وبناء اماكن شبيهه بحدائق الحيوانات الحالية . ويشير المؤرخون الى ان عملية انشاء او اقامة حدائق الحيوان في العصور القديمة في العراق مرت بثلاثة اشكال من الحدائق ، الشكل الاول مناطق الصيد المتواجدة ضمن الرقعة المملوكة لهذا الامير او ذلك وهذا ما شهدته على وجه التحديد فترة السومريين فقد كان ملوك هذه الدولة يمتلكون حدائق مسورة تضم كثيرا من الحيوانات لاغراض الاحتفالات التي كانت تعد لكهان وقادة الشعب والملوك (الذين يسهمون في خدمة آلهة القوم) وحاشيتهم فيرخي في اثناء مسيرته الدرج الثلاث لبلوغ قمة برج المعبد . ومن هذا الطاف السامق يتاح للمحتفلين ان يشاهدوا دخان الضحايا منبعثا من مزارات بعيدة ، وبعدئذ يهبون الالهة الضحية التي تطلبها من المخلوقات الحية والتي تقضي بها النطقوس المقدسة (١) . ويؤكد المؤرخون على ان جنائن

(١) المعرفة/المجلد الاول - بيروت/ص ١٦٥ .

نرى اللحية مثبتة بشريط على انف العجل في مقدمة القيثارة (٢) .

ويذكر لنا الملك الاشوري تفلات بلاصر الاول (١١١٢ - ١٠٧٤ ق.م) بانه بعد ان طارد قبائل احلامي في حملته العسكرية الخامسة عبر نهر الخابور قتل في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة حران عشرة فيلة واصطاد اربعة احياء نقلها الى بلاده ليحتفظ بها في الحديقة التي نظمها ليشاهد الحيوانات بصورة حية .

ويبدو من هذه الاشارة ان عدد الفيلة اخذ يقل في هذه الفترة . وظلت اعداد منها ترتاد الغرات في زمن اشور ناصربال الثاني الى ان انقرضت باسطيادها من قبل الاشوريين انفسهم في القرن الثامن قبل الميلاد . اما الاسود فقد كانت منتشرة في شمال العراق وجنوبه وظلت تذكر في الكتب العربية ، واخر اسد ذكر اصطياده كان عام ١٨٩٦م .

ومثلما انقرض البيسون والفيل والاسد ، كذلك انقرضت الخيول البرية والنمور والفهود والقطط وبقر المهاة وحمير الوحش والايائل واليحمور والضباع والضان البرية ، ومن الطيور النعام وغيرها .

وينقل لنا زينفون صورة للبيئة التي شاهدتها بنفسه عندما رافق في حدود عام ٤٠٠ ق.م الحملة التي سار بها كورش الامير الاخميني الناصر من آسيا الصغرى الى طيسفون (المدائن) . ويقول زينفون : البلاد سهلة منبسطة كالبحر مكسوة بشجيرات الافستين وبكل ما ينبت من الاعشاب والشجيرات ذات الرائحة العطرية ، الا انه لا توجد اشجار . ومن الحيوانات البرية الكثيرة الانتشار الحمار الوحشي والنعام ، وبلي ذلك كثرة الجباري ثم الغزلان التي طاردها فرساننا . والحمير الوحشي لما طوردت سبقت الخيل (لانها اسرع منها) ، ثم وقفت ولما اقتربت منها خيولنا ركضت ثانية ثم رقت ، وهكذا لم يتمكن فرساننا من اصطيادها الا بعد ان انقسموا الى زمر فتمكنوا من ملاحقتها من جميع الجهات واستطاعوا اصطياد الواحد منها بعد الاخر . ان لحم الحمير المصطادة يشبه في طعمه

لحم الغزال الا انه اكثر طراوة . وظل هذا الحيوان يتراد بادية جزيرة العراق الى زمن حديث . يذكر لنا المنقب المشهور ليارد بانه شاهد قطيعا من حمير الوحشي في طريقه من سنجان الى تلغرف في عام ١٨٤٦م .

اما الشكل الثالث فهو اقامة حدائق حيوانات حاوية على حضائر او بيوت من الاسلاك المشبكة ضمت الطيور بشكل اساسي ، وبطنها الطيور التي كانت تأتي كهذا . وفي عهد ظهور الاسلام والدولة العربية اخذت حدائق الحيوان شكلا مميزا يتسم بالروعة والبهجة حيث احتوت قصور الخلفاء على نوادر الطيور والحيوانات الوحشية ، وفي نفس الوقت ومع بداية التطور العلمي في العصر الذهبي للعرب كانت حدائق الحيوانات والنباتات تتخذ كمراكز للتزود العلمي للفقهاء والعلماء في ذلك العصر . يقول الاب انتناس ماري الكرمليني « ان العرب سبقوا غيرهم من الامم في انشاء حدائق الحيوانات وانهم كانوا يسمون حديقة الحيوان (حيرا) ، وجمعه (حيران) ، ومنها القصور الشهيرة التي بناها الامويون في اطراف الجزيرة العربية مما يلي الاردن وسوريا من امثال قصر الحير الشرقي والحير الغربي وغيرها » .

ويقول الاستاذ ميخائيل عواد : (اتخذت الحيوانات الكاسرة في بدء الامر للهو فقط ، ثم جاء خلفاء بني العباس فانخذها الاوائل منهم لاقامة الهيبة وحفظ نظام المملكة وحراستها من اطماع الرعية ، فارتبطوا بالاسود والفيلة والنمور . ذكر المؤرخون ان الخليفة المنصور عنى بجمع الفيلة تعظيم الملوك السالفة اياها واقتنائها لها واعدادها للحروب والزينة في الاعياد وغيرها ، انها اوطا مراكب الملوك وامهرها . وكان للرشيدي اقتفاص فيها الاسود والنمور وغيرها . ثم تطور الامر من بعد ذلك فعنى الخلفاء والامراء والملوك واعيان القوم بتخصيص محل واسع الاجزاء يضم جملة كبيرة من مختلف اصناف الحيوان الكاسرة والداجنة والطيور والهوام والحشرات ويطلق على ذلك المكان «حير الوحوش» فالحير : بستان واسع فيه انواع الحيوان وهو المسمى بالانكليزية (Zoo) ، والعرب سبقوا الامم المتقدمة . الى اتخاذ تلك الحضائر لجس الوحوش والحيوان فيها ، ودرس اخلاقها وعاداتها ، مع التفرج على ما هنالك من عجيب المخلوق (٥) .

(٢) البيئة الطبيعية القديمة في العراق/سومر ، الجزء

١ و ٢ ص ٥ .

(٣) المصدر السابق/ص ٧ .

(٤) المصدر السابق/ص ٧ .

(٥) حدائق الحيوان في العصور الاسلامية/ص ٢٠ .

بغداد أسبق العواصم في انشاء حدائق الحيوان

لقد ولع الخلفاء العباسيين باقتناء انواع الحيوانات والطيور والاسماك ، وذلك لجهنم للطبيعة وما يتعلق بها ، وبالنظر لان بغداد كانت عبارة عن غابة متشابكة الاشجار والنخيل مما جعلها تمنع باصناف كثيرة من الطيور والحيوان وهذا كان يدفع الخلفاء والامراء والناس الى التمثل بهذه الغابة الكبيرة بحيث يجعلوا بعض الاماكن في دوهم او بقربها غابات مصفرة لذلك .

وبشير الاستاذ سليم طه التكريتي الى ذلك فيقول : (بغداد سبقت غيرها من عواصم العرب والشرق في انشاء حدائق الحيوانات وان تلك الحدائق لم تكن من معالم الابهة والزينة التي اغرق فيها بعض الخلفاء العباسيين ومن جاء بعدهم من السلاطين حسب ، وانما شاركهم في هذه الهواية انشاء حدائق الحيوان عدد كبير من الهواة الذين بزوا البعض من الخلفاء والوزراء في هذا المضمار) .

واشهر من استانس الحيوانات وانشا لها الحدائق والرابي ، وعهد الى ذوي الاختصاص رعايتها والقيام على شئونها الخليفة هارون الرشيد ففي عام ٧٩٧م ارسل الخليفة نفسه الى الملك الفرنسي شارلمان هدية تتكون من فيسل وبعض النسايس اخرجها من حديقة حيوانات بغداد آنذاك . ولما افضت الخلافة الى الامين وجه الى جميع البلدان في طلب الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك . ولشدة ولعه بجمع الحيوان امر بعمل خمس حراقات في دجلة . والحراقات : (جمع حراقة وهي ضرب من السفن) وجعلها على شكل حيوان (اسد ، فيل ، عقاب ، حية ، فرس) . وكان الامين يتردد كثيرا على حير الوحوش ومعه ابراهيم الموصلبي المضي الشهير - قال شاهد عيان ان ابراهيم غنى في احد الايام اشد طبقة يتناهى اليها في العود .

قال : وما سمعت مثل غنائه يومئذ قط ، ولقد رايت منه شيئا عجيبا لو حدثت به ما صدقت كان اذا ابتدا يفتي اصغت الوحوش اليه ومدت اعناقها ولم تزل تدنو منا حتى تكاد ان تضع رؤوسها على المحل الذي كنا عليه ، فاذا سكت

وقد نجدد الاهتمام بانشاء حدائق الحيوانات في العراق في العهد العباسي لان انشاء مثل تلك الحدائق كان من مظاهر الترف الكبرى التي تفنن العراقيون في تنظيمها وتزيينها ، ومن هنا راج بعض الخلفاء وغيرهم من الموسرين والهواة يقبلون على انشاء حدائق الحيوانات في قصورهم وحدائقهم ويبدلون الاموال لجلب مختلف انواع الحيوانات من اقصى بقاع الارض .

وكانت حدائق الحيوانات لدى العراقيين تصمم على اشكال متباينة فالبعض من الهواة كانوا يجمعون الحيوانات والطيور في اقفاص وحظائر بين اشجار الفاكة والكروم والاوراد . وكان بعض الناس يجمع بالإضافة الى الطيور والحيوانات المختلفة انواع الافاعي والحيات والمقارب والضبية (مفردة ضب ، نوع من الزواحف) والقطايا وما شاكلها في اقفاص خاصة بها في تلك الحدائق ايضا . وكان البعض الاخر يقيم حديقة منفصلة او يقطع ركنا واسعا من احدي حدائق قصره ليجمع فيه ما يستطيع جمعه من كل زوجين اثنين ويجمع لكل زوج منها قفص خاص به . وهناك من يفرد لكل زوج من الحيوان او الطير جناحا خاصا واسعا يكون مسورا تسويرا قويا وعاليا بحيث تستطيع الحيوانات ان تتحرك فيه وان تحلق الطيور في اجوائه بكل حرية ، فالحيوانات في مثل هذه الاجنحة لا تقيد بالسلاسل ولا تحتجز داخل الاقفاص وانما تترك حرة طليقة داخل تلك الاجنحة(١) .

وكان لهذه الحيوانات رجال مواظبون يمتون باطعامهم وتنظيفها ويتحققون من نظافتها ونظافة الاماكن التي تعيش فيها .

وكان جمع هذه الحيوانات وجلبها من اقاصي المعمورة يكلف أموالا طائلة ، فالبعض من الخلفاء والموسرين لم يكن ليكتفي بارسال البعوث والرسل الى مختلف الاقطار لجلب اندر الحيوانات والطيور فحسب وانما كانوا يستخدمون امهر القناصة والصيادين لاصطياد الطيور والحيوانات المتوحشة ايضا .

فقد كان لدى الخليفة الامين جماعة من اصحاب اللبايد والحراب (وهي العدة الخاصة باقتناص الحيوانات الضارية) يركبون البفسال ويصطادون له الاسود ويضعونها في اقفاص ثم يجلبونها الى قصر الخليفة(٢) .

(١) حدائق الحيوانات في العراق/ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق/ص ١٨ .

نفرت وبعدت عنا حتى تنتهي الى ابعد غايةً يمكنها التباعد فيها عنا . وجعل الخليفة الامين يعجب من ذلك (٨) .

ولعل الحيوانات التي في هذه الحير هي من جملة الوحش الذي تقل من (سر من رأى = سامراء الحالية) الى حير بغداد ، وذلك بعد ان تم ارجاع مقر العاصمة الى مدينة السلام في عهد المتضمد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢ م) وفي عام ٣٠٥ للهجرة (٩١٧ م) وصل الى بغداد سفراء من القسطنطينية للتفاوض للصلح بين الخليفة القنندر وعاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فشهدوا في بغداد ما وصفه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد بقوله : « ولقد ورد رسول لصاحب الروم في ايام القنندر بالله ، ففرشت الارض بالفروش الجميلة وزينت بالالات الجليلة . . ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة ، وتحتهم الدواب بمرابك الذهب والفضة ، وبين ايديهم الجنايب (هي الخيل ، جمع جنيبة ، وهي الفرس تقاد ولا تركب) ، على مثل هذه الصورة » .

« وادخل رسل صاحب انروم من دهليز باب العامة الاعظم الى ائدار المعروفة بخان الخيل ، وهي دار اكثرها اروقة باساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الايمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهب وفضة بغير اغشية . ومن الجانب اليسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديداج (جل الدابة ، كتوب الانسان بقيه البرد) بالبراقع الطوال ، وكل فرس في يدي شاكرى بالبزة الجميلة » .

« ثم ادخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش (الحير : الحظيرة او الحمى) . وكان في هذه الدار من اصناف الوحوش التي اخرجت اليها من الحير قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتاهل من ايديهم . ثم اخرجوا الى دار فيها اربعة فيلة مزينة بالديداج والوشى ، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار . . . فقال الرسل امرها » .

« ثم اخرجوا الى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنه وخمسون يسره ، في رؤوسها واعناقها السلاسل والحديد ، وشاهدوا الزرافة والفهود وحيوانات اخرى كثيرة » (١١) .

ويقول الدكتور احمد سوسة في كتابه (ري سامراء في عهد الخلافة العباسية) : (ويستدل بما ذكره المؤرخون ان المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٢ م) قد انشأ حير للوحوش حيث جاء في معجم ياقوت ان الحير كان قد انشئ من قبل المأمون قبل توليه الخلافة ، وقد انشأ بجواره ميدانا لركض الخيل والشعب بالصوالة وقد الحق الميدان والحير بالقصر المعروف بالجعفري وهو القصر الذي بناه جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك قبل ان اوقع اارشييد بالبرامكة . ثم سمي هذا القصر بالمأموني ثم الحسيني عندما وهبه المأمون الى عمه حسن بن سهل وذاك بعد ان تزوج المأمون بنت بيوران بنت الحسن بن سهل ، واليك ما كتبه ياقوت في مادة التاج . قال : « وكان قصر الجعفري احب المواضع الى المأمون واشهاها لديه واقتطع جملة من البرية عملها ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوالة وحيرا لجمع الوحوش وفتح له بابا شرقيا الى جانب البرية وأجرى فيه نهرا ساقه من نهر المعلى وابتنى مثله قريبا مثل منازل برسم خاصته واصحابه سميت المأمونية » .

وكان في قصر الخليفة القنندر بالله ببغداد حوالي عام (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) حيرة بها قطعان من اصناف الوحش ، وصار يفتن بها بكل غريب من الحيوان من جميع العالم وخاصة الاسود ، ولم تكن السباع في ذلك العصر نادرة بالشام ولا على شواطئ نهري دجلة والفرات ، بل كانت احيانا تدنو قريبا جدا من بغداد ، حتى انه في عام ٣٢١ هـ - ٩٤٣ م خرج الخليفة القنندر الى الشامية بجوار بغداد لصيد السباع (٩) . وجاء ذكر هذه الحدائق التي تقع في مدينة بغداد الشرقية باسم الحير ايضا اذ ذكر ابن مسكويه في كتابه (« تجارب الامم » ان بعض جند القنندر شق عصا الطاعة (٢٩٥ - ٣١٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٢٢ م) فنهب قصر التريا وذبح الوحش الذي في الحير وذبحوا البقر التي لاهل القرى التي حوله وخرج اليهم مونس وضمن لهم ارزاقهم فرجعوا الى منازلهم (١٠) .

- (٨) حدائق الحيوان في المصور الاسلامية/مجلة هنا ببغداد/ص ٢١ .
(٩) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ص ٢٦٢ .
(١٠) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/ص ٢٩٦ .

(١١) حدائق الحيوان/دائرة معارف الشعب/ص ١٩٧ - ١٩٨ .

في بغداد أيضا « أبو جعفر محمد بن جعفر القوملي » وكان من السراة المترفين ، ابنتى له في بغداد دارا نسيحة يحيط بها بستان واسع يضم مختلف اشجار الفاكهة والورود وافرد في تلك الدار حديقة خاصة بالحيوانات التي كانت تضم اندر الطير والغزلان والسباع وغيرها . وقد تحدث « أبو عبد الرحمن العتبي » انه دخل ذات يوم على محمد القوملي وهو جالس على ضفة تقع على بركة ماء ويشرف منها على البستان وحير الغزلان وحظيرة القماري واشباهها ، فقلت له : « يا ابا جعفر انت والله جالس في الجنة ! » ، فقال : « فليس يشفي لك ان تخرج من الجنة حتى تصطحب فيها ! » .

سامراء تتوج بهاءها ببناء حدائق حيوانات كبيرة فيها

وكان يقصر الخليفة بسامراء على عهد المعتصم ، مكان يحفظ به الحيوان ، وهو يسمى « حير الوحش » ، ويحكى عن المعتز حوالي منتصف القرن الثالث الهجري انه اطلع عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نزل ضيفا عنده على عراك بين اسد وفيل ، وكان ذلك احد المعجائب التي اطلعهم عليها (١٢) .

وقام الخليفة المتوكل ، بانشاء حير للحيوانات: وتقع هذه الحدائق خارج مدينة سامراء ومشماتلتها من جهة الشرق بين القاطولين ، القاطول الاعلى الكسروي وبين القاطول الاسفل (نهر القانم) وهي مسورة بسور من الطين يحيط بها من جميع اطرافها ويستدل من اثار هذا السور على ان الحديقة كانت مستطيلة الشكل يمتد ضلعها الجانبيان باتجاه الشمال ، اما الضلعان الاخران فان الضلع الشمالي الذي يمتد من الغرب الى الشرق يتصل بكل من الضلعين الجانبيين في ركنيهما بزواية قائمة . اما الشرقي فيسير على محاذة نهر القاطول الاسفل (مجرى القانم) على مسافة ٦٥٠ مترا تقريبا من منفته اليسرى ، ويتصل الضلع الاخير هذا بالقصر الذي بالمشروحات حيث يقع في منتصف هذا الضلع تماما . وبلغت مساحة الحير حوالي ٢٠ الف مشارة وجاء ذكر حير الحيوانات التي ابتناها المتوكل عند يعقوبي قال : « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات تقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائط غيره وخلف الحائط الوحش من الضياء

واشتهر عضد الدولة البويهى بتربية الحيوانات وافرد حديقة خاصة بها في قصره . وكان مما اعتاده عضد الدولة انه اذا جلس على كرسيه يامر باحضار النور والسباع وغيرها من الحيوانات المفترسة فتحضر اليه مفيدة بالسلاسل ثم توضع في حواشي مجلسه ، وكان يفعل ذلك بغية ارباب الناس واخافتهم وكان للخليفة القاهر بالله ببغداد بستان للطير ، كانت لذته من الدنيا . وصفها المؤرخ والرحالة العربي المسعودي صاحب كتاب « مروج الذهب » بقوله : « كان نحو جريب (فدان) قد غرس فيه التارنج وحمل اليه من البصرة وعمان مما حمل من ارض الهند ، وقد اشتبكت اشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من احمر واصفر ، وبين ذلك انواع الفروس والرياحين والزهر ، وقد جعل في ذلك الصحن انواع الاطيار مما قد جلب اليه من الماليك والامصار . وكان في غاية الحسن » .

واشتهرت حديقة الحيوان للوزير ابن مقله (عاش في اواخر القرن الثالث واول القرن الرابع الهجري) في منطقة الزاهي من شمالي بغداد الحالية على نهر دجلة وخبرها طريف للغاية لما كانت عليه من النظرة والبهجة والبهاء . حكى شاهد عيان انه راي شبكة الابريسم التي كان افرخ فيها ابن مقله الطيور الغريبة قال : فعمد الى مربع كبير فيسه بستان عظيم عدة اجرية (اي فدادين) فقطع منه قطعة من زاوية ، فكان مقدار ذلك جريبين بشباك ابن ابريسم ، وعمل في الحائط بيوتا تاوى اليها الطيور وتفرخ فيها . ثم اطلق فيها القماري واللداس والقبيج والفواخت والطيور التي من اقاصي البلاد من المصونة ومن المليحة الريش فتوالسدت وجاءت باجناس غريبة ، ثم عمد الى باقي الصحن فطرح فيه الطيور التي لا تطير كالطواويس والبط وعمل منطقة اقفاص فيها فاخر الطيور وجعل من خلف البستان الغزلان والنعام والايائل والارانب والابل والبقر البدوية وحمر الوحش . ولكل صحن ابواب تنفتح الى الصحن الاخر فيرى من مجلسه سائر ذلك . ويقول ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في التاريخ » ان ابن مقله كان يحاول ان يجسرب التزاوج بين الحيوانات المختلفة . وحدث ذات مرة ان وقع طائر بحري في حديقته تلك على طائر بري فازدوجا وباضا واقفا فلما بشر بذلك اعطى من بشره به بهدية مائة دينار على ذلك .

ومن الذين اشتهرت حدائق الحيوان لديهم

(١٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ص ٢٦٢ .

والدين فقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمهم
 بیره وكان يقول يا بني هاشم دعوني حتى اسلك
 ملك عمر بن عبدالعزيز فأكون فيكم مثل عمر بن
 عبدالعزيز في بني أمية . وقلل من لباس والفرش
 وأمر بإخراج آتية الذهب والفضة من الخزائن
 فسكرت وضربت دنائير ودراهم وعمد الى الصور
 التي كانت في المجالس فمحييت وذبح الكباش التي
 كان يناطح بها بين ايدي الخلفاء ، والدبوك وقتل
 السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش
 لم ترد الشريعة باباحته « (١٤) » .

ويمكن ان نستخلص ان الحير المذكور كان
 يضم عددا كبيرا من الحيوانات المفترسة والوحوش
 الضارية . وكانت هذه الضواري في الاقفاص وضمن
 الجدران الداخلية وكان قسم آخر منبا وهو القسم
 الاكبر طليقا وسط الحير :لواسع . وكانت مساحة
 الحير من السعة بحيث يسهل معها الصيد والتقص .

حدايق الحيوان والصيد

بعد مجيء خلفاء بني العباس الى الحكم وبناء
 المدينة المدورة بفسطاط ، اقبل الحكام والمتنفذون
 والحكومون على الترف وكانت متع الصيد وجمع
 الحيوانات في اقفاص ولذاداته في طليعة ما اقبلوا
 عليه . فجمعوا يقضون في حفلاته ورحلاته اجمل
 ايام العمر ، وينفقون على جوارحه وضواربه انفس
 المال . فكان المهدي مجبا للصيد مشغوبا به حتى
 انه لا يكاد يفقه (من غلب القوم : اي اياهم يوما
 وتركهم يوما) او يصير عنه . وقد اكثر من رحلات
 الصيد ورويت له فيها طرائف وحوادث منها ما نقله
 السعودي وغيره عن الفضل بن الربيع انه قال :
 خرج المهدي متنزها ومعه مولاة عمرو بن ربيع وكان
 شاعرا فانقطع عن المعسكر والناس في الصيد فانتاب
 المهدي جوع شديد ، فقال لعمرو : ويحك الا انسانا
 عنده ما ناكل !! فما زال عمرو يطوف الى ان وجد
 صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له فقمعه اليه ، فقال
 هل عندك شيء يؤكل ؟ قال : نعم ، رقاق من خبز
 شعير وزبيب وهذا البقل والكراث ، فقال له
 المهدي : ان كان عندك زيت فقد اكلت ، قال : نعم
 عندي فضلة منه ، فقدم اليهما ذلك فاكلوا اكلوا
 كثيرا . واوفى المعسكر ولحقته الخزائن والخدم
 والموكب ، فامر لصاحب المبقلة بثلاث بدر
 دراهم (١٥) .

والحمير الوحش والايائل والارانب والنعام ، وعليها
 حائط يدور في صحراء حسنة واسعة « (١٣) » .

ومما يدل على ان الساحة التي تقع فيها
 حديقة المتكل للحيوانات كانت تسمى بالحير ، وانها
 كانت الى جانب القاطول ، وصف للبحثري لهذه
 الحديقة في شعره فقد سماها بالحير اي بمعنى
 الحديقة او البستان ، فقال يخاطب المتوكل مشيرا
 الى حيوانات الحديقة .

يرعن منك الى وجهه يرين له
 جلاله يكثر التسبيح رايها
 حتى قطعت بها القاطول واخرقت
 بالحير في عرصة فسح نواحيها
 ويشير البحتري كذلك في اشعاره الى ان عدد
 الحيوانات التي كانت في الحير الذي انشأه المتوكل ،
 يقدر بالف وحش وفي ذلك قال وهو يخاطب
 المتوكل .

الغان واخت على قدر مسارعة
 الى قبول الذي حاولته فيها
 وهذه الابيات مما انشده البحتري يصف بها
 حديقة حيوانات المتوكل وصفا رائعا :
 وام انس وحش القصر اذ ربح سربه
 واذ ذعرت اطلاؤه وجاآذره
 واذ صيح فيه للرحيل فهتكت
 على عجل استاره وستائره
 ووحشته حتى كان لم يقم به
 انيس ولم تحسن لعين مناظره
 كان لم تبت فيه الخلافة طلقه
 بشاشتها والملك يشرق زاهره
 ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها
 وبهجتها والعيش غض مكاسره
 ومما يؤيد وجود السباع في حير المتوكل ما
 ذكره السعودي عن قتلها على عهد المهدي
 (٢٥٥ - ٢٥٦هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م) وهذا نصه :
 « وقد كان المهدي بالله ذهب في امره الى القصد

(١٤) المصدر السابق/ص ٢٩٦ .
 (١٥) الصيد عند العرب/ص ٤٤ .

(١٣) دي سامراء في عهد الخلافة العباسية/الجزء ٢/ص
 ٢٩٤ .

على الامين يوما وقد اشتد عليه الحصار من كل وجه فاذا هو قد طلع الى دجلة بالشباك ، وكان في وسط قصره بركة عظيمة وفي المخترق شبك حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والظلمان قد انتشروا يفتشون الماء وهو كالواله ، فقال لي وقد نئيت بالسلام وكررت ، لا تؤذوني فمقرطتي ذهبت في البركة مني الى دجلة ومقرطته هذه سمكة كانت صيدت له وهي صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حيتا در . قال فخرجت وانا يائس من فلاحه . وقلت : لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت « (١٧) » .

وورث التوكل عن اجداده الولع بالصيد من اجل اشباع رغبته في ،كثار حيوانات حيرة التي كانت من اعظم حير الحيوانات في ذلك الوقت . وشغف المعتضد بالله بالفهود والاستكثار منها واربي عليه في ذلك حتى قال صاحب الجمهرة « واكثر من اشهر باللعب بالفهود من العباسيين المعتضد ، فانه كان شديد الغوايه بها « (١٨) » .

والحقيقة ان الصيد الذي مارسه خلفاء بني العباس وغيرهم من الوزراء والامراء يكن لمجرد الاستمتاع واللهو كما يظن الكثيرون وانما كان في اكثر الاحيان لغرض تزويد الحدائق التي ابتناها لهم بالحيوانات المختلفة وارسال قسم منها كهدايا للملوك وامراء الدول المجاورة لهم لتقوية مركزهم الدولي .

بفداد تعيد مجدها من جديد في انشاء حدائق الحيوانات

وبعد مرور حقبة تاريخية طويلة اندثرت فيها فكرة انشاء حدائق الحيوانات بسبب الحروب والغزوات المتتالية التي تعرض لها العراق ومن بينها بفداد ، الا انه كانت هناك محاولات شخصية قام بها ولاة وحكام مناطق وشخصيات كبيرة ووجهاء في اقامة حدائق للحيوانات المختلفة وللطيور او لحيوان معين فقط ، في قصورهم او اراضيهم

(١٧) المصدر السابق/ص ٤٩ .

(١٨) المصدر السابق/ص ٤٩ .

وقد عرف ملوك البلاد المجاورة ولع المهدي بالضواري وشدة شغفه بالصيد وجمع الحيوانات حتى ان « ميخائيل بن ليون » عظيم الروم لما وقف على ذلك اهدى اليه كتابا في دفن البيزرة كان لاوائل الروم . وقيل ان المهدي كان يحتفظ بانواع عديدة من الحيوانات التي كان يصطادها في مكان ملحق بقصره على شكل حديقة حيوانات صغيرة .

وكانت للرشيدي رحلات صيد صاخبة يقوم بها ومعه رجال دولته وبعض شعرائه من امثال ابي نواس ، وكان انخليفة يتخلى في هذه الرحلات عن وقاره . وكان اذا نمي اليه خبر منقن في الصيد استقدمه اليه واتخذة لنفسه . فقد روى صاحب (انس الملا) انه كان في زمن الرشيد رجل من اهل البصرة اسمه ابراهيم البازيار يصيد جميع الطير وكان له كتاب في البيزرة . وكان من ادوات صيده التي استحدثها فصب الدبق ، فاستدعاه الرشيد اليه واحله عنده منزلة عالية لمعرفته بالضواري وبالدبق ، وتفرغ التدبيق من ابراهيم البازيار ، ودبق اناس بعده بخمس قصصات او اكثر زمن المأمون . وكما عرف عن المهدي في الافاق ولعه بالصيد وادواته فقد عرف مثل ذلك عن الرشيد فاغتنم «نقفور» ملك الروم باحدى المناسبات الطيبة واهدى الرشيد اثني عشر بازيا واربعة كلب من كلاب الصيد ليتقرب اليه بها(١٩) . وقد ضمها الرشيد الى حديقة حيواناته بعد ذلك .

وبعد ان آل الامر من بعد الرشيد الى ابنه محمد الامين فقد كان اشد حبا للصيد واحرص عليه من كل من تقدمه . فقد روى المسعودي ان الامين اصطحب يوما وكان اصحاب اللبايد والحراب قد خرجوا على البغال الى سبع كان بلغهم خبرة بناحية (كوئي) (والقصر) فاحتالوا عليه الى ان اتوا به في قفص من خشب على جمل بختي فحط بياض قصر الامين وادخل عليه فلما مثل في صحن القصر والامين مصبح قال لهم : خلوا عنه وافتحوا باب القفص ، فقيل له : يا امير المؤمنين ، انه سبع هائل اسود وحشي . وقد قال « ابراهيم بن المهدي » استأذنت

(١٩) المصدر السابق/ص ٤٨ .

أثرأعيسة . وفي هذا الصدد يقول الأستاذ سليم طه التكريتي : (ولقد ظل العراقيون سائرين منذ ذلك الوقت على هذه الهواية اللطيفة الغريبة ، هواية اقامة حدائق الحيوانات في بيوتهم وبساتينهم وفي اوائل القرن الحالي اشتهرت دار محمد فاضل باشا الداغستاني وكانت تقع مقابل وزارة الدفاع الحالية وبجوار جامع المرادية بوجود حديقة فيها تضم الاسود والفهود والنمور والديبة وغيرها . واذكر حادثة وقعت في دار محمد باشا الداغستاني مؤادها ان طفلا مر من احد الاقفاص التي وضعت فيها الاسود وسرعان ما اخرج اسد كفه من بين القضبان وامسك بالطفل وسحبه واطبق على اطرافه بفيكه . واذ علا صراخ الطفل واكتشف امره استدعي محمد باشا على عجل الى مكان الحادث فاسرع بفتح باب القفص وتوجيه لكمة قوية الى راس ذلك الاسد الذي اطلق الطفل من بين فيكه وتم بذلك انتقاذه من موت محقق) .

وزودت الحديقة بالمشرفين والمروضين والاطباء لرعاية الحيوانات ومعالجتها ، كما زودت الحديقة ببنادق خاصة لاطلاق الابر المخدرة في اجسام الحيوانات الضارية لدى معالجهتها او الحيلولة دون هربها . ويقصد حديقة حيوانات بغداد عشرات الالوف من المواطنين سنويا . واعادت امانة العاصمة النظر في الحديقة الرئسية لتعدها اكثر عصرية وتطورا واوفى غرضا من حيث بيئتها وتشكيلها العلمي وشروطها الصحية ، فقامت بانشاء عديد كبير من بيوتات الحيوانات الحديثة التي تتوفر فيها كافة الشروط المتكاملة لاي حديقة حيوان حديثة وهي بمواصفات بدعة من حيث الشكل والمحتوى وقامت الامانة باستيراد اعداد كبيرة من انواع الحيوانات التي تدخل الحديقة لاول مرة كالتقود العليا (انسان الغاب والفوربلا) والغيلة وافرأس النهر وكلاب البحر الخ . . وقد استغلت الجزيرة الوسطية للحديقة لانشاء حديقة طليقة للقرود تحاكي بيئتها الاصلية .

واتجهت نية امانة العاصمة الى اقامة العديد من حدائق الحيوان الصغيرة والمتوسطة في متنزهاتها المختلفة مثل الحديقة التي تنوي الامانة اقامتها ضمن مشروع نهر الخير ، حيث انتهت من تحديد العمل في انشائها في كورنيش الاعظمية وابي نواس .

وسبق ان انتهت الامانة من انشاء ثلاث متنزهات هي الف ليلة والفردوس والرياحين وتضم هذه المتنزهات حدائق صغيرة - تتراوح مساحتها بين ثلاثة الاف الى خمسة الاف متر مربع فيها عددا من انواع الطيور والفزلان والقردة وغيرها من الحيوانات النادرة .

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ سليم طه التكريتي : (ولقد ظل العراقيون سائرين منذ ذلك الوقت على هذه الهواية اللطيفة الغريبة ، هواية اقامة حدائق الحيوانات في بيوتهم وبساتينهم وفي اوائل القرن الحالي اشتهرت دار محمد فاضل باشا الداغستاني وكانت تقع مقابل وزارة الدفاع الحالية وبجوار جامع المرادية بوجود حديقة فيها تضم الاسود والفهود والنمور والديبة وغيرها . واذكر حادثة وقعت في دار محمد باشا الداغستاني مؤادها ان طفلا مر من احد الاقفاص التي وضعت فيها الاسود وسرعان ما اخرج اسد كفه من بين القضبان وامسك بالطفل وسحبه واطبق على اطرافه بفيكه . واذ علا صراخ الطفل واكتشف امره استدعي محمد باشا على عجل الى مكان الحادث فاسرع بفتح باب القفص وتوجيه لكمة قوية الى راس ذلك الاسد الذي اطلق الطفل من بين فيكه وتم بذلك انتقاذه من موت محقق) .

وفي عام ١٩٥٧ بدأت فكرة انشاء حديقة حيوان بغداد اسوة بباقي العواصم العربية والعالمية وتويجا لحضارة وادي الرافدين العريقة فاتخذ من المنطقة المجاورة للمحطة العالية لسكك حديد الجمهورية العراقية في منطقة علاوي الحلة كنواة لحديقة حيوانات ، فضمت هذه الحديقة الصغيرة بعض انواع من الفزلان العراقية والطيور المتنوعة عراقية وغير عراقية وبعض انواع من الضباع والثعالب والذئاب والنمر العراقي الذي يعيش في شمال القطر جلبت على شكل هدايا قدمت من قبل اشخاص كانوا يحتفظون بها في بيوتهم وحدائقهم حصلوا عليها عن طريق الصيد او الشراء . وبعد ان ضاقت هذه الحديقة بالحيوانات التي جلبت لها وعدم ملائمة موقعها كحديقة وصفر مساحتها ، فكرت الجهات الرسمية بنقلها من هذا المكان الى متنزه حدائق الزوراء وتوسيعها لتصبح احدي الحدائق الكبيرة في المنطقة العربية .

فقامت امانة العاصمة بانشاء حديقة الحيوانات باعتبارها مرفق ترويح تمثل احدي مظاهر وسمات التطور التي تتطوي عليها مجالات التسلية في المدن المصرية .

ومن اجل ذلك خصصت الامانة موقعا كبيرا وسط متنزه الزوراء الفسيح لانشاء مثل هذه

المراجع

- (١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/آدم متز ، ترجمة : محمد عبدالهادي ابو ريدة . القاهرة - ١٩٤٧ .
- (٢) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/د. احمد سوسة/ الجزء الثاني ، مطبعة المعارف - بغداد ، ١٩٤٩ .
- (٣) الصيد عند العرب/د. عبدالرحمن رافت الباشا/دار النفائس ، بيروت - ١٩٧٤ .
- (٤) مردج الذهب/للمسودي . طبع القاهرة .
- (٥) حدائق الحيوانات في العراق/سليم طه التكريتي/مجلة السياحة (مصلحة السياحة العامة) ، بغداد - ١٩٧٤ ، العدد (٥) .
- (٦) حدائق الحيوان في العصور الاسلامية السالفة/ميخائيل عواد ، مجلة هنا بغداد - ١٩٥٧ ، العدد (١٥٣) .
- (٧) حدائق الحيوانات التي انشأها نيروز باشا شاه/مجلة المقنطف/المجلد ٣٩ ، القاهرة .
- (٨) حدائق الحيوانات في التاريخ / عادل محمد علي الشيخ حنين/مجلة السياحة العدد ٧٥ ، السنة (٢) ، بغداد - ١٩٦٧ .
- (٩) تطور علم الحيوان في الحضارات القديمة/مصام اللاتكة، مجلة سومر ، الجزء (١ و ٢) ، المجلد (٣٠) ، بغداد - ١٩٧٤ .
- (١٠) البيئة الطبيعية القديمة في العراق/فؤاد سفر ، مجلة سومر ، الجزء (١ و ٢)/المجلد (٣٠)/بغداد - ١٩٧٤ .
- (١١) حدائق الحيوان/د. حسين فرج زين الدين وسعيد محمود محمد : دائرة معارف الشعب (القاهرة - ١٩٦١ .
- (١٢) الحدائق في العصور القديمة/المعرفة/المجلد الاول ، بيروت . لم يذكر التاريخ .
- (١٣) البيركة الجعفرية في سامراء/د. احمد سوسة/مجلة بغداد ، العدد ٨ - بغداد ١٩٦٣ .
- (١٤) مديرية الاعلام في امانة العاصمة - بغداد .
- (١٥) مجلة امانة العاصمة ، العدد ٥ - ١٩٧٧ . بغداد ا عن حدائق حيوان الزوراء) .
- (١٦) معلومات شخصية عن حدائق الحيوانات .
- (١٧) دائرة المعارف الانكليزية/المجلد (١٩)/١٩٦٧ - لندن ا عن حدائق الحيوانات في العالم - (.

حبة بغداد

بقلم الدكتور

جليل كريم ابو الحب

وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي

مقدمة

٧٠٪ ، انخفضت هذه النسبة في اواسط واواخر الخمسينات ولكنها عادت فارتفعت في اواخر الستينات واول السبعينات . ليس لدينا الا القليل من المعلومات عن سبب انخفاضها كما ان معلوماتنا عن عودة ارتفاع نسبة الإصابة ليست تامة .

يعتقد البعض ان انخفاضها كان بسبب استخدام المبيدات الحديثة ضد بعوض الماريسا وبصورة غير مقصودة ضد الحرمن الواخز ، وانخفاض مستوى الماء الجوفي الذي ساعد في التقليل من تكاثر الحرمن في البيوت والذي يكون عادة في عمق لا يزيد عن سنتيمتر او اثنين عن سطح الارض . ان عودتها ، اي عودة ارتفاع نسبة الإصابة وان كانت على مستوى اقل من الماضي ، قد يكون بسبب نشوء المقاومة في الحرمن الواخز الناقل ضد المبيدات . فالحرمن لم يعد يموت بنفس السهولة التي كانت في اواخر الاربعينات واول الخمسينات .

ان شهرة الاخت البغدادية والاثر الذي تتركه جعل من الصعب على أي سائح لبغداد في القرون الخمسة الماضية ان لا ينتبه لها ويذكرها في كتاباته .

الحبة او الاخت ليست في الحقيقة خاصة ببغداد كما قد يتبادر الى الذهن من اسمها ، بل انها توجد في محلات كثيرة اخرى في العالم وتسمى باسماء مختلفة هناك . فهي حبة حلب في سوريا ، وحبة ارمينيا في القفقاس ويران وحبة دلهي في

كما تشتهر بغداد بتراتها العلمي والادبي وبدجلتها ونخيلها وشهريزادها والف ليلتها ورشيدها وسندبادها ، فانها تشتهر بحبة بغداد او اخت بغداد ، واخت بغداد ندية واسعة او صغيرة ولكنها واضحة تبقى على الجلد لاسيما الوجه نتيجة الإصابة بمرض جلدي يسمى الليشمانيا الجلدية . وبالرغم من الشفاء فان الاثر يبقى ولا يزول مع العمر وتسمى اخت بغداد لانها دائما لا توجد منفردة بل هناك نديتان او اكثر ، الواحدة اخت الاخرى او ان التسمية بالاخت نتيجة ملازمة هذا المرض البغداديين دون او اكثر من غيرهم في العراق ، فهناك تلازم بين الندبة والبغدادية كما يوجد تلازم بين الاخت والاخ برعاية ابهم .

لا يكاد يخلو فرد بين سكان بعض مناطق بغداد من اجيال الاربعينيات وما قبلها من الاخت . فقد كانت الإصابة عامة بحيث كانت بين اطفال الاعظمية والحيدرخانة والسك والكرخ وبعض المناطق الاخرى تصل الى ١٠٠٪ . اي انك اذا دخلت اي بيت في هذه المحلات وكان فيه لنفرض خمسة اطفال فان الخمسة مصابون بالاخت بادوار مختلفة من المرض بالاضافة الى الوالدين . كان من الشاذ جدا ان يصل البغدادية سن الرشد بدون ان تظهر عليه اخت واحدة او اكثر ويتساوى بذلك الاولاد والبنات والفقرء والاغنياء وحتى في زمن متأخر كانت الاصابات في الاعظمية قد تصل الى نسبة

حبة بغداد عبر العصور :

بعد هذه المقدمة عن شهرة حبة بفسداد وانتشارها في البلدان العربية ، فان من المناسب ان نعود الى التاريخ لتتجرى عن حبة بغداد عبر العصور القديمة في العراق والناطق المجاورة . ان طبيعة المرض واعراضه تساعد على دراسة المرض تاريخيا وعلى تتبع انتشاره عبر القرون . فالقرحة تستمر لمدة طويلة وتشفى ولكنها تترك اثرا دائما في محل بارز ، ويعمل المرض ان يتركز في مناطق معينة من البلاد دون غيرها حيث يستمر بترك الندب والاثار والتشوهات بين عدد كبير لا بأس به من سكان تلك المناطق . هذا الاثر والتشويه واضح ويجلب النظر بسهولة بحيث كان من السهل على الناس ولا سيما المتطبين منهم تشخيص واعطاء الاسماء المختلفة حسب المناطق كما ذكرناها في المقدمة . كما ان هذه الاعراض تمكن الطبيب والسائح في تلك البلدان من ملاحظتها وتسجيلها بدون ادنى شك او تردد .

لقد استطاع Pringle (1907) وبمساعدة بعض الكتب في تاريخ الطب وملاحظات السواح الاجانب ، ان يعطينا فكرة جيدة (وهو يسميها سطحية تواضعا منه) عن تاريخ هذا المرض في الشرق الاوسط ، وفي بحثنا هذا اعتمدنا كثيرا على دراسة Pringle المشار اليها اعلاه مع الرجوع الى الكتابات العربية مباشرة والتي يشير اليها Pringle وقد اخذها من المؤلفين الغربيين الذين كتبوا عن هذا المرض .

العراق القديم :

ينقل الاب انتاس الكرملي انه جاء في كتاب « وقائع السحرة والمنجمين » في الرقم ٢٥ ما تعريبه : « اما ما يتعلق بداء الجلد فان الملك لم يكلمني عنه صريحا ، فهذا الداء يدوم سنة واحدة وكل من يصاب به لن يشفى منه ، وعليه فقد شاع الان ان الحبة تدوم سنة واحدة » . والكتساب يتحدث عن عهد الاشوريين ، وقد اورد الاب الكرملي هذا النص ليجيب عن سؤال اتاه من احدهم وهو هل ان حبة بغداد كانت معروفة في العراق القديم؟ لم يذهب الاب الى ابعد مما اورده اعلاه .

لم يعثر النقبون والاثاريون حتى الان على تمثال او رسم شخص يظهر على وجهه او اطرافه الندب او التشوهات التي قد تعزى الى حبة بغداد .

والبحوث التي اجراها Campell وThompson (1936) وكتابا الدكتور عبداللطيف

الهند ، كما ان لها اسماء عامة اخرى مثل القرحة الشرقية وحبة بسكرة ، وحبة البلاد الحارة ومسمار بسكرة وحبة النيل وحبة السنة وقرحة الصحراء وقرحة النيل ... الخ ...

المرض متوطن في كثير من الاقطار الاستوائية وشبه الاستوائية ، ويشمل وجودها في غرب آسيا ، بالإضافة الى العراق ، تركيا وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية ويران وقوقاسيا وارمنيا والجزء الجنوبي من روسيا وفي تركستان ، ويمتد وجودها جنوبا الى البنجاب وبعباي في الهند وفي الصين توجد حوالي منطقة هيونان . كما انها توجد في جميع البلدان التي تحيط بالبحر الابيض المتوسط وجزره ، فهي موجودة في مصر وتونس ومراكس والجزائر وفي قبرص وكريت وسردينيا وفي اليونان وايطاليا واسبانيا . وفي افريقيا تصل الى الصحراء الغربية والسودان واثيوبيا والتشاد والنيجر حتى انغولا جنوبا .

ويجب ان لا ننسى ان هناك مرضا مشابها لحبة بغداد بل وافضع منه في امريكا اللاتينية يترك تشويها على الوجه ويعيش مسببه في المناطق الفصروفية في الوجه ويسمى هذا المرض الليشيمانيا البرازيلية .

حبة بغداد في المدن العربية الاخرى :

قبل حوالي ستين سنة كان المرض محدودا في مناطق معينة من سوريا وفلسطين ، وبالذات في منطقتي حلب واربعا على التوالي . كانت اول حالة للمرض في مصر قد ظهرت عام ١٩٢٠ وبعد سنتين ثبت وجودها في القنطرة (قناة السويس) . وفي عام ١٩٢٤ ظهرت في الاسكندرية وفي عام ١٩٢٥ ظهرت بين يافا والقدس وفي القدس نفسها سنة ١٩٦٦ وفي عام ١٩٢٧ ظهر المرض في دمشق . وفي سنة ١٩٢٤ ظهرت الحبة في منطقة تبعد ٢٠ - ٤٠ ميلا الى الشمال الشرقي من القاهرة على طريق قناة السويس . ثم ظهر المرض عام ١٩٣٦ في حيفا . وفي عام ١٩٤٠ ظهر المرض في عشر مناطق في مصر حتى مدينة المنيا التي تبعد ١٥٠ ميلا جنوب القاهرة وفي عام ١٩٤٥ ظهرت حالات كثيرة في فلسطين قرب بيت لحم ، حتى انه ظهر عام ١٩٤٧ في النقب .

وفي هذه الفترة ظهرت حالات المرض في افريقيا الغربية وغربي السودان . قد يكون تسجيل هذه الحالات في هذه الفترات المتأخرة يعود الى سبب التعرف والتشخيص الاحسن للمرض اكثر منه بسبب وقت الفزو الفعلي .

يموت اطفاله او اعداؤه ، قد يكون قانعا او حزينا
قد يموت بالتدرن الرئوي او يعيش طويلا .

يستنتج (Bray et al., ١٩٦٧) من هذه
الكتابة انه قد لا يكون خياليا لو اعتقدنا ان حبة
بغداد كانت موجودة في العراق قبل ٢٠٠٠ - ٤٠٠٠
سنة .

ان هذا الاستنتاج لا يؤيده الكتب الطبية التي
كتبها فطاحل الاطباء في الفترة العربية - الاسلامية
حتى اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، مما
اوحى الى (Elgood, ١٩٣٤) ان يفترض ان حبة
بغداد دخلت العراق مع جيوش هولوكو التي جاءت
من اسيا الوسطى والتركمانية وايران .

ان دراسة الاثار والكتب الطبية التي تركتها
مراكز تعليم الطب والمستشفيات مثل جنديسابور
وبغداد تؤيد وجهة النظر المشار اليها اعلاه وهي
عدم توطن اي نوع من القرح المستديمة في العراق
القديم . هذه المراكز والمدارس الطبية بلغت شهرة
واسعة من تعليم الطب وممارسته من خلال دمجها
الاسس اليونانية والاعمال الطبية البابلية والفارسية
والبيزنطية في المنطقة . ان العلوم الطبية التي انتقلت
الى جنديسابور وبغداد جاءت من منطقة حران
والرقة والرها في مناطق اعالي الفرات ، ولو كانت
هذه القرحة موجودة في العراق لما فات الاطباء
ملاحظتها . مع العلم ان هذه المنطقة اصبحت فيما
بعد مشهورة بهذا المرض .

مصر القديمة :

لقد ورد ذكر . وجود دملة مصر او قرحة
مصر في الكتابات المصرية القديمة التي عثر عليها
في اوراق البردي ، ويعود تاريخها الى ما قبل
٢٠٠٠ سنة ق.م . منذ عصر السلالات الحاكمة
الاولى . قد تكون هذه الدمامل مشابهة لحبةبغداد
كما نعرفها اليوم .

كما ان هناك اشارات متعددة في التوراة الى
بعض الامراض الجلدية وردت فيها كلمات دمامل
وقرح وبثور وهذه ايضا قد تعني اولا تعنى حبة
بغداد ، ففي كتاب الخروج (Exodus) : الاصحاح
التاسع الايات ٨ - ١٢ ورد ما يلي :

« ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملء
ايديكما من رماد الاتون (التنور) وليدعه موسى
نحو السماء امام عيني فرعون ليصير غبارا على كل
ارض مصر . فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل
طالعة يثبور في كل ارض مصر ، فاخذوا رماد الاتون

البدرى عن الطب الاشوري والاكدي اعطتنا صورة
عن الادوية التي استعملها الاطباء القدماء والتي
وردت اسمائها في بعض الرقم والكتابات المسمارية .
ندل هذه الدراسات على ان الادوية كانت في تلك
العهود متقدمة فيما يخص محلات استخدامها ولكنها
كانت بسيطة وكانت تهدف الى ازالة الاعراض
والقرح بدلا من مداواة المرض ولم يكن من الممكن
تشخيص الامراض التي كانت تستعمل لها تلك
الادوية حتى ان الدكتور البدرى ترك فهم وتشخيص
الامراض الى القارىء .

وعلى هذا فلم يمكن تشخيص حبة بغداد من
بين الكثير من القروح والدمامل التي وصفت ووضعت
لها الادوية . في الحقيقة كانت الوصفات المخصصة
للقرح والدمامل الجلدية قليلة مما يدل على عدم
توطن اي مرض يتصف بالقرح المستديمة في بلاد
الرافدين قديما ، ومثل هذه القرح هي الصفة
الرئيسية والمهمة في حبة بغداد .

وقد عثر (Bray et al., ١٩٦٧) على
ترجمة قام بها فيرولود عام ١٩٠٧ لرقم مسماري
من مكتبة آشوربانيبال في نينوى وقد كان هذا
الرقم قد طبع بصورته الاصلية من قبل بواسير
(١٨٩٤) .

تسجل الكتابة على هذا الرقم تنبؤات وتكهنات
(فتح فال) عن المستقبل للشخص الذي تظهر عليه
بعض القرح او الندب وهذه التكهنات تعتمد على
موقع الندب او القرح في الجسم . فالقرح او
الخراجات قد تقع على الوجه والراس مثل الجبهة
والخد والشفة او على الرقبة والايدي والبطن
والركبة والقضيب او على كل انحاء الجسم . يظهر
ان القرحة تحدث بصورة اسم على الوجه اذ
ان هناك تنبؤات كثيرة عن موقعها على الشفة العليا
او السفلى ، على الخد الايمن او اليسر . اما مواقعها
على المحلات الاخرى في الجسم فلم تلاق نفس
الاهتمام .

لم يوجد في هذه الكتابات اي تشخيص ار
معالجة او سبب مع ان مثل هذه الامور كانت تذكر
بكثر في الكتب الطبية الاكديّة والتي وجدت بنفس
المكتبة . طبعاً ان المعلومات الطبية التي وردت في
الكتب لا تعنى انها تخص العراق ، بل انها انحدرت
من اصول اقدم ومن مناطق اخرى .

من الظريف ان نذكر ان المريض سوف يواجه
مصائر مختلفة حسب هذه التنبؤات المعتمدة على
موقع القرحة ؛ فانه قد يصبح غنيا او معدما قد

ان اشارة التوراة الى القرحة حتى بمعد الخروج بـ ٣٠٠ عام تدل على ان هذه القرحة ظلت تخيف اليهود الذين هربوا من مصر . ان هذه الاستنتاجات قد تكون برهانا على ان «قرحة مصر» هي نفسها دملة النيل التي ورد ذكرها في الكتابات المصرية على البردي قبل التوراة . ولكن يبدو ان هذه الدملة كانت مميتة ورهيبه اكثر من حبة بغداد التي لا ينظر لها الناس في اماكن تواجدها بهذه الرهبة .

الحبة في العصور الوسطى :

لقد شهد الشرق الادنى عصرا زاهرا بالعلم والطب وقد ترك لنا العلماء المسلمون والعرب موسوعات ضافية عن الطب ظلت لفترة طويلة هي المعول عليها حتى ظل علينا عصر الطب الحديث . ولكن مع الاسف لا يوجد في اعماق الموسوعات الطبية الاسلامية العربية المبكرة اية اشارة الى مرض جلدي يمكن مقارنته بحبة بغداد ، فمثلا كتاب « الذخيرة في الطب » الموسوعي الذي وضعه ثابت ابن قرة ، والذي يضم قسما كبيرا عن امراض الجلد ، لا يشير ابدا الى اعراض او حالة تشبه حبة بغداد بالرغم من ان هذا الطبيب جاء من منطقة حراء والرقرة والرها - اعالي الفرات - وليس بعيدا عن حلب . فلو كانت حبة بغداد موجودة حينذاك في هذه المنطقة او في بغداد فانه بدون شك كان سيطلع عليها اذ انه كان ذا اطلاع واسع على الامراض الجلدية في وسط العراق .

يقول Pringle ان ابن قرة وضع كتاب الذخيرة حوالي عام ١٢١٠م وهذا غير صحيح لانه اي ابن قرة ، كان قد توفى سنة ٩٠١م وقد يكون المستشرقون الذين اخذ عنهم Pringle قد اختلط عليهم اسم هذا الطبيب الذي تعاقبت اجيال من ذريته في الطب واستعمال هذه الاسماء .

لقد حاول المؤرخ الطبي Elgood (١٩٣٤) ان يبرهن ان مرض حبة بغداد بدأ بالظهور والوجود في البلدان الاسلامية الشرقية في بلاد ما وراء النهر . وقد تبعه بعد ذلك Pringle في هذا الاتجاه كما سيأتي فيما بعد . لقد ذكر Elgood ان اعراض حبة بغداد كانت موجودة في منطقة بلخ منذ وقت بعيد . وبلخ هذه هي القصة السياسية لولاية خراسان ثم أصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة طخازستان . وهي الان ضمن مناطق تركستان السوفيتية المتاخمة لحدود افغانستان .

ووقفا امام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دماملا وبثورا طالعة في الناس وفي البهائم ، ولم يستطع العرافون (السرحة) ان يقفوا امام موسى من اجل الدمامل ، لان الدمامل كانت في العرافين وفي كل المصريين » .

لقد كتب كتاب الخروج حوالي ٩٠٠ سنة ق.م . وقد تشير هذه الحادثة الى ما قبل الخروج بقليل اي حوالي ١٢٣٠ سنة ق.م . بعهد حكم قرايين بنتا .

كذلك ورد ما يلي في كتاب التثنية (Deuteronomy) في الاصحاح ٢٨ وفي الايات ٢١ - ٢٧ :

« يلبص بك الرب الوباء حتى يببلك عن الارض التي انت داخل اليها لكي تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول ، فتتعبك حتى تفنيك ، يضربك الرب بقرحة مصر والبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء » .

وقد كتب كتاب التثنية بعد كتاب الخروج بحوالي ٣٠٠ سنة ولغرض غير الغرض الذي كتب من اجله كتاب الخروج . فقد كان في كتاب الخروج الدعوة على مصر والمصريين اذا هم لم يسمحو اوسى ان ياخذ اصحابه .

اما في كتاب التثنية فقد كان هناك تهديد لليهود انفسهم لانهم راحوا يخالفون تعاليم الرب . وعلى اية حال تظهر الاشارة الى نفس المرض الذي بقي عالقا في الازهان جيلا بعد جيل بحيث يمكن تهديدهم به اذا هم خالفوا ولم يطيعوا تعاليم وشريعة موسى . وفي كتاب التثنية ورد ذكر المرض باسم « قرحة مصر » .

وقد علق Millington (١٨٧٢) على هذه القرحة بقوله : « انها تختلف عن جميع الانواع الاخرى من الدمامل والقرح من حيث الاصل ومن حيث تأثيرها ، كما تختلف عن الاوبئة الاخرى اذ انها توقفت عند حدود ارض معينة وانها لم تصب اليهود وان كانوا يعيشون في المدن المصرية . وقد علق Pringle (١٩٥٧) عدم اصابة اليهود بها الى احتمال انهم قد بدأوا من مجتمع ديني غير مهم وكانوا يعيشون حياة البداوة في الصحراء على حواف الدلتا مما ساعد على تخلصهم من الاوبئة الحضارية في المدن . وقد يكون تلميل Pringle هذا معقولا لان اليهود بعد ان عاشوا في المدن كانوا ممن تنفسي بينهم حبة بغداد بكثرة .

السكان في قسبة بلغ اسم عضة البعوض (بيض غاز بيداجي) على الحبة . ان من المناسب ان ننتبه هنا الى ان الناس في بلخ ربطوا بين المرض وبين عضة البعوض . وقد يكون ذلك من اقدم الاشارات الى حدوث او انتقال مرض ما مستديم ومتوطن بعد عضة البعوض او بكلمة اعم حشرة ما . طبعاً نحن نعرف الان ان الحرمس وليس البعوض هو الناقل لطيفلي حبة بغداد ولقد اطلقها الى منطقة داهستان اسم «ساخك» على حبة بغداد الذي يعني البعوض او عضة البعوض .

وفي اوائل القرن الخامس عشر كانت لاتزال الحية موجودة بنفس المنطقة حيث اطلق عليها الطبيب منصور بن محمد بن احمد بن يوسف بن فقيه الياس اسم البلخية وهذا يؤيد ما ذهب اليه الاب الكرمللي من انها البلخية وليس البليحية كما ذهب اليه الدكتور داود الجليبي ويعتقد المؤرخ الطبي Elgood (١٩٣٤) ان المرض دخل مدن السرى ومشهد في شمال شرقي ايران في هذه الفترة .

تاريخ حبة بغداد في بغداد :

ان اول اشارة الى وجود هذا المرض في بغداد والشرق الاوسط هو ما ذكره الطبيب بهاء الدولة ابن مير قوام الدين قاسم نور بخش الرازي (وهذا ليس الطبيب محمد بن زكريا الرازي الشهير) في كتابه « خلاصة التجارب » والذي وضعه حوالي عام ١٥٠٠م من ان الحبة لا تزال متوطنة في بلخ وانها منتشرة بكثرة في بغداد وقد اسماها بعض الناس لوجودها بكثرة في بغداد « لوزنج بغداد » . ويذكر بهاء الدولة الرازي انها تكثر بين الفقراء ، وقد تستمر لمدة سنة اذا بقيت بدون مداواة ، قد يكون كتاب « خلاصة التجارب » هو اقدم كتاب ذكر وجود حبة بغداد في بغداد والعراق . وفي هذه الاثناء ذاع صيت المرض بين الايرانيين وقد اسماها « حبة ارمنييا » وبقي هذا الاسم حتى العصور الحديثة . لقد ذكر وجودها لأول مرة في اصفهان عام ١٨٣٠ وفي طهران عام ١٨٤٠ بالرغم من وجودها في شمال شرقي ايران منذ مدة طويلة .

ان كتب بعض السواح الذين زاروا بغداد في القرون الاخيرة لا سيما القرن التاسع عشر ، تشير الى حبة بغداد ، فقد ذكرها Dupre الذي زار بغداد عام ١٨٠٨ ومكث فيها مدة طويلة ، فقد جاء في كتابات Dupre حسب ترجمة سمامد العمري في كتاب « بغداد كما وصفها السواح

من اقدم اطباء الدين وصفوا حبة بغداد واعطوا اعراضها بصورة دقيقة وواضحة جدا من بلخ هو ابو منصور حسن بن نوح القمري البخاري الدين كان في بخارى ، ومات عام ١٩١١م . كان ابو منصور احد اساتذة ابن سينا ، الف كتاب «غنى ومنى» وهو كتاب « الحياة والموت » وهو مقسم الى ثلاثة اقسام : الامراض الباطنية ، الامراض الظاهرة ، والحميات . كما ان لابي منصور مقالة في الطب .

ومن اشار الى حبة بغداد الطبيب والفيلسوف الاسلامي العالمي الشهير ابن سينا المتوفى ١٠٣٤م ، وقد ذكرها باسم قرحة او حبة بلخ في كتابه المشهور « القانون في الطب » ويظهر انه اسماها ايضا البلخية . ومن الممتع ان نذكر انه جرى جدل علمي طريف بين المرجومين الكرمللي وداود الجليبي في الثلاثينات من هذا القرن على صفحات لغة العرب . فقد اورد الكرمللي اسمها مرة البلخية ، فاعترض عليه الجليبي قائلاً انها البليحية « بالحاء » لانها تتواجد دائماً حيث يوجد البلح وان ابن سينا اسماها البليحية . فاجابه الكرمللي انها لا ترتبط بوجودها بالبلح واحسن دليل على ذلك وجودها في محلات لا يوجد فيها البلح « التمر » وان ورودها في القانون باسم البليحية قد يكون تصحيف للنسخ لان هناك نسخاً من الكتاب تذكرها باسم البلخية ، ونظراً لورودها باسم البليحية في كتب اخرى قديمة من المنطقة «انظر ادناه» وللحجج التي ساقها واوردها الكرمللي فان الكلمة الصحيحة هي البليحية ، وقد يكون قد حدث تصحيف في الكلمة في نسخة القانون للمخطوطة التي كانت لدى الجليبي .

وايضاً من اشار الى هذا المرض الطبيب ابو الفضائل اسماعيل بن الحسن زين الدين الجرجاني والذي يسمى غالباً سيد اسماعيل . كان هذا الطبيب يكتب بالعربية والفارسية وتوفي عام ١١٣٧م (٥٣١هـ) واهم كتبه الكتاب المعروف « ذخيرة خوارزمشاه » بالفارسية . والكتاب دائرة معارف طبية الفه للشاه قطب الدين محمد ، كما الف ايضا لوزير العزيز كتاب «اغراض الطب» وهو صغير الحجم ، مخصص للذخيرة . وقد ورد اسم كتاب الذخيرة في مقالة Pringle (١٩٥٧) باسم System of medicine . وللسيد اسماعيل كتاب الطب الملوكي وكتاب زبدة الطب وتدبير يوم وليلة وهو في الطب ايضا . يذكر الجرجاني ان حبة بلخ - اي حبة بغداد - كانت لا تزال متوطنة في بلخ وانها كانت موجودة في خانات دهستان . يطلق

الاجانب في القرون الخمسة الماضية « عام ١٩٥٤ ،
ص ٤٣ - كما يلي :

« ويوجد في بغداد ايضا كما يوجد في حلب
وماردين وغيرها من المدن حبة بغداد (الاخت) .
تكون جروح الوجه ذات الندب عند الناس بصورة
عامة ولا ينجو منها حتى الاوربيين الذين يسكنون
بغداد سنوات عديدة » .

ذكر القس Southgate ، ١٨٤٠ ، وجود
الاخت في بغداد بنفس العام ، وقال عنها ما يلي :

« الاطفال الذين رايتهم في الشوارع كأنهم
مرضاه وكانت وجوههم مشوهة بنذب قبيحة ، هذه
الندب تظهر نتيجة القرحة والتي تظهر بادي الامر
بشكل دملة على الجلد وتتكون بعد ذلك وتنتزع منها
القشور على التوالي . لم اتمكن من اكتشاف
سببها . انها خاصة بالبلد واذا كانت مصادر
اخباري صحيحة فانها تنتشر في محلات على الحدود
الغربية الصحراوية في الجزء الشمالي من سوريا .
الغريب الذي يعيش طويلا في بغداد لا ينجو منها
ولكن تصيبه مرة واحدة واحيانا لا تظهر الا بعد
شهور من وصوله . انها تصيب الحيوانات ايضا
كما هي الحالة في الانسان » .

ومما جاء عن حبة بغداد في القرن الماضي ما
ورد في كتاب نائب القنصل الفرنسي في بغداد الى
وزير الخارجية الفرنسية عام ١٨٦٣ ، فقد جاء في
تلك الرسالة ما يلي . (وانقل هنا نص الترجمة
كما جاءت في كتاب الحياة في بغداد منذ قرن لمؤلفه
بير دي نوصيل وترجمه د . اكرم فاضل عام
١٩٦٨) :

« منذ عودتي من طوافي بديار بابل رزئت
بانثاق حبة بغداد ، فقد كان من سوء حظي ان
اصاب بخس وثلثين حبة في كل انحاء جسي ،
ويقول اطباء هذا البلد ، يا سيادة الوزير ، انهم لم
يشهدوا طوال اعمارهم طفحا بهذه الكثرة . وقد
انتشر بصورة خاصة وبكثرة على المفاصل الكبيرة .
لا سيما على الساعد الايسر ، بحيث يخشى طبيبي
ان يظل متشنجا . وهذه القرحة التي ينساب من
اوساطها وبدون انقطاع فيح اصفر تنن حاد يشير
لدى حكات حادة متصلة اعاني من جرائها اوجاعا
هائلة . والاتكى من ذلك ، يا سيادة الوزير ، اني
منذ ملازمتي الفراش قبل خمسين يوما لم اغمض
جفني خلالها اكثر من ستين ساعة . وهذه الليالي
المؤرقة تكاد تقتلني ، وها قد انهارت قواي ، ولا
يوجد دواء لهذا المرض وان جروحي التي سمة

اصفرها كسعة نصف راحة السيد تتببس اعتياديا
بعد ثلاثة او اربعة شهور فتصبح بشكل قشرة
فظيعة تدوم هي نفسها ثلاثة اشهر قبل ان تسقط .
وقد اكد لي مختلف الاطباء الذين استشرتهم بان
مرضني يشارف على نهايته وان هذه الخراجات
ستجف بعد فترة قصيرة من تلقاء نفسها وهو كل
ما اشتبهه . يا سيادة الوزير ، بغية التخلص بسرعة
من حالتي لتليسة التي اتخطب في احوالها ذلك لان
لامي هائلة » .

وفي سنة ١٨٨٣ ياتي ذكر حبة بغداد في كتاب
« رحلة مدام ديولافوا الى كلده العراق » والذي
نقله الى العربية عن الفارسية على البصري عام
١٩٥٨ . فقد جاء في الصفحة ٧٩ ما يلي :

« ولكن من المؤلف انهن (اي النساء الكلدانيات
في بغداد) مثل النساء الاخريات في هذه البلاد -
اليهوديات والمسيحيات والمسلمات - مبتليات بعدو
خبيث يسمى (الاخت البغدادية) يشوه جمال
صورتهم بما يترك فيها من ندب ولم اجد حتى
الآن امرأة من هؤلاء النسوة تكون قد نجت من هذه
الآفة اللعينة . ويخيل للرأي انه قد رمسي على
صفحة وجه كل منون او كسيد السولفريك فتشوها
هذا التشويه . . وهذه الاخت البغدادية اول ما
تظهر تكون نقطة بيضاء على الخد او اي مكان اخر
من الوجه ثم تحمر وتتورم بشكل ظاهر تظهر عليها
بعد ذلك قشرة كبيرة كما هي الحال في الجدري
وعندما تتببس هذه القشرة وتسقط تتخلف عن
ذلك ندبة صغيرة في الوجه تشوه جماله . ولقد
علمت انه حتى الوافدين على بغداد من الخارج
لا ينجون منها فان لم تكن اصابتهم بها حال قدومهم
فلا محالة انهم يصابون بها بعد حين على ابعمد
الاحتمالات ولكن الذي يبعث على العجب ان هذه
الآفة لا تصيب الا البلديات من اهل البلد امسا
الاوربيات فان اصبن بها فيكون ذلك على ابدانهم
لا على وجوههم مع علمنا بان اصابتهن جد قليلة .

اغرب من ذلك ان الاطباء لم يستطيعوا ان
يجدوا دواء يعالجون به هذه الآفة حتى الان » .
وعلى الصفحة ١٢١ من نفس الرحلة تعود
الدمام فتقول :

« مخاطر مرض الطاعون والاخت البغدادية . .
ولا يغوتني ان اقول ان البلايين الاخيرين عندي
هما اسهل تحملا - اي الطاعون والاخت البغدادية -
من وجود الموظفين العثمانيين » .

الادوية المستعملة لا تعط اي نتائج . يقول ان حشرة ما تقوم بنقل المسبب ، وقد شك بالمعوض وبق الفراش ، ويضع الحرمن على راس القائمة . كما انه وجدها في الكلاب . كما انه يذكر ان بعض الناس يعتقدون فقط ان من يشرب ماء الفرات او دجلة يصاب بالمرض .

ومن المناسب ان نذكر هنا ، وسوف ياتي بعد ذلك بالتفصيل ، ان هذا العالم هو الذي اثبت بصورة قطعية بعد دراساته في حلب ان الحرمن هو الحشرة الناقلة لسبب المرض .

ومن اشتغل علميا على حبة بغداد من الاجانب الدكتور غوردن جيرى برنكل الذي جاء الى العراق عام ١٩٤٧ ليرأس معهد الامراض المتوطنة والذي كان قد انشا حديثا لمكافحة الملاريا ، بقى برنكل بالعراق عشرة سنوات . لقد كان لهذا العالم البريطاني الفضل في وضع عدة دراسات عن الامراض المتوطنة في العراق مثل الملاريا وحبة بغداد والكلزاز وقد نشر جل بحونه في مجلة الامراض المتوطنة التي لا تزال تنشرها وزارة الصحة منذ ١٩٥٤ . وسوف تاتي فيما بعد تفاصيل بحوث برنكل عن حبة بغداد.

اما العراقيون فقد اشتغل الكثيرون منهم حول هذا المرض . اول من اشتغل ، كما ذكرنا . د . نابليون الماريني ، ثم نشر ادوارد بصمه جسي كتيب باسم « بعض الملاحظات عن حبة بغداد في العراق » (دار الطباعة الحديثة / بغداد ١٩٣٠) (مع . لاسف لم يتمكن ان اجده او اعثر عليه) . كذلك اشتغل على الاخت الدكتور جورج فرج رحيم استاذ الامراض الجلدية في كلية طب بغداد سابقا والدكتور اسماعيل التتار ، لاستاذ في كلية الطب في الوقت الحاضر والدكتور المرحوم سلمان تاج الدين .

كما جرت دراسات كثيرة عن الحرمن الناقل لسببات هذا المرض في العراق من قبل برنكل وجليل ابو الحب وزهير محسن وبدر الغزاوي وسعد عبد الوهاب وفؤاد سكر وغيرهم . وسوف يجد القارئ في آخر البحث تبنا بالدراسات والبحوث عن الحبة والناقل (الحرمن) والحيوانات الخارئة في العراق وباللغة الانكليزية .

الحبة في حلب :

وما زلنا في صدد البحث عن حبة بغداد في بغداد ، فان من اللائم ان نذكر ما نعرفه عن تاريخ هذه الحبة في حلب ، محل اخر مشهور جدا بهذا

وحتى في وقت متأخر مثل عام ١٩٢٣ ، ذكرت الليدي دراوير في كتابها « بلاد الرافدين ، صور وخواطر » ترجمة فؤاد جميل عام ١٩٧١ على الصفحة ٣٣١ : « وقد يصاب الطفل بحبة بغداد (الاخت) عادة وما ان تتفتح الا وتمعد الام الى طلائها بمستحضر قيري وعلى الرغم من ان هذا المستحضر غير ضار بعد ذاته ، لكن القيق قدارة والقذارة يقف عليها الذباب فتسوء حالة الطفل لذلك » وكما ترى لم تذكر الليدي دراوير شيئا عن الاثر او الندبة التي تتركها القرحة .

الا ان من العجيب ان بعض الرحالة المشهورين مثل بنجامين التظلي وبكتفهام وينبوروصون ورج لم يذكروا شيئا عن حبة بغداد ، كما ان الرحالة العرب المشهورين مثل ابن جبير وابن بطوطة ايضا لم يذكروا شيئا عن الاخت البغدادية ، قد يكون لعامل الزمن دخل بذلك لا سيما للاوائل من هؤلاء الرحالة .

اما بالنسبة للدراسات العلمية حول الحبة فقد بدأت منذ اوائل هذا القرن ، عندما نشر د . نابليون الماريني ، اخو الاب انتاس الكرملي ، في الاعوام ١٩٠١ و ١٩٠٤ وفي مجلة الشرق البيروتية ، وقد عربها المرحوم الكرملي عن الفرنسية . نشر الماريني دراساته وتجاربه وتصوراتيه عن هذه الحبة ، كما انه ذكر دراسات بعض الاطباء الفرنسيين عن هذه الآفة في حاب وفي عام ١٩١٠ جاء الى بغداد الاستاذ وبنس وقام بدراسات مطونة وسجل كثيرا من الملاحظات اجراها في آذار - تشرين الثاني من نفس السنة .

فقد ذكر انها عامة الوجود لذلك كان من السهل عليه دراستها . ان الاطفال ممرضون ويتوقعون الاصابة بها كما يتوقع اطفال بريطانيا الاصابة بالحصبة ، الا ان الناس لا يخافون ، الاخت البغدادية . وقد ذكر انها تصيب الاطفال بين السنة والثلاثة واول ما تظهر على الاطفال ، والبسو غير مصابين كما هي الحالة بين سكان المدن . وتظهر في اي وقت من السنة ولكن اكثر ما تكون في الخريف في وقت نضوج التمر ، ولكنه يسرع ويقول ان هذا لا يعني ان هناك اية علاقة بين الاصابات والتمر ، اذ ان الاطفال الذين لا يأكلون التمر ايضا يصابون بها . يعتقد الناس ان هناك نوعين منها - ما يسونه بالذكر والانثى - وقد وجد ذلك صحيح سريريا ، المتبيحة وغير المتبيحة وان كان الاثنان يبدان بنفس الشكل ، - لا يمكن الا القليل من المعالجة - وكل

حمراء ، واذا لم يلعب بها المريض فانها نادرا ما تكون مؤلمة .

اما النوع الثالث من المرض والذي يسمونه وخزة خاتم سليمان ، فانه يبدأ مثل الآخرين ولكن نادرا ما ينمو ويتوسع الى اكثر من ضعف راس دبوس كبير ولا يبدل مظهره ابدا . يبقى المرض بشكل درنة صغيرة لعدة شهور وبدون ألم . بعد ذلك تتساقط منه بعض القشور الحرفشية ويختفى ولكن بعض الاحيان قد يبقى مدة اطول .

المرض يصيب الاهالي وهم اطفال وعادة على الوجه وان كان يصيب بعضهم على الاطراف وان اكثرهم يحمل تدبنتين او ثلاثة او اكثر والتادر منهم من يحمل ندبة واحدة . اما بين الغرياء ، فانه يظهر بعد بضعة شهور من دخولهم ولا يظهر بكثرة على وجوههم مثل الاهالي . قليل من الناس من ينجو من المرض ولكنه نادرا ما يصيب نفس الشخص اكثر من مرة واحدة . يصيب المرض الكلاب والقطة كما يصيب الانسان وعادة يظهر على الخطم (البوز) في هذه الحيوانات .

اما بالنسبة للعلاج فكما هي الحالة مع اوجاع الاسنان والزكام عندنا ، كل واحد يصف علاجاً للمرض لكن الوجه الجميلة والتي يشوهها المرض احسن دليل على عدم جدوى هذه الادوية . في الحقيقة ومن ملاحظاتي ، ان من الاحسن كثيرا ان لا نستعمل دواءً وذلك خير من الادوية غير المجدية التي يستعملونها .

وممن كتب عن المرض في حلب من السواح Pecoche عام ١٧٦٥ وقد سجل الملاحظة التالية :

« ان للماء هنا خاصية معينة والتي تسبب بين الغرياء الذين يشربونه انتشار ثلاثة او اربعة قروح حول الايدي والعضد ، تستمر هذه القروح من مدة نصف سنة الى سنة وتكون مزعجة . بعض الغرياء لا تظهر عليهم هذه القروح الا بعد ان يعيشوا هناك عدة سنين ، ومن الملاحظ انها تصيب الاهليين مرة واحدة وعلى وجوههم عادة . ليس هناك اي دواء لها . يسميها الانكليز (مرض حلب) » .

الحبة في اعالي الفرات :

اوديسا (الرها) من المحلات الاخرى المشهورة بالمرض . وارتدت ان اذكر هنا ملاحظة احد السواح لهذه المدينة عن الحبة ، المهم في هذا هو ان هذا السائح نفسه كان قد بقى في بغداد والموصل لمدة لا باس بها ، ضيفا على المقيم البريطاني كلودبوس رج

المرض في البلاد العربية ، اول من كتب عن حبة حلب كان الدكتور Russell (١٧٥٧) وقد يكون هذا الدكتور هو اول من وصف الحبة باللغة الانكليزية ومن حلب بالفرات . فيما يلي وصف الدكتور لهذه الحبة (نقل عن برنكل - ١٩٥٧ - والذي نقله بدوره ترجمة كاملة من الفصل المعنون حبة او مرض حلب Mal de Aleppo في كتاب « التاريخ الطبي لحلب » ونحن بدورنا نترجمه عن ترجمة برنكل المشار اليها اعلاه) :

« ينتشر بين الاوربيين اسم مرض حلب او شر حلب "Aleppo Evil" وهو مرض جلدي ، يعتقد البعض انه خاص بهذه المنطقة بسميه الاهالي حبة او قرحة السنة بالنسبة لفترة بقائه والتي تدوم سنة كاملة ، وتسمى بالتركية «طالب جوان» او قرحة حلب . ان هذا المرض في الحقيقة ليس خاصا بهذه المنطقة فهو يوجد في عنتاب والقرى الاخرى على نهر سيجور Sejour وسويك Coick وكما هو الحال في حلب . وجوده في هذه المناطق يوحى بفكرة تسببه عن الماء .

يصف الاهالي نوعين من المرض ويميزون بينهما باسم ذكر وانثى وهناك نوع ثالث يعزى الى عضة خاتم سليمان او قملة الخشب ولكنه بالنسبة لي هو نفس المرض ولكن على درجة اخف . ان ما يدعوه الاهالي بالذكر يظهر في بادئ الامر بشكل دملة او درنة صغيرة وحمراء وقوية وتستمر لمدة اسابيع لا يكثر لها الاهالي اذ انها لا تسبب اي ألم . ثم بعد ذلك تبدأ بالتوسع وعادة تصل الى حجم عملة الست عانات الانكليزية (Six pence) انها تبقى حتى تندمل ، اجزاؤها تحت الجلد ، هذا اذا لم يحاول المريض حلها واللعب بها ، تسقط القشرة العليا تاركة اثرا صغيرا . ان فترة هذه الحالة نادرا ما تزيد عن ثمانية شهور .

اما ما يسمونه بالانثى فانها تبدأ قبل حالة الذكر ولكنها تتأخر عنها بشهر او شهرين ، تصبح مؤلمة وتتوسع تقريبا الى ضعف حالة الذكر وتفرز كمية كبيرة من القيح تحت القشرة وتصير بشكل قرحة حرفشية تحيط بها دائرة فعالة ولكنها اعمق . تبقى على هذه الشاكلة لعدة شهور ، عادة الى حوالي السنة من بدء ظهورها ، قبل ان تشفى . ان هذه المدة ليست ثابتة ، كثير من الحالات تشفى وتزول لبضعة شهور قبل ذلك ، بينما تستمر حسابات اخرى وتبقى لشهور اطول بعد ان تشفى ، ترك اثرا قبيحا مستديما مدى الحياة وتبقى لعدة شهور

ومع أنه سجل ملاحظات عن المرض في اوديسا فانه لم يسجل اي شيء عنه في بغداد او الموصل مع ان المرض كان معروفا هناك . ان هذا السائح هو Buckingham وقد كتب سنة ١٨٢٧ يقول :

« لا ينجو واحد من خمسة من هذا المرض . كل السكان في اوديسا بمختلف طبقاتهم معرضين للمرض بشدة ويصيبهم على الوجه مثل المرض الذي ينتشر في حلب - لكن في هذه المنطقة يعم على درجة اكثر . لم ار واحدا من خمسة من سكان هذه المنطقة بدون المرض بينما يكون نصف الاهالي في حلب مصابين به . وهنا ايضا الاثر الذي تركه القرحة اكثر عددا وتشويها ، يغطي جميع الوجه احيانا وغالبا ما يمنع نمو اللحي من بعض المناطق . وغير ذلك فان المرض يشوه الناس الذين هم من كل الوجوه ، اصحاء وذو جمال . يعتقد الاهلون في حلب ان القرحة تظهر بسبب الماء ، اما هنا فان الاهالي يعتقدون انها بسبب الهواء . من المحتمل ان الاثنين هما اسباب غامضة يعزى لها مرض غير معروف او مدروس جيدا » .

ويذكر نفس السائح Buckingham نفس الحالة في ماردين . فهو يقول انها توجد بنفسى مستوى وجودها في حلب . اما في ديار بكر فانها تصيب واحدا من اربعين فقط من سكان هذه المدينة .

ان اوديسا هنا هي الرها او اورفا وتكتب Edesse ، وليست المدينة التي هي مرفا في غرب الاتحاد السوفيتي (اوكرانيا) ، كما ان Buckingham لم يكتب شيئا اخر في بغداد او الموصل لانه كان هناك في عام ١٨١٦ وزار الرها بعد ذلك ، ورحلته كانت قد نشرت عام ١٨٢٧ وان ما ذهب اليه Pringle من ان هذا السائح زار بغداد والموصل بعد منطقة اعالي الفرات يظهر انه خطأ ، لانه كان ضيفا على رج القيم البريطاني والذي توفي بالكوليرا عام ١٨٢١ في جنوب ابران .

منشا المرض

يورد برنكل نظرية ظريفة - وقد تكون اصيلة - عن منشا المرض ووصوله الى الانسان ، اقدمها فيما يلي باختصار من اجل الفضول العلمي :

من الممكن القول ان حبة بغداد غزت الشرق الاوسط من بؤرة متوطنة قديمة في اواسط آسيا . ان قدم هذه البؤرة في هذه المنطقة واضح ليس فقط لان الاصابات كانت قد ذكرت هناك لأول مرة

بصورة اكيدة ، ولكن ايضا بسبب حقيقة هي ان ضربا من الطفيلي المسبب لا يزال يعيش ويوجد في نفس المنطقة بين قوارض الصحراء . فالحرمس الناقل يكون وسيلة لبقاء هذا الطفيلي في مستعمرات اليربوع وسنجاب الارض . من السهل اذن ان نفترض ان هذه البؤرة تمثل بقاء نمط الوبائية من عصور سحيقة وقديمة اقدم من تلك التي توجد في المدن وعلى الانسان . تحدث احيانا اصابات بهذا الضرب من الطفيلي للانسان الذي قد يوجد في وحول مناطق هذه القوارض البرية وعن طريق الحرمس ايضا . القرحة الجلدية الناتجة من حيث الاصابة بهذا الضرب وان كانت تشبه من حيث الاساس حبة بغداد ، فانها تبقى لمدة اقصر ، ومن الصعب العثور على الطفيلي في منطقة القرحة على الانسان . ان هذا يعني صعوبة وقلة انتقال هذا الضرب من ولى الانسان ولا سيما وان هذا الضرب لم يتكيف جيدا للتطفل على الانسان في قفقاسيا . ويوجد بالقرب من المحلات ، حيث يوجد المرض متوطنا بين القوارض ، عدد من مناطق حبة بغداد المتوطنة بين الناس . بعض هذه المناطق قريبة او بين اقدم المحلات التي عرف فيها المرض ، لكن المرض هنا ينتشر بصورة رئيسية في المدن ، والقرحة على الانسان لا تشبه تلك التي توجد في مناطق اخرى يتوطن فيها المرض في العالم القديم . تدل الدراسات الوبائية في هذه المناطق على ان القوارض وغيرها من الحيوانات لا تلعب دورا مهما في خزن او انتقال مسببات المرض . ان من المفري ان نفترض ان هذا الضرب من الطفيلي الذي ظهر لأول مرة على الانسان في قفقاسيا نشأ من ضرب تكيف للتطفل على الانسان وهو من نفس نوعية الضرب الذي يصيب القوارض . ان هذا لم يكن ليحدث الا بعد ان بدأ الانسان في اقتصاد الاستقرار والعيش في المدن . بعد ان وصل الانسان الى هذا الدور المتقدم فقط صار الحال مفتوحا لكي يتكيف الضرب المحلي (والذي كان على القوارض) على الميل والبيئة الجديدة فانها اكتسبت الصفات الملائمة على الاقل قبل الف سنة .

لقد انتشر المرض الى محلات وجوده الان في الشرق الاوسط من منشئه في اسيا الوسطى وبصورة خاصة من منطقة جرجان وبلخ المعروفتين مستعينا بنوع معين من الحرمس ، الحيوان الناقل . فمن قفقاسيا وارمينيا الى الاناضول واخيرا الى العراق . ان بؤر تواجده الصغرى في ارمينيا وجورجيا وداغستان والمعروفة اليوم ما هي الا بقايا

معزولة اثرية من الوجود الاصلى الواسع هناك ، حسب نظرية العالم Latyshev (١٩٥١) .

لقد اعتقد Elgood (١٩٣٤) ان المرض وصل العراق وبغداد عن طريق جيوش المغول والتر الغازية والتي كانت قد دمرت خراسان وايران قبل ان تصل وتدمر بغداد . اذا صحت هذه النظرية فانها « ماثرة وانجاز » اخر اسدتها جيوش جنكيزخان وهولاكو . وقد يكون عدم ذكر المرض من قبل بنجامين التطلّى وابن بطوطة وابن جبير في رحلاتهم ان المرض كان بعد لم يصل بغداد لانهم زاروا بغداد قبل جيوش هولاء أو بعده بقليل (ابن بطوطة في اوائل القرن الثامن وابن جبير في اوائل القرن السابع) .

لكن برنكل يعتقد ان المرض دخل العراق بالتسال البطيء الطبيعي من الاناضول جنوبا ، مستفيدا من جيوب من الاصابات استعملها بمثابة « قناطر عبور » . في القرن الخامس عشر كانت بغداد قد دمرت جزئيا من قبل الجيوش الغازية والطاعون . وفي حالات مثل هذه تتوقف عادة الإدارة والعناية وتلف الممتلكات . هذه الظروف شجعت على زيادة تكاثر الحرس في المدن ، لذلك فان تمركز المرض في بغداد في القرن الخامس عشر صادف ظروف ملائمة .

قد يكون المرض ايضا منتشرا في افغانستان وباكوجستان في نفس الوقت الذي كان ينتشر فيه في ارمينيا والاناضول وبغداد وقد يكون عن هذه الطريقة قد انتشر ضرب الطفيلي الشرقي .

وصف المرض :

يصف الدكتور فرج جورج رحيم والدكتور اسماعيل التتار (١٩٦٦) المرض كما يلي :

« حبة بغداد قرحة خاصة تظهر عادة على الاجزاء المكشوفة من الجسم في محل عضة حشرة الحرس المصابة . الدملة في البداية تكون صغيرة حمراء ، ولا تظهر الا بعد ٢ - ٨ اسابيع واحيانا اكثر ، بعد العضة المعديّة . تتوسع الدملة الحمراء المستديرة تدريجيا بالحجم وتبدأ بعد ٢ - ٦ شهور بالرخاوة والتلين في وسطها مكونة حراشف على السطح وبالنهاية تتفتيح . يمكن تقسيم ادوار المرض الى الادوار التالية

- ١ - دور الدملة الصغيرة The Nodular stage
- ٢ - دور التحبب The granulomastous stage
- ٣ - دور الندبة The cicatrasation stage

موسم الإصابة :

يكاد يجمع كل من ذكر حبة بغداد في الكتابات القديمة على انها توجد على الانسان في جميع شهور السنة . وقد ذكر الدكتور نابليون الماريني بان فصلي الخريف والشتاء هما وقت ظهور الإصابة بسبب فترة الحضانة للميكروب المسبب . امّا الحوث ، لحدثة فان دراسة رحيم والتتار (١٩٦٦) تحمل معومات عن موسم الإصابة . فقد ذكرا ان الاصابات الجديدة تظهر وتبدأ بالزيادة في شهر ايلول وتشرين الاول وتصل حدها الاعلى في كانون الثاني وشباط ، ثم تنخفض الاصابات في آذار وتكون على اقلها في تموز وآب . وقد كان هذا النمط نفسه ثابتا ولمدة ثلاث سنوات من الملاحظة والدراسة .

علاقة العمر بالإصابة :

لقد لاحظ الاقدمون ان الاطفال هم اول من تحدث لهم الإصابة . وفي مسح شامل في البيوت بالاعظمية وجد برنكل (١٩٥٧) ان الإصابة تبدأ في وقت مبكر من عمر الطفل قبل السننتين وتزداد مع تقدم العمر كما يوضحها الجدول التالي :

جدول رقم (١)

علاقة العمر (بالسنين) بالإصابة بحبة بغداد

العمر بالسنين	عدد المفحوصين	نسبة الإصابة (قديمة وحديثة)
٢ - سنة	٣٥ فردا	١٢٪
٢ - سنة	٦٥ فردا	٣٠٪
٦ - سنة	٤٣ فردا	٥٦٪
فوق الـ ١٢ سنة	١٦٩ فردا	٨٠٪

طبعا ان هذه النسب لا تعني الإصابة بهذا العمر ولكنها تعني اصابة تجمعية (تكور) اي قد يكون الشخص المفحوص والذي كان مصابا قد اصيب بعمر قبل العمر الذي جرى فيه فحصه .

يؤيد ذلك رحيم والتتار (١٩٦٦) إذ يقولان ان الإصابة تحدث في أي عمر كان ، وقد كان اصغر مريض عالجه بعمر ستة شهور ، واكبر مريض عالجه كان بعمر ٥٤ سنة . وقد كانت الإصابة على اكثرها في العمر ٦ - ١٢ سنة .

مسبب المرض :

وبعد ذلك ظهر ان هذا الحيوان يعود الى الجنس **Leishmania** وهو من الابتدائيات السوطية يمت بصلة القربى ، بالدرجة الثانية ، الى سبب مرض النوم الافريقي . ونتيجة للدراسات ابدل اسم طفيلي : الحبة الى **Leishmania tropica** . ومن المناسب ان نذكر هنا ان العالمين الروسيين Borow و Marzinowsky كانا قد اكتشفا ايضا عام ١٩٠٤ طفيليا من مريض بالقرحة الشرقية (حبة بغداد) من حالة مريض كان قد عاش في ايران وقد اعطى هذان العالمان للطفيلي الذي اكتشفاه الاسم العلمي **Ovoplasma orientale** وقد اثبتت البحوث فيما بعد ان التسوع **O. orientale** هو نفسه **L. tropica** اي انهما اسمان لحيوان واحد لذلك اطلق عليه الاسم **Leishmania tropica** Wright لانه اقدم الاسمين وحسب نظام او قانون الاسمية في التسمية .

وبائية حبة بغداد :

كانت هناك عدة آراء للاقدمين عن سبب حبة بغداد وعن كيفية انتقال المرض وقد مرت بنا هذه الآراء . لكن من المهم ان نذكر ان الاقدمين قد ربطوا بين المرض والحشرات وانها تلعب دورا مهما بنقله ومنذ ان اكتشف الانسان علاقة الحشرات ومفصلية الارجل في انتقال وانتشار مسببات الامراض وكذلك اكتشاف ان المسبب من الحيوانات الابتدائية ، اتجهت الافكار نحو الحشرات واهميتها في نقل وانتشار مسببات هذا المرض . فقد اعتقد البعض بان بقعة الفراش هي الحشرة الناقلة وكان من هؤلاء بانن ، لكن هذا العالم ترك هذه النظرية بعد ان جاء الى بغداد اثناء الحرب العالمية الاولى ووجد ان حبة بغداد منتشرة في بغداد ولكن بقعة الفراش اما قليلة الوجود جدا او معدومة كليا مما يدل على عدم اهميتها في نقل هذا المرض . وقد توصل وينسون الى نفس الاستنتاج قبل بانن بسنين طويلة . وقال البعض باهمية الذباب الماص للدم ، مثل ذباب الاسطبل وذباب الكلب ، ولكن ايضا لاسباب عديدة وبعد تجارب كثيرة اضطر اصحاب هذه النظريات الى تركها ، كذلك كان الامر بالنسبة للبعوض .

ثم اتجهت الانظار نحو الحرمن . في الحقيقة لم يكن هذا امرا جديدا ، فقد ذكر بعض الاطباء الاقدمين البعوض والجرجس (الحرمن) من مسببات هذا المرض .

كان بريسات وسرجنتس من اوائل من نادى

لقد مر بنا اعلاه ان الناس في بعض البلدان حيث يتوطن المرض قد ربطوا بينه وبين عضفة البعوض أو بعض الحشرات ، كما جاء عن اهسل بلخ وجرجان . كما ان بعض الناس ربطوا بين حبة بغداد وبين الماء كما في حلب ، وكذلك بين الممرض والهواء كما في الرها . وقد ذكر الدكتور نابليون الماريني في مقالته الموسومة « الفوز المراد في تعريف حبة بغداد » والمنشورة في مجلة المشرق البيروتية عام ١٩٠١ وثانية عام ١٩٠٤ ، فكرة جيدة عن كل ما كان يعرفه العلم لحين كتابة مقالته . فقد ذكر انه لم يعرف بعد السبب المحدث لها . فقد يعتقد بعض الناس انها تعدي بينما يقول اخرون انها لا تنتقل بالعدوى . ولكن الدكتور نابليون الماريني يقول انها من الامراض العفنية تعدي الفير بنفسها وفيها ميكروب والعدوى فيها من جوهرها ، فعلا محصور في الجلد لا غير . وقد تكون الحشرات ناقلة للعدوى مثل البعوض او الحرمن وفي الغالب الذبابة او البرغوث. يبدو القيق في الخريف والشتاء نتيجة الحضانة ، وقد ينقل التلامس او الادوات العدوى ايضا اذا وضعت على القيق او جرح دام . ويمتقد احد الاطباء في حلب من الفرنسيين ان الجرثومة تاتي من نبات خاص موجود فقط في حلب ، تاخذ الحشرة الى الجسم : نصحيح . وكذلك قد تنتشر الجرثومة في الهواء وتتساقط على الجرح او القيق ، وقد قام نابليون بتجربة ، فاخذ القيق في ماء القطر وطعم احد المتطوعين فحدثت الإصابة ولكنها شفيت بوقت اسرع . واخذ القيق ولحق به اربعة من الجيران فظهرت فيهم الحبة مع انهم كانوا مصابين بها من قبل ولكنها لم تبق طويلا .

لقد اردت ان الخص هنا مع بعض الاطلاسة النظرة العلمية التي اوردها طبيب عراقي عن سبب مرض حبة بغداد . قد تكون هذه النظرة ، وقد ظهر بعد ذلك فعلا ، غير صحيحة ، ولكنها بداية جيدة واهتمام بالمرض ، نحن نعرف الان ان السبب ليس جرثومة وليس هناك اي نبات او ما اشبه ذلك له علاقة بالمرض وان الناقل هو فقط انواع من الحرمن الواخر .

كان J. H. Wright اول من اكتشف ووصف طفيلي حبة بغداد عام ١٩٠٣ من طفل جاء من ارمينيا الى بوستن في الولايات المتحدة الامريكية وقد اعطاه الاسم العلمي **Helicosoma tropicum** وقال انه من الحيوانات الابتدائية .

القريبة منه ، وبحكم هذه العادة والطبيعة فان هذه الانواع هي المهمة والضارة واكثر هذه الانواع انتشارا هو النوع المسمى **Phlebotomus papatasi** الذي يعيش على الحيوانات الزراعية والقوارض وكذلك يدخل البيوت ويهاجم الانسان . يظهر هذا النوع باعداد كبيرة في الربيع ثم تقل اعداده في الصيف ويعود الى الارتفاع مجددا والى حد عال في ابول وتشرين اول . يقضي الشتاء بدور الاناث البالغة او بدور اليرقات في التربة . وتتكاثر انواع الحرمس في التربة الخفيفة الرطبة والتي تكون غنية بالمواد العضوية وتفضل المحلات المظلمة . تمر دورة الحياة باربعة ادوار هي : البيضة - اليرقة - الخادرة - البالغة ، وهذا ما يسمى « الاستحالة الكاملة » . ان الاناث وحدها تتغذى على الدم وتهاجم الحيوانات امسا الذكور فانها لا تعيش طويلا ولا تعتمد على الدم في غذائها .

تقوم الان في العراق عدة جماعات للدراسة والبحث في موضوع الحرمس الناقل والطفيلي المسبب للمرض .

قد يكون شهر ابول وواخر آب واورائل تشرين الاول هي اوقات حدوث الصدوى لان الحرمس يكون باعداد عالية في هذه الاوقات ، ولكن المرض لا يظهر الا في اواخر الخريف وفي الشتاء بسبب ان مدة حضانة الطفيلي في الانسان قد تطول بين ٣ - ٦ اشهر . ان هذا لا يعني انه ليس هناك حدوث عدوى وظهور اصابات في بقية ايام السنة ولكنها تكون بصورة اخف واطوا .

حبة بغداد على الحيوانات :

لقد ذكر بعض الاطباء القدامى مثل Russell (17٥٧) في حلب ، والقس Southgate (1٨٤٠) في بغداد ان حبة بغداد توجد على الحيوانات الاخرى مثل القطط والكلاب .

تحدث اصابات الكلاب بهذه الحبة في المناطق التي يوجد فيها المرض متوطنا مثل قفقاسيا ويران والعراق وبعض المناطق مثل حلب . في العراق حبة بغداد تكون اعتيادية بين الكلاب وتنتشر كثيرا في بعض الفصول وقد تكون الكلاب هي الحيوانات الخازنة للطفيلي والذي يكون مصدر الصدوى الى الانسان عن طريق الحرمس ، فقد ذكر Machattie و Chadwick (1٩٢٧) اصابات عالية بين الكلاب

باهمية الحرمس في نقل مسببات حبة بغداد في العصر الحديث ، لكن يظهر ان وبنيون الذي اشتغل في حلب وبغداد كان اول من اقترح وأثبت ان الحرمس هو الناقل وكان هذا الاكتشاف من حظ هذا البحانة . لقد برهنت تجاربه التي اجراها في حلب ان الحرمس هو الناقل ، ثم ايد هذا الاكتشاف Short و Connor (١٩١٨) ثم Acton (١٩١٩) فيما بعد ، في العراق حيث جرت بحوث عديدة من قبل اناس اجانب في بادئ الامر مثل Theodor و Adler (١٩٢٩) وبمد ذلك Pringle (١٩٥٢) - (١٩٥٧) ، وبعدها قام الكثير من العراقيين اطباء ومختصين بالبحوث الطبية بعمل ابحاث وتجارب في هذا المضمار .

قال Theodor و Adler (١٩٢٩) ان نوع الحرمس الناقل المهم هو **Phlebotomus sergenti** في منطقة بغداد ، اذ انهما جمعا ٦٨٤ نموذجا من انثى هذا النوع ، وبعد التشريح عثرا على اثنتين من هذه الاناث مصابتين . وقد ايسد Pringle (١٩٥٧) هذا الرأي معتمدا على رأي هذين العالمين ، ولكننا نشك كثيرا بهذا الاستنتاج اعتمادا على دراستنا التي اجريناها مؤخرا . لقد اظهرت هذه الدراسات ان النوع المزعوم **Phlebotomus sergenti** قليل الوجود في بغداد واطرافها ، بل وحتى في جميع العراق . اما النوع الذي ينتشر بكثرة ويكاد ان يكون ٩٠٪ من مجموع افراد انواع الحرمس التي يجري جمعها في الحقل هو النوع **Phlebotomus papatasi** . من المعروف ان هذا النوع ناقل مهم لطفيلي حبة بغداد في اماكن اخرى وانه بعد التشريح عثرا فيه على كائنات سوطية تشبه المسبب لمرض حبة بغداد . هذا وقلة وجود النوع الاول قادنا الى الاعتقاد ان الناقل المهم لمسبب حبة بغداد في العراق هو نوع الحرمس المسمى **Phlebotomus papatasi**

الحرمس في العراق :

يوجد في العراق ١٦ نوعا من الحرمس ، تنتشر في محلات مختلفة من العراق ، لكن بعضها موجود باعداد قليلة جدا وباوقات قصيرة ، وهناك بعض الانواع التي لا تقترب من الانسان بل تعيش برية على القوارض والزواحف والطيور او الحيوانات الزراعية . ان الانواع المهمة والضارة هي تلك التي تعيش على دم الانسان وعلى دم الحيوانات الاخرى

في بغداد والموصل وكركوك وخاتقين والناصرية وبمقوبة والحلة والعمارة . وقد ثبت ان الطفيلي الذي يصيب الكلاب هو نفسه الذي يصيب الانسان او انه يمكن ان يصيب الانسان .

ظهرت في كتابات العديد من الباحثين اشارات الى حيوانات اخرى مصابة بالطفيلي مثل اليرابيع والقوارض البرية الاخرى والفئران البرية والجرذان البرية والسنجاب والذئبة بل وحتى القطط . لكن دراستنا في العراق حتى الان لم تثبت الاصابة على اي من هذه الحيوانات ما عدا الكلاب ولم يثبت بعد ان الكلب هو الحيوان الخازن للطفيلي .

انتشار حبة بغداد في العراق :

ظهرت اثناء الحرب العالمية الاولى اصابات بين الجنود في منطقة شيخ سعد والبصرة ولكن اكثر المناطق شدة كانت بغداد والموصل . في عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥٠ اجري معهد الامراض المتوطنة وبإشراف برنكل مسحا عاما لهذا المرض بين اطفال المدارس . والجدول التالي رقم (٢) يعطينا فكرة عن نتائج هذا المسح .

جدول رقم (٢)

نتائج مسح حبة بغداد في مناطق العراق عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠

المنطقة	عدد المدن المفحوصة	عدد المدن الموجبة	عدد المفحوصين	نسبة الاصابة
شط العرب وهور الحمار	٣٥	٢٩	١٩١٤	ار ٤٪
سهول الفرات	٩١	٨٩	٤٩٠٨	ار ٣٠.٦٪
سهول دجلة	٢٩	٢٧	١٨٥٧	ار ٢٧٪
سهول ديالى	٤٤	٣٧	١٣٨٥	ار ٣٠.٣٪
مناطق شمالية	٢٤	٢٠		

وسط العراق :

المرض نادر الوجود . لم يسجل رحيم والتتار (١٩٦٦) اكثر من ١٨ حالة لفترة ٣٤ شهرا من الدراسة والملاحظة .

جنوب العراق :

ايضا يكون المرض هنا نادرا او غير موجود تقريبا او انه اختفى من محافظتي ذي قار والبصرة ولكنه يوجد في المناطق على الانهار في شمال محافظة ميسان . لقد ذكر رحيم والتتار (١٩٦٦) تسجيل ٢٢ حالة فقط من هذه المنطقة لفترة ٣٤ شهرا .

انتشار المرض في مدينة بغداد :

ان هذه البؤرة المشهورة بالمرض تهيء فرصة ثمينة لدراسة المرض . ففي عام ١٩٢٩ كانت الاصابة اعلى منها في عام ١٩٥١ ، فكانت الاصابة في الاعظمية والحيدرخانة والكرخ والسك تصل ١٠٪ بينما كان المرض نادرا في العلوية وكمب الارمن ومعسكر رشيد . اما في سنة ١٩٥١ فقد وجد برنكل (١٩٥٧) ان معدل الاصابة في الاعظمية

تحتل بغداد المركز في منطقة واسعة من الاصابة بين الناس بحبة بغداد ، وتمتد هذه المنطقة من الحدود الشمالية للسهول الرسوبية حتى الفادسية وشمال ذي قار وميسان ، ويكون الانتشار في هذه المنطقة غير منتظم في المدن الكبيرة ونسبة الاصابة تكون عالية بينما قد تكون المناطق الريفية القريبة خالية من الاصابة . ولكن بعض القرى في ناحية الحسينية (كربلاء) وفي الحلة تعاني من الاصابة وكذلك على قنوات خريسان (بمقوبة) ومهروت (ديالى) وفي القرى على شواطئ دجلة .

شمال العراق :

المرض في الشمال يكون نادرا او غير موجود ولكن في السهول الشمالية حيث تقع الموصل وبعض المدن والقرى الاخرى تكون الاصابة عالية وهناك اصابة متوسطة في سنجار وعقرة والعمادية وشقلاوة ، اما في مدينتي اربيل وكركوك فيكون

حبة بغداد المعروفة بـ *Leishmania recidiva*

هذه الحالة الغربية والتي تبقى لمدة طويلة . تبدأ دائما من حواف حبة بغداد مندملة وتظهر عادة بشكل الذئبة العادية (وهي مرض جلدي يشسبه بالذئب وقد سماها سندرسن بالاسم العلمي للذئب *Lupus vulgaris* . انها ندبات مسطحة حمراء تنتشر ضمن الاخت او القرحة الشافية . من الصعب العثور على الطفيلي في هذه الحالة الا اذا انتزعت جميع الندبة ثم زرعت . يعتقد برنكل انها تحدث في ١٥٪ من الحالات الشافية من حبة بغداد ، بينما رأى رحيم والتتار (١٩٦٧) اثنتي عشر حالة من بين ٢٧٨٨ حالة من حبة بغداد .

يسميا برنكل *Leishmania recidiva cutis* . قد تبقى الندب غير واضحة وقليلة الارتفاع او انها تندمج مع بعضها لتكون منطقة مرتفعة ملساء ، مع توسع بطيء بالحواف قد يمتد لعدة سنوات ، اما مركز القرحة فيصبح شاحبا ومغطى بطبقة حرشفية . قد تستمر الحالة لمدة خمس سنوات او اكثر قبل ان تندمل . وب نفس الوقت يكون لها مظهر منطقة حمراء واضحة المعالم عليها لطخات من لون اعمق ومغطاة وايضا عليها ندبات وطبقات سطحية من نسيج ندى حديث . ان هذه الحالة تشوه الوجه اكثر من حبة بغداد (وقد ذكر ذلك بكتنهام (١٨٢٧) في منطقة اورفا (الرها) قد تشمل نصف الوجه ولم يمكن علاجها بأي شيء ، مع ان هذه الحالة مرافقة لاصابة حبة بغداد سابقا ، الا انه لم يمكن عزل المسبب (*Leishmania*) منها . لا تختلف الندبة على الوجه عن حالة حبة بغداد من الناحية الباثولوجية والنسجية . ان وجودها في العراق محدود اكثر من وجود حبة بغداد فهي مثلا لم توجد بين مئات الاطفال المصابين بحبة بغداد والسذين فحصوا من قبل برنكل (١٩٥٧) من منطقة الفرات الجنوبية ، في هذه المناطق تكون حبة بغداد ضحلة صغيرة ، واهليلجية الشكل . يقول رحيم والتتار (١٩٦٦) انهما صادفا ١٢ مريضا من مجموع ٢٧٨٨ حالة حبة بغداد وعلى مدى ثلاث سنوات مصابين بهذه الحالة ان الندب المضاعفة من اثر حبة بغداد اما ان تحيط بها او في وسطها ، ويحدث التقيح وسقوط الحراشف بعدها وقد تتوسع الندبات . يستنتج الباحثان ان *Leishmania* الدنايية نادرة الوجود في العراق .

كان ٦٩٪ اي اقل مما كانت عليه عام ١٩٢٩ . اما في الوقت الحاضر والسبعينات من هذا القرن ، فلا يوجد لدينا احصائيات مماثلة للمقارنة ، ولكن وكما ذكرنا في المقدمة فقد هبطت لاصابات في الخمسينات وعادت الى الارتفاع في الستينات ولكن ليس بالمستوى القديم . ثم ان الهجرة الى بغداد تجعل من الصعب اجراء مسح يعطي فكرة صحيحة عن الاصابات في بغداد لان الناس تقاطروا على العاصمة من جميع الجهات . ان الجدول رقم (٣) يعطينا المحلات البغدادية التي سجلها برنكل في مسح ١٩٤٩ - ١٩٥٠ .

جدول رقم (٣)

محلات بغداد المصابة بحبة بغداد
(١٩٤٩ - ١٩٥٠)

المحطة	عددالمفحوصين	نسبة الالاصابة
شيوخ	١٢٨	٢٧٪
نصّة	٤٢	٧١٪
حرة	٢٧	١٠٠٪
راغبة خاتون	٨٠	٤٧٪
هيبت خاتون	٢٨	٦١٪
سفينة	١٥١	٧٤٪
كاظمية	٥٢	٦٩٪
عيواضية	٥٠	٢٤٪
وزيرية	١٠٠	٥٠٪
شالجية	١٨٦	٤٥٪
كرخ	٥٠	٦٢٪
كرادة مريم	٥٠	٥٢٪
باب الشيخ	٥٠	٢٤٪
بتاوين	٥٠	٢٠٪
علسوية	٢٠	صفر
كرادة (برة)	٩٩	٤٩٪
كرادة (جوة)	٥٠	٢٦٪
حي دراغ	١٠	صفر
حارثية	٢٥	٢٠٪
صليخ	١٨٤	٥٨٪
فحامة	٥٠	٥٠٪
زعفرانية	٥٠	٢٦٪
تل محمد	٥٠	١٦٪
رستمية	٢٢	١٦٪
دورة	٢٥	٣٠٪
وشاش	٩٢	٥٠٪
غرب الكاظمية	٢٥	٢٠٪

بعض المصادر العربية

التي ورد فيها ذكر حبة بغداد

- Abul-hab, J. K. and R. al-Baghdadi, 1972.
Seasonal occurrence of man-biting *Phlebotomus* (Diptera, Psychodidae) in Baghdad area; *Annals of Trop. Med. and Parasitology*, 66 (1) : 165-166.
- Acton, H. W. 1918.
A study of the distribution of the Baghdad boils on the body made with view to the discovery of the transmitting agent; *Indian Jour. Med. Res.* 6 : 202.
- Adler, S. and O. Theodor, 1929b.
The distribution of sandflies and Leishmaniasis in Palestine, Syria and Mesopotamia. *Ann. Trop. Med. Parasitology*, 23 : 269 - 306.
- Adler, S. and O. Theodor, 1930.
The Inoculation of Canine Leishmaniasis into man. *Ann. Trop. Med. Parasi.*, 24 : 197 - 210.
- Ahmad, S. A., 1976.
A revision of the Phlebotomidae (Diptera) sandflies in Iraq. A thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the Degree of M. Sc.
- al-Azzawi, B. M. 1975.
Vector potential of *Phlebotomus papatasi* Scopoli (Diptera, Psychodidae) to kala azar in Baghdad area. Thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.
- al-Azzawi, B. M and J. K. abul-hab, 1977.
Vector potential of *P. papatasi* Scopoli (Diptera, Phlebotomidae) to kala azar in Baghdad area; *Bull. End. Dis. Baghdad*; XVIII (1-4) : 35-45.
- al-Adhami, B. H. 1974.
Protozoal parasites of blood of Muridee (rats and mice) in Baghdad area. A thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.
- Bashir, Y. 1954.
A pre. note on Occ. kala azar in No. Iraq. *Bull. End. Dis.*, 1 : 77-80.
- Boissier, A. 1894.
Doc. Assy. Presage, Vol. 1, Lib. Emile Boui. Paris (Cited by Pray et al., 1967.

- 1 - ابن سينا ، ابو علي . توفى ١٠٣٤هـ ، كتاب القانون في الطب .
- 2 - الجرجاني ، اسماعيل بن حسين (السيد اسماعيل) . توفى ١١٢٧هـ . كتاب « خوارزمشاه » حوالي ١١٣٠هـ .
- 3 - الرازي ، بهاء الدولة . خلاصة التجارب حوالي ١١٥٠٠ .
- 4 - الكرملي ، انتناس . مجلة لغة العرب . مجلد ٨ ، ص ١٢٤ و ٧٧٧ - ٧٨٢ سنة ١٩٣٠ .
- 5 - الطيبي ، داوود . مجلة لغة العرب . مجلد ٨ ، ص ٧٧٧ - ٧٨٢ ، سنة ١٩٣٠ نقاش مع الاب انتناس .
- 6 - العمري ، سعاد . بغداد كما وصفها السواح الاجانب ص ٤٣ ، (مترجمة من "Dupre" مطبعة دار المعرفة .
- 7 - الكتاب المقدس (كتاب العهد القديم والعهد الجديد) المطبعة الامريكية في بيروت سنة ١٩٢٩ . كتاب الخروج ، اصحاح ٩ ، آية ٨ - ١٢ ، وكتاب التثنية اصحاح ٢٨ ، آية ٢١ - ٢٧ .
- 8 - بصمهجي ، ادوارد . « بعض الالاحظات عن حبة بغداد في العراق » . دار الطباعة الحديثة بغداد . ١٩٣٠ (لم اطلع عليه) .
- 9 - فوسيل ، بيري دي . الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤ - ١٩١٤) ، ص ٥٤ - ٥٥ . ترجمة اكرم فاضل ١٩٧٤ .
- ١٠- ديو لافوا ، مدام . رحلة الى كنده - العراق . ترجمة علي البصري عام ١٩٥٨ دار منشورات البصري . بغداد .
- ١١- طرابزي ، نابليون . مجلة الشرق . رقم ٤ ، ص ٣٥٤ - ٣٦١ ، سنة ١٩٠١ ، ورقم ٧ ص ٦٥٢ - ٦٦١ ، سنة ١٩٠٤ .
- ١٢ - داوود ، ليدي . « في بلاد الرافدين ، صور وخواطر » ترجمة فؤاد جميل ١٩٦١ .

المصادر باللغة الانكليزية

عن الحرمس وحبة بغداد في العراق : -

- Abul-hab, J. K. and M. T. Mehdi, 1970.
Seasonal occurrence of Phlebotominae (Diptera, Psychodidae) sandflies of Baghdad area, *Bull. End. Dis. Baghdad*, XII (1-4) : 81.
- Abul-hab, J. K. and R. al-Baghdadi, 1972.
Seasonal occurrence of five species of *Phlebotomus* (Diptera, Psychodidae) in Baghdad area; *Ibid.*, XIII (1-4) : 55-75.

- Lamborn, W. A. 1955.
The Haematophagous fly as a possible vector of *Leishmania*. Bull. End. Dis. Baghdad, 1 : 239 - 249.
- Ledingham, J. C. G. 1919.
Kala azar in Mesopotamia. British Med. Jour., 2 : 88. (Cited by Bray et. al., 1967).
- Machattie, C. and C. R. Chadwick, 1920.
Notes on cutaneous Leishmaniasis of dogs in Iraq; Trans. Roy. Soc. Trop. Med. Hyg. 20 (7) : 422-432.
- Machattie, C., E. A. Mills and C. R. Major, 1931.
Naturally occurring oriental sore of the domestic cat in Iraq. Ibid., 25 : 103.
- Marinkelle, C. J., 1975.
Visceral leishmaniasis control, Iraq, WHO, Reg. Office Eastern Med. an assignment report., pp. 13.
- Millington, H. 1873.
Signs and wonders in the Land of Ham, John Murry, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Mills, E. A., Machattie, C. and C. R. Chadwick, 1930.
A preliminary note on the relationship of the parasites of human and canine dermal leishmaniasis. Trans. Roy. Soc. Tro. Hyg. 23 : 413-416.
- Mohsen, Z. H. 1973.
Lab. Studies on the Bio. and Vec. Pot. of man-biting *Phlebotomus* sandflies (Diptera, Psychododae) in Baghdad area; a thesis to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.
- Mohsen, Z. H. and J. Abul-hab, 1975.
Lab. studies on the biology of *Phlebotomus papatasi* Scopoli (Diptera, Psychododae); Bull. End. Dis. Baghdad 16 : 33-56.
- Patton, W. S. 1919. Notes Epid. Oriental Sore in Meso. Bull. Soc. Path. Exot. 12: 500-504.
- Pecocke, R. 1765.
A description of East. Vol. II, Bowyer, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Bray, R. S., G. F. Rahim and S. Taj el-Din. 1967.
The present State of Leishmaniasis in Iraq; Protozoology, 11 : 171-186.
- Buckingham, J. J. 1827.
Travels in Mesopotamia, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Budge, E. A. Wallis, 1920.
By Nile and Tigris. John Murray, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Campell-Thomson, R. 1936.
A dictionary of Assyrian Chemistry and Geology. Clarendon Press. (Cited by Pringle, 1957).
- Candler, E. 1919.
The long road to Baghdad. Cassel & Co. London (Cited by Bray et al, 1957).
- Chadwick, C. R. and C. Machattie, 1927.
Cutaneous Leishmaniasis in Iraq; Trans. Roy. Soc. Trop. Med. Hyg., 20 : 422-432.
- Connor, R. and H. E. Short, 1918.
Dermal Leishmaniasis in Iraq. Indian Jour. Med. Res., 6 : 162.
- Corradetti, A. 1965.
Informations on Leishmaniasis collected in Lebanon, Syria, Iraq, Iran and Turkey. WHO Pub. PA/66. 80.
- Elgood, C. 1934.
The early history of the Baghdad boil. Jour. Roy. Asiatic Soc., III : 519-533.
- Elgood, C. 1951.
A med. Hist. of Persia and E. Caliphate, Univ. Press, Cambridge.
- Kirchmair, H. 1954.
Kala azar in North Iraq. Jour. Med. Prof., 2 : 50-55.
- Kultz, L. 1916.
Pathologische und theapeutische Beobachtungen aus Niedermesopotamien. Arch. Schiffs. Tropenhyg. 20 : 487-502. (Cited by Bray et. al., 1967).
- Labat, R. 1951.
Traite Akkadien de Diagnostics et prognostics medicaux. Vol. 1, E. J. Brill Ed., Leiden, p. 75. (Cited by Bray et. al., 1967).

- Sprawson, C. A. 1919.
Kala azar in Mesopotamea and its incubation period. *British med. Jour.* 2 : 667-6668.
- Sukkar, F. 1972.
Visceral leishmaniasis in Iraq; *Bull, End. Dis. Baghdad*, 13 : 77-83.
- Sukkar, F. 1974.
Sudy on sandflies as vectors of kala azar in Iraq; *Ibid.* 15 : 85-104.
- Sukkar, F. 1976.
Some Epid. Information from annual rep. on kala azar in Iraq during 1974. *Ibid.* 17 : 119-127.
- Taj el-Din, S. and K. al-Alousi, 1954.
Kala azar in Iraq: Report of four cases; *Jour. Fac. Med. Baghdad*, 18 : 15 - 19.
- Taj el-Din, S. and M. H. al-Hassani, 1961.
Kala azar in Iraq, Analysis of 100 cases : *Jour. Fac. Med.* 3 (New Series) : 1-9.
- Virolleaud, Ch. 1907.
Pronostics sur l'issue de diverses maladies aves 2 planches. *Babyloniaca* 1 : 1-103. (Cited by Bray et. al., 1967).
- Wenyon, C. 1911. Oriental sore in Baghdad; *Parasitology*, 4 : 273-344.
- Zein el-Din, K., 1973.
Visceral leishmaniasis in Iraq, in search of a reservoir host and a vector; *Jour. Egypt. med. Assoc.* 56 : 689.
- Pringle. G. J. 1952.
The sandflies (Phlebotominae) of Iraq; *Bull. Ent. Res.*, 43 : 707-734.
- Pringle, G. J. 1956.
Kala azar in Iraq : Preliminary epidemiological consid., *Bull. End. Dis. Baghdad*, 1 : 275-294.
- Pringle, G. J. 1957.
Oriental Sore in Iraq, Historical and Epidemiological Problems; *Ibid.*, 2 : 41-70.
- Rahim, G. F. and I. H. Tatar 1966.
Oriental Sore in Iraq. *Ibid.*, 8 : 1 - 4.
- Rahim, G. J., 1967.
Present Problems of Oriental Sore in Iraq, *Ibid.*, 9 : 48-58.
- Russel, Alex., 1756.
The Nat. Hist. of Aleppo and parts of Adjacent. Millar, London, (Cited by Pringle, 1957).
- Salim, H. H., Z. Hayatee and A. Awaness, 1966.
Dehyd. Resi. for oriental sore. *Lancet*, 1 : 1428.
- Sinderson, H. 1931. Lupus vulgaris and oriental sore. *Trans. R. Soc. Trop. Med. Hyg.* 25 : 75-76.
- Southgate, Rev. H., 1840.
Narrative of a tour through Armenia Kurdistan, Persia and Mesopotamea. Appleton & Co., New York. (Cited by Pringle, 1957).

قبتان محز و طيتان من بغداد

بقلم

عطاء محمد صالح الخديري

الدار الوطنية للتوزيع والاطلاع - بغداد

زبدة تاريخية

المهيزة لابنية وادي الرافدين عن سواها « فابداع التاريخ في البناء وحر الحناجر كان فتحا عظيما في الفن المعماري فهو يساوي اختراع العجلة في آلاته وادواته مع اشتهاار الرومان ببناء القناطر التي هي حناجر وبناء عقود الظفر المعروفة باقواس النصر . فأول من ابتدع الحفر والتأريخ والتقويس في البناء هم سكان وادي الرافدين القدماء (٢) .

فقد هدتنا التنقيبات الاثرية الى نمط التسقيف في ابنية مرحلة القرى الزراعية المتطورة « الالفين السادس والخامس قبل الميلاد (٣) ، فحفريات تل حسوثة اثبتت لنا ان السقف كان مسلما بينما ظهر في عصر حلف (٤) على شكل قبة (٥) .

وقد دلت الحفريات التي اجريت في موقع الاربعية (٦) عن بناء القبة واورد الاستاذ ملوان

ان دراسة الطبيعة الجغرافية لوسط وجنوب العراق توضح لنا ان هناك ثمة عوامل طبيعية وبيئية قد تحكمت في اساليب البناء نتيجة لندرة مواد انشائية معينة ووفرة اخرى وفي دراستنا للقباب وما لوفرة مادة الطين بكميات هائلة في هذا الوسط وندرة مادة مهمة كالخشب والحجر دفعت للمعمار العراقي القديم الى ابتكار فنون معمارية جديدة في تسقيف الابنية وذلك باستخدام العقود والاقبيبة عوضا عن السطوح المستوية والاستغناء عن استخدام الاعمدة والدعائم طالما ان مادة الطين بطبيعتها مادة مرنة تعطي البناء القدرة والكفاءة في التحسوير والتحكم ، ان هذا العامل لعب دورا كبيرا في تحديد انواع وفن العمارة في العراق .

لذلك فان دراسة مراحل التطور الثقافي والحضاري لوادي الرافدين الذي كان له اوفر نصيب في بلوغ النضج الحضاري واقامة حضارة اصيلة في تاريخ البشرية مقارنة بالحضارات الاخرى التي قامت الى جانب حضارة وادي الرافدين ، توضح لنا ان الانسان في هذه المنطقة ابتدع كل ما هو جديد في الفنون المعمارية وعلى ذلك يمكن ان نجد اصول الابنية المقتبة في العمائر القديمة التي شيدت في بلاد وادي الرافدين ومنها انتشرت الى العالم القديم .

فالقبة اذن عنصر عماري محور عن فنون الازج (١) المعمارية التي تعد من اهم الخصائص البنائية

(١) الازج : ضرب في الابنية ومصطلح عمادي للدلالة على كل بناء شيد مقوسا . « الفيروز ابادي القاموس المحيط

- ج ١ ص ١٧٧ - دار الفكر - بيروت « والدكتور مصطفى جواد ، سومر م ٢٥ ص ١٦٤ بغداد - ١٩٦٩ .
- (٢) العنزة : عقد الطاق البني والقوس او بلاوتر والمقد المصروب ليس بذلك المرغبي . « الفيروز ابادي القاموس المحيط ج ٢ ص ١٤ - دار الفكر - بيروت « د . مصطفى جواد ، سومر م ٢١ ص ١٦٤ بغداد - ١٩٦٩ .
- (٣) فلاد سفر سومر ج ١ ص ٢١ بغداد - ١٩٤٥ .
- (٤) تقع قرية حسوثة على نحو ٥ كم في الضفة اليمنى لدجلة وعلى ٢٥ كم جنوب الموصل ، نقتب فيها مديرية الآثار العراقية في عامي ١٩٢٢ - ١٩٢٤ وهي قرية كبيرة في العصر الحجري الحديث يقدر تاريخها بنحو (٥٨٠٠ - ٥١٠٠ ق . م) .
- (٥) يقع تل حلف في شمال سوريا على ٥ كم جنوب قرني راس العين قرب منبع الغابور نقتب فيها بئنة المانية عن متحف برلين سنة ١٩١٠ ، ١٩١٢ ، ١٩٢٩ .
- (٦) الاربعية : موقع الري يقع بالقرب من اطلال نينوى ويرجع تاريخه الي (٢٩٠٠ - ٤٢٠٠ ق . م) .

الائمة والكبراء والكبيرات منذ زمن العباسيين » ، وقد انتشرت في العراق في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن السابع الهجري ومما بقي منها في العراق قائما حتى الان ثمانى عشرة قبة وفي الغالب تكون قبة الضريح منفردة وقد تكون ملحقه بمدرسة او جامع ، وتكون شرفة الضريح على الاكثر ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تعني غالبا قيام بناء مخروطي وتأتي بعدها الثرية الرباعية الاضلاع .

والقباب المخروطية انواع منها ذات المقرنصات من داخل البناء وخارجه وهو الساند ويكون هذا المخروط صقوفا من المقرنصات تستمر حتى نهاية القبة ويكون الشكل الخارجي مشابها للشكل الداخلي ومن القباب ما تكون مخروطا من الداخل وهي مضملة من الخارج وهذا النوع يكون على شكل قبتين داخلية وخارجية بينهما فراغ . كما في قبة يحيى ابي القاسم في الموصل .

قبة السيدة زمرد خاتون

تقع قبة السيدة زمرد خاتون في الجانب الغربي من مدينة بغداد « جانب الكرخ » الى الجنوب الغربي من ضريح الشيخ معروف الكرخي في وسط المقبرة المعروفة باسمه (١٠) .

يعرف الضريح - عند العامة - باسم الست زبيدة ولا زال . وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الضريح واغلب الراء لا تنسبه الى السيدة زبيدة - بنت ابي جعفر المنصور ، فقد رأى المرحوم الاستاذ عباس العزاوي في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين ان الضريح يعود الى زبيدة بنت هارون الجوني المتوفاة سنة ٧٠٦هـ (١١) في حين يذكر لنا الاب انتاس الكرملي ان الضريح تعود نسبته الى زبيدة خاتون ابنة السلطان بركياروق زوجة السلطان مسعود بن السلطان ملكشاه المتوفاة سنة ٥٣٢هـ ويؤيد هذا السراي الاستاذ عبدالرزاق الحسيني (١٢) .

(١٠) تسمى المقبرة التي دفن فيها الشيخ معروف الكرخي بمقبرة باب الدير . لم يبيت له تربة واحترقت عام ٤٥٩هـ ثم امر الخليفة القائم بامر الله بعمارة المكان . « د . مصطفى جواد ، العمائر الاسلامية العتيقة سومر ٢ م سنة ١٩٤٧ » .

(١١) عباس العزاوي / تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٠٦ .

(١٢) الاب انتاس ماري الكرملي لغة العرب مج ٦ ص ٧٥٥ . دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ص ١٧ (حاشية) .

نماذج مختلفة لها واشار الى ان الطرز ، اي بناء القبة يختلف من مكان لآخر فهناك نموذج بشكل قبة دائرية واخر بشكل قبة مخروطية (٧) .

وقد وجد الاستاذ ليونارد ولي في المقبرة الملكية ب اور في العهد السومري «الالف الثالث م.» نماذج لسقوف معقودة بشكل اقبية وقبباب مخروطية .

اما في العصر الاسلامي فان اقدم مثال عراقي لقباب ما زال قائما فيه هو قبة قصر الاخضر التي تعود الى النصف الاول من القرن الثاني للهجرة . . . اما اقدم قبة اسلامية في بغداد ذكرها لنا المؤرخون العرب فهي : قبة قصر المنصور ، الخضراء

ان خير من وصف قصر المنصور وقبته الخضراء هو الخطيب البغدادي حيث روى انه : « كان في صدر قصر المنصور ايوان طوله ثلاثون ذراع وعرضه عشرون ذراع وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه الى حد عقد القبة عشرون ذراعا تصار من الارض الى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراع » ويضيف انه كان على رأس القبة الخضراء تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يتجه مع الريح ، وكانت ترى من اطراف بغداد .

ويذكر لنا الخطيب ان قبة المنصور بقيت قائمة حتى سقط رأسها في يوم الثلاثاء لسبع خلون من جماد الاخر سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وكان ليأتئد مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد وكانت هذه القبة تاج بغداد وعلم البلد ومآثرة من مآثر بني العباس ، بنيت اول ملكهم وبقيت الى هذا الوقت « الى اخر امر الواثق » (٨) .

ويذكر لنا ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٥٣ ان سبب سقوط القبة الخضراء هو الفرق العام الذي خرب مدينة بغداد ، حيث كانت تتعرض لغضانات مستمرة وبالتاكيد ان تأثير المياه على العمران كان كبيرا (٩) .

ان ما يعنينا من هذا الموضوع هو دراسة قبتي زمرد خاتون والسهورودي وهما « وامثالهما من القبب المخروطية تكاد تكون خاصة بمشاهد

(٧) M.E.L. Mallawan and Jerviklovnd Rose, Excavations at Tell Arpachiyah Iraq Volc. 11, Part LPP, 25 Lonlan 1935.

(٨) الخطيب ج ٧٢/١ طبع المكتبة السلفية - الرياض .
(٩) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٧٠٢ .

تتراوح اطوال اضلاع المثلث ما بين ٢/٧٢م - ٢/٩٢م وهذا الاختلاف في الاطوال متأت من الترميمات العديدة التي اجريت عليها خلال الازمان. يتوسط الضلع الشمالي الشرقي مدخل القبلة الاصلي والى يساره درج البناء قد فتح من صلب الجدار يؤدي الى سطح البناء .

يبلغ ارتفاع اضلاع الشكل المثلث اي الجدران الحاملة للقبلة ٤/٨م وهي قائمة ليس بها اي عيب.

تقوم في اعلى زاوية المثلث مقرنصات معقودة ومركبة لتكون منطقة الانتقال من الشكل المثلث الى القاعدة الدائرية . وتتكون من ثلاثة صفوف متتالية الواحد فوق الاخر تنتهي بقاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا . انظر صورة رقم (٣) .

هناك اختلاف واضح في مقرنصات منطقة الانتقال عنها في مقرنصات انحاء القبلة وهذا الاختلاف متأت من الغرض المعماري في احداثها . فمقرنصات منطقة الانتقال هو تحويل القاعدة المثلثة الى قاعدة ذات ستة عشر ضلعا كما ان التثبيت على قواعد ذات ستة عشر راسا تبدا من ارتفاع ٩/٥م ففي هذه الحالة يكون ارتفاع منطقة الانتقال ٤/٧٠م .

تكون مقرنصات القبلة الدائرية عشرة صفوف متتالية يحوي كل صف من الصفوف السبعة الاولى ستة عشر مقرنصا (١٨) .

بينما تحوي الصفوف الثلاثة الاخرى ثمانية مقرنصات لكل منها .

يتم الانتقال من السابع الى الثامن بعمقود صغيرة تجمع رؤوس كل مقرنصين متجاورين ويفصل بين كل ضلعين من صفوف مقرنصات القبلة قاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا في الصفوف السبعة الاولى وذات ثمانية رؤوس في الصفوف الثلاثة الباقية ، حيث ينتهي الصف العاشر بقبلة صغيرة نجمية ذات ثمانية رؤوس (١٩) .

ومن دراسة العناصر المعمارية والزخرفية للقبلة اضافة الى الروايات الاستطردية نستطيع تنسيب تاريخ بنائها الى القرن السادس الهجري . هذا وان المرقد يحتوي على خمسة قبور اضافة الى قبر السيدة زمرد خاتون .

(١٨) عطا الحديدي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

(١٩) عطا الحديدي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

ويرى السيد محمود شكري الالوسي انه ربما كان يمثل ثرية لزوجته او بنت احد الامراء او ملك من الملوك اي لا صلة له بالسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد (١٣) .

اما الدكتور مصطفى جواد فينسب الضريح الى السيدة زمرد خاتون ام الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ وهو الراي الراجح الذي تؤكد الروايات التاريخية (١٤) .

تقوم قبة السيدة زمرد خاتون على قاعدة تتكون من ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تساعد كثيرا على قيام بناء مخروطي عليها اي قيام دوائر في البناية متضائلة شيئا فشيئا حتى تنتهي بسماوته اي بنقطة اعلاه (١٥) انظر صورة رقم (١) .

يتوسط احد اضلاع القبلة مدخل تتقدمه غرفة مربعة تعود الى فترة متأخرة من العهد العثماني كما يدل على ذلك طرازها المعماري حيث سقطت بقباب نجمية الشكل عرفت بالصينية ، وهو طراز شائع في بغداد في تلك الفترة (١٦) .

تقوم القبلة على جدران صلبة ثمانية الاضلاع مبنية بالاجر والبص ، اما خارجها فتزينها زخارف اجرية بسيطة محفورة حفرا قليل الغور ومكسونة من نجوم وبعض الاشكال الهندسية والزخارف النباتية .. انظر صورة رقم (٢) .

وشكل رقم (١) الذي يمثل نماذج لحشوات زخرفية اجرية .

وفي ظاهر كل وجه من اوجه القاعدة الثمانية بابان مميميان وفي صورتها التي صورت قبل سنة ١٨٥٠ اربعة ابواب ممعاة اثنان من فوق واثنان من تحت ولم تحافظ هذه العمارة على شكلها القديم نتيجة الترميمات الحاصلة عليها ولعدة مرات (١٧) . اما ظاهر القبلة فقد غطي بالبص .

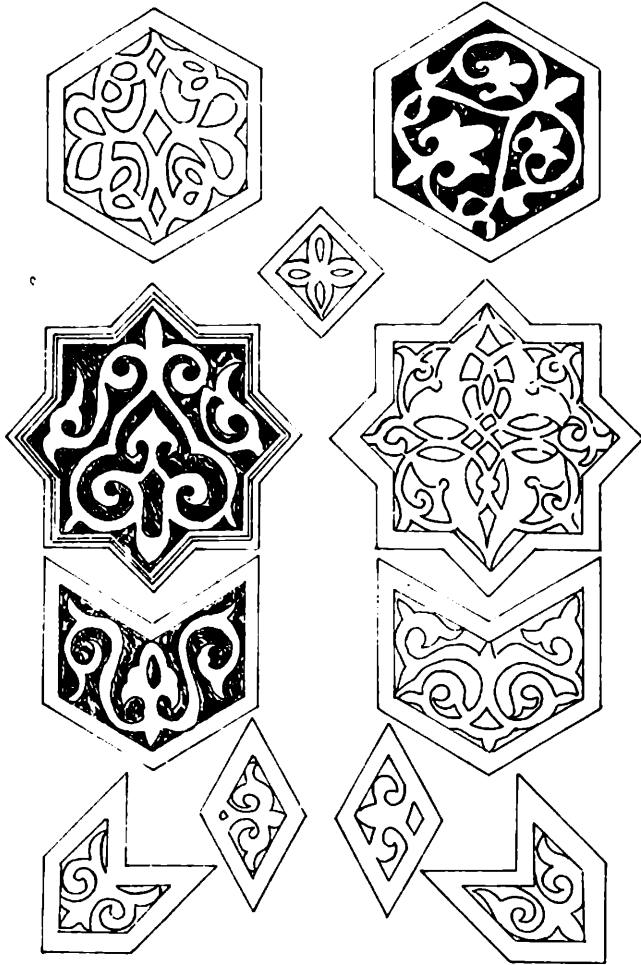
(١٣) محمود شكري الالوسي : تاريخ مساجد بغداد وانوارها ص ١٢٩ .

(١٤) د . مصطفى جواد : سيدات البلاط العباسي ص ١٨١ . د . مصطفى جواد : العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢

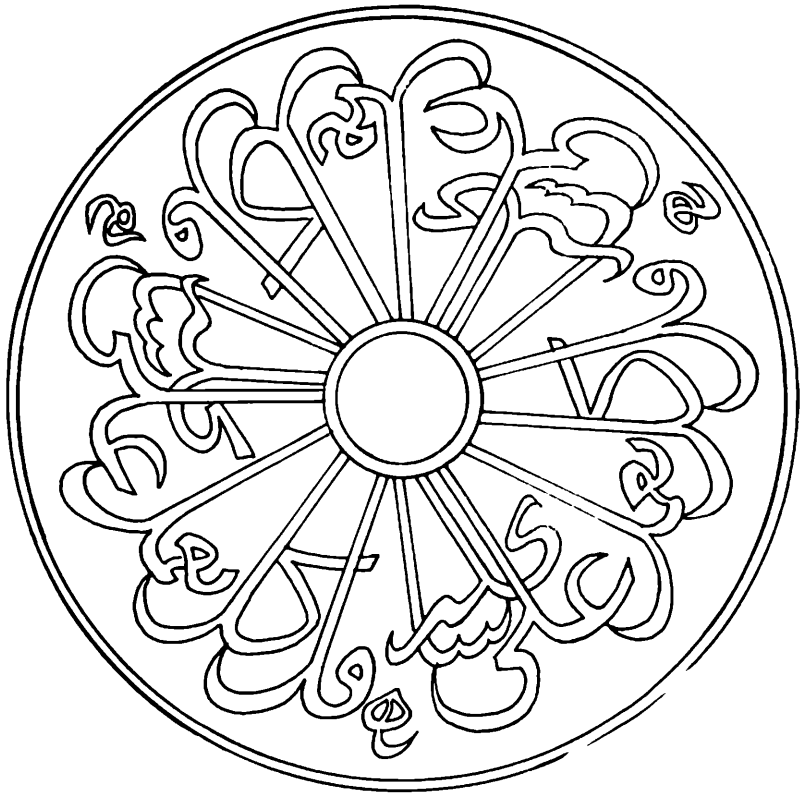
٣ سنة ١٩٤٧ . (١٥) د . مصطفى جواد / العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢ سنة ١٩٤٧ .

(١٦) عطا الحديدي / هناء عبدالخالق - القباب المخروطية في العراق ص ٢٩ .

(١٧) د . مصطفى جواد العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢ سنة ١٩٤٧ .



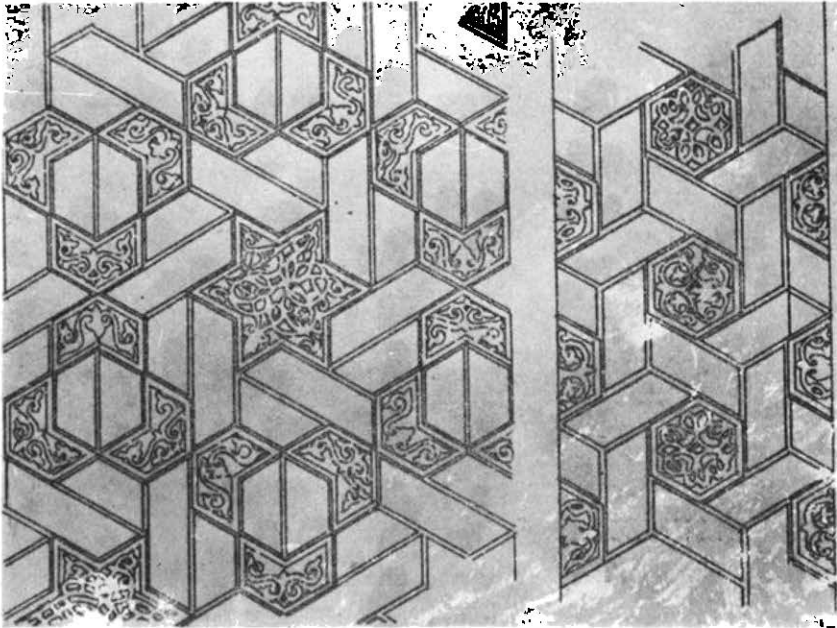
شکل رقم (1)



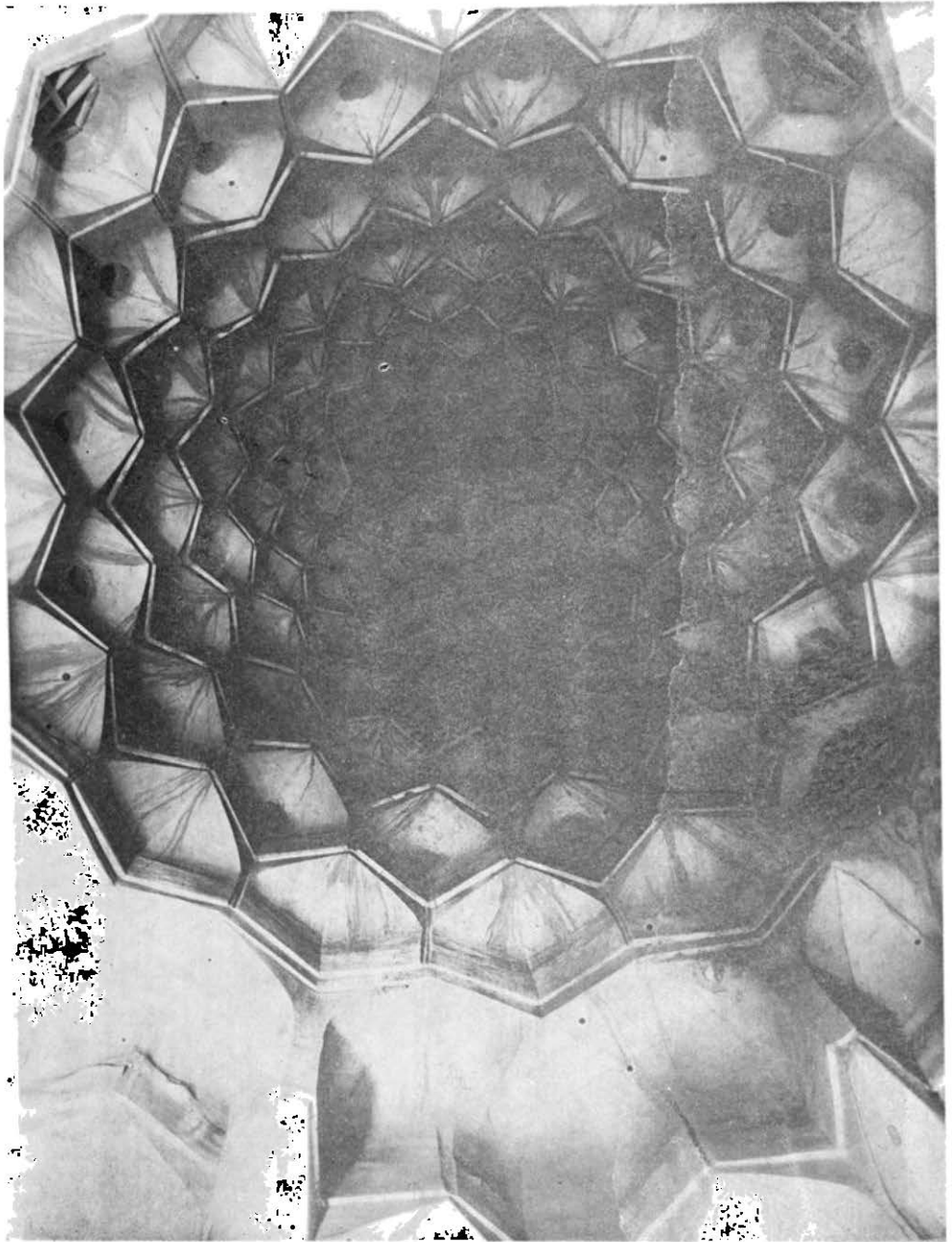
شکل رقم (۲)



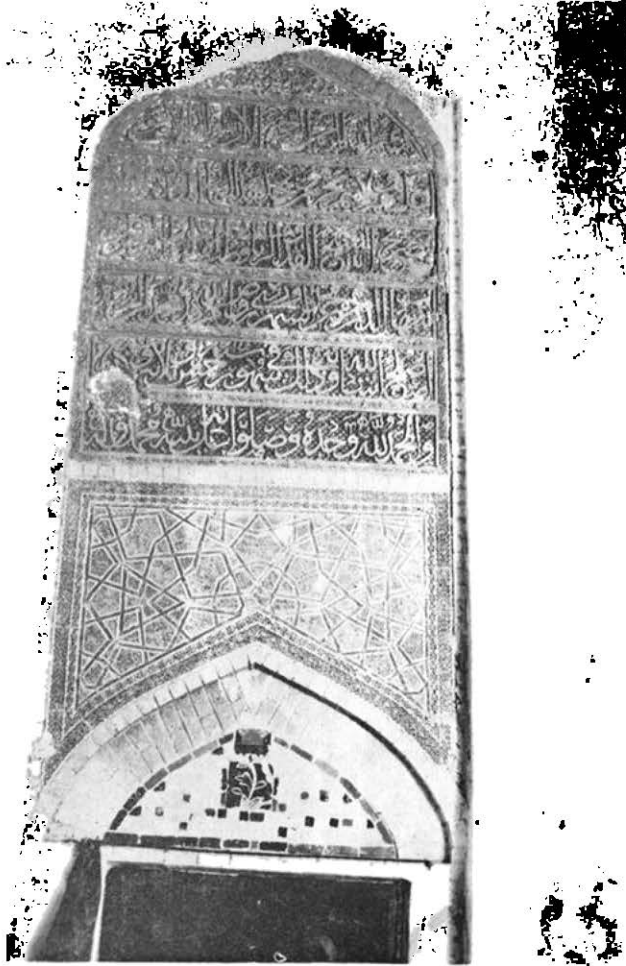
صورة رقم (١)



صورة رقم (٢)



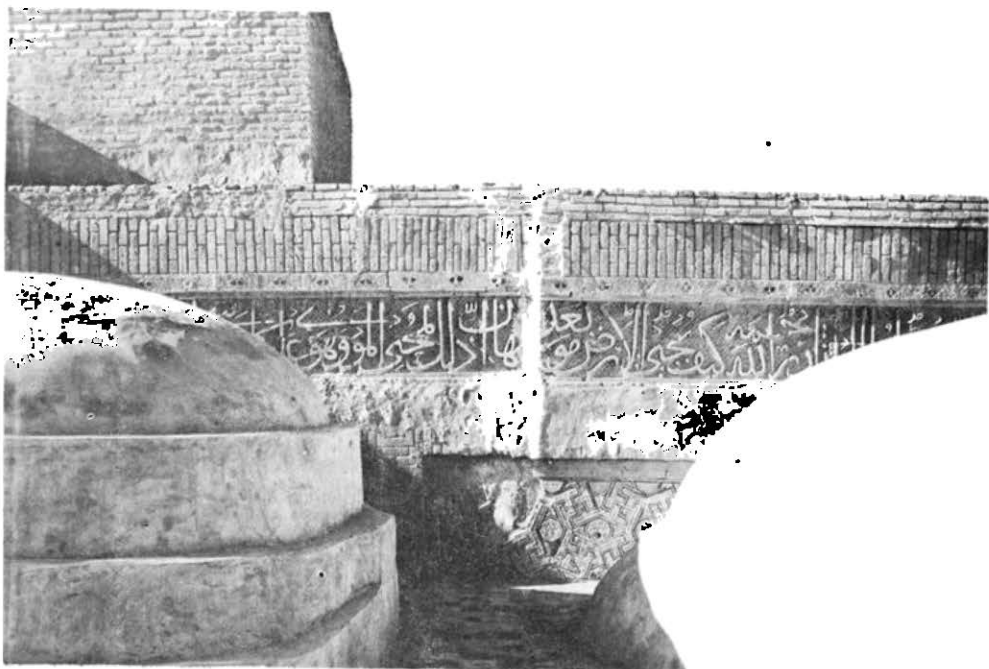
صورة رقم (٧)



صورة رقم (٤)



صورة رقم (٥)



صورة رقم (٦)

تقوم القبة على غرفة مربعة الشكل ابعادها ٢٤/٧٠ ، ٢٤/٩٠ خالية جدرانها من الزخرفة على علو ٦/٥م حيث تزين الجدران دخلات عددها اثنتا عشرة دخلة تلف مع جدران الغرف تحيط بها اعمدة خمسة من هذه الدخلات تتوج قسامتها عقود مفصصة والاخر عقود مديبة . يعلوها صفا من المقرنصات يقوم فوقها غطاء القبة تزينه كتابسة حديثة العهد . انظر الشكل رقم (٢) .

ومن الخارج فان ظاهر القبة مكون من احد عشر صفا من فوق المنحني الذي تقوم عليه القبة . فهناك اختلاف في مقرنصات القبة الخارجية عنها في الداخية . صورة رقم (٥) .

فتكون قبة السهروردي مكونة من قبتين الاولى وجه المخروطية وهي الاصلية والثانية اضيفت فيما بعد وهي في باطن القبة الاولى وبينهما فراغ .

وفي سطح المسجد وعلى الواجهة الخالية للقبة من الخارج شريط كتابي :

فانظر الى اثار رحمة ربك كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير . امر بتجديد بعد ثورة... صورة رقم (٦) .

اما تاريخ بناء القبة استنادا الى الرواية التاريخية حيث ذكر د . مصطفى جواد ان احمد ابن عبدالله البغدادي ذكر في كتاب اصول الادب والتاريخ ١٦٢ ص ٢٢ عن حوادث سنة ٦٣٢ وفيها توفي الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمير السهروردي . ودفن قريبا من الباب الوسطاني داخل بغداد وعقد على قبره اضافة الى هذا وعلى ضوء الصيانة التي اجرتها دائرة الآثار مؤخرا حيث اظهرت لنا زخارف بنائية (٢٢) ملونة وصفوف المقرنصات فاستنادا الى اسلوب رسم الزخارف البنائية وطريقة تصنيف المقرنصات يمكن نسبة بناء القبة الى سنة ٦٣٢ هـ وهي سنة وفاة الشيخ السهروردي (٢٢) .

(٢٢) د . مصطفى جواد : العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢٢ سنة ٤٧ .
(٢٣) صفا الحديث وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

تقع في الجانب الشرقي من مدينة بغداد « الرصافة » بالقرب من الباب الوسطاني احد ابواب مدينة بغداد الذي لا يزال قائما (٢٠) وفي المحلة التي تنسب اليه وهو الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهروردي المدفون في المقبرة الوردية (٢١) .

في الاصل يتكون البناء من غرفة الضريح والحق بها مؤخرا مسجد يعود تاريخ بناءه الى سنة ٩١٧ هـ ، لها مدخلان الاول وهو الباب الرئيس من داخل المسجد تطلوه كتابة تحمل تاريخ اصلاح القبة ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، جدد هذه العمارة المباركة الشريفة لضريح الشيخ القسوة الرباني خطب الاولياء والعارفين شهاب الدين عمر ابن محمد السهروردي روض الله مرقد محمد ابن رشيد اصلى الله شأنه وذلك في شهر سنة خمس وثلاثين وسبعائة والحمد لله وحده وصلواته على نبيه محمد واله) انظر صورة رقم (٤) .

والثاني يدخل من مجاز اضيق الى البناء سنة ٧٣٥ هـ

(٢٠) الباب الوسطاني : ويسمى قديما باب الغربية وهو احد ابواب سور الجانب الشرقي الاربعة . وظل معظم هذا السور قلما مع ابوابه الى عهد قريب حيث اندثر على عهد الوالي محنت باشا . ثم زالت السامه الباقية منه مع الابواب بعد ذلك ولم يبق منه في باب واحد في جهته الشمالية الشرقية وهو الباب الوسطاني الذي رفعت مديرية الآثار واتخذت منه متحفا لاسلحة القديمة في سنة ١٩٢٩ .

(٢١) ابو حفص عمر بن محمد بن عبدالله بن محمد بن هويبه واسمه عبدالله البكري اللقب شهاب الدين السهروردي . ويصل نسبه الى ابي بكر الصديق رضي الله عنه كان خطيبا شافعي الذهب شيئا صالحا ورعا كبير الاجتهاد في العبادة والزهادة وتفرج عليه خلق كثير من الصوفية وصحب معه ابا النجيب وفتح اخذ التصوف والوظف والشيخ ابا محمد عبدالقادر صالح الجيلي وفرهما من الشيوخ وعقد مجلس الوظف سنين ، وكان شيخ الشيوخ ببغداد ، وتوفي سنة التسعين والاربعين واستمات ببغداد ودفن بالوردية . ابن خلكان / وفيات الاميان ج ٢ ص ٤٦ . دار الفكر - بيروت .

الخطيب البغدادي وقارنيه

بقلم المرحوم

عباس العزاوي

اخراج

فاضل عباس

بغداد - الجمهورية العراقية

وكشف عن اكابر سلفوا ونمته مضوا واصحاب نحل
درجوا ... ابان عنهم ووضح مناهجهم وسجل
آراءهم وما قيل فيهم ...

كان موضع الاخذ والرد ، والنقد والتحميص ،
والجدل والمناظرة ... في عصور مختلفة وازمان
عديدة ومتوالية ... فكان لنقوله ، ولارائه الاسر
الجليل في احتكاك المقالات وابداج النقول على
اختلافها ... فلم يكن مداحا . ونما اورد ما اعتمد
مما قيل للمرء وعليه ... وهو في كل هذه وغيرها
مرجع العام والخاص ، ومدار النقل والاستدلال
... ولا نغالي اذا قلنا انه لم يسد مسده تاريخ بل
لم نر في موضوعه ما هو خير منه ، او ان يكون اولى
بالاخذ دونه ... فهو يستحق كل تقدير ، واهل
لكل مدح واطراء ... ولسان القلم عاجز ان يقوم
بهذه الخدمة نظرا لعظم العمل الجليل الذي زاوله
فقام به ، وتم على يده ...

وللخطيب مكانة علمية مرموقة تتمثل في هذه
الشهادات سلبا وايجابا :

١ - قال المؤتمن الساجي : « ما اخرجت بغداد
بعد الدارقطني احفظ من الخطيب »

٢ - وقال ابن الجوزي : « من نظر في تصانيفه
عرف قدر الرجل وما هيء له مما لم يهيا لمن
كان احفظ منه كالدارقطني وغيره » وقال .
« كان حريصا على علم الحديث . كان يمشي
في الطريق وفي يده جزء بطالعه وكان حسن

يعتبر القرن الخامس الهجري من خير
للعصور الاسلامية وارقاها حضارة وتقدما علميا .

ففيه نضجت العلوم المختلفة وازدهرت بل
تكاملت حيث نالت حظا وافرا من العناية والرعاية
فلا غرو اذا عد هذا العصر من العصور الذهبية للامة
الاسلامية ... كما برزت فيه الآراء والنحل وانجلى
ما غمض منها وابهم .

في هذا العصر الزاهر ظهر مؤرخنا فابرز اعظم
اثر في تاريخ بغداد ، ولم يكن مبرزا فيه وحده وانما
الف في موضوعات اخر ولم يقصر همته وجهده عليه
وانما كان كما وصفه ياقوت في معجمه ارشاد
الاربيب :

« الخطيب ابو بكر احمد بن علي بن ثابت بن
احمد بن مهدي البغدادي » ، الفقيه الحافظ احد
الائمة المشهورين المصنفين الكثيرين ، والحفاظ
المبرزين ومن ختم به ديوان الحديثين .

ولد يوم الخميس لست بقين من جمادى
الاخرة سنة ٣٩٢هـ (١٠٠١م وتوفي سنة ٤٦٣هـ -
١٠٧٠م) .

ان العراق يفتخر بمؤرخه العظيم هذا ولا يزال
شاكرا لصنيعه ومعجبا بعظيم ما قام به فقد خلد
ذكرى جليلة ومنقبة فائقة لا تقدر بشمن ولا بوازيها
عمل تاريخي الى اليوم ... ولم تقف فائدة تاريخه
عند العراق وحده وانما لهج به واثى عليه اكابر
علماء العالم الاسلامي فقد جلا صفحات غامضة

القراءة ، فصيح للهجة ، عارفاً بالادب يقول الشعر الحسن » .

٣ - وقال اسماعيل بن ابي الفضل القومسي - وكان من اهل المعرفة بالحديث . « ثلاثة من الحفاظ لا احبهم لشدة تمصّبهم وقلة انصافهم . الحاكم ابو عبدالله . وابو نعيم الاصبهاني ، وابو بكر الخطيب . قال ابو الفرج . وصدق اسماعيل وكان من اهل المعرفة فان الحاكم كان متشيعاً ظاهر التشيع ، والاخران يتعصبان للمتكلمين والاشاعرة ...

٤ - وقال السمعاني في المذيل . « والخطيب في درجة القدماء من الحفاظ والائمة الكبار كيجي بن معين ، وعلي بن المديني واحمد بن ابي خيثمة وطبقتهما . وكان علامة العصر . اكتسى به هذا الشأن غضارة وبهجة ونضارة . وكان مهيباً وقوراً نبيلاً ، خطيراً ، نقة ، صدوقاً ، متحريراً ، حجة فيما يصنفه ويقوله وينقله ويجمعه . حسن النقل ، والخط ، كثير الشكل والضغط ، قارئاً للحديث ، فصيحاً . وكان في درجة الكمال ، والرتبة العليا خلقاً وخلقاً وهيئة ومنظراً ، تنتهي اليه معرفة الحديث وحفظه ، وختم به الحفاظ رحمه الله » .

٥ - كتب ابو بكر البرقاني الى ابي نعيم الاصبهاني يوصيه بالترجم . (منه)

« ... وقد نفذ الى ما عندك عمداً متعمداً اخونا ابو بكر ... ليقبض من علومك ويستفيد من حديثك . وهو عبدالله ممن له في هذا الشأن سابقة حسنة ، وقدم ثابت وفهم به حسن . وقد رحل فيه وفي طلبه وحصل له منه ما لم يحصل لكثير من امثاله الطالبين له . وسيظهر لك منه عند الاجتماع من ذلك مع التورع والتحفظ وصحة التحصيل ما يحسن لديك موقعه ، ويجعل عندك منزاته . وانا ارجو اذا صحت منه لديك هذه الصفة ان يلين له جانبك : وان تتوفر له وتحتمل منه ما عساه يورده من تثقيل في الاستكثار ، او زيادة في الاصطبار فقديمًا حمل السلف عن الخلف ما ربما ثقل . وتوفروا على المستحق منهم بالتخصيص والتقديم ما لم ينله الكل منهم . » اهـ .

ونحن لا نستطيع في هذه المجالة ان ننقل اسماء كافة من اطروه ، واثنوا عليه او اقتبسوا منه ، واخذوا عنه جميعاً ... فضلاً عن ايراد ما قالوه فيه او في مؤلفه ... ولا تسلب ايها القارئ

عما عاناه في وضع مؤلفه من الاتعاب . والسياحات والاسفار ، وما استند اليه من المنقول وما راعاه من المعينات ، والتواريخ التي اعتمد عليها او عول على صحتها فنقل عنها ، او اخذ منها ، وصرح باسمها . . . فهو لم يقل قولاً فينسبه لنفسه وهو يعلم انه نفيه وهذا غاية التوقي في النقل . . . فلم يغمط حق احد او يسرق قوله . . .

فهو المؤرخ الصادق ، والخبير المطلع ، الذي لا نرى في عبارته غيره في مختلف العصور ولا يضع قولاً لقاتل . ولا يتأخر عن الجهر به ونقله كما وصله . . . في حين اننا لا نراه اعتمد كذاباً ، ولا اخذ عن مفتر ولا مجهول . . . وانما تلقى عن المشاهير الاكابر في سائر الاقطار الاسلامية لا في العراق وحده وان كان العراق مركز الثقافة ، ونقطة دائرتها اذ ذلك . . . مما حجب مؤلفه للناس .

لا نرى ان ناتي هنا على كافة المصدلين له والواقفين به . . . وانما الطاعنون كما نقل في الفقرة الثالثة مما جاء في الاقوال فيه انه من المتكلمين وانه يتعصب للاشاعرة منهم فاذا كان هذا مذهبه فلم يكن مضطراً لتحجيد الآراء الاخرى المخالفة له وهل هذا يعد تعصباً . . . اما رجال الشافعية فيعدونه من اكابر ائمتهم والمحدثون يعتبرونه من اساطينهم ، وسائر علماء الاسلام يشنون عليه . . .

ويكفي للبرهنة على الوثوق منه ان مؤلفه من حين انتشر وتداولته الايدي انصرفت اليه الانظار ، وصارت تفكر في الاستفادة منه والاستقاء من معينه والاعتماد على ما جاء فيه . او افراغه بقول الباقى بان تراعى نسفاً اخر لعرضه الى العموم . . . بوضع آثار خالدة مقبسة في الحقيقة منه ، ومستنبطة نصوصها من اثره الجليل النفيس . . . او راعت اسلوبه وطريقته سيره . . . فهذا السمعاني قلب تاريخه الى قاموس وجعله بشكل آخر (الانساب) كما انه ذيله ، وهذا ابن الاثير راعى تاريخ الحوادث فقلبه الى شكله وصار خير مرجع له . . . وغيرهما ممن كتب في الرجال مال اليه واخذ عنه ، او اختص ، او اضاف ببعض زيادات . . . وهكذا . اما الذبول عليه والتتمت له سواء من قبل السمعاني ، او ابن النجار . وغيرهما فكثيرة . . . وتدل على شدة الرغبة فيه والاعتناء بموضوعه . . . وعلى كل لم يظهر في الاسلام مؤرخ بلغ درجته ، او حاول ان يحصل على منزلته من الشهرة والثناء ، والوثوق ، والصدق ، والاخلاص . . .

والبغدادي - كما مر - تعرض الى صنوف

متعددة من اهل العلم وارباب نحل عديدة . . . ومنها ما يخالف خطته ، وبما رضى مذهبه . . . وفي كل هذه التزم الحياد ، وراعى الحيطة بكل معناها ، ولم يتحامل لمخالفة في النحلة ، ولم يرم لزيغ كان قد رآه في عقيدة الخصم . . .

ولا ادل على ذلك اكثر مما نقله صاحب (السهم المصيب في كيد الخطيب) عن البغدادي حيث قال :

« قد سقنا عن ايوب السختياني ، وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وابي بكر ابن عياش ، وغيرهم من الائمة اخبارا كثيرة تضمن تقرير ابي حنيفة والمدح له والثناء ، والمحفوظ عند نقله الحديث عن الائمة المتقدمين وهؤلاء المذكورين منهم في ابي حنيفة وكلامهم فيه كثير لامور شنيعة حفظت عليه بتعلق بعضها باصول الديانات وبعضها بالفروع ، نحن ذكروها بمشئة الله ومعتدرون الى من وقف عليها وكره سماعها ، بان ابا حنيفة عندنا مع جلالة قدره اسوة بغيره من العلماء الذين دوننا ذكرهم في هذا الكتاب ، واوردنا اخبارهم وحكيما اقوال الناس فيهم على تباينها (١) . « ا هـ .

وبهذا هدم اقوال من تحامل عليه واجابهم عما كان يامل ان يتقولوا به ولا عجب ان يؤيد نزاهته وينقل الاقوال على تباينها فيه وفي غيره ولم يشأ ان يخرج عن الخطة القويمة وان يتعداها في بعض دون بعض . . . وانما ترك حق التقدير للقارىء .

وما نقول في الردود الا ان الرجل نقل مسا وصل اليه مما قيل لمن ترجمه او عليه وبعضها ناشيء عن مخالفة في المعتقد ، او تخالف في الفقه والتفريع او تحامل من جراء واحدة من هاتين . . . ولا يسلم امرؤ من ميفض او محب . . . وقد قيل من الف فقد استهدف . . . والذي يريد معارضة البغدادي في هذا فانما ينبغي ان يصب معارضته في صحة النقل فيطلب التصحيح والا فلا يهدم نقله بادلة اوردها عقلية ، او عقائدية او ما مائل من نحل وآراء او تحاملات . . . فهذه ليست من شأن المتناظرين في النقول وامر تصحيحها او طلب مستنداتها . . . في حين اننا لا نرى من كذب النقل لا في حياة الخطيب ولا بعد وفاته فهذا هو الذي يجب ان يلاحظ في النقل . . .

وللخطيب مع هؤلاء التحاملين عليه اسوة بغيره من الصحابة واهل العلم من التابعين

وتابعيهم . . . وكذا يقال في ابي حنيفة والطاعنين فيه . . . والرجل العظيم لا يدقق من ناحية المدح والدم وانما ينظر اليه من جهة اعماله التي قام بها ومبادئه التي بنىها والخطة التي نهجها . . . فاللوم الشخصي لا قيمة له ولا اعتبار . . . ومن غلبت حسناته على سيئاته رجح وكل احد يؤخذ من قوله ويرد الا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

ويصدق هذا على الكل فقد اورد الذهبي عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه انه انفرد في امور حفظت عليه خالف بها الجمهور وقال : ان هذه مما لا تطعن في مكانته ولا تنقل من منزلته . . . وكل اخذ يؤخذ من قوله ويرد الا الرسول صلى الله عليه وسلم . . . والنقول عن الامام مالك رضى الله عنه مثل هذا او هو المنقول عن اصل هذا القول :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى ناله ان تعد معايبه

ان المدونات التاريخية لا يصح الاكتفاء ببعضها عن بعض بان يقال هذا اجمع وبغني عن غيره وما مائل وانما يلاحظ في كل مؤلف ما صرف نظره للبحث فيه وما حاول الكلام عليه وجمله مدار بحثه ، ومركز اهتمامه ، وذلك ان من كان يميل الى الحوادث لا يستغنى بما يكتبه عن العلاقات السياسية او العلمية او الصناعية ، او الشرعية وهكذا . . . لم نجد تاريخا يبحث في هذه الامور ، او يتكلم عليها بسعة وكذا ما كان قبلها او جفرا نيا لا يغني عنه غيره . . . وهكذا .

ولذا ينبغي ان نعقب كل جهة من جانب ليتيسر لنا الجمع ، والاخذ بكل الجهات ، ومن كان همه المذاهب السياسية فلا يكتبه بكل ذلك وانما جل ما يجب الاطلاع عليه مجرى السياسة والطرق المتبعة فيها ، والوسائل التي راعاها كل سياسي .

وهذه لا نراها صريحة في كتاب ، او نعلمها من تاريخ . . . وانما ذلك مواهب تستفاد من مجرى الحوادث واتصالها وسائر حوادثها فلا يمكن العثور عليها مجموعة . وما وجد كان بالنسبة لراي شخص او استنتاجا فرديا يصح ان يصب شاكلة الحق في امر ويخطيء في امر . . . وهكذا وانما نرى بصيص نورها في مؤلفات ذلك العصر ، وآثاره ووضعه الجغرافي ، والاقتصادي ، والمدني . . .

والمهم هنا البيان عن تاريخ عرك صاحبسبه الامور وما هذبته السياحات ، وراعى البصيرة في بحوثه التي صقلتها التجارب . فهو وان لم يتعهد

٢ - الشهادات :

عاش بغداد وعاد اليها ورأى آثارها ودخل جوامعها ومساجدها وفاضل مثل هذا لا يكذب بصره ما رأى ... وترى ذلك واضحا فيما حكاه عن مسجد برانا وما ناله من التقلبات .

٣ - العلماء والصلحاء :

بحكي عنهم ويتكلم معهم وينقل... ويوسنا ان نقول ان المترجم وضع مؤلفه في تراجم علماء كثيرين مختلفي النزعات والمذاهب ، فانطب في تراجمهم ونقل ما قيل فيهم وتيسر في القول حتى بلغ غايته ...

٤ - التراجم :

ترجم لكثيرين من العلماء والفضلاء . ومن اراد ان يترجم لمن يتعصب عليه بعضهم نقل ما اسند روايته ، وحكى ما قيل فيه على لسان غيره وراعى حقيقة صفته ولم يبد رأيا ، ولا تكلم عن محاكمة له وهكذا ... وترى ذلك واضحا في ترجمة معاوية ...

ظهر تاريخ بغداد مطبوعا سنة ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م وكان الناس يسمعون به ولا يرونه فهو اشبه ببقاء مغرب ، ولم يصلنا خبر المباشرة في طبعه حتى وافى الكتاب .

يعود لمصر الفضل في المبادرة الى طبعه وان كان احد العراقيين قد اشترك في ذلك وهو صدقنا الاستاذ نعمان الاعظمي الكتبي وكذا لها الفضل الاكبر في احياء تراثنا الفكري الخالد .

وكيف لا تحرص على ذلك وهي اهم فطمة في البلاد الاسلامية العربية التي تقدمت بل عرفت ان تحيي المدينة الغابرة وتضيف اليها حضارة عصرية جديدة نافعة فتفيد الثقافة العربية والاسلامية ...

واني الان في معرض ذكر التاريخ المبين في صدر هذا المقال .

ان هذا التاريخ منذ تأليفه الى اليوم ينقل عنه السياح لوصف ما جاء فيه والمؤرخون يتناولون منه اقتباسا واختصارا وتوسعا وهكذا ... فكان - ولا يزال - معينا لا ينضب وبحرا لا يفسور ولا ينفد ... وكل هذه لم تف بالحاجة او لا تخلو من تكرار ، وقد ملئناها وسئمتها وضجرنا من قولها واسترنا في صحتها لتفاوت النقل بين السعة والاختصار .

السياسة ، ولم يجرب الادارة ففي البصرة ، والتجوال ما يلفت النظر وبدعو لجمع معلومات جيدة ، واحوال طيبة من شأنها ان توقف المتبعين على بعض المجاري ، وقد يرى منها ما يشفي غليله وفي الاشارة ما يدعو الى ان يوضح له في طريقه ...

وهذا التاريخ لا كبر مؤرخ نال في عصره مكانة ، وحصل على رضا الناس وكسب رغبة تامة اعني به ابا بكر البغدادي .

لا يمكن الوقوف على غالب البحوث السياسية الا من طريق التاريخ ولكن يجب استنطاق مؤرخين كثيرين ومجاورين لمعرفة حقيقة الواقعة ، وماهية الوضع .

اما البحوث العلمية والادبية فانها تابعان للجهود التي بذلها القوم ، والاثار التي خلفوها ... على عكس تلك ... وقد تغيب من البين وتنعدم ولكن عزاءنا عن ضياعها كثرة امثالها وتكررها ... الا ان من يهمة احوال محيطه باسف لضياع ما وقع وما جرى حكمه عليه ...

وقد كتب مؤرخون عن هذا المحيط وعلاقته بالاقوال والممالك الاخرى او بصورة منفردة واضحا ما شاهدوا وقرروا ما راوا ... الا ان مؤرخنا ممن حاز قصب السبق وحصل على الشهرة الفائقة ... فوقف المؤرخون عنده فلم يجتازوه ولكنهم حوروا وغيروا فوصلوا الى اغراضهم استقاء من تاريخه ...

واخرون اقتفوا طريقته ومشوا مشيته فذيلوا من حيث وقف وانعوا ما وصل عندهم الى ما وصلوا اليه ، او عقبوا الاثر ومضوا من حيث وصل السابق وهكذا ...

واني ذاكر هذا المؤرخ ، وتاريخه ، ونهجه بالنظر لعصرنا والنقد الموجه عليه من كل وضع ... وليعذر القارئ العصر والتفاوت فيه واختلاف النهج التاريخي ...

وهنا مجمل ما يقال انه كتب تاريخه بعد ثلاثة عصور مضت عن تاريخ بناء بغداد وراعى فيها المصادر التالية :

١ - الروايات :

ولما كان من المحدثين فانه يعول على روايته ويؤخذ بسنده ويسمع قوله ، وقد اخذ عن الثقات ومؤلفاته في الرواية كثيرة ، وقد محص الروايات وقرر رايه الاخير فيها (راجع الاحاديث المروية عن بغداد) .

١ - الكتاب

ان هذا التاريخ لم يوصف اصله، ولم يتحرر عن نسخته ولا روعي قدمها في خزائن الكتب العامة المتفرقة في أنحاء المعمورة ، وللطابعين العذر اذ لم يروا مساعدات مشجعة ولم ينالوا ترغيبا ولا انعامات ليراعوا شروط الطبع بحيث يضارع طبع المطابع المصرية التي في حوزة الحكومة وكان ذلك يقتضي قيام تعاون ثنائي بين مصر والعراق ، لتحقيق هذا المشروع كما يوجب ذلك قيام لجنة علمية لتقابل النسخ المختلفة والتعليق عليهما ، واتخاذ فهارس نافعة توفر على القارئ كثيرا من الجهد والوقت .

٢ - الورق المطبوع عليه الكتاب :

لم يلاحظ الورق وجودته للامر الذي شرحناه .

وإذا تعذر على الحكومة النهوض بهذا العمل الشاق فلا تعذر في المعاونة والشروط على الطابعين لغرض إبرازه بشكل كامل بعيد عن عيوب الطبع واخطائه .

ان الكتاب لا يخلو من اغلاط مطبعية واغلاط اخر تظهر للرائي فهذه - للاسف - لم تلاحظ

٣ - الاعلام الواردة فيه :

لقد ذكرت في كتب اخرى ان الواجب كان يقتضي ان ينبه الى مواطن الاختلاف في النسخ المعتمدة في الطبع لتبصير القارئ، نلتفتع والباحث المتخصص .

ملاحظة اخيرة :

إذا فات الجهات الرسمية عندنا المساهمة في طبع جزء من هذا الكتاب فبوسعها ان تتلافى ذلك في الاجزاء التالية ، او اذا كانت لا تستطيع الاشتراك في هذا الكتاب فبوسعها ان تعقب ذبول هذا التاريخ وتتخذ الاهية اللازمة لطبعها وتقوم بعمل كبير وخدمة نافعة ... ولتبرهن على حبها لتاريخنا القومي بعمل ما فاذا كانت تتحرى الاثار القديمة وخدمتها للحضارة والاحتفاظ بها فقصورنا ومنشأتنا العربية والاسلامية اولى بالاحتفاظ ، خصوصا انها لم تقطع علاقة معها ولا تزال ذات صلة دينية وشائج قومية فهي منها واليها .

وقد برز اليوم هذا التاريخ الى الوجود فزال ما ران على البحوث من الابهام وكشف الحجاب فلم يبق بيننا وبينه حاجز ولا حائل ، فهو بين ايدينا نقرؤه وتدبره وناخذ عنه مباشرة ولا شك انه سوف ينسخ الآراء التي لا قيمة لها ويظهر مما قد شاع وانتشر بين ظهرائنا او اساطير بقيت في عماء بسبب قلة نسخته وتدرتها .

فلا يسعنا الا ان نرجي الشكر والثناء للقائمين على طبعه والساعين في نشره فلم فضل سبق والمبادرة وينبغي الا نقف عند التحصيل الابتدائي وتكثر مدارسه وما مائل من الامور الاولية فقط وانما نحتاج الى الثقافة العليا والتربية الراقية واهمها المكتبات العامة وتاريخ القطر ومعرفة اهليه وطبع آثار اسلافه مما يخدم العلم الصحيح والامم المتقدمة اليوم لم تكف بالتحصيل الابتدائي ولا الثانوي بل ولا العالي ، وانما نلاحظ الجوامع العلمية ، واهياء الاثار التاريخية ، والتسربية الاسلامية ... لتوليد الاختصاص وكل هذه لم تحل عندنا المحل اللائق بها اذ كان ينبغي لها ان تجلب المؤلفات النادرة وتعهد به الى بعض الفضلاء ليتولوا تحقيقها بل انها لم تحصر على آثارنا الفكرية ونفائس المخطوطات فسربت الى الخارج واصبحتنا نتلمس وجودها في عواصم أوروبا وأمريكا عندما نريد التأليف أو الاستشهاد ببعض ما ورد فيه مما له علاقة بتاريخنا او حياتنا العقلية .

يتميز كتاب (تاريخ بغداد) بجزية واحدة وهي انه عرف بمحيطنا في ايام قليلة لا ندرى ما جرى وراءها ، او انه ذكر صفحة تمكن من ذكرها ولكن وراءها كثير من الامور التي اغفلها ، فهذه يجب ملاحظتها ودراستها ، وهذا لا يتيسر ما لم تعد المادة وتحفز الهمم للقيام بهذا العمل .

لقد سلخ هذا القطر اباما سعيدة في الادارة ، واصابته نكبات وبيبة ، او كان بين هاتين الفترتين مدهوشا ومتحيرا لا يدري ابن يتوجه فكشف هذه الحالات يحتاج الى سهر دائم ، وسغل مستمر ... والا فلا تكفيننا نبذ مبتورة ، ووثائق مختزلة ، واشارات مبهمه ...

واعمالنا الفردية لا تفي بهذه الحاجات وانما تحتاج الى مجامع علمية وجمعيات تاريخية ، وبعثات نافعة ...

ولنرجع الى التاريخ :

اعلام من الاندلس في بغداد

بقلم الدكتور

محسن جمال الدين

كلية الاداب/جامعة بغداد

مقدمة

ان خطة البحث تدور في مجملها حول النقاط الآتية :-

- ١ - بين بغداد وقرطبة .
- ٢ - اثر بغداد في الاندلس . في النواحي : الثقافية ، ولادبية ، والفنية .
- ٣ - اثر المعاهد العراقية ، والعلماء العراقيين على الحركة العلمية ، والادبية ، والفكرية في الاندلس .
- ٤ - اثر النتاج العراقي في حركة التأليف الاندلسي .
- ٥ - اثر العلماء والفنانين العراقيين الذين رحلوا الى الاندلس ، واثروا في حياتها الادبية والاجتماعية .
- ٦ - اعلام من الشخصيات الاندلسية التي درست في بغداد ، وعادت تحمل العلم للاندلس .

١ - بين بغداد وقرطبة

قال (الحموي) في معجم بلدانه : « بغداد ام الدنيا وسيدة البلاد » (١) .

ووصفها ابن زريق الكوفي الشاعر بقوله : (٢)

سافرت ابني لبغداد وساكنها
مثلا ، قد اخترت شيئا دونه الياس
هيات بغداد ، والدنيا بأجمعها

عندي وسكان بغداد هم الناس

وقال (ياقوت) (٣) . تقلا عن بعض الافاضل :

« بغداد ، مدينة السلام ، وجنة الارض ،
وقبة الاسلام ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ومجمع
المحاسن والطيبات ، ومعدن الطرائف واللطائف ! »

تلك شهادات صادقة عن عاصمة العراق ، في
ماضيها التليد . وحاضرها المجيد .
وذكر ايضا فقال : (٤)

كان (ابن العميد) اذ طرا عليه احد من منتحلي
العلوم والاداب ، واراد امتحان عقله سألته عن
(بغداد) فان فطن بخواصها ، وتنبه على محاسنها ،
واثنى عليها جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله
ثم سألته عن (الجاحظ) فان وجد اثرا لمطالعة كتبه ،
والاقتباس من نوره ، والاغتراف من بحره ،
وبعض القيام بمسائله ، قضى له بانه غرة شاذخة
من اهل العلم والاداب .

وان وجده ذاما لبغداد غفلا عما يجب ان
يكون موسوما به من الانتساب الى المعارف التي
يختص بها (الجاحظ) لم ينفعه شيء من المحاسن !

الطرف ، ويعجز عن حسنه الوصف . وليس في مساجد المسلمين مثله تنميماً وطولاً وعرضاً !! » .

* * *

ومثلما تنافس الشعراء البغاددة من المشاركة في وصف مدينتهم (بغداد) رأينا الاندلسيين اخذوا يجارون اهل المشرق ، في وصف (قرطبة) ومدحها قال الشاعر عبدالحق بن عطية القرناطي يصفها مادحاً : (٧)

باربع فافت لامصار (قرطبة)
وهن قطرة الوادي ، وجامعها
هاتان ثنتان ، والزهرراء ثالثة
والعلم اكبر شيء ، وهو رابعها
وقال احد الشعراء في وصف (قرطبة) (٨) .

دع عنك خضرة (بغداد) وبهجتها
ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الارض قطر مثل (قرطبة) .
وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

والف (ابن سعيد المغربي) كتابا اسماء
(الشهب الثاقبة ، في الانصاف بين المشارقة
والمغاربة) (٩) . وبه يتحدث عن مدن الشرق والاندلس
ويقارن بينها . اقتبس منه (ابن فضل الله العمري)
في كتاب (مسالك الابصار) .

وزارها (ابن حوقل الموصل) ووصفها في
(رحلته) وقارن بينها وبين بغداد . فقال : - (١٠)

« هي اعظم مدينة بالاندلس وليس بجمع
المغرب لها هندي شبيه في كثرة اهل ، وسعة محل .
وفسحة اسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ،
وكثرة حمامات وفنادق .

ويتعدد الكتاب والمؤرخون الاندلسيون الذين
امتدحوا بلادهم ، كابن سعيد المغربي ، وابن حيان ،
والرازي ، والحجازي وغيرهم » .

ومما قاله (الحجاري) عن (قرطبة) (١١) :

« منتهى الغاية ، ومركز الولاية ، وام القرى ،
وقراره اولي الفضل والتقى ، ووطن او لي العلم
والنهي ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ،
ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر
درر القرائح ، ومن افقها طلعت نجوم الارض ،
واعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها انشئت
التاليف الرائقة ، وصنفت التصنيفات الفائقة » .

وهذه شهادات لها قيمتها في عالم التاريخ !!

ولما رجع (صاحب) عن بغداد ساله (ابن
العميد) فقال : بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد
فجعلها مثلاً في الغاية في الفضل (ه) .

* * *

ان السر الذي يكمن في (بغداد) كعاصمة
للخلافة العباسية ، في انها جمعت بين حسن
الموقع ، واعتدال الطبيعة ، وتباين المجتمع ،
وعماره الاسواق ، وتصارع الافكار ، وتصادم
الآراء ، وتمازج العقول ، وتقبل الغريب ، والترحيب
بالاصدقاء ، ومحاربة الاعداء . الى ندوات العلم
العامة ، ومنائر الدين الشامخة ، ومعاهد المعرفة
السامقة ، ومساجد التقوى الواسعة ، وجوامع
الفضيلة الهادية ، وخزائن الكتب المزدهمة ، واسواق
الوراقين المتعددة . الى مستشفيات ، ومصحات ،
ومنتزهات ، وفنادق ، وحمامات . كلها تدعو
للعلم والايمان والفضيلة والصحة والرعاية بالمرض
والعجزة والمنقطعين والبائسين . يقابل ذلك حب
الخلفاء والامراء والقادة والحكام ، للعلم والمعارف .
والعناية ، والرعاية بالعلماء والادباء والشعراء .
وكان من ابرزهم . المنصور ، والمهدي ، والهادي ،
والرشيد ، والمأمون ، والناصر لدين الله .
هذا في الطرف الشرقي من العالم الاسلامي .
وفي العراق ، وعاصمته بغداد .

اما في الطرف الغربي من العالم الاسلامي
فتنطل علينا (قرطبة) الاندلسية عاصمة الامارة
والخلافة الاموية ، وما حل بها من امراء الطوائف ،
ومن المنتزعين على الخلافة من المرزبطين والموحدين
قال : صاحب (الروض المطار) في موسوعته
الجغرافية (١) عن (قرطبة) :

« وقاعدة الاندلس ، وام مدنها ومستقر خلافة
الامويين بها ، واثارهم بها ظاهرة ، وفضائل (قرطبة)
ومناقب خلفائها اشهر من ان تذكر . وهم اعلام
البلاد ، واعيان الناس . اشتهروا بصحة الذهب ،
وطيب المكسب ، وحسن الزي ، وعلو الهمة ،
وجميل الاخلاق .

وكان فيها اعلام العلماء ، وسادات الفضلاء .
وتجارها مياسير ، واحوالهم واسعة وهي في سفح
جبل مظل عليها يسمى (جبل العروس) . »

واستمر يصفها ويصف جامعها الكبير فقال :
« وبها الجامع المشهور امره ، الشائع ذكره .
من اجل مصانع الدنيا كبر مساحة ، واحكام صنعة
وجمال هيئته ، واتقان بنية . صار يحار فيسه

٢ - اثر بغداد في الاندلس ، في النواحي الثقافية ، والادبية ، والفنية .

ان نظرة عامة على العاصمتين العباسية ،
والاندلسية نجد ان (بغداد) هي صاحبة الفضل
والايبادي السابعة على (قرطبة) . فلقد كان العالم
في الاندلس لا يجد له منزلة بين قومه حسب - قول
المصادر الاندلسية - القديمة . ما لم يكن قد زار
بغداد . واتصل بالشرق عن طريق الرحلة والدراسة
والتحصيل والزيارة .

واذا استعرضنا جمهرة العلماء الوافدين الى
المشرق عامة ، وبغداد خاصة كما ذكرهم اصحاب
المكتبة الاندلسية B.A.H. ، كابن الفرضي وابن
بشكوال ، وابن الابار ، والحميدي ، وابن خسر
الاشبيلي ، وابن سعيد المغربي ، والمقري لدهشنا
من كثرة عددهم ، واختلاف طبقاتهم ، وثمرات
عقولهم ، وعظيم نتاجاتهم ، العلمية ، والادبية ،
والفكرية ، واللغوية ، والفقهية .

ولقد قمنا بدراسة منذ سنوات عنهم بعنوان
(الاندلسيون الاوائل من حملة الثقافة العراقية)(١٢)
ونشرناها في (مجلة كلية الاداب) (جامعة بغداد) .

ومثلما كان خلفاء بني العباس يشجعون العلم
والعلماء . كان خلفاء بني امية في الاندلس يدعون
الى ذلك ، ويبذلون الاموال في سبيله . ففي (قرطبة)
كانت اسواق الكتب رائجة ، ومنتديات العلم
منتشرة .

ومن اعظم اولئك الامراء والخلفاء ياتى في
المقدمة (صقر قرطش) الامير عبدالرحمن الداخل ،
والامير عبدالرحمن الثاني (الاوسط) ، وعبدالرحمن
الناصر ، والحكم المستنصر (١٣) .

ونلاحظ ان صاحب الفضل الكبير في فتح
ابواب الاندلس امام الثقافة البغدادية العراقية .
كما اجمعت عليه المصادر القديمة ، والمراجع
الحديثة . انما هو عبدالرحمن الاوسط الذي تولى
السلطة عام (٢٠٦ هـ - ٨٢٢ م) واتسع مجال
النشاط الفني والادبي في عهده ، لانه كان مثقفا ،
شاعرا ، محبا للفلسفة والشريعة . (١٤) ورحب
بالوافدين اليه من (بغداد) واستقبلهم خير
استقبال وافاد مما حملوه معهم من طرز الحياة ،
وانماط الحضارة ، وتعدد الثقافات .

وان التأثيرات البغدادية على الحضارة
الاندلسية ، لم تكن مقتصرة على الفن وطرز العيش ،
بل راينا تأثير الشعر العباسي والنثر ، يبدو واضحا

على الادب الاندلسي ، في بداية مدرسته المحافظة ،
وفي حركة مدرسته المجددة .

واصاب اهل الاندلس من الشعراء والمؤلفين
غيرة التقليد والمعارضة . يسرون فيها على شاكلة
البيغادة واهل العراق .

فابو تمام المغرب ، ومنتبى المغرب ، وبحترى
المغرب . وغير هذه الالقباب والمظاهر ! كما عورضت
قصائد أبي تمام ، والبحترى ، وابي نواس ، والمنتبى
والعري ، والشريف الرضي .

وتقد بعضها ودرسه دراسة محايدة (ابن
بسام) في (ذخيرته) (١٥) كما اخذ على بني قومه
تقليدهم للمشاركة . - ولكنه - قد نسي نفسه يوم
تأليفه لكتاب (الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة)
الذي سار به على غرار (بئمة الدهر) للشعالي (١٦)
ولقد قال حائنا قومه ، ومشيئا لتقليدهم :

.. « ان اهل هذا الافق ، ابو ، لا متابعة
اهل المشرق ، يرجعون الى اخبارهم المعتادة ، رجوع
الحديث الى قتادة . حتى لو نطق بتلك الافاق غراب ،
او طن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا
صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما » (١٧) .

وهذا برهان ساطع على تاثر اهل الاندلس
بالمشرق ، واهتمامهم بما تبذره القرائح العراقية في
بفسداد .

٣ - اثر المعاهد العراقية والعلماء العراقيين على الحركة العلمية والادبية في الاندلس .

كانت ابواب دار الحكمة ، والنظامية ،
والمستنصرية مشرعة امام الوافدين اليها من الاندلس
وبقية الافطار ، لاسلامية شرقا وغربا . وفي (تاريخ
بغداد) للخطيب البغدادي .

وكتب البلدان ، والمدن ، والرجال ، والتراجم ،
الامثلة التي لا يحتاج لها دليل وبرهان على عظمة
الحركة العلمية في العراق .

ومن الطبيعي ان الطلبة الوافدين من الاندلس
شانهم ، شان الاخرين ، يتلقون العلم على جلة العلماء
المشهورين ، في مختلف حقول الثقافة ، واللغة ،
والفقه ، والادب . وغيرها من فنون المعرفة الانسانية
والعلمية .

وقد وجدنا منهم طبقة درست على الامام
(الغزالي) كالمهدي بن تومرت رئيس حركة الموحدون
الذي جاء من المغرب ، وادخل مباديء حركته

الدينية والسياسية في عقول انصاره الذين اسوا دولتهم في المغرب واحتلوا بعدها الاندلس (١٨) .

ووجدنا القاضي (ابا بكر ابن العربي) يصاحب العالم العراقي ابا بكر الشاشي (١٩) ووجدنا الحميدي يعيش في بغداد ويتلمذ على الخطيب البغدادي ، ويتلقى العلم على طبقة اخرى من مشاهير العلماء ، ويؤلف كتابه الشهير (جذوة المقتبس) (٢٠) في بغداد . ولم يفادها وفضل البقاء فيها حتى مات ودفن في تربتها .

وهناك عالم الاندلس المعروف (ابو الوليد الباجي) الذي قضى شطرا من حياته في بغداد تلميذا وعاد لبلده عالما ، وقد تتلمذ على ابي الطيب الطبري في بغداد ، وعلى ابي اسحق الشيرازي .

والملاحظ - مع الاسف - ان اغلب هؤلاء العلماء الذين استوطنوا (بغداد) زمنائهم عادوا لوطنهم ، لم يعضوا لنا كتباً عن انطباعاتهم ، وقضايا حياتهم ، وتراجم علمائهم ، الذين تلقوا العلم عنهم ، الا فئة قليلة من اصحاب (الرحلات) الذين زاروا البلاد ووصفوها وصفا يختلف اختصارا وشمولا ، وعمقا وسطحية .

ومن هؤلاء الرحالة الاندلسيين (بنيامين التيطلي) الذي جاء ليستطلع احوال اليهود في الشرق الاسلامي والف رحلته المعروفة باسمه (٢١) .

وكذلك الرحالة الكناني (ابن جبير الاندلسي) الذي وصف الاقطار الاسلامية التي مر عليها ومن ضمنها العراق (٢٢) .

اننا اذا اردنا ان ندرس الخطى الاندلسية التي جاءت من ديار الاندلس باصحابها الى (بغداد) نجدها قد مرت على بلاد متعددة برية ، وبحرية ، ومغربية ، وشرقية .

وقد سلكت في سيرها طريق البحر والبر . طريق البحر في العصور من الجزيرة الخضراء ، و (جبل طارق) ، ومواني الاندلس الجنوبية والدخول الى (سبته) ومن ثم السير برا في سواحل الشمال الافريقي . والوصول الى (مصر) والبحر الاحمر ، وزيارة الديار المقدسة ، وبيت المقدس ، وبلاد الشام ، والعراق . ومنهم من يجعل السفر بالسفن التي تمخر في البحر المتوسط وينزل في بعض جزره ، ثم يواصل الرحلة حتى ترسو به باحدى المواني العربية . وبعدها يسلك طرق البر كي توصله الى (دار السلام) !!

وفي رحلة (ابن جبير) المثال على ذلك !!

وكان من الطبيعي ان تجذب بغداد اليها العديد من الناس من هنا وهناك . من اقاصي المشرق الاقصى ، وما وراء النهر ، الى سواحل الاطلسي ، واطراف المغرب ، وكل هؤلاء كانوا يفقدون اليها للعلم ، والتجارة ، والسياحة ، والاطلاع ، والمراقبة ، ورصد المعلومات ونقل الاسرار ، وفي رحلة (التطيلي) ما يدل شاهدا على ذلك الامر ، ومثالا على الغرض الخفي لتلك الرحلة ؟ ! .

كما ان الامر يكون معكوسا احيانا للغرض نفسه من العراق الى الاندلس . كما وجدناه في رحلة (ابن حوقل) الموصلي ، الذي زار تلك البلاد ، وصور واقعا الاجتماعي ، والسياسي ، والعلمي . وقد اتهم بان زيارته ورحلته كانت بدافع سياسي ، من الخلافة العباسية !! (٢٣) .

٤ - اثر النتاج العراقي في حركة التأليف الاندلسي

مما لا شك فيه ان مدرسة بغداد العلمية ، كانت هي الرائدة في حقل الترجمة ، والتأليف . من طب ، وفلسفة ، وحكمة ، ومنطق ، وكلام ، واداب ، وتاريخ ، وجغرافية ، وعلوم ، وفنون .

وكان العراقيون هم الاساتذة في مختلف هذه الميادين ، لما ترجموه ، ودرسوه ، واخذوه ، وهضموه ، من الامم الاخرى وما ابتكروه بانفسهم . بحيث امتزجت تلك الثقافات في بوتقة الفكر العربي ، واصبحت ذات طابع عراقي عربي معروف .

وفي اي ميدان من الميادين العلمية ، والادبية ، والثقافية . كان لبغداد الحصة الكبيرة ، والريادة الهادفة النافعة .

فاذا الف (الجاحظ) مثلا رسالة التربيعة والتدوير : سار على خطاهما في التقد والفكاهة (ابن زيدون) في رسالته الهزلية .

واذا الف (ابن داود الظاهري) كتابه (الزهرة) الف هناك (ابن فرج الجياني) كتابه (الحدائق) واذا صنف (الثعالبي) يتيمة الدهر ، راينا (ابن بسام) يؤلف الذخيرة في محاسن (اهل الجزيرة) .

واذا الف (ابن سينا) (حي بن يقظان) في المشرق ، راينا (ابن طفيل) يؤلفه في الاندلس . واذا صنف (ابن قتيبة) كتابه (عيون الاخبار) في بغداد . وجدنا (ابن عبد ربه) يؤلف (العقد الفريد) . وهكذا تستمر هذه الصورة في مختلف الاطارات التي تحيط بها (٢٤) .

البغدادي) (٢٨) الذي هاجر اليها أيام الامير عبدالرحمن الثاني (١٧٦ - ٢٣٨هـ) والشاعرة المغنية (قمر البغدادية) (٢٩) التي جلبها واشتراها الامير ابراهيم بن حجاج الاشبيلي وهي التي حنت لوطنها العراق ، ولايام (بغداد) فقالت: (٣٠)

أها على بغدادها وعراقها
وظبائها والسحر في احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو اهلتها على اطواقها
متبخترات في النعيم كأنما
خلق الهوى العذري من اخلاقها

نفسى الفداء لها فأي محاسن
في الدهر تشرق من سنا اشراقها
والعالم الشاعر (ابو الفضل البغدادي) الذي ترجمه (ابن بسام) في (ذخيره) ونقل لنا طائفة كثيرة من اشعاره والتي منها يتشوق لبلاده حيث قال: (٣١) وكان ذلك في عصر الطوائف :-

اهيم بلذكر الشرق والغرب دائباً
وما بي شرق للبلاد ولا غرب
ولكن اوطاناً ذات واجباً
فقدت متى اذكركم عهودهم اصب
اذا خطرتم ذكراهم في خواطري
تناثر من اجفاني اللؤلؤ الرطب
ولم انس من ودعت بالثشط سحرة
وقد غرد الحادون واستعجل الركب
اليغان هذا سائر نحو غربة
وهذا مقيم سار عن صدره القلب
وقال (ابن بسام) في القسم الرابع من (ذخيره)
عن هؤلاء الوافدين (٣٢) .

« افردته لمن طرا على هذه الجزيرة في المدة
المؤرخة من اديب شاعر ، واوى الى ظلها من كاتب
ماهر ، واتسع فيها مجاله ، وحفظت في ملوكها اقواله
ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهوري اهل تلك
الافاق ، ممن نجم في عصرنا بافريقية والشام
والعراق » .

وقد عد في مقدمتهم (صاعد البغدادي) اللغوي
وتلاه (بابي الفضل الشاعر البغدادي) اما صاحب
(النفح) فقد اشار في مقدمة تراجم الوافدين الى
الاندلس بقوله: (٣٣)

.. « اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق
قوم كثيرون لانه يحصر الاعيان منهم ، فضلا عن غيرهم ،

وفد نقلت روائع العراق الى الاندلس عن طريق
طلبة العلم ، والمسافرين ، والرحالة ، والتجار ،
والوسطاء ، والوافدين ، والمهاجرين الى هناك .
وتشجيع الخلفاء الامويين في قرطبة ، والامراء في
اشبيلية ، وبقية مدن الاندلس الناصرة . لنقل تلك
الروائع . كما حدث ذلك في زمن الناصر والحكم
المستنصر في (قرطبة) و (ابراهيم بن حجاج في
(اشبيلية) (٣٥) ، والمثال على ذلك كتاب (الغاني)
الذي انتشر في قرطبة قبل ان يقرأ في (بغداد) .
لكن يا ترى ، ما هو المعيار الفني ، والنقدي ،
للمقارنة بين هذين النتاجين ، العراقي ،
والاندلسي ؟؟

ان لتلك البلاد نتاج له خصائصه ، وله روعته .
ولكن يبقى اثر العراق هو البارز ، وثمرات افلام
ابناء الرافدين هي المتميزة على غيرها . اللهم الا
باختراع الفنين الشعريين (الموشحات) ، و
(الازجال) . اللذين تميزت بهما العبقرية العربية
في الاندلس !! .

٥ - اثر العلماء والفنانين العراقيين الذين رحلوا الى الاندلس ، واثروا في حياتها الادبية والاجتماعية

في بعض ظروف لم يكن معلوما لدينا سرها الان:
بوضوح ، عن اسباب هجرة من العلماء ، وارباب
الفن العراقي ، للاندلس في عصر كان مزدهرا -
حسب قول المؤرخين العرب ، فمنهم من كان يعزي
هجرتهم الى اضطهاد فكري ، ومنهم يرجعها الى
فقر مادي ، ومنهم من يعللها الى حب المغامرة
والاستطلاع . ومهما كانت الاسباب . فقد حفلت
كتب التراجم الاندلسية بطائفة من اخبار (الغريب)
الذين وفدوا على الاندلس و (الطارئين) عليها . وفي
مجموعة (المكتبة الاندلسية) B. A. H. الكثير منهم -
وفي (الذخيرة) لابن بسام ابرزهم ، وفي (نفح الطيب)
اشهرهم .

ومن هؤلاء من دخلها في عصر الامارة ، ومنهم
ايام الخلافة ، ومنهم في عصر الانحدار والتأخر
والفتنة ، وعصر الطوائف ، وايام المرابطين والموحدين
ونهاية مملكة غرناطة .

وكان من ابرزهم دون منازع العالم العراقي
(ابو علي الفالي البغدادي) (٣٦) الذين ذهب اليها
ايام الناصر لدين الله (٣٠٠هـ - ٣٥٠هـ) و (صاعد
البغدادي) (٣٧) الذي قصدها ايام المنصور بن ابي
عامر (٣٢٦هـ - ٣٩٢هـ) و (زرياب المنسي

والاندلس هي التلميذة النابغة ، التي تخرجت في جامعة (بغداد) وافادت من ثقافة اساتذتها ، وتاليف علمائها بحيث انها لم تستطيع يوما ان تنكر هذا الفضل ، او تجحد ذلك العلم ، او تتناسى تلك الروابط العربية والاسلامية .

* * *

والغريب في تأثير العراقيين على الاندلسيين ان الخلفاء انفسهم هناك اصابتهم حرارة الغيرة من بني العباس في بغداد . فترصدوا اخبارهم ، وتشبهوا بطرز الحياة ، وانماط العيش ، التي كانت تدور في قصورهم ، وفي جنبات جنانهم . وفي اروقته مجالسهم الخاصة والعامه . فاذا نظم خليفة عباسي ابياتا يتغزل بها بجارية من جواربه ، جرى على نمطها ، وسار على غرارها امير او خليفة اموي اندلسي .

ولم يكتفوا بهذا بل رايناهم يؤلفون فرقا من الجند والحرس (٢٧) المرتزقة على غرار ما كان يفعله الامون والمعتمدين في العراق . ويبدون في المجتمع وهم بأبهى زينة ، وبمختلف الالقاب . كما حدث ذلك ايام اماره (الحكم الرضي) في حوادث الثورة والفتنة التي قامت في عهده .

ولم يرتح الامير (عبدالرحمن الثاني) الاوسط الابشراء التحف العباسية ، التي تناثرت بعد مقتل (الامين) ومنها العقد النفيس المسمى (بعقد الشفاء) الذي كانت تمتلكه (السيدة زبيدة) والذي وصل بعد ذلك الى (قرطبة) لتتحلى به (طروب) محظية الامير عبدالرحمن الاوسط !!!

٦ - اعلام من الشخصيات الاندلسية التي درست في بغداد ، وعادت تحمل العلم للاندلس .

لا نريد في هذه الدراسة ، ان نعدد ونذكر جميع من دخل (بغداد) من الاندلسيين ، ودرس فيها ، وتلمذ في معاهدها ، فذاك امر تصعب الاحاطة به ، والتتبع لدقائقه . لاسباب لا يمكن حصرها الان . منها ان بعضهم لم يكن بالعالم الشهير ولا بالذكي المتميز ، ولا بالمؤلف البار ، ولا بالشاعر المعروف .

ومنها ان بعضهم لم يستوطن (بغداد) زمنا طويلا ، صابرا على طلب العلم ، متحملا للام الغربة . وقساوة الفاقة !!! والطبيعة !!!

غير اننا نقصر الان على البارزين منهم ، والذين عادوا لبلدهم فاتروا في حركته العلمية ، والادبية ، والفكرية . على ان لنا عودة - ان شاء الله - في تاليف

ومنهم من اتخذها وطنا ، وصيرها مسكنا ، الى ان وافته منيته ، ومنهم من عاد الى المشرق بعد ان قضيت بالاندلس امنيته . « وترجم لبعض هؤلاء البغداديين وذكر مجموعة من اشعارهم ومنهم .

(ابو الحسن البغدادي الفيكلي) (٢٤) . وكان كما قال حلو الجواب ، مليح التندر ، يضحك من حضر ، ولا يضحك هو اذا ندر . عاش في عصر الامير (المعتمد بن عباد) صاحب (اشبيلية) ومما قاله في مدح (المعتمد) وبه اشارة لطريفة للحنين الى الوطن ، ولحجته الى (بغداد) ، والى كرم المدح وجوده .

.. ولي يحييك الريح عاما واشمها
ازخرف اعلام الثناء وارقم
وانفتت ما اعطيتني ثقة بما
اؤتمل' فالدينار عندي درهم
وقلبي الى (بغداد) يصبو وانسي
لنشر صباحها دائما اتنسم

وذكر لنا من الواقفين على الاندلس من اصحاب الخط والضبط (ظفر البغدادي) (٢٥) الذي قصد الحكم المستنصر ، وعاش في (قرطبة) وكان من رؤساء الوراقين المروفين في عصره كعباس بن عمرو الصقلي ، ويوسف البلوطي . وجعله الخليفة الاندلسي (الحكم) في مقدمة خطاطي قصره ، وفي خزائن مكتبته الشهيرة !!

* * *

وهناك ايضا من الراحلين العراقيين الذين لعبوا دورا في الحركة الادبية والفنية في الاندلس .

الشاعر (سعيد البغدادي) (٢٦) (وابو محمد الصلزي) النحوي ، وكل هؤلاء الذين ذكرناهم منحو ابناء الاندلس الكثير من ادابهم ، وعولمهم ، وفنونهم وكانوا حركة دائمة ، ونشاطا مستمرا ، في خلق الجو الادبي والفني هناك ، وفي تأثيرات (القالي البغدادي) وما القاه من محاضرات ، وما الفه من كتب ، وما بثه من حياة فكرية . لخير دليل على اثر العراقيين في ديار الاندلس النائية .

ناهيك باثر (زرياب) الفني والاجتماعي وما قدمه للمجتمع الاندلسي من عطاء لا ينكر فضله ، ومن فنون لا تجحد قيمتها . كان من ابرزها التطور الموسيقي والفناني الذي ساعد وخلق فيما بعد الجو المناسب لانتشار الوشحات ، وتقبل وجودها ومزاجتها للمدرسة الشعر العربي الخاضع للروي والقافية والبحر الواحد .

كتاب يضم شملهم ، ويجمع شتاتهم . ويدرس اهم مظاهر حياتهم ، وما خلفوه لنا من آثارهم .

* * *

ابو الوليد الباجي(٤١)

(٤٠٣هـ - ٧٤هـ)

(عالم من الاندلس)

التعريف به :

ابو الوليد سليمان بن خلف بن وارث الباجي . اصله من مدينة (بطليوس) Badajos وانتقل اباؤه الى (باجة) Baje واليها نسب .

عالم جليل من الاندلس ، درس في بلده على نخبة من العلماء منهم : ابو الاصمغ ، ومحمد بن اسماعيل ، وابو محمد مكي بن حموش ، وابو شاعر وغيرهم ...

قصد المشرق عام ٢٦هـ ، وجاور بمكة المكرمة ، ودخل الموصل ، واستوطن بغداد زمنا ، وكان من زملائه واساتذته المشهورين الخطيب البغدادي .

صفاته :

يتميز عن سواه ، في انه كان صلب العود ، فقيها ، شاعرا ، ناثرا ، مفسرا ، ادبيا . ثارت عليه العامة يوم ان عاد الى وطنه وناظر ابا بكر الصائغ في قضية امية الرسول الاعظم (ص) في حديث الكتابة يوم (الحديدية) الذي ورد في البخاري . وقال ابو الوليد (الباجي) بظاهر لفظه . وصنف ابو الوليد رسالة بين فيها ، ان ذلك غير فادح في المعجزة (٢٢) .

روى عنه حافظ المشرق والمغرب . ابن عبد البر في الاندلس ، والخطيب البغدادي في العراق . وكان يسمى (بشيخ الاندلس) .

قال عنه (ابن بسام) في ذخيره : (٢٢)

« غنى الزمان بفرائب شعره ، حتى جن الاحسان بذكوره ، واستغنت مصر والقيروان بخبره عن خبره . ولم تزل تلك الافاق تراسله ، وعجائب الشام والعراق تغالزه » .

« دخل (بغداد) والحرمان قد كساه سراويل ، ورماه بطير اباويل » .

ووصفه ابن خاقان في (قلانده) (٤٤) فقال :

« كان امام الاندلس الذي تقتبس انواره ، وتنتجع نجوده واغواره ، رحل الى المشرق فكفكف على الطلب ساهرا ، وقطف من العلوم ازاهرا . »

وذكر صاحب (النفع) (٤٥)

بانه كان يؤجر نفسه ببغداد لحراسة الدروب ، لفقره وحاجته .

هناك سؤال يتبادر الى الذهن - ويلج على الفكر . وهو كيف عاش اهل الاندلس في بغداد لا وكيف كانوا يتحملون طبيعة المناخ العراقي ؟ وهل اختلطوا في المجتمع العباسي ؟ . وهل جمعوا بين العمل والعلم ؟ وهل سكنوا جانب الرصافة - لكثرة المعاهد العلمية فيها ، اكثر من جانب الكرخ ؟ وهل كان يشملهم نظام الاعطيات ، والرواتب ، والمنح المالية ، التي يعطيها اصحاب الخير ، والهيئات : والاموال ، والدولة ، لطلبة العلوم ؟ وهل تقرب بعضهم لدور الخلافة العباسية ، واحتلوا منزلة مرموقة فيها ؟ وهل منهم من فضل البقاء في (بغداد) وعدم العودة الى اهله ووطنه ؟

اننا لم نجد - مع الحسرة والاسف - من الف لنا منهم تاريخا وسجلا لرحلتهم الى العراق . او كتب لنا وصفا لما كان يحيطهم يومذاك ولعل الايام القابلة تكشف لنا مخطوطا مؤلف اندلسي - صور لنا فيه حياة العلماء الاندلسيين في (بغداد) ، وليس في الحياة شيء غريب ، ولا في الوجود امر مستبعد !

نعم ! وجدنا وصفا مفيدا لحياة (الحميدي) ولابي الوليد (الباجي) ، الذي كان يشتغل حارسا في الليل ، ويدرس في النهار ، وقد صبر فظفر ، ورجع الى الاندلس بحمل معه ثروة علمية وخطية من آثار العراق الثقافية . ومنهم من اسمى نفسه (بالبغدادي) لطول اقامته في (بغداد) وحبه لها ! امثال ابي عبدالله محمد بن احمد بن ابراهيم الخزرجي (٢٨) ومنهم من اسماء العراقيون لعلهم وبراعته في الطب (بحكيم الزمان) وهو ابو الفضل محمد بن عبد المنعم الجلياني الطبيب (٢٩) الذي درس في (النظامية) .

ومنهم من قضت عليه همجية التتر ووحشيتها فمات شهيدا غريبا محتسبا ، امثال ابي عبدالله محمد بن احمد الزهري الاشيلي (٤٠) .

* * *

وقد اخبرت لهذه الدراسة مجموعة من اولئك الاعلام ، واقتصرتهم على (عالم) و (اديب) ، و (شاعر) ، و (رحالة) . ولم ارد الشمول والاطالة . ومن هؤلاء الخالدين فئة كان لها مقامها ، ولها علمها ، ولها اثرها الطيب ، في دنيا العلوم والمعارف ، وفي ميدان التأليف والتدريس ، وفي رياض الشجر والادب ! !

- وفي هذه المناسبة جرت بينه وبين (ابن حزم الظاهري) مناظره . حول همة كل واحد منهما في طلب العلم ، وما وصل اليه من منزلة ومقام (٤٦) .
- قال (الباجي) يخاطب (ابن حزم) :
- « انا اعظم منك همة في طلب العلم ، لانك طلبته وانت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب . وطلبته وانا اسهر بقنديل بانث السوق .
- فقال (ابن حزم) . . هذا الكلام عليك لا لك ، لانك انما طلبت العلم ، وانت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وانا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا والاخرة . فافحمه !! » .
- فقال (ابن حزم) . . هذا الكلام عليك لا لك ، لانك انما طلبت العلم ، وانت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وانا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا والاخرة . فافحمه !! » .

لله درهما ! ودر اصحاب الهمم المالية في طلب العلم ، والسعي وراء المجد ! !

من ازاهير شعره . . (٤٧)

قال (الباجي) من قصيدة رائعة يمدح بها قاضي القضاة ببغداد (ناصح الدين وتاج الاسلام) السمناني جاء منها .

ما طال عهدي بالديار وانما
انسى معاهدها اسى وتبلد
. . لله ايام الشباب وحسنها
وغصونها المائسات اليد
ايام انفض للمراح ذؤابتي
بين الشباب ودرع برودي مجسد
اتقنص الظبيات في سبل الصبا
فيصيدهن لي المدار الاسود
حتى علاني الشيب قبل تحلم
وابر ما سبق المشيب المولد

ومنها :

ما هالني صعب المرام ولا الذي
تستبعد الايام عندي يبعد
استقرب الفزو البعيد بهمة
ادنى منازلها السها والفرقد
اسري اذا عتكر الظلام وقادني
امل ، مطالبها الملا والسودد

مؤلفاته: (٤٨)

له اثار عديدة المناحي ، ومختلفة المواضيع . ولكنها في الغالب تدور حول فقه المذهب المالكي . سردها (باقوت) في مجمع ادبائه (٤٩) ، وتذكر الان ابرزها اثرا ، واغلبها شهرة :

- ١ - الاستيفاء في شرح الموطأ .
٢ - المنتقى .
٣ - الايماء .
٤ - السراج .
٥ - التمديل والتجريح .
٦ - احكام الفصول .
٧ - المعاني .
٨ - تفسير القرآن .
٩ - المتقبس في علم مالك بن انس .
١٠ - الناسخ والنسوخ .

القاضي ابو عبدالله محمد بن ابي عيسى اللبشي (٥٠)

(٢٨٤هـ - ٣٣٧هـ)

(اديب من الاندلس)

التعريف به :

هو ابو عبدالله محمد بن ابي عيسى من بني يحيى بن يحيى اللبشي . اديب ، قاض ، شاعر . من اسرة عرفت بالعلم ، والوجاهة ، والادب .

جله الناصر لدين الله قاضي الجماعة بقرطبة سنة ٣٢٦هـ . وقدمه على الاخرين ، وجعله كذلك سفيرا بين الامراء ، ومشاورا في شؤون الحرب والقضاء .

صفاته :

لطيف العشر ، سمح الخلق ، طيب النفس ، رقيق الحاشية ، يهتز للشعر ، ويرتاح للجميل ، له ثقافة عالية . في قضايا الشعر ، ومعانيه ، وفي اللغة ، ومشاكل الاعراب . وصفه (ابن خاقان) في مطمح الانفس فقال : عنه « ثنينة علم وعقل ، وصحة ضبط ونقل » . وأشار عنه صاحب (النفح) وذكر صفاته « كان له نصيب وافر من الادب ، وحظ من البلاغة اذا نظم او كتب » .

من لطائف اخباره واشعاره: (٥١)

ذكر (الحميدي) في (جذوة المتبسن) رواية عن ابي محمد علي بن احمد . قال: اخبرني القاضي ابو الوليد بونس بن عبدالله عن ابيه . انه شاهد قاضي الجماعة محمد بن ابي عيسى في دار رجل من بني حدر مع اخيه ابي عيسى . في ناحية مقابسر قريش ، وقد خرجوا لحضور جنازة ، وجارية للحديري فغنمهم هذه الابيات: (٥٢)

طابت بطيب لسانك الاقصاد
وزهى بحمرة خدك التفاح

وشعره ، ورحلته الشهيرة . وبكتابه المسروف
(العواصم من القواصم) .

زار المشرق مع والده . وكان صغيراً اولافى
السدة والمذاب ، في مطلع حياته ، واوان شبابه ،
وبداية سفره زار المغرب ، ومصر ، والقدس ،
والديار المقدسة . والعراق . واتصل بالعالم
الزاهد ابي بكر الطرطوشي صاحب كتاب (سراج
الملوك) . وقصد دمشق واخذ عن عالمها ابي الفتح
نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي .

ودخل (بغداد) مع والده ايام الخليفة
المتدى بالله (٥١٠) ومن اساتذته في دار السلام .
ابو الحسين المبارك ، وابو الحسن علي بن ايوب
البيزاق والقاضي ابو البركات الحنبلي ، وابو بكر
محمد الشاشي الشافعي . واتصل بالامام حجة
الاسلام (الغزالي) في المدرسة النظامية ، وفي
دمشق ، ولازمه زمناً ، وكان من تلامذته القريين .
اضافة لاساتذته في الاندلس كالسرقسطي .
وغيره ..

صفاته :

امتاز (ابن العربي) ، بالجرأة في القول ،
والصراحة في الرأي ، والصر على المكاره ، وعاش
في عصر الطوائف . وفي اعماله القضائية عسرف
بالصرامة ، والشدة في الاحكام . مع الرفق بالضعفاء
والمساكين . ووصلت اليه الرياسة الدينية ايام
المرابطين .

وصفه ابن سعيد المغربي بقوله (٥٧) « طبق
الآفاق بفوائده ، وملا الشام والمراق باوابده ،
وهو امام في الاصول والفروع » .

اما ابو نصر الفتح بن خاقان فقد وصفه في
(المطمح) (٥٨) حيث قال عنه : « علم الاعلام الطاهر
الاثواب ، الباهر الالباب .. سقى الله به الاندلس
بعدهما اجديت من المعارف ، ومد عليها منه الظل
الوارف . فكساها رونق نبلة ، وسقاها ريق
وبله » . هذا وقد عرف بالقضاء ، كما عرف
بالشعر ، وعقدت عليه دراسات ، ونشرت عنه
ابحاث ، واحيا المحققون رحلته .

من ازاهير شعره : (٥٩)

حاولت ان افدمه (شاعراً) واترك امره
(قاضياً) . وابتمد في بحني هذا عن نهج التقليد ،
واثر الاعادة والترديد .

قال رحمه الله تعالى - دخل علي الاديب

واذا الربيع تنسمت ارواحه
طابت بطيب نسيمك الارواح
واذا الحنادس البست ظلماءها
فضياء وجهك في الدجى الصباح
قال : وكتبها فاضي الجماعة في يده : تم
خرجوا ،
قال : فلقد رايتك يكثر للصلاة على الجنازة ،
والايبات مكتوبة على باطن كفه !!

ومن شعره :

بعد ان عاد الى وطنه ، من غربة شاقة ،
ونوى مؤلم : - (٥٢)

كان لم يكن بين ولم تك فرقة
اذا كان من بعد الفراق تلاق
كان لم تؤرق بالمراقين مقلتي
ولم تمر كف الشوق ماء ماقى
ولم ازر الاعراب في جنب ارضهم
بذات اللوى من راقاة وبراق
ولم اصطح بالبيد من قهوة الندى
وكاس سقاها في الازاهر ساق

ومن شعره في الحنين الى (قرطبة) قوله: (٥٤)
ماذا اكابد من وزق منفرده
على قضيب بذات الجزع مياس
رددن شجوا شجا قلب الخلي فهل
في عبرة ذرفت في الحب من باس
ذكرنه الزمن الماضي بقرطبة
بين الاحبة في امن وابناس
هم الصباية لولا همة شرفت
فصيرت قلبه كالجنديل القاسي

هذه شخصية من شخصيات الاندلس ،
امتازت بصفات العلم والادب ، وافادت من ثقافة
العراق والمشرق . وعادت تحمل لوطنها الظرف
العراقي ، والاخلاق البغدادية . وامثالها الكثيرون
في سجل التاريخ ! .

ابو بكر بن العربي (٥٥)

(٤٦٨هـ - ٥٤٣هـ)

(شاعر من الاندلس)

التعريف به :

هو ابو بكر محمد بن عبدالله بن العربي
المعافري من اشيلية . اشتهر بأدبه . وعلمه ،

- ١ - انوار الفجر في تفسير القرآن . وهو من اكبر آثاره .
- ٢ - قانون التأويل .
- ٣ - احكام القرآن .
- ٤ - القبس في شرح موطا مالك بن انس .
- ٥ - عارضة الاحوذى .
- ٦ - حديث الاءفك .
- ٧ - ترتيب الرحلة .
- ٨ - نواهي الدواهي .
- ٩ - العواصم من القواصم .
- ١٠ - الناسخ والمنسوخ .

الطبيب ابو الفضل محمد بن عمر الجبائي(١٦٥)

(٥٥٣ هـ - ٦٠٢ هـ)

(حكيم من الاندلس)

طبيب ، اديب ، رحالة ، سائح ، مؤلف ، شاعر ، اصله من (وادي آش) . ولد بقرية (جليانة) التابعة (لقرنطة) . وصل في رحلته الى القاهرة ، ودمشق ، ودخل بغداد سنة ٦٠١ هـ . وسكن المدرسة النظامية .

صفاته :

اشتهر بأدبه ، وشعره ، وحكمته ، وطبه ، وبراعته في الرياضيات ، وادب النفس مع حسن في الاخلاق ، ولطف في المعاشرة ، وحضور في الإجابة ولقبوه (بحكيم الزمان) . وسافر الى دمشق ، وحضر مجلس السلطان (صلاح الدين الايوبي) واتصل بحاشيته . وكان من معاصريه القاضي الفاضل ، وترجمه صاحب (خريدة القصر) واشاد بشاعريته وفنون ادبه .

أزاهير من شعره (١٦٦)

ترك الشاعر دواوين شعر عديدة ، ذكرها لنا صاحب (نوات الوفيات) ابن شاکر الکتبي(١٧) وتغلب على شعره الحكمة ، والكرامة ، وعزة النفس ، واستعمال المحسنات البديعية ، اسوة ببعض شعراء عصره .

ومن جيد شعره :

فأبخص شيء حكمة عند جاهل

وأهون شيء فاضل عند ظالم

فلو زفت الحسناء للذئب لم يكن

يرى قربها الا لاكل المعاصم

(ابن صارة) وبين يدي نار علاها رماد . فقلت له : قل في هذه ، فقال : (١٦٠)

شابت نواصي النار بعد سوادها

وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لي : اجز ، فقلت :

شابت كما شبتنا وزال شبابتنا

فكانما كنا على ميمعاد

ومن رائق نظمه : (١٦١) ومن رقة شعره :

اتنسي تؤنيسي بالبكا

فأهلا بها وتبانيهها

تقول وفي نفسها حيرة :

البيكي بعين تراني بها ؟

فقلت : اذا استجنت غيركم

امرت جفوني بتعذيبها

ومن شعره وهو في شوق الى (بغداد) (١٦٢) :

امنك سرى والليل يخدع بالفجر

خيال حبيب قد حوى قصب الفخر ؟

جلا ظلم الظلماء مشرق نوره

ولم يخط الظلماء بالانجم الزهر

ولم يرض بالارض البسيطة مسجبا

فسار على الجوزا الى فلك بجري

وختما بقوله :

سقى الله مصرأ والعراق واهلهها

وبغداد والشامين منهمل القطر

ومن طرائف ما رواه في (رحلته) للعراق .

قال : (١٦٣)

انه كان بمدينة السلام امام من الصوفية واي امام يعرف بابن عطاء . فتكلم يوما على يوسف واخباره حتى ذكر تبرئته مما ينسب اليه من مكروه فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخلقة من كل طائفة . فقال يا شيخ ، يا سيدنا ، فاذن يوسف هم وما تم ، فقال نعم ، لان العناية من ثم فانظروا الى حلاوة العالم والمتعلم ، وفطنة العامي في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه .

آثاره ومؤلفاته (١٦٤)

ترك (ابن العربي) آثارا كثيرة ، منها قد طبع وانتشر ومنها لا زال مخطوطا . ومن مؤلفاته المعروفة :

ومن لطيف وجدانياته :

اجانبهم سلما ليسلم جانبي
وليس لحقد في النفوس ولا بفض
تخلت عن قومي ولو كان ممكن
تخلت عن بعضي ليسلم لي بعضي
ومن شعره في مدح السلطان صلاح الدين
الايوبي قوله : (٧٠)

أؤمل لتياكم وان شطت النوى
وأزجر قريبا في مرور السوانج
وبذكي اشتياقي زبد تذكاري عهدكم
وما الشوق الا بعض نار الجوانج
ومن حكمه :

اما ملكا اتى العداة حسامه
ومنتجعا اتى العفاة ابتسامه
لقاؤك يوما في الزمان سعادة
فكيف باو في حماك حمامه
.. اتينا لما عودتنا من مكسارم
بلوذ بها الراجي فيسفي غرامه
فرحماك غوث لا يغيب نصيه
ونعماك غيث لا يغيب انسجامه

قالوا ترى نفراً عند الملوك سموا
وما لهم همة تسمو ولا ورع
وانت ذو همة في الفضل عالية
فلم ظمئت وهم في الجاه قد كرعوا ؟
فقلت : باعوا نفوسا واشتروا ثمننا
وصنت نفسي فلم اخضع كما خضعوا
قد يكرم القرد اعجابا بخسنه
وقد بهان لفرط النخوة السبع
ومن شعره :

آثاره ومؤلفاته : (٧١)

من آثاره الشعرية .
١ - ديوان الحكم وفتور الحكم .
٢ - ديوان المشوقات .
٣ - ديوان السلوك .
٤ - ديوان نوادر الوحي .
٥ - ديوان تحرير النظر .
٦ - سر البلاغة وصنائع البديع .
٧ - ديوان البشرات .
٨ - ديوان الغزل والتشبيب والموشحات
والدوبيت .
٩ - ديوان تشبيهات والغاز ورموز واحاجي
واوصاف وخمريات .
١٠ - ديوان ترسل ومخاطبات .
١١ - منادح المادح وروضة المائر والمفاخر ، في
خصائص الملك الناصر .
١٢ - جامع أنماط المسائل في العروض والخطب
والرسائل .

لايد للجسم من قوام
فخده من جانب اعتدال
واقرب من العز في اتضاع
واهرب من الذل في المعالي

ومن بديع قوله : (٦٧)

الا انما الدنيا بحمار تلامت
فما اكثر الفرقى على الجنبات
واكثر من لاقت بفرق الفه
وقل فتى ينجسي من القميرات
وقال من اشعاره الحكيمية : (٦٨)

قالوا نراك عن الاكابر تعرض
وسواك زوار لهم متعرض
قلت الزيارة للزمان اضاعة
واذا مضى زمن فما تعوض
ان كان لي يوما اليهم حاجة
فبقدر ما ضمن القضاء تقيض

ومن اشعاره الدالة على عزله : وبعده عن
المشاكل . قوله : (٦٩)

خبرت بني عصري على البسط والقبض
وكاشفتهم كشف الطبائع بالنبض
ارى الشخص من بعد فاغضي تفاعلا
كمشده بال في مهمته يمضي
ويحسبني في غفلة وفراستي
على الغور من لمحي بما قد نوى تفضي

سعد الخير بن محمد الانصاري البلسي (٧٣)

(توفي - ٥٤١هـ)

(رحالة من الاندلس)

التعريف بشخصيته :

هو ابو الحسن الانصاري سعد الخير بن محمد
بن سعد . محدث ، رحالة ، لم يترك ارضا الا

الهوامش

- (١) راجع / معجم البلدان المجلد الاول ص / ٥٦ .
- (٢) راجع / المصدر السابق ص / ٤٦١ .
- (٣) راجع / المصدر السابق ص / ٤٦١ .
- (٤) راجع / المصدر نفسه ص / ٤٦١ .
- (٥) راجع / المصدر نفسه ص / ٤٦١ .
- (٦) راجع / الروض المطار ص / ٥٦ .
- (٧) راجع / نفع الطيب ج / ١ ص / ٦١٦ .
- (٨) راجع / المصدر نفسه ج / ١ ص / ٤٥٩ .
- (٩) راجع / المصدر نفسه ج / ١ ص / ٢١٠ .
- (١٠) راجع / المصدر ذاته ج / ١ ص / ٤٦٠ .
- (١١) راجع / المصدر ذاته ج / ١ ص / ٤٦١ .
- (١٢) راجع / مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد . العدد / ١١ سنة ١٩٦٨ . ص / ١٤٦ وما بعدها .
- (١٣) راجع / البيان الغرب ج / ٢ ص / ١٣٦ . وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص / ٢٢٩ .
- (١٤) راجع / البيان الغرب ج / ٢ ص / ١٣٥ وما بعدها . وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص / ٢٢٨ وما بعدها .
- (١٥) راجع / الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لابن بسلام القسم الاول - المجلد الاول . ص / ٢٩٧ وما بعدها .
- (١٦) راجع / المصدر نفسه - مقدمة الكتاب ص / ب وما بعدها . و ص / ٢٠ من مقدمة المؤلف .
- (١٧) راجع / الذخيرة - القسم الاول - المجلد الاول . ص / ٢ .
- (١٨) راجع / نفع الطيب ج / ١ ص / ٦٠٩ ج / ٢ ص / ٢٧ .
- (١٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٢٥ وما بعدها . وكتاب العواصم من القواصم ، لابن العربي ص / ٢٠ .
- (٢٠) راجع / دراساتنا عن (الحمدي) في مجلة كلية الآداب - العدد / ١٠ ص / ١٧٩ وما بعدها - ١٩٦٧ م . جامعة بغداد .
- (٢١) راجع / عن رحلة بنيامن الطيلي ، كتاب تاريخ الادب الجغرافي ، للمشتري كراشكوفسكي ج / ١ ص / ٢٣٨ والرحلة نفسها المطبوعة في بغداد سنة ١٩٤٥ م .
- (٢٢) راجع / عن ابن جبير ورحلته . نفع الطيب ج / ٢ ص / ٢٨١ . ورحلة ابن جبير بطبعات ممتدة .
- (٢٣) راجع / عن رحلة (ابن حوقل) . تاريخ الادب الجغرافي . ج / ١ ص / ٢٠٠ . ورحلة ابن حوقل في المكتبة الجغرافية .
- (٢٤) راجع / الشعر الأندلسي ، لفرسي غومز ص / ٢٨ ودراستنا (الأندلسيون الأوائل من حملة الثقافة العراقية) مجلة كلية الآداب العدد / ١١ ص / ١٤٦ / ١٩٦٨ م .
- (٢٥) راجع / البيان الغرب ج / ٢ ص / ١٨٨ .
- (٢٦) راجع / عن أبي علي القالي البغدادي - دراستنا عنه في كتابنا (ادباء بغداديون في الأندلس) بغداد . ط ١٩٦٢ ص / ١٢ .
- (٢٧) راجع / عن صاعد البغدادي . دراستنا عنه في مجلة كلية الآداب . جامعة بغداد . العدد / ٦ سنة ١٩٦٢ . ص / ٢٦٥ .
- (٢٨) راجع / دراستنا عن (زرباب المغني البغدادي) (ادباء بغداديون في الأندلس) ص / ٤١ وكتاب (قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس) ج / ٢ ص / ٨٧ وما بعدها .

زارها في الشرق ووصلت خطوانه الى (الصين) . وكان يسمي نفسه بالصيني البنسي . وهو أشبه بأبي حامد الفراتي . صاحب (تحفة الالباب) . وابن جبير الكثاني . وابن سعيد المغربي . إلا انه اختلف عنهم وفاقهم جميعا في الوصول الى (الصين) وسدها العظيم ! ! وتسابه مع (ابن بطوطة) . في حياته : وزواجه . غير انه اكثر علما ، ورواية ، وفهما ، منه .

صفاته :

كان من صفاته حب المفامرة ، والصبر على المشاق وركوب البحار ، وقطع الغياقي والقفار ، ومصاحبة العلماء . ومجالسة الابداء .

ومن اساتذته : ابو ركريا التبريزي ، وابو حامد الفزالي . وروى عنه السمعاني ، والكندي ، وابن الجوزي . وظوف بالبلاد . به عاد مشتاقا الى بغداد ومات فيها سنة ٥٤١ هـ . ودفن بحسب وصيته في تربة الامام احمد بن حنبل (رض) .

آثاره :

كان هذا الرحالة الأندلسي . كما يبدو محدثا لا مؤلفا . ولعل له رحلة مخطوطة ، ومشاهدات طريفة عن البلاد التي زارها وسكنها في اقصى المشرق . وفي وسط الجزيرة العربية . تأمل ان تكشف لنا الايام الباقية . والسنين الآتية ، عما خفي من آثاره ومولفاته .

لقد اخترته مثلا للعالم المفامر ، والرحالة الزائد . والمحب المعجب ببغداد . بحيث انه فضلها على البلاد التي زارها . وعاوده الشوق اليها . ثم مات في تربتها . بين اعلام العلم ورجال الفضيلة . واساطين السياسة ، ومشاهير الادب ! !

* * *

هذه دراسة ارجو اني وفقت في عرضها . وتقديم الصورة الواضحة . عن مضمونها ، واعطاء النماذج من الشخصيات الأندلسية . التي زارت (بغداد) وتعلمت فيها ، وتركت آثارا في دروبها . ونقلت العديد من تراثها الفكري والعلمي والادبي لبلادها . فكم (لبغداد) من اباد لا تنسى على الناس ! ! وعلى (الأندلس) ، وكم لها من فضل لا تمحو آثاره احداث الزمن ! !

- (٦٥) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٦٢٥ ج / ٢ / ص /
٦١٤ وقد ترجمه مرتين ، راجع / الدليل والتكملة
ج / ٥ / ص / ٥٧ .
(٦٦) راجع / مجموعة من اشعاره في (فوات الوفيات) ج / ٢ /
وفم ٦٦٣ . ص / ٢٥ .
(٦٧) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٦١٤ .
(٦٨) راجع / المصدر السابق ج / ٢ / ص / ٦٢٦ .
(٦٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ / ص / ٦٣٦ .
(٧٠) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ / ص / ٦٣٧ .
(٧١) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٦١٤ وفوات الوفيات
ج / ٢ / ص / ٢٥ وما بعدها .
(٧٢) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٦٣٢ .

اهم المصادر والمراجع

المصادر القديمة :

- ١ - نفع الطيب - ط ١ / صادر - بيروت / ١٩٦٨ م .
- ٢ - فلاد العقيان - لابن خاتان - مصر ١٢٨٤هـ .
- ٣ - المغرب - لابن سعيد - ط ١ / مصر ١٩٥٣م .
- ٤ - الذخيرة - لابن سبويه - ط ١ / مصر ١٩٢٦م .
- ٥ - الذخيرة - لابن سبويه - ط ١ / مصر ١٩٧٥م .
- ٦ - مطبخ الانفس - لابن خاتان ط ١ / الاستانة ١٣٠٢هـ .
- ٧ - الرقية العليا - للنباهي ط ١ / مصر ١٩٤٨م .
- ٨ - البيان المغرب - لابن عذارى ط ١ / بيروت ١٩٥٠م .
- ٩ - معجم البلدان - لياقوت ط ٢ / دار بيروت ١٩٧٧م .
- ١٠ - معجم الادباء - لياقوت - دار المأمون - مصر ١٩٢٦م .
- ١١ - فوات الوفيات - لابن شاکر ط ١ / مصر ١٩٥١م .
- ١٢ - جلوة القنبيس - للحميدي ط ١ / مصر ١٩٧٢م .
- ١٣ - الدليل والتكملة - للمراكشي ط ١ / بيروت ١٩٦٥م .
- ١٤ - المواسم من القواصم - لابن العربي ط ٢ / مصر ١٣٧٥هـ .

المراجع الحديثة :

- ١ - فرطية حاضرة الخلافة في الاندلس . للدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، ج ١/١/ط١/بيروت / ١٩٧١ .
- ٢ - فرطية حاضرة الخلافة في الاندلس . ج ٢/ط١/بيروت / ١٩٧٢ .
- ٣ - الشعر الاندلسي . غريباً غومز (الطبعة العربية) ط ٢ / القاهرة ١٩٥٦م .
- ٤ - تاريخ المسلمين وانبارهم في الاندلس . للدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، ط ١ / دار المعارف - بيروت ١٩٦٢ .
- ٥ - ادباء بغداديون في الاندلس . للدكتور محسن جمال الدين ، بغداد - ١٩٦٢م .
- ٦ - تاريخ الادب الجغرافي . للمسنوق كراشكوفسكي ، الطبعة العربية - مصر ١٩٦٣م .
- ٧ - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / ١٩٦٣م .
- ٨ - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / ١٩٦٧م .
- ٩ - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / ١٩٦٨م .
- ١٠ - الاعلام - للزركلي ط ٢ / القاهرة ١٩٥٩م .
- ١١ - معجم المؤلفين - لمر كحالة ط ١ / دمشق ١٩٥٨م .
- ١٢ - دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) مصر ١٩٦٣م .

- (٢٩) راجع / عن الغنية (فمر) البيان المغرب ج / ٢ / ص / ١٩٤ ونفع الطيب ج / ٢ / ص / ١٤٠ .
- (٣٠) راجع / الابيات في نفع الطيب ج / ٤ / ص / ١١٥ .
- (٣١) راجع / الذخيرة . القسم الرابع / المجلد الاول ص / ٧٧ .
- (٣٢) راجع / المصدر السابق . القسم الاول ، المجلد الاول ص / ١٨ .
- (٣٣) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٥ وما بعدها .
- (٣٤) راجع / المصدر السابق ج / ٢ / ص / ١١٩ .
- (٣٥) راجع / المصدر السابق ج / ٢ / ص / ١١١ .
- (٣٦) راجع / فرطية حاضرة الخلافة في الاندلس . ج / ١ / ص / ٥٨ و ص / ٥٩ .
- (٣٧) راجع / المصدر السابق ج / ١ / ص / ٥٥ .
- (٣٨) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ١٥٦ .
- (٣٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ / ص / ٦٢٥ .
- (٤٠) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ / ص / ٦١٤ .
- (٤١) راجع / المصدر السابق ج / ٢ / ص / ١٧ وبهامشه عدة مصادر عنه .
- (٤٢) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٦٨ .
- (٤٣) راجع / الذخيرة لابن سبويه - القسم الثاني - المجلد الاول ص / ٨٠ وما بعدها .
- (٤٤) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٧٤ وام اجد النص هذا في القلائد .
- (٤٥) راجع / عن الباجي وحياته معجم الادباء ج / ١١ / ص / ٢٤٦ . والرقية العليا ص / ٩٥ . ونفع الطيب ج / ٢ / ص / ٧٧ .
- (٤٦) راجع / المناظرة في نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٧٧ .
- (٤٧) راجع / الذخيرة . القسم الثاني - المجلد الاول ص / ٨٢ . وله اشعار في نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٧٥ وما بعدها .
- (٤٨) راجع / مؤلفاته في نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٦٩ .
- (٤٩) راجع / معجم الادباء ج / ١١ / ص / ٢٦٤ وما بعدها .
- (٥٠) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ١٢ . والرقية العليا ص / ٥٩ . وجلوة القنبيس ص / ٦٩ .
- (٥١) راجع / جلوة القنبيس ص / ٦٩ وما بعدها . ونفع الطيب ج / ٢ / ص / ١٣ وما بعدها .
- (٥٢) راجع / الابيات في المصدرين السابقين (الجلوة) ص / ٧٠ والنفع ص / ١٤ .
- (٥٣) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ١٢ .
- (٥٤) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ١٣ وفي الجلوة ص / ٧٠ رواية اخرى للابيات مع زيادة .
- (٥٥) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٢٥ . والمواصم من القواصم ص / ١٠ .
- (٥٦) راجع / المواصم من القواصم ص / ١٧ .
- (٥٧) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٢٦ .
- (٥٨) راجع / مطبخ الانفس ط ١ / الجواثب - الاستانة ١٣٠٢م . ص / ٦٢ . وكذلك نفع الطيب ص / ٢٣ - ج / ٢ .
- (٥٩) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٢٠ .
- (٦٠) راجع / المصدر السابق ج / ٢ / ص / ٢٠ .
- (٦١) راجع / المصدر السابق ج / ٢ / ص / ٢٠ .
- (٦٢) راجع / نفع الطيب ج / ٢ / ص / ٢٤ .
- (٦٣) راجع / المصدر ذاته ج / ٢ / ص / ٤١ .
- (٦٤) راجع / المواصم من القواصم ص / ٢٧ وما بعدها . ونفع الطيب ج / ٢ / ص / ٢٥ .

مقدمة حكايات أبي الفتح البغدادي

بقلم المشترك

آدم ميتز

ترجمة

طارق حيك الغامبي

بغداد - الجمهورية العراقية

والتعبير ابتداء من ابن المعتز وانتهاء بابن الحجاج .. وظهرت لعبة الشطرنج : لأول مرة ، آداه بلاغية ، وحية للحوار الفني اندي كان يرافق كل نقلة اسوة بالمالوف في السرح الآسيوي الشرقي . ثم وزع الشاعر رغبانه بين (نعم) و (لا) .. ولكنه أهمل نسق الأضداد التي انحدرت مادنها المدرسية ، في ذلك الوقت ، عن طريق كتاب الثعالبى (مدح الشيء وذمه) . و (الشيء) عنده لم يكن الفكرة ، بل الشيء المجرد نفسه .. فيؤ لا يذكر السبب وضده في بناء البيت ، وإنما يصف لنا البيت اما بانجودة او السخافة (١) . ولم يعر المؤلف اية أهمية للأقبال على الطعام او الامتناع عنه .. بل ابان لنا كيف يتناول البغدادي الثري طعامه ، وكيف يأكل الفقير في اصفهان ، هذه المفارقة لا وجود لها في الكتب القديمة - بما فيها البلاغة - لانها منتزعة من المشاهدة : وربما اغنت الحركة التوفيقية بين العقائد المتعارضة فن الوصف الذي ضمن لهذه الحكاية اتجاهاً ادبياً ذا منحنى واقعى . ولهذا تعتبر حكاية ابي القاسم عند دي غوبه) و (كراباجك) من المصادر القيمة . ومن هنا استقلالها عن الأدب المدرسي بصورة جلية : فلنوادير الملايين مكانها الثابت في المصادر المعروفة ، ومن يقارن نماذج (الراغب الاصفهاني) او نماذج (المستطرف) بنماذج ابي القاسم (ص ١٠٧) والتي تليها (٢) يقع على الشمولية في مكان ، والاستبصار في مكان آخر ، دون أن يمي الأشكال المألوفة ، رغم أن القيمة التاريخية الأدبية للآثار

لو طرح على مؤلف « الحكاية » ما قاله احمد بن ابي طاهر في سعيد بن حميد** (فهرست ابن النديم ، ص ١٢٢) ولو طبقنا هذه القولة « ارجع الى اهلك » لما وجدنا عنده من الجيد الا القليل : ومن غير المحمود ربما الكثير . لقد استطعت ان ارجع اغلب المواد الى اصولها ، ولكني اصطدمت بـ « اصول » غريبة في جوانب اخرى من الحكاية . والمؤلف نفسه يصف عمله اساساً بأنه مجموع ادبي مختار ، فقد برزت في حكاياته اشياء كثيرة كانت ذات أهمية في عهده ، كانواطن وانبئت والحصان والحمار والخمر والكاس وحفلات المائدة والنديم والراقصة والقلام والجارية والمغني والموسيقي والخطيب والمستمع والمتطفل والمتفاخر ، وقد اقتبست بعض الابيات الشعرية مباشرة ، من مؤلفات مرتبة تاريخياً (كما في الصفحتين ٥١ و ١٢٩) ومفعمة بالاحساس

* حقق الاستاذ آدم متر حكاية ابي القاسم البغدادي ، ونشرها في هايدلبرج سنة ١٩٠٢ ، وصدرت عن مطبعة كارل ووتر (واعادت طبعها بالافلست مكتبة المثنى في بغداد) . وقد الحق ا . ميتز بالنص العربي مقدمة نفيسة باللغة الألمانية ، ووجدنا بعضها جديراً بالنقل الى اللغة العربية ، وهو هذا الذي بين يدي القارئ [رئيس تحرير الورد] .

** عبارة ابن النديم وردت هكذا : « لو قيل للام سعيد وشعره ارجع الى اهلك لما بقي معه منه شيء . هذا لفظ احمد بن ابي طاهر » . ويظهر من النص ان الشاعر سعيد بن حميد كان مشهوراً بالسرفة [رئيس تحرير الورد] .

والاذن المتمبة علامة مميزة لكل الادب الحضري والاجتماعي الذي لم يتلاءم - لا خلال الحرب ولا في موسم الزرع - مع لحن الطبيعة الموصول ، وبات كل مباح - من الآن فصاعداً - لاصدر له - سوى الاقوام الدخيلة الزعجة .. ففي ذلك الوقت احتل الفعل (مل) مكان الصدارة في النقد (قال احد اسدقاء جعفر البرمكي للشاعر : قل آياتا ولا تطل - فانه يعمل الاطالة - فقلت : لست بصاحب اطالة - الاغاني ١٧ : ٣٣) . وكذلك الفضة الثرية - فانها لم تستعمل الا في (رداء الإيجاز) ولم يكن المرء يمقت - اكثر مما يمقت - القصص الطويلة (حلبة الكميث - ص ٣٠ . طراز المجالس - ص ٦٦) ولابد أن يكون ذلك من دواعي انقضاء على الشكل الطويل للقصيدة .

هذا العالم المصغر الذي لم تنقصه غير الصحراء (٧) كان بالنسبة للعرب (كالأخيلة الكنائسية بالنسبة للفن التشكيلي) ان (ما) او (ماذا) كانت موجودة دائما فالامر متعلق فقط بـ (كيف) . ولم يتفق هذا العالم الصحراوي الفنائين فقط بل الجمهور ايضا - وهذا ما لا يجب ان نطمح اليه قصص اخرى - وهكذا اجاد الجمهور سماع مصطلح جميل : وحكاية صورية رمزية جديدة . وانتقالة موقفة ، وتقسيم مثير جدا . كما حافظت القصيدة التي كانت بحاجة الى المحسنات البيعية على الطراوة والتجريد وعلى انعامية التي كادت تختفي في سراع الكلم - واللغة مدينة قبل كل شيء الى ملكة القصيدة . وقد اعتاد المأمون حينئذ ان يسمع منها التشبيب والوصف فقط وبتين او ثلاثة من المديح (الاغاني ٨ : ٩٢) ولم يسمع ابراهيم بن العباس المتوفى في سنة (٢٤٣ م) عند التلاوة ، الا بقراءة آيات قليلة من القصيدة ولم يرو الا بيتا او بيتين أحيانا (الاغاني ٩ - ٢١) وقد تبع هذا التدهور تحلل كامل فقد كانت السنوات الاربعون قبل وبعد عام ٢٠٠ عهد اضطراب شديد في الادب وعهد بحث عن اسلوب جديد . اذ كانوا ينتقلون وبسرعة من اسلوب الى اسلوب ومن صيغة الى صيغة . قال الجاحظ (البيان ٢ : ١٦٤) لا يعتبر الراوي في وقته راوياً اذا لم يحفظ قصائد الجانين واللصوص والعشاق وأشعار الرجز القصيرة عند البدو (٨) والاشعار المنصفة ، ثم وجدوا ذلك مملا فتمسكوا بالنوادر والمقاطع والحكم والاقوال المأثورة والمختارات البراقة ثم انقض كل شيء على الشعر الوجداني العاطفي للعباس بن الاحنف (٩) الى ان جاء خلف الاحمر بنصيب البدو

استمرت في الشكل لا في المضمون . كانت المانة والخمسون سنة الاولى من عمر الاسلام مثقله بنوع مثير ذي جانب واحد من ادب الحرب . ولم يستطع عصر الرشيد والمأمون ان يجودا بأسلوب موحد للحياة . وكان على المرء ان يقاسي كثيرا لكي يتلاءم اجتماعيا وفكريا مع الحياة الجديدة . فلا غرو اذا انطلق الادب الرقيق وبصورة أساسية - صدى واسعا للشكل القديم . فاسحاق الموصلي عكف على المعرفة التاريخية العميقة للأغاني الحضرية ، فضلا عن النقد الغنائي الرائع في كتابه (الاغاني والتعراء) الذي يز به اياه المشهور ، وادهش الآخرين (الاغاني ٦ : ١٧ و ١٨ : ١٧٦) حتى ان ابا نواس لم يسلم منه (الاغاني ٢١ : ٧٠) . كما ان الزمن العصيب الذي اطمان للانواع الجديدة لم يكن ، عهد ذلك ، حديثا ، ومع ذلك استمعين به ، وبفخر - في الهجوم على القديم . لقد كان جديده نزرًا ، ولكنه مشبع بالوروث العميق . وقد قورن عدي بن زيد بابي نواس - وابن الاحنف ومسلم وكشاجم بعمر بن ابي ربيعة وبنار بن برد (رائد الجديد) الذي يقال انه نظم (١٢٠٠) قصيدة (راجع : الحضري - والعقد الفريد ٢ : ٢٠) . ولم يغير فيض المادة الجديدة الادب (كما يزعمون) فقد كانت نلادب حصانة غير حضرية ، فهو لم يعنى الا باراجيز الضال بعد ازدهارها في حرب الخوارج واثناء قيام الدولة العباسية (٤) ، وليس لذلك اية علاقة بشعر انحرى الذي قيل في بلاط الحمدانيين .. ولكن شيئاً واحداً كان جديداً - هو : ان بغداد باعتبارها اول حاضرة اسلامية لم تكن معسكرا حربيًا بالمعنى الحقيقي . ولذلك خفت من غلواء المشاكل السياسية الداخلية ، ومن الاهتمام بالانساب والتقاليد . ففي هذه المدينة برعرت برجوازية جديدة عن طريق قوة التمرکز النسبي عممت ارجاءها (٥) . وتبنت الحياة الدنيوية . وطورت العقبة منذ الحروب الصليبية - وحولتها الى عصر حضارة التجارة (٦) . فقد سبب ازدهار التجارة ذات الامتيازات القوية لم تفرض ضريبة على اسواق بغداد الا في عصر الخليفة المهدي لأول مرة - اليعقوبي ٢ : ٤٨١) ، والاقبال على الفنون حركة شعرية ناشطة ، فكانت ندرس : عند ابراهيم الموصلي ، أحيانا ، ثمانون مغنية (الاغاني ٥ : ٦) كلهن من الفتيات الجميلات الكريمات ، وممن يهوين تلقي فنه الذي يحكره السودان والروم (الاغاني ٥ : ٩) .. فلقد اصبح التمتع بالفن باهض الثمن ، كثير المتطلبات ، واضحى الملل ،

'الطبقات في طراز المجالس (ص ٦٧ والصفحات التي تليها (١٧) كل شيء كان متعاً ومهما بالنسبة له ابتداء من بني هاشم (للحصري مقالة حول هذا الموضوع . المقدم - ١ - ص ٥٦ و'الصفحة التي تليها) الى قوامي المدارس (المستطرف ٢ - ١٩٩) والصفحة التي تليها وكان قوامو المدارس اكثر اهمية من الاول (بني هاشم) . لقد كان طفلاً مدلاً حقيقياً (١٥) إذ أصبح ابيه في متناول الجميع كملسفة سقراط الفبيح (١٦) وينزل ابيه الى الشارع حصلت لفته على دم حار ونسوة وديناميكية .

وهكذا يعد النثر الحضري الجديد التشتت بعض الشيء والمطول ذا حيوية وبارعاً ومليئاً بجيد المعاني (١٧) وهذا ما كان يعرفه الثعالبي عندما اطلق على الجاحظ اسم (ابو النثر) (التيامة ٣ : ٢٢٨) وهذا ما عرفه ابن العميد مستشار ركن الدولة وواحد من اكبر كتاب النثر في القرن الرابع (١٨) . عندما كان يسأل كل من يريد ان يخبره عن رايه ببغداد والجاحظ (لطائف المعارف ص ١٠٥ باقوت ١ : ٦٨٦) حتى انه سمي بالجاحظ الثاني (التيامة ٣ : ٢) ولهذا السبب اطلق الهمداني اسمه على احدى مقاماته واستطاع ابن عرب شاه وهو من المتأخرين ان يستقي لعة الكلمة القديمة « كنية البحر ابو الجاحظ » (عمرو بن بحر) فاكهة الخفاء . ص (٢٥) .

يبدو ان المدرسة القديمة قد شعرت بالهزة القادمة ولهذا ثبتت في القرن الثالث اهراماتها في المؤلفات الرائعة التي وضعها ابن قتيبة (١٩) والمبرد والبلاذري والطبري - حتى ان المقدم قام بسرقة خزانات الجاحظ بالاضافة الى غزواته على ابن قتيبة . ان هذا الاكتشاف الحاصل من قبل ذوى الخبرة اثار الاهتمام الفضولي بالعالم البعيد واخذت مواد المقارنة تصب من جميع الجهات لفتح الافاق . لقد حكى الجاحظ عن الزنجي الذي قلد كل الشعوب المعروفة (البيان - ١ - ٢١) ومثل زميله المتأخر المغازلي بين يدي الخليفة المعتضد (المسعودي ٨ : ١٦١) وكما يقول نسا كتاب (عجائب الهند) فقد كانوا يرسلون الى الخليفة الكتب الضخمة في مختلف مجالات الفاعره بينما لم يكن يخطر من قبل على بال احد ان مثل هذه الامور ستجد عند البلاط اهتماما .

فمن فهرس عجائب القصور الذي عرض على الاغريق في عام ٣٠٥ تظهر اشياء تنطوي على

في الصيغة (١٠) وارند كل شيء عن ابن الاحف . وما كاد خلف يجمع كل شيء باعتناء حتى نسي الجميع قصائده وجلسوا ينصتون الى النحاء ولا يهتمون الا بالقصيدة ذات التعبير النادر (١١) والمعنى الدقيق الذي يحتاج الى تاويل وكذلك بالقصيدة ذات التركيب المتع ، وهذا يعني : ان الشعر كان متوقفاً تماماً بينما كانت الطريق مفتوحة للنثر وكان الخطيب دائماً خصماً للشاعر والخرافة القائلة بان في العائلة لا يمكن ان يصبح الصغير خطيباً قبل ان يموت الخطيب الكبير تبرهن على ان الخطيب نفسه يشارك في رسم الهالة الالهية حوله (الاغانى ١٨ : ١٧٢) ويقول البيان (١ : ١٨) انه ارتفع عندما انحط الاخر . ان اسباب النمو الادبي للنثر كثيرة ، فالتدريس الفني للخطيب (ابحاث كولد زهر - ١ - ٦٦ والصفحة التي تليها) الا تقوية الكلام التي يترجمها الفهرست بصورة رئيسية الى حركة المعتزلة (W. Z. K. M - ٤ - ص ٢١٧ والصفحات التي تليها) والاسطورة التي رعاها واهتم بها القاص والتي تسلق عليها فن الرواية (١٢) ، وشكل الحكومة البيروقراطية بمنثوراته (١٣) المعابر تماماً للنظام الاقطاعي الاموى ، ولكن الاخلاص المتوف آنذاك والذي كان يبدأ عادة بالاشياء الصغيرة بدلا من المتوسطة وكذلك الاهتمام بالمحيط هما من اهم عوامل نمو الادب النثري وكان الاخلاص يظهر على شكل سرور وانسباط عند مختلف طبقات الشعب .

صحيح ان لهارون رغبة في مرددات الملاحين والبنائين والسفائين ولكنها كانت على الاغلب رغبة السادة الكبار من رجال البلاط ويتمثل ذلك في الاديب الذي جلس على احد جسور بغداد واخذ يدون حديث المارة اورد ذكره في فهرس ابواب كتاب الاغانى (ولكن « علم نفس الجماعات » قام بعمله مسبقاً ، فاعد الادب عن العنصرية باتجاه التصنيف الاجتماعي وفي نفس المعنى توجد رسالة في فصول الجاحظ ا لتدن . شريقات - ٢١٣٨) كتبها الجاحظ نفسه الى المعتصم ولكنها لم تصل الى الخليفة لاسباب لم يود المؤلف التطرق اليها . وتعتبر هذه الرسالة مهمة جداً من الناحية الموضوعية وجاء على وجه الورقة (٨٢) ما يلي : لا يتعلق الامر بالعرق ، بل ان كل حلاق مهما يكن اصله وموطنه يجب عرق النمر وكل رفاع وسماك ونحاس وحانك مهما يكن اصله وموطنه فهو احقر ما خلق الله في الحياة العامة . ان الاسم الذي يتعلق به عند التفسير هو اسم الجاحظ : فلا يقرأ المرء غير ديوان اوصاف

كعادة وقيمة وما تزال اللفة البدوية اظهر بكثير من لفة الحضرة (Landberg proverb P. 16) وبشكل هذا الفرق القمعة في قصة ابنة القاضي الفنية في البصرة والبدوي الذي اراد ان يتوج اسمه بها (ان يذهب نبله بها) (العقد ٣ : ٢١٦) انها احدى اروع القصص التي عرفناها . ان اهل المجون(٢١) لا بد انهم كانوا طبقة مستقلة متميزة تابعة لجماعة اردشير السكرة (قطب السرور ؛ ظهر الورقة ١٠٥ والورقة التي تليها) . اقام ابو العبر في عصر المتوكل مدرسة للشعر في سامراء حيث يلتقي الجان ويستسخون (الاغاني -٢٠- ٩١) ونظير اليتيمة ان لابن الحجاج الكثير من المرافقين على هذا الدرب وربما يمكن ان يذكر بعسده «سريع الدلاء البفسدادي» (المتوفى في ٤١٢م) والذي كتب قصيدة طويلة باسلوب ماجن (الدميري -٢-٢٢٣) ؛ لقد حافظ هذا الاسلوب الذي له كفيه وقته الخاص به على نفسه كرد فعل للشعر المغالي بالفحش . وهكذا فرح ابو نواس والذي يعتبر بجانب المتأخرين ماجنا بسيطا باغاظته لابن الاحنف (حيث سخر بشعره الوجداني العاطفي - مصارع العشاق ؛ ص ٣٠٦) وفرح ابن الحجاج باغاظته البستي الورع حيث قال ابن الحجاج (ص - ٢) .

بشرين هرون حين يسممها
يعجب منها ويضحك البستي
يا سيدي فاستمع لنادرة
غريبة قد مشى بها وقتي

واكثر اصابة هو ما تعكسه نادرة العاشق الذي يتوسل بالرسائل وفق الاسلوب القديم من محبته ان تظهر له ولو في الحلم فترد عليه بانها تأتيه بنفسها حية بدرهمين ابو القاسم ص ٧٣

ارشديني الى خيالك حتى
اتقاضاه موعدا لي عليه

قال فقالت لجارته : ويحك قل لي لهذا الرقيق يا مدير انا اعمل بك ما هو خير لك من ان يترك خيالي احمل دينارين في قرطاس حتى اجيبك انا بنفسى .. الخ .

ان شاعرنا ابو المطهر محمد بن احمد الازدي هو من اتباع مدرسة ابن الحجاج ويستشهد في المقدمة به وبالجاحظ ولم يذكر اي مرجع ادبي اسمه او اسم كتابه . ولما كان في نهاية كتابه (ص ١٠٥ والصفحات التي تليها) يهجو بفساد ويمدح اصفهان فانه يكتب اذا لاصفهان وهذا

اكثر من التبجح العادي حتى ان المسعودي يذهب في عام ٣٠٤ الى الصين ويذهب ابن فضلان الى روسيا في عام ٣٠٩ . كان ذلك الوقت حسبا جاء في عجائب الهند العصر الذهبي للبحارة المسلمين المغامرين ومن ثم فان كتاب «مغامرات البحار» المدون بجديفة لم يكن ممكنا في السابق ولم نستطع بعد ان نلاحق بالتنام كيف تطور الادب الرفيع في هذا الوقت الجديد .

فالخوارزمي يأتي بفهرس المؤلفات الادبية والمثالية على الاقل بالنسبة لاتجاهه الرسائل ص (٣٦) والتي تظهر كما تظهر رسائله بانه بقدر ما كان ممكنا في ذلك الوقت زينا من رجال المدرسة القديمة - انه استاذ علم البلاغة الجمالي - كان طريق الجاحظ يؤدي الى الهمداني وبينهما يقف الاحنف (من عكبرا) شاعر المكيين الاكبر حسبا جاء في اليتيمة (٢ : ٢٠٥) وقام باتمام الموضوع الذي بداهه الجاحظ كتاب البخلاء - ص ٤٧ وانصفحات التي تليها وعلى ما يبدو انه اوجد الطراز الذي اوصل الهمداني الى شكل جديد واعطى اهتماماته اني الرحالة ابي دلف الذي كتب قصيدته الساسانية والتي مده الاحنف بمادتها (اليتيمة ٢-١٧٥) وتبعه الهمداني في القامة الرصاصية (يقرا ذلك فقط في طبعة بومباي او القسطنطينية) ولكنه تجنب ان يعيد فيها ما كان واردا ولكن اقتباسه لبعض آيات ابي دلف ؛ اليتيمة ٣-١٧٦) جماله يشعر بانه من اتباعه . وقف الجاحظ والاحنف وابو دلف الى جانب الشكل الواسع الجديد المقامة المجموعة وان كانت ما تزال مفككة - على ما يبدو وقد نشأت مختاره من ٤٠٠ مقولة مدرسية من الهمداني تدور حول شخص واحد . ان العلم الكبير لهذه الحضارة الجديدة والذي قدم بحرية وثقة معطيات واسعة وحكيمة مصحوبة بالمظرة لما هو حي وبالنظرة للشكل ، هو ابن الحجاج ... انه احد الفلال في الادب العالمي على الاطلاق ممن جمعوا بين الحماس والروعة وكل ذلك كان بلفة تمتلك طلاقة اسلوب الجاحظ وتكتسب شكلا فويا بعد قرن من التمرين وغلفها برداء الحياة اليومية الملون (مصبوغة بصفة الحياة اليومية (٢٠) .

لقد اراد ابن الحجاج ان يبرغ اسلوب الجاحظ في الوحل وفي عمله هذا تلبية قوية لساعي سابقه ، حيث ان البدايات الاولى للشعر الحضري عند بشار بن برد كانت تتعامل بالفحش

يمجد كذلك جامع برانا بعد اندنارد . فاذا كان
بو المظهر قد كتب في اصفهان في النصف الاول من
القرن الخامس وان الباخريزي (المتوفى عام ٤٦٧)
قد زار كاتباً في اصفهان يدعى ابو المظهر (الدمية
- لندن ١٩٩٤ وجه الورقة ٤ - ملحق ٢٢ - ٢٧٤
ظهر الورقة ٣) فلابد ان يكون هذا هو كاتبنا ،
ويقال انه كتب بعد ذلك « طراز الذهب على وشاح
الادب » ولكن الباخريزي يسكت عن هذه الحكاية .

تبين المقدمة القيمة ان ابا المظهر كان على
يقين بانه قد اعطى للادب شكلاً جديداً ويستشهد
نقط بالقدوة العملية لابي ريويه الذي يحكي عنه
الجاحظ ان التقليد مع المبالغة المضحكة قد استعمل
فصلاً في الثقافة المصرية (وهو بالتأكيد احد
الانتصارات القديمة لشخص على آخر) ياقوت
- بوركات) لقد ادى فن النقل (من جيل الى جيل)
التقوي عند اللاهوتيين وعلماء فقه اللغة الذين
ادخلوا كلمة حكاية في الادب بعد فترة قصيرة الى
حمل المحاكاة على محمل الجد بينما بقي تأثيره في
اوربا مضحكاً دائماً (وهكذا رويت كلمات الحجاج
بصوته الخافت (عيون الاخبار) بروكلمان ص -
١٢٩) واعيدت حكاية مفن وكانه حي (الاغانى -
٨ - ١٦٢) . كان التقليد يعتبر دائماً تديراً فنياً
يسمى القائم به باسمه ويستمع اليه باهتمام يكاد
يكون علمياً ، مثل ابي ريويه ومن ثم ابن المغازلي
وفي القرن الرابع الشاعر الأيبوردي (البيتية - ٣
- ١٤١ والصفحات التي تليها) ولدنا من لدن
المؤرخين العرب الكثير مما يعكس صورة الزمن ولا
يمكن التفكير بان مثل هذه الحكاية هي من الاعمال
الفنية الادبية الا بعد ان يكون للحياة اليومية
نصيب في الادب ، وهكذا تكون حكاية ابي
المظهر (٢٣) قد وقعت في نهاية القرن الثاني عندما
بدا الادب العربي يفز مملكة هذا العالم .

انتصرت مع الحريري المدرسة القديمة ثانية
والتي كانت الى هذا الوقت ممثلة بالخوارزمي
وابي العلاء ، فاللادة بالنسبة للحريري كانت فقط
ذلك الخيط الرفيع جدا الذي يرقص عليه واذا
قورن بالهمداني يبدو كمن يعمل بلا كواليس . لقد
انقل بكتاب كلاسيكي على القرون اللاحقة ولم
يفت الكاتب ان يذكر بفخر بان اذاعة الشاعر لم
تكفه في عمله (مثل ابن الاثير المثل السائر - ص٥) .
لقد شكل ابو المظهر المادة في اده منذ بناء القصيدة
بقوة تنظيمية هائلة حيث يقدم البطل اولاً ثم
يوصف وهذا ما ام يفكر به الهمداني ، وهذه بداية
ظاهاها ديني :

يعني انه عاش في اصفهان . وليس من السهل
تحديد وقت التأليف على الرغم من ان بعض
التواريخ قد وردت في الكتاب . فمسي ص ٨٧
يحصي ابو القاسم جوارى بغداد في عام ٣٠٦ ..

« ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين
والاغاني من الرجال والصبيان والجوارى
والحرائر لظال ومل وكنت كالمزاحم لمن صنف
كتاب الفناء والالحن ولعهدي بهذا الحديث سنة
ست وثلاثمائة وقد احصيت انا وجماعة في الكرخ
اربعمائة وستين جارية في الجانبين وعشر حرائر
وخمسة وسبعين من الصبيان البذور يجمعون من
الحسن والحذق والظرف ما يفوت حدود
الوصف هذا سوى من كنا لا نظفر بهم ولا نصل
اليهم لعزتهم وحرصهم ورقبانهم وسوى من كنا
نسمعه ممن لا يتظاهر بالفناء والضرب الا اذا
نشط في وقت او نمل في حال وخلق العذار في هوى
قد حالته واضناه وترنم واوقع وهز راسه وصعد
انفاسه واستكتم جلاسه وكشف حجابيه وادعى
اشقة بالحاضرين » .

وفي ص ٢٤ يذكر دار المعز التي بنيت في عام
٣٥٠ وفي ص ٢٣ يرد ذكر جامع برانا الذي هجر
في عام ٤٥١ .

« ربي بحق امام صلى الضحى في برانا »
ووصف الباذنجان في ص ١٠٠ .

ويذكر ابو القاسم في ص ٨٨ حفلة في قرية
مع ابن الحجاج واصدقائه (بين عام ٣٦٦ وعام
٣٩١) وقد ورد في ص ٧٨ ذكر طرب ابي عبدالله
المرزباني المتوفى في (٣٨٤) وفي صفحة ٧٩ جاء
ذكر طرب القاضي بن صير (المتوفى في عام ٣٨٨)
وطرب قاضي القضاة ابن معروف (المتوفى في عام
٣٩٠) وفي صفحة ٨٠ ذكر طرب الشاعر ابن نباتة
(المتوفى في عام ٤٠٥) وجاء ذكر طرب ابن غيلان
البيزاري (المتوفى في عام ٤٤٠) في صفحة ٨١ وفي
هذا تناقض اذ لا يتطابق ما ورد ذكره عن عام ٣٠٦
بصورة معقولة مع ما ورد ذكره مؤخرًا . لقد اخذ
المؤلف مادته من مراجع اخرى عندما استنسخ
ديوان الطرب ، ولكنه اراد عندما اخذ ذلك التاريخ
ان يضع الحديث في القرن الرابع (٢٣) وتظهر
قصص الطرب مستقاة على اى حال من احد
الدواوين ويظهر من الرجوع الى الهمداني ان
تأليف الكتاب جاء بعد عام ٤٠٠ . كما وان نهاية
عهد سلطة السلجوقيين في بغداد مع ما حدث من
تبديلات في ذلك العصر لم يذكر عنها شيء ولم

بسم الله انرحمن الرحيم كان هذا الرجل
الحلى يعرف بابي ... الخ ثم يصفه مدحا وذما
... الخ ويصف عاداته واعماله ... الخ .. ص ٣
والصفحات التي تليها ..

ثم يتم تغيير الموقف عن طريق ضحكة ضيف
يتعرف من خلالها على الحاضرين بصورة سيئة
كان يشتم جوانب المجتمع مثلا . وفي ص ١٧
يؤخذ الضيف نفسه بعين الاعتبار « فيقول صاحب
الدار يا ابا القسم ما بقى في المجلس احد ثم تذكره
غيري فيقول يا سيدنا وما عسى ان اقول فيك الا
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على دين
خليله فينظر احدكم من يخالل وكما قال الشاعر:

الى المرء لا تنظر بل انظر خليله

فكل امرئ يصبو الى من يجانسه

من يكون هولاء السادة ندماؤه واصفياؤه
واخلاءه ايش يقال فيه . وحياتي ما الف الداماني
مثلكم : في السماء ملك اسمه العنندر يؤلف بين
الاشكال اجبر بعضهم ببقاء وغرابا وبوما في موضع
واحد فعجب من اتقافهم وتاملهم فاذا الفراب
اعور والبيضاء اعرج واليوم مكسور الجناح قفل
انما جمعتمك العاهة ويحدق النظر الى اثنين منهم
وهما صديقان فيقول لا اله الا الله ينضاف الثوم
كما ينضاف البصل الى الثوم اطلع الفرد في
الكتيف قال ما تصلح هذه المرأة الا لهذا الوجه
... الخ » .

وتنهي محاكاة الواصف الوقور القسم
الاول بعد ان تقاطع بمفاخرة قصيرة عن طريق تهكم
احد السامعين :

« فيضحك واحد ممن في المجلس فيقول
ذبحه ذابحه .. الخ نبشت القبر نصبت
المجانيق على النكعة .. الخ يا مدبر من ايش
تضحك انما قلت :

كل دجاجا وفراخا وجيدا
وأشو حملانا صفارا رضعا
وأشرب الراح التي في دنها
شاهدت عادا ولاقت تبعنا

ويبدأ القسم الثاني بشرب نخب اصفهان
وهو عبارة عن مقارنة بين بغداد واصفهان تمتد من
ص ٢١ الى ص ٩١ . وتعطى اللمسة الفنية
الفرصة لوصف بغداد بالركة والعذوبة ولدفع
آلات الطرب الرئيسية في ذلك الزمان الى الامام
ولسب الفضائل والتعصب الواسع الانتشار .
انها المناظرة القديمة وكيف انتقلت من القبائل الى

المدن كما عند ابن الفقيه - ١٦٧ واصفحات التي
تليها (والاغاني ٥ - ١٥٧) بين الكوفة والبصرة
(ابن الفقيه - ٢٢٧ والصفحات التي تليها وياقوت
: ٤ - ٩٨٤ والصفحة التي بعدها) بين همدان
والعراق (المقدمة - ١١٧) بين بغداد والبصرة
١ حلبة الكعب - ٩٦) بين العراق واصفهان (٢٤) .

كانت اصفهان تسمى في القرن الثالث بغداد
الثانية (ابن الفقيه - ٢٥٤) ففي عام ٢٢٠ تجمع
المقيمون في بغداد واعاقوا الخطبة في الجامع الغربي
وضربوا المحافل في قصر الخلافة بالحجارة وانزلوا
الخطيب من على ظهر حماره وهو في طريقه الى
البيت واخذوا منه عمامته (حمزة - ٢١٥) .

ثم يسأل ابو القاسم عن الطعام وبه يبدأ
القسم الثالث : انه حفلة السمر تتخلل طعام
الغطور المختصر المصحوب بكلمات الاسكندر
الوقحة (مقامات الهمذاني - ٨٩ والصفحة التي
بعدها) والوجبة الاساسية لعبة شطرنج هزلية
وتصحب كل نوع من الطعام في الوجبة الرئيسية
نادرة لطيفة وتعطي جرعة ماء المناسبة الاولى
للتفكير باصفهان بصورة احسن (ص ١٠٢
] ويستدعي في خلال ذلك ماء ويشربه ويقول والله
اني اظلم اهل اصفهان في احوال : عمر الله
اصفهان ماؤها الماء العذب وجليدها البلور الرطب
وفي خلال ذلك يكون الشيخ قد انشغل بالسؤال
عن اثنين من اهل بغداد بتحفظ بلاغي محبب ..
ثم تبدأ المحاوره المتضاربة بما تشتهر به بغداد
من الخمور المعتقة من عرق الدندى الى الداذى
المركز وعن المصطلحات المجيبة عند السباحين
والملاحين [ص ١٠٧-١٠٨] فيقال له في انشاء
المحاوره يا ابا القاسم تعرف شيئا من انباجة
فيقول يا احمق وسواي لا يحسن ان يركب انيقر
وتركي لا يحسن ان ينزع في القوس انا والله اسبح
من الضفدع ومن التنين اعرف من السباحة انواعا
لم يحسنها قط سمك ولا بط ... الخ » . ينتقل
بعدها الى سكة الجوهرى حيث يسكن في بغداد
وعن الوصف المختصر لادارته البيتية الاخلاقية
وعن سعر الخمر ومدح المضيف الذي سرعان ما
يتراجع عن مدحه له بصوت خافت (ص ١١١) .

« احمد الله على نعمه

قد انجز الدهر بها وعده

ثلث الذي مازلت اغرى به

على طريق الفأل مذمه

والمن للمولى على عبده

في فعله لما اشترى عبده

الموصل ونيق الاهواز وزيتون فلسطين .. الخ
 لم يكن للفخر في خصومات الجاهلية مكانة دينية
 الى جانب الهجاء وقد انحصر فعله بصورة رئيسة
 في كسب العروس (الاغاني - ١٨ - ١٦٦) . ان
 الانعطاف نحو الخيال القريب الشاذ جاء عن طريق
 وعاظ الصدقة والادباء التجولين كما يبين كتاب
 البخلاء في (س ٤٩ - والصفحات التي تليها)
 حيث كان المواطنين رحلا وتنقل معهم الاسفار
 والاخبار بسرعة انحصان الجامع .

ينعكس كل رد الفعل ضد المجتمع الاموي
 في (ارلدو) العاشق للفضب وفي (رابلياس) في
 قصص الفرسان [ارلدو فوروزو - ديوان
 الشاعر الايطالي ، اوستو رابلياس كاتب فرنسي
 تقد الحكم بنوادره - ١٤٩٤] . كان القرن الرابع
 مرة غريبا عن هذا النوع من السخرية .
 فالخوارزمي يستعمل عباراتها ميتسا (الرسائل
 ص - ١٠٦) والمعجوز السكران الذي يرتعش
 امامه الاسكندر ونمرود الشيطان والذي يتحجج
 باصدقائه ذوي الاسماء غير المحببة كاللكاري
 والارمني والصلقلي كان بالنسبة لابي المظهر تمثيلا
 هزليا .

ان نقل المفاضلة الذي تم اولا في القرن
 الثالث على المادة والمعنى والذي اعتاد ان يتعامل
 مع التقاليد في استعمال الاضداد كالربيع
 والخريف ، البخل والكرم ، الشعر والنثر اسم
 بتوضيح الا عن طريق تأثير مذهب النوفيق اليوناني
 وخلال ذلك يكون ابو القاسم قد غط بفعل الخمرة
 في نوم عميق واول شيء يسمعه المرء في الصباح
 الثاني هو صلاته ثم يبدأ بفنائه الاستهلاكي وياخذ
 طيلسانه ويقول : السلام عليكم ..

هنا تظهر ايضا بوضوح المقولة القائلة « لا
 تكون البداية في المادة بارعة » فالنقن القصصي
 العربي لم يعرف نهاية هذا الوقت بغير التولج
 والحوار . فبينما ياخذ الهمداني احيانا نماذج
 قصيرة للمحادثات العامة يعذب ابو المظهر نفسه
 بشدة لي طرح اسئلة وليضع محادثة . انه ياخذ
 احيانا مع العبارة ملحقها الذي لا يلائمها مثل
 مقارنة ابن الرومي ص - ١٠٠ . وحيث وجب
 عليه تغيير المنشأ بسبب العلاقة المحلية فانه فشل
 في تحقيق ما يمهده بصورة غير مرضية مثلما ورد
 في ص ٥٩ . وفي ص ٢١ حيث ابد اصفهان في
 القصيدة الساخرة بينما يصح الشيخ المعجوز
 والذي لا بد ان يكون نموذجا للبغدادى ، في البيت
 الثالث اصفهانيا بالولادة

ولا يزال يتلقاه بهذه المادح التي ينبيء بها
 عن صدق الولاء وحسن العهد والعشرة والوفاء
 الى ان يتفرد في بعضهم سوء اعتقاد في هذا
 صاحب الذي يقرظه باسئال ذلك فيقول له سر:
 يا سيدنا من ذا ما هو الا طاعون في مجرى النفس
 ليتني حمت سنة ولم اعرفه ما هو والله يا
 سيدنا الا كما قال الشاعر :

انفاسه كذب وعقد ضميره
 دجل وطلعته سقام الروح «

ومن ثم ينصت الى جاره على يمينه ويمدح
 مجالسته ثم يذمه عند الذي على يساره ..
 (ويتكرر مدح الحديث وذمه عدة مرات) ١٢١
 والصفحات التي تليها) الى ان نسكت الموسيقى
 ويحصل الطنبوري والعود والغنية على الشاء
 المتعاد (١١٥) وانصفحات التي تليها) واخيرا تاتي
 لعبة المريدة وعندما تفعل الخمرة فعلها وتقرّب
 ابو القاسم من الغنية ويده قدح شراب وهو
 بلاطفها بايات من الفزل ولما يضحك على :

بالقرب منها يعطره الشيخ يوابل من سباب القرن
 الرابع المختار لكونه رقيقا مفسدا للحب ا ص-١٨
 والصفحات التي تليها) وغالبا ما تؤخذ المادة من
 الخوارزمي والهمداني وابن الحجاج كما تظهر
 الهوامش لقد قام هؤلاء الثلاثة بتطوير هجاء القرن
 الرابع . اراجع المستطرف (٢١ : ٣) وعند ابن
 بسام المتوفى في عام ٣٠٣ يمكن البحث عن
 الانتقال من هجاء القرن الثالث الذي وصف
 تطوره (٢٥) كولدتسيهر (المستشرق البلغاري)
 (البند - ٤٦ ZDMG) .

يود الحاضرون الاسراع بتصعيد النسوة
 عنده فيزيدون له من الشراب ليتخلصوا منه
 فيلاحظ الهدف حيث يتوضح له اكثر فاكثر
 ليوقفوا فيغني ويرقص ويترنج الى ان يتعب المعنى
 ويستخذ فيجتازي ابو القاسم ذلك بالشكل القديم
 في سبب الفئتين ا ص - ١٣٤ والصفحة التي
 تليها)

من استخف بقدري
 فسم يا مخنث غني

وعندما يدافع ثالث يبدأ هجاء قاس مع فخر
 نافذ (ص - ١٢٧ والصفحة التي تليها) [إلي
 بعينيك واصغ الى باذنبيك لا تحرك يديك ولا
 منكبيك نه مستضعفا واولئك اصدقائي اكثر من
 خوص البصرة وبلوط الجبل وخردل مصر وعدس
 الشام وحصا الجزيرة وشوك القاطول وحنطة

يا سائلني عن اصفهان واهلها
حكم الزمان بنحسهم وخرابها
شبانها ككهولها وكهولها
كشيوخها وشيوخها ككلابها

الاضداد للجاحظ يظهر بالمقارنة مع ما في كتاب ابي
المطهر في ثقافة هذا الحقل الخاص (٢١) . فالاسلام
لا يتحدث بالسوء عن عاصمته . واذا كان ابن جبير
يشكو غرور البغداديين فان ذلك لا يعني كثيرا
بالنسبة لفخره التمعيب . ويرى ياقوت -١- ٦٩.
ان بغداد عاصمة الاغنياء بينما يجد الفقير نفسه
فيها كالقرآن في بيت الكافر .

ان اصدار مثل هذا الكراس من مخطوطة
فريدة متأخرة يحتاج الى الثقة فيجب قبل كل
شيء ان يعامل كتاب الادب الرفيع في القرن
الخامس بطريقة تختلف تماما عن التي يعامل بها
كتاب القرن الثالث او الكتاب اللغوي .

ولوصف مخطوطة الفهرس لابد من القول
ان توابع ٥٢ ، و ٥٣ مربوطة ومرقمة خطأ وان
بعض العبارات تشكل تشويشا (لغزا) لا يمكن
حله الا بصعوبة بالغة جدا وبهذا اسعدتني كثيرا
مساعدة البروفسور هورن وانا مدين ايضا الى
السيد البارون فون روزن لتفضله بوضع نسخة
المخطوطات تحت تصرفي .

الهوامش

- (١) كانت الهندسة المعمارية من المواضيع المحببة في الحداثة
(فلرن « القائمة الوصلية للهمداني » و « فواعد الواحد »
مخطوطة الفايكان ، رقم ٢٥٦ ، ظهر الورقة ١٧٤) من
الناس من يدخل الدار فيبئديء بالهندسة فيقول كان
الجلس يصلح بابه من هنا والابوان ان يكون مقابلا لهذا
الباب وهذه الخزانة ما كان يليق ان تكون ها هنا .
(يبرز كتاب العيون خصائص عصور الخلفاء ، في
نهاية القرن الاول : ففي عصر الوليد تكلم الناس على
البناء وفي عصر سليمان على النساء وفي عصر عمر الثاني
على الدين (Fragm. hist. S. 11) .
- (٢) ان ما يذكره (قرب السمارية) يناسب بصورة خاصة
ما هو اشبه باللامع (قطب السرور - فينا - الجسزه
الثاني - ظهر الورقة ١٩٦ .)
- (٣) ومع ذلك فهو يحمل هذا اللقب بحق . انه رائد
الواقعية في الحياة الحضرية .
- (٤) الدولة هي الانقلاب ، والثورة و « الواحد بعد الآخر »
وتعني في احدى لساند المصر الاموي (الاثاني : ١ : ١١٢)
سخط الاممخا الحكومة على العائلة الحاكمة . ولم يد

وبالعكس من ذلك فلا بد من الاعتراف بان
الشاعر قاوم ظاهرة التبغدد التي جاءت اليه
بالتأكيد بعد دراسة التمكيري وابي دلف . كان من
الممكن ان يلقي تاليغه ترحابا عند علماء اللغة ولكنه
اصبح غير ادبي حيث ان الادب والشعب لا يمكن
ان يلتقيا الا وفق قوانينهما وذلك اهم ما في تاريخ
الادب . ان بغداد ابي القاسم ليست بغداد
القدسسي (ص - ١١٩) الذي قال ان بغداد في
طريقها الى السقوط (ص - ١٩٣) وعلى الرغم
من ورود ذكر المستشفى فلا بد انه قد رأى
المدينة قبل ان تزدهر على يد عضد الدولة (ابن
الاثير - ٥١٨) . لقد كان المرض كامنا ثم انفجر
بعدئذ وكان من الممكن ان يقضي على حروب
الشوارع المستمرة منذ عام ٣٠٨ ولكن الشؤم كان
في اسكان معز الدولة لابنائه وجنوده في العراق
وهؤلاء نشروا الغرضى ولم يدعنوا لموظفي الدولة
ابن الاثير - ٨ - ٣٤٢) وهكذا اصبحت المدينة
معتمدة كليا على الواردات وعندما حوصرت المدينة
في اوقات الحرب بيع لاول مرة كل شيء في
العاصمة من اجل لقمة العيش (المصدر نفسه ،
ص ٢٤٩) وابندات في نفس الوقت الضائقة المالية
بسبب تناقض الدخولات العراقية ولهذا بيع
كرسي القاضي لاول مرة في عام ٣٥٠ وتبعه بيع
شرطة المدينة والبلاط (شرطه وحسبه - ص
٣٩٩) ولكن العراق ظهرت اولا في العصر
السلجوني . يظهر ابو المطهر المدينة الكبيرة البراقة
المتهورة مع غواية محلات الموضة (مودة) وفناني
الموضة (كذلك مقامات الهمداني - ص - ١٠٥)
والمحضيات المستهترات تارة والعاظميات تارة
اخرى واللواتي يتم تصديرهن حتى الى مصر .
(الاضداد الجاحظ - ١٨ - ومصارع العشاق ص
١٠٨) .
ان كلام النساء في كتاب لب اللباب وفي كتاب

كان البلاط المعطش للادب ضعيفا على الرغم من ان الشعراء في عصر هارون الرشيد كانوا يملكون رغبة خاصة في طاق أسماء (يافوت : ٣ - ٤٨٩) وكان الكثير منهم يجتمعون في حلقات خاصة في الكرخ (٩ : ١١٢) وخصوصا ساعات الفناء والخطابة عند النخاسين الكبار (الاغانى : ٢٠ : ٢٢) .

(٦) شهد على ذلك ، في عام ٤٠٠ ، رسالة العربي (ص ٦٩ وما بعدها) .

(٧) للريف معنى عند الشريفين لا يتعدى كونه قطعة صفرة بحجم السجادة : واجهة محدودة بدون ساحة . وهذا يمكن الوقوف عليه في كتب الديارات للشابستي .

(٨) وكانت فتى في الحرب والهداء عند الكرخ : (الاغانى : ١٨ : ١٦٢) .

(٩) سخر منه ابو نواس (مصارع الضحاك ص ٢٠٦) .

(١٠) رواية في ديوان ابي نواس (ظهر الصفحه ٢٥ - ٢٢٢٥ Gotha) جاء الشاعر الى خلف الاحمر ليعلم عنده الشعر ، فحفظه في بادي الامر الف فصيدة بدونه وطلب منه ان ينساها ثم سمح له ان يبدأ بنفسه .

(١١) استعمل راسي المعتزلة البصري ابن ابي داؤد (المتوفى في عام ٢٤٠) الاغراب حتى في اسم وكنية اطفاله المديدين (الفهرست WZKM : ٤ - ١٢٢) .

(١٢) وفي اسطورة « ولد النتن » يرد موضوع في قصة علاء الدين يشبه ما جاء في قصص الانبياء (القاهرة - ١٣٠٨ - ص ٢٦١) .

(١٣) ان الرسالة حسبا هو معترف عليه هي من اصل فارسي (٣٦٨-٣٦٨) . اما مجموعة رسائل المستنار الاموي عبدالحميد التي ذكرها السعودي فكانت تزويرا وغالبا ما يقيم التأثير الفارسي على الادب بصورة معكوسة فتشذيب الاسلوب المشبوه غير صحيح وتبدو الرسائل وكأنها واقعة تحت تاثير ان اسلوب ابن المقفع طفولي وبكل بساطة ضد انجازات « بني الاهم » القسماة وكذلك تبدو رسائل ابي يوسف الكندي فهي تأخذ مع الشكل الصيغة الجامدة من هناك .

(١٤) استعمل هذا مؤخرا في المحسنات البلاغية - الحصري (المقدم : ١١٢ : والصفحات التي يليها) .

(١٥) وحسبا جاء في غرر الفوائد للمرغزي (طهران ١٢٧٢ - لم استطع الاستشهاد الا بنسخة المكتبة غير المرقمة) كان ابو نواس شاعره المحبب . اما افوى سابقة فهو عدي بن زيد الذي لم يؤخذ به كليا كحضري (الاغانى - ١٥ - ١٧ و ١٧ - ١٢) . لم يصر للفلاحين اهتماما وهؤلاء ظهروا في الادب اولا في كتاب « هن القهوف » .

ابن المقفع مع الاسف اي راي (الدررة اليتيمة ، بيروت ، ص ١٤) : « اذا كان سلطانك عند جده دولة ... » . ويبدو ان هذه الكلمة كانت مصطلح الدعاية المباشرة القديمة (انظر : بيت ابي دلامة في عيون الاخبار ، بروكلمان ، ص ١١) وعند ابن ابي اصيبم (٢ - ٢٧) لذكره كتاب اخبار الدولة كانت بدايه حكم عبداللذ المهدي . لقد عمل دعاة العباسيين كما هو معروف بمثل هذه المصطلحات وهكذا فان الدولة هي انتفاضتهم او كما نسمي في الاغانى (٣ : ٥٨) في موضوع قديم : دولة اهل خراسان . وفي خراسان لم تحدد معنى الدولة ويستشهد ابن الفقيه (٥ : ٦٥) بكتاب الدولة العباسية وامراء الخراسان - ونسمي باب خراسان في بغداد استنادا الى السعدي في وقت سابق بباب الدولة (ص - ٢٤ (La Strange Bagd.)

وانه لمعروف ان ابا مسلم غالبا كان يسمى بصاحب الدولة وصاحب الدعوة ويشهد البيان (١ : ١٢٨) و (١٢٩) بانه عالم بالدعوة وبرجال الدعوة . وبذلك تكون الدولة مرادفة لهذه « الدعوة » في رسائل الجاحظ (لندن ، رقم ٢١٢٨ الورقة ٦٤) « كقول من ابناء رجال الدولة » . انها تلك التي اسماء فهمها بعبارة (ابناء الدولة) كما في فهرست WZKM - الجزء الرابع - (٢٠٤) حيث ان الراونديين الاوائل كان قد اطلق عليهم (ابناء الدولة) وهم يؤلفون بجانب الهاشميين في بغداد طبقة من النبلاء تهيمن على امور الدولة حتى قيل (المصدر نفسه ص ٧٠٦) : في مدينة بغداد بيت الخلافة وفيها بقية رجال الدعوة . ان اول تصوير لمعنى الدولة وجدته في الاغانى (١٥ : ٢٦) في صيغة : دولة برمك وفي (عيون الاخبار ، بروكلمان ، ص ١٢١) حيث قيل للخليفة الامون : انا سليل نعمتك وابن دولك) بنفس المعنى في نفس الوقت (الاغانى : ١٨ : ٥ و ١٦ : ٢١ و ٧٢) والكندي (الابحاث الشريفة ، ص ٢٧٧) : ونقل الملك والدولة الى الصراق . اذا كان المرجع صحيحا وقد يدور الحديث على الدولة الاموية ولهذا كان ابو مسلم نافذ الدولة - حمزة الاصفهاني ، ص (٢١٨) . اما الدولة اليوم فتعني حكومة وفي اليمن سمي والي المدينة في عمر نيبور بالدولة (Kop. 1774, P. 295 -

(٥) كان الهاشميون يتواجدون سوية في مقر باب البصرة (ابن الاثير : ٩ : ١٢٦) واعلنوا معارضتهم الدائمة لدار الخلافة ولاهل الكرخ (٩ : ٢٨٦) حتى ان يافوت ذكر تحت كلمة (كرخ بغداد) انه كان هنا بعض الطوائف لم تكن لهم اية جدوى في الحياة الفكرية حتى ان المنصور قد شكى لثة احتف لهم بالادب (الاغانى : ٦ : ٦١) وكذلك (الجبازيون القيميون في سماء بامر من التوكل) لم يقدموا ايضا شيئا يذكر . وهكذا

فيه هو في بغداد (يذكر ابن الحجاج في ديوانه اسم مطهر من بين اصدقائه اني اجد على اي حال مثلا آخر لاختصار الاسماء في بيت الشعر بمثل هذه الصورة :

وصلوا بمولاهم ركوعا وسجدا

يوم ابن هرون بهم والمطهر

(٢٣) العنوان لا يكون « تاريخ ابي القاسم » بل « مانورات ابي القاسم » ... الخ . يؤخذ في الاثنية المعنى المجازي للعنوان فيكون « ابو القاسم - صورة اخلاق بغدادية . »

(٢٤) كلها وضعت اما سجعا او في قافية بينما كانت المناظرة الشخصية القديمة بلا قافية . نقطة التبلور : الحسن ضد عمرو بن العاص ومروان في بلاط معاوية (مثلا الجاحظ - كتاب الاصداد - ١٤ وما بعدها) . لقد كانت بلا قافية نهائيا .

(٢٥) جاءت ملاحظات خلف ربما خلف الاحمر بصورة غير مرتبه واليه ترجع المقامات (رقم - ٤ - ١٢٧) وكذلك ابن بسام التوفي في عام ٢٥٢٢م) وللمقارنة يرجع الى ابن خلكان ، طبعة باريس (سلبن - ٢ - ٢٠٤) .

(٢٦) كما جاء في ص ٧٥ كانت صناعة مثل هذه النوادر عند النخاس .

(١٦) هكذا كان تصرفه تجاه السلف في كتب البغلاء متميزا، رغم كل حبه للكتب وجمعها (الفهرست ص - ١١٦ وغرر الفوائد) .

(١٧) اشتهر الجاحظ بأنه صانع القول البارع (الملاحظة الطريفة) (الاغانى ١٨ : ٤٥) .

(١٨) حسب كتاب المرفصات (ص ٨) اسناد ابن عباد .

(١٩) الذي اقرت عند اختيار الشعراء ما سمي اخرا في مواجهة الموضة بمقزم (انتهزي) (نولدكه - محاضرة ص - ٦ ، البيان - ٢ - ص ١٦٤) .

(٢٠) يعتبر ابو العلاء بجنبه نموذجا للمناقل (بالاضافة الى ذلك فقد انتقل رواد مدرسة الصنوبري الشعرية الى مدرسة المهلي . انهم الفنانون الذين يمكن ان يبيعوا في ، حضارة اخرى ، رساميه .

(٢١) الترجمة الحرة لكلمة ماجن هي في احسن الاحوال تقابلها في الفرنسية كلمة (الفاجر) ومماها في الاغانى (٥ : ١٧٥) منهور ، وهي في الاغانى (٤ : ٦٤) معنى بدون حكم سابق متناسو في الحقول . وكذلك في ديوان مسلم ص ١٤١ و (اخبار الهند ، ص ١٤٩) فالماجن هو المازح او الهازل او المرح بكل ما يعنيه الكلمة .

(٢٢) حسبما جاء في الصفحة الاولى : في الوقت الذي كان

بَعْدًا وَضَعْتَ لِلنَّاسِ الْعَرَبِيِّ مَقَائِدِسَهُ

بِئَمِّ

مَجْمُوعَةُ كِتَابَاتِهِ

وزارة التربية - بغداد

الكريم ، كان نتيجة لدرائته العظيمة في نشر المعرفة ، والاهمية القصوى في الكتابة في تحديد علاقات الناس بعضهم ببعض وتثبيت ما لهم وما عليهم اضافة الى اهميتها في تدوين آيات القرآن المجيد . (وجاء في المدونات التاريخية الاسلامية ، ان النبي الكريم قد ارسل عددا من الرسائل الى الملوك وامراء الدول المجاورة بدعوتهم فيها الى الاسلام) .

وقد وردت اشارات عن الذين كتبوا عند رسول الله ومنهم علي بن ابي طالب (رض) وعثمان ابن عفان (رض) وزيد بن ثابت ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهم .

وقد وصلتنا من عصر الخلفاء الراشدين وثائق تبدأ من زمن خلافة عمر بن الخطاب (رض) (١٣-٢٣ هـ) أقدمها يرجع الى سنة (٢٠ هـ) واخرها يرجع الى اواخر عصر خلافة الامام علي بن ابي طالب (رض) (٤٠ هـ) وتشمل تلك الوثائق المكتوبة مسكوكات ولغائف بردي وحجار .

وان دراسة الخط على المسكوكات على درجة كبيرة من الاهمية لكونها وثائق رسمية تصدرها الدولة . فالخط فيها معتنى به عناية كبيرة .

وتلك المسكوكات لها ولاشك اهمية كبيرة في دراسة تطور الخط العربي (١) .

(١) انظر :

الفلقشندي : صبح الاعشى (مطابع كوستانوماس ،

١١/٢) .

ابراهيم جمة : قصة الكتابة العربية (سلسلة اقرأ ،

٢١ - ٢٥) .

سهيلة ياسين الجبوري : اصل الخط العربي وتطوره

حتى نهاية العصر الاموي (٧٨ - ٩٨) .

←

الكتابة العربية قبل الاسلام وبعد ظهوره

قيل ان الخط العربي اصله من اليمن وهو (المسند الحميري) الذي كتبت فيه دولتا سبأ وحمير ودونت به الكتابات المينية والسبائية والحميرية .

وقيل ان اصل الخط العربي من الحيرة والانبار وهو الخط اُسمى بالحميري او الانباري . والذي نشأ في ارض العراق .

وقيل ان اصل لخط العربي هو (الفنيقي) نسبة الى فنيقيا ارض كنعان .

ورويت عن الاصل آراء كثيرة واخيرا قيل استنادا على ما اعتمد عليه المؤرخون والباحثون من خلال نقوش الاحجار التي وجدت في الانبار النبطية والتي تبين (ان الخط النبطي اخذ عن الخط الارامي والخط العربي اخذ عن الخط النبطي بديل وجوده في كتابات المصاحف التي دونت في العهد الاول للاسلام) .

(ونحن هنا لا نريد الخوض في بحث هذا الموضوع ، ربما يتطلب مجالا قد يطول فيه الكلام)

وقد وصلت الكتابة العربية الى الحجاز بعدة طرق سواء اكانت التجارية منها او الصلات الاخرى ونستخلص من ذلك ان الكتابة العربية موجودة قبل ظهور الاسلام وفي قريش من يقرأ و يكتب .

ولقد ادرك النبي محمد (ص) ان للكتابة اثرا عظيما وعونا كبيرا في نشر الدعوة الكريمة : وكان اقرب الناس اليه الكتاب . وخاصة كتاب الوحي .

ان ذلك الحرص الشديد من لدن الرسول

البدايات الاولى في التحسين

بعد مقتل الامام علي بن ابي طالب (رض) في سنة ٤٠هـ ، انتقلت الخلافة بعد ذلك بقليل الى معاوية بن ابي سفيان مؤسس حكم الامرة الاموية (٤٠-١٣٢هـ/٦٦٠-٧٤٩ ميلادية) .

السماح اول خفاء بني العباس ، يقال له (الضحاك بن عجلان الكاتب) ، فزاد على (قطبة) ، فكان بعده اكتب الخلق ثم كان بعده (اسحاق بن حماد الكاتب) في ايام خلافة المنصور وناهدي ، فزاد على (الضحاك) .

وكانا هذان الكاتبان يخطان (الجيل) ، وكانه يراد به الطومار او قريب منه .

تم ازدهر عصر المأمون بتلامذة اسحاق بن حماد ، الذين كتبوا «الخطوط الاصلية الموزونة» التي لا يقوى عليها احد الا بالتعليم الشديد ، وعدها اثنا عشر قلما يخرج منها اثنا عشر قلما(٤) . وهذه الاقلام هي

- ١ - قلم الجليل ٧ - قلم المفتح
- ٢ - قلم السجلات ٨ - قلم الحرم
- ٣ - قلم الدباج ٩ - قلم المؤامرات
- ٤ - قلم الطومار الكبير ١٠ - قلم العهد
- ٥ - قلم الثلثين ١١ - قلم القصص
- ٦ - قلم الزنبور ١٢ - قلم الخرفاج(٥) .

و (ابراهيم الشجري) ، وكان اخط اهل دهره . اخذ عن اسحاق (الجيل) ، واخترع منه قلما اخف منه سماه (قلم الثلثين) ثم اخترع من قلم الثلثين قلما سماه (الثالث) .

واخوه (يوسف الشجري) . . اخترع من القلم الجليل قلما اذق منه .. فاعجب به الفضل بن سهل وزير المأمون . . وسماه (القلم الرئاسي) وقيل ان الاصول المحرر استنبط من الثلثين والثالث فتى سماه (النصف) ، وقلما اخف من الثلث سماه (خفيف الثلث) ، واقلام اخرى مثل (المسلسل) و (غبار حلبة) و (خط المؤامرات) و (خط القصص) و (الجوانحي) الا ان خطه مع حسنه وبهجته كان غير محكم ولا متقن(٦) .

وكان ينافس في عصره (وجه النعجة) محمد بن معدان المعروف بابي ذرجان وكان مقدما في

(٤) الدكتور سهيل انور : الخطاط البغدادي علي بن هلال

(٥) عبدالله المشهور بحاجي خليفة : كشف التون (طهران) ٧١٠ - ٧١١ .

(٦) القلقشندي : صبح الاشمس (١١٤/٣) .

د . سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ٤٥) .
البطيوسي : الانتساب (٨٧ - ٨٩) .
محمود شكر الجبوري : نشأة الخط العربي وتطوره (ص ٥٨) .

وكان من اول اعمال معاوية ان نقل مركز الخلافة في الكوفة الى دمشق ببلاد الشام . وفي العصر الجديد اتسعت رقعة الدولة العربية كثيرا . . . ولقد تميز هذا العصر بانصراف المسلمين بشكل عام الى الحياة الدنيوية- عكس ماكان عليه الحال في عصر الراشدين حيث تجنب العرب الى درجة كبيرة البذخ والترف - فتقدمت الفنون المعمارية كما مال العرب الى الخط والنحت والتصوير والزخرفة . . .

ومن المعروف ان الخلفاء الامويين قد ولوا الخط عناية بالغة وذلك لحاجتهم الماسة اليه سواء في الكتابة على العمائر واتحف ام في استعماله في كتابة المصحف الشريف والمراسلات والنقود . . . ان لكثرة النقوش الكتابية التي وصلتنا واختلاف المواد التي دونت عليها تساعد ولاشك في تتبع تطور الخط العربي في العصر الاموي(٢) .

ولقد اشتهر في هذا العصر خطاطون منهم خالد ابن الهباج وشعيب بن حمزة الكاتب المتوفى ١٦٢هـ ومالك بن دينار المتوفى سنة ١٣٠هـ . اما قطبة المحرر المتوفى سنة ١٥٤هـ فقد كان «اكتب الناس على الارض في العربية» . (ويقال انه هو الذي بدأ في تحول الخط الكوفي وهو الذي اخترع القلم الطومار والقلم الجليل) . وقد أصبح للمشق في العصر الاموي اصوله وقواعده يميل اليه الكثير من الخطاطين .

واخيرا فقد ظهر على الخط في العصر الاموي بوادر زخرفية جديدة(٣) .

بغداد تجود الخط العربي

لقد زاد تطور الخط العربي في اوائل الدولة العباسية على يد رجل من اهل الشام في خلافة

محمود شكر الجبوري : كتاب نشأة الخط العربي وتطوره (ص ٢٨) .

مجلة افاق عربية (العدد ٣ - ١٩٧٧ ، ٦٤ - ٦٩) .
مجلة افاق عربية (العدد ٦ - ١٩٧٩ ، ٩٠ - ٩٧) .

(٢) سهيلة ياسين الجبوري : اصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الاموي (ص ١١٩) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٢ - ١٢٧ .

(الجليل) ، واحمد بن محمد بن حفص المعروف
بـ (زائف) وكان اجل الكتاب خطا في (الثلث) .

وكان ابن الزيات في ايام ابن طولون وزير
المتعمص يعجبه خطه ولا يكتب بين يديه غيره .

وانتهت رياسة الخط بمصر الى طبطب
المحرر جودة واقفان(٧) ثم انتهت جودة الخط
وتحريره على راس الثلثمائة الى الوزير ابي علي
محمد بن مقله واخيه عبدالله(٨) .

ثم اخذ عن ابن مقله محمد بن السمساني
ومحمد بن اسد ، وعنهما اخذ الاستاذ ابو الحسن
علي بن هلال المعروف بابن البواب . . . ومن اخذ
عنه محمد بن عبدالله ، وعن محمد بن عبدالله
اخذت الشيخة المحدثه الكاتبة زينب الملقبة بشهدة
ابنة الابري ، وعنها اخذ امين الدين ياقوت ، وعنه
اخذ ولي العجمي ، وعلقه كتب العفيف ، وعن
العفيف اخذ ولده الشيخ عماد الدين ، ويقال ، انه
كان كابن البواب في زمانه ، عن الشيخ الدين بن
العفيف اخذ الشيخ شمس الدين بن ابي رقية
محتسب القسطنط ، . . واخذ عنه الشيخ شمس
وصنف مختصرا في قلم الثلث مع قواعد ضمها اليه
في صنعة الكتاب ، احسن فيه الصنيع ، وبه تخرج
الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الاثاري
محتسب مصر ، ونظم في صنعه الخط الفيه وسماها
بـ (العناية الربانية في الطريقة الشعبانية ، لم
يسبق الي مثلها ، ثم توجه بعد ذلك الى مكة ، ثم
الي اليمن والهند ثم عاد الى مكة فاقام بها ونبغ(٩) .

نستخلص من العرض اعلاه ان مناخ بغداد كان
ظرفا مناسباً مما جعل الخط يتطور ويوجد وتتغير
اوضاعه وتصبح له اشكال خضعت الى قواعد
ومقاييس كانت الاساس المتين لهذا الفن الرفيع .

(اللوحات التالية تمثل انواع الخطوط العربية
في العصر العباسي والتي جودها الخطاطون الاوائل
عبر العصور) .

ابن مقله هندس الحروف العربية وقدر مقاييسها

ولد ابو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقله

يوم الخميس لتسع بقين من شوال سنة ٢٧٢
هجريه(١٠) .

انه كان « مقله حدقة الزمان ياقوت
العرفان ، مصور النقوش القدسية بالصور
الروحانية ، وحضر الخطوط الهندسية بالادوات
الجسمانية ، عليه الرحمة والرضوان ما كتب
القلم وظهر الرقم » وهو بغدادى ، يكنى بابي الصدر
محمد بن علي بن حسن بن مقله الوزير(١١)
رغب عن عمل ابيه ، وانصرف الى الدرس) ،
ويقول مؤلف كتاب (تحفة الخطاطين) ان (اباه) كان
زياتا ، يبيع الزيت ، . . وكان ابوه كاتباً لمليح الخط:
وعلى خطه كتب ولده : ابو علي ، وابو عبدالله .
بلغ مرتبة عالية في علم الاعراب ، وحفظ اللغة ،
وبلاغة البيان منثورة ومنظومه ، كما شهد له
الصولي بذلك وبمضائل اخرى ايضا تميز بها على
اقرانه في اهل عصره(١٢) .

ومن المحقق ان ابن مقله الذي عد (انسان
عين الاعيان ، واستاذ اساتذة الزمان ، ووزيرا ذا
شان) ، كان اكبر معرفته هذا الانقلاب السذي
احدثه في الخط . وهو لم يقتصر على الخط وحده
كامثاله من ارباب المعرفة ، بل لقد قرض الشعر
ايضا ، ومن شعره في ابن خلدون قصيدة رائية في
الخط(١٣) .

وقد افاض العلماء المعنيون ببحوث - الخط
العربي ، من القدماء خاصة في شرح قوانين الكتابة
النسوبة ، وما تعارف عليه الخطاطون من تناسب
الحروف ومقاديرها في كل قيم ، ونسبة بعضها الى
بعض ، مما توجه قوانين الهندسة والنسبة
الفاضلة ، وكتبوا رسائل كثيرة . ونجد مثالا لذلك
مختصرا وواضحا في كلام صاحب (رسائل اخوان
الصفاء) في رسالة الموسيقى منها ، وفي (الفية زين
الدين شعبان الاثاري) ، وكلام شرف الدين ابن
عبدالسلام في (صبح الاعشى) : وغيرهم(١٤) . ومما
اورده في قواعد تتعلق بالكتابة التي لا يستغنى
الكاتب المجيد عن معرفتها) . (في هندسة الحروف
ومعرفة اعتبار صحتها ونحن نذكرها على ترتيب
الحروف) (ومما قاله الوزير ابو علي بن مقله :
عنها :

(١٠) وليد الاطلمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين
(ص ١١٠) .

(١١) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ١٤) .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(١٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥ .

(١٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٧) القلقشندي : صبح الاعشى (١٢/٣) .

د. سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ٤٥) .

(٨) القلقشندي : صبح الاعشى (١٢/٣) .

(٩) المصدر السابق (١٤/٣) .

السِّيَاسَةُ فِي مَلِكِيَّةِ فِي الْعَالَمِ

نموذج كتابة بخط « قلم التوقيع » بخط
ابن البواب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نموذج كتابة بحسبة بخط « قلم جليل المحقق » بطريقة ابن البواب

قُلْ لِلَّهِ عِلْمٌ سِرُّهُ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَيْءٌ

نموذج كتابة بخط « قلم المسلسل » بطريقة
ابن البواب

بِأَقْوَاتِ الْمُسْتَعِصِمِي

فَصَفَرْنَا نَسْبًا ثَمَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
وَحْدَهُ وَصَلَوَاتُهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

نموذج كتابة بخط لثني على فوائده التامة في عصره . من نسخة نسخة كتبها باقوت المستعصي في
سنة ٦٨٢ هـ في الصفحة الأخيرة من ديوان الحاضرة طوب قوت : خزنة رقم ١٦٤٢

قُلْنَا الرَّازِيُّ خَطُّنَا كَمَا عَطِينَا عَلِيمًا وَسَوَّيْنَا حَيْثُ تَوَجَّهْنَا إِلَى يَمِينِهِ أَوْ لِيَسْرَةَ كَمَا كَرِهَ كَتَبَ بِمِثْلِهَا الْبَوَابَ

نموذج كتابة بخط « قلم الرقاع » بطريقة ابن البواب

عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ إِنْ لَمْ يَبَارِكْ

نموذج كتابة بخط « قلم الرياسي » بطريقة ابن البواب

أَمَّا اللَّهُ تَعَالَى فَتَعَالَى وَكَرَّمَ سَمَاءَهُ وَعَبَّرَ عَمَّا يُكْتُمُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ

نموذج كتابة بخط « قلم اللؤلؤي » بطريقة ابن البواب

النَّبِيِّ الْأَمِيِّ وَالْهَوَّاسِ وَالْحَبَابَةِ وَسَلَّمَ

نموذج كتابة بخط « قلم الاشعار » بطريقة ابن البواب

أَنامُوزِ النَّاسِ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ
وَأَنْتُمْ شَاوِرُ الْكِتَابِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبرِ وَالصَّلَاةِ
وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ
الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبَّهُمْ

صفحة من مصحف كعبه ياقوت المستحصى
بخط (الحقق) الشيبه بالثلثي سنة ٦٦١هـ

كتبه علي بن هلال حامدا لله تعالى على نعمه
 ومُصليا على نبيه محمد وآله وعترته

« كتابه بخط ثلثي في آخر صحيفة رسالة الجاحظ كتبها علي بن هلال في رسالة
 « مدح الكتب والحث على جمعها » - استانبول ، متحف الاوقاف ، ٢٠١٤ »



صفحة من رسالة منسوبة إلى ابن مقلة

الطاء : قال ابن عبدالسلام : هو شكل مركب من ثلاثة خطوط : منتصب ، ومقوس ، ومنسطح يبدأ اوله بنقطة و اخره بنقطة .
قال : ومساحة ضوء الطاء في الطول كثفي الف خطه .

قال ابن مقلة : واعتبارها كاعتبار (الصاد) وقال ابن عبدالسلام : اعتبار صحتها ان يكون المنتصب كالف في خطه في الانتصاب والطول ، والمقوس كراء معلقة ، والمنسطح كباء مرسله .
ولا يخفى ان حكم الطاء في ذلك كالطاء .

العين : وهي شكل مركب من خطين : مقوس ومنسطح ، احدهما نصف دائرة .
قال : واعتبار صحتها كاعتبار الجيم .
ولا يخفى ان العين في الحكم كذلك .

الفاء : هي شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومستلق ومنتصب ومنسطح .

وقال : واعتبار صحتها ان نصل بالخط الثاني منها خطا فيصير مثلثا قائم الزاوية .

القاف : هو شكل مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومستلق ، ومقوس .
وقال : واعتبار صحتها كاعتبار النون ، وسياتي ذكره .

الكاف : شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومنسطح ، ومنتصب ومنسطح .

قال : واعتبار صحتها ان ينفصل منها باءان :

قال ابن عبدالسلام : يعني مستقيمة ومقلوبة .

اللام : هي شكل مركب من خطين : منتصب ، ومنسطح .

قال : اعتبار صحتها ان تخرج من اولها الى اخرها خطا يماس الطرفين فيصير مثلثا قائم الزاوية .

قال : وتكتب على الانواع الثلاثة التي تكتب عليها الباء .

الجيم : هي شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومستلق ، ومنسطح ومقوس .
وقال : واعتبارها كاعتبار الهاء . وسياتي .

الالف : هي شكل مركب في خط منتصب ، يجب ان يكون مستقيما غير مائل الى استلقاء ولا اتكباب : قال : وليست مناسبة لحرف في طول ولا قصر .

الباء : هي شكل مركب من خطين : منتصب ومنسطح . قال ونسبته الى الالف بالمساواة ثم قال وهذا الحرف وما يجري مجراه من يمنه الى يسره ، وكل ما كان كذلك فينبغي ان يمال القلم فيه نحو اليسرة قليلا .
ولا يخفى ان التاء والتاء في معنى الباء في ذلك جميعه .

الجيم : هي شكل مركب من خطين : منكب ونصف دائرة ، وقطرها مساو للالف .

وقال ايضا : واعتبار صحتها ان نخط عن يمينها وشمالها خطين فلا تنقص عنهما شيئا يسيرا ولا تخرج .

ولا يخفى ان الحاء والخاء في معنى الجيم من جميع ما تقدم .

الذال : هي شكل مركب من خطين : منكب ومنسطح مجموعهما مساو للالف وقال ايضا : واعتبار صحتها ان نصل طرفيها بخط فنجد مثلثا متساوي الاضلاع .
ولا يخفى ان الذال في معنى ما تقدم .

الراء : وهي شكل مركب في خط مقوس هو ربع الدائرة التي قطرها ، الالف وفي راسه سنه مقدرة في الفكر .

وقال ايضا : واعتبار صحتها ان تصلها بمثلها فتصير نصف دائرة .

ولا يخفى ان الزاي في معناها .

السين : وهو شكل مركب في خمسة خطوط : منتصب ، ومقوس ، ومنتصب ، ومقوس ومنتصب .

وقال ايضا : واعتبار صحتها يعني صحة راسها ان تمر باعلاها واسفلها خطين فلا تخرج عنهما ولا تنقص .

ولا يخفى ان حكم الشين ايضا كذلك .

الصاد : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوس ، ومنسطح ومقوس وقال : اعتبار صحتها ان يكون راس النون مشرفا على اخرها .
ولا يخفى ان الصاد كذلك .

ابن البواب بين الصياغة والقاعدة

الاستاذ علي بن هلال ، بغدادي ، اشتهر باسم « علاء الدين بن البواب » وكنى بابي الحسن . وكان ابوه يعرف بابن سري ، وكان في دولة ال بويه بوابا عند ملوكهم .

توفي في بغداد سنة ٢٣هـ ودفن بجوار الامام بن حنبل (على ما رواه ابن خلكان) .

كان علي بن هلال يحفظ القرآن الكريم ، وقد اخذ الخط في حديثه من محمد بن اسد ، ثم من محمد بن السهماني صاحب محمد بن اسد وتلميذه على قوله ، ثم جمع خطوط محمد بن مقله في النسخ والثالث اللذين قلبيهما من الخط الكوفي ، واذهبا ، ونقحها ، وصححها ، وروجها ، فاستقام بفضلها اسلوب بن مقله في كل الوجوه ، وخلص اسمه ونال شهرة عظيمة باقية الى يوم الدين ، حتى اطلق عليه لقب « الناقل الاول » . ولكن الحقيقة ان ابن مقله ليس هو الناقل الاول ، وانما الناقل ابن ابي طاب على ما وضع ذلك « مستقيم زاده » في بحثه في محمد بن الحسن بن مقله (١٧) .

ولقد نشأ ابن البواب محبا لفن الخط العربي وما اليه بكلية وكان في شبابه مرققا يشتمل بنصير الدور والكتب والدواوين ثم تعشق فن الخط والتمع نبوغه . واتقن قاعدة ابن مقله ثم جودها وحسنها وابدع في اوضاع الحروف العربية وابعادها (١٨) ومن اعظم اعمال ابن البواب وسبب شهرته انه اكمل اسلوب الكتابة الذي ابتداه قبل قرن من الزمان الوزير ابن مقله .

وهو الذي وضع المقوقات الفنية التي كان الخط المنسوب لابن مقله بحاجة اليها وقد كان ابن البواب فنانا بالفطرة وله نظرة فنية وهذا يبدو جليا في انتظام وحركة خطوط الاقواس العظيمة التي انشأها ويمكن ان ندعوه حقا مؤلف الخط المنسوب المنسجم دون منازع ودون الحاجة ان نخط مع ابن مقله او تذهب بعيدا الى اصل من بدأ بهذا الخط (١٩) .

وقد نظم علي بن هلال قصيدة رائعة جلية ضمنها قواعد الخط ، وشرحها كثير من العلماء ،

(١٧) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي ، ص ٦ - ٧ .

(١٨) الخطاط وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين (ص ١١٥) .

(١٩) سهيلة ياسين الجبوري : الخط العربي وتطورده في العصور المبائية في العراق ، ص ٧٥ - ٧٦ .

النون : هو شكل مركب في خط مقوس ، هو نصف الدائرة وفيه سنة مقدرة في الفكر .

وقال : واعتبار صحتها ان يوصل بها مثلها فتكون دائرة .

الهاء : شكل مركب في ثلاثة خطوط : منكب ، ومنتصب ، ومقوس .

قال : واعتبار صحتها ان تجعلها مربعة الزاويتين السفلاوين .

الواو : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : مستلق ، ومنكب ، ومقوس .

اللام الف : (قال ابن عبد السلام) : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومنسطح مستقيم - ومستلق ، طول المنكب كطول الف من قلم الكتابة وطول المنسطح كثنثي الف الكتابة ، وطول المستلق كطول الف الكتابة ، يبدأ اول المنكب بنقطة - وكذلك المستلقي .

قال : ومنها نوع اخر مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومستدير يقارب الف ، ومستلق تقابل طرفه المنكب .

الياء : شكل مركب من ثلاثة خطوط : مستلق ، ومنكب ، ومقوس .

قال : واعتبارها كاعتبار الواو (١٥) .

ويتضح لنا : (ان للحروف العربية حيوية شديدة ناشئة من مطاوعتها واستدارتها وانباؤها جميعا ، على اصل هندي ثابت وقاعدة رياضية معروفة - فاصل الحروف العربية « الالف » التي هي خط مستقيم جملوه فطر الدائرة ، اما بقية الحروف فهي اجزاء من الدائرة المحيطة بهذا القطر منسوبة اليه ، او اعيدت الى المنسطح وازيل تقوسها فكانت كلها من الالف بنسبة معينة ثابتة) .

لكل حرف من حروف العربية هندسته الخاصة ، والحروف كلها باجزائها وطلباتها مردودة الى نسبة ثابتة ، عرفت بالنسبة الفاضلة (١٦) .

(١٥) الفيلسوفي : صبح الامشي (٢٣/٢ - ٢٤) .

(١٦) محمود شكر الجبوري : نشأة الخط العربي وتطورده ، ص ١٢ .

لأنها تشتمل على قواعد علم الخط . وقد ذكرها ابن خلدون في تاريخه ، وعدتها ثمانية وعشرون بيتا ومطلعها :

يا من يريد اجازة التحرير

ويروم حسن الخط والتصوير

وعد أكبر كتاب الخط بعد ابن مقلة ، لأنه - في حقيقة الأمر - استطاع ان يقلب الخط على وجه يسترعي الانتباه ، وان يستنبط منه اسلوب التث والتسخ ، ويعلو بهما الى مرتقى رفيع من الكمال .

وتدرج خط علي بن هلال في مدارج علي مر الأيام . وارتقى كثيرا من بعد علي يد ياقوت المستعصي . لكن الفرع الذي استمر الى القرن الخامس عشر في مصر . متبعا لطريقة علي ابن هلال اتباعا تاما ، لم يستطع في استمراره ان يبلغ مرتبة مدرسه (٢٠) .

والخطاط العظيم ابن البواب ، قد ارسى قواعد الخط العربي ، وهذب حروفه ، واجاد في تراكيب السطور ، وبقيت قاعدته نابتة الى اليوم ، ولم يصل الى مرتبته احد ، حتى برز الخطاط البغدادي ياقوت المستعصي فوجد طريقة ابن البواب وحشها ، وهذبها في القرن السابع الهجري (٢١) .

ياقوت المستعصي قبله الكتاب

هو ابو الدر جمال الدين ياقوت المستعصي الرومي الكاتب . اشتراه الخليفة العباسي المستعصم بالله وهو اخر الخلفاء العباسيين . ونشأ ياقوت في دار الخلافة ، (واصل ياقوت رومي وكان من مماليك المستعصم فانتسب اليه . تميز بالادب ، والشعر ، وجودة الخط . وهو اخر من انتهت رئاسة الخط المنسوب اليه) .

اعتنى بتعليمه فنون الخط الشيخ صفى الدين عبدالؤمن احد فقهاء المدرسة المستنصرية واشهر كتاب زمانه .

وقد عشق ياقوت فنون الخط العربي منذ صباه ، حتى برع فيه ، واطهر من المهارة ما جعله في مصاف عظماء الخطاطين . وبقي ياقوت يتحلى خطوط الائمة الجودين ممن سبقوه في هذا المضمار

(٢٠) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي ، ص ٨ .

(٢١) الخطاط وليد الاظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ص ١٢٢ .

حتى بلغ الغاية في حسن الخط . وضبط قواعد واصوله وفاق ابن البواب في جمال الخط وحسن نسجه والابداع في تراكيبه فلقب ب (قبلة الكتاب) وتصدر ياقوت لتعليم فنون الخط ، وبلغت شهرته الافاق وقصده الناس ، وبالغوا في اقتناء خطوطه (٢٢) .

كان ياقوت المستعصي خازنا بدار الكتب في المدرسة المستنصرية باشراف المؤرخ الكبير ابن الفوطي .

وقد افاد ياقوت من دار الكتب كثيرا ، وكان يجتمع بالادباء والعلماء والشعراء والوزراء ، فعرفوا فضله . وقدروا فنه . ونال رعايتهم ونشجيعهم . حتى بلغ القمة وتربع على عرش الخط العربي . وصار مضرب المثل في حسن الخط .

حتى كان الناس اذا استحسنا خطا قالوا : خط ياقوتي . وبرع في تجويد الخط كثيرا وهذب اوضاع الحروف . وحور في انكباب واستلقاء بعضها . وصارت مدرسة بغداد الخطية هي السائدة في العالم الاسلامي بفضل جهوده حيث سعى الخطاطون في الافاق يقلدون خطوطه ويمشقون على قاعدته التي لا تزال الى يومنا هذا تمتاز بخصائصها عن المدرسة العثمانية التي اعقبتها . وعند سقوط بغداد على يد هولوكو ، عزل ياقوت عن خزانة كتب المستنصرية وفوض امر خزائن الكتب الى موفق الدين ابن ابي الحديد واخييه عزالدين (٢٣) .

ويقال انه انتقل الى المدرسة المستنصرية قبل احتلال بغداد . . واخذ يقرأ ويتعلم وينهل من العلوم والكتب الموجودة فيها تارة يدرس اللغسة العربية ويتعرف على اسرارها وقواعدها وتارة يتعلم اصول الخط .

ويقال ان هذه المدرسة لم يصلها الدمار مثل ما اصاب الامكنة الاخرى . ولم تعطل فيها الدراسة الا لمدة وجيزة من الزمن (٢٤) .

وقال فيه صاحب كتاب الاعلام باللغة الفارسية (ان في يده سرا من اسرار الله) (٢٥)

(٢٢) المصدر السابق : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

(٢٣) المصدر السابق نفسه : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ، ص ١٢٦ .

(٢٤) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ص ٤٢ .

(٢٥) شمس الدين سامي : قاموس الاعلام ، ١٧٨٦/٦ .

فسخر كل طاقاته وملكانه بالابداع بالخط وبالغ بزخرفته ، واصبحت تلك الوسيلة التي كتبت بها آيات القرآن الكريم فنا رفيعا ، وبالخط العربي كتبت مؤلفات ائمة المفكرين المسلمين ، وعد هذا الفن من اسمى الفنون العربية والاسلامية .

والمفحص لتطور الحروف وتجويدها يجد بغيته بيد الكتاب الاوائل التابعين الذين عنوا بتحسينه والابداع به .

وفي بغداد هندست الحروف العربية وقدرت مقاييسها واجيد تحريرها على يد ابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصي وهؤلاء الرواد جهابذة الخط سعوا الى نشر قواعده واشاعته في مشارق الارض ومغاربها . وشغف الناس بتعلمها والاحتفاظ بالمخطوطات النادرة الثمينة . وضمت المكتبات منها ما حوت من العلوم والفنون نماذج منها كانت رائعة وجميلة شكلا ومضمونا .

وكان ياقوت المستعصي يكتب على طريقة ابن البواب الخطاط الا انه قطع راس قصب الطيب (الريشة) بصورة مائلة ونتيجة لذلك كان خطه رفيعا من جهة وغلظا من جهة اخرى وبهذا اصبح اكثر اناقة(٢٦) .

الخلاصة

برى المتتبع لتطور الخط اهتمام الكتاب به باعتباره الوسيلة التي كتبت به آيات القرآن الكريم . وبرزت اهمية تجويد الكتابة والعناية بها لقدسيتها ومكانتها العظيمة عند المسلمين . وليس من شك ان الفنان المسلم ابتعد عن رسم كل ما فيه روح - تبع ذلك من عقيدته ،

(٢٦) سهيلة ياسين الجبوري : الخط العربي وتطوره في العصور المبسبة في العراق ، ص ٦٤ .

مقامته في قواعد بغداد

في الدولة العباسية

تأليف : ظهير الدين الكازروني (ت : ٦٩٧هـ = ١٢٩٨م)

تحقيق

كوريس عواد وميخائيل عواد

تمهيد :

- ٣ - صفة عمل الجبن المقلو وغير ذلك (تنمة الورقة ٤٦) .
- ٤ - رسالة في تفسير قول النبي : تفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة (الورقة ٨٩ - ١٩٧) .
- ٥ - نبذة من تذكرة الكحالين (٢) (الورقة ٩٧) .
- ٦ - فصل في معرفة صوم النصارى (الورقة ١٠٣ - ١٠٥) .
- ٧ - من كلام ما شاء الله (الورقة ١٠٥ ب) .
- ٨ - دلائل الشهور الرومية والعربية : جُمع الحسن بن بهلول الكاتب النصراني (ه) . تاريخ النسخة ٦٧٩هـ = ١٢٨٠م (الورقة ١١٣ - ١١٣) .
- ٩ - من كتاب المواليذ : لابن أبي الخصب الكاتب (الورقة ١٣٧ ب) .

في خزنة كتب السلطان محمد الفاتح بجامع السلمانية في استانبول ، مجموع خطي نفيس كبير ، برقم ١١٥٤١١ (١) ، كتب بخطوط مختلفة وازمنة متفاوتة ، يرقى بعضها الى المئة السابعة للهجرة . ونعسل تلك الاعلاق كانت متفرقة متبشرة ، حتى عمد بعضهم في زمن مجهول لدينا ، الى جمع شملها بين دفئتي هذا المجلد .
وفي ما يأتي ثبت بأجل ما ينطوي عليه هذا المجموع من كتب ورسائل ونبذ (٢) :

١ - كتاب مفرج النفس : لشرف الدين ابي نصر محمد بن عمر بن ابي الفتوح البغدادي ثم المارديني المعروف بابن المراه . تاريخ النسخة ٦٨٨هـ = ١٢٨٩م (الورقة ١ - ٣٣) .

٢ - مقامة أنشأها ظهير الدين أبو الحسن علي بن محمد الكازروني ، في قواعد بغداد في الدولة العباسية (الورقة ٣٥ - ٤٦) .

(٢) تذكرة الكحالين : من اشهر كتب التراث العربي في طب العيون . ألفها علي بن عيسى الكحال ، المتوفى سنة ٤٢٠هـ = ١٠٢٩م .

- (١) وقد طبعت في حيدر اباد سنة ١٩٦٤ ، في ٤٠٠ ص .
- (٢) هو النجم اليهودي ما شاء الله ، كان في زمن المنصور وعاش الى أيام الامون . ترجمته في (« الفهرست » لابن التديم ، ص ٢٧٢ ؛ طبعة ليبسك) ، (« اخبار الحكماء » للقفطي ، ص ٣٢٧ ؛ طبعة ليبسك) ، (« تاريخ مختصر الدول » لابن الصري ، ص ٢٤٨) .
- (٣) من اهل المئة الرابعة للهجرة (= العشرة م) . وهو صاحب « المعجم السرياني » الذي طبع في باريس .

(١) صور بعضه بالكروفلم ، صديقنا مرحوم يوسف يعقوب مسكوني ، وقد وقفنا على ما صورده ، فلذا به ينتهي عند الورقة ١٧٢ من المخطوط .

(٢) أشار مؤلف « فهرست خزنة فاتح » الى ثلاثة تأليف فقط مما يحتويه هذا المجموع الخطي الواسع ، وهي ذوات الارقام ١ و ٦ و ٨ . أما الباقي وهي ١٨ مؤلفا ، فقد اغفل ذكرها .

٢١- نبذة في كيفية الأذان عند الشيعة (الورقة
١٧٢) .

المخطوط الذي نشره :

يتضح من هذا السرد ، ان المخطوط الذي
نشره اليوم ، هو نائي ما في هذه المجموعة ، وقوامه
إحدى عشرة ورقة ، تقع في هذا المجموع بين الورقة
٢٥ و ٤٦ على ما أسلفنا .

وكان معهد المخطوطات العربية في القاهرة ،
قد صَوَّرَ هذه « المقامة » في جملة ما صَوَّرَه من
مخطوطات خزائن كتب استانبول (١) .

وخط هذه « المقامة » فيما يبدو ، من خطوط
المئة الثامنة للهجرة ، وهو ، على ما يراه القساري
في النماذج المنشورة ها هنا ، من الخطوط الوعرة
التي تصعب قراءتها . ذلك ان الناسج ، ولم يرد
إسمه ذكر في المخطوط ، قد اغفل تقييد بعض
الحروف العجمة ، كما وقع له في انشاء النقل
تصحيفات تناثرت في مواطن مختلفة منها .

تنطوي هذه المخطوطة على « مقامة » أدبية
تاريخية عمرانية ، تتناول بالوصف مدينة بغداد
في اواخر أيامها العباسية ، ويُعيّد سقوطها بأيدي
المغول .

انشاء هذه « المقامة » ظهر الدين الكازروني
البغدادي الشافعي ، أحد علماء المئة السابعة
لهجرة . وسياتي الكلام عليه .

ونسخة هذه « المقامة » فيما بدا لنا ، فريدة
لا يُعرف لها نظير . فهي اترّائف يحسن إحيائه
بالتحقيق والنشر .

وقد سبق لنا ان حَقَّقْنَا هذه « المقامة » ،
سنة ١٩٦٢ ، بمناسبة إحتفالات بغداد والكندي .
وتَسَرَّعْنَا حينذاك « وزارة الإرشاد » . ولكن
نسخها المطبوعة لم يتم توزيعها يومئذٍ لاسباب
لا محلّ لذكرها ، فبقيت مطبورة . وهذا ما حدا
بنا الى إعادة تحقيقها وإخراجها اليوم بهذا الوجه
الجديد ، على صفحات مجلة « المورد » الزاهرة .

(١١) راجع في ذلك : « فهرست المخطوطات المصورة » الجزء
الأول . لغزاد سيد . القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٢١ و الرقم
٧٩٩ .

وانظر : « تاريخ الأدب العربي في العراق » لعباس
الزاوي ا (بغداد ١٩٦١] ص ٦٦١) .

١٠- رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي في أحداث
الجو (١) (الورقة ١٤٨ - ١٤٩ ب) .

١١- كلام لابن وَحْشِيَّة (٧) (الورقة ١٥٠
- ١٥٤) .

١٢- فَصَلٌ في معرفة اعياد اليهود (الورقة
١٥٤ - ١٥٨) .

١٣- فَصَلٌ في شرح اعياد اليهود (الورقة ١٥٨ ب
- ١٥٩ ب) .

١٤- فَصَلٌ في صفة الأَرغَثُون (٨) (الورقة ١٦٠
- ١٦١) .

١٥- آلات الروم [الموسيقية] (الورقة ١٦٢) .

١٦- صفة عمل بَرِّ شَمْعَتَا (٩) : ترجمة الحكيم
أبي البركات أُوحد الزمان (٩) . منقول من
السراني . (الورقة ١٦٣ ب) .

١٧- فائدة في معنى لفظة « العراق » (الورقة
١٦٤ ب) .

١٨- تقويم فلكي (الورقة ١٦٥) .

١٩- في تأثيرات الكواكب وحلولها البيروج (الورقة
١٦٧ ب - ١٧٠) .

٢٠- الحِكْم والأمثال (قصيدة نونية) لابي الفتح
علي بن محمد البُسْتِي (١٠) (الورقة ١٧٠ ب -
١٧٢) .

(٦) حَقَّقَهَا ونَشَرَهَا : يوسف يعقوب مسكوني (بغداد
١٩٦٥) .

(٧) هو أبو بكر أحمد بن علي ، المعروف بابن وحشية
الكلداني ، العالم السمراني بالفلحة ، المتوفى سنة
٢٩٦هـ = ٨٩٩ . له تصانيف كثيرة في الزراعة
والكيمياء ، أشهرها كتاب « الفلحة النبطية » في أجزاء .
ولم يطبع . وقد نشر عادل أبو النصر ، خلاصته في
بيروت .

(٨) آلة موسيقية قديمة . تعرف اليوم ب (الارغن) .

(٩) لفظة سريانية بمعنى « ابن الساعة » ويراد به المواء
الذي يفعل فعله في ساعته . ونظير هذه اللفظة ما اتخذ
أبو بكر الرازي عنوانا لأحد تأليفه وهو « برد الساعة » .
راجع : (« تذكرة داود الانطاكي » ١ : ١٠١ - ١٠٢) ؛
بولاغ ١٢٨٨) .

(١٠) هو أبو البركات أُوحد الزمان بن ملكا (او : ملكان) ،
الطبيب الفيلسوف السمراني ، ت ٥٤٧هـ = ١١٥٢م ،
مؤلف كتاب « الاعتبار » وغيره من التصانيف . راجع
ترجمته في « تاريخ حكماء الاسلام » لليبهقي . تحقيق :
محمد كرد علي (دمشق ١٩٢٦) ؛ ص ١٥٢ - ١٥٤) .
(١١) توفي سنة ٤٠١هـ = ١٠١٠م . له ديوان شعر . حققه :
د . محمد مرسى الخولي . وسينشر قريبا .

المقامات البغدادية :

تاريخ الأدب العربي في العراق : عباس
الغزالي (١ : ٣٥ - ٣٦ ، ٩١ ، ٢٦١ ، ٢٦٧) .

تاريخ العراق بين احتلالين : عباس الغزالي
(١ : ٢٤١ ، ٢٨٠ ، ٤٢٣ ، ٤ : ٦٨) .

تاريخ علم الفلك في العراق : عباس الغزالي
(ص ٦٧ - ٦٨) .

التعريف بالمؤرخين : عباس الغزالي
(١ : ١٢٧ - ١٢٩) .

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة
السابعة (١٢) : لابن الفوطي (ص ٤٩٧) .

الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة : لابن حجر
المسقلاني (٣ : ١١٩) .

دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً : للدكتور
مصطفى جواد والدكتور احمد سوسه (ص ٢٢٦ ،
٣٢٣) .

طبقات الشافعية الكبرى : للسكي (٦ :
٢٤٢) .

غاية الإختصار في اخبار البيوتات العلوية
المحفوظة من الفسار ، المنسوب الى ابن زهرة
الحسيني الحلبي (بولاق ١٣٠٩ هـ ، ص ١٢) .

فهرس المخطوطات المصورة في معهد
المخطوطات العربية : لفؤاد سيد . (١ : ٥٣١ ؛ ٢ :
[التاريخ : القسم الثاني] ص ١٢٤) .

كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون :
لحاجي خليفة . (١ : ٩٢٣ ؛ ٢ : ١٠١٣ ، ١٩٢٣ ،
طبعة استانبول الثانية) .

مختصر التاريخ للكارزوني ، تحقيق : د .
مصطفى جواد . (مقدمة المحقق . ص ٣ - ٢٢) .
اسمه ونسبه - مذهبه - ولادته وثقافته - وفاته .
مؤلفاته .

معجم المؤلفين : لعمر رضا كحالة (٧ :
٢٣٢) .

المهل الصافي والمستوفى بعد الوافي : لابن
تغري بردي :

عمد المستشرق الآثاري جاستون فبييت ، الى

(١٢) نشره الدكتور مصطفى جواد ، في بغداد سنة ١٣٥١هـ .
وقد ذهب حينذاك الى انه لابن الفوطي (التوفى سنة
٧٢٢هـ) . ثم تحقق له بعد ذلك ان كلا العنوان والمؤلف
غير ثابت لديه .

ولنا ان نونه بان غير واحد من منثني
المقامات ، قد أفرّد مقامة اسمها يد « المقامة
البغدادية » ، من ذلك :

ان المقامة الثانية عشرة من مقامات بديع
الزمان الهمداني (المتوفى سنة ٣٩٨هـ = ١٠٠٨م) ،
عُرِفَت يد « البغدادية » .

وان المقامة الثالثة عشرة من مقامات
الحريري (المتوفى سنة ٥١٦هـ = ١١٢٢م) ،
عُرِفَت ايضاً يد « البغدادية » .

وان المقامة الاونى من المقامات الزينية لابن
الصيقل الجزري (المتوفى سنة ٧٠١هـ =
١٣٠١م) ، عُرِفَت يد « البغدادية » ايضاً .

وقد حصّ النسيخ ناصيف اليازجي (المتوفى
سنة ١٢٨٧هـ = ١٨٨٧م) ، بغداد ، بالمقامة الثامنة
من مقاماته الموسومة يد « مجمع البحرين » .

وأفرّد الشيخ عبدالمثله بن مصطفى الفيضي
الموصلي (كان حياً سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م)
معامة بعنوان « المقامة البغدادية » . لم تطبع .
منها نسخة لدى حفيده نشأه الفيضي في الموصل .
ذكرها الدكتور داود الحلبي (« مخطوطات
الموصل » ص ٢٩٩ ؛ الرقم ١٥) .

المؤلف :

١ - مراجع ترجمته :

في كثير من المؤلفات القديمة والحديثة ،
ذُكِرَ لظهير الدين الكارزوني . وقد رجعنا إليها
ومنحّصناها ، فاذا بترجمته واخباره في جميعها
محدودة ضيقة النطاق لا تتعدى في جملتها كلمات
معدودات .

وفي ما يأتي ثبت بهذه المراجع ، وقد رتبناها
فيه وفق السياق الهجائي لمؤلفاتها :

الاعلام : لخيرالدين الزيرككلي (٥ : ١٥٥) .
إيضاح الكتون في الذيل على كشف الظنون :
لإسماعيل باشا البغدادي . (١ : ٣٢٨ ؛ ٢ : ٧١٤ -
٧١٥) .

وَضَع فهرس شامل بأسماء المترجمين فيه ، ونشره بالفرنسية - في القاهرة سنة ١٩٣٢ - بعنوان :

Wiet (Gaston) : Les Biographies des Manhal Safi.

وقد اشار (ص ٢٤٠ ؛ الرقم ١٦٣٩) الى ورود ترجمة الكازروني في هذا الكتاب .

طبع الجزء الاول من « المنهل الصافي » : (القاهرة ١٩٥٦) وفيه تراجم من اسمه (ابراهيم ، واحمد) فقط .

مؤرخ العراق ابن الفوطي : لمحمد رضا الشيببي (٢ : ٩٧) .

هدية العارفين . اسماء المؤلفين و آثار المصنفين : لاسماعيل باشا البغدادي (١ : ٧١٥) .

* * *

وهناك مراجع مخطوطة ، نوهت بالكازروني . لم يتسن لنا الوقوف عليها . قال صاحب « الدرر الكامنة » في اثناء ترجمة الكازروني : « مات بعد السبعمائة فيما ذكره البرزالي . وقال الادفوي : في ربيع الاول سنة ٦٩٧ . وقال الذهبي : كتب الي بمروباته سنة ٦٩٧ » .

ففي هذا الكلام دليل على ان هؤلاء المؤرخين الثلاثة قد ذكروه في مؤلفاتهم .

اما المراجع الافرنجية الإستشراقية ، فان نصيب الكازروني منها ، الالهمل والاغفال . فهذا (بروكلمان) لم يذكر الكازروني بكلمة في كتابه « تاريخ الادب العربي » ، لا في الاصل ولا في الذيل . ومثله « دائرة المعارف الإسلامية » .

٢ - ترجمته :

لم نجد المؤرخين القدامى والمحدثين الذين افردوا ترجمة لظهير الدين الكازروني ، من اطلال القول في تلك الترجمة ، او اسهب فيما كان عليه من مقام في العلم والادب ، ومنزلة في المجتمع . وغاية ما ذكروه فيه كلمات معدودات ، على ما اسلفنا ، في وسعنا ان نجملها بما يأتي :

هو الشيخ ظهير الدين علي بن محمد بن

محمود بن ابي العز بن احمد بن اسحاق بن ابراهيم الكازروني (١١٢) ، ثم البغدادي ، الشافعي .

ولد سنة ٦١١هـ (١٢١٤ م) . وسمع الحديث من الامير ابي محمد الحسن بن علي ابن المرتضى ، و ابي عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيشي الواسطي (المتوفى سنة ٦٣٧هـ = ١٢٣٩ م) وغيرهما .

كان الكازروني من رجال العصر المغولي في العراق ، من اهل بغداد . خدم الدويان في الاعمال الجليلة . وكتب خطا جيدا .

كان مؤرخا ، حنبلياً ، قرصياً ، لغوياً ، فقيهاً . شاعراً . قال السيبي : له شعر حسن . وورد له ابن حجر المقفلاي هذين البيتين :

زارني في الظلام اهيف كالبدر

بوجه منه يلوح النور

قلت اهلاً لو كنت زرت نهاراً

قال مهلاً في الليل تبدو البدور

لقد كان الكازروني شيخ ابن الفوطي المؤرخ البغدادي الشهير (المتوفى سنة ٧٢٣هـ = ١٣٢٣ م) ، وليس بمستبعد ان يكون ابن الفوطي قد خص استاذه بترجمة في كتابه الموسوم بـ « تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب » . ولكن الجزء الذي فيه حرف « الظاء » ضائع لا يعرف له وجود اليوم .

ويؤخذ من ترجمة حياة البرزالي المؤرخ الشهير ، ان الكازروني كان قد اجازه باجازة علمية (١٤) .

ولنا ان نقول ان مؤلف « الحوادث الجامعة » كثيراً ما ينقل عن تاريخ الكازروني ومثله الذهبي (١٥) .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاة الكازروني ، على ما سبقت الإشارة إليه . ولكن اغلب الروايات تقول انه توفي سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨ م) .

(١٣) نسبة الى كازرون . بفتح الزاي وهم الراء . مدينة في ايران في غرب شيراز .

(١٤) عباس المزدي : مؤرخ الشام او البرزالي وتاريخه : « مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق » ٢٠ (١٩٤٥) ص ٢١ .

(١٥) « تاريخ العراق بين احتلالين » ١ : ٢٨٠ ، و « التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٨ .

في كتابه (مختصر التاريخ) عند الكلام على خلافة الناصر لدين الله . فكان لإشارته قيمتها » . (٢٠)
وانظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد ، على
(« مختصر التاريخ » ص ٢١ - ٢٢) .

٤ - التنزيلات (٢١) .

٥ - روضة الأريب (٢٢) :

في التاريخ (٢٣) : في سبعة عشر سفر (٢٤) .
قال الدكتور مصطفى جواد ، في مقدمته على كتاب (« مختصر التاريخ » ص ١٨ - ١٩) : بصدد هذا الكتاب ، ما يأتي : « روضة الأريب ، بالراء كما جاء في كشف الظنون ، وتصحّف في أكثر الكتب الأخرى إلى (روضة الأديب) بالدال المهملة . . . ، وهو كتاب في التاريخ جليل كبير ، لم نثر إلا على نغول منه تدلّ على جزالة فوائده . . . ، وطريقته كانت على حسب استمرار السنين » .

٦ - السيرة النبوية (٢٥) :

سمّاها صاحب (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) بـ « الذروة العليا في سيرة المصطفى صلّى الله تعالى عليه وسلّم » . ولعلّ هذه « السيرة » من ضائعات الكتب .

٧ - كنز (٢٦) الحساب في الحساب :

في مجلد (٢٧) . ولا تُعرف له نسخة خطية .

٨ - مختصر التاريخ : من أوّل الزمان الى منتهى دولة بني العبّاس :

منه نسخة فريدة ، بخط قديم ، في خزّانة

(٢٠) (« التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٩) .

(٢١) (« ايضاح الكون » ١ : ٢٢٨) ، (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) .

(٢٢) (« طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢) ، (« الدرر الكامنة » ٣ : ١١٩) .

(٢٣) في (« كشف الظنون » ١ : ٩٢٣) : في التاريخ ، أي تاريخ بغداد .

(٢٤) في (« كشف الظنون » ١ : ٢٨٨ و ٩٢٣) ، و (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) : في سبعة وعشرين مجلداً .

(٢٥) (« الدرر الكامنة » ٣ : ١١٩) ، (« الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ، ص ٨٩) ، (« كشف الظنون » ٢ : ١٠١٣) .

(٢٦) في (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) ، و (« ايضاح الكون » ٢ : ٧١٤) : تصحّف اسمه الى « وكسر الحساب » . وفي (« معجم المؤلفين » ٧ : ٢٢٢) :

كسر . . .

(٢٧) (« الدرر الكامنة » ٣ : ١١٩) .

إن كانت الخسارة بضالة وقوفنا على ترجمة الكازروني كبيرة ، فإنّ الخسارة بضاياع مؤلفاته ادهى وافدح من تلك ، ذلك انّ مترجيه ذكروا له جملة مؤلفات لم ينته إليها ، فيما نعلم سوى ثلاثة ، هي : هذه « القامة » التي نشرها اليوم ، و « مختصر التاريخ » ، و « الإختيارات » . أمّا سائر مؤلفاته فقد امتدت إليها يد الضياع واصبحت لا تملك من امرها اكثر من اسمائها .

وفي ما يأتي نبتّ بهذه المؤلفات ، وقد رتبناها على السياق الهجائي :

١ - الإختيارات : في علم النجوم واختيار اوقات الاعمال والافعال والحركات للانسان :

جاء في (« الحوادث الجامعة » ص ٤٩٧) : انّ الكازروني « عمل كتاباً في الإختيارات سلك فيه طريقة ابن حرّاز في الإختيارات التي عملها شرف الدين إقبال الشراي » (١٦) .

٢ - تاريخ المعدلين عند قاضي القضاة [سراج الدين] الهنائي :

ذكره ابن الفوطي (« تلخيص معجم الألقاب » ج ٤ : القسم الاول ، ص ٢٢٩ ، ٢٦٦ ، ٦٥١) .
ولا تُعرف لهذا الكتاب نسخة مخطوطة في زماننا .

٣ - التذييل :

قال عباس العزّازي : « هذا الكتاب جاء ذيلاً على تاريخ العمري في الدولة العباسية من أوّلها الى أيام المستنجد بالله (١١٧) . وهو تأليف الشيخ الثقة محمد بن علي بن محمد ابن العمري ، ابتدا في التذييل في اول ولاية المستنجد ، وختمه بأخر إمامة المستنصم بالله (١١٨) . عثرت على تاريخ العمري (١١٩) ولم أعثر على التذييل . وجاء ذكر الأصل والتذييل

عنوان هذا الكتاب « الإختيارات الزمانية للاعمال الكلية » . وقد علمنا ان نسخة الاصل التي كتبت لخزّانة الامير اقبال الشراي . وهي نسخة خزّانيسية نفيسة ، في مكتبة عثمان فوزي في اسطنبول .

(١٧) دامت خلافته من ٥٥٥ هـ الى ٥٦٦ هـ (١١٦٠ - ١١٧٠ م) .

(١٨) دامت خلافته من ٦٤٠ الى ٦٥٦ هـ (١٢٤٢ - ١٢٥٨ م) .

(١٩) عنوان هذا التاريخ : « الابناء في تاريخ الخلفاء » . وقد حققه وقدم له : د . فاسم السامرائي (مطبعة بريل -

ليدن ١٩٧٢ ؛ ٣٦٧ + ١٥ ص) .

جار الله باستانبول برقم ١٦٢٥ ، كتبت سنة ٦٦٢ هـ ، مكتوب بالولها آتيا بخط المؤلف . وهي في ٩٧ ورقة ، بحجم ١٤ x ١٨ سم . وعنها نسخة مصوِّرة في معهد المخطوطات العربية (٢٨) . وأخرى كانت في خزنة عباس الزمراوي ببغداد . أوله بعد البسلة : ذكر مدة الزمان وما مضى منه . وآخره : وأنقضت الدولة العباسية فسبحان من لا ينقضي ملكه ولا يزول سلطانه .

وقال عباس الزمراوي فيه : « في سنة ١٩٣٩ ، وقعت عليه بخط مؤلفه . كتبه بعد سقوط الخلافة العباسية بنحو سبع سنين . وكنت اظن أن آثاره طمست ولم يبق ما يشير الى مكانته التاريخية . وفيه مطالب مهمة عن الآثار المراقية ، وتوضيح لملاحظات في عمارات خيرية ، وكلام في الأسرة العباسية لا نجدتها في غيره . فكان عظيماً في اختصاره وهو صفة تاريخ العراق ، ومتن متين فيه ، يفني على اختصاره عن مطالعة أسفار . وهو زبدة التصانيف وروح الطالب . وهذا المؤرخ ممن له اصبع في الإدارة أو علاقة في الدولة ، ويستفاد من صحته نقله لبصره في شؤونها ، وكتب كما يريد ولم يكتب كما يُراد » (٢٩) .

حقق هذا الكتاب الجليل وعلّق عليه : الدكتور مصطفى جواد . ولكنه توفي قبل أن يُطبع . فنسرتّه وزارة الإعلام . وقد وضع فهارسه وأشرف على طبعه : سالم الألوسي : (مطبعة الحكومة - بغداد ١٩٧٠ ؛ ٣٣ ص) .

(٢٨) « فهرست المخطوطات المصورة » : الجزء الثاني - القسم الثاني : لغواد سيد ، ص ١٢٤ : الفلم ٨٢٢ .
(٢٩) « التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٨ - ١٢٩ .

راجع بشانه ، ما كتبه :

د. قاسم السامرائي : « مجلة مجمع اللغة العربية » ٨ [دمشق ١٩٧٣] ص ١٢ - ٤٢٨ .

صحي البصام : « مجلة مجمع اللغة العربية » ٩ [دمشق ١٩٧٤] ص ١٦٩ - ١٨١ .

٩ - مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية : وهي هذه التي نشرها اليوم . ولم نجد بين المؤرخين الاقدمين من ذكرها .

١٠ - الملاحه في الفلاحه (٢٠) :

وهو من التصانيف الضائعة .

١١ - المنظومة الاسديّة (٣١) :

في اللغة العربية . نظم فيها رسالة « أسماء الأسد » للصفاني .

١٢ - النبراس المضيء (٣٢) :

في اللغة .

(٣٠) « العدر الكامنة » ٣ : ١١٩ ، « هدية العارفين » ١ : ٧١٥ .

(٣١) « طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢ ، « هدية العارفين » ١ : ٧١٥ ، « تاريخ الادب العربي في العراق » ١ : ٢٥ .

(٣٢) « طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢ ، « العدر الكامنة » ٣ : ١١٩ ، « هدية العارفين » ١ : ٧١٥ .
وفي « كشف القنون » ٢ : ١٩٢٣ : « نبراس المفتي » . وهو وهم . وفي « الاعلام » للزركلي ، ٥ : ١٥٥ : « في فقه الشافعية » .

مقامة

أنشأها الشيخ العالم العدل ،
 نهير الدين أبو الحسن علي بن محمد بن
 محسود بن الكازروني ، توفاه الله برحمته ،
 في قواعد بغداد في الدولة العباسية

بسم الله الرحمن الرحيم

عليه توكلت .

حدثنا قاضي تبريز ، وهو من ثقات المحدثين وسادات المحدثين ، قال : كنت
 لا أريم^(٣٣) عن بلدي المألوف ولو رغبت بالألوف . وكنت ضيقاً أن أفارق بلدة تربتها
 نيطت عليّ التمام . إلاّ اني كنتُ أسمع من جَوَابِ الأقطار وطِراقِ البلاد والأمصار ، انّ
 دار السلام هي كعبة الاسلام وحرم الإمام ومعدن الكرام ودار الخلافة ومحلّ الأمن من المخافة .
 وبها مقرّ الملك وسريه وإمام العصر وأميره ، خليفة^(٣٤) الله وابن عمّ نبيّه الأواه . تدعّن
 الملوك بالطاعة لسلطانها ، وتتداكك^(٣٥) على أبوابه لتقيل أركانها . والمدل بها ممدود الرواق ،
 والعلم مديد الاطّاب في الآفاق . والدين منشور اللواء ، والإسلام محروس الجناب بالخلفاء .
 وقطّانها أعذب الناس أخلاقاً [٣٦ أ] وأكثرهم حياءً واطرافاً ، وأثقب العالم بصيرة ، وأعدلهم
 سيرة ، وأصفاهم سريرة ، وأدمثهم للصديق ، وأحناهم على الصاحب والرفيق . وزاهدتهم العلم
 المشهور ، والقُدوة المشار إليه في الأمور . وعوامها السوقة تُغتنم مفاكهم وتروق
 مجالستهم . أخلاقهم عذبة للصاحب ، وخواطرهم من أعجب العجائب . يسبق ادراكهم البرق
 اللامع ، ويدهش ذكاؤهم الرائي والسامع . قد اعتدل هواؤها ، وطاب فناؤها ، وعذب ماؤها ،
 وورقت أسحارها ، وورفت^(٣٦) أشجارها . فهم في خفض من العيش يتقلبون . « لهم دارٌ
 السلام عند ربّهم ، وهو وليّهم بما كانوا يعْمَلُونَ »^(٣٧) .

(٣٣) المخطوط : لا اريم . والوجه ما في اعلاه .

(٣٤) المخطوط : وفيها خليفة .

(٣٥) المخطوط : وتباك . يقال : تداك عليه القوم بمعنى ازدحموا .

(٣٦) المخطوط : وزفت .

(٣٧) سورة الانعام . الآية ١٢٦ .

فخطر ببالي في بعض الليالي ، أن ألبس سربالي البالي وأفارق أشبالي ، وأجعل على الله
اتكالي ، في قطع فيافي البيداء ، ورفض الدعة للحث [٣٦ ب] الى الزوراء^(٣٨) . فرأيت في المنام
قائلاً أسمع نداءه ولا أتحدث مرآه ، ويملا سمعي صوته وإن كنت لا أراه ، يقول :
يا عبدالله « فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »^(٣٩) .

فنهض بي عزمي لإجابة الداعي ، وقعد اطفالي ينتحبون لوداعي ، وأنا أعدّ للرحلة
زادي ، وأملأ بالماء ، لبعد المسافة ، مزادي^(٤٠) . فلما اقتعدت راحتي وأفضيتها في قطع مسافتي ،
واقبتها بلدة خالية ، وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جائمة^(٤١) ، وقصوراً خاوية ، وغراسا باكية .
قد رحل عنها سكانها ، وبان عنها قطانها ، وتمزقوا في البلاد ، ونزلوا بكلّ واد . وقصورها
المشيقة مهدومة ، ونعماؤها مسلوية معدومة ، موحشة لفقد قطانها ، باكية بلسان الحال على
سكانها . عظام العظام بالية تسفي عليها الرياح السافية . « فهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ »^(٤٢) .
فوقفت أبكيها وأندب ربوعها ومن كان فيها .

[٣٧ أ] وأندب أطلالها تارة وأبكي على فرقة الطاعنين

فلو ذهبت مقلنة بالبكاء لفرط الغرام لكتنا عمينا

وهناك شخص قد بصر بحالي وهو يذري^(٤٣) دمه لسماع ارتجالي . فقلت له :
ما جلاؤك فقد أعجبني حالك . فقال : إليك عنّي واذهب لسبيك ودعني . فاني أتمتع بالبكاء
وأسح^(٤٤) الدمع على هذه الأصداء ، وأقيم ماتم الغزاء . فلو رأيت من هذه البلدة ما رأيت .
لأذريت معي الدمع ولأسمع بكاؤك الجمع . فقلت له : حدثني كآتي أشاهد ، وصف لي ما
كان بها من المشاهد . فقال : يتصدّع قلبك ويظير لسماع ذلك لبك . وإذا شئت فاتبني وحدّث
عن نفسك ولا تروعني . فأسرعت خلفه أقص أثره ، حتى وقف بي على عبرة ما^(٤٥) اعتبره .

(٣٨) من أسماء بغداد .

(٣٩) سورة آل عمران . الآية ١٥٨ .

(٤٠) الزاد : قرية الماء .

(٤١) المخطوط : جائلة .

(٤٢) سورة الحاقة . الآية ٧ .

(٤٣) أذرت العين دمعها : صبّخته .

(٤٤) سح الدمع : نزل بغزارة .

(٤٥) المخطوط : من .

فرايتُ حرم الخلافة مهانا ، بعد أن كان كعبة وأمانا . فطاف [٣٧ ب] بي ببعض قصوره^(٤٦) واعتذر عن الباقي لقصوره ، وقال : يكفيك ما الملحك وأريك . هذا رواق^(٤٧) عزيز ، الرفيع البناء ، وهو سرير ملك الخلفاء ، ومحلّ أنس السادة الأمراء ، ومهبط الخول^(٤٨) ، والحشم ، ومقرّ الحور والخدم ، يروح النظر منه في أنضرمقام ، وترتع العين منه في أبهى خليفة وإمام .

مقام عليه للنبوة هية وفيه من الركن العتيق ملامح
يودّ بسيط الجوّة لو اتّه له بساط وانّ الشهب فيه طرائح^(٤٩)

كانت تبرز منه الأوامر الشريفة انى الديوان بعلم الخليفة ، تارة بجيزيل الصلات ، وتارة بالمعروف وإقام الصلاة ، وتارة بالنهي عن المنكرات ، وتارة بالقصاص من أهل الجنايات ، وتارة الى الملوك بالتقدمات ، وتارة بالتخويف من التبعات . ترعد فرائض الملوك لورودها ، وينزل بها الرعب في صدورها ، فتقابلها بالامثال [٣٨ أ] وامضاء مراسمها في الحال بعد التبرك بها ، وامرارها على نواظرها . طوبى لمن كانت تصل إليه ، ويا حيرة منّ فاته تقيلها^(٥٠) ، وواها لمن^(٥١) كان يصل الى هنا المقام أو يتمناه أو يبلغ درجة المثل به ، أو يراه . فد تبدّل بعد الأنس بالكتابة ، حتى صار بهذه المثابة يستوقف بلسان حاله : ويستبكي على تغيّر أحواله . فسبحان منّ له الدوام والبقاء والعظمة والكبرياء . « قُلِ الْمُلُوكُ الْمُلُوكِ الْمُلُوكِ مُتَوَاتِرًا مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّهُ مَن تَشَاءُ وَتُذَلُّهُ مَن تَشَاءُ »^(٥٢) .

ثمّ قال : وهذا باب الحجّرة^(٥٣) الشريفة المشار إليه ، وعنده كانت تقف^(٥٤) دابة

(٤٦) راجع بشأن قصور دار الخلافة العباسية ببغداد ، ما كتبه : د. مصطفى جواد بعنوان « دار الخلافة العباسية : تعيين موضعها وأشهر مبانيها » : (« مجلة الجمع العلمي العراقي » ١٢ [بغداد ١٩٦٥] ص ٩٨ - ١١٥) .

(٤٧) من أروقة دار الخلافة ببغداد . كان قائمًا في أواخر أيام الدولة العباسية ، وبعد انقراضها . راجع : مقالة « عثور الجدود على النقود » لكوركيس عواد : (« مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق » ٢٠ [١٩٤٥] ص ١٥٤ - ١٥٦) . وانظر (« دليل خارطة بغداد » ص ٢١٦ - ٢١٩) .

(٤٨) الخول ، محرّكة : جمع خولي . العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية .

(٤٩) المخطوط : طلائع . والطرائح جمع طرحة ، وهي ها هنا بمعنى الطيّبان .

(٥٠) المخطوط : فضيلتها .

(٥١) المخطوط : وواها عليه من كان .

(٥٢) سورة آل عمران . الآية ٢٥ .

(٥٣) راجع (« معجم البلدان » ١ : ٤٤٤ ، طبعة وستنفلد . لبيك ١٨٦٦ م) .

(٥٤) المخطوط : يقف .

التوبة والموعول من الأبواب عليه ، لأنه باب أمّ الخليفة ، فلذلك فضلها . وعنده كان ينادي بالصلاة لكل فريضة افترضها . فلو سمعت ترجيع القراء به من الأذان واختلاف الأصوات [٣٨ ب] بضجيج الألحان ، لأنسيت مطربات القيان . ولو عاينت وقوفهم بهذا المكان يودون لو صافحوه بالأجفان ، لعلمت موضع هيبته ، ولظهر^(٥٥) لك حقيقة حرمة . ولكن أنت تشاهد الآن أصداء بالية وربوعاً خالية .

ثم استدبره وتعداه ومضى عنه وخلاه ، وأنا أتبع ظله أينما ذهب ، وأقمو^(٥٦) أثره لأنظر العجب .

فجنح الى بعض الأماكن ، وقال : وهذه دار الطبل ، ولكن أين الساكن ؟ كانت أهلة بالمبكمين^(٥٧) ، عامرة بالساعاتية لإدراك وقت التأذين . فاذا دخل وقت الصلاة ، ضربت التوبة في جميع الأوقات .

وهذه القصور التي تراها ، والنعمة الظاهر أثرها ، أين من بناها ؟ كانت الجهات^(٥٨) بها محمية الجانب الى أن حكم فيها الأجانب ، فاسترقوا كالإماء ، واستهينوا كالعبيد ، بعد الملك والثراء والنعيم والضوضاء والصيتة [٣٩ أ] والعلاء والمنزلة الرفيعة العليا .

ثم هرول قدّامي وأنا أقل خلفه أقدامي ، حتى خرج من الدار ، وقال قد وقفت على الآثار ،

(٥٥) المخطوط : وظهر .

(٥٦) المخطوط : واقفوا .

(٥٧) هم الذين إليهم النظر في البنكومات . والبنكومات آلات يقدر بها الزمان . وهي اصناف : رملية ، ومائية ، ودورية أي معمولة بدواليب يدير بعضها بعضاً . انظر : (« كشف الظنون » ١ : ٢٥٥ ؛ طبعة استانبول ١٩٤١) .

وراجع في هذا الشأن :

يوسف غنيمية : « صناعات العراق في عهد العباسيين : البنكومات والآلات المتحركة » : (« مجلة غرفة تجارة بغداد » ٤ [بغداد ١٩٤١] ج ٨ ؛ ص ٥٧٥) .

د. مصطفى جواد : « البنكومات والساعات المائية » : (مجلة « العلم والحياة » بغداد - آذار ١٩٦٩) ، و (جريدة « الثورة » بغداد ٢٢ - ١٢ - ١٩٦٩ ، ع ٤٠٤ ، ص ٦) .

ولشمس الدين محمد بن عيسى بن أحمد الصوفي ، رسالة تقع في مقدمة وخمسة ابواب وخاتمة ، عنوانها « الإعلام بشد البنكام » ألّفها سنة ٩٤٣ هـ = ١٥٢٦ م . ذكر فيها طريقة آلة الساعة من الرمل في القارورة . انظر : (« كشف الظنون » ١ : ١٢٧) . ومنها نسخة خطية في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب من جامعة بغداد .

(٥٨) الجهات واحدها الجهة . وهي كناية عن المرأة السيدة الجليلة القدر . انظر : (« صحح الاعشى » للقلقشندي ٥ : ٥٠٢) ، و (« الألقاب الإسلامية » لحسن الباشا ، ص ٢٤٨) .

فقلت : بالذي حكم بما نحن فيه ! اجعلني ممن تصطفيه ، فقد أنست بصحبتك نهاري ،
ورحضت^(٥٩) فكاهتك تعبي وأفكاري . فقال : سمأ لك وطاعة ، فقد وجب حقتك في هذه
الساعة . فمن صحّ قصده إلينا وجب حقّه علينا ، وسأنكفء بك الى داري ، وأسهمك
درهمي وديناري . فشكرت له عن صالح ما نواه ، وقطعت أمني عمّن سواه . فلنما صرت
معه الى داره ، ففُترت^(٦٠) بوجهي إليه لاستماع أخباره . قلت له : غرضي ، حيث ند فاتني العيان
أن أعرف ما كانت عليه بغداد^(٦١) ، فابسط لي بالحديث ولا تبق^(٦٢) من قديم ولا حديث .
فقال : أمّا الدولة الإمامية فمن ينتهي الي وصفها ؟ ، وكيف أبلغ الي حقيقة نعتها ؟ . كانت
دار الوزراء ينزلها الأمراء ، لأنّها باب الخليفة الظاهر ، وإليها التقديمات لشريف الأوامر .
والصدور تختلف إليها ، وتراجع الديوان فيما يعتاص عليها [٣٩ ب] ، وحاجب المجلس بصد
إنفاذ التقديمات وامضاء المراسم وابرام المهمات . والحجّاب على اختلاف طبقاتهم بين يديه ،
[والتقباء في أماكنهم إلاّ اتهم أهون عليه . فحجّاب المناطق^(٦٣) كالعرائس في صدور
المجالس ، أو الأقمار في الليل الدامس ، والقيام فيما لا يزالون ، والتقباء بمدّهم في الخدمة
يقفون]^(٦٤) . والمركوب يقف عند ستر الباب الثاني على أجمل هيئة وأحسن معاني . وبعده
الدار الوسطى . وبها دست^(٦٥) الوزارة في الإيوان . وكاتب السلّة [ونواب الديوان
وكتابه على صفة وتجاههم عارض الجيوش ومسومها^(٦٦) على صفة^(٦٧) . وبواب العرض
في ذلك المكان ، كلّ منهم يختصّ بقطر منها ، وله مقام لا يحول عنها . والوزير بمدّ الستر

(٥٩) رحضت : غسلت .

(٦٠) من صار بصور : بمعنى أمال يميل .

(٦١) بغداد لغة في بغداد . وفي (« معجم البلدان » ١ : ٦٧٨) : سبع لغات وردت في اسم بغداد .

(٦٢) المخطوط : تبقّي .

(٦٣) المناطق ، واحدها المنطقّة : ما يشدّ في الوسط . وعنها يعبر أهل زماننا بـ « الحياصة » .

(٦٤) ما بين المربّعين يعتوره غموض فيما نرى .

(٦٥) الدُست . جتمعها : الدُستوت : لفظة معرّبة بمعنى الديوان ، ومجلس الوزارة . أو
ما يهَيّا لجلوس الخليفة أو الأمير أو الوزير أو كبار الناس .

راجع : (« رسوم دار الخلافة » لهلال بن المحسن الصائغ . حقّته وعلّق عليه ونشره :

ميخائيل عوّاد . مطبعة العاني - بغداد ١٩٦٤ ؛ ص ١٣) ، (« شفاء الغليل » للخفاجي ،

ص ٩٧ ؛ طبعة الوهبة - مصر ١٢٨٢ هـ) .

(٦٦) التسويم : التعليم ، أي وَضَع العلامات .

(٦٧) ما بين المربّعين ورد في هامش الصفحة .

الثاني تحفته ولدائه المعوذون بالثاني . فمن ورد من الصدور وذوي المراتب جلس الى أن يأذن له الحاجب . وإن قدم رسول ، تآهبوا للخروج وجعلوا صدر المركب من يلقى بحاله للتسليم عليه جبراً^(٦٨) لمرسله وتشريفاً لمنفذه ومحملة ، فيدخل والدعاة بين يديه والجاوشية^(٦٩) تصيح بالطريق^(٧٠) ، والجاندارية^(٧١) الى جانبيه ، والماليك في طريقه صفوفاً وعلى الخدمة عكوفاً [٤٠ أ] ، فاذا وصل باب النوبي^(٧٢) ، عضدوه وفسحوا له فخطوه ، فصلّى به ركعتين ، وقبل مرة بعد مرتين ليحصل له بذلك كمال الدخول في طاعة الديوان والتشرف^(٧٣) بالمشول في ذلك المكان . ثم يحتمل الى دار خدمته وتدرّج عليه الإقامة^(٧٤) من ساعته كذلك ثلاثة أيام . ثم يستدعى للكلام . فاذا نجزت أشغاله وآن ارتحاله ، كتب له الجواب ، وشرف بأفخر الثياب .

وكانت البدرية أحد أبواب الخليفة^(٧٤) العلية ، يسكن بها الشرايبي أحد خدمه وصاحب^(٧٥) الحكم في داره وحرمه ، وخاصّ الخواص وسيد العالم والخاص وزعيم الجيوش والقواد ومالك الأمر في البلاد ، وإليه ترجع الممالك والخدم ، وعلى يده تفضّص الأموال والنعم . فمنها اثنان في

(٦٨) يقال جبره جبراً : سره وإبهجه .

(٦٩) الجاوش والجاوش والشاوش : لفظ تركي . جمعه جاوشية وجاوشية . وهم جنود وظيفتهم السر أمام السلطان في مواكبه للنداء وتنبيه المارة . راجع (« معجم الأدياء » ٧ : ١٩٩ ، طبعة مرجليوث) ، و (« السلوك » للمقريزي ، ١ : ٨٧٠ ، الحاشية ٢ ، تحقيق : د. محمد مصطفى زيادة) و (Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes. I, 169.) وما كتبه الأب أنتناس ماري الكرملّي ، في « لغة العرب » [بغداد ١٩٢٧] ص ٦١١-٦١٢) ، و (« الرتب والألقاب المصرية » لآحمد تيمور . القاهرة ١٩٥٠ ؛ ص ٥٥ - ٥٦) .

(٧٠) طرق له بتشديد الراء : جعل له طريقاً .

(٧١) الجاندارية : فئة من مماليك السلطان أو الأمير . واللفظة فارسية من : « جان » بمعنى سلاح ، و « دار » بمعنى ممسك . راجع : (« السلوك » للمقريزي ١ : ١٣٣) ، و (« دائرة المعارف الإسلامية » : الترجمة العربية ٦ : ٢٤٧ ؛ مادة « جاندار ») .

(٧٢) باب النوبي : من أبواب دار الخلافة العباسية ببغداد . كان يدعى بباب العتبة أيضاً ، فقد كانت فيه العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا ببغداد . انظر : (« دليل خارطة بغداد » ص ١٥٨) .

(٧٣) المخطوط : والتشريف .

(٧٤) الإقامة وجمعها : الإقامة : يراد بها أنواع المون .

(٧٤) لعلّ الأصل : أحد ابواب دار الخليفة ، أو دار الخلافة .

(٧٥) المخطوط : فصاحب .

ما رواه في الصحيحين من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال
الإنسان بطبعه يولد فريداً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر
طريق الرضا في معرفة الله في ذكره
المعنى المرضي

مقام
انشأها الشيخ العالم العبد
ظهير الدين أبو الحسن علي بن محمد بن
محمود بن الكازروني - تحفه الله -
في قواعد بغداد في التولية العجا

عنوان المقامة في المخطوط

واشتد انشاج ناسكك في الله انشوات ربيعت البعثات
 وعطف الاصوات فبقيت الرفات من علم العوطات
 فاندمج ابر الله ساريا الكليات ما نه دفع الدر حار وصور
 الذي جعل النبوة عسان ريعنوع السيمات ما
 رايدك اربا البعد العالج من لدر شمار على العالج در من
 الدنيا لدر استطلاع والطبع احسن الطبايع مخلص نعم
 ما ربيت والبشرى لك ما مؤيت فعاهدت من عيل
 الزهادة والتخلي لنوافذ العبان ودع ملك الاطبلد
 والله على ما تنزل وكيله ثم اكد من ربيته الميثاق
 وعنه على الاطلاق فزردته ما هخر من العيز وودعته
 وعينها العيز ملا ادرس وايبك ان سلكه رلا اعلم
 احسن هو ايم ملكك لــــ العاه
 ننتقمه خط مصنها ما كسر رالعالم
 وصلواته على سدا محمد واله الطير الطاهر وسكاته

كلّ عام يجلس للخاصّ العام ، ويفض من المبار ما يجاوز حدّ الإكثار ، فيشمل بعبأه الداني والقاصي ، ويعمّ بناأله المطيع والعاصي ،

شعر :

يكدأ يحكيه صوب الغيث منهمرا لو كان طلق المحيا يطر الذهبا

[٤٠ ب] فيسأمر على ذلك أياماً ، يعطي فيها أموالاً جساماً ، نيابة عن مولاه ، إذ هو أجلّ من أن يتولاه ، إلاّ أنه يشاهد فضّ الأموال من وراء الحجاب ، ويسمع ابتهان المخلصين بالدعاء الحجاب ، فإذا اقتضت أيام العطاء ، انتصب لتدبير ملك الزوراء مشيراً بالمصالح ، ومنبهاً على الخير اللائح . وله مركوب يوقف^(٧٦) بها إلى الليل^(٧٧) ، ثمّ يحمل إلى مقام الحيل ، تحفّه غلمان كالعقبان ، وتزفقه في مركب من العقيان . وكانت الصدور كالأهأة لا [بل]^(٧٨) كالبذور . فصاحب ديوان الزمام^(٧٩) هو صدر صدور الإسلام وخالصة

(٧٦) المخطوط : يقف .

(٧٧) كذا ورد في النصّ . والظاهر أنّ المقصود أنّ له محفة يطوف بها على المصالح .

(٧٨) زيادة اقتضاها المقام .

(٧٩) عُرف أيضاً بـ « الديوان » و « ديوان العزيز » و « ديوان زمام الأزمة » . لم يكن موجوداً في عهد بني أمية . انشئ في سنة ١٦٢ هـ . والمراد به : الديوان الأعلى المشرف على دواوين الدولة . قال الطبري (في حوادث سنة ١٦٢ هـ) : « وفيها وضع المهدي دواوين الأزمة ، وولّى عليها عمر بن يزيد موله ، فولّى عمر بن يزيد ، النعمان بن عثمان أبا حازم زمام خراج العراق » .

وذكر الطبري أيضاً (حوادث سنة ١٦٨ هـ) : « وفيها ولّى المهدي ، عليّ بن يقطين ديوان زمام الأزمة على عمر بن يزيد . وذكر أحمد بن موسى بن حمزة ، عن أبيه ، قال : أوّل من عمل ديوان الزمام عمر بن يزيد في خلافة المهدي ؛ وذلك أنّه لما جمعت له الدواوين ، تفكّر ، فإذا هو لا يضيأها إلاّ بزمام يكون له على كلّ ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمة ، وولّى كلّ ديوان رجلاً ، فكان إليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صبيح ، ولم يكن لبني أمية دواوين أزمة » .

وراجع بشأن هذا الديوان : (« الوزراء والكُتّاب » للجهمياري ، ص ١٦٧ - ١٦٨ ، تحقيق : مصطفى السقا وزملائه . القاهرة ١٩٣٨) ، (« تحفة الأمرأ في تاريخ الوزراء » لهلال الصابئ ، ص ١٢٤ ، ١٨٢ ؛ طبعة آمدروز . بيروت ١٩٠٤) ، (« تكملة تاريخ الطبري » لأحمد ابن عبد الملك الهمداني ، ص ٢٠٥ ، الطبعة الثانية - بيروت ١٩٦١ ؛ بتحقيق : البرت يوسف كنعان) ، (« الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير » لابن الساعي ، ٩ : ١٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٨٠ ، بتحقيق : مصطفى جواد . بغداد ١٩٣٤) .

وانظر أيضاً : (« الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية » : لأحمد ضياء الدين الرئيس ،

ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ؛ القاهرة ١٩٦١) .

الإمام وسيّد أصحاب الأقطام . وصاحب البلاد . والمؤتمن على الطارف والتلاد . الحاكم في السهل والجبل ، المطاع الأمر ان قال أو فعل ، لا يدرك شأوه أصحاب المراتب . ولا ينال درجته أرباب المناصب ، لقربه من الخليفة ، ومثوله عندالسدة الشريفة ، في حالتَي السفر وانحضر ، إن غاب شخصه عنه أو حضر . يتخصّص بذلك عنهم ، فإن جحدوه فضله ، فاته تنزل لركوبه أرض الزوراء ، وترعد لهيته فرائص الكبراء ، وتشر خلفه [٤١ أ] أعلام المشاد ، وتضرب له الطبول في سائر البلاد ، وفي خدمته النظاروالصغار والكبار ، والأتراك والأمراء والسادة والعظماء . حتّى انّ الخليفة جلس يوماً عند عوده من البلاد : والسادة ولده الأجواد ، لينزههم في موكبهِ ويشاهد ركوبه في منصبه . وكفى بذلك شرفاً ، فأها على المثلث كيف قد عفا .

وأستاذ^(٨٠) الدار بصدد مصالحتها ، وله منصب شريف بها ، يتولّى أمور الأمراء ، وديوان الأبنية ، وأبواب الخلفاء ، وخزائن السلاح وأمرنوا بها ، ورجال الأبواب وما يتعلّق بها ، وخزاة الفرش للاستعمال ، وإليه في الكلّ المرجع والمآل .

وقاضي القضاة لمصالح المسلمين وتشييدقواعد الدين ، واثبات الحقوق الشرعية والعمل بالشرعية المحمدية ، يسجّل بشهادة المعدّين^(٨١)، ويعقد الأنتحة بين المسلمين . يكتب له تقليد عند ترّبه ، وتقوّض إليه الأمور ليعني مناسارالشرع بزمّه [٤١ ب] وعزّمته . ومال الأيتام إليه ومعملهم في حفظ أموالهم عليه .

وصاحب المخزن أحد الصدور المنصوص عليه ، وصاحب الرأي المشار اليه ، يتولّى أعمال المخزن ونواحيه ، وتدير كثير من مصالح الديوان ويليه . فطوبى لمن أهّلت لقامه . وشرف بما فوّض إليه في اهتمامه .

والنقيان ، فأحدهما ينظر في مصالح الطالبين الأكارم ، والآخر يلي أمر الأسرة^(٨٢) من بني هاشم . وكلّ منهما عالي الدرجة والمكان ، عظيم القدر جليل الشأن .

وحاجب الباب هو صاحب سيف الإمام ، المتفرّد بالسياسة في العوام بالعدل في الأحكام .

(٨٠) ويقال فيها استدار واستادار وأستاذالدار . وهي مركبة من لفظين فارسيين : أستاذ أو استذ بمعنى « الأخذ » ، ودار بمعنى « الملك » . وهو لقب من يتولّى قبض مال الخليفة أو السلطان أو الأمير ، وصرّفه . وتمثّل فيه أوامره .

(٨١) هم الذين ثبتت لهم العدالة في الديوان الشرعي .

(٨٢) يقصد الأسرة العباسية .

فَمَنْ سرق قطعه ، وَمَنْ انتهك المحرمات ردهه ، وَمَنْ قتل قتله ، واقتَصصَ للمظلوم ممن ظلمه •
وبين يديه النواب والأعيان ، والحجَاب يتقلدون ذلك أجمع ويقتصسون في ملا ومجمع •

وعارض الجيوش بصدد مصالحهم والعرض في الديوان لتخير صالحهم ، واعتبار^(٨٢) الأسلحة
والدواب [٤٢ أ] واصطفاء الأكماء والشباب •

إلا أن سبحانه وتعالى ، لما أرسل عذابه سنب كلالاً منهم عقله وصوابه • فنفذ سهم القضاء ،
واتشرت جناح الحِمام في الفضاء . فلم تنفع الجِنَّة ولا السلاح ولا البواتر ولا الرماح •
فوقع الفشل وعم الكسل وساء العمل وكثر الزلل ، وبَطَل التدبير وحر الوزير : فنزل بهم
العدو حين اختلوا ، و « ما غزري قوم » في عقر دارهم إلا ذكوا^(٨٤) •

ولقد كانت الملوك كالأسود الضواري ، أو كالعقبان على ظهور المهاري • والمالِك كالبذور
والبُرْزاة والصقور • والمثلث على سوقه قائم ، ورواق الملكة رفيع الدعائم • والأيام أعياد
وأفراح ، والليالي أعراس ومراح ، ورياض الزمان متفتحة الثوار : وساعات الأيام مشرقة الأنوار •
وشخص العطاء مهزوز الأعطاف ، وسحاب الإنعام غدقة النِطاف • وبروق الآمال مطرة الأنواء ،
وأقطار المواهب عبقة الأرجاء • وأفنان الأفراح خضرة الأغصان ، وأطياف [٤٣ ب] المسارح خاطبة
على منابر الأفنان^(٨٥) • ففي كل وقت تُضرب طبول الهناء على أبواب الأمراء ، وتخفق بوقات
السراء مؤذنة بدوام النعماء • فلا وحقتك لا والله . ما نظرت عيني الى أحسن^(٨٦) منها
بلدةً أبداً • وكيف يستل بها أو يقاس ، أو يشبهه بالقدم : الرأس •

وقد كانت تمضي لأهلها الأوقات والأيام والساعات كاملة المسار والذات ، ولهم فيها من
كل الثمرات • والمواسم تجلى في حلي النضارة ، وتلذذ أيامها للنظارة •

فمنها موسم الحاج ، وهو أعظم مواسم السنة التي تكل عن وصف حسنه لألسنة ، وتفتح
فيه آذر المضيف لكل بائس من الحاج وضعيف • وتضرب على دجلة الحياض والروايا •
ويؤذن بالحج في سائر الرعايا • ثم يهرع الناس الى الترجة على التبريز في حثل الإبريز ، ما بين
اعتبر الشيء : اختبره •

(٨٤) من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في « نهج البلاغة » (١ : ٦٤ ، من طبعة محمد محيي

الدين عبد الحميد - في القاهرة) •

(٨٥) في أعلى هذه الكلمة : جمع فتن •

(٨٦) المخطوط : بأحسن •

فتى وفتاه ، وشاب قد فُتِن بحسنه فناه . يرتعون في رياض الجانب الغربي ، ما بين ماشرٍ أو ممتطرٍ صهوة عربي . فلا يزالون كذلك أياماً يمرحون وحادناً [٤٣ ؛ أ] وفتاناً^(٨٧) . والسبل تُجلى في المواكب الى الخيام ، وتزف الى منازلها بالعميد والخدام . فأول ما يقدّمها العلكم ، وهو محمّل الخاص . وبعده الكؤوس^(٨٨) ، وجند السفر ، والنوبة المكيّة في الأثر ، تتهادى بين الحجاب والدعاة ، والقرّاء في أحسن الصفات . ثم يتوالى في كلّ يوم سبيل بعد سبيل ، ورَحْل كل جهة^(٨٩) محلّ جميل ، حتى ينتهي خروج الحاجّ المجتمعين في الفجاج ، فيخْلَع على الأمير ويككّلل ، ويثنّم عليه ثمّ يُحمّل ، فيخرج من ساعته ويدخل الحاجّ في طاعته .

فاذا رجعوا سالمين ، فهو موسم ثانٍ للمتفرجين ، يُقَصّ فيه من التشريفات^(٩٠) على الحاشية والولاة ، ما يدهش الناظر ويجلو النواظر . وما منهم إلا من قد بَخْبَخَ^(٩١) بسلامة أهله ، مرجحين « بما آتاهمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ »^(٩٢) .

(٨٧) الفنام : الجماعة من الناس .

(٨٨) الكؤوس : بضمّ اوله ، جمعه الكؤوسات . وقد ورد ذكره في كثير من المراجع العربية القديمة . ويؤخذ ممّا جاء فيها أنّ له مدلولتين :

الأول : الطبل الذي يُثخَد في أيام الحروب لتنبه الناس ، وقد يُثخَد لغير أوقات الحرب ، كتنبيه الناس الى بدء الصيام أو نحو ذلك . انظر : (« مقدّمة ابن خلدون » طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٥٦ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦) ، (« تاج العروس » [القاهرة ١٣٠٦ هـ] ص ٢٢٦) .

الثاني : الصنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدقّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص . راجع : (« صبح الأعشى » [٩ : ٩]) .

وقد عقد هلال بن المحسن الصابئ ، فصلاً بعنوان « ضرب الطبل في أوقات الصلوات » : راجع كتابه (« رسوم دار الخلافة » ص ١٣٦ - ١٣٧) ، وما ذكر من مراجع في حواشيهما .

(٨٩) الجهة : كتابة عن المرأة السيّدة الجليسة القدر . وقد سبقت الإشارة إليها في الحاشية (٥٨) .

(٩٠) التشريفات جَمَع « التشرّيف » . وقد وردت في (« صبح الأعشى » [٤ : ٥٢] بصورة « التشاريف » ويُراد بها : الخلع والهدايا التي يشرّف بها بعض الناس . وراجع الفصل الموسوم بـ « خَلِيع التقليد والولاية والتشرّيف والمنادمة » في كتاب (« رسوم دار الخلافة » ص ٩٣ - ٩٩) .

والفصل الذي يليه ، بعنوان « ما يُخَدّم به الخليفة عند التقليد والتشرّيف بالتكنية واللقب » (ص ١٠٠ - ١٠٣) .

(٩١) بخیخ الرجل قال له : بخر بخر . وهي تغال تلمدح وإظهار الرضى بالشيء .

(٩٢) سورة آل عمران . الآية ١٦٩ و ١٧٩ ، سورة النساء . الآية ٣٦ و ٥٣ .

ومنها شهر الصيام ، المختص بالعبادة والقيام ، المفتوح بالصدقات ، المنوّر الليالي بالصلوات . ففي أول يوم منه يُفَضُّ على العلماء والمتصوفة [٤٣ ب] والنبلاء مِنْ بَدَرِ الإِنْعَامِ وَبَدَنِ الأَنْعَامِ ما يجاوز حدَّ الإِكْثَارِ . ويُغْنِي وقت الإفطار . ثم تَفْتَحُ آدُرُ المضيف للعوام والفقراء والأيتام ، فلا يبقى من لا (٩٣) يشملُه الإِنْعَامُ ، ويحصل له القوت في الصيام . وما من الملوك إلا مَنْ عليه راتب ، وكذلك الصدور وأصحاب المراتب ، يُفْطِرُ على أطباقهم الأمانيل ، وأطياب الألوان تصل الى الفقير والسائل . ولياليه مشرقة بالمصاييح ، والمساجد منيرة بالصلوات والترابيح . والعوام ملتهم بالملاد والغناء والفرح الى منتهى وقت العشاء . ثم تُرْفَعُ قناديل التسخير ، وتتناغى شحارير التذكير . وأيامه كلها عبادة ، وأوقاته طاعة وزيادة . فاذا بقي من الشهر أربع ليال ، وعاد جديده كالأسمال ، خلع المخزن تشريفات الخليفة على صدور الدولة الشريفة ، ثم بعده الملوك وأرباب المراتب والسادة ولده الأَطْيَابِ ، حتى يصل الإِنْعَامُ الى الخاص والعام . فقلَّ مَنْ لا ينال منها نصيباً ، وفي البعيد مَنْ لا يكون منها قريباً .

ثم يَهَيِّئُ الناس للعيد المشهود والمجمع المحشود الذي تكليهُ عن حسن رصفه السِنَّةُ البلغاء ، وتعجز عن ادراك وصفه عقول الألباء ، فلا ينتهي الى نعته [٤٤ أ] قول قائل ، ولا يصل الى مثله الأواخر ولا الأوائل ، ولا رَمِي لأحد من الملوك ما يناسبه ، ولا حُكِي انْ لَهم مثله أو ما يقاربه . فيباكر إليه في أحسن زينة ولباس ، ويجتمع لرؤية الموكب أكثر الناس . ثم يجلس الخليفة في داره ويعرض الموكب بأهله وصغاره . والملوك في أحسن زينة وأبهى حلية ، وأعظم سكينة . فلا يزال الموكب والمسائر تجري كالسيل في جمع كنجوم الليل ، كذلك ثلاثة أيام حتى ينقضي منقضاه ، ويصل آخره ومنتهاه ، وقد تكاملت للعالم المسائر في آناء الليل والنهار .

فإن كان الأضحى نحر الخليفة في أبوابه ، وكذلك أهل بلده ، رغبةً في ثوابه . فيمتار الفقراء ، ويؤجر الأغنياء .

ومنها موسم التَرَبُّبِ (٩٤) ، وإنيها المنقلب . فيركب الوزير في أرباب الدولة والأمراء والصدور والكبراء ، في موكب مُشَهَّرٍ الى الرصافة ، وهي مدفن ولادة الخلافة . فيجتمعون بها للقراءة والدعاء

(٩٣) في المخطوط : فلا يبقى الا من يشملُه . والوجه ما في اعلاه .

(٩٤) القبور .

وإهداء الثواب للخلفاء ، كذلك أياما يُشْرَقُ [فيها] (٩٥) ويُغْرَبُ (٩٦) ، وقرءاء المواكب
تُشَوِّقُ وتُطْرِبُ . فاذا كان الليل اجتمع المتصوّفة والفقهاء . وأوقدت الشموع ، وقرأ
القرءاء ، وشرع الوعَاطُ في الكلام [٤٤ ب] والاحياء الى آخر الظلام . فاذا أسفر الصباح
وبادر المؤدّن بالفلاح ، فضَّ على المذكورين من الحلواء وأطاب الطعام والغذاء ما يسفرق حدَّ
الإكثار ، ويممّ ذوي الاقتار . على انّ الأيام كلّها كانت تضي أفرأحاً ومواسم يرتاح إليهما
الناس ارتياحاً . ففي كلّ سبت (٩٧) عيد جديد وموسم سعيد ، يخرج الناس الى الرياض
والأزاهير لسماع أصوات الشحارير ، والفلمان كالولدان (٩٨) ، والجواري كالبحور الحسان ، ما بين
أهيف وأحور وأكل وأغيد وأعطر (٩٩) .

في البدر من وجته نكتة وفرة في العين من طرفه
إذا مشى جاذبه ردفه كأنه يشي الى خلفه

وظلّة تكامل شبابها ، وطاب عرفها ، وعذب رضاها ، ترمي عن قسيّ الحواجب بسهام الفتح
الصوائب .

شعر :

وتنال منك بحدّ مقلتها ما لا تنال بحدّها النصل
وإذا نظرت الى محاسنها فلكلّ موضع نظرة نبل

والناس في أرغد عيش ، وأطيب زمان ، وأعدل وقت ، وأصفى أوان .

وأما زمان الربيع وأيام الوشي البديع ، فاتهم كانوا [٤٥ أ] يصطحبون ويتجمعون
وينثالون « كأنهم إلى نصبٍ يُوفضون » (١٠٠) . فينزلون الجواري في رهط من

(٩٥) زيادة اقتضاها المقام .

(٩٦) اي يحضر وقت الشروق والغروب .

(٩٧) راجع : ١ - حبيب زينات : (« أيام السبوت في دمشق في عهد العباسيين » : مجلّة

« المشرق » ٣٦ [بيروت ١٩٣٨] ص ٤١ - ٤٦) .

٢ - ميخائيل عواد : (« العطلة الأسبوعية في الدولة العباسية » : « مجلّة المجمع

العلمي العربي » ١٨ [دمشق ١٩٤٣] ص ٥٨) .

(٩٨) يقصد انولدان المخلدين .

(٩٩) كذا . ولعلها : واقمر ، ما لونه لون القمر .

(١٠٠) سورة المعارج . الآية ٤٢ .

الجواري ، ويدخلون نهر^(١١١) عيسى : ويأكرون نحو قصده تفلحيا^(١١٢) . فيجتمعون بالمحوّل^(١١٣) ، إذ عليه في الحسن المَعْوَل . فيخترفون^(١١٤) أشجاره ، ويقطفون ثماره ونوآره . ويفترشون رياضه وأزهاره ، وينزلون غيطانه وأنهاره . ثمّ تمزق القيان ، وتصطبغ العيدان : وتصفق الغدران . وترقص الأغصان ، وتميد الأفتان . وكلّما دسع^(١١٥) : الراووق^(١١٦) طلب المشوق ، وكلّما بكى السحاب ضحك الحَبَاب^(١١٧) . وكلّما طرب العود زمجرت الرعود ، وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة . كذلك أياماً لا يطعمون مناماً . إلاّ اتهمّ اتتهكوا المحارم وارتكبوا المآثم : وأصرّوا على الفجور وسفك الخمر . ولا جرم إنّ العرش اهتزّ غضباً ، وسعيرت جهنم حبساً^(١١٨) ، وازدادت لهباً ، فأخذهم الله تعالى إليه « آخِذْ عَزِيمَةً مَّقْتَدِرٍ »^(١١٩) ، « وَلَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ »^(١٢٠) . فأين المثلث الباذخ [٤٥ ب] والشرف الشامخ . ذهب والله الشهوات ، وبقيت التبعات . وخشعت الأصوات ، وسقيت الرفات من أعظم العظات . فالمرجع الى الله تعالى في الملمات . فاتته « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ »^(١٢١) ، وهو الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ »^(١٢٢) .

- (١.١) نهر كان يروي منطقة بغداد الغربية . عُرف في العصر العباسي بهذا الإسم نسبة الى عيسى بن عليّ عمّ المنصور .
- (١.٢) غَلَسَ : قام عند الفلّس ، وهي ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .
- (١.٣) المخطوط : بمحول . والمحوّل على ما ذكر باقوت (« معجم البلدان » : ٤ : ٤٣٢) ، طبعه وستنفلد) : « بليدة حسنة طيبة نزهة كثيرة البساتين والفواكه والأسواق والمياه . بينها وبين بغداد فرسخ . وأثارها عند التلؤلؤ المعروفة اليوم باسم « المضيّق » ، على الطريق بين بغداد وأبي غريب على بُعد زهاء ستة كيلومترات من جسر الخرّ . انظر : (« دليل خارطة بغداد » ص ٤٧) .
- (١.٤) اخترق الثمر : جناه .
- (١.٥) دسع الإناء : ملاه .
- (١.٦) الراووق : انكاس ، أو الإناء يروق فيه الشراب .
- (١.٧) الحَبَاب : الفقاقيع التي تملو الماء والخمر .
- (١.٨) الحصب : ما هبّئ للوقود من الحطب .
- (١.٩) سورة القمر . الآية ٤١ .
- (١١.٠) سورة القمر . الآية ١٤ .
- (١١١) سورة غافر . الآية ١٤ .
- (١١٢) سورة الشورى . الآية ٢٤ .

فما رأيك أيها العبد الصالح ، في الإشتغال على المصالح ، ورفض الدنيا والإبتغاء ، والتطبع بأحسن الطباع . فقلتُ : نعم ما رأيتَ والبُشرى لك في ما نويتَ . فعاهدني على الزهادة والتخلي لنوافل العبادة . ودع عنك الأباطيل « واللَّهُ على ما نَقُولُ وَكِيلٌ » (١١٣) .
ثمّ أكد بيني وبينه الميثاق وعزم على الإنطلاق فزودتهُ بما حضر من العَيْنِ (١١٤) ، وودعتهُ وعيني كالعَيْنِ (١١٥) ، فلا أدري ، وأبيك ، أين سلك ، ولا أعلم أحيّ هو أم هلك .

تمت المقامة مُتَسَخِّةً من خطّ مصنتّها . والحمد لله ربّ العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطيّبين الطاهرين وسلامتهُ .

(١١٣) سورة القصص . الآية ٢٧ .

(١١٤) العَيْنُ : النقد المضروب من المعدن ، نحاسا كان أم فضة أم ذهباً .

(١١٥) العَيْنُ : ينبوع الماء .

بَعْدًا فِي الْكُتُبِ الْبُلْدَانِيَةِ الْعَرَبِيَّةِ

اعداد

عَدَانُ مُحَمَّدُ الطَّعْمَةُ

قرنطشة - اسبانيا

كانت فكرة صائبة وخطوة جليذة والتفاسة جميلة تلك التي دعت لها مجلة المورد باصدار عدد خاص عن (بغداد مدينة السلام) .

في البحث الذي أعدده وهو بغداد في الكتب البلدانية العربية ، توخيت فيه جمع ما كتبه الجغرافيون العرب عن مدينة دار السلام ، وكانت هذه الكتب قد تناولت بغداد ضووغرافيتها، مساحتها وسكانها ، محالها وبيوتها حالها العمرانية ، الجداول والسواقي والبساتين والرياض ، الجوامع والاسواق وأبوابها المشهورة، كلاً حسب منهجه في الكتاب ، وأرتأتيت أن أنقل النصوص كما هي دون تعليق مني على المادة ، واستصواب رأي . بل تركت النصوص كما هي مشيراً الى الطبعة التي أخذت منها النص . فليست وظيفتي في الجمع البلداني أن أدقق في النصوص وأحققها ، بل هي من عمل محققي تلك الكتب ، ولا يجوز لي التجاوز على عملهم ، وان يكن ثمة جهد لي ، فهو نقل النصوص فقط وترتيب المصادر حسب وفيات مؤلفيها كما استثنيت كتاب الهمداني عن بغداد ذلك لأنه كتاب مستقل وقد أخرجته وزارة الثقافة والاعلام من سنتين . كذلك تركت ما يتعلق ببغداد في الكتب التاريخية من مواد جغرافية ، وكذلك كتب الموسوعات الأدبية ، مثل صبح الأعشى .

وأقول بتواضع إن العملَ نيس لي ألبتة ، إنمّا لأولئك العظماء من سلفنا الجغرافي ، كما اني لا أريد الإشارة الى ميزة كل كتاب عن بغداد فذلك ما يدعو القارئ أن يصرف نظره عن الاستفادة وعدم استمتاعه بقراءة النصوص ، فتركها له دون ما اشارة كي يلتبس متمته ويجد ضالته ويعفيني من الخطأ ويعذرني من السهو ، ومن الله التوفيق .

اليقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح
الكاتب ت/ ٢٨٤هـ (١)

- «بغداد» -

وباعتدال الهواء ، وطيب الثرى ، وعذوبة الماء
حسنت اخلاق اهلها ، ونضرت وجوههم ، وانفتحت
اذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم والفهم والادب
والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب
والحذق بكل مناظره ، واحكام كل مهنة ، واتقان
كل صناعة ، فليس عالم اعلم من عالمهم ، ولا اروي
من روايتهم ، ولا اجدل من متكلمهم ، ولا اعرب من
نحويهم ، ولا اصحح من فارتهم ، ولا امهر من
متطبيهم ، ولا احذق من مغنيهم ، ولا اللطف من
صانعمهم ، ولا اكتب من كاتبهم ، ولا ابين من
منطيقهم . ولا اعيد من عابدهم ، ولا اروع من
زاهدهم ، ولا افقه من حاكمهم ، ولا اخطب من
خطيبهم ، ولا اشعر من شاعرهم ، ولا افتك من
ماجنهم ، ولم تكن بغداد مدينة في الايام المتقدمة ،
اعني ايام الاكاسرة والاعاجم ، وانما كانت قرية من
قرى طسوج بادوريا ، وذلك ان مدينة الاكاسرة
التي خاروها من مدن العراق المداين وهي من بغداد
على سبعة فراسخ وبها ايوان كسرى انو شروان
ولم يكن ببغداد الا دير على موضع مصب الصراة
الى دجلة الذي يقال له قرن الصراة وهو الدير
الذي يسمى الدير العتيق قائم بحاله الى هذا
الوقت ، نزله الحائليق رئيس النصارى
التسطورية . ولم تكن ايضا بغداد في ايام العرب
لما جاء الاسلام لان العرب اختطت البصرة والكوفة ،
فاختط الكوفة سعد بن ابي وقاص الزهري في
سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب ،
واختط البصرة عتبة بن غزوان المازني - مازن
قيس - في سنة سبع عشرة وهو يومئذ عامل عمر
ابن الخطاب ، واختطت العرب في هاتين المدينتين
خططها الا ان القوم جميعا قد انتقل وجوههم
وجلتهم ومياسر تجارهم الى بغداد . ولم ينزل
بنو امية العراق لانهم كانوا نزولا بالشام وكان
معاوية بن ابي سفيان عامل الشام لعمر بن الخطاب
ثم لعثمان بن عفان عشرين سنة ، وكان ينزل مدينة
دمشق واهله معه ، فلما غلب على الامر وصار
اليه السلطان جعل منزله وداره دمشق التي بها
كان سلطانه وانصاره وشيعته ثم نزل بها ملسوك
بني امية بعد معاوية لانهم بها نشأوا لا يعرفون
غيرها ولا يعيل اليهم الا اهلها . فلما افضت
الخلافة الى بني عم رسول الله (ص) من ولد العباس
ابن عبدالمطلب عرفوا بحسن تمييزهم وصحة
عقولهم وكمال آرائهم في فضل العراق وجلالتهما
وسعتهما ووسطها للدنيا ، وانها ليست كالشام
الوبئة الهواء ، الضيقة المنازل ، الحزنة الارض ،
المتصلة الطواعين ، الجافية الاهل ولا كمصر المتغيرة

وانما ابتدأت بالعراق لانها وسط الدنيا
وسرة الارض ، وذكرت بغداد لانها وسط العراق
والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق
الارض ومغارها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه
وصحة وهواء ولانه سكنها من اصناف الناس
واهل الامصار والكور ، انتقل إليها من جميع
البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع اهل الآفاق
على اوطانهم ، فليس من اهل البلد الا ولهم فيها
محلّة ومتجر ومتصرف ، فاجتمع بها ما ليس في
مدينة في الدنيا ثم يجري في حافتها النهران
الاعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات والمير
برا وبحرا بايسر السعي حتى تكامل بها كل متجر
يحمل من المشرق والمغرب من ارض الاسلام وغير
ارض الاسلام فانه يحمل إليها من الهند والسند
والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحيشة
وسائر البلدان حتى يكون بها من تجارات البلدان
اكثر ممّا في تلك البلدان التي خرجت التجارات
منها ويكون مع ذلك اوجد وامكن ، حتى كانت
سبقت إليها خيرات الارض . وجمعت فيها ذخائر
الدنيا ، وتكاملت بها بركات العالم ، وهي مع هذا
مدينة بني هاشم ودار ملكهم ومحل سلطانهم ، لم
يبند بها احد قبلهم ولم يسكنها ملوك سواهم ،
ولان سلفي كانوا القائمين بها ، واحدهم تولى
امرها ، ولها الاسم المشهور والذكر الدائع ، ثم
هي وسط الدنيا ، لانها على ما اجمع عليه قول
الحساب وتضمنته كتب الاوائل من الحكماء في
الاقليم الرابع ، وهو الاقليم الاوسط الذي يعتدل
فيه الهواء في جميع الازمان والفصول ، فيكون
الحر بها شديدا في ايام القيط ، والبرد شديدا في
ايام الشتاء ، ويعتدل الفصائل الخريف والربيع
في اوقاتها ، ويكون دخول الخريف الى الشتاء
غير متباين الهواء ، ودخول الربيع الى الصيف غير
متباين الهواء ، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء
الى هواء ، ومن زمان الى زمان ، فلذلك اعتدل
الهواء ، وطاب النوى . وعذب الماء ، وزكت
الاشجار ، وطابت الثمار ، واخصبت الزروع ،
وكثرت الخيرات ، وقرب مستنبت معينها ،

(*) كتاب البلدان ، منشورات الطبعة الحيدرية - النجف
١٣٧٧هـ/١٩٥٧م ، ص ٢ - ٢١ .

لي واغفل عنها كل من تقدمني ، والله لابنيها ثم
اسكنها ايام حياتي ويسكنها ولدي من بعد ، ثم
لتكونن امير مدينة في الارض ، ثم لابنين بعدها
اربع مدن لا تخرب واحدة منهن ابدا فبناها ، وهي
الرافقة ولم يسماها ، وبنى ملطية المصيصة ، وبنى
المنصورة بالسند ، ثم وجه في احضار المهندسين
واهل المعرفة بالبناء والعلم بالدرع والمساحة
وتسمة الارضين حتى اختط مدينته المروقة
بمدينة ابي جعفر واحضر البنائين والفعلة والصناع
من التجارين والحدادين والحفارين ، فلما اجتمعوا
وتكاملوا اجري عليهم الارزاق واقام لهم الاجرة
وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا
من البناء فحضره مائة الف من اصناف المهن
والصناعات ، خبر بهذا جماعة من المتساخ ان ابا
جعفر المنصور لم يبتد البناء حتى تكامل له من
الفعلة واهل المهن مائة الف ، ثم اختطها في شهر
ربيع الاول سنة احدى واربعين ومائة ، وجعلها
مدورة . ولا تعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة
مدورة غيرها . ووضع اساس المدينة في وقت
اختاره نوبخت النجم ، وما شاء الله بن سارية ،
وقبل وضع الاساس ما ضرب اللبن انعظام . وكان
في اللنة التامة المربعة ذراع في ذراع وزنها مائتا
رطل واللينة المنصفة طولها ذراع وعرضها نصف
ذراع ووزنها مائة رطل وحفرت الآبار للماء وعملت
القناة التي تأخذ من نهر كرخايا ، وهو النهر الآخذ
من الفرات فانقنت القناة واجريت الى داخل
المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين وجعل
للمدينة اربعة ابواب ، بابا سماه باب الكوفة ، وبابا
سماه باب البصرة ، وبابا سماه باب خراسان ،
وبابا سماه باب الشام ، وبين كل باب منها الى
الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء من خارج
الخنندق ، وعلى كل باب منها بابا حديد عظيمان
جليلان ، ولا يفلق الباب الواحد منها ولا يفتحه
الا جماعة رجال ، يدخل الفارس بالعلم والرامح
بالرمح الطويل من غير ان يعيل المسلم ولا يثني
الرمح ، وجعل سورها باللبن العظام التي لم ير
مثلا قط على ما وصفنا من مقدارها والطين ،
وجعل اساس السور تسعين ذراعا بالسوداء ثم
ينحط حتى يصير في اعلاه على خمس وعشرين
ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرفات ، وحول
السور فصيل جليل عظيم ، بين حائط السور
وحائط الفصيل مائة ذراع بالسوداء ، وللفصيل
ابرجة عظام وعليه الشرفات المدورة ، وخارج
الفصيل كما يدور مستناة بالأجر والصاروج متقنة
محكمة عالية والخنندق بعد المسناة قد اجري فيه

انواء ، الكثيرة الوباء ، التي هي بين بحر رطب
عفن كثير البخارات الرديئة التي تولد الادواء
وتفسد الغذاء ، وبين الجبل اليابس الصلد الذي
ليس به وملوحته وفساده لا يثبت فيه خضر ولا
ينفجر منه عين ماء . ولا كافر يقية البعيدة عن جزيرة
الاسلام وعن بيت الله الحرام ، الجافية الاهل ،
الكثيرة العدو . ولا كارمينية ، النائية الباردة ،
الصدرة الحزنة التي يحيط بها الاعداء . ولا مثل
كور الجبل ، الحزنة الخشنة المثلجة : دار الاكراد
ولا كارض خراسان . الطاعنة في مشرق
الشمس ، التي يحيط بها من جميع اطرافها
عدو كلب ، ومحارب حرب . ولا كالحجاز ، النكدة
المعاش ، الضيقة الكسب ، التي قوت اهلها من
غيرها . وقد انبأنا الله عز وجل في كتابه عن ابراهيم
خليله عليه السلام فقال : « رب اني اسكنت من
ذريتي بواد غير ذي زرع » . ولا كالنبت ، التي
بفساد هوائها وغذائها تغيرت الوان اهلها ، وصفرت
ابدانهم ، وتجمدت شعورهم فلما علموا انها افضل
البلدان نزلوا مختارين لها ، فنزل ابو العباس امير
المؤمنين وهو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله
ابن العباس بن عبدالمطلب الكوفي اول مرة ثم
انتقل الى الانبار فبنى مدينة على شاطئ الفرات
وسماها الهاشمية ، وتوفي ابو العباس (رض)
قبل ان يستتم المدينة فلما ولي ابو جعفر المنصور
الخليفة وهو ايضا عبدالله بن محمد بن علي بن
عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بنى مدينة بين
الكوفة والحيرة سماها الهاشمية ، واقام بها مدة ،
الى ان عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لغزو
الصقالبة في سنة اربعين ومائة ، فصار الى بغداد ،
فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ قيل له
بغداد . قال : والله المدينة التي اعلمني ابي محمد
ابن علي اني ابنها وانزلها وينزلها ولدي من بعدي ،
ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والاسلام حتى
ينم تدبير الله لي وحكمه في ، وتصح الروايات ،
وتبين الدلائل والعلامات ، والا فجزيرة بين دجلة
والفرات ، دجلة شرقها ، والفرات غربها ، مشرعة
للدنيا ، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة
والابلة والاهواز ، وفارس وعمان واليمامة
والبحرين وما يتصل بذلك ، فاليها ترقى ، وبها
ترسى . وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة
واذربيجان وارمينية مما يحمل في السفن في
دجلة . وما يأتي من ديار مصر والرقعة والشام
والشعر ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في
الفرات ، فيها يحط وينزل ومدرجة اهل الجبل
اصبهان وكور خراسان ، فالحمد لله الذي ذخرها

وسكة النعمية وسكة سليمان وسكة الربيع
 وسكة مهلهل وسكة شيخ بن عميرة وسكة
 المروردية وسكة واضح وسكة السقائين وسكة
 ابن بريمة بن عيسى بن المنصور وسكة ابي احمد
 والدرب الضيق . ومن باب الكوفة الى باب الشام
 سكة العكي وسكة ابي قره وسكة عبدويه وسكة
 السميدع وسكة العلاء وسكة نافع وسكة اسلم
 وسكة منارة . ومن باب الشام الى باب خراسان
 سكة المؤذنين وسكة دارم وسكة اسرايل وسكة
 تعرف في هذا الوقت بالقواريري قد ذهب عنى اسم
 صاحبها وسكة الحكم بن يوسف وسكة سماعة
 وسكة صاعد مولى ابي جعفر وسكة تعرف اليوم
 بالزيادي وقد ذهب عنى اسم صاحبها وسكة غزوان
 هذه السكك بين الطاقات ، والطاقات داخل المدينة
 وداخل السور ، وفي كل سكة من هذه السكك جلة
 القواد الموثوق بهم في النزول معه وجلة مواليه ومن
 يحتاج اليه في الامر المهم وعلى كل سكة من طرفها
 الابواب الوثيقة ، ولا تتصل سكة منها بسور الرحبة
 التي فيها دار الخلافة لان حوالي سور الرحبة كما
 تدور الطريق وكان الذين هندسوها عبدالله بن
 محرز والحجاج بن يوسف وعمران بن الواضح
 وشهاب بن كثير بحضرة نوبخت و ابراهيم بن محمد
 الفزاري والطبري المنجمين اصحاب الحساب .
 وقسم الارياض اربعة ارباع وقلد للقيام بكل ربع
 رجلا من المهندسين واعطى اصحاب كل ربع مبلغ
 ما يصير لصاحب كل قطعة من الذرع ومبلغ ذرع
 ما تعمل الاسواق في ربض ربض ، فقلد الربع من باب
 الكوفة الى باب البصرة وباب الحول والكرخ وماتصل
 بذلك كله المسيب بن زهير والربيع مولاة وعمران بن
 الواضح المهندس . والربع من باب الكوفة الى باب
 الشام وشارع طريق الانتار الى حد ربض حرب بن
 عبدالله بن سليمان بن مجالد وواضح مولاة وعبدالله
 ابن محرز المهندس . والربع من باب الشام الى
 ربض حرب وما اتصل بربض حرب وشارع باب
 الشام وما اتصل بذلك الى الجسر على منتهى
 دجلة حرب بن عبدالله وغزوان مولاة والحجاج ابن
 يوسف المهندس ، ومن خراسان الى الجسر الذي
 على دجلة ماداً في الشارع على دجلة الى البقيين
 وباب قطريل هشام بن عمرو التغلبي وعمارة بن
 حمزة وشهاب بن كثير المهندس . ووقع الى كل
 اصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولمن معه
 من اصحابه وما قدره للحوانيت والاسواق في كل
 ربض ، وامرهم ان يوسعوا في الحوانيت ليكون
 في كل ربض سوق جامعة تجمع التجارات ، وان
 يجعلوا في كل ربض من السكك والدروب النافذة

الماء من القناة التي تاخذ من نهر كرخايا وخلف
 الخندق الشوارع العطاء ، وجعل لابواب المدينة
 اربعة دهاليز عظاما آزاجا كلها ، حول كل دهليز
 ثمانون ذراعا كلها معقودة بالأجر والجص فاذا دخل
 من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبة مفروشة
 بالصخر ثم دهليزا على السور الاعظم عليه بابا
 حديد جليان عظيمان ، لا يفلق كل باب ولا يفتح
 الا جماعة رجال ، والابواب الاربعة كلها على ذلك ،
 فاذا دخل من دهليز السور الاعظم سار في رحبة
 الى طاقات معقودة بالأجر والجص فيها كواء رومية
 يدخل منها الشمس والضوء ولا يدخل منها المطر
 وفيها منازل الغلمان ، ولكل باب من الابواب
 الاربعة طاقات وعلى كل باب من ابواب المدينة التي
 على السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها
 مجالس ومرتفات يجلس فيها فيشرط على كل
 ما يعمل به ، يصعد الى هذه القباب على عقود
 مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام
 قد عملت آزاجاً بعضها اعلى من بعض فداخل
 الآزاج للرابطة والحرس ، وظهورها عليها المصعد
 الى القباب التي على الابواب على الدواب ، وعلى
 المصعد ابواب تفلق فاذا خرج الخارج من الطاقات
 خرج الى رحبة ثم الى دهليز عظيم أزج معقود
 بالأجر والجص عليه بابا حديد يخرج من الباب
 الى الرحبة العظمى وكذلك الطاقات الاربعة على
 مثال واحد ، وفي وسط الرحبة القصر الذي سمي
 بابه باب الذهب ، والى جنب القصر المسجد
 الجامع ، وليس حول القصر بناء ولا دار ولا
 مسكن لاحد إلا دار من ناحية الشام للحرس
 وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالأجر
 والجص يجلس في احدهما صاحب الشرطة وفي
 الاخرى صاحب الحرس ، وهي اليوم يصلي فيها
 الناس وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد
 المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده
 وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل
 وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجنيد
 وديوان الحوائج وديوان الاحشام ومطبخ العامة
 وديوان النفقات ، وبين الطاقات انى الطاقات
 السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وبسكان
 كل سكة ، فمن باب البصرة الى باب الكوفة سكة
 الشرطة وسكة الهيثم وسكة المطبق وفيها الحبس
 الاعظم الذي يسمى المطبق وثيق البناء محكم
 السور ، وسكة النساء وسكة سرجس وسكة
 الحسين وسكة عطية مجاشع وسكة العباس
 وسكة غزوان وسكة ابن حنيفة وسكة الضيقة .
 ومن باب البصرة الى باب خراسان سكة الحرس

وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل ، وان يسموا كل درب باسم القائد انازل فيه او الرجل النبيه الذي ينزله او اهل البلد الذين يسكنونه ، وحدهم ان يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعا بالسوداء ، والدروب ستة عشر ذراعا ، وان يبتنوا في جميع الارياض والاسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفي بها من في كل ناحية ومحلة وامرهم جميعا ان يجعلوا من قطائع القواد والجند ذراعاً معلوماً للتجار يبنونه وينزلونه والسوقة الناس واهل البلدان وكان اول من اقطع خارج المدينة من اهل بيته عبدالوهاب بن ابراهيم بن محمد بن علي بن العباس بأزاء باب الكوفة على الصراة السفلى التي تأخذ من الفرات ، فربضه يعرف بسويقه عبدالوهاب وقصره هناك قد خرب . وبلغني ان السويقة ايضا قد خربت . واقطع العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب الجزيرة التي بين الصراتين فجعلها العباس بستانا ومزروعا وهي العباسية المذكورة المشهورة التي لا تنقطع غلاتها في صيف ولا شتاء ولا في وقت من الاوقات . واستقطع العباس لنفسه لما جعل الجزيرة بستانا في الجانب الشرقي وفي آخر العباسية تجتمع الصراتان والرحا العظمى التي يقال لها رحا البطريق . وكانت مائة حجر تغل في كل سنة مائة الف درهم ، هندسها بطريق قدم عليه من ملك الروم فنسبت اليه . واقطع الشروبة وهم موالي محمد ابن علي بن عبدالله بن العباس دون سويقة عبدالوهاب مما يلي باب الكوفة وكانوا بوابية رئيسهم حسن الشروي . واقطع المهاجر بن عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب الكوفة فهناك ديوان الصدقات وبازائه قطعة ياسين صاحب النجائب وخان النجائب ، ودون خان النجائب اصطلح الموالي ، واقطع المسيب ابن زهير انضي صاحب الشرطة بئمة باب الكوفة للداخل الي المدينة مما يلي باب البصرة ، فهناك دار المسيب ومسجد المسيب ذو المنارة الطويلة واقطع ازهر بن زهير اخا المسيب في ظهر قطيعه المسيب مما يلي القبله وهو على الصراة ، وهناك دار ازهر وبستان ازهر الي هذه الغاية . ويتصل بقطيعة المسيب واهل بيته قطعة ابي العنبر مولى المنصور مما يلي القبله ، وعلى الصراة قطيعة الصحابة وكانوا من سائر قبائل العرب من قريش والانصار وربيعة ويمن ، وهناك دار عياش المتوفى وغيره ، ثم قطيعة يقطين بن موسى احد رجال الدولة واصحاب الدعوة ثم تعبر الصراة اعظمى التي اجتمعت فيها الصراتان

الصراة العليا ، والصراة السفلى ، وعليها القنطرة المعقودة بالجص والاجر المحكمة الوثيقة التي يقال لها القنطرة العتيقة ، لانها اول شيء بناه وتقدم في احكامه ، فتمرج من القنطرة ذات اليمين الى القبله الى قطيعة اسحاق بن عيسى بن علي وقصوره ودوره شارعة على الصراة العظمى من الجانب الشرقي والطريق الاعظم بين الدور والصراة ومن قطيعة عيسى بن علي الى قطيعة ابي السري الشامي مولى المنصور ثم الطاق المعقود عليه الباب المعروف باب المحول فتصير منه الى ربض حميد بن قحطبة الطائي وربض حميد شارع على الصراة العليا ، وهناك دار حميد واصحابه وجماعة من آل قحطبة بن شبيب ، ثم يتصل ذلك بقطيعة الفراشين ، وتعرف بدار الروميين وتشرع على نهر كرخايا ثم تعود الى الشارع الاعظم وهو شارع باب المحول ، وفيه سوق عظيمة فيها اصناف التجارات ، ثم يتصل ذلك بالحوض العتيق ، وهناك منازل الفرس اصحاب الشاه ، ثم يستمر المسير الى الموضع المعروف بالكناسة ، فهناك مرابط دواب العامة ، ومواضع نخاسي الدواب ثم القبرة القديمة المعروفة بالكناسة مادة الى نهر عيسى بن علي الذي يأخذ من الفرات والدباغين ، وبأزاء قطيعة الروميين على نهر كرخايا الذي عليه القنطرة المعروفة بالروميين دار كميوبة البستانان الذي غرس النخل ببغداد ، ثم بساتين متصلة غرسها كميوبة البصري الى الموضع المعروف ببرانا ، ثم رجعنا الى القنطرة العتيقة ، فقبل ان تعبر القنطرة مشرقا الى ربض ابي انورد كوثر بن اليمان خازن بيت المال وسوق فيها سائر البياعات تعرف بسويقة ابي الورد الى باب الكرخ وفي ظهر قطيعة ابي الورد كوثر بن اليمان قطيعة حبيب بن رغبان الحمصي وهناك مسجد ابن رغبان ومسجد الانباريين كتاب ديوان الخراج ، وقبل ان تعبر الى القنطرة العتيقة وانه مقل من باب الكوفة في الشارع الاعظم قطيعة سليم مولى امير المؤمنين صاحب ديوان الخراج وقطيعة ابوب بن عيسى الشروي ثم قطيعة رباوة الكرمانى واصحابه وتنتهي الى باب المدينة المعروف باب البصرة وهو مشرف على الصراة ودجلة وبازائه القنطرة الجديدة لانها آخر ما بني من القناطر وعليها سوق كبير فيها سائر التجارات مادة متصلة ، ثم ربض وضاح صاحب خزانة السلاح ، المعروف بقصر وضاح واكثر من فيه في هذا الوقت والاسواق هناك واكثر من فيه في هذا الوقت الوراقون اصحاب الكتب فان به اكثر من مائة حانوت للوراقين ، ثم الى قطيعة عمرو بن سمرعان الحرائي وهناك طاق الحرائي ثم الشرقية وانما

له طاهر بن الحارث ، ثم ربيع الخليل بن هاشم البارودي ثم ربيع الخطاب بن نافع الصحاوي ، ثم قطعة هاشم بن معروف وهي في درب الأقفاس ، ثم قطيعه الحسن بن جعفرات وهي في درب الأقفاس أيضا متصل بدرب القصارين . ومن شارع طريق الإنبار القطائع ، قطيعه واضح مولى أمير المؤمنين وولده . ودرب أيوب بن الغيرة الفزاري بالكوفة ، والدرب يعرف بدرب الكوفيين ، ثم قطيعه سلامة بن سمعان البخاري وأصحابه ، ومسجد البخارية والمنارة الخضراء فيه ثم قطيعه الجلاج المتطبب ، ثم قطيعه عوف ابن نزار اليمامي ودرب اليمامية النافذ الى دار سليمان بن مجالد وقطيعه الفضل بن جمونة الرازي ، وهي انتي صارت لداود بن سليمان الكاتب كاتب أم جعفر المعروف بداد النبطي ، ثم السب ودار هيرة بن عمرو ، وعلى السب قطعة صالح البلدي في درب صباح النافذ الى سوقة عبدالوهاب ، وقطيعه قابوس بن السميدع ، وبازائه قطعة خالد بن الوليد التي صارت لأبي صالح يحيى بن عبدالرحمن الكاتب صاحب ديوان الخراج في أيام الرشيد ، تعرف بدور أبي صالح ، ثم قطعة شعبة بن يزيد الكابلي ، ثم ربيع القس مولى المنصور ، وبستان القس المعروف به ، ثم ربيع الهيثم بن معاوية بشار سوق (شهارسو) الهيثم ، وهناك سوق كبيرة متصلة ومنازل ودروب وسكك كله ينسب الى شار سوق (شهارسو) الهيثم ، ثم قطعة المرورودية آل أبي خالد الأنباري ، ثم أبي يزيد الشووي مولى محمد بن علي وأصحابه ، ثم قطعة موسى بن كعب التميمي وقد ولي شرطة المنصور ، ثم قطعة بشر بن ميمون ومنازله ، ثم قطعة سعيد بن دعلج التميمي ، ثم قطعة الشخير وزكريا بن الشخير ، ثم ربيع أبي أيوب سليمان ابن أيوب المعروف بابي أيوب الخوزي المورياني (وموريان قرية من كورة من كور الأهواز يقال لها مناذر) . ثم قطعة رداد بن زاذان المعروفة بالردادية ، ثم المددار ، ثم حد ربيع حرب . ودونه اترلية : وهذا الربع الذي تولاه سليمان ابن مجالد وواضح مولى أمير المؤمنين والمهندس عمران بن الواضح . والربع من باب الشام فاول ذلك قطعة الفضل بن سليمان الطوسي ، والي جنبه السجن المعروف بسجن باب الشام والأسواق المعروفة بسوق الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال أهلة عامرة الشوارع

سميت الشرقية لانها قدرت مدينة للمهدي قبل ان يعزم على ان يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي من دجلة فسميت الشرقية وبها المسجد الكبير ، وكان يجتمع فيه يوم الجمعة وفيه منبر وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ثم اخرج المنبر منه ، وتخرج من الشرقية مارا الى قطعة جعفر بن المنصور على شط دجلة ، وبها دار عيسى بن جعفر وتغرب منها دار جعفر بن جعفر المنصور ، ثم تخرج من هذه الطرق الاربعة التي ذكرنا الى شارع باب الكرخ فاولها عند باب الخناسين ، ثم الاسواق مادة في جانبي الشارع وتخرج من باب الكرخ متيامنا الى قطعة الربيع مولى أمير المؤمنين التي فيها تجار خراسان من البرازين واصناف ما يحصل من خراسان من الثياب لا يختلط بها شيء وهناك النهر الذي يأخذ من كرخايا عليه منازل التجار يقال له نهر الدجاج لانه كان يباع عليه الدجاج في ذلك الوقت وفي ظهر قطعة الربيع منازل التجار واخلاق الناس من كل بلد يعرف كل درب بأهله وكل سكة بمن ينزلها . والكرخ السوق العظيم مادة من قصر وضاح الى سوق الثلاثاء طولا بمقدار فرسخين ومن قطعة الربيع الى دجلة عرضا مقدار فرسخ فلكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراض ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه ، ولا يختلط اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم وكل سوق مفردة وكل اهل منفردون بتجاراتهم ، وكل اهل مهنة معتمدون عن غير طبقتهم وبين هذه الارياض التي ذكرنا والقطائع التي وصفنا منازل الناس من العرب والجنود والدهاقين والتجار وغير ذلك من اخلاق الناس ينتسب اليهم الدروب والسكك . فهذا ربع من ارباع بغداد وهو الربع الكبير الذي تولاه المسيب بن زهير ، والربيع مولى أمير المؤمنين ، وعمران بن الواضح المهندس ، وليس ببغداد ربع اكبر ولا اجل منه . ومن باب الكوفة الى باب الشام ربيع سليمان بن مجالد لانه كان يتولى هذا الربع فنسب اليه وفيه قطعة واضح ثم قطعة عامر بن اسماعيل المسلي ، ثم ربيع الحسن بن حطبة ومنازله ومنازل اهله شارع في الدرب المعروف بالحسن ثم ربيع الخوارزمية اصحاب الحارث بن رقاد الخوارزمية وقطيعه الحارث في الدرب ثم قطيعه ... مولى أمير المؤمنين صاحب الركاب وهي الدار التي صارت لاسحاق بن عيسى بن الهاشمي ، ثم اشتراها كاتب لمحمد بن عبدالله بن طاهر ، يقال

جعفر ناحية باب قطربل تعرف بقطيعة ام جعفر ،
ومما على القبلة قطيعة مرار العجلي وقطيعة
عبدالجبّار بن عبدالرحمن الازدي وقد كان يلي
الشرطة ثم عزله وولاه خراسان فعصى هناك
فوجه اليه المهدي في الجيوش فحاربه حتى ظفر
به فحمله الى ابي جعفر فضرب عنقه وصلبه .
وفي هذه الارباض والقطائع ما لم نذكره لان كافة
الناس بنوا القطائع وغير القطائع وتوارثوا .
واحصيت الدروب والسكك فكانت ستة الاف
درب وسكة . واحصيت المساجد فكانت ثلاثين
الف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك . واحصيت
الحمامات فكانت عشرة الاف حمام سوى ما زاد
بعد ذلك . وجر القناة التي تأخذ من نهر كرخا
الآخذ من الفرات في عقود وثيقة من اسفلها محكمة
بالصاروج والأجر من اعلاها معقودة عقداً وثيقاً
تجري صيفاً وشتاءاً قد هندست هندسة لا ينقطع
نهارها ماء في وقت ، وقناة اخرى من دجلة على هذا
المثال وسماها دجيل . وجر لاهل الكرخ وما
اتصل به نهراً يقال له نهر الدجاج ، وانما سمي
نهر الدجاج لان اصحاب الدجاج كانوا يتقنون
عنده ، ونهراً يسمى نهر طابق بن الصمية ولهم
نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات
تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة
ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر
تصير الى فرضة عليها الاسواق وحوانيت التجار
لا تنقطع في وقت من الاوقات فالماء لا ينقطع ، ولهم
الآبار التي يدخلها الماء من هذه القنوات فهي عذبة
شرب القوم جميعاً منها ، وانما احتيج الى هذه
القنوات لكبر البلد وسعته والا فهم بين دجلة
والفرات من جميع النواحي تدفق عليهم المياه حتى
غرسوا النخل الذي حمل من البصرة فصارت
بغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد
وغرسوا الاشجار واتمرت الثمر العجيب وكثرت
البياتين والاجنة في ارباض بغداد من كل ناحية
لكثرة المياه وطيبها ، وعمل فيها كل ما يعمل في
بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا
اليها من كل بلد واتواها من كل افق ونزعوا اليها
من الاداني والاقاصي ، فهذا الجانب الغربي من
بغداد وهو جانب المدينة وجانب الكرخ وجانب
الارباض ، وفي كل طرف منه مقبرة وقري متصلة
وعمارات مائة . والجانب الشرقي من بغداد نزله
المهدي بن المنصور وهو ولي عهد ابيه وابتداء بناءه
في سنة ثلاث واربعين ومائة فاخذت المهدي قصره
بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي في

والدروب والعراص . وتمتد في شارع عظيم فيه
الدروب الطوال ، كل درب ينسب الى اهل بلد
من البلدان ينزلونه في جنبتيه جميعاً الى رضى
حرب بن عبدالله البلخي ، وليس ببغداد رضى
اوسع ولا اكبر ولا اكثر دروباً واسواقاً في الحال
منه . واهله اهل بلخ واهل مرو واهل الختل
واهل بخارى واهل اسبشباب واهل اشتاننج
واهل كابل شاه واهل خوارزم ولكل اهل بلد قائد
ورئيس . وقطيعة الحكم بن يوسف البلخي صاحب
الحراب وقد كان ولي الشرطة . ومن باب الشام
في الشارع الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة
سوق ذات اليمين وذات الشمال . ثم رضى
يعرف بدار الرقيق كان فيه رقيق ابي جعفر
الذين يباعون من الاناق وكانوا مضمومين الى
الربيع مولاه ، ثم رضى الكرمانيه والقائد بوزان
ابن خالد الكرماني ، ثم قطيعة الصغد ودار خرفاش
الصفدي ، ثم قطيعة ماهان الصامغاني واصحابه ،
ثم قطيعة مرزبان ابي اسد بن مرزبان الفارابي
واصحابه واصحاب العمدة ثم تنتهي الى الجسر .
فهذا الربع الذي تولاه حرب بن عبدالله مولى امير
المؤمنين والمهندس الحاج بن يوسف . والربع
من باب خراسان الى الجسر على دجلة وما بعد
ذلك بازائها الخلد وكان فيه الاصطبلات وموضع
العرض وقصر يشرع على دجلة لم يزل ابو جعفر
ينزله وكان فيه المهدي قبل ان ينتقل الى قصره
بالرصافة الذي بالجانب الشرقي من دجلة . فاذا
جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة
ودار صناعة للجسر ، فاذا جاوزت ذلك فأول
القطائع قطيعة سليمان بن ابي جعفر في الشارع
الاعظم على دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان .
والى جنب قطيعة سليمان في الشارع الاعظم
قطيعة صالح بن امير المؤمنين المنصور وهو صالح
المسكين مادة الى دار نجيب مولى المنصور التي
صارت لعبدالله بن طاهر . وآخر قطيعة صالح
قطيعة عبدالملك بن يزيد الجرجاني المعروف بابي
عون واصحابه الجرجانية ، ثم قطيعة تميم
الباذغيسي متصلة بقطيعة ابي عون ، ثم قطيعة
عباد الفرغاني واصحابه الفرغانة ، ثم قطيعة
عيسى ابن نجيب المعروف بابن روضة وغلتمان
الحجامة ، ثم قطيعة الافارقة ، ثم قطيعة تمام
الدبلي مما يلي قنطرة التبانين ، وقطيعة حنبل
ابن مالك ، ثم قطيعة البغين اصحاب حفص بن
عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحاق بن
ابراهيم ، ثم السوق على دجلة في الفرضة ، ثم
قطيعة لجعفر ابن امير المؤمنين المنصور صارت لام

بالمخرم ، ثم قطعة معاذ بن مسلم الرازي جسد اسحاق بن يحيى بن معاذ ، ثم قطعة الغمر بن العباس الخثعمي صاحب الجر ، ثم قطعة سلام مولى المهدي بالمخرم وكان يلي المظالم ، ثم قطعة عقبة بن سلم الهنائي ، ثم قطعة سعيد الحرشي في مربعة الحرشي ، ثم قطعة مبارك التركي ، ثم قطعة سوار مولى امير المؤمنين ورجة سوار ، ثم قطعة نازي مولى امير المؤمنين صاحب الدواب واصطبل نازي ، ثم قطعة محمد بن الاشعث الخزاعي ، ثم قطعة عبدالكبير بن عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب اخي عمر بن الخطاب ، ثم قطعة ابي غسان مولى امير المؤمنين المهدي وبين انقطاع منازل الجند وسائر الناس من التناء ومن التجار ومن سائر الناس في كل محلة وعند كل ربض . وسوق هذا الجانب العظيم التي تجتمع فيها اصناف التجارات والبياعات والصناعات على راس الجسر مارا من راس الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من اصناف التجارات والصناعات . وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي خمسة اقسام ، فطريق مستقيم الى الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع ، وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضسر وهي معدن طرائف الصين وتخرج منها الى الميدان ودار الفضل بن الربيع ، وطريق ذات اليسار الى باب بردان ، وهناك منازل خالد بن برمك وولده ، وطريق الجسر من دار خزيمية الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد ، والى الموضع المعروف بالدور الى باب بغداد المعروف بالشماسية ، ومنه يخرج من اراد الى سر من رأى ، وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتى من الجانب الغربي يأخذ على دجلة الى باب القير والمخرم وما اتصل بذلك ، وكان هذا اوسع الجانبين لكثرة الاسواق والتجارات في الجانب الغربي كما وصفنا فنزله المهدي وهو ولي عهد وفي خلافته ، ونزله موسى الهادي ، ونزله هارون الرشيد ، ونزله المأمون ، ونزله المعتصم ، وفيه اربعة آلاف درب وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوى ما زاده الناس ، وخمسة آلاف حمام سوى ما زاده الناس بعد ذلك ، وبلغ اجرة الاسواق ببغداد في الجانبين جميعا مع رحا البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثني عشر الف درهم ونزل ببغداد سبعة خلفاء : المنصور ، والمهدي ، وموسى الهادي ، وهارون الرشيد ، ومحمد الامين وعبدالله المأمون ، والمعتصم . فلم يمت بها منهم واحد

الرصافة وحفر نهرا يأخذ من النهروان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي . واقطع المنصور اخوته وقواده بعدما اقطع من الجانب الغربي وهو جانب مدينته وقسمت القطائع في هذا الجانب وهو يعرف بعسكر المهدي كما قسمت في جانب المدينة ، وتنافس الناس في النزول على المهدي لمحبته له ولا تساعه عليهم بالاموال والعطايا ولانه كان اوسع الجانبين ارضا لان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الاسواق والتجارات ، فلما ابتدء البناء في الجانب الشرقي امتنع من اراد سعة البناء فاول القطائع على راس الجسر لخزيمية ابن خازم التميمي وكان على شرطة المهدي ، ثم قطعة اسماعيل بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالطلب ، ثم قطعة العباس بن محمد بن علي ابن عبدالله بن العباس بن عبدالطلب لانه جعل قطيعته في الجانب الغربي بستانا ، ثم قطعة السري بن عبدالله بن الحارث بن العباس بن عبدالطلب ، ثم قطعة قثم بن العباس بن عبدالله ابن العباس بن عبدالطلب عامل ابي جعفر على اليمامة ، ثم قطعة الربيع مولى امير المؤمنين لانه جعل قطيعته بناحية الكرخ اسواقا ومستغلات فانقطع مع المهدي وهو قصر الفضل بن الربيع والميدان ، ثم قطعة جبريل بن يحيى البجلي ، ثم قطعة اسد بن عبدالله الخزاعي ، ثم قطعة مالك بن الهيثم الخزاعي ، ثم قطعة سلم بن قتيبة الباهلي ، ثم قطعة سفيان بن معاوية المهلب ، ثم قطعة روح بن حاتم ، ثم قطعة ابان بن صدقة الكاتب ، ثم قطعة حمويه الخادم مولى المهدي ، ثم قطعة سلمة الوصيف صاحب خزانة سلاح المهدي ، ثم قطعة بدر الوصيف مع سوق العطش وهي السوق العظيم الواسعة ، ثم قطعة العلاء الخادم مولى المهدي ، ثم قطعة يزيد بن منصور الحميري ، ثم قطعة زياد بن منصور الحارثي ، ثم قطعة ابي عبيد معاوية بن برمك البلخي على قنطرة بردان ، ثم قطعة عمارة بن حمزة بن ميمون ، ثم قطعة ثابت بن موسى الكاتب على خراج الكوفة وما سقي الفرات ، ثم قطعة عبدالله ابن زياد بن ابي ليلى الخثعمي الكاتب على ديوان الحجاز والموصل والجزيرة وارمينية واذربيجان ، ثم قطعة عبيدالله بن محمد بن صفوان القاضي ، ثم قطعة يعقوب بن داود السلمي الكاتب الذي كتب للمهدي في خلافته ثم قطعة منصور مولى المهدي وهو الموضع الذي يعرف باب القير ، ثم قطعة ابي هريرة محمد بن فروخ القائد بالموضع المعروف

الإمام الأمين بن هارون الرشيد فإنه قتل خارج باب الإنبار عند بستان طاهر . وهذه القطائع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في أيام المنصور ووقت ابتدائها وقد تغيرت ومات المتقدمون من أصحابها وملكها قوم بعد قوم وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والقواد وأهل النباهة من سائر الناس مع المتصم إلى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ثم اتصل بهم المقام في أيام الواثق والمتوكل ، ولم تخرب بغداد ولا تعصت أسواقها ، لأنهم لم يجدوا منها عوضا ولأنه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسر من رأى في البر والبحر اعني في دجلة وفي جانبي دجلة .

- ٢ -

عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة (١)

معرفة انهار مدينة السلام - في الجانب الشرقي

فإنما انهار مدينة السلام الجارية فيها ومنها شرب من يقرب إليها فأول ما نبداً به من ذلك الأنهار التي في الجانب الشرقي وهو عسكر أمير المؤمنين المهدي من ذلك نهر يقال له نهر موسى أوله من النهريين في ظهر قصر المعتضد المعروف بالثرثيا ، وأول النهريين من النهروان فوق الجسر بشيء يسير يمر جارياً ويتفرع منه أنهار كثيرة تسقى سواد بغداد ويمر في شرقي الثريا وعليه قسرى وضياح ويسقى بعض طسوج كلواذي ويصب في دجلة أسفل من مدينة السلام بأقل من فرسخين . ويحمل منه أيضاً النهر المعروف بنهر موسى وأوله في الموضع الذي تقدم ذكره يمر فيدخل قصر الثريا ويدور فيه ويخرج منه ثم يصير إلى موضع يقال له مقسم الماء ، فينقسم هناك ثلاثة أقسام فيمر الأول منها إلى باب سوق الدواب ويجتاز بباب عمارة ويحمل منه هناك نهر يمر إلى دار البانوجة ويقضي هناك ويمر نهر موسى فيدخل من باب سوق الدواب ويمر إلى باب مقبر الكبير فيحمل منه هناك نهر يمر إلى دار ابن الخصب في الشارع المعروف بسعد الوصيف ويخرج إلى العلافين فيصب في النهر الذي حفره المعتضد للبحيرة ويمر في الشارع المعروف خلف الحوانيت إلى العلافين بباب المخرم

ويمر في قنطرة العباس التي في باب المخرم ويمر في الشارع إلى المخرم ويقضي هناك . ويمر نهر موسى إلى قنطرة الأنصار فتحمل منه هناك ثلاثة أنهار يصب أحدها في حوض الأنصار والثاني في حوض هيلانة والثالث في حوض داود ، ويمر نهر موسى إلى شارع درب الطويل وقصر المتصم بالله فيحمل منه هناك نهر يمر إلى سوق العطش ماداً في وسط شارع كرم العرش ويصب في دار الوزير علي بن محمد بن الفرات ويقضي هناك ويمر نهر موسى ملاصقاً لقصر المتصم إلى أن يخرج إلى الشارع الأعظم ثم يخرج إلى شارع عمرو الرومي ثم يدخل إلى بستان الزاهر فيسقي ثم يصب في الدجلة أسفل البستان بشيء يسير ، ثم يمر النهر الثاني من المقسم إلى باب أبرز فيدخل إلى بغداد من هناك ويسمى نهر العلقى ويمر بين الدور إلى باب سوق الثلاثاء ثم يدخل قصر المعتضد المعروف بالفردوس ويدور فيه ويصب إلى دجلة مع القصر ، ويمر النهر الثالث من المقسم إلى باب قطيعة موشجر ثم يمر إلى باب العامة ثم يدخل إلى القصر المعروف بالحسني فيدور فيه ويصب في دجلة مع قصر المكتفي بالله المعروف بأجاج ويحمل من النهريين نهر يقال له نهر علي أوله فوق نهر موسى بشيء يسير يمر معترضاً لطريق خراسان إلى قرية الآلة ويمر فيسقى طسوج نهر بوق ورستاق الأفروطر ويصب في نهر من الخالص ويحمل من نهر الفضل نهر يقال له نهر الجعفرية يمر بقسرى وضياح ويصب في سواد بغداد الذي في شمالها ويحمل من نهر الجعفرية نهر يقال له نهر السور يمر مع سور بغداد أوله من نهر الجعفرية يمر بباب خراسان وباب اليردان ويصب في نهر الفضل الذي يصب بباب الشماسية ، ويحمل من نهر الخالص الذي قلنا إنه يصب أسفل الراشدية نهر يقال له نهر الفضل يجيء إلى باب الشماسية يمر فيسقى ضياحاً عليه وقرى ويصب في دجلة مع باب الشماسية ويحمل من نهر الشماسية وهو نهر الفضل نهر يقال له نهر المهدي أوله فوق الباب بشيء يسير يمر فيدخل إلى مدينة السلام من باب الشماسية ويجيء إلى سويقة جعفر ويمر في الشارع المعروف بشارع نهر المهدي ثم يجيء إلى قنطرة اليردان ويدخل في دار الروميين ثم يخرج إلى سويقة نصر بن مالك ثم يدخل الرصافة في مسجد الجامع إلى بستان حفص ويصب في جوف قصر الرصافة في بركة فيه ، ويحمل من هذا النهر نهر أوله في سويقة نصر مع

(١) تصنيف سهراب . اعنى بنسخه وتصحيحه هانئ فون مزك ص ١٢٩ - ١٣٤ ط فينا ١٣٤٧ - ١٩٢٩ .

الأبواب الحديد يمرّ في وسط شارع باب خراسان
مادا الى ان يصبّ في نهر السور باب خراسان ،
فهذه انهار الجانب الشرقي ، وبقي انهار الجانب
الغربي وانا ابيتها ان شاء الله .

« معرفة انهار مدينة السلام في الجانب الغربي »

من ذلك نهر يُقال له ' الصراة اوله من نهر
عيسى فوق قرية المحول الكبير بشيء يسير يمرّ
هذا النهر فيسقى ضياع وبساتين بادوريا وتتفرع
منه انهار كثيرة ويدخل بغداد فيمرّ بقطرة العباس
ثم يمرّ الى قطرة العيينات ثم يمرّ الى فنطرة
رحا بطريق وهي قطرة الزيد ثم يمرّ الى فنطرة
العتيقة ثم يمرّ الى فنطرة الجديدة ثم يصبّ في
دجلة اسفل الخلد بشيء يسير ويحمل من الصراة
نهر يُقال له خندق ظاهر اوله من نهر
الشراة اسفل من فوهته بفرسخ يمرّ
فيسقى الضياع ويدور حول مدينة السلام ممّا
بلى الحربية فيمرّ الى باب الانبار وعليه هناك
قنطرة ثم يمرّ الى باب الحديد وعليه هناك قنطرة
ويمرّ الى باب حرب وعليه هناك قنطرة ويمرّ الى
باب فطربل وعليه هناك قنطرة رحا ام جعفر ويمرّ
في وسط قطعة ام جعفر ويصبّ في دجلة فوق
دار اسحاق بن ابراهيم الطاهري بشيء يسير ،
ويحمل من الخندق نهر يُقال له ' الصراة الصغيرة
يجيء قاطعاً للبساتين يمرّ ببعض بادوريا ويصبّ
في الصراة الكبيرة اسفل من رحا الطريق بشيء
يسير ، ويحمل من نهر عيسى نهر يُقال له كرخايا
اوله اسفل المحول الكبير بشيء يسير يمرّ في وسط
طسوج بادوريا وتتفرع منه انهار تنبث في بادوريا
تسمى وتعرف وعلى جانبه قرى وضياع وبساتين
مادا الى ان يدخل بغداد من باب ابي قبيصة
ويمرّ الى قنطرة اليهود ويمرّ الى قنطرة درب
الحجارة ويمرّ الى قنطرة البيمارستان وباب
محول فيتفرع منه هناك انهار الكرخ كلّها ، فمن
ذلك إذا جاوز كرخايا قنطرة البيمارستان فأول
الانهار نهر يُقال له نهر رزين يمرّ فياخذ في رضى
حميد فيدور فيه ثم يمرّ الى سوقة ابي الورد
ثم يمرّ الى بركة زلزل فيدور فيها ثم يمرّ الى
باب طاق الحراني ثم يصبّ في الصراة الكبيرة
اسفل من القنطرة الجديدة مع القنطرة ويمرّ
بنهر ابي عتاب ، واذا صار نهر رزين الى باب
سوقة ابي الورد يحمل منه نهر يُسمّى في قورج على
قنطرة العتيقة فيمرّ ماداً الى شارع باب الكوفة
فيدخل من هناك الى بعض آثار مدينة ابي جعفر

المنصور وينقطع فيها ويمرّ النهر من باب الكوفة
ماداً الى شارع القحاطبة يمرّ الى باب الشام ويمرّ
في شارع الجسر الى طرف الزبيدية ويفنى
هناك ، ثم يمرّ نهر كرخايا من البيمارستان فاذا
صار الى الدرابات يُسمى هناك العمود وهو
النهر انذي تتفرع منه انهار الكرخ الداخلة فيمرّ
النهر من هناك الى موضع قريب منه فيسمى هناك
رحا ابي القاسم ثم الى موضع يُعرف بالواسطيين
ثم يمرّ الى موضع يعرف بالخففة فيحمل منه
هناك نهر يُقال له نهر البزازين يعطف فيخرج في
شارع المصور ثم يمرّ الى دار كعب ثم يخرج الى
باب الكرخ ثم يدخل البزازين ثم يمرّ الى الجزارين
ثم يدخل في اصحاب الصابون ثم يصبّ في دجلة
تحت دار انجوز ثم يمرّ النهر الكبير من الخففة الى
طرف مربعة الزيات فيعطف منه هناك نهر يُقال
له نهر الدجاج يمرّ فياخذ ماداً الى اصحاب القتي
ثم يمرّ الى اصحاب القصب وشارع القيارين
ويصبّ في دجلة في اصحاب الطعام ثم يمرّ النهر
الكبير من مربعة الزيات الى دوار الحمار فيعطف
منه هناك نهر يُقال له نهر الكلاب يأخذ في شارع
قطيعة الكلاب ماداً حتى يصبّ تحت قنطرة الشوك
في نهر عيسى بن موسى ثم يمرّ هذا النهر الكبير
من دوار الحمار الى موضع يُقال له ' مربعة
صالح فيعطف منه هناك نهر يُقال له نهر القلائين
يمرّ ماداً الى السواقين ثم الى اصحاب القصب
ويصبّ هناك في نهر الدجاج ويصيران نهراً واحداً
ثم يمرّ النهر الكبير من مربعة صالح الى موضع
يعرف بنهر طابق ثم يصبّ في نهر عيسى في موضع
يعرف بمشرعة الاس بحضرة دار البطيخ ، فهذه
انهار الكرخ وبقي انهار الحربية وانا ابيتها ان شاء
الله تعالى .

من ذلك نهر يحمل من دجيل يُقال
له نهر بطاطيا اوله من اسفل فوهة دجيل بسة
فراسخ يمرّ فيسقى ضياعاً وقرى ويمرّ في وسط
مسكن ويصبّ في الضياع ويفنى فيها ويحمل منه
نهر اسفل جسر بطاطيا بشيء يسير يجيء نحو
مدينة السلام فيمرّ على عبارة قورج قنطرة باب
الانبار ثم يدخل بغداد من هناك فيمرّ في شارع
باب الانبار ويمرّ في شارع الكيش ويفنى هناك ،
ويحمل من نهر بطاطيا نهر اسفل من النهر الاول
يجيء نحو بغداد فيمرّ على عبارة يُقال لها عبارة
الكرخ بين باب حرب وباب الحديد ، ويمرّ فيدخل
بغداد من هناك ويمرّ في شارع دجيل الى مربعة
الفرس فيحمل منه هناك نهر يُقال له ' نهر دكان
الابناء ويفنى هناك ويمرّ النهر الكبير من مربعة

الى قصر كان الرشيد بناه بقرب المسجد الجامع بها ومن تَسَبَّه الى عسكر المهدي فإن المهدي كان عسكر من هذا الجانب الغربي بجانب الكرخ ويفسداد ويسمى الجانب الغربي بجانب الكرخ ويفسداد مساجد جوامع في ثلاثة مواضع ، في مدينة المنصور ، وفي الرصافة وفي دار الخلافة وتتصل العمارة والبنيان بكلوازي وبها مسجد جامع فلو عدت في جملة بغداد لجاز ، وقد عقد بين الجانبين على دجلة جسران من سفن ويكون من باب خراسان الى ان يبلغ باب الباسرية ، وذلك عرض الجانبين جميعا نحو خمسة اميال ، واعمر بقعة منها الكرخ وبها اليسار ومسكن معظم التجار ، وأما الأشجار والأنهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة ، فإنها من ماء النهرودان وتامرا ، وليس يرتفع إليها من ماء دجلة الا شيء يسير يقصر عن العمارة وينضح بالدواليب ، وأما الجانب الغربي فإنه قد شق إليه من الفرات نهر عيسى من قرب الأنبار تحت قنطرة ديمًا ، وتتحلب من هذا النهر سبابت تجتمع فتصير نهراً يسمى الصراة ويتفجر منها أنهار ، وبها عمارات الجانب الغربي ويقع ما بقي من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة في دجلة . وينتهي آخر نهر عيسى الى دجلة في جوف مدينة بغداد ، وأما نهر عيسى فإن السفن تجري فيه من الفرات الى ان تقع في دجلة ، وأما الصراة فإن فيها حواجز تمنع من جري السفن ، فتنتهي السفن منها الى قنطرة الصراة ، ثم يحول ما فيها ويجاوز به ذلك الحاجز الى سفن غيرها^(١) .

- ٤ -

ابن حوقل : أبو التماس المتوفى بعد عام ٣٧٠ هـ .

صورة الأرض^(١)

ومدينة السلام محدثة في الاسلام ابتناها ابو جعفر المنصور في الجانب الغربي من دجلة وجعل حوالها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه ،

(١) صورة الأرض ، ٢١٥ - ٢١٧ ، ط بيروت د. ت . ويشير الناشر الى ان ابن حوقل هو من القرن العاشر الميلادي أي القرن الرابع الهجري ولي نصوص الكتاب اشارات صريحة في مواضع ذكرت في بغداد سنة ستين وخمسمائة أي ان تغييرات اساسية والحافات زيدت على الكتاب . راجع بشأن ابن حوقل كراشكوفسكي (تلويح الأدب الجغرافي العربي) / ٢٠٠ - ٢٠٥ .

الفرس الى قنطرة ابي الجون فيحمل هناك منه نهر الى كتاب اليتامى الى مربعة شبيب ويصب هناك في نهر الشارع سنذكره ، ثم يمر النهر الكبير من قنطرة ابي الجون الى شارع قصر هاني ، ثم يمر الى بستان القس ويصب في النهر الذي يمر بشوارع القحاطبة ، ويحمل من نهر بطاطيا نهر اوله من قناة الكوخ يجيء الى بغداد ويمر على عبارة قورج على قنطرة باب حرب ويدخل بغداد من هناك ويمر في وسط شارع باب حرب الى شارع دار ابن ابي عون . ويجيء الى مربعة ابي العباس ثم يجيء الى مربعة شبيب فيصب فيه النهر الذي ذكرناه ثم يمر الى باب الشام ، فهذه انهار مدينة السلام قد بناها ، وهذه الانهار التي في الحربية من قتي تحت الارض واوالها مكشوفة فانهم ذلك ان شاء الله .

- ٣ -

الاصطخري : ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي - المتوفى في حدود النصف الاول من القرن الرابع .

المسالك والممالك^(١)

وأما بغداد فإنها مدينة محدثة في الاسلام . لم تكن بها عمارة فابنتي المنصور المدينة في الجانب الغربي ، وجعل حواشيها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه ، مثل قطيعة الربيع ، والحربية وغيرهما ، ثم عمرت ، فلما كان في أيام « المهدي » جعل معسكره في الجانب الشرقي ، فسمى عسكر المهدي ثم عمرت بالناس والبنيان ، وانتقلت الخلافة الى الجانب الشرقي ، وهي اليوم اسفل هذا الجانب بالحرث ، ليس وراءها بنيان للعامة متصل ، وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد حتى تتصل من نهرين الى شط دجلة ، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة الى الشماسية نحو خمسة اميال . وتحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربية ، فيمتد نازلاً على دجلة الى آخر الكرخ ويسمى الشرقي جانب الطاق (باب الطاق) وجانب الرصافة وعسكر المهدي ، فمن تَسَبَّه الى الطاق يعني ان اوله باب الطاق ، وهو موضع السوق الاعظم ومن تَسَبَّه الى الرصافة نسبه

(١) المسالك والممالك ، ٥٨ - ٥٩ ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبدالعال - ط . وزارة الثقافة والارشاد القومي دار القلم ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م القاهرة .

التجار هناك وذكر بعض المؤلفين أن الموفق أمر بمساحتها فوجد الجانب الشرقي مائتي جبل وخمسين جبلاً وعرضه مائة جبل وخمسة اجبل . ويكون ذلك ستة وعشرين ألف جريباً ، ومائتين وخمسين جريباً ، وهذا حساب لا اعرفه ووجد الجانب الغربي مائتين وخمسين جبلاً والمعرض سبعين جبلاً . سبعة عشر ألف وخمسة مائة جريب ، الجميع ثلاثة وأربعمائة ألف جريب وسعمائة وخمسون جريباً . ويكون بفدان مصر حساب كل جريبين ونصف فدان سبعة عشر ألف فدان وخمسة مائة فدان . وكانت هذه مساحة رفعتها .

فاما الأشجار والأنهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة فإنها من ماء النهروان وتامرا ، وليس يرفع إليها من دجلة إلا شيء يقصر عن العمارة . واما الجانب الغربي فيشق إليه من الفرات نهر عيسى من قرب الأنبار تحت فنترة ديمتا . وتحتلّب من هذا النهر صبابات تجتمع فنصر نهراً يسمى الصراة يفضي أيضاً الى بغداد [عند المحلة المعروفة بباب البصرة] (٢) وعليه عمارات كثيرة للجانب الغربي وتنفجر منتهأ انهار كثيرة لعمارات الناحية ، ويقع ما يبقى من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة فيما يجاور نهر عيسى من بغداد في نحو نصف المدينة وعليها كثير من مساكنهم ودورهم وبساتينهم .

فاما نهر عيسى فإن السفن تجري فيه من الفرات الى ان يقع في دجلة والصراة فيها حواجز وموانع من جري السفن بسكور ودوال فيها ، فتنتهي السفن فيها الى قنطرتها ثم يحول ما يكون فيها فيجاور به ذلك الحاجز الى سفن غيرها . وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه انهار من الفرات ، فالونها مما يلي بغداد نهر صرصر عليه مدينة صرصر تجري فيه السفن . وعليه جسر من مراكب يعبر عليه ومدينة صرصر عامرة بالنخيل والزروع وسائر الثمار صغيرة من بغداد على ثلاثة فراسخ . ثم ينتهي على فرسخين الى نهر الملك وهو كبير أيضاً أضعاف نهر صرصر في غزر مائه ، وعليه جسر من سفن يعبر عليه ونهر الملك مدينة أكبر من صرصر عامرة بأهلها ، وهي أكثر نخلا وزرعا وتمرا وشجرا منها . ثم ينتهي الى قصر ابن هبيرة ، وليس بين بغداد والكوفة مدينة أكبر منها وهي بقرب نهر الفرات الذي هو العمود وبطلع اليها هناك عن يمين وشمال انهار مفترقة ليست بكبار ، الا انها تعمم

كقطيعة الربيع والحريسة وغيرهما ثم عمرت وتزايدت . فلما ملكها المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمي عسكر المهدي وتزايد بالناس والبنيان وكثرت عمارتهم ، وانتقل اسم الخلافة الى الجانب الشرقي ، ودار من بيده حال من اسم المملكة وعمل الى أسفل هذا الجانب بالمخرم واستحدث الدار التي في أسفلها للسلطان وليس بما وراءها بنيان للامة متصل . ويتصل قصور السلطان وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد . ثم يتصل من نهرين الى شط دجلة . ويتصل البنيان بدار خلافتهم مرتفعاً على دجلة الى الشماسية نحو خمسة اميال وتحاذي من الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلاً على دجلة البنيان الى آخر الكرخ . ويسمى الجانب الشرقي منها جانب باب الطاق وجانب الرصافة . ويسمى عسكر المهدي لانه كان عسكر بحداء مدينة أبي جعفر المنصور [ويبني هناك مسجد جامع حسن . والآن فقد خرب ذلك المكان ولم يبق معمور غير الجامع ومقابر قريش والمحلة المعروفة بقبر أبي حنيفة رضي الله عنه . وانتقلت العمارة الى نهر معلّى وقد سور في زماننا هذا وهو عشر الستين وخمسمائة بسور حصين منيع . وبين يديه خندق عميق محيط به يتخرقه ماء الدجلة] (٢) ويسمى الجانب الغربي جانب الكرخ وبها مساجد للجمعة وصلاتها خاصة في أربعة مواضع منها فنما في الجانب الغربي الذي بمدينة أبي جعفر ، وبالرصافة جامع آخر لاهل باب الطاق وفي دار السلطان أيضاً جامع يحضره الخاصة والامة ومسجد برانا في الجانب الغربي واستحدثه أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه وتتصل عمارة الجانب الشرقي في أسفل دار الخلافة بلكواذي، وهي أيضاً مدينة قصدتها فيها مسجد جامع ولو عدّ في جملة بغداد لجاز لأن كثيراً من أهلها يصلون فيه . وبين الجانبين في وقتنا هذا جسر بقرب باب الطاق ، وكانا اثنين لجر المجتازين ، ولما بان النقص عليهما عطل أحدهما لبيان الاختلال وهلك أكثر محالها وذلك انه كان من باب خراسان عمارة الى ان تبلغ الجسر وتمتد الى باب الياسرية من الجانب الغربي وعرضها فقد اختل أيضاً من الجانبين جميعاً نحو خمسة اميال؛ ونقص وهلك منه الكثير وأعمر بقعة بها اليوم الكرخ وجانبه لأن اهل الياسرية ومعظم مساكن

(٢) ما بين القوسين زيادة مقحمة في النص . وانبتها كما هي حالاً على الأمانة العلمية .

طسُوج مما ذكرنا جامع وهي في كلِّ يوم الى ورا . واخشى انها تعود كسامرا مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان اخبرنا ابو بكر الاسماعيليُّ بجرجان قال حدثنا ابن ناجية قال حدثنا ابراهيم الترجمانيُّ قال حدثنا سيف بن محمَّد قال حدثنا عاصم الاحول عن ابي عثمان النهديِّ قال كنتُ مع جرير بن عبدالله فقال ايُّ شيءٍ يدعى هذا النهر قالوا دجلة قال فهذا النهر الاخر قالوا دَجِئِل قال فهذا النهر قالوا صرّاة قال فهذا النخل قالوا فطرَبِل قال فركب

فرسه واسرع ثم قال سمعت رسول الله (صلعم) يقول تبني مدينة بين دجلة ودَجِئِل وفطرَبِل والصرّة تجبي اليها خزائن الارض وجبايرتها يخسف بهم فهم اسرع هويّاً في الارض من الوند الحديد في الارض الرخوة ، واهار الفرات تغلب في دجلة في جنوبيتها وما حاذي المدينة وما شماليها دجلة حسب وتجرى في هذه الشطب الفراتية السفن الى الكوفة وفي دجلة الى الموصل وذكر الشمشاطيُّ في تاريخه ان المنصور لما اراد بناء مدينة السلام احضر اكبر من عرف من اهل الفقه والعدالة والامانة والمعرفة بالهندسة وكان فيهم ابو حنيفة النعمان بن ثابت والحجّاج بن اَرطاة وحشر الصنّاع والفعلّة من الشام والموصل والجبل وسائر اعماله وامر بخطتها وحفر الاساسات في سنة ١٤٥ وتمت في سنة ٤٩ وجعل عرض السور من اسفل خمسين ذراعاً وجعلها بشمانية ابواب اربعة داخلية صفار واربعة خارجة كبار باب البصرة وباب الشام وباب خراسان وباب الكوفة وجعل الجامع والقصر وسطها وقبلة جامع الرصافة اصح منه ووجدت في بعض خزائن الخلفاء ان المنصور انفق على مدينة السلام اربعة آلاف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً لان اجرة الاستاذ كانت قيراطاً والروزكاري حنين .

- ٦ -

النجم : الشيخ اسحق بن حسين النجم ت/حوالي « القرن الخامس » .

آكام الراجان(١)

ذكر مدينة بغداد

وانما رجعنا الى ذكر مدينة بغداد بعد تقديم

(١) آكام الراجان في ذكر المدن المشهورة في كل مكن ص ٤٥ طبعه باللاوسفيت د . ت .

لحاجتهم وتقوتهم وهي اعمر نواحي السواد ، ثم ينتهي الى نهر سورا وهي مدينة مفتتدة ونهر كثير الماء وليس للفرات شعبة اكبر منه وينتهي الى سائر سواد الكوفة ، ويقع الفاضل منه الى بطائح الكوفة وسورا هذه بين تلك النواحي اكثرها كروما واشربة ، وكربلا من غربي الفرات فيما يحاذي قصر ابن هبيرة ، وبها قبر الحسين بن علي صلوات الله عليهما ، وله مشهد عظيم وخطب في اوقات من السنة بزيارته وقصده جسيم .

- ٥ -

المقدسي : محمد بن احمد ، ت/٢٩٠هـ

احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

بغداد في مصر الاسلام ، وبها مدينة السلام ، ولهم الخصائص والظرافة والقرائح واللطافة هواء رقيق وعلم دقيق ، كلُّ جيّد بها ، وكلُّ حسن فيها ، وكلُّ حاذق منها وكلُّ ظرف لها ، وكلُّ قلب إليها وكل حرب عليها ، وكلُّ ذب عنها ، هي اشهر من ان توصف واحسن من ان تمتع واعلى من ان تمدح احدتها ابو العباس السفاح ثم بنى المنصور بها مدينة السلام وزاد فيها الخلفاء من بعده ولما اراد بناء مدينة السلام . سأل عن شتائها وصيفها ، والأمطار والبق والهواء وامر رجالاته ، حتى يتاموا ، فيها فصول السنة حتى عرفوا ذلك ثم استشار اهل الرأي من اهلها فقالوا نرى ان تنزل اربع طاسيج في الجانب الشرقي بوق وكلوادي وفي الغربي فطرَبِل وبادوريا فتكون بين نخل وقرب ماء فان اجذب طسُوج او تاخرت عمارته كان في الاخر فوج وانت على الصرة تجيبك الميرة في السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام في البادية وتجيئك آلات من الصين في البحر ومن الروم والموصل في دجلة فانت بين اناهار لا يصل إليك العدو الا في سفينة او على قنطرة على دجلة وفرات فيناها اربع قطع مدينة السلام وبادوريا والرصافة وموضع دار الخليفة اليوم وكانت احسن شيء للمسلمين واجل بلد وفوق ما وصفنا حتى ضعف امر الخلفاء فاخذت وخفت اهلها ، فاما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب اعمر موضع بها قطعة الربيع والكرخ في الجانب الغربي وفي الشرقي باب الطاق وموضع دار الامير والعمارات والاسواق بالغربي اكثر والجسر عند باب الطاق الى جانبه بيمارستان بناه عضد الدولة حصل في كل

قال ابن الأبياري : أنبأنا أبو العباس ؛ قال :
سمعتُ بعضَ الأعرابِ يقولُ : لولا أنْ تَرابَ بَغدادَ
كحلَّ لعمى أهلها . وأنشد :

ما أنتِ يا بَغدادُ إلا سَكْنَجُ
وإنْ سَكَنْتِ فترابٌ بَسْرَجُ

وأنشد أبو بكر المخزومي في بغداد :

اقرا سلاماً على تجلِّدٍ وساكِنِهِ
وحاضرٍ بالتَّوى إن كانَ أو بادي
سَلَامَ مقْتربِ بَغدانِ منزِلِهِ
إنْ أنجَدَ الناسَ لم يَهْنَمُ بانْجَادِ

وأنشد صاحب العين شاهداً على بغداد :

لما رأيتُ القومَ في اغْدادِ
وإنه السَّيرُ إلى بَغدادِ
جئتُ فسَلِّمتُ على معادِ

قال أبو حاتم : سألت الأصمعي كيف يقال :

بَغداد أو بَغداد : أو بَغدان ، أو بَغدين ؟ فقال :
قتل مدينة السلام وأبغضه أي بَغداد ، بالذال
المنقوطة هكذا نقل عنه أبو حاتم قال أبو حاتم :
وأما كره الأصمعي هذه الأسماء لأن بَغداد
بالفارسية عطية الصنم ، لأن [بَغ] صنم ،
و [داد] عطية وكانت قرية من قرى الفرس
فأخذها أبو جعفر غصباً فبنى فيها مدينته .

قال الجرجاني : باغ بالفارسية هو البستان
الكثير الشجر و داد مُعطى ، فمعناه معطي
البساتين .

- ٨ -

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله

ياقوت بن عبدالله الرومي ت/٦٢٦هـ

(١) المشترك وضعاً والمفروق صفحاً (١)

بغداد البلد المشهور المعروف فيه لغات وله
اشتقاق بسطت القول فيه في المعجم (معجم
البلدان) . وبغداد حدثني الحافظ أبو عبدالله
محمد بن محمود ابن النجار قال : خرجنا من
مكة نريد جدة فسمعتهم يقولون الليلة نبيت في
بغداد فباتوا في منزل قفر هناك ، لا أدري قال في

(١) تحقيق : فردناند وستنلذ . ط . جوتنجن ١٨٢٦ .
ص ٦٠ .

ما وجب تقديمه لأنها أصل المدائن وأحسنها
بنياناً وأطيبها هواً وهي في وسط الأقليم الرابع
الذي هو أعز الأقاليم وأهلها أعظم الناس في ضروب
اللب والفهم بناها أبو جعفر المنصور من بني
العباس وأبتدا بذلك في الأول سنة إحدى وأربعين
ومائة ونقل إليها البناة والحدائق والصناع من
جميع البلدان وجعلها مدورة ووسع رياضها
وازقتها وكان الذي تولى ذلك من أهل الحساب
والمهندسين الحجاج بن يوسف الحاسب والطبري
وابراهيم الفزاري ولها درب بابوآب في دورها
عشرون ذراعاً ولها أربعة أبواب ما بين كل باب
خمس آلاف ذراع باب الكوفة وباب البصرة وباب
خراسان وباب الشام وعلى كل باب تلبيس من
الحديد لا يفلقها إلا جماعة من الرجال ولكل باب
منها دهليز وعلى كل باب منها قبة عظيمة مزينة
بالذهب وحول القصر دور الأولاد من بني العباس ،
وأهل الخدمة والقصر في وسط المدينة ، وإلى
جانبه المسجد الأعظم وهي بين نهر الدجلة والفرات
وكان بها من المساجد في القديم ألف مسجد
وعشرون ألف حمام وبعدها عن خط المغرب سبعون
درجةً وذلك من الأميال أربعة آلاف وستمائة
وعشرون ميلاً وبعدها عن خط الاستواء في
الشمال ثلاث وثلاثون درجةً وذلك من الأميال
الفان ومائة وثمانية وسبعون ميلاً وكان المنصور
قد نقل إليها النخل والأشجار فأنبتت ونمت في
مدة بسيرة وذلك لطيب ماؤها واعتدال هوائها
وكذلك نقل إليها الرخام والأساطين والصناع من
كل بلد وأمر أهل الخدمة أن يقطع كل واحد منهم
ويبنى فقطعوا وأكثروا البناء وقامت في أقل مدة
وبساتينها تسقى بماء الدجلة والفرات في قنوات
وكان سكنى المنصور قبل ذلك في مدينة الأنبار ثم
نزلها السفاح أول خلفاء بني العباس .

- ٧ -

البكري :

معجم ما استعجم (١)

بغداد : فيها أربع لغات - بغداد بدالين
مهملتين ، وبغداد معجمة الأخيرة وبغدان بالنون ،
ومغدان بالميم بدلاً من الباء ، تذكر وتؤنث .

(١) أبو سعيد عبدالله عبدالعزيز البكري الأندلسي ت/٤٨٧هـ
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والواضع ، ٢٦١/١
تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الأولى - ١٩٤٥ القاهرة .

رمضان سنة ٢٣٢هـ ومات في جمادى الآخرة سنة ٢٣١هـ والهيم بن محمد الدوري .

باب دولاب : يروى بضم الدال وفتحها دولاب مبارك في شرقي بغداد ينسب إليها أبو جعفر محمد بن الصَّبَّاح البزاز الدولاقي سمع ابراهيم بن سعد واسماعيل بن جعفر وشريكاً وغيرهم ، روى عنه احمد بن حنبل وابنه عبدالله و ابراهيم الحربي واصله من هراة مولى لمَرْيَسَةَ سكن بغداد وابنه احمد بن محمد بن الصباح حدث عن ابيه وغيره .

باب ربيض الأرياض كثيرة قَلَّ ما تخلو مدينة من موضع فيها يقال له الرَبِض . واتما المذكور منها ها هنا ما نسب إليه احد او ما لا يعرف الا بأضافته انى رجل ، والرَبِض في الاصل حريم الشيء يقال الرَبِض بالضم وتسكين الباء اساس المدينة والرَبِض بالفتح والتحريرك ما حوله من خارج وقيل هما لغتان ، وقد نسب الى هذه الأرياض قوم يحتاج الى التفرقة بينهم ، الأول ربيض ابي حنيفة بالجانب الغربي من بغداد قرب الحريم الطاهري ينسب الى قائد من قواد المنصور يقال له ابو حنيفة ، وربض ابي عون ببغداد وابو عون من موالي المنصور . وربض اصهبان ينسب اليه ابو شكر احمد بن محمد بن علي الربيضي سمع الاصبهانيين روى عنه ابو مسعود سليمان بن ابراهيم الحافظ الاصبهاني ، وربض حرب وهو المحلة المعروفة اليوم بالحرية ببغداد ، وحرب من قواد المنصور وربض حمزة محلة كانت في غربي بغداد خربت .

وربض حميد بن قحطبة الطائي ببغداد ومتصل بالنصرية .

وربض الخوارزمية ببغداد ايضاً يتصل بربض الفرس من الجانب الغربي .

وربض رشيد ببغداد متصل بربض الخوارزمية ، ورشيد من موالي المنصور وهو والد داود بن رشيد المحدث ، وربض زهير بن المسيب ببغداد متصل بربض سعيد بن حميد ، وربض سعيد بن حميد ، وربض سلمان بن مجالد مولى المنصور ببغداد .

وربض عثمان بن نهيك متصل بربض الخوارزمية .

وربض نصر بن عبدالله ببغداد يعرف اليوم بالنصرية .

وربض هيلانسة بين الكرخ وباب منحوتل

المنزل الأول او الثاني من مكة . وقال لي الشيخ الامام ابو الربيع سليمان بن الريحاني جزاه الله خيراً اسم هذا الموضع بغيرديد بالتصغير وهو على ليلة من مكة (٥) .

*** باب الحريم :** بفتح الحاء وكسر الراء ، وباء ساكنة الأول | وميم | حريم دار الخلافة ببغداد وهو مقدار ثلث مدينة السلام ببغداد ، وعليه سور ابتداءه من دجلة وانتهاءه الى دجلة كهية الهلال او نصف دائرة وله ابواب اولها باب الغربية على دجلة ثم باب سوق التمر ، باب شاهق ابناء واغلق في اول ايام الناصر ابي العباس احمد . واستمر غلقه الى الآن ثم باب البدرية ثم باب النوبي ، وفيه العتبة التي تقبلها الرسل والملوك وغيرهم ، اذا قدموا ببغداد . وهي قطعة من عمود رخام ابيض مطروحة امام هذا الباب طولاً ، ثم باب العامة ويقال له ايضاً باب عمورية . وبين هذين ابابين محالً يسكنها عامة الناس بينهم وبين دار الخلافة سور آخر فيه عدة ابواب منها باب الدوامات وباب عليان ، وباب الحرم وغير ذلك ، ثم يمتد السور من باب العامة نحو ميل لا باب فيه الا باب بستان في آخر المأمونية تحت المنظرة التي تنحرتحتها انضحايًا في الاعياد . ثم باب المراتب بينه وبين دجلة من جهة باب الأزج نحو رميتي سهم وهو من ناحية الشرق وجميع ما يشتمل عليه هذا السور يسمى حريم دار الخلافة فيه محال واسواق وختانقات ودور كثيرة للرعيعة كأكبر مدينة وبين منازل الرعيعة وبين دجلة سور آخر من دونه دور الخلافة لا يشركه فيه شيء من منازل غيره واتما بسطنا القول في هذا ، وذكرناه لكثرة ما بجيء ذكره في التواريخ والأخبار ، وربما نسب إليه بعض الرواة . الثاني باب الحريم الطاهري في اعلا مدينة دار السلام ببغداد في الجانب الغربي كان منازل آل طاهر بن الحسين وكان من لجأ إليه أمين فسمي الحريم ، وقد نسب إليه جماعة من رواة الحديث منهم ... (٥)

والدور محلة في طرف بغداد بين الطاق قرب مشهد ابي حنيفة الامام خربت ينسب اليها ابو عبدالله محمد بن مخلد بن حفص الدوري المطار ، سمع يعقوب الدوري والزيبر بن بكار وغيرهما ، روى عنه الدارقطني وابو الحسين الأجرى والجماني وغيرهم ، وكان ثقة ولد في

(*) في الاصل بيضا ١٢٩ - ١٣٠ .

وهيلانة فهرة المنصور أو حظية الرشيد والى احد هذه الأرباض التي ببغداد ينسب أبو أيوب سليمان الرضوي الضريح حدث عن داود بن المحبر ابن محمد ، روى عنه إبراهيم بن الوليد الحشاش .

(باب الرصافة)

بضم الراء رصافة ببغداد محلة كبيرة بالجانب الشرقي عمرها المنصور لابنه المهدي وهي التي تعرف أيضاً بـمسكن المهدي وقد حدثت من أهل هذه الرصافة جماعة منهم محمد بن بكار بن ريثان أبو عبدالله الرصافي مولى بني هاشم وجمفر بن محمد بن علي أبو الحسن السُّمَّار وغيرهما كثير .

الرملة محلة كانت ببغداد في مشرعة الكرخ الى دجلة ثم خربت وهي في الجانب الغربي .

روذبار من قرى ببغداد ينسب إليها أحمد ابن عطاء الروذباري ابن اخت أبي علي الروذباري قاله أبو موسى الحافظ والنسوي ، والباطقاني الى روذبار ببغداد .

الريان محلة ببغداد عامرة الى الآن بالقرب من باب الأزج ينسب إليها أبو المعالي هبة الله بن الحسين بن الحسن بن أبي الأسود الرياني يصرف بأبن التل حدثت عن قاضي البيمارستان وغيره .

باب الزبيدية : منسوبة الى زبيدة بنت جعفر بن المنصور أم محمد الأمين بن الرشيد ، والزبيدية محلة ببغداد بالجانب الغربي قرب باب التن ، والزبيدية أيضاً محلة ببغداد من الجانب الغربي أسفل مدينة السلام .

باب الزعفرانية : والزعفرانية قرية قرب كلوذا تحت بغداد ينسب إليها الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني وإليه ينسب درب الزعفراني ببغداد وهو صاحب الشافعي قرأ عليه كتبه لما ورد الى بغداد فقال له الشافعي من أي العرب أنت فقال ما أنا بعربي وإنما أنا من قرية يقال لها الزعفرانية فقال له أنت سيد هذه القرية وسمع أيضاً ابن عبيدة وغيره روى عنه أبو داود السجستاني والترمذي وغيرهما ، وتوفي سنة ٢٤٩ في ربيع الآخر وقد نسب جماعة الى درب الزعفراني هذا ، هكذا .

باب الزوراء بفتح الزاي وسكون الواو ، وراء والمد ، الزوراء اسم لدجلة ببغداد

سميت بذلك ليلها وأنعراجها ، والزوراء مدينة المنصور ببغداد تسمى الزوراء (ايضاً) ، قالوا لانه جعل أبوابها الداخلة مزورة عن أبوابها الخارجة .

باب الزهيرية : رضى كان ببغداد ينسب الى زهير بن المسيب في شارع الكوفة .

والزهيرية (ايضاً) محلة كانت ببغداد ايضاً يقال لها قطيعة زهير بن محمد الأبيوردي وهو أزدي غامدي الى جانب قطيعة أبي النجم .

الزيدية : قرية من سواد بغداد من أعمال بادوريا ، ينسب إليها أبو بكر محمد بن يحيى بن محمد الشوكي الزيدي سمع محمد بن اسماعيل الوراق وأبا حفص بن شاهين وغيرهما .

باب السلام بفتح السين مدينة السلام ببغداد ينسب إليها سلامي ، كما نسب إليها محمد بن عبدالله السلامي الشاعر مات سنة ٣٩٢هـ وأبو الفضل محمد بن ناصر السلامي الحافظ ولد سنة سبع أو ثمان وستين وأربعمائة ومات في شعبان سنة ٥٥٠ وغيرهما وقصر السلام من ابنية الرشيد بالركة .

سوق الثلاثاء بنهر المثلث من محال مدينة السلام ببغداد كانت تقام فيه سوق في كل شهر مرة في يوم الثلاثاء فنسب إليه اليوم الذي كانت تقام فيه وذلك قبل ان يعمر المنصور ببغداد وهو الآن من اعمر محال ببغداد وبه معظم سوق البرازين .

سوق السلاح محلة كانت ببغداد نسب إليها أبو الحسين محمد بن محمد بن المظفر بن عبدالله الدقاق السلاح المعروف بأبن السراج ببغداد سكن سوق السلاح سمع أبا القاسم بن حبابه وعلي ابن عمر الحربي وأبا عبيدالله المرزباني سمع منه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ، وكان صدوقاً مولده سنة ٣٧٤ ، ومات سنة ٤٤٨ .

وسوق عبدالواحد كان ببغداد بالجانب الغربي عند باب الكوفة قرب باب البصرة ، وسوق العطش كان من أكبر محال ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المثلث بناه سعيد الخراسي للمهدي ، وقال له المهدي عند تمامه سمع سوق الري فقلب عليه سوق العطش ، والخراسي نسبة الى خراسان وكان صاحب الشرطة ببغداد .

وسوق يحيى ببغداد بين الرصافة ودار الملكة منسوبة الى يحيى بن خالد البرمكي وأبائهما عنى ابن حجاج بقوله [الى وطني القديم بسوق يحيى فقلبي عن هواه غير سالي] .

ابن ذكوان بن الفضل الحراني من موالي المنصور
وزير الهادي موسى بن المهدي .

الطاهرة : من قرى بغداد يستنقع في موضع
من ارضها فضلات مياه الامطار والانهار فيتولد فيه
سمك كثير جداً يسميه اهل العراق البني اطيب ما
يكون من انواع السمك فيضمته السلطان بمال
وافر .

والطاهري بغير هاء الحريم الطاهري (محلة)
بغداد (مروفة) تقدم ذكره في الحريم .

باب عسكرو : عسكر ابي جعفر المنصور
امير المؤمنين وهي مدينته المسماة اليوم
باب البصرة التي بها جامع المنصور ، وقصره
بغداد .

باب القرية وهو تصغير القرية القرية
محلة كبيرة في حريم دار الخلافة بغداد سكنتها
وكان بها جماعة من اهل العلم وتنبوا اليها
والقرية ايضاً محلة كبيرة كالمدينة ذات اسواق
وجامع مفرد بالجانب الغربي من بغداد مقابل
سوق المدرسة النظامية كان بها جماعة ممن روى
الحديث .

باب القطيعة اربعة عشر موضعاً بفتح
القاف وكسر الطاء وياء ساكنة وعين مهملة وهاء
وجميمها محال ببغداد قد نسب الي بعضها قوم
من المحدثين فذلك اوجب ذكرها كان ابو جعفر
المنصور لما عمر بغداد اقطع كل واحد من قواده
واعيان اصحابه موضعاً ليعمره ويسكنه ، هو
واتباعه فعملوا ونسبت كل قطعة الي من عمرها
وانا اذكر من اضيفت اليه القطيعة على حروف
المعجم ، قطيعة اسحق الأزرق انشروي مولى
محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ، وهو قرب
الكرخ ، وقطيعة ام جعفر زبيدة بنت جعفر بن
المنصور كانت ببغداد قرب باب التنين من الجانب
الغربي ينسب اليها اسحق بن محمد بن اسحق
القطيبي الناقد حدث عن الحسن بن عرفة وغيره ،
وقطيعة بني جدار بطن من الخزرج نسب اليها
بعض الرواة جداري ، وقطيعة الدقيق ببغداد
بالجانب الغربي ينسب اليها ابو بكر احمد بن
جعفر بن حمدان بن مالك القطيبي وكان من
الكثورين روى عنه الائمة ، ومات سنة ٣٦٨ ،
وقطيعة الربيع بن يونس حاجب المنصور ، اقطعه
إياها المنصور ، وتعرف بالقطيعة الداخلة ينسب
إليها ابو معمر اسماعيل بن ابراهيم بن معمر بن
الحسن الهروي القطيبي بغدادى ثقة ، وقطيعة
الربيع ايضاً ، وتعرف بالقطيعة الخارجة اقطعه

سويقة حجاج منسوبة الي حجاج
النوصيف مولى المهدي كانت بشرقي بغداد خربت .

سويقة العباسية بنت الرشيد بن المهدي
ببغداد .

وسويقة ابي عبيدالله بن معاوية بن عمرو وزير
المهدي كانت بين الرصافة ودار الملكة خربت .

وسويقة عبدالوهاب محلة قديمة في غربي
بغداد تنسب الي عبدالوهاب بن ابراهيم الامام بن
محمد بن علي بن عبدالله بن عباس .

وسويقة خالد ببغداد تنسب الي خالد بن
برمك كانت بباب الشماسية من شرقي بغداد .

وسويقة غالب من محال ببغداد ينسب اليها
بعض الرواة .

وسويقة نصر وهو نصر بن مالك الخزاعي في
شرقي بغداد اقطعه اياها المهدي وهو والد احمد
ابن نصر الزاهد المتحن في ايسام الواثق في خلق
القرآن المصلوب فيه ولم يقل انه مخلوق .

وسويقة ابي الورد في غربي بغداد بين
الكرخ والرصافة تنسب الي ابي الورد عمر بن المطرف
الخراساني صاحب المظالم في ايام المهدي .

وسويقة الهيثم في غربي بغداد تنسب الي
الهيثم بن سعيد بن ظهير مولى المنصور قرب مدينة
المنصور .

شارع الأنبار من محال ببغداد قرب
مدينة المنصور من جهة الانبار فلذلك سميت
شارع الانبار .

شارع دار الرقيق ببغداد ايضاً محلة متصلة
بالحريم الطاهري من الجانب الغربي عامرة الي
الآن .

شارع الميدان من محال ببغداد ايضاً بالجانب
الشرقي بظاهر الرصافة ، وكان شارعاً ماداً من
باب الشماسية الي سوق الثلاثاء ، ولهذه
الشوارع ذكر في الاخبار والاشعار كثير ، فذاك
الذي اوجب ذكرها .

باب طاق : طاق اسماء في شرقي بغداد
بين الرصافة ودار الملكة منسوب الي اسماء
بنت المنصور وهو الذي يقال له رأس الطاق كان
طاقاً عظيماً يجلس اليه الشعراء . وطاق الحراني
محلة كانت ببغداد في الجانب الغربي قالوا هو من
حد القنطرة الجديدة . والحراني هذا هو ابراهيم

أيها المهدي بالله أمير المؤمنين ، وقطيعة ريسانة بعض النهارمة محلة كانت بقرب مسجد رغبان في غربي بغداد قرب باب الشُّعير ، وقطيعة زهير قرب حريم بني طاهر بالجانب الغربي وهو زهير بن محمد الأبيوردي ، وقطيعة المعجم بالجانب الشرقي بين باب الحلية وباب الأزدج محلة كبيرة ينسب إليها جماعة منهم أبو العباس أحمد عمر القطيبي الحنبلي كان واعظاً وابنه أبو الحسين محمد تركته ببغداد حياً سمع وروى وصنف ويرى انه من الحفاظ الأعيان ، وقطيعة العكي وهو مقاتل بن حكيم بن عبدالرحمن بن الحرث من قواد المنصور بين باب البصرة وباب الكوفة من مدينة المنصور . وقطيعة عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس - عم المنصور - ببغداد ينسب إليها إبراهيم ابن محمد بن الهيثم القطيبي كان يسكن في جوار عبد العجل بنقطيعة عيسى حدث عن منصور بن أبي مزاحم وأبي معمر الهذلي وعمرو انناقد وغيرهم روى عنه أبو عبدالله المحاملي وغيره ، وقطيعة الفقهاء بالكركخ وقد فرق المحدثون بينها وبين قطيعة الربيع بالكركخ فنسبوا إلى هذه أبا اسحق إبراهيم - بن محمد - بن منصور القطيبي الكرخي روى عن خديجة بنت محمد بن عبدالله الشاهجانية وأبي بكر الخطيب وغيره ذكره أبو سعد في شيوخه وتوفي سنة سبع أو ثمان وثلاثين وخمسماية ، وقطيعة أبي النجم أحد قواد المنصور متصلة بقطيعة زهير متصلة بالحريم الظاهري ، وقطيعة النصارى محلة متصلة بنهر طابق من محال ببغداد .

المالكية قريبة على باب مدينة السلام - بغداد - مقابل باب الظفرية .

باب الحمديّة : والمحمديّة أيضاً من قرى بغداد من ناحية نهر سلّ نسبوا إليها أبا علي محمد ابن الحسين بن أحمد بن الطيب الحمدي الأديب روى عنه هبة الله الشيرازي .

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ت/٦٢٦هـ .

(ب) معجم البلدان (١)

بغداد أم الدنيا وسيّدة البلاد . . قال ابن الأنباري أصل بغداد للأعاجم والعرب تختلف في

(١) معجم البلدان ١/٢٥٦ - ٢٦٧ ، ط . دار صادر بيروت ، ١٩٧٧/٥١٢٣٧ م .

لفظها إذ لم يكن أصلها من كلامهم ولا اشتقاقها من لغاتهم . . قال بعض الأعاجم تفسيره بستان رجل ، فباغ بستان وداد اسم رجل وبعضهم يقول بغ اسم للصنم فذكر انه اهـدى إلى كسرى خصي من المشرق فأقطعه إياها وكان الخصي من عباد الأصنام ببلده فقال بغ داد أي الصنم اعطاني وقيل بغ هو البستان وداد اعطى وكان كسرى قد وهب لهذا الخصي هذا البستان فقال بغ داد فسميت به . . وقال حمزة بن الحسن ببغداد اسم فارسي معرب عن باغ داؤوبه لأن بعض رقعة مدينة المنصور كان باغاً لرجل من الفرس اسمه داؤوبه وبعضها اثر مدينة دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطها فاعتلّ فقالوا : ما الذي يأمر الملك ان تسمى به هذه المدينة فقال : هيلدوه وروز، أي خلوها بسلام فحكى ذلك للمنصور فقال سميتها مدينة السلام . وفي بغداد سبع لغات - بغداد وبغدان وبأبي اهل البصرة ولا يجيزون ببغداد في آخره الذال المعجمة وقالوا لأنه ليس في كلام العرب كلمة فيها دال بعدها ذال . . قال أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحق فقلت لأبي اسحق إبراهيم ابن السري فما تقول في قولهم خرداذ فقال هو فارسي ليس من كلام العرب قلت انا وهذا حجة من قال ببغداد فإنه ليس من كلام العرب واجاز الكسائي ببغداد على الاصل وحكى أيضاً مفداذ ومفداد ومفغان وحكى الخارزنجي ببغداد بدالين مهملتين ، وهي في اللغات كلّها تذكر وتؤنث وتسمى مدينة السلام أيضاً . . فاما الزوراء فمدينة المنصور خاصة وسميت مدينة السلام لأن دجلة يقال لها وادي السلام ، وقال موسى بن عبد الحميد النسائي كنت جالساً عند عبدالعزيز ابن ابي رواد فأتاه رجل فقال له من اين أنت فقال له من ببغداد فقال : لا تقل ببغداد فان بغ صنم وداد اعطى ولكن قل مدينة السلام فإن الله هو السلام والمدن كلّها له وقيل إن ببغداد كانت قبل سوقاً يقصدها تجار اهل الصين بتجاراتهم فيربحون الربح الواسع وكان اسم ملك الصين بغ فكانوا إذا انصرفوا إلى بلادهم قاتوا بغ داد أي ان هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك وقيل إنما سميت مدينة السلام لأن السلام هو الله فارادوا مدينة الله . . واما طولها فذكر بطليموس في كتاب الملحمة المنسوب إليه ان مدينة ببغداد طولها خمس وسبعون درجة وعرضها أربع وثلاثون درجة داخلية في الأقليم الرابع . . وقال أبو عون

ولمجره فهذا خير بغداد قبل أن يمصرها المنصور
ثم يبلغني غير ذلك .

أ فصل في بدء عمارة بغداد . . كان اول من
مدنّها وجعلها مدينة المنصور بالله ابو جعفر
عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن
عبدالمطلب ناني الخلفاء وانتقل إليها من الهاشمية .
وهي مدينة كان قد اختطها اخوه ابو العباس
السفاح قرب الكوفة وشرع في عمارتها سنة ١٤٥
ونزلها سنة ١٤٩ ؛ وكان سبب عمارتها ان اهل
الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك من فعلهم
فانتقل عنهم يرتاد موضعاً . وقال ابن عياش : بعث
المنصور رواداً وهو بالهاشمية يرتادون له موضعاً
يبني فيه مدينة ويكون الموضع واسطاً رافقاً بالعمامة
والجند فتمت له موضع قريب من بارماً وذكر
له غذاؤه وطيب هوائه فخرج إليه بنفسه حتى
نظر إليه وبات فيه فرأى موضعاً طيباً فقال لجماعة
منهم سليمان بن محالد وابو ايوب المرزباني
وعبدالمالك بن حميد الكاتب ما رايتكم في هذا الموضع
ناوا طيب موافق فقال صدقتم ولكن لا مرفق
فيه للرعية وقد مرت في طريقي بموضع تجلب
إليه الميرة والامتعة في البر والبحر وانا راجع إليه
وبانت فيه فان اجتمع لي ما اردت من طيب الليل
فهو موافق لما اريدته لي وللناس ، قال فاتي موضع
بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر
وذلك في صيف وحر شديد وكان في ذلك الموضع
بيعة فيات اطيب مبيت واقام يومه فلم ير الا
خيراً فقال هذا موضع صالح للبناء فإن المادة تأتيه
من الفرات ودجلة وجماعة الأنهار ولا يحمل الجند
والرعية إلا مثله فخط البناء وقدر المدينة ووضع
اول لبنة بيده فقال بسم الله والحمد لله والأرض
لله يورثها من يشاء من عباده والعاque للمتقين ثم
قال ابنوا على بركة الله ؛ وذكر سليمان بن مختار
ان المنصور استشار دهقان بغداد وكانت قرية في
المربعة المعروفة بابي العباس الفضل بن سليمان
الطوسي وما زالت داره قائمة على بنائها الى ان
خرّب كثير مما يجاورها في البناء فقال الذي اراه
يا امر المؤمنين ان تنزل في نفس بغداد فإنك تصير
بين اربعة طساسيج ، وطسوجان في الجانب الغربي
وطسوجان في الجانب الشرقي فاللذان في الجانب
الغربي قطربتل وبادوريا واللذان في الشرقي نهر
بوق وكلاؤدى فان تأخرت عمارة طسوج منها كان الآخر
عامراً وانت يا امير المؤمنين على الصّرة ودجلة
تجيبك بالميرة من القرب وفي الفرات من الشمام
والجزيرة ومصر وتلك البلدان وتحمل اليك طرائف

وغيره إنها في الاقليم الثالث . قال : طالهما
السّمك الاعزل بيت حياتها القوس لها شركة في
الكف الخضيب ولها اربعة اجزاء من سرّة الجوزاء
تحت عشر درج من السرطان يقابلها مثلها من
الجدي عاشرها مثلها من الحمل عاقتها مثلها من
الميزان ؛ قلت انا ولا شك ان بغداد احدثت بعد
بطليموس باكثر من الف سنة ، ولكني اظن ان
مفسري كلامه قاسوا وقالوا ؛ وقال صاحب
الزيج طول بغداد سبعون درجة وعرضها ثلاث
وثلاثون درجة وثلاث نهارها ست عشرة
درجة وثلاثا درجة . وطول نهارها اربع عشرة
ساعة وخمسة دقائق وغاية ارتفاع الشمس بها
ثمانون درجة ونث . وظل الظهر بها درجتان ،
وظل العصر اربع عشرة درجة . وسمت القبلة
ثلاث عشرة درجة ونصف . وجهها عن مكة مائة
وسبع عشرة درجة في الوجود ثلاثمائة درجة هذا
كله نقلته من كتب النجمين ولا اعرفه ولا هو من
صناعتى . . وقال احمد بن حنبل بغداد من
الصّرة الى باب النبي وهو مشهد موسى الكاظم
ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين
العابدين بن الحسين الشهيد بن الامام علي بن ابي
طالب ، ثم زيد فيها حتى بلغت كواذى والمخرّم
وقطربتل قال اهل السّير ؛ ولما اهلك الله
مهران بأرض الحيرة ومن كان معه من العجم
استمكن المسلمون من الغارة على السّواد وانتقضت
سالح الفرس وتشتت امرهم واجتروا المسلمون
عليهم وشنوا الغارات ما بين سورا وكسكتر
وانصراة والفلايج والاسنانات . . قال اهل الحيرة
للمثنى ان بالقرب منّا قرية تقوم فيها سوق
عظيمة في كلّ شهر ميرة فيأتيها تجار فارس
والاهواز ، وسائر البلاد يقال لها بغداد وكذا كانت
إذ ذاك فاخذ المثنى على البر حتى اتى الأنبار
فتمحصن فيها أهلها منه فارسل الى سفروخ
مرزبانها ليسير إليه فيكلمه بما يريد وجعل له
الأمان فعبر المرزبان إليه فعلا به المثنى وقال له
اريد ان اغمر على سوق بغداد واريد ان تبعث
معي ادلاء فيدلوني الطريق وتعقد لي الجسر
لاعبّر عليه الفرات ففعل المرزبان ذلك وقد كان
قطع الجسر قبل ذلك لئلا تعبر العرب عليه فعبر
المثنى مع اصحابه وبعث معه المرزبان الادلاء فسار
حتى وافى السوق وضحة فهرب الناس وتركوا
اموالهم فاخذ المسلمون من الذهب والفضة وسائر
الامتعة ما قدروا على حمله ثم رجعوا الى الأنبار
ووافى بمسكركه غانما موفوراً وذلك في سنة ١٣

التي تعلم فكنت أنا ومن كان في مقدار ستي من عمومتي واخوتي نتداعى وتعاشر فبلغت التوبة اليّ يوماً من الأيام وما املك درهماً واحداً فلم ازل افكر واعمل الحيلة التي ان اصبحت غزلاً لداية كانت لهم فسرقته ثم وجّهت به فيبيع لي واشترى لي بتمنه ما احتجت إليه وجئت الي الداية وقلت لها افعلي كذا واصنعي كذا قالت من اين لك ما ارى قلت اقترضت دراهم من بعض اهلي ففعلت ما امرتها به فلما فرغنا من الأكل وجلسنا لتلحديث طلبت الداية الغزل فلم تجده فعلمت اني صاحبه وكان في تلك لصّ يقال له 'مقلاص' مشهور بالسرقة فجاءت الي باب البيت الذي كنا فيه فدعتني فلم اخرج اخبرني عليها لعلمي انها وقفت على ما صنعت فلما الحت وانا لا اخرج قالت اخرج يا مقلاص . الناس يتحذرون من مقلاصهم وانا مقلاصي ممي في البيت فمزح معي اخوتي وعمومتي بهذا اللقب ساعة ثم لم اسمع به الاّ منك الساعة فعلمت ان امر هذه المدينة يتم على يدي لصحة ما وقفت عليه . . ثم وضع اساس المدينة مدوراً وجعل قصره في وسطها وجعل لها اربعة ابواب واحكم سورها وفصلها فكان القاصد إليها من الشرق يدخل من باب خراسان والقاصد من الحجاز يدخل من باب الكوفة والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام والقاصد من فارس والاهواز وواسط والبصرة واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة . . قالوا فانفق المنصور على عمارة بغداد ثمانية عشر الف دينار . وقال الخطيب في رواية انه انفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها والابواب والاسواق الي ان فرغ من بنائها اربعمائة الف وثمانمائة وثلاثة وثمانين الف درهم وذاك ان الاستاذ من الصنّاع كان يعمل في كلّ يوم بقيراط الي خمس حبات والروز جاري بحبتين الي ثلاث حبات وكان الكيش بدرهم والحمل باربعة دوانيق والتمر ستون رطلاً بدرهم ، قال الفضل ابن دكين كان ينادي على لحم البقر في جبانة كندة تسعون رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستون رطلاً بدرهم والعسل عشرة ابطال بدرهم . قال وكان بين كل باب من ابواب المدينة والباب الاخر ميل وفي كل ساف من اسواف البناء مائة الف لينة وائتان وستون الف لينة من اللبن الجعفري ؛ وعن ابن السروي قال هدمنا من السور الذي يلي باب المحول قطعة فوجدنا فيها لينة مكتوبا عليها بمغرة وزنها مائة وسبعة عشر رطلاً ، فوزناها فوجدناها كذلك . وكان المنصور كما ذكرنا بني

الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة وتجبنيك ميرة ارمينية واذربيجان وما يتصل بها في تماراً وتجبنيك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة وانت بين انهار لا يصل إليك عدوك الاّ على جسر او قنطرة فاذا قطعت الجسر والقنطرة لم يصل إليك عدوك وانت قريب من البرّ والبحر والجبل ؛ فاعجب المنصور هذا القول وشرع في البناء ووجه المنصور في حشر الصنّاع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط فاحضروا وامر باختيار قوم من اهل الفضل والعدالة والفقه والامانة والمعرفة بالهندسة فجمعهم وتقدم إليهم ان يشرؤوا على البناء وكان من حضر الحجاج بن اربعة وابو حنيفة الامام وكان العمل في سنة ١٤٥ وامر ان يجعل عرض السور من اسفله خمسين ذراعاً ومن اعلاه عشرين ذراعاً وان يجعل في البناء جززاً القنصب مكان الخشب فلما بلغ السور مقدار قامة اتصل به خروج محمد بن عبدالله بن حسن ابن حسن بن علي بن ابي طالب فقطع البناء حتى فرغ من امره وامر اخيه ابراهيم بن عبدالله بن حسن بن حسن . .

وعن علي بن يقطين قال كنت في عسكر ابي جعفر المنصور حين سار الي الصراة يلتمس موضعاً لبناء مدينة ، قال فنزل الدبر الذي على الصراة في العتيقة فما زال على دابته ذاهباً جانياً منفرداً عن الناس يفكر قال وكان في الدبر راهب عالم فقال لي لم يذهب الملك ويجيء قلت انه يريد ان يبني مدينة . . قال فما اسمه ؟ قلت : عبدالله ابن محمد . . قال ابو من ؟ قلت : ابو جعفر قال هل يلقب بشيء قلت المنصور قال ليس هذا الذي بينها قلت ولم ؟ قال لا تا قد وجدنا في كتاب عندنا تنوارته قرناً عن قرن ان الذي يبني هذا المكان رجل يقال له : مقلاص . . قال فركبت من وقتي حتى دخلت على المنصور ودنوت منه فقال لي ما وراءك قلت خيراً القبه الي امير المؤمنين واريحه من هذا العناء فقال : قل ، قلت امير المؤمنين يعلم ان هؤلاء معهم علم وقد اجرني راهب هذا الدبر بكذا وكذا فلما ذكرت له مقلاص ضحك واستبشر ونزل عن دابته واخذ سوطه واقبل يذرع به فقلت في نفسي لحقّه اللجاج ثم دعا المهندسين من وقته وامرهم بخطط الرصاد فقلت له اظنك يا امير المؤمنين اردت معاندة الراهب وتكذيبه فقال : لا والله ولكني كنت ملقباً بمقلاص وما ظننت ان احداً عرف ذلك غيري وذلك انسا كنا بناحية السراة في زمان بني امية على الحال

والأجر من اعلاها فكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في السوارع والدروب والأرباض تجري صيفاً وشتاءً لا ينقطع ماؤها في شيء من الأوقات ؛ ثم اقطع المنصور اصحابه القطائع فعمروها وسُميت بأسمائهم ؛ وقد ذكرت من ذلك ما بلغني في مواضعه حسب ما قضى به ترتيب الحروف وقد صنف في بغداد وسعتها وعظم رفعتها وسعة بقعتها وذكر أبو بكر الخطيب في صدر كتابه من ذلك ما فيه كفاية لطالبه .

[فلنذكر الآن ما ورد في مدح بغداد]

ومن عجيب ذلك ما ذكره أبو سهل بن نوبخت قال : امرني المنصور لما اراد بناء بغداد بأخذ الطالع ففعلت فاذا الطالع في الشمس وهي في الفوس فخبرته بما تدلّ النجوم عليه من طول بقائها وكردها وعمارتها وقرر الناس الي ما فيها ثم قلت واخبرك خلة اخرى اسرّك بها أمير المؤمنين قال : وما هي ؟ قلت نجد في ادلة النجوم انه لا يموت بها خليفة أبداً حتف انفه قال فتبسّم وقال الحمد لله على ذلك هذا من فضل الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم ؛ ولذلك يقول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفي :

اعابت في طول من الأرض أو عرض

كبغداد من دار بها سكن الخفض

صفا العيش في بغداد واخضر عوده

وعيش سواها غير خفض ولا غض

تطول بها الأعمار إن غداها

مريء وبعض الأرض امرا من بعض

فضى ربها ان لا يموت خليفة

بها انه ما شاء في خلقه يقضي

تنام بها عين الغريب ولا ترى

غريباً بأرض الشام يطعم في الفمض

فإن جنّيت بغداد منهم بقرضها

فما اسلقت الا الجميل من القرض

وإن رميت بالهجر منهم وبالغلي

فما اصبحت اهلاً لهجر ولا بغض

وكان من اعجب العجب ان المنصور مات

وهو حاج والمهدي ابنه خرج الى نواحي الجبل

فمات بماسذان بموضع يقال له الرذ والهادي

ابنه مات بمسباد قرية او محلة بالجانب الشرقي

من بغداد والرشيد مات بطوس والامين اخذ في

شبابته وقتل بالجانب الشرقي والامون مات

مدينته مدورة وجعل داره وجامعها في وسطها وبنى القبة الخضراء فوق ابوان وكان علوها ثمانين ذراعاً وعلى راس القبة صنم على صورة فارس في يده رمح ، وكان السلطان إذا رأى ان ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومدّ الرمح نحوها علم ان بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة فلا يطول عليه الوقت حتى ترد عليه الأخبار بان خارجياً قد هجم من تلك الناحية ؛ قلت انا هكذا ذكر الخطيب وهو من المستحيل والكذب الفاحش وانما يحكى مثل هذا عن سحره مصر وطمسماث بليناس التي اوهم الأعمار صحتها تطاول الأزمان والتخيّل ان المتقدمين ما كانوا بني آدم ؛ فاما المنة الاسلامية فانها تجلّ عن هذه الخرافات فإن من المعلوم ان الحيوان الناطق مكلف الصنائع لهذا التمثال لا يعلم شيئاً مما ينسب الي هذا الجماد ولو كان نبياً مرسلأً وايضا لو كان كلّمنا توجهت الي جهة خرج منها خارجي نوجب ان لا يزال خارجي يخرج في كل وقت لانها لا يبدّ ان توجهه الي وجهه من الوجوه ؛ والله اعلم .. قال وسقط رأس هذه القبة سنة ٣٢٩هـ وكان يوم مطر عظيم ورعد هائل وكانت هذه القبة تاج البلد وعلم بغداد ومآثرة من مآثر بني العباس وكان بين بنائها وسقوطها مائة وثمانون سنة ونقل المنصور ابوابها من واسط وهي ابواب الحجاج ، وكان الحجاج اخذها من مدينة بازاء واسط تعرف بزائد ورؤد . يزعمون انها من بناء سليمان بن داود عليه السلام واقام على باب خراسان باباً جيء به من الشام من عمل الفراعنة وعلى باب الكوفة باباً جيء به من الكوفة من عمل خالد القسري وعمل هو باباً لباب الشام وهو اضعفها وكان لا يدخل احد من عمومة المنصور ولا غيرهم من شيء من الابواب الا راجلاً الا داود ابن علي عمّه فانه كان متفرساً وكان يحمل في محفة وكذلك محمد المهدي ابنه ؛ وكانت تكنس الرحاب في كل يوم ويحمل التراب الي خارج فقال له عمّه عبدالصمد يا أمير المؤمنين انا شيخ كبير فلو اذنت لي ان انزل داخل الابواب فلم يأذن له فقال يا أمير المؤمنين عدني بعض بغال الروايا التي تصل الي الرحاب فقال يا ربيع بغال الروايا التي اتى رحابي تتخذ الساعة قني بالنساج من باب خراسان حتى تصل الي قصري ففعل ومدّ المنصور قناة من نهر دجيل الاخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الاخذ من الفرات وجرّهما الي مدينته في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج

.. وقال ابو يعلى محمد بن الهيثارية سمعت
الشيخ الزاهد ابا اسحق ابراهيم بن علي بن
يوسف الفيروز ابادي يقول من دخل بغداد وهو
ذو عقل صحيح وطبع معتدل مات بها او بحضرتها ؛
وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين
على قلبها في كل ما حين
ما بين قطربل فالكرخ نرجسة
تندى ومنبت خيري ونسرين
تحيا النفوس برئها إذا نغخت
وخرشت بين اوراق الرياحين
سقى لتلك القصور الشاهقات وما
تخفي من البقر الانسية العين
تستتر دجلة فيما بينها فترى
دهم السفين تمالي كالبراذين
مناظر ذات ابواب مفتحة
انيقة بزخاريف وتزيين
فيها القصور التي تهوي بأجحة
بالزائرين الى القوم المزورين
من كل حرقاة تملو فقارتها
قصر من الساج عال ذو اساطين
وقدم عبدالملك بن صالح بن علي بن عبدالله
ابن عباس الى بغداد فرأى كثرة الناس بها فقال
ما مرت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت
ان الناس قد نودي فيهم ؛ ووجد على بعض
الاميال بطريق مكة مكتوبا :

ايا بغداد يا اسفي عليك
متى يتقضي الرجوع لنا إليك
قنعنا سالمين بكل خير
وينعم عيشنا في جانبك
ووجد على حائط بجزيرة قبرص مكتوبا :

فهل نحو بغداد مزار فيلتقى
مشوق ويحظى بالزيارة زائر
الى الله اشكو لا إلى الناس إته

على كشف ما القى من الهم قادر
وكان القاضي ابو محمد عبدالوهاب بن علي
ابن نصر المالكي قد بنا به القام ببغداد فرحل الى
مصر فخرج البغداديون يودعونهم وجعلوا يتجمعون

بالذندون من نواحي المصيصة بالشام والمعتم
والواثق والمتوكل والمنتصر وباقي الخلفاء ماتوا
بسامرا ثم انتقل الخلفاء الى التاج من شرقي بغداد
كما ذكرناها في التاج وتمطلت مدينة المنصور منهم .

وفي مدح بغداد قال بعض الفضلاء : بغداد
جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الاسلام ومجمع
الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة
ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الظرائف
واللطائف وبها ارباب الغايات في كل من واحاد
الدهر في كل نوع وكان ابو اسحق الزجاج
يقول ببغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية ؛ وكان
ابو الفرج البليغا يقول هي مدينة السلام بل مدينة
الاسلام فان الدولة النبوية والخلافة الاسلامية بها
عشنتا وفرختا وضربتا بعروقهما وبسقتا
بفروعهما وان هواءها اغذى من كل هواء وماءها
اعدب من كل ماء وان نسيمها ارق من كل نسيم
وهي من الاقليم الاعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة
ولم تزول ببغداد موطن الاكاسرة في سالف الازمان
ومنزل الخلفاء في دونة الاسلام ؛ وكان ابن العميد
إذا طرا عليه احد من منتحلي العلوم والآداب وأراد
امتحان عقله سألته عن بغداد ، فان فطن بخواصها
وتنبه على محاسنها واتنى عليها جعل ذلك مقدمة
فضله وعنوان عقله ثم سألته عن الجاحظ فان وجد
اثرا لمطالعة كتبه والاقتناس من نوره والاعتراف
من بحره وبعض القيام بمسائله قضى له بأنه غرة
شادخة في اهل العلم والآداب وان وجدته داما
لبغداد غفلا عما يجب ان يكون موسوما به من
الانتساب الى المعارف التي يختص بها الجاحظ لم
ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن ؛ ولما رجع
الصاحب عن بغداد سألته ابن العميد عنها فقال
بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد فجعلها مثلا في
الغاية في الفضل .. وقال ابن زريق الكاتب
الكوفي :

سافرت ابني لبغداد وساكنها
مثلا قد اخترت شيئا دونه الياس
هيئات ببغداد والدنيا باجمعها
عندي وسكان ببغداد هم الناس
وقال آخر :

بغداد يا دار اللوك ومجتنى
صنوف النى يا مستقر المناير
ويا جنة الدنيا وبها مجتنى الفنى
ومنبسط الامال عند المناجر

فقال يوشك هذا ان يكون في بغداد ؛ قيل
وانشد لنفسه في المعنى وضمنه البيت :

على بغداد معدن كل طيب
ومعنى نزهة التنزهينها
سلام كلما جرحت بلحظ
عيون المشتين المشتهينها
دخلنا كارهين لها فلما
الفناها خرجنا مكرهينها
وما حب الديار بنا ولكن
امر العيش فرقة من هوينها

قال محمد بن علي بن حبيب الماوردي كتب
الي اخي من البصرة وانا ببغداد :
طيب الهواء ببغداد يشوقني
قدما اليها وان عاقت معاذير
وكيف صبري عنها بعد ما جمعت
طيب الهوايين ممدود ومقصود

وقلد عبيدالله بن عبدالله بن طاهر اليمن
فلما اراد الخروج . قال :
ارحل الف و يقيم الف'
وتحيا لوعة ويموت قصف'
على بغداد دار اللهو مني
سلام ما سجا للعين طرف'
وما فارقتها لقلبي ولكن
الا جار من الحدثان كهف
نعمل زماننا سيمود يسوما
فيرجع آيف' ويسر الف'
فبلغ الوزير هذا الشمر فاعفاه ؛ وقال
شاعر يشوق ببغداد :

ولما تجاوزت المدائن سائرا
وايقنت يا بغداد اني على بعد
علمت بان الله بالخ امره
وان قضاء الله ينفذ في العبد
وقلت وقلبي فيه ما فيه من جوى'
ودمعي جار كالجمان على خدي
ترى الله يا بغداد يجمع بيننا
فالقي الذي خلقت فيك على العهد

لغرافه فقال والله لو وجدت عندكم في كل يوم مد'
من الباقي ما فارقتكم ، ثم قال :

سلام على بغداد من كل منزل
وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها
واني بشطى جانبها لعارف'
ولكنها ضاقت علي برحها
ولم تكن الازراق فيها تعاف
وكانت كخل كنت اهوى دنوه
واخلاقه تنأى به وتخالف
ولما حج اترشيد وبلغ زرود التفت الى ناحية
العراق وقال :

اقول وقد جزنا زرود عشية'
وكادت مطايانا تجوز بنا نجدا
على اهل بغداد السلام فاني
ازيد بسرى عن ديارهم بمدا

وقاز ابن مجاهد المقرئ رايت ابا عمرو بن
العلاء في النوم فقلت له ما فعل الله بك فقال دعني
مما فعل الله بي من اقام ببغداد على السنة
والجماعة ومات نقل من جنة الى جنة وعن يونس
ابن عبد الاعلى قال : قال لي محمد بن ادريس
الشافعي رضى الله عنه ابا يونس دخلت ببغداد
فقلت لا فقال ابا يونس ما رايت الدنيا ولا الناس .
وقال طاهر ابن المظفر بن طاهر الخازن :-

سفى الله صوب الغاديات محلّة'
ببغداد بين الخلد والكرج والجسر
هي البلدة الحسنة خصت لاهلها
باشياء لم يجمعن مذ كن في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة
وماء له طعم الذئ من الخمر
ودجلتها شيطان قد نظما لنا
بتاج الى تاج وقصر الى قصر
تراها كمسك والمياه كفضة'
وحصباؤها مثل اليواقيت والدر
.. قال ابو بكر الخطيب انشدني ابو محمد
الباقي قول الشاعر :

دخلنا كارهين لها فلما
الفناها خرجنا مكرهينها

وقال محمد بن علي بن خلف النيرماني :

وما هي ؟ قال : لا يتفق بها موت خليفة ! فنبسّم
المنصور وقال : الحمد لله على ذلك . وكان كما
قال ، فإن المنصور مات حاجباً ، والمهدي مات
بمابذان ، والهادي بميساباد ، والرشيدي بطوس ،
والأمين اخذ في شبافته ، وقتل بالجانب الشرقي ،
والمامون بطرسوس ، والمعتمد والوائق والمتوكل
والمستنصر بسامرا . ثم انتقل الخلفاء الى التاج
وتعطلت مدينة المنصور من الخلفاء ! قال عمارة بن
عقيل :

فدى لك يا بغداد كل مدينة
من الأرض حتى خطى ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها
وسيرت خليي بينها وركابيا
فلم ار فيها مثل بغداد منزلاً
ولم ار فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل اهليها ارق شمانلا
واعذب الفاظا واحنى معانيا
وقائلة لو كان ودك صادقا
لبغداد لم ترحل فقلت جوايبا
يقيم الرجال الموسرون بارضهم
وترمي النوى بالمقترين المراميا

اعاينت في طول من الأرض او عرض
كبغداد من دار بها مسكن الخفض ؟
صفا العيش في بغداد واخضر عوداً
وعيش سواها غير خفض ولا غض
قضى ربها ان لا يموت خليفة
بها ، إنه ما شاء في خلقه يقضي

- ٩ -

القرويني : زكريا بن محمد بن محمود /

٦٨٢هـ

آثار البلاد واخبار العباد

بيروت دار صادر

١٩٦٠م ص ٢١٢

بغداد

ذكر ابو بكر الخطيب ان المنصور بنى مدينة
بالجانب الغربي ، ووضع اللبنة الاولى بيده ،
وجعل داره وجامعها في وسطها ، وبنى فيها قبة
فوق ايوان كان علوها ثمانين ذراعاً . والقبة
خضراء على رأسها تمثال فارس بيده رمح ، فاذا
راوا ذلك التمثال استقبل بعض الجهات ومد
رمحه نحوها ، فعملوا ان بعض الخوارج يظهر
من تلك الجهة ، فلا يطول الوقت حتى يأتي الخبر
ان خارجياً ظهر من تلك الجهة . وقد سقط رأس
هذه القبة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة في يوم
مطر ربيع ، وكانت تلك القبة علم بغداد وتاج
البلد ، ومآثرة بني العباس . وكان بجانبها
الشرقي محلة تسمى باب الطاق ، كان بها سوق
انظير فاعتقدوا ان من تمسك عليه شيء من الامور
فاشترى طيراً من باب الطاق وارسله ، سهل عليه
ذلك الامر . وكان عبدالله بن طاهر طال مقامه
ببغداد ولم يحصل له اذن الخليفة ، فاجتاز يوماً
بباب الطاق فرأى قمرية تنوح ، فأمر بشرائها
واطلاقها ، فامتنع صاحبها ان يبيعها إلا بخمسمائة
درهم ، فاشترائها واطلقها وانشأ يقول :

أم الدنيا وسيدة البلاد وجند الأرض ومدينة
السلام ، وقبة الاسلام ومجمع الرافدين ، ومعدن
الظرائف ومنشأ ارباب الغايات ، هواؤها الطف من
كل هواء ، وماؤها اعذب من كل ماء ، وتربتها
اطيب من كل تربة ، ونسيمها ارق من كل نسيم !
بناها المنصور ابو جعفر عبدالله بن محمد بن علي
ابن عبدالله بن عباس ، ولما اراد المنصور بناء مدينة
بعث رواداً يرتاد موضعاً ، قال له : ارى يا امير
المؤمنين ان تبني على شاطئ دجلة ، تحلب إليها
الميرة والامتعة من البر والبحر ، وتأتيها المادة من
دجلة والفرات ، وتحمل إليها ظرائف الهند
والصين ، وتأتيها ميرة ارمينية واذربيجان وديار
بكر وربيعة ، لا يحمل الجند الكثير إلا مثل هذا
الموضع . فاعجب المنصور قوله وأخذ المنجمين ،
وفيهم نوبخت ، باختيار وقت البناء فاخترتوا
طالع القوس الدرجة التي كانت الشمس فيها ،
فاتفقوا على ان هذا الطالع مما يدل على كثرة
العمارة وطول البقاء ، واجتماع الناس فيها
وسلامتهم عن الأعداء فاستحسن المنصور ذلك ثم
قال نوبخت : وخلة اخرى يا امير المؤمنين قال :

ناحت مطوقة بباب الطاق
فجرت سوابق دمي المهراق
كانت تفسرد بالاراك وربما
كانت تفسرد في فروع الساق
فرمى العراق بها العراق فأصبحت
بعد الراك تنوح في الاسواق

فجعتْ بِأَفْرَاجِ فَاسِيلِ دَمْعِهَا

ان الدمسوع تسوح بالمشاق

تعمس الفراق' وتب جبل' وتينه

وسقاه من منه الاستاذ د سوي

ماذا اراد بقصده قمرية

لم تدر ما بغداد في الافاق

بي مثل' ما بك يا حمامة' فاسالي

من فك اسرك ان يحل' وثاقى

هذه صفة المدينة الغربية، والان لم يبقَ منها
اثر . وبغداد عبارة عن المدينة الشرفية كان اصلها
قصر جعفر بن يحيى اليرمكي ، والان هي مدينة
عظيمة كثيرة الأهل والخيرات والثمرات ، تجبي
إليها لطائف الدنيا وظرائف العالم إذ ما من متاع
ثمين ولا عرض نفيس إلا ويحمل إليها ، فهي
مجمع لطيبات الدنيا ومحاسنها ، زمعدن لأرباب
الغايات وأحد الدهر في كل علم وصنعة . وبها
حريم الخلافة ، وعليه سور ابتدأه من دجلة
وانتهأه الى دجلة كشيبه الهلال ، وبه ابواب : باب
سوق التمر باب شاهق البناء عال . أغلق من أول
أيام الناصر واستمر إغلاقه . ذكر ان المسترشد
خرج منه فأصابه ما أصابه فتطروا به وأغلقوه .
وباب النوبي وعنده المتبسة التي يقبلها السلوك
والرسل إذا قدموا بغداد . وباب العنمة وعنيبه
باب عظيم من الحديد نقله المعتصم مر عمورية لم
يُرَ مصراعان أكبر منهما من الحديد ، ومن عجائبها
دار الشجرة من ابنية المقتدر بالله . دار فيحاء
ذات بساتين مؤنقة ، وإنما سُميت بذلك لشجرة
كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة
كبيرة امام ابوابها ، ولها من الذهب واغضة ثمانية
عشر غصنا ، ولكل غصن فروع كثيرة مكلثة
بانواع الجواهر على شكل الثمار . وعلى اعد لها
انواع الطير من الذهب والفضة ، إذا هب الهواء
سمعت منها الهدير والصفير وفي جانب الدار عن
يمين البركة تمثال خصبة عشر فارسا ، ومثله عن
يسار البركة قد البسوا انواع الحديد المدبج
مقلدين بالسيوف ، وفي ايديهم المطارد يحركسون
على خط واحد ، فيظن ان كل واحد قاصد الى
صاحبه . ومن مفاخرها المدرسة التي انشاها
المستنصر بالله . لم يبن مثلها قبلها في حسن
عمارتها ورفعة بناها ، وطيب موضعها على شاطئ
دجلة واحد جوانبها في الماء . لم يعرف موضع أكثر
منها اوقافا ولا أرفه منها سكنا . وعلى باب
المدرسة ايوان ركب في صدره صندوق الساعات

على وضع عجيب ، يعرف منه اوقات الصلوات
واقضاء الساعات الزمانية نهارا وليلا ؟ قال ابو
الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي :

يَا أَيُّهَا التَّنْصُورُ يَا مَالِكَا

برايه صعب التيالي يهزون !

شيدت للسه ورضوانيه

اشرف بتيان يروق الغيئون

ايوان حنن وصفه مدهش

بخار في منظره الناظرون !

تهدي الى الطاعات ساعاته

الناس وبالنجم هم يهتدون

صنور في فلك دائر

والشمس تجري مالها من سكون

دائسرة من لازورد حلت

نقطة تيزر فيه سر مصون

فتلك في الشكل وهذا معا

كمثل هاء ركب وسط تون

فهي لحياء العلى والنسدى

دائسرة مركزها العالحنون

واما اولو الفضل من العلماء والزهاد والعباد
والادباء والشعراء والصناع فلا يعلم عددهم إلا
انه . ولنذكر بعض مشاهيرنا ان شاء الله .
ينسب إليها القاضي ابو يوسف . ذكر انه كان رآه
رجل يهودي وقت الظهيرة يمشي رابكا على بقلة ،
واليهودي يمشي راجلا جائعا ضعيفا ، فقال
للقاضي : اليس نبيكم يقول الدنيا سجن المؤمن
وجنة الكافر ؟ قال نعم . قال فانت في السجن
وانا في الجنة والحالة هذه ! فقال القاضي : نعم
ياعدو الله ، بالنسبة إلى ما اعد الله لي من
الكرامة في الآخرة في السجن ، وانت بالنسبة إلى
ما اعد الله لك في الآخرة من العذاب في الجنة !
وحكي ان الهادي الخليفة اشترى جارية فاستفتى
فقال الفقهاء : لا بد من الاستبراء والاعتناق والتزويج
فقال القاضي ابو يوسف : زوجها من بعض اصحابك
وهو يطلقها قبل الدخول وحلت لك . وحكي ان
الرشيد قال لزبيدة : انت طالق ثلاثا ان بت الليلة
في مملكتي ! فاستفتوا في ذلك فقال ابو يوسف :
تبيت في بعض المساجد فان المساجد لله ! فوالاه
القضاء بجميع مملكته . وحكي ان زبيدة قالت
للرشيد : انت من اهل النار . فقال لها : إن كنت
من اهل النار فانت طالق ثلاثا ! فسألوا عنه فقال :

فانتشر ذكر ذلك واستقبح من الخليفة . وورد كتاب المأمون من طرسوس يأمر باشخاص أحمد فدعا المعتصم عند ذلك أحمد وقال للناس اتعرفون هذا الرجل قالوا نعم هو أحمد بن حنبل قال انظروا اليه ما به كسر ولا هشم وسلّمته اليهم . وحكى صالح بن أحمد قال دخلت على أبي وبين يديه كتاب كتب اليه بلغني ابا عبدالله ما أنت فيه من الضيق وما عليك من الدين وقد بعثت اليك اربعة آلاف درهم على يد فلان لا من زكاة ولا من صدقة وانما هي من إرث أبي . فقال أحمد قل لصاحب هذا الكتاب أما الدين فصاحبه لا يرهقنا ونحن نعافيه والعيال في نعمة من الله قال فذهبت اتي الرجل وقلت له ما قال أبي والله يعلم ما نحن فيه من الضيق فلما مضت سنة قال لو قبلناها لذهبت .

وحكى أحمد بن حرار قال كانت أمي زمنة عشرين سنة فقالت لي يوماً : اذهب اتي أحمد بن حنبل وسله ان يدعو الله لي . فذهبت ودققت الباب فقالتوا من ؟ قلت : رجل من ذاك الجانب ، وسألني أمي الزمنة ان أسالك ان تدعو الله لها . فسمعت قائلاً يقول : نحن احوج إلى من يدعو الله لنا ! فوليت منصرفاً فخرجت عجوز من داره قالت : أنت الذي كلمت ابا عبدالله ؟ قلت : نعم . قالت : تركته يدعو الله لها فنجت الى بيتي ودققت الباب ، فخرجت أمي على رجلها تمسّي وقالت : قد وهب الله لي العافية . وذكروا ان أحمد بن حنبل جعله المعتصم في حل يوم قتل بابك الخرمي او يوم فتح عمورية . وتوفي أحمد سنة إحدى وأربعين ومائتين عن تسع وسبعين سنة . وحكى ابو بكر المروزي قال : رأيت أحمد بن حنبل بعد موته في المنام في روضة ، وعليه حلّتان خضراوان وعلى رأسه تاج من نور ، وهو يمشي مشياً لم اكن اعرفه . فقلت : يا أحمد ما هذه المشية ؟ قال : هذه مشية الخدام في دار السلام ! فقلت : ما هذا التاج الذي اراه فوق رأسك ؟ فقال : ان ربّي اوقفني وحاسبني حساباً سيراً ، وحباني وقربني واباحني النظر وتوجني بهذا التاج ، وقال لي : يا أحمد هذا تاج الوفاق توجتك به كما قلت القرآن كلامي غير مخلوق . وينسب اليها ابو علي الحسين ابن صالح بن خيران . كان عالماً شافعي المذهب جامعاً بين العلم والعمل والورع . طلبه علي بن عيسى وزير المتقدر لتوليته القضاء فأبى وهرب فخنم بابه بضعة عشر يوماً ، قال ابو عبدالله بن الحسن العسكري : كنت صغيراً وعبرت مع أبي على باب أبي علي بن خيران ، وقد وكل به الوزير علي بن عيسى .

هل يخاف مقام ربّه ؟ قالوا : نعم . قال : فلا يقع الطلاق لان الله تعالى يقول : ولن خاف مقام ربّه جنتان . وينسب اليها القاضي يحيى بن اكرم . كان فاضلاً غزير العلم ذكي الطبع ، لطيفاً حسن الصورة حلو الكلام ، كان المأمون يرى له لا يفارقه ، ويضرب به المثل في الذكاء . وولي القضاء وهو ابن سبع عشرة سنة فقال بعض الحاضرين في مجلس الخليفة : اصلح الله القاضي ! كم يكون سنّ عمره ؟ فعلم يحيى انه قصد بذلك استحقاقه لقلّة سنه ، فقال : سنّ عمري مثل سن عمر بن عتاب بن اسيد حين ولاه رسول الله ، عليه السلام ، قضاء مكة ! فتعجب الحاضرون من جوابه . وحكى انه كان ناظر الوقوف ببغداد فوق العيمان له وقالوا : يا ابا سعيد اعطنا حقنا ! فأمر بحبسهم فقبل له : لم حبست العيمان وقد طنبوا حقهم ؟ فقال : هؤلاء يستحقون ابلغ من ذلك ، إنهم شهبوني بأبي سعيد اللوطي من مدينة كذا ! وكان هذا قصدهم فما فات القاضي ذلك . وحكى انه اجتاز بجمع من مماليك الخليفة صبيانا حساناً فقال لهم : لولا انتم لكنا مؤمنين . فعرف المأمون ذلك فأمر ان يذهب كل يوم الى باب داره اربعمائة مملوك حسن الصورة ، حتى إذا ركب يشنون في خدمته الى دار الخلافة ركاباً . وينسب إليها ابو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل - كان اصله من مرو وجيء به حملاً الى بغداد فنشأ بها - فلما كان ايام المعتصم وقع في محنة المعتزلة ، جمع المعتصم بينه وبين المعتزلة وكبيرهم القاضي ابو داود . قالوا : ان القرآن مخلوق . قال لهم أحمد : ما الدليل على ذلك ؟ قالوا : قوله تعالى . وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث . فقال لهم أحمد : المراد من الذكر ههنا الذكر عند قوله تعالى : ص والقرآن ذي الذكر . فالذكر مضاف الى القرآن فيكون غير القرآن ، وههنا مطلق وفي ص مفيد ، فيجب حمل المطلق على المقيد . فانقطعت حجّتهم ، فقال المعتصم لأبي داود : ما تقول في هذا ؟ فقال القاضي : هذا ضالّ مضلّ يجب تأديبه ! وعن ميمون بن الأصبغ قال : كنت حاضراً عند محنة أحمد ، فلما ضرب سوطاً قال : بسم الله ، فلما ضرب الثاني قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلما ضرب الرابع قال : لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا !

وعن محمد بن اسماعيل قال : سمعت شاباً يقول ضربت لأحمد ثمانين سوطاً لو ضربت فيلًا لهدته فجرى دمه تحت الخشب . ثم أمر بحبسه

وكانت جنازته قد رفعت اول النهار فما وصل الى القبر الا وقت العشاء لكثرة الخلق . وقال لي خزيمة رايت احمد بن حنبل في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وتوجني والبسني نعلين من ذهب ! قلت فما فعل الله ببشر ؟ قال : يخ بخ ! من مثل بشر تركته بين يدي الخليل وبين يديه مائدة انعام والخليل مقبل عليه ، وهو يقول له : كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ! وقال غيره : رايت بشراً انحافي في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وقال يا بشر اما استجبت مني وكنت تخافني كل ذلك الخوف ؟ وراه غيره فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لي يا بشر لقد توفيتك يوم توفيتك وما على وجه الأرض احب إلي منك !

وينسب إليها ابو عبدالله الحرث بن اسد المحاسبي . كان عديم النظر في زمانه علماً وورعاً وحالاً كان يقول : ثلاثة اشياء عزيزة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الديانة ، وحسن الإجابة مع الأمانة ، مات ابوه اسد المحاسبي وخلف من المال الوفيا ما اخذ الحارث منه حبيبة ، وكان محتاجاً الى دائق ، وذلك لان اياه كان رافضياً فقال الحرث : اهل ملتين لا يتوارثان !

وحكى الجنيد : إن المحاسبي اجتاز بي يوماً فرايت اثر الجوع في وجهه ، فقلت : يا عم لو دخلت علينا ساعة ! فدخل فعمدت الى بيت عمي ، وكان عندهم اطعمة فاخرة فجنبت بأنواع من الطعام ووضعت بين يديه فمد يده واخذ نعمة رفعها الى فيه يلوكها ولا يزدردها ، ثم قام سريعا ورمى اللقمة في الدهليز وخرج ما كلمني فلما كان الفقد قلت : يا عم سررتني ثم نفست علي ! فقال يا بني اما الفاقة فكانت شديدة وقد اجتهدت ان اناك من الطعام الذي جعلته بين يدي ، ولكن بيني وبين الله علامة وهي ان الطعام إذا لم يكن مرضياً يرتفع منه الى انفي زفر ! لا تقبله نفسي ! توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين . وينسب إليها ابو الحسن السري ابن المغلس السقطي ، خال ابي القاسم الجنيد واستاذه وتلميذ معروف الكرخي . دعا له استاذه معروف وقال له : اغنى الله قلبك ! فوضع الله تعالى فيه الزهد . وقيل إن امرأة اجتازت بالسري ومعهما ظرف فيه شيء فسقط من يدها وانكسر . فاخذ السري شيئاً من دكانه واعطاها بدل ما ضاع عليها فرأى معروف ذلك فاعجبه وقال له ابغض الله إليك الدنيا ؛ فتركها وتزهد كما دعا له .

وشاهدت المولكين على بابہ فقال لي ابي : يا بني ابصر هذا حتى تحدث ان عشت ان انساناً فعل به هذا فامتنع عن القضاء . ثم ان الوزير عفا عنه وقال : واردنا بالشيخ ابي علي إلا خيراً ، واردنا ان نعلم الناس ان في ملكنا رجلاً يعرض عليه قضاء الشرق والغرب وهو لا يقبل . توفي ابن خيران في حدود عشرين وثلاثمائة . وينسب إليها ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي . كان عالماً بعلم التفسير والحديث والفقه والادب والوعظ ، وله تصانيف كثيرة في فنون العلوم .
توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

وينسب إليها الوزير علي بن عيسى وزير المعتذر ووزير ابنه المطيع ، ركب يوم الموسم كما كان الوزراء يركبون في موكب عظيم ، فراه جمع من الضرباء قالوا من هذا ؟ وكانت امرأة عجوز تمشي على الطريق قالت : كم تقولون من هذا ، هذا واحد سفت من عين الله تعالى فابتلاه الله بهذا كما ترونه ، فسمع هذا القول علي بن عيسى فرجع الى بيته واستعفى من الوزارة ، وجاور مكة الى ان مات . وينسب إليها ابو نصر بشر بن الحارث الحافي ذكر ابوب المطار انه قال نه بشر : الا احديثك عن بدو امري ؟ بينا انا امشي إذ رايت قرطاساً على وجه الارض عليه اسم الله تعالى فاخذته وكنت لا املك الا درهماً واحداً اشتريت به الماورد والمسك ، غسلت القرطاس بالماورد وطيبته بالمسك ثم رجعت الى منزلي ونمت ، فأتاني آت يقول : طيبت اسمي لاطيبين ذكرك وطهرتته لأطهرن قلبك !

وحكى ان بشراً الحافي دعي الى دعوة ، فلما وضع الطعام بين يديه اراد ان يمد يده إليه فما امتدت حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال بعض الحاضرين الذي كان يعرف بشراً : ما كان لصاحب الدعوة حاجة الى إحضار من اظهر ان طعامه ذو شبهة .

وحكى ان احمد بن حنبل سئل عن مسألة في الورع فقال : لا يحل لي ان اتكلم في الورع وانا آكل من غلة بغداد ! لو كان بشر بن الحارث حاضراً لأجابك فإنه لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد ! توفي سنة تسع وعشرين ومائتين عن خمس وسبعين سنة .

وحكى الحسن بن مروان قال : رايت بشراً الحافي في المنام بعد موته فقلت له : ابا نصر ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ولكل من تبع جنازتي ،

فلما عدت الى بغداد ودخلت عليه مد يده واخذ الدرهم .

وحكى بعض الهاربين عن ظالم قال : رأيت الجنيد واقفاً على باب رباطه فقلت . يا شيخ اجزني اجارك الله ! فقال : ادخل الرباط . فدخلت فما كان الا يسيراً حتى وصل الطالب بسيف مسلول ، فقال للشيخ ابن مشى هذا الهارب فقال الشيخ : دخل الرباط ، فمر على وجهه ، وقال تريد ان تقويه على ! قال الهارب : قلت للشيخ كيف دللته علي ، اليس لو دخل الرباط قتلني ؟ فقال الشيخ : وهل نجوت الا بقولي دخل الرباط ؟ فما زال منا الصدق ومنه اللطف

وحكى ان رجلاً اتى الجنيد بخمسائة دينار ، وكان هو جالساً بين اصحابه وقال له خذ هذا ، وانفق على اصحابك فقال له : هل لك غيرها ، قال نعم لي دنائير كثيرة قال : فهل تريد غيرها ؟ قال نعم . قال خذها اليك فانت احوج اليها منا .

قال ابو محمد الجزري : لما كان مرض موته كنت على راسه وهو يقرأ ويسجد فقلت : ابا قاسم ارفق بنفسك . فقال : يا ابا محمد هوذا صحيفتي تطوى ، وانا احوج ما كنت الساعة ا ولم يزل ياكباً وساجداً حتى فارق الدنيا سنة ثمان وستين ومائتين .

وقال جعفر الخلدني : رأيت الجنيد بعد موته في المنام قلت : ما فعل الله بك يا ابا قاسم ؟ فقال : طاحت تلك الاشارات وغابت تلك المبارات ، ونفدت تلك العلوم وامحّت تلك الرسوم ، وما بقينا الا على الركيعات التي كنّا نصلّيها في جوف الليل .

وينسب اليها ابو الحسن علي بن محمد الزين الصغير . كان من المشايخ اكابر صاحب الحالات والكرامات . حكى ابو عبدالله بن خفيف قال : سمعت ابا الحسن بمكة يقول : كنت في بادية تبوك فقدمت الي بشر لاسقتني منها ، فزلقت رجلي ، فوقعت في قعر البئر فرأيت في البئر زاوية . فاصلحت موضعاً وجلست عليه لئلا يعسد الماء ما علي من اللباس ، وطابت نفسي وسكن قلبي ، فبينما انا قاعد اذا انا بشخصة فتملكت فاذا نفسي حية عظيمة تنزل علي ، فراجعت نفسي فاذا نفسي ساكنة . فزرات ولفت ذنبها علي وانا هادي الس لا اضرب شيئاً ، واخرجتني من البئر وحلّنت عني ذنبها ، فلا ادري الارض ابتلعها ام السماء رفعتها ؟ فقممت ومشيت الى حاجتي .

وحكى ان امرأة جاءت الى السري وقالت يا ابا الحسن انا من جيرانك وان ابني اخذه الطائف واني اخشى ان يؤذيه فان رأيت ان نجيه معي او تبعت اليه احداً فقام يصلي وطول صلاته فقالت المرأة ابا الحسن ، الله الله ، بي ولدي ! اني اخشى ان يؤذيه السلطان فسلم وقال لها : انا في حاجتك فما برحت حتى جاءت امرأة وقالت لها : لك البشري فقد خلّوا عن ابنك . حكى الجنيد قال : دخلت على السري فاذا هو قاعد يبكي وبين يديه كوز مكسور ، قلت : ما سبب البكاء ؟ قال : كنت صائماً فجاءت ابنتي بكوز ماء معلقته حتى يبرد فافطر عليه ، فاخذتني عيني فنمت فرأيت جارية دخلت علي من هذا الباب في غنة الحسن ، فقلت لها لمن انت ؟ قالت : لمن لا يبرد الماء في الكيزان الخضر وضربت بكما الكوز ومررت وهو هذا . قال الجنيد فمكنت اخلف اليه مدة طويلة اري الكوز المكسور بين يديه . وحكى ان السري كل ليلة اذا افطر ترك لقمة ، فاذا اصبح جاءت عصفورة واكلت تلك اللقمة من يده ، فجاءت العصفورة في بعض الايام ووقعت على شيء من جدار حجرته ثم طارت وما اكلت اللقمة فحزن الشيخ لذلك وقال بذنب مني نفرت العصفورة حتى تذكر انه اشتهى الخبز بالتدبير فاكل ، فعلم ان انقطاع العصفورة بسبب ذلك ، فعهده ان لا يتناول ابداً شيئاً من الايام فعادت العصفورة .

وحكى انه اشترى كوز بستين ديناراً وكتب في دستورته ثلاثة دنائير ربحه فرتفع الربح وصار الكوز بستين ديناراً فاتاه الدلال واخبره انه بستين ديناراً فقال اني عقدت عقداً بيني وبين الله تعالي اني ابيعه بثلاثة وستين لاجله لست ابيعه باكثر من ذلك فقال الدلال واني عقدت عقداً بيني وبين الله تعالي اني لا اغش مسلماً . توفي السري سنة احدى وخمسين ومائتين . وينسب ابو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد اصله من نهاوند ومولده بغداد ، كان ابوه زجاجاً وكان هو خرازاً ، صحب الحرث المحاسبي وخاله السري النسطقي وكان الجنيد يفتي على مذهب سفيان الثوري كان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثين الف تسبيحة ، وعن جعفر الخلدني ان الجنيد عشرين سنة ما كان يأكل في كل اسبوع الا مرة . حكى ابو عمرو الزجاجي قال اردت الحج فدخلت على الجنيد فاعطاني درهماً شددته في مئزري ، فلم انزل منزلاً الا وجدت رزقاً فما احتجت إلى اخراج الدرهم

الرمل حفيده وواريت جسدي فيها الى صدي ،
فلما كان نصف الليل سمعوا صوتاً عالياً : يا اهل
المرحلة ان لله ولياً في هذه المرحلة فالحقوه فجاهت
جماعة واخرجوني وحملوني الى القرية .

وينسب اليها الاستاذ علي بن هلال الخطاط ،
ويعرف بابن البواب . كان عديم النظر في صنمته ،
لم يوجد مثله لا قبله ولا بعده ، فان الكتابة العربية
كانت بالطريقة الكوفية ثم ان الوزير ابا الحسن
ابن مقله نقلها الى طريقته ، وطريقته ايضا حسنة ،
ثم ان ابن البواب نقل طريقة ابن مقله الى طريقته
التي عجز عنها جميع الكتاب من حسننها وحلاوتها
وقوتها وصفاتها ، ولا يعرف لطافة ما فيها الا
 كبار الكتاب ، فإنه لو كتب حرفاً واحداً مائة مرة
لا يخالف شيئاً منها لآنها قلبت في قالب واحد ،
والناس كلهم بعده على طريقته . توفي سنة ثلاث
وعشرين واربعمئة .

وينسب اليها ابو نواس الحسن بن هانيء
كان ادبياً فصيحاً بليغاً شاعراً اوجد زمانه . حكى
ان الرشيد قرأ يوماً : ونادي فرعون في قومه
قال : يا قوم اليس لي ملك مصر وهذه الانهار
تجري من تحتي افلا تبصرون ؟ فقال : اطلبوا لي
شخصاً انذل ما يكون حتى اوليه مصر . فطلبوا
شخصاً مخبلاً كما اراد الخليفة ، فولاه مصر وكان
اسمه خصيباً . فلما ولي احسن السيرة وباشر
الكرم وانتشر ذكره في البلاد حتى قيل :

إذا لم تزر ارضَ الخصيبِ ركائبنا

فابن لئسا ارض سواه نرور'
فتى بشتري حسن الثناء بعينه
ويعلم ان الدائرات تدور'

فقصده شعراء العراق وابو نواس معهم وهو
صبي ، فلما دنوا من مصر قالوا ذات يوم : نحن
من ارض العراق وندخل مصر فلا ياخذن علينا
المصريون خطأً او عيباً ! ليعرض كل واحد مننا
شعره حتى نعتبره ، فإن كان شيء منها محتاجاً الى
اصلاح اصلحناه . فظاهر كل واحد من معه على
القوم فقالوا لابي نواس : هات ما عندك . فقال
عندي هذا :

والليل ليل والنهار نهار'

والبغل بغل والحمير حمير'
والديك ديك والدجاجة زوجه
والبط بط والهزار هزار'

وحكى جعفر الخلدي : عزمت على السفر
فودعت ابا الحسن المزين وقلت زودني شيئاً .
فقال : ان ضاع شيء وارتد وجدانه او اردت ان
يجمع الله بينك وبين انسان فقل : يا جامع الناس
ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد . رد الي
ضالتي او اجمع بيني وبين فلان . قال : فما دعوت
في شيء الا استجبت . توفي بمكة مجاوراً سنة
ثمان وعشرين وثلاثمئة .

وينسب اليها محمد بن اسماعيل ، ويعرف
بخير النساج ، كان من اقربان الثوري عاش مائة
وعشرين سنة . كان اسود عزم الحج . اخذه
رجل على باب الحرم وقال : انت عبدي واسمك
خير ! فمكث على ذلك مدة يستعمله في نسج الخز
ثم عرف انه ليس عبده ولا اسمه خير ، قال له :
انت في حل من جميع ما عملت لك . وفارقه .

وحكى ان رجلاً جاءه وقال له : يا شيخ امس
قد بعث الغزل وشددت ثمنه في مئزر ، وانا
جئت خلفك وحللته فقبضت يدي ! فضحك
الشيخ واومى الى يده فحلت وقال : اصرف هذه
اندرام في شيء من حاجتك ولا تمد الى مثلها .
ورئي في المنام بعد موته ، قيل له : ما فعل الله بك ؟
قال : لا تسألني عن هذا ، استرحت من دنياكم
الوخرة !

وينسب اليها ابو محمد روثم بن احمد
البغدادي . كان من كبار المشايخ وكان عالماً بعلم
الفراء والفقه على مذهب داود ، وكان يقول : من
حكمة الحكيم الشريعة على اخوانه والتضييق على
نفسه ، لان حكم الشريعة اتباع العلم وحكم الورع
التضييق على نفسه .

حكى انه اجتاز وقت الظهيرة بدرب في بغداد
وكان عطشان ، فاستقى من بيت فخرجت جارية
بكوثر ماء فاخذ منها وشرب ، فقالت الجارية :
صوفي يشرب بالنهار ! فما افطر بعد ذلك . توفي
سنة ثلاث وثلاثمئة .

وينسب اليها ابو سعيد احمد بن عيسى
الخرزاز . كان من المشايخ الكبار . صحب ذا النون
المصري والسري السطفي وبشراً الحافي ، وكان
ابو سعيد يمشي بالتوكل .

حكى عن نفسه قال : دخلت ابادية مرة
بغير زاد فاصابني فاقة ، فرايت المرحلة من بعيد
فسررت بان وصلت الى العمارة ثم فكرت في نفسي
اني سلوت ، واتكلت على غيري فآليت الا ادخل
المرحلة الا اذا حملت اليها ، فحمرت لنفسى في

الأبدال لا يدخل العمران ولا يختلط بأحد ، حكى
بشر الحافي قال لغيته على عين ماء ، فلما ابصرني
عدا ، قال بذنب مني رأيت اليوم انسياً فعدوت
خلعه ، وقلت أوصني فالتفت اليّ ، وقال عانق
الفقر وعاشر الصبر ، وخالف الشهوة واجمل بينك
اخلى من لحذك يوم تنقل اليه على هذا طاب المصير
الى الله تعالى .

الطاهرية : قرية من قرى بغداد بها
مستنقع يجتمع فيه في كل سنة ماء كثير عند زيادة
دجلة فيظهر فيه السمك المعروف بالبنّي فيضمه
السلطان بمال وافر ولسمكه فضّل على سائر
السمك لطيب لحمه ، وانه غلّة من حاصل هذه
القرية مع سائر غلاتها ، والله الموفق .

كرب

قرية فوق بغداد على ميل منها . وبها دكاكين
الكاغد والثياب الابريسية .

ينسب اليها ابو محفوظ معروف بن فيروز
الكرخي وكان من المشايخ الكبار مستجاب الدعوة
من موالي علي بن موسى الرضا ، كان استاذ السري
السقطي ، فقال له يوماً إذا كان لك الى الله حاجة
فاقسم عليه بي واهل بغداد يقولون قبر معروف
ترباق مجرب . حكى ان زبيدة بنت جعفر عبرت على
معروف مع مواليتها وخدمها ، فدعا عليها بعض
الحاضرين فقال له معروف : يا رجل كن عون
رسول الرحمن ولا تكن عون رسول الشيطان إن
رسول الرحمن يريد نجاته الخلق كلهم قال الله تعالى :
وما ارسلناك الا رحمة للعالمين . ورسول الشيطان
يريد هلاك الخلق كلهم قال الله تعالى مخبراً
عنه . بعزتك لاغوينهم اجمعين ، إن الذي اعطاهم
الدنيا على هواهم قادر ان يعطيهم الاخرة على
مناهم .

وحكى ابراهيم الأطروش انه قال لمعروف :
ابا محفوظ بلغني انك تمشي على المساء فقال ما
مشيت على الماء ولكن إذا هممت بالمبور يجمع
لي طرفها ، وحكى خليل الصياد قال : غاب ابني
الى الأنبار فوجدت امه وجداً شديداً فذكرت ذلك
لمعروف فقال : ما تريد ؟ قلت ان تدعو الله ليرده
علينا فقال اللهم إن السماء سماؤك والأرض ارضك
وما بينهما لك فات به !

قال خليل : اتيت باب الشام فإذا ابني قائم
منبهر يقول : الساعة كنت بالانبار .

فضحكوا وقالوا : هذا أيضاً له وجه
المضحك ! فلماً دخلوا على الخصيب وضموا
كرسيّاً كل واحد من الشمراء يقف عليه ويورد
شمعه حتى اوردوا جميعهم . بقي ابو نواس فقال
بعض الشمراء : ارفعوا الكرسي ، ما بنى احد !
فقال ابو نواس : اصبروا حتى اورد بيتا واحداً
ثم بعد ذلك ان اردتم فارفعوا ، فانشأ يقول :

انت الخصيب وهذه ميصّر

فتشابهها فكلاهما بحر !
فتحير الشمراء وانشد قصيدة خيراً من
قصائدهم كلها .

وحكى ان محمداً الامين امر بحبسه وامر
ان لا يترك عنده كاغد ودواة ، فحبس في دار ،
فدخل عليه خادم من خدام الخليفة ونام عنده
وعليه جبة سوداء ، فاخذ قطعة جص من الحائط
وكتب على جبة الخادم :

ما قدر عبدك بي نواس

وهو ليس بذي لباس
ولغيتره اوتلى بهيا
إن كنت تعمّل بالقياس
ولئن قتلت ابا نواسك

فيل من هو بو نواس
فقرأوا وفرجوا عنه .

وذكر انه رني في المنام بعد موته فقيل له :
ما فعل الله بك ؟ قال : قد غفر لي بابيات قتلتها
وهي تحت وسادتي ، فوجدوا تحت وسادته رقعة
فيها مكتوب :

يا رب ان عظمت ذنوبي كثرة

فلقد علمت بان عفوكم اعظم
ان كان لا يرزؤكم الا المحسنين
فمن الذي يرزؤه عبد مجرم
ادعوك يا ربي اليك تضرعاً
فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة غير الرجاء
وكريم عفوكم ثم ابي مسلم

جرجرايا : قرية من اعمال بغداد مشهورة
ينسب اليها على الجرجرائي كان من

وحتى محمد بن صبيح انه مرّ بمعروف رجل سقاء ينادي رحم الله من شرب ! فشرّب منه وكان صائماً وقال : لعن الله ان يستجيب منه .
 وحكى عبدالله بن سعيد الأنصاري انه رأى معروفاً في النوم واقفاً تحت العرش فيقول الله للملائكة : من هذا ؟ فقالت الملائكة : انت اعلم يا ربنا ، هذا معروف الكرخي قد سكر من حبك لا يفيق الا بلقائك !
 وحكى احمد بن ابي الفتح قال : رأيت بشراً الحافي في المنام قاعداً في بستان وبين يديه مائدة يأكل منها ، فقلت : ابا نصر ما فعل الله بك ؟ فقال : رحمني وغفر لي واباحني الجنة بأسرها وقال : كل من ثمرها ، واشرب من انهارها وتمتع بجميع ما فيها لما كنت تحرم نفسك شهوات الدنيا ! قلت ابن احمد بن حنبل ؟ قال : قائم على باب الجنة يشفع لاهل السنة ممن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق ! قلت : وما فعل معروف الكرخي ؟ فحرك راسه وقال هيهات ! حالت بيننا وبينه الحجب إن معروفاً ما كان يعبد الله شوقاً الى جنته ولا خوفاً من ناره ، وانما عبده شوقاً اليه . فرفعه الله الى الرفيع الأعلى ووقعت الحجب بيننا وبينه ، ذاك الترياق المقدس المجرب ، فمن كانت له الى الله حاجة فليات قبره وليدع فإنه يستجاب له .
 وحكى انه قال : إذا مت تصدّقوا بقميصي فإني احب ان اخرج من الدنيا عرباناً كما دخلتها ، توفي سنة إحدى ومائتين .

- ١٠ -

الحميري : محمد بن عبد المنعم ت/٧٢٧هـ

الروض المطار في خبر الاقطار

بغداد : دار مملكة خلفاء بني العباس وفيها اربع لغات ، بغداد بدالين مهملتين وبغداد معجمة الاخيرة وبغدان بالنون ، ومغدان باليم بدلاً من الباء ، وتذكر وتؤث . قالوا : وبغداد بالفارسية عطية الصنم لان بغ صنم ، وداذ عطية ، ولذلك كره الاصمعي هذه التسمية . وكانت قريبة من قري الفرس فاخذها ابو جعفر غصباً فبنى فيها مدينة وقال الجرجاني باغ بالفارسية هو البستان

الكثير الشجر ، وداذ معطي . فمعناه معطي البساتين ، قال ابو عثمان النهدي : كنا نسير مع جرير بن عبدالله البجلي حتى انتهى الى موضع فقال : اي موضع هذا ؟ قالوا : فطربل ، فحرك دابته ثم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : بنى مدينة بين دجلة والديجيل والصرّة وقطربل يجبي إليها خراج كل ارض وتجمع إليها جبابرة الارض ، وفي رواية يخسف بها كذا احسب . وسميت بغداد لانه اهدي الى كسرى خصي من المشرق ، وكان له صنم يقال له بغ ، فقال الخصي : بغذاذي اي اعطاني إلهي يعني الصنم ، ولهذا كان المتورعون يكرهون ان يسماوا ببغداد بهذا الاسم ويقولون ببغداد بالدال المهملة .

وكان ابو جعفر المنصور بعث رجالاً سنة خمس وأربعين ومائة يطلبون له موضعاً يبني فيه مدينة فطلبوا فلم يرضوا موضعاً حتى جاء موضعاً بالصرّة وقال : هذا موضع ارضاه تأتبه الميرة من الفرات ودجلة والصرّة ، وكان ابو جعفر هذا وهو عبدالله ابن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، بنى مدينة بين الكوفة والجزيرة سماها الهاشمية ، فأقام بها مدة الى ان عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لغزو الصائفة في سنة اربعين ومائة فصار الى بغداد فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ فقيل : بغداد ، فقال : هذه والله المدينة التي اعلمني ابي محمد بن علي اني ائبنيها وانزلها وينزلها ولدي من بعدي ، ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والاسلام حتى يتم تدبير الله تعالى وحكمه في تصح الروايات وتبين الدلالات والعلامات تأتبهما الميرة في الدجلة والفرات من واسط والابلة والاهواز وفارس وعثمان واليامة وما يتصل بذلك وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وارمينية والرقّة والشام والثغور ومصر والمغرب واصفهان وكور خراسان فالحمد لله الذي ذخرها لي واغفل عنها كل من تقدمني والله لابنيتهما ثم اسكنها ايام حياتي ويسكنها ولدي من بعدي ثم لتكونن اعمر مدينة في الدنيا ثم لابنين بعدها اربع مدن لا تخرب واحدة منهن ابدأ فبناها وبني

ذوبك دخلتها لا وقيل لرجل : كيف رأيت بغداد ؟ فقال : الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها . وقال آخر : لو ان الدنيا خربت وخرج اهل بغداد لعمروها ، وكان فراغ المنصور من بنائها وتقل الخزائن إليها والدواوين وبيوت الاموال سنة ست واربعين ومائة وكان استتمامه لجميع امر المدينة سنة تسع واربعين .

وقال احمد بن ابي يعقوب . بغداد وسط العراق ، والمدنة التي تسمى انني ليس لها نظير في مشارق الارض ولا في مغربها سعة وجمالة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء ، سكنها اهل الامصار والنور وانتقل إليها من جميع البلدان الفاصية والدانية وآثرها جميع اهل الآفاق على اوطانهم يجري في حافتيها النهران الاعظمان دجلة والفرات فتاتيها التجارات والميرة براً وبحراً بأيسر السعي حتى تكامل فيها كل متجر من المشرق والمغرب من ارض الاسلام ومن غير ارض الاسلام فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحشة وسائر البلدان الفاصية والدانية حتى يكون بها من التجارات اكثر مما في البلدان التي خرجت التجارات منها إليها، وهي مدينة بني هاشم ودار مملكتهم ومحل سلطنتهم لم يستبد بها احد قبلهم ولم يسكنها سواهم وهي وسط الدنيا لانها من الاقليم الرابع وهو الاقليم الاوسط الذي يمتد في الهواء في جميع الأزمان والفصول فيكون الحرّ شديداً في ايام القيظ ، والبرد شديداً في ايام الشتاء ويعتدل الفصائل الربيع والخريف . قال وبعثت الهوا وطيب الثرى وعذوبة الماء حسنت اخلاق اهلها ونضرت وجوههم وانفتحت اذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم والفهم والنظر والتمييز والتجارات والحذق بكل مناظرة وإحكام كل مهنة واتقان كل صناعة ، فليس عالم اعلم من عالمهم ولا اروي من روايتهم ولا اجدل من متكلمهم ولا اعرب من نحويتهم ولا افسح من قارئهم ولا امهر من طبييهم ولا احذق من مغنيهم ولا الّطف من صانعهم ولا اكتب من كاتبهم ولا ابين من منطيقهم ولا اعبد من عابدهم ولا اورع من

أترافقة ولم يستمها وبني ملطيه والمصبه والمنصورة . فوجه في حشر الصناعات والفعله من الشام والموصل والجل والكوكة وواسط والصد وامر باختيار قوم من اهل الفضل والعدالة والعه والامانة والمعرفة بالهندسة وكان فيمن احضر الحجاج بن ارضاة وابو حنيفة فكان اول ما ابتدء ببنائها في سنة خمس واربعين ومائة ثم قسم الارض اربعة اقسام وقلد القيام بكل ربع رجلاً من قواده ورجلاً من موابيه ورجلاً من المهندسين ونظر عند بنائها من اخذ الطالع فكان المشتري في القوس فدلّت النجوم على طول ثباتها وكثرة عمارتها وانصاب الدنيا إليها قال المخبر : ثم قلنا يا امير المؤمنين وخلة اخرى فيها تدل النجوم على انه لا يموت فيها خليفة ، فتسّم وقال : الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولذلك قال بعض مداح المنصور :

إن خير المنصور قصر السلام

إذ به حل سانس الاسلام
منزل لا يزال من حل فيه
آمناً من حوادث الايام

ولهذا قالوا : نزل بغداد سبعة خلفاء : المنصور والمهدي ومرسى الهادي وهارون الرشيد ومحمد الأمين وعبدالله المأمون والمتصم فلم يمّت بها واحد منهم الا محمد الأمين فإنه قتل خارج باب الانبار عند بستان طاهر ، وانتقل المتصم سنة ثلاث وعشرين ومائتين الى سر من رأى فهذا مصداق ما دلّت عليه النجوم . وانما سميت مدينة السلام لان دجلة كان يقال لها وادي السلام فقيل لبغداد مدينة السلام ، وقيل لانهم ارادوا مدينة الله واسمها الاول عند الناس الزوراء لانعطافها بانعطاف دجلة . وتسمى القوس زوراء لانعطافها ، وكان بعضهم يسميها الصيادة لانها تصيد قلوب الرجال ، وقال رجس من اهل البصرة : مررت ببغداد في السحر فأعجبني كثرة الاذان فيها فهتف بي هاتف : ما الذي يعجبك منها لقد فجر فيها البارحة سبعون الفا . ورأى ابو بكر الهذلي سفيان بن عيينه ببغداد فقال : باي

زاهدهم ولا افقه من حاكمهم ولا اخطب من خطيبهم ولا اشعر من شاعرهم ولا افنك من ماجنهم . وكانت بغداد في ايام الاكاسرة قرية من فرى طسوج بادوريا ومدينة الاكاسرة [اذ ذاك] المدائن [من مدن العراق وهي من بغداد على سبعة فراسخ وبها يونان كسرى انوشروان ، ولم تكن بغداد إلا ديراً حسب الصراة ولم يكن ببغداد ملك اثر قديم ولا حديث ، اما ملك العرب فبدا اولاً بالحجاز ثم استقر بدمشق من ايام معاوية رضي الله عنه لا يعرف بنو امية غيرها ، فلما جاء ابو العباس السفاح عرف فضل العراق وتوسطها في الدنيا وهو عبدالله بن محمد بن علي بن [عبدالله] العباس فنزل الكوفة اول مدة ثم انتقل الى الانبار فبنى باعلى شاطئ الفرات الهاشمية ، وتوفي قبل ان تستتم المدينة ثم كان من بنيان ابي جعفر ببغداد ما كان . ووضع الاساس وضرب اللبن العظام وحفرت الابار وعملت القناة التي من نهر كرخايا وهو الآخذ من الفرات واجريت الي داخل المدينة للشرب ونضرب اللبن ، وجعل للمدينة اربعة ابواب : باب الكوفة ، وباب البصرة وباب خراسان وباب الشام ، بين كل باب منها الى الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء ، وعلى كل باب منها بابا حديد عظيمان جليلان لا يفلق الواحد منهما ولا يفتح الا جماعة رجال يدخله الفارس بالعلم والرمح الطويل من غير ان يشنيه ولا يميله ، وجعل عرض اساس السور تسعين ذراعاً ثم ينخرط حتى يصير في اعلاه خمس وعشرون ذراعاً وارتفاعة ستون ذراعاً مع الشرفات ، وحول السور فصيل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع وبالفصيل ابرجة عظام وعليه الشرفات المدورة ، وحد لهم ان يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً وان يبنوا في جميع الارياض والدروب من الاسواق والمساجد والحمّامات ما يكتفي به اهل كل ناحية ومحلة ، وامرهم ان يجملوا قطائع القواد والجند ذراعاً معلوماً وللتجار ذراعاً معلوماً بينونه وينزلونه لسوقه الناس واهل البلدان ، وآخر ما بنى القنطرة الجديدة وبها اسواق كثيرة فيها سائر التجارات

مادة متصلة ثم ربيض وضاح مولى امير المؤمنين المعروف بقصر وضاح حاجب خزانة السلاح وهناك اسواق واكثر من كان فيه في هذا الوقت القريب ، الوراقون اصحاب الكتب فإن به اكثر من مائة حانوت للوراقين ، والكرخ السوق العظمى مادة من قصر وضاح الى سوق الثلاثاء طولاً مقدار فرسخين ، وكل تجارة لها شوارع معلومة في تلك الشوارع حوانيت ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجاور تجارة تجارة ، واحصيت الدروب والسكك فكانت ستة آلاف درب وسكة ، واحصيت المساجد فكانت ثلاثين الف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك واحصيت الحمامات عشرين الف حمام سوى ما زاد بعد ذلك ، وحفرت القناة التي تأخذ من الفرات في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والاجر من اعلاها ، فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارعها وشوارع الارياض صيفاً وشتاءً قد هندست هندسة لا ينقطع الماء منها في وقت ، وقناة اخرى من دجلة على هذا المثال سماها دجيلاً ، وجر لاهل الكرخ وما اتصل به نهراً يسمى نهر الدجاج لان اصحاب الدجاج كانوا يقعدون عنده ، ونهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة يحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر وتصر الى فريضة عليها الاسواق وحوانيت التجار لا تنقطع صيفاً وشتاءً ولهم الابار التي يدخلها الماء من هذه القنوات وانما احتيج الى هذه القنوات لكبر البلد وسمته ، وإلا فهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تندفق عليهم المياه حتى غرسوا النخل الذي حمل من البصرة وغيرها فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد ، وغرسوا الاشجار فثمرت ثمرات عجيبة وكثرت البساتين والجنات في ارض بغداد من كل ناحية لطيب المياه وطيب الارض وعمل فيها كل ما يعمل في بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا إليها من كل بلد واتواها من كل افسق ونزوعوا إليها من الاداني والاقاصي فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب الكرخ وجانب الارياض ، وفي كل طرف منه

الباي علم بري رعيتي ام ولدي وخاصتي ، فامسك الرومي عن الكلام . ثم تعقّب أبو جعفر الراي فراى ان القول ما قال فاتخذ العباسية واجرى القناة من دجلة واخرق السوق عن المدينة ، فلما فعل ذلك وجلس في قصره بالخلد نظر الى التجار من البزازين والصيرفي والقصاب وطبقات السوق فتمثل بهذين البيتين :

كما قال الحمار لسهم رام
لقد جُمعتَ من شتى لأمّسّر
جَمَعْتَ حديدَةَ وجمعتَ نصلًا
ومن عقب البعير ورش ينسّر

ثم قال : يا ربيع ان هذه العامة تجمعها كلمة وتراسها السفلة ولا اريتك معرضا عنها فإن اصلاحها يسير واصلاحها بعد إفسادها عسير فاجمعها بالرهبة واملا صدورها بالهيبه وما استطعت من رفق بها واحسان إليها فافعل .

وفي هذا الذي ذكرناه من اولية بغداد كفاية وهي اعظم ممّا قيل واشهر حالاً ممّا ذكر فلنقتصر على هذا القدر ثم إن دولة بني العباس استمرت بها من مبايعة السفاح بالكوفة يوم الخميس لثلاث عشرة خلون من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة الى ان ملكها الطّطر (التتر) حين دخلوا العراق واستولوا على تلك الآفاق ، وقتلوا الخليفة المستصم .

(*) كتاب الروي المطار في خبر الاقطار ، ١٠٩ - ١١٢ تح : احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٥ .

- ١١ -

ابو الغداء : عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حماه ت/٧٣٢

تقويم البلدان (١)

قال في اللباب : وانما سميت بغداد بهذا الاسم لان كسرى اهدى إليه خصي من المشرق

(١) تقويم البلدان ٢٩٢ - ٢٩٣ ، تحقيق رينود ، والبارون ديسلان ، باريس ١٨٤٠ .

مقبرة وفري متصلة وعمارات مادة ، والجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهو وليّ عهد ابيه وابتدا ببناءه سنة ثلاث واربعين ومائة واخطت المهدي قصوره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي بالرصافة وحفر نهراً يأخذ من النهروان سمّاه نهر المهدي يجري في هذا الجانب واقطع المهدي اخوته وقواده بعد من اقطع في الجانب الغربي وهو جانب مدينته ، وقسمت القطائع في هذا الجانب وتنافس الناس في النزول مع المهدي لمحبتهم له ولتوسعته عليهم ولانته كان اوسع الجانبين أرضاً . وفي الجانب الشرقي الذي نزله المهدي اربعة آلاف درب وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوى ما زاد الناس وخمسة آلاف حمام سوى ما زاد الناس بعد ذلك . وانتقل المعتصم الى سرّ من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين واتصل مقامه بها مدة حياته وأيام الواثق والمتوكل ولم تخرب بغداد ولا نقضت اسواقها لانهم لم يجدوا منها عوضاً ولانته اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسرّ من رأى .

قال احمد بن ابي الطاهر : اخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد الامير الناصر لدين الله عند دخوله مدينة السلام فوجد مائتي جبل وخمسين جبلاً ، وعرضه مائتي جبل وخمسة اجبل تكون سنة وخمسين الف جريب ومائتين وخمسين جريباً ووجد طول الجانب الغربي مائتين وخمسين جبلاً وعرضه خمسين جبلاً يكون ذلك سبعة عشر الف جريب وخمسمائة جريب فجميع ذلك ثلاثة وسبعون الف جريب وسبعمائة جريب وسبعون جريباً .

وحكى الهيثم بن عدي ان المنصور لما جلس في قصره بباب الذهب اذن لرسول ملك انروم فدخلوا عليه فقال لرسول ملك الروم : هل ترى عيباً ؟ قال : نعم عيوباً ثلاثة ، قال : ما هي ؟ قال : النفس خضراء ولا خضرة عندك ، والحياة في الماء ولا ماء عندك ، وعدوك مخالطك ومطلع على سرّك قال : اما الماء فحسبي منه ما بلغ الشفة ، واما الخضرة فللجد خلقت لا للعب واما السر فلا

ايضاً الرصافة لان الرشيد بنى فيه قصراً وسمّاه الرصافة ويسمى جانب الطاق نسبة الى رأس الطاق موضع السوّق الاعظم قال في المشترك ونهر معلّى منسوب الى المعلّى بن طريف مولى المنصور قال وهو اعظم محلّة ببغداد من الجانب الشرقي وفيها الحرّيم ودور الخلافة (٢) .

قال في اللباب وكلوذا قرية مشهورة من قرى بغداد قال في العريزي ومدينة كلوذا بينها وبين بغداد فرسخان ومن كلوذا الى النهروان اربعة فراسخ .

(٢) تقييد البلدان ٢٠٢ .

- ١٢ -

البغدادى : صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي ت/٧٣٩هـ

مراسد الاطلاع (١)

(بغداد) كانت امّ الدنيا وسيّدة البلاد ، فيها سبع لغات : بغداد ، وبغداد وبغداد ، ومغداد ، ومغداد ، ومغدان ، وبغدان ، وهي في اللغات كلّها تذكر وتؤنث ، وكانت في زمن الفرس قرية تقوم بها سوقّ للفرس . فاغار عليها المثنى في ايام سوقهم ، فانتسفاها . قال احمد بن حنبل : بغداد من الصراط الى باب التين ثم انتقلت الى الجانب الشرقي من الشماسية الى كلوذى ، وكانت عظيمة فخرّبت باختلاف المساكير إليها واستيلائهم على دور الناس وامتعهم ، فلم يبق من الجانب الغربي الا محال متفرقة ، اعمرها كان الكرخ وخرب من الجانب الشرقي من الشماسية الى المخرم ، وبني السور على ما بقى منه على جانب دجلة حتى جاء التتر اليها فخرّبت اكثرها ، وقتلوا اهلها كلّهم ، فلم يبق منهم غير آحاد كانوا انموذجاً حسناً وجاءها اهل البلاد فسكنوها وبادّ اهلها ، وهي الآن غير التي كانت ، واهلها غير من عهدناهم والحكم لله تعالى .

(١) مراسد الاطلاع على اسماء الامكنة والبغايا ، تحقيق علي محمد الجبائي ، دار احياء الكتب العربية ١٩٥٤ .
٢٠٩/١ .

فأقطعهم ببغداد ، وكان لهم صنم يعبّدونه بالمشرق يقال له البغ فقال ذلك الخصيّ بغ داذا يقول اعطاني الصنم ، والفقهاء يكرهون هذا الاسم من اجل هذا وسمّاه المنصور مدينة السلام لان دجلة كان يقال له وادي السلام . قال وكان ابن المبارك يقول ، لا يقال ببغداد يعني بالذال المعجمة ، فإن بغ شيطان وداذا عطية وانها شرك ، وانما يقال ببغداد يعني بالذالين المهملتين وبغدان ايضاً وقال بعضهم إن بغ بالمعجمة البستان وداذا اسم رجل يعني بستان داذا ، والحرّيم ببغداد هو حرّيم دار الخلافة قال ياقوت الحموي في المشترك ، بفتح الحاء وكسر الراء المهملتين ، ثم مشاة من تحتها ساكنة وفي آخرها ميم ، قال ومقدار الحرّيم قريب من ثلث ببغداد ، وعلى الحرّيم سور ابتداءه من دجلة وانهاؤه الى دجلة من الجانب الشرقي كهيئة الهلال كنصف دائرة وله ابواب اونها باب الغرّبة وهو على دجلة ، ثم يليه باب سوق التمر وهو باب شاهق واغلق في ايام الخليفة الامام الناصر واستمر غلقه ، ثم باب البديرة ثم باب النوبى وفيه العتبة التي كان يقبّلها الملوك والرسل ثم باب العامة ويقال له ايضاً باب عمورية ثم بمتد السور نحو ميل لا باب فيه الا باب بستان تحت المنظرة التي تنحرتحتها الضحايا ثم باب المراتب وبينه وبين دجلة نحو رميتي سهم قال وجميع ما يشتمل عليه هذا السور يقال له حرّيم دار الخلافة وفيه محال واسواق ودور كثيرة للرعية وهو كأكبر مدينة تكون ، قال وبين دور الرعيّة التي داخل هذا السور وبين دجلة سور آخر ، وداخل السور الثاني دور الخلافة لا يداخلها شيء من دور العامة . قال في اللباب والسندية بكر السين المهملة وسكون النون وكسر الدال المهملة قال وهي قرية بناوحي ببغداد ينسب اليها السندوانى .

وبغداد على شطّي دجلة ، فالجانب الغربي سمّى الكرخ وبه كان سكنى ابي جعفر المنصور ولما بنى ببغداد سميت الزوراء لانه جعل ابواب المدينة الداخلة مزورة عن الابواب الخارجة واما انجانب الشرقي فيسمى عسكر المهدي لان المهدي ابن المنصور اول من سكنه بعسكره ، ويسمى

الباكوي : عبدالرشيد صالح بن نوري ، كان
حيًا ١٤٠٣/٨٠٦ - ١٤٠٤

تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار

وهي المدينة العظمى كثيرة الاهل والخيرات
والشعرات يجبي إليها لطائف الدنيا وظرائف العالم
لها سور ابتدأه من دجلة وانتهاؤه اليها كسبه الهلال
بها دار الشجرة من ابنية المقتدر بالله دار فسيحة
ذات اشجار وبساتين موقنة وبها المدرسة التي
انشأها المستنصر بالله لم بين مثلها قبلها في حسن
عمارتها ، وعلى باب المدرسة ايوان ركب في صدره
صندوق الساعات على وضع عجيب . وفي سنة
ست وخمسين وستماية سار إليها هولاءو بجنوده
واخذها . وقيل الخليفة المستنصر بالله نسب
إليها القاضي يحيى بن اكرم كان فاضلاً غزير (٢) العلم
ذكي الطبع وأبو عبدالله احمد بن محمد بن حنبل
كان اصله من مرو جيء به الى بغداد فنشأ بها
توفي سنة احدى وأربعين ومائتين عن تسع
وسعين سنة وينسب إليها أبو الحسن السري
ابن المغلس السقطي خال أبي القاسم الجنيد ، ابن
محمد واستأذه وكان اصل الجنيد من نهاوند
ومولده بغداد ، ومنها الاستاد علي بن هلال الخطاط
يعرف بابن البواب كان عديم النظر في صنمته لم
يوجد مثله .

بغداد سيّدة البلاد ومدينة السلام هوهاها الطف
من كل هواء ، وماؤها اعذب من كل ماء ، وتربتها
لطيب من كل تربة ونسيمها ارق من كل نسيم ،
بناها المنصور أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي
ابن عبدالله بن العباس على طالع القوس والشمس
في درجة الطالع ذكر انه بناها بالجانب الغربي ووضع
اللبنة الاولى بيده وجمل داره وجامعها في وسطها
وبنى فيها قبة فوق ايوان كان علوها ثمانين ذراعاً
والقبة خضراء على رأسها تمثال فارس بيده رمح
وقد سقط رأس القبة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة
والآن لم يبق منها اثر وبغداد عبارة عن المدينة
الشرقية كان أصلها قصر جعفر بن يحيى البرمكي

مخطوطة باريس الفريدة المرقمة Arab 585-945
نقلت من نسخة كتبت سنة ٨١٦ نقلها علي المصري نزيل
الاندلسية .

(٢) هكذا في الاصل ونقل « وينسب » . في الاصل عزيز .



بَغْدَادُ فِي آثَارِ الْمُسْتَشْرِقِينَ الْفَرَنْسِيِّينَ

ترجمة الدكتور

أكرم فاضل

مديرية التراث الشعبي - بغداد

- ١ -

بغداد في العهد العثماني

بقلم

روبير ما نتران

الصفويين في إيران . فهؤلاء لم يكونوا يمثلون
للعثمانيين خصوما سياسيين وسادة للأقاليم الممتدة
من شرقي آسيا الصغرى ، يهددون بشكل خطير
غالبا السيادة التركية فحسب ، وإنما كان هؤلاء
الصفويون كذلك من متحمسي المدافعين عن أحد
المذاهب ، وبهذه المثابة كانوا يؤلفون على الصعيد
الديني خصوما من الحمق أهمل شأنهم ، لأنهم
كانوا يستطيعون الاعتماد على جماعات ابتداعية
مبعثرة في شرق الإمبراطورية العثمانية . وعلاوة
على ذلك فإن أقاليم شاهات إيران كانت تشكل عائقا
خطيرا بوجه الزحف التركي صوب الشرق ، ولاسيما
صوب آسيا الوسطى والمحيط الهندي .

في عام ١٥١٤ سحق سليم الأول الجيوش
الصفوية في جلدان واستولى على تبريز ، ولكن
مهما بلغت أهمية هذا الفوز فإنه لم يجلب حلا
شافيا للمشاكل التي أجهد العثمانيون أنفسهم بحلها
لمصلحتهم . بالإضافة إلى أن الصفوي طهماز
(١٥٢٤ - ١٥٧٦) وضع للمرة الثانية بغداد في إطار

يوم دخل بغداد - قانوني سليمان - سليمان
القانوني - المعروف أكثر في الغرب باسم سليمان
له مايفيك Soliman le Magnifique
سلطان العثمانيين ، وذلك في ٢٤ جمادى الأولى
١١٩٤١ (كانون الأول ١٥٣٤) أكمل على هذه الصورة
التسلط التركي على الأقاليم العربية في الشرق
الأدنى واستطاع أن يفرض نفسه كوارث شرعي
للخلفاء العباسيين ، الذين وقع أخيرهم أسيرا بيدي
أبيه سليم الأول في القاهرة منذ سبع عشرة سنة
خلت . ولكن فتح العراق هذا واحتلال عاصمته بواقفان
في أذهان العثمانيين تاريخ مشاغل عديدة . فقبل
كل شيء أتاح غزو بغداد للأتراك وضع أيديهم على
جميع المراكز العمرانية الكبرى للعالم العربي
الإسلامي الشرقي ، وذلك ما ضمن لهم مكانة
سياسية غير منكورة وأكد لهم تفوق إحدى الفرق
الدينية الظاهرة . المثلة في شخص السلطان التركي
الذي أصبح خليفة منذ الاستيلاء على مصر . ومن
جهة أخرى فإن الاستحواذ على بغداد وضع حدا
للتناحرات الناشئة من مطلع القرن مع العواهل

الولاء الابرائي الوثيق بعد محاولة انفصال الوالي ذي
الغفار (١٩٣٥ - ١٥٢٩) .

١ - حكم العثمانيين المباشر .

ما ان وصل سليمان القانوني الى بغداد حتى
عكف على تنظيم ادارة المدينة والاقاليم المرتبطة بها ،
فقام بمسح الاقاليم وسجل الاراضي ووزع التيمارات
والزيامات ونصب واليا يحمل عنوان باشا ، يساعده
دفتر دار (ناظر الخزانة) مع قاض (حاكم) . وكان
سليمان باشا الوالي الاول .

وانشئت حامية للانكشارية في المدينة لضمان
الدفاع والامن . واخيرا ، لاجل اظهار استقرار
الاسلام الحنيف ، شيد سليمان القانوني مقاما لابي
حنيفة (لانسى ان الاتراك كانوا على المذهب الحنفي)
الذي بنيت بالقرب منه مدرسة ، و اشاد ضريحا ،
واقام تكية للفقيه الحنبلي الشهير عبدالقادر الكيلاني ،
وتم بناء مسجد الكاظمية ، الذي بدا ببنائه الشاه
اسماعيل .

وقد اكمل فتح بغداد ، بعد ذلك بسنوات .
بفتح البصرة التي احتلها اياس باشا والي بغداد عام
١٥٤٦ . وكرست معاهده اماسيا المؤرخة في ٢٩
مايس ١٥٥٥ ، لتي وضعت نهاية للنزاع الناشب
بين العثمانيين والصفويين : السيادة العثمانية
الرسمية على العراق وبصورة اخص على بغداد .

ساد الهدوء في القطر حتى نهاية القرن
السادس عشر ، وشرع عدة ولاة ببناء المساجد
والتكايا والخانات والاسواق . وعمل حسن باشا
على احاطة جانب الكرخ بسور وخذق ليجمعه في
مامن من غارات القبائل البدوية . وصينت المواقع
الدفاعية احسن صيانة ورممت . فالقلعة الداخلية
القرية من دجلة تشتمل على عدة مهاجع للانكشارية
وعلى مستودع للخديرة ومخزن الاقوات والاموال .
وكان قصر الوالي يجاور كل هذا .

ظلت بغداد طوال هذه الفترة تمثل مركزا
عظيما للقوافل . فنشطت فيها التجارة . وخف
السواح الاوربيون لزيارتها في ختام القرن السادس
عشر . فوصفوا باعجاب ميادينها واسواقها
ومتاجرها التي وجدوا فيها البضائع المقلبة من
الشرق الادنى او الاقصى ، وكذلك المنتجات المحلية :
من اقمشة حريرية وقطنية واسلحة وامتعة معدنة

واخيرا ، وهذه النقطة ليست النقطة الاقل
اهمية ، فمنذ نهاية القرن الخامس عشر نجمت
اضطرابات اقتصادية . وعلى الاخص لدى اكتشاف
طريق راس الرجاء الصالح . فبالرغم من استغلاله
استغلالا محدودا ، فسيأتى من جانبه خطر قريب
او بعيد لتقويض دور الوسيط للشرق الادنى بين
اقطار المحيط الهندي والشرق الاقصى واقطار
الغرب . وكان العثمانيون وهم سادة مصر والسواحل
الغربية للجزيرة العربية ، يراقبون البحر الاحمر
وشواطئه المباشرة ، وبالتالي حركة التجارة التي
واصلت نشاطها . وسيكون وضعهم افضل لو
استطاعوا كذلك مراقبة الخليج العربي وبلاد ما بين
النهرين ، وهي احدى الطرق المعتادة التي
تسلكها البضائع القادمة من الهند وآسية الشرقية .
وعلى هذه الشاكلة سيكون بمقدورهم حفظ التوازن
بين تأثير تحول المسيرة التجارية من جنوب افريقية
والسيطرة في الوقت نفسه ، اي بموجب ذات
الانظمة ، على الوضع المنحاز للشرق الادنى في التجارة
الدولية ، التي كانت بعيدة عن هجر طرقها التقليدية
من البحر الابيض المتوسط الى المحيط الهندي .

كل هذه الاسباب حملت سليمان القانوني على
التحرك : ففي عام ١٥٣٤ شن على فارس « حملة
العراقين » (عراقين سفري : عراقى عجم وعراقى
عرب) تلك الحملة التي مكنته من الاستيلاء على
اذربايجان ، في حين انحدر صدره الاعظم ابراهيم
باشا الى بلاد ما بين النهرين ، فاحتل بغداد دون
كبير عناء بعد ان غادرها واليها الصفوي ، فسلمه
اعينها مفاتيحها في تموز ١٥٣٤ . وقد حدث دخول
السلطان المهيب الى بغداد المفتوحة في الاول من كانون
الاول التالي . وباستثناء الفاصل الزمني الوجيز في
القرن السابع عشر ، بين ١٦٢٣ و ١٦٣٨ ، الذي فيه
خضعت مرة اخرى لحكم الصفويين ، فقد ظلت
بغداد بأيدي العثمانيين حتى آذار ١٩١٧ ، التاريخ
الذي احتلها فيه الانكليز .

خلال هذه الفترة الطويلة التي تبلغ زهاء
اربعة قرون ، ظل تاريخ بغداد بعيدا عن كونه خاليا
من التقلقل خاوبا من الحوادث . اذ يمكننا ان نميز
فيه بين ثلاث مراحل :

- ١ - حكم العثمانيين المباشر (١٥٣٤ - ١٧٠٤) .
- ٢ - حكم الكولنديين او المالك (١٧٠٤ - ١٨٣١)
- ٣ - عودة الادارة العثمانية (١٨٣١ - ١٩١٧) .

لقد اهتزت اسطنبول اهتزازا عنيفا لخسارتها بغداد ، وكلفت حافظ احمد باسترجاعها ، فحاصرها من ١٣ تشرين الثاني ١٦٢٥ الى ٣ تموز ١٦٢٦ ، ولكنه اخفق وانسحب لدى وصول الجيش الايراني . فحوصرت المدينة للمرة الثانية من قبل بوشناق خسرو باشا طوال اربعين يوما في خريف ١٦٢٠ ، ولكن دون جدوى . اذ مات صفي قلي خان بعد ذلك بمديدة ، فعين بكتاش خان واليا على بغداد ، وكانت اثناء ولايته فريسة لوباء عنيف : ذكر بعض المؤلفين ان السكان تناقصوا آنذ فاصبحوا يعدون ١٥٠٠٠ نسمة . وخلال هذه الفترة القصيرة كانت العمارة الوحيدة الشامخة هي السراي ، او دار الحكومة ، التي بناها صفي قلي خان .

في عام ١٦٢٨ شرع السلطان مراد الرابع ، بعد ان اصبح السيد السود للسلطة في اسطنبول ، باسترداد بغداد من ايدي الايرانيين . فوصل على راس جيش جرار امام المدينة في ١٥ تشرين الاول ١٦٢٨ وضرب حولها الحصار : دام التطويق ٤٠ يوما . وقد استفاد مراد الرابع من ايام الحصار الاخيرة بوقوع الخلاف بين اثنين من قادتها ، فهاجم النقاط الاضعف في السور ، لاسيما الباب الابيض (آق قايي) . فجرت معارك طاحنة ، لقي مصرعه خلالها صدره الاعظم طيار محمد باشا . وانتهى الامر ببكتاش خان الى الاستسلام ، ولكن بعض ضباطه واصلوا المقاومة ، فحدثت من جراء ذلك مجازر وتخريبات هامة . وعين مراد الرابع واليا جديدا هو كچك حسن باشا . ولخراب المدينة امر بنائها : فاعيد تشييد قبور ابي حنيفة وعبدالقادر الكيلاني وشهاب الدين عمر السهروردي والشيخ سراج الدين ، واعيد ترميم القلعة وامتدت الاسوار الى الجانب الثاني من النهر لتقوية الدفاع عن المدينة . وسور باب الظلم وظل على هذه الحالة حتى عام ١٩١٧ . وافتتحت مدارس ودور علم وتكايا وحمامات باعداد كبيرة .

ابرمت معاهدة قصر شيرين في محرم ١٠٤٩ - مايس ١٦٣٩ ، بين العثمانيين والصفويين التي نصت على عودة بعماد الى حوزة الامبراطوريسة

دمشقية كالسروج ومختلف اصناف السراجة . ويولوج لنا ان عدد السكان آنذ ، وهم مؤلفون بصورة اساسية من العرب والأتراك والاييرانيين ، لم يتجاوز الاربعين او الخمسين الف نسمة .

بعد حكم احمد الاول (١٦٠٤ - ١٦١٧) ادى ضعف حكومة اسطنبول الى اضطرابات في الاقاليم التي كانت فيها الادارة المحلية اما محرومة من وسائل الادارة . واما انها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي لمصلحة الوالي او لمصلحة من يستطيع الانتفاض على السلطة . ففي بغداد تمرد احد ضباط لانكشارية الشوباشي بكر مع اغا الازاب محمد قنبر وجرا معهما شطرا كبيرا من القنوات المقاومة ، ولم يستطع الوالي حافظ احمد باشا قمع التمرد : الذي امله استفاد من دعم شاه ايران ، والواقع ان الشاه عباس الاول كان يفكر ، وهو يشهد مهزلة الفوضى العثمانية ، بسلب الاتراك الاقاليم المضاعة في القرن السابق ، فاتصل بيكر . وخلال بعض الوقت تفاهم بكر ومحمد قنبر ثم انتهيا الى التصادم : فاتصر بكر وظل وحده سيد بغداد التي اشاع فيها الارهاب ، بحيث ان قسما من السكان ولوا فرارا .

ارسل السلطان لمحاربة بكر جيشا بامرة حافظ احمد باشا الذي اقترب من بغداد . حينئذ استفاد بكر بالشاه عباس ووضع نفسه تحت حمايته . فاوزع الشاه عباس الى والي همدان صفي قلي خان بالاستيلاء على المدينة . آنذ اخذ حافظ احمد باشا على عاتقه مسؤولية تعيين بكر واليا على بغداد لحساب العثمانيين . ولما لم يعد لدى بكر سبب لتسليم المدينة للصفويين اعترض قوات صفي قلي خان الذي شرع بمحاصرة بغداد دون تلكؤ . دام هذا الحصار ثلاثة اشهر استسلمت المدينة في ختامها ، بعد ان كانت الاهوال من الجوع . ورغم عودته بالصفح ، ذبح صفي قلي شطر من السكان . وعلى راسهم بكر والقاضي نوري افندي ، في حين بيع السكان الآخرون بوصفهم عبيدا . وخرّب بعض قبور الصالحين ، واغلق عدد كبير من المساجد والمدارس . فهجر المدينة الكثير من السكان (١٠٣٢ - ١٦٢٣) .

والعثمانية . وعرفت بغداد وارباضها حتى نهاية القرن السابع عشر فلاقى منشؤها فتن الانكشارية واضطرابات القبائل البدوية او الكردية ، ولكن الولاة (٢٤ واليا من ١٦٣٨ حتى ١٧٠٤) توصلوا الى قمع القلاقل الناجمة في كردستان او الخليج العربي . اذ سحق قره مصطفى تمرد والي البصرة حسين باشا (١٦٦٧) . وغلب ذلك استولى الايرانيون على البصرة ، في حين ثارت عشائر المنتفك وشمر وبني دجيل والزبيد ، ولم يسمح الظرف برسالة قوات من اوربا الى العراق الا بعد توقيع صلح كارو لوفيز (١٦٩٩) فاستطاع والي بغداد الطبان مصطفى باشا انزال العقاب بالثوار واستعادة البصرة (١١١٢ - ١٧٠١) . خلال هذه الفترة التي تلت استرداد بغداد شيد الولاة العثمانيون العديد من العمارات واسهموا في تقوية المواقع الدفاعية للمدينة .

٢ - حكم الماليك .

لقد ادى تعيين ايوب حسن باشا واليا على بغداد عام ١٧٠٤ الى تحول عميق في ادارة المدينة والاقاليم : فالواقع ان حسن باشا ، الذي تلقى تربيته في سراي اسطنبول وامضى فيه بفاعته وشبابه ، تركت هذه التربية اثرا قويا في نفسه وطبعها بطابع سمح بتكوين شخص مخلص مقتدر ، متفرغ بكليته لخدمة السلطان . فوضع حسن ايوب باشا موضع التطبيق اساليبه الخاصة فانشأ في قصر الولاية غرفة خاصة (خاص اوده) ، غرفة للعمال (خزينة اودهسي) ، وغرفة ادارة ومدرسة امر ان يربى فيها فتية من عبيد الاباز والجيورجيين والشركس ، وكذلك بعض ابناء ضباطه : كان أولئك الكولنديين (الماليك) . وعهد بهم الى معلمين ومربين ، فتلقوا من هؤلاء تعاليم الدين الاسلامي والعلوم الثقافية التي لا غنى عنها ، ودرّبوا على استعمال الاسلحة ومرنوا تمرينات بدنية .

بعد ان ينتهي هؤلاء « الوصفاء » من تعليمهم ، وكان يصل عددهم احيانا الى ٢٠٠ ، يتلقون شهادة وراتبا ، ويدرجون لحظئذ في صنف اغوات الداخل (اغاياني اندرون) : على هذه الشاكلة تألفت طبقة متعلمة من الرجال وضعوا على راس الخدمات المدنية والعسكرية الرئيسية في بغداد والاقاليم ، فوازنوا سطوة الانكشارية باخلاصهم للباشا واطاعتهم له . وقد وصل بعض هؤلاء الكولنديين الى رتبة (كخددا) او مساعد والي وتقلدوا بعدئذ القضاء الأعلى في الاقليم .

اعاد دلي حسن باشا ترميم جامع القمرية (١٦٤٤) وسلا حدار حسين باشا ، جامع الفضل ، أصبح مسجد حسين باشا ، ورمم عبدالرحمن باشا (١٦٧٤) مسجد الشيخ معروف واتم السداد الذي يحمي حي الاعظمية . واصلح قبلان مصطفى مسجد الشيخ قدوري الذي أصبح يدعى مسجد القبلاية (١٦٧٦) . وكال عمر باشا نفس الكيل لمسجد ابي حنيفة (١٦٧٨) وقام بنفس العمل ابراهيم بالنسبة لمسجد السلطان علي والسراي . وشيد احمد بوشناق خان بني سعد وسلا حدار حسين باشا سوفا جديدة قبالة المدرسة المستنصرية ، فعرفت المدينة نشاطا هائلا . ومحيت الاضرار التي خلفتها الحروب التركية الايرانية . وشرع الاهالي بالتكاثر ، وظلت حركة التجارة ، على وجه العموم ، ناشطة كتنشاطها في العصر السالف . تعتبر بغداد اهم مدينة في الشرق العثماني . وتؤيد المنازعات التي كانت بغداد مسرحا لها بين الاتراك والاييرانيين هذا القول بجلاء . اذ ليست المسألة مسألة استيلاء - او محافظة - على مدينة تاريخية فحسب ، وانما بالاضافة الى ذلك ضمان السيطرة على طرق مواصلات خطيرة بين الخليج العربي وارمينية ،

المعتوق الذي اصبح صهرا لاحمد باشا واليها
لاطنة . وكان سليمان باشا يأمل في الحصول على
ولاية بغداد ، ولكنه لم يفز الا بولاية البصرة ، ومحمد
باشا ، الذي كان يحترس منه ، صوره بصورة التمرد
لدى حكومة اسطنبول التي قامت بالتحقيق ، ولكنها
تخلت عنه امام عداء المالك ، وقلدت سليمان باشا
ولاية بغداد بالاضافة الى ولاية البصرة (١١٦٣ -
١٧٤٩) فلبث سليمان باشا ١٢ سنة في هذه
الوظيفة ، وعاش العراق خلال هذه الفترة في هدوء
شبه شامل ، في حين كان يشتد عود نظام الكولنديين .
وبعد رحيل سليمان فاز كتخدائيان بالولاية الواحد
بعد الآخر ، وهما : علي باشا وعمر باشا ، رغم عدم
رغبة الحكومة المركزية في ذلك .

في عام ١١٨٦ - ١٧٧٢ انتشر طاعون مروغ
عاك في المدينة طوال ستة اشهر ، وافضت المنافسات
بين الكولنديين الى اضطرابات وفوضى وشغب ،
واندلعت ثورات في كردستان ، في حين كان شاه
ايران ، زند كريم خان ، يساعده متمصرف البانات ،
يحاصر البصرة ثم يقتحمها ويمعد متمسلمها (معاون
الوالي) الى شيراز . وبعد موت زند ، عاد سليمان
الى العراق واستولى على السلطة في بغداد :
واعترف به السلطان والبا على المدينة وعهد اليه
كذلك بولايتي البصرة وشهرزور (١٧٧٨) .

وقد حكم سليمان باشا الملقب بيوك (الكبير)
مدى ١٤ عاما : وامتدت سلطته من منطقة ماردين
حتى الخليج العربي ، واعتبر بالتالي كاقوى
شخصيات الامبراطورية العثمانية ، وفي اثناء ولايته
تحتم عليه ان يخضع القبائل العربية والكردية
الثائرة وان يواجه هجمات الوهابيين ، ثم ، دسائس
عاهل ايران فتح علي شاه . وعلاوة على ذلك اقض
طاعون مضاجع اهل بغداد في مطلع القرن التاسع
عشر . وقد اعان بيوك سليمان باشا كثيرا على
ازدهار التجارة والزراعة وشجع الاعمال العمرانية .
ورمم هو بنفسه اسوار بغداد ، وحمى الكرخ بسور
وخندق . وهدم السراي وبنى مكانه سرايا جديدا
قدر له ان يحترق اثناء حوادث عام ١٨٢٠ - ٣١ .
وبغداد مدينة له كذلك بالمدسة السليمانية والمكتبة

وفي تنظيم الكولنديين كان يجيء بعد الكتخدا
القابچلر كتخداسي المسؤول عن الخدمة الداخلية ،
والخازندار ، قائد المالك ، اما الشؤون الادارية
الهامة التي تخص البلدة واقليمها فكانت تجري
المناقشة بشأنها في الديوان المؤلف من السدوات
الرئيسية في الولاية : الوالي . الكتخدا . القاضي .
الخازندار ، الدفتر دار . الديوان افنديسي (رئيس
الديوان) . وقد ظل هذا النظام ، الذي اقامه ايوب
حسن باشا ، يتبعه ابنه احمد باشا وكذلك اعقابه
حتى عام ١٨٣١ . واستفاد النظام خاصة من المدة
الطويلة لولايتي حسن باشا واحمد باشا ، فضمن
لهذين وللولاة التاليين انصارا وهيئة من الاداريين
اتاحوا لهم احيانا معارضة القرارات الصادرة من
اسطنبول والسير بموجب سياسة شخصية .

لقد ظل ايوب حسن باشا واليا على بغداد مدى
١٩ سنة ، من ١٧٠٧ حتى ١٧٢٣-٤ مستعينا بالقوة
والدبلوماسية ، فنجح في اخضاع القبائل الثائرة
كردية ويزيدية . واستطاع نيل رضى الاهالي بالغاء
الضرائب على المواد الغذائية والخشب الداخلى الى
بغداد . وبفضله استتب الامن في العراق ، وتحسنت
احوال الاقاليم بصورة ملحوظة . ومنح ولاية البصرة
لمساعدة وصهره مصطفى اغا . وحين ادركته الوفاة
عين ابنه احمد باشا واليا على بغداد وقائدا لجيش
الاقاليم الشرقية : اصبح الحكم متزيبا يزري ورائي .
واتبع احمد باشا نفس السياسة الحكيمة التي سار
عليها والده فحكم من ١٧٢٤ حتى ١٧٤٧ (مع فجوة
قصيرة من ١٧٣٤ حتى ١٧٣٦) .

وفي عام ١١٤٥ - ١٧٣٣ هاجم عاهل ايران
نادر شاه بغداد وحاصرها مدى ٩ اشهر ، ولكن
انتصار طوبال عثمان باشا على نادر شاه ، في ٧ صفر
١١٤٦ - ٢٠ تموز ١٧٣٣ انقذ بغداد . وغب ذلك
بمشر سنوات اعاد نادر شاه الكرة ، فاندحر مجددا
ولم تقم له قائمة .

لقد اثار موت احمد باشا بعض القلاقل : ففي
الواقع خلق الكولنديون متاعب للوالي الجديد محمد
باشا ، الذي لم يكن ناجما من صفوفهم ، ولعل هذه
القلاقل كان مصدرها سليمان باشا ، المملوك القديم

١٢٢٨ - شباط ١٨١٣) الذي اعتقله اثناء فراره
 وصب عليه الموت . فاعترف الباب آئنذ سعيد بك
 بصفة وال على بغداد والبصرة وشهرزور . ولكنه
 اثار نائرة الكولنديين ضده بأعماله الخرقاء ، وكذلك
 سخط سكان المدن والأرياف . فجمع صهره الكتخدا
 القديم داود باشا ضده المعارضين ، وباتفاق مع
 حالت افندي زحف على بغداد فاحتلها في ٥ ربيع
 الثاني ١٢٣٢ - ٢٢ شباط ١٨١٦ ، وأعدم سعيد
 باشا على الفور . فاعترف به الباب رسميا واليا على
 بغداد ، وهو النصب الذي تمسك به ١٥ سنة .
 وتثبيت داود باشا في احلال السلام في الأرياف .
 وما لبث أن شيد ثلاثة مساجد ، ولاسيما مسجد
 الحيدرخانة، والمسجد والمدرسة الصافية والسوق
 والقصر . ومن جهة اخرى افتتح مشاغل للنسيج
 واستدعى الفنيين الاوروبيين ، فهضت الصناعات
 اليدوية نهضة جديدة ومثلها الزراعة . واستعان
 بخبير عسكري فرنسي من مرافقي نابليون واسمه
 دفو Devaux فدرج جيشا قوامه ١٠٠٠ رجل ،
 بين مشاة ومدفيعين . وبهذا الجيش نفسه توصل
 الى دحر هجوم ابن شاه ايران محمد علي ميرزا ،
 الذي تقدم حتى وصل الى مقربة من بغداد
 (١٢٣٦ - ١٨٢١) .

ولكن تجديد حكم المالك في بغداد لم يتسق
 مع سياسة الإصلاحات الادارية والسياسية التي
 شرع بها السلطان محمود الثاني . فعلى اثر رفض
 داود باشا حمل معونة مالية الى الحكومة العثمانية
 اثناء الحرب التركية الروسية عامي ١٨٢٨ - ٢٩ ،
 رفض السلطان استجابة طلب الباشا بان يضم
 الى ولايته ولاية الموصل ، ثم ارسل الى الموقع
 الدفتردار الاول صادق افندي لتوطيد هبة السلطة
 المركزية (ربيع الاول ١٢٤٦ - آب ١٨٣٠) . ولكن
 داود باشا اعدم صادق افندي ، فاضطر السلطان
 الى ارسال والي حلب على رضا باشا لقمعه . فاوفد
 هذا الى بغداد أحد مساعديه قاسم باشا ، مع بعض
 القوات : فدارت رحى المعارك في المدينة ، والنهم
 الحريق قصر الوالي . واخيرا انكسر قاسم باشا
 وقتل . حينئذ زحف علي رضا بنفسه على بغداد
 وضرب حولها الحصار مدي ٩٠ يوما . وفي ٩ ربيع

العامة وسوق السراجين ، بالإضافة الى تعمير عدة
 مساجد (القبلانية والفضل والخلفاء) . وقد توفي
 بيوك سليمان في ٨ ربيع الثاني ١٢١٧ ٨ آب ١٨٠٢ .
 اما خلفه فابو غدار علي باشا ، الذي تلقى مهمة
 عقاب الثوار الوهابيين ، ولكن رغم معونة والي
 دمشق العظيم زادة عبدالله باشا ، لم يستطع
 الوصول الى نتيجة . اذ سرعان ما اغتيل . وقد
 اسس اثناء ولايته المدرسة العلية ، التي اعتبر
 المدرس فيها رئيس علماء بغداد . بعد وفاة ابي
 غدار علي باشا ، صممت حكومة اسطنبول على
 استئصال شافة نظام الكولنديين فعميت لبغداد
 واليا من خارج صفوفهم هو يوسف زيا باشا ، ولكن
 تجاه المقاومة التي جوبه بها ، وبناء على توصية
 السفير الفرنسي ، سباستياني ، عينت اخيرا الملوك
 كجك سليمان باشا . فاخفق هذا في اعماله التي
 مارسها ضد الزيدية ، ولكنه نجح في قمع الوهابيين ،
 اذ كسر شوكتهم وقهرهم واخضعهم . وفي مجال
 العدالة قام كذلك بمبادرات لم ترق حكومة اسطنبول
 مثل : الغاء عقوبة الاعدام (باستثناء العقوبات التي
 جاءت بها المحاكم الدينية) . منع مصادرة الاموال .
 الغاء رسوم المحاكم . تخصيص مرتب للقضاة .
 فتذرت اسطنبول بحجة رفض كجك سليمان باشا
 دفع بعض المبالغ المطلوبة ، فقررت وضع نهاية لسلطته
 وارسلت احدى شخصيات الباب العالي الرئيسية
 بدله هو حالت افندي . فاستعان هذا بمتصرف
 البابانات ووالي الموصل ، فزحف على بغداد
 (رمضان ١٢٢٥ - تشرين الاول ١٨١٠) . فاندحرت
 قوات سليمان ، وفر هو نفسه ، فما لبث البدو
 ان قتلوه .

عين حالت افندي بصفة وال احد الكولنديين ،
 عبدالله باشا ، ودون ان يخطو خطوة الغاء نظام
 المالك اعلن الاعتراف بسلطة حكومة اسطنبول .
 فوجد عبدالله باشا نفسه حالا تجاه معضلتين
 اساسيتين : هجوم شاه ايران فتح علي باشا ، يدعمه
 متصرف البابانات عبدالرحمن باشا ، وعمل سعيد
 بك ، ابن كجك سليمان باشا ، الذي تساند عشر
 المنتفك . فتوصل عبدالله باشا الى التفاهم مع
 عبدالرحمن باشا ، ولكن قهره سعيد بك (صفر

الرقم الابيض شديد بعد ذلك : ٦٠٠٠٠ نسمة عام ١٨٥٣ ، ٨٠٠٠٠ نسمة تقريبا عام ١٨٧٧ ، ٩٠٠٠٠ الى ١٠٠٠٠٠ الف بين ١٨٦٠ و ١٩٠٠ ، ٢٠٠٠٠٠ عام ١٩١٨ .

وقد انهمك الولاة ، الذين غدوا يرتبطون مباشرة بالسلطة المركزية ، بمعالجة الوضع الاجتماعي والاقتصادي . واول من عقدت له صدارة حركة التجديدات هو محمد رشيد باشا ، الذي اسس عام ١٨٤٧ شركة ملاحه النقل التجاري بين بغداد والبصرة . وامر نامق باشا ببناء مشغل للتصليح (دمرخانة) لسفن هذه الشركة (١٨٥٣) ، ولكن الفضل الاكبر يعود الى مدحت باشا : الذي اقام الاصلاحات على قدميها اثناء ولايته (١٨٦٩ - ١٨٧٢) وهي اعمق اصلاحات ، وذلك بعد ان قمع ثورة بدوية واخضع نجدا ، الذي الحقه بولاية بغداد . وادخل في الاقاليم النظام الاداري الجديد ، معززا بموظفين يخضعون للسلم الوظيفي والخدمات المتخصصة (التعليم العام ، مسح الاراضي ، التسجيل ، المحاكم المدنية) . واسس مجلسا بلديا ، نصف اعضائه منتخب ونصفه معين ، مع منتخبين اثنين يمثلان غير المسلمين . والى عددا من الضرائب

القديمة التي تشكل عقبات في سبيل التنامي الاقتصادي ، وانشا مطبعة ودارا للنشر ، واصدر جريدة رسمية للاقليم باسم الزوراء ، الجريدة الاولى التي ظهرت في بغداد . وفتح مدارس عصرية ابتدائية وثانوية ومدرسة حكومية للصناعة (لم يكن يوجد آنذاك الا بعض المدارس الابتدائية التي يديرها البشرون الفرنسيون) . وهدم اسوار المدينة ، وافتتح شارعا كبيرا يصل شمال بغداد بجنوبها ، ووسع الطرق ، واستحدث عام ١٨٧٠ خط الترمواي الذي يربط بغداد بالكاظمية ، واتم بناء السراي ، الذي بدا به نامق باشا ، وشرع ببناء مستشفى عصري - كمل عام ١٨٧٩ . ان الدفع الذي احداثه مدحت باشا لم يحذ حذوه خلفاؤه بحزم وقوة . ومع ذلك فتحة مدارس اخرى بنيت ، ولاسيما مدرسة البنات الاولى عام ١٨٩٩ ، ومدرسة دار المعلمين عام ١٩٠٢ . واقيم جسر جديد على دجلة استطاعت وسائل النقل المرور عليه . وفي عام ١٩١٠

الثاني ١٢٤٧ - ١٧ ايلول ١٨٣١ فتح الاهالي الجياع الباب الشرقي ، فاستطاع علي رضا النفوذ الى المدينة . وسرعان ما اعدم جميع المالك ودمر بهذه الصورة او جاقهم . اما داود باشا فقد شمله العفو بفضل خدماته التي اداها سابقا ، فسلك طريق المنفى . وهكذا انتهى هذا النظام الذي بدأ في ١٧٠٤ ، والذي كان له مزية اعطاء بغداد اهميتها بوسطها مركزا سياسيا واداريا عظيما ، وذلك بترسيخ سلطة والي الاقاليم على القبائل البدوية او الكردية ، وباخضاع السناجق المجاورة للبصرة لهيمنة بغداد ، وكذلك شمرزور والموصل . ومع ذلك كان يمثل خطر تآليف اتجاه بالغ الوضوح في الاستقلال الذاتي في قلب الامبراطورية العثمانية ، وبهذا الشاكلة يشجع المطامع الايرانية في الاقاليم . ولكن رصيده على العموم ايجابي . فقد اسهم في تحسين الوضع السياسي والاقتصادي اسهاما لا ينكر ، وولد دفعا جديدا لتعمير المنشآت الدينية وذات المنفعة العامة . وقد تزايد عدد السكان بصورة ملموسة ، فوصل زهاء ١٠٠٠٠٠ نسمة حوالي عام ١٨١٦ وعلى الأقل الى ١٢٠٠٠٠ عام ١٨٣٠ .

كان هؤلاء السكان يؤلفون منطقتا عدة مجاميع: فالقادة والمكرويون كانوا اترাকা او معاليك ، وكان التجار والصناع عربا او فرسا او يهودا ، او مسيحيين احيانا . وقد لوحظ كذلك وجود اكراد وهنود . وكان الأوربيون اقل ما كانوا ، ولم يكن دينهم غالبا الا التحول في المدن دون الإقامة فيها طويلا . وكانت بغداد آتخذ تعدد من بين مدن الامبراطورية العثمانية الكبرى .

٣ - عودة الإدارة العثمانية الى الحكم .

في اعقاب انتصاره على داود باشا ، عين علي رضا باشا واليا على بغداد : فظل في هذا المنصب ١٦ سنة . ولكن ما ان تسلم زمام الحكم حتى نكبت بغداد بوباء فظيع اضيفت اليه فيضانات مدمرة . فرعان ما اصبح الوضع مفعما ، اذ هلك قسم من السكان او هرب : في عام ١٨٣٧ لم يبق من سكان بغداد اكثر من ٤٠٠٠٠ نسمة ، ولم يرتفع هذا

منذ هذنة ١٩١٨ مملكة عهدا بها الى فيصل الاول ،
الذي تسنم العرش بصورة مهيبية ببغداد في ٢٣
آب ١٩٢١ .

واذا كانت بغداد احد المراكز الكبرى للفكر
والادب العربي في زمان الخلفاء العباسيين ، فانها
لم تشهد خلال الحكم العثماني الا ولادة او حياة عدد
محدود من رجال الادب البارزين . ومع ذلك فمن
المناسب ذكر بعض الاسماء : الشاعر فضولي ،
الذي عاش في فترة احتلال سليمان القانوني لبغداد ،
فكتب قصائد مدح للسلطان وبعض رجالات الدولة
العثمانية . وكان ابنه فضلي كذلك شاعرا مقلعا ،
ومثله روحي البغدادي ، (مؤلف گلستاني شعراء) ،
ونظيره عهدي بغدادي وذهني وعزيز وعلمي يحيى
دده . ومن المؤرخين : مرتضى (مؤلف گلستاني
خلفاء) وواصف افندي وشفقة افندي (مؤلف
حديثه الوزراء) . ومن رجال القضاء : عبداللله
السويدي وابو الثناء الالوسي . ومن الكتاب المحدثين
تجمل الاشارة الى احمد هاشم ، المولود في بغداد
عام ١٨٨٩ ، والمتوفى عام ١٩٣٣ ، الذي اصهر الى
اسرة الالوسي ، صاحب مذهب الفن للفن .

ولنلاحظ اخيرا انه منذ عقود السنين الاخيرة
للقرن التاسع عشر كان شباب الاسر الكبيرة يرحلون
الى اسطنبول لاتمام دراساتهم فيها ، حيث الجامعة
الوحيدة المصرية للامبراطورية ، فيدخل الطلاب
ليختلطوا ليس بالشبيبة التركية المحلية فحسب ،
وانما كذلك بالمجتمع العالمي للعاصمة العثمانية .
فيتعرفوا على الافكار السياسية والتيارات الفكرية
الجديدة ، التي كانت ولا سيما بين عامي ١٨٨٠ و
١٩٠٨ ترج العقول رجلا عنيفا وثاني بتحولات عميقة
في امبراطورية السلاطين العتيقة ، واذا كان النظام
الجديد الذي انتصب في بغداد عام ١٩١٨ هو ثمرة
السياسة الانكليزية للشرق الادنى ، فقد وجد
لتحقيقه رجلا ، رجلا عراقيين لم تكن الثقافة
العثمانية لديهم كلمة عقيمة .

اقام ناظم باشا سدادا حول بغداد الشرقية لحماية
هذا الجزء من المدينة من الفيضانات . وشق شارع
كبير حين كانت حرب ١٩١٤ - ١٨ على الابواب : ثم
اتمه الانكليز .

في عام ١٨٢٧ اضحت بغداد مقر قيادة الجيش
السادس التركي ، وبعد ذلك مقر الفيلق الثالث
عشر . واصبحت الموصل عام ١٨٦١ والبصرة عام
١٨٨٤ ولايتين مستقلتين ، فانقسمت ولاية بغداد
حينئذ الى ثلاثة سناجق : بغداد . الحلة . كربلاء .

وفي مستهل القرن العشرين اختلط حابل
السكان بنابلهم ، ولكن العنصر العربي - ظل فيها
يمثل الاكثرية وظلت اللغة العربية اللغة العامة .

وكان الاتراك يفضلون سكنى الاحياء الشمالية،
واليهود (الذين كان لهم ٦ كنائس) والمسيحيون
(٦ كنائس) سكنى الاحياء الشمالية والغربية من
سوق الغزل . ويؤثر الفرس الاقامة في الجزء الغربي،
والعرب في جانب الكرخ دون سواه . وكان موقع
المركز التجاري للمدينة في شرق الجسر وهو يؤلف
اساسا اسواق السراي والميدان والشورجة
وحوانيت الاتمشة .

جهز الانكليز خلال حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ حملة
عسكرية اخترقت اراضي العراق واحتلت البصرة في
٢٠ تشرين الثاني ١٩١٤ والقرنة في ٩ كانون الاول .
واستولى الجنرال الانكليزي طاوتسند على كوت
الامارة ، على طريق بغداد ، في ٢٨ ايلول ١٩١٥ ،
ولكن القوات التركية صدت تقدمه . فاضطر الى
التحصن بكوت الامارة وارغم على الاستسلام في ٢٩
نيسان ١٩١٦ . ثم حشد الانكليز قوات جديدة
فشنوا هجوما حاسما واعادوا احتلال كوت الامارة
في ٢٥ شباط ١٩١٧ ، ثم استولوا على بغداد في ١١
آذار التالي . وبالرغم من كون بغداد والعراق
يعتبران حتى معاهدة لوزان (تموز ١٩٢٣) جزءا من
الاقليم التركي ، فالواقع ان الانكليز جعلوا منهما

النثر العربي في بغداد

بقلم

شارل بيللا

الأعمال النثرية نادرة ، على الأقل الأعمال التي سجلت نثراً ، ذلك لأن الشطر الأعظم من الوثائق الدنيوية التي جمعها الأساتذة المعروفون تؤولف موضوع المحاضرات العامة التي قيل أن تثبت مادتها بالكتابة . كانت تروى شفاهاً في لغة عارية من كل زخرف ، خرفاء ، جافية ، ولا تشكل مطلقاً هذه المحاضرات في الواقع جزءاً من الأدب الخالص ، ولكن يجب أن نحسب حسابها لأنها تحتوي على وثائق أساسية اجتهد المتأخرون في استغلالها معتمدين على رواية شفوية تم كتابتها . ويجمل بنا ان نذكر ايضاً الأعمال التي حققها العلماء الأوائل في مجال العلوم الدينية . ولكننا ستمسك عن ذلك . لاننا دون ان نرفض رفضاً باتاً كل قيمة فنية للأعمال الدينية الغزيرة ، أو للأعمال ذات الطابع الفلسفي أو الفني الذي يحمل تاريخ فترة الخلافة العباسية ، نرى من واجبتنا ، في هذه المقالة الوجيزة ، قصر أنفسنا على الإشارة إليه إشارة سريعة ، لنشغل أنفسنا بالسر الأدبي الخالص سواء كان مرسلًا أو مسجوعاً ، وبمختلف تقريعات الأدب الذي رفع مناره ابن المقفع .

على نهج التقليد الإيراني استوحيت الأعمال الأدبية الأولى من الاهتمامات التعليمية وتوجهت الى عظماء العالم على وجه التخصيص والتقريب . وهي مع حرصها على ان تكون مسلية القراءة عذبتها ، فانها تعرض قواعد سلوك الملوك والأمراء . وهي تقص علينا اخبار الوزراء وعلية القوم ونواديرهم ، وتورد لنا كذلك مبادئ الاخلاق ، مع تعزيز كل ذلك بحكايات تهييية . وربما كان اول ممثل لهذا النوع كتاب ثعالة وعفراء لأمين بيت الحكمة سهل ابن هرون (م في بداية القرن الثالث) وقد ضاع هذا الكتاب المشابه لكتاب كليلة ودمنة ، كما اختفت كل

يتفق مؤرخو الأدب على الاعتراف بأنه اذا كان قد ولد نثر عربي متردداً وناقصاً ، في مطلع الاسلام . ولكنه ترعرع واستوى على سافه بعد ذلك . بفضل جهود عدد متزايد من علماء تشبثوا بصورة رئيسية بالعلوم الدينية في تكوينهم ، فان الفخر بخلق نثر ادبي حقيقي يعود الى كتاب الدواوين الاموية الذين من بينهم يتالسق اسم عبد الحميد الكاتب (١٢٢ - ٧٥) . فهو مؤسس فن الرسائل . وكذلك ابن المقفع . صاحب المبادرات الفنية الجديدة في النوع المعروف باسم الادب . لقد « حمل ابن المقفع الى اعظم المتفنين من معاصريه تجديدات كبيرة للغاية من حيث المضمون والشكل . لقد اكتشف لهم في اللغة العربية ينابيع لا يتطرق اليها الشك . فالحكم القصيرة الوعظية للسامية القديمة ، تخلت عن مكانها في كتاباتها ، الى التنامي الواسع الدقيق للمفاهيم الجميلة العامة . فاحلت محل الجمل القصيرة المتزاوجة بسذاجة لارباب النثر ، مقاطع ذات مفاصل متعددة ، حاملة ، بيرنسبي ودون الاخلال بالتوازن ، حشداً من الاحداث المنوعة » . ولكن بحكم هذه التصرفات الظالمة للقدر الشاخصة على مجرى التاريخ ، حدث بالضبط في مستهل سلطة السلالة العباسية ، خلال سنوات معدودات فقط (١٣٩ - ٧٥٧) قبل تأسيس بغداد (١٤٥ - ٧٦٢) ان نفذ حكم الاعداء بأمر المنصور بهذا المزدكي الذي اعتنق الاسلام ، في حين اصبح اتناجه مثالا يحتذى ، او على الأقل كنقطة انطلاق لاجيال الناثرين التي بوسع عاصمة الخلافة الجديدة ان تزهو بهم ، وهي على حق .

واذا كان الشعر من النمط الكلاسيكي قد ازدهر في منتصف القرن الثاني للهجرة . والشعر « المحدث » في طريقه الى التكوين ، فقد ظلت

أثار سهل الأخرى : اللهم ألا رسالة في البخل ارتأى الجاحظ ادراجها في كتابه البخلاء .

هذا الأدب ، من النسق الذي نريد ان ندعوه بالتقليدي ، سيدوم وسيتمقرط ، بهذا الاتجاه الذي سنرى منه في بغداد ازدهار سلسلة من الكتب المتممة القراءة نوعا ما والمكرسة لتعليم الأخلاق والتكوين الفني للجماعات المتباينة والاصناف الاجتماعية التي اخذت بالانحياز شيئا فشيئا : كتاب الادارة ، القضاة ، معلمو المدارس ، الخ . . . ووبرنا ادب الكتاب او ما نسميه الرفيق اللازم او الكتاب المفضل vade mecum لكاتب ديوان الانشاء ابن قتيبة كيف يستطيع نوع ادبي اصل ان ينتهي الى كتاب مدرسي او مهني بسيط .

عبر تلك الفترة لم تنتشر انواع جديدة كالتاريخ والجغرافية بصورة محسوسة فحسب ، بل كذلك الأدب ذو الجذر الساساني الذي ، ولتكرر القول ، يهدف الى التعليم والاياناس معا ، وقد تفرغ الى عدة فروع ، فالتعصر المسلي انجب نوعا مستقلا ، والغاية التعليمية سمحت باحتضان عدة فنون مختلفة ، متممة بسمة ايسر والطف واقل تجهما . فالبنية التحتية من النمط الجديد لهذا الأدب ، الذي تحول من ايراني الى عربي اسلامي ، وفرته التراجم من الفهلوية واليونانية ، وبدرجة عليا ، جهمرة المعارف ، التي جمعها العلماء المتبحرون في العلوم اللغوية ، من بداية الاسلام ، وذلك بلم اشأت تراث العرب القدماء ، فكانت هناك موروثات قبلية وامثال واشعار وتجارب شخصية . وعلى المستوى الثاني ، جمع المحققون نتاج جهودهم في كتب علمية قليلا او كثيرا . وبانتشار صنع الورق ، بدأت هذه الاسانيد تأخذ طريقها الى التقييد كتابة . ونسخ النساخون منها اعدادا ، لأنها تم جمهورا لا بأس بضخامته . وفي نهاية القرن الرابع استطاع الوراق ابن النديم ان يكتب فهرستا ، جزئيا دون شك ، ولكنه شق الطريق بسعته امام فهارس اخرى من هذا النوع . لم يحتفظ بها وجه العموم حتى يومنا هذا ، لان كتبا اخرى اعم جعلت هذه عديمة الفائدة .

ومن هذه الكتلة المتناثرة اجزاؤها حتى اليوم ، والفوضوية والمفرطة في الضخامة والموسوعية ، التي لا تستطيع ارجح العقول هضمها ، من هذه الكتلة ستستخلص المعطيات التي ستناسس عليها الثقافة العربية الاسلامية الدنيوية ، وفي كل مكان سيقوم عليها النثر الذي سيزدهر قبل كل شيء في بغداد ، وبصورة جوهرية .

اصبح الواجب الاول من ذلك الوقت للكتاب

التنبيهين الى حاجات الجماعة التي يعيشون بينها ، والحريصين على بناء روحها وذوقها ، ان يوجدوا مختارات وان يقدموا الى معاصريهم ، الراغبين في تشفيف انفسهم دون ان يتيهوا في التفاصيل العقيمة او الثانوية ، تاليفا بالغ الفنى نابها لئلا يحددوا الافق ، مع تقديم الماهية .

واذا كانت الثقافة ما يبقى حين ننسى كل شيء ، فانها في بغداد ما يبقى عندما تطرح التوايح عن رضى وطواعية . والخطر يكمن في ان الجوهر يوشك في يد الاغرار ان يرفض لمصلحة التوايح . وهذا ما لم يلبث ان وقع .

ومع ذلك فالفضل يعود الى الجاحظ (م ٢٥٥ ٨٦٨) في انجاز اول غريلة ، واقامة معيار منصف عقلائي لمختلف العناصر الثقافية ، وتقديم توفيق بين المعارف المفيدة « للانسان المهذب » في عصره . . . لم يكن هذا الكتاب الموفق الرومق بغداديا . ولكنه عاش نصف قرن في العاصمة ، التي كانت الاوساط الثقافية فيها يتألف معظمها بالضرورة من اشخاص من الاقاليم جرهم القصر الذي جاءوا يبحثون فيه عن استثمار مواهبهم . كم من الشعراء ولدوا في البصرة او في دمشق جربوا فيه حظهم ، وكم من النحاة والمحدثين والفقهاء والمتكلمين هجروا واحدا بعد الآخر اريافهم وهي مساقط رؤوسهم ، في محاولة لاعلاء شان اسمائهم ، وكسب اقواتهم بصورة وافرة - قرب السلطان - لاغرابة في ذلك كله ، ولكن المغزى الاكبر يكمن في ان يدعى الجاحظ ، وكان مغمورا في البصرة ، الى تأليف كتاب عس الامامة ، وان يستدعى بعد ذلك الى القصر لتلقي التهانى من المأمون ، واخيرا وضع مواهبه في خدمة العباسيين .

صحيح ان الشعراء لم يكونوا نادرين حول العواهل الذين يكرسون لهم امداح من الطراز الكلاسيكي او المحدث ، ولكن الشعر لم يعد يمارس على السامعين وعلى رعايا الخليفة نفس التأثير الذي كان يحدثه في عهد الامويين . والان ، بعد استيلاء العباسيين ، ينبغي التوجه الى العقل اكثر من التوجه الى القلب ، والافئاع بواسطة الوثائق المشغولة باتقان وامعان ، ومهمة كهذه لا يمكن النهوض بها الا بالنثر . اذن فقد نصب الجاحظ من نفسه محاميا للسلاطة وكتب كرايس صرح هو نفسه بانها انتشرت في انحاء الامبراطورية على الفور . ذلك لان هذا النثر السياسي الذي يحمل طابعا جديدا كل الجدة هو في عقل السلطان ذو طبيعة تجمع المعارضين حول السلاطة ، وهم الاكثرية . ولا بد اننا متشوفون الى

التي حفظ لنا الفهرست عناوينها ، ولكن ينبغي الاعتقاد بانها كانت هدى تملقها عابرة ، لانه لم يبق منها عمليا الا بعض الشذرات الناجية ، ولا سيما ماصانه ابو الفرج الاسفهاني في كتاب الاغانى .

وعلاوة على قصص الحب . فان الفهرست يعدد جمهرة من المكتوبات التي ، اذا حكمنا بعناوينها ، حملت على الضحك والاثارة الجنسية والادب البذيء في مقولات ادبية لاشك ان الجمهور البغدادي كان يستملحها . وكانت كذلك عامرة بالحكايات الطريفة والاخبار والنكت التي كان البغداديون المحترفون يارعون في تزويقها لابناس زبائنهم . وهنالك مجاميع فكاهية الفت في هذه الفترة ، ربما تكون المجموعة المنسوبة الى جحا الوحيدة التي صارت الزمن ، ولكن بعد مسوخات او شك الا يبقى معها شيء ذو قيمة من المجموعة الأصلية . ان معظم الانار التي جننا على الاشارة اليها غفل من اسماء مؤلفيها او هي منسوبة الى مؤلفين معروفين . كابي العباس الصيمري ، ولكنها قُبعت في الظلام بفعل الجاحظ الذي هيمن نشاطه على النصف الاول من القرن الثالث بآسره .

بعد موت الجاحظ . نستطيع اعتبار النشر الادبي قد بلغ اشده وارتفع الى قمة بمستواها لن يفدر ثراء العصور التالية بلوغها الا نادرا . والواقع ان فن الجاحظ يفلت من كل مقارنة ، والنقاد المطلعون على حقيقة الوضع قدروه فاحسنوا تقديره باتخاذ لقبه شعارا للعبقرية الادبية . دون ان يخبرونا مع ذلك بما اعجبهم في كتابته ، ذلك لان الشمر (بالاستقلال عن القرآن بالديهة) هو في نظرهم جدير بان يكون محل تحليل اسلوبي .

واذا كان ينبغي تشخيص اسلوب الجاحظ بكلمات معدودات . فبوسعنا القول انه يتميز بسعة العبارة المولفة من جمل مقطعة او من تفريمات تبرز فيها لفظة ذات غنى خارق بشكل يتألف من امثالها وحدة كمية غالبا متساوية او متجاورة وبمعنى مماثل او مضاد ، دون ان تستعمل القافية الا عرضا ، ويحدث ان تغطي جملة صفحة كاملة ، وهذه النغمة غير المعتادة ما زالت الى الآن تشوش الناشرين الذين يقع لهم اما نسيان اداة لا غنى عنها لهيكل الجملة ، او وضع نقطة والمضي الى سطر في قلب العبارة . صحيح ان الجاحظ ليس مؤلفا سهلا وان الافكار ، المضطربة شيئا ، لا تتسلسل لديه دائما بشكل غاية في الوضوح . اذن نفهم من ذلك ان اجزاء دائرة الكلام تفلت احيانا من اولئك الذين لم يكرسوا انفسهم للتحليل المنطقي .

معرفة النتائج الواقعية لهذه العناية ، ولكن منا نعلمه هو ان الجاحظ اصدم في احيان كثيرة بخصوم عنيدين لم يترددوا ببعض نتائجه ، بشر هو اقل مرتبة فنية من نثره . والسفاهة ! . والجاحظ هو نفسه يبلغ به الامر ان يؤلف اماديع نثرية ، واهاجي ومراتي ، وعلى هذه الصورة يبادي الشعراء على صعيدهم الخاص ، وهذا الانقلاب في مواقع الطريقتين الرئيسيتين في التعبير ذو طابع متميز ، بحيث ان الاستاذ ه . ا . ر كيب جعل النثر في الصف الاول حين واجه الفترة التالية . وكان اعطى الموقع الاول للشعر في القرن الثاني للهجرة ، وذلك في معاله الجميل المكرس لتاريخ الادب العربي ، في دائرة المعارف الاسلامية .

لا نستطيع ، ونحن بصدد دراسة عن النثر في بغداد . ردع انفسنا عن التوسع المطول في الجاحظ ، لا بسبب التأثير الذي احدثه في خلفائه وهو ضئيل نسبيا ، لان اصلته وشخصيته كانتا قويتين بافراط بحيث استطاع انشاء مدرسة حقيقية لهجه ، وانما لاقامة نوع رصيد لنشاطه وقد مارس على وجه التقريب كل الانواع التي انتشرت في اتجاهات كثر اختلافا او قل .

لقد حافظ الجاحظ . بوصفه ادبيا قبل كل شيء . على طريقة الكتاب الى حد كبير . فكتب عدة رسائل ذات طابع فضيلي واضح ، ولكنه وسع افق الادب بمعناه العريض فجمله يشمل حتى العلوم ذاتها . والنقد الادبي والجغرافية بل وعلم الحيوان ، وابتكر اخيرا . بفضل عقله الملاحظ . شكلا من الادب الشخصي الذي ينصب على تصوير الاخلاق والمجتمع ، دون الانقطاع عن تكريس جزء من نشاطه للمشاكل السياسية والدينية ، كما رأينا ، طالما هو مناصر متحمس لمذهب الاعتزال . وهنا لم يسلك الطريقة الادبية التي اختطها لنفسه بمزج الجهد بالهزل ، ولكننا في كتاباته الاخرى نراه شديد الحرص دوما على تعليم الناس وهو يمازحهم ويداعبهم ويعائشهم ، فيمزج الجد بالهزل ، ليس دون السقوط احيانا في وهدة الابتذال . وقد يفلح حينما يثبت الانسجام في كتاباته المشوبة باللونين ، وحينما آخر يصد منا باقواله ويخزنا .

ويعترف هو نفسه باستهائه بالمحاولات التي حاولها معاصرون له بهدف خلق ادب خيالي اصيلى ومسل . وهو يقوم بشرطه الاعظم على الموروث الديني الذي يظهر مشوها ومزوقا في قصص الحب

ولو استطاع ضبط نفسه ، لكان من الصعوبة ضمان وارث له ، ولكن وجد من يضبط نفسه ، لاشغال واجهة المشهد ، بعمل منهجي منسق . ونعني به ابن قتيبة (م عام ٢٧٦ - ٨٨٩) . فباستقائه من انعدام الثقة الذي عرف فيه المعتزلة منذ منتصف القرن ، فان « محدد الخلافات » هذا ، اذا سمح لي بهذا التعبير ، اجهد نفسه باحلال الوفاق في الصفوف المنتصرة ، ووضع القول المأثور موضع التطبيق « خالف تذكر » فنصب نفسه خصما للجاحظ بعد موته .

واذا كان ابن قتيبة فقيها ونحويا قلبا وقالبا ، فانه كان بعيدا ، كل البعد عن امتلاك الروح المتفتحة واسلوب سلفه ، ومع ذلك فانه هو الذي ثبت حدود الثقافة العامة ، بتحديد حقلها ، مع همه في الوقت نفسه ، كما يبدو ، بتسمية قوامه الديني . والجاحظ بوصفه معتزليا صحيحا لم يفصل طبيعة الحال الثقافة الدينية عن الثقافة الدنيوية ، ولكنه استعان بالعقل والمنطق لاستغلال منابع الثلاثة الرئيسية للمعارف العامة : الانسانيات العربية ، المؤسسة بسعة على السنة البصرية ، الهلينية ، وبمقياس اضال ، الحضارة الهندية الفارسية ، فاحسن الاستغلال .

ابن قتيبة ، بوصفه معتدلا قحا ، وضع النقاط على حروف الشريعة السمحاء ، وفي المجال الدنيوي اجتهد في تنسيق الاسانيد وتصنيفها ، وكانت مشوشة مبغثرة ، وازدادت اقساما وفروع اقسام ، وبكلمة ، نظم واستانس الثقافة العربية الاسلامية ، وفي الوقت نفسه وجهها ومهرها باطسار بالسغ الاستقرار . على انه نزر الحساسية تجاه التأثير الاغريقي ، اذ اعطى الاولوية للسنة الكوفية واخلى للثقافة الايرانية ، التي كان الجاحظ يرتاب منها ، وهو على حق ، موضعا افسح ، ولم يسء بعمله هذا الى كتاب الدواوين الذين فقدوا بالتدرج ، خلال القرن الثالث ، تفوقهم في المادة الادبية .

ولم يكتف بجعلهم يلمسون باصابعهم ويتأليف كتاب عملي لهم ، هو كتاب ادب الكاتب ، وانما قدم لهم ، صنع الرجل المهذب ، موسوعة ادبية ، هي عيون الاخبار ، على نقيض الجاحظ الذي حدد نفسه في حقل النقد بقذف افكاره في البيان والتبيين كيفما اتفق ، اذ كرس للشعر كتبا ضخمة بينها مختارات منسقة ، اعني كتاب الشعر والشعراء ، الذي ظل حتى يومنا هذا وثيقة مفيدة . ولكنه فرض مختارات تحكيمية بعض الشيء . ويكتب كذلك كتابا يمكن ان نصفه بالادب التاريخي ، هو كتاب المعارف ، يجمع فيه المعطيات التاريخية التي براه

يجب الا يجعلها مسلم مثقف . وهذه الكتب المدرسية لم تنقطع عن التمتع . في الاساط الناطقة بالعربية ، بنعه لم يعبر عنها تعبيريا جيدا ، ولكنها انالت مؤلفها شرف الاستنهاد به كثيرا في نفس مجال الجاحظ . ومع ذلك فان الرجلين مختلفان جذريا كل الاختلاف ومتعارضان في كل النفاط . مقابل ذلك ، اذا لم تعتبر الا كتاب المعارف ، نعمة مفراته ممكنة معقولة مع معاصر لابن قتيبة هو اليعقوبي (م حوالي ٢٨٨ - ٩٠١) . فان موازنة بين كتاب المعارف وتاريخ اليعقوبي - الذي هو ليس بمؤرخ - ولكنه اديب - تكشف على الفور لدى هذا الاخير عن سعة في النظرات وعن تطوع الى الشعوب الغريبة عن الاسلام ، التي تحمل على التعكير بان المعتزلة وجدوا في بعض الفرق المعتدلة الورثة اللاتنين بهم .

وفضلا عن ذلك ، فقد حدث ان ذكر اليعقوبي في عداد « الجغرافيين » . ونحن نعلم ان الاعمال الجغرافية الاولى قد اوجت بها اهتمامات ادارية وسياسية ومالية ليس لها اي علاقة بالادب .

ومع ذلك فان الجاحظ - الجاحظ ايضا - مد الادب الى هذا العلم ، والى كتابا اسمه كتاب البلدان المفقود في يومنا هذا ، ولكن شذراته النادرة المحفوظة تحتوي على مانورات وحكايات اسطورية عن عدة مدن ، وتضم كذلك ملامح يمكن ادراجها دون مشعة في دراسة عن الجغرافية البشرية .

في هذا الحقل يكون الوارث الحقيقي المحامي للجاحظ معاصرا لليعقوبي ويحمل اسم ابن الفقيه الذي يدخل كتابه البلدان في نطاق الادب الخالص ويتعد كثيرا عن الجغرافية العلمية . والخلاصة اننا لا نعلم على وجه اليقين ما اذا كان ابن الفقيه بغداديا ، بل يوسعنا التردد في حسابان اليعقوبي في عداد كتاب العاصمة . وعلى كل حال فان كتاب البلدان لهذا الاخير هو من الجغرافية الوصفية ، وبهذه الصفة يبرز كوجه رائد . وسيعالج هذه الفترة من الجغرافية في القرن التالي مؤلفون اهمهم المقدسي الذي لم يكن بغداديا (كتابه في ٣٧٥ - ٩٨٥) .

على ان الكاتب الذي يذكرنا مباشرة باليعقوبي مولود في بغداد ، اي السمودي (م عام ٣٢٧ - ٩٥٨) ، الذي ارتأى ان يقدم التاريخ والجغرافية بصيغة لذيدة . وهو لا يقالي الى حد ترصيع كتاباته بالنواتر المسلية ، كما كان يصنع الجاحظ ، وانما يحرص على عدم الاملال فيقلح على الدوام تقريبا . وبما انه رحالة كبير وعقلية متشوفة فهو يلتقط من الاقطار التي يزورها معلومات اصلية يضيف اليها وثائق يستعيرها من اسلافه ، ويخرج هذه كلها

حقيقيا . وجاء بعده أبو هلال العسكري (م بعد ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م) مستوحيا الجاحظ ، فمعرض بطريقة منهجية قواعد البلاغة العربية ، في حين حرص معاصره الباقلائي (م ٤٠٢ - ١٠١٣) على اقامة الدليل على اعجاز القرآن .

لا نجد اي شيء ، في هذه الكتب ، حول نثر الكتاب العرب . ولا نستطيع ان نكون فكرة عن الاذواق النقدية الا في بعض المختارات والمجاميع . تلك الاذواق التي قصرت نفسها على ايراد المتطفات التي استهوت مختارها ، دون تبرير الاختيار .

زبدة القول ان الادب استحاله بمعناه الصحيح ، بعد ابن قتيبة بالضبط ، الى منتخبات ومجاميع تختلط فيها العناصر المختلفة للثقافة العربية الاسلامية ، حيث تجتمع المخططات المتباينة عن الشعر والتاريخ والاخلاق والسياسة ، الخ . وبالاجمال فان هذه المؤلفات النافعة لا تقدم اي اصالة ولا تعمل اكثر من صيانة التراث : الكامل في الادب للنحوي المبرد (م ٢٨٥ - ٨٩٨) برهان ساطع على ذلك .

من النوع الترفيحي صدرت بعض المؤلفات القيمة ، وعلى سبيل المثال جمع التنوخي (م ٢٨٤ - ٩٤٤) امثالا ونوادير ومانورات وحكايات تنافلها القضاة اكثر من سواهم . عن موضوع الفرج بعد الشده في كتابه المشهور ، وجمع من كل حديقه زهرة ليؤلف كتابه نشوار المحاضرة . اما ابن الجوزي (م ٥٩٧ - ١٢٠٠) فهو رغم كونه فقيها ، اديب كامل يخيل اليانا انه لم ينصف حتى الان .

ان ملاحظة البيئة الاجتماعية ، التي استمد منها الجاحظ بغزارة ، لم يتسع لها عدد صغير من المؤلفات ، التي تتميز مع ذلك باصالتها وطلبها الشخصي عن بقية المؤلفات الادبية التي قوامها الاعظم الشواهد . فالوشاء (م ٢٢٢ - ٩٢٤) يستلهم الجاحظ ولاسيما في كتابه الموشى ، الكتاب المغربي للغاية وموضوعه احوال الاوساط المتميزة ومتانفي عصره . وابتكر ابو المطهر الازدي (القرن ٤ - ١٠) نوعا بالغ الجودة في رسم لوحة منتزعة من الحياة البغدادية واخلاقها وفي جملة احد الاشخاص يصف مشاهد حية من الواقع . والرابطة التي يمكن ان توجد بين انتاجه ونوع القامة منكور ولا يمكن مناقشته هنا ، ولكن مما لا مشاحة فيه ان ابا المطهر يحتل مكانة خاصة في نطاق تاريخ الادب العربي . . .

بعد انقضاء بعض الوقت نجم بدوره نادر آخر هو ابو حيان التوحيدي . فانتج بمهارة احاديث تتسم على الاخص بالطابع الفلسفي ، ورسم لوحات

معتنيا باسلوبه ، بحيث ان غيرته على الاناقة تؤدي به الى قلب معاني بعض النيد المنسوخة من كتب اخرى راسا على عقب ، ولا يتردد في كتابه مروج الذهب عن ادراج فصول حول الامم اللامسلمة ، واتشاء ثبت بملوك فرنسا حتى عصره ، كما قام بنفس الصنيع اليقوي ولكن يتوسع اكثر ، اما عن التاريخ اسلامي فلا يستفي الا التفاصيل التي يتصورها واخره اكثر من سواها . ويتعد عن ايراد كل الحوادث عن حكم اذا استوخم ظلها .

وعلى ذلك فان مسألة معرفة ما اذا كان انتاج المسودي كما نعهده من التاريخ او من الجغرافية او مجرد كونه اديبا ، فاننا نستطيع ان نجيب على ذلك بدقة : المسودي اديب يعرف ان الضجر يتولد يوما . . . من الرغبة في قول شيء ويجهد نفسه في شد قرانه اليه وهو يقص بلغة مستساغة وبصورة عامة واضحة ، الوقائع التي يحسبها الالم والا جذب .

لم تكن حالة المؤرخين الحقيقيين بالتاكيد على هذه الشاكلة . وهم الحرصون على ان يكونوا واضحين ، وعلى الا يتروكوا شيئا في العماء ، فجمعوا الاحاديث وتركوا الصدارة للعلم لا للادب ، مع اننا نستطيع ان نكتشف لديهم صفحات جميلة من المختارات : وعلى هذه الصورة البلاذري (م نهاية القرن الثالث) او الطبري (م عام ٣١٠ - ٩٢٢) . وهما اعظم ممثلين لهذا العلم . ومع ذلك ، فبعد هذا بقليل كتب الصولي مذكرات شخصية عن التاريخ البغدادي الذي اتبعه بمختارات من القصائد نظمها امراء عباسيون او شعراء من حواشيهم ، ولف كذلك لكتاب الدواوين كتاب ادب الكتاب المختلف بصورة محسوسة عن كتاب ابن قتيبة .

نمة شكل آخر من التاريخ يمثله ابو الفرج الاصفهاني (م ٣٥٦ - ٩٦٧) في كتاب الاغانى ، حيث يجمع اشعارا واخبارا عن الشعراء والموسيقين وشخصيات المجتمع الكبرى . هذا الكتاب الهائل ، الذي يمكن تصنيفه مع كتب الادب ، له قيمة وثائقية عليا ، وهو يتحفنا بطائفة من المعلومات لا نستطيع العثور عليها في مكان آخر ، لان الشطر الاعظم من مصادر ابي الفرج مفقود .

هناك وجهة نظر تقول ان كتاب الاغانى يعتبر كتاب نقد ادبي ، هذا العلم الذي احتل في تلك الحقبة منزلة رفيعة ، وكان مترجرا لدى الجاحظ واكثر منهجية لدى ابن قتيبة ، فاصبح تقنيا فنيا عند ابن المعتز (م ٢٩٦ - ٩٠٨) الذي يفكر في كتابه البديع بتصنيف الصور البلاغية ، ولا سيما لدى قدامة (م نحو ٣٣٦ - ٩٤٨) الذي يؤلف فنا شعريا

المقول على بغداد (٦٥٦ - ١٢٥٨) خرابها ، ومن ذلك الوقت اصبح مركز النشاط الادبي في اقطار ناطقة بالعربية ، ويضع اكثرها غربا . وما يزال بعض البغداديين يرد ذكرهم في تاريخ الادب ، ولا سيما النحوي عبدالقادر البغدادي (م ١٠٩٣ - ١٦٨٢) الذي أسهم في مجهودات مؤلفي الموسوعات ، بتأليفه فيما ألف ، كتاب خزنة الادب . ولكن في القاهرة ، لاني بغداد .

ان الحدود الضيقة التي ارتضيتها للمقالة الراهنة ، واينار كاتبها للنشر الادبي الخالص ، فرضت استبعاد كل النشاط الديني والفلسفي والعلمي ، الذي كان اطاره عاصمة الخلافة ، والذي كان في القرنين الثالث والرابع خاصة على كنانة هائلة . وتاريخ بغداد للمحدث الخطيب البغدادي (م ٦٢ - ١٠٧١) المكرس مبدئيا لعلماء الدين الذين عاشوا فيها ينفع بذاته بوثائق واسعة لمن يريد ان يسطر بالتفصيل النشاط الفكري للعاصمة ، ويقوم مسردا بالوثائق الثرية التي كتبت . وتبواضع اكبر ، لقد حاولنا متابعة خط الذري ، مسدلين ستار الصمت على المؤلفين الذين نعتبرهم ثانويين ، بهدف ابراز الاسماء الأشهر والألمع . وهناك اربعة مؤلفين جوهريين : الجاحظ في عهد الاعتزال ، وابن قتيبة اثناء عصر الاحياء (الريسانس) ، المسعودي في العهد الذي سماه لويس ماسينيون « العهد الاسماعيلي » ، واخيرا التوحيدي الذي ظهر في ايام البويهيين كأحد الرماة الاحرار franc - tireur او المناضلين ، وراى نفسه متهمه ، خطا ولاشك ، بالزندقة ، ولا تكاد نجد في تاريخ عام للادب العربي ، اسماء لامعة كهذه الاسماء ، للفترة والانواع المعتبرة . وهذا يثبت بجلاء تفوق بغداد الفكري خلال الحقبة الزاهية للخلافة العباسية .

ومع ذلك هناك احتراز يفرض نفسه . ففي تقييمنا للادب نحن ضحايا الزمن والناس الذين اتلفوا - عمدا او سهوا - جمهرة من المخطوطات . فان اختفائها بحرماننا من مصطلحات مقارنة لا غنى عنها ، ويجعلنا نؤدي غرامة النقاد العرب ، ولكن من المحتمل ان هؤلاء الآخرين لم يكونوا متوهمين في حكمهم ، وانهم عرفوا الاعتراف بقيمة اعمال اجدادهم الذين استأهلوا الوصول الى الابناء . ينبغي فقط تمنى ان يسمح اكتشاف المخطوطات الجديدة بتصليح بعض اخطاء المنظور ، وتوفير التكريم المستحق للكتاب ربما نسوا بدون حق .

ساخرة لاذعة لمعاصريه (ولاسيما لابن عباد وابن العميد) والف رسائل تذكرونا بالجاحظ . ولا شك ان التوحيدي هو الممثل الاعظم والاخير في سلالة اكبر نائر للقرن الثالث ، الذي يدعي التوحيدي انتسابه الى طريقته وبعلم اعجاب به ، وبفرد نثره اللامع جدا بمزية عدم الالتجاء الى الاسجاع ، في فترة اصبحت فيها هذه المحسنات اللفظية شبه اجبارية في ادب الرسائل واعمال كتاب الدواوين ، فباتت سيدة الموقف في الاوساط التي كان يرتادها ابو حيان .

ان كتاب الدواوين الذين كانوا شبه محتكرين في ايام الامويين وعهد العباسيين الاوائل لاستعمال النثر المسجوع ، جاء الجاحظ فاطفا نجمهم . واذا كانوا استعملوا الرسائل ، كوسيلة للتقديم ، فعلى الاقل اضطروا للتكيف مع طريقة تلك الفترة وتجبير وناقمهم في نثر بسيط ، دون افتعال مفرط . ومع ذلك ، وبعد ان اتبعوا هذه القاعدة خلال القرن الثالث ، استدرجوا ، دون شعور منهم ، الى تزويق كتاباتهم ... الى استعارة جزء من وسائل الشعر ، فاحبوا النثر المسجوع ، الذي لم يجرؤوا على استعماله بصورة منتظمة ، احتراماً للنص القرآني ، فنشروا قابلية لم تلبث ان استحالت الى بهارج لفظية . وهكذا حين وضع كتاب الديوان في الدرجة الثانية اخذوا بنارهم فدبحوا بتحدلق مقيت ليس المراسلات الرسمية فحسب ، وانما رسائلهم الخاصة ايضا واعمالهم الادبية . ودفاعا عن بغداد ينبغي القول ان هذه البدعة الجديدة التي تفتتت في الادارة عمت خارج مدينة الخلفاء ، التي اصبحت من ذلك الوقت محرومة من طابعها كعاصمة امبراطورية ، فالوزيران البويهيان ، ابن العميد (م ٣٦٠ - ٩٧٠) الملقب ظلما وعدوانا بالجاحظ الثاني ، وابن عباد (م ٣٨٥ - ٩٦٥) تمتعا بهذا الصدد بشهره يستحقانها . ومع ذلك فان استاذ النثر المسجوع الكبير هو بديع الزمان الهمداني (م ٣٩٨ - ١٠٠٧) مبتكر نوع المغامة ، ولم يحظ اي بغدادي بالترسي باسم هذا النوع الادبي حقا ، الذي توج في القرن التالي باسم نحوي من البصرة هو الحريري (٥١٦ - ١١٢٢) .

ان بغداد التي تالقت بشماع لا مثيل له اثناء ما ندعوه بـ « العصر العباسي الاول » ، الذي نهضت خلاله الحضارة الاسلامية قاسية بصدمة قاسية ايام حكم البويهيين . اما في عهد السلاجقة (من ٤٤٧ - ١٠٥٥) فقد اكتفت بالعيش على مجدها السالف . وعجل انشاء المدرسة النظامية بانحطاطها وذلك بفرض مانتمته بالمدرسية . وقد اتم استيلاء

تيمورلنك في بغداد

بقلم

جان أوبان

واحدة^(٢) جعلته يقف أمام بغداد وجها لوجه في ٢٩ أغسطس ١٣٩٣^(٣) في حين لم يكد يبدأ مناخ بلاد ما بين النهرين الصيفي المتهب بالانخفاض والتلطف . لم يدع هذا الزحف الصاعق للعاهل الجلائري السلطان أحمد الوقت الكافي لاتخاذ اي اجراء كان . ومع ذلك فان هدف الحملة ، الذي انحصر في الفناء القبض عليه حيا او ميتا ، لم يتحقق ، فقد اشمره الحمام الزاجل في العثية السالفة بخظر وصول العدو ، وعبثا ارسل اليه تيمورلنك حماما آخر يحمل رسالة تصحيحية تعلن بأن سحب الفبار التي ظن الظانون ان الجيش التيموري قد اناها ، لم تكن الا من اثار قطمان الماشية المتنقلة .

لقد انسحب السلطان احمد الى الساحل الايمن من دجلة وجر معه كافة السفن والزوارق التي لم يقدر لها ان تفرق . اما الجيش التيموري فلم يتوقف تحت اسوار بغداد . بل اخترق النهر فطوق الاسوار من اعلى النهر واسفله . وسحب تيمورلنك النهر على يخته الملكي الذي يدعى الشمس ، وقد جلب اليه من الضفة اليمنى . فاضاع عليه الذهب والاياب بعض الوقت . فاعترف بعد ذلك لخلصائه بقوله : لو في اللحظة التي وصلت فيها اندفعت الى الماء واجترت دجلة ، لكنت قبضت على السلطان احمد . ولكن بما انني توقفت ، فقد فاز بهمة ، وبمضي الزمن الذي انفقه الجنود في العبور استطاع الابتعاد عنا مسافة «١» . وقد ثناه الامراء عن قيادة حملة لتعقبه بنفسه ، وفي حين كانوا

لم تعد بغداد منذ الغزو المغولي عام ١٢٥٨ سوى عاصمة اقليمية . فليس من سفر للحجيج العراقي . وباحتفاظها بالمدارس التي بغني للتعليم الديني فيها بعض المنزلة ، ظلت بغداد مشوى للحياة العقلية . ولكونها مرحلة على الطريق بين الخليج العربي والقفقاس ، لبثت كما كانت ، رغم مساحتها الضيقة ونشاطها العمراني المتحلق حول الجانب الشرقي من دجلة ، مركزا اقتصاديا له اهمية نسبية .

ان الامراء الجلائريين ، الذين اقتطعوا لانفسهم ، بعد سقوط الايلخانيين ، مقاطعات ذات تركيب اصيل شمل اذربايجان وبلاد ما بين النهرين ، فاتخذوا من بغداد عاصمتهم الصيفية ، استدرجوا الى قصورهم الادباء والفنانين . ولكن هذا الاشعاع الفني الوليد تبرد من جراء تدفق غزو جديد آت من آسيا الوسطى ، هو غزو جغتاي تيمورلنك .

في عام ١٣٩٢ شرع تيمورلنك بضم ايران الغربية ، وبالتالي ، الدولة الجلائرية . وكانت الحملة على بغداد تحمل طابع العبقرية العسكرية للعائد الكبير . فالجيش الجغتائي ، الذي عسكر في الهضاب العليا لغربي ايران تلقى في منتصف اغسطس الامر بالتزود بالقطع الخشبية لعبور دجلة بوسائنه الخاصة . وقد اعطيت اشارة الرحيل في ٢١ اغسطس . وكان تيمورلنك يقود الطليعة بنفسه وبسرعة غاية في الخفة ، بحيث انه ، كما قال احد المؤرخين : « لم تستطع الخيالة الخفيفة للحاق ببقار افراس الغارة له »^(١) وان الكيلومترات المائة والاربعين الاخيرة التي طار بها تيمورلنك مرة

(٢) خواننمير ، حبيب السير ، ط حيام ، ٢ ، ص ٥٦ .

(٣) ٢٠ شوال ٧٩٥ هـ .

(٤) حلاله ابرو - زبدة التواريخ .

(١) نتزوي ، طهران ، ١٩٥٧ ، ص ٢٥٦ .

يطاردون السلطان أحمد الذي افلت منهم بأعجوبة ،
فقل تيمورلنك عائدا الى بغداد .

عامل تيمورلنك المدن المدونه التي ابعدت
مقاومة بشكل يختلف عن تلك التي استسلمت
لرحمته طبعا للقواعد المحددة . اما قضية بغداد عام
١٣٩٣ فخاصة : لم تكن نعمة مغاومة ، بواقع هروب
السلطان احمد ، ولكن فراره سبق وصول قوات
الجفطي بفترة قصيره بحيث ان سراده بغداد لم
يتوفر لهم الوقت الكافي لارسال وفد الى المستر
التيموري لطلب الفران وطرح اقتراح اقتداء
انفسهم .

ان نظام الدين الشامي ، الذي كان اول من
خرج من المدينة ذاهبا لتحية تيمورلنك ، راي دجلة
مغطاة بالرجال الذين كانوا يعبرون الى الجانب
الايمن . وشاهد العيان هذا ، الذي ديج غب ذلك
بسنوات معدودات اول تاريخ رسمي لحملات الرجل
الكبير ، المسمى ظفر نامه . لم يشر الى ماهيه
التقارير الدقيقة للسلطات المحلية ولا الى كنه القيادة
الجفطانية .

وهناك شاهد آخر ، هو عزيز الاسترابادي ،
الذي احتفى بالنجف . اذ يروي ان الجنود اوثقوا
بالاغلال كل من وجدوا من الرجال وعذبوهم ، وجروا
الفتيات اليافعات الى حانات عريذاتهم واعندوا على
عفافهن . وحطموا ثريات المساجد وعلفوا بها
الانمة ، وتلوا الحاريب ، واحرقوا المنائر ، وربطوا
خيولهم في المدارس ، ومشاهد الاعتصابات الجنسية
التي تشير اليها مصادر اخرى (٥) لابد من حدوث
اشباهها في اماكن اخرى من العراق ، التي وطنتها
اقدام عصابات جفطاني بحثا عن الغنائم والنقود ،
وفي الضواحي خارج اسوار بغداد .

وبينما كانت هذه العصابات تميت فسادا في
ارجاء القطر « كان اهالي بغداد ، ضنا بحياتهم
وبحياة اولادهم ، قد رضوا بتادية فدية للمساهمة
في نفقات الجيش التيموري » . وقد فرضت هذه
الاتاوة بسلطة مسؤول . وفي المدن الاخرى التي جبي
فديتها تيمورلنك ، لم تدخل الى قلب الاسوار
الا بعض الفصائل المكلفة بحماية حياة النقود
ومساعدتهم ، وظلت ابواب المدينة مقفلة بعناية
واحتراس لاجتناب ويلات نهب الاموال على ايدي
الجنود الاشرار . اما عن حالة بغداد في عام ١٣٩٣ ،
فرغم وصفها الشاذ الذي يعكسه تشوش المصادر

حول هذه النقطة ، يوسعنا ان نتصور ان سكان
المدينة القابعين داخل الاسوار كانوا محميين ، بصورة
نسبية على الاقل ، من التماس المباشر مع القوات
المسلحة . على ان هذا الواقع لم يخل من شرور
التصرفات الهمجية التي انضبت على رؤوس الذين
اخفوا اموالهم ، او الذين حامت حولهم افظنون .
مكث تيمورلنك شهرين في بغداد ، وقال ابن عرب
شاه ، الذي صنف كتابا موتورا عنه ، انه امضى
اياما لذيده في السراقات المأمة على ضفاف دجلة .
وعلى اقل تقدير فان هذه الباهج والمنع كانت
محفوظة بالحشمة والوقار . فقد اريق المخزون من
خمر الموصل وخمر ديار بكر التي اكتشفت في
مذاخر السلطان احمد في دجلة .

ويروي الرواة ان الاسماك انثلمت طفت بطونها
مواجهة الهواء ، كتلك الاسماك التي هلكت . والتي
اخذ الجنود يصيدونها بسهولة . وقد امر تيمورلنك
انشاء اقامته بترميم مرقد الامام احمد بن حنبل ،
الذي اضررت به فيضانات دجلة .

غادر تيمورلنك بغداد في الرابع والعشرين من
ذي الحجة ٧٩٥ - ٣١ تشرين الاول ١٣٩٣
مصطحبا معه الابداء وانفانين الذين زانوا البلاط
الجلاري مع عدد من اسرى الحرب واسيراتها .
الدين ما لبثوا ان بيعوا بصفة عبيد . وقد انار
التوقف الطويل للجيش التيموري ، الذي عاش في
الفطر ، الفعط في بغداد بعد رحيله . وكان
تيمورلنك قد ترك في بغداد حاكما خراسانيا ، هو
الخواجه مسعود السيزواري ، الذي كان خبيرا
بسؤون الاقاليم العربية . اذ سبق له ان تولى في
اذار ١٣٩٣ ادارة ولاية شستر . ويمتدح نظام
الدين الشامي طبعه الدمث الكريم ، فيقول :
« لقد عذف على اسعاد من بقي من السكان » و
« بذل كل ما في مفرده لتكريم العلماء واعالة الفقراء ،
ولم يغفل لحظة واحدة عن القيام بالتصدق على
الموزين » .

ويقال ان اغلاق بيوت الدعارة ، الذي طبق
في ولايات تيمورلنك رغم الخسائر التي نجمت عنه
بالنسبة للخزانه العامة ، في تاريخ ، او في تواريخ
متلاحقة وفي ظروف غير معروفة لدينا ، قد اصاب
بأضراره فيما اصاب بيوت سوق السلطان في بغداد ،
ومن حقنا ان نتصور ان الاجراء طبق بعد رحيل
الجيش ، في عهد ادارة الخواجه مسعود
السيزواري . . لقد كان الخواجه مسعود

(٥) الزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٢ ، ص ٢٥٥
و ٢١٢ - وتاريخ الفياني .

كان يحكم في اذربايجان ، وقد اصيب منذ فترة قصيرة باضطرابات عقلية ، على بغداد في حواره القبيح اللاهبة ، دون الاصاحة بسمة الى نصائح مستشاريه . اما السلطان احمد ، فلوثوقه بالنجاح ظل ساكنا خلف اسوار - بغداد . وبعد وصول ميران شاه بيومين استدعى الى تبريز لنشوب قلاقل مهددة له . وفي عام ١٤٠٠ ، وقد علم بنزول تيمورلنك في الاناضول الشرقي ، هجر السلطان احمد بغداد ولكنه جرؤ على الظهور فيها مرة اخرى مدى بضعة ايام في الشتاء التالي ، في حين كان الغازي مشغولا في سورية ، ثم عهد بالمدينة الى احد ضباطه الامير فرج ، فالتجأ الى الاقليم العثماني .

في مايس ١٤٠١ ارسل تيمورلنك الذي كان في الموصل - تشكيلة مؤلفة من خمسة الاف رجل ليحمل البغداديين على تادية نفقات الحرب . ولكن خلاف كل توقع اصطدم الجفطي بالتركان على الجانب الايسر من دجلة ، وقد تضخم عددهم بالبدو الذين دعاهم فرج لنجدته . وقد اقام هذا جسرا من الزوارق لقلد الامدادات على مؤخرة الجيش . حمل الجفطي على البدو فبددوا شملهم ونزلوا تحت اسوار بغداد تموزهم الوسائل لتقويضها او تسلفها . فهبط تيمورلنك بشخصه ، من جهة التين كوبري «التون كوبري ٢» ، صوب بغداد التي حاصرها من جهة الشرق ، في حين شرعت قوات بعهدة ميران شاه بتمشيط الجانب الغربي من دجلة . وكانت عملية خطيرة حيث عشرات الالوف من الرجال ، في موسم الحرارة المحرقة ، يحلون في سهل بغداد . وعلى ذلك فلم يجلب تيمورلنك الا الحد الادنى من القوات تاركا جماع جيشه مخيما في مخارم كردستان .

لقد انخدع فرج بضالة عدد المحاصرين ، فابى الاعتقاد بوجود خصمه الرعب بينهم . وقد اضطر تيمورلنك حيال المقاومة التي واجهها ، الى استدعاء قواته الاحتياطية ، فتم له بذلك اكتساح بغداد اكتساحا تاما . دام الحصار قرابة اربعين يوما . ويؤكد كتاب ظفرنامه ان تيمورلنك رفع الحصار عدة مرات على استسلام المدينة والحفاظ على محاسنها . ذلك الحصار الذي طلبه ضباطه . وفي المدينة التي عمها التخط هربت جموع من الجنود والسكان الذين اتحدوا من اعالي الاسوار . ثم اعلن

السيزواري ، ابن اخت الرئيس الاخير للبربرية ووارثه ، وهم الذين اسسوا دولتهم المعروفة في سيزوار ، في خراسان . وحين هدهم تطرف الطبقات الشعبية ، انضم زعماء البربرية بحماس الى تيمورلنك ، الذي كانت معتقداته تغذيها ، قبل كل شيء ، المحافظة الدينية والاجتماعية . وعلى ذلك فينبغي ان نحترس فلا نعزو لتعيين اي حاكم في بغداد مغزى دينيا . وكل ما نستطيع ان نتصوره ان اختيار شخصية مخلصه للسلطة التيمورية املاه الحرص على تغادي تفشي اندفاعات الحمية التي كانت كامنة في الاوساط المتطرفة المراقية . وتعيين الخواجة مسعود السيزواري يثبت ، من جهته اخرى ، ان تيمورلنك كان ينوي توطيد سلطته بشكل دائم في العراق العربي . وهي النية التي تشير اليها بوضوح اعمال التقوية لاسوار بغداد وخنادقها ، التي عمل على تحقيقها الخواجة مسعود .

لم تسمح الثلاثة الاف من البربرية من « جيش سيزوار » للخواجة مسعود بالدفاع عن بغداد ضد عودة هجومية جلائرية . ففي خريف عام ١٣٩٤ ارغم على الانسحاب صوب شستر ، في حين كان السلطان احمد يدخل بغداد ، حيث استأنف عاداته من المرح والهو والتذبذب . وفي عام ٨٠٠ - ١٣٩٧ جمعت مؤامرة طيخت لقتله يقال ان تيمورلنك اوحى بها - كل سراة القوم ضده ، من الامراء الى بعض سيدات الحرم . فحطم المؤامرة بحيلة ، وقتل بيده عدة متآمرين ، تاركا بغداد خفية ، ماضيا الى طلب العون من زعيم التركمان قره قوينلو ، قره يوسف .

وكان سكان بغداد يجهلون الاحابيل التي تحاك وراء ابواب القصر المقلعة ، فلم يعملوا بغياب العاهل الا في لحظة ظهور تركمان قره يوسف على الساحل الايسر من دجلة . وقد اسال لعابهم مشاهد السلب والنهب . فرفض السلطان احمد بفتة اعطاء السفن الضرورية لاجتياز النهر ، وابعدهم في الختام بهدايا باهظة ، من النقوش والمنسوجات والخيول والنفائس الاخرى .

ويقال ان السلطان احمد عمل آتئذ بنجاح على استعادة شعبيته لدى رعاياه . وفي صيف ٨٠٠ - ١٣٩٨ هبط ميران شاه ، ابن تيمورلنك ، الذي

كردستان الغطى بالثلوج واثبتت وجودها على الفور امام المدينة . فانهزم السلطان احمد بقميصه . وعاد بعد ذلك بعدة اشهر الى عاصمته مصحوبا بقصره يوسف وكان قد طرد منها على يد هذا الأخير ، الذي تمسك ببغداد حتى وصول احد احفاد تيمورلنك ، ابي بكر بن ميران شاه ، وذلك في خريف ١٤٠٣ .

ما كاد تيمورلنك بلفظ انفاسه عام ١٤٠٥ حتى اخذت الولايات التي اقتطعها لاحفاده في غربي ايران بالانهيار . فانتمت السلطان احمد الفرصة لاحتلال بغداد مرة اخرى واعاده تشييد اسوارها . وخلال السنوات المدودات لاستئاف الحكم الجلائري كانت بغداد بؤرة للمؤامرات ضد العاهل الخامل المنهمك باللاهي والمذات . ففي عام ١٤١٠ نفذ فيه عملية الاعدام صاحبه القديم قره يوسف ... في تبريز ، ومنح العراق العربي لولده شمس محمد . فصمد الاتباع الجلائريون بعض الاشهر في بغداد التي حاصرتها قوات قره-قوبلنو . واخيرا اخترقها شمس محمد في الخامس من محرم ٨١٤ - ٢٩ نيسان ١٤١١ . فنهب رجاله المدينة طوال يوم كامل .

هكذا بدأت الفترة التركمانية من تاريخ بغداد ، التي قدر لها ان تدمر حتى الاحتلال العثماني عام ١٥٣٥ ، والتي كانت بالنسبة لعاصمة العالم الاسلامي فترة اندثار . وفي عهد حكم امراء اصدقاء للفنون والاداب واداريين مستنيرين ، استطاعت بغداد ان تنفض غبار اللد عن نفسها بعض الشيء ، وان تصحو من هول صدمة احتلال الجفطاي المضاعف . وكانت الفترة التركمانية . بمجموعها غير مؤاتية للحياة العمرانية ، وزاد الموقف المخوف من جراء الغزوات التيمورية تفاقمها على تفانم .

وبحكم كون بغداد مدينة صفري واقعة على منأى من الطرق الحيوية ومتروقة لصفار البيوتات الحاكمة او المقامات التي ينكر سلطتها المنكرون ، قدر لها ان تعيش خاملة . ويصف القريري وضعها عام ١٤٣٧/٨٤١ فيقول ان بغداد خربة . فليس ثمة من مسجد ولا من مصليين ولا من اذان ولا من سوق . جف فيها معظم النخيل ، وتمطلت القنوات ، فلا تستطيع تسميتها مدينة .

الهجوم اخيرا في ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣/ - ٩ تموز ١٤٠١ ، عند الظهر . ونصب جسراً للقوارب في اعلى دجلة مزودة برماة قطعوا طريق النهر على من تسول لهم انفسهم محاولة الهرب مع مجرى الشط وروقت ضفاف المدينة من الجانبين . فدبح كل الناس المقيمين في بغداد ، ومن ضمنهم الاطفال ، مع سبق الاصرار . وفرض على كل جندي ان يقدم راسا الى المكاتب التي يقوم على حساباتها ضباط . فارتفعت اثر ذلك ابراج من الرؤوس المقطوعة في مختلف ارجاء المدينة . واختلف تقدير عدد الضحايا باختلاف المصادر . وعلى كل حال قدرت قرابين الجزيرة بمشرات الالوف . اما الذين نجوا ، وهم قلة في تقدير ظفر نامة - واحد من مائة تقريبا - فقد بيعوا بصفة عبيد . ولم يستثن منهم الا الفقهاء والشيوخ والدراويش الذين افلحوا في الوصول الى سرادق تيمورلنك . فوزعت عليهم الاقوات والملابس ، وارسلوا الى مكان امين .

ترك الجيش بغداد ، بعد ان اصبحت مدافن ، حوالي ١٥ تموز ، قاصدا مراعي كردستان المرعة . وعلى تقيض ما حدث عام ١٣٩٣ ، لم يمكث اي احد من ممثلي السلطة التيمورية في موضعه ، اذ لا جدوى في ذلك . وتذكر التواريخ ان تيمورلنك سساوى الاسوار بالارض ، اما العمارات ذات المنفعة العامة والاسواق والبيوت والمسيدات ذات الطابع الديني ، كالمساجد والمدارس والخانقاهات ، فقد استثنيت لوحدها .

وهناك كما في كل مكان آخر حدثت فيه امثال هذه التخريبات لم يوفر شيء الا بتحفظ . فلم يكن للجيش التيموري في بغداد الوقت ولا الوسائل التقنية لتدمير مدينة من المدن ذات اهمية متوسطة ومواقع دفاعية تمتد الى عدة كيلومترات . وقد تأيد علاوة على ذلك ، خلال القرن الخامس عشر برمته ، ان الاسوار حمت الاهالي التجمعيين في موقع بغداد من غارات البداة الشعواء .

وبتثبيت ليس له من نظير الاتهاونه ، عاد السلطان احمد الى بغداد فور انتشاع القمة . فوصل اليها في مستهل عام ١٤٠٢ ، وحاول انهاض القطر من كبوته . فارسلت لحره تشكيلة مسن الجفطاي على وجه السرعة مخترقة ببناء ومشفقة

العلوم والفلسفة في حضارة بغداد

أيام العباسيين الاولى

بقلم

روجيه ارناالدين

وبضروب المحاكمات العقلية . اما الطرق البرية والنهرية فكانت تتلاقى حول هذا المركز ، فالواقع سرّة الدنيا ، تجلب اليه كل الثروات المادية والروحية من جميع ارجاء العالم .

وإذا اخذنا بنظر الاعتبار فخامة الاسلوب الشرقي فيظل صحيحا ان بغداد كانت في غاية حسن الموقع لاستقبال وجمع تاثيرات مختلف الأقطار المتمدنة ولقطف نمار الحضارة اليونانية-الاسكندرية مع نمار الحضارة الفارسية او الهندية بل حتى الصينية . وقد استطاع مايرهوف ان يرسم المسار الذي هاجرت بموجبه الثقافة الهلينية والرومانية من الاسكندرية الى بغداد ، ونحن نعلم ، من جهة اخرى ، كيف جعل تأسيس اكااديمية للعلوم على يد المأمون من بغداد وريثة لمدرسة جنديسابور حيث النسطوريون ، المطرودون من الرها في القرن الخامس ، ثم فلاسفة مدرسة اثينا ، التي اغلقها جوستينيان عام ٥٢٥ ، كيف تواجد هؤلاءمجتمعين بعلماء قدموا من فارس والهند . وصحيح ان في بوتقة بغداد تالفت ، بالاخصاب المتبادل ، معارف من جميع الشعوب ، هي علم جديد اصبح ينبوع الرئيسي لعلمنا الغربي .

ولكننا لم نأخذ على عاتقنا معالجة فصل من فصول تاريخ العلوم والفلسفة الذي ، بكونه تاريخ تسلسل ونقل المذاهب، والاكتشافات والاختراعات، سيفتح منظورات واسعة عبر الأزمنة وسيهمل السند القوي للأحداث الخاصة وبالتالي المحلية . وبالعلاقة مع بغداد ، وهي مدينة اسلامية ، وعاصمة الخلافات المنغمسة في مشاكل الملل والنحل والانتماء

حين عزم الخليفة المنصور على تأسيس بغداد . جمع الفلكيين والاطباء والمساحين والمهندسين . لدراسة الموقع والمناخ . لعمل كنوف . لاستخراج طواع . لاعداد مخطط . لتقرير انسب لحظة للبدء بالأعمال ، اذن لقد ولدت عاصمة الخلافة العباسية تحت رعاية العلماء وعنايتهم ، وربما ينبغي ان نرى في هذه علامة على الدور الذي ستلعبه في تنامي العلوم والفنون والفلسفة . ولكن اذا كانت العلوم ، كشان السلطان القوامة ، قد تراسست المشروع وتزعمت بناء بغداد ، فذلك لسبق وجودها . يذكر اليعقوبي ضمن هؤلاء العلماء الفزازي والنوبختي وما شاء الله والطبري . الاول حسبما يروي سوتر Suter ، هو ابراهيم بن حبيب بن سليمان بن سامور بن جندب ابي اسحق ، اول مسلم صنع الاسطراب السطحي او المسطح ، وكان كتب عدة كتب لها مساس بالات الوزن والقياس والحساب ، وعن الاسطراب وعن مواقع الافلاك ، وتعيين الظهيرة الحقيقية (الزوال) والثانسي كان فارسيا ، منجما للخليفة المنصور . وكان ماشاء الله يهوديا ، وقد صنف عدة كتب في التنجيم . والمذكور الأخير هو عمر بن الفروخسان ابو حفص الطبري ، الفلكي المنجم ، شارح المقالات الأربسع لبطليموس ومترجم كتب فارسية .

اما الجغرافيون الذين اثنوا على بغداد ، ولا سيما المقدسي واليعقوبي ، فلا ينضب لهم معين . فالواقع مختار منذ الأزل ، وقد كشف عنه القناع للرسول . والهواء كان نقياً وصحياً ، والأرض خصبة ، وطقوس مختلف الفصول متوازنة . وكان يسكانه ذوي عقول راجحة ، مشغوفين بالعلوم

القومي المحدد كل التحديد ، سنغص الافكار العلمية والفلسفية .

لا يجهل أحد ان العباسيين ، بسبب ظروف دعابتهم ، وكذلك بعلة المحالقات التي مهدت لمجيئهم الى الحكم ، قد استداروا صوب البلدان المفتوحة وانسحبوا مع اساليب تفكير . انتشرت بتأثير المنازع العلوية بين الفرق الاخرى . فالتاريخ يعلمنا كم كان دقيقا وعويضا موقف خلفاء بغداد في مواجهة المشايخين او المدعين المتطرفين الذين كانوا يتظاهرون بلا انقطاع تقريبا . ولم تكن سياسة الخلفاء تجاههم بمجموعها حازمة ولا محددة : فهناك اجراءات مشددة ، لا تتخذ الا في انسب الحالات ولكنها لا تصل الى حد النصر النهائي ، ويتلوها محاولات للتوفيق تذهب بعيدا في بعض الأحيان . ذلك لان الخلفاء في الحقيقة تواجدوا وجها لوجه مع قوة ثابتة للمعارضة ، هي قوة القومية الاعربية التي تزيت بازياء دينية وفلسفية .

وقد استطعنا ان نلاحظ مثلا ان بعض الاطباء في القرن السابع والثامن ، كانوا من غير المسلمين . وقد ازداد عدد المسلمين من ممتنهي الطب خلال القرن التاسع واصحوا الاكثرية في القرن العاشر . ويمكن تعميم هذه الملاحظة بسهولة على النشاط العلمي كله .

الواقع ان العرب جلبوا كنزا كان يمشل في اعينهم كل شيء : لفنهم ، تلك اللغة التي انزل فيها القرآن ، الوحي الحاسم ، وهم على شعور تام بهذه القيمة ، وقد نجحوا في اقناع الشعوب التي استولوا عليها بهذا الامر . ولكن هذه اللغة ، التي اختارها وامتدحها المفكرون غير المسلمين ، كاكمل لغة واوفاها بالتعبير عن الافكار العلمية والفلسفية الكبرى ، لم تكن الا جزئيا اللغة القرآنية . فقد اتقنت وعمقت ومطقت بصنع المترجمين ، وكانت تحل في ذاتها طابع مختلف الحضارات التي ارتبطت بها المؤلفات المترجمة . وقد اصبحت اللغة التي بواسطتها استطاعت شعوب متميزة الانفتاح على بعضها والتفاهم والتوصل والتجمع . واستطاعت لعب دور اللغة الاغريقية في العصر الاسكندردي ، ولكن بشكل اتقن وعلى مقياس اوسع بكثير . فان فكرة يعبر عنها بالعربية ، مهما كان اصلها ، تصح ميسورة التناول مباشرة لجمع كبير من الناس ، من اصول وتقاليد مختلفة ، وتسير جنبها الى جنب عالية « العلم العربي » وعالية اللغة العربية .

مما لا شك فيه مبدئيا ان هذه اللغة العربية الحديثة آتت لم تكن بصورة اساسية لغة اخرى غير

لغة القرآن العربية ، ولكن بالتحديد هذا هو ما اوقع الدراما . لو كان نمة ازدواجية واضحة فان النصوص المنزلة ستصير محمية ومحفوظة في امان بالطابع الخاص للغة خاصة . ولكن عربية العلماء والفلاسفة كانت ، بالقياس الى عربية القرآن ، مشابهة كل التشابه ، ومتباينة كل التباين . فلم يمكن تجنب جر قارئ الكتاب المقدس الى تداعيات افكار وطرق تفكير لم تكن قرآنية . لقد اتاحست تفسيرات تتعارض مع السنة لبعض الفئات ، نوعا من التشبث بافكار غير اسلامية . والخلفاء ، المدفوعون بالعقيدة الخاصة والشعائر الدينية الصحيحة ، ليس لهم الا ان يحولوا دون هذا الغزو الويل . ولكنهم لم يعودوا يستطيعون ، لو فرضنا انهم ارادوا . لقد كانت الحركة بالغة السرعة ، بالغة العنف . والسياسة « الثقافية » لهذه الفترة ، حتى التدخل الحازم للاتراك ، يصادف نفس المشاكل الدقيقة وذات الصعاب كالسياسة تجاه العلويين . كان هناك بالنسبة للخلفاء العباسيين حد ادنى يجب اتقاذه . كان ينبغي اخلاء مكان ، كبير او صغير ، ولكنه كاف ، للروح الجديدة . ولنلاحظ من جهة اخرى ان المع اللامعين من بينهم قاموا بهذه المساومات تلقائيا وبطبيعة خاطر . كحالة المأمون . ولكن المنصور قبله كان كلف ابا يحيى بن البطريق بترجمة كتب قديمة ، مؤلفات ابو قراط وجالينوس ، وترجم محمد بن ابراهيم الفزاري ، ابن باني الاسطرلابات المذكور آغا ، كتابا من الهندية الى العربية هو السدهانتا ، الذي ظل طويلا يستعمل كأساس لاقامة الزيج ، بالتعاون مع التراجم العربية للأزياج الفارسية المؤلفة بالفهلوية ابام الساسانيين . فضلا عن ذلك ، لم يكن الخلفاء وحدهم الذين اهتموا بهذا بهذا العمل وشملوه برعايتهم ، ولكن هذا حذوهم كبار القادة من حاشيتهم مثل : الفضل بن سهل السرخسي ، وزير المأمون ، فقد كان من اوائل الفلكيين في عصره وكان ، مع يحيى بن خالد البرمكي ، صديق هذا المترجم العالم ، الطبري ، الذي سبق ان ذكرناه ، كان في خدمته ابو علي يحيى بن ابي منصور ، وابو عثمان سهل بن بشر بن هاني .

كان هناك عهد كامل مكرس للتراجم توزع على فترات . كان هائلا عدد المترجمين : يؤسفنا القول ان بعض العلماء والفلكيين والمهندسين والرياضيين والاطباء الذين لم يكونوا عربا اقحاحا والذين كانوا غير مسلمين يعرفون لغات اخرى غير العربية ، وكانوا يترجمون لانفسهم او لاحد المحسنين . ولكن هذه التراجم لم تكن كلها ذات قيمة واحدة . فالتراجم الاولى من حيث الزمان كانت مشحونة بالاغلاط او

ولكن بالنسبة للمسلمين الذين عاشوا فترات الاضطرابات التي تلت الفتنة، لم يكن وضع الاسلام ومن بعيد، واضح الملامح. لقد تحدد التمسك بالسنة لديهم شيئا فشيئا، عبر معارك سياسية واجتماعية ودينية عديدة. وحتى حين كان ابو الحسن الأشعري يضع اسس السنة في مطلع القرن العاشر، كانت الخلافات متصلة، ليس بشكل هجمات خارجية آتية من الهراطقة المطرودين من جماعة الايمان. وانما على هيئة حركات متولدة من داخل اسلام كان يصارع ويكافح. واولئك الذين نرى فيهم حراسا اغيارا للغاية على السنة الصميمة الراسخة، الذين انطلقا من القرن التاسع وجلدوا تعبيرهم في المذهب الحنبلي، كانوا يؤلفون معارضة صفرى رغم كونها نشيطة جدا. وبالنسبة لهم لا توجد تعاليم مشروعة الا التعاليم التي جاء بها القرآن او التي ترشحت من العلوم القرآنية. وقد استنكروا كل الاستنكار، لا الفلسفة والعلوم ذات الاصل الاجنبي والانساني فحسب، وانما اضافوا الى ذلك استنكار كل لاهوت وكل اخلاقيات متأثرة بتاملات الكفار. ولكن تصلب موقفهم نفسه ومطالبهم حالت دون اقتداء الجماهير بهم: كما هي حالة الكثرة من المذهبيين، فلم يستطيعوا العيش الا في حرم المعارضة.

وفيما عدا المذهب الحنبلي، الذي كان بمقدوره تثبيت العقول لولا انه كان على درجة من العسر بحيث يصعب اتباعه ولا سيما تعميمه، ينبغي ان نعترف ان حيرة عظمى سادت فتركت جميع الذين كانوا قادرين على الاطمئنان واليقين في ارتباك من امرهم. وتسبب الحياة الاخلاقية وانحطاط العادات، والشواهد عليهما كثيرة، كان لها اسباب عديدة. ولكن اضطراب العقيدة يعتبر من اهم الاضطرابات، فالشاعر مطيع بن ابياس، الذي عاش في كنف الخلافة العباسية، يظهر عبر الاخبار التي يرويها عنه كتاب الاغانى، كأمونج من الرجال الذين يحبون الغضبة والتجديف. فقد اتهم بالزندقة، والملاحدون من شاكلته، ولو قامت القيامة ضدهم، كانوا حينئذ عديدين، وقضايا ابي نؤاس معروفة كثيرا فلا حاجة للنص عليها. ومن طراز مختلف، هناك شاعر آخر هو ابو الصنابة، الذي يبيننا شهادة على كذلك مثيرة. انه صنابة اليأس والموت. ويروي كتاب الاغانى ان بعض معاصريه عزوه الى فريق الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالنشور، ذلك لأن اشعاره لا تتحدث الا عن الخراب والغناء:

غامضة لحرفيتها، او لضعف في التفهم، وكذلك لان اللغة العربية لم تكن بالغة المرونة آنذاك ولم توهب مصطلحات تقنية كافية. ولهذا رأينا اجراء مراجعات للتراجم المشغولة سالفا، وذلك لتقويمها وتحسينها حتى يقر المترجمون الكبار بصلاحتها بعد مراجعتها.

لقد كان بنو موسى ثلاثة اخوة، محمد واحمد وحسن. وكلهم علماء متميزون في الفلك والميكانيكا والهندسة. وكانت لهم علاقات وثيقة مع مشاهير المترجمين: حنين بن اسحق، المولود في الحيرة عام ١٩٤ - ٨٠٩، المتوفى في بغداد عام ٢٦٠ - ٨٧٢، وابن اخته او اخيه جيش بن الحسن وثابت بن قرة، الصائفي من حران. وشجع بنو موسى هؤلاء مشاريع الترجمة وساندوها. ولاجلهم قام حنين برحلات الى الافطار الرومية لجمع كتب قديمة: ونحن مع هذه الجماعة، في اوج الفترة المزدهرة بالتراجم: لقد ادخل كل هؤلاء تحسينات على جهود اسلافهم: هكذا راجع حنين ترجمة ارسطو ليحيى بن البطريق، وترجمة مقالات بطليموس الرابع (رابوعات) لابراهيم بن الصلت، في حين يذهب ابن ابي اصيبعة الى ان ثابت بن قرة راجع ترجمة اوقليدس التي صنعها الحجاج (وطبقا لقول سوتر صنعها اسحق بن حنين). ولكن التراجم لم تستعمل ابدا دون نقد، وسنرى الفلاسفة الكبار يفيرون هذا التعبير او ذلك في النصوص العربية لكتاب ارسطو في الطبيعة، حيث يصحح ابن رشد غالبا تفاصيل في نص قسطا بن لوفا، المسيحي من بغداد (المتوفى حوالي عام ٣٠٠ - ٩١٢) وكان مترجما ذائع الصيت وفيلسوبا وفلكيا ورياضيا وطيبيا، في آن واحد.

ينبغي التوقف ازاء هذا العمل الضخم الذي صنع من اللغة العربية لغة فلسفة وعلم. وبالنظر الضئيل الذي قلناه تلحظون ان هذا العمل نعد بعناية فائقة ومواظبة هائلة وحماس متقد. ولكن ماذا كانت النتيجة من وجهة نظر الفلسفة والعلم؟ لا نستطيع الدخول في بحث عن اعداد مكتسبات الفلسفة والعلم العربيين، فنحن منهمكون في تفهم وضع، وليس في تعداد مذاهب وتحليلها. عندما نستعرض تاريخ الاسلام نوشك ان نقع ضحية وهم استذكاري استعادي Retrospective مسؤول عنه ولا شك مؤرخو البدع المتأخرون بعض التأخر: نحن نفكر بالسنة الاصلية المؤسسة اقوى تاسيس منذ البداية والتي تدور حولها الفرق، من القريين من العقيدة البدائية حتى اضل المعتقدات

لدوا للموت وابنوا للخراب
فلكموا يصير الى التراب
اما مذهبه الصوفي فمستوحى من خيصة
الامل ، والباريء بالنسبة له هو الموت وليس
الحياة :

سكن يبقى له سكن
ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار يخبرنا
ببلاها ناطق لسن
دار سوء لم يدم فرح
لامرء فيها ولا حزن
في سبيل الله انفسنا
كلنا بالموت مرتهم
كل نفس عند ميتها
حظها من مالها الكفن
ان مال المرء ليس له
منه الا ذكره الحسن

* * *

الا كلنا بانسد
واي بنسى آدم خالد ؟
ويدوهم كان من ربهم
وكسل الى ربه عائدا
فياعجا كيف بعصي الاله (م)
ام كيف يجحده الجاحد ؟
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

* * *

حسبك مما تبغيه القوت
ما اكثر القوت لمن يموت

* * *

الناس في غفلاتهم
ورحى النبتة تطحن

* * *

وقد تمثل ائتدهور الاخلاقي في تلك الحقبة
بعبادة رومسية للطرف . ففي معظم الاحيان تكون
القضية قضية سحر موسيقي ولحن عذب ، كما
هي الحالة لدى الشاعر ابن الاحنف . ولكن يلوح
ان في الاوساط المترخصة كان الباحثون يفتشون
عن استنارات اعنف واكثر انفعالا . وبوسمنا
تخمين هذا عبر الشعر الغزلي لامثال ابي نؤس ،
حيث الخمرة بنشوتها ، تقارن بالراة . ودليل آخر
على الخلق المريض لهذه الانحلالات الخيالية تزودنا

بها قصة جعفر المحزنة ، ابن الخليفة المنصور
الذي ، حسب رواية كتاب الاغانى ، اتخذ
مطيع بن ايباس المشكك نديما له . وقد وقع لهذا
ان احب حبا مدهلا امرأة من الجن . وبذل كل ما
في طوقه لتزوجها عن طريق ممارسة السحر . ورافق
هذا الاضطراب العقلي ازمان صرع زاد تكرارها
الحالة سوءا على سوء حتى ادى الى وفاة المصاب
بها . في احوال كهذه . كيف جرى تقديم العلوم
والحكمة الاتية من اليونان او من الهند ؟ ليس في
الاجابة غموض : لقد جلبت اليقين والطمأنينة الى
عالم مهدد بالرحيل الى الجهول .

ولكن ربما شعر الناس بهذه الطمانينة بشكل
مختلف فبالنسبة لهؤلاء . هي مسألة تهدئة
الهاجس الوقتية صرفا . وكاتوا يؤلفون الاكثرية
الكاثرة . حتى بين الرجال المتعلمين والشخصيات
الكبيرة . وهذا توضح لوجة هذه العلوم التي مع
شمولها للعناصر التجريبية ظلت « علوما خفية »
قريبة من علوم السحر والتنجيم : التنجيم القضائي .
علم الطلاسم . نوع طبي تجريبي . السيمياء بأشكالها
السوقية . كانت في ممارستها تتعارض بصورة
مباشرة مع روح الاسلام . وقد شهر بها « السحر ،
الغفهاء بوصفها من « العلوم المذمومة » تحت اسماء
عامة للسحر « السحر ولتفهم منه السحر الاسود :
الطلاسم - الموجودة مع ذلك حتى في تصنيف لعلوم
لابن سينا عام الشعبة » . كل هذه الممارسات كان
لها الصدارة ، والجزء الاعظم من السبب يكمن في
زيادة انتشار الخرافة كلما تفكك المجتمع . ولكن
هذه الممارسات وجدت متجاوبين معها لدى الاقدمين
ولا سيما في دورات ابل حوران . ومع ذلك
فان معارضة الفقهاء ما لبثت ان وجدت حلفاء لها
بين الفلاسفة والعلماء انفسهم .

هناك آخرون انتظروا من الفلاسفة والعلم
يقينيات ارفع ونظريات جديدة او ما نسميه نحن
اليوم Weltanschauung جديدة بتوجيه
الناس ، ان في حياتهم المادية والاخلاقية الفردية :
وان في حياتهم الاجتماعية والسياسية . وبرز الفكر
الاغريقي بوحدة العالم الاعتقاد الاساسي بنظرية
اتصال وثيق بين العالم الاكبر (الكون) والعالم
الاصغر .

الانسان في اثناف يجمع بين كافة اجزاء
العالم . ونتج عن هذا الاثناف الفلسفي بوحدة
العلوم ، ومعنى ذلك ، في التحليل الاخير . الاثناف
بقيمة النظام الوحيد للمبادئ المطبقة على العالم

بأسره . وهذا ما يفسر قدرة التأملات التنجيمية على اجتذاب علماء افحاح : قضية التنجيم هي ، في الواقع قضية تواصل شامل بين الكائنات . وعلى صعيد آخر ، ولكن بنفس الروح ، ما يفسر ما نلاحظه في كتابات المدونة الجابرية . من الرابطة الوثيقة التي وجدت بالنسبة لمفكري هذه الحقبة ، بين التنجيم والسيمياء والطب : كل شيء يقوم في كل مكان على نفس النظام في تأليف الصفات الأولى : البرد والحر ، الجفاف والرطوبة . ومن هذه الاشجاء المختلفة تخرج العناصر ، ثم الاجسام الكيميائية المحمولة على الكواكب ، واخلاق الجسم ، التي تحصل الصحة ويحدث المرض من توازنها وفقدان توازنها . والاخلط البسيطة التي هي في اساس العقاقير . تعطى نفس التركيب . وكذلك الاغذية والسوموم . والطقوس والظواهر التوتية بدورها تجيب على نفس النظام . ولذلك فان العالم بأسره . من كواكب الى حيوانات ونباتات ومياه معدنية وخاصة الاراضي والمياه والهواء ، كلها يمكن ان تمدد المساعدة للطبيب الذي يريد ان يشفي المرض . ما دامت المسألة دائما مسألة اما تغيير درجة الصفات السيئة التوازن في جسم الانسان ، واما بتحريكها من مواضعها . وبصورة مبدئية ستكون معرفة السماء له مفيدة كما هي مفيدة له معرفة الحقائق الارضية والجسم البشري .

ولكن عن هذه الوجهة نفسها ينبغي القول ان هذه التأملات . المستوحاة من مثل عليا يونانية قديمة لا علاقة لها بالاسلام . شأنها شأن كل غنوص . حتى حين تلبس لبوس الافكار الدينية المستعارة من كتب مقدسة . تدير ظهرها لما عليه الطابع الخاص للأديان السماوية : لعجز الانسان عن بلوغ حقيقة منفذة وخير حقيقي . بعقله الخاص وبحثه العلمي والفلسفي الخاص . وما كان خطيرا ، لم يكن بسبب تفصيل لمذهب ، كمسألة الخلق ، او مسألة بعث الاجساد ، او العقوبات وانحسابات في الحياة الاخرى . فانفلسفة عارضت التعاليم الدينية .

ومقابل ذلك انطلقت هذه الغنوصية للأفلاطونية المحدثة لخدمة الفرق المتطرفة المعروفة ، التي كانت تبحث لا عن فهم النص القرآني كحقيقة مسلم بها ، وانما للاستعانة به وتفسيره . في سبيل ايجاد افكار لم تكن مستوحاة منه بصورة مباشرة .

سنفترض بان تفكير احدى الطوائف تمنح التفاؤل والصفاء للذين حسبنا اننا لمسناهما في الاساليب العلمية والفلسفية . لاريد ان بعض الطوائف من وجهة النظر هذه اشد قلقا من الطوائف الاخرى التي لديها يقين دون مشاكل والتي وجدت للمرة الاولى حتيقة لا سبيل الى مناقشتها . ولكن كما رأينا ذلك ، ان منظري اهل السنة الرضية كانوا اناسا ذوي ارادة محتكة ، وقد رفضوا بحزم الخروج من الكتاب الذي قالوا انهم وجدوا فيه كل شيء ، والذين قالوا لا لكل القضايا واستكروا في الوقت نفسه جدريا حتى طرح هذه المشاكل . والفلسفة المظمنة لم تكتب لامثال هؤلاء الناس ، وانما قدرت للذين شغلهم الاضطراب والذين ، كاهل بعض الطوائف ، كانوا دون انقطاع مرهقين بنصيب تاعس ، وقد توقفوا في محاولاتهم وتحددوا بنجاحاتهم نفسها . اولئك كانت لديهم حاجة بالفلسفة كسلوى ، والغنوصية للأفلاطونية المحدثة كانت بالنسبة لهم فلسفة السلوان .

ولكن يبدو ان الفلاسفة بدورهم قد شعروا بالحاجة الى ضمان وحدة هذه الطريقة المنسجمة

وبالاجمال ، فان العالم ، بواقع وحدته ، هو ربما يمكننا ان نقول عنه انه عالم مكمل : كل شيء قائم فيه وفق نوع علاقات جيرية متبادلة . وبموجب توازن اجزاء يحكمها المبدأ الاسمي ، وهو المبدأ الذي ينبغي كماله هذه الوحدة وبصونها ويضمنها . الانسان غير مسلم السدفة . يمكنه ان يكون ينجح من كل تقلبات الزمان والافلات من كل قلق ، شريطة ان تكون لديه معرفة دقيقة بالواقع والتكيف لهذا الواقع . ليس المثل الاعلى الغنوصي هو تسوية كل شيء بالمعرفة واشاعة الامن بواسطة المعرفة ؟ والواقع ان غنوصية الافلاطونية المحدثة هي التي اختيرت . بالفريزة تقريبا ، لتأسيس هذا البناء المظمنين وتوجيهه . وغب اعمال بول كراوس وريترو فالترن ، ينبغي ان نسلم بان الافلاطونية المحدثة قد اثرت تأثيرا عميقا في الكندي ، « فيلسوف العرب » واول الفلاسفة . واذا كان الفارابي ، كما يؤيد ذلك كراوس ، « قد كشف القناع عن اتجاه مضاد للتصوف وتقاد بشدة ، لا تكاد تكون له علاقة بالتصوف الافلوطيني » ، واذا كان اشد اخلاصا من المتصوفين الاستبطانيين للمثل الاعلى الافلاطوني بالرجوع الى الكهف لبناء المدينة الفاضلة فيه ، فانه يحتفظ في

دائما على النصوص القديمة والتصفوا بها ، ومثلهم العلماء الذين ارادوا تحقيق اقوال اسلافهم ، في حين انهم قبلوا دون مقاومة المذاهب العامة ، ولو بفهمها على طريقتهم وحسب حاجاتهم (على هذه الشاكلة الطيب ابن الطبري ، في كتابه فردوس الحكمة ، فهو يعطي للافكار اللاهوتية وللعمل والقوة والمادة والشكل ، معنى محسوسا طبيعيا محضا لا يوجد لدى ارسطو مثيله) .

لقد كانوا مستقلين اكثر في كل مكان سقطت فيه الافكار تحت نقد الملاحظة والتجريب . وقد احسوا ان بوسعهم تحسين المقاييس واتقان وسائل الحساب وتحديد التجارب .

لقد بزغت فكرة تقدم العلوم والحضارة : فهي لدى ابي بكر الرازي ، وظهرت لدى التوحيدي .

وهكذا . اصلحوا القدماء ، او اكملوهم ، بعد ان ترجموهم . وسنورد لاسناد راينا ، الملاحظات المختلفة التي حدثت في مرصد بغداد في حي السماسية عام ٨٢٩/٨٢٤ ، ثم في دمشق عام ٨٢٢/٢١٧ في مرصد جبل قاسيون . كانت المسألة ، بين مسائل اخرى ، قياس ميلان الارض على صعيد الخسوف ، وتعيين الذروة وطول السنة الشمسية ، وظاهرة الاعتدالين .

وقد شارك في هذه الملاحظات حشد كبير من الفلكيين منهم ، ابو علي يحيى بن ابي منصور ، ابو عبدالله بن موسى الخوارزمي ، المشهور بجبره واعماله الرياضية ، كشره في الزيج ، وخالد بن عبدالملك المرورودي وسند بن علي و علي بن عيسى والعباس بن سعيد الجوهري ، وآخرون غيرهم . وهذه الاعمال اتاحت اصلاح الالواح (الازياج) طبقا للسندھانتا ، والى اقامة الواح جديدة ينسب ان نذكر من بينها (الزيج الممتحن) ، والواقعة الاخرى تحقيق طول قوس درجة نصف النهار الارضية . ويروي ابن خلكان قصة اجراء العملية ويعزوها الى بنسي موسى (ينكر سوتر هذه النسبة ويروي روايتين اخريين تتضمنان اختلافات في الأشخاص والاماكن . واليكم رواية ابن خلكان :

(ابو عبدالله محمد بن موسى بن شاكر)

« احد الاخوة الثلاثة ، الذين ينسب اليهم جبل بنسي موسى ، وهم مشهورون بها ، واسم اخويه : احمد ، والحسن ، وكانت لهم هم عالية في تحصيل العلوم القديمة ، وكتب الاوائل ، واتبعوا انفسهم في شأنها ، وانغلغوا الى بلاد الروم من اخرجها لهم ، واحضروا النقلة من

التي اقاموها لمواطنيهم . لقد وجدوا هذا الضمان في وحدة العقل ، كما ينجم ذلك من منطق ارسطو . وقد عرفنا ولا شك مؤلفات الفلسفة الطبيعية وطبيعة ارسطو . وكانت ترجمت الى العربية ، ولكن ارسطو بالنسبة لمفكري هذه الفترة على الاخص هو استاذ المنطق

والفارابي حين وصوله الى بغداد عشر فيها على المنطق الشهير ابي بشر متى بن يونس ، الذي يعلمنا ابن خلكان بنجاحه : مئات التلاميذ الذين كانوا يجتمعون كل يوم حوله ليسمعوه يقرأ الاورغانون - منطق ارسطو - ويشرحه . كان يعلي على طلابه الشرح . وكان اسلوبه واضحا . كان يستعمل البسط والتذليل . ولعل ذلك يرجع الى الثقة بالمنطق وبتناججه التي يمرت فكره الوفاق بين المذاهب التي نادى بها حكيماء المهود القديمة افلاطون وارسطو ، ذلك الوفاق الذي كرس له الفارابي مصنفا . هناك يعلي الفيلسوف بجلاء ووضوح ان غايته قطع حبل الشك في قلوب اولئك الذين يدرسون كتبهما . ويقول : لا يمكن ان تساور نفوسنا غاية اهم وانفع . انسان واحد يمكن ان يتوهم ، ذلك لان الاشياء تخامر ذهنه بصورة مغايرة لصورتها الحقيقية . بل احيانا يتوهم عدة اشخاص توهما موحدًا : ذلك لانهم يتبعون عن طريق التقليد استاذًا واحدًا هو نفسه واقع في الخطأ . ولكن عندما يتوافق عقلان نتيجة تأمل ، تدرب . بحث . تنقير . معاندة . تبكيت . حينئذ يمكن ان نطمئن على حقيقة مذهبهما . ما عسى ان نقول سوى ان الانسان الذي يبحث عن نفسه ، بعقله المنطقي وحده ، دون هوى أو خيال ، سيتفق في مجال الحقيقة مع جميع الذين يتصرفون تصرفه ؟

وعلى هذا النوال فان المنطق الارسطوطاليسي كان مفتاح قبة الفلسفة . ولكنه في الواقع ظل غريبا عن الاهتمامات العملية للعلوم . وفي هذا المجال نشهد تشكل حالة عقلية جديدة كل الجدة . فالعلماء الذين تملقوا بفروع علمية خاصة استطاعوا اعلان نياتهم بان يصبحوا نافعين لاناسي عصرهم ، ولا سيما لاولئك المكلفين بقيادة الآخرين . وفكرة المنفعة كثيرا ما تنساب على الالسنة . وقد داب العلماء على اثبات وجوب امام الخلفاء والامراء واعوانهم ، لممارسة وظائفهم ممارسة جيدة ، بهذه العلوم وتلك ، او ان يلقنهم اياها اخصاصيون . ولكن حدث ان ارتفع الباحثون - كما اراد ارسطو - الى درجة ارفع ، من وجهة النظر ، وتركوا انفسهم مقودة باغراضها . وكذلك المترجمون الذين انكبوا

الأصقاع الشاسعة، والأماكن البعيدة بالبذل السني،
فأظهروا عجاب الحكمة .

وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة ،
والحيل ، والحركات ، والموسيقى ، والنجوم ، وهو
الاقل .

ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر ، يشتمل
على كل غريبة . ولقد وقفت عليه ، فوجدته من
أحسن الكتب . وامتعا . وهو مجلد واحد .

ثم عادوا الى الموضوع الذي ضربوا فيه الودد
الاول وشدوا فيه حبلا ، وتوجهوا الى جهة
الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا
في جهة الشمال : من نصب الوداد ، وشد الحبال ،
حتى فرغت الحبال ، التي استعملوها في جهة
الشمال ، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب
الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الاول درجة ، فصح
حسابهم ، وحققوا ما قصدوه من ذلك ، وهذا
إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقة
ذلك .

ومن المعلوم ، ان عدد درج الفلك ثلاثمائة
وستون درجة ، لان الفلك مقسوم بانني عشر برجا ،
وكل برج ثلاثون درجة ، فتكون الجملة ثلاثمائة
وستين درجة ، فضربوا عدد درج الفلك في ستة
وستين ميلا - اي التي هي حصة كل درجة -
فكانت الجملة اربعة وعشرين الف ميل ، وهي :
ثمانية آلاف فرسخ ، وهذا محقق لا شك فيه .

فلما عاد بنو موسى الى المأمون واخبروه بما
صنعوا ، وكان موافقا لما رآه في الكتب القديمة
من استخراج الأوائل ، طلب تحقيق ذلك في موضع
آخر ، فسيرهم الى الكوفة ، وفعلوا كما فعلوا في
سنجار ، فتوافق الحسابان ، فعلم المأمون صحة
ما حرره القدماء في ذلك .

لقد روينا هذه القصة لأنها تحسن الإشارة
الى الحرص على المنهج والبحث عن الدقة في جميع
مراحل التجربة .

ويوسفنا الاكثار من ضرب الأمثلة التي سترينا
ان العلماء العرب تحرروا في كل العلوم تدريجا من
اساتذتهم الاغريق في كل مكان على نطاق الملاحظة
والتجريب والقياس والطرق العملية في الحساب .
اما في الطب ، فالى جانب المناقشات المدرسية
(الاسكولائية) كالمناقشات التي جرت بين رضوان
وابن بطلان ، تبني الإشارة ، لدى اطباء أمثال
ابي زكريا الرازي ، الى قيمة الملاحظات السريرية .

وعلى هذه الصورة هدف العلم عند العرب
الى الحصول على بعض الاستقلال تجاه الفلسفة ،
لكي يصبح علما يقينيا غنيا بالتجارب والحسابات .
واخيرا ، بالرغم من ان مثليه بين المسلمين ظلوا
في معظم الاحيان متهمين بشيء من الزندقة ، فقد
تناقص ايحاؤه بالخوف لدى المؤمنين الحقيقيين بحيث
انه استطاع بعد ذلك احد قادة السنة الاقحاح ،
وهو الغزالي « الكتابة بان الرياضيات ومن ضمنها
الطبيعة (اي بصورة يقينية) والطب لا تحمل أي

ومما اختلفوا به في ملة الاسلام واخرجوه من
القوة الى الفعل - وان كان ارباب الارصاد المتقدمون
على الاسلام قد فعلوه ، لكنه لم ينتقل ان احدا من
اهل هذه الملة تصدى له وفعله ، الا هم - وهو ان
المأمون كان مغرر بعلوم الأوائل وتحقيقتها ، وراى
فيها ان دور كرة الأرض اربعة وعشرون الف ميل كل
ثلاثة أميال فرسخ ، فيكون المجموع : ثمانية آلاف
فرسخ . بحيث لو وضع جبل على أي نقطة كانت
من الأرض ، وادرنوا الجبل على كرة الأرض حتى
انتهينا بالطرف الآخر الى ذلك الموضع من الأرض ،
والتقى طرفا الجبل . فاذا مسحنا ذلك الجبل كان
طوله اربعة وعشرين الف ميل ، فأراد المأمون ان
يقف على حقيقة ذلك ، فسأل بني موسى المذكورين
عنه ، فقالوا : نعم ، هذا قطعي . وقال : اريد منكم
ان تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر
هل يتحرر ذلك ام لا ، فسألوا عن الاراضي المتساوية
في أي البلاد هي ؟ فقبل لهم : صحراء سنجان في
غاية الاستواء . وكذلك وطلت الكوفة ، فأخذوا
معهم جماعة ممن يثق المأمون الى اقوالهم ، ويركن
الى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا الى سنجان ،
وجاءوا الى الصحراء المذكورة ، فوقفوا في موضع
منها ، فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض
الالات ، وضربوا في ذلك الموضع وتدا ، وربطوا فيه
حبلا طويلا ، ثم مشوا الى الجهة الشمالية على
استواء الأرض من غير انحراف الى اليمين واليسار
حسب الامكان . فلما فرغ الجبل نصبوا في الأرض
وتدا آخر ، وربطوا فيه حبلا طويلا ، ومشوا الى
جهة الشمال ايضا كفضلهم الاول .

ولم يزل دابهم ، حتى انتهوا الى موضع
أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور ، فوجدوه قد زاد
على الارتفاع الاول درجة ، فمسحوا ذلك القدر
الذي قدره من الأرض بالحبال ، فبلغ ستة وستين
ميلا وثلاثي ميل ، فعلموا ان كل درجة من درج
الفلك ، يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلا
وثلاثان .

هذا المذهب كان يقول ، في الواقع ، بان الله لا يخلق الا الوجودات وليس الماهيات . ولكن مقابل ذلك . ان علم الظواهر المطاة للحواس وعلم الشريعة المفهوم على هيئة مؤشرات لمجرد علاقة بين هذه الظواهر ، هما اللذان سمحا بان يروا فيهما عادة وسيره يسيرهما الله بحرية دون اي ضرورة من جانب الشيء . هذا العلم تقبله المتكلمون بسهولة ، وادركوا ضرورة التزام الاسلام بعدم رفض كل ما تجلبه الحضارة « العصرية » .

اما الذي ظل عدوا للاسلام فهي الفلسفة ، هذه التلقيفية التوفيقية القائمة على الافلاطونية المحدثة المزعوم استنادها الى منطق ارسطو ، ومعنى ذلك على قانون العلة الوحيدة الشاملة .

اذا كان الغارابي قد الف كتاب « الجمع » فانه كما قال هو نفسه ، لان بعض معاصريه فكروا بوجود خلاف وجهة نظر بين افلاطون وارسطو . اذن فالايمان ووحدة العقل قد اهتزا . ومشكلة معرفة ما اذا كان العقل هو صاحب الضرورة قد طرحت على بساط المدرسة الاشعرية . وهناك مفكرون كبار امثال الجويني والغزالي يحددون مزايم العقل (وبالتالي ادعاءات المنطق) بوصفها من مقومات الواقع . وسيكون ثمة نظام للمعرفة ، ولكنه نظام خاص بها ، ولن يهيمن ابدا على نظام الوجود .

ونحن واجدون لدى التوحيد مناقشة طريفة . للغاية بين النحوي ابي سعيد السراقي ومتى بن بونس . . . يرى متى ان المنطق يشبه ميزانا لوزن الحقيقة والخطأ ويخالفه ابو سعيد السراقي مخالفة تامة : واليكم بعض هذا الحوار :

« فقال ابن الغرات : انت لها يا ابا سعيد . فقال ابو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسمه هجئة . ثم واجه متى فقال : حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فانا اذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضي وطريقة معروفة .

قال متى : اعني به انه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفساد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فاني اعرف به الرجحان من النقصان ، والسائل من الجانح .

فقال : ابو سعيد : اخطأت ، لان صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم ، المألوف والاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية ، وفساد المعنى من صالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحت بالعقل . وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن ، فمن

خطر بذاتها . وعلاوة على ذلك فان العديد من هذه العلوم قدم خدماته للدين : فالحساب والجبر تدخلا في حساب حصة كل وارث في قسمة الوارث ، بقدر قرابته وموقعه من اصحاب الحق ، وعلى هذا كتب ابو حنيفة الدينوري في هذا الموضوع كتابين (حساب الوصايا وحساب الدور) .

واستعمل كذلك علم الفلك وعلم المثلثات (حيث كان العرب فيه مع ابي الوفاء من المخترعين) في تعيين اتجاه القبلة : وكتب الدينوري والبتاني وبعدهما ابن الهيثم عن هذه المسألة . واستخدم كذلك علم الفلك المسمى بعلم الوقت . لتعيين ساعات النهار والليل ولضبط مواقيت الصلوات الخمسة التي فرضها الشرع .

ولكن ينبغي علينا كذلك ملاحظة ان العلوم الخاصة ، الدائرة في فلك ابحاثها الخاصة ، قد افضى بها الامر الى تبني فرضيات للعمل وتخطيطات للنماذج لتمثيل الظواهر . وبالنتيجة ، لاتباع طرق كان الاتفاق عليها بعيدا . والوحدة المنطقية للعلم والعقل التي اعتبرتها الفلسفة كشيء مسلم به وكتمثل اعلى . وجدت نفسها تقاقل بضراوة : ففي علم الفلك مثلا ، تبنى العلماء نظام بطليموس ، الذي سمح لهم بترجمة ملاحظاتهم بوضوح في لغة هندسية .

وعلم انفلك الذي نستطيع ان نسميه طبيعة . ترك ايضا للفلاسفة الذين يدرسونه في منظور ما وراء الطبيعة عندهم . ولكن معارضة الطريقة الهندسية بالطريقة الفيزيقية ، ما تزال تبدو اكثر تميزا في المسائل البصرية . وهذا ما يبرهن عليه مايرهوف في مقال حول المذهب الارسطوطاليسي للضوء لدى حنين بن اسحق : حنين الذي بحث ان ارسطو في تحديد او تعريف طبيعة الضوء ، كان عليه ان يواجه جميع اولئك الذين يحددون نشاطهم في دراسات هندسية للشعاع الضوئي والمرايا ، حسب طريقة كبار الرياضيين القدماء ، اقليدس وبتليموس ، ونحن ندرك اهمية هذه المعارضة : انها هي نفسها التي نجدها ، على طول امتداد تاريخ العلوم ، بين الطبيعيات نفسها والظواهر ، بين الاسباب والقوانين . في هذه الحقبة ظل علم طبيعة الكائنات وعلم اسبابها ، في القالب الميتافيزيقي . وهذا هو العلم الذي لم يتقبله الاسلام ، نظرا لان فلسفته الفيزيقية التي تتعارض كل التعارض مع فكرة جبرية الطبيعيات ، بوصفها محددة للحرية المطلقة لله . وهذا ما يفسر الاستنكار الذي لا علاج له الذي انتهى بضرب مذهب الاعتزال :

لك بمعرفة الموزون ايما هو حديد او ذهب او شبه
او رصاص .

قال متى : انما الزم ذلك لان المنطق بحث عن
الاغراض المعقولة ، والمعاني المدركة ، ونصفح
للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة . والناس في
المعقولات سواء . الا ترى ان اربعة واربعة ثمانية
سواء عند جميع الامم . وكذلك ما اشبهه .

قال ابو سعيد : لو كانت المطلوبات بالفعل
والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبيها المختلفة وطرائفها
الثمانية الى هذه المرتبة البيئة في اربعة واربعة وانهما
ثمانية .

قال : نعم .

قال : اخطات . قل في هذا الموضوع : بلى .

قال : بلى . انا افلدك في مثل هذا . .

قال : اذا لست تدعونا الى علم المنطق . انما
تدعو الى تعلم اللغة اليونانية وانت لا تعرف لغة
يونان ، فكيف صرت تدعو الى لغة لانفي بها ؟ على
انك تنقل من السريانية . فما تقول في معان متحولة
بالنقل من لغة يونان الى لغة اخرى سريانية . ثم
من هذه الى اخرى عربية ؟

قال متى : يونان وان بادت مع لغتنا . فان
الترجمة حفظت الاغراض . وادت المعاني ، واخلصت
الحقائق .

قال ابو سعيد : اذا سلطنا لك ان الترجمة
صدقت وما كذبت ، فكذلك تقول : لا حجة الا عقول
يونان ، ولا برهان الا ما وضوه ، ولا حقيقة الا ما
ابرزوه .

قال متى : ولكنهم بين الامم اصحاب عناية
بالحكمة والبحث عن ظاهر العالم وباطنه . . .

قال ابو سعيد : اخطات وتمصبت وملت مع
الهوى ، فان علم العالم مبثوث في العالم بين جميع
من في العالم .

قال متى : هذا قد مر في جملة كلامك انما .

قال ابو سعيد : فهل وصلته بجواب قاطع ؟
اسألك عن حرف واحد وهو (الواو) ما احكامه ؟
وكيف مواقفه ؟ وهل هو على وجه او وجوه ؟

فبهت متى وقال : هذا نحو . والنحو لم انظر
فيه ، لانه لا حجة بالمنطقي اليه ، وبالنجوي حاجة
شديدة الى المنطق .

قال ابو سعيد : اخطات لان الكلام والنطق
واللغة والفظ من واد واحد بالمشاكله والمائلة .

فقال متى : يكفيني من لغتكم هذا الاسم والفعل
والحرف . فاني ابلغ بهذا القدر لي اغراض قد
هدبتها لي يونان .

قال ابو سعيد : اخطات . لانك في هذا الاسم
والفعل والحرف فقير الى وصفها وبنائها على الترتيب
الواقع في غرائر اهلها . وكذلك انت محتاج بعد الى
حركات هذه الاسماء والافعال والحروف .

قال متى : لو نثرت انا ايضا عليك من مسائل
المنطق اشياء لكان حالك كحالي .

قال علي بن عيسى وتفوض المجلس واهله
يتعجبون من جاش ابي سعيد الثابت ولسانه المتصرف
ووجهه المتهلل وفوائده المتتابعة . « .

والواقع ان منطق ارسطو هو عمل احد
اليونانيين . وضع حسب اللغة ليونانية فلا يلزم
العرب بشيء ولا الفرس ولا الهنود . ويحتج متى بان
المنطق يحمل على حقائق واضحة ، وان العقل واحد
ظالما كان الناس متساوين امام المفهومات : وعلى
سبيل المثال اربعة واربعة تساوي ثمانية بالنسبة
للجميع .

اننا لانسحدث عن برامج . حتى لو كانت
امينة - ولا تستطيع ان تكون امينة - اذن فلماذا
نهرع اليها ! لتبرير ذلك . ينبغي افتراض كون
الاغريق هم الشعب الوحيد الذي وهب عصمة
لا تقتحم . من ذكاء طبيعي متفجر ، الى طبيعة خاصة .
بحيث لم يقع في الخطل . حتى لو كان اراد . ولكنه
ككل الشعوب يصيب مرد ويخطئ اخرى . وعلاوة
على ذلك . فالمسألة ليست مسألة الاغريق كافة ،
ولكن قضية اغريقي واحد . هو ارسطو . كانت
قبله وبعده اختلافات بين الناس ذلك لان التباين
في الآراء شيء من الصميم وطبيعي . فهل يوسع
فرد ان يلقيه بجلب منطق . اذا كان نمة اختلاف
طبيعي بين العقول؟ على هذه الصورة لا توجد شمولية
للعقل . بوسعه تحقيق اجماع بين الناس ، وبين
الشعوب والافراد لا يستطيع احد بصورة خاصة
ادعاء التمتع بامتياز في هذه المادة . وكما يقول
الفزالي ، لا يمكن للعقل ان يكون حكما اعلى . وليس
بمقدور عقل فاعل اضاء فكر الحكماء او تصور
الانبياء . لا يستطيع الانسان ان يكتسب بنفسه
اضال يقين يفرض نفسه . انه لا يحصل على
اليقين الا باتباع الشريعة التي تحكم العالم في كل
معارج الحثيفة ، الطبيعية والاخلاقية والسياسية
والدينية . ولكن اذا كان لابد من العثور على هذا
الشرع بجهده العقلاني الذاتي ، فينبغي ، لثلايته .

اليوناني لحكم الصفة : س = ب ، وكل النظرية المنطقية التحوية للصفة ، اساس الميتافيزيقا العقلية للصفات . وعلى الصعيد العلمي ، فان الاشعرية للباقلاني ستنمي هذه الاسمانية في مذهب الجوهر الفرد العرشي .

وعلى هذا المتوال اتسعت الوشائج بين العلم والفلسفة والوحي القرآني ، ايام العباسيين الاولى .

ان مقاومة الفلسفة للانلاطونية المحدثنة في خدمة الفرق المتطرفة ، والنضال ضد منطق ارسطو الذي قدر له ان يدوم حتى عهد ابن تيمية ، قد انتها بفتح الطريق الى كلامية سنوية خالصة لم تستطع ان تشكل نفسها قبل ذلك ، لان الاسلام الحنيف يؤمنه الاصفاء ويحفظه تجاه الحكمة الاجنبية للكفار وحيال اخطار معتزلية ، رفض حتى فكرة ما وراء الطبيعة (الالهيات) وكذلك لان الكتلة الموحدة التي الفها العلم والفلسفة لم تكن قد تفككت بعد ، فعارض دون مسالمة ممكنة مذهب انصار الوحدة في السياسة والدين ، فظلت العقيدة الاسلامية راسخة البنيان .

ومن الجانب الآخر لابن سينا ، ادى هذا الطريق الى افكار الغزالي ، الركينة ، وافكار فخر الدين الرازي ، الرصينة .

ان يعرف جهده قبل كل شيء . اذن فهو حبيس في دائرة لن يخرج منها اذا كان قد اعطى الشرع مقدا .

اللغة التي خلقها الله ، والعالم المحسوس الذي خلقه كذلك ، هما معطيان بالنسبة للانسان . فالكلمات تعين معانيها اذا فهمت ادت الى معرفة الاشياء ونظامها وصفاتها . انها تفتح كذلك على عالم اخلاقي وديني . اذن فهي مفتاح كل معرفة . والحقيقة هي ما ينبغي قوله وما قيل كما ينبغي . والكلام المنزل مكتوب في هذا المجموع من المعاني وسنده . وبالتالي ، فقد وجد الاسلام الصميم طريقه في اسمانية

عالمية ذات اساس الهى ، ولكنها استطاعت بسهولة ان تنسجم مع الاسمانية العلمية التي بدر الاسلام بذرتها الاولى دون ادنى ريب . وحين قال الاشعري ان الصفات الالهية ليست هي الله ، ولكنها ليست شيئا آخر سوى الله فان هذا اللفز ، من وجهة نظر المنطق الاغريقي سيكون مفهوما بهذا المعنى ، وهو اننا حين نقول ان الله عالم . مقتدر ، الخ ، فاننا نقول اكثر مما لو حدثنا انفسنا بالنطق باسم الله وحده .

ومع ذلك ، فاننا لانسمي شيئا اكثر مما نسمي الله . اذن يجب ان يفهم هذا الامر بنسيان التصور



تراث بغداد في اثني عشر قرناً

تحقيق وتقديم

حميد مجيد هذه

معهد الفنون الجميلة / بغداد

(السيل على الذيل) في ثلاثة مجلدات (٥) . وغيرهم
كثيرون ذكرهم صاحب كشف الظنون .

اما من اهتم ببغداد من المتأخرين فهم كثيرون
ايضا نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

عبدالرحمن السويدي الف (حديقة
الزوراء) (٦) ويسمى تاريخ بغداد ، وتاريخ بغداد ،
لسليمان فائق وضعه بالتركية وترجمه الى العربية
موسى كاظم نورس (٧) ودوحة الوزراء في تاريخ
وقائع بغداد الزوراء ، للشيخ رسول الكركوكلي
وضع بالتركية وترجمه الى العربية موسى كاظم
نورس وقد طبع في بيروت ولم يذكر تاريخ طبعه ،
وتاريخ بغداد للمرحوم العلامة طه الراوي وهو
مطبوع في مصر ضمن سلسلة اقرا ، وتاريخ بغداد،
لعلي ظريف الاعظمي (طبع في بغداد سنة ١٣٤٤هـ)
وحضارة الاسلام في دار السلام ، لجميل نخلة
المدور المتوفى سنة ١٩٠٧ ايضا طبع في بيروت .

ويعتبر دليل خارطة بغداد الذي افهه المرحوم
الدكتور مصطفى جواد ، والدكتور احمد سوسة
من خير ما كتب عن بغداد في العصر الحديث وقد
طبع في مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٨ .

وهناك كتب اختلفت بجانب معين من بغداد
مثل : مساجد بغداد ، لمحمود شكري الالوسي ،
وعمران بغداد ، لمحمد صادق الحسيني ، ومناقب

(٥) كشف اللثون ١ : ٢٨٨ ، وشعراء بغداد ، للخالقي

ج ١ : ١٥ .

(٦) حقق ج ١ منه الدكتور صفاء خلوصي وطبع سنة ١٩٦٢

ببغداد .

(٧) طبع في بغداد سنة ١٩٦٢ بمطبعة المعارف .

توطئة

من اوائل الذين كتبوا عن بغداد احمد بن ابي
طاهر بن طيفور البغدادي (١) وتبعه احمد بن الطيب
السرخسي في كتابه (فضائل بغداد واخبارها) ،
ويزدجرد بن مهتداد في كتابه (فضائل بغداد
وصفتها) (٢) . ويعتبر الخطيب البغدادي ،
احمد بن علي المتوفى (٦٦٣هـ - ٧٠٠م) في كتابه
تاريخ بغداد المطبوع في ١٤ مجلدا ابرز من
تعرض الى بغداد في تأسيسها ، وسبب تسميتها ،
وانهارها وقصورها وخططها ومساجدها والاعلام
الذين درسوا فيها او مروا بها وراوها .

ولم يكتب المؤرخون من بعده بذلك بل
توسعوا في تراجمهم وشروحهم ومتابعاتهم فالفوا
ذيولا على تاريخ الخطيب منها : ذيل تاريخ مدينة
السلام بغداد - للحافظ ابن الديبشي المتوفى
٦٣٧هـ ، حقق المجلد الاول منه الاستاذ بشار
عواد معروف (٣) ، وكذلك التكملة لوفيات النقلة
لعبدالعظيم المنذري المتوفى ٦٥٦هـ (٤) . ومن
الذبول على تاريخ بغداد ذيل للسمعماني صاحب
الانساب المتوفى ٥٦٢هـ في خمسة عشر مجلدا ،
وجاء محمد بن محمد بن حامد الكاتب المتوفى
٥٩٧هـ فكتب ذيولا على ذيل السمعماني سماه

(١) انظر كشف اللثون ١ : ٢٨٨ ، ومجلة لغة العرب السنة

٣ ج ٧ : ٢٢٨ .

(٢) بغداد مدينة السلام ، للهمداني ص ٦ .

(٣) صدر عام ١٩٧٤ عن وزارة الاعلام العراقية (الثقافة
والاعلام الآن) .

(٤) حققه بشار عواد معروف وصدر في اربعة مجلدات سنة
١٩٦٨ - ١٩٧١ .

يفع في ٣٠٥ صفحة ، ناقصة الآخر . وقد كتب بخط متوسط معنون بالحمري ولم يذكر عليه اسم الناسخ ولعله يكون المؤلف نفسه قد كتبه ، ولم اعثر على نسخة اخرى منه فعلى ذلك تكون نسخة المتحف هذه هي المعتمدة والتي سندرسها ونحقق بعض فصولها .

اولها : الحمد لله الازلي الضابط الكل ، الاله العلي اندي بوصفه نبي ونمل ونكل ... وبعد فيقول ... جبرائيل يوحنا اصفر انه لما كان علم التاريخ كضربة لازب للخاص والعام . اذ كان فيه المرام نافعا للكبير والرفيع والصغير والوضيع ومفيدا للعالم والجاهل ... انخ (ص ٣ - ٤ من المخطوطة) .

آخرها : ترجمة محمود العمري بن يونس افندي العمري الموصلني المتوفى سنة ١٢٠٢هـ . ومن شعره :

سل الواجع عن كربى وتعذبي
في حب مرهفة بيضاء عيوب
(ص ٣٠٥) .

مباحثها وفصولها :

اما مباحثه فهي : بغداد ، الاصل في تسميتها تاريخها . ذكر خفائها من بني العباس حيث يذكر سبعة وبلاتين خليفة حكموها طيلة ٥٢٤ سنة . يبدأ بالسفاح وينتهي بالاستعصم بالله . ثم بعد ذلك يذكر من ملك بغداد من بعد بني العباس وكذلك اسماء ولاة بغداد من سنة ١٠٤٩هـ - ١٦٤٠م الى سنة ١١١٥هـ - ١٧٠٣م ومدة حكمهم فأولهم : كوجك حسن باشا سنة ١٠٤٩هـ ومدة حكمه سنة واحدة ، وآخرهم علي باشا ومدة حكمه سنة واحدة كانت سنة ١١١٥هـ - ١٧٠٣م (انظر ص ١٢٧ المخطوطة) .

ثم يستمر في سرد الحوادث واسماء السوالة من العثمانيين الى ان ينتهي برديف باشا الذي تولى بغداد سنة ١٢٩١هـ - ١٨٧٣م وحكمها سنة واحدة (انظر ص ١٥٤ المخطوطة) .

ثم يذكر محلات بغداد وقصورها وطاقاتها واسواقها وما كان في بغداد من البيع والديور ، والمدارس القديمة والحالية (التي عاصرها المؤلف) والحمامات والانهار (من ص ١٥٥ - ١٧٥) .

ولا يقتصر المؤلف في سرده وتفصيله عن بغداد

بغداد لابن الجوزي وشعراء بغداد لعلي الخاقاني ، وقيان بغداد لمبدالكريم العلاف . وفيضانات بغداد للدكتور احمد سوسة في ٣ مجلدات صدر الاول سنة ١٩٦٢ وغيرها الكثير مما لا يتسع المجال لذكرها (٨) .

اما الانار المخطوطة للمتأخرين التي الفوها عن بغداد فهي ايضا كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : مزارات بغداد ، للاب انتناس ماري الكرملني المتوفى سنة ١٩٤٨ ، ومجموعة تراجم علماء بغداد ، لعلي الالوسي المتوفى سنة ١٩٢١ ، وتاريخ قضاة بغداد ، لابراهيم الدروبي ، ونيل المراد في احوال العراق وبغداد ، لعباس البغدادي ومنتجع المرتاد في تاريخ بغداد وهو الكتاب الذي دققنا النظر فيه ووقفنا على مباحثه وموضوعاته ودرسناه دراسة منهجية علمية بعد ان حققنا فصولا منه .

الاختلاف في اسم الكتاب

اختلف في تسمية الكتاب فبعضهم يسميه منتجع المرتاد في تاريخ بغداد كما هو مكتوب على الكتاب (نسخة الكرملني التي اعتمدها والتي لا تانية لها) ويسميه رزوق عيسى في مقاله بمجلة لغة العرب السنة الثالثة ج ٧ : ٣٤٥ باسم : مختصر المستفاد من تاريخ بغداد ، والراجح ان الكتاب اسمه : (مختصر المستفاد في تاريخ بغداد او منتجع المرتاد في تاريخ بغداد) .

من هو المؤلف ؟

المؤلف هو الكونت جبرائيل حنوش اصفر (١٨٥٠ - ١٩٢٣) من اهل بغداد له مؤلف مطبوع اسمه : الاباحث العليا في علم الفلك ، مطبوع في بيروت سنة ١٨٧٥ .

وصف المخطوطة :

الكتاب في خزانة المتحف العراقي تحت رقم ١١٠٤ وهو ضمن المخطوطات التي كانت في دير الالباء الكرمليين ببغداد وانتقلت الى الانار بعد وفاة الاب انتناس ماري الكرملني .

(٨) من اراد الوقوف على كل ما يتعلق ببغداد فليراجع جبهة الراجع البغدادية الذي ألفه الباحثان كوريس عواد وعبد الحميد العلوجي ، مطبعة الرابطة - ببغداد سنة ١٩٦٢ .

(٩) معجم المؤلفين العراقيين ١ : ٢٢٦ .

التاريخية نقلا مباشرا دون اشارة الى ذلك فالفصل المتعلق بالخلفاء العباسيين وتسمية بغداد وولاية بغداد في العصر العثماني كلها تقول لا فائدة ولا جدوى من تحقيقها لانها تكرر لما هو معلوم فلم اجد اضافة ولو قليلة من لدن المؤلف فتركت ذلك وراء ظهري .

لذا انصب اهتمامي على المباحث الآتية :
فاعدت النظر فيها وحققت اصولها وصححت ما امكن تصحيحه مما وقع فيه من الأوهام مستندا الى المراجع التاريخية ومشيئا الى ذلك كل في مكانه والمباحث هي : قصور وطاقت بغداد ، اسواقها مدارسها جوامعها ... الخ .

ختاما : ارجو ان اكون قد ساهمت في ابراز معالم بغداد الاثرية ... بغداد الشامخة امس واليوم .



قصر وضاح (١٥) : قريبا من الرصافة بناه المنصور لولده المهدي وزوجه وفيه يقول الشاعر (١٦) :

سقى الله باب الكرخ من منزته
الى قصر وضاح فبركة (١٧) زلزل
منازل لا يستتبع الغيث اهلها
ولا اوجسه اللذات عنها بمعزل
منازل لو ان امرا القيس حلها
لا قصر عن ذكر الدخول فحومل
إذا الليل ادنى مضجعي منه لم يقل (١٨)

عقرت بعيري يا امرا العيس فانزل
قصر التاج : اسم دار الخلافة بناه الخليفة المتضد بالله ولم يتم عمارته ومات فاتمه ولده المكتفي بالله .

وما يتعلق بها بل يتعداها الى ما اضيف اليها من البلاد كالبصرة والكوفة والحلة والموصل فيتحدث عن تواريخها ولم اعثر فيها على رأي جديد او خبر طريف اذ هو عبارة عن نقولات حرفية من بعض التواريخ المعروفة دون ان يشير اليها المؤلف .

وفي الصفحة ٢٢٨ يبدأ بكتابة فصل جديد عنوانه : ذكر من طرق ارض بغداد من الصحابة ومن سكنها من العلماء والفضلاء والشعراء وارباب القلم .
وفي الاخير يترجم لرجال الموصل من العمريين انذين مروا بالزوراء وبهذا يختم كتابه .

ماذا حققت من الكتاب ؟

بعد التدقيق والبحث في فصول الكتاب وجدت ان المؤلف تقل بعض المباحث من المراجع

ذكر أماكن وقصور وطاقات بغداد

الحريم الطاهري : وهو قصر بالجانب الغربي في اعلى بغداد ينسب الى الامير طاهر بن الحسين الخرازمي (١٠) .

قصر ام حبيب : هو لبنت الرشيد ، وهو في الجانب الشرقي وكان من نزه الدنيا (١١) .

قصر السلام : بالرقعة (١٢) عمره الرشيد وصرف عليه اموالا (١٣) كثيرة .

قصر عيسى بن علي بن عبدالله بن العباس : هو اول قصر عمر في بغداد وكان على شاطئ نهر الرميل عند مصبه في دجلة وهو الآن وسط العمارة بالجانب الغربي ولم يبق له الآن اثر (١٤) .

- (١٠) قائد جيش المأمون الذي ارسله لمحاربة اخيه الامين في بغداد وذلك سنة ١٩٨هـ (معجم البلدان) : ٢٥٧ ، دليل خارطة بغداد (٧٨) .
- (١١) معجم البلدان (٤) : ٢٥٥ .
- (١٢) الرقة : تقع في الضفة الغربية من دجلة اشتهرت ببساتينها العامرة وكان الخلفاء من بني العباس ينتزهون فيها (دليل خارطة بغداد ٦٥) .
- (١٣) في الاصل (اموال) .
- (١٤) انشاء عم المنصور عيسى بن علي في موضع قصر سابور وهو في موضع مسجد القرية الحالي (معجم البلدان) : ٣٦١ ، ودليل خارطة بغداد (١١) .

- (١٥) هو وضاح بن شبا من موالى الخليفة المنصور وكان احد الرقباء على بناء المدينة العنبرية ومن بعدت صاحب خزانة السلاح (دليل خارطة بغداد ٨٦) .
- (١٦) الابيات لعلي بن الجهم المتوفى ٢٢٩هـ (ديوان علي بن الجهم ٥٥ ، معجم البلدان) : ٣٦٤ - ٣٦٥ .
- (١٧) في الاصل (وبركة) والصواب ما نقلناه من الديوان ص ٥٥ ومعجم البلدان) : ٣٦٤ .
- (١٨) في الاصل (اقل) والصواب ما انتباهه متفولا عن الديوان ص ٥٦ ، ومعجم البلدان) : ٣٦٥ .
- (١٩) وضع اسس هذا القصر المتضد واتم بناؤه ابنه علي

قصر الاحمرية(٢٧) : كان في اقصى كورة
الخالص من الجانب الشرقي وهو نزهة .
خان وردان(٢٨) : اول خان عمر ببغداد .

الطاقات

طاقات ابي سويد(٢٩) : هي ما بين مقابر
باب الشام .

طاقات الراوندي(٣٠) : ينسب الى محمد بن
الحسن صهر الوزير ابن ماهان .

طاقات العكي(٣١) : بالجانب الغربي بالشارع .
طاقات الفطريف(٣٢) :

طاق اسماء : بالجانب الشرقي بين الرصافة
ونهر الملى . ينسب الى اسماء بنت المنصور(٣٣) .

طاق الحراني(٣٤) : بالجانب الغربي وشارع
ذلك الى شارع باب الكرخ .

قنطرة البردان(٣٥) : في شارع بغداد .

قنطرة بني زريق(٣٦) : على نهر الرفيل(٣٧) .

(٢٧) عمر ايام الخليفة احمد بن المستفي (معجم البلدان
١ : ٣٥٥) .

(٢٨) نسبة الى وردان بن ستان من فواد المنصور (معجم
البلدان ٢ : ٢٩٤) .

(٢٩) في الاصل (ابو) .
(٣٠) واسمه : الجارود (الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد
١ : ٧٦) .

(٣١) هو مقاتل بن حكيم . اصله من الشام (تاريخ بغداد
١ : ٨٢) .

(٣٢) هو الظريف بن عطاء ، اخو الخيزران خال الهادي
والرشيد ، ولي اليمن ويقال انه من بني الحصارث بن
كعب (تاريخ بغداد ١ : ٨٢) .

(٣٣) كان طافا عظيما وكان في دارها التي صارت لملي بن
الجهشيار (بمشرفة الصخر) وعند طاق اسماء كان
مجلس الشراء وهناك كانوا يجتمعون في ايام الرشيد
(بغداد مدينة السلام ٥٥) .

(٣٤) نسبة الى ابائيه رجل من حران كان مولى للخليفة
المنصور ، ووزيرا له ، اما المؤرخ اليعقوبي فيذكر ان
الحراني هو رجل اخر يسمى عمرو بن سمان وكانت له
فطيمة في هذا الموضع . وموقفه على الطريق النازل من
باب البصرة (معجم البلدان ١ : ٥٠) ، دليل خارطة
بغداد ٨٦) .

(٣٥) انظر معجم البلدان ١ : ٤٠٥) .

(٣٦) قنطرة مشيدة بالرخام نسبة الى بني زريق وهي اسرة
فارسية من البتائين (معجم البلدان ١ : ٦٠) ، دليل
خارطة بغداد ٨٥) .

(٣٧) عرف على عهد المنصور ب نهر عيسى نسبة الى عيسى بن
←

قصر الخلد(٢٠) : بناه الخليفة المنصور بعد
تمام بناء بغداد على شاطئ الدجلة وكان موضعه
دير فيه راهب وكان من اشرف المواضع(٢١) .

قصر الخيل : هو دار الخيل احمد دور
الخلافة وكان صحنها الف ذراع في الف ذراع
وكان يوقف بها في الاعياد وعند ورود الرسل من
البلاد في كل جانب خمماية فرس ملبسة بالذهب
والفضة .

قصر الرياحين(٢٢) : احد دور الخلافة
مشرف على سوق الرياحن احداثه الخليفة
المستظهر(٢٣) وهو محل واسع غير انه كثره لم
يبق له ذكر ولا رسم .

قصر الخلافة : يعرف ب الحريمي وهو دار
الخلافة وكان مقدار ثلث بغداد قائم في الوسط
ودور العامة محيطة به وله سور كانه نصف دائرة
وله عدة ابواب .

دار الشجرة : داخل دار الخلافة بناه المتندر
سمي ب الشجرة لان فيه شجرة من فضة وذهب
فيها ثمانية عشر غصنا(٢٤) ، لكل غصن فسروع
مكللة بالجواهر على شكل الاثمار وعليها طيور من
ذهب فاذا هب الريح ظهر لها صغير وهدير مختلف
كاصوات وتفريد الطيور ، وكان بها بركة ماء
عليها خمسة عشر فارسا(٢٥) مصورين من الذهب
وخيلهم من الفضة عن يمين البركة ومثلهم عن
الشمال(٢٦) .

دار الطواويس : وهو ايضا بدار الخلافة بناه
الخليفة المطيع وكان اعجوبة الزمان الحسنة .

الكتفي ، ويقع على سفعة دجلة تحت القصر الحسني وكان
يشرف على السنة كانه التاج . وقد شب حريق في قصر
التاج سنة ٥٤٩هـ تحول فيها الى ركاب من الرماد الا انه
اعيد بناؤه على عهد المستفي (دليل خارطة بغداد
١٢٥ - ١٢٦) .

(٢٠) انظر : تاريخ بغداد (١ : ٨) .

(٢١) سمي بقصر الخلد نسبة الى حداثته الواسعة وتشبيها
بجنة الخلد . يقع شمال الدير العتيق (دير مار شون)
بقليل . كمل بناؤه في حدود سنة ١٥٩هـ - ٧٧٦م ، وكان
الرشيد قد فصل الإقامة فيه بدلا من قصر باب الذهب .
(تاريخ بغداد ١ : ٧٥ ، دليل خارطة بغداد ٥٦) .

(٢٢) ويسمى ب دار الرياحين نسبة الى سوق الرياحين
الواقع على مقربة من الدار (دليل خارطة بغداد ١٥٨) .

(٢٣) انشاء المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٥٦هـ) - (١١٦٠ -
١١٧٠م) (دليل خارطة بغداد ١٥٨) .

(٢٤) في الاصل (لحن) .

(٢٥) في الاصل (فارس) .

(٢٦) حداثا لفظة (من) في الاصل لعدم جدواها .

ابراهيم الفيروز آبادي(٤٧) بناها تاج الملك ابو الفنايم
المرزبان خسرو(٤٨) . قيل دخل شاعر على الرئيس
ابي الفنايم يمتدحه بآبيات فقال الشاعر(٤٩) :

فسبحان الذي اعطاك ملكا
وعلمك الجلوس على السرير
اتذكر ان فراشك جلد شاة
وان خفاك من جلد البعير

فقال له بعض من حضر : لا ام لك تقول هذا
في الرئيس والله ما ظننت اني قلت عيبا غير اني
مدحته فضحك منه ووصله .

المدرسة المستنصرية : في الجانب الشرقي
من بغداد وهي التي تكلم عنها كثيرون من المرب
بانها كانت زمنا طويلا تقبل التلامذة اما الآن فقد
هجر(٤٩) هذا المحل وقد ملئ(٥٠) بالالات الحديدية
التي جلبتها الحكومة من اوربا فترى كل قاعاتها

(٤٧) الصواب هو ابراهيم بن علي بن يوسف الشرازي
الفيروزآبادي المتوفى(٧٦)هـ - ١٠٨٢م يعرف ب ابي اسحق
الشرازي وهو من مديري المدرسة النظامية . (الاعلام
١ : ٤٤) ، معجم البلدان ٢ : ٥ ، دليل خارطة بغداد
١٥٥ ، العبر في خبر من غير ٢ : ٩٩) .

(٤٨) وزير السلطان ملكشاه توفي سنة (٤٨٦) . تم انشاؤها في
حدود سنة ٤٨٢هـ - ١٠٨٩م (دليل خارطة بغداد
١٥٦) .

(٤٩) المشهور ان هذه الابيات قالها اعرابي اراد ان يثر غضب
ممن بن زائدة الشيباني المتوفى ١٥١هـ وكان مصروفا
بالعلم والكرم ، فانشد الاعرابي هذه الابيات بين يديه :

اتذكر ان لحافك جلد شاة
واذ نملاك من جلد البعير
فسبحان الذي اعطاك ملكا
وعلمك الجلوس على السرير
فلست مسلما ان عشت دهرا
على ممن بتسليم الاسم
سارحسل عن بلاد انت فيها
ولو جار الزمان على الفقير

... الخ .

فلم يستطع هذا الاعرابي اثاره (الشيباني) فكرمه ودعا له
وتمجّب الاعرابي باناته وحلمه وكرمه (قصة الابيات
كاملة في قصص العرب ج ٢ ص ٢٤٢ تأليف محمد احمد
جاد الولي وجماعة) .

(٤٩) في الاصل (انجر) والصواب ما ائبناه (محيط المحيط
٢ : ٢١٥٨) .

(٥٠) في الاصل (وقد املوه من الالات) والصواب ما ائبناه
(محيط المحيط ٢ : ١٩٩٩) .

قنطرة الشوك : على نهر عيسى غربي بغداد .
قنطرة المعدي(٢٨) : بالجانب الغربي على
النهر ، وكانت أشهر القناطر في بغداد .

ذكر اسواق بغداد

سوق الثلاثاء(٢٩) : كان قبل ان تعمر بغداد ،
وسمي كذلك لان كان يباع فيه نهار الثلاثاء فقط .

سوق السلاح(٣٠) الى الآن . سوق حجاج(٤١)
مولي . سوق يحيى(٤٢) . سوق الرياحين(٤٣) يباع
فيه الازهار والعطريات . سوق العطارين(٤٤) الى
الآن . سوق البرازين الى الآن يباع فيه الخبز
والحرير . سوق الحدادين(٤٥) . سوق النجارين .
سوق الصباغ (سوق الذهب) . والمشهور الآن من
الاسواق : سوق دانيال . سوق باعة الاجواخ .
سوق الهرج(٤٦) ... الخ .

ذكر مدارس بغداد القديمة

لهذه المدارس اسم لا رسم ، فالناجية كانت
مدرسة جليلة العلم تلاقي قبر العلامة اسحق بن

علي عم التصور الذي جدد انشاه وشيد عند مصبه في
دجلة فصرنا في موضع قصر سابور العتيق سمي باسم :
قصر عيسى ولكن التسمية القديمة ظلت مستعملة عند
بعض المؤرخين كابن الجوزي ، وياقوت الحموي .
والرفيعة الذي ينسب اليه هذا النهر اسمه - دهقان -
من الفرس . (تجارب الامم ٦ : ٩ ، ودليل خارطة
بغداد ٦٤) .

(٢٨) دعيت بذلك نسبة الى عبدالله بن محمد المعدي وقد
بني تكلم القنطرة على نهر عيسى (معجم البلدان) :
٤٧ ، دليل خارطة بغداد ٨٧) .

(٢٩) سمي بذلك لانه كان يقوم عليه سوق لاهل كلواذا واهل
بغداد في كل شهر مرة يوم الثلاثاء فنسب الى اليوم الذي
كانت تقوم فيه السوق واليوم سوق باب الالف (دليل
خارطة بغداد ٢٤ ، معجم البلدان ٢ : ٢٨٢) .

(٤٠) (معجم البلدان ٢ : ٢٨٤) .
(٤١) نسبة الى الحجاج الوصيف مولى المهدي (بغداد مدينة
السلام للمهدي ٥٨ ، تاريخ بغداد ١ : ٩٦) .

(٤٢) نسبة الى يحيى بن خالد البرمكي ، موضع السوق كان
مجاورا لشهد ابي حنيفة (انظر دليل خارطة بغداد
١١٤ - ١١٥ ، معجم البلدان ٢ : ٢٨٤ ، تاريخ بغداد
١ : ٩٢) .

(٤٣) الصواب سوق الريهانيين .

(٤٤) بالجانب الشرقي وهو سوق الشورجة اليوم .
(٤٥) اسواق قائمة الى اليوم في محلة باب الالف بجانب
الرصافة .

(٤٦) في محلة باب الالف من الجانب الشرقي لبغداد قرب باب
المدرسة المستنصرية (دليل خارطة بغداد ١٧٥) .

ذكر جوامع وبيع وحمات بغداد

الحالية

وفي بغداد جوامع كثيرة لكن المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة اثنا عشر مسجدا منها ثمانية بالجانب الغربي واربعة بالجانب الشرقي ، وللنصارى اربع (٥٦) كنائس لكل طائفة منهم واحدة اعني كنيسة للواتر الكرملتان ، وكنيسة لطائفة الكلدان ، وكنيسة للسريان ، وكنيسة للارمن القاتوليق ، وكنيسة للارمن القدماء ، وتوراة لليهود ، واحسن هذه البيع بيعة اللاتين فانها حسنة البناء جميلة المنظر واسعة المكان .

وفي بغداد حمات كثيرة مسطحة بالقرار ولكن بين اثقان ونظافة غيرها من البلدان المتعدنة بون عظيم (٥٧) وقد عرف ذلك من اخبر المحليين .

ذكر بغداد القديمة

لا يخفى ان بغداد التي (كان) (٥٨) عمرها الخليفة ابو جعفر المنصور (٥٩) كانت على الغرب من الدجلة ليس كما هي الآن فانها على يمينه نظرا لخراب الجانب الغربي وعمار الجانب الشرقي غير انه بنى على الساحل الغربي حارة برانية حيث اقام قلعة ولكن لم يبق من هذا البناء شيء الا قرية المعظم (٦٠) حيث دفن الامام ابي حنيفة ... الخ .

ذكر بعض عمارات بغداد الحالية

ومن العمارات الجميلة الشهيرة التي انشأها في بغداد سعادة مدحت باشا (٦١) في ايام اقامته فيها سراية الحكومة وقاعات العساكر ثم مدرسة عظيمة دعت بالرشدية ثم مدرسة الصنائع ثم دار

(٥٦) في الاصل (اربعة) .

(٥٧) العبارة مرتبكة وغير مستقيمة وكان الاولى والاجدر ان يقول : ولو فارنا تلك الحمامات مع مثيلاتها في البلدان المتعدنة من حيث النظافة واثقان البناء لوجدنا بينهما بونا شامسا وعظيما .

(٥٨) (كان) زائدة حشرها المؤلف من دون مبرر .

(٥٩) بناء بغداد على يد الخليفة ابي جعفر المنصور سنة ١٢٥هـ وارتفع بناؤها سنة ١٢٩هـ (بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٢٨) .

(٦٠) وهي محلة الاعظمية اليوم .

(٦١) دامت ولايته من ١٢٨٥هـ - ١٢٨٨هـ (دليل خارطة بغداد ٢٢) .

مغلقة (٥١) بعد ان كانت تسكنها العلماء في ذلك العصر الجيد (٥٢) . هذا ومن الجهة المشرفة على الدجلة تقرا الكتابة الآتية : (ثم يترك المؤلف بيضا بقدر صفحة لم يكتب فيها) .

ذكر مدارس بغداد الحالية

ابن الاثرين (٥٣) بغداد من عظمتها السالفة فقد اندرس رونقها السالف تحت برقع الجهل والغبارة فما فيها مدارس تستحق الذكر مع انك اذا اعتبرت مدارس الاسلام تراها عديدة وربما وجدت لكل جامع قاعة انزوي فيها معلم انحصرت وظيفته على تعليم الشبان مبادئ القراءة (بالقرآن) واصول الكتابة لا غير لكن هذه ماذا تكون في هذا العصر عصر التمدن والتقدم هذا مع قطع النظر عن البعض الذين يدرسون على علماء افاضل في بغداد وفي اماكن معدة لهم ولكن هؤلاء قليلون . اما مدارس النصارى قليلة واحسنهن مدرسة اللاتين للاباء الكرملتانيين المحترمين يدرسون فيها الفرنسية والعربية باصولهما مع العلوم ، والتركية قليلا وانا افتخر بكوني احد تلامذتهما ولكني ارى انها الآن ليست على ما كانت عليه قبل ثلاث (٥٤) سنين غير ان حضرة رئيسها المحترم قد قال لي غير مرة : انه مهم في امر تنشيطها وترقيتها لدرجة عالية من الاتفاق فوفق الله مقاصده ونجح اعماله .

ثم لليهود ايضا مدرسة يدرسون فيها الثلاث لغات المذكورة مع العبرانية . ثم لطائفة الكلدان مدرسة يدرس فيها العربية باصولها ثم الكلدانية والفرنساوية قليلا وقد اعتنى بها معلموها (٥٥) كثيرا وكذلك لطائفة السريان مدرسة ففي هذه لا يدرس الا العربية فقط ويا حبذا لو اعتنى القوم في المدارس فانها لا غرو الواسطة لاسترداد ما سلبته منا ايدي الزمان وطوارق الحدائق .

(٥١) في الاصل (مغلقة) والصواب ما ابتناه ، قال ابيو الاسود الدولي :

ولا اول لغت القوم قد غليت

ولا اول لسباب الدار مغلوق

(محيط المحيط ٢ : ١٥٦) .

(٥٢) اما اليوم فقد اهتمت بها المؤسسة العامة للآثار فجددت بنائها وفتحت ابوابها للزائرين .

(٥٣) الآن يقصد به تاريخ التأليف اي مطلع القرن العشرين اما اليوم فقد عادت عظيمة بغداد ومكانتها بين عواصم العالم المتحضر .

(٥٤) في الاصل (ثلاثة) .

(٥٥) في الاصل (معلمية) .

نهر الملك (٦٥) : وهو نهر عظيم عليه
(كان) (٦٦) تلماية وستون قرية على عدد ايام
السنة وعليه مزارع غزيرة ويجلب منه الى بغداد
فواكه وجبوت كالارز والماش والعدس وامثال
ذلك .

نهر الملى (٦٧) : هو اشهر الانهار وانعمها
واعظمها . مجراه في دار الخلافة وهو مستمد من
الخانص ونهر موسى .

نهر الفلايين (٦٨) : يجري في بغداد في (محلها
اهلها ...) كذا في الاصل .

نهر عيسى (٦٩) : عليه قرى في عربي بغداد ،
وماخذه من الفرات عند القنطرة ويصب في دجلة
عند قصر عيسى .

نهر طابق (٧٠) : في محلة تسمى به بالجانب
الغربي قرب نهر الفلايين شرقا واصل اسمه نهر
بايك (٧١) وماخذه من كرخايا ويصب في نهر عيسى .

نهر الرفيل (٧٢) : هو نهر كبير يأخذ من نهر
عيسى ويصب في دجلة عند بغداد وهو الذي عليه
قنطرة الشوك .

نهر المدجاج (٧٣) : عند محلة تسمى به وهو
قرب الكرخ من الجانب الغربي .

نهر الصراة : هو نهران في بغداد الواحد يأخذ
من نهر عيسى من عند بلدة المحول يسقي قرى
بادوربا (٧٤) ويتفرع منه أنهار الى ان يصل الى
بغداد ويصب في دجلة .

(٦٥) ويسمى نهر ملكا فرع من الفرات وكان من السعة بحيث
اعتبره البعض عمودا للفرات وقد عد القسم الذي يسير
نحو الجنوب من الكوفة فرعا من الفرات (وادي الفرات
٢ : ٧٨ - ٨٥) .

(٦٦) لفظه (كان) زائدة لا يمرر لافحاما .
(٦٧) نهر يسير باتجاه الجنوب الغربي خارج سور المستمين
حتى يدخل المدينة ويدخل قصر الفردوس الذي انشاه
المتنشد وبدور حوله حتى يصب في دجلة عند القصر
(دليل خارطة بغداد ١٢٢) .

(٦٨) نهر الرابع الاسر الذي يتفرع من نهر كرخايا وتقع
عند هذا النهر محلة نهر الفلايين (دليل خارطة بغداد
٨٢) .

(٦٩) سمي بهذا الاسم نسبة الى عيسى بن علي عم المنصور .
(٧٠) في الاصل مطلة بالالف واللام (الطابق) والصبوب
ما اتبناه (بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٤٢) .

(٧١) هو بايك بن بهرام بن بايك (بغداد مدينة السلام ٤٢) ،
ودليل خارطة بغداد ٧٩) .

(٧٢) الأشهر نهر رفيل (بغداد مدينة السلام ٤٤) .

(٧٣) تاريخ بغداد ١ : ١١٢ .

(٧٤) في الاصل (قرايبادربا) وتقع على بين نهر الصراة
←

الطباعة والمكتبة ثم مستشفى في جانب الكرخ وكل
هذه الابنية على جانب عظيم من النظام والاتقان
والجمال على انسق الافرنجي اللطيف وفي بغداد
جسر عظيم امر بتميمه الوالي الومالي اليه قبل
دخول ناصر الدين شاه ببغداد سنة ١٨٧٢م
يمشون عليه نهارا و ليلا رجالا ونساء فهم في ذلك
في نزهة متصلة غير انه اذا زادت مياه الدجلة انقطع
فتقوم عوضه القوارب وهي التي يعبرون عنها بـ
القفف ... ويركها عشرة او خمسة عشر نفسا
وقد تعمّر ايضا في بغداد طريق مركبات بين بغداد
والكاظمية نظير الذي بين بيروت والشام وسلمت
ادارته بيد الاهالي فانتعفوا منه كثيرا . وبجانب
الكرخ معملان واسمان جدا يشتغل فيهما الحديد
والاخشاب مما يتعلق بتعمير المراكب وغير ذلك
وبجانب الرصافة قرب المدرسة المستنصرية ترى
مركز ادارة البواخر العثمانية وهو بناء جميل
قد قام على شكل مستطيل على الدجلة .

ذكر ما كان في بغداد من الانهار

واكثرها الى الان

نهر الخالص (٦٢) : هو شعبة من دجلة وهو
نهر عظيم عليه زروع وقرى عامرة منها :

دوخلة وهي قرنة كبيرة ثم ينكحها ثم سكران
ثم تقمان ثم هيب .

نهر دجيل (٦٣) : نهر مشهور وهو شعبة من
دجلة عليه قرى ومزارع كثيرة .

نهر موسى : هذا يأخذ من نهرين الى ان
صل الى قصر الثريا (٦٤) ثم ينقسم الى ثلاثة أنهار
ويجري في الجانب الشرقي من بغداد .

(٦٢) يتفرع من النهروان ولا تزال اثار نهر الخالص الرئيسي
القديم قائمة يمكن تتبعها في متجه النهر العتيق المعروف
اليوم بنهر الوزيرية الذي يسير في جهة الغرب نحو
تلول باب الشام ومن ثم نهر دجلة فينتهي هناك في اسفل
الراشدة (دليل خارطة بغداد ١١) .

(٦٣) في الاصل نهر الدجيل ، وكان هذا النهر يروي القسم
الاعلى من الجانب الغربي من بغداد (مختصر التاريخ
٧٩) .

(٦٤) انشاه المتنشد ويعتبر من القصور الفخمة فقد جعل
حوله جنانا زاهرة وساحات واسعة وظل القصر فانصفا
حتى فاصت دجلة فيصاننا شديدا فاحدثت خرابا عظيما
في بغداد وكان من جملة ذلك خراب الثريا ولا سيما فيصان
سنة ٦٦١هـ (المنتظم ٨ : ٢٥٤ ، تاريخ بغداد ١ :
١١٤ - ١١٥) .

ذكر من سافر الى بغداد

من فضلاء الامصار الاجواد اهل العلم والعمل والري والسداد

الشيخ ابراهيم بن ادهم بن منصور بن بكر بن وابل :- مولده في مدينة بلخ (٧٥) ساله يوما ابراهيم بن يسار عن امره فقال : كان ابي من ملوك خراسان فخرجت للصيد وتبعته صيدا فسمعت قائلا ما لهذا خلقت فوقفت ولم ار احدا فلضت ابليس ومن بعدها تركت اهلي وقدمت لبغداد وقال ايضا عن نفسه : انه رحل الى طرسوس وصار بستانيا فلما اشتهر هرب منها ، توفي سنة ١٦٢هـ (٧١) .

الامام محمد بن ادریس الشافعي : مولده بمدينة غزة اخذ العلم عن مالك (٧٧) ومسلم بن خالد وسفيان بن عيينة وقدم الى بغداد (٧٨) وسمع الحديث من محمد بن الحسن الشيباني وعبد الوهاب الثقفي واسماعيل بن علية وغيرهم وكان قدومه سنة ١٧٥هـ ثم رحل عنها سنة ١٧٨هـ لما امتحنت العلماء بالقبول في خلق القرآن وقد ناظر فيها بشر المعتزلي وحفص وافحمهما وخرج من بغداد وقدم الى الموصل ثم رحل الى مصر وتوفي بها سنة ٢٠٤هـ ومن نظمه قوله :

واحق خلق الله بالهم امرؤ (٧٩)

ذو همّة يبلى يعيش ضيق

وقوله :

اكل العقاب بقوة جيف الفلا

وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

الامام عبدالله بن محمد السمناني (٨٠) : مولده في خراسان وسمع بها ثم رحل الى بغداد وسمع بها الحديث ثم توجه منها الى الشام وتوفي سنة ٣٠٣هـ ومن شعره :

تري المرء يهوى (٨١) ان يطول بقاؤه
وطول البقا ما ليس يشفي له صدرا

ولو كان في طول البقاء صلاحا
اذا لم يكن ابليس اطولنا عمرا

ابو بكر محمد بن اسماعيل القفال الشاشي الشافعي (٨٢) : قدم الى بغداد واخذ عن ابن سريج وروى عن الطبري ورحل الى الشام ثم الى الحجاز وتوفي سنة ٣٦٤هـ .

ابراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي : مولده (٨٣) في شيراز وقدم الى البصرة وتفقه بها ثم قدم الى بغداد (٨٤) وكان إماما في المذهب والاصول والخلاف وله تصانيف كثيرة منها : المهذب ، والمخلص (٨٥) ، والنكت ، واللمع ، والتبصرة ، ورؤوس المسائل (و قاموسه المشهور) (٨٦) . توفي سنة ٤٢٥هـ (٨٧) ومن شعره قوله (٨٨) :

سألت الناس عن خل وفي
فقالوا ما الى هذا سبيل

تمسك ان ظفرت بديل حر
فان الحر في الدنيا قليل

امام الحرمين عبدالله (٨٩) بن عبدالله بن

(٨٠) ترجمته في هدية العارفين (١ : ٤٤٢) كما يلي : عبدالله ابن محمد بن عبدالله بن يونس بن عبدالله (ابو الحسين) السمناني (الانساب للسمناني ٧ : ٢٤٠) .

(٨١) في الاصل (ان يهوى) والصواب ما ذكرناه ، انظر البيت في معجم البلدان ٣ : ٢٥٢) .

(٨٢) هو محمد بن علي بن اسماعيل القفال ، وفاته ٣٦٥هـ (وفيات الاميان ٤ : ٢٠٠ ، الاطلام ٧ : ١٥٨) .

(٨٣) سنة ٢٩٢هـ وفيه اختلاف (الاطلام ١ : ٤٤) .

(٨٤) كان ذلك سنة ٤١٥هـ (وفيات الاميان ١ : ٢١) .

(٨٥) في الاصل (التخليص) (الاطلام ١ : ٢٥) وابن خلكان في وفيات الاميان ١ : ٢٩ سماه : التخليص في علم الجمل .

(٨٦) هذا وهم من المؤلف حيث خلط بين الترجمة له وبين مجد الدين الفيروز آبادي المتوفى ٨١٧هـ صاحب القاموس العريق .

(٨٧) وهم المؤلف فوفاة المترجم له سنة ٤٧٦هـ (الاطلام ١ : ٤٤ ، وفيات الاميان ١ : ٢٩) .

(٨٨) وفيات الاميان (١ : ٢٩) .

(٨٩) الصواب عبدالله بن عبدالله (الاطلام ٤ : ٢٠٦ ، وفيات الاميان ٢ : ١٦٧) .

يوسف الجويني : إمام العلماء وصاحب التصانيف منها : نهاية المطلب . قدم الى بغداد واخذ عن مشايخها واخذوا عنه الكثير ثم رحل الى الحجاز واقام بمكة والمدينة اربع سنين يدرس ويفتي ويصنف ثم توجه الى نيسابور ومات بها سنة ٤٧٨ هـ وعند موته اغلقت الاسواق (وسكرت) (٩٠) الحوانيت وكان (٩١) تلامذته نحو اربعمائة فكسروا محابرههم واقلامهم حزنا .

محمد بن محمد بن محمد بن احمد الغزالي : مولده بمدينة طوس ٩٢٠ هـ قرأ على امام الحرمين وقدم الى بغداد ودرس بالنظامية ثم تزهد وحج ، ومن تصانيفه : البسيط ، والوسيط ، والخلاصة ، والوجيز ، والنخول ، والمنتحل في علم الجدل . توفي سنة ٥٠٥ هـ .

القاضي حسين بن محمد المعروف ب ابن سكرة : - مولده بالاندلس ، قدم الى بغداد وسمع من البانياسي واخذ عن ابي بكر الشاشي (٩٢) وذهب الى دمشق وحج وعاد الى الاندلس ومات بها سنة ٥٢٤ هـ (٩٤) .

ابو بكر بن الوليد الاندلسي : - مولده (٩٥) في مدينة طرطوشة بلد أقصى بلاد الاندلس سافر الى بغداد وتفق على الشاشي والجرجاني (٩٦) ثم رحل الى الشام وسكنها ودرس بها . توفي سنة ٥٢٠ هـ ، وله شعر منه :

اذا كنت في حاجة مرسلًا
وانت بانجازها مفرم
فارسل بأكمله خلاصة
به صمم اغطش ابكم

- (٩٠) في الاصل و (سكرت) والصواب ما اثبتناه (يراجع معاجم اللغة مادة سكر) .
(٩١) في الاصل (وكانوا) وهذا لا يجوز الا على لغة اكلوني البراهيت .
(٩٢) ولادته سنة (٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ م) (الاعلام ٧ : ٢٤٧) ، وفيات الاعيان ٤ : ٢١٦ .
(٩٣) محمد بن احمد الشاشي التوفي سنة ٥٠٧ هـ (الاعلام ٦ : ٢١٠) .
(٩٤) وفاته في الاعلام ٥١٤ هـ (الاعلام ٢ : ٢٧٩) .
(٩٥) هو محمد بن الوليد بن محمد القرشي الهجري الاندلسي الكتي ب ابي بكر الطرطوشي مولده سنة ٥١٥ هـ - ١٠٥٩ م ، واختلف في وفاته ، ففي وفيات الاعيان سنة ٥٢٠ هـ (٤ : ٢٦٤) اما الزركلي في الاعلام (٧ : ٢٥٩) فقد ثبت وفاته سنة ٥٢٠ هـ الا انه ذكر مصادر الاختلاف فيها .
(٩٦) هو ابو بكر محمد بن احمد الشاشي المعروف ب المستظهري ، والجرجاني هو علي بن احمد (وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .

ودع عنك كل رسول سوى
رسول يقال له درهم (٩٧)

محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي : أصله من خوارزم وكان حنفي المذهب له تصانيف منها : الكشاف ، والمفصل في النحو ، و (المطول) (٩٨) في البيان ، وكان اماما في الاعتزال . قدم الى بغداد واخذ عن مشايخها الكثير واخذوا عنه الوفير والفزير ورحل الى مكة وجاور فيها (٩٠٠) فسمي جارالله ثم رجع عن الاعتزال آخر عمره . توفي سنة ٥٢٨ هـ ، ومن نظمه :

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الاليل
ويرى مناط عروقها (٩٠١) من لحمها
والخ في تلك العظام التحل
امن علي برحمة مهبودة
لك يا الهي في الزمان الاول (٩٠٢)
وله ايضا (٩٠٣) :

وقائلة : ما هذه الدرر الني
تساقت من عينك سمطين سمطين؟
فقلت : لها الدر الذي كان قد حشا
ابو مضر اذني تساقط من عيني

(٩٧) الابيات منسوبة الى الطرطوشي (وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .
ولابن فارس اللغوي بيتان يشتملان على اكثر الفاظ هذه الابيات وهما :

- اذا كنت في حاجة مرسلًا
وانت بها كلف مفرم
فارسل حكيمًا ولا توصه
وذاك الحكيم هو الدرهم
(انظر وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .
(٩٨) ابن احمد في الاعلام ٨ : ٥٥ .
(٩٩) لم يؤلف الزمخشري مثل هذا الكتاب .
(١٠٠) في الاصل (بها) .
(١٠١) في وفيات الاعيان (٥ : ١٧٢) ويرى عروك نياطها في نحرها .
(١٠٢) ويروى البيت في وفيات الاعيان (٥ : ١٧٣) بالصورة الآتية :
اغفر لعبد ناب من فرطانه
ما كان منه في الزمان الاول
(١٠٣) في رثاء شيخه ابي مضر منصور (وفيات الاعيان ٥ : ١٧٢) .

علي بن ابي الوفا ابن مسهر (١٠٤) الموصلية -
كان شاعرا اديبا رئيسا مقدما سافر الى بغداد
وامتدح الخلفاء وعاد الى الموصل وتوفي بها سنة
٥٤٣ هـ . ومن شعره (١٠٥) :

ولما اشتكت اشتكى كلما

على الارض واعتل شرق وغرب
لانك قلب لجسم الزمان
وما صح جسم اذا اعتل قلب

احمد بن محمد : وقيل ، سعد بن محمد
المشهور ب الحيص بيص : - مولده بالري (١٠٦)
وتادب وتفقه بها قدم الى بغداد وكان يلبس زي
العرب ويتقلد بالسيف وفيه طيش وتبه حتى قال
فيه ابن ابي الفضل (١٠٧) شعر :

كم تبارى وكم تطول طرطورا
وما فيك شمرة من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل البيا
بس واشرب ماشيت بول الظليم
ليس ذا وجه من يضيف ولا يقمر
ي ولا يدفع الاذى عن حريم

فاجابه :

لا تضع من عظيم قدرتي وان كذ
ت مشارا اليه بالتمظيم

(١٠٤) هو علي بن سعد بن علي المعروف ب ابن مسهر الموصلية
(الاطلام ٥ : ١٠١ ، وفيات الاعيان ٢ : ٢٩١) .
(١٠٥) الابيات في وفيات الاعيان ٣ : ٢٩٢ .
(١٠٦) ولادته في بغداد سنة ٤٩٢ هـ (ديوان حيص بيص ١ :
٣٧) .

(١٠٧) الصواب هو : هبة الله بن الفضل المصروف ب ابن
القطان التوفي سنة ٥٥٨ هـ والابيات ترد في ديوانه المذكور
اطلاه (الديوان ١ : ٤١) :

كم تبارى وكم تطول طرطو
وله ما فيك شمرة من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل البيا
بس واشرب ماشيت بول الظليم
ليس ذا وجه من يجبر ولا يقمر
ي ولا يدفع الاذى عن حريم
فاجابه حيص بيص :

لا تضع من عظيم قدر وان
كنت مشارا اليه بالتمظيم
فالشريف الكريم ينقص قدرا
بالتصدي على الشريف الكريم

(الديوان ١ : ٤٢) .

فان شريف الكريم ينحط وزرا
بالتجري على الشريف الكريم

حكى ان الحيص بيص سكر يوما في بغداد
وقتل جرو كلب فاخذ ابو القاسم بن ابي
الفضل (١٠٨) كلبة وعلق في عنقها قصبه واطلقها
عند باب الوزير (١٠٩) فاخذت القصبه من عنقها
فوجد فيها ورقة مكتوب فيها هذه الابيات (١١٠)
شعر :

يا اهل بغداد ان الحيص بيص اتى
بخزية اورثته العار في البلد
ابدى شجاعته في الليل مجتريا
على جري ضعيف البطش والجلد
فانشدت امه من بعد ما احتسبت
دم الايلاق عند الواحد الصمد
اقول للقلب تاساء وتمزية
احدى يدي اصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من بعد صاحبه
هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي
توفي سنة ٥٧٤ هـ (١١١) .

علي بن القاسم بن علي بن الحسن المعروف
ب ابن عساكر (١١٢) : مولده بدمشق وقرأ بها وتعلم
العلم الوافي ثم جاء الى بغداد واخذ عن علمائها
ثم راح الى خراسان وسمع الحديث ورجع فجرحه
للصوص في الطريق وعند وصوله الى بغداد مات

(١٠٨) هو ابن القطان المار ذكره .
(١٠٩) بقصد به : علي بن طراد الزينبي .
(١١٠) وردت الابيات في الديوان المطبوع (١ : ٤٢) بالصورة
الآتية :

يا اهل بغداد ان الحيص بيص اتى
بفلمة اكتسبه الخزي في البلد
هو الجبان الذي ابدى تشاجسه
على جري ضعيف البطش والجلد
وليس في يده مال يديه به
ولم يكن يبوء عنه في القود
فانشدت جمدة من بعد ما احتسب
بت دم الايلاق عند الواحد الصمد
(القول للنفس تاساء وتمزية
احدى يدي اصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه
هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي)

(١١١) ودفن في مقابر قرشي بالكاظمية اليوم (ديوان حيص
بيص ١ : ٤٨) .
(١١٢) مرآة الجنان ٤ : ٣٥ ، التكملة لوفيات النقلة ٤ :
٢٨٤ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٢٢٦ .

انها عادة مفيدة وحميدة . توفي سنة ١٠١٠هـ (١١٩) .

الوليد بن عبادة (١٢٠) البحرني : الشاعر المشهور صاحب الديوان الوفور مولده بمدينة منبج وتادب بها وسافر الى بغداد وامتدح الخليفة المتوكل ومولده سنة ٢٠٦هـ ومات بها سنة ٢٨٣هـ (١٢١) . حكى عنه قال : صرت في اول امري الى ابي تمام في مدينة حمص وعرضت عليه شعري فاقبل عليّ وترك الناس وسألني عن حالي فشكوته الفاقة فكتب الى اهل المرة وشهد لي بالحققة والفهم فلما وصلت الى المرة وامتدحتهم فآكرموني واقاموا لي باربعة آلاف درهم فكانت اول مال اصبته . قيل ان البحرني شرب يوما مع ابي (١٢٢) هفان عند بعض الرؤساء فلما خرجا ركب البحرني فرسه وأردف وراءه ابو هفان ، فانشد هذا ارتجالا . يقول : شعر :

تلبس للحرب اتواها
وقال اننا الشاعر البحرني
فلما رأى الخيل قد اقبلت
اذا هو في سرجه قد خرى (١٢٣)

فغضب البحرني ودفعه فرماه الى الارض .
ومن شعره في المتوكل (١٢٤) :

اخفي (١٢٥) هوى لك في الضلوع واطهر
والأم في كمدك عليك واعذر
بالبر صمت وانت افضل صائم
وبسنة الله الرضي تفتطر
فانعم بيوم الفطر عيداً (١٢٦) انه
يوم اعز من الزمان مشهر
اظهرت عز (١٢٧) الملك فيه بجفيل
لجب يحاط الدين فيه وينصر

سنة ٦٠٦هـ وفيه يقول ابن عنين (١١٣) يهجو مع فرط علمه وذكائه . شعر :

يا ابن الصاكر ان صح انتسابك ذا

فانت من امم صورت مسبوكا

يا ابن الدجاجة كل الناس كان لها (١١٤)

اب (١١٥) فانت ابن من حتى اناديكما

فلما رأى الاديب الأريب امين العمري (١١٦)

الشاعر الموصلني هذين البيتين قد اثبتهما في ديوان

قال مجيباً عن ابن عساكر :

يا من كمتين له نسبة

ما هذه النسبة امر حسن

تعير الناس بانسابهم

ابوك عتينا فانت ابن من ؟

عبدالله الكردي : علامة العلوم ، مولده في

جبال الأكراد سافر الى بغداد واخذ عن علمائها

الاجواد ثم سافر الى دمشق وسكنها ثم غلب عليه

الحال فالتقى كثيراً في الماء ، توفي سنة

١٠٠٣هـ (١١٧) .

صفي الدين بن محمد الكيلاني : نزيل مكة

مولده في كيلان اتقن فيها العلوم ثم قدم الى بغداد

وصاحب علمائها وقرأ الطب وبرع فيه ثم عاد الى

الحج وسكن مكة ومن فراسته مرت عليه يوماً

جنازة فقير فدعي به فنظر اليه واخذ شيئاً من

القطار ونفخ في انفه ففاق الميت وجلس فسألوه

كيف عرفت ذلك قال : نظرت اقدمه واقفة فعلمت

انه حي وطالما صدر مثل ذلك ولم يستحسن به

الناس (فلذلك عند الافرنج عادة) (١١٨) لا يرفعون

الميت قبل مرور اربعة وعشرين ساعة وناهيك

(١١٣) توفي سنة ٦٣٠هـ (ديوان ابن عنين ٢) .

(١١٤) في الاصل : له ، (ديوان ابن عنين ٢٠١) ومحقق

الديوان يترجم ابن عساكر لغير الذي نخصن بصده

فيقول : ابن عساكر تاج الامناء ابو الفضل احمد بن

محمد بن الحسن بن هبسة الله ولد ٤٢٢هـ وتوفي ٦١٠

وهذا وهم من الحقق (ديوانه ٢٠١) .

(١١٥) في الاصل (ديكا) (الديوان ٢٠١) .

(١١٦) محمد امين بن خيرالله بن محمود بن موسى الخطيب

العمري ولد ١١٥١هـ وتوفي ١٢٠٣هـ . (الاصل ٦ :

٢٦٧ ، مهل الاولياء (مقدمة الحقق سعيد الديوهجي) .

(١١٧) ترجمته في خلاصة الاثر ، للمحبي (٣ : ٨٥) .

(١١٨) العبارة مضطربة وكان الاولى به ان يقول : والافرنج
عادة ... الخ .

(١١٩) ترجمته في خلاصة الاثر (٢ : ٢٤٤ - ٢٤٥) .

(١٢٠) الوليد بن عبيد وكنيته (ابو عبادة) (ديوان البحرني
ص ٢) .

(١٢١) الأشهر انه ولد ٢٠٤هـ وتوفي ٢٨٤هـ (الاعلام ٩ : ١٤١)
تاريخ بغداد ١٣ : ٤٤٦) ، المنتظم لابن الجوزي (٦ : ١١٦)
(وفيه وفاته ٢٨٥هـ) .

(١٢٢) في الاصل مع (ابو)
(١٢٣) الابيات في وفيات الاميان (٢ : ١٧٥) ، تاريخ بغداد
(١٣ : ٤٤٦) ، معاهد التنصيص (١ : ٢٢٤) .

(١٢٤) ويذكر خروجه يوم الفطر (ديوان البحرني ١) .
(١٢٥) في الاصل (اخف) .

(١٢٦) وقع المؤلف في نفس اللفظ الذي وقع فيه جامع الديوان
حيث ذكر (ويننا) والصواب ما اتيته (عبدا) .

(١٢٧) في الاصل (عن) (١٢٨) في الديوان (فالخيل) ص ١١٠ .

كلب، فخرج إليه نائب حمص ١٢٦، وقبضه وهربت
أمته وجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب
الصفصاف، فأشاد المتنبي:

زعم المقيم بكونكسين بانه
من آل هاشم ابن عبد مناف
فأجبتة مذ صرت من ابنائهم
صارت قيودهم من الصفصاف (١٢٧)

وخل عليه ابن والي حمص وهو
محبوس فوجده منزعجا فقال له: اصبر كما صبر
أولوا (١٢٨) العزم من الرسل فقال له المتنبي: وما
كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم
يستغفرون ثم تاب وحسن إسلامه فاطلقه.

وديوانه مشهور وقد طبع في مصر وبيروت
وأشعاره فائقة على كل شعر.

سافر إلى بغداد وامتدح بها ثم خرج منها فلما
وصل إلى دير العاقول خرج عليه: فانك بن أبي جهل
ابن فارس من بني أسد ومعهم جماعة فعرفوه وتذكروا
هجاءه الشنيع لضية الأسد وهي هجاء لا ذكره
لاخرأجه عن دائرة الأدب فلما عرفوه حملوا عليه
فغزم على الهرب فذكره غلامه قوله:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والطعن والضرب والقرطاس والقلم (١٢٩)

فقال له قتلني لانه عرف اذا رجع يقتل وهكذا
جري فانه لما كر راجعا اخذ يحاربهم حتى قتل
وذلك سنة ٣٥٤هـ.

بركة بن أبي يعلى الضريبر (١٤٠): مولده بالانبار
وبها تعلم وتأدب ثم قدم إلى بغداد ونظم فيها الأشعار

أغالب وجدي فيهم وهو غالب
وأحبس دمي وهو في الخد ساكب
وقد عيل صبري واعتزتي وسأوس
تمانعني طيب الكرى وهو آيب

(١٣٦) هو لأولو بن علي الهاشمي، وكان قد قبض عليه في قرية
يقال لها: كوتين (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب
٦٣٦).

(١٣٧) البيت في العرف الطيب ٦٣٦.

(١٣٨) في الأصل (صبروا أولوا).

(١٣٩) بروي البيت في العرف الطيب ٦٣٦ بالصورة الآتية:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(١٤٠) هو بركة بن أبي يعلى بن أبي الضمائم الأنباري الضريبر،
من رجال القرن السادس الهجري (نكت الهميان في نكت
العميان ١٢٥).

والخيل ١٢٨) تصهل والفوارس تدعى

والبيض تلمع والاسننة تزهر
والشمس طالعة توقد (١٢٩) في الضحى
طورا ويظفيها المجاج الاكدر

حتى طلعت بنور وجهك فانجلي
ذاك الدجى وانجاب ذاك العشير (١٣٠)
وافتن منك الناظرون فاصبح (١٣١)

يؤمى اليك بما وعين تنظر
ذكروا بظلمتك النبسي فهللكوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهيت الى المصلى لابساً
نور الهدى يبدو عليك ويظهر

ومشيت مشية خاشع متواضع
لله لا يزهى ولا يتكبر

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما (١٣٢)
في وسعه لسعى إليك المنبر

أيدت من فصل الخطاب بحكمة
تنبى عن الحق المبين وتخبر

ووقفت في برد النبي مذكراً
بالله تنذر تارة وتذكر (١٣٣)

وهي طويلة وفي هذا كفاية إشارة لفضله وعلو
نهاه.

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي: الشاعر
المشهور صاحب الفضل الموفور مولده بالكوفة في
محلة (كندة) ولذلك نسب إليها. كان أبوه سقاء
بالكوفة ولذلك قال فيه الشاعر (١٣٤):

أي فضل لشاعر يطلب الفضل
من الناس بكسرة وعشياً

عاش حيناً يبيع بالكوفة الماء
وحيناً يبيع ماء الحيان

ولما كبر وانتشى سولت له نفسه عصيان
ربه فادعى النبوة في بركة السماوة (١٣٥) وتبعه بنو

(١٣٩) في الديوان (والشمس مائة) ص ١١.

(١٤٠) البيت في الديوان ص ١١:

حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت

تلك الدجى وانجاب ذاك العشير

(١٣١) في الأصل (فاصبح) والصواب ما ابتناه (الديوان ١١).

(١٣٢) في الديوان (ليرما) ص ١١.

(١٣٣) في الديوان (وتبشر) ص ١١.

(١٣٤) البيتان في مقدمة ديوان المتنبي - شرح البروفسي ص ٥٠،

في وفيات الهميان (١: ١٢٤).

(١٣٥) في الأصل (سماوة).

وقد حرت لما أصبح الركب راحلا
وقد قوضت نيرانهم والمضارب
حدا بهم الحادي فاضحيت بالحمى
كئيباً وقد ضاقت علي المذاهب (١٤١)
توفي سنة ٥٧٠ هـ .

الفضل بن جعفر المعروف بالبصري (١٤٢) .
مولده انكوفة وبها تادب ونظم الاشعار .

قدم الى بغداد وامتدح الخليفة المعتصم ،
والتوكل ووزيره الفتح بن خاقان . . . وكان يجلس
مع اخوانه للشرب فيقوم لحاجته ويتخطى الزجاج
والكأس ويعود . واختل عقله قبل موته فكان ينشد:
خبا مصباح عقل ابي علي
وكانت تستضيء به العقول
اذا الانسان مات الفهم منه
فان الموت بالباقي كفيلا (١٤٣)
توفي سنة ٢٥٥ هـ .

الحسين بن احمد الهمداني المعروف بـ ابن
خالويه (١٤٤) : مولده بمدينة همدان وبها تادب وتعلم
ونظم الشعر . قدم الى بغداد وقرأ على السراي في
ورحل الى الشام وسكن حلب . كان اماما في النحو
له تصانيف منها : الجمل في النحو ، وعراب ثلاثين
سورة من القرآن ، كتاب الاشتقاق ، وكتاب المقصور
والممدود ، والمذكر والمؤنث ، ومن شعره :

اذا لم يكن صدر المجالس سيداً
فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم (١٤٥) قيل لي مالي رايتك راجلاً
فقلت له : من اجل انك فارس (١٤٦)
توفي سنة ٣٧٠ هـ .

ابراهيم بن عثمان بن محمد الغزي : مولده
بمدينة غزة (١٤٧) . وبها درس وتعلم جاء الى بغداد

(١٤١) الابيات ذكرها الصفدي الموما اليه في نفس الصفحة من
نكت الهميان .

(١٤٢) هو الفضل بن جعفر بن يونس النخعي توفي سنة ٢٥٥ هـ
(٨٦٩ م) الاطلام ٢٥١:٥ ، معجم الشعراء ٢١٤ ، نكت
الهميان ٢٢٦ .

(١٤٣) نكت الهميان ٢٢٦ .
(١٤٤) ترجمته في الاطلام (٢) : ٢٤٩ ، ووفيات الايام (٢) : ١٧٨)
طبقات الشافعية (٢١٢:٢) .

(١٤٥) في وفيات الايام ١٧٩:٢ (وكم لائل) .
(١٤٦) البيهقي في وفيات الايام (٢) : ١٧٩ .
(١٤٧) ولادته سنة ٤٤١ هـ (الاطلام ٤٤١ : ٤٤٠) .

واقام بالمدرسة النظامية سنين واياما ورحل الى
خراسان وظهر بها فضله الى ان توفي سنة ٥٢٤ هـ .
ونه ديوان اشعار ما يزيد على الف بيت ، منه:
حملنا من الايام مالا نطقه
كما حمل العظم الكير العصايا (١٤٨)
وليل رجسونا ان يدب عنذاره
فما اخط حتى صار في الفجر شايبا (١٤٩)
وقوله :

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة
باب البوائت والدواعي مفلق (١٥٠)
خلت الديار فلا كريم يرتجى
منه التوال ولا ملبح (١٥١) يعشق
ومن العجائب انه لا يشتري
ويخان (١٥٢) فيه مع الكساد ويسرق
قيل انه قبل معاته هجر الشعر وغسل كثيرا
من نظمه بعد ان نظم هذه الثلاثة ابيات التي ذكرناها .

محمد بن يوسف موفق الدين الاربلي : مولده
بمدينة اربل (١٥٣) وبها تادب وتعلم ونظم الاشعار الرائقة
كان بارعا بالمروض والشعر واللغة وكان له يد بكتاب
اقليدس بالهندسة . سافر الى بغداد وامتدح بها
الاجواد وحظى منهم بنعمة وعاد الى بلده وامتدح
صاحب اربل زين الدين يوسف ، منه (١٥٤) :

رب دار بالحمى طال بلاها
عكف الركب عليها فبكاها
كان لي فيها زمان وانقضى
فسقى الله زماني وسقاها
قل لجيران موائيقهم
كلما احكمتها (١٥٥) رك قواها
كنت مشغوفاً بكم اذ كنتم
شجراً لا يبلغ الطير ذراها

(١٤٨) ووفيات الايام ١ : ٥٨٠ .

(١٤٩) في المصدر السابق نفس الصفحة يروي الشطر الثاني :
فما اخط حتى صار بالفجر شايبا .

(١٥٠) المصدر السابق ايضا (١ : ٥٨٠) ورد الشطر الثاني :
باب الدواعي والبوائت مفلق .

(١٥١) في الاصل (طيحا) المصدر السابق ١ : ٥٨٠ .

(١٥٢) في الاصل (ويغاف) المصدر السابق ١ : ٥٨٠ .

(١٥٣) ولادته في البحرين سنة ٥٨٥ هـ (الاطلام ٨ : ٢٢) .

(١٥٤) الابيات في وفيات الايام (١ : ١٠٥) .

(١٥٥) في وفيات الايام ١ : ١٠٥ (رمت) .

وأذا ما طمع اغسرى بكم
 عرض اليأس لنفسي فثناها
 فصبايات الهوى أولها
 طمع النفس وهذا منتهاها
 لاتظنوا بي (١٥٦) اليكم رجعة
 كشف التجريب عن عيني غطاها (١٥٧)
 إن زين الدين أولاني بدأ
 لم تدع لي رغبة فيمن سواها
 توفي سنة ٥٨٥ هـ .

(١٥٦) في وفيات الاعيان ١٠:٥ (لي) .
 (١٥٧) في وفيات الاعيان ١٠:٥ (معاهل) .

★ ★ ★

مصادر التحقيق والتقديم

- ١٦- ديوان علي بن النجم - تحقيق : خليل مردم - مطبوعات
 المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .
- ١٧- شرح ديوان المتنبي - لعبدالرحمن البرقوقي - ط ٢
 الاستنفاة - القاهرة ١٩٢٨ .
- ١٨- شعراء بغداد - للشيخ علي الخاقاني - ط اسمد بغداد
 - ١٩٦٢ .
- ١٩- طبقات الشافعية الكبرى - لنجاح الدين السبكي -
 تحقيق : محمود الطنحاني ، وعبدالفتاح الحلو - ط ١ -
 عيسى البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٦٤ .
- ٢٠- المر في خبر من غير - للحافظ الدهلي - تحقيق :
 فؤاد سيد - ط الكويت - ١٩٦١ .
- ٢١- العرف الطبي في شرح ديوان ابي الطيب - للشيخ
 ناصيف اليازجي - ط الادبية - بيروت ١٢٠٥ هـ .
- ٢٢- قصص العرب - لمحمد احمد جاد المولى وجماعة -
 ط ٢ - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٥٦ .
- ٢٣- كشف الطنون - لحاجي خليفة - النسخة الصورة التي
 نشرتها المكتبة الاسلامية بطهران - ١٩٦٧ .
- ٢٤- مجلة لغة العرب - لاب انتاس ماري الكرملي - السنة
 ٢ ، ج ٧ ، ص ٢٣٨ مقال : رزوق عيسى .
- ٢٥- محيط المحيط : لبطرس البستاني - النسخة الصورة -
 بيروت ١٨٧٠ .
- ٢٦- مختصر التاريخ : لطهير الدين البغدادي المعروف ب ابن
 الكادروي - تحقيق : الدكتور مصطفى جواد - ط
 الحكومة - بغداد ١٩٧٠ .
- ٢٧- مرآة الجنان : لعبدالله اليانعي - الطبعة الصورة -
 منشورات مؤسسة الاعلمي - بيروت ١٩٧٠ .
- ٢٨- معاهد التنصيص : لعبدالرحيم بن عبدالرحمن العباسي
 - ط البنية - القاهرة - ١٣٠٤ هـ .
- ٢٩- معجم البلدان : لياقوت الحموي - ط دار صادر -
 بيروت ١٩٥٧ .
- ٣٠- معجم الشعراء : لمحمد بن عمران المرزباني - تحقيق :
 عبدالستار احمد فراج - دار احياء الكتب العربية -
 القاهرة ١٩٦٠ .
- ٣١- معجم المؤلفين العراقيين : لكوكيس عواد - ط الارشاد
 - بغداد ١٩٦٩ .
- ٣٢- النظم : لابن الجوزي - ط دائرة المعارف الشمانية -
 حيدرآباد الدكن - الهند ١٣٥٧ هـ .
- ٣٣- شهل الاولياء - لمحمد امين العمري - تحقيق : سعيد
 الديوهجي - ط الجمهورية - الموصل ١٩٦٧ .
- ٣٤- النجوم الزاهرة - لابن نوري بردي - الطبعة الصورة
 عن طبعة دار الكتب القاهرة .
- ٣٥- نكت الهميان في نكت الصعيان - لصلاح الدين خليل
 الصنفدي - تحقيق : احمد زكي - القاهرة ١٩١١ .
- ٣٦- هدية العارفين - لاسماعيل باشا البغدادي - الطبعة
 الصورة - طهران ١٩٦٧ .
- ٣٧- وادي الفسرات - للدكتور احمد سوسة - ج ١ ط
 الحكومة - بغداد ١٩٤٤ ، ج ٢ ط المعارف - بغداد
 . ١٩٤٥ .
- ٣٨- الوافي بالوفيات : لصلاح الدين خليل الصنفدي ، ج ١
 ط ٢ باعتناء هلموت رينر ١٩٦٢ .
- ٣٩- وفيات الاعيان - لابن خلكان - تحقيق : الدكتور احسان
 عباس دار الثقافة - بيروت .

- ١- الاعلام - لخيرالدين الزركلي - ط ٢ الصورة - بيروت
 . ١٩٦٩ .
- ٢- الانساب - لعبدالكريم بن محمد السمعاني - ط ١
 حيدرآباد الدكن - الهند ١٩٧٦ .
- ٣- البداية والنهاية : لعلاء الدين ابي الفداء اسماعيل
 ابن عمر المعروف ب ابن كثير - ط السعادة - مصر .
- ٤- بغداد مدينة السلام - لابن الفقيه الهمداني - تحقيق :
 الدكتور صالح احمد الملي - ط ١ دار الطليعة للطباعة
 والنشر - باريس ١٩٧٧ .
- ٥- تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي - الطبعة الصورة -
 دار الكتاب العربي بيروت .
- ٦- تجارب الامم - لابن علي احمد بن محمد ، ابن مسكويه -
 ط مصر .
- ٧- التكملة لوفيات النقلة - لابن محمد عبدالعظيم النلدري -
 تحقيق : بشار عواد مصروف - ط الاداب - النجف
 . ١٩٦٨ ، ١٩٧١ .
- ٨- تهذيب ابن عساکر : لابن القاسم علي بن الحسن بن
 هبة الله - ط الشام ١٣٣٠ هـ .
- ٩- جهمرة المراجع البغدادية - لكوكيس عواد ، وعبدالحاميد
 العلوي - ط الزاوية - بغداد ١٩٦٢ .
- ١٠- خلاصة الاثر - لمحمد المحي - ط الوهبة - مصر
 . ١٢٨٤ هـ .
- ١١- دائرة المعارف الاسلامية - لجماعة - القاهرة ١٩٣٢ .
- ١٢- دليل خارطة بغداد - للدكتور مصطفى جواد ، والدكتور
 احمد سوسة - ط المجمع العلمي العراقي - بغداد
 . ١٩٥٨ .
- ١٣- ديوان ابن عني - تحقيق : خليل مردم - دمشق
 . ١٩٤٦ .
- ١٤- ديوان البحري - ط ١ - الجواب - القسطنطينية
 . ١٢٠٠ هـ .
- ١٥- ديوان جيمس بيص - تحقيق : مكي السيد جاسم ،
 وشاكر هادي شكر - مطبوعات وزارة الاعلام (الثقافة
 والفنون) بغداد ١٩٧٤ .

أقدم وثيقة عثمانية عن بغداد

تعريب وتعليق وتحشية :

عطاء ترزي باشي

تركوك - محافظة النابنج - الجمهورية العراقية

كثير من المعلومات التي اوردها المؤرخون في مؤلفاتهم الحديثة (٢) .

ان هذه الوثيقة تلقي الضوء على الحياة الاجتماعية والسياسية في العراق ، ليس في العهد العثماني فحسب ، وانما في عهود دولتي ال (آق قوينلي) و (الصغوين) ايضا . وقد عثر عليها ناسرها في مكتبة بايزيد العامة (٣) باستانبول فنشرها ضمن مجموعة كبيرة من الوثائق المائلة والخاصة بسائر انحاء الامبراطورية . وقد قدم تلك المجموعة بدراسة عامة مسهبة عن ماهية وتاريخ هذا النوع من الوثائق . الا ان الوثيقة المتعلقة بالعراق منها لم تحظ بعناية الناشر ، فجاءت خالية عن اي تعليق يذكر . ومهما يكن من شيء فان الفضل في هذا الشأن يعود له لعرضه اياها لأول مرة في عالم النشر .

ويرجع تاريخ هذه الوثيقة الى سنة ٩٤٣هـ . وهي صادرة من السلطان سليمان القانوني الى والي ولاية بغداد وقاضياها . وهي تعد اقدم وثيقة عثمانية معروفة لدينا عن العراق ، وان كان قد ورد في صلبها اشارة الى وثيقة اخرى من نوعها صادرة من نفس السلطان بعد استيلائه على بغداد مباشرة في سنة ٩٤١هـ . ولكننا نجعل نصها .

واما الوثيقة التي نحن بصدد موضوعها فهي مؤرخة في ٤ رمضان ٩٤٣هـ . وبذلك يكون هذا التاريخ موافقا لتاريخ ١٤ شباط ١٥٣٧ الميلادي حسب ما ذكره ناشر الوثيقة ، و ١٩ شباط ١٥٣٧ وفق

ان الوثائق التاريخية المتعلقة بالعراق في زيام العهد العثماني والموجودة حاليا في مكتبات استانبول وفي ارشيف المستندات الخطية هناك تشكل عددا هائلا لا يستهان به ، ومن المؤسف ان الباحثين لم يبذلوا جهدا يذكر في تدقيق هذه الوثائق وترجمتها الى اللغة العربية للافادة منها في قظرنا . ويعود السبب في ذلك الى العناء والمشاق التي يتحملها الباحث في الكشف عن تلك الوثائق وتحقيق محتوياتها وترجمتها بشكل علمي صحيح ، فان الامر يتطلب جهدا متواصلا في البحث والتحري وعناء كبيرا في قراءة النصوص قراءة سليمة اذ هي مكتوبة على الغلب بخط دواني معقد او بما يشابهه من خط عربي قديم تصعب على الشخص العادي قراءته ، بالإضافة الى صعوبة فهم لفتها التركية المنمقة المليئة بالكلمات الفارسية والعربية المولدة ، وبالمصطلحات التاريخية المستعملة في ذلك العهد .

ولذا فان عدد ما نشر من هذه الوثائق لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة . ومن ضمن هذه المنشورات اطلعت على اقدم وثيقة وصلتنا حتى اليوم وهم تاريخ العراق في العهد العثماني . هي تلك التي نشرها السيد خليل اينالجق في مجلة « بلكه لر » (١) التي يصدرها مجمع التاريخ التركي بانقرا . وهي وثيقة ذات قيمة تاريخية كبرى تهتم الباحثين والمؤرخين في العراق لاحتوائها على معلومات جديدة وطريفة عن التاريخ الضرائبي والمالي في العراق خلال حقبة من الزمن . وهي توجب تصحيح

(٢) ولا سيما ما ورد في كتاب « تاريخ الضرائب العراقية » للرحوم عيسى الزاوي ، الطبع في سنة ١٩٥٨ .
(٣) خزائن ولي الدين الهندي ، الرقم ١٩٧ .

(١) بمديها الرقمين ٣ و ٤ من المجلد الثاني الصادر في عام ١٩٦٥ .

ما ينطق به « دليل تحويل التواريخ الهجرية الى
الميلادية » (٤) .

بنفسه على هذا الديوان ، وينزل العقوبات الصارمة
بحق المقصرين من المسؤولين في تنفيذ اوامره .

ويقصد من اصدار هذه الاوامر تحقيق العدل
بين المواطنين وتوفير الامن لهم . وكذلك الحيلولة
دون استغلال المتنفذين والمسؤولين في الدولة
مراكزهم الحساسة وسلطانهم الواسعة في منافع
واغراض شخصية .

ويتضح من مضمون هذه الوثيقة ان كاهل
المواطنين كان قبل مجيء السلطان سليمان القانوني
الى العراق مثقلا بعبء كبير من الضرائب والرسوم
التي فرضتها عليهم حكومة الصفويين . فقد ألغى
القانوني بهذا الامر اكثر من خمسة عشر لونا من
الوان الضرائب والرسوم الباهظة التي كانت تستوفى
من المكلفين عينا او نقداً (٥) . . وقد تقرر بموجب
هذا الامر اعفاء جميع المكلفين ممن يشيرون ابنية
حديثة على العرصات من الضريبة لمدة سنة كاملة
وذلك تشجيعا للحركة العمرانية في البلاد كما جاء في
اسبابه الموجبة . وهذا المبدأ الذي احده القانوني
قبل اكثر من اربعة قرون قد اقره المشرعون
المعاصرون ايضا . فاخذ مكانه اللائق في القوانين
الحديثة التي تنظم احكام الاجبار .

ويفهم من فحوى الوثيقة التي نحن بصدها
ان السلطان سليمان القانوني كان ينظر الى اهل
العراق نظرة حب ومودة . وهو يرجع سبب ذلك
الى كونه قد انتدبهم شخصيا من ظلم الصفويين
وان مؤسس دولتهم الشاه اسمعيل الخطائي (٦) كان
شاعرا من الغلاة الباطنيين . وله ديوان شعر كبير
متداول بين الناس ، وقد كتبه باللهجة التركمانية . .
وكان القانوني بدوره شاعرا مجيدا وصاحب ديوان
شعر باللسنة التركية ، وكان الصراع المذهبي
عنيفا بينهما . ولعمل مرد ذلك هو التنافس
على السلطة . . وتنطق هذه الوثيقة عن
قيام القانوني بالغاء جميع الضرائب والرسوم
الاضافية التي كان الصفويون قد فرضوها على

(٥) يلاحظ ان هناك فرقا بين الرسم والغريبة هو ان الرسم
يستوفى من الافراد كعقابل لما يدلله المستوفي من
خدمة خاصة يقدمها لهم . في حين ان الغريبة تستوفى
دون اداء خدمة خاصة وانما لتنظيف بعض النفقات
العامة للدولة . على ان تداخل المصالح المالية والادارية
وتسارها مع بعضها جعل تمييز الرسوم من الضرائب
امرا صعبا في تلك العهود . ولكن الرسوم كانت لها
الصفة الغالبة .

(٦) خطائي هو لقب الشعري له .

ويستبان من فحوى الوثيقة انها تسمى بـ
« امر » و « حكم » . فهي قرار بمثابة قانون .
وتسمى بـ (عدالتنامه) اي كتاب العدل لانها
تتضمن الامر برفع الحيف الذي يلحق بالمواطنين
من جراء فرض ضرائب ورسوم باهظة عليهم . . .

وتتميز هذه الاوامر السلطانية عن (الفرامين)
و (البراءات) بكونها لمصلحة الشعب وليس لمصلحة
فرد او اشخاص معينين . فلا يرد فيها ذكر لاسم
الشخص الثالث او للمصلحة المقررة له كما هو
الحال في الفرامين والبراءات التي تصدر باسماء
اصحابها ، وتتضمن ماهية المصلحة المخصصة لهم
كما في تعيين زيد بوظيفة معينة او كمنح مقاطعة
لعمره . . وبذلك يمكن عد الاوامر السلطانية بمثابة
قوانين تشرع لمصلحة المواطنين كافة او لمصلحة فئات
تقطن بمنطقة معينة من البلاد كما هو الحال في
الوثيقة موضوعة البحث حيث ان احكامها تسري
على سكان ولاية بغداد التي كانت تشمل آنذاك
على كل ارجاء العراق تقريبا . ويتحتم على
المسؤولين في المنطقة المشمولة باحكامها . وهم كل
من والي الولاية وقاضيه ورؤساء الوحدات الادارية
الاخرى التابعة لها في ذلك العهد وقضاتها ، تنفيذ
محتوياتها فوراً . .

ويلاحظ من نص هذه الوثيقة ان السلطان يأمر
الوالي والقاضي بوجوب الاعلان عنها في الاماكن العامة
المكتظة بالجماهير ، وتفهم صيغتها وفحواها لهم .
وكان المتداولون يدعون الناس للتجمع في تلك المحلات
للاصغاء الى اوامر السلطان التي يتلوها عليهم قاضي
البلد علنا ويوضح لهم ما فيها من الاحكام .

وكان السلطان يتحقق عن صحة نشر الاعاين
لاوامره وعن سير العمل في تنفيذها بوسائل عديدة
منها التقاؤه بالناس عند تجواله في الولايات او
اجتماعه بهم متنكرا في زي رجل معتاد . وكان
يرسل بين حين واخر اعوانه وجواسيسه خفية
الى جميع انحاء الامبراطورية للفرص نفسه . كما ان
هيئات التفتيش للدولة كان لها دور بارز في هذا
الشأن . وبالإضافة الى كل ذلك ديوان خاص
للمظالم ، ينظر في شكوى المواطنين ضد المسؤولين
من الولاة والقضاة وغيرهم . وكان السلطان يشرف

(٧) للاستاد فايق رشيد اوانت . والكتاب هو من منشورات
مجمع التاريخ التركي بانقرا وقد طبع في سنة ١٩٧٤ .

الأعراف ، وثبتت ما كان منها مقررا في عهد الآق قوبلية .

ويتضح من اجراء الموازنة بين اصناف الضرائب والرسوم ومقدارها المستوفى من المواطنين ان هناك تفاوتا كبيرا بينها في المهدين الشمالي والصفوي .

وتكشف لنا هذه الوثيقة عن اسم قاض عينه القانوني على قضاء ولاية بغداد وهو (قاضي زادة شيخ محمد) . وربما كان وكيلا لوالي ايضا حيث لم يذكر اسم الوالي في تلك الوثيقة اضافته لوظيفته . ولم يكن لنا علم بالقاضي المشار اليه قبل اطلاعنا على هذه الوثيقة . وقد وهم المرحوم عباس الغزوي فيما ذكره من ان المولى مصلح الدين مصطفى النيكساري كان اول قاض بغداد في العهد العثماني . اذ كان حسب قول الغزوي مدرس مغنيسيا واعيد لقضاها سنة ٩٤٧هـ (٧) . ونعتقد ان القاضي الذي ورد ذكر اسمه في الوثيقة هو نفس قاضي بغداد الذي مدحه الشاعر محمد فضولي البغدادي (المتوفى سنة ٩٦٣هـ) في احدي قصائده حيث سماه ب (مير سيد محمد غازي) (٨) .

وهناك جوانب اخرى يمكن للباحثين الافادة منها عند دراسة هذه الوثيقة التي ترجمناها الى اللغة العربية . . ولقد رايت في التعريب اسلوب الترجمة الحرفية نصا ومعنى وذلك باستعمال نفس الكلمات العربية الموجودة فيها اصلا ، وبترجمة الكلمات والعبارات الاخرى بما يقابلها في العربية مع المحافظة التامة على المعنى بحيث يشمر القارئ العربي انه يطالع الاصل التركي للوثيقة . فيستفيد منها كما يستفيد من النص الاصيل تماما . وما اصفته من عندي الى الترجمة من الكلمات والعبارات اكلاما للمعنى ، فقد وضعتها بين قوسين () لكي لا تفقد الوثيقة قيمتها التاريخية . فاسلوب ترجمتنا هو اقرب الى الاسلوب العلمي منه الى الاسلوب الادبي .

واما اسلوب الوثيقة نفسها فهو اسلوب صعب ولكنه واضح وجميل . فبالرغم من ان الجمل مرتبطة ببعضها ارتباطا مسلسلا بحيث تتكون كل جملة من عشرات الكلمات ، الا ان معناها مفهوم لنا باستثناء

(٧) الغزوي ، القضاء في العراق في ايام العهد العثماني ، مجلة « القضاء » التي تصدرها نقابة المحامين العراقيين ببغداد ، المجلد ٥ ، السنة ٩ ، تموز ١٩٥١ . وانظر في كتابه « تاريخ العراق » ، ج ٤ ، ص ٢٧ ، بغداد ١٩٢٩ .

(٨) ديوان فضولي الطوبوع في الاستانة سنة ١٩٢٤ ، ص ٦٥ - ٦٧ منه .

موضوعين ، نعتقد بسقوط بعض الحروف والكلمات عنهما اثناء طبع الوثيقة ، وقد اشرنا الى ذلك في الحاشية . وكانت الدقة العلمية تفرض علينا وجوب مراجعة اصل المستند ، الا ان ذلك لم يتيسر لنا في الوقت الحالي . . واما التكرار الذي نلاحظه في بعض العبارات من النص المطبوع فان مرده الى التأكيد على فحوى الموضوع وتذكير بالمعنى لطول العبارة الذي اقتضاه اسلوب كتابة الوثيقة . ولقد ابقيت العبارات او الجمل المكررة في الترجمة ايضا وذلك حرصا مني على صون قيمة الوثيقة التاريخية .

x x x

وفيما يلي تقدم الترجمة الكاملة للوثيقة مع الحواشي اللازمة :

« حكم (٩) (وجهه الى امير امراء) ببغداد وقاضياها :

لقد سبق صدور امر (١١) بوجوب مسك سجل تدون فيه مجددا الاحوال التفصيلية لولاية بغداد دار السلام المحمية . فقدم لنا [من بغداد] في الوقت الحالي من هو فخر الاماجد والاكارم (الشيخ محمد قاضي زادة) زيد مجده ، وحل في عتبة داري العلية العالمية الشمول ، وتيمن بسدتي السنية المباركة . و عرض على مقامي المعزز والموفور بالجسور ، المستوجب للسرور انه بمقتضى امري الجليل الفدره قد مسك سجلا حرر فيه بالتفصيل شئون الولاية المشار اليها ودون فيه القواعد والقوانين التي كانت مقررة للرعايا (١٢) والبرايا (١٣) في السنين الماضية من عهد السلاطين المروفين بعدانة اجراءاتهم . ثم شرح ما كان قد شرعه من بعدهم الفزلباش (١٤) الاوياش (١٥) من المظالم والبدع (١٦) . وبما ان تلك الولاية قد

(٩) اي قرار بمثابة قانون .

(١٠) ولي النص المطبوع (بكثر بكي) ؛ وهو وال بدرجة وزير ، وكان يتمتع بصلاحيات واسعة لا يمتلكها غيره من الولاة .

(١١) اي حكم او قرار بمثابة قانون كما ذكرناه .
(١٢) الرعايا لغة جمع رعية بمعنى القوم ، واصطلاحا هم المواطنين الخاصون للرسم او الغربية .

(١٣) البرايا لغة جمع برية بمعنى الخلق ، واصطلاحا : الناس الفقراء الذين يشكلون سواد الشعب .

(١٤) طائفة معروفة من الغلاة .
(١٥) اي سفهاء الناس وارادلهم .

(١٦) جمع بدعة بكسر الباء ، لفظة مولدة تعني الضلالة او الباطل ، ولعلها معروفة من فصل بدع بمعنى الفزع . واصطلاحا تطلق على التشريعات الجائرة .

ابداء المساعي الحميدة بشأن اعانة المظلومين ، واهانة الظالمين . وعلى سبيل المثال (نقول) انه كانت تستوفى (من المواطنين) في الولاية المشار اليها ما يسمى بـ (چهار ماهه) (٢٠١) و (رسم استيفاء) وكانت تستوفى من المحصولات التي تبلغ قيمتها الفلي آقچه (٢١) (مبلغ قدره) مائتان وثمانين عشرة آقچه بالاضافة الى مائة واربعين منا من الشعر . وكانت تستوفى من مجموع الحاصلات ثلاثة طفارات من كل مائة طفار من (التركة) (٢٢) تحت اسم (صديه) (٢٣) . وبما ان هذه التكاليف مظلمة وجور محض فانني الغيتها ايضا . وعليك منذ اليوم عدم انساح المجال لاستيفاء حبة واحدة عما يسمى بجهار ماهه ورسم استيفاء وصديه خلافا لامري . ويجب عليك ان تعتبر هذه التكاليف ملغية ومرفوعة وان تزيل هذه الاسماء (! و المصطلحات) عن تلك الولاية . . لقد كان في ايام عهد المرحوم حسن بك المشار اليه (اعلاه) يستوفى من اصحاب الجواميس اثنتان وعشرون آقچه من كل شخص ، ولم يكن يستوفى اكثر من ذلك . الا انه في ايام القزلباش اخذوا يستوفون عشرين الف آقچه والفلي من من الدهن باسم (ضربية او رسم) (پيشکش) (٢٤) وبالاضافة الى ذلك صاروا يستوفون اثنتين وعشرين آقچه عن كل رأس من الجاموس وما مقداره خمس آقجات باسم (ميرانه) (٢٥) فضلا عن استيفاء (عشر) عن هذا المبلغ . فقد الفيت هذه (الرسوم او الضرائب) ايضا . فعليك عدم انساح المجال لاستيفاء هذه البدع (اي الرسوم او الضرائب

(٢٠) لفظة فارسية مكونة من كلمة چهار بمعنى الأربعة وكلمة ماه بمعنى الشهر فيكون معنى اللفظة مع الهاء الملحقه بآخرها « الأربعة اشهرية » ان صحت التسمية . ولعلها كانت هزبية تستوفى من الحاصلات الموسمية القصيرة المدة .

(٢١) آقچه ، لفظة تركية تعني السكة البيضاء والباحرى الصاربة للبياض . وهي تطلق على نقد فضي كان وزنه في عهد القانوني ثلاث قراريق ونصف القيراط . وكان يسك آنذاك في بغداد ايضا ببيار ٨٥٠ من الفضة . .

(٢٢) التركة اصطلاحات هي التلال كالتفح والشعر .

(٢٣) لفظة معرفة حسب اعتقادنا من (صديق) الفارسية بمعنى الواحد بالثالة .

(٢٤) لفظة فارسية بمعنى الهدية او (بالعرضة) العامية .

(٢٥) وتعني الاميرية اي حصة الامر .

فتحتها بحد سيفي الظافر ، المقرون بعلو عناية الله سبحانه وتعالى ، وظهور معجزة هدى سيد الكائنات عليه افضل الصلوات ، وبقدسية ارواح الخلفاء الراشدين العظام رضوان الله عليهم اجمعين ، فان رعية تلك الولاية يجب ان يتالوا وافر عطفسي واهتمامي وكامل شفقتي وعدلي . لذا فقد امرت ان تظل جميع العادات [اي الرسوم] المعروفة التي كانت سائدة في عهد المرحوم حسن باشا(١٧) غفرالله له [ذنوبه] ونور مرقده مرعية (في الوقت الحالي) والفتيت كليا جميع المظالم والبدع التي احدثت في عهد القزلباش . فعند اليوم يجب ان لا يحصل اي ظلم او اعتداء على اهالي تلك الولاية او على احد افراد رعاياها وبراياها ، خلافا للشريعة الطاهرة وللقانون المرعي . ويجب السير وفق النسق الذي امرت به . وقد ارسلت هذا الامر المزم [للمسؤولين] والواجب الاتباع [من قبلهم] وقضيت انه عند وصوله [اليك] ان شاء الله الاعز ، وهو (امر) مقبول في نطاق العالم وواجب الاتباع ، ان يقرأ بالتمام علنا في جميع الممرات الواقعة في مدن الولاية وقصباتها والاماكن التي يجتمع فيها الناس . وان عليك ان تعلن [للملا] القوانين والقواعد المقررة [من قبلي] بعد الغاء البدع الحادثة ومنمهما [من النفاذ] بصدور امري العادل (هذا) فيطلع الرعية على [ماهية] التكاليف المفروضة عليهم . فيؤدون [رسوما وضرائب عن] حاصلاتهم بموجبها . وينبغي ان لا يتوقع احد [بعد اليوم] حصول اي اعتداء عليه او الظلم به من قبل شخص

ما [من المسؤولين والمتنفذين] . ويجب عليك ان تتصف بالعدل المتواصل الذي يرضيني . وان تقوم بالاشراف على اموال الرعية والبرية بصورة دائمة . وان لا تسكت على استيفاء قرش(١٨) واحد من اي فرد يزيد على الحد المقرر في القانون القديم (١٩) . وعليك ان لا تضع دقيقة واحدة [من وقتك] في

(١٧) هو (اوزون حسن) اي حسن الطويل ، سلطان الآق قوينلية الذي استولى على بغداد سنة ٨٧٢هـ (١٤٧٠م) ، وتوفي سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧ م) .

(١٨) ورد في النص (آقچه) . انظر الحاشية رقم ٢١ ادناه .

(١٩) ويقصد به قانون السلطان حسن الطويل .

الجائزة) السماء ب (بيتكش) و(ميوانه) و(عشر) . .
وهناك في نواحي مهروود (٢٦) وطريق خراسان (٢٧)
والخالص مهنة « السكرية » ، وان النصف (من
الناتج) خاص والنصف الاخر يعطى الى من يقوم
بعمل السكر . عليك ان تثبت هذا الخصوص بحسب
العادة القديمة وذلك بتخصيصه الى القائم بالعمل المذكور
عن طريق (التيمار) (٢٨) . فيكون القائم والمشرف
على العمل متصرفا وفق العرف المعتاد قديما . .
وهناك في كل قرية (كارخ) (٢٩) يقوم منذ قديم الايام
بزراعة ارض بمقدار طفار واحد يتصرف بالحاصل
لنفسه . واما اليوم فان الكارخين قد تركوا زراعة
الارض واخذوا يستوفون من رعايا كل قرية ستة
طفارات من المحصول ظلما . لقد رفعت هذه المظلمة
فيمنع الكارخون منذ اليوم عن استيفاء اي شيء من
الريعية . ولهم ان يزرعوا حسب العادة القديمة
ارضا تخصص لهم من قبل (الامارة) (مساحة
تكفي للزراعة) بمقدار طفار واحد لكل كارخ ،
فيتصرف بمحصولها لنفسه .

وعليهم (اي على الكارخين) ان يمارسوا عملهم
دون استيفاء اي شيء من الريعية . . و (علمنا)
ان القائم على (شؤون) الحصاد يستوفون
كميات من الفلال باسم (عليق) (٣٠)
و (زكار دسته) (٣١) فانسي الغيت ذلك

(٣٢) ورد هذا الاسم الجغرافي في النص المطبوع على شكل
(مهزود) . وورد في الكتب القديمة على صورة (مهروود) ،
وفي التاريخ القبايني على شكل (مهروود) . ويسمى في
الوقت الحالي ب (مهروت) . ويطلق على منطقة تشكل مع
خراسان والخالص صدور جداول دبالى حيث يسمى
الجدول الذي يمر من مهروت بنفس الاسم .

(٣٧) طريق خراسان هي محافظة دبالى الحالية باستثناء
الخالص ومهروت حيث انهما كانتا ناحيتين مستقلتين .

(٣٨) التيمار هي الارض الاميرية التي كانت تمنح من قبل
السلطان الى رؤساء القبائل وكبار موظفي الدولة كحصة
من بيت المال لقاء مشاركتهم في الحروب والفترحات
باسلحتهم ومعداتهم الخاصة لهم .

(٣٩) هو القائم بعملية توزيع المياه على البساتين .

(٣٠) اي الشمر ونحوه مما تعلقه الدابة .

(٣١) لفظ فارسية تكون من اداة (ز) بمعنى من وكلمة
(كار) بمعنى العمل وكلمة (دسته) بمعنى اليابسة
او الحزمة . وبذلك يكون معنى اللفظة اللامصري
« من عمل اليابسة » .

ايضا . عليك ان لا تسمح (لأحد) باستيفاء ما ذكر
(من الضريبة او الرسوم من المواطنين) . . و (علمنا)
انه تستوفى من اصحاب الاغنام شاة واحدة من كل
ثلاثمائة شاة باسم (جويان بكي) (٢٢) وان
المباشرين (٢٣) لهذا العمل يستوفون ثلاث آقجات من
كل قطع ظلما ، ومن كل ثلاثمائة غنم ما يسمى بـ
(كرو) (٢٤) وبعد استيفاء هذه الرؤوس الستة (٢٥) فان
المباشرين يأخذون شاة اخرى . وان الكاتب
والمحصل (٢٦) يأخذان غصبا من كل عشيرة بغلا
وشركا (٢٧) . لقد الفيت (كل هذه الرسوم اي)
رسم جويان بكي ورسم كرو والعشر آقجات
الاضافية من جويان بكي ورسم الغنم من كرو
والبغل وشرك للكاتب والمحصل . فعليك ان لا تدع
مجالا لاحد في استيفائها بعد اليوم . . وان نا (٢٨)
التواجذات في مركز بغداد الحماية (٢٩) بداخل
السور ، وفي الجانب الغربي من الجدول (اي
الساقية) ، وفي مركز الحلة كانت معفاة (من
الرسوم) ، فلم يكن يستوفى منها شيء . فانتني
بكامل شقتي وعظمي (على اهالي محافظة بغداد)
امرت بان يكون الاعفاء المذكور ساري المفعول
(في عهدي ايضا) . فعليك ان لا تسمح لاحد
باستيفاء اي شيء (بهذا الشأن) . . وهناك في الولاية

(٣٢) لفظ تركية تتكون من كلمتين هما (جويان) بمعنى
الرامي و (بك) بمعنى الامر ، والمياه المحققة بأخر
كلمة بك هي للاضافة . فيكون معنى اللفظة اللغوي
« امير الرامي » .

(٣٣) ورد في نص الوثيقة لفظ (وارنر) ومعناه الواصلون
اي المباشرين المستوفون للضرائب والرسوم .

(٣٤) وردت هذه اللفظة بكر الكاف وفتح الراء وسكون الواو،
ولعلها (كره) الحرفة من (الكراه) العربية بمعنى
اجرة الدابة .

(٣٥) يبدو ان هناك عبارة سافطة اثناء الطبع ، او ان (كرو)
الأنف الذكر هو مصطلح مالي يطلق على قرية معينة
مقدارها ستة رؤس من الاغنام تستوفى من الكلفين .

(٣٦) المحصل هو الموظف المكلف بجباية اموال الدولة .

(٣٧) لم اعر في المعجمات التركية على كلمة شرك وهي بالكاف
النونية ، ولعلها محرفة من (ششك) بمعنى الجذع
من الغنم .

(٣٨) لم افهم معناها ، ولعلها صدر للفظ (ناور) وقد
سقط مجزأا اثناء الطبع .

(٣٩) أي المحفوظة من الالاف والمصائب .

يدخلون البيوت ويمتدون على أهلها ويأخذون منهم غصبا وظلما العلف والمأكولات والدجاج والاعناب والخرفان باسم (أقچه سوز) (٤٢)، وان المواطنين متضجرون من هذا العمل تماما . فعليك ان لا تسمح بعد اليوم (ل احد) بالاعتداء على اهل احد وعياله وارغامهم على دفع اي شيء من قبيل آقچه سوز .. و (علمنا) انه تفتصب مزارع التخييل والبساتين من بعض الاشخاص كرها ، ويعتدى عليها بزراعتها بالمحصولات . عليك ان تمنع هذا العمل ايضا .. ويجب ان تكون على علم من ان جميع المظالم والمخاوف التي حلت بالولاية المشار اليها في عهد القزلباش الاوباش قد ازيلت (بهذا الامر) .. وفي ضوء ذلك يجب ان تكون مجسدا وساعيا مقداما ومهمتا بخصوص طمأنينة (اهل) الولاية ورفاهية المواطنين وأمنهم وراحتهم واستقرار امورهم ..

في ٤ ن سنة ١٤٣٩ (٤٢) بمقام ادرنه « .

(٤٢) تكون هذه اللفظة من الچه التركية بمعنى النقد وسوز الفارسية بمعنى الحارق ، فيكون معنى اللفظة الحرفي هو حارق النقد اي يبلده .
(٤٣) يلاحظ ان حرف النون في التقويم الهجري رمز لشهر رمضان .

المشار اليها (بغداد) من يملك حق (المالكانه) (٤٠) فقررت لهم ذلك . فانهم يستمرون على تصرفهم القديم بالشكل المتعارف عليه . ويجب ان لا يعارضهم احد في ذلك خلافا للشرع الشريف والقانون ما دام هذا الحق مخصصا لهم منذ قديم الزمان .. وان هناك في الولاية المشار اليها عرصات خالية ، وان اشخاصا يأتون من الخارج (اي من خارج المدينة) ويرغبون في عمارتها ، فانني امرت بان لا يدفع هؤلاء اي شيء (من الضرائب) لمدة سنة واحدة . وبعد ذلك يستوفى منهم خمس مجرد (٤١) فعليك السير على هذا المنوال واعفاء من يعمرون الخربات (من الضريبة) وعدم استيفاء اي شيء منهم لمدة سنة واحدة . وبعد ذلك يستوفى منهم خمس مجرد فقط دون مطالبتهم باية زيادة . وذلك لكي تعمر الخربات وتزدهر في ايام دولتي . . و (علمنا) انه في بغداد المحمية والاماكن الاخرى التابعة لها (ان بعض الاشخاص من المتنفذين)

(٤٠) المالكانه هي الاراضي او المزارع التي كانت تمنح للمسكرين والدينين ممن يسدون خدمة للدولة ، وكان لهم حق استغلالها والتصرف بها تصرف المالك المطلق على قيد الحياة .
(٤١) خمس مجرد ، لفظة مولدة ، والظاهر انها هريسية تعادل خمس الضريبة التي يسدها في المتزوجين للدولة .

فصول من كتاب نيل المراد في احوال العراق وبغداد

تأليف

عباس بن جواد بن رجب البغدادي

لحقيق

عبد الحسين مجيد

متوسطة هي الحسين - كربلاء
الجمهورية العراقية

اما ترجمة المؤلف فلم اعثر عليها في المراجع الحديثة لذا اعتمدت على ما كتبه عباس العزاوي في صدر مخطوطة الكتاب التي كانت بحوزته وهي مختصرة جدا لم تزد على ايراد اسمه واسم ابيه وجده ولقبه اما سنة وفاته فلم اعثر عليها .

للبيدادي مؤلفات وآثار غير هذا الكتاب هي :

١ - الروض النضر في اسماء السادة اهل بدر ، قصيدة طويلة نظمها وضمنها اسماء اهل بدر ، انتهى من نظمها في شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٣هـ . تقع في ٦٨ بيتاً وفي ثنايا هذه المنظومة تعرض الى حال الناس في عصره وما هم عليه من بؤس وشقاء وكذلك رجع الى الوراء الى ايام بني العباس كيف كان حال العراق وبغداد وساكنته وابدئ تدمره وشكواه من اوضاع بغداد ايام زمانه .

مطلع القصيدة :

اقول بعد البدء بسم الله

حمدا لمن جل عن الاشياء

وفيهما يقول :

فكيف كانت اولاً ببغداد

وما الذي كان بها يسراد

من الاثار المخطوطة المؤلفة عن بغداد في العصر الحديث كتاب نيل المراد في احوال العراق وبغداد للسيد عباس بن جواد بن رجب بن عبدالله البغدادي انتهى من تأليفه في الخامس من شهر شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة والى للهجرة .

عشرنا على نسختين مخطوطتين من الكتاب . الاولى في خزانة المتحف العراقي ببغداد تحمل الرقم ٩٠٩٢ وهي ضمن المخطوطات التي ابتاعها المتحف من وريثة عباس العزاوي .

تقع هذه النسخة في ٥٠٥ ص مكتوبة بخط جميل جدا ومعنونة بالحمري ، كتبها . عبدالرزاق الملا محمد الحاج فليح البغدادي في ٦ محرم ، ١٣٥٥هـ .

اما النسخة الثانية فهي نسخة الباحث الاستاذ كوركيس عواد والتي هي اليوم ضمن مخطوطات مكتبة الدراسات العليا في كلية الاداب ببغداد تحمل رقم (٩٥) وهي بخط المؤلف وتقع في ٢٣٥ صفحة تمت كتابتها في ٥ شعبان ١٣٣٣هـ وقد اشار اليها الاستاذان عبدالحميد العلوي وكوركيس عواد في كتابهما : جهمرة المراجع البغدادية ص ٢٣٥ .

وقد اعتمدنا في استخراج هذه الفصول على هاتين النسختين .

كانت عروس الملك في الاقطار
مصونة عن وصمة الاكدار
آخرها :

نجزت والله الحمد في شهر ربيع الآخر من عام
ثلاث وثلاثين وثلثمائة .
٢ - مجموعة شعرية تحوي بعض القصائد ،
والمقطوعات .

ونيل المراد يبدأ اوله : بعد البسطة والحمد .
اما بعد : فهذه نبذة يسيرة تتعلق بذكر احوال العراق
من القرى والبلاد سيما عن قلدته بغداد فقد صرفت
اكثر البحث اليها لايّين ما جرى عليها من الحوادث
والمواصف ... اما آخره : وهذا مايسر للضعيف
جمعه على حسب الطاقة والامكان وتعاقب
مصائب هذا الزمان واستحالة الحال وتشويش
البال فالمرجو ممن وصل هذا المختصر اليه ووقع
شريف نظره عليه ان يصفح عما فيه من الخطأ

والنسيان وانا لم آل جهداً في صحة التبيان فان
مقام العصمة عظيم لم يثبت لغير القرآن
الكريم ... الخ .

اما فصوله ومحتوياته فالقسم الاول منه
يبدأ بدراسة المدن والقصبات العراقية دراسة
وافية تتسم بالطابع التاريخي العام ، اما القسم
الثاني من الكتاب ففيه ذكر بغداد قبل المتغلبين
واسماها ، محللاتها ، مقابرها ، انهارها ،
حدائقها ، قصورها ، نباتاتها وازهارها . ومقالة
لما جرى على بغداد من المحسن والمصائب والفتن
حيث يترجم لخلفاء بني العباس . وبعدها يتعرض
لمساجد بغداد الحالية ومشاهدها ومدارسها
الحديثة والفتن التي حدثت في عصره . اما ما
اخترته من موضوعات الكتاب فهي :

اسماء بغداد وما قيل فيها ، متنزهات وقصور
بغداد ، جوامعها ، محللاتها ، جسورها ، مدارسها
بساتينها ، بغداد الحديثة ، اخلاق اهلها .



« ذكر ما قيل في اسماء بغداد ووصافها »^(١)

ومن اسمائها الزوراء قيل لا زوراء قبلتها أي لانحرافها^(٢) ، وقيل لان المنصور لما بناها جعل ابوابها الداخلة مزورة اي منحرفة عن ابوابها الخارجة . وقيل لازورار دجلتها وفي الخبر قال علي بن ابي طالب (ع) : سمعت النبي (ص) يقول : تكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها ملك بني العباس وهي الزوراء يكون فيها حرب مفضعة تسبى فيها النساء وتذبح فيها الرجال كما يذبح الغنم .

ومن اسمائها : دار السلام^(٣) وفي سبب تسميتها بذلك قولان : الأول : السلام اسم لدجلة^(٤) ، والثاني انه يسلم فيها الخلفاء .

ويقال ان اسمها بك دار ، ومعنى بك بالتركية : الرب ودار : العادل . وقيل غير ذلك . وهي مدينة عظيمة تذكر وتوث وكانت من القرى القديمة اختارها ابو جعفر وبنى فيها مدينة فكانت ام الدنيا وسيدة البلاد ومدينة السلام^(٥) وقبة الاسلام حتى قيل : بغداد في البلاد كالاستاد في العباد^(٦) هواها ألفت من كل هواء وماؤها اعذب من كل ماء وتربتها أطيب من كل تربة . ومن اوصافها انها لم يمت فيها خليفة^(٧) ولذلك قيل فيها^(٨) :

قضى ربنا ان لا يموت خليفة بها انه ما شاء في خلقه يقضي
وقال آخر^(٩) :

طيب الهواء ببغداد يشوقني قرباً إليها وان عاقت مقادير^(١٠)
وكيف ارحل عنها اليوم اذ جمعت^(١١) طيب الهوائين ومدود ومقصور

- (١) ص ١٣٦ من مخطوطة الدراسات العليا ، ص ٢٠٧ من مخطوطة المتحف العراقي .
- (٢) الحموي ، معجم البلدان ٣ : ١٥٦ ، ١ : ٤٥٦ .
- (٣) نفس المصدر ٢ : ٤٢١ .
- (٤) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ١ : ٥٨ ، معجم البلدان ٥ : ٧٩ .
- (٥) البكري ، معجم ما استمع ١ : ٢٦٢ .
- (٦) المصري ، غاية المرام ١٧ .
- (٧) إلا الخليفة الامين فانه قتل في شارع باب الانبار وحمل راسه الى ظاهر بن الحسين وهو في معسكره (تاريخ بغداد ١ : ٦٨) .
- (٨) البيت من قصيدة لعمارة بن عقيل بن بلال الخطمي المتوفى ٢٣٩ هـ مطلعها : اعابت في طول من الارض او عرض كبغداد داراً انها جنة الارض (ديوان عمارة ٩٧ ، تاريخ بغداد ١ : ٦٨ وفيها ينسب هذه الايات لمنصور النمري) .
- (٩) البيتان في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ رواهما علي بن محمد بن حبيب الشافعي البصري المعروف بـ الماوردي صاحب الاحكام السلطانية رواهما عن اخيه الذي كان بالبصرة وهو ببغداد . وذكرهما ياقوت ، معجم البلدان ١ : ٤٦٣ .
- (١٠) بالشرط الثاني في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ (قدماً إليها وان عاقت معاذير) .
- (١١) الشرط الاول في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ (فكيف صبري عنها الآن إذ جمعت) .

وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالكي (١٢) :

سلام على بغداد في كل موطن
فوالله ما فارقتهما عن ملئ لها
ولكنها ضاقت علي برحبها (١٣)
وكانت كخيل كنت اهوى دنوه
والطف من ذلك قول ابن الرومي (١٤) :

بلد صحبت بها الشبية والصبا
فاذا تشل في الضمير رأيتنه
ولبت ثوب العيش وهو جديد
وعليه اغصان الشباب تيد
ولبعضهم وقد اجاد :

أها على بغدادها وعراقها
ومجالها عند الفرات باوجه
متبخرات في النسيم كانما
نسي القداء لها فاي محاسن
ونباتها والسر في أحداقها
تبدو أهلتها على أطواقها
خلق الهوى العذري من اخلاقها
في الدهر تشرق من سنا اشراقها

والطف من ذلك قول القاضي أبي الحسن علي بن النبيه من قصيدة :

أنت بالعراق بذر أميرا
واستظابت ريا سائم بغداد
ذكرت من مسارح الكرخ روضاً
واجتت منه ريا المحول نورا
فضوت غيماً وخاضت هجيرا
لم يزل ناظراً وماءً نمير
واجتلت من مطالع التاج نورا

وقال آخر :

لهفي على بغداد من بلدة
كانت من الاسقام لي جنة
كأنني عند فراقها لها
آدم لما فارق الجنة

(١٢) ترجمته في وفيات الاعيان ٣ : ٢١٩ - ٢٢٨ وفيه توفي ٤٢٢هـ ، والابيات في ص ٢٢٠ منه ،
ومعجم البلدان ١ : ٤٦٢ .

(١٣) في وفيات الاعيان ٣ : ٢٢٠ سلام مضاعف .

(١٤) نفس المصدر السابق : بأسرها .

(١٥) نفس المصدر السابق : الأرزاق .

(١٦) الابيات في ديوان ابن الرومي ٢ : ٧٦٦ والبيتان فيه :

بلد صحبت به الشبية والصبا
فاذا تمثل في الضمير رأيتنه
ولبت فيه العيش وهو جديد
وعليه افنان الشباب تيمد

وقال ابو العلاء المعري (١٧) :

بث الزمان جبالى من جبالكم أعزز عليّ بكون الوصل منبوتا
ذم الوليد ولم اذمم جواركم فقال ما انصفت بفداد حوشيتا

والزوراء^(١٨) من اسماء الجانب الشرقي خاصة بخلاف بغداد فانه اسم للجانبين وقد ذكروا ان المنصور أثنى على بنائها أربعة آلاف دينار^(١٩) ونقل ابواب مدينة واسط^(٢٠) وجعلها عليها وجعل عليها سوراً محكماً عظيماً ابتداءً من الدجلة وابتداءً الى الدجلة وهو محيط بها كسبه الهلال وهذه المدينة التي في الجانب الغربي فصارت كما قيل في وصفها بلدة تكل عن حسن وصفها الالسن كأنها الفردوس فيها ما تشتمه الانفس وتلذ الاعين ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء لم تزل معرفة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة القرشية والجانب الغربي منها هو الذي عمّر أولاً . وفيل لرجل كيف رأيت بغداد ؟ فقال : الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها^(٢١) . وقال : ابن جبير^(٢٢) في وصف دجلتها التي بين شرقها وغربها هي كالمرآة المجلاة بين صفحتين^(٢٣) ، والعقد المنظم بلبتين فهي تردها فلا تظمأ وتطلع في مرآة صقيلة فلا تصدأ والهواء المنتظم يتولد بين هوائها ومائها فهي معروفة بقتن الهوى إلا ان يصم الله منها . وقال وكنا نسمع ان هواء بغداد ينبت السرور في النفس ويبعث دائماً على الانبساط والانس فلا تكاد نجد فيها إلا جذلان طربا وان كان نازح الديار مقرباً حتى حلتت بقرية وزيران وهي على مرحلة منها فلما نهجتنا نوافح هوائها ونقعنا الفلّة يبرد مائها احسننا من انفسنا بالرغم على وحشة الانفراد دواعي من الاطراب واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالاياب وهتفت بنا محركات من الانس ذكرتنا معاهد الاحباب في عصر الشباب وهذا للغريب النازح الوطن فكيف الوافد فيها على اهل وسكن :

سقى الله باب الطاق صوب غمامة وردّ الى الاوطان كل غريب^(٢٤)

وقال الخطيب البغدادي^(٢٥) : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة

-
- (١٧) شروح سقط الزند - القسم الرابع ١٦٠١ .
(١٨) ص ١٣٨ من مخطوطة الدراسات العليا .
(١٩) في تاريخ بغداد (١ : ٦٩) أربعة آلاف وثمانمائة وثمانين درهماً ، وفي معجم البلدان (١ : ٤٥٩) انه انفق عليها ثمانية عشر الف الف دينار .
(٢٠) تاريخ بغداد ١ : ٧٥ .
(٢١) تاريخ بغداد ١ : ٤٥ ، بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٤٢ .
(٢٢) هو ابو الحسين محمد بن احمد بن جبير الاندلسي المتوفى ٦١٤ هـ (رحلة ابن جبير ص ١١) .
(٢٣) رحلة ابن جبير ٢١٨ .
(٢٤) باب الطاق محلة كبيرة ببغداد في الجانب الشرقي تعرف بطاق اسماء (معجم البلدان ١ : ٣٠٨) .
(٢٥) تاريخ بغداد ١ : ١١٧ - ١١٩ .

امرها وكثرة علمائها واعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم اقطارها وسعة اطوارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها^(٢٦) ومحالها واسواقها واشكالها^(٢٧) وازقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها^(٢٨) وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد اظلالها وافنائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من سكانها » .

وقال أيضاً : « كان ذرع بغداد الجانبين ثلاثة وخمسين ألف جريب وسبعائة والغربي سبعة وعشرين الف جريب والقرى تسعة آلاف وثلثمائة جريب^(٢٩) .

قال^(٣٠) وعدد الحمامات في بغداد ستون ألف حمام^(٣١) وقيل غير ذلك ثم قال : واقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقا فيكون ذلك ثلثمائة الف رجل وذكر بعضهم ان بازاء كل حمام خمسة مساجد وعلى ذلك فهي ثلثمائة الف مسجد وعلى الأقل أن يكون بكل مسجد من الموظفين خمسة نفر فيبلغ عددهم في الحمامات والمساجد ألف وخمسمائة الف رجل . قلت : فاذا كان فعلة الحمامات والمساجد بهذا عددهم فالساكنون لا يحيط بهم إلا الذي احصاهم عددا .

جسورها^(٣٢) :

ويقال لما بنى المنصور قصره عقد الجسر على باب الشعير^(٣٣) ثم عقد بباب البستان ثلاثة جسور^(٣٤) وعقد الرشيد جسرين وكان لابن جعفر جسر عند مربعة فكانت الجسور بها سبعة ما عدا القنطرات التي على سائر الانهر وان قصور الخلفاء ودورهم كانت بشرقي الرصافة كما تقدم واطهر بقاع القصور الخطة التي فيها مشهد السيد السلطان علي ويؤيد ذلك ان مربع أبي جعفر المنصور كان هناك والى اليوم تعرف تلك الخطة المربعة تفرعاً على اسم القصر المذكور ومن

(٢٦) في تاريخ بغداد ١ : ١١٩ (وشعوبها) .

(٢٧) نفس المصدر السابق (وسككها) .

(٢٨) نفس المصدر السابق (وطرزها) .

(٢٩) في هذه الارقام التي اوردها المؤلف اختلاف بين المؤرخين ، فاذا رجعنا الى تاريخ بغداد ١ : ١١٧ وجدناه يقول : « ان ذرع بغداد الجانبين ثلاثة وخمسون الف جريب وسبعائة وخمسون جريباً ، منها الجانب الشرقي ستة وعشرون الف جريب وسبعائة وخمسون جريباً ، والغربي سبعة وعشرون الف جريب » . وحتى في هذا اختلف المؤرخون (التفاصيل في المصدر السابق ١ : ١١٧) .

(٣٠) ص ١٤٠ من نسخة الدراسات العليا .

(٣١) وهناك اختلاف في تحديد عدد الحمامات (الحافظ الذهبي ؛ تاريخ الاسلام ٦ : ٢١ ، تاريخ بغداد ١ : ١١٨) .

(٣٢) ص ١٥٤ من نسخة الدراسات العليا .

(٣٣) باب الشعير محلة ببغداد فوق مدينة المنصور قالوا كانت ترفأ اليها سفن الموصل والبصرة ، والمحلة التي ببغداد المعروفة بباب الشعير هي بعيدة عن دجلة (تاريخ بغداد ١ : ١١٥ ، دليل خارطة بغداد ٩٢) .

(٣٤) تاريخ بغداد ١ : ١١٦ .

المعلوم ان قصور الخلفاء كانت متصلة بقصور البرامكة كما في كتب التاريخ وذكر بعضهم ان ارض بغداد كانت قبل ان تحتي بحسب الاسلام متنزهاً لملوك بابل لاعتدال هوائها وعذوبة مائها وأكثرها بساتينها وحبوبها وبعد انقراس البابليين اتخذها ملوك فارس متنزهاً وقد اعطاها احد ملوك النرس لبعض المرارزبة ، وفي زمن الاكاسرة كان فيها أسواق كبار يقصدها التجار من الاقطار تكن قد بلغت الغاية التصوي والدرجة العليا في العسارة والحضارة والصناعة والتجارة في ايام الرشيد والمأمون حتى يقال أن خارجها كان من معامل القوارير أربعة آلاف معمل ومن معامل الفخار ثلاثون ألفاً ومن الجسور خمسة وخمسون جسراً وكان ريعها ونمو فواكهها وينعما من نهري دجلة والفرات .

محلات بغداد في عصر السلطان محمد رشادخان العثماني^(٢٥)

ولم تزل تأخذ بغداد بالترقي حتى طار صيتها في البلاد ، وربما فضلها بعض الناس على حالها يوم بني العباس ، فاتصل عمران جانبها الغربي من نحو الشريعة البيضاء الى قرارة . وعمران جانبها الشرقي من موضع مشهد الامام احمد بن حنبل^(٢٦) الى النهر المعروف بديالة وبلغت محلات الجانب الشرقي ما تحت السور فقط اربع عشرة محلة من ذلك : محلة حضرة الشيخ عبدالقادر الجيلي ، ومحلة الشيخ سراج الدين^(٢٧) . ومحلة جامع الخلفاء ، ومحلة المربعة ، ومحلة السبع ايكار ، ومحلة راس القرية ، ومحلة بني سعيد ، ومحلة المهديّة ، ومحلة قنبر علي ، ومحلة باب الاغا ، ومحلة الحيدر خانة ، ومحلة محمدالفضل^(٢٨) ، ومحلة الميدان ، ومحلة جديد حسن باشا .

وهذه المحلات هن الامهات ويتشعب من كل منهن محلة أو محلتان حسب اصطلاح الوقت .

واما محلات الجانب الغربي ما تحت السور أيضاً فقد بلغت احدى عشرة محلة من ذلك محلة

(٢٥) ولد هذا السلطان في ٢٠ شوال ١٢٦١ هـ وهو ابن السلطان عبدالمجيد جاء بعد خلع السلطان عبدالصمد الثاني في ٧ ربيع الثماني ١٧٢٧ ، توفي ١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ . تاريخ العراق بين احتلالين ١٧٦ .

(٢٦) توفي الامام احمد بن حنبل ٢٩٠ هـ - ٨٠٣ م ودفن في مقبرة باب التبن التي تقسع في الشمال من مشهد الكاظمين إلا أن توغّل نهر دجلة في الجانب الغربي من هذه المنطقة وفيضان المياه أدّى الى انهيار قبره في الماء وكان ذلك في حدود منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ولم يعد له اليوم اي اثر (دليل خارطة بغداد ١٠٢) .

(٢٧) نسبة الى الشيخ عمر بن علي بن عمر الحسيني القزويني ، جاء الى بغداد سنة ٧٠٠ هـ وتوفي سنة ٧٥٠ هـ (دليل خارطة بغداد ٢٢٧) .

(٢٨) هو محمد بن الفضل اسماعيل بن الامام الصادق وتنسب اليه المحلة الا ان هذه النسبة يطعن فيها حيث يقول الدكتور مصطفى جواد انه غياث الدين محمد بن الفضل وزير السلطان ابي سعيد بهادر خان او الفضل الاسفرائيني المتوفى ٥٤٨ هـ . وهذه المحلة كانت تسمى باب ابرز (دليل خارطة بغداد ٢٢٨) .

الكريمات ، ومحلة باب السيف ، ومحلة علاوي الحلة ، ومحلة الشيخ بشار^(٣٩) ، ومحلة الشيخ صندل^(٤٠) ، ومحلة الفلاحات ، ومحلة المشاهدة ، ومحلة الست نقيسة ، ومحلة الشيخ علي ، ومحلة الدهدوانة ، ومحلة الجعيفر ، ويتشعب أيضاً من بعضهن محلة أو محلطان .

مساجد بغداد^(٤١) :

واما مساجد بغداد فقد بلغت عدداً كبيراً يؤدي ذكر جميعها الى السآمة فمن مساجد جانبها الشرقي : مسجد السيد سلمان افندي ابن السيد علي افندي النقيب^(٤٢) وهو بالجادة النافذة الى الباب الشرقي ويحتوي على سقاية طيبة الماء وان هذه العائلة تنتسب الى حضرة الشيخ عبدالقادر الجيلاني وبمقربة من المسجد المذكور مشهد الشيخ الزهري ، والعلامات ونقل الثقات يدلان على ان هذا المشهد كان من اكبر المساجد هدمه الفرق ايام داود باشا^(٤٣) ولم يمر بعد وبمقربة منه المسجد المعروف بـ مسجد السادة^(٤٤) وهو وان كان صغيراً إلا انه مسجد قديم يجد المصلي فيه خشوعاً وعلى القرب منه المسجد المعروف بـ مسجد النعماني^(٤٥) له مئذنة وتقام فيه الجمعة ولم يبق منه الا الان إلا المئذنة لانه تهدم نتيجة الفرق وقريباً من المسجد المدفون فيه الشيخ الميبدروسي^(٤٦) وكان رحمه الله من مشاهير العلماء واكابر المشايخ الصلحاء .

ومن المساجد أيضاً مسجد التسايل^(٤٧) ، ومسجد راس الساقية ، ومسجد الشيخ الالفي^(٤٨) ، ومسجد آل الخضيرى وهو مسجد قديم كان قد اندثر فعمره الحاج عبدالرزاق

(٣٩) نسبة الى الشيخ علي بن محمد بشار المدفون هناك (دليل خارطة بغداد ٢٤٦ ، ٢٢٥) .
(٤٠) نسبة الى عماد الدين صندل بن عبدالله الحبشي المعروف بـ المفتوي التوفى سنة ٥٩٣هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٦) .

(٤١) صفحة ٤٤٦ من مخطوطة المتحف العراقي .

(٤٢) تاريخ بنائه ١٣١٢هـ وتاريخه :

فعلى نهج الهدى قد ارخو (وعلى تقوى اقامت المسجدا)

وكانت وفاة المؤسس سنة ١٣١٥هـ (تاريخ مساجد بغداد واثارها للالوسي ٨٠) .

(٤٣) تولى ولاية بغداد ١٢٢٢هـ - ١٢٤١هـ المصادف ١٨١٧م - ١٨٢٦م (دليل خارطة بغداد ١٨١) .

(٤٤) ويسمى مسجد السادات ويقع في محلة السنك (تاريخ مساجد بغداد ١٤١) .

(٤٥) جده داود باشا سنة ١٢٢٩هـ (تاريخ مساجد بغداد ٧٦) .

(٤٦) يقع في محلة راس الساقية على الشارع الذي يؤدي الى جامع الشيخ عبدالقادر الجيلاني او الجيلي وقد جدد سنة ١٣٢٤هـ (تاريخ مساجد بغداد ١٤٢ ، دليل خارطة بغداد ٣٠٧) .

(٤٧) ويسمى مسجد الدسايل نسبة الى اقامته اهل دسبول فيه والصواب دسبول من اعمال ايران الجنوبية يقع في محلة باب الشيخ هدم ولم يبق له اثر (تاريخ مساجد بغداد ٧٨) .

(٤٨) هو محمد الالفي (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٤٩) يقع في محلة الصدرية ، عمره عبدالرزاق الخضيرى سنة ١٢٠٣هـ ، كما ذكر في ابيات تاريخه :

ولما استتم بناؤه قد ارخسوا (استتم في تقواك يوماً مسجداً)

توفى بانيه ١٣١٥هـ (تاريخ مساجد بغداد ٧٨) .

الخصيري^(٤٩) ، ومسجد الحاج فتحي^(٥٠) ، ومسجد السيد سلطان علي^(٥١) وهو مسجد حافل معمور بالجمع والجماعات وله مدرستان مخصص عليهما مبلغ وافر لاطعام الطعام .

وبمقربة من مسجد السيد سلطان علي المسجد المنسوب لآل الباجهجي^(٥٢) وهو مسجد معمور في الاوقات الخمسة وقريبا منه مسجدجمعة يعرف ب جامع بنات الحسن^(٥٣) وفيه مشهد يزار وله مئذنة ويليه مسجد قديم جددده أحد التجار . ومسجد راس القرية الشهير ب جامع محمد امين وهو مسجد جمعة وفيه مدرسة ولها مدرّس^(٥٤) وقريبا منه المسجد الشهير ب التكية الخالدية وهذا المسجد من المساجد المعلومهالمعمورة فيه رواج للجمعة والجماعات وزحام للمصلين في اوقات الصلاة وفيه مدرسة ومكتبةفيها الكتب النفيسة الثمينه^(٥٥) وقريبا من هذا المسجد مسجد عادلة خاتون^(٥٦) من بنات وزراءبغداد السابقين وهو جامع جمعة وفيه مدرسة ومئذنة .

ومن المساجد جامع الخلفاء^(٥٧) وشأن هذاالجامع عظيم في زمن بني العباس وكانت له مئذنة

- (٥٠) جدته الاوقاف عام ١٣٤١هـ (تاريخمساجد بغداد ٥٦) .
- (٥١) هو علي بن الامام موسى الكاظم (ع) ، وبشكك الدكتور مصطفى جواد في نسبة الجامع المذكور الي هذا الرجل حيث يقول : (ونحن لم نجد في رجال العراق من تسمى بالسيد السلطان علي إلا السلطان علي بن محمد بن فلاحالشعشع المقتول سنة ٨٦١هـ ثم يستمر في الرد ويقول : اننا لم نجد فيما بين ايدينا من التواريخ ان الشيخ عليا توفي ببغداد فانه قتل في وقعة بينه وبين اخيه احمد في بلاد ايران ولا يزال الاختلاف في تاريخ القبر قائما أيضا (دليل خارطة بغداد ٣٠٤ ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ٢ : ١٧٢) .
- (٥٢) يقع هذا المسجد في محلة العمار يتصل من جهة شارع الرشيد بمحل الصور ارشاك والمسجد من اوقاف امينة خاتون بنت عبدالرحمن الباجهجي وقد شيّد هذا المسجد نعمان چلبى الباجهجي سنة ١٢٣٦هـ (البغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٢٥) .
- (٥٣) يقع في محلة القاطرخانة وقد جدد من قبل الاوقاف سنة ١٢٨١هـ - ١٩٦٢م والآن مطلق (تاريخ مساجد بغداد الحديثة ٢٦٧) وهناكمسجد صغير في سوق الشورجة في الزقاق الذي يسبق سوق الصابون والييوم يقع خلفالسوق العباسي الجديد يعرف بجامع بنات الحسن أيضا .
- (٥٤) شيده الحاج امين چلبى الباجهجي سنة١٢٣٧هـ (البغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٢٥) .
- (٥٥) ويسمى ب جامع الاحساني نسبة الى قبرالشيخ محمد بن احمد الاحساني المتوفى ١٠٨٣هـ . يقع في قلب الرصافة وبالضبطفي شارع المستنصر (النهر) ، ولما اقام فيه الشيخ خالد النقشبيندي بعد عودته من الهند سنة ١٢٣١هـ عمره له والي بغداد واصلحه فسمي ب التكية الخالدية (تاريخ مساجدبغداد ٢٢٦ والبغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٢٣) .
- (٥٦) انشائه عادلة خاتون بنت احمد باشا الذي تولى إباله بغداد من سنة ١١٤٩هـ - ١١٦١هـ . (تاريخ مساجد بغداد ٤٣) .
- (٥٧) انشاه الخليفة العباسي علي المكتفي باللهخلال ست سنوات من حكمه ٢٨٩ - ٢٩٥هـ (٩٠٢م - ٩٠٨م) وكان يصرف في اول تاسيسه ب جامع القصر نسبة الى القصر الحسيني ثم اطلق عليه اسم جامع الخليفة ثم جامع الخلفاء وكان الجامع الرسمي للدولة العباسية ففيه تقرأ عهود القضاة ويصلى على جنازير الاعيان والعلماء وتمقد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين والمحدثين . ومئذنته الحالية شيّدت سنة٦٧٨هـ - ١٢٧٩م والييوم تعرف ب منارة سوق

لم يسبق بمثها ولم يحدث بعدها على شكلها يصعد عليها من مسلكين مستقلين قد انشأوا فيها للمؤذن موضعين أحدهما في ربعا السفلي والاخر في العلوي يشير لسان حالها وبديع شكلها الى عظم رجالها وشوكة اهلها ومن غريب ما فيها من حسن الصنعة ان محيط تطرها يستوعب طولها ومع ما مرّ عليها من العصور واعتورها من الأحقاب والدمور فهي الآن بي بهجتها البهية كالعادة الجليلة غير ان مقداراً يسيراً من ثوبها الاعلى أخلفه أحد المتغلبين حين استولى حتى قيل فيها :

لم ندر أنتِ منارة أم آية قامت على عليا بني العباس
هذا الزمان على تنوع غدره لا سيما بالسيادة الاكياس
ما ان أغار على جمالك عاديا إلا وعاد بخيبة واياس

وهذا الجامع لما استولت التتار على بغداد تسببوا في خرابه ولما استوزر سليمان باشا ابو سعيد ببغداد^(٥٨) عمّر بدله الجامع الموجود الآن واكتفى بهذه المئذنة عن انشاء مئذنة فيه وان كانت خارجة عنه نحو سبعين ذراعاً وجعل هذا الوزير لهذا المسجد مدرسة مدرسا الحالي ملا عبدالله افندي الموصلبي وفي هذا الجامع سقاية أحدثها صبغة الله الحيدري^(٥٩) .

وعلى القرب من هذا : المسجد المعروف بـ قاضي الحاجات^(٦٠) ومسجد جادة بني سعيد ، ومسجد قنبر علي^(٦١) وهو مسجد جمعة معمور الجماعة وبمقربة منه مشهد قبر علي المذكور ويقال هذا هو مولى علي بن ابي طالب (ع) .

ويوجد ببغداد بعض مساجد لم يبق منها إلا آثارها وقد خربت بواسطة استيلاء اليهود على تلك الجهة بالسكنى والاستيطان .

وهناك مساجد ومدارس دينية كثيرة لازالت قائمة الى الآن .

أما مساجد الجانب الغربي من بغداد فمنها مسجد مشهد الامام موسى الكاظم بن الامام جعفر الصادق^(٦٢) وهو مقابل لمشهد ابي حنيفة^(٦٣) ، وهذا المشهد كبير جداً ليس له نظير

الغزل واما في الوقت الحاضر فيطل على شارع الجمهورية وهو بهيئة جديدة مشيدة حديثاً (دليل خارطة بغداد ١٢٥) مباحث عراقية ١ : ١٢٢ - ١٥١) اما الالوسي في تاريخ مساجد بغداد ص ٢٩ ذكر ان هذا الجامع انشئ على عهد الخليفة المهدي سنة ١٥٩هـ والصواب ما ذكرناه .

(٥٨) تولى ولاية بغداد سنة ١١٩٢هـ توفي سنة ١٢١٧هـ (تاريخ مساجد بغداد .) ومباحث عراقية ١٥١ ، ودليل خارطة بغداد ١٢٥) .

(٥٩) مؤلف كتاب : عنوان المجد في احوال بغداد والبصرة ونجد ، توفي ١١٨٧هـ . (غاية الرام ٢٦٢) .

(٦٠) يقع في محلة القشل (دليل خارطة بغداد ٣٠٧) .

(٦١) نسبة الى قنبر علي وهذه التسمية مزورة لان قنبراً قتل قبل بناء بغداد بسنين كثيرة (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٦٢) توفي سنة ١٥٠هـ ، وفيه أيضاً مشهد حفيده الامام محمد الجواد التوفى ٢٢٠هـ .

(٦٣) يفصل بينهما نهر دجلة .

بغداد واكثر جدران الروضة مطلاة بالذهب وله أربع مآذن وقبتان والكل مطلي بالذهب أيضاً وللروضة اربعة ابواب مصفحة بالفضة الخالصة ويحيط بالقبر الشريف شبكان متلاصقان الخارج من الفضة الخالصة والداخل من الفولاذ وفي هذا المشهد جامع جمعة كبير وفيه أيضاً قبة فيها مشهذان لابنية الامامين ابراهيم واسماعيل^(٦٤) وعلى اثرهما مشهد ابي يوسف^(٦٥) صاحب ابي حنيفة وبمقربة من مشهد الامام موسى الكاظم مشهد المرتضى^(٦٦) وقريباً منه مشهد يقال له الرضى^(٦٧) وهما من العلويين وعلى مسافة نحو ميل من مشهديهما مسجد برانا^(٦٨) ويعرف ب المنطقة وبمقربة منه مسجد وفيه مشهد يقال له والله اعلم مشهد نبي الله يوشع^(٦٩) وقيل هو مشهد فتى نبي الله موسى بن عمران وعلى اثره مسجد فيه قبر يقال انه قبر البهلول^(٧٠) وقريباً منه مشهد داود الطائي^(٧١) وتليه قبة (ابي الحسين) الحلاج^(٧٢) وعلى اثرهما مسجد وفيه قبة تحتها قبر رئيس الطائفة الصوفية الجنيد البغدادي^(٧٣) ويقابله قبر العارف بالله مولانا

(٦٤) لم يبق اليوم من اثر لهما حيث هدم المشهذان في سنة ١٢٧١هـ والمؤرخون يختلفون في صحة المدفن ومن اراد التوسع فليراجع (تاريخ المشهد الكاظمي للشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٢٠٧) .

(٦٥) هو قاضي القضاة يعقوب بن ابراهيم توفي في عهد الرشيد سنة ١٨٢هـ ، وان المؤرخين القدامى لم يذكروا موضع دفن ابي يوسف وبعضهم شكك في قبره الحالي (تاريخ المشهد الكاظمي ٢٥٥) .

(٦٦) هو الشريف علي بن الحسين المتوفى ٤٢٦هـ والقبر موضع شك لان معظم المؤرخين يذكرون ان المرتضى توفي ببغداد ودفن في داره ثم نقل بعد ذلك الى كربلاء ليدفن فيها (تاريخ المشهد الكاظمي ٢١٢ ، دليل خارطة بغداد ١٠١ ، عمدة الطالب ١٩٤ ، وغيرها من المراجع ، واما هذا القبر فهو لابراهيم الاصغر ابن الامام موسى بن جعفر (ع) .

(٦٧) توفي الشريف الرضى ٤٠٦هـ وهو جامع نهج البلاغة وتقيب الطالبين وامير الحاج . ويشكك المؤرخون كذلك في صحة قبره الحالي في الكاظمية اذ المشهور والمحقق انه مع اخيه دفن في حائر الحسين بكربلاء (دليل خارطة بغداد ١٠١ ، الاعلام ٦ : ٢٢٩ ، تاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦) .

(٦٨) ان مسجد برانا الحقيقي هو غير هذا المعروف اليوم في المنطقة بين الكرخ والكاظمية ومكانه الاصلي جنوبي بغداد وقد عفا وزالت آثاره بعد القرن السابع للهجرة او الثامن (دليل خارطة بغداد ٩١) اما جامع برانا اليوم فهو جامع المنطقة وكان يعرف بمشهد العتيقة (سونايا) (دليل خارطة بغداد ٢٩٧) .

(٦٩) غاية المرام ٣١ .

(٧٠) وبهلول هذا يقال انه كان نديم هارون الرشيد المقرب وعلى لوح القبر تاريخ سنة ٥٠١هـ ولكن الدكتور مصطفى جواد وزميله في دليل خارطة بغداد ص ٢١٤ بكذبان هذا الادعاء لانه لم يرد ذكر لذلك في اي مصدر تاريخي سوى خارطة نيبور وهذه متأخرة لان هذا الرحالة زار بغداد ١١٨٠هـ - ١١٧٦م .

(٧١) هو داود بن نصير الطائي الزاهد المشهور (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٧٢) كنيته ابو مغيث واسمه : الحسين بن منصور الحلاج ، فيلسوف متمجد زاهد نشأ بواسطة وانتقل الى البصرة ودخل بغداد وعاد الى تستر . امر المعتز العباسي بالقضاء القبض عليه فسجن وعذب وضرب وقطعت اطرافه ثم حُرِّسَ رأسه واحترق جثته ولما صارت رماداً القيت في نهر دجلة وكان ذلك سنة ٣٠٩هـ (الاعلام ٢ : ٢٨٥) .

(٧٣) هو الشيخ جنيد بن محمد بن الجنيد القواريري الخزاز ، من الزهاد توفي سنة ٢٩٨هـ (دليل خارطة بغداد ٩٠) .

السري السقطي^(٧٤) وبمقربة من ذلك جامع جمعة فيه مشهد الشيخ معروف الكرخي^(٧٥) وقريةً منه مشهد الصالحة العابدة الست زيدة^(٧٦) وعلى ضريحها المنوَّر قبر مفتول محكم البناء كانه من آثار الخلفاء وبهذه المقبرة اعني الشونيزية^(٧٧) مشاهد كثيرة للعلماء العاملين والاولياء الكاملين عفى رسمهما واندثر لمرور الاعوام وتبدل الايام وفي هذه المقبرة تربة الشيخ الحريشي^(٧٨) صاحب الدرالنفس في المواعظ وقبره معلوم يزار .

وفي الجانب الغربي من جهة الدجلة مقام من آثار الخلفاء العباسيين يقال انه مقام سيدنا الخضر وقد استولت دجلة عليه فلم يبق إلا الاسم وبعض اصول الجدران وقريةً منه المدرسة المعروفة بمدرسة خضر الياس وبمقربة منه مسجد يعرف بجامع القرمية^(٧٩) وهو مسجد معمور وفيه مئذنة وبتصاله مدرسة العمرية^(٨٠) ومنذ زمن غير يسير اهلكت عن التدريس وقريةً منها مسجد الحنان^(٨١) وهو مسجد جمعة وفيه مئذنة ثم مسجد الشيخ صندل^(٨٢) ثم مشهد مولانا حبيب العجمي^(٨٣)، ثم مسجد الشيخ موسى الجبوري^(٨٤)، ومسجد الست نقيسة^(٨٥)، ومسجد السيف^(٨٦)

(٧٤) هو خال الشيخ جنيد توفي سنة ٢٥١هـ - ٨٦٥م وفي (غاية المرام ص ٢٥ انه توفي سنة ٢٥٣هـ . (انظر دليل خارطة بغداد ٩١) .

(٧٥) دفن الكرخي سنة ٢٠٠هـ - ٨١٦م ، وفي سنة ٤٥٩هـ - ١٠٦٧م احترق المقام الذي شيّد فوق القبر فأعاد الخليفة القائم بناءه (دليل خارطة بغداد ٩٠) .

(٧٦) هذا وهم من المؤلف اذ ان الست زبيدة زوج هارون الرشيد دفنت في مقابر قرش بالكاظمية واما القبر المعروف اليوم باسمها هو قبر زمرد خاتون زوج الخليفة المستضيء بأمر الله وام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاه ٥٩٩هـ - ١٢٠٢م (دليل خارطة بغداد ١٧٠) .

(٧٧) يعني مقبرة الشيخ جنيد اليوم (دليل خارطة بغداد ٩١) .

(٧٨) هو شعيب بن عبدالله بن سعد المشهور بالحريش المتوفى ٨٠١ (معجم المطبوعات العربية والعربية ٧٥١) ولكن لم نعثر في الكتب التي ترجمت له من انه جاء الى بغداد (انظر شذرات الذهب ٧ : ٧ ، وهديّة العارفين ١ : ١٨) وسماه : شعيب بن عبدالعزيز وقال انه توفي ٥٩٧هـ وهذا وهم منه .

(٧٩) سمّي نسبة الى الموضع الذي بني عليه ، وقمرية من اهل بيت الناصر لدين الله الخليفة العباسي او احدى حظاياه ، وقد شيّد هذا الجامع سنة ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م في عهد الخليفة المستنصر بالله (تاريخ مساجد بغداد ١١٤ - ١١٥ ، والبغداديون اخبارهم ومجالسهم ٣٤٢) .

(٨٠) اقامها عمر باشا أحد ولاة بغداد سنة ١٠٨٨ - ١٠٩٢هـ (دليل خارطة بغداد ٩٠) .

(٨١) يقع في ساحة جر الشهداء في الكرخ وهو من المساجد القديمة (البغداديون ٣٤٥) .

(٨٢) نسبة الى صندل بن عبدالله الحبشي المتوفى ٥٩٣هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٥) .

(٨٣) وهو قريب من دجلة في محلة الشيخ بشار والصواب ان حبيب العجمي توفي بالبصرة وقد زار قبره ابن بطوطة سنة ٧٢٧ (الرحلة ١ : ١١٧) وعلى هذا كما جاء في دليل خارطة بغداد ٢٩٩ : ان قبر العجمي اقرب الى قبر ابي القائم : عمر بن مسعود البزاز المتوفى ٦٠٨هـ ، اما الاوسي فقد ذكر وفاته ١٤٠هـ اي قبل تأسيس بغداد (تاريخ مساجد بغداد ١٢٤) .

(٨٤) يقع قرب جامع معروف الكرخي في آخر المدينة جدده الشيخ موسى الجبوري سنة ١٢٩٤هـ فنسب اليه (تاريخ مساجد بغداد ١٢٠) .

(٨٥) في محلة الست نقيسة من محال الكرخ الغربية على طريق الكاظمية (يسمى اليوم شارع الامام موسى الكاظم) (تاريخ مساجد بغداد ١٤٥) .

(٨٦) هذا المسجد واتسع على شاطئ دجلة في الجانب الغربي ، من المساجد القديمة وفي سنة

وجملة مساجد ذكر مفرداتها يجر الى السامة وفيما ذكرناه لك من المساجد برهان قاطع على ان بغداد قد بلغت في هذه الايام الاخيرة من العمارة وكثرة الدور والقصور ما تحاكي به حسنها ونضارتها في زمانها القديم .



أما بساكنها^(٨٧) في الحال الحاضر فهي متصلة على حافتي دجلة من الجانبين ولبناد اليوم اربعة جسور احدها بمحلة الامام الاعظم^(٨٨) ، والثاني تحت باب المستنصرية من جهة دجلة^(٨٩) ، والثالث في الموضع المعروف بقرارة ، والرابع معقود على النهر الشهير بنهر الخر^(٩٠) .

وللحكومة فيها ما بين دار إمارد ومستشفى ومكتب ومخفر ومخزن اسلحة ومربط دواب وقلعة جند وميدان تعليم وقاعة مجلس ما يتجاوز المئات واما دورها وقصورها فانها تتجاوز على ألفي الف موضع .

واما قوسها فمن المعلوم انها اصناف الدور والقصور .

اخلاق البغداديين (٩١) :

كانت أخلاق اهل بغداد قبلاً انهم يعظمون الكبير ويرحمون الصغير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يرعون الجوار ويحفظون الذمار حتى ان احدهم اذا رأى من جاره ادنى مثله سارع في تأديبه وبالغ في ترمييه فاذا سمع رب بيت ذلك المني قابل جاره بالشكر والثناء وانواع الدعاء غيبة وحضوراً فينزل كل أحد منهم غيره منزلة الاخ والأب أو الأخت أو الوالد وكان من اخلاقهم انهم يحملون السيف ويكرمون الضيف ويفشون السلام ويطعمون الطعام ويأوون الغريب ويشفقون على القريب ويكثرون في صحبة العلماء ويتدنون لذكر الكرماء ومنها انهم يعودون المرضى ويشيعون الجنائز ويألفون في اعطاء الجوائز . . ومنها انهم يألفون من عشرة من لا يؤمن بيوم الحساب ولا يرغبون في وظائف الحكومة ويمدنون الاعراض عنها الكرومة ومنها انهم يقرضون المحتاج ويصبرون على المسر ويتعوذون من العقوق ويبادرون لايفاء الحقوق ويواسون البائس العديم ويرحمون الأرملة واليتيم يؤدون

١٢٣٦هـ جدد عمارته داود باشا والي بغداد، ولكنه هدم آخرها ولم يبق له اثر (تاريخ مساجد بغداد الحديثة ٢٩٢) .

(٨٧) صفحة ٤٦٥ من مخطوطة المتحف العراقي للكتاب .

(٨٨) وهو جسر المظم الخشبي الذي كان يربط الكاظمية ببغداد ونقل سنة ١٩٥٧ الى النعمانية حيث حل محله جسر ثابت حديث يقع الى شماله بقليل يعرف اليوم بـ جسر الأئمة .

(٨٩) كان يسمى جسر المأمون ثم غير الى جسر الشهداء وهو يربط الكرخ بالرصافة .

(٩٠) وهي قنطرة كبيرة وليست جسراً .

(٩١) صفحة ٢٨٦ من نسخة الدراسات العليا ، ويتحدث المؤلف عن اخلاق اهل بغداد في زمانه .

الأمانيات الى اهلها ويمدلون في القضايا وفصلها. الظالم عندهم مخذول وان كان من الفروع او الاصول لا تأخذهم في الله لومة لائم وكلهم أماجد أكارم يتحرون أكل الحلال ولو في رؤوس الجبال ويهربون من الحرام - كما يقال - مسيرة عام لا يشقون عصا المسلمين ولا يركنون الى الظالمين . ومنها انهم يحافظون على العبادات ويبغضون من اجترم السيئات . نباسهم التقوى والشامة وفاكتهم البحث في احوال القيامة . يعرضون عن الملاهي والملاعب إلا ما قلّ منهم والحكم للغالب . يتوسعون في اللطائف والمكالمات ويتعاطون الطرائف والمنادمة يتواضعون ولكن للمتواضع وينخدعون ولكن من طيب المراضع يقول واعظم اذ ينصفهم :

خدع جعلناها إليك وسيلة إنّ الكريم بكل شيء يخدع

وأما الآن فعلى عكّلاتهم فقد ثبت بالسماع والعيان انهم اعدل الناس سيرة واسلمهم سريرة وما ذاك إلا لكون اثناء العطر اذا تمدت غالبه بقيت رائحته ، وجودة الاصل تنتج حسن الفعل .

مراجع التحقيق

١٢- ديوان عمارة بن عقيل : تحقيق وجمع شاعر العاشور - مطبعة البصرة ١٩٧٢ .

١٣- رحلة ابن بطوطة : محمد بن ابراهيم المعروف ب ابن بطوطة التوفى ٧٧٩هـ دار صادر - بيروت ١٩٦٠ .

١٤- رحلة ابن جبير : محمد بن احمد بن جبير الاندلسي المتوفى ٦١٢هـ - ط لندن ١٩٠٧ .

١٥- شلرات الذهب في اخبار من ذهب : لمبدالي بن العماد الحنبلي المتوفى ٨٩١هـ - مكتبة القديس - القاهرة ١٣٥١هـ .

١٦- شروح سقط الزند : تحقيق مصطفى السقا وجماعته - النسخة المصورة على طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٦٤ .

١٧- عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب . لاحمد بن علي الداوري المعروف ب ابن عتبة المتوفى ٨٢٨هـ - النجف - الطبعة الحيدرية ١٣٣٧هـ .

١٨- غاية الزماني في تاريخ محاسن بغداد : للشيخ ياسين العمري الموالي - مطبعة دار البصري - بغداد ١٩٦٨ .

١٩- مباحث عراقية : ليعقوب سرقيس - مطبعة شركة التجارة - بغداد ١٩٤٨ .

٢٠- معجم البلدان : لياقوت بن عبد الله الحموي الرومي ت ٦٢٦هـ - دار صادر بيروت .

٢١- معجم ما استمع : لمبدالله بن عبدالعزیز البكري المتوفى ٤٨٧هـ - القاهرة ١٩٤٥ .

٢٢- معجم الطبوعات العربية والمغربية : ليوسف اليان سرقيس - القاهرة ١٩٦٨ .

٢٣- هدية العارفين : لاسماعيل باشا البغدادي - الطبعة المصورة - طهران ١٩٦٧ .

٢٤- وفيات الاعيان : لاحمد بن محمد ، ابن خلكان التوفى ٦٨١هـ - تحقيق الدكتور احسان عباس - دار الثقافة - بيروت .

١ - الاطلاع : خير الدين الزركلي - ط الثالثة المصورة - بيروت ١٩٦٩ .

٢ - بغداد مدينة السلام : لابن الفقيه الهمداني - تحقيق الدكتور صالح احمد الطلي - مطبعة دار الطليمة - باريس ١٩٧٧ - مطبوعات وزارة الثقافة والفنون - بغداد .

٣ - تاريخ الاسلام : للحافظ شمس الدين محمد بن احمد اللبكي المتوفى ٧٤٨هـ - مكتبة القديس - القاهرة .

٤ - تاريخ بغداد : للطبيب البغدادي ، احمد بن علي المتوفى ٤٦٣هـ - دار الكتاب المصري - بيروت - الطبعة المصورة .

٥ - تاريخ العراق بين احتلالين : لمباس الزاوي - بغداد ١٩٣٥ - ١٩٥٦ .

٦ - تاريخ مساجد بغداد واثارها : لمحمود شكري الالوسي - تحقيق محمد بهجة الانري - مطبعة دار السلام - بغداد ١٣٤٦هـ .

٧ - تاريخ مساجد بغداد الحديثة : يونس الشيخ ابراهيم السامرائي - مطبعة الامة بغداد ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م - منشورات وزارة الاوقاف العراقية .

٨ - تاريخ الشهد الكاظمي : للشيخ محمد حسن آل ياسين - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٦٧ .

٩ - جوهرة المراجع البغدادية : كوركيس عواد ، وعبدالحاميد العلوي - مطبعة الرابطة - بغداد ١٩٦٢ .

١٠- دليل خارطة بغداد : للدكتور مصطفى جواد ، واحمد سوسة - مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٥٨ .

١١- ديوان ابن الرومي : تحقيق الدكتور حسين نصار - مطبعة دار الكتب ١٩٧٤ القاهرة .

من علوم البغداد

بقلم
صايد محمد الجبلي

مدرسة الولاء - الكرخ - بغداد

- ١ -

قصة الساعة في بغداد

في عراقنا الحبيب في اللقاء الذي أجرته معه مجلة آفاق عربية الغراء ، فيقول : « .. فللمرة الاولى ظهرت المزولة الشمسية في الأثار العراقية .. كان ذلك في سامراء ، وقد اعلنت استعدادي لاعادة نصبها وتشغيلها ، ومن المؤسف ان الساعة ارسلت الى البصرة حجرا عام ١٩٧٥ .. ان هذه الساعة اثر علمي مهم في دراسة الحضارة العربية الاسلامية وهناك ايضا عدة مزاوول في بلدان المغرب العربي في تونس والمغرب ..

انني ادعو الى تعميم اعتماد الساعات المزولية في كل مدينة عربية ، ولقد صممت مزولة افقية لبغداد واهديتها الى امانة العاصمة وانا بانتظار الموافقة على نصبها ، ولا احد سواي يهتم بهذا القدر بالمزاوول الشمسية ، وقد سمعت عن اناس اعدوا ساعات اعتيادية ، وهي ساعات بامكان اي ميكانيكي ان ينصبها على غرار ساعة الاعظمية للسيد عبدالرزاق محسوب .

وبالنسبة للساعات المزولية العربية فانا الان اعمل على حل رموز مزاوول الجامع الاسوي في دمشق ، وجامع عقبة بن نافع في القيروان بتونس ، فقد بعثوا الي بتخطيطات هذه المزاوول لدراستها ..

المزولة الشمسية

اختلف الباحثون في تعيين اي من بلدان الشرق مهد الحضارات كان له فضل الاسبقية في ابتكار الساعة بانواعها ، ولا احد يستطيع ان يقرر من هو اول من ادرك فكرة استعمال الساعة لقياس الوقت ، ولكننا نعلم بان الانسان القديم استعمل الساعة الشمسية منذ زمن بعيد يرجع تاريخه الى العصر الحجري . وقد سميت ساعة الشمس بـ « المزولة » واقدم ساعة شمسية عشر عليها المنقيون هي المزولة المصرية التي يحتفظ بها اليوم متحف برلين والتي يعود تاريخها الى القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد شاع استعمال المزولة في جميع انحاء العالم الاسلامي وفي مساجده المختلفة لمعرفة اوقات الصلاة فهي بمثابة ساعة التوقيت المحلي وقد وجدت قبل اختراع الساعات الميكانيكية الحديثة والتي تعتمد بصورتها البسيطة على ملاحظة ظل العصا ، وهناك شواهد كثيرة في العراق القديم وفي مدينة سامراء بالذات تدلل على وجود مثل هذه الساعات في العراق ، ومن ذلك ما ذكره الدكتور محمد صديق الجبلي المتخصص بشؤون المزولة الشمسية واقتراحاته في تعميمها كوسيلة للتوقيت

الأراء ، وبالأخص في عهد البابليين ، فقد ارتبط الإبداع والابتكار في شتى ميسادين الحياة بالحضارات الانسانية وسيرها على مدى فترات التاريخ . ولما كان الشرق والعراق جزءا منه مهد الحضارات فلا غرابة ان يكون اختراع الساعات على اختلافها من بنات افكار ابناءه ومن ابتكارهم ، فالساعة الشمسية وهي ساعة النهار فقط قال عنها هيرودتس : ان الاغريق استعاروها من البابليين .. وكذلك الساعة المائية وهي ساعة اليوم ليله ونهاره قد عرفها البابليون قبل غيرهم من الاقوام الأخرى .. وكان العراقيون القدماء يقيسون ساعات اليوم بهذين النوعين من الساعات ، وحجة الفائلين باسبقية البابليين في اختراع هذه الساعات تستند على سبقهم تقسيم الوقت الى ايام وساعات ومن مجموع هذه الايام تكون السنة الواحدة .

كانت السنة السومرية والبابلية تتألف من اثني عشر شهرا تقريبا وكل شهر يساوي ثلاثين يوما ولذا اصبح عدد ايام السنة لسومرية لا يطابق عدد ايام السنة الشمسية .. وقد قسم البابليون اليوم الفلكي الى اثني عشر قسما وكل قسم يساوي ساعتين من توقيتنا الحالي .. والساعة الى ثلاثين جزءا اي ان يومهم الفلكي كان مقسما الى (٣٦٠) قسما متساويا وكما ان في السنة الواحدة (٣٦٠) يوما فكانت الدقيقة عندهم تساوي اربع دقائق من دقائقنا ، وقد جاء هذا التقسيم منذ السلالة الاكديّة .. وتلافيا للفرق الحاصل بين عدد ايام السنة السومرية وعدد ايام السنة الشمسية ، وما دامت الفصول تتوالى حسب السنة الشمسية فقد اقتضت العادة من اجل ضبط الفصول ان يلحق شهر اضافي (كبيس) الى اشهر السنة الاعتيادية بعد مرور عدد من السنين لتعويض الفرق الحاصل بينهما ..

وقد عثر على ساعة الماء في معبد « الكرنك » في عام ١٩٠٤م ، وهي الان معروضة في متحف القاهرة ، وتوجد نسخة عنها معروضة في متحف العلوم في لندن .. وقد دل تاريخها الى عهد الملك المنحوب الذي حكم مصر في الفترة الواقعة خلال (١٢٨٠ - ١٤١٥) قبل الميلاد ، وهي عبارة عن وعاء من حجر يؤشر عليه من الداخل بخطوط افقية ومثقوب من الاسفل ..

وهناك انواع اخرى من الوسائل الطبيعية والساعات البدائية لمعرفة الوقت كالساعة الرملية التي جاء وصفها في كتاب « قصة الوقت » : « فالشمس والماء والنار قد لعبت دورا مهما في علم

وأنا اليوم ادعو الى اعتماد التوقيت الشمسي الظاهري المحلي الى جانب التوقيت الاعتيادي ، وهو توقيت كان معروفا منذ القدم ولعلنا نعلم ان هناك من المزاويل ما تكون احيانا بصورة ضخمة جدا يمكن ان تشاد امام النباتات والمؤسسات العلمية او في الحدائق والساحات العامة الواسعة وفي هذه الحالة تكون لوحة الزوالة هي الساحة نفسها » ..

وقد ادركت معظم الدول الكبرى اهمية مثل هذه الساعات كآثر تراثي اقامتها في ابرز ميادينها العامة ، من ذلك ساعة الشمس « الزوالة » التي تنصب اليوم في حديقة لندن وفي ابرز مكان فيها ، لا لتستعمل لغرض معرفة الوقت وانما نصبت كآثر تاريخي تزين به هذه الحديقة الجميلة .

الساعة المائية

لم يشأ الانسان المبدع بمفليته ، والطموح بغيرته ان يقف الى الحد الذي يعين به نهاره بالساعة ،لتي عرفها نقيس وقته منذ شروق الشمس وتنتهي مهمتها بغروبها ، بل ولايد وان يندفع نحو الامام ليبتكر مقياسا اخر يواكب سير حضارته يعين به وقته في الليل وفي النهار فاوجد بذهنية متفتحة « ساعة الماء » .. ويجمل بنا ان نيسط هذه الفكرة التي قامت على اساسها هذه الساعة والتي كان لاكتشافها اثر كبير في سير ركب المدنية نحو التقدم . كما جاء وصفها في كتاب « قصة الوقت » للمحامي ناجي جواد : « ان فكرة ساعة الماء كانت بدئية تماما اذا ما قيست بمصرنا الحاضر ولكنها اكتشاف عجيب اذا ما قيست بازمان ما قبل التاريخ .. فساعة الماء عبارة عن وعاء من حجر مثقوب من الاسفل يطفو عائما على سطح الماء، وعندما يتصاعد الماء مترشحا الى داخل الوعاء فالنسبة التي يستوعبها الوعاء حتى اول اشارة تعتبر ساعة ، واذا ارتفع الماء الى الاشارة الثانية تعتبر ساعتين وهكذا .. فالفترة التي يستغرقها الوعاء حتى يفرق تعتبر المدة الزمنية المقصودة على وجه التقريب .. ومن عيوب هذه الساعة من جهة التفاوت للضغوط ، الناتج من عدم تناسب ترشيح الماء حينما يكون الوعاء مقاربا للأمتلاء او عندما يقارب النضوب من جهة ، ومن جهة اخرى فان لتقلبات الجو تأثيرا مباشرا على سيرها بانتظام ، فان اختلاف درجة الحرارة مثلا ، ارتفاعا وهبوطا، لما يؤثر تأثيرا مباشرا على سيرها بالدقة المطلوبة » ..

وكان لوادي الرافدين افضلية السبق في اكتشاف واستعمال مثل هذه الساعات على ارجح

قياس الوقت .. وأخيرا ظهرت الساعة الرمنية فاخذت مكانها بين الساعات الأخرى في قياس الوقت ، فزجاجة الساعة الرمنية أضحت رمزا للوقت وكانت دقة قياسها للوقت موضعا لثقة الأقدمين في هذه الفترة الزمنية بينما أصبحت هذه الساعة الرمنية تستعمل اليوم في المطابخ حيث يستفاد منها لتعيين وقت نضج البيض على النار .

ساعة الرشيد لشارلمان العجيبة

ساهم العرب في عصر الدولة العباسية في تطور فن صناعة الساعات وأخصها الساعة المائية ؛ وكانت الصناعة والابتكار والترغ الفكري والحضاري من أبرز حضارة العرب المسلمين في العصر العباسي الأول حتى سمي بحق عصر الرشيد الزاهر بكل فنون العلم والمعرفة ب «العصر الذهبي» في وقت كانت أوروبا المسيحية غارقة في ظلام من الجهل قائم أسود ..

فقد بلغت بغداد على عهد هارون الرشيد أوج عزاها ومجدها وأصبحت محط انظار طلاب العلم والمعرفة ، ويقصدها الداني والقاصي ليتزود من معارفها ويرتوي من عذب مائها وصفائه ، وبآتيها الناس من كل فج عميق لتعطيهم الشيء الكثير دون ان تأخذ منهم شيئا ، فكانت بغداد العباسيين تزدهر بعلمائها الأذاد ورجال الفكر فيها ، فمنها انطلقت الحركات الفكرية لتتصارع الأفكار الأخرى وتنازعها السيادة والسلطان فكان على رأسها أشهر فلاسفة التاريخ : منهم الفارابي والكندي وابن سينا والفزالي ، وفي بغداد مدارسها الفقهية وعلى رأسها وفي مقدمتها مدرسة الرأي والقياس وسيدها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي .. وفيها المصانع الفخمة والمعامل التي تنتج للعالم كله ، وأصبحت جوامع بغداد وقصورها وأسواقها ومدارسها من أبرز مظاهر حضارتنا .. لذا ليس بالغريب ان تصل الساعة المائية والتي صنعتها وصممها الأيدي العراقية الماهرة في زمن الرشيد الى غاية الإبداع في الفن ودقة العمل .

وكانت هذه الساعة مفخرة ما توصل اليه العلم في مجال الابتكار والاختراع في عراقنا الحبيب .. في بلاد الف ليلة وليلة العباسيين ..

أما قصة هذه الساعة فهي : لقد أراد شارلمان ملك الإفرنج الذي عاصر الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد ان توثق العلاقة بينه وبين الرشيد بعد أن علم بقوته وعظمة دولته وسلطانه ليتسنى

للمسيحيين الأوربيين زيارة بيت المقدس ولحيمهم في ذهابهم وإيابهم .. لذا أرسل اليه السفراء يحملون اليه الهدايا الفاخرة استرضاء له وكسبا لودته ، فرد عليه الرشيد هديته باحسن منها فكانت قصة الزمن ظلت مع الزمن خالدة تروي للأجيال مظاهر حضارتنا وأصالة مدنيتنا .. وكانت من هذه الهدايا ساعة مائية دقاقة مصنوعة بمهارة عظيمة اعجب بها شارلمان ودهش رجاله ، حتى زعم ان بعضهم هرب من المجلس عند سماع دقاتها ظنا منه بأن شيطاناً يخفي في داخلها ..

وذكر فولتير المؤرخ الفرنسي : ان أول ساعة عرفت في أوروبا هي الساعة التي أهداها هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا سنة ٨٠٧ م . وكانت بدعا في ذلك العصر ، حتى أنها أورثت رجال الديوان حيرة وذهولا .. كان لها اثنا عشر بابا صغيرا بعدد الساعات ، فكلما مضت ساعة فتح باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيقرع ويطن بعدد الساعات ، وتبقى الأبواب مفتوحة ، وحينئذ تخرج صور اثني عشر فارسا على خيل تدور على صفحة الساعة(*) .

ساعة المستنصرية في بغداد

لقد برع العرب في صناعة الساعات المائية الروحانية ، فكانت هذه الساعات عربية صميعة في صنعها .. وبراد بالساعات الروحانية - كما كانت تسمى - هي التي بحركها شيء خفي يشبه الروح في تحريك الاجسام بحسب رأي كثير من الناس ، والساعات الروحانية فرع من فروع علم « البنكام » وهو علم صناعة الساعات لمعرفة الاوقات وقد صنف العرب المصنفات في هذه الصناعة ومنهم بديع الزمان أو المعز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري (نسبة الى جزيرة ابن عمر) الذي ألف كتاب « الآلات الروحانية » في ذلك . وقد طبع قسما منه بعض المستشرقين ، الفه بديع الزمان لقره أرسلان التركي الأرتقي ملك ماردين « ٦٥٨ - ٦٩١ هـ » وجملة ستة أنواع : الأولى في الساعات ، والثاني في الآواني العجيبة ، والثالث في الآلات الزامرة ، والرابع في آلات اخراج الماء من المواضيع العميقة ، والخامس في الآباريق والبطوس ، والسادس في صور وأشكال تختص بذلك .. ونقل هنا صورة شبيهة بساعة المستنصرية نشرها صاحب كتاب « قصة الوقت » في كتابه منقولة عن كتاب « معرفة

(*) مجلة الومي الاسلامي الكويتية : العدد ٢٧ سنة ١٩٦٨ .

شموس من ذهب في سماء زرقاء في ذلك الفلك ومع طلوع الشمس تدور دورانها وتغيب مع غيوبها فاذا غابت الشمس وجاء الليل فهناك اقمار طالعة من خلفها كلما مضت ساعة تكامل الضوء في دائرة القمر ثم تبدو باندائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك اوقات الصلاة . وقد نقل التقي الفاسي المكي في ترجمة احمد بن علي بن تغلب ابن ابي الضياء البجلي الاصل ، البغدادي الولد والمنشأ المعروف بابن الساعاتي ، ان ابيه هو الذي عمل الساعات المشهورة علي باب المستنصرية ببغداد لانه كان مشتهرا بعلم الهيئة والنجوم وعمل الساعات . . وقد عين ابن الفوطي سنة ولادة هذا الرجل ووفاته بقوله : « وفيها اي في سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م توفي نور الدين علي بن تغلب الساعاتي وكان يتولى الساعات المشهورة تجساه المستنصرية ، وكان مولده سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م . »

وقد اشتهرت جماعات بحرفة هذه الساعات فمروا بالساعاتيين والواحد « ساعاتي » وعرف كل من ابنائهم بابن الساعاتي ذكر منهم الدكتور مصطفى جواد عن كتاب تكملة اكمال الاكمال «ص٢٢٧» طبعة المجمع العلمي العراقي : « ومنهم ابن الساعاتي الشاعر المقتدر المشهور (بهاء الدين علي بن رستم) واخوه الحكيم الطبيب (فخر الدين رضوان رستم) و (نورالدين علي بن تغلب الساعاتي) وكان يتولى تدبير الساعات التي كانت تجاه المدرسة المستنصرية وابنه (مظفر الدين بن علي المعروف بابن الساعاتي) وحفيده (محمد بن احمد بن الساعاتي) و (محمد ابن احمد بن الساعاتي) و (ابن عمرو عثمان برمكي السعدي) قال جمال الدين بن الصابوني عنه : وهو كثير المحفوظ ، وله اليد الطولى في عمل الساعات ومعرفة الاضطراب . . »

ومن الف في صناعة « البنكام » تقي الدين محمد المعروف بالرصاص المتوفى سنة ٩٩٢هـ فله كتاب « الطرق السنوية في الالات الروحانية » وكتاب « الكواكب الدرية في البنكامات الدورية » . . ومن الكتاب الاخير نسخة محفوظة بدار الكتب الوطنية بباريس .

وقد تغنى الشعراء بساعة المستنصرية ونظموها القصائد في وصفها وعجيب صنعها ، منها قول ابي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي يمدح الخليفة :

يا ايها المنصور يا مالكا

برايه صعب الليالي يهون

الحيل الهندسية « لبديع الزمان الجزري . . . وسبق ان نشرتها مجلة اهل النفط في بحث الدكتور مصطفى جواد - رحمه الله - عن مجلة « الادب والفن » التي كانت تصدر في انكلترا باللغة العربية والتي اعدنا نحن بدورنا نشرها في هذه المجلة لتفاستها الا ان ناسرها الاول في مجلة الادب والفن ظنها « صورة لوسيقارين لبعض السلاطين في مدخل قصره » وفي الحقيقة ما هي الا صورة ايوان الساعة . . ومن اشهر الساعات الروحانية المائية الساعة التي وصفها ابن جبير الرحالة الاندلسي ، وكانت في مسجد دمشق في القرن السادس للهجرة وما بعده وصفا رائعا دقيقا ، وقد رأى ابن جبير هذه الساعة العجيبة سنة ٥٧٩هـ/١١٨٢م . وقد انشئت بعدها ببغداد سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٥م « ساعة مثلها قبالة باب المستنصرية التي لا تزال بغضامة بنائها تمد فخرا لفن العمارة العربي ، قال ابن الفوطي في احداث سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٥م « بصدد هذه الساعة ما نصه : « وفيها تكامل ببناء الايوان الذي انشئ مقابل المدرسة المستنصرية ، وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم . . وبني في حائط هذه الصفة دائرة وصور فيها الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لها ابواب لطيفة ، وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب وراءهما بندقتان من شبه لا يدركهما الناظر ، فعند مضي كل ساعة يفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من ابواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب ، فيصير حينئذ مفضضا ، واذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان الى مواضعهما ، ثم تطلع اقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع غيوبتها كذا . . فاذا جاء الليل فهناك اقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ، ثم يبتدىء في الدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك اوقات الصلاة . . وجاء ذكر هذه الساعة في كتاب « خلاصة الذهب السويك » لبيدالرحمن الاربلي المتوفى سنة ٧١٧هـ ما نصه ايضا : « . . . وبني في حائط هذه الصفة دائرة عجيبة وصورتها صورة الفلك وجعل فيها طاقات صغار لها ابواب كلما سقطت بندقة انفتح باب من ابواب الطاقات وهو مذهب نفسار مفضض ومضت ساعة من الزمان والبندقتان من شبه نفعان من فم بازين من ذهب في طاستين من ذهب ويذهبان الى مواضعهما وتطلع

تهدي الى الطاعات ساعاته الـ

ناس وبالنجم هم يهتدون

صور فيه فلك دائر

والشمس تجري ما لها من سكون

دائرة من لآزورد حكت

نقطة تبر فيه سر مصون

فتلك في الشكل وهذي معا

كمثل هاء ركبت وسط نون

فهي لآحياء العلى والنسدى

دائرة مركزها العالمون

وفيها يقول ذو الملتكين النائر الشاعر عزالدين

عبدالحميد بن ابي الحديد المدائني :

ما مثل الفلك العظيم لـبصر

في الارض قبل ابالة المستنصر

هذا بناء معرب عن قدرة

رفعت قواعده بفعل مطهر

حدثت به الارض السماء ولم يزل

حد الفضائل في طباع العنصر

انظر تجد نظم الثريا في ذرا

شرفاته وضياء نور المشتري

فالانسق بين مفضض ومذهب

والجو بين مكوفر ومعنبر

والارض حاسرة القناع كأنها

خود تبرج في رداء اخضر

وقال كشاجم الاديب الشاعر يصف «البنكام»

الذي معناه بالفارسية (اناء مشقوب لقياس الاوقات)

فعربه العرب بصورة « بنكام » وجمعوه على

« بنكامات » :

روح من الماء في جسم من الصفر

مؤتلف بلطيف الحس والنظير

تنشأ له حركات في اساقفه

كانها حركات الماء في الشجر

ان ساعة المستنصرية التي تعد من بدائع

الصناعة ونفائس الانار ، لم يبق لها اليوم اثر ما

لذا كانت دعوة بعض الباحثين لانشاء ميدان فسح

امام المستنصرية وازالة المباني المستحدثة حولها

دعوة صادقة ومنهم الدكتور ناجي معروف - رحمه

الله - الذي دعا الجهات المختصة الى صيانة حرمة

تراثنا الحضاري البغدادي ، وذلك فيما يخص اول

جامعة عربية كبرى وهي مباني المدرسة المستنصرية

.. وقد استعرض الدكتور معروف هذه القضية

باسهاب طالب باستخدام الاماكن التي تقع قرب

المدرسة للاغراض السياحية في القطر وللصورة

والصوت وهي كلها تمثل طرازا بغداديا اصيلا ،

وضع مخططا لذلك اثبت فيه اهم المواقع والمنشآت

التابعة لهذه المدرسة ومنها موقع الساعة المائية

وقبتها الجميلة والتي عينها قبالة لـباب الرئيسي

بمسافة عشرات الامتار وبعدها يأتي موقع مدرسة

الطب المستنصرية والمستشفى ونشر هذه الدعوة

في جريدة الجمهورية البغدادية الحمراء في عدد يوم

الجمعة ٢١-٣-١٩٧٢ .. ونحن بدورنا ثبت هذا

المخطط على صفحات هذه المجلة لتفطي صورة

واضحة عن هذا المشروع المقترح ، تقتطف شيئا مما

ذكره الدكتور معروف فيما يخص ساعة المستنصرية

« .. ولم تعمل هذه المدرسة (أي المستنصرية)

على الدراسات النظرية فقط ولم تكن في معزل عن

المجتمع بل عقدت فيها مجالس المظالم والمناظرات

والندوات الادبية والعلمية واستخدمت الكثير من

الاغراض الاجتماعية فذاع صيتها في العالم وقصدها

العرب المسلمون والاجانب للدراسة والمناظرة

والتزود من علوم اساتذتها والتفرج على بناياتها

حتى كان من اغلى امانتي الملوك والسلاطين والوزراء

والاعيان والطلماء عندما كانوا يقدون الى بغداد

بصورة رسمية او غير رسمية ان يؤذن لهم يومئذ

في زيارتها وحضور الحفلات التي تقام فيها

والاستماع الى البحوث والمحاضرات العلمية التي

يلقيها كبار رجال العلم من اساتذتها والاطلاع على

خزانتها التي كانت يومئذ اعظم خزائنة للكتب في

العالم اذ وضع فيها مؤسسها المستنصر بالله عند

افتتاحها ثمانين الف مجلدة من المخطوطات ، والتفرج

على ساعتها العجيبة التي كانت من المآثر الجلييلة لبني

العباس ببغداد ... »

فقد اصبح من حق المستنصرية الضاية

بابرازها للوزار والسياح والعلماء والدارسين

والباحثين في حضارة بغداد . ولا تتحقق هذه

العناية الا بازالة جميع ما حولها من مباني مستحدثة

مشوهة واسواق مغطاة بصفائح « الجينكو » وانشاء

ميدان فسح امامها يمتد من بابها الشاهق حتى

شارع الرشيد وشارع الامون واعادة ساعتها

العجيبة .. »

الساعات البغدادية الحديثة

فتح دواوين الحكومة في الساعة السابعة صباحا الى الساعة الثانية عشرة والنصف وحفظا لمصالح متوظفي الحكومة وحرصا على اوقاتهم اقيمت ساعتان عند باب دار الحكومة الواحدة لاقوات العبادة والثانية لاقوات الشغل . مما يدل على اهتمام الناس بقيمة الوقت وضرورة ضبطه لتحديد اوقات العبادة والعمل ! ! .

الساعات البغدادية ذات الأبراج

وعرفت بغداد ساعات الكبيرة ذات الأبراج العالية على غرار المنائر أيام حكم الوالي العثماني المصلح مدحت باشا حيث شيد لأول مرة في تاريخ بغداد هذا النوع من الأبراج لينصب في اعلاه ساعة القشلة الشهيرة ، وكان ذلك حدثا مهما في تاريخ عاصمة اعرق حضارة في التاريخ وتم ذلك عام ١٨٦٩م اي بعد عشرة اعوام من نصب ساعة (بك بن) الشهيرة والتي تعلو مبنى مجلس العموم البريطاني في العاصمة لندن وتذاع دقاتها من الاذاعات البريطانية الى جميع انحاء العالم ويعود لها الفضل في ضبط الساعات وتوقيتها في بقية اقطار الدنيا . ثم توالى نصب الساعات ذات الأبراج في بغداد بعد ساعة القشلة فكانت ساعة الكاظميين عام (١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م) ، ثم ساعة الحضرة الكيلانية عام (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) ، فالساعة الاعظمية عام (١٣٥٠هـ / ١٩٣٠م) ، ثم ساعتا المحطة العالية عام ١٩٥٥م في بغداد . . وسنبين تاريخ كل منها على التوالي :

ساعة القشلة (١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م)

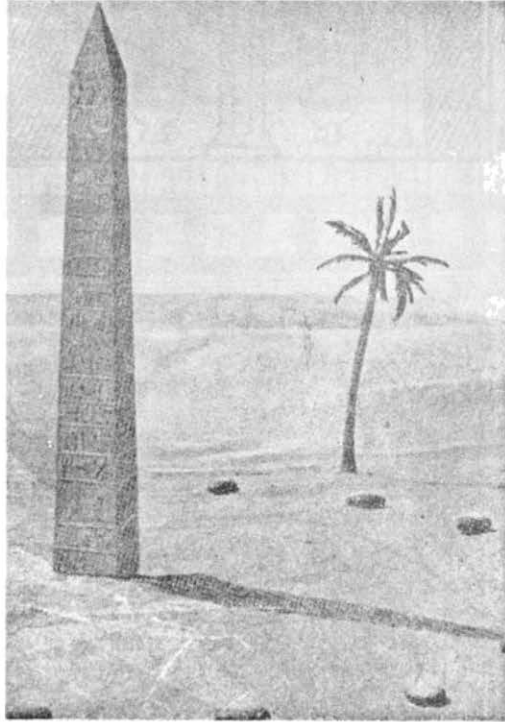
ارتبط تاريخ هذه الساعة الاثرية ببناء القشلة (الثكنة العسكرية وسراي الحكومة فيما بعد) التي ما زالت قائمة وماثلة امام انظارنا تحكي قصة الزمن في فترة من فترات التاريخ وبقيت وستبقى لتكون احد معالمنا الاثرية في بغداد . . وكان الشروع في بناء هذه القشلة سنة (١٢٧٨هـ / ١٨٦١م) أيام الوالي نامق باشا الكبير وفي عهده لم يكمل بناؤها وقد اكمله مدحت باشا (١٨٦٨-١٨٧١) واقام في ساحتها برجاً نصب عليه الساعة المذكورة لغرض ايقاظ الجنود الى اوقات التدريب العسكري حيث اتخذ القشلة مركزا لقواته الخيالة وكذلك مقرا لولايته ، ومن ثم اشغلت من قبل بعض الوزارات في العهد الملكي الفابر . . وساعة القشلة تداد الساعة فقط وكان رنين صوتها تسمعه بغداد كلها - بجانبها الرصافة والكرخ - وخاصة في اوقات

عرف البغداديون الساعة الحديثة منذ القرن الثامن عشر ، وكان التاجر البغدادي من انشط تجار العالم تنافسا في استيرادها من مواطن صنعها في المانيا . . وكان الموسرون من ابناء بغداد وحتى متوسطي الحال مولعين في اقتناء ساعات الجيب والساعات الجدارية لتزين جدران بيوتهم ودواوينهم وما زال بعض هذه الساعات في حوزة اصحابها حيث تعمل بدقة دون ان تتأثر مؤثرات الزمن . . فمن هذه الساعات الساعة التي يحتفظ بها احد المواطنين والتي اشارت الى ذكرها مجلة «الف باء» في عددها (٦٨) تحت عنوان « اقدم ساعة في بغداد » والتي يعود تاريخ صنعها الى عام ١٨٠٠م حين دخلت بغداد ضمن اول وجبة ساعات استوردت إبان العهد العثماني من المانيا عام ١٨١٠م والتي ما زالت صالحة تعمل بدقة لحد الان . . وبرز مواطن ببغدادى اخر يعقب على هذا الخبر في المجلة المذكورة بعددها اللاحق (٤٧١) : ينفي قيسه ان تكون تلك الساعة هي اقدم ساعة في بغداد بل ان التي اقدم منها هي الساعة التي يمتلكها هو والتي آلت من جده الى والده ومن ثم اليه ، وهي من الساعات المعروفة بـ (أم الطمغة) يرجع تاريخ صنعها الى سنة ١٧٤٩م كما هو مثبت في داخلها وهي بحالة جيدة وتشير الى الوقت بدقة حتى هذه اللحظة ! ! .

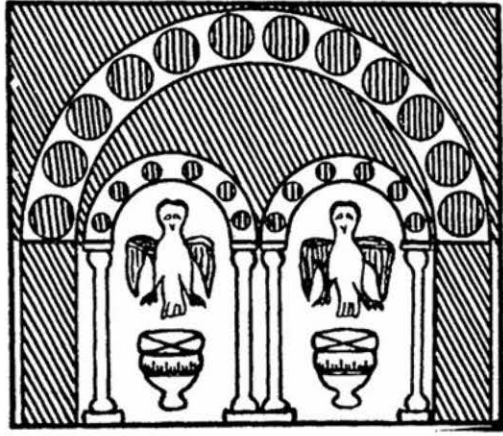
يا ترى كم من هذه الساعات الاثرية يحتفظ بها البعض ولا نعلم عنها شيئا ؟ ! ! .

ماذا لو دعت جهة من الجهات المختصة ولتكن امانة العاصمة الى تملك امثال هذه الساعات التي كانت تزين جدران البيت البغدادي أيام زمان والتي يحتفظ بما تبقى منها بعض المواطنين والمودع بعضها الاخر وفقا في بعض المساجد والجوامع الكبيرة خاصة بعد ان أصبحت نادرة وتمتاز بمسحة اثارية ووضعتها في جناح خاص من المتحف البغدادي لتمثل جانبا من مخلفات المجتمع البغدادي في القرن الماضي قبل ان تخفني وتزول ويمحى أثرها ؟ لاشك انها ثروة تراثية لا تعوض ! ! .

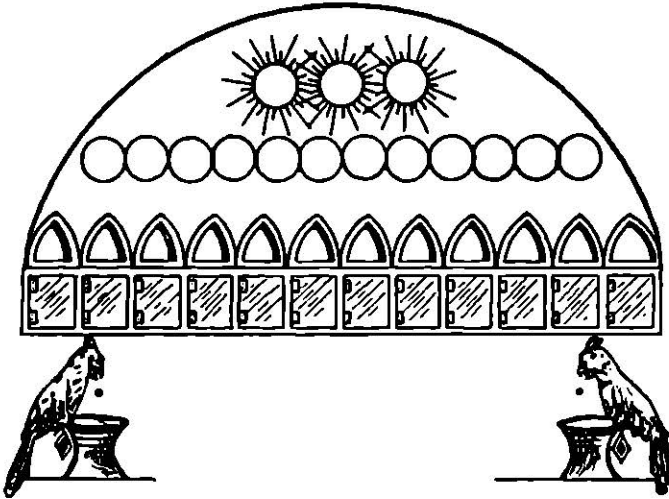
ومن طريف الاخبار ما ذكرته مجلة لغة العرب في مجلدها الثاني - العدد ١ عن تموز ١٩١٢ في باب (تاريخ وقائع الشهر) . . وهو خبر الساعة الزوالية الذي يقول : « اتخذت الحكومة في دواوينها العسكرية والملكية الساعة الزوالية (الافرنجية) مع بقاء الساعة الغروبية للصلاة والاذان وعليه فيكون



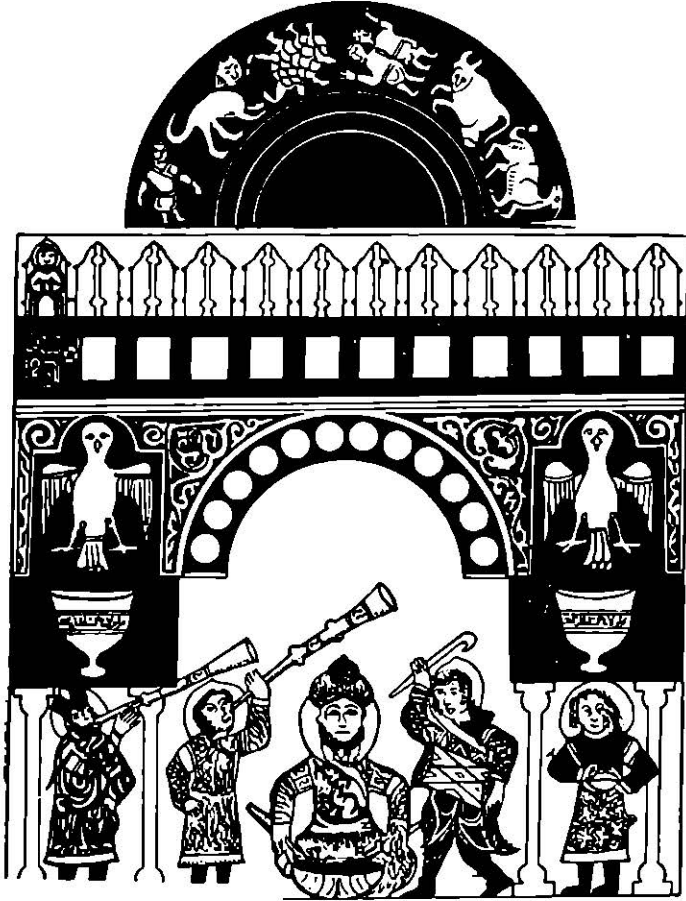
نموذج لساعة الظل



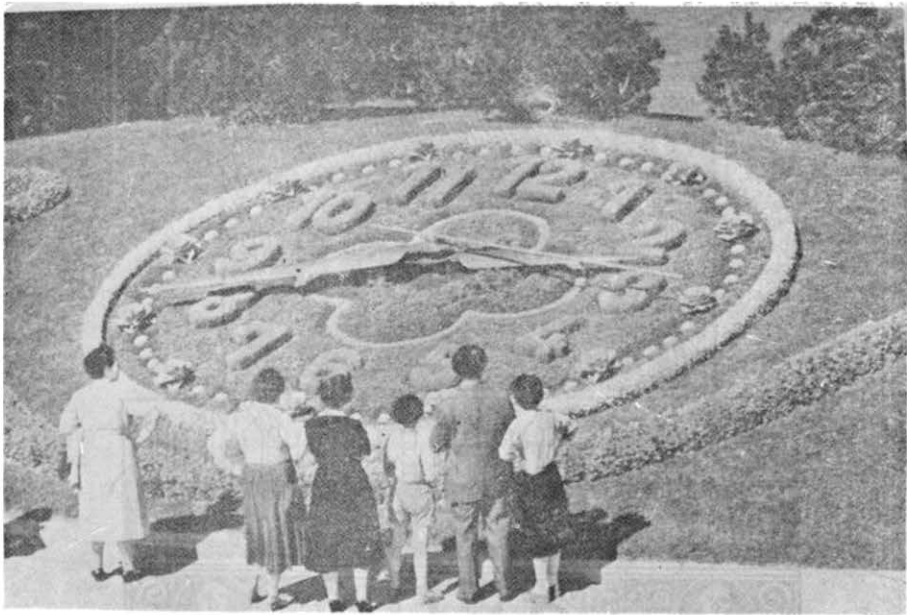
الساعة بغدادية - عن كتاب قصة الوقت



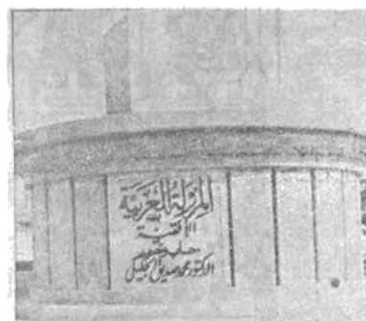
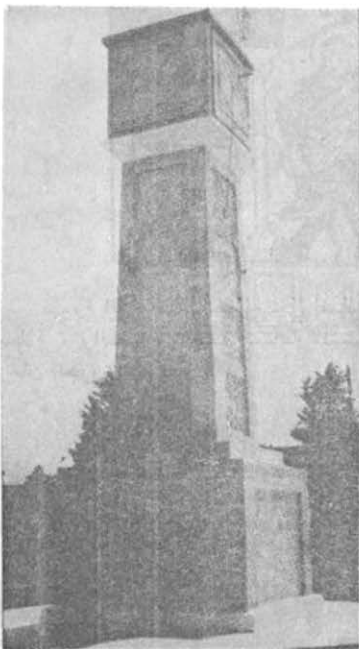
منظر تصويري لساعة المنصورية - عن الدكتور مصطفى جواد



صورة ابوان ساعة مائية ، في اسفله تمانيل اصحاب الابواق والطبول الضاربين بالاتيهم في اوقات
الصلاد . والساعة شبيهة بساعة المستنصرية (منقولة عن كتاب معرفة الحيل الهندسية لبديع
الزمان الجزري)



نموذج من ساعات الزهور التي بدأت تظهر في اهم ساحات بغداد



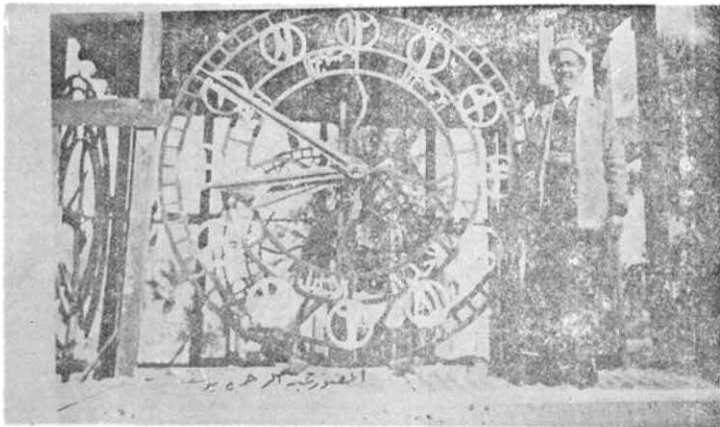
نماذج من الساعات التمجيدية



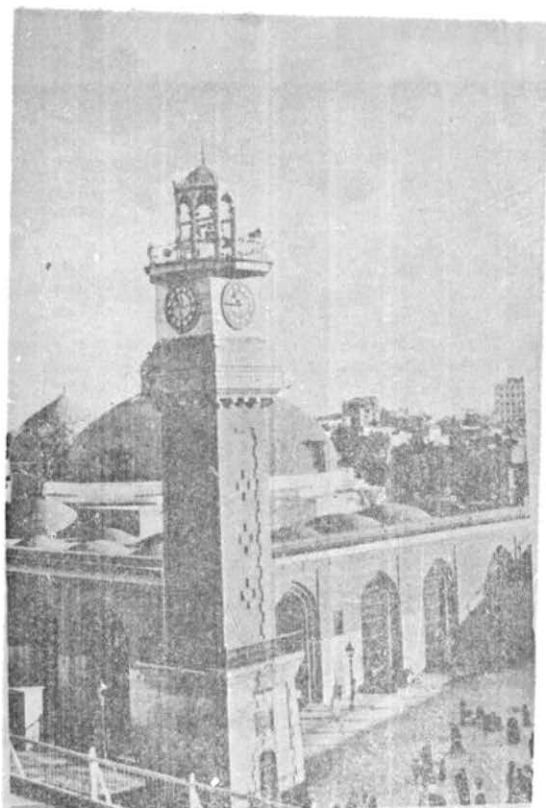
الساعة البغدادية في ساحة المعرض



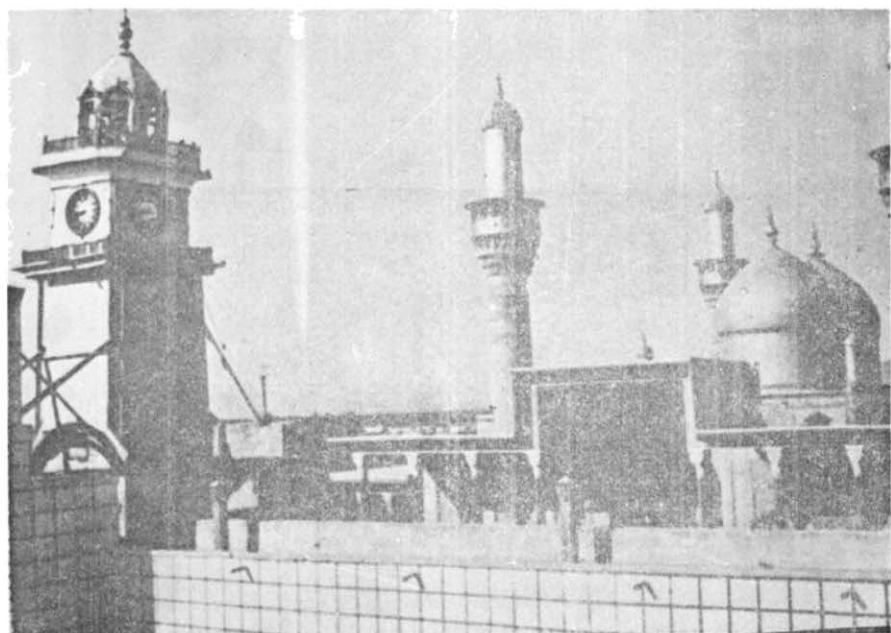
الحاج عبدالرزاق محبوب



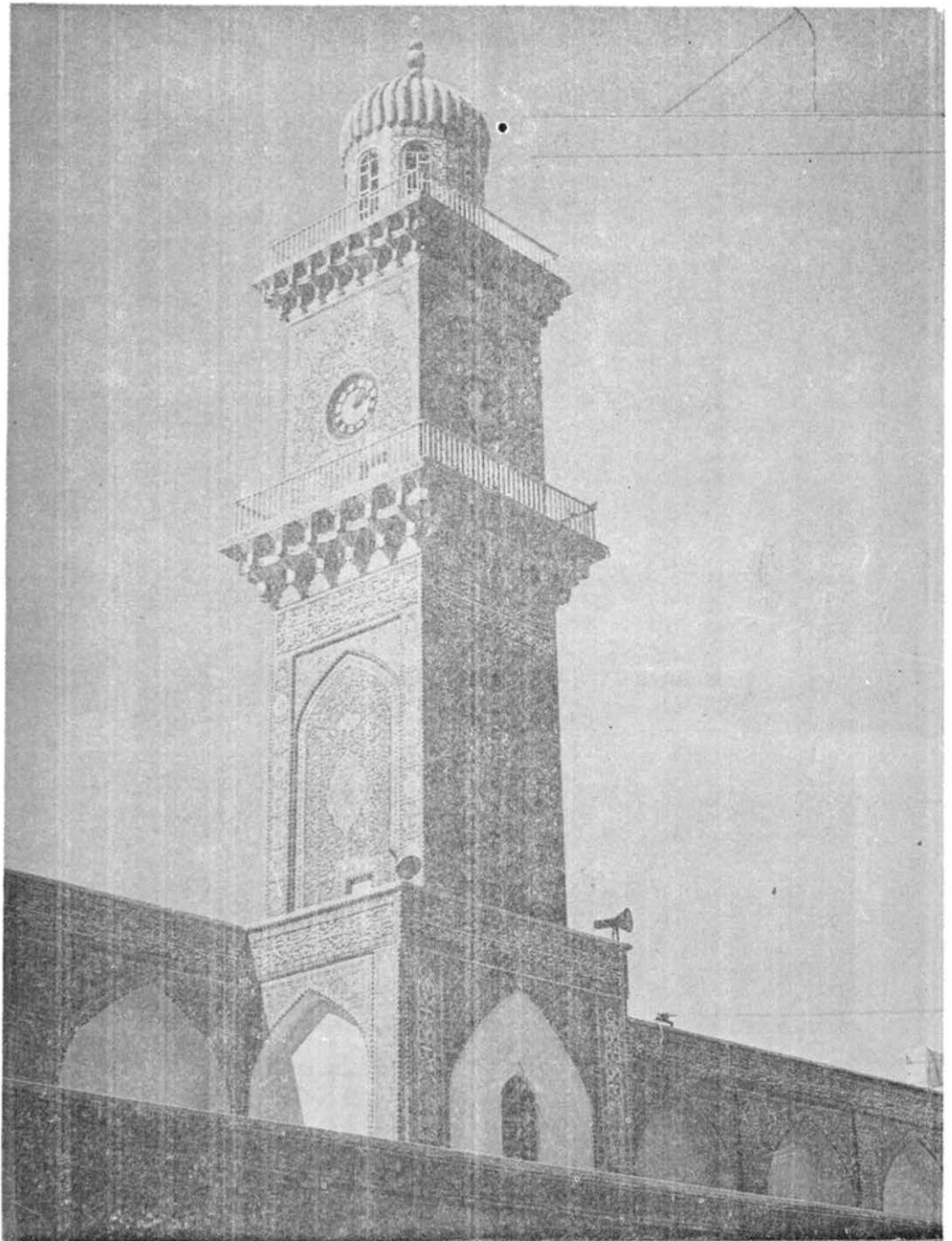
الحاج عبدالرزاق محبوب منشيء الساعة البغدادية يقف بجوارها



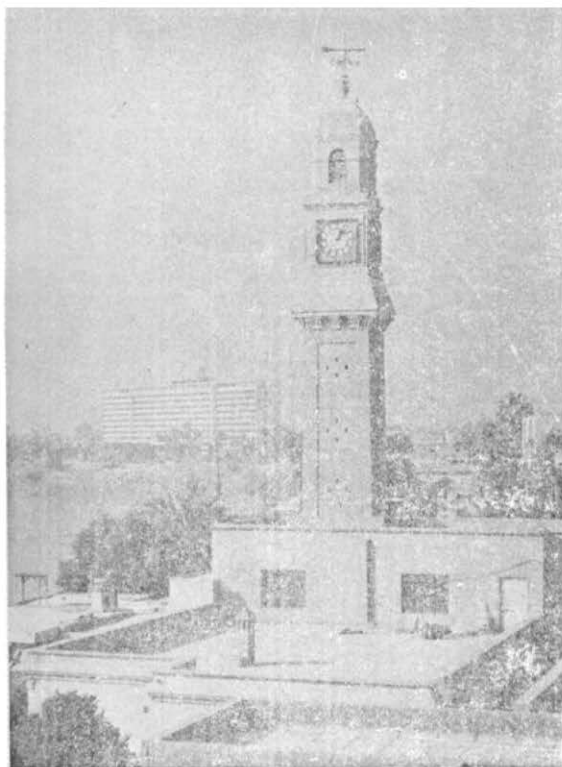
ساعة الحضرة الكيلانية



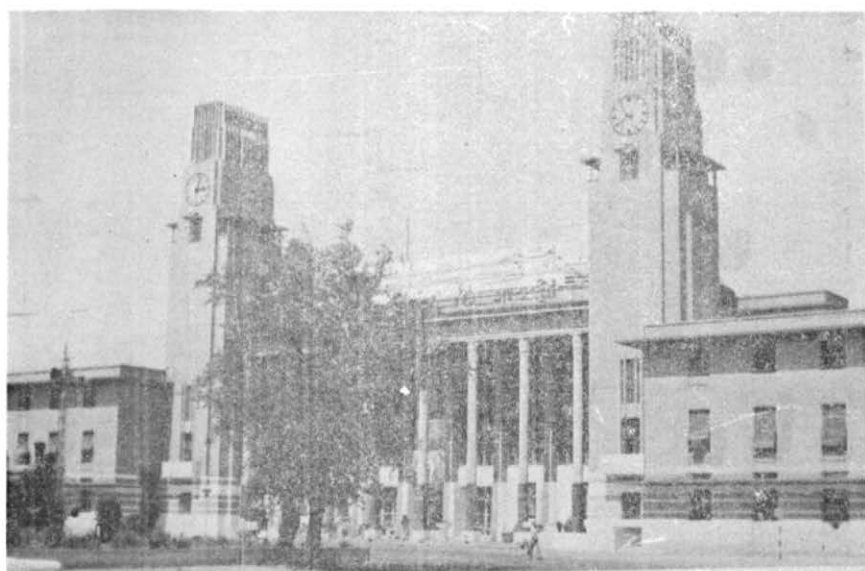
ساعة الكاظمين الاولى التي تم نصبها على الضلع الشرقي من الصحن في حدود سنة ١٨٨٢



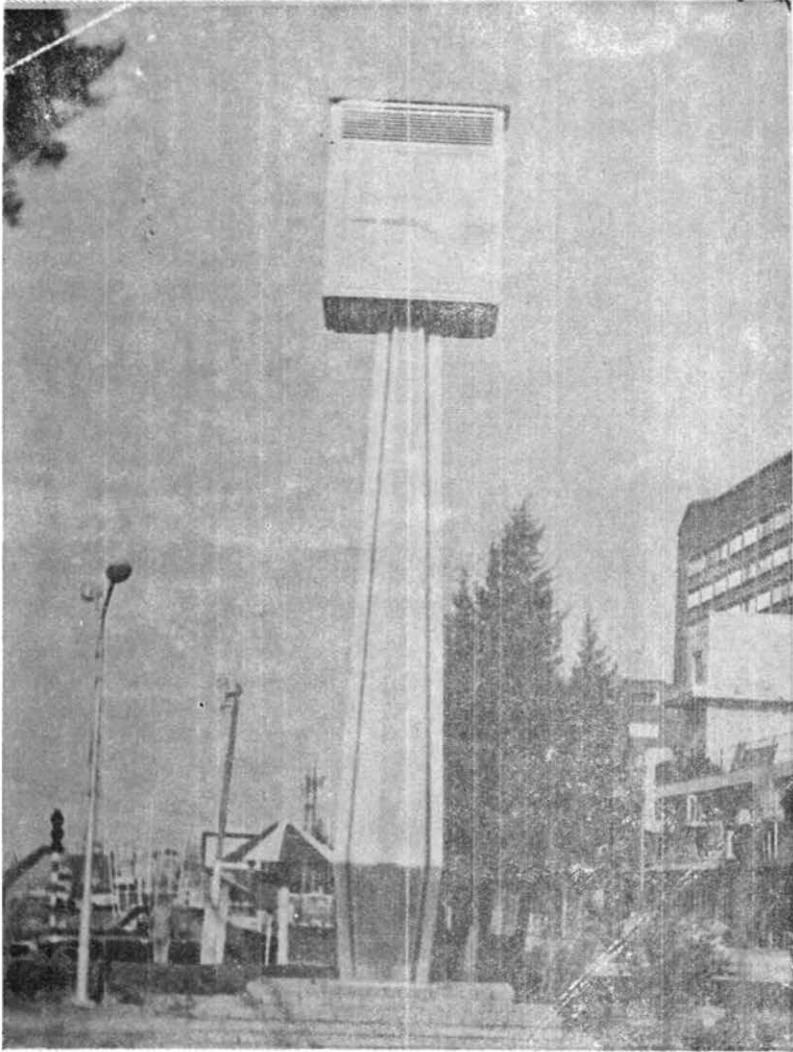
ساعة الكاظمين الثانية في الوجه القبلي (١٣٠٣هـ/١٨٨٥م)



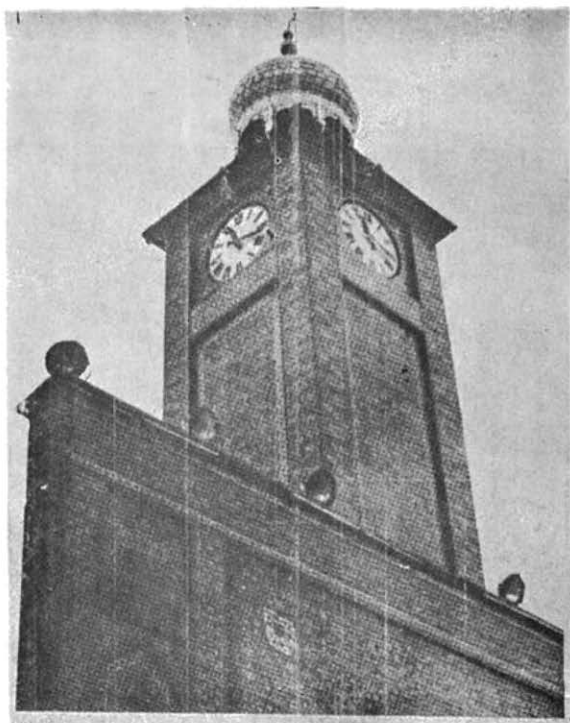
ساحة الفسلة - تطل على نهر دجلة



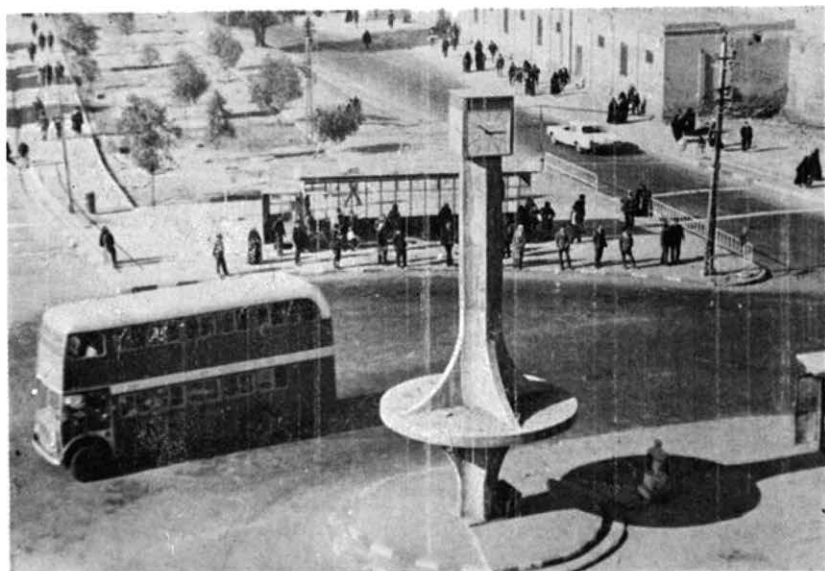
ساعة المحطة العالمية في الكرخ



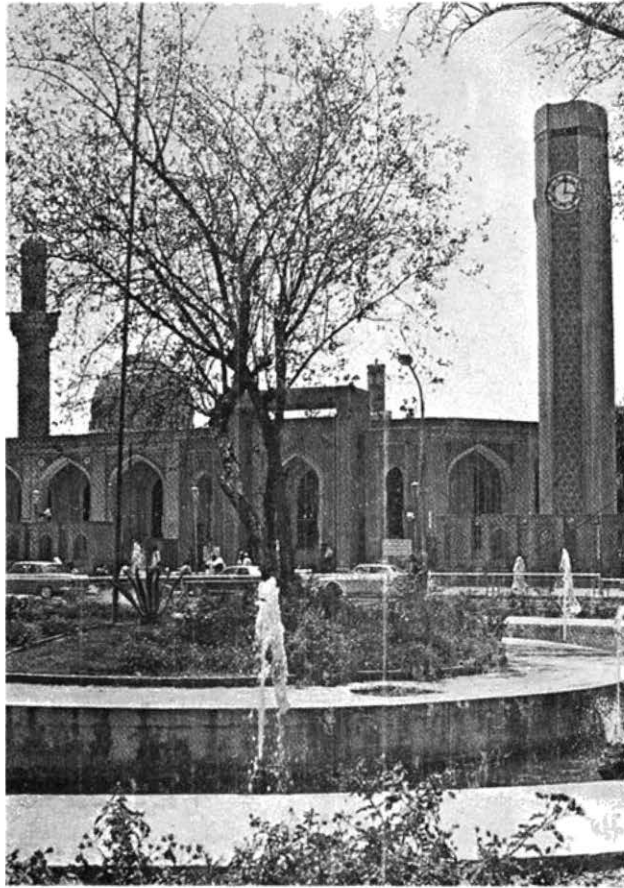
نموذج من الساعات البرجية التي انتصبت في ساحات بغداد العامة



نموذج للساعة ذات البرج



ساعة باب المعظم المفاة - نموذج للساعات البرجية ذات الهندسة الحديثة



برج الساعة الاعظمية مع السياج الجديد



ساعة ساحة الفتح البرجية - مقابل منزله الاوبرا

الانكليز بغداد عام ١٩١٧ مع التاج وتمثال الجمل وبعض الاصلاحات والاضافات الاخرى على البرج .

وكان تمثال الجمل الذي وضع فوق مرتكز الرمح قد صنع من البرونز للقائد الانكليزي «الجمن» الذي جاب الصحراء العراقية وهو يركب الجمل فاسقط هذا التمثال مع التاج من فوق برج الساعة بستوط النظام الملكي في العراق في تموز عام ١٩٥٨ . .

وكانت تعترض ساعة القشلة مشاكل بسيطة وسببها المطر والفيار اللذان يدخلان الساعة عبر الشيايبك فيؤديان الى تعطيلها عن العمل مما يستوجب مسحها وتنظيفها وطلاءها بالدهن باستمرار . . وكان الرجل المسؤول عن كل ذلك وعن توقيتها وضبطها وادامتها يدعى السيد عبداللطيف احمد الساعاتي وهو في العقد السابع من العمر عايش هذه الساعة وظل يعمل معها قرابة النصف قرن ، وقد توفي رحمه الله في مطلع عام ١٩٧٨ . . وقد خلفه في هذه المهمة المدعو السيد جبار وهو شاب في مقتبل العمر فنتمنى له العمر المديد ومزيدا من الاهتمام في رعاية اقدم ساعة في بغداد . .

ساعة القشلة وتجربة التوقيت في الاذاعة والتلفزيون

ثبت ان ساعة القشلة من الساعات المضبوطة في توقيتها لان حركتها (ميكانيكيها) مؤسسة على اجود وادق النظريات في صناعة الساعات ولهذا السبب ومنذ تاسيسها كان اعتماد الكثير عليها في توقيت ساعاتهم . . لذا يجب ان تنال هذه الساعة قسطا كبيرا من الاهتمام والرعاية لادامة ضبطها للوقت . وبهذه المناسبة نطرح وسبق ان طرحنا اكثر من مرة تجربة مهمة تمه الجميع لعل المؤسسة العامة للاذاعة والتلفزيون ان تفيدها في ضبط الوقت داخل المؤسسة على الاقل فيكون بإمكان اذاعة بغداد وصوت الجماهير وتلفزيون بغداد ان ينهوا الخلاف والاختلاف الذي لا يزال مستمرا بل صار مزمننا . . فتدق الساعة في احدى هذه المحطات في الوقت الذي نسمع فيه نشرة الاخبار قد بدأت تداع من محطة اخرى ، والبرنامج المقرر لم ينته بعد في المحطة الثالثة وهكذا يقع المواطن في حيرة من امره وهو ممسك بزمام ساعته يريد ضبط الوقت فيها وتوقيتها ! ! . .

والتجربة تتلخص في شروع الاذاعات البريطانية

الليل والفجر حيث يستيقظ على دقائق العمال والموظفون ليذهبوا الى اعمالهم اضافة الى انها كانت تزنها المصاييح مما يساعد على رؤيتها من مسافات بعيدة في الليل . . اما اليوم فان النباتات العالية حجبتها عن الانظار كما حجبت صوتها عن الاسماع وكان الناس قد اعتادوا ان يضبطوا ساعاتهم والموظفون ان يتبينوا بها مواعيد بدء الدوام الرسمي وانتهائه من دواوين الحكومة فهي الحكم الفصل في كل اختلاف بالزمن .

بنيت القشلة وبرج ساعتها وبعض ابنيصة مدحت باشا التي تميز بها عهده من حجارة سور بغداد الشرقية حيث كان قائما يومذاك ، وقد هدمه الوالي المذكور على اعتبار ان بغداد ليست في حاجة له بعد استعمال المدافع كاسلحة حديثة في الحروب ودك الحصون .

انتصب برج ساعة القشلة الذي يطل على شاطئ دجلة الشرقي على مساحة مربعة الشكل طول ضلعها اربعة امتار يضيق كلما ارتفعنا عن الارض شبيها بالهرم وكان في تصميمه ايضا يشبه الى حد بعيد المذنة ، وارتفاعه ثلاثون مترا ، وبداخله سلم حلزوني يحتوي على (٧٣) درجة ، وفي نهايته حوض كبير يضم مكائن الساعة ذات الجهات الاربع ، كما يوجد ايضا جرس الساعة الذي يبلغ ارتفاعه مترا واحدا وقطره ثلاثة امتار وهو منفصل عن الساعة وعند عملية التشغيل تتصل الساعة بالجرس بواسطة جسر صغير ، وتتم عملية النصب بواسطة مفتاح يشبه الى حد كبير « هندر السيارات » لتعطي الساعة قوة تشغيل لمدة عشرة ايام والجرس لمدة سبعة ايام . ولهذه الساعة اربعة اوجه فالوجهان الجنوبي والغربي على التوقيت الغربي (العربي) وتشير عقاربها الى الزمن بالرقم العربي المألوف ، اما الوجهان الاخران وهما الشمالي والشرقي فعلى التوقيت الزوالي (الفرنجي) وتشير عقاربها الى الزمن بالرقم اللاتيني القديم . .

ويحتل برج الساعة سهم حديدي قائم يرتبط في منتصفه بسهم حديدي بشكل أفقي متحرك يؤشر هذا الرمح حركة الرياح واتجاهاتها . . ويوجد سهم آخر تحت السهم المتحرك رسم فيه الحروف (N) بالانكليزية ويعني اتجاه الرياح الشمالية ، والحرف (S) ويعني اتجاه الرياح الجنوبية حيث يؤشر السهم المتحرك عند هبوب الرياح على واحد من هذين الحرفين لمعرفة اتجاه الرياح ، وقد صنع مؤشر الرياح هذا عند دخول

لدفن الموتى في ساحة الصحن وأبوانه وحجراته ،
وتذهيب المنائر الأربعة الكبرى من حد وقوف المؤذن
الى قمتها ، وتشبيد سور مرتفع للصحن يتكون من
طابقين بالأجر بعد أن كان من اللبن ، ثم تأسيس
قاعدتين ضخمتين في سطح الطابق الثاني من الصحن
فوق البابين الرئيسيين في جانبي الشرق والجنوب
لتقوم عليهما أبراج الساعتين ، وقد استغرق هذا
البناء الضخم أربع سنوات ، ومن ثم تم نصب
الساعتين المذكورتين عليهما .

وقد امتازت الساعة التي نصبت على الباب
القبلي بفخامتها إضافة الى قدمها وجمال برجها ؛
فكان بداخل البرج سلم خشبي ذو عشرين درجة .
أما آلة الساعة فقد ركزت في الطبقة الثانية وهي
ذات أربعة اوجه مدورة ، تدق الساعات والانصاف
والارباع وتحتوي على جرس ومطرقة فخمين ..
وكان الصوت المنتبع منها عاليا جدا يضم الاذان
فأفرغت في الجرس كمية من الرصاص للتخفيف من
حدة الصوت .. ويبلغ ارتفاع البرج اعتبارا من
سطح الباب الى القمة - وهي على شكل خوذة
ذهبية الطلاء - ستة عشر مترا ونصف المتر ، كما
بلغ عرض الكتابة ثلاثة أمتار ، وغرفة الآلة خمسة
أمتار .. وقد زاد في روعة منظرها ذلك الكاشاني
الجميل النقش والزخرفة البديعة اللذان يكسوان
جدرانها ..

ومن اهم المشاكل التي كانت تعترض الساعة انذاك
انها حين تتوقف عن العمل ويعجز المصلحون المسلمون
عن تصليحها يتخرج الموقف بدخول المصلحين الاجانب
الى المسجد المقدس بدافع الاضطراب .. ومن طريف
ما يروى عن تصليح هذه الساعة يوم توقفت مسا
ترويه السيدة « مدام دبولافوا » الأدبية والمؤرخة
الفرنسية يوم زارت العراق برفقة زوجها المهندس
« مارسل دبولافوا » ودونت مشاهداتها في رحلتها
المشهورة سنة (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) .. وفي رحلتها
من بغداد الى الكاظمية بالكاري برفقة خادم القنصلية
الفرنسية تذكر انهم تعرفوا في بغداد على مهندس
فرنسي خبير في تصليح الساعات يعمل في بغداد
ويدعى « الميسومولك » فزودهم بتوضيحات كافية
عن المسجد الكاظمي المقدس ، واعطاهم صورة
موضحة المقبرة بكافة مرافقها بعد ان نقلوا اليه
تفاصيل سفرتهم غير الموقفة هذه ، وحدوثه بما راوه
من صعوبات ومضايقات في زيارتهم لهذا المسجد ،
ولم يستطع هو ايضا الدخول اليه في مبدأ الامر
لكونه نصرانيا ، لكن الساعة الكبيرة في الصحن توقفت
دقائقها الكبرى في يوم من الايام وتصر تصليحه فتبرع

في التوقيت على ساعة (بكن) الشهيرة في لندن
وكذلك الاذاعات والتلفزيون في الشقيقة جمهورية
مصر العربية في التوقيت على ساعة جامعة القاهرة ،
فحين تدق الساعة في الجامعة تكون قد دقت في
دخول الاذاعة والتلفزيون معا في اللحظة ذاتها وهذا
مما يجنبها الاختلاف في ضبط الوقت ، وسوف لن
تكون هذه التجربة بأقل نجاحا مع ساعة القنصلية
اذا اريد لها ان تكون اساس التوقيت لمدينة
بغداد ! ! .

ساعة الكاظمين (١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م)

ومن ساعات بغداد القديمة ذات الأبراج ساعتان
المشهد الكاظمي الذي يضم قبري الامامين موسى
الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام ، فكانت الاولى
على الباب الشرقي مقابل ساحة النافورة ، والثانية
على الباب القبلي ، وكان قد اهدى الساعة الاولى
وهي من الساعات الكبيرة الوزير الإيراني « دوست
محمد خان » عام زيارته للعراق بصحبة ملك ايران
ناصر الدين شاه سنة (١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م) ولما
لم يكن لها موضع تنصب فيه فقد بقيت في مخزن
الهدايا العائد للمسجد الكاظمي الى حين شيدت
قاعدة وبرج تنصب عليه ، وتم ذلك في حدود سنة
(١٣٠١هـ / ١٨٨٢م) وهي قائمة الى اليوم تعمل
بانظام ..

أما الساعة الثانية وهي اكبر واضخم من
الاولى فقد وضعت على الباب القبلي وقد اهدى
هذه الساعة أحاج محمد مهدي ابوشهري الإيراني
بعد تشييد القاعدة الثانية والبرج وكان ذلك سنة
(١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م) .

وقد ارتبط تاريخ هاتين الساعتين بالمشروع
الضخم لتجديد عمارة المشهد الكاظمي والذي
تطوع على الانفاق عليه الامير (فرهاد ميرزا
الفاجاري) عم ناصر الدين شاه عام
(١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م) . وقد أوكل على ذلك اثنين
من كبار تجار الكاظمية وهما الحاج عبدالهادي
والحاج مهدي الاستراديان للقيام بهذه المهمة واذن
لهما التصرف بالطلب والانفاق غير المحدود ،
فكان بدء العمل بالعمارة يوم (١٧ ذي القعدة -
١٢٩٦هـ / ١٨٧٨م) والانتها منه بجميع ما فيه في
(١٧ - ربيع الاول - ١٣٠١هـ / ١٨٨٢م) واحتفل
بهذه المناسبة لمدة ثلاثة ايام ، ويقال ان مجموع
نفقات هذه العمارة بلغ مائتي الف ليرة عثمانية ..
وقد اشتمل هذا التعمير على بناء سراديب منظمة

هرميا حتى يصل عرض ضلعه المترين ونصف المتر وهي شبيهة بساعة القشلة الشهيرة في كثير من الوجوه .. وتعرض هذه الساعة من المشاكل ما تعرض ساعة القشلة من مطر وغبار مما يستوجب مسحها وتنظيفها وطلاءها بالدهن باستمرار ويقوم بكل ذلك وعن توقيتها وضبطها وادامتها رجل في المقعد السابع من العمر وهو من الهنود المسلمين الذين نذروا انفسهم لخدمة الحضرة الكيلانية المقدسة ويدعى هذا الرجل (غلام دستكير) الذي ظل يزاول خدمته هذه منذ اربعين سنة ونيف والى يومنا هذا ..

الساعة الاعظمية (١٣٥٠هـ / ١٩٣٠م)

يحق لكل عراقي ان يتبه فخرا واعتزازا بكل ما ابدعته اليد العراقية الماهرة في الحقل الصناعي على مر العصور ويزهو بنفسه على ذلك المعطاء الثر الذي قدمه للانسانية مساهمة منه في كثير من مجالات الفكر والعلم والفن والصناعة . وقد اثبتت الابام بان كثيرا من القابليات والكفاءات ظلت فترة من الزمن مطوية في عراقنا الحبيب حتى اذا ما تهيأت لها الفرص المسعفة برزت للوجود فبرهنت للملا على نبوغ العراقي وابداعه في جميع المجالات وكشفت عن قابلياته وجلت مواهبه ونهضت دللا على ان النبوغ والابداع لا يختصان ببلد دون اخر وينفرد بهما شعب دون سائر الشعوب . وكان من هؤلاء النوابع المبدعين الذين تهيأت لهم فرص العمل بمصامية فذة وبمقلية مبدعة متطورة المرحوم الحاج عبدالرزاق محسوب الاعظمي منشيء الساعة البغدادية المشهورة باسم « ساعة المعرض » او الساعة الاعظمية نسبة الى الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي - رحمه الله - .

وتبدأ قصة هذا الصانع الوهوب مع الساعة الاعظمية في عام (١٣٣٧هـ / ١٩١٩م) يوم اهدت الساعة الكبيرة ذات الوجين والتي كانت منصوبة في الحضرة الكيلانية كما قدمنا الى جامع الامام الاعظم لتصلحها ونصبها فيه غير ان هذه الساعة كانت قديمة وقد تلف الكثير من اجزائها اثناء رفعها ، وقد طلبناظر الاوقاف في حينه الى سلطات الاحتلال البريطاني ارسال خبير لتصلحها ، كما كتب الى الدوائر المختصة للقيام بذلك ، غير ان النتيجة كانت سلبية مما اضطر دائرة الاوقاف الى الاعلان عنها في جريدة المراق الصادرة في (١٧ شباط ١٩٢١) تطلب من بعض المتعمهدين من ذوي الاختصاص في موضوع تصليح تلك الساعة مراجعتها

هو لاصلاحه وتشغيل الساعة ، فحمل ادواته الهندسية ، وآلة التصوير الدقيقة في الوقت نفسه واستطاع ان يلتقط عدة صور من فوق السطح والبرج ومن الجوانب المختلفة . وتذكر السيدة مدام ديولانوا : ان الدليل خادم القنصلية الفرنسية وهو مسلم هندي وكان يلبس الطربوش ويجيد اللغة العربية المحلية - قد اكد انه لم يسبق لاحد الا فرنج ان دخل هذا المشهد المقدس ابدا .. !! .

ساعة الحضرة الكيلانية (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م)

وبعد بضع سنوات من نصب ساعة الكاظمين اهدت من المسلمين بالهند ساعة كبيرة ذات وجهين تدق الساعات وانصاف الساعات فقط الى الحضرة الكيلانية المقدسة في بغداد ، وفلا تم نصبها في الحضرة المذكورة وكانت تعمل بانتظام حتى حلت محلها ساعة ضخمة اخرى ذات اربعة اوجه كبيرة وهي الساعة القائمة اليوم في صحن الحضرة الكيلانية ، ورفعت الساعة القديمة من محلها وقدمت هدية الى مديرية الاوقاف لتنصب في جامع الامام الاعظم في الاعظمية .. اما الساعة الجديدة فهي ذات اربعة اوجه مدورة كبيرة وتحتوي على ثلاثة اجراس احدها للساعات والاخر لنصف الساعات والثالث للاربعاء .. وقد تم صنع هذه الساعة الفخمة في معامل (بونيه) الشهيرة في مدينة بومبي بالهند . وقد شيد لها المرحوم عبدالرحمن النقيب ، نقيب اشراف بغداد الاسبق المتوفى سنة ١٣٤٥هـ ، برجاً عالياً يبلغ ارتفاعه (٣٠) متراً ، وكان الانتهاء من تشييده في سنة (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) كما هو مدون على واجهة البرج الشمالية بالكاشاني الازرق البديع ، ونقشت طغراء السلطان عبدالحميد خان بالكاشاني الازرق ايضا وتحتها سنة ١٣١٧هـ على واجهته الغربية ، وثبت لوح من الرمر كتب عليه اطراء وثناء ودعاء للسلطان عبدالحميد الثاني على واجهته القبلية وكانت هذه الكتابات بخط السيد عبدالجبار آل خان زاده رئيس كتاب مديرية اوقاف بغداد سابقاً والمتوفى سنة ١٣٣٤هـ . وكان البرج من صنع المعمار البغدادي الحاج اسطه درفي الذي حاكي في بنائه برج ساعة القشلة وكان لا يخلو من بعض الاضافات منها المحجران السفلي والعلوي فوق حجرة الساعة واللذان يحيطان بالبرج من جهاته الاربعة ، ويرتقى الى الساعة من داخل البرج بسلاسل خشبية .

وقد قام هذا البرج على قاعدة ارضية طول ضلعها ثلاثة امتار ونصف المتر ثم يرتفع البرج

معمله الكائن في الاعظمية وقد تجاوزت افاقه بأصداه
دقات تلك الساعة وهي تملن عن الوقت بانتظام
وتبارك جهود السيد محسوب وعمله المبدع في خدمة
بلاده .. ومما هو جدير بالذكر ان جميع اجزاء
هذه الساعة والانتها كانت عراقية الصنع مائة في
المائة بحيث لم يستورد اي جزء لها من الخارج اذ
قامت بصنعها وهندستها الايدي الفنية العراقية
في معمل محسوب وباشرافه .

ولما اقيم المعرض الزراعي الصناعي في حدائق
بياب المعظم في بغداد والذي افتتح في (٧ نيسان -
١٩٣٢م) في عهد الملك فيصل الاول ، نقلت اجزاء
هذه الساعة الى حدائق المعرض في الفترة ما بين
(١-١٠ آذار-١٩٣٢) لتتنصب على ارضها ، فكانت
هذه الساعة الشامخة - والتي فازت بحق وجدارة
بالجائزة الاولى - من ابرز المعارضات واجدرها
باهتمام الجمهور . واخيرا وبعد هذا الفوز الساحق
على غيرها من المعارضات وافقت الاوقاف على
تسليمها وتسليمتها بالفعل لا لتوضع في جامع الامام
الاعظم وانما لتوضع رهن التوقيف والحجز في احد
مخازنها فداهما النصداء وكادت ان تلتف لولا ان
تداركها قرار مجلس الوزراء الصادر بعد ثورة تموز
المجيدة عام ١٩٥٨م والقاضي بالافراج عنها ونصبها
على برج يناسبها في جامع الامام الاعظم ..

بقيت الساعة تعمل بانتظام في حديقة المعرض
حتى اواخر شباط من سنة ١٩٣٣ حيث طلبت
السلطات المختصة من صاحبها رفعها من مكانها
فاعيدت الى المعمل في الاعظمية .. وهناك وضعت
الاتها بعد تفككها في صناديق انتظارا لنصبها في جامع
الامام الاعظم .. وقد استمرت دائرة الاوقاف تماطل
في بناء البرج متطلة بشتى المآذير بالرغم من الحاح
صاحبها الذي توفاه الله في (٧-١١-١٩٥٣) وفي
نفسه حسرة لانه لم يشاهد ساعته فوق برجها
الذي صممه وفقا لذلك حتى هيا الله لها ان تنصب
اخيرا في اواخر عام ١٩٥٨ في مكانها الحالي في ساحة
جامع الامام الاعظم بجهود نجل صانعها الدكتور
صالح عبدالرزاق (عضو محكمة تمييز العراق
سابقا) وبمساعدة اخوته ..

ومن طريف ما يروي ان السيد فؤاد حفيد
الحاج عبدالرزاق محسوب كان تلميذا في مدرسة
الاعظمية الثانية للبنين واحتاجت مدرسته السي
جرس لتنبية الطلاب الى مواعيد الدروس والفرص

وكان ذلك الاعلان بتوقيع الحاج حمدي الاعظمي
(العالم الفقيه والاستاذ في تدريس الشريعة
الاسلامية في كليات بغداد ومؤسس المكتبة المعروفة
باسمه والكائنة في محلة السفينة بالاعظمية) .
وكان آنذاك مديرا للاوقاف ، فلم يلب الطلب احد .

وفي (١٩ آذار ١٩٢١) تقدم اليها الحاج عبد
الرزاق محسوب الاعظمي متعهدا بتصليحها ، فلما
فحصها وجدها غير صالحة ، فراودته فكرة القيام
بصنع ساعة مثلها ، فاعلن تعهده على انشاء ساعة
جديدة بعد ان ذكر ان الساعة القديمة لا يمكن
اصلاحها .. وقد وافقت مديرية الاوقاف على
الطلب بتاريخ (٢٠ آذار ١٩٢١) وكتبت له بتاريخ
٢٤ منه بموافقتها على قيامه بصنع ساعة جديدة
بدلا عن تلك الساعة التالفة .. وفي ٢٥ منه بدأ
المشروع ينفذ في معمل محسوب في الاعظمية
(ولا تزال بناية المعمل قائمة حتى اليوم في محلة
الشيخ قرب جامع ملا خطاب) ..

وكانت فكرة رائعة تحكمت في احاسيسه
ومشاعره حتى اقضت مضجعه في الليل واستنزفت
الكثير من وقته في النهار ، فراح يرسم خطوطها
الرئيسية منذ تلك اللحظة ودب نشاط غير اعتيادي
في معمل السيد محسوب الذي راح يوزع الاعمال
بين عماله باهتمام بالغ وجدية ملحوظة وفي ذهنه
تصميم لصنع ساعة كبيرة مع هيكلها الخاص ذات
اربعة اوجه بدلا من تلك الساعة ذات الوجهين .
وهكذا واصل السيد محسوب عمله المضني في صنع
هذه الساعة بهمة لا تعرف الكلال والامل وبمساعدة
ولديه السيدين محمد رشيد وعبدالهادي حتى
افرج في سبيل ذلك كل جهد وانفق كثيرا من المال
فانم صنعها بتاريخ (٢٨-١٢-١٩٢٩م / ١٣٥٠هـ)
وبعد الانتهاء من صنعها وتنظيمها واجراء بعض
الفحوص والتجارب عليها امام جمهرة من اهل
الخبرة وشاهدي العيان طلب من ادارة الاوقاف
تسليمها هبة منه وبدون عوض بدلا من تلك الساعة
التالفة لتقوم بنصبها في جامع الامام الاعظم متبرعا
بها لوجه الله تعالى ، وطلب اليها القيام ببناء البرج
المناسب لها وارفق طلبه بمخطط لذلك البرج . الا
ان العقليات القاصرة وغير المدركة التي كانت تسيطر
على شؤون الاوقاف حينذاك تشككت في صنعها
فاخذت تماطل في ذلك . واخيرا رفضت تسليمها
فاحتفظ بها واقام لها برجاً حديدياً في جانب من

فوجد التلميذ معلمه المرشد بتهيئة جرس للمدرسة المذكورة وفعلا بر التلميذ بوعده فجلب جرسا من اجزاء ساعة جده المفككة وكان يحجم جمع الكف ولما استعمل كان له رنين واضح يفوق حجمه بكثير وكانت تلك بداية معرفة تلاميذ مدرسة الاعظمية بتلك الساعة العربية ..

وبعد ثورة تموز ١٩٥٨ عهد الى وزارة الاسكان بناء الابواب الرئيسية وسياج الجامع مع برج الساعة ، وبعد وضع التصاميم والخرائط بوشر بالعمل ونفذ بناء برج الساعة بالكونكريت المسلح وعلى شكل اسطوانتي وبارتفاع (٢٥) مترا ومحلته قرب الباب الرئيسية من جهة الشرق ثم كسيّ البرج بالفيسفساء الايطالي ذي اللون الازرق والابيض ، كما بنيت الابواب على شكل اقواس ثلاثة بالكونكريت المسلح ايضا كما كسيت بنفس النوع من الفيسفساء . وبعد اكمال بناء البرج سنة (١٣٨١هـ / ١٩٥٨م) نصبت الساعة المذكورة اعلاه وهي قائمة تعمل بانتظام ودقة ..

وفي سنة ١٩٧٣م قامت الاوقاف باكساء البرج بصفائح من معدن اللنيوم المضلع ذي اللون الذهبي فزاد ذلك من روعة منظره ..

اما عن وصف هذه الساعة : فقد بلغ ارتفاعها ثمانية اقدام ، وهي ذات وجوه اربعة مدورة ، وقطر كل منها متران ، وعلى كل وجه ثلاثة عقارب ، اثنان منها يشيران الى الدقائق والساعات والثالث يشير الى الايام ، وصممت هذه الساعة على مبدأ الثقل حيث يتدلى منها ثلاثة اثقال تحرك ثلاث مكانن ويضع موقع الثقل الاول في الوسط وهو الذي ينظم حركة العقارب ، وموقع الثاني من الجهة اليمنى وهو الذي ينظم دقات ارباع الساعة ، وموقع الثالث في الجهة اليسرى وهو الذي يعلن بدقات قوية عن الوقت ، ويبلغ وزنها ثمانية اطنان من الحديد ..

وليس ادل على مبلغ ما استأثرت به هذه الساعة من اهتمام رواد المرض الزراعي الصناعي عراقيين واجانب مما اورده (امين الريحاني) خطيب المرض المذكور عند افتتاحه فقال يصف

المشهد الرائع والحدث المهم في تاريخ النهضة العراقية : « .. وكان الناس محتشدين حول الساعة العظيمة - الاعظمية - التي صنعها احد ابناء البلدة المشرفة باسم الامام الاعظم وبحجرته لتمرض في معرض الزراعة والصناعة ببغداد ، وكانت الساعة قائمة في باحة المرض الكبرى فوق قاعدة عالية من الحديد ، وهي تردد نبا الزمان - ايامه وساعاته ودقائقه - وتبشر العراق بعهد جديد . والناس متلعون ، والعيون منهم محدقة بهذا الاثر الصناعي العربي البغدادي الاعظمي ، والكل معجبون به - هذه الساعة مفخرة المرض ، والله بل مفخرة للعراق - ومن ذا الذي يقول ان العقل العربي غقيم لا يحسن الاختراع - انها بيت القصيد في هذا المرض - وقد قال احدهم : قد يكون صانها من سلالة ذلك العربي الذي صنع الساعة التي اهداها الخليفة هارون الرشيد الى عاهل الفرنجة الامبراطور شارلمان .

ترجمة الحاج عبدالرزاق محسوب

وجدير بنا هنا ان نتعرض لحياة الحاج محسوب ومواهبه وخبرته الفنية الصناعية في غير مجال عمل الساعات وتلقي بعض الضوء على فترة من فترات التاريخ مرت على عراقنا الحبيب من خلال حياة صانع الساعة الاعظمية :

ولد الحاج عبدالرزاق محسوب في بلدة الاعظمية يوم كانت قرية من قرى بغداد سنة ١٢٩٢هـ ، وقد دخل المدرسة الابتدائية ولم يتمها بعد ان تعلم مبادئ القراءة والكتابة فيها فتركها وانصرف ينمي رغبته الى تعلم احدي الحرف الصناعية فاختر حرفة التجارة فابدى فيها براعة متناهية ، وقد مارس هذه المهنة حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى حيث ارسل كجندي اجباري مع القوات العثمانية لمحاربة الانكليز في جنوب العراق ، واشترك في معركة « الحويزة » .. وعندما انتصر العثمانيون في هذه المعركة وغنموا من الانكليز مدفعين كانت القوات البريطانية قد جردت احدهما من جميع آلاته الدقيقة ومنها (القامة) ..

وبالنظر لعدم توفر الاسلحة الحديثة لدى القوات العثمانية فقد حاولت الاستفادة من هذا المدفع ولذلك عرضته على مهندسها المختصين

بضاعة الاسلحة فقرروا عدم صلاحه وعدم امكان
تصليحه لتعذر توفير الآلات المفقودة وعدم تمكن
المعامل العثمانية من صنعها .

وقد دفعت الحمية الدينية المرحوم عبدالرزاق
فطلب الى السلطات العسكرية قبول استعداده
بصنع نوافص المدفع المذكور على مسؤوليته
الخاصة واحتماله عقوبة الاعدام في حالة فشل
المهمة ، وبعد مراجعات طويلة ومتعددة والحاح
متزايد وافقت السلطة العسكرية على طلبه في تصليح
الادوات المفقودة على ان يباشر عمله هذا في معمل
(المباحنه) ببغداد ، وبعد عراقيل كثيرة وضعها
في طريقه المهندسون ومدراء المعمل يدفهم لذلك
عامل الحسد والغيرة اتم بنجاح صنع جميع الآلات
الناقصة في المدفع ، واجريت تجربته بنجاح قرب
الاعظمية خلف ثكنة الخيالة وبحضور القائد يوسف
ضياء بك وغيره من كبار العسكريين وجمع غفير من
الاهالي .. ومن اطرف ما يروى عنه : ان شركة
انكليزية معينة افتتحت لها فرعا في بغداد ابان
الاحتلال الانكليزي وحصرت استيراد الادوات
الحديدية والاحتياطية بها وراحت تفرض على
سلعها اسعارا خيالية لا يقبلها العقل فكان الحاج
عبدالرزاق محسوب يذهب لقر الشركة ويتناول
الاداة التي يحتاجها ويبدأ يتفحصها بدقة اثناء
المساومة حتى يتأكد من شكلها وابعادها ومقاييسها
ثم يقلل راجعا لمعمله لينتج اشباها لها يبيعها بانمان
زهيدة حتى ضج منه مدير الشركة بعد ان علم بحاله
فاصدر تعميما يقضي بمنع دخوله الى مقر الشركة
.. هذا هو الصانع البغدادي الوهوب الحاج
عبدالرزاق محسوب رحمه الله وجعل مثواه فسيح
جناته .. !! .

ساعتنا المحطة العالمية

وجدير بالذكر في معرض هذا البحث ان نذكر
ساعتي محطة السكك العالمية وقد نصبت هاتان
الساعتان على برجين شامخين يرتفعان على واجهة
الباب الشرقي من ابواب هذه المحطة التي اكمل
بناؤها عام ١٩٥٥ ، وما اروع وازهى منظر البرجين

وهما يحتضنان القبة الزرقاء ذات الطابع الشرقي
الاسلامي .. وقد علت كل برج منهما ساعة كبيرة
ذات الوجه الواحد المدور ، فالساعة الجنوبية منهما
تعلن عن الوقت بالتوقيت الغرويبي (العربي) .
والساعة الشمالية تشير الى الزمن بالتوقيت
الزوالي (الافرنجي) .

الساعات وامانة العاصمة

ان امانة العاصمة كدائرة من دوائر الدولة
وجهاز حيوي انيطت به مسؤوليات جسيمة تتجلى
بالخدمات الاجتماعية المتنوعة لسكان العاصمة
وتحقيقا لشعار « من اجل بغداد اجمل » ادركت
مهامها وعملت وما تزال وبشكل مستمر من اجل
اضفاء المسح الجمالية لوجه مدينة بغداد .. ومن
هذه المهمات ادراكها لاهمية الوقت بالنسبة
للمواطنين واعترافا منها بقيمته حيث اصبح ضبط
الوقت حاجة اجتماعية عامة لذا اهتمت بتوفير
امكانيات معرفة الوقت بنصب الساعات الزمنية
الجدارية وساعات الزهور الناطقة والساعات
البرجية ..

ساعات الزهور

وكانت ساعة الزهور التي نصبت في احدى
ساحات متنزه الزوراء باكورة اعمالها في هذا
المجال .. وبعد ذلك عممت الفكرة بشكل اوسع
فنصبت ساعة زهور ثانية ذات الوجه الواحد في
« متنزه الاعظمية » الكورنيش . وساعة ثالثة ذات
الوجه الواحد ايضا في « ساحة النصر » في الكرادة
الشرقية ، وساعة زهور ناطقة رابعة في « متنزهات
شارع ابي نواس » مقابل مديرية الحفر والآلات
الزراعية ، كما نصبت ساعة زهور ذات الوجه
الواحد في « ساحة الامام الجواد » المقابلة لمرکز
شباب الكاظمية، اما الساعة السادسة والاخيرة فهي
ساعة زهور ناطقة ذات الوجهين نصبت في الساحة
التي يلتقي عندها شارعا حيفا بموسى الكاظم في
منطقة الجعيفر في الكرخ وهي « ساحة الشهيد
حماد شهاب » .

اما الان فقد رفعت من مكانها بعد ان عيشت
بها يد الاطفال فخربتها وعطلتها عن العمل ..

الساعات البرجية

« ساحة كمال جنبلاط » في الكرادة الشرفية - الزوية - وأخرى في « ساحة جمال عبدالناصر » في الصاحية وأخرى في « ساحة النهضة » على شارع الجمهورية ..

والجدير بالذكر ان جميع هذه الساعات تشغل وندار بواسطة التيار الكهربائي ، ومن عيوب ذلك ان اصبح الخطط مرضا مزمنيا فيها وذلك يحصل بسبب انقطاع التيار الكهربائي عن بعضها فتتوقف عن العمل لحين عودة التيار الكهربائي اليها وحين يعود تكون الساعة قد اشارت الى الوقت بشكل خاطيء عن الوقت الصحيح مقدار الفترة الزمنية التي قطع فيها التيار عنها ، ونلاحظيا لئلا هذه الحالات وغيرها فقد خصصت امانة العاصمة كادرا متخصصا من العمال والمهندسين الكهربائيين لصيانة وادامة تلك الساعات والاشراف عليها بصورة مستمرة من حيث نصب وضبط وقت تلك الساعات واصلاحها في حالات الخلل الذي قد يطرا عليها . وهذه الكوادر المتخصصة لديها الاجهزة والنوازم الخاصة بذلك ، علما بان اصلاح الساعة لا يمكن ان يتم بشكل فوري بل يحتاج الى الوقت الذي يتم فيه التبليغ حيث تنقل فيه وحدة صيانة اليها لتقوم باصلاحها ..

وقد روعي في توزيع هذه الساعات المكان المناسب لنصبها وتحقيق اوسع خدمة للجمهور لذا فقد وضعت في التقاطعات المهمة وبعضها باربعة وجوه بينما البعض الاخر بوجهين او وجه واحد فقط .. اما ساعات الزهور الارضية فقد اختير لنصبها بعض الساحات المهمة تحقيقا لغرضين في آن واحد : اضافة مسحة جمالية على المدينة وضبط الوقت فيها .

ان الاهتمام بتوفير هذا العدد من الاجهزة التوقيت في الشوارع والساحات العامة والمتنزهات يدلل بوضوح على تزايد الادراك بقيمة الوقت في حياة الشعوب المتطلعة الى حياة افضل .. وان فكرة تميم هذه الساعات وهذا الاهتمام بالوقت جاء في وقت متأخر من قبل المسؤولين في امانة العاصمة حيث كانت البداية في نصب الساعات المذكورة آنفا في سنة ١٩٦٨ وما زالت الجهود متظافرة لتعميمها على المناطق المهمة في مدينة بغداد وضواحيها ..

والى جانب الساعات الزمنية الجدارية وساعات الزهور الناطقة . قامت امانة العاصمة مجموعة من الساعات المتعددة الوجوه والمعلقة على ابراج ذات تصاميم متنوعة ومتعددة الاشكال . فقد نصبت ساعة برج ذات اربعة وجوه في « ساحة الشواف » في كرادة مريم في الكرخ .. وساعة برج ثانية في « ساحة يونس السبعوي » ساحة الطيران سابقا وهي ذات وجهين احدهما باتجاه شارع بور سعيد والاخر باتجاه شارع بي تمام وهناك ساعة برج تالئة ذات اربعة وجوه في « ساحة الفتح » مقابل منزله الاوبرا في منطقة الكرادة الشرقية ، اما الساعة الرابعة فهي ذات وجهين نصبت في « المدخل الرئيسي لمنزله الزوراء » .. والساعة الخامسة ذات الاربعة وجوه في « ساحة باب المعظم » . وقد رفعت الان بسبب مقتضيات تنظيم الشوارع المؤدية الى جسر ١٧ تموز في الباب المعظم على ان تعود في موقعها المناسب بعد اتمام العمل ..

وفي سنة ١٩٧٢ تم نصب ساعة برج الجامعة في « ساحة الحرية » على شارع الجامعة المؤدي الى رئاسة جامعة بغداد في منطقة الجادرية ، وهي ذات اربعة وجوه تقوم على برج يبلغ ارتفاعه خمسة امتار ويرتكز على قاعدة مساحتها حوالي اثنتين مربعين ، وتعلن الساعة عند الاشارة بثلاث لفات هي العربية والانكليزية والفرنسية . والساعة الاخيرة تم نصبها سنة ١٩٧٤ في الساحة التي يلتقي عندها شارع سعد بن ابي وقاص بشارع المثني بن حارثة الشيباني في منطقة العلوية قرب مصلحة المجاري وهذه الساعة ذات الاربعة اوجه وتقوم على برج ذي شكل هندسي جميل ارتفاعه ستة امتار تحيط به ثلاثة احواض كونكرتية دائرية متباينة السعة والارتفاع لاستخدامها في زراعة بعض النباتات المناسبة .. كما قررت امانة العاصمة توسيع شبكة نصب الساعات ذات الابراج في مختلف انحاء بغداد وضمن حدودها وقد شرع العمل لاختيار الاماكن المهمة والمناسبة لذلك في مدينتي الثورة والشعلة وغيرهما من المدن والضواحي ..

وقد تم اخيرا نصب مثل هذه الساعات في

مراجع البحث

- ١ - ارشيف امانة العاصمة .
- ٢ - الباز الاشهب - ابراهيم الدروبي .
- ٣ - بفتاد القديمة - عبدالكريم الملاف .
- ٤ - تاريخ المشهد الكاظمي - الشيخ محمد حسن ال ياسين .
- ٥ - جامع الامام الاعظم - الشيخ هاشم الاعظمي .
- ٦ - رحلات الى العراق - سرواليس بج ، ترجمة فؤاد جميل .
- ٧ - رحلة مدام ديولانوا - ترجمة ونشر علي البصري .
- ٨ - فيصل الاول - امين الريحاني .
- ٩ - قصة الوقت - ناجي جواد الساعلي .
- ١٠ - مجلة امانة العاصمة - العدد (١٤) تحقيق عن بناءة القشلة ، عادل المرادوي .
- ١١ - مجلة امانة العاصمة - المعدادن (١٧ و١٦) الساعات البغدادية ذات الأبراج ، صادق الجميلي .
- ١٢ - مشاهدات ومقابلات شخصية .
- ١٣ - موسوعة المنبات المقدسة (الجزء الاول) - ترجمة جعفر الخياط .
- ١٤ - جريدة الجمهورية البغدادية - عدد يوم الجمعة في ٢١-٢-١٩٧٢ . والعدد الصادر في ٢٠-٢-١٩٧٢ .
- ١٥ - تاريخ المصور القديمة - للصف الاول المتوسط الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ .
- ١٦ - مجلة افاق هربية - السنة الرابعة تشرين الثاني ١٩٧٨ العدد / ٢ بحث للدكتور محمد صديق الجليلي عن (المرولة) .
- ١٧ - خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك - عبد الرحمن سنيط الأربلي المتوفى سنة ٧١٧هـ - طببع مكتبة المثنى - سيرة السننصر بالله العباسي .
- ١٨ - مجلة اهل النفط - (العدد ٧٥) السنة السابعة كانون الثاني ١٩٥٨ . مقال بقلم الدكتور مصطفى جواد بعنوان « الساعات العربية الروحانية » .
- ١٩ - مجلة لغة العرب - المجلد الثاني - صحيفة (٢٨) .
- ٢٠ - مجلة سومر - بحث عن الدرسة المنصيرية بقلم الأستاذ كوركيس عواد - السنة الأولى، الجزء الأول، والجزء الأول والثاني للمجلد الثالث عشر .
- ٢١ - الحوادث الجامعة - لابن الفوطي تحقيق الدكتور مصطفى جواد .
- ٢٢ - تكملة اكمال الاكمال - جمال الدين بن الصابوني - طبعة المجمع العلمي العراقي .
- ٢٣ - نشرة مصلحة نقل الركاب - (العدد ١٥٨) كانون الثاني ١٩٦٥ . من موضوع تحت عنوان « ساعة هربية نتحدى الزمن » للسيد طارق عيسى حسن .
- ٢٤ - رحلة ابن جبير .
- ٢٥ - دليل خارطة بفتاد قديماً وحديثاً - الدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة .
- ٢٦ - مجلة الوعي الاسلامي الكويتية - العدد السابع والثلاثون - السنة الرابعة : غرة محرم ١٢٨٨هـ/مارس ١٩٦٨ ، ص ٩٥ .

مذكرات بغدادى

من دفتر مذكرات المرحوم محمد رؤوف السعودى

(ابو عطف) كتبها في عام ١٩٦٩ م . . .

اطلعتني الاستاذ يحيى السعودى على سجل كتب بخط اخيه المرحوم محمد رؤوف السعودى
يتضمن مجموعة خواطر ومقتبسات في شتى الموضوعات . . ووصف شيق لبعض محال رصافة
بغداد وتدوين صادق لبعض المشاهدات التي بقيت عالقة في الذاكرة عن بغداد الامس القريب . . فاجاز
لي نشرها بعد تهذيبها وتصحيح الاخطاء النحوية فيها . .

★ ★ ★

ترجمة كاتب المذكرات

يقوم مقام العبادة تلبسه المرأة ايام الاعياد والاعراس
كسدت هذه الصناعة وهجرها اهلها ومنهم ابو
عطف . . وفي سنة ١٩٣١م استطاع ان يستاجر
الحانوت العائد لدائرة البرق المركزي في محطة
السكك بالباب الشرقي ويعمل فيه بتواضع بقية
حياته التي امتدت الى اوائل السبعينات حتى
توفاه الله في بغداد في ١٩٧١-٥-٦ . .

قصة السبع اباكار وتحديد مركز الرصافة

في بغداد محلة كبيرة قديمة تدعى (محلة
السبع اباكار) (٢) في جانب الرصافة . . وقصة
السبع اباكار وتسميتها كما سمعتها وشاهدتها بعيني
في طفولتي سنة ١٩٠٤ . . كانت هناك قطعة من
الارض تشرف على دجلة وتظلها بضعة شجيرات
باسقات سامقات ترتفع عاليا مما يدل على قدمها
منها شجرة النبق (السدر) ومنها شجرة التكي
(التوت) ومنها شجرة التين ومن بينها شجرة
واحدة هي (الصفصاف) . . وكانت تقدر
مساحة هذه العرصة زهاء الالف والخمسمائة مترا
مربعا وبنيت امامها على الشط مسناة على عرض
ارضها سمكية وواسعة وقوية وعميقة الفور اتخذت
بئرا ، ولها فتحات بعمق اربعة امتار متصلة بنهر
دجلة الى داخل البئر ، ونصبت على حافة البئر
سبع بكرات من جهتها العليا لجلب الماء من النهر
الى البئر اولا بواسطة الادلاء جمع دلو وسوقه
وتوزيعه بواسطة السواقي الى المسافات البعيدة

هو محمد رؤوف السعودى ويكنى بابسى
عطف . . وابو عطف هذا رجل عركته الحياة
واكسبته خبرة وتجربة ، عاش حياته بمصامحة
فذة واجتازها بسلام ولم يترك لاسرته من متاع او
نشب وانما ترك لها دفتر مذكراته وهو مثخن بشتى
الموضوعات الاجتماعية والفلسفية والتاريخية
والدينية ، كما دون فيه وصفا دقيقا لبغداد
القديمة وما جرى فيها من احداث عاصرها وشاهدها
بنفسه وكتب فيها بأسلوبه الشيق الجذاب . .
يسرد فيه القصص والحوادث التي لم يسمعها او
يقراها المواطن في مكان اخر ، انها جلاء للفاض
والمجهول من تلك الفترة التي عاشها . . ونظرا
لاهميتها آثرنا ان نجتزىء من هذه المواضيع ما
يختص ببغداد واحداثها وشخصياتها ونشرها على
صفحات هذه المجلة عليها تعطي الصورة الحقيقية
عن بغداد ايام زمان والتي يجعلها الكثير من اهل
بغداد اليوم بعد ان طرا على هذه المدينة العريقة
من تغيير وعمران كبيرين . .

ولد ابو عطف في بغداد سنة ١٨٩٣ وعاش
فيها ولم يدرس بمدرسة ولم يتخرج في معهد بل
كانت مدرسته الحياة كلها ، اخذ عنها الكثير وكتب
فيها . . كانت مهنته حياكة الازر ويزاولها في معمل
والده علوان في محلة « صبايغ الال » (١) في رصافة
بغداد . . ولما ذهب الزمان بهذه المهنة بزوال لبس
الازر « والازر لباس خاص بالمرأة المسيحية في بغداد

ثانيا - حديقة دار القنصلية الروسية (القيصريّة) والتي هي اليوم مجموعة المباني والمخازن والعمارات التي تحيط بكازينو شط العرب .. وقد اتخذت دار القنصلية هذه فيما بعد فندقا كان يسمى منذ عهد الاحتلال الانجليزي لمدينة بغداد بـ (اوتيل مود) الذي نقل فيما بعد الى البناية الفخمة على دجلة في محلة السنك والذي هو اليوم (فندق السندباد) .. ويدخل ضمن هذه المجموعة المذكورة ايضا مiazza مسجد آل الباجهجي(٤) وحوضه الكبير والذي ما زال موجودا يصلى به حتى الآن ويقع اليوم في الشارع الفرعي الذي يصل بين شارع الرشيد وشارع النهر وعند مدخله من جهة الرشيد استوديو المصور ارشاك .

ثالثا - تم توصيل الماء الى نكية سيدي البدوي(٥) ومسجده وحديقته الفناء الواسعة والتي كانت تتوسط شارع الرشيد ثم بناية شركة (اسطيطن لنج) (٦) على شارع النهر في راس القرية(٧) .. ولكن عندما فتح خليل باشا(٨) جادة بغداد (جاده سي) من الباب الشمالي (باب المظلم) الى الباب الشرقي منها(٩) ذهب معظم هذه لتكية ومسجدها وحديقتها ضمن الجادة المذكورة وذلك سنة ١٩١٥م ولم يبق منها اليوم الا هذه العمارة المسماة « عمارة السيد البدوي » وقبة وضريح الصقفا بناية العمارة ، والضريح هو لاحد اولياء الطريقة البدوية في بغداد والذي اكتشف في اوائل الستينات باسم الولي (ابو شبيبة) .

رابعا - وكانت تسقي ايضا دار القاصد الرسولي الذي موضعه الآن مقر شركة (حافظ انقاضي) وبضمنها حديقتها المقابلة لها والتي هي الان مجموعة المباني والمخازن والفنادق ودور السكن وعيادات اطباء والصيادلة ومحال الاعمال والتاجر ضمن نصف الدائرة المحيطة من شارع الرشيد الى نفاذ شركة حافظ القاضي قبالة جسر الاحرار المؤدي الى ساحة الوثبة بالتقائه بشارع الرشيد شمالا ويتبعها سينما الرشيد وسينما الوطني وما حولهما من المتاجر والمخازن ودور الاعمال وما حولها من دكاكين البقالة واصحاب المهن من محال ومطاعم وما يعلوها من فنادق ومكاتب وشقق ودور سكن الى غير ذلك مما يرى ويشاهد وكلها كانت حديقة كبيرة وواسعة جدا يحوطها سور عال من الطين زرعت بانواع الفاكهة والحمضيات على اختلاف انواعها وتعلوها النخيل الباسقة ودوالي الاعناب وقد تمددت وانتشرت فوق الفسقيات والشذروانات المظلمة بعناقيد الاعناب على اختلاف طوعومها واشكالها

في الحدائق والبساتين القريبة من النهر وخزانات المياضي - اي احواض الوضوء في الجوامع والمساجد والتكايا - وتوفر المياه الصالحة لها ، وهذه الادلاء مصنوعة من جلود الجاموس المدفبة السميكة والقوية والتي تربط وتدلى من اللولب الكبير الحجم الى عمق البئر تسحبها احدى الدواب فتزول في مدرج او منحدر حتى يلامس الدلو سطح الماء ثم يغمر فيه ويمتلئ الدلو بالماء ثم يسحب الى الاعلى ويسكب الماء في حوض واسع باعلى حافة البئر لتوزيعه الى الجهة المراد توجيهه اليها ثم تكرر عملية الصعود والنزول في هذا المنحدر الواسع الذي يستوعب الحيوانات السبع التي تتناب الصعود والهبوط جملة او فرادى حتى تسقى الحدائق والبساتين وتزود الجوامع والتصور بالماء الكافي ويخزن بعضه بالاحواض والمياضي .. وكان موقع هذه (السبع ابكار) وبشرها الكبير الواسع : البناية المتخذة اليوم (نادي نواب الضباط العسكري) والبناية المجاورة لها والتي هي (فندق جبهة النهر) عند مدخل جسر الاحرار من جانب الرصافة والتي كانت تسمى في العهد العثماني بـ (شريعة بيت الباجهجي) الذين كانت بيوتهم وقصورهم تحيط بمدخل ومنازل هذه الشريعة وتكتنفها من كل الجهات ..

اول اسالة ماء بدينية في بغداد بواسطة (الكرد)(٣) والاماكن السبعة التي تستفيد من مياه السبع ابكار

وكانت هذه السبع ابكار تسقي وتوفر الماء لسبعة اماكن او اكثر على طريقة السقي والارواء القديمة حيث لم يكن هناك آلة ولا ساحة ولا آلة ماصة ولا دافعة ولا ضاغطه بخارية او ميكانيكية غير بشر (الجرد) حتى ولا اسالة مطلقا كما نعرفها الان من السهولة واليسر بفضل التكنيك والالات التي اخترعها واوجدها العقل البشري في كل مجالات الحياة الانسانية .. وهناك وسائل اخرى لجلب الماء وتوزيعه في البيوت وذلك بواسطة الادلاء من البئر المألحة والموجودة في كل بيت من البيوت البغدادية او بواسطة السقائين الذين يجلبون الماء من النهر مباشرة في قيرب من الجلد محملة على ظهور الدواب للشرب والفسيل والطبخ او يجلب الماء من السواقي التي يجري فيها الماء بواسطة الكرد او الناعور من نهر دجلة ان وجد بالقرب منها .. وكانت سواقي السبع ابكار تسقي وتمون وتوزع المياه الى الاماكن التالية :

اولا - دور ومنازل وقصور آل الباجهجي القريبة منها مع حدائقها .

وحجومها .. وكانت من موقوفات السيد عيسى ابن السيد مصطفى بن السيد محمد الشهير بالقطار البغدادي (١٠) وقد جاء شارع الرشيد فشطرها الى قسمين شرقي وغربي وذلك سنة ١٩١٦ م ..

خامسا - تسقي هذه السبع ابيكار بستان (عدول) التي هي اليوم الشارع المسمى بـ (شارع عرصات النعمان) الواقع بين (عقد الجاموس) وبين مصلحة توليد القوة الكهربائية القديمة (المباخنة) (١١) حتى جامع الحاج فتحى (١٢) في العويبة على شارع الجمهورية اليوم ، وكانت هذه بستانا كبيرة تتفرع منها ساقية يدخل اليها الماء الى تكية ومسجد الامام عبدالكريم الجيلي (١٣) احد ائمة الصوفية والذي ذكره كثيرا المرحوم الدكتور زكي مبارك في كتابه «التصوف الاسلامي» .. وكانت له باب يقع مدخلها من (عقد الجاموس) قرب حمام تاجة من محلة الحاج فتحى وله حديقة كبيرة ذات نخيل واشجار يابسة مثمرة .

سادسا - وتتشعب من هذه السبع ابيكار ساقية سادسة لارواء وسقي جامع السيد سلطان علي (١٤) وحديقته الواسعة وتسقي بجواره ايضا مرقد احد السادة العلوية الذي موضعه اليوم وسط شارع الرشيد ، ومسجده الذي خربه خليل باشا عند فتحه جادة (خليل باشا جادة سي) كما كتبت قطعة مربعة تحت الجدار مما يلي قاعدة المنارة القديمة من جامع السيد سلطان علي بقدر متر ونصف المتر من القاشاني الملون خط فيها بخط فارسي (خليل باشا جادة سي) وفي اوائل العهد الملكي ازيلت هذه القطعة وجددت عمارة المسجد وكتبت على لوح معدني بدلها عبارة (شارع الرشيد) واما ما بقي من حديقة وبستان نخيلة فقد شيدت فوق ارضها العمارات والفنادق والتاجر الكبرى المهمة ومخازن وشركات عالية اشهرها شركة بانا للاحذية الجلدية ، وسينما الشعب حتى ملتقى محلة المربعة واولواكبر محل تجاري شيّد على ارض هذه البستان هو (بنابة شركة سيارات فورد) ومخازنها ومحلات تجارية ومعارض سياراتها ومكاتبها ووكلاؤها ومحلات لبيع المحركات والمكائن الزراعية والصناعية وتجار الجملة والمفرد وغيرها من الاماكن المحيطة بجامع السيد سلطان علي ..

سابعا - وهناك تختم السبع ابيكار عملية توزيع المياه بالساقية التي تروي دار (آل الاصغر) وحديقتهم الشرفة على النهر والتي هي ملاصقة لدار القنصلية الروسية في العهد العثماني الحميدي (وعائلة بيت اصفر هي من العوائل العراقية

التجارية التي توكلت في بغداد منذ قرنين فاكثر لعدة شركات انكليزية واوروبية وكانت لها اليد الطولى في ارتباط الوثائق والتعهدات التجارية ليس في بغداد والعراق فحسب بل في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية في الصادرات والاستيرادات والاسواق التجارية والمالية والبورصة والمصارف والبنوك) . ومن جوار حديقة بيت اصفر تجتاز عبر الحائط ساقية خاصة لارواء مسجد وتكية وحديقة وميضة آل (قره علي) وكانت تقوم على قطعة ارض واسعة وقد اتخذتها شركة (اورزدي باك) قبل اكثر من عشرين سنة (اي في الخمسينات) وقد امتتها اليوم الحكومة وسمتها شركة الاسواق والمخازن التجارية العراقية وهي المركز الرئيسي في بغداد ..

هذه هي قصة السبع ابيكار كما اوردناها هنا .. وقد اشترت عائلة البايهجي العرصة التي كانت تقوم عليها السبع ابيكار وضممتها الى ممتلكاتها عند نهاية العهد من القرن التاسع عشر .. وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى شيدت على ساحتها القصور والفنادق كما اخذ اصحاب الكرود المحتاجة الى الماء بنصبها في غير هذا المكان من بغداد ومن هذا التاريخ اهملت واندرست معالمها ثم قضت على البقية الباقية منها مكائن اسالة الماء الحديثة التي عمت كل محلات بغداد منذ سنة ١٩٠٨ م ..

● مدحت باشا واصلاحياته الادارية في بغداد

وقد اشتهرت المنطقة باسم (السبع ابيكار) في زمن الوالي المصلح المجدد (مدحت باشا) الذي وضع مجالس الولايات ومجالس البلديات والمجالس الخاصة بالتصرفيات ، وقسم بغداد الى محلات واطراف وجعل لكل محلة اسما وعين لها مختارا ومعاون مختار ، ورقم ابواب الدور وغير ذلك من الاصلاحات البلدية من توسيع الادارة وتشكيل المحاكم واصلاح السجون وتوسيع المعامل الميكانيكية

اما فيما يخص بحثنا الان من توزيع البلدية الى محلات فقد عرفت هذه المنطقة بالسبع ابيكار من قديم واضيف اليها فيما بعد سكنة محلة العمار والجنابيين وهما من قبيلة (زبيد) اللتان حلتا في بغداد قبل قرون كما حلت اخواتها بقريها (العاجليين) وهم من بني عجيل وبني سويدان وبني سعيد وغيرها من قبيلة زيد التي تقطن في المحلات التي اشتهرت باسم قبائلها في بغداد لحد الآن قبل زمن داود باشا والي بغداد اي قبل اكثر من ثلاثة قرون مضت ! ! .. وكما قلنا ان المنطقة غلبت عليها لفظة

نسميه بشربعة (القوله) والذي هو الان مدارج جسر الجمهورية عندما يعلو فوق شارع الرشيد ويلتقي بشارع ابي نواس المشرف على نهر دجلة من جانب الرصافة في الباب الشرقي ..

وكان طول مدينة بغداد من جهة جانب الرصافة من شريعة القوله (بتفخيم الام) ومن باب الدباغ خانه في الباب الشرقي حتى منتهاها في الباب الشمالي الذي هو باب المعظم ، وكما نسميه نحن بالباب الغربي .. وعلى هذا الاساس تقدر مساحة جانب الرصافة بثلاثة كيلو مترات طولاً في زهاء الكيلو مترين عرضاً ، ويقدر نفوس مدينة بغداد آنذاك بجانبها بربعمليون نسمة ، وليس في مدينة بغداد كما شاهدتها من وسائل النقل الحديثة الا عدة عربات فخمة (١٧) تجرها الخيول الاصيلية والجياد المظهمة احداها خاصة بالوالي العثماني واخرى للسيد تقيب اشرف بغداد من اسرة آل الكيلاني والتي يجرها حصان واحد ، وثالثها وكنت اراها افخم العربات من حيث اناقتها وما فيها من ابهة ومهارة في الصنع حيث رصعت بالمسامير الدقيقة المصنوعة من الذهب والفضة والظاهرة على فوانيسها وطاقت سيور عدتها ولجام حصانها الجميلين الاصليين ، وكانت هذه العربة خاصة بالسيد داود نجل السيد سلمان تقيب اشرف بغداد وهو عم السيد عبدالرحمن التقيب على بغداد عصرئذ !! وهناك عربة رابعة تخص المرحوم العلامة عبدالوهاب النائب ، وما عدا هذه العربات كانت وسائل نقل الركاب كافة من الحمير والخيول الكدس والبغال في داخل البلد .. والسفينة والمهاويل الشراعية للمسافات البعيدة بين المدين والقصبات في نهري دجلة والفرات خارج مدينة بغداد .. اما في داخلها من وسائل النقل النهري الزوارق (البلام) جمع البلم (والبلم تركيبة الاصل دخلت في العامية البغدائية وتعني الزورق) والتي تجذف باليسد ، والقفف الكبيرة والصغيرة و (الشخاتير) والرمث (الكلك) .. اما (الباخر) وهي الزوارق البخارية فكانت تحمل البضائع التجارية والمسافرين والتي تمخر عباب دجلة (دون الفرات) بين بغداد والكوت والعمارة والبصرة ..

اما البضائع التجارية التي تجلب من انحاء اسيا واوربا وبلدان الغرب الاخرى فكانت تحمل بواسطة البواخر التجارية الكبرى والتي تمتلكها شركتان تجاريتان اجنبيتان ، الاولى تخص بيت اسطيفان لنج المحدودة والثانية شركة (بلوكي كرى

(سبع ايكار) وتنبعها للزيادة والتوسيع البلدي (عمّار جنابيين) فصارت كلمة (عمار سبع ايكار) هي الغالبة اليوم ، اما (الجنابيين) فبقيت ملحقة بزقاق الجنابيين في راس القرية ..

● سبع ايكار الصليخ او كروود خليل باشا

وهناك سبع ايكار اخرى شمالي بغداد في منطقة الصليخ في قضاء الاعظمية وقصتها :

في اواخر سنة (١٩١٥م) عينت امرية القيادة التركية في العراق القائد التركي (خليل باشا) ولما وصل هذا القائد الشاب بغداد ، هيأت له الحكومة مسكنا وقصرا منيفا فحما جوار بستان ومزرعة كانت تسقى وتروى من بئر عليها (سبع ايكار) في شمالي الصليخ .. ثم ابدلت السقاية والارواء بالمكائن الزراعية واسالة الماء الحديثة وهدمت السبع ايكار ، ولكن المنطقة بقيت تسمى بـ (السبع ايكار) ولاجل الفارق والتمييز بين سبع ايكار العمار في بغداد وسبع ايكار الصليخ ان اطلق على هذه الاخيرة سبع ايكار خليل باشا او كروود خليل باشا حتى يومنا هذا ..

الست سكيئة حسن المصرية في بغداد

وصف لمدينة بغداد سنة ١٩٠٦

كانت بغداد عند اعلان الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ حتى نهاية سنة ١٩١٥ كما شاهدتها وانا صبي يافع لم اتجاوز السن الثانية عشرة من عمري ليس فيها شوارع كالتي نراها اليوم طويلة ومستقيمة تخترقها من الشمال الى الجنوب .. ولكن كان فيها عندما ندخلها من الباب الجنوبي الذي نسميه (الباب الشرقي) حسب الاصطلاح البغدادي (١٥) وبعد ان تترك خلفك العمل الحكومي المسمى (الدباغ خانه) وهو اخر ما بقي من سور بغداد الذي شيده ابو جعفر المنصور سنة ١٥٠٥هـ (١١٦) واتخذة الوالي مدحت باشا معملا لدباغة الجلود الخاص بصنع احذية الجنود وحقائهم واحتياجاتهم ولوازمهم الحربية الاخرى من هذه الجلود وهو من جملة اصلاحاته المهمة في بغداد سنة ١٨٦٩ واليوم لم يبق اي اثر من ذلك المعمل بينائه الباسي وقاعاته وعمده وركناته وعقاداته وعرض اسمه التي تبلغ في بعض قلاعه وركائزه حوالي العشرة امتار حيث هدم هذا المعمل واسس في موقعه محطة نقل الركاب الذي يمتد من ساحة التحرير عند مدخل شارع الجمهورية حتى نهر دجلة في ساحله الذي كنا

وشركاه) وكلا الشركتين مؤسستان في لندن وهما من الشركات البريطانية العاملة في العراق ، وكانت بواخرها لا تتجاوز العشر بواخر ..

ولما اعلنت تركيا الحرب ضد الحلفاء وانضمت الى جانب الامان اخرجت رعايا الدول التي كانت تشكل تضامنا وهو ما يسمى بالحلفاء من كافة الامبراطورية العثمانية ووضعت يدها على ممتلكاتها وبالاخص الممتلكات الانكليزية والفرنسية وغيرهما من دول الحلفاء ، ومنها البواخر التي كانت تعود الى بيت اللنج ويلوكي كرى واستعملتها لاغراض الدولة الحربية والعسكرية وكان في بغداد جسر واحد نقلته الدولة الى الجهات الجنوبية بين الصويرة والكوت .. وظلت بغداد بلا جسر حتى سنة 1918 وكان يتم العبور بين جانبي بغداد الكرخ والرصافة بواسطة (البلاط والقفف) ما يقارب الثلاث سنوات ! ! ..

وكان في بغداد عشرات الطرق والدروب لضيقة والمعقود والاطراف والمحلات التي تخترقها طولاً من جنوبها الى شمالها بباب المعظم ، وكذلك مئات الدروب التي تتفرع من طولها عرضاً والتي تصل بعضها ببعض بطريقة حلزونية متداخلة متلازمة لا تنفك ولا تنفذ الى غيرها وكان شبكة هذه الطرق الخلية المحكمة الصنع .. وكانت هذه الطرق والدرايين تضم في منعطفاتها المئة دار او اقل او اكثر .. ومن هذه الطرق الزقاق الصفيير (الدربونة) تصفيير وتانيث الدرب الذي جمعه الدروب او الدربونات وتضم مجموعة من الدور المتلاصقة والصغيرة والتي تعد بالعشرات حتى تصل المئة دار ومن عدة درايين تتكون المحلة الواحدة والتي يقطنها غالباً ابناء العشرة الواحدة وتسمى المحلة باسمها ..

اما الشوارع والازقة التي تنفذ اليها في جميع مناطق بغداد فلم يكن لها اسماء خاصة بها بل تسمى وتعرف باسمائها الشعبية المعروفة او تسمى باسماء المحلات والاطراف التي تقع فيها او تسمى باسماء الاسواق او اسماء ذوي المهن والحرف واماكن الاخذ والعطاء والبيع والشراء او باسماء ابرز معلم اثري اشتهرت به المحلة ..

فمثلاً عندما تصل محلة (الفناهرة) من شارع الدباغخانة وهي اول حي من احياء بغداد عند مدخل من الباب الشرقي وتتوغل في محلة السنك تتشعب امامك عدة طرق ودروب وازقة ضيقة كما وصفناها تعقدت عليك مداخلها ومخارجها فاذا

وجدت نفسك في شارع الشيخ عبدالقادر الكيلاني وانت خارج من فسحة جامع الشيخ الخلاني التصل به من محلة الساقية ، فمن هذا الشارع العرضي تتفرع كل مداخل الطرق والمحلات الطولية لمدينة بغداد وكلها تصلك الى مجمعها الرئيسي في الباب المعظم .. وكان شارع الكيلاني العرضي يبتداء من شريعة بيت النقيب على نهر دجلة في السنك ويمتد حتى يصلك بجامع الحضرة الكيلانية فمقبرة الشيخ الغزالي وهذا الشارع ما زال قائماً ..

والان نقف برهة عند الباب الشمالي من صحن جامع الحضرة الكيلانية المقدسة لنظ على ذلك المشهد الرائع حيث جموع النسوة والبين والبنات والمجانز والشيوخ والاطفال وكلهم تجمهروا بحفل كبير يتطلعون الى تلك اللحظات التي تخرج فيها عليهم الملاية والقارئة المصرية الست سكيئة حسن حديث الساعة في بغداد ، وقد ضاق المكان بتلك الحشود من الناس على سعة تلك الساحة الفسيحة الواسعة امام مخفر شرطة باب الشيخ قبالة الحضرة الكيلانية والذي كان يسمونه اهل بغداد بـ (القلنخ) وهي كلمة تركية والتي تجمهروا فيها ، ولم تدر اية بادرة من رجال (الضابطة) الجندرية فتقوم بتفريقهم او التدخل في شؤونهم .. وكانت الست سكيئة قد اتخذت من احدى الغرف والاواوين في صحن جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني منتجعا لها ومقر سكنها حيث حلت في الجامع المذكور من بضعة اشهر ، وقد اعتادت ان تخرج منه الساعة التاسعة صباحاً وتعود اليه الساعة الرابعة مساءً تجوب ارجاء بغداد واسواقها تنشُد القصائد الدينية والمدائح النبوية بصوتها الساحر الاخذ فتنها عليها هبات المحسنين من اهل الخير والجود ..

وقد اذنت ساعة الخروج فطلعت الست على عاداتها فاستقبلتها الجموع الحاشدة بالتهنئات والصلوات والتكبير والتهليل ، وتهافت عليها النسوة والبنات والفتيات والصبيان يقبلون يدها ووجهها ورأسها ويتسحون بشيائها تبركاً بها وقد احاطوها بهالة من حب وتقدير واحترام .. فنظرت اليها فاذا هي امرأة في سن الشباب لم تتجاوز الثلاثين من عمرها ، ربعة القامة ممتدلة الجسم ، سمراء ادمة الوجه على وجهها سمة البداوة واصالسة العرب ، اغمض الله جفنيها واخذ منها نور عينيها، وبدت لنا غير مبصرة ولا ناظرة (عمياء) .. وتقدم نحوها رجل يربو عمره على الاربعين فوقف امامها فرفعت يدها اليمنى فوق كتفه وسار بها يهدئها السبيل لتمضي ببطء ثقيل تشق زحام الناس

المرجاة من انغام ولحن وسحر وبيان وبلاغة عربية وكلام فصيح بحروف ابجدية لا يتداخلها حرف (الكيم) بدل الجيم ولا كلمة (برئوء) بدل كلمة (برقوق) اي (الكوجة والعنجاص) على طريقة الرطانة العامية المصرية .. والست سكيئة حسن مصرية من عرب الصعيد ، واهل صعيد مصر من قبيلة كنانة المصرية الذين نزحوا من الجزيرة العربية ناشرين الاسلام تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيادة القائد العربي عمرو بن العاص في الفتح الاسلامي الاول واستقر اكثرهم في ارض الصعيد جنوب مصر .

اما السبب المباشر لوجودها في بغداد بين سنة ٩١٤ - ٩١٥ ومن جاء بها فذلك اجهله ولعلها قد نظمت سفرات لبعض الاقطار العربية لتمنح ابناءها بعض ما تمنحنا به وتثير في نفوسهم المشاعر والمواطف الدينية بما تشهده من قصائد صوفية في ذكر الله ومدح رسوله وتصف مناقب آل بيته وصحابته .. وعلى كل حال لا يهمني من كل ذلك سوى انني احضر كل يوم وفي وقت الضحى لاستمع وامتع نفسي بصوت الست سكيئة واهيم كما بهيم غيري بما ترسله من انغام والحن شجية تهر بها اوتار القلوب فتوقظ في النفس الاحاسيس وتحيي القلوب بذكر الله .. والحقيقة اقولها : كنت بواسطة اوتار حنجرة الست سكيئة القوية المنعشة بدأت استشعر حلوة الايمان وافهم معنى الحياة الروحية .

وانظم الموكب وسار من الحضرة الكيلانية فسوق الصدرية فالهيتاوين فجامع الصلوب حتى سوق الدهانة ! ! (ومن اول هذه السوق تبديء اول سلسلة مسقفة بالجلون (الجمالي) المتخذ من الخشب المفطى بالبواري والحصران والقصب الملوج بالطين الاحمر حتى اذا ما هطل المطر انحدرت مياهه الى المجاري (المرازب) ثم تنساب الى الارض خارج السوق .. والقسم الاخر من السوق بني سقفه بالجص والطابوق بشكل معقود على الطراز العباسي القديم على اعمدة حجرية قوية ، وتقع هذه السوق في النصف الجنوبي من بغداد حتى منتهى جامع الجدرخانة في النصف الشمالي من بغداد ثم يتجه الموكب وقد ازدحم اكثر فاكثر نحو سوق السراي فسوق خان الرماح فسوق المغازبية الذي يشمل سوق الهرج القديم وسوق (خان جفان) وسوق الخفافين الذي يحيط بالمدرسة المستنصرية التي اتخذتها الحكومة العثمانية دائرة كمارك ومكوس ثم سوق الحصران والمدات

وتبعثها الحشود تتخاطف امامها وعن يمينها وعن يسرها ومن خلفها كموج البحار يتدافع ويتراطم مع بعضه ، والعم المغربي الدليل كما عرفناه يسير الهويتا وهو متأزر وملتف بمبائه السعدونية (تخته وتخته) اي تخته بيضاء وتخته سمراء وبترية وعلى راسه عمة بيضاء بحجم العمامة المصرية ، يمشي وقد الف الصمت والسكون وكان على راسه الطير ، وكانه اخرس ابكم لا يكلم ولا يتكلم واتجه الموكب كعادته تسوده السكيئة والمهاية من محطة باب الشيخ نحو ازقة بغداد ومحالها وسواقها تنشد للناس وتمتصهم بصوتها الساحر وتستيقظ بغداد كل يوم على انغام اشداها ومدانها النبوية فتحيي القلوب بذكر الله .. واتجه الموكب من محطة باب الشيخ الى سوق الصدرية ، ثم وقف الموكب الفخم عند باب جامع الشيخ سراج الدين في محطة الصدرية ، وهنا ساد صمت عميق والعيون ترو وتنتظع الى الست واذا بصوت سكيئة حسن تنشد بيتين من قصيدة للشيخ محمد البوصيري شيخ اهل الطرائق الصوفيين الرمزيين وسيد شعراء الغزل الالهي وذات النبي الكريم :

كيف ترقى رقيق الانبياء

يا سماء ما طاولتها سماء

قد ساووك في علاك وقد

حال سنا منك دونهم وسناء

وتعالت اصوات المعجبين بالتهليل والتكبير والصلوات على خير البشر، حتى وجدت بعض النسوة يترنحن يمينا وشمالا ويرددن (لا اله الا الله .. لا اله الا الله) على طريقة الدراويش في اذكارهم وقد اخذتهن سورة السمو الروحي فتدروشن على الطريقة المشيخية ..

اما انا فقد سحرني صوت الست سكيئة اللائكي وصعقتني صعقة مذهلة اثارت في كل احاسيسي وشجونني وانساب لحن صوتها الشجي وانغامه العذبة الرقيقة مع دمي في عروقي . وكان لترنيمها ذي المقاطع الموسيقية العندليبية ذات الصدى الصداح اشعرني وكان نفسي تطير من بين جوانحي وتترف باجنحة خافتة ساكنة هادئة كرفيف جناحي الخفاش في الليل البهيم تطوي بي صفدا في اجواء السماء ، في عالم الغيب ، في ملكوت الصفا والنقاء والخيال ، من هنا عرفت السر في تقدير الناس ومحبتهم وشدة احترامهم للست سكيئة حسن وتعلقهم باذيالها تبركا بنفحات صوتها وعذوبة الفاظه ، فكانت دائما تمنحهم بضاعتها

او « الفريبل ») .. وفي نهاية سوق الشورجة الكبير ينتهي عنده سوق البقال خانة وفيه تباع اصناف البقالية والفواكه والاعناب الصيفية والشتوية الطازجة المحلية والجافة المستوردة من الهند وايران وتركيا ومن عمان وبقيّة امارات الخليج العربي والاحواز ويكون من ضمن هذه السوق سوق اخر هو سوق المواعين والفرفوري والاوراني الزجاجية والفخارية المستوردة من الصين واليابان وروسيا على اختلاف اشكالها واحجامها وكانت تصنع خصيصا لتلائم الذوق البغدادي ومقتضياته الضرورية) ويختم سوق الشورجة بسوق المعاضد والاسوار وادوات الزينة النسائية كالودع والدهش والمسابع والقلائد المصنوعة من الزجاج الملون الرخيص ، وما اشتهرت به هذه البضائع الزجاجية فرع من السوق (دربونة) العلامة حسين بن روح احد الفقهاء والعلماء البارزين من ائمة المذهب الاثنى عشرية الامامية والذي توفي في القرن الثالث الهجري ودفن في داره في الشورجة وقد اقيم له مسجد في العهد العثماني وقد تجدد عدة مرات وما زال عامرا تؤمه الناس للصلاة) .. ومن هذا الحد يبدأ سوق العطارين (سوق المعطاطير) حسب الاصطلاح البغدادي ..

والناظر الى الست سكنة حسن وهي بملاءتها اي ازارها او عباءتها يتبادر الى الذهن لاول وهلة انها مصرية تسير في شارع سيدي الحسين من ازقة وسكك القاهرة بانشادها وطاخمها البشري من الحسين والمريدين وكان بغداد بمن فيها صارت القاهرة حيث لم تالف مثل ذلك من قبل ..

وعند بداية سوق المعطاطير الى جامع مرجان (وهو السوق الكبير الذي يباع فيه كل شيء محتاجه العائلة البغدادية للتحضرة وفيه عدة مخازن وانابيب اي خانات وعتابر خاصة بالتجار المستوردين والمصدرين وباعة المفرد والجملة من السكر والشاي الحديث العهد في بغداد والبهارات والافاوية والصابون والعقاقير والاعشاب النباتية الطبية التي تجلب من الصين والهند والافغان وبلاد بخارى وما وراء النهر ومن بلاد سمرقند وطاشقند ومرو) ، وكنا نرى في هذه السوق التجار والباعة واصحاب الدكاكين والمعال والحمالين وعيونهم محدقة واعناقهم مشرّبة وانباههم مرهف الى صوت مدائح وموالات وموشحات وارجيز وقطع الابيات الشمرية من تلاحين وترانيم الست سكنة حسن (الاوكسترا) العظيم عدا الموكب الشعبي الذي

المصنوعة من ورق البردي فسوق الازر فسوق الصفاير فسوق الجوخجية فسوق الحيص والهيمانات فسوق الابريس وخان الزرور والقياطين وسوق الجايف وخان دلة للتجارة والقومسيون وسوق البزازين واسواق لم نذكرها وسنأتي على ذكرها فيما بعد ! ! فهذه الاسواق كلها كانت مستقفة بالجمولن في الوقت الذي لم يكن في بغداد شارع حديث كشوارنا الحالية ، ففي ذلك الزمن لم يكن في بغداد لا شارع الرشيد ولا غيره من الشوارع الطولية والمرضية المنظمة المصرية .

وعادت الست سكنة للقراءة والانشاد بنغم الحجاز موالا .. مدائحيا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من نظم مطلعته :

يا حسادي العيس يا للسي للنبي رايح!!
خذني معاك ازور قبر النبي واشتم الروائح!!
وظلت تردد هذا الموال عدة مرات حتى خرجت من سوق لحم البقر في الدهانة وسوق الفزل والقطن وسوق علاوي الحبوب نهاية سوق الدهانة وعند مدخل سوق الشورجة حتى انشدت هذه الارجوزة المدائحية ! !

صلوا على احمد يا الحاضرين
خير البرايا في العالمينا
فردد الجمهور الدور : صلوا عليه وسلموا تسليما ، بلحن ايقاعي . وهي مستمرة بالغانها وانشادها وحماسها الديني الصوفي العذب المنسق:
حليمة لما رأت انواره قد اشرفت .. مالت اليه وعانقت وقالت : هذا .. هذا نبينا !! خير البشر نبينا : صلوا على من جاءنا بالحق اظهر ديننا ! !
والجمهور يردد الدور : صلوا عليه وسلموا تسليما

وسار الموكب وقد وصل علاوي التمور والفاكهة في الشورجة وسوق الكوازين (الحباب والخناب والبسابق والمشارب . لفخارية الطليحة بخليط القاشاني) والمواد الزجاجية « السيراميك » وسوق الفربايل والمناخل (وهي المصنوعة من اوتار امعاء الحيوانات « المصارين » المنسوجة منها والمحبوك الناعم الدقيق ومنها المخرم الواسع ويسمى واحده منخلا وغالبا ما يستعمل لتخل اي تصفية الدقيق من مطحون حبوب القمح وغيره لمعمل الخبز منه ، والمخرم الواسع يسمى بـ « الفربال »

عرب وما اليها وكل هذه الاسواق تمتد في ما يقارب الى نصف بغداد القديمة من ناحية الرصافة ولها مداخل ومخارج وتكون غير مستقيمة متعرجة وضيقة جدا في بعضها .

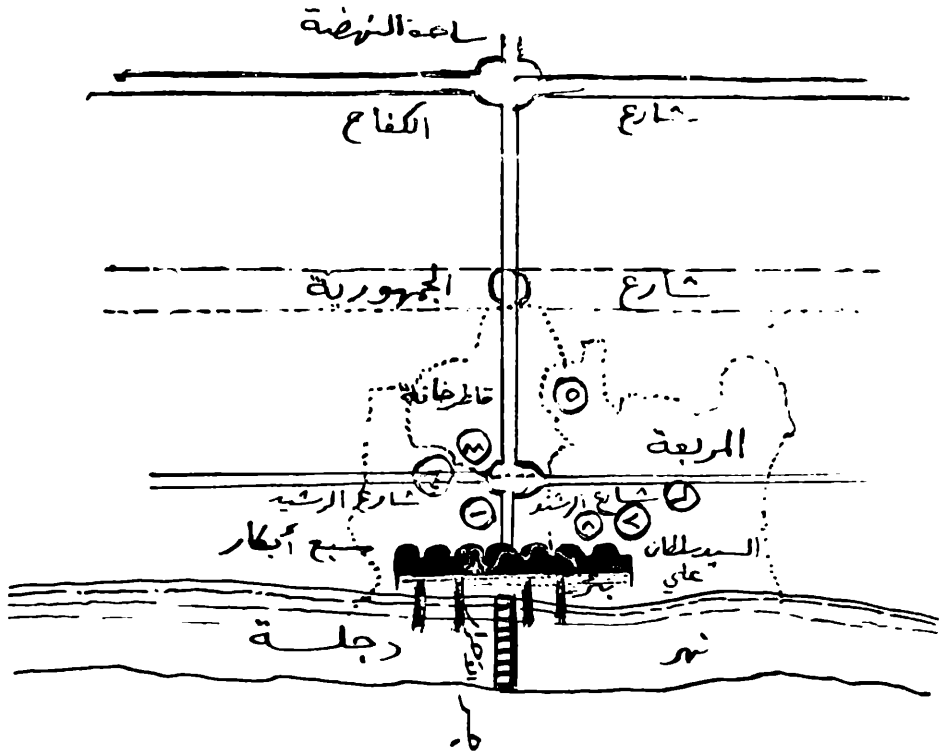
وتستمر الست سكيئة حسن في انشادها ومدائحها والجموع وراءها تردد دور انشادها وهي مارة امام جامع العدلية الكبير والمحكمة الشرعية وحمام القاضي وشريعة الوالي وشريعة النواب من محلة رأس القرية وسوقها وحمام حيدر المقابل لمحلة الجنائين ومركز شركة اسطيفن لنج التي اتخذتها الحكومة العثمانية مركزا للشرطة (البوليس) لانضباط قانون البوليس النظامي ثم تعرج شطر جامع امين الباجهجي ومنازل آل الباجهجي وبيت الزبيق في محلة العمار وسبع ابكار ومدخل معامل النسيج والخياطة ومعامل الحدادة والنجارة الحكومية في المبخانة (اعمال خانة فابريقهسي) التي هي مدخل محطة القاطر خانة وسوقها الكبير . . وهنا يأخذ الموكب بالسير السريع وتتشد الجموع اناشيد ابقاعية فترقص لها الصبية والاولاد والبنات ويتوقف الانشاد قليلا حين تمر الست سكيئة حسن من جامع السيد سلطان علي ميممة وجهها نحو محلة المربعة ومنها نحو شارع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ثم في طريقها تمر بساحة الخلائي في محلة رأس الساقية وتسلق سبيلها حتى تغيب عن الانظار في فناء جامع سيدنا الشيخ عبدالقادر الكيلاني قدس الله سره وعطر الله ضريحه واعلا مقامه حيث دلفت الى حجرتها لتستريح من غناء رحلتها اليومية المتعبة في اسواق بغداد وطرقاتها التي تستغرق في الغالب السبع ساعات كاملة ويتجدد الموكب ضحى كل يوم حتى تعود اهل بغداد التجمع حول بيوتهم ومنازلهم ومحال اعمالهم ومهنهم وحرثهم ليشتفوا اسماعهم بمدائح وانشاد وقصائد الست سكيئة ويمتعوا انفسهم بعذوبة الالفاظ وسحر البيان ورخامة الصوت الذي تسحرهم به دائما . .

والحق انني سمعت كثيرا من اصوات النساء اللاتي وهبهن الله قوة الحناجر وعذوبة ورقة الصوت وفن اداء الترانيم والغناء الذي يسمو بالارواح نحو اللطف والكمال وتهذيب المدارك والافهام لم أتأثر بشيء من هذا ما تأثرت به من صوت ومهارة غناء الست سكيئة حسن . . فقد سمعت صوت منيرة الهدية ومواليتها وقصائدها المغناة وسمعت وانا اظن غناء الست طيرة المصرية واغانيتها وصوتها العذب الذي سحرت به عقول واذواق الشباب البغدادي وذلك سنة ١٩٠٦ . .

صحابها من الحضرة الكيلانية المقدسة والذي قادته سكيئة وشدته اليها بما تملك من مواهب نادرة كانت تفتقر اليها بغداد . . ومن هنا بدأت تنشد بعض الابيات الشعرية من نظم شاعر الرسول حسان ابن ثابت ومن قصيدة طويلة صدحت بها من نظم الصبا جمعت الناس هادئين تسودهم الدهشة ولا تسمع منهم إلا نبرات الإعجاب ورنات وآهات انتزعها من صدورهم المكلومة وهي تفرد وليس تغريد العندليب وهي تسجع وليس سجع الحمام وتقرأ من هذه القصيدة :

الم تريا ان الملامة نفمها
قليل اذا ما الشيء وثى وادبرا
تهيج البكاء والندامة ثم لا
تغير شيئا غير ما كان قدرا
اتيت رسول الله اذ جاء بالهدى
ويتلو كتابا كالجزرة نيرا
اقيم على التقوى وارضى بفعالها
وكنت من النار المخوفة احذرا

وظلت تردد هذه الابيات بعذوبة وموسيقية مدهشة من جامع مرجان حتى سوق البزازين وسوق الوفاية (الكبيجة) حتى فوهة العنبار في المصبغة وخان الدفتر دار وسوق السرجية وخان الشابندر المجاور للمحكمة الشرعية . . وتنهال عليها الهبات والعطاءات والهدايا النقدية من قبل جمهور المستمعين واهل الخير والصالح فياخذها شيخنا الدليل المغربي وهذا الحد هو اخر الاسواق المسقفة الكبيرة التي ابتدئناها من سوق الدهانة حتى جامع الحيدر خانة وسوق الميدان وسوق السراي كما قدمنا وذكرناه سابقا بما فيها الاسواق الفرعية كسوق الحدادين والتنكيجة والتكمجية والاسكجية (بياعة الاحذية القديمة المستعملة) وسوق باب الاغا ومدخل العاقولية وسوق المولى خانة براس الجسر من جانب الرصافة ولو ان في بغداد كثيرا من الاسواق المهمة في انحائها الاخرى ومحلاتها القديمة الا انها ذات جماليات ومعقودات قصيرة غير متصلة بمجموع الاسواق الكبرى ذات السقوف الجمالية مثل سوق الفضل وسوق قمرالدين والصابونجية وسوق قنبرعلي وسوق حون وسوق ابو سيفين وسوق ابو دودو وسوق رأس القرية وسوق الصدرية وسوق القاطر خانة وسوق العويئة وغيرها من الاسواق الصغيرة وهناك اسواق صغيرة ومحلية اخرى الا انها مكتشوفة غير مسقفة مثل دكاكين جبوب وسوق التسابيل وسوق قهوة شكر وفضة



مخطط للاماكن السبعة التي تستفيد من مياه السبع ابيكار

- (1) دور ومنازل وقصور آل الباجهجي وحدائقها
- (2) حديقة دار القنصلية الروسية (القيصرية)
- (3) تكية البدوي وحديقته
- (4) دار القاصد الرسولي وبسمنها الحديقة المقابلة لها
- (5) بستان عدول
- (6) جامع السيد سلطان علي وحديقته
- (7) دار آل الاصفر وحديقته

الاحتلال فانقذته المبلغ ورقا بنكنوت واخذت اسطواناتي وحظيت بترتيل اعظم مجودة وقارئة للقرآن الكريم من النساء بصوت عذب شجي والقاء صوفي الهامي وحنجرة قوية ونغم مرخم ذات مقاطع موسيقية وهي تتصرف بادائها الترتيلي مما ياخذ بمجامع القلوب المستانسة بذكر الله من كلامه الكريم .. وهل كنت اصدق بانني في يوم من الايام ساسمع ذلك الصوت الذي فقدته بفداد ، صوت الست سكيينة واسمع منها ترتيل القرآن الكريم .. كم تملكني من شعور واحساس حين قبضت على الاسطوانات الاربعة وتملكنها فوالله كاني تملك الدنيا كلها .. وبقيت سنوات وانا اسمع ترتيل القرآن من هذه الاسطوانات ومن الاكرامافون الذي بحوزتي حتى عفى عليها الزمن وامحت آثار الصوت من تلك الاسطوانات حتى بطل مفعولها .. وذهب الزمان بالاكرامافون وحل محله الراديو في الثلاثينات وسمعت من اذاعة مصر ومن مقرني القرآن الكريم فلم اسمع في يوم ما صوت الست سكيينة حسن مع ان لها تسجيلات كثيرة على الاسطوانات .. ودخلت سنة ١٩٤٠ وبينما انا اتصفح احدي المجلات المصرية فقرات نعي المرحومة الست سكيينة حسن رحمها الله فحزنت على موتها حزنا عميقا .. ولا تزال تتردد على مسامعي اصداه ترتيلها وانشادها كلما سمعت صوت ام كلثوم يصدح على امواج الاثير . وفي يوم ما ذهبت الى السينما لمشاهدة احد افلام مطربة الشرق والامة العربية السيدة ام كلثوم وهو فلم (سلامة) وهي ترتل بعض آيات القرآن الكريم فاستبان لي الفارق بين الترتيلين فكان البون شاسعا وكبيرا بين الاديئين بصوت السيدتين المذكورتين .

ذكرياتي عن الحرب العالمية الاولى وما صاحبها من احداث في بغداد

وقد حدثت احداث زمنية قبيل سنة ١٩١٥ منها الطبيعية ومنها الاخطاء في القيادة العسكرية : فمن هذه الاخطاء العسكرية التي اثرت فينا اي تأثير : انه في سنة ١٩١٤ اعلنت الحرب العالمية ودخلتها الدولة العثمانية بجانب المانيا ضد الحلفاء وجردت لها حملة عسكرية قوامها عشرون الف جندي مقاتل من لواء بغداد وقضاء الكاظمية وقضاء سامراء وبعض الاقضية التابعة لبغداد والاقضية التابعة الى لواء ديالى وسفرتهم الى شمال شرقي تركيا وعلى سفوح جبال القفقاس المتاخمة لتركيا لمجابهة القوات الروسية المهاجمة على حدود تركيا

كما سمعت صوت وغناء السيدة ام كلثوم سنة ١٩٢٢ اميرة الطرب والغناء ، ثم سمعت غناء (نادرة) وغيرها من شهرات المغنيات والمطربات المحترفات فتلاشت هذه الاصوات كلها امام صوت الست سكيينة فلم يستهوني ولم يؤثر في اعماق احاسيسي وشعوري ولم يسحرني ويشير حماسي الى الفن والترنيم في تلاوة السيرة النبوية ومناقبها مثلما اثر في صوت وغناء الست سكيينة الفاضلة الكريمة والمرأة الزاهدة الؤمنة والتيقة الورعة .. جاءت بفداد فلم تغني لاحد ولم تحضر حفلة طرب من الحفلات الخاصة ولم تحترف الغناء ليدر عليها المال من كل جانب وان ما تحصل عليه من هبات المعجبين يوزع الى فقراء بفداد وبالاخص منهم فقراء الحضرة الكيلانية بعد ان فتحت بشيء يسير منه ولو فعلت لكانت من انرى المغنيات في العالم العربي .. ولم اكن مغاليا اذا قلت اني افضل حنجرة الست سكيينة على حنجرة ام كلثوم على ما عرفت به من موهبة خارقة في فن الغناء ومكانة وشهرة في المجتمع العربي والشرقي .. بل كرت الست سكيينة حياتها وفنها وانشادها لخدمة مدح الرسول والترانيم والموشحات الدينية والعناية الفائقة في تلحين وانشاد السيرة النبوية الخالدة ..

ومرت الايام وتوالت السنون وبدا المعالم ينفض ما عليه من غبار الحرب العالمية الاولى وبدأت الامور تعود الى مجاريها الطبيعية وبدا اهل بغداد يستعيدون ذكرياتهم مع الست سكيينة حسن المصرية وبدا النشاط يدب في اسواق بغداد ومحالها التجارية ..

وفي ذات يوم استهواني حب الاستطلاع فدخلت محل شركة (بيضافون كمنى) لبيع الات الحاكي (فونوغراف) والاسطوانات المتنوعة وذلك سنة ١٩٢٥ وكان ذلك في سوق راس القرية وطلبت فهرسا ودليلا باسماء ما موجود لدى الشركة من الاسطوانات .. وبينما انا اقلب صفحات الكراس وما فيه من اسماء المغنين العرب على اختلاف اقطارهم اذ وقع نظري على اسم عابر اعرفه جيدا فدققت النظر وحدقت فيه بملء بصري ونظرت اليه بدقة وانتباه اثار شعوري وهزني كما هزني اول انشاد سمعته من الست سكيينة فاذا انا باسطوانات الست سكيينة حسن المقرئة الحافظة وعددها اربع اسطوانات من سورة يوسف ، فتقدمت نحو بائع الشركة وطلبت منه الاربعة اسطوانات دفعة واحدة وساوته قيمتها فطلب مني (ثلاثين روبية) وهي العملة الهندية الانكليزية المتداولة في العراق بعد

وحدودنا الشمالية في مناطق الاكراد .. فصادف ان تساقط الثلوج بكثرة هائلة على جبال القفاس واشتد البرد وانهارت القطع الكبيرة من الثلوج على مخيمات الجنود العراقيين الذين لم يألفوا برد الطبيعة وثلوجها فدفنتهم تحت هذا الركام من الثلج فماتوا الا قليلا وهذا القليل الذي نجا من الموت وفر من هول الكارثة وقع اسيرا في قبضة الجيش الروسي ، وعلى اثر ذلك تجمدت بحيرة (وان) (١٨) وصدرت اوامر احد القادة الاتراك - وتحت امرته كثير من الجنود العراقيين - الى قطع جيشه بالسير فوق البحيرة المنجمدة ظنا منه انها تحملهم وعنادهم وخيولهم لانها متجلدة صلبة فما اجتاوزا واوغلوا في منتصفها الا وانفجرت وغاص الجيش تحتها بما فيه من رجال وسلاح ومؤون وخيول وقد غمرتهم مياه البحيرة غرقا والذين لا يزالون يسرون خلفهم على ارض منجمدة تماما لما شاهدوا ما حل باخوانهم من الفرق والدمار اخذهم هول المصيبة وسادهم الغم والخوف والهلع فهاموا على وجوههم تيهيا في تلك الآكام والجبال والثلوج فماتوا من شدة البرد والجوع والتعب وفشت الاوبئة المختلفة بالبقية الباقية من الجيش ولم ينج من تلك الحملة والتي يقدر عددها بعشرين الف جندي عراقي الا المائة او المائتين منهم على اكثر تقدير .. وتوالت اخبار النكبة على بغداد الثكلى فجعلت في كل بيت من بيوتها مناحة وعزاء وجزع نسأوها على ابنائها فلظمن الخدود وشققن الجيوب ونثرن الشعور واكتست بغداد ثوب الحزن وظلت هذه الفاجعة ذكرى مؤلمة تروىها الاجيال بعد الاجيال ..

ولم تكذ كارثة الفرق ان تهدا بعد هبوط مناسيب نهر دجلة وروافده الا وفوجنا بخطر الحريق (١٩) الذي التهم محطة العوينة وقسما من محطة المربعة وقسما من محطة الصدرية ومحطة الشيخ سراج الدين وقسما من محطة الحاج فتحي .. اما كيف حدث هذا الحريق المروع الهائل فاليك بيانه : لما اعلنت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ وضعت الدولة العثمانية يدها على الاموال الاجنبية التابعة لاشخاص وشركات دول الحلفاء اعداء الدولة فسفرتهم الى خارج ممالكها وكانت شركة (لنج) وشركة (بولوكري ومكنزي وشركاهم) البريطانيين والتي تمتلك في بغداد كثيرا من محلات التجارة والاستيراد وبواخر كما بنا ، فكان لهما كذلك مستودعات بترولية وغازية ونفطية جمعتها الدولة في علوة المخضرات في العوينة لستها وكبر فنانها الذي استوعب اكر كمية من صناديق النفط والمواد الاخرى القابلة للاشتعال السريع وفي صبيحة يوم من ايام شهر ايار سنة ١٩١٥ علا الجو دخان قاتم ساخم انتشر بسرعة هائلة فعم سماء بغداد واعقبه ضرام نار حادة وحدث بعدها دوي مخيف امتدت على اثره السنة النيران الى عنان السماء وظلت النيران تضطرم خمس عشرة يوما بليلاتها .. وفي خلالها دعا داعي الحمى ليقوم الاهلون بواجبهم فهبوا شيبا وشبانا نساء ورجالا فاقحموا النيران المستمرة وخاضوا ماء النيزج حول العلوة وانتشلوا البقية الباقية من صناديق الوقود وصفائح النفط التي لم تصلها النار بعد .. وقد التهمت النيران خلال الاربع عشرة يوما زهاء الثلثائة دارا وخانا ودكانا الامر الذي جعل اهل بغداد يقعون في ضيق وحر ج سبب بعض المجاعة من جراء هذه الحرائق والفيضانات وانتشرت الاوبئة في انحاء بغداد كالتاعون والتيفوئيد .

والامر الطبيعي : هو الفيضان الهائل الذي اغرق بغداد ودمرها برمتها ولم ينج منه الى بعض المحلات العالية المرتفعة التي لم يصلها الماء . اما الاطراف والاماكن السكنية المنخفضة فقد غمرتها المياه وفر اهله الى الاماكن المرتفعة حيث بيوت الاقرباء والاصدقاء والجوامع والكنائس يحتمون بها وينجون بانفسهم من طغيان دجلة الذي داهم بغداد على حين غرة فكانت ترى البيت الذي كان يستوعب عائلة او عائلتين قد ازدحم ببضعة عوائل بما فيهم ذوابهم وانعامهم ، والدار الذي لم تفرقه المياه فقد هدمته الرطوبة واحالته خراب تنفق فيها اليوم .. انها المصيبة وما اكبرها واعظمها من مصيبة شاهدها وانا صبي وما ازال اتذكرها فنثر في نفسي مكانم اللوعة والاسى .. وكان ذلك في ١٥ و ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ .

وفي خضم هذه المكاره والنوازل المحقة فتح الحلفاء الجبهة الشرقية في العراق واحتل الانكليز البصرة والعمارة حتى وصلوا الى الكوت .. واخذ الاتراك يجندون الشباب والصبيان ممن لم يجند من قبل لان جميع ابناء بغداد جندوا وارسلوا الى القفاس وهلكوا جميعا الا ما ندر كما قدما وذكرناه من قبل .. حتى انا وان سلمت من الموت فلم اسلم من مرض التيفوئيد لمدة اكثر من سنة حيث لا طبيب ولا دواء ولا معالجة في المستشفيات ولا رجال ولم يبق في بغداد بعد هذا التجنيد غير الاطفال والنساء والشيوخ والامراض والقحط والمجاعة وتوالت علينا الفواجع المتوالية فانستني حتى نفسي واوجاعي

المرأة الخطوة الاولى لتحريرها من كل الانكار والادواهم التي تسيطر على عقليتها وبعد ذلك فعلى المرأة هي التي تقرر مصيرها بنفسها ، فالجهل آفة من الافات الاجتماعية الخطيرة التي يجب القضاء عليها بكل ثمن وعلى هؤلاء الشباب ان يصرخوا الجهد الى ذلك .

وكانت السيدة مريم :مرأة جاوزت العقد الثالث ، متروجة ولكنها عقيم لا تنجب ، محافظة ومتدينة ملازمة البيعة في الكنيسة تصلي بكرة واصيلا ، ترتدي الملابس الطويلة ، وتلتفح بازار يضم اطراف جسمها ولا يظهر منها الا لوجهها والكفان ولباسها شبيه باللباس الشرعي الاسلامي العربي الذي كانت ترتديه المرأة المسلمة في الحواضر والبنوادي والارياف .. وكانت تصب جام غضبها على (...) وعلى شقيقها (...) ، لانها اول فتاة عربية مسلمة نزت حجابها واسفرت سفورا مطلقا .

وكانت السيدة مريم تكره قاسم امين صاحب هذه الدعوة في مصر وتعتبره اصل البلاء لانه اول من نادى بحقوق المرأة وتحررها من القيود ودفعها الى اوضاع المجتمع الممزق المنهري من الاداب تقليدا للمرأة الغربية ... والمرأة المثالية عندها هي الكاتبة والشاعرة والادبية « ملك حفني ناصيف » المرأة المثقفة ثقافة عالية ولكنها في نفس الوقت غير متبرجة ولا سافرة سفورا مطلقا متحجبة حجابا معتدلا ، فكانت ملك تكتب وتنظم القصائد وتدبج المقالات في الفضيلة والحشمة والاخلاق في مجلة « المقتطف » المصرية باسم « باحثة البادية » بمقالات متسلسلة تباعا ، وهي المرأة التي وضعت الخطة الناجحة والقدوة الحسنة لتحرير الفتاة والمرأة العربية وذلك عن طريق التحلي بالاداب والفضون والمثل والتعلم .

وكانت السيدة مريم تنظر الى السفور كقضية ثانوية فاللباس لا يغير شيئا من طبيعة المرأة اذا عرفت نفسها وما لها وما عليها .. الا انها اي السيدة مريم لا تؤمن بالطرفة والغفزة السريعة التي تحرکها الاهواء .

وكانت السيدة مريم ذات نزعة اصلاحية اجتماعية متاثرة ببعض الكتاب الغربيين ومنهم الكاتب الاجتماعي « جون سيمون » ونقده حالة المرأة الاوربية والغربية على تنكرها وتمرداها على واقع الحياة الزوجية .

وفي عام ١٩٢٨م اخبرتني السيدة مريم بانها

والامي التي بقيت اعاني الامرين منها وما ان نقهت من مرضي حتى تم تسفيري الى جسر دبالسي في الزعفرانية لحفر الخنادق (السوبريات) للدفاع عن بغداد ضد الانكليز المستعمرين .. ولاول مرة بعد ابلاي من مرضي في اوائل سنة ١٩١٦ بوشر بشق شارع جديد طويل يبدأ من باب المعظم الى الباب الشرقي وفي مطلع سنة ١٩١٧ تم افتتاح الشارع من قبل والي بغداد خليل باشا وثبتت بعض الكتابات على جدران جامع السيد سلطان علي بالخط الفارسي (خليل باشا جادة سي) وجاء الانكليز ودخلوا بغداد بدعوى انهم جاءوا محررين لا فاتحين . وكان يوما مشؤوما هو يوم ١١/٣/١٩١٧ الذي دخل فيه الانكليز بغداد وكان حالهم اسوا على العراقيين فقد لاقوا منهم ما لاقوا من عنمنة وعجرفة وكبرياء مما لا يطاق مما عجل بالثورة العراقية سنة (١٩٢٠ - ١٩٢١) وانتهت بقيام الحكم الاهلي الملكي في العراق .. وهكذا اسدلت صفحات سوداء تحت ظل الاحتلال العثماني وظروف الحرب العالمية وسيطرة المستعمرين الانكليز .. !! .

ذكرياتي مع مريم نرمة من اوائل الصحفيات في العراق

معرفتي بالسيدة الفاضلة مريم نرمة سنة ١٩٢٤ اذ كانت تسكن دارا في محلطنا (القطرانة) مقابل شرطة المباحنة التي هي اليوم بناية الثانوية الجعفرية في شارع الوثبة وبحكم الجوار دعنتسي السيدة لزيارتها في بيتها فلبيت الدعوة ، وشربنا القهوة وجري بيننا الحديث عن الصحافة والادب والكتاب والضجة التي بدأ يثيرها بعض الشباب المتطرف حول سفور المرأة وتبرجها ومناصرة الدعوة الى تحرر المرأة وسفورها متأثرين ببعض الكتاب في مصر حيث الدعوة بدأ لها رواج من بعضهم وكانت السيدة مريم متأثرة اشد التاثر من حملتهم الشعواء على الحجاب والدعوة الى التبرج والسفور المطلق في بلد لا تسمح ظروفه الاجتماعية ان تروج فيه مثل هذه الدعوات ودون ان تسبق ذلك دعوة الى تعليم المرأة وتثقيفها وكان من هؤلاء الشباب الاساتذة مصطفى علي وحسين الرحال وعوني بكر صدقي واخوه لطفي ومحمود السيد ، اذ اصدروا صحيفة يحررون فيها ما يلائم فكرتهم ويروج لدعوتهم .. وكانت السيدة مريم كلها ثورة ونقمة على هؤلاء الشبان ، وكلها نار حامية على الاوانس والسيدات اللواتي انسقن وراء هذه الدعوات من غير تبصر وروية وفي نظرها ان تكون مرحلة تعليم

الفتها فنفرستها ودقت النظر فيها فاذا بي امام تلك اللوحة التي تحمل ادارة مجلة فتاة العراق والتي طالما كنت اراها مثبتة فوق باب دار السيدة مريم بعقد المريض لم تتغير ولم تتبدل هي نفسها ماثلة امام عيني ، فسالت عن صاحب الدار : هل هي السيدة مريم نرمة ؟ ! فاجبت بالايجاب الا انها الان غير موجودة واظن ان اللوح موجودة الى الان ولكنني لا استطيع الوصول اليها لمرضي الذي اعاقني واقعدني فاصبحت رهين الحسين ، المرض والشيخوخة ..

والذي علمته من السيدة انها تعلمت في مدرسة الراهبات القديمة واشتغلت بالتعليم الخصوصي لتدريس بنات ذوي الوجة ورجال الحكم في بيوتهن ، وكان زوجها (المم منصور) موظفا في الكمارك والمكوس وهو رجل طيب القلب ، دمث الاخلاق ، هادئ النفس ..

هذا كل ما اعرفه وذكرياتي عن السيدة المحترمة مريم نرمة وعن انتاجها وتأريخها الادبي والصحفي والعلمي ، وقد ذكرني به بعض ما كتبه عنها السادة الافاضل : عن قدم صحيفة عراقية مريم نرمة ام بولينا حسون ؟ ! (٢١) .. وكتاهما قد اشتغلنا بالكتابة والصحافة في آن واحد الا انه صدرت مجلة « ليلي » لبولينا حسون في اعداد سنة ١٩٢٤ او ١٩٢٥ وصدرت منها بضعة اعداد ثم احتجبت عن الصدور ، وبولينا كانت على تقيض السيدة مريم ، فكانت عصرية في زها ونشأتها - متحررة في تطورها واشتغلت في التعليم النسوي في المدارس الرسمية العراقية ، وبعد هذه السنوات لا اعلم عن السيدة مريم شيئا حتى يومي هذا(٢٢) .. واما الذوات الافاضل الذين وردت اسمائهم في هذا البحث فعلى ما اعلم : فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر فنرجو المعدرة عما بدا منا تجاههم من هفوات .. وما ذكرناه للتاريخ وللتاريخ فقط ..

الدكتور داود الجلبي(٢٣)

بمناسبة اهتمام محافظة الموصل (نينوى) بافتتاح مكتبة المرحوم الدكتور داود الجلبي الذي خصص من املاكه وجملها وقفا خاصا لهذه المكتبة التي تضم آلاف المجلدات ومنها المخطوطة النادرة والكتب المطبوعة النفيسة القيمة وبمختلف اللغات(٢٤) .. وجعل هذه المكتبة(٢٥) بما فيها من

عزمت على اصدار مجلة ادبية عنوانها « فتاة العراق »(٢٠) .. وفي عام ١٩٢٢ زرتمها في دارها الجديدة التي اشترتها في عقد المريض من المحلة ذاتها ، وقرأت لوحا من الخشب على واجهة باب دارها عليها (ادارة مجلة فتاة العراق) فاستبشرت خيرا ، فطرقت الباب واستاذنت بالدخول فاستقبلتني السيدة مريم بالترحاب الحار والاستئناس وقدمتني الى شخص لم اكن اعرفه من قبل وقالت له : اقدم لك (اخي) وقالت لي : اقدم لك صدقي الاستاذ الكاتب الاديب (يونان عيو يونان) فرحيت به وفرحت بلغائه لاني كنت كثير الإعجاب بكتاباتهِ ومقالاتهِ في الصحف والمجلات عن الاصطفا في ربوع الشمال الحبيب وعلى الاخص عن « سر عمادية » و « زاويته » و « بامرني » و « تل اسقف » و « بمشيقا » ومصيف « دبرمتي » وغيرها من المصايف العراقية .. وفي الحقيقة كانت كتابات الاستاذ يونان شيقة وممتعة ومحبة للنفوس وترغبها لزيارتها والاستمتاع بجمال الطبيعة فيها .

وفي نظري ان يونان اول داعية اعلامي ومرغب للمصايف العراقية منذ سنة ١٩٢٦ حتى اواخر الثلاثينات عند بدء الحرب العالمية الثانية . . واردمت السيدة قولها : ان الاستاذ عيو سيكون رئيس تحرير مجلتي .. وفي سنة ١٩٢٤ صدر العدد الاول من مجلة « فتاة العراق » وفي العدد الثاني ساهمت بتحرير مقالة بقلم عنوانها « وجوب العناية باللغة العربية في المدارس الاهلية » واقصد بها المدارس المستقلة عن المنهج الوزاري وعلى الاخص المدارس الاجنبية والطوائف الدينية منها .. وصدر العدد الاخر ولم يصدر عدد رابع حتى كتابة هذه السطور اي في سنة ١٩٦٩ ، واخبرتني السيدة مريم انها خسرت مائة دينار بسبب اصدار هذه المجلة التي لم يكتب لها الرواج والتوفيق وظلت اللوحة في مكانها تعلق باب دارها الى ما بعد انتهاء الحرب تحمل اسم المجلة ! ! ..

وغمرتنا الحرب العالمية الثانية بما تحمل من مآسي وويلات ، وتبدل الزمن وتغيرت الدنيا وحدثت احداث وانقطعت علاقتي بالسيدة مريم فلم اسمع عنها شيئا .. وفي يوم من ايام سنة ١٩٤٧ بينما كنت اسير في شارع « حافظ القاضي » في الكرادة الشرقية لفت نظري لوح قديمة عتيقة سبق ان

الامور الطبية في وزارة الدفاع برتبة زعيم ، وكان احد الاعضاء في لجنة تدقيق المعاهدة العراقية - البريطانية .. ثم عين مديرا للصحة العامة ، وبعد احواله على التقاعد سنة ١٩٢٣ اشتغل بالطب في عيادة اهلية في الموصل خاصة به .. نال وسام الرافدين من النوع العسكري وشارك في جمعيات خيرية وطنية واجتماعية .. يتقن كثيرا من اللغات الاجنبية الى جانب اللغة العربية كالفارسية والتركية والفرنسية وشيئا من اللغة الانكليزية .. وكان ولما بافراط في جمع الكتب واقتناء النادر والتفيس منها منذ شبابه حتى استطاع ان يكون من هوايته المفضلة مكتته العامرة الذي نحن بصدد ذكرها .. وقيل سنوات من وفاته اقمته واوهنته الشيخوخة فلزام بيته حتى اسلم الروح الى بارئها في مدينة الموصل مسقط راسه في ٢٨ ايار ١٩٦٠ .. وقد عاش الدكتور المرحوم داود الجلبي عمرا مديدا كريما نيف على التسعين عاما ..

وله من التأليف: (٢٧) (مخطوطات الموصل) وكتاب (الآثار الآرامية في العمارة الموصلية) ، وكتب الموضوعات ونشر المقالات في مجلة لغة العرب لانستاس الكرمل ، وله بعض التصانيف غير المطبوعة للجاحظ وكتب أخرى لابن فارس وبعض المقالات والبحوث في مختلف المجالات والصحف المحلية والعربية في مصر ، ومراسلة الصحافة العربية والاجنبية بمختلف اللغات ..

الهوامش والتعليقات

من وسطها .. وفي هذه الحلة مسجد آل الباجهري الذي ذكره المرحوم العلامة محمود شكري الالوسي في «مساجد بغداد»: ان هذا المسجد في محلة نهر الملى الشهيرة اليوم بمحلة سبع ابيكار .. كما جاء في ذكر جامع السيد سلطان علي قوله : واقع على دجلة من نهر الملى .

(٢) البكرة والكرد بمعنى واحد ، والكرد لفظ فارسية وتعني آلة رفع المياه من الأنهار والآبار واستخدامه لسقي الزروع والبساتين .. وقوام الكرد بكرود واحدة او اكثر حسب الحاجة وكانت شائعة الاستعمال في شرائع بغداد بمثابة اسالة ماء بئائية ، اما طريقة سحب الماء وتوزيعه بواسطة الكرود فيتم بان يصب الماء بواسطة دلو في حوضي اعد له على شريعة من شرائع دجلة فيذهب الماء بالساقية المفلورة تحت الارض والتزفنة تزفيتا متقنا ولقد كان جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني

بنايات وقاعات واثاث ورفوف ومناضد ومقاعد خاصة للمطالعة وسجلها وقفا رسميا خصصت لخدمة المواطنين من ابناء الموصل الحذباء والحق بها بعض المسقفات والعقارات يصرّف ريعها وعوائدها على شؤون هذه المكتبة وعلى ما تحتاجه من كتب وموسوعات وتوسيعات في ملاكها في المستقبل ، وهي واقعة في محلة باب الدواسة في مدينة الموصل الفيحاء .. ووجود مثل هذه المكتبة مفخرة من مفاخر ابناء العراق في هذا القرن الذين يجلسون الثقافة للجميع ويرصدون لها الاموال من اجل نشر العلم والثقافة بين ابناء الجيل وفي مثل هذه المدينة العريقة الطبية ..

وجدري بنا ان نلمح ولو باختصار واقتضاب عن ترجمة حياة المرحوم داود الجلبي .. ولد داود الجلبي في مدينة الموصل في اواخر سنة ١٨٧٩ (٢٦) من سلالة اشتهرت بحرفة الطب والتطبيب قبل قرنين من الزمان او اكثر في مدينة الموصل ، ولجل المهنة .. وبعد ان اكمل الدراسة الاولى ومبادئ العلوم في مدارس الموصل والمكتب الاعداددي الملكي دراسته في اللغات في مدرسة الرسالة (الدومنيكية) وبعدها رحل الى الاستانة فدرس الطب في المدرسة الطبية العسكرية فيها ، وخدم في الجيش التركي الى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ثم عاد الى العراق بعد الهدنة وبعد الثورة العراقية وتشكيل الحكم الملكي في العراق عاد الى الجيش واشتغل في مديرية

(١) صبايغ الال - محلة من محلات الجانب الشرقي في بغداد (الرصافة) .. وبعدها من جهة الشمال محلنا القنبل والدهانة ، ومن الشرق محلنا الشيخ سراج الدين والحاج فتحي ، ومن الجنوب محلة القاطرخانه ، ومن الغرب محلة سبع ابيكار .. وبني هذا اللفظ في اللغتين الكردية والتركية اللون الاحمر او الصبغ الاحمر ، وتنسب هذه الحلة الى جماعة من الصبايين سكنوا هذا الموضع من بغداد القديمة ومارسوا فيها مهنة صبغ الخيوط والافمشة المختلفة بالالوان وخاصة اللون الاحمر ، فنسبت الحلة اليهم واشتهر الاسم بهم .

(٢) محلة سبع ابيكار احدى محلات الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) . وبعدها من جهة الشمال محلنا صبايغ الال والقاطرخانه ، ومن الجنوب نهر دجلة ومن الغرب محلة راس القرية وبخترها شارع الرشيد

واللغة والتاريخ والأدب والفلسفة ولم ذلك ممن
العلوم» .

(٥) لم تسب هذه التكية الى السيد احمد بن علي بن
ابراهيم اللقب بالسيد البديوي صاحب الطريقة المرفوعة
باسمه والتولي في مصر في مدينة طنطا سنة (١٧٥٥هـ /
١٢٧٦م) . وإنما نسبت هذه التكية لشيخ آخر من
شيوخ السادة الرفاعية في بغداد اسمه (الشيخ بدوي)
وله ترجمة وافية في كتاب « تنوير الأبهصار » لشيخ
الاسلام ابي الهادي الصيادي الرفاعي .. ولي سنة
١٩٦٠م هدمت ادارة الأوقاف هذه التكية وقد نسجت
كثيرا من الكرامات حول تقديم قبره مما كانت حديث
اهل بغداد وعوامه حينئذ ، واطاعت على انقاض التكية
عمارة ضخمة ذات عدة طوابق تصرف اليوم بعمارة
البديوي على شارع الرشيد في رأس القرية وابتقت
القبر في حجرته ارضاء لعواطف العوام ولهجنة لثوولهم
ولم ينقل الرفاة الى المقابر العامة بعد ان جديت عمارة
الحجرة والصفت بالعمارة وبميزها باب من الحديد
على شارع الرشيد ..

(٦) لا تزال هذه البناية قائمة اليوم وتمتال عمارتها بالريالة
البغدادية ، وتقع على شارع الرشيد جهة شارع الدهر
قرب جسر الاحرار مقابل عمارة كاظم مكية وهي تعود
الى شركة (لنج) التي اسسها هنري لنج . وكانت
شركة للنقل النهري في نهر دجلة وتعتبر بالنسبة للعراق
بمثابة شركة الهند الشرقية بالنسبة للهند ، وعرف
هنري لنج الشيء الكثير من حوض نهر دجلة حيث قام
بمسحه وتنظيمه ودراسته من هذه وجوه .. وكان
هنري لنج هذا الساعد الامين لـ (جيسني) في مظهراته
الفاشلة في الفرات واصبحت شركة لنج من اربح
الشركات ، وكانت على صلة بشركة الهند الشرقية ،
وهامت هذه الشركة اخيرا بالأضرار في النقل النهري
باعمال تجارية واستيراد الكائن الزراعية .. وقد الفيت
اعمال هذه الشركة في العهد الجبوري ولم يبق لها كيان
بذكر ..

(٧) رأس القرية : احدى محلات بغداد الرئيسية في الجانب
الشرقي (الرصافة) والقرية من شارع الرشيد قامت
في وسطها اليوم ساحة عبدالوهاب الفريدي التي انطلت
فيما بعد موقفا للسيارات تكتنفها عمارات حديثة
واسواق عميرة .. وهناك من يلفظ الاسم بالتصغير
وهذا هو الأشهر وتسميها العامة (رأس الكرية) .. اما
الأتراك فكانوا يقولون (قرية باشي) بدون تصغير ولقد
ذكرها رحلتهم اولياجلي بصورة (قورنه باشي) ..
وسوق رأس القرية واقع تحت شريعة خان التمر وهو
يمتد من الشمال الى الجنوب وبه تتصل محلة رأس
القرية من جهة الشرق وهو قسم من الشارع المسمى
اليوم بشارع النهر (شارع المستنصر) ..

والحلة هذه شأنها شأن اية محلة من محلات بغداد
القديمة تتكون من مجموعة عشود ودرابين وهي طوق
مترجة غير مستقيمة وضيقة جدا لعدم وجود
التنظيمات البلدية في تخليط المدن حينئذ فالطريق
الناطل كانوا يسوونه عقد ولهم الناطل يسوونه دربوونه
طالت ام فحرت .. فمن عقود محلة رأس القرية في

وجامع الشيخ عمر السهرودي قبل مشروع اسالة الماء
الحديث يجهز لهما الماء من ساقية يجري فيها بواسطة
(كرد) الأول منها نصب في شريعة الشيخ بالسناك
والثاني في شريعة الميدان .. وقد سميت محلة رأس
الساقية نسبة الى تلك الساقية الممتدة من نهر دجلة
الى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني .. اما ارواء
البساتين والحدائق المحيطة ببغداد فكانت تستقى
بواسطة (التوامر) جمع تاومر والتي تسحبها الخيول
او البغال .. اما بقية محلات بغداد فكانت تشتري الماء
من السفائين وكانت طبقة السفائين منتشرة في كل مكان
من بغداد وموزعين على محلاتها يستقون الماء من دجلة
ومن الشرائع المشهورة عليه ، ثم يتقلونه الى البيوت
في قرب كبيرة على ظهور الحمير او البغال او الخيول
فكانت توضع على جانبي كل دابة فربتان ولي سنة
١٢٢٥هـ يقابلها سنة ١٩٠٧م ايام الوالي حازم بك
انشئت ماكنة اسالة الماء في بغداد بواسطة مفضحة
نصبت في شريعة الميدان واجري الماء بواسطة انابيب ،
وكان موضع هذه الماكنة في البوزخانة (محلة البقجة)
امام مدرسة الصنائع التي هي اليوم قصر الثقافة
والفنون .. وكانت هذه الماكنة تسحب الماء
من دجلة وترسله الى المحلات القريبة منها وهي :
الميدان ويطي الحيدرخانة والصابونجية وجديد حسن
باشا والطوب وكان مجموع البيوت التي يوزع اليها
الماء في هذه المحلات ٣٦ دارا مشتركا لقاء اجرة شهرية
لكل دار وهي عشرة قروش وهو مبلغ زهيد جدا وهو
ما يساوي بعملة اليوم مئة فلس فارتاحت بغداد من
عناء الأرواء ونجت الجوامع والحمامات من مياه الآبار
الملحة .. وفي السنة التي تلتها اي في سنة ١٩٠٨م
نصبت مفضحة اخرى في شريعة المصيبة قريب من
قهوة الشط نهاية شارع المسؤول من جهة نهر دجلة
ومدت الانابيب لتوزع المياه الى المحلات القريبة منها ،
ثم اشيع استعمال المضخات وتقلص مهام السقاة في
بغداد حتى ازيل بالرة بمتلد ..

(٨) ومن ذكر هذا المسجد (مسجد ال الباجهجي) السيد
ابراهيم الدروي في كتابه (البغداديون) ضمن مدارس
بغداد فقال : « هذا المسجد واقع في محلة العمار سبع
ابكار يتصل به من جهة شارع الرشيد محل ارشاد
المصور ، وهو من اولاف صاحبة الخيرات امينة خاتون
بنت عبدالرحمن الباجهجي .. شيد هذا المسجد
الحاج نعمان جليي الباجهجي ابن عثمان جليي سنة
١٢٢٦هـ .. وكان سابقا مدرسة طلمية يدرس فيها
العلوم العقلية والنقلية ثم اعاد الحاج نعمان بناء هذه
المدرسة المذكورة واقف عليها وعلى المسجد المذكور
اوقافا معلومة وشروط صرف فلثها على اوازم المسجد
والمدرسة بموجب الاعلام الصادر من محكمة شريعة
بغداد المؤرخ ١٠ ايلول سنة ١٢٥٣هـ . ولقد درس في
هذه المدرسة علماء اعلام منهم العلامة فلام رسول
الهندي والعلامة الا مصطفى امام وخطيب جامع
السيد سلطان علي ومدرستها الحالي الفاضل عمر
مولود الديهكي الكردي . وفي هذه المدرسة مكتبة قيمة
تضم نوادر الكتب المخطوطة في التفسير والحديث والفقه

القرن الماضي ولا يزال آثارها باقية الى وقت من هذا القرن وهي : عقد السفاهي ، عد الغاصبي ، عقد الكاوير ، عقد القصيف ، عقد الرواق ، عقد حاجي أمين ، حمام حيدر ، الجنابين ، العمار ، تكية البدوي ، العفد الصيق وعقد ابو يعقوب .. واسم راس القرية هذا في رأي بعض الباحثين يعني بداية الأراضي السهلة او الواطئة المنخفضة ..

(١١) الباخانة - محلة من محال بغداد القديمة في الجانب الشرقي منها وتحيط بها المحلات التالية : السيد سلطان علي او المريمة من الجنوب والعمار سبع ايكار من القرب والفاخرخانة وصبايخ اول من الشمال ومحلة الحاج فتحى من الشرق وكان موضع هذه المحلة يسمى سابقا (حمام الراعي) .. وفي عام ١٨٦٤م أسس الوالي تامق باشا اول معمل حديث للنسيج في العراق ، وهو الذي اطلق عليه البغداديون اسم (الباخانة) او (القاطرخانة) وبه عرفت المحلة المحيطة به . وكان يدار بقوة البخار وينتج بعض حاجيات الجيش من الخبسة وخيام ، وحين جاء مدحت باشا عمل على تطوير المعمل وتوسيعه حتى وصل انتاجه في اليوم الواحد الى ثلثة مائة متر من الاقمشة الصوفية واربعمائة متر من الافمشة القطنية السمكية ..

(١٢) جامع الحاج فتحى - احدى محلات الجانب الشرقي من بغداد وسميت بهذا الاسم نسبة الى هذا الجامع الذي آل اليوم الى خربة تعود ملكيتها الى الاوقاف ويطل على شارع الجمهورية .. وقد ذكره الصلابة محمود شكري الاوسى في « تاريخ مساجد بغداد » عند الكلام عن الحاج فتحى فقال : « رايح بعض من في الجامع الشيوخ والكهول عن الحاج فتحى الذي ينسب اليه المسجد والمحلة التي حوله فقالوا : كان على ما سمعنا درويشا جاء من الموصل واقام في المحل وصار له ابناء ومريدون في هذا المسجد ، واذا توفي دفن عند الباب من شمال الداخل ، وقد جعلت الاوقاف قبره في عمارتها الاخرة حاوتها .. عرفت ان هذا المسجد كان قفرا فانخذه الحاج فتحى مسجدا عام ١١٦٩هـ » .

(١٣) من مذكرات السيد محمد رؤوف السيد طه الشبخلي والتي دونها في كتابه « مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها » يقول انشاء الكلام الذي سلمه له الفران الكريم هو عم السيد عبدالحميد الذي كان يباشر تعليم الاطفال مع شقيقه . فتعلمت لديه القرآن الكريم والكتابة وكتابة يبرأ من الحساب وكان للاخوين المذكورين وظيفة اخرى في جامع السيد عبدالكريم الجيلي وهو الواقع في الطريق الذي بين جامع الحاج فتحى وجامع السيد سلطان علي وكان يسمى (عقسد الجاموس) فكتبت اذهب مع عمي السيد عبدالحميد عصر كل يوم الى جامع السيد عبدالكريم الجيلي فينقذ نظافة المحل وحالة الأشجار من نخيل وغيرها لأن الجامع المذكور كان متصلا بيستان صغيرة او قل الجامع هو داخل البستان ..

وكان في شريمة السيد سلطان علي كرد خاص برفع الماء من دجلة بواسطته فتؤمن حاجته من الماء أولا ثم تستمر السفاية في طرفها تحت الأرض الى جامع السيد

(٨) وخليل باشا هذا عرف ب (خليل بك) ايضا : تولى ولاية بغداد وقيادة الجبهة في ١٢ كانون الثاني ١٩١٦م الموافق ٦ ربيع الاول ١٣٣٤هـ وفي ايامه الاولى اندحس الجيش البريطاني في معركة سلمان باك ، وحوصر في الكوت ، وفي عهد ولايته فتحت ببغداد اول (جادة) بعرض ١٦ مترا سميت ب (جادة خليل باشا) .. وكان افتتاحها في ٢٣ تموز ١٩١٦م الموافق ٢٢ رمضان ١٣٣٤هـ . وهذا الشارع سماه البريطانيون بمسد احتلالهم لبغداد (الشارع الجديد) وهو المسمى اليوم بشارع الرشيد نسبة الى الخليفة العباسي العظيم هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٢هـ) ..

وقد وصف المؤرخون « خليل باشا » هذا بأنه كان من اعظم القادة العسكريين حكمة ومقدرة حربية وهو من كبار الاتحاديين الا انه بالرغم من ذلك كان منهمكا بالذائل مستسلما للنساء رغم اعاصير الخطر التي كانت تعصف بالبلاد من جميع اطرافها .. وقد هام وجدا باحدى الموصات في بغداد ، فاستولت عليه واستبدت بعقله والهته عن الامر المهم الذي انيط به ، حتى انه كان يقول لها وهو في لحظات نشوته : انا فائد الجبهة وانت الحاكم المطلق علي ! وما كان يعلم هذا المسكين ان هذه الهام التي حكمتها حكما مطلقا هي الجاسوسة الانكليزية « فتم » ..

(٩) المقصود بهذه الجادة هو شارع الرشيد الحالي ولم يكن من الباب العظيم الى الباب الشرقي في عهد خليل باشا بل امتد من الباب العظيم الى الكورك في السنك ، بسبب ان بنائة الكورك التي اتخذت اليوم متحفاً للآليات المراقبية كانت في عهد الدولة العثمانية دار القنصلية البريطانية وتسمى عند العامة (القنصلخانة) وكانت البناية تمتد الى استقامة شارع الرشيد وقسما منها في دائرة البرق المركزية فامتد الشارع الى سور القنصلية وتوقف العمل عليه اذ اعترضت الحكومة البريطانية ان يهدم قسم من قنصليتها في بغداد واصر خليل باشا على هدمها وكادت ان تحدث ازمة سياسية بين بريطانيا والدولة العثمانية بسبب ذلك لولا اشتغال نيران الحرب العالمية الاولى وانشغال الدولتين بها فاهمل المشروع وتوقف الشارع الى هذا الحد وخسرت الدولة العثمانية الحرب وخرجت من العراق وحلت الدولة البريطانية محلها في احتلال العراق وفي عهدها امتد هذا الشارع الى الباب الشرقي عند الدبالخانة العسكرية وبمحاذاة نهر دجلة من جانبه الشرقي ...

(١٠) عرف ابناءه الواقف السيد عيسى بلورية السيد عيسى وقد ذكر مجلسهم ضمن المجالس البغدادية السيد ابراهيم المروبي في كتابه (البغداديون) فقال : هذا البيت من ارفع واجل بيوتات بغداد وال السيد عيسى سادة حسنية وقد

عبدالكريم الجيلي فسقى البستان ومن هناك الى جامع الحاج فتحي فتؤمن حاجة السبيل الموجود فيه ..

(11) جامع السيد سلطان علي - هذا الجامع مظل على دجلة من نهر الملعى من انهار بغداد القديمة وموضعه اليوم بمحلة سبع ابيكار او الرصبة بلحق شركة المخازن المرافية المركز الرئيسي على شارع الرشيد في بغداد.. يقول الدروبي في بناء الجامع : ولا يعلم بالتحقيق تاريخ بناء هذا الجامع الا انه يصادف العصر الذي بنى فيه المدرسة المرجانية والنظر الى منمنة كل منهما نجعلنا نقتنع بان البناء متقارب في الزمان ان لم يكن مماثلا ومنمنة جامع التعماني لا تختلف عنهما .. وقد ذكر العلامة الحاج علي الاوسي القاضي في تعليق له على كتاب كلشن خلفا عند ذكر الشيخ علي ما نصه : والظاهر ان الشيخ علي هذا هو النسوب اليه جامع السيد سلطان علي فانه ولي بغداد وتولي فيها وموضوع الجامع من مرافق دار الخلافة العباسية كما أكد ذلك الاستاذ المرحوم عباس المزاري في تاريخه .. والحقيقة ان السيد علي هو والد الصوفي الشهير السيد احمد الرفاعي صاحب الطريقة المرووفة باسمه وله ترجمة وافية تؤكد الموضع الذي دفن فيه في كتاب « روضة الناظرين وخصاصة مناب الصالحين » للعلامة الكبير الشيخ احمد بن محمد الزوري ، اوصلي الاصل ، البضادي الدار ، المصري الوفاة الذي توفي في سنة ٩٨٠هـ .. وفي سنة ١٣١٠هـ جدد عمارة الجامع السلطان عبدالحميد خان التعماني وانشأ فيه مدرستين لتدريس العلوم العقلية والتقليدية وبنى فيه حجراً للطلاب العلم .. واما الكتابات التي على باب الجامع كما يذكر الدروبي فهي بخط عثمان باور الخطاط المشهور ، وعثمان باور هذا خطاط معروف من تلاميذ الخطاط الشهير يسامي بك ومن آثاره الخلية ما كتب على الكاشاني الازرق في مشهد الامام الاعظم والشيخ معروف الكرخي والواو خطية، وكان حسن الخط دعاه من الاستانة الى بغداد الحاج حسن باشا والي بغداد ايام ولابنته وفي ايامه عاد الى استانبول وتوفي هنالك سنة ١٣٢٢هـ وفي هذا الجامع تكية للسادة الرفاعية من آل رجب الراوي وكان عبيدها الشيخ ابراهيم الراوي ومجلسه الادبي والديني فيه يذكره أهل بغداد في جملة مجالسهم ولا تزال هذه التكية عامرة بروادها وتكون بنايتها في القسم الطوي من الجهة الشمالية من هذا الجامع ولها مكتبة قيمة تضم نوارد المخطوطات والكتب المطبوعة النفيسة ، والذي يقوم الان برعاية هذه التكية ومكتبتها الاستاذ المحامي جمال بن اسماعيل الراوي بمسد وفاة الاستاذ الشاعر خاشع الراوي - رحمه الله - .

(1٥) جاءت تسمية (الباب الجنوبي) من جريان نهر دجلة من جهة الشمال الى الجنوب فيشطر مدينة بغداد الى قسمين ، فالجانب الغربي منه ويسمى (الكرخ) ، والجانب الشرقي ويسمى (الرصافة) .. اما تسمية (الباب الشرقي) فمن مدار الشمس فيكون موقع الباب في الجهة الشرقية من بغداد وهي جهة شروق الشمس وتنطبق التسميتان (الشمالي او الغربي) على الباب المعظم وفقاً لذلك .

(١٦) لم يكن الكاتب دقيقاً من الناحية التاريخية لانه ليس من الباحثين ، فقد اشتهر هذا السور في زمن الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة (٦١٨) هجرية كما لعل على ذلك الكتابة التي كانت على موضع من احد ابواب السور المسمى ب (باب الظلم) وقيل ان تاسيسه يسبق ذلك بزمن غير يسير وان الخليفة الناصر انشا بعض اسماها وبلاخض ابوابه !! وعلى كل حال فان السور لم يكن في زمن ابي جعفر المنصور بل ولم تكن الرصافة معروفة في زمنه ، فلول ما بنى من بغداد الجانب الغربي ومن بعده بنيت الرصافة . وقد هدمه الوالي مدحت باشا بدافع عدم فائدته ولاجل توسيع بغداد ..

وما كان للسور اثر او معالم ظاهرة في بغداد سوى ابوابه الاربعة وضلعي القلعة الخارجيين من جهة الجديفة (المستشفى الجمهوري ومدينة الطب) ومن جهة دجلة باعتبارها من السور لانه كان متصلاً بهما وكذا ضلعي الداخلخانة اي من الباب الشرقي الى دجلة ومن هناك ينطف على زاوية قائمة بامتداد النهر الى شريعة الفناهرة وبعض الاسس في محال اخرى متفرقة.. اما الآن فلم يبق من هذا وذاك سوى الباب الوسطاني القريب من مقبرة الشيخ عمر السهروردي وجامعه ..

(١٧) وذكر ايضا السيد محمد رؤوف الشيشي في مذكراته مثل ذلك فقال : وكان يوجد في بغداد من العربات الخصوصية ثلاث او اربع عربات فقط وهي : عربة النقيب وعربة ابن جميل وعربة الوالي وعربة نصرت باشا مفتش الجيش .

وكان لبعض القناصل عربات ذات دولابين فقط ويجرها حصان واحد ويجلس فيها القنصل وهو سائقها! ويجانبه زوجته فيخرجون للترهه الى الباب الشرقي ثم يعودون من حيث اتوا ..

(١٨) تقع بحيرة « وان » في تركيا الشرقية بين جبال طوروس، وعلى ضفتها الشرقية تقع مدينة « وان » المشهورة بيساينها وتنوع ثمارها .

(١٩) سميت علوة المخضرات التي وقع فيها هذا الحريق الهائل ب « خان النفط » بعد حزن صفائح النفط فيها وذكر السيد عبدالكريم العلاف في « بغداد القديمة » هذا الحريق بالتفصيل فقال : وفي مساء يوم السبت ٢٢ جمادى الاولى سنة ١٢٢٠هـ وبنايلها سنة ١٩١٢م ايام الوالي جمال باشا حدث حريق هائل في بغداد بخان النفط الواقع في محلة العوينة المطلة الى السيد محمد السيد محسن آل الطار وهم من السادة الحسينيين المعروفين في بغداد ودام هذا الحريق الى يوم ٣٠ من الشهر اي الى يوم السبت وكان ما التهمته النيران يربو على ثلاثة عشر الف صندوقاً من النفط ومائتين وخمسين صندوقاً من الكحول (اسبرنو) ومائتين صندوقاً من البانزين ، وقد كنا نشاهد صفائح النفط تتطاير بعد الانفجار في الجو ، وهذا اعظم حريق في بغداد عرفته الحكومة العثمانية .. ولعل هذا الحريق اول حريق في بغداد وعقبه حريق ثان هو الذي ذكره صاحب المذكرات لاختلاف الروايتين في تاريخ وقوعه وكمية الخسائر وان اتعد المكان في كلا الروايتين

واخر ما قالته في عيد الصحافة هذا : « انني جدا سعيدة لان ثاني حكومة وطنية ولاول مرة في تاريخ عراقنا الصيبي لتطلي الصحافة حقها .. وتحفل بعيدها .. انها امنية غالبية كانت تتمثل في صدري .. وفق الله العاملين للخير والصفاء .. !!

(٢٢) انها توفيت بعد كاتب المذكرات بسنوات .. في حدود سنة ١٩٧٣ والكاتب توفي في ٦ مابيس ١٩٧١ ..

(٢٣) انظر ترجمته بتوسع وتفصيل فيما يلي : ١ - اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث : لير بصري . الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ . ٢ - الرسالة الاسلامية - مجلة ديوان الاوقاف في العراق / العددان : ٧٠ و ٧١ ص ٦٤ . ٤ - الدكتور داود الجليبي حياته ومخطوطاته وخزائنه : فيصل دبدوب .

(٢٤) بلقت الكتب عند انضمام مكتبة الدكتور داود الجليبي الى خزائن مكتبة الاوقاف في الموصل من المخطوطات (٢٠٩) ومن المطبوعات (٧١٤) ..

(٢٥) انشئت مكتبة داود الجليبي عملا بوصيته لتكون مكتبة عامة في الموصل تضم كتيبه ومخطوطاته .. وتم تشييدها وافتتحت في حزيران سنة ١٩٦٨ .. وظلت تزاوول هذه المكتبة عملها في خدمة المواطنين حتى انضمت خزائنها الى مكتبة الاوقاف العامة في الموصل في مابيس سنة ١٩٧٣ .. وييمت قسم من هذه الكتب الى مكتبة المتحف العراقي في بغداد من قبل ورثته ..

(٢٦) هو الدكتور داود بن محمد سليم بن احمد بن محمد الجليبي الموصلية .. ولد في الموصل في ١٦ كانون الاول سنة ١٢٨٧هـ/١٢٩٧هـ .

(٢٧) وهذه تاليفه على سبيل الحصر : مخطوطات الموصل (١٩٧٢) ، كتاب الطبيب محمد بن الحسن الكاتب البغدادي (حققه ونشره سنة ١٩٣٤) ، الآثار الارامية في لفة الموصل العامية (١٩٣٥) ، اقتراح وهو بحث موسع مرفوع الى مجمع اللغة العربية في القاهرة عن تيسير القراءة والكتابة العربية (١٩٤٤) ، كلمات فارسية مستعملة في عامية الموصل (١٩٦٠) ، قاموس فرنسي عربي للاصطلاحات الطبية الخاصة بامراض الجلد (١٩٤٦) ، القندباد - وهو من كتب الجوس المقدسة - ترجمه عن اللغة الفرنسية (١٩٥٢) الطبيب محمد بن زكريا الرازي (١٩٤٨) ، الموصل - مجموعة محاضرات - (١٩٤٩) .. وله عدا ذلك مقالات وبحوث كثيرة نشر معظمها في مجلة لفة العرب والمكتشف ومجلات الجامعات العلمية في دمشق وبغداد والقاهرة ومجلة غرفة تجارة بغداد .. وكان داود الجليبي فيما كتب عالما واسع الافاق ، ذوقيا على العمل ، حريصا على تنظيم ولفته ، حتى شملت بحوثه وكتاباته مواضيع متعددة في شتى ميادين العلم والمعرفة ..

ان حدنا في علوة المخضرات التي هي خان النفط في محلة العوينة في بغداد .. ورواية الصلاف هذه تطابق ما اورده الاستاذ عباس المزوي في تاريخه ج ٨ ص ٢٢٠ .

(٢٠) ورد اسم المجلة « فتاة العرب » في كتاب «اول الطريق» مؤلفته صبيحة الشيخ داود ، حيث ذكرت فيه : « اصدرت السيدة مريم نرمة مجلة « فتاة العرب » في ٦ ايار ١٩٢٧ ، وهي مجلة ادبية نسائية اجتماعية غايتها خدمة الفتاة العراقية . وكانت السيدة نرمة في طليحة الكتابات الوائيه ساهمن في معالجة الشؤون الاخلاقية والاجتماعية في الصحافة على عهد الثورة العراقية ، الا انها ام تصدر مجلة باسمها قبل سنة ١٩٢٧ ..

ولدت السيدة مريم نرمة في بغداد في ٣ نيسان ١٨٩٠م ، ووالدها المرحوم روفائيل يوسف رومايا ، ولقيت باسم « نرمة » وهي كلمة كلدانية فارسية ومعناها « لطيفة » وقد اقيم لها في ١٩ مابيس ١٩٤٥ احتفال تكريمي بمناسبة ذكرى الوبيل الفضي لشاركتها في النشاط الادبي عن طريق الصحافة ، وكان عزم نرمة معقودا على اصدار مجلة باسم « فتاة العراق » عدلت عنها الى « فتاة العرب » بعد ان صدرت مجلة تحمل نفس العنوان (وكانت صاحبة امتيازها حسبية فاسم راجي) . وقد عاشت « فتاة العرب » سنة اشهر واصطرت صاحبيتها الى ايقافها بسبب الخزان المادي الذي لحقها ، وقالت : انه بلغ (٥) ليرة ذهباً ..

(٢١) كان ذلك بمناسبة العيد المؤي للصحافة العراقية (١٨٦٩ - ١٩٦٩) والذي دعت الى الاحتفال به وزارة الثقافة والاعلام تكريم اولئك الذين وضعوا اللبنة الاولى في صرح الصحافة في القطر العراقي ومنهم السيدة مريم نرمة وقد شاركت في هذا الاحتفال ، وقد صدرت بالمناسبة كراس عن لجنة الاحتفال يعرف بهذه الصحيفة ويترجم حياتها بسطور * اسمها الكامل « مريم نرمة » . عمرها ٧٩ عاماً .. ولدت في بغداد .. ثم انتقلت الى البصرة .. وعادت الى بغداد حيث لا زالت تعيش الآن .. انها عراقية .. عربية .. بدأت اول كتاباتها الصحفية في الاول من ايار سنة ١٩٢١ . وذلك في مجلة « دار السلام » الادبية التي كان يصدرها المرحوم الاب انستاس الكرملي .. وكان عنوان المقال : « نقفوا اولادكم وبناتكم كالكلمة الاستعمار .. » . ثم نشرت سلسلة من المقالات والمواضيع في صحف عراقية عديدة كان منها : جريدة « العالم العربي » ومجلة « الصباح » وجريدة « الأحد » وغيرها .. نافلت الكثير من الكتاب العالمين في امور وطنية واجتماعية .. فقد نافلت « الفرد كروس » الاستاذ بجامعة كاليفورنيا بامريكا وهاجمته لانه هاجم المرأة العربية في مقالات نشرها في الصحف الامريكية .. وفي سنة ١٩٢٧ اصدرت جريدة « فتاة العرب » وجعلت شعارها « بلاد العرب للرب » !! ورغم كل كتاباتها عن المرأة ووجوب تثقيفها وتحررها فانها هي نفسها كانت محببة حتى الى ما قبل بضع سنوات !! ..

مصادر المراجع

- ١ - البغداديون : ابراهيم الدروبي .
- ٢ - بغداد القديمة : عبدالكريم العلاف .
- ٣ - دليل خارطة بغداد : الدكتور مصطفى جواد واحمد سوسة .
- ٤ - تاريخ بغداد : سليمان فائق ترجمة موسى كاظم نورس .
- ٥ - قلم وزير : من آثار ابراهيم صالح شكر تعليق خالد محسن اسماعيل .
- ٦ - مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها : السيد محمد رؤوف الشبخلي .
- ٧ - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث - الدكتور علي الوردني .
- ٨ - تاريخ العراق بين احتلالين : الاستاذ عباس المزوي .
- ٩ - اتفاق مربية العدد / ١٠ / حزيران / ١٩٧٩ . محلات بغداد لجمال يابان .
- ١٠ - لب الابواب ! محمد صالح الهرودي .
- ١١ - مكتبة الاوناف العامة أربخا ونوادير مخطوطاتها : عبدالله الجبوري .
- ١٢ - تاريخ مساجد بغداد : محمود شكرى الالوسي اللاه
- ١٣ - روضة الناظرين وخلاصة مناهب السالحين : الشيخ محمد بن احمد الوردي .
- ١٤ - المنجد في الأدب والعلوم : فردينان تول .
- ١٥ - اول الطريق : صبيحة الشيخ داود .
- ١٦ - كراس بمناسبة العيد النوي للصحافة العراقية (١٨٦٩ - ١٩٦٩) صادر عن وزارة الثقافة والأعلام .
- ١٧ - اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث : مير بصري .
- ١٨ - مجلة الرسالة الاسلامية / العددان : ٧٠ و ٧١ .
- ١٩ - الدكتور داود الجلسي حياته ومخطوطاته وخزانته : فيصل دبدوب .
- ٢٠ - الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ .

بُعْدُ الدَّيْنِ خِلَالِ المَقَامَاتِ

صَبِيحُ صِلَاقٍ

القسم الثقافي - جريدة الجمهورية - بغداد

تم ترتيب النصوص حسب التدرج الزمني لصاحبها .. وفي أحيان كثيرة قد يكون هناك نص واحد فقط او نصين يعتمد أحدهما بعدة قرون عن الآخر .

من الملاحظات المهمة حول المقامات انها ظهرت ابان انحلال الدولة العربية الاسلامية سياسيا ، اي ان بغداد كانت في بداية اضمحلال حضارتها ولهذا جاءت الكثير من مظاهرها وصف لحالة التدهور الذي تعيشه وليس وصف لحالة التمدن التي شهدتها بغداد ..

والمقامات التي عثرنا فيها على مادة الموضوع هي :

(١) مقامات بديع الزمان الهمداني المتوفى عام ٣٩٨هـ/١٠٠٨م وقد طبعت طبعات عدة .

(٢) مقامات ابن نايقا (عبدالله بن محمد) المتوفى عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م المطبوعة في استانبول - مطبعة احمد كامل - سنة ١٣٣٠هـ .

(٣) مقامات الحريري المتوفى عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م المطبوعة طبعات عدة .

(٤) مقامات ابن ماري/يحيى بن سعيد [المعروفة باسم المقامات المسيحية] المتوفى عام ٥٨٩هـ . وهي مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٣٢٠ ، وقد ورد نص المقامتين بمد هذا البحث .

(٥) مقامات الكازروني علي بن محمد المتوفى عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م بتحقيق الاستاذين كوركيس عواد وميخائيل عواد . مطبعة الارشاد ببغداد - ١٩٦٢ .

(٦) مقامات ابن الصيقل الجزري المتوفى عام ٧٠١هـ/١٣٠١م بتحقيق الدكتور عباس مصطفى

هذا البحث محاولة لاستشفاف الملامح العامة عن بغداد من خلال نصوص المقامات التي دارت احدائها فيها او قيلت حولها .. ولا يتوقع القارئ اكثر من ذلك .. فخطة هذا البحث هي جمع كل المقامات التي قيلت في بغداد واستخلاص المعالم الاجتماعية والاقتصادية وسواهما من المنفرقات التي تخص الحياة البغدادية في بحث مستقل يمتد من القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي .

وبصورة عامة فان قلة عدد المقامات قد سببت إرباكا في هذا الموضوع لتوفر نصوص عديدة في جانب من الجوانب وعدم توفرها في جانب آخر . ولم تكن جميع المقامات قد تحدثت عن بغداد فهناك من المقامات ما لم تكن لها علاقة ببغداد مثل مقامات الزمخشري والسيوطي وابن الوردى وغيرها .. ولكن المقامات المهمة مثل مقامات الهمداني والحريري والكازروني وغيرها تحدثت عنها . نعني مقامات الهمداني والحريري عدة مقامات منهما جرت احدائها في بغداد . ووردت في مقامات ابن نايقا وابن ماري مقامتين في كل منهما جرتا في بغداد . وجاءت مقامات الكازروني والالوسي كلها عن بغداد . بينما خصص الجزري مقامة واحدة عن بغداد ..

تسم هذا البحث الى عدة اقسام ، فالقسم الاول يتحدث عن المواسم الاجتماعية والدينية كما صورتها المقامات ، ثم القسم الثاني عن الحالة الاقتصادية في بغداد . وفي القسم الثالث جوانب متفرقة مثل انطباعات اصحاب المقامات عن بغداد واهلها واللوان الطعام والشراب عندهم والتعامل في السوق وبعض الفصول حول الحوادث التاريخية وغيرها ...

« ولياليه مشرقة بالمصاييح ، والمساجد منيرة بالصلوات والتراويح والمسوام ملتهمية باللاذ والغناء والفرح الى منتهى وقت العشاء ثم ترفع قناديل السحر وتتناغى شحارير التذكير وايامه كلها عبادة واقاته طاعة وزيادة » .

ثم يصف عادة توزيع الهدايا قبل حلول عيد الفطر حيث يتم توزيعها على الجميع ..

« فاذا بقي من الشهر اربع ليال وعاد جديده كالاسمال ، خلع المخزن تشريفات الخليفة على صدور الدولة الشريفة ثم بعده الملوك وارباب المراتب والسادة ولده الاطابيح حتى يصل الانعام الى الخاص والعام فقل من لا ينال منها نصيباً وفي البعيد من لا يكون منها قريباً . »

موسم العيد

وصفت مقامة الكازروني (القرن السابع الهجري) موسم العيد في بغداد والتهويء له ، وكان نفسه - اي الكازروني - معجباً بمظاهر العيد في بغداد ، فقال :

« يتهاى الناس للعيد المشهود والمجمع المحشود الذي تكلب عن حسن وصفه السنة اللغاة وتعجز عن ادراك وصفه عقول الالباء فلا ينتهي الى نعته قول قائل ولا يصل الى مثله الاوخر ولا الاوائل ، ولا رنى لاحد من الملوك ما يناسبه ولا حكي ان لهم مثله او ما يقاربه » .

ثم يصف الاحتفال الرسمي بهذه المناسبة والاحتفال الشعبي فيها :

« يباكر اليه في احسن زينة ولباس ويجتمع لرؤية الموكب اكثر الناس ، ثم يجلس الخليفة في داره ويعرض الموكب بأهله وصفاره ، والملوك في احسن زينة وابى حلية ، واعظم سكينه ، فلا يزال الموكب والمساكر تجري كالسيل في جمع كنجوم الليل ، كذلك ثلاثة ايام حتى ينقضي منقضاءه ، ويصل آخره ومنتهاه وقد تكاملت للعالم المسار في آناء الليل والنهار ، فان كان الاضحى نحر الخليفة في ابوابه ، وكذلك اهل بلده ، وغبسة في ثوابه فيمثار الفقراء ويؤجر الاغنياء » .

الصالحى (رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة في المكتبة المركزية - جامعة بغداد .)

(٧) مقامات الالوسي محمود بن عبدالله الحسيني المتوفى عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م المطبعة الحجرية في كربلاء . سنة ١٢٧٢هـ .

(٨) مقامات ناصيف اليازجي (مجمع البحرين) المتوفى عام ١٢٨٧هـ/١٨٧١م المكتبة التجارية بيروت .

المواسم الاجتماعية والدينية

كان الكازروني (القرن الرابع الهجري) اكثر اصحاب المقامات وصفا للمواسم في بغداد مثل موسم رمضان والعيد والحج والربيع والترب وغيرها . والنصوص التي تم جمعها حول هذا الموضوع تعود الى القرن السابع الهجري - اي عصر الكازروني - وهي فترة مهمة من حياة بغداد لسقوطها بايدي المغول ، ومصادر هذه الفترة اقل بكثير من المصادر التي تؤرخ للفترة السابقة عليها ، ولهذا يمكن اضافة هذه النصوص الى نصوص كتب التاريخ في وصف بغداد .

شهر رمضان

يصف الكازروني ما يحدث ببغداد في شهر رمضان حيث توزع الهدايا في ايامه الاولى على العلماء والمتصوفة والنبلاء ، وفي وقت الفطور من كل يوم كان الافطار يوزع على كل محتاج ، يقول الكازروني :

« ... شهر الصيام ، المختص بالعبادة والقيام ، المفتتح بالصدقات ، المنور الليالي بالصلوات ، ففي اول يوم منه يفيض على العلماء والمتصوفة والنبلاء من بذر الانعام وبذر الانعام ، ما يجاوز حد الاكثار . ويغني وقت الافطار ، ثم تفتح ادر المضيف للمسوام والفقراء والايام فلا يبقى من لا يشمل الانعام ويحصل له القوت في الصيام . وما من الملوك الا من عليه راتب ، وكذلك الصدور واصحاب المراتب يفتطر على اطباقهم الامائل ، واطابح الالوان تصل الى الفقير والسائل » .

ثم ينتقل الى وصف ليالي شهر رمضان حيث توفد المصاييح وينشغل الناس بالصلوات او بقضاء اوقاتهم في السمر حتى وقت العشاء . ويقرأ آخرون القرآن . يقول الكازروني :

موسم الربيع

كان اهل بغداد يخرجون في الربيع الى الحدائق والبساتين والانهار ويقضون اوقاتهم هناك بين الغناء والموسيقى .. وقد وصف الكازروني (القرن الخامس الهجري) خروج اهل بغداد في الربيع فقال في مقامته :

« وامازمان الربيع ، وايسام الوشي البديع فانهم كانوا يصطحبون ويتجمعون وينشالون « كانوا الى نصب يوفضون » فينزلون الجوارى في رهط من الجوارى ، ويدخلون نهر عيسى ويياكرون نحو قصده تظليسا . فيجتمعون بالحقول اذ عليه في الحسن المعول فيختترنون اشجاره ويقطفون ثماره ونواره ، ويفترشون رياضه وازهاره وينزلون غيطانه وانهاره . ثم تعزف القيان وتصطخب العيبدان وتصفق الغدران وترقص الاغصان وتميد الافسان وكلمما دسع الراوق طاب المنوق وكلمما بكى السحاب ضحك الحباب . وكلما طرب العود زمجرت الرعود وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة ، كذلك اياما لايطعمون مناما . »

ثم يتحول الكازروني الى وصف ما آلت اليه بعد ذلك :

« الا انهم انتهكوا المحارم واركبوا المائم واصروا على الفجور وسفك الخمر ، ولاجرم ان العرش اهتز غضبا ، وسعيرت جهنم حسبا ، وازدادت لها ، فاخذهم الله تعالى اليه « اخذ عزيز مقتدر » ولقد تركناها آية فهل من مدكر » فاين الملك الباذخ والشرف الشامخ ذهبت والله الشهوات ، بقيت التبعات ، وخسعت الاصوات ، وسقيت الرفات من اعظم العظات ... »

موسم الحج

ذكر الكازروني (القرن السابع الهجري) موسم الخروج للحج في بغداد فوصف مفادرة الحجاج ببغداد وكيف يتم الاحتفال بهذه المناسبة على ضفاف دجلة ويكتظ الناس للمشاهدة ..

يقول الكازروني

« .. منها موسم الحاج وهو اعظم

مواسم السنة التي تكل عن وصف حسنة الالسنه ، وتفتح فيه آدر المضيف لكل بانس من الحاج وضعيف ، وتضرب على دجلة الحياض والروايا ويؤذن بالحج في سائر الرعايا . ثم يهرع الناس الى الفرجة على التبريز في حلل الابريز ما بين فتى وفتاه وشاب قد فتن بحسنه فتاه . يرتفعون في رياض الجانب الغربي ما بين ماسر او منتظر صهوة عربي فلا يزالون كذلك اياما يمرحون وحدانا وفتاما (الجماعة من الناس) والسبل تجلى في الواكب الى الخيام وتزرف الى منازلها بالبمسيد والخدام . فاول مايقدمها العلم وهو محمل الخاص ويمده الكوس وجند السفر ، والنوبة المكية في الاثر تنهادى بين الحجاب والدعاة ، والقراء في احسن الصفات ، ثم يتوالى في كل يوم سبيل بعد سبيل ورحل كل جهة محمل جميل ، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج ، فيخلع على الامير ويكلال ، ويتنعم عليه ثم يحمل ، فيخرج من ساعته ويدخل الحاج في طاعته . »

ثم يصف الكازروني بعد ذلك عودتهم بقوله :

« فاذا رجعوا سالمين فهو موسم ثامر للمتفرجين ، يفض فيه من التشريفات على الحاشية والولاة مايدهش الناظر ويجلو الناظر . وامانهم الا من قد يتخبخ بسلامة اهله مرحبين بما اتاهم الله من فضله) . »

التنزّه

اعتاد اهل بغداد التنزه في العديد من الاماكن ، وقد وصفت القامات تنزه اهل بغداد فيتحديث الهمداني (القرن الرابع الهجري) في مقامته القرديّة على لسان عيسى بن هشام اذ يقول :

بيانا « على شاطئ الدجلة ، انامل تلك الطرائف واتقصى تلك الزخارف ، اذ انتهت الى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب اعناقهم ويشق الضحك اشداقهم فساقى الحرص الى ما ساقهم حتى وقت بمسمع صوت رجل دون مرأى وجهه لشدة الهجمة وفرط الزحمة فاذا هو قراد يرقص قرده ويضحك من عنده .. »

ويشرب . وقراء الواكب تشوق
وتطرب فاذا كان الليل اجتمع المتصوفة
والفقهاء ، واوقدت الشموع وقرا القراء
وشرع العواظ في الكلام والاحياء الى آخر
الظلام فاذا اسفر الصباح وبادر المؤذن
بالفلاح ، فض على المذكورين من الحلواء
واطياب الطعام والغذاء ما يستغرق حد
الاكثر وبعم ذوي الاقتار . »

حالة التعليم

لم نشر على نصوص كثيرة حول طبيعة
التعليم من خلال المقامات باستثناء اشارتين وردت
الاولى في مقامات يحيى بن سعيد والثانية في
مقامات الالوسي .

في مقامات يحيى بن سعيد (القرن السادس
الهجري) انتقاد للتعليم في مجال الطب حيث ورد
في المقامة الخمسين التي تعرف بالدارية على لسان
أحد اساتذة الطب عندما ناقشه الراوية يحيى بن
سلام فيقول له الاستاذ :

« اقتصروا من العلم على جس العرق
بغير عرفان . ومن القارورة على الاصباغ
والالوان وحوت نجوم اسرار جالينوس
وبقراط . ووهت عقود اراء افلاطون
وسقراط . وصار من كبر العصبة وكثر
العصبة . يوماً اليه بمفرج الغم .
ومحي الزم . تالله ان تلك العمائم على
عقول البهائم ما حوت قشب الملابس
والبرانس غير افهام الانعام النسانس لو
سألت احدهم مسئلة رأيت ارضاً محملة
وجوها معبسة واموراً ملتبسة ، ثم
انشد :

ينمقون احاديشا لكتسب
وفي السؤلات يبدون المعاذيرا
وهل ينال علوما جل موقمها
الا فتى جد تلقينا وتكريرا
واتلف النفس تدريساً اناط به
ركضاً الى العلم حتى اذهب الزيرا

ومن هذا النص يتوضح ان دراسة الطب
اخذت تندهر إن صح ما يقوله صاحب المقامة !
اما الالوسي (القرن الثالث عشر الهجري)
(التاسع عشر الميلادي) فقد وصف طبيعة تعليمه
هو ، ومن خلاله يتوضح طبيعة تعليم الافراد
انذاك فقال :

وهذا النص يوضح هوية اهل بغداد بالتنزه
على نهر دجلة وان بعض الناس كانوا يقومون ببعض
الفعاليات كما هو الحال بالنسبة للقمراد الذي
يجتمع الناس عنده للترفيه والضحك ، وهذه
القصة وان كانت من اختراع الهمداني الا انه يبدو
انها كانت شيئاً عادياً آنذاك .

وفي القرن السابع الهجري وصف الكازروني
خروج الناس للتنزه الى الحدائق والبساتين
فقال :

« على ان الايام كلها كانت تمضي
افراحاً ومواسم يرتاح اليها الناس
ارتياحاً ففي كل سبت عيد جديد وموسم
سعيد يخرج الناس الى الرياض
والازاهر لسماع اصوات الشحارير
والظلمان كالولدان والجواري كالحور
الحسان ما بين اهيف واحور واكحل
واغيد واعطر .

في البدر من وجنته نكتة
وفترة في العين من طرفه
اذا مشى جاذبه ردفه
كانه يمشي الى خلفه
وظفلة تكامل شبابها وطاب عرفها وعذب
رضابها ترمي عن قسي الحواجب بسهام
الفتج الصوائب .
وتنال منك بحد مقلتها
ما لا تنال بجدها النصل
واذا نظرت الى محاسنها
فلكل موضع نظرة تبئل
والناس في ارغد عيش واطيب زمان واعدل
وقت واصفى اوان . »

موسم زيارة القبور

من المواسم التي سجلتها المقامات موسم
زيارة القبور الذي تتم فيه مراسيم خاصة للترحم
على الموتى بقراءة القرآن وايقاد الشموع وتوزيع
الطعام والحلوى .

يقول الكازروني (القرن السابع الهجري) :

ومنها موسم الترتب ، واليهما المنقلب .
فيركب الوزير في ارباب الدولة والامراء
والصدور والكبراء ، في موكب مشهور
الى الرصافة ، وهي مدفن ولاة الخلافة
فيجتمعون بها للقراءة والدعاء واهداء
الثواب للخلفاء كذلك اياماً بشرق فيها

ففي القرن الرابع الهجري يضع الهمداني
مقامة باسم المقامة (المجاعية) وهي انعكاس للجوع
والمجاعة آنذاك . يقول عيسى بن هشام :

« كنت ببغداد عام مجاعة فملت الى
جماعة قد ضمّهم سِمْط الثريا .
اطلب منهم شيا ... »

ثم يلتقى بغلام فيقول له :

« حالان لا يفلح صاحبهما : فقير كداه
الجوع وغريب لا يمكنه الرجوع فقوال
الغلام : اي التلمتين تقدّم سدّها ؟
قلت : الجوع فقد بلغ مني مبلغا .

فيصف الغلام لعيسى بن هشام ثلاثة اشياء
الاولى طعام والثانية شراب والثالثة مجلس
مريح) .

« قال عيسى بن هشام . قلت : انا
عبد الثلاثة .

فقال الغلام : وانا خادمها لو كانت .
فقلت : لا حياك الله احببت شهوات قد
كان الياس اماتها ثم قبضت لهاتها فمن
اي الخرابات انت .
فقال :

انا من ذوي الاسكندرية

من نعمة فيهم زكية
سحف الزمان واهله
فركبت من سخف مطية

وهذه المقامة لا تحتاج الى تعليق في بيان
انتشار الجوع فعيسى بن هشام الذي يتوقع ان
الغلام (ابو الفتح الاسكندري) سيقدّم له الطعام
والشراب واذا به فقير مثله ! وهذه القطعة وان
كانت اقرب الى الطرفة ولكنها تمكس حالة من
الحالات التي عانتها بغداد .

ويحدثنا الهمداني كذلك في مقامته
(الازارية) عن حيلة طريفة وفيها وصف للحاجة
الى الطعام جاء فيها :

حدثنا عيسى بن هشام قال ..
« اخذت عيناى رجلا قد لف راسه
ببرقع حياة ونصب جسده وبسط يده
واحتضن عياله ، وتابط اطفاله ، وهو
يقول بصوت يدفع الضعف في صدره
والمرض في ظهره .

ويُلبّي على كفين من سويق
او شحمة تُضرب' بالديق

« قرأت على ابي علم النحو وطرفا من
فقه الشافعية والفرائض وكان لي لمزيد
شفتته ومضاعف رافته بمنزلة الف
رأض ثم قرأت على زيد وعمرو ممن
في مصري من علماء العصر » .

وفي مقامات ناصيف البيازجي (القرن الثالث
عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي) جاء في المقامة
البغدادية :

« دخلت يوما بعض المدارس وإذا
شيخنا الخزامي هناك جالس . والطلبة
قد انبلوا عليه ، واحدقوا به واليه .
فسلّمت عليه تسليم المشقوق ،
وابتهجت به ابتهاج العاشق بقاء
المشوق . وجلسنا نتشاكى النوى
ونبأكي للجوى واذا امرأة تنادي يا شاري
البن الرخيص الثمن . وهي في اثناء
الكلام تتلاعب في الاعراب على الثلاثة
الاحكام ... قال : والشيخ بين ذلك
يقلب وجهه في السماء ويقول سبحان من
علم آدم الاسماء ... قال : وما فرغ
الشيخ من الكلام حتى ابتدر القيام .
فتعلقوا به وقالوا : لات حين مناص فان
دواء الشقّ ان يحاص . ولقد اتيت
حيث ابس فلا تذهب من حيث ليس .
فعاد الى المقام وقال صبرا : على مجامر
الكرام . ثم اندفع في شرحه كاليعيوب
حتى ملا العيون . ولما قضى الوطر
نهض على الاثر فقام القوم يودعونه وهم
يودون لو يتبعونه ... الخ .

الحالة الاقتصادية

ظهرت المقامات في القرن الرابع الهجري/
العاشر الميلادي اي في عصر الانهيار السياسي
لبغداد فتبع ذلك تدهور اقتصادي واضح حيث
تركزت الثروة بيد فئة معينة ، بينما عاشت الطبقة
العامة في فقر وحرمان ، واذا ما عرفنا ان المقامات
وبانذات مقامتي الهمداني والحريري قد الفنا
لفرض الكدية والحيلة في الحصول على المال اتضح
مدى اثر التدهور الاقتصادي في كتابة المقامات .

لقد صورت المقامات حالة الفقراء والمتسولين
بشكل دقيق ووصفت الاساليب التي يتبعونها في
الحصول على قوتهم ، وهي وان كانت قصصا ادبية
إلاّ انها تمكس وقائع حالة بغداد وانهارها
الاقتصادي آنذاك .

يا رازق التَّعْطَابِ فِي عَشْتِهِ
 وَجَابِرِ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ الْمُهَيِّضِ
 اتِحْ لَنَا اللَّهْمُ مِنْ عَيْرِ ضَهْ
 مِنْ دَتْسِ الدِّمِّ نَقَى رَحِيضِ
 يَطْفِيءُ نَارَ الْجُوعِ عَتْمًا وَلَوْ
 بِمَذْقَةِ مَنْ حَازَرَ أَوْ مَخِيضِ
 فَهَلْ فَتَى يَكْشِفُ مَا نَابَهُمْ
 وَيَغْنَمُ الشُّكْرَ الطَّوِيلَ الْعَرِيضِ

فوالذي تَعِينُوا النَّوَاصِي لَهُ
 يَوْمَ وَجْهِ الْجَمْعِ سُودٌ وَبَيْضِ
 لَوْلَاهُمْ لَمْ تَبْدُ لِي صَفْحَةٌ
 وَلَا تَصَدَّيْتُ لِنِظْمِ الْقَرِيضِ

وفي نهاية القصة يظهر ان هذه المعجزة هو
 ابو زيد . وهذه القامة وان كانت تدل على حيلة
 طريفة ولكنها تعكس حالة التردى في المستوى
 المعاشي آنذاك .

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن
 سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية
 عشرة وردت فيها قصة رجل يدخل المستشفى
 وهو شحيح البدن وعندما يسأله احد اصدقائه
 بقوله :

« ما الذي دعاك الى هذا المقام والتردى
 برداء السقام وانت صحيح البدن طليق
 الرسن لا مانع لك عن سجن .
 فقال :

لست من تذهب عليه اغلوطه وما
 عقالك بانشوطه لولا غريم كدني تقاضيه
 ولم اجد ما يرضيه ما التجأت بهذه
 القعة مع سعة الرقعة وها انا اكل
 اطاب ما يصنعه الطاهي ما يفاخر
 كسرى ويباهي من غير مشقة ولا تحفز
 لتعب وأنشد :

نيل من زمانك ادنسى
 صفور ولو بالجنون
 ان المكاسب شتى
 والناس فيها فنون

والقصة واضحة في ان سبب دخوله
 المستشفى هو للحصول على الطعام مجاناً . وهنا
 لابد ان نشير الى ملاحظة مهمة هي بالرغم من
 الانهيار السياسي والاقتصادي فان التقدم العلمي

او قصعة تملأ من خيردق
 يفتأ عنا سطوات الريق
 يقيمنا عن منهج الطريق
 يا رازق الثروة بعد الضيق
 سَهَّلْ عَلَى كَفِّ فِتَى لَبِيْقِ
 ذِي نَسْبِ فِي مَجْدِهِ عَرِيْقِ
 (ثم يميط لثامه فاذا به ابو الفتح
 الاسكندري) .

وفي القامة (العراقية) يصف الهمداني حالة
 متسول شباب حزين يسأل الناس ..

« حدثنا عيسى بن هشام قال : طفت
 الأفاق حتى بلغت العراق ... واصلتني
 بغداد فبينما انا على الشط اذ عن لي
 فتى في أطمار يسأل الناس
 ويحرمونه » .
 واذا به ابو الفتح الاسكندري .

تدل هذه القامة على انتشار عادة التسول
 حتى بين الشباب !

اما الحريري (القرن الخامس الهجري) فقد
 جاءت مقاماته في هذا المجال مشابهة لمقامات
 الهمداني وقد صورت حالة البؤس اكثر مما
 صورته مقامات الهمداني .. ففي القامة البغدادية
 للحريري نلاحظ فقيراً يتمنى الموت .. ولا هم له
 سوى الحصول على لقمة تشبعه وكساء يغطي
 جسمه ..

جاء في هذه القامة عندما تأتي عجوز الى
 مجلس فيه الحارث بن همام فتصف حالة فقرها
 بما يلي :

« فحبذا الموت الأحمر وتلوى من
 ترون عينه فزاره (مثل يضرب لمن
 يدل ظاهره على باطنه) .
 - وترجمانه اصفراره (اي تبيانه
 اصفراره) .

- قصوى بغية احدهم ثردة (اي نهاية
 ما يبتغيه احدهم ثريد) .
 - وقصارى امنيته برودة (اي منتهى
 ما يتمناه كساء يلبسه) .

ثم تبدأ هذه المعجزة بالانشاد فنقول هذه
 المقطوعة المركزة حول حالتها الفقيرة التي تدفعها
 لقول القريض املاً في شيء من الطعام :

كان لا يزال مزدهراً بديل العناية التي يلاقيها
المرضى في المستشفيات ..

وفي القرن السابع الهجري كتب ابن الصيقل
الجزري في مقامه البغدادي حيث يقول احدهم
لآخر حول ما يعانیه :

ولما وردت هذا القلب (البئر) ووردت
في منجر الندامة التقلب ، بادرت لأبيل
غاشتي وأبيل . من مرض هاتيك عاغثي
فشغلت لوجود الانتياح (الجوع) وعدم
الارتياح .. »

وبالرغم من ان ابن الصيقل الجزري في مقامه
كان يركز على اللفظ اكثر من الحادثة إلا ان
الشكوى من الجوع تعكس هذه الظاهرة آنذاك .

كثيرة اصحاب العلم

حاولت المقامات ابراز اهل الكدية من العلماء
واهل المعرفة والادب اضطررتهم سوء حالتهم المادية
الى الحيلة والكدية . وهي نتيجة طبيعية لاختلال
التوازن الاقتصادي وسوء توزيع الثروة . وقد
ابرزت المقامات هؤلاء بانهم من ذوي المكانة في
المجتمع ثم دار الزمن من دورته كي ينزلهم من عليانهم .
وهي بذلك تعبر عن استياء اصحاب المقامات من
هذه الظاهرة التي استشرت آنذاك .

ففي مقامات الهمداني (القرن الرابع
الهجري) مثال لهذه الحالة في المقامة المجاعية عندما
يسأل عيسى بن هشام الشخص الذي يناقشه
حول انواع الطعام (ابو الفتح الاسكندري) يقول
له : من اي الخرابات انت فقال :

انا من ذوي الاسكندرية
من نعمة فيهم زكية
سحف الزمان واهله
فركبت من سخفي مطية
وفي مقامته الازادية ينشد أحد الفقهاء
مقطوعة فيقول فيها :

سهل* على كف* فتى لبيق
ذي نسب في مجده عريق

وهي اشارات واضحة ولا تحتاج الى تعليق .

وجاء في المقامة القرودية حينما يسأل عيسى
ابن هشام ابا الفتح الاسكندري عما أوصله للحالته
في اشتاله قراداً ينشد ابو الفتح :

الذنب للإيام لالسي
فاعتب علي صرف الليالي

بالحمق ادركت المنى

ورفقت* في حلال الجمال

وهنا يتضح ان ابا الفتح لم يرض هو نفسه
عن اسلوبه إلا انه مضطر اليه اضطراراً بسبب فقره
وهو يعترف ان عمله احمق ولكن لا سبيل للحصول
على ما يريد ..

وفي اقترن الخامس الهجري يتحدث ابن نايقا
في مقامته الرابعة عن متسول فيقول :

« حدثني بعض الاصدقاء النازلين
بشرفي الزوراء قال انصت ليته من الليالي
وأنا في نقر من العيال قد ضم جمعنا
الطعام وايظ مصباحنا الظلام الى سائل
باباب يتوخي بكلامه الاعراب وينطق
بلسان الاعراب ويعتمد على غريب اللفظ
ويمزج سؤاله بالوعظ ... »

وانمبارات الاخيرة تدل على ان المتسول
شخص من اهل المعرفة والثقافة .. اضطره الفقر
الى التسول ..

وما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين
كتب الحريري عن هذه الظاهرة فجاء في المقامة
(البغدادي) عندما تأتي عجوز (ابو زيد بلباس
امرأة) الى المجلس الذي فيه الحارث بن همام
فقال :

« لأرنيكم اولاً شعاري . ثم لارويكم
اشعاري . فأبرزت رُدْنِ درع دَريس .
وبرزت بربزة عجوز دَرْدِيس وانشات
تقول :

اشكو الى الله اشتكاء المريض
رب الزمان المتصدي البغيض
يا قوم اني من اتاس غَنَسُوا
دهراً وجفن الدهر عنهم غضيض
فخارهم ليس له دافع
وصيتهم في ذا الوري مستفيض
(الى آخر المقطوعة ..)

ومن هذه المقامة نرى ان شاعراً قوياً ينتحل
شخصية امرأة كي يحقق غرضه . والقصة وان
كانت تدور حول الحيلة إلا انها تدل على ان اهل
المعرفة والعلم لم يكونوا بمنزلة يحسدون عليها ..

وفي مقامته (الشعرية) يتحدث عن شيخ
شاعر يرفع الدعوى ضد غلام سرق قصيدته وبمد

ذلك يتضح انهما متفقان كي يحصلوا من الوالي على الهدايا ..

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن سعيد في مقامته الخمسين حادثة عن طبيب لا يقبل عيادة مريض ، إلا انه يغير رايه بسبب المال ، ويقوم بخدعة لاجل الاحتفاظ بالهدايا . تقول القامة بعد ان يأتي غلام لاصطحاب الطبيب فيقول الطبيب :

« تالله ما ارحل حتى انحل . ولا اعود مريضاً ، دون ان اعطى عطاء عريضاً . ولا اعاني سقيماً ، حتى ارى امراً مستقيماً . فنقده الغلام بقرطاس ولم يبد وجه مكاس فحين قام امتزجت بديمه ودخلت دار السلطان مع خدمه . فلما مثل بحضرته ، والتحق بزمرته شاهد مدناً لم يبق منه الا لقا بانفاس ، متصعدة ونفس مترددة فقال : هذا ما كنا فيه ادعى الى من لا يمكن تلافيه . ثم حل جلاباً بماء الورد وسقاه فانتمش انتعاشة ظن انه شفاه فانرغت عليه اكياس النضار انواعاً . وصار بينهم ملكاً مطاعاً فمد ايسر انخداعهم نهض . وقال في غد ينقضي المرض . فقلت يا من يعد في العلم باعاً . ورفع في الفضائل شعراً . اترجو لمن عانيت انصلاحاً . او ترى لمرآجه صلاحاً فقال : سبحان من خلق الناس طباعاً .. »

وهذه القصة تدل على ان الطبيب يقبل بخدعة اهل المريض مقابل الاحتفاظ بالهدايا .. وهي دلالة على شيوع الحاجة حتى تولد هذا الجشع والتكالب على المال .

وفي القرن الثالث عشر الهجري/اتاسع عشر الميلادي قال الالوسي في مقاماته بارتفاع شأن الجهال وهو اشارة ضمنية بانحدار شأن العلماء . يقول الالوسي :

« يا بني

بغداد لم تزل بملأ فيها ان ديدني ان اجعل زمام امري في كل وقت من يدي ديني فلا تستغربوا علو سافل وارتفاع دني جاهل فمن اخلاق الزمان انه ملول وللباطل جولة وبزول .

يا بني

ان في سوقية بغداد المحترفين من هو احسن بكثير من بعض من اعيانهم وقد غدوا عن سبيل الرشد منحرفين فاذا

اضطرتهم الى مجالسة احد فاخثاروه من اولئك السوقية وان خيراً من اعيان السوء الكلاب السلوقية

لا يفرنكم الاوجه الفرس

فيارب حيه في رياض

وهذا النص لايشيرالى كدية اهل العلم وحاجتهم إلا انه يفهم منه من خلال ارتفاع شأن الجهال والذي يعني بدوره انحطاط شأن العلماء .

حيل اهل الكدية

وضعت المقامات الحيل التي كان يمارسها اهل الكدية للحصول على المال والطعام . فيصف انهمداني (القرن الرابع الهجري) في احدي مقاماته المتعلقة ببغداد قصة طريفة لشخص يريد ان يأكل مجاناً فلم تكن امامه سوى هذه الحيلة ..

تقول القامة البغدادية لهمداني :

حدننا عيسى بن هشام قال : اشتبهت الازاد (نوع جيد من التمر) وانا ببغداد وليس معي عقد ، على نقد . فخرجت انتهن محالته [امكنة بيع هذا التمر] حتى احلني الكرخ فاذا انا بسوادي يسوق بالجهد حماره . ويطرف بالعقد ازاره فقلت : ظفرنا والله بصيد وحياك الله ابا زيد . من ابن اقبلت . وابن نزلت ومتى وافيت وهلم السى ابيت . فقال السوادي : لست بابي زيد . ولكني ابو عبيد . فقلت : نعم لعن الله الشيطان وابعد النسيان انسانيك طول المهمد واتصال البعد ... فقلت هنم الى البيت نصب غذاء او في السوق نشتر شواء . والسوق اقرب وطعامه اطيب ... ثم اتينا شواء (وبعد ان اكلا اطيب الاكل واحسن الشراب) ... خرجت وجلست بحيث اراه ولا يراني انظر ما يصنع فلما ابطات عليه قام السوادي الى حماره فاعتلق الشاء بآزاره وقال : ابن ثمن ما اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيفاً . فلكمه لكمة . وثنى عليه بلطمه ثم قال الشواء : هالك . ومتى دعوناك زن يا اخا الفحج عشرين فجمسل السوادي بيكي ويحل عقدة باستانه ويقول : كم قلت لذلك القريد انا ابو عبيد وهو يقول انت ابو زيد فانشدت :

اعمل لرزقك كل آله

لا تقعدن بكل حاله

وانهض بكل عظيمه

فالرء يعجز لا محاله

وهذه القصة وان كانت تمثل قطعة ادبية

ولكنها تتحدث عن وقائع او حوادث قريبة منه .

ويورد الهمداني كذلك في مقامته الصريبة

والتي تدور حوادثها في بغداد قصة توضح كيف

يمكن لاسنان ان يجمع المال عن طريق حيل

واساليب عديدة .. والقصة هي قصة غني يتعرض

لكارثة فيفقّر ثم يقوم بأساليب وحيل عديدة حتى

يرجع غنياً .. ويصف لنا الهمداني كيف يرجع

هذا الشخص الى حالة الغنى وماذا عمل كي يصبح

غنياً ؟

يقول على لسانه :

« فجمعت من النوادر والاخبار

والاسمار والفوائد والآثار واشعمار

المتطرفين ونواميس التخرقين ونوادير

المنادين ورزق المنجمين ولطف المتطيين

وكياد المخنثين ودخسة الجرابرة

وشيطنة الابالسة ما قصر عنه فتنيا

الشعبي وحفظ الضبي وعلم الكلبى

فاستردفت واجتديت وتوسلت وتكديت

ومدحت وهاجبت حتى كسبت ثروة من

المال ... »

وهنا يتضح ان الحيلة والمراوغة احد اهم

الاساليب للكسب آنذاك .

ولابد من الاشارة كذلك الى ان جمع المال

من خلال « النوادر والاخبار والاسمار والفوائد

والآثار واشعمار المستطرفين ... » وهي اشارة

الى ان اهل العلم اضطروا الى اتمهان الحيلة

للحصول على المال ..

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث ابن نايقا

في مقامته الثالثة عن حيل بعض المتولين

ومراوغتهم للحصول على ما ينفون . تتحدث القصة

عن جماعة قدموا بغداد فذهب أحدهم ليشتري لهم

الغداء فيستغلهم احد المتولين مدعيًا أنه من

موطنهم تقول المقامة : انه

« ... صادف شخصاً بالفناء عارياً

من البرة والحياء ، قد خلع اطماره ،

وبسط ازاره ، واطلق يمينه ويساره وهو

يقنعس ويحبس ويجمع ويقصع وكأنهن

لدى دروز قميصه فدئ وتوءم' سمم

مقشور فقال لي هازياً يتشعث الجدار

وسوء الجوار وهو ينشر' زاده ويحل'

مزاده ، ما أشبه الجار بالدار ، فقلت من

لك بالوطن الخاص وجامع ، وجامع ولد

العاص ثم ذكرت القوطة وابواب جيترون

وحنتت حنين ميسون فرسع ذلك

الشخص رأسه وصاعد أنفاسه وانتزع

زفره من حيزومه الى خيشومه ثم قال

واني لك مقروع ... وجمل بغيض عبرته

ويدي لوعته ويندب غربته ويقول

واشواقا اليكم ابدا ، واحسرتا على شربة

من ماء يردا ... فيا لله فقد حزنتي مقاله

وساءني حاله فقلت له يا هذا ابشر بقرب

الدار والرفيق السار والمود معنا الى

البلد والاجتماع بالأهل والولد ودعونا

الى الطعام فنشاكل عن المقام، حتى اقسمنا

عليه بحرمة البلدية فاسرع في الجيبة

فتناولناه ذنوياً من الطعام ... ثم دخل

الامام ومن معه لصلاة الظهر ... فعجبنا

من هربه وهم القوم بطلبه فاذا هو

الشكري فشكرنا الله على السلامة

منه .. »

اما الحريري (القرن الخامس الهجري)

يصف في مقامته البغدادية حيل الشيخ الذي

يتقمص دور العجوز كي يصل الى مراميه ووضح

على الطريقة الشعرية كيف يستعمل الحيلة لتحقيق

ماربه . تقول القصة ان ابا زيد مثل دور عجوز

تلقي الشعر في احد المساجد ثم يكشف امره

الحارث بن همام فينشد ابو زيد :

يا ليت شعري ادهري

احاط علماً بقدري

وهل درى كنه غوري

في الخدع ام ليس يدري

كم قد قمرت بنيه

بحيلتي وبمكسري

... ..

ولو سلكت سبيلاً

مالوفة نول عمري

لخاب قِدْحِي وقِدْحِي

ودام عشري وخسري

نقل لمن لام هذا

عذري فدؤنك عذري

الفاظ التسول

حفظت لنا احدى المقامات - وهي المقامة الرابعة لابن نايقا - الالفاظ التي يستعملها اصحاب الكدبة وفيها من الادعاء بالمرض والجوع والفقر ، والادوصاف التي يطلقونها على الاشخاص الآخرين .
جاء في المقامة الرابعة لابن نايقا (القرن الخامس الهجري) على لسان احد الفقهاء الذي اخذ ينادي اهل الدار وقد تعمسوا واهم بمسدم الجواب :

« يا اهل الدار اما تعلمون انا لله وانا اليه راجعون اترامهم شهدوا ام رقود عموا مسا اهل المنزل وحياكم الظلام المقبل وشهد لكم ضياء المحفل انا فقير المرمل (الفقير) وانا ذو الداء المثل اعينوا السائل المبتل والزمن الاعمى ولو بشفوق النخرة ثم غصة العبرة . كل ذلك ونحن لا نجيبه ولا نثنيه ثم غصة العبرة كل ذلك ونحن (اهل الدار) لا نجيبه ولا نثنيه ثم عاد الى ندائه واضرب عن بكائه فقال :
يا اهل المنزل نعمتم مسا وطبتم ثناء ايا بني الانعام وبقية الكرام اجيبوا سئلكم . عجلوا نوالكم . قد اكفهر الدُّجُجا ...
واضطرم الجزع في قلبي والوطن في الجانب الغربي فامسنا سمحتم بالرشد فصحتم باراد . وانا اسأل تافها من الزاد لا يلثم اكالا ولا ينقص مكيالا ، ولو من نثاره الخوان كفتيل النواة او كابهام القطاة اللهم ابعثها على يد نجيب منهم ولو كفيط الظفر (قلامة الظفر) او كحبة الشفر (العصفور) يا اهل العطاء ويا ارباب الشناء ايتكم طيبان العشا بادي العشا (جوعان) عريان في سرباله المعزق اطوى اللثم ، واجمع اللثم (الطريق) ولا صببة كالفاث (صغار الطير) ولم يطعمسوا لماكأ مذ ثلاث ... كاعواد البروق (نوع من النباتات) وكاسلال الشيبيرق (نوع من النباتات) شحُنب' الالوان عُجُنف' الابدان يقحمون الثرى ويتعاونون من الطوى وانا اليه وانا اليه راجعون انما يستجيب الذين يسمعون » .

الحفلات ومجالس اللهو

في مقابل هذا الفقير كانت هناك طبقة غنية مرفقة صورتها المقامات من خلال مجالس اللهو

وهنا يمكن اضافة الملاحظة السابقة وهي كيف يحاول الشاعر والكدي من خلال شعره .

وفي مقامة اخرى للحريري وهي المقامة الشعرية عن قصة طويلة تقوم على الحيلة للحصول على الهدايا وهي تتحدث عن شيخ يحضج لدى الوالي للقصيدتين تجري مساجلة بينهما فيعجب بكليهما ويمنحهما الهدايا . وكانت الحقيقة ان الشيخ هو ابو زيد والفتى فتاة وقد اتفقا على هذه الحيلة .

وهذه القصة هي الاخرى تدل على ان الابداء قد اضطروا لممارسة الحيلة كي يحصلوا على الاعطيات والهدايا .

وكتب يحيى بن سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية عشرة (القرن السادس الهجري) قصة رجل يدخل المستشفى مدعياً المرض كي يأكل ويشرب فيها دون مقابل .. تقول المقامة :

« قال البراوي فرايت بين يديه رياحين وفاكهة كل حين وهو بهيئة من العيش مججونة بخرق وطيش وعليه اثواب مصبغة ومعضدة وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظر النعاب ومن حط له عن وجه الادب النقاب فحين لمحته اعجبني سمته فتوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو عمرو البصري واسطة الفريد فتصفتحت انماطه فاذا هو شيطان الحماطه فعلمت ان سر جنونه من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك الى هذا المقام والتردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق الرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب عليه اغلوطه وما عقالك بانشوطه لولا غريم كدني تقاضيه ولم اجد ما يرضيه ما التجات بهذه البقعة مع سعة الرقعة وها انا اكل اطاب ما يصنعه الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقة طلب ولا تحفز لتعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى

صفور ولو بالجنون

ان المكاسب شتى

والناس فيها فنون

وهنا كذلك لا بد من التنبيه الى ان صاحب

الحيلة من العلماء !!

والشراب فصورت البُخ والترف في الحياة
البغدادية ..

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في
مقامته الصيمرية مجالس لهو وشراب في بغداد
فيتحدث عن شخص مترف كان ينظم المجالس
لخلانه فيتحدث عن نفسه فيقول :

« لم نزل في صبح وغسق نتغذى
بالجدايا الرضع والطهاجات الفارسية
والمدققات الإبراهيمية والقلابا المحرقة
والكباب الرشدي والحملان وشرابنا نبيذ
الصل وسماعنا من المحسنات الحذاق ،
الموصوفات في الآفاق ونقلنا اللوز المشر
والسكر الطَّبْرَزْدُ ، وربحاننا الورد
ويخورنا الند .. »

وبعد أفلاسه وفقيره ثم غناه مرة أخرى يرجع
نه خلانه ويعود لحياة اللهو :

« وانتقلنا الى مجالس شراب فاحضرت
لهم زهراء خندريسية ومغنيات حسان
ومحسنيات فأخذوا في شأنهم وشربنا .. »

هذا بالنسبة لما وصفه الهمداني في القرن
الرابع الهجري أما الحريري فقد وصف في القرن
الخامس الهجري مجلساً للهو والشراب في مقامته
(القطيعة) قال فيها :

« حكى الحارث بن همام عن جماعته ..
اجتمعنا في يوم سَمَا دَجْنَهْ (ارتفع
غيمه) ونما حُسْنَهْ وحكم بالاصطياح
مَرْزَنْهْ (سحابه) على ان نلتهم بالخروج
الى بعض المروج لنسْرُحْ التواظير في
الرياض والتواظير وتَصَقَلْ الخواطر .
بشيم المواطر (برؤية السحب المطيرة)
فبرزنا ونحسن كالشهور عيدة .
وكنَدَمَانِي جذيمة (الابرش) مودّة ،
الى حديقة اخذت زخرفها وازْيَنْتْ ،
وتنوعت ازاهيرها وتلونت ومعنا الكُمَيْتْ
الشَّمْسُوس (الخمر) والسَّهْمَاهُ الشموس
والشُّبَادِي (المني) الذي يُطْرِبُ
السامع وبلثيمه ويقري كل سماع
يشتميه ، فكمّا اطمانُ بنا الجلوس
ودارت علينا الكؤوس وغَلَّ علينا ذمير
(الشجاع) عليه طمير (ثوب خلق)
فتجهّمناه تجهم الفيد الشيب ووجدنا
صفو يومنا قد شيب ... الى ان غنى
شادينا المُغْتَرِبُ ومفردنا المطرب :

إلَامَ سَعَادُ لا تصلين حَبْلِي
ولا تاوينَ لي مما الاشي
صَبْرْتْ عليك حتى عيل صبري
وكادت تبلغ الروح التراقي
وها انا قد عزمت على انتصاف
'اساقبي فيه خلي ما يساقبي
فإن وصلاً الفذ به فوصل
وان صرماً فصرم كالطلاق

ولم نعرش على نص آخر يصف الحفلات في
بغداد باستثناء الالوسي الذي وصف لنا حفلة
اقامت له بمناسبة اكماله التعليم على شيخه وهي
حفلة تختلف بالطبع عن حفلات اللهو .. ويمكن
اضافة نص للكازروني (القرن السابع الهجري)
في الحفلات المقامة بالمناسبات مثل شهر رمضان
والحج ويمكن مراجعتها في فصل المناسبات
الاجتماعية ضمن هذا البحث .

نعود الى الالوسي (القرن الثاني عشر الهجري)
الذي وصف حفلة تخرجه فقال في مقامته الثانية
فقال :

« كان ذلك في المدرسة الخاتونية المقابلة
مما يلي القبة للحضرة الفادرية وتفضلت
صاحبها السيدة عاتكة عابدة (كذا)
كانها زمن البرامكة ولقد رايت هناك دهماء
القدور تهدر كالفتيق وتفوح طيباً كالمسك
الفتيق ورايت هاتيك المائدة مثل عروس
مائدة لا عيب فيها سوى اشتغالها على
اصناف اطعمة تلذها الاعين وتميل اليها
الانفس وتشتهيها ولم يبق في البلد عالم
الا اكل منها وروى احاديث الشفاء عنها
وانها بينهم كبدر السماء الا من هالتها من
رفيق غمائم عمائم احرار العلماء .. »

ولا شك ان الحفلة التي يصفها الالوسي تختلف
في هدفها ونوعها عن الحفلاتين السابقتين . وابراد
نصها هنا للتمييز بين انواع الحفلات المقامة ببغداد
وانماطها .

انواع الشراب

وردت في المقامات العديد من الانواع الشائعة
للشراب في بغداد آنذاك . ففي المقامة الصيمرية
للهمداني (القرن الرابع الهجري) يصور مجلس
شراب وكان شرابهم « نبيذ الصل » .

ثم عندما يصف مجلساً آخر للشراب يقول :
« فاحضرت لهم زهراء خندريسية » [الزهراء :
الشرقة . والخندريسية : الخمر القديمة] .

يقول :

وبعد ذلك عندما يوجه في طلب أحدهم

« فاحضرته وقدمت اليه طعاماً فاكل .
وسقته من الشراب القنطريني فشرب
حتى نمل . [القنطريني نسبة الى قنطرب
موضع بالعراق لخمرة وشهره في الجودة
والطيب] .

وفي المقامة الجماعية للهمداني كذلك عندما
بين عيسى بن هشام رغبة بالطعام وهو جائع
لسائل يسأله عن رغبته فيقول :

« لون لطيف الى خردل حريف | يريد
نيبذ تمر اضيف اليه الخردل لتقويمه
وزيادة لذته | .

وفي القرن الخامس الهجري وصف الحريري
في مقامته القطمية الشراب ومجالسه حيث يحكي
الحارث بن همام عن جماعته في ذهابهم للهو .
فيقول كانت : « معنا الكُمَيْتُ الشمس
[الخمر] . وهناك كانت حالة اخرى معاكسة هي
الامتناع عن الشراب يصف الحريري على لسان
أحد الشيوخ الذين حضروا مجلس شراب فراح
يصف امتناعه عن الشراب قائلاً :

نهاني الشيبُ عما فيه افراحي
فكيف اجتمع بين اراح والراح
وهل يجوز اصطباحي من معتقة
وقد أثار مشيب الراس اصباحي
آليت لآخامتني الخمر ما علكت
روحي بجسمي والغاظي بإفصاحي
ولا اكتست لي بكاسات السلاف يد
ولا اجللت قِداحي بين اقداح
ولا صرّفت الى صيرف مشمعة
همني ولا رحت مرّاحاً الى راح
ولا نظمت على مشمولة ابدأ
شلمي ولا اخترت ندمانا سوى الصّاحي

انواع الطعام

صورت المقامات انواعاً من الاطعمة التي
كانت شائعة في بغداد فالهمداني (القرن الرابع
الهجري) يصف من خلال مقامته الجماعية انواعاً
عديدة من هذه الاطعمة فعندما كان عيسى بن
هشام جائعاً وجاء يطلب الطعام قابل شاباً يسأله
عن حاجته فقال :

(١) رغيف على خوان نظيف | الخوان ما يوضع
عليه الطعام | .

(٢) وبقل قطيف الى خل ثقيف | اي بقل اضيف
اليه خل شديد الحموضة | .

(٣) ولون لطيف الى خردل حريف | يريد نيبذ
تمر اضيف اليه الخردل لتقويته | .

(٤) وشواء صفيف الى ملح خفيف | يقصد
تنظيم قطع اللحم بشكل مصفوف في مشكة
من حديد ثم يستوى على النار | .

(٥) يقدمه اليك الآن من لا يعطك بوعد ولا
يعذبك بصبر . ثم يعطك بعد ذلك باقداح
ذهبية من راح عنبية . اذالك احب اليك ام
اوساط محسوة واكواب مطوة وانتقال
معدّة . وفرش منضدة وانوار مجودة .
ومطرب مجيد . له من الغزال عين وجيد
فان لم ترد هذا ولا ذاك فما فوك في :

(٥) لحم طري | وبروي لحم طري اي لحم
طيور | .

(٦) وسمك نهري .

(٧) وباذنجان مقلي .

(٨) وراح قنطريني | اي خمر مدينة قنطرب
المعروف بجودته | .

(٩) وتغاج جنبي | الذي جنبي من قريب | .

ومضج وطبي على مكان علي . حذاء نهر
جبار وحوض ثرثار وجنة ذات انهار .

قال عيسى بن هشام فقلت : انا عبد
الثلاثة .

ومن خلال مقامة الهمداني الازادية تبين ان
البائع كان يصف الفواكه ويرتبها .

جاء في هذه المقامة :

« سرت غير بعيد الى رجل قد اخذ

اصناف الفواكه وصنفها . وجمع انواع

الرطب وصنفها فقبضت من كل شيء

احسنه » .

التعامل في السوق

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في
مقامته البغدادية الطعام الذي يصنع في السوق
ومن خلاله تبين العلاقة بين البائع والمشتري .
ومنها نفهم ان الزبون يطلب من الاكل احسن
ما يكون وفق مواصفات محددة ..

يقول عيسى بن هشام - عندما يلتقي بابي
عبيد - لصاحب المظم :

« ... ثم اتينا شواءً يتقاطر شواؤه
عرقاً . وتتسائل جودابانه مرّقا . فقلت

أمرز لابي زيد من هذا الشواء . ثم زن له من تلك الحلواء . واختر له من تلك الاطباق وانصد عليهما اوراق الرقاق ورش عليه شيئاً من ماء السماق ليأكله ابو زيد هنيئاً .

ثم يقول لصاحب الحلوى :

« قلت لصاحب الحلوى : زن لابي زيد من اللوزينج رطلين فهو اجري في الحلق وامضى في المبروق . وليكن ليلى العمر يومي النشر رفيق القشر كتيف الحشو لؤلؤي الدهسن . كوكبي اللون يذوب كالصمغ قبل المضغ ليأكله ابو زيد هنيئاً .

ثم يصف بيع الماء الثلج من السماء :

« ثم قلت : يا ابا زيد ما احوجنا الى ماء يشمّع بالثلج ليقمع هذه الصارّة ويفتأ هذه اللقم الحارة اجلس يا ابا زيد حتى ناتيك بسقايّ باتيك بشربة ماء » .

ضرب البائع للزبون الذي لم يدفع

صورت المقامات في احد المشاهد الطريفة كيف يتعامل البائع مع المشتري اذا امتنع الاخير عن الدفع ويبدو ان البائع آنذاك لم يكن يطلب الشرطة لتحل المشكلة بل كان كما يصفه الهمداني في مقامته البغدادية حيث يفطر البائع اخذ الحساب بالقوة . فيعد ان ورط عيسى بن هشام ابا عبيد بالدخول الى المطعم ثم هرب منه تاركاً اياه كي يدفع الثمن . يصف ابن هشام الحالة :

« فلما ابطأت عليه قام السوادي الى حماره فاعتلق الشواء بإزاره . وقال اين ثمن ما اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيفاً . فلكه لكمة . وثنى عليه بلطمّة ثم قال الشواء : هالك ومتى دعوناك . زن يا اخا القحة عشرين . فجعل السوادي يبكي ويحل عقده بانسناه ويقول : كم قلت لذلك القريد . انا ابو عبيد وهو يقول : انت ابو زيد » .

وصف حادثة الطاعون

يصف الالوسي (القرن الثالث عشر الهجري/ القرن التاسع عشر الميلادي) حادثة الطاعون التي عصفت ببغداد ايام داود باشا والي بغداد فقال :

« جرت حادثة الطاعون فاجرت العيون العيون وعظم الهم وربما . وبلغ السيل

الزيسى فقلت في نفسي صبراً فهددا والله تعالى اعلم آخر السهام وهل بمسد هذا الامر الامير مرمى لرام حتى اذا نضبت مياه العيون وخبت نيران الشجون جاء الوزير على رضى والي حلب فحاصر بغداد وجلب على واليها الوزير داود باشا ما جلب وكان نزول ذلك القضاء المحتوم في في اواخر سنة ١٢٤٦ رغوم فحيث خلا الكسوخ ممن يهرع اليه ويقول في المهمات عليه اتخذني اهله سيدا وملكوني منهم يدا وقلبا ايّدا خلت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردي بالسودد فلما غلا قدر القدر وعلا قدر عليّ بالظبية على البلد وانصر خرج على من ناقسا القدر اهل النفاق وبرز اليّ من زوايا المكر اهل الشقا والشقاق فجملت اككف عنى السهام يكف اخلطه مع بعض عظام مدينة السلام . »

عزل علي رضا والي بغداد وتولية محمد نجيب

وصف الالوسي (القرن الثالث عشر الهجري /التاسع عشر الميلادي) عزل الوالي علي رضا وتولية محمد نجيب فقال :

« واول ما احسست بالشر وبدو ما اضمره القدر وسر عند عزل نخبة الوزراء وروح جسد الزوراء الوزير الذي لم تسمع بمثله في حسن الاخلاق فيما مضى مولاي المرحوم المبرور علي رضا .. »

ويتضح من هذا ان الالوسي كان على صلة وثيقة مع علي رضا على عكس علاقته مع محمد نجيب يقول الالوسي حول تولية الاخير :

« ثم لما اقبل الوزير والدستور الكبير الحاج محمد نجيب باشا منفصلاً من وزارة دمشق والشام وقعد على دست الوزارة في مدينة السلام جعل طفل ذلك الحال يشيب كل يوم ما لا يشبه الطفل في احوال حيث عكف على ذلك الوالي كل عدو ولى رخيص القدر لكن في العداوة غالي .. »

وصف اصحاب المقامات لبغداد

اختلف اصحاب المقامات في وصف بغداد . وقد وصف كل واحد منهم جانباً من الجوانب فمنهم من نظّر اليها باعتبارها دار الخلافة بينما التفق آخرون الى وصف اهل بغداد وقد تأثر اهل

وبعد ذلك جاء الجزري (في القرن الثامن الهجري)
نوصف بغداد :

« هذه دار سلام المؤمنين فادخلوها
بسلام آمنين » .

ويبدو من هذا ان بغداد كانت قد استعادت
بعض مكانتها بعد انتهاء الغزو المغولي لها .. اما
في القرن الثاني عشر الهجري اي في العصر العثماني
فان الالوسي قد وصف تخلف بغداد لانها لم تكن
سوى مجرد ولاية تابعة لا غير .. ويبدو ان
الالوسي كان متشائماً من بغداد بسبب المحن التي
تعرضت لها والتي كانت تسبب احيانا الاقتتال
بين اهالي بغداد ولما كان الالوسي قد عاصر هذه
الاحداث فقد تنبه الى بساطة وتفاهة الاسباب
التي يتصارعون من اجلها .. يقول الالوسي :

« وقد رايت اهل الزوراء لا يجمعون
على زور حق ولو اوضح كشمس الضحي
في الظهور بل يكونون طائفتين في كل حادثة
فان انتم المكروه فالواجب ان يكونوا مع
الطائفة المحقة والا فكونوا طائفة ثالثة .
وانحازوا عن الطائفتين بمعزل وابدوا
عنها بالف الف منزل فذلك في هذه الايام
ابعد عن الوقوع في مهاوي الملام » .
وكانت ظاهرة التقرب الى السلطة قد لاحظها
الالوسي فثبتها في مقاماته قائلاً :

« يا بني

ان معظم اهل بغداد ليعظمون المتردد
الى السراي اكثر من تعظيمهم المتردد الي
الكعبة ويعطون من عصى ربه في اطاعة
الوزير اكثر من اطاعتهم من اطاع في
عصيانهم ربه ويكاد يقول لسان حالهم
وانه لانصح من التقرير ان قبلتنا
السراي والهنا جل شأنه الوزير فتراهم
قد جعلوا معظم شغلهم انهم يطوفون
حوله وان لم يسامرهم طواف اصحاب
السامر حول عجلهم فان استطعتن ان
تترددوا احيانا الى الوزير فلا بأس ولكن
عليكم بالحشمة وقلة الكلام وقصر
الجلوس وعدم معارضة احد من
الجلوس » .

ولكن الالوسي بالرغم من ذمه لبعض الناس
في بغداد فانه كان متعلقاً بها محباً لها وقوله فيها
هو قول المخلص ويتوضح مدى حبه لوطنه بقوله :

« وحيث انكم لا تستطيعون فيما اظن
الهجرة ولا تطيقون ترك الاوطان وان

المقامات بارتفاع أو انهيار شأن بغداد السياسي ،
ففي القرن الخامس الهجري يصفها الحريري في
مقامته الشعرية بانها :

« حمى الخلافة والحرم العاصم
من المخافة » .

بينما وصفها يحيى بن سعيد المعروف بابن
ماري في القرن السادس الهجري في مقامته
الخمسين بانها :

« حمى الامام ونقطة الاسلام » .

وقد بقيت سمعة بغداد كبيرة حتى القرن
السابع الهجري حيث وصفها الكازروني في مقامته
بقوله :

« كنت اسمع من جواب الانفطار
وطرائق البلاد والامصار ان دار السلام
هي كعبة الاسلام وحرم الامام ومعدن
الكرام ودار الخلافة ومحل الامن من
الخلافة .. »

إلا ان هذه النظرة سرعان ما تغيرت عندما
راها الكازروني بنفسه فكانت مفاجئة له :

« وايتها بلدة خالية وامة جالية
ودمنة حائلة ومحنة جانبية وفصوراً خاوية
وعراضاً باكية وقد رحل عنها سكانها
وبان عنها قطنها وتمزقوا في البلاد ونزلوا
في كل واد . وقصورها المشيدة مهدومة
وتعمأؤها مسلوية مهدومة موحشة لفقد
قطنها باكية بلسان الحال على
سكانها .. »

اما دار الخلافة فقال عنها :

« رايت حرم الخلافة مهاناً بعد ان كان
كعبة واماناً فطاف بي بيمض قصوره
واعترف عن الباقي لقصوره وقال : يكفيك
ما المحك وايرك .. »

وامام هذه الحالة لم يكن امام الكازروني إلا
رثاء بغداد :

« فوفقت ابكيها وانذب ربوعها ومن
ومن كان فيها :

وانذب اطلالها تارة

وابكي على فرقة الطاعنين
فلو ذهبت مقلّة بالبكاء
لفرط الفرام لكننا عمينا

ويبدو ان الكازروني كان يندبها مقارياً مجدداً
الفاير بحاضرها الذي دمره الغزو المغولي ..

المقامة الثانية عشرة من المقامات المسيحية

ليحيى بن سعيد [عن مخطوطة المتحف العراقي
برقم ٢٢٠]

تبيه : وردت في هذه المقامات عبارات وجمل
مرتبكة وغير واضحة ، وقد اثبتناها كما هي دون
تغيير او حذف .

روى يحيى بن سلام قال : حملني شرح
الشبيبة وميعة الهو والطبيبة الى التطوف في
البيهارستانات واعيان موارد الحانات فخرجت
يوما في زمر من اقبال بني عامر بجناب فضل
عامر وجون جود ماهر بقرائح ارق من السلسل
واخلاق اعذب من الماء الزلال فنشطننا اميراس
الاسراع ومددنا الى انفرجه باع الاطماع حتى
دخلنا الى احد البيمارستانات العضدية لنصقل
الافكار الصمدية لانها مجمع اصحاب العاهات
والموظفة من سنة الترهات فحين وطننا ججرة
وخبنا حره (كذا) راينا موسوسا وهو يقول
اعتبروا يا ذوي العقول بمن عاد بهيب من دائه
بعد الاستنارة برايه ونصقده في السلسل بعدما
كان يفوق كل باسل فما زلت به توالى الاعلال حتى
اودعته اكف الاعلال .

قال الراوي : فرايت بين يديه رباحين
وفاكهة كل حين وهو بهيئة من الميش ممجونة
بخرق وطيش وعليه اثواب مصبغة ومعضدة
وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظير النقب
ومن حط له عن وجه الادب النقب فحين لمحتة
اعجبني سمته فتوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو
عمرو البصري واسطته الفريد فتصفحت انماطه
فاذا هو شيطان الحماطه فعلت ان سر جتونه
من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك اني هذا المقام
والتردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق
البرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب
عليه اغلوطه وما عقلك بانسوطه لولا غريم كدني
تفاضيه ولم اجد ما يرضيه ما التجات بهذه البقعة
مع سعة الرقعة وها انا اكل اطايب ما يصنعه
الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقة
الطلب ولا تحفز لتعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى

صفسو ولو بالجنون

ان المكاسب شتى

والناس فيها فنون :

كانت مرة بالمره فليكن بقلة الاختلاط
وكثرة الاحتياط فلعلكم تحفظون من الامر
الامر وتسلمون من ان ينطحكم ذو قرنين
وليس باسكندر .. »

العاب تسلية

من خلال المقامة القردية للهمداني (القرن
الرابع الهجري) يبدو انه من الشائخ ترقيص
الفرد على قارة الطريق لجمع المال . جاء في
هذه المقامة :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا
انا بمدينة السلام قافلا من البلد الحرام .
اميس ميس الرجله على شاطئ الدجلة .
اتامل تلك انطراف واتقصى تلك الزخارف
اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمين
يلوى انطرب اعناقهم ويشق الضحك
اشداقهم فساقني الحرص الى ما ساقهم
حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون
مراى وجهه لشدة الهجمية . وفرط
الزحمة فاذا هو قراد يرقص قوده ،
ويضحك من عنده . »

ورد هذا النص في مجال التنزه كذلك .
ولكننا نورده هنا لتوضيح لعبة شائعة في بغداد
هي انقراد الذي يقوم بترقيص القرد ، ويبدو ان
هذه اللعبة كانت مشوقة ومسلية بدليل المزدحمين
حول القراد ..

الساعاتية

اول ذكر ورد لساعات ببغداد في المقامات
نجده في مقامة الكازروني (القرن السابع الهجري)
والنص وإن كان قصيرا إلا انه مهم بالنسبة لحقبة
الزمنية . قال الكازروني :

« وهذا دار الطبل ولكن اين
الساكن ؟ كانت آهله بالبنكمن
[البنكمت آلات يقدر بها الزمان] عامرة
بالساعاتية لادراك وقت التاذين فاذا
دخل وقت الصلاة ضربت النوبة في جميع
الاوقات . »

والكازروني كما يتبين من نصه السابق
تحدث عن الساعاتية في وقت انحلال صناعتهم فهو
يقول « كانت آهله بالبنكمن .. » فضلا عن
هذا النص يؤكد ان صناعة الساعات العربية
والاهتمام بها جاء لضبط وقت الصلاة وتحديد
مواعيدها ..

رُبُّهُ يَسْتَصْفِرُ الْإِنَامَ وَيَرَى بَيْنَ الْأَعْضَامِ كُلِّ شَيْءٍ
مَهْرَاقٌ بِهِ لَمْ يُرْقَمِ الْتَكْرِيرُ صَوَابُهُ وَاسْتَبِيحُهُ بِهِ
يَقْتَوْمُ اللَّسَانَ وَتَعْرِفُ قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ فَحِينَ رَأَى
بَعْضُنَا قَدْ غَضِبَ كَانَهُ قَدْ غَضِبَ قَالَ لَكِنْ خَيْرَةٌ
مَا يَهْدُبُ 'المَقُولَ وَيَصْلِحُهُ' وَرَفَضَ رَطْبَهُ وَأَكَلَ
بَلْحَهُ بِكَدِ الْفِكْرِ عَوِيصُهُ وَيَمْنَعُ السُّلُوكَ عِيصَهُ
وَمَا يُغْنَى فِي غَرِيبِهِ الْعَمْرُ غَيْرَ الْمَشْوَشِ الْقَمْرُ
وَهَلْ هُوَ الْأَمْعَانُ تَفْغِيدُ كَلَامًا وَأُرُوحًا تَسْتَحِيلُ
أَحْسَامًا وَكَمْ شَاعِرٌ لَمْ يَفْتَرْ لَهُ حَرْفًا وَلَمْ يَشْرِبْهُ
مَمْزُوجًا وَلَا صَرْفًا وَهَلْ ضُحَّ الْإِثْمِ حِينَ فَتَدَّتْ
الْقُرَابِيعُ وَالطَّبَاعُ وَاقْتَادَ السَّبَاعُ ضَعْفًا الضَّبَاعُ
الْإِفَائِينَ أَنْتَ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءُ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ أَهْلِ
هَذَا الْجَيْلِ كَالْفَرِيَاءِ وَأَمَّا اللَّفَّةُ وَالْمَصْنَعَةُ فَلِأَصْلِ
الثَّابِتِ وَالْعُودُ ذُو النُّشْرِ الَّذِي يَقُوفُ نَشْرَ الْعُودِ
رَبُّهَا يَصْرِفُ 'اعْيِنَّةُ الْبَلَاغَةِ كَيْفَ شَاءَ وَيَدُلُّ فِي
رِسَائِلِهِ الْإِنْشَاءَ بِجَرِي فِي حَلْبَةِ الرُّصْفِ وَيَمْرُ
النَّجْمِ فِي الدَّمِ وَالْوَالِصُ قَلَمُهُ يَحْطُمُ الْإِسْلَمَ وَيَمْزِجُ
الصَّابَ بِالْمَسْلِ وَيَنْشِطُ الْكِسْلَانَ وَيَمْسَعُ سَيْلَ
الْمَنْجَلَانَ وَلَاهَا لَمْ تَعْرِفْ حَقَائِقَ الْأَسْمَاءِ وَلَمْ يَفْرِقْ
بَيْنَ الْبَيْضَاءِ وَلَا دَمَاءِ غَيْرِ أَنْ غَرِيبَهَا تَابَاهُ 'النَّفُوسُ
إِذَا أَثْبَتَتْ فِي الطَّرُوسِ هَلْ يُولَدُ الْإِطْرَابُ الشُّعْرُ
الْغَرِيبُ وَلَوْ شَدَّتْ بِهِ غَرِيبٌ كَمْ مَتَفَعَّرٌ فِي كِتَابِهِ
لَمْ يَصِلْ إِلَى إِسْرَارِهِ ثُمَّ دَعَانِي مِنْ هَذَا الشَّقَاقِ
وَالْحِجَاجِ أَمَا تَرَى نَفَاقَ دِيوَانَ بْنِ حِجَاجٍ أَمَا هُوَ
أَسْلَسَ الدَّوَابِينَ شِعْرًا وَأَرْفَعَهَا قِيَمَةً وَسَمْرًا

قال الراوي : فما في الحشاش الا من شحد
له شباه ملام وراش حين ذم الغامس من العربية
ووحشي الالفاظ اللغوية ومضى يكر عليه ارعاط
النبل ويحتقر طل فصاحته والوبل فكانما هي
قلبه ولاط بلبه ما خالج الضمائر فقال يا اولي
البصائر ما قلت الا ما يشير به الوقت وقد
خشيت ان السب منكم بحمسه مفت ما جئني
ما خشن وصعب والفا ما لان وعذب إلا حين
قلت جهابذة المثور والمنظوم ونقاد العلوم على
العموم ثم انشد :

وتلك ليالي عيشه ببرد صفوها
صقيل الحواشي والزمان مراهق
تراوح فيها الصفو والصفو غافل
فعاديه بالافراج وهو موافق
عشية افراس الشباب وروقه
حبائس في اسر النهى وطلايق
يهيم بوحشي الكلام اخو النهى
كما هام ذو وجد اذا لاح بارق
فكل باخبار البلاغة يقتدى
وكل لاسباب البراعة عاشق

دار الانام بحمق
ان الامام زبون
بالتحل حيناً وحيناً
بالخمرة الزرجون
وان يفتك بجد
امر قتل بالمجون
ان النفوس لدينا
ياذا النهى في شجون
فريما نلت مجداً
عن لفظة هي دون
كم ساء امر قلوباً
وقبل شر عيون
وكم تـرـ بنات
وكم تغم البنون
اسفي على طيب عيش
قد مزقته السنون
وجونة الصفو تهـمى
فيه بغيث هتون
ايام وعد الوطايا
على البر بابا ديون
فكل مجمع شمل
قد بددته النون
وكل شيء سوى طارق المنون يهون

قال الراوي : فحين انكشف لأصحابي
وانجاب ما نطق من لفظه العجاب قالوا ايها البارع
في الاشعار الوحيد ابن لنا اي الشعراء المجيد .
فقال : اما ابو نواس الفائق القياس فظهور آياته
صدع في خمرياته ولقد كان مبرزاً في الانساب
اذا رآه كل نسابة ينساب . ملك سلاسة اللفظ
وضبط ازمة الحفظ تيه في الارجيز عقل المجيز
اتي باغراض المقيول وله عندهم المنزلة وفرط
القبول . واما ابو تمام فجزل الكلام بعيد المرام
يلتحق بالجاهلية قريضه ويبرز في نخلاتهم اغريضه
له السبق في حسن الفراسة في انتقاد الحماسة
واذا ذكرت ابا عيادة . فلما ترد زيارة صناجة
العرب ومحدث الطرب اختيارات شعره كثيرة
ومعانيه فائقة غريبة تميل الى كوحه الكتاب من
غير ارتياب . واما ابو الطيب ذو السحاب الصيت
فناهيك باسمه عن اختيار اسمه صاحب الامثال
متى حرك خفير فكره ينثال لوز قصاده وبراعة
قلانده لم يفضل من جمعنا حقير ولا فقد منها
تغير . فمد فرغ من الشرح بالغ في المدح قلنا له
عرفنا عليك بمن شق الابدحار وطيب نوم الاسحار
الا ما خيـرت بين اللغة والنحو لتفرق بين الفيم
والصحو فقال اما النحو في الكلام فكا للمح في الطعام

يلهي على دهر تولى بفتية
تفصّر عما نضدوه الحدائق
فلما ختم سمط مقاله اخذنا في تخفيف اقاله
ومنحناه بالنقود وفككتاه من القيود ومثلنا به على
التوالي على المرض وشرحنا له امره ايراما ونقضا
فقال لقد جئتم شيئا اذ لا ما عبر عن نفسه
وادى فمد سميع الابها قال رايك اسمى وقام
واورد شعرا اعلى منزلة من الشعري :

يا من غدا اوفى الورى فطنة
ان اشكل الامر وان ابهما
ومن غدا نائله هاملًا
يفوق صوت الجون انى همى
من فرط جود لم تدع كفه
في الكيس ديناراً ولا درهما
تالله ما بي علة تختشي
وقد اذعت القون كي تفهما
ثم خبر عقله وسبر نقله وكتب له صكا الى
احد عماله بنصاب من ماله فاخذه احد شحاذ في
العقد نفاذ وتركتا ونهض وقد بلغ الناقله
والمفترض .

قال الراوي فتبعته الى العامل لانظر اين
لهذه من العامل فمد بصر به وحل بربرية قال :

اوردها سعد وسعد مشتعل
ورد سماح كالسحاب المنهمل
لقد رعت خير نياح مكتهل
وخير حاف في الورى ومنتمل
ثم وضع لديه اللمعة وقد تفرغرت مقلته
بالدموع فحين راى العامل دمه الهائل تقده بما
تضمنته الرقعة وزيادة اذنت خفضه بالرقعة فمير
ينشد :

لولا الجنون لعانيت في البرية فقرا
وستنتى الدهر كسراً لا يضمحل وعقرا
واصبحت اسطر الضر من رقاعى ثقرى
ولم اعد جفاني ثقرى ولم اك اقرى
طورا تراني بفائنا ذلا وطورا صقرا
لكن اظير سريعا ولا اظير المقررا

القائمة الخمسون من المقامات المسيحية

وتعريف بالدارية ليحيى بن سمين المعروف
بابن ماري [عن مخطوطة المتحف العراقي رقم ٢٢٠]
حدث يحيى بن سلام قال : حين لم تتخلف
حانسة . وما بقيت آنة . ورفضني من كان

امهرهم لا يدري لم بعض الامراض تعدي
وبعضها لا يعدي ومنها يتوارث عن الآباء فلا
يدري . ولم الفالج والاستسقاء مع عموم الفساد .
لا يتناقل عن الاجداد . وما السبب في حرارة
الهواء . يبرد عنه الماء . وعلى اي وجه محار .
يبري صب الماء البارد الكرار . وان مداواة الحار
بالحار يضاد ما نقل عن الاخبار . واي الامراض
يبرز بثلاث حلى . وبايها قيس كان اولى ولم مدح
الراس الكبير . وذم الصغير . وحمد سمة الصدر .
واستعيد من الضيق . كما يستعاد من كثرة شرب

والا يفيد معه العقاقير . ومنها ماشوطة يمتد ،
ويقوى اله ويشند . فاذا بلغ الانتها . انقطع عقده
ووهي لم لا يميزون بين من كد فكرة واتصب . وبين
من غنى فاطرب .

قال الراوي فاخذبت بعض كتبه فلسفي بنجيه
عنه . وقال احدكم يقدم اقدام الضرغام ولا يفرق
بين الشهد والسهام . ويقتنع بالقرأة تقليدا .
ويجد منه لنفسه تويخاً وتفنيداً . لا يدري حدوداً
تعاليم . ولا رسومها في الحد السليم . ولا الثمانية
الفوائد التي هي في صدور القرأة كالقلائد . بل ان
حضر مادة هتك جريمها وحلل تحريمها . واكل
اكل اكل من لا ينظر في مصلحته ولا يحفظ قوانين
صحته . وقدم من المطوم ما يبتغي ان يتاخر واخر
ما يجب ان يقدم ويفخر ثم انشد :

فقت الاولى فاقوا الوري بالفهم في سر الطبيعة
فغدوت اعرف نض من يخفي التواصل والقطيعة
فيكل شخص ني على ما في بواطنه طبيعة
فضائلي عند الاكابر والالي فاقوا ذريعة
اسام تاني للوري بتراجم النعمى شريعة
ومرابع ماهولة بتواتر الجدوى مريسة
لا احتشي نوب الزمان ولا حوادثه القطيعة
واوامري مسموعة تروي ومنزلتي رفيعة
قال يحيى بن سلام : فمالبت ان ورد خادم حصان .
واخذ بخدعه كما تخذ الحصان فقال تالله ما ارحل
حتى انحل . ولا اعود مريضاً . دون ان اعطى عطاء
عريضاً . ولا اعاني سقيما حتى ارى امراً مستقيماً
فنقده الغلام بقرطاس . ولم يبد وجه مكاس فحين
قام امتزجت بديمة . ودخلت دار السلطان مع
خدمه . فلما مثل بحضرتة والتحق بزمرته شاهد
مدنقا لم يبق منه الا لقا بانفاس . متصعدة ونفس
مرتدة فقال :

هذا ما كنا فيه ادعى الى من الا يمكن تلافيه . ثم
حل جلابا بماء الورد وسقاه . فانتشى انتعاشة
ظن انه شفاه . فافرغت عليه اكياس النضار انواعاً .
وصار بينهم ملكاً مطاعاً . فمد ايس انخداعهم نهض .
وقال في غد ينقضي المرض . فقلت يا من يمد في العلم
باعاً . ورفع في الفضائل شراعاً . اترجو لمن عانيت
انصلاًحاً . او ترمي لزاجه صلاحاً . فقال : سبحان
من خلق الناس طباعاً . اما صاحبت من علاج وارعى .
فاستتلى استيلاء الخوف ساعة الحصور . فاسرع
فقدان ان يبور وينادي بالويل والثبور .

فقال الراوي : فنفرنا شفر بفر . وقد بلغت
الارواح النفر .

الرحيق . وهل دم الكبد غير دم العروق . ام ليس
بينهما فروق . وكيف دم الكبد غذاه وهو الته .
ام يفتذي به اذا اكملت في العروق استحالة وما
الذي تفتذي به الاعصاب واللطيف . لبعدها جنسها
من جنس الدم واللغيف . واي شيء اقدم الدم في
الشريان او الروح . والحركة أحدث او الجنوح .
وهل معما جعل من الاخلاط يرى لها في الدم
اختلاط . ولم من حماه ملازمه احر من الرضاء
تبدي قارورته في حلة بيضاء . واني محل الحرارة
الغريزية عند حدوث الحرارة الغريية . وهلل
يستقران معاً وذلك باطل اذ لا يستقر الشيء
وشانیه . او ينفر احدهما او يبد وهذا مستحيل
عنده ينقص اصل البدن ومبانيه .

قال الراوي : فحرت بمعضلاته . وتقت الى
حل مشكلاته . فقلت : ايكون مثلك في هذا الاقليم .
ولا يتصدى لهداية التعليم . فقال نوء الكرام
اخلف . وعري الزمن حريف . وساد الطغمام .
فما يفرق بين الحكمة والمقام . احدهم يحكم على
الراوند بالبرودة وعلى الافيون بالحرارة . ويتناول
الاشياء على غرارة . يقتنع من الطبيب بسيره .
دون سبره . وبطبيب ذكره . ولو افرط في ذكره .
واسعرك بحار . ان عدلت جار . وان سكنت
ثار . ما استتمت الامسال . ولا اعلت الاعال .
بتعاطي ما اتعاطى . ويسرع الى مضرتي ولا
يتباطىء . ما عادت مريضاً الا كتب القصص .
ليغوز بالحصص فان جرت شدة عند بحران شبة
الي . ونه اعين الجناية علي . فكم سترت غيبه
وحسنت عيبه . وهو لا يعبا باشغاتي . ويرى
احراقي . دابه تصفيف لحيته ومد سباله .
وتغويف سرباله . وتغذيف نباله . يحلب بسمنة
وخمرة . ويخلب بدا واحبل وعميرة . ويخيل
للغيف . القحاح البنين . ويصغ الخضاب لمن
شاب . ويرتب معاجين الباه للشباب . يعتب
بالحد بالحد . واسراح بالجد . ويعتب بالعدد .
ونم بالعدد ان ناقضه نفر وصاح . وان جادلته
لم يصبر على الكفاح . يلسع ويصيء . ويظلم
واضيء . لو سال لم التي يحدث عقيب اختلاج
الشفة . خرج من عدم الجواب الى السفه . لكن
اداريه واماريه . ولا اباريه . لعدم من ينتقد .
ويوار المفتقد . ادعى الى مريض كاني صاحب
الوحي . ولم يبق في عبقرة في النحي . يرمون
انقضاء المرض قبل اوانه وزواله دون تمام بحرانة .
ولا يعلمون ان للامراض مراتب . يسهل صعبها
القانون الراتب . ومنها ما يهلك المريض قبل التدبير

الفِئَلَةُ وَلَيْلَةٌ عِنْدَ مَرَجِيهَا

الحياة العربية في العصور الوسطى دراسات من الفِئَلَة وَلَيْلَة

تأليف

ادوارد وليام لين^(*)

ترجمة الدكتور

يحيى الجبوري

الاستاذ بجامعة قطر

السحر

الذرية ، ولكسب المحبة والرف النساء ، وللثأير في الصلاج والشفاء ، وللحماية من اثر العيون الشيطانية الشريرة ، وابتلاء او قتل اي عدو او منافس ، ولادراك مختلف الأغراض او الرغبات الأخرى .

هناك وصفان للسحر : واحد روحاني ، وهو مبجل من قبل الجميع عدا المتشككين بصدقه ، والأخر طبيعي ، وهو متهم ومفضوح من أكثر المتدينين الورعين والمتقين على انه غش وخداع .

اولا - السحر الروحاني : ويعتمد بصورة رئيسة على تأثير أسماء الله الحسنى ، وقد ورد ذكره في القرآن ، ووسيلته الملائكة والجن . وهو على نوعين : علوي وسفلي ، او رحمانى (اى نسبة الى الرحمن) وشيطاني .

يعتبر السحر الرحمانى علما سنيا ، ويدرس من قبل الناس الأخبار فقط ، ويستعمل لأغراض الخير وحسب ، ان القداسة في هذا الفرع من السحر متأية من معرفة اسم الله الأعلى (الاسم الأعظم) ، الا ان هذه المعرفة لا تعطى لاحد ؛ لا للخاصة من احباب الله . وقد استطاع سليمان ان يسخر لسلطانه الجن والطيور والريح بقوة الاسم الأعظم المنقوش على فص خاتمه ، وكذلك وزيره

ان الاعتقاد انراسخ بالسحر مقبول من غالبية المسلمين . والذي ينكر حفيقة السحر بينهم يعتبرونه متشككا او كافرا . ان بعضهم يرى ان السحر قد ابطل عند بعثة النبي . ولكن هؤلاء قليلون نسبيا . لقد درس كثير من المتقين المسلمين في العصر الحاضر السحر بتعمق وامعان ، كما انفق عدد كبير من الناس من ذوي الثقافة الدنيا (وخاصة من معلمي المدارس) كثيرا او قليلا من وقتهم وذكائهم لتابعة هذه المعرفة . كى يستعينوا بها على اكتشاف الكنوز الدفينة ولاغراض السيمياء^(**) ، ومعرفة انباء الغيب ، وللحصول على

(*) من اعمدة الاستشراق الانكليزي . ولد سنة 1801 وتوفى سنة 1876 . وخلال وجوده في القاهرة كان يدعى (منصور الفندي) . وفي مصر اتقن اللغة العربية . واشتهر بمجمعه الانكليزي - العربي (مد القاموس) . وهو الذي ترجم الى الانكليزية الف ليلة وليلة ترجمة كاملة اعتمد في طبعها الثانية على نسخة بولاق العربية ، واخذها بتطبيقات ضافية هدفها المادة الفارسي ، الاوربي . وقد جمعت فيما بعد هذه التلخيصات ، ونشرت في كتاب مستقل عنوانه The Arabian Society in the Middle Ages (المجتمع العربي في القرون الوسطى) وهو هذا الذي يجده القارئ تصب عينه الان (رئيس تحرير المورد) .

(**) الكيمياء القديمة .

المشهور مجاعدا يروى بأنه زارهما بدلالة شخص يهودي ، فانطلق به اليهودي حتى أتى موضعا فرفع سخرة فاذا هو شبه سرداب فقال اليهودي لمجاهد: انزل معي وانظر اليهما ولا تذكر اسم الله تعالى ، قال مجاهد : فنزل اليهودي ونزلت معه ولم نزل نمشي حتى نظرت اليهما وهما كالجلين العظيمين منكوسين على رؤوسهما والحديد في أعناقهما الى ركبتيهما ، فلما رأهما مجاهد لم يملك نفسه ان ذكر اسم الله تعالى ، قال فاضطربا اضطرابا شديدا حتى كادا يقطعان ما عليهما من الحديد فهرب مجاهد واليهودي حتى خرجا ، فقال اليهودي لمجاهد اما قلت لك لا تفعل كدنا والله نهلك (٢) .

الرقية . واسمها السحر : غالبا ما عرفت بانها فرع من السحر الشيطاني ، ولكن قسما قليلا من الناس يقول : لا بأس من ممارستها ، وهي عند بعض الناس تدرس مع الأمور الجيدة ، وتمارس بمعونة الجن الصالحين ، وبناء على ذلك فان هناك علما هو السحر انجيد الذي ينبغي ان يحترم على انه فرع من السحر الالهي او السحر الحلال . يقال ان فاعلية هذا السحر تتم بواسطة التلفظ والابتهالات الموجهة الى الجن ويصاحب برش الماء او التراب وغيره على الشيء المقصود حتى يتغير ، ويمكن ان يتم سحر الناس بعدة طرق ، منها اصابتهم بالشلل او حتى بسلب الحياة منهم ، او بتأثير عواطف وانفعالات لا تقاوم لأجل اغراض معينة ، وقد يستطاع مسخ بعض الناس الى عفاريت ، وقد يحول آخرون الى حيوانات متوحشة ، او طيور ، او ما شابه ذلك .

ويعتقد ان العين الشريرة تسحر بقوة شديدة وبطريقة تورث الغم والكرب . ونسب الى النبي انه ذكر أثر العين (٤) ، وقد يعزى احيانا الى تأثير السحر كثير من الأمراض او حتى الموت ، ان التماثيل (٥) التي كثيرا ما تكتب فيها التعاويذ ، من

(٢) القزويني ، دواية بئر بابل في كتابه عجائب المخلوقات.

(٤) انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٢٧٤ .

(٥) ان كلمة (Talisman) هو تحريف للكلمة العربية (طلمس) انا اكتب هذه الكلمة الأخيرة وفق الطريقة التي ينطق بها العرب عامة ، وهي الطريقة التي يكتبها شيخي ، ويكتبها بعضهم : طلمس (بكر الطاء) و : طلمس (بكر الطاء واللام الشددة) ، انها كلمة تستعمل للإشارات الخفية الغامضة ، وكذلك للاختام والصور وغيرها التي تنقش او تكتب ، وهذه الرموز هي علم التنجيم او نوع سحري آخر . ان الغاية المتوخاة من الطلاسم مختلفة ، احدها ان يتولى المرء سحر الآخرين ،

أصف (عصف) الذي ما ان نطق بالاسم الأعظم حتى جاء في لمح البصر بعرش ملكة سبأ الى القدس في حضرة الملك سليمان (١) . وتعد هذه معجزة هينة نسبة الى ما في الاسم الأعظم من اسرار تبلغ الى حد احياء الموتى ، وكذلك الأمر في بقية اسماء الله اذ لها خاصيات أخرى حين ينطق بها اذ يكتب ، وكذلك القول في اسماء النبي واسماء الملائكة واسماء صالحى الجن ، يقال انها جميعا تستجيب لاغراض السحر الروحاني بواسطة ابتهالات معينة . ويكون السحر بتلاوة هذه الاسماء مع ابتهالات وذكر كلمات غامضة بالنسبة لغير المطلعين على هذا العلم وقراءة آيات من القرآن مع مجموعة ارقام مبهمه واشكال هندسية غريبة وصور تكتب في الغالب مركبة على شكل رقية (حجاب) وتستخدم لاغراض الخير .

ان الرقية عندما تستعمل لاغراض الخير والاحسان ، فانها تحترم من قبل العامة على انها فرع حلال او سحر رحماني ، ولكنها ليست كذلك عند المتعلمين ، والملاحظة نفسها تطبق بالنسبة لعلم الغيب .

اما السحر الشيطاني ، فهو كاسمه يدل على علم يعتمد على وسيلة الشر وبامرة اشرار الجن ، الذين تحصل خدماتهم باستخدام وسائل كتلك التي تستخدم بالنسبة لصالحي الجن . وقد حرم النبي هذا النوع من السحر ، وذمه كل اتقياء المسلمين ، لانه يمارس لاغراض سيئة .

ان المسلمين يحترمون بابل على انها مصدر علم السحر ، الذي كان ، وهو - على ما تظن العامة - ما يزال يعلم هناك للبشر من قبل ملكين هبطا من السماء اسمهما هاروت وماروت ، وهما مجوسان ومعلقان من قدميهما في بئر عظيمة اغلقت بكومة من الصخور ، وفي رواية حولهما تقبل بصورة عامة على انها صحيحة ، ان هذين الملكين نتيجة لرغبتهما في الرحمة جعلهما الله سريعى التأثير يعواطف البشر ، واهبطا الى الارض لممارسة السحر ، وكلاهما مذنب وقد اذن لهما ان يختارا العقاب في الدنيا او في الآخرة ، فاختارا الاولى . وقد أرسلنا الى الارض ليمارسا السحر ويغويبا الآخرين ايضا بتعليمهم السحر ، الا انهما قد امرا الا يعلمنا هذا الفن لاي مخلوق الا ان يخبراه بحقيقة هذا العمل ويحذراه منه « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا انما نحن فتنة فلا تكفر » (٢) . ان المحدث

(١) سورة النمل ٢٧ / ٤٠ . وتفسر الجلالين .

(٢) سورة البقرة ٢ / ١٠٢ .

عند الفرس والآتراك . لقد ذكر النبي ان التنجيم ضرب من السحر (١٠) .

والتنجيم الآخر من الكهانة هو ضرب الرمل (١٠) واسلوبه ان ترسم علامات معينة على الرمل الذي اشتقوا التسمية منه) او على الورق ، وقيل انه يعتمد بصورة خاصة على علم النجوم .

ان اعلم المعروف بالزجر أو العيافة ، هو الضرب الثالث من الكهانة ، يعرف علم القيب أو نفاذ بصورة رئيسية من حركات واحوال أو هيات الطيور والغزلان وبقبة حيوانات الطرد . وذلك ما كان يطلق عليه كلمة السائح ، وهو الحيوان الواقف أو المار من جهته اليمنى نحو المشاهد ، وهذا يعني عند العرب فالأحسا ، أما البارح ، فهو حيوان من هذا النوع الذي يمر على جهته اليسرى بالنسبة للمشاهد ، وكانوا يعتبرونه نذير شؤم (١١) .

العيافة : تحت هذا الاسم تدرج معرفة الطالع من قراءة خطوط الكف والعلوم المتفرعة عنه ، وهو الضرب الرابع من الكهانة . أما التيمن أو التفاؤل فهو بصورة خاصة نوع جيد ، ويكون التفاؤل من الأسماء أو الكلمات التي تسمع مصادفة أو تقرا في كتاب .

ان اخذ الفأل أو قراءة الطالع من القرآن يعتبر بصورة عامة أمرا حلالا . وقد تكون بعض الأحداث الطبيعية البسيطة مصدر تشاؤم ، ومثالا على ذلك ان أحد الخلفاء اراد القزور فاستشار المنجمين فأخبروه ان ينتظر سقوط الثريا وتفرقها وكان الوقت شتاء وعليه ان ينتظر الى الصيف وقت نضج التين والعنب ويكون عندئذ النصر بهذه العلامات ، ولكن الخليفة خالفهم وتقدم وأحرز النصر (١٢) .

أما تفسير الأحلام ، والمعارة المستعملة (تعبير المنامات) فيجب ان تصنف ايضا ضمن فروع هذا العلم . ووفقا لقول النبي ان الفرع

النوع الذي وصف سابقا ، يئسها كثير من المسلمين لأجل ان تمنع او تحفظ لابسها من السحر ، وللغرض نفسه تمارس عدة احتفالات وطقوس سخيفة مضحكة (١٣) .

أما ضم الذب الذي يطلق عليه اسم الكهانة ، نذكره اوفق المراجع على انه فرع من السحر الشيطاني ، ولو ان بعض المسلمين لا يعتقدون به ، ووفق قول عن النبي ان ما يقوله المتنبئون يكون في بعض الاحيان صحيحا . لان الجن تسترق السمع من السماء الدنيا لما يقوله الملائكة ويسمعون الأوامر التي قدرت في السماء وحملوها الى المتنبئين . وفي مثل هذه الحالات يرمج الشياطين بالشهب (١٤) . ويقال ان الكهنة تحصل على خدمات الشياطين هذه بفنون السحر . وبواسطة أسماء يتوسلون بها . وحرق البخور . فيعلمون من الشياطين امورا غيبية ، لان الشياطين قبل بعثة رسول الله كانوا يصعدون الى السماء ويسمعون الى كلام الملائكة خلسة (١٥) . ويظن ان اشرار الجن ما زالوا يصعدون الى السماء الدنيا ويتاون بأخبار القيب الى السحرة في الأرض .

ان اكتشاف الكنوز المخبية المشار اليها سابقا ، هي احدى الأغراض التي تدرس الكهانة لاجلها في الغالب ، ويتوصل اليها بأسلوب الكهانة التي تعرف بضررب المندل ، ويظن انها تؤثر بمساعدة اشرار الجن . ولكن أكثر المتنورين من المسلمين يحترمونها على انها فرع من السحر الطبيعي (١٦) .

هناك علم آخر ليس من السهل ان يصنف مع السحر الروحاني ، ولكنه ينبغي ان يوضع في منزلة بين هذا العلم وبين السحر الطبيعي ، ان هذا الفرع المهم من فروع الكهانة هو علم التنجيم ، ويدعى علم النجوم ، ويدرس هذا العلم كثير من المسلمين في الوقت الحاضر ، ويستخدم في الغالب حين ينون حسن الطالع كوضع أسس البناء أو البدء بالسفر أو ما شابه ، وأكثر ما يستعمل هذا

وبصورة خاصة يكون حزنا ضد الحوادث ، او نوعا من الشرور ، ولانها ان يصون الكنز مع من اودعه ، وتالنها بواسطة فركه يحصل على حضور وخدمة الجنى .

(١٠) لعل الألف يشير الى احتفالات الزار عند عوام المصريين انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٢٨٤ .

(١١) رواية عن العرب الجاهلين في مآة الزمان .

(١٢) بعض الإجراءات القريبة لهذا النوع بواسطة مآة الحجر السائلة ، وقد وصفت ذلك في كتابي (بيان اساليب وعادات المصريين الحديثين) فصل ١٢ ، وفي العدد ١١٧ من مجلة كوارترلي Quarterly review .

(٩) مشكاة المصابيح ٢ / ٢٨٥ .

(١٠) او ضرب الرمل (بفتح الميم) ويسمى ايضا علم الرمل ، هناك عدة وسائل في علم الرمل كتبها كتاب شرفيون ، ولكني لم اطع على واحدة منها ، ولم ار رفعة النجوم ، وإنما رأيت فقط طريقة التنجيم تجري على الورق ، ان اختراع هذا العلم ينسبه بعضهم الى ادريس ، وينسبه آخرون الى دانيال او الى حام بن نوح ، ويعزوه لبرهم الى هرس المايجسطي .

(١١) مآة الزمان ١ / ١ .

(١٢) الإسحافي في روايته عن حكم المتصم بن هارون .

هذه الليلة القادمة ، لذلك فارجوكم بحق الله ان تاتوا غدا الى بيتي مبكرين ، وفي صباح اليوم التالي وانذي بعده للضرورة ، لتروا اذا كنت قد مت ام لا . وعندما اموت . فاني اريد ان ادفن دفنا لائقا ، ولاني وحيد ليس معي من يفسلني ويكفني ، فلا تترددوا في تقديم هذه الخدمة . وستنالون نواب ذلك في الآخرة . لقد اشترت كفني ، وستجدونه في زاوية الغرفة التي انام فيها ، واذا وجدتم باب البيت مقللة وانا لا احيب اذا طرقتم الباب فاكسروا المزاج وافتحوا الباب » .

وحالما غربت الشمس رقد في سريره وحيدا ، ونو انه لا يتوقع ان تغمض عيناه ، لان ذهنه كان مستغرقا في توقعات انتقاله الرهيب الى العالم الآخر ، ومحاسبته على حياته انسابقة ، وحين احاط به ظلام الليل تصور على الاغضب انه قبض ، وشيء خافت او آخر في غرفته القاتمة ، انه شخص ملك الموت المرعب ، وقد شعر حقيقة بصوت انزلاق الباب وبشخص يتقدم نحو فراشه ، فتجمد من هول الرعب ثم هتف : « من هذا » فاجاب صوت عبوس مهيب : « اسكت ، انا عزرائيل ملك الموت » فصرخ الرجل المفزوع : « وبلاه ، اشهد ان لا اله الا الله . واشهد ان محمدا رسول الله ، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون » ، ثم غطى نفسه بلحافه يحتمي به ، وسكن دون حراك ، وقلبه يخفق ، يتوقع في كل لحظة ان تنتزع روحه من قبل هذا الملك الذي لا يرحم . وممرت لحظات ودقائق ، وساعات ، وهو على هذه الحال ، دون اي امل في الخلاص من هذه التجربة ، لانه تصور ان الملك ينتظره ان يسلم نفسه ، او انه تركه الى حين ، وكان قد انشغل اولا بازهاق ارواح مئات البشر الذين حضر اجلهم في تلك الليلة وفي المدينة نفسها ، وارواح آلاف الذين عليه ان يقبض ارواحهم في اماكن اخرى .

وحان طلوع النهار قبل ان تنتهي معاناته . وقد جاء جيرانه وفقا لوعدهم . دخلوا غرفته ، فوجدوه ما زال في فراشه ، وقد لاحظوا انه قد تغطى وبلا حراك كأنه جثة ، وشكوا فيما اذا كان ما زال حيا ، فنادوه ، فاجاب بصوت خافت ضئيل : « اني لم امت بعد ، ولكن ملك الموت جاءني في ظلام الليل ، واتوقع ان يعود في اية لحظة لياخذ روحي ، ولذلك فلم تنته منسكنتي بعد ، فانظروا لفسلي ودفني » فقال اصداؤه : « لكن لماذا ، هل تركت باب الدار مفتوحا » قال : « لقد اقلفته ، وربما فتحه ملك الموت » ، فقالوا :

انوحيد من الكهانة الذي يستحق ان يوثق به هو الاحلام الصادقة ، وقال : انها جزء من النبوة ، ولا شيء غيرها من النبوة ، الاحلام الصادقة من عند الله والفاصلة من الشيطان . عندما يجسد احدهم حلما ردينا ليصدق ثلاث مرات عن جانبه الايسر وليستعد بالله من الشيطان ثلاثا ، وينقلب من الجانب الذي كان عليه الحلم الى الجانب الآخر (١٢) . وهذه القاعدة يتبعها كثير من المسلمين . وعلى العموم فانهم يعتمدون على الاحلام تماما . فقد تكون في بعض الاحيان وسائل لحسم القضايا المتنازع عليها في التاريخ والعلم . ان رؤية اي شيء اخضر في الحلم او ابيض او الماء ، يعتبر مباركا ، واي شيء اسود او احمر او نار ، يعتبر مشؤوما منحوسا .

هذا الاعتقاد الراسخ بالاحلام ، ستوضحه الحكاية الآتية ، حيث حكاها لي في القاهرة الشيخ محمد الطنطاوي الذي استقصى حقيقتها وتأكد من صحتها بعد فترة قصيرة من الطاعون الفظيع الذي حل سنة ١٨٢٥م :

ان تاجرا يعيش في الربع الحنفي من القاهرة ، حلم اثناء ذلك الطاعون ان احد عشر شخصا قد حملوا من بيته ليدفنوا في خارجه ضحايا لهذا المرض ، فاستيقظ في حال حزن شديد ورعب ، فكفرا ان اولئك الاحد عشر شخصا هم مجموع عدد سكان البيت بما فيه هو نفسه ، وسيكون من العبث ان يحاول اضافة واحد او اكثر الى اعداد الساكنين في بيته ليتفادي مشيئة الله ويعطي نفسه فرصة للهروب ، ولذلك دعا جيرانه جميعا ، واعلمهم بالحلم الذي رآه ، وكانوا قد نصحوه بالرضوخ والتسليم للقدر المحتوم ببساطة ، وان يشكر الله الذي انذره في الوقت المناسب مع ما كان من فضل رحمته . وفي اليوم الثاني مات احد اولاده ، وبعد يوم او يومين ماتت زوجته ، واستمر الوباء يعبث في أسرته حتى لم يبق في البيت غيره . وكان من المستحيل عليه الآن ان يقبل بأقل شك في صحة الرؤيا وحميصة الانذار ، ولذلك فبعد آخر وفاة من ساكني الدار مباشرة ، اجتمع الى صديق في الدكان المجاور وقال له ولعدة اشخاص آخرين من الدكاكين المجاورة والمقابلة ، انه ينبههم الى الحلم الذي رآه ، واخبرهم بتحقيق هذا الحلم كاملا ، وعبر عن اعتقاده بانه هو الشخص الحادي عشر الذي يجب ان يموت قريبا جدا . وقال : « ربما ساموت في

والعشرون أرسلت فيه الريح المهلكة على قوم هود(١٢) .

ثانيا : السحر الطبيعي الذي يعترف بالسيما ، وهو موضع اهتمام اغلب الأشخاص من مثقفي المسلمين ، كما يهتمون كذلك بفن الحيل وخفة اليد ، ويبدو هذا منجما مع السحر . لأنه يؤثر في ظهوره كما يقولون ، ويشير خيالات ورؤى مبدعة مشيرة اقرب الى التخدير ، او تعاطي بعض المخدرات لانها وسيلة رئيسية في احداث التخيلات ، ولذلك كان البحور شيئا مهما عند اجراء هذه العمليات .

ومثل هذه الاشياء تستخدم في نوع آخر يعرف بـ (ضرب المنديل) . ويجدر بنا ان نذكر ان هذه المهارات تعتبر عند الكثير مؤثرة بواسطة السحر الطبيعي ، ولو ان الذي ذكرناه سابقا كان ذا علاقة بأشرار الجن ، ويكون للبحور دور هام فيه . اما الكيمياء فانها فرع من السحر الطبيعي . وان كثيرا من المسلمين في الوقت الحاضر يدرسونها ، وكذلك يفعل بعض النابهين والعلماء .

ان اشهر انحره الذين حصلوا على سمعة واسعة في مصر خلال فترة المائة سنة الأخيرة كان الشيخ أحمد صادومة الذي عاش حوالي اكثر من سنة مضت(١٥) . روى لي عدة اشخاص مسن القاهرة ، اناس من النابهين وذوي التعليم الجيد مختلف القصص العجيبة لخوارقه ، يروون ذلك عن شهود عيان من فئات الناس ، ولكن الرواية الأكثر تصديقا عن هذا الساحر تلك التي وجدتها عند مؤرخ ممتاز لتاريخ مصر الحديث ، يذكر هذا المؤلف ان الشيخ صادومة رجل مسن وقور المظهر ، تحدر اصله من مدينة سموندي في الدلتا ، وقد اكتسب شهرة واسعة وعظيمة جدا لعلمه بالسحر الروحاني والطبيعي ، ولتمكنه من مخاطبة الجن وجها لوجه ، ولاستطاعته ان يظهر الجن للأشخاص الآخرين وحتى للميمان منهم ، والناس الذين اطلعوا عليه عرفوه مؤرخا ، يقول هذا الكاتب : ان معاصريه على اختلاف آرائهم يحترمونه ، ومن هؤلاء النحوي المشهور والعالم الشيخ حسن الكفراوي الذي كان يجعله على انه ولي من الدرجة الأولى ، وكلام هذا الرجل له تأثيرات كأنها (البراعة والسحر الطبيعي) ووصف سمعته بأنها تزداد حتى كانت تستميل الذين يعمرون بامتحان النحس .

(١٤) الاسحافي ، انهى روايته في حكم الامين .

(١٥) كتبت هذا في سنة ١٨٢٧ م .

« وكيف ، هل هو في ساحة الدار » قال : « اني اعرف ان لا احد في الدار ، ولكن ربما كان ملك الموت الذي ينتظر لأخذ روحي جعل نفسه مرئيا لكم واخطأتم في عتمة الفجر على انه رجل » . قالوا : « انه لص ، اللص الذي أخذ كل شيء استطاع ان يحمله ، وقد اصيب بالطاعون بينما هو يسرق ، وهو ساقط الآن ميتا في باحة الدار عند عتبة السلم ، ممسكا بيده الشمعدان البغضى » فلما سمع صاحب الدار هذا . تأنى لحظة ، ثم رمى عنه لحافه وهتف : « الحمد لله رب العالمين ، ذلك اللص هو الحادي عشر . وقد نجوت ، لاشك انه كان ذلك المحتال الذي جاءني في الليل وادعى انه ملك الموت . الحمد لله ، الحمد لله » .

لقد نجا هذا الرجل من الطاعون . وكان مسرورا حين صار يقص هذه القصة . وان اللص استمع خلسة الى محادثته مع جيرانه ، وجاء الى بيته في الظلام ، ودفع الباب الخشبي بكتفه فازاح المزلاج من مكانه . ليس هناك شيء عجيب في الحلم ، ولا في نهايته ، فان طاعون سنة ١٨٢٥م قد قضى على كثير من البيوت وجعلها موحشة من اهلها ، وغالبا ما كان النحس على الصغار وكان سكان البيوت يتسألون هل سيبقى الله احدا من الصغار .

ويحسن هنا ان نذكر التمييز بين الايام السعيدة المباركة وغير السعيدة المنحوسة . ان يومي الخميس والجمعة - وخاصة الجمعة - يعتبران مباركين ، الانئين والاربعاء مشكوك فيهما الاحد والثلاثاء والسبت - وخاصة الاخير - ايام غير مباركة . يقال ان هناك سبعة ايام سيئة في كل شهر قمري ، وبصورة خاصة الثالث حيث قتل فيه قابيل اخاه هابيل ، والخامس الذي اخرج الله فيه آدم من الجنة ، واصيب فيه قوم يونس ، وقذف يوسف في الجب . اما الثالث عشر ففيه اباد الله ثروة ايوب . وامتحنته ، وازال الملك من سليمان ، وفيه قتل اليهود الانبياء . اليوم السادس عشر ، اهلك الله فيه ومحق قوم لوط ، ومسخ ثلاثمائة من النصراري ابي خنازير ومسن اليهود الى قردة ، وفيه شطر ايهود زكريا بالنيشار الى شطرين ، اليوم الحادي والعشرون ولد فيه فرعون ، وفيه أغرق ، وفيه اصيب قومه بالطاعون . اليوم السابع والعشرون قتل فيسه نمرود سيمين امرأة ، وفيه رمى ابراهيم الخليل في النار وفيه ذبحت ناقة صالح . اليوم الخامس

من المخلوقات العاقلة : الملائكة الذين خلقوا من النور ، والجن الذين خلقوا من النار ، والناس الذين خلقوا من التراب . الصنف الأول يدعى الملائكة (المفرد ملك) ، والثاني الجن (المفرد جني) والثالث الانس (المفرد انسى) يعد بعض المؤلفين ان الشياطين هم صنف مختلف عن الملائكة والجن ، ولكن الرأي الأكثر انتشارا والذي يطمئن اليه في اوثق المراجع ، هو انهم جن متمردون .

يقول القزويني : « يعتقد ان الملائكة من جوهر بسيط وهبوا مع الحياة النطق والعقل ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الجن والشياطين ، وهو فرق في المرتبة . » ويضيف : « اعلم ان الملائكة قد طهروا من الرغبة الجسدية والميل الشهواني ، ونوازع الغضب ، يطعمون الله فيما يأمرهم ، ولا يفعلون الا ما يؤمرون . طعامهم التسبيح بمجده ، وشرابهم بيان قدسه ، واحاديثهم حمد الله سبحانه ، وفرحتهم في عبادته ، لقد خلقوا باشكال مختلفة وبقوى متفاوتة ان بعض الملائكة يوصف بأنه يتخذ شكل المخلوقات المرئية . اربعة منهم ملائكة الطبقة العليا ، هم : جبريل ، ملك الوحي ، وميكائيل (ميشيل) ولي الاسرائيليين ، وعزرائيل ملك الموت ، واسرافيل ملك النفر ، حيث ينفخ في الصور مرتين ، او كما يقول البعض ثلاثا في نهاية العالم - نفخة واحدة ستمحق كل المخلوقات (بما فهم اسرافيل نفسه) ، ونفخة اخرى ، بعد اربعين سنة (ويبعث مرة ثانية لهذا الغرض مع جبريل وميكائيل) تبعث الموتى .

وتدعى هذه الطبقة من الملائكة ايضا ملائكة الرسل ، وهم ادنى مرتبة في المقام من الانبياء البشر والرسل ، ولو انهم ارفع منزلة من بقية الجنس البشري : ان الطبيعة الملائكية تعد ادنى مرتبة من الطبيعة البشرية ، لان كل الملائكة قد امروا ان يسجدوا لادم . وكل مؤمن يلزم بملكين حارسين يسجلان اعماله ، الاول الذي عن يمينه يكتب اعماله الصالحة ، والآخر الذي عن شماله يكتب سيئاته ، وفي رأي ، ان عدد هؤلاء الملائكة هو خمسة ، او ستون ، او مائة وستون ، وهناك ملكان ايضا ، يقال لهما منكر (ناكر في العامية) ونكير ، اللذان يستجوبان كل الموتى ، ويعذبان الاعمى في قبورهم .

اما صنف الجن فيقال انهم خلقوا قبل آدم ببضعة آلاف من السنين ، ووفق حديث عن الرسول ان هذا الصنف يتكون من خمس طبقات ، هم : الجان (وهؤلاء اقل قوة من الجميع) ، والجن ، والشياطين ، والغفاريت ، والمردة ،

ان يوسف بك زعيم المالكين ، رأى بعض معالم السحر مكتوبة على جسم احدى محظياته ، فعلاه الغضب والحسد ، وامرها ان تخبره عن فعل هذا بجسمها ، وهددها بالقتل ان لم تصدقه . فاعترفت له بان امرأة اخذتها الى الشيخ صادومة ، وهو الذي كتب هذا الطلسم حتى يجذب لها حب سيدها ، وعندما سمع هذا ، ارسل على الفور بعض الحاضرين ليقبضوا على الساحر ويقتلوه ثم يرموه في النيل جزاء له على فعلته (١١) .

ولكن الطريقة التي قبض بها عليه ، كما رويت لي من قبل احد اصدقائي ، تستحق ان تذكر ، فعده اشخاص يجازفون واحدا بعد الآخر ويحاولون ان يقبضوا عليه ، ولكن كل يد تمتد اليه لتمسكه تصاب بالشلل حالا ؛ لان الشيخ يتلفظ بدمدمة من السحر ، حتى استطاع رجل كان يقف بجانبه ان يضع كمامة على فم الشيخ ، وعندها تمطل سحره .

من القصص التي رويت لي عن معجزات صادومة ، القصة التالية التي سنجعلها مثالا لسحره : لقد دعاه احد اصدقائه ليخرجا بتمشيان بعيدا ، فذهبا حوالي نصف ساعة مشيا في صحراء شمالي القاهرة ، وهناك جلسا سوية على ارض سهلية فيها رمل وحصى ، فتمتم الساحر بالفاظ ، فوجدا نفسيهما فجأة وسط حديقة ، كأنها من حدائق الجنة ، مشتملة على الازهار واشجار الفاكهة من كل نوع ، واكتست الارض بخضرة نضرة زاهية كأنها الزمردة ، وسيقت بمختلف الجداول العذبة الجارية ، ومدت لهما وجبة طعام من الد المأكولات من لحوم وفاكهة وشراب ، اعدتها ايد غير مرئية ، واكل كلاهما حتى شبعا ، وتناولوا جرعات وافرة من مختلف انواع الشراب . واخيرا غرق ضيف الساحر في نوم عميق ، وعندما صحا وجد نفسه ثانية في الارض الرملية ذات الحصى مع صادومة الذي ما زال الى جانبه .

من المحتمل ان القارئ سيعزو هذه الرؤيا الى فعل الأفيون او بعض المخدرات المشابهة ، كما افترضت انا ، لاني لا أستطيع ان اشك في نزاهة الرواية ، لانه لا يرضى بمثل هذا التفسير ، معتبرا كل الرواية قضية سحر من عمل وتأثير الجن .

الجن والشياطين DEMONOLOGY

المسلمون بعامه يؤمنون بثلاثة انواع مختلفة

(١١) تاريخ الجبرتي ، رواية موت يوسف بك في سنة ١١٩١هـ .
ورواية موت الشيخ حسن الكفراوي في سنة ١٢٠٢هـ .

في احد الاحاديث يقال ان ابليس كان ابا لجميع الجن والشياطين(٢٢) ، والجان هنا مرادفة للجن؛ وفي حديث آخر : ان الجان كان ابا لجميع الجن(٢٣) ، وقد استعمل الجان هنا اسما لابليس.

يقول القزويني ، مؤلف من القرن الثالث عشر : « لقد اعتبر ان الجن حيوانات هوائية باجساد شفافة ، حيث تستطيع ان تتخذ اشكالا مختلفة ، والناس مختلفوا الراي في احترام هذه الكائنات ، ان البعض يعتبر الجن والشياطين مخلوقات متمردة ، وهؤلاء هم المعتزلة (فرقة من المسلمين المتونين)^(٢٤) ويرى آخرون ان الله جل جلاله ، خلق الملائكة من ضوء النار ، والجن من لهبها (الا ان هذا مخالف للراي السائد) ، والشياطين من دخانها ، (ويختلف ايضا عن الراي السائد) ، وكل هذه المخلوقات في العادة غير مرئية للناس(٢٤) ، ولكنهم قد يظهرون باي شكل يريدونه ، وحينما يتجسدون بأشكال يصحون عندئذ مرئيين » . هذه الملاحظة الأخيرة تصور اوصافا متعددة للجن في (الف ليلة وليلة) حيث شكل المارد اولاً غير معين ، او يشبه العود الهائل، ثم بعد ذلك يظهر بالتدريج بهيئة انسان حجمه اقل ضخامة .

يقال ان الله سبحانه خلق الجان (او الجن) قبل آدم بألفين من السنين (او على ما يقول بعض الكتاب أكثر من ذلك) ، ولذلك فهناك مؤمنون وكافرون ، وفيهم فرق وطوائف كالذي عند البشر(٢٥) . هناك من يقول ان نبي اسمه يوسف قد أرسل الى الجن ، وآخرون يقولون بل لديهم فقط وعاظ ومنذرون ، وقالوا ايضا ان سبعين نبيا قبل محمد قد أرسلوا الى الجن والانس على السواء(٢٦) . ان الاعتقاد العام بان الجن قبل آدم كانوا قد حكموا باربعين (وفي رواية اثنين وسبعين) ملكا ، وقد اعطى الكتاب العرب لكل ملك اسم سليمان (Solomon) ، وقد اشتقوا تسميتهم

والآخرون هم الأعظم قوة ، والجان جملا جانا ، كما مسخ بعض الناس قردة وخنازير(١٧) . وعلى اية حال يجب ان يلاحظ هنا بان لفظتي الجنس والجان تستعملان بصورة عامة بدون تمييز كاسمين لكل الأصناف (بضمنهم الأصناف الأخرى المذكورة سابقا) سواء اكانوا صالحين ام اشرارا . والكلمة السابقة هي الأكثر شيوعا ، وان كلمة الشيطان كذلك تستعمل غالبا لتدل على كل جني شرير . والمعريف هو جني شرير قوي . والمارد جني شرير من طبقة اعظم قوة . ويدعى الجنس ا وغالبا ما يراد الاشرار منهم) في الفارسية : ديف Deevs والجن الأعظم قوة في الشر ناراس Narahs ا حيث يعني « الذكور » ولو انهم يقولون يكونون ذكورا واناثا ، اما الجن الصالح فهو بيريز Perees وتستعمل هذه الكلمة على : لاكثر للاناث .

وفي حديث للنبي يقول فيه (بما معناه) : لقد خلق الجن من نار غير ذات دخان(١٨) وتستعمل كلمة الجان في بعض الأحيان اسما لابليس ، كما في الآية الآتية من القرآن : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم »(١٩) . (الجان : ابو الجن اي ابليس خلقناه من قبل : اي من قبل خلق آدم ، سموم : نار بلا دخان) . وتعنى كلمة الجان ايضا « الحية » كما في سوره اخرى من القرآن(٢٠) ، واستعملت كلمة الجان في القرآن كذلك مرادفة للجن(٢١) . وفي المعنى الأخير يعتقد غالبا بانها استعملت في الحديث استشهادا على اول هذه الآية . هناك عدة احاديث ظاهرة الاختلاف عن النبي حيث توفق بين ما قرر اعلاه ،

(١٧) مرآة الزمان (مخطوط في حياته) تاريخ كبر عاش مؤلفه في القرن الثالث عشر ، انظر ايضا القرآن سورة المائدة ٦٠/٥ قوله تعالى : « قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكانا واضل عن سواء السبيل » .

(١٨) مرآة الزمان ، وسورة الرحمن ١٤/٥ « وخلق الجن من مارج من نار » ، الكلمة التي تفيد (نارا بلا دخان) قد اسره فهمها من قبل ابليس على انها (شملة من نار) ، وقد وضعها الجوهري (في الصحاح) بشكلها الصحيح ، وقال : ان هذه النار كانت هي التي خلق منها ابليس .

(١٩) سورة الحجر ٢٧/١٥ ، وتفسير الجلالين .
(٢٠) سورة النمل ١٠/٢٧ . والق عصفاء فلما نهزت كانها جان ولي مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف انه لا يخاف لدي المرسلون » .

(٢١) سورة الرحمن ٢٩/٥ ، ٧٤ « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انسى ولا جان » ، « لم يطمئن انسى قبلهم ولا جان » ، وتفسير الجلالين .

(٢٢) حديث عكرمة عن ابن عباس في مرآة الزمان .

(٢٣) حديث مجاهد في المصدر نفسه .

* ان بعض ما بين قوسين ، من اصفحات لين بول - Lane Poole حفيد المؤلف ، وبمضها الآخر للمؤلف نفسه . وما سبق بكلمة (قلت) في الهامش فهو من ايصاحات وتعليقات المترجم .

(٢٤) لهما سموا (جنا) و (جانا) . قلت : يريد ان اشتقاق الاسم جاء من جن الشيء اذا ستره واخفاه فهو مستور عن الرؤية غير منظور .

(٢٥) حديث عن النبي في مرآة الزمان .

(٢٦) المصدر السابق .

عين الملائكة الآخرين بسبب سمو مقامهم ، وكان ابليس واحدا من هؤلاء الجن . ويضيف بأنه كانت له السلطة على جميع من في السماء ومن في الأرض ، وكان يعرف بطاووس الملائكة ، وذلك أنه لم يكن هناك موضع في السماء الا خاضعا له ، فلما تمرد الجن في الأرض ، ارسل الله نريفا من الملائكة فساقوهم الى الجزر والجبال ، واصبح ابليس يتيه عجا ورفض ان يسجد لآدم ، فمسخه الله الى شيطان . ولكن هذا التعليل يتعارض مع آيات اخرى ، حيث يمثل ابليس قائلا : « ولذالك يناقشني من نار وخلقته من طين » (٢١) ، ولذالك يناقشني : « اذا كان قد خلق من النار اصلا كيف يكون قد خلق من نور ، لان الملائكة كلهم قد خلقوا من نور » (٢٢) ، ربما فسر الحديث الآيه السابقة بأن ابليس كان قد اخذ اسيرا ، وقد سمت مكانته بين الملائكة ، او ربما كان هناك حذف بعد كلمة (ملائكة) لانه يجب ان يستنتج بأن الامر الذي القى الى الملائكة كان من البديهي ايضا ان يطاع من قبل الجن .

ووفقا لرواية ، ان ابليس وكل الشياطين هم مميزون عن بقية الجن بوجودهم الاطول ، ويضيف : « ان الشياطين هم اولاد ابليس ، ولا يموتون الا معه ، بينما (بقية) الجن يموتون قبله » (٢٣) ، ولذالك فانهم يعيشون عدة قرون ، ولكن هذا لا يتفق مع اعتقاد العامة : بأن ابليس وعديد من اشرار الجن يبقون طيلة بقاء الجنس البشري ، الا انهم يموتون قبل التشور العام ، وكذلك الملائكة فان آخر من يموت منهم ملك الموت عزرائيل . وبعد فليس كل اشرار الجن يعيشون طويلا ، فان عددا منهم يقتلون بالشهب التي ترجمهم بها السماء ، ولذالك فان العرب عندما يرون شهابا منقضا غالبا ما يهتفون : « اللهم ارجم اعداء الدين » ، وكذلك يقتل بعضهم من قبل الجن نفسه ، وحتى البشر يقتل قسما من الجن . ان النار التي خلق منها الجن تجري في شرايينه مكان الدم ، ولذلك عندما يصاب الجن بجرح مميت ، فان هذه النار تخرج من شرايينه وغالبا ما تهلكه وتحيله الى رماد .

والجن ، كما رأينا فيما سبق ، غير معصومين عن الخطأ ، يأكلون ويشربون ، ويكثرون

من هذا الأخير الذي كان يدعى جان ابن جان ، وهو كما يقول بعضهم ، الذي بنى اهرامات مصر . وقد جاءت الرواية الآتية عن الجن قبل زمن آدم عند القرويني : « يروى في التواريخ ان سلالة الجن في الزمان القديم ، قبل خلق آدم ، قد سكنت الأرض وملأتها برا وبحرا ، سهلا وجبلا . وكان فضل الله عليهم كثيرا ، وكانت لهم حكومة ونبوة ودين وشريعة ولكنهم خالفوا واذنبا وعصوا انبياءهم ، وعثوا في الأرض مفسدين ، فأرسل الله سبحانه عليهم جيشا من الملائكة فملكوا الأرض وطرودوا الجن الى اماكن من الجزر وسجنوا كثيرا منهم ، ومن هؤلاء الذين سجنوا كان (عزازيل) (سمي بعد ذلك ابليس من ابلسه اي يانه) ، وقد عمل الذبح فيهم . وكان عزازيل في ذلك الوقت صغيرا ، وشب وسط الملائكة (ومن المرجح لهذا السبب ان عد واحدا منهم) . واصبح متعلما بعلمهم ، وتقلد حكومتهم ، وقد امتدت ايامه حتى اصبح رئيسهم جميعا ، واستمر هذا الزمن طويلا ، حتى ظهرت القضية بينه وبين آدم ، كما قال الله سبحانه : « واذا قلنا للملائكة اسجدوا (٢٧) لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن » (٢٨) .

ويخبرنا مؤلف آخر بان « ابليس قد ارسل سلطانا على الأرض ، وحاكما على الجن الآلاف السنين ، بعد ان ارتقى الى السماء وبقي يتعبد حتى خلق الله آدم » (٢٩) ، وكان اسم ابليس في الاصل عزازيل (كما تقدم) او كما يقول آخرون (الحارث) ، وكنيته ابو مرة او ابو الفمر (٣٠) . انه من المختلف فيه كون ابليس من الملائكة او من الجن ، وهناك ثلاثة آراء حول هذه المسألة :

١ - انه كان من الملائكة ، من حديث عن ابن عباس . ٢ - انه كان من الشياطين (او اشرار الجن) كما ذكر في القرآن « الا ابليس كان من الجن » ، وهذا رأي الحسن البصري ، والمعتد به عموما . ٣ - انه لم يكن لا من الملائكة ولا من الجن ، بل خلق وحده من نار . لقد بنى ابن عباس رأيه على بعض الآيات التي ساقها الحسن البصري « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن » (المستشهد بها سابقا) ، حيث فسرها بقوله : ان انبل واشرف الملائكة يسمون (الجن) لانهم مجنونون (محجوبون) عن

(٢٧) السجود هنا ليس عبادة ، بل هو انحناء وخضوع لكائن متميز .

(٢٨) سورة الكهف . ه .

(٢٩) الطبري ، رواية عنه في مرآة الزمان .

(٣٠) مرآة الزمان .

(٣١) سورة الاحراف ١٢ ، وسورة ص آية ٧٦ .

(٣٢) مرآة الزمان .

(٣٣) الحسن البصري في مرآة الزمان . ان الزيادة التي اصبحت للنبي (بقية) تستنتج من وجهة نظره دون ان يذكرها .

نوعهم في بعض الاحياء بالاتصال بالجنس البشري ، وبالطريقة الاخيرة فان النسل يشترك بطبيعة كل من الوالدين ، وهم يختلفون عن الملائكة في كل هذه الصلوات ، ويتميز من بين اشراق الجن خمسة اولاد من ابناء رئيسهم ايليس ، هم : تير ، الذي يجلب المصائب والخسائر والاضرار ، والاعور ، الذي يحرض على الدعارة والفجور ، وسوط ، الذي يحث على الكذب ، وداسم ، الذي يسبب الكراهية بين الزوج والزوجة ، وزلبور ، الذي يشرف على اماكن الريبة والشبهة (٢٤) .

اما الاشكال الاكثر شيوعا ، والمسكن او الاماكن التي يلجأ اليها الجن ، فيجب ان نصفها الآن . الاحاديث الآتية عن النبي هي التي تفسي بالفرض اكثر من غيرها مما رايت : للجن اشكال وهيئات مختلفة ، فهم يتخذون شكل الافاعي ، والعقارب ، والاسود ، والذئاب ، والثعالب ، وغير ذلك (٢٥) . والجن ثلاثة انواع : نوع على الارض ، وآخر في البحر ، والثالث في الهواء (٢٦) . ويتألف الجن من اربعين فرقة . كل فرقة تتألف من ستمائة الف (٢٧) . والجن ثلاثة اصناف ايضا : صنف له اجنحة وطيور ، والآخر الافاعي والتلاب . والثالث ينتقل من مكان الى آخر كالناس (٢٨) . ويؤكد المصدر نفسه ان الحيات المنزلية هي من الجن (٢٩) . لقد امر النبي اصحابه ان يغتلوا الافاعي والعقارب اذا دخلت على المصلين ، ولكن في حالات اخرى يبدو انه طلب أولا ان تحذر الحيات بالابتعاد ، وبعدها اذا مكثت ان تقتل . وعلى اية حال فالعلماء يختلفون في الراي فيما اذا كان (كل) اصناف الحيات والافاعي يجب ان تحذر أولا ، او ان (بعضا) منها يكون كذلك ، لان الرسول قال : عليهم ان يأخذوا ميثاق الجن (من الرجوع بعد الامر المذكور سابقا) بان عليهم الا يدخلوا منازل المؤمنين ، لذلك يشترط عليهم اذا دخلوا فانهم يتفوضون ميثاقهم ويكون قتلهم مشروعا بدون تحذير سابق . ومع ذلك فيروي ان عائشة زوجة النبي قد قتلت افعى في غرفتها ، وقد رأت في الحلم شيئا يخيفها ، فخشيت ان تكون هذه الافعى جنية مسلمة لانها لم تدخل غرفتها عندما كانت خالمة نياها ، فنصدقت

عائشة بانني عشر الف درهم (حواشي ٢٠٠ باون) كفارة ، وهي دية دم مسلم (٣٠) .

يعال ان الجن يظهرون للناس على الاغلب على شكل حيات ، وكلاب ، وقطط ، واناس وفي الحالة الاخيرة ، حالة ظهورهم على شكل اناس فانهم احيانا يظهرون بهيئة رجال عادين و احيانا بحجم مارد جبار . فاذا كان الجن من الصالحين ، فانهم يبدون بعامة جميلين وضيئين ، واذا كانوا اشرارا يظهرون بشكل بشع مرعب مخيف . وانهم يتوون مرتبين او غير مرتبين حسب رغبتهم ، وبسرعة خاطفة يمتد ويتسع ، او يتخلخل الي ذرات حيث يتكون شيئا آخر ، او يختفي فجأة في الارض او في الهواء ، او حتى في الجدار الصفيق .

يعترف كثير من المسلمين في هذه الايام (٣١) انه راى الجن وكان على صلة بهم ، والشاهد في الحكاية لطريقة الآنية التي حكاها لي شخص فارسي عرفته في القاهرة . اسمه ابو القاسم من اهل جيلان ، ويعمل ملاحظا في مطبعة محمد علي ببولاق .

ان احد مواظبي هذا الرجل ، الذي اكد لي بانه رجل صادق دون شك . كان يجلس على سطح بيت كان قد استأجره ، اطل على جماعة وقد ازفت ساعة انتهاء النهار ، وهو على عادته يدخل غليونه الفارسي ويمتد عينيه بالنظر الى مجموعة فتيات هنديات يسبحن في النهر وحينما كان ينظر اليهن تعلق قلبه بواحدة جميلة جدا ، كان يتمنى بشدة ان يمتلكها وتكون زوجة له . وعندما حل الليل جاءت اليه تلك الفتاة وقالت له : انها قد عرفت عاطفته . وانها ترضى ان تكون زوجة له ، ولكن بشرط ان لا يرضى لامراه اخرى ان تاخذ مكانها او تشاركها ، وانها ستكون معه في الليل فقط . واخذ كل منهما عهد الزواج على الآخر ، ولم يشهد على ذلك الزواج الا الله ، وكانت سعادته عظيمة . حتى كان عصر احد الايام وراى مرة اخرى جماعة من الفتيات يسبحن في النهر ، فانارت احداهن فيه رغبة وهوى اشد قوة وما كان اشد دهشته حينما راى هذه الحسناء الساحرة تقف امامه عندما اقترب الليل ، وقد قاوم الاغراء ما استطاع متنبها الى عهد الزواج الذي قطعه لزوجته ، وقد حاولت بكل وسائل الاغراء والنوايا ان تغريه ، ولكنه اصبر

(٢٤) القزويني ، رواية عن مجاهد .

(٢٥) مجاهد عن ابن عباس في امرأة الزمان .

(٢٦) الحسن البصري ، المرجع السابق .

(٢٧) عكرمة عن ابن عباس ، المرجع السابق .

(٢٨) مشكاة المصابيح ٢/٢١٤ .

(٢٩) المصدر السابق ٢/٢١١ ، ٢١٢ .

(٤٠) امرأة الزمان .

* كتب المؤلف كتابه هذا في القرن التاسع عشر ١٨٨٢م

وهو تاريخ الطبعة الاولى .

ومعارق الطرق ، طعامه كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه ، شرابه لئ ما يسكر . اذانه الزمار ، فزانه الشعر . حروف حطه اشارات من ضرب الرمل (٤٤) . تلامه الزور والبهتان . احبولتسه النساء (٤٥) .

وفي اعتقاد العرب الاولين ان ذلك النوع المعين من الجن يشرف على اماكن بعينها ، وقد جاء في القرآن : « وانه كان رجال من الاس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » (٤٦) ، وفي تفسير الجلالين وجدت التعليل الآتي على هذه الاية : « كانوا اذا اتوا واديا للجن نادى منادي الانسى الى خيار الجن ان احبوا عنا سفاهكم ، فلم يغنهم ما وعظوا به فزادوهم رهقا » . ولايضاح هذا علي ان اذكر الحديث الآتي مقتبسا عن الفزوي : « انه مروى عن احد رواة الحديث انه ومن معه اضطروا الى المبيت انى جوار راعي غنم في واد ، فلما انتصف الليل جاء ذنب فاخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامسر النوادي انا جار دارك ، فنادى مناد لانراه : يا سرحان ارسله ، فاتي الحمل يشتد حتى دخل في الغنم » . ونفس هذا المعتقد موجود عند العرب المعاصرين . ومن المرجح انهم لا يستعملون مثل هذا النداء . وخرافة مشابهة تلك هي عادة مصرية قديمة سهلة التصديق ما تزال سائدة عند اهل القاهرة ، فهم يعتقدون بان كل ربع من هذه المدينة له حارس نابغ خاص من الجن له شكل الافعى Agathodaemon (٤٧) .

لقد ذكر من قبل ان بعض اجن مسلمون ، واخرين مشركون ، فالجن الصالحون يؤدون ما عليهم من فروض دينية ، وبخاصة اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والصيام خلال شهر رمضان ، والحج الى مكة وصعود جبل عرفات ، الا انهم في اداء هذه الواجبات لا يظهرون للبشر ، فهم غير مرئيين (٤٨) .

ذكرنا ان بعض الناس يستطيعون ان يحصلوا على بعض الخدمات من الجن ، وذلك بواسطة الطلاسم (التمام) وابتهالات معينة ،

(٤٤) كذا ترجمت كلمة (خط) لكن عند السيوطي : نزهة المتامل ومرشد التامل القسم السابع وجدت في موضعه كلمة (وشم) ، وهناك خلافا طفيفة اخرى وحلف من هذا الحديث المستشهد به .

(٤٥) الفزوي : عجائب المخلوقات .

(٤٦) سورة الجن ٦/٧٢ .

(٤٧) المصرون الحدوث الفصل العاشر .

(٤٨) المصرون الحدوث ، فصل ٢٤ .

على التمتع . ثم قالت له زائرتة الجميلة بانها كانت زوجته نفسها ، وانها جنية ، ولذلك فمن الان فصاعدا ستزوره في صورة اية انثى يرغب فيها او يشتبهها .

ان الزوبعة التي هي اعصار يرفع الرمل والتراب على شكل عمود في علو هائل ، غالبا ما تنكس الصحارى والحقول ، ويعتقد ان هذه الزوبعة تثار بسبب طيران جنى شرير ، ولكي يحمي العرب انفسهم من هذا الجنى الذي (يركب الريح) كثيرا ما يهتفون : (حديد ، حديد) او (حديد يا مشؤوم) لان الجن شديدو الخوف من هذا المعدن ، او انهم يكبرون : (الله اكبر) (٤٩) .

وخرافة مشابهة لهذه سائدة مع شعور بالهبة لاعصار البحار الذي يسبب عمودا من الماء متجها نحو السماء كما يرى في مفاخرات المسك شهر يار في مدخل « الف ليلة وليلة » .

ان الموطن الرئيس للجن ، كما يعتقد ، هو في جبال (القاف) ، حيث يفترض انهم يحيطون بكل ارضنا ، ويعتقد كذلك انهم ينفذون من خلال الاجسام الصلبة من ارضنا ومن الاجسام التي في السماء ، يختارونها مواطن اصلية يلجأون اليها ، او مواضع يفزعون اليها بين حين وآخر كالحمامات ، والابار ، والافران ، والبيوت الخربة ، والاسواق ، ومعارق الطرق والبحار ، والانهار . ولذلك فان العرب حينما يسكبون الماء على الارض ، او داخل الحمام او عندما يدلون الدلو داخل البئر ، وفي مختلف الحالات الاخرى ، يقولون : (دستور) ، او (دستور يا مباركين) (٥٠) . يقال ان الارواح الشريرة (او اشرار الجن) ، كانت لهم الحرية لدخول اي من السموات السبع حتى ميلاد المسيح ، حينما طرد ثلاثة منهم ، وعند ميلاد محمد منع اربعة آخرون (٥١) . وعلى اية حال فقد استمروا يصعدون الى حدود السماء الدنيا ليسترقوا السمع الى حديث الملائكة وما قدر الله من امور ليطلعوا على امور الغيب ، ويظلمون احيانا بعض الناس على ما يعرف بالطلاسم او طلبات معينة يجعلونها تفي بانجازات سحرية . ان ما قاله النبي عن ابليس في الحديث الآتي ينطبق ايضا على اشرار الجن الذين يراسهم : مسكن ابليس المفضل بين الناس في الحمام ، وامانته المفضلة التي يلجأ اليها هي الاسواق

(٤٩) المصرون الحدوث ، الفصل العاشر .

(٥٠) المرجع السابق .

(٥١) سال في تعليقه على السورة ١٥ من القرآن .

والأمر الذي يساعده به الجن أناس والسحرة منهم خاصة هو ان يطلعوهم على معرفة احدث المستقبل ، كما وضع سابقا .

لم يعط اي انسان قوة وسلطان على الجن اطلاقا مثلما اعطى سليمان بن داود ، وذلك بفعل طلسم مدهش جدا يقال انه نزل عليه من السماء ، لقد كان خانما نقش عليه (الاسم الاعظم) ، وكان يتكون من جزاين ، جزء من نحاس وجزء من حديد ، وكان يختم بالنحاس ما يكتب من اوامر الى الجن الصالح ، ويختم بالحديد ما يكتب من اوامر الى اشرار الجن والشياطين (للسبب الذي ذكر سابقا من ان الجن يخافون من الحديد) ، واوامره في الناجيتين لها سلطان غير محدود ، وكذلك كانت اوامره تسرى على الطير والريح(٤٩) ، ويقال كذلك ان سلطانه كان يشمل ضواري الوحش عامة . وكذلك كان وزيره عصف بن برخيا على علم بأسر (الاسم الاعظم) فعندما ينطق به تتحقق اعظم المعجزات ، وتشتمل هذه المعجزات حتى على احياء الموتى ، وبموجب قوة هذا الاسم الاعظم المنقوش على خاتمه ، فقد ازم سليمان الجن ان يعاونوا في بناء هيكل القدس . وفي اعمال مختلفة اخرى . وقد جعل كثيرا من اشرار الجن يهدون الى الايمان ، واودع كثيرا غيرهم ممن تنبثوا بكفرهم في السجون ، ويقال ان سليمان كان ذا سلطان على كل الارض ، لهذا ، ربما كان اسم سليمان قد اطلق على عموم ملوك الجسد في عهد ما قبل آدم ، عدا قصة سلطانه الشامل الذي نتنا من خصومته مع اولئك الملوك .

اما الاذى الذي يسببه اشرار الجن على الجنس البشري فهو على انواع مختلفة ، فكثيرا ما يختطف اشرار الجن النساء الجميلات ويحتفظون بهن بالقوة ويتخذوهن زوجات لهم او جوارى .

ويؤكد الكتاب المسلمون ان الجن المؤذنين او المزعجين غالبا ما يتعلقون على سطوح او على شبابيك البيوت ويرمون المارة من الناس بالحجارة ، وعندما يملكون بيتا مهجورا فهم نادرا ما يفشلون في اثاره الروع والفرع لاي شخص يذهب للاقامة فيه . وهم ميالون كذلك الى سلب المؤونة وغيرها ، ولكي يصون كثير من التلمين والورعين ممتلكاتهم من مثل هذه السرقات ، تراهم

يرددون البسطة (بسم الله الرحمن الرحيم) عندما يفتلون ابواب بيوتهم وغرفهم او حماماتهم ، او عندما يفتلون سلة الخبز ، او اي شيء يحتوي على الطعام(٥٠) ، وفي خلال شهر رمضان يعتقد ان اشرار الجن يحبسون في السجون ، ولذلك ففي الليلة الاخيرة من ذلك الشهر وينفس الفكرة ترى النساء احيانا يرددن البسطة ويذرون الملح على ارض غرف بيوتهن(٥١) .

ولاستكمال هذه الصورة عن اعتقادات العرب بعالم الجن والشياطين ، يجب ان تضاف رواية عن مخلوقات متعددة شاع الاعتقاد بانها مرؤوسة من قبل الجن ومؤتمرة بامرهم .

احد هذه المخلوقات هو (العول) ، حيث يعتبر في غالب الامر نوعا من الشياطين او انه جنى شرير لانه ياكل الناس ، وقد وصف ايضا على انه جنى او ساحر لانه يتخذ اشكالا مختلفة ، ويقال ان الغيلان تظهر بصورة انكثانت البشرية وبصورة مختلف الحيوانات وبعده اشكال اخرى غريبة الخلفة مفرعة ، تسكن القابر والمواضع المهجورة ، وتتغذى باجساد الموتى من البشر ، وتقتل وتلتهم اي انسان يوقعه سؤ حظه في طريقها ، لذلك فكلمة (غول) تطلق على كل اكل للحم البشر . هناك مؤلف مشهور يرى ان العول حيوان ركبته عفريت ، فتراه يسكن في الصحاري وحيدا متخذها هيئة الانسان او الحيوان الوحشي ، ويظهر للشخص المسافر وحيدا في الليل وفي الحلات المهجورة ، ويحسبه المسافر مسامرا مثله ، فيخدعه ويجعله يضل طريقه(٥٢) .

ويقرر المؤلف رايًا آخر هو : عندما تريد الشياطين ان تسترق السمع (من حدود السماء السفلى) ترجم بالشهب ، فبعضها يحترق ، وبعضها يسقط في البحر ، او الانهار ، فيتحولون انى تماسيح ، ومنهم من يسقط على الارض فيصبح غولا . وقد اضاف المؤلف نفسه الرواية الآتية : « العول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ويتلون في ضروب الصور والاشيا ذكرى كان او انثى ، الا ان اكثر كلامهم على انه انثى »(٥٣) ، ويؤكد ان عددا من صحابة النبي راوا الغيلان في اسفارهم ، وان عمر بن الخطاب من بين الصحابة راى غولا حينما سافر الى سوريا قبل الاسلام

- (٥٠) المصريون المحدثون ، فصل ١٠ .
- (٥١) الرجوع السابق .
- (٥٢) القزويني : عجائب المخلوقات .
- (٥٣) الجاحظ : الحيوان ١٥٨/٦ .

(٤٩) سورة النمل ١٧ (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون) وسورة ص ٣٦ (لسفرنا له الربيع تجري بامر رءاه حيث اصاب) .

وضربها بسيفه . يبدو ان كلمة (الفول) تطلق على انثى العفاريت فقط من الاجناس التي مر وصفها سابقا . اما الذكر فاسمه (قطرب) . يقال ان هذه المخلوقات وكذلك الفقدار او الفرار والمخلوقات الاخرى المشابهة التي ستذكر في الحال . هي من نسل ابليس ومن امرأة خلقها الله له من نار انسوم (حيث تدل هنا كما ذكرت سابقا على نار بلا دخان) وذلك الفول تخرجوا من بيضة(٥٤) . ويضاف ان انثى الفول تظهر للرجال في انبراري باشكال مختلفة ، تتحدث معهم وفي بعض الاحيان تعرض نفسها عليهم .

الصعلة : مخلوق شيطاني آخر ، وصفه اكثر المؤلفين على انه من الجن ، يقال انه اكثر ما يوجد في الغابات ، وعندما تأسر الصعلة انسانا تجعله يرقص ، وتلعب معه كما تلعب القطعة مع الفار . ان رجلا من اصفهان يؤكد ان كثيرا من هذه المخلوقات متوافرة في بلاده ، وفي بعض الاحيان يتمكن الذئب من اصطياد واحدة منها في الليل ، ويفترسها ، ولذلك فعندما ينشب الذئب فيها مخالبه تصرخ وتستغيث (اتندوني سيهلكني الذئب) او انها تستنجد وتنادي : (من سيطلقني ، الذي سيقتلني اعطيه المائة دينار التي معي) ولكن الناس يعرفون ان ذلك هو صراخ الصعلة ، ولا يتغذى احد ، فياكلها الذئب(٥٥) . ان جزيرة في بحر الصين تعرف من قبل الجغرافيين العرب بجزيرة الصعلة ، سميت كذلك لان هذه المخلوقات الشيطانية تسكنها ، ويصفونها على انها مخلوقات قبيحة بشعة ، المعتقد انها شياطين من نسل البشر والجن ، وتاكل الناس(٥٦) .

الفقدار او الفرار(٥٧) : مخلوق آخر من طبيعة مشابهة ، وصف على انه كائن يوجد على حدود اليمن ، وحيانا في تهامة ، وفي القسم العلوي من مصر . يقال انه يغوي الانسان ، ثم يعذبه بطريقة لا توصف ، او يروعه فقط ثم يتركه(٥٨) .

الدلحان : مخلوق شيطاني ايضا ، يسكن في جزر البحار ، له شكل الانسان ، يركب النعام ويأكل لحم البشر الذين يقذفهم البحر على

(٥٤) رواية من وهب بن منبه ، منقولة عن عرب الجاهلية في مرآة الزمان .

(٥٥) حديث لوهب بن منبه ، منقول عن رواية حول العرب الجاهليين في مرآة الزمان .

(٥٦) ابن الوردي القرن الرابع عشر ، مخطوط .

(٥٧) كتب اسمه مختلفا في مخطوطتين في حياتي .

(٥٨) القزويني ، ومرآة الزمان .

الشاطيء من حطام السفن . يقول البعض : ان اندلحان هاجم مرة سفينة في البحر ورجب ان يأخذ الملاحين ، ولكنهم قاوموه ، وعندئذ اطلق صرخة جعلتهم يسقطون على وجوههم ثم اخذهم(٥٩) .

الشنق : مخلوقات شيطانية اخرى ، لها شكل نصف بشري (مثل انسان مسموم بالطول) ، ويعتقد بان النسناس من تناسل الشنق والبشر . والشنق المذكور يطهر للمسافرين . وقد قتل بعض الناس شيطانا من هذا النوع ، قتله علفمة بن صفوان بن امية ، والمعروف ان احد الجن قد قتل صفوان هذا ، هكذا يقول القزويني .

النسناس (المذكور اعلاه) : يوصف بأنه يشبه في نصفه انسانا ، له نصف رأس ، ونصف جسم ، ويد واحدة ، ورجل واحدة . بل يحجل بخفة سريعة جدا ، ويوجد هذا المخلوق في غابات اليمن . وينسب المؤلف حديثه بقوله : « ولكن الله اعلم بكل ذلك » . ويقال ان النسناس يوجد في حضرموت اضافة الى اليمن ، وقد جيء بواحد من هذه النسناسيس حيا الى المتوكل . انه يشبه الانسان في شكله الا انه بنصف وجه ، وكان وجهه في صدره ، وله ذيل مثل ذيل الخروف ويقول : ان اهل حضرموت يأكلونه ، وان لحمه حلو ، وانه يتكاثر في منطقتهم فقط . ان رجلا يؤكد بأنه ذهب هناك ورأى نسناسا محبوبا وهو يصرخ طالبا الرحمة ، ويناشده بحق الله وبحقه(٦٠) . ان جنسا من البشر الذين رؤوسهم في صدورهم ، يوصفون بأنهم يسكنون في جزيرة تعرف بـ « جابه » (يظن انها جاوة) في بحر الهند(٦١) . وكذلك يصفون نوعا آخر من النسناس يسكن جزيرة (رائنج) في بحر الصين له اجنحة كاجنحة الخفاش(٦٢) .

الهاتف : مخلوق يسمع ولكنه لا يرى ، وغالبا ما يذكره الكتاب العرب ، وهو بصورة عامة المرشد لبعض التائهين الى طريق الخير او الى الاتجاه الصحيح في السفر او يندبرهم بالخطر .

(٥٩) القزويني ، في مخطوطتي لابن الوردي وجدت الاسم مكتوبا (دحلان) يذكر جزيرة تسمى بهذا الاسم في بحر عمان ، ويصف ساكنيها بأنهم شياطين يأكلون لحم البشر ، شكلهم كالانسان ويركبون لاهورا تشبه النعام ، وهناك فصيلة كذلك تاتر بامر الجن تعرف بالقواصة يفوضون في البحار .

(٦٠) مرآة الزمان .

(٦١) ابن الوردي : خريدة العجائب ، مخطوط .

(٦٢) المصدر السابق .

وهنا في نهاية هذا الفصل ، يجب على ان ابيه الفارءى الى ان التصورات الخرافية التي وصفت هي عامه سائده عند جميع فئات العرب والمسلمين عامة . سواء اكانوا من المتعلمين ام من انعام .

النساء

الشائع ان العاطفة الجنسية الشهوانية هي السائدة لدى العرب ، ولكنني اعتقد ان من انظم ان نفترض انهم جميعا يخلون من الشعور البريء الصافي الذي يستحق ان يطلق عليه الحب الصادق حسبما صحت التجربة الكافية . ذلك انهم ليسوا كذلك كما يظهر جليا لكل شخص يخالطهم في المجتمع العادي ، يجب ان تتاح الفرص لمثل هذا الشخص ليطلع على من له صلة ونيقة بزوجات عدد من العرب اللواتي لهن جاذبية وجمال شخصي كان قد زال منذ وقت بعيد ، واللواتي لا يملكن ثروة وليس لهن نفوذ ، وليس لهن اقرباء ذوو مال وسلطان ، ليستميلوا ازواجهن فيحجموا عن طلائهن . وكثيرا ما يحدث ايضا ، ان العرب يخلصون بملاقاتهم للزوجة التي يمتلكونها ، حتى عندما تكون في سن كبيرة وجمال ضئيل ، وذلك بغسل العشرة الدائمة سواء لزوجة او اثنتين اكثر هذا الراي اني آسف ان الاحظه على خلاف ما يتعلق بعرب المدن الى حد ما ، وقد سلم بذلك واحد من المع الرحالة المحدثين واكثرهم خبرة ، حيث اقام بين هؤلاء الناس وهو الرحالة المشهور برکهاردت Burekhardt (١٢) وقد عزز هذا برأي عدد من المؤلفين العرب الفضلاء (ولذلك فانه لا يعتبر كانه عنصر لا يصدق) كما انه يدخل ضمن ملاحظتي الخاصة .

ان قصة ليلى والمجنون ، جوليت وروميو العرب ، مشهورة جدا بحيث لا تحتاج الى اعادتها هنا ، الا ان عدة قصص اخرى للحب القوي الراسخ ينبغي ان تدون فيما يأتي :

ان الخليفة يزيد بن عبدالمك كانت له جاريتان ، واحدة تسمى حيابة ، والاخرى سلامة ، وكان متعلقا بالاولى كثير الميل والغيرة عليها ، كان قد اشترها بمائة ألف درهم ، واشترى الثانية بعشرة آلاف درهم . وكان يحتجب عن الناس احيانا ثلاثة اشهر منصرفا الى صحبتها مهملتا تماما امور الرعية . وكان اخوه مسلمة يؤنبه على سلوكه هذا ، وكان يزيد يعد ان

(١٢) دوح الشرق ١/٤١٧ ، ٤١٨ .

يثوب الى رشده ويعود الى عمله ، لكن هاتين المحظيتين كانتا تصرفانه عن غرضه ، وفي صباح اليوم الثاني حين هم ان يخرج الى عمله سمع الغناء فاستثير فانصرف الى غناهما وعناقهما والشرب معها ، وصار منتشيا فرقص وغنى كالمجنون . حتى حدث الحادث المشؤوم الذي وضع حدا لسروره : لقد اكلت حيابة رمانة ، فنزقت بحبة من الرمان فماتت فجأة .

كان حزن يزيد شديدا جدا ، فلم يفارق جثتها بل استمر يقبلها ويعانقها حتى تغيرت وانثنت ، وقد نبهه خدمه بان افضل احترام لها ان يامر بدفنها ، فرضى بعد ذلك ان يودعها الأرض ، وبعد خمسة ايام اشتاقت نفسه ان يرى حبيبته فامر ان يفتح قبرها ، ومع ان جثتها قد اصبحت بشعة ، فانه كان يراها كأحب ما رأت عينه ، الا ان مسلمة امر بحزم ان يلقى القبر ثانية ، ولكن يزيد لم يكن قادرا ان يظل محروما من النظر الى جثة جاريته التي هي في الوقت نفسه سيدته ، لقد سقط في الفراش لا يتكلم وبعد مضي سبع عشرة ليلة لفظ انفاسه الاخيرة ، ودفن بجانب حبيبته حيابة . يقول الراوي : « اللهم ارحمهما جميعا » (١٤) .

وفي الكتاب نفسه المقتبس منه الخبر السابق ، رواية مفادها ان هارون الرشيد زار سليمان بن ابي جعفر احد قواده ، فرائى معه جارية اسمها ضعيفة ، بارعة الجمال ، وقد بدا انه مبتلى بسحرها ، سألها ان يهبها له ، فاجابه لذلك ، ولكن سليمان لحزنه الشديد على فقد جاريته احس بالمرض ، وكان خلال مرضه يسمع وهو ينشد :

استجير بالله من المصيبة التي اصابنتي
بسبب الخليفة
الرحمة تشمل الناس والظلم من نصيب
ضعيفة (١٥)

ان جها راسخ في قلبي كالخبر على وجه
الصحيفة

وسأل الرشيد عن سبب مرضه فعرف انه فراق جاريته التي بها راحة باله . وتساقت القصة دليلا على الحب الصادق العنيف . وربما يظن ان ما

(١٤) كتاب العنوان في مكاتد النسوان (مخطوط) .

(١٥) لقد تغيرت هذه الكلمة قليلا الى (صحيفة) بكسر الفاء ، تحمل معنى آخر تعني احد صمغاته ، حرف الطلة الاخير يكون ملفيا بسبب الوفاء .

مر لا يعني بالفرض ، فالقصة التالية من الكتاب
عنه اومى بالفرض .

ذكر ان معاوية بن ابي سفيان كان جالسا
ذات يوم بدمشق ، وكان المجلس مفتوح الجوانب
لدخول النسيم ، فبينما هو في مجلسه اذ نظر الى
رجل يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلا
حافيا ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، فتامله
معاوية وامر باحضاره وقال لئن كان هذا الاعرابي
فقيرا لاغنيته ، وان كان مظلوما لانصفنه ، فلما مثل
بين يديه انشده قصيدة يتظلم فيها من جور
مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة (وقد
صار خليفة فيما بعد الخليفة الرابع من الامويين) ،
قال معاوية يا فصتك يا اعرابي ، قال : كانت لي
بنت عم خطبتها الى ابيها فزوجني منها ، وكنت
كلفا بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها فبقيت
معها في اصلح حال وانعم بال مسرورا زمانا فقرر
العين ، وكانت لي صرمة من ابل وشو بهات فكنت
اعولها بها ، الا ان سنة من الجذب والمرض
جردتني مما املك فبقيت سيء الحال فلما بلغ
ذلك اباهما حال بيني وبينها فانكرني ودفعا عني ،
فانيت عاملك مروان بن الحكم مشتكيا : فاحضر
عمي وابنته فلما وقفت بين يديه ونظر اليها والى
حسنها وقعت منه موقع الاعجاب والاستحسان ،
فصار لي يا امير المؤمنين خصما وانتهرني ، وامر
بي الى السجن فبقيت كاني خرت من السماء في
مكان سحيق ، ثم قال لابيهما هل لك ان تزوجها
مني وانقدك الف دينار وازيدك عشرة آلاف درهم
وانا اضمن طلاقها ، فرضى عمي ، ثم احضرتني
مروان فقال لي : يا اعرابي طلق سمدي ، قلت :
لا افعل ، فامر بضربي وكرر ذلك اياما فضربوني
ضربا لا يقدر احد على وصفه وعرضني على
السيف فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طلقة
واحدة ، وكان من العبث ان تحاول المرأة المقاومة ،
وهكذا اصبحت زوجة لمروان .

ان البدوي المظلوم حين روى ما مر عليه من
احداث سقط مفشيا عليه واستلقى على الارض
كانه حية ميتة ، فلما استعاد البدوي وعيه كتب
معاوية رسالة مع قصيدة شعر الى مروان يوبخه
على ما انتهك من حرمة الرجل وتجاوز في امور
الدين ، ويأمره ان يطلق المرأة ويرسلها مع رسوله ،
وان لم يفعل فسيكون جزاؤه الموت . ففعل مروان
وارسل الجارية مع قصيدة على روى قصيدة
معاوية مؤكدا ان نظرة الى سمدي ستقمنه بان
جمالها لا يبكن ان يقاوم . فلما رآها معاوية
اشتهاها وطمع فيها ، وقال له معاوية : هل لك

عنها من سلو ، واعوضك عنها ثلاث جوار ابتكار مع
كل جاريه منهن الف درهم على كل واحدة منهن
عشر حلق من الخز والديباج والحرير والكتان
واجرى عليك وعليهن ما يجري على المسلمين .
واجعل لك ولهن حضا من اصلات والنفقات ، فلما
اتم معاوية نلامه غشى على الاعرابي وشهق شهقة
ظن معاوية انه قد مات منها ، فلما افاق الاعرابي
قال : يا امير المؤمنين لو اعطيتني كل ما احتوته
الخلافة ما رضيت به دون سمدي ، فقال له
معاوية : يا اعرابي ، انك مقرر عندنا انك قد
طلقتها ، وقد بانك منك ومن مروان ، ولكن
نخيرها بيننا ، فوافق الاعرابي . وسأل معاوية
النجارية : يا سمدي اين احب اليك ، امير المؤمنين
في عزه وشرفه وقصوره ، او مروان في غضبه
واعتدائه ، او هذا الاعرابي في جوعه واطماره ،
فاشارت سمدي الى ابن عمها وابت ان تخذله
واختارت ان تصبر معه على السراء والضراء .
فعجب معاوية من عقلها ومرورتها فوهبها عشرة
الاف درهم ولحقت بابن عمها .

والامثلة كثيرة للحب الصادق العنيف ولغير
المقول ايضا دونها الكتاب العرب ، فيقال ان رجلا
وقع في حب سيدة من تأثير رؤية يدها على
الحائط ، ولما لم يستطع ان يظفر بها مات . ويقول
كثير من الرجال انهم عانوا آلاما قاسية من عذاري
راوهم في الاحلام ، ويذكر آخرون انهم تأثروا
بالحب عن طريق السماع فقط ، ان مؤلفا يروي
انه كان يعرف معلما نابها قد شغف حبا بامرأة
اسمها ام عمرو لم يرها ولكنه سمع رجلا ينشد
شعرا فيها ، وقد حزن حزنا شديدا حين علم
بموتها فلزم بيته يومين وذلك عندما سمع ذلك
الرجل ينشد :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو

فما رجعت ولا رجع الحمار(٦٦)

وعلى القاريء ان يكون فكرة عن الصفات او
الحاسن التي يعتمد بها العرب عموما في جمال
المرأة ، ينبغي الا يتخيل ان السمعة المفرطة احدى
هذه الصفات ، لانه يقال ان هذا هو الاعتبار
الرئيس للجمال في المناطق الواسعة من شمالي
افريقية ، بل على العكس ، فان الفتاة التي يلهم
حسنها التعبير الأكثر انفعالا في الشعر والنثر ،
هو المشهور بالرشاقة ، انها تشبه عصا الخيزران ،
ولطيفة كانها غصن صفاف شرقي . وجهها
كالقمر المستدير ، وتجلج التضاد بينه وبين لون

(٦٦) كتاب العنوان في مكائد النسوان .

وسط الخدين ، والثلاث ، وأربعة مدورة :
 انراس ، والرقيّة ، والساعدان ، ورسفا القدمين ،
 واربعه طويله . الظهر ، والإصابع ، والذراعان ،
 والساقان(٦٨) . وأربعة واسمه : الجبهه ،
 والعينان ، والصدر ، والرذفان . وأربعة رقيقة:
 والحاجبان ، والأف ، والشفتان ، والإصابع ،
 وأربعة ضحمة : الجزء الأسفل من الظهر ،
 والرذفان . والعقدان . والركتان . وأربعة
 صفيره الأذنان ، والنهدان واليبدان ،
 والقدمان «(٦٩)» .

إن السيدات أنعريبات مفرمات جدا بالشعر
 الوامر الطويل ، ومع ذلك يتوسمن مع هذه
 الحليه الطبيعیه بأشافة شعر آخر يتزين به ، إلا
 أن النبي تره لئ ما هو زائف تستميل به المرأة
 زوجها ومن لم نخدعه وتخيّب أمه « لعن الله
 انواصله والمستوصله » تلك اتني يصل شعرها
 بدون إذن زوجها ، اما اذا عملته بموافقته فليس
 محرما ، إلا اذا كان من شعر بشري فهذا محرم
 بصورة قطعيه(٧٠) . ولذلك فإن النساء العريبات
 يفضلن خيوطا من حرير تضاف الى شعورهن(٧١) .
 يقص الشعر فوق الجبهه وهو قصير نوعما ،
 وتسدل على جاببي الوجهه خصلتان وأفرتان ،
 وتكون هاتان الخصلتان مجمدتين في الغالب على
 شكل حنطات واحيانا على شكل ضفائر ، اما بقية
 الشعر فيصفف ضفائر او جدائل تتدلى أسفل
 الظهر وهي على العموم من إحدى عشرة الى خمس
 وعشرين صفيره ، ولكن غالبا ما تكون في عدد غير

(٦٨) في تحليل آخر من النوع نفسه ، يقال ان اربعة يتنفي
 ان تكون قصيرة : اليبدان ، والقدمان ، واللسان ،
 والأسنان . ولكن هذا كلام مجازي ، والمعنى ان هذه
 الأعضاء يجب ان تحفظ داخل حدودها الثلاثة (كتاب
 العنوان) .

(٦٩) مؤلف لم يذكر اسمه اقتبس منه الاسحاقى في روايته
 عن التوكل الطليقة العباسي .
 (٧٠) كتاب العنوان .

(٧١) ان ارسال خيوط الشعر الحريرية مع رسالة ، تصير
 السيدة عن شدة خصوعها والذمائها . والمعنى نفسه نقل
 بأسلوب أكثر عنفا بإرسال الشعر نفسه ، فهن حاصر
 الفرنجة القاهرة سنة ٦٤٤هـ ارسال العاصد أخسر
 الظفاه اللطامين رسالت الى نور الدين محمود سلطان
 الشام يتنسى الآلاة ومع الرسائل شعر زوجته ليربهم
 الذعنه والذمان خاصته (ابن الشحنة) . (القرظي
 أيضا مع اختلاف طفيف كان هذا الحصار للمدينة
 القديمة التي تدعى الآن خطا مصر العتيقة كانت قد
 احترقت بأمر من الوزير شاور ، دام الحريق اربعة
 وخمسين يوما . الخطط ، رواية عن خراب الفسطاط
 وحكم العاصد (ستانلي بول .

شعرها الفاخم بلون الليل وهو مرسل يمتد وسط
 ظهرها ، وحمرة الخجل الوردية المنتشرة وسط
 انخدنين ، اما الخال (الشامة) فيعتبر زياده في
 الحسن ، والعرب بصورة خاصة مغالون في
 اعجابهم بهذه البقعة الطبيعية من الجمال ، فهي
 تشبه بالنسبة لكانها نقطة غير على صحن مرمر
 او على سطح ياقوت . ان الاناكرون Anacreon
 الفارسي اثر في تحبيب الخال على خد الجيبية في
 مدينتي سمرقند وبخارى .

ان جمال العيون العربية في سوادها
 الشديد(٦٧) ، واسعة وطويلة ، على شكل لوزة ،
 مملوءة بالبريق ، يليها جفن منخفض بخفة ،
 وبرموش حريرية طويلة ، تعطي رقة وحنانا
 وتعبيرا بالضعف ، وهي مفعمة بالسحر ، ونادرا ما
 تكون محسنة بالخط الأسود الذي يرسم الكحل
 حدوده ، لاجل هذا فان الفتاة الجميلة تضيف الى
 ما يدعوه العرب بالكحل الطبيعي كحلا أكثر من
 الضروري مجازاة لاسلوب الجمال . ان حواجب
 العين رقيقة ومقوسة ، والجبين عريض وصاف
 كالعاج ، والأنف مستقيم ، والفم صغير ، والشفاه
 حمراء متلاثة ، والأسنان « كالجمان موضوع في
 مرجان » . شكل الصدر مثل رمانتين ، الخصر
 اهيف ، الأرداف عريضة وواسعة ، القدمان
 واليبدان صغيرتان ، الإصابع ومستدق الأطراف
 وأناملها مخضوبة بلون برتقالي احمر مستخلص
 من اوراق الحناء . ان الفتاة التي امتزجت فيها
 هذه المحاسن تعرض صورة زاهية من « شفق
 الاصابع الوردية » ، وان حبيبها لايفوق النوم اذا
 حضر طبقتها ، ويكون مرآها بديلا عن الثريا في
 الليل الطويل .

ان سن الفتنة ما بين الرابعة عشر والسابعة
 عشر ، ومن ثم فان اشكال الانونة تظهر في جمالها
 الأزوع ، ولكن كثيرا من الفتيات يحزن محاسن
 كافية لخلب اناب الرجال في سن الثانية عشرة .
 ربما يرغب القارىء تحليلا أكثر دقة للجمال
 العربي ، والذي استطيع تقديمه هو الأكثر كمالا
 لديهم فيقولون : « اربعة اشياء في المرأة يجب ان
 تكون سوداء هي ، شعر الرأس ، والحاجبان ،
 ورموش العينين ، وسوداء العينين . وأربعة
 بيضاء : لون البشرة ، وبياض العينين ، والأسنان ،
 والساقان . وأربعة حمراء : اللسان ، والشفتان ،

(٦٧) العرب عموما يصفرون التحامل على العيون الزرقاء ،
 يقال ان هذا التحامل ناشىء عن الاعداد الكبيرة من ذوي
 العيون الزرقاء من اعدائهم الشماليين (الروم) .

ان مشية السيدات العربيات جذيره بالملاحظه جدا ، انهن يجعلن الجزء الاسفل من الجسم يعيل من جهة الى اخرى حسب الخطوه . وتتحرك اليدين في مستوى الحوض حيث يمكن اطراف الرداء الخارجي (العباءة) ، خطواهن بطيئة ، لا ينظرن حولهن ، ينظرن امامهن ويعيوبهن متجهمة نحو الارض .

ان مكر النساء يمثل الخضوع للجنس الافوى عند العرب مع تلفل الفئيلة السامية ، التي غالبا ما تتردد في المحادثات العامة ، ذلك ان نساء نافصات في الحكم والراي الحسن ، وقد قبل هذا الراي تحفيغه لا جدال فيها حتى من قبل النساء انفسهن ، ولما علوا بن النبي في خبر يؤلدونه ، ان النساء يمكن فدره عانيه من المكر المؤكد مع الميل الى التشهير ونشر اعضاض . ان خطاياهن العامه واضحه في لونها الشرخطرا من فوق الرجال . يقول النبي . « طلعت في الجنه فرأيت اشر اهلهما الفراءه ، واطلعت في النار فرأيت اشر اهلهما النساء » (٧٢) ، ويعول الخليفة عمر عن نساء ورايين : « ساوروهن وخالغوهن » ولا يكون هذا لاجل المخالفة ولا عندما تكون لهن نصيحه اخرى ولكن لانهن يعلن بمواظهن . ويقول امام عام : « من المرغوب نلرجل قبل ان يشرع في امر مهم ، ان يساور عشرة من الاشخاص انتباهين من خاصة اصدقائه ، واذا لم يكن له اكثر من خمسة اصدقاء ، فعليه ان يستشير كلا منهم مرتين ، واذا لم يكن له اكثر من صديق ، فعليه ان يستشيره عشر مرات في عشر زيارات مختلفات ، واذا لم يكن لديه احد ليشاوره ، فعليه ان يرجع الى زوجته ويشاورها . وان يفعل نقض ما تشير به عليه . وبذلك يهندي الى الصواب ويحقق مقصده » (٧٣) . ان الزوجة البرة الصالحة مستثناة طبعا من هذه النافعة على انها امرأة يبجلها المسلمون ، ولكن هذه المرأة الصالحة (كما يقولون على الاقل) نادرا ما توجد . يقال : ان المرأة عندما خلقت فرح بها الشيطان وقال : « انت نصف اعواني ومستودع سري ، وسهمي الذي به ارمي ولا أخطيء » (٧٤) .

ماذا نسمي المروءة التي كانت شائعة جدا لدى عرب الجاهلية ، وقلما تغل عند ذريتهم المسلمين . على اية حال ان النساء مهجورات من

منسوا ، تعتبر الاحدى عشرة قليلة ، الثلاث عشرة والخمس عشرة اكثر شيوعا ، وتكون ثلاث مرات عدد الشرائط الحريرية السوداء (شريط لكل ثلاث ضفائر ، وكل ثلاث تتحد في الأعلى) ، الطول من ستة عشر الى ثمانية عشر انجا ، تضفر مع الشعر لحوالي ربع الطول ، او انها تربط بالشريط او تشد بشريط حريري اسود وتعصب حول الراس . ينظم هذا سوية مع زينة معينة من الذهب وغيره ليؤلف ما يسمى ب (الصفا) . ان الشكل الشائع هو المستطيل ، ملتف الطرف الاسفل النجبه الى الأعلى ، او المعكوس ، توصل (كل واحدة بحلقة صغيرة من طرفها الأعلى) بحوالي انج . او اقل قليلا . على حدة ، وفي نهاية كل شريط فناة ذهبية صغيرة ، او خرزة ذهبية صغيرة متمددة الزوايا والاضلاع ، ومن المانوف جدا ان يعلق من الاسفل بحلقة صغيرة . عمله ذهبية (ليرة) قطرها اكثر قليلا من نصف انج ، هذا هو الوصف العام للصفا ، الا ان بعض السيدات يستبدلن بالليرة زينة زخرافية اخرى من الذهب ، اما وحدها او مع ثؤلؤ في وسطها ، او يعلقن في هذا الموضع شرابة صغيرة من الثؤلؤ ، او يلحق معه ثؤلؤ متناوب او زمرد في وسط شرائط ثلاثية ، وثؤلؤة مع كل حلبة صغيرة من الذهب المذكورة اولا . وتعلق احيانا خرز المرجان كذلك على الطريقة نفسها في نظم الآلئ . اظن ان الصفا الاجمل هو الاكثر تفردا من كل الزينات التي تلبسها النساء العربيات .

ان تاللق الحلبي الذهبية الصغيرة ، وخشختها سوية عندما تمشي المرأة له تأثير حيوي خاص . اما التيجان فهناك نوع دائري الشكل مزين بالجواهر (حافنه السفلى راسية ، والعليا مزخرفة ولها رؤوس اربعة او اكثر) على شكل قبة ، مزين اعلاه بالجواهر او بعض الحلبي الاخرى ، هذا التاج كانت تلبسه النساء العربيات من الطبقات العليا او ذوات الثراء العريض ، وكان هذا منذ قرنين مضيا ، اما النوع الاخر من التيجان فهو الذي يلبس الآن ويعرف بالقرص ، وهو حلبة دائرية محدبة ، قطر القرص حوالي خمسة انجات مصنوع من الذهب ويرصف مع ماس كثير ، اول ما يصنع يكون على شكل اوراد واوراق وغيرها ، ثم يخيط فوق قمة الطربوش ، تلبسه اكثر سيدات القاهرة عند ارتداء الحلة الكاملة (٧٢) .

(٧٢) ان نقش التاج في هذا الوصف ، واخر من نوع اكثر شيوعا يمكن ان يشاهد في كتابي عن (المصريين المحدثين) الملحق ا .

- (٧٢) كتاب العنوان ، ومشكاة الصايح ٦٦٢/٢ .
(٧٤) الامام الجرائي في كتابه (شرعة الاسلام) .
(٧٥) نزهة التامل ، القسم الثاني .

أخرى إلا بعد أن تتزوج من شخص آخر وتطلق ثم تعود إلى زوجها الأول بعقد جديد .

ليس من الشائع في الطبقات الوسطى أن يتزوج الرجل من زوجة واحدة في الوقت نفسه ، ولكن هناك قلة من الناس في العصر الوسيط لم يكن لهم زوجات متعدداً ولكن يستغيثون عن ذلك بتغيير الزوجة الواحدة استسهالاً للطلاق (٧٨) .

هناك حالات كثيرة للزواج المتعدد الكثير ، فيقال إن المغيرة بن شعبة قد تزوج ثمانين امرأة خلال حياته (٧٩) . وهناك حالات أخرى دونها المؤلفون العرب تدل على تغير الحب ، أما الحالة الشاذة التي صادفتها ، فهي قصة محمد بن الطبيب صباغ بغداد المتوفى سنة ٤٢٣ من الهجرة عن خمس وثمانين سنة من العمر ، ويعزو إليه مؤلف جليل بأنه تزوج أكثر من تسعمائة امرأة (٨٠) ، ولنفرض لأجل ذلك أنه تزوج زوجته الأولى عندما كان عمره خمسة عشر عاماً ، فيسكون قد تزوج بمعدل ثلاث عشرة امرأة في كل عام . والنساء بطبيعة الحال لا يستطعن الزواج بعدة أزواج متعاقبين ، ليس فقط لأن المرأة لا بحق لها أن تتزوج أكثر من زوج في آن واحد ، بل لأنها كذلك لا تستطيع أن تطلق زوجها ، وعلى أية حال فهناك عدة حالات لنساء عربيات تزوجن عدداً مذهشاً من الرجال بتوال سريع . وتذكر من بين هؤلاء أم خارجة التي أصبحت مضرب المثل في سرعة الزواج . كانت هذه المرأة من قبيلة بجيلة من اليمن ، وتزوجت أكثر من أربعين رجلاً ، وأن ابنها خارجة لا يعرف من هو أبوه ، وقد اعتادت أن تعقد الزواج بأسرع طريقة ممكنة ، وذلك بأن تقول لها الرجل : « خطب » (أي اخطبك للزواج) ، فتجيب : « نكح » (أي موافقة) ، وهكذا تصبح زوجة له شرعاً . إن لا خارجة أعداداً كبيرة من الدرية ، لقد نشأت عدة عشائر من ذريتها (٨١) .

ولأجل اختيار الزوجة ، فإن الرجل في الغالب يعتمد على أمه أو بعض النساء الأخريات

(٧٨) ومع ذلك وعلى سبيل الاستثناء من جانب المرأة ، فإن شيبغي (محمد عباد الطنطاوي) يكتب : « يعتبر كثير من الأشخاص أن الزواج للمرة الثانية من الأعمال الشائنة جداً ، وهذا الرأي أكثر شيوعاً في المدن والقرى ، وإن القرية والدتي هم بهذه الصفات ، ذلك أن المرأة منهم إذا توفى زوجها وهي شابة ، أو طلقها وهي صغيرة ، فهي تقضي طول حياتها أرملة ولا تتزوج مرة ثانية » .

(٧٩) نزهة التامل ، القسم الأول .

(٨٠) امرأة الزمان حوادث السنة المذكورة اطلاقه .

(٨١) أمثال العرب ومعجمي مادة (خطب) .

قبل كثير من القبائل البدوية التي استقرت منذ عهد قصير . أذكر أنني استيقظت مذعوراً على صراخ امرأة شابة من الجيران وكنت استمتنع بجوار قبر قديم حيث أقيم في طيبة Thebes وقد كان أحد الرجال البدو ينهال عليها ضرباً شديداً لأمر شائن كانت قد اقترفته .

إن الزواج أمر محترم عند المسلمين عامة كعمل إيجابى ، والذي يفرط فيه بلا عذر مشروع يلام عليه بشدة ، يقول النبي : « إذا تزوج الصبد فقد استكمل نصف الدين » (٧٦) وفي حديث آخر ما معناه : أنه سأل رجلاً : هل أنت متزوج ، فأجاب بالنفي ، وسأل عن عافيته فكانت جيدة فقال ما معناه : أنت أحد أنصار الشيطان ، لأن أكثر الشر الذي عليك من هجر الزواج ، وأكثر ما تلقاه من أثم بعد الموت من هجر الزواج ، وفضلاً عن ذلك فالتزوجون يسلمون من قيل السوء ، وليس للشيطان من سلاح أكثر مضاء بالنسبة لعفة الرجال والنساء من هجر الزواج (٧٧) .

إن عدد النساء اللواتي يستطيع المسلم أن يتزوجهن ويجمع بينهما أربع نسوة ، له أن يتزوج المرأة الحرة ، أو يتخذ الجوارى ، أو يتخذ هؤلاء وأولئك . إن رأى أكثر الناس ، كما اعتقد ، بالنسبة للتدين الصحيح أن المرء ينبغي ألا يتزوج أكثر من أربع نساء سواء كن زوجات أو جوارى ، أو من النوعين سوية إن عادة الاحتفاظ بعدد غير محدود من الجوارى كان شائعاً عند أبناء المسلمين في القرن الأول الهجري ، واستمر كذلك . إن المؤلف المشهور القتبس من كتابه في اعلاه ، يقدم المثل من سليمان لبيهرن بأن امتلاك عدد كبير من الجوارى ليس متناقضاً مع التقوى والصلاح ، غير معتبر بأن الله في البداية قد خلق ذكراً واحداً وإناثاً واحدة فقط .

للمسلم أن يطلق زوجته مرتين ويرجمها في كل مرة خلال مدة معينة حتى لو كان ذلك ضد رغبتها بحيب لا تمتد المدة أكثر من ثلاثة أشهر ، ما لم تكن حبلى ، وفي هذه الحالة عليها أن تنتظر حتى مولد طفلها قبل أن تصبح حرة وترتبط بزواج آخر ، وإن الزوج في هذه الفترة ملزم بأعالتها . وإذا طلقها ثلاث مرات ، أو طلقها ثلاثاً بعبارة واحدة ، فإنه لا يستطيع أن يرجمها مرة

(٧٦) مشكاة المصابيح ٧٩/٢ ، ١٦١/٢ طبعة جديدة الكتب الإسلامي ١٩٦١ .

(٧٧) نزهة التامل القسم الأول .

ان مخالفة الشرع المذكور اعلاه يعتبر ذنباً كبيراً لكلا الجانبين ، قال الرسول : « لمن الله الناظر والمنظور اليه » (٨٢) ، ومع ذلك فكثيراً ما يتفاضى عن ذلك بالنسبة للنساء من الطبقة العليا .

ان الرجل محرم عليه بالقرآن (٨٤) والسنة ان يتزوج امه ، او سلفها الآخرين ، والاخت او نسلها الآخرين ، او اخته من احد الوالدين (غير الشقيقة) ، وعمته او خالته ، او اسلافهما ، وابنة اخيه او ابنة اخته او نسلهما ، وامه في الرضاعة التي ارضعته خمس مرات خلال السنتين الاوليين ، او امرأة تقرب له بالرضاعة من ابة درجة حيث سيحرم زواجه منها اذا كانت قرابتها مشابهة له عن طريق الدم ، وام زوجته ، وابنة زوجته بشروط معينة ، وزوجة ابيه ، وزوجة ابنه ، ويمنع كذلك ان يتزوج اختين في آن واحد ، او العممة وابنة اخيها ، او الخالة وابنة اختها . ويحرم عليه ايضاً ان يتزوج مملوكته غير الممتعة ، او مملوكة رجل آخر اذا كانت لديه في نفس الوقت زوجة حرة ، والاب يتزوج ابة امرأة الا اذا كانت على دينه ، او كانت نصرانية او يهودية . اما المرأة المسلمة فلا يجوز ان تتزوج الا رجلاً من دينها . ان العلاقة الفرامية المحرمة مع ابة امرأة تمنع الرجل من التزوج من اي من قريباتها التي ستحرم عليه اذا كانت زوجته .

غالباً ما تختار ابنة العم زوجة لابن عمها ، باعتبار رابطة الدم التي قد تجعل صلة الزوجية بالزوج قوية ، او بسبب العاطفة التي تتكون بينهما في السنوات الاولى .

ان كفاءة المنزلة الاجتماعية كثيراً ما تؤخذ بعين الاعتبار ، وان الرجل في كثير من الأحيان لا يستطيع ان يتخذ ابنة رجل من مهنة او تجارة اخرى زوجة له ، ما لم يكن ذلك الرجل اذنى مرتبة منه . ولا يستطيع ان يتزوج الابنة الصغرى اذا كانت الكبرى لم تتزوج بعد .

ان الفتاة تتزوج في العادة في سن الثانية عشرة ، وفي بعض الأحيان في العاشرة ، او حتى في التاسعة . وان العادة الشهرية تأتي عموماً بين السنة الثانية عشرة والسادسة عشرة . وينبغي ان تصبح اما في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة . اما الشبان فيتزوجون بعد هذه السن بقليل .

ان المطلب الاساسي جداً في الزوجة هو

من قريباته ، او يعتمد على امرأة مختصة بذلك تعرف بـ (الخاطبة) ، وهناك عدة نساء ينجزن هذه الخدمة بالاجرة . ان الشرع يجيز للرجل ان يرى وجه الفتاة التي يريد ان يتزوجها ، قبل ان يعقد عليها ، ولكن في الأيام الحالية فان هذه الحرية من النادر ان تدرك ، الا عند الطبقات الدنيا ، ولا يسمح للرجل في هذه الحالة ان يكشف قناع ابة امرأة الا ان تكون زوجته او محظيته ، والا تلك النساء المحرمات عليه ان يتزوجهن شرعاً ، وعند بعضهم لا يسمح للرجل ان يرى ابنة اخيه او ابنة اخته حاضرة وان كانت محرمة عليه (٨٦) ، ويجب ان يضاف بان العبد المملوك يجوز له ان يرى سيده ، الا ان هذا الحق نادراً ما يسمح به في الأيام الحاضرة الا اذا كان المملوك مخصياً .

(٨٦) ان ما يفضى المرأة هو الارار او الازار (لان الكلمة كُتبت بشكليين مختلفين) ، قطعة من قماش الجوخ نلبسه غالباً النساء العربيات عندما يظهرن في مكان عام ، وهو حوالي مترين او اكثر عرضاً (حسب طول من ترتديه) وللاشارة امتار طولاً ، يتدلى جانب منه من الخلف ، فوق الجزء الاعلى من الراس والجبين ، ويلبسط بعزوم يخط من الداخل ، ويتدلى البالي الى الخلف ومن كل جهة نحو الارض او قريباً من ذلك ، وفي الاثر يفضى الشخصى كلية ، ويمسك الطرفان ليلتقيا من الامام ، وهكذا يفضى كل الاجزاء الاخرى من اللباس هذا جزءاً صغيراً من الرداء الفسفاصي غير الربوط (الذي هو صنف آخر للمشي او كساء متحرك) . اما برقع الوجه مانه في الغالب يصنع من شيت (خام قطني) ابيض ، الا ان برقعاً مشابهاً من الحرير الاسود للزوجات ومن الحرير الابيض لغير الزوجات ، وتلبسه الان نساء الطبقات العليا والوسطى ، ويعرف بالعبرة .

لقد ظهر نوع من غطاء الوجه يعرف بالعريسة بالقناع ، قطعة من الحرير المولسبن ، حوالي باردة او اكثر في الطول ، والقل قليلاً في العرض ، يوضع جزء منه على الراس ، تحت الازار ، وتتدلى بقيته الى اسفل من الامام نحو الصدر او حوله ، ويغطي الوجه جميعه . اني ارى احياناً النساء العربيات وخاصة الوهابيات يلبسن قناعاً من هذا النوع يتكون من المولسولين المطبوع ، يفضى كل ملاصق تماماً ، وهو قماش واسع فسفاصي بما فيه الكفاية بحيث يتيح لها ان ترى طرفيها . لكن النوع الاثر شيوعاً من قناع الوجه العربي هو شقة طويلة من المولسولن الابيض ، او نوع من الكرشة (قماش رقيق جعد) السوداء ، يفضى كل الوجه هذا العينين ، ويصل قريباً من القدمين . يعلق من الاعلى بشريط رفيع يمر من اعلى الجبهة حيث يخيّف كما تخيّف نهائنا القناع بعزوم يربط حول الراس ، هذا القناع يسمى « البرقع » . النوع الاسود كثيراً ما يزين بنقود (ليرات) ذهبية ، ولا يراه غير حقيقية وغير ذلك تشمل بالجزء الاعلى . انه ليس طرفياً مثل القناع الابيض ، ما لم تكن السيدة في حالة حزن او حاد .

(٨٢) مشكاة المصابيح رقم الحديث ٣١٢٥ .

(٨٤) سورة النساء ٢٢ ، ٢٤ .

منزلة من منزلتهم ، ويفضل آخرون من هذه النظرة الجارية مكان الزوجة .

ان رضا الفتاة الصغيرة عند الزواج ليس مطلوباً ، فان الأب ، واذا كان متوفى فاقرب قريب راشد من الرجال ، او الوصي عليها بوصية ، او الموكل من قبل القاضي ، يكون وكيلها ، وبعضى عقد الزواج نيابة عنها . اما اذا كانت بالغة سن الرشد ، فانها هي التي تعين وكيلها . ان المهر المطلوب لتسجيل الزواج هو عشرة دراهم ، وهو الحد الأدنى المسموح به ، وقد تزوج النبي محمد بعض زوجاته بمهر قدره عشرة دراهم ، ولوازم البيت البسيطة ، من مثل طاحونة يدوية لطحن الحبوب ، وجرة ماء ، ووسادة من جلد محشوة بليف النخيل ، ولكنه قد تزوج بعضهم بمهر قدره خمسمائة درهم (٩٠) .

ومع ازدياد الثروة والترف ، زاد مبلغ المهر ، الا انه بالنسبة لراينا ما زال زهيدا ان مبلغا مساويا لحوالي عشرين باونا استرلينيا يكون متوسط المهر الشائع عند العرب في المجتمعات المتوسطة للبننت الباكر ، ونصف او ثلث او ربع هذا المبلغ للمرأة المطلقة او الأرملة . ان ثلثي المبلغ يدفع في العادة قبل عقد القران ، والقسم المتبقى يؤجل ليدفع الى المرأة في حالة الطلاق او في حالة وفاة الزوج . ان والد الفتاة او الوصي عليها اذا لم تبلغ الرشد ، يتسلم المبلغ المؤجل من المهر ، ويعتبر ملكا لها ، وهو ينفقه في الغالب مع مبلغ اضافي من كيسه الخاص لاجل البننت في شراء الضروري من الاثاث والملابس وغير ذلك ، حيث ان الزوج لا يستطيع ان يأخذ منها شيئا ضد رغبتها .

ان عقد القران يكون عاما ، وفي الأيام الحالية يعقد بصورة شفوية فقط ، وفي بعض الأحيان تحرر وثيقة وتختم من قبل القاضي . ان احسن الاوقات لعقد القران والزواج هو شهر شوال ، اما الشهر غير المناسب فهو شهر محرم . ان الاشخاص الذين لا بد من حضورهم لانجاز العقد هم : العريس (او وكيله) ، ووكيل العروس (الذي يكتب الكتاب) ، وشاهدان من الرجال ، والحصول على هذين سهل ، والقاضي او معلم المدرسة ، او اشخاص آخرون لتلاوة الخطبة التي تتألف من كلمات قليلة في تحميد الله ، والصلاة على النبي . وآيات من القرآن تتلى بالزواج . ويتلو الجميع سورة الفاتحة (او يفتحون سورة من القرآن) ، بعدما يدفع العريس النقود . ثم

(٩٠) نزهة التامل ، القسم الرابع .

الدين ، فالنبي يقول ما معناه : الزوجة الصالحة خير من الدنيا وما فيها . ويقول لقمان : « الزوجة الصالحة كالنجاح على رأس الملك ، والزوجة الشريرة كالحمل الثقيل على ظهر الرجل العجوز » . والمطالب الرئيسية الأخرى هي انسجام الطباع ، وجمال الشكل (البرء من اي عيب ، او خلل في الشكل او عدد الأعضاء) ، والاعتدال في مقدار المهر المطلوب ، ومن اصل جيد . يقال : « اذا لم تستطع ان تتزوج عدراء (وهي المرغوبة جدا) فتزوج امرأة مطلقة ، وليست أرملة ، لأن المطلقة ستتملق بك وتحترم كلمتك فلن تطلقها ، بينما ستقول الأرملة في اي شيء يحدث : اللهم ارحم ذلك الشخص (تعني زوجها الاول) فقد تركني لمن لا يناسبني » ووفقا لمبدأ اناني آخر ، ان المرأة غالبا ما تتفادى الطلاق من الرجل اذا كان لها طفل ، لأن قلبها على طفلها ، وتكون عدوة للرجل الذي يتزوجها فيما بعد (٨٥) .

ان العفة امر ضروري ومؤكد عليه ايضا ولا يمكن ان يهمل ، ولكن هذا بالنسبة للقارىء الانجليزي يحتاج الى بعض التوضيح ، لقد سأل علي بن أبي طالب زوجته فاطمة : « من هي افضل النساء » ، فاجابت : « تلك التي لم تر الرجال ولم يروها » (٨٦) فالعفة لذلك من وجهة نظر المسلمين ، سامية جدا ، بأن تخفي المرأة نفسها ، وتحجب عينها عن الرجال . قال النبي : « خير صفوف الرجال (في المسجد) اولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها اولها » (٨٧) ، ذلك لانهم ابعد عن الرجال ، الا ان الأفضل من هؤلاء واولئك النساء اللواتي يصلين في بيوتهن (٨٨) .

ان المرأة الخصبه الولود مرغوبة كذلك عند اختارها زوجة ، وتعرف خصوبتها عن طريق اقربائها ، لان الاقرباء متشابهون في الاستعداد للنسل . واخيرا فان قناعة المرأة معدودة من الضروريات يروى عن النبي انه حين سئل : اي النساء خير ، قال : التي تسره اذا نظر ، وتطيعه اذا امر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره (٨٩) وللحصول على زوجة قنوعة ومطيعه فان كثيرا من الرجال يختارون زوجاتهم من الأوساط الأقل

(٨٥) نزهة التامل ، القسم الرابع .

(٨٦) المصدر نفسه ، القسم السادس .

(٨٧) مشكاة المصابيح ٢٢٩/١ .

(٨٨) المصدر السابق ٢٢٤/١ يريد المؤلف الحديث : (لا تمنوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن) .

(٨٩) مشكاة المصابيح ٢٠٧/٢ .

ان العادة المتبعة عند أهل القاهرة ان يقيموا الوليمة في الليلة التي تسبق حفلات العرس (الزفاف) ، ووليمة اخرى في ليلة الزواج ، الا ان بعضهم قد يقيم ولانته قبل ذلك . وقال النبي عن ولائم الزواج : « طعام اول يوم حق ، وطعام يوم الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع الله به » ، وقد منع الاكل في الوليمة التي التي يراد بها التفاخر (٩٢) . ان من الواجب قبول دعوة وليمة الزواج ، او اي دعوة مشروعة اخرى، ولكن الضيف غير ملزم ان يأكل (٩٣) . ان الاشخاص المدعوين وكل الاصدقاء الحميمين غالبا ما يرسلون هدايا من بعض انواع المؤونة قبل يوم او يومين . لقد اوصى النبي بأن ولائم الزواج يجب ان تكون معتدلة بعيدة عن الاسراف ، وافضل وليمة اولها هي شاة واحدة (٩٤) . لقد رضى النبي عن مظاهر الفرح في احتفالات الزواج مع الفناء ، ووفقا لاحد الاحاديث اذن بالضرب بالدوف ، وفي آخر ان الدف محرم (٩٥) . والطريقة المفضلة لتسلية الضيوف هي باجراء الذكر .

في اليوم الذي يسبق زفاف العروس الى بيت العريس تذهب العروس الى حمام عام بصحبة عدد من جاراتها وصديقاتها . وتكون الزفة عادة على شكل دائري كي تكون اعظم مظهرا . وعندما تغادر العروس الدار تستدير نحو اليمين ، وفي القاهرة تسير العروس تحت مظلة او سرادق من حرير يحمله اربعة رجال ، ومع العروس امرأتان من قريباتها واحدة عن يمينها واخرى عن يسارها ، وتمشي فتيات عذارى امام العروس ، ويتقدم على هؤلاء نساء متزوجات ، ويسير امام الزفة وخلفها مجموعة من الموسيقيين بالطبول والمزامير . تلبس العروس نوعا من التاج او الطاقية من الكرتون ، وتحجب كلية عن اعين الناس ، فتبرقع بشال من كشمير يوضع على تاجها وكل جسمها ، الا ان بعض الزينات الجميلة للراس تربط من الخارج فتكون ظاهرة . وتلبس الاخريات افخر ما لديهن من لباس وزينة . عندما تكون العروس من منزلة عالية او ثرية ، واجيانا عندما تنتمي الى اسرة متوسطة ، فان النساء

(٩٢) نزهة التامل القسم الثامن ، ومشكاة المصاييح ١٩٢/٢ .
(٩٣) المصدر السابق ، ولي مشكاة المصاييح ١٩٢/٢ (١٣١
دعي احدمك الى طعام فليجب فان شاء طم وان شاء
ترك) .

(٩٤) مشكاة المصاييح ١٩١/٢ (ما اولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على احد من نسائه ما اولم على زينب ، اولم بشاة) .

(٩٥) نزهة التامل .

يجلس العريس ووكيل العروس على الأرض وجها لوجه ، ويمسك كل منهما بيد الآخر اليمنى ، رافعين الابهامين ويضغط كل منهما على ابهام الآخر . قبل الخطبة يضع القاضي او الشخص الذي يعقد القران مندبلا على يدي العريس ووكيل العروس المتشابكتين ، وبعد الخطبة يلقن كلا من المتعاقدين الكلام الذي يرددانه . والخطبة بعامة تستعمل صيغة الكلمات الآتية او ما يشابهها : « لقد زوجتك فلان (او التي يمثلها كوكيل لها) فلانة بنت فلان (ويذكر اسم العروس) الباكر (او العذراء الراشدة او غير ذلك) بمهر قدره » . ويجب العريس : « لقد قبلت منك زواجها من نفسي » . هذا كل ما هو ضروري ، الا ان الخطاب والجواب يكرر عادة مرتين او ثلاثا ، واجيانا يعبر بعبارات وصيغ كاملة ، ويختتم العقد بتلاوة سورة الفاتحة بتلوها كل الحاضرين . ان هذه الخطبة او عقد القران كثيرا ما تتم قبل الزواج بعدة سنوات ، عندما يكون العريسان طفلين صغيرين ، او خلال طفولة الفتاة ، ولكن الاكثر شيوعا انها لا تزيد عن ثمانية او عشرة ايام من الزواج . ان اهل البيت يجهزون الاناث والملابس للعروس ويرسلها اهل العروس الى بيت العريس ، وتنتقل عادة على قافلة من الجمال ، قبل ان تصل العروس الى بيت العريس بيومين او ثلاثة ايام او اكثر .

ويحسن الآن ان نذكر الولائم ومواكب الزفاف ، وهي تشاهد في زواج الفتاة الباكر ، اما الارملة او المطلقة التي تزوج ثانية ، ففي طريقة خفية . اني اصف عادات الزواج هذه وفقا لعادات القاهرة خاصة ، حيث يظهر لي انها اكثر مطابقة بصورة عامة مع الاوصاف والاشارات الواردة في « الف ليلة وليلة » . ان الوقت المستحسن والشائع جدا للزواج (الدخلة) هو ليلة الجمعة او الاثنين . وقبل هذه الليلة يقيم العريس وليمة لاصدقائه وقد تتكرر هذه مرتين او ثلاث مرات . ويزين بيته لعدة ليال وكذلك بيوت الجيران القريبين بمجموعات من المصابيح المضيئة او الفوانيس ، تعلق في واجهة البيوت ، ويعلق قسم منها بحبل عبر الشارع . وتعلق في هذه الحبال او غيرها اعلام صغيرة ، او قطع من الحرير المربعة مختلفة الالوان ، وغالبا ما تكون حمراء وخضراء ، يقول بعضهم ان الوليمة يجب ان تقام عند عقد القران ، ويقول آخرون بل عند الزواج ، يقول غيرهم بل تقام عند عقد القران والزواج كذلك (٩٦) .

(٩٦) نزهة التامل ، القسم الثامن .

وكانت زفة غريبة الوضع لم يتفق مثلها بعدها « (٩٧) » .

وتكون العروس قد وصلت الدار ومن معها من النساء ، ويجلسن لتناول الطعام ، أما العريس فلم يكن قد شاهد العروس بعد . فهو الآن قد ذهب الى الحمام ، وعندما يحل الليل يذهب مع موكب من اصدقائه الى المسجد ، ليؤدي -

العشاء ، ويصحبه الموسيقيون والمغنون ، او يصاحب بالمنشدين بقصائد في مدح النبي ، وبرجال يحملون المشاعل لها قوائم مع اطر اسطوانية من حديد مملوءة من الاعلى بخشب مشتمل . وعند عودة العريس يسير بين يديه مجموعة من خدمه يحملون شموعا مضيئة وباقات من الورد .

وحين يصل الدار ، يترك اصدقاءه في باحة البيت ، ويصعد الى العروس في الطابق الاعلى عادة حيث يجدها جالسة ، وعلى رأسها وشاح يخفي وجهها كله ، وتخدمها امرأة او اثنتان ، فيعطي العريس لخدمته العروس بعض النفود فتسحب ، ثم يعطي العروس هدية نقدية (كشمع لكشف الوجه) ، ثم يزيح الوشاح عن وجهها قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » وهو في الغالب يراها لأول مرة . ولان هذا اللقاء هو الاول ، حيث يدعى (الدخول) او (الدخلة) فينصح بان يعطر نفسه ، وان ينثر بعض السكر واللوز على رأس العروس ، وعلى كل امرأة معها (وهذه العادة تقليد متوارث وما زالت موجودة) ، وقبل ان يقترب منها يؤدي ركعتين من الصلاة ، وكذلك تفعل العروس ان امكن ، ثم يمسك شعرها من ناحية جبينها ويقول : « اللهم بارك لي في زوجتي ، وبارك لزوجتي في ، اللهم انعم علي بفرية منها ، وانعم عليها بذريرة مني ، اللهم وحدنا بالسعادة كما انت واحد ، وفرقنا عندما تفرق بالسعادة » (٩٨) .

غالبا ما يحسب نجم العروسين لمعرفة في اي برج هما وهل سيتفقان عندما يكونان زوجا وزوجة ، وكثيرا ما يحسب النجم في هذه الايام بجمع قيمة الحروف العديدة التي تتكون من اسمه واسمها مع اسم الام سوية ، واذا تذكرت الصواب ، فيطرح المبلغ كله من العدد اثني عشر ، اذا كان اقل من اثني عشر ، او يقسم على اثني عشر اذا كان العدد كبيرا ، وهكذا يحصل على رقم البرج . ان العلامات الاثنتي عشرة تبدأ ببرج

(٩٧) تاريخ الجبرتي ١٣١/٢ - ١٣٢ رواية الامير محمد الها الباردوي التوفي سنة ١٢٠٥هـ .

(٩٨) نزهة التامل ، القسم الثامن .

يركبن على حمير بسروج عالية ، بدون موسيقى او مظلة ، والعروس وحدها تميز بشال كشمير بدلا من الحرير الاعتيادي الاسود الذي تغطي به . ويركب احيانا طواشي (خصي) او اكثر في المقدمة . وفي الحمام ، بعد عملية الفسيل الاعتيادية وغيرها ، تقام وليمة ، وحيانا حفلة تقبها النساء الغنيات .

ويكون الرجوع الى البيت بالطريقة نفسها ، ان صديقات العروس يشاركن في حفلة مشابهة مع العروس ، ثم يخضون يدي العروس وقدميها بالحناء ، ويكحلون عينيها بالكحل ، وتقدم صديقات العروس هدايا صغيرة من النفود ، ثم يخرجن . « من السنة ان تغسل العروس قدميها في وعاء نظيف ، وترش الماء في زوايا الغرفة . فتكون البركة في ذلك . وكذلك تصقل وجهها . وتلبس احسن حلها ، وتزين عينيها وحاجبيها . وتخضب بالحناء ، ويجب عليها ان تمتنع خلال الاسبوع الاول عن اكل اي شيء يحتوي الخردل : وتمتنع عن اكل الخل والتفاح الحامض » (٩٦) .

تزرع العروس الى بيت العريس (في اليوم التالي) بالطريقة نفسها التي اتبعت في يوم الحمام . وبابئة اكثر . ان بعض مواعيد الزفاف في القاهرة للأشخاص من الطبقات الثرية جدا تتميز بصفات فردية ، فان الموكب عادة يتقدمه بهوانات وموسيقيون ، وسفارة الماء الذين يحملونه بالقرب وبعض الراقصين والراقصات والشموذين وما اشبه ، مع اعداد من العربات المكشوفة المزينة او السيارات حيث تحتوي كل واحدة على مجموعة من اصحاب المهن او الصناعات يمثلون مهنتهم . وقد وصف الجبرتي موكبا من هذا النوع حيث : « مشى جميع ارباب الحرف والصنائع مع كل طائفة عربية وفيها هيئة صناعتهم ومن يشتغل فيها مثل الفهوجي بآلته وكانونه ، والحلواني والقطاطري والحيالك والفزاز بنوله ، حتى مبيض النحاس والحيطان والماجيني وبياعين البز وارباب اللاهي والنساء والمغنين وغيرهم ، كل طائفة في عربة ، وكان مجموعها نيفا وسبعين حرفة ، وذلك خلاف الملاعب والبهاوليين والراقصين والجنك ثم الموكب ، وبعده الاغوات والحريم والملازمون والسعاة والجاوشية : وبعدها عربة العروس من صناعة الافرنج بدبعة الشكل ، وبعدها ممالك الخزنة والمليسون الزورخ ، وبعدهم النوبة التركية والنفريات ،

(٩٦) نزهة التامل ١/١ وشكاة الصابغ ٨٩/٢ .

بين الجنسين) روج الاتصال الحر بين الأشخاص من نفس الجنس وبطرق فاسدة ، وقد مكثهم هذا من الاختلاط سوية بصرف النظر عن الثروة أو المركز ، ودون مجازفة بسبب عدم تكافؤ علاقات الزواج ، ولذلك لم يشعر بقسوة هذا الانفصال كل من الطرفين ولم يعتبره امرا تصفيا ، وقد وجد مجتمع الرجال خاصة في هذا درجة عالية من الراحة المألوفة والحرية الواسعة ، وهذا يصدق على الجنسين . وقد تسبب هذه العلاقات تمكيرا للسعادة الأسرية ، وتوثق العلاقات الشخصية بشكل ضيق طلبا للاستمتاع بحرية .

وعلى ان نلاحظ ان من آثار هذا النظام ان جعل تقييد العلاقات بين الجنسين قبل الزواج يؤدي فيما بعد الى ضرورة تسهيل امر الطلاق ، فمن الظلم للرجل الذي يجد نفسه خائب الأمل في توقعاته عن الزوجة . التي له يكن قد رآها من قبل ، ان يستطيع استبعادها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فاحيانا تجعل الضرورة جواز تعدد الزوجات ، للرجل الذي يجد زوجته الاولى غير مناسبة له ولا يستطيع طلاقها دون ان يقهرها على القبول ، وابطاحة تعدد الزوجات في هذه الحالة تصبح ضرورة كبديل للطلاق . وثالثا : ان حرية تعدد الزوجات تجعل تسهيلات الطلاق مطلوبة اكثر لسعادة النساء ، حتى عندما يكون للرجل زوجتان أو اكثر ، وواحدة منهن غير راضية بوضعها ، فهو قادر على ان يخلي سبيلها . رابعا: ان جواز الطلاق يكون احيانا وسيلة لضبط الزوجات ، خوفا من الوقوع تحت نفوذ الزوجة الاولى ، او نفوذ اقربائها ، فيجبرونه على الطلاق اذا ما تزوج امرأة ثانية ، وكثيرا ما يكون هذا رادعا للرجل . وهكذا فكلا هاتين الإباحيتين - الزواج بأخرى والطلاق - لهما أهمية كبيرة في تكوين المجتمع الإسلامي ، ولهما بعض المنافع الخلقية ، وباعتبار ما لهما من منافع مادية علينا ان نتذكر ان الجذب والقحط اكثر شيوعا في الاجواء الحارة منه في الاجواء المعتدلة .

من الواضح ان النظام المسيحي يعارض تعدد الزوجات ، ولكن بالنسبة للطلاق فان بعضهم قد عارض فقط طلاق الزوجة ضد رغبتها ، الا بسبب واحد(١٠١) . غالبا ما يكون المسيحيون اكثر ظلما في حكمهم على الشريعة الإسلامية وعقائدها ، وبخاصة الحكم الذي يتفق

الحمل ، وهو يتوافق على التوالي مع عناصر : النار ، التراب ، الهواء ، الماء ، النار ، التراب ، وهكذا . واذا كانت علامات كلا الطرفين تدل على العناصر نفسها ، فانها تبشر بانهما سينسجمان ، ولكن اذا اشارت الى عناصر مختلفة فان الاستنتاج سيكون بان احدهما سيؤثر في الآخر بالطريقة نفسها التي تؤثر العناصر في بعضها . واذا كان جوهر الرجل هو النار ، وجوهر المرأة هو الماء ، فهذا يعني بان الرجل سيخضع لحكم المرأة . وفي حسابات أخرى : تؤخذ القيمة المددبة للحروف التي تكون اسم كل من الشخصين ، ثم تطرح الواحدة من الأخرى ، فاذا كان الباقي رقما فرديا غير شفهي فان الاستنتاج يكون عدم التوافق لدرجة التضاد .

اما ما يخص واجبات الزوجة فاهمها خدمة الزوج او السيد ، والعناية بالأطفال والواجبات البينية اللازمة . ان اهم اشغال الزوجة الأخرى هي الغزل او الحياكة او شغل الإبرة ، يروى عن النبي انه قال ما معناه : ان جلوس ساعة في عمل المغزل خير للنساء من عبادة سنة ، ويؤجرن على كل قطعة من الملابس ينسجها اجر الشهادة . ويروى عن عائشة ان النبي قال لها : قولي للنساء ما اقول لك ، ما من امرأة تغزل لتكسو نفسها فان الملائكة في السموات السبع تصلي ليفجر الله ذنوبها ، وستبعث من قبرها يوم الحساب مرتدية ثوبا من الجنة مع وشاح على رأسها ، وامامها ملك وعن يمينها ملك يحمل لها كأسا من ماء السلسبيل من حوض الجنة ، ويأتيها ملك آخر يأخذها على جناحه ويحملها الى الجنة . وعندما تدخل الجنة تقابلها ثمانون الف جارية ، كل جارية ، تجلب لها حلة مختلفة ، وسيكون لها مساكن من زمرد لها ثلاثة آلاف باب وعلى كل باب يقف ملك بيده هدية من اله العرش(٩٩) . ان المهنة المذكورة اعلاه تمارسها الإناث في الحريم في الطبقات الوسطى والعلية ، انهن يقضين معظم اوقات فراغهن في شغل الإبرة ، وبخاصة في تطريز المناديل ، وواشحة الرأس وغيرها ، على اطار يسمى (المنسج) ، بطرزن بالحريز الملون والمذهب ، وحتى النساء في ابيوت المومنة ، يملأن كيسهن الخاص من تطريز المناديل وامور أخرى بهذه الطريقة ، ويستخدمن (الدلالة) لتأخذ ما يعملن الى السوق او الى النساء الأخريات لبيعه(١٠٠) .

لاشك ان الانفصال الجنسي (عدم الاختلاط

(١٠١) لقد وافق بروستانت متفكرا على الطلاق في قضايا العار الذي لا شبهة فيه . انجهدات : روح الشر

مع الديانة الموسوية ، واعمال الرجال الصالحين ، من مثل تعدد الزوجات ، والطلاق ، والحرب دفاعا عن الدين ، والختان ، وحتى القضايا الصغيرة (١٠٧) .

لقد اراد النبي محمد ان يستبعد احد الاسباب الرئيسية لتعدد الزوجات وهي عدم رؤية الرجل للمرأة ، فاوصى ان ينظر الرجل الى المرأة التي يريد ان يتخذها زوجة له (١٠٣) . وقد صارت هذه السنة اعتيادية اكثر مما هي الآن ، فقد رخص لاتباعه كثيرا فسمح للرجل ان يجتمع بشكل ما بالمرأة التي يختارها للزواج بحضور رجل او امرأة من الاقارب (على ان تكون المذكورة محجبة ، من غير مخالفة للنظام العام للفصل بين الجنسين ، ولكن نادرا ما يسمح اي من الوالدين من العرب الآن برخصة صغيرة كما أمر ، اللهم الا اولئك الذين من الطبقات الدنيا . وعلينا ان نلتزم المسلم بتعدد الزوجات وتكون اكثر اعتدالا اذا اوصينا بتحديد وتقليل العدد . واظن ايضا كما سمع موسى لقومه بسبب قسوة قلوبهم ان يطلقوا زوجاتهم ، وان الله اعلمهم ان لا يجمعوا بين الزوجات بينما يفعل ذلك البطاريك . وعلينا ان نكون اكثر موافقة كمؤمنين بالكتب المقدسة اذا سلمنا السماح بهذه الممارسة لتكون مؤدية الى الفضيلة اكثر من منعها ، بين الناس المشابهين من اليهود اقدمات حيث سمح موسى بمثل هذه الحرية . وحقا ان محمدا قد اتخذ لنفسه عددا كبيرا من الزوجات اكثر من المسموح به للاخرين وقد لاحظت في مكان آخر (١٠٤) ان الدافع لهذا كان رغبته في النسل الى الاولاد الذكور اكثر من رغبته في تمتع الزواج .

يقول كاتب درس الشريعة الاسلامية وآثارها بعمق : « في موضوع تعدد الزوجات ، فان اوربيا اتاحت له فرصة كاملة في مناقشة امرأة تركية ، لان مشاعرها حتما بجانب المعارضين

(١٠٤) سالتني سيدة متدينة مرة فيما اذا كنت موافقا على طرق الشريفين في الاكل « بالساليبم الوحشية » ، فاجبت : « لا تسميها اساليب وحشية بل سميتها اسلوب ربنا ورسله » ، وبعض التسامح هنا مطلوب . كنت مقفرا عندما ذهبت للشرق اول مرة الا وافق على طريقة الاكل بالاصابع عندما استطع تجنبها ، ومع ذلك ، بعد ان رايت لأول مرة طريقة الاكل هذه ، استعملتها حالا وواظبت عليها .

(١٠٣) مشكاة المصابيح ١٦٣/٢ ، ١٦٤ . في الحديث : « اذا خطب احدكم امرأة فلان استطاع ان ينظر الى ما يدعوه الى تكاتها فليعمل » .

(١٠٤) مختارات من القرآن ، الطبعة الاولى ص ٥٩ .

تتعدد الزوجات ، ولكنها بعد ذلك اجابت بقوة هائلة ، في مقارنة الآثار العملية للنظامين ، وفي نشر الاشاعات الواسعة عن قسوة وفجور اوربا . كل الاعتقادات بعاداتنا وقوانيننا تنقف صفا معاديا ضد البلاد التي يقبل فيها مبدا تعدد الزوجات ، ولكن بينما نحن نلوم الاسلام على تعدد الزوجات ، فان الاسلام يجب ان يلومنا على تعدد الزوجات الفعلي الذي لم يقره قانون وينكره الصرف ، اضافة الى مهانة العقل بسبب الفساد الخلقي « (١٠٥) .

وينبغي ان يلاحظ اضافة انى ذلك ان السماح بتعدد الزوجات لم يؤذن به كعمارة عامة ، لا ، بل انه رخصة لقراءة القلوب كي يعصمهم من السلوك السيء ، وفي بعض الحالات كما لوحظ دائما . يكون ذريعة لذوي القلوب الرقيقة في حالة الحب ايضا .

نجد لاحظت فيما سبق بان تعدد الزوجات « اكثر ندره في الطبقات العليا والوسطى من المجتمع (في مصر واعتقد في الاقطار العربية الاخرى) منه في الطبقات الدنيا ، وحتى عند هؤلاء ليس شائعا جدا . ان الرجل الفقير يسمح لنفسه بزوجتين او اكثر لان كل زوجة تكون قادرة ، ببعض الصناعات او الحرف لتزود نفسها بمعاشها الخاص تقريبا ، الا ان اكثر الاشخاص من الطبقات العليا والوسطى يأنفون من هذا ، لان العمل سيعرض الزوجة للكلفة والمضايقة . قد يتخذ الرجل زوجة ويكتشف انها عاقر ، ويكون متعلقا بها جدا فلا يطلقها ، ويرغب احيانا في الزواج من ثانية طلبا للذرية فقط ، ومن هذا الحافز قد يتزوج ثالثة ورابعة ، الا ان الرجل الهوائي المتقلب اكثر وضوحا ودافعه معروفة سواء بتعدد الزوجات او بتكرار الطلاق . وهؤلاء الذين يرضون هذه العاطفة بكثرة الزواج هم قلة بالمقارنة ، واني اعتقد ان ليس في كل عشرين رجلا : الا رجلا واحدا له زوجتان « (١٠٦) . وآمل ان اكون قد اوضحت بانى اعتبر تعدد الزوجات ضرورة في نظام المجتمع الاسلامي ، كي يمنع الدعارة التي ستكون اسوأ من تلك التي تسود الاقطار الاوربية وبشكل واسع وقطيع ، حيث ان الناس يرتبطون بالزواج بعد علاقات جنسية متبادلة ، انى اعتبر تعدد الزوجات (شرا) لا بد منه .

(١٠٥) اركهارت ، روح الشرق ١٤٥/٢ ، ١٦٦ ، انظر الفصلين (حياة الحرير) و (دولة النساء) حيث اظن انها احسن ما في الكتاب .

(١٠٦) المصرون المعدون ، الفصل السادس .

عمر الحلبي بمكة ، اوصى بان يشتري له جارية بيضاء تكون بكرا دون البلوغ ، وصفتها كذا وكذا ، فلما عاد من الحج طلب من اليسرجية الجوارى لينتقي منهن المطلوب ، فلم يزل حتى وقع على الفرض فاشتراها ، وادخلها عند زوجته ، حتى يرسلها مع من اوصاه بازسالها صحبته . فلما حضر وقت السفر اخبرها بذلك لتعمل لهم ما يجب من الزاد ونحو ذلك ، ولكنها قالت له : « انني احببت هذه الوصيفة جدا شديدا ولا اقدر على فراقها ، وليس لي اولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتي » . وكذلك بكت الجارية زليخة وقالت : « لا افارق سيدي ولا اذهب من عندها ابدا » . فقال : وما العمل ، قالت الزوجة : سادفح ثمنها من عندي ، واشترت غيرها . ففعل كذلك ، ثم انها اعتقتها ، وعقدت له عليها ، وجهازتها وفرشت لها حجرة خاصة بها . وبنى بها في سنة ١١٦٥هـ ، وكانت الزوجة الاولى لا تقدر على فراق هذه الفتاة ساعة واحدة ، على الرغم من انها قد اصبحت ضربتها ، وولدت له اولادا .

فلما كانت سنة ١١٨٢هـ مرضت الجارية ، فمرضت سيدتها ايضا لاجلها ، وانتشر المرض في الاثنتين ، وفي صباح احد الايام قامت الجارية فنظرت الى مولاتها وكانت في حالة سيئة على وشك الموت ، فبكت وقالت : « يارب وسيدي . اذا كنت قد قضيت بموت مولاتي فاجعل يومي قبل يومها » ثم سقطت ، وازداد بها المرض ، وماتت في الليلة الثانية ، فاجتمعوها بجنب مولاتها ، فلما استيقظت مولاتها في آخر الليل ، وجسنتها بيدها ، وصارت تقول : (زليخة ، زليخة) ، فلما قالوا لها : انها نائمة ، ولكنها اجابتهم : ان قلبي يحدثني انها ماتت ، ورايت في منامي ما يدل على ذلك . ثم قالوا لها : (حياتك الباقية) (١٠٨) ، فلما تحققت مما قالوا ، قامت وجلست ، وهي تقول : لاحياة لي بعد موتها ، وصارت تبكي وتتنحب حتى طلع النهار وشرعوا في تشهيلها وتجهيزها وغسلوها بين يديها وحملوا جنازتها الى القبر . فرجعت عندئذ الى فراشها ، وصارت تحتضر ، فجاءتها سكرات الموت فماتت في آخر النهار ، وفي اليوم التالي خرجوا بجنازتها ايضا الى القبر بالطريقة نفسها « (١٠٩) .

(١٠٨) هذه هي الطريقة المعتادة في اخبار الشخصى بوفاة شخص آخر ، وكثيرا ما يقولون في العالة نفسها (اليقاه في حياتك) ثم يبدأ السؤال (من الذي مات) فيذكر الاسم .

(١٠٩) تاريخ الجبرتي ، الجزء الاول ، وفيات سنة ١١٨٨هـ .

عندما تعيش زوجتان او اكثر لرجل واحد سوية ، او عندما تزور كل منهما الاخرى ، فان الشمور بالغيرة ، هو شمور عام ، وغالبا ما يظهر ، وخاصة من قبل الزوجة - او الزوجات - التي لا تستطيع ان تزعم الاولوية بانها تزوجت قبل الاخرى او الاخريات ، او بسبب كونها اكثر حظوة عند زوجها من الاخريات (١٠٧) ، تتمتع الزوجة الاولى عادة بمنزلة اعلى ، لذلك فان الآباء غالبا ، يعترضون على اعطاء ابنتهم زوجة لرجل متزوج من زوجة اخرى ، وفي كثير من الاحيان يحدث بان المرأة التي تطلب للزواج تتعرض على مثل هذد الشركة . ان الشرع يجيز في بعض الحالات ، دفعا للمضايقات التي تنشأ من تعدد الزوجات ، باعطاء كل زوجة حق اثاث معين ملائم للنوم والطبخ وغيره ، وازافة الى ذلك ، يشترط على الزوج ان يكون عادلا منصفا بين زوجاته في كل علاقاته . الا ان هناك بعض الصفات مثل انخسوبة وكثرة الولادة والجمال الفائق ، صفات تمكن المرأة الثانية او الثالثة او الرابعة ، من اغتصاب مكان الزوجة الاولى ، ومع ذلك ، وكما لاحظت دائما ، ان المحبوب الدائم ليس الاكثر جمالا .

وعلى اية حال فهناك عدة حالات من المحبة الخالصة موجودة في قلوب الضرات . والقصة التالية لزوجتي والد الجبرتي المؤرخ المصري الحديث ، برويا بنفسه ، وهي بلا شك صادقة ومثال ممتع . يقول المؤرخ متحدثا عن اول هاتين الزوجتين :

« ومن جملة برها لزوجها وطاعتها ، انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها الخاص ، وتزينهن بالحلي والملايس الفاخرة . وتقدمهن اليه ، وتمتدح حصول الاجر والثواب لها بذلك (في الجنة) . وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر ويشترى الجوارى فلا تتأثر من ذلك . ولا يحصل عندها ما يحصل في النساء من الغيرة غالبا .

ومن الوقائع الغريبة الاخرى التي حدثت الحادثة التالية : انه لما حج (والد المؤلف الجبرتي) سنة ١١٥٦هـ (٤٣-١٧٤٤م) واجتمع به الشيخ

(١٠٧) الزوجة الاخرى تسمى باللغة العربية (مرة) والكلمة مشتقة من (المرر) اي الاذى لان الزوجة الاخرى عادة تلمس المعاملة الصارمة ، الواحدة تجاه الاخرى ، ان كلمة (مرة) في اللغة العربية (بتبديل اللين مكان الشدد ، الدال والضممة مكان الفتحة) تلفظ (مرة) وفي المثل الشائع (عيشة المرة مرة) « الطنطاوي » .

البناء الفني للحكاية في الليالي

بقلم

ياسين النصيري

بغداد - الجمهورية العراقية

لمعنى وشكل الحكاية الذي اعتمده الليالي . .
فالليالي ، اعتمدت لوتين اساسيين من الحكاية .
الحكاية الطويلة الموزعة الى حكايات صغيرة
مرتبطة بها ومغذية لابعادها ، والحكاية القصيرة
التي تتفرع احيانا من الحكايات الطويلة ، ولكنها
تنتهي بانتهاج روايتها ، ولا يعود القاص الى بطلها
او معناها ، ومن الحكايات الطويلة ، حكاية حسن
البيصري حكاية النعمان بن المنذر او حكاية ذات
الدواهي ، او حكاية مرور السيف ، وكما
توضح لنا الليالي ان هؤلاء ليسوا الا ابطالا
ثانويين ، فهناك خلف كل واحد منهم ملك او امير ،
من الجن او من الانس يدير شؤون الدولة او
الملكة ، اما هؤلاء فليسوا الا اشخاصا مهمين
ولكنهم ثانويين في تاريخ ذلك الملك او الامير .

٢ - وما دمنا نقرا الليالي بطبعات منقحة ،
وموزعة حكاياتها على الف ليلة وليلة توزيعا
ذوقيا ، فان الزمن الداخلي لكل حكاية يبقى
مجهولا . فقد وجدنا ان بعض الحكايات تتوزع
على عدة ليال ، ووجدنا عدة حكايات في ليلة
واحدة ، او ان تكتفي الليلة بحكاية واحدة . مثل
هذا التباين في الطول ، يلغى وحدة الزمن للحكاية
الواحدة ، الزمن الخارجي - الذي تستغرقه
شهرزاد للقص ، والزمن الداخلي ، الذي
تستغرقه الحكاية فعلا ، وما دمنا لا نستطيع
تحديد الزمنين من داخل الحكاية ، فان الليلة
الواحدة لا تعطينا كامل الزمن الفعلي للحكاية ،

بدءاً يمكن ايراد هذه الملاحظات العامة حول
الحكاية في الليالي ككل .

١ - لا تتشابه حكايات الليالي بعضها مع
البعض الاخر ، فبعض الحكايات يستمر لعدة
ليالٍ ، وبعضها يقتصر على ليلة واحدة (١) في حين
تكون عدة حكايات في ليلة واحدة ، وبمطينا حجم
الحكاية الشعبية والخرافية في الليالي مؤشرا
شكليا اوليا ، ومن ان الشكل الخارجي للحكاية
ليس هو المهم في البناء ، بل ان مضمون ومحتوى
الحكاية هو الذي يحدد حجمها وشكلها . فاذا كنا
نعتبر بعض الحكايات اشبه بالقصة القصيرة ،
فبعضها الاخر اشبه بالقصة القصيرة الطويلة ،
وتمكس مسألة الطول والقصر وضعا فكريا مقعدا ،
فالحكاية الطويلة التي تتفرع منها حكايات قصيرة
عديدة ، تعتمد بطلا مركزيا واحدا ، كحكايات
حسن البصري ، التي يدور حوله ابطال ثانويين
يكونون رئيسيين في بعض الحكايات ، كحكاية
زوجته من الجن ، ثم تعود اليه الحكاية ثانية بعد
ان يكون قد تركه القاص ليوضح لنا حالات
الابطال الثانويين ، مثل هذه الحكاية الام ،
الحكاية الرحم ، تكاد تكون هي الاساس في الليالي ،
اذا ما اعتبرنا ان كل الليالي وحكاياتها اساسا ،
هي حكاية شهریار وشهرزاد وقد تفرعت الى
حكايات صغيرة وكبيرة توزعتها مدن وبحار ،
ملوك وامراء ، خاصة وعامة ، انس وجن . . الخ
ولكن مثل هذا الاعتقاد يسقط من الفهم البسيط

واقفاله ، هي تلك التي كتبت متأخرة ، وحاكات احوال ومواضع الناس في العصر العباسي ، ويغلب عليها الطابع الاجتماعي - السياسي والديني . وابطالها ممن عرفنا بهم التاريخ وحكت لنا عنهم الكتب ، اما الحكايات الخاصة بالانسان مع الحيوان او الجن ، فهي من ابتداع خيال القاص الذي اراد ان يوسع مدى فاعلية الحكاية ويشمل بها عالمين ، عالم الخفاء وعالم العيان ، وهو ما يجعلنا نفترب من حكاياته من المعنى الحقيقي للحكاية الشعبية ، حيث امتلكت مقومات لم تكن موجودة في الحكايات التي اعتمدت الانسان لوحده ، اما الحكايات الخاصة بالحيوان او الجن على مختلف اشكالهم والوانهم ، فهي النوع الذي يفرنا من الحكاية الخرافية ، وفيه نجد ذلك انعام الخفي وقد تشكل بوضع متماسك وبدل يمارس فعله وطوقسه بحرية تامة . وكما يبدو ان هذه الحكايات هي الاقدم في الليالي ، تليها الحكايات المختلطة ، ثم حكايات الانسان .

٤ - يلاحظ قارئ الحكايات ان اسلوبها بسيط ، وتركيب جملة عادي وسهل ، وتكثر فيه السمكات ، كصورة من الصور العامة اليومية المألوفة ، وكان الاسلوب بهذه الخصائص لا يمت من قريب او بعيد الى ما تعارفنا عليه من فنون الادب ، وصفاء العبارة وقوة المعنى ودقة التعبير . ويعكس هذا الوضع طابع العصر الذي كتبت فيه ، ولكن ليس كل العصر ، وانما العصر الذي بدأ فيه الادب الشعبي يدون ، ويصبح مادة للتداول والقص ، وانتقال الحكاية من مرحلة الشفاهة الى مرحلة التدوين يبرز هنا الطابع الذاتي والفردى للقاص ، رغم مجهولية القاص ورغم تعدده ، هذا من جهة ومن جهة اخرى ان الادب المدون في الليالي ، هو ادب العامة ، وادب مجالس اللهو والطرب ، وادب البيوت والموائل البسيطة ، ولكونه مزج السحر بالواقع ، والخيال بالممكن ، وحكى عن الشاذ والمنطقي ، والمعقول واللامعقول ، وكان في تفطيته لهذا اللون من الاهتمام الشعبي يتقرب الى فهم العامة ، والى مداركهم البسيطة ، ويجعل من القص نفسه وسيلة لشيوخ الادب الشفاهي اولا ثم تدوينه كما هو ثانياً ، ومما يؤكد هذه الحاجة ، ان الشعر الذي احتوته الليالي ، هو من النوع الساذج والتلفيقي ، والذي يجهد القاص نفسه لوضعه ضمن سياق الحدث القصصي تلعيباً بجو خاص ، وانتقاله بالسر من حالة السماع الى حالة التخيل ، وتحويل هم السامع الى ما يحس به البطل لحظة تازم الوقف ، والشعر

ولكن يصح اعتبارها - اي الليلة - معياراً نفسياً نوحة انفن القصصى ، وهو معيار خارجي في كل الاحوال ، قد يساعدنا في فهم الوحدة الموضوعية للحالة التي كانت عليها شهرزاد وشهريار ، ولكنه لا يساعدنا في تكوين خصوصية معينة لمعنى وزمن الحكاية الواحدة .

الملاحظة الجوهرية . ان الحكاية لا تنتهي كلها بانتهاء الليل ، بل بعض الحكايات القصيرة ينتهي قبل الفجر . مما يستوجب على شهرزاد تنظيمية الوقت المتبقى بحكايات اخرى من ذات الجو نفسه ، او من تلك التي تركت قبل هذه الليلة ، كما ان بعض الحكايات تعبر الفجر ، ليصبح الفجر او الصباح حاجزاً طبيعياً ونفسياً لفعل القص ، بمعنى اخر ، ان الحكايات محكومة بزمن طبيعي خارجي هو الصباح ، ويعكس هذا الوضع حالة لم تتطرق اليها الكتب التي الفت عن الليالي ، الا وهي تأثير الطبيعة على النفس المنبعا بالظلام والموت ، وكان هذا الفعل هو جزء من حملة مسمى شهرزاد لازاحة القتل والامتهان الذي يمارسه شهريار ضد بني جنسها .

ويمكن الذهاب الى مدى ابعث في قضية الزمن في الحكاية ، فالحكاية ، تعتمد الوحدة انفضوية بين الزمان والمكان . الا ان المكان فيها دائماً يكون اكثر كثافة ، واقل محدودية . وهذا يعكس الوعي الذي كان عليه القاص الشعبي يومذاك ، اي محدودية المعرفة بانعام الطبيعي الذي يحيط به ، وعندما كان يريد توسيعه حسب ما تتطلبه الحكاية ، جعل ذلك من جزر الجان ، وفي المسالم السفلي تحت الارض ، وفي البحار المجهولة والمجاهل غير المعروفة ، وابتكر لكل ذلك اسماء . اما الزمن الخاص بالحكاية ، فكان زمناً متعدددا اي انه طويل ، يطوي القاص في داخله الليل ، النهار ، الفصول والسنوات وقبلما تتأثر عواطف الشخصيات بتغيرات الزمن ، وان حدث وتغيرت تطلب من القاص مسمى لان يوصل ما انقطع بالعودة ثانية الى المفارمة .

٣ - يمكن تقسيم الحكايات الى ثلاثة انواع رئيسية ، حكايات عن الانسان ، وحكايات الحيوان ، والحكايات المختلطة . علماً بأن الحيوان هنا ، ما يشتمل عليه عالم الجن والمسح وكل الاشكال غير الطبيعية ، ولكن الحكايات لا تكون صافية ، فقد تبدأ بالانسان ، وفي استمرارها تدفع الى مجرى الحكاية احياء اخرى ، طبيعية وغير طبيعية ، والحكايات الخاصة بالانسان

بل ربط جميع الأحداث بوحدة مركزية هي الحالة التي كان عليها كل من شهريار وشهرزاد ، الا ان هذا اليجاز يخل بالمعنى الأساسي للفن الروائي في الليالي . ولكن نعيد هنا بعض ما اشرنا اليه أثناء الحديث ، لابد من البدء من اوليات هذا الاسلوب ، واقصد به بناء الحدث .

بدءا ، نقول ان «الحكاية المتنوعة - الشعبية والخرافية والاسطورية - قد اختلفت داخليا في تركيبها الفني ، بمعنى ان هذه الحكايات لاتشابه فنياً لما تمتلكه كل واحدة منها بخصائص نوعية متميزة ، الا اننا نؤكد هنا ان هذا الاختلاف هو احد سمات فنها الروائي ، اي ان تنوع اساليب القصة جعل لاسلوب الليالي العام ميزة روائية خاصة بها .

وثانياً ، ان الابطال - وقد جرى بعض الحديث عنهم - كانوا من الثانويين ، والذين يطلق عليهم لوكاتش - البطل التاريخي العالمي - وهؤلاء يمثلون بوضعيتهم الطبقيّة والفكرية ، الشخصيات الأكثر اتحاما بالأحداث الشعبية ، فهم نوافذ الخليفة او الامير على العامة ، وهم مجسات العامة لوضع الملكة او الخلافة ، ولكونهم كذلك احتلوا مساحة كبيرة من فن الرواية الخاص كذلك كانوا في الموقع الذي اتاح لهذا الفن من ان يتخذ جوانب خفية وعلنية من مسار التاريخ العام للدولة .

والخصيصة الثالثة ، ان الاحداث تتوالد ، بعضها من بعض ، ويحدث توالدها امتدادا ، فتختلف شخصواً واطعاً، جديدة ، بحيث لا نستطيع القول ، ان هذا الحدث ينتهي عند هذه الشخصية او في هذا الموقع ، هذا التوالد الحي ، الفني بشكل او باخر مركزية البطل ، كما الفني وقوف مجرى التاريخ عند حدث معين ، بل كان ينساق وراء الانسياب العام للتاريخ ، ويستوعب وهو في طريقه حركته ونموه واتساعه ، فتجد ان الليالي في بدنها كانت محدودة الفعل ، ثم تتوسع لتشمل ممالك وامصار ، قديمة وحديثة ، في الواقع وفي الخيال . ويشبه الفن في داخلها العلبة الصينية الكبيرة التي يمتليء جوفها بعلب اصغر متشابهة ، فكلما فتحت واحدة ادت الى اخرى ، الا ان الامر في الليالي عكس ذلك يبدأ من العلبة الأصغر في الحلقة ، فما ان تضع العلبة الصغيرة ، حتى تحتاج لان تضع حولها علبة اكبر ، وهكذا تستمر العملية لتجد نفسك في اخر المطاف وقد استوعبت شمول الحياة والتاريخ الذي عاصرته . بل ومازالت تتسع لتشمل اوضاعاً قائمة لحد الآن.

كما هو معروف ليس الانظماً عادياً ، لا روح فيه ولا قيمة متميزة ويستطيع القارئ ان يتصرف على الطريقة التي ادخل فيه الى مجرى الحكاية بسهولة ، فيشعر به وكأنه قطعة ملحقه من خارج الجرى النفسي والشعوري العام ، واطافة الى ركة كلماته ، وعبارته ، ركة في صوره ، وتدنر في معانيه ، ويعكس بالطبع حال الشعر في تلك المرحلة ، حيث اكثر فيه اللحن ، وتدخت كلمات واجواء غير عربية نتيجة تبدل الولاة ، وتغير الحالات الاجتماعية تمهيداً الى الانبيار التاريخي الكبير الذي حدث بسقوط بغداد .

كما احتوت الليالي على كل اساليب القصة، الراوي ، والتكلم والمخاطب ، وكانت كل هذه الضمائر ، تسير تحت غطاء ضمير الراوي شهرزاد، مما يجعل فن القصة نفسه مستوعباً للطرق الشائعة في الحكاية الشعبية والخرافية على حد سواء ، يضاف الى ذلك ان هذه الضمائر، تنوعت بتنوع الأشكال التي تجسد فيها الحكايات ، فهناك الحكاية التي تحكي حياة بطل ما ، ويكون السرد مصاحباً لهذا اللون ، وهناك المواعظ والنكت ، وهي من التي يتدخل الراوي في صياغتها كتعبير عن وضع ما داخل الحكاية ، وهناك الفنتازيا التخيلية ، كقصص الجن والسحر ، ويكون الراوي هو الغالب في تجسيدها .. وباحتماء الليالي على هذه الاساليب ، تعرض لنا « وحدة » شاملة ، جامعة لاشكال السرد القصصي يومذاك فكانت بتعدد اشكاليه تقرب الفهم بين العامة والخاصة وتوحد في المشاعر الاجتماعية العامة ، وتعطينا مؤشراً على طابع الحياة الثقافية في ذلك العصر .

« وتميل لغة الف ليلة و ليلة عموماً الى النثر المسجوع وهي كثيراً ما نلثم بحق اناشيد الحب العاطفية التي كان عصر ازدهارها فيما بين القرن الثاني عشر ، حتى القرن الرابع عشر ، وهو نفس العصر الذي ازدهر فيه التروبادور في الغرب وشعراء الحب والاشغيات الشعبية ازدهاراً كبيراً وربما تأثر كذلك الادب الأوربي الذي يقضى بالحب، بفن الادب عند الاسبان العرب حينذاك » (٢) .

٥ - ويبقى بعد ذلك ما يسمى باسلوب الف ليلة و ليلة الروائي ، الذي عد فتحاً في الادب الاوربية يوم ترجمت بالفرنسية اليها قبل اكثر من مئتين وخمسين سنة خلت (٣) ويمكن ايجاز اسلوب الليالي الفني ، من انه ذلك التتابع الحدوثي المتسلسل دون الوقوف عند حدث صغير معين

القرآن كان يواجه لدى المشركين بدعوى انه ذا جذر خرافي ، الا ان القرآن اثبت العكس من ذلك عندما ربط « كلية » الحياة الجديدة التي دعا اليها بتاريخ الانسان ككل ، فكان يفرز بين حكايات الانبياء والمرسلين ، وبين خرافات العامة ، فانصر للدولي باعتبارها جزءاً من ترسيخ الفكر الديني - الفلسفي ، ورفض الثانية باعتبارها جزءاً من ترسيخ العقيدة الجاهلية . وقد نبذ النبي محمد (ص) حكايات « النفع » او « الفشور » (٧) كما نبذها بقية الأدبان السماوية ، قديماً. نبذها افلاطون كذلك .

٧ - والحكاية ككل في الليالي ثلاثة اشكال متميزة ، الحكاية الخرافية ، والحكاية الشعبية ، والحكاية التي تجمع بين الاثنين ، ولهذا التنوع اسبابه الفنية التي تبعت اساساً من محتويات الحكاية نفسها . وقد اشبعنا الكتب التي تحدثت عن انواع الحكايات بالتعريف والتفسير وبرزت الخصائص العامة والخاصة لكل من الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ، ويمكن الرجوع الى ذلك بسهولة (٨) ، الا ان النوع الثالث من الحكايات - لم تتطرق اليه هذه الكتب الا لماماً ، فالحكاية البين بين ، او التي تجمع بطلا وحدناً خرافياً الى جانب بطل وحدث شعبي ، تجعلنا نركز عليها هنا ، باعتبارها الشكل الذي اوجدته الليالي ، وغيرت به عن « كلية » الحس الشعبي العام الذي كان سائداً يومئذ ، والحديث عن « كلية » الحس الشعبي من خلال هذا النوع من الحكايات ، يقودنا الى تأكيد نواح هامة من خصائص التاريخ العام يومئذ ، وهو ما تطرقنا اليه بعض الشيء خلال هذه المقالة .

الا ان هذه الكتب تتحدث عن الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية من خلال الحكاية الاوربية والشرقية القديمة ، وهذا ما يجعل الكثير من الخصائص التي توردها منطبقة على حكايات الف ليلة وليلة ، ويبقى عدد اخر من الخصائص لم تشر اليه تلك الدراسات ، او اشارت اليه ضمناً ، ونكتفي هنا بإيراد الفروق بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية التي كونها « ماكس نوتي » وادرجها دير لابن في كتابه الحكاية الخرافية (٩) ، واود هنا الإشارة ، الى ان هذه الخصائص مبعثرة ، وموزعة على جميع صفحات الكتب ، ولذلك لجأت هنا الى تلخيصها واعدادها بشكل يوضح الفروق بين الحكاية الخرافية والشعبية بدقة .

وتأكدت اهمية الفن الروائي لليالي ، مما اثرته في الرواية الادبية في فترة نشوئها ، ونهوضها ، فقد امدتها بطاقة تعبيرية شكلية وفكرية ، وليس ما عرضته الليالي من حالات واوضاع ، هو الذي اثار روائيو القرن التاسع عشر (١٠) ، انما ما امدتهم به من سعة الخيال وتوالد الاحداث ، وامتداد المشاعر ، وعدم الوقوف عند منعطف واحد من منعطفات التاريخ ، وكانت بذلك توازن الحياة الاقطاعية والاستقرائية الادبية بشيء من الحياة العربية القديمة ، وكما اشرنا ان ترجمتها جاءت في نفس الفترة التي انتشر فيها الادب الشعبي ، والاغاني ، وهذا يعكس في جانب منه الحاجة التاريخية الى من يستوعب هذه الطفرات في حياة الشعوب ، فكانت الليالي النافذة الاكثر سعة للواقع الادبي الجديد .

٦ - وتعرزو العديد من الكتب ، ان اصل الليالي هندي وانها كتبت في القرنين التاسع والعاشر ، وبذلك الكتاب على هذا الاصل من ان طبيعة « الحكاية الهندية تمزج حكاية باخرى ثم مزجها معاً في حكاية ثالثة ، وفي اسلوبها الذي يتوقف بالحكاية مرة ثم يصلها مرة اخرى .. » (١١) ، الا ان الليالي ليست كلها حكايات هندية ، وهذا يعني ان الحكايات العربية تلبست الطريقة ذاتها التي اعتمدها الحكاية الهندية .

وتؤكد كتب المستشرقين من ان العرب عرفوا انواعاً عديدة من الحكايات : الشعبية والخرافية ، وعدها بلاشعر من ضرور النشر الادبي . وافرد لها فصلاً كاملاً في كتابه تاريخ الادب العربي فعرّفنا على الاسطورة البطولية ، والقصص الطريفة وقصص الشطار والاذكياء ، والقصص الغرامية والتعبير عن المثل الاخلاقية والحكمة والتجربة ، والاقوال المأثورة والامثال والحكم ، والنص على لسان الحيوان والحكمة المثلية والحكاية التقوية . وظهور حب الاستطلاع وحكاية البدو شبه التاريخية .. الخ (١٢) ، اضافة الى ما يؤكد ادم ميمز من شيوع فن القصص في بغداد وغيرها من المدن ، يوضح لنا ان للحكاية الشعبية والخرافية جذوراً تمتد الى القرنين الخامس والسادس استوعبتها الليالي ، كحكاية سليمان الحكيم ، واثر السحر والقدرة الخفية التي افردت لها الليالي الكثير .

وما يجعلنا نطمئن الى ان الحكاية في الليالي ذات جذور عربية واخرى فارسية وهندية هو ان الاسلام لم يقف بوجه هذا اللون من النشر ، بل ان

الحكاية الخرافية

- ١ - لا تتسلسل الحوادث فيها ، وانما تتكرر ، ولذلك فهي تصور الموضوع مرة واحدة وبطريقة أكثر تركيزاً بل أكثر اقتصاداً .
- ٢ - الحكاية الخرافية ذات بنية مركبة .
- ٣ - الحكاية الخرافية ذات بنية ملحمة مركبة.
- ٤ - تمطيك انطبعا بان ما تسمعه فيها ، سبق وان سمعته او هو من المعارف العامة .
- ٥ - تركز حدثها حول شخصية رئيسية مركزية
- ٦ - لا تتبدى الحكاية الخرافية فجأة بالحركة كما لا تنتهي فجأة بنهاية محددة .
- ٧ - الانسان في الحكاية الخرافية يتصل بمحض اختياره بقوى العالم الآخر .
- ٨ - الحكاية الخرافية ذات طريقة تجريدية في العرض .
- ٩ - لا تفصل كثيرا في العوالم الاخرى .
- ١٠ - الحكاية الخرافية تتحرك بين ما هو جاد وهزلي .
- ١١ - لا تتحدث الحكاية الخرافية عن مخلوقات العالم الاخر بتفصيل . تحكى فقط عن العفاريت والجن والمردة ولكنها لا تصفهم .
- ١٢ - التبعات التي تلحق بطل الحكاية الخرافية تتحدد بما يستقبله من هذه القوى والتي تكون اما مساعدة له ، او معادية ، ولذلك فالمردة والجن وغيرهما لهم قوة محددة من قبل .
- ١٣ - الحكاية الخرافية تنتمي كلها الى الادب
- ١٤ - تنتمي الحكاية الخرافية كليا الى العالم الاخر ، الى الحقيقة الاخرية .
- ١٥ - عندما تتحدث الحكاية الخرافية عن الجنة مثلا ، تفرد التناقض بين فقر الحياة الارضية والحياة السماوية .

الحكاية الشعبية

- ١ - الحوادث فيها تتسلسل تسلسلا متصلا والموضوع فيها يسير في خط مستقيم .
- ٢ - الحكاية الشعبية ذات بنية بسيطة .
- ٣ - الحكاية الشعبية لا تعتمد البنية الملحمة لانها متسلسلة تسلسلا متصلا .
- ٤ - لا تقف كليا عند هذا الشرط ، وان اعتمدته جزئياً ، لان الحكاية الشعبية منفتحة اكثر على الحياة وعرضة لان ترداد حجماً وفتاً .
- ٥ - لا تركز حدثها حول شخصية رئيسية دائماً ، بل انها تصور الانسان الوحيد .
- ٦ - بينما تعتمد الحكاية الشعبية وضوح البداية والنهاية .
- ٧ - الانسان في الحكاية الشعبية ، وحيد ومتفرد .
- ٨ - الحكاية الشعبية ذات طريفة حسية من العرض .
- ٩ - تصور الحكاية الشعبية العوالم الاخرى بدقة وتفصيل ، مازجة كل ذلك بالطبيعة .
- ١٠ - الحكاية الشعبية جادة في طبيعتها.
- ١١ - تتحدث الحكاية الشعبية عن مخلوقات العالم الاخر بتفصيل ، عن ما ضيهم وعاداتهم اليومية .
- ١٢ - التبعات في الحكاية الشعبية هي الوفاء الذي هو نتاج للمواهب التي يستقبلها البطل من مخلوقات العالم الاخر . اي لا يكون دائماً مضاداً لها .
- ١٣ - اما الحكاية الشعبية فتعد مزجاً بالواقع الحقيقي ، وليس لها طابع ادبي صرف ، انها تود ان تحكى عن غرائب عالم الولاغ وغرائب العالم الاخر .
- ١٤ - تنتمي الحكاية الشعبية كلها الى الحقيقة الدنوية .
- ١٥ - تميل الحكاية الى تصور الفقر هذا ايضا ولكن المستخلص من الحياة الارضية فقط

الحكاية الخرافية

الحكاية الشعبية

- ١٦ - تعتمد الأحلام التي تصور المخاطر المفزعة والمواقف الصعبة .
- ١٧ - تعيش في جو من السحر الكامل .
- ١٨ - بطل الحكاية الخرافية مفاخر في الاغلب .
- ١٩ - بطل الحكاية الخرافية كلي ، بمعنى ان الزمان والمكان عنده غير محسوسين .
- ٢٠ - لا تتحدد الحكاية الخرافية بالانتماء الأسري ، القبلي .
- ٢١ - مادة الحكاية الخرافية ورموزها تتلخص في انها صورة للشئ المحرم الذي لا يحق للبطل ان يقترب منه .
- ٢٢ - تصلح الحكاية الخرافية لما يمتلكه من رموز ومستويات غير واقعية ان تكون مادة لعلم النفس وللاداب ، كما كانت رموزها منتشرة في العديد من النتاجات الادبية والفنية خلال القرنين الماضيين .
- ٢٣ - تعتمد الحكاية الخرافية على الاحساس الشعبي المتفائل .
- ٢٤ - يمكن اعتبار الحكاية الخرافية من اسمى صور الادب الرمزي .
- ٢٥ - الحكاية الخرافية، هي نتاج قوى الانسان الشعرية ، وعلى مدى حقب عديدة من تاريخ الانسان وتتصل بتاريخها الى اقدم العصور .
- ٢٦ - تهتم الحكاية الخرافية بالمتعة الفطرية في تصوير الامور الخارقة للعادة . تلك التي لا يمكننا على الاطلاق ان نصدقها .
- ١٦ - تعتمد عليها ولكن بحدود .
- ١٧ - تعيش في جو واقعي ، ولكنها تعرف القليل من السحر واشكال العالم المجهول. الا انه ليس السحر الذي تعتمده الحكاية الخرافية ويرجع ذلك الى اختلاف البطل بين الاثنين .
- ١٨ - بطل الحكاية الشعبية بالاضافة الى المفامرة اللازمة له ، يعيش الحوادث في العالم الواقعي ويصور المعاشة في العالم المجهول .
- ١٩ - بينما بطل الحكاية الشعبية ، يعيش الحاضر والماضي والمستقبل ولذلك تفعل الحكاية في الزمان وفي المكان .
- ٢٠ - تتحدد قيمة البطل في الحكاية الشعبية من انه ينتمي لهذه القبيلة او تلك ، وان للحكاية الناجحة هي التي تمجد القبيلة او الاسرة ، مؤكدة على الروح الشعبي العام .
- ٢١ - لا تتحدد دائماً بهذا الفهم وان استخدمته بعض الاحيان .
- ٢٢ - تعطى الحكاية الشعبية طاقة فكرية لخيال الابداء ، ولكنها لا تصلح ان تكون مادة للدراسة النفسية .
- ٢٣ - بينما تعتمد الحكاية الشعبية على الاحساس الذاتي .
- ٢٤ - لا ترتقى الحكاية الشعبية الى مثل هذا المستوى .
- ٢٥ - اما الحكاية الشعبية فهي اقصر زمناً ، ولكنها نتاج ايضاً لقوى الانسان الشعرية والاجتماعية .
- ٢٦ - تبنى الحكاية الشعبية بعض اجزائها على معتقدات الناس الحقيقية والبعض الاخر على المتعة الفطرية .

الهوامش

~~~~~

(١) من الليالي القصيرة مثلاً الليالي بين ٨١. و ٨٢. ، طبعة بولاق - اوفسيت ومن الليالي الطويلة ليلة ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ .. وعموماً نجد ان ليالي الجزء الاول اطول بعض الشيء من ليالي الجزء الثاني ، وسبب ذلك يعود الى التناثر والمعد .

(٢) الحكاية الخرافية . فرديش دير لاين ، ترجمة الدكتور نبيلة ابراهيم ص ١٩٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٠ ، حيث يعتبر عام ١٧٠٤ بداية لنقل حكايات الف ليلة وليلة الى اللغة الفرنسية .

(٤) المصدر السابق ص ١٩٠ .

(٥) المصدر السابق ص ١٩١ .

(٦) تاريخ الادب العربي ، بلاشير ، ص ٤٠٤ - ص ٤٩٢ ، ترجمة د . ابراهيم الكيلاني ، دمشق ١٩٧٤ .

(٧) الحكاية الخرافية ص ١٢٨ .

(٨) بالاضافة الى كتاب الحكاية الخرافية ، كتاب اشكال التعبير الشعبي للدكتور نبيلة ابراهيم الذي استفادت من الحكاية الخرافية الشيء الكثير .

(٩) الحكاية الخرافية ص ١٢٦ وما تلاها : وهناك مصادر اخرى استفدت منها في هذه المادة ، اذكر منها :

١ - الرواية التاريخية ، تاليف جورج لوكاشي . الدكتور صالح جواد كاظم ونشرتها وزارة الثقافة والفنون العراقية عام ١٩٧٨ .

٢ - الامم السياسية في حكايات الف ليلة وليلة . للاستاذ احمد محمد الشعاذ منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية عام ١٩٧٨ م .

٣ - الطيمة التي اعتمدها من الليالي ، هي طبعة بولاق ، اوفسيت مكتبة المثني .

٤ - البطل في الادب والاساطير ، للدكتور شكري محمد عياد .

٥ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متر .

وبالامكان ايراد عدد اخر من الفروق الثانوية ولقد حرصت هنا ان ادرج الفروق الجوهرية والاساسية بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية . وغايتي من وراء ذلك ليس البحث في هذه الفروق - ولا محاولة وضع جدول تفصيلي لهما - وانما اردت ان اوضح لقارئ الليالي قضية مهمة وهي :

ان الحكاية في الليالي لاتشابه احياناً مع اي من ابعاد انكبايتين باتتمام ، فهي تحمل من خصائص الخرافة شيئاً ، ومن خصائص الحكاية الشعبية اشياء ، ولذلك يمكن ان نطلق عليهما حكاية البين بين ، اي حكاية الليالي ذات الاجواء الاجتماعية الخاصة . والتي تعبر عن مرحلة تاريخية مهمة من تطور المجتمع العربي . عندما وجدت الحياة الشعبية مادتها الى جانب الموروث الحجمي الذي حملته الشعب من عادات وتقاليد واساطير ماضية ، ووضعت كل هذا المزيج الحضاري انجديد تحت سماء الدين الاسلامي فحذف وازاد ، وشذب واناظ ، فجاءت حكاية الليالي ذات خصوصية اجتماعية - تاريخية تحمل في بنيتها ما تعارف عليه الدارسون من خصائص للحكايات ، كما حملت كما يقول دبير لاين وغيره خصائص الحكاية الهندية والفارسية والبابلية والفرعونية ، وتوسعت باعتبارها نتاج المجتمع العربي الواسع الذي يطل على بحار ثلاثة ، لتشمل الحس الشعبي الاوربي النامي في اغاني الرعاة والاناشيد والفنائيات التي بدأت تظهر في ربوع اوربا يومذاك ، غير عاداته النافذة الواسعة التي خلقها المجتمع العربي في اوربا ، الا وهي اسبانيا .



ومرة اخرى ، اعود لآكرر القول ، ان الرحلة مع الليالي متعة لا تنتهيها ، نهاية صفحاتها ، والرحلة مع الليالي ، اكتشاف تستحق ان يعرف المرء الوقت الكثير للايفاء بها .

# العجوز في ألف ليلة وليلة

بقلم

عبد الغني التلاخ

بغداد - الجمهورية العراقية

فها هي بغداد الاسطورة الى جانب الصين الاسطورة  
وها هي جزر الاندونسيا و ( واق الواق ) الى جانب  
جزر بحر الروم ( الابيض المتوسط ) . وها هي  
مدن الفرنجة ( اوربا ) الى جانب مدن بلاد فارس  
وها هي صور كسرى انوشروان وحكمته الى جانب  
صور هارون الرشيد وعظمته وها هم حكماء الهند  
الى جانب ابي حنيفة والنظام . وها هم الملوك  
والوزراء يقفون الى جانب ملوك الجان وملوك القرود  
وها هم الزهاد والفلاسفة الى جانب المجوس  
والكفرة .

فاذن يضم كتاب الف ليلة وليلة تجارب  
الشعوب المختلفة والازمان المتعاقبة ، مطعمة بامال  
النفس الانسانية والامها التشبثة بالاحلام والاخله  
كما توحينها لها او تمنهاها الشعوب المظلومة لتجتار  
بهذه الاخيلة المطرزة بالاسماء الحقيقية في بعض  
الاحيان والاحداث الواقعة فملا عبر التاريخ في احيان  
اخرى ، تجتاز النظم السائدة والسيطرة على  
الانسان بصورة عامة وتعمل على فضح حماقات  
السلطان وابتعاده عن ادراك مصالح الفرد الذي لا  
يقدر ان يصل الى مآربه بالدهانة والنفاق او بكنز  
يعثر عليه في باطن الارض او بجني مطيع للطلاسم  
والرموز او بمعجوز تقوده الى تحقيق امانياته بالسكر  
والسحر والاحتيال .

وكانت الاوضاع السائدة والممارسات المعترف  
بها في تلك الفترات الزمنية بصورة عامة قد جمعت  
المجتمعات متلاطمة بالتناقضات الفكرية والاجتماعية  
والسياسية ، مما حدا بالفنان العبقري ان يتذرع  
بالتجربة ويسبغ عليها قليلا او كثيرا من الاخيلة لكي  
ينزح الحسرة والالام من صدور الاثرية فتشمر  
بالراحة النفسية الموقفة او تتطور تلك الراحة الى

ليست المهمة التي انيطت بالمعجوز في قصص  
الف ليلة وليلة وحكاياتها مهمة مدانة اجتماعيا كما  
يتصورها القارئ لأول مرة ، او انها مهمة اقحمت  
لاسباغ روح الدعابة على الحكاية ، او محاولة  
لتجسيد التفسخ الاجتماعي الذي حل بعد اتساع  
الرقعة العربية والاسلامية اثر الفتوحات الكبيرة  
في العهود المختلفة التي ابتدأت بعد الهجرة وانتهدت  
في اواخر العهد العباسي وما طسرا من تزاوج  
الحضارات القديمة الفارسية والهندية والرومانية  
والصينية مع الحضارة العربية الفائزة بسرعة هائلة  
من التطور البدوي الى الطور الحضاري وما تخلل  
ذلك من تناقضات فكرية واجتماعية ونفسية ومد  
وجزر بين الانشداد بالتراث الموروث المكتسب ، مما  
جعل من الامور الطبيعية ان تسلك - المعجوز -  
وهي من ابطال الليالي الرئيسية - مسلكا متميزا  
وتتمتع الزهد تارة والسحر والاحتيال احسانا  
وقيادة العشاق الى معشوقاتهم او العاشقات الى  
عشاقهن لوجه الله تعالى او من اجل الكسب  
والانثراء .

وقبل ان نصدر حكما ساذجا على مهمات  
عجائز كتاب الف ليلة وليلة ، علينا ان نلقي نظرة  
سريعة بشيء من التأمل والمحاكمة العقلية على  
العصور الطويلة التي تم خلالها جمع هذه الحكايات  
في كتاب واحد ، وبصيغة اصح ، على العصور  
المتداخلة بعضها ضمن الحكاية الواحدة بالاضافة  
الى تلمس المقدرة الفنية والبراعة التي مارسها  
المؤلف او الحكواتي في جمع عدة مجتمعات ، مختلفة  
النشأة ، ومتباينة الاعراف ، ومتضاربة المكان ،  
ومتباعدة الزمان ، واظهرها باطار واحد شفاف  
نرى من وراءه كل هذه التناقضات الزمانية والمكانية

والاحاديث النبوية في المعاملات اليومية التي يمارسها  
الانسان ويرتبط بها .

وكنموذج لهذا السلوك الانساني ما تطرقت  
اليه حكاية ( تودد الجارية ) اذ تحدثنا عن شاب  
كان ( فريد دهره واحسن اهل زمانه وعصره ذا  
وجه مليح ولسان فصيح يتهادى تمايلا واعتدالا  
ويتراعى تدللا واختيالا بخد احمر وجبين ازهر  
وعذار اخضر ) . ورث اموالا طائلة عن ابيه فيبذرها  
في مصاحبة اصدقاء السوء ولم يبق لديه غير جارية  
اسمها ( تودد ) فنصحته ان يبيعها الى الخليفة  
هارون الرشيد بعشرة الاف دينار بشرط امتحانها  
قبل عقد البيع ، فظهرت براعة فائقة في علوم النحو  
والشعر والفقه والتفسير واللغة والموسيقى والفلك  
والفرائض والحساب واساطير الاولين واعراب  
القرآن والفراءات السبع والمساحة والرياضة  
والهندسة والفلسفة والحكمة والمنطق . وانظرت  
( النظام ) شيخ المعتزلة فقلبتة وانظرت غيره من  
العلماء والاطباء والمنجمين والمهندسين والفقههاء  
فانتصرت عليهم جميعا وعزتهم من ثيابهم تحقيرا  
لجهلهم وربحت جائزة الخليفة وعادت الى حبيبتها  
الشاب .

وعندما يقرأ الانسان المعاصر هذه الحكاية  
يلمس فيها روح الشماعة الموجودة لدى الطبقات  
الشعبية البعيدة عن السلطان ، بالعلماء القريبين من  
الخلافة كما يلمس العلوم الحقيقية ، ومناقشتها .  
ولكن الصواب في المناقشة جاء على لسان جارية  
عاشقة لشاب فقير معدم فاجتهدت عن طريق  
معرفتها العلمية للعودة الى المحبوب فانحمت  
بمنطقها وسعة معرفتها العلماء واظهرتهم امام  
الخليفة بمظهر الجهلة .

وتتكرر في الليالي ظاهرة الجوّاري البارعات  
في المعرفة وهن يناظرن في الشعر والغناء وغيره .  
وتسير هذه الظاهرة بخط مواز لظاهرة اخرى  
لا تقل اهمية عنها ، هي ظاهرة المعجزات ودورهن  
الاجتماعي في فترة طويلة كانت فيها زحمة السبايا  
والرقيق واسواق النخاسة من العوامل المؤثرة في  
الاجتماعات تحت نظام معترف به رسميا يمتد بعمقه  
التاريخي الى عهد الحضارات الاولى في وادي  
الرافدين ووادي النيل والاغريق والصين . ولكن  
تبلور هذا النظام في العهد العباسي بصورة خاصة  
دفع الحرائر الى الانزواء في دورهن بضغط من  
الرجل ، غير ان الانفعالات العضوية والنفسية لم  
تخب جذوتها فاحتاجت الى جنني مطيع او مارد  
قدير او انسية متمرسة كاتمة للاسرار كي تصل

تصديق الحكاية ، وشفيح هذا التصديق الجهل  
العام في ادراك التجربة او مقارنتها فكريا بالموضوعية  
العلمية ، ( فاذا تبعننا تاريخ الاداب وجدنا ان  
الخيال يسبق الواقع في وجوده فيها مهما اختلفت  
الامم ) (١) بل يطمى عليه في كثير من الحالات ، وهذه  
الحقيقة التاريخية نابعة من المعاناة الانسانية  
المتلاحمة مع ازدواجية الخير والشر التي يتميز بها  
سلوك الانسان ومن التزاوج الفكري ما بين واقع  
الحال وبين الطموح نحو المركز والجاه والشهرة  
والعيش الكريم بالنسبة للمفهوم العام . وكثيرا ما  
يكون هذا التزاوج نتيجة حتمية للتامل بالفكر  
الموروث المقدسة او الانكار الذاتية الواقعة تحت  
مفاهيم ما يسمح به وما لا يسمح به ، مما يضطر  
الانسان الرافض ان يدل على قدرته في ادراك ما  
هو مغلوط او ما هو غير عادل بانكار جديدة مختفية  
وراء الرمز في الحكاية او الاشارة في الاسطورة وذلك  
( بوضعه كائنا عضوا تخضع عملياته السلوكية  
والفكرية لعمليات عضوية تصبح شعورية ، بشكل  
مجموعها الكلي التصورات الذهنية للذات ) (٢) وهذا  
القول ينطبق على كل المجتمعات غير المتجانسة بيئيا  
وغير المتجانسة فكريا فيكون للفرد حرية كاملة في  
الحركة الذهنية المكبوتة طالما لا توجد حواجز تعوق  
الاخيلة والاحلام بينما الحواجز متوفرة بقوة لاعاقة  
الطموح الانساني وامكاناته تحت شعار الحرام  
والحلل وما لم يسمح به التقليد او يسمح . وازاء  
هذه الحقائق البيئية في مجتمعات العصور الوسيطة  
وما قبلها نما سلوك انساني معبر بالحكاية وبالرواية  
انشدت اليه الجامعات البشرية في مرحلة من مراحل  
تطورها الفكري مزجيا عجيبا من الايمان بالخرافة  
والايمان بالتححرر الفكري في آن واحد . فها هو  
الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور لا يضع الحجر  
الاساس لمدينة بغداد الا بعد ان يحدد له منجمه  
( نوبخت ) (٣) ساعة المباشرة . وذلك عن قناعته  
بتأثير النجوم على اعمال اهل الارض بينما نجد في  
الفترة الزمنية نفسها الامام جعفر الصادق يؤسس  
قواعدا للفقه الاسلامي والامام ابو حنيفة يضع  
( نظرية المعاملات في الفقه الاسلامي ) ومالك بن انس  
يغف لفقه الاسلامي (٤) . وذلك بادق ما تقتضيه  
الحاجة الاجتماعية للتعامل ضمن النصوص القرآنية

- (١) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٢٦ .
- (٢) ل. هول وج . لندي : نظريات الشخصية ص ١١٦ .
- (٣) الهمداني : بغداد مدينة السلام . تحقيق د. صالح احمد المي ص ٤٠ .
- (٤) د. مهر فروغ : عقيدة الصرب في العلم والفلسفة ص ١٧٢ وما بعدها .

من أيدي الصليبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي وحكاية الخياط والإحديب واليهودي والباشير النصراني ( التي ورد فيها اسم الخليفة المستنصر بالله(٨) ) وبهذه المؤشرات وغيرها تقدر ان تقرر ان مجموعة الليالي جاءت نتيجة للفكر الانساني من خلال عدة قرون اندمجت مع بعضها بازمان مختلفة كان لابطالها اوجه شبه بالنسبة للتطلعات العامة التي بقيت دوافع ظهورها لصيقة بالحرمان العام والقلق المستشري من اجل الثروة والجاه والعرض حيث ( يوجه الراشدون سلوكهم في ضوء قواعد واضحة ) (٩) وذلك يعني ان ظاهرة العجوز في الليالي تجسيد لمعاناة الجوارى والحرائر على حد سواء بكل جوانبها المضطربة مما جعل سلوكها في الليالي امتدادا للذات المحرومة فراححت تخطط لتحقيق امال تعينها على سحق الحرمان بسلوك كان يعتبره المجتمع السائد مقبولا بالاضافة الى خضوعه للوقائع اليومية في ممارسات الحياة .

وتتميز عجوز الف ليلة وليلة بالمقدرة على التكيف الخلقي . فهي زاهدة تحمل سحنة لذكر الله وابريقا للوؤء وهي ساحرة تركب الزبير وتطير به وهي فارسة شجاعة ومقاتلة بارعة وهي انسية خبيثة كمجوز كعجوز ذات الدواهي في حكاية عمر النعمان ) وهي جنية طيبة كمجوز ( جزيرة واق الواق ) في حكاية ( الحسن البصري ) وهي عربية كمجوز ( مزين بفسداد ) وهي ( فرنجية ) كمجوز اديرة بلاد الفرنجة في حكاية علاء الدين ومريم الزنارية . وهذا التحول يمثل تداخل الحضارات باوسع مظاهره من جراء سعة الرقعة الجغرافية للامبراطورية الاسلامية . ومن جهة اخرى ان هذا التداخل يشرح لنا بشكل مباشر او شكل مواسط العوامل الفريدة بالنسبة لهيكل كل حكاية من الحكايات على حدة . وهذه الادوار المختلفة لا يمكن فصمها عن حياة الفرد فهي ( استمرار الطبيعة العضوية للسلوك من حيث انه لا يمكن فهم جزء منفرد منه بطريقة عزله عن بقية الشخص الممارس له ) كما يقول ( هنري موراي ) وهذا السلوك مستمد من حاجة قاعدة الهرم الاجتماعي وتشابك اولياته الفكرية والبيئية ، فليس من حقنا ونحن نعيش مفاهيم القرن العشرين ، اذانة سلوك العجوز في

- (٨) ان كان المقصود بالمستنصر ابن الخليفة الظاهر بالله فانه تقلد الخلافة سنة ٦٢٢ للهجرة وان كان المقصود به المستنصر بالله الذي هرب الى مصر بعد سقوط بغداد على يد هولاكو في عهد سلطان مصر الملك بيبرس فقد يوبع في مصر سنة ٦٥٨ للهجرة .  
(٩) ل. هول . وج . لنذري : نظريات الشخصية ص ٢٦٢ .

بوساطتها الى متطلبات الحياة المادية والحسية فجاءت حكايات الليالي تصور المرأة في تلك المجتمعات على اختلاف طبقاتها بهذا الاتجاه السلوكي ، وحتى سيدة القصر العباسي ، الاولى زبيدة زوجة هارون الرشيد لم تسلم من هذا السلوك فصورتها الحكايات تنامر على جاريتها ( قوت القلوب ) غيرة وحسدا وترسلها مع العبيد لتدفنها حية كما جاء في حكاية ( غانم ابن اوب ) وقد سبغ الخيال رونقا جذابا على ذلك وصغفه ( صبغنا قويا بواقع هذه الحياة ) (٥) المليئة بالعقد والتناقضات .

ويتميز مثل هذا الواقع المرز بالخيال . او الخيال المبني على لمحات واقعية بحكاية تلك العجوز التي قادت شابا عاشقا الى دار قاضي بغداد للاتصال بابنته ( الحرة ) المحجوة عن المجتمع وانشطته داخل الجدران ، ولكن ( مزين بفسداد ) افسد تلك الخلوة الفرامية بشرئوته المهودة . واهمية حكاية مزين بفسداد - بنظري - ناتي من كونها الحكاية الوحيدة في حكايات الليالي التي تسجل لنا تاريخا ليكون بمثابة مؤشر ينهنا الى الفترة الزمنية التي تم فيها تاليف هذه الحكاية بالذات . فقد جاء في وصف المزين عندما اراد ان يخلق رأس الشاب العاشق قبيل ذهابه الى دار القاضي حسبا ارشدته العجوز على لسان العاشق نفسه ما ياتي : ( ومد يده واخرج مندبلا وفتح واذا فيه اصطرباب وهو سبع صفائح فاخذه ومضى الى وسط الدار ورفع راسه الى شعاع الشمس ونظر مليا وقال لي : اعلم انه مضى من يومنا هذا وهو يوم الجمعة : وهو عاشر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام ) وطالعه بمقتضى ما اوجبه علم حساب المربخ سبع درج وستة دقائق ( كذا ) واتفق انه يدل على ان خلق الشعر جيدا جدا (٦) . فهذا النص بالاضافة الى ما فيه من حضارة الاصطرباب وحساب النجوم يحدد لنا ان هذه القصة كتبت في او بعد العاشر من شهر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة للهجرة . كما انه ينبغي باصرار ما يظنه بعض الباحثين ان حكايات الليالي كانت قد اخذت صيغتها النهائية في عهد الدولة الفاطمية التي انتهى عهدها قبل هذا التاريخ . وهناك اكثر من حكاية تشير بشكل او باخر الى فترات تاريخية معلومة . كحكاية ( الصعيدي وزوجته الفرنجية ) التي تشير الى تحرير ( عكا ) (٧)

- (٥) سهر القلمواي : الف ليلة وليلة ص ٢٨ .  
(٦) الف ليلة وليلة ج ١ ص ٩٠ يولاق .  
(٧) حمد صلاح الدين الايوبي عكا سنة ٥٨٢ للهجرة راجع ابن الاثير في الكامل ج ٩ ص ١٧٩ .



وضمها في حكاية الحسن البصري ، وعندما تكون ( محتالة ) ( كدلية ) تضطر الى الاستجداد بانبتها الجميلة ( زينب النصابة ) لايقاع المسؤولين في الحب فتسلب اموالهم . بينما نجدها عندما تكون زاهدة تقوم بعمل لا اخلاقي فتفرق بين الزوجين ( نعم ونعمه ) طمعا بجائزة السلطان . وهذه الادوار المختلفة والمتباينة تجرنا جريا الى التفاصيل . فلنختار اربع عجائز لهذا التحليل الموجز .

### اولا - عجوز جزيرة واق الواق :

قبل التطرق الى الحكاية لابد من الاجابة على سؤال كثيرا ما شغل فكر الباحثين وهو : هل جزيرة واق الواق خيالية اخترعها الحكواتي ام هي جزيرة حقيقية ؟ وان كانت كذلك فاين موقعها ؟

يرى بعض الباحثين انها جزيرة ( سيلان ) وبعضهم قال انها جزر اليابان ومنهم من قال انها جزر الفلبين . ولكن شيئا واحدا كان يجب ان ينتبه له الباحثون وهو ان هذه اللفظة ( واق الواق ) لا تزال لحد الان اسما جغرافيا يقع في ساحل الجنوب الشرقي لآستراليا ويسمى ( واغ واغ ) او بلفظ بالكاف الفارسية ( واك واك ) . وقد ثبتت دائرة المعارف البريطانية في اطلسها بهذا اللفظ ( Wagga - Wagga ) ( ١٠ ) كما توجد في جزيرة ( سليبس ) في اندونيسية هضبة اسمها ( وا - وو ) ( Wa - Wo ) ( ١١ ) وهناك جزيرة صغيرة قرب جزيرة ( غينيا الجديدة ) تابعة الى اندونيسيا ايضا اسمها ( واك واك ) ( Waig - Eo ) ( ١٢ ) فهذه الاسماء الجغرافية المعروفة والتي ثبتت اسمائها حسبما يلفظها السكان المحليون تقودنا الى الظن بل الى الاعتقاد بان البحار العربي وصل هذه الجزر النائية وسمع اسماءها من اهلها ( واغ واغ ) ( واك واك ) ونقلها الى عربيته ( واق واك ) . فتثبتت بها الحكواتي وسبغ عليها فنه الاسطوري وتحدث عنها باعتبارها من الجزر التي يسكنها الجن وذلك في حكاية ( حسن الصانغ البصري ) .

وتتلخص الحكاية بكون حسن البصري غادر البصرة مخدوعا على يد مجوسي طمعا بتعلم صناعة الكيمياء والحصول على السحوق الذي يحول المعادن الرخيصة الى ذهب وبعد مغامرة بحرية مميتة اكتشف الخدعة ولكنه عثر قرب ( جيسل

( ١٠ ) راجع اطلس دائرة المعارف البريطانية ص ٣٦٤ بالنسبة للهرست الجغرافي وص ٦٦ بالنسبة للموقع على الخريطة . طبعة ١٩٦٥ .

( ١١ ) المصدر نفسه ص ٦٢ .

( ١٢ ) المصدر نفسه ص ٦٢ .

حكاية تحمل الاسطورة والخيال بنفس كميات الواقع المستمد من طفرة نقلت البداوة بكل اعرافها الى موقع الحضارات المعقدة ، فلم تهضم اعرافها بالسرعة المطلوبة مما زاد المجتمعات تعقيدا وشذوذاً ، فنتج من جراء ذلك حكايات ذات بناء خاص يعتمد على الجارية العاشقة والزوجة الخائنة والمجوز الفوادة وصاحب الثروة الذي لا يعرف قيمة ثروته والفقير المدوم الذي ينتظر كنوز سليمان بمعجزة والشيخ المجوسي الذي يؤدي المسلمين والتاجر المغامر والمغرب الذي يجوب السماء فيقطع ارجاء الكون بغمضة عين ولا يخشى من شيء سوى ذكر الله عندما يكون قريبا من السماء الدنيا .

فكل هذه الصور المعبرة عن تكوين شخصية مجتمعات الف ليلة وليلة تؤكد تآثر المتغيرات العقلية في تكوين الشخصية عبر تلك العصور وتبرير نموها ومراحل ذلك النمو . ولكن الحكاية المقبولة للتعبير عن تلك المتغيرات فزت من اعماق النفس الانسانية كإفعال حتمي شأنه نقل التراكمات المتفاعلة في اللاشعور الى السطح . اذ يقول علماء النفس ( انه ليس للمفاهيم السائدة جميعا ما يربطها بالشعور الواعي ) وانما بعضها وربما اكثرها مربوط بالشعور غير الواعي . فمن الطبيعي اذن ان تكون تلك الحكايات التي ليس لها رباط قوي بالمفاهيم المألوفة متولدة بشكل اخيلة يحدد صيغتها سلوك الفرد دون وعيه . ولا يكون الفرد في هذه الحالة ، فيما اذا كان حكواتيا او مستمعا ميلا الى التصديق فحسب وانما يكون ميلا ايضا الى تبرير ما يحكى او ما يسمع . لانه يتقلب من مدهوش الى توفيقى بين تناقضات الحاجات الكامنة في اعماقه وبين الحاجات الظاهرة وبذلك يضمن لنفسه رضا الاعراف السائدة من جهة ورضا الاحلام المرغوب فيها التي ترفض الاعراف السائدة وتضع الاخيلة بدلا عن طريق احلام اليقظة بقدر ما تتسع لذلك اعماق النفس المليئة بالتراكمات المعسوة الخائفة لسلطان الجهاز العصبي الذي كثيرا ما يتخطى في عزل ما هو معقول عن ما هو غير معقول ويعجز عن ذلك بتأثير الطموح للحصول على ما هو مرغوب دون ما هو غير مرغوب حتى لو كان ذلك عن طريق وسيط ساحر او مارد طائر او كنز وافر . او جارية جميلة او شمعاء مأكرة . ولكي نفهم دور عجوز الليالي فهما موضوعيا علينا ان نتحرى عنها بشيء من التفصيل ونعاملها بالتحليل والتمايل . اذ اننا كثيرا ما نلاحظها عندما تكون قائدة لجيوش الجن والمغارب تعجز عن اتصال المشوق الى معشوقته الا بمساعدة غيرها كما كان

وبعد عقبات وتعرض للهلاك يعثر حسن البصري على ولد بن يتخاصم في قسمة (طاقية الاخفاء) و ( قضيب مسحور ) تطيع الجان مالكة اذا ضرب به الارض كان قد خلفهما لهما والدهما . فيحصل حسن البصري على القضيب والطاقية وبهما يحصل على زوجته وينفذ المعجوز من غضب ( نور الهدى ) بعد ان علمت انها كانت السبب في حماية هذا الرجل الذي دخل جزيرة واق الواق التي لا يسكنها غير النساء ، وانها عرضت عليه جميع النساء ليتعرف على زوجته من بينهن غير مراعية لتقاليد العامة في الجزيرة .

هذا هو ملخص الحكاية . فاذا اردنا تحليل رموزها (بقدر ما يتعلق بموضوعنا في هذا البحث) فلا بد لنا من محاولة الاجابة على مثل هذه الاسئلة لفهم طبيعة الانفعالات التي كونت مجتمعات الف ليلة و ليلة في هذه الحكاية .

١ - لماذا لم تستجب السيدة زوجة هارون الرشيد الى توسلات ام حسن البصري في عدم تسليم ثوب الريش الى الجنية زوجة ابنها . وقد علمت مسبقا انها اذا لبسته يساعدها على الهرب ؟

٢ - لماذا كان سكان الجزيرة من النساء فقط ، ولماذا كانت زوجة البصري بنت ملك الجان ؟

٣ - لماذا اخفت الجنية المعجوز سر دخول حسن البصري الى الجزيرة المحرمة على الرجال وهي في مركز المسؤولية قائدة لمسكر النساء ؟

٤ - لماذا اختار الحكواتي جزيرة واق الواق النائية جدا لتكون اهم مسرح لاحداث حكايته ؟

اختار القاص او الحكواتي شهر سيدة في دار الخلافة العباسي لتكون رمزا حقيقيا للتباعد بين واقع السلطان وبين واقع المجتمع العام وتمكن بهذه الحكاية ان يوضح ان السلطان لا تمه معاناة الناس ومصالحهم بقدر ما تمه رغباته . فمن اجل ان تستمتع السيدة الاولى في القصر العباسي برقص الجارية الجنية وتمتع بفنونها فرقت بين زوجين سعيدين ضاربة بذلك عرض الحائط ما علمته مسبقا من انها بنزوتها الانانية هذه ستحطم قاب انسان من اجل الحياة . واختار القاص جزيرة واق الواق وجعلها مسكنا للنساء فقط للاعتراض على نظام الحرمان المحاط بالاساطير الباهرة . فهذه الجزيرة بمثابة تعريض بالنظام الذي خول المترفين والسلطين بملاون قصورهم بالحرمان عن طريق الاسر او سوق

السحاب ) على (جنية جميلة ) كانت هي وجنيات اخريات ياتين الى بحيرة بهيئة الطير وينزعن عنهن ريشهن ويلعبن داخل الماء ويسبحن . فتزوجها بعد ان احتال عليها بخطف ريشها المنزوع وعاد بها زوجة حليلة الى بغداد . وسمعت بجمالها السيدة زبيدة فارسلت تستدعيها للنظر اليها . وكان زوجها حسن البصري قد اخفى ثوبها الريش لئلا تلبسه وتهرب وذلك من شدة حبه لها . فاستغلت الجنية اعجاب السيدة زبيدة بها وطلبت ان تتدخل في احضار الثوب الريشي وتسادها وهي ترقص به . وحاولت ام حسن البصري ان تفهم السيدة زبيدة ان ابنها مسافر وزوجته تحاول الهرب فلم تقنع بل ارسلت واحضرت الثوب الريش بالقوة فلبسته الجارية وطارت هاربة بعد ان قالت لحمايتها ( اذا جاء ولدك وطلت عليه ايام الفراق واشتهى القرب والتلاق وهزته رياح المحبة والاشتياق فليجئني الى جزائر ( واق الواق ) ، ثم طارت .

ويعود ( حسن ) فيكتشف هروب زوجته فيغامر في رحلة مليئة بالمناعب ويجتاز ( الجزر ) الكثيرة بمساعدة شيوخ الجان والمغارب حتى يصل الى جزيرة (الواق) . وهنا يبدأ دور المعجوز الكبير في ايصال حسن البصري الى زوجته . وقد ورد اسم ( جزيرة الكافور ) خلال رحلته . وكان قد اخبره المارد المغرب (ابو الريش ) ان جزيرة (واق) لا يسكنها غير النساء فاذا طلع اليها عليه ان يختفي تحت احدى الدكاك الموجودة على الساحل حيث كل دكة تجلس عليها فتاة ثم يتشبث بصاحبة الدكة التي سيختارها في توصيله الى محبوبته . ولكن حظه سيكون ضعيفا لان ساكنات تلك الجزيرة يقنن كل رجل . فعملية ان يكون حذرا ، فاختر دكة واخفى تحتها .

فلما اقبل الليل جاء خلق كثير من النساء مثل الجراد وسوفهن مشهوره في ايديهن ثم جلسن على الدكاك للاستراحة فجلست واحدة منهن على الدكة التي تحتها (حسن) فاخذ طرف ثوبها وصار يقبل يديها وقدميها فقالت له ( يا هذا قم واقفا ان تراك احداهن فتنتلك ) فقال لها ( يا سيدتي انا في جيرتك ) وحكى لها قصته ثم رآها عجوزا كبيرة وعلم انها قائدة لجيش النساء في هذه الجزيرة واسمها ( شواهي ذات الدوهي ) . ثم علم بعد ذلك ان زوجته هي بنت ملك الجفان . وعلمت المعجوز جهدها لمساعدته ولكنها اخفقت نجاه عناد ( نور الهدى ) اخت زوجة حسن البصري الكبرى والتي كانت حاكمة على تلك الجزيرة .

ويتخلل الحكاية وقائع فردية بين المسلمين والافرنج خلال الهدنة وهي كثيرة الشبه بالهدنة التي اعلنها صلاح الدين الايوبي مع الجيوش الصليبية كما حدثنا عنها ( مؤيد الدولة أسامة بن منقذ ) وهو من امراء ( شيزر ) القلعة الاسلامية في سوريا ومن ضباط صلاح الدين الايوبي (١١) . ومن خلال هذه الحكاية يبرز دور العجوز بصفتها اما لاحد ملوك الصليبيين وقد تنكرت بري الصالحات المسلمات وتحدثت في فقه الشافعي وغيره وروت الحديث ، كل ذلك حتى تتقرب من القائد الاسلامي وندس له السم انتقاما لما فعله بالجيوش النصرانية . واما خلال فترات الهدنة تتغير مهمة العجوز واذا بها تظهر بشكل قوادة تصيد المشوقين وتقودهم الى عاشقاتهم كما حدث لعزير وعزيرة (١٥) . ولو حققنا في اسباب تنكر عجوز الصليبيين زي صالحات المسلمين وزهداتهم لوجدنا ذلك مستمدا من الايمان العام الذي كان يفسى المجتمعات الاسلامية ويصدق بالخوارق والمعجزات على يد الصالحين والزهاد ولدراويش والمتصوفة . فيروي لنا ابن الجوزي هذه الرواية قال ( شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبدالله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة فقالت يا سيدي انك كنت ممن شهد في صدائي وقد فقدت كتاب المهر واسالك ان تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم . فقال ما افعل حتى تاتيني بحلاوة فوقفت المرأة وهي تظن انه يمزح بقوله لا تطيلي . لا امضي معك الا ان تاتيني بالحلاوة . فمضت ثم عادت فاخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاسا فيه حلاوة يابسة . فتعجب اصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعفقه فاخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فسرغ القرطاس . ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته فقال (خذي صداقك فهذا هو) (١٦) فاستعظم من حضره ذلك واعتبروه كرامة .

وهناك مئات القصص التي تتناقلها ابناء الشعب دخلت كتب التراث عن الخوارق والكرامات التي لا يصدقها العامة فحسب بل يصدقها الخاصة بشكل سهل مهمة عجوز الروم للتجسس على جيوش المسلمين وقتل قائد جيشهم مستغلة المزاج الشخصي في التثبث للبقاء في قمة المجتمع ، والطريف في عجوز الروم ان اسمها ايضا (شواهي ذات الدواهي) كعجوز الجن في جزيرة واق الواق .

(١١) انظر كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ تحقيق فليب حتى سنة ١٩٢٠ .

(١٥) عبدالغني الاصح . رحلة عبر الف ليلة ليلة ص ٢٧ .

(١٦) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٧٠ .

النخاسين ويحيطون قصورهم بقليل او كثير من القدسية . فكان لابد ان تراود مخيلة العامة ضروره بطل يقتحم هذه القصور تحديا لهذا النظام فكان ( حسن البصري ) هو البطل الذي تحمل المتاعب حتى اقتحم جزيرة واق الواق ولكي يسبغ القاص المتعة الذهبية . اختار اسم جزيرة حقيقية يتحدث عنها البحارة ولتجار وجعل سكانها من بنات الجان لما في هذا الاختيار من توفيق بين التزاوج الفكري في تلك العصور بين الاسطورة وبين الواقع . وزيادة في تحدي نظام الحريم جعل القاص بطله القصة بنت الملك الجان نفسه وذلك كاعتراض سلبي يوضح ان المرأة نفسها حتى لو كانت اميرة هي في موقع الاعتراض على فقدان الروح الانسانية في ذلك النظام . ولكن قلة تجربتها كأميرة صبية مندفة بعواطفها في الرضا والغضب والاستكانة والهروب كان لابد من ظهور امرأة مجربة بلغت من العمر عتيا لتسهل المهمات الانسانية والحياتية . ومن هذه النظرة جاءت اهمية دور العجوز الجنية ( ركابة الزير ) التي وقفت الى جانب عاشقين ( انسي وجنية ) وخاصمت السلطان وضحت بمركزها المرموق خارجة على قوانين تلك الجزيرة وانظمتها .

## ثانيا - عجوز الروم .

وقد جاء ذكرها في حكاية ( عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان ) التي تدور احداثها حول الحروب الصليبية بدلالة وجود مثل هذا النص ( فعا مر ثلاثة شهور حتى تكاملت جيوش الروم ثم اقبلت الافرنج من سائر اطرافها كالفرنسيس والنمسا ودبره وجورنه وبندي وجنوز وسائر عساكر بني الاصفر من القسطنطينية ) (١٢) . او ورود هذا النص (فاستقبلهم الافرنج بقلوب اقوى من الصخر واصطدمت الرجال بالرجال ووقعت الابطال بالابطال ) . او هذا النص ( حتى برز له شركان وقلبه من الفيظ ملان وساق جواده حتى دنا الافرنج في الميدان فكر عليه الافرنجي كالاسد الغضبان ) .

(١٢) من الواضح ان المقصود بذلك وصول الجيوش الصليبية من فرنسا والنمسا ودبريه والبندقية وجنوة . ويبدو ان العرب كانوا يخلطون هذه الاسماء حتى وقت متأخر كما نلاحظ قاص الف ليلة وليلة . اذ قد ورد في كتاب ( عجائب الآثار في التراجم والاخبار ) للجبرتي ، عن احداث سنة (١٢١٤) للهجرة وهي السنة التي انسحب فيها نابليون بونابارت من حصار احمد الجزائر في عكا كلمة ( النيمسا ) بدل النمسا والفرنساوية بدل فرنسا او الفرنسيين . راجع الجبرتي ج ٢ ص ٢٨٦ .

### ثالثا - عجوز الحجاج بن يوسف الثقفي

بعد ذاتها لم تكن في وضعها العام الذي لم يخولها ( ان تحب وتشقى بالحب ) (١٧) . وهذه الادوار لم تخرج عن كون مثل هذا الامر ( كان جارفا قويا فكثرت القصص حتى افسد بعضها البعض ) (١٨) بهجوم ابعادها وهذا لافساد ناتج عن الخوف من المستقبل والاعتراض على الحاضر . ويقول علماء النفس (١٩) ( ان استجابة الخوف يمكن ان ترتبط بآلة او بمثيرات لا تسبب الخوف لدى الفرد الساذج (٢٠) ، وهذه المثيرات التي وجدناها في عجائز الف ليلة وليلة جزء لا يتجزأ من شعور العوام السذج تبعث في نفوسهم الأمل في العثور على كنز او جارية جميلة او اقتحام قصور حريم الاكابر كما في حكاية ( الحشاش مع حريم بعض الاكابر ) وهذا الاطمئنان هو الجائزة الحقيقية للاستجابة النفسية في السلوك المركب الذي تتردد مقوماته بين واقع الحال وبين الأمل .

وهذا الانفعال النفسي الذي يحدث في اعماق الانسان عندما يسمع قصص الف ليلة وليلة و يقرأها ناتج . قطعا من ( التفاعلات المباشرة التي يوجهها دليل منفرد او موقف لدليل منفرد ) (٢١) . وليس بالضرورة ان يكون هذا الدليل منطقيا طالما مستمد من رغبة الفرد لا معرفته ومن نزوته لا عقلانيته . وهذا الاتجاه العام ، اعتبره من اهم دوافع انتشار حكايات الليالي وما شابهها من حكايات الفلكلور التي دائما ترد الاعتبار للانسان العامي تجاه الدور المسورة والقصور المخزونة بالكنوز والحريم ، واهمية العجوز في ارتياد تلك الدور بدون رقيب واقتحام تلك القصور من غير اعتراض حاجب ، ذات دلالة اجتماعية خاصة . وقد انتبه القدماء الى هذه الدلالة فقالوا في معرض الامثال : ( اذا المعجوز ارتجبت فأرجبها ) (٢٢) وارادوا بذلك اذا خوفتك المعجوز نفسها فخففها لكي لا تذكر منك ما تكره .

(١٧) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٠٨ .

(١٨) المصدر السابق ص ٢٠٨ .

(١٩) بالرغم من ان علم النفس اكتشفت قواعده متأخرة جدا بالنسبة لآخيلة الف ليلة وليلة فمن الممكن تطبيقها على كل الاحداث والمجتمعات ، التاريخية او الاسطورية او القصصية . وذلك لانها جميعها مترابطة ومستمدة بعضها من بعض .

(٢٠) نظريات الشخصية ص ٥٦١ .

(٢١) المصدر نفسه ص ٥٦٢ .

(٢٢) الميداني : مجمع الامثال ص ٦٨ الثل ٢٤٤ ط. الثانية.

وجاء دورها في حكاية ( نعم ونعمة ) الزوجين السعيدين ولكن الحجاج سمع بجمال ( نعم ) فرأى ان يسرقها من زوجها ويقدمها هدية الى الخليفة ( عبدالملك بن مروان ) باعتبارها جارية اشتراها له . ويحتال لهذا الامر بعجوز قامت بدور العابدات ، الصالحات المحافظات على الصلوات الخمس ودخلت دار (نعمه) في غيابه وخطفته زوجته وسلمتها الى الحجاج لقاء ثمن فارسلها بدوره الى الخليفة .

ونجد في هذه الحكاية مخيلة الحكواتي قد اختارت قصدا بطلا معروفا بالنسوة لتكون حكايته مقبولة وناجحة . واعطى في ذلك للعجوز دورها المقبول في تصوير الكيد غير الاخلاقي الذي تتردد في سلوكه الصبية الا اذا كانت ذات مصلحة مباشرة كماشقة او مطلقة او ضرة او جارية مخطوفة . واما اذا كان الغرض هو التقرب من السلطان وخدمته ، فالعجوز هي المرشحة دائما لذلك .

### رابعا - دليلة المحتالة

ودورها اكثر تعقيدا من غيرها لانها كانت تحتال لا لمجرد الاحتيال وانما لكي يصل خبرها الى السلطان فيخصص لها مرتبات وجوائز كما فعل لغيرها من المحتالين فحكايتها تصور بوضوح ان طريق المجد والوجاهة في تلك المجتمعات كان يتمثل بالاحتيال والسرقة وقطع الطرق ، واما المستقيمون في سلوكهم فليس امامهم غير الانكفاء على انفسهم .

ونجد دليلة المحتالة عندما عجزت عن مقاومة ( علي الزبيق ) استعانت بابنتها الجميلة ( زينب النصابة ) لتوقعه في حبالها وتسرق اشيائه . وبالإضافة الى كون هذه الحكاية تشدنا شدا الى فترة زمنية كان فيها للعيارين والفتوة القول الفصل في حسم الاحداث كما حدث في لصراع على السلطة بين الامين والمامون وما تبع ذلك بعد مقتل المتوكل في تدخل الفتوة في تقرير مصير الحكام . بالإضافة الى ذلك فان الحكاية ذات بعد اجتماعي واقتصادي كحكاية البدوي الذي رضى ان يسلب بدل (دليلة) لقاء آكلة ( زلابية بالعلسل ) او الصباغ الذي ذهبت ثروته الضئيلة لقاء وعد موهوم بالثروة الكبيرة .

من هذا نستدل ان اختيار العجوز لهذه الادوار المناقضة في الليالي كان مستمدا من كون العجوز

# الفلسفة وليلة

بقلم الدكتور

## عَلِي شَلَقْ

بيروت - لبنان

### العدد في الاسلام

### هذا الرقم !

عرف المسلمون الاعداد كما عرفها سواهم من شعوب الدنيا ، وتميزوا بانهم مكتشفو الصفر الذي هو عدد متأهب للبدء ، ومخترعو علم الجبر الذي قفز بالرياضيات شوطاً بعيداً في مضمار البحث والكشف والتخطيط ، وحسبنا ان نقف على قيمة العدد في فكر الكيميائي ، الصوفي ، « جابر بن حيان » ، صاحب فكرة : « الاسم عين المسمى » وهو الذي احل العدد محل الروح او الهوية الداخلية ، ملتفتاً الى « فيثاغورث » « وهرمس » موطئاً للسوربالية التي رسم مذهبها « اندره بروتون » اليوم ، وعنى بها ابن خلدون عناية كبرى في مقدمته ، الثلث الاخير .

العدد رمز ، مصنف على رتبة ، بل هو جوهر . درج المفكرون على اعتبار العدد رمزاً لما ينتسب الى الرقمية منذ الصفر حتى نهاية النهايات ، تلك التي عبر عنها الرياضيون العرب بالكرات ، والغريسون ، بالترليون والكاتريون والبيون .

وتجيب حكايات « شهرزاد وشهربار » بالعربية مبهورة بهذا الرقم « الف ليلة وليلة » مسبوقة بمثل نسقه ، متخطية كل ما عده ، وذلك على سبيل الايقاع من جهة ، وعلى سبيل التمام من جهة اخرى ، فالرقم « الف » محطة كمية ، ونفسية ، لدى العربي ، إذ ان المئة كانت اكثر ما يدور للعربي في فلكها في طرق معيشتها المختلفة ، فحسبه من الأبل مئة ومن الخيل مئة ، ومن القطع النقدية مئة ، اما ساعة يزيد ، ويتجاوز فالالف مدار احلامه ، وتمام شؤونه .

بهذا العدد يتصنف كل موجود ، في رتبة من مراتب الوجود ، غير ان الفيلسوف اليوناني « فيثاغورث » يجد في العدد جوهر المعداد ، وانه بعد مذاهب طاليس ، وديموقريطس ، وهرقليطس ، وسواهم من الماديين الايليين ، أعلن ان الموجودات تتألف من اعداد ، وقد ذكر سابقوه انها تتألف تارة من الماء ، وتارة من النار ، او من العناصر الاربعة : النار ، الماء ، الهواء ، التراب . وهل يجيب هذا العدد عرضاً ، او جوهرأ ؟

لعل المئة في الاصل من الماء الذي به الحياة ، والالف من الالفه ، والتاليف ، والمادة لهده

العدد من حيث كونه رقماً او رتبة ، فهو عرض ، أما من حيث تألفه من عناصر ، او وحدات : تشكل مجموع كيانه فهو جوهر ، ومن هنا تبدأ الفلسفة مرحلة جديدة مهدت لسقراط وافلاطون وارسطو ومن هنا اكتسب العدد قيمته فوق المالحرف ، والنوطة ، وسواهما من الرموز ، ووسائل الإبانة .

ليس معقولا ان تكون أزمة الفاجعة دامت  
الف يوم ، وتسميتها بالليلة نصف اليوم نظراً الى  
ظروف الحزن الاسود ، والظلام المخيم على  
النسوة الشهيديات وبؤسهن ، وبؤس عائلاتهم،  
وان تلك الليلة وحدها بعد الالف كانت مفتاح  
الفجر والخلاص ؟



اخيراً ، عصر الف ليلة وليلة ، عصر عتمات ،  
واشباح ، وتخاريف ، الى جانب كونه عصر  
رحلات ، وترف يقابله بؤس ، وشموخ مفاجيء  
قد يؤدي الى سقوط فاجع ، وهذا ما يدفع الى  
الاستماعة بالصور ، والاحلام ، والماورائيات ،  
ويؤدي الى عناية كبرى بالطلسمات ، والالغاز .  
خاصة الأرقام ، والحروف ، والسيميائيات ،  
تلك التي عرفها المجتمع الاسلامي قبل ذلك بكثير .  
وذا مما يميل بنا الى ان التسمية رمز ، وليست  
ربما مقصوداً لذاته ، الا اذا ارحنا انفسنا من  
عناء الافتراض ، والتمحل وهذا ليس في يد من  
تعود على البحث والايغال ، واخذنا التسمية على  
ظاهرها ، لنقرع المؤلف ان شهرزاد بقيت  
تخرف شهرير الف ليلة وليلة ، اي ما يزيد على  
ثلاث سنوات ، وانها نجحت كزوجة ، وجبيرة  
فاتنة ، وام ، ومخلصة بنات جنسها من موت  
متدرج . وانها كانت من الذكاء بحيث اعتمدت  
على عامل الزمن الذي به انتست شهرير حقه  
على بنات جنسها ، وتعهدت في نفسه شجرة  
الحب والثقة ، الى ان مدت غصونها ، ومنحت  
براعمها زهراً وثمرأ .

### الليلى

الليل عابس الملامح ، غريق في عتمة ذاته ،  
يسكن الخفاء ليفتح كوة الصباح من بصيرته  
العميقة .

ما فيه من سر ، ووحشة ، وستر ، يحمله  
موضوع الفن ، والذكرى ، والتأمل ، والتأمر .  
الليل فيلسوف الزمن ، به تكمل وتنوع مناسج  
الرؤيا ، وملاءات الخيال ، مثلما ان النهار مركبة  
الشمس ذات الحوافر الالهية ، والربيع الأشقر .

فذي بحر لجي ، اواجه تهدير صمتاً ،  
وتبوح بأفصح صور . ينبع منه خمر اسود يكحل  
جفون العالم . ويمنح النشوة للأشياء ، فاذا بكل  
ما فيه تجدد ، بطنف السام ، وينفي الرتابة .  
على نعم مسترسل للوجود !!!



اللفظة تفيد الجمع ، قل مثل ذلك في الالف  
الحرف الاول من الابجدية ، حيث ترمز الى ما  
يتبعها من ابائها الحروف الاخرى ، اذ هي في  
الدرجة الأولى رمز للصوت الاول 1.1.1. وهو  
يخرج من فتحة الفم ، منطلق من سقف الحلق ،  
ولذا عده علماء التجويد من الحروف الحلقية ،  
وهي ذات مزاج حاد ، حار ، عاطفي .

الى ذلك ، قرنت الالف بالباء ، واصبح هذا  
الاقتران عنواناً على الابجدية كلها ، وهي تشكل  
المرحلة المقطعية من النطق « اب » مشيرة الى  
الترمز الاقوى والاعلى للعائلة ، وارتمت الالف  
في معظم لغات العالم منتصبة إشارة الى علامة  
الذكورة المبعدة ، والباء مسطحة للاشارة الى  
الانوثة .

بقي ان ندرك السر في تسمية العربي حكايات  
شهرزاد لشهريار تسمية عديدة لها مفزيان :  
الاول في كونها الفأ كناية عن التمام ، والثانية في  
إضافة ليلة ، او العدد الواحد الى الالف ، فهل  
ان ذلك جاء لتمكين الإيقاع من السمع ، او  
لمبالغة في التمام والكمال ، او ان بين الالف  
المرسومة كنهاية ، ومحطة ، جراً يتقل من حال  
الى حال ، وعهد الى عهد ؟

ثم لماذا اورد اللفظ مؤنثاً فعال ليلة بدل  
ليل او سمر ، او هزيع ، او ما شاكل ذلك ؟  
وبهمنا ما في التانيث ذاته من الولادة ،  
والتولد ، والخصب ، وهل ان التسمية جاءت  
على لسان شهرزاد وهذا من حقها ؟ ام ان  
التسمية من صنع المؤلف الذي راعى في التسمية  
ناحية الانوثة ؟

الى ذلك فإن من شأن العربي ان يجيب على  
طالب العون منه بقوله : « لك ذلك وفوقه ، » .  
« لك ذلك وكرامة » . « لك ذلك وزيادة » « لك  
ذلك وواحدة . » او اكثر الى ما هنالك من صيغ  
القبول وتمكينه والتزيّد فيه .



ثم اننا إذا رويتنا في هذه التسمية العديدة  
لوجدناها تشير الى ثلاث سنوات ، وتزيد ، وان  
الليلة لا تنفصل عن النهار من حيث انها به تشكل  
اليوم ، فهي نصفه والنهار نصف آخر ، وهذه  
المدة كافية لانجاب نسل ، وتبديل احوال ،  
وتركيز أمور جديدة ، ولعل الرقم الف وليلة ،  
يشير الى عدد يتناول النساء اللواتي صرعهن  
شهرير ، وان الليلة الواحدة الاخرية تميزت  
عنهن شهرزاد عن باقي النساء .

اينه عوامل الغفلة او العصبية ، او الرغبة في ليس ثوب المكتشف او العائد بالجديد .

فالعرب عرفوا من قبل بسنوات عدة كتابا على غرار الف ليلة وليلة ، وبالاقطاع الموسيقي العددي لتسمية ذاتها . الشيء الذي يشير إلى مزاج خاص باستخدام العدديّة الفيثاغورية ، ورموزها التي سحرت كثيرين من اقطاب الفكر العربي . من طراز ابن خلدون ، وقبله جابر بن حيان .

« الف عبد وعبد » و «الف جارية وجارية» ثابان من جملة كتب سبقت الف ليلة وليلة ، حسب الروايات العربية . وإحصائيات « ليتمان Littman » .

التسمية جارية على النغم الموسيقي . والابتغاع العددي ، في تناغم الحروف والالفاظ ، إذ ان المؤلفين العرب راعوا الناحية الجمالية في التسمية ، وهم ولوعون بذلك ولوعهم بالارقام ، وقد جاء القياس مطابقاً لدى تسمية الف ليلة وليلة اقتباساً مما سلف .

ولكي نمتع القارئ بمضحكات اصحاب الاحاجي . والتكهنات بخصوص جسد الكتاب ومؤلفه ، نعرض له طائفة منها . « ليتمان » ذاته ينسب التسمية الى واضع تركي . و «الشرواني» في تقدمته للطبعة الفارسية يزعم ان مؤلفه رجل سورى لافارسي يلقى في الذهن صدى للتجرد . وابتعد عن العصبية ، وذا يزهينا اذ ربما كان هذا المؤلف حسب رايه سوريا من لبنان . واللبنانيون مشهورون بكثرة الاسفار ، وبعيد مطارح الخيال ، وهم من سكان شاطئ المتوسط ، بحر الحضارات القديمة الخصبة ، ولكي يرينا هذا « الشرواني » سعة آفاقه يتصور ان الطبعة السورية قد زيد فيها ، ليتنافس الفارسي دسكاي Descay في هذا الضمار .

اما « سكوت Scott » فيعلن ، وحسب ما يحلو له ، ان مؤلفه اكثر من واحد ، والاغرب ذلك ان « لنجلر » يقول : ان مؤلف هذه القصص هندي ، واني لايجب كيف انه لم يصف : او صيني ، او اوسترالي او ... الى آخر الآوات .

ويعتمد هؤلاء الغربيون الذين فاتهم الفهم الصحيح ، وادراك سر التناغم في السبك العربي ، على قولة للمسعودي في مروج الذهب ج ٤ ص ٨٩ الذي شكك ، وعدد ، مؤلفي الكتاب ، والمسعودي من عرفناه مخرفاً في معظم ما سجل حول مشاهداته ، واسفاره في مروج الذهب ، وان كان

في الليل جرت حوادث « الف ليلة وليلة » هذا الكتاب الذي عد من الصف الاول في مكتبة العالم . محور شخوصه النمازين قبل الاسلام . عهد تأليفه بعد الاسلام وفي مجرى عهود الانحطاط السياسي بعد سقوط بغداد وان اشرفت كواكب الادب الشعبي ، والموسوعات ، والمطولات الادبية ، والعلمية .

— من هو مؤلفه ؟

— سؤال جوابه الصمت ، وربما كانت الاسئلة التي من هذا النسيج تحمل اجوبتها فيها ، او انها اسئلة غنية بالايحاء ، ترك مجال الشوق مفتوحاً ، فكل اجابة تجيبء اخص من السؤال الذي لا تطفئ رباحها وهجه السحري ، وابقاعه الفاتن ، كانه سر من اسرار الحياة ، وملامح الغيوب .

### أحدية المؤلف

كاد الكاتبون عن الف ليلة وليلة يجمعون بعريهم ، واعجميمهم ، على ان المشتركين في تأليفه كثيرون ، وهذا ضرب من المعجز عن فهم السر الادبي في المؤلف ، وهامشية في الدراسة ، نجد اننا ملزمون — بعد الروية ، والبحث ، ان « الف ليلة وليلة » كتاب عربي ، إسلامي ، لمؤلف واحد وان ذلك المؤلف غني الهبة ، بعيد مطارح الخيال ، كثيف التجارب في الابام والليالي ، ذو بع بالتراث العربي القصصي ، وسواه من مقابص التاريخ الادبي العام خاصة ادب افرس والهند ، واليونان ، وما اختلج في المنطقة العربية من موج يحتضن بعضه بعضاً بحكايات واقاصيص من متنوع ذهنيات الشعوب .

كتاب 'الف ليلة وليلة' ذو المجلدات الاربعة بالعربية له مؤلف واحد ، واسلوب متناغم منسق مرسوم ، حامت حوله الاوهام مثلما حامت حول « هومير » مؤلف ملحمتي 'الاياذة' و'الاذيسة' .

الشبه بين الاثرين : العربي واليوناني قائم ، كما ان الشكوك حول التأليف والمؤلف تكاد تكون منسوجة على نول واحد ، وهذا يضي على الاثرين سراية خيال فياض الالوان .



ما يرسخ الأحدية بصدد تأليف هذا الكتاب الممتع ، انه جاء امتداداً لخط طويل عريض في سياق القصص المنطلق من مناخ الشعب ، وانه منسوق على شبه بين الملامح يلتفت الى ما سبق ، ماجياً كل قول سواه دعت

عنوان ادبي عربي يستطيل ادبياً استعطالة العرب  
سياسياً ؟

لعل ظهور ادب الوالي منذ بشار بن برد ،  
وابن المقفع ، وابان الاحقفي ، كان مما يلقي شبهة  
حول نسبة الكتاب الى مؤلف فارسي ، خاصة  
انه مطبوع بملاحمهم ، ويدور حول بطلين هما  
« شهرزاد وشهريار » وإن الآداب القديمة التي  
خلدت على مر العصور وردتنا في صيغ : الملحمة ،  
المرحجة ، القصص بانواعها .

وهنا لابد من سؤال ينبع من جو البطلين  
اللذين تدور حولهما حوادث الكتاب : وهو : الا  
يمكن ان يجيء تأليف هذا الكتاب صدى لكليلة  
ودمنة ، كرد عربي متخايل في الامتاع ، والتخريف  
خاصة انه يقبس بعض نماذج كليلة ودمنة ؟  
ويعارض اثر ابن المقفع باللون العربي الاسلامي  
الصادق ؟

على ان ادب ابن المقفع المترجم على الاغلب ،  
خلا كليلة ودمنة لا يبلغ مدى ادب الجاحظ العربي  
الاصل ولا يزيد على ما عرفنا من ادب المقامات ،  
وما على شاكلته من طراز ادب ابي حيان التوحيدي  
في المقابسات ، والامتاع والموانسة ، فالتحدي  
العربي إذن اصيل فعال .

ثم اذا كان كتاب الف ليلة وليلة ذا منطلق  
فارسي ، فهل هذا وحده كاف لتثبيته في  
الفارسية ؟ علماً بان مئات ، بل الاف الكتاب  
يضعون لمؤلفاتهم تسميات غريبة عن لغتهم ،  
ومناخاتهم ، في كل العصور . مثل ذلك ان  
« كليلة ودمنة » ذو اصول هندية ، كاصول الف  
ليلة وليلة الفارسية ، فهل ان هذا يجعل من  
كتاب ابن المقفع كتاباً هندياً ؟

هذا مالا يقول به منصف .

إن الذي يثبت ولادة الف ليلة وليلة بعد  
العصر العباسي الرابع ، سيطرة اسمي بغداد  
والبصرة ، على معظم مواقف الكتاب ، وهما  
آنذاك كانتا في اوج عزمهما الحضاري ، وكثافتهما  
البشرية ، ولكي نصل الى ما نهدف اليه بالسياق  
المنطقي ، نورد ما قاله ابن النديم في الفهرست  
ص ٣٠٤ من طبعة ليبزك سنة ١٨٧١ لدى تحذته  
عن اصل « هزار افسانه » اي الف خرافة :

« ان ملكاً من الملوك كان اذا تزوج امرأة  
وبات معها ليلة قتلها من الغد ، فلما تزوج بجارية  
من اولاد الملوك ، لها عقل ودراية ، يقال لها

قد فتح باب الادب الرحلي ، وسن سنة شريفة ،  
حلوة ، متمنة لكتاب الرحلات ، بما وردنا من  
ادبهم الانساني ، الكوني . ذي الانطباعات العذبة ،  
الطفلة احياناً .

الى جانب هؤلاء المشككين ، الاحجويين .  
يؤكد الاب صالحاني اليسوعي ان مؤلف الكتاب  
عربي ، انطلاقاً من آراء الجهشيارى ، وابن  
النديم .

بينما يعتمد « مكدونالد » Macdonald  
على الجهشيارى وابن النديم ، وسواهما ، ليعلم  
ان مؤلف الكتاب هذه المرة فارسي ، لوجود  
اصوله في التسمية التالية : « هزار افسانه » ،  
ويشايحه كثيرون في هذا المجال .

### لمحة من التاريخ

بعد ، اي شيء يكون كتاب الف ليلة وليلة ؟  
- اول من ذكر كتاب الف ليلة وليلة من ادباء  
العرب ، ومؤرخيهم الرحالين ، السعودى ، وهو  
من اعيان القرن الرابع الهجري ، بعد عصر  
اندويلات ، وقفاه ابن النديم في « الفهرست » .

فمضى ظهر هذا المؤلف العظيم الى الوجود ؟  
أفي القرن الثالث الهجري ، مظلمه ؟  
منتصفه ؟ ام ختامه ؟ او انه لمع في مطال القرن  
الرابع ؟ علماً بان السعودى عاش في اطار سنة  
٣٢٦ هجرية ، وهو يتحدث عن الكتاب حديثاً  
يسير الى بعد مصدره وزمنه بهذه العبارة :

« وهو خير الملك ، والوزير ، وابنته ،  
وجاريتها دينارزاد ... »

هنا يبدو الخلاف واضحاً بين رواية  
السعودى ، وبين نص الكتاب الذي يطلق على  
الفتاة اسم « دينارزاد » وانها أخت « شهرزاد »  
لا جاريتها .

الظاهر ان الكتاب الف بعد عصر هرون  
الرشيد ، المحتضن عصر كليلة ودمنة السلفى ،  
وان الرشيد سجل انتصار العنصر الخلافي العربي  
على العنصر الوزاري الفارسي ، بينما انساق  
بعده عهد الامين الذي قتل بتدبير اعجمي ليستعين  
أخوه المأمون بالسيوف التي مهدت للسفاح  
والمنصور ، واجرى المأمون في خلافته ، وهو صهر  
الوزير الحسن بن سهل الفارسي تعويضاً عن  
قتل الرشيد وزراه البرامكة .

اليس منطقياً ان يكون الكتاب صدى



وزكي نجيب محمود ، يقرران في مؤلفهما طبعمة  
القاهرة سنة ١٩٤٣ صفحة ٤٢٢ ما يلي :

« فكان من القصص الشعبي « الف ليلة  
وليلة » ثم ظلت تنمو مع الزمن . وأن قصة  
السندباد البحري لم تكن ملحقة بألف ليلة وليلة ،  
ويرى أن الجهنباري ألف كتابا على نسق ألف  
ليلة وليلة ، واختار فيه أسماء من الأمم . وما  
قبل أن يتمه . »

الكتاب أذن أحدث مدرسة لها نحوها غير  
اديب واحد ، مثلما فعل المتأدبون بصدده سالفه  
كثيرة ودمنة .

على الرغم من القول بإضافة أقاصيص  
السندباد إلى الكتاب ، فإن هذا لا يقـدح في  
وحدته . وأن مؤلفه واحد ، إذ ليس بين أيدي  
المقررين أي ثبت على صحة ما يقولونه أكاديميا ،  
ويبقى أن تناغم أجزاء الكتاب ، ووحدته أسلوبه ،  
ونسقه المؤلف من ألفه إلى ياله . وطابعه العام  
المميز بنكهة الفسرية ، والامتاع ، والجنس ،  
يؤكد وحدته فلداته . وأحدية القلم الذي به أشرق  
على دهور الناس .

سم . اية مدعاة إلى نسبته في مصادر  
مختلفة . من تراث الشعوب القديمة ، وكل ما  
فيه يشير إلى عروبته ، وإسلاميته ؟ إذ لا يتفق  
عملا ولا زمنا أن يكون كاتبه قد جمع فيه مزقا ،  
ونسما من مختلف آداب العالم ، فأدبه البحري  
والبري من مصدر واحد . أسلوب متوحد ،  
مبني على الطرافة والغامرة ، اعتمد فيه مؤلفه  
على منطلق فارسي للأغراب ، وأن الفرس كانوا  
آنذاك مصدرا سحريا للمؤلفين العرب ، خاصة  
في الأدب وعلى الإخص القصص ، لما لهم من سابق  
تاريخ مرتبط بأحداث العالم على مدى  
إمبراطوريتي اليونان والرومان .

نحن اليوم نفعل في معظم ما نكتب من  
القصص مستمدين من الغرب ما فعله العرب  
بالنسبة إلى الفرس ، وذلك لم يجعل أدبنا  
الراهن غربيا ، أو فارسيا ، على أن الأدب فن ،  
والفن لغة الحياة والكون لكل البشر . كتب بديع  
الزمان الهمداني مقاماته بالعربية ، وهو من أصل  
فارسي فهل تراه صنف لدى تعداد الأدباء إلا في  
الصف العربي ؟

وكتب جورج شحادة اللبناني العربي قصصه  
بالفرنسية ، فهل نعدّه أدبيا غربيا وقد سكن لغة  
الآخرين ؟



« شهرزاد » ابتدأت تحرفه ، وتصل الحديث عند  
انقضاء الليل بما يحمل الملك على استيقانها ،  
ويسألها في الليلة التالية عن إتمام حديثها في الليلة  
السابقة ، أتى أن رزقت منه ولدا ، أظهرته للملك ،  
وأوقفته على حيلتها وتديريها ، وبراعتها في الإلهاء  
والتشويق فاستعقلها ، ومال قلبه إليها  
فاستيقاها . « من هنا يبدو أن الكتاب ينطلق من  
مناخ فارسي . وأن مؤلفه يمكن أن يكون بصريا  
أو بغداديا . »

وقد يتراءى لبعض الباحثين أن مؤلف  
الكتاب مسيحي ، أو يهودي ، نظرا إلى أن  
قصاصين بارعين من المسيحيين واليهود اغتوا  
التراث العربي الإسلامي بالقصص المستمدة من  
النوراة والإنجيل ، من طراز « وهب بن منبه » و  
« كعب الأجار » .

على أن أتروافد اليونانية وسواها من  
إسداء الوثنية . تصب في بحر هذا الكتاب . فهل  
من الدواعي أيضا أن يزعم زاعم أن مؤلفه يوناني ؟

ومن الزاعمين من يرى أن المسلمين يحرمون  
التحدث بالخرافات ، وأن بعضهم كان يتوقع  
إصابة المتحدث بشر عظيم ، ويفعل هؤلاء الزاعمون  
من المستشرقين عن أن العرب عرفوا التخريف  
قبل الإسلام وعرفوه في مجرى الإسلام ، وليست  
قصيدة ذات القفا للنايفة ، وأخيلة عبقر ،  
والاحصاف ، وبيرين . ثم مادار في فك التصور  
وإن جاء في كتاب اليقين ، القرآن الكريم : عن  
أحوال الجنة والنار ، والجن ، والصور الأدبية  
التي تبرز ما عرفنا لهومير ، وفيرجيل ، وفياسا  
وفالميكي ، ثم ما شاع بعد ذلك عن أقاصيص  
العشق ، وأمور المقامات ، وأخبار الشياطين ،  
وكل رثي ، وطيف أو شبح ، مما يتسامح به لدى  
العالمين ، ويبين مقدار أوهامهم .

اليس هذا كافيا لتتففيه آراء هؤلاء ؟

### روافد الكتاب

إزاء ذلك فما هي أشهر الروافد في الف  
ليلة وليلة ؟

جوابا ، يجد الباحث في دوحته جذورا  
هندية ، فارسية ، يونانية ، عراقية ، مصرية ،  
شامية ، يهودية ، مسيحية ، ونواصع متنوعة .  
تهب من هننا ، وهنالك . على أن مؤلفي كتاب  
« قصة الأدب في العالم ، الدكتورين أحمد أمين ،

البادية ، واسر ابن المدينة ، الى رحاب الانسان المنقف الحر ثقافة انسانية متاملة في الكون ، يجد في هذه اللغة التي مدت رواقها على قارات ثلاث ، والامة التي بسطت نفوذها على سائر بقاع الارض المتمدنية مجالاً للاستيحاء ، والبحث عن خيوط لنوله الكبير .

- وقد ظهر ني ايضاً ان تائر الف ليلة وليلة بكتاب كليلة ودمنة واضح ، وذلك في مثل حكاية « الحمصار والثور مع صاحب الزرع » ج ١ ص ٥ ، و ج ٢ ص ٢٢ و ٣٠ ، و ج ٤ ص ١٣٦ ، كذلك .

- اللون المصري في مثل صفحات ٦ ، ٦٥ ، ٦٨ ، من الجزء الاول .

- اما اللون العراقي فهو يظهر في اكثر من حكاية واحدة ، وإن كان جاء اقل مما هو مشهور عن الكتاب ، نظراً الى نسبة هذا المؤلف الى عصر الرشيد ، وتداعي اسم الكتاب واسم الرشيد . وبغداد التي هي بلد الف ليلة وليلة في كل ذهن لقد احصيت ما يدور حول الرشيد في الكتاب ، فاذا هو نذر يسير لا يتلاءم مع تلك الشهرة الشائعة .

- ولدى تقصي الآثار اليونانية ، فقد وجدتها بينة اللامح في مثل حكاية « حاسب كريم الدين » من الجزء الثالث صفحة ٩٤ ، وذلك عند ذكر الفصول الذي هو صدى لسيكلوب « عوليس » بوجه آخر في اوديسة هومير .

كما ان اصداء حروب طروادة كما وردت في الالياذة ، تبدو في ج ٣ ص ٦٤ .

- الكتاب مهور بالطابع الاسلامي في إطاره العام ، غير متخل عن اللون المسيحي كما في ج ١ ص ١٣ .

- والمسحة الهندية تلوح في ج ١ ص ٣٠ و ج ٢ ص ١٠٤ .

- على ان الصفة الشامية ، والوجه اليهودي ، يلوحان في ج ٣ ص ١٠ و ١٦ و ٢٧٤ .

- ثم ان الباحث يجد التماعات تشبه ما يجده في رسالة النفران للمعري ، نلخصها في مثل قصة « بلوقيا » والحية ج ٣ ص ٣٦ .

- كما تظهر معرفة المؤلف بمواقع بلدان العالم القصي مثل القوقاز ، وسيبيريا وسواهما ، مما يشير الى شيوع الدراسات الجغرافية آنذاك ،

ادب البحر قليل في تراث ادبنا العربي ، بالنسبة الى تراث اليونان ، كما ان ادب الرمال قليل لدى ادباء الغرب قاطبة ، وذلك طبيعي . ولولا لمع من شعر امرئ القيس ، وطرفة ، وادب القرآن الكريم ، وافاق الف ليلة وليلة ، ونسق مقامي من ادب « الحلبي » من اعيان القرن الرابع عشر ، لجاء الادب العربي قاحلاً من البحريات وغرائبها .

مؤلف كتاب الف ليلة وليلة ، جسد اصداء الحضارة باستقرارها واغترابها ، موغلاً بين الامواج ، مبتعداً عن سكون الصحراء ، مالتاً الفراغ بامتع محتوى ، ولعل البصرة هي التي نلثت بين جفونه . إنه لمن الثابت حسب مجرى حكايات الكتاب ، وفصوله ان المؤلف واسع الخيال ، قوي الذاكرة ، دقيق الملاحظة ، كثير الاسفار ، من سكان الشواطئ ، زاحم الشباب ، خبير بتقاليد الشعوب ، والاجتماعات ، بصر بنوازع النفس البشرية ، واشواق اللحم والدم ، ايام كانت بغداد ، وبعد ان كانت كالمعدسة البلورية تجمع ما تفرق من اشعة الشمس ، كجمع بغداد مختلف الامم ، وذويان الجميع في اطار واحد ، منسوق على حد قولته « بروكلمن » في كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » .

### ملاحمة العامة

وقمت عند دراستي الف ليلة وليلة ، طبعة صبيح ، ان المؤلف يعي في ذهنه حكايات لها اصول في تراث كثير من الشعوب القديمة . كما يظهر اللون المصري ، الشامي ، العراقي واضحاً في معظم قصص الكتاب ، الى الاكثار من التحدث عن بحار الاهوال ، والجزر الغربية ، والمعافرت والطلاسم ، والسحر ، والفدر ، والمؤامرات ، والضياع ، واللقاء .

ذلك جميعه صدى لروح العصر ، والمجتمع الذي افرخ فيه ادب الف ليلة وليلة ، وتعبير عن احلام الانسان ورغباته المكبوتة ، ومحاولة لردم الهوة بين الواقع المحرود ، والمؤمل المرتجى ، والتعويض عن السأم والدل ، تخلصاً من طبقة حاكمة مستقلة ، ومن فئة منهارة مهزومة ، الى عالم اللذة ، والاستعلاء ، والاستطالة ولو بالاوهام ... !

ذلك ادب شمع زهد من تقمر الفصحاء ، الى عفوية ادب الشعب ، ومن لغويات المتزمتين الى ادب الحياة المترع بالنعمة ، ومن تحجر ابن

واتساع رقعة العالم الاسلامي ، الذي اصطبغ الكتاب بلونه .

يحقق كل صور الف ليلة وليلة في الواقع ، واوهامه المنداحة الجميلة ، عدا عن جلالة وجع الانسان من كونه ، ومختلف طبقات مجتمعه ، في مجاحفها ، ومتارفها ، صمودها وهبوطها .

### اثره في الفن العالمي والعربي

تأثر بكتاب الف ليلة وليلة كثيرون من ادباء الغرب وفنانيه ، وظهرت الاقتباسات منه في القصص ، والمسرحيات ، والافلام ، والشعر ، والمعارض الالهية ، مثل ذلك إبحاؤه لازاميل النحاتين ، وريشات الرسامين ، وتهاويل الراقصين ، وحكايات الاطفال ، واصبحت ليالي الف ليلة وليلة عنوانا على ظلال الشرق ، واطيافه خيالا ، وعذوبة ، وسحرا ، إلى مظهر للترف ، والازمات ، والفواجع ، والمباهج . جميعها ذات منازع انسانية في الصميم من مضامير الكنان تبشري .

قد تخينا اقايسى الكتاب فلا تتوفر في معظمها الشروط التي ترسمها القصة الحديثة . ومتى كانت هذه الشروط مقياسا نهائيا للقصص الخلاب ؟ ومتى كان الفنان الاصيل ملزما بترسم الخطوط ، والقيود التي يفرضها النقاد او يفترضونها ؟ وهم إنما قعدوا ورسوموا منطلقين من آثار الفنانين المبدعين الذين هم وحدهم يملكون المقاييس .

ثم هل في القصص العالمي ما يمنحنا التمتع ، والنقلة من الواقع الى عالم الغبطة كالف ليلة وليلة ؟

يعتبر « ولز » ان كتاب الف ليلة وليلة اعجب واغرب قصص البشرية ، كذلك « فولتير » يعلن انه قرأ الكتاب مرات ، وانه لم يتعلم كتابة القصة إلا منه ، على ان اقايسى « اندرسن » وجزيرة « بيكون » السعيدة ، وفردوس « ملتون » حملت اطياب الف ليلة وليلة .

وممن قيسوا منه ، وعنه « تشوسر » في تابعه ، و « ديكاميرون » في أيامه المشرفة و « بوكاتشو » و « غوليفر » وكثير من كتاب الرحلات ، إلى جانب الصحف ، والحجاج ، والتجار ، والمرسلين المبشرين ، والصلبيين ، إذ انهضوا عليه ترجمة ، وإذاعة ، واقتباسا ، ودراسة ، وقد عنيت الطابع بإصدار أعلى ، واجمل النسخ التي بلغت أثمانا خيالية ، نظرا لصورها ، وتنسيقها ، وإخراجها الزائع .

والدهش حقاً ، المرهص بما يشبه النبوءة ، ان الكتاب يتحدث عن حروب تلتفت الي حروبنا اليوم ، إذ استخدم فيها سلاح لا يختلف عن سلاح عصرنا الذري ، والصاروخي ، حيث بلوح هذا في ج ٣ ص ٧٢ .

والجدير بالملاحظة ان في الكتاب لغفات اشتراكية سبقت الماركسية بمئات السنين ، هذا ليس عجيباً في عصور الفقر والحرمان ، وبعد ان عرف الناس اشتراكية « أفلاطون » في الجمهورية ، ومن بعده « مزدك » الفارسي - الجو العام المسيطر على الكتاب هو جو : الماكل ، المشرب ، اللبس ، المسكن ، المتع الجنسية بمختلف ضروبها ، وملاطف حرياتها . ثم الغرابة ، والمفاجأة ، والمصادفة .

### أسلوب الكتاب :

يجنح أسلوب الف ليلة وليلة إلى البساطة في التعبير ، والوضوح ، والركة ، والعامية .

كما يرسم ثقافة مؤلفه الادبية ، والتاريخية ، والجغرافية - منطلقة من موهبة غنية .

يكثر من ترديد بعض الحكايات ، والحوادث ، والصور ، والعبارات .

لا يخلو من السقطات التاريخية مثل ذكره النابغة الديباني في عهد عبدالملك بن مروان : ج ٣ ص ١٢٣ ولعل الناسخ خلط بين النابغة الجاهلي ، ونابغة من النوايع الاسلاميين .

يصل بعض النقص فيه الى قمة الروعة ، من حيث إحكام الحكمة ، وتازم العقدة ، ولطف الحل ، كما في الجزء الثاني صفحة ٢٥٨ وذلك عند حكاية « فرس الابنوس » ومثلها حكاية « عبدالله فاضل » عامل البصرة واخويه ج ٤ ص ٢٦٦ .

ولا تسل عن التفكك ، والسذاجة ، وضعف النسيج ، في كثير من القصص ، غير ناسين ان المجموعة تتميز بالخيال الرحب ، المشير للاشواق المهور بالغرابة ، الموشح بالمحال ، منمازا بطائر الرخ ، وبساط الريح ، والخاتم السحري ( ليك ) والتمعم السليمانى ، موطناً لأروع اكتشاف في عصرنا الحاضر الذي لما

وقد وقمت على نسخ منه بالفرنسية والانجليزية ، والالمانية فاذا جميعها مظهر لروعة الطبع والاخراج والتصوير .

كثيرة هي الكتب التي سعد بها اطفال اوربا والعالم ، وهل من طفل في الدنيا يجهل حكايات السندباد ، وعلاءالدين ، وعلي بابا ؟

بيد ان الفضل في نقل هذا السفر النفيس الى الغرب يعود الى بعض المشاهير من طراز « جان انطوان غلان الفرنسي » Y. A. Galland الذي قدمه في اثني عشر مجلداً على مجرى للقرن اثناس عشر ، كما قيس منه الانجليزي « إدورد وليم لاين E. W. Lane » ثلاثة مجلدات في القرن التاسع عشر ، وريتشارد رد بورتون R. Burten نشره في عشرة اجزاء في القرن التاسع عشر أيضاً .

يضاف الى هؤلاء ما تمادى منه فلدات ، واساليب ، ومنطلقات ادبية وفنية لدى ادباء وفناني العرب والشرقيين .

### إسلامية الكتاب :

كُتبت اقاويص الف ليلة وليلة بلغة عربية ، في حضن الاسلام .

الاديب الفاطمي « يوسف بن اسماعيل » الف سيرة عنترة وانطلق بها من الواقع الى آفاق الاسطورة ، مواكباً صوراً جليلة من الالياة والاذيسة ، والمهابهاراته والراميانا . والانيادة .

لعل ادبياً من طراز يوسف بن اسماعيل الف كتاب الف ليلة وليلة في المناخ العربي والاسلامي ، فالخيال في سيرة عنترة ، وأخوات لها من نسق « الملك سيف » و « البهلوان » ليس غريباً عن الخيال في قصص الف ليلة وليلة وان كانت الموضوعات على تباين .

عنترة الاسطوري تزوج امرأة من الجن فولدت له « الغضبان » وهذا كان يضرب بمموده الجبل فيشقه نصفين ، مثلما فجر « جوف » في الانيادة الجبل فجرت رياح كالخيول مطلقة الأعتة ، وكذلك فإن الزواج بالجنيات في الف ليلة وليلة كثير ، ومثله تعرف الفرسان بعناصر الطبيعة ، وقريب منه حب « نوسكا » جنية البحر البطل عوليس .

كذلك فان المنام والمتراف لدى « السيرة » والف ليلة وليلة متشابهة ، وربما كان اختفاء

اسم المؤلف سببه ان الكتاب يحشد كثيراً من صور الوثنيات ، واللذائف الحسية ، والدعارة الجنسية ، تلك التي تلذ القارئ بمقدار ما تتجافى عن الصيانة الاسلامية ، ووقار العلماء ؛ لذا عمد المؤلف الى الانطلاق من موضوع نسبه الى الفرس ، ثم انساح في آفاق خياله .

الادب الشعبي البطولي جاء تعويضاً عن فقدان البطل ، او المثل الاعلى ، وملاً لفسراغ الحرمان ، وصدى للاحلام المستفيضة ، وإشباعاً لنهم ادبي يطلب صاحبه الابداع والخروج بجديد على خط التقليد المتزم ، الجاف ، في عصر فسدت امور السياسة ، وتفرقت اجزاء الامبراطورية العباسية مزقاً ، وتمرضت لهجمات مربعات من مختلف الجهات .

الفاظ الف ليلة وليلة ، جملة ، صوره ، اصطلاحاته ، فواتحه ، معارضه ، خواتمه ، من نسق واحد .

الدعوات ، التمنيات . العصبية الاسلامية، اللعب بالزمن ، تخطي حدود الامكنة ، ازدهار عالم الكتاب بالمتراف ، وانفجاعه بالمآسي ، كل ذلك منسوق مرتسم على خارطة الجنة والنار واصداء البعث والقيامة ، لدى القرآن الكريم ، كذلك فإنه لهاث المجتمعات والمدن والتقاليد والاخلاق ، كل ذلك مههور بالطابع العربي الاسلامي ، بعيداً عن اجواء مدن الفرس وسواها . بعداً قاصياً .

اذا كانت الاسماء في بعض الاحيان اجنبية . فان المحتوى عربي اسلامي . ذلك لا ينقص من قدر الكتاب او يزيد ، فحقيقة مقداره انه وجد ، وانه كتاب عالمي .

معظم مترافه وتمعنه صدى لمتراف ومنام الجنة .

اكثر مظاهر العذاب فيه من اجواء جهنم ، والجانبان من مرسومات القرآن الكريم .

– السعلاة ، عبقر ، وبار ، الشيصبان ، الغول ، صور من الجاهلية .

– الجحيم ، الجنة ، الترقوم ، السندس الاخضر ، الانهار ، العسل ، من ادب الاسلام .

– صور المقامات ( الهمداني ، الحريري ، الزمخشري ) تلتفت إليه .

– خيال رسالة الغفران له إليه خيط .

الذي توقفت فيه عن الجري ، وقد يخلط الكتاب  
اشياء التاريخ خلطاً فلا يستبين صواب ، فما  
العمل ؟

**العبرة وحدها هي التي تشير الى الزمان  
والمكان كما اسلفنا .**

العبرة : كلمات فصحة ، الى عامية ، سوقية ،  
تسلك سبيل السجع ، والتكرار أحياناً وتجري  
على التقليد الاسلامي في البدء والختام ، وفيها  
من الدعاء ، والاستغفار ، أشياء عدة ، كما يكثر  
فيها الإلحاح على الفاظ : العدل ، الظلم ، الخير ،  
الشر ، الخيانة ، الوفاء ، الحيلة ، اليأس ، المتع ،  
المبأس ، السحر ، الطلاسم .

اما الكوكب الذي يدور في إطار تلك الليالي  
فهو الجنس بكل اشواقه ، ومفاجاته ، ومكانه .

ذلك جميعه ملحوظ منذ عصر الدولات  
شاع زاخراً في عصور سموها عصور الانحطاط ،  
حتى آخر عهد الماليك .

لا يبعد ان تكون كتب القصص الشعبي لهنت  
في آفاق عصر الصليبيين ، وحوله ، حيث شاع  
فكر المغامرة ، والبطولة ، طلباً للمثال النادر ،  
وانتظاراً المخلص ، وتعميماً عن واقع منسحق ،  
أو تسلية للناس بعد ان شاع خيال الظل لابن  
دانيال .

ابداع القصص سنة درجت عليها الشعوب ،  
ساعة تهرب النفوس من الواقع الملموس ، الى  
داخل النفس ، فينتقل الخيال ، وتلتفت  
الذاكرة ، شأنهم في ذلك شأن الذين الزمتهم  
الطبيعة القاسية بزهريرها ، وتلوجها ان  
يوغلوها في سراديب الذات ، وينطلقون في آفاق  
الخيال ، لبيدعوا في القص .

ثم إن الجمع ، والاقتناس ، والاختراع ، ثلاثة  
وجوه تطل من جسد الف ليلة وليلة ولكنها  
بما فيها من جانب الاختراع وحده ، مدينة  
بخلودها ، وروعة بنيانها ، واجمل ما فيها  
قصة « عبدالله فاضل » .

تلك الاسماء : شهر يار ، شهر زاد ، دنيازاد  
لموسيقاها ، ولانتمائها الى لغة تداخلت في ادب  
العرب منذ عهد الامويين ، واستطالت في عهد  
العباسيين ، أصبحت في عهد الدولات تجنح  
نحو الذكرى من جهة ، ونحو التركيز من  
اخرى ، مثلما دفعت العربية بالآلاف الكلمات في  
بحيرة تلك اللفظة ، فأغنتها ، ونسبتها .

اصداء جمهورية افلاطون وما ترامى الى  
المسلمين من تراث الامم الاسطوري ، وبعض  
الصور الفلسفية في خيال الأندلسيين  
والمشاركة مما نشتم عبره فيه ، وكل ذلك  
لعب دوره في تكوين جسد الف ليلة وليلة .

إنه ادب الكادحين البائسين ، يتحدى ادب  
الأرستوقراطية المستلين لظلال القصور ، واسماع  
السادة التسليطين

هو ادب الحياة الصادق ، فوق ادب الصنعة  
الموارب ، يعرض صوراً لقلب الانسان واحلامه ،  
ونوازهه ، على مشارف أبناء الدهور .

### جسد الكتاب :

استهل المؤلف كتابه بتقليد جرى عليه  
الاسلاميون ، فسلم ، وصلعم ، ودعا للمؤمنين ،  
ثم اشار الى غرضه من تأليف الكتاب ، وهو المائل  
في العظة والعبرة ، بسرده الاخبار ، والحكايات  
عن احوال الافراد ، والشعوب .

موضوع العبرة ، وبيان عجب صنع الله  
في خلقه . درج عليه مؤلفو الاسلام . وعلى لآخص  
شيخ مفكرهم وادبائهم ، الجاحظ .

« حكي والله اعلم ، انه كان فيما مضى  
من قديم الزمان ، وسالف العصر والاولان : ملك  
من ملوك ساسان ... »

« والله اعلم » تقليد إسلامي شائع .

اما السجع فهو من التزامات المتأخرين ، بدءاً بابن  
العبيد ، فالصاحب بن عباد ، فالهمذاني ومن  
جاؤوا بعدهم .

« قديم الزمان ، وسالف العصر والاولان »  
عبرة شاعت في مانور الادب الشعبي .

« منك من ملوك ساسان » تحديد نسبة الكتاب  
الى مرجع فارسي ، ومن هنا توهم التوهمون  
ان مجرد نسبة الملك الى اصل اجنبي يستلزم  
ان يكون الكتاب كما نسب للناسب ، ولم يدر  
في خلد الواهين انها طريقة للكتابة ، ورغبة  
شائمة ومن هنا اضطرب شأن الجهمياري  
من القرن العاشر ، كما حدد بعضهم زمن  
ظهوره في مطالع القرن السادس عشر ، واخر  
دولة الماليك .

الكتاب لا يعين زمن ظهوره ، اما حوادثه  
فتبدأ في عهد الساسانيين ، ولا تحديد للزمن

قد لا يلتزم الشعر المخترع اشياء النحو والعروض شاعت في نثاها مقابسات من اقايسى الشعوب وملاحمها ، بدأت بتقليد درجت عليه : « بلغني ايها الملك السعيد ... » وانتهت كل حكاية ب : « وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . » تلعب خيانة الراة فيها الدور الاهم . انى جانب شكوك الرجل وقسوته ، وتنتهى بتفاهم شهريار وشهرزاد .

الكتاب عربي إسلامي نميز بالقدرة على الامتاع ، وتخطي الزمان والمكان ، مؤلفه موهوب خصيب ، ومثقف أريب ، وثائر على اوضاع المنسلطين ، منهمر على اشياء الشعب والمحرومين لم تجر اقايسى الكتاب على النسق الفنى للقصة الحديثة التي شاعت في الغرب منذ القرن الثامن عشر ، واستعملت في التاسع عشر ، ولكنها تبقى رغم ذلك نموذجاً عالمياً للقصاص الرائع ، لا تبلى ملاطفه ، وممتعته على توالي الدهور .



## الراجع

- ١ - الف ليلة وليلة ( مجلدات ، طبع صبيح - القاهرة .
- ٢ - الف ليلة وليلة : سهر القلموي .
- ٣ - معجم المطبوعات العربية : خليل سركيس .
- ٤ - قصصنا الشعبي : دكتور فؤاد علي .
- ٥ - من احوال الادب : احمد حسن الزيات .
- ٦ - القصة في الادب العربي : محمد يوسف نجم .
- ٧ - فن القصص : محمود تيمور .
- ٨ - دائرة معارف البستاني . ف . اهرام .
- ٩ - دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية . E. D. l'Islam .
- ١٠ - قصة الادب في العالم : للدكتورين احمد امين وذكى محمود .
- ١١ - الف ليلة وليلة : ميخائيل عواد - بغداد .
- ١٢ - الف ليلة وليلة : لغاروق سعد - الاهلية - بيروت .
- ١٣ - الف ليلة وليلة : القاهرة - الدراسات الادبية .
- ١٤ - الف ليلة وليلة : تحقيق الصدي - بولاق .
- ١٥ - الف ليلة وليلة : المطبعة الكاثوليكية - بيروت .

معظم ابطال تلك الاقايسى فرسان ، تشوق النفوس الى الفرح بمايتهم ، وتترقب انتصاراتهم .

العبيد والجواري ، والاماء ، يلعبون دوراً هاماً في مجرى حوادث الكتاب وأخصها : الغدر العشق ، والخدمة ، والفتك ، والسحر ، شانهم قديماً كشانهم اليوم ، فالاسود يخترن في جسده حرور شمس ، فهو لذلك مقصد المشتريات .

العفاريث عنصر هام من عناصر الف ليلة وليلة ، فهم رمز الزمان الذي يتبدل ، ويبدل وهم مفاتيح الخرافة والاسطورة ، إذ ان العاجز عن وعي وجوده ، يلجأ الى كل مغيّب وخفي ليحتل عقد حياته .

الحقد ومظهره الغضب والانتقام ، حل شائع في الكتاب .

الخلاص خاتمة مبهجة لاقايسى الف ليلة وليلة ، تأكيداً على انها من بنات الاختراع مقصوبة على مد الاهواء ، والنوازع .

الموت وجه رابع ، يترصد تلك النفوس التي تتحرك شخصها مع مسرح الكتاب ، وهو « هادم اللذات ومفرق الجماعات » وكثيراً ما ينتهي لتولد منه حياة جديدة .

طائر الرخ ، انجواهر الكريمة ، الاماكن الغربية ، الجنيات ، التحكم بالزمان من روائحه البحرية .



« الف ليلة وليلة » مجموعة اقايسى خيالية ، بعضها يلهث فيه الواقع ، مؤلفها واحد غير معروف ، وزمن ظهورها لا يعتمد عن فلك الماليك والصليبيين ، لفتها بين العامية والفصحى ، رصمت بشعر مخترع ، ومروي ،

# بغداد في مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام

بقلم

هدى سوكنة هنام

مجلة المورد - دار الجاحظ - بغداد

اما اقدم المخطوطات المصورة التي تنسب الى مدرسة بغداد فهي :  
كتاب البيطرة .  
كتاب الترياق لجالينوس .  
كتاب الحشائش او خواص العقاقير لديسقوريدس .  
كتاب الحيوان للجاحظ .  
كتاب الحيل الميكانيكية او « كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل » .  
كتاب صور الكواكب الثابتة .  
المدرسة البغدادية الحديثة .  
يقع البحث في ٢٦ صفحة .

٣ - ملامح مدرسة بغداد لتصوير الكتاب  
الاستاذ نوري الراوي ويبحث في الموضوعات التالية :  
اصول المدرسة العراقية لتصوير الكتاب .  
معاني تصورات الصور البغدادية وخصائصها .  
نظرة ( عين الطائر ) او النظرة الشمولية عند المصور البغدادى .  
اللامح الرئيسية لمدرسة بغداد من خلال رسوم الواسطي لقامات الحريري .

بعض المخطوطات العراقية المصورة :  
كتاب البيطرة ، كتاب خواص العقاقير لديسقوريدس ، كتاب كليلة ودمنة .  
يقع البحث في ١٨ صفحة وهو مترجم الى اللغة الانكليزية في خمس صفحات .

اسهمت وزارة الثقافة والإعلام في اصدار مجموعة طيبة من الكتب التراثية عن بغداد بين دراسة وتحقيق . وقد رايت ان اعرض للقراء طائفة منها .

## مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي

### تراث الرسم البغدادى

### ملامح مدرسة بغداد لتصوير الكتاب

اقامت وزارة الاعلام مهرجانا للواسطي في نيسان سنة ١٩٧٢ صدرت خلاله سلسلة فنية خاصة ، اخترت منها البحوث التالية :

١ - مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي للدكتور زكي محمد حسن : تضمن بعد المدخل لموضوعات التالية :

تسمية هذه المدرسة .  
عصر هذه المدرسة ومراكزها الفنية .  
موضوعات التصوير في مدرسة بغداد ،  
مخطوطات الكتب العلمية المزوقة ، مخطوطات الكتب لادبية المزوقة .

خصائص الاسلوب البغدادى في التصوير .  
مصادر الاساليب الفنية في مدرسة بغداد .  
يقع البحث في ٢٨ صفحة .

٢ - تراث الرسم البغدادى للدكتور محمد مكية : ابتدا بمقدمة عن دراسة فن التصوير الاسلامي في مدرسة الرسم البغدادى وحوى الموضوعات التالية :

نشأة لتصوير الاسلامي في بغداد .  
مميزات فن التصوير البغدادى .

## ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد

وقد صورت مكتبة الاوقاف العامة ببغداد نسخة من هذا المجلد ، وحفظ في خزانها بالرقم ( ١٤٥ ) .

والمجلد الثاني من نسخة المنذري محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ( ٥٩٢٢ ) عربيات ، ويقع في ٢٤٦ ورقة وهذا المجلد هو تكملة للمجلد الاول المحفوظ في مكتبة ( شهيد علي ) ويشبهه بالوصف والخط والعنوان وملكية المنذري له المثبتة على طرة المجلد الذي يبدأ بحرف الحاء المهملة وينتهي بأخر الجزء الثالث والرابعين من الاصل ، فرغ من نسخه سنة ٦٣٦هـ بمقصورة الخطابة من جامع دمشق .

واعتبر المحقق هذه النسخة أصلاً لأنها أدق النسخ في الخط واقدمها ، ولأنها نسخة المنذري للرجل المليء بفن التراجم ، ولاحتوائها على قراءة بعض العلماء لها .

٢ - نسخة المكتبة الاهلية بباريس ( رقم ٥٩٢١ ) ، وهي تتكون من ( ٢٩٩ ) ورقة ، في كل ورقة ( ٢٣ ) سطر وفي كل سطر ١٠ - ١١ كلمة وخطها تملق ( فارسي ) . وهي منسوخة من الجزء الاول الذي في مكتبة شهيد علي ، لكن لا يعرف ناسخها ولا تاريخ النسخ ، وفيها خروم وسقوبات .

٣ - نسخة المكتبة الاهلية بباريس ( رقم ٢١٣٣ ) ، وهي تتكون من ٢١١ ورقة في كل ورقة ٢١ سطراً ، وفي كل سطر ١٠ كلمات ، والعناوين مكتوبة بخط كبير وخطها واضح منقط لا يسر على نمط معروف من انواع الخطوط العربية لكنه شبيه بالنسخ .

وهذا المجلد هو المجلد الثاني من نسخة لا يعرف لها وجود . واول هذا المجلد : ذكر من اسمه احمد واسم ابيه اسماعيل ، وينتهي بانتهاء الحاء المهملة . وهذه النسخة غير مؤرخة ، وقد استنتج المحقق بأنها متأخرة نسبياً وليس لها فائدة لوجود تراجمها في نسخة المنذري .

٤ - نسخة كيمبرج ( رقم ٢٩٢٤ ) وهي تتكون من ١٨١ ورقة في كل ورقة ٢٥ سطراً خطها مشق اعتيادي لا التزام فيه بقواعد الخط المعروفة ، وقد ذهب اولها وبقي من بدايتها عجز ترجمة أبي الخير عبدالله بن عبدالله الروحي الجوهري ، وينتهي المجلد بنهاية حرف العين من تاريخ ابن الديبشي ، وهذه النسخة هي المجلد الثالث من نسخة لا علاقة لها بالنسخ السابقة وهي تفيد في تكملة نسخة المنذري المشار اليها سابقاً وتبدأ من ترجمة « علي

ضمن سلسلة كتب التراث ( ٣٦ ) قام الدكتور بشار عواد معروف بالتحقيق والتلقيق على المجلد الاول من كتاب « ذيل تاريخ مدينة بغداد » تأليف الحافظ ابو عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الديبشي المولود في سنة ٥٥٨هـ والتوفى في سنة ٦٣٧هـ ، تم الطبع ببغداد سنة ١٩٧٤م/١٣٩٤هـ ، في ٣٦٨ صفحة وقد ابتداء الكتاب بكلمات قالها الأورخسون في ابن الديبشي ثم مفاتيح الكتاب والملاحظات ، وتقديم للمحقق جاء في ٦٤ صفحة حوى الموضوعات التالية :

عناية العرب بتاريخ جماهير الامة .

تواريخ المدن .

تواريخ بغداد التراجمية .

سيرة ابن الديبشي .

سيرة موجزة جدا لحياته .

مكانته .

تاريخ بغداد لابن الديبشي .

موارد تاريخ ابن الديبشي .

اهمية تاريخ ابن الديبشي .

نسخ الكتاب .

المختصر المحتاج اليه : هل هو « كتاب » ؟

نهج العمل في التحقيق .

وقد اعتمد المحقق على اربع نسخ مخطوطة :

١ - نسخة المنذري : المجلد الاول موجود في مكتبة شهيد علي باستانبول بحمل الرقم ١٨٧٠ ويقع في ٢٤٦ ورقة من ضمنها طرة النسخة في كل صفحة منه ٢٢ - ٢٣ سطراً وفي كل سطر ١٠ - ١١ كلمة . اوله بداية الكتاب ( وهي الخطبة ) وآخره حرف الجيم ، وهذه النسخة مكتوبة بخط دقيق ، وعليها خط الامام زكي الدين ابي محمد عبد العظيم المنذري المصري المتوفى سنة ٦٥٦هـ بملكية النسخة . ويشمل المجلد اثنين وعشرين جزءاً حديثاً وقد كتب سنة ٦٣٥هـ بخط مشق اعتيادي لا التزام فيه بقواعد الخط المعروفة ، وفي اسفل الورقة الاخيرة من الجهة اليمنى على الحاشية كلمة « معارضة » للدلالة على ان النسخة مقابلة على الاصل المستنسخة منه ، وعلى النسخة ايضا قراءات لبعض العلماء مثبتة بخطهم ، منهم : ابن الصابوني المتوفى سنة ٦٨٠هـ وصاحب كتاب « تكملة اكمل الاكمال » ، وفي النسخة خطأ في التجليد ادى الى تقديم تراجم وتأخير اخرى واختلاط بعضها ببعض ،



الاسماء المفردة في حرف الباء في آباء من اسمه محمد .

حرف التاء في آباء من اسمه محمد ،  
٩٦- محمد بن تركانشاه ، ابو السوفاء  
الحاجب .

حرف التاء في آباء من اسمه محمد ،  
٩٨- محمد بن ثابت بن يوسف بن عيسى ،  
ابو بكر النحوي .

حرف الجيم في آباء من اسمه محمد ،  
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه جعفر ،  
٩٩- محمد بن جعفر بن عقيل البصري الاصل  
البغدادي الولد والدار ، ابو العلاء .

حرف الحاء في آباء من اسمه محمد ،  
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه الحسن ،  
١٠٥- محمد بن الحسن بن علي الواعظ .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه الحسين ،  
١٢٧- محمد بن الحسين بن احمد بن  
حمدون بن يحيى المقرئ ، ابو غالب العدل .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حمزة ،  
١٤٨- محمد بن حمزة بن محمد بن عبدالعزيز  
ابن علي ، ابو عبدالله

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حامد ،  
١٥٥- محمد بن حامد بن فارس بن الحسين  
الذهلي ، ابو الحسين .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حمد .

١٥٩- محمد بن حمد بن اسماعيل الهمداني .  
ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حيدرة ،

١٦١- محمد بن حيدرة بن عمر بن ابراهيم  
ابن محمد بن محمد بن احمد بن علي . . . ابو المعمر  
ابن ابي المناقب العلوي الحسيني الزبيدي .

الاسماء المفردة في حرف الخاء في آباء من  
اسمه محمد ،

حرف الخاء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه خلف ،

١٦٦- محمد بن خلف ابن الخشاب ، ابو  
الحسن البزاز .

ان الحسن بن عبدالله بن هبة الله المعروف بابن  
السلمة « والى نهاية المجلد .

ومن مجموع هذه النسخ نحصل على تراجم  
جميع « المحمدين » وباقي الكتاب الى نهاية حرف  
المين ، ولعله يكون اكثر قليلا من ثلثي الكتاب .

وتنتهي المقدمة بخمس صور من مختلف النسخ  
التي اعتمدها المحقق في تحقيقه .

ويبدأ الكتاب بمقدمة المؤلف ثم ذكر من اسمه  
محمد واسم ابيه احمد ،

ويحوي تراجم :

١ - محمد بن احمد بن سليمان بن ابراهيم  
الخطيب . ابو الفنائم يعرف بابن القاريء .

ويستمر الكتاب على هذه الطريقة :

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ابراهيم ،

٧- محمد بن ابراهيم بن عبيد الله الواعظ ،  
ابو الفتح .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسماعيل ،

٧٨- محمد بن اسماعيل بن لحسن بن عبد  
العزيز الضبي ، ابو عبدالله .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسحاق ،

٨٢- محمد بن اسحاق بن محمد بن هلال  
ابن الحسن بن ابراهيم بن هلال بن زهرون ، ابو  
الحسن بن ابي نصر بن ابي الحسن بن ابي الحسين  
ابن بي علي بن ابي اسحاق الصائغ الكاتب .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسعد ،

٨٤- محمد بن اسعد بن محمد بن نصر  
البغدادي ، ابو المظفر المعروف بابن حكيم الفقيه  
الحنفي الواعظ .

الاسماء المفردة في حرف الالف من آباء من  
اسمه محمد .

حرف الباء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه بركة ،

٨٩- محمد بن بركة بن خلف بن الحسن بن  
كرما الصلحي الاصل ، ابو بكر .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه بختيار .

٩١- محمد بن بختيار بن عبدالله ، ابو عبدالله  
الشاعر المعروف بالابنثة .

حرف الدال في آباء من اسمه محمد ،

١٧٣- محمد بن دلف بن كرم بن فارس العكبري الاصل البغدادي المولد والدار ، ابو الكرم ابن ابي لفرج .

حرف الذال في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ذاك ،

١٧٤- محمد بن ذاك بن محمد بن احمد بن عمر الخرقى ، ابو بكر .

حرف الراء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ريحان ،

١٧٦- محمد بن ريحان بن عبدالله الثقي . ابو عبدالله .

الاسماء المفردة في حرف الراء في آباء من اسمه محمد ،

حرف الزاي في آباء من اسمه محمد ،

١٨١- محمد بن زيد بن ابي نصر ، واسمه احمد ، بن علي بن ياريس ، ابو محمد ،

حرف السين في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعد ،

١٨٢- محمد بن سعد بن سعيد ابن التاريخ ، ابو البركات الفسالي يعرف بالحنبلي .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعيد ،

١٨٩- محمد بن سعيد بن محمد بن عمر ابن الرزاز ابو سعد بن ابي منصور .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعد الله ،

١٩٤- محمد بن سعد الله بن محمد بن عمر ابن سالم ، ابو عبدالله .

حرف الصاد في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه صدقة ،

١٩٨- محمد بن صدقة بن محمد ابن البوشنجي ابو المحاسن الكاتب .

الاسماء المفردة في حرف الصاد في آباء من اسمه محمد .

حرف الطاء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه طاهر ،

٢٠٣- محمد بن طاهر الاندلسي، ابو عبدالله .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه طلحة ،

٢٠٦- محمد بن طلحة بن علي بن احمد بن الحسين بن عمر العامري ، ابو احمد المالكي .

حرف الظاء في آباء من اسمه محمد ،

٢٠٨- محمد بن ظفر بن احمد بن ثابت بن محمد الطرقي ، ابو عبدالله بن ابي الفناثم بن ابي العباس .

وهذه الترجمة هي الاخرة في الكتاب وبها ينتهي المجلد الاول ، ويليه المجلد الثاني واوله حرف العين في آباء من اسمه محمد ، وهو قيد الطبع الان .

والكتاب مزود بفهارس عامة للمترجمين . والاحالات ، والامكن ، والكتب الواردة في المتن ، والاحاديث النبوية ، والقوافي ، ونظم الدولة العباسية ، وجرندة المصادر والمراجع ، والمحويات .

### الدرس النحوي في بغداد

ضمن سلسلة الكتب الحديثة (٧١) نشر الدكتور مهدي المخزومي كتاب الدرس النحوي في بغداد ، ويتضمن الموضوعات التالية بعد المقدمة والتمهيد :

الكسائي ، علي بن حمزة ( توفي سنة ١٨٩هـ ) اصحاب الكسائي .

الفراء ، ابو زكريا يحيى بن زياد ( توفي سنة ٢٠٧هـ ) اصحاب الفراء .

ثعلب ، ابو العباس احمد بن يحيى ( توفي سنة ٢٩١هـ )

خصائص المذهب البغدادي .  
غلبة المذهب البصري ؛

كوتولدا فيل ومدرسة الكوفة  
بروكلمان ومدرسة الكوفة  
شوقي ضيف ومدرسة الكوفة

تلاميذ ثعلب والمبرد .

الطائفة الاولى جماعة ثعلب  
الطائفة الثانية جماعة المبرد

الطائفة الثالثة جماعة ثعلب والمبرد معا .

الدرس النحوي في القرن الرابع :  
ابن خالويه

- ١ - الدرس النحوي في مصر
- ٢ - الدرس النحوي في الاندلس

شيوخ البغدادية وتاريخه

التسمية بالكوفية

شوقي ضيف والمذهب البغدادي المزعوم

الانصاري والمدرسة البغدادية المزعومة

خاتمة البحث .

وقد زود الكتاب بفهارس عامة لاعلام الاشخاص والكتب الواردة في صاب البحث ، والآيات والاشعار ، وانصاف الإبيات ، اضافة الى مصادر البحث ومراجعته وفهرست الموضوعات . وقد تم طبع الكتاب ببغداد سنة ١٣٩٥/١٩٧٥ . وجاء في ٢٨٠ صفحة .

جباية العراق وسامرا وواسط ومفاخرة لاهل البصرة وفصلا واسما عن بغداد ، هو المتصود بالنشر في هذا الكتاب . ثم طبع فصل بغداد من كتاب الهمداني في باكو بالزكوغراف مع مقدمة بالروسية عن بغداد . وهذا المطبوع نادر وخال من التعليقات . وفي هذه المخطوطة الفريدة بعض الثغرات سببها الناسخ كالتر في الكلام عن المقابر ، وكذلك توزيع المادة المتعلقة بموضوع واحد على اكثر من مكان ، وبعض النصوص المصححة التي لا تنسجم في مادتها مع ما قبلها او بعدها ، ويعود هذا الاضطراب في توزيع المادة ايضا الى التجليد .

ثم ان هذا الفصل الخاص ببغداد ليس له الا عنوان عام هو « القول في مدينة السلام » والكلام بعده سرد متتابع غير مقسم الى فصول صغرى او فقرات مميزة .

ويتضمن الكتاب الموضوعات التالية بعد العنوان العام « القول في مدينة السلام ببغداد » .

- اسمها .
- تأسيسها .
- غارة المثنى .
- بحث المنصور عن عاصمة .
- اختيار الموضع .
- جمع العمال .
- استخدام ابي حنيفة .
- السور .
- موقعها .
- قصة ناقلاص .
- التخطيط .
- اهمية التدوير .
- وصف المدينة .
- محاولة هدم ايوان كسرى .
- الاسواق
- ابنية اخرى .
- تاريخ اكمال البناء .
- بناء الرصافة .
- تكاليف البناء .
- التجوم .
- شعر في مدح ببغداد .
- تاريخ التحول .
- الوكلون بالبناء .
- الابواب .
- القرى في موقع ببغداد .
- القطائع .

## بغداد مدينة السلام

في سلسلة التراث ( ٦١ ) صدرت سنة ١٩٧٧ الطبعة الاولى من كتاب « بغداد مدينة السلام » لابن الفقيه الهمداني : احمد بن احمد بن محمد بن اسحق بن ابراهيم الاخباري ابو عبدالله . بتحقيق الدكتور صالح احمد العلي حيث ابتداه بمقدمة عن « كتاب ابن الفقيه الهمداني عن بغداد واهميته » درس فيها الموضوعات التالية :

مكانة بغداد ، الكتب المؤلفة عن بغداد ، ابن الفقيه الهمداني وكتابه في البلدان ، محتويات الكتاب . مصادره ، ابن الفقيه والخطيب ، ابن الفقيه الهمداني وياقوت ، مدح ببغداد وذمها ، يزدجرد وكتابه في فضائل ببغداد ، كتب الفضائل ، فضائل مصر ، محتوى كتاب يزدجرد ، الحمامات .

وقد اعتمد المحقق على نسخة فريدة مصورة عن مخطوطة مشهد اعارها له الاستاذ بول كاله ، ونسخة اخرى مصورة عن المصورة التي اقتناها معهد الدراسات الاسلامية اعارها له الدكتور حسين محفوظ وهذه النسخة اوسع من المختصر المطبوع لكتاب البلدان الذي نشره دي غوبه ضمن السلسلة الجغرافية العربية ، ومن المقتطفات التي اقتبسها ياقوت من معجم البلدان والاشعري في تاريخ قم . فهذه النسخة كثير من مادتها موجود في المختصر ، الا انها تحوي مادة اضافية غنية عن

- العباية .
- معالم اخرى .
- رحا البطريق .
- الجسور .
- الجانب الشرقي .
- السويق .
- مساحة بغداد .
- مدح بغداد .
- عود الى الاقطاعات .
- نزول الخلفاء بها .
- سامرا .
- نص مقحم .
- يزدجرد بن مهرداد .**
- مناخ بغداد .
- علماء بغداد .
- المنتوجات الزراعية .
- الازدهار الصناعي .
- شهرة منتوجات بغداد .
- منتوجات مصر .
- تمور بغداد .
- القطن .
- النمو العمراني .
- مدح بغداد .
- كلام السرخسي .
- اخطار توسع بغداد .
- خصائص مواقع مدن العراق الاخرى .
- ميزات بغداد .
- خصائص الموقع .
- دجلة والفرات .
- عود الى خصائص الاقاليم .
- العراق مركز الدول الكبيرة .
- خصائص الاقليم الرابع .
- من اسباب انهيار الامويين .
- خصائص المنصور .
- لم يمت ببغداد خليفة .
- النجوم .
- مدح بغداد .
- رجع الى كلام يزدجرد .**
- الحمامات .
- هجرة الناس الى بغداد .
- سعة الجامعين .
- سعة المسجد الحرام .
- مقدّر الاستهلاك من دهن البزر .
- استهلاك البقول .
- استهلاك الاعشاب .
- عدد المنازل .
- استهلاك اللحم .
- توفر الحاصل .
- توفر الادوية .
- عود الى استهلاك اللحم .
- الحاصل الاخرى .
- بيوت الشطرنج .
- اقوال في مدح بغداد .
- ما ذكر في ذم بغداد وكراهة نزولها .
- اقوال من ذم بغداد .
- نهر دجلة .

وجمع المحقق في نهاية الكتاب كلا من هوامش المقدمة والنص ويشمل : هوامش القول في مدينة السلام بغداد ، هوامش يزدجرد ، هوامش رجع الى كلام يزدجرد ، ثم وضع فهرسين للاعلام ، والامكنة والبلدان ، وهذا الكتاب يقع في ١٩٢ صفحة وقد طبع في دار الطليعة ببغداد .

### تاريخ حوادث بغداد والبصرة

عن سلسلة كتب التراث ( ٧٣ ) صدر كتاب « تاريخ حوادث بغداد والبصرة من ١١٨٦ الهى الى ١١٩٢ هـ / ١٧٧٢ - ١٧٧٨ م » تأليف عبدالرحمن بن عبدالله السويدي البغدادي المولود سنة ١١٣٣ هـ ( ١٧٢٠ م ) في الفترة الاخيرة من حكم والي بغداد حسن باشا ( تولى بغداد من ١١١٦ الى ١١٣٦ هـ / ١٧٠٤ - ١٧٢٣ م ) والتوفى سنة ( ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م ) ؛ حقق الكتاب وقدم له وعلق عليه الدكتور عماد عبد السلام رؤوف وقد طبع ببغداد سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م في ١٦٨ صفحة .

ابتدا الكتاب بتمهيد للمحقق عن دراسة تاريخ العراق واهمية كتاب السويدي ومضمونه ومكانته. والنسخة التي حقق الكتاب عليها : ومنهج التحقيق. ثم يقدم دراسة عن « مؤلف الكتاب عبد الرحمن السويدي » تتضمن الموضوعات التالية :

- أسرته ، سيرته ، آثاره :
- اولا - في التاريخ والسير .
- ثانيا - في الفقه .

- ثالثا - في الحكمة والعقائد والتصوف .  
 رابعا - في النحو والبلاغة .  
 خامسا - في الادب والشعر .  
 سادسا - في علم الفلك .

العبيد العربية ، فلبعوا دورا كبيرا في قيادة البغداديين ودامت الفتنة اكثر من سنتين استعملت خلالها الاسلحة الثقيلة ، حتى اقر النظام احد القادة الماليك وهو حسن باشا ، لكن ضعفه ادى الى فرز عجم وتحالفه مع احد قطاع الطرق في شرق بغداد واعلن نفسه واليا وهدد بغداد ، وعجز الوالي حسن عن اتخاذ القرارات ادى الى فشل محاولات المتكررة للقضاء على هذا الخطر وعندما شعرت القيادات المحلية بخطورة الوضع قامت سنة ١٧٨٠م/١١٩٤هـ بحركة تمرد ضده ، انتهت بخروجه من بغداد وتعيين سليمان باشا واليا على بغداد وتوابعها .

والكتاب مزود بنيت مراجع التحقيق وفهارس للاعلام ، والامكنة والبقاع ، والوظائف والمؤسسات الاجتماعية ، والاسلحة والادوات والملابس والامتعة والمحتويات .

### اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي

في سلسلة دراسات ( ١٦١ ) نشر كتاب « اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي ١٤٥ - ٣٣٤هـ/٧٦٣ - ١٩٤٥م » للدكتور حمدان عبدالمجيد الكبيسي ، تضمن بعد المقدمة اربعة ابواب وفي كل باب ثلاثة فصول :

الباب الاول : نشأة اسواق بغداد وتخطيطها

الفصل الاول : بناء المدينة المدورة .

ويتضمن الموضوعات التالية :

- ١ - اختيار موقع المدينة المدورة وتخطيطها .
- ٢ - تسمية المدينة المدورة .
- ٣ - موقع الاسواق في المدينة المدورة .

الفصل الثاني : انتقال الاسواق الى الكرخ

ويبحث الموضوعات التالية :

- ١ - دوافع نقل الاسواق من داخل المدينة المدورة .
- ٢ - مواقع اسواق الكرخ .

الفصل الثالث : اسواق الرصافة

ويبحث في :

- ١ - الدوافع السياسية والضرورات الاقتصادية .
- ٢ - مواقع اسواق الرصافة .

وقد اعتمد المحقق على نسخة خطية فريدة ، بخط مؤلفها ، موجودة في خزانة كتب المدرسة القادرية لعامة الكائنة في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ببغداد كتب عليها بخط متأخر العبارة « مؤلفه عبدالرحمن السويدي » وهي لا تؤثر في صحة نسبة المخطوطة الى مؤلفها السويدي .

تقع المخطوطة في ( ٥٦ ) ورقة ، مقياسها ١٦×٢٠ سم ، وفي كل صفحة ١١ سطرا ، مكتوبة بخط نسخ معتاد واضح ، وفيها شطب المؤلف على بعض العبارات مما رأى ان يغيره ، وكتب فوقها او بجوارها على الهامش عبارات اخرى بدلها وحرف بعض الاسماء احيانا ، ولغة الكتاب عربية بينة مسجوعة احيانا مع ابيات قليلة من نظم المؤلف ، ولا يخلو الكتاب من اخطاء املائية ونحوية لكنها قليلة واغلبها يتعلق بطريقة رسم الهزرة او الالف المقصورة .

والكتاب نموذج لفن كتابة « المذكرات الشخصية » التي يؤرخ اصحابها فيها لاحداث عصرهم من خلال تاريخهم لفترة معينة من فترات حياتهم ، لذا جاء الكتاب سردا متتابعا خاليا من العناوين والتقسيم الى فقرات مميزة . وقد وصف فيه السويدي فترة مهمة من تاريخ العراق الحديث في اواخر القرن الثامن عشر لليلاد ( الثاني عشر للهجرة ) ، وهي فترة حافلة باحداث سريعة متتالية وبتفريات جسيمة ، حيث وفد الطاعون على بغداد فالحلة فالبصرة ثم الزبير وغيرها من المدن وخلف وراءه الالام ، كما حاصرت جيوش كريم خان البصرة ودخلتها بعد دفاع ومقاومة ، وفي بغداد طالب عمر باشا الوالي المملوكي بنجيدات عسكرية لمواجهة الموقف ، بينما اتهم باضعته البصرة وايدت الدولة العثمانية هذه الدعوى لضرب الماليك والتخلص منهم ، ثم عزل عمر باشا وقتل ، ومن خلفه لم يستطع انقاذ الموقف في البصرة ، وفي الوقت نفسه نجحت الساعي لدى الباب العالي بالاعتماد على الماليك ، فعين عبدالله باشا واليا على بغداد ، وكان ضعيف الشخصية ، فاستغل الموقف احسد ذوي النفوذ في السراي وهو عجم محمد وجمع الى صفه المبعوث الرسمي للباب العالي في بغداد ، وعندما شك سكان بغداد بنوايا عجم تجمعا ضده وقد تزعمهم مؤلف الكتاب ، ثم تزعم الموقف ابناء قبيلة

الباب الثاني : النشاط التجاري في اسواق بغداد  
الفصل الاول : العوامل المؤثرة في النشاط  
التجاري بأسواق بغداد .

ويبحث في :

- ١ - تطور المجتمع واجراءات المسؤولين .
- ٢ - الزيادة في رواتب الموظفين .
- ٣ - زيادة ارزاق الجند .
- ٤ - منح الخلفاء والوزراء .
- ٥ - الاستقرار السياسي في بغداد .
- ٦ - معوقات النشاط التجاري في اسواق بغداد .

الفصل الثاني : تخصص الاسواق وتمدها :

ويبحث في :

- ١ - تخصص اسواق الكرخ .
  - ٢ - تخصص اسواق الرصافة .
  - ٣ - الاسواق الجامعة .
- الفصل الثالث : السلع الواردة على اسواق بغداد  
والصادرة عنها :

ويبحث في :

- ١ - الطرق المؤدية الى بغداد .
- ٢ - السلع الواردة على اسواق بغداد .
- ٣ - المعوقات التي قد تعرقل وصول السلع الى اسواق بغداد .
- ٤ - المواد الصادرة عن اسواق بغداد .

الباب الثالث : المعاملات المالية والتجارية

الفصل الاول : اسلوب التعامل في اسواق بغداد :

ويبحث في :

- ١ - النظام النقدي .
- ٢ - استعمال الصك .
- ٣ - استخدام السفنجة .
- ٤ - دور الصراف في اسواق بغداد .

الفصل الثاني : الاسعار والاحتكار

ويبحث في :

- ١ - الزيادة المطردة في الاسعار .
- ٢ - الاحتكار .
- ٣ - موقف السلطة من زيادة الاسعار .

الفصل الثالث : الرقابة على الاسواق

ويبحث في :

- ١ - تطور وظيفة المحتسب .
- ٢ - تعيين عرفاء على الاسواق .

الباب الرابع : دور اهل السوق في الحياة العامة

الفصل الاول : العاملون في الاسواق

ويبحث في :

- ١- اجناس العاملين في الاسواق .
- ٢ - دخل اهل اسواق بغداد .
- ٣ - مكانة اهل السوق الاجتماعية .

الفصل الثاني : اشتراك اهل السوق في الفتن  
والاضطرابات الداخلية

ويبحث في :

- ١ - موقف اهل السوق من النزاع بين الامين  
والمأمون .
- ٢ - موقف اهل السوق من الاضطرابات  
الداخلية .

الفصل الثالث : المنازعات بين اهل السوق

ويبحث في :

- ١ - تكتل اهل الحرف .
- ٢ - المنازعات بين الاصناف .

وللكتاب خاتمة وفهارس للاعلام والاماكن  
وللمصادر العربية منها مخطوطة ومطبوعة ، والاجنبية  
وللمحتويات ، مع خلاصة باللغة الانكليزية وعدة  
مخططات لبغداد في اول ادوارها العباسية ، وقد  
صدر الكتاب عام ١٩٧٩م / ١٣٩٩هـ في ٤٨ صفحة .

# بَغْدَادُ فِي بَيْلُوعِ رَافِيَا الْعِمَارَةِ وَالْفُنُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ

بقلم

د. آسي كرزويل

ترجمة

سلمان فائق الزوي

مكتبة التحف العراقي - بغداد

هذه قائمة ذكرها كرزويل في كتابه « بيلوغرافية عن العمارة والفنون الاسلامية الى سنة ١٩٦٠ » مرتبة هجائياً حسب المؤلف ، تضم الكتب والمقالات المتعلقة ببغداد ، قمت بترجمتها الى العربية لينتفع منها الباحثون والمتخصصون ورواد التراث ، كما واشكر الأستاذ عبدالحميد العلوجي رئيس تحرير مجلة المورد على توجيهاته الجادة ، راجياً المولى القدير ان يوفقنا جميعاً لخدمة التراث .

\*

( A )

من زمن الحرب هو القصر العباسي وطاق كسرى . مجلة اخبار لندن الصورة ، ١٥ نيسان ١٩٤٤ ، ص ص : ٤٤٤ - ٤٤٥ ، مع سبعة صور .

3. Asad Talas. L'Enseignement chez les Arabes. La Madrasa Nizamiyya et histoire. Paris, Geuthner, 1939. pp : XII (12) and 125, with 4 plates. see pp : 26-33, 53-54 and is aplan of the Madrasa Mirjaniya.

اسعد طلس . مدارس العرب ؛ المدرسة النظامية وتاريخها . باريس ، غوثنر ، ١٩٣٩ ، ١٢ ص و ١٢٥ مع اربع لوحات تم ملاحظة الصفحات ٢٦ - ٢٣ ، ٥٣ ، ٥٥ واللوحات

1. Anastase. Restes de monuments Abbassides á Baghdad. Al-Machriq, vol. 10, 1907 pp : 300-304 (in Arabic)

الاب انستاس ماري الكرمللي . بقايا النصب العباسية في بغداد ، مجلة المشرق ١٩٠٧ ، المجلد العاشر ، ص ص : ٣٠٠ - ٣٠٤ ( بالعربية ) .

2. Anonymous. Wartime restoration of two famous building In Iraq - The Abbasid palaeo, Baghdad and the Arch of ctesiphon. The illustrated London news, 15th. April, 1944, pp : 444-45 with 7 illus.

مجهول المؤلف . احياء بنائين مشهورتين في العراق

كرزويل، ك. أ. سي. جامع المنصور الكبير في بغداد. مجلة العراق، مجلد (1) ص 100-111، 1934، مع شكلين تختلف عما ذكره هيرسفيلد.

(H)

9. Huart, Clement. Histoire de Bagdad dans les temps modernes. pp. 14 and 231 with 2 plates. Paris, Leroux, 1901. "Topographie de la ville de Bagdad" pp: VI - XIV.

هوار، كليمان. تاريخ بغداد. ص 14، 221 مع لوحتين. باريس، ليروكس، 1901،  
طبوغرافية بغداد ص 6-14.  
عربه وعلق عليه ناجي معروف. بغداد، 1961.

10. Iraq, Directorate of Antiquities. Remains of the Abbasid palace in Baghdad citadel. Baghdad, Government Press, 1935. illustrated with 7 figures and 47 plates. pp : 29 aniv.

العراق. مديرية الآثار العامة. بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد. بغداد، مطبعة الحكومة، 1935، مصور مع (7) أشكال و (7) لوحة الصفحات 29، 3.

11. ———. Dalil Mathaf al-Athar - Arabiya fi Khan Marjan bi Baghdad. (Guide to the Arab Museum at Khan Marjan at Baghdad) Baghdad, Government Press, 1938. pp : III and 47 with 47 plates see pp : 1-16 and plates 1-13 for the architecture of Khan Marjan and plates 14-20 for stucco dadoes, Mihrabs, etc. transported to the museum.

العراق. مديرية الآثار العامة. دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ببغداد. بغداد، مطبعة الحكومة، 1938، ص 3، 47 مع 38 لوحة انظر الصفحات (1-16) واللوحات (1-13) لعمارة خان مرجان واللوحات (14-20). والمحراب الذي نقل الى المتحف العراقي.

12. Ishaq, Raphael Babu. Maḥallat ash-shammasiya bi Baghdad fi Ahd al-Khilaḥa al-Abbasiya (The Shammasiya quarter in Baghdad in the time of the Abbasid Khalifate) Sumer, 1953 vol. 9, No. 1, pp : 132-154.

٢ - ٤ (غير مرقمة). اللوحة الثالثة هو تخطيط للمدرسة المرجانية.

(B)

4. Borghese, principe scipione. In Asia Siria - Euphrate - Babylonia. Con 235 illustrazioni da fotografie Large. Bergamo, 1904. Baghdad chapt. 10, 11.

يورغيس، برنسيب سيبون. في آسيا - سوريا - الفرات - بابل مع 235 صورة بركاموا، 1904. يضم الفصل العاشر والحادي عشر عن بغداد.

5. Bowen, Harold. The Nizamiya Madrasa and Baghdad Topography. Jour. Roy. Asiatic. socy., 1928, pp : 609-614, with a map. Adiscussion of the divergent views of Massignon and Levy.

بون، هارولد. المدرسة النظامية وطبوغرافية بغداد. مجلة الجمعية الآسيوية الملكية، 1928 ص ص : 609-614 مع خارطة وتعليق على الصور لمانسون وليفي.

6. Bukhsh, S. Khuda. Baghdad. Journal of Indian History, vol. 4 No. 2, pp : 44-70, see pp : 45-47 and 52 ff.

بخش، إس. خدا. بغداد. مجلة تاريخ الهند، مجلد (٤) عدد ٢، ص ص 44-70. انظر الصفحات 45-47 و 52.

(C)

7. Coke, Richard. Baghdad, the city of peace. London Thornton Butterworth, 1927. see pp : 29-43. pp : 343, 12 plates and a map.

كوك، ريجارد. بغداد، مدينة السلام. لندن؛ ثورنتون بتورث، 1927، ص 29-43 مع (12) لوحة وخارطة، انظر صفحة 29-33. نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه مصطفى جواد وفؤاد جميل يقع في جزأين طبع في بغداد، 1967.

8. Creswell, K. A. C. The great mosque of Al-Mansur at Baghdad. Iraq, vol. 1, 1934. pp. : 105-111 with 2 figs. Aproposed reconstruction different from that of Herzfeld.



17. Le Strange, Guy. Baghdad during the Abbasid Caliphate. Atopographical summary, with anotic of the contemporary Arabic and persian authorities. Journ. Roy. Asiatic society, 1899. pp : 847-893, with 2 plates. Review p. schwarz, O.L.Z. vil. 28, cols : 931-2.

لسترايچ ، غي . بغداد في عهد الخلافة العباسية ، موجز طبوغرافي مع ملاحظات وشروح بالعربية والفارسية . مجلة الجمعية الاسوية الملكية ، ١٨٩٩ صص ٨٤٧ - ٨٩٣ مع لوحتين . وقد عرف بهذا الكتاب سفارتس في مجلة الادب الشرقي التي تصدر في المانيا ، مجلة ٢٨ ، العمود ٩٣١ - ٩٣٢ . « ترجمه عن الانكليزية وعلق عليه بشرير فرنسيس في جزاين . بغداد ، ١٩٣٦ » .

18. ————. Baghdad during the Abasid Caliphate, from contemporary Arabic and persian sources. with 8 plans., oxford; clarendon press 1900. pp : 31 and 381. Review by G. Kampffmeyer, O.L.Z., vol. 6, pp : 418-419.

لسترايچ ، غي . بغداد في عهد الخلافة العباسية ؛ شروح من المصادر العربية والفارسية . اكسفورد ، مطبعة ملارندون ، ١٩٠٠ ، مع (٨) مخططات ص ٣١ ، ٢٨١ يذكر فيها بغداد كما وعرفه كمبفماير في مجلة الادب الشرقي التي تصدر في المانيا مجلة ٦ صص ٤١٨ - ٤١٩ . « ترجمه عن الانكليزية وعلق عليه بشرير فرنسيس في جزاين . ط ١ ، بغداد ، ١٩٣٦ » .

19. Levy, Reuben. The Nizamiya Madrasa at Baghdad. Journ. Roy. Asiatic socy., 1928, pp : 265-270.

ليفي ، روبين . المدرسة النظامية ببغداد ، مجلة الجمعية الاسوية الملكية ، ١٩٢٨ صص ٢٦٥ - ٢٧٠ .

20. ————. A Baghdad chronicle. Cambridge, univ. press, 1929. pp : XII, and 279, with 4 plates see 1. The building of the city pp : 11-25

ليفي ، روبين . تاريخ بغداد . كمبرج ، مطبعة الجامعة ، ١٩٢٩ ، ص ١٢ ، ٢٧٩ مع أربع

أسحق ، رفائيل بابو . محلة الشمالية ببغداد في عهد الخلافة العباسية ، سومر ، مجلد ٩ ، الجزء الاول ، ١٩٥٣ صص : ١٣٢ - ١٥٤ .

13. Kühnel, Ernst. Drachenportale. Zeitsch. für Kunstwissenschaft, vol. IV, 1950. Berlin, pp : 1-18, with 21 illus. Includes the Talisman Gate of Baghdad.

كيتل ، إرنست . باب الطلسم . مجلة علوم الفن . برلين ، مجلد ٤ ، ١٩٥٠ صص ١ - ١٨ مع (٢١) صورة يتضمن طلسم باب بغداد .

14. Kurkis, Awwad-Al-Madrasa al-Mustansiriya bi Baghdad. (The Mustansiriya Madrasa at Baghdad) Sumer, vol. 1, No. 1, 1945 pp : 76-130, with 12 plates and 3 figs. with a summary in English pp : 12-25.

كوركيس عواد . المدرسة المستنصرية ببغداد . سومر ، مجلد ١ ، الجزء الاول ، ١٩٤٥ ، صص : ٧٦ - ١٣٠ ، مع (١٢) لوحة وثلاثة اشكال مع موجز بالانكليزية صص ١٢ - ٢٥ .

15. ————. al-Madrasa al-Mirjaniya. (The Mirijaniya Madrasa), Sumer, vol. 2, No. 1, 1946. pp : 125-126.

كوركيس عواد . المدرسة المرجانية ، سومر ، مجلد (٢) ، الجزء الاول ، ١٩٤٦ صص ١٢٥ - ١٢٦ .

16. ————. ad-Dar al-Muizziya min Ashhur mabani Baghdad fi'l qarn ar-Ra'bili'l-Hijra. (The Muizziya palace : one of the most famous buildings of Baghdad in the fourth century of the Hijra) Sumer, vol. 10, No. 2, 1954 pp : 197-217.

كوركيس عواد . الدار المعزية من اشهر مباني بغداد في القرن الرابع الهجري . سومر ، مجلد (١٠) الجزء الثاني صص ١٩٧ - ٢١٧ .

**مصطفى جواد** . القصر العباسي في القلعة ببغداد وهو دار المسناة العتيقة من آثار الناصر لدين الله العباسي . سومر ، مجلد ١ الجزء الثاني ، ١٩٤٥ صص ٦١ - ١٠٤ ، مصور مع ٨ لوحات وثلاثة اشكال .

26. ——— . Imárát al-Qarn as-Sadis ad-Dakhma fi Janib Sharqi min Baghdad Kharij Dar al-Khilafa (The great buildings of the sixth century on the eastern side of Baghdad outside the Dár al-Khilafa) Sumer, vol. 2, No. 1, 1946, pp : 55-76, with 2 illus. and a map.

**مصطفى جواد** . عمارات القرن السادس الضخمة في الجانب الشرقي من بغداد . خارج دار الخلافة ، سومر ، مجلد ٢ ، الجزء الاول ، ١٩٤٦ صص ٥٥ - ٧٦ مع لوحتين وخارطة .

27. ——— . Imárát al Qarn as-Sadis ad-Dakhma fi Dár al-Khilafa al-Abba-siya. (The glorious buildings of the sixth century in the Abbasid Dár al-Khilafa) Sumer, vol. 2, No. 2, 1946, pp: 197-213, 1 fig.

**مصطفى جواد** . عمارات القرن السادس الضخمة في دار الخلافة العباسية . سومر ، مجلد ٢ ، الجزء الثاني ، ١٩٤٦ ، صص ١٩٧ - ٢١٣ ، مع شكل واحد .

28. ——— . al'Imárát al-Islamiya al-tiqiya al qáima fi Baghdad (The old Islamic buildings still existing in Baghdad) Sumer, vol. 3, No. 1, 1947, pp : 38-59, with 8 plates.

**مصطفى جواد** . العمارات الإسلامية العتيقة القائمة في بغداد . سومر ، مجلد ٣ ، الجزء الاول ، ١٩٤٧ ، صص ٢٨ - ٥٩ ، مصور مع ٨ لوحات .

29. ——— . ar-Rubut al-Baghdadiya wa atharuhá fi'th-thaqafat al-Islamiya. (The Ribáts of Baghdad and their influence on Islamic Learning) Sumer, vol. 10, No. 2, 1954. pp : 218-249.

**مصطفى جواد** . الربط البغدادية وانرها في الثقافة الإسلامية ، مجلة سومر ، مجلد ١٠ ، الجزء الثاني ، صص ٢١٨ - ٢٤٩ ، ١٩٥٤ .

لوحات لاحظ المحقق الاول في بناء مدينة بغداد صص ١١ - ٢٥ . يتضمن الحياة الاجتماعية والسياسية في عهد الخلافة العباسية في بغداد .

21. Liloyd, Seton. Discovery in the Madrasat al Mirjania (Mirjan Mosque), Sumer, vol. 2, No. 1, 1946 pp : 10-12. Discovery of the fine carved brick decoration of the interior when acoting of plaster was stripped off.

**لويد ، ستين** . اكتشافات في المدرسة المرجانية ( جامع مرجان ) سومر المجلد الثاني ، الجزء الاول ، ١٩٤٦ صص ١٠ - ١٢ .

( M )

22. Massignon, Louis. Les saints musulmans enterres a Bagdad. Revue de L'Hi-stoire des Religions XXVIII, 1908, pp : 329 - 338.

**ماسينيون ، لويس** . دخول رجال الدين المسلمون الى بغداد . مجلة اخبار تاريخ الديانات ، مجلد ٢٨ ، ١٩٠٨ صص ٣٢٩ - ٣٣٨ .

23. ——— . Les Medresehs de Bagdad. Bulletin d' L'Institut francais d'Archeologie orientale, 1909 VII, pp: 77-86, with 2 plates.

**ماسينيون ، لويس** . مدارس بغداد . مجلة المعهد الآثاري الشرقي الفرنسي مجلد ٧ ، صص ٧٧ - ٨٦ مع لوحتين ، ١٩٠٩ .

24. ——— . Bagdad et sa topographie au moyen age : deux sources nouvelles. Comptes rendus de l'Academic des Inscriptions et Belles-Lettres, 1911. pp : 18 - 24.

**ماسينيون ، لويس** . طبوغرافية بغداد في العصر الوسيط . مجلة اكاديمية كتابات الفنون الجميلة ، صص ١٨ - ٢٤ ، ١٩١١ .

25. Mustafá Jawwad. al-Qasr al-Abbasi fi'l Qalah bi Baghdad wa-huwa Dár al-Musanná al-Atique min Athar al Nasiridin Allah al-Abbasi, (The Abbasid palace in the citadel at Baghdad which is the ancient Dar al-Musanná, one of the monuments of the Abbasid al Nasiridin Allah), Sumer, vol. 1, No. 2, 1945, pp : 61-104, with 8 plates and 3 figs.

سالون ، جورج . مقدمة طبوغرافية عن تاريخ بغداد لابي بكر احمد بن ثابت الخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣هـ/١٠٠٢ - ١٠٧١) باريس ، بولون ، ١٩٠٤ ، ص ٤ ، ٢١٧ ، (٩٣) صفحة نص بالعربية وهو من بحوث هوس ، تاريخ العلوم والفلسفة سلسلة ١٤٨ وقد عرّفه م. ج. دي غويه في المجلة الاسيوية مجلد ٣ ، سلسلة ١٠ ، ص ١٥٨ - ١٦٩ . وهو موجود في مكتبة المتحف العراقي - القسم العربي والذي يسمى بالمقدمة لسالون نص بالفرنسية والعربية تحت رقم (١٩٨) .

35. Shukri, Al-Alusi. La "Madrasah Mostansiriah á Bagdad sous les Califes. Al-Machriq ve annee, 1902, pp : 961-966 (in Arabic).

شكري الالوسي . المدرسة المستنصرية من كتاب مساجد بغداد ومدارسها . مجلة المشرق ، ١٩٠٢ ص ص ٩٦١ - ٩٦٦ .

( V )

36. Violett, H. L'Architecture musulmane du XIII C Siecle en Irak. La Madrasa Mustansiriyah á Bagdad. Revue Archeologique, 2 me serie, XXI, pp : 1-18, with 20 illus.

فايلت ، هـ. العمارة الاسلامية في القرن الثالث عشر في العراق . المدرسة المستنصرية في بغداد . مجلة الاخبار الانثوية ، مجلد ٢١ ، ص ص ١ - ١٨ مع ٢٠ صورة ، ١٩١٢ .

The Reference : المصدر

Creswell, K.A.C. A Bibliography of the Architecture, Arts and crafts of Islam to 1st. Jan., 1960. Cairo, The American univ. at Cairo press, 1961. pp : 202-204.

كروزيل ، كـ. ا. سي . بيلوغرافية عن العمارة والفنون الاسلامية الى ١ يناير ١٩٦٠ ، القاهرة ، مطبعة الجامعة الامريكية في القاهرة ١٩٦١ . وقد وزع في لندن ، مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٦١ . ص ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

30. ———. al-Madrasa al-Mustansiriya. (The Mustansiriya Madrasa) Sumer, vol. 14, 1958, pp : 27-75.

مصطفى جواد . المدرسة المستنصرية . سומר ، مجلد ١٤ ، ١٩٥٨ ص ص ٢٧ - ٧٥ .

( N )

31. Naji Maruf. al-Madrasa al-Mustansiriya. Baghdad, Matbaát Dankur al-Haditha, 1935, pp. 88 and vi, with 18 illus.

ناجي معروف . المدرسة المستنصرية . بغداد ، مطبعة دنكور الحديثة ، ١٩٣٥ ، ٨٨ ص مع ١٨ صورة .

32. Nasir An-Naqshabandi - al-Madrasa al-Mirijania (The Mirijanyia Madrasa) Sumer, vol. 2, No. 1, 1946. pp : 33-54, with 12 plates.

ناصر النقشبندي . المدرسة المرجانية . سומר ، مجلد ٢ ، الجزء الاول ص ص ٣٣ - ٥٤ ، ١٩٤٦ مع ١٢ لوحة .

( P )

33. Pognon, H. Note. Journal Asiatique, serie, XIX, pp : 153-155; pp : 336-342. Notes, on Uigour, syrian and Arabic in scriptions found on the tomb of a saint in an ancient Jacobite convent, which convent he places in the XIIth. century.

بونون ، هـ. ملاحظة ، المجلة الادبوية ، مجلد ١٩ ، ص ص ١٥٣ - ١٥٥ ؛ ٣٣٦ - ٣٤٢ ، ملاحظات عن اويغور ، كتابات بانسريانية والعربية وجدت على ضريح القديس يعقوب في القرن الثاني عشر .

( S )

34. Salmon, Georges. L'Introduction de po-graphique a' L'histoire de Bagdad d' Abou Bakr Ahmad Ibn Thabit Al-Khatib al-Baghdadi (392-463H.) 1002-1771 J.C.) Paris, Bouillon, 1904. pp : IV, 207 and 93 (Arabic text) Bibliotheque de L'Ecole des Hautes Etudes. Sciences hist. et phil. fasc. 148. Review : M. J. de Geojje, Journ. Asiatique serie III, pp: 158-69.

# بغداد في رحلات الأجانب

اعداد

سلمان وفيق الراوي

وهذه قائمة باسماء كتب الرحلات الموجودة في مكتبة المتحف العراقي والتي تبحث عن بغداد ، تمت بجمعها وترجمتها لتكون في خدمة الباحثين ، وتحتوي هذه القائمة على (٧٦) عنوانا . مرتبة هجائيا حسب المؤلف ثم يتبعها العنوان وبيانات النشر وبيانات التوزيع .



١٩١٧ ، يقع في ١٦٨ ص ، يتضمن عن بغداد والواقع الاثرية في العراق ، فيه لوحات تمثل المواقع الاثرية .

( B )

4. Bagdad. Leiden, E. J. Brill, 1962. 465 p., illus., 2 fold maps. volume special : publié A' L'occasion du Mille deux centième anniversaire de la foundation.

بغداد . طبع ليدن ، ١٩٦٢ ، عدد خاص يضم تاريخ ومدارس وفنون بغداد مزود بزخارف معمارية يضم اربعة فصول . صدر بمناسبة مرور الف عام على تاسيس مدينة بغداد .

5. Baghdad; Histoire, la province, Les Tribusnomades. Paris N. d. 358 p., illus.

بغداد ، تاريخها . مجهول المؤلف وسنة الطبع . طبع باريس ، ٢٥٨ ص .

6. Bell, Gertrude Margaret Lowthian. Amurath to Amurath. London, William Heinemann, 1911. 370 p., illus.,

بل ، جرترود مارغريت لوثيان . عمورات الى عمورات . طبع لندن ، ١٩١١ ، ٢٧٠ ص . مزود بصور . يحتوي على ٩ فصول وان الفصل السادس خاص ببغداد .

( A )

1. Alexander, Constance M. Baghdad in bygone days; from the Journal and correspondance of Claudius Rich, traveller, artist, linguist, antiquary an British resident at Baghdad, 1808-1821. London, John Murray, 1928. XVI+336 p., illus., figs., map.

الكسندر ، كونستانس إم . بغداد في الايام الماضية من خلال مراسلات كلوديوس ريج ، الرحالة ، الفنان ، اللغوي ، الانثاري والمقيم ببغداد ١٨٠٨ - ١٨٢١ . طبع في لندن ، جون ماري ، ١٩٢٨ ، ٢٣٦ ص مزود بصور واشكال وخارطة .

2. D'Anville, M. L'Euphrate et le Tigre. Paris, Impremire Royale, 1779. 147 p., illus., fold maps.

دي آنفيل ، إم . دجلة والفرات . باريس ، المطبعة الملكية ، ١٧٧٩ ، ١٤٧ ص ، مصور مع خرائط مطوية . يضم فصلا عن بغداد في ص ١٢١ .

3. Auble, Emile. Bagdad, son schemin der fer importance, son avenir. Paris, 1917. 168 p. illus., amap.

اوبل ، اميل . بغداد واهميتها . طبع في باريس ،

11. Burckhardt, John Lewis. Travels in Assyria; Media and persia; Including a journey from Baghdad by mount Zagras. London, 1830. 2 vols., illus.

بوركهارت ، جون لويس . رحلات في بلاد اشور وميديا وبلاد الفرس . يتضمن رحلة من بغداد عند جبال زاكروس طبع لندن ، ١٨٣٠ . يقع في مجلدين ، مصور .

( C )

12. Candler, Edmund. The Long road to Baghdad (Eye-witness) in Mesopotamia. London, Cassel & Co., 1919. 2 vols., illus., plates fold maps.

كندلر ، ادموند . الطريق الطويل الى بغداد . ( شاهد عيان ) في بلاد ما وراء النهرين . طبع لندن ، كيسل : ١٩١٩ ، يقع في مجلدين ، مزود بصور ولوحات وخرائط مطوية .

13. Carnegy, Alexander., My log' persian Gulf & turkish Arabia. Bombay, Education, society press, 1878. 48 p.

كارنيجي ، الكسندر . الخليج العربي وتركيا وبلاد العرب . طبع ومباي ، مطبعة جمعية التربية ، ١٨٧٨ ص ٤٨ . يصف بغداد ، والمراق .

14. Casey, Robert Joseph. Baghdad and points east. New York, J. H. sears & Co., 1931. 300 p.

كاسي ، روبرت جوزيف . بغداد ومفتاح الشرق . طبع نيويورك ، سيرز ١٩٣١ : ٣٠٠ ص . يتضمن (٣٤) فصلاً تحتل بغداد الفصول (١٣ ، ٣١ ، ٣٤) .

15. Chapple, Joe Mitchell. To Baghdad and back. London, The century Co. 1928. 298 p.

چبل ، جوي ميتشل . الى بغداد واليهما . طبع لندن ، ١٩٢٨ ، ٢٩٨ ص يتضمن (٢٤) فصلاً يصف الحياة في بغداد : مزود بصور وفيه قائمة بالصور التي تمثل المناطق التي مر بها .

16. Chiha, Habib K. La province de Bagdad, son passe, son preast, son avenir, contenant aussi des notes ur le chemin de fer de Bagdad et une etude indite sur tribus namodes de la Mesopotaméa. Le Caire, Imprimeri El-Maaref, 1908. 358 p.

7. ————. The letters of Gertrude Bell; selected and ed. by Lady Bell. New York, Goni and Liveright, 1927. 2 vols.; plates, 2 maps.

بل ، غرتروود مارغريت لوثيان . رسائل المس بل طبع نيويورك ، ١٩٢٧ ، مجلدين ، مصور فيه لوحات مع خريطين .

8. Binder, Henry. Au Kurdistan; en Mesopotamie et en perse. Paris, Maison quantin, 1887. 453 p., illus. (200), 4 maps in cal.

بايندر ، هنري . كردستان وبلاد ما وراء النهرين وبلاد فارس . باريس ، ميسون ، ١٨٨٧ ، ٤٥٣ ص مع (٢٠٠) صورة واربعة خرائط . يتضمن (١٥) فصلاً ويذكر بغداد في الفصول: التاسع ، العاشر ، الحادي عشر .

9. Buckingham, J. S. Travels in Mesopotamia; including a Journey from Aleppo to Baghdad a cross the Euphrates to orfah (Theur of chaldees) through the plains of the Turcomans ... London, Henry Colburn, 1827. 2 vols.

بكنهام ، ج . اس . رحلات بلاد ما وراء النهرين يتضمن الرحلة من حلب الى بغداد عبر الفرات الى اور ثم الى سهول التركمان . طبع لندن ١٨٢٧ . يقع في مجلدين .

ترجمة سليم طه النكريتي تحت عنوان رحلاتي الى العراق سنة ١٨١٦ طبع بغداد ، ١٩٦٧ - ١٩٦٩ في جزئين ومزود بصور

10. Budge, E. A. Wallis. By Nile and Tigris; A Narrative of Journey in Egypt and Mesopotamia behalf of the British Museum between the years, 1886 and 1913. 2 vols.

بيج ، اي . ا . واليس . عند النيل ودجلة ، رحلات روائية في مصر وبلاد ماوراء النهرين لمصلحة المتحف البريطاني بين السنوات ١٨٨٦-١٩١٣ يقع في مجلدين . يذكر بغداد ص ١٢٣، ١٨٥ و٢١١ من المجلد الاول ، وص ١٤٢، ٥٠ من المجلد الثاني يقع في كل مجلد (٤٥٦) ص مزود بصور .

ترجمه وعلق عليه فؤاد جميل طبع بغداد ، دار الزمان ، ١٩٦٦ في جزئين تحت عنوان رحلات الى العراق .

ديس دي ريفويه ، بارتمى لويى . بغداد والفراة  
طبع باريس ، ١٨٨٤ ٢١٨ ص ، مصور ،  
لوحت .

22. Dickson, Mora. Baghdad and beyond.  
London, Dennis Dobson, 1961. 191 p.,  
illus.

دكسون ، مورا . بغداد وما ورائها . طبع لندن ،  
١٩٦١ : ١٩١ ص مصور .

23. Donbho, Martin Henry. With the per-  
sian expedition. London, Edward Ar-  
nold, 1919. 276 p., illus.

دنبهو ، مارتن هنري . مع البعثة الفارسية . طبع  
لندن . ادورد آرنولد . ١٩١٩ . ٢٧٦ ص  
مزود بصور . يصف بغداد ودجلة والكوت .

( E )

24. Ellis, Tristram James. On a raft and  
through the desert; the narrative of an  
artist's Journey through northern syria  
Kurdistan, by the Tigris to Mosul and  
Baghdad and of areturn Journey ...  
London, Field & Turb, 1881. 122+128 p.

إلى ، ترسترام جيمس . طوف خلال الصحراء ،  
رحلة روائية لفنان شمال سوريا وكردستان  
عند دجلة الى الموصل وبغداد ، طبع لندن ،  
سنة ١٨٨١ ، ١٢٢ - ١٢٨ ص .

25. Evers, Samuel. A Journal kept on a  
Journey from Bassora to Baghdad ....  
In the year 1779. Horsham, Arthur Ree,  
1784.

اينقرز ، صمويل . رحلة من البصرة الى بغداد  
سنة ١٧٧٩ طبع هورشم ١٧٨٤ .

( F )

26. Fogg, William Perry. Arabistan or the  
land of the Arabian nights, being trav-  
els through Egypt, Arabia and persia-  
Baghdad. London, Marston Law, 1875.  
350 p.

فوك ، وليم پيري . عربستان او ليالي العرب ،  
رحلة الى مصر وبلاد العرب ويران وبغداد  
طبع لندن ، ١٨٧٥ ، ٣٥٠ ص .

يقع في ٢٨ فصلاً وقد ذكر بغداد في الفصول  
١٨١ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٢٨ مزود بصور كثيرة .

شبهها حبيب ، ك . لواء بغداد ... طبع القاهرة .  
١٩٠٨ يقع في ٢٥٨ ص .

17- Coke, Richard. Baghdad; the city of  
peace. London, T. Butter worth, 1927.  
343 p., illus; a map.

كوك ، ريجارد . بغداد مدينة السلام  
طبع لندن ، ١٩٢٧ ، ٣٤٣ ص مزود بصور  
وخارطة نقله الى العربية وقدم له وعلق  
عليه مصطفى جواد و فؤاد جميل في جزاين .  
بغداد . ١٩٦٧ .

18. Cooke, Nat and Alexander R. Cury.  
Baghdad how to see it. Cairo, world  
wide, N. d. 24 p., illus., 2 fold maps.

كوك ، نات والكسندر ر . كوري . بغداد كما تراها .  
طبع القاهرة مجهول سنة الطبع يقع في ٢٢٤  
ص ، مزود بصور مع خرائط مطوية . يتضمّن  
لمحة تاريخية مفصلة عن بلاد ماوراء النهرين .  
بغداد ومواقعها الاثرية مزود بصور ملونة .

19. Cunliffe-Owen, Betty. Thro the gates of  
Memary (from the Bosphorus to Bagh-  
dad) London, Hutchinson, 1924. 267 p.

كنليف اوين ، بتي . من خلال بوابات الذاكرة  
(من البسفور الى بغداد) طبع لندن ، ١٩٢٤  
يقع في قسمين القسم الاول عن تركيا والقسم  
الثاني عن بلاد ما وراء النهرين ويضم (٤٩)  
فصلاً . يصف بغداد من الفصول ١٣ - ٢٠  
مزود بصور .

( D )

20. De Gaury, Gerald. Arabian Journey and  
other desert travels. London, George G.  
Harrap, 1950. 190 p., illus, 31 pl., 3  
maps.

دي غوري ، جيرالد . رحلة عربية ورحلات ،  
صحراوية اخرى . طبع لندن ، ١٩٥٠ ، ١٩٠  
ص مزود بصور مع ٣١ لوحة وثلاثة خرائط  
مع النص يتكون من اربعة اقسام والقسم  
الثالث يبحث عن العراق وبغداد .

21. Denis de Rivoyre, Barthelemy Louis.  
Les rais Arabes et leur pays; Bagdad  
et les villes ignorees d'I Euphrate.  
Paris, Librairie plon, 1884. 318 p., illus.,  
plates.

31. Hamid, Nawab Yar Gang. A trip to Baghdad. Bombay, 'The Bombay Gazette press, 1908. 61 p., illus. with an appendix at the end about of the Arab horse pp: 43 - 61.

حامد ، نواب يارگانگ . رحلة الى بغداد . طبع بمباي ، مطبعة جريدة بمباي ، ١٩٠٨ . ٦١ ص مصور يضم ملحق في اخر الكتاب عن الحصان العربي ص ٤٣ - ٦١ .

- 32- Harris, Walter Burton. From Batum to Baghdad via Tiflis Tabriz and persia, Kurdistan. Edinbourgh; W. Blackwood & sons, 1896. 335 p.

هريز ، ولتربرتون . من باتوم الى بغداد . طبع ادنبره ، ١٨٩٦ ص ٣٣٥ . يتضمن- رحلة من طنجة - تبريز - ايران - المنطقة الكردية كرمناش - بغداد وقد وصفها سنة ١٨٩٦ مزود بصور وخرائط .

33. Hedin, Sven Anders. Bagdad, Babylon, Ninive. Leipzig, F. A. Brockhans, 1918. 410 p.

هيدن ، سفن أندروز . بغداد ، بابل ، نينوى . بالالمانية طبع لبيزج يقع في ٢٦ فصلاً يصف بغداد في الفصول ( ٩ ، ١٠ ، ١١ ) طبع سنة ١٩١٨ وصفحاته ٤١ صفحة مزود بصور .

34. Herchenbach. Bagdad; La reine du desert. Tours, 1884. 141 p.

هرشن باخ . بغداد . طبع طورس ، ١٨٨٤ ص ١٤١ . مقدمة من قبل سيمون .

35. Herzfeld, Ernst & Friedrich Sarre. Archaeologische reise im Euphrat und Tigris Gebiet mit einem beitrage arabische Inschriften von Max von Berchem. Berlin, Dietrich Reimen, 1911. 4 vols, illus., plates.

هرتسفيلد ، ارنست وفريدريج سارة . الرحلة الآثارية الى منطقة دجلة والفرات . مع بعض الخطوط العربية من قبل فون ماكس برشم طبع برلين ١٩١١ ، يقع في اربع مجلدات يتضمن المجلد الاول : الرحلة الآثارية الى منطقة دجلة والفرات بالوصف الدقيق

27. Fraser, J. Baillie. Travels in Koordistan, Mesopotamia, including on account of parts of those countries hither to universed by Europeans with sketches of the character and manners of the Koordish and Arab tribes. London, Richard Bentley, 1840. 2 vols. illus..

فريزر ، ج بايلي . رحلات في بلاد كردستان وما وراء النهرين يتضمن بعض المخططات عن القبائل العربية ، طبع لندن ، ١٨٢٠ يقع في مجلدين : يضم المجلد الاول (١٥) رسالة ويضم بغداد في الرسالة الثامنة والتاسعة ، في حين يتضمن المجلد الثاني ١٩ رسالة يذكر بغداد في الرسالة الاولى والسابعة .

نقلها الى العربية جعفر خياط ( القسم العراقي ) ويعرف برحلة فريزر يصف العراق في الثلث الاول من القرن التاسع عشر .

## ( G )

28. Grant, Christina Phelps. The syrian desert, Caravans, travel and exploration. London, A. & C. Black, 1937. 410 p., illus., 16 pl., 4 maps.

غرنت ، كريستينا فيليس . الصحراء السورية ، طبع لندن ، ١٩٣٧ ص ٤١٠ مزود بصور و١٦ لوحة واربعة خرائط . يتضمن جغرافية سوريا ، بلاد ماوراء النهرين ، دمشق ، بغداد .

29. Goold-Adams, Richard. Middle East Journey. London, John Murray, 1947. 1st. ed. 194 p.

غولد آدمز ، ريجارد . رحلة الشرق الاوسط ، طبع لندن ، ١٩٤٧ الطبعة الاولى ، ١٩٤ ص يقع في تسع فصول يضم الفصل الثالث ص ٣٨ عن بغداد .

- 30- Groves, A. N. Journal of Mr. Anthony N. Groves missionary during a Journey from London to Baghdad through Russia, Georgia and persia also a Journal of some months residence at Baghdad. London, James Nisbet, 1831. 215 p.

غروفز ، آنتوني . ن . رحلة غروفز خلال لندن بغداد مارا روسيا ، جورجيا وايران وكذلك يتضمن تقرير عن بقاءه بعض الاشهر في بغداد طبع لندن سنة ١٨٣١ .

الى الانكليزية ر. ج. سي. برودهرست .  
طبع لندن سنة ١٩٥٢ يقع في ٤٣٠ ص يضم  
صورا وخرائط مطوية . يصف فيها مصر -  
المدن المقدسة بغداد - القدس - صقلية .

( J )

41. Jastrow, Morris. The war and the Bagdad railway; the story of Asia minor and its relation to the present conflict. Philadelphina, J. B. Lippincott, 1917. 160 p., illus., plates.

جاسترو ، موريس . الحرب وسكة حديد بغداد  
قصة اسيا الصغرى وعلاقتها بالصراع الدائر  
طبع فيلادلفيا سنة ١٩١٧ مزود بصور ،  
ولوحات وبقع في ١٦٠ ص .

42. Jebb, Lousia. By the desert way to Baghdad. London, T. Fischer unwine, 1909. 318 p., illus.

جب ، لوسيا . في الطريق الصحراوي الى بغداد .  
١٩٠٩ مكون من ثلاثة اقسام يضم بغداد ،  
القسم الثالث . مزود بصور وخرائط وملحقا

43. Jones, James Felix. Memoires by Commander James Felix Jones. Bombay, Bombay Education Society press, 1857. 500 p., illus., 30 mays, plates, fold maps.

جونس ، جيمس فيلكس . مذكرات الجنرال ،  
جيمس فيلكس جونس . طبع بومباي ، ١٨٥٧ ،  
٥٠٠ ص مزود بصور ولوحات وخرائط  
مطوية . يتضمن رحلة بحرية بالباخرة ،  
ويصف بغداد في يناير ١٨٤٦ والمناطق التي  
مر بها . وقد ترجم القسم العراقي الاستاذ  
عبدالوهاب الامين في مجلة المورد مج ٣/ع ١  
صص ٢١ - ٤٥ ، م ٢/٢ مج ٢ صص ٦٧ -  
٨٠ تحت عنوان « بغداد في سنة ١٨٥٣ » ثم  
علق على المقال الاستاذ حميد مجيد هـدو  
فأبدى بعض الملاحظات والتصويبات في مجلة  
المورد مج ٤/ع ١ صص ٢٦١ - ٢٨٢ .

( K )

44. Keppel, George. Personal narrative of travels in Babylonia, Assyria, Media and Scythia in the year 1824. London, Henry Colburn, 1827. 2 vols. in one, fold maps.

كبل ، جورج . روايات شخصية لرحلات في بابل

المعماري بينما يتضمن المجلد الثاني عن  
الفنون الاسلامية مزود بخرائط والمجلد الثالث  
يضم ١٢٠ لوحة مستقل واما المجلد الرابع  
يتضمن- صور ولوحات ٢٢ صورة و ٢٨ لوحة  
مع ٥٩ صفحة يعتبر هذا الكتاب من اشهر  
ماكتب عن المواقع الاثرية في منطقة دجلة ،  
والفرات وهو المرجع الدقيق في المعلومات عن  
الناطق الاثرية وهو بالالمانية .

36. Helfritz, Hans. Unter der sonne des orientis. Berlin, die Buchgemeinde, N. d.

هليفرتس ، هنس . تحت شمس الشرق . طبع  
برلين ، مجهول السنة وهو بالالمانية . يصف  
بغداد واسواقها في ص ١٢٠ وطرق دجلة ،  
والفرات مزود بصور ولوحات رائعة .

37. Heude, William. A voyage up the [... gulf] and a Journey overland from India to England in 1817. London, Longmans, 1819. 252 p., illus.

هويدا ، وليم . رحلة الى اعالي الخليج العربي من  
الهند الى اكلترا في سنة ١٨١٧  
طبع لندن ، ١٨١٩ ص ٢٥٢ ص . مزود بصور

38. Hilmi, M. Kanuni Suleyman in Bagdat seferi; Yzam, Istanbul, Askeri matabaa, 1932. 38 p., illus., maps.

حلمي ، م . سليمان القانوني في بغداد ، طبع  
استانبول سنة ١٩٣٢ باللغة التركية ، ٣٨ ص  
مزود بصور وخرائط .

39. Haurt, Clement. Histoire de Bagdad, dans les temps modernes. Paris, Ernst Leroux, 1901. 23 p. "Topographie de la ville de Bagdad" pp. VI-XIV.

هوار ، كليمان . تاريخ بغداد . ٢٣١ ص طبع  
باريس ، ١٩٠١ . عربية وعلق عليه ناجي  
معروف . بغداد ١٩٦١ .

( I )

40. Ibn Jubair, Muhammad Ibn Ahmad. The travels of Ibn Jubayr; being the chronicle of amedieval spanish Moor concerning his Journey to the Egypt of Saladi ... tr. from the original Arabic by R.J.C. Broadhurst. London, J. Cape, 1952. 430 p., fold maps.

ابن جبير ، محمد بن احمد . رحلة ابن جبير ترجمه



١٩٠٧ - ١٩٠٨ . القاهرة ، مطبعة المعهد  
الشرقي الفرنسي الآثاري ، في مجلدين مصور  
ومزود بلوحات .

50. Mignan, Robert. Travels in chaldaea;  
Including a Journey from Bussorah to  
Baghdad, Hillah and Babylon, per-  
formed on foot in 1827 with observations  
on the sites and remains of Babel, Sele-  
cia and Ctesiphon. London. Henry Col-  
burn, 1829. 333 p. illus., fold maps.

ميگنان ، روبرت . رحلات في بلاد الكلدانيين يتضمن  
رحلة من البصرة الى بغداد - حلة ، بابل على  
القدم في سنة ١٨٢٧ مع بعض الملاحظات على  
المواقع الاثرية وبقايا بابل وسلوقيا وطيستون  
( طاق كسرى ) طبع لندن ، ١٨٢٩ يقع في ،  
٣٣٣ ص ، مزود بصور مع خرائط مطوية .

51. Morton, H. V. Middle East; a record of  
travel in the countries of Egypt, pale-  
stine Iraq, Turkey and Greece. London,  
Methuen, 1941. 326 p.,

مورتن ، هـ . ف . الشرق الاوسط . سجل لرحلات  
الاقطار مصر ، فلسطين ، العراق ، وتركيا  
واليونان . طبع لندن ، ١٩٤١ يقع في ٣٢٦ ص  
يقع في اربعة فصول وهو مقسم حسب الاقطار  
مصر - فلسطين - العراق - تركيا - اليونان  
وتصيب بغداد في الفصل الثاني . مزود بصور  
وخرائط .

52. Musil, Alois. The Middle Euphrates; a  
topographical, Itinerary. New York,  
1927. 426 p.,

موزيل ، الويس . الفرات الاوسط . رحلة  
طبوغرافية . طبع نيويورك ، ١٩٢٧ من ،  
سلسلة الجمعية الجغرافية الامريكية  
للدراستات الاستطلاعية الشرقية رقم ٣ .  
يقع في ٤٢٦ ص . مقسم الى قسمين ويقع  
في (١٢) فصلا تحتل بغداد الفصول (١٣ و١٤)،  
(١٠) مع ملاحق مقسمة الى ٢١ قسما . مزود  
بصور عديدة مع النصوص ومخططات .

#### ( P )

53. Platt, Thomas Comyn. Byrouth to  
Baghdad via palmyra by the desert  
route. Baghdad, the English press, 1927.  
30 p.

بلات ، توماس كومين . من بيروت الى بغداد الى

اسور . ميديا في سنة ١٨٢٤ . طبع لندن ،  
١٨٢٧ . مجلدين في واحد ، يضم خرائط  
مطوية . يصف بغداد وبابل . .

45. Kinneir, John Macdonald Journey  
through Asia Minor, Armenia and Koor-  
distan in the years 1813 and 1814, with  
remarks on the marches of Alexander.  
London, John Murray, 1818. 603 p.

كينير ، جون مك دونالد . رحلة خلال اسيا الصغرى  
ارمينيا ، وكردستان في سنة ١٨١٣ و ١٨١٤  
طبع لندن ، ١٨١٨ يقع في ٦٠٣ ص . يضم  
فصل بغداد في ص ٧٦ ، ٦٠٠ .

#### ( L )

46. Langegger, Felix. Durch verlorne Lan-  
nde; von Bagdad nach Damaskus. Ber-  
lin, verlag von wilhelm susserrott, 1911.  
408 p., illus.

لنجر ، فيلكس . خلال الارض المفقودة ، من بغداد  
الى دمشق . طبع برلين ، ١٩١١ ، ٤٠٨ ص  
بالالمانية .

47. Lloyd, Seton. Ruined cities of Iraq.  
London, H. Milford, 1942. 111 p., illus.,  
27 pl., maps.

لويد ، ستين . مدن العراق القديمة ، يصف المواقع  
الاثرية في العراق وما وراء النهرين ، مصور  
مع لوحات . طبع لندن ، ١٩٤٢ في ١١١ ص  
مزود بصور و ٢٧ لوحة وخرائط .

48. Levy, Reuben. A Baghdad chronicle.  
Cambridge, the university press, 1929.  
279 p., pl.

ليفي ، رويبن . تاريخ بغداد . ١٩٢٩ ، ٢٧٩ ص .  
مزود بصور واربع لوحات وعلى ملاحق ويضم  
الملحق الاول لمدينة بغداد ، ص ١١ - ٢٥ .  
يضم الحياة الاجتماعية والسياسية في بغداد  
في عهد الخلافة العباسية مزود بقائمة من  
المصادر .

#### ( M )

49. Massignon, M. Louis. Mission en Mes-  
opotamie 1907-1908. Le Caire, Imprimerie  
de l' Institut Francais d'Archeologie  
orientale, 1910-1912. 2 vols., illus.,  
plates.

ماسنيون ، م لويس . بعثة الى ما وراء النهرين ،

طبع لندن ١٨٣٦ ، يقع في مجلدين ، وترجمها  
الاستاذ بهاء الدين نوري تحت عنوان ( رحلة  
ريج في العراق عام ١٨٢٠ ) الى العربية سنة  
١٩٥١ .

59. Rohrbach, Paul. Um Bagdad und Babylon; vom schauplatz deutscher Arbeit und zukunfft im orient. Berlin, Hermann 8, Daetel, 1909. 110 p., illus., plates.  
روبرياخ ، باول . عند بغداد وبابل طبع برلين سنة  
١٩٠٩ يقع في ١١٠ ص بالالمانية .

60. Rosen, Friedrich. Oriental memories of a german diplomatist. London, Methuen, 1930. 295 p., illus. plates, ports.

روزن ، فريديج . مذكرات شرقية لدبلوماسي  
الماني . طبع لندن ، ١٩٣٠ مصور ولوحات ،  
ويقع في ٢٩٥ ص في وصف لبغداد .

61. Ross, Janet. Letters from the East by Henry James Ross, 1837-1857. London, J. M. Dent, 1902. 332 p., illus.

روز ، جانيت . رسائل من الشرق من هنري جيمس  
روز ١٨٣٧ - ١٨٥٧ . طبع لندن ، ١٩٠٢ ،  
٣٣٢ ص . يتضمن وصف بغداد في ص ٣٠ ،  
٣٤ ، ٤٠ .

62. Rouwolf, Leendert. Seer A anmerkely ke reysen no en door syrien ent Joodsche Land, Arabian, Mesopotamie, Babylonian, Assyrian, Armenien and Cut Jaar, 1573. Leyden, pieter Vander, 1581. 598 p., illus., plates, fold maps.

راؤولف ، ليندوت . رحلة الى سوريا وبلاد العرب  
وبلاذ ما وراء النهرين ، ارمينيا طبع لندن  
سنة ١٥٨١ مزود بلوحات وخرائط . يقع  
في ٥٩٨ ص ، نقلها الى العربية الاستاذ سليم  
طه التكريتي عن النسخة الانكليزية تحت  
عنوان « رحلة المشرق الى العراق وسوريا  
ولبنان وفلسطين » من منشورات وزارة  
الثقافة والفنون ، ١٩٧٨ ، ٢٣١ ص . كما  
ونشر فصولا من الترجمة في مجلة المورد  
مج ٥/٢ ص ٧٤ - ٨٢ .

بالمر على الطريق الصحراوي طبع في بغداد  
١٩٢٧ ، يقع في ٣٠ ص .

54. Pionssot, Louis. Voyage de Bagdad Alep, 1808. Paris, J. André, 1899. 165 p., illus.

بيونسوت ، لويس . رحلة من بغداد الى حلبسنة  
١٨٠٨ . طبع باريس ، ١٨٩٩ يقع في ١٦٥ ص  
مزود بصور يصف الجغرافية السياسية في  
بلاذ ما وراء النهرين .

( R )

55. Raswan, Carl Reinhard. Escape from Baghdad. London, Hutchinson & Co., 1938. 277 p., illus.

رسوان ، كارل راين هارد .  
الهروب من بغداد . طبع لندن ، ١٩٣٨ يقع  
في ٢٧٧ ص مصور يصف المآثر الذهبية في  
بغداد يضم (٧٠) صورة وخرطيتين .

56. Reitlinger, Gerald. A tower of skulls; a Journey through persia and Turkish Armenia. London, Duckworth, 1930.

رايتلنجر ، جيرالد . رحلة خلال بلاد فارس وتركيا  
وارمينيا . طبع لندن ، ١٩٣٠ ، ٣٣٦ ص  
مزود بصور وخرائط ويضم بغداد في الفصل  
الاول .

57. Reuther, Oscar. Das Wohnhaus in Bagdad und andren standten des Irak. Berlin, Verlag von Ernst Wasmuth, 1910. 119. p., illus.

رويتز ، اوسكار . البيت البغدادي وبيوت مدن  
العراق . طبع برلين سنة ١٩١٠ يقع في ١١٩  
ص مزود بمخططات كثيرة للمدن العراقية .

58. Rich, Claudius James. Narrative of a residence in Koordistan and on the site of ancient Nineveh, with a Journal of a voyag down the Tigris to Bagdad and an account of a visit to shirauz and persepolis. London, James Duncan, 1836. 2 vols.

ريج ، كلوديوس جيمس . رحلة الى بلاد كردستان  
ومواقع نينوى ورحلة الى اسفل منطقة دجلة  
الى بغداد وزيارة الى شيرازولبرسبوليس ،

شتاروك ، فريا . ماوراء الفرات ، سيرة ذاتية لرحلة المؤلف من ١٩٢٨ - ١٩٣٣ طبع لندن ، ١٩٥١ يقع في ٢٤١ ص ، مزود بصور يتحدث عن الصحافة في بغداد سنة ١٩٣٢ اواخر سنة ١٩٣٣ .

69. ————. Dust in the Lion's paw; Autobiography 1939-1946. London, John Murray, 1961. 297 p., illus.

شتاروك ، فريا . وحل في مخلب الاسد . سيرة ذاتية للمؤلف ورحلته من ١٩٣٩ - ١٩٤٦ ، طبع لندن سنة ١٩٦١ ، يقع في قسمين ، ذكر بغداد في القسم الاول ، ص ٧٥ - ١٤٦ ، مزود بصور عن بغداد وجوامعها واسواقها .

70. ————. East is west. London, John Murray, 1945. 218 p., illus.

شتاروك ، فريا . الشرق هو الغرب . طبع لندن ١٩٤٥ وهي الطبعة الاولى ، ٢١٨ ص مزود بصور يقع في اربعة فصول ، يضم الفصل الرابع عن العراق وبغداد ص ١٣٩ - ١٩٨ مع ملحق عن العراق .

71. ————. The valleys of the Assasins and other persian travels. London, John Murray, 1947. 319 p., illus.

شتاروك ، فريا . اودية الحشاشين ورحلات فارسية اخرى طبع بغداد ١٩٤٧ ، ٣١٩ ص مزود بصور ، طبع لأول مرة ١٩٣٤ واعيد طبعه ، سنة ١٩٤٧ ، يقع في خمسة فصول ويتضمن الفصل الثاني عن بغداد ق ص ٤٨ .

72. Stevens, E. S. By Tigris and Euphrates. London, Hurst, 1923. 349 p., illus. (71 illus).

ستيفنس ، اي.اس . عند دجلة والفرات . طبع ، لندن ، ١٩٢٣ ، ٣٤٩ ص يحتوي على خمسة فصول وملحقين يتحدث عن المناطق المقدسة في بغداد والمدن القديمة آشور وبابل والحالة السياسية في العراق مزود ب ( ٧١ ) صورة .

## ( W )

73. Warfield, William. The gate of Asia; a Journey from the [..... gulf] to the black sea. New York, (London) G. P. Putnam's Sons, 1916. 374 p., illus.

ورفيلد ، وليم . بوابة اسيا ، رحلة من الخليج

63. Sachau, Edward. Am Euphrat und Tigris reisennotizen aus dem winter, 1897-1898. Leipzig, J. C. Hinrichsche Buchhandlung, 1900. 160 p., illus.

زخو ، ادورد . رحلة لدجلة والفرات في شتاء سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨ ، طبع لينرج ، ١٩٠٠ في ١٦٠ ص - يتضمن رحلة من عدن - البصرة - بغداد - الموصل - الدير - حلب - الاسكندر - مزود بصور (٢٢) صورة وخمس خرائط يضم في اخره فهرس بالاسماء الجغرافية .

64. Samuel, Jacob. Journal of missionary tour through the desert of Arabia to Baghdad. Edinburgh, 1844. 323 p.,

صموئيل يعقوب . رحلة خلال صحراء العرب الى بغداد . طبع ادنبرة سنة ١٨٤٤ يقع في ٣٢٣ ص

65. Sasson, Philip. The third route. London, William Heinemann, 1929. 291 p.

ساسون ، فيليب . الطريق الثالث . طبع لندن ، ١٩٢٩ ، ٢٩١ ص يضم (٢٠) فصلا يصف بغداد في الفصل التاسع .

66. Southgate, Horatio. Narrative of a tour through Armenia, Kurdistan, Persian and Mesopotamia. New York, D. Appleton, 1840. 2 vols.

سون كيت ، هورايو . رحلة روائية الى ارمينيا كردستان - بلاد الفرس - وبلاد ماوراء النهرين ، يقع في مجلدين ، طبع نيويورك ، ١٨٤٠ . يتضمن المجلد الاول الوصف الدقيق لتركيا والمجلد الثاني يصف العراق وايران بغداد - كركوك - الموصل .

67. Stark, Freya. Baghdad sketches. London, John Murray, 1939. 269 p. illus., plates.

شتاروك ، فريا . ملامح عن بغداد . طبع لندن . ١٩٣٩ يقع في ٢٦٩ ص مزود ب (٣٥) صورة لمختلف الحياة الاجتماعية في بغداد والعراق طبع لأول مرة سنة ١٩٣٧ و ١٩٣٩ .

68. Stark, Freya. Beyond Euphrates; autobiography 1928-1933. London, John Murray, 1951. 341 p., illus.

ولستند ، ج . ريموند . رحلات الى مدينة الخلافة  
من ساحل الخليج العربي والبحر الابيض  
المتوسط ، يتضمن رحلة شرق بلاد العرب ،  
ورحلة الى جزيرة سوكاترا ، طبع لندن ،  
١٨٤٠ ، في مجلدين ( ٤٠٥ - ٣٤٧ ص ) ،  
يتضمن المجلد الاول عن الخليج العربي مع  
خارطة بينما يتضمن المجلد الثاني بلاد ماوراء  
النهرين وسواحل البحر الابيض المتوسط ،  
يضم ملاحق وفيه معجم في اخره باللغه العربية  
ومايقابلها في لهجة اهل الجزيرة .

76. Wiese, Ernst. 10,000 miles through Arabia. London, Robert Hale, 1968. 192 illus.

ويز ، ارنست . عشرة الاف ميل في بلاد العرب ،  
طبع لندن ، ١٩٦٨ ١٩٢ ص ، يذكر مدينة  
هارون الرشيد ( بغداد ) في ص ٤٣ . مزود  
بصور .

العربي الى البحر الاسود طبع لندن ،  
ونيو يورك ، ١٩١٦ ، ٣٧٤ ص مزود بصور .  
يصف اسيا - اعالي نهر دجلة - بابل -  
كردستان - موصل ..

74. Webb, F. C. Up the Tigris to Baghdad. London, F. N. Spon, 1870. 66 p., illus. plates.

وب ، ف.س . من اعالي نهر دجلة الى بغداد .  
طبع لندن ، ١٨٧٠ ، ٦٦ ص مزود بصور ،  
ولوحات ، فيه وصف روائي تاريخي عن  
بغداد وعن طاق كسرى سنة ١٨٦٥ .

75. Wellsted, J. Raymond. Travels to the city of the Caliphs along the shores of the [..... gulf] and the Mediterranean including a voyage to the east of Arabia and a tour on the Island of Socatra. London, Henry Colburn, 1840. 2 vols., illus.



# استدراكات على كتاب «بغداد مدينة السلاسة»

لابن الفقيه الهمداني  
تحقيق الدكتور صالح احمد العلي

بقلم

عمور الشايجي

بغداد - الجمهورية العراقية

الأستاذ الدكتور صالح احمد العلي اشهر من ان يعرف وقد اعتاد على ان يتحف المكتبة العربية بين حين واخر ببدايع من آثاره الدالة على فضله وكان آخر ما اتحف به المكتبة العربية كتاب بغداد مدينة السلام لابن الفقيه الهمداني فقد حققه وعلق عليه وشرح غامض الفاظه وقد تم اخراج الكتاب في مطابع باريس فاسيخ عليه الذوق ثوبا من الاناقة واللفظ اضافة الى ما في مادة الكتاب من فائدة ونفع .

وقدم الدكتور المحقق ، للكتاب ، بمقدمة جمعت فواعت ، على ايجازها ، بحث فيها مكانة بغداد ، وما الف عنها من كتب .

والذي أخذه على الاستاذ المحقق ، انه - على ما يظهر لي - قد عهد بتصحيح اللزم عند اعداد الكتاب للطبع ، الى غيره ، فصدر الكتاب وفيه ما فيه من اغلاط كنت اتمنى لو انه خرج سالما منها وقد اثبت في الثبت الرفق ، ما عثرت عليه منهالكي يجري اصلاحها عند تقديم الكتاب من اجل طبعه طبعة ثانية .

\*\*\*

## ثبت الاستدراكات

| الصفحة | السطر                                     |
|--------|-------------------------------------------|
| ٥      | ٨                                         |
|        | اتخاذ سبقه من الخلفاء مقرهم ( من ) سامراء |
|        | صوابه : ( بي ) سامراء                     |
| ٦      | ٢                                         |
|        | كتاب بغداد ( الطيفور )                    |
|        | صوابه : ( لاجمد بن ابي طاهر طيفور )       |

| الصفحة | السطر                                                                                                                                                                                            |
|--------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٦      | ٤                                                                                                                                                                                                |
|        | يزدجرد بن ( مهرداد )<br>اقول : سماه الاستاذ رضا تجدد ، محقق كتاب الفهرست المطبوع<br>بطهران « يزدجرد بن مهرداد » وتجدد اعرف بالاسم الصحيح ، والكلمة<br>فارسية ، مهني : كبير ، رفيع . وداد : هبة . |
| ٩      | ٩                                                                                                                                                                                                |
|        | ذكر المحقق ان خطط بغداد اشتملت في الجزء الاول من كتاب الخطيب<br>البغدادي على الصفحات من ٦٦ - ١٢٠<br>صوابه : من ٥٦ - ١٢٠                                                                          |
| ٨      | ٩                                                                                                                                                                                                |
|        | مرة يزهد ( من ) الدنيا<br>صوابه : يزهد ( في ) الدنيا                                                                                                                                             |
| ١٧     | ١٦                                                                                                                                                                                               |
|        | يزدجرد بن ( مهرداد ) بالباء<br>سماه المحقق هنا ( مهرداد ) بالباء . وسماه قبلا ( مهرداد ) بالميم ،<br>والصحيح كما اثبتنا من قبل ( مهرداد )                                                        |
| ٢٨     | ٣                                                                                                                                                                                                |
|        | واسمها الاول عند ( ) الزوراء<br>قال المحقق : لعلها عند ( الناس )                                                                                                                                 |
|        | اقول : ان المؤلف اورد كلمة ( الناس ) في اخر السطر ، ويقتضي ان<br>تكون الكلمة ، على ما احتمل : ( المؤرخين ) فتكون الجملة : واسمها الاول<br>عند المؤرخين ، الزوراء .                               |
| ١٥     | ( في جانب الشرقي )                                                                                                                                                                               |
|        | صوابه : ( في الجانب الشرقي )                                                                                                                                                                     |
| ٢٩     | ١١                                                                                                                                                                                               |
|        | ( فاطمه ) وخوفه واستكنمه<br>صوابه : ( فاطمه ) من الاطماع                                                                                                                                         |
| ٣٠     | ١٢                                                                                                                                                                                               |
|        | فقال : الله اكبر ، والله هو<br>صوابه : الله اكبر ، ( انا ) والله هو                                                                                                                              |
| ٣١     | ٣                                                                                                                                                                                                |
|        | قال : ( فاتي ) موضع بغداد - بالياء<br>صوابه : ( فاتي ) بالقصورة                                                                                                                                  |
| ٧      | ٧                                                                                                                                                                                                |
|        | ولا يحمل الجند والرعية ( الامثلة )<br>صوابه : ( إلا مثله )                                                                                                                                       |
| ١٤     | ١٤                                                                                                                                                                                               |
|        | وهؤلاء ( نناء ) الناحية - بالياء<br>صوابه : ( نناء ) الناحية - بالياء والنون المشددة                                                                                                             |
| ١٦     | ١٦                                                                                                                                                                                               |
|        | نكل واحد منهم قال قولاً ( يقدر ) بالياء<br>صوابه : ( يقدر ) بالياء                                                                                                                               |
| ٢١     | ٢١                                                                                                                                                                                               |
|        | فيما قد عملت عليه من البناء ( من ) احد هذه المواضع<br>صوابه : ( في ) احد هذه المواضع                                                                                                             |
| ٣٢     | ١                                                                                                                                                                                                |
|        | فاللذان في الضميمة ( فهما )<br>صوابه : ( هما ) يحذف الفاء                                                                                                                                        |
| ٢      | ٢                                                                                                                                                                                                |
|        | ( كلواذي ) بالياء<br>صوابه : ( كلواذي ) بالقصورة                                                                                                                                                 |

| الصفحة  | السطر                                                           |    |
|---------|-----------------------------------------------------------------|----|
| ٧       | ( سامرا ) بالسين                                                |    |
|         | صوابه : ( تامرا ) بالتاء                                        |    |
| ٩       | فاذا قطعت الجسر ( و ) اخربت القنطرة                             |    |
|         | صوابه : ( او ) اخربت القنطرة                                    |    |
| ٢٢      | الحجاج بن ( ارطاة ) بهمزتين                                     |    |
| ٤       | فولاه ( عدد اللبن )                                             | ٢٣ |
| ١٩      | ( كلواذي ) بالياء                                               |    |
| ٢١      | قصة ( المقلاص )                                                 |    |
|         | صوابه : قصة ( مقلاص ) لانه اسم علم                              |    |
| ٢٢      | علي بن ( بقطين ) بالباء                                         |    |
|         | صوابه : علي بن ( يقطين ) بياثين                                 |    |
| ٧       | قد وجدناه في كتاب عندنا ( يتوارثونه )                           | ٢٤ |
|         | صوابه : ( تتوارثه )                                             |    |
| ٧       | قرن عن قرن الذي يبني مدينة                                      | ٢٤ |
|         | صوابه : ( ان ) الذي يبني مدينة                                  |    |
| ٩       | واريحك هذا الصناء                                               |    |
|         | صوابه : واريحك ( من ) هذا الصناء                                |    |
| ١٣      | فقلت في نفسي ( لخفه ) بالخاء والفاء                             |    |
|         | صوابه : ( لحقه ) بالحاء والقاف                                  |    |
| ١٦      | كن بناحية ( الصراة ) بالصاد                                     |    |
|         | صوابه : بناحية ( السراة ) بالسين                                |    |
| ٢       | الناس يتحززون من مقلاصهم ( ومقلاص ) معي في البيت                | ٢٥ |
|         | صوابه : ( ومقلاصي ) معي في البيت                                |    |
| ٧       | وامر ان ( يوقد ) هناك                                           |    |
|         | صوابه : ان ( يدق ) هناك                                         |    |
| ٩       | ثم امر الرماد ( فخرج )                                          |    |
|         | صوابه : ( فطرح )                                                |    |
| ١٣      | مما يلي الخندق ( الشرافات )                                     |    |
|         | صوابه : ( الشرفات )                                             |    |
| ٨       | والطاقات الصفار التي تلي ( المرجبة )                            | ٢٦ |
|         | صوابه : ( الرجبة )                                              |    |
| ١٠      | الحجاج بن ( ارطاة )                                             |    |
|         | صوابه : ( ارطاة )                                               |    |
| ١٦ و ١٥ | ورد ذكر ( العقب ، الفزي ، الثنال ) من دون ايضاح معانيها ومن دون |    |
|         | اشارة الى المواضع التي يمكن التحقق من معانيها فيها              |    |

| السطر                                                                                                                            | الصفحة    |
|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-----------|
| فتقض شيء من ذلك ، وحمل اجره الى بئداد ، والنفقة على هدمه وحمله صوابه : ( وبلغت ) النفقة على هدمه وحمله                           | ٣٧ ٨      |
| اعانيت في طول من الارض او عرض كبئداد من دار بها ( مسكني ) انخفض                                                                  | ٤٠ ١٥     |
| اقول : يفتضي ان ترفع كلمة ( او عرض ) من الشطر الثاني وتضاف الى الاول وان تحذف الباء من ( مسكني ) فتكون الجملة ( بها مسكن انخفض ) |           |
| ووكل البناء قواده                                                                                                                | ٤١ ١٦     |
| صوابه : ( الى ) قواده                                                                                                            |           |
| خالد بن عبدالله ( القشري ) بالشين                                                                                                | ٤٢ ٦      |
| صوابه : ( القسري ) بالسين                                                                                                        |           |
| رستاق ( الفروسيج )                                                                                                               | ٤٣ ٣      |
| صوابه : ( الفروسيج ) بحذف الثاء                                                                                                  | ٤٤ ١٢ و ٩ |
| ( الرحا ) المروفة بام جعفر                                                                                                       | ٤٤ ١٣     |
| صوابه : ( الرحى ) بالمقصورة                                                                                                      |           |
| قنطرة ( الجديد )                                                                                                                 | ٤٧ ١٧     |
| صوابه : ( القنطرة الجديدة )                                                                                                      |           |
| ربض عمرو بن ( اسفندياذ ) بالذال                                                                                                  | ٤٨ ١٩     |
| صوابه : ( اسفنديار ) بالراء                                                                                                      |           |
| مربعة شبيب بن ( واح )                                                                                                            | ٤٩ ٢١     |
| قال المحقق : ان ياقوت سماه ( شبيب بن راح )                                                                                       |           |
| اقول : الاسم الصحيح : شبيب بن ( واج ) بالجيم                                                                                     |           |
| العلاء بن موسى ( الجورجاني ) بالراء                                                                                              | ٥٠ ٥      |
| صوابه : ( الجورجاني ) بالزاي                                                                                                     |           |
| ( وخرجت ) منازلهم                                                                                                                | ١٩        |
| صوابه : ( وخرت )                                                                                                                 |           |
| ابن ( ضيه ) بالياء والهاء                                                                                                        | ٥١ ٥      |
| صوابه : ( ضيئة ) بالباء المشددة والمقصورة                                                                                        |           |
| عامر بن دلجة ويحيى اخوهما عرقبا جميل عائشة                                                                                       | ٦         |
| صوابه : عامر بن دلجة ( وبجير اخوه ) وهما عرقبا جميل عائشة                                                                        |           |
| وكان باقلاها نهاية فقيل له ( الباقي ) بالياء                                                                                     | ١٢        |
| صوابه : وكان باقلاها نهاية ( في الجودة ) فقيل له ( الباقي ) بالمقصورة                                                            |           |
| الساحة التي كانت مضربا ( للين )                                                                                                  | ٥٢ ٦      |
| صوابها : مضربا ( للين ) باللام المشددة                                                                                           |           |
| مع ( رحا ) اتخذها هناك                                                                                                           | ٥٣ ٨ و ١  |
| صوابها : ( رحي ) بالمقصورة                                                                                                       |           |
| وسويقة ابي عبيدالله منسوبة الى عبيدالله                                                                                          | ٥٦ ١      |
| صوابه : منسوبة الى ( ابي ) عبيدالله                                                                                              |           |



| الصفحة | السطر |                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                   |
|--------|-------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١٠٨    |       | وسوق العطش بناها سعيد ( الحرسي ) بالحاء والسيف                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
|        |       | اقول : هو سعيد ( الحرسي ) بالحاء ، اي الخراساني ، والنسبة الى خراسان : حرسي ، وخراساني ، وكذلك سماه الخطيب في تاريخه ٩٤/١ وصاحب اللباب ٣٥٤/١ واخلاق محقق تاريخ الطبري فسماه ( سعيد الحرشي ) واعتبر اخباره امتدادا لاخبار القائد العربي سعيد بن عمرو الحرشي الذي كان في السنة ٨٣ قاندا مظفرا ، وولي للامويين خراسان فلا يعقل ان يكون هو سعيد الذي وردت اخباره في خدمة العباسيين حتى السنة ١٨٩ ، وذكر الدوري في اخبار الدولة العباسية ( ص ٢٠١ ) ان بكر ابن ماهان الداعية العباسي توجه في ايام يزيد بن عبد الملك الاموي الى خراسان مع سعيد الحرسي ( بالحاء ) وعلق الدوري على الخبر ، بانه لعله سعيد الحرشي ، وليس به |
| ١٦     |       | ثم صار ( ولاء ) للرشيد                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |
|        |       | صوابه : صار ( ولاؤه ) للرشيد                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |
| ٧      | ٥٧    | راى فيها آزاجا ( عتيقا )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |
|        |       | صوابه : آزاجا ( عتيقة ) لان الازاج جمع ازج ولا يجوز ان تكون الصفة مفردة والموصوف جمع                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |
|        |       | ( كلواذي ) بالياء                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                 |
| ٢      | ٥٨    | صوابه : ( كلواذي ) بالمقصورة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |
|        |       | ( وكان احد ، طلب من الحاجات )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                     |
| ١٢     |       | صوابه : ( وكانت احدي ) ما طلب من الحاجات                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |
|        |       | ان للدنيا وللزينة فيها والائاث ... الخ                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |
| ٢٠١    | ٥٩    | اقول : هذان بيتان من الشعر ، اوردهما الخطيب في تاريخه ٩٧/١ وياقوت في معجمه ٣٦٣/٢ وكان المتقضي ابراهما شعرا :                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |
|        |       | اف للدنيا وللزينة فيها والائاث                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
|        |       | اذ حشا الترب على هيئ                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |
|        |       | ان للدنيا وللزينة فيها والائاث                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
|        |       | اذ حشا الترب على هيئ                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |
| ٩      | ٥٩    | ابن ( رابطة ) بنت ابي العباس السفاح                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                               |
|        |       | صوابه : ابن ( ربطة )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |
|        |       | شارع الزراديين ( بياء بن )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                        |
| ١٨ و١٤ |       | صوابه : ( الزرادين ) بياء واحدة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                   |
|        |       | وكان اذا شرب دعا بالصورة ( فيشرب ) على هذه الشوارع                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                |
| ١٨     |       | صوابه : دعا بالصورة ( فشرب )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |
|        |       | وكان ببغداد في شارع الثلاثة ابواب ثلثمائة مقل ( للتسويق )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                         |
| ٢٣ و٢٢ |       | صوابه : ( للتسويق ) بحذف التاء ، وما يزال هذا الاسم معروفا في بغداد ، وقد بحثت عنه بايجاز في الجزء الاول من كتاب نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
|        |       | اخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد فوجد ( ما بني ) جبلا                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |
| ١١     | ٦٠    | صوابه : ( ما يتي ) جبلا                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |

| الصفحة | السطر                                                                                          |
|--------|------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٦١     | ١٢ (كلواذي) بالياء                                                                             |
|        | صوابه (كلواذي) بالمقصورة                                                                       |
|        | (عمى) بالعين                                                                                   |
|        | صوابه : (عمى) بالعين وبالميم المشددة والمقصورة                                                 |
| ١٣     | (بزوعى) بالعين                                                                                 |
|        | صوابه (بزوغى) بالعين                                                                           |
| ١٥     | الظرف (فيها) يقتبس                                                                             |
|        | صوابه : (منها) يقتبس                                                                           |
| ١٨     | (مريعة) الجنب - بالياء                                                                         |
|        | صوابه : (مريعة) الجنب - بالياء                                                                 |
| ٦٢     | ٢ ليس لها (مشاة كمشاة) الجبال                                                                  |
|        | صوابه : ليس لها (مشناة كمشناة) الجمال                                                          |
| ٥      | من وجع (للطحال)                                                                                |
|        | صوابه : من وجع (الطحال)                                                                        |
| ٦      | ولا (رادع) الجحفة                                                                              |
|        | صوابه : ولا (ردع) الجحفة                                                                       |
| ٨      | و (شهرزوز) بزاءين                                                                              |
|        | صوابه : (شهرزور) بزاي واحدة                                                                    |
| ١٠     | ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين على قلبها في كل ما حين                                        |
|        | أقول : صحة ترتيب الشطرين تحصل بان ترفع كلمة (الدين) من صدر الشطر الثاني وتلحق باخر الشطر الاول |
| ٦٢     | ١١ ما بين قطربل وكرخ نرجسة                                                                     |
|        | (تندي) و (تنبت) خيرى ونسرين                                                                    |
|        | صوابه : (تندى) بالمقصورة                                                                       |
| ١٣     | سقى لتلك القصور (الشارعات)                                                                     |
|        | صوابها : (الشاهقات)                                                                            |
| ١٣     | (تحفى) بالحاء                                                                                  |
|        | صوابها : (تحفى) من البقر الانسية العين                                                         |
| ١٦     | فيها القصور التي (تهوى) بالمقصورة                                                              |
|        | صوابها : (تهوي) بالياء                                                                         |
| ١٧     | من كل حراقة (تلو) فقارتها                                                                      |
|        | قصر من التاج عال (ذي) اساطين                                                                   |
|        | صوابه : (يلو) فقارتها قصر من التاج عال (ذو) اساطين                                             |
| ٢٥     | (حلفت ببغداد) التي لنسيما                                                                      |
|        | صوابه : (حلفت ببغداد) بالحاء واللام المشددة                                                    |
| ٦٢     | ٢ (وليس) فيها الف الف منعم                                                                     |
|        | صوابه : (أوليس) فيها                                                                           |
| ٨      | ايا ببغداد يا اسفي عليك متى (يقضي) الرجوع اليك                                                 |
|        | صوابه : متى (يقضي) الرجوع (لنا) اليك                                                           |
| ٩      | (قنعنا) سالمين بكل خير                                                                         |
|        | صوابه : (فنجيا) سالمين بكل خير اذ ان كلمة (قنعنا) لا تأتلف مع                                  |
|        | رغبته في السلامة والخير كله                                                                    |
| ١١     | (الا) ليت شعري عن الدين تركنا                                                                  |
|        | صوابه : حذف كلمة (الا) فيستقيم الشعر والمعنى                                                   |

| الصفحة | السطر                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
|--------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
|        | لعل المدى تطاول حتى ١٢                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                   |
|        | اقول : لكي يستقيم الشعر يقتضي اضافة الواو على ( لعل )<br>على اهل بغداد السلام فأنني ( ازيد ) ليري عن ديارهم بعدا<br>صوابه : ( ازيد ) ليري - بالزاي ١٥                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
| ٦٢     | ١٧ ايرحل ( الف ) ويقيم الف وتحيا لوعة ويموت ( مصف )<br>اقول : ان كلمة ( وتحيا ) التي اقحمت في عجز الشطر الاول هي<br>من حصة الشطر الثاني . فيكون البيت بعد التصحيح<br>ايرحل ( آلف ) ويقيم الف وتحيا لوعة ويموت ( قصف )<br>لعل زماننا سيعود يوما ٢١<br>صوابه : فيرجع ( آلف ويسر الف )<br>وقال بعض الادباء : ببغداد يصفوا العيش ... الخ<br>اقول : هذا شعر ، وكان المقتضي ان يكتب شعرا<br>ببغداد يصفوا العيش للمتمدد وللقارف الالهي وللمتودد |
| ٦٤     | ٤ وردت كلمة ( دريزل ) قال المحقق انه لم يعرف معناها<br>اقول : لعلها ( دريزك ) فارسية ، اصلها ( درزي كردن ) اي الخياطة<br>يريد انها افرغت افرانغا كالخياطة التي تناسب البدن<br>لم تر ( عني ) صوابه : لم تر ( عيني ) ٧                                                                                                                                                                                                                     |
|        | ١١ قنطرة ( البودان ) بالواو<br>صوابه : قنطرة ( البردان ) بالراء<br>( الحطيمية ) ١٢                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                       |
|        | صوابه : ( الحطمية ) بياء واحدة<br>( واقطع عبيدة ) ١                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |
| ٦٥     | ١ صوابه : ( واقطع أم عبيدة ) كما هو واضح في الصف الثاني                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                  |
| ٦٦     | ٣ و٦ و٨ و١٠ ( سرمراي )<br>اقول : الاسم اما سامراء او سر من راى اما ( سرمراي ) بالياء فلم<br>نسمع بها من قبل<br>( سر من راى ) بالياء ٥                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
|        | صوابه : ( سر من راى ) بالقصورة<br>ثم قتل المتوكل بها .. وانتقل ( اليها ) الناس عنها الى سر من راى<br>صوابه : ان نحذف كلمة ( اليها )<br>يزدجرد بن مهينداد ( بالياء )<br>صوابه : ( مهينداد ) بالياء<br>وقالوا بها مقدمين لها ببغداد العراق ٩<br>صوابه : مقدمين لها ( على ) ببغداد العراق                                                                                                                                                   |
|        | ١١ ولا ( يتوقيان ) على مقدار<br>صوابه : ولا ( يوفيان ) بالفاء                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |
|        | ٢١ ( والحمام ) والجماع<br>صوابه : ( والحجاج ) بالجيم                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                     |

|                                                       | الصفحة | السطر |
|-------------------------------------------------------|--------|-------|
| خطر عظيم ( وعزر ) جليل                                | ٦٨     | ١٦    |
| ومن يزيدك ( بصرة )                                    |        | ١٩    |
| صوابه : ( وغرر ) بالفين ورأين                         |        |       |
| صوابه : يزيدك ( بصرة )                                |        |       |
| ولا ( اسيرهم ) فهما                                   |        | ٢٢    |
| صوابه : ولا ( اسيرهم ) فهما                           |        |       |
| وغلّب عليها دون سواها « انا ربكم الاعلى »             |        |       |
| صوابه : ( وقال : ) انا ربكم الاعلى                    |        |       |
| ( او ) قاضيا بقاض                                     | ٦٩     | ٧     |
| صوابه : ( و ) قاضيا بقاض                              |        |       |
| ( عدوا عداية وابن البهاليل من ابايه )                 | ١١     |       |
| صوابه : ( عدو اعدائه وابن البهاليل من آبائه )         |        |       |
| مبيدالله بن عبدالله بن ( الطاهر )                     | ١٢     |       |
| صوابه : ابن ( طاهر )                                  |        |       |
| ( المتيقظ ) الناشئ                                    | ١٣     |       |
| اقول : لم افهم معناها ، ولم استطع رد التصحيف الى اصله |        |       |
| ( باغيان ) السلطان                                    | ٧٠     | ٢     |
| صوابه : ( باغبان ) بباءين فارسية معناه : البستاني     |        |       |
| ( اللقاح ) بالقاف                                     | ٨      |       |
| صوابه : ( اللفّاح ) بالفاء المشددة                    |        |       |
| ( السبستان )                                          | ٨      |       |
| صوابه : ( السيسبان )                                  |        |       |
| ( العضل )                                             | ٧٠     | ٩     |
| صوابه : ( العض ) وهو صفار العضاه                      |        |       |
| ( الاسقيل )                                           | ١٠     |       |
| صوابه : ( اسقيلناس )                                  |        |       |
| ( البسلخية )                                          | ١٠     |       |
| صوابه : ( السليخة )                                   |        |       |
| ( الزرين )                                            | ١٠     |       |
| صوابه : ( الزرنب )                                    |        |       |
| ( المشبر )                                            | ١٣     |       |
| اقول : لم اعثر على اصلها ولم استطع اصلاح التصحيف      |        |       |
| ( التريد ) بالدال                                     | ١٣     |       |
| صوابه : ( التريد ) بالدال                             |        |       |
| ( الخرئق ) بالنون                                     | ١٣     |       |
| صوابه : ( الخرفق ) بالفاء                             |        |       |
| ( التيل ) بالتاء                                      | ١٤     |       |
| صوابه : ( التيل ) بالتاء المثناة                      |        |       |
| ( الافستين )                                          | ١٤     |       |
| صوابه : ( الافستين ) بزيادة نون                       |        |       |
| ( الجمد )                                             | ١٤     |       |
| صوابه : ( جمده )                                      |        |       |
| ( الفنجمشك )                                          | ١٤     |       |
| صوابه : ( الفنجكشت )                                  |        |       |
| ( الغافت ) بالتاء                                     | ١٤     |       |
| صوابه : ( الخافت ) بالتاء المثناة                     |        |       |

| الصفحة | السطر                                                                                                                                                                                                                                                                                   |
|--------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١٤     | ( الموقدة )<br>اقول لعله : ( الموقد ) اي البنج                                                                                                                                                                                                                                          |
| ١٧     | ( الماديان ) بالدال<br>اقول : احسب ان صوابه : ( الماذيان ) بالدال<br>والمآذي : الصل                                                                                                                                                                                                     |
| ٢١     | ( الامشرجات ) بالميم<br>صوابه : ( الافشرجات ) بالفاء                                                                                                                                                                                                                                    |
| ٢٦     | فانهم كانوا دون ملوك الروم والهند وسائر الاطراف ( واعلم )<br>صوابه : ( الواو ) من ( واعلم ) فتكون الجملة :<br>فانهم كانوا . . . ( اعلم ) بواقع الريف . . . الخ                                                                                                                          |
| ٧١     | ١ وهم كانوا الائمة في غرائب ( الفاذايان )<br>اقول : اعد المحقق موضعا في الحاشية للحديث عن هذه الكلمة ثم<br>فاته ذلك ، وانا احسب - ولا اقطع - بأنه ربما كان اصل الكلمة الماذيات<br>- اي الخمور                                                                                           |
| ٥      | ( البالية )<br>صوابه : ( البابية ) نسبة الى بابل                                                                                                                                                                                                                                        |
| ١١     | ( الفاذايات )<br>اقول : لم افهم معناها                                                                                                                                                                                                                                                  |
| ٧٢     | ٢ الشراب السوري<br>قال المحقق : الراجع ان الشراب السوري هو المنسوب الى سورا ،<br>بلدة بين الكوفة وبغداد ، لم تذكر المصادر شهرتها بالشراب<br>اقول : جاء في معجم البلدان ١٨٥/٣                                                                                                            |
| ١٦     | ما زلت اشربها واسقي صاحبي حتى رايت لسانه مكسورا<br>مما تخسرت التجار ببابل او ما تعتقه اليهود بسورا<br>ثم اقبل ( قيام ) الحمام فغربلها<br>صوابه : ( قيم ) الحمام                                                                                                                         |
| ٧٣     | ٤ ( السكاكين ) الكنابية )<br>صوابه : ( الكنباتية )                                                                                                                                                                                                                                      |
| ٨      | ٨ كملك الديلم والطيلسان ( وملك السوس )<br>قال المحقق في الحاشية ( ص ١٥٥ ) : انها قد تكون محرفة عن<br>( السرير ) او عن ( السيسحان )                                                                                                                                                      |
| ١٢     | ١٢ كما ( يستقصون ) على فقدانه<br>صوابه : ( يتنقصون ) على فقدانه<br>اقول : احسب انها محرفة عن ( سيس ) بسينين بينهما ياء ذكرها<br>ابو الفداء في تقويم البلدان ( ص ٢٥٧ ) وقال عنها انها بلدة ملك الارمن<br>وقاعدة ملكة وقاعدة الثغور الشمالية ، كما ذكرها ابن الاثير في اخبار<br>السنه ٢٤٥ |
| ١٣     | ١٣ يصلون بعد المجاهدة . . . الى غير ( المنفيتين ) من الطباخين<br>صوابه : الى غير ( المتفتنين ) من الطباخين                                                                                                                                                                              |

| السطر                                                                                                                                                                                                                                                                                                        | الصفحة |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--------|
| زامرة ( زمامية ) بميمين                                                                                                                                                                                                                                                                                      | ٧٣     |
| ١٦                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |        |
| اقول : وردت في حكاية ابي القاسم بلفظة ( زمامية ) بنون وبالنظر<br>لكثرة التصحيف في حكاية ابي القاسم فاني لا ارجح احدى اللفظتين على<br>الثانية وارجو ان يوفق احد المطلعين فيرشدنا الى اللفظ الصحيح .                                                                                                           |        |
| ( رحيب ) صوابه : ( عريب )                                                                                                                                                                                                                                                                                    | ١٧     |
| ( زاعم ) صوابه : ( ناعم )                                                                                                                                                                                                                                                                                    | ١٧     |
| ١٨                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |        |
| ماشطة طاهرية وخازنة حريمية                                                                                                                                                                                                                                                                                   |        |
| اقول : افرد المحقق موضعا في الحاشية لايضاح هذه الكلمة ، ثم فاته<br>ذلك ، واحسب ان قوله طاهرية النسبة فيه الى آل طاهر بن الحسين :<br>وقوله حريمية النسبة فيه الى الحرم الطاهري                                                                                                                                |        |
| ( اللاحتر المتهندات )                                                                                                                                                                                                                                                                                        | ١٩     |
| صوابه : اللاحتر المتصيدات )                                                                                                                                                                                                                                                                                  |        |
| ( الديبقي )                                                                                                                                                                                                                                                                                                  | ٢٣     |
| ٧٣                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |        |
| صوابه : ( الديبقي ) الباء قبل الباء                                                                                                                                                                                                                                                                          |        |
| ٢٣                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |        |
| فعل القوم ان يفاخرونا بالمعدن ... ( وكانوا ) قد دلوا<br>صوابه : ( فكانوا ) قد دلوا من انفسهم                                                                                                                                                                                                                 | ٧٣     |
| ٥                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |        |
| وقد وجدنا ( نصيبا ابعدا ) من المعدن كنصيب اقربنا منه<br>صوابه : وقد وجدنا ( ابعدا نصيبا ) من المعدن                                                                                                                                                                                                          | ٧٤     |
| ٧                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |        |
| باقصى ( حجر ) بالبئر والطيلسان                                                                                                                                                                                                                                                                               |        |
| صوابه : باقصى ( حجر ) بجيم ثم حاء                                                                                                                                                                                                                                                                            |        |
| ( الخليجي ) بالياء                                                                                                                                                                                                                                                                                           | ٨      |
| اقول : ذكره المحقق في الشرح ( ١ ) ( فسماه الخلنجي ) بالنون ) ولم<br>يفسره ، ويظهر من سياق الكلام انه صنف من اصناف القماش الذي يصنع<br>بمصر ، ولعل الاسم الصحيح ( الخليجي ) نسبة الى الخليج بمصر ، اما<br>الخلنج فهو نوع من الخشب الذي يصنع من الصحف والعماس ، قال<br>الشاعر : ويسقي لبن البخت في عساس الخلنج |        |
| ١٢                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |        |
| وفي اقصى مكانته ( من شأنه ) صوابه : ( وشانه )                                                                                                                                                                                                                                                                | ٧٤     |
| ١٧                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |        |
| ذلك هو القول ( من ) المجهزات ( في ) خراسان<br>صوابه : ( و ) ذلك هو القول ( في ) المجهزات ( من ) خراسان                                                                                                                                                                                                       |        |
| ١٨                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |        |
| ثم لا نجد ( في ) بغداد عند ذلك<br>صوابه : ثم لا نجد ( بغداد ) - بحذف ( في )                                                                                                                                                                                                                                  |        |
| ١٩                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |        |
| لا قوام لها إلا ما هو اثبت بها<br>صوابه : لا قوام لها إلا ( بما ) هو اثبت بها                                                                                                                                                                                                                                |        |
| ٥                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |        |
| بعلومه وآدابه وانسابه ( واحسانه )<br>صوابه : وانسابه ( واحسابه )                                                                                                                                                                                                                                             | ٧٥     |

| السطر                                                                                                                                                                                   | لصفحة |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-------|
| اشرف من بلاد الري ونواحيها<br>صوابه : ( و ) اشرف من بلاد الري                                                                                                                           | ١٢    |
| وهما شيخان مستوران قد ( اسقًا ) بالفاء المشددة<br>صوابه : قد ( اسنًا ) بالنون المشددة                                                                                                   | ٢٠    |
| وانشد لكاتب من اهل ( البندنجين ) بياء ثم نون<br>صوابه : ( البندنجين ) بنون ثم ياء                                                                                                       | ٤ ٧٦  |
| هل غاية من بعد مصر ( اجيبها )<br>صوابه : ( اجوبها )                                                                                                                                     | ٥     |
| فمریش مصر هناك ( فالفرما ) بالغيين<br>صوابه : ( فالفرما ) بالفاء                                                                                                                        | ١٠    |
| ولتمام البيت يقتضي ان تماد الى عجز الشطر الاول كلمة ( الى ) التي<br>اقحمت على صدر الشطر الثاني                                                                                          |       |
| لمصارع لم يبق في اجدانها ( منهم ) صدى برّ ولا صدق<br>صوابه : : رفع كلمة ( منهم ) من عجز الشطر الاول ووضعها في<br>صدر الشطر الثاني                                                       | ١٦    |
| ان ( قال ) فاعلمهم فغير موفق<br>صوابه : ان ( هم ) فاعلمهم وقد اورد المحقق اللفظ الصحيح في<br>الحاشية ، وكنت ارجح لو ان يضع اللفظ الصحيح في المتن ، و اشار الى<br>الاصل الخطأ في الحاشية | ١٧    |
| لدعوت ( بالتفريق ) بالفاء<br>صوابه : ( بالتفريق ) بالغيين                                                                                                                               | ٢٠ ٧٦ |
| ودوام لوعة زفرتي ( وشهيق )<br>صوابه : ( وشهقي )                                                                                                                                         | ٢١    |
| ونعيم دهر اغفلت ايامنسا بالكسرخ في قصف وفي تفثيق<br>اقول : لم افهم المعنى ، ولم استطع اصلاح المصحف .                                                                                    | ٢٣    |
| فر بالرجوع الى المراق وخلصها ( بمصر ) فريقا بعد جمع فريق<br>اقول : لعل الصواب : ( تمضي ) فريقا                                                                                          | ٤ ٧٧  |
| مايح الحركات ( طريف ) الشمال<br>صوابه : ( ظريف ) بالظاء                                                                                                                                 | ١٢    |
| احتاج هؤلاء الحفظة الى سبعة آلاف درهم ومائتي الف درهم<br>صوابه : الى سبعة آلاف ( الف ) درهم ومائتي الف درهم                                                                             | ٧ ٧٨  |
| وتقضى من الاحاطة شيء قدر<br>صوابه : شيء ( له ) قدر                                                                                                                                      | ١١    |
| وان ( القطت ) بالتاء - الذي عليه المدار<br>صوابه : ( القطب ) بالباء                                                                                                                     | ١٣    |
| وهم (مستلمون )<br>صوابه : وهم ( مستلمون )                                                                                                                                               | ٢٢    |
| وواسط ( عل ) حال<br>صوابه : ( على ) حال                                                                                                                                                 | ١٣ ٧٩ |
| وواسط ( عل ) حال<br>صوابه : ( على ) حال                                                                                                                                                 | ١٣    |
| (بحوض ) بريقه . بالحاء<br>صوابه : ( يجرض ) بالجيم                                                                                                                                       | ٤ ٨٠  |

| الصفحة | السطر                                                                                                                                           |
|--------|-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١٢     | فقد تركوا الرياسة للسلطان ( ورمحوا ) بالميم<br>صوابه : ( وربحوا ) بالباء                                                                        |
| ١٥١٤   | وعملوا من التعمت وطلب الرشى ( وما ) لا يحتمله الا الذليل وذو ( المدة )<br>القليل<br>صوابه : ( بما ) لا يحتمله الا الذليل ، وذو ( العدد ) القليل |
| ١٧     | عند خروجهم مع سهل بن سلامة في ارباض الحربية فانه اجتمع لما تطوع<br>صوابه : اجتمع ( اليه ) لما تطوع                                              |
| ٢٠     | ( تهاجوا ) من جانبي مدينة السلام<br>صوابه : ( تهايجوا )                                                                                         |
| ٢٣     | ( فهربهم ) واحترست من الاسراف<br>احسب ان صوابه : ( فقدرتهم )                                                                                    |
| ٨٠     | اما ( القطع ) الذي مدينة السلام منه                                                                                                             |
| ٨١     | صوابه : ( الصقع ) وقد اورد المحقق الاسم الصحيح في الحاشية<br>وكنت ارجح له ان يورده في المتن ويشير الى الاصل في الحاشية                          |
| ٨٧     | ان الفرات يسيل بجميع الشام وسواحل بحر الروم ومصر<br>صوابه : يسيل بجميع ( ما يرد من ) الشام ... الخ                                              |
| ٨١     | ( قسطنطينه ) صوابه : ( قسطنطينية )                                                                                                              |
| ٩١     | ( الصقالية ) بالياء صوابه : ( الصقالبة ) بالياء                                                                                                 |
| ٨٢     | ( جنابا ) صوابه : ( جنابة )                                                                                                                     |
| ٨٣     | ( اليمامة ) بالهاء صوابه : ( اليمامة ) بالقصورة                                                                                                 |
| ١١٥    | ( ان فجر ) صوابه : ( ان آفجر )                                                                                                                  |
| ١٤٠    | امرت الارض ان ( عطية ) صوابه : ان ( تطيعك )                                                                                                     |
| ١٥٠    | ( قردي ) بالياء صوابه : ( قردي ) بالقصورة                                                                                                       |
| ١٧     | ( سرمرى ) صوابه : ( سرمرى ) بشدتين                                                                                                              |
| ٢٥     | الهاء ( العدي ) بالذال صوابه : ( العدي ) بالذال                                                                                                 |
| ٨٣     | ( التبت ) بشاء مثلثة صوابه : ( التبت ) بتاءين بينهما باء                                                                                        |
| ١٤     | توسطوا ( بصب ) الفرات في دجلة<br>صوابه : توسطوا ( مصب ) الفرات في دجلة                                                                          |
| ١٩     | ومدينة ( الصفد ) بالفاء صوابه : ( الصفد ) بالفين                                                                                                |
| ٨٤     | ( ذو الاكتاف ) بالنون صوابه : ( ذو الاكتاف ) بالطاء                                                                                             |
| ١٠٠    | فدفع الى ايران هذا ( القطع ) صوابه : ( الصقع )                                                                                                  |
| ٨٥     | ( الديبل ) بياءين صوابه : ( الديبل ) بباء ثم ياء                                                                                                |
| ٨٦     | ( المدير ) الاكبر صوابه : ( المدير ) بياء مشددة                                                                                                 |



| الصفحة | السطر                                                     |
|--------|-----------------------------------------------------------|
|        | ١٢ ( والجزر ) بالجيم                                      |
|        | ١٥ لو دبرت مملكة بعد خراسان                               |
| ٨٧     | ٩ وبكاتب ( ابا ) هبيرة                                    |
|        | ١١ ويوشك ان يكون لها ( شرام ) بالشين                      |
|        | ١٣ يخاطبه ابن هبيرة ( نصر بن سيار )                       |
|        | اقول : الارجح حذف الجملة الاخيرة ( نصر بن سيار )          |
|        | ١٧ ( فبلغ ) - بالعين - طنجة                               |
|        | ١٩ ازهر السمان ( او )                                     |
|        | ٢٠ اصحاب عبدالله بن عبدالله بن جعفر                       |
|        | صوابه : عبدالله ( بن معاوية ) بن عبدالله بن جعفر .        |
|        | ٢٢ ويدخل الكوفة فيقيم بها ايضا ( وجول ) بلدان الجزيرة     |
|        | صوابه : ( ويجول )                                         |
|        | ٢٣ وكان مع ابيه وعمومه ( بالثراة ) بالشين                 |
|        | صوابه : ( بالسراة ) بالشين                                |
|        | لم يشاور احد طوى كشحه عن كل مشورة                         |
| ٨٨     | ١ صوابه : ( و ) طوى كشحه                                  |
|        | ٥ اذا ( انتقضت ) بالاضعفين قوى ( الجبل ) بالجيم           |
|        | صوابه : اذا ( انتقضت ) بالاضعفين قوى ( الجبل ) بالحاء     |
|        | ٧ على ( طوف ) البساط                                      |
|        | صوابه : على ( طرف ) البساط                                |
|        | ١٢ وفي ( اكناف ) الشام - بالتاء                           |
| ٨٨     | ٢٠ ( صائقة ) الردم - بالقاف                               |
|        | ٢٢ وان يوجد المامون ( لعبد ) الله بن طاهر                 |
|        | صوابه : وان يوجد المامون ( عبدالله ) بن طاهر              |
|        | ٢٣ واخذ بابك من ( البدء ) بهمزة                           |
|        | صوابه : من ( البدّ ) بالدال المشددة ، وهو حصنه            |
|        | ٦ وتوفي المعتصم ( بسرمرين )                               |
| ٨٩     | ١٢ ( طالح ) الوقت                                         |
|        | صوابه : ( سمرمى ) او سامراء                               |
|        | صوابه : ( طالع ) الوقت                                    |
|        | ١٦ و١٥ وانشد دعبيل ( بمدح ) بغداد ( وبذم ) ( سمرمى )      |
|        | صوابه : ( يمدح ) بغداد ( ويذم ) ( سمرمى )                 |
|        | ٢٠ ما سمرمى بسرمرى بل                                     |
|        | صوابه : قلع كلمة ( بل ) من عجز الشطر الاول ، واضافتها الى |
|        | صدر الشطر الثاني ، فيكون البيت :                          |
|        | ما سمرمى بسرمرى                                           |
|        | برغم ( انت ) الذي بناها                                   |
|        | ٢١ ما سمرمى بسرمرى                                        |
|        | صوابه : برغم ( انت ) الذي بناها                           |

| الصفحة  | السطر |
|---------|-------|
| ٩٠      | ٢     |
|         | ٣     |
|         | ٣     |
| ٩٠      | ٤     |
|         | ٤     |
|         | ٥     |
|         | ١١    |
|         | ١٢    |
|         | ١٤    |
|         | ١٨    |
|         | ١٨    |
| ٩١      | ١٠    |
|         | ١٦    |
| ٩٢      | ٧     |
|         | ١٤    |
| ٩٣      | ٦     |
|         | ٦     |
| ٩٣      | ١١    |
|         | ١٤    |
|         | ١٥    |
| ١٥ و ١٦ |       |

| الصفحة | السطر                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                               |
|--------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٢٢     | وامر ( ظريف ) بالغاء صوابه : ( طريف ) بالطاء                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                        |
| ٢٤     | كما لا يذهبان عن عقول العامة يشتمل عليها البرهان صوابه : ( و ) يشتمل عليها البرهان                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                  |
| ١٦     | ٩٤ وسجود ( وقيامه ) بالباء صوابه : ( وقيامه ) بالياء                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                |
| ١٧     | وما زيد فيه ( مايتي ) ذراع صوابه : ( ماتتا ) ذراع                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                   |
| ٤      | ٩٥ بقدرته على ( توسعه ) ما لا سبيل الى اتساعه الا به صوابه : على ( توسعة ) بالقصيرة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                 |
| ٤      | ولا حيلة في ( خطه ) بالخاء صوابه : في ( حطه ) بالخاء المهملة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                        |
| ٨      | ان الله يبسط ( الاقرب ) خلقه اليه صوابه : يبسط ( لاقرّب )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |
| ١٤     | الف الف وخمس مائة انسان صوابه : الف الف وخمس مائة ( الف ) انسان                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                     |
| ١٠     | ٩٦ واذا جاز ذلك القول بفراسخ كثيرة صوابه : واذا جاز ذلك ( جاز ) القول بفراسخ كثيرة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                  |
| ١١     | ٩٦ الا ان الله عزوجل لم يظننا القدرة على علم ذلك ( وممانيه ) مثله صوابه : ( وممانية ) مثله                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |
| ٢٣     | ان ( في ) هذه المنازل ما يوقد فيه ( امنا ) عراقية وارطالا صوابه : ان ( من ) هذه المنازل ما يوقد فيه ( امنا او امناء ) والمن : الوزن المعروف                                                                                                                                                                                                                                                                                                                         |
| ٥      | ٩٧ فحصل بمصاييح القناديل . . . من دهن البزر ( الف الف رطل ) صوابه : ( الفا ) الف رطل                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                |
| ٢٢     | ثم ( التناء ) - بالتاء المثلثة - وارياب النعم صوابه : ( التناء ) بالتاء المثناة والنون المشددة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |
| ٢      | ٩٨ ما لا يحصى جرارا ولا يعد ( رقاقا ) بالراء صوابه : ولا يعد ( زقاقا ) جمع زق                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                       |
| ٢٣     | فيكون حقها من الزيت ( استظهار ) الف الف رطل صوابه : ( استظهارا ) الف الف رطل                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                        |
| ٢٥     | ولصاييح المساجد ثلاثة ( الف ) الف رطل صوابه : ثلاثة ( آلاف ) الف رطل                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                |
| ١٥     | ٩٩ فان اسقطناه ( لخصومه ) بالميم صوابه : ( لخصوصه ) بصادين                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |
| ١٩     | استهلاك ( الاعشاب ) بالشين صوابه : ( الاعتاب ) بالنون                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                               |
| ١      | ١٠٠ ولنهروانات ( والزواهي ) بلا نقطة صوابه : ( والزواهي ) بالياء                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
| ٢      | ( جوحى ) بالياء صوابه : ( جوحى ) بالقصورة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |
| ١٢     | فكان مبلغ ما اجتمع من هذه الارطال على اقرب الاسعار المعتدلة في الاعتاب العامة ، حساب اثني عشر رطلا بدرهم ، ستة عشر الف الف درهم في الشهر الواحد ، اربعمائة وثمانين الف الف درهم . اقول : الفارزة الاخيرة في الجملة ليست في مكانها الصحيح ، وقد ادى وضعها في غير موضعها ان تغير المعنى المقصود ، ويقضي ان توضع الفارزة بين كلمة ( درهم ) وكلمة ( في الشهر الواحد ) ، فتكون الجملة : فكان مبلغ . . . ستة عشر الف درهم ، في الشهر الواحد اربعمائة وثمانين الف الف درهم |

| الصفحة | السطر |
|--------|-------|
| ١٠٠    | ١٣    |
|        | ١٨    |
| ١٠١    | ١     |
|        | ٥     |
| ١٠٢    | ٦     |
|        | ١٠    |
|        | ١٩    |
| ١٠٢    | ٢٠    |
|        | ٢٣    |
|        | ٢٤    |
| ١٠٣    | ٤     |
|        | ٩     |
| ١٠٤    | ٤     |
|        | ١١    |
|        | ٦     |
| ١٠٧    | ١     |
|        | ١١    |
|        | ١٢    |
|        | ١٤    |
|        | ١٩    |
|        | ٢٢    |
|        | ٢٣    |
|        | ٢٥    |

| الصفحة | السطر                                                                                                                                                                                                                                 |
|--------|---------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١٠٨    | ٢ سبعة ( الف ) ... الخ                                                                                                                                                                                                                |
|        | ٢٠ كنت مع ( جريز ) بالزاي                                                                                                                                                                                                             |
| ١٠٩    | ٤ ولها أربعة ابواب . . . يظهر ( فيه ) الفسق<br>صوابه : يظهر ( فيها ) الفسق                                                                                                                                                            |
|        | ٧ ما اسست بغداد إلا على ( الفلا ) مرة حرق ومرة غرق ومرة فتنة<br>احسب ان الصواب : ما اسست بغداد الا على ( ثلاثة )                                                                                                                      |
|        | ١٧ ولم ( يثناها ) اهلها عن منكر<br>صوابها : ولم ( يثناه ) اهلها عن منكر                                                                                                                                                               |
|        | ٢١ تظهر ( رايات السود ) من خراسان<br>صوابه : ( الرايات السود )                                                                                                                                                                        |
| ١١٠    | ١ فكيف بكم اذا حشرتم ذات نخل وكرم<br>صوابه : ( في ) ذات نخل وكرم                                                                                                                                                                      |
|        | ٢١١ يجتمع اليها كل بر وفاجر فقال بغداد<br>صوابه : يجتمع اليها كل برّ وفاجر ( قالوا : وما هي ؟ ) فقال : بغداد                                                                                                                          |
|        | ٢١٢ يقال له عبدالله يكون خلافته رخص ( السمر ) بالسين<br>صوابه : يكون ( في ) خلافته رخص ( السمر ) بالسين                                                                                                                               |
| ١١٠    | ٧ ودير في موضع العتيقة وآخر يقابله ( من ) موضع الدعالجة<br>صوابه : يقابله ( في ) موضع الدعالجة .                                                                                                                                      |
|        | ٢٠ وافترض ( من ) ذلك<br>صوابه : وافترض ( في ) ذلك                                                                                                                                                                                     |
| ١١١    | ١ اما اسواقها ( فكاذة ) واما مساجدها فلاغية<br>صوابه : اما اسواقها ( فكاذية ) ..                                                                                                                                                      |
|        | ٥ ( وان ارادوا بك ) ان يفرقهم ( فما يضيع ) اما ( سمعت ) يقول فلما<br>( اسفونا ) انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين .<br>صوابه : ( وان اراد بك ) ان يفرقهم ( فما يصنع ) ، اما سمعته<br>يقول : فلما ( اسفونا ) انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين |
|        | ١١ كالتعبد في ( الحشر ) بالراء<br>صوابه : كالتعبد في ( الحش ) وهو الكنيف                                                                                                                                                              |
|        | ١٦ فان في جوارهم ( مشتبه ) لنار الحرص ( وغصيص ) الشهوات (معانيثهم)<br>ذم القناعة ( بصغير ) النعم .                                                                                                                                    |
|        | صوابه : فان في جوارهم ( مشبة ) لنار الحرص (وغصص) الشهوات<br>( معاشهم ) ذم القناعة ( وتصفير ) النعم                                                                                                                                    |
|        | ٢١٢٠ فقال يقول لرجل يسكن بغداد لا بأس به<br>صوابه : فقال لرجل يسكن بغداد لا بأس به ؟                                                                                                                                                  |
|        | ٢٢ قال ابو ( الاحوص ) بالضاد<br>صوابه : ( الاحوص ) بالصاد                                                                                                                                                                             |
| ١١٢    | ٥ يجيء احدكم يسأل عن ( المسكن ) كأنه من عمل الله<br>صوابه : يسأل عن ( المسألة ) ... الخ                                                                                                                                               |
|        | ٦ فاذا قيل له ابن المسكن ، قال في ( عشر ) الظلمة<br>صوابه : فاذا قيل له : ابن المسكن ؟ قال : ( في عش ) الظلمة                                                                                                                         |

| الصفحة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                     | السطر |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|-------|
|                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            | ٨     |
| قل لمن اظهر التصوف للناس<br>صوابه : وامسى ( بعد ) في الزهاد                                                                                                                                                                                                                                                                                |       |
| ٩                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          | ١١٢   |
| ليس بغداد منزل ( للعباد )<br>صوابه : منزل ( العباد )                                                                                                                                                                                                                                                                                       |       |
| ١٣                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                         |       |
| ما انت يا بغداد الا سلح<br>صوابه : ( او نضح ) بالضاد                                                                                                                                                                                                                                                                                       |       |
| ١٥                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                         |       |
| وان ( جفت ) فتراب ( برخ ) بالخاء<br>اقول : اولاً صوابه : وان ( خفقت ) فتراب ( برح ) بالهاء المهملة<br>ثانياً - هذا الشطر تنمة للبيت الذي سبقه في السطر ١٣                                                                                                                                                                                  |       |
| ١٨-١٥                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |       |
| اقول : اورد المحقق في هذه الاسطر ثلاثة ابيات ، هي في الواقع بيتان اثنان<br>اذ ان ما جعله الشطر الاول البيت الاول يقتضي ان يلحق بالبيت الذي<br>سبقه في السطر ١٣ ، كما ان ما جعله الشطر الثاني في البيت الثالث ، انما<br>هو نثر يقتضي ان يلحق بما بعده من الحديث ، وسأثبت الترتيب الصحيح<br>لهذه الاسطر الحاقاً بما قبلها وربطاً لما بعدها : |       |
|                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |       |
| سال المتعصم ابا العيناء عن بغداد ، وكان سيء الراي فيها ، فقال :<br>هي يا امير المؤمنين كما قال عمارة بن عقيل :                                                                                                                                                                                                                             |       |
| ما انت يا بغداد الا سلح<br>اذا اعتراك مطر او نضح<br>فان خفقت فغبار برح<br>وكما قال آخر :                                                                                                                                                                                                                                                   |       |
| هل الله من بغداد يا صاح مخرجي<br>وميدانها المذري علينا ترابها<br>( اذا شحجت ابقالها ) وحميرها<br>فهي ام الوجود ، ومطرح النقول : عذرتها في طرقها . ( وقدرها ،<br>في وسطها ، يموت اهلها في الصيف حرقاً . وفي الشتاء فرقا ... الخ                                                                                                             |       |
| ٢١                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                         | ١١٢   |
| ( الغريب ) بها مكدر ، ( والمقرب ) بها اهل<br>احسب ان صوابه : ( القريب ) بها مكدر . ( والمقرب ) بها اهل                                                                                                                                                                                                                                     |       |
| ٢٢                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                         |       |
| شبابها ( يتناهدون ) وصبيانها ( يواجرون )<br>صوابه : شبانها ( يتناهرون ) وصبيانها ( يؤاجرون )                                                                                                                                                                                                                                               |       |
| ٣                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          | ١١٣   |
| كنوز قارون ان ( يكون ) له<br>صوابه : ( ان تكون له )<br>وعمر ( هوج ) وصبر ايوب<br>وعمر ( نوح )                                                                                                                                                                                                                                              |       |
| ٥                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |       |
| خلوا سجيل العلى لغيرهم<br>ونافسوا في الفوق (والخوب) بالخاء<br>صوابه ( والحب ) بالخاء المهملة                                                                                                                                                                                                                                               |       |
| ٧                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |       |
| اقتم ببغداد اشهرها<br>احسب ان صوابه :<br>اقتم ببغدادكم اشهرها<br>وكنتم ببغداد ( ذاخبره )<br>وما ان ( فتنت بها حره )<br>احسب ان صوابه : وما ان ( فتت بها كسره )                                                                                                                                                                             |       |
| ٨                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |       |
| فما ان قطعت بها شعرة<br>احسب ان صوابه : وما ان ( فتت بها كسره )<br>وما ان ( توفقت لي ) حاجة<br>احسب ان صوابه : وما ان ( توفقت في ) حاجة                                                                                                                                                                                                    |       |
| ٩                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |       |

| الصفحة | السطر                                                                                                                                                                                                                |
|--------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١٠     | وعاندني الخير مذ جئتها<br>صوابه : معاندة الضرة ( الضرة )<br>معاندة الضرة ( للضرة )                                                                                                                                   |
| ١١     | ( واني عاشق بها درهما )<br>الشرط الاول ، احسب ان صوابه : انا لم ( اعابن بها درهما )<br>الشرط الثاني ، احسب ان صوابه : ( ومن لي يا صاح بالنقره )<br>والنقرة : الفضة                                                   |
| ١٢     | ( فعجبي ) بسري الى بلد<br>احسب ان صوابه :<br>عجلت ) بسري الى بلدة<br>اقول : انا غير واثق من هذا التصويب                                                                                                              |
| ١٥     | وعدت اليها فقربنتسي<br>احسب ان صوابه :<br>وعدت فصاحبتي طالسق<br>تلاق ثلاثا وجاريتي حره                                                                                                                               |
| ١٧     | لقد طال في بغداد ليلسي ومن بيت<br>صوابه : غير ( راقد ) وكنت ارجح لو ان المحقق وضع الكلمة<br>الصحيحة في المتن ، وثبت الاصل الخطأ في الحاشية                                                                           |
| ١٩     | ( دبارجة ) شهب البطون<br>صوابه : ( دبارجة ) بالزاي                                                                                                                                                                   |
| ٢١     | زعم الناس ان ( الليل ) يا بغداد<br>صوابه : زعم الناس ان ( ليالك ) يا بغداد<br>بغداد ليل يطيب فيه النسيم                                                                                                              |
| ٢٣     | وقليل الرخا يتبع الشدة<br>صوابه : وقليل ( الرخاء يتبع ) الشدة<br>بغداد عند العباد امر عظيم                                                                                                                           |
| ٢٥     | اقول : ان حذف البغداديين للهمزة ، لا ينبغي ان يسري على الشعر ،<br>لان حذفها في الشعر قد يؤدي الى اخلال بالوزن<br>ترحل في بغداد دار اقامة<br>صوابه : ولا عند ( ذي جاه ) ببغداد طائل<br>ولا عند ( من جاء ) ببغداد طائل |
| ٥      | وسأله ايام الفتنة<br>صوابه : في اضافة كلمة ( فتى )<br>فتكون الجملة : وسأله ( فتى ) ايام الفتنة                                                                                                                       |
| ١٢     | وقال مكحول بن ( جارية )<br>احسب ان صوابه : ابن ( حارثة )                                                                                                                                                             |
| ١٨     | ولم ( اتواني ) في بغداد حبا لاهلها<br>صوابه : ولم ( اتو ) في بغداد حبا لاهلها                                                                                                                                        |
| ١٩     | سأرحل عنها قالبا ( ليراتها )<br>صوابه :<br>سأرحل عنها قالبا ( لسراتها )                                                                                                                                              |
| ٢٠     | واتركهم ترك ( الملوك للخائب )<br>صوابه :<br>واتركهم ترك ( الملوك المجانب )<br>صوابه : في ( حرآم ) النوائب                                                                                                            |

| الصفحة | السطر   |
|--------|---------|
|        | ٢٣      |
|        | ٢٣      |
| ١١٥    | ٨       |
|        | ٩       |
|        | ١٣      |
|        | ١٧      |
| ١١٥    | ١٨      |
|        | ١٩      |
|        | ٢٠      |
|        | ٢٢      |
| ١١٦    | ١       |
|        | ٣       |
|        | ١٢      |
|        | ١٧      |
|        | ١٧      |
|        | ١٩      |
|        | ٢٢ و ٢١ |
| ١٢٣    | ٢٥      |
| ١٢٥    | ٢٥      |
| ١٣٤    | ٢١      |



| الصفحة | السطر   |                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                        |
|--------|---------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
|        | ٢١      | ( كما ذكرني ) ابن مخلد                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                 |
| ١٣٥    | ١٧      | من ولد ( اهبان لهن ) صيفي                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |
| ١١٠    | ٢٦ و ٢٥ | قنطرة ( بن ) زريق                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |
|        | ٢٧      | قوم من ( البناء ) المشهورين                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |
| ١٤٣    | ٤       | سمي المخرم ببغداد ( مخرجا ) بالجيم<br>صوابه : ( مخرما )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                |
|        | ٢٣ و ٢٢ | ان الصالحية نسبت الى صالح بن المعروف بالمسكين<br>صوابه : الى صالح بن ( المنصور ) المعروف بالمسكين                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |
| ١٤٤    | ٢٠      | وانما يأكله ( المتحملون ) بالحاء<br>صوابه : ( المتحملون ) بالجيم                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                       |
|        | ٢٤      | قال المحقق : لم اجد في المصادر ذكرا لشارع الثلاثة ابواب ولعله<br>تحريف شارع الثلاثة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
|        |         | اقول : لم يرد في الخطط اسم لشارع اسمه ( شارع الثلاثة ) وانما<br>هو سوق الثلاثة اما الموضع الذي سماه المؤلف بشارع الثلاثة ابواب ،<br>فهو على ما وصفه في المنطقة التي تقع فيها سوق نصر بن مالك وقنطرة<br>البردان ، وبن سوق الثلاثة الواقع جنوبي المخرم من تلك المنطقة التي تقع<br>غربي الرصافة ، والذي احسبه ان شارع الثلاثة ابواب هو الشارع الذي<br>تقع في اطرافه الابواب الثلاثة : باب البردان ، وباب الطاق وباب الجسر |
| ١٤٥    | ١٥      | ماذا ببغداد من طيب ( الافان )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                          |
| ١٤٦    | ٢١      | اليلتنا بذى ( حشم ) أنيري                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |
| ١٥٠    | ٢١      | احمد بن ابراهيم ( الاقليدس )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |
| ١٥٣    | ٤       | بطسوج ( في ) بادوريا                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                   |
|        | ١٢      | ( والطرزد ) بالياء<br>وهو التمر الذي يسميه البغداديون اليوم ( تبرزل )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                  |
|        | ١٢      | ( الخاستوي ) بالمقصورة<br>وهو التمر الذي يسميه البغداديون اليوم ( الخستوي )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |
| ١٥٥    | ١٩      | ( ماري ) والله مغنية بغدادية                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |
|        | ٢٠      | ( ولازاجرة ) زنامية ، كانها ( مرآة محلية )<br>صوابه : ( ولا زامرة ) زنامية ، كانها ( مرآة مجلية )                                                                                                                                                                                                                                                                                                                      |
|        | ٢١      | خريجة ( سارية ) بالسين<br>صوابها : خريجة ( شارية ) بالشين                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |
|        | ٢٧      | اورد المؤلف في الصفحة ٧٣ بعض الاسماء المشهورة في عالم الفناء والطرب<br>فطلق المحقق بقوله : ان صاحب حكاية ابي القاسم البغدادى اورد اسماء<br>عدد من المغنيات في بغداد « غير انه ليس فيها من الاسماء التي اوردها<br>المؤلف »                                                                                                                                                                                              |
|        |         | اقول : السبب في ذلك بين ، فان حكاية ابي القاسم البغدادى من<br>تأليف ابي حيان التوحيدى ، وقد ذكر في كتابه حكاية ابي القاسم البغدادى<br>اسماء المغنيات اللواتي سمعن في منتصف القرن الرابع ، في حين ان مؤلف<br>كتاب بغداد من رجال القرن الثالث ، وهو يتحدث عن سبقه او عاصره<br>من المشهورين .                                                                                                                             |

| الصفحة | السطر                                                                                                                                                                                              |
|--------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ١٥٦    | ٣                                                                                                                                                                                                  |
|        | يكنى ابا (دليجة) بالباء<br>صوابه ابا (دليجة) بالياء المثناة                                                                                                                                        |
| ٥      | ٥                                                                                                                                                                                                  |
|        | (وينان) هو<br>صوابه : (وينان) بالياء                                                                                                                                                               |
| ١٢     | ١٢                                                                                                                                                                                                 |
|        | (عربية وثارية) بالثاء<br>صوابه : (وشاربة) بالشين                                                                                                                                                   |
| ٢٦     | ٢٦                                                                                                                                                                                                 |
|        | ولعل منهم هو تحريف (ميتم) بياء ، ثم تاء<br>صوابه : تحريف (متيم) بياء مشددة                                                                                                                         |
| ١٣     | ١٣                                                                                                                                                                                                 |
| ١٥٩    | ١٣                                                                                                                                                                                                 |
|        | (السرخي)<br>صوابه : (السرخي)                                                                                                                                                                       |
| ٨-١    | ٨-١                                                                                                                                                                                                |
| ١٦٠    | ٨-١                                                                                                                                                                                                |
|        | اورد المحقق في ترجمة علي بن الجهم : ان الواثق خصه بمكانة خاصة ثم<br>غضب عليه فحبسه وصادره ونفاه الى خراسان<br>الصواب : ان المتوكل هو الذي صنع به ذلك                                               |
| ٩      | ٩                                                                                                                                                                                                  |
|        | يزدجرد بن (مهينداد)<br>صوابه : (مهينداد) بالياء المثناة                                                                                                                                            |
| ٢      | ٢                                                                                                                                                                                                  |
| ١٦٧    | ٢                                                                                                                                                                                                  |
|        | (ووحج مفلوقة مصدة)<br>صوابه : (ودجج (اي دجاج) مفلوقة مصدرة)                                                                                                                                        |
| ٢٣     | ٢٣                                                                                                                                                                                                 |
|        | قال المحقق في بحثه عن (اللكاء) : لعله كان بلون اللك ، وهو احمر<br>اقول : اصاب الاستاذ المحقق ، فان (اللكاء) تعريب الكلمة الفارسية<br>(لکا) وتعني : السختيان ، والجلد غير المدبوغ ، او الورد الاحمر |
| ١٣     | ١٣                                                                                                                                                                                                 |
| ١٦٨    | ١٣                                                                                                                                                                                                 |
|        | قال : (دفعتنا) الضرورة الى المقام<br>صوابه : (دفعته) الضرورة                                                                                                                                       |
| ١٦     | ١٦                                                                                                                                                                                                 |
|        | قل لمن اظهر التنسك في النسا<br>صوابه : (بعد) في الزهاد                                                                                                                                             |
| ٦      | ٦                                                                                                                                                                                                  |
| ١٦٩    | ٦                                                                                                                                                                                                  |
|        | سوى معشر (يحلو وحل) قليلهم<br>صوابه : سوى معشر (قلوا ، وجل) قليلهم                                                                                                                                 |

# تصويبات وأستدراكات علي (بغداد في سنة ١٨٥٣) لفيلكس جونسن

بقلم

بشارة شامخند العززي

المؤسسة العامة للآثار - بغداد

عليه بعد انتزاعه من السيطرة العثمانية وذلك ما حدث فصلاً سنة ١٩١٧ بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان القائد فيلكس جونسن من ضمن هؤلاء المساحين الذين أرسلتهم بريطانيا لهذا الغرض فكانت تقاريره هذه كتاباً نشرته حكومة بومباي سنة ١٨٥٧ .

يقع الكتاب في خمسمئة صفحة ويحتل فصل اقليم بغداد الصفحات من ٢٠٤ الى ٤٠٢ اي مئة صفحة منه ويشمل ملاحظات ملحقة بخارطة بغداد تسجل تاريخ وموقع مدينة بغداد خاصة الشرقية منها بأسوارها وسكانها ومناخها ومزود بنسمة صور لمناظر مرسومة باليد لمدينة بغداد وفيها ايضاً ما يلي :

- وصف الجانب الشرقي للمدينة مع جداول بالمحلات والإبنية الرئيسية التي تصنفها بقسمي بغداد الشرقي والغربي تحتل الصفحات من ٢١٢ الى ٢٢٩ .
  - جداول باسماء المواد الفذائية من الص ٢٢٢ الى الص ٢٤٥ .
  - جداول بأجور العمال والصناع والتجار من الص ٢٤٢ الى الص ٢٥١ .
  - جداول بالأوزان والمقاييس والمكاييل السائدة في اسواق بغداد الص ٢٥٢ .
  - جداول بأنواع واجناس الدراهم في سوق بغداد ، من الص ٢٥٢ الى الص ٢٥٥ .
  - ملاحظات عامة حول اقليم بغداد ، الص ٢٥٦ .
  - عشرات العراق من الص ٣٦٩ الى الص ٢٨٦ .
  - اصول الخيل ، الص ٢٨٦ .
  - جداول بالطيور والحيوانات الصغيرة من الص ٢٨٩ الى الص ٤٠٢ .
- هذا ما تضمنه فصل اقليم بغداد من مواد متسلسلة حسب مواضيعها وصلفاتها كما هو مذكور اعلاه ، وفيما يلي بعض المآخذ التي وقعت عليها حول ترجمة السيد الامين لهذا الفصل :-

قام السيد عبدالوهاب الامين بترجمة فصل من فصول كتاب المساح والقائد الانكليزي جيمس فيلكس جونسن ، وقد بدأ ترجمته هذه بتقديم فيلكس جونسن بمقدمة قصيرة هامة ، وأوضح ان من جملة فصول كتاب جونسن ، فصل ( اقليم بغداد ) ثم استطراد « وقد كان فصل اقليم بغداد من اهم فصول هذا السفر النفيس لما ضمه من معلومات ومشاهد لم يبق منها اثر الاّن وهو مزود بالصور التسجيلية لاختلاف انواع المباني وذلك عدا الخارطة النفيسة للمدينة وهي بداتها تصد انجازاً لا مثيل له من جميع الوجوه ولذلك اترنا نقله ونشره تباعاً في الورد مع الخارطة اليتيمة وتساويره المختلفة » .

لقد عكفت منذ مدة ليست باليسيرة على ترجمة هذا الكتاب الهام بالنسبة للعاملين في حقل الآثار وكذلك للمهتمين بشؤون التاريخ والخط والجغرافية ، وقد قطعت فيه شوطاً كبيراً هذا بالإضافة الى قيامي بترجمة فصل ( اقليم بغداد ) وتحقيق المعلومات الانرية والتاريخية الواردة فيه ، لذلك وجدت العديد من المآخذ على ترجمة السيد الامين مع ما بدله من جهد مشكور بترجمة هذا الفصل ، فهو كما نرى مترجم ونال للمادة الاجنبية الى اللغة العربية والترجمة او النقل من لغة الى اخرى تستعني الامانة ونقل افكار المؤلف والحفاظ عليها ، هذا وقد اعتمد الكثير من الباحثين في شؤون العراق الانرية والجغرافية والمساحة والري على هذا الكتاب ولقد اشار البعض منهم اليه كما افعل البعض الاخر الاشارة اليه ولكن مجهود السيد الامين بترجمة هذا الفصل مجهود واضح ومشكور وقد وجدت من الضروري ان ادون بعض الاستدراكات والتصويبات والاضافات التي سقطت من الترجمة وتوخيت فيها استكمال الفائدة من ترجمة هذا الفصل .

هذا الكتاب هو مجموعة تقارير مقدمة الى حكومة بومباي التابعة لبريطانيا كما ذكر السيد المترجم ، وهذه التقارير بدأت بالتقديم متسلسلة بالزمن اولها كان سنة ١٨٤٦ وآخرها سنة ١٨٥٢ وكان تاريخ نشر هذه المجموعة كاملة سنة ١٨٥٧ اي في الوقت الذي كانت بريطانيا تتطلع فيه الى العراق لتقدير ما فيه من امكانيات عظيمة في جميع الميادين فارسلت مختلف البعث لاختلاف الافراض من رحالة وجواريين ومساحين ومهندسين وآثاريين وبلوغماسيين لدراسة احوال العراق تمهيداً للسيطرة

أولاً : الخارطة - وقد وصفها السيد الامين بـ (الخارطة اللبنيمة ) او ( الخارطة النفيسة ) ، وهي بدأتها تمد انجازا لا مثيل له من جميع الوجوه ، وهي فضلا كذلك فان الخارطة هي اهم ما في فصل القيم بغداد حيث ان هذا الفصل الذي يحتل مائة صفحة هو كما جاء في عنوانه ليس الا شروح وملاحظات تكون ملحقا بخارطة بغداد ، وقد نشرت هذه الخارطة قبل السيد الامين في اباحت اناربه وخطبية اخرى وان السيد الامين لم يعتني بنشرها وانما نشرها بدون ترجمة وحذف ارقام الاحاطة من الجداول الملحقه بهذه الخارطة وتعتبر هذه الجداول مادة رئيسية في هذا الفصل فهي تحمل ارقاما لكل محلة وعند وبنائة هامة ولم يبين وجه العلاقة بين الجداول والخارطة علمابان هذه الجداول كتبت باللغتين العربية والانكليزية مع ترجمة الى الانكليزية بالمعاني الواردة فيها مثل ما يلي :

| الرقم                             | المعنى                                                                   |
|-----------------------------------|--------------------------------------------------------------------------|
| No. I. Mahalat Suk al :<br>Chazil | Quarter in the town<br>( محلة سوق الفزل )                                |
| Suk                               | سوق                                                                      |
| Jama                              | جامع                                                                     |
| Aked                              | عقد                                                                      |
| Kahweh                            | قهوة                                                                     |
| Hamam                             | حمام                                                                     |
| Khan                              | خان                                                                      |
| Jesser                            | جسر                                                                      |
| Kishleh                           | قشلا                                                                     |
| Madrasseh                         | مدرسة                                                                    |
| Musjed                            | مسجد                                                                     |
|                                   | Bazar                                                                    |
|                                   | Mosque                                                                   |
|                                   | Aked is a term signifying a group or knot of houses between two streets. |
|                                   | Coffe house                                                              |
|                                   | Bath                                                                     |
|                                   | Caravanserai                                                             |
|                                   | Bridge                                                                   |
|                                   | Barrack                                                                  |
|                                   | College                                                                  |
|                                   | Small hous for prager                                                    |

ثانيا : تصويبات عامة في الترجمة ذاتها - قبل الاشارة الى بعض التصويبات في نصوص الترجمة ذاتها هناك ملاحظات عامة كان من الواجب على المترجم الكريم اتباعها وهي :

ويترجم العنوان وهو عنوان مهم لعلاته الكبيرة بخارطة بغداد كما يلي :

ملاحظات مختصرة تكون ملحقا بخارطة بغداد ، وصمها فيليكس جونز القائد في البحرية الهندية والباحث في ما بين النهرين .

ورد في نفس الص : ( يمثل مصطط هذه الخارطة مدينة .. الخ ) ، والصحيح ( تمثل الخارطة التالية مصطط القتي لمدينة ... الخ ) .

ورد : ( فيمد الهيم التام الذي احامه بسلووية ولفيطون حيث انشا خمسة من الاباء المشيرين الكرسي البابوي ، لجا التروبوليون الى هذا الررك وظل لقب ( كيج اساقفة بابل لاصقا بهذا البحر الخفس من البابويه ... الخ ) والصحيح كان من ما يلي :

.. وبعد خراب مدينتي سلوقية (Seleucia) وطيسفون (Ctesiphon) اللتين فيها امسى الاباء المشيرين الاوائل بيمه النصارى الشرقية الكبرى ، ظل لقب بطرقه بابل مرتطا بيمق البابوية ومعتبرا اكثر الاقالب فيها تشريفا واحتراما .

- ورد اسم دير بلوت في تاريخ الاسلام . وهو كما كتبه المؤلف كما يلي :

D. Herbelot's history of the Mahomedans.

ا - مقارنة التاريخ الهجري باليلادي ، وكان المؤلف قد ذكرها كلها حسب ورودها بالاشارة اليها اسفل الصفحة فكان المترجم الكريم يصلها احيانا وحيانا يظفل عنها .

ب - عدم تدقيق بعض اسماء الاطلام والامان والبقاع والمصادر العربية وبعض المصطلحات التي اوردها المؤلف مكتوبة بالحروف اللاتينية ، فكان من واجب المترجم تدقيقها مع بعض المختصين ووصفها بحروفها اللاتينية بين قوسين الى جانب العربية .

ج - عدم مراعاة التسلسل في الترجمة وسناني على ما فات المترجم الكريم بهذا الشأن .

وليعما يلي التصويبات في النصوص المترجمة :

- ذكر المترجم مدينة « اوينس » في المقدمة والصحيح هو ( اوبس ) ( Opis )

- ورد في الص : ٢٠ عنوان الفصل الذي ترجمه بـ ( ملاحظات من خارطة بغداد ) وهو ما يلي :

D- Brief observation forming an appendix to the map of Baglidad, By Felix Jones, Commander Indian Navey, and Surveyor in Mesopotamia.

وتعاقبت الاسر التركمانية بالحكم عليها وهي المروفة  
 بلاق كويونلو Ak Koyunlu ( الخروف الابيض ) القره كويونلو  
 Kara Koyunlu ( الخروف الاسود ) الى سنة ٩١٤ هـ -  
 ١٥٠٥ م حينما استولت عليها جيوش الشاه اسماعيل الصفوي  
 ( كذا ) Shah Ismail Suli

- الرحالة الدانماركي نابيهور . وهو نيهور  
 ( Niebhur ) .

ص ٢٠٨ - مابين السند وجبل طارق .. من جبل طارق  
 الى بلاد ما وراء النهر ( Oxus )

ص ٢٠٩ - ( وتجد في احدى الكتابات العربية البارزة  
 على الجدار اللولبي لباب الطلمس ) . والصحيح :

( .. اعلى الوجه المنحني ليرج باب الطلمس الاسطواني ،  
 يوجد شريط من الكتابات الاجرية .. ) .

- عند الحديث عن اسوار بغداد ورد ما يلي : ( وللسور  
 عشرة ابراج نصف مغياه في السور الخارجى ... هاشم؟ نجد  
 في كتاب نشأة القلوب لعبدالله المصطفي ان سورا مبنيا بالكلس  
 والطابوق ... الخ ) والصحيح :

وللسور عشرة ابراج نصف اسطوانية تندمج بجداره  
 الخارجى هاشم؟ .. ورد في كتاب نزهة القلوب لعبدالله  
 المستوفي من ان سورا من الكلسى والاجر المحروق جعل  
 للخذق ... الخ .

Nushat al Qululo of Abdallah Mustafa (كلا)  
 لكنه يدره صحيحا في هاشم ص ٢١٠  
 Hamdallah Mustafa

ثالثا : ص ٢١٢ - الجداول الملحقه بخارطة بغداد - لم يهتم السيد الامين بالارقام الواردة في الجداول التي هي في  
 الحقيقة ارقام تخص الخارطة المذكورة لتعيين موقع كل محلة وجامع وعقد وفهوه . فكان على المترجم الكريم لكونه  
 ناظرا وليس محققا ان يتفحها كما هي ملحقة بالخارطة خاصا كونها ذكر الترجم ، اهم مالي الفصل وهي ،  
 ( نفيسة ) و ( يتيمة ) ، ولاشك في اهميتها ولكن المؤلف كتب الجداول باللغتين العربية والانكليزية وكتب الالفاظ والتسميات  
 كما تلفظ بالعربية بحروف لاتينية يقابلها معناها بالانكليزية ، وقد كتبها كما كانت تلفظ في حينها ويبدو انه اخلاها عن الإدارة  
 العثمانية في حينها ولكن المترجم تصرف ببعض الاسماء الواردة فيها وكتبها كما تلفظ في يومنا هذا وقد شرحت انفسا ما قام به  
 المؤلف من كتابة الاسماء والالفاظ بالعربية ( انظر نموذج للجداول مرفقة مع هذه الفقرة ) وفيما يلي ساذكر فقط ما افاته  
 المترجم الكريم من ارقام الجداول والاسماء التي سقطت وتصحيح الالفاظ على جداول المؤلف فقط محتفظة بالجداول  
 المصححة لنشرها كاملة محققة مع فصل الفليم بغداد .

الارقام البناية او مجموعة البنائيات التي تسماها محلة واحدة اللغف الصحيح ومافات المترجم من اسماء

No - Mahalet Suk al Ghazil

عقد دجلابين

الكرية

عقد سقالي

واصله كنيسة قديمة .

عقد كاور

عقيد

قررة قسي

حاجي نعمان

عجيلين

١ - محلة سوق الفزل

عقد الجلاوين

٢ - محلة راس القرية

عقد السقالي

جامع الخاصكي مابين سنة ١٠٩٤ هـ

عقد الكااور

العقد الصيق

٣ - محلة سيد سلطان علي

كنيسة مرزة علي

جامع حاج نعمان

عقد المعجيلين

- ٤ - محلة آت الحاجي
- ٥ - /
- ٦ - محلة قنبر علي
- ٧ - جامع مرجانية  
جامع الرجانية  
خان الرجانية  
خان الاورطمة
- ٩ - محلة الهيدرخانة  
عقد الجامع - بناء داود باشا سنة ١٢٢٢ هـ
- ١٠ - جامع احمد الكيا
- ١١ - محلة حسين باشا . ٧٢٨ هـ
- ١٢ - محلة الفضل
- عقد التسبانية  
قهوة التختة بند ( صاحبها ابو عصفور )
- جامع الفضل : بني سنة ١١٩٧ هـ  
عقد الجتمقي  
قهوة الشبانة
- ١٣ - محلة باب الافسا  
عقد اللشنتي  
عقد العلوية  
عقد المنارة المقطومة
- ١٤ - محلة العاقولية  
عقد العاقولية ... ١٠٩٥ هـ  
عقد محمود اسطة  
عقد الريمي
- ١٥ - محلة جامع خضر بك  
عقد كمش حلقة ... ١١٢٢ هـ
- ١٦ - جامع العادلية
- ١٧ - قهوة جديدة
- ١٨ - خان التمر
- ١٩ - خان العفتردار
- ٢٠ - خان المصبة
- ٢١ - خان الكمركه
- ٢٢ - سوق الصياغ
- ٢٣ - سوق هرج
- ٢٤ - سوق الولة خانه
- ٢٥ - محلة صالخار
- ٢٦ - جامع الولير
- عقد اوينجي
- محلة اليهود وفيها كنيسهم الرئيسي
- المرجانية  
جامع الرجانية  
وهو وقف للجامع وهو كما يدل عليه اسمه ( خان الاورطمة )  
هو الخان المستوف
- هيدرخانة  
- جامع داؤد باشا ، وهو جامع الهيدرخانة السدي بني سنة ١٢٤٣ هـ - ١٨٢٧ م  
قهوة ايمش
- ١٢١١ هـ - ١٧٩٦ م
- ٧٢٢ هـ - ١٢٢٢ م
- عقد طاق ابو صلال  
التسبانية  
مال ابو عصفور  
عقد دكان شلال  
عقد سيد عبدالله  
يقابله باليلادي ١٧٨٢ م  
عقد جبجي  
بنانة
- نشنت  
علوية  
مينارة مكطومة
- يقابله باليلادي ١٦٦٢ م  
اصطه  
دوبيصي
- ١٧٢٠ م

|      |                                                                                     |                                                                                                  |
|------|-------------------------------------------------------------------------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------|
| ٢٧ - | جسر وقشلا                                                                           | الجسر والقشلة ويقعان جنوب المدرسة المستنصرية التي بنيت سنة ٦٢٠ هـ - ١٢٢٢ م وعليها كتابات بديمة . |
| ٢٨ - | القشلا                                                                              | البناية العسكرية ومعها المستشفى                                                                  |
| ٢٩ - | السراي                                                                              |                                                                                                  |
| ٣٠ - | الحرم                                                                               |                                                                                                  |
| ٣١ - | محلة باب المعظم<br>جامع الباشا دافو ( كذا ) بناه حسين ... ١٧٢٩ م<br>قهوة السققةخانة | وهو جامع بناه حسن باشا سنة ١١٢٣ هـ - ١٧٢٠ م سققةخانة                                             |
| ٣٢ - | محلة الميدان<br>قهوة السقالي                                                        | سقالي                                                                                            |
| ٣٣ - | محلة البلنجية<br>-<br>قهوة التختة بند<br>قهوة آجق باشا                              | بلانجية<br>عقد ريس بلانجية<br>تختة بند<br>باشي                                                   |
| ٣٤ - | محلة ايلان ديلي<br>قهوة ايلي وللي                                                   | - ايلان ديلي                                                                                     |
| ٣٥ - | محلة المرادية<br>جامع مراد باشا<br>-<br>-<br>عقد مير البحر                          | وهو جامع يسمى جامع المرادية بناه مراد باشا ... الخ<br>عقد المرادية<br>خان المرادية<br>مر بحر     |
| ٣٦ - | محلة الطوبجية<br>-<br>-                                                             | الطوبجية<br>عقد ميراخور<br>قهوة دودي                                                             |
| ٣٧ - | محلة القرامسول<br>عقد افتر جبر<br>عقد القرامسول                                     | قره اول<br>الفك جبر<br>قره اول                                                                   |
| ٣٨ - | محلة كولدنظر<br>-<br>عقد فليح عبدالله                                               | قهوة نخته روانجي<br>عقد فليح                                                                     |
| ٣٩ - | محلة دكان شناوة<br>عقد جوقدار                                                       | جوقدار                                                                                           |
| ٤٠ - | محلة كنج عثمان<br>عقد النعمانية<br>عقد كنج عثمان                                    | جامع نعمانية<br>قهوة كنج عثمان                                                                   |
| ٤١ - | مدرسة علي باشا                                                                      |                                                                                                  |
| ٤٢ - | جامع الاصفية                                                                        | اصفية                                                                                            |
| ٤٣ - | محلة الهدية<br>-<br>-                                                               | عقد سيد هدية<br>عقد شراد                                                                         |

- ٤٤ - محلة عباس الفندي  
 ٤٥ - محلة قاضي الحاجات  
 قهوة خان الميرة  
 ٤٦ - محلة الطاطران  
 -  
 عقد شمي  
 ٤٧ - عقد شيخ سراج الدين  
 ٤٨ - محلة الهيتاوين  
 ٤٩ - محلة الفراشة  
 عقد منارة الكطوم  
 سوق البغال  
 سوق التمارة  
 ٥٠ - محلة الشيخ  
 جامع الشيخ ، مسجد و فريج  
 -  
 عقد الالهوات  
 -  
 -  
 عقد المنزلاوي  
 عقد الخندق  
 ٥١ - -  
 -  
 جامع النعماني ... ٧٨ هـ  
 ٥٢ - محلة السنك  
 عقد الشطية  
 -  
 ٥٣ - محلة جميلة  
 عقد الجديدة  
 ٥٤ - محلة بنات الحسن  
 عقد الوزى  
 عقد الكويليه  
 عقد كاتب الدبية  
 ٥٥ - محلة العوينة  
 عقد ريس العوينة  
 عقد الجنابين  
 عقد العوينة  
 -  
 ٥٦ - محلة الدهانة  
 ٥٧ - محلة صبايغ الال  
 ٥٨ - محلة الريمة  
 عقد هرموش  
 قهوة جوب  
 - الميهو  
 ططران  
 عقد دوكرلية  
 شمسي  
 محلة جامع شيخ سراج الدين  
 هيتاوين  
 فراشة  
 منارة الكطوم  
 البقال  
 عقد التمارة  
 - جامع فريج الشيخ ... الخ  
 عقد الحروف  
 الالهوات  
 عقد الف  
 الشيخ الف  
 المنزلاوي  
 الخناق  
 محلة راس الساقية  
 قهوة التسايل  
 - بناء الشيخ محمد النعماني سنة ٧٢ هـ  
 سنك  
 شطية  
 قهوة باب الشرقي  
 المجادية  
 الوزى  
 كويليه  
 العربية  
 العوينة ( كذا )  
 العوينة  
 الجنابين  
 العوينة  
 قهوة ريس العوينة  
 دهانة  
 عقد طاق سقة  
 مريضة  
 هرموش  
 جسوب



|                            |  |
|----------------------------|--|
| ٥٩ - محلة شاه لولي         |  |
| ٦٠ - محلة دلال             |  |
| ٦١ - محلة جامع حمام المالح |  |
| -                          |  |
| ٦٢ - محلة المرفج           |  |
| عقد احمد حسني              |  |
| ٦٣ - محلة ابو شبل          |  |
| -                          |  |
| سوق الجفجفية               |  |
| سوق اليرفانجية             |  |
| -                          |  |
| سوق اللفظة ( كذا )         |  |
| قهوة الطفمة ( كذا )        |  |
| سوق التنكية                |  |
| سوق الفريب                 |  |
| -                          |  |
| خان اندريه                 |  |
| جامع محمد بقال             |  |
| عقد باب جامع صغيرة         |  |
| -                          |  |
| محسن                       |  |
| عقدين فانجية               |  |
| عقد الكور                  |  |
| الجوؤجية                   |  |
| اليورفانجية                |  |
| قهوة الخلفين               |  |
| Suk Tumgheh                |  |
| Kahwat Tumgheh             |  |
| التكيةجسة                  |  |
| الفريب Suk el Durib        |  |
| خسان الكتان                |  |
| اندرية حنة                 |  |
| خسان حاجي محمد بقال        |  |

محلات القسم الغربي من المدينة

|                                                           |                            |
|-----------------------------------------------------------|----------------------------|
| ١٧٠٦ م -                                                  | جامع الشيخ صندل ... ١٧٠٨ م |
| ... واسواق الجيوب                                         | اولفت عليه الدكاكين        |
| - القيمرية ( كذا ) Kimeriyeh                              | ٢- جامع القيمرية           |
| - دهامشي                                                  | ٨- محلة دهامشي             |
| - محلة سوق حمادة . وكذلك                                  | سوق حمادة                  |
| كل الاسواق التي تتسلسل بعد سوق حمادة تسبقها كلمة ( محلة ) |                            |
| - سته زبيدة                                               | ٢٤ - الست زبيدة            |
| سته نفيسة ، جامع بني سنة ١١١٢ هـ                          | - جامع الست نفيسة          |
| ١٧٠٦ م -                                                  |                            |

والنصارى محلات مستقلة خاصة بهم ، اما غالبية السكان فهم المسلمون ويشظون اغلب اقسام المدينة ولا مثيل للتسامح بين الاديان في اي مكان آخر في العالم الاسلامي كما في بغداد وبمقارنة اوضاعهم مع بقية المدن الاسلامية تلاحظ انهم يتمتعون بالكثير من الحرية حيث يمكن لليهودي او المسيحي ان يمتطي ظهور الخيل بينما لا يسمح بذلك لهم او لغير المسلمين في بقية المدن الاسلامية بل عليهم ركوب الخيل فقط او عادة المشي على الاقدام للدلالة على الاختلاف الديني ، هذا ويمتحن اليهود مهنة الصرافة ويماملون بكل ثقة من قبيل كافة الطبقات ويشظون هذه الوظيفة بمهارة واستحقاق .

وينقسم سكان المدينة الكون من ١٥ الف عائلة كما يلي :

رابعا : هذا وقد اسفط المترجم من الترجمة من هذا الفصل في نفس العدد ترجمة الصفحات من ٢٢٩ الى ٢٤١ في الكتاب نفسه وهي تلي الجداول مباشرة ثم بعد ذلك يأتي المؤلف على ذكر عشائر العراق - والترجمة ما يلي : -

يمكن القول ان القسم الثالث من اسوار بغداد بني في الوقت الحاضر وكذلك ما تحويه هذه الاسوار من ساحات وحدائق وانقاضي .

هذا وتضم المدينة خليطا من السكان يبلغ عددهم ستون الفا بينما تتحمل مساحتها اربعة اصماف هذا العدد ، ولامثل لهذا الخليط السكاني واللغوي في اي مكان آخر . والاتراك هم الطبقة الحاكمة ويشظون الحيز الشمالي منها لليهود

بعض الاوقات واذا صاحبها الرطوبة والوخامة بسبب مياه الفيضان التي تغمر الاراضي تفتش معها الامراض الوبائية . وفيما عدا هذه الفترات تتميز بغداد بجو معتدل نسبيا ، هذا ويجد المعدل في بغداد جاذبيات مختلفة ، فقد فصل ملوك فارس القدماء السهول الواقعة الى الجنوب منها لتكون مشتى لهم ، كما يجد الهنود في جوها راحة كبيرة اما بالنسبة لطالبي الاستجمام والانكليز فيجدون في جوسها وتربتها الكثير من المفريات .

وهذا المناخ لا ينطبق على المناطق التي تبعد منه ميل جنوبها حيث تصعب الحرارة قاتلة وتنتشر الحميات وتبلغ درجات الحرارة شتاء . ٥٠ ف وتنخفض في الصباح الى ٢٦ ف ، وهذا الجو بارد بالنسبة للهنود الحجاج والزوار فهم الذين يلبسون الملابس الثقيلة الى حدما . اما في الصيف فتتراوح ما بين ٩٠ ف الى ١١٧ ف وهذا المعدل الاخير نادر ، والمعدل الاعتيادي هو ١٠٧ ف وفي الشتاء تتراوح ما بين ٢٩.٥ ف يصاحبها الضباب عادة ، ويوم ثلاثة ايام تنتهي بزوايع وامطار وتبعتها رياح شمالية غربية منمشة وسما صافية مشرفة .

وبالاضافة الى الجداول السالفة الذكر نضيف ادناه جداول باسعار المواد الغذائية والحبوب في اسواق بغداد وقد وضعت بمناية السيد ريتشارد روجر امين الباخرة ( كوميث ) ذو الخبرة المحلية في هذا المصمار . وقد اصفنا اليها جداول مقارنة بالتكاليف والوازين والمقاسات ذات التسميات الانكليزية . مع جداول بالعملة الدارجة في اسواق بغداد ، ومن الجدير بالذكر ان هذه الاسعار وانما التبادل النقدي والعملات غير ثابتة بل تتشمع بتشمع وضعية مدينة بغداد الاقتصادية ، ومدينة بغداد تعتمد في اقتصادياتها على ماجاورها من القرى وكذلك على الاماكن الاخرى التي تفصلها عنها الصحراء وهذه غير ثابتة التجهيز حيث تنقطع اوقات عدم الاستقرار والاضطرابات او بسبب تعرض القوافل العابرة الصحراء للسلب والنهب . هذا وتتحدد الاسعار داخل المدينة ايضا بنوعية المادة وهي اسعار جيدة ورخيصة الى حد ما ، ولو اخذنا بنظر الاعتبار اسعار المواد الغذائية الاساسية في بغداد لاعتبرناها مدينة رخيصة العيشة الى حد كبير . هذا بالاضافة الى ان المخزون من الحبوب في الاهراءات يكون كميات مقبولة نفي بتجهيز سكان بغداد اوقات الازمات . وهذه الحبوب تحصل عليها الحكومة من مزارع الحبوب في السهول المنتشرة حول مدينة الموصل وسهول الزابن بواسطة النقل النهري نزولا بنهر دجلة .

الاتراك او من ينحدرون من اصل تركي ، { الاف نسمة ويليهم الفرس او المنحدرون من عوائل فارسية ويبلغ عددهم الفسني وخمسمائة وكذلك اليهود ، اما العوائل المسيحية فيبلغ عددهم الف وكذلك الكركاد ، ويبلغ عدد العرب الفين وكذلك البدو والغرباء ، ويبلغ مجموعهم خمسة عشر الفا وهم كما يلي :

| الجنس          | العدد              |
|----------------|--------------------|
| مئة الف        |                    |
| الاتراك        | ١٠٠٠               |
| الفرس          | ٢٥٠٠               |
| اليهود         | ٢٥٠٠               |
| المسيحيون      | ١٠٠٠               |
| العرب          | ٢٠٠٠               |
| البدو والغرباء | ٢٠٠٠               |
| المجموع        | ١٥٠٠٠ خمسة عشر الف |

اما اللغة السائدة بين السكان عامة فهي العربية العامية ، هذا ويتكلم مسيحيوا بغداد نفس اللهجة بقليل من التحريف واهمال بعض الحروف ، اما لغة الطبقة الحاكمة فهي التركية ولها الفارسية بين التجار ، وتشيع اللغات الكردية والاثورية ( الكلدانية ) والاربية ( اللورستانية ) بين الطبقات الدنيا والعمال والعمالين . ويمكن سماع العبرية في محلات بغداد القديمة الخاصة باليهود اما المسيحيين الذين مع المذهب الروماني فيتكلمون العربية العامية السائدة عند عامة بغداد ، هذا ويمكن سماع ما يقرب من ثلاثة عشرة لغة في غرفة واحدة حينما يجتمع الانكليز والفرنسيون والروس والهنود على مائدة القيم البريطاني .

وبالنسبة لمناخ بغداد ، فيعتبر مناخا صحيبا بصورة عامة ، ولكن في فترات الادارة السيئة حينما اهملت السدود وغمرت مياه الفيضان المدينة تفتش الامراض الوبائية كالحميات خاصة ايام الحر الشديد التي تستغرق الاشهر من مايس الى تشرين الاول وهذه لو كانت خاصة الى طرق الوفايسة والحجر والحصول على الادوية لا يمكن القضاء على اغلب الامراض الوبائية لكن اهمال هذه الوسائل ادى الى تاخير القضاء عليها فاجتاحت البلد وسببت كوارث عظيمة .

هذا وتباين درجات الحرارة تباينا شديدا حيث لاتطاق في

*Disposition of the East portion of the Town.*

| Quarter or Perieh.                                            | Public Buildings and Groups of Houses included within. | Remarks.                       |                                                                                                                                |
|---------------------------------------------------------------|--------------------------------------------------------|--------------------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| No. 1.—Mahalet Suk al Ghazil<br>(محلة سوق الغزل)              | جامع سوق الغزل                                         | Jama Suk al Ghazil...          | The most ancient mosque in the city. Built by order of the Khalif Mostansir Billah in A. H. 633. The minaret now remains only. |
|                                                               | سوق الغزل                                              | Suk al Ghazil . . . . .        | Thread market.                                                                                                                 |
|                                                               | عقد رجلاوين                                            | Aked Dijeilawin . . . . .      | Aked is a term signifying a group or knot of houses between two streets.                                                       |
|                                                               | عقد حفرة چيه                                           | Aked Hafrehchihyeh             |                                                                                                                                |
|                                                               | عقد شيشرة چيه                                          | Aked Shishrehchihyeh.          |                                                                                                                                |
|                                                               | عقد كنيسيه                                             | Aked Keniseh.                  |                                                                                                                                |
|                                                               | عقد مزرقچي                                             | Aked Mazrakchi.                |                                                                                                                                |
|                                                               | عقد كلخانه                                             | Aked Kulkhanch.                |                                                                                                                                |
|                                                               | عقد تنانير                                             | Aked Tenanir.                  |                                                                                                                                |
|                                                               | عقد دكة صمور                                           | Aked Deket Samur.              |                                                                                                                                |
| No. 2.—Mahalet Bas al Ketich<br>or Geryeh<br>(محلة رأس الكوي) | قهوة الأغا                                             | Kahwet el Agha. . . . .        | Coffee house.                                                                                                                  |
|                                                               | عقد علوة المخاضر                                       | Aked Alooet el Mukha-<br>[der. |                                                                                                                                |
|                                                               | عقد سقاي                                               | Aked Sekaki.                   |                                                                                                                                |
|                                                               | عقد خاسكي                                              | Aked Khaseki.                  |                                                                                                                                |
|                                                               | جامع الخاسكي                                           | Jama el Khaseki. . . . .       | Mosque said to have been an old Christian church; built A. H. 1094.                                                            |
|                                                               | عقد گاور                                               | Aked Gaour.                    |                                                                                                                                |
| عقد الكصيف                                                    | Aked el Kasif.                                         |                                |                                                                                                                                |
| عقد رواق                                                      | Aked Rawak.                                            |                                |                                                                                                                                |



| Quarter.                                                | Public Buildings and Groups of Houses included within. | Remarks.               |                                                                                                           |
|---------------------------------------------------------|--------------------------------------------------------|------------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| No. 2.—Mahalet Rasal Kerieh or Geryeh (محلة راس الكرية) | عقد حاجي امين                                          | Aked Haji Amin.        |                                                                                                           |
|                                                         | عقد حمام حيدر                                          | Aked Hamam Hyder.      |                                                                                                           |
|                                                         | عقد جنابدين                                            | Aked Jenabiyin.        |                                                                                                           |
|                                                         | عقد العمار                                             | Aked el Amar.          |                                                                                                           |
|                                                         | عقد نكية البدوي                                        | Aked Tekeyet el Bedwi. |                                                                                                           |
|                                                         | عقد ضيق                                                | Aked Dhaiyek.          |                                                                                                           |
|                                                         | عقد ابر يعقوب                                          | Aked Abu Yakub.        |                                                                                                           |
| No. 3.—Mahalet Syud Sultan Ali (محلة سيد سلطان علي)     | جامع سلطان علي                                         | Jama Sultan Ali. ....  | Mosque of Syud Sultan Ali; rebuilt by Ibrahim Pacha in A. H. 1093; but the tomb existed there previously. |
|                                                         | عقد جاموس                                              | Aked Jamus.            |                                                                                                           |
|                                                         | تكية قزرة علي                                          | Takiyh Kazreh Ali.     |                                                                                                           |
|                                                         | عقد سيد سلطان علي                                      | Aked Syud Sultan Ali.  |                                                                                                           |
|                                                         | عقد سبع بكار                                           | Aked Seba Bekar.       |                                                                                                           |
|                                                         | قهوة مسجد                                              | Kahwet Musjed. ....    | Coffee house.                                                                                             |
|                                                         | جامع حاجي نعمان                                        | Jama Haji Naman.       |                                                                                                           |
|                                                         | بقيجة لي قهوة                                          | Bakchelli Khawet ....  | Coffee house.                                                                                             |
|                                                         | عقد عجيبين                                             | Aked Ajiliyin.         |                                                                                                           |
|                                                         | عقد قاطر خانه                                          | Aked Katerkhaneh.      |                                                                                                           |
|                                                         | قهوة قاطر خانه                                         | Kahweh Katerkhaneh.    | Coffee house.                                                                                             |
|                                                         | سوق قاطر خانه                                          | Suk Katerkhaneh. ....  | Bazar.                                                                                                    |
| قهوة دياب                                               | Kahweh Dhiab. ....                                     | Coffee house.          |                                                                                                           |
| قهوة ام نخله                                            | Kahwet um Nakhleh.                                     | Ditto.                 |                                                                                                           |
| No. 4.                                                  | عقد الحطابيه                                           | Aked el Hattabeh.      |                                                                                                           |



# تعقيب على مقال «الربط البغدادي»

للاستاذ : عادل كامل الالوسي

بقلم الحاج

هاشم محمد العزب

بغداد - الجمهورية العراقية

نشر الاستاذ عادل كامل الالوسي في مجلة المورد العراقية ( العدد الاول للمجلد السابع لسنة ١٩٧٨ من صفحة ١١٢ الى صفحة ١٢٢ ) بحثا فيما بعنوان ( الربط البغدادي في التاريخ والخطط ) . وبالنظر لما تفرضه الامانة العلمية والتاريخية رابت التعقيب عليه بالاتي : -



## اولا : - رباط السيد سلطان علي

الصوفية الا ابن الفارض(ت.٦٣٠هـ/١٢٢٢م)الذي لقب بسultan العاشقين ولم يثبت عندي ان المرقد المذكور هو بيت مالك بن المسيب نفسه « انتهى .  
واقول :- ان هذا المرقد هو مرقد السيد علي بن يحيى بن ثابت بن علي الرفاعي(٢) والسيد سيد احمد الرفاعي(٣) شيخ ورئيس الطريقة الصوفية الرفاعية المشهور . وليس مرقد السيد سلطان علي بن محمد بن فلاح المشعشع المتوفى سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م وان المرقد هو بيت الامير مالك بن المسيب وذلك :-

قال ابن الساعي(٤) في ذكر من توفي في خلافة

ذكر الاستاذ عادل في صفحة ١١٧ و ١١٨ ما يلي :- « وذهب مؤرخون معاصرون مثل الدكتور مصطفى جواد وعباس العزوي الى رأي مخالف كما يكون المرقد يعود في الاصل الى السيد سلطان علي ابن محمد بن فلاح بن المشعشع(ت٨٦١هـ/١٤٥٦م)(١) على اني لا اذف شيئا الى ما قيل سوى ما اعرفه من ان لقب ( السلطان ) لم يطلق على احد من

(١) قال الدكتور مصطفى جواد :- « ونحن لم نجد في رجال العراق من نسمي « بالسيد سلطان علي » الا السيد سلطان علي بن محمد بن فلاح المشعشع المتوفى سنة ٨٦١هـ قتل في ايام ير بوداي بن جهان شاه بن فره يوسف التركماني القره قوينلي في خوزستان وسلخ جلده وحشي تبنا وحي به الى بغداد في ١٦ جمادى الاخرة سنة ٨٦١هـ وارسل براسه الى جهان شاه كما في التاريخ الفباني ص ( ٢٧٤ ) « انتهى . ( دليل خارطة بغداد للدكتور مصطفى جواد واحمد سوسة حاشية ص ٢٠٤ ) .

وقال الاستاذ عباس العزوي :- « من ولد السيد محمد المشعشع الولي علي حكم في زمانه وقتل بسهم في حصاره لقلعة بهبهان سنة ٨٦١هـ « انتهى ( تاريخ العراق بين احتلالين ج٢ ص ١٤٩ ) .

(٢) الرفاعي :- نسبة الى جده السابع واسمه ( الحسن المكي ) ويعرف ب ( رفاعه ) توفي ( اي الحسن المكي ) سنة ٢٣١هـ/٩٤٢م بانيشيلية ( تاريخ ابن الساعي ص ٧٧ ) .

(٣) هو سيد احمد بن علي بن يحيى بن ثابت بن علي بن احمد المرتضى بن علي بن رفاعة الحسن الاصغر المكي ابن ابي رفاعة المهدي ويتصل نسبه بسيدنا موسى الكاظم ( رضي ) توفي سيد احمد الرفاعي سنة ٥٧٨هـ .

(٤) هو علي بن انجب الساعاتي البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤هـ ١١٨٢م .

ص ١٧٢ . ولا يزال الاختلاف في تاريخ القبر قائماً (١٠) . انتهى .

وقد عاد واستدرك الاستاذ العزيزي وأكد ان هذا القبر هو قبر السيد سلطان علي والد السيد احمد الرفاعي وذلك في صفحة ( ٢٤١ ) من الجزء الثاني من كتابه ( تاريخ العراق بين احتلالين ) حيث قال : - « كنا قد تكلمنا على هذا الجامع بما وصل الينا والان بعد ان اوشك طبع الكتاب ان يتم عثرت على مجموعة عند بعض الاصدقاء الافاضل فرأيت فيها ما ملخصه : السيد ابو الحسن علي بن يحيى ابن ثابت ابن حازم بن احمد بن علي بن رفاة الحسن المكي نزيل اشعبله الرفاعي الحسيني السيد الشريف سلطان العارفين ، ولد في بصرة عام ٥٩٤هـ . وتوفى ابوه السيد يحيى النقيب وله سنة واحدة وكفله اخواه الانتصار وبنو خالته آل الصيرفي الامراء المشهورون في البصرة وشب على التقوى واخذ العلم والطريقة عن جده لأمه الشيخ الكامل موسى ابي سعيد البخاري الانصاري شيخ الباطنيين . ولا

زال يتردد الى البطائح لزيارة ابن خاله الشيخ الكبير السيد منصور البطايعي . وفي سنة ٤٩٧هـ سكن البطائح بأمر الشيخ منصور وبنتك السنة زوجته باخته فاطمة الانصارية فاعقب منها اولادا مباركين اعظمهم السيد احمد الكبير الرفاعي . وكانت اقامة السيد ابي الحسن على صاحب الترجمة بقرية حسن من البطائح الى ان جاءت سنة ٥١٩هـ فوتمت الفتن الكثيرة بواسط وكان الامام والمشار اليه بين طوائف الصوفية والزهاد ورجال العترة المحمدية فاجمع الناس على سفره لبغداد فتوجه ونزل بيت الامير مالك المسيب براس القرية محلة ببغداد ، وقد كتب بشانه للخليفة ما يلزم ان يكتب عمادالدين زنكي صاحب واسط فاعزه الخليفة ورفع مكانه ( ثم مرض ) وبعد اسبوع من مرضه توفي وعمل له الامير مالك مشهدا براس القرية وهو الى الان يزار ويتبرك به وله منزلة في قلوب الناس » . انتهى .

وبعد هذا قال في نفس الصفحة : - « وهذه المجموعة تسمى « كتاب روضة الايمان في اخبار مشاهير الزمان » اولها : الحمد لله الاول والاخر . . الخ . للعلامة المحقق المدقق محمد بن ابي بكر بن علي بن عبدالمك بن حماد بن ذكيين . ولا ادري من هو مؤلفها . اما تاريخها فهو ٥ رجب سنة ١٣٠٥هـ ولم يذكر كاتبها تاريخ نقلها . وفيها مباحث

(١٠) دليل خارطة بغداد حاشية ص ( ٢٠٤ ) .

الناصر لدين الله العباسي (٥) : - « وممن توفى بآبامه وني الله تعالى العارف بالله الدال على انه السيد احمد بن السيد علي ابي الحسن الرفاعي . وكانت وفاته رضى الله عنه بام عبيدة ثرية من اعيان واسط ولها شهرة في العراق . قدم ابوه سنة تسع عشرة وخمسمائة من واسط الى بغداد ليكتشف للخليفة المسترشد (٦) فتن الباطنية ولغلاة من اهل البدعة ويحرضه على دفع تلك المفاصد فصار ضيفا ببيت الامير مالك بن المسيب ورفع المسترشد مكانه . ولكن لم يقدر على ازالة فتنه الباطنية ودفع مفاصدهم وتعلل باستفحال امر السلطان محمود (٧) بالعراق فانزعج السيد علي الرفاعي لذلك وحج وبعد اسبوع توفى ببغداد وعمل عليه ابن المسيب مشهدا براس القرية محلة بظاهر بغداد من جانبها الشرقي وفيه فقراء وله زوار ويؤثر عن السيد علي الرفاعي هذا من الكرامات اشياء كثيرة وياقبه العامة بالسيد سلطان علي وله في قلوب الصائحين حرمة عظيمة (٨) . انتهى .

وقد ذكر الاستاذ عباس المزوي ان قبر سيد سلطان علي هذا هو قبر الشيخ علي الجلابري فقال : - « والظاهر ان شيخ علي هذا هو النسوب اليه جامع سيد سلطان علي فانه ولي ببغداد وتوفى فيها وموضع الجامع من مرافق دار الخلافة العباسية وهو الانسب بالسلطين . واما ما يقال من انه ابو الرفاعي فذلك من الموضوعات (٩) . انتهى .

وقد علق الدكتور مصطفى جواد على قول المزوي هذا فقال : - « لم نجد فيما بين ايدينا من التواريخ ان الشيخ عليا توفى ببغداد فانه قتل في وقعة بينه وبين اخيه احمد في بلاد ايران كما جاء في التاريخ الغياني وتاريخ العراق بين احتلالين ج ٢

(٥) دامت خلافته من سنة ٥٧٥هـ الى ٦٢٢هـ ( ١١٨٠م -

١٢٢٥م ) .

(٦) دامت خلافته من سنة ٥١٢هـ الى ٥٢٩هـ ( ١١١٨م -

١١٢٥م ) .

(٧) هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي

دامت سلطنته من سنة ٥١١هـ الى سنة ٥٢٥هـ

( ١١١٧م - ١١٢١م ) .

(٨) مختصر تاريخ ابن الساعي ص ( ١١٢ ) مطبعة بولاق

سنة ١٢٠٩هـ .

(٩) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢ ص ١٧٢ . وهذه

المعلومات نقلها الاستاذ المزوي عن تطبيق للشيخ علي

علاء الدين الاوسي ( ١٢٧٧هـ - ١٢٢٠هـ / ١٨٦١ -

١٩٢١م ) على كتاب « كلشن خلفا » المرتضى نظمي آل

زاده من ذكر وفاة الشيخ علي شاهزادة بن اويس

الجلابري سنة ٧٥٢هـ / ١٢٨٠م .



تاريخية وأدبية وتعرض كثيرا للرفاعية ورجالها وتصل بهم الى القرن العاشر ولم تتجاوز ذلك . وقد رايت عليها خط المرحوم سائر الألويسي في غرد شعبان من هذه السنة . ثم رايت ( كتاب روضه الناظرين و خلاصة مناقب الصالحين ) للشيخ احمد ابن محمد الوترى المتوفى في عشر الثمانين وتسمائة هجرية ينقل لنص المذكور بعينه وكان قد اتم تلخيصه من كتابه ( مناقب الصالحين وحجة اهل اليقين ) سنة ٩٦٣ هـ . وطبع كتاب روضة الناظرين في مصر سنة ١٢٠٦ هـ . ونحن في حاجة ماسة الى ما يؤيد هذا النقل او يكتشف غوامض تاريخنا . ولعل القراء من له علم او نص يصلح في هذا الجامع » . انتهى .

وعليه ومما تقدم فقد نأيد لنا بان القبر هو قبر السيد سلطان علي والد السيد احمد الرفاعي

### ثانياً : - رباط النظامية

ذكر السيد عادل في صفحة ( ١١٩ ) ما يلي :-  
 « يقع هذا الرباط عند ( طولة الجندرية ) فيما يلي مسجد النعماني قرب كتج عثمان . اسس زمن سلطنة عبدالمجيد (١١١) سنة ( ١٢٦٥هـ - ١٨٤٨م ) وقد ارج نشأته الشاعر عبدالقوي (١٢) . وكسان منقوشا على رخامة موضوعة فوق باب الرباط المذكور ، وامر خليل باشا (١٢٢) بدمه واضافته الى الطريق وجعل قسما منه تابعا لدوائر الحكومة وانشأ عن الارض الباقية كما قول صاحب العقد اللامع « روضة زاهية » ويضيف صاحب العقد ايضا ان الترك بعد الاحلال سفقوا في فناء هذه الارض خلقا كثيرا . وهذا الرباط وكنج عثمان كانا متصلين بسراي الحكومة » . انتهى .

وقد علق السيد عادل على مسجد النعماني في حاشية الصفحة نفسها تحت رقم ( ٨٥ )

(١١) ولد السلطان عبدالحميد العثماني سنة ١٢٢٧هـ / ١٨٢١م وجلس على العرش سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٢٩م وتوفي سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م .

(١٢) هو عبدالقوي بن سليمان بن احمد العمري الفاروقي الموصلبي ولد سنة ١٧٩٠م وتوفي سنة ١٨٦٢م .

(١٣) خليل باشا قائد الجيش التركي في جبهة العراق في الحرب المالية الاولى بعد القائد نور الدين بيك . وهو الذي حاصر الجيش الانكليزي مع قائده العام (طاووزند) في الكوت واسره مع جيشه سنة ١٩١٦ . وهو الذي خسر المعركة امام القائد العام للجيش الانكليزي ( الجنرال مود ) وسلم بغداد للانكليزي في ١١ اذار سنة ١٩١٧ .

فقال : - « او الجامع النعماني من مساجد بغداد القديمة فيه منارة مطلة على الطريق جدده الوزير داود باشا (١١٨) سنة ( ١٢٣٩هـ - ١٨٢٣م ) وكتب عنى احد جدرانها بعد الفراغ من عمارته ثلاثة آيات من التسمر تجدها عند الألويسي ( مساجد بغداد ص٧٦ ) وكانت المحلة التي فيها المسجد تسمى قديما بمحلة ( راس الساقية ) لمرور ساقية الماء العائدة الى جامع الشيخ عبدالقادر الجيلي التي فيها الماء من نهر دجلة والاني منه بوسطة الكروود وكانت اكبر محلة في بغداد لوجود دار الخلافة فيها . » . انتهى .

اقول : - لقد حصل ارتباك عند الاستاذ عادل في تعيين محل وموقع هذا الرباط اذ اعتبر موقعه في محلة ( راس الساقية ) وهذا غير صحيح والصحيح هو موقعه في محلة الميدان الحالية وذلك :-

١ - لما كان موقع هذا الرباط عند(طولة الجندرية) ومن المعلوم ان طولة الجندرية كان موقعها في مكان مديرية شرطة محافظة بغداد الحالية وبما ان مديرية الشرطة هذه تقع في محلة الميدان اذن فالرباط موقعه في محلة الميدان .

٢ - لم يكن في يوم ما سري الحكومة في العهد التركي في محلة راس الساقية وانما سراي الحكومة هو بناية القنطرة الحالية ووزارة التربية ( المعارف ) سابقا وايح قلعة وهي ( وزارة الدفاع الحالية ) وكل هذه البنايات تقع في وقرب محلة الميدان

٣ - لقد حصل اشتباه عند الاستاذ عادل في اسم المسجد اذ يوجد مسجدان هما مسجد النعماني ومسجد النعمانية . الاول يقع في محلة راس الساقية والثاني يقع في محلة الميدان . وقد اعتبر الاستاذ عادل الرباط فيما يلي مسجد النعماني والصحيح هو فيما يلي مسجد النعمانية . والدليل على ذلك هو ان الرباط وكنج عثمان كانا متصلين بسراي الحكومة وسراي الحكومة يقع في وقرب محلة الميدان كما ذكرنا ذلك(١٥) .

(١١) داود باشا ولي على بغداد من سنة ١٢٢٢هـ - ١٨١٦م الى ١٢٤٧هـ - ١٨٣١م . وهو آخر الولاة المماليك الذين توالوا على حكم العراق في العهد التركي .

(١٥) كثير من الناس موجودون الآن حالياً ممن شاهدوا قبر كنج عثمان مع السبيل خانة التي كانت بجنبه اذ لم يمض وقت طويلا على ازالة القبر والسبيل خانة بعدان

وهو ابو الفرج احمد بن عمر بن محمد بن ثابت بن عثمان بن محمد بن عبدالرحمن بن ميمون بن محمود بن حسان بن سمان بن يوسف بن اسماعيل بن حماد بن ابي حنيفة النعمان بن ثابت الفرغاني النعماني نزيل بغداد . اشتغل كثيرا وسمع الحديث من سراج الدين عمر القزويني (١٩) .

توفي حسام الدين سنة (٧٥٣هـ-١٣٨١م) (٢٠)

(١٩) سراج الدين :- هو الحافظ الكبير محدث العراق سراج الدين عمر بن علي بن عمر الحسيني القزويني ثم البغدادي ولد سنة (٦٨٢هـ - ١٢٨٥م) وعنى بالحديث وسمع من الرشيد بن ابي القاسم ومحمد ابن عبدالمحسن الدواليبي والنجم احمد بن غزال وجمع جم . واجاز له التقي سليمان وغيره من دمشق وصف التصانيف وعمل الفهرست واجاد فيه . روى عنه جماعة من اخرهم صاحب القاموس ، توفي سنة ( ٧٥٠هـ - ١٢٤٩م ) .

ولي بغداد اليوم محلة تسمى باسمه ( محلة سراج الدين ) وفيه قائم اليوم في الجامع المسمى باسمه ايضا . وقد عمر الجامع الذي يقع في نفس المحلة ( سراج الدين ) والي بغداد التركي حسن باشا الجديد سنة ( ١١٣١هـ - ١٧١٨م ) .

ملاحظة :- ولي حسن باشا الجديد على بغداد من سنة ( ١١١٦هـ - ١٧٠٤م ) الى سنة ١١٣٦هـ - ١٧٢٣م ) .

(٢٠) تاريخ العراق بين احتلالين ج٢ ص ١٦٢ .

ومسجد النعمانية مجاور للمدرسة الاعدادية المركزية للبنين ومقابل دائرة البريد . بنته صاحبة الخيرات فاطمة خاتون بنت السيد بكتاش بن السيد ولي سنة (١١٨٥هـ-١٧٧١م) والحفت به مدرسة علمية لتدريس العلوم الدينية ووقفت على لوازمها عقارات كثيرة وجعلت التولية من بعد لزوجها نعمان اغا (١٦) ابن الحاج ابراهيم اغا ومن بعده لاولاده (١٧) .

وآخر من تصدر للتدريس في هذه المدرسة العلامة الشيخ قاسم البياتي وحامد الملا حويش . وقد تخرج من هذه المدرسة علماء اعلام (١٨) .

ما جامع النعماني :- يقع في محلة ( راس الساقية ) وليس له اي صلة بهذا الموضوع والنعماني :- نسبة الى حسام الدين النعماني

تم نقل رفاهه من قبره في محلة الميدان الى مقبرة الشهداء في باب المعظم وكان ذلك سنة ١٩١٧م .

(١٦) واليه نسب المسجد ( النعمانية ) .

(١٧) والان التولية محصورة بالسيد عثمان نوري ال رئيس الكتاب الذي هو من احفاد نعمان اغا .

(١٨) البغداديون مجالسهم واندبتهم للمرحوم ابراهيم الدروي ( ص ٢٠١ ) .



# المحتوى

|         |                                                              |         |                             |
|---------|--------------------------------------------------------------|---------|-----------------------------|
| ٨- ٧    | هدية المنصور الى صدام                                        | .. .. . | عبد الحميد الطلوجي          |
| ٢٠- ٩   | تخطيط مدينة بغداد                                            | .. .. . | الدكتور صبري فارس الهيتي    |
| ٢٦- ٢١  | عمارات بغداد في العصر العباسي                                | .. .. . | خالد خليل الاعظمي           |
| ٢٨- ٢٧  | خانات بغداد                                                  | .. .. . | برهان نزر محمد علي الياح    |
| ٥٩- ٢٩  | اسوار بغداد                                                  | .. .. . | عبدالله عبدالرحيم السوداني  |
| ٦٤- ٦٠  | حملة هولاء على بغداد                                         | .. .. . | د. رشيد عبدالله الجميلي     |
| ٧٢- ٦٥  | حملات تيمور على بغداد                                        | .. .. . | نوري عبدالحميد خليل         |
| ٧٨- ٧٢  | حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد                       | .. .. . | د. حسين محمد القهواني       |
| ٩٥- ٧٩  | حملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد                      | .. .. . | د. صالح محمد العابد         |
| ١٠١- ٩٦ | حملة نادر شاه على بغداد                                      | .. .. . | د. علاء موسى كاظم نورس      |
| ١٠٦-١٠٢ | بغداد سنة ١٩١٧                                               | .. .. . | د. محمد مظفر الادهمي        |
|         | ملاحق من الحضارة العربية في بغداد :                          |         |                             |
|         | (١) الواصالات والجسور في بغداد                               |         |                             |
|         | (٢) الدواوين والوزارة                                        |         |                             |
| ١٤٨-١٠٧ | بغداد في عهد الثورة                                          | .. .. . | د. صالح احمد المني          |
| ١٦٤-١٤٩ | تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد                     | .. .. . | جواد كاظم البياني           |
| ١٩٦-١٦٥ | حول بغداد :                                                  | .. .. . | د. عماد عبدالسلام رؤوف      |
|         | (١) بيت الحكمة في بغداد                                      |         |                             |
|         | (٢) بغداد في دوائر المعارف العالمية                          |         |                             |
| ٢٢٢-١٩٧ | الجند الاموي والبيشميري                                      | .. .. . | سليم طه التكريتي            |
| ٢٤٤-٢٢٤ | بغداد مركز العلم والثقافة العالية في القرون الوسطى           | .. .. . | د. فاروق عسمر فوزي          |
| ٢٠٢-٢٤٥ | التمائيل والانصاب في بغداد                                   | .. .. . | د. جليل كمال الدين          |
| ٢١٨-٢٠٢ | بغداد ودورها الرائد في تفوق العرب على اليونان في منجزات الطب | .. .. . | عادل المرادوي               |
| ٢٢١-٢١٩ | الظرف البغدادي                                               | .. .. . | د. خليل باز                 |
| ٢٤٥-٢٢٢ | سفارة من بغداد الى الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني          | .. .. . | فاطمة حمزة الراهي           |
| ٢٥٥-٢٤٦ | حدائق الحيوانات في بغداد                                     | .. .. . | ترجمة : يعقوب الفراهي منصور |
| ٣٦٤-٢٥٦ | حبة بغداد                                                    | .. .. . | عادل محمد علي               |
| ٣٨١-٣٦٥ | قبتان مخروطينتان من بغداد                                    | .. .. . | د. جليل كريم ابو الحب       |
| ٢٨٥-٢٨٢ | الخطيب البغدادي وتاريخه                                      | .. .. . | عطا محمد صالح الحديشي       |
| ٢٩٠-٢٨٦ | الخارج : فاضل عباس                                           | .. .. . |                             |

- ٢٩١-٤٠٣ اعلام من الاندلس في بغداد .. .. . د. محسن جمال الدين
- ٤٠٤-٤١٢ مقدمة حكاية ابي القاسم البغدادي .. .. . ترجمة : طارق حيدر الماني
- ٤١٤-٤٢٠ بغداد وضمت للخط العربي مقاييسه .. .. . محمود شكر الجبوري
- ٤٢١-٤٤٠ مقامة في فواعد بغداد في الدولة العباسية .. .. . تحقيق : كوركيس عواد وميخائيل عواد
- ٤٤١-٤٧٦ بغداد في الكتب البلدانية العربية .. .. . عدنان محمد الطعمة
- بغداد في اثار المستشرقين الفرنسيين :
- (١) بغداد في العهد العثماني .. .. . روبير مانتران
- (٢) النثر العربي في بغداد .. .. . نازل بيلا
- (٣) نيمورلتك في بغداد .. .. . جان اوبان
- (٤) العلوم والفلسفة في حضارة بغداد .. .. . روجية ارنالديز
- ٤٧٧-٥٠٤ تراث بغدادي في اثر عراقي .. .. . ترجمة : د. اكرم فاضل
- ٥٠٥-٥١٨ اقدم وثيقة عثمانية عن بغداد .. .. . تحقيق : حميد مجيد هديو
- ٥١٩-٥٢٤ فصول من كتاب « نيل المراد في احوال العراق وبغداد » .. .. . تحقيق عبدالحسين مجيد
- ٥٢٥-٥٢٨ من الموروث البغدادي :
- (١) نصة الساعات في بغداد
- (٢) مذكرات بغدادي
- ٥٢٦-٥٧٠ بغداد من خلال المقامات .. .. . صادق محمود الجميلي
- ٥٧١-٥٨٨ الف ليلة وليلة عند مترجميها : الحياة العربية في المصور الوسطى .. .. . ترجمة د. يحيى الجبوري
- ٦١٢-٦١٩ البناء الفني للحكاية في الليالي .. .. . ياسين الناصر
- ٦٢٠-٦٢٦ المجهز في الف ليلة وليلة .. .. . عبدالغني الملاح
- ٦٢٧-٦٣٦ الف ليلة وليلة .. .. . د. علي شلق
- ٦٣٧-٦٤٤ بغداد في مطبوعات وزارة الثقافة والاصلام .. .. . هدى شوكة بهنام
- بغداد في اشهر المراجع :
- (١) بغداد في بيلوغرافيا العمارة والفنون الاسلامية
- (٢) بغداد في رحلات الاجانب
- ٦٤٥-٦٥٨ ترجمة واعداد : سلمان وليق الراوي
- ٦٥٩-٦٨٠ استمرات على كتاب « بغداد مدينة السلام » .. .. . عبود الشالجي
- ٦٨١-٦٨٨ تصويبات واستمرات على ( بغداد في سنة ١٨٥٣ ) .. .. . نجاة اسماعيل
- ٦٨٩-٦٩٢ تقيب على مقال « الربط البغدادية » .. .. . هاشم محمد الرجيب







رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد  
١٠٠ لسنة ١٩٧٩